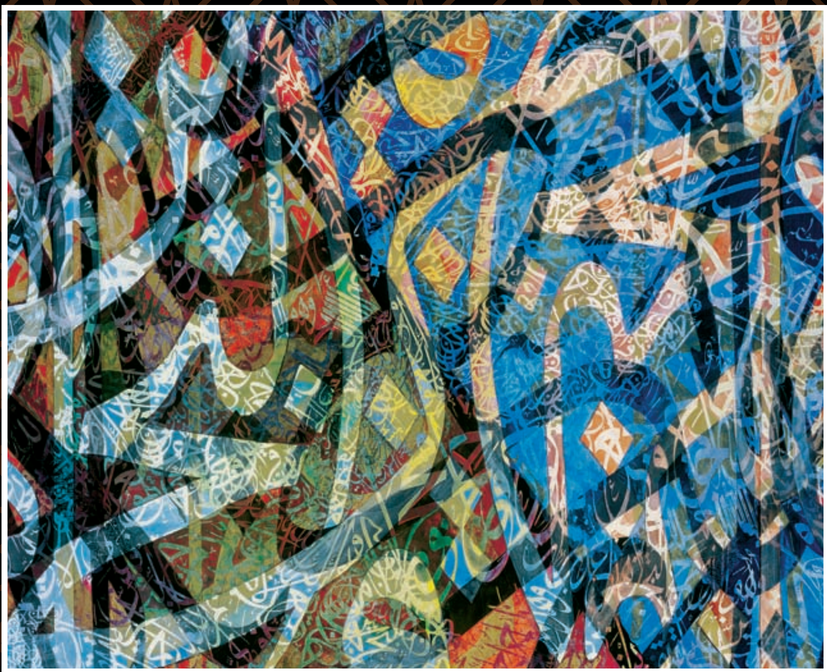
موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

إعداد الشيخ أشرف سعد الأزهري ومجموعة من الباحثين بدار الفُلك



تقديم وتقريظ بقلم فضيلة

الأستاذ الدكتور / أسامة السيِّد الأزهري

1

دار الفُلك
DAR ALFULK

موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

المجلَّد الأول [1]

دار الفُلك
DAR ALFULK

موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

الطبعة الأولى 1439هـ - 2017م

رقم الإيداع بدار الكتب: 3987 / 2017

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-85342-4-5

هاتف: 01002296403 - 37624719 / 02

6 شارع الجامع – العجوزة – القاهرة – جمهورية مصر العربية

www.dar-alfulk.com

يرتكز تصميم الغلاف على تكوين "ثلاثية حيث يلتقي البحران"

المستلهم من الآيات 19-21 من سورة الرحمن،

مزج بين الألوان الزيتية والمائية على ورق خاص بتجهيز يدوي

190 × 153 سم، من إبداع الفنان: أحمد مصطفى © 2006

المجلَّد الأول من الأجزاء الثلاثة

طبعته شركة صحارا بالمنطقة الحرة العامة – مدينة نصر – القاهرة

تصميم الغلاف والإخراج العام

مؤسسة فنون أحمد مصطفى (المملكة المتحدة) المحدودة / دار الفُلك بالقاهرة

موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

إعداد الشيخ / أشرف سعد الأزهري
ومجموعة من الباحثين بدار الفُلك

تقديم وتقريظ بقلم فضيلة
الأستاذ الدكتور / أسامة السيِّد الأزهري

دار الفُلك للتحقيق والنشر والتوزيع
القاهرة – جمهورية مصر العربية

المجلَّد الأول [1]

دار الفُلك
DAR ALFULK

المُجلَّد الأول
قضايا صوفية وفقهية



«قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ» - آية 1-4 من سورة الإخلاص

مقدمة بقلم فضيلة
الأستاذ الدكتور/ أسامة السيد الأزهري*

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد...

فإن قضية التجديد عمل علمي نقدي رصين، يشتبك مع المقولات والأفكار المنحرفة من مختلف المصادر والمناهج، من خلال أدوات علمية دقيقة محكمة، وصولًا إلى توضيح المقاصد العليا والحفاظ عليها، وصونها من أي شائبة اضطراب تطرأ وتتسلل إليها هنا أو هناك، ويتم ذلك من خلال مراحل:

الأولى: إعادة الاشتباك والمناقشة والتفنيد والملاحقة للفكر المنحرف في مختلف الأطروحات الجدلية التي يقدم فيها رؤيته المغلوطة.

والثانية: إعادة شرح أصول الفكر الرصين المستقيم في مناهجه وأصوله وفروعه، وطرائق استنباطه ومسائله؛ بحيث ينتقل الناس من الغرق في الفكر المنحرف إلى معايشة المنهج الصحيح والمنطق العلمي الدقيق.

والثالثة: هي العروج إلى إعادة بناء النموذج المعرفي في ذاته؛ حيث إن ما يحتل العقول من رؤية عليا للكون والحياة ومقاصد الشريعة هو المحرك لكيفية الفهم، وهو الذي يدفع الإنسان إلى أن ينسج مسائل جزئية هنا وهناك تحقق ما استقر في ذهنه من منظور شامل.

فمن امتلأ عقله بمنظور كلي ونموذج معرفي يرى أن هذا الدين حضارة، وعمران، وإنسانية، وعلم، وأخلاق رفيعة، واحترام عميق للأكوان، ورحمة شاملة، فإن فهمه للمسائل

* ♦ مستشار رئيس جمهورية مصر العربية للشئون الدينية.
♦ أستاذ الحديث بكلية أصول الدين – جامعة الأزهر.

الجزئية سيصل به إلىٰ اختيارات صحيحة تحميه من الانزلاق إلىٰ أي شطط أو تكفير أو عنف أو قسوة أو خراب.

ومن امتلأ عقله بمنظور كلي يرىٰ أن هذا الدين صدام وحرب دائمة وغلظة وقهر وعداوة، فإن فهمه سيتحرك عند كل آية أو حديث أو مسألة ليحملها علىٰ أغرب المحامل وأشدها غلطًا وشططًا، وينصرف عقله عن مداخل الفهم الصحيح عند كل جزئية، فيولد فكر الخوارج والتكفير علىٰ اختلاف تياراته وصوره.

ولا تزال تعجبني كلمة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة حين قال: «إنما التجديد هو أن يعاد إلىٰ الدين رونقه، ويُزال عنه ما علق به من أوهام، ويبين للناس صافيًا كجوهره، نقيًّا كأصله».

وبين أيدينا هذا العمل الموسوعي الضخم «موسوعة تصحيح المفاهيم» والتي تمثل خطوة مهمة علىٰ هذا الطريق، حيث تشتمل علىٰ تسع وثلاثين رسالة، تعيد تشييد منظومة الفكر المنضبط، في محاور: التصوف، وأبواب الاعتقاد، وأسباب نشأة الموجة المعاصرة من فكر الخوارج في مجتمعاتنا.

وتلتقط هذه الرسائل مجموعة من المسائل المندرجة تحت كل محور، وتعيد مناقشتها وتأصيلها والبحث فيها، وتشتبك فيها مع الأطروحات المضطربة الحادثة، كل وفق المنهج العلمي الأزهري الرصين.

فتتناول هذه الرسائل مدخلًا عامًّا للتصوف، وتأصيلًا له، ودوره في إصلاح المجتمعات والأفراد، ودوره في تحصين الأنفس والعقول من مداخل فكر الخوارج، ومعالم المنهج الصوفي في تزكية النفس وتهذيبها، وفقه الحب للجناب النبوي العظيم وأهل بيته الكرام، واتساع الحب ليكون منهجًا وطريقة تفكير.

ثم تنتقل الرسائل في محور الاعتقاد لشرح أصول عقيدة أهل السنة والجماعة من السادة الأشاعرة والماتريدية، لينتقل الكلام بعد ذلك إلىٰ مسائل كثر فيها التشغيب في

العقود والسنوات الماضية، وصارت مدخلًا بعيدًا لفكر التكفير كمسألة التقسيم الثلاثي للتوحيد، ومسألة هدمهم لمرجعية المذاهب الفقهية المعتمدة، ومسألة الحديث الضعيف واطراحهم له بالكلية، حتىٰ يصل الأمر إلىٰ مسائل مفهوم البدعة ومشروعية التوسل، والاحتفال بالمولد النبوي، وغير ذلك.

ثم تنتقل الرسائل إلىٰ نشأة فكر الحاكمية والتكفير في مجتمعاتنا، ومسألة جاهلية المجتمع، والتحذير الواضح من الانتماء للجماعات الإسلامية المعاصرة، وتفنيد فهم الخوارج لفكرة التمكين، وقضية الجهاد وانحرافهم بها إلىٰ الإجرام وترويع الآمنين وهدم الأوطان إلىٰ غير ذلك من البحوث والمسائل.

وقد وُفق العالم الجليل فضيلة الشيخ/ أشرف سعد الأزهري وفريق الباحثين معه في «دار الفُلك» أيما توفيق، في انتقاء هذه المسائل وفي كيفية معالجتها ومناقشتها، وفي إخراج هذا العمل الضخم الحافل، الكاشف عن مجهود كبير في المناقشة والتفنيد والاشتباك، لتكون هذه الموسوعة خطوة مهمة علىٰ طريق شاق، في سبيل مواجهة فكر التطرف و إطفاء نيرانه.

ولا نزال نترقب من «دار الفُلك» كل جديد ونافع من كنوز المعرفة، لتتصدىٰ للفكر المنحرف، ولتعيد التنقيب عن جواهر تراثنا العلمي العريق، ولتكون خطوة علىٰ طريق الإحياء، ومنارة علمية جديدة تنهض بمنهجية الأزهر الشريف، وتتحفنا من ذلك بكل ثمين ونفيس، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم ◆

أسـامـة الأزهـري



« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » - آية 7 من سورة الكهف

كلمة المشرف العلمي

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ على سيِّدنا رسولِ الله ﷺ وآله وصحبِه ومَنْ والاه، أمَّا بعد...

فلا شك أن الحضارة الإسلامية بُنيتْ على أساس متين ضَمِنَ لها البقاءَ والاستمرارَ والحفاظ من الضياع على مر العصور التي تَنوَّع فيها حالُ الأمة الإسلامية ما بين الاستقرار والاضطراب أحيانًا وهجوم أعدائها عليها من كل حَدَبٍ وصَوبٍ في أحايين أخرى، وتمثل هذا الأساس المتين في ذلك الإرثِ الكبيرِ الذي تركه لنا علماؤنا الأقدمون في العلوم كافة؛ سواء في ذلك العلوم الدينية أو الدنيوية، وكانت الأجيالُ السابقة تُسلِّم هذا الإرثَ لِمَنْ بعدهم من تلاميذهم ونجبائهم كي يعملوا على حفظه وصونه من كل ما يَعرِضُ له من إتلاف المتلفين أو تخريبِ المُخرِّبين، وكانوا في حفظهم لهذا الإرث العظيم يتجملونَ بالصَّبر ويتسمون بالثبات واليقظة من أجل الحفاظ عليه، وأعانهم ذلك الإرث العظيم على الفهم المستقيم في كل أمور الحياة وكذلك أعانهم على استقامة المجتمع، فظهرت عندهم الجوانب العظيمة في الأخلاق والسلوك وفهم مراد الشريعةِ على أكمل وجهٍ، وكانت أيامهم تحوطها البركة والنور والسعيُ الدؤوب لإنارة الدنيا بالدين، وفتح مغاليق الأفهام، ووأد كل فكرة أو حركة تُمهِّد لطمس أو محو تلك الأخلاق أو تعمل على إيقاف العقل عن تجديد أفكاره التي تسعى إلى إصلاح الدنيا بالدين، وتعمل على جمع شمل الأمة وتوحيد صفها حتى تؤدي وظيفتها الإنسانية والحضارية على أكمل وجه، وظلَّ المجتمع المسلم بجميع أطيافه من علماء وحكام ومحكومين على هذا النسق في الحياة؛ نسيج واحد وأمة واحدة وفكر مستقيم نابع من أخلاق حميدة راسخة في قلوب الناس أجمعين.

ظلت تلك المسيرة العلمية والأخلاقية سارية في الأمة الإسلامية سريان العرف الطيب في الهواء النقي، تعبِّرُ عن حضارتها العظيمة، وتشكل جانبًا كبيرًا في النهضة

الإنسانية، وعملت المؤسسات العلمية الكبيرة وعلماؤها على ترسيخ تلك الأمور في المجتمع، إلى أن ظهرت بعض الأفكار المتطرفة الهدامة التي بُنِيتْ على فَهم خاطئ لتعاليم الدين، وتبنى تلك الأفكار أحد رجلين إما مضلِّل يسعى لتسخير الدين خدمة لأطماع سياسية ومكاسب دنيوية فما الدين بالنسبة له إلا مطيَّة ووسيلة لتحقيق الأطماع والأغراض التي لا علاقة لها بذات الدين، والثاني غِرٌّ مضلَّل أخذته العاطفة والحماسة مع قلة العلم والتباس الأمر إلى اتباع أهل الأهواء ودعاة الفتنة والإرهاب الفكري فسار في طريق الضلال وهو يحسب أنه يحسن صنعًا، ومنهم من تلقفته أيدي صناع الفتن العالمية وداعمو التنظيمات الإرهابية وجعلت منهم معولًا لهدم كيان الأمة، وظهرت حماقات الأخلاق في أفعالهم التي بثُّوها في المجتمع باسم الإسلام، وعملوا على طمس نور الإيمان في قلوب الناس، فتبدَّلت الأخلاق وتغيرت المفاهيم وأصبح هناك كثير من تلك المفاهيم والقضايا في حاجة ماسة إلى بيان حقيقتِها وتنبيه الناس إلى وجه الخطأ والصواب فيها.

كان لابدَّ في هذا المسار من توضيح حقيقة التصوف الذي كان وسيظل المصدر الحقيقي لأخلاق الأمة الفاضلة. وكان لابد أيضًا من كشف النقاب عن قضايا دينية علمية مهمة تَغيَّرَ مفهوم المجتمع لها عمَّا كان عليه من ذي قبل بفعل هذه الجماعات الضالة؛ كقضية التمذهب ومرجعيَّة المذاهب المتبوعة، والعمل بالحديث الضعيف وحجيته، ومناقشة قضايا التبرك والتوسل ومفهوم البدعة وأصول عقيدة أهل السنة والجماعة وغير ذلك، وأيضًا كان لابد من مناقشة الأفكار التي ظهرت عند الجماعات المتطرفة في العصر الحديث.

في هذا الإطار جاءت تلك الموسوعة التي بين يدي القارئ الكريم، والتي حرصنا فيها على بيان النموذج الأخلاقي المحمدي الكامن في جوانب تراث السادة الصوفية وتوضيح أهم قضايا التصوف، ثم مناقشة بعض القضايا العلمية والعقائدية والفقهية التي تثار بين

المسلمين وأصبح الفهم فيها مغلوطًا، وقد فندنا تماما شبهات الفرق النابتة التي حادت تماما عن كتاب الله وسنة رسول الله صلَّىٰ الله عليه وسلَّم، ثم في نهايتها تتعرض الموسوعة لنقد الفكر المتطرف في العصر الحديث وبيان جذوره الخبيثة التي أتىٰ منها، وتردُّ أيضًا علىٰ كثير من الشبهات التي بثها أصحاب ذلك الفكر المنحرف وتناقش أهمّ القضايا التي يدندن حولها هذا الفكر وينطلق من خلالها لتدمير الأمة؛ كقضايا الحاكمية والتمكين والانتماء للجماعات الإرهابية وجاهلية المجتمع المسلم وغير ذلك من قضايا كانت عبارة عن معول هدم لبنيان المجتمع المسلم.

وقد راعينا في تلك الموسوعة وضوح العبارة مع سهولتها بعيدًا عن التعقيد الذي لا يفهمه إلا الأكاديميون وأهل البحث العلمي حتىٰ تكون ميسرة لجميع أطياف المجتمع يجد فيها العالم بغيته والمثقف ضالته، وقد جعلنا لكل موضوع مجموعة من المحاور التي يستطيع القارئ من خلالها أن يصل إلىٰ المضمون في سهولة ويسر، كما أننا عَمِلْنا علىٰ تخريج الأحاديث النبوية من مصادر السنة النبوية المطهرة بطريقة علمية، وما أوردناه من أقوال للعلماء ونصوص أهل العلم عملنا علىٰ عزوه وتوثيقه من مصادره.

ولتحقيق مواكبة الشكل والمضمون باعتبارها أحد أهمِّ الشروط التي تحكم الاعتدال في فنِّ الإسلام، فقد حرصت الدار علىٰ اعتماد التطبيقات والتوصيات التي أملتها سعة الخبرة الشخصية للدكتور أحمد مصطفىٰ والعاملين معه في مؤسَّسة فنون بلندن. وفي ذلك أبلغ الأثر في المظهر العام الذي خرج عليه هذا الكتاب الذي يستهدف تفعيل كل ما يفي براحة الباحث والقارئ علىٰ النحو المتجانس مع الطبيعة البشرية في تذوُّقها لمعاني الجمال والإحسان.

وإنَّه يَطِيبُ لي أن أتقدَّمَ بخالص الشكر والتقدير والعرفان إلىٰ كلِّ مَنْ قدَّمُوا لنا يد العونِ المعنويِّ والماديِّ، وفي مقدِّمةِ هؤلاء:-

- شيخنا فضيلة الإمام العلَّامة الدكتور علي جمعة أطال الله عمره، علىٰ ما قدَّمه لنا من دعم وتوجيه وإرشاد.

كما أتقدَّمُ بخالص الشُّكر والتقديرِ لكلٍّ من:

- العالم المبدع في ميدان هندسة تصاوير الحروف العربية الدكتور/ أحمد مصطفى. وجميع العاملين والباحثين في مؤسسة 'فنون بلندن Fe-Noon Ahmed Moustafa (UK) Ltd.'.

- الأستاذ/ سفير أحمد مصطفى.

وذلك لِـمَا قدَّموه لنا من توصيات عملية وتطبيقات فنية أضفت على العملِ ثوبه الجماليّ الفريد الذي خرج فيه الى النور.

- كما أتقدَّم بخالص الشكر والتَّقدير للسيد المفضال الأستاذ/ عمر سعيد النقشبندي لرعايته وعنايته الدؤوبة والمستمرَّة والاهتمام المتواصلِ والجهد المبذول من أجل الوصول بهذا العملِ إلى ما يحقق غايته المرجوَّة.

وفي نهاية هذه الكلمة لا يَسعني إلَّا أن أشكر السَّادة الباحثين العاملين بقسمِ التحقيق بـ(دار الفُلكِ) على كل ما قدَّموه لهذا العمل، فكلُّ الشكر والتقديرِ لكلٍّ من:

- فضيلة الشيخ: مجدي حمدان. - والدكتور: عماد الدين عبد الحميد.

- وفضيلة الشيخ: مُسلَّم طيبَة. - وفضيلة الشيخ: أنس العائدي.

- وفضيلة الشيخ: محمد سعيد الحنبلي. - وفضيلة الشيخ: علي ناجح الأزهري.

- الأستاذ: سامح دياب أحمد - المسئول عن قسم الإخراج الفني بالدار ◆

وكتبه الفقير إلى الله

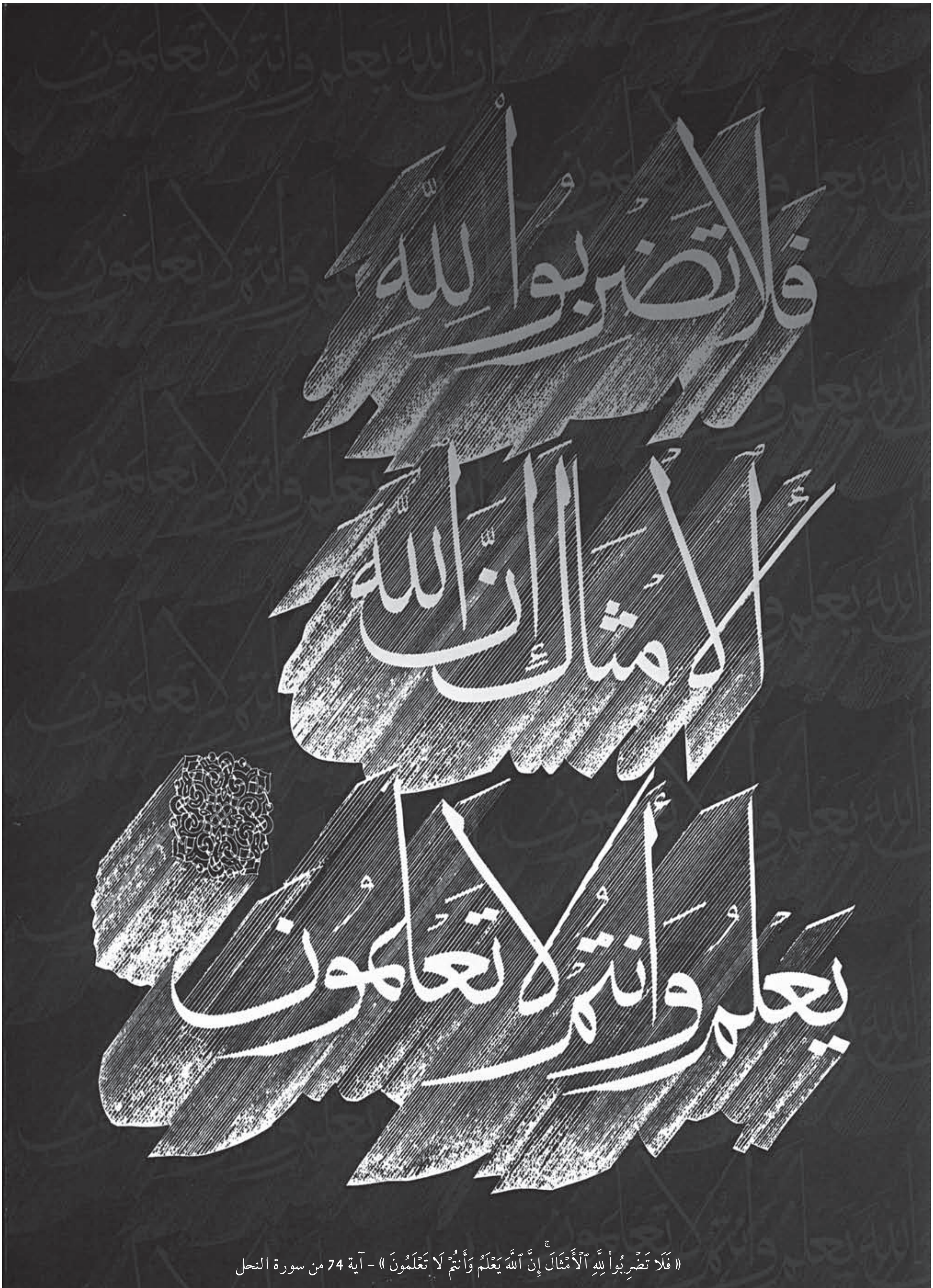
أشرف سعد الأزهري

القسم الأول



« نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ » – آية 1–2 من سورة القلم

فهرس المحتويات



« فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ » - آية **74** من سورة النحل

المُجلد الأول – قضايا فقهية وصوفية

الرسالة الأولىٰ: مدخل عام إلىٰ التعريف بالتصوف 25

المحور الأول: تعريف التصوف 28

المحور الثاني: نشأة التصوف 37

المحور الثالث: التصوف وسيلة إلىٰ سلوك الطريق إلىٰ الله تعالىٰ 42

المحور الرابع: مكانة التصوف في الشريعة الإسلامية 44

المحور الخامس: رؤية التصوف لمكانة رسول الله ﷺ................................ 48

المحور السادس: موقف التصوف من آل بيت رسول الله ﷺ 50

المحور السابع: التصوف وموقفه الفقهي من قضية الأضرحة وقبور الأولياء والصالحين 53

المحور الثامن: حاجة الإنسان المسلم إلىٰ التصوف.................................. 57

الرسالة الثانية: التأصيل الشرعي لقضية التصوف في الكتاب والسنة.................................. 61

المحور الأول: بيان أن التصوف هو الجانب الروحي للإسلام 65

المحور الثاني: الأدلة علىٰ قيام التصوف علىٰ الكتاب والسنة 67

المحور الثالث: نصوص أئمة وعلماء الشريعة الدالة علىٰ أن التصوف قائم علىٰ الكتاب والسنة.. 76

المحور الرابع: نصوص أئمة التصوف الدالة علىٰ وجوب اتباع الشريعة 87

المحور الخامس: علاقة أئمة الإسلام وعلوم الشريعة بالصوفية 89

الرسالة الثالثة: دور التصوف في إصلاح الأفراد والمجتمعات الإسلامية 99

المحور الأول: إلقاء الضوء على حال الأمة الإسلامية في العصر الحديث 103

المحور الثاني: صفات المصلح الصوفي المربي 106

المحور الثالث: مظاهر الخلل في المجتمعات الإسلامية 108

المحور الرابع: ملامح المنهج الصوفي في التربية البشرية وتزكية الفرد 110

المحور الخامس: التصوف أداة لإصلاح الفرد والمجتمع 112

المحور السادس: معالم المنهج الصوفي لإصلاح الفرد والمجتمع 114

المحور السابع: دور التصوف في حفظ هوية المجتمعات الإسلامية 117

المحور الثامن: كيفية الإصلاح الاجتماعي عن طريق التصوف 119

المحور التاسع: كيفية الإصلاح السياسي عن طريق التصوف 119

المحور العاشر: اهتمام التصوف بكيان الأسرة المسلمة 120

الرسالة الرابعة: دور التصوف في القضاء على البدعة والتحذير منها 123

المحور الأول: دحض القول ببدعية التصوف 126

المحور الثاني: الأدلة على دحض القول ببدعية التصوف من خلال أقوال أهل العلم لحقيقة البدعة 127

المحور الثالث: نقطة انطلاق الصوفي وسلوك طريق التصوف 130

الرسالة الخامسة: التصوف ودعاوى الشطح بين الفهم الشرعي والمغالطات 139

المحور الأول: حقيقة الشطح عند الصوفية 142

المحور الثاني: قصور اللغة عن وصف الجلال والجمال الإلهي 153

المحور الثالث: ضرورة حمل كلام وأحوال المسلمين على المعنى الصحيح السليم... 154

المحور الرابع: موقف أئمة التصوف المعاصرين من دعاوى رمي التصوف بالبعد عن الدين.. 157

الرسالة السادسة: معالم المنهج الصوفي في التربية الروحية والإصلاحية 165

المحور الأول: نظرة التصوف للنفس البشرية 170

المحور الثاني: ملامح المنهج الصوفي في التربية الإنسانية 172

المحور الثالث: أصول المنهج الصوفي في تربية النفوس................................ 174

المحور الرابع: أهداف التربية الصوفية 176

المحور الخامس: نماذج من التربية الإسلامية الصوفية 178

المحور السادس: أهمية الشيخ المربي في المنهج الصوفي 187

المحور السابع: خاتمة في بيان حاجة المسلم إلى المنهج التربوي الصوفي 189

الرسالة السابعة: علاقة الشيخ والمريد في المفهوم الصوفي الشرعي 191

المحور الأول: أهمية وصفات الشيخ المربي عند الصوفية 195

المحور الـثاني: المريد في الطريق الصـوفي.. 203

المحور الـثالث: صحبة المريد للشيـخ.. 206

المحور الرابع: آداب المريد مع الشيخ وإخوانه في الطريق الصـوفي 211

الرسالة الثامنة: التأصيل لقضية العهد الصوفي

وأدلته الشرعية.. 219

المحور الأول: مدخل وتعريف للعهد في المنهج الصـوفي 222

المحور الـثاني: تعريف العهد الصوفي لغة واصطلاحا 224

المحور الـثالث: أدلـة مـشـروعـيـة الـعـهـد مـن كـتـاب الله

وسنة رسـول الله ﷺ وعـمل الأمـة.. 225

المحور الرابع: أهمية وفوائد العهد في المنهج الصـوفي 230

المحور الخامس: أهمية الشيخ في سلوك طريق التصـوف 232

المحور السادس: أشكال وصور العهد الصـوفي 233

المحور السابع: المحافظة على العهد والتحذير من نقضـه 239

المحور الثامن: مشروعية وأدلة الخرقة الصـوفية... 240

المحور التاسع: الأدلة والشواهد الشرعية على إلباس الخرقـة 242

المحور العاشر: صور من لبس الخرقة من تراجم العلماء والأولـياء 245

الرسالة التاسعة: نظرة التصوف إلى حقيقة الجهاد

في سبيل الله.. 249

المحور الأول: الصوفية أهل الرباط والجهاد في سبيل الله 252

المحور الـثاني: دور التصوف في الحرص على الجهاد في سبيل الله 255

المحور الـثالث: نماذج من جهاد الصوفية في سبيل الله 259

الرسالة العاشرة: المحبة ومراتبها عند السادة الصوفية......... 281

المحور الأول: الآيات والأحاديث الدالة على المحبـة 285

المحور الـثاني: مقام المحبة عند أهل التصوف والسلـوك 288

المحور الـثالث: المحبة في كلام أهل التصـوف... 291

المحور الرابع: أشعار السادة الصوفية عن المحبـة... 294

المحور الخامس: أسباب المحبة وعلاماتها 297

المحور السادس: خاتمة في مراتب المحبة عند أهل التصوف.......................... 300

الرسالة الحادية عشرة: دور الذكر في ترقية

النفس عند الصوفيـة 303

المحور الأول: تمهيد عن عظمة ذكر الله تعالـىٰ 306

المحور الـثاني: الحض على ذكر الله في الكتـاب والسنـة.............................. 307

المحور الـثالث: مقام ذكر الله تعالىٰ في علم التصـوف.................................. 309

المحور الرابع: فوائـد ذكر الله.. 312

المحور الخامس: قضايا تتعلق بالذكر في علم التصـوف.................................. 315

الرسالة الثانية عشرة: التوكل على الله في ضوء

المنهـج الصـوفي............................ 329

المحور الأول: معاني التوكل لغة واصطلاحا 332

المحور الـثاني: التوكل في كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ 334

المحور الـثالث: أثر الإيمان بالله سبحانه وتعالىٰ في التوكـل 337

المحور الرابع: أثر التوكل في حياة المسلـم.................................... 338

المحور الخامس: مقام التوكل في المنهج الصـوفي.................................. 339

المحور السادس: بيان حقيقة التوكل علىٰ الله من خلال أقوال السادة الصوفية 342

المحور السابع: العلاقة بين التوكل والأخذ بالأسباب عند السادة الصوفية 349

الرسالة الثالثة عشرة: وصـايا العارفين والأولياء

مـن أهـل التصوف............................ 353

الرسالة الرابعة عشرة: مقام النبي ﷺ بين قلوب المحبين

وعقول الجفاة................................. 375

المحور الأول: تمهيد في تعريف النبوة 378

المحور الـثاني: أهمية العلم بمقام رسول الله وخطورة الجهل بمقامه ﷺ 379

المحور الـثالث: خصائصه الشريفة والأدلة علىٰ أنـه ﷺ أشـرف الخلـق

وأقـربـهم إلـىٰ الله تـعالـىٰ.. 382

المحور الرابع: فضل رسـول الله ﷺ علىٰ أمته وشفقته بهم 397

المحور الخامس: نـماذج الـحـب والـتـوقـير مـن الـصـحـابـة

والسـلـف مع الحبـيـب الأعـظـم ﷺ.. 402

المحور السادس: صور من حب المخلوقات لرسـول الله ﷺ.......................... 410

المحور السابع: خـاتمة في الأمور التي تعين علىٰ زيادة محبة رسول الله في قلوبنا 413

الرسالة الخامسة عشرة: رؤية النبي ﷺ في المنام واليقظة

- نظرة تأصيلية شرعية................. 417

المحور الأول: مكانـة ومـنزلـة رسول الله ﷺ وحـصـول رؤيـتـه

وكـيـفـية الـوصـول إلـيـهـا.. 420

المحور الــثاني: نبذة من كلام أهل العلم عن الرؤىٰ والأحـلام..................... 424

المحور الـثالث: النصوص الشرعية التي وردت في رؤيا النبي ﷺ في النوم....... 431

المحور الرابع: رؤية النبي ﷺ في اليـقـظـة 455

المحور الخامس: كلمة حول الكرامات وانـكشاف الـغيـب.......................... 459

المحور السادس: الآثار الدالة علىٰ حدوث انـكشاف لبعض العوالم الغيبية.......... 462

المحور السابع: الراويات الدالة علىٰ رؤية النبي ﷺ في اليـقـظـة 483

الرسالة السادسة عشرة: محبة آل بيت النبي ﷺ بين

الوسطية والغلو........................... 491

المحور الأول: مكانة آل البيت عند الله ورسوله ﷺ والمؤمـنـين 494

المحور الــثاني: النصوص الواردة في فضل ومكانة أهل البيت 497

المحور الـثالث: نبذة عن سير أهل البيت رضي الله عنهم............................... 501

المحور الرابع: حياة النبي ﷺ مع آل بـيـتـه 510

المحور الخامس: خصائص زوجات النبـي ﷺ 512

المحور السادس: حبُّ الصحابة رضوان الله عليهم لآل البيت 514

المحور السابع: واجب المسلمين تجاه آل بيت رسـول الله ﷺ 517

المُجلد الثاني – قضايا عقائدية

الرسالة السابعة عشرة

أصول عقيدة أهل السنة والجماعة (وتشمل ستة محاور).................................... 15

الرسالة الثامنة عشرة

نظرة تأصيلية إلىٰ بدعة التقسيم الثلاثي للتوحيد (وتشمل سبعة محاور) 75

الرسالة التاسعة عشرة

مرجعية المذاهب وحكم التقليد ومفهومه الصحيح (وتشمل خمسة محاور) 125

الرسالة العشرون

حجية الحديث الضعيف والعمل به عند الأصوليين والفقهاء (وتشمل خمسة محاور) 151

الرسالة الحادية والعشرون

مفهوم البدعة في واقعنا المعاصر بين المنهج الوسطي والغلو (وتشمل ستة محاور) 221

الرسالة الثانية والعشرون

الاستدلال الشرعي علىٰ جواز الاجتماع علىٰ الذكر والجهر به (وتشمل خمسة محاور) 251

الرسالة الثالثة والعشرون

التأصيل الشرعي لقضية وصول ثواب الأعمال الصالحة إلىٰ الأموات (وتشمل أربعة محاور).. 295

الرسالة الرابعة والعشرون

مشروعية الصلاة في المساجد ذات الأضرحة (وتشمل ثلاثة محاور)...................... 359

الرسالة الخامسة والعشرون: مشروعية التوسل

وأدلة استحبابه من الكتاب والسنة وأقوال أهل السنة (وتشمل ستة محاور) 383

الرسالة السادسة والعشرون

كرامات الأولياء والصالحين رؤية تأصيلية شرعية (وتشمل ستة محاور)................. 429

الرسالة السابعة والعشرون

استحباب التبرك بآثار رسول الله ﷺ وآثار الصالحين (وتشمل أربعة محاور) 459

الرسالة الثامنة والعشرون

مشروعية السبحة وأدلة جواز استعمالها (وتشمل ثلاثة محاور)........................... 487

الرسالة التاسعة والعشرون

مناقشات وردود حول قضية شد الرحال لزيارة خير الأنام (وتشمل خمسة محاور) 497

الرسالة الثلاثون

نظرة إلىٰ قضية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بين المحبين والجفاة (وتشمل أربعة محاور).. 559

المُجلد الثالث – قضايا فكرية

الرسالة الحادية والثلاثون

نشأة فكر التكفير في المجتمعات الإسلامية (وتشمل خمسة محاور) 15

الرسالة الثانية والثلاثون

فكر الخوارج وأثره في إضعاف ووهن الأمة الإسلامية (وتشمل أربعة محاور)........... 85

الرسالة الثالثة والثلاثون

بطلان دعوىٰ جاهلية المجتمع الإسلامي في العصر الحديث (وتشمل أربعة محاور)....... 131

الرسالة الرابعة والثلاثون

عدم مشروعية الانتماء للجماعات الإرهابية المعاصرة (وتشمل سبعة محاور).............. 169

الرسالة الخامسة والثلاثون

الإمارة في فكر الجماعات الإرهابية في العصر الحديث (وتشمل سبعة محاور)........... 229

الرسالة السادسة والثلاثون

التمكين بين نصوص القرآن وفهم جماعات الخوارج (وتشمل خمسة محاور)............. 273

الرسالة السابعة والثلاثون

الرد علىٰ شبهة انتشار الإسلام بالسيف (وتشمل تسعة محاور)............................ 311

الرسالة الثامنة والثلاثون

الحاكمية وعلاقتها بالتَّكفير عند الجماعات المُتطرِّفة (وتشمل أربعة محاور) 395

الرسالة التاسعة والثلاثون

مبدأ الاستعلاء في منهج الجماعات التكفيرية (وتشمل خمسة محاور) 439



« هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ » - آية **22** من سورة الحشر

الرسالة الأولىٰ
مدخل عام إلىٰ التعريف بالتصوف

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: تعريف التصوف.

المحور الثاني: نشأة التصوف.

المحور الثالث: التصوف وسيلة إلىٰ سلوك الطريق إلىٰ الله تعالىٰ.

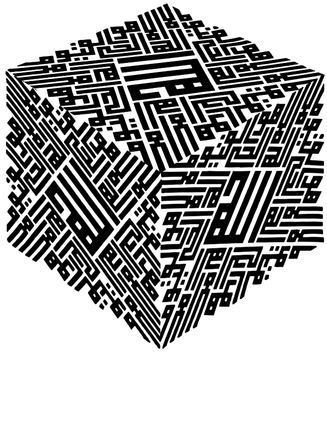
المحور الرابع: مكانة التصوف في الشريعة الإسلامية.

المحور الخامس: رؤية التصوف لمكانة رسول الله ﷺ.

المحور السادس: موقف التصوف من آل بيت رسول الله ﷺ.

المحور السابع: التصوف وموقفه الفقهي من قضية الأضرحة وقبور الأولياء والصالحين.

المحور الثامن: حاجة الإنسان المسلم إلىٰ التصوف. ◆





« أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ » - آية **3-4** من سورة القيامة

مدخل عام إلىٰ التعريف بالتصوف

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فإنَّ التصوُّف الإسلامي هو جوهر الدِّين، وهو روح الإسلام وحقيقتُه، وفي هذا البحث الموجز نتكلَّم عن التصوُّف وحاجةِ المسلمينَ إليه خاصَّةً في هذا العصر وهذه الأيام، ونذكر بعضَ ما يُثار حول التصوُّف من شُبهاتٍ، والهدفُ من هذا البحث هو توعيةُ المسلمينَ بحقيقة التصوُّف، وأنَّه ليس بشيءٍ غريبٍ عن دِين الإسلام، وأنَّ المسلمين منذ عصور الإسلام الأولىٰ كانوا صوفيَّةً بالاعتقادِ والقول والسُّلوك، وسيكون الحديثُ مُشتمِلًا علىٰ الآتي في المحاور التَّاليةِ:

المحور الأول: تعريف التصوُّف.

المحور الثاني: نشأة التصوُّف.

المحور الثالث: التصوف وسيلة إلىٰ سلوك الطريق إلىٰ الله تعالىٰ.

المحور الرابع: مكانة التصوُّف في الشَّريعة الإسلاميَّة.

المحور الخامس: رؤية التصوف لمكانةِ رسول الله ﷺ.

المحور السادس: موقف التصوف من آل بيتِ رسول الله ﷺ.

المحور السابع: التَّصوُّف وموقفه الفقهي من قضية الأضرحةِ وقبُور الأولياءِ والصَّالحِين.

المحور الثامن: حاجةُ الإنسانِ المسلِم إلىٰ التَّصوُّفِ. ◆

تعريفُ التَّصوُّف

إنَّ الحُكم علىٰ الشَّيءِ فرعٌ عن تصوُّرِه ومعرفتِه والإلمامِ به، وإنَّ كثيرًا مِن المسلمين في الوقتِ الحالي لا يَعرفون عن التصوُّف والصُّوفيَّةِ إلَّا ما يقوله وينْشُره خصومُ التصوُّف عنه، وما قد يُشاهدونَه مِن أفعالِ أدعياءِ التَّصوُّف الذين يُسيئونَ إليه تحتَ اسم التصوُّف؛ ممَّا شوَّش علىٰ النَّاس رؤيتَهم وفهمَهم للتصوُّف؛ وجعَل البعض منهم يَبني أحكامًا ويعتقِد في التَّصوُّفِ اعتقاداتٍ لا صِلةَ للتصوُّفِ بها. ولذا سنبدَأ ببيانِ مفهومِ التَّصوُّف وتعريفِه، وللتَّصوُّف مُسمَّياتٌ أُخرُ منها: الإحسانُ والتَّزكيةُ وغيرُهما.

ففي اللُّغةِ قيل:

- أنَّه من الصُّوفة: لأنَّ الصُّوفي مع الله كالصُّوفة المطروحة لاستسلامه لله تعالىٰ.
- أنَّه من الصُّفَّة: نسبة إلىٰ أصحاب الصُّفَّةِ، وهم جماعةٌ من صحابةِ رسول الله الذين كانوا مقيمين في المسجد متفرِّغين للعبادة، فالصُّوفي متشبهٌ بهم في انقطاعِهم إلىٰ الله وتوجُّههم إليه.
- أنه من الصَّفِّ: فكأنهم في الصَّف بقلوبهم من حيث حضورُهم مع الله وتسابقُهم في الطَّاعات.
- أنه من الصُّوف: لأنهم كانوا يُؤثرون لُبس الصُّوف الخَشنِ زهدًا في الدُّنيا وزُخرُفِها.
- أنَّه من الصَّفاء: فلفظة ((صُوفي)) علىٰ وزن ((عُوفي)) أي: عافاه الله فعُوفي[1].

وقد قال أبو الفتح البُستي من مشايخ التصوف:

تنازعَ النَّاسُ في الصُّوفي واختلفوا   قِدْمًا وظَنُّوه مشتقًّا مِن الصُّوف
ولست أمنحُ هذا الاسمَ غيرَ فتىٰ   صَفَا فصُوفيَ حتىٰ سُمِّي الصُّوفي

وقد تحدَّث الإمامُ القُشَيريُّ في رسالتِه عن كلمةِ التَّصوف واشتقاقِها فقال: ((ثم هذه التسميةُ غَلبتْ عَلَىٰ هذه الطائفةِ فيقالُ ((رجلٌ صوفيٌّ)) وللجماعة ((صوفيةٌ)) ومن يتوصَّلُ إِلَىٰ

(1) عوارف المعارف للسهروردي (5/85) نسخة بذيل إحياء علوم الدين مكتبة مصر القاهرة 1998.

ذَلِكَ يقال لَهُ: ((متصوف)) وللجماعةِ ((المتصوِّفة)) وليس يشهدُ لهذا الاسم من حيث العربية قياسٌ ولا اشتقاقٌ والأظهرُ فِيهِ أنه كاللَّقب فأمَّا قَوْلُ من قَالَ إنه من الصُّوف ولهذا يقال تَصوَّفَ إِذَا لبس الصُّوفَ، كَمَا يُقال: تقمَّصَ إذا لبس القميصَ فذلك وجه لكن القوم لَم يختصُّوا بلُبس الصُّوف ومن قال إنهم منسوبون إِلَىٰ صُفَّةِ مَسْجِد رسولِ الله ﷺ فالنِّسبةُ إِلَىٰ الصُّفة لا تجيءُ علىٰ نَحْو الصُّوفي ومن قَالَ: إنَّه من الصفاءِ فاشتقَاقُ الصُّوفي من الصَّفاء بعيدٌ فِي مقتضىٰ اللُّغة وقولُ من قال: إنَّه مشتقٌّ من الصَّف فكأنَّهم فِي الصَّف الأول بقلوبِهم فالمعنىٰ صحيح ولكن اللُّغة لا تقتضي هذه النسبة إلىٰ الصَّف ثمَّ إن هذه الطائفة أشهرُ من أن يُحتاجَ في تعيينهم إلىٰ قياسٍ لفظٍ واستحقاقِ اشتقاقٍ وتكلَّمَ النَّاسُ في التَّصوف ما معناه؟ وفي الصُّوفي من هو؟ فكلٌّ عبَّر بما وقعَ له))[1].

التَّصوفُ في الاصطلاح الشَّرعي:

والتَّصوُّف في الاصطلاح الشَّرعي تمَّ تعريفُه بتعريفاتٍ كثيرةٍ، وذلك تبعًا لسَعة وشموليةِ التَّجربةِ الصُّوفيةِ وتنوُّعِ مشاربِها وهيئاتها، وجميعُ هذه التَّعريفاتِ فِي نِطاق دائرةِ الإسلامِ وشريعتِه معبِّرةٌ عن آداب الدِّين ورُوحِه ولا تخرجُ عنها بحالٍ، وتأتي أهميةُ هذه التَّعريفاتِ لمعاني التَّصوف أنها جاءت من أئمَّةِ الصُّوفية وشيوخِ التَّصوفِ وأهلِه فكانت جامعةً مانعةً، وهي كلُّها من معاني الحديث الشَّريفِ والذي هو أصلُ التَّصوف وبدايتُه ومنبعُه، وهو الحديثُ الذي أخبرَ به الرَّسولُ ﷺ عن مقامِ الإحسان ما هو؟ فقال: ((أنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ))[2].

---

(1) الرسالة القشيرية (2/440) تأليف: أبي القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري — تحقيق: الدكتور/ عبدالحليم محمود، والدكتور/ محمود بن الشريف — دار المعارف — القاهرة — 1995م.

(2) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (50) ، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله (9) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فمن أقوالِ هؤلاء الأكابر والعلماءِ من مشايخ وأئمَّةِ التَّصوفِ يخرجُ المسلمُ بصورةٍ تعبِّر عن حقيقة التَّصوف وما هو عليه في الواقعِ، بعيدًا عن أيِّ تأثيرٍ من أقوالٍ أخرىٰ زائفةٍ تحاولُ أنْ تلصقَ به ما ليس فيه بهدف إبعادِ المسلمين عن التَّصوفِ والتَّنفير منه.

1- التصوُّف بمعنىٰ السير في طريق الزُّهد:

- قال مَعروفٌ الكَرخي: التَّصوُّف الأخذُ بالحقائقِ واليأسُ ممَّا في أيدِي الخلائقِ[1].

- وقال أبو يَعقوب السوسي: الصُّوفي هو الذي لا يُزعِجُه سَلْبٌ ولا يُتعِبه طَلَبٌ[2].

2- التَّصوُّف بمعنىٰ حُسن الأخلاق:

- قال أبو محمَّدٍ الجَريري: التَّصوُّف الدُّخولُ في كلِّ خُلُقٍ سَنيٍّ والخروجُ من كلِّ خُلُقٍ دَنيٍّ[3].

وقال الكتَّاني: التصوُّف خُلقٌ فَمَن زَادَ عليك في الخلقِ زادَ عليكَ في التَّصوُّف[4].

3- التَّصوُّف بمعنىٰ الصَّفاءِ:

- قال سَهلُ بن عبدالله: الصُّوفي مَن صَفَا مِن الكَدَر، وامتلأ مِن الفكرِ، وانقطَع إلىٰ اللهِ عن البشرِ[5].

- وقال بشر الحَافي: الصُّوفي مَن صفَا لله قلبُه[6].

- وقال الشِّبلي: التَّصوُّف الجلوسُ مع اللهِ بلا همٍّ[7].

---

(1) الرسالة القشيرية (441/2).

(2) التعرُّف لمذهب أهلِ التَّصوف (ص105) لأبي بكر محمَّد بن إسحاق الكلاباذي- الطبعة الأولىٰ- دار الكتب العلميَّة.

(3) الرسالة القشيرية (441/2).

(4) المصدر السابق (397/2).

(5) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص19).

(6) المصدر السابق (ص10).

(7) الرسالة القشيرية (442/2).

4- التصوُّف بمعنىٰ الالتزامُ التام بالشَّريعة المطهرة:

- قال أبو حفصٍ: حُسن آدابِ الظَّاهرِ عنوانُ حُسنِ آدابِ الباطنِ[1].

- وقال الجُنيد: مَن لم يحفظِ القرآنَ ولم يكتبِ الحديثَ لا يُقتدَىٰ بهِ في هذا الأمرِ؛ لأنَّ علْمنا هذا مُقيَّدٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ[2].

5- التصوُّف بمعنىٰ الإخلاصِ والانقِطاع إلىٰ الله:

- قال الأُستاذُ أبو سَهلٍ الصُّعلوكي: التَّصوُّف الإعراضُ عنِ الاعتِراضِ[3].

- وقال رُوَيم: التَّصوُّف استِرسالُ النَّفْس معَ اللهِ تعالىٰ علَىٰ ما يريدُه[4].

- وقالَ ذو النُّون المِصري: أهلُ التَّصوُّف هم قَومٌ آثروا اللهَ عزَّ وجلَّ علىٰ كلِّ شيءٍ فآثَرهم اللهُ علىٰ كلِّ شيءٍ[5].

- وقال الجُنيد: التَّصوُّف أن يُميتَك الحقُّ عنك ويُحييكَ بهِ[6].

- وقد أوردَ القشيريُّ في رسالتِه طرفًا من أقوالِ العارفين السالكين المحبين عن التَّصوف وحالِ أهله فقال: «قال أبو حمزةَ البغدادي: علامةُ الصُّوفي الصادقِ أن يفتقرَ بعد الغِنىٰ ويذل بعد العزِّ ويخفىٰ بعد الشُّهرةِ، وعلامةُ الصُّوفي الكاذبِ أن يستغني بالدنيا بعد الفقر ويعزَّ بعد الذلِّ ويشتهرَ بعد الخفاء.

وسُئلَ عمرو بن عثمان المكيُّ عن التصوفِ فقال: أن يكونَ العبدُ في كلِّ وقتٍ بما هو أولىٰ به في الوقتِ.

---

(1) انظر: طبقات الأولياء (250/1) لابن الملقِّن سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري- تحقيق: نور الدين شريبة- الطَّبعة الثانية- 1994م- مكتبة الخانجي- القاهرة.

(2) الرسالة القشيرية (79/2).

(3) المصدر السابق (444/2).

(4) المصدر السابق (441/2).

(5) المصدر السابق (443/2).

(6) المصدر السابق (441/2).

- وقال محمدُ بن علي القصَّاب: التصوفُ أخلاقٌ كريمةٌ ظهرتْ في زمان كريمٍ من رجل كريمٍ مع قوم كرامٍ.

- وقال رُوَيمُ بن أحمد البغداديُّ يقول: التَّصوفُ مبنيٌّ على ثلاثِ خصالٍ: التَّمسكِ بالفقر والافتقارِ، والتحقُّقِ بالبَذْل والإيثارِ، وتركِ التَّعرضِ والاختيار.

- وقال حمدون القصَّار: اصْحَب الصُّوفيةَ فإنَّ للقبيحِ عندهم وجوهًا من المعاذيرِ وليس للحَسَنِ عندَهم كبيرُ موقعٍ يعظِّمونَك به.

- وقال الجنيدُ: التصوفُ عنوةٌ لا صُلحَ فيها.

- وقال أيضًا: هم أهلُ بيتٍ واحدٍ لا يدخلُ فيهم غيرُهم.

- وقال أيضًا: التصوفُ ذكرٌ مع اجتماعٍ ووَجدٌ مع استماعٍ وعملٌ مع اتِّباعٍ.

- وقال أيضًا: الصوفيُّ كالأرضِ يُطرَحُ عليها كلُّ قبيحٍ ولا يخرجُ منها إلا كلَّ مَليح.

- وقال أيضًا: إنه كالأرضِ يَطؤها البَرُّ والفاجرُ وكالسَّحابِ يُظلُّ كلَّ شيءٍ وكالقطر يَسقي كلَّ شيءٍ.

- وقال إذا رأيتَ الصُّوفي يُعنى بظاهره فاعلم أن باطنَه خرابٌ.

- وقال سهلُ بن عبدالله: الصُّوفي من يرى دَمَهُ هدرًا ومِلكَهُ مُباحًا.

- وقال أبو علي الرُّوذبارِي: التصوفُ: الإناخةُ على بابِ الحبيبِ وإن طُردَ عنه.

- وقال أيضًا: صفوةُ القُربِ بعد كدورةِ البُعد.

- وقيل: التصوفُ كفٌّ فارغٌ وقلبٌ طيبٌ.

- وقال الشِّبليُّ: الصُّوفيُّ منقطعٌ عن الخَلقِ متَّصلٌ بالحقِّ كقوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41]. قَطَعَهُ عن كلِّ غيرٍ ثمَّ قال: ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:143]

- وقال أيضًا: هو العصمةُ عن رؤيةِ الكون.

- وقال الجريريُّ: التصوفُ مراقبةُ الأحوالِ ولزومُ الأدب.

- وقال المزَين: التصوفُ الانقيادُ للحقِّ.

- وقال أبو تراب النَّخشَبيُّ: الصوفيُّ لا يكدِّرُه شيءٌ ويَصفُو به كلُّ شيءٍ.

- وقيل: الصوفيُّ لا يُتعِبُه طلَبٌ ولا يزعجه سَبَبٌ.

- قال أبو نصرٍ السراجَ: قلتُ للحصريِّ مَن الصُّوفيُّ عندك؟ فقال: الذي لا تُقِلُّه الأرضُ ولا تُظِلُّه السَّماءُ. قال الأستاذُ أبو القاسم: إنما أشارَ إلىٰ حالِ المحوِ.

- قيل: الصوفيُّ من إذا استقبلَهُ حالان أو خُلُقَان كلاهما حَسَنٌ كان مع الأحسَنِ.

وسُئِلَ الشِّبليُّ لم سمُّوا بهذه التسميةِ؟ فقال: لبقيةٍ بَقيتْ عليهم من نفوسِهم ولولا ذلك لما تعلَّقتْ بهم تسميةٌ.

- سُئِلَ ابنُ الجلاءِ ما معنىٰ «صُوفي» فقال: ليس نَعرفُه في شرطِ العلمِ ولكن نعرفُ فقيرًا مجردًا من الأسبابِ كان مع الله تعالىٰ بلا مكانٍ ولا يمنعُه الحقُّ سبحانه من علم كلِّ مكانٍ فسمِّيَ صوفيًّا.

- وقال أبو يعقوب المزايلي: التصوفُ حالٌ تضمحلُّ فيها معالمُ الإنسانيةِ.

- قال أبو الحسن السِّيرَوانيُّ: الصوفيُّ يكون مع الوَارداتِ لا مع الأورادِ.

- ويقال: الصُّوفيُّ مقهورٌ بتصريفِ الربوبية مستورٌ بتصرُّفِ العُبوديةِ، ويقالُ: الصُّوفيُّ لا يتغيرُ، فإنْ تغيَّرَ لا يتكدَّرُ»[1].

وهناك معانٍ أخرىٰ نجدُها في كلامِهم يطول الكلامُ بذكرِها، ومن خلال تَتبُّع كلامِ أئمَّة التَّصوُّف نجدُ أنَّ بعضَهم عرَّف التَّصوفَ بكلامٍ جامعٍ مانعٍ وهو الإمامُ أبو الحسن الشَّاذُلي حيثَ قال: التَّصوُّف: تَدريب النَّفْسِ علىٰ العبوديَّةِ وردُّها لأحكامِ الرُّبوبيَّة[2]. وكلُّ ما قيل مِن تعريفاتٍ أخرىٰ فهيَ تدُور في فلَكِ تعريفِ الشَّيخِ أبي الحسَن رحمَه اللهُ.

ومِن ذلك تعريفُ الإمامِ ابنِ عَجيبة الذي هو بِمثابةِ شرحٍ وتوضيحٍ وزيادة بيانٍ لتعريفِ الشَّيخ أبي الحَسَن، قال الإمامُ ابنُ عجيبةَ: «التَّصوُّف: هو عِلْمٌ يُعرَف به كيفيَّة

(1) الرسالة القشيرية (2/444-441).

(2) حقائق عن التَّصوف للشَّيخ عبد القادر عيسىٰ (ص9).

السُّلوكِ إلىٰ حَضرةِ ملكِ الملوكِ، وتصفِيةُ البواطن مِن الرَّذائلِ وتحليتُها بأنواعِ الفضائلِ، وأوَّلُه علْمٌ، ووسَطُه عملٌ، وآخِرُه موهِبةٌ))[1]. فالنَّفْس بطبيعَتِها أمَّارةٌ بالسُّوءِ، مُعلَّقةٌ بزينةِ الدُّنيا وزَخرفتِها، والتَّصوُّف هو تدريبٌ لتلك النَّفْسِ علىٰ تطهيرِها وتصفيَتِها منَ الشَّوائبِ وإصلاحِ ما فَسَد منها وإعادتِها إلىٰ الفطرةِ التي خُلِقَت عليها من النَّقاء والصَّفاء، ويوضِّح سيِّدي ابنُ عجيبَة أنَّ هذا الطَّريقَ يكون أوَّله بالتعلُّم، فيتعلَّم الإنسانُ كيفيَّة إصلاحِ النَّفسِ، ويتعلَّم أثناءَ ذلك الفضائلَ والأخلاقَ والذكرَ والعِبادةَ، ثمَّ يعمَل بما تعلَّم ويداومُ علىٰ ذلك حتَّىٰ يطهرَ الباطنُ من كلِّ الأمراضِ والعِلل كالحسَدِ والحِقد وحبِّ الدنيا، ويرتقي بأخلاقه ويُنعَت بالفضائلِ، ويداوم علىٰ الذكرِ والعبادةِ مع حضورِ قلبٍ وخشيةٍ حتَّىٰ يصيرَ كلُّ ذلك طبيعةً له، مسلِّمًا ومفوِّضًا أمرَه لله سبحانه وتعَالىٰ في كلِّ ما يعرِض له عندها يَهبُه اللهُ العلومَ والمعارفَ والسَّعادةَ والطَّمأنينة، قال رسول الله ﷺ: ((مَا تقرَّب إليَّ عَبدِي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مِمَّا افترَضْتُ عليهِ، ومَا يزالُ عَبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِل حتَّىٰ أُحبَّه، فإذا أَحبَبْتُه كنتُ سمعَهُ الَّذي يسمَع بهِ، وبصَرهُ الَّذي يُبصِر بهِ، ويدَه الَّتي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإنْ سَأَلني لأُعطينَّه، ولئنِ استَعاذَني لأُعِيذنَّه، ومَا تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه تردُّدي عن نَفْسِ المؤمنِ يكْرَه الموتَ وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَه))[2]. فالتَّصوُّف ليس بدعةً مِن البدعِ، بل هو عِلْمٌ من علومِ الشَّريعة؛ كالتَّفسيرِ والحديثِ والتَّوحيدِ والفقهِ واللُّغة، وأهلُ التصوُّف هم علماءُ ربَّانيُّون وهَبوا حياتَهم لِلوعظِ والإرشادِ ودلالة الخلق علىٰ الحق سبحانه.

والتصوُّف هو المعارفُ والحقائقُ والفيوضاتُ الإلهيَّة المحدودةُ بحدودِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، وكلُّ من يخرجُ عن هذه الحدودِ قيدَ أنملةٍ فليس من التصوُّف في شيءٍ وإن

---

(1) انظر: معراج التشوف إلىٰ حقائق التصوف (ص 26) تأليف: أبي العبَّاس أحمد بن محمَّد بن المهدي ابن عجيبة الإدريسي- تحقيق: عبد المجيد خيالي- مركز التراث الثَّقافي المغربي- الدَّار البيضاء.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع (6502).

ادَّعىٰ مِن ادَّعىٰ، فالتصوُّف هو المنهجُ الذي سارَ عليه أئمَّةُ الشَّريعةِ كلُّهم، ولو تتبَّعنا كتُبَ السِّير والتَّراجمِ لوجدْنا آلافَ العلماءِ قد انتمَوا إلىٰ التصوُّفِ وسلَكوا طريقَه كوسيلةٍ للوصولِ إلىٰ اللهِ، وعلىٰ سبيل المثالِ لا الحَصرِ نذكُر أسماءَ بعضٍ منَ هؤلاء العلماءِ الربَّانيينَ الذين شَهِدَت لهم الأمَّةُ بالعِلمِ والإمامةِ كالحافظِ أبي نُعيم الأصبهاني، والحافظِ ابن الصَّلاح، والإمامِ النَّووي، والعزِّ بن عبدالسَّلامِ سلطانِ العلماء، والحافظِ ابن حجر العسقلاني، والحافظِ جلالِ الدِّين السُّيوطي وغيرِهم الكثير من الأئمَّةِ والعلماءِ الراسخين في الشَّريعة ممَّن ينتَسِبون إلىٰ الصُّوفيَّة، وهذا يدلُّك أخي الكريم أنَّه لو كان التَّصوُّف شيئًا مبتدعًا ليس من دِين الإسلام ما كنتَ لتجدَ هؤلاءِ العلماء بينَ زمرَة مَن عُرفوا بالتصوُّف. واعلَم أنَّ لكلِّ علْمٍ أصولًا يُبنىٰ عليها وكذلك التَّصوُّفُ له أصولٌ يخبِرنا عنها شيخُ الإسلامِ والمسلمين الإمامُ النَّووي مبيِّنًا أصولَ طريق التَّزكيةِ فقال: ((هي خمسةٌ: تقوىٰ الله في السِّرِّ والعلانيةِ، واتِّباعُ السُّنَّة في الأقوالِ والأفعالِ، والإعراضُ عن الخَلْق في الإقبالِ والإدبارِ، والرِّضا عن اللهِ تعالىٰ في القليلِ والكثيرِ، والرُّجوعُ إلىٰ اللهِ في السرَّاءِ والضرَّاءِ))[1].

وبالنَّظر إلىٰ أقوالِ أئمَّة التَّصوُّفِ ومشايخِه من سلفنا الصَّالح في القرون الأولىٰ الفاضلةِ، نجدُ أنَّها تشير إلىٰ جوانبِ الشَّريعة وتعبِّرُ عن الرُّكون والتَّسليمِ لله ربِّ العالمين والانقطاعِ إليه، والإعراضِ عن زُخرُف الحياة الدُّنيا والإقبالِ علىٰ الله، وكلُّ تلك المعاني هي حقيقةُ الإسلام وجوهرُه، وكذلك كانت أقوالُ مَن جاء بعدهم من أئمة التَّصوُّف في القرون التي تلت القرونَ الأُولىٰ الفاضلةَ فمن ذلك:

- قول شيخ الإسلام زكريَّا الأنصاري: ((التَّصوفُ عِلْمٌ تُعرف به أحوالُ تزكيةِ النُّفوسِ وتصفيةِ الأخلاقِ وتعميرِ الظَّاهرِ والباطنِ لنيلِ السَّعادة الأبدية))[2]. فمن الأقوال

(1) انظر: شرح المقاصد النَّوويَّة (ص165) للإمام النَّووي- الطَّبعة الثانية- دار البشائر الإسلامية- بيروت.

(2) حقائق عن التصوف (صـ8)

السَّابقةِ يتَّضحُ لكَ أخي الكريم حقيقةَ وجوهرَ التَّصوُّفِ من أقوالِ المتصوِّفةِ أنفسِهم، ويتبين أنَّ المستَقِرَّ في أذهان بعض النَّاس عن التَّصوُّفِ ما هو إلا أثرٌ من آثارِ دعاوىٰ خُصوم التَّصوُّفِ، أو أثرٌ لما قد يشاهدوه من ممارساتِ مَن ينسبون أنفسَهم إلىٰ التَّصوُّفِ والصُّوفية، وليسوا منهم في شيءٍ، فالتَّصوُّفُ هو المعارِفُ والحقائقُ والفُيوضاتُ الإلهيةِ والنَّفحاتُ الرَّبَّانيةِ المحدودةُ بحدود الشَّريعة الإسلاميةِ، فالتَّصوُّف تصفيةٌ للقلب من غيرِ الله تعالىٰ، والصُّعود بالرُّوح إلىٰ عالمِ التَّقديسِ بإخلاص العبوديةِ لله، وهو قلبٌ منكسرٌ لجلال الله وعظمتِه، وهو سخاءٌ ووفاءٌ، وسلوكُ طريقِ سيِّدِ الكُرَماءِ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ، وهو صِدقٌ في المعاملة ولينُ الجانبِ للنَّاس، وهو جبهةٌ ساجدةٌ ولسانٌ ذاكرٌ، وهو أنسٌ ومحبَّةٌ لله ربِّ العالمين، وهو ثقةٌ بالله وتوكُّلٌ عليه، وهو خوفٌ وإجلالٌ لمقام الله، وهو عفَّةُ نفسٍ وورَعٌ، وهو نقاءُ الأفكار وسلوكُ الأبرار، وهو تواضعٌ وبذلُ الخيرِ للنَّاس وكفُّ الأذىٰ عنهم، وهو حِفظُ الحواسِّ والجوارحِ. هذه المعاني هي التَّصوُّفُ الذي هو رُوح الإسلام وجوهره. ويشهدُ علىٰ أنَّ التَّصوفَ هو لُبُّ الإسلام وشريعتِه ورُوحُه الحيَّةِ انتماءُ المئاتِ من عُلماء الشَّريعة وحملةِ الدِّين وأهلِ العِلم والتَّحقيقِ إلىٰ التَّصوفِ، ولو تتبعنا مُصنَّفاتِ ومراجعَ وكُتُبَ السِّير والتَّراجِمِ والتَّاريخِ لوجدنا آلافَ العُلماءِ قد انتموا إلىٰ التَّصوفِ وسلوكِ طريقه كمنهجٍ للوصول إلىٰ الله وتزكيةِ النَّفسِ. ◆

نشأة التصوُّف

التصوُّف الإسلامي علْمٌ من علوم الشَّريعة فهو مستمدٌّ منها، ثم تطوَّر عبر الأزمان واختلافِ البيئات- كتطوُّر الفقه وغيره من علوم الشريعة- بما يتناسب مع الزمانِ والمكانِ، وليس بدعةً مستَحدَثةً، وهكذا جميعُ علوم الشَّريعة الإسلامية مِن فقهٍ ولغةٍ وعلوم حديثٍ وغيرها، فلم تكن هذه العلوم كلها موجودةً في عهدِ النَّبي ﷺ ولم يقل أحد ببدعيتها.

وعند النَّظر لحقيقةِ التصوُّف وتعريفاتِه يظهر مِن هذه التَّعريفاتِ أنَّ التصوُّف كسلوك ظهَر مع الأيَّام الأولىٰ للإسلامِ وليس شيئًا مستحدَثًا ظهَر بعد ذلك، نعم لم يكن علىٰ الصُّورة الَّتي تبلورت في صورة علمية وتطورت بعد ذلك عما كانت عليه في القرونِ الأولىٰ، ولكن عند النَّظر إلىٰ معاني التصوُّف نجِد أنَّ هذه المعاني هي أصول الإسلامِ وجوهرُه والجانبُ الرُّوحيُّ منه، إذِ التصوُّف مجاهداتٌ وسلوكٌ للوصولِ إلىٰ درجاتِ القُرْب والمراقبةِ، فالصَّحابة ﷺ هم خير مثالٍ وتطبيقٍ لهذا الجانب الرُّوحيِّ مِن الإسلامِ، وهم وإن لم يتسمَّوا باسم الصُّوفية إلَّا أنَّهم كانوا صوفيةً فعلًا وإن لم يكونوا كذلك اسمًا، فإن مقصِد التصوُّف أوَّلًا وآخرًا هو الحقُّ سبحانه وتعالىٰ، وإلزامُ المرءِ لنفسِه مقامَ العبوديَّة مع خالقه جلَّ وعلا، والإقبالُ علىٰ الله بالرُّوح والقلبِ والبدنِ في جميع الأوقات والأحوالِ، فنجد أنَّ النصيبَ الأكبرَ مِن ذلك كلِّه كان لصحابة رسول الله ﷺ لعلوِّ مشربِهم الرُّوحي والقلبيِّ الذي ارتووا منه، وهو رسول الله ﷺ. فنجد عند التتبُّع لسيرة النبيِّ ﷺ وسيرةِ صحابتِه رضوان الله عليهم أنَّ الغالبَ عليهم هو الزُّهد في الحياة الدُّنيا وزخرفِها، والتوجُّه بكلِّيتهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وحتَّىٰ لمَّا فُتِحَت عليهم الدنيا بالمال والمتاعِ كانت في أيديهم ولم تكن في قلوبِهم، وهذا هو أصل التصوُّف الزُّهدُ في زخرفِ الحياةِ الدُّنيا والإقبالُ علىٰ الله، ولم يتسمَّ صحابة رسول الله ﷺ باسم آخر غيرِ الصَّحابة أو المهاجرينَ والأنصارِ؛ إذ لا شرَف فوق شرَفِ الصُّحبة ولا أفضليةَ خيرٌ منها،

ثُمَّ بعد ذلك في عصر التَّابعينَ وتابعِي التَّابعينَ لَمَّا اتَّسعت رقعةُ بلاد الإسلامِ وكثُر النَّاس وتنوَّعت سلوكيَّاتهم وتفشَّت بعض مظاهرِ حبِّ الدُّنيا والرُّكون إليها وتباينتِ المراتبُ ظهرَت طائفةٌ مِنَ المسلمين ألزمَت نفسَها طريقَ المجاهدةِ والعبادةِ والزُّهدِ والذِّكْر وهَجْر متاعِ الحياة الدُّنيا وانقطعت هذه الطائفة للعبادةِ والذكر والفكر، ثُمَّ تبلورَت لهذه الطائفة مظاهر وحدود ميزتها عن غيرها فعُرِفت باسم الصُّوفية. فالتصوُّف ليس دخيلًا علىٰ دِين الإسلام كما يشيعُ عنه خصومه، فينسبونه تارةً إلىٰ الرهبنةِ البوذيَّة، وتارةً إلىٰ الكهانة النَّصرانيَّة، وأخرىٰ إلىٰ الشَّعوذة الهنديَّة، فنقول: بيننا وبينكم سِيَر وتراجِمُ وكتبُ وأقوالُ أهلِ التصوُّف منذ القرون الأولىٰ، ولننظُر هل أتَوا بدِينٍ جديدٍ غيرِ دِين الإسلامِ؟! أم أنَّ التصوُّف هو التَّطبيق العمليُّ للإسلام، وأنَّه ميراثُ النبوَّة فإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا درهمًا ولا دينارًا وإنَّما ورَّثوا العِلم، وكان نصيبُ التصوُّف والصُّوفية مِن هذا العِلم المعارفَ القلبيَّة وحِفْظ القلوبِ وتزكيتُها والارتقاءَ بالأرواحِ، إضافة إلىٰ حِفْظ ناموس الشَّريعة وأحكامِها.

وهناك أمرٌ يجب أن يُتنبَّه له عند النَّظر إلىٰ علم التصوُّف ومعارِفه وفروعِه وهو أنَّ العلومِ الإسلامية بشكْلِها الحالي ومصنَّفاتِها لم تكن موجودةً في عهد الصَّحابة والتَّابعينَ وإن كانَ كلُّ فرعٍ مِن هذه العلوم موجودًا في قلوب وعقولِ الصَّحابة كملكة وسجية وكذلك في قلوب مَن بعدهم من أئمة التَّابعين، وذلك طبعًا بدرجاتٍ متفاوتةٍ بالنِّسبة لكلِّ فردٍ، فعلىٰ سبيل المثال علم الفِقه بالأحكام الشَّرعية كان موجودًا في عقول الصَّحابة رضوان الله عليهم ولكنَّه لم يكن مدوَّنًا؛ فكانتْ مجالسُ ابنِ عُمر وابنِ مسعودٍ وابن عبَّاسٍ مجالسَ علمٍ وفقهٍ، وكان أبو بكرٍ وأبو ذرٍّ وعمرُ بن الخطَّاب رضوان الله عليهم ممَّن اشتهروا بالزُّهد في الدُّنيا وشدَّة المراقبة لله، ومِنَ الصَّحابة مَن كان يتكلَّم بالوعظِ والتَّذكير، ثُمَّ بعد ذلك في عصْرِ التَّابعين وتابعِي التَّابعينَ تبلورت وتشكَّلَت صورة هذه المعارفِ والعلومِ في شكلِ مجالسِ العِلم المنتظمةِ في كافَّة العلوم الشَّرعيَّة وتمَّ البَدء في تدوينِ تلك

المعارفِ، فكانت بدايةُ تكوينِ وظهورِ العلوم الإسلاميَّة ونموِّها وتراكمِها شيئًا فشيئًا، وما حدَث للعلوم الإسلاميَّة مِن فقهٍ وحديثٍ وتفسيرٍ وغيرِ ذلك حدَث مثلُه مع التصوُّف والعلومِ القلبيَّة والزُّهد والتوجُّه إلىٰ الله؛ إذ إنَّه مع تشكُّل العلوم الشَّرعيَّة تشكَّل كذلك علم التصوُّف وأصبحتْ له قواعدُ وأصولٌ وموضوعاتٌ خاصَّةٌ به. وأصبح مدوَّنًا في الكتبِ له تعريفاتُه ومصطلحاتُه وعلماؤه المختصونَ به، وهم الشُّيوخ العارفونَ المرشدونَ كما هو حالُ باقي العلومِ الشَّرعيَّة، وتلك مزية تميَّز بها عِلم التصوُّف فأصبح تراكميًّا مثلَ باقي العلومِ الشَّرعية يزداد علىٰ مرِّ السِّنين.

وقد يسأل البعضُ: وما فائدةُ عِلمِ التصوُّفِ؟

والجواب: كما قال الشَّيخ زرُّوق- وهو مِن أئمَّة التصوُّف المتأخِّرين- في كتابه قواعد التصوُّف: ((فائدةُ كلِّ شيءٍ ما قُصِدَ له وجودُه، وفائدتُه: حقيقتُه في ابتدائه أو انتهائهِ أو فيهما؛ كالتصوُّف: علمٌ قُصِدَ لإصلاحِ القلوبِ وإفرادِها لله عمَّا سواه. وكالفِقه: لإصلاحِ العَملِ وحِفْظ النِّظامِ وظهورِ الحكمةِ بالأحكامِ. وكالأصولِ: لتحقيقِ المقدِّماتِ بالبرهانِ وتحليةِ الإيمان بالإيقانِ. وكالطِّبِّ: لحفظ الأبدانِ. وكالنَّحْو: لحفظِ اللِّسانِ))[1].

فنرىٰ مِن هذا التَّعريفِ أنَّ فائدةَ التصوُّف إصلاحُ القلبِ والنَّفْسِ وإصلاحُ الإنسانِ ظاهرًا وباطنًا والأخذُ بناصيتِه إلىٰ سلوكِ الطريقِ إلىٰ الله وإفرادِه سبحانه بالمحبَّة والعبوديَّة، فبصلاحِ القلبِ يصلُح الإنسانُ وبفسادِه يفسُد الإنسانُ كما ورَد في الحديثِ عنِ النَّبيِّ ﷺ: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ))[2].

---

(1) انظر قواعد التصوف (صـ26) الشيخ أحمد بن أحمد بن البرنسي المشهور بزروق- ضبطه وعلق عليه: محمود البيروتي - الطبعة الأولىٰ 2004 دار البيروتي -دمشق سوريا.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (52)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (1599) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

فصلاحُ الإنسانِ مربوطٌ بصلاحِ القلبِ الَّذي هو أصلُ الأعمال ومصدرُها، فالتصوُّف يوصِّل الإنسانَ إلىٰ إصلاحِ قلبِه وإخراجِ كلِّ صِفةٍ مذمومةٍ وتحليتُهَ بكلِّ صفةٍ حسنةٍ حتّىٰ يصبحَ القلبُ سليمًا ينظرُ إلىٰ ربِّه بعينِ البصيرةِ يعبُد الله كأنَّه يراهُ، وهو الصُّورة المتكاملةُ الَّتي تجسِّد عظمةَ دِين الإسلام، ويجمعُ بين الأركانِ والحدودِ والأوامرِ والنَّواهي بالصُّورِ المحدَّدةِ المنضبطةِ وبينَ الجانبِ الرُّوحيِّ الوجدانيِّ الَّذي يغلِّف هذه الأوامرَ والنَّواهيَ ويجعَلُها حيَّةً متجدِّدةً غيرَ جامدةٍ ويصبغُها بالنَّفحات الربَّانية، ويجعَل منها وسيلةً لتزكية القلوبِ والنُّفوس.

فعلىٰ سبيلِ المثالِ الصَّحابةُ كلُّهم عدولٌ ثِقاتٌ فيما يَنقلون مِن كلام رسول اللهِ عليه الصَّلاة والسَّلام، ثُمَّ لَمَّا تفشَّىٰ الكذب وانتشر الدسُّ وقَلَّتِ الأمانةُ والدِّيانة بين النَّاس تشدَّد العلماءُ في قَبولهم حديثَ النبيِّ ﷺ فلم يَقبلوا إلَّا ما رواهُ الثِّقات العدولُ بعضُهم عن بعضٍ، وكذلك لم تكُن هناك حاجةٌ لعلْمِ غريبِ الحديث؛ لأنَّ المسلمينَ في صَدر الإسلامِ عَربٌ أقحاحٌ يفهمون معاني الكلماتِ ودلالاتها، لكن لَمَّا دخلَ العجمُ في الإسلام صارَ من الضروريِّ أن تُشرحَ الكلماتُ الغريبةُ في الحديثِ والتي يُشكِل فهمُها، وهكذا جميعُ العلوم الشَّرعيَّةِ تطوَّرت عبرَ الأزمنةِ بِما يَتناسبُ مع ظروف الزَّمانِ والمكانِ دونَ مخالفةٍ لأصولِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة، فصار كلُّ عِلمٍ مُستقِلًا بذاتِه له أصولُه وضوابطُه وأركانُه وحدودُه. وعلْمُ التصوُّف وغيرُه من علومِ الشَّريعةِ لم يكن موجودًا بشكلِه الحالي في عهدِ الصَّحابةِ والتَّابعين، وإن كان كلُّ فَرعٍ مِن هذه العلومِ حاضرًا في قلوبِ وعقولِ الصَّحابةِ ومَن بعدَهم مِن التَّابعين، فمجالسُ ابنِ مسعودٍ وابنِ عبَّاسٍ مثلًا هي مجالسُ علْم وفقهٍ، لكن هذه المجالسَ صارَت فيما بعد في عَصرِ التَّابعينَ وتابعِي التابعين مجالسَ علميَّة مُنتظمةً في كافَّة العلومِ الشَّرعيَّةِ ثم تطوَّرت العلومُ وأصبحَ لها أصولٌ وقواعدُ وحدودٌ وموضوعاتٌ تُعالجها، وصارَ لكلِّ علمٍ كتُبُه ومصنَّفاتُه ومصطلحاتُه وعلماؤه المختَصُّون به ومن جملةِ هذه العلومِ علْمُ التصوُّفِ الذي أسسه الشُّيوخُ العارفون المرشِدونَ

المختصُّون بهِ كالفقهاء للفقه والمحدِّثين وعلماءِ الجَرح والتَّعديل للحديثِ وهكذا، وبذلك فعِلْم التصوُّف كباقي علوم الشَّريعةِ التي نشَأت ونَمَت ونضجَت علىٰ مرِّ السِّنين. وكان أوَّلُ أمرِ الصُّوفيَّة عندما اتَّسعَت رُقعةُ بلادِ الإسلام وكثُر النَّاسُ وتنوَّعَت سلوكيَّاتهم وتفشَّت الأمراضُ والعِلل مِن الحسدِ والبغضِ والكرهِ والركونِ إلىٰ الدُّنيا بينهم، في ذلك الوقتِ ظهرَت طوائفُ من المسلمين ألزَموا أنفسَهم طريقَ المجاهدةِ والعبادةِ والزُّهد والذكرِ وهجرِ متاعِ الدُّنيا والانقِطاعِ للعبادةِ وإصلاحِ الظَّاهرِ والباطنِ، وأُطلِق علىٰ هؤلاءِ اسم الصُّوفيةُ، فدعَوا إلىٰ العودةِ إلىٰ ما كانَ عليهِ الجيلُ الأوَّل منَ الصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهِم، مِن التزام الأدبِ النبوي والأخلاقِ المحمدية والمداومةِ علىٰ العبادةِ والذكر مع حضورِ القلبِ والخشيةِ والتَّعلُّقِ باللهِ وحدَه وتَعظيمِ النبيِّ ﷺ إلىٰ غيرِ ذلك ممَّا كانوا عليهِ. والصَّحابةُ رضي الله عنهم هم خيرُ مثالٍ لهذا الجانبِ الرُّوحي منَ الإسلامِ حيثُ كانوا في أعلَىٰ درجاتِ السُّموِّ الرُّوحي والأخلاقي والتزامِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، كيفَ لا وهم الذين تخرَّجوا بمدرسةِ خيرِ معلِّمٍ ومُرشدٍ وهادٍ سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ، فغايةُ علْمِ التَّصوُّفِ هو العودةُ بالنَّاس إلىٰ ما كانَ عليهِ الصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم من التَّحقُّقِ بمقامِ العبوديَّةِ والإقبالِ علىٰ اللهِ بالرُّوح والقلبِ والبدَنِ في جميعِ الأوقاتِ والأحوالِ، والانسلاخُ مِن حبِّ الدُّنيا والتعلُّقِ بزينتِها وزَخرفَتِها. فالصَّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم لمَّا فُتحَت عليهم الدُّنيا بالمالِ والمتاعِ كانت في أيدِيهم ولم تكُن في قلوبهِم، فهذا هو الزُّهدُ الحقيقيُّ؛ أن تخرجَ الدُّنيا وكلُّ زينةٍ مِن قَلبِ الإنسانِ. ◆

التَّصوُّف وسيلة إلىٰ سلوك الطَّريق إلىٰ اللهِ تعالىٰ

غايةُ علمِ التصوُّفِ هو أن يسيرَ الإنسانُ علىٰ المنهجِ الرَّباني، وأن يَتحقَّقَ بمقامِ العبوديَّة الحقَّة للهِ تعالىٰ، وهذا هو مقامُ الإحسان الَّذي أخبَرنا عنه رسولُ الله ﷺ في حديثِ جبريل عندما سأله جبريلُ عن الإحسانِ فأجابهُ ﷺ فقالَ: «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تَراهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يرَاكَ»[1]. فالصُّوفي هو عبدٌ لله سبحَانه، تحقَّقَ بمعنَىٰ العبوديَّةِ له عزَّ وجلَّ، التزمَ قولَ اللهِ تعالىٰ ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾ [الأنعام: 162] وهو دائمُ التَّوحيدِ للهِ تعالىٰ، ينزِّه اللهَ عن الشَّريكِ وعن صفاتِ النَّقصِ والمشابهةِ للحوادثِ- أي: المخلوقاتِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾ [الشُّورىٰ: 11]. فالصُّوفيُّ الحقُّ هو مَن يجعلُ مِن أنفاسِه وأوقاتِه وأيَّامِه وحركاتِه وسكناتِه خطواتٍ يقطَع بها الطَّريقَ إلىٰ ربِّ العالمين، والمتَتبِّع لسِيَرِ سَلَفِنا الصَّالح مِن الصُّوفيَّة يجدُ أنَّ قصدَهم ومُنتَهىٰ غايَتِهم هو اللهُ، وأنَّ كلَّ ما أَلزموا أنفسَهم به مِن السُّلوكِ والزُّهدِ والعبادةِ إنَّما كان ليتَحقَّقوا بمقامِ العبوديَّةِ لله سبحانَه وتعالىٰ، فهُم يرَون علىٰ الحقيقةِ أنَّ اللهَ هو الفعَّالُ والمتصرِّفُ في هذا الكونِ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ [يس:82]. فَدَيْدَنُـهم المحبَّةُ والتَّعظيم للهِ والمحبَّةُ هي الأُنس بالمحبوبِ، وبذلُ النَّفْس في هوىٰ المطلوبِ، وأن لا تَنظرَ إلىٰ سِواه مخافةَ أن تضِلَّ فلا ترَاه؛ لأنَّ مَن نظَر إلىٰ سِواه ضلَّ عن طريقِ هُدَاه. ويقولُ الإمامُ الجُنيد واصِفًا المحبَّةَ وحالَ المحبِّ مع اللهِ تعالىٰ: «عبدٌ ذاهبٌ عن نفسِه، متَّصِلٌ بذكْرِ ربِّه، قائمٌ بأداءِ حقوقِه، ناظرٌ إليه بقلبهِ، أَحرقَ قلبَه أنوارُ هويَّته، وصفَا شربُه مِن كأس ودِّه، فإن تكلَّمَ فبالله، وإن نطق فمِنَ الله، وإن تحرَّك فبأمرِ اللهِ، وإن سَكَن فمعَ اللهِ، فهو باللهِ ولله ومعَ الله»[2]. فمَا التَّصوُّف وسلوكُ هذا الطَّريقِ إلَّا

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (50) ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام (8) من حديث عمر رضي الله عنه.

(2) انظر: الرسالة القشيرية (2/493).

سُلَّمًا للصُّعودِ والتَّرقِّي إلىٰ حضرةِ ملكِ الملوكِ، وكلُّ طرُقِ الصُّوفيَّةِ موصلةٌ إلىٰ اللهِ سبحانَه، لكنَّ مِنهم مَن غلَب عليهم الزُّهدُ والتقشُّف والابتِعادُ عن الدُّنيا قَلبًا وقَالبًا، ومنهم مَن تكلَّم في المعارفِ الإلهيَّةِ وحقائقِ التَّوحيدِ، ومِنهم مَن كان معرَاجُه وسلَّمُه كثرةَ الصَّلاةِ علىٰ النَّبيِّ ﷺ، ومنهم مَن يُداوِم علىٰ الصَّومِ والتَّبتُّل والعبادةِ. ومَع كلِّ هذا التَّنوُّع واختِلافِ الصُّور والهيئاتِ فإنَّ كلَّ صوفيٍّ صادقٍ قصدُه هو اللهُ سبحانَه، وأنَّ كلَّ هذه المظاهرِ والهيئاتِ هي طرُقٌ موصِلةٌ إليهِ سبحانه، فالصُّوفيُّ غائبٌ عن نفسِه بربهِ، مُفتقرٌ لخالقِه عزيزٌ بالذلِّ لَمولاه، لا يَرىٰ ولا يَسأَل ولا يشهدُ إلَّا اللهَ، صفَا لَه العَيشُ بالأُنسِ باللهِ، طابَت له الدُّنيا بالركونِ إليه، خاف مِن الله فذهبَ عنه الخوفُ مِن كلِّ شيءٍ سِواه. عرفَ الله فاستَحيَا منه، وعظَّمه فخضَع له واستسلَم لحكمِه، محَتْ محبَّةُ الله مِن قلبِه مَا سِواه، يَخشىٰ ربَّه ويلتَزمُ أمرَه ونهيَه دائمُ الوقوفِ عندَ حدودِ الشَّريعةِ، قلبُه ساجدٌ للهِ، وجوارِحُه تعملُ في طاعتِه، ليِّنٌ سهلٌ مع عباد الله ومخلوقاتِه، يألَف ويُؤلَف، عطوفٌ رحيمٌ بعبادِ اللهِ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، متواضعٌ غير متكبِّرٍ، محبٌّ لرسول الله ﷺ وآلِ بيتِه الطَّاهرين وجميعِ الصَّحابة الكِرام، يرَىٰ نفسَه دائمًا أقلَّ الخَلْق وأنَّهم جميعًا أفضلُ منه، نسألُ الله عزَّ وجلَّ أن يُلحِقنا بساداتنا الصوفيَّة، وأن يحقِّقنا بمقامِ العبوديةِ له، وأن يرزقَنا المعرفةَ والمحبَّة والإخلاصَ، إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ. ◆

مكانة التصوُّف في الشَّريعة الإسلاميَّة

التصوُّف روحُ وجوهَر الدينِ الإسلامي، وهو الجانبُ الرُّوحيُّ والتَّطبيقيُّ للإسلام، وليس شيئًا من المبتدَعاتِ المستَحدَثةِ أو الأفكارِ الوافدةِ علىٰ الدِّين، فَمَا التَّصوُّفُ إلَّا رِحلةٌ وطريقٌ وسلوكٌ إلىٰ ربِّ العالَمين، يقطَع فيها المسلِمُ الطَّريقَ إلىٰ ربِّه مُسترشِدًا بأهلِ الخيرِ والصَّلاحِ والعلم مِن العلماءِ والمرَبِّين، متَّخذًا مِن الأعمالِ القلبيَّة والبدنيَّةِ سُلَّمًا ومِعرَاجًا لربِّه، متَمسِّكًا بالشَّريعةِ وحدودِها وأصولِها وفروعِها في ذلك، مُتابِعًا فيه لرسولِ الله ﷺ، مُحاولًا الوصولَ لمقاماتِ التَّوحيدِ والإيمانِ والإحسانِ، وإفرادِ الله سبحانه بالقصدِ، وتحقيقِ مقام العبودية له. ومَن خرجَ عن حدودِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة ولم يَلتزِم السُّنَّةَ المطهَّرةَ فهو مِن الأدعياءِ الكذَّابينَ الذين يجبُ الابتعادُ عنهم والتَّحذيرُ منهم ومِن دَجَلِهم وافترائهم علىٰ المنهجِ الرَّبانيِّ النَّقي، وقد نبَّه لهذا الأمرِ حجَّةُ الإسلامِ أبو حامدٍ الغزالي فقال متحدِّثًا عن السَّالكِ الصَّادقِ: «أن تكونَ جميعُ أفعالهِ مَوزونةً بميزانِ الشَّرعِ، موقوفةً علىٰ توقيفاتِه إيرادًا وإصدارًا وإقدامًا وإحجَامًا؛ إذ لا يُمكِن سلوكُ هذا السَّبيلِ إلَّا بعدَ التَّلبُّسِ بمكارِمِ الشَّريعةِ كلِّها. ولا يَتوصَّل إلىٰ ذلك إلَّا إذا ترَك جملةً مِن المباحاتِ، فكيفَ يَتأتَّىٰ لمَن لَم يهجُرِ المحظوراتِ؟! ولا يَتوصَّل إليه ما لم يواظِب علىٰ جملةٍ من النَّوافلِ، فكيف يَصِل إليه مَن أهمَلَ الفرائضَ؟». ثم قال: «وعلىٰ الجملةِ لا يدْعو إلىٰ إهمَالِ الفرائضِ واقتِحامِ المحظورَاتِ إلَّا كسَلٌ لازبٌ أو هوًىٰ غالبٌ، وكيف يسلُك سبيلَ اللهِ مَن هو يُعدُّ في أسراء الكسَل والهوَىٰ؟»[1]. هذا وقد جمَع اللهُ في كتابه بين الشَّريعة والحقيقة في آياتٍ كثيرةٍ:

منها: قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: 28] فهذِه شريعةٌ ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29] فهذه حقيقةٌ.

ومنها: قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَاء ذَكَرَه﴾ [المدثر: 55] فهذِه شريعةٌ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن

(1) ميزان العمل (ص399) للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي- الطَّبعة الأولىٰ- دار المعارف- مصر.

يَشَاء اللهُ﴾ [المدثر: 56] فهذه حقيقةٌ.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهذه شريعةٌ ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ إقرار بالحقيقةِ وهي ردُّ الأمرِ لله. فالحقيقةُ الصُّوفيَّة هي لبُّ الشريعةِ الإسلاميَّة، والشَّريعةُ الإسلاميَّة أساسُ التصوُّف الحقِّ، وحضَّ علماء التصوُّف وأئمَّته علىٰ التَّمسُّكِ بالشَّرعِ، ومراعاةِ حدودِه، وعدمِ الخروجِ عنه والتحلُّلِ منهُ، ومَن يدَّعي أنَّ التصوُّفَ غيرُ الشَّريعةِ الإسلاميَّة عليه أن يرجعَ إلىٰ أقوالِ وأحوالِ وسلوكِ أئمَّةِ التصوُّفِ وسيَرِهم؛ الذين كانوا أكثرَ النَّاس التِزامًا بالقرآنِ والسُّنَّةِ والعمَلِ بهَا والمَوَاظبةِ علىٰ قراءَتِهما والدَّعوةِ إلىٰ التَّمسُّكِ بهما. ومِن أقوالِهم في هذا:

1) الشَّريعةُ وجود الأفعالِ، والحقيقةُ شهودُ الأحوالِ به.

2) الشَّريعةُ القِيام بشروط العِلمِ، والحقيقةُ الاستِسلام لقضاءِ الحُكم.

3) الشَّريعةُ أن تعبدَه، والحقيقةُ أن تشهَدَه.

4) الشَّريعةُ دعوَته، والحقيقةُ تقريبُه ومودَّتُه.

5) مَن لَم يحفَظِ القرآنَ ولم يكتُبِ الحديثَ لا يُقتدَىٰ به في هذا الأمرِ؛ لأنَّ علمَنا هذا مقيَّدٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ[1].

6) الطُّرُق كلُّها مَسدودةٌ علىٰ الخَلقِ إلَّا مَن اقتفَىٰ أثرَ رسولِ الله ﷺ واتَّبعَ سُنَّتَه ولَزِم طريقتَه[2].

7) كلُّ حقيقةٍ لا تَشهدُ لها الشَّريعةُ فهي زندَقةٌ، طِرْ إلىٰ الحقِّ عزَّ وجلَّ بجناحَي الكتابِ والسُّنَّةِ، ادخُل عليهِ ويدُك في يدِ رسولِ الله ﷺ، اجعلْه وزيرَكَ ومعلِّمَك[3].

8) مَن ألزَمَ نفسَه آدابَ الشَّريعةِ نوَّرَ اللهُ قلبَه بنورِ المَعرفةِ، ولا مقامَ أشرفُ مِن مقامِ

---

(1) الرسالة القشيرية (1/79).

(2) المصدر السابق.

(3) الفتح الرَّباني والفيض الرَّحماني (ص179) الشَّيخ عبد القادر الجيلاني- دار الريان للتراث.

متابعةِ الحبيبِ ﷺ في أوامرِه وأفعالِه وأخلاقِه[1].

9) إذا تعارَضَ كشفُكَ مع الكتابِ والسُّنَّة فتَمسَّك بالكتابِ والسُّنَّة ودعِ الكشفَ، وقُلْ لنَفسِك: إنَّ اللهَ تعالىٰ ضَمِنَ ليَ العِصمةَ في الكتابِ والسُّنَّة، ولم يضمِنْها في جانبِ الكَشفِ ولا الإلهامِ ولا المشاهدةِ إلَّا بعدَ عرضِها علىٰ الكتابِ والسُّنَّة[2].

10) التصوُّف في نفسِه عِلْمٌ شريفٌ، وأنَّ مدارَه علىٰ اتِّباعِ السُّنةِ وتركِ البِدَع والتَّبرِّي مِن النَّفْس وعوائدِها وحظوظِها وأغراضِها ومراداتِها واختياراتِها والتَّسليمِ لله والرِّضا بهِ وبقضائِه وطلَبِ محبَّتِهِ[3].

والصُّوفي الصَّادقُ هو المُستجيب للهِ ولرسولهِ في الحدودِ والأوامرِ والنَّواهي وحلالِ الشَّرع وحرامِه، ثُمَّ بعد ذلك يجعلُ مِن الشَّريعةِ الإسلاميَّة مَركبًا له في بَحرِ الحقيقةِ الإلهيَّة حتَّىٰ لا يغرَقَ، فكلُّ منِ ادَّعىٰ أنَّه مُستغنٍ عن حدودِ الشَّرع وضوابطِه لاهتمامِه بالحقيقةِ الإلهيَّة فهو كاذبٌ مدَّعٍ، فإنَّ سيِّد أهلِ الحقائقِ هو رسولُ اللهِ ﷺ وهو صاحبُ الشَّريعةِ وقد كان ﷺ أشدَّ النَّاس في أمرِ الحلالِ والحرام وأوامرِ اللهِ ونواهيه. فالتَّصوُّف يُحتِّم علىٰ كلِّ مَن يَنتمِي إليهِ أن يَتعلَّم مِن الشَّريعةِ ما هو فرضُ عينٍ عليه مِن العِباداتِ والمعاملاتِ، ثُمَّ يَسعىٰ لاكتسابِ الصِّدق والإخلاص وتنقيةِ القلب والمجاهدةِ في العبادة وكثرةِ الذكر، حتَّىٰ لا يقعَ في محظورٍ أو بدَعٍ تُخالفُ ما جاءَ به القرآنُ الكريم والسُّنَّةُ المطهرةُ، يقول الإمامُ الشَّاطبيُّ: «ما جاءَ في ذمِّ البدعِ وأهلِها عن الصُّوفيَّة المشهورينَ عند النَّاس: وإنَّما

خصَّصْنا هذا الموضِعَ بالذكْر وإنْ كانَ فيما تقدَّم عنِ النَّقل كفايةٌ؛ لأنَّ كثيرًا من

---

(1) الرسالة القشيرية (1/103).

(2) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص463) للشَّيخ أحمدَ بن محمَّد بن عجيبة- دار المعارف.

(3) انظر: تأييد الحقيقة العليَّة وتشييد الطريقة الشَّاذُليَّة (ص56) تأليف: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي – تحقيق: عبدالله بن الصديق الغماري – دار الفاتح للتراث الإسلامي – القاهرة – الطبعة الثانية – 1994م.

الجهَّال يعتقِدون فيهم أنَّهم متسَاهلون في الاتِّباع، وأنَّ اختراعَ العباداتِ والتِزامَ ما لم يأتِ في الشَّرع التزامُه ممَّا يقولونَ بِهِ ويعمَلون عليهِ، وحاشَاهم مِن ذلكَ أن يعتقِدوه أو يقولُوا بِهِ، فأوَّل شيءٍ بنَوا عليه طريقتَهم اتِّباعُ السُّنَّة واجتنابُ ما خالفَها))[1].

وأختِم الكلامَ في هذه الفقرةِ بكلامِ الإمام الشَّيخ محمَّد زكي الدِّين إبراهيم- وهو من أئمَّة التصوُّف المعاصرينَ حيث قال: ((أيُّها الأخُ المحمَّدي؛ اعلم أنَّنا ندعو إلىٰ سنَّةٍ ونحاربُ كلَّ بدعةٍ، وأنَّ أساسَ دعوتِنا العِلْمُ والعملُ و إصلاحُ الظَّاهر والباطنِ وجهادُ النَّفس والشَّيطانِ والدعوةُ إلىٰ اللهِ علىٰ بصيرةٍ وحبُّ جميعِ المسلمِين. واعلم أنَّ مَن خالفَنا فليس منَّا وإنِ انتسَبَ إلينا، وأنَّ دعوتَنا حبٌّ وخُلُقٌ وعلمٌ وعملٌ وعبادةٌ ودعوةٌ ودينٌ ودنيا، وعلاقتُنا بالله ورسوله لا تفتَر ولا تَنتَهي))[2].

فلا ينبغي أخي المسلم أن تسمعَ لكلام المغرضِين الذين يعملونَ علىٰ تشويه التصوُّف، واحذر أدعياءَ التصوُّف المنحلِّين من الشَّريعة الإسلامية، وفيما نقلناه من كلام أئمَّة التصوف كفاية، والله الهادي إلىٰ أقوم طريق. ◆

---

(1) انظر: الاعتصام (89/1) تأليف: أبي إسحاق إبراهيم بن موسىٰ الشاطبي — تحقيق: محمد بن عبدالرحمن الشقير — دار ابن الجوزي — المملكة العربية السعودية — الطبعة الأولىٰ — 2008م.

(2) المشروع والممنوع (ص84) تأليف: الإمام زكي الدين إبراهيم - دار احياء الكتاب الصُّوفي.

رؤية التصوف لمكانة رسول الله ﷺ

الإيمانُ بالنَّبي محمَّدٍ ﷺ ركنٌ أساسيٌّ مِن أركانِ الإيمان، ويَلحق بالتَّصديقِ به عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ المحبَّةُ والتعظيمُ لجنابهِ الشَّريفِ ﷺ، فلا يكمُل إيمانُ الإنسانِ حتَّىٰ يؤمنَ بالنَّبي ﷺ، وعلامةُ صدقِ الإيمان هو محبَّةُ رسولِ اللهِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ، فحبُّه ﷺ فريضةٌ حتْميَّةٌ، بل ينبغي أن يكون الحبُّ في أعلىٰ درجاتِه، وأسمَىٰ مراتبه، قال ﷺ: ((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))[1].

قال الإمام القَسطلَّاني في المواهبِ اللَّدنيَّة: ((واعلَم أنَّ محبَّةَ رسولِ الله ﷺ هي المنزلةُ التي يَتنافسُ فيها المتنَافِسونَ، وإليها يَشخَصُ العاملونَ، وعليها يَتفانَىٰ المحبُّون، وبروحِ نسيمِها يَتروَّح العابدون، فهي قوتُ القلوبِ، وغذاءُ الأرواحِ، وقرَّةُ العيونِ، وهي الحياةُ التي مَن حُرِمَها فهو مِن جُملةِ الأمواتِ، والنُّور الذي مَن فقدَه فهو في بحارِ الظُّلمات، والشِّفاءُ الذي مَن عُدِمَه حَلَّت بقَلبِه جميعُ الأسقامِ، واللَّذة التي مَن لم يَظفَر بها فعَيشُه كلُّه همومٌ وآلامٌ، وهي روحُ الإيمانِ والأعمالِ والمقاماتِ والأحوالِ التي متىٰ خَلَت منها فهي كالجسَدِ الذي لا رُوحَ فيهِ))[2]. كيفَ لا وهو الرَّحمة المهداةُ الذي أنقَذَ اللهُ به البشريَّةَ قال اللهُ تعَالىٰ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] وهو النُّور الذي أضاءَ العوالِمَ، قال عزَّ وجلَّ ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:15].

فطريقُ الصُّوفيَّة مِن مبدئه إلىٰ مُنتهاه هو محبَّةُ رسولِ الله ﷺ ومُتابعتُه وتوقيرُه وتعظِيمُه بالقلبِ والنَّفسِ والعقلِ والجوارحِ، كيفَ لا وهو خيرُ الخَلْق فما مِن مخلوقٍ إلَّا ورسولُ الله ﷺ فوقَه في المنزلةِ والمكانةِ عندَ الله؟! فيرَىٰ الصُّوفيُّ الصادقُ أنَّ حبَّ

(1) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حب رسول الله ﷺ من الإيمان (15) ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ... (44).

(2) انظر: المواهب اللدنيَّة بالمنح المحمَّدية (475/2) للإمام القسطلاني- دار الكتب العلمية – الطبعة الأولىٰ.

رسولِ الله ﷺ يأتي مع حبِّ اللهِ سبحانَه كما في الشَّهادتَين، فلا يستَقِيـمُ الشَّطرُ الأوَّل منها إلَّا بالشَّطر الثَّاني، ولا يَستقِيـمُ الشَّطر الثَّاني إلَّا بالأوَّل. ويظهر هذا الحبُّ في صورٍ مختلفةٍ؛ مِنها: قراءةُ السِّيرةِ النَّبويَّةِ والشَّمائلِ المحمديَّةِ والأخلاق المصطفويَّةِ، وكذا كلُّ مصنَّفٍ يهتمُّ بجنابِهِ الشَّريف ومقامِه الرَّفيع ﷺ.

ومِنها: الإكثارُ مِن الصَّلاة والسَّلامِ على النَّبيِّ ﷺ، وحضورِ مجالس الصَّلاةِ على النَّبيِّ تنفيذًا للأمرِ الإلهيِّ ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56] فيكثر الصوفيُّ من الصَّلاة على رسولِ الله ﷺ ويداومُ عليها عِرفانًا ومَوَدَّةً وتعظِيمًا وتوقيرًا لرسولِ الله ﷺ.

ومنها: الالتزامُ بالسُّنن والنَّوافل التي كانَ يُداوم عليها، والعملُ بوصَايَاه التي أمرَ أصحابَه وأمَّته بها. فأهلُ محبَّة النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام لهم من مَعيَّة محبوبِهم أوفرُ نصيبٍ ويكفِيهم بذلك قولُ حبيبِهم ﷺ: ((المَرءُ مَع مَن أَحبَّ))[1]. فليس في أقوال الصُّوفيَّة في رسول الله ﷺ شيءٌ مِن الغلوِّ كما يزعمُ بعض الجهلةِ بمقَامِ النَّبيِّ ﷺ ومكانتِه، فهو رسولُ الله المعصومُ مِن كلِّ ذنبٍ، وهذه العقيدةُ هي التي يجب على كل مسلمٍ أن يعتقِدَها، وأمَّا مَن يقصِّر في محبَّةِ النَّبيِّ وتوقيرِه وتعظيمِه فإيمانُه لم يكْمُل حتَّى تصبِحَ محبَّةُ رسول الله ﷺ أعظمَ عندَه وأكبرَ مِن حبِّ نفسِه ووَلدِه، ولم يقُل أحدٌ بجعلِه في مرتبةِ الإلهِ أو عبادتهِ مع اللهِ أو من دونِ الله فهذا شركٌ، أمَّا الصُّوفيَّة فهم يؤمنونَ باللهِ سبحانَه يعبدُونَه إلهًا واحدًا لا شريكَ له، يؤمنونَ أن سيِّدنا محمَّدًا عبدُالله ورسولُه، ويحبونَه ويعظِّمونه كما أمرَهم اللهُ سبحانَه وتعالَى بذلكَ وهذا مَا كانَ عليه الصَّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم.

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل (6168) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (2640) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

موقف التصوف من آل بيتِ رسول الله ﷺ

تعظِيمُ النَّبيِّ ﷺ ومحبَّته ومحبَّة آلِ بيتِه الطَّيبين الطَّاهرِينَ مِن الحقوقِ الواجبةِ علىٰ كلِّ مسلمٍ، وقد وردَت آياتٌ وأحاديثُ في مكانتِهم وعلوِّ شأنِهم وقَدرِهم عندَ الله سبحانَه، قال اللهُ تعالىٰ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33]. وفرَضَ اللهُ علينَا مودَّةَ أهل البيتِ واحترامَهم وتقديرَهم ومحبَّتَهم وعدمَ إيذائِهم، قال اللهُ سبحانه: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشُّورىٰ: 23] والأحاديثُ النبوية الشَّريفة الَّتي تحضُّ علىٰ ذلك كثيرةٌ؛ منها: ما رواه سيِّدنا أبو هريرةَ ﷺ قال: خرَج علينا رسولُ الله ﷺ ومعه حسنٌ وحسين، هذا علىٰ عاتِقه وهذا علىٰ عاتِقه، وهو يَلثِم هذا مرَّةً وهذا مرةً حتَّىٰ انتهَىٰ إلينا، فقالَ له رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، إنَّك تحبُّهما فقالَ النبيُّ ﷺ: ((مَنْ أَحبَّهُمَا فَقَد أَحبَّنِي، ومَن أَبغَضَهما فَقَد أَبغَضَني))[1].

ومنها: ما رواه زيدُ بنُ أرقَم ﷺ قال: قامَ رسولُ الله ﷺ يومًا فينا خطِيبًا بماءٍ يُدعَىٰ خُمًّا ما بين مكَّةَ والمدينةِ، فحَمِدَ الله وأثنَىٰ عليه، ووعَظ وذكَّر، ثُمَّ قال: ((أَمَّا بَعدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَينِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ الله فيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ)) فحثَّ علىٰ كتابِ الله ورغَّبَ فيه ثُمَّ قال: ((وَأَهلُ بَيتِي أُذكِّرُكُمُ الله فِي أَهْلِ بَيتِي، أُذكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيتِي، أُذكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيتِي))[2].

ومنها: قوله ﷺ: ((أَحِبُّوا الله لِمَا يَغْذُوكُم مِن نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ الله، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيتِي لِحُبِّي))[3].

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (2/440).

(2) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل علي ﷺ (2408).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ (3789) وقال: ((حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه)).

ومنها: ما رواه سيِّدنا ابن عمرَ رضي الله عنه قال: كان آخرُ ما تكلَّم به رسول صلى الله عليه وسلم ((اخْلُفُونِي فِي أَهْلِ بَيْتِي))[1]. فالصُّوفيَّة حين يُظهِرون المودَّةَ لآل بيتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يُظهرونَها لأنَّها واجبٌ شرعيٌّ ثابتٌ بنصوصِ الكتابِ والسُّنَّة، وتَنبعُ العاطفةُ والمحبَّةُ والتَّقديرُ لهم لكونِهم أبناءَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وقرابتَه وأحبابَه، وكيف لا يُحِبُّ المؤمنُ مَن يحبُّه النبيُّ المصطفىٰ عليهِ أفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ التَّسليم؟! فمحبَّتُهم وتقديرُهم وتعظيمُهم مراعاةً لجانبِ المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم، وكلُّ ذلك ضِمنَ ضوابطِ الشَّريعةِ المطهرةِ بدون مُغالاةٍ فلا نقولُ بعصمتِهم وتقديسِهم وجعلِهم بمرتبةِ الأنبياءِ المعصُومين كما يقولُ الرَّوافضُ أبعدَهم الله، لكنَّنا نقول إنَّ آلَ البيتِ هم بشرٌ يخطئون ويُصِيبون لكنهم محفوظون بأمر الله تعالىٰ محاطون بعنايته تسري فيهم أنوار وأسرار المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم كما هو مشاهد لكل ذي عينين.

فمحبَّةُ آلِ بيتِ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم ومودَّتهم عاطفةٌ صوفيَّةٌ ساميةٌ وواجبٌ دينيٌّ يجبُ أن يدفعَنا إلىٰ مجالستِهم والانتفاعِ بهم، وقراءةِ سِيَرِهم ومآثرِهم وشمائلِهم، والتَّحلِّي بأخلاقِهم والتأدُّبِ معهُم، فآل بيتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حِصنُ الأمَّة وسفينةُ نجاتها، فالأمَّة التي تُعظِّم نبيَّها وآلَ بيتِه، وتقدِّرُهم وتحبُّهم وتمنَعُ الأذىٰ عنهم هم في أمَانٍ ونجاةٍ من البلاءِ والمصائبِ والشُّرورِ والآفاتِ، قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ))[2].

ولله دَرُّ الشَّافعي حيثُ قالَ:

يَا آلَ بَيتِ رَسُولِ الله حُبُّكُمُ ... فَرضٌ مِنَ الله فِي القُرآنِ أَنزَلَهُ
يَكفِيكُمُ مِن عَظِيمِ الفَخْرِ أَنَّكُمُ ... مَن لَم يُصَلِّ عَليكُم لَا صَلاةَ لَهُ

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (3860).

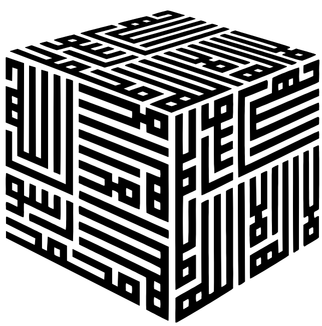
(2) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (5536) والحاكم في المستدرك (373/3).

وقال في أبياتٍ أُخرىٰ:

آلُ النَّبيِّ ذَرِيعَتِي ... وَهُمُو إِلَيهِ وَسِيلَتِي

أَرجُو بِهِم أُعطَىٰ ... غَدًا بِيَدِي اليَمِين صَحِيفَتِي

فالصُّوفيُّ الصَّادقُ يشعرُ بالحبِّ الجارفِ والمودَّةِ الصَّادقةِ والشَّوقِ لأهلِ بيتِ رسولِ الله ﷺ، مَن انتقل منهم ومن لا يزال علىٰ قَيدِ الحياةِ، فإنَّ مِن فضلِ الله علىٰ أمَّةِ الإسلام أنَّ أهلَ بيتِ نبيِّها ﷺ مَوجودٌ لا يَنقطِع نسَبُهم إلىٰ قيامِ السَّاعةِ، ويرَىٰ الصُّوفيُّ في محبَّتِه هذِه واجِبًا عليهِ تجاهَ رسولِ اللهِ ﷺ وشَرفًا له ويكفِيه في هذا قولُ الحبيبِ المصطَفىٰ ﷺ: ((المَرءُ مَع مَنْ أَحَبَّ))[1]. ◆



(1) تقدَّم تخريجه.

التَّصوُّف وموقفه الفقهي
من قضية الأضرحة وقبور الأولياءِ والصَّالحِين

إنَّ التصوُّف قد نالَه ما نالَ الإسلام ذاته مِن رمي بالتُّهَمِ الباطلةِ بهدفِ تَنفير النَّاسِ مِنه، نعَم قد انتَسَب للصُّوفيَّة مَن ليسَ منهم فأساء إليهم كما أساءَ بعض مِن المسلمين إلىٰ الإسلامِ بسوءِ أخلاقِهم، فلا نلومُ التَّصوُّفَ لأنَّ بعضَ مَن انتسَب إليهِ لم يتَحقَّق بقواعدِ ومعالِم وحدودِ وأركانِ التَّصوُّفِ كَمَا كان عليه أئمَّةُ التَّصوُّف الكبار، فَمَن لم يمشِ علىٰ نهجِ هؤلاء الكبار فليسَ بصوفيٍّ أبدًا وإن ادَّعىٰ ذلك؛ لأنَّ التَّصوفَ روحٌ لا رسمٌ، وحقائقُ لا مظاهرُ، وسَلوكٌ وخلُقٌ لا ادِّعاء. وممَّا قرَّره أئمَّةُ التَّصوفِ ومشايخُه أنَّ كلَّ ما لا يَسمحُ الشَّرعُ بهِ فهو ممنوعٌ محرَّمٌ، فالتَّصوف يمنعُ من الوقوعِ في الشُّبهاتِ ويُحذِّر منها ويدعو إلىٰ الابتِعادِ عنها، والتَّصوفُ منهجٌ علميٌّ تربويٌّ ليس بخرَافاتٍ وطقُوسٍ، ومَن يدَّعي خلافَ هذه الحقيقة الناصعة فهو كذَّابٌ مدَّعٍ. وأمَّا ما يحدُثُ مِن مخالفاتٍ عند العوامِّ وبسطاءِ المسلمين تحت اسم التصوُّف فهم معذورونَ فيه بالجهلِ وحسن القصد وصدق المحبة والغفلة عن مراعاة مقتضىٰ الدليل الشرعي وما عليه أئمة الفقه والدين، ولذلك وجبَ علىٰ كلِّ مَن تصدَّر أن يعلِّم النَّاسَ بالرِّفق واللِّين ويبيِّنَ لهم الحقَّ بلطف ويسر، فبنشرِ العِلمِ يُقضَىٰ علىٰ الجهلِ، وبنَشرِ الفضيلةِ يُقضَىٰ علىٰ الرَّذيلةِ، وبنَشرِ الخيرِ يُقضَىٰ علىٰ الشَّرِّ.

ويتَّهم التصوف من قِبَلِ أعدائه أنَّ أهله يَعبدون القبورَ ويجعلونها شريكًا لله، فلنلقِ نظرةً علىٰ هذا الأمر بعدلٍ وإنصافٍ، وعلىٰ قاعدة واسعة من إحسان الظن بالمسلمين.

قد ثبتَ أخي الكريم فيما سبَقَ عندَ الحديثِ عن نشأةِ التَّصوُّفِ وعلاقتِه بالشَّريعةِ وأقوالِ أئمَّة الصُّوفيَّة أنَّه الجانبُ الرُّوحي مِن دِين الإسلامِ، وأنَّه جَوهرُ وروحُ الدِّين، وأنَّه عِلمٌ من علومِ الشَّريعةِ ومُستَمدٌّ مِنها، وتمسك أهل التصوف بزيارة الأضرحة مُستمدٌّ من الشريعة الإسلامية فإن زيارةَ المقابرِ والأضرحةِ قضية فقهية فروعية ليست من أصول

الدين في شيء، وقد جاءَ جوازُها في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، وثبتَتَ عن النَّبيِّ ﷺ قولًا وفعلًا؛ فمن ذلك:

- مَا رواه الإمامُ مسلم مِن حديث عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ كلَّما كانت ليلتُها مِن رسول الله ﷺ يخرُج مِن آخرِ اللَّيل إلىٰ البَقيعِ فيقول: «السَّلَامُ عَلَيكُم دَارَ قَومٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَدًا، مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللهُمَّ اغفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ»[1].

- ورَوىٰ مسلِمٌ أيضًا في صحيحِه مِن حديثِ عبدالله بن بُريدَةَ عن أبيهِ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «نَهَيتُكُمْ عَن زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا»[2].

- ومِن ذلك: أنَّ عمرَ بن الخطَّابِ رضي الله عنه خرَجَ يومًا إلىٰ مسجدِ رسول اللهِ ﷺ فوجَدَ معاذَ بنَ جبلٍ قاعدًا عندَ قبرِ النَّبيِّ ﷺ يَبكِي، فقالَ: ما يُبكيكَ؟ قال: يُبكِيني شيءٌ سمِعتُه مِن رسولِ الله ﷺ، سمعتُ رسولُ اللهِ ﷺ يقول: «إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَإِنَّ مَنْ عَادَىٰ للهِ وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَ اللهَ بِالْمُحَارَبَةِ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الأَبْرَارَ الأَتقِيَاءَ الأَخفِيَاءَ، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَم يُفْتَقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَم يُدْعَوا وَلَم يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَىٰ، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ»[3]. فلَم يُنكِر عليهِ عمرُ زيارتَه للقبرِ ولم ينكِر عليه أحدٌ من الصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم.

فزيارةُ القبورِ جائزةٌ ومَندوبٌ إليها في الشَّريعةِ الإسلاميَّة، فَما الذي يُخرِج قبورَ آل البَيتِ والصَّالحين وأضرحتَهم مِن هذا الجوَازِ؟! ثمَّ إنَّ الدافعَ لكلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ في زيارةِ الأضرحَةِ هو محبَّة ومودَّةُ صاحبِ الضَّريحِ، سواءٌ كان مِن آلِ البيتِ رضوانُ اللهِ عليهم أم مِن الأولياءِ الصَّالحين أم مِن العلماءِ العاملِين، رجاءَ حصُولِ البركةِ في مكانٍ تَتنزَّل فيهِ

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (974).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه (977).

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب من ترجىٰ له السلامة من الفتن (3989).

الرَّحماتُ من ربِّ الأرضِ والسَّمواتِ، وهذه البركةُ يَشعُر بها كلُّ مَن زَار قبورَ آلِ البيتِ أو الأولياءِ، ويَتكرَّم اللهُ علىٰ عبادِه بإجابةِ الدُّعاء عندَ قبُورِهم؛ إكرامًا مِنه سبحانَه للعَبدِ الصَّالحِ، فحالُ العبدِ الصَّالحِ ومكانتُه عندَ الله لا تنقُصُ بعدَ موتهِ، بل يَبقىٰ مكرَّمًا عند ربِّه كما كانَ في حالِ حياتِه. فزيارَةُ القبورِ والأضرحةِ هو جانبٌ من جوانبِ روحانيَّةِ التصوُّفِ ومحبَّةِ الصَّالحينَ والأولياءِ، وهو تَعبيرٌ عن محبَّةِ اللهِ؛ لأنَّ محبَّةَ الصَّالحين هيَ في حقيقتِها تعبيرٌ عن حبِّ اللهِ سبحانه وتعَالىٰ، وفيهِ ما فيهِ مِن تذكُّر سيرِهم والسَّير علىٰ نهجِهم، والتَّحلِّي بأخلاقِهم، ورَفعِ الهِمَّةِ بحالِهم. فالصُّوفي حين يزورُ القبرَ يزورُه مِن بابِ المودَّة والمحبَّة لآل البَيتِ والصَّالحين، وما يَصحَب ذلك من إجابةِ الدُّعاءِ والسَّكينةِ والطُّمأنينةِ التي تحصل في النَّفس. والتَّصوُّف أو السُّلوك إلىٰ الله كعِلمٍ وعملٍ لا يُشترط فيه زيارةُ قبرٍ أو ضريحٍ، بل لو افترَضنا جدلًا أنَّه لا وجود لأضرحةٍ أو قبورٍ فالتَّصوُّف هو التَّصوُّف لا يتغيَّر ولا يَتبدَّل، بل هو عبارة عن إصلاح القلوبِ والتوجُّه التَّامِّ نحو علَّام الغيوبِ، لا يزيدُ في ذلك ولا ينقصُ منه وجودُ قَبرٍ أو عدمِ وجودِه. فزيارة الأضرحة ليست من صميم العقائد ولا من أصول السلوك وإن ظل اختيار فقهاء أهل التصوف الراشد المشيد علىٰ الكتاب والسنة حصول النفع والبركة للزائر إذا أخلص النية لله تعالىٰ في هذه الزيارة.

ثُمَّ أيُّها الأخُ الكريم هل مِن ضَيرٍ أن يَشعرَ المسلِمُ بشكلٍ عامٍّ والصُّوفيُّ بشكلٍ خاصٍّ بالحنِين إلىٰ آل بيتِ رسولِ الله أو إلىٰ الأولياءِ الصَّالحين؟! وهل في ذلك مخالفةٌ للشَّريعةِ والعقيدةِ؟! أوليسَت المودَّةُ لهم مِن الإيمانِ؟! أوليسَت زيارَتُهم تعبيرًا عن محبَّتِنا لهم، ومحبَّتُنا لهم ما هِي إلَّا محبَّةٌ للنَّبيِّ ﷺ. أمَّا ما كان يحدِثُه بعضُ الجهَّال ممَّن يُنسَبون إلىٰ التصوُّف مِن بدَعٍ مخالفةٍ للشَّريعةِ الإسلاميَّةِ كالصراخ والعويل عندَ القُبورِ والأضْرحةِ فالتصوُّف منهم برِيءٌ، وعلىٰ كل حال فإن هذه المظاهر السلبية كادت أن تنتهي وتضمحل وتختفي بحمد الله تعالىٰ وبجهود علماء أهل السنة من الأزهر الشريف المنتشرين

في هذه المساجد كأئمة ووعاظ يرشدون ويعلمون الناس آداب الزيارة، ووجوب التزام ما ينبغي لها من حب وتوقير وأدب وسكينة، فعلينا أن نقومَ بتَعليمِ النَّاسِ وإصلاحِ الأخطاءِ باللِّين والهدوءِ كما أمَرَنا اللهُ سبحانه، فلا يَنبغي أن يُحمَّلَ التَّصوفُ أخطاءَ النَّاس التي قَد تقَع عندَ الأضرحةِ والقبورِ، كما أنَّنا لا نحمِّل الإسلامَ بشكلٍ عامٍّ سوءَ أفعالِ وأقوالِ وأخلاقِ بعض المسلِمين، وشيوخُ التصوُّفِ الحقِّ يدعونَ النَّاس إلىٰ التمسُّكِ بحدودِ وآدابِ الشَّرع عندَ الزِّيارةِ وعدمِ الخروجِ عن الشَّريعةِ المطهرَةِ، ومن خالف فقد احتَمل وزرَ نفسِه. ◆

حاجةُ الإنسانِ المسلِم إلىٰ التَّصوُّفِ

لو نظَرنا حولنَا لوجَدنا أنَّ بعضًا مِن النَّاس في هذا الزمان بحكم البعد عن الشريعة والسلوك والأخلاق المحمدية المطهرة قد وصَلُوا إلىٰ أدنَىٰ درجاتِ الانحطاطِ الخُلُقي والفراغِ الرُّوحيِّ والبُعدِ عن الشَّريعةِ والعملِ بها وفقدَانِ الوازعِ الدِّيني، مع قسَاوةٍ وخشونةٍ وجفاءٍ في القلوب والأخلاق، ولا سَبيل إلىٰ معالجةِ هذه الأمراضِ ثم التَّرقِّي في الأخلاقِ بتطهيرِ الباطِن وتزكِيةِ النفسِ إلا بالتَّصوُّف فهو الذي يعالج أمراض القلب، والقلب هو محلُّ نظر الخالق فبصَلاحِه أو فسادِه يَصلُحُ الجسَدُ أو يَفسُد قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[1]. فالتَّصوُّف هوَ علْمُ التَّزكيةِ والتَّربيةِ والتَّصْفيةِ والتَّنقيةِ والتَّحليةِ، وهو يُلبِّي حاجةَ المسلِم وشوقَه إلىٰ ما يُشبِع روحَه ويزكِّي نفسَه ويهذِّبُ أخلاقَه، ويفتحُ الآفاقَ أمامَ عقلِه وفكرِه للتَّفكُّر في ملكُوتِ السَّمواتِ والأرضِ وعظَمةِ الخالقِ سبحانَه. فالأخذُ بالمنهجِ الصُّوفيِّ كمنهجٍ تربويٍّ وسلوكيٍّ يعصِم الأفرادَ والمجتمعاتِ مِن الوقوعِ في أيِّ مظهَرٍ مِن مظاهِر الانحرَافِ الفِكريِّ والعقَديِّ والسُّلوكيِّ والعمَليِّ في شتَّىٰ نواحي الحياةِ. فبفَضلِ اللهِ لا نَجدُ صوفيًّا يستَحِلُّ دماءَ أو أموالَ أو أعراضَ الخَلْق؛ لأنَّه قد تربَّىٰ تربيةً أصلُها تزكيةُ القلبِ والنَّفسِ وتطبيقُ روحِ الإسلامِ، في حين وجَدْنا مِن أصحابِ المناهجِ الأخرَىٰ ممَّن تنسِبُ نفسَها للسُّنَّةِ أو السَّلفِ الانحرافاتِ تلو الانحرَافاتِ في الفِكر والمعتَقدِ والسُّلوكِ والأفعالِ حتَّىٰ اختَلَط فيهم الخبيثُ بالطَّيِّبِ، ولم نرَ في الغالبِ الأعمِّ إلَّا صُورًا وأشكالًا فارغةً مِن مَضمونِ التَّديُّن الحقِّ. فصلَاحُ القَلبِ والرُّوحِ هو صلَاحُ المجتمعِ والأفرادِ، وهو وسِيلةٌ لتحقِيق رضا اللهِ سبحانه، فينعُم الإنسانُ بالسَّكينةِ وتَنعُم المجتمعاتُ بالأمانِ، ونحن حينَما نَدعو النَّاسَ إلىٰ التَّصوُّف فإنَّ حقِيقةَ دَعوتِنا هي لتَطبيق كتاب اللهِ وسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ قَولًا وفعلًا وتحقيق ذلك علىٰ

(1) تقدم تخريجه.

أَتمِّ وجهٍ، وتحقيق الجوانب الروحيَّة القلبِيَّةِ بشكْلٍ خاصٍّ فيهَا وليس في دعوتِنا أيُّ نزوعٍ إلىٰ بدعةٍ أو عملٍ محرَّمٍ تحت أيِّ مسمًّىٰ. ودعوتُنا هذِه هي دعوةُ التَّصوُّف الحقِّ تصوُّف السَّير في طريقِ المعرفةِ لله ومحبَّته وتوحيدِه، وما يتفرَّع عن هذا من تطبيقِ شريعةِ الله والتزامِ أوامرِه ونواهِيه، فالصُّوفي الحقُّ هو الذي يتحقَّق بأوامرِ الشَّريعةِ ظاهرًا وباطنًا، فيكون نقيَّ القلبِ عفيفَ اللِّسانِ سليمَ الجوارح يَبتعِد عنِ المحرَّماتِ، والصوفيُّ الحقُّ مَن تربَّىٰ علىٰ يدِ الشَّيخ المربِّي العالِم الربَّاني الذي أَخذَ بيدِه وأرشدَه خطوةً خطوة إلىٰ طريقِ الله، وكان المُرشدَ والنُّور الكاشِفَ للظُّلمات والشُّبهاتِ. وفي التَّصوفِ نجدُ أنَّ للإخوَّةِ أعظمُ نصيبٍ مِن الاهتمامِ والرِّعايةِ، فتجدُ التَّجانسَ والتناغمَ والمودَّة بين الصوفيَّة، سِيماهم التَّواضع والخدمةُ لبعضِهم البَعض، لا يرَىٰ أحدٌ منهم لنفسِه فَضلًا علىٰ إخوانهِ، وإنَّما يرَىٰ أنَّه أقلُّهم وأنَّه في خدمتِهم مؤدِّيًا بذلكَ حقَّ الصُّحبةِ وأخوَّةَ الطَّريقِ.

فالتَّصوف: علْمٌ قُصِدَ لإصلاحِ القلوبِ، كالفقْهِ: علْمٌ لإصلاحِ العمَل وحفظِ النِّظام وظهورِ الحِكمة بالأحكَام، وكالطِّبِّ: لحفظِ الأبدانِ، وكالنَّحو: لحفظِ اللِّسان.

فيا أخي المسلِم الكريم إنَّ الدَّعوةَ لمنهجِ التصوُّف هي دَعوةٌ إلىٰ الدُّخولِ في مقامِ الإحسانِ «أنْ تعبدَ الله كأنَّك ترَاه فإن لم تكُنْ ترَاه فإنَّه يرَاك» وهي دعوةٌ للدُّخولِ في دائرةِ الحفظِ والعِصمةِ مِنَ الفتنِ الفكريَّةِ والعمليَّةِ في هذا العَصرِ، وهي دَعوةٌ للارتواءِ منَ النَّبع الصَّافي لدينِ الإسلامِ، وتزكيةِ القلبِ والرُّوح، والالتزامِ بظاهرِ الشَّريعةِ والوقوفِ عند حدودِها، وهي دعوةٌ للأُنسِ باللهِ والانفرادِ بعبادتهِ سبحانَه ومناجاتِه والتقرُّبِ إليه وتحقِيق المعنىٰ الحقِيقيِّ للعبوديَّة لله والانسجامِ مع هذا الكون ومع مخلوقاتِ اللهِ بالذكرِ والفكرِ والخشوعِ والخضوعِ للباري سبحانَه وتعالىٰ، وهي دعوةٌ لمحبَّة رسولِ الله ﷺ وإنزالِه المنزلةَ التي يَستحِقُّها، ومودَّةِ آل بيتهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام ومعرفةِ حقِّهم، وهي دعوةٌ لمحبَّةِ الخَلْق إكرامًا لخالقِهم سبحَانه، وهي دعوةٌ للألفةِ بين أبناءِ المجتمعِ

الواحدِ، وشيوعِ المودَّة والمحبَّةِ بينهم والتَّواضعِ لعبادِ الله، ثمَّ هي دعوةٌ للعلْمِ والتعلُّمِ بحسَب طاقَةِ كلِّ فردٍ، فهل ترَىٰ أخي الكَرِيم كم نحنُ بحاجةٍ إلىٰ الالتزَامِ بهذا المنهجِ الرَّبانيِّ الذي يُطهِّر أرواحَنا وأنفسَنا ومجتمعاتِنا؟ ◆

الخاتمة

كانَ الهدفُ مِن هذا البحثِ الموجَزِ إعطاءَ فكرةٍ عامَّةٍ عن التَّصوُّفِ ليتَعرَّف المسلِمُ علىٰ هذا العِلْم وهذا المنهجِ الرُّوحيِّ عسىٰ أن يكونَ ذلك دافعًا لكلِّ مسلمٍ يريدُ تطبيقَ روحِ وجوهرِ الإسلامِ، وسلوكَ الطَّريقِ إلىٰ اللهِ سبحانه وتعالىٰ، وقطفَ ثمارِ التَّصوُّفِ مِن المحبَّةِ والقُربِ والأُنسِ باللهِ.

ومَن أرادَ الاستزادَةَ في ذلك فليَرجع إلىٰ كتبِ أئمَّةِ التَّصوُّفِ وعلمائهِ، ومنها: قوتُ القلوب لأبي طالبٍ المكيِّ، والرِّسالة القشيريَّة، وإحياءِ علوم الدِّين للإمام الغزالي، وكتبِ الشيخ ابن عطاء الله السَّكندري، والعهود المحمديَّة للشيخ عبدالوهاب الشعراني، ومن الكتبِ المعاصرةِ المفيدة كتبُ الإمام عبدِالحليم محمود رحمَه الله شيخِ الأزهر، والإمامِ الشيخ محمَّد زكي الدِّين إبراهيم رائدِ العشيرة المحمَّديَّة، وكتب مولانا وشيخنا الإمام العلامة الدكتور علي جمعة حفظه الله: فهذه الكتبُ تعينُك أيُّها الأخ الكريم علىٰ المعرفةِ الحقيقيَّة للتَّصوُّف، فلا تَحرِم نفسَكَ مِن مطالعتِها عسىٰ أن تكون بابَك إلىٰ الله ربِّ العالمين.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆

الرسالة الثانية

التأصيل الشرعي لقضية التصوف في الكتاب والسنة

وتشمل المحاور التالية:

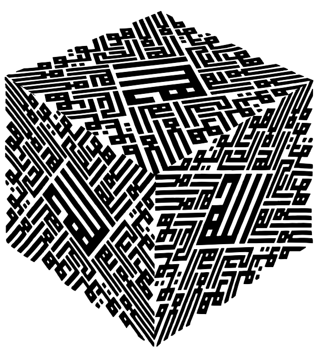
المحور الأول: بيان أنَّ التَّصوفَ هو الجانب الرُّوحي للإسلام.

المحور الثاني: الأدلة على قِيام التَّصوف على الكتابِ والسنَّة.

المحور الثالث: نصوص أئمة وعلماء الشريعة الدالة على أن التَّصوفَ قائم على الكتاب والسنة.

المحور الرابع: نصوص أئمَّة التصوف الدالة على حفظ الشَّريعة.

المحور الخامس: علاقة أئمة الإسلام وعلوم الشريعة بالصوفية. ◆





«إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» - آية **49** من سورة القمر

التأصيل الشرعي لقضية التصوف في الكتاب والسنة

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ موجزةٌ عن التَّصوفِ الإسلاميِّ، وما هي الأصولُ التي ينتمي إليها؟ وعن مدىٰ قُربِ أو بُعدِ التَّصوف عن الكتاب والسُّنَّة، وهل التَّصوفُ له أصلٌ في كتابِ الله وفي سُنَّةِ رسولِ الله؟ وعن التَّصوفِ والشَّريعةِ الإسلامية وأحكامِها.

وتأتي الحاجةُ لهذا الكلام من وجهين:

الأول: حاجةُ الأُمَّةِ الإسلاميةِ في هذه الأيَّام إلىٰ التَّصوفِ كمنهجٍ أخلاقيٍّ رُوحيٍّ سامٍ يُزكِّي النفسَ والرُّوحَ، ويعالجُ كثيرًا من مشكلاتِ المسلمين أفرادٍ ومجتمعاتٍ، ويلبِّي حاجتَهم النفسيَّة والرُّوحية والقلبية، مع تميُّزِه بعدم حصولِ أيِّ أضرارٍ أو انحرفاتٍ نتيجةً للسَّير علىٰ طريقِه بعكس كثيرٍ من المناهج الأُخرىٰ التي طُبقت وظهر عوارُها.

الثاني: الاتِّهاماتُ الباطلةُ للتَّصوف والصُّوفية من حيث أصلُ التَّصوف ومنبعُه واتِّهامُه بقيامه علىٰ غير كتاب الله وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، ورمي التَّصوف بالتَّحلُّل من الشَّريعة والابتداعِ بهدف تنفير النَّاسِ منه.

وسوف نقومُ بإذن الله بمناقشةِ هذه الجوانب من خلال أقوالِ وأحوالِ وكُتبِ أهلِ التَّصوف أنفسِهم بالرجوع إلىٰ مصادِرهم، وذلك لأنَّ معرفةَ الشيءِ والحكمَ عليه لا يكون إلا بعد إدراكِ ماهيتِه وجوانبِه وتصوُّرِه، فلا يكفي أن نتصوَّرَ شيئًا ونتوهمَه أو نحكمَ له أو عليه من خلالِ سماعِ قولٍ أو قراءةِ كلمةٍ عابرةٍ عنه هنا أو هناك أو سماعِ مقولةٍ عنه من هذا أو ذاك ولكنَّ العقلَ يُلزمنا- وقبل ذلك الشرعُ- أنْ نتعرَّفَ أوَّلًا علىٰ التَّصوف معرفةً دقيقةً موثقةً بكلامِ أهلِه والاطلاعِ علىٰ أحوالهم، ثم بعد ذلك يكون الحكمُ عليه والقاعدةُ تقول: الحكمُ علىٰ الشَّيء فرعٌ عن تصوُّرِه. وسوف يكون الكلامُ عن هذا الأمر متمثِّلًا في المحاور التَّاليةِ:

المحور الأول: بيان أنَّ التَّصوفَ هو الجانب الرُّوحي للإسلام.

المحور الثاني: الأدلة على قِيام التَّصوف على الكتابِ والسنَّة.

المحور الثالث: نصوص أئمة وعلماء الشريعة الدالة على أن التَّصوفَ قائم على الكتاب والسنة.

المحور الرابع: نصوص أئمَّة التصوف الدالة على حفظ الشَّريعة.

المحور الخامس: علاقة أئمة الإسلام وعلوم الشريعة بالصوفية. ◆

بيان أن التَّصوُّف هو الجانب الرُّوحي للإسلام

إنَّ من ميزات دِين الإسلام وشريعته جمعَهُ بين الأركان والأوامر والنَّواهي والعبادات والمعاملات بصورها المحددة المنضبطةِ المادِّيةِ وبين جانب رُوحيٍّ وجدانيٍّ يُغلِّف هذه الأركان والأوامرَ والنَّواهيَ والعبادات بغلافٍ روحاني قلبي يجعلُها حيَّةً ومتجددةً غيرَ جامدةٍ، فعلىٰ سبيل المثال ((الصَّلاة)) وهي ركنٌ عظيمٌ من أركان الإسلام وشريعتِه: هي مجموعةٌ من الأفعال والأقوال، هذه هي هيئتُها وصورتُها، وأما رُوح الصَّلاة فهي الحالة الوجدانيةُ القلبيةُ من الخشوع والإقبال علىٰ الله والرَّغبةِ إليه والخوفِ منه، فبدون هذه المعاني لا يكون للصَّلاة من الحقيقة إلا الاسم، وتكونُ فارغةً من الرُّوح التي تجعل لها حقيقةً. فكذلك نسبةُ التَّصوفِ إلىٰ دِين الإسلام فهو هذه الرُّوح وهو حقيقةُ الإسلام وجوهره، وهو النُّور الرُّوحي السَّماوي الذي يسرِي في الأوامرِ والنَّواهي والتَّشريعات والعِبادات والمعاملات، فيصبغها بالنَّفحات الرَّبَّانيةِ مما يجعلُ من هذه العبادات والمعاملاتِ وسائلَ حقيقيةً لتزكية الأنفس والقلوب وتقريبِ الإنسان من الله سبحانه، وتهيئتِه للدُّخول علىٰ ربِّ العالمين. والتصوفُ طريقٌ لتجانس ظاهرِ الإنسان وباطنِه وامتلاءِ القلوب بالمعاني الحقيقيَّة لدِين الإسلام، وهو تزكيةٌ للقلب والنَّفسِ ووصولٌ إلىٰ صلاح القلب الذي يصلح الإنسان كلَّه، كما جاء عن رسول الله ﷺ: ((ألَا وإنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذَا فسدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه ألَا وهي القلبُ))[1]. فمنهجُ التَّصوفِ قائم علىٰ التَّنقية والتَّصفيةِ والتَّربيةِ والتَّزكيةِ وإصلاحِ البواطنِ التي بصلاحِها تصلح الجوارحُ والظواهرُ. ومقامُ الإحسانِ- الوارد ذِكرُه في أحاديثِ رسول الله ﷺ: ((أنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ))[2]- هو أساسُ ومنطلقُ التَّصوفِ، وهو الغاية منه حيث إنه مقامُ المراقبة والمشاهدة لله ربِّ

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

العالمين، فالصوفيُّ الحقُّ هو النَّاظر إلىٰ ربِّه بعين قلبِه في جميع الأوقات والأفعال والأماكن. ومَن يريدُ أن يتعرَّفَ علىٰ رُوحانية التَّصوف وسموِّه فلينظر في كُتب أهل التَّصوُّفِ، وليرىٰ هل فيما سطَّرَتْه أيدي مشايخِ وأئمَّة التَّصوفِ شيءٌ مخالفٌ لدِين الإسلام؟ فلن يجدَ إلا ما هو موافقٌ للكتاب والسُّنَّة بلغةِ التَّجربة الصُّوفية الرُّوحيةِ، وما فتحَهُ الله عليهم من المعاني والحِكَمِ التي تتفقُ مع كتاب الله وسُنَّته في الغاية والمعنىٰ، وإنما عُبِّر عنها بلغة أهل التَّصوفِ وبحسب مشاربِهم. فأحوالُ ومقاماتُ التَّصوف هي الدَّرجاتُ الرُّوحيةُ في شريعةِ الإسلام، وهي كمالُ المعرفة ودوامُ المراقبة للحقِّ سبحانه وتعالىٰ في الحركات والسَّكناتِ والأنفاسِ واللَّحظاتِ حتَّىٰ يستوليَ سلطانُ الحقِّ علىٰ القلب وينمحيَ من القلب كلُّ ما سوىٰ الله. وقد قال الإمامُ سهل بن عبدالله التُّستَرِيُّ - وهو إمامٌ من أئمة التَّصوف وممَّن بيَّن أصولَه وقواعدَه- فقد قال معبِّرًا عن مقام المراقبةِ: قال لي خالي يومًا: يا سهل، ألَا تذكر الله الذي خلقكَ؟! قلتُ: فكيف أذكُره؟ قال: عند تقلُّبِك في فراشك ثلاث مرات مِن غير أن تحرِّك به لسانك: الله معي! الله ناظرٌ إليَّ! الله شاهدي! فقلتُ ذلك ثم أعلمتُه فقال: قُلْها كلَّ ليلةٍ إحدىٰ عشرة مرةً، فقلتُ ذلك، فوقع في قلبي حلاوةٌ، فلمَّا كان بعد سنةٍ قال لي خالي: احفظ ما علَّمتُك ودُمْ عليه إلىٰ أن تدخلَ القبرَ، فإنَّه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل علىٰ ذلك سنين، فوجدتُ له حلاوةً في سرِّي. ثم قال لي خالي يومًا: يا سهل، مَن كان الله معه وهو ناظرٌ إليه وشاهده يعصيه؟! إياك والمعصية[1]. فالتَّصوفُ في الإسلام: مراقبةٌ ومشاهدةٌ ومجاهدةٌ وعِلْمٌ مكنون ينالُه أهلُه من أهل الحقِّ الرَّبَّانيِّين المتحقِّقِين بالشَّريعة ظاهرًا وباطنًا وتوحيدًا لله ربِّ العالمين وتوكلًا عليه، وهو الرَّبَّانيَّة، وهو إرادةُ الله في القول والنيَّة والعمل، وتطهيرُ القلب؛ ليكون أهلًا للأنوار الإلهية والفيوضات الرَّبَّانيَّةِ وهو فرارٌ إلىٰ الله ربِّ العالمين

(1) طبقات الأولياء (صـ233).

وركونٌ إلىٰ عظَمته وهو شكرٌ وفكرٌ وصبرٌ وزهدٌ وورعٌ، فهل تَرىٰ أيُّها الأخ الكريم أن معانيَ التَّصوف هي شيءٌ آخر غير دِين الإسلام ورُوحانيته في أسمىٰ المعاني والدَّرجات؟!

الأدلة علىٰ قيام التصوف علىٰ الكتاب والسنة

التَّصوُّف هو البُستان الجامعُ لزهورِ وأشجارِ شريعة الإسلامِ، وهو طريقُ الهجرةِ إلىٰ الله، قائمٌ علىٰ كتاب الله وسُنَّةِ رسولِ الله وما فتح الله سبحانه وتعالىٰ من المعاني والواردات القلبيةِ والرُّوحيةِ علىٰ أئمة التَّصوفِ والطريق.

ففي كتابِ الله سبحانه وتعالىٰ نجد الآياتِ الدالَّةَ علىٰ طريق التَّصوف المحتوية علىٰ معانيه ومبانيه، ولكن قبل ذِكْر هذه الآياتِ لابدَّ من تقريرِ أمرٍ يحُلُّ إشكالاتِ الفهمِ عند البعض، ويردُّ تُهَمةَ أنَّ التَّصوفَ دخيلٌ علىٰ الإسلام وليس له أصلٌ في كتاب الله وسُنَّةِ رسولِه. وهو أنَّ الأمرِ قد يكون موجودًا بصورته وهيئتِه ومظاهرِه ولكنْ لا يصطلح النَّاسُ علىٰ تسميةٍ له؛ فعلىٰ سبيل المثال هل العلوم الإسلاميَّة- من توحيدٍ وفقهٍ وعلومِ لغةٍ وأصولٍ ومصطلحِ حديثٍ وتفسيرٍ- هل هي علوم حقَّة ولها أصلٌ شرعيٌّ؟ الجواب من كلِّ مسلمٍ: نعم هي علومٌ حقَّةٌ.

والسؤالُ هنا: كيف تقول إنَّها علومٌ حقَّةٌ وهي لم تكن علىٰ عهد النبي ﷺ؟

الجواب: لأنَّها مستمَدةٌ من الكتاب والسُّنَّةِ وأنَّ كلَّ مباحثِ العلوم وفروعِها وموادِّها أصلُها موجودٌ في كتاب الله وفي سُنَّةِ رسول الله ﷺ، ثم بعد ذلك تبلوَرتْ هذه العلوم وترتَّبت أصولُها وفروعُها وعُرفت بمسائلِها ومباحثِها وعن أيِّ شيءٍ تتحدث، وما المواضيعُ التي تعالجها واصطلح علىٰ تسمية كلِّ علمٍ من هذه العلوم باسمٍ محددٍ مثل عِلْمِ الفقه أو التوحيدِ أو النحوِ... إلخ. فمادةُ العِلْم وأصلُه موجودةٌ مع وجود الكتاب والسُّنَّة، أمَّا التسميةُ المميِّزة لهذا العِلم حدثت بعد ذلك. وكذلك ما قِيلَ عن هذه العلومِ ينطبق علىٰ التَّصوُّف تمامًا، فإنَّ التَّصوُّفَ بكلِّ معانيه التي قد سبق ذِكْرُها كان موجودًا

بالطَّبع في عهد رسول الله ﷺ؛ بل كان صلواتُ الله وسلامُه عليه أوَّلَ العاملين بها، ثم بعد ذلك عملَ بها صحابةُ النَّبيِّ ﷺ، ولكنْ لم يكن لها اسمٌ محددٌ أو معروفٌ كما ظهر بعد ذلك، فلم يظهر اسمُ التَّصوف كتعريفٍ للسُّلوك والمنهج؛ ولكنَّه كان موجودًا في القُلوب والعبادات والمعاملات، فكان الصحابةُ صوفيةً بالفعل والاعتقاد؛ ولكنهم لم يتسمَّوا باسم التَّصوف لتأخُّرِ ظهور الاسمِ كما تأخَّرتْ أسماءُ باقي علوم الشَّريعة في الظُّهور وكذلك لا منزلةَ ولا فضل أعلىٰ من منزلةِ وفضلِ صُحبةِ رسولِ الله ﷺ، فمادةُ وأصلُ التَّصوف موجودةٌ في كتاب الله وسُنَّةِ رسولِ لله كما سيأتي، وتطبيقُ التَّصوف سُلوكًا وعملًا كان موجودًا في عهد رسولِ الله وعهدِ الصَّحابة ﭫ، ثم حدثَ بعد ذلك اسمُ التَّصوف والصُّوفية مسمىٰ علىٰ عِلْمِ السُّلوك إلىٰ الله والزُّهد في الدُّنيا والتوجُّه إلىٰ ربِّ العالمين، وأصبح عِلمًا له أصولُه وقواعدُه وحدودُه وموضوعاتُه التي يعالجُها، وله كُتبه المدوَّنة فيه، وله مصطلحاتُه وتعريفاتُه وعلماؤه المختصَّون به، وهم الشيوخُ العارفون المرشدون، مثله في ذلك مثلُ باقي العُلوم الشَّرعية. ولا خلافَ في الاصطلاحِ فيمكن أنْ تُسمِّيه أنتَ عِلْمَ السُّلوك إلىٰ الله أو غير ذلك من الأسماء، فالُمسمَّىٰ واحدٌ والأسماء متعددةٌ، ولكنْ لما كان اسمُ التَّصوُّفِ هو الغالب علىٰ هذا العِلمِ وجبَ الأخذُ به والتعاملُ معه؛ نظرًا لانتشاره في الكُتُب عبر القرون بهذا الاسم، ولقد أصبح مصطلحُ التَّصوف هو المصطلحُ الخاصُّ بالسُّلوك وأعمالِ القلوبِ وتزكيتِها والسَّيرِ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

الأدلةُ من كتاب الله:

القرآن الكريم مليءٌ بالآيات التي تحوي في معانيها حدودَ ومعالمَ وموضوعاتِ التَّصوفِ كعِلْمٍ وسلوكٍ فمنها:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿41﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 41-42].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ﴿190﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 190- 191].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: 37].

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: 39-40].

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿8﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا﴾ [الإنسان: 8-9].

﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15].

﴿تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: 11].

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129].

﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿133﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 133-134].

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

إنَّ ما سبق من الآيات يعبر عن معاني ومقاماتِ التَّصوف والسُّلوك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فمقامُ تزكية النَّفس والصَّلاة والذِّكر والصَّبر والمجاهدة والإنفاق في سبيل الله والتوكُّل وإفراد الله بالقصد والإيثار علىٰ النَّفس- كلُّ هذه الأمور من مقامات التَّصوف التي دلَّ عليها القرآن الكريم، فما من مقامٍ من مقامات التَّصوف وعلومِه إلا وله شاهدٌ ودليلٌ من كتاب الله، يقول الإمام الجُنيد «من لم يحفظِ القرآنَ ولم يكتبِ الحديثَ لا يُقتدَىٰ به في هذا الأمر؛ لأنَّ علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة»[1].

الأدلةُ من السُّنة النبوية المطهرة:

إنَّ المتبعَ لسُنَّة رسول الله ﷺ يجد أنَّها منبعٌ أصيلٌ من منابع التَّصوف تُرشد إلىٰ أحوالِه وتضعُ القواعدَ له، فعلمُ التَّصوف أخذَ من أحاديث رسول الله ﷺ المنطلَق نحو السُّلوك إلىٰ الله فأصلُ منهج التَّصوف وآدابه وأعماله ومقاماته سُنَّةُ الحبيب المصطفىٰ والسَّيرُ علىٰ القدم المحمدي، فالتصوفُ هو تطبيقٌ لأهم ما أرشدت إليه السُّنة من إصلاح القلوب وتزكية النُّفوس وإرشادِها إلىٰ طريق الحقِّ، فالتَّصوفُ أساسُه وأصلُه وانطلاقُه

(1) الرسالة القشيرية (صـ51).

من مقامِ الإحسان الذي هو أحدُ أركانِ الدِّين الثَّلاثة: الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ، فلا يكون الصُّوفي صوفيًّا حتىٰ يستقر الإيمان في قلبه، ويحقِّقَ الإسلامَ بشروطِه وأركانه ثم يكون مقامُ الإحسانِ بعد ذلك، فعقيدةٌ وتوحيدٌ ثم طاعةٌ وعبادةٌ ثم مراقبةٌ ومشاهدةٌ.

وجاءَ ذلك في عدَّة أحاديث منها:

ما في الصَّحيحين من حديثِ أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ كان يومًا بارزًا للنَّاس إذ أتاه رجلٌ يمشي فقال يا رسولَ الله ما الإيمانُ؟ قال: ((الإيمانُ أنْ تُؤمنَ باللهِ وملائكتِه وكُتبِه ورُسلِه ولقائِه وتُؤمنَ بالبعث الآخرِ)) قال يا رسولَ الله ما الإسلامُ؟ قال: ((الإسلامُ أنْ تعبدَ اللهَ ولا تُشركَ به شيئًا، وتقيمَ الصَّلاةَ وتؤتيَ الزكاةَ المفروضةَ وتصومَ رمضانَ)) قال: يا رسولَ الله ما الإحسانُ؟ قال: ((الإحسانُ أنْ تعبدَ الله كأنَّك تراهُ فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ))[1].

وروىٰ أحمدُ في مسندِه عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنَّا جلوسًا مع رسولِ الله ﷺ فقال: ((يَطلُعُ عليكمُ الآنَ رجلٌ من أهل الجنَّة)). فطلعَ رجلٌ من الأنصار تنطفُ[2] لحيتُه من وضوئه قد علَّق نعليه في يده الشِّمال، فلما كان الغدُ قال النبيُّ ﷺ مثلَ ذلك، فطلَعَ ذلك الرَّجلُ مثلَ المرةِ الأولىٰ، فلما كان اليومُ الثالثُ قال النبيُّ ﷺ مثلَ مقالتِه أيضًا فطلَعَ ذلك الرجلُ علىٰ مثل حالِه الأولىٰ، فلما قام النَّبيُّ ﷺ تبعه عبدُالله بنُ عمرو بن العاص فقال: إنِّي لاحيتُ[3] أبي فأقسمتُ ألَّا أدخلَ عليه ثلاثًا، فإنْ رأيتَ أن تُؤويني إليك حتىٰ تمضيَ فعلتُ. قال: نعم قال أنس: وكان عبدُالله يحدِّث أنَّه بات معه تلك الليالِيَ فلم يَرَهُ يقومُ من اللَّيل شيئًا غير أنَّه إذا تعارَّ وتقلَّب علىٰ فراشه ذكر الله عز وجل وكبَّر حتَّىٰ يقومَ لصلاة الفجرِ، قال عبدُالله: غير أنِّي لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضتِ

(1) تقدم تخريجه.

(2) أي تسيل.

(3) أي نازعت.

الثلاثُ ليالٍ وكدتُ أنْ أحقِرَ عملَه، قلت: يا عبدَالله إنِّي لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجرٌ ثمَّ ولكن سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ لك ثلاث مرار: «يطلع عليكمُ الآن رجلٌ من أهل الجنَّةِ» فطلعتَ أنتَ مرارًا، فأردتُ أنْ آوي إليكَ لأنظرَ ما عملُك فأقتدي به، فلم أركَ تعملُ كثيرَ عملٍ فما الذي بلغ بكَ ما قال رسولُ الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيتَ، قال: فلما ولَّيتُ دعاني فقال ما هو إلَّا ما رأيتَ غيرَ أنِّي لا أجدُ في نفسي لأحدٍ من المسلمين غِشًّا ولا أحسُد أحدًا على خيرٍ أعطاه الله إيَّاه، فقال عبدالله: هذه التي بلغت بكَ، وهي التي لا نطيقُ[1].

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ على رجلٍ من الأنصار وهو يعظُ أخاه في الحياء فقال رسولُ الله ﷺ: «دَعْه فَإِنَّ الحياءَ مِنَ الإِيمانِ»[2].

وروى الترمذي عن الطُّفيل بنِ أُبيٍّ بنِ كعب عن أبيه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا ذهب ثُلُثا الليل قام فقال: «يا أيُّها النَّاسُ اذكُروا الله اذكُروا الله جاءتِ الرَّاجفةُ تتبعها الرَّادفةُ جاء الموتُ بما فيه جاء الموتُ بما فيه» قال أُبَيٌّ: قلتُ يا رسولَ الله إنِّي أُكثر الصَّلاةَ عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «مَا شِئْتَ» قال: قلتُ: الرُّبُعَ. قال: «ما شِئتَ فإنْ زدْتَ فهو خيرٌ لكَ» قلتُ: النِّصفَ. قال: «ما شئتَ فإنْ زدْتَ فهو خيرٌ لكَ» قلتُ: أجعلُ لكَ صلاتي كُلَّها، قال: «إذًا تُكْفَىٰ همَّك ويُغْفَرُ لكَ ذنبُكَ»[3].

---

(1) أخرجه معمر في جامعه (20559- ملحق بمصنف عبدالرزاق)، وابن المبارك في مسنده (1)، وأحمد في مسنده (3/ 166) من طريق الزُّهري قال: أخبرني أنس بن مالك به مرفوعًا. وقال الحافظ في تخريج أحاديث الإحياء (2/862): «رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين».

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان (24)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان (36).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في صفة أواني الحوض (2457)، وعبد بن حميد في مسنده (170)، والحاكم في مستدركه (2/ 513) من طريق سفيان عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الطُّفيل بن أُبي بن كعب عن أبيه به مرفوعًا. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وصحح إسناده الحاكم، ووافقه الذهبي.

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((الإيمانُ بِضعٌ وستون شُعبةً والحياءُ شُعبةٌ منَ الإيمانِ))[1].

روىٰ مسلمٌ في صحيحِه عن النَّوّاس بن سَمعان ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ والإثمُ ما حاكَ في نفسِكَ وكرِهتَ أنْ يطَّلِعَ عليه النَّاسُ))[2].

وروىٰ أحمدُ في مسندِه من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((خَيرُكُمْ في الإسلامِ أحاسِنُكم أخلاقًا إذا فَقِهُوا))[3].

وفي الصَّحيحين من حديث النُّعمان بن بَشير ﷺ: قال رسولُ الله ﷺ: ((ألَا وإنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذَا فسدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه ألَا وهي القلبُ))[4].

وروىٰ الترمذيُّ في سننِه من حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((اتَّقِ اللهَ حيثُما كُنتَ وخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حسنٍ، وأَتْبعِ السيِّئةَ الحسَنةَ تَمحها))[5].

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (9)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان (35)، إلا أن لفظ مسلم: «بضعٌ وسبعون».

(2) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم (2553).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (2/481)، والبخاري في الأدب المفرد (285)، وابن حبان في صحيحه (91) من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة به مرفوعًا. ويشهد له حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (6035)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ (2321) من حديث عبدالله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من خيارِكم أحاسنَكُم أخلاقًا».

(4) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (52)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (1599).

(5) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (1987)، وأحمد في مسنده (5/153)، والدارمي في سننه (2833)، والبزار في مسنده (4022)، والحاكم في مستدركه (1/54) من طريق سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر ﷺ به مرفوعًا. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وقال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((قال الله: أَنفِقْ يا ابنَ آدَمَ أُنفِقْ عليكَ))[1].

فالأحاديث السَّابقةُ أخي الكريم توضِّحُ أنَّه ما من مقامٍ من مقاماتِ وأعمال التَّصوف إلَّا وله شاهدٌ ودليلٌ من حديث رسولِ الله ﷺ مثل مقام المشاهدةِ والمراقبةِ، وإصلاحِ القلوبِ من الغشِّ والحسدِ، وكثرة الصَّلاةِ علىٰ رسول الله وانشغال المرء بها، والحياءِ وحُسْنِ الخُلُق، والاهتمامِ بصلاح القلبِ وتزكيتِه، والإنفاقِ وعدمِ البخل، فالتَّصوُّفُ ما هو إلا تطبيقٌ عمليٌّ للسُّنَّةِ النَّبويَّة، والصُّوفيُّ الحقُّ هو مَن يُلزم نفسَه تعاليم رسولِ الله ﷺ.

من خلال ما سبق فإنَّنا نقرر ما ألمحنا إليه من أنَّ بعض النَّاس يتَّهمُونَ التَّصوفَ بأنَّ جذورَه وأصولَه غيرُ إسلاميَّة، وقد أسلفنا في الصَّفحات السَّابقة من الآياتِ والأحاديثِ مصدرَ مقاماتِ وأحوالِ ودرجاتِ التَّصوف. وهذه التُّهَمَةُ ترجعُ إلىٰ الجهلِ بحقيقة التَّصوفِ وأهدافِه، فقد يحصُرُ البعضُ التَّصوفَ في الزُّهد والتقشُّف أو في عبادةٍ من العباداتِ، وهذا ليس التصوفَ كلَّه وإنَّما هو أحد الطُّرق في التَّربية الرُّوحية الصُّوفية. فبعضُ مَن يربط التَّصوُّفَ بأصولٍ غير إسلامية يربطُه من حيث تشابُه التَّصوفِ مع غيره من المناهج والتَّجاربِ الرُّوحيةِ الأخرىٰ في الزُّهد والتقشُّفِ والعُزلةِ والصِّيامِ، وهناك فروقٌ جوهريَّةٌ بين التَّصوفِ والمناهج الرُّوحية في العقائد الأخرىٰ كالرَّهبنة البُوذيَّة أو النَّصرانية وغيرِ ذلك.

أوَّلُ هذه الفروق: أنَّ تشابُهَ وسائل تحقيق السُّمو الرُّوحي لا يستلزمُ تشابهَ الجذورِ، فإن وسائلَ تزكيةِ النَّفسِ والرُّوح في التَّصوف وإنْ حدث تشابهٌ بينها وبين غيرِها من وسائل التَّربية الرُّوحية كالزهد والسهر والتقشف وسائر المجاهدات الروحية التي تهذب النفس، إلا أنَّها في المنهج الصوفي مستمدَّةٌ من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، فما من

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب فضل النَّفقة علىٰ الأهل (5352)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث علىٰ النفقة وتبشير المنفِق بالخلف (993).

مقامٍ من مقاماتِ التَّصوُّف والسُّلوك والتَّربيةِ الصُّوفيةِ إلا وله شاهدٌ من كلام الله وكلامِ رسولِ الله ﷺ، فلا يُعاب التَّصوفُ بأنْ تشابهتْ معه بعضُ المناهجِ الأخرىٰ في الأَخذِ ببعض وسائلِ تزكيَّة الرُّوح؛ كالجوعِ والمجاهدةِ والعُزلة.

وثاني هذه الفروق: هو أنَّ الجوعَ والزُّهدَ والتَّقشُّفَ والعُزلةَ في أيِّ منهجٍ رُوحيٍّ غيرِ إسلاميٍّ هو هدفٌ في حدِّ ذاتِه وليس وسيلةً أو يكون وسيلةً لما يُسمَّىٰ بانطلاق الرُّوح من سجن الجسدِ البشريِّ ومحاولة السمو بها، مثَل خُطُوات رياضة «اليوجا» أمَّا في التَّصوف فإنَّ جميعَ المجاهداتِ الصُّوفيةِ وكافة صُوَر السُّلوكِ عند الصُّوفيةِ الهدف منها هو إعداد القلب للدُّخول علىٰ الله، فالهدف هو السُّلوك إلىٰ الله سبحانه وتحقيقُ مقامِ العبوديةِ الحقَّة له عن طريق تزكية النَّفسِ والقلبِ والرُّوحِ بالذِّكر والعبادة والأخلاق؛ ليكون الإنسانُ أهلًا للسَّير في طريق الله فما من سلوكٍ صوفيٍّ إلا وهدفُه التقرُّب من الله.

أمَّا مَن يتَّخذ أيَّ عبادة أو سُلوكٍ أو قولٍ أو فعلٍ لا يشهدُ له الكتاب والسُّنَّة وأقوالُ أهل العلم فلا يُسمَّىٰ تصوفًا بأي حالٍ من الأحوال، وإنِ ادَّعىٰ صاحبُه أنَّه من الصُّوفية فما هو إلا مدعٍ، فالتَّصوفُ هو التَّطبيق العمليُّ لرُوح الإسلام وجوهرِه وأحكامه، وكلُّ ما يخرج عن دائرة الشَّرع بأي شكلٍ أو صورةٍ فليس بتصوفٍ. فالصوفيُّ الحقُّ الذي يستحق اسمَ الصوفيِّ هو القائمُ بفروضِ الله الشَّرعيةِ بكافَّة صُورِها، الآخذُ من السُّنن النَّبوية بنصيبٍ، الذَّاكرُ لربِّه، التالي لكتاب الله، المتفكِّرُ في مَلكوته سبحانه، المحبُّ المتآلفُ مع خَلْقِ الله، لا يقصدُ إلا اللهَ سبحانه وتعالىٰ بأفعالِه وأقوالِه وسلوكِه. ◆

نصوصُ أئمَّةِ وعلماءِ الشَّريعةِ
الدالة علىٰ أن التَّصوفَ قائم علىٰ الكتاب والسنة

إنَّ حقيقةَ عِلمِ التَّصوف وطريقَه هو العملُ بالعِلْم والشَّريعة الإسلامية علىٰ وجهِ الإخلاص والصِّدقِ، فلو نظرنا لحال أئمَّة التَّصوف الأوائل الذين أصَّلوا لعِلْم التَّصوُّف والسُّلوك وبيَّنوا حدودَه وأركانَه- لوجدتَ أنَّهم كانوا علماءَ عاملين دعاةً إلىٰ الله وإلىٰ سُلوك سبيله؛ فلذلك ظهرت أنوارُهم وبَقِيَتْ آثارُهم، فالحقيقةُ الصُّوفية هي لُبُّ الشَّريعة الإسلامية، كما سيأتي بيان ذلك من أقوال أئمَّة ومشايخِ التَّصوفِ من الحضِّ علىٰ التمسُّك بالشَّرع ورعاية رسوم الشَّريعةِ ومظاهرها، فالشَّريعةُ هي أساس وحدود الحقيقة الصُّوفيةِ، وما يخرج عن هذه الحدود لا يمتُّ للتَّصوف بصلةٍ، فالحقيقة الصُّوفية وعلوم التَّصوف بحرٌ لا ساحلَ له من المعرفة الرَّبَّانية، والشَّريعةُ الإسلامية هي السَّفينة التي تُبحر في هذا البحر، وبدونها لا حركةَ لإنسانٍ في بحر التَّصوف ومعارفِه. ولننظر إلىٰ أقوال الأئمة والعلماء في قيام التصوف علىٰ الكتاب والسنة:

قال الأستاذ الجُنيد وهو مَن يُعرف بسيِّد طائفة الصُّوفية يقول: ((من لم يحفظِ القرآنَ ولم يكتبِ الحديثَ لا يُقتدَىٰ به في هذا الأمر؛ لأنَّ علمَنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة))(1).

وقال الإمام أبو القاسم القُشيري في الرِّسالة القُشيرية: ((الشَّريعة أمرٌ بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدةُ الرُّبوبية، فكلُّ شريعةٍ غيرِ مؤيدةٍ بالحقيقة فغير مقبول، وكلُّ حقيقةٍ غيرِ مقيدةٍ بالشريعة فغير محصول، فالشريعة جاءت بتكليف الخَلْقِ، والحقيقة إنباءٌ عن تصريف الحقِّ، فالشريعة أنْ تعبدَه والحقيقة أنْ تشهدَه، والشريعة قيامٌ بما أمر والحقيقة شهودٌ لما قضىٰ وقدَّر وأخفىٰ وأظهر))(2).

---

(1) الرسالة القشيرية (1/ 79).

(2) المصدر السابق (1/195).

وقال نقلًا عن أبي يزيد البسطامي: ((لو نظرتم إلىٰ رجلٍ أُعطي من الكرامات حتَّىٰ يرتقيَ في الهواء فلا تغترُّوا به حتىٰ تنظروا كَيْفَ تجدونه عِنْدَ الأمرِ والنَّهي وحِفْظِ الحدودِ وأداءِ الشَّريعة))[1].

قال أبو العباس محمَّد بن سهل بن عطاء: ((مَن ألزم نفسَه آدابَ الشَّريعة نوَّر الله قلْبَه بنور المعرفة، ولا مقامَ أشرف مِن مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعالِه وأخلاقِه))[2].

وقال أبو حمزة البغدادي: ((مَن علم طريقَ الحقِّ سَهُل عليه سلوكُه، ولا دليلَ علىٰ الطَّريق إلىٰ الله تعالىٰ إلَّا متابعةُ الرسول ﷺ في أحوالِه وأفعالِه وأقوالِه))[3].

قال أبو القاسم إبراهيم بن محمد النَّصراباذي: ((أصل التَّصوف ملازمةُ الكتاب والسُّنَّةِ وترك الأهواء والبدع، وتعظيمُ حُرُمات المشايخ، ورؤيةُ أعذارِ الخَلْقِ، والمداومةُ علىٰ الأوراد، وتركُ ارتكابِ الرُّخص والتأويلاتِ))[4].

وقال الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي وهو من أعلام التَّصوف: ((إنَّ قومًا مالوا إلىٰ الإلحاد والزَّندقة يتخيلون أنَّ المقصودَ الأصلي وراء الشريعةِ، حاشا وكلَّا ثمَّ حاشا وكلَّا، نعوذ بالله من هذا الاعتقاد السوء، فكلٌّ من الطريقة والشَّريعة عين الآخر لا مخالفةَ بينهما بقدر رأس الشعيرة، وكلُّ مَن خالف الشريعةَ مردودٌ، وكلُّ حقيقة ردَّتها الشريعة فهي زندقةٌ))[5].

---

(1) الرسالة القشيرية (1/85).

(2) المصدر السابق (1/103).

(3) المصدر السابق (1/107).

(4) المصدر السابق(1/145).

(5) مجلة البحوث والدراسات الصوفية (صـ 297) العدد الأول- السنة الأولىٰ (جمادىٰ الآخرة) - المركز العلمي الصوفي بالعشيرة المحمدية- القاهرة- 1424هـ، 2003م.

قال الإمام النووي: ((أصول التَّصوف خمسة: تقوىٰ الله في السِّر والعلانية، اتباعُ السُّنَّةِ في الأقوال والأفعال، الإعراضُ عن الخَلْق في الإقبال والإدبار، الرِّضا عن الله تعالىٰ في القليل والكثير، الرُّجوعُ إلىٰ الله في السَّرَّاء والضرَّاءِ))[1].

قال الإمام الشَّاطبيُّ وهو يتحدَّث عن البِدْعَةِ وأهلِها: ((الوجهُ الرَّابع مِنَ النَّقل ما جاءَ في ذَمِّ البِدَعِ وأهلِها عنِ الصُّوفيَّة المشهورِينَ عند النَّاس: وإنَّما خَصَّصْنا هذا الموضِعَ بالذِّكْر وإن كان فيما تقدَّم مِنَ النَّقل كفايةٌ؛ لأنَّ كثيرًا مِنَ الجهَّال يعتقدونَ فيهم أنَّهم مُتساهِلونَ في الاتباع، وأنَّ اختراعَ العباداتِ والتزامَ ما لم يأتِ في الشَّرع التزامُه ممَّا يقولونَ به ويعملونَ عليه، وحاشاهم مِن ذلك أن يعتقدُوه أو يقولوا به، فأوَّلُ شيءٍ بَنَوا عليه طريقتَهم اتِّباعُ السُّنَّة واجتنابُ ما خالفَها))[2].

قال الإمام السُّيوطي: ((التصوفُ في نفسه عِلْمٌ شريفٌ وأنَّ مدارَه علىٰ اتِّباع السُّنَّةِ وتركِ البدع، والتبرِّي من النَّفس وعوائدها وحظوظِها وأغراضِها ومراداتِها واختياراتِها، والتسليمِ لله والرِّضا به وبقضائِه وطلبِ محبَّته واحتقارِ ما سواه))[3]. وهذا القطب الرَّبَّاني والولي الرَّحماني عبدالقادر الجيلاني يقول: ((كلُّ حقيقةٍ لا تشهدُ لها الشَّريعةُ فهي زندقةٌ، طِرْ إلىٰ الحقِّ عز وجل بجناحَي الكتاب والسُّنَّة، ادخل عليه ويدُك في يد رسول الله ﷺ اجعله وزيرك ومُعلِّمك))[4].

(1) انظر: شرح المقاصد النووية (ص 165) للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيىٰ بن شرف النووي- الطبعة الثانية- دار البشائر الإسلامية - دمشق.

(2) الاعتصام (1/119) تأليف: إبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي- تحقيق سليم ابن عيد الهلالي- الطبعة الأولىٰ 1992م- الخبر المملكة العربية السعودية.

(3) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (صـ56) للحافظ جلال الدين السيوطي- تحقيق عبدالله ابن محمد بن الصديق الغماري- الطبعة الثانية 1994م دار الفاتح للتراث الإسلامي - القاهرة.

(4) الفتح الرباني والفيض الرحماني (صـ 179) للشيخ عبدالقادر الجيلاني - دار الريان للتراث.

وقال الشيخ أبو الحسن الشَّاذلي: ((إذا تعارض كشفُكَ مع الكتاب والسُّنة فتمسَّك بالكتاب والسُّنة ودعِ الكشفَ وقل لنفسكَ: إنَّ الله تعالىٰ ضمن لي العصمةَ في الكتاب والسُّنة ولم يضمنْها لي في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة))[1].

وقال حجّة الإسلام الإمام الغزاليُّ: ((إنِّي علمتُ يقينًا أنَّ الصُّوفية هم السَّالكون لطريق الله تعالىٰ خاصةً، وأنَّ سيرتَهم أحسن السِّير، وطريقَهم أصوبُ الطُّرق، وأخلاقَهم أزكىٰ الأخلاق؛ بل لو جُمع عقلُ العُقلاء وحِكمة الحكماء وعلم الواقفين علىٰ أسرار الشَّرع من العلماءِ ليغيِّروا شيئًا من سيرهم وأخلاقِهم ويبدِّلوه بما هو خير منه لم يجدو إليه سبيلًا، فإنَّ جميعَ حركاتِهم وسكناتِهم في ظاهرهم وباطنِهم مقتبسةٌ من نور مشكاة النُّبوة، وليس وراءَ نورِ النُّبوة علىٰ وجه الأرض نورٌ يُستضاءُ به))[2].

وقال أيضًا في صفات السَّالك: ((اعلم أنَّ سالكَ سبيلِ الله قليلٌ والمدَّعي فيه كثيرٌ، ونحن نعرِّفك علامتين تجعلُهما أمام عينيك، وتعتبرُ بهما نفسك وغيرك؛ فالعلامةُ الأولىٰ: أن تكون جميعُ أفعالِه الاختياريَّةِ موزونةً بميزان الشَّرعِ، موقوفةً علىٰ حدِّ توقيفاتِه، إيرادًا وإصدارًا، وإقدامًا وإحجامًا؛ إذ لا يمكنُ سلوكُ هذا السبيل إلا بعد التلبُّسِ بمكارمِ الشَّريعةِ كلِّها، ولا يمكنُ ذلك إلا بعد تهذيبِ الأخلاق كما وصفنا من قبل ولا يُتوصل إلىٰ ذلك إلا إذا تركَ جملةً من المباحاتِ، فكيف يَتأتَّىٰ لمن لم يهجر المحظوراتِ! وهُو لن يتوصَّلَ إليه ما لم يُواظب علىٰ جملةٍ من النَّوافل فكيف يصلُ إليه من أهملَ الفرائض. إلىٰ قوله: العلامةُ الثانيةُ: أن يكونَ حاضرَ القلب مع الله في كلِّ حال حضورًا ضروريًّا غير متكلِّف، بل حضورًا يعظم تلذُّذُه، وأن يكون الحضورُ انكسارًا وضراعةً وخضوعًا، لما

---

(1) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم: (صـ465) تأليف: أبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الفاسي – دار المعارف– القاهرة.

(2) المنقذ من الضلال والموصل إلىٰ ذي العزة والجلال (ص 139) لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي– تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد– دار الأندلس– بيروت – لبنان.

انكشفَ عنده من جلال الله وبهائه...))[1].

وقال العلَّامةُ ابن خلدون عن عِلم التَّصوف: ((هذا العِلمُ من العلوم الشَّرعية الحادثةِ في الملَّة، وأصلُه أنَّ طريقةَ هؤلاء القومِ لم تزلْ عند سلفِ الأمَّة وكبارِها من الصَّحابة والتَّابعين ومَن بعدهم طريقةَ الحقِّ والهدايةِ، وأصلُها العكوفُ على العبادة والانقطاعُ إلى الله تعالى، والإعراضُ عن زُخرُفِ الدُّنيا وزينتِها، والزُّهدُ فيما يُقبل عليه الجمهور من لذَّةٍ ومالٍ وجاهٍ، والانفرادُ عن الخَلْق في الخلوةِ للعبادة، وكان ذلك عامًّا في الصَّحابة والسَّلف، فلما فشا الإقبالُ على الدُّنيا في القرن الثَّاني وما بعده وجنحَ النَّاسُ إلى مخالطةِ الدُّنيا اختُصَّ المقبلون على العبادةِ باسم الصُّوفية والمتصوِّفة))[2].

يقولُ الإمامُ عبدالوهاب الشَّعرانيُّ: ((ثم اعلم يا أخي أنَّ عِلم التَّصوُّفِ عبارةٌ عن علمٍ انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسُّنَّة، فكلُّ مَن عمل بهما انقدحَ له من ذلك علومٌ وأدبٌ وأسرارٌ وحقائقُ تعجز الألسنُ عنها نظيرَ ما انقدح لعلماءِ الشريعة من الأحكام حين عَمِلوا بما عَلموه من أحكامِها. فالتَّصوُّف إنَّما هو زبدةُ عملِ العبد بأحكام الشَّريعة إذا خلا عملُه من العِلل وحظوظِ النَّفس كما أنَّ علمَ المعاني والبيان زبدةُ علم النَّحو، فمَنْ جعل التَّصوُّفَ علمًا مستقلًّا صدقَ، ومَن جعله من عينِ أحكام الشَّريعة صدقَ))[3].

---

(1) انظر: ميزان العمل (ص 399-402) لأبي حامد الغزالي- تحقيق: الدكتورسليمان دنيا- دار المعارف- مصر- الطبعة الأولى- 1964م.

(2) مقدمة ابن خلدون (ص611) تأليف: عبدالرحمن بن محمد، ابن خلدون- تحقيق: خليل شحادة - دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية- 1988م.

(3) الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية (12/1) للشيخ عبدالوهاب الشعراني- تحقيق: أحمد عبدالرحيم السايح وتوفيق علي وهبة — مكتبة الثقافة الدينية — القاهرة -الطبعة الأولى- 2005م.

وقال أيضًا: فَمَن دقَّق النَّظر عَلِمَ أنَّه لا يخرج شيءٌ من علوم أهلِ الله تعالىٰ عن الشَّريعة، وكيف تخرجُ علومُهم عن الشَّريعة والشريعةُ هي وصلَتُهم إلىٰ الله عزَّ وجل في كلِّ لحظةٍ؟! ولكن أصل استغراب مَن لا إلمام له بأهل الطَّريق أنَّ عِلْم التَّصوف مِن عَين الشَّريعة- كونُه لم يتبحَّر في عِلم الشَّريعة))[1].

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: ((قد أجمعَ النَّاس علىٰ أنَّ كلَّ مَن خرَج عنِ الشَّريعة المطهَّرةِ في شيءٍ مِن أقوالِه أو أفعالِه أو عقائِده أو جَهِلَ شيئًا مِن أدلَّة الأمرِ والنهي فلا يصلُح للتصدُّرِ في الطَّريقِ؛ وذلك لأنَّ النَّاس كلَّهم يصيرونَ ناظرينَ إلىٰ أقوالِه وأفعالِه ليقتدوا بِه فيها))[2].

وقال سيِّدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله: ((قد أجمعَ القومُ كلُّهم علىٰ أنَّ مَن لم يحبِس نفسَه في قمْقُمِ الشَّريعة في جميع أحوالِها ويختِم عليها بخاتَم الحقيقةِ فليس هو مِنَ القومِ ولو مشَىٰ في ركابِهم وخدمَهم ليلًا ونهارًا))[3].

وقال سيِّدي عليٌّ المَرْصَفي: ((سببُ ظنِّ بعضِ النَّاس أنَّ طريقَ القومِ خارجةٌ عن ظاهرِ الكتابِ والسُّنَّة بُعْدُهم عن مخالطةِ أهلِها، ولو أنَّ أحدَهم خالطَهم لوجدوهم مِن أكبرِ المتعبِّدينَ بالكتابِ والسُّنَّة في جميعِ أحوالِهم كما وقَع لابن سريجٍ وغيرِه حين استخفَىٰ وبات في رِبَاط الجُنْد إلىٰ الصَّباح، وقال: ما رأيتُ مِن أحوالِهم شيئًا يخالِف الكتابَ والسُّنَّة))[4].

وقال سيِّدي عليٌّ الخوَّاص رحمه الله تعالىٰ: ((كيف يُنسَب القومُ إلىٰ مخالفةِ السُّنَّة وهم

---

(1) الطبقات الكبرىٰ للشعراني (12/1).

(2) الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية (ص158) تحقيق: عبدالباري محمد داود- مكتبة أم القرىٰ- القاهرة- الطبعة الأولىٰ- 2002م.

(3) المصدر السابق (ص163).

(4) المصدر السابق (ص163).

مجمِعُونَ علىٰ أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ منهم أن يَقدُمَ علىٰ فِعْل شيءٍ أو ترْكِه إلَّا إن عَلِمَ مستندَه مِنَ الكتابِ والسُّنة أو إجماعِ الأمَّة، إمَّا مِن طريقِ السُّنة الظَّاهرة وإمَّا بالاجتماعِ الرُّوحيِّ برسول الله ﷺ))[1].

وقال سيِّدي عليٌّ المَرْصَفي رحمه الله تعالىٰ: ((لا يكمُل الرَّجُل في مقامِ العِلم والمعرفةِ حتَّىٰ يرىٰ الحقيقةَ مؤيِّدةً للشَّريعة، والشَّريعةَ مؤيِّدةً للحقيقة، وأنَّ التصوُّف ليس هو بأمرٍ زائدٍ علىٰ السُّنة المحمَّدية وإنَّما هو عينُها)).

وكانَ يقولُ: ((غايةُ ضبطِ الصُّوفي أنَّه شخصٌ عَمِل بعملِه علىٰ وجهِ الإخلاصِ لا غير، وهو الفقيهُ حقيقةً فكما أنَّ عِلْمَ الفقهاءِ مشيَّدٌ بالكتابِ والسُّنَّة وإجماعِ الأئمَّة كذلك عِلْم التصوُّف مشيَّدٌ بالكتابِ والسُّنةِ وأقوالِ الأئمَّة))[2].

وقال أيضًا: ((لو أنَّ النَّاسَ أمعَنُوا النَّظرَ في أحوالِ الصُّوفيَّة لوجدوها مشيَّدةً بالكتابِ والسُّنةِ كمذاهبِ المجتهدِينَ علىٰ حدٍّ سواءٍ، فإنَّ الشَّريعة تشهَدُ لكلٍّ مِنَ المذهبينِ وما ثَمَّ تمييزٌ بينَ الطريقَينِ إلَّا بالمقاصدِ فقط))[3].

قال سيِّدي إبراهيم الدسوقيُّ رضي الله عنه: ((الشَّريعةُ كالشَّجرةِ والحقيقةُ ثمرتُها، فلا بدَّ لكلٍّ واحدةٍ مِن الأخرىٰ، ولكن لا يُدرِك ذلك إلَّا مَن كَمُل سلوكُه في طريقِ القوم))[4].

وقال الإمام الشَّيخ محمَّد زكي الدِّين إبراهيم: ((واعلم يا ولدي وعلِّم النَّاسَ أنَّ التصوُّفَ الحقَّ مقيَّدٌ بأحكامِ الكتابِ والسُّنة علىٰ أساسِ العزيمةِ وحذارِ مِنَ الصَّيرورةِ إلىٰ الرُّخصةِ إلَّا في حَدِّها المحدودِ، فالتصوُّف مِن حيثُ هو علمٌ وعملٌ وخلُقٌ وعبادةٌ وجهادٌ ودعوةٌ هو أصلٌ مؤصَّلٌ ممَّا جاء به الوحي وحثَّت عليه الشَّريعةُ- كما رأيتَ- فهو كما قلنا

(1) الأجوبة المرضية (ص164).
(2) المصدر السابق (ص218).
(3) المصدر السابق (ص219).
(4) المصدر السابق (ص221).

طَلَبُ الكمالِ))[1].

وقال ذو النُّون المصري: ((مِن علاماتِ المحبِّ لله عزَّ وجلَّ متابعةُ حبيبِ الله ﷺ في أخلاقِه وأفعالِه وأوامرِه وسنَنِه))[2].

وقال الإمام العِزُّ بن عبدالسَّلام رحمه الله: ((قعَد القومُ مِنَ الصُّوفية على قواعدِ الشَّريعةِ الَّتي لا تهدم دُنيا وأخرى، وقعَد غيرُهم على الرُّسوم))[3].

وقال الإمام الشَّيخ أبو الحسن الشَّاذليُّ: ((كلُّ علمٍ تسبقُ إليكَ فيه الخواطِرُ وتميلُ النَّفْس وتلذُّ به الطبيعةُ فارمِ به وخُذْ بالكتاب والسُّنة))[4].

يقول الشَّيخ سهْل التُّسْتَري رحمه الله عن أصولِ طريقِ التصوُّف والسُّلوك: ((أصولُنا سبعةُ أشياءَ: التمسُّك بكتابِ الله تعالى، والاقتداءُ بسنَّةِ رسول الله، وأكْلُ الحلالِ، وكفُّ الأذى، واجتنابُ الآثامِ، والتَّوبةُ، وأداءُ الحقوقِ))[5].

قال محمَّد بن حامدٍ: ((لم يجد أحدٌ تمامَ الهمَّةِ بأوصافِها إلَّا أهلَ المحبَّة، وإنَّما وجدوا ذلك مِن اتِّباعِ السُّنَّةِ ومجانبةِ البِدْعةِ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان أعلَى الخَلْقِ همَّةً وأقربَهم زُلفةً))[6].

---

(1) أبجدية التصوف الإسلامي بعض ما له وما عليه (ص145) للإمام محمد زكي الدين إبراهيم-مؤسسة إحياء التراث الصوفي.

(2) الرسالة القشيرية (37/1).

(3) نور التحقيق في صحة أعمال الطريق (ص 101) للشيخ حامد إبراهيم صقر- دار التأليف- مصر - الطبعة الثانية 1970م.

(4) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (483/7) لعبدالحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي- حققه: محمود الأرناؤوط-خرج أحاديثه: عبدالقادر الأرناؤوط- دار ابن كثير، دمشق – بيروت- الطبعة الأولى، 1406 هـ - 1986 م.

(5) طبقات الصوفية (ص170) تأليف: أبي عبدالرحمن محمد بن الحسين السلمي- تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية – بيروت-الطبعة الأولى، 1419هـ 1998م.

(6) المصدر السابق (218/1).

وقال الشَّيخ أبو حفصٍ عمرُ الحداد: ((مَن لم يَزِن أفعالَه وأقوالَه في كلِّ وقتٍ بالكتابِ والسُّنَّة ولم يتَّهِم خواطِرَه فلا تعدَّه في ديوانِ الرِّجال))[1].

وقال الشَّيخ عبدالوهَّاب الشَّعراني: ((إنَّ طريقَ القومِ محرَّرةٌ علىٰ الكتابِ والسُّنَّة كتحريرِ الذَّهَب والجوهرِ فيحتاجُ سالِكُها إلىٰ ميزانٍ شرعيٍّ في كلِّ حركةٍ وسكونٍ))[2].

وقال الشَّيخ أبو يزيد البسطامي رحمه الله حين سُئل عنِ الصُّوفي: ((هو الَّذي يأخُذ كتابَ الله بيمينِه وسنَّةَ رسولِه بشمالِه، وينظُرُ بإحدىٰ عينَيه إلىٰ الجنَّة وبالأخرىٰ إلىٰ النَّار، ويأتزِرُ بالدُّنيا ويرتدي بالآخرة، ويلبِّي من بينهم للمولىٰ لبيكَ اللَّهمَّ لبيك))[3].

وقال أيضًا رحمه الله حين قصَدَ رجلًا ممَّن شهَر نفسَه بالولاية، فذهب إليه ليراه وكان معروفًا بالزُّهد والورع، فلمَّا وصل إلىٰ الرجل رآه وهو يبزُق مِن فِمِه تجاه القِبلة فانصرف أبو يزيد مِن غير أن يسلِّمَ عليه وقال: ((إنَّ هذا الرَّجُل ليس بمأمونٍ علىٰ أدبٍ مِن آدابِ الشَّريعة الَّتي أدَّب بها رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا علىٰ ما يدَّعيه مِن مقامات الأولياءِ والصِّدِّيقينَ))[4].

وقال السَّري السَّقَطي رحمه الله: ((التصوُّف اسمٌ لثلاث معانٍ: هو الَّذي لا يُطفِئ نورُ معرفتِه نورَ ورعِه، ولا يتكلَّم في علمٍ ينقضُه عليه ظاهرُ الكتابِ والسُّنة، ولا تحملُه الكراماتُ هَتْكَ أستارِ محارمِ الله))[5].

وقال الشَّيخ أحمدُ بن محمَّدٍ النُّوري: ((مَن رأيتَه يدَّعي مع الله حالةً تخرِجُه عن حدِّ العِلمِ

---

(1) الرسالة القشيرية (1/69).

(2) لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله علىٰ الإطلاق (ص12) لأبي المواهب عبدالوهاب الشعراني –دار التقوىٰ- الطبعة الأولىٰ- 1425هـ.

(3) شطحات الصوفية (ص96) تأليف: عبدالرحمن بدوي- وكالة المطبوعات- الكويت.

(4) المرجع السابق (85).

(5) الرسالة القشيرية (1/46).

الشَّرعيِّ فلا تقربنَّ منه))[1].

وقال الشَّيخ عبدالله بنُ علوي الحداد باعلوي الحُسيني رحمه الله في قصيدتِه التَّائيَّة الكبرىٰ:

ومَا فِي طريقِ القومِ بدءٌ ولا انتهاء مخالفةٌ للشرعِ فاسمعْ وأنصِت
وخلِّ مقامات الذينَ تـخبَّطـــوا ولا تكُ إلَّا مع كتاب وسُنَّـة
فثمَّ الهدَىٰ والنُّور والأمن مِن ردىٰ ومِن بدعةٍ تخشَىٰ وزيغٍ وفـتـنة
ومتَّبعو حـكْم الـكتاب وسنَّـــة هم المفلحونَ الـفـائـزونَ بجنَّة
عليهم مِنَ الرحمن رضوان الــذي هو النِّعمة العظمَىٰ وأكبر منَّة
ومَن حاد عن عِلْم الـكتاب وسنَّة فبشِّره في الدُّنيا بـخـزي وذلَّة
وبشِّره في العُقبىٰ بسكنىٰ جهـنَّم وحرمان جنَّات الخلود ورؤيـة

وقال الشَّيخ أبو سليمانَ الدَّاراني: ((ربَّما يقعُ في قلبي النُّكتةُ مِن نُكَتِ القومِ أيَّامًا فلا أقبَل منه إلَّا بشاهدَينِ عدلَين الـكتابِ والسُّنَّةِ))[2].

وقال الشَّيخ أبو عثمانَ سعيدُ بن إسماعيلَ الحيري: ((الصُّحبة مع الله بحُسْنِ الأدبِ ودوامِ الهيبةِ والمراقبةِ، والصُّحبةُ مع رسولِ الله ﷺ باتِّباع سنَّتِه ولزومِ ظاهرِ العِلْمِ))[3].

وقال الشَّيخ شاه بن شجاعٍ الكرماني: ((مَن غضَّ بصرَه عنِ المحارِم، وأمسكَ نفسَه عنِ الشَّهواتِ، وعمَّر باطنَه بدوامِ المراقبةِ وظاهرَه باتِّباعِ السُّنَّةِ، وعوَّد نفسَه أكلَ الحلالِ لم تخطِئ له فراسةٌ))[4].

---

(1) الرسالة القشيرية (83/1).

(2) المصدر السابق (61/1).

(3) المصدر السابق (82/1).

(4) المصدر السابق (94/1).

وقال الشَّيخ عبدالله بنُ منازل: ((لم يضيِّع أحدٌ فريضةً مِنَ الفرائضِ إلَّا ابتلاه الله تعالىٰ بتضْييعِ السُّنَنِ، ولم يُبْلَ أحدٌ بتضْييعِ السُّنَنِ إلَّا أوشَكَ أن يُبتَلَىٰ بالبِدَعِ))[1].

وقال الشَّيخ أحمدُ الرِّفاعي رضوان الله عليه في وصيَّتِه لأحد تلاميذه: ((عليكَ بملازمةِ الشَّرع بأمرِ الظَّاهر والباطنِ وبحِفْظِ القلوبِ مِن نسيانِ ذِكْر الله))[2]. وقال أيضًا: ((مفتاحُ السَّعادةِ الأبديَّةِ الاقتداءُ برسولِ الله ﷺ في جميعِ مصادرِه وموارِدِه وهيئتِه وأكلِه وشربِه وقعودِه وقيامِه ونومِه وكلامِه حتَّىٰ يصحَّ لكم الاتِّباعُ المطلَقُ، بلَغَنا عن بعضِ الأئمَّة أنَّه ما أكلَ البِطِّيخ؛ لأنَّه لم يُنقَل له كيف أكلَ رسول الله ﷺ، وسها بعضُهم في لُبْسِ الخفِّ باليُسرىٰ فكفَّر عن ذلك بشيءٍ مِنَ الحنطةِ، وإيَّاكم أن تقولوا إنَّ هذه الخصال مِنَ الأمورِ الَّتي تتعلَّق بالعاداتِ فتهمِلُوها فإنَّ إهمالَها يُغلِق بابًا عظيمًا مِن أبوابِ السَّعادة، وأمَّا العباداتُ فلا أعرِف لعدمِ اتِّباعه عليه الصَّلاة والسَّلام فيها مِن عُذْرٍ إلَّا أن يحصُلَ ذلك مِن كفرٍ خفيٍّ أو حُمْقٍ جليٍّ حمانا الله وإيَّاكم))[3].

وقال رضوان الله عليه: ((اللهَ اللهَ بالوقوفِ عند الحدودِ، عضُّوا علىٰ سُنَّة السيِّدِ العظيمِ بالنَّواجذ))[4].

فهذه أيُّها الأخ الكريم أقوالُ أئمَّة التصوُّف وشيوخِه في التزامِهم بالسُّنَّة النبويَّة بعدَ كتابِ الله ودعوتِهم إلىٰ التمسُّكِ بها وتوضيحهم أنَّ طريقَ التصوُّفِ والسُّلوكِ كان قائمًا علىٰ الكتابِ والسُّنَّة والاقتداءِ برسول الله ﷺ في الأقوالِ والأفعالِ.

وهذه الأقوال تدل دلالة بينة واضحة أنَّ مردَّ أمرِ التَّصوف إلىٰ شريعةِ الإسلام، وأنه رُوحها وجوهرُها، وليس بشيءٍ مُخالِفٍ لها، وأنَّ كلَّ دعوىٰ للتَّحَلُّلِ من الشَّرع

(1) الرسالة القشيرية (1/120).

(2) البرهان المؤيد (ص 126) للإمام أحمد الرفاعي الكبير- دار الكتاب النفيس – بيروت – لبنان – 1408 هـ.

(3) البرهان المؤيد (ص 106).

(4) المصدر السابق (ص 114).

والانفلاتِ من أحكامِه وأوامرِه ونواهيه إنَّما هي زندقةٌ لا تمتُّ للتَّصوُّف بصِلةٍ. فالتَّصوُّف جمعٌ بين الشَّريعة والحقيقة، فالشريعةُ الشَّجرةُ والحقيقة الثمرةُ، وبدون الشَّجر لا ينتج ثمرٌ، فَمَن ادَّعىٰ الحقيقةَ الصُّوفيةَ بدون الالتزام بالشَّريعة الإسلاميةِ فهو مُدَّعٍ كاذبٌ.

وكما قال الشاعر:

ومَن يخالف فِعْلُه الشَّريعه فذاك في مَهَامِهِ القطيعه
إذ كُلُّ مَن خالفَهَا زِنديق وكلُّ مَن حالفها صِدِّيق

نصوص أئمَّةِ التَّصوف الدالة علىٰ وجوب اتباع الشَّريعة

إنَّ المنهجَ الصُّوفيَّ يرسم طريقَ السلوكِ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ويُحدِّدُ هذا الطَّريق بالحدودِ والضَّوابطِ الشَّرعية وحِفْظِ أوامرَ ونواهي الشَّرعِ، والتَّقيُّدِ برسوم الشريعةِ وعدم التَّفلُّتِ منها.

قول الشيخ أحمد زرُّوق في قواعدِ التَّصوف: ((لا تصوفَ إلا بفقهٍ؛ إذْ لا تُعرف أحكامُ الله الظَّاهرةِ إلا منه، ولا فقهَ إلَّا بتصوُّفٍ إذ لا عملَ إلا بصدقٍ، ولا هُما[1] إلَّا بإيمانٍ؛ إذ لا يصحُّ واحدٌ منهما دونه، فلَزِمَ الجميعُ لتلازمها في الحُكم كتلازمِ الأجساد للأرواح، ولا وجودَ لها إلَّا فيها كما لا حياةَ لها إلَّا بها فافهم، ومنه قول مالك رحمه الله: مَن تصوَّفَ ولم يتفقَّه فقد تزندَقَ، ومن تفقَّه ولم يتصوَّف فقد تفسَّق، ومن جمعَ بينهما فقد تحقَّق))[2].

ويقول الشيخ عبدالله اليافعي: ((إنَّ الحقيقة هي مشاهدة أسرار الرُّبوبية، ولها طريقة

---

(1) أي الفقه والتصوف.

(2) قواعد التَّصوُّف (صـ15) تأليف: أحمد بن أحمد البرنسي المغربي الشهير بـ(زروق) -ضبط وتعليق: محمود بيروتي — دار البيروتي — دمشق — الطبعة الأولىٰ - 2004م.

هي عزائم الشَّريعة، فَمَن سلك الطَّريقة وصل إلىٰ الحقيقة، فالحقيقة نهاية عزائم الشَّريعة، ونهاية الشيء غير مخالفة له، فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشَّريعة))[1].

قال مُنكِرًا علىٰ مَن يعتقد أنَّ التكاليف الشَّرعيةَ تسقط عن السَّالك في حالٍ من الأحوال: ((تَرْكُ العبادات المفروضة زندقةٌ، وارتكاب المحظورات معصيةٌ، ولا تسقط الفرائض عن أحدٍ في حال من الأحوال))[2].

وقال الشيخ سهل التُّسْتَري رحمه الله: ((أصولُنا سبعةُ أشياءَ: التَّمسُّك بكتاب الله تعالىٰ، والاقتداء بسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ، وأكل الحلال، وكفُّ الأذىٰ، واجتنابُ الآثام، والتوبةُ، وأداءُ الحقوق))[3].

وقال الشيخ أبو الحسين الوراق: ((لا يَصِلُ العبد إلىٰ الله إلَّا بالله وبموافقة حبيبِه ﷺ في شرائِعه، ومَن جعل الطَّريقَ إلىٰ الوصول في غير الاقتداء يَضِل من حيث يظنُّ أنَّه مهتدٍ))[4].

وقال الإمام الجُنيد: ((الطُّرقُ كلُّها مسدودةٌ علىٰ الخَلْق إلَّا من اقتفىٰ أثرَ الرَّسول عليه الصلاة والسلام واتَّبع سُنَّتَه ولزمَ طريقتَه، فإنَّ طُرق الخَيرات كُلَّها مفتوحةٌ عليه))[5].

فالشريعة في التَّصوف هي الأساس، والطَّريقة هي الوسيلةُ، والحقيقة هي الثَّمرةُ، وهذه الأشياء الثَّلاثة متكاملةٌ منسجمةٌ، فَمَن تمسَّك بالأولىٰ منها سلك الثَّانية فوصل إلىٰ الثالثة، وليس بينهما تعارضٌ ولا تناقض؛ ولذلك يقول الصُّوفية في قواعدهم المشهورة: (كلُّ حقيقةٍ خالفتِ الشَّريعة فهي زندقةٌ) وقد تمسَّك أئمةُ التَّصوف بكتاب الله وسُنَّة

---

(1) نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية (صـ 154) تأليف: عبدالله بن أسعد اليافعي- دار الكتب العلمية — بيروت 1999م.

(2) الفتح الرباني (ص29).

(3) طبقات الصوفية (ص170).

(4) المصدر السابق (صـ230).

(5) المصدر السابق (صـ 132).

رسول الله ﷺ ودعوا أتباعهم إلىٰ الاهتمام بهما، فطريقُ القوم محررةٌ علىٰ الكتاب والسُّنة كتحريرِ الذَّهب والجوهر، فيحتاج سالكُها إلىٰ ميزانٍ شرعيٍّ في كلِّ حركةٍ وسكونٍ، وحقيقةُ طريقهم عِلْمٌ وعملٌ سداها ولُحمتها شريعة وحقيقة لا أحدهما فقط، ومَن دقَّق النَّظر عَلِمَ أنَّه لا يخرج شيءٌ من عُلوم أهل الله تعالىٰ عن الشريعة، وكيف يخرج والشريعة مركبهم في بحر الحقيقة؟

فهذه أيُّها الأخ الكريم أقوالُ ونصائحُ شيوخ التَّصوفِ في التَّمسُّكِ بالشَّرع ظاهرًا وباطنًا، فلا يأتي أحدٌ بعد ذلك فيتَّهم التَّصوفَ سواء بجهلٍ أو بخبثِ طويَّةٍ أنه شيءٌ مغايرٌ للإسلام.

علاقة أئمة الإسلام وعلوم الشريعة بالصوفية

إنَّ من المظاهرِ الواضحةِ الجليَّةِ في تاريخ أُمَّةِ الإسلام انتماءَ كثيرٍ من عُلماء الشَّريعة والحاملين للواءِ الدِّين الإسلامي للتصوف ممَّن لا يحصيهم عدٌّ ولا حصرٌ في العلوم العقلية والنقلية كافة، ودلالةُ هذا أيُّها الأخ الكريمُ أن التَّصوف هو حقيقةُ وجوهرُ الإسلام وشريعته، وهو الذي اتَّخذَ منه هؤلاء العلماءُ الأجلَّاءُ المبرزين منهجًا وطريقًا للوصول إلىٰ رحاب الله، فلو لم يكن التَّصوف قائمًا علىٰ الشَّرع لما انتمىٰ إليه العلماءُ وأهلُ القرآنِ والفقه والتوحيد والحديثِ وأئمة اللغة وحملة الشريعة الذابون عنها كل دخيل، وسنعرضُ فيما يلي أسماءَ وأحوالَ بعض علماء الشريعة ممَّن عُرفوا بالتَّصوُّف.

علاقة السادة الصوفية بالقرآن وقراءاته:

إن تراجمَ وكُتبَ طبقات الصُّوفية مليئةٌ باهتمام المنهج الصُّوفي بكتاب الله، وأهمية وجود وردٍ يوميٍّ للمريد لا ينقطع عنه حتىٰ يكونَ موصولًا بكلام الله، وفوق ذلك فإنَّ من الحقائق الثَّابتةِ أنَّ سند قراءات القرآن الكريم الموصولةِ إلىٰ سيِّدنا رسول الله عبر العصور- والتي تلقَّت الأُمَّة عن طريق رجال هؤلاء السَّند كتابَ ربِّها- كان الكثير

منهم من أهل التَّصوف، فإنَّه ما من قراءةٍ من القراءات إلَّا وبها علماء ممَّن عُرفوا بالتَّصوُّف منهجًا وسلوكًا. وعلىٰ سبيل المثال شيخ الإسلام زكريَّا الأنصاري مرجع القراءات القرآنية يروي القراءاتِ السَّبع وأغلب أسانيد القراءاتِ تعود إليه وهو من كبار رجال التَّصوف، وله مؤلفات في التَّصوف، وهو الذي شرح الرسالة القُشيرية التي هي دستور أهل التَّصوف. وهناك كتاب في تراجمِ أهل القرآن وعلماءِ القراءات للحافظ الذهبي وهو كتاب «معرفة القرَّاء الكبار علىٰ الطَّبقات والأعصار» نجد فيه الكثيرَ من القُرَّاء من أهل التَّصوف والسُّلوك منهم:

الإمام أحمد بن علي البغدادي ترجَم له في هذا الكتاب فقال: «أبو الخطاب الصُّوفيُّ المقرئ، واسمه أحمد بن عليٍّ البغدادي، من شيوخ الإقراء ببغداد، توفي سنة ستٍّ وسبعين وأربعمائة»[1].

«عبدالوهَّاب بن الأمين عليِّ بن عليِّ بن عُبيد الله الإمام أبو أحمد بن سكينة البغدادي المُقرئ الصُّوفيُّ، شيخُ العِراق في عصره»[2].

«عزُّ الدِّين الفاروثي، العلَّامة أبو العبَّاس أحمد بن الإمام أبي محمَّد إبراهيمَ بن عمر بن الفرج بن أحمدَ بن سابور بن عليِّ بن غنيمة الواسطي، المقرئ المفسِّر الشَّافعي الخطيب الصُّوفي، أحد الأعلام، وُلد سنة أربع عشرة وستمائة بواسط، وقرأ القراءات علىٰ والده... إلىٰ أن قال: وقدم بغداد سنة تسع وعشرين فسمع الحديث من عمر بن كرم والشيخ شهاب الدين السَّهروردي ولبس منه الخرقة- خرقة التصوف- وأبي الحسن القطيعي وخلق سواهم. وكان فقيهًا عالمًا علَّامة مُفتيًا عارفًا بالقراءات ووجوهها،

---

(1) معرفة القراء الكبار علىٰ الطبقات والأعصار (446/1) تأليف: أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان بن قَايْماز الذهبي -مؤسسة الرسالة بيروت- الطبعة الأولىٰ، 1404-تحقيق: بشار عواد معروف وشعيب الأرناؤوط وصالح مهدي عباس.

(2) المصدر السابق (582/2).

بصيرًا بالعربية واللغة عالمًا بالتَّفسير خطيبًا واعظًا زاهدًا خيرًا، صاحب أورادٍ وتهجُّدٍ و مروءة وفتوةٍ وتواضعٍ، ومحاسنه كثيرةٌ، وكان له أصحابٌ ومريدون انتفعوا بصحبته في دِينهم ودنياهم))[1].

((زاهر بن رستم، الشيخ أبو شجاع الأصبهاني ثم البغدادي، المقرئ الفقيه الشَّافعي، ولد سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة، وصحب الصُّوفيةَ ثم جاور وأمَّ بالمقام، وروىٰ الكثير))[2].

((محمد بن أبي العلاء، محمَّد بن عليٍّ بن المبارك، الإمام موفق الدِّين أبو عبدالله الأنصاري الربَّاني النصيبي المقرئ الشَّافعي الصُّوفي، نزيل بَعلبك وشيخ الإقراء بجامعها، وشيخ الخانقاه... وأخذ عنه القراءات جماعةٌ من أهل بعلبك وتخرجوا به))[3].

((محمَّد بن نصير بن صالح، الإمام أبو عبدالله المصري المقرئ الصُّوفي، نزيلُ دمشق... كان قيِّمًا بمعرفة القراءات بصيرًا بها عارفًا بكثير من عِللها، مجموعَ الفضائل عاقلًا ديِّنًا))[4]. وبهذا الكتاب كثير من تراجِم أهل التَّصوف حملة كتاب الله.

فهؤلاء هم الصُّوفية أهل الله وحفَّاظ كتابه ممَّن علَّموا الأمةَ القرآنَ الكريمَ الذين تلقَّوا القرآنَ وكانوا حفظته، والذين هم في سلسلةِ أسانيده المباركةِ.

علاقة السادة الصوفية بالسنة النبوية:

بالنَّظر إلىٰ مصنَّفات الحديث في أُمَّة الإسلام نجدُ أنَّ أئمةَ التَّصوف كانوا في سَند مَن روىٰ صحاح السُّنَّة موصولةً بسندها إلىٰ رسولِ الله ﷺ إلىٰ وقتِنا الحالي.

فهذا الإمام القَسْطلَّاني العالم الرَّبَّانيُّ الصوفيُّ الذي شرحَ صحيح البخاري.

---

(1) معرفة القراء الكبار (2/692).

(2) المصدر السابق (2/599).

(3) المصدر السابق (2/710).

(4) المصدر السابق (2/724).

والإمام النَّووي شارحُ صحيح مسلم حينما يَذكر سندَه في تلقِّي صحيح مسلمٍ، فيذكر: فلانٌ عن فلانٍ الصُّوفيِّ ، أو عن فلانٍ وكان من أهلِ التَّصوفِ، أو فلانٌ وكان من أئمَّة التَّصوفِ، وكلُّ ذلك في سندِ الإمام النَّووي، الَّذي كان علىٰ درجة عاليةٍ من التَّصوفِ الرَّبَّانيِّ والتحقيق، فسندُ روايتِه لصحيح مسلم فيه كثير من أئمة التَّصوف.

وفي كتاب «طبقات الحفَّاظ» للإمام الذهبي- وهو مَن هو في علوم الحديثِ والأسانيد- يذكر العشراتِ من أهل التَّصوفِ من الحفَّاظ الذين اتَّصل سندُ روايتهم للحديث برسول الله ﷺ، ووصلت إلينا أحاديثه ﷺ عن طريقِهم، فعلىٰ سبيل المثال:

«اليونيني: الشيخُ الفقيهُ القدوةُ الحافظُ الإمامُ تقيُّ الدِّين أبو عبدالله محمد بن الحسين... لبسَ الخِرقةَ من الشيخ عبدالله البطائحي صاحب الشيخِ عبدالقادر وصَحِبَ الشيخَ عبدَالله اليونيني»[1].

يتحدَّثُ عن سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة فيقولُ: «وفيها ماتَ كبيرُ الصُّوفية المحدِّث جعفرُ بن محمد بن نصير الخُلديِّ ببغداد»[2].

«محمدُ بن داودَ بن سليمان، الحافظُ الزَّاهد الحجَّة شيخُ الصُّوفية أبو بكر النَّيسابوري»[3].

«الماليني، الحافظُ العالم الزَّاهد أبو سعد أحمدُ بن محمَّد بن أحمدَ بن عبدالله... جمعَ وحصَّل من المسانيد الكِبار شيئًا كثيرًا، وكان ثِقةً متقنًا صاحبَ حديثٍ، ومن كبارِ الصُّوفية، له كتاب أربعين التَّصوف»[4].

ويتحدَّثُ عمَّن ماتَ في سنة إحدىٰ وسبعين وثلاثمائة فيقول الذهبي: «والقدوةُ أبو

---

(1) تذكرة الحفاظ (4/1439) لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي — المحقق: عبدالرحمن بن يحيىٰ المعلمي اليماني-دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان.

(2) المصدر السابق (3/ 869).

(3) المصدر السابق (3/901).

(4) المصدر السابق (3/1070).

عبدالله محمَّد بن خفيف الصُّوفيِّ شيخُ بلادِ فارس))[1].

وبالتَّتبعِ لجميعِ تراجمِ أسانيدِ كتبِ الحديث المتَّصلة ستجدُ كثيرًا من رجالِ الحديث من الصُّوفيةِ السالكين، وعلىٰ سبيل المثال:

الشاه أحمد وليُّ الله بن عبدالرحيم الدَّهلوي، كان حنفيًّا من أهل الطَّريقة النَّقشبندية، وله من الكتب في التَّصوف والسُّلوك الكثير، ولا يوجد لمحدِّثي الهند إسنادٌ يعتبرون به في الحديث أقوىٰ من أسانيد الشاه ولي الله، والتي أخذها عن مشايخه من أهل الحرمين مكةَ والمدينة، وكلُّ أسانيد كُتب الحديث المتداولة في الهند وعن علماءِ الهند حتىٰ مَن ينتسبُ منهم للسَّلفية تصبُّ وتنتهي لهذا الإمام الصوفيِّ.

ومع الأسف نجدُ أنَّ بعض مَن يحقِّقون الكُتب يحذفون الأقسامَ التي تَذكر أسانيدَ التَّصوفِ والمتصوِّفة، أو يَعملُون علىٰ التَّعمية عليهم، ولكن والحمد لله كتبُ التراجِم والسِّير شاهدةٌ بجهود أهل التَّصوف في حفظِ و إيصال سُنَّة رسول الله ﷺ إلىٰ المسلمين.

أعلام الصوفية في علم أصول الفقه:

وفي عِلم أصولِ الفقه نجدُ أنَّ أعلام هذا العِلْم- الذي يَحفظ ويُؤصِّل تدوينَ وتنظيمَ شريعة الإسلام- أغلبُهم من أهل التَّصوُّف والسُّلوك إلىٰ الله، الذين حَفِظَ الله بهم شريعةَ الإسلامِ، ونذكرُ منهم علىٰ سبيل المثال لا الحصر ممَّن لهم التَّصانيف الكثيرة واليدُ الطُّولىٰ في هذا العلم.

الإمامُ أبو حامدٍ الغزالي حُجَّةُ الإسلام.

العزُّ بن عبدالسلام سلطان العلماء.

تقي الدِّين السُّبكي.

تاج الدين السبكي صاحب جمع الجوامع وغيره من كتب الأصول.

---

(1) تذكرة الحفاظ (3/950).

جلال الدِّين المحلِّي.

جلال الدِّين السُّيوطي.

زكريَّا الأنصاري شيخ الإسلام.

ابن عابدين الفقيه الحنفي صاحب الحاشية.

فهذه أمثلةٌ فقط – وإلا فإن القائمة تطول جدًّا - لبعض عُلماء أُمَّة الإسلام ممَّن كانوا من أهل التصوف والسُّلوك والطريق وبرزوا في عِلم أصول الفقه، وهو العلمُ الذي عليه مدار حِفظ وفهم مصادر شريعةِ الإسلام.

أعلام الصوفية في علم الكلام ودورهم في حفظ العقائد:

وفي علم التَّوحيد والكلام: كان لعلماءِ الكلام من أهل التَّصوف دورٌ كبيرٌ في حِفظ العقائد والذَّبِّ عن الإسلام، ومصنَّفاتُهم تشهدُ بذلك مثل:

كتب حجة الإسلام أبي حامد الغزالي وأثرها في حِفظ العقيدة والردِّ على الفلاسفة والفرقِ الضَّالة كثيرة جدًّا.

سعد الدِّين التَّفتازاني.

تقيُّ الدِّين السُّبكي.

تاجُ الدين السبكي.

إبراهيم اللَّقاني صاحب الجوهرة.

أحمد الدردير صاحب الخريدة البهية.

إبراهيم البيجوري.

وفي باقي علومِ الإسلام من فقهٍ ولغةٍ وتراجِم وتاريخٍ وغيرِ ذلك تجدُ أنَّ كثيرًا من المبرَّزين في هذه العلوم والفنون كانوا من أهل التَّصوف والسُّلوك إلى الله تعالى، فكيف يزعم زاعمٌ بعد ذلك أنَّ التَّصوف وأهلَه بعيدون عن شريعة الإسلام، فهذه كتبُ

التَّاريخ والتراجِم والسِّير شاهدةٌ لمنهج التَّصوف وعلماءِ الصُّوفية بالسَّبق والفضلِ في العلوم كافة، ويكفيك أنْ ترجعَ لكتاب «سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي وترىٰ العدد الكبير من أفاضلِ العلماء والمشايخ قد وُصفوا بالصُّوفي الكبير، أو بإمامٍ من أئمة التَّصوُّفِ، أو بلُبسِ خِرقة التَّصوف والسُّلوك. ◆

الخاتمة

وبعد هذا العرض الموجز الذي أردنا فيه بيان أصالة التصوف في الشريعة الإسلامية أحببنا في نهاية هذا العرض أن نُشيرَ إلىٰ أمرين مهمين يتعلقان بتلك الأصالة:

الأمر الأول: بيان أنَّ الممارسات الخاطئة التي تحدث ممن ينتسبون للتصوف بشكل عام ليست من التصوف؛ فقد التحقَ بالصُّوفيَّةِ بعضُ المدَّعين ممَّن لا عِلم لهم بكتابٍ ولا سُنَّةٍ وليس لهم من الالتزام بالشَّريعة وأحكامِها نصيبٌ كبيرٌ، وأيضًا هناك من الجُهلاء المخدوعِينَ الذين لُبِّسَ عليهم أمرُ التَّصوفِ فابتعدوا عن حقيقتِه، فهذه الطوائف هي التي تُشوِّهُ صورةَ التَّصوُّفِ الإسلاميِّ الصَّحيحِ، بل ومنهم مَنْ يتَّخذُ من دعوىٰ التَّصوفِ سُلَّمًا لتحصيل أغراضِهم وشهواتِهم، وابتدعوا فيه بِدَعًا ما أنزل الله بها من سلطان، وقد عرفتَ أخي المسلم حدودَ وضوابطَ التَّصوُّف، فأنتَ علىٰ بينةٍ من أمرِكَ حتىٰ لا يدَّعي أحدٌ أنَّه متصوفٌ وهو غير ملتزم بتلك الحدود والضَّوابط فهذا دَعيٌّ كذَّابٌ، فَمن تحلَّل من الشَّريعة فليس في قلبه مكانٌ للحقيقة الصُّوفية ومن الظُّلم أن يعترضَ بعضُ النَّاس بفِعْل هؤلاء الجهلةِ ويجعلَه حُجَّةً علىٰ التَّصوفِ والصُّوفيةِ، فما التَّصوُّف إلا اتِّباعُ الكتاب والسُّنة، وما الصُّوفية إلا قومٌ جاهدوا أنفسهم في الله فهداهم الله. فليس من التَّصوُّف الإسلاميِّ الكذبُ علىٰ الله، والدعاوىٰ العريضة، والبلادةُ والبطالةُ والجهالةُ بدِين الله وادِّعاءُ الولايةِ والمتاجرةُ بالكرامات، وليس منه ما يحدثُ في الموالد من اختلاطٍ محرَّمٍ وطبلٍ وزَمْرٍ، وليس من التَّصوف ادِّعاءُ الغيبِ والدَّجلُ والشَّعوذةُ، فكلُّ هذه الممارسات لا تمتُّ للتصوف بصلةٍ، وإنَّما هي أفعالٌ محرَّمةٌ في الشَّريعة فضلًا عن أن تكونَ من التَّصوُّفِ وسلوكِه. وكذلك ادِّعاء أنَّ التَّصوُّفَ هو شعائرُ تقديسٍ للقبور، وهي دعوةٌ مجرَّدةٌ من الدَّليل، فعلومُ التَّصوفِ وكُتُبُه ليس فيها أنَّ الدعوةَ لزيارة الأضرحة ركنٌ من أركان التَّصوفِ أو قاعدةٌ من قواعده أو مقامٌ من مقامات السُّلوك إلىٰ الله، فلم يستحب الصُّوفيةُ من زيارة القبور إلَّا ما استحبَّته الشَّريعةُ، ولم يجوِّزوا أو يمنعوا إلَّا ما أجازتْه

الشَّريعةُ أو منعَتْهُ، ولو تصوَّرنا أنَّه لا يوجد قبورٌ أو أضرحةٌ علىٰ وجه الأرض ما نقص من عِلْم التَّصوُّفِ والسُّلوكِ إلىٰ الله شيءٌ، ولا نقصَ من يقين الصُّوفيِّ بربِّهِ وبطريقِه إليه شيءٌ. ويُوجَّه للتَّصوُّف تهمةُ الغلوِّ في الأشخاص والشُّيوخ، وتلك دعاوىٰ لا نصيبَ لها من الصِّحَّة إلا ما يقعُ من الجهلاء في حقِّ مَن يدَّعون المشيخة؛ لأنَّه ما من شيخٍ صوفيٍّ إلا وهو يَضرب المثَلَ الأعلىٰ في السَّير علىٰ النَّهج المُحمَّديِّ والطَّريق المُصطفويِّ الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ في تعامُلِه مع النَّاس، فالشيخُ الصُّوفيُّ الحقُّ هو مَن يدلُّ المُريدَ الصُّوفيَّ علىٰ الله لا علىٰ نفسِه، ويبذل نفسَه ومالَه للنَّاس متواضعًا، فرسولُ الله هو قدوتُه في ذلك، أمَّا الأدعياءُ فليس لهم من التَّصوف إلَّا الرُّسومُ، وليس لهم من حقيقةِ التَّصوف نصيبٌ ولم يَشَمُّوا لطريق السُّلوك إلىٰ الله غُبارًا، فالتَّصوفُ بريءٌ مِن أيِّ سلوكٍ أو فعلٍ لا يتفقُ مع شريعة الإسلامِ أصولًا وفروعًا، فهذا ليس من التَّصوف في شيءٍ، فما التَّصوفُ إلا تحقيقُ العبودية لله سبحانه وتعالىٰ في أعلىٰ صُورها، وأن يكون الله هو القصد والمُنتَهىٰ عند كلِّ صوفيٍّ صادقٍ.

الأمر الثاني: وهو حاجة المسلم إلىٰ التَّصوف كمَنهجٍ تربويٍّ وسلوكيٍّ؛ فالمسلم بعد أن يتعرفَ علىٰ حقيقة التَّصوُّف، وأنه هو رُوح الإسلام وجوهره، ويتعرَّف علىٰ تراجم وسِيَر أهلِ التَّصوفِ وسلوكِهم يجد نفسَه منجذبًا إلىٰ سلوك هذا الطَّريق الذي يُلبِّي كافَّةَ احتياجاته النَّفسيةِ والرُّوحيةِ والقلبيةِ فهو أصل التَّربية الرُّوحية، فيعيد للإنسان المسلم تشكيل شخصيته علىٰ أساس إنسانيٍّ وأخلاقيٍّ، فتنسجم النَّفسُ البشرية مع الكون حولَها، ويصحُّ القلب ويصبح موصولًا بربِّ العالمين، وآثار ذلك كلِّه تنتج من المجاهدات الصُّوفيةِ من الذِّكر والفِكر والعبادات وحُسنِ الخُلُق وتَتَبُّعِ سُنَّةِ رسول الله ومحبَّته ومحبة عبادِ الله الصَّالحين، فيجد المرءُ قلبَه قد لان وتَشِيعُ في نَفْسِه السَّكينةُ والهدوءُ ويصبح هادئَ الطِّباع مع النَّاس لينًا معهم نافعًا لهم بقدر استطاعته، وتحلُّ بقلبِه أنوارُ ذِكر الله، فتحدث له الطُّمأنينة التي هي جَنة القلوبِ ونعيمُها، ثم ينعكس

ذلك كلُّه علىٰ علاقته بمَنْ حوله ومجتمعه، فلا يكون في مكانٍ أو زمانٍ إلَّا وهو مصدرٌ للخير والعطاءِ والبهجةِ وبابٌ لدعوة الخَلْق إلىٰ ربِّهم من خلال العملِ قبل القول والحالِ قبل المقالِ، فلنطبق التَّصوفَ في حياتِنا يا عبادَ الله ملتزمين بفرائض ربِّنا ذاكرينَ له علىٰ الدَّوام، ولنعوِّد قلوبَنا أن تكون علىٰ الدَّوام موصولةً بخالقها، ونتسم بالرفق في أمورنا كلِّها صغيرها وكبيرها، محققين قولَ رسول الله ﷺ: «إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلَّا زَانَه، ولا يُنزعُ من شيءٍ إلَّا شَانَه»[1]. فالتصوُّف هو حبل النَّجاة في هذا العصر الذي تتلقف فيه الأهواءُ من اليمين والشمال قلوبَ وعقولَ النَّاس علىٰ اختلاف أفكارِهم وطبقاتهم، فالعودة لأسلوب الشيخ والتِّلميذ في التَّربية أو الشيخ والمريد من أنفع الأساليب لهداية الخَلْق والحفاظ عليهم من أيِّ تفكيرٍ منحرفٍ أو انحرافٍ في السُّلوك والأفعال، فلقاءُ المُريد بشيخِه ولو كان لوقتٍ قليلٍ أسبوعيًّا في لقاء رُوحانيٍّ صُوفيٍّ يصل القلبَ بالله ويرتبط الإنسانُ فيه بشيخِه، فتنشأ بينهم الرَّابطة الرُّوحية التي يستمد منها المريدُ الطَّاقةَ لتضعه علىٰ المنهج الربَّانيِّ الصحيحِ مع محافظة الصُّوفيِّ علىٰ الذِّكر والتَّعبدِ والأورادِ، فلا يُتصوَّر بعد ذلك أنَّ شخصًا كهذا تتسلَّل له أيُّ فكرةٍ أو منهجٍ خبيثٍ سواء علىٰ المستوىٰ الشَّخصي أو مستوىٰ المجتمع، فشَمِّرْ أخي الكريم عن ساعدَيك واتَّجه إلىٰ ربِّك ومولاكَ، واتَّخِذْ من التَّصوف طريقًا إليه، وسوف تجد أنَّ حياتَك قد تغيَّرت بفضل التَّصوف إلىٰ ما تُحبُّه وترضاه، وقبل ذلك إلىٰ ما يحبُّه الله ويرضاه.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆

(1) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (2594) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الرسالة الثالثة
دور التصوف في إصلاح الأفراد والمجتمعات الإسلامية

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: إلقاء الضوء على حال الأُمَّة الإسلامية في العصر الحديث.

المحور الثاني: صفات المصلح الصوفي المربي.

المحور الثالث: مظاهر الخلل في المجتمعاتِ الإسلاميةِ.

المحور الرابع: ملامح المنهجِ الصُّوفيِّ في التَّربية البشريَّةِ وتزكيةِ الفرد.

المحور الخامس: التَّصوُّف أداة لإصلاح الفردِ والمجتمعِ.

المحور السادس: معالم المنهج الصُّوفي لإصلاح الفرد والمجتمع.

المحور السابع: دور التصوف في حفظ هوية المجتمعاتِ الإسلاميةِ.

المحور الثامن: كيفية الإصلاح الاجتماعي في المنظور الصوفي.

المحور التاسع: كيفية الإصلاح السياسي في المنظور الصوفي

المحور العاشر: اهتمام التَّصوُّف بكيان الأُسرة المسلمة. ◆



«إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا»

آية **58** من سورة النساء

دور التصوف في إصلاح الأفراد والمجتمعات الإسلامية

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا بحثٌ موجزٌ عن المنهج الصُّوفي في الإصلاح نقترب فيه من التَّصوُّف كأداةٍ ومنهجٍ ونظامٍ لإصلاح الفردِ المسلمِ والمجتمعاتِ الإسلاميَّةِ، ونتحدَّث فيه عن الخِيار الصُّوفيِّ كمنقذٍ للأُمَّة الإسلاميةِ مما هي فيه الآن، وما يمتازُ به عن باقي المناهجِ الموجودةِ علىٰ السَّاحة الآن، فالذي ينظر لحال أُمَّةِ الإسلام اليوم يجدُ حالةً من التَّخبُّطِ علىٰ كافَّة علىٰ المستويات الفكرية والسلوكية كافة قد انتشرت في عددٍ كبيرٍ من الأقطار والمجتمعاتِ الإسلاميةِ، خاصَّةً في هذا العصر الذي تكالب أعداءُ الأُمَّةِ وتَداعَوْا عليها وتكتلوا ضدَّها؛ كما أخبر رسولُ الله ﷺ كتداعي الأكلة إلىٰ قصعتِها[1].

ومما زاد الأمر سوءًا وجودُ طائفةٍ من أبناء الأُمَّة نفسِها ضلَّت الطَّريقَ، فأساءوا إلىٰ دينِهم وأنفسهم وأُمَّتِهم وبلادِهم من حيث لا يشعرون. وسوف نحاول في هذا البحث

(1) ورد ذلك في حديث أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم علىٰ الإسلام (4297) من طريق بشر بن بكر حدثنا ابن جابر حدثني أبو عبدالسلام، والطيالسي في مسنده (1085) من طريق أبي الأشهب عن عمر بن عبيد التميمي العبشمي، وأحمد في مسنده (278/5) من طريق مرزوق أبي عبدالله الحمصي أنا أبو أسماء الرَّحبي كلهم عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يوشك الأمم أنْ تداعىٰ عليكم كما تداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها)) فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟! قال: ((بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ ولكنَّكم غثاءٌ كغثاء السَّيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابةَ منكم وليقذفنَّ الله في قلوبِكم الوهنَ)) فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: ((حبُّ الدُّنيا وكراهية الموت)).

وأبو عبدالسلام مجهول كما في التهذيب (390/4) ولكن تابعه أبو أسماء الرحبي وهو ثقة من رجال البخاري ومسلم كما في التهذيب (99/8).

وله شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ؛ أخرجه أحمد في مسنده (2/ 359) من طريق أبي جعفر المدائني أنا عبدالصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبدالله عن شبيل بن عوف عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لثوبان: ((كيف أنتَ يا ثوبان إذ تداعت عليكم الأُمم...)) فذكره بنحوه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (563/7): ((إسناده جيد)) والحديث بمجموع طرقه وشواهده يرتقي لدرجة الحسن إن شاء الله.

المُبَسَّط أنْ نَتَلَمَّسَ الطَّرِيقَ، ونُلْقِيَ الضَّوءَ علىٰ التَّصوُّف كمنهجٍ إصلاحيٍّ متكاملٍ للأفراد والمجتمعاتِ، وسوف يكونُ الكلامُ في هذا الأمرِ من خلال المحاور التَّالية:

المحور الأول: إلقاء الضوء علىٰ حال الأُمَّة الإسلامية في العصر الحديث.

المحور الثاني: صفات المصلح الصوفي المربي.

المحور الثالث: مظاهر الخلل في المجتمعاتِ الإسلاميةِ.

المحور الرابع: ملامح المنهجِ الصُّوفيِّ في التَّربية البشريَّةِ وتزكيةِ الفرد .

المحور الخامس: التَّصوُّف أداة لإصلاح الفردِ والمجتمعِ.

المحور السادس: معالم المنهج الصُّوفي لإصلاح الفرد والمجتمع.

المحور السابع: دور التصوف في حفظ هوية المجتمعاتِ الإسلاميةِ.

المحور الثامن: كيفية الإصلاح الاجتماعي في المنظور الصوفي.

المحور التاسع: كيفية الإصلاح السياسي في المنظور الصوفي.

المحور العاشر: اهتمام التَّصوُّف بكيان الأُسرة المسلمة. ◆

إلقاء الضوء على حال الأُمَّة الإسلامية في العصر الحديث

إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد اختصَّ هذه أُمَّة الإسلام بالأفضلية علىٰ سائر الأمم، فقال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ [آل عمران: 110]. واختصَّها سبحانه بالوسطيَّة والشَّهادةِ علىٰ النَّاس، فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]. وذلك مِن فضْل الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ هذه الأُمَّةِ حيث ميَّزها عن غيرِها من الأُمم بمجموعةٍ من الخصائصِ والصِّفاتِ والنِّعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصىٰ. وعبرَ العصور التَّاريخيةِ الزَّاهرةِ للحضارة الإسلاميةِ أدَّت الأُمَّةُ رسالتَها العالميةَ علىٰ المستوىٰ الدِّيني والثَّقافي والإنساني، فقدَّمت للبشريةِ أروعَ نماذجِ الحضارةِ في فترةٍ قياسيةٍ، ونَعِمَتِ المجتمعاتُ الإسلاميةُ وغيرُها بآثارِ هذه الحضارة، واستفادت منها وقطَفت من ثمارِها الخيِّرةِ عبرَ السِّنين، ووصلت أُمَّةُ الإسلامِ إلىٰ أعلىٰ درجاتِ الرُّقي البشريِّ. ولكن ينظر إلىٰ حال الأُمَّةِ اليومَ يجدُ عجبًا كيف تحولت هذه الأمة من أمة عظيمة بلغت أوج الحضارة والقوة إلىٰ أمة وصلت إلىٰ أدنىٰ درجات التخلف والضياع!

ففي مجال الاقتصاد والثَّروات: نجد أغلبَ الشُّعوبِ الإسلاميَّةِ يَغلِب عليها الفقرُ وخشونةُ العيش وانتشارُ البطالة، علىٰ الرغم من امتلاكِها لثرواتٍ طبيعية ومقدَّراتٍ تكفي لازدهار الأُمةِ قرونًا طويلةً. وفي مجال العُلوم والتَّقدُّم التِّقني: لا نستطيعُ أنْ نتحدَّث أننا قد فعلنا في هذا المجالِ شيئًا في عصرِنا؛ بل نعيشُ علىٰ استيراد تكنولوجيا الآخرين. وفي مجال الأخلاق: ترىٰ الفارقَ الكبيرَ بين أوامرَ وتعاليمِ الإسلامِ وبين سُلوكياتِ المسلمين. وفي المجالات السياسية: أصبحت الأُمَّة حقلًا لتجاربِ وتآمرِ أعدائِها من كلِّ حَدبٍ وصَوبٍ، وأصبحت خارطةُ البلاد الإسلاميةِ والعربية تُشَكَّل وفقًا لهوىٰ الاستعمار الحديث. وفي مجال الالتزام بالدِّين وتعاليمه: أصبح الالتزامُ به ينحصر عندَ البعض في مظاهرَ شكليَّةٍ، وأسماءٍ لمسمَّياتٍ مستحدَثةٍ تكاد تخلو من المضمونِ الحقيقي

للدِّين، وتَشَرْذَمَت الأُمَّةُ وتقطَّعت إلىٰ شِيعٍ وأحزابٍ تتناحرُ فيما بينَها، وكلٌّ منها يدَّعي احتكارَ الحقِّ لنفسِه وطائفتِه دون غيرِه.

وأما واقعُ الأُمَّةِ الاجتماعيُّ: فقدْ أصبحَ ضعيفًا مُهَلْهَلًا، فالعلاقاتُ الإنسانيةُ والرَّوابطُ القائمةُ علىٰ التَّراحم والمودةِ والإخاءِ التي تحفظُ كيانَ المجتمع وتُحكِم بُنيانه وتحمي نسيجَه من التَّفكُّكِ- لم نرَها كما مضىٰ، فنجدُ أن العلاقة بين الناس أصبحت تقوم علىٰ المصالح الدنيوية والمادية، وأصبحت المجتمعاتُ أكثرَ ميلًا للعُنف وقبولًا له؛ بعد أنْ كانت سِمة المجتمعات الإسلاميةِ الطِّيبة والسماحة.

وقد يتساءل المرءُ بِحَيرةٍ وتعجُّبٍ عن هذه الحال التي عليها الأُمَّة، ذلٌّ بعد عزٍّ، وفقرٌ بعد غِنىٰ، وتخلُّفٌ بعد رُقيٍّ، ما السببُ أو الأسبابُ؟ ولِمَ حدث هذا ويحدث؟! هل تَخلَّف المسلمون لتمسُّكهم بالدِّين؟ الجواب: لا، بل قد تخلَّف المسلمون عندما لم يتمسَّكوا بالمنهج الرَّبَّاني المحمَّدي في أمورِ دينِهم ودُنياهم فأفسدوا دينهم ودنياهم معًا.

وكان من مظاهرِ هذا التردِّي في أوضاعِ البلاد الإسلامية ظهورُ تياراتٍ تحمل اسمَ (الإسلامية) أو تنتمي إلىٰ المنهج الإسلامي بالاسم، صبغَت المجتمعاتِ الإسلاميةِ بصبغةٍ من التَّشدُّد الذي لا تعرفه وسطيةُ وسماحة الإسلام، بل وتعدَّىٰ الأمرُ إلىٰ إرهابٍ فكريٍّ واحتكارٍ لطُرقِ الهداية والالتزامِ بالدِّين، وتطوَّرت الأمورُ عند آخرين إلىٰ استخدام السِّلاحِ واستحلالِ الدِّماء التي عصمها اللهُ، ونهبِ الأموالِ المحرَّمةِ المعصومةِ.

وكذلك انتشارُ التَّياراتِ العلمانيةِ التي تُهاجم الدِّين ليلًا ونهارًا بمختلف الوسائل والسُّبل، ولا تجدُ مناسبةً إلَّا وهي تدسُّ سُمَّها بينَ أفرادِ المجتمعاتِ المسلمة، تحاول سلخَ النَّاسِ عن دِينهم بالكُليَّة، والتشكيكَ في أصول الدِّين وفروعِه، والسخريةَ من الملتزمين بأمورِ دينهم.

كلُّ هذه المصائب والبلايا أصابتِ المجتمعاتِ الإسلاميَّة بانتكاسةٍ وجمودٍ، ومما زاد الطِّينَ بِلَّةً اتخاذُ أعداءِ الإسلام من هذه المظاهر علىٰ تنوُّعِها ذريعةً لمهاجمةِ الإسلامِ

والمسلمين، والكيدِ لبلادِ الإسلام في صورٍ متعددةٍ ومن محاولاتٍ للتدخل فكريًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا، مما جعل الحاجة ماسَّةً إلىٰ التَّعرُّف علىٰ مَواطنِ الخلل في الأفراد والمجتمعاتِ، والبحثِ عن العلاج، وتقديمِ منهجٍ ربانيٍّ يَنتشِلُ الأُمَّةَ من هذا الواقع، فكان المنهجُ الصُّوفيُّ في التَّزكية والتَّربية والإصلاح أمثلَ المناهجِ وأشملَها لإصلاح حالِ المجتمعاتِ والأفرادِ، وعرضِ وسطيةِ الإسلامِ، والبُعدِ عن الأفكار المنحرفة، والسُّلوكِ العنيف.

وأهمُّ الفروق بين المنهج الصُّوفيِّ وباقي المناهج الأخرىٰ التي لا تَرتكِنُ إلىٰ تعاليمِ الدِّينِ الصحيحةِ وتعمل في مجال التَّربية والتَّزكية والإصلاح- هو انفصالُ هذه المناهج عن النُّور الرَّبَّاني والتَّوجيهِ الإلهيِّ في بيان ما يَصلح للنَّفوس والقلوبِ والمجتمعاتِ وما لا يصلح، فتطبِّقُ من النَّظريات والأعمالِ ما قد يكونُ محرَّمًا أو يخرج بالإنسان عن فطرتِه وأخلاقِه تحت دعاوىٰ الإصلاح والتَّمدن، فقد تتبنىٰ المناهجُ التي لا تجعلُ من الدِّين مرجعًا لها ما يخالفُ كلَّ الشَّرائع السَّماوية تحتَ زَعْمِ حاجاتِ النَّفسِ ومراعاةِ المدنية الحديثةِ وحقوقِ الإنسان، وترىٰ أنَّ ذلك من طُرقِ إصلاح النُّفوسِ وسدِّ حاجتِها، وتفتحُ البابَ أمام تطبيقِ تعاليمَ خاطئةٍ علىٰ الإنسان يظهر فيما بعد الأثرُ السَّلبيُّ لها في السُّلوكِ الإنسانيِّ، فانفصال المناهجِ التي تُعنَىٰ بالنَّفس البشريَّة عن التوجيه الإلهيِّ يؤدي بالضَّرورة إلىٰ خَللٍ في السُّلوك الإنسانيِّ لا محالة، وقد يظهر ذلك مبكرًا وقد يظهر متأخرًا. بل إن بعضَ المناهجِ التي تستظلُّ بمظلَّةِ الدِّين يغلب عليها تحقيقُ أهدافٍ أخرىٰ غيرِ العنايةِ بنفس الإنسان وقلبه ووضعِه في طريقِ الله، فتضعُ لنفسِها أهدافًا أخرىٰ لتحقيقِ ما تظنُّه مكاسبَ أو منافعَ تعودُ علىٰ جملة المسلمين، فتتعجَّلُ ثمارَ الإصلاحِ فلا ينتج من ذلك خيرٌ كثيرٌ بل قد يترتبُ علىٰ هذه المناهجِ من المفاسد أضعافُ المصالح المرجوة.

أما منهجُ التَّصوُّف فهو علىٰ العكس من ذلك، فهو يقومُ علىٰ الرَّبط بين حركات القلوبِ والأجسادِ والسُّلوكياتِ، وهو بذلك يحقِّقُ المعادلةَ بين كمالِ الحياة الرُّوحيةِ للإنسان وسموِّ نفسِه وبين تحقيقِ أعلىٰ صورِ وجودِه الماديِّ في الأرضِ وخُطُواته فيها، فجمعَ بذلك بين الجانب الرُّوحيِّ في أعلىٰ الصُّور، وهو ربطُ الرُّوحِ والقلبِ بالله سبحانه وتعالىٰ وبين تحقيقِ الجوانب الماديةِ في الحياة، فينتج عن ذلك الإنسانُ السَّويُّ المتكاملُ وتكتمل صورةُ خلافته في الأرض.

صفات المصلح الصوفي المربي

علمتَ أنَّ التصوف علمٌ من علومِ الشريعة الإسلاميَّة، له قواعدُه ومصطلحاته التي تميِّزه عن غيره من العلوم، وكلُّ علمٍ من العلوم يحتاج إلىٰ معلِّم يعلِّم العلمَ ويشهد لَمن يطلبه ببلوغِ درجةٍ عاليةٍ فيه تؤهِّله للكلام فيه وتعليمه، فالشيخ في التصوف ركنٌ هامٌّ في السَّيْر والسُّلوك، فكما أنَّ العلومَ الإسلاميَّةَ وغيرَها من العلومِ الإنسانيَّةِ والتَّطبيقيةِ العمليَّةِ بدون العلماءِ والعارفين بها تكون مجرَّدَ سطورٍ مغلقةِ العباراتِ، فكذلك المعارفُ والعلومُ الصُّوفيةُ لابدَّ لها من شيخٍ يَعرِضُها ويشرحُها ويطبِّقُها ويرشدُ المريدين إليها.

فهل رأيتَ أخي الكريم طبيبًا قرأ بعضَ الكتبِ ثُمَّ قام بفتح عيادةٍ لمداواةِ المرضىٰ وإجراءِ العمليَّات الجراحيةِ دون الدراسةِ علىٰ يدِ الأطباءِ وشهادتِهم له أنَّه بلغ تلك المرتبةَ التي تؤهِّله لذلك؟! أو رأيتَ طلَّابًا يدخلون المختبراتِ وحدهم دون وجودِ مشرفٍ يرشدُهم ويعلِّمُهم ويُشرِفُ علىٰ عملِهم وعلىٰ عمليةِ تعليمهم؟!

وكذلك التصوُّفُ يحتاج إلىٰ معلِّم ومرشدٍ عارفٍ بطريق السُّلوك إلىٰ الله شهد له العارفون ببلوغه مرتبةً في المعرفة بالله والعلم بالشريعة والنَّفْسِ ومراتبِها ومعالجتِها.

فالشيخ الصوفيُّ الحقُّ هو العالمُ الربَّاني السَّائرُ في طريقِ الله، العارفُ بالشريعة الإسلامية، المنضبطُ بحدودها، المتقرِّبُ إلىٰ الله بجوارحِه ونفسِه وقلبِه، المتبتِّلُ إلىٰ الله

بالعبادة والدعاء، المتمسِّكُ بسُنَّةِ النبيِّ ﷺ يسيرُ علىٰ نهجه وخطاه، الشَّفوقُ الرحيمُ بخَلْق الله، يتولَّىٰ إرشادَ النَّاس وتوجيههم إلىٰ طريق الله.

وتأتي أهمية وجود الشيخ العالِم والمربي في علم التصوُّف وفي حياة الصوفي أنَّه الدليلُ والهادي إلىٰ طريق تزكيةِ النَّفْس وصلاحِ القلب ومعالجةِ أمراض القلوب، فهو يحبِّب الله إلىٰ عباده، ويحبِّب العبادَ إلىٰ الله، ولا بدَّ لمن أرادَ سلوكَ سبيلِ التصوف مِن الرُّكون إلىٰ شيخٍ من أهل التصوفِ الحقِّ وأهلِ العلم والصَّلاحِ الذين تلقَّوا علمَ الشريعةِ والحقيقةِ شيخًا عن شيخٍ في سلسلةٍ متصلةٍ بسيِّدنا رسول الله ﷺ.

فلا بدَّ للمريد السالكِ مِن شيخٍ يبيِّنُ له الخطأَ من الصَّواب، ويرشدُه بالقول والفعلِ والحالِ، فالشيوخُ عارفون بمسالكِ التقرُّبِ إلىٰ الله، فيعرفُ ما يصلح لهذا الشَّخص من الذِّكر والسُّلوك وما لا يصلحُ له، فيرشدُهم ويتفقَّدُ أحوالَهم وعباداتِهم، فالشيخُ الصوفيُّ الكاملُ قائمٌ في الأمَّة مقامَ رسول الله ﷺ من حيث التربيةُ والإرشادُ والدلالةُ علىٰ طريقِ الله؛ كما كان حالُ رسولِ الله ﷺ كان عندما يستوصيه أصحابُه في أعمالِ الخير كان يوصي كُلًّا حسب حالِه وما يناسبُه.

والشيخُ المتصدِّرُ لتربيةِ المريدين وإرشادِهم إلىٰ طريق الحقِّ هو العالمُ بالعلوم الشرعيةِ المشهودُ له بذلك، فلا يجوزُ أن يتصدَّر الجاهلُ لمقامِ إرشادِ الخلق، فلا بدَّ من الجمعِ بين علومِ الشريعةِ وعلومِ التصوُّف والطريقِ والسُّلوكِ وأقوالِ أهلِ الله وعباراتِهم ومصطلحاتِهم؛ بحيثُ يكونُ جامعًا بين الحقيقةِ والشريعةِ، إضافةً إلىٰ كونه عالمًا بأحوالِ وأمورِ الخَلْقِ والنَّفْسِ وأمراضِها وعلاجِها، مطَّلِعًا علىٰ أحوالِ البيئةِ التي يعيشُ بها وآفاتِها، غيرَ منعزلٍ عن النَّاس، يقولُ الإمامُ الجُنيد: «من لم يحفظِ القرآنَ ولم يكتبِ الحديثَ لا يُقتدَىٰ به في هذا الأمر؛ لأنَّ علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتابِ والسُّنةِ»[1].

---

(1) الرسالة القشيرية (1/79).

فالشيخُ الصوفيُّ الكاملُ: هو العالِمُ المتشرِّع العابدُ الزَّاهدُ الذي ترقَّىٰ في طريق التصوُّف علىٰ أيدي المشايخِ العارفين حتَّىٰ كَمُلَ ونضِجَ علمًا وحالًا وحكمةً وقوَّةً روحيَّةً، وشُهِدَ له بأهليَّتِه للإرشادِ والتَّسليكِ والوعظِ وتلقينِ الذِّكرِ.

والمتتبِّعُ لتراجم أهلِ التصوُّف في القديمِ والحديثِ يجدُ أنَّ شيوخَ وأئمَّةَ الصوفيةِ كانوا يتحلَّون بكلِّ الصفاتِ الحميدةِ، ويبتعدون عن كلِّ صفةٍ ذميمةٍ، ليسوا بمعصومينَ وإنَّما هم محفوظون من الله تَحفُّهُم عنايةُ الله ولطفُه، يجري عليهم ما يجري علىٰ سائرِ الخلق من القضاءِ والقدرِ، ويصدر منهم ما يصدر من معصيةٍ وطاعةٍ لكنهم سريعوا التوبةِ لربهم، فالعصمةُ للأنبياءِ والحفظُ للأولياء. والحذرَ الحذرَ من أدعياءِ التصوُّف والمشيخةِ الذين اشتروا بدينِ الله ثمنًا قليلًا، فلا يُعرَف أحدُهم لا بعلمٍ ولا حالٍ ولا سلوكٍ ولا عبادةٍ ولا أخلاقٍ، ويزعم أنَّه من مشايخِ التصوف الواصلينَ، داعيًا النَّاسَ إلىٰ نفسه معظِّمًا لها، والشيخُ الحقُّ هو من دعا النَّاسَ إلىٰ الله لا إلىٰ نفسِه.

مظاهرُ الخللِ في المجتمعاتِ الإسلاميةِ

عندَ النَّظر في حال أغلبِ المجتمعاتِ الإسلامية نجد أنَّه قد أصابها كثيرٌ من مظاهر الخَللِ والضَّعفِ والانحرافِ عن المنهج الإلهي الرَّبَّاني الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالىٰ لهذه الأُمَّة، وتنوَّعت صُورُ وأشكالُ هذا الخَللِ في كثيرٍ من نواحي الحياةِ في تلك المجتمعات، بالرَّغم من أنه ما من صغيرةٍ ولا كبيرةٍ في حياة المسلم إلَّا وهي محدَّدةٌ ومحكومةٌ ومبيَّنةٌ بمنهجٍ ربَّاني وشريعةٍ ضابطةٍ لكلِّ أمور الحياة دقيقِها وجليلِها، والالتزامُ بهذا المنهجِ وتلك الشَّريعةِ يؤدِّي إلىٰ تحقيقِ الصُّورة الطَّيبة الخيِّرةِ علىٰ مستوىٰ الفرد والمجتمع، والابتعادُ عن هذا المنهجِ وتلكَ الشَّريعةِ يؤدي إلىٰ ظهور الفسادِ والانحرافِ في الأفراد والمجتمعات. فَسِرُّ صلاحِ هذه الأُمَّة وتقدُّمِها وشيوعِ الأمنِ والرَّخاءِ فيها هو الالتزامُ بمنهجِ الله، وأيُّ انحرافٍ عنه ينتج من الفسادِ بقدر هذا الانحراف، وتنتشرُ مظاهرُ الوهن

والخللِ علىٰ مستوىٰ الأفراد والجماعاتِ، ومن أهمِّ أسبابِ الابتعادِ عن منهجِ الله وظهورِ السُّلوكياتِ السَّلبيةِ في المجتمعات الإسلامية- الفراغُ الرُّوحيُّ، والذي يعدُّ السبب الرَّئيس الذي تتفرعُ منه كثيرٌ من مشكلاتِ الأفراد والجماعاتِ. والإسلامُ لم يُغفل أهميةَ الجانبِ الرُّوحيِّ في حياةِ الإنسانِ بل قد أولىٰ الرُّوحَ والقلبَ الاهتمامَ الأكبرَ لصلاح القلبِ والنَّفسِ، ومزجَ بين الجانبِ الرُّوحيِّ والماديِّ بطريقة لا تكاد توجد إلَّا في المنهجِ الإسلاميِّ الرَّبَّاني.

ولذلك فحدوثُ خللٍ في الجانبِ الرُّوحي القَلبيِّ يؤدِّي بالضَّرورةِ لظهورِ الخللِ في سُلوك الأفرادِ والمجتمعاتِ، والأمثلةُ علىٰ ذلك لا تُعدُّ ولا تُحصىٰ يراه المرءُ في نفسِه وفيمَن حولَه، فكلَّما زادَتْ طهارةُ النُّفوس والقلوبِ زادت السُّلوكياتُ الطَّيبةُ والأخلاقُ الحسنةُ والعكسُ بالعكسِ، فالفراغُ الرُّوحيُّ عند كثيرٍ من أفرادِ أُمَّةِ الإسلام ومجتمعاتِها أدَّىٰ بالضَّرورةِ إلىٰ ظهورِ أمراضٍ في المجتمعاتِ في شتَّىٰ النَّواحي وجميعِ المظاهرِ الفكريَّة والاقتصاديَّة والعلميَّة والسُّلوكيَّة والأخلاقيَّة والسِّياسيَّة، وكلُّ ذلك يظهرُ علىٰ مستوىٰ الأفرادِ والمجتمعاتِ، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يحصرَ صورَ هذا الخَللِ في هذه المجتمعاتِ التي تُعدُّ مجتمعًا واحدًا يربط بينها رباطُ الإسلام الذي جعله الله سبحانه هو الجامع لكلِّ الأفراد التي تدين به، ومَردُّ هذا الخللِ يرجعُ إلىٰ حال القلوبِ والنُّفوس، وبيانُ ذلك من حديثِ النَّبيِّ ﷺ: ((ألَا وإنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذَا فسدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه ألَا وهي القلبُ))[1].

فإصلاحُ المجتمعاتِ يبدأُ بإصلاحِ الأفراد، وإصلاحُ الأفراد يبدأُ بإصلاح القلوبِ؛ لأن تشبُّعَ القلوبِ بالأخلاقِ الطَّيبةِ والصِّفاتِ الخيِّرةِ يؤدِّي إلىٰ ظهورِ ذلك في الأعمالِ، وفراغُ القلوبِ مِن ذلك يؤدِّي بالضَّرورةِ إلىٰ ظهورِ السُّلوكياتِ السَّيئةِ علىٰ مستوىٰ

(1) تقدَّم تخريجه.

الفردِ وينعكس هذا على المجتمعِ، ومن هنا تتضح أهميةُ المنهجِ الصُّوفيِّ كمنهجٍ إصلاحيٍّ رُوحيٍّ للأفرادِ والمجتمعات، وهذا الكلامُ لا يقال كشعاراتٍ جَوفاء وإنما له من الحقيقةِ النَّصيبُ الأكبرُ؛ لأن منهجَ التَّصوُّفِ وعلومِه يقومُ على إصلاحِ القُلوبِ والنُّفوسِ وإصلاحِ البواطنِ والتَّزكيةِ والتَّربية، ومحاولةِ الوصول بقلبِ الإنسانِ إلى مقام الإحسانِ، ولا يوجد منهجٌ يخاطب الأرواحَ والقلوبَ ويغرسُ التَّعاليمَ الدِّينية كالتصوف، فإصلاحُ البواطن خُطوةٌ ضروريَّةٌ لإصلاح المجتمعاتِ الإسلاميةِ التي ظهرت فيها ما يُمكنُ أنْ يُطلَق عليه أمراضُ المجتمعِ.

ملامحُ المنهج الصوفيِّ في التربية البشريةِ وتزكيةِ الفرد

يتميزُ المنهج الصُّوفيُّ في العناية بالنَّفس البشريَّةِ- كنواةٍ وجزءٍ من المجتمعات- بميزات تُباين المناهجَ الأخرى من حيث شموليتُه وانفرادُه بخواصَّ لا تُوجد في أيِّ منهجٍ آخر؛ فمنها على سبيل المثال:

1- تطبيقُ جميع التَّعاليم والآدابِ الشَّرعيةِ الإسلامية التي تصونُ النَّفسَ البشريةَ وتحفظُ لها الانضباطَ، وذلك في إطارٍ من الرُّوحانية والشَّفافيةِ القلبية التي تجعل من التَّعاليم الشَّرعية منهجًا حيًّا متجدِّدًا، يلمسُ الإنسانُ في اتِّباعه لذَّةً رُوحيةً ومُتعةً معنويةً لا يعاني في تطبيقِها الجمودَ ولا الإحساسَ بالقيودِ.

2- وجودُ العديدِ من طُرق ووسائلِ التَّعامل مع النَّفسِ البشريَّةِ في المنهج الصُّوفيِّ، وذلك تبعًا لتنوع الأنفسِ واختلافِ طبائعها.

3- المنهج الصُّوفي يربط الإنسانَ في كلِّ أحوالِه وأوقاتِه بالله سبحانه وتعالى، فلا تكون التَّربيةُ والتَّزكيةُ لتحصيل الخيرِ في الحياة الدُّنيا فقط، وإنما المبدأُ والمنتهى هو الله سبحانه وتعالى.

4- المنهجُ الصُّوفي يُحوِّل التَّعبدَ لله والمناسكَ التَّعبديَّة بأشكالها وصُورِها إلىٰ وسيلةٍ من وسائل التَّربية، فيضع الصَّومَ والصَّلاةَ والجهادَ والزكاةَ والحجَّ كوسيلةٍ من وسائل إصلاحِ النَّفس البشريَّةِ، فلا يفصل التعبُّدَ عن السُّلوك الإنسانيِّ.

5- المنهجُ الصُّوفيُّ يحققُ الاعتدالَ والتَّوازن والوسطيةَ في الأخلاق والأفعالِ والسلوكيات، فنجدُ الشَّخصَ الذي تربَّىٰ علىٰ المنهج الصُّوفيِّ الصَّادقِ من أكثر النَّاسِ تعاونًا ورفقًا بالنَّاس، وإخلاصًا في الأعمال والوظائفِ، وانسجامًا مع كافَّةِ أنواع المجتمعات علىٰ اختلاف أنماطِها وسلوكيَّاتِها، وفوقَ ذلك هو من أكثر النَّاس التزامًا بعبادتِه، وقرباتِه مع ربِّه سبحانه وتعالىٰ، ولا يرىٰ أيَّ تنافرٍ بين الاندماج مع النَّاس والتَّعاونِ بينه وبين الآخرين وبين محافظتِه علىٰ أمور دينِه وتصوُّفِه.

6- وجودُ الشَّيخ المربِّي المرشدِ الهادي هو من ميزاتِ المنهجِ الصُّوفيِّ في التَّربية، وذلك الشَّيخُ هو مَنِ اجتمعت فيه العلوم الشَّرعية والمناهج الرُّوحية الربَّانية التي تُحقِّق أعلىٰ درجات التَّربية النفسية والرُّوحية، فالشَّيخُ بالمفهوم العصريِّ هو الأبُ الرُّوحي الوارثُ لميراثِ النُّبوة من العلوم والآداب، الملمُّ بحقيقة النَّفس البشريةِ وطُرق تقويمِها، ووضعِها علىٰ الطَّريق الصَّحيحِ سُلوكًا وعملًا.

7- المنهجُ الصُّوفيُّ في تربية النَّفسِ البشريةِ يحقِّقُ التَّكافلَ في المجتمع الواحدِ، ويشيعُ بين أفرادِه الأُلفة والمحبَّة، وينشرُ قِيمَ التَّعاون والإخاءِ عن طريقِ تحويل القِيم الرُّوحية إلىٰ سُلوكٍ عمليٍّ واقعيٍّ.

8- التَّربيةُ في المنهج الصُّوفيِّ تُصلِحُ ظاهرَ الإنسانِ وباطنَه في الوقتِ نفسه، فتصنعُ بذلك الإنسانَ الكاملَ الطاهر في الباطن والظَّاهر، فلا تصنعُ قشورًا من التَّظاهرِ بالأخلاقِ مع خَواء الباطنِ الإنسانيِّ منها، ولا تصنع بواطنَ كاملةً بدون تطبيقٍ عمليٍّ لها في الحياةِ اليوميَّةِ، بل تجمعُ بين الظَّاهر والباطنِ في تناغمٍ فريدٍ ينتج عنه الشَّخصُ المسلمُ المنضبطُ المعتدلُ ذو النَّفسِ المطمئنةِ والسُّلوكِ النَّافع.

9- التَّربيةُ في المنهج الصُّوفيِّ لا تخضعُ لأهدافٍ أو أغراضٍ متنوعةٍ سواءٌ أكانت سياسيَّةً أو اجتماعيةً تخدمُ أغراضًا محددةً سلفًا، وإنما هي الوصولُ بالعبد إلىٰ مقامِ الإحسانِ، وهو أنْ تعبدَ الله كأنَّك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراكَ، فلا يُستخدمُ التَّصوُّفُ كستارٍ أو وسيلةٍ لتحقيق أهدافٍ أخرىٰ غيرِ تحقيقِ مقام العبودية لله.

10- تميَّز المنهجُ الصُّوفي بالرِّفق في معالجتِه لأمراض النَّفس والقلبِ، ومراعاةِ الإحسانِ إلىٰ الخَلْق كُلِّهم، ورؤيةِ نسبتهم إلىٰ الله وأنَّهم من خلق الله فوجبَ الرِّفقُ بهم، ومحاولةِ الإصلاح والتَّقويمِ بالموعظة الحسنةِ وضربِ المثال الطَّيب وعدمِ التَّعالي علىٰ الخَلْق والانعزالِ عنهم أو الغلظةِ في التعامل معهم.

11- اهتمامُ المنهج الصُّوفي بالجناب المحمَّدي كمثالٍ أسمىٰ للخُلُق والآدابِ في جميع الأحوال والسُّلوكيَّات، وربطِ المسلم رُوحيًّا وقلبيًّا بسيِّد البشر صلواتُ الله وسلامُه عليه، وذلك من أنجحِ وسائل التَّربية وأكثرِها تأثيرًا في الإنسان، وهو أن يكون رسولُ الله ﷺ هو القدوةُ والأُسوةُ الحسنةُ في كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ، فيعملُ التَّصوُّفُ علىٰ ربطِ المسلمِ بمحبَّةِ رسولِ الله ﷺ والإكثارِ من ذِكْرِه، ووضعهِ في التَّصوُّر القلبيِّ والنَّفسيِّ مما يربطُ المسلمَ برسولِ الله ﷺ حالًا وسلوكًا.

التصوفُ أداةٌ لإصلاحِ الفرد والمجتمع

إنَّ التَّصوُّفَ قائمٌ علىٰ الأخلاق، وذلك كما وردَ عن أئمَّته في التَّعريفِ به فقالوا:

«التَّصوُّفُ: الدُّخولُ في كل خُلُقٍ سَنيٍّ، والخروجُ من كلِّ خُلُقٍ دنيٍّ»[1]. وقيل أيضًا: «التَّصوُّفُ خُلُقٌ فَمَن زادَ عليكَ في الخُلُقِ زادَ عليك في الصَّفاء»[2]. ودخولُ الأخلاق

---

(1) عوارف المعارف للسهروردي (ص 82) طبع بذيل كتاب إحياء علوم الدين- مكتبة مصر بالفجالة- القاهرة- 1998م.

(2) الرسالة القشيرية (2/442).

الحسنةِ الطَّيبة في القلب يعملُ علىٰ تحوُّلِ الإنسانِ إلىٰ حالةٍ من الطُّهر والنَّقاءِ التي تكونُ مصدرًا مُحركًا للعمل الصَّالحِ والسُّلوكيات الطَّيبة.

التَّصوُّفُ هو صورةُ الاستخلافِ الإلهيِّ في الأرض للمؤمنين، وهو طريقُ إعمارِ الأرضِ بشقَّيه المادِّي والمعنويِّ، فهو يحقِّقُ أفضلَ الصُّوَرِ للمجتمعات الفاضلةِ إنْ طُبِّق بصِدقٍ؛ لأنَّ المجتمعَ الذي يتشرَّبُ فيه الفرد منهجَ وأخلاقَ التَّصوُّفِ يُصبحُ متَّسمًا بالرحمةِ والألفةِ والمودَّةِ، فالصُّوفيُّ يعاملُ النَّاسَ لله، فهو يتحرَّىٰ أن تكونَ المعاملةُ مع الخَلْقِ معاملةً مع الله، فلا غِلظةَ ولا غِشَّ ولا فسادَ، فكلُّ صوفيٍّ رقيبٌ علىٰ نفسِه.

كما أنَّ التَّصوُّف مدخلٌ من مداخل الحضارةِ ونشرِ العلومِ النَّافعةِ، تشهدُ بذلك المصنَّفاتُ التي صنَّفها أئمَّتُه وشيوخُه عبرَ الزَّمان في شتَّىٰ مجالات الفِكر والمعرفةِ من علومٍ تربويَّةٍ واجتماعيةٍ وتراثٍ شعريٍّ كبيرٍ ذي خصائصَ مميَّزةٍ، ومصنَّفاتُهم التي شرَحت وحلَّلت النَّفسَ البشريةَ بأحوالها وأمراضِها وطُرقِ علاجِها.

وفوق ذلك كله للتصوُّف دورٌ بارزٌ في نشر الإسلام في بقاع كثيرةٍ لم تصل لها الفتوحاتُ، كشرقِ آسيا وغربِ إفريقيا والمحافظةِ علىٰ الهوية الإسلاميةِ في البلاد البعيدةِ وحفظ هوية الأقليات المسلمة.

فيأتي التَّصوُّف كمنهجٍ وسطيٍّ لإصلاح الأفرادِ والمجتمعاتِ خاصَّةً مع ظهورِ التَّيَّارات التي تتبنىٰ أُطروحاتٍ إصلاحيةً لا تتناسب مع مبادئ الدِّين، سواءٌ بالجنوح أقصىٰ اليمينِ أو أقصىٰ اليسارِ، فتزكيةُ النُّفوس هي الضَّمانُ الحقيقيُّ للحفاظ علىٰ المجتمعات، وإصلاحُ الفرد بالمنهج الرَّبَّاني يؤدي إلىٰ إصلاح المجتمع كلُّه، فيعملُ التَّصوُّف علىٰ إصلاحِ ما فسدَ وتحصينِ ما بقيَ من المجتمع المسلمِ ضدَّ أيِّ اختراقٍ فكريٍّ أو سلوكيٍّ لا يتناسب مع شريعةِ الله سبحانه وتعالىٰ. ◆

معالم المنهج الصُّوفي لإصلاح الفرد والمجتمع

1- التَّعبدُ لله طريقُ الإصلاح الفردي والمجتمعي:

إنَّ اهتمامَ التَّصوُّفِ بالعبادات وأثرِها في تزكيةِ القُلوب وقُربِها من الله يُعدُّ وسيلةً من وسائلِ إصلاح الأفرادِ والمجتمعات وذلك لما للعبادةِ من أَثرٍ رُوحيٍّ كبيرٍ في شحن القلوبِ بالشحنة الإيمانيَّةِ التي تَنفي الخواطرَ والهواجسَ والأفكارَ الرديئةَ من القلوب، وتحل محلَّها الأفكارُ الخيِّرة الرَّبَّانية التي تُنتجُ السُّلوكَ الطَّيبَ المستقيمَ. فجميعُ صورِ العباداتِ تُحوِّلُ نفسيَّةَ الإنسانِ إلىٰ نفسٍ هادئةٍ مطمئنةٍ لا تَميلُ إلىٰ فِعلِ المنكرَاتِ، بل وتستقبحُ ذلك، ويظهر أثرُ التَّصوُّفِ في إلزامِ المريدين بالعباداتِ المختلفةِ والمتنوعةِ وعدمِ التفريط فيها.

2- أهمية وجودِ الشَّيخ العالم المربي:

من ميزاتِ التَّصوُّف وجودُ الشُّيوخِ المربِّين المرشدين الذين يمثِّلون مصدرَ النُّورِ في رسمِ وتوضيحِ الطَّريقِ إلىٰ الله، فهم ورثةُ عِلمِ النُّبوَّةِ وأخلاقِها، ويمثِّلون صمامَ أمانٍ للأفراد والمجتمعاتِ ضدَّ كلِّ الأفكارِ والتَّيارات التي لا تتناسبُ مع وَسطيَّة الإسلام.

3- مفهومُ الأخوَّة في المنهج الصُّوفي:

يعصمُ مفهومُ الأخوةِ من التفرقِ ويجمعُ بين المسلمين في طريق الله بل إننا نجدُ أن المسلمين من بلادٍ شتَّىٰ ينتمون إلىٰ شيخٍ واحد وطريقٍ واحد ممَّا يُحدِثُ التقاربَ بين الشُّعوبِ الإسلامية في مظهرٍ من مظاهرِ الوحدة.

4- التَّحلِّي بالأخلاق أساس الإصلاح:

لا يستحقُّ لقبَ الصُّوفيِّ إلَّا مَن كان له من الخُلُق المحمَّدي نصيبٌ وافرٌ، ويكونُ من أهل حديثِ النَّبي ﷺ: ((إنَّما بُعثتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ))[1].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (381/2)، والبخاري في الأدب المفرد (273)، والبزار في مسنده (8949)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (4432)، والحاكم في مستدركه (613/2)، والبيهقي في الكبرىٰ (191/10) من

5- أهمية الإصلاحِ الرُّوحي والقلبي:

من الخُطُوات الضَّروريةِ لأيِّ منهجٍ إصلاحيٍّ تربويٍّ أنْ يعالجَ جذورَ الخَلَلِ والمشكلاتِ علىٰ مستوىٰ الفرد والجماعةِ، وبالنَّظر إلىٰ أيِّ خللٍ ماديٍّ أو مشكلاتٍ نجدُ أنَّ بدايتَها هو الخللُ الذي يَلحَقُ بالنَّفسِ والقلبِ، فأيُّ إصلاحٍ ظاهريٍّ لا يهتمُّ بإصلاح النُّفوس والقلوب لا يُؤتي ثمارَه المرجوَّةَ منه، ولا يكونُ له التأثيرُ الدائمُ؛ ولذلك فالمنهجُ الصُّوفيُّ في التَّزكية والتَّربية واهتمامه بالجانب الرُّوحي في الإنسان يضعُ يدَه علىٰ جُذورِ المشكلات الخُلُقية والسُّلوكيةِ للفرد والمجتمع، وذلك عن طريقِ الإعدادِ النَّفسيِّ للفردِ ورسمِ الطَّريق لمجاهدةِ النَّفس وتغييرِ صفاتِها المذمومةِ وإبدالِها بصفاتٍ حسنةٍ، ويظهرُ ذلك جليًّا واضحًا في الخُطوات التي يعملُ بها المنهجُ الصُّوفي علىٰ إخراج الصِّفاتِ المذمومةِ من القلوب والأنفاسِ، وذلك من خلال المجاهداتِ والعباداتِ وترويضِ النُّفوسِ علىٰ الأفعال والسُّلوكيَّاتِ القويمة.

وبمرورِ الوقت يظهرُ أثرُ الإصلاحِ الرُّوحيِّ والتَّزكيةِ في الأفراد والمجتمعاتِ، فأيُّ محاولةٍ للإصلاح دونَ النَّظر للجانب الرُّوحيِّ- الذي هو أصلُ منهجِ التَّصوُّف- لا تُؤتي ثمارَها وإنما تُصبحُ مجردَ مظاهرَ من الالتزام السُّلوكي أمام النَّاسِ فقط، ويَنتكِسُ إذا لم يكن هناك رقابةٌ أو مراجعةٌ من الناس، في حين أنَّنا نرىٰ الإصلاحَ القلبيَّ الناتجَ عن المنهجِ الصُّوفيِّ يُصبحُ جزءًا من شخصيةِ الفردِ لا تنفكُّ عنه، فيظهر أثرُ مراقبة الله سبحانه وتعالىٰ في الأقوال والأفعال، وتظهر آثارُ الصِّفات الحسنةِ في السِّرِّ والعلانية؛ لأنَّ المنطلقَ لهذه الصِّفات وآثارِها هو مراعاةُ تقوىٰ الله في السِّرِّ والعَلن، سواءٌ أكان هناك رقيبٌ من البَشَرِ أم لا.

=

طريق عبدالعزيز بن محمد عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا، وبعضهم يقول فيه أيضًا: ((صالح الأخلاق)). وقال الحاكم: ((صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه)). ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (343/8): ((رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح)).

وتَتبلوَرُ الخُطواتُ العمليَّة لمنهجِ الصُّوفيِّ في التَّربية والإصلاحِ في نقاطٍ هامة وهي:

1- الاهتمامُ بالجانب القلبيِّ للإنسان والعمل على الوصول به إلى أفضلِ حالاتِ النَّقاء البشريِّ.

2- الاقتداءُ برسول الله ﷺ في الأفعالِ والأقوالِ مع غرسِ محبَّته في القلب حتى يصبحَ الاقتداءُ نابعًا من الحبِّ فيدومَ ويعطي الأثرَ المطلوبَ في السُّلوكِ.

3- ربطُ الفرد في كلِّ حالاتِه وأوقاتِه بالله سبحانه وتعالى عن طريقِ تحقيق مقامِ المراقبةِ التي تُحقِّق صفةَ التَّقوى، وهي ألَّا يجدَك الله حيث نهاك ولا يفتقدَك حيث أمرك.

4- غرسُ قِيم المحبَّة بين الأفراد، وبيانُ سماحة الشَّريعة الإسلامية، والتي تسعُ جميعَ الطَّوائف والمللِ في المجتمعِ الإنسانيِّ كلِّه، وتغلف التَّعاملَ معهم بالرِّفق والإحسانِ إليهم، وإنْ كانوا مخالفينَ في الدِّين.

5- صيانةُ النَّفسِ البشريَّةِ عن الانزلاقِ نحو الشَّهواتِ المحرمةِ عن طريقِ حفظِ الحواسِّ من أن تتبعَ المحرَّماتِ.

6- تحقيقُ الإيجابيَّة في المجتمعات، وغرسُ الانتماءِ للأوطان من منطَلقٍ إيمانيٍّ ورفضُ الانعزالِ والسَّلبيةِ، ويظهرُ ذلك جليًّا واضحًا في كثيرٍ من وقائعِ التَّاريخ الشَّاهدةِ بدورِ المنهجِ الصُّوفيِّ المؤثرِ في حياة البُلدان الإسلاميَّة.

7- العملُ على تحقيقِ الحصانةِ الفكريَّةِ والعلميَّةِ التي تحفظ الأفرادَ من الانزلاق في المناهج والسُّلوكياتِ الخاطئة التي قد تختفي تحتَ شعاراتٍ دِينيةٍ أو وطنيَّةٍ قد تستخدمُها جماعاتٌ أو هيئاتٌ ذاتُ أفكارٍ منحرفةٍ وأهدافٍ خبيثةٍ.

8- العملُ على تحقيق مقاماتِ التَّوحيدِ في النُّفوس مثل: التوكُّل على الله، والصَّبر، والاستقامة وغير ذلك من مقامات القلوبِ والتي ينتج عنها الأعمالُ الصَّالحةُ.

9- وجودُ الشَّيخِ المربِّي كمرشدٍ وموجِّهٍ يعملُ علىٰ غَرْسِ الأخلاقِ الفاضلةِ ونشرِ تعاليمِ الشَّريعةِ باعتدالٍ ووسطيةٍ، تُحققُ الارتقاءَ بالنُّفوس عن مستوىٰ الخضوعِ للشَّهوات والمحرَّمات إلىٰ تحقيقِ مقام العبوديةِ لله.

10- العملُ علىٰ حُسنِ توجيه طاقاتِ الإنسان واستغلالِها في طُرُقِ الخيرِ.

11- الاهتمامُ بجانب العدالةِ الاجتماعيةِ والتَّكافل وسدِّ حاجاتِ النَّاسِ عن طريق نَشْرِ فكرةِ البذلِ والعطاءِ والمساعدةِ، وذلك من خلالِ الاهتمامِ ببيَانِ فضيلةِ الصَّدقةِ والزكاةِ وإيثارِ الغير، وأنَّ الإنسانَ الغنيَّ هو وكيلٌ عن الله في رعايةِ الضُّعفاءِ والفقراءِ.

12- العملُ علىٰ نشرِ حُسن الظَّنِّ بين النَّاس عامَّةً والمسلمين خاصَّةً فينتج عن ذلك صفاءُ المعاملةِ وصدقُها.

13- العملُ علىٰ غَرْس فضيلةِ حُبِّ الوطن، وأنَّ ذلك من الإيمان، وتوضيحِ حالِ رسولِ الله ﷺ في انتمائِه وحُبِّه لبلده مكةَ وحُزْنِه عندما اضطرَّ للخروجِ منها.

14- استغلالُ المناسبات الدِّينيَّةِ في توعيةِ النَّاس بأمورِ دينِهم ودُنياهم، ويظهرُ ذلك جليًّا في الاجتماعاتِ التي تدعو لها الطُّرق الصُّوفيةُ المنضبطةُ في المواسم الإسلاميَّةِ بهدفِ جمعِ النَّاس علىٰ الخير وتصحيحِ أيِّ انحرافاتٍ في الأفكار والسُّلوك.

15- العملُ علىٰ انتشارِ فكرة الأعمالِ الخيريَّة بصُورها المختلفةِ في شتَّىٰ المجالاتِ، فتسدُّ بذلك جانبًا هامًّا من جوانبِ تنميةِ المجتمع وحفظ حياةِ النَّاس وكرامَتهم.

دور التصوف في حفظ هوية المجتمعاتِ الإسلاميةِ

إنَّ لكلِّ مجتمعٍ من المجتمعات البشريَّةِ من الخصائص والصُّور ما يُميِّزه عن غيرِه من المجتمعات، والبُلدان الإسلاميَّةُ قد تتباين فيها بعضُ الخصائص والأشكالِ، ولكنَّنا نجدُ لمحةً إسلاميةً صوفيةً تمثِّل قاسمًا مشتركًا بين جميع بلادِ المسلمين حفظتْ وجودَ الطَّابعِ الإسلاميِّ في بلادِ الإسلام حتىٰ أثناء سيطرةِ الاحتلالِ عليها.

1- ففي الهند كان التَّصوُّفُ والطُّرقُ الصُّوفية حائطَ صَدٍّ أمامَ تحويلِ البقيةِ الباقيةِ من المسلمين الهنودِ إلىٰ أديانٍ أخرىٰ، وذلك بنشرِ تعاليمِ ومنهجِ التَّصوُّفِ بين المسلمين كحصنٍ ضدَّ المستعمرين أو أصحاب المِلَلِ الأخرىٰ من أهل البلادِ.

2- وفي تُركيا حينما قُضي علىٰ الخلافة الإسلاميةِ، وأصبحت العلمانيةُ هي المسيطرةَ علىٰ الدولة كلها ما حَفِظَ دِينَ الأتراكِ إلَّا الطرقُ الصُّوفيةُ وما يتبعُها، فَعَمِلتَ علىٰ عدم انسلاخِ النَّاس من دينهم بقدر المُستطاع عن طريق نشرِ التَّصوُّف ومنهجِه وسلوكيَّاتِه.

3- وفي إفريقيا التي وقعت تحت الاستعمارِ ونهبت ثرواتُها لعقودٍ طويلةٍ نجدُ أنَّ مَن حَفِظَ علىٰ النَّاس عقائدَهم ووجودَهم هو انتشارُ الطُّرقِ الصُّوفية في البلاد الإفريقيَّة.

4- كان لاستمرارِ وُجودِ الطُّرق الصُّوفيَّةِ المنضبطةِ الفضلُ في شيوع المظاهرِ الإسلاميَّةِ التي تُميِّزُ المجتمعاتِ المسلمةَ، وتمنعُها من الذَّوَبانِ في مظاهر أيِّ حضارةٍ وافدةٍ مثلَ: انتشارِ مجالس الذِّكرِ، وكتاتيبِ تحفيظِ القرآن الكريم، وإحياءِ ذِكرىٰ مَوْلد العُلماءِ والأولياء وأهلِ البيت، ووجودِ التَّكايا والأربطةِ وبيوتِ الضِّيافة، فهذه المظاهرُ التي تُعلنُ عن الصِّبغة الإسلاميِّةِ مثَّلت حائطَ صدٍّ ضدَّ إرادةِ المستعمرين وأدواتِهم في بلاد الإسلامِ في عملِهم علىٰ ذوبان الشَّخصيةِ الإسلاميَّة.

5- كان للنهج الصُّوفيِّ وأتباعِه دورٌ كبيرٌ في الحَشد والجهاد ضدَّ الغُزاة المستعمرين علىٰ مدارِ عمر الأُمَّة الإسلامية، منذُ الحروب الصَّليبيَّةِ ودورِ أهل التَّصوُّف في موقعة حِطِّين والمنصورة، ومرورًا بهجمات التَّتار إلىٰ العصر الحديثِ، والحملةِ الفرنسية علىٰ مصرَ والمَشْرِقِ العربي، واحتلالِ ليبيا والمغربِ العربيِّ، فظهرت أسماءٌ لامعةٌ من المتصوِّفةِ في مجال الجهاد كأبي الحسن الشَّاذلي، وسلطانِ العلماء العِزِّ بن عبدالسَّلام، والشَّيخِ رسلان الدِّمشقي، والسُّلطانِ المجاهد نور الدِّين محمود، وصلاحِ الدِّين الأيوبي، وغيرِهم من أهل الحُكم والمُلك الذين كانت لهم ميولٌ ومرجعيةٌ صُوفيةٌ.

وفي العصرِ الحديث نجدُ كثيرًا من أهل الجِهادِ والكفاحِ ضدَّ المستعمرين من أهل التَّصوُّفِ، ففي مصرَ تزعَّم أهلُ التَّصوُّفِ من شيوخ الأزهر المقاومةَ ضدَّ الفرنسيين والإنجليز، وفي بلاد المغرب العربي ظهرت أسماءٌ مثَل: الشَّيخِ عبدالقادر الجزائري، والشَّيخِ عبدالكريم الخطَّابي، والشَّيخِ المجاهد عمر المختار في ليبيا.

كيفية الإصلاح الاجتماعي في المنظور الصوفي

إنَّ دورَ التَّصوُّفِ الاجتماعيِّ كبيرٌ، فالصُّوفيُّ الصَّادقُ مكانه دائمًا بين النَّاس خاصةً الضُّعفاء والمحتاجين، يمدُّ يدَه بقدر المُستطاع إلىٰ الآخرين علىٰ المستوىٰ الرُّوحي الدِّيني والماديِّ، وقد كان أئمةُ التَّصوُّف يضربون أروعَ الأمثلةِ في مراعاةِ حالِ مجتمعِهم الذي يعيشون فيه، فلا يكنِز الصُّوفيُّ المالَ والثَّرواتِ والنَّاسُ من حولِه جَوعَىٰ أو محتاجين.

بل إنَّ التَّصوُّفَ يرىٰ أنَّ الإنسانَ وما يملِكُه هو لله ربِّ العالمين، وأنَّ الإنسانَ مستخلَفٌ فيه، وأنَّ رعايةَ مصالحِ الخَلْقِ أمرٌ واجبٌ، فالصُّوفيُّ الصَّادقُ لا يمنعُ ما بيدِه من نعمةٍ عن عباد الله، ولا يبخَلُ بجهدٍ أو بمالٍ علىٰ إصلاحِ حالِ النَّاس، ويحضُّ التَّصوُّفُ علىٰ وجودِ التَّكافلِ في المجتمعات الإسلاميةِ والتَّعاونِ فيما بين النَّاس، ويظهرُ ذلك جليًّا واضحًا في انتشارِ الأنشطةِ الخيريَّةِ التي تنطلِقُ من التَّصوُّفِ بشتَّىٰ صورها وأهدافِها من توفيرِ المأْكلِ والمشربِ والمَلْبَسِ واحتياجاتِ الحياةِ للفقراء والمحتاجين.

كيفية الإصلاح السياسي في المنظور الصوفي

يرىٰ أهلُ التَّصوُّف أنَّ هناك واجباتٍ علىٰ الحاكم والمحكوم، وأنَّ بصلاحِ الرَّعية يصلح الحُكَّام، وأنَّ الطَّريقَ للإصلاح السِّياسيِّ هو إصلاحُ الشُّعوبِ، وذلك بالقيامِ بواجب الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ وعدم التَّفريطِ في ذلك، ورؤيتُهم في هذا الأمر: أنَّ الحاكمَ ومَن ينوبُ عنه ما هو إلَّا صورةٌ مُصغَّرةٌ من الشُّعوب، فإنْ كانت الشُّعوبُ من أهل الجِدِّ والتَّقوىٰ كان الحكَّامُ كذلك، والعكسُ بالعكس.

ويركِّزُ المنهجُ الصُّوفي على الإصلاحِ الفرديِّ كَمَدخَلٍ لصلاحِ جميعِ المجالات والأمورِ الدِّينية والدُّنيوية، وينظرُ إلى أهميةِ الاستقرار وعدمِ إشعال الفتن في المجتمعات الإسلامية تحت الدَّعاوى الباطلة التي تؤدِّي إلى تخريب بلادِ المسلمين وتشريدِ النَّاس.

اهتمام التَّصوُّف بكيان الأُسرة المسلمة

إنَّ صلاحَ المجتمعاتِ الكبيرةِ مبنيٌّ على صلاحِ المجتمع الصَّغير- وهو الأُسرة- وصلاحُ الأُسرة مبنيٌّ على صلاح المرأة ربَّةِ البيت وقد اهتمَّ التَّصوُّف في كتاباتِه وسلوكِه بالمرأة المسلمة، فلم يكن التَّصوُّف كعِلْمٍ ومنهجٍ خاصًّا بالرِّجال دون النِّساء، فقديمًا أضافت كثيرٌ من النِّساء إلى التَّصوُّف وعلومِه قدْرًا طيِّبًا من الأقوالِ والأحوال، تشهدُ بذلك كُتُبُ التَّراجم وسيرُ أهل التَّصوُّف.

وتدعو كتاباتُ أهلِ التَّصوُّف إلى إنصاف المرأةِ وإنزالِها المنزلةَ التي أنزلها الله إيَّاها في كتابِه وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ، وتطبيقِ المنهج الرَّبَّانيِّ الذي كرَّمها الله به، بل ووَصَلَت المرأةُ في طريق التَّصوُّفِ إلى درجاتٍ عُليا في السُّلوكِ والتَّعبدِ والولايةِ، وأقربُ الأمثلةِ إلى ذلك السَّيدةُ رابعةُ العدويَّة، وبتطبيق المنهجِ الصُّوفي في حياة المرأة المسلمة تحدثُ نفسُ آثارِه التي تقع للرِّجال من حيث التَّربيةُ والتَّصفيةُ والتَّزكيةُ، والتي تنعكس على حُلول جوٍّ من المودَّةِ والأُلفةِ في الأُسرة، وعلى تربيةِ الأطفال منذُ الصِّغرِ على منهجٍ ربَّانيٍّ يربطُ بينهم وبين الأخلاق الحسنةِ والخصالِ الحميدة.

فالمرأةُ التي اتَّبعت المنهجَ الصُّوفيَّ لتزكية النَّفسِ والرُّوحِ وقَطعَت فيه الطَّريقَ تصبحُ أهمَّ أدواتِ إصلاحِ المجتمعاتِ الإسلاميةِ؛ لأنه سوف يَخرجُ من تحت رعايتِها نواةُ المجتمعات ومستقبلُها من الأطفال، بل وحتَّى الأزواجُ ينعكس سُلوكُ هذه الزَّوجةِ الصَّالحةِ عليهم فيصيبُهم من صلاحِ المرأةِ لينُ الحياة وسهولتُها. ◆

الخاتمة

وفي الختام نقولُ: إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد كفَل للأُمَّة الإسلاميَّة طُرقَ صيانةِ وجودِها وعزِّها وتقدُّمِها، فعندنا منهجٌ ربَّانيٌّ إلهي لا نحتاجُ معه إلىٰ إصلاحٍ من الشَّرق أو الغربِ أو نظرياتٍ اجتماعيةٍ من هنا أو هناك. وأنَّ أيَّ محاولاتٍ لإغفال المنهجِ الرَّبَّانيِّ لحفظ المجتمعاتِ ينتج عنه المفاسدُ، وبالنَّظر إلىٰ المناهج التي تنتسب للدِّين والشَّريعةِ نجدُ أنَّ المنهجَ الصُّوفيَّ برُوحانيتِه ووسطيته هو أقدرُ هذه المناهج علىٰ مواجهةِ متطلباتِ الحياة المادِّية والرُّوحيةِ معًا، فإصلاحُ الفردِ يأتي قبل إصلاحِ المؤسَّسات، وبناءُ الفرد قبل بناءِ الجدران، والتَّصوُّف يقومُ بعملية الإصلاحِ من نواةِ المجتمعات وهو الفردُ وإعداده حتىٰ يتسنَّىٰ له مواجهةُ الحياةِ الحديثة، مُتسلِّحًا بالإيمان بالله والتَّقوىٰ والتَّوكُّلِ والسَّماحةِ، وغيرِ ذلك من مكارم الأخلاقِ التي يَعملُ التَّصوُّفُ علىٰ غرسِها في الفرد، فإنْ حدثَت هذه التَّربيةُ والتَّزكيةُ للفرد نتَجَ عنها مجتمعًا صالحًا، فإن كان الفردُ تاجرًا فهو التَّاجرُ الأمين، وإنْ كان حاكمًا فهو التَّقيُّ الحكيم، وإنْ كان في أي مهنةٍ أو وظيفةٍ كان خَيِّرًا في الباطن وخَيِّرًا في الظَّاهر، والمجتمعُ مكونٌ من الأفراد، ولذلك فإنَّ كلَّ إصلاحٍ يَغفلُ منهجَ التَّصوُّفِ الإسلاميِّ فهو يغفِلُ المنهجَ الربَّانيَّ، فالتَّصوُّفُ هو الضَّمانُ الحقيقيُّ لبقاءِ الإصلاح نابعًا من عُمْقِ وحقيقةِ الحضارةِ الإسلاميةِ وتراثِها وهويتِها وسماحتِها؛ لأنَّ موضوعَه هو تنقيةُ البواطنِ والقُلوبِ والأرواحِ التي تُبنىٰ بها المجتمعاتُ القويَّة، والتي تؤدِّي إلىٰ امتلاكِ زمامِ القوَّة والعزَّةِ علىٰ كافةِ المستويات، فالرُّوح الحيَّةُ الزكيةُ هي التي تبعث الأملَ والقوة في الأجساد، والأرواحُ المريضةُ لا تُنتج إلا مجتمعاتٍ وأفرادًا مَرضَىٰ، فمَنَّةُ الله علينا كبيرةٌ لا نحتاج معها إلىٰ مناهجَ خارجيةٍ أو نظريَّاتٍ تعمل علىٰ تغريبِ أوطاننَا، فهذا البابُ مفتوحٌ

مُتاحٌ أمام كلِّ مسلمٍ أنْ يلجَ ويدخلَ بابَ التَّصوُّف متقرِّبًا بذلك إلىٰ الله، وأنْ يجعلَ منه منهجَ حياةٍ ليحظىٰ بالحياة الطَّيبةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆

الرسالة الرابعة
دور التصوف في القضاء على البدعة والتحذير منها

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: دَحْضُ القول ببدعية التصوُّف.

المحور الثاني: الأدلة على دَحْضِ القول ببدعية التصوف من خلال أقوال أهل العلم لحقيقة البدعة.

المحور الثالث: نقطة انطلاق الصُّوفي وسلوك طريق التصوُّف. ◆



«أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ
ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا» - آية 15-16 من سورة نوح

دور التصوف
في القضاء على البدعة والتحذير منها

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ موجزةٌ نتكلَّم فيها عنِ التصوُّف وذمِّه للبدعة وموقفِ التصوُّفِ مِنَ البدعِ، وهلْ حقًّا يدعو التصوُّفُ إلى البِدَعِ ويتساهلُ فيها؟ وسنُوَضِّحُ مسألةً مهمَّةً وهي الفهْمُ الخاطِئُ لقضية البدعةِ في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ والربطُ بين ذلكَ الفَهْم وبينَ التصوُّفِ كعِلمٍ ومنهجٍ وسلوكٍ، وخطأ تلك الأحكامِ التي صدرت في حق التصوُّف؛ لأنَّها مبنيةٌ على فهمٍ خاطئ لمعنى البدعةِ. وسوف نذكُرُ بعض أقوالِ أئمَّةِ التصوُّفِ وشيوخِه في ذمِّ البدعةِ والحثِّ على التمسُّكِ بالكتابِ والسُّنةِ، وسوفَ يكونُ الكلامُ في هذه الرِّسالةِ متمثلًا في المحاور التَّاليةِ:

المحور الأول: دَحْضُ القول ببدعية التصوُّف.

المحور الثاني: الأدلة على دَحْضِ القول ببدعية التصوف من خلال أقوال أهل العلم لحقيقة البدعة.

المحور الثالث: نقطة انطلاق الصُّوفي وسلوك طريق التصوُّف. ◆

دَحْضُ القول ببدعية التصوُّف

ظهرَت في هذا العصرِ وهذه السَّنوات الأخيرةِ هجمةٌ شرسةٌ علىٰ التصوُّف الإسلاميِّ وأهلِه مِن قِبَل تياراتٍ تزعم الانتسابَ للسُّنة والدَّعوة إلىٰ الله، وأصبحَت مهاجمة التصوُّف ديدنَ كثيرٍ ممَّن يتصدَّرون ويزعمونَ العملَ في مجالِ الدَّعوة إلىٰ الله، وهؤلاء هم فئتانِ: الأولىٰ منهم فئةٌ تجهَل ما هو التصوُّف مِن الأصل، ولكنها تربَّت وتعلَّمت وأخذَت منهجَها مِن تيَّارٍ واحدٍ برفُض التصوَّفَ جملةً وتفصيلًا، فساروا علىٰ ذلكَ المنهجِ وأصبحوا أبواقًا يردِّدونَ ما أخذوه مِن أفكارٍ دونَ عناءِ البحثِ عن صحَّتِها وعدم صحَّتها، والفِئةُ الثَّانية: فئةٌ تعلَم الحقَّ وتعلَم ما للتصوُّف في تراثِ الإسلامِ عبر القرونِ مِن مكانةٍ ومنزلةٍ ومع ذلك تغطِّي وتستُر جميعَ مزايا التصوُّف ومكانةَ أهلِه، وتنزعُ عنه كلَّ فضيلةٍ تحقيقًا لأهداف محدَّدةٍ، وحفاظًا علىٰ صورةٍ وهميَّةٍ للنهجِ الَّذي رسموه لأنفسِهم وأنتج لهم المكانةَ والمنزلةَ والصَّدارةَ بين النَّاس، فأصبح مهاجمةُ التصوُّف والصُّوفية بابًا مِن أبواب الذُّيوع والانتشارِ، بل وبابٌ مِن أبواب جلْبِ الأموال أيضًا، فتمَّ بذلك صرْفُ كثيرٍ مِن المسلمينَ عن أمرِ التصوُّف والصُّوفية، وأصبح مشهور عند كثيرٍ مِن النَّاس أنَّ التصوُّف مرادِفٌ للبدعة والشِّركِ، وأنَّه خرافاتٌ وشعوذةٌ وأطعمةٌ وصناديقُ نذورٍ.

وتمَّ استغلال ما يقع مِن مخالفاتٍ وممارسات مِنَ بعض المنتسبين زورًا والزجِّ بها تحت اسم التصوُّف، فحدث الرَّبط بين تلك السُّلوكيَّات والممارساتِ وبين التصوُّف وأصبح هذا الأمرُ كالمسلَّماتِ، مع أنَّ حقيقة الأمرِ بخلاف ذلك. فهل التصوُّف كمنهجٍ وسلوكٍ وطريقٍ بدعةٌ في أصل أمره؟ وهل التصوُّف يدعو للبِدع ويُقِرُّها؟ وهل الممارساتُ الخاطئةُ التي يقوم بها بعضُ (المتمصوِّفة) المدعين هي حقيقةُ التصوُّف وأصلُه وجوهرُه؟ وما موقفُ أئمَّة التصوُّف وشيوخِه مِن البدع بشكل عام؟ وهو ما يقودنا إلىٰ الكلام علىٰ المحور الثاني.

الأدلة على دَحْضِ القول بِدعية التصوف من خلال أقوال أهل العلم لحقيقة البِدعة

إنَّ مِن الموضوعاتِ الهامَّة في دِين الإسلامِ موضوعَ البِدْعة لِمَا يترتَّب على فهمِها بالمفهومِ الصَّحيح لها انضباطٌ في العباداتِ والمعاملاتِ والسُّلوكِ ووجودِ السَّعة واليسرِ اللذينِ يميِّزان شريعةَ الإسلامِ، وعلى الجانبِ الآخر الفَهْم الخاطِئ لمفهوم البِدعةِ يؤدِّي إلى وقوعِ الخَلَلِ في الحُكْمِ على الأفعالِ والأقوالِ والعباداتِ والمعاملاتِ، وإلى رمي النَّاس بالبِدعةِ والمروقِ مِنَ الدِّينِ؛ ولذلكَ سوف نَعرضُ نبذةً عن موضوعِ البِدعة لكي يستقيمَ الكلام عنِ التصوُّف وأهلِه مِن حيثُ قُرْبُه أو بُعْدُه مِن مفهومِ البِدعة. ولكي يتَّضِح مفهوم البِدعة نورِدُ أقوالَ أهلِ العِلمِ المحقِّقين:

1- الإمام العِزُّ بن عبدالسَّلام: ((البِدعةُ: فِعْلُ مَا لم يُعهَد في عصرِ رسول الله ﷺ وآلِه، وهي منقسِمةٌ إلى: بِدعةٍ واجبةٍ وبِدعةٍ محرَّمةٍ وبِدعةٍ مندوبةٍ وبِدعةٍ مكروهةٍ وبِدعةٍ مباحةٍ، والطَّريق في معرفة ذلك أنْ تُعرَضَ البِدعة على قواعدِ الشَّريعة فإن دخلَت في قواعدِ الإيجابِ فهي واجبةٌ، وإنْ دخلَت في قواعدِ التَّحريمِ فهي محرَّمةٌ، وإنْ دخلَت في قواعدِ المندوبِ فهي مندوبةٌ، وإنْ دخلَت في قواعدِ المكروه فهي مكروهةٌ، وإنْ دخلَت في قواعدِ المباحِ فهي مباحةٌ))[1].

2- الحافظ ابنُ حَجَرٍ العَسْقَلَاني: ((كلُّ ما لم يكُنْ في زمَنِه ﷺ يسمَّى بِدْعةً، لكنْ منها ما يكون حَسنًا ومنها ما يكون بخِلاف ذلك))[2].

3- الإمام الشَّافعي: ((المُحدَثات مِنَ الأمورِ ضَرْبَانِ؛ أحدهما: مَا أُحدِثَ ممَّا يخالِف كتابًا أو سنَّةً أو أثرًا أو إجماعًا فهذه بِدعةُ الضَّلالةِ. والثَّاني: مَا أُحدِثَ مِنَ الخيرِ لَا خِلافَ فيه

(1) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (337/2) تأليف: أبي محمد عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام - تحقيق: نزيه كمال حماد وعثمان جمعة ضميرية- دار القلم – دمشق-2000.

(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (394/2) تأليف: ابن حجر العسقلاني- رقم أحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي- المكتبة السلفية.

لواحدٍ مِن هذا فهذه مُحدَثَةٌ غيرُ مذمومةٍ))[1].

4- الإمام أبو حامدٍ الغزاليُّ: ((ليس كلُّ ما أُبدِعَ منهيًّا عنه، بل المَنْهِيُّ عنه بِدعةٌ تضادُّ سنَّةً ثابتةً وتَرفَعُ أمرًا مِنَ الشَّرعِ))[2].

5- قال ابن الأثير: ((البِدعةُ بِدْعتَانِ: بدعةُ هوًى وبدعةُ ضلالةٍ، فما كان في خلافِ ما أمر اللهُ به ورسولُه فهو في حيِّز الذَّمِّ والإنكارِ، وما كان واقعًا تحتَ عموم ما ندبَ إليه وحضَّ عليه فهو في حيِّز المدحِ، وما لم يكن موجودًا كنوعٍ مِنَ الجودِ والسَّخاءِ وفعْلِ المعروفِ فهو الأفعالُ المحمودة))[3].

فهذه أقوالُ أهلِ العِلم مِنَ الحفَّاظِ والمحدِّثينَ وعلماءِ الأصولِ في مفهومِ البِدْعةِ وتطبيقاتِها، وبإسقاط هذه الأقوالِ على التصوُّفِ نجدُ أنَّه خارجٌ عن نطاقِ البِدْعة المذمومةِ، بل هو مِنَ المندوباتِ والمستحبَّاتِ وقد يصبح واجبًا في بعضِ الأحيانِ. وكيف يوصَفُ التصوُّف بأنَّه بدعةٌ وهو ركنٌ مِن أركانِ الإسلامِ بما فيهِ مِن إصلاحِ القلوبِ والتَّحلِّي بالأخلاقِ وتزكيةِ النُّفوسِ والتَّوجُّه إلى الله والانقطاعِ إليه. بل إنَّنا نجد فوقَ ذلكَ أقوالَ أهلِ التصوُّفِ وشيوخِه في قيام التصوُّفِ على الكتابِ والسُّنَّةِ والتَّحذيرِ مِنَ البِدَع والحضِّ على اتباع رسولِ الله ﷺ وبيانِ أنَّ سلوكَ التصوُّف ما هو إلَّا اتِّباعٌ لأوامرِ الشَّريعة ونواهيها، وأنَّ طريقَ التصوُّف لا يدخُل فيه إلَّا كلُّ مَن ألزم نفسَه بالشَّريعة ظاهرًا وباطنًا، فلا يستَحِقُّ اسم الصُّوفي إلَّا مَن ألزم نفسَه بأحكامِ الشَّريعةِ واتَّبع سنَّةَ رسولِ الله ﷺ، وأمَّا مَن سلَكَ غير هذا المسلَكِ وكان على غيرِ هذه الطَّريقةِ

(1) المدخل إلى السنن الكبرى (206/1) تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي -تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي-دار الخلفاء للكتاب الإسلامي – الكويت.

(2) إحياء علوم الدين (3/2) تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي-دار المعرفة – بيروت- 1982م.

(3) النهاية في غريب الحديث والأثر (106/1) لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير- تحقيق: محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي- مؤسسة التاريخ العربي.

فهو في حاجةٍ إلىٰ مراجعةِ إسلامِه أوَّلًا فضلًا عن أن يُنسَبَ للتَّصوُّفِ، فليس كلُّ منتسِبٍ إلىٰ نسبةٍ صادقٌ، فَفَرْقٌ بينَ مَن تسمَّىٰ باسم الصُّوفيِّ وليس له مِنَ التصوُّف وآدابِه نصيبٌ وبينَ مَنِ انتسبَ إليهِ وهو يتحلَّىٰ بآدابِهِ وحدودِه، فكما أنَّ هُناكَ مَنْ ينتسِبُ لدِينِ الإسلامِ والإسلامُ مِنْه بَراءٌ، فكذلكَ أدعياءُ التصوُّفِ مِن الكذَبةِ لا يمثِّلون التصوُّف، ولا يتحمَّل التصوُّف وِزْرَ سلوكِهم وأفعالِهم كما لا يتحمَّل الإسلام وِزْرَ مَن ينتسِبُ إليهِ وهو كاذبٌ في انْتسابِهِ. وضابطُ هذا الأمر هو النَّظرُ في كُتُب وأقوالِ وتراجمِ وسِيَرِ أهلِ التصوُّفِ وتفقُّدِ أحوالِهم عبرَ السِّنينَ، وسوفَ نجِدُ الالتزامَ بالشَّريعةِ وحدودِها هو مَنهجَهم ثُمَّ بعد ذلك المجاهدةَ والسَّيرَ في طريق التصوُّفِ والتزام آدابه، فنُقْطَةُ انطلاقِ المرءِ نحو التصوُّفِ هي الشَّريعةُ وحدودُها، فكلُّ مَن انطلقَ وهو منحلٌّ مِن الالتزام بالإسلامِ وأركانِه فهو دعيٌّ كاذبٌ، وكيف يصحُّ له التصوُّفُ وهو لم يحقِّقْ الالتزامَ بأركانِ الدِّينِ حلالِه وحرامِه، فأحوالُ أهل الطَّريقِ قبْلَ أقوالِهم مبنيَّةٌ علىٰ التحقُّق بالشَّريعةِ، وفوقَ ذلكَ ألْزَمُوا أنفُسَهُم بأمورٍ مِن الزُّهد والورعِ والمجاهدةِ والتَّدقيقِ في الحلالِ والحرام ما يُخْرِجُ مِنْ دائرتِهم واسمِهم كلَّ مَن لم يكُن علىٰ نهجِهم وسيرتِهم.

ومن هذا المنطلق ينبغي أن نقرر أنه مِنَ الظُّلم أن يُحْكَمَ علىٰ الصوفية بدون اطِّلاعٍ علىٰ ما في كُتُبِهم وما عِنْدَهُم والاكتفاء بكلام الخصومِ فيهم، وهذه كتبُ التصوُّف وتراجِمُ أئمَّتِهِ وشُيوخِهِ تُبَيِّنُ مَا عَليهِ القَوْمُ مِن منهجٍ وطريقةٍ وسلوكٍ وما سبَق مِن أقوالٍ ما هو إلَّا نموذجٌ لِمَا يقال عنِ التصوُّفِ والصُّوفية، وما هو عليه الأمرُ في الواقعِ والحقيقةِ. فالأقوالُ المدوَّنةُ مِن أفواهِ أصحابِهِ وبِأقلامِهم في مُصنَّفاتِهم وكُتُبِهم تَحثُّ علىٰ الالتزام بحدودِ الشَّريعةِ وأحكامِها، وتدعو إلىٰ التمسُّك بكتاب اللهِ وسنَّةِ المصطفىٰ ﷺ، وتُوَضِّحُ أركانَ التصوُّفِ وما يقومُ عليهِ، وتأمرُ المريدينَ بمراعاةِ الشَّريعةِ ظَاهرًا وباطنًا، ومُتابعةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في الأحوالِ والأقوالِ والأفعالِ.

فَمِنَ الظُّلم ادعاء بدعية التصوُّفِ أو بأنَّه يتبنَّىٰ البِدَع ويسكتُ عليها، ويوجدُ الكثيرُ والكثيرُ مِن كتبِ التصوُّفِ والسُّلوكِ التي كتبها أئمَّتُه المشهورونَ فلا يوجد فيها إلَّا الدَّعوةُ لسلوكِ الطريقِ إلىٰ الله متَّبعينَ لرسول الله ﷺ.

نقطة انطلاقِ الصُّوفي وسلوكِ طريقِ التصوُّف

لو نظرْنا إلىٰ حالِ أهل التصوُّف الصَّادقين نجد أنَّ طريقةَ سلوكِهم وانطلاقِهم إلىٰ التصوُّف هو، أوَّلًا: أنه انطلاقٌ مِن مراعاةِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ وحدودِها وأركانِها بتطبيقِ دِين الإسلامِ أصولًا وفروعًا، واجتنابِ ما نهت عنه الشَّريعةُ باطنًا وظاهرًا، فهذه الانطلاقة يجب أن تكونَ هي حال كلِّ مسلمٍ يدينُ بدِين الإسلام فضلًا عنِ المتصوِّف السَّالك، فالصُّوفي الصَّادقُ هو مَن يحقِّق هذه القاعدةَ أوَّلًا وهي التحقُّق بأحكامِ الشَّريعة ظاهرًا وباطنًا، والمحافظةُ علىٰ ما افترضَه الله سبحانه وتعالىٰ عليه، ومراعاةُ أحكامِ الحلالِ والحرامِ.

ثانيًا: يلتزم الصُّوفي بسنَّةِ رسول الله ﷺ ويتَّخذُه مثالًا يحتذىٰ به في السُّلوكِ والأقوالِ والأفعالِ، فَمَن ليس بمستنٍ فليس بصوفيٍّ وإن ادَّعىٰ ذلك؛ لأنَّ طريقَ الله هو طريقُ سيدنا محمَّدٍ ﷺ، وسلوكُ الطريقِ يكون بمتابعتِه صلوات الله وسلامه عليه، ولعلَّ صدْقَ هذا عند أهل التصوُّف يظهَر واضحًا جليًّا في تعظيمِهم لمقامِ سيدنا رسول الله ﷺ وشدَّةِ حبِّهم له والحثِّ علىٰ التَّأسِّي به ﷺ.

ثالثًا: المجاهداتُ الصُّوفية والَّتي هي في أساسها سُنية نبويَّةٌ كنوافِل الصَّلواتِ والصِّيامِ وقراءةِ القرآنِ وتزكيةِ القلوبِ والأنفسِ وتخليصِها مِنَ الكدوراتِ، والالتزامِ بذِكْر الله ومراعاةِ آدابِ الأوقاتِ وواجباتِها فلكلِّ وقتٍ في التصوُّفِ أدبٌ وواجبٌ يجب الالتزامُ به، وفي هذا المقام يجاهِدُ الصُّوفي للوصولِ إلىٰ الله بالمعرفةِ والمحبَّةِ وتحقيقِ مقامِ العبوديَّة له

سبحانه وتعالىٰ وإدخالِ معاني الإحسانِ في القلب، وهو أن تعبدَ الله كأنَّك تراه فإنْ لم تكُن تراه فإنَّه يراكَ.

وإجمال ما سبق: هو تحقيقُ الإسلامِ اعتقادًا وقولًا وعملًا بالتزام سنَّةِ رسول الله ﷺ، ثُمَّ بعد ذلك السَّير في طريقِ التصوُّف وإلزام النَّفْس بآدابِ هذا الطريقِ، فهذه هي معالمُ الطريقِ وأركانُه في سلوكِ الصُّوفي الصَّادق، فَمَن ادَّعىٰ غيرَ ذلك فهو علىٰ شيءٍ آخرَ غير التصوُّف، ومَن يدَّعي علىٰ أهل التصوُّف بأنَّهم مِنَ المبتدعة فهو إمَّا جاهلٌ أو مغرِضٌ؛ لأنَّ أقوالَ وأفعالَ وحالَ أهلِ التصوُّف وكتبَهم تحضُّ علىٰ السَّير خلْفَ رسول الله ﷺ وقد تقدَّم عرْضُ بعضِ هذه الأقوالِ فيما سبَق.

دلالة أقوالِ أهلِ التصوُّفِ في الدَّعوة إلىٰ الكتابِ والسُّنة

حين يوضِّح أئمَّةُ التصوُّفِ حدودَه ومعالِمَهُ وأركانَهُ فهم بذلك يبينون ما هو داخلٌ في التصوُّف وما هو خارجٌ عنه، فحينما نجدُ أنَّ أقوالَهم تواترَت عنهم في كتبِهم في الحضِّ علىٰ الأخذِ بالكتابِ والسُّنَّة، وتحذيرِ المريدينَ مِنَ التفريطِ في العمل بظواهرِ الشَّريعةِ وأحكامِها، والحثِّ علىٰ متابعة رسول الله في الأقوالِ والأفعالِ فهذا الأمر يحتوي ضمنيًّا علىٰ التَّحذير مِن أمْرِ البِدعة، فلم يكن أمْرُ البِدْعة هينًا أو متساهَلًا فيه عند أئمَّة التصوُّف، والحضُّ علىٰ اتِّباع السُّنة هو في الوقتِ نفسِه أمرٌ باجتنابِ البِدْعة والتَّحذيرِ منها، فأئمَّةُ التصوُّفِ جعلوا أمرَهم مَبْنِيًّا علىٰ كتابِ اللهِ وعلىٰ متابعةِ سيدنا رسولِ اللهِ ﷺ وأكَّدُوا علىٰ أنَّ الخُروجَ عن حدودِ الشَّريعةِ زندقةٌ بل خروجٌ عنِ الإسلامِ، ولم يتكلَّمُوا بوعظٍ أو وجْدٍ إلَّا وكان له أصْلٌ في الكتاب والسُّنَّةِ، وينْفُونَ عَنْ أَنْفُسِهم وقُلُوبِهم كلَّ خاطرٍ لا يشهَدُ لهُ الكتابُ والسُّنةُ، ولا يعتَمِدُونَ علىٰ كَشْفٍ أو فِراسَةٍ إنْ كان فيها مُخَالفةٌ للشَّريعةِ، وقَالُوا: إنَّ عِلْمَ التصوُّفِ بحرٌ والشَّريعةُ هي المركبُ الَّذي

يتنقل بهِ في هذا البحرِ، كلُّ هذه الأقوالِ والتَّعاليمِ من أجل الحرْصِ علىٰ ضَبْطِ التصوُّفِ بالشَّريعةِ المطهرة الغراء.

أسبابُ رَمْي التصوُّفِ والصُّوفيةِ بالابتداعِ:

هناك أسبابٌ كثيرةٌ جعلَتِ التصوُّفَ والصُّوفيةَ غرَضًا لِسهامِ النَّقدِ والتَّجريح، بعض هذه الأسباب لها أصلٌ وحقيقةٌ وأغلبُ هذه الأسبابِ ترجعُ إلىٰ الجهل أو سوءِ النيةِ أو إلىٰ أهدافٍ خبيثةٍ.

فالأسبابُ الَّتي لها مِنَ الحقيقةِ نصيبٌ مرجعها يعود إلىٰ الخلطِ بينَ التصوُّفِ كعلمٍ ومنهجٍ وسلوكٍ وبين ممارساتِ بعض مَنْ ينتسبونَ للتصوُّفِ من العامة الذين تغلبهم العاطفة مع صدق النية وحسن القصد، أو من المغرضين الذين يتعمدون تلويث التصوف بما ليس منه أو فيه، فبعض العامة مثلًا علىٰ قدر معرفتهم وحسن قصدهم جعلُوا التصوُّفَ عبارةً عن رسومٍ فقط وأشكالٍ مِنَ الموالدِ والمواكبِ والاجتماعِ علىٰ الطَّعام والشَّرابِ وإن كان كثير منهم قد تحقق بالتصوف الحق ظاهرًا وباطنًا مع قلة علمه كما هو مشاهد في كثير من العوام الأبرار الصادقين الصالحين، فَمَن يطَّلِع مِنَ النَّاس مِّمَن ليس لهم علمٌ حقيقيٌّ بالتصوُّف وأهلِه يظنُّ أنَّ هذه الظَّواهرَ والأشكالَ والسُّلوكياتِ هي فقط عينُ وحقيقةُ التصوُّفِ، فيرمي التصوُّفَ بالبِدَع ويتهاونُ في شأنِه ويبني علىٰ ذلكَ فكرةً خاطئةً عنِ التصوُّفِ وأهلِه. أمَّا مَن يهاجِم التصوُّفَ بسوء نيَّةٍ ويجعلُ ذلك منهجًا له فهو يتعمَّد خلْطَ الأوراقِ والصُّورِ والأشكالِ ليقدِّمَ للنَّاس كلَّ قبيحٍ في الأقوالِ والسُّلوكيَّاتِ تحتَ مسمَّىٰ التصوُّفِ مع ما لَه مِن اطلاعٍ وعلمٍ بكتبِ أهل التصوُّفِ وأقوالِهم وتراجمِهم، وإنَّما يختارُ ويقدِّمُ ما يناسِبُ أهدافَهُ ومَا يريدُ إيصالَهُ للنَّاسِ مِنَ الأقوالِ والأفعالِ الَّتي تسيءُ للتصوُّفِ فيقدِّمُها علىٰ أنَّها حقيقةُ التصوُّفِ، ويتغافَلُ بعمدٍ عن توضيحِ أسُسِ التصوُّفِ الحقيقيِّ وسِيَرِ وتراجِم شيوخِه وما كانَ لهم مِن الأيادي

البيضاءِ في الأخذِ بيدِ النَّاس إلىٰ طريق الله، فلو كانَ يفعلُ ذلك مع نقدِه للصُّورِ والسُّلوكيَّاتِ الَّتي فيها مخالفاتٌ شرعيَّةٌ لكانَ مِن أهل الإنصافِ ولوَجَدَ المساندةَ مِن أهلِ التصوُّفِ الصَّادقينَ، ولكنَّهُ يتصيَّدُ أيَّ خطأٍ مِنَ الجُهَّالِ أو الأدعياءِ أو البسطاءِ ممَّن ينتمونَ للتصوُّفِ ليقولَ للنَّاس هذا هو التصوُّف، ولو كان يهدِفُ حقًّا لنشْرِ دِينِ الله والعملِ علىٰ الإصلاح لكان جنبًا إلىٰ جنبٍ مع الصَّادقينَ مِن أهل التصوُّفِ في دعوةِ النَّاسِ إلىٰ اللهِ؛ خاصةً في هذه الأيَّام الَّتي اختلطت فيها الأفكارُ الفاسدةُ بعقولِ النَّاس، ونتجَ عنها مِن السُّلوكيَّات والبلايا والمصائبِ علىٰ المستويات كافة ما يحتاجُ لجهدِ كلِّ مسلِمٍ صادقٍ في العملِ علىٰ محاربتِها والدفاعِ عنِ الإسلام والمسلمين.

الخطأ في مفهومِ البِدعة وإسقاطُ ذلك ظلمًا علىٰ التصوف والصوفية:

إنَّ تحريرَ معنىٰ البِدْعةِ ومفهومَها وما تنطبق عليه أمرٌ في غايةِ الأهميَّةِ لِمَا يترتَّبُ عليهِ مِن تصنيفِ السُّلوكيَّاتِ والأقوالِ والأفعالِ ورمي النَّاسِ والمناهجِ بالبِدَعِ والخروجِ عنِ السُّنَّة النبويَّةِ الشَّريفَةِ، وبفضْلِ اللهِ قَدْ مَنَّ اللهُ علىٰ أمَّةِ الإسلام بالعلماءِ الربَّانيينَ أصحابِ العِلمِ والإخلاصِ الذينَ أوضحَ الله بهم معالِمَ دِينهم وبيَّنوا معاني البِدْعةِ وحدودَها وما يدخُلُ فيها وما يخرُجُ عنها، وبفضْلِ الله تعالىٰ لا يوجد في أئمَّة المسلمينَ ممَّن لهم قدَمُ صِدْقٍ في الأمَّةِ المحمَّديَّةِ مَن رمىٰ أصل طريقِ التصوُّفِ بالابتداعِ؛ ذلك لأنَّ معاني التصوُّفِ وما يدعو إليه هو في حقيقتِه مِن أركانِ الإسلامِ وغايتِهُ ورُوحانيَّتِهُ. وبالنَّظَرِ إلىٰ مفهومِ البِدْعةِ وتطبيقِها علىٰ السُّلوكِ والأفعالِ والأقوالِ نجدُ أنَّها:

- إمَّا أمْرٌ مُجمَعٌ علىٰ بِدعيَّتِه وعدمِ مشروعيَّتِه في دِين الإسلام.
- أو أمرٌ اختلَفَت فيه الأقوالُ تبعًا للأدلَّة والواقعِ والزَّمانِ.

فما هو مجمَعٌ علىٰ بدعيَّتِه فلا كلامَ لأحدٍ فيه ولا صِلةَ للتصوُّفِ به لا مِن قريبٍ ولا مِن بعيدٍ، فالمجمَعُ علىٰ بدعيَّتِه يخرُجُ عنه التصوُّفُ كمنهجٍ وأصولٍ ومجاهداتٍ. وأمَّا المختلَف

فيه مِنَ الأقوالِ والأفعالِ والسُّلوكيَّاتِ فالأمرُ فيه قريبٌ وليسَ الاختلافُ فيه بخطرٍ عظيمٍ؛ لأنَّ الحرامَ البيِّنَ لا اختلافَ فيه، وإنَّما المختلَفُ يكونُ في الأمورِ الَّتي تقعُ في دائرةِ الاجتهادِ، وتحتَ هذا الأمرِ تقعُ ممارساتٌ وأفعالٌ كثيرةٌ ممَّن ينتمونَ إلىٰ التصوُّف فلا ينبغي الإنكار لمجرد أنَّ هناك رأيٌ يقول ببدعيَّةِ سلوكٍ معيَّنٍ أو فِعْلٍ أو قولٍ طالما أنَّ هناك مَن رأىٰ أنَّ هذا مباحٌ وله أصلٌ في الشَّريعة يندرجُ تحتَها، وما دام يُراعَىٰ فيه الآدابُ الشَّرعيَّةُ وأحكامُ الحلالِ والحرامِ. وهناك أمورٌ تخفَىٰ علىٰ كثيرٍ مِنَ النَّاس راج القولُ بِبدعيَّتها وهي ليست كذلك ولا تدخُل تحتَ البِدعة أصلًا لا المجمَعِ عليها ولا المختَلَف فيها، كالاجتماعِ علىٰ الذِّكرِ والجهْرِ به والاجتماعِ علىٰ الطَّعام والشَّرابِ ومجلسِ مؤاخاةٍ ومجالس ومواسم الخيرِ الَّتي يجتمع فيها أهل التصوُّفِ.

الأضرحةُ والقبورُ والموالدُ وربطُ ذلكَ بالتصوُّفِ:

مِنَ الأهميَّةِ بمكانٍ عدمُ الخلْطِ بينَ ممارساتٍ قد تقعُ مِن عامَّةِ النَّاسِ ممَّن ليس لهم صِلةٌ بالتصوُّفِ وبينَ التصوُّفِ كطريقٍ ومنهجٍ، ومِن الأمور الَّتي يتمُّ الخلْطُ فيها الأضرحةُ والقبورُ والموالدُ وما يقع فيها مِن بعضِ الممارساتِ والسُّلوكيَّاتِ الَّتي تخالِفُ أحكامَ الشَّرعِ فيتمُّ الرَّبْط بينها وبينَ التصوُّف في محاولةِ إلصاقِ التصوُّفِ بالبِدعةِ والممارساتِ السَّيِّئة. فالتصوُّف قائمٌ منذُ الأيَّام الأولىٰ للإسلام قبل وجودِ الأضرحةِ والموالدِ وحدودُه وهيئتُه واضحةُ المعالِم، فالأضرحةُ والقبورُ تخضَعُ في شريعةِ الإسلامِ للأحكامِ الفقهيَّة وما يندرِجُ تحتها مِنَ الحلالِ والحرامِ والمكروه والمباحِ، فالمحرَّم عند زيارتِها هو محرَّمٌ علىٰ كلِّ المسلمينَ سواءٌ أكانوا صوفيَّةً أم غيرَ ذلكَ فلا اختصاصَ للتصوُّفِ وأهلِه بالقبورِ والأضرحةِ مِن حيثُ أصلُ التصوُّفِ ومنهجُه، وإنَّما هو سلوكٌ روحانيٌّ قلبيٌّ مِنَ المحبَّةِ والمودَّةِ والتقديرِ تِجاهَ أَهْلِ بَيْتِ رسولِ اللهِ ﷺ والعُبَّادِ والعُلَماءِ الصَّالحينَ فما يقعُ عندَ الأضْرِحةِ مِنَ الأمورِ المباحةِ في الشَّرع فهو مقبولٌ في التصوُّفِ، ومَا ليسَ بمباحٍ فهُوَ

مرفُوضٌ أيًّا كانَ فاعِلُه صُوفِيًّا أوْ غَيْرَه. وأمَّا موالدُ الصَّالحينَ وما قد يقعُ فيها مِنَ المخالفاتِ فلا يرضىٰ عنها أحدٌ مِن أَهْلِ اللهِ، وأمَّا مشاركةُ أهْلِ التَّصوُّفِ الصَّادقِ في موالدِ الأولياءِ والصَّالحينَ فهي للتَّعريفِ بسِيَرِ الصَّالحينَ وأخلاقِهم وأعمالِهم وإشاعةِ أعمالِ البرِّ مِن خلال هذه التجمُّعاتِ، فكُلٌّ مسئولٌ عمَّا يفعلُه، ويجبُ علىٰ كلِّ مسلمٍ إنكارُ المنكرِ والبِدع بقَدْر المستطاعِ ولكن برفْقٍ ولينٍ وبما يناسِبُ عقولَ النَّاسِ ومعارفَهم، وأن يراعيَ حالَ المسلمينَ في هذا العصرِ مِن حيثُ إنَّ كثيرًا منهم يحتاج للتَّعليمِ وليس للتَّقريع واللَّومِ، فأيُّ بدعةٍ قد تقع في مثلِ هذهِ الأماكنِ والمناسباتِ ليس التصوُّف بمسئولٍ عنها، وإنَّما التصوُّف الحقُّ يبرأُ إلىٰ اللهِ مِنَ البِدَع، وكما أنَّ الإسلامَ ليس مسئولًا عن أخطاءِ المسلمِين فكذلكَ التصوُّفُ ليس مسئولًا عَنْ أخطاءِ مَنْ يُنْسَبُونَ إليه. ◆

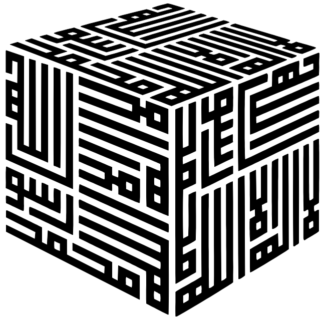
الخاتمة

إنَّ المسلمَ العاقلَ حينَ يتعرَّفُ علىٰ التصوُّفِ مِن خلالِ مؤلَّفاتِ أهلِه وأقوالِ مشايخِه وأئمَّتِه، ويرىٰ نماذجَ مِنَ الصُّوفيَّةِ الصَّادقينَ في حياتِهم مِن حيثُ الالتزامُ بالدِّينِ والشَّريعةِ فلابُدَّ أن تتشوَّقَ نفسُهُ إلىٰ سلوكِ هذا الطَّريقِ وتذوقِ هذه المعارف والعلومِ الربَّانيَّةَ الَّتي خرجَتْ مِنْ هذا المنهجِ، ويرىٰ في التصوُّف مَنْهَجًا متكاملًا لتطبيقِ الإسلام في صِلَتِه بربِّهِ سبحانهُ وفي عَلاقَتِه معَ النَّاسِ مِنْ حوْلِه، ويجدُ أنَّ طريقَ التصوُّفِ الحقَّ ما هو إلَّا متابعةٌ لرسول الله ﷺ بسنَّتِه، وليس فيهِ مجالٌ للبِدَع أو الدَّعوةِ إليها، فعدمُ العِلمِ بالتصوُّفِ والجهلُ بمعانيهِ ومقاصدِه يؤدِّي إلىٰ أحكامٍ خاطئةٍ. والحمد لله فالتُّراث الإسلاميُّ ممتلِئٌ بكتبِ التصوُّفِ ومصنَّفاتهِ علىٰ تنوُّعِ مقاصدِها وما تحويه مِنْ علمِ السُّلوكِ، فنجدُ أنَّ أهلَ التصوُّفِ قد شاركوا في كلِّ العلومِ والفنونِ الإسلاميَّةِ وكانوا مِن أصحابها وممَّن أصَّلَ لها كالإمامِ الغزاليِّ والنَّووي والسُّبكيِّ والعِزِّ بن عبدالسَّلام والإمامِ السُّيوطيِّ، فهؤلاء هم أهل الشَّريعة وحملةُ علومِها وفوق ذلك كانوُا مِنْ أَهْلِ التَّصوُّفِ وطريقِه وكانوا أبعدَ النَّاس عَن البِدَعِ وقَبُولها. وكذلك كان هناكَ مِن أهل التصوُّفِ أهلُ القلوبِ والأرواحِ والنُّفوس الذين بكلامِهم تنتعِشُ القلوبُ وترتقي الأرواحُ وتسمو النُّفوسُ وتتطلَّعُ إلىٰ معرفةِ ربِّها والقُرْبِ منهُ مثل الإمامِ الشَّيخ أبي الحسن الشَّاذُليِّ والشَّيخِ ابن عطاءِ اللهِ السَّكنْدَرِيِّ الذي تعدُّ كتبُه من أمهات كُتُبِ التصوُّفِ والتوجُّهِ إلىٰ اللهِ ومعرفة عُلومِ أهلِ اللهِ وأحوالِهم ومقاماتِهم، فهي تفتحُ الأبوابَ أمامَ العبدِ لسلوكِ طريقِ الله وتؤتي ثمارَها في قلبِ الإنسانِ وسلوكِه وحالِه مع الله.

ومِن ثِمار المنهجِ الصُّوفيِّ وخصائصِه أنَّه منهجٌ وسطيٌّ معتدلٌ في كلِّ شيءٍ لم ينتج عنه بفضْلِ الله فيمَن يتَّخِذُه مَنهجًا وطَريقًا إلىٰ الله أيُّ انحرافاتٍ أو تطرُّفٍ أو عنفٍ علىٰ أيِّ مستوًىٰ مِنَ المستوياتِ فالصُّوفيُّ الصَّادق يحبُّ الحياةَ الطيِّبةَ الهادئةَ، وكيف يشقَىٰ أو يحزنَ عبدٌ قلبُه موصولٌ بربِّه في أمورِه كلِّها.

فاقترِبْ أخي المسلم واعْرِفْ ما هو التصوُّفُ واقْرَأْ كُتُبَه وتَعَرَّفْ عَلَىٰ مَنْهَجِه وستجِدُ أَنَّهُ مَنهجٌ ربَّانيٌّ، وأَنَّ ما أُلصِقَ به مِن تُهَمٍ إنَّما هو نتيجةُ الجهلِ بمنهجِ التصوُّف وحقيقتِه وليس نتيجةً للعِلم بهِ والعملِ بأوامِره.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆





« قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ » – آية **39** من سورة سبأ

الرسالة الخامسة
التصوف ودعاوى الشطح بين الفهم الشرعي والمغالطات

وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأول: حقيقة الشَّطح عند الصُّوفية.

المحور الثاني: قصور اللغة عن وَصْفِ الجلالِ والجمالِ الإلهيِّ.

المحور الثالث: ضرورة حمل كلامِ وأحوال المسلمين على المعنى الصحيح السليم.

المحور الرابع: موقف أئمَّة التَّصوُّف المُعاصرينَ من دعاوَى رَمي التَّصوُّفِ بالبُعد عن الدِّين. ◆



﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَـٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ - آية **19** من سورة الحجر

التصوف ودعاوىٰ الشطح بين الفهم الشرعي والمغالطات

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا بَحثٌ موجَزٌ نتكلَّمُ فيه عن ظاهرةِ الشَّطح عند الصُّوفيَّةِ، نتحدَّث فيه عن حقيقتِها، ووجودها في الواقعِ، وبيان أقوال أهل التَّصوُّف في مصنَّفاتِهم، وما يجبُ علىٰ المسلمِ تجاه هذا المسألةِ وموقفُه منها.

وأهميَّةُ تناولِ هذا الموضوعِ تأتِي من حيثُ إنَّه تُكلِّم فيه بحقٍّ وباطلٍ من قِبَلِ كثيرٍ من خصومِ التَّصوُّف، مُتَّخذينَ منه وَسيلةً لمهاجمةِ التَّصوُّفِ وتصويرِه علىٰ أنَّه دعاوىٰ وخُزعبلاتٌ، ومِنْ ثَمَّ يتم رفضُ التصوف دون العِلم به، وسوفَ نَعرِضُ تلكَ المسألةَ من خلالِ أقوالِ أئمَّةِ التَّصوُّف والمُنتسبينَ إليه من العلماءِ قديمًا وحديثًا، سائلينَ المولىٰ تباركَ وتعالىٰ أنْ يوفِّقَنا بفضلِه إلىٰ بيانِ المسألةِ بوضوحٍ يشفي الصُّدورَ ويُنيرُ العُقولَ، وسيكونُ كلامُنا في هذه المسألةِ مُتمثِّلًا في المحاور التَّاليةِ:

المحور الأول: حقيقة الشَّطح عند الصُّوفية.

المحور الثاني: قصور اللغة عن وَصْفِ الجلالِ والجمالِ الإلهيِّ.

المحور الثالث: ضرورة حملِ كلامِ وأحوالِ المسلمينَ علىٰ المعنىٰ الصحيح السليم.

المحور الرابع: موقف أئمَّة التَّصوُّف المُعاصرينَ من دعاوَىٰ رَمي التَّصوُّفِ بالبُعد عن الدِّين. ◆

حقيقة الشَّطح عند الصُّوفيَّة

نتناوَلُ في هذه النُّقطةِ تعريفَ الشَّطحِ عند الصوفيَّةِ، ثم نعرضُ أقوالَ أئمَّةِ التصوفِ في الشَّطحِ وبيانه في علمِ التَّصوفِ.

أوَّلًا: تعريفُ الشَّطح عند الصوفيَّة:

هو عبارةٌ عن كلمات تَصدُرُ من الوليِّ في حالة الغيابِ والجذبِ والوَجْدِ وقوَّةِ الواردات الإلهيَّة على قُلوبِ الأولياء والعارفينَ، وهي تَصدُرُ من الوليِّ لشدَّةِ الأنوارِ الإلهيَّة التي مسَّتِ القلبَ فأذهلتِ العقلَ فلم يَدرِ ما جَرَىٰ به اللِّسانُ، هذا هو أصل الشَّطح في كلامِ أهل التَّصوُّفِ، وقد توجدُ بعضُ الكلماتِ والجُمَلِ المنسوبةِ لأهلِ التَّصوُّفِ وهم في كمالِ صَحوهم وعقلِهم ويُدرجها البعضُ تحتَ اسم الشَّطحِ وهي ليستْ منه، وإنَّما هي عِباراتٌ لها معانٍ فَهِمَها مَنْ فَهمها وجَهِلَها مَنْ جَهلها.

قال الشيخ أبو نصر السَّراج الطُّوسي عن الشَّطحِ الصُّوفي بأنه: ((عبارة مستغرقةٌ في وَصف وَجْدٍ فاضَ بقوَّته وهاجَ بشدَّةِ غليانه وغلبتِه، وبيان ذلك: أن الشَّطح في لغة العرب: هو الحركة، يقال: شَطَحَ يَشْطَحُ إذا تحرَّك. فالُمريدُ الواجدُ إذا قَوِيَ وَجْدُه ولم يُطقْ حملَ ما يَرِدُ على قلبِه من سطوةِ أنوارِ حقائقِه سطع ذلكَ على لسانِه فيُترجِم عنها بعبارةٍ مُستغربةٍ مُشْكَلةٍ على فُهومِ سامِعِيها إلا مَن كانَ من أهلِها ويكونُ مُتبحِّرًا في علمِها، فسُمِّي ذلك على لسانِ أهل الاصطلاحِ شَطْحًا))[1].

وفي تعريفها للشَّطح قالت الدكتورة نظلة الجبوري: ((الشَّطح: هو نوعٌ من اللغة الرَّمزيَّة يتضمَّنُ معنًى باطنًا تستُره الألفاظُ وتحجُبُه الكلماتُ، ليترجمَ باللِّسانِ شِدَّةَ وَجْدٍ لابدَّ أن يظهرَ، وليُعبِّرَ عن مُعاناةِ النَّفْسِ في درجاتِ الكشفِ العُليا؛ لذا ارتبطَ الشَّطحُ

---

(1) اللمع في التصوف (ص454) تأليف: أبي نصر السراج الطوسي- تحقيق: د/ عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور- دار الكتب الحديثة- مصر- 1960م.

بالسُّكْر في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ))[1].

فهذِه بعضُ تعريفاتِ الشَّطحِ من أقوالِ أئمَّةِ التَّصوُّفِ وأهلِ العِلْمِ، نخرجُ منها ببعضِ المفاهيمِ عن الشَّطح والَّتي من أهمِّها:

1- أنَّه في غالبه لا يكونُ إلَّا في حالاتِ الوَجْدِ والجَذْب وعدمِ الصَّحْوِ.

2- أنَّ من الشَّطح ادِّعاءَ منازلَ ومقاماتٍ عَليَّةٍ وهي لا توجد من المحقِّقينَ الملتزمين بالشَّريعةِ.

3- اعتبارُ ذلك الشَّطح عَرَضي وليسَ مقصودًا لا في المعنى ولا في الأحوالِ.

ثانيًا: عرضُ أقوالِ أئمَّةِ التَّصوُّف في الشَّطح:

قال الشَّيخُ الطوسيُّ رحمه الله في اللُّمع: ((إنَّ الله فتح قلوبَ أوليائه وأَذِنَ لهم بالإشرافِ على درجاتٍ متعاليةٍ، وقد جاد الحقُّ على أهل صفوتِه والمتحقِّقينَ بالتوجُّهِ والانقطاعِ إليه بكشفِ ما كان مُستَترًا عنهم قبل ذلكَ من مراتبِ صفوتِه ودرجاتِ أهل الخصوصِ من عبادِه، فكلُّ واحدٍ منهم يَنطِقُ بحقيقةِ ما وَجدَ ويصدق عن حالِه، ويصفُ ما وَردَ عن سرِّه بنطقه ومقالِه؛ لأنَّهم لا يرونَ حالًا أعلى من حالهم حتَّى يُحكموها، فإذا أحكمُوها فعندَ ذلك يَسْمُونَ بهِمَمِهم إلى حالةٍ أعلى من ذلك حتَّى تنتهيَ الطُّرقُ والأحوالُ والأماكنُ إلى غايةٍ ونهايةٍ هي أعلى النِّهاياتِ وغايةُ الغاياتِ))[2].

وهنا قد تَصدُر من بعضِ مشايخِ التَّصوُّفِ في هذه الحالاتِ عباراتٌ موهِمة، وهُم في حالة الجذبِ والوجدِ والسُّكرِ بالواردات والفيوضاتِ، يتمُّ كلُّ هذا والصُّوفيُّ في حالةٍ من عدم الشُّعورِ، فينطِقُ مُترجمًا عمَّا طافَ به من الوارداتِ، فيُمكنُ أن ينطقَ بصيغةِ المتكلِّم، وكأن الحقَّ هو الَّذي ينطق بلسانِه، وما ذاك إلَّا لغلبةِ الواردِ على القلبِ، فإذا أفاقَ من

---

(1) موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، مادة (ش ط ح) تأليف: الشيخ محمد عبدالكريم الكسنزان الحسيني.

(2) اللُّمع في التصوف (ص 454).

هذا الأمر ينخلعُ من هذا الكلام ولا يقرُّ بِه؛ بل ويمكنُ أنْ يُنكِرَ أن يكونَ قد قاله بالكُليَّة نظرًا لغيابه- وقتَ أنْ قالَه- عن الشُّعور والوعي، وإنَّما هو تعبيرٌ عن شهود قيُّوميَّةِ الله سبحانه وتعالىٰ وهَيْمنتِه علىٰ الخَلْقِ.

وهذا الأمر نجده عند الشيخِ ذي النونِ المصريِّ وهو يناجِي ربَّه قائلًا له: ((إلهي ما أصغيتُ إلىٰ صوت حيوانٍ ولا إلىٰ حفيفِ شجر، ولا خريرِ ماءٍ ولا ترنُّمِ طائرٍ ولا تنعُّم ظلٍّ ولا دويِّ ريحٍ ولا قعقعة رَعدٍ إلَّا وجدْتُها شاهدةً بوحدانيتِكَ دالةً علىٰ أنَّه ليس كمثلكَ شيءٌ))[1].

فهُو هنا لا يَقصدُ القولَ بالحلُولِ أو الاتِّحادِ أو الاندماجِ بين الخالقِ والمخلوقِ أو بين العبدِ والرَّبِّ، وإنَّما المقصودُ شهودُ قُدرةِ الله وآثارِه وعظمتِه في الكون كلِّه، وهذا ما يَنطِقُ به هذا البيت:

وَلَـهُ فِي كُـلِّ شـيءٍ آيـــةٌ ... تـــــدلُّ علىٰ أنَّـه الواحِـدُ

وكما قال آخر في شُهودِهِ لله سبحانَه وتعالىٰ:

وَمَنْ أنتَ يا ربِّي أجِبْني فإنَّني ... رَأيتُكَ بَيْنَ الحُسْنِ والزَّهرِ والَماءِ

وقدْ حذَّر أئمةُ التَّصوُّفِ وعلماؤُه من الأخذ بظواهِرِ بعضِ العباراتِ الواردةِ عنِ الشُّيوخِ إنْ ثبتَ نِسبةُ ذلك إليهم؛ لأنَّ كثيرًا من هذه العباراتِ مَدسُوسٌ أو مبتورٌ عن سياقِه؛ بل وَصلَ الأمرُ ببعضِهم إلىٰ تحريمِ النَّظر في كُتبِ بعض الأئمَّة المَشهورينَ إنْ لم يكن المرءُ أهلًا لذلك عِلمًا وحالًا وسُلوكًا واطِّلاعًا علىٰ لغةِ القوم ومُصطلحاتِهم، وقالوا: ((طعامُ الكبارِ يضرُّ الصِّغارَ)).

وهنا نُوردُ بعضَ أقوال أئمَّةِ التصوفِ الَّتي تعبِّر عن رفضِهم للشَّطح وما ينتج عنه

(1) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (342/9) تأليف: أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني- دار الكتب العلمية- لبنان- الطَّبعة الأولىٰ- 1988م.

وتبيِّنُ مدى التَّمسك بحقيقةِ الشريعةِ، فمِنْ هذه الأقوال ما قالَه الشَّيخُ الأكبر مُحيي الدين ابن عربي قدَّسَ الله سرَّه: ((الشَّطحُ هو عبارةٌ عن كلمة عليها رائحةُ رُعونة ودَعوى، وهي نادرةٌ أن توجدَ من المحقِّقينَ أهلِ الشَّريعة))[1].

وقال الشَّيخُ أبو الهدى الصَّيادي الرِّفاعيُّ: ((الشَّطحُ رعونة نَفْسٍ، فإنَّه لا يصدُرُ من محقِّقٍ أصلًا فإنَّ المحقِّقَ ما له مَشهود سِوَى ربِّه وعلى ربِّه ما يفتخرُ وما يدَّعي، بل هو مُلازمٌ عبوديتَه مهيَّأً لما يَرد عليه من أوامرِه فيسارعُ إليها وينظرُ جميعَ ما في الكون بهذه المثابةِ، فإذا شَطَحَ انحجبَ عمَّا خُلِقَ له وجهل نفسَه وربَّه))[2].

ويقولُ الدكتورُ محمد سعيد رمضان البُوطي في كتابِه: ((هذا والدِي)) مُتحدِّثًا عن ظاهرة الشَّطح عند الصُّوفيَّة وعن العباراتِ الموهِمةِ: ((هذه المَسألةُ هي المُعضلة الكُبرى التي جعلتْ فئةً من النَّاسِ تنظرُ إلى التَّصوُّفِ من حيث هُو- أي جملةً وتفصيلًا- على أنَّه هرطقةٌ وزندقةٌ وشرودٌ عن ضوابط القرآنِ والسُّنَّةِ، وهي التي جعلتْ فئةً أخرى تفهمُ الأمورَ على ظواهرِها، وتتقبَّلُ العباراتِ الموهمةَ- بل الباطلة- على أساسِ الثِّقةِ بقائلِيها أو بمَن نُسبتْ إليهم، وكِلَا الفريقيْنِ شاردٌ في قرارِه هذا عن الحقِّ مُتورِّطٌ في حَيْفٍ وظُلْم كبيريْنِ.

أمَّا الأوَّلُ: فمُتورِّطٌ في ظُلم التَّصوُّفِ والجُنوحِ عن الحقِّ في حُكمِه الجائرِ عليْه.

وأمَّا الثَّاني: فمُتورِّطٌ في ظُلم الشَّريعةِ والدِّين؛ إذ مضى يُحمِّلُهما أوزارَ كلماتٍ وعباراتٍ ما هي منها في شيءٍ، على أنَّ كثيرًا من هذا الفريقِ الثَّاني لا ينتهونَ من ترداِدهم لهذه العباراتِ إلى أيِّ فَهمٍ لمعانِيها، وإنَّما يَبتلعُونها ابْتلاعًا بسائقٍ من الثِّقة المُجرَّدةِ كما هي،

---

(1) الفتوحات المكية (133/2) تأليف: أبي عبدالله محيي الدين محمد بن علي بن عربي- طبعة دار الكتب العربية- مصر.

(2) موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، مادة (ش ط ح).

تمامًا كما يَزْدَرِدُ أحدُهم لقمةً من طعامٍ دُونَ أيِّ تذوقٍ ولا مضغٍ[1].

فَمَنْ قال ببعضِ تلكَ الشَّطحاتِ فإنَّما قال ذلك في حالة فناءٍ انتابتْه وعرضتْ له، غابَ فيها عن شُهودِ ذاتِه فاستغرقَ في شهودِ الحقِّ وحدَه، فَفَاه بتِلكَ الكلماتِ وهو تحتَ سُلطانِ ذلك الفناءِ عن الذَّاتِ، وفي غيبوبةٍ عن قرارِ العقلِ ويقينِه، ولذا فإنَّ كُلًّا منهم يعودُ عن تلك الشَّطحاتِ ويبرأُ منها ويؤكِّدُ نقيضَها بمجرَّدِ أنْ تزولَ عنه تلك الحالُ))[2].

ويقول الدكتور البوطي أيضًا متحدثًا عن الفناء والشَّطح: ((تلك الألفاظ التي اشتهرتْ عن أبي يزيد البِسطاميِّ رحمه الله، فظنوا أنَّ قولَه: ما في الجُبَّة إلا الله. عقيدةٌ فكريةٌ يتبنَّاها الشَّيخ، فهو يعتنق إذن عقيدةَ الحلول وينادِي بها، ولو أنهم تمهَّلوا وأمعنوا في حقيقةِ الأمرِ وواقعِه ووقفوا على تراجم هؤلاءِ الرِّجالِ وأحوالِهم لَـمَا تسارعوا بالانحرافِ في هذا الفَهمِ الباطلِ والتُّهَمةِ الشَّنعاء، بل لعلمُوا أنَّه ما مِنْ مؤمنٍ بالله حقَّ الإيمان إلَّا وله حظٌّ من هذا الفناءِ، ولكنَّه ليسَ فناء الشُّعورِ عن كلِّ ما سوى الله، بل هو فَناءُ الإرادة لكلِّ ما عدا الله، وهو يتمثَّل في اليقينِ بأنَّ الله هو النَّافعُ والضَّارُّ، وفي صدقِ التوكُّل عليه والتَّفويضِ إليه وإخضاعِ إرادتِه وحبِّه لما يحبُّه الله ويرضاهُ، إلَّا أنَّ هؤلاء الرِّجالَ رحمهُم الله تعالى لما استرسلُوا في هذا الحالِ وواصلُوا مُراقَبتَهم لله عزَّ وجلَّ، وعوَّدوا أنفسَهم ألَّا يُبصِروا شيئًا من مظاهِرِ الكونِ إلَّا وتجلَّى لهم صفاتُ الله من خلاله- تجاوزُوا مرحلةَ ذلك الفناءِ الإراديِّ إلى الفَناءِ الشعوريِّ؛ فمنهم مَن استمرَّ على هذه الحالِ، ومنهم مَن عادَ إلى حالة الصَّحو والبقاءِ واستقامَ على منهج التَّنسيقِ بين الجمع والفرقِ، وذلك هو المقامُ السَّامي الذي بُعثَ به الرُّسلُ والأنبياءُ وتحلَّوا به، وهو الَّذي يجبُ أن يَكونَ مَطْمحَ أبصارِ السَّالكينَ إلى الله عزَّ وجلَّ))[3]. اهـ

(1) هذا والدي (ص 108) تأليف: د/ محمد سعيد رمضان البوطي- دار الفكر المعاصر- بيروت- لبنان.

(2) المرجع السابق (ص 110).

(3) السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي (ص 202) تأليف: د/محمد سعيد رمضان البوطي-

ويُمكن أن نَخرجَ من كلام الشَّيخِ البوطيِّ بأمريْنِ مهمَّيْنِ حولَ مسألةِ الشَّطحِ:

1- حدوثُ الشَّطح بسببِ الغَيبةِ عن الوجود ومُشاهدة عظمةِ الله في كلِّ الكونِ.

2- إقرارُ الشَّيخ بأنَّ أفضلَ المقاماتِ هو الصَّحو مع الجَمع بين رُؤية الخالِق والاستغراقِ في شُهود مظاهرِ تجلياتِه في الكونِ ورؤية المخلوقاتِ وجريان الأقدارِ عليْها.

وللإمام أبي حامد الغزالي كلامٌ عن الشَّطح؛ يقول في الإحياء: ((وأمَّا الشَّطح فنعني به صِنفيْنِ من الكلام أحدَثَه بعضُ الصُّوفية:

أحدُهما: الدَّعاوَىٰ العَريضةُ الطَّويلةُ في العِشْقِ مع الله تعالىٰ والوصالُ المُغني عن الأعمال الظَّاهرة حتَّىٰ يَنتهيَ قومٌ إلىٰ دَعوىٰ الاتِّحاد وارتفاعِ الحِجابِ والمُشاهدة بالرُّؤية والمشافهةِ بالخطابِ، فيَقُولونَ: قِيلَ لنا كذا، وقُلنا كذا، ويتشبَّهونَ فيه بالحُسين بن منصور الحلَّاج الذي صُلب لأجلِ إطلاقِه كلماتٍ من هذا الجنس، ويستشهدونَ بقولِه: أنا الحقُّ. وبما حُكي عن أبي يزيد البسطاميِّ أنَّه قال: سبحاني سبحاني.

وهذا فنٌّ من الكلامِ عظيمٌ ضررُه في العوامِّ، حتَّىٰ تَركَ أهلُ الفِلاحَةِ فلاحتَهم، وأظهرُوا مثلَ هذه الدَّعاوىٰ، فإنَّ هذا الكلامَ يستلذُّه الطَّبعُ؛ إذْ فيه البِطالةُ من الأعمالِ مع تزكيةِ النَّفس بدَرْكِ المقاماتِ والأحوالِ، فلا تعجزُ الأغبياءُ عن دَعوىٰ ذلك لأنفسِهم ولا عن تلقُّف كلماتٍ مخبطةٍ مُزخرفةٍ، ومهما أنكرُوا عليهم ذلك لم يَعجِزوا عن أن يقولُوا: هذا إنكارٌ مصدره العِلْم والجدال، والعِلْمُ حجابٌ، والجدلُ عملُ النَّفس، وهذا الحدِيثُ لا يلوح إلَّا من الباطنِ بمكاشفةِ نور الحقِّ، فهذا ومثلُه ممَّا قد استطارَ في البلادِ شررُه وعظُم في العوامِّ ضررُه حتىٰ مَن نطق فقَتْلُه أفضلُ في دِين الله من إحياء عشرةٍ.

وأمَّا أبُو يزيد البسطاميُّ رحمه الله فلا يَصحُّ عنه ما يُحكىٰ عنه، وإنْ سُمِعَ ذلك منه فلعلَّه كان يَحكِيه عن الله عزَّ وجلَّ في كلامٍ يُردِّدُه في نفْسِه، كما لو سُمِعَ وهُو يقولُ:

=

دار الفكر- سوريا- الطبعة التاسعة- 2007م.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: 14] فإنَّه ما كانَ ينبغِي أن يُفهم منه ذلك إلَّا علىٰ سبيلِ الحِكايةِ.

الصِّنفُ الثَّاني من الشَّطح: كلماتٌ غيرُ مفهومةٍ، لها ظواهرُ رائقةٌ، وفيها عباراتٌ هائلةٌ، وليس وراءها طائلٌ، إمَّا أن تكونَ غيرَ مفهومةٍ عند قائلِها؛ بل يُصدرها عن خبطٍ في عقلِه وتشويشٍ في خيالِه؛ لقلَّةِ إحاطتِه بمعنىٰ كلامٍ قَرَعَ سَمْعَه، وهذا هو الأكثرُ.

وإمَّا أن تكونَ مفهومةً له، ولكنَّه لا يقدِرُ علىٰ تَفهيمِها وإيرادِها بعبارةٍ تدلُّ علىٰ ضميرِه؛ لقلَّةِ ممارستِه للعِلمِ وعدم تعلُّمِه طريقَ التَّعبيرِ عن المعاني بالألفاظِ الرَّشيقة، ولا فائدةَ لهذا الجنسِ من الكلامِ إلا أنَّه يُشوش القُلوبَ ويُدهشُ العقولَ ويحيِّرُ الأذهانَ، أو يَحملُ علىٰ أن يُفهمَ منها معانيَ ما أُريدتْ بها، ويكونُ فَهْمُ كلٍّ واحدٍ علىٰ مُقتضىٰ هَواه وطَبْعِه؛ وقد قالَ ﷺ: ((مَا حدَّثَ أحدُكم قومًا بحَديثٍ لا يَفقهونَه إلَّا كانَ فتنةً عليهمْ))[1]. وقال ﷺ: ((كلِّمُوا النَّاسَ بما يَعرفونَ ودعوا ما يُنكرونَ، أتُريدونَ أنْ يُكذَّبَ اللهُ ورسولُه))[2]. وهذا فيما يفهمه صاحبُه ولا يبلغه عقلُ المستمعِ فكيفَ فيما لا يفهمُه قائلُه؟!

فإنْ كان يَفهمُه القائلُ دون المُستمعِ فلا يحلُّ ذِكْرُه، وقال عيسىٰ عليه السَّلام: لا تَضعُوا الحِكمةَ عند غيرِ أهلِها فتظلمُوها، ولا تمنعُوها أهلَها فتظلمُوهم، كونوا كالطَّبيب

(1) أخرجه العقيليُّ في الضُّعفاء (3/201- ترجمة عثمان بن داود) من طريقِ عثمان بن داودَ عن الضَّحاكِ ابن مزاحم عن ابن عبَّاس قال: قالُوا: يا رسولَ الله، ما نسمعُ منكَ نحدِّث به كلِّه؟ فقال: ((نَعم، إلَّا أن تُحدِّثوا قومًا حديثًا لا تدركُه عقولُهم فيكونُ علىٰ بعضِهم فتنةً)).

وقال العقيليُّ: ((عثمانُ بن داود مجهولٌ لا يُتابع علىٰ حديثِه)).

وله شاهدٌ من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه موقوفًا؛ أخرجه مُسلمٌ في مقدمة صحيحِه، باب النهي عن الحديث بكل ما سَمِعَ، أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((ما أنتَ بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلُغه عقولُهم إلَّا كان لبعضِهم فتنةً)).

(2) أخرجه الدَّيلميُّ في مسند الفردوس (2/129) من حديث عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه بنحوِه مرفوعًا، وله شاهدٌ من حديثِ عليٍّ موقوفًا؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قومٍ كراهية أن لا يفهمُوا (127) أنَّ عليَّ بن أبي طالب قال: ((حدِّثوا النَّاسَ بما يعرفونَ أتحبُّون أنْ يُكذَّبَ اللهُ ورسولُه)).

الرَّفيقِ يَضعُ الدَّواءَ في موضع الدَّاءِ[1]. وفي لفظٍ آخر: مَنْ وَضَعَ الحكمَةَ في غير أهلِها فقد جَهِلَ، ومَن منعَها أهلَها فقد ظَلَم، إنَّ للحكمةِ حقًّا وإنَّ لها أهلًا فأعطِ كلَّ ذِي حقٍّ حقَّه[2]))[3].

فهذا كلامُ إمامٍ من أئمَّةِ المُسلمينَ الأصوليِّينَ صاحبِ المنزلة الكبرىٰ في العِلمِ الشَّرعيِّ، وفوق ذلك فهو من أهل التَّصوُّفِ والذَّوقِ والمعارفِ، يتعرَّضُ لقضية الشَّطحِ بكلامٍ نفيس نخرج منه بعدَّةِ أمور:

1- عدمُ إقرار الشَّطح ووصفُه بالدَّعاوىٰ من بعض مَن يصدُر عنهم؛ أيَ أنَّه يقولُ بكذبِهم في هذه الأقوالِ ابتداءً، وكَشْفه أنَّ بعضَ أصحابِ تلكَ الدَّعاوَىٰ يفعلونَ ذلك ليرتاحُوا من عناء المُجاهدةِ وطلبِ تزكيةِ النُّفوسِ.

2- إنكارُ ما وَرَدَ عن بعض أهل التَّصوُّفِ من هذه العباراتِ، وذلك مُشاهدٌ محسوسٌ في جميع المصنَّفات العلميَّةِ، وذكر أيضًا أن بعضَه يكونُ مَدسوسًا علىٰ أهل التَّصوُّف، ولِـمَ لا وقد كَذَبَ النَّاسُ علىٰ الله وعلىٰ الرُّسلِ؟! ونَسبُوا أشياءَ باطلةً في حقِّ الله سبحانه وتعالَىٰ وحقِّ رُسُلِه عليهم السَّلام.

3- تفسيرُ العباراتِ بما يُلائمُ الحالَ؛ فيقول: إنَّها عبارةٌ عن حكايةٍ لوصفِ الحقِّ سبحانه لنفسِه ووردَتْ علىٰ لسانِ العارفِ فهو يحكي عن الله ولا يقولُ عن نفسِه.

4- يقولُ الغزاليُّ بعدم الفائدةِ من نَقْلِ هذه الأقوالِ، وإنَّما يَستلذُّ النَّاسُ بنقلها إعجابًا بكلِّ غريبٍ من القولِ.

---

(1) أخرجَه ابنُ عساكر في تاريخ دمشق (458/47) من طريق عبدالرَّحمنِ بن قبيس حدَّثنا أبو المقدام عن محمَّد بن كعب عن ابنِ عبَّاس بنحوِه مرفوعًا.

وقال الحافظُ ابن كثير في البداية والنِّهاية (504/2): ((إسنادُه غريبٌ)).

(2) أخرجه ابنُ عساكر في تاريخِه نفس الموضع السَّابق من طريقِ أبي القاسم البغويِّ حدَّثنا محمد بن زياد أبو روح البلدي، حدَّثنا أبو شهاب عبد ربه بن نافع، عن عمرو بن قيس الملائي قال: قال عيسىٰ بن مريم بنحوِه.

(3) إحياء علوم الدِّين (36/1) تأليف: أبي حامد الغزالي - مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا- سمارغ- أندونيسيا.

5- أن تـكونَ هذه الأقوالُ لها معانٍ صحيحةٌ عند قائلِيها، ولـكنَّه لم يستطعْ أنْ يستخدمَ الكلماتِ الصَّحيحةَ في التَّعبيرِ عنها.

6- لا يُقرُّ الغزاليُّ عباراتِ الشَّطحِ، ويرىٰ أنَّها مما يشوِّشُ الذِّهنَ حتَّىٰ وإنْ كانت لها معانٍ مفهومةٌ عند قائِلِيها.

7- لم يتعرَّضْ بالنَّقد والتَّجريحِ لمن نُقلتْ عنهم هذه الأقوالُ إعمالًا لحسنِ الظَّنِّ بالمسلمينَ، ولما اشتُهرَ عن هؤلاء الشيوخِ من الدِّيانة والصَّلاحِ.

وقد تكلَّم الشيخ عبدالوهَّاب الشَّعرانيُّ عن الشَّطح فقال: «ممَّا أنكرُوهُ علىٰ القوم: تكلُّمَهم بالكلماتِ التي لا توافِقُ ظاهرَ الشَّريعة.

والجوابُ: أنَّه لا ينبغي لأحدٍ الإنكارُ إلا بعد إمعانِ النَّظرِ في ذلكَ الكلامِ مع التَّبحُّرِ في عُلوم الشَّريعةِ، ثم إنَّ تلكَ الكلماتِ لا تخلُو إمَّا أنْ تـكونَ في التَّوحيدِ أو في فُرُوعِ الفقه، فإنْ كانت في التَّوحيدِ فلا يخلُو إمَّا أنْ يُفهم معناها أو لا يُفهم معناها، فإنْ لم نَفهمْ معناها فلا يجوزُ إنكارُها؛ لأنَّ الإنكارَ لا يـكونُ إلَّا بعدَ الفَهم، وإنْ فُهِمَ مَعناها فلا يخلو إمَّا أنْ يـكونَ في حال السُّكرِ أو في حال الصَّحوِ، فإن كانت في حال السُّكر فحُكم صاحبها حُكمُ المجنون والنَّائم والمُغمىٰ عليه والصَّبيِّ الذي لا يميِّزُ أو يُميز، ولا يخفىٰ أنه لا ثوابَ لأحدٍ من هؤلاء في تلكَ الكلمات ولا عقابَ عليها حتىٰ لو نطقوا بكلمة كفر، فالحُكم كذلك.

وقد وَرَدَ في الصَّحيحيْنِ في الذي ضلَّت عنه دابَّتُه في أرضٍ فلاةٍ وعليها طعامُه وشرابُه وأَيِسَ منها فوضع رأسَه لينامَ، فاستيقظ فوجد دابَّتَه واقفةً عند رأسِه، فقال من شدة الفرحِ: «اللهمَّ أنتَ عبدي وأنا ربُّكَ» ما يشهدُ لما قلناهُ بالنُّطق بالمُحالِ، وقد قال ﷺ: «أخطأَ من شِدَّةِ الفَرح»[1]، ولم يقل فيه: كَفَرَ، مع أنه قَلَبَ حقيقةَ الرُّبوبيَّة وهي

(1) أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب الحض علىٰ التوبة والفرح بها (2747) من حديث أنسٍ رضي الله عنه، وهو متَّفقٌ عليه دون قوله: «اللهم أنتَ...» فقد أخرجه البخاري مُختصرًا في كتابِ الدعوات، باب التَّوبة (6309).

قديمةٌ إلى العبوديَّة وهي حادِثةٌ وبالعكسِ، ولم يكن في قلبِه إلا التَّوحيد. وانظر إلى قوله ﷺ: ((أَخطأَ من شِدَّةِ الفَرحِ)) فبيَّنَ فيه أنَّ شِدَّةَ الفرح مُدهشةٌ تُدهش العقلَ بمُشاهدة الحقيقة واتِّساعها))[1].

فهنا الشَّيخُ يبني كلامَه عن العباراتِ المُوهِمة على أمورٍ:

1- ضرورةُ إمعان النَّظر قبل الإنكارِ والحُكمِ على القائلِ.

2- احتماليَّةُ أنَّ المنكِرَ لا يكونُ فاهمًا لمقصد القائلِ.

3- تغليبُ أنَّ ما ينطق به مَن يَرِدُ عنه الشَّطح أنَّه في حالِ الغيبة والسُّكرِ بالمواجيدِ التي تجعلُه كالنَّائم والمجنونِ المرفوع القلم عنه الذي يُبهَتُ من شدَّةِ الفرح التي تُصيبُ القلوبَ.

4- كلام الشيخ عبارةٌ عن الدفاعِ عن مَقامهم إحسانًا للظَّنِّ بحالهم.

وله رحمه الله كلامًا ينقلُه عن الشَّيخ الأكبر محيي الدِّين بن عربي- قدَّس الله سرَّه- يوضِّح تمامَ الانضباطِ بأحكام الشَّريعة وحدودِها فيما يتعلق بالجَناب الإلهيِّ فيقولُ: ((وقال في بابِ الأسرار من ((الفتوحات)) مَن قال بالحلولِ فهو مَعلولٌ، وهو مريضٌ لا دواءَ لدائِه ولا طَبيبَ يسعى في شفائِه، فإنَّ مَن فَصل بينَك وبَينه فقد أثبت عينَك وعَينَه، ألا تَرى إلى قولِه: ((كنتُ سَمْعَه الَّذي يَسمعُ بِه))[2]. فأثبتكَ بإعادة الضَّميرِ إليه ليدلَّ عليك، وما قال بالاتِّحادِ إلا أهلُ الإلحادِ، كما أنَّ القائلَ بالحلولِ معدودٌ من أهلِ الجهل والفضولِ))[3].

وقال رحمه الله في بيانِ أنَّ للكلام غَوامضَ ومعانيَ قد تخفى على النَّاس: ((وسمعتُ سيِّدي عليًّا الخوَّاصَ رحمه الله تعالى يقول: الفقهاءُ والصُّوفيَّةُ آخذونَ من البحر المحيطِ الذي لا تنفدُ أحكامُه ولا أسرارُه، ومَن يقدر على الإحاطةِ بذلك حتَّى يعرفَ أنَّ تلكَ

---

(1) الأجوبة المرضية (ص 488- 489).

(2) جزءٌ من حديثٍ أخرجَه البخاري في كتاب الرِّقاق، باب التواضع (6502) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) الأجوبة المرضية (ص 398).

الكلماتِ التي قالها الصُّوفيَّةُ خارجةٌ عن جميعِ مذاهبِ العلماء، أم لم يُوافِقْ مذهبًا واحدًا من مذاهب الأئمَّةِ ولا أصلًا من أصولِهم جملةً وتفصيلًا.

وسمعتُ أخي أفضل الدِّين رحمه الله يقول: ليسَ كلُّ مَن تزيَّا بزيِّ القوم يكون منهم، فقد يكونُ لا يعلمُ ما أوجبَه الله عليْه من فرائضِ الدِّين، ومثلُ هذا قد يتكلَّمُ فيما لا يعلمُ فيُخالف الشَّريعةَ، فليس هو من الفُقهاءِ ولا مِنَ الصُّوفيةِ ولا من المتصوِّفةِ))[1].

وقال في موضعٍ آخرَ: ((ومن كلام الشيخ أبي الحسنِ الشَّاذُليِّ رضي الله عنه: إيَّاك أنْ يَعرِضَ لك في حال عُزلتِك أمرٌ يشبه العِلْم من طريق الكشفِ والإلهامِ والمُشاهداتِ فتقبله بلا شهادةِ الكتاب والسُّنَّةِ له بالصِّحَّةِ؛ بل أَعرِضْ عنه وإنْ كان حقًّا في نفسِ الأمر، فإنَّ الله تعالَىٰ قد ضَمِنَ لنا العصمةَ في جانبِ الكتابِ والسُّنَّةِ ولم يضمنْها لنا في جانب الكشفِ والإلهامِ والمُشاهدةِ.

فاحفظْ هذا البابَ حتىٰ تكونَ علىٰ بَيِّنةٍ من ربِّك؛ إذ البيِّنةُ لا خطأَ معها ولا إشكالَ، فهذه حكاياتٌ وما وَالَاها تعرِّفُكَ حالَ الصُّوفيَّةِ وجلالَتهم وما كانُوا عليه من الحفظِ والتَّعاونِ عن الإخلال بشيءٍ من الآدابِ فضلًا عن السننِ والواجبات، وأنَّهم مقتدونَ في جميع أحوالِهم من قولٍ أو فعلٍ أو غيرِ ذلك بالكتاب والسُّنةِ لمعرفتهم بمعاني القرآنِ والحديثِ))[2].

فهذه الأقوالُ وغيرُها تُفنِّدُ ما ينسبُ للتَّصوفِ من أنَّه دعوةٌ للشَّطحِ والخُرُوجِ عن حدود الشَّريعة وآدابِها، والزَّعمَ بأنه دعوةٌ لإسقاطِ التَّكاليفِ الشَّرعية والفروضِ، وقد تبيَّنَ بفضلِ الله إنكارُ أهل التَّصوُّف وأئمَّتُه كلَّ قولٍ مخالفٍ لأدبٍ من آدابِ رسولِ الله ﷺ؟ وكيف يكونُ التَّصوُّف هو دعوةٌ للتفلُّتِ من أحكام الشَّريعةِ، والصُّوفيُّ الحقُّ لا يكون صوفيًّا إلَّا بعد أداءِ الفروض والواجبات ثم يتركُ بعضَ المباحاتِ، ولا يأخذ من

(1) الأجوبة المرضية (ص 493).

(2) المصدر السابق (ص 497).

الحلال إلا بقدر الحاجةِ؟! إذن فلا يَستقيمُ بعد ذلك أيها الأخ الكريمُ لا دِينًا ولا عقلًا أنْ نرميَ التَّصوُّفَ بأنَّه مَنهجٌ للشَّطحِ من أجل وُرودِ بعضِ الأقوال التي فسَّرها أهلُ المعرفة، ومن المعلومِ أنهم في شطحاتِهم لا يمكن أن يُعبِّروا أو يَصفوا الجلال الإلهيَّ وصفًا حقيقيًّا، بمعنىٰ أن اللُّغة قاصرةٌ عن هذا الوصفِ، وهذا ما سنوضِّحُه في النقطة التَّالية.

قُصور اللُّغة عن وَصْفِ الجلالِ والجمالِ الإلهيِّ

إنَّ القرآنَ الكريمَ والسُّنَّةَ النبويةَ الشَّريفةَ هما وحدَهما اللَّذان يستطيعانِ بألفاظِهما ومعانِيهما الإحاطةَ والتَّعبيرَ والوصفَ عند الحديثِ عن الجلالِ الإلهيِّ ووصف الحقِّ سبحانَه وتعالىٰ وعظمتِه وكمال صفاتِه.

والوَجْدُ الصُّوفيُّ والاستغراقُ في الشُّهود الإلهيِّ والتجلِّي الرَّباني كُلُّ هذه أمورٌ ذوقيةٌ تختلف حين التَّعبير عنها عن باقي المشاعرِ الإنسانية، فهي لا تخضعُ للحدودِ، فعلىٰ سبيل المثال: العِلمُ بحلاوة العسلِ لا يشعرُ بها إلَّا مَن ذاقه، والتَّعبيرُ عن هذه الحلاوةِ لا يكتمل إلَّا أن تقولَ: مَن ذاقَ عرفَ، هذا في بعضِ المحسوسات المادية فكيف في مجالِ الواردات الإلهيَّة والفيوضاتِ الرَّبانيةِ علىٰ قلوب الأولياءِ والعارفينَ؟! فحينَ يحدثُ التعبير عنها قد يحدث الشَّطحُ، فكيف يصف اللِّسانُ الجلالَ والجمالَ والعظمةَ الإلهيةَ التي تُوجد في قلوب العارفين؟

في هذا الإطار الجميلِ يُطالعنا كلامٌ نفيسٌ في هذا الأمر للعلَّامة ابن خلدونَ حيث يقولُ: «إنَّ التَّعبيرَ عن تلك المداركِ والمعاني المُنكشفةِ من عالم الملَكوتِ مُتعذِّرةٌ بل مفقودةٌ؛ لأنَّ ألفاظَ التَّخاطبِ في كلِّ لغةٍ من اللُّغاتِ إنَّما وُضعتْ لمعانٍ مُتعارَفةٍ من محسوسٍ أو متخيَّلٍ أو معقولٍ تعرفه الكافَّةُ، إذ اللُّغاتُ تواضعٌ واصطلاحٌ فلا تُوضعُ إلَّا للمعروفِ المُتعاهَدِ، فأمَّا ما ينفردُ بإدراكِه الواحدُ في الأعصار والأجيال فلم تُوضعْ له، ولا يصحُّ أيضًا التَّجوُّز بهذه الألفاظِ علىٰ طريق المجازِ، إذ التجوُّز إنَّما يكون بعد مراعاةِ

معنًى مشترك أو نسبةٍ، ولا نسبةَ بوجهٍ بين عالم الملَكوت وعالم المُلك، ولا بين عالَم الغيب وعالَم الشَّهادة، فإنَّ العبارةَ عن أحوالِ عالَم الملَكوت متعذِّرةٌ أو مَفقودةٌ، فكيف يُتكلم بما لا يُفهمُ فضلًا عن أن يودع الكُتبَ، وإنْ صارُوا إلىٰ ضَرْبِ الأمثالِ والقنوعِ بالإجمالِ فسبيلٌ مبهمٌ))[1].

فكلام ابنُ خلدون يُناسب من وجوه عديدةٍ الحديثَ عن الشَّطح الصُّوفيِّ من حيثُ بيانُ قصور اللُّغة عن التَّعبيرِ عن عالم الملَكوت، فقد يكونُ من أسبابِ الشَّطحِ- غير الغَيبة والسُّكر- قصورُ عبارة الوليِّ عن التَّعبيرِ عمَّا في نفسِه مِنَ الفُيُوضات الإلهيَّةِ؛ ولذلك نجدُ أنَّ التَّعبيرَ عن هذه المعانِي في التَّصوُّفِ كانَ عن طريق الرَّمزِ والمُصطلحاتِ التي لا يَفهمها إلا أهلُها، أو عن طريق الشِّعر وما يحمله من معانٍ، وعن طريق الإشارةِ دونَ التَّصريح، وحينَ يقعُ التَّصريحُ بالمعانِي والفُيُوضاتِ يقع الشَّطحُ من البعض، فذلك الذي يحدثُ من وُجود العباراتِ الموهمةِ في بعض الكلامِ الواردِ عن شيوخِ التَّصوُّفِ من أسبابِ قصور العِبارةِ واللُّغةِ عن التَّعبيرِ والإيضاحِ لما يريدُ قَوْلَه؛ ولذلك فأتمُّ بيانٍ في الحديثِ عن جلال الله وأسمائِه وصفاتِه هو كلام الله وكلام نبيِّه صلواتُ الله وسلامُه عليْه.

ضرورة حَمْلِ كلام وأحوال المسلمين علىٰ المعنىٰ الصحيح السليم

من المعلوم بالضَّرورةِ من دِينِ الإسلامِ أنَّ مَنْ ظهرَ منه الإسلامُ وشعائرُه فصدَرَ منه قولٌ أو فعلٌ فيه شُبهةٌ من الزَّيغِ أو الضَّلالِ مع استمرارِ حالِه علىٰ الاستقامةِ- فلابدَّ من استيضاحِ الحالِ وتَبَيُّنِ الأمرِ قبلَ المُسارعةِ إلىٰ الحُكم عليْه، فحَمْلُ الأقوالِ علىٰ وجْهِ الخيرِ والسَّلامةِ ما دامَ لها وجهٌ يسعُ ذلك خيرٌ من المسارعة في الرَّمي بالتَّكفير والضَّلال، أو علىٰ

(1) شفاء السائل وتهذيب المسائل (ص 104) تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن خلدون- تحقيق: د/محمد مطيع حافظ- دار الفكر المعاصر- بيروت- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 1996م.

أقلِّ الأحوال ينبغي التَّوقفُ حتىٰ يَتمَّ الإلمامُ بالأمرِ من كافَّة وُجوهِه، ونذكرُ في هذا المقام إنكارَ رسولِ الله ﷺ علىٰ أسامةَ بنِ زيدِ بنِ حارثةَ حين قَتَلَ ذلك المشركَ الذي فرَّ وقال: لا إله إلا الله، ففي الصَّحيحيْنِ من حديث أسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما قال: بَعثنا رسولُ الله ﷺ إلىٰ الحُرَقَةِ من جُهينةَ قال: فصبَّحنا القومَ فهزمناهُم، قال: ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصارِ رجلًا منهم، قال: فلمَّا غشيناهُ قال: لا إله إلَّا الله، قال: فَكفَّ عنه الأنصاريُّ فطعنتُه برمحي حتىٰ قتلتُه. قال: فلما قدمنا بلغَ ذلك النبيَّ ﷺ قال: فقال لي: ((يا أسامةُ، أقتلتَه بعدَ ما قال: لا إله إلا الله؟)) قال: قلتُ: يا رسولَ الله إنَّما كان متعوِّذًا، قال: ((أقتلتَه بعدَ ما قال لا إله إلا الله؟)) قال: فما زال يكرِّرُها عليَّ حتىٰ تمنيتُ أنِّي لم أكن أسلمتُ قبلَ ذلك اليوم[1].

فهذا رَجلٌ كان في عَسكرِ الكفَّارِ فبمجرَّدِ أنْ نَطقَ الشَّهادةَ كانت له العصمةُ في الدَّم، فكيف بمسلمٍ عالمٍ عابدٍ من أهلِ العبادةِ والسُّلوكِ والعِلم والدِّين وردتْ عنه كلمةٌ أو جملةٌ مُوهمةٌ تحتمل تأويلات كثيرة؟

فيَجبُ حملُ تلكَ الألفاظِ علىٰ معنًىٰ صحيحٍ يتَّفقُ مع معاني الشَّريعةِ، أو التوقُّف عنها وإهمالها وعدم المُسارعةِ في التَّكفيرِ ورَمي مَن وَرَدَتْ عنه بالضَّلالِ، وذلك طبعًا مع رَفْضِ أيِّ فكرةٍ أو معنًىٰ فيه مخالفةٌ للشَّريعةِ قولًا واحدًا، ولكنَّ المسألةَ هي محاولةٌ لحلِّ إشكاليَّةِ وُرودِ أقوالٍ عن أئمَّةٍ مُسلمِينَ سالكِينَ موهمةٍ وفيها شطحٌ وشبهةُ خُروجٍ عن الشَّرعِ.

وللشَّيخِ أحمد بن عبدالحليم بن تيميَّةَ رحمه الله في العُذرِ والتَّوقفِ في الأحكام كلامٌ جيِّدٌ حيثُ قال: ((لكنَّ بعضَ ذَوِي الأحوالِ قد يحصُلُ لهم في حال الفناءِ القاصرِ سُكرٌ وغيبةٌ عن السِّوَىٰ، والسُّكر وَجْدٌ بلا تمييزٍ فقد يقولُ في تلك الحال: سبحاني، أو ما في

(1) متَّفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب المغازي، باب بعث النبيِّ ﷺ أسامة بن زيد إلىٰ الحرقات من جهينة (4269)، ومسلمٌ في كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أنْ قال لا إله إلا الله رقم (96).

الجُبَّة إلا الله، أو نحو ذلك من الكلمات التي تُؤثَرُ عن أبي يزيد البسطاميِّ أو غيره من الأصحَّاءِ، وكلماتُ السَّكران تُطوىٰ ولا تُروىٰ))[1].

ويقول: ((فإنَّ كثيرًا مما يُنقلُ عن هؤلاءِ كذبٌ عليهم، والصِّدقُ من ذلك فيه ما أصابوا فيه تارةً وأخطئوا فيه أُخرىٰ، وأكثر عباراتِهم الثَّابتةِ ألفاظٌ مجملَةٌ متشابهةٌ لو كانت من ألفاظ المعصوم لم تُعارِضْ الحُكمَ المعلومَ، فكيف إذا كانتْ من قول غيرِ المعصوم؟! وقد جمع أبو الفضلِ الفلكي كتابًا من كلام أبي يزيد البسطاميِّ سمَّاه: ((النُّور من كلام طيفور)) فيه شيءٌ كثيرٌ لا ريبَ أنه كذبٌ علىٰ أبي يزيد البسطاميِّ، وفيه أشياء من غلط أبي يزيد رحمة الله عليه، وفيه أشياءُ حسنةٌ من كلام أبي يزيد، وكلُّ أحدٍ من النَّاس يُؤخذُ من قولِه ويُتركُ إلَّا رسولَ الله ﷺ))[2].

فهَذا الشَّيخ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله وهو مَن هو في حِدَّته وجفوته حين ينتقدُ الصُّوفيةَ، فنجده حين يتعرَّض لأمرِ الشَّطحِ والحُكم عليه يَنظر إلىٰ عدة أمور:

1- أنَّه نتيجةٌ للسُّكر والوَجْدِ وشدة الغَيبةِ عن كلِّ ما سِوَىٰ الله، وأنَّ هذه الكلمات تُطوىٰ ولا تُروىٰ.

2- أنَّه يحكمُ بأنَّ كثيرًا من هذه النُّقولات كذبٌ عليهم؛ وذلك لاشتهار صلاحِ حالهم.

3- أنَّ الكلامَ الثابتَ عنهم إنْ كان فيه خطأٌ، فكلٌّ يؤخذ منه ويردُّ.

4- الحكمُ بإسلامه والتَّرحم علىٰ مَنْ وردَتْ عنهم عباراتُ الشَّطحِ.

فإحسانُ الظَّنِّ بعامَّةِ المُسلمينَ هو مَسْلكٌ شرعيٌّ واجبٌ ما لم تقمْ بَيِّنةٌ واضحةٌ كوضوحِ الشَّمسِ، فكيف بمَن اشتُهرِ عنهم العبادةُ والصَّلاح، ومَن لهم في الكلامِ عن الحقائقِ

---

(1) مجموع الفتاوىٰ (461/2) تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم- وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- المملكة العربية السعودية- 2004م.

(2) المصدر السابق (257/13).

الإلهيَّةِ والسَّير والسُّلوكِ لربِّ العالمين نصيبٌ كبيرٌ، ومَنْ نُقلَ عن أحوالِهم وعباداتِهم ما يَشهدُ لهم بِصدقِ المقصدِ والحالِ؟ فأسْلَمُ الطُّرقِ أنْ نُسلِّمَ الأحوالَ ونُنْكرَ الأقوالَ.

موقف أئمَّة التَّصوُّف المعاصرينَ من دعاوَى رمي التَّصوُّفِ بالبُعد عن الدِّين

أحببنا في هذه النُّقطةِ أن نمسكَ بخيوطِ رسالتِنا هذه من بدايتها إلى نهايتِها، محاولين التنبيه على أهمية سَيْرِ التَّصوف على كتابِ الله وسُنة النَّبيِّ ﷺ يحوطُنا الأملُ في معرفةِ هذا الأمرِ لدَى القارئ، فليس فقط أئمَّةُ وشُيوخ التَّصوُّف القدماء هم مَن أعلنُوا وبيَّنُوا التزامَ التَّصوُّف بالكِتابِ والسُّنة أُصولًا وفروعًا، وأنَّ الصُّوفيَّ الصَّادقَ هو مَن سارَ خَلْفَ رسولِ الله ﷺ والتزمَ طريقَه واهتدى بهَدْيِهِ، بل بجانبِ هؤلاءِ الأئمَّةِ القُدماء كثيرٌ من أهلَ التَّصوُّف ومشايخِه الصَّادقينَ المعاصرينَ، وكان على رأسِ هؤلاءِ ومقدَّمتهم الشيخ الإمام السَّيد محمَّد زكي الدِّين إبراهيم رائدُ العشيرةِ المُحمَّديةِ، وشيخ الطريقة الصوفيَّة السُّنيَّة الشاذُليَّة، وهي طريقةٌ تعدُّ نموذجًا ومثالًا لما عليْه التَّصوُّفُ في حقيقةِ أمرِه، يشهدُ بذلك التزامُها بالجوانب الشَّرعيَّةِ وخلوُّها من البدعِ والخُرافاتِ، واهتمامُها بنشرِ العِلمِ في مجالِ التَّصوُّفِ، ويَتمثَّلُ ذلك في مُصنَّفاتِ المشايخِ والأئمَّةِ والعُلماءِ، ومحاربتِهمْ للبدعِ التي أُلصقتْ زُورًا بالتَّصوُّف وأهلِه، وحثِّهم على التَّربيةِ الرُّوحيةِ لأتْباعِها، وهي طريقةٌ تَشملُ جميعَ الفئاتِ والطَّبقات، ويَظهرُ بينهم كثيرٌ من علماء الشَّريعة وطلَّاب العِلمِ الشَّرعيِّ وأهل الدَّعوةِ ممَّا جعل لكلام مشايخ العشيرة المحمَّديَّةِ مِصداقيةً في طريق التَّصوُّفِ.

وسيتبيَّن لك ذلكَ أخِي الكريم من خلال عَرضنا لكلام الشيخ الإمام الشيخِ محمَّد زكي الدِّين إبراهيم- رِضوانُ الله عليْه- فقد تكلَّم رحمه الله تعالى عن حدُودِ التَّصوفِ ومعالِمه ومَواطنِ النَّقدِ التي وُجِّهت إليه والردِّ عليه، ومن أهمِّ هذه الأقوالِ ما قالَه رحمَه الله في بحثٍ له موضِّحًا طريقَ أهل الله حيث قال:

((بدايةُ الأنبياءِ هي نهايةُ الأولياءِ أو الصُّوفيَّة الذين يقولون: إنَّ المجاهدةَ والمحبَّةَ والفناءَ في معاني العبادةِ تُعِدُّ الرُّوحَ للتذوُّق والتَّلقِّي، أي الإلهام، وتوصل إلىٰ العلوم والمعارف ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 31].

فالمعارفُ عند الصُّوفية كامنةٌ في الرُّوح البشريَّةِ، أَصيلةٌ في مادَّتها لا دَخِيلةٌ عليها، والتغلُّبُ علىٰ الجسدِ بإعلاءِ مكانة الرُّوح يُمزِّقُ تلك الحُجُب، ويرفعُ الظُّلمةَ التي تَحُولُ بين الرُّوح والنُّور وتُقوِّي البرزخَ الفاصلَ بين الإنسانيَّةِ والحيوانيَّة)).

ثم يتكلَّمُ الشيخُ عن نورِ المعرفةِ الذي يَقذفُه الله في القلب فيقولُ: ((ويُعبِّرُ الغزاليُّ عن المعرفةِ بقوله: إنَّها نورٌ يُقذفُ في القلبِ عند تطهيرِه وتزكيتِه. وقدْ كان الإمامُ مالك يقولُ: ليستِ المعرفةُ بكثرةِ الرِّوايةِ ولكنَّها نورٌ يضعُه الله تعالىٰ في القلب. نقولُ: هو المُشارُ إليه في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11] وقوله: ﴿ إِنْ تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال: 29] وقوله: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [يونس: 9])).

ويَنتقلُ الشيخ إلىٰ نقطةٍ مهمَّةٍ في الكلام عن أهمِّ مَن نقدُوا التصوفَ ويردُّ عليهم ردًّا علميًّا فيقول رحمه الله ورَضِيَ عنه: ((ثُمَّ الذينَ نقدُوا التَّصوُّفَ أصنافٌ ثلاثةٌ:

أوَّلًا: الفلاسفةُ وأصحابُ المذاهبِ العقليَّةِ: فقد عابوا طريقتَه إلىٰ المعرفة، وأنكرُوا أن يكونَ التفرُّغُ والتجرُّدُ من تَبعاتِ الحياةِ سبيلًا إلىٰ المعرفةِ؛ بل سبيلُ المعرفة عندَهم هو تغليبُ قُوىٰ العقل وإرادته، كما وصفُوا الانتصار العقليَّ علىٰ الحواسِّ بأنه أرفعُ مراتب السَّعادة؛ كما يقول ابن رُشد.

وهم بذلك يؤيِّدونَ الصُّوفيةَ أكثر مما ينقدونَها؛ لأنَّ في سعيهِم إلىٰ تَغليبِ العقلِ نزوعًا إلىٰ الصُّوفيَّةِ، وإن اختلفَ الوضع فنادوا بالعقل ونادىٰ المتصوفونَ بالرُّوح، والعقل عند الصُّوفيةِ واحدٌ من قُوىٰ الرُّوحِ، فالخِلاف لفظيٌّ لا غير.

ثانيًا: علماءُ الاجتماعِ ورجالُ الأخلاق: تهكَّمُوا بالصُّوفيَّةِ وأساليبِها؛ لأنَّها في نظرِهم لا تصلُحُ للحياةِ العمليَّةِ، ولا يقومُ بها نظامُ المجتمعِ، وتلك علىٰ عِلَّاتها شهادةٌ للتصوُّفِ

لا عليْه، فهي تدلُّنا ضِمْنًا على أنَّ الصُّوفيَّةَ لا ينشدونَ مظهرًا في الحياة ولا يلتمسونَ مغنمًا من مغانمِها، وإنما ينشدونَ طُهرًا وقُربًا من الله وفوزًا برضوانِه؛ بل إنَّ التَّصوُّفَ الإسلاميَّ جعل العبادةَ أصلًا والمعرفةَ فرعًا، وعندما يريدُ العبدُ وجهَ الله بعبادتِه فهو يؤدِّي رسالتَه العلميَّةَ في الحياةِ على أحسن الوُجوه، فيستقيم نظامُ المجتمعِ ويمضي باسم الله في سبيل التَّرقِّي الصحيحِ لإيجادِ المجتمع الصَّحيحِ الذي هو شريعةُ الله ودستورُها القرآن والسُّنَّة.

والصُّوفيون لا يقولون: إن طريقتَهم للناسِ جميعًا؛ لأنَّ المثاليةَ لم تكنْ يومًا من الأيَّامِ شِرعةً مباحةً لكلِّ مَن يخطُو بقدمَيْه على الكوكبِ الأرضيِّ، خُصوصًا المُتمسْلفَة الذين جفَّتْ في بواطنهم منابعُ الوجدانِ والعاطفة والذَّوقِ الإنسانيِّ الرَّفيع.

ثالثًا: وأمَّا الفقهاءُ وعلماءُ الكلام والمُتمسْلفةُ: فقد هاجُموا المتصوِّفةَ هُجُومًا عنيفًا؛ بل غالُوا في هُجومِهم حتَّى رموهم بالمُروقِ ومفارقةِ الشَّريعةِ ظُلمًا وافتراءً؛ لعدم تعمُّقهم في البحثِ وطلب الحقيقةِ وإغفالِهم الجانبَ الأبيضَ المشرقَ الذي هو التَّصوُّفُ الصحيحُ، واكتفائهم بالجانب الأسودِ الذي شابَ التَّصوُّفَ واندسَّ فيه. وهنا يبدو موقفٌ دقيقٌ ففريق من المنتسبين إلى التَّصوُّف- وإنْ كانوا قلةً بالغةً- يتبرَّأُ منهم بقيةُ الصُّوفية قد غالُوا وأفرطوا كجماعةِ الحُلوليِّين والاتِّحاديِّين والمخرفين والقائلين بوحدة الوجود الكُفرية، وفريق آخر عَبَثَ بظاهر الشَّرع وأفرط في السَّبحَات والوثبات والاستغراقات حتَّى تحلَّل من الفرائض والآداب المحمَّديَّة الصحيحةِ)).

ويوضِّح الشَّيخُ في نهايةِ الأمر ماهيَّةَ التصوفِ وحقيقتَه، مُنبِّهًا في كلامه على التزامِ الشريعةِ والنكير على مَنْ خالفها وشطحَ بعيدًا عنها فيقولُ رَحمَه الله:

((ولكنَّ التَّصوُّفَ الصَّادقَ لا يعترفُ بهؤلاء ولا هؤلاءِ؛ بل يبرأُ منهم ويهاجمهم بأشدَّ من هجومِ الفقهاءِ أنفسِهم ما لم يَحتملْ كلامُهم التأويلَ ومسايرةَ الشَّريعةِ، فيتوقَّفون في الحُكم عليهم.

ودستورُ الصُّوفيةِ وصفاتُهم يرسُمه الغزاليُّ ويوضِّحه بقوله في كتاب: ((ميزان العمل)) عند ذكره لعلاماتِ السَّائرين إلىٰ الله، فيقولُ: اعلم أنَّ سالكَ سبيلِ الله تعالىٰ قليلٌ والمدَّعي فيه كثيرٌ، ونحن نعرِّفُك علامتيْنِ له؛ العلامة الأولىٰ: أن تكونَ جميعُ أفعاله الاختياريَّة موزونةً بميزانِ الشَّرع، موقوفةً علىٰ حدِّ توقيفاتِه إيرادًا وإصدارًا وإقدامًا وإحجامًا؛ إذْ لا يُمكنُ سلوكُ هذا السَّبيلِ إلا بعدَ التلبُّسِ بكلام الشَّريعةِ كلِّها، والمواظبةِ علىٰ جملةٍ من النَّوافلِ فكيف بمن أهملَ الفرائضَ؟

والسَّالكُ لسبيلِ الله يُعرِضُ عن الدُّنيا إعراضًا؛ يعني يعمل للدُّنيا بمِقدارِ الحاجة بغير إسرافٍ مريدًا بعملِه العِبادةَ والعبوديَّةَ لله.

ثمَّ قال: فإنْ قلتَ: فهل تنتهي رُتْبةُ السَّالك إلىٰ حدٍّ ينحطُّ عنه بعضُ وظائف العباداتِ ولا يضرُّه بعضُ المحظوراتِ كما نُقل عن البعض؟ فاعلم أنَّ هذا عينُ الغرور، وأنَّ المحقِّقينَ قالوا: ((لو رأيتَ إنسانًا يمشِي علىٰ الماءِ وهو يتعاطىٰ أمرًا يُخالفُ الشَّرعَ فاعلمْ أنه شَيطانٌ)).

وإذنْ فالغَزاليُّ يقرِّرُ بأنَّ المتصوفينَ فِئةٌ مثاليَّةٌ خاصَّةٌ، ولا يمكنُ أن يكونَ العالم كلُّه علىٰ مثالِهم، والمثاليَّةُ ورعٌ واحتياطٌ وسعةُ أُفقٍ، كما أنه يربط التَّصوُّفَ بالشريعةِ رباطًا لا ينفصمُ، فيجعل التَّمسُّكَ بقواعد الشريعةِ غايةَ السَّالك، فإذا خالف الشَّريعةَ- ولو سار علىٰ الماء وطار في الهواءِ- فهو شيطانٌ أو هو أدنىٰ وأذلُّ.

تِلكَ هي الصُّوفيَّة الكاملةُ التي يصفها الغزاليُّ في كتابه: ((المنقذ من الضَّلال)) بقوله: إني علمتُ يقينًا أن الصُّوفية همُ السَّالكونَ لطريقِ الله تعالىٰ خاصَّةً، وأنَّ سيرتَهم أحسنُ السِّيَر، وطريقتَهم أصوبُ الطُّرق، وأخلاقَهم أزكىٰ الأخْلاقِ))[1]. اهـ

(1) انظر: بحث عن التصوف الإسلامي بين التسليم والمعارضة (ص93- 97) في نهاية كتاب المختار من كتاب المرجع معالم المشروع والممنوع من ممارسات التَّصوف للعارف بالله: السيد إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي- قدَّم له وعلق: السيد محمد زكي الدين إبراهيم- مؤسسة إحياء التراث الصُّوفي- الطَّبعة الخامسة- 2005م.

وقال رَحِمَه الله في كتابه ((أصول الوصول)) عند الحديثِ عن دَعوى مُخالفةِ الشَّريعة للحقيقةِ: ((وقدِ التمسَ بعضُ أصحابِ الأهواءِ من قصَّةِ موسى والخَضِر ما جعلُوه دليلًا باطلًا على مخالفتهم للمعروفِ من الدِّين بالضَّرورةِ، فقالوا: إنَّ الشَّريعةَ شيءٌ والحقيقةَ شيءٌ آخر، وإنَّ العبد لا يزالُ ملتزمًا حدودَ الدِّين حتى ينتقل من مقام الشَّريعة إلى مقام الحقيقة فتسقط عنه التَّكاليفُ، ويقولون: لأن الله قال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99] واليقينُ هنا هو الموت قولًا واحدًا، ولكنَّهم يقولون زورًا وكذبًا: إنَّ اليقين هو مقامُ الحقيقة، فإذا وصل الإنسانُ عندهم إلى هذا المقامِ سقطت عنه العباداتُ، وذابتْ أمامَه الحدودُ، ولا عليْه أن يرتكبَ الكبائرَ الموبقةَ باسم السِّرِّ وتحت ستارِ القياس على الخَضِر، ونعوذ بالله العظيمِ منَ الضَّلال، إن القول بمخالفة الشَّريعة للحقيقة على أي وجهٍ زَندقةٌ ربما أفضتْ بصاحبِها إلى الرِّدَّة بعد الإسلامِ))[1]. ◆

---

(1) أصول الوصول أدلة أهم معالم الصوفيَّة الحقة (1/ 204) مؤسسة إحياء التراث الصوفي- الطبعة الخامسة- 2005م.

الخاتمة

ما سَبَقَ في الصفحات السَّابقة أخي الكريم هو محاولةٌ لبيان موقف التَّصوُّف من الشَّطحِ والالتزام بالشَّريعة، وقد تبيَّن من خلال أقوال أهلِ التَّصوُّفِ عدةُ أمور:

1- التَّصوُّف جانبٌ رُوحيٌّ وجدانيٌّ يصلُ العبدَ بربِّه لتحقيقِ معاني العبوديَّة له سبحانَه.

2- إنَّ الشَّطحَ والخروجَ عن دائرةِ الشَّريعةِ بأيِّ شكلٍ منَ الأشكالِ غيرُ مقبولٍ عند أئمَّةِ التَّصوُّف المحقِّقينَ.

3- ليس بصوفيٍّ من لم يستنَّ بالمنهج النَّبويِّ.

4- ظاهرةُ الشَّطحِ في بعض الأحوالِ لها معانٍ مقبولةٌ خاصَّة إذا وقعتْ ممَّنْ عُرِفوا بالاستقامةِ والمتابعةِ.

5- الشَّطحُ لا يدلُّ على عقائدَ و إنما هو أحوالٌ عارضةٌ.

6- ما له وَجْهٌ مقبولٌ يُحملُ عليه ولا يُحملُ على صاحبِها ولا يصدرُ عليْه أحكامٌ بسببِها.

7- أجمعَ أئمَّةُ التَّصوُّف على ردِّ الشَّطحات، والقولِ بأنها حالاتٌ تَعرض في طريق السَّالكين.

8- لا يُقتدى بشيخٍ في شطحٍ أبدًا.

9- التَّأكيد على حدود الشَّريعةِ وأركانِها، وأنَّها هي أصلُ الانطلاقِ في طريقِ التَّصوُّفِ.

فمِمَّا سَبقَ يتبيَّن أن التَّصوُّفَ أخي الكريم ما هو إلَّا دعوةٌ إلى الله ومِن الله وفي الله، وهو ليس تحلُّلٌ من الشَّرع، ومَن يزعمُ ذلك فهو خارجٌ عَنْ دائرةِ الإسلامِ أصلًا، فضلًا عن أن يكونَ له في التَّصوُّفِ نصيبٌ.

فالتَّصوُّف منهجٌ وسلوكٌ إلى الله خلفَ رسولِ الله ﷺ، وما كان عملُ أئمَّة التَّصوُّف وشيوخه إلا الأخذَ بيد النَّاسِ نحو خالقِهم، متابعينَ في ذلك سُنَّةَ رسول الله ﷺ،

راجينَ محبَّةَ الله وفضلَه والقربَ منه، وليس اختراعَ طريقٍ يخالف الشَّريعةَ، تشهد بذلك كُتُبُهم وتراجِمُهم وسيرتُهم.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆



«إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا» - آية 171 من سورة النساء

الرسالة السادسة
معالم المنهج الصوفي في التربية الروحية والإصلاحيَّة

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: نظرةُ التَّصوفِ للنَّفسِ البشريَّةِ.

المحور الثاني: ملامحُ المنهجِ الصوفيِّ في التَّربيةِ الإنسانية.

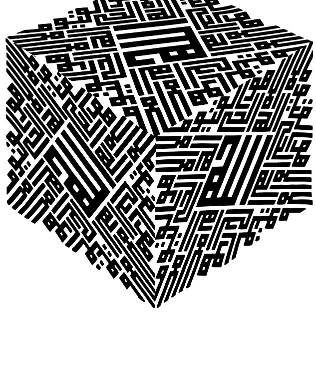
المحور الثالث: أصولُ المنهجِ الصُّوفي في تربية النُّفوس.

المحور الرابع: أهدافُ التَّربيةِ الصُّوفيَّةِ.

المحور الخامس: نماذج من التَّربيةِ الإسلاميَّةِ الصُّوفيةِ.

المحور السادس: أهمية الشيخ المربِّي في المنهجِ الصُّوفيِّ.

المحور السابع: خاتمة في بيان حاجة المسلمِ إلىٰ المنهج التربوي الصوفي. ◆





« وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ
إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا » - آية **35–36** من سورة الإسراء

معالم المنهج الصوفي في التربية الروحية والإصلاحيَّة

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فَهَذِهِ رِسالَةٌ صَغِيرَةٌ عَنْ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ إِلَى مَنْهَجِ التَّرْبِيَةِ الصُّوفِيَّةِ لِعِلَاجِ أَمْرَاضِ الرُّوحِ والنَّفْسِ والْقُلُوبِ فِي عَصْرِنَا الْحَالِي الَّذِي ظَهرتْ فيهِ كثيرٌ مِنَ الْمُشْكِلاتِ الْفَرْدِيَّةِ والْجَمَاعِيَّةِ، والَّتِي لَمْ تَكنْ مَعْهُودَةً بِهذه الصُّورَةِ في المجتمعاتِ المُسلمةِ.

وإنَّ البحثَ عَنْ طُرقِ وَوَسَائِلِ التَّربيةِ فِي العَصْرِ الْحَالِيِّ لَجَدِيرٌ بِأَنْ يُرْبَطَ بِالْمَنْهجِ الصُّوفِيِّ الَّذِي يُعْطِي اهْتِمَامًا كَبِيرًا لِلْجَانِبِ التَّرْبَوِيِّ والرُّوحِيِّ فِي النَّفْس البَشَرِيَّةِ، فَيَقُومُ المَنْهَجُ الصُّوفِيُّ وتطبيقاتُهُ بِإِمْدَادِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ بِطَاقَاتٍ رُوحِيَّةٍ تُحرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنَ الشَّهَوَاتِ والْأَخْلَاق الْفَاسِدَةِ، والْمُشَاهِدُ لِهَذَا الْعَصْرِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ يَتبينُ لَهُ أَنَّهُ عَصْرُ أَزَمَاتٍ أَخْلَاقِيَّةٍ عَلَى كَافَّةِ الْمُسْتَوَيَاتِ والتَّعَامُلَاتِ، فَهُوَ عَصْرُ الْمَادَّةِ وَالشَّهَوَاتِ والانْحِرَافَاتِ الخُلُقِيَّةِ والفَرَاغِ الرُّوحِيِّ والوَحْشَةِ في النُّفُوس. فَقَدْ أَصْبَحَتِ الحَاجةُ مُلِحَّةً إلى التَّصَوُّفِ وعُلُومِهِ كَمَنْهَجٍ تَرْبَوِيٍّ سُلُوكِيٍّ لِإِصْلَاحِ حَالِ الْفَرْدِ والمُجتمعاتِ، فلا شكَّ أنَّ أفعالَ أيِّ إنْسانٍ تنبعُ بدايةً من أخلاقِه وتربيتِه، فإنْ سَمَتْ هذِه الأخلاقُ والتَّربيةُ كانت الأفعالُ منضبطةً ساميةً، وبضدها تتميَّزُ الأشياءُ. ويُمكنُ أن نُطلقَ على مناهِجِ التَّربية الصُّوفيَّةِ التزكيةَ أو أيَّ اسمٍ آخرَ، فلا خلافَ في اسم المنهجِ إذا كنَّا سنطبِّقُ القواعدَ والأصولَ. فالمنهجُ التربويُّ الصوفيُّ في هذا العصرِ هو صِمامُ الأمانِ من الفِتنِ العِلميَّةِ والفِكريَّة والعمليَّةِ، سواءٌ على مستوى الشَّخصِ أو المجتمعِ، بعد أن ظَهرتْ مساوئُ مناهجَ كثيرةٍ اهتمَّتْ بجانبٍ دون جانبٍ، فلم تُنتج الإنسانَ المسلمَ المتَّزن النَّفس النَّقي القلب المنضبطِ السُّلوك، وإنَّما نتجَ عنها على المستوى الشَّخصيِّ في كثيرٍ من الأحيان أشكالٌ حسنةٌ وبواطنُ خَرِبةٌ، وعلى مستوى المجتمعاتِ كان لهذه المناهج أثرٌ كبيرٌ

في تَفتيتِ المجتمعاتِ وانقسامها وظهورِ سلوكيات العنفِ والتَّطرفِ في الأفعال والأفكار، وكذلك الانحراف عن الدِّين والاستهزاءِ بشعائرِه، وأغلب هذه المناهج تدَّعي أنَّها تأخذُ من كتاب الله وسُنَّة رسول الله وتعمل علىٰ تطبيقِ ذلك علىٰ الفرد والمجتمعِ، وتكمن المشكلةُ عندها في كيفيَّةِ فَهم الكتاب والسنة، بل إن فَهمهم هذا يوجَّه لأهدافٍ محدَّدةٍ ورؤيةٍ واحدةٍ تصبُّ في صالح تيارات بعينها. ونريد في هذا الأمرِ أن نَطرحَ المنهجَ الصُّوفيَّ وأثره في التَّربيةِ، باعتباره منهج القرآنِ والسُّنَّة الوسطيِّ، حيث لا إفراطَ ولا تفريطَ، وهو المنهج التَّربويُّ الربَّاني الذي يستمدُّ من أئمة السُّلوك إلىٰ الله التربيةَ القلبيَّةَ والنَّفسيَّة في وقتٍ أصبحتْ وسائلُ التزكيةِ مثل: الخطب والدروس والمواعظ لا تُؤثِّرُ في الأنفس، ولا القوانين ولا النُّظُم تردع، فكانتِ الحاجةُ ماسَّةً إلىٰ مناهجِ الأئمة الرَّبَّانيين من أهل التَّصوف الصَّادق القائم علىٰ قواعدَ وأصول أهل الحقِّ؛ كي يُطبَّقَ المنهجُ الرَّبانيُّ الرُّوحانيُّ الذي يخاطبُ الرُّوحَ والقلبَ ويُزكِّيها. وسوف نُحاولُ في هذه الرِّسالةِ عَرْضَ صورةٍ قريبة عن منهجِ التَّصوفِ في تزكيةِ النَّفس البشريَّة وتربيتها، وذلك من خلالِ عرضِ طُرق وأقوالِ أهل التَّصوف في علاج أمراضِ القلبِ والنَّفسِ وغرسِ الأخلاقِ الحميدةِ. فلا عِلاجَ لُلمجتمعاتِ الإسلاميَّةِ إلا في إطارِ التَّزكيةِ النبويَّةِ المحمَّديةِ من خلال المناهجِ الوسطيَّةِ التي تُصلحُ الفردَ بإصلاحِ قلبِه ونفسِه وربطِه بخالقِه في كافَّة أوقاتِه وأنفاسِه، وبصلاحِ الفرد يَصلحُ المجتمعُ وتحل فيه رُوح المودَّةِ والرَّحمةِ والتَّواصُل والتَّكافُل. فعصر المادياتِ والشَّهواتِ والنَّزواتِ المادِّية لابدَّ أن يقابلَه منهجٌ ربانيٌّ رُوحانيٌّ؛ ولذلك فإنَّ التَّربيةَ الصُّوفيةَ وَحْدَها هي الَّتي تقابل ذلك، فالشَّهواتُ والانحرافاتُ لا يحلُّ مشكلتَها المقالُ والكلامُ، بل لابدَّ من وجودِ الحالِ، وأمراضُ القلوبِ لا تُعالج بكلماتٍ، وإنَّما لابدَّ من وجود أمدادٍ رُوحيَّةٍ من أهل المعرفة والسُّلوكِ تُضيءُ الطَّريقَ وتبثُّ في الأنفسِ المعانيَ الإيمانيةَ الجميلةَ التي ما تلبثُ أن تتحوَّلَ إلىٰ سلوكٍ عَمليٍّ وخُلُق دائمٍ، فكما نحتاجُ في مسائل الفِقهِ إلىٰ رأي الفقيهِ فإنَّ مسائلَ العقلِ

والرُّوحِ والنَّفسِ نحتاجُ فيها إلىٰ المربِّي الصَّادقِ العالِم الرَّباني الذي يأخذُ بيد الأفرادِ نحو السُّمو الروحيِّ والأخلاقيِّ، وهذه أخصُّ وظائفِ المربِّي والمرشدِ الصوفيِّ.

وقد يستشكل بعضُ الناس هذا الطَّرح ويعترضونَ عليه ويقولون: نطبِّقُ الكتاب والسُّنة وما بهما من تعاليمَ، فنقول: نعم لأنَّه في الواقعِ لا يوجدُ إلا الكتاب والسُّنة الشَّريفةُ كمصدريْنِ للتَّربية والتَّزكية، ولكن بفَهْمِ من...؟ هل بفهم مناهج أدَّت إلىٰ المآسي والمصائبِ علىٰ مستوىٰ الأفراد والمجتمعات؟! أو بالفهم الوسطيِّ الرُّوحيِّ الَّذي يهتمُّ بقلبِ الإنسانِ وتزكيتِه وقُربِه من ربِّه؟ فلا شكَّ أن المنهجَ الصوفيَّ الصحيحَ هو المنهج الوحيد المؤهل للأخذ بيدِ المسلمينَ خاصَّةً في الوقتِ المعاصِرِ نحو خالقِهم أوَّلًا، ونحو تحقيق الرَّاحة النَّفسية والقلبيَّة لهم بعد ذلك، ونحو شيوع الأُلفة والمحبَّة والتَّواصل بين أفراد المجتمع الواحدِ، فهو المنهجُ الرُّوحيُّ التَّربويُّ الذي يُجنِّبُ الفردَ والمجتمع كلَّ مساوِئ وانحرافات أي منهجٍ آخرَ في الفِكر والعَملِ، بالإضافة إلىٰ تحصيلِ جميع مزايا وفوائد أيِّ منهجٍ آخر، وسوفَ تكونُ هذه الرسالة متمثلة في المحاور التالية:

المحور الأول: نظرةُ التَّصوفِ للنَّفسِ البشريَّةِ.

المحور الثاني: ملامحُ المنهجِ الصوفيِّ في التَّربيةِ الإنسانية.

المحور الثالث: أصولُ المنهجِ الصُّوفي في تربية النُّفوس.

المحور الرابع: أهدافُ التَّربيةِ الصُّوفيَّةِ.

المحور الخامس: نماذج من التَّربيةِ الإسلاميَّةِ الصُّوفيةِ.

المحور السادس: أهمية الشيخ المربِّي في المنهجِ الصُّوفيِّ.

المحور السابع: خاتمة في بيان حاجة المسلمِ إلىٰ المنهج التربوي الصوفي. ◆

نظرةُ التَّصوف للنَّفسِ البشريَّة

التصوفُ الإسلاميُّ ينظر للإنسانِ علىٰ أنَّه جسدٌ وقلب ورُوح ونفسٌ، والنَّظرة الصُّوفية للإنسان تنطلق من الشريعة الإسلامية ورُوحها، وهي أن الإنسان مخلوقٌ لله سبحانه وتعالىٰ في أصل ومبدأ أمرِه، وأنَّ جميع المخلوقاتِ تكون في أفضل حالاتِها وأحسنِ صورها حين يتحقَّقُ فيها مقام العبوديَّةِ لله سبحانه وتعالَىٰ والاتِّصالُ به والرُّكون إليه، وأن التزامَ الإنسانِ بمقام العبوديَّة لله في جميع الأحوال والأوقات والمقامات هو أعلىٰ درجات السُّمو الإنسانيِّ، ومن هنا يتَّجه التَّصوف إلىٰ أهمية حصول القلب والرُّوح والنَّفس الإنسانية علىٰ الغِذاء المناسب لها والقوت الذي يحرِّكها، فإنَّ للقلوب والأرواح والأنفس غذاءً مثلها في ذلك مثل البدن الإنسانيِّ، وهذا القوتُ والغذاء لا يوجد إلا من المنابع الإلهية الصَّافية التي يعمل المنهج الصوفيُّ علىٰ إيصالها للإنسان، وأي غذاءٍ آخر تتغذَّىٰ عليه القلوب والنُّفوس لا يخرج من المنبع الإلهي المتمثِّل في المنهج الرُّوحي للإسلام يؤدِّي إلىٰ مرضِ القلوبِ والأنفس، بل قد يؤدِّي إلىٰ موتها، فيصبح الإنسانُ وهو بالصُّورةِ الخارجيَّةِ كهيئةِ البشرِ لكنَّه ميت القلبِ والنَّفسِ والرُّوحِ.

فمِنْ أهدافِ المنهجِ الصُّوفيِّ تغذيةُ الأرواح والقلوبِ بالغذاءِ الرُّوحانيِّ المناسبِ لها حتَّىٰ يحدثَ لها الارتقاءُ والنُّمو، وتصلَ إلىٰ أعلىٰ درجاتِ السُّمو الرُّوحي والنَّفسي، وهو تحقيق العبوديَّةِ الرَّبانيةِ لله التي تخلِّص الإنسانَ من أي قيدٍ ماديٍّ في هذه الحياة الدُّنيا، وتجعل الإنسانَ في أحسن الحالاتِ، والذي ينظر إلىٰ العالم من حولنا يجد أنَّ عياداتِ الأمراضِ النَّفسيَّةِ في جميع أنحاء العالم ممتلئةٌ بجميع أنواع وأصناف وأشكال البشر الذين يُعانونَ من مختلف أشكالِ وأنواعِ اعتلال الأرواحِ والأنفس، بل يصل الأمر إلىٰ عدمِ الرَّغبة في الحياة. والمنهجُ الصُّوفيُّ يَنظرُ إلىٰ الإنسان من خلال العنايةِ بإصلاحِ النَّفسِ والقلبِ الذي يُعيدُ التَّوازنَ للإنسانِ ويَضبطُ حياتَه وسلوكَه، فبصلاح القلبِ يصلحُ الإنسان كلُّه، ومرجعُ ذلك كلِّه إلىٰ الحديثِ الشريفِ الذي قالَ فيه النبي ﷺ: «ألا

وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلَحتْ صلَحَ الجسدُ كلُّه وإذَا فسدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه ألا وهي القلبُ))[1]. فبِصلاحِ القلبِ البشريِّ يحدثُ صلاحُ الإنسان؛ ولذلكَ فتوجُّه المنهج الصُّوفيِّ التَّربويِّ في المقام الأول نحوَ تزكية القلوب وإصْلاحِها والوُصولِ بها إلىٰ النَّقاء الرُّوحيِّ عن طريقِ علاج أمراضِها أولًا وزرعِ الأخلاق النَّبيلة والمُثل الطيبة التي جاءتْ بها الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ بعد ذلك. والجسدُ البشريُّ يعتني به التَّصوفُ؛ وذلك من حيث مراعاتُه لحاجتِه من القوت والمأكلِ والمشربِ والملبسِ عن طريقِ ربطِ ذلك برؤية المُنعِم سبحانَه وتعالىٰ وإفضالِه علىٰ الخلقِ، فيرىٰ التَّصوفَ في الطَّعام والشَّرابِ صورةً من صورِ الإنعام والكَرَمِ الإلهيِّ علىٰ الإنسانِ التي تذكِّره بفقرِه إلىٰ ربِّه ومَولاه في وُجودِه واستمرارِه، وأنَّ تناولَ الطَّعام والشَّرابِ هو من قبيلِ التذكيرِ بالله والتفكُّر في عظمةِ المُنعم سبحانه، حتىٰ الأنفاس الَّتي في الصُّدور يُرىٰ فيها التَّصوف مظهرًا من مظاهرِ الإمداد الإلهيِّ للإنسان وصورةً من صور العطاء الإلهيِّ.

فالتَّصوفُ ومناهجُه في مُجملِ أمرِه هو وصولُ النَّفسِ البشريَّةِ والرُّوحِ إلىٰ أعلىٰ درجاتِ سُمُوِّها ورُقيِّها، ولا يتحقَّقُ ذلك إلا بربطِها بخالقِها سُبحانَه وتعالىٰ، وبركونِ القلبِ إلىٰ بارئه جلَّ وعلا يتحصَّلُ صلاحُه وارتقاؤُه، ويستحيل فسادُه وانحرافُه، فقلبُ ونفس الصُّوفي الصَّادقِ يتقلبانِ في واحةِ الآدابِ الإلهيَّةِ والتَّعاليمِ الرَّبانيَّة. والفرقُ بينَ المنهجِ الصُّوفيِّ وباقي المناهجِ الأخرَىٰ في النَّظرِ للنَّفسِ البشريَّةِ هو انفصالُ المناهجِ الأخرىٰ عن النُّور الربَّانيِّ والتَّوجيه الإلهيِّ في بيانِ ما يَصلحُ للنَّفس والقلوبِ وما لا يَصلحُ. فقدَ تتبنَّىٰ هذه المناهجُ ما يخالفُ كلَّ الشَّرائعِ السَّماويَّةِ تحت زَعْمِ حاجاتِ النَّفسِ البشريةِ ومُراعاةِ المدنيَّةِ الحديثة، وترىٰ أن ذلك من طُرقِ إصلاح النُّفوسِ وسدِّ حاجتها، وتفتحُ البابَ أمام تطبيقِ نظريَّاتٍ وتعاليمَ خاطئةٍ علىٰ الإنسان يظهر فيما بعدُ الأثرُ

---

(1) تقدَّم تخريجُه.

السلبيُّ لها في السُّلوك الإنسانيِّ، فانفصالُ المناهجِ الَّتي تُعنَىٰ بالنَّفسِ البشريَّةِ عن التَّوجيه الإلهيِّ يُؤدِّي بالضَّرُورةِ إلىٰ خللٍ في سُلوكِ الإنسانِ وأفعالِه ورؤيتِه للحياةِ.

وحتَّىٰ بعض المناهج التي تُعنَىٰ بالتَّربيةِ وتستمدُّ من الشريعةِ المبادئَ التي تقومُ عليها تقع في أخطاءٍ قاتلةٍ حين التَّطبيق؛ وذلك لإغفالها الجانبَ القلبيَّ الرُّوحيَّ في الإنسانِ، ويؤدِّي ذلك إلىٰ ظُهورِ أشكالٍ من صُورِ الانضباطِ الشَّكليِّ الظَّاهريِّ عند بعضِ النَّاس، ولكنَّ القلبَ والنَّفسَ لم يَتشبَّعا من التَّربيةِ الرُّوحيَّةِ الحقيقية التي تُحدِثُ التغير الجذريَّ والحقيقيَّ للإنسانِ. فالمنهجُ الصُّوفيُّ القائمُ علىٰ الرَّبط بين حركاتِ الأجسادِ والقلوب هو الذي يحقق المعادلةَ بين كمالِ الحياة الرُّوحيةِ للإنسان وسموِّ نفسِه وبين تحقيقِ أعلىٰ صورِ وجودِه المادي في الأرض وخطواته فيها. ويَستمدُّ المنهج الصوفيُّ قوتَه وأدواتِه في عنايته بالنفس البشريةِ من النُّور الإلهيِّ والتعاليم الرَّبَّانيَّة ووجود المرشدِ الرُّوحي المربِّي والعالِم الشَّرعيِّ الذي يستطيع بثَّ هذا النُّورِ وتلك التَّعاليم في النُّفوس، في حين أنَّ المناهج الأخرَىٰ تفتقدُ إلىٰ هذا في صورته الحقيقيَّةِ.

ملامحُ المنهج الصُّوفيِّ في التَّربية الإنسانية

يتميَّز المنهجُ الصُّوفيُّ في العنايةِ بالإنسانِ والنفس البشريَّةِ بميزاتٍ تباين بينَه وبين المناهج الأخرىٰ من حيث شموليَّتِه وانفرادُه ببعض الميزاتِ التي لا توجدُ في أي منهجٍ آخرَ؛ فمنها علىٰ سبيل المثالِ:

1- تطبيقُ جميع التَّعاليم والآداب الشرعيَّة التي تصون النَّفس البشرية وتحفظ لها الانضباط، وذلك في إطار الرُّوحانية والشفافية القلبيَّة التي تجعل التَّعاليم الشَّرعيَّة منهجًا حيًّا يلمسُ الإنسان في اتِّباعه لذَّةً رُوحيَّةً ومتعةً معنويَّةً لا يعاني في تطبيقِها الجمودَ ولا الإحساسَ بالقيودِ.

2- وُجودُ العديدِ من طُرق التَّعامل مع النَّفس البشريَّةِ في المنهج الصوفيِّ، وذلك لتنوع

الأنفسِ واختلافِ طبائِعها تبعًا لاحتواءِ المنهج الإلهيِّ علىٰ النُّور الذي يصلحُ لجميع أنواع النَّفس البشريَّةِ.

3- المنهجُ الصوفيُّ يربط الإنسانَ في كلِّ أحواله وأوقاتِه بالله سبحانه وتعالىٰ، فلا تكون التَّربيةُ والتزكيةُ لتحصيل الخير في الحياة الدنيا فقطْ، وإنَّما المبدأُ والمنتهىٰ هو الله سبحانه وتعالَىٰ.

4- المنهجُ الصُّوفيُّ يُحوِّلُ التَّعبدَ لله والمناسكَ التَّعبديةَ بأشكالها وصُورِها إلىٰ وسيلةٍ من وسائل التَّربية، فيجعلُ الصَّومَ والصَّلاةَ والجهادَ والزكاةَ والحجَّ وسيلةً من وسائل إصلاحِ النَّفس البشريَّة، فلا يفصل التعبُّدَ عن السُّلوكِ الإنسانيِّ، ويظهر ذلك جليًّا في كتبِ الإمام الغزاليِّ.

5- المنهجُ الصُّوفيُّ يحقِّقُ الاعتدالَ والتَّوازنَ والوسطيَّةَ في الأخلاقِ والأفعالِ والسُّلوكياتِ؛ فنجد الشَّخصَ الذي تربَّىٰ علىٰ المنهجِ الصُّوفيِّ الصَّادقِ من أكثر النَّاس تعاونًا ورفقًا بالنَّاسِ وإخلاصًا في الأعمالِ والوظائفِ وانْسجامًا مع كافَّة أنواع المُجتمعاتِ علىٰ اختلافِ أنماطِها، ويجعلُه أيضًا من أكثر النَّاس التزامًا بعبادته وقُرباته مع ربِّه سبحانه، ولا يرىٰ أيَّ تنافر بين الانسجامِ بين النَّاس والتَّعاون معهم وبين محافظتِه علىٰ أمورِ دينِه.

6- وُجودُ الشَّيخ المربِّي المرشدِ الهادِي، والذي اجتمعتْ فيه العلومُ الشرعيَّةُ والمناهجُ الرُّوحيَّةُ الرَّبانيَّةُ التي تحقِّقُ أعلىٰ درجات التَّربية النفسيَّة والرُّوحية، فالشيخُ بالمفهوم العصريِّ هو الأبُ الرُّوحي الوارثُ لميراث النُّبوة من العلومِ والآدابِ الذي يَعلَمُ بحقيقةِ النَّفس البشريَّة وطُرقِ تقويمِها ووضعِها علىٰ الطَّريق السَّليم سُلُوكًا وعَمَلًا.

7- المنهج الصُّوفيُّ يحقِّقُ التَّكافلَ في المجتمع الواحدِ ويشيع بين أفرادِه الأُلفة والمحبَّة، وينشر قيم التَّعاون والإخاء والتَّكافل وسد الحاجاتِ، وذلك عن طريق غرسِ القيمِ الإسلامية الرُّوحية وتحويلِها إلىٰ سلوكٍ عمليٍّ واقعيٍّ.

8- التَّربيةُ في المنهجِ الصُّوفيِّ تُصلحُ ظاهرَ الإنسانِ وباطنَه في الوقتِ نفسه، فتصنعُ بذلكَ الإنسانَ الكامل المُتزن الباطِنِ مع الظَّاهر، فلا تصنع قشورًا مِنَ الأخلاقِ الظاهريَّةِ مع خواء الباطن الإنسانيِّ منها، ولا تصنعُ بواطن كاملةً بدون التَّطبيق العمليِّ لها في الحياة اليوميَّةِ؛ بل تجمع بين الباطنِ والظَّاهر في تناغمٍ فريدٍ ينتج منه الشَّخصُ المسلمُ المنضبطُ المعتدلُ ذو النَّفس المطمئنةِ والسُّلوكِ النَّافعِ.

9- التَّربيةُ في المنهجِ الصُّوفيِّ لا تخضعُ لأهدافٍ أو أغراضٍ متنوِّعة سواءٌ أكانت سياسيةً أم اجتماعيَّةً تخدم أغراضًا محدَّدةً سلفًا، وإنما هدفُها الوصولُ بالعبد إلىٰ مقام الإحسانِ والقرب من الله، وهو أن تعبد الله كأنَّك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك، فلا يستخدم التَّصوفَ كستارٍ أو وسيلةٍ لتحقيقِ أهدافٍ أخرىٰ غير تحقيق مقامِ العبوديَّة لله.

10- المنهجُ الصُّوفيُّ يتميَّزُ بالرِّفقِ في معالجتِه لأمراض النَّفسِ والقلبِ ومراعاة الإحسانِ إلىٰ الخَلْق كلِّهم، ورؤية نسبتهم إلىٰ الله وأنَّهم من خَلْقِ الله، فوجب مراعاةُ الرِّفق بهم ومحاولةُ الإصلاح والتَّقويم بالموعظة الحسنة وضَرْبِ المثال الطَّيب وعدمِ التَّعالي علىٰ الخَلْق والانفصالِ عنهم؛ بل يغرسُ التَّصوفُ في النَّفسِ البشريَّةِ صفاتِ التَّواضع للخَلْق والمحبَّة لهم والشَّفقة عليهم اقْتداءً بسيِّد الخَلْق محمد ﷺ.

أصول المنهج الصُّوفي في تربية النُّفوس

يستمدُّ المنهجُ الصُّوفيُّ أصولَه وقواعدَه في التَّربية والإرشادِ ومعالجة أمراض النَّفس والقلب من كتابِ الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وذلك من خلال مراعاة الجانب الرُّوحي في الإسلام، وانطلاقًا من تتبع تطبيق الرَّسولِ الكريم صلواتُ الله وسلامه عليه في حياتِه وأفعالِه وأقواله، فالنبيُّ ﷺ هو المثالُ الأسمىٰ للنَّفس البشريَّةِ في أعلىٰ درجاتِها قُربًا من الله سبحانه وتعالىٰ وتحقيقًا للعبوديَّةِ، وكذلك تطبيقًا لشرائعِ الإسلام وأوامرِه، فجَمَعَ صلواتُ الله وسلامه عليه بَينَ أعلىٰ درجاتِ سُموِّ الرُّوح وأعلىٰ درجاتِ التَّعاملِ مع الخَلْق،

فكان كما وَصفَه ربُّه سبحانه وتعالىٰ في كتابهِ الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

فأصولُ المنهجِ الصُّوفيِّ في تزكيةِ النَّفسِ البشريَّةِ وتهذيبِها تتمثَّل في الاستعانةِ بنصوص الكتابِ والسُّنة ومحاولةِ تطبيق المثال المحمَّدي علىٰ النفوس البشريَّة من خلال تحقيق الصَّفاء القلبيِّ والرُّوحيِّ للإنسانِ، فهو ينطلقُ من الكتابِ والسُّنةِ علىٰ يد المشايخ المُربِّينَ ولا يخرجُ عنهما، وذلك ملموسٌ كما سيأتي بيانُه من خلالِ أقوال أهل التَّصوفِ فلا تخرجُ أقوالُهم وحِكَمُهم عن الكتابِ والسُّنةِ والتَّطبيقِ العمليِّ لها، فلننظرْ إلىٰ أقوالِ علماءِ ومشايخِ التَّصوفِ في توضيحهم للأصولِ التي بُنيَ عليها التَّصوفُ:

- قال سيِّدُ الطائفةِ الأستاذُ الجُنيد: ((عِلمُنا هذا مقيَّدٌ بالكتابِ والسُّنة، فمَنْ لم يقرأ القرآنَ ويكتبِ الحديثَ لا يصلحُ له أن يتكلَّمَ في علمنا))[1]. وقال: ((الطُّرقُ كلُّها مسدُودةٌ علىٰ الخَلْق إلا مَنِ اقتفىٰ آثارَ رسولِ الله ﷺ))[2].

وقال الإمامُ أبُو القاسم عبدُالكريم بن هوزان القُشيريُّ في رسالتِه: ((الشَّريعة أمرٌ بالتزام العبوديَّة، والحقيقةُ مشاهدةُ الرُّبوبية، فكلُّ شريعةٍ غير مؤيدةٍ بالحقيقة فغيرُ مقبول، وكلُّ حقيقةٍ غيرِ مقيدة بالشَّريعة فغيرُ محصول، فالشَّريعةُ جاءتْ بتكليفِ الخَلْق، والحقيقةُ إنباءٌ عن تصريف الحقِّ، فالشَّريعةُ أن تعبدَه والحقيقةُ أن تشهدَه، والشَّريعةُ قيامٌ بما أمر والحقيقةُ شهودٌ لما قضىٰ وقَدَّرَ وأخْفىٰ وأظْهرَ))[3].

وقد قيل في علاماتِ الصِّدقِ في السلوك ((إنَّ سالكَ سبيلِ الله قليلٌ والمدَّعي فيه كثيرٌ ونحن نعرف لك علامتَيْنِ له:

---

(1) انظر: فضل علم السلف علىٰ الخلف (ص 34) تأليف: أبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي- المطبعة المحمودية.

(2) انظر: مدارج السالكين(121/3) تأليف: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الثانية- 1393هـ.

(3) الرسالة القشيرية (195/1).

الأولىٰ: أنْ تكونَ جميعُ أفعالِه موزونةً بميزانِ الشَّرع، موقوفةً علىٰ توقيفاتِه إيرادًا وإصدارًا وإقدامًا وإحجامًا؛ إذ لا يُمكنُ سلوكُ هذه السبيل إلَّا بعدَ التلبُّس بمكارم الشَّريعة كلِّها.

والثَّانية: لا يَصلُ فيه إلا مَن واظبَ علىٰ جملةٍ من النَّوافل، فكيف يَصِلُ إليه من أهملَ الفرائضَ؟)).

- فهذه هي أصولُ المنهجِ الصُّوفيِّ، وهي المبنيَّةُ علىٰ كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ، والتَّربيةُ الصوفيَّةُ ما هي إلا تطبيقٌ لرُوح وحقيقة الإسلام مُحافِظةً في ذلك علىٰ الحدود والأركان الشَّرعية، وهذا ما يدعونا إلىٰ مَعرفةِ أهداف التَّربيةِ الصوفيَّة بعد معرفةِ أصولِها.

أهدافُ التَّربية الصُّوفية

للتَّصوف أهدافٌ يسعىٰ لتحقيقِها كوسائلَ لإيصالِ العبدِ إلىٰ الله وتحقيق مقامات التَّوحيد، فتصبحُ أهدافُ التَّربيةِ وَسيلةً وهدفًا في ذاتِ الوقتِ، فمِنْ هذِه الأهدافِ:

1- صفاءُ النَّفس البشرية، وذلك من خلال الالتزامِ بالآدابِ والتَّعاليمِ الرُّوحية التي تُعالج النَّفسَ البشريَّةَ وتصلُ بها إلىٰ درجاتِ الطُّهرِ والنَّقاءِ.

2- علاجُ أمراضِ القلوبِ مثلَ: الكِبر، والحسدِ، والطَّمعِ، والعُجبِ، والرِّياء، والكراهيةِ، والحقد، وغير ذلك عن طريقِ المُجاهداتِ المُختلفةِ والتَّدريب المناسبِ لكلِّ حالةٍ؛ حتىٰ تتمَّ تنقيةُ القلبِ من الأمراضِ، وتتنوعَ طُرقُ العلاجِ تَبعًا لاختلافِ كلِّ إنسانٍ.

3- غرسُ الأخلاق النَّبيلة في القلب والنَّفس عن طريقِ مراعاةِ المثالِ المحمَّدي بالاقتداءِ برسُولِ الله ﷺ في الأفعالِ والأقوالِ وعرض سِيرِ الصَّالحينَ وأهل التصوفِ وأحوالهم وأقوالهم.

4- تَنميةُ الصِّلةِ بين العبدِ وربِّه وربطُ الفردِ بالله سبحانَه وتعالَىٰ في جميع الأوقاتِ والأحوالِ والمُناسباتِ، فلا تنفصلُ الصِّلةُ في أيِّ وقتٍ من الأوقاتِ، وهذا هو تحقيقُ

مقامِ المراقبةِ الدَّائمةِ له سبحانَه والمسارعة دائمًا إلىٰ اللُّجوء إلىٰ الله في كلِّ وقتٍ وحالٍ.

5- غرسُ قيمِ المحبَّة بين الأفرادِ، وبيانُ سماحة ورِفقِ الشَّريعةِ، فلا يكونُ الصُّوفيُّ صوفيًّا بدون المحبَّةِ والرِّفقِ بينَه وبينَ جميعِ الخَلْق حتَّىٰ مع اختلافِ الدِّين والآراءِ.

6- تحقيقُ المعرفة القلبيَّة لله؛ فالقلبُ العارفُ هو القلبُ الكامل الذي تتحقَّقُ فيه أعلىٰ درجات السُّموِّ الإنسانيِّ، فالقلبُ الذي يعرف رَبَّه هو الذي ينتج منه الأفعالُ الخيِّرة والسُّلوكُ الحميدُ.

7- حِفظُ النَّفس البشرية من الانزلاقِ نحو الشَّهوات المحرَّمة عن طريقِ حفظ أدوات الحسِّ كالسَّمع والبصر والكلام، وتحقيق السَّمتِ الطَّيب لها في مظهرها الخارجيِّ.

8- تحقيقُ الدَّورِ الإيجابيِّ للنَّفس البشريَّة في تنميةِ المجتمعاتِ وبنائها وعدمِ الانعزال والسَّلبية تجاه المجتمعِ، سواءٌ أكان المُجتمعُ المحيطُ بالمفهوم الصغير مثل الأسرة والحي، أو المجتمعُ الأكبرُ كالوَطنِ، فالمنهج الصُّوفيُّ يَغرسُ الانتماءَ في نفس الفرد والإيجابيَّة نحو الأوطانِ.

9- تحقيقُ الحِفظِ والعِصمةِ من الانزلاقِ وراءَ المناهجِ والطُّرقِ والسُّلوكياتِ الخاطئةِ التي قد تَختفِي وراء الشِّعاراتِ الدِّينيةِ أو الدَّعاوىٰ البَرَّاقة الَّتي تدعو للتحرُّرِ التي تَستخدمُها الجماعاتُ أو الهيئاتُ ذاتُ الأفكار المنحرفةِ، فنتيجةُ التَّربيةِ الصوفيَّةِ ووجودِ الشَّيخ المرشدِ المربِّي تحصلُ العِصمةُ الفِكريَّةُ والسُّلوكيَّة علىٰ مُستوىٰ الأفراد والمجتمعاتِ.

10- تحقيقُ المقاماتِ الإيمانيَّة والتَّوحيدية من التَّوكل والصَّبر والإنابةِ والاستقامة والقُرب، وغير ذلك من مقاماتِ القُلوب والاستمرارِ عليها، فتصلحُ النُّفوس الإنسانيَّة التي بصلاحها تصلحُ المُجتمعاتِ.

وبعد معرفةِ الأصولِ والأهدافِ الَّتي انبنىٰ عليها المنهجُ الصوفيُّ ننتقلُ إلىٰ معرفةِ مَنْ تمثَّلتْ عنده هذه الأصولُ وهذه الأهدافُ، وذلك من خلالِ بيان النَّماذج التي ظهرتْ فيها التربيةُ الإسلاميَّةُ الصوفيَّةُ.

نماذج من التَّربيةِ الإسلاميَّةِ الصُّوفيَّةِ

لقدِ اهتمَّ التَّصوفُ بالأخلاقِ والتَّزكيةِ اهتمامًا عظيمًا، حتَّى إنَّنا نجدُ في تعريفاتِ التَّصوفِ الرَّبطَ بَينَه وبينَ الخُلُق، فقد أوردَ الإمامُ القُشيريُّ في رسالتِه عدَّةَ تعريفاتٍ للتَّصوفِ تربطُه مباشرةً بحُسنِ الخُلُقِ؛ فقال: ((سُئلَ أبُو محمَّدٍ الجريريُّ عن التصوفِ فقالَ: الدُّخولُ في كلِّ خُلُقٍ سَنيٍّ والخروجُ من كلِّ خُلُقٍ دنيٍّ)). وقال أيضًا: ((سمعتُ الكتانيَّ يقول: التَّصوفُ خُلُقٌ، فَمن زادَ عليْكَ بالخُلُقِ فقدْ زادَ عليْكَ في الصَّفاءِ))[1].

ومعتمدُ الصُّوفيَّةِ في ذلك على التأسِّي برسولِ الله محمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُه عليه الذي قال فيه ربُّه سبحانَه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. ووصفتْه أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رضي الله عنها فقالتْ عنه ﷺ: ((كان خُلُقُه القرآن)) رواه مسلمٌ[2]. فالمنهجُ الصُّوفيُّ ما هو إلا تطبيقٌ لكتابِ الله والتأسي برسول الله ﷺ.

وسوفَ نعرضُ لبعضِ أقوالِ وأفعالِ أئمَّةِ ومشايخِ التَّصوفِ في الحثِّ على الفضائلِ والأخلاقِ والتَّحذيرِ من ضدِّها، فمن أعظم تلك النَّماذجِ المبينةِ لمنهجِ التصوف في التَّربيةِ نموذجُ الإمام الغزاليِّ (ت 505 هـ) وذلك من خلالِ مصنَّفاته وأقوالِه في مُعالجةِ أمراضِ النَّفسِ البشريَّةِ، أيضًا نموذج الإمامِ الشَّيخ ابن عطاء الله السكندريِّ وهُو من أكابر أهل الطَّريق والتَّصوفِ، وسوف نقومُ أوَّلًا بعَرضِ آراء وأفكار وكِتاباتِ الإمام الغزاليِّ كنموذجٍ للتَّربيةِ في المنهجِ الصُّوفيِّ، ثم نتعرض للكلام عن ابن عطاء الله:

أوَّلًا: الإمامُ أبو حامدٍ الغزاليُّ كنموذج تربوي:

هو الفقيه الأصوليُّ الفيلسوفُ المتكلِّمُ من أكابر الشَّافعيَّةِ، مَرَّ الإمامُ الغزاليُّ بكثيرٍ من المراحلِ العِلميَّة والفكريَّةِ، واستقرَّ على التَّصوف وعلومه ومناهجِه كمنهجٍ للمعرفة الإلهيَّةِ

---

(1) الرسالة القشيرية (2/441، 442).

(2) جزء من حديث؛ أخرجَه بنحوه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومَن نام عنه أو مرض (746)، وفيه: ((فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ)).

والإصلاح الفرديِّ والمجتمعيِّ، ويظهر ذلك جليًّا في كتابه: إحياء علوم الدين، الذي يُعدُّ أحدَ أهم الكُتب في تاريخ الإسلام والمسلمين وأكثر الكتب التي تعبر عن المنهج الصُّوفي في التَّربية والإصلاح، محاولًا بذلك تقديمَ رؤيةٍ إصلاحيَّةٍ متكاملةٍ للمجتمعاتِ الإسلاميَّةِ؛ فقد أوضح فيه الإمام الغزالي بأنَّ العِلم والفقه الحقِيقيَّ هو الذي ينعكسُ على سُلوكِ الإنسان نتيجةَ اليقينِ الإيمانيِّ بالله وباليوم الآخرِ والمراقبةِ له سبحانه في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ، وأنَّ ذلك العِلم هو رُوح الإسلام وجوهره، ثم قسَّم الكتابَ إلى أربعة أجزاءٍ بعد مقدمة العلم والتَّفريق بين أنواعه:

1- ربُع العبادات: كالصَّلاة والزكاة والحجِّ وغيرِها، موضحًا بعضَ التَّفاصيلِ الدَّقيقةِ لهذه العباداتِ وأثرَها الرُّوحيِّ والسُّلوكي على نفس الإنسانِ وقلبِه.

2- ربُع العادات: مثل الزَّواج والعمل، وما يمارسه الإنسانُ من العاداتِ، موجِّهًا تلك العادات وربطها رُوحيًّا وتربويًّا بالأخلاقِ والتَّربيةِ.

3- ربُع المهلكات: وهذا الربع يعدُّ باب الأمراض القلبيَّة؛ كالغُرور والكِبرِ وحبِّ الدنيا والجاه والإسرافِ والإفراط، وغير ذلكَ من الأمورِ التي تُصيبُ النَّفسَ والقلبَ وطرق معالجتِها وربطها بالسُّلوك إلى الله.

4- ربُع المنجيات: مثل التَّوبة والمعرفةِ بالله والخوفِ منه والتفكُّر في آلائِه وصفاته، وغرسِ الأخلاق النَّبيلة، ومعالجة القلبِ وحثِّه على غرس تلك المعاني والآداب في القلبِ.

ومعظم ما كتبه الإمام الغزالي في الإحياء يبدأ عادةً بالاستدلالِ بالقرآنِ الكريم، ثم بالحديثِ الشريف، ثم بأخبار الصَّحابةِ وأخبارِ الصَّالحين كعرضٍ للموضوع، ومن ثَمَّ تتكوَّنُ الفكرة العامة للقارِئ عن الموضوع والإحاطةِ به، ثُمَّ الاستفادة منه في التَّطبيق العمليِّ.

التربية الخُلُقية عند الغزالي:

تَهدِفُ التَّربيةُ الخُلقيةُ عند الإمام الغزاليِّ إلىٰ تحقيقِ بعض الغاياتِ والأهدافِ التي تؤدِّي إلىٰ رفعِ المستوىٰ الرُّوحيِّ والخُلُقيِّ والاجتماعيِّ للفردِ والمجتمعِ، ممَّا يُعدُّ مدرسةً متكاملةً للتَّربيةِ والتَّزكية التي تُثمرُ الهدفَ منها، ومن تلك الأهدافِ التي حَرَصَ الغزاليُّ علىٰ تحقيقِها:

1- الكمالُ الإنسانيُّ، وذلك بارتقاءِ النَّفسِ الإنسانيَّة من مجال الحسِّ إلىٰ مجالِ التَّفكير والتَّفكُّر والارتقاءِ بالإنسانِ من مستوىٰ الخُضوع للأهواءِ والشَّهواتِ إلىٰ تحقيق مقام العبوديَّة لله، وفي ذلك قمَّةُ الكمالِ الإنسانيِّ حتىٰ تَصِلَ إلىٰ مقامِ الشفافية الرُّوحية وتتدرَّج في مقاماتِ القُربِ من الله.

2- تربية النَّفس الإنسانيَّةِ علىٰ الفضيلة، فقد ركَّز الغزاليُّ علىٰ أساسياتِ الفضائل واعتبرَها أربعةً هي الحكمةُ والشَّجاعةُ والعفَّةُ والعدلُ، ويرىٰ أنَّ تحقيقَ الفضيلةِ إنَّما يكونُ من خلالِ تصفية القلبِ لذِكر الله والعملِ علىٰ غرسِ الفضائل وتهذيبِ الأخلاق، ويؤكِّدُ علىٰ أهميَّة الفضيلة ودورِها في ضبط قُوىٰ النَّفس الإنسانيَّة وتنمية الاستعداداتِ الفِطريَّةِ للخير والتَّزكيةِ فيها.

3- تهذيبُ قُوىٰ النَّفس الإنسانيَّةِ، وهو يرىٰ أنَّ ذلك لا يَعنِي قَمْعَ نزاعاتِ النَّفسِ وغرائزِها واستئصالِها تمامًا، فإن ذلك مُخالفٌ لفطرة الإنسانِ والحكمة من خلقه وتركيبِ تلك النَّزاعات والغرائزِ فيه؛ لأن الشَّهوةَ علىٰ سبيلِ المثال خُلقتْ لفائدةٍ ولها وظيفةٌ لا غِنىٰ للإنسانِ عنها ولا بقاءَ له من دونِها؛ فشهوةُ الطَّعام لها ضرورةٌ لنموِّه واستمرارِ حياتِه، وشهوةُ الجِنس تحفظ النَّسلَ وتُساهمُ في بقاء النَّوع الإنسانيِّ، ولكنه يربط بين هذه الشَّهوات وبين رُؤيةِ حكمةِ الله فيها ومظاهر الإنعامِ في تلك النِّعمِ، ويُخضعُ هذه الشَّهواتِ لميزانِ العقلِ والاعتدالِ.

4- حُسنُ توجِيه طاقاتِ الأُمَّة الإسلاميَّة؛ فالغزاليُّ يؤكِّدُ علىٰ أهميَّةِ حِفظ طاقات

النَّفس البشريَّة وتوجيهها للإفادة منها، كما دعا إلىٰ ضرورةِ تخليصِ الأمة الإسلامية من الشَّهواتِ التي ألَمَّت بها وغيَّرت مِن رسالتها السَّاميةِ، مؤكِّدًا علىٰ الأثر التَّهذيبيِّ للشَّريعة الإسلامية وآدابِها في كلٍّ من الفردِ والمجتمعِ.

5- تكوينُ الشَّخصيَّةِ المتوازِنةِ، ويُركِّزُ الغزاليُّ في التَّربيةِ الخُلقيَّةِ علىٰ المكوِّنات الرَّئيسيةِ للنَّفسِ الإنسانيَّةِ وهي العقلُ والرُّوحُ والجسمُ والقلبُ، وينظرُ إليها باعتبارِها كَيانًا واحدًا متكاملًا، ومن ثَمَّ اهتمَّ بالتَّأكيد علىٰ الأساليبِ والطُّرق التَّربويَّة التي تتعامَلُ مع مكوِّنات النَّفس البشريَّةِ بشكلٍ متوازنٍ متكامل؛ كالمُجاهدةِ لتزكيةِ القلبِ والرُّوحِ، والتَّفكُّر والتَّفكيرِ لتربيةِ العقلِ، واللَّعب لتربية الجسمِ وتنشيطِ الحواسِّ.

6- ترقيةُ الإنسانِ نحوَ كمالِ المعرفةِ الإلهيَّةِ وتحصيلِ رِضا الله سبحانَه وتعالىٰ، فقد دَعا الغزاليُّ إلىٰ إعمالِ الفِكرِ في بديعِ الصَّنعةِ الإلهيَّة التي تدلُّ علىٰ الكمالِ المطلقِ لله سبحانَه وتعالىٰ، وحثَّ علىٰ مُراعاة قواعدِ الشَّريعةِ وفروعِها التماسًا لرضا الله؛ ولذلك فهو يجعلُ من أخصِّ أهدافِ التَّربيةِ إعدادَ الإنسانِ لتحقيق حُسنِ العبوديَّةِ لله تعالىٰ مع كمالِ الحبِّ والخضوعِ له.

فممَّا سبق يتَّضحُ وجود منهجٍ تربويٍّ متكاملٍ نبعَ من كِتاباتِ وفِكرِ إمامٍ صوفيٍّ كبيرٍ، وهي تمتاز عن أيِّ منهجٍ من مناهج التَّربية الحديثةِ المتكاملةِ بأنَّها تربطُ الإنسانَ بربِّه سبحانه وتعالىٰ أوَّلًا وآخرًا، وهذا المنهج يَرىٰ أنَّ وجودَ الإنسانِ في هذا الكونِ لحكمةٍ ودورٍ محدَّدٍ مضبوطٍ بتعاليمِ الله في كلِّ الأفعالِ والأوقاتِ، ممَّا يحقِّقُ سُموًّا رُوحانيًّا لا يُوجدُ في أيِّ منهجٍ آخرَ، وهذا هو سرُّ العظمةِ في المناهجِ الإسلاميَّةِ عامةً والمنهجِ الصُّوفيِّ في التَّربية خاصةً، وهو أنها ليستْ منفصلةً عن النُّورِ الإلهيِّ الذي بوُجودِه يَصلحُ حالُ الفردِ والمجتمعِ في جميع الجزئيَّاتِ والفرعيَّاتِ والكليَّاتِ، ويتَّضح ذلك في كتاباتِ الغزاليِّ خاصةً؛ لأنها كانت تشملُ الأفرادَ والمجتمعاتِ، وكثيرٌ من العلماء الذين جاءوا من بعده نَسجُوا علىٰ مِنواله.

نماذج من أقوال الغزاليِّ عن التَّربية وإصلاح النَّفس البشريَّة:

سوف نقوم بعرض لبعض الأقوال للإمام الغزالي كنموذجٍ للتَّربية الصُّوفية.

مثال على إصلاح قيادات المجتمع من أهل العِلم- وهو يصف حالَ علماء السُّلطة وحبَّهم للدُّنيا وأنَّهم سببٌ مباشرٌ وغير مباشرٍ للفسادِ فيقول رَحمه اللهُ: ((أمَّا الآنَ فقدْ قيَّدتِ الأطماعُ ألسُنَ العُلماءِ فسكتوا، وإنْ تكلَّموا لم تُساعِدْ أقوالُهم أحوالَهم فلم ينجحُوا، ولو صَدقُوا وقصدُوا العِلم لأفلحوا، ففساد الرَّعايا بفسادِ الملوك، وفسادُ الملوكِ بفسادِ العلماءِ، وفسادُ العلماء باستيلاءِ حبِّ المال والجاهِ، ومَنِ استولَىٰ عليه حبُّ الدُّنيا لم يقدِرْ علىٰ الحِسبة علىٰ الأراذل، فكيف علىٰ الملوكِ والأكابر؟! واللهُ المُستعانُ علىٰ كل حالٍ))[1].

الأمرُ بالمَعرُوفِ والنَّهي عن المنكر:

الأمرُ بالمعروفِ عند الغزاليِّ والنَّهي عن المنكر هما قطبا الدِّين، ومهمَّة النبيِّين والمرسلينَ، وهما من وسائل إصلاح الفردِ والمجتمعِ فيقولُ عنه: ((فكُن أحدَ رجُلَيْن إمَّا مَشغولًا بنفسكَ وإمَّا متفرغًا لغيرِكَ بعد الفراغِ من نفسِك، وإيَّاك أن تشتغل بما يُصلحُ غيرَك قبل إصلاح نفسِكَ))[2].

ويقولُ: ((فحقٌّ علىٰ كلِّ مُسلمٍ أن يبدأَ بنفسِه فيُصلحُها بالمواظبةِ علىٰ الفرائضِ وترك المحرَّمات، ثم يُعلِّم أهلَ بيته، ثم يتعدَّىٰ بعد الفراغِ منهم إلىٰ جيرانِه، ثم إلىٰ أهلِ مَحلَّتِه ثم علىٰ أهلِ بلدِه))[3].

في رؤيةِ الدُّنيا وكيفية التَّعامل مع النِّعم والشَّهوات:

قال رحَمه اللهُ: ((أن لا يتركَ الدُّنيا بالكليَّةِ ولا يقمعُ الشَّهواتِ بالكليَّة، أمَّا الدُّنيا فيأخذُ منها

---

(1) إحياء علوم الدين (351/2) لأبي حامد الغزالي.

(2) المصدر السابق (39/1).

(3) المصدر السابق (336/2).

قدر الزَّاد، وأما الشَّهواتُ فيقمَعُ منها ما يخرجُ منها عن طاعةِ الشَّرعِ والعقلِ ولا يتبعُ كلَّ شهوةٍ ولا يَتركُ كلَّ شهوةٍ بل يتبعُ العدلَ، ولا يتركُ كلَّ شيءٍ من الدُّنيا ولا يطلبُ كلَّ شيءٍ من الدُّنيا، بل يعلمُ مقصودَ كل ما خُلقَ من الدُّنيا ويحفظُه علىٰ حدِّ مقصُودِه))[1].

الكلامُ عن العدالة الاجتماعية عند السادة الصوفية:

قال رحمه الله: ((فالغنيُّ مُستخدَمٌ للسَّعي في رزقِ الفقير، يكتسبُ المالَ بجهده ويجتهد في تنميتِه وحفظِه ليسلِّم إلىٰ الفقيرِ حاجتَه منه حين يحتاجُ، ويكفَّ عنه الزِّيادةَ التي تضرُّه لو سُلِّمتْ إليه))[2].

وقال أيضًا: ((في المال حقٌّ سوىٰ الزكاة؛ لذلك يجبُ علىٰ الأغنياءِ مهما وجدُوا الفقراءَ في حاجةٍ أن يُزيلوا حاجتَهم، ومهما أرهقتِ الفقيرَ حاجتُه كانت إزالتُه فرضَ كفاية؛ إذ لا يجوزُ تَضييعُ مُسلمٍ))[3].

النَّهي عن الاحتكار من أقوال الصوفية:

قال رحمه الله: ((محاربةُ الاحتكارِ والكنزِ؛ لأنَّ الاحتكار ظلمٌ في المعاملةِ، وبائعُ الطَّعامِ الذي يحتكرُ الطَّعامَ ينتظر غلاءَ الأسعارِ هو ظلمٌ عامٌّ وصاحبه مذمومٌ في الشَّرع يبرأ منه تعالىٰ))[4].

ثانيًا: الإمامُ ابن عطاء الله السَّكندريُّ (ت 709 هـ) كنموذج تربوي:

هو الإمامُ الشَّيخ أحمد بن محمد بن عبدالكريم بن عطاء الله السَّكندريُّ من أكابر أهل الطَّريق والتَّصوف، فهو مرشدُ السَّالكينَ وتَرْجُمان أهل التَّصوف، وهو فقيهٌ مالكيٌّ المذهب وأحد أعمدة وأركان الطريقة الشَّاذلية، وكان يحضُرُ وعظَه كثيرٌ من النَّاسِ،

(1) إحياء علوم الدين (2/244).

(2) المصدر السابق (1/218).

(3) المصدر السابق (1/215).

(4) المصدر السابق (2/74).

وانتفع به وبكتاباتِه خلقٌ كثيرٌ على مرِّ العصورِ، وكتبُه وأقوالُه تمسُّ القلوبَ وتنشرحُ لها النُّفوسُ، وسوف نتعرَّضُ لأقوالِه في تهذيبِ النَّفسِ وتربيتِها، وله كتبٌ لو اعتمد عليها المسلمون في مجال الأخلاق والتَّزكية والتَّربية لكفتْهم؛ فمنها: تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، والحكم العطائية، والطريق الجادة في نيل السعادة، والتنوير في إسقاط التدبير، ونعرض لأقوالِه رحمه الله من بعضِ كتبه؛ فمِنْ أقوالِه رضوانُ الله عليْه التي تربِّي النُّفوسَ وتزكِّي القُلوبَ: ((أتريد أن تجاهِدَ نفسك وأنت تقويها بالشَّهوات حتى تغلبك فقد جهلتَ.

- فالقلبُ شجرةٌ تُسقى بماء الطَّاعةِ ثمراتها مواجيدها.

- فالعينُ ثمرتُها الاعتبارُ، واليدانِ والرجلان ثمرتُهما السَّعيُ في الخيرِ.

- فإذا جفَّ القلبُ سقطتْ ثمراتُه، فإن أجدب فَأَكثِر من الأذكارِ ولا تكن كالعليل يقول: لا أتداوى حتَّى أجدَ الشِّفاءَ، فيقال له: لا تجدُ الشِّفاءَ حتَّى تتداوى))[1].

- ((كفى بك جهلًا أن تحسُدَ أهل الدُّنيا على ما أُعطوا، وتشغَلَ قلبَك بما عندهم فتكونَ أجهلَ منهم؛ لأنَّهم انشغلُوا بما أعطوا وأنتَ انْشغلتَ بما لم تعطَ.

- تَرمَدُ عينُك فتعالجُها، وما سببُ ذلك إلا أنَّك ذقتَ بها لذةَ الدُّنيا فتعالجُها حتى لا يفوتَك النَّظرُ إلى مستحسناتِها، وترمَدُ بصيرتُك أربعينَ سنةً فلا تعالجها)).[2]

- ((مَن عَلِمَ قُربَ رحيلِه أسرعَ في تحصيلِ الزَّادِ، ومَن عَلِمَ أنَّ إحسانَ غيرِه لا ينفعه جد في الإحسان، ومَن أخرج ولم يحسب خسر ولم يدرِ، ومَن وَكلَ وكيلًا واطَّلع على خيانتِه عزلَه، كذلك نفسُك قد اطَّلعتَ على خيانتِها فاعزلها وضيِّق عليها المسالك))[3].

- ((إيَّاك أن تخرجَ من هذه الدَّار وما ذُقتَ حلاوةَ حبِّه ليس حلاوة حبِّه في المأكل

(1) تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس (ص 11) دار جوامع الكلم- القاهرة.

(2) المصدر السابق (ص 15)

(3) المصدر السابق (ص 17).

والمشربِ؛ لأنه يشارِكُك فيها الكافرُ والدَّابة، بل شارِك الملائكةَ في حلاوةِ الذِّكر والجمع علىٰ الله))[1].

- ((ما أكثر تودُّدك للخَلْق وما أقل تودّدك للحقِّ، لو فتح لك باب التَّودُّدِ مع الله لرأيتَ العجائبَ.

- ركعتانِ في جوف اللَّيل تودُّدٌ.

- عيادتُكَ للمريض تودُّدٌ.

- صلاتُك علىٰ الجنائز تودُّدٌ.

- إماطتك الأذىٰ عن الطَّريق تودّدٌ.

- ولكنَّ السيفَ المطروحَ يحتاجُ إلىٰ ساعدٍ، ولا عبادةَ لك أنفعُ من الذِّكرِ؛ لأنه يُمكنُ للشَّيخ الكبير والمريض الذي لا يستطيع القيامَ والركوعَ والسُّجودَ))[2].

- كفاكَ من الإدبارِ أنْ تفتحَ عينَك في هذه الدَّار، قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: 131]. قدَّرَ لك الصِّحةَ والمرضَ والغِنىٰ والفقرَ والفرح والحُزنَ حتىٰ تعرفَه بأوصافِه، ومن صَحِبَك يومًا أو يومَيْنِ ولم يرَ منك نفعًا تركَكَ وصَحِبَ غيرَك، وأنتَ تصحبُ نفسَك أربعينَ سنةً ولم ترَ منها نفعًا فقُل لها ارجِعي يا نفسُ إلىٰ رضا ربِّك لطالما وافقتُك في الشَّهوات.

- فتبدلي بعد البطالةِ بالاشتغالِ بذكر الله، وبعدَ الكلامِ بالصَّمتِ وبَعْدَ الوقوفِ بالحاراتِ الجلوس بالخلوة، وبعد الأُنس بالمخلوقينَ الأُنس بالخالقِ، وبعد قرناءِ السُّوء معاشرة أهل الخير والصَّلاح))[3].

- ((إنْ أمكنَك أن تُصبحَ وتمسيَ وما ظلمتَ أحدًا من العِبادِ فأنتَ سعيدٌ، فإن لم تظلم

---

(1) تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس (ص 20).

(2) المصدر السابق (ص 21).

(3) المصدر السابق (ص 27).

نفسَك فيما بينَك وبين ربِّك فقد تكمَّلَتْ لك السَّعادةُ))[1].

- ((اللهُ هو المالكُ وأنتَ الرَّاعي وجوارحُك غَنَمُكَ))[2].

- ((عَلَيْكَ بالخلوة والعُزلة؛ فَمَنْ كانتِ العُزلةُ دأبَه كان العزُّ لهُ، فَمَنْ صدقتْ عُزلتُه ظَفِرَ بمواهِبِ الحقِّ له بالمننِ، وعلاماتُها: كشفُ الغطاء، إحياءُ القلب، تحقيقُ المحبَّة))[3].

- ((أيُّها العبد، ارحلْ عن هذه الأكوانِ إلىٰ المكوِّنِ))[4].

- ((بيانٌ للمعتبرين وهداية للمستبصرين: وهو أنَّ مَن خرجَ من تدبيرِه لنفسِه كان الله هو المتولِّي بحُسنِ التدبير له))[5].

وله رضوانُ الله عليه في مجال تزكية القلب والنَّفس وردِّها إلىٰ أحسنِ الأخلاق وإلىٰ طريقِ الله هواتف الحق سبحانه، وكأنَّها تهتف بابن آدم وتُنادِيه.

- ((أيُّها العبدُ ألقِ سمْعَك وأنتَ شهيدٌ يأتيكَ مني المزيدُ واصغ بسمعِك فأنا لستُ عنكَ ببعيدٍ.

- أيُّها العبدُ: كنتَ بتدبيرِي لك قبلَ أن تكونَ لنفسِك فكن لنفسِكَ بأن لا تكونَ لها.

- أيُّها العبدُ: أنا المنفردُ بالخَلْق والتَّصويرِ، وأنا المنفردُ بالحُكْم والتَّدبيرِ، لم تشارِكْنِي في خَلْقي وتصويرِي فلا تشارِكْنِي في حِكْمتِي وحُكْمي وتدبيري، أنا المدبِّرُ لملكِي وليس لي فيه ظهيرٌ، وأنا المنفردُ بحكمِي فلا أحتاجُ إلىٰ وزيرٍ.

- أيُّها العبدُ: متىٰ وكلتُ شيئًا من مملكتِي لغيرِي حتىٰ أَكِلَ ذلك إليكَ؟ متىٰ خابَ مَن كنتُ له مُدبِّرًا؟ ومتىٰ خُذِلَ مَن كنتُ له ناصرًا؟

---

(1) تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس (ص 37).

(2) المصدر السابق (ص 53).

(3) المصدر السابق (ص 58).

(4) المصدر السابق (ص 64).

(5) المصدر السابق (ص 78).

- أيُّها العبدُ: نريدُ منكَ أن تريدَنا ولا تريدَ معنا، ونريدُ منكَ أن تختارَنا ولا تختارَ معنا، ونرضىٰ لك أنْ ترضانا ولا تَرضىٰ سوانا، وكما سلَّمتَ لي تدبيري في أرضي وسمائي وانفرادي فيهما بحكمي وقضائي سَلِّمْ وجودَك لي فإنَّك لي، ولا تُدبِّر معي فإنَّك معي، واتَّخذني وكيلًا وثِقْ بي كفيلًا أُعطيك عطاءً جزيلًا وأهبك فخرًا جليلًا.

- أيُّها العبدُ: الوقتُ الذي أنت تستقبلُه لم أطالبْك فيه بالخدمةِ فلا تطالبني فيه بالقِسمةِ، فإذا كلفتُك تكفَّلتُ لكَ، وإذا استخدمتُك أطعمتُك، واعلمْ بأنِّي لا أنساكَ لو نسيتَني، وإني ذكرتُك من قبل أن تذكرَني، وإنَّ رزقي عليك دائمٌ وإنْ عصيتَني، فإذا كنتُ لك كذلك في إعراضك عنِّي فكيف ترىٰ أن أكونَ في إقبالِكَ عليَّ، ما قدرتَني حقَّ قدري إن لم تَسْتَسْلِمْ لقَهْرِي[1].

أهمية الشَّيخ المربِّي في المنهج الصُّوفيِّ

إنَّ وُجودَ الشيخ المربِّي من أركان المنهج الصُّوفي في التَّربية والمنهجِ، يُستمدُّ هذا من الشَّريعة الإسلاميَّة وصحيحِ الممارسةِ العمليَّة والواقعِ؛ فأمَّا في الشَّريعة فإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يقولُ: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43] وفي حديثِ الرَّسولِ ﷺ أنَّه قالَ: ((ألَا سألوا إذْ لم يعلمُوا إنَّما شفاءُ العِيِّ السُّؤالُ))[2].

(1) تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس (ص88).

(2) جزءٌ من حديثٍ أخرجه أبو داود في كتابِ الطَّهارةِ، باب في المجروح يتيمَّم (337)، والدارميُّ في سننِه (779) من طريق الأوزاعيِّ أنه بلغه عن عطاءٍ. وأخرجَه ابنُ ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب في المجروح تصيبُه الجنابة فيخاف علىٰ نفسه إن اغتسلَ (572)، وأبو يعلَىٰ في مسنده (2420) من طريق الأوزاعيِّ عن عطاء، وأخرجه عبدُالرَّزاق في مصنَّفِه (867) من طريق الأوزاعيِّ عن رجلٍ عن عطاء كلهم أنَّه سَمِعَ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما به مَرفوعًا.

وتابع الوليدَ بن عبيد الله الأوزاعيُّ فأخرجه ابنُ خزيمة في صحيحِه (273)، وابنُ حبَّانَ في صحيحِه (1314)، والحاكمُ في مُستدركِه (1/ 165) من طريق الوليدِ أنَّ عطاء حدَّثه عن ابن عبَّاس بنحوِه مرفوعًا.

وصحَّحه الحاكمُ ووافقَه الذَّهبيُّ.

وله شاهدٌ من حديث جابرٍ رضي الله عنه؛ أخرجه أبو داود في الكتاب والباب السابقيْنِ (336)، والدارقطني في

والواقعُ يشهدُ بأنَّ المرشدَ الهاديَ ضرورةٌ ملحةٌ في كلِّ الأمور صغيرِها وكبيرِها، فكيف بتربية النُّفوس وتزكيةِ القلوب؟! فكُلُّ العلومِ الشَّرعيَّةِ تؤخذُ عن أربابِها وأصحابِ التَّميزِ فيها، فكذلك عِلمُ القلوبِ والأنفسِ يُؤخذُ من أهلِه، وهم أهلُ السُّلوك إلىٰ الله، فيقوم الشَّيخُ في المنهج الصُّوفيِّ بدور الطَّبيبِ المعالج لأمراضِ النَّفس والقلوبِ، وبعد ذلك وضع المنهج الوقائيِّ ضدَّ عَوْدَتِها مرَّةً أخرىٰ، وغرس الأخلاق النَّبيلةِ في النَّفس الإنسانيَّةِ عن طريقِ المُجاهداتِ والذِّكرِ ومُدارسةِ سير الصَّالحين وأخبارِهم.

والشَّيخُ الصوفيُّ الحقُّ هو العالمُ الرَّبانيُّ السَّالكُ لطريق الله عارفٌ بشريعةِ الله جملةً وتفصيلًا، منضبطٌ بحدودِها عالمٌ بأسرارِ وخبايا النُّفوس البشريَّة وأحوال القلوبِ وطباع الأنفسِ، فهذا الشيخُ هو المؤهَّلُ دون غيرِه بالقيامِ بدورِ المربِّي الذي يأخذُ بيدِ المريدِ إلىٰ الله، ويقومُ بعلاجِ أمراضِ قلبِه ونَفسِه، والمربِّي المرشدُ هنا هو قائمٌ مقامَ النبيِّ ﷺ في الإرشادِ والوعظ والتَّربيةِ كما كان يفعلُ رسولُ الله ﷺ فلا يوجدُ تربيةٌ بغير مُربٍّ، والمربِّي في المنهجِ التَّربويِّ الصُّوفيِّ هو الشَّيخُ العالِمُ الربَّانيُّ المتحقِّق بالشَّريعةِ وفي الخطواتِ التي تتمُّ بها عملية التَّربية أو السُّلوك إلىٰ الله، يتمُّ علىٰ سبيل المثال لقاءٌ أسبوعيٌّ في المسجد أو غيره يُتدارسُ فيه كتابُ الله، وموعظة صوفيَّة، وعلوم أهل الطريق وما تحويه من الأخلاق والتَّزكية، مع الوعظِ والإرشادِ والتزامِ المريد بالذِّكر والقُرباتِ والطَّاعاتِ، وهكذا علىٰ هذا المنوالِ، فتحدثُ الصَّحوةُ الرُّوحيَّةُ في القلوبِ والتَّزكيةُ للأنفسِ، وتستمرُّ في الازديادِ بفضلِ وجود المرشِدِ والمداومة علىٰ حضورِ مجالسِ الذِّكر والوعظِ فتزول شيئًا فشيئًا الأخلاقُ المذمومةُ وتحلُّ بدلًا منها الأخلاقُ الحميدةُ، ويتجلَّىٰ القلبُ وتسمُو النَّفسُ، وكلُّ ذلك يرجعُ بفضلِ الله إلىٰ المداومَةِ علىٰ حضور مجالسِ الشيوخِ المربِّينَ.

=

سننه (729) من طريق الزبير بن خُرَيق عن عطاءٍ عن جابر بنحوِه مرفوعًا.

خاتمة في بيان حاجة المسلمِ إلىٰ المنهج التربوي الصوفي

إنَّ المُسلمَ بعد أن يتعرَّفَ علىٰ حقيقةِ التَّصوفِ، وأنَّه هُو رُوحُ الإسلامِ وجوهرُه، ويتعرَّفَ علىٰ تراجم وسِيرِ أهلِ التَّصوفِ وسلوكِهم يجدُ نفسَه مُنجذبًا إلىٰ سلوكِ هذا الطَّريقِ الذي يُلبِّي كافَّةَ احتياجاتِه النَّفسيَّةِ والرُّوحيَّةِ والقلبيَّةِ، فهو أصلُ التَّربيةِ الرُّوحيَّةِ، فيعيدُ للإنسانِ المُسلمِ تَشكيلَ شخصيتِه علىٰ أساسٍ ربانيٍّ إنسانيٍّ وأخلاقيٍّ، فتنسجمُ النَّفسُ البشريةُ مع الكونِ حولها، ويصحُّ القلبُ ويصبحُ موصولًا بربِّ العالمينَ. وآثارُ ذلك كلِّه تنتجُ من المُجاهداتِ الصُّوفيَّةِ من الذِّكرِ والفِكرِ والعِباداتِ وحسنِ الخُلُق وتتبع سُنَّةِ رسول الله ومحبَّتِه ومحبَّةِ عبادِ الله الصَّالحينَ، فيجدُ المرءُ قلبَه وقد لانَ، وتَشِيعُ في نفسه السَّكينةُ والهدوءُ، ويصبحُ هادئَ الطِّباع مع النَّاسِ ليِّنًا معهم نافِعًا لهم بقدرِ استطاعتِه، وتحلُّ بقلبِه أنوارُ ذِكْر الله، فتحدثُ له الطُّمأنينةُ التي هي جَنَّةُ القلوبِ ونعيمُها، ثم ينعكسُ ذلك كلُّه علىٰ علاقتِه بمَنْ حولَه ومُجتمعِه، فلا يكونُ في مكانٍ أو زمانٍ إلا وهُو مصدرٌ للخيرِ والعطاءِ والبهجة وبابٌ لدعوةِ الخَلْق إلىٰ ربِّهم من خلالِ العملِ قبل القولِ، والحالِ قبل المقالِ. فلنطبِّقِ التَّصوفَ في حياتِنا، ونلتزمْ بفرائضِ ربِّنا، ونذكرِ اللهَ علىٰ الدَّوامِ، ونُعوِّدْ قلوبَنا أن تكونَ موصولةً بخالقِها، ونتَّسم بالرِّفق في أمورنا كلِّها صغيرِها وكبيرِها؛ لنحقِّق بذلك قولَ رسول الله ﷺ: ((إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شَيءٍ إلَّا زَانَه، ولا يُنزع مِن شَيءٍ إلَّا شَانَه))(1).

فالتَّصوف حبلُ النَّجاة في هذا العصر الذي تتلقفُ فيه الأهواءُ من اليمينِ والشِّمال قلوبَ وعقولَ النَّاسِ علىٰ اختلافِ أفكارِهم وطبقاتِهم، فالعودةُ لأسلوب الشَّيخ والتِّلميذِ في التَّربية أو الشَّيخ والمريد من أنفع الأساليبِ لهداية الخَلْق والحفاظ عليهم من أي تفكيرٍ منحرفٍ أو انحرافٍ في السُّلوكِ والأفعال. فينبغي المداومةُ علىٰ لقاء التِّلميذ

(1) أخرجه مسلمٌ في كتاب البرِّ والصِّلة والآداب، باب فضل الرِّفق (2594) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

بشيخِه، لقاء رُوحاني صوفيٍّ يصل القلبَ بالله ويرتبطُ الإنسانُ فيه بشيخِه، فتنشأُ بينهم الرَّابطةُ الرُّوحيَّةُ التي يستمدُّ منها المريدُ الطَّاقةَ لتضعَه على المنهجِ الرَّبانيِّ الصحيحِ، مع محافظةِ الصُّوفيِّ على الذِّكرِ والتَّعبُّد والأوراد، فلا يُتصوَّرُ بعد ذلك أن شخصًا كهذا تتسلَّل له أيُّ فكرةٍ أو منهجٍ خبيثٍ سواءٌ على المستوى الشخصيِّ أو مستوى المجتمعِ.

فشمِّرْ أخي الكريم عن ساعِدَيْك واتَّجه إلى ربِّكَ ومولاك، واتَّخذِ التَّصوفَ طريقًا إليه، وستجدُ حياتَك تغيَّرتْ إلى ما تحبُّه وترضاه، وقبل ذلك إلى ما يحبُّه الله ويرضاهُ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆

الرسالة السابعة

علاقة الشيخ والمريد في المفهوم الصُّوفي الشرعي

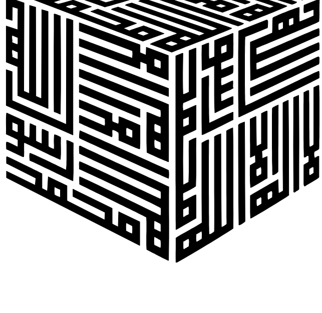
وتشمل المحاور التَّالية:

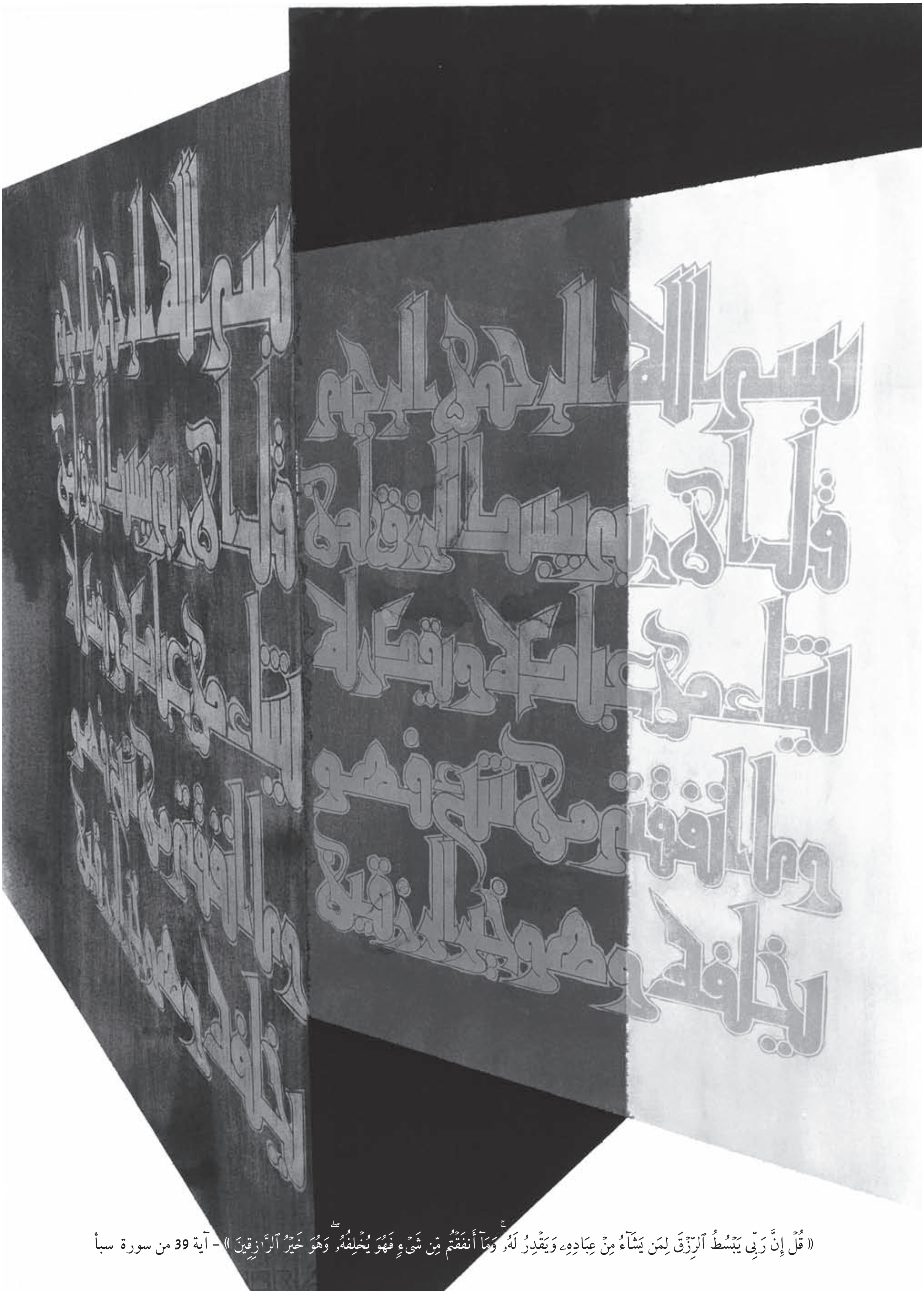
المحور الأول: أهمية وصفات الشَّيخِ المرَبِّي عند الصُّوفيَّة.

المحور الثاني: المريد في الطَّريق الصُّوفي.

المحور الثالث: صُحبة المريد للشَّيخ.

المحور الرابع: آداب المُريد مع الشَّيخ وإخوانِه في الطَّريق الصوفي. ◆





« قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ » – آية **39** من سورة سبأ

علاقة الشيخ والمريد في المفهوم الصُّوفي الشرعي

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فإنَّ التَّصوُّفَ هو أعمقُ التَّجاربِ والمناهج الرُّوحيَّة على مرِّ الزَّمان في الطَّريق إلى اللهِ، وهو رُوح الإسلام وجوهرُه على الحقيقةِ، وهو دَرب السَّالِكين إلى ربِّهم، وهو اسمٌ جامعٌ لمعاني ومَقاماتِ التَّوحيدِ القلبيَّة والعمليَّةِ من الحبِّ والزُّهدِ والتَّوكُّل واليقينِ بالله والصَّوم والصَّلاةِ والعباداتِ والمجاهَدات، وهو عِلْم الأدَبِ مع اللهِ، وهو نَفحةٌ ربَّانيَّةٌ لا يَشقىَ الذي تُصيبُه.

وسوفَ يكونُ الكلامُ في هذِه الرِّسالةِ الموجَزةِ عن ركنٍ ركينٍ مِن أركانِ مَنهجِ وطريقِ التَّصوُّفِ ألَا وهو «الشَّيخ المربِّي» وما يتعلَّق به من الأحوال والأفعالِ والتَّكوينِ والشُّروطِ والمنزلة في علوم الطَّريقِ إلى اللهِ وعلاقتِه بالمُريدينَ.

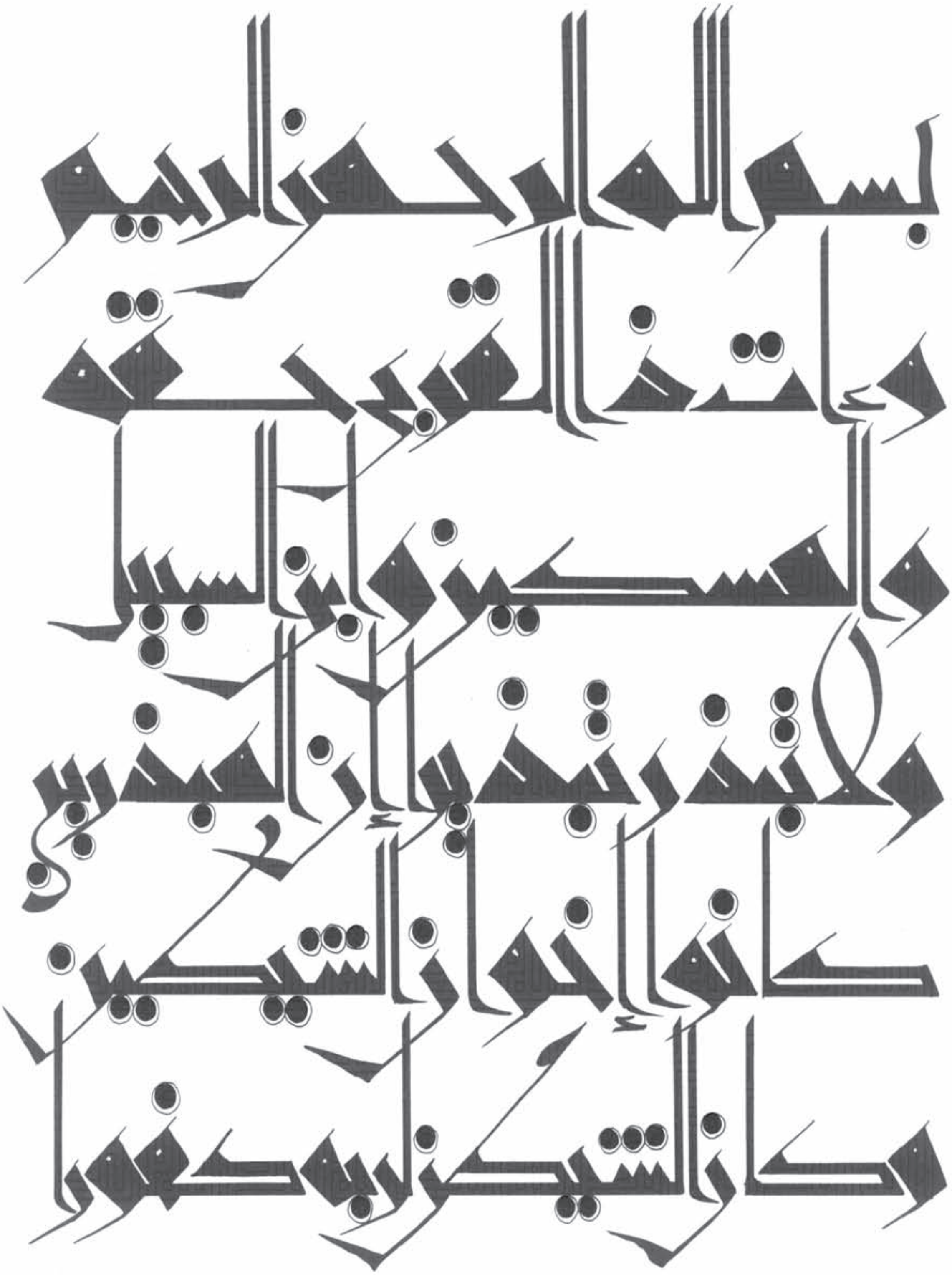
والمَرجو مِن سَطْر هذِه الرِّسالةِ هو التَّعريفُ بصفات أهلِ الصِّدقِ والإخلاصِ من أئمَّة الطَّريقِ أهلِ الرَّحماتِ والفُيوضاتِ الرَّبَّانيةِ والعطَايا الإلهيَّة التي بهم تُستفتحُ أبوابُ السَّماء، بركةِ الزَّمان والمكان، الذين بهم يَحفظُ اللهُ البلادَ والعبادَ، راجينَ منَ الله أن يكونَ الكلامُ عن شيوخِ أهلِ التَّصوُّفِ والسُّلوك بابَ هدايةٍ وخَيرٍ لكلِّ مسلمٍ إنْ شاءَ اللهُ. وسوفَ يكون الحديثُ في هذِه الرِّسالةِ مُشتَمِلًا على المحاور التَّالية:

المحور الأول: أهمية وصفات الشَّيخِ المرَبِّي عند الصُّوفيَّة.

المحور الثاني: المريد في الطَّريق الصُّوفي.

المحور الثالث: صُحبة المريد للشَّيخ.

المحور الرابع: آداب المُريد مع الشَّيخ وإخوانِه في الطَّريق الصوفي. ◆



« وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا »

آية 26–27 من سورة الإسراء

أهمية وصفات الشَّيخِ المربِّي عند الصُّوفيَّةِ

إنَّ ممَّا ميَّز منهجَ التَّصوُّفِ كطريقٍ ووسيلةٍ للقُرب من الله هو وجودُ الشَّيخ المرشد المربِّي كركنٍ أساسٍ في المنهج، وتظهرُ الحاجةُ إلىٰ الشَّيخ العالمِ العارف ببواطنِ وخبَايَا النَّفسِ البشريَّةِ وأمراضِها وطرُق علاجِها كما تظهرُ الحاجةُ إلىٰ العلماءِ الذين يَشرحُون العلومَ الشرعية علىٰ اختلافها؛ فهَبْ أن هذِه العلومَ لم يكن لها مَن يقومُ بتدريسِها للطلَّابِ فكيف سَيكون حالُ طالب العلم حينئذٍ؟ ستبقىٰ العلوم بالنسبة لطالب العلم مجرَّدَ سطورٍ جامدةٍ في الكتُبِ، وكذلك التجارب والمعارفُ والعلومُ الصُّوفيَّة لابُدَّ لها منَ الشَّيخ الذي يعرِض هذه المعارفَ والحقائق ويطبِّقها ويُرشدُ المريدين إليها، فمثلا قد يقعُ في يدك كتابٌ من كُتب الفقهِ، فهل يصح أن تعتقد في نفسك بمجرد قراءة الكتاب واستفادتك منه نوعَ إفادةٍ- أنَّكَ ستُصبح طالبَ علمٍ أو عالمًا فقيهًا؟

الجواب: لا قطعًا، فكذلك علوم التَّصوُّفِ التي تعنىٰ بتزكيةِ النُّفوس وتطهير القلوبِ لابدَّ لها من عالمٍ عارفٍ يُدخلُها إلىٰ القلوبِ بعد تجريد القلوب وتطهيرها من الأغيار والعلائق الدنيوية، ويمثِّل الشيخ هنا الدَّليلَ الهادي إلىٰ طُرُق السَّير والسُّلوكِ إلىٰ الله وإلىٰ كيفيَّةِ إصلاحِ القُلوبِ ومعالجةِ أمرَاضِها، والشَّيخ في هذا يَقومُ بين النَّاس كمقَامِ رسولِ اللهِ ﷺ في الوعظِ والإرشادِ والتَّربيةِ الرُّوحيَّةِ، وتفقُّدِ أحوالِ المريدِينَ والدلالةِ علىٰ طريقِ اللهِ، ومن ثم فقد أطلق علىٰ الشيخ عند أهل التحقيق اسم الوارث المحمدي.

صفَاتُ الشَّيخِ المربِّي:

إنَّ المتصدِّرَ للعلومِ الشَّرعيَّةِ المتنوِّعةِ لا يَستحِقُّ لَقبَ عالِمٍ إلَّا إذا توفَّرت فيه شروطُ الدِّراسة العميقة لعلوم الشريعة المطهرة الغراء، وأَخَذَ العِلم علىٰ يد العُلماء بالأسانيدِ المتَّصلةِ، وتَدرَّجَ في العُلوم خطوةً بعد أخرىٰ وهكذا إلىٰ أن حصَّل أدواتِ العِلم، وصار عالمًا بنصوص الكتابِ والسُّنَّة، مطَّلعًا علىٰ الإجماعِ واختلاف أهل العِلم، عارفًا بلسان العربِ، مطَّلعًا علىٰ الواقعِ والمجتمعِ الذي يعيشُ فيه غيرَ منفصلٍ عنه حتىٰ يستطيعَ

التَّواصل بعِلْمه مع احتياجاتِ النَّاسِ ومشكِلاتِهم وقضايَاهم. وكما أنَّ للعالِم الشَّرعي شروطًا، فكذلكَ للشَّيخ في المنهجِ الصُّوفيِّ المتصدِّر للتَّربيةِ والإرشادِ وعِلاج أمراضِ القلوبِ وعيوبِ النُّفوس والمساعدةِ علىٰ ترقِّي المريدِينَ في طريقِ الله- له شروطٌ وخصائصُ لابُدَّ مِن توفُّرها فيه، ومِن تلك الشُّروطِ والخصائصِ:

1- أن يكون متحقِّقًا بعقيدةِ أهل السُّنَّةِ والجماعة علمًا ودرايةً وعملًا.

2- أن يكون مِن أهل العِلم بالشَّريعة بالقَدْر الكافي؛ لأنَّ عِلْمَ الحقيقةِ والسُّلوكِ محدودٌ ومنضَبطٌ بأركانِ الشَّريعةِ وفروعِها، فالتَّصوُّف بيتٌ والشَّريعة بابُه.

3- أن يكونَ ممَّن تربَّىٰ علىٰ أيدي الشُّيوخِ المرشدِين المتَّصِل سَندُهم بمشايخِ أهلِ الطَّريق إلىٰ اللهِ تعالىٰ، ولا يَتصدَّر من تِلقاء نفسِه، بل لابدَّ له من أخذِ الإذنِ في التَّربيةِ والإرشادِ من شيخِه.

4- أن يكون له من العِلمِ باللهِ سبحانه وتعالىٰ وأسمائِه وصفاتِه ونعوتِ جلالِه ما يؤهلُه لإرشادِ النَّاس إلىٰ اللهِ سبحانه وتعَالىٰ، ويظهرُ ذلك مِن كلامِه وعِظَاتِه.

5- أن يكون خبيرًا بطرُقِ تزكيةِ النُّفوس ووسائلِ تربيتِها، قد تأدَّبَ هو بآدابِ الطَّريقِ والسُّلوكِ علىٰ يدِ شيخٍ مُرَبٍّ، وعَلِمَ طُرقَ السُّلوكِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، وطُرُقَ التَّعامُل مع المرِيدينَ وكشْفَ أحوالِهم، وطُرُق معالجةِ أمراضِهم القلبيَّةِ بمَا يُلائِم حالةَ كلِّ شخصٍ وأوضاعَه، ويَظهر عِلْمُه وتخصُّصه في الإرشاد بالشَّهادة له من أهل هذا الشَّأن، فهو كالطَّبيبِ الذي يُداوي الأبدانَ، فمَن قرأَ كتابًا في الطِّبِّ وعلِمَ شيئًا عن وظائفِ الجسمِ البشريِّ لا يحقُّ له أن يَتصدَّىٰ له ويدَّعي القُدرةَ علىٰ الكشفِ عن الأمراضِ وعلاجِها، فكذلك مُرشدُ التَّربيةِ بل إنَّ المرشدَ عملُه أعظمُ وأخطرُ مِن عملِ الطَّبيب؛ لأنَّه يُداوِي الأرواحَ ويهذِّبُ النُّفوسَ.

6- أن يكونَ في حالِه ومقالِه وأفعالِه مُقتَديًا برسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ، متَّصِفًا بصِفاتِه وأخلاقِه؛ لأنَّه يقومُ في الأُمةِ مقامًا يُشبِه مقامَ رسولِ اللهِ ﷺ فهو الذي يدل الخَلقَ علىٰ

اللهِ ويعظُهم ويرشِدُهم إلىٰ الطَّريقِ المستقِيم، يأمرُ بالمعروفِ وينهىٰ عنِ المُنكر، يضَع الحزمَ في مَوضعِه واللينَ في مَوضعِه، وهو في ذلك كلِّه متواضعٌ ليِّنُ الجانبِ يبذُلُ النَّفسَ والوقتَ والمالَ للنَّاس، ليسَ مِن أهلِ البطَالة والطَّمعِ زاهدٌ في الدُّنيا يَدلُّ النَّاسَ علىٰ اللهِ لا علىٰ نفسه، صاحب همَّةٍ عاليةٍ يَبثُّ النَّفحاتِ الإيمانيةَ في قلوبِ السَّالكين.

هذِه هي بعضُ الشُّروطِ التي يجبُ أن تتوفَّر لَمَن يَتصدَّىٰ لمقامِ الإرشادِ والتَّربيةِ، فَمَن عُدِمَت فيه هذه الصِّفاتُ عليه أنْ يلتحقَ بشيخٍ يتربَّىٰ علىٰ يديه ويُزكِّي نفسَه في رحابه أوَّلًا؛ لأنَّ أمرَ التَّصوُّفِ شديدُ الخطرِ فإنَّه عِلْمٌ باللهِ وعنِ اللهِ، وإرشادُ النَّاس إلىٰ الله تعالىٰ وتعريفُهم به هو أعلىٰ المقاماتِ في دِين الإسلامِ، فلا يصلح لذلك المقام أدعياءُ المشيخة والولايةِ ممَّن يأكلون الدُّنيا باسم التَّصوُّف. والكلام السَّابقُ لا يلزم منه عِصمةُ الشَّيخ؛ لأنَّ العِصمةَ لا تكونُ لغيرِ الأنبياءِ عليهم صلَوات الله وسلامُه، أمَّا شيوخُ الطَّريقِ فهُم محفوظونَ وليسُوا بمعصُومينَ، فقَد يَجري عليهم ما يجري علىٰ غيرِهم من البشرِ ولكنَّ الفرقَ هو أنَّهم يُسارِعون بالتَّوبةِ، فالعِصمة للأنبياءِ والحفظُ للأولياءِ.

وسنَذكر طرفًا من حديثِ ساداتِنا الصُّوفيَّة عن الشَّيخ المرَبِّي وصفاتِه:

يقولُ سيدِي الشَّيخ أحمدُ عز الدِّين الصَّياد قدَّس اللهُ سرَّه وهو يَتحدَّث عن المرشدِ المربِّي في الطَّريقةِ الرِّفاعيَّة: اعلَم أنَّ مَن تصَدَّر للمشيَخةِ في هذه الطَّريقةِ العليَّةِ الرِّفاعيَّة فقد جلَس علىٰ بساطِ النِّيابة عن شيخِ الأُمَّة سيِّدنا أحمدَ الرِّفاعي ﵁، فيجبُ أن يكون عالمًا بما أمرَه اللهُ ونهَاه عنه، فقِيهًا في الأمورِ التَّعبُّديَّة، حَسَنَ الأخلاق، طاهرَ العقيدةِ، عارفًا بأحكامِ الطَّريقةِ، سَالكًا مَسلكًا كامِلًا، شيخًا زاهدًا متواضِعًا، حَمولًا للأثقال، صاحبَ وَجْدٍ وحالٍ وصِدْقِ مقالٍ، ذا فراسةٍ وطلاقةِ لسانٍ في تعريفِ أحكامِ الطَّريقةِ، مُتبرِّئًا من عوائقِ الشَّطحِ، طارحًا رِبقةَ الدَّعوىٰ والغلوِّ، محِبًّا لشيخِه، حافِظًا شأنَ حُرمتِه في حياتِه وبعد مماته، يدُور معَ الحقِّ أينَما دَارَ، مُنصِفًا في أقوالِه وأفعالِه،

متَّكِلًا علىٰ اللهِ في جميع أحوالِه[1]. فالشَّيخُ هو المرشِدُ الرُّوحي الذي سلَك طريقَ الحقِّ وعرَف المَخاوفَ والمهالِكَ والحدودَ، فتولَّىٰ تربيةَ المُريدِينَ والإشارةَ إليهم بِمُستلزَماتِ السُّلوكِ ومقتَضيَاتِ الوصولِ إلىٰ قُربِ الخالقِ عزَّ وجلَّ، ولابدَّ أن يكونَ الشَّيخُ قد أخَذَ الطَّريقَ عن شيخٍ سَابقٍ، بحيث تُسَلسلُ متابعتُه إلىٰ رسولِ الله ﷺ، ويكونُ قد ذَاقَ حقائقَ الطَّريقِ، وتخلَّقَ بأخلاقِ النَّبيِّ ﷺ. والشَّيخ المرشِدُ عند الصُّوفية هو الإنسان الكاملُ في علوم الشَّريعةِ والطَّريقةِ والحقيقةِ، البالغُ حدَّ التكميلِ فيهَا؛ لعلمِه بآفاتِ النُّفوسِ وأمراضِها وأدوائِها، ومعرفتِه بدوائِها، وقدرتهِ علىٰ شِفائِها والقِيام بهُداها[2].

يقول الشَّيخُ عبدالقادر الجيلاني: لا يجوز لشيخٍ أن يجلسَ علىٰ سجادة النِّهاية ويتقلَّدَ بسَيفِ العِنايةِ حتَّىٰ تكمُلَ فيه اثنتا عشْرَةَ خصلةً: خصلتَان من الله يكون ستَّارًا غفَّارًا، وخصلتَان من النَّبي ﷺ يكون شفيقًا رفيقًا، وخصلتَان من أبي بكرٍ يكون صادِقًا مُتصدِّقًا، وخصلتان من عمرَ يكون أمَّارًا نهَّاءً، وخصلتَان من عثمانَ يكون طعَّامًا للطَّعام ومصلِّيًا والنَّاس نيامٌ، وخصلتَان من عليٍّ يكون عالمًا شجاعًا[3]. فهذه الصِّفاتُ والخصائصُ التي تكلَّم عنها أهلُ السُّلوكِ والتَّصوُّف هي مدارُ معرفةِ الشَّيخِ الصَّادقِ المربِّي العارفِ غيرِ المدَّعي، فهو الوارِثُ المحمَّديُّ الكاملُ الذي يستحِقُّ التَّصدُّرَ للتَّربيةِ و إرشادِ المريدِين إلىٰ طرُق السُّلوك إلىٰ الله، وربَّما يتعثَّر تحصِيلُ هذا الوارثِ المحمَّديِّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ فلينَظُر المرءُ إلىٰ أكمل الشُّيوخِ وأصلَحِهم حالًا وأقربِهم مسلكًا ممَّن توفَّرَت فيه أكثرُ الصِّفاتِ والعلاماتِ المطلوبةِ في الشَّيخ المربِّي.

---

(1) الموسوعة اليوسفيَّة في بيان أدلة الصُّوفية (ص387) للشيخ يوسف محمد خطَّار- الطَّبعة الثَّانية- مطبعة نصر- دمشق1999م.

(2) موسوعة كشَّاف اصطِلاحات الفنون والعلوم (1/1050) للشيخ التهانوي- مكتبة لبنان ناشرون- بيروت الطبعة الأولىٰ- 1996م.

(3) قلائدُ الجواهر في مناقب الشَّيخ عبدالقادر (ص13) للشيخ محمد بن يحيىٰ التاذفي الحلبي- طبعة قديمة ملتزم الطبع والنشر عبدالحميد أحمد حنفي بشارع المشهد الحسيني.

أهميَّة وجودِ الشَّيخِ المربِّي في الطَّريقِ والسُّلوكِ:

مِن المُشاهدِ المَحسوسِ في العالَم أنَّ السَّيرَ في أيِّ طريقٍ أو مكانٍ يَتطلَّبُ معرفةً بهذا الطَّريقِ أو المكانِ، وبدون هذِه المعرفةِ لا تحدُثُ النَّتيجةُ المرجوَّةُ من السَّير بل قَد يحدُث التِّيهُ. فالشَّيخ في التَّصوُّف هو الهادي والدَّليل، وهو بمثابةِ الأستاذِ للْمُريد، فالطَّالب لا يستطيع أن يتقدَّمَ في تحصيله العلميِّ بدون موجِّهٍ ومرشدٍ يرسم له طريقَ ذلك وخطواته، والسَّالك في منهج التَّصوُّف لا يستطيع أن يسلكَ هذا الطَّريق بمفرده؛ لأنَّه طريقٌ صعبٌ متشعِّبُ المسالكِ، قد تختَلِط فيه المعالِمُ بدون المُرشدِ الهادِي، ففي هذا الطَّريقِ يتربَّصُ بالسَّالك أعداءٌ في حاجةٍ إلىٰ معرفتِهم وجهادِهم ومِن هؤلاءِ الأعداء الشَّيطانُ والنَّفس والهوَىٰ ومتاعُ الدنيا وزخرفُها وما يعرِض مِن عوارضِ الحياةِ؛ لذلك فوجودُ الشَّيخ ضروريٌّ لكلِّ سالكٍ في طريقِ التَّصوُّفِ والسُّلوكِ، فالشَّيخ هو الذي يَرسِمُ الطريقَ أمام المريدِ ويُحدِّد له ملَامحَه ومعالِمَه والأسبابَ الموصِّلة إلىٰ الله سبحانه وتعَالىٰ، والشَّيخ هنا يَقومُ مقامَ رسول الله ﷺ في الهدايةِ والإرشادِ، فيضع لكلِّ سالكٍ ما يُناسبُه مِن برنَامج لتزكيةِ القلوبِ والنُّفوسِ، ويأمُرُه بما يَصلُح له مِن المجاهداتِ والعِباداتِ والقُرَبِ والخَلَواتِ.

وقد يَقول قائلٌ: ألَا أستطيع أن أتعَبَّد لربِّي وأُزكِّي نفسي بدون شيخٍ؟ فيُقال لَه: نعَم تستَطيع أن تَتعبَّد الله سبحانَه وتعالىٰ وتقتَربَ منه بالفرُوضِ والنَّوافلِ والقُرباتِ وأن تزكِّي نفسَك بالالتزامِ بآدابِ الكِتاب والسُّنَّةِ دون شَيخٍ، ولكِنَّنا عندما نتحدَّث عن وجوبِ اتِّخاذِ الشَّيخ المرَبِّي فإنَّما نَعني بذلك مَن أرادَ سلوكَ الطَّريقِ للوصولِ إلىٰ اللهِ وإلىٰ مراتبِ ومقاماتِ المعرفةِ والمحبَّة والتَّوحيدِ والاصطِفاءِ والولايةِ، فَمَن أرادَ سلوكَ طريقِ أهلِ الإرادةِ والمحبَّةِ لابدَّ له مِن شيخٍ مُرشدٍ يدلُّه ويأخذُ بيدِه، ثمَّ إنَّ اتِّخاذَ الشَّيخِ هو دُخولٌ في دائرةِ العِصمةِ منَ الخطأ في السَّيرِ والسُّلوكِ واشتِباهِ الأمورِ علىٰ السَّالكِ. قال سيِّدي الشَّيخ عبدُالقادر عيسىٰ قدَّس اللهُ سرَّه في كتابه النَّفيس حقائق عن

التَّصوُّف: الطَّريقُ العمليُّ الموصلُ لتَزكيةِ النَّفسِ والتَّحلِّي بالكَمَالاتِ الخُلُقيَّةِ هو صُحبَة الوارثِ المحمَّدي والمرشِدِ الصَّادقِ الذي تزدَاد بصُحبتِه إيمانًا وتقوىٰ وأخلاقًا، وتشفَىٰ بملازمتِه وحضورِ مجالسِه مِن أمراضِك القلبيَّةِ وعيوبِك النَّفسيَّةِ وتَتأثَّر شخصيَّتُك بشخصيَّتِه[1]. فالتَّخلُّص من عبوديَّةِ النَّفسِ والسَّعي في إخضاعِها يتطلَّب وجودَ شيخٍ عارفٍ باللهِ دالٍّ عليه، والذي باعتنَائه واهتمامِه بالمريدِ يتمَكَّن السَّالكُ منَ التَّخلُّصِ مِن قيودِ النَّفسِ والهوَىٰ والتَّعلُّقِ بما سِوىٰ الله سبحانَه وتعالىٰ، فالسَّيرُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ تحتَ إشرافِ الشَّيخِ المربِّي يُساعدُ علىٰ طيِّ المسافاتِ المعنويَّةِ في النُّفوسِ والقلوبِ، واختصارِ الأوقاتِ، وتجنُّبِ مزَالقِ النَّفسِ التي تُهدِّد طريقَ السُّلوكِ، والشَّيخ يُرشِد إلىٰ توقِّي حدوثِ المعوِّقاتِ والقواطِع عنِ اللهِ، وهذا مُشاهدٌ محسوسٌ في كلِّ أمورِ الحياةِ العِلميَّة والعمليَّةِ أنَّه لابُدَّ لكلِّ سلوكٍ وفعلٍ من مُعلِّمٍ هادٍ وإلَّا ستكونُ الأضرارُ النَّاتجةُ عن السُّلوكيَّاتِ والأفعالِ أكثرَ بكثيرٍ منَ المنافعِ. فأهلُ التَّصوُّف حينَما يُشَدِّدون علىٰ ضرورةِ اتِّخاذِ الشَّيخ إنَّما يَنطلِقون من صَحيحِ الشَّريعةِ وصحيحِ الطَّبيعةِ وصحيحِ التَّجربةِ وصحيحِ الممارسةِ والواقعِ. وقَد ورَدَ في كتابِ الله مَا يؤيِّد هذا ويرشدُ إليه قال اللهُ تعالىٰ ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾ [النَّحل: 43] ويقولُ سبحانَه ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59] فلابدَّ من وجودِ القُدوةِ الحسنةِ والعالِم الخبيرِ. والواقعُ المحسُوسُ والتَّجربةُ الحاصِلةُ تشهَد بأهميَّة وجودِ الشَّيخِ، وقد أجمَع الشُّيوخ العارِفون العاملون مِن أهل المعرفةِ والسُّلوكِ ممَّن لهم قدَمُ صِدقٍ في طريقِ أهلِ الله علىٰ أهميَّةِ الشَّيخِ في السُّلوكِ إلىٰ اللهِ، وتواتَرت عنهم الأقوالُ والوصايَا التي تحضُّ علىٰ ذلك وتوضِّح أهميَّتَه.

قال الإمامُ القُشيري في رسالتِه: مَن لم يكن له شَيخٌ لا يُفلِح أبدًا، قالَ أبو علي الدَّقاق: فالشَّجرة إذا نبَتَت من غير غارس تُورق ولكن لا تُثمِر[2].

---

(1) حقائق عن التَّصوُّف (ص54) للعلَّامة الشَّيخ عبدالقادر عيسىٰ.

(2) انظر: الرسالة القشيرية (2/573، 574).

قال الإمامُ الغزاليُّ: يحتاجُ المريدُ إلىٰ شيخٍ وأستاذٍ يقتدِي به لا محالةَ ليهديه إلىٰ سواءِ السَّبيلِ، فإنَّ سبيلَ الدِّين غامِضٌ وسُبُل الشَّيطانِ كثيرةٌ ظاهرةٌ، فمَن لم يكُن له شيخٌ يهدِيه قادَه الشَّيطانُ إلىٰ طُرُقهِ لا محالةَ، فمَن سلَك سُبلَ البوَادي المُهلِكة بغير خفيرٍ فقد خاطَر بنفسِه وأهلَكَها، ويكون المستقِلُّ بنفسِه كالشَّجرةِ التي تَنبُت بنفسِها، فإنَّها تجِفُّ علىٰ القُرب، وإنْ بقيَت مدَّةً وأورَقَت لم تُثمرْ[1].

قال الإمام أبو حامدٍ الغزالي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أراد بعبدٍ خيرًا بصَّرَه بعيوبِ نفسِه، فمَن كانت بصِيرتُه نافذةً لم تَخفَ عليه عيوبُه، فإذا عرَفَ العيوبَ أمكنَه العلاجُ، ولكنَّ أكثرَ الخَلق جاهلون بعيوبِ أنفسِهم، يرىٰ أحدُهم القذَىٰ في عين أخيهِ ولا يَرىٰ الجِذعَ في عينِ نفسِه، فمَن أرادَ أن يعرفَ عيوبَ نفسِه فلَه أربعةُ طرُقٍ:

الأوَّل: أن يجلسَ بين يدَي شيخٍ بصيرٍ بعيوبِ النَّفس، مطَّلِعٍ علىٰ خَفايا الآفاتِ ويحكِّمُه في نفسِه ويتَّبعُ إشاراتِه في مجاهدتِه، وهذا شأنُ المريدِ مع شيخِه والتِّلميذِ مع أستاذِه فيُعرِّفه أستاذُه وشيخُه عيوبَ نفسِه ويُعرِّفه طريقَ علاجِه[2].

وقال أيضًا: كنتُ في مبدأ أمرِي مُنكِرًا لأحوالِ الصَّالِحين ومقاماتِ العارفينَ حتىٰ صَحِبتُ شيخي يوسفَ النَّسَّاجَ، فلم يزَل يصقلُني بالمجاهدةِ حتَّىٰ حظِيتُ بالوارداتِ[3].

وقال في الحديثِ عن فوائدِ الشَّيخ وأهميَّة وجودِه في تربيةِ المريدِ وسلوكِه: أن يكون له مرشدٌ ومربٍّ لِيدُلَّه علىٰ الطَّريقِ ويرفعَ عنهُ الأخلاقَ المذمُومةَ ويضعَ مكانَها الأخلاقَ المحمُودةَ، ومعنَىٰ التَّربية أن يكونَ المربِّي كالمُزارع الذي يربِّي الزَّرعَ، فكلَّما رأىٰ حجرًا أو نبَاتًا مضِرًّا بالزَّرع قلعَه وطرحَه خارجًا، ويسقي الزَّرعَ مرَارًا إلىٰ أن ينموَ ويتربَّىٰ ليكون أحسنَ من غيرِه، وإذا علمتَ أنَّ الزرعَ محتاجٌ للمربِّي علمتَ أنَّه لابدَّ

---

(1) إحياء علوم الدِّين (73/3) لحجة الإسلام الغزالي- مكتبة ومطبعة كرياطة فواترا سمارغ- أندونيسيا.

(2) المصدر السابق (62/3).

(3) شخصيَّات صوفيَّة (ص 154) للشَّيخ طه عبدالباقي- طبعة مصطفىٰ الحلبي بمصر.

للسَّالك مِن مُرشدٍ مربٍّ البتَّة؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ أرسلَ الرُّسلَ عليهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ للخَلْق ليَكونوا دَليلًا لهم وليُرشدُوهم إلىٰ الطَّريقِ المستقِيم، وقبلَ انتِقال المصطفىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام إلىٰ الدَّار الآخرةِ قد جعَل الخلفاءَ الرَّاشدينَ نوَّابًا عنه ليدلُّوا الخلقَ إلىٰ طريقِ اللهِ وهكذا إلىٰ يوم القيامةِ، فالسَّالك لا يستَغني عنِ المرشِد البتَّة، وشرط المرشِد أن يكون عالمًا لكنْ ليس كلُّ عالمٍ له أهليَّةُ صناعةِ الإرشادِ؛ بل لابدَّ أن يكون عالمًا له أهليَّةُ صناعةِ الإرشادِ[1].

إذا كنتَ في قومٍ فصاحِب خيارَهم ... ولا تصْحَبِ الأردَىٰ فتَردَىٰ مع الرَّدِي

عن المرءِ لا تَسأل وسَلْ عَن قرينِه ... فكُلُّ قرينٍ بالمقارِن يقتَدِي

قال الشَّيخ الإمام ابنُ عطاء الله السَّكندري: ويَنبغي لَمن عزَم علىٰ الاسترشادِ وسُلوكِ طريقِ الرَّشاد أن يَبحثَ عن شَيخ مِن أهلِ التَّحقيقِ سالكٍ للطَّريق، تاركٍ لِهواه راسخِ القَدمِ في خدمةِ مَولاه، فإذا وجدَه فليَمتثِل ما أمَر وليَنتهِي عمَّا نهَىٰ عنه وزَجَر[2].

قال الشَّيخ أحمدُ زرُّوق رحمَه اللهُ في قواعدِ التَّصوُّف: أَخْذُ العِلْمِ والعمل عن المشَايخ أتمُّ مِن أَخْذِهِ مِن دونهِم ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: 49] وقالَ تعالىٰ ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: 15] فلزِمَتِ المشيخةُ وخاصَّةً أنَّ الصَّحابةَ أخذُوا عنه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد أخذَ هو عن جبريلَ واتَّبع إشارتَه في أن يكونَ عَبدًا نبيًّا، وأخَذَ التَّابعون عن الصَّحابةِ فكانَ لكلٍّ أتباعٌ يختصُّون بهِ؛ كابن سِيرين وابن المسيِّبِ والأعرجِ لأبي هريرة، وطاوُس ووهب ومجاهِد لابن عبَّاس إلىٰ غيرِ ذلك، فأمَّا العِلْمُ والعملُ فأَخذُه جليٌّ فيما ذكروا كما ذكروا، وأمَّا الإفادةُ بالهمَّةِ

(1) خلاصة التَّصانيف في التَّصوُّف (ص 18) لأبي حامد الغزالي- الطَّبعة الثَّالثة- مطبعة السَّعادة- مصر.

(2) مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح (ص 33) لابن عطاء الله السكَندري- دار الكتب العلميَّة- بيروت- لبنان.

والحالِ فقد أشارَ إليها أنسٌ بقوله: ما نَفضْنا التُّرابَ عن أيدِينا مِن دفنِه عليه الصَّلاة والسَّلام حتَّىٰ أَنكَرنا قلوبَنا[1]، فأبَانَ أنَّ رؤيةَ شَخصِه الكَريمِ كانت نافعةً لهم في قلوبِهم، فَمَن تحقَّقَ بحالةٍ لم يخلُ حاضرُوه منها فلذلك أمَرَ بصُحبةِ الصَّالحِين ونهَىٰ عن صُحبةِ الفَاسقِين[2].

المرِيد في الطَّريقِ الصُّوفي

المريد هو مَن يريدُ سلوكَ التَّصوف كطريقٍ إلىٰ ربِّ العالمين علىٰ يدِ الشَّيخِ العارفِ العالِم المربِّي الصَّادق، فيَصحبُ الشَّيخَ العارفَ بالله ويسلِّم قيادَه إليه؛ لأنَّه عالِم بأمورِ النَّفْس وأمراضِها وعِللها وعلاجِها وتهذيبِها وتطهيرها وارتقائِها إلىٰ بارئها، فيسلِّم المريدُ أمرَه لشَيخِه الوارث المحمدي المستجمع للشروط السالفة الجامعة بين العلم والعمل في إرشادِه وسلوكِه إلىٰ اللهِ، ويمتثِل لأمرِه باطِنًا وظاهِرًا، ويكون متأدِّبًا معه، ويُطلِع شيخَه علىٰ أحوالهِ ويعرِض عليه أمورَه ويكاشفُه بها حتَّىٰ يتسنَّىٰ له مُعالجتُها، ويقدِّم حاجةَ شيخِه علىٰ حاجةِ نفسِه، لا يُزعجُه بكثرةِ السُّؤالِ وطولِ الإقامةِ، ويتخلَّق المريدُ بآدابِ الطريقِ ويَترقَّىٰ في المعارفِ القلبيَّةِ والسُّلوكِ لربِّ العالمين، ويَلتزمُ بالمجَاهداتِ والعباداتِ والأورادِ والأذكار التي يأمرُه بها الشَّيخُ. وسوفَ نضرِب مثلًا يقرِّب للفهم علاقَةَ التَّسليمِ بينَ المريدِ والشَّيخِ، فالمدرِّسُ البارعُ الذي يدرِّس منذ سنواتٍ طويلةٍ مادَّةً واحدةً، ويتوَالىٰ عليه المئاتُ منَ الطَّلبةِ والتَّلاميذِ أصحاب العقولِ المختلفةِ والسُّلوكيَّاتِ

---

(1) جزءٌ من حديث أخرجه التِّرمذي في كتاب المناقِب، باب في فضل النبي ﷺ (3618) وابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ﷺ (1631) وأحمد في مسنده (221/3) وابن أبي شيبة في مصنفه (35900) من طريق جعفر بن سليمان الضبعي قال: حدثنا ثابت عن أنس ﵁ به.

وقال الترمذي: «حديث غريب صحيح».

(2) قواعدُ التَّصوُّف (ص94) للشَّيخ أحمد زرُّوق- تحقيق: محمود بيروتي- دار البيروتي- الطبعة الأولىٰ- دمشق- 2004.

المتنوِّعةِ، فإنَّ هذا الأمرَ سيُكسِبه خِبرةً في المادَّةِ التي يدرِّسُها إضافةً إلىٰ خبرةٍ في التَّعاملِ مع كلِّ عقليَّةٍ وسلوكٍ حتَّىٰ يصيرَ الأمرُ عنده ملكةً، فلو اعترَضَ كلُّ طالبٍ أو لم يسلِّم للمدرِّس فإنَّه هو الخاسرُ؛ لأن الأستاذ هو الخبير المطَّلع في حين الطالبُ لا يملكُ تجربةً ولا معرفةً وبالتَّالي ستَتعثَّر عمليَّةُ التَّعليمِ، وكذلك الأمرُ في التصوُّفِ فالشَّيخُ عليمٌ بأمراض القلبِ والنَّفْس، مارسَ ذلك وتمرَّس فيه، ضابطٌ لأقوالِه وأفعالِه وإرشاده بشريعة الله، فهو مؤيَّد بالنُّور الإلهي.

يقول الإمام القُشيري: الإرادةُ هي بدءُ طريقِ السَّالكين، وهي اسمٌ لأوَّلِ منزلةِ القاصدِين إلىٰ اللهِ تعالىٰ، وإنَّما سُمِّيت هذهِ الصِّفة إرادةً؛ لأنَّ الإرادةَ مُقدَّمةٌ علىٰ كلِّ أمرٍ[1].

وقالَ الشَّيخُ أحمدُ بنُ زَرُّوق في تعريفِه للمريدِ: هو الذي أَخَذَ بالتَّخَلُّقِ والتَّعلُّقِ بالفضائلِ[2].

وفي التَّفريقِ بين المرَادِ والمريدِ يقول إمامُنا القشيريُّ ﵁: فأمَّا الفرقُ بين المريدِ والمرادِ فكلُّ مريدٍ علىٰ الحقيقةِ مُرادٌ؛ إذْ لو لم يكن مُرادُ الله تعالىٰ بأن يُريدَه لم يكن مُريدًا إذْ لَا يكونُ إلَّا ما أرَادَه اللهُ تعالىٰ، وكلُّ مرادٍ مريدٌ؛ لأنَّه إذا أرادَه الحقُّ سبحانَه بالخصُوصيَّةِ وفَّقَه للإرادةِ، ولكنَّ القومَ فرَّقوا بين المُريدِ والمرادِ، فالمريدُ عندهم هو المبتَدِئ والمرادُ هو المنتَهي[3].

ومِن المعلوم المحسوسِ أنَّ كلَّ شخصٍ له إرادةٌ تحركُه لتَحصيلِ مَطلَبٍ مَا أو إدراكِ هدفٍ سواءٌ أكان هذا الهدَف صغيرًا أو كبيرًا، وهذه الإرادةُ هي المحرَكةُ للنُّفوسِ والجوارحِ، والمُريدُ في عرفِ التَّصوُّفِ والطَّريقِ هو مَن يَبذُل نفسَه للتَّعرُّفِ علىٰ اللهِ،

---

(1) الرسالة القشيرية (ص 2/351).

(2) قواعد التَّصوُّف (ص 102).

(3) الرِّسالة القشيرية (ص 2/354).

فتكونُ حركاتُه وسكناتُه نابعةً من إرادةِ الله وطلَبِ معرفتِه وتحقيقِ مقام الإحسانِ عن طريقِ سلوكِ التَّصوُّفِ، ودخل تحتَ تربيةِ الشَّيخ المرشِد المربِّي العالمِ، والمريدُ الطَّالب لمَعرفةِ والسُّلوكِ هو في حقيقتِه مرادٌ؛ أي أنَّ الحقَّ سبحانه وتعَالىٰ دعَاه وقرَّبَه وأذِنَ بتحرُّكِ دواعي المعرفةِ والذكرِ في نفسِه فتوجَّه إلىٰ اللهِ فقَبلَه اللهُ تعالىٰ، فهوَ مِن الموصُوفِين في كتابِ الله بقَوله تعَالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69] فيَدخلُ تحتَ رعايةِ شيخِه ويُسلِّم حالَه له، ويتَّبع ما يأمرُه به من الذكرِ والمجاهدَاتِ والتَّعبُّدِ ابتغاءَ وجهِ الله مع حِفظ مقامِ شيخِه وحقوقِ الأُخوَّةِ في اللهِ، والعملِ علىٰ إفراغِ القلبِ مِن شواغِل الدُّنيا وهمومِها، مع عدَم التَّقصيرِ في الواجباتِ المنُوطةِ به مِن كَسْب رزقٍ ورعايةِ أهلٍ وغيرِ ذلك ممَّا لا بدَّ منه في حياتِه.

ولِلمُريدِ الصَّادق علاماتٌ كما هي لِلمُربِّين والشُّيوخِ، فليس كلُّ منْتَسِبٍ صحيحَ النَّسبِ، فمِن علاماتِ المريدِ الصَّادق:

1- الإخلاصُ في إرادةِ الله سبحانَه وتعالىٰ بالسُّلوكِ في هذا الطَّريقِ.

2- المُحافظةُ علىٰ أوامرِ الشَّريعة وحدودِها ظاهرًا وباطنًا، فإنَّ طريقَ التَّصوُّفِ هو طريقُ الإحسانِ الذي لا يتحقَّق إلَّا بعدَ وجودِ الإسلامِ والإيمانِ وتحقيقِ التَّوحيدِ.

3- أن يكون قدوتُه ومَثَلُه الأعلىٰ رسولَ الله ﷺ، وأنَّ يكون حبُّ رسولِ الله ﷺ في قلبه مُقدَّمًا بعد حُبِّ الله سبحانه علىٰ حبِّ كلِّ أحدٍ.

4- أن يكون مفتقِرًا إلىٰ الله مُتبرِّئًا من الحَول والقوَّةِ طالبًا من الله العونَ والمددَ والهدايةَ.

5- أن يكونَ له منَ النَّوافل والعبَاداتِ والذِّكر نصِيبٌ وورد يوميٌّ لا يغفلُ عنه.

6- أن يكونَ بينَ النَّاس ببدنِه ومعَ الله بقلبِه ورُوحِه.

7- يأنَس بالخَلوة مع ربِّه متقرِّبًا إليهِ بذِكْره وتلاوةِ كتابهِ والتَّفكُّر في عظمتِه وجلالِه.

8- الزُّهدُ في الدُّنيا والقناعةُ بما قُسِم له من نَصِيبٍ راضٍ عن ربِّه.

9- يُراعِي حقوقَ الأُخوَّةِ في اللهِ ويُراعي صالحَ المسلمينَ ويَبذلُ الخيرَ بقدْرِ استطاعتِه.

10- أن يـكون صادِق الوُدِّ والمحبَّة مع الشَّيخ المربِّي، يرَىٰ فضلَ شيخِه ومَنزلتَه، وأنَّه هو مَن فَتحَ له بابَ الخيرِ والسُّلوكِ بفضلِ اللهِ تعالىٰ.

11- أن يـكون يومُه خيرًا مِن أمسِه وغدُه خيرًا من يومِه في القُرب مِن اللهِ والتَّودُّدِ إليهِ.

12- أن يَلزَم الأخلاقَ الحسَنةَ والسَّكِينةَ والوقارَ مِن غير تعَالٍ علىٰ النَّاس بعِلْمٍ أو بحالٍ.

13- أن يـكونَ مُلتزمًا بآدابِ أهلِ التَّصوُّفِ وحبِّ أولياءِ اللهِ الصَّالحينَ والعِبادِ الرَّبَّانيين والتَّقرُّبِ إلىٰ الله بمَودَّتِـهم.

فهذه بعض العلاماتِ التي يَجبُ أن يـكونَ السَّالكُ في طريقِ اللهِ متَّصِفًا بِـها، وإلَّا فهو دَعيٌّ يجبُ عليه التَّوبةُ أوَّلًا، ثمَّ العملُ علىٰ إخلاصِ نفسِه للهِ؛ ليـكونَ أهلًا للسَّيرِ في طريقِه.

صُحبة المريد للشَّيخ

إنَّ صُحبةَ المريدِ للشَّيخِ هي صُحبة التَّعليم والتلقِّي، وهذه الصُّحبةُ هي سُنَّةٌ طبيعيَّةٌ مِن سُنن الله سبحانَه وتعَالىٰ في هذا الـكونِ والتي لا يَتخلَّف أحدٌ عنها، فالطِّفل الصَّغيرُ يتعلَّم ويسترشِد بفعلِ أُمِّه في تعليمِه المشيَ والكلامَ، وكذا الحيوانُ الصَّغير مع أُمِّه، فبدُون التَّعليـمِ والإرشادِ يَـهلكُ الصِّغار فكَذلك الصُّحبةُ في طريقِ الله بينَ المُريدِ والشَّيخِ هي تلَاقٍ علىٰ طريقِ السُّلوكِ إلىٰ اللهِ، وهي أخوَّةٌ ومحبَّةٌ وتعلُّمٌ وإرشادٌ وتزكيةٌ وتربيةٌ، والمثالُ فيها والقدوةُ والأُسوةُ هو رسولُنا الكريمُ ﷺ وحالُه مع صحابتِه الكِرامِ رضوانُ الله عليهم وتربيتُه لَهم وأخذُهم عَنه. فما نالَ الصَّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم المَنازلَ والدَّرجاتِ إلَّا بصُحبةِ رسولِ الله ﷺ، فبعدَ أن كانوا في ظُلماتِ الشِّركِ والـكُفرِ وفي أَدنىٰ درَجاتِ الصِّفاتِ البَشريَّة إذْ بهم بعدَ اجتِماعهم علىٰ الرَّسولِ الكريم الخاتم سيدنا محَمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُه عليه تَتغيَّر نفوسُهم وصفاتُـهم وقلوبُـهم بل وأقدارُهم، فكانَ منهم العلماءُ والفاتِحون والأمراءُ وأصحابُ الدَّولةِ والمنزلةِ، وذلك نتِيجةً لاتِّصالِهم بالنُّور المحمَّديِّ.

والنُّور المحمَّدي والعِلم الأحمَدي لا ينقَطع عن هذه الحياةِ الدُّنيا، يحمِلُه أهل العِلْم والدِّين القائمون في أُمَّة الإسلام مقامَ رسولِ الله في الهدايةِ والدلالة، وهم حَمَلةُ ميراثِ النُّبوَّةِ الذين قالَ رسولُ الله ﷺ فيهم: ((لا يَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي ظاهرينَ حتَّى يأتيَهم أمرُ اللهِ وهم ظاهِرونَ))[1]. فهؤلاءِ هم المرشِدون الذين يقتَدون برسولِ الله ﷺ في هدايتِهِ للنَّاسِ وتربيتِه لأصحابِهِ. فصُحبتهم دواءٌ وعلاجٌ عمليٌّ فعَّالٌ لإصلاح النَّفسِ وتزكيةِ القلبِ وتهذيبِ الخُلُقِ وارتقاءِ الأَرواحِ وتحقيقِ التَّوحيدِ ومقاماتِ القُرب، فهذه الأمور لا تحصل بقراءةِ كتابٍ وإنَّما هِي أمورٌ رُوحيَّةٌ وجدانيَّةٌ تقتَبس فيها الأرواحُ من الأرواحِ والنُّفوسُ من النُّفوسِ.

فصُحبةُ الأشياخِ مِن أهلِ الطَّريقِ دواءٌ لعِللِ النُّفوس والقلوبِ وتزكيةٌ لها، وتمهيدٌ لطَريقِ السُّلوكِ والرُّقي، وهي التي تُعطِي القدوةَ الحَسَنةَ والمثالَ العمَليَّ في التَّأسِّي برسولِ الله ﷺ وبحالِه في التَّربية والتَّزكيةِ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: 2] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: 15].

ففي هذه الآيات الكريمةِ ما يدلُّ على أهميَّةِ الصُّحبة في الله والالتحاق بالصَّالحين وأنَّهم سبيلُ الفوزِ والنَّجاةِ، وقد حثَّ رسولُنا الكريمُ على حُسن اختيار الصُّحبة، فقال ﷺ: ((المرءُ على دِين خَليلِه فلينظُرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ))[2].

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون، وهم أهل العلم (7311) ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقِّ لا يضرهم مَن خالفهم (1921) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب من يجالس (4833) والترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال (2378) والطيالسي في مسنده (2696) وأحمد في مسنده (2/334) والحاكم في مستدركه (4/ 171) من طريق زهير بن محمد قال: أخبرني موسى بن وردان عن أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا.

وقال الترمذي: ((حسن غريب)) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وقال صلواتُ الله وسلامُه عليه: ((إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ والجليسِ السُّوءِ كحاملِ المسكِ ونافخِ الكيرِ، فحاملُ المسكِ إمَّا أنْ يُحذيَكَ و إمَّا أنْ تَبتاعَ منهُ و إمَّا أنْ تجدَ منهُ ريحًا طيِّبةً، ونافخُ الكِيرِ إمَّا أنْ يحرقَ ثيابَكَ و إمَّا أنْ تجدَ منهُ ريحًا خَبيثةً))[1].

وعن أبي موسىٰ ﷺ قال: قِيل للنبيِّ ﷺ: الرجلُ يحبُّ القومَ ولَمَّا يَلحَق بهم؟ قال: ((المَرءُ مع مَن أحَبَّ))[2].

وعن ابنِ عبَّاسٍ ﷺ قالَ: قِيل يا رسولَ الله أيُّ جلسائنا خَيرٌ؟ قال: ((مَن ذكَّركم باللهِ رؤيتُه، وزادَ في عملِكم منطِقُه، وذكَّركُم الآخرةَ عمَلُه))[3].

فهذِه الآياتُ الكريمةُ والأحاديثُ الشَّريفة تَدعو إلىٰ حُسنِ الصُّحبةِ مع الصَّالِحين واختيارِهم ومحبَّتِهم ومتابعتِهم. وصحبةُ أهل التَّصوُّفِ والمشايخِ ومتابعتُهم في طريق السُّلوك إلىٰ الله هيَ التي تُنبت في القلوبِ شجرةَ الإيمانِ والسُّلوكِ إلىٰ اللهِ.

وقد أرشَد أئمَّةُ الطَّريقِ وشيوخُهم إلىٰ أهميَّةِ اتِّخاذِ الشُّيوخِ والصُّحبةِ معَهم؛ قال الشَّيخ الإمامُ عبدالوهَّابِ الشَّعراني قدَّسَ اللهُ سرَّه في كتابِ العهودِ المحمَّديَّةِ: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِن رسولِ الله ﷺ أن نُواظِبَ علىٰ الركعتَين بعدَ كلِّ وضوءٍ بشَرط ألَّا نُحدِّثَ فيهما أنفسَنا بشيءٍ من أمور الدُّنيا أو بشيءٍ لم يُشرَع لنا في الصَّلاة، ويحتاجُ مَن يريد العملَ بهذا العهد إلىٰ شيخٍ يَسلك به حتَّىٰ يقطعَ عنه الخواطرَ المشغلةَ عن خِطاب الله تعالىٰ.

---

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب المسك (5534) ومسلم في كتاب البرِّ والصِّلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصَّالحين ومجانبة قرناء السُّوء (2628) من حديث أبي موسىٰ الأشعري ﷺ.

(2) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل(6170) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (2641).

(3) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (631) وأبو يعلىٰ في مسنده (2437) والبيهقي في شعب الإيمان (9000) من طريق مبارك بن حسان، عن عطاء، عن ابن عباس ﷺ به مرفوعًا. وضعَّف البيهقي إسناده، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (10/389): ((رواه أبو يعلىٰ وفيه مبارك بن حسان وقد وثِّق وبقية رجاله رجال الصَّحيح)).

فاسلُك يا أخي على يدِ شيخٍ ناصحٍ يشغلُك باللهِ تعالىٰ حتَّىٰ يقطعَ عنكَ حديثَ النَّفسِ في الصَّلاة؛ كقَولك: أرُوح لكَذا، أفعلُ كذا، أقولُ كذا، أو نحو ذلك، وإلَّا فمِن لازمك حديثُ النَّفسِ ولا يكادُ يَسلَم لك مِنه صلاةٌ واحدةٌ لا فرضٌ ولا نفلٌ فاعلَم ذلك، وإيَّاكَ أنْ تريدَ الوصولَ إلىٰ ذلك بغيرِ شَيخٍ كما عليه طائفةُ المجادلينَ بغيرِ عِلْمٍ، فإنَّ ذلك لا يصِحُّ لكَ أبدًا[1].

قال الشَّيخ المُحدِّثُ ابنُ حجرٍ الهيتميُّ في كتابِ الفتاوىٰ الحديثيَّة: والحاصِل أنَّ الأَولىٰ بالسَّالكِ قبلَ الوصولِ إلىٰ هذِه المعارفِ أنْ يكونَ مُدِيمًا لما يأمرُه به أستاذُه الجامعُ لطَرفَي الشَّريعةِ والحقيقةِ فإنَّه هو الطَّبيبُ الأعظم، فبمُقتضَىٰ معارفهِ الذَّوقيَّةِ وحِكَمِه الربَّانيَّةِ يعطي كلَّ بدنٍ ونفسٍ ما يَراهُ هو اللَّائقَ بشفائِها والمُصلحُ لغذائِها[2].

قال الإمامُ الفخر الرَّازي في تفسيرِه عند تفسِير سورةِ الفاتحةِ: البابُ الثَّالث في الأسرارِ العقليَّةِ المستَنبطةِ من هذِه السُّورةِ فيه مسائل... اللَّطيفةُ الثَّالثة: قال بعضُهم: إنَّه لمَّا قالَ ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيم﴾ لم يقتَصِرْ عليه، بل قالَ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ وهذا يدُلُّ علىٰ أنَّ المريدَ لا سبيلَ له إلىٰ الوصولِ إلىٰ مَقاماتِ الهدايةِ والمكاشفَةِ إلَّا إذا اقتَدىٰ بشيخٍ يهدِيه إلىٰ سواءِ السَّبيلِ ويجنِّبه عن موَاقعِ الأغاليطِ والأضَاليلِ؛ وذلك لأنَّ النَّقصَ غالبٌ علىٰ أكثرِ الخَلْق وعقولَهم غيرُ وافيةٍ بإدراكِ الحقِّ وتَمييزِ الصَّوابِ عن الغلطِ، فلابدَّ مِن كاملٍ يقتدِي به النَّاقصُ حتىٰ يتقوَّىٰ عقلُ ذلك النَّاقصِ بنورِ عَقل الكاملِ فحينئذٍ يصِلُ إلىٰ مدَارجِ السَّعاداتِ ومدارِكِ الكَمالاتِ[3].

---

(1) لواقِح الأنوار القدسيَّة في بيان العهود المحمدية (ص44) عبدالوهاب الشَّعراني- دار القلَم العربي- حلب 1993.

(2) الفتاوىٰ الحديثية(ص 53) أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي- دار الفكر.

(3) التَّفسير الكبير (164/1) للإمام فخر الدين الرازي- دار الكتب العلميَّة- الطَّبعة الأولىٰ- بيروت- 1421هـ.

قال الشَّيخ إبراهيم الباجوري الشَّافعي عند شرحه كلام الشَّيخ إبراهيم اللَّقاني صاحب جوهرة التوحيد:

وكُن كَما كانَ خِيارُ الخَلْق حليفَ حِلْمٍ تابعًا لِلحَق

أي: كُن متَّصِفًا بأخلاقٍ مثلَ الأخلاقِ التي كانَ عليها خيارُ الخَلْق. إلىٰ أنْ قال: وإذا كانت المجاهدةُ علىٰ يد شيخٍ من العارفين كانَت أنفعَ؛ لقولهم: حالُ رجلٍ في ألفِ رجلٍ أنفعُ من وعظِ ألفِ رجلٍ في رجلٍ، فيَنبغي للشَّخص أن يلزمَ شَيخًا عارفًا علىٰ الكتابِ والسُّنَّةِ بأَن يَزِنه قبلَ الأَخذِ عنه، فإنْ وجدَه علىٰ الكتابِ والسُّنَّةِ لازَمَه وتأدَّب معَه فعسَاه يكتَسِبُ من حالِه ما يكونُ به صفاءُ باطنِه، والله يتولَّىٰ هداه[1].

ويشرحُ الحافظ ابن أبي جمرةَ الحديث الذي رواه الشيخان عن عبدالله بن عمر ﷺ قال: جاء رجلٌ إلىٰ النبيِّ ﷺ فاستَأذَنَه في الجهادِ فقالَ: ((أَحِيٌّ والدَاكَ؟)) قال: نعَم، قال: ((ففِيهما فجَاهِد))[2]. ذكر الحافظُ ابنُ أبي جَمرَة رحمَه الله عشَرة وجوه عند شرح الحديث وقالَ في الوجهِ العاشرِ: فيه دليلٌ علىٰ أنَّ الدخولَ في السُّلوك والمجاهداتِ السُّنَّةُ فيه أن يكون علىٰ يدِ عارفٍ به فيُرشِد إلىٰ ما هو الأصلَحُ فيهِ والأَسَدُّ بالنِّسبةِ إلىٰ حالِ السَّالكِ؛ لأنَّ هذا الصَّحابيَّ ﷺ لَمَّا أَرادَ الخروجَ إلىٰ الجهادِ لم يَستبدَّ برَأي نفسِه في ذلكَ حتَّىٰ استَشَار مَن هو أعلَمُ مِنه وأعرَفُ[3].

وقال الشَّيخُ ابنُ عطاءِ الله السَّكندَري: ليسَ شيخُك مَن سمِعتَ مِنه وإنَّما شيخُك

---

(1) تحفة المريد علىٰ جوهرة التَّوحيد (ص341) لخاتمة المحققين الشيخ الباجوري- تحقيق د. علي جمعة- الطَّبعة الرَّابعة- دار السَّلام- القاهرة.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين (3004) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به (2549).

(3) بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها شرح مختصر صحيح البخاري (146/3) لأبي محمد عبدالله بن أبي جمرة- مطبعة الصدق الخيرية- الطبعة الأولىٰ- مصر- 1348 هـ.

مَن أَخذتَ عنه، وليس شيخُكَ مَن واجهتكَ عبارتُه وإنَّما شيخُكَ الذي سَرَتْ فيكَ إشارتُه، وليس شيخُكَ مَن دعاكَ إلىٰ البابِ إنَّما شيخُكَ الذي رفَع بينكَ وبينه الحجابَ، وليس شيخُكَ مَن واجهَك مقالُه إنَّما شيخُك الذي نهَض بكَ حالُه، شيخُك الذي أخرجكَ من سجنِ الهوَىٰ ودَخلَ بكَ علىٰ المَولىٰ، شيخُك هو الذي ما زالَ يَجلو مِرآةَ قلبِك حتَّىٰ تجلَّت فيها أنوارُ ربِّكَ، أنهضكَ إلىٰ الله فنهضْتَ إليه، وصار بكَ حتَّىٰ وصلتَ إليه، وما زال محاذيًا لكَ حتىٰ ألقاكَ بين يديه، فزجَّ بكَ في نور الحَضرةِ، وقال: ها أنتَ وربكَ[1].

فهذِه أخي الكريم نَبذةٌ من أقوال أهلِ الطَّريق والسُّلوكِ أهلِ الصِّدقِ والتَّربيةِ المحمَّديةِ توضِّح أهميَّةَ دَورِ الشَّيخ المربِّي وفوائدَ الانتسابِ إليهِ وخطَرَ الاستقلالِ بالسُّلوكِ والمجاهدَة، فالبَركة كلَّ البركةِ في اتِّباعِ الشُّيوخ العارفينَ.

آدابُ المريدِ مع الشَّيخِ وإخوانِه في الطَّريقِ الصوفي

لَمَّا كان الهدفُ مِن الالتِحاقِ والانتِسابِ إلىٰ الشُّيوخِ هو السُّلوك والوصولُ إلىٰ اللهِ سبحانه وتعالىٰ، وهو هدفٌ لا يُدانيه أيُّ هدَفٍ آخرَ كانَ لهذا الانتِسابِ حدودٌ وآدابٌ قد وُضِعت بواسطةِ أهلِ التَّربيةِ والإرشادِ تُعِين علىٰ بلوغ المقصدِ، وتحفَظ السَّالكَ المريدَ أنْ يَضِلَّ في الطَّريق أو أنْ ينحرفَ عنه، والغرضُ مِن مراعاةِ هذه الآدابِ مع الشَّيخ ومع أُخوةِ الطَّريقِ هو حِفظُ حقيقةِ التَّصوُّفِ وطريقِ السُّلوك، فمن لم يتحلَّ بهذه الآدابِ لا صِدقَ له في سُلوكه.

أولًا: آدابُ المريد مع الشَّيخ:

لِلمُريدِ الصَّادق في طريقِ الله آدابٌ في تعامله مع الشَّيخِ المربي، وهذه الآدابُ منها آدابٌ باطنةٌ وآدابٌ ظاهرةٌ.

---

(1) لطائِف المِنن (ص204) ابن عطاء الله السَّكندري- تحقيق: عبدالحليم محمود- دار المعارف- الطبعة الثَّالثة- مصر- 2006م.

الآداب الباطنة مع الشيخ:

1- الاستسلامُ للشَّيخ المربِّي والاستجابةُ له في كلِّ ما يأمرُ به، وهذا السُّلوك يكونُ مع مَن ثبَت حالُه منَ الشُّيوخِ عندَ المريدِ وتأكَّدَت مكانتُه ومنزلتُه في العِلْم والتَّربية، فالاستسلامُ هنا والطَّاعةُ هي للشَّيخِ الكاملِ المُلتَزِمِ بالشَّريعةِ في الحالِ والمَقالِ، والاستسلَامُ والانقِيادُ هنا أشبَه بطاعةِ المريضِ لتعاليم الطَّبيبِ المعالجِ، فهو ليس لِشَخصِ الطَّبيب بذاتِه، وإنَّما لما يَحْمِله من عِلْمٍ يؤهِّلُه لأنْ يأمرَ وينهي في بابِ العلاجِ والرِّعايةِ.

2- غَلْقُ البابِ أمامَ الاعتراضِ علىٰ الشَّيخِ في طريقةِ التَّربيةِ والإرشادِ، فإنَّ الاعتراضَ مِن شأنِه أنْ يوقِفَ المريدَ عن السَّير في طريقِ التَّزكيةِ.

3- إحسانُ الظَّنِّ بالشَّيخ وأنَّه أهلٌ للخير، وصرفُ وساوس النَّفسِ والشَّيطانِ عن القَدح في الشَّيخ وسوءِ الظَّنِّ به.

4- أن يراعِيَ المريدُ مسألةَ أنَّ الشَّيخَ المربِّيَ ليس بمعصومٍ فهو منَ البشرِ يَجري عليهِ ما يَجري عليهم، فقَد تقَع منه الهفوةُ من غير قصدٍ لها ولا إصرارٍ عليها.

5- الصِّدقُ وحُسنُ السَّريرةِ في تعامُله مع شيخِه وأستاذِه وإخلاصُ المودَّةِ له، وهذا هو مفتاحُ الخيرِ الذي يأتيه، فيحفظ وُدَّ شيخِه ويحفظُ حُرمتَه ظاهرًا وباطنًا، ويرَىٰ أنَّ ذلك مِن الطُّرق التي توصلُه إلىٰ محبَّةِ الله؛ لأنَّها هي المقصودُ الأكبرُ.

6- الاقتِصارُ في السُّلوك والتَّلقِّي علىٰ شيخٍ واحدٍ فقط؛ لِضمانِ عدَم تَشتُّتِ القلوبِ واستقرارِ الحالِ مع مَنهجٍ واحدٍ وطريقةٍ واحدةٍ في السُّلوكِ والتربيةِ وحتَّى يحدثَ الرَّبطُ الرُّوحي بين الشَّيخ والمريدِ.

والمقصود بالشَّيخ هنا هو شيخُ التَّربية والسُّلوك، أمَّا العلوم الشَّرعيةُ الأخرىٰ فله أن يكونَ له فيها ما يشاءُ من الشُّيوخ والمعلِّمينَ.

7 - حُسْنُ المتابعةِ والصَّبرُ مع الشَّيخِ في كلامِه وأوامرِه ونواهيهِ، وليضعَ المريدُ نُصبَ عينيهِ قصةَ موسىٰ الكليم علىٰ نبيِّنا وعليهِ أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ مع الخَضِرِ عليه السَّلام، وليَذكرِ أنَّ للأفعال أسرارًا لا تَظهرُ إلَّا في وقتِها.

8- حِفظُ الأدبِ في حَضرة الشَّيخ ومجلسِه والالتزامُ بآدابِ مجالسِ الذكر، فمَن التَزمَ الأدبَ فهوَ مِن أهلِه، ومَن خرَجَ عن حدِّ الأدَبِ لا يَنتفِع بحالٍ ولا مَقالٍ من أهلِ الطَّريقِ.

9- أن يضعَ المريدُ نُصبَ عينَيهِ حالَ الصَّحابةِ الكِرام مع النَّبيِّ ﷺ في التَّعاملِ والكلامِ، وليسَ هذا من بابِ الغُلوِّ وإنَّما مِن باب التَّأسِّي، فإنَّ الشَّيخَ يقومُ مقامَ رسولِ اللهِ من حيث التَّربيةُ والإرشادُ، فالأدبُ معَه وحُسن المعاملةِ هو إكرامٌ وتقديرٌ للعلمِ والحالِ المحمَّدي الذي ورثَه الشَّيخُ المربِّي.

أمَّا الآدابُ الظَّاهرة مع الشيخ:

1- ألَّا يفعلَ شيئًا بدون إذْنِ الشَّيخِ من النَّوافل والأورادِ والأذكارِ، ففي الإذنِ المددُ والإمدادُ والتَّرقِّي في السُّلوك؛ وذلك لأنَّ لكلِّ مرحلةٍ مجاهداتٍ معيَّنةً يجبُ الاقتصارُ عليها وعدمُ تخطِّيها إلَّا بإذنِ ومعرفةِ الشَّيخِ.

2- المبادرةُ إلىٰ خِدمة الشَّيخ ومرَاعاةِ أحوالِه، فمَن خَدَم يُخدَم، ويرىٰ خدمةَ الشَّيخِ بابَ قُربةٍ إلىٰ اللهِ.

3- المداومَةُ علىٰ حُضورِ مجَالسِ الشَّيخِ وزيارتهِ وعدمِ الانقِطاع عنه فإنَّ في ذلك حياةَ القلبِ واستمرارَ النُّورِ؛ ولذلك قيل: زيارةُ المربِّي تُرقِّيْ وتُربِّي.

4- الصَّبرُ علىٰ ما قَد يرَاه مِن الشَّيخ مِن جَفوةٍ أو إعراضٍ أو غيرِ ذلك، فإنَّ المقصدَ من وراءِ ذلك هو التَّربيةُ، فإنَّ أهلَ اللهِ لا يُخرجون المريدَ مِن رعايتِهم وعنايتِهم أبدًا وإنْ ظَهَر الأمرُ بخلاف ذلك.

5- الأمانةُ في نَقل كلامِ الشَّيخ إلىٰ النَّاس وعدمُ نقلِ ما لا تَحتَمِله عقولُ مَن لم يعرفْ طريقَ التَّصوُّفِ والسُّلوكِ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60].

6- أن يعلمَ أنَّ الأدبَ مع الشَّيخِ ما هو إلَّا أدبٌ مع اللهِ، فإنَّ الشَّيخَ لم يُعظَّم إلَّا بتَعظيـم طريقِ الله، وأن حُبَّه هو حبٌّ لله ولرسولِه، وأنه بابٌ من أبواب الخيرِ قد فتَحَه اللهُ له، فليعرفْ قيمةَ هذا البابِ. ولنَذكر طرَفًا من أقوالِ المشايخِ وأئمَّة الطَّريقِ توضِّح ما سَبَق مِن الآداب.

قال الشَّيخُ النوري: مَن لم يتأدَّبْ للوقتِ فوقتُه مَقتٌ[1].

وقال الشَّيخ ذو النُّون المِصري: إذا خرَج المريدُ عن حدِّ استعمالِ الأدبِ فإنَّه يَرجعُ من حيث جاءَ[2].

قال العلامة ابن حجر الهيتمي: كَثيرٌ مِن النُّفوسِ التي يُرادُ لَها عدَمُ التَّوفيقِ إذا رأَت مِن أستاذٍ شِدَّةً في التَّربيةِ تَنفِرُ عنه وتَرميهِ بالقَبَائحِ والنَّقائصِ مِمَّا هو عنهُ بريءٌ، فلْيَحذَر الموفَّق من ذلك؛ لأن النَّفسَ لا تريدُ إلَّا هلاكَ صاحبِها فلا يُطعْها في الإعراضِ عن شيخِه ومَن فتَح بابَ التَّأويل لِلمشايخِ وغضَّ عن أحوالِهم ووكلَ أمورَهم إلىٰ اللهِ تعالىٰ واعتَنىٰ بنَفسِه وجاهَدَها بحسَب طاقتِه- فإنَّه يُرجَىٰ له الوصُولُ إلىٰ مقاصِده والظَّفرُ بمرادِه في أسرعِ زمنٍ. ومَن فتَح بابَ الاعتراضِ علىٰ المشايخِ والنَّظر في أحوالِهم وأفعالِهم والبحثَ عنها فإنَّ ذلك علامةُ حِرْمانِه وسوءُ عاقبتِه، وأنَّه لا يَنجح قطُّ[3].

قال الشَّيخ إبراهيم بن شيبان: مَن ترَك حُرمَةَ المشايخِ ابتُلي بالدَّعاوىٰ الكاذبةِ

---

(1) الرسالة القشيرية (ص2/448).

(2) المصدر السابق (ص2/448).

(3) الفتاوىٰ الحديثية (ص55-56).

وافتُضحَ بها[1].

قال الشَّيخ محمَّد بنُ حامدٍ التِّرمذي رحمه اللهُ: مَن لَم تُرضِه أوامرُ المشايخِ وتأديبُهم فإنَّه لا يَتأدَّب بكتابٍ ولا سُنَّةٍ[2].

قال أبو حَفصٍ النيسابوريُّ رحمه الله: التَّصوُّف كلُّه آدابٌ، لكلِّ وقتٍ آدابٌ، ولكلِّ حالٍ آدابٌ، ولكلِّ مقامٍ آدابٌ، فمَن لزِمَ الأدبَ بلَغَ مبلغَ الرِّجالِ، ومن حُرِمَ الأدبَ فهو بعيدٌ من حيث يظنُّ القربَ، مردودٌ من حيث يظنُّ القبولَ[3].

قال سيِّدي عبدالقادر الجيلانيُّ رضوان الله عليه: لا تَهربوا مِن خُشُونةِ كلامي فما ربَّانيٌّ إلا الخشنَ[4].

قِيلَ للشَّيخِ أبي منصورٍ المغربي: كَم صحِبتَ أبا عُثمان؟ قال خدمتُه لا صحبتُه، فالصُّحبة مع الإخوان والأقرانِ ومع المشايخِ الخدمةُ[5].

قال الشَّيخ السَّهرورديُّ: ((ينبغي للمريدِ أنَّه كلَّما أُشكل عليه شيءٌ من حال الشَّيخ يذكر قصةَ موسىٰ مع الخَضِر عليهما السَّلام، كيف كان الخَضِر يفعل أشياءَ يُنكرها موسىٰ وإذا أخبره الخَضر بسرِّها يرجع موسىٰ عن إنكاره، فما يُنكره المريدُ لقلَّة عِلْمه بحقيقة ما يُوجد من الشَّيخ، فللشيخ في كلِّ شيءٍ عذرٌ بلسان العِلْم والحِكْمةِ))[6].

---

(1) طبقات الصُّوفية (ص306) لأبي عبدالرحمن السلمي - تحقيق: مصطفىٰ عبدالقادر عطا — دار الكتب العلمية —بيروت- الطبعة الأولىٰ 1998م.

(2) المصدر السابق (ص283).

(3) المصدر السابق (ص106).

(4) الطريق الصُّوفي وفروع القادرية في مصر (ص53) تأليف: يوسف محمد طه زيدان- دار الجيل بيروت- الطبعة الأولىٰ 1991م.

(5) انظر: عوارف المعارف للسَّهرورديِّ بذيل كتاب الإحياء (5/261) مكتبة مصر- 1998م.

(6) عوارف المعارف بذيل كتاب الإحياء (5/261).

ثانيًا: آدابُ المريدِ مع إخوانِه:

إنَّ الأخوَّة في الله أوثقُ عُرىٰ الإيمان؛ كما جاءَ عن النَّبيِّ ﷺ: ((أَوثقُ عُرىٰ الإيمانِ الحبُّ والبغضُ في اللهِ عزَّ وجلَّ))[1].

فالاجتماعُ علىٰ طريقِ الله هو محبَّةٌ في اللهِ ومِن اللهِ وإلىٰ اللهِ، وللأُخوَّةِ في الطَّريق آدابٌ وأخلاقٌ في التَّعامل بها معَهم، ولتَكن الآيةُ الكريمةُ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29] هي النِّبراس الهادي في التَّعامل بين الإخوةِ في الطَّريق.

قال الشَّيخ الأكبرُ محيي الدِّين بن عرَبي: علَيك بمُجالسةِ مَن تَنتفع بمجالستِه في دِينك من عِلْمٍ تستَفيدُه مِنه أو عَمَلٍ يكون فيهِ أو خُلُقٍ حسنٍ يكونُ عليهِ، فإنَّ الإنسانَ إذا جالَس مَن تُذكِّر مجالستُه الآخرةَ فلابدَّ أنْ يتحلَّىٰ منه بقَدر ما يوفِّقه اللهُ لذلكَ[2].

فللأخوَّةِ حقوقٌ مِنها:

1- التَّواضُع لهم وحِفظ حُرمتِهم في الحضورِ والغيابِ، والمسارعةُ إلىٰ خدمتِهم والمودَّةُ لَهم.

2- النَّصِيحةُ لَهم، وبذلُ الوقتِ والمالِ بقَدْر المُستطاعِ في النُّصحِ والعطاءِ لهم مع حِفظِ ماءِ وجوهِهم، ثمَّ يرَىٰ أنَّ مِن مِنَّةِ اللهِ عليه أنْ وهبَه أُخوةً في الطَّريقِ والسُّلوكِ.

3- حُسْنُ الظَّنِّ بإخوانِه ويرىٰ أنَّه دونَهم في الفَضْلِ ويَكِلُ ما خَفي عليهِ من أمورِهم إلىٰ اللهِ مع حِفْظِ المودَّةِ والاحترامِ لَهُم.

---

(1) أخرجه الطيالسي في مسنده (376) وابن أبي شيبة في مصنفه (31083) والطبراني في الأوسط (4479) والحاكم في مستدركه (2/480) من طريق الصعق بن حزن قال: حدثني عقيل بن الجعد عن أبي إسحاق الهمداني عن سويد بن غفلة عن ابن مسعود رضي الله عنه به مرفوعًا. وقال الحاكم: ((صحيح الإسناد)). وتعقبه الذهبي بقوله: ((ليس بصحيح)). وله شاهد من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه؛ أخرجه الطيالسيُّ في مسنده (783) وأحمد في مسنده (4/286) من طريق ليث عن عمرو بن مرة عن معاوية بن سويد بن مقرن عن البراء به مرفوعًا. ورمز له السيوطي بالحسن في الجامع الصغير (2247).

(2) الفتوحات المكية (4/461) تأليف: محيي الدِّين بن عربي- دار الكتب العربيَّة الكبرىٰ- مصر.

4- التَّسامح فيما بينهم، وقَبول العُذْرِ، وسَعةُ الصَّدرِ بينَه وبين إخوانِه.

5- ألَّا يَطلبَ التَّقدمَ على إخوانِه، وإنَّما يرىٰ أنَّه أقلُّهم شأنًا فإنَّ الله يرفعُه عند النَّاسِ في الدُّنيا والآخرةِ.

6- صِدقُ المودَّةِ تجاهَ إخوانِه، فأهلُ الصَّفا هم أهلُ المودَّةِ وأهلُ القُرْبِ، وبالجملةِ فكلُّ أدبٍ وخُلُقٍ حثَّ عليه الإسلامُ يكون أَولىٰ بالرِّعايةِ مع إخوةِ الطَّريق والسُّلوكِ. ◆

الخاتمة

إنَّ الطريقَ إلىٰ اللهِ سبحانه وتعالىٰ مِنَّةٌ عظِيمةٌ ونعمَةٌ كبيرةٌ يَحظىٰ بها المقرَّبونَ، وهي نوعُ اجتباءٍ واصطفاءٍ، ومنْ مظَاهر هذه النِّعمة الشَّيخُ المربِّي الذي يدفعُه اللهُ في طريقِك كبابٍ للدُّخول علىٰ الله تعالىٰ، ويكون بِمثابةِ الحِصن الحصِين مِن الانحرافِ الفكريِّ والسُّلوكيِّ خاصَّةً في هذا العصرِ الذي كثُرت فيه الفتنُ وتنوَّعَتْ وأصبَحَ المسلِمُ في حاجةٍ إلىٰ مَن يأخذُ بيدِه إلىٰ طريق السَّلامة ويحجزُه عن كلِّ سبُل البلايا، وخاصَّةً الفِكريةَ والعَقَديَّةَ منها والتي تلتَهم العقولَ وتنحرِف بالمسلم عن سماحةِ الدِّين وتَرمي به في تِيه الإلحادِ والكُفر أو التَّطرُّفِ والعُنفِ.

فعليك أخي الكريم أن تدعوَ اللهَ سبحانه وتعالىٰ أنْ يرزقَك الطَّريقَ لمعرفةِ المُرشدِ المربِّي السَّالكِ الصَّادقِ، وأنْ تبذلَ وُسعَك في ذلك، فسَوف تحصلُ علىٰ الفائدةِ في الدِّينِ والدُّنيا والآخرةِ، واعلَم أنَّ اجتماعَك بالمربِّي وإنِ اقتصَر علىٰ دقائقَ معدودةٍ لكنَّك ستجِدُ في هذه المدَّةِ القصيرةِ النُّورَ الذي يُضيءُ لك طريقَك وطريقَ مَن تَتحمَّل أمورَهم مِن أسرةٍ أو أبناء، وستكون لك حِصنًا ضدَّ جميعِ أنواع الباطلِ.

وللهِ الحمدُ والمنَّةُ أن جَعَل أمَّةَ الحبيبِ محمَّدٍ ﷺ لا تَخلُو مِنَ المرَبِّين الصَّادِقِين أهلِ السُّلوكِ الصَّادقِ إلىٰ اللهِ الَّذين يُرشدون النَّاسَ إلىٰ ربِّهم، ويأخذونَ بأيدِيهم إليهِ، فهُم مَفاتيحُ أبوابِ الرَّحمةِ والكرَم الإلَهيِّ الَّذين تُحفظُ بهم البلاد والعِبادُ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وصَلَّىٰ الله وسَلَّم وبارَك علىٰ سيِّدنا ومولانا محمد النبي الأمي الطيب الطاهر الزكي وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. ◆

الرسالة الثامنة
التأصيل لقضية العهد الصوفي وأدلته الشرعية

وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأول: مدخلٌ وتعريفٌ للعهدِ في المنهجِ الصُّوفي.

المحور الثاني: تعريف العهد الصوفي لغة واصطلاحًا.

المحور الثالث: أدلَّةُ مشروعيَّة العهدِ من كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ وعَمَلِ الأمَّة.

المحور الرابع: أهميَّة وفوائد العهد في المنهج الصوفيِّ.

المحور الخامس: أهميَّة الشيخ في طريق التَّصوف.

المحور السادس: أشكال وصور العهد الصُّوفي.

المحور السابع: المحافظةُ على العهدِ والتَّحذيرُ من نقضه.

المحور الثامن: مشروعية وأدلة الخِرقة الصُّوفيَّة.

المحور التاسع: الأدلَّةُ والشَّواهدُ الشرعيَّة لإلباس الخِرقة.

المحور العاشر: صورٌ من إلباس الخِرقة من تراجم العلماءِ والأولياءِ. ◆



« تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »

آية **44** من سورة الإسراء

التأصيل لقضية العهد الصوفي وأدلته الشرعية

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا بحثٌ موجزٌ عن العهدِ عند الصوفيَّة، أو ما يسمَّى بإعطاء الإذنِ والطَّريق في السُّلوك إلى الله سبحانه وتعالى، أو ما يمكن أن يُطلَقَ عليه المبايعةُ على حُسن السُّلوك والعبادة والذِّكر والالتزام بآدابِ الطَّريق، والكلامُ عن العهد عند أهل التصوُّف والسُّلوك هو كلامٌ عن التوجُّه نحوَ الطريق إلى الله سبحانه وتعالَى والسَّير فيه، وهو أيضًا حديثٌ عن مقامات التَّوبةِ والانقطاعِ إلى الله وقطْعِ العلائق مع الخَلْقِ، ووصلِ العلاقةِ مع ربِّ العالمينَ، وسوف يكونُ الكلامُ عن العهدِ عند الصُّوفية في المحاور التَّالية:

المحور الأول: مدخلٌ وتعريفٌ للعهدِ في المنهجِ الصُّوفي.

المحور الثاني: تعريف العهد الصوفي لغة واصطلاحًا.

المحور الثالث: أدلَّةُ مشروعيَّة العهدِ من كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ وعَمَلِ الأمَّة.

المحور الرابع: أهميَّة وفوائد العهد في المنهج الصوفيِّ.

المحور الخامس: أهميَّة الشيخ في طريق التَّصوف.

المحور السادس: أشكال وصور العهد الصُّوفي.

المحور السابع: المحافظةُ على العهدِ والتَّحذيرُ من نقضه.

المحور الثامن: مشروعية وأدلة الخِرقة الصُّوفيَّة.

المحور التاسع: الأدلَّةُ والشَّواهدُ الشرعيَّة لإلباس الخِرقة.

المحور العاشر: صورٌ من إلباس الخِرقة من تراجم العلماءِ والأولياءِ. ◆

مدخلٌ وتَعريفٌ للعهدِ في المنهج الصوفيِّ

في منهج تربيةِ وتزكية المُريد عند السادة الصوفية لابدَّ مِن وجود الشيخ العالِم المربِّي، الذي يأخذُ بيد المريدِ إلىٰ طريق الله تعالىٰ، ويتولَّىٰ إرشادَه، فالشيخ المربي في المنهج الصوفي مِفتاحُ العلوم القلبيَّة والروحيَّة، كما أنَّ العلماء مَفاتيحُ العلوم الشَّرعية، وبدون العلماءِ تظلُّ العلومُ مجرَّدَ سطورٍ في الكتب، تفتقد في كثيرٍ من معارفها إلىٰ روحِ العِلم الحقيقية وفهم ما يدلُّ عليه، كذلك فإنَّ الشَّيخ المربِّي الصوفي الصَّادق هو مِفتاح علومِ التصوُّف وسلوكِ طريقه وأعمالِه، فالمِنَحُ الرُّوحيَّة القلبيَّة والإشراقاتُ والفيوضات الإلهيَّة والأسرار اللدنية التي تفاض علىٰ نفوس السَّالكينَ وأرواحهم وقلوبهم ما هِي إلَّا نَتيجةٌ للمجاهدة والأعمالِ الصَّالحةِ المأذون فيها من الشيخ، فأهلُ التَّصوفِ أصحابُ أحوالٍ لا أصحابُ أقوالٍ، وكما قال مشايخ التصوف: لم ينلِ المشاهدةَ مَن ترَكَ المجاهدةَ. فالمشايخُ هم الدليل في الطَّريق، ولا يَستقيمُ السَّيرُ إلَّا بهم، يشهد بذلك الواقعُ والاستقراءُ وكتب القومِ، فالطَّريقُ إلىٰ الله في المنهجِ الصُّوفيِّ لا يكونُ إلَّا بشيخٍ عالمٍ مُربٍّ مرشدٍ كامل، ومريدٍ صادقِ الهمَّة مُحبٍّ، يجاهدُ نفسه، ملتزمًا بالمنهج، هذا ما يُثمِرُ الفلاحَ والتَّرقِّيَ الرُّوحيَّ، فالشيخُ يرشِدُ ويربِّي ويَختارُ من المجاهداتِ ما يُناسبُ السَّالكَ من الذِّكرِ والتَّعبُّدِ والقُرُباتِ، والمريدُ يتقرَّبُ إلىٰ الله بتنفيذِ الإرشاداتِ والتَّوجيهاتِ. وتتضحُ أهميَّةُ وجود الشيخ العارف المربِّي في كونه يعملُ علىٰ توصيلِ المعارفِ الصُّوفيَّة وإدخالِها إلىٰ القلوبِ علىٰ الحقيقةِ، وحلِّ إشكالاتِ النَّفس البشريَّة التي تعترضُ المريدَ السَّالكَ؛ ومثالُ ذلك أنَّ كتبَ التَّصوفِ كثيرةٌ ومتوفِّرةٌ والقرَّاء لها كُثُرٌ، ولكن كم من هؤلاءِ قد دخلَت في قلوبهم المعاني والفُيوضات الموجودةُ في تلك الكتب، فالشيخ هو تَرجمانُ المنهج والمعالِج الذي يقوم بصيانة النَّفْس البشرية والروح الإنسانية والقلب المتلهف علىٰ محبة الله ومعرفته، والكلامُ هنا عن المربِّي العالم الربَّاني الصَّادق، وليس علىٰ أدعياءِ المشيخةِ والسُّلوكِ. والأسوةُ في ذلك كلِّه تكون بسيِّدنا رسول الله ﷺ في تربيتِه

للصَّحابة رِضوانُ الله عليهم، فهو المرشدُ والمربِّي لأصحابه الَّذين أخذوا منه الشَّريعةَ والحقيقة، وهذَّبوا نفوسَهم وصفوا بواطنَهم، وعرضُوا أحوالَ النَّفْسِ والقلوبِ عليه صلواتُ الله وسلامه عليه، فكان ﷺ خيرَ مداوٍ وأبرع طبيبٍ لهذه القلوب. ولنضرب لذلك مثالًا موضِّحًا لأهميَّة الشيخ وأهمية ملازمتِه، وهو أنَّه هل كان نصيبُ الصَّحابةِ الذين كانوا يلازمونَ رسولَ الله ﷺ من الأنوار والخير الإلهيِّ والفتوحات يتساوىٰ مع نصيبِ الصَّحابة الذين لم تكن لهم ملازمةٌ لرسول الله ﷺ أو مداومةٌ للحضور عنده والتَّعلُّم منه والأخذ عنه؟

الجواب: بالطَّبع لا، فإنَّ مَنْ أكْثرَ من الملازمةِ والحضورِ أفاد من النُّور المحمديِّ أكثرَ ممَّن لم يكن يلازمُ النَّبيَّ ﷺ أو يداومُ علىٰ مجالستِه ﷺ.

وبدايةُ العلاقةِ بين المريدِ والشَّيخ تتطلَّبُ صورةَ علاقةٍ محدَّدةٍ للسُّلوكِ والتَّربيَة والتعلُّم، فابتداءُ الرَّبط بين السَّالك المريدِ والشَّيخِ المربي في الظَّاهر والباطن هُو ربط رُوحِ المريد ونفسِه وقلبه بالله سبحانه وتعالىٰ، وبدايةُ هذه العلاقة وبابُها يبدأ من العهدِ أو البيعةِ أو إعطاء الطَّريق، وكلُّها أسماءٌ لمسمًّىٰ واحدٍ تعبر عن البداية الصحيحة في سلوك الطريق الموصل إلىٰ الله سبحانَه وتعالَىٰ. فالعهدُ الصُّوفيُّ هو مثالٌ حسيٌّ للمحبَّة في الله بين المربِّي والتلميذ، فهو عهدٌ علىٰ الطَّاعة والسَّير إلىٰ الله، والتزام تعاليم الدِّين والشَّريعةِ للوصولِ إلىٰ الرِّضا الإلهيِّ.

وهُو- أي العهد- أخذٌ وتلقٍّ وتعلُّمٌ وإرشادٌ والتزامٌ بالتَّوبةِ والأعمالِ الصالحة وإصلاحِ النَّفْس، وإرشادٌ من الشَّيخ وتربيةٌ للمريدِ ونصحٌ وتوجيهٌ لِمَا فيه صلاحُ أمره، وما يجبُ علىٰ المريد عملُه من المحافظةِ علىٰ القُرباتِ والواجباتِ الشَّرعيَّة، ومراعاةِ ما يلقِّنه له الشيخُ من الأذكارِ والأورادِ والمُجاهداتِ وتنفيذِ ذلك ومراعاتِه وعدمِ إهماله؛ ليفتَح له الطَّريق إلىٰ الله، وتصفوَ روحُه وقلبُه من كُدورات الدنيا، وتستقيمَ نفسه، فالعهد يُشبهُ بيعة الصَّحابة لرسُولِ الله علىٰ السَّمعِ والطَّاعةِ والالتزامِ بالإسلام جُملةً

وتَفصيلًا، وتحقيقُ ذلك عمليًّا، فهُو بشكل عامٍّ تذكيرٌ للعبد بأنَّ بينَه وبين الله عهدًا على عدم فعلِ السُّوء والمُسارعةِ إلى الخيرِ.

تعريف العهد الصُّوفي لغةً واصطلاحًا

العهد في اللغة: يرجع العهدُ في اللُّغة إلى عدةِ معانٍ منها: الوصيَّة، والضَّمان، والأمر، والوفاء، والأمانُ.

والعهد: كلُّ ما عُوهِدَ عليه الله، وكلُّ ما أَمر به ونهى عنه، وكلُّ ما بين العباد من المواثيقِ والارتباطات فهي عهودٌ، وفي الحديث: ((وأنا على عَهدِكَ ووَعدِكَ ما استَطَعتُ))[1]. أي: مقيمٌ وباقٍ على العهد الذي عاهدتُ عليه الله من الإيمانِ والتَّوحيد والتَّسليم[2].

قال ابنُ فارسٍ: ((أصلُ هذا الباب عندَنا دالٌّ على معنًى واحدٍ، وقد أومأ إليه الخليلُ قال: أصلُه الاحتفاظُ بالشَّيء وإحداثُ العَهدِ به، والذي ذكَرَه من الاحتفاظِ هو المعنى الَّذي يرجعُ إليه فُروعُ البابِ))[3].

العهد في الاصطلاحِ الصوفي بشكلٍ عامٍّ: هو صورةٌ من صُور الالتزامِ بين المريدِ والشيخِ على التَّوبة والاستقامة والإنابةِ والتَّوجُّه إلى الله تعالى، وما يتبعُ ذلك من الالتزامِ بالعباداتِ والفُروضِ والنَّوافل والمُجاهداتِ والذِّكرِ وعدمِ الغفلةِ عن ذلك، والبُعدِ عن الشَّهوات ومُحاسبةِ النَّفْس والإقبالِ على الله، فيتحقَّقُ بهذا الالتزامِ التأكيدُ على الانتقالِ من حالٍ إلى أخرَى، ومن مرحلةٍ إلى مرحلةٍ جَديدةٍ في حياةِ المريد السَّالك.

والعهدُ الصوفيُّ له صورتان؛ صورةٌ ظاهريَّةٌ وهي التي بين المريد والشَّيخ، وصورة

---

(1) جزء من حديثٍ أخرجه البُخاريُّ كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار (6306) من حديث شداد ابن أوس رضي الله عنه.

(2) انظر: لسان العرب (ع. هـ. د) تأليف: جمال الدين ابن منظور الأنصاري- دار صادر- بيروت.

(3) انظر: معجم مقاييس اللغة (ع. هـ.د) تأليف: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني- تحقيق: عبدالسلام محمد هارون- دار الفكر-1979م.

باطنيَّة وهي بين العبدِ وربِّه سبحانه جرتْ ظاهريًّا على يدِ الشَّيخ، محاولًا المريدُ بذلك صحبةَ ومباركةَ أهل الخيرِ والصَّلاح والعبادة ومفارقةَ أهل السُّوء، فالعهد الحقيقي هو عهد الله سبحانه وتعالى، وأما العهد الظاهر بين الشيخ والمريد فما هو إلا صورة وتوثيق ورمز للعهد مع الله تبارك وتعالى، ولذلك جرت على ألسنة القوم عبارة العهد عهد الله، واليد يد الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10].

والعهدُ أو البيعةُ قد تتنوَّع فيها الكلماتُ والجملُ المستخدمة في صورتِها وهيئتها، ولكنَّها تتَّفق جميعًا في المضمون والحقيقة، والذي هو الاستقامة على طريق الله والتوجُّه إليه سبحانه، والتوبةُ والمداومةُ على التعاون على البرِّ والتقوى، والتَّأكيدُ على رباط الأخوَّة في الله وفي الطَّريقِ وفي طاعة الشيخ المربِّي فيما يأمر به من مراتبِ السَّير والسلوكِ.

أدلَّةُ مشروعيَّة العهد
من كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ وعَمَلِ الأمَّة

إنَّ المتتبِّع لسِيَر وتراجمِ أهل التصوُّفِ وشُيوخِه يجدُ أنَّ العَهْدَ والمُبايعةَ ومجالسَ التَّوبةِ والتَّلقينِ تُعدُّ أُولى الخُطواتِ في إرشاد السَّالكينَ إلى طريقِ الله، فهل لهذه الصُّورة والفِعلِ دليلٌ من كتابِ الله وسنَّة رسولِ الله ﷺ؟

نعم، يوجدُ كثير من الأدلَّة على مشروعيَّة العهدِ والبيعةِ والالتزام بالسَّيْر في طريقِ الله وتلقينِ الذِّكر والحثِّ على المُداومةِ عليه.

فمِن كتابِ الله قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10]. وشيوخُ أهل التصوف هم ورثةُ المنهج المُحمَّدي في التَّزكية والإرشادِ والتَّربيةِ، فصورةُ العهد والبيعة ما هي إلَّا نوعُ تأسٍّ بالصُّورةِ المباركةِ التي كان رسولُ

الله يفعلُها مع صحابتِه رضوانُ الله عليهِم.

قال صاحبُ تفسير روح البيان: «المبايَعون ثلاثةٌ: الرُّسل، والشُّيوخ الورثة، والسَّلاطينُ، والمُبايَعُ في هؤلاء الثَّلاثة علىٰ الحقيقة واحدٌ وهو الله تعالىٰ، وهؤلاءِ الثَّلاثة شُهودُ الله تعالىٰ علىٰ بَيعةِ هؤلاء الأتْباعِ، وعلىٰ هؤلاء الثَّلاثةِ الذين بايعُوهم شروطٌ يَجمعُها المُتابعةُ فيما أُمِرُوا به، فأمَّا الرُّسل والشُّيوخُ فلا يأمُرُونَ بمعصيةٍ أصلًا، فإنَّ الرسل معصُومونَ من هذا، والشيوخَ محفوظونَ، وأمَّا السَّلاطينُ فمَنْ لَحِقَ منهم بالشيوخِ كان محفوظًا وإلَّا كان مخذولًا، ومع هذا فلا يُطاع في معصيةٍ، والبَيعةُ لازمةٌ حتَّىٰ يلقوا الله تعالىٰ»[1].

وأدِلَّةُ مشرُوعيَّةِ العهدِ والبيعةِ من السُّنَّةِ العديدُ من المواقِفِ التي حدثَتْ للصَّحابةِ رِضوانُ الله عليْهم مع رسولِ الله ﷺ من التَّوبةِ وطلبِ النُّصح والذِّكرِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وهذا هو جوهرُ وحقيقةُ العهد الصُّوفيِّ في الدلالةِ علىٰ طرق الخير والقربِ من الله والتَّحذيرِ من طرق الشَّر وما يبغضُه الله.

رَوىٰ البُخاريُّ في صحيحِه عن عبادة بن الصَّامتِ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بَايعُونِي علىٰ أنْ لا تُشرِكُوا بالله شَيئًا، ولَا تَسرِقُوا، ولا تَزنُوا، ولا تَقتُلُوا أَولادَكُم، ولَا تَأتُوا ببُهتَانٍ تَفترُونَهُ بَينَ أَيدِيكُم وأَرجُلِكُم، ولَا تَعصُوا في مَعروفٍ، فَمَن وفَّىٰ مِنكُم فأَجرُهُ علىٰ الله، ومَن أَصَابَ مِن ذلكَ شَيئًا فعُوقِبَ في الدُّنيا فهو كفارةٌ له، ومَن أَصَابَ مِنْ ذلكَ شَيئًا ثُمَّ سَترَه الله فهُو إلىٰ الله؛ إنْ شَاءَ عفَا عنه، وإنْ شاءَ عاقَبَه». فبايعناهُ علىٰ ذلكَ[2].

وعن بشر بن الخصاصيَّة رضي الله عنه قال: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ لأُبايعَه قال: فاشترط عليَّ:

---

(1) انظر: تفسير روح البيان (21/9) تأليف: إسماعيل حقي الحنفي- إستانبول- 1926م.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علاقة الإيمان حب الأنصار (18) ومسلم في كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها (1709).

((تَشهدُ أنْ لا إلَه إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وتصلِّي الخَمْسَ، وتصومُ رمضانَ، وتؤدِّي الزكاةَ، وتحجُّ البيتَ، وتُجاهِدُ في سبيلِ الله))(1).

هذا، وقد تعارَفَ المشايخُ أهلُ التَّصوفِ عند أخذِ العهدِ والبيعةِ من المريدِ أن يلقِّنه الذِّكر، ويلتزم المريدُ بالمُواظبةِ على هذه الأورادِ والأذكار؛ اقْتداءً بالنَّبيِّ ﷺ في بيعتِه وتَلقِينِه الصَّحابة رضوانُ الله عليهم أجمعينَ، ولهذا صورٌ كثيرةٌ في السنةِ النبويَّة المطهَّرة منها:

عن يعلىٰ بن شدَّادٍ قال: حدثني أبي شدَّادُ بن أوسٍ رضي الله عنه وعبادةُ بن الصَّامت حاضرٌ يُصدِّقه قال: ((كنَّا عندَ رسولِ الله ﷺ فقال: ((ارفَعُوا أَيدِيَكُم وقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله)). فرفعنا أيدينا ساعةً، ثُمَّ وضَعَ رسولُ الله ﷺ يدَه، ثُمَّ قال ﷺ: ((الحمدُ لله، اللَّهمَّ إِنَّكَ بَعثتَنِي بهذِهِ الكَلِمَةِ وَأَمَرْتَنِي بِهَا، ووَعَدْتَنِي علَيْهَا الجنَّة وإِنَّكَ لَا تُخلِفُ المِيعَادَ)). ثمَّ قال ﷺ: ((أَلَا أَبشِرُوا فإنَّ الله قَد غَفَرَ لَكُم))(2).

ومن صور البيعة الفردية: رُوِيَ عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسولَ الله اشتَرِط عليَّ فأنتَ أعلم بالشَّرط قال: ((أُبَايعكَ علَىٰ أنْ تعبُدَ الله وحدَهُ ولا تُشرِكَ بِهِ شَيئًا، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتِيَ الزكاةَ، وتَنصَحَ المُسلِمَ، وتَبرأَ مِنَ الشِّرْكِ))(3).

من صُورِ بيعة النِّساء:

فعن سَلمَىٰ بنتِ قيسٍ رضي الله عنها وكانت إحدىٰ خالاتِ رسولِ الله ﷺ، قد صلَّت مَعه القِبلتَيْنِ، وكانت إحدىٰ نِساءِ بني عديِّ بنِ النَّجار- قالتْ: جئتُ رسولَ الله ﷺ فبايعتُه في نِسوةٍ من الأنصارِ، فلمَّا شرَط علينا أن لا نُشرِكَ بالله شيئًا، ولا نسرِقَ، ولا نزنِيَ، ولا نقتُلَ أولادَنا، ولا نأتِيَ بِبُهتانٍ نَفتَرِيه بين أيدينا وأرجُلِنا، ولا نَعصِيه في معروفٍ، قال: ((وَلَا

---

(1) أخرجَه الطَّبرانيُّ في المعجم الأوسطِ (1126)، والحاكمُ في المستدرك (79/2). وقال: صحيحُ الإسناد ووافقه الذَّهبيُّ.

(2) أخرجه الإمامُ أحمد في مسنده (124/4)، والطَّبراني في المعجم الكبيرِ (7163).

(3) أخرجه النَّسائيُّ (4177)، وأحمدُ في مسندِه (364/4)، والحاكمُ في المستدرك (505/3).

تَغْشُشْنَ أَزوَاجَكُنَّ)). قالتْ: فبايعناه ثُمَّ انصرفنا، فقلتُ لامرأةٍ منهنَّ: ارجِعِي فاسألي رسولَ الله ﷺ مَا غِشُّ أزواجِنا؟ قالت: فسألتُه فقال: ((تَأْخُذُ مَالَهُ فَتُحَابِي بِهِ غيرَهُ))[1].

من صُور بيعة الصِّغار ومَن لم يُدرِك الحُلُم:

بايع النبيُّ ﷺ الحسنَ والحسينَ وعبدالله بنَ عبَّاسٍ وعبدالله بنَ جعفرٍ ﷺ وهم صِغارٌ ولم يَبلُغوا[2].

ومِنْ ذلك أيضًا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ بايعَ عبدالله بن الزُّبير وعبدَالله بن جعفر ﷺ وهما ابنا سبع سنينَ، فلما رآهُما رسولُ الله ﷺ تبسَّمَ وبسطَ يدَه فبايعهُما[3].

فهذه أخِي المُسلم نُصوصٌ من السُّنةِ النبويَّةِ تُبيِّنُ لك أنَّ العهدَ والبيعةَ عند الصوفيَّةِ لها أصلٌ صحيحٌ في الشَّريعة الإسلاميَّة، وأنَّ الغايةَ من ذلك التَّأسِّي برسولِ الله ﷺ في التَّزكيةِ والتَّربيةِ والتَّأكيدِ على التزامِ الشَّريعةِ ظاهرًا وباطنًا.

صُور البيعة والعهدِ في سلفِ الأمَّة وشيوخها الصَّالحينَ:

وَرَدَ في كثيرٍ من تراجمِ الأئمَّة وشُيوخِ أهل الطَّريقِ من تلقِينِهم الذِّكرَ للمريدينَ، وأخذِ العهودِ عليهم، وإقامةِ الأربطَة وأماكنِ الخلواتِ، والدَّعوة والإرشاد والدِّلالة على الخيرِ.

ومن ذلك ما قاله الأستاذ أبو الحسن النَّدويُّ: ((أنَّ الشَّيخَ عبدالقادر الجيلاني فتح بابَ التَّربيةِ والتَّوبةِ على مِصْراعَيه، يدخُل فيه المسلمونَ من كلِّ ناحيةٍ من نواحي العالم الإسلاميِّ، يجدِّدونَ العهدَ والميثاقَ مع الله، ويعاهدونَ على ألَّا يشرِكُوا ولا يكفُروا ولا يفسُقوا ولا يبتدِعوا ولا يظلِموا، ولا يستحلُّوا ما حرَّم الله، ولا يتركُوا ما فرَضَ الله، ولا يتفانوا في الدُّنيا، ولا ينسَوُا الآخرة، وقد دخل في هذا الباب- على يد الشَّيخ عبدالقادر الجيلاني- خلقٌ لا يحصيهم إلَّا الله وصلحَتْ أحوالهم، وحسُنَ إسلامهم، وظلَّ الشيخُ

(1) أخرجه أحمد في مسنده (6/379)، وأبو يَعلى (7070)، والطَّبراني في المعجم الكبير (751).

(2) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (2843).

(3) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (180)، والحاكم في المستدرك (3/566).

يربِّيهم ويحاسبُهم، ويُشرفُ عليهم وعلىٰ تقدُّمهم، فأصبح هؤلاء التَّلاميذُ الرُّوحيون يشعرونَ بالمسئوليَّةِ بعد البيعة والتَّوبةِ وتجديدِ الإيمانِ))[1].

ويقول الإمام الشيخ: أبو عبدالله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج في كتابه: المدخل: ((وكان سيدي أبو محمد بن أبي جمرة- رحمه الله- يقول: سنة الأحباب واحدة يعني أن مشربهم واحد، وهو الاتباع وترك الابتداع ولا يظن ظانٌّ أن ما تقدم ذكره فيه إنكار لأخذ العهد من أهله لأهله بشرطه المعتبر عندهم؛ إذْ إنه عليه درج السلف الصالح نفعنا الله بهم ولا ننكر أيضًا الانتماءَ إلىٰ المشايخ بشرطه، وهو أن يكون عند المريد شيخه، وغير شيخه بالسواء بالنِّسبةِ إلىٰ الاتباع وترك الابتداع ويكون إيثاره لشيخه بسبب أنه كان وصوله إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ يديه فيرىٰ له ذلك فبهذا الاعتبار يقع التفضل لشيخه والاختصاص به دون غيره.

وقد ورد في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: ((مَن صَنَعَ إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئُوه فادعوا له حتىٰ تروْا أنَّكم قد كافأتموه)). وقد كان سيدي أبو محمد رحمه الله يأبىٰ أن يأخذ العهد علىٰ أحد فسألته ما الموجب لذلك؟ أهو بدعة؟ قال: لا ولكن عبدالله- يعني نفسه- ليس كغيره فأخاف إن أخذت العهدَ علىٰ أحدٍ فقد لا يوفي بما يُؤخذُ عليه من العهد فيقع له التشويشُ وأكون السبب في ذلك فأتركهم رحمةً بهم وشفقةً عليهم وأعوض عنه الدعاء لهم بظاهر الغيب بالاستقامة، أو كما قال.

والحاصل من أخذ العهد هو أن يأخذ الشيخ العهد علىٰ المريد بأنَّه لا يراه الله حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمرَه، وهذا هو زبدته وأصله وبقيت تفاريعُه علىٰ هذا الأصل قل أن تتناهىٰ، وهي الأمانة التي عرضها الله تعالىٰ علىٰ السَّموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقنَ منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا))[2].

---

(1) انظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام (325/1) تأليف: أبي الحسن النَّدوي- دار ابن كثير- بيروت.

(2) المدخل(208/3) تأليف: أبي عبدالله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج

وهَكذا توالتْ صُورةُ العهدِ والبيعةِ عبر أزمانِ الأمَّة الإسلاميَّة من مَشايخِ التَّصوف وأئمَّته؛ فكانوا مَصابيحَ ومصادرَ نورٍ للأمَّة الإسلاميَّة، كيف لا وهم الذين اقتدُوا برسولِ الله ﷺ بالدَّعوةِ والإصلاحِ وتجديدِ الإيمان فسارُوا علىٰ نَهْجه وطريقتِه.

أهميَّة وفوائدُ العهد في المنهج الصوفيِّ

قد يتساءلُ بعضُ الناس: ما الهدف من العهد؟ ألَّا يكفي النُّصحُ والإرشادُ وقبولُ ذلك وانشراحُ الصَّدرِ له والسَّمعُ والطَّاعةُ والتَّوبة من المعاصِي والتزامُ الطَّاعاتِ؟

فنقولُ: إنَّ ذلك كلَّه مطلوبٌ وواجبٌ، ولكن وجود العهد مع الشيخ المربِّي يكونُ بمثابةِ الإلزامِ علىٰ ذلك المنهجِ، وهو عبارةٌ عن رابطةٍ قلبيَّةٍ وروحيَّةٍ بين المُريدِ والشَّيخِ، يقتبسُ منها المُريدُ الصُّوفيُّ النُّورَ الَّذي يُضيءُ له الطَّريقَ في السَّيرِ والسُّلوك إلىٰ الله، فمع وُجودِ العهدِ يشعرُ الإنسانُ بضرورةِ الالتزام بالمنهجِ والطَّريق وأهميَّة المحافظة علىٰ التوبة والطاعة والقُربات، وإلَّا فسوف يتحوَّلُ الأمرُ في كثيرٍ من الأحيانِ إلىٰ جلساتٍ أسبوعيَّةٍ من الوعظ والذِّكر قد يلتزمُ بها الشَّخص وقد لا يلتزمُ، وربما ألحَق ذلك غفلةً وانقطاعًا وتقصيرًا وإهمالًا. أمَّا مع وُجود العهدِ والبيعةِ مع الشَّيخ العارفِ المربِّي علىٰ الطَّاعة لله ورسولِه والالتزامِ بآدابِ الطَّريقِ من التَّحلِّي بالأخلاقِ والآدابِ والتخلِّي عن الرَّذائلِ والمحافظةِ علىٰ حُدودِ الشَّريعةِ ظاهرًا وباطنًا، والمداومةِ علىٰ الذِّكر تجعل كلَّ ذلك أمرًا واجبًا، وتصيرُ الأذكارُ والأورادُ من ذكر الله والصَّلاة علىٰ رسول الله ﷺ من الواجباتِ الَّتي يجب أن يلتزمَ بها كلُّ مَن سلَك طريقَ التَّصوفِ. وهناك أسرارٌ روحانيَّةٌ في العَهدِ والبَيعةِ في المنهج الصُّوفيِّ؛ منها: أن رُوحَ الشَّيخِ العارفِ تكونُ ممدة لروح المريدِ بفُيُوضاتٍ وأنوارٍ وأمدادٍ متَّصلةٍ روحانيًّا بسلسلةٍ مرتَّبة وسندٍ متينٍ شيخًا عن شيخٍ إلىٰ رسولِ الله ﷺ. ونضربُ مثلًا لتلك الأنوارِ والفُيوضات فنقول: ألم تلتقِ في حياتِك

=

دار التراث القاهرة.

بأحدِ العلماء الصَّادقين أو الواعظين الذين تأثرتَ بهم وبرؤيتِهم وحديثِهم، وشعرتَ بأنَّ قلبكَ وسَمعكَ وبصركَ قد تعلَّق بهم أثناءَ ذلك اللِّقاء، وحدَثَتْ في نفسك من الأشياءِ التي جعلَت رُوحكَ تشعرُ بالبهجة والسَّعادة والطُّمأنينة، واستمرَّ معك هذا الإحساس لعدَّة أيام لمجرَّد لقائِك بهذا العالم أو ذاك الشَّيخ المربِّي، فهذا هو النُّور والفيضُ الرَّباني، ومَنْ ذاق عَرَفَ. فكيف لو حدثَ بينكَ وبينَ هذا العالِم العارفِ ارتباطًا رُوحيًّا بعهد جدَّدتَ فيه التوبةَ لله، وعاهدتَ فيه على ترك المعاصِي والتزامِ الطَّاعاتِ، وكنتَ تحت نظر الشَّيخ وعنايته ومُتابعتِه لك في أمورك الدِّينيةِ والدُّنيوية؟! فيصبحُ هذا الإحساسُ العابرُ صفةً لازمةً في نفسِك وروحك، ويحدثُ الالتقاءُ الرُّوحيُّ بينك وبين الشيخِ، آخِذًا بيدك في السُّلوك والترقِّي والقُرْبِ من الله، ويحدث لك نصيبٌ من دعواتِه ودعواتِ إخوتك في الطَّريقِ. فهَدفُ العهدِ والبيعةِ هو توبةٌ لما مضىٰ، وإنشاءُ رابطةٍ رُوحيَّةٍ مع العلماءِ العارفينَ والأولياء المربِّين، وعهدٌ علىٰ الالتزامِ بالواجباتِ والقربات والطَّاعاتِ، والابتعادِ عن كلِّ ما يخالف الشَّريعةَ من الأعمالِ الظَّاهرة والباطنةِ. وكما أنَّ العهدَ الصُّوفيَّ فيه من الواجباتِ علىٰ المريدِ فكذا يجعلُ له من الحقوقِ علىٰ الشيخ أيضًا؛ كحقِّ النُّصحِ والمتابعةِ والرِّعاية في الظاهر والباطنِ، والدعاءِ له، والتَّفقُّد لحاله، والأسوةُ في ذلك والمثالُ الأسمَىٰ هو نبينا محمَّد صلوات الله وسلامه عليه في توجيهه وتربيتِه وحاله مع أصحابِه رِضوانُ الله عليهم. وبالعهدِ يُصبحُ للُمريدِ أسرةٌ ثانيةٌ، يشعرُ بينهم بالمودَّة والمحبة والمؤاخاة، يجتمعون علىٰ الله، ويتعاونون علىٰ البرِّ والتَّقوىٰ والاستقامةِ والخير الذي لم يكن ليحدُثَ لولا الالتزامُ بالعهد، وما يَتفرَّعُ عنه من المواظبةِ علىٰ الذِّكر وحضورِ المجالس والمناسباتِ ورعايةِ آداب الطَّريق. وقد أصبحتِ الحاجةُ في أيَّامنا هذه إلىٰ سلوكِ طريق التصوُّف كمنهجٍ تربويٍّ وتعبديٍّ، واشتدَّت الحاجةُ إلىٰ شيوخ مربِّين يتولَّون التربيةَ والإرشادَ ممَّا يجنِّب العبدَ المسلمَ الانزلاقَ في طرقٍ أو مناهجَ معوجَّةٍ أو مُنحرفةٍ أو باطلةٍ، فالعهدُ وما ينتجُ عنه يفتح أبواب الخيرِ ويغلقُ أبواب الشَّرِّ في الدِّين والدُّنيا معًا.

أهميَّة الشَّيخ في سلوك طريق التصوُّف

لو نظرَ الإنسانُ إلىٰ عُلومِه ومعارِفه وثقافتِه التي يمتلكُها لوجدَ أنَّ الغالبَ منها يأتي بطريقِ التعلُّمِ والاستفادةِ من علوم الآخرينَ بجانبِ ما يفتحُه الله عليه، وقد تأكَّد بالمشاهدة المحسوسة في الحياةِ أنَّ كلَّ علمٍ وسلوكٍ لابدَّ له من وُجود ملقِّنٍ ودليلٍ لهذا العِلم وهذا السُّلوك، وبدونه لا يحصُلُ النَّفع المرجو، وقد يحدثُ خللٌ في أصل العِلمِ ومعلوماتِه وعدمُ انضباطٍ في السُّلوك العمليِّ. ونضربُ لذلك مثاليْنِ:

المثالُ الأوَّل: الأصلُ في أيِّ علمٍ من العلومِ سواءٌ أكانت إنسانيَّةً أو علميَّةً تطبيقيَّةً أنَّها تحتاجُ إلىٰ أستاذٍ يُلقِّن هذا العلم، ويشهدُ للطَّالب أنَّه بلغ منزلةً في العلم يُعتمَدُ عليه في هذا العلم، وكلما كان الْتصاقُ الطَّالب أكثر بالعالم كلما ازدادَ انتفاعه به، وكلما قلَّ الالتصاقُ والمجالسة كلما قلَّتِ الفائدةُ، ولو حدث انقطاعٌ فإنَّه سيُحدِث انغلاقًا فتكون النتيجةُ الجهلَ أو التَّخبُّطَ.

والمثالُ الثَّاني: الجنديُّ المقاتل باتِّصاله الدَّائم بقائده وتنفيذِ أوامرِه بحذافيرها يحقِّق المطلوب منه، وبانفصالِه عنه لا يحقِّق الشَّيءَ المطلوبَ منه بالدِّقةِ المرجوَّة، بل ربَّما يكون الضَّررُ منه أكثرَ من نفعِه. فهذه فكرةٌ عامَّةٌ عن منزلةِ الشيخ ودَوْرِه في طريقِ أهل التصوفِ والسُّلوك، يحدِّدُ الطَّريق ويوضِّحُ معالمَه ويحذِّر من زلَّاته وحفرِه ومصاعبِه، فالشَّيخُ للمريدِ بمثابة الأستاذ للطَّالبِ والقائدِ للجنديِّ، فلا يستطيعُ الفردُ أن يسلكَ طريقَ التصوُّف بمفردِه؛ لأنَّه طريقٌ صعبٌ مُتشعِّب المسالك، يتربَّص بسالكه أعداءٌ كُثر، ومِن هؤلاءِ الأعداء الشَّيطانُ والنَّفسُ والهوىٰ وأهلُ السُّوء؛ لذلك لابدَّ لمن يسلك هذا الطريق الصَّعب مِنْ مرشدٍ أو هادٍ يأخذُ بيدِه وهو الشَّيخ. ولابدَّ للمريدِ من شيخٍ مُرشدٍ إلىٰ الحقِّ يرشُده ويلقِّنه الذِّكرَ ويُلقِي في رُوعِه النُّور، فإنَّ تلقينَ الشيخِ يلقِّح باطن المريدِ ويُسرِي فيه النُّور، كأنَّما يُلقَّح من سراجٍ، وعلىٰ المريد اختيارُ الشيخ الصَّالحِ المشهودِ له بالعلمِ والمعارفِ واتِّقاءِ المحارم، فالشَّجرة إذا نبتَت من غير غارسٍ تورِق ولكنَّها لا تثمِر، وكذلك المريد إذا لم يكن له شيخٌ يأخذُ عنه

طريقتَه قلَّ أن يفلحَ. فالشَّيخُ في طريق التَّصوفِ ركنٌ هامٌّ في السَّيرِ والسُّلوكِ، فكما أنَّ العلومَ الإسلاميَّةَ بدون العلماءِ والعارفينَ بها لن يكون لها كبير فائدةٍ وتصبح سطورًا جامدةً في الكتب فكذلك معارفُ وعلومُ التصوُّفِ لابدَّ لها من الشَّيخ الَّذي يعرِّف بها ويعلِّمها ويرشد إليها ويتعاهدُ طريقةَ تَطبيقِها. والشيخُ الصوفيُّ هو العالم الربانيُّ السَّائرُ في طريق الله، العارفُ بالشَّريعةِ الإسلاميَّة، المنضبطُ بحدودِها المُلزِم لنفسِه بالنَّوافل، المتمسِّكُ بسنَّة النَّبيِّ ﷺ، العالم العابد، الرَّحيمُ بخلقِ الله، الذي يكونُ هادِيًا ودليلًا إلىٰ طُرُق تزكيةِ النُّفُوسِ والقلوبِ وسُلُوكِ طريق الله والاقتداءِ برسولِ الله ﷺ، فهو يحبِّبُ الله إلىٰ عِبادِه، فهو ليس بصاحبِ بدعةٍ في دين الله، وإنَّما هو من الذين يَقتفونَ سنَّةَ وأفعالَ رسول الله ﷺ في تربيتِه لصحابتِه الكرام رِضوانُ الله عليهم، وإرشادِه لهم وتفقُّدِ أحوالهم وعباداتِهم، فالشيخ الصُّوفيُّ الكاملُ قائمٌ في الأمَّة مقامَ رسول الله ﷺ من حيث التربيةُ والإرشادُ والدَّلالة علىٰ طريق الله. والشَّيخُ المُتصدِّرُ لتربيةِ المريدينَ وإرشادِهم هو المتَّصفُ بالعلمِ والمعرفةِ بالعُلوم الشَّرعيَّة- فلا يجوزُ أن يتصدَّر الجاهل لإرشاد الخلق- وأن يكونَ عالمًا بعلومِ التَّصوف والطريقِ وأهل السُّلوك وأقوالِهم وعباراتِهم ومصطلحاتِهم؛ بحيث يكون جامعًا بين الحقيقةِ والشريعةِ، عالمًا بأحوال وأمور الخلق والمجتمع الذي يعيش فيه، ليس منعزلًا عن النَّاس، وهنا تأتي عبارة الإمام الجنيد رضي الله عنه: ((مَن لم يحفظِ القرآنَ ولم يكتبِ الحديثَ لا يُقتدَىٰ به في هذا الأمر؛ لأنَّ عِلْمَنا هذا مُقيَّدٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ))[1].

أشكالُ وصُور العهد الصوفي

إذا جاء المريدُ إلىٰ الشَّيخ وأراد المعاهدةَ والبيعةَ علىٰ سلوكِ طريق الله وفعلِ الطَّاعات وتركِ المعاصي، ورأىٰ الشيخُ أنَّه أهلٌ لذلكَ وعظَه وذكَّره بالله وبرحمتِه وعظيمِ فضله، وفتح له أبواب الرَّجاءِ في الله بذِكر عظيمِ رحمته ومنِّه وكرمه، وذكَر له آدابَ الطريقِ

(1) انظر: الرسالة القشيرية (1/79).

وحقوقَه، وما له وما عليْه، وقد تختلفُ الصُّورة أو الهيئة الَّتي تكونُ عليها البيعةُ والعهدُ إلَّا أنَّها تشتركُ في الحضِّ علىٰ الطَّاعةِ والالتزامِ بها والتَّحذيرِ من المعاصِي.

فيجلسُ المريدُ أمام شيخِه جِلسَةَ الصَّلاة، طاهرَ البدنِ والثِّيابِ، فارغَ القلبِ عن العوالق الدُّنيوية، مُتوجِّهًا بقلبه إلىٰ الله سبحانَه وتعالىٰ، فيلقِّنه الشيخُ التَّوبةَ، ويذكُر له صيغةً من صيغ المُعاهدةِ علىٰ الالتزامِ بآدابِ الطَّريقِ والسُّلوك، مثل «تعاهدني علىٰ تركِ المعاصِي وفعلِ الطَّاعاتِ ما استطعتَ؛ حتَّىٰ لا يراكَ الله حيث نهاك، ولا يفقدكَ حيث أمرَك، وأن تلتزمَ بآدابِ الشَّريعة الإسلاميَّة». أو غير ذلك من الصِّيغ التي لا تخرجُ عن هذه المعاني، فإذا قَبِلَ المريدُ وضع الشيخُ يدَه في يدِه وقرأ آيةَ المبايعة تذكيرًا وتأكيدًا للعهد وإقرارًا بأنَّ المرادَ هو الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10]. ثم يؤكِّدُ العهدَ فيقول للُمريدِ: هذا عهدُ الله علىٰ كتابِ الله وسنَّةِ رسولِ الله ﷺ وطريقِنا إليه، لا مُغيِّرينَ ولا مبدِّلينَ، العهدُ عهدُ الله واليدُ يدُ الله، وأوفُوا بعهدِ الله إذا عاهدتُم، وأوفوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كان مسئولًا، ثُمَّ يلقِّنه الذِّكرَ، وينصحُه ويدعُو له ويرشدُه إلىٰ ما قد يحتاجُ إليه في أمرِ دِينه ودُنياه، ويحضُّه علىٰ الالتزام بمجالسِ الذِّكر. والعهدُ مع النِّساء لا يكونُ إلا بطريقٍ يرضاهُ الشَّرعُ ويسمحُ بها، وليس فيه وضعُ يدٍ بيدٍ أو ملامسةٌ أو خلوةٌ بأجنبيةٍ، إنَّما في مجلسٍ عامٍّ لا اختلاطَ فيه بين الرِّجال بالنِّساء، ولا يوجدُ في عهد النِّساء ما حرَّمه الله ونهىٰ عنه، فالمرادُ من المعاهدةِ في الأصلِ هو الالتزامُ بالشريعةِ ظاهرًا وباطنًا، فلا يُمكنُ أن يكونَ في العهد علىٰ ذلك مخالفةٌ للمراد، فإذا ما تمَّ العهدُ مع المريدِ فقد اتَّصلَ بشيخِه روحيًّا، وفُتِح أمامَه بابُ السُّلوك فما عليه إلَّا الوفاءُ بما عاهدَ عليه الله، فهذا العهدُ هو بدايةُ الطريق إلىٰ الله ومِفتاحُ الفُيُوضاتِ والرَّحماتِ.

ولنذكُرْ هنا طَرَفًا من كلام أهلِ الله من أصحابِ السُّلوك والتوجُّه إلىٰ الله ممَّن كان

لهم نصيبٌ في عُلوم أهل الطَّريق، وباعٌ في تربية المريدينَ، وتصنيفاتٌ في علوم التَّصوفِ، يقولُ الشَّيخُ الإمام أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنيُّ (1224-1162هـ): ((إذا أتىٰ الفقيرُ إلىٰ الشيخ ليأخذَه بيدِه فأوَّلُ ما يلقِّنه الوِرْدُ، فإنَّ التَّلقينَ فيه بركةٌ عظيمةٌ وقلَّ أن ينهضَ إنسانٌ قبل التَّلقينِ، والتَّلقينُ سلسلةٌ مرويَّةٌ عن السَّاداتِ إلىٰ سيِّدنا عليٍّ كرَّم الله وجهَه إلىٰ النبيِّ ﷺ، ثُمَّ يأمره بالتَّوبةِ وردِّ المظالمِ وقضاءِ الدَّيْنِ بقدرِ الاستطاعةِ، ويحذِّره من الرُّجوعِ إلىٰ ما كان عليه- أي: من الأخلاق الذَّميمة. ثُمَّ يعلِّمُه ما يلزمُه في دِينه مِنْ طهارةٍ وصلاةٍ وما يتعلَّقُ بذلك إن كان جاهلًا، وما تيسَّرَ من عِلمِ التَّوحيدِ خاليًا عن الدَّليلِ، فإن كان الشَّيخُ ليسَ من شأنه ذلك دفعَه إلىٰ مَن يعلِّمه، ثُمَّ يأمُرُه بلزومِ الطَّاعة مِن صلاةٍ وصيامٍ وذكرٍ وغير ذلك، كلٌّ واحدٍ ما يليقُ به؛ لأنَّه قد تقدَّمَ أنَّ الشيخَ طبيبٌ ماهرٌ. ثمَّ يأمُرُه بالصُّحبة ولُزومِ مُجالسةِ الشَّيخِ والاجتماعِ مع الإخوانِ، فطريقُ التَّربيةِ ليس طريقَ الانفرادِ، وإنَّما هي طريقُ الاجتماع والاستماعِ والاتِّباع، فَمَهْما انفردَ المريدُ عن الإخوانِ لم يكنْ منه شيءٌ، فإن تعذَّرتْ إقامتُه مع الشَّيخ أمَرَه بالزِّيارة والوصولِ، فمددُ الشَّيخِ جارٍ إلىٰ المريدِ كالسَّاقيةِ، فإن كان يتعاهدُها بَقِيَ الماءُ جاريًا، وإن غَفَلَ عنها تخرم الماءُ وانقلبَ مع غيره. وأيضًا: الوُصولُ إلىٰ الشَّيخِ يدلُّ علىٰ المحبَّة، والانقطاعُ يدلُّ علىٰ نقضِها. ثُمَّ يُذكِّره أوَّلًا بما يُصلِحُ جَوارحَه الظَّاهرةَ وهي التَّقوىٰ والاستقامةُ، فإذا صلحَتْ جوارحُه الظَّاهرةُ أمَرَه بالعزلةِ والصَّمتِ والجوعِ المتوسِّطِ وفراغِ القلبِ والفناءِ في الاسم المفردِ، فإذا رآه تحقَّقَ فناؤُه وكثُرَ تعطُّشُه فَتحَ له شيئًا من عِلمِ الحقائقِ، وأمَرَه بالتفرُّغِ التَّامِّ وقطعِ العلائقِ والزُّهدِ في الكونيْنِ، فإذا رَآه أخذتْه حَيرةٌ أو دَهشةٌ دَفعَ له عِلم الحقيقةِ، وأمره بتقليلِ ذِكر اللسانِ وعمل الجَوارحِ وشغَلَه بالفِكْرة، فإذا رآه لم يَقدِرْ علىٰ علم الحقيقةِ أو رآه قَنِعَ بالعلم دون الذَّوْق أمَرَه بتخريبِ الظَّاهرِ والتَّجريدِ التَّامِّ، فإذا تمكَّن من الحقيقةِ ورسَخَتْ فيه أمره بإرشادِ النَّاس إن رآه أهلًا، هذا الذي أخذنا به وفَهمناه من طريق أشياخِنا. وأصلُ هذا العهدِ من السُّنَّةِ

حديثُ عبادةَ بن الصَّامت قال: قال لنا رسولُ الله ﷺ في بَيعة العقبةِ: ((بايعُوني عَلَىٰ أَلَّا تُشرِكوا بالله شيئًا، ولا تَسرِقُوا، ولَا تَزنُوا، ولا تَقتُلوا أولادَكم، ولَا تأتُوا ببُهتانٍ تَفترُونَه بينَ أَيدِيكُمْ وأَرجُلِكُمْ، ولَا تعصُوني في معروفٍ)) الحديث[1]. ثُمَّ يأمره باقتباسِ العِلمِ، فإن كان هو أهلًا أمره بالتزامِ صحبتِه ليعلِّمه وإلَّا دفعه إلىٰ غيره كما تقدَّم، فلابدَّ للمريدِ بعد عقد التَّوبة من طلبِ العلمِ، إذ لا يجوزُ لأحدٍ أن يُقدِم علىٰ أمرٍ حتَّىٰ يعلمَ حكم الله فيه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]. وقال تعالىٰ: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾ [النَّحل: 43]. ولا يجبُ عليه التوسُّعُ في العلم لما فوقَ حالِه؛ لأنَّ ذلك فرضُ كفايةٍ، ومتىٰ نزلت به نازلةٌ لزمه طلبُ علمِها. ثُمَّ يأمُره بلزوم الطَّاعة والقِبلة والجماعةِ- يعني: الصَّلاةَ مع الجماعةِ؛ لأنَّ الأمرَ الخاصَّ لا يصحُّ إلا بعدَ إحكام الأمرِ العامِّ؛ لأنَّ مَنْ لا يصلحُ أن يكونَ من عوامِّ المتَّقينَ لا يصلحُ أن يكونَ من خَواصِّ المقرَّبينَ، فالشريعةُ بابٌ والحقيقةُ دخولٌ مع الأحباب، قال تعالَىٰ: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: 189]. ثُمَّ يأمره بالتَّوبة وتحقُّق شُروطِها.

قال الشيخ زرُّوق ﷺ: شروطُ التَّوبة ثلاثةُ أقسامٍ: شروطُ صحَّةٍ وهي ثلاثةٌ: النَّدم علىٰ ما فاتَ، والإقلاعُ في الحال، والنِّيَّة ألَّا يعودَ أبدًا. وشروطُ تحقيق؛ وهي ثلاثةٌ: تصميمُ القصدِ؛ لأنَّ التوبةَ وإن صحَّتْ من بعضِ الذَّنب مع البَقاءِ علىٰ ذنبٍ آخرَ فصاحبُها ناقِصٌ، وقَلَّ أن يَسلمَ من العودةِ لما عنده من أصل المُخالفةِ، وأداءُ الحُقوقِ الواجبةِ عليه من الصَّلاةِ والصيامِ والزكاةِ والكفَّاراتِ وغيرِها، وردُّ المظالم الماليَّة باتِّفاق، والعرضيَّةِ- أي: التي تتعلَّق بأعراضِ الناس علىٰ المشْهُورِ. وشُروط كمالٍ؛ وهي ثلاثةٌ: التَّشميرُ في المستأنَفِ بدلًا من التَّقصيرِ في السَّالفِ، والفِرارُ من مواردِ الفتنِ بكلِّ وجهٍ أمكنَ، والحِرْصُ علىٰ تحصِيلِ الكمالِ له بأيِّ وجهٍ كان. فمَن فاتَه شروطُ الصِّحةِ فلا توبةَ

---

(1) تقدم تخريجه.

له، ومن فاتْه شروط التَّحقيق فهو عاصٍ وقلَّ أن يَسلَمَ من آفاتِ الانقلابِ، ومن فاتْه شروطُ الكمالِ يجدُ لتوبتِه لذَّةً ولا يدركُ لها نتيجةً، وكلُّ واحدةٍ لا تصحُّ إلا بعد تحقِيقِ ما قبلَها.

ثُمَّ يأمرُه بلزُومِ الصُّحبة- يعني: إنْ تأتَّىٰ له ذلك- و إلَّا أمرَه بالوُصولِ المرَّةَ بعد المرة؛ كما تقدَّم؛ وفائدةُ الصُّحبةِ ثلاثةُ أمورٍ:

أحدُها: أنَّها حِصنٌ مِنَ الانقلابِ والرُّجوعِ، فإنَّ رؤيةَ الشيخِ والجُلوسَ معه ترِياقٌ مجرَّبٌ، فلا تَميلُ نفسُه إلىٰ الفضولِ أبدًا ما دامَ مع الشَّيخِ، قال شيخُ شيوخِنا سيِّدي علي ﷺ: الجلوسُ مع العارفينَ أفضلُ من العزلةِ، والعزلةُ أفضلُ من الجلوسِ مع العوامِّ، والجلوسُ مع العوامِّ أفضلُ من الجلوسِ مع المنفرة الجاهِلينَ.

قلتُ: والجُلوسُ مع علماءِ الظَّاهرِ أقبحُ في حقِّ الفقيرِ من جميعِ ما تقدَّم، والله ما رأيتُ فقيرًا صَحِبهم فأفلحَ في طريق القوم أبدًا، فلا قاطعَ أعظم منهم إلَّا مَن عُرِفَ بالتَّسليمِ لأهل النِّسبةِ وقليلٌ ما هُمْ.

الثَّاني: أنَّ عِلْمَ القُلوبِ إنَّما يقوىٰ مددُه بالصُّحبة ممَّن تحقَّق بحالةٍ لا يخلُو حاضرُوه منها، والطَّبعُ يَسرقُ من الطَّبع من حيثُ لا يُعلم، «والمَرءُ علَىٰ دِينِ خَلِيلِه»[1]، «والمُؤمنُ مِرآةُ أَخِيهِ»[2]. وما كانَ في المرآةِ انطبعَ في المرآةِ المقابلةِ لها.

الثالث: أنَّ الإنسانَ مُبتلًىٰ بنفسه، فإذا انفردَ وحدَه ظهرَ له أنَّه علىٰ شيءٍ وليس كذلكَ، وقد تقدَّمَ هذا في فائدةِ الاجتماعِ، وربَّما ظَفِرَ الشيطانُ به؛ لأنَّ الشَّاةَ المنفردةَ مِن سهم الذِّئاب، وفي الحديث: «الشَّيطانُ يَهُمُّ بالوَاحِدِ والاثنينِ، ولَا يَهُمُّ بالجماعَةِ». أو

(1) أخرجه أبو داود (4833)، والترمذي (2378) بلفظ: «الرَّجُل علَىٰ دِينِ خَلِيلِه فليَنظُر أَحَدُكُم مَن يُخالِل». وقال الترمذي: حسن غريب.

(2) أخرجه الترمذي (1929) بلفظ: «إنَّ أَحَدَكُم مرآةُ أَخِيهِ، فإذا رأىٰ به شيئًا فَلْيُمِطْه عَنهُ».

كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام[1]. فلابدَّ من صحبة أخٍ صالحٍ أو شيخٍ ناصحٍ لتحصُلَ السَّلامةُ من الرُّعوناتِ وغيرِها، ولا يتأدَّبُ الفقيرُ وحدَه أبدًا، وإنَّما يتأدَّبُ إذا صَحِبَ أهلَ الأدبِ، فإنْ صَحِبَهم تأدَّبَ أحبَّ أم كَرِهَ، وأيضًا النَّفْسُ الحيَّة لا تموتُ ما دامَتْ مع الأحياءِ، وإنَّما تموتُ إذا صَحِبَتِ الأموات. كما قال شيخنا اليَزيديُّ ﷺ.

ثُمَّ يمدُّه بالعِلمِ الظَّاهر، ومعناه: أنَّه يذكرُه بعلمِ الشَّريعةِ وعلمِ الطريقةِ دون علم الحقيقةِ حتَّىٰ إذا تهذَّب باطنُه وظاهرُه صَلحَ لعلم الحقائقِ، ولابدَّ من التَّرتيبِ، فَمَن أشرقَتْ بدايتُه أشرقَتْ نهايتُه، ومَن لا بدايةَ له لا نِهايةَ له.

وقد قالوا: مَن قدَّم الباطنَ علىٰ الظاهرِ فاتَه الباطنُ والظاهرُ، ومَن طلبَ الباطن بالظاهرِ حصل له الباطنُ والظاهرُ، ومَن طلبَ الباطنَ والظَّاهرَ تحيَّر في الباطنِ والظاهرِ، والظاهرُ رأس مالٍ وما عداه ربحٌ، ولذلك أمرَ به أئمَّة الدِّين والعلم مجرَّدًا))[2]. اهـ من الفتوحاتِ الإلهيَّة. فانظر يا أخا الإسلامِ إلىٰ ما سطَّرَه الشَّيخُ من النَّصائحِ وأصولِ التَّربيةِ والإرشادِ والنُّصح، وبيان معالم طريق التَّصوف، فقد جمع الشَّيخُ فأوعىٰ، وكان بدءُ الأمر هو المعاهدةَ ثُمَّ التلقينَ ثم الأمرَ بالمحافظة علىٰ الأوامرِ الشَّرعيةِ، وبعدَ ذلك لزوم صحبةِ المشايخ المربِّينَ، ثم لزومَ الذِّكر وتعلُّمَ العلم ولزومَ الجماعةِ والمحافظةَ علىٰ التَّوبةِ وعدم نقضها، وبدايةُ هذا الخير هو العهدُ الذي هو مِفتاحٌ لطريق السُّلوكِ والطَّاعة، وهجرٌ لطريق الإدبارِ عن الله والمعاصي. ◆

(1) أخرجه مالك في الموطأ (36)، والبزار (7834)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (257) بلفظ: ((الشَّيطانُ يَهُمُّ بِالواحِدِ والاثنَينِ، فإذَا كانُوا ثَلاثةً لَم يَهُمَّ بِهم)).

(2) انظر: الفتوحات الإلهيَّة شرح المباحث الأصليَّة (صـ240- 244) تأليف: أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني- تحقيق: عبدالرحمن حسن محمود- طبعة عالم الفكر- القاهرة.

المحافظةُ علىٰ العهد والتَّحذيرُ من نقضِه

قد ذكرنا فيما سَبَقَ أنَّ حقيقةَ العهدِ في التَّصوفِ أنَّه عهدٌ مع الله سبحانَه وتعالَىٰ علىٰ الاستقامةِ وإخلاصِ العُبوديَّة، فظاهرُه أنَّه عهدٌ مع الشيخ المربِّي العالمِ العارفِ، وحقيقتُه أنَّه مع الله، فالعهدُ عهدُ الله، واليدُ يدُ الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: 10].

ونقضُ هذا العهد نكوصٌ عن طريق التَّوبة وبدايةٌ للالتفاتِ عن المنهجِ الرَّبانيِّ؛ ولذلك حذَّرَ مشايخُ الطَّريقِ من هذا الأمرِ تحذيرًا كبيرًا، وهُم لم ينظرُوا إلىٰ حُظوظِ أنفسِهم في هذا التَّحذيرِ، وإنَّما نظروا إلىٰ المُريدِ وحاله خوفًا عليْه من التَّردِّي والهلاكِ والانْحرافِ عن السَّير في الطَّريقِ المُستقيمِ. وفي القُرآنِ الكريمِ ما يحضُّ علىٰ الوفاءِ بالعُهودِ، قال الله سبحانَه وتعالَىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]. وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ﴾ [الأنعام: 152]. وقال تعالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: 20]. وقدْ دلَّتِ الشَّواهدُ في الحياةِ علىٰ أنَّ مَن عقدَ مع الله عقدًا ثُمَّ نقضَه كان جزاؤُه الطَّرد والخِذلانَ. وليس المرادُ بحِفظِ العهدِ أن يحدُثَ للإنسانِ العصمةُ من الذُّنوب، بل معناهُ المسارعَةُ في الاستغفارِ وتجديدُ التَّوبةِ عند حُدوثِ الخطأ والزَّللِ والمعصيةِ، وعدمُ الانْسلاخِ من طريقِ الله، والمحافظةُ علىٰ طَريقِ السُّلوكِ إلىٰ الله بإرشادِ الشيخِ المربِّي، حتَّىٰ لو رَأىٰ الإنسانُ السَّالكُ عدمَ أهليَّته للطَّريقِ فليثبتْ عليْه، وبرحمةِ الله سوفَ يصيرُ أهلًا له بالمُجاهدةِ والمددِ الإلهيِّ وأنظار الشَّيخ، ورحمَ الله سيِّدِي ابنَ عطاء الله السَّكندريَّ القائل في حِكَمِه (الحكمة: 47): «لا تتركِ الذِّكر لعدم حضوركَ مع الله فيه؛ لأنَّ غفلتَك عن وجودِ ذكْره أشدُّ مِن غفلتِك في وُجودِ ذكْره، فعسَىٰ أن يرفعَكَ مِنْ ذكرٍ مع وُجودِ غفلةٍ إلىٰ ذِكرٍ مع وُجود يَقظةٍ، ومن ذكرٍ مع وُجودِ يقظةٍ إلىٰ ذكرٍ مع وُجود حُضورٍ، ومن ذكرٍ مع وُجودِ حُضورٍ إلىٰ ذكر مع غيبةٍ

عمَّا سِوَىٰ المذكور ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:20][1]. فلا يَنْبغي لعبدٍ أكرَمَه اللهُ بالسَّيرِ والسُّلوكِ في طريقِ المعرفةِ والمحبَّةِ أن يُعرِضَ عن مُولاه، فكيفَ بعبدٍ نقلَه اللهُ من الظُّلماتِ إلىٰ نُور البصائر والأرواحِ أن يتركَ هذا النُّور ويقطعَ حِبالَ المودَّةِ بينَه وبينَ ربِّه؟! فاشْدُدْ يدكَ أخي الكريم علىٰ عهدكَ مع ربِّك، واستعنْ به سبحانَه علىٰ الوُصولِ إليه، وارفعْ أكفَّ الضَّراعةِ إلىٰ مَلكِ الملوكِ الكريمِ الوَهَّابِ وقل: يا ربِّ إنَّما أنا عبدُك فأمدني بمددِكَ حتَّىٰ أسيرَ إليك وأكونَ مِن أهل الاستقامةِ، واكفني شرَّ نفسِي وشرَّ كلِّ دابةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِها، فلن أصلَ إليكَ يا إلهي إلَّا بكَ. فَمَع الطَّلبِ مِن الله والمُجاهدةِ تثبُتُ قدمُك في طريقِه، وتدومُ سعادتُك وفرحُكَ بربِّك سبحانه، وسيمنحُك ما ينوِّرُ قلبكَ بنورِ معرفتِه ومحبَّته، فالبابُ لذلك كلِّه العهدُ وصحبةُ الشَّيخ المربِّي العالم العارفِ، فَمَن تركَ البابَ كيفَ يدخلُ البيتَ؟!

ونذهبُ لنعرفَ أمرًا يتعلق بالعهد الصُّوفيِّ ألا وهو لُبس الخرقةِ، وهو شيءٌ لابدَّ من الوقوفِ علىٰ جوانبِه وعَرْضِ مفهومِه وحيثياتِه والوقوف علىٰ أمثلةٍ من السَّلف الصَّالحِ ممن كانوا يلبسونَ الخرقةَ مع التَّمسُّكِ بالعهدِ، وذلك في المحور التَّالي.

مشروعية وأدلة الخِرقةُ الصوفيَّة

مِن الموضوعاتِ الَّتي تتعلَّقُ بالعهدِ الصُّوفيِّ وسُلُوكِ طريقِ أهل الله الخِرقَةُ، فما الخِرقةُ وما دليلُها؟ الخِرقةُ من حيث مادَّتُها هي ثوبٌ من القماشِ يكونُ فوق الملابسِ، وقدْ تنوَّعتْ أشكالُها وصورُها عبرَ العصورِ واختلافِ البيئاتِ، وتسمَّىٰ كذلك: «لباس الفتوَّة»، و«المرقَّعة»، و«الدلق». ومِن حيثُ دَلالتُها؛ فإلباسُ المريد خِرقةَ التصوُّف له العديدُ من الدَّلالاتِ والإشاراتِ، فهِي علامةٌ علىٰ الْتزامِ هذا المنهج الرَّبانيِّ، وفيها معنىٰ المُبايعةِ

---

(1) إيقاظ الهمم شرح الحكم (ص 135) تأليف: أحمد بن عجيبة- تحقيق: محمد أحمد حسب الله- دار المعارف- مصر.

والدُّخولِ في الصُّحبةِ، وهي ارتباطٌ بين الشَّيخِ والمريدِ، وسريانُ الأنوارِ من باطن الشيخ إلىٰ المُريدِ كسراجٍ يَقتبَسُ من سراجٍ، وهي صورةٌ من صُورِ الخروجِ من متاع الدُّنيا والانقطاعِ إلىٰ طريق الله، وإشارةٌ لُمريدِ بتَوجيه إرادتِه لله والانسلاخِ من زينةِ الحياة الدُّنيا، ففي لبسها من يد الشَّيخ العارفِ معاني التَّسليمِ والمُتابعةِ وانتقالِ البركاتِ مِن الشَّيخ إلىٰ المُريدِ.

حكىٰ الأستاذ أبو القاسم القُشيريُّ عن شيخه أبي عليٍّ الدَّقاق أنَّه قال: ((الشجرة إذا نبتَتْ بنفسِها من غير غارسٍ فإنَّها تُورِق ولا تُثمِرُ- وهو كما قال- ويجوزُ أنَّها تثمِر كالأشجار التي في الأودية والجبالِ ولكن لا يكون لفاكهتِها طعمُ فاكهة البساتينِ، والغرسُ إذا نُقِل من موضعٍ إلىٰ موضعٍ آخر يكون أحسن حالًا وأكثر ثمرةً لدخولِ التَّصرف فيه، وقدِ اعتبر الشرعُ وجود التَّعليم في الكلب المُعلَّم وأكلَ ما يقتله بخلافِ غير المُعلَّم.

وسمعتُ كثيرًا من المشايخِ يقولون: مَن لم يرَ مُفلِحًا لا يفلحُ، ولنا في رسولِ الله ﷺ أسوةٌ حسنةٌ، وأصحابُ رسول الله ﷺ تلقَّوا الآدابَ والعلومَ من رسول الله ﷺ، فالمريدُ الصَّادق إذا دخلَ تحت حُكم الشيخ وصحبتِه وتأدَّب بآدابِه يسري من باطن الشَّيخ حالٌ إلىٰ باطن المريد كسراجٍ يقتبسُ من سراجٍ، وكلامُ الشيخ يُلقِّح باطنَ المريد، ويكونُ كلام الشيخ مستودع نفائس الحالِ، وينتقل الحال من الشيخ إلىٰ المريدِ بواسطة الصُّحبة وسماعِ المقال، ولا يكونُ هذا إلَّا لمريدٍ حصر نفسَه مع الشيخِ وانسلخَ من إرادة نفسِه وفَنِيَ في الشيخ بتركِ اختيارِ نفسه، فبالتَّآلف الإلهيِّ يصيرُ بين الصَّاحبِ والمصحوبِ امتزاجٌ وارتباطٌ بالنِّسبة الرُّوحية والطَّهارة الفطريَّة))(1).

فالغرضُ من إلباس الخِرقة المعنىٰ لا الصُّورة، ولا التميُّز بلباسٍ عن بقيَّةِ الناس،

(1) انظر: عوارف المعارف للسهروردي بذيل إحياء علوم الدين (102/5) مكتبة مصر- القاهرة- 1998م.

وإنَّما إرادةُ المعاني السَّابق ذكرُها، فهي رمزٌ روحانيٌّ للطَّريقِ وآدابِه وعنوانٌ وتذكيرٌ، وهناك من السَّلفِ الصَّالحِ من الشيوخِ العارفينَ أهلِ الطريق مَن لم يعرِفوا الخِرقةَ ولم يلبسُوها للمريدين، فمَن يُلبِسُها فله مَقصدٌ صحيحٌ وشواهدُ من الشرع والواقع- كما سيأتي- ومَن لا يُلبِسها فله رأيه ومقصدُه الحسنُ، والأمرُ في ذلك مبنيٌّ علىٰ الذَّوق والتَّجربةِ التي لا تخرجُ عن الحدودِ الشرعيَّةِ، ألَا ترىٰ فيما حولك من العالَم من جميع الطَّوائف والمهن وغيرهم مَن يلتزم بزيٍّ، ويشعر بلبسِه لهذا الزيِّ بمعانٍ وتكاليف في نفسه لم تكنْ موجودةً قبل ذلك، فالأمرُ مماثلٌ في لبس الخِرقة، هذا وإنَّ الشُّيوخ لا يُلبِسون الخِرقة إلَّا لمريدٍ صادقٍ من أهل الإرادة والسلوك، أو مَنْ قطع شوطًا في سلوكِه الطَّريق.

الأدلَّةُ والشَّواهدُ الشَّرعيَّةُ علىٰ إلباس الخِرقة

كما سَبقَ وألمحنا أنَّ الأمرَ في إلباسِ الخرقة مبنيٌّ علىٰ التَّجربةِ الرُّوحيةِ الصُّوفية المحدودة بضوابطَ شرعيَّةٍ، والإنسانُ يتفاعلُ ويتأثَّر بالمحسوساتِ من المَلبس والمأكلِ والمشربِ، فلو أعطاكَ أبوك هديَّةً ما فإنَّ هذه الهدية تظلُّ تحمل لديكَ من المعاني والصُّور والذِّكريات أشياءَ كثيرةً، ولا تستطيعُ أن تُفرِّطَ فيها ولا في شيءٍ ورثْته من أحدٍ ممَّن تحبُّه، فكذلك الخِرقة تذكِّر دائمًا بمعاني أهلِ الطَّريق من العهد والشَّيخ.

وللخرقةِ شواهدُ من الشَّريعة الإسلاميَّة إضافةً إلىٰ أنَّها سلوكٌ درجَ عليه المشايخ الصَّالحون المعروفونَ بالعلمِ والحالِ؛ فقد نقل الإمامُ جلال الدِّين السُّيوطي عن الشيخ الإمام الحافظ تقيِّ الدين ابن الصَّلاح إمام الشَّافعيَّة والمحدِّثين في عصرِه أنَّه قال: ((لُبسُ الخِرقة من القُرَب، وقدِ استخرجَ لها بعضُ المشايخ أصلًا من سُنَّة النَّبيِّ ﷺ، وهو حديثُ أمِّ خالد بنت سعيد بن العاص أنَّ رسولَ الله ﷺ أتىٰ بكُسوةٍ فيها خميصةٌ فقال: ((مَن ترَونَ أَحقَّ بهذِه؟)) فسَكَتَ القومُ فقال: ((ائتُونِي بأُمِّ خالدٍ)). فأُتِي بها فألبَسَها

إياها ثُمَّ قال: ((أَبْلي وأَخْلِقِي)) مرَّتيْنِ. أخرجَه البُخاريُّ[1].

قال ابن الصَّلاح: ولِي في لُبْسِ الخِرقة إسنادٌ عالٍ جدًّا، ألبسني الخِرقة أبو الحسن المؤيَّد بن محمَّد الطُّوسي قال: أخذتُ الخِرقة عن أبِي الأسعد هبة الرَّحمن ابن أبي سعيدٍ عبدالواحد بن أبي القاسم القُشيري، قال: أخذتُ الخِرقةَ مِن جدِّي أبي القاسمِ، وهُو أخذها من أبي عليٍّ الدَّقاق، وهو أخذَها من أبي القاسم إبراهيمَ بن محمَّد بن حمويه النَّصرآباذي، وهو أخذَها من أبي بكر دلف بن جحدر الشِّبلي، وهو أخذها من الجُنيدِ، وهو أخذها من السَّريِّ السَّقطيِّ، وهو أخذها من معروفٍ الكرخي، وهو أخذَها من داود الطَّائيِّ، وهو أخذها مِن حبيبٍ العجميِّ، وهو أخذها الحسن البصريِّ، وهو أخذها من عليِّ بن أبي طالبٍ، وهو أخذها من النبيِّ ﷺ.

قال ابن الصَّلاح: وليس بقادحٍ فيما أوردناه كونُ لبس الخِرقة غيرَ متَّصلٍ إلىٰ مُنتهاه علىٰ شرط أصحاب الحديث، فإنَّ المرادَ ما يحصُلُ من البركةِ والفائدةِ باتِّصالها بجماعةٍ من السَّادة الصَّالحينَ))[2].

قال الإمام السَّهرورديُّ: ((واعلمْ أنَّ الخِرقةَ خرقتانِ: خِرقة الإرادة وخرقة التبرُّك، والأصلُ الذي قَصدَه المشايخ لمُريدينَ خِرقةُ الإرادة، وخرقةُ التبرُّك تَشبهٌ بخِرقة الإرادة، فخِرقةُ الإرادة للمريد الحقيقيِّ وخِرقة التبرُّك للمُتشبِّه، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم.

وسرُّ الخِرقة أنَّ الطَّالب الصَّادقَ إذا دخلَ في صُحبةِ الشَّيخِ وسلَّم نفسَه وصار كالولدِ الصَّغيرِ مع أبيه يُربِّيه الشيخ بعلمِه المستمدِّ من الله تعالىٰ بصدقِ الافتقار وحُسنِ الاستقامةِ، ويكون للشَّيخِ بنفوذِ بصيرتِه الإشرافُ علىٰ البواطن، فقد يكون المريدُ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب الخميصة السوداء (5823).ومعنىٰ أبلي وأخلقي: ألبسيه حتىٰ يصير عتيقًا تخرِّقيه وترقيعه، والمراد به دعاء بطول العمر.

(2) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشَّاذلية (ص 12) تأليف: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي- دار الفاتح- القاهرة- الطبعة الثانية- 1994م.

يلبَسُ الخَشِنَ كثياب المتقشِّفين وله في تلك الهيئةِ من الملبوس هوًىٰ كامنٌ في نفسه ليُرَىٰ بعين الزهادة فأشدُّ ما عليه لبس النَّاعم، وللنَّفْس هوًىٰ واختيارٌ في هيئةٍ مخصوصةٍ من الملبوسِ في قِصر الكمِّ والذَّيلِ وطولِه وخشونتِه ونعومتِه علىٰ قدر حسبانها وهَواها، فيُلبسُ الشيخُ مثلَ هذا الرَّاكن لتلك الهيئةِ ثوبًا يكسِرُ بذلك علىٰ نفسِه هواها وغرضَها، وقد يكونُ علىٰ المريد ملبوسٌ ناعمٌ أو هيئةٌ في الملبوس تشرئبُّ النَّفسُ إلىٰ تلك الهيئةِ بالعادةِ فيُلبِسُه الشيخُ ما يُخرِج النَّفَس من عادتِها وهواها، فتصرُّفُ الشيخِ في الملبوسِ كتصرُّفه في المطعوم، وكتصرُّفِه في صومِ المريد وإفطارِه وكتصرُّفه في أمرِ دينِه إلىٰ ما يَرَىٰ له من المصلحةِ من دوامِ الذِّكر ودوامِ التنفُّل في الصَّلاةِ ودوام التِّلاوة ودوام الخدمة، وكتصرُّفه فيه بِرَدِّه إلىٰ الكسب أو الفتوح أو غير ذلك، فللشَّيخِ إشرافٌ علىٰ البواطنِ وتنوُّع الاستعداداتِ، فيأمر كلَّ مريدٍ من أمرِ معاشِه ومعادِه بما يصلحُ له، ولتنوع الاستعداداتِ تنوَّعتْ مَراتبُ الدَّعوة))[1].

وممَّا سبق يتَّضحُ لك أخي الكريم أنَّ المرادَ بقضيَّةِ لبس الخرقةِ ليستِ الطقوس أو الرُّسومَ والهيئات، وإنَّما المرادُ المعاني والتأثُّر، وكما تَرَىٰ في الزُّهور والورود معانيَ جميلةً تُبهِج النَّفْس وتفتحُ فيها تصوُّر الجمالِ وأشكاله كذلك في الخِرقةِ من المعاني الرُّوحيةِ والتَّذكير بالانْقطاعِ إلىٰ الله والبركةِ ما يذكِّر السَّالك بواجبات الطريقِ.

وسوف نُكمل الفائدةَ إن شاءَ الله بذكرِ بَعضٍ من هؤلاء ممَّنْ لبس الخِرقة علىٰ طريقةِ أهل التصوُّف مِن خلال كتب التراجم؛ ليُعلَم أنَّ هذا الأمر قد فعلَه أكابر المسلمين من العلماءِ والعارفينَ. ◆

---

(1) عوارف المعارف بذيل إحياء علوم الدين (5/104).

صُورٌ من لبس الخِرقة من تَراجم العلماءِ والأولياءِ

1- الإمامُ الشَّيخُ العزُّ بن عبدالسَّلام سلطانُ العلماء الفقيه الأصولي، انتهَت إليه معرفةُ المذهب مع الزُّهد والورع، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقدِم مصرَ فأقام بها أكثر من عشرين سنةً ناشرًا للعلم، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، وله من المصنفات: تفسير القرآن، ومجاز الفرسان، والفتاوىٰ الموصليَّة، ومختصر النهاية، وشجرة المعارف، والقواعد الكبرىٰ والقواعد الصغرىٰ، وبيان أحوال الناس يوم القيامة، وله كراماتٌ كثيرة، ولبسَ خِرقة التصوف من الشِّهاب السَّهرورديِّ، وكان يحضرُ عند الشَّيخ أبي الحسن الشَّاذليِّ[1].

2- الشَّيخُ الإمامُ صدر الدِّين ابن حمويه الشَّافعي الصُّوفي كان يُلبسُ المُريدينَ خِرقة التصوفِ، وممَّن ألبس الخِرقة رشيد الدين علي بن خليفة، وكانتْ له أسانيدُ عديدةٌ وعاليةٌ في لبس الخِرقة وإلباسِها[2].

3- الإمامُ محمَّدُ بن أحمد بن عليٍّ بن محمَّد بن الحسن القَسْطلَّاني، الفقيه المحدِّث الأديب الصوفي العابد، سَمِعَ من والده ومِن الشيخ شهاب الدِّين السَّهروردي ولبس منه خِرقةَ التَّصوف[3].

4- الإمامُ أبو العبَّاس عز الدين أحمد بن إبراهيم الفارُوثي الواسطي المقرئ المفسِّرُ الشافعي، وكان فقيهًا عالمًا علامةً، مُفتيًا عارفًا بالقراءات ووجوهِها، بصيرًا بالعربية واللُّغة، عالمًا بالتفسير، خطيبًا واعظًا زاهدًا خَيِّرًا، صاحبَ أورادٍ وتهجُّدٍ ومروءةٍ، وفتوَّةٍ وتواضعٍ، ومحاسنه كثيرة، وكان له أصحابٌ ومريدونَ، انتفعوا بصحبته في دينهم ودنياهم،

(1) انظر: حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (315/1) تأليف: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السُّيوطي- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة- الطَّبعة الأولىٰ.

(2) انظر: عُيون الأنباء في طبقاتِ الأطِّباء (ص 740) تأليف: أبي العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة- دار مكتبة الحياة- بيروت.

(3) انظر: طبقات الشَّافعية الكبرىٰ (43/8) تأليف: تاج الدين علي بن عبدالكافي السبكي- تحقيق: د: محمود الطناحي، د: عبدالفتاح الحلو- دار هجر- الطَّبعة الثانية- 1988م.

لبس خِرقة التصوفِ من السَّهرورديِّ[1].

5- الإمام مسعود بن عبدالرحمن بنِ صالحٍ الجعبري، لبس خِرقة التصوُّف مِن القطب القسطلَّاني، وعُمِّرَ نحوًا من تسعينَ سنةً، ولبس منه الخِرقةَ جماعةٌ من شيوخنا وماتَ بالجيزةِ سنة (720 هـ)[2].

6- الإمام شمس الدِّين محمَّد بن موسىٰ بن عمران الغزي المقدسي، أخذَ علم القراءاتِ عن الحافظ شمس الدين ابن الجزري وأجازَه وأخذَ منه خرقةَ التصوف، وكان رجلًا صالحًا ملازمًا لإقراءِ القرآن[3].

7- محمَّد بن إمام الكامليَّة، العلَّامةُ الفقيه الأصوليُّ، صاحب التَّصنيفاتِ، لبس الخِرقة مِن الإمام ابنِ الجزريِّ، وألبسها لغيرِه مِن المُريدينَ[4].

فهذه أيُّها الأخ الكريم أمثلةٌ بسيطةٌ مختصرةٌ لمن لَبِسَ الخِرقةَ من علماءِ المسلمين وعبَّادهم، ومن أراد التوسُّعَ فليرجعِ إلىٰ كتب التراجمِ والطَّبقات، وسوف يجدُ المئات من العلماءِ العارفينَ، فضلًا عن آلافٍ من العباد والسَّالكين. ◆

---

(1) انظر: معرفة القراء الكبار (3/1387) تأليف: شمس الدين الذهبي- تحقيق: الدكتور طيار آلتي فولاج- إستانبول- 1995م.

(2) انظر: الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (4/349) تأليف: ابن حجر العسقلاني- دار إحياء الكتب العربية- بيروت.

(3) انظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس والجليل (2/230) تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن العليمي الحنبلي.

(4) انظر: الكواكب السَّائرة بأعيان المائة العاشرة (1/52) تأليف: نجم الدين محمد بن محمد الغزي- دار الكتب العلمية- بيروت.

الخاتمة

تُعدُّ هذه الرِّسالة مُحاوَلةً لإلقاء الضَّوء على بعضِ مصطلحات المنهج الصُّوفيِّ، مُحاولين فيها التعرُّفَ على طريقِ أهل الصَّفاءِ والنَّقاءِ، فيا أيُّها الأخُ المسلمُ الكريم قد أنعم الله علينا في شريعة الإسلام بأبوابِ إصلاح القلوبِ وتَزكيتِها وتنقيةِ النُّفوس مِمَّا عَلِقَ بها من ظلمات الماديَّات في هذا العصر، فالمنهجُ المعتدل الوسطيُّ الذي لا إفراطَ فيه ولا تفريطَ هو منهج التصوُّف الصَّادق الذي عليه أهلُ العِلم والمعرفةِ والسلوكِ والولايةِ، بعيدًا عن المتشدِّقينَ الذين أخرجُوا مِن الإسلام رُوحه، وأدعياءِ التصوُّف مِن الجهلة الدجَّالينَ الذين يأكلونَ أموالَ النَّاس باسم التصوُّفِ.

فالتصوُّف هو حبلُ النَّجاة في هذا العصر الَّذي تَمُوجُ فيه الأهواءُ والفتنُ فيحفظ قلوبَ وعقولَ النَّاس على اختلافِ أفكارِهم وطبقاتِهم، فوجودُ الشَّيخِ المربِّي في المنهجِ الصوفيِّ يشكِّل حائطَ صدٍّ وعصمةً لُمريدينَ والأتباعِ من الانحرافِ في التَّفكيرِ والسُّلوك، فمجرَّدُ لقاءٍ أسبوعيٍّ في جوٍّ من الصَّفاءِ الرُّوحيِّ والتوجُّه القلبيِّ لله، ووجودُ أخوةٍ وصحبةٍ من أهل الصَّلاحِ تشحن القُلوب بالمحبَّةِ والخيرِ، وتمثِّل حاجزًا ضدَّ كلِّ الشُّرور على اختلافِ أنواعِها.

فشمِّر أخي الكريم عن ساعديكَ واستعنْ بربِّكَ ومَوْلاكَ واطرقْ بابه واتَّخِذ من التصوُّف طريقًا، وسوف تجدُ من خلال هذا المنهجِ جميعَ الاحتياجات القلبيَّةِ والنفسيَّة والرُّوحيَّة، ليس على مستوى الفرد فقطْ بل على مُستوى المجتمع كلِّه، وإن أردتَ التَّعرُّف أكثر على المنهجِ الصُّوفيِّ فيمكنك ذلك مِن خلال قراءة الكتب التي تتحدَّث عن أهل التَّصوفِ وأخلاقهم وأحوالهم، مثل كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكيِّ، وإحياء علوم للغزالي، وكتب الشَّيخ ابنِ عطاء الله السَّكندري، ومِن كُتب المعاصرينَ كتبُ الإمام عبدالحليم محمود، وكتب الإمام محمَّد زكي الدِّين إبراهيم رائد العشيرة المحمَّدية، ومجدد طريق أهل التصوف الذي أصلح الله به المنهج الصوفي ممَّا

عَلِق وأُلصِق به مِن شوائبَ وبدعٍ، وأحيا بقلمه وكتابتِه ودروسِه التصوُّفَ، رحمَه الله ورضي عنه ونفعنَا به.

فعليكَ أخي الكريم ألَّا تحرم نفسكَ من أبوابِ المعرفةِ الإلهيَّة والفُيوضات الربَّانية، واستعنْ بالله الكريم الوهَّاب أن يفتحَ لك بابَ معرفتِه وذكرِه ومحبَّته، وأن يجعلَ لكَ مِن لدنه نورًا في الدُّنيا والآخرةِ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆

الرسالة التاسعة

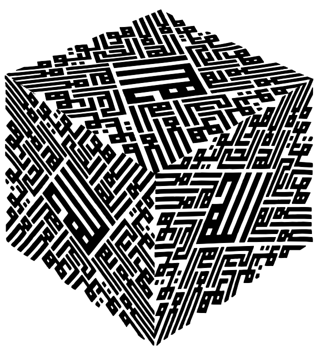
نظرة التصوف إلىٰ حقيقة الجهاد في سبيل الله

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: الصوفية أهل الرباط والجهاد في سبيل الله علىٰ التحقيق.

المحور الثاني: التَّصوُّف والحرصُ علىٰ الجهاد في سبيل الله.

المحور الثالث: نماذج من جهاد الصوفية في سبيل الله. ◆





« إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ » - آية **58** من سورة الذاريات

نظرة التصوف إلىٰ حقيقة الجهاد في سبيل الله

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ موجزةٌ نتحدَّثُ فيها عن التَّصوُّفِ الإسلاميِّ وعلاقته بالجهادِ في سبيل الله، والذي دعانا إلىٰ الكتابةِ في هذا الأمرِ هو خفاءُ الدَّورِ الذي يقوم به التَّصوف والمتصوِّفةُ في نُصرةِ دِينِ الله سبحانه علىٰ كثيرٍ من المسلمينَ، من حيثُ الدَّعوةُ إلىٰ الإسلامِ في بقاعِ الأرضِ، وجهادُ الغازينَ لأرضِ المسلمينَ، ومُكافحة المستعمرينَ في العصور الحديثةِ، وأيضًا لما يتعرَّضُ له التَّصوُّفُ من حملاتٍ ظالمةٍ ودعاوىٰ كاذبةٍ تدَّعي أنَّه لم يكن للتَّصوُّفِ والمتصوِّفةِ أيُّ دَورٍ أو نَصيبٍ في الجهادِ ضدَّ الغازي والمستعمر.

وسوفَ نُوردُ بإذنِ الله في هذه الرِّسالةِ قليلًا من الضَّوءِ علىٰ دَورِ التَّصوُّفِ البارزِ عبرَ قرونِ التَّاريخِ الإسلاميِّ كُلِّه في الجهادِ ونشرِ الإسلامِ، ومعرفةِ سِيَرِ ونماذجَ من أئمَّةِ التَّصوُّفِ ودورِهم في الجهادِ في سبيلِ الله، وارتباطِ كثيرٍ من السَّلاطين والملوكِ والأمراءِ بالتَّصوُّفِ سُلوكًا وعَملًا، وتأثُّرهم بعِلْمِ التَّصوُّفِ وأئمَّتِه، وانطلاقِهم من خلالِه إلىٰ القِتالِ والكفاحِ، وسوفَ يكونُ الكلامُ علىٰ ذلك من خلالِ المحاور التالية:

المحور الأول: الصوفية أهل الرباط والجهاد في سبيل الله علىٰ التحقيق.

المحور الثاني: التَّصوُّف والحرصُ علىٰ الجهاد في سبيل الله.

المحور الثالث: نماذج من جهاد الصوفية في سبيل الله. ◆

الصوفية أهل الرباط والجهاد في سبيل الله على التحقيق

مَن يتتبع كُتبَ التَّاريخ والسِّيرِ والتَّراجِمِ يجدُ أنَّ كثيرًا ممَّن عُرفَ بالتَّصوُّفِ والزُّهد والسُّلوكِ كانوا من المجاهدينَ في سبيل الله، وذلك في القرونِ الأولى الفاضلةِ، وربَّما يَعرفُ الكثيرُ أنَّ الصُّوفيَّةَ الأوائلَ كانوا من أهلِ الرِّباطِ في سبيلِ الله على الثُّغور، وسوف نُوردُ صُورًا من سُلوك أهل الله في باب الجهادِ في سبيل الله، ونذكرُ معها مَراجِعَها التي يُرجع إليها؛ ليرى كلُّ مُسلمٍ مُنصفٍ غيرِ متعصِّبٍ لمذهبٍ أو رأيٍ أنَّ الصُّوفيَّةَ كانُوا أهلَ جهادٍ ونشرٍ للإسلام بين الكفارِ، وكانوا كذلك أهل تَضحيةٍ بالنَّفسِ من أجل إعلاءِ كلمةِ الله، فقد أوردَ ابنُ الجوزيِّ في كتابه ((صفة الصفوة)) أمثلةً لجهاد الصُّوفيَّة الأوائل أهلِ السُّلوك إلى الله فمنهم:

1- أحمد بن عاصم الأنطاكي: يُكنى أبا عليٍّ، ويُقال: أبا عبدالله، من مُتقدِّمي مشايخ الثُّغورِ ويُقال له: جاسوسُ القُلوبِ. وله كلامٌ في عِلْمِ التَّصوُّفِ والمعاملةِ جميلٌ[1].

2- أبو يوسُف الغسولي: قال الجُنيدُ سمعتُ سريًّا يذكر أنَّ أبا يوسفَ الغسوليَّ كان يلزم الثَّغرَ ويغزُو، وكان إذا غزَا مع النَّاسِ ودخلُوا بلادَ الرُّوم أكلَ أصحابُه من ذبائح الرُّومِ ومن فواكهِهم، وكان أبو يوسفَ لا يأكلُ، فيقال له: يا أبا يوسف أتشكُّ أنَّه حلالٌ؟ فيقول: هو حلالٌ، فيقال له: فكُلْ منَ الحلالِ، فيقول: إنَّما أزهدُ في الحلالِ[2].

3- عبدُالله بن المبارَك: كان رحمه الله من أئمَّةِ المُسلمينَ الأوائلِ، معروفٌ بالعِلم والحالِ والزُّهدِ والجهادِ في سبيلِ الله، قال عنه الخطيب البغدادي: ((وكان من الرَّبَّانيِّين في العِلمِ ومن المذكورين بالزُّهد)). وقال أيضًا: ((خرجَ ابنُ المبارَك من بغداد يُريدُ المَصِيصَةَ- بلدةٌ بالشام - فصَحِبَه الصُّوفيَّة فقَال لَهم: أنتم لكم أنفس تحتشمونَ أن ينفقَ عليكم، يا غلامِ

(1) انظر كلامه في: صفة الصفوة (4/277) تأليف: أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي- تحقيق: محمود فاخوري- دار المعرفة- بيروت- 1985م.

(2) المصدر السَّابق (4/276).

هات الطَّستَ، فألقىٰ علىٰ الطَّست مِنديلًا ثم قَالَ: يُلقي كلُّ رجلٍ منكم تحت المنديل ما معَه، فجعل الرجل يُلقِي عشرةَ دراهم والرجلُ يلقي عشرين، فأنفق عليهم إلىٰ المَصِيصَة، فلما بلغ المَصِيصةَ، قالَ: هذه بلاد نفيرٍ، فنقسم ما بَقِيَ، فجعل يعطي الرجل عشرينَ دينارًا، فيَقُول: يا أبا عبدالرَّحمن إنما أعطيتُ عشرين درهمًا، فيَقُول: وما تنكر أن يبارك اللهُ للغازي في نفقتِه!))[1].

4- إبراهيم بن أدهم: ذكره ابنُ عساكرَ في تاريخ دمشق وقال: ((كان فارسًا شجاعًا ومُقاتلًا باسلًا، رابَطَ في الثُّغور، وخاضَ المعاركَ مع الرُّوم، دُفن بسُوقِينَ- حصنٌ علىٰ ساحل البحر ببلاد الرومِ فقال: غزا إبراهيمُ بن أدهم في البحر مع أصحابِه فقَدِمَ أصحابُنا فأخبروني عن إبراهيمَ بن أدهم عن الليلةِ التي مات فيها اختلف خمسًا أو ستًّا وعشرين مرةً إلىٰ الخلاءِ، كُلُّ ذلك يجدِّدُ الوُضوءَ للصَّلاة، فلما حَسَّ بالموتِ قال: أوتروا لي قوسِي. وقُبِضَ علىٰ قوسِه، فقبض اللهُ روحَه والقوسُ في يده قال: فدفنَّاه في بعض الجزائرِ في بلادِ الرُّوم))[2].

5- شقيق البلخي: هُو أحدُ الزُّهادِ ممَّن تتلمذوا علىٰ يد إبراهيم بن أدهم، جاء في تاريخ دمشق لابن عساكرَ: ((قال حاتم الأصمُّ: كنَّا مع شقيق البلخي ونحن مصافوا التُّرك في يومٍ لا أرىٰ فيه إلا رءوسًا تندر، وسيوفًا تقطع، ورماحًا تقصر، فقال لي شقيق- ونحن بين الصَّفين: كيف ترىٰ نفسَك يا حاتمُ في هذا اليوم؟ تراه مثلَ الليلة التي زُفَّت إليك امرأتك؟ قلتُ: لا والله. قال: لـكنِّي أرىٰ نفسي في هذا اليوم مثلَه في الليلة التي زُفَّت فيها امرأتي. وماتَ في غزوة عام 194هـ))[3].

---

(1) تاريخ بغداد (394/11) تأليف: الخطيب البغدادي- تحقيق د: بشار عواد- دار الغرب الإسلامي- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 2001م.

(2) انظر: تاريخ دمشق (349/6) تأليف: أبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر- دار الفكر.

(3) المصدر السابق (145/23).

6- حاتم الأصم: القدوة الرَّبَّانيُّ، كان يقال له: لُقمان هذه الأمةِ، ماتَ عند رباطٍ يُقالُ له: رأس سروند علىٰ جبل فوق واشْجِرْد[1].

7- الحسنُ البصريُّ: كان رحمه الله رأسًا من رءوسِ عِلْمِ التَّصوُّفِ والمعاملةِ مع الله، قال عنه أبو طالب المكِّيُّ في قُوتِ القُلُوبِ: ((كان الحسنُ أولَ مَن أنتج سبيلَ هذا العِلْم وفتق الألسنةَ به، ونطق بمعانيه وأظهرَ أنوارَه، وكشفَ به قِناعَه))[2]. وذكر عنه ملازمة العِلْمِ والعملِ، وكان أحدَ الشُّجعانِ الموصوفينَ في الحربِ.

8- محمد بن واسع: كان رحمه اللهُ مِن أظهرِ مَن لحق بالحسنِ البصريِّ واخْتَلفَ إلىٰ حَلقتِه وتأثَّرَ بمواعظِه، وكان كثيرَ الصَّمت، رافقَ واليَ خُراسان قُتيبةَ بن مسلم في فتح ما وراء النَّهر، وكانت عليه مدرعةُ صوفٍ خشنةٌ، فممَّا ورد في سيرِ أعلام النبلاء للذهبيِّ أنَّ قتيبةَ كان يكثر السُّؤالَ عنه، فأُخْبِرَ أنَّه في ناحيةٍ من الجيشِ مُتَّكئًا علىٰ قوسِه رافعًا إِصْبَعَه إلىٰ السَّماء، فقال قُتيبة: لإِصْبَعُه تلك أحبُّ إليَّ من مائة ألفِ سيفٍ شهيرٍ[3].

9- أبو الصَّهباء صلةُ بن أشيم: كان رحمه الله من كِبارِ العُبَّادِ التَّابعينَ، شديدَ الوَرعِ، دخل سجستانَ غازيًا وقُتل بكابل في وِلاية الحَجَّاج بن يوسفَ، وله في العبادة والمناقبِ والمُجاهدةِ الشَّيءُ الكثيرُ[4].

10- عُتبة الغلام: جاء في كتابِ حليةِ الأولياء لأبي نُعيم: وكان عتبةُ هذا أحدَ الزُّهادِ المشهورينَ البكَّائينَ. نُقِلَ عن ابن مَخْلَدٍ الصُّوفيِّ قال: جاءَنا عُتبةُ الغلام فقال: ما جاءَ

---

(1) شذرات الذَّهب في أخبار مَنْ ذهب (169/3) تأليف: عبدالحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي- دار ابن كثير- دمشق- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1986م.

(2) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد (ص 258) تأليف: أبي طالب المكي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية.

(3) سير أعلام النبلاء (121/6) تأليف: شمس الدين الذهبي- تحقيق: شعيب الأرناءوط- مؤسسة الرسالة- 1981م.

(4) المصدر السابق (500/3).

بكَ؟ قال جئتُ أغزُو. فقلتُ: مثلكَ يغزو؟ فقال: إنِّي رأيتُ في المنام أني آتي المِصيصةَ فأغزُو وأُستشهد، قال: فمضىٰ مع النَّاس فلقوا الرُّومَ فكان أوَّلَ رجلٍ استُشهد. ومن مأثوراتِ قوله: لا عقلَ كمخالفة الهوىٰ، ولا فقرَ كفقر القلبِ، ولا فضيلةً كالجهادِ[1].

فهذه نماذجُ من جهادِ أهلِ الله في القرون الأولىٰ الفاضلةِ، وهي تُعطي صورةً عن عنايتهم بالجهادِ في سبيلِ الله، ولأنَّ التصوفَ جهادٌ واجتهادٌ فإنَّه يحرُص علىٰ قضية الجهاد في سبيل الله، وهي نقطةٌ لابدَّ من توضيحِها وبيانها.

دور التَّصوُّف في الحرصِ علىٰ الجهادِ في سبيل الله

مَنْ يتتبعُ تاريخَ الجهادِ الإسلاميِّ والفتوحاتِ الإسلاميةِ فيما بعد القرونِ الثَّلاثة الفاضلةِ فسيجدُ أنَّ أئمَّةَ التَّصوُّفِ والسُّلوكِ قد قامُوا بدورٍ كبيرٍ في الدَّفعِ والذَّبِ عن بلاد الإسلامِ والفتوحاتِ ونشرِ دِينِ الله، والهدفُ من توضيح هذا الدَّور وتلك النماذج ردُّ التُّهم التي يُتهمُ بها التَّصوُّف وأهله من أنَّهم أهلُ تقاعسٍ عن الجهاد ولا يلتفتونَ إليه مُطلقًا. وفي البداية فإنَّنا نضربُ مثالًا لابدَّ منه لتوضيحِ أمرٍ في مُنتَهىٰ الأهميَّة، وهُو أنَّ دينَ الإسلام له حدودُه وأركانُه وقواعدُه وأوامرُه ونواهيه، وهُناكَ مُسلمونَ يُطبِّقونَ ويَلتزمونَ بتلكَ الأوامرِ والنَّواهي والحدودِ، فهم خيرُ عُنوان لتطبيقِ الدِّين، وهناك مسلمونَ ينفلتونَ من الأوامرِ والنَّواهي، وتتنوَّعُ درجةُ هذا الانفلاتِ قلةً وكثرةً؛ فهُناكَ مَن ينتسبونَ للإسلام والإسلامُ منهم بريءٌ، فلا يحملونَ من الدِّين إلا اسمَه فقط، ولكن مع كلِّ هذا فالإسلامُ في جوهرِه وذاتِه حقٌّ لا ريبَ فيه، لا يضرُّه أنْ يُؤمن به أحدٌ أو لا يؤمنُ، ولكن الحمدُ لله أنَّنا نجدُ أكثرَ المسلمينَ في مُجملهم علىٰ الخيرِ، ويحتلُّ الدِّينُ في قلوبِهم أكبرَ مكانة.

---

(1) انظر: حِلية الأولياء (227/6) لأبي نعيم الأصفهاني- دار الكتب العلمية- بيروت-الطَّبعة الأولىٰ- 1988م.

فهذا المثالُ يَنطبقُ تمامًا علىٰ التَّصوُّفِ والمُنتسبينَ إليه، فالتَّصوُّفُ منهجٌ حقيقيٌّ له وجودٌ قائمٌ في أصولِه علىٰ كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ من حيث أصلُه ومنشؤُه، وله مصنَّفاتُه وأئمَّتُه وشيوخُه، شأنُه في ذلك شأنُ باقي عُلوم الإسلامِ من توحيدٍ وتفسيرٍ وفقهٍ وغيرِ ذلك، وكما أنَّ التصوفَ شأنُه شأنُ باقي العلوم فإنَّنا نَجدُ فيه المنتسبَ الصَّادقَ الذي يلتزمُ بحدودِه وآدابِه، وهذا هو الذي يستحقُّ لقبَ الصُّوفي، ونجدُ أيضًا المنتسب المتفلِّتَ تارةً والملتزمَ تارةً بآدابِه وأحكامِه، وكذلك نجدُ المُنتسبَ الذي ليسَ له من التَّصوُّف إلا الاسمُ والتَّصوُّف منه بريءٌ. وعندَ النَّظرِ إلىٰ مَوضوعِ الجهادِ في سبيل الله علىٰ مرِّ القرون في التَّاريخ الإسلاميِّ نجد أنَّ أهل الصِّدقِ من الصوفيَّةِ كان لهم دورٌ كبيرٌ؛ بل كانوا من قادة الجهادِ، وسوفَ نحاولُ عرضَ هذا من خلالِ المصادر والمراجع حتَّىٰ يعلمَ كلُّ مُسلمٍ أنَّ الكلامَ عن تعطِيلِ التَّصوُّفِ والصُّوفيَّةِ لأمرِ الجهادِ هو ادِّعاءٌ باطلٌ يرمي إلىٰ تَشويهِ صُورةِ التَّصوُّفِ الإسلاميِّ والتعميةِ والتَّغطيةِ علىٰ جُهودِ أئمَّةِ التَّصوُّفِ وطوائفِ المتصوِّفةِ في الجهادِ عبر العصورِ، أمَّا مَن ينتسب إلىٰ التَّصوُّفِ وليس له منه إلا الاسمُ فَمَثَلُه كمثل مَن انتسبَ للإسلام وليس له إلا الاسمُ، فكما لا يُعابُ الإسلامُ بمثلِ هؤلاء لا يُعابُ المنهجُ الصُّوفيُّ بأدعياءِ التَّصوُّفِ. والجهادُ في التَّصوُّفِ الإسلاميِّ مَفهومُه أوسعُ وأشملُ من النَّظرةِ إلىٰ الجهادِ علىٰ أنَّه هو القتالُ في سبيل الله فحسب، وإنْ كان يضمُّ ذلك أيضًا ويشملُه، ولكنْ يزيدُ عليه مجاهدةُ النَّفس، وهي الجهادُ الأكبرُ؛ كما وَرَدَ في الحديثِ الَّذي رَواهُ البيهقيُّ من حديثِ جابرٍ قال: قَدِمَ علىٰ رسولِ الله ﷺ قومٌ غزاةٌ فقال ﷺ: ((قَدمْتُم خيرَ مَقدَمٍ من الجِهادِ الأصغرِ إلىٰ الجِهادِ الأكبرِ)) قالوا: وما الجهادُ الأكبرُ؟ قال: ((مُجاهَدةُ العبدِ هَواهُ))[1].

(1) أخرجَه البيهقيُّ في الزُّهد الكبير (ص165) من طريق أحمد بن عبيد، حدثنا تمتام، حدثنا عيسىٰ بن إبراهيم، حدَّثنا يحيىٰ بن يعلىٰ، عن ليثٍ، عن عطاءٍ، عن جابر ﵁ به مَرفوعًا. قال البيهقيُّ: ((هذا إسنادٌ فيه ضَعفٌ)).

والنَّوعانِ من الجهادِ فرضٌ في شريعةِ الإسلامِ، وقد حَرَصَ الإسلامُ في عددٍ من الآياتِ والأحاديثِ والأخْبارِ علىٰ الرَّبطِ بين الجهادِ وبين الصَّبرِ والزُّهدِ والبلاءِ، فأكَّد علىٰ ترويضِ النَّفس ومجاهدتِها من أجلِ استقامةِ المنهجِ السُّلوكيِّ والأخلاقيِّ، ثم يأتي بعد ذلك الجهادُ ضدَّ الكفَّارِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200] وكان رسولُ الله ﷺ ينصح المسلمينَ في القتالِ بالصَّبرِ والتَّقوَىٰ، وكان أئمَّةُ المسلمينَ وأمراؤُهم يوصون الجُندَ بتقوىٰ الله ومراعاةِ الأنفس ومُجاهدتِها، وقدِ استطاعَ المنهجُ الصُّوفيُّ الجمعَ بين جهادِ النَّفسِ وبين جهادِ القتالِ؛ وذلك لأنَّ بينهم ترابطًا وثيقًا لا ينفكُّ أبدًا، فالجهادُ الأكبرُ تهذيبٌ للنَّفسِ وركونٌ إلىٰ الله وتوجُّهٌ للخيرِ، وبذلك تستطيعُ النَّفسُ أن تقاتل وأن تكونَ أهلًا للنَّصرِ والتَّمكينِ، أمَّا النُّفوس الَّتي انحرفتْ وصارتْ مع الهوىٰ ولم يتم تَزكيتُها فتلك لا تَستطيع أنْ تُواجه عَدوًّا ولا أنْ تدفعَ عن بلادِ الإسلام؛ ولذلكَ فإنَّ الشَّجاعةَ والإقدامَ اللذين تحتاج إليهما أُمَّةُ الإسلام في الجهاد ضدَّ المعتدينَ لا تظهرُ إلَّا بعد تنقيةِ النَّفس وصفاءِ الرُّوح والزُّهد في الحياة الدُّنيا، وهذه هي أصولُ وقواعدُ المنهج الصُّوفيِّ. فالصُّوفيُّ الصَّادقُ الزَّاهدُ في هذه الحياةِ الدُّنيا الخالي الذِّهنِ من هُمومِها ومُتعها هو أقربُ النَّاسِ للدُّخولِ في ميادينِ القتالِ، وتكونُ نفسُه هينةً عليْه، فكان الصُّوفيَّةُ يُكثرونَ من المُرابطةِ في سبيل الله كما تقدَّمَ ذِكْرُه في الثُّغورِ وعلىٰ حدود بلادِ الإسلامِ.

وأولياء الله الصالحون هم المجاهدون كما عبَّر بذلك الشَّيخ الأكبرُ سيِّدِي مُحيي الدِّين بن عربي أثناء كلامِه عن الصَّالحينَ والأولياءِ[1]، هُم الذين يُنافحونَ عن دينِ الله بالسُّلوك والعملِ والصَّبرِ والمُصابرةِ والعلم والتَّعلم، ويقفونَ بجانب الأمة؛ إذ بهم يشعرُ الناس بالأمان؛ لأنهم ممدون من عند الله تعالىٰ، وتحل عليهم البركات وتتنزل عليهم الرحمات.

---

(1) انظر: الفتوحات المكية (33/2).

فكانوا زُهَّادًا مُجاهدينَ جامِعينَ بين تَزكيةِ النَّفسِ والقلبِ ومُجاهدةِ النَّفسِ وبين مجاهدةِ الأعداء، ولا يتَّضح هذا الكلام إلا بوضوح نماذجَ معينةٍ من الجهاد في سبيل الله عند الصوفيَّة، وهو ما سنتناوله في المحور التَّالي. ◆

نماذجُ من جهادِ الصوفية في سبيل الله

في هذا المحور سنَتكلَّمُ عن التَّطبيقِ الحقيقيِّ للتَّصوفِ في قضيَّةِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وذلك من خلالِ تَقسيمِ هذا التَّطبيقِ إلىٰ مَراحلَ وَضَحَ فيها دَورُ التصوف في إحياءِ روح الإسلامِ الحقيقيَّةِ عند المُسلمينَ، وسوفَ نُقسِّمُ الكلامَ في هذا المحور إلىٰ ثلاثة أقسام، وهي علىٰ النَّحو التَّالي:

1- القِسمُ الأول: مرحلةُ الحروب الصَّليبيَّةِ.

2- القِسمُ الثَّاني: مرحلة هجوم التَّتار علىٰ العالم الإسلاميِّ.

3- القِسمُ الثَّالث: نشأةُ الدَّولة العُثمانيَّة وفتح القُسطنطينيَّة.

وسوفَ نعرِضُ بإيجازٍ هذِه الأقسامَ مع ضَرْبِ الأمثلةِ عن الملوكِ والقادةِ الَّذين كان لهم نصيبٌ كبيرٌ من علوم ومنهجِ التَّصوُّفِ، مع إلقاء الضَّوء علىٰ أئمَّةِ وشيوخِ التَّصوُّفِ فيها ودورِهم في الجهادِ ومُقاومةِ الغُزاةِ، مع مُلاحظةِ أنَّ مَرحلةَ الحروبِ الصَّليبيَّةِ كانتْ مُعاصرةً مع الهجمات التَّتاريَّة علىٰ بلادِ الإسلامِ، وسوف تلمسُ أخي الكريمُ أنَّ التَّصوُّفَ وأهلَه كانوا أهلَ جهادٍ وقوةٍ ودفعٍ عن بَيْضَةِ الإسلامِ وأهلِه.

القِسمُ الأوَّلُ: مرحلةُ الحروبِ الصَّليبيةِ:

كانت بدايةُ الهجماتِ الصَّليبيَّةِ علىٰ الشَّرق المسلمِ عامَ (489هـ/1096م) وبدأت تحقِّقُ أثرًا ملموسًا علىٰ الأرضِ، فنَتجَ عن تلك الهجماتِ سقوطُ مدينة القُدسِ في أيدي الصَّليبيِّينَ، وسقوطُ معظم المدنِ السَّاحليةِ وغيرِها مثلَ: أنطاكيةَ وطرابُلسَ وعَسقلانَ والرُّها وغيرِها من المدنِ الإسلاميَّةِ في قبضة الصَّليبيينَ، ثمَّ بعد ذلكَ تكوينُ مملكة القُدسِ اللَّاتينية، واستمرَّ الوجودُ الصَّليبيُّ في المشرقِ الإسلاميِّ ما يَزيدُ علىٰ مائتي عامٍ، كانت الحروبُ والمعاركُ خلالها مُتداولةً بين المسلمينَ والصَّليبيِّينَ حتىٰ انتهىٰ الوجودُ الصَّليبيُّ في الشرقِ الإسلاميِّ بعد ذلك في حوالي عام (703 هـ) وكان للتصوُّف وأئمَّتِه وعامةِ الصُّوفيَّةِ دورٌ كبيرٌ في جهاد الصَّليبيِّينَ في تلكَ الفتراتِ.

حجَّةُ الإسلام أبو حامد الغزاليُّ (ت 505 هـ) ودوره الجهادي:

يُعدُّ من أهمِّ الأئمة الذين كان لهم دَورٌ في هذا الجهاد، فمدرستُه ومنهجُه في التَّصوُّفِ وتزكيةِ النُّفوسِ وإنارةِ طريقِ السُّلوكِ إلىٰ الله كانتْ واضحةَ الأثرِ في هذا الجهادِ، وكذلك ما قامَ به من إصلاحِ الميدانِ الأخلاقيِّ في بلادِ المسلمينَ في تلك الفتراتِ التي شهدتْ مجيءَ الحملاتِ الصَّليبيَّةِ إلىٰ بلاد الإسلامِ، وتصنيفه كتابَ إحياءِ علوم الدِّين الذي يُعدُّ صيحةً أيقظتْ طوائفَ كثيرةً من المسلمينَ، وظهر المنهج الصُّوفيُّ في تصنيفاتِه في أوضح الصُّور وأنصعِها، وما من عالمٍ أو طالبِ عِلْمٍ إلَّا وأفادَ من كتاب الإحياء بطريقٍ مباشرٍ وغيرِ مباشرٍ، فما حَواهُ من العُلومِ والآدابِ كان عبارةً عن انطلاقةٍ نحو تكوينِ أجيالٍ جديدةٍ من المسلمينَ الذين حدثت لهم تزكيةٌ للنَّفس والرُّوحِ والقلبِ، وكانُوا أهلَ جهادٍ ومرابطةٍ في سبيلِ الله. وله مكاتَباتٌ مع المُلوكِ في النُّصحِ لهم في إصلاحِ حال الدولِ والرَّعية، وصنَّفَ في هذا الإطار كتاب: «التِّبر المسبوك في نصيحة الملوك» وكوَّنَ رحمَه الله بناءً عقليًّا عقديًّا ورُوحيًّا وتربويًّا من خلالِ مصنَّفاتِه، فكان تنقيةً للنهج الإسلاميِّ ممَّا لحقَ به من الأفكارِ الفلسفيَّةِ والمبادئ الباطنيَّةِ التي مهَّدتِ البيئة الخصبة لسهولةِ احتلالِ بلاد الإسلام من قِبل الصَّليبيِّينَ، فكانت مدرستُه ومنهجه النورَ الذي أضاءَ الطَّريق لمن جاء بعدَه، مُمهدًا الطَّريق أمامَ ظهورِ الدَّولة النُّوريَّة -نسبةً لنورِ الدِّين محمود زنكي- والدَّولة الصَّلاحيةِ- نسبةً لصلاح الدين الأيوبيِّ- والَّتي تمَّ علىٰ أيديهما تحريرُ بلادِ المسلمينَ من الصَّليبيينَ.

الشَّيخُ الإمام القدوةُ أرسلان بن يعقوب بن عبدالرحمن الجعبريُّ المعروف برسلان الدِّمَشقي رضوان الله عليه (ت 550 هـ) ودوره الجهادي:

كان رحمَه الله من أكابر أئمة الصُّوفيةِ، وكان رحمه الله يزكِّي مَطعمَه وعيشَه من كلِّ شُبهةٍ، فلم يكنْ يأكلُ إلَّا مِن عملِ يدِه، وكان يقومُ بتربيةِ الأتباعِ والمُريدينَ، وأسَّسَ رحمه الله في رباطه عند سور مدينة دِمَشق أعدادًا من المجاهدينَ المدافعينَ عن مدينة دِمَشق ضدَّ هجمات الصَّليبيِّين، ثم يعودونَ إليه في زاويته حيث كان يبثُّ فيهم رُوح التَّضحيةِ والفِداء، وكان الشَّيخ يُعلِّم أتباعه- بجوار العلوم الشَّرعية- عِلْمَ المبارزةِ والقتالِ حتىٰ لُقِّبَ بإمام السَّالكين وشيخِ المجاهدين. وكان مكانُ زاويتِه قربَ أسوار دِمَشق عند مكان خَيمة خالد بن الوليد حين قَدِمَ لفتح الشَّام، ولم يُفارِقْ زاويتَه أبدًا منذ أقام فيها، وكانتْ مركزًا لإمدادِ المجاهدين في دِمَشق بالأعدادِ الكبيرة[1].

الإمام الشَّيخ عبدالقادر الجيلانيُّ (ت 561هـ) ودوره الجهادي:

هو القطب الرَّباني والعبد الرَّحماني إمامُ أهلِ الطَّريقِ والسُّلوكِ في زمانِه، صاحبُ المجاهداتِ والكراماتِ والفتوحاتِ وعلومِ أهلِ الطَّريقِ، الفقيه الحنبليُّ الشَّيخ الإمام المربِّي المرشِدُ الوليُّ الصَّالحُ، سيدي عبدالقادر مُحيي الدِّين بن أبي صالح بن عبدالله الجِيلانيُّ.

كانتْ حياةُ الإمامِ عبدالقادر الجيلانيِّ مثالًا مُتكاملًا لما عليه حياة الصُّوفيِّ الصَّادق، صَحب مشايخَ الصُّوفيَّة في أوَّل حياتِه، ودرس الفِقهَ علىٰ المذهبِ الحنبليِّ، وأحكَمَ الأصولَ والفُروعَ والخلافَ، وقَرأ القُرآنَ والأدبَ.

والَّذي نريدُ الحديثَ عنه هنا دَورُه كإمامٍ من أئمَّةِ التَّصوُّفِ المشهورين الذين قاموا بدورٍ كبير في إعداد المسلمين للجهادِ في سبيل الله، فقد كان لأحد شيوخ السَّيد

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (145/15) والوافي بالوفيات (224/8) وشذرات الذهب (782/7).

عبدالقادر الجيلانيِّ وهو الشَّيخ أبو سعيد المخرمي مدرسةً صغيرةً في أحد أحياء بغداد، فلما تُوفي آلتْ إلىٰ تلميذِه عبدالقادر، فعَمد إلىٰ توسِيعِها وإعادة بنائِها، ولقد بذلَ الأغنياءُ في عمارتها أموالَهم وعمل فيها الفقراء بأنفسهم[1].

وقدِ اكتملَ بناءُ المدرسةِ عام (528 هـ) ونُسبَتْ إلىٰ الشَّيخِ عبدالقادر الجيلانيِّ، حيث جعلَها مركزًا لنشاطاتٍ عديدةٍ؛ منها: التَّدريسُ والوعظُ والإرشادُ، وكان إلىٰ جانبِ هذه المدرسةِ رِباطٌ يسكنُه الطَّلبةُ الوَافدونَ من خارج بغداد، يُشرفُ عليه أحدُ تلاميذ الشَّيخِ، وكانت المدرسةُ والرِّباطُ في ذلك الوقتِ المكانَ الذي تخرج فيه كثيرٌ ممن فرُّوا من احتلال الصَّليبيِّين لبلادِ الشَّام، فدرسُوا في مدرسة الشَّيخ عبدالقادر، وسكنوا في رِباط هذِه المدرسَةِ، وبعد تشبُّعِهم من العُلومِ الشَّرعيَّةِ وعلوم التَّصوُّفِ والسُّلوكِ كانوا يتوجَّهونَ إلىٰ مناطقَ ومُدنِ المواجهة تحتَ القيادةِ الزَّنكية لدولةِ عماد الدِّين زنكي ومن بعده السُّلطان نور الدِّينِ محمود. وقد اشتُهر بعضُ هؤلاءِ الطُّلابِ ممَّن تخرجُوا من هذه المدرسة الذينَ كان لهم دورٌ كبيرٌ في حركة السِّياسةِ والجهادِ فيما بعدُ؛ فمِنْ هؤلاء الطُّلابِ ابن نجا الواعظ الذي أصبحَ فيما بعدُ مُستشارَ صلاح الدِّين الأيوبي في المجال السياسي والعسكريِّ، وكذلك الشَّيخ مُوفَّق الدِّين صاحب كتاب المُغني في الفِقهِ الحنبليِّ، والذي عَمِلَ بجوارِ صلاح الدِّين فيما بَعدُ، والشَّيخ الحافظ عبدالغني، وغيرهم كثيرٌ من عامَّة الصُّوفيَّةِ الذين التحقُوا بمدرسةِ ورِباط الشَّيخ عبدالقادر وكان لهم فيما بعدُ دورٌ كبيرٌ في المواجهاتِ التي حدثتْ بين المسلمين بقيادة نور الدِّين محمود وصلاح الدِّين الأيوبي مِن بعده وبين الصَّليبيينَ في مواقعَ كثيرةٍ، فكان كل هذا من ثمار منهج الشَّيخ عبدالقادر الجيلاني وذلك في محاولةٍ لتخريجِ المجاهدِ الصُّوفيِّ الصَّادقِ الذي يَثْبتُ في ميدان القتالِ

---

(1) انظر ترجمة الشيخ عبدالقادر الجيلاني في: البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (419/16) تحقيق: عبدالله التركي- دار هجر- الطبعة الأولىٰ- 1998م. والمنتظم (173/18) لأبي الفرج بن الجوزي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1992م.

ابتغاءَ وجه الله[1]. فهذه مدرسةُ الشَّيخ الإمام عبدالقادر الجيلانيِّ كانتْ مصدرًا للمجاهدينَ الذين برزُوا بعد ذلك في الجهاد، فكانت مدرسةً إصلاحيةً تعليميةً صوفيةً، وهي مصدر الرُّوح الجهاديَّة التي تحرِّك النَّاسَ للجهاد وتحثُّهم عليه بعد تربيتِهم وإعدادِهم، فكانوا مَصدرَ إعدادٍ لجيوشِ الدَّولة الإسلاميَّةِ في جهاد الصَّليبيينَ والتَّتار بعدَ ذلك.

الشَّيخ الأكبر مُحيي الدِّين ابن عربي (ت 638 هـ) ودوره الجهادي:

أُثِر عنه رحمه الله أنَّه كان خلال الحروب الصَّليبيةِ يحضُّ المسلمين على الجهادِ ومقاومةِ الغُزاةِ الصليبيينَ؛ وكتابُه الفتوحات المكية مليءٌ بكثيرٍ من الكلماتِ التي تحثُّ على الجهاد في سبيلِ الله فقد قالَ رحمه الله: ((ومن الأولياءِ أيضًا السَّائحونَ، وهُم المجاهدونَ في سبيل الله من رجالٍ ونساءٍ، قال ﷺ: ((سياحةُ أمَّتي الجهادُ في سبيلِ الله))[2]. قال الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ [التوبة:112] والسِّياحةُ المشيُ في الأرض للاعتبار برؤيةِ آثار القرونِ الماضية ومَنْ هلك من الأمم السَّالفة، وذلكَ أنَّ العارفينَ بالله لَمَّا علموا أنَّ الأرضَ تزهو وتفخرُ بذِكْر الله عليها، وهم أهلُ إيثارٍ وسعيٍ في حق الغيرِ، ورأوْا أنَّ المعمورَ مِنَ الأرضِ لا يخلو عَن ذاكرٍ لله فيه من عامَّة النَّاس، وأنَّ المفاوزَ المهلكةَ البعيدةَ عن العمرانِ لا يكونُ فيها ذاكرٌ لله من البشرِ- لَزِمَ بعضُ العارفين السياحةَ صدقةً منهم على البيداء الَّتي لا يطرقُها إلَّا أمثالُهم وسواحل البحار وبطون الأوديةِ وقُنن الجبالِ والشِّعاب والجهاد في أرض الكفر الَّتي لا يوحدُ الله فيها

---

(1) الذيل على طبقات الحنابلة (290/1) وما بعدها- تأليف: أبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي- صحَّحه: حامد الفقي- مطبعة السنة المحمدية- 1952م.

(2) أخرجه أبو داودَ في كتاب الجهادِ، باب في النَّهي عن السياحة (2486)، والحاكمُ في مُستدركِه (73/2)، والبيهقيُّ في الكبرى (161/9) من حديث أبي أمامة أن رجلًا قال: يا رسولَ الله، ائذن لي في السياحة.... فذكره. قال الحاكم: ((هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه)) ووافقه عليه الذهبيُّ.

ويُعبد فيها غيرُ الله؛ ولذلكَ جعل النّبيُّ ﷺ سياحةَ هذه الأمة الجهادَ؛ فإنَّ الأرضَ و إن لم يكفر عليها ولا ذَكَرَ اللهَ فيها أحدٌ من البشر فهي أقلُّ حزنًا وهمًّا من الأرض التي عُبِدَ غيرُ الله فيها وكُفِرَ عليها وهي أرضُ المشركينَ والكفَّار، فكان السِّياحةُ بالجهادِ أفضلَ من السياحة في غير الجهادِ بشرطِ أن يذكر الله عليها ولابدَّ، فإنَّ ذكرَ الله في الجهاد أفضلُ من لقاءِ العدوِّ فيضرب المؤمنونَ رقابَهم ويضرب الكفَّارُ رقابَ المؤمنينَ، والمقصودُ إعلاءُ كلمة الله في الأماكن التي يَعلُو فيها ذكرُ غير الله))[1].

وقال في وصاياه: ((وعليكَ بالجهاد الأكبرِ، وهو جهادُ هواكَ فإنَّكَ إذا جاهدْتَ نفسَك هذا الجهاد خَلُصَ لك الجهادُ الآخرُ في الأعداء، الذي إنْ قُتلتَ فيه كنتَ من الشُّهداء الأحياءِ الذين عند ربِّهم يُرزقونَ فَرِحينَ بما آتاهُمُ اللهُ من فضلِه، مستبشرينَ بالَّذينَ لم يلحقُوا بهم من خلفِهم، وقد علمتَ فضلَ المجاهدِ في سبيل الله حتىٰ يرجعَ إلىٰ أهله بما اكتسبه من أجرٍ أو غنيمةٍ))[2].

الإمام الشَّيخ الإمام أبو الحسن الشَّاذلي (ت 656هـ) ودوره الجهادي:

هو الإمام الشَّيخ الرَّبَّاني والولي الرَّحمانيُّ إمامُ التَّصوُّفِ، كان له نصيبٌ كبيرٌ من عُلوم الصُّوفيَّةِ والأحوال الرَّبَّانيةِ، وتخرَّج علىٰ يديه وفي طريقه آلافُ السَّالكين الصَّادقينَ. قال عنه الشَّيخ الفقيه ابنُ دقيقِ العيد: حضرتُ بالمنصورة مع الشَّيخ أبي الحسن وما رأيتُ أعرفَ بالله منه[3]. وكذلكَ أثنىٰ عليْه سلطانُ العلماء العزُّ بن عبدالسَّلام، وكان يقولُ عن كلامِه ووعظِه: هذا كلامٌ قريبُ العهدِ من الله. وكان يحضُرُ وعظَ الشَّيخِ ودروسَه في

---

(1) الفتوحات المكية (33/2).

(2) المصدر السابق (464/4).

(3) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص 68) تأليف: جلال الدين السيوطي- دار الفاتح للتراث الإسلامي- الطبعة الثانية- 1994م.

المدرسة الكامليَّةِ. وبالجملة، فما من عالمٍ أو شيخٍ من علماء الشَّريعة أو من علماء الطَّريق والسُّلوك إلَّا ويثني علىٰ الشَّيخ إذا تعرض للكلام عنه[1].

وللشيخ رِضوان الله عليه دورٌ كبيرٌ في إعداد النَّاس للجهاد في سبيل الله ضدَّ الغزو الصَّليبيِّ والهجمات التَّتارية بعد ذلك من التَّربية الرُّوحية والتَّزكية النَّفسية، بل وكان مُباشرًا للجهاد بنفسِه بعد أن وصل إلىٰ مصرَ واستقرَّ بها.

قال الشَّيخ ابن عطاء الله السَّكندري: ((أخبرني الشَّيخ مكين الدِّين الأسمر قال: حضرتُ في المنصورة وقتَ الحملةِ الصَّليبيةِ بقيادة لويس التَّاسع في خيمةٍ في معسكر القتال، فيها سلطان العلماء العزُّ بن عبدالسَّلام، والشَّيخ تقيُّ الدِّين بنُ دقيقِ العيد، والشَّيخ مجدُ الدِّين عليُّ بن وهب، والشَّيخُ محيي الدِّين بنُ سُراقة، والشَّيخ مجدُ الدِّين الأخميمي، والشَّيخ أبو الحسن الشَّاذلي ورسالة القشَيري في عِلم التَّصوُّف تُقرأ عليهم))[2].

وقد حَضرَ الشَّيخ الشَّاذليُّ المعركةَ بين الصَّليبيينَ والمُسلمينَ، وكانَ له فيها دورٌ كبيرٌ في إذكاء رُوح الجهادِ بين المُسلمينَ وتجميعِ النَّاس وحثِّهم علىٰ الجهادِ، فكان وُجودُ الشَّيخ ومعه علماءُ المسلمينَ يشبه التَّعبئةَ المعنويَّةَ في العُصورِ الحديثةِ.

الإمام الشَّيخ السيد أحمد البدوي (ت 675هـ) ودوره الجهادي:

كان الوقتُ الَّذي وُجد فيه السَّيدُ أحمد البدوي بمصرَ من أكثر الأوقاتِ المشحونة بالغزوِ والجهادِ في سبيل الله، سواءٌ كانَ الغزو الصَّليبي أو الغزو التَّتاري لبلاد الإسلامِ، وتلقَّاه الملك الظَّاهر بيبرس لما قَدِمَ إلىٰ مصرَ وأكرَمَه وعظَّمه[3]. وكان له ولمدرستِه دورٌ كبيرٌ في إخراج المُجاهدينَ والمتطوِّعينَ للقتالِ، حتَّىٰ إنَّ السيدَ البدويَّ كان يلقَّب بأبي الفِتيانِ. وما

(1) تأييد الحقيقة العلية (ص 65).

(2) لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن (ص 124) تأليف: ابن عطاء الله السكندري- تحقيق: عبدالحليم محمود- دار الكتاب المصري- الطَّبعة الأولىٰ- 1991م.

(3) شذرات الذهب (7/604).

سَبَقَ ذِكْرُه كان لمحةً وتعريفًا موجزًا لدَورِ أهل التَّصوف وأئمتِه وتأثير المنهج الصُّوفي في تحريكِ النَّفسِ إلىٰ ميادين الجهادِ في فترة الحروبِ الصَّليبيَّةِ؛ وذلك كنموذجٍ لما كان عليْه أهلُ التَّصوُّفِ من الجهادِ في سبيل الله والدِّفاعِ عن بلاد الإسلامِ.

وبعدَ أن ذكرْنا المشايخَ والعلماء نذهبُ لنُلقي الضَّوءَ علىٰ أهمِّ السَّلاطينِ والحكَّامِ المُجاهدينَ الذين أعادُوا للإسلامِ دولتَه ونصرُوا دينَ الله تعالَىٰ، وهم كُثر ونخصُّ بالذِّكرِ منهم السلطانَ نور الدِّين محمود والسُّلطان صلاح الدين الأيوبيَّ:

السُّلطان المجاهد نور الدِّين محمود زنكي (511 - 569 هـ):

كان رحمَه الله وَثيقَ العلاقةِ بربِّه، وحاملَ رايتي العدلِ والجهاد، من الصُّوفيةِ الزُّهاد العبَّاد، له علاقةٌ طيبةٌ بأهل الله، متَّخذًا منهم خيرَ سندٍ له في جهادِه ضدَّ الصَّليبيينَ كي تَعلُوا هِممُ النَّاسِ للجهاد في سبيلِ الله، وكان رحمه الله ممَّن قَصَمَ ظهورَ الصَّليبيينَ، واسترجع منهم المدنَ والقِلاع التي استولوا عليها بعد ذلكَ، وأجمع كُلُّ مَن ترجم له أنَّه كان ملِكًا شجاعًا عابدًا متزهِّدًا، جاعلًا من الجِهاد وسحقِ الصَّليبيين هدفَ وجودِه.

قال ابنُ كثير في البداية والنِّهاية: «قال الفقيهُ أبو الفتحِ الأشتريُّ مُعيدُ النظاميَّةِ ببغدادَ- وكان قدْ جمع سيرةً مختصرةً لنورِ الدينِ: وكان يحافِظُ علىٰ الصَّلواتِ في أوقاتِها في جماعةٍ بتمامِ شُروطِها وأركانِها وركُوعِها وسُجُودِها، وكان كثيرَ الصَّلاةِ بالليلِ، والابْتِهالِ إلىٰ الله عزَّ وجلَّ في أمورِه كُلِّها.

قال: وبلغَنا عن جماعةٍ منَ الصُّوفيةِ ممَّنْ يُعتمدُ علىٰ قولِهم أنَّهم دخلُوا بلادَ القُدسِ للزِّيارةِ أيام الفرنجِ، فسَمِعَ الكفارَ يقولونَ: ابنُ القَسِيمِ- يعْنونَ: نورَ الدِّينِ- له مع الله سرٌّ، فإنَّه ما يظفرُ علينا بكثرةِ جُندِه وجَيْشِه، وإنما يَظفرُ علينا بالدعاءِ وصلاةِ الليلِ، فإنَّه يُصلي باللَّيلِ ويرفعُ يده إلىٰ الله ويدعُوه، فالله سبحانَه وتعالىٰ يستجيبُ له دعاءَه ويُعْطِيه سؤْلَه،

وما يرُدُّ يدَه خائبةً، فيظْفَر علينا. قال: فهذا كلامُ الكُفار في حقِّه، رحمَه الله))[1].

وقال أبو القاسِم عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتابه ((عيون الرَّوضتيْن)): ((وبَلغني من شدَّة اهتمامِ نور الدِّين رَحمَه الله بأمرِ المسلمينَ حِينَ نزل الفرنجُ علىٰ دمياط أنَّه قرئَ عليْه جُزْءٌ من حَدِيثٍ كان له به رِوايةٌ فجَاءَ في جملةِ تلكَ الأحَادِيثِ حَدِيثٌ مُسلسلٌ بالتبسُّم، فَطلبَ مِنْه بعضُ طلبةِ الحديثِ أَن يتبسَّم لتتمَّ السلسلةُ، علىٰ ما عُرفَ من عادة أهل الحدِيث، فَغَضب من ذَلِكَ وقالَ: إنِّي لأستحيِي من الله تعالىٰ أَن يراني مُتبسِّمًا والمسلمونَ مُحاصرون بالفرنج.

وبلغني أنَّ إمامًا لنُور الدِّين رأىٰ لَيْلَة رحيل الفرنج عَن دمياط في منامه النبيَّ ﷺ وقال له: أَعْلِمْ نورَ الدِّين أنَّ الفرنجَ رحلُوا عَن دمياطَ في هذه الليلةِ. فقال: يا رسُولَ الله، ربَّما لا يصدقُني فاذكر لي عَلامَةً يعرفُها. فقال: قل لَهُ بعلامةِ مَا سجدتَ علىٰ تل حارم وَقلتَ يَا رب انصر دينك ولا تَنصُرْ مَحْمُودًا من هُو مَحْمُود الْكَلْب حَتَّىٰ ينصر. قالَ: فانتبهتُ وَنزلتُ إِلىٰ المسجدِ وكانَ من عادةِ نور الدِّين أَنَّه ينزل إليه بِغَلَس ولا يزالُ يتركع فيه حتىٰ يُصَلِّي الصُّبْحَ. قَالَ: فتعرضتُ له فسألَني عن أمري فأخْبرْتُه بالمنامِ وذكرتُ له العلامَةَ إِلَّا أَنَّي لم أذكر لفظةَ الْكَلْب. فقالَ نورُ الدِّين رحمَه الله تعالَىٰ: اذكر العلامَةَ كلَّها وألح عليَّ فِي ذَلِك فقلتُها))[2].

وقد قامَ رحمَه الله بعملِ مِنبرٍ لمسجدِ الأقصىٰ، وقال: هذا لأجلِ القُدسِ تيمنًا بفتحِه وتخليصِه من يد الصَّليبيِّينَ حتىٰ فتحَه صلاحُ الدِّين الأيوبيُّ، فأحضرَ هذا المِنبَرُ من حَلَبَ ونصبَه في المسجد الأقصىٰ[3].

---

(1) البداية والنهاية (16/490).

(2) عُيون الروضتيْنِ في أخبار الدَّولتين النُّورية والصلاحية (2/143) تأليف: أبي القاسم عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة- مؤسّسة الرِّسالة- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1997م.

(3) البداية والنهاية (16/592).

وكان له رحمه الله تعالىٰ علاقةٌ بشُيوخِ التَّصوُّف وأهلِه؛ قال ابنُ الأثير: ((وكان يحضُرُ مَشايخَهُم ويقربُهم ويُدنِيهم ويَتواضعُ لهم، فإذا أقبلَ أحدُهم إليْه يقومُ له مُذْ تَقعُ عينُه عليْه، ويَعتنقُه ويُجلسُه معه علىٰ سجادتِه، ويُقبل عَليْه بحَديثِه))[1].

فمن الذين كان السُّلطانُ نور الدِّين يزورُهم ويُشاورهم في أمرِ الجهادِ ضدَّ الفِرنجة الشَّيخ حياة بن قيس الحرَّاني (ت 581 هـ) كان رحمه الله صاحبَ أحوالٍ وكراماتٍ، زاره السُّلطان نور الدِّين وتبرَّك بلقائِه، فقوَّىٰ عزمَه علىٰ جهادِ الفِرنجة ودعا له[2].

ومنهم الشَّيخ عماد الدِّين محمد بن علي بن محمد بن حمويه، قال صاحب سَنَا البرقِ الشَّاميِّ: ((لم يكن له في عِلم الطَّريقة والحقيقة مُساوٍ، فَأَقْبَلَ عليه نورُ الدِّين بكليَّته))[3]. وعندما فَتَحَ نُورُ الدِّين الموصِلَ سنةَ (566 هـ) قصدَ الشَّيخ عمر المُلَّا في زاويتِه، وكان يستشيرُه في أمورِه ويعتمد عليه في مهمَّاتِه، وعندما غادر الموصِل أمرَ الوُلاةَ والأمراءَ بها أن لا يفعلوا أمرًا حتىٰ يُعلِموا المُلَّا به[4]. فهذا هو السُّلطانُ المجاهدُ الشَّهيدُ نور الدِّين محمود كانَ من أهلِ الزُّهدِ والسُّلوك والتَّعبُّدِ، وكان يقرِّبُ أهلَ الله ويُدنيهم من مجلِسِه، ويَسوسُ البلادَ سياسةً قائمةً علىٰ التَّربيةِ الرُّوحية الدِّينيةِ، فبَنَىٰ الرُّبطَ والخَانْقاتِ الصوفية في جميع البلاد، ووقف عليها الأوقافَ الكثيرةَ، فكان هذا الفعل مصدرًا لإمداد البلادِ بالمجاهدين من المُريدين الذين تربَّوا في هذه الأربطةِ، وكان عهدُه مُقدِّمةً كبرىٰ لمقدمِ صلاح الدِّين الأيوبي والتَّهيئة لاستعادة القُدسِ واسترداد أراضي المُسلمينَ.

---

(1) الباهر في الدولة الأتابكية (ص 171) تأليف: ابن الأثير الجزري- تحقيق: عبدالقادر طليمات- دار الكتب الحديثة- القاهرة.

(2) سير أعلام النبلاء (182/21).

(3) سنا البرق الشَّامي من كتاب البرق الشامي (ص 71) تأليف: الفتح بن علي بن محمد البنداري- تحقيق: فتحية النبراوي- مكتبة الخانجي- 1979م.

(4) المصدر السابق (ص 98).

السُّلطان المجاهد صلاح الدِّين يوسف بن أيوب (ت 589هـ):

إنَّ شُهرةَ السُّلطان النَّاصر صلاح الدِّين الأيوبي في ساحات القتالِ في سبيل الله واسترجاع بلاد المسلمين أكبرُ من أنْ تخفىٰ علىٰ أحدٍ، فقد أَكْمَلَ صلاحُ الدِّين ما بدأه السُّلطانُ نور الدِّين محمود زنكي من الجهاد ضدَّ الصَّليبيِّين، وقام بتحريرِ كثيرٍ من المُدنِ التي كانت بحوزتِهم وردِّها إلىٰ حَظيرةِ الإسْلَامِ، وتوَّج ذلك كلَّه بفتح القُدس في شهر رجب عام (583هـ).

وكان رحمه الله مجاهدًا صوفيًّا سنيًّا، كما ذَكَرَ ذلك عنه جميعُ مَن ترجم له، مُقرَّبًا لمشايخ التَّصوُّفِ وأئمَّتِه، مُعتنيًا ببناء المدارس والأربطةِ لهم، وقد ارتبطَ اسمُه بالصَّلاح والزُّهد والورع، كما وصفَه السُّبكي في الطَّبقات: «التقىٰ النَّقي الْعَالم الذكي الْعَادِل الزكيُّ فاتح الْفتُوح بركَةُ أَهلِ زَمَانه»[1]. وكان من أكبر المؤثِّرين في شخصيته الملكُ العادلُ نورُ الدِّين محمود، تعلَّم منه صلاح الدِّين طرقَ الخيرِ ومحبَّةَ أهلِ التَّصوُّفِ والعِلْمِ، فسار علىٰ دَربه في ذلك واقتدىٰ به، ولنذكر طرفًا من تصوُّف هذا السُّلطان المجاهِد كما ورد في التراجِم والسِّيَرِ؛ فقد فقال عنه ابنُ كثير: «وكان رحمه الله أينما حلَّ ونزلَ يبني المدارسَ الشَّرعيةَ والمدارسَ الرُّوحية جنبًا إلىٰ جنب، فخلال فَتْحِ صلاح الدِّين للقُدس أمرَ المسلمين بالمحافظة علىٰ كنيسة القيامة، وبنىٰ بالقُرب منها مدرسةً للفقهاء الشَّافعية ورباطًا للصُّلحاءِ الصُّوفيَّة، ووقف عليْهما وقوفًا»[2].

وكان يصحبُه أهلُ التَّصوُّفِ والسُّلوكِ في غزواتِه، فقد قال ابنُ خلِّكان عند وصفه لفتحِ القُدس: «وكان فَتحُه عظيمًا، شهدَه من أهلِ العِلْم خَلقٌ، ومِن أرباب الخِرَقِ- وهم

(1) طبقات الشافعية الكبرىٰ (340/7) تأليف: تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي- تحقيق: د: محمود الطناحي، د: عبدالفتاح الحلو- دار هجر- الطبعة الثانية- 1988م.

(2) البداية والنهاية (327/12).

أهل التَّصوُّف والزهدِ- عالَمٌ))[1].

وقالَ ابن الورديِّ في تاريخِه: ((وشَهِدَ فتحَه كثيرٌ من أربابِ الخِرَقِ والزُّهد والعُلماءُ في مصرَ والشَّام، بحيث لم يتخلَّف منهم أحدٌ))[2].

وكان صلاحُ الدِّين رحمه الله يودُّ أهلَ التَّصوُّفِ وأئمتَه؛ فقد زار الوليَّ الكبيرَ العبدَ الصَّالحَ حياةَ بنَ قيسٍ، وتبرَّكَ بزيارتِه، وطلب منه الدُّعاءَ، وشاوره في أمرِ فتح مدينةِ الموصلِ[3]. وكان يحترمُ ويُقرِّبُ الطَّبيبَ الصُّوفيَّ الأندلسيَّ عبدَالمُنعم الجلْيانيَّ الأندلسي (ت602هـ) نزيل دِمَشق، وقد رافق الجلْيانيُّ صلاحَ الدِّين في معظم حروبِه كطبيبٍ يَرْعَىٰ حالةَ الجيوشِ، قال عنه ابنُ شاكرٍ: ((كان أديبًا فاضلًا حاذقًا، له معرفةٌ بعلوم الباطن وكلام علىٰ طريق القوم))[4].

وحُكي عن السلطان صلاحِ الدين أنه كان يجتمعُ في مجالسِ الذِّكرِ والوعظِ مع أهلِ التَّصوُّفِ، كما وَرَدَ في كُتبِ التَّراجِم، ويَسمع القصائدَ والمدائحَ النَّبويةَ الشَّريفةَ، كما قال ابنُ الأثير في الكامل: ((كان يحضرُ عندَه الفقراءُ والصُّوفيَّة، ويعمل لهم السَّماعَ، فإذا قام أحدُهم لرقصٍ أو سماعٍ يقومُ له فلا يقعد حتىٰ يفرغَ الفقيرُ))[5].

وقال المقريزيُّ: ((إنَّ صلاحَ الدِّينِ الأيوبيَّ أوَّلُ مَن أنشأ خانقاه للصُّوفية بمصرَ، ووقف عليها أوقافًا كثيرةً، وكان سُكَّانُها يُعرفونَ بالعِلْمِ والصَّلاحِ، وَوَلي مشيختَها

(1) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (7/179) تأليف: أبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان- تحقيق: إحسان عباس- دار صادر- بيروت.

(2) تتمة المختصر في أخبار البشر (2/95) تأليف: عمر بن مظفر بن الوردي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1996م.

(3) سير أعلام النبلاء (21/182).

(4) فوات الوفيات (7/307) تأليف: محمد بن شاكر الكتبي- تحقيق: إحسان عباس- دار صادر- بيروت- 1974م.

(5) الكامل في التاريخ (10/119) تأليف: علي بن أبي الكرم ابن الأثير- تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري- دار الكتاب العربي- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1997م.

الأكابرُ ومَن تُرجىٰ بركتُهم))[1].

فهذه أمثلةٌ تدلُّ علىٰ تشبُّعِ رُوحِ سلطانٍ من سلاطين المسلمين وقائدٍ من قادةِ المجاهدِين بروحِ ومنهجِ التَّصوُّفِ، سلوكًا وعملًا وتقرُّبًا من أهل التَّصوُّف، والأخذ عنهم والتَّبرُّك بهم، وكلُّ ذلك مبسوطٌ في تَراجمهم وسِيرهم، وإنَّما ذكرنا طرفًا منه فقط ليَستدلَّ به القارئُ علىٰ وجود المنهجِ الصُّوفيِّ في حياة المجاهدين في سبيل الله، وأنه كان مُحركًا لهم علىٰ مسيرةِ الجهادِ.

القسم الثاني: مرحلة هجوم التَّتار علىٰ العالم الإسلاميِّ:

ذكرنا من قبل أنَّ الهجمةَ التَّتاريةَ علىٰ العالم الإسلاميِّ كانتْ مُعاصِرةً للهجمات الصَّليبيَّةِ، وتُعدُّ هذه الهجمة من أشدِّ ما حدث للإسلامِ والمسلمين علىٰ طول تاريخه منذُ أن بدأ في الجزيرة العربية، فقدِ انتهت الخلافة العباسيَّة ببغداد منبع وشعاع العلم بل كل العلوم علىٰ أيدِيهم بعد أن استمرت بها أكثر من خمسمائةِ سنة، وضاع كثيرٌ من تراثِ الأمة في نهري دجلة والفرات، وتنكَّبَ المُسلمونَ شَرَّ نكبةٍ في تاريخهم، وتغيَّر لون دموع المسلمين إلىٰ لون الدم علىٰ ما حدث لهم، وكانتْ بالفِعلِ نعيًا للإسلام والمسلمين، وذكَرَها المؤرِّخونَ في تواريخهم وهم كارهون لهذا الذِّكر لهول ما أصابَ أمة سيدنا محمد ﷺ.

وكان لابدَّ من نصرٍ يُقيمه الله علىٰ يدِ من يريده سبحانه وتعالَىٰ، فقد كتبَ الله علىٰ كلِّ شيء رفعَه أن يضعه كما رفعه، فوضعَ الله من شأن التتار في موقعة عين جالوت الَّتي قام بها المُسلمونَ تحت قيادة الملك المظفَّر سيف الدِّين قُطز والأمير المجاهد ركن الدين بيبرس البندقداري الذي أصبح بعد المظفَّر ملك مصر والشام وتعقَّب التتار في أماكنهم وقطع دابرهم. وقد برزَ في هذا النَّصر العظيمِ الذي أعاد للإسلام هيبتَه أثرُ ودورُ كثيرٍ

(1) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (282/4) تأليف: أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ.

من العلماءِ والزُّهادِ من عُلماءِ الشَّريعةِ والتَّصوُّفِ، وكانَ علىٰ رأسِ هؤلاءِ:

سلطانُ العلماءِ الشَّيخ عزُّ الدِّين بن عبدالسَّلام:

تأثر الشَّيخُ العِزُّ باللِّقاء مع الإمام أبي الحسن الشَّاذليِّ، واشتُهرَ بالوَرَعِ والزُّهدِ في مُتع الدُّنيا وفي المناصبِ، وكانت له مع ذلك المواقفُ الجِهاديةُ وقتَ الحملاتِ الصَّليبيَّةِ، وثناء العلماء عليه مشهورٌ، ومصنَّفاته شاهدةٌ بعلمه، قال عنه الشَّيخ أبو الحسن الشَّاذلي: ما علىٰ وجه الأرض مجلسٌ في الفقه أبهىٰ من مجلسِ عزِّ الدِّين بن عبدِالسَّلام، وصنف في عِلْمِ التَّصوُّفِ: «مسائل الطَّريقة في عِلْمِ الحقيقة»، و«شجرة المعارف والأحوال»، و«مختصر رعاية المحاسبي»، وقد وصفه الإمامُ السُّبكيُّ رحمه الله فقال: «وقد كانت للشَّيخ عزِّ الدِّين اليدُ الطُّولىٰ في التَّصوُّف، وتصانيفُه قاضية بذلك»[1].

وكانت له رحمه الله مع ملوك وأمراء الشام- وقتَ الحروب الصَّليبية- مواقفُ، يأمرُهم فيها بالمعروف وينهاهُم عن التَّحالف مع الصَّليبيِّينَ، حتىٰ إنَّه أفتىٰ بخلع الصَّالح إسماعيل أميرِ دِمَشق لما أَذِنَ ببيع السِّلاح للفِرنجة، وفي سنة (656هـ) اندفعت جيوشُ التَّتار كالجراد فدمَّرت عاصمةَ الخلافةِ الإسلاميةِ بغدادَ، وقتلت الخليفة، وارتكبوا المجازرَ والمذابحَ، وداهموا بلادَ الشَّام، وجَبُنَ النَّاسُ عامَّتُهم وملوكُهم عن ملاقاتِهم والخروجِ للحربِ ضدَّهم، ولم يَبْقَ إلَّا مصرُ، فكان للشَّيخ العزِّ بنِ عبدِالسَّلام في إعداد النَّاس للجهاد أعظمُ الأدوارِ، فصنَّف كتابًا سمَّاه: «أحكام الجهاد» تكلَّم فيه عن الجهاد وفَضلِه وأحكامِه، وشدَّ من عزم سُلطان مصرَ وقتئذٍ الملك المظفَّر سيف الدِّين قُطز، وأصدر فتواه بجوازِ الأخذِ من مالِ الرَّعيَّةِ للاستعدادِ للجهادِ بشرط ألَّا يبقىٰ مالٌ في بيوتِ مالِ المسلمينَ، وأنْ يتبرعَ الأمراءُ وكبارُ رجال الدَّولةِ والجُند بجميع ما عندهُم ويتساوون مع العامَّة، وقام فوقَ ذلك بإعداد الوعَّاظِ لحثِّ النَّاسِ علىٰ الخروج للجهادِ، وكان يشترطُ علىٰ

(1) طبقات الشافعية الكبرىٰ (8/215).

مَن يعظ أنْ يكون مُتقنًا حافظًا لسورة الأنفال؛ لما فيها من ذِكر الجِهاد والثَّبات، وقد جاوزَ وقتها الثَّمانين من عُمُره وقتَ موقعة عَين جالوت، فطيَّبَ الله بصرَه برؤيةِ انتهاء التَّتار.

- ثم دخل التَّتارُ بعد ذلك في دين الإسلام، وكان للصُّوفية أثرٌ كبيرٌ في هذا الدخول وانتشار الإسلام بين قبائل التَّتارِ؛ فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن مِن أكابر ملوك التَّتار الذين دخلوا الإسلام هو السُّلطان بركة خان، الذي التقىٰ مع الشَّيخ نجم الدين مختار الزَّاهدي فأسلم علىٰ يديه، ثمَّ تبعه كثيرٌ من التَّتار علىٰ الإسلام، وكان هذا الملك من النَّاصحين للسُّلطان بيبرس في قِتالِه للتتار الذين لم يؤمنوا والقضاء عليهم، فكان إسلامُه وإسلام أتباعه علىٰ يد الصُّوفي الكبير الشَّيخ نجم الدين مختار الزاهدي خيرًا لهذه الأمة[1].

- ومن هؤلاء أيضًا العالم الزاهد سعد الدِّين بن حَمُّوَيْه؛ فقد ذكر صاحب النُّجوم الزَّاهرة عنه أنه «كان زاهدًا عابدًا متكلِّمًا في الحقيقة، وله مجاهداتٌ ورياضاتٌ، اجتمع بملك التَّتار فأحسن الظَّنَّ به وأسلم علىٰ يديه خلقٌ كثيرٌ من التَّتار، وبنىٰ هناك خانقاه، وكان له قبولٌ عظيمٌ»[2].

- ومنهم أيضًا الإمامُ الشَّيخ إبراهيمُ بن محمد بن المؤيد الجُويني الشَّافعي الصُّوفيُّ؛ فقدْ أسلم علىٰ يده ملك التَّتار غازان حفيد هولاكو، وكان لهذا الحَدث أعظمُ الأثر في تحول عسكرِه في إيران وأكثر بلاد ما وراء النَّهرِ إلىٰ الإسلام، وشيئًا فشيئًا فشا فيهم الإسلامُ كلهم، وتسمَّىٰ الملكُ غازان باسم محمود، وتحولت مملكته من ديارٍ للكفرِ إلىٰ دارٍ للإسلام بفضل جهود شيوخ التَّصوُّف[3].

---

(1) البداية والنهاية (17/448).

(2) النُّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (7/27، 28) تأليف: يوسف بن تغري بردي بن عبدالله- قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطَّبعة الأولىٰ- 1992م.

(3) انظر: الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (1/67).

وكذلكَ كان لأهل التَّصوُّفِ ومشايخِه الدورُ الكبيرُ في إسلام شعوبِ المغول في مناطق آسيا بعد ذلك؛ فكان لجهودِ الشَّيخِ الصُّوفيِّ جلال الدِّين التَّبريزيِّ دورٌ في إسلام سكان جبال البِنغال، وأخذ المسلمونَ الجُدُد يُقبلونَ علىٰ التَّصوُّف، واشتُهرتِ الطُّرقُ الصُّوفيَّةُ كالسَّهروردية والطريقة المَولويَّة- نسبة إلىٰ الشَّيخ جلال الدِّين الرُّومي- والتي كانت زواياها مُنتشرةً في آسيا الوُسطىٰ، وكان للطَّريقة النَّقشبنديَّة عظيمُ الأثرِ في الدَّعوة إلىٰ الإسلامِ في منطقة وسط آسيا والهند، وانخرطَ كثيرٌ ممَّن أسلمَ بعد ذلك في هذه الطَّريقةِ.

وهكذا كان عصر هجمة التَّتارِ علىٰ ديار الإسلام من العصور التي ظهر فيها الدور الصُّوفيُّ في الحثِّ علىٰ الجهاد والجمع له، وكذلك في نشر الإسلام بين صفوف هؤلاء الغزاة ثانيًا.

القسم الثالث: نشأة الدَّولة العثمانيَّة وفتح القُسطَنطِينيَّةِ (857 هـ):

للتَّصوف في الدَّولة العُثمانية منذ قيامها دورٌ بارزٌ، وله ظهورٌ عظيم في تلك الدَّولة في كافَّة النَّواحي، وكان من أعظم أعمال هذه الدَّولة هو فتح مدينة القُسْطَنْطِينيَّة- عاصمة الدَّولة البيزنطية- والتي كانت أحد معاقل الدِّيانة النَّصرانية في ذلك الزَّمانِ، فكان فتحُ القُسطنطينية أشبهَ بالمعجزةِ، لاسيَّما وقد استعصتْ علىٰ الفاتحينَ المسلمينَ عبر العصورِ، وقد جاء في الحديثِ الشَّريف عن رسول الله ﷺ: ((لَتُفْتَحَنَّ القُسْطَنْطِينيَّةُ، فلنِعْمَ الأميرُ أميرُها ولنِعْمَ الجيشُ ذلك الجيشُ))[1].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (4/ 335)، والبزار في مسنده (1848- كشف الأستار)، والطَّبراني في الكبير (38/2)، والحاكم في مستدركه (4/ 421) من طريق زيد بن الحباب قال: حدَّثني الوليد بن المغيرة المعافري قال: حدَّثني عبدالله بن بشر الخثعمي عن أبيه به مرفوعًا. وقال الحاكم: ((صحيحُ الإسناد ولم يخرِّجاه)) ووافقه الذَّهبيُّ. وقال الهيثميُّ في مجمع الزَّوائد (6/ 323): ((رَواهُ أحمدُ والبزَّارُ والطَّبرانيُّ، ورجالُه ثقاتٌ)).

وكان فتح القُسْطَنْطِينيَّةِ نقطةَ انطلاقٍ نحو توطيدِ دعائم الدَّولة الإسلاميَّةِ، سواءٌ في المشرق الإسلاميِّ أو في الشَّمال من البحر المتوسِّط، ودخل الإسلامَ بعد هذا الفتح كثيرٌ من مَسيحي أوروبَّا.

مظاهر المنهج الصُّوفي في شخصية السُّلطان محمد الفاتح:

يلقب بالفاتح وأبي الخيرات وأبي الفتوح، وكان منذ نشأته مقرَّبًا من والده السُّلطان مراد الثاني، ويعايش صراعَ الدَّولة العثمانية الإسلامية مع الدَّولة البيزنطيَّةِ المسيحيةِ، وعيَّنه أبُوه حاكمًا علىٰ مدينة أماسيا وهو في الحادي عشر من عمُره، وكان السُّلطان يرسل إليه عددًا من المعلِّمين؛ لكنه لم يمتثلْ لأمرهم ولم يقرأ شيئًا، حتىٰ إنَّه لم يختم القرآنَ حتىٰ ذلك الوقت، فطلب السُّلطان مراد رجلًا له مهابةٌ وشدَّةٌ، فذُكر له الشَّيخُ العلامة العامل أحمد ابن إسماعيل الكورانيُّ، فجعله معلِّمًا لولده محمد.

الشَّيخُ العلامة أحمد بن إسماعيل الكورانيُّ:

وكان هذا الشَّيخ أول المؤثِّرين في شخصية السُّلطان محمد الفاتح في صِغره من حيث التأثُّر الدِّيني والرُّوحي، وكان الشَّيخ الكورانيُّ من أغزر أهل عصرِه في العلوم، وقد سافر إلىٰ بلاد كثيرةٍ وقرأ علىٰ علمائِها، وأعطاه السُّلطان مراد قضيبًا يضرب به الأميرَ محمدًا إذا عصاه وخالف أمرَه، فدخل عليه والقضيب بيده، وقال له: أرسلني والدك للتَّعليم والضَّربِ إذا خالفتَ أمري، فضحك محمَّدٌ من هذا الكلام، فضربه الشَّيخ الكورانيُّ في ذلك المجلس ضربًا شديدًا حتىٰ خاف منه الأميرُ محمد، وختم القرآنَ في مدةٍ يسيرةٍ، وكان هذا الشَّيخُ من أهل الوَرعِ والدِّيانةِ، فكان يختم القُرآنَ في كلِّ ليلةٍ، وكان قوَّالًا بالحق، وكان يخاطبُ السُّلطان محمَّدًا بعد توليه السَّلطنة باسمِه، ولا ينحني له، ويصافحُه فقط،

وقد مات وقتَ أذانِ العصرِ، لما قال المؤذِّنُ: الله أكبر، قال الشَّيخ: لا إله إلا الله، وفاضت رُوحه[1].

الشَّيخ العالم آق شمس الدِّين:

بَرَزَ دورُ الشَّيخ العالم آق شمس الدِّين في تكوينِ شخصيَّةِ السُّلطان محمد الفاتح منذ الصِّغر، وكان هذا الشَّيخ من أكابر أهل التَّصوُّفِ والمعرفةِ والتَّعبُّدِ في عصرِه، وكان مقرَّبًا من السُّلطان محمدٍ منذ صِغَره، وكان دائمَ التَّذكير له بحديث رسولِ الله ﷺ بفتح القُسْطَنْطِينيَّةِ؛ كي يغرسَ فيه أن يكونَ هو مَن يفتحها وينالَ شرفَ البِشارةِ النَّبويَّةِ. وكانَ هذا الشَّيخُ من أعلام الحضارةِ الإسلاميَّةِ والعلومِ في العصرِ العثمانيِّ، وله من المؤلفات: رسالة في الطِّبِّ، ورسالة في التَّصوُّفِ، وله كتابٌ في الدِّفاع عن ابن عربي، ورسالة النُّور في عِلم التَّصوُّف أيضًا.

دَورُه في فتح القُسْطَنْطِينيَّةِ: ذُكِر عنه أنَّه بشَّر السُّلطانَ بالفتح، وكان معه وقتَ الغزو هو وكثيرٌ من العُبَّادِ والزُّهَّادِ وأهلِ التَّصوُّفِ والفقراءِ، وكان قد حددَّ موعدَ فتح المدينة، وأخبر السُّلطان بذلك كبشارةٍ له؛ يقول طاش كبرىٰ زاده: «أما الشَّيخ آق شمس الدِّين فقال: سيدخُلُ المسلمونَ القَلعةَ من الموضع الفلانيِّ في اليوم الفلانيِّ وقتَ الضَّحوةِ الكُبرىٰ، وأنتَ تكونُ حينئذٍ عند السُّلطان محمد خان، وحكىٰ بعضُ أولادِه أن هذا الوقتَ قد جاء ولم تنفتح القَلْعَةُ، فحصل لنا خوفٌ عظيمٌ من جهة السُّلطان، فذهبتُ إلىٰ الشَّيخ في خَيمتِه، وواحد من خُدَّامه علىٰ الباب ومنعني من الدُّخول؛ لأنه أوصاه ألَّا يدخلَ عليه أحدٌ، فرفعت أطنابَ الخَيمةِ ونظرتُ فإذا هو ساجدٌ علىٰ التُّراب، ورأسُه مكشوف وهو يتضرَّعُ ويبكي، فما رفعتُ رأسي إلا قام علىٰ رِجلِه وكبَّر، وقال: الحمد لله

---

(1) الشَّقائقُ النعمانيَّة في علماء الدَّولة العثمانيَّة (صـ 55) تأليف: طاش كبرىٰ زاده- دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان.

منحنا الله تعالىٰ فتحَ القَلْعَةِ، قال: فنظرتُ إلىٰ جانب القَلْعَةِ فإذا العَسكرُ قد دخلوا بأَجمعِهم، ففتح الله ببركة دعائِه، وكانت دعوته تخترق السَّبع الطِّباقَ، ثم تفرق وتملأُ بركاتُها الآفاقَ، ولمَّا دخل السُّلطان محمَّد القلعةَ نظر إلىٰ جانبِه فإذا ابن وليِّ الدِّين، فقال: هذا ما أخبر به الشَّيخ، ثم بعد يوم جاء السُّلطان محمد إلىٰ خيمة الشَّيخ وهو مضطجع فلم يقمْ له فقبَّل السُّلطانُ محمَّد يدَه، وقال: جئتكَ لحاجةٍ عندكَ، قال ما هي؟ قال السُّلطان: أريدُ أن أدخلَ الخلوةَ عندك أيامًا، قال الشَّيخ: لا، فأبرم عليه مرارًا وهو يقول له: لا، فغضب السُّلطان من ذلك، وقال: إنَّ واحدًا من الأتراك يجيء إليكَ وتدخله الخلوةَ بكلمةٍ واحدةٍ، قال الشَّيخ: إنك إنْ دخلتَ الخلوةَ تجد لذَّةً تُسقطُ السَّلطنةَ من عينكَ وتختل أمورُها فيمقت الله إيَّانا، والغرضُ من الخلوة تحصيلُ العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا، وذكر ما بَدا له من النَّصائح، ثم أرسل له ألفيْ دينارٍ فلم يقبل، فقام السُّلطان محمد وودَّعه والشَّيخ مضطجع كما هُو))[1].

فهذا الشَّيخ والتِّلميذ، أو إنْ شئت فقل: هذا الشَّيخُ والمريدُ، وكان مِنْ بركات الشَّيخ والسُّلطان في هذه الغزوةِ ظهورُ قبرِ الصَّحابيِّ الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي كان قُربَ أبواب القُسطنطينيَّة، فإنَّ صورةَ السُّلطان الفاتح صورةُ الإمام المجاهد، والسُّلطان الشَّجاع، والصُّوفيُّ المريد، والقوي الذي شيَّدَ للإسلام دولةً، وتوَّجَ ذلك بفتح القُسْطَنْطينيَّةِ، التي عُرفت فيما بعد باسم إسلام بول، أي: مدينة الإسلام أو تحتَ الإسلامِ. ◆

---

(1) الشَّقائق النُّعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص 140).

الخاتمة

إنَّ ما مرَّ من سطورٍ وكلماتٍ أيُّها الأخُ المسلمُ الكريمُ ما هو إلا لمحةٌ عن عظمةِ دِين الإسلامِ، الذي كانَ من ثمارِه وجودُ المنهجِ الصُّوفيِّ الرَّبانيِّ، والذي يُمثِّل مقامَ الإحسانِ في شريعةِ الإسلامِ، وخروج أهل الجهادِ في سبيل الله من عباءةِ هذا المنهج الرُّوحاني، فكان المنهجُ الصُّوفيُّ يجاهدُ بالسَّيفِ والدَّعوةِ معًا، وكان الصُّوفيَّةُ أهلَ الجهادِ والمجاهدةِ في سبيل الله، ومن أرادَ التَّأكُّدَ من ذلك وزيادة المعرفةِ عنهم وعن فضلِهم وجِهادهم فلينظرْ في كُتب السِّيرِ والتراجِمِ قديمها وحديثِها فسيجد للنهج الصُّوفيِّ ورجالِه نصيبًا وافرًا من الجهادِ في سبيل الله بالسَّيفِ والكلمةِ.

ومن الظُّلم والتَّجنِّي عليهم أن يُنكرَ دورُهم في الجهادِ وفي نشرِ دين الإسلام، ويتهجَّم علىٰ التَّصوُّفِ بأنَّه يدعُو إلىٰ الدَّعة وعدم مقاومةِ الغزاةِ والمستعمرينَ لأهدافٍ خبيثةٍ، منها: التَّنفيرُ من منهج التَّصوُّفِ، والتَّمهيد لمناهجَ أخرىٰ تخرج عن وسطيةِ الإسلامِ التي ارتضاهَا الله للأمَّةِ الإسلاميَّةِ.

نعم، لا نُنكرُ أنَّه قدِ انتمَىٰ للتصوُّفِ مَنْ لا يَعرِفُ منه إلا الاسمَ، ويتمُّ استغلالُ هذا الأمرِ في الدِّعايةِ ضدَّ المنهجِ الصُّوفيِّ كلِّه وضدَّ أهله، فَمَن ينتسبونَ للتَّصوُّفِ- وهم ليسوا علىٰ منهجِه كما حدَّده أئمَّتُه وشيوخُه وكما هو مدوَّنٌ في كُتُبِه المعتمدةِ- إمَّا جاهلٌ معذورٌ بعدم العِلْمِ وضعفِ العَقْلِ، وإمَّا ذو أهدافٍ دُنيويَّةٍ يحصِّلُها من الانتسابِ للتَّصوف، ولكن أن يكون موقفُ بعضِ مَن لم يعرف التَّصوُّفَ هو الهجوم عليه حتىٰ بدون أنْ يبحثَ أو يُكلِّفَ نفسَه التَّأكدَ من صحَّة ما يُلقَّنُ من مَعلوماتٍ أو أكاذيبَ حول التَّصوُّفِ، فهذا عكسُ ما أمر الله به تعالىٰ المسلمَ أنْ يفعلَه، فنحن نَرىٰ كثيرًا من المُنتسبينَ للإسلامِ لا يَمتُّونَ له بصلةٍ في السُّلوكِ والأقوالِ والأفعالِ وطُرُقِ الحياةِ والأفكارِ، فهل معنىٰ ذلك أنَّ هؤلاء هم مَن يُمثِّلونَ الدِّينَ؟!

الجواب عند كلِّ عاقلٍ منصفٍ فضلًا عن المسلم: لا، فكذلك الأمرُ بالنِّسبةِ للتَّصوُّفِ وعلومِه لا يضرُّه أنْ يكونَ بعضُ المنتسبينَ إليه ليسوا أهلًا لذلك، فكُتبُ التَّصوُّفِ وتراجُمُهِم وكلامُهم في التمسُّك بالشَّريعة والتَّوحيد موجودةٌ ومدونةٌ وميسرةٌ لمن أراد أن يعرفَ التَّصوُّفَ ويحكم عليه، أمَّا مَن يتكلَّمُ بغيرِ علمٍ ولا اطِّلاعٍ فهو من المتجرئينَ بالكلامِ في دِينِ الله وهو لا يدرِي، ويصدُّ المسلمين عن الأخذِ بالجوانب الرُّوحيَّة في دِينه؛ تحقيقًا لأهدافٍ وأغراضٍ غيرِ الدَّعوة إلىٰ الله وإلىٰ دلالة النَّاس لطريق الهدايةِ إليه.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆



« لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ » - آية 11 من سورة الشورىٰ

الرسالة العاشرة
المحبة ومراتبها عند السادة الصوفية

وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأول: الآياتُ والأحاديثُ الدالة علىٰ المحبَّة.

المحور الثاني: مقام المحبَّة عند أهل التَّصوفِ والسُّلوكِ.

المحور الثالث: المحبة في كلام أهل التَّصوفِ.

المحور الرابع: أشعار السادة الصُّوفية عن المحبَّة.

المحور الخامس: أسبابُ المحبة وعلاماتها.

المحور السادس: خاتمة في مرَاتب المحبَّةِ عندَ أهلِ التَّصوفِ. ◆



« هُوَ ٱلَّذِی یُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦۤ ءَایَـٰتِۭ بَیِّنَـٰتࣲ لِّیُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفࣱ رَّحِیمࣱ » – آية 9 من سورة الحديد

المحبة ومراتبها عند السَّادة الصوفية

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فإنَّ محبَّة الله سبحانه وتعالى غايةُ كلِّ غايةٍ ونهايةُ كلِّ نهايةٍ، وهي المنزلةُ التي أرادَها العارفون، وقصدَها الأولياء والسَّالِكون، وتنافسَ فيها المتنافسونَ، وإليها شَخَصَ العاملون، وعليها تفَانى المخلِصونَ، وفي محرَابها سجدَ الأنبياءُ والمرسلون والملائكةُ المقرَّبون، وهي الرَّوح والرَّيحان، وهي حلاوةُ الإيمان، وهي حياةُ القلوب والأرواحِ التي مَن لم يذقْها فهو مِن جملةِ الأموات، وهي النُّور الذي مَن فقدَه فهو مَغبونٌ، والشِّفاء الذي مَن عُدِمه لزِمَت قلبَهِ الأسقَام، واللَّذة التي مَن لَم يظفَرْ بها فعيشه كلُّه همومٌ وآلام.

وسوفَ نتنَاول في هذا البحثِ الموجَز موضوعَ الحبِّ الإلهيِّ أو محبَّة الله عند الصُّوفيَّة أو في المَنهج الصُّوفيِّ، فالحبُّ الإلهيُّ عند أهل التَّصوُّفِ والسُّلوك هو رُوح التَّصوُّف، وهو شعاره ودِثاره، وهو بدايةُ البداياتِ ونهايةُ النِّهايات، وكأسُ المحبَّة في التَّصوف تكْمُن فيها الأسرارُ والأنوارُ والفيوضاتُ، فحبُّ الله هو جَوهر التصوُّف، وأصلُ الإرادةِ والسُّلوك، والمحرِّك القَلبيُّ لجميعِ الحركات والسَّكنات، والمحبَّة عندَ الصُّوفيِّ الصَّادقِ هي الغايةُ القُصوَى من المقاماتِ، والذُّروة العليا من الدَّرجات، فما بعد إدراكِ المحبَّة مِن مقامٍ إلَّا وهو ثمرةٌ من ثمارِها وتابعٌ مِن توابعِها، وليسَ قبلَ مقامِ المحبَّةِ مقامٌ إلَّا وهو بدايةٌ لها، فهي المبتدأُ وهي المنتَهى، وهي مِن الفيوضاتِ الإلهيَّة والأنوارِ الرَّحمانيَّةِ على قلوبِ العِباد، وكلامُنا عنها محاولةٌ للتَّعرُّف عليها مِن خلال ما تذوَّقه منها أهلُ المعرفةِ والمحبةِ وأهلُ الانقطاعِ إلى الله الصَّادقون. وسوفَ يكون الكلامُ في هذا البحثِ مُتمثِّلًا في المحاور التَّالية:

المحور الأول: الآياتُ والأحاديثُ الدالة على المحبَّة.

المحور الثاني: مقام المحبَّة عند أهل التَّصوفِ والسُّلوكِ.

المحور الثالث: المحبة في كلام أهل التَّصوفِ.

المحور الرابع: أشعار السادة الصُّوفية عن المحبَّة.

المحور الخامس: أسبابُ المحبة وعلاماتها.

المحور السادس: خاتمة في مرَاتب المحبَّةِ عندَ أهلِ التَّصوفِ. ◆

الآياتُ والأحاديث الدالة على المحبة

محبَّة الله سبحانَه وتعالىٰ هي أَصلُ الإيمانِ وحقِيقتُه، وهي أساسُ النَّجاحِ والفَلاحِ، وهي المُحرِّك للقلوبِ والأرواحِ في كلِّ توجُّهاتِهما، وهيَ المحرِّك للأبدانِ في كلِّ أعمالِها، وهيَ أصلُ التَّوحيدِ وثمرتُه، فالمَحبَّةُ هي التي تَملأُ القلبَ بالتَّعظِيمِ والإجلالِ لربِّ العالمين، فالمؤمنُ الصَّادق هو مَن أُشرِبَ قلبُه بمحبَّةِ الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾ [البقرة: 165] وقالَ رسولُ الله ﷺ ((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَن يكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهما، وَأَن يُحِبَّ المَرءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وأَن يَكرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))[1] فحبُّ المؤمنِ لله عز وجلَّ هو مِقياسُ الإيمانِ وهو ثَمرتُه في الوقتِ نفسِه. وكلَّما عرَف المؤمنُ ربَّه سبحانَه وتعالىٰ وزادَت المعرفةُ بهِ في القلبِ زادَ الحبُّ، فالمحبَّة بنتُ المَعرفةِ تُعطَىٰ هِبةً مِنَ الله. فأَصلُ التَّوحيدِ هو حبُّ الله سبحانَه وتعالىٰ وإفرادُه وحدَه بالحبِّ الذي لا يكونُ إلَّا لَه عز وجل، وقد حثَّت الآيات والأحاديث علىٰ وجوب محبة الله تعالىٰ ورسوله، وسنورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي دلت علىٰ المحبة.

أولًا: الآيات القرآنية:

يوجدُ في كتابِ الله سبحانه آياتٌ تتحدَّث عن محبَّةِ العَبدِ لله، وعن محبَّة الله لعبادِه.

1- ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

2- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

3- ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4].

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (16) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (43) من حديث أنس رضي الله عنه.

4- ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146].

5- ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 148].

6- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: 222].

7- ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: 108].

8- ﴿اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

9- ﴿اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: 42].

10- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

فهذِهِ الآياتُ تتحدَّث عن محبَّة الله سبحانه وتعالىٰ لعبَادِه المتَّقِين الذين يعمَلون الصَّالحاتِ ويفعلونَ ما يُحبُّه سبحانَه وتعالىٰ، ومِن هنا وجَبَ علىٰ كلِّ مسلِمٍ أن يَتتبَّع كلَّ ما يؤدِّي إلىٰ محبَّةِ الله فيقوم به بل يكثرُ منه حتَّىٰ يحصلَ علىٰ هذهِ المنزلةِ الكُبرىٰ.

ثانيًا: الأحاديث النبويَّة:

1- عن عائشةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعَثَ رجلًا علىٰ سريَّةٍ وكان يقرأُ لأصحابِه في صلاتِهم فيختِم بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلمَّا رجَعوا ذكروا ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» فسَألوه فقالَ: لأنَّها صفةُ الرَّحمنِ؛ وأَنا أحِبُّ أن أقرأَ بها، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «أَخبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ[1]».

2- عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ قالَ: مَن عادَىٰ لي وَليًّا فقَد آذنتُه بالحَربِ، وما تقرَّب إليَّ عبدِي بشَيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترَضتُ عليهِ، ومَا يزَال عبدِي يَتَقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّىٰ أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنْتُ سمعَه الذي يَسمعُ بِهِ، وبَصرَه الذي يُبصِر بِهِ، ويدَه التي يبطِشُ بها، ورجلَه التي يَمشِي بهَا، وإن سألَني لأعطِينَّه، ولئن

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلىٰ توحيد الله تبارك وتعالىٰ (7375) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد (813).

استعاذَني لأُعِيذنَّه، ومَا تردَّدتُ عن شيءٍ أنَا فاعلُه تردُّدِي عن نفسِ المُؤمنِ، يَكرهُ الموتَ وأنَا أكْرَه مساءَتَه))[1].

3- قال رسولُ الله ﷺ فيما يَرويهِ عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال: ((حَقَّت محبَّتي للمتَحابِّين فيَّ، وحَقَّت محبَّتي للمتَباذِلينَ فيَّ، وحقَّتْ محبَّتي للمتزَاورِينَ فيَّ، والمتَحابُّونَ في الله علىٰ منابرَ من نورٍ في ظلِّ العَرشِ يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه))[2].

4- عن أبي هريرة رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: ((إذا أحَبَّ الله العَبدَ نادىٰ جبريلَ: إنَّ الله يُحِبُّ فُلانًا فأحبِبهُ، فيُحِبُّهُ جبريلُ، فيُنادِي جبريلُ في أَهلِ السَّماءِ إنَّ الله يُحِبُّ فُلانًا فأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبولُ فِي الأَرْضِ))[3].

5- عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: ((إنَّ الله يقولُ يَومَ القِيامةِ: أَين المُتَحَابُّونَ بِجَلالِي، اليَومَ أُظِلُّهُم فِي ظِلِّي يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي))[4].

6- عَن سعدِ بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: ((إنَّ الله يُحِبُّ العبدَ التَّقِيَّ الغنيَّ الخَفِيَّ))[5].

7- وعن أَبِي الدَّرداء رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: ((كانَ مِن دُعَاءِ داوُد يقُولُ: اللهمَّ إِنِّي أَسأَلُك حُبَّك، وحُبَّ مَنْ يُحِبُّك، والعَمَلَ الَّذي يُبَلِّغُني حُبَّك، اللهمَّ اجعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِن نَفسِي وَأَهلِي، وَمِنَ المَاءِ البَارِدِ))[6]. ◆

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع (6502).

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (5/236).

(3) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة(3209) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا حبب الله عبدا حببه لعباده (2637) واللفظ للبخاري.

(4) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله (2566).

(5) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (2965).

(6) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب (3490) وقال: ((حديث حسن غريب)).

مَقامُ المحبَّة عندَ أهل التَّصوفِ والسُّلوكِ

ومَا مِن أَمرٍ أهمَّ أهلَ التصوُّفِ وشغَل بالَهم مثل أمرِ المحبَّةِ وشأنِها، وما مِن كلِمةٍ لَهَجَ بها هؤلاءِ القومُ في أشعارِهم وأقوالِهم مثل الحبِّ الإلهيِّ، فالحبُّ مشربُهم، والحبُّ مذهبُهم، والحبُّ دِينهم، وهو طريقُهم إلىٰ الله ومعراجُهم الذي يعرُجون به إليه، وظهَر هذا الحبُّ في أقوالِ أهل التصوُّفِ وأحوالِهم وأشعارِهم، فكيف يَنشغِل القومُ بغير المحبوبِ؟! وكيفَ لا يكونُ شاغلُهم الأكبرُ هو التَّعبيرَ عن محبَّتِه سبحانَه؟! ولو قلنا إنَّ التَّصوُّفَ هو المحبَّةُ والحبُّ لكنَّا صادقِينَ. فأهل التصوُّف هم أهلُ القلوب وأهلُ المحبَّة والصَّفاء مع الله، فهم يرَون محبوبَهم قبل كلِّ شيءٍ ومع كلِّ شيءٍ وعند كلِّ شيءٍ وبعد كلِّ شيءٍ، فما مِن خُلُقٍ أو سلوكٍ عند أهل التصوُّف إلَّا وله صِلةٌ بالمحبَّة الإلهيَّة، فمِن أجل هذِه المحبَّةِ يزهَد الصُّوفيُّ في الدُّنيا ومتَعِها ولذَّتها وجاهِها، ويَبذُل النَّفْسَ في سبيلِ تحقيقِ هذِه المحبَّة، قال الحارثُ المحاسِبي: «المحبَّة ميلُك إلىٰ الشَّيءِ بكلِّيَّتك، ثُمَّ إيثارُك له علىٰ نفسِك وروحِكَ ومالِكَ وموافقتِكَ له سرًّا وجهرًا، ثُمَّ عِلمكَ بتقْصِيركَ في حُبِّه»[1]. ومِن ثِمار هذِه المحبَّةِ الإقبالُ الكليُّ علىٰ الله سبحانَه، والزُّهدُ فيما سِواه، وفي هذِه المعاني يقولُ ابنُ الدَّبَّاغ رحمَه الله: «ولمَّا كان مَطلبُ ذوي العقُول الكاملةِ والنُّفوسِ الفاضِلة نيلَ السَّعادةِ القُصوىٰ التي معناهَا الحياة الدَّائمة في الملإِ الأعلىٰ، ومشاهدةُ أنوار حضرةِ قدسِ المولَىٰ، والتَّلذذُ بمطالعةِ الجمالِ الإلهيِّ الأسنىٰ، ومعاينةُ مطالع النُّور القدسي الأبهىٰ، وهذه السَّعادة لا تحصل إلا لنفسٍ زكيَّةٍ قد سبقَت لها في الأزلِ العنايةُ الربَّانيَّة بتسيرها سلوكَ الطُّرق العِلميَّة والعمَليَّة؛ المفضِيات بها إلىٰ المحبَّةِ الحقيقيَّةِ، والشَّوقِ إلىٰ الأنوارِ الإلهيَّة، وبحصُول هذه السَّعادة يحصُل للنُّفوس العارفةِ مِنَ اللذَّة والابتهاج ما لَا عَينٌ رأَت ولا أُذُنٌ سمعَت ولا خطَرَ علىٰ قلبِ بشَرٍ، فيجبُ علىٰ كلِّ ذي لُبٍّ المبادرةُ إلىٰ تحصِيل هذا الأمرِ الجَليل، وورود هذا الموردِ السَّلسبِيل الذي لم يصِل إليه من النَّاس إلا القليل، فالعاشِق

(1) انظر: الرِّسالة القشيرية (2/490).

يحنُّ إلىٰ هذا الموطِن الجليل وينجذب جملةً إلىٰ ظلِّه الظَّليل ونسيمِه العلِيل»[1].

وقالَ الحكِيم التِّرمذي في كتابه معرفةِ الأسرَار: «المحبَّةُ تكون مِنَ القلبِ لا بمقتضَىٰ الشَّهوة، لا تَزيدُ بالبرِّ ولا تَنقُص بالجفاءِ، أمَّا الهوَىٰ مِنَ النَّفْس يغيِّره البرُّ والجفاءُ، والعِشقُ نهايةُ الهوَىٰ، وهمَا لا يجوزَان لله تعالىٰ ولا مِنَ الله»[2].

فبِالحبِّ كان الصُّوفيَّة مِن أهل القُربِ والودادِ، ومِن أهلِ الحظوةِ عند مَولاهم، عظمَت محبَّة الله في قلوبهم، واستولَت علىٰ أرواحِهم، وظهرَت آثارُ محبَّته سبحانَه وتعالىٰ في بواطنِهم وظواهِرهم حتَّىٰ نَالُوا المنازِلَ العَلِيَّة والدَّرجاتِ السَّنيَّة فأحبَّهم الله، فطوبَىٰ لأقوامٍ أخلَصوا حبَّهم لربِّهم.

لله قَومٌ أَخلَصُوا فِي حُبِّه ... فَاختارَهُم وَرَضِيَ بِهِم خُدَّامَا

قَومٌ إِذَا جَنَّ الظَّلامُ عَلَيهِم ... أَبْصَرتَ قَومًا سُجَّدًا وقِياما

يَتَلَذَّذُونَ بِذِكرِهِ فِي لَيلِهِم ... وَيُكَابِدُونَ بِهِ النَّهارَ صِياما

فَسيغنَمون عرائسًا بعرائسَ ... ويُبوَّءونَ مِنَ الجِنانِ خِيامًا

وتَقَرُّ أَعيُنُهُم بِمَا أُخفِيَ لَهُم ... وَسَيسمَعُونَ مِنَ الجَلِيلِ سَلَامَا

وقد استَمدَّ الصُّوفيَّة أصولَ هذِه المحبَّةِ من كتابِ الله، فالقرآنُ لَمن يَتدبَّره يجِدُ فيهِ دعوةً إلىٰ البذلِ والمسارعةِ في محبَّة الله؛ لكي يصِلوا ويتَحققَّوا بقولهِ تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54] ولا طريقَ لديهم لتَحصيلِ هذِه المحبَّةِ وقطعِ تلكَ المنازلِ إلَّا بمتابعةِ النَّبيِّ ﷺ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: 31] فهذَا نصٌّ علىٰ أنَّ محبَّة الله تَتحقَّق بمتابعةِ رسولِ الله ﷺ والسَّيرِ علىٰ سُنَّتِهِ واقتِفاءِ أَثرِه و إطاعةِ

---

(1) انظر: مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب (ص4) للإمام عبدالرحمن بن محمَّد الأنصاري المعروف بابن الدباغ- تحقيق هـ ريتر.

(2) معرفة الأسرار (ص90) لأبي عبدالله محمد بن علي الحكيم التِّرمذي- تحقيق: إبراهيم الجيوشي- دار النَّهضة العربيَّة.

أوامرِهِ واجتِنابِ نوَاهِيه.

محبَّة النَّاس للهِ تعالىٰ علىٰ ثلاثةِ وجوهٍ:

1- حبٌّ للإحسانِ المفَاضِ عليهم في الدُّنيا والمأمولِ في الآخرةِ، وهذا الإحسانُ مِن غير استِحقاقٍ منهم عليه جلَّ جلاله، إنَّما هو محضُ فَضْلٍ.

2- حبٌّ للصِّفات التي صدَر منها هذا الإحسان، وهو أرقىٰ مِنَ الحبِّ الأوَّل؛ لأنَّ صاحبَه ارتَقىٰ مِنَ النِّعمة إلىٰ المُنعِم، ومِنَ الأفعال إلىٰ الصِّفات، وهو حبُّ خواصِّ المؤمنين.

3- حبٌّ للذَّات العليَّة: يحبُّها العبدُ لكمالِ ذاتِ الله وصفاتِه وقدسِه وعظمتِه، وهذا الحبُّ هو المقصودُ بكلامِ الشُّيوخ في عدم نقصانهِ بالجَفوةِ ولا زيادته بالبرِّ، إنَّما هو الاستِحقاقُ اللَّائق بذاتهِ سبحانه وتعالىٰ.

وأهلُ التَّصوُّف مرادُهم في الدَّارين هو الله سبحانه والقُرْبُ منه، فإنَّ الذي يحبُّ الله لذاتهِ أعلىٰ شأنًا ممَّن يحبُّه لإحسانهِ، ومِن سوءِ الأدب الوقوفُ عند النِّعم دون السَّير إلىٰ المُنعِم، فالصَّادقون مِن أهل التصوُّف علىٰ مرِّ السِّنين كان مقصودُهم هو ربَّهم سبحانَه وتعالىٰ، ولم يلتَفتوا إلىٰ كراماتٍ أو خوارقَ أو مِنَحٍ، وإنَّما مبدَؤهم ومُنتهاهُم محبَّة الله، وهذه المحبَّة لا يُحيط بها قَولٌ ولا يسطِّر معانِيها قلمٌ، فهي مِن أسرار الله في قلوبِ العِباد.

قال الشَّيخ الأكبر محيي الدِّين بن عربي رحمه الله: «واختَلَف النَّاس في حدِّها- أي : المحبَّة- فَمَا رأيتُ أحدًا حدَّها بالحدِّ الذَّاتي بل لا يُتصوَّر ذلك، فما حدَّها مَن حدَّها إلَّا بنَتَائجِها وآثارِها ولوازِمها ولاسيَّما وقد اتَّصف بها الجنابُ الإلهيُّ العزيز وهو الله، وأحسنُ ما سمعتُ فيها ما حدَّثنا به غير واحدٍ عن أبي العبَّاس الصنهاجي، قالوا: سمعناه وقد سُئِلَ عن المحبَّةِ فقال: الغَيرة مِن صفاتِ المحبَّة، والغَيرة تأبىٰ إلَّا السِّتر فلا تحدُّ»[1].

---

(1) انظر: الفتوحات المكيَّة (325/2) للشَّيخ الأكبر محي الدِّين بن عربي- دار الكتب العربيَّة الكبرىٰ- مصر.

فالمحبَّة لا يُعبِّر عنها إلَّا مَن ذَاقَها، ومَن ذاقَها استَولىٰ عليه الذُّهول مِن أمرٍ لا يمكنُه أن يُخبرَ عن كنهِ حقيقتِه، وسوف نعرِض فيما سيَأتي أقوالَ أهلِ التَّصوفِ في المحبَّةِ وحديثَهم عنها ومَشربَ كلٍّ واحدٍ منهم بحسَبِ ما فُتِحَ عليه.

المحبَّة في كلَام أهل التَّصوفِ

كلامُ الصُّوفيَّة في المحبَّةِ هو ثمرةُ الطَّريقِ إلىٰ الله، وسوف نَعرِض طرفًا مِن هذِه الأقوالِ: فمِن أهلِ التَّصوُّف مَن تكلَّم عنِ المحبَّةِ بكلامٍ واضحٍ مَفهومٍ، ومنهم مَن ألغَزَ فيها برموزٍ لا يَفهمُها إلَّا أهلُها، ومنهم مَن عبَّر عنِ المحبَّة الإلهيَّةِ بالشِّعر وصَاغَها في قصَائدَ، ومنهم مَن كان تَعبيرُه عنِ المحبَّةِ بالحالِ فيَذهلُ ويغيبُ عن الدُّنيا، ومنهم مَن يَنجذِب بالمحبَّة جذبةً لا يفِيقُ منها.

1- المحبَّة معنًىٰ تعجِزُ القلوب عن إدراكِه، وتَمتنِع الألسنُ عن عبارته.

2- المحبَّة مَعنًىٰ مِنَ المحبوبِ قاهرٌ للقلوبِ.

3- المحبَّة المَيل الدَّائمُ بالقلب الهائِم.

4- المحبَّة إيثارُ المحبوبِ علىٰ جميعِ المَصحوبِ.

5- المحبَّة موافقةُ الحبيبِ في المشهدِ والمغيبِ.

6- المحبَّة خوفُ تركِ الحرمةِ مع إقامةِ الخدمةِ.

7- المحبَّة استِقلالُ الكثيرِ مِن نفسِكَ واستكثارُ القليل مِن حبيبِكَ.

8- المحبَّة أن تَهَبَ كلَّكَ لَمن أحبَبتَ، فلا يَبقَىٰ لك منكَ شيءٌ.

9- المحبَّة قيامُك مع محبوبِك بخَلعِ أوصافِكَ.

10- المحبَّة سقوطُ كلِّ محبَّةٍ من القلبِ إلَّا محبَّة الحبيبِ.

11- المحبَّة إفراطُ المَيل بلا نَيل.

12- المحبَّة مَيلك إلىٰ الشَّيءِ بكلِّيَّتِكَ ثُمَّ إيثارُكَ له علىٰ نفسِكَ وروحِكَ ومالِك، ثُمَّ

موافقتُكَ له سرًّا وجهرًا، ثُمَّ عِلمُكَ بتقصيرِكَ في حبِّه.

13- المحبَّة سُكْرٌ لا يَصحو صاحبُه إلَّا بمشاهدةِ محبُوبِه.

14- المحبَّة: دائرةُ فتحِ كلِّ عبدٍ علىٰ قَدْر تحقُّقه بمقام المحبَّة والمَحبوبيَّة[1].

وقال أبو بكْرٍ الكتاني: «جرَت مسألةٌ في المحبَّة بمكَّةَ- أعزَّها الله تعالىٰ- أيَّام الموسِم، فتكلَّم الشيوخُ فيها وكان الجنيدُ أصغرَهم سِنًّا، فقالوا: هاتِ ما عندَك يا عراقي! فأَطرقَ رأسَه ودمعَت عيناه ثمَّ قالَ: عَبدٌ ذاهِبٌ عن نفسِه، متَّصلٌ بذكْرِ ربِّه، قائمٌ بأداءِ حقوقِهِ، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرق قلبَه أنوارُ هيبته، وصفا شربُه مِن كأس ودِّه، وانكشف له الجبَّار مِن أستار غيبه، فإن تكلَّمَ فبالله، وإن نطَق فعنِ الله، وإن تحرَّكَ فبأمرِ الله، وإن سكنَ فمع الله، فهو بالله ولله ومَع الله، فبكَىٰ الشيوخ وقالوا: ما علىٰ هذا مزيدٌ!»[2].

وقال الشيخ أحمد الرِّفاعي رضوان الله عليه: «مَن أحبَّ الله علَّم نفسَه التواضعَ، وقطع عنها علائقَ الدُّنيا، وآثرَ الله تعالىٰ علىٰ جميعِ أحوالِهِ، واشتَغَل بذكْرِه ولم يَترِكْ لنَفسهِ رَغبةً فيما سِوىٰ الله تعالَىٰ»[3].

ومن أقوال الشَّيخ أبي الحسَن الشاذلي في المحبة:

1- المحبَّة سِرٌّ في القَلبِ منَ المحبوبِ إذا ثبتَت قطعَك عن كلِّ مَصحوبٍ.

2- حرَامٌ عليك أن تتَّصلَ بالمحبوبِ ويَبقىٰ لك في العالَم مَصحوبٌ.

3- إذا منعَكَ ما تُحبُّ وردَّكَ إلىٰ ما يحبُّ فهي علامةُ محبَّتهِ لكَ.

4- المحبَّة أصلٌ في الإفهام، فمَن أحبَّ الله فَهِمَ عنه كلَّ شيءٍ.

5- خصلتان تسهِّلان الطريقَ إلىٰ الله تعالىٰ المعرفةُ والمحبَّة.

---

(1) هذِه جملةٌ من أقوالِهم في المحبَّة، ومن أراد الاستزادة فلينظر الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري (باب المحبة).

(2) انظر: الرسالة القشيرية (ص256).

(3) انظر: البرهان المؤيِّد (ص52) للإمام الكبير أحمد الرِّفاعي- مطبعة الظاهر- الطَّبعة الاولىٰ- 1322هـ.

6- المحبَّة أَخذَةٌ مِن الله لقلبِ عبده مِن كلِّ شيءٍ سِواه، فترَىٰ النَّفسَ مائلةً لطاعتِه، والعقلَ متحصِّنًا بمَعرفتِه، والرُّوحَ مأخوذةً في حَضرته، والسِّرَّ مَغمورًا في مشاهدَتهِ، والعبدَ يَستزِيدُ فيُزاد ويُفاتَح بمَا هو أعذبُ مِن لذيذِ مناجاتهِ، فيُكسَىٰ حُلَلَ التَّقريبِ علىٰ بساطِ القُربةِ، ويُسقَىٰ أبكارَ الحقَائقِ وثباتَ العلوم.

7- مَن أحبَّ الله وأحبَّ لله فقد تمَّت ولايتُه.

8- المحبوبُ في الحقيقةِ مَن لا سلطانَ له علىٰ قلبهِ لغَير محبوبهِ، ولا مَشيئةَ غير مشيئتِه، فإنَّ مَن ثبتَت ولايته مِن الله لا يكره لقاءَه، ويُعلَم ذلك مِن قوله تعالىٰ: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: 6] فإنَّ الوليَّ علىٰ الحقيقةِ لا يَكْرَه الموتَ إن عُرِضَ عليهِ.

9- إذا أحببتَ أو أبغضتَ فأحببْ لَه وأبغضْ له، ولستَ تُبالي بأيِّهما كنتَ، وقَد يُجمَع لكَ الوَصفان في شخصٍ واحدٍ، ويجبُ عليك القِيامُ بحقِّهما جميعًا، وروحُ الإسلامِ حبُّ الله وحبُّ رسولهِ وحبُّ الآخرةِ وحبُّ الصَّالحِين مِن عبادِه.

من أقوال الشيخُ عبدالسَّلام بن مشيش في المحبَّة:

1- اعبُدِ الله علىٰ القُربِ الأعظَمِ تحظَى بالمحبَّة والاصطِفائيَّةِ والتَّخصِيصِ والتَّوليةِ مِن الله.

2- عليكَ بمحبَّة الله تعالىٰ علىٰ التَّوقيرِ والنَّزاهةِ، وأدمِن الشُّربَ بكَأسِها مع السُّكرِ والصَّحو، كلَّما أفَقْتَ أو تيقَّظتَ شربتَ حتَّىٰ يكون سُكْرُكَ وصحوك به، حتَّىٰ تغيبَ بجمالِه عنِ المحبَّةِ، وعن الشَّرابِ والشُّربِ والكأسِ بما يَبدو لكَ مِن نورِ جَمالِه وقُدْسِ كمالِ جلالهِ.

3- يقول الشَّيخ أبو الحسَن سألتُ أستاذِي رحمَه الله- يعني: الإمامَ عبدالسَّلام بن مشيش رضوان الله عليه- عن وردِ المحقِّقين فقال: عليكَ بإسقاطِ الهوَىٰ ومحبَّةِ المولىٰ، آيةُ المحبَّة ألَّا يشتَغلَ محبٌّ بغيرِ محبوبهِ[1].

---

(1) انظر هذِه الأقوال في كتاب لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري- تحقيق: د. عبدالحليم محمود-

أشعار السادة الصُّوفية عن المحبَّة

كما ذُكِر سابقًا إنَّ التَّعبير عن مقام المحبَّةِ عند أهلِ التصوُّف والسُّلوك تنوَّع بين الأقوال والأحوالِ والشِّعرِ، وكان الشعر بشكلٍ خاصٍّ وسيلةً مِن وسائل أهل الحبِّ والوداد للتَّعبير عن أشواقِهم ووَجْدِهِم تجاه ربِّهم والشِّعر الصُّوفي في المحبَّة يذوب رِقَّةً وعذوبةً، ومِن أشعارِهم في ذلكَ.

قالَ سمنُون المحِب في تعبيرِهِ عنِ المحبَّة:

كَـانَ لـي قَـلبٌ أَعِـيشُ بهِ ... ضَـاعَ مِـنِّي في تـــقَلُّبه
ربِّ فَـارْدُدْهُ عَـــلَيَّ فَـقَـدْ ... ضَـاقَ صَدْرِي فِي تَطلُّبه
وَاغـث مَـا دَامَ بِي رَمَـــقٌ ... يَا غِيَـاثَ الْمُستَغِيث بِهِ[1]

وله أيضًا:

وكانَ فُؤادِي خَالِيًا قَبلَ حُبِّكُمُ ... وكانَ بذِكرِ الخَلْقِ يَلهُو وَيَمزَحُ
فَلَمَّا دَعَـا قَلْبي هَــوَاكَ أجـابَهُ ... فَـلَستُ أَرَاهُ عَــنْ فَنَائِكَ يَبْرَحُ
رُميتُ بِبَين مِنك إنْ كُنتُ كاذِبًا ... وَإنْ كُـنتُ في الدُّنيَا بِغَيْرِكَ أفرَح
وَإنْ كانَ شَيءٌ في البِلادِ بأَسرِهَا ... إِذَا غِـبْتَ عَنْ عَيْني بعَينيَ يملُحُ[2]

ولَه أَيضًا:

شَـغَلتُ قَــلبِي عَنِ الدُّنيَا ولذَّتِهَا ... فـأَنتَ والـقَلبُ شيءٌ غَير مُفترَقِ
ومَا تَطابَقَتِ الأَحَداق مِن سنَةٍ ... إلَّا وَجَدتُكَ بَينَ الجَفْنِ والحَدَقِ[3]

وله أيضًا:

=

دار الكتاب المصري، وكتاب المدرسة الشَّاذليَّة الحديثة للدكتور: عبدالحليم محمود- دار الكتب الحديثة.

(1) شعراء الصُّوفيَّة المجهولون (ص13) ليوسف زيدان- دار الجيل- الطبعة الثانية- بيروت- 1996م.

(2) المصدر السابق (ص10).

(3) شعراء الصوفية المجهولون (ص11).

وليسَ لِي في سِواكَ حَظٌّ فَكيفَمَا شِئتَ فَامتَحِنِّي
إِنْ كَانَ يَرجُو سِواكَ قَلبِي لَا نِلْتُ سُؤالي ولَا التَّمنِّي (1)

وقالَ أحدُ العارفينَ:

ذَكَرْنَا وَمَا كُنَّا نَسِينَا فَنَذْكُرُ وَلَكِنْ نَسِيمُ الْقُرْبِ يَبْدُو فَيُبْهِرُ
فَأَحْبَابُهُ طَوْرًا وَأَغْدَىٰ بِهِ لَهُ إِذَا الحَقُّ عَنهُ مُخْبِرٌ وَمُغْبِرُ (2)

وقال الغزالي:

مَا بَالُ نَفْسِي تُطِيلُ شَكْواهَا إِلىٰ الوَرَىٰ وَهْيَ تَرتَجِي الله
لَو أنَّها مِن مَلِيكِهَا اقتَرَبَتْ وَأَخْلَصَتْ وُدَّهَا لأَدْنَاهَا
أفقَرَها للوَرَىٰ وَلَو لَجأَت إِلَيهِ مِن دُونهم لأَغنَاهَا (3)

قال الحلاجُ رحمه الله:

والله مَا طَلَعَت شَمْسٌ وَلَا غَربَتْ إِلَّا وذِكْرُكَ مَقرُونٌ بأَنفَاسِي
وَلَا خَلَوتُ إِلىٰ قَومٍ أُحَدِّثُهُم إِلَّا وَأنتَ حَدِيثِي بَينَ جُلَّاسِي
وَلَا ذَكَرتُكَ محزُونًا وَلَا فَرِحًا إِلَّا وأَنتَ بِقَلبِي بَينَ وسْوَاسِي
وَلَا هَمَمتُ بِشُربِ الماءِ مِن عَطَشٍ إِلَّا رَأيتُ خَيالًا مِنكَ فِي الكَاسِ
وَلَو قَدِرتُ عَلَىٰ الإتيَانِ جِئتُكُم سَعيًا علىٰ الوَجهِ أَو مَشيًا عَلَىٰ الرَّاسِ

ولَه رحمه الله:

الله يَعلَمُ مَا فِي النَّفْسِ جَارِحَة إِلَّا وذِكْرُكَ فِيهَا نَيلُ مَا فِيهَا

---

(1) المصدر السابق (ص12).

(2) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (9/368) لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولىٰ- بيروت- 1988م.

(3) معارج القدس في مدراج معرفة النَّفس (ص179) للإمام أبي حامد الغزالي- دار الكتب العلميَّة- الطبعة الأولىٰ- بيروت- 1988.

وَلَا تَنَفَّستُ إلَّا كـنتَ فِي نَفَسِي تَجرِي بِكَ الرُّوحُ مِنِّي فِي مَجَارِيهَا
أَوْ كانـتِ العَينُ مُذْ فَارَقْتَهَا نَظَرَت إلىٰ سِـواكَ فَخَـانَتْهَا مَـآقِيهَا
أَو كَـانَتِ النَّفْس بَعدَ البُعدِ آلِفَةً خَلْقًا عَـداكَ فَلَا نَالَتْ أَمَانِيهَا [1]

وقال المقدسي:

فِي حُبِّـهِ يُستَعـذَبُ الـتَّعـذِيبُ وبِـذِكْـرِه يَـحلُو الَهوَىٰ وَيَطِيبُ
يَـا لَائِـمِي فِي حُبِّه مُتَعسِّفًا أَقصِر فَـمَـا لَـكَ مِـن هَـوَاهُ نَـصِـيبُ
مَا كُلُّ مَن يَهوَىٰ يُحبُّ وَلَا الَّذِي يُقـصَىٰ بَـعِيدٌ وَلَا القَرِيبُ قَرِيبُ
مَن لَم يَـكُن أَهلًا لِحَضرَةِ قُـربِهِ ذَاكَ الَّذِي فِي حَـالَتيـهِ غَـرِيـبُ

وقال أحد العارفين:

خَيَالُكَ فِي عَينِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي وَمَـثوَاكَ فِي قَـلبِي فَـأَينَ تَـغِيبُ

ولبعضِ الْمُحبِّين:

فَـلَيتَكَ تَـحلُو وَالحَـياةُ مَـرِيرَةٌ وَلَـيتَكَ تَـرضَىٰ والأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيتَ الَّذِي بَينِي وَبَينَكَ عَـامِرٌ وَبَينِي وَبَينَ العَالَمِينَ خَـــرَابُ
إذَا صَـحَّ مِنكَ الوُدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ وكُلُّ الَّذِي فَوقَ التُّرَابِ تُرَابُ [2]

وقالَ سيِّدي عمرُ بن الفَارضِ في بَيانِ المَحبَّةِ:

زِدْنِي بِفَرطِ الحُبِّ فِيكَ تَحيُّرًا وارحَم حَشًىٰ بِلَظَىٰ هواكَ تَسَعَّرا
وَإِذَا سَأَلتُكَ أَنْ أَرَاكَ حَقِيقَةً فَاسمَح وَلَا تَجعَل جَوَابِي لَن تَرَىٰ
يَا قَلْبُ أَنتَ وَعدتَنِي فِي حُبِّهم صَبرًا فَحَاذِر أَن تَضِيقَ وتَضْجَرَا
إنَّ الغَرَامَ هُو الحَيَاةُ فَمُتْ بِهِ صَــبًّا فَحقُّكَ أَن تَموتَ وتُعذَرَا

(1) شرح ديوان الحلاج (ص523) للدكتور كامل مصطفىٰ الشيبي.

(2) البداية والنهاية (345/15) تأليف: ابن كثير- دار هجر للطباعة والنَّشر- الطبعة الأولىٰ- القاهرة- 1998م.

قال الخَيمي:

يَا مَطلبًا ليسَ لي فِي غَيرِه أَرَبُ ... إليكَ آل التَّقَضِّي وانتَهَىٰ الطَّلَبُ
وَمَا أَرَاني أَهلًا أَن تُوَاصِلَني ... حَسبي عُلُوًّا بَأَنِّي فِيكَ مُكتَئِبُ
لَكِن يُنَازِع شَوقِي تَارَةً أَدَبِي ... فَأَطلُبُ الوَصْلَ لَمَّا يَضعُفُ الأَدَبُ [1]

وقال أحدُ المحبِّين العارفينَ:

يَا مَن يُشيرُ إليهِم المُتكلِّم ... وإليهم يَتوجَّه الـمُتَظلِّمُ
وعليهِم يَجلُو التَّأَسُّف والأَسَىٰ ... وتَلَذُّ لوعاتُ الغَرَام المغرَم
هذا الوجودُ وإن تعدَّد ظَاهِرًا ... وحَياتِكُم مَا فيهِ إلَّا أنتم
وشَغَلتُم كُلِّي بِكُم وجَوارِحِي ... وجَوَانِحِي أبدًا تحِنُّ إليكُمُ
وإذَا نَظَرتُ فَلَستُ أَنظُر غَيرَكُم ... وإذَا سَمِعتُ فَعنكُم أَو مِنكُمُ
وإذا نَطَقتُ فَفِي صِفَاتِ جَمَالِكُم ... وَإذا سَأَلتُ الكَائِنَاتِ فَعنكمُ
وإذَا سَكِرتُ فَمِن مُدامةِ حبِّكُم ... وبذِكْرِكُم فِي سَكْرتي أَترنَّمُ
وإذا نَظَمتُ تَغزُّلًا فِي صُورَةٍ ... فلأَجلِ حُسنِكُم المحجَّبُ أَنظمُ

أسباب المحبةِ وعلَاماتها

أولًا: أسباب المحبة:

ذكَر العلماءُ من الأسبابِ المورثة للْمحبَّةِ أمورًا كثيرًا وأهمُّها عشرةٌ:

1- قراءةُ القرآن مع التَّدبُّر لمعانيه.

2- التقرُّب إلىٰ الله بالنَّوافلِ بعد الفرائضِ فإنَّها توصل إلىٰ دَرجةِ المحبَّة.

3- دوَام ذِكْره علىٰ كلِّ حالٍ باللِّسان والقلبِ، فنَصيبُه مِنَ المحبَّة علىٰ قَدْرِ نصِيبهِ من هذا التَّذكُّر.

---

(1) شعراء الصوفية المجهولون (ص82).

4- إيثارُ محابِّه على محابِّك عند غلَبةِ الهوَىٰ، والتَّسنُّم إلىٰ محابِّه وإن صَعُبَ المرتقَىٰ.

5- مُطالعةُ القلبِ لأسمائِه وصفاتِه ومشاهدتِها ومعرفتُها، وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمَن عرف الله بأسمائه وصفاتِه وأفعالِه أحبَّه لا محالة.

6- مشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه ونعمِه الظَّاهرة والباطنة، فإنَّها داعيةٌ إلىٰ محبَّته.

7- انكِسارُ القلبِ بكلِّيَّته بين يدَيه تعالىٰ تذلُّلًا وتواضُعًا.

8- الخلوة به وقتَ التَّجلِّي الإلهيِّ ومناجاتُهِ لاسيَّما في الأسحَارِ، وتلاوةُ كلامِه والوقوفُ والتأدب بالقَلب بين يدَيه، ثم خَتْمُ ذلك بالاستِغفارِ والتَّوبةِ.

9- مجالَسةُ الصَّالحين الصَّادِقين، والتِقاطُ أطايبِ كلامِهم كما يُنتَقىٰ أطايبُ الثَّمر، ومِنَ الأدبِ في مجالستِهم ألَّا تتكلَّم في حضرَتهم إلَّا إذا ترجَّحَت مصلحةُ الكلامِ، وعلمتَ أنَّ فيه مزيدًا لحالكَ ومَنفعةً لغيرك.

10- مباعَدةُ كلِّ سببٍ يَحولُ بينَ القلبِ وبينَ الله عزَّ وجلَّ.

ثانيًا: علامات المحبة:

كثيرٌ مِنَ النَّاس مَن يدَّعي محبَّةَ الله ورسولِه، وما أسهل دعوَىٰ اللِّسان، فلا يَنبغي للإنسانِ أن يَغترَّ بخداعِ النَّفْس، بل عليه أن يعلَمَ أنَّ للحبِّ علاماتٍ تدلُّ عليه، وثمارًا تظهرُ في اللِّسان والقلبِ والجوارحِ، فإذا أرَادَ أن لا يَغشَّ نفسَه فليَضَعْها في موَازينِ الحبِّ وليَمتَحِنْها بعلاماتِه وهي كثيرةٌ والتي مِنها:

1- حبُّ لقَاءِ الحبيبِ بطريقِ الكشفِ والمشاهدةِ في دارِ السَّلام، فلا يُتصوَّر أن يُحبَّ القلبُ مَحبوبًا إلَّا ويحبُّ لقاءَه ومشاهدتَه، ومِن هنَا فالمؤمنُ المحِبُّ لربِّه لا يَجزعُ مِن المَوتِ لأنَّه يرَىٰ فيهِ ساعةَ اللِّقاءِ بالحَبيبِ يقولُ عليهِ الصَّلاة والسَّلام: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[1]. ولهذا كانَ الصَّحابةُ الكِرامُ

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (6508) ومسلم

رضوان الله عليهم يُحبُّون الشَّهادةَ في سَبيلِ الله ويقولون حين يُدعَون للمعركة: مَرحبًا بلقاءِ الله.

2- أن يكونَ مؤثِرًا ما أحبَّه الله تعالىٰ علىٰ ما يُحبُّه في ظاهرِه وباطنِه، فيلزم الطَّاعةَ، ويتجنَّب الكسلَ واتِّباعَ الهوَىٰ، ومَن أحبَّ الله لم يعصِه؛ ولذلكَ قالَ ابنُ المبارَكِ رحمَه الله:

تَعصِي الإِلَهَ وَأَنتَ تُظهِرُ حُبَّهُ   هذا لَعَمرِي فِي القِيَاسِ بَدِيعُ
لَو كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعتَهُ   إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطِيعُ

وَفي هذا المعنىٰ قيلَ أيضًا:

وَأَترُكُ مَا أَهوَىٰ لِمَا قَد هَوِيتَهُ   فَأَرضَىٰ بِمَا تَرضَىٰ وَإِنْ سَخِطَت نَفسِي

فطاعةُ الله سبحانَه ومحبَّتُه تستَلزم اتِّباعَ رسولِهِ ﷺ في الأقوالِ والأفعالِ والأخلاقِ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31].

3- أنْ يكونَ مُكثِرًا لذِكْر الله تعالىٰ، لا يَفتر عنه لِسانُه، فَمَن أحبَّ شيئًا أكثرَ مِن ذِكْرِه.

4- أن يكونَ أُنسُه بالخَلوةِ والمناجاةِ لله تعالىٰ وتلاوةِ كتابهِ، فالمحِبُّ يُواظِب علىٰ التَّهجُّد ويغتَنم هدوءَ اللَّيلِ وصفَاءَ الوقتِ، وليُعلَم أنَّ أقلَّ درجاتِ المحبَّةِ التلذُّذ بالخَلوةِ بالحَبيبِ والتَّنعُّم بمناجاتهِ.

5- أنْ لَا يتأسَّف علىٰ مَا يَفوتُه ممَّا سِوىٰ الله عزَّ وجل، ويعظُمُ تأسُّفه علىٰ فَوتِ كلِّ ساعةٍ خلَتْ عن ذكرِ الله وطاعتِه، فيَكثرُ رجوعُه عن الغفلاتِ بالتَّوبةِ والإنابةِ.

6- أن يَتنَعَّم ويتَلذَّذَ بالطَّاعةِ فلا يَستثقِلُها بل يجدُ راحتَه فيها، وفي هذَا يقولُ أحدُ المحبِّين:

لَولَاكَ يَا سِـرَّ الوجودِ   مَا طَابَ عَيشِي وَلَا وُجُودِي

=

في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة (2638) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وَلَا تَرَنَّمتُ فِي صَلَاتِي لَا ركـوعِـــي ولا سُجُودِي

7- أن يكونَ مُشفقًا علىٰ جميع عباد الله رحيمًا بهم، شديدًا علىٰ جميع أعداءِ الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29].

8- حصولُ الخوفِ عندَ المحبِّ، وقَد يُظَنُّ أنَّ الخوفَ يُنافي الحبَّ وهذا ظنٌّ باطلٌ فإدرَاكُ العظَمةِ يوجبُ الهيبةَ، كما أنَّ إدراكَ الجمالِ يوجبُ المحبَّةَ، وللمحبِّين في خوفِهم مرَاتبُ، فخوفُ الإعراضِ وخوفُ الحِجابِ وخوفُ الإبعادِ؛ ولذلك قالَ بعضُ المحبِّين:

الحَبِيبُ عَرَفتُهُ وَأَنَا مِنْهُ خَائِف لَا يُحبُّكَ إلَّا مَنْ هُوَ بكَ عَارِف

9- كِتمان الحبِّ واجتنابُ الدَّعوىٰ والتوقِّي مِن إظهار الوَجْدِ والمحبَّة تعظيمًا للمحبوبِ وإجلالًا له وهيبةً منه وغيرةً علىٰ سِرِّه، وبعضُ المحبِّين عَجَز عن الكِتمانِ فقالَ:

يُخفِي فَيُبْدِي الدَّمعُ إسرَارَهُ وَيُظهِرُ الوَجْدَ عليهِ النَّفس

10- الأُنْس بالله والرِّضا به، وعلامةُ الأُنسِ بالله عدمُ الاستِئناسِ بالخَلْق والتَّلذُّذُ بذِكرِ الله، فإن خالَطَ النَّاسَ فهو كمُنفردٍ في جماعةٍ ومجتمعٍ في خَلْوةٍ، قال الإمامُ عليٌّ كرَّم الله وجهَه في وصفِ المحبِّين المستَأنسِين بالله: هم قومٌ هجَمَ بهم العِلم علىٰ حقيقةِ الأمرِ فباشَروا روحَ اليقينِ، واستلَانوا بما استَوعَر المُترَفون، وأَنِسُوا بما استوحشَ منه الجاهلون، صحبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحها معلَّقة بالمحلِّ الأعلىٰ، أولئك خلفاء الله في أرضه والدُّعاةُ إلىٰ دينه.

خاتمة في مرَاتبِ المَحبَّةِ عند أهلِ التَّصوُّفِ

وقد ذكَر ساداتُنا الصُّوفيَّةُ للْمَحبَّةِ مراتبَ:

أوَّلُها: العلاقةُ، وسمِّيتْ بذلكَ لتَعلُّقِ القَلبِ بالَمحبوبِ.

الثَّانية: الإرادةُ، وهي مَيلُ القلبِ إلىٰ محبُوبهِ وطلبُه منه.

الثَّالثة: الصَّبابةُ، وهي انصِبابُ القلبِ إلىٰ المحبوبِ بحيثُ لا يملِكُه صاحبُه، كانصِبابِ الماءِ في المُنحدَر.

الرَّابعة: الغرَام، وهو الحبُّ اللَّازم للقلبِ، لا يُفارِقُه بل يُلازمُه كـمُلازمَةِ الغَريـمِ لغَريمِهِ.

الخامسة: الودادُ، هو صَفو المحبَّةِ وخالصُها ولبُّها.

السَّادسة: الشَّغفُ، وهو وصولُ الحبِّ إلىٰ شِغاف القلبِ، قال الإمامُ الجنيدُ رحمَه الله تعالىٰ: الشَّغفُ أن لا يَرىٰ المُحِبُّ جفَاءً بل يراه عدْلًا مِنه ووفاءً.

وتَعذِيبُكُم عَذبٌ لَدَيَّ وجَورُكُم عَلَيَّ بِمَا يَقضِي الهَوَىٰ لَكُم عَدْلُ

السَّابعة: العِشق، وهو الحبُّ المفرِط الذي يُخاف علىٰ صاحبِه منه.

الثَّامنة: التَّتيُّـم، وهو التَّعبُّد والتذلُّل، يقال: تيَّمه الحبُّ- أي: ذلَّـله وعبَّده.

التَّاسعة: التعبُّد، وهو فوق التتيُّم، فالعبدُ في هذِه المرتبةِ لم يَبقَ له شيءٌ مِن نفسِه.

العاشِرة: الخُلَّة، انفرَدَ بها الخليلان إبراهيـمُ ومحمَّد عليهما الصَّلاة والسَّلام، وهي المحبَّة التي تخلَّلت روحَ المحبِّ وقلبَه حتَّىٰ لم يبقَ موضعٌ لغَير المحبوبِ.

وقد رأَىٰ الصُّوفيَّة أنَّ سرَّ هذه الحياةِ يقوم علىٰ حرفَين اثنين: الحاءُ والباءُ.

وَأَحسَنُ حَالَةِ الإِنسانِ صِدقٌ وَأَكمَلُ وَصفِهِ حَاءٌ وبَاءُ

وإذا تمكَّن الحبُّ مِنَ القلبِ أخرجَ هذه الدُّنيا الفانيةَ مِن سويدائهِ وعاشَ صاحبُه حياةً طيِّبةً منعَّمةً لا يعرِفُ الهمُّ سبيلًا إليهِ.

مرَّ بعضُ الصُّوفيَّةِ علىٰ رجلٍ يَبكي علىٰ قَبرٍ فسأَله عن سببِ بكائهِ فقال: إنَّ لي حبيبًا قد مات، فقال: لقد ظلمتَ نفسكَ بحبِّك لحبيبٍ يموتُ، فلو أحبَبتَ حَبيبًا لا يَموتُ لَمَا تعذَّبتَ بفِراقه.

وفي واقعِنا أمثلةٌ كثيرةٌ عمَّن يَسترخصُ موتَه عند يأسِه مِن لقاءِ مَن يُحبُّه، فالانتِحارُ وحَرقُ النَّفْس والتَّرامِي علىٰ صَخرةِ الموتِ أمورٌ كلُّنا نَسمعُها عن محِبِّين بائِسين خاسرينَ، وقَد قيلَ:

فَإِنْ شِئتَ أَنْ تَحيَا حَيَاةً هَنِيئَةً فَلَا تَتَّخِذْ شَيئًا تَخَافُ لَهُ فَقْدَا

فـأينَ هـؤلاءِ مِـن أحـبابِ الله ورسـولهِ ﷺ الـذينَ أَحـبُّوا الله ورَضـوا بـهِ ربًّا

وبسيِّدنا محمَّدٍ ﷺ رسولًا وبالإسلام دينًا؟![1].

وفي الخِتام نَرجو مِن الله الكريم الوهَّابِ الذي يهَبُ بسبَبٍ وبدون سبَبٍ أن يرزُقَنا محبَّةً مِن لَدُنه عَطيَّةً منهُ سبحانَه مِن عطَايَا الفضلِ والمنَّةِ واللُّطفِ، وأن يجعلَنا مِن أهلِ محبَّتهِ والأُنس بهِ، وأن يودِعَ قلوبَنا معاني التَّوحيد وحسنَ التوكُّل عليه وحدَه، وأن يَمُدَّنا بمددِه، ويرزقَنا حبَّ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ وحبَّ عبادِه الصَّالحينَ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆

---

(1) انظر: حقائق التصوف (198 - 202).

الرسالة الحادية عشرة
دور الذِّكر في ترقية النفس عند الصوفية

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: تمهيد عن عظمة ذكر الله تعالىٰ.

المحور الثاني: الحضُّ علىٰ ذكرِ الله في الكتابِ والسنَّة.

المحور الثالث: مقام ذِكر الله تعالىٰ في علم التصوف.

المحور الرابع: فوائدُ ذِكر الله.

المحور الخامس: قضايا تتعلَّق بالذكر في علم التَّصوُّف. ◆



« إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ » – آية 13 من سورة البروج

دور الذِّكر في ترقية النفس عند الصوفية

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا بحثٌ لطِيفٌ حولَ لواءِ الإسلام وشعارِه، سُلَّم الوصولِ إلى فاطرِ السَّمواتِ والأرضِ أَلَا وهو ذِكر الله، وسوفَ يكونُ الكلامُ عن الذكر بصِفةٍ عامَّةٍ ثم الكلام عنه عندَ أهلِ التَّصوُّفِ والسُّلوكِ بصِفةٍ خاصَّةٍ، فالذكرُ حَياةُ القلوبِ ونعيمُها، ومعرَاجُ الأرواحِ إلى بارئ السَّمواتِ والأرضِ، ولأَهل التَّصوُّفِ والسُّلوكِ كبيرُ اختِصاصٍ بهذه النِّعمةِ، فلَهم بالذكر اعتناءٌ شديدٌ واهتمامٌ عظيمٌ. وسوفَ يكونُ الحديثُ في هذا البحثِ من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: تمهيد عن عظمة ذكر الله تعالى.

المحور الثاني: الحضُّ على ذكرِ الله في الكتابِ والسنَّة.

المحور الثالث: مقام ذِكر الله تعالى في علم التصوف.

المحور الرابع: فوائدُ ذِكر الله.

المحور الخامس: قضايا تتعلَّق بالذكر في علم التَّصوُّف.

أ- مَشروعيَّةُ الاجتماع على مجالسِ الذكر.

ب- مشروع الورد الصوفي.

ج- مَشروعيَّةُ الجهر بالذكر.

د- ضرورة وأهمية إذنُ الشَّيخ المرَبِّي في الذكر.

هـ- العلاقة بين الخلوةِ والذكر.

و- الذكْرُ بالاسمِ المفرَدِ عندَ الصُّوفيَّةِ.

ز- آدابُ الذكر في علمِ التَّصوُّف. ◆

تمهيد عن عظمة ذكر الله تعالىٰ

إنَّ كلَّ ما في هذا الكونِ عُلويِّه وسُفليِّه شاهدٌ لله ربِّ العالمين بألوهيَّتِهِ، وأنَّه لا إلهَ إلَّا هوَ المتفرِّدُ بالخَلق والتَّدبيرِ، والإنسان إذا أعمل عقله في ظواهرِ هذا الكونِ وتدبَّر آياته فإنَّه سَيجِدُ نفسَه مُنسَاقًا إلىٰ توحيدِ الله ربِّ العالمينَ وخَاضِعًا خضُوعًا تامًّا لَه، فالله جلَّ جلالُه هوَ الإلهُ الحقُّ فلا رَبَّ غيرُه ولا مَعبودَ سِواه، فله الجَلالُ والجَمالُ والكمالُ المطلَق، سبحانَه لا يُحيطُ به عَقلٌ ولا وصفُ واصِفٍ، فهو أعلَىٰ وأجلُّ من كل شيءٍ يقول عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

ويقول تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ ﴿2﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴿3﴾ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ [الحديد:1-3].

فهوَ سبحانَه وتعالىٰ:

عَظِيمٌ لَا تُحِيطُ بِهِ الظُّنون ... بِقَبضَتِه التَّحرُّكُ والسُّكون
تعالَىٰ الله خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ ... مُقدِّرُه إلىٰ وَقتٍ يَكُـــون

فهو سبحانه المَعبُودُ الَّذي لا يَغيب ذِكرُهُ عن سموَاتِه وأرضِه طرفةَ عينٍ ولا أقلَّ مِن ذلك، المتفرِّدُ بالخَلق والتَّدبيرِ والعظَمةِ والكبرياءِ، الَّذي خضَع كلُّ شيءٍ لعظَمتِه، وهو الرَّحمنُ الرَّحيمُ الَّذي يَتودَّد إلىٰ عبادِه بالنِّعمِ والرَّحمات، ويَسترُ عليهم المعاصِي والزلَّاتِ، ويفتحُ أبوابَه لجميعِ عبادِه، لِهذا الذي ذكَرناه ولغَيرِه ممَّا يَضيقُ المقامُ عَن ذكرِه لكلِّ ذلك كانَ الحقُّ جلَّ جلالهُ هو المستَحِقَّ لِأَن يذكُرَه الذَّاكرونَ.

الحَضُّ علىٰ ذكرِ الله في الكتابِ والسنَّة

إن الله سبحانه وتعالىٰ أمَر عبادَه بأن يذكُروه ولا يكونوا عن ذكرِه مِنَ الغافلينَ، وخصَّ أهلَ الإيمان بشعار الذكر، وجعَل شعار أهلِ النِّفاق هو الغفلةَ عن ذِكر الله، والمتتبِّع لكلام الله سبحانه وتعالىٰ وكلام نبيِّه ﷺ يجدُ كثيرًا مِنَ الأمثلة التي فيها الحضُّ علىٰ ذِكر الله سبحانه:

1- ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152].

2- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿41﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 41-42].

3- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ الله كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

وفي كلامِ المصطفىٰ محمَّدٍ ﷺ كَثيرٌ مِنَ الأحاديثِ التي فيهَا حثٌّ علىٰ ذِكر الله والاهتمامِ به:

1- عن أَبِي موسىٰ قال: قال النبيُّ ﷺ: ((مَثَلُ الَّذِي يَذكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ))[1].

2- عن عبدالله بن بُسرٍ أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله إنَّ شرائعَ الإسلامِ قد كَثُرت عليَّ فأخبرني بشيءٍ أَتَشَبَّثُ بهِ، فقال ﷺ: ((لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطبًا مِن ذِكرِ الله))[2].

3- عن أَبِي الدَّرْدَاءِ قال: قال النبيُّ ﷺ: ((أَلَا أُنَبِّئُكُم بِخَيرِ أَعمَالِكُم وَأَزكَاهَا عِندَ مَلِيكِكُم وَأَرفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُم، وَخَيرٌ لَكُم مِن إِنفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيرٌ لَكُم مِن

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل (6407).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر (3375) وابن ماجه في كتاب الأدب، باب فضل الذكر (3793). قال الترمذي: ((حديث حسن غريب من هذا الوجه)).

أَن تَلقَوا عَدُوكُم فَتَضرِبُوا أَعنَاقَهُم وَيَضرِبُوا أَعنَاقَكُم؟)) قالوا: بلىٰ. قال: ((ذِكرُ الله تَعَالَىٰ))[1].

4- عن أبي هريرةَ قال: قال النبيُّ ﷺ: ((يقولُ الله تَعَالَىٰ: أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِن ذَكَرَنِي فِي نَفسِه ذَكَرتُهُ فِي نَفسِي، وَإِن ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرتُهُ فِي مَلَإٍ خَيرٍ مِنهُم))[2].

5- عن أبي هريرةَ قال: كان رسولُ الله ﷺ يسِير في طريقِ مكَّةَ فمرَّ علىٰ جبلٍ يقال له: جُمدان، فقال: ((سِيرُوا، هَذَا جُمدَانُ، سَبَقَ المُفَرِّدُون)). قالوا: وما المفرِّدون يا رسولَ الله؟ قال: ((الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ))[3].

6- عَن أنسٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: ((يقُولُ الله : أَخرِجُوا مِنَ النَّارِ مَن ذَكَرَنِي يَومًا أَو خَافَنِي فِي مَقَامٍ))[4].

فهذِه الآياتُ الكريمة والأحاديثُ الشَّريفة تُرشِدُنا لذِكر الله، وإلىٰ عَظمةِ مَنزلةِ ومكانةِ الذكرِ عندَ الله، ولم يُحدِّد لنا الله سبحانه ولا النَّبيُّ ﷺ طريقةً معيَّنةً في الذكر، أو لَونًا واحدًا ولَم يُقيِّدنا بنَوعٍ محدَّدٍ يقول الحافظ ابنُ حجَر العَسقلانيُّ رحمه الله: ((ولا يَتعيَّن للذكر شيءٌ مخصوصٌ لا يُجزئُ غيرُه، بَل كلُّ ما صدَقَ عليه ذِكرُ الله أجزَأَ، ويدخُل في ذِكر الله تعالىٰ تلَاوةُ القرآنِ، وقراءةُ الحديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ، والاشتِغالُ بالعِلم الشَّرعيِّ))[5].

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب أبواب الدعوات، باب منه (3377).

(2) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (7405) ومسلم في كتاب التوبة، باب في الحض علىٰ التوبة والفرح بها (2675).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث علىٰ ذكر الله تعالىٰ(2676).

(4) أخرجه الترمذي في كتاب صفة جهنم، باب ما جاء أن للنار نفسين وما ذكر من يخرج من النار من أهل التوحيد (2594). وقال: ((حديثٌ حسنٌ غريبٌ)).

(5) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (3/28) تأليف: الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ومحبُّ الدين الخطيب- دار المعرفة- بيروت.

مقام ذكر الله تعالىٰ في علم التَّصوُّف

إنَّ غاية التصوُّف كعلمٍ وسلوكٍ هو الوصولُ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وقطعُ الطريقِ إليه جلَّ وعلا، وأن لا يكونَ في قلبِ الصُّوفيِّ إلَّا الله سبحانَه، ومِن طرُقِ تحصِيل هذا المقامِ ذِكرُ الله؛ ولذلك كان ذكر الله مِن أركانِ التصوُّفِ وأعمدتِه حتَّىٰ إنه غلبَت علىٰ التصوُّف صفةُ الذكر فعُرِفَ بها، فالذكر في التصوُّف له المقامُ الشَّريفُ والمكانةُ العاليةُ، فهو الذي يرقِّي السَّالك في المقاماتِ والأحوالِ، ويثمِر في قلبه المعارفَ أثناءَ سيرِه إلىٰ الله، ومِن هنا فكلُّ مَن ترَكَ الذكر ليس بصوفيٍّ مهما ادَّعىٰ ذلكَ، فالصُّوفي الصَّادق هو الذَّاكر لله سبحانَه علىٰ الدوام.

- وذِكرُ الله عندَ الصُّوفي الصَّادقِ هو أن ينسَىٰ كلَّ شيءٍ سوىٰ المذكورِ سبحانه، فلا يَنشغِل بشِيءٍ مِن هذِه الحياة الدُّنيا بعقلِه أو قلبِه عند ذِكر الله، فالذَّاكِر الحقُّ هو المحبُّ الذي امتلأت نَفسُه بوحدانيَّة الله تعالىٰ، وهو الخاشعُ لجلالِ الله وجمالِه وعظِيم صِفاتِه، والتَّصوُّف يرشِد إلىٰ ذِكر الله سبحانَه مع تفكُّرٍ في تجلِّيات العظمةِ الربَّانيَّة في السَّموات والأرضِ ومع تدبُّرٍ لمعاني التَّقديس والتَّسبيحِ والثَّناءِ.

والصُّوفيُّ يرىٰ أنَّ ذكره لله إنَّما هو بفضل مِنَ الله وتوفيقٍ منه، فهو مُجري الذكر علىٰ لسَانِه، وهو الذي جعَله أهلًا لذلك، فهذِه مِنَّة مِنَ الله أن يوفِّق السَّالكَ الصَّادقَ إلىٰ الذكر ثُمَّ يحبِّبه إليهِ ثُمَّ يُفيض عليه مِن آثارِ الذكر مِن الأنوارِ والرَّحماتِ والعطَايا الإلهيَّةِ ما يغسِل قلبَه ظاهرًا وباطنًا، ويحرِقُ كلَّ ما فيه مِن باطلٍ، وما يجعَلُ قلبَه متَّجهًا إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ غيرَ ملتَفتٍ إلىٰ سِواه، فيسجُدُ القلبُ في رحابِ الله وتخشعُ الجوارح، وذلك كلُّه مِن آثار ذكر الله والتَّفكُّرِ في صفاتِه وكمالاتِه، فيَشعر الذَّاكِر بالتَّجلِّي الإلهيِّ في الكونِ، فيرَىٰ الله قبلَ كلِّ شيءٍ ومع كلِّ شيءٍ، فيخشعُ القلبُ لمَولاه ويمتلِئُ بحبِّه، ويَنطلِق اللِّسانُ بذِكره والثَّناءِ عليه، فالتَّصوُّف يَقودُ الخلقَ مِن خلالِ الذكر إلىٰ محبَّةِ الله ومراقبتِه وتنميةِ مشاعر الحبِّ الإلهيِّ في القلبِ والنَّفس فتَنمو شجرةُ المحبَّةِ لله في القلبِ، ويتَّصِل

حبلُ الودِّ مع مالِكِ المُلك سبحانَه، فتُشرِق في النَّفس الإنسانيَّة أنوارٌ إلهيَّة لا يُعبَّر عنها بقولِ قائلٍ أو قلَم كاتبٍ، وليس هذا الكلامُ ضربًا مِنَ الخيالِ وإنَّما هو مِن كتابِ الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، قال الله سبحانَه ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]. ويقولُ النَّبي ﷺ: ((إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يقُولُ: أَنَا مَع عَبدِي إِذَا هُوَ ذكَرَنِي وَتَحَركَت بِي شَفَتَاهُ))[1]

ولقد حثَّ سَادَتنا أئمَّةُ التَّصوُّفِ على ذكرِ الله في حِكَمِهم ووصايَاهم، فمن ذلك:

قال الإمام أبو القاسم القُشَيريُّ: ((الذكر ركنٌ قويٌّ في طريق الحقِّ سبحانه وتعالى، بل هو العمدةُ في هذا الطَّريقِ، ولا يصِل أحدٌ إلى الله إلَّا بدوَامِ الذكر، والذكر على ضربَين: ذكر اللِّسانِ وذكر القَلبِ؛ فذكر اللِّسانِ بِهِ يصلُ العبدُ إِلَى استدامةِ ذكر القلبِ والتأثير لذكر القلب فَإِذَا كَانَ العبد ذاكرًا بلسانهِ وقلبه فَهُوَ الكامل فِي وصفِه فِي حال سلوكِه.

سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق يَقُول: الذكر منشورُ الولايةِ، فَمَن وفِّق للذكر فَقَد أُعطِيَ المنشورَ ومَن سُلِبَ الذكر فَقَد عُزِلَ[2].

وسُئل الواسطيُّ عن الذكرِ فقال: ((الخروجُ مِن ميدان الغفلةِ إلى فضاءِ المشاهدةِ مع غلبةِ الخوفِ وشدَّة الحبِّ))[3].

وقال الشَّيخُ أحمد زرُّوق رحمَه الله في قواعدِ التَّصوُّفِ: ((الخوَاصُّ ثابتةٌ في الأقوالِ والأفعالِ والأعيانِ، وأعظمُها خواصُّ الأذكارِ؛ إذ ما عَمِلَ آدميٌّ عملًا أنجى له مِن عذابِ الله مِن ذِكرِ الله))[4].

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب، باب فضل الذكر (3792).

(2) انظر: الرِّسالة القُشيريَّة (2/374).

(3) انظر: المصدر السابق (2/375).

(4) انظر: قواعد التصوف (ص154).

وقال الشَّيخ ابنُ عطاء الله السَّكندَري: ((الذكر هو التَّخلُّص مِنَ الغفلةِ والنِّسيانِ بدوام حضورِ القلبِ مع الحقِّ))[1].

وقال حجَّة الإسلام الغزاليُّ: ((واعلَم أنَّه قد انكشَف لأرباب البصائرِ أنَّ الذكر أفضلُ الأعمالِ، ولكن له قشورٌ ثلاثةٌ بعضُها أقرب للُّبِّ مِن بعضٍ، وله لُبٌّ وراء القشور الثَّلاثة، وإنَّما فضَّل القشورَ لكونها طريقًا إليه.

فالقشرُ الأعلىٰ منه: ذِكر اللسانِ فقط.

والثَّاني: ذِكر القلبِ، إذا كان القلبُ يحتاج إلىٰ مراقبةٍ حتَّىٰ يحضرَ مع الذكر، ولو تُرِك وطبعه لاسترَسَل في أوديةِ الأفكارِ.

والثَّالث: أن يستمكِنَ الذكر مِنَ القلب، ويَستولي عليه بحيث يحتاجُ إلىٰ تكلُّفٍ في صَرفه إلىٰ غيرِه كما احتِيجَ في الثَّاني إلىٰ تكلُّفٍ في قرارِه معه ودوامِه عليهِ.

والرَّابع- وهو اللُّباب: أن يستَمكِنَ المذكورُ مِنَ القلبِ ويَنمحِي الذكر ويخفَىٰ، وهو اللُّبابُ المطلوبُ، وذلكَ بأن لا يلتَفِتَ إلىٰ الذكر ولا إلىٰ القَلبِ؛ بل يَستغرِقُ المذكورُ جملتَه، ومهما ظهَر له في أثناءِ ذلك التِفاتٌ إلىٰ الذكر فذلك حجابٌ شَاغلٌ، وهذه الحالةُ التي يعبِّر عنها العارفون بالفَناء))[2].

ثم قال رحمه الله: ((فهذه ثمرة لُبابِ الذكر، وإنَّما مبدؤها ذِكر اللِّسان، ثُمَّ ذِكر القلبِ تكلُّفًا، ثُمَّ ذِكر القلبِ طبعًا، ثُمَّ استيلاءُ المذكورِ وانمِحاءُ الذكر))[3].

فالتَّصوُّف وأئمَّته والمربِّينَ والمرشدينَ قد أبَانوا للسَّالِكين في سَيرِهم إلىٰ الله أنَّ الطَّريقَ

---

(1) انظر: مفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتَّاح (ص7) تأليف: أحمَدَ بنِ عبدالكريم بن عطاءِ الله السَّكَندري- خرَّجَ أحاديثَه: محمَّد عبدالسَّلام إبراهيم- دار الكتبِ العلميَّة- بيروت.

(2) انظر: الأربعين في أصول الدين (ص35) تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي- طبعة المكتبة التِّجاريَّة الكبرىٰ بمصر.

(3) انظر: المصدر السابق (ص37).

العمليَّ الموصلَ إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ رضوانِه هو الإكثارُ مِن ذِكرِ الله في جميعِ الأحوالِ والأوقاتِ، فذِكر الله هو أصلُ الطَّريق والسُّلوكِ، وتكمُن أهمِّيته في ارتباطه بأسماءِ الله تعالىٰ الحُسنىٰ، وبكلِّ ما يتَّصلُ بهِ سبحَانه مِن تَسبيحٍ وتَقديسٍ وتَعظيمٍ، فعظمَة الشَّيءِ تكمُن في ارتباطِه بالعَظيمِ، والذكر ضروريٌّ للسَّالكِ في أوَّل الطَّريق وفي جميع مَراحلِه، وقد أجمعَ مشايخُ التصوُّف أنَّ المداومةَ علىٰ الذكر هي أسرعُ دواءٍ في جلاءِ قلبِ المريدِ، وليسَ ثَمَّة طريق يسلُكه المريدُ أصحَّ وأوضحَ مِنَ طريق الذكر، ولن يَترقَّىٰ المريدُ إلَّا بالذكرِ؛ لأنَّه أساسُ طريقِ التَّصوُّفِ وسُلَّمُه، يقول الشاعر:

قَومٌ هُمُومُهُمُ بالله قَد عَلِقَت ... فَـمَا لَـهُم هِمَمٌ تَسمُو إلَىٰ أحَدِ
فَمَطلَبُ القَومِ مَولاهُم وسَيِّدُهُم ... يَا حُسنَ مَطلَبِهِم للواحِدِ الصَّمَدِ

وقالَ أحدُهم:

لبيك لبيك يا سِرِّي ونَجوائِي ... لبيكَ لبيكَ يا قَصدِي ومعنَائِي
أدعُوك بل أنت تَدعوني إليكَ ... فهَل نادَيتُ إيَّاك أم نادَيت إيَّائِي

فذِكر الله تعالىٰ هو شجَرةُ التَّصوُّفِ المثمرةُ الَّتي تُؤتي أُكلَها كلَّ حَينٍ بإذنِ ربِّها، والصُّوفيُّ الصَّادق هوَ الصُّوفيُّ الذَّاكِر، فالذكر مَنشور الولايةِ، ومنارُ الوصلةِ، وتحقيقُ الإرادة، وعلامةُ صحَّة البدايةِ، ودلالةُ النِّهاية، فليس وراءَ الذكر شيءٌ، وجميعُ الخِصَال المحمودةِ راجعةٌ إلىٰ الذكر.

فوائد ذِكر الله

إنَّ ربَّ العالمين سبحانه وتعالىٰ هو خيرُ مذكورٍ، فما مِن ذرَّةٍ في السَّموات والأرضِ وما بينَهما إلَّا وتذكُر ربَّها، سواءٌ بلسانِ الحال أم بلِسانِ المقالِ، فالذكر هو سبيلُ الوصولِ وعلامةُ القَبولِ، وهو علامة الإيمانِ والبراءةِ مِنَ النِّفاق، وعنوانُ الفلاحِ في الدُّنيا والآخرة، وفيه نورُ القلبِ وجلاءُ الهمِّ والغمِّ وفكُّ الكربِ ﴿أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب﴾ [الرَّعد: 28] وكيف

لا والله سبحَانه وتعالىٰ هو جلِيسُ مَن ذكَره، وأَنِيسُ مَن تفكَّر في عظَمتِه، ومِن هنا كانَت أسعدُ لحظَاتِ العُمرِ التي تَمرُّ على الإنسانِ هي التي يَذكُر العَبدُ فيها خالقَه سبحَانه وتعَالىٰ.

وفوائد الذكر لا تعدُّ ولا تحصَىٰ، وهل تحصَىٰ عطايا مَلِك الملوكِ وأكرمِ الأكرمين سبحانَه وتعالىٰ؟ فالمعروفُ أنَّها لا تحصىٰ، ومع ذلك فإننا سنَذكُر طرفًا مِن فوائدِ الذكر مِن كلامِ أهلِ الله.

1- الذكر هو سُلَّم الوصولِ إلىٰ حضرةِ فاطرِ السَّمواتِ والأرضِ.

2- ذِكر الله هو دِرع المؤمنِ وسيفُه الذي يَصدُّ به وحشةَ الدُّنيا وغربتَها.

3- الذكر يزيل الظُّلمةَ البشريَّة، فالاشتغالُ بحضرةِ ذي الجلالِ يوصلُ الأنوارَ الربَّانية إلىٰ القلبِ والرُّوحِ فتزولُ منهما ظلمَاتُ البشريَّة.

4- جليس ومؤنس الذَّاكِر وركنه الشَّديدُ الَّذي عليه الاعتمادُ والتوكُّل هو الله سبحانَه.

5- الذكر وسيلةٌ لتَخليةِ القلبِ مِن كلِّ ما سِوىٰ الله، فتَنمحِي في جانبِ الأنوارِ القلبيَّة للذكر كلُّ آثارِ الباطلِ.

6- الذكر يجعل للمؤمنين مِعراجًا إلىٰ ربِّك ومدخلًا إلىٰ حضرة قُدسِه.

7- الذكر هو غذاء الرُّوح الإنسانيَّة التي بدونه تهرَم الروح وتذبُل.

8- الذكر يطرُد الشَّيطان عنِ الإنسان، فأنت في معيَّة الله فكيف يكون للشَّيطان عليك سبيلٌ.

9- الذكر يجلِب السُّرور ويزيل الهمَّ والغمَّ ويذهِبُ الحُزنَ.

10- الذكر ينوِّر الوجهَ تَبعًا لنورِ قلبِ الذَّاكر.

11- الذكر يورِثُ المحبَّة لله والخشيةَ والمراقبةَ ودوامَ الصِّلة والمودَّةِ بين العبدِ وربِّه.

12- ترتفع درجات الذَّاكر في الجنَّة، وتُغرَس له الأشجار في الجنَّة.

13- الذَّاكر تَستبشِر به بقاعُ الأرض وتتباهَىٰ به وتشهدُ له يومَ القيامةِ.

14- الذكر سببٌ لنزولِ السَّكينةِ وغشيَانِ الرَّحمةِ وأن تحفَّ الملائكةُ به.

15- الذكر أمانٌ مِنَ النِّفاق وعلامةُ الإيمان.

16- الذكر يجلِب الأمنَ للذَّاكر والهدوءَ النَّفسي وقوَّةَ القلب.

17- الذكر يقوِّي البدنَ، فقوَّة البدن مِن قوَّةِ الرُّوح والقلبِ.

18- الذكر يجلِب الأرزاقَ وييسِّرُها.

19- الذكر بابٌ للفتوحات الإلهيَّة علىٰ القلوب وتعليمِ الله للعبدِ.

20- الذكر هو أفضل الوسائلِ لتهذيب الخُلُقِ وإزالةِ الصِّفات الذَّميمةِ مِنَ النُّفوسِ.

21- الذكر هو شجرةُ الإيمانِ التي تُثمِر الأعمالَ الصَّالحةَ.

22- الذكر نورٌ للمؤمنِ علىٰ الصِّراطِ يومَ القِيامةِ في ظلماتِ المَحشرِ.

23- الذاكر في روضةٍ مِنَ الجنَّاتِ ما دام في الذكر وتحفُّه الملائكة.

24- بالذكر تغفَر الذُّنوب وتزجَر النَّفس عنِ المعاصي وتحرَّك الجوارح للطَّاعات.

25- بالذكر تحصُل البركةُ في العمرِ والأوقاتِ والأماكنِ.

26- الذكر سببٌ لقبول الدُّعاء وقضاءِ الحاجاتِ بدون طلبٍ.

27- الله سبحانه يُباهي الملائكةَ بالذَّاكرين.

28- الذكر يقمَع الشَّيطانَ ويكسِره ويسدُّ طرقَه.

29- الذكر يورِث في القلوب محبَّةً حقيقيةً يشعُر بها الذَّاكر تجاه ربِّه سبحانَه.

30- الذكْرُ يورِثُ الإنابةَ إلىٰ الله في كلِّ الأحوال، ويورِث الركونَ إلىٰ الله والحياءَ منه سبحانَه.

31- الذكر يورِث استيلاءَ الجلالِ الإلهيِّ علىٰ قلب الذَّاكر وحصولَ معنىٰ التَّقديسِ لله سبحانه.

32- الذكر يعصِم الإنسانَ مِنَ الانشغال بالغيبةِ والنَّميمةِ والكلامِ الباطلِ.

33- بالذكر تحصُل مقاماتُ المحبَّة والتَّوكُّل والتَّوحيدِ والقربِ، فالذكر أصلُ هذه المقاماتِ.

34- بالذكر يحصُل العبدُ على منزلةِ القرب مِنَ الله، ويكون في معيَّة الحقِّ سبحانه.

35- الذكر حاجزٌ بين العبدِ وبين جهنَّم.

36- الذكر مفتاحُ كنوزِ الجنَّةِ.

37- الذكر صِقَال قلوب المريدينَ، ومفتاح باب النَّفحات، وسبيل توجُّه التَّجلِّيات على القلوب، وبه يحصُل التخلُّق بالأخلاق المحمَّدية.

38- الذَّاكر متشبِّهٌ بالنبيِّ ﷺ متابعٌ له، وفي ذلك مِنَ الفضلِ والمنزلةِ الرُّتبة العالية.

- فهذه أيُّها الأخ المسلم قطرةٌ مِن بَحرِ فضل وبركات الذكر، وكيف يصِف القلم فضلَ ذِكر مَن ليس كمثله شيءٌ سبحانه وتعالى، فشمِّر عن ساعدِك واستعِن بربِّك في أن يجعلَك مِنَ الذَّاكرين له بقلبِك ولسانِك وجوارِحكَ عسى أن تُفتَح لك أبوابُ الرَّحمات والفيوضات فتَصِل بذكر الله إلى أعلى مقامات القربِ والمودَّة، وأن يحبَّك الله ويجعلَك مِن أهل المودَّة والقربِ.

قضايا تتعلَّق بالذكر في علم التصوُّف

أ - مَشروعيَّة الاجتماع على مجالس الذكر:

إنَّ مِن مِنَن الله سبحانه وتعالى وعظيمِ فضله على أمَّة الإسلام أن جعَل جميع أوقاتِها مهيَّئةً للذكر صالحةً له، ومِن صُور ذلك مجالسُ الذكر التي هي مجالسُ العِلم والوعظِ والفقهِ والتعلُّم والتعليم، بالإضافة إلى مجالسِ قراءة القرآن الكريمِ والتَّسبيح والتَّقديسِ لله سبحانه وتعالى، فهذه المجالس مِن نفحاتِ الجنَّة في حياتنا الدُّنيا.

عن أنس بن مالكٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((إِذَا مَرَرتُم بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارتَعُوا)) قالوا: وما رياض الجنَّة؟ قال: ((حِلَقُ الذكرِ))[1].

---

(1) أخرجَه الترمذي في كتاب أبواب الدعوات، باب (3510). وقال: ((حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس)).

وللتصوُّف كبيرُ عنايةٍ بحِلَق الذكر والاجتماعِ علىٰ قراءةِ الأورادِ والأحزابِ والأدعيةِ، وكذلك الاجتماع علىٰ التَّسبيح والتَّهلِيلِ وتقديسِ الله سبحانه، فهم بذلك يحيون سنَّةً نبويَّةً ويتَّبعون في ذلك ما وردَت به الأحاديثُ الشَّريفة والتي منها:

1- عن أبي سعيدٍ الخُدري وأبي هريرةَ شهِدا علىٰ النبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((لَا يَقعُدُ قَومٌ يَذكُرُونَ الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتهُمُ المَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتهُمُ الرَّحمَةُ، وَنَزَلَت علَيهِم السَّكِينَةُ، وَذكَرَهُمُ الله فِيمَن عِندَهُ))[1].

2- وقال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ لله مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرضِ فُضُلًا عَن كُتَّابِ النَّاسِ، فَإِذَا وَجَدُوا أَقوَامًا يَذكُرُونَ الله تَنَادَوا: هَلُمُّوا إِلَىٰ بُغيَتِكُم، فَيَجيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِم إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنيَا، فَيَقُولُ الله: أَيَّ شَيءٍ تَركتُم عِبَادِي يَصنَعُونَ، فَيَقُولُونَ: تَركنَاهُم يَحمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيَذكُرُونَكَ))[2].

3- عن أبي سعيدٍ الخُدري قال: خرج معاويةُ علىٰ حلقةٍ في المسجد فقال: ((ما أجلَسَكُم؟)) قالوا: جلسنا نذكُر الله، قال: ((الله ما أجلَسَكم إلَّا ذاك؟)) قالوا: والله ما أجلَسَنا إلَّا ذاك، قال: ((أمَا إنِّي لم أستحلِفكم تهمةً لكم، وما كانَ أحدٌ بمنزلَتِي مِن رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثًا منِّي، وإنَّ رسول الله ﷺ خرَج علىٰ حلقةٍ مِن أصحابه فقال: ((مَا أَجلَسَكُم؟)) قالوا: جلَسنا نذكُر الله ونحمدُه علىٰ ما هدانا للإسلامِ ومَنَّ به علينا، قال: ((الله مَا أَجلَسَكُم إِلَّا ذَاكَ؟)) قالوا: والله ما أجلَسَنا إلَّا ذاك، قال: ((أَمَا إِنِّي لَم أَستَحلِفكُم تُهمَةً لَكُم، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبرِيلُ فَأَخبَرَنِي أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ المَلَائِكَةَ))[3]. ففي هذِه الأحاديثِ

---

(1) أخرجه مسلِم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وعلىٰ الذكر (2700).

(2) جزء من حديثٍ أخرجَه التِّرمذي في كتاب أبواب الدعوات، باب ما جاء أن لله ملائكة سيَّاحين في الأرض(3600). وقال: ((حديث حسن صحيح)).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وعلىٰ الذكر (2701).

الشَّريفةِ ما يَدلُّ علىٰ جوَازِ واستِحبَابِ الاجتماعِ علىٰ الذكرِ بكافَّة أشكالهِ وصُورِه مِن علْمٍ وقراءةِ قرآنٍ أو تفكُّرٍ في أسماءِ الله وعظَمَتِه أو الإخبَارِ عن ذاتِ الله أو الدُّعاءِ أو الثَّناءِ علىٰ الله وتَمجيدِه وشُكرِه، كلُّ هذا يشمل حِلَق الذكر.

قال الإمام النَّووي: ((اعلَم أنَّه كما يُستحبُّ الذكر يستحبُّ الجلوسُ في حِلَق أهلِه وقد تظَاهرتِ الأدلَّة علىٰ ذلك))[1]. وما كان له أصلٌ في سنَّة رسولِ الله فلا يَحِلُّ لأحدٍ أن يعترِضَ عليه أو يصِفَه بالبدعةِ، فاجتماعُ أهلِ التَّصوُّف علىٰ الذكر هو إحياءُ سنَّةٍ وصورةٌ مِنَ الصُّورِ التي كانَت علىٰ عَهدِ رسولِ الله ﷺ، وعلىٰ النَّاس أن يَأخذُوا بيَدِ بعضِهم بعضًا لحضورِ مجالس الذكر، وممَّا يزيدُ مِن أهميَّة مجالسِ الذكر وجودُ الشَّيخ المربِّي المرشِد علىٰ رأسِها حيثُ يقوم بالوعظِ والإرشادِ وتأليفِ القلوبِ والدَّعوةِ إلىٰ الله، ويَشحنُ القلوبَ بالمَودَّة والمحبَّةِ وينيرُ الطَّريقَ للسَّيرِ إلىٰ الله.

ولهذِه المجالسِ العامرةِ بذكر الله فوائدُ كبِيرةٌ فهيَ مصدرُ طاقةٍ رُوحيَّةٍ ونفحةٍ إيمانيةٍ عظيمةٍ، فأيُّ مسلِمٍ إذا التَزم بمجلسِ ذِكرٍ فإنه سيجدُ فيه هذه الطاقةَ الرُّوحيَّةَ ممَّا يجعلُه يُدمِن حِلَقَ الذكر لا يقدِر أن يتخلَّف عنها وفي هذَا الخيرُ كلَّ الخيرِ، هذا مِن ناحيةٍ ومن ناحيةٍ أخرَىٰ فإنَّ هذه المجالسَ تقوِّي العلاقةَ بينَ النَّاس فتزدادُ أواصِرُ المحبَّةِ والتَّآلفِ والمودَّةِ بين مَن يَجتمعونَ في هذِه الحلقاتِ فتَتواصل القلوبُ ويَشيع الخيرُ بين المسلِمينَ، وكلُّ ذلك مِن بركاتِ الاجتماعِ علىٰ الذكر، ولكِن فلنَعلم أنَّ كلَّ مجلسِ ذكرٍ لابدَّ أن يكونَ مَقرونًا بمراعاةِ جميعِ حدودِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة وآدَابها والتي يجبُ أن يلتزمَ بها المسلِمُ في جميعِ أوقاتِ حياتِه فَضلًا عن أوقاتِ الذكر.

---

(1) انظر: الأذكار (ص37) تأليف: الإمام أبي زكريَّا محي الدِّين يحيىٰ بن شرَف النَّووي- دار ابن حزم للطباعة والنَّشر- الطَّبعة الأولىٰ- **2004**م.

ب - مشروع الوِرد الصوفي:

إنَّ ذكر الله سبحانه وتعالىٰ هو شِعارُ المؤمنينَ ولواءُ المتَّقين وديدنُ الصَّالحين، فالسَّمواتُ والأرض وما فيهنَّ ومَن فيهنَّ يذكرونَ الله بارئَ البريَّات وفاطرَ الأرضِ والسَّمواتِ لا يَفترون عنِ الذكر والتَّسبيحِ، وهذا مَا أخبَرنا بِهِ الله تعَالىٰ قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44]. والعَبدُ المؤمِن والصُّوفيُّ السَّالك مُنسجِمٌ مع الكونِ في ذِكْرِه لخالقِه والتَّسبيح بحَمدِه، فالذكْر عند الصُّوفيَّة وفي علْم التصوُّف هو مِعراجُ الوصولِ إلىٰ الله، وهو دليلُ المحبَّةِ والاتِّباع حتَّىٰ يَتحقَّق العبدُ بمقامِ العبوديَّةِ لله عزَّ وجلَّ، والمتَتبِّع لسِيرِ وتراجمِ أئمَّة التصوُّف يجدُ أنَّ جانبَ الذكر مِن أهمِّ الجوانبِ في سلوكِهم وإرشادِهم وتربيتِهم للمريدِ. فالتصوُّف قدِ اهتمَّ بذكر الله بجميعِ صورِه وأشكالِه وهيئَاتِه المتعدِّدةِ مِن حيث إنَّه شعارُ المحبِّين وطريقُ السَّالكِين، وهو بابُ الفتحِ الأعظمِ؛ قالَ الله تَعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152] وقال تعالىٰ: ﴿وَالذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ الله لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

والشَّيخُ المربِّي والصُّوفي العابدُ العالِمُ يأخذُ بيدِ المريدِ في طريقِ التصوُّف بخطواتٍ وأفعالٍ أهمُّها ذكْرُ الله والمحافظةُ علىٰ الذكر يوميًّا، وعدمُ الانقطاعِ عنه حتَّىٰ يكونَ مَوصولًا بالله في اللَّيلِ والنَّهار، مَذكورًا عندَ ربِّه محفوفًا ببركةِ الذكرِ وأنوارِه وفيوضَاتِه؛ فيَلتزم المريدُ بأورادٍ وأذكارٍ يوميَّةٍ لا تخرجُ ألفاظُها ومعانيها عن الكتابِ والسُّنَّة، ويكون هذا الوِرْدُ هو الذكْر الذي يَترقَّىٰ به المريدُ في طريقِ الله مُتقرِّبًا إليهِ سبحَانه، والوِردُ الصُّوفيُّ لن تجدَ فيه غيرَ الاستغفارِ والتَّهليلِ والحمدِ والتَّسبيحِ والصَّلاةِ علىٰ النَّبي ﷺ وتلاوةِ القرآنِ، إضافةً إلىٰ الأدعيةِ المأثورةِ عن النَّبيِّ ﷺ أو عنِ العلماءِ والأولياءِ والتي أخذُوها مِن الكتاب والسنَّةِ، وهذا الوردُ يلتَزم به الصُّوفيُّ بشكلٍ يوميٍّ في كلِّ صباحٍ ومساء يأمرُه بها الشَّيخُ لا يُفرِّط فيه، والالتزامُ يكون بعدَدٍ معيَّنٍ لا يَتهاون

العبدُ فيه حتَّىٰ لا يتركَه شيئًا فشيئًا. فالالتزامُ بالأورادِ والمداومةُ عليها يجعلُ العبدَ في حالةِ حضورٍ مع الله دائمًا في سرِّه وعلانيتِه، وتستَولي عليه حالةٌ من التَّعظِيم والهَيبةِ والإجلالِ لله عزَّ وجلَّ فلا يكونُ في شعورِه ونفسِه إلَّا الله تعالىٰ، ولا يخشَىٰ إلَّا الله، ولا يُشاهدُ إلا الله، فالمحافظةُ علىٰ الوِردِ وعدمُ إهمالِه فِعلٌ مَقصودٌ وأساسٌ في التَّصوُّفِ؛ لأنَّه هو وِردُ القلبِ ومصدَر النُّور له، فيقتصِرُ المريدُ بأورادِ شيخِه في البدايةِ حتَّىٰ تحدثَ له أنوارُ وأمدادُ هذِه الأورادِ والأذكارِ. فكما ترَىٰ أخي الكريم الوِرْدُ ما هوَ إلَّا تَنظيمٌ للذكْر في العدَدِ والوقتِ، وتحديدٌ وتعيينٌ للمعاني والألفاظِ التي يَذكُر المريدُ بها، وهي غيرُ خارجةٍ عن الكتابِ والسُّنَّةِ، والعجَبُ أن يأتِيَ بعضُ النَّاس فيَصدُّون عبادَ الله عن ذِكْر الله ويتَّهمونَهم بالابتِداعِ، فيقومُ النَّاسُ بترَكِ الذكر خَوفًا من الوقوع في البدعةِ، أو يتركُون ذكْر الله بأعدادٍ كبيرةٍ بزعْمِ أنَّ ذلك بدعةٌ لم تَرِد عن السَّلفِ.

فالصُّوفيُّ علىٰ الحقيقةِ هو الذَّاكِر الذي لا يغفلُ عن ذكْر ربِّه، والذي يلهَجُ بأسمائِه والثَّناءِ عليه سبحانَه، لأنَّ الذكر هو سلَّمُ الوصولِ إلىٰ بارِئ البريَّاتِ وفاطرِ الأرض والسَّمواتِ، وهو أصلُ الطَّريقِ إلىٰ الله وقاعدتُه وأساسُ التَّصوُّف، وهو الشَّجرةُ التي تؤتِي ثمارَ المحبَّةِ والمعرفةِ والتوكُّلِ والمقاماتِ والأحوالِ، فكلَّما عظُمَت شجرةُ الذكر في قلبِ الصُّوفي وعلىٰ لسَانهِ كلَّما عظُمَت الثِّمار، ويكفي فَخرًا لكلِّ ذاكرٍ للهِ أنَّه مَذكورٌ في الملأ الأعلىٰ وأنَّ جلِيسَه ومؤنسَه هو الله سبحانه وتعالىٰ، فالصُّوفي الذَّاكر هو بين النَّاس ببدنِه، وفي الملإ الأعلىٰ بروحِه وقلبِه، فالذكر مفتاحُ بابِ النَّفحاتِ، ومدخلُ بساطِ المعرفةِ والأنسِ، وهو روضةُ الجنَّة في الحياةِ الدنيا. هذا ولَا فرقَ بين أن يكونَ الذاكِر مُنفردًا يجلِس وحدَه معَ الله تعالىٰ متضرِّعًا ومُتذلِّلًا، أو يجلسُ مع جماعةٍ مِن إخوانهِ وأصحابهِ يذكرونَ الله جماعةً.

الوِرد بالكسر: هو الجُزء، والوِرد: النَّصيبُ مِن القرآنِ، والوِرد الصُّوفي: هو مجموعةٌ مِنَ الأذكارِ يضعُها الشَّيخُ المربِّي المرشِد العالِم بأحكام الشَّريعة للسَّالكين إلىٰ الله،

ويأمُرُهم بالمداومةِ عليها يوميًّا، وهذه الأورادُ مُستقاةٌ مِن أذكارِ الكتابِ والسُّنَّةِ، أو مِن مَعاني الكِتابِ والسُّنَّةِ التي فتَحَ اللهُ بهَا علىٰ قلوبِ العارفين مِن مشَايخِ التَّصوُّفِ، والتي صِيغَت بكلِماتٍ وجُمَلٍ رقيقةٍ فيها دعاءٌ ومناجاةٌ للهِ وتَقديسٌ له، والوِردُ اليوميُّ في التَّصوُّفِ ما هو إلَّا قراءةُ قرآنٍ واستغفارٌ وتسبيحٌ وتحميدٌ وتَهليلٌ وصَلاةٌ وسلَامٌ علىٰ الرَّسولِ ﷺ وغيرُ ذلك مِن الألفاظِ والجُمَلِ والمعَاني الَّتي ورَدَت في كتابِ الله وسُنَّة الرَّسولِ ﷺ. ويُعدُّ الالتزام بالوِرد والمداومةُ عليه مِن مقاصِد التصوُّف، وقد رغَّب النبيُّ ﷺ في المداومة علىٰ الأعمالِ وإن كانت قليلةً، قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ أَدوَمُهَا وَإِن قَلَّ»[1]. فَالمداومةُ علىٰ الوِرد اليوميِّ للسَّالك والمريدِ يَنتُج عنه مع مرورِ الوقتِ تَصفيةُ القلبِ مِنَ الأمراضِ والصِّفات الذَّميمةِ، ورَبطُ هذا القلبِ بالله سبحانه، ثمَّ تُفتَح بعد ذلك الأبوابُ للأنوارِ والرَّحماتِ. فالهدَفُ مِن وضع الوِرد هو تَنظيم الالتزامِ بهذِه الأذكارِ والأدعيةِ بحيثُ تكون واجبًا يوميًّا لا يَتركه المريدُ أبدًا، وذلك حتَّىٰ يصيرَ موصولًا بالله دائمًا.

وقد مشَىٰ ساداتُنا الصُّوفيَّة علىٰ نهجِ رسولِ الله ﷺ فداومُوا علىٰ أذكارٍ معيَّنةٍ دُون انقِطاعٍ، وهو ما يسمَّىٰ بـ(الوردِ) وهو علىٰ مستوياتٍ:

1- وِرد أو ذِكر التَّطهير.
2- وِرد أو ذِكر التَّنوير.
3- وِرد أو ذِكر التَّعمير.

1- ذكر التَّطهير: ويشمَلُ الاستعاذةَ بالله والاستغفارَ ومحاسبةَ النَّفسِ لتعودَ صفحةُ الأعمالِ نقِيَّةً بيضاءَ.

---

(1) متفق عليه؛ أخرجَه البخاري في كتاب الرقائق، باب القصد والمداومة علىٰ العمل (6464) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره(783).

2- ذكر التَّنوير: ويشمل الإكثارَ مِنَ الصَّلاةِ على النبيِّ ﷺ لِمَا لها مِنَ البركاتِ والرَّحماتِ والخصائصِ.

3- ذكر التَّعمير: والمراد به تعميرُ القلبِ بالإيمان، ويركِّز على كلمة التَّوحيد بصيغة (لا إلهَ إلا الله).

فما مِن وِردٍ مِن أورادِ الصُّوفيَّةِ إلَّا ويوجد به هذِه الأركانُ الثَّلاثة، وإن اختلفَتِ الألفاظُ.

وعندَ النَّظر إلى الالتزام بالوِرد اليومي نجد أنَّه صورةٌ وشكلٌ مِن صور وأشكال المجاهدةِ، فهو منهجُ وسبيلُ السَّالكين إلى الله، فيجبُ المحافظةُ عليه وعدمُ إهمالِه؛ لأنَّه الصِّلة والمعراجُ إلى الله، والواجبُ على المسلِمِ السَّالك إلى الله تعالَى أن يَشهدَ عظِيمَ مِنَّة الله عليه أن وفَّقَه للذكر، وجعَل له مِنَ الوقتِ والفراغِ ما ليسَ لغَيره، فلْيَشهَدِ الفضلَ وليحافِظ على نعمةِ الله بالمداومةِ وعدمِ الانقطاع عن وِرده أبدًا، قال الإمام النَّووي رحمه الله: ((يَنبغي لَمن كان له وظيفةٌ مِنَ الذكر في وقتٍ مِن ليلٍ أو نهارٍ أو عقيبَ صلاةٍ أو حالةٍ مِنَ الأحوال أن يتداركَها ويأتي بها إذا تمكَّن منها ولا يهملَها، فإنَّه إذا اعتَادَ المُلازمةَ عليها لم يُعرِّضْها للتَّفويتِ، وإذا تَساهلَ في قضَائِها سَهُلَ عليه تضييعُها في وقتِها))[1].

فأورادُ اليومِ هي جلاءُ القلبِ ومصبَاحُه الذي يُنيرُه، وتُكسِب المسلمَ صفةَ الإيمانِ وتُبعدُه عن صفةِ النِّفاق، وتفتح له أبوابَ الرَّحمات مِن ربِّ الأرض والسَّموات، فوِردُكَ هو خَلوتك بربِّك وصِلتُكَ به ورأسُ مالِكَ في هذه الدُّنيا وكنزُكَ المدَّخر ليومِ الحسابِ.

ومِن الأورادِ المشهورةِ التي نقلت عن ساداتنا أهل السُّلوك إلى الله مِنَ العلماء العامِلِينَ المحقِّقينَ:

---

(1) انظر: الأذكار للإمام النووي (ص 46).

- وِرد الإمامِ النَّوويِّ قدس الله سره.
- حِزب البَحر لسيدنا الشَّيخ أبي الحسن الشَّاذلي رحمه الله.
- وِرد الشيخ أحمد زرُّوق الفاسي صاحبُ كتابِ قواعدِ التَّصوف، واسمه: سفينةُ النَّجا لَمن إلىٰ الله التَجا.

فَهذِه الأحزابِ وغيرها ألفاظُها ومعانيها مستوحاةٌ مِن كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ وفيها مَا يُلين القلبَ ويُقرِّبه مِنَ الله، وييسِّر لمسلِم السَّالك سبيلَ الدُّعاءِ والمناجاةِ دون صعوبةٍ.

ج - مَشروعيَّة الجَهرِ بالذكر:

الجَهر بالذكر أمرٌ مُستحَبٌّ عند عامَّةِ الفقهاءِ، والجَهر دون الإسرارِ، وهو إظهارُ الصَّوتِ ووضوحُ الكلامِ، قالَ الله سبحانَه وتعالَىٰ: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا﴾ [الإسراء: 110]. وقد جاءَ في السُّنَّة النبويَّة ما يدلُّ علىٰ إباحةِ الجَهر بالذكر بجميعِ أنواعهِ:

1- عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يَقُولُ الله تَعَالَىٰ: أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِن ذَكَرَنِي فِي نَفسِهِ ذَكَرتُهُ فِي نَفسِي، وَإِن ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرتُهُ فِي مَلَإٍ خَيرٍ مِنهُم))[1].

2- وذَهبَ بعضُ السَّلفِ إلىٰ أنَّه يُستحبُّ رفعُ الصَّوتِ بالتَّكبيرِ والذكرِ عقيبَ الصَّلواتِ المكتوبةِ واستدلُّوا بما قالَ ابنُ عبَّاسٍ : ((إنَّ رفعَ الصَّوتِ بالذكر حين يَنصرِفُ النَّاسُ منَ المكتوبةِ كانَ علىٰ عَهدِ النَّبيِّ ﷺ)) وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ((كنتُ أعلَم إذا انصرَفوا بذلك إذا سَمِعتُه))[2].

(1) تقدَّم تخريجُه.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة (841) ومسلِم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة (583).

3- عن عبدالله بن عمرَ قال: ((إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يخرُج في العِيدَين معَ الفَضل بنِ عبَّاسٍ، وعبدالله بن عبَّاسٍ، والعبَّاس، وعليٍّ، وجعفرٍ، والحسنِ، والحسينِ، وأسامةَ بن زيدٍ، وزيد بن حارثةَ، وأيمنِ ابن أمِّ أيمن، رافعًا صوتَه بالتَّهليل والتَّكبير، فيأخُذ طريقَ الحدَّادِينَ حتَّىٰ يأتيَ المصلَّىٰ، فإذا فرَغ رجَع علىٰ الحذَّائينَ حتَّىٰ يأتيَ منزلَه))[1].

4- وكانَ ابنُ عمرَ وأبو هريرةَ يَخرُجان إلىٰ السُّوقِ في أيَّامِ العَشر يُكبِّران ويُكبِّرُ النَّاسُ بتَكبيرِهمَا[2].

ففي هذه الأحاديثِ وغيرها دلالةٌ علىٰ وقوع الجَهر بالذكر علىٰ عهد رسول الله ﷺ، وفائدة رفعِ الصَّوت بالذكر أنَّه ينبِّه الذَّاكر ويلفتُ الانتباه ويعصِم مِن شرود الفِكر هنا أو هناك، وتتعدَّىٰ فائدةُ الجَهر بالذكر إلىٰ السَّامعِينَ، والأمرُ في ذلك فيه سَعةٌ، وكلٌّ يعمل بما تيسَّر له في الوقتِ والحالِ، ولكنَّ الأصل في الجَهر أنَّه مباحٌ فقد يُسِرُّ الإنسان بالذكرِ خَوفًا مِنَ التَّشويشِ علىٰ النَّاس أو خوفًا مِنَ الرياء والعجبِ، وقد يجهر بالذكر عندَ أمنِ ذلك.

د - إذنُ الشَّيخ المربِّي في الذكر:

إنَّ مِن آداب السُّلوك والتصوُّف في أمرِ الذكر استئذانَ الشيخ في الوِرد أو الذكر، فالمريد الذي أَذِنَ له الشَّيخ بالوردِ سيكون متَّصلًا بسلسلةٍ روحانيَّةٍ مِنَ الشُّيوخ والمربِّين إلىٰ سيِّدنا رسول الله ﷺ، وتلقي الوِرد مِنَ الشَّيخ الذي تلقاه هو أيضًا من شيخِه مثلُه كمثلِ التيَّار الكهربائي الذي يسري في المصباحِ فيُضيئه، فمَهما كان هذا المصباحُ كاملَ المواصفاتِ لن يضيءَ ما لَم يَسرِ فيهِ تيَّارُ الكهرباءِ، وعليهِ فقَد شدَّد أهلُ الطُّرقِ ومشايخُ التَّصوُّفِ في ضَرورةِ الاستئذانِ بالأورادِ والأدعيةِ ونحوها، فَسِرُّ الشَّيخِ وفيوضُه وبركةُ الاتِّباع هي أصلُ الوصولِ وهذا لا يَحصُل لِلمريدِ إلَّا بتلقِّي الوِرد عنِ شيخِه، ثم

(1) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (1431) والبيهقي في السنن الكبرىٰ (279/3).

(2) ذكَره البخاري تعليقًا بصيغة الجزم في كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (20/2).

إنَّ في الإذنِ بالوِردِ مرَاعاةً للمريدِ فالشَّيخُ يعطِي الأورادَ التي تناسبُ حالَ كلِّ شخصٍ، وهنَا لابدَّ أن نؤكِّد علىٰ أنَّ ثوابَ الذكر حاصلٌ سواءٌ أكان مع الإذنِ أم مع عدمِ الإذنِ إن شاءَ الله، لكنَّ الثَّمرةَ الرُّوحيَّة والتزكيةَ القلبيَّة تقِلُّ بغير الإذنِ، فالطَّريقُ إلىٰ الله يَستلزمُ وجودَ العالِم المرشدِ والشَّيخِ الربَّاني في كلِّ خطوةٍ مِن خطواتِ السُّلوك، وليس في هذا نوعُ تعنُّتٍ أو تضيقٍ وإنَّما هو إرشادٌ وضبطٌ وإنارةٌ لطَريق السُّلوكِ.

هـ - العلاقة بين الخلوة والذكر:

الخلوةُ في التَّصوُّف هي أحدُ الوسائلِ لجمعِ القلبِ علىٰ الله وعدمِ الانشغالِ بسِواه سبحانَه وتعالىٰ، وهي انقطاعٌ عنِ البشر لفترةٍ محدودةٍ وتركٌ للأعمال الدُّنيوية لمدَّةٍ يسيرةٍ حتَّىٰ يتفرَّغَ القلبُ مِن مشاغل الحياةِ اليوميَّةِ، ويُقبِلَ علىٰ الله ذاكرًا له متفكِّرًا في آلائهِ ونعمِه، والخلوةُ الصُّوفيَّة لها خصَائص وهيئةٌ محدَّدةٌ مِن حيثُ وجودُ الشَّيخ المشرِف والمكانِ والمدَّةُ والانقطاعُ والعزلةُ التَّامَّة عنِ النَّاس، وهذا يحقِّق للمختلي سلوكَ طريقِ الوصولِ إلىٰ الله مع الذكر والأُنس به سبحانَه.

- قالَ الإمامُ الشافعي: «ومَن أحبَّ أن يفتحَ الله قلبَه ويرزقَه العِلْمَ فعليهِ بالخلوةِ وقلَّةِ الأكل وتركِ مخالطةِ السُّفهاءِ وبعضِ أهل العِلم الذين ليسَ مَعهم إنصافٌ ولا أدَبٌ»[1].

- قال الإمامُ الغزالي رحمه الله: «وأمَّا الخلوة ففائدتها: دفعُ الشَّواغل، وضبطُ السَّمع والبصرِ فإنَّهما دِهليز القلبِ، والقلبُ في حُكم حوضٍ تنصبُّ إليه مياهٌ كريهةٌ كَدِرةٌ قَذِرةٌ مِن أنهار الحواسِ، ومقصودُ الرِّياضة تفريغ الحوض مِن تلك المياه ومِنَ الطِّين الحاصل منها؛ ليتفجَّر أصل الحوض فيخرجَ منه الماء النظيفُ الطَّاهر، وكيف يصحُّ له أن ينزحَ الماءَ مِنَ الحوضِ والأنهارُ مفتوحةٌ إليه فيتجدَّدُ في كلِّ حالٍ أكثر ممَّا ينقصُ؟!

(1) انظر: بستان العارفين (ص53) تأليف: الإمام أبي زكريَّا محيي الدِّين يحيىٰ بن شرَف النَّووي- دار الريان للتراث- القاهرة.

فلابدَّ مِن ضبط الحواس إلَّا عن قَدْر الضَّرورةِ وليس يتمُّ ذلك إلَّا بالخلوةِ))[1].

والخلوةُ بهيئتِها هذِه غيرُ مُستطاعةٍ لجميع النَّاس، وما لا يُدرَك كلُّه لا يُترَك جلُّه، فعليكَ أخي المسلِم إن أردتَ أن تأخذَ نصِيبًا مِنَ الخلوةِ أن تجعلَ لك وقتًا محدَّدًا يوميًّا أو أسبوعيًّا تختلي فيهِ بنفسِك بعيدًا عن مشاغِل وهمومِ الحياةِ الدُّنيا تتقرَّب فيه مِن ربِّك، تتفكَّر في عظمتِه وصفاتِه تذكُرُه وتدعوه أن يهبَك السُّلوكَ إليه، وأن يفتحَ لقلبك أبوابَ المعرفةِ والمحبَّةِ والقربِ منه سبحانه، ويا حبَّذا لو كان وقتُ خلوتِك هو وقت السَّحرِ الذي تَتنزَّل فيه النَّفحاتُ الإلهيَّة والفيوضاتُ الربَّانيَّة، وليكُنِ الذكر والدُّعاء هما سُلَّمَكَ إلىٰ ربِّك في خَلوتِك هذِه التي ربَّما يفتَح الله لكَ فيهَا ما لم يفتَح لغَيرك في الخَلَواتِ الطَّويلةِ ﴿وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20].

و - الذكر بالاسم المفرَدِ عند الصُّوفية:

الاسم المفرَد وهو اسم الجلالة (الله) وهو الاسم الذي يلهَج به العارِفونَ ويجعلونَه مع أنفاسِهم ليلًا ونهارًا لا يفتُرون عنه، وهذا الاسم هو سُلطَان الأسماءِ وهو الاسم الأعظمُ عند كثير من العلماءِ وسائرِ مشايخ الصُّوفية ومحقِّقيهم، فلا ذِكر عندهم فوقَ هذا الذكر.

قال الإمام الجُنيد رحمه الله: ((ذِاكر هذا الاسم (الله) ذاهبٌ عن نفسِه متَّصِلٌ بربِّه قائمٌ بأداءِ حقِّه ناظرٌ إليه بقلبِه قد أحرقَت أنوارُ الشُّهود صفاتِ بشريَّتِه))[2].

فلا يزَالُ المريدُ السَّالك يذكُر ربَّه سبحانه وتعالىٰ به حتَّىٰ ينطِقَ كلُّ شيءٍ منه دمُه ولحمُه وعروقُه بذكر الله، وتَسري أنوارُه في كليَّاته وجزئيَّاته. والذكر بالاسم المُفرَد (الله) أو

---

(1) انظر: إحياء علوم الدين (74/3) تأليف: الإمام أبي حامد الغزالي- مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا- سماراغ أندونيسيا.

(2) انظر: نور التحقيق في صحة أعمال الطريق (ص 180) تأليف: حامد إبراهيم محمد صقر- مطبعة دار التأليف- مصر — الطبعة الثانية — 1970م.

بأيِّ اسمٍ مِن أسماء الله وصفاتِه مجردًا مثل (حي، قيُّوم، كبير، قهَّار) وغير ذلك مِن أسمائه سبحانه هو جائزٌ شرعًا والدليل علىٰ هذا قولُه سبحانه وتعالىٰ ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان: 25] وقوله عز وجل ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: 8] وقولُه أيضًا ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91] وذِكر الاسم هو تكرار النُّطق به.

- وعن أنس بن مالكٍ عنِ النبيِّ ﷺ: ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ لَا يُقَالَ فِي الأَرْضِ: اللهُ، اللهُ))[1].

والآياتُ الكريمةُ والأحاديثُ الشَّريفةُ الَّتي رغَّبَت في الذكرِ جاءَت عامَّةً مُطلقةً لم تُخصَّص بذكرٍ معينٍ، ولم يَرِد نصٌّ شرعيٌّ يحرِّم الذكر بالاسم المفرَدِ (الله) وكلُّ مَن يقول بعدمِ جواز الذكر بالاسمِ المفردِ هو يقلِّدُ ابنَ تيميَّة رحمه الله في القول بالمنعِ. والمتحقِّق السَّالك الذَّاكر لهذا الاسمِ كما أخبر أئمة وشيوخ التصوف يُفتَح عليه سريعًا.

ز - آدابُ الذكر في علم التصوف:

إنَّ للذكر في التصوُّف آدابًا يجب مراعاتُها مِن قِبَل كلِّ سالكٍ إلىٰ الله سبحانَه وتعالىٰ منها: أن يعلمَ السَّالكُ قَدر الذكر وقَدر حِلَق الذكر، وأن يعلمَ أنَّ المطلوبَ منه في حلَقةِ الذكر هو التعلُّق بالله وحدَه بذكر اسمِه، وأن يستغرقَ بكلِّيته في جلالِ الله وعظمَتِه، وأن لا يلتَفتَ إلىٰ عوائدِ الذكر ولا يعتبرَها هدفَه سواءٌ أكانت فتوحاتٍ دنيويَّةً أو كراماتٍ أو غيرَ ذلك، وإنَّما عليه أن يُلزِم نفسَه مقامَ العبوديَّة للهِ سبحانَه، وأنَّه عبدٌ يذكُر ربَّه لعِظَم مقام ربِّه، وأنَّ المنَّة للهِ وحدَه أن وفَّقَه لذِكره، وأنَّه لم يكن ليَصِل لذلك لولَا فضلُ الله ومنَّتُه، وأن ينفي مِن قلبه ونفسِه كلَّ ما سوىٰ الله حالَ الذكر فلا يلتفِت إلَّا إلىٰ صفاتِ الله وأسمائه وجلالِ قُدسِه. فيجلِس الذَّاكر مستقبِلًا القِبلةَ متذلِّلًا خاشعًا

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان في آخر الزمان (148).

محاولًا استحضارَ معاني الذكر شيئًا فشيئًا، ولا ييأسُ مِن عدم حضورِ القلب أو انغلاقِه في بعض الأحيان؛ لأنَّ مَنْ طرَق الباب يوشِك أن يُفتَحَ له، والكريم الوهَّاب سبحانه لا يردُّ عبدَه عن بابه إلَّا مجبورَ الخاطرِ محمَّلًا بتُحفِ وهدايا مَولاه، فعلىٰ السَّالك ملازمةُ الذكر باللِّسان حتَّىٰ يتهيَّأ القلبُ ويَنتقِل الذكر إليهِ. ويجبُ مراعاةُ الطَّهارةِ الظَّاهرة والباطنةِ فيطهِّر قلبَه بالتَّوبةِ الصَّادقةِ، ويتخلَّىٰ عن جميع الأمراضِ القلبيَّة، ويتبرَّأ مِن حوله وقوَّته ويستعينُ بحولِ الله وقوَّته متحقِّقًا بذلِّه وفقرِه واحتياجِه إلىٰ الله، ويطهِّر بدنَه بالغُسل والوضوءِ ويتطيَّب. وليلتزِمْ الذاكر بالآدابِ الشَّرعية وحدودِها، فلا يقع في البِدَع المحرَّمةِ الَّتي لا تَليق بمجالسِ ذِكر مَلِك الملوك، وليعلَم أنَّ رسول الله ﷺ هو خيرُ مَن ذكر الله فلْيستنَّ بسنَّتِه متابعًا المرشدَ الربَّاني العالِم الَّذي يوضِّح حدودَ الممنوعِ والمسموحِ في حلقاتِ الذكر العامَّةِ أو الخاصَّة، وكلَّما زادَ التَّحقُّق بتلكَ الآدابِ كان الفتحُ والقُرب أسرعَ.

إنَّ الذاكِر لله هو جليسٌ له سبحانه فليؤدِّب نفسَه بأدبِ مجالسةِ المَلِك ذي الجلال والإكرام، فعن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: ((إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبدِي إِذَا هُو ذكَرَنِي وَتَحرَكَت بِي شَفَتَاهُ))[1]. ◆

(1) تقدَّم تخريجه.

الخاتمة

إنَّ مِن مِنَن الله سبحانَه وتعالىٰ علىٰ أمَّة الإسلامِ وجودَ التَّصوُّف الحقِّ بشيوخِه المربِّين المرشدِين وعلمائِه الراسخِين ومريدِيه المخلصِين الصَّادقِين، وعلُومهِ التي فيهَا مِنَ النَّفحاتِ الإلهيَّة والفيوضات الربَّانية ما لا مَثيلَ له في أمَّةٍ مِنَ الأمم السَّابقةِ، وهذِه النِّعم والمِنَن هي الإمدادَاتُ المحمَّديَّةُ والأنوارُ المصطَفويَّة المتجدِّدةُ في أمَّةِ الإسلام، فالتصوف باب ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ وهذا الذكر الذي يزكِّي القلبَ ويَجعلُه يتَّجهُ بكليَّته إلىٰ سيِّده ومَولاه فيَنصلِح حالُه، وبصَلاحِ حالِ القلبِ ينصلِح حالُ الإنسانِ؛ كما قال ﷺ: ((أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلبُ))[1].

فعلَيك أخي الكريم أن تتمسَّكَ بذِكْر الله في جميع أوقاتِك حتَّىٰ يصبحَ الذكر لكَ عادةً لازمةً فتصيرَ موصولَ القلبِ بمولاك ناظرًا إلىٰ جلاله وقُدْسِه بعينِ بصِيرتكَ، شاكرًا له سبحانَه أن وفَّقَك إلىٰ ذكره مِنَّةً منه وفَضلًا فجعلَ منك شبيهًا للملائكةِ الكِرام في إدمانهم التَّقديسَ والتَّحميدَ والركونَ للهِ، فإن ركنتَ أخي الكريم إلىٰ الذكر فقَد ركنتَ إلىٰ الركن الشَّديدِ ركن ربِّ العالمين فتكونُ عبدًا ربَّانيًّا مِن خواصِّ مالِك الملْكِ سبحانه، فها هو ذا البابُ مفتوحٌ لك فادخُله وتوكَّل علىٰ مولاك، واطلُب منه المددَ والعونَ فهو الكريمُ الذي لا يردُّ عبدَه، وهو الوهَّاب الذي يهَبُ بسبب ودون سبَبٍ فسوفَ يُدخِلكَ في رحابه ويكرمُك غايةَ الإكرامِ.

نسألُ الله أن يجعلَنا منَ المتحقِّقين في مقامِ الذكر له، وأن يكرمَنا بالوصولِ بجاهِ سيِّد الذَّاكرين سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ والحمدُ لله ربِّ العالمين. ◆

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (52) ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (1599).

الرسالة الثانية عشرة
التَّوكل علىٰ الله في ضوء المنهج الصوفي

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: معاني التوكُّل لغة واصطلاحًا.

المحور الثاني: التوكُّل في كتاب الله عزَّ وجلَّ وسُنَّةِ رسول الله ﷺ.

المحور الثَّالث: أثر الإيمان بالله سبحانه وتعالىٰ في التَّوكُّلِ.

المحور الرَّابع: أثر التَّوكُّلِ في حياة المسلم.

المحور الخامس: مقامُ التوكُّل في المنهج الصُّوفي.

المحور السَّادس: بيان حقيقة التوكل علىٰ الله من خلال أقوال السادة الصوفية.

المحور السَّابع: العلاقة بين التوكل والأخذ بالأسبابِ عند السادة الصوفية. ◆



« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » - آية **30** من سورة الأنبياء

التَّوكل علىٰ الله في ضوء المنهج الصوفي

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فالتوكُّلُ علىٰ الله سبحانَه وتعالىٰ من أعمدة الإيمانِ والإسلامِ، وذلكَ لأنَّه علامةٌ ودلالةٌ علىٰ صدقِ التَّوحيدِ والتَّسليمِ للحقِّ سبحانه وتعالىٰ، وقد حَظِيَ مقامُ التَّوكُّل علىٰ الله باهتمامٍ كبيرٍ في شريعةِ الإسلامِ، تدلُّ علىٰ ذلك النُّصوصُ الكثيرةُ التي تحضُّ عليه من كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ.

والتَّوكلُ علىٰ الله له في الطَّريق الصُّوفيِّ ومنهجِ أهلِ السُّلوكِ والإرادةِ مكانةٌ كبيرةٌ ودرجاتٌ متفاوتةٌ، وقدِ اهتمَّ أئمَّةُ التَّصوُّفِ ومشايخُه والمربُّونَ المرشدونَ بالكلامِ عنه وتوضيحِه وبيانِ ماهيَّتِه ودرجاتِه في المصنَّفاتِ والأقوالِ والوَصايا؛ وذلك لِـمَا يحوِيه من حقائقِ الإيمانِ والتَّوحيدِ وترسيخِ فكرة قطعِ علائقِ القلبِ بغيرِ الله سبحانه وتعالىٰ.

وسوف نتكلَّمُ في هذا البحثِ الموجزِ عن هذه القضية المهمة أَلَا وهي التَّوكُّلُ علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وبيانِها في طريقِ التَّصوُّفِ بشيءٍ من التَّوضيحِ، مُحاولينَ في هذه الرِّسالة الرَّبطَ بين العِلمِ والسُّلوكِ، عسانا أنْ نكونَ قد طرقْنا بابًا من أبوابِ القرب وحصولِ الطَّاعة، الأمرُ الذي يَستدعِينا إلىٰ الكلامِ في هذه القضيَّةِ في المحاور التالية:

المحور الأول: معاني التوكُّل لغة واصطلاحًا.

المحور الثاني: التوكُّل في كتاب الله عزَّ وجلَّ وسُنَّةِ رسول الله ﷺ.

المحور الثَّالث: أثر الإيمان بالله سبحانه وتعالىٰ في التَّوكُّلِ.

المحور الرَّابع: أثر التَّوكُّلِ في حياة المسلم.

المحور الخامس: مقامُ التوكُّل في المنهج الصُّوفي.

المحور السَّادس: بيان حقيقة التوكل علىٰ الله من خلال أقوال السادة الصوفية.

المحور السَّابع: العلاقة بين التوكل والأخذ بالأسبابِ عند السادة الصوفية. ◆

معاني التَّوكُّل لغة واصطلاحًا

أولًا: المعنىٰ اللُّغويُّ:

التَّوكُّل: من مادة وَكَلَ، يقال: وَكَلَ بالله وتوكَّل عليه واتَّكل.

وفي لسان العرب: والمُتوكِّل عَلَىٰ الله: الَّذِي يَعْلَمُ أَن الله كافِلٌ رِزْقَه وأَمْرَه فيرْكَن إِليه وحْدَه ولا يتوَكَّل عَلَىٰ غَيْرِهِ. يقول ابْنُ سِيدَه: وَكِلَ بِالله وتَوَكَّلَ عَلَيْهِ واتَّكَل استَسْلم إِليه، وَتَكَرَّرَ فِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ التَّوكُّل يُقَالُ: تَوَكَّلَ بالأَمر إِذا ضَمِن القِيامَ بِهِ، ووَكَلْت أَمري إِلىٰ فُلَانٍ أَي أَلجَأْتُه إِليه وَاعْتَمَدْتُ فِيهِ عَلَيْهِ، ووَكَّلَ فلانٌ فُلانًا إِذا استَكْفاه أَمرَه ثِقةً بِكِفايتِه أَو عَجْزًا عَنِ القِيام بأَمر نَفْسِهِ. ووَكَلَ إِليه الأَمرَ: سلَّمه. ووَكَله إِلىٰ رأْيه وَكْلًا ووُكُولًا: تَرَكَهُ[1].

وقال الأزهريُّ: «رجلٌ وَكَلةٌ إذا كان يكل أمرَه إلىٰ النَّاسِ، والوكيل: فعيل، وكيل الرجُل: الذي يقوم بأمره». وقالَ أيضًا: «سُمِّي وكيلًا لأنَّ موكله به قد وكل إليه القيامَ بأمره، فهو موكولٌ إليه الأمرُ»[2].

ثانيًا: المعنىٰ الاصطلاحيُّ:

اختلف أهلُ العِلْم والسُّلوكِ في تعريفِهم للتَّوكل علىٰ صورٍ شتَّىٰ؛ فمنهم مَن فسَّره بأسبابه ودواعِيه، ومنهم مَن فسَّره بثمراتِه ونتائجِه، أو بجزءٍ من معناه وغير ذلك، ويرجع الاختلافُ في التَّفسيرِ والتَّعريفِ إلىٰ أن التَّوكُّلَ عملٌ قلبيٌّ، وأعمال القلوبِ يصعُب التَّعبيرُ عنها بألفاظٍ محدَّدةٍ، ويصعب ضبطُها وحصرُ صورِها، فلو سُئل كلُّ مؤمنٍ موحدٍ عن معنىٰ التَّوكُّلِ لعبَّر عنه بألفاظٍ مختلفةٍ عن الآخرِ وإنْ كانت متَّحدةَ المعاني، قال الإمامُ الشَّيخُ ابن عجيبةَ رحمه الله: «التَّوكُّل: ثقةُ القلب بالله حتَّىٰ لا يعتمدَ علىٰ شيءٍ سواه،

(1) انظر: لسان العرب، مادة (و. ك. ل) تأليف: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور -دار صادر- بيروت- الطبعة الثالثة 1414هـ.

(2) تهذيب اللغة للأزهري (371/10) دار إحياء التراث العربي - بيروت.

والتَّعلقُ بالله والتَّعويل عليه في كل شيء علمًا بأنَّه عالِمٌ بكلِّ شيءٍ، وأنْ تكونَ بما في يد الله أوثقَ منكَ بما في يدِكَ))[1].

وقال بعضُهم: ((هو اكتفاؤُك بعِلْم الله فيكَ عن تعلُّق القلبِ بسواه، ورجوعُكَ في كلِّ الأمورِ إلىٰ الله))[2].

وقال ابنُ رجب الحنبليُّ: ((وحَقيقةُ التَّوكُّل هو صِدقُ اعتماد القلبِ علىٰ الله عزَّ وجلَّ في استجلابِ المصالحِ ودفعِ المضارِّ من أمور الدُّنيا والآخرة، وَكِلَةُ الأمور كُلِّها إليه، وتحقيق الإيمانِ بأنَّه لا يُعطي ولا يمنعُ ولا يضرُّ ولا ينفعُ سِوَاه))[3].

والتَّوكُّل أيضًا: هو حركةُ ذات الإنسانِ في الأسبابِ بالظَّاهر والباطنِ، وسكونٌ إلىٰ المسبِّب وركونٌ إليه، بحيث لا يضْطَرب القلبُ ولا تسكن حركتُه عن الأسباب الموصِّلةِ إلىٰ رِضاه[4].

وقيل: التَّوكُّل نفيُ الشُّكوك والتَّفويض إلىٰ مالك الملوك[5].

وقيل: التَّوكُّل التَّعلُّق بالله في كل حالٍ[6].

وهناك كثيرٌ من المعاني والتَّعبيراتِ والأقوالِ الأخرىٰ التي لا تخرجُ عن التَّسليم والتَّفويضِ وارتكانِ القلبِ لله ربِّ العالمين، والسُّكون إليه سبحانَه والطُّمأنينة إليه في كلِّ ما ضمِن، وإخراج هموم الدُّنيا من القلوبِ بالاعتمادِ علىٰ مدبِّر الأمرِ ومالكِ المُلكِ

---

(1) مِعراج التَّشوف إلىٰ حقائق التَّصوُّف (ص 31) تأليف: عبدالله أحمد بن عجيبة- مركز التُّراث الثقافي- الدار البيضاء- المغرب.

(2) انظر: دليل الفالحين لطُرُق رياض الصَّالحين (263/2) تأليف: محمد علي بن محمد بن علَّان- دار المعرفة- بيروت.

(3) جامع العُلُوم والحكم (497/2) تأليف: ابن رجب الحنبلي- تحقيق: شعيب الأرناءوط- مؤسسة الرِّسالة- بيروت.

(4) انظر: مدارج السَّالكين (119/2) لابن قيم الجوزيَّة- الطَّبعة الأولىٰ- دار الكتب العلمية- بيروت.

(5) المصدر السَّابق (120/2).

(6) المصدر السابق، نفس الموضع.

سُبحانَه وتعالىٰ، والتبرُّؤ من الحول والقوَّةِ، واللُّجوء إلىٰ صاحب الحول والقوَّةِ، ولا تعارُضَ بين التَّوكُّلِ والأخذِ بالأسبابِ؛ إذِ التَّوكُّلُ عملٌ قلبيٌّ مُصاحِبٌ لأعمالِ الجوارحِ التي محلُّها الأبدانُ، كما كان حالُ سيِّدِ المتوكِّلينَ سيِّدِنا محمَّد في قلبِه أعلىٰ درجات التَّوكُّلِ علىٰ الله، وهو مع ذلك يأخذُ بالأسباب ويباشرُها، وهذا ما يدفعُنا إلىٰ الوقوفِ علىٰ آياتِ التوكُّلِ في كتاب الله وما نصَّ عليه النبي ﷺ في أحاديثه الشَّريفة، وهو ما سنتناولُه في المحور التالي.

التَّوكُّل في كتابِ الله عزَّ وجلَّ وفي سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ

أولا: كتاب الله عز وجل:

أمرَ الله سبحانه وتعالَىٰ بالتَّوكُّل عليه، وحضَّ علىٰ ذلك في كتابِه الكريم، وتحدَّثَ سبحانَه عن التَّوكُّل والمتوكِّلينَ وصفاتِهم؛ فقد ربطَ الله سبحانَه وتعالَىٰ التَّوكُّلَ بالإيمانِ فقال: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون﴾ [إبراهيم: 12]. وقالَ: ﴿وَعلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون﴾ [إبراهيم: 11].

والمتوكِّلون علىٰ الله ينالون محبته قال سبحانَه وتعالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين﴾ [آل عمران: 159].

وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾ [المائدة: 23].

وهو سبحانه وتعالىٰ يكفيهم أُمورَهم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

وقال تعالَىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون﴾ [التَّوبة: 51].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129].

وقال أيضًا في بيانِ صفات المؤمنينَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون﴾ [الأنفال: 2].

وقال أيضًا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم﴾ [الأنفال: 61].

وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيم﴾ [الأنفال: 49].

وقال تعالىٰ محدِّثًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلا﴾ [النساء: 81].

وقال تعالىٰ علىٰ لسانِ سيِّدنا هود وهو يحدِّثُ قومَه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم﴾ [هود: 56].

ثم يُحدِّثُ نبيَّه سيِّدنا محمَّدًا ﷺ ويقول له: ﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون﴾ [هود: 123].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب﴾ [الرعد: 30].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُون﴾ [الزمر: 38].

وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: 29].

ثانيًا: السُّنة النبوية الشَّريفة:

هناك كثيرٌ من الأحاديثِ التي تحضُّ علىٰ التَّوكُّل علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ منها:

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول: ((اللهمَّ لكَ أسلمتُ وبكَ آمنتُ وعليكَ توكَّلتُ، وإليكَ أنبتُ وبكَ خاصمتُ، اللهمَّ إنِّي أعوذُ بعزَّتكَ لا إلهَ إلا أنتَ أنْ تضلَّني، أنتَ الحيُّ الَّذي لا يموتُ والجِنُّ والإنسُ يموتونَ))[1].

(1) أخرجه مسلم في كتاب الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار، باب التَّعوذ من شرِّ ما عَمِلَ ومن شر ما لم يَعمل (2717).

وعن ابنِ عباسٍ ﭬ أيضًا قال: حسبُنا الله ونعمَ الوكيلُ، قالها إبراهيمُ ﷺ حين أُلقي في النارِ، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1].

وعن عمرَ بن الخطَّاب ﭬ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: ((لَوْ أنَّكم تَتوكَّلونَ على الله حقَّ توكُّلِه لرزقَكُم كما يرزُقُ الطَّيرَ تَغدُو خِماصًا وتَروحُ بِطانًا))[2].

وعَنْ أنسٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: ((إذَا خرجَ الرَّجلُ من بيتِه فقال: بسم الله توكلتُ على الله لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله)) قال: ((يُقالُ حينئذٍ: هُديتَ وكُفيتَ وَوُقيتَ فتتنحَّى له الشياطينُ، فيقول له شيطانٌ آخرُ: كيف لكَ برجلٍ قد هُدي وكُفي ووُقي))[3].

وعَنْ أمِّ المؤمنينَ أمِّ سلمةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا خَرجَ من بيتِه قال: ((بسمِ الله توكَّلتُ على الله، اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أظلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أجهلَ أو يُجهلَ عليَّ))[4].

---

(1) أخرجه البخاريُّ في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ (4563).

(2) أخرجه التِّرمذيُّ في كتاب الزهد، باب في التوكُّل على الله (2344)، وابن ماجه في كتاب الزُّهد، باب التوكل واليَقين (4164)، وابن المبارك في الزُّهد (559)، والطيالسيُّ في مسنده (51)، وأحمد في مسنده (1/30)، وابن حبَّان في صحيحه (730)، والحاكمُ في مستدركه (4/ 318) من طريق حيوة بن شريح، عن بكر بن عمرو، عن عبدالله بن هُبيرة، عن أبي تميم الجَيْشَانيِّ، عن عمرَ بنِ الخطاب ﭬ به مَرفوعًا.

وقال التِّرمذيُّ: ((حديثٌ حسنٌ صحيحٌ)). وقال الحاكم: ((صحيحُ الإسنادِ ولم يخرِّجاهُ))، وسكتَ عنه الذَّهبيُّ.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب الأدبِ، باب ما جاء فيمَنْ دخل بيته ما يقولُ (5095)، والترمذيُّ في كتاب الدَّعواتِ، باب ما يقولُ إذا خرج من بيتِه (3426)، وابنُ أبي الدنيا في التوكُّل (20)، وابن حبَّانَ في صحيحِه (822) من طريق ابن جريج عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنسٍ بن مالك به مرفوعًا.

وقال التِّرمذي: ((حسنٌ صحيحٌ غريبٌ)).

(4) أخرجه أبو داودَ في كتاب الأدبِ، باب ما جاء فيمَنْ دخل بيته ما يقولُ (5094)، والترمذيُّ في كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا خرجَ من بيته (3427)، والنَّسائيُّ في كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الضَّلال (5486)، وابن ماجه في كتاب الدُّعاء، باب ما يدعو الرَّجل إذا خرج من بيته (3884)، والطيالسيُّ في مسنده (1712) من طريق منصور عن الشعبيِّ عن أمِّ سلمةَ به مرفوعًا.

وغيرُ ذلك من الآياتِ والأحاديثِ الَّتي تحثُّ علىٰ التَّوكلِ علىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، والتي تتركُ في القلبِ إيمانًا صادقًا ينعكسُ أثرُه علىٰ التَّوكُّل، وهو ما سنتناولُه في المحور التَّالي.

أثر الإيمانِ بالله سبحانَه وتعالىٰ في التَّوكُّلِ

الإيمانُ باللهِ سبحانَه وتعالىٰ ومعرفةُ صفاتِ جلالِه ونُعوتِ جمالِه وأسمائِه الحسنىٰ، وأنَّه سبحانَه وتعالىٰ المُتفرِّدُ بالخَلْقِ والتَّدبيرِ، وأنَّه ما من ذرةٍ في السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما تُوجدُ إلا بخَلْقِه وتقديرِه، ولا تتحرَّكُ إلا بإذنِه وتدبيرِه، وأنَّه لا مُعطيَ لما منعَ ولا مانعَ لما أعطىٰ، ولا يكونُ في مِلْكِه إلَّا ما شاءَ وقدَّرَ، كلُّ ذلك يولِّدُ في قَلْبِ العبدِ المؤمنِ التَّوكُّلَ علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأنَّه لا يقدر علىٰ نفعِه أو ضرِّه إلا هو سبحانه؛ وذلكَ لأنَّ التَّوكُّلَ في حقيقتِه هُو التَّوحيدُ، فحين يَمتلئُ قلبُ العبدِ بتوحيدِ الله سبحانَه وتعالىٰ وما يتضمَّنه من أنَّه المهيمنُ علىٰ مُلك السَّمواتِ والأرضِ من خلال قوله تعالىٰ: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل ﴿62﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون﴾ [الزُّمَر: 62-63] يُدركُ أنَّ مرجعَ الأمورِ كلِّها إليه سبحانَه وأنه لابدَّ من التَّوكلِ عليْه. فإيمانُ العبدِ بهذا وبما يتضمَّنُه من كمالِ الملْكِ والتَّدبيرِ والسُّلطانِ والقُدرةِ والتَّصرفِ والقيُّوميَّةِ علىٰ الخَلْقِ والإحاطةِ ومِلْكِ النَّفع والضُّر مِنْ أقوىٰ أسبابِ حصولِ التَّوكُّلِ في قلبِ العبدِ، ويَظهرُ أثرُ ذلك في أفعالِه وسُلوكِه.

كذلك حُسْنُ الظَّنِّ بربِّ العالمينَ، ومُشاهدةُ عظيمِ فَضلِه وكبيرِ مِنَّتِه علىٰ العبدِ منذ أنْ كان في بطنِ أُمِّه، ورؤيةُ العنايةِ الإلهيَّة في أمورِه، وأنه هو الرَّحمنُ الرَّحيمُ الذي لا غِنىٰ لعبادِه عن فضلِه وإحسانِه، وأنَّه أهلٌ لكلِّ خيرٍ، كريمٌ وهَّابٌ دائمُ المعروفِ، فهذا كُلُّه يولِّد في القلوبِ التَّوكُّلَ علىٰ بارئِها سبحانَه وتعالَىٰ، ويوقِنُ العبدُ أنَّ مصدرَ الخيرِ هو اللهُ، وأنَّ الضرَّ بتقديرِه وإذنِه، فعند ذلكَ لا ينظر العبدُ علىٰ الحقيقة إلَّا إلىٰ ربِّه سبحانَه،

=

وقال الترمذيُّ: ((حسنٌ صحيحٌ)).

وينمحي من القلبِ كلُّ أثرٍ لرؤيةِ الخَلْق. فالتَّوكُّل ثمرةٌ من ثمارِ الإيمانِ والمعرفة والتَّوحيدِ، فكلَّما زاد الإيمانُ والمعرفةُ زاد التَّوكُّلُ وتمكَّن من القلب، وهذا هُو مِصداقُ قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ [الفاتحة: 5].

فمعرفةُ الله تباركَ وتعالَىٰ تؤثِّرُ في حُصولِ التَّوكُّل؛ وذلك لأنَّه من أكثرِ المقاماتِ الإيمانيَّةِ صلةً بأسماءِ الله وصفاتِه وكمالِه وقهرِه لجميع خَلْقِه، ولأنَّه أيضًا إيمانٌ بالقضاءِ والقدرِ؛ إذْ إنَّ حُصولَ التَّوكُّل في القلوبِ لا يكونُ إلا بعد أنْ يعلمَ العبدُ أنَّ الأمورَ كلَّها تصدرُ عن مشيئةِ الله وقُدرتِهِ، وأنَّها تَنتهي كلُّها إلىٰ عِلْمِه ومَشيئتِه، وأنَّ ما شاءَ الله كان وما لم يشأ لم يكنْ، فتحقيقُ التَّوكُّل في القَلْبِ مُترَتبٌ علىٰ الإيمان بالقَدَرِ الإلهيِّ في الخَلْقِ.

فمقام التَّوكُّل هو مقامٌ جامعٌ للتَّوحيدِ ولفهم أسرارِ أسماءِ الله وصفاتِه، وكلَّما فهمتَ عن الله أكثر كلما قَوِيَ توكُّلُك عليه في كلِّ نَفَسٍ من أنفاس الحياة.

أثر التَّوكُّل في حياة المسلمِ

إنَّ وجودَ التَّوكُّل في قلبِ العبدِ المسلمِ يجعلُ حياتَه سهلةً سعيدةً لينةً في كلِّ الأحوالِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والعُسْرِ واليُسرِ، فالمؤمنُ حينما يُوقنُ بأنَّ الله هو المتصرِّفُ والمدبِّرُ لأمرِ السَّمواتِ والأرض فإنَّه يترك الأمرَ إليه سبحانَه ويرضَىٰ بمشيئتِه وحُكْمِه في أمورِه كُلِّها وفي أوقاته، فلا يفزعُه المستقبلُ أو الحاضرُ، ويعلمُ أن ما قُدِّرَ له سوف يأتِيه من رزقٍ أو علمٍ أو مَسْكنٍ أو غيرِ ذلك من نِعَمِ الحياةِ الدُّنيا. وفضلُ التَّوكُّل علىٰ المُسلمِ أنَّه يَمدُّه بقوةٍ رُوحيَّةٍ يستطيعُ بها التَّغلُّبَ علىٰ ما في الحياة الدُّنيا من صِعابٍ؛ بل ويدلُّه علىٰ طُرق التَّمتعِ بالحياة الطَّيِّبةِ التي تخلُو من المنغِّصَاتِ، فلا يحزن لفَقدِ مالٍ أو غيرِه، ويصل بهذه الأمورِ إلىٰ رِضا الله، ويرضىٰ بما قُدِّر له في هذه الحياةِ الدُّنيا، سواءٌ قلَّ نصيبُه أو كَثُرَ. والتَّوكُّل عند المسلم لا يَعني إضعافَ الهِممِ أو التَّكاسُلَ أو إضعاف قُدرات العقلِ وإيقافه عن التَّفكير؛ بل التَّوكُّلُ أن يكون السَّبَبُ في يدكَ ونظرُ قَلْبِكَ

إلىٰ الله، أي أنْ تَعملَ بجوارحِك وقلبُكَ مُعلَّقٌ بربِّ الجوارحِ، وأن تبذرَ البذرةَ في الأرض وتدعو ربَّك أنْ يُنبتَها. وبهذه الصُّورةِ فالتَّوكُّل يُضفي علىٰ المُجتمعاتِ الإسلاميَّةِ رُوحَ الهُدوءِ والسَّكينةِ والرَّاحةِ الَّتي حُرِمَ منها أغلبُ سكان الأرضِ، فنجد الأمراضَ النفسيَّةَ المتنوِّعةَ تنتشرُ بين أُناسٍ كثيرين، جاءتْ نتيجة خلوِّ القلوبِ من الإيمانِ وآثارِه السُّلوكيَّةِ. فالمرءُ في المُجتمعِ المسلمِ يعلمُ أنَّ كلَّ ما يجري عليه في حياتِه لحظةً بلحظةٍ إنَّما هو بالتَّدْبيرِ الإلهيِّ والرِّعاية الرَّبَّانيَّةِ، فيُكمِل ما هُو واجبٌ عليه ويَدَعُ الأمورَ والنَّتائجَ لله سبحانه وتعالىٰ.

والتَّوكُّل يبعثُ قوَّةَ العزيمةِ والثَّباتَ في الأمور كُلِّها، فالمؤمنُ المتوكِّلُ يعلم أنَّه يَرتَكِنُ إلىٰ ذي القوَّةِ المتين سبحانَه وتعالىٰ، فقد فتحَ المسلمونَ البلادَ ونشرُوا فيها الإسلامَ والتَّوحيدَ بفضل توكُّلِهم علىٰ ربِّهم سبحانَه، مع قِلَّة ما بأيدِيهم من الأسبابِ.

والتَّوكُّلُ علىٰ الله لا يختصُّ بأمور الرِّزق والمال فقط، وإنَّما يشمل كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في الحياة في العِلْم والعملِ والصِّحةِ والمرضِ والنَّجاحِ والفشلِ والتَّخطيطِ للمستقبلِ بشتَّىٰ صُورِه وأنواعِه، فهو يجعلُ للحياةِ معانيَ ساميةً، ويصبغها بالصبغةِ الطَّيبةِ التي تصير فيها ساعاتُ الإنسان ولحظاتُه سعيدةً آمنةً تنَّسم بالهدوءِ والطُّمأنينةِ، فعبدٌ ارتكنَ إلىٰ ربِّه سبحانه وفوَّضَ الأمرَ إليه ووَثِقَ به وأحسنَ الظَّنَّ بربِّه فلنْ يجدَ في حياتِه إلَّا الخيرَ واليُسرَ والبركةَ.

مقام التَّوكُّل في المنهج الصُّوفيِّ

إنَّ مقامَ التَّوكُّلِ من أكثر المقاماتِ الَّتي تحظَىٰ باهتمامِ أهلِ التَّصوف والسُّلوكِ؛ وذلك لأنَّ التَّصوُّفَ يقومُ علىٰ تجريدِ القلب لله سبحانه وتعالىٰ، وإدخالِ معاني الركونِ إليه سبحانَه فيه، والنَّظرِ إلىٰ الله أوَّلًا وآخرًا. ولأهل التَّصوُّف كلامٌ كثيرٌ وإرشادٌ في مقامِ التَّوكُّلِ علىٰ الله وبيانٌ لحال التَّوكُّلِ الحقِّ وشرحٌ لغوامِضِه؛ فمن ذلكَ ما قالَه الشَّيخ أبو

طالب المكِّيُّ في كتابه قوت القلوب: ((التَّوكُّل من أعلىٰ مقاماتِ اليقينِ وأشرفِ أحوالِ المقربين، قال الله الحقُّ المبين: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159] فجعل المتوكِّلَ حبيبَه، وألقىٰ عليه محبَّتَه، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12]. يرفعُ المتوكِّلينَ إليه، وجعل مزيدَهم منه، وقال جلَّت قدرتُه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطَّلاق: 3]. أي: كافِيه ممَّا سواه، فمَن كان الله تعالىٰ كافِيه فهو شافِيه ومعافيه، ولا يسأَلُ عما هو فيه، فقد صار المتوكِّلُ علىٰ الله تعالىٰ من عباد الرَّحمنِ الذين أضافهُمْ إلىٰ وصف الرَّحمةِ، ومن عباد التَّخصيصِ الذين ضَمِنَ لهم الكفايةَ، وهم الذين وصفهُم في الكتاب بقوله سبحانَه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]. إلىٰ آخِرِ أوصافهم، وهم الذين كفاهم في هذِه الدَّارِ المهماتِ، ووقاهم بتفويضِهِم إليه السَّيئاتِ بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36] وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿44﴾ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: 44-45])).

وقال بعض الصَّحابةِ وغيرُهم من التَّابعين: التَّوكُّلُ نظامُ التَّوحيدِ وجماعُ الأمرِ.

وحدَّثونا عن بعض السَّلف أنَّه قال: رأيتُ بعضَ العُبَّادِ من أهل البصرةِ في المنام، فقلتُ: ما فعل الله بكَ؟ قال: غَفرَ لي وأدخلني الجنَّةَ، قلتُ: فأيُّ الأعمالِ وجدْتَ هناك أفضلُ؟ قال: التَّوكُّلُ وقِصَرُ الأملِ فعليكَ بِهما.

وقال أبو الدَّرداء: ذُروةُ الإيمانِ والإخلاصِ التَّوكُّلُ والاستسلامُ للرَّبِّ عزَّ وجلَّ، وكان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: ليس في المقاماتِ أعزُّ من التَّوكُّلِ، وقد ذهبَ الأنبياءُ بحقيقتِه وبَقِيَ منه صبابةٌ انتشقها الصِّديقون والشُّهداء، فَمَنْ تعلَّق بشيءٍ منه فهو

صدِّيقٌ أو شهيدٌ))[1]. ويرَىٰ أهلُ التَّصوُّف أنَّ التَّوكُّلَ عبارةٌ عن اعتمادِ القلبِ علىٰ الوكيلِ وحدَه، ويُفصِّلُ الغزاليُّ ذلك فيرىٰ أنَّ للتوكُّلِ ثلاثَ درجاتٍ:

الدَّرجة الأولىٰ: هو أن يكونَ حالُ العبد في حقِّ الله تعالىٰ والثِّقة بكفالتِه وعنايته كحالِ الثِّقة بالوكيل.

الدرجةُ الثَّانيةُ: أن يكونَ حالُه مع الله تعالىٰ كحالِ الطِّفلِ مع أُمِّه، فإنَّه لا يعرف غيرَها، ولا يفزَع إلىٰ أحدٍ سواها، ولا يعتمد إلا إيَّاها، فَمَنْ كان بالُه إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ونظرُه إليه واعتمادُه عليه تعلَّقَ به كما يتعلَّقُ الطِّفل بأمِّه فيكونُ متوكِّلًا حقًّا، وصاحبُ هذه الدَّرجةِ قد فَنِيَ في توكُّلِه، فلا يلتفتُ قلبُه إلىٰ التَّوكُّل وحقيقتِه بل إنَّه بكليَّتِه يعتمدُ علىٰ المتوكَّلِ عليه، ولا مجالَ في قلبه لغيرِه.

ولهذا لَمَّا سُئلَ سهل التُّسْتري عن التَّوكُّل ما أدناهُ؟ قال: ترك الأماني. قيل: وأوسطه؟ قال: الاختيارُ، وهُو إشارةٌ إلىٰ الدَّرجة الثَّانية. وسُئل عن أعلاه؟ فلم يذكره، وقال: لا يعرفُه إلَّا مَن بلغ أوسطَه.

الدَّرجةُ الثَّالثة: هي أعلىٰ درجاتِ التَّوكُّلِ، وهي أن يكونَ بين يدي الله تعالَىٰ في حركاتِه وسكناتِه مثلَ الميِّت بين يدي الغاسلِ لا يُفارقه إلَّا في أنَّه يرىٰ نفسَه ميتًا تحركُه القدرةُ الأزليةُ كما تحرِّك يدُ الغاسلِ الميتَ، وهو الَّذي قَوِيَ يقينُه بأنَّه مجرٍ للحركة والإرادة والعِلْمِ وسائر الصِّفاتِ، وهذا المقام في التَّوكُّل يُثمر تركَ الدُّعاء والسُّؤال منه ثقةً منه بكرمِه وعنايتِه، وأنَّه يُعطي ابتداءً أفضل مما يُسأل، فكم من نعمةٍ ابتدأها قبل السُّؤال والدُّعاء بغير استحقاق! والمقام الثاني: لا يقتضىٰ تركَ الدُّعاءِ والسُّؤالِ منه، وإنَّما يقتضي تركَ السُّؤالِ من غيرِه فقط[2].

---

(1) قُوتُ القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التَّوحيد (3/2) دار الكتب العلمية -بيروت- الطَّبعة الثَّانية- 2005 م.

(2) انظر: إحياء علوم الدِّين (4/261).

ويقع التَّوكُّلُ علىٰ قَدر العِلْم بالوكيلِ، فكلُّ مَن كان أتمَّ معرفةً كان أتمَّ توكُّلًا، ومن كَمُلَ توكُّلُه غاب في رؤيةِ الوكيلِ عن رؤيةِ توكُّلِه، ثم إنَّ قوَّةَ المعرفةِ تُفيدُ صرفَ العِلْم بالعدلِ في القِسمةِ، وأنَّ الأقسام نصبتْ بإزاء المقسومِ لهم عدلًا وموازنةً، فإنَّ النظرَ إلىٰ غير الله لوُجود الجهلِ في النَّفس، وكلما أحسَّ بشيءٍ يقدح في توكُّلِه يراه من منبع النَّفسِ، فنقصانُ التَّوكُّل يظهر بظهورِ النَّفسِ، وكماله يثبتُ بغيبة النَّفْس، وليس للأقوياءِ اعتدادٌ بتصحيحِ توكُّلهم، وإنَّما شغلهم في تَغييبِ النَّفْسِ بتقوية مرادِ القلب، فإذا غابتِ النَّفسُ انحسمتْ مادةُ الجهل فصحَّ التَّوكُّلُ، والعبدُ غيرُ ناظرٍ إليه، وكلَّما تحرَّكَ من النَّفس بقيَّةٌ يرد علىٰ ضميرِهم سرُّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [العنكبوت: 42][1].

بيان حقيقة التوكل علىٰ الله
من خلال أقوال السادة الصوفية

سوف نعرضُ أقوالَ أهل العِلْم والسُّلوكِ في مسألة التَّوكُّلِ، وسنلاحظُ أنَّها كثيرةٌ مُتنوِّعةٌ مختلفةُ الألفاظِ ولكنَّها متَّحدةُ المعاني؛ وذلك لأنَّه كما سبق أن التَّوكُّلَ عملٌ قلبيٌّ يُعبِّر عنه كلُّ إنسانٍ بحسبِ ذوقه ومَواجيدِه وعِلْمِه، فمن ضِمنِ كلام العلماء في التوكل ما قالَه ابنُ عباسٍ : ((التَّوكُّل هو الثِّقة بالله، وصدق التَّوكُّل أنْ تَثِقَ في الله وفيما عندَ الله))[2]. وقال أيضًا: ((التَّوكُّلُ: جِماع الإيمان))[3].

وقال السَّري السقطي: ((التَّوكُّل الانخلاعُ من الحَوْلِ والقوةِ)).

وقال ابن مسروق: ((التَّوكُّل الاستسلامُ لجريان القضاءِ في الأحكامِ)).

---

(1) انظر: عَوارفُ المعارف للسَّهرورديِّ بذيل كتاب الإحياء (5/309) مكتبة مصر - 1998م.

(2) ذكرَه ابنُ الجوزيِّ في زاد المسير (1/450) مختصرًا.

(3) أخرجه البَيهقيُّ في شعب الإيمان (2/473) من طريق قيسِ بن الربيع، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاسٍ به موقوفًا.

وقال سهل: ((التَّوكُّل الاسترسالُ بين يدي الله)).

وقال أبو عبدالله القرشي: ((التَّوكُّلُ تركُ الإيواءِ إلَّا إلى الله)).

وقال أبو أيُّوب: ((التَّوكُّلُ طَرْحُ البدن في العبوديَّةِ وتعلُّق القلبِ بالرُّبوبيَّة والطُّمأنينة إلى الكفايةِ)).

وقال الجُنيد: ((حَقيقة التَّوكُّل أن يكونَ لله تعالى كما لم يكنْ فيكون الله له كما لم يَزَلْ)).

وقال أبُو بكر الدَّقاق: ((التَّوكُّل رَدُّ العيشِ إلى يوم واحدٍ وإسقاطِ همِّ غدٍ)).

وقال أبو بكر الواسطيُّ: ((أصلُ التَّوكُّلِ الفاقةُ والافتقارُ، وألَّا يُفارقَ التَّوكُّلَ في أمانِيه، ولا يلتفت بصرُه إلى توكُّلِه لحظةً في عُمُرِه)).

وقال بعضُهم: ((التَّوكُّل سِرٌّ بين العبدِ وربِّه)).

وقال بعضُهم: ((مَنْ أرادَ أن يقومَ بحقِّ التَّوكُّل فليحفر لنفسِه قبرًا يدفنُها، وينسى الدُّنيا وأهلَها، وإنَّ حقيقةَ التَّوكُّل لا يقومُ لها أحدٌ من الخَلْقِ على كمالِه)).

وقال سهلٌ: ((أوَّلُ مقاماتِ التَّوكُّلِ أن يكونَ العبدُ بين يدي الله تعالى كالميِّت بين يدي الغاسل يُقَلِّبُه كيف أراد، ولا يكون له حركةٌ ولا تدبيرٌ)).

وقال سهلٌ أيضًا: ((العِلْمُ كلُّه من باب التَّعبدِ، والتَّعبدُ كلُّه من بابِ الوَرَعِ، والورعُ كلُّه من بابِ الزُّهدِ، والزُّهدُ كلُّه من باب التَّوكُّل. وقال: التَّقوى واليقينُ مثلُ كفتي الميزان والتَّوكُّل لسانُه، به تعرف الزِّيادةُ والنُّقصانُ)).

وقال أبو سعيد الخرَّاز رحمه الله تعالى: ((التَّوكُّل هُو التَّصديقُ لله عز وجلَّ والاعتمادُ عليه والسُّكونُ إليه، والطُّمأنينةُ إليْه في كلِّ ما ضَمِنَ، وإخراجُ الهمِّ من القلب بأمور الدُّنيا والرِّزق، وكلُّ أمرٍ تكفَّل الله به)).

قال بشرٌ الحافِي: ((يقول أحدُكم: توكَّلتُ على الله، وهو يكذبُ على الله تعالَى، ولو توكَّل على الله تعالَى لرَضِيَ بما يَفعلُه الله به)).

قال سهلُ بن عبدالله: ((علامةُ المتوكِّل ثلاثةٌ: لا يَسأل، ولا يَرد، ولا يَحبس)).

وسُئِلَ يحيىٰ بن مُعاذ: متىٰ يكونُ الرَّجلُ متوكِّلًا؟ فقال: إذا رَضِيَ بالله تعالَىٰ وكيلًا.

وقال ذُو النُّون: ((التَّوكُّلُ تركُ تدبير النَّفس، والانخلاعُ من الحَوْل والقوَّةِ، وإنَّما يقوىٰ العبدُ علىٰ التَّوكُّل إذا عَلِمَ أنَّ الله سبحانَه يعلمُ ويرىٰ ما هُو فيه)).

وقال الشَّيخ الإمام عبدُالقادر الجيلانيُّ عن حَقيقةِ التَّوكُّل: ((حقيقتُه كحقيقةِ الإخلاصِ، وحقيقةُ الإخلاصِ ارتفاعُ الهِمَّة عن طلب الأعواض علىٰ الأعمالِ، وكذلك التَّوكُّلُ هو الخروجُ من الحول والقوَّةِ مع السُّكون إلىٰ ربِّ الأربابِ)).

وقال أيضًا: ((وحقيقةُ التَّوكُّل تفويضُ الأمور إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، والتَّرقِّي عن ظُلمات الاختيارِ والتَّدبير، والتَّرقِّي إلىٰ ساحاتِ شهود الأحكامِ والتَّقدير، فيقطعُ العبدُ أَلَّا تبديلَ للقسمةِ؛ فما قُسِمَ له لا يفوته، وما لم يُقَدَّر لا ينالُه، فيسكنُ قلبُه إلىٰ ذلك، ويطمئنُّ إلىٰ وعدِ مَولاه)).

وقال أحدُ العُبَّاد: ((التَّوكُّل: هو السُّكون عن الحركاتِ اعتمادًا علىٰ خالقِ الأرضِ والسَّمواتِ)).

وقال عليُّ بن أحمد البُوشَنْجِيُّ رحمه الله: ((التَّوكُّل: هو التَّبرئةُ مِن حَولِكَ وقوَّتك وحولِ مثلِكَ وقوَّةِ مثلِكَ)).

قال الإمامُ أحمد: ((التَّوكُّل هو قطعُ الاستشرافِ بالإياسِ من الخَلْقِ)). وقالَ: ((جملةُ التَّوكُّل تفويضُ الأمرِ إلىٰ الله جلَّ ثناؤه والثِّقةُ به)).

قال عبدُالله بن داوُدَ: ((التَّوكُّل حُسْنُ الظَّنِّ بالله)).

قال شقيقُ بن إبراهيم: ((التَّوكُّل طُمأنينةُ القلبِ بموعدِ الله عز وجلَّ)).

وعن أحدِ العبَّاد: ((التَّوكُّل هو تفويضُ الأمرِ إلىٰ الله ثقةً بحُسن تدبيرِه)).

وقال آخرُ: ((التَّوكُّل هو حالٌ للقلبِ ينشأُ عن معرفتِه باللهِ والإيمانِ به وبتفرُّدِه بالخلقِ والتَّدبيرِ والنَّفعِ والضرِّ والعطاءِ والمنعِ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأْ لم يكن، فيوجبُ له اعتمادًا عليه وتفويضًا إليه وطمأنينةً به وثقةً به ويقينًا بكفايتِه لما توكل عليه فيه)).

وقِيلَ: ((التَّوكُّل هو انطراحُ القلبِ بين يدي الرَّبِّ، وهو تَرْكُ الاختيارِ والاسترسال مع مجاري الأقدارِ)).

وقال أبو تراب النَّخْشَبِي: ((التَّوكُّل: هو طرحُ البدنِ في العبوديَّة وتعلُّقُ القلب بالرُّبوبية والطُّمأنينةُ إلىٰ الكفايةِ، فإنْ أُعطي شكرَ وإنْ مُنع صبر)).

وقال أبو يعقوب النهرجوري: ((التَّوكُّلُ علىٰ الله بكمال الحقيقةِ ما وَقَعَ لإبراهيمَ الخليلِ عليه السَّلام في الوقتِ الَّذي قال لجبريلَ عليه السلام: أمَّا إليكَ فلَا)).

وقال ابنُ عطاء الله: ((التَّوكُّل: ألَّا تُظهرَ الانزعاجَ إلىٰ الأسبابِ مع شدَّةِ فَاقتِكَ إليها، ولا تزول عن حقيقة السُّكون إلىٰ الحقِّ مع وقوفِكَ عليها)).

وقال آخرُ: ((التَّوكُّل سكونُ القلب إلىٰ كفايةِ الله تعالىٰ، وتفويضُ الأمورِ إلىٰ الله تعالىٰ لكفايتِه، والاعتمادُ عليه تعالىٰ لعِلْمِه وقُدرتِه، وهو جمعٌ بين العملِ والأملِ مع هدوء القلبِ وطُمأنينة النَّفس)).

وقال الفخرُ الرَّازي: ((التَّوكُّل أن يُراعي الإنسانُ الأسبابَ الظَّاهرةَ، ولكن لا يُعوِّل بقلبِه عليها؛ بل يُعوِّل علىٰ عِصمةِ الحقِّ)).

وقال الغزاليُّ: ((التوكُّل هو الاكتفاءُ بالأسبابِ الخفيَّةِ عن الأسبابِ الظَّاهرة مع سكون النَّفسِ إلىٰ مُسبِّب الأسبابِ لا إلىٰ السَّببِ)).

وقال آخرُ: ((التَّوكُّل تَرْكُ الإيواءِ إلَّا إلىٰ الله)).

وقال سعيدُ بن جُبير: ((التَّوكُّل علىٰ الله نصفُ الإيمانِ)).

قال الجُنيد: ((التَّوحيدُ قولُ القلبِ، والتَّوكُّلُ عملُ القلبِ)).

قال أحد العبَّاد: ((حُسْنُ الظَّنِّ بالله يدعُو إلىٰ التَّوكُّلِ عليه، ورجاؤُه سبحانه يدعو إلىٰ التَّوكُّلِ عليه)).

وقال آخر: ((التَّوكُّل إسقاطُ التَّدبير بالاستسلامِ لتدبير الرَّبِّ لكَ كتسليمِ العبدِ لسيدِه)).

سأل رجلٌ حاتمًا الأصمَّ: علامَ بنيتَ أمرَكَ هذا في التَّوكُّلِ؟ فقال: ((علىٰ خصالٍ: علمتُ أنَّ رِزقي لا يأكُله غيري فاطمأنَّتْ به نفسي، وعلمتُ أنِّي لا أخلُو من عين الله حيث كنتُ فأنا أستحيي منه)).

قال المازني لبِشر بن الحارث: أيش[1] التَّوكُّل؟ فقال له بشر: اضْطِرابٌ بلا سكونٍ وسكونٌ بلا اضْطِرابٍ، فقال المازنيُّ: ليس نفقه هذا! قال: نعم ليسَ هذا من عِلْمِكم، قال: ففسِّره لنا حتىٰ نفقَه، قال: اضْطِراب بلا سكونٍ: رجلٌ يضْطربُ بجوارحِه وقلبُه ساكنٌ إلىٰ الله لا إلىٰ عملِه، وسكونٌ بلا اضْطِرابٍ: فرجلٌ ساكنٌ إلىٰ الله عزَّ وجلَّ بلا حركةٍ، وهذا عزيزٌ وهُو من صفاتِ الأبدالِ)).

وقال رُويم الصُّوفي: ((التَّوكُّل إسقاطُ رؤية الوسائطِ، والتَّعلقُ بأعلىٰ العلائقِ)).

وقال عمرو بن عثمان المكِّي: ((المعرفةُ صحَّةُ التَّوكُّلِ علىٰ الله تعالَىٰ)).

وقال أبو الحسين الورَّاق: ((التَّوكُّل استواءُ الحال عند العدمِ والوجودِ وسكونُ النَّفس عند مجارِي المقدور)).

وقال إبراهيمُ بن شيبان: ((التَّوكُّل بين الله وبين العبد فلا ينبغِي أن يطَّلعَ علىٰ ذلك السِّرِّ أحدٌ)).

قال محمدُ بن خفيف: ((التَّوكُّل هو الاكتفاءُ بضمانِه وإسقاط التُّهَمَةِ عن قضائِه)).

قال حمدون: ((التَّوكُّل هُو الاعتصامُ بالله تعالَىٰ)).

---

(1) أيش: كلمة اختصار لسؤال السائل: أي شيء؟

قال إبراهيم الخوَّاص: ((أقلُّ التَّوكُّل أنْ تَرِدَ عليكَ مواردُ الفاقاتِ فلا تَسمُو نفسُك إلَّا إلىٰ مَن إليه الكفاياتُ)).

وقال أحدُ العارفينَ: ((التَّوكُّلُ نفيُ الشُّكوكِ والتَّفويضِ إلىٰ مَلكِ المُلوكِ)).

قال عاصمُ الأنطاكيُّ: ((أنفع التَّوكُّل ما وثقتَ بضَمانِه، وأحسنتَ طلبَه))[1].

قال الجُنيد بن محمَّد: سُئل الحارثُ بنُ أسدٍ عن قولِه تعالىٰ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 23] وعن قولِه ﷺ: ((لو أنَّكم توكَّلتُم علىٰ الله حقَّ توكُّلِه لرزقَكُم كما يرزُقُ الطَّيرَ تَغدُو خِماصًا وتَروحُ بِطانًا))[2]. ما السَّبيل- أكرمَ الله وجهكَ- إلىٰ هذا التَّوكُّلِ الذي ندبَ الله المؤمنين إليْه، صِفْ لي كيفَ هُو؟ وكيف دخولُ النَّاسِ فيه؟ فقال الحارثُ رحمَه الله: النَّاسُ يتفاوتونَ في التَّوكُّل، وتوكُّلُهم علىٰ قَدْرِ إيمانِهم وقوَّةِ علومِهم. قيل: ما معنىٰ قوة إيمانِهم؟ قال: تصديقُهُم للوعدِ وثقتُهم بالضَّامنِ. قِيلَ: فمن أين فُضِّلتِ الخاصة منهم علىٰ العامَّة، والتَّوكُّلُ في اعتقادِ الإيمانِ مع كُلِّ مَن آمنَ بالله؟ قال: الذي فُضِّلتْ به الخاصَّة علىٰ العامَّة دوامُ سكونِ القلبِ عن الاضْطِراب والهدوءُ عن الحركةِ، فعندها يا فتىٰ استراحوا من عذاب الحِرْصِ، وفرُّوا من أَسْرِ الطَّمعِ، وخرجُوا من ضِيقِ طولِ الأمل. قِيلَ: فما الذي ولَّدَ هذا؟ قال: حالتانِ؛ الأولىٰ منهما: دوامُ لزوم القَلبِ للمعرفة، والاعتمادُ علىٰ الله وترك الحِيَلِ، والثَّانيةُ: كثرةُ الممارسةِ حتىٰ يألفَها إلفًا ويختارَها اختيارًا. قيل: فالتَّوكُّل في نفسِه ما هُو وما معناه؟ قال: قد اختلفَ النَّاسُ فيه. قِيلَ له: اختصِرْ منه جوابًا موجزًا. قال: نعم، التَّوكُّلُ علىٰ الله هُو الاعتمادُ علىٰ الله بإزالةِ

---

(1) انظر هذه الأقوال عنِ التَّوكُّل في: عوارفِ المعارف للسَّهرورديِّ بذيل كتابِ الإحياءِ (309/5)، والرسالة القشيرية لأبي القاسم عبدالكريم القُشيري (305/1) وما بعدَها، والتعرف لمذهب أهل التَّصوُّف (ص 119) تأليف: أبي بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي- دار الكتب العلميَّة- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1993م. وقوت القلوب في معاملة المحبوبِ ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التَّوحيد (3/2). والغنية لطالبي طريقِ الحقِّ عز وجلَّ (317/2) تأليف: عبدالقادر الجيلاني- دار الكتب العلمية- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1997م.

(2) تقدَّم تخريجُه.

الطَّمعِ من سوىٰ الله، وتركُ تدبير النُّفوس في الأغذية والاستغناءُ بالكفايةِ، وموافقةُ القلبِ لمرادِ الربِّ، والقعودُ في طَلَبِ العبودية[1].

قال سهلُ بن عبدالله: ((مَن طعنَ في التَّوكُّل فقد طعن في الإيمانِ، ومَن طعنَ في التكسُّبِ فقد طعنَ في السُّنَّةِ))[2].

قال حاتمُ الأصمُّ: ((فالتوكُّلُ إقرارٌ باللِّسان وتصديقٌ بالقلب، فإذا كانَ مُقرًّا مصدقًا أنه رازقٌ لا شكَّ فيه فإنه مستقيمٌ، والاستقامةُ علىٰ معنييْنِ: أنْ تعلمَ أنَّ ما لكَ لا يفوتُك فتكونَ واثقًا وساكنًا، وما لغيركَ لا تنالُه فلا تطمع فيه))[3].

قال أبو عبدالله بن سالم: ((التَّوكُّل حالُ رسولِ الله، والكسبُ سُنَّتُه))[4]. والتوكُّل أيضًا هو مجاهدةٌ بتركِ الأسبابِ، ثم يكون مكابدةً بالصَّبر علىٰ مرارة تصرفاتِ الأقدارِ، ثم يصير حالًا، ثم يسكن القلب فيه ويذوقُه فيصيرُ مقامًا[5].

فهَذِه أخي الكريم بعضُ أقوالِ ومواعظ أهلِ السُّلوكِ والتوجُّه إلىٰ الله عن مفهوم التَّوكُّل ومقامه، وقد تنوَّعتْ فيه الألفاظُ والتَّعاريفُ كما قلنا سابقًا، واتَّحدتِ المعاني بالحثِّ علىٰ صِدقِ التَّوجُّه إلىٰ الله بالقلبِ والجوارحِ، والعمل علىٰ إدخالِ معاني الاعتمادِ عليه سبحانه وتعالىٰ وحدَه وعدم رؤيةِ المخلوقاتِ، وذلك بالتَّيقن أنَّ مالكَ المُلْك هو الله، وهُو وحدَه المتفرِّدُ بالمُلْكِ والتَّدبيرِ والعطاءِ والمنعِ. ◆

---

(1) حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء (10/104) تأليف: أبي نعيم أحمد بن عبدالله إسحاق بن موسىٰ الأصفهاني- دار الكتب العلميَّة- بيروت- 1988م.

(2) المصدر السَّابق (10/195).

(3) المصدر السَّابق (8/ 76).

(4) المصدر السابق (10/387).

(5) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص 133) تأليف: أحمد بن محمد بن عجيبة- دار المعارف.

العلاقة بين التوكل والأخذ بالأسباب عند السادة الصوفية

إنَّ الأخذَ بالأسبابِ التي جعلَها الله سبحانه وتعالىٰ مفاتيحَ الأشياءِ لا ينافي التَّوُّكلَ علىٰ الله؛ لأن سيِّدَ المتوكِّلين صلواتُ الله وسلامُه عليه- وهو أكمَلُ الخَلْقِ معرفةً بربِّه سبحانه وتوكُّلًا عليه- كان يأخذُ بالأسبابِ ويحضُّ علىٰ العملِ بها، وهو أيضًا مَن حثَّ علىٰ التَّوكُّل علىٰ الله، والجمعُ بين ذلك يتَّضح من الصُّورة العظيمةِ التي جاء بها الحديث الشَّريف الذي رواه الترمذيُّ وغيرُه أنَّ رجلًا سأل رسولَ الله عن دابَّته أيتركُها بدون قيدٍ ويتوكل أم يقيدها؟ فقال له النَّبيُّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه: ((اعْقِلْهَا وتَوَكَّلْ))[1]. أي: خُذْ بالأسبابِ الظَّاهرةِ وعملِ الجوارح بقيدِها، وعملِ القلب بالتَّوُّكلِ والاعتمادِ علىٰ الله في حفظِها.

فالتَّوُّكل علىٰ الله هُو الثِّقةُ بالله، والإيمانُ بأنَّ قضاءَه ماضٍ، واتِّباعُ سُنَّةِ نبيِّه ﷺ في السَّعي فيما لابدَّ منه من الأسباب من مَطعمٍ ومشربٍ، وأخذُ أسبابِ الأشياءِ، واستعمالُ ما تقتضيه سُنَّةُ الله تعالىٰ المعتادةُ، وإلىٰ هذا ذهب أهلُ التَّحقيق من المتصوِّفة، لكن لا يتحقَّقُ التَّوُّكلُ عندهم مع الركونِ والطُّمأنينة إلىٰ الأسباب وتعلُّق القلوب بها الخاليةِ من التَّعلق بالله؛ بل السَّببُ والمسبَّبُ فِعْلُ الله تعالىٰ والكُّل منه وبمشيئتِه، فمنعُ الأخذ بالأسباب قَدحٌ في العقلِ والشَّرعِ، والوقوفُ معها وقطعُ النَّظرِ عن المسبِّبِ سبحانه قدحٌ في التَّوحيد والتَّوُّكل.

---

(1) أخرجَه التِّرمذيُّ في كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في صفة أواني الحوضِ (2517)، وابن أبي الدنيا في التوكُّل علىٰ الله (11) من طريقِ يحيىٰ بن سعيد القطان قال: حدَّثنا المغيرةُ بن أبي قرة السدوسي قال: سمعتُ أنسَ بن مالك به مرفوعًا. وقال التِّرمذي: ((حديثٌ غريب من حديثِ أنس لا نعرفُه إلا من هذا الوَجه)). وله شاهدٌ من حديث عمرو بن أمية الضَّمري رضي الله عنه؛ أخرجه ابن حبان في صحيحِه (731)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان (1159) من طريق حاتم بن إسماعيل قال: حدَّثنا يعقوب بن عبدالله، عن جعفر بن عمرو بن أمية، عن أبِيه به مَرفوعًا. وبنحوِه من هذا الطَّريقِ أخرجه الحاكم في مستدركِه (623/3) وسكت عنه، وقال الذَّهبيُّ: ((سندُه جيِّدٌ)).

قال الغزاليُّ رحمه الله: ((وليسَ معنىٰ التَّوكُّلِ التَّباعدَ عن الأسبابِ بالكليَّةِ، ولو كان كذلك لبطل التَّوكُّلُ بطلب الدَّلوِ والحبلِ ونزعِ الماءِ من البئرِ، ولوجبَ أن يصبرَ حتىٰ يسخِّرَ الله له ملَكًا أو شخصًا آخر حتىٰ يصبَّ الماءَ فيهِ، فإذا كانَ حفظُ الدَّلو والحبلِ لا يقدحُ في التَّوكُّلِ وهو آلةُ الوصولِ إلىٰ المشروبِ، فحَمْلُ عينِ المطعومِ والمشروبِ حيث لا يُنتظر له وجودٌ أولىٰ بألَّا يقدحَ فيه))[1].

قال سهل: مَن قال إنَّ التَّوكُّلَ يكونُ بقطع السَّبب فقد طعنَ في سُنَّة رسولِ الله ﷺ؛ لأنَّ الله عز وجل يقول: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: 69]، فالغنيمةُ اكتسابٌ، وقال تعالىٰ: ﴿وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12] فهذا عملٌ. وقال النَّبي ﷺ: ((إنَّ الله يحبُّ المؤمنَ المحترفَ))[2].

ولنْ يكونَ أحدٌ أفضلَ من الأنبياءِ عليهم السَّلام، وقد كانُوا يعملونَ بالأسبابِ علىٰ أتمِّ الوُجوه وأكملِها مع تمام تعلُّقِ قلوبِهم بالله تعالىٰ وارتكانِهم إليه.

وهذا سيِّدُ المرسلينَ محمَّدٌ ﷺ يأخذُ بالأسباب ويحتاطُ للأمورِ، كما فعلَ صلواتُ الله وسلامُه عليه في حادثةِ الهجرةِ، وكما حَفَرَ الخندقَ حولَ المدينةِ في غزوةِ الأحزابِ، ولَبِسَ الدِّرعَ، واختفىٰ في الغارِ، وهُو سيِّدُ المتوكِّلينَ وإمامُ الموحِّدينَ، وحالُ صحابتِه رضوان الله عليهم وهُم خيرُ الخَلْقِ بعد الأنبياءِ والمرسلين كان مباشرة الأسباب والأخذ بها، لكن مع كاملِ تعلق قلوبِهم بالحقِّ سبحانَه وتعالىٰ، فكان المهاجرونَ من أهل التِّجارةِ، والأنصارُ من أهل الزِّراعةِ. ◆

---

(1) إحياء عُلوم الدين (2/258).

(2) أخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (12/ 308)، والأوسط (8934) من طريق عاصم بن عبيد الله عن سالم عن ابن عمرَ به مرفوعًا.

وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (4/106): ((رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيفٌ)).

الخاتمة

مُجملُ القولِ أنَّ مقامَ التَّوكُّل مقامٌ لطيفٌ جماليٌّ، وبفضلِه يشعرُ العبدُ المؤمنُ بأنَّه يرتكنُ إلىٰ ذِي العزَّةِ والجلالِ في كلِّ أمرٍ صَغُرَ أو كَبُرَ من أمورِه الدِّينية أو الدُّنيوية، وأنَّ ما شاءَ الله كان وما لم يشأْ لم يكُنْ، فيسلِّمُ المرءُ أمورَه لمولاه ويتوكَّلُ عليْه، ويتعلَّق قلبُه بكافلِه وسيِّدِه، ويعلمُ أنَّ ما قُدِّرَ له سوفَ يأتيه وما كُتِبَ عليه فسوف يراه، فإذا دخلتْ هذه المعاني في القلوبِ واستقرَّتْ فيها وتُرجمت إلىٰ سُلوكٍ وأفعالٍ وَصَلَ العبدُ إلىٰ الحياةِ الطَّيِّبةِ التي لا مُنغِّصَ فيها.

فعلىٰ حسبِ الإيمانِ وقوَّتِه في القلبِ يكونُ توكُّلُ العبدِ علىٰ الله، وبحسبِ حُسْنِ الظَّنِّ بالله ورؤيتِه لعظيمِ مِنَّةِ الله وفضلِه يكون القلبُ خاليًا من الهُمومِ وكُدوراتِ هذه الدُّنيا الفانية، فَمَن ابتُلي بمرضٍ أو فقرٍ أو إخفاقٍ في كبيرٍ أو صغيرٍ من أمور الدُّنيا أو الدِّين فليتوكَّل علىٰ الله، ومن ابتُلي بالسَّرَّاءِ فليتوكَّل علىٰ الله ويوقِن بأنَّ الله لا يخذلُ عبدًا قد اتَّكل عليه ولجأ إليه.

ولتحصِيلِ هذا المقامِ في القُلوبِ يجبُ علينا أن نتعرَّفَ علىٰ الله سبحانه وتعالَىٰ، وعلىٰ أسمائه وصفاتِه ونعوتِ جلالِه، وأنَّه سبحانَه هو القويُّ المتينُ، فكلَّما زادت المعرفةُ زاد التَّوكُّل، والعكسُ بالعكسِ، وكذلك بالدُّعاء وطلبِ العونِ من الله أنْ يرزقنا حُسنَ التَّوكُّل عليه، وأنْ تدخلَ معاني وحقائقَ التَّوكُّل في القلبِ.

نَسألُ الله سُبحانَه وتعالَىٰ أنْ يفتحَ لنا بابَ التَّوكُّلِ عليه وحسنَ الظَّنِّ به سبحانه، فهو أهلٌ لكلِّ ذلك.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆

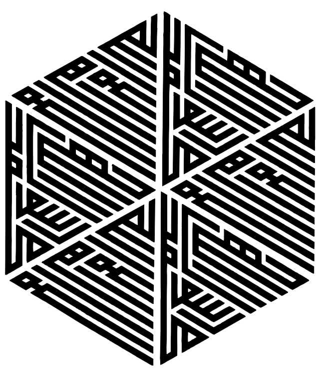


« زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ » - آية 7 من سورة التغابن

الرسالة الثالثة عشرة
وصايا العارفين والأولياء من أهل التصوف

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ قصيرةٌ جمعنا فيها بعونِ الله تعالىٰ بعضًا من أقوال وحِكَمٍ ونصائح السَّالكين إلىٰ الله تعالىٰ من العباد الرَّبَّانيين العاملِين والأولياءِ المقرَّبين من أهل التَّصوُّف، والغرضُ من عرضِنا لتلك الأقوال والحِكَمِ أنْ تكونَ هاديةً ومُرشدةً لنَا إلىٰ تحقيقِ مقام العُبوديَّةِ لله سبحانه وتعالىٰ، وأنْ تأخذَ بنواصِينا إلىٰ الله، فأقوالُ ونصائحُ عبادِ الله الصَّالحين هي خُلاصةُ المعرفةِ التي وقرَت في قلوبِهم وهي تعبيرٌ عن حالِهم مع خالقِهم وبارِئهم سبحانه وتعالىٰ، وسوفَ تقرِّبُ إلىٰ أفهامِنا وقلوبِنا المفهومَ الحقيقيَّ للتَّصوُّف، وأنَّه في مُجملِه هو أعلىٰ مقاماتِ المعرفةِ والأُنسِ والمحبَّةِ لله ربِّ العالمين، ونقدِّم لذلك بكَلمةٍ بسيطةٍ عن التَّصوُّف وما يُثار حولَه، فاستعِن بالله أيُّها الأخ الكريم واقرأ وتدبَّرْ راجيًا مِن مولاك أنْ يفتحَ لك أبوابَ المعرفةِ والقُرب منه سبحانه كما فَتحَ لهم، واطرُق بابَ مولاكَ الكريمِ فسوفَ يفتحُ لك إنْ شاء الله، والحمد لله أوَّلًا وآخرًا. ◆





« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » - آية 8 من سورة المائدة

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

إنَّ التَّصوُّف في وحقيقته وأصولهِ هو حقيقةُ دين الإسلامِ وما يأمرُ به من التَّسليم والاستسلامِ لله سبحانه وتعالىٰ، وهو إفراد له سبحانه بأن يكون هو المقصود الأكبر لحركاتِ وتوجُّهات قلبِ المسلمِ، وهذا هو التَّوحيدُ، وهو مضمونُ شهادةِ أن لا إلهَ إلَّا الله؛ أي أنْ تكونَ حركاتُ وسكناتُ القلب بدايةً من الله وإلىٰ الله وفي الله، ثم بعد ذلك تَعملُ الجوارحُ وِفقًا لذلك، فتكونُ حركاتُ وسكناتُ القلبِ والجسدِ نابعةً مِن أوامرِ الله ونواهِيه وما يُحبُّه سبحانَه وتعَالىٰ وما لا يحبُّه، فيكون المحبوبُ الأكبرُ هو الله والمقصودُ الأكبرُ هو الله والمرادُ هو الله، وهذِه هي أعلىٰ درجاتِ التَّوحيدِ والإيمانِ، فقد قالَ الله سبحانَه وتعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163].

وإذا رجَعنا لنعرفَ ما التَّصوُّف، ومَن هم الصُّوفيَّة من خلال التَّاريخ وتراجمِ الصوفيَّة لوجدنا أنَّ حالَهم ودعواهم هي الإسلام والتَّوحيدُ والإحسانُ ولا شيءَ غيرُ ذلك، وإنَّما عبَّروا عنها بكلامٍ لهم وحالاتٍ من السُّموِّ الرُّوحيِّ والوجدانيِّ قد لا تُناسبُ كلَّ أحدٍ من النَّاس، والعِبرةُ بالمسمَّىٰ لا بالاسم فهذا يُسمِّي ذلك تصوفًا وآخر يُسميه عِلْمَ المعاملةِ مع الله، وهذا يُسمِّيه السُّلوكَ إلىٰ الله، وذاك يُسمِّيه الطريقَ إلىٰ الله، فاختلَفت الأسماءُ والمعنىٰ والهدف واحدٌ وهو صفاءُ المعاملةِ مع الله وإفرادُه بالحبِّ والتَّعظيمِ والتَّوجُّه القلبي والنَّفسي، وهذا في حقيقته جوهرُ الإيمانِ والإسلامِ.

فلكي نحكُمَ علىٰ التَّصوُّفِ يجب أنْ نعرفَ حقيقتَه؟ وإلىٰ أي شيءٍ يدعو؟ ومَن أئمَّتَه في القديم والحديث؟ وما أقوالُهم وأحوالهم؟ لأنَّكَ ترىٰ أنَّه قد أُلصقَ به من التُّهم والشَّنائع ما هو منه بريءٌ، وإذا كان هناك من انتسب إلىٰ الإسلام ولم تتحقق فيه الصفات التي أمر بها الإسلام فمِن المعقول أيضًا أن يُنسَب إلىٰ التَّصوُّف ما ليسَ منه وأن ينتَسِب إليه مَن لم يعرِفْ للتَّصوُّف طريقًا ولا معنًىٰ.

إذًا فمِن الإنصافِ إنْ أَردنا الحكمَ علىٰ التَّصوُّفِ أنْ نتعرَّف عليه من أهلِه، ولا نستمع لدعوىٰ المدَّعين الذين يُلصقون بالتَّصوُّفِ وأهله كلَّ نقيصَةٍ يحاولونَ إفهامَ النَّاسِ وإقناعَهم أنَّ التَّصوُّفَ ليس من الإسلامِ، وليس ذلك فحَسب بل يصِفُونه بأنَّه دينٌ مغايرٌ لدين الإسلامِ! ونحن نقولُ لهم كما قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: 64]، فمِن المعلومِ أنَّ الكُتُب التي ترجمَت للصُّوفيَّة وذكرت أفعالَهم وسيرتَهم وجهادَهم وتأثيرَهم في النَّاس وتربيتَهم لهم شاهدَةٌ علىٰ أنَّ ما يُثار حولَهم من الأكاذيب والدَّعاوىٰ ليس له من الصِّدق نصيبٌ، فساداتُنا الصُّوفيَّة هم المربون والعُبَّاد الربَّانيُّون والمرشِدون الذين أَخذوا بيدِ النَّاس إلىٰ الله تعالىٰ، وهم الأولياءُ الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون، فكانَ لهم من كلِّ شيءٍ حسنٍ نصيبٌ، فلهم ﭫ من العلومِ نصِيبٌ ومن الجهادِ نصيبٌ ومن السَّعي والكسبِ الحلالِ نَصيبٌ.

نعم قَد انتسَب للصُّوفية مَن ليس منهم، وأُلصق بعِلم التَّصوُّف ما هو ضِدُّه؛ لكنَّ هذا لا يمنَع من صحَّة الأصلِ والمنبَع، وكما قلنا: إنَّه قد يَنتسِب إلىٰ الإسلام مَن لا يطبِّق شيئًا من تعاليمه، فهل العيبُ في الإسلام أم في المنتسبين إليه؟!

فمع المعرفةِ يظهرُ الحقُّ ويتأكَّد المسلم أنَّ التَّصوُّفَ هو رُوح الإسلام وجوهرُه، وهو مقَامُ الإحسانِ الذي قالَ عنه النَّبيُّ ﷺ: «أنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ فإنْ لم تَكُنْ تراهُ فإنَّه يرَاكَ»[1]. وهو الاسمُ الجامعُ لمعاني ومقاماتِ التَّوحيدِ القلبيَّةِ والعمليَّةِ من الحُبِّ والزُّهد والتَّوكُّل واليَقين بالله والصَّوم والصَّلاةِ والعِباداتِ والمجاهداتِ والسَّعي علىٰ الرِّزقِ وطلَبِ العِلْم إلىٰ آخر ما يحضُّ عليه الإسلامُ ويُرغِّب فيه، فالتَّصوُّف كلُّه آدابٌ؛ لكلِّ وقتٍ

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعِلم السَّاعة وبيان النبي ﷺ له (50)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان ما هو الإيمان وبيان خصاله (9) من حديث أبي هريرة ﭬ.

أدبٌ، ولكلِّ حالةٍ أدبٌ، ولكلِّ مقامٍ أدبٌ، فمَن لَزِمَ آدابَ الأوقاتِ بلغ مبلغَ الرِّجال ووصَل بقلبهِ ونفسِه إلىٰ الله تعالىٰ.

ونحن لا ندافعُ عن أيِّ بدْعةٍ أو مخالفةٍ حَكَمَ الشَّرعُ الشَّريفُ فيها أو تكلَّم فيها علماءُ الشَّريعةِ المحقِّقون، فإنَّ هذا ليسَ من عِلْمِ التَّصوُّفِ في شيءٍ، فالتَّصوُّف إصلاحُ القلبِ لمولَاه وذلك لا يكونُ إلَّا بحدودِ الشَّريعةِ وحقيقتِها، فالصُّوفيُّ كما قالَ القائلُ فيهِ:

ولستُ أنحلُ هذا الاسمَ غيرَ فتًىٰ صافَىٰ فصُوفي حتَّىٰ سُمِّي الصُّوفي

فإنَّ مَن يحاربُ التَّصوُّفَ يُحاول بجهلٍ أو بتعمُّدٍ أنْ يزرَع في عقولِ النَّاس أنَّ التَّصوُّفَ شِركٌ بالله وبدعٌ وعبادة للقبورِ والأضرحة وغير ذلك حتَّىٰ يصرِفَ النَّاس عن التَّصوُّف.

ونحن نقولُ لهم: بينَنا وبينكم كُتب التَّصوُّف وأعلامُ الصُّوفيَّة وتراجمُهم وأقوالُهم وأفعالُهم قديمًا وحديثًا، ولنَنظر هل هي شيءٌ آخرُ غير ما يدعُو إليهِ الإسلامُ، أمَّا البدعُ فلا نُنكِر أنَّها تقعُ مِن عامَّة النَّاس؛ وذلك لغلبةِ الجهلِ وقلَّة العِلْم، وهي مرفوضةٌ كُليَّةً، وأمَّا القبورُ والأضرحةُ فذلك أمرٌ له أحكامُه وضوابطُه الشَّرعيَّة، وكذلك إقامةُ الموالد لتذاكرِ سِير العُلماء والصَّالحين فلها ما يُحدِّدها ويضبطُها بميزان الشَّرع الشَّريف، وإنْ وقع إنسانٌ في مخالفةٍ فإنَّه ينبغي أن يُعلَّم ويُرشَد إلىٰ الصَّحيح، ولا يُشوَّش بذلك علىٰ التَّصوُّفِ والصُّوفيَّةِ.

ومِن الكتُب التي ننصَحُ بها للتَّعرُّفِ علىٰ معنىٰ التَّصوُّفِ الصَّحيحِ وأحوالِ الصُّوفيَّة كتابُ الرِّسالة القُشيريَّة للإمام القُشَيري وكتابُ قُوتِ القلوب لأبي طالبٍ المكِّي، وإحياءِ علوم الدِّين للإمام الغزاليِّ، وكتُب الشَّيخِ ابن عطاءِ الله السَّكندري؛ فهذه الكُتب تعِينُك أيُّها الأخُ الكريم علىٰ معرفةِ التَّصوُّف ورجالهِ، وسوف تأخذُ بقلبِك إلىٰ السُّلوكِ إلىٰ ربِّك عزَّ وجلَّ، وإلىٰ زيادةِ الحبِّ واليقينِ، وهي والحمدُ لله متوفِّرةٌ وموجودةٌ فلا تحرِم نفسَك من مطالعتِها.

وفي الصَّفحاتِ التَّالية سوف نعرِض لمجموعة من أقوالِ وحِكَمِ أهلِ التَّصوُّفِ والسَّالكين إلىٰ الله، عسىٰ أنْ يوفِّقنا الله سبحانه للانتفاع بأقوالِهم وأحوالِهم، وأنْ يفتحَ بها القلبَ، وأنْ تكون سَببًا في نزولِ الرَّحماتِ والبركاتِ علينا، والحمد لله أوَّلًا وآخرًا.

1- يقول إبراهيم بن أدهم رحمه الله: علىٰ القلب ثلاثةُ أغطيةٍ: الفرَحُ، والحزنُ، والسُّرور، فإذا فرِحتَ بالموجودِ فأنتَ حريصٌ، والحريص محرومٌ، وإذا حزنتَ علىٰ المفقودِ فأنتَ ساخطٌ، والسَّاخطُ مُعذَّبٌ، وإذا سُررتَ بالمدح فأنتَ معجبٌ، والعُجب يُحبط العملَ، ودليل ذلك: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: 23].

2- ويقول أيضًا رحمه الله: قلَّة الحِرص والطَّمع تُورث الصِّدقَ والورعَ، وكثرةُ الحرص والطَّمع تُكثر الهمَّ والجذعَ.

3- وقال شقيق البلخي رحمه الله: ليس شيءٌ أحبَّ إليَّ من الضَّيف؛ لأنَّ رزقَه ومؤنتَه علىٰ الله وأجرُه لي.

4- وقال أيضًا: التَّوكُّل طُمأنينةُ القلبِ لموعودِ الله.

5- وقال أيضًا: إذا أردْتَ أنْ تكونَ في راحةٍ فكُلْ ما أصبْتَ، والبسْ ما وجدْتَ، وارضَ بما قضَىٰ الله عليك.

6- وقال أيضًا: إنْ أردْتَ أنْ تعرفَ الرَّجلَ فانظُر إلىٰ ما وعدَه الله ووعدَه النَّاسُ بأيِّهما يكون قلبُه أوثقَ.

7- وقال إبراهيم الخواص رحمه الله: دواءُ القلبِ خمسةٌ: قراءةُ القرآن بتدبُّرٍ، وخلاءُ البطن، وقيامُ اللَّيلِ، والتَّضرُّعُ عند السَّحر، ومجالسةُ الصَّالحين.

8- وقال أيضًا: مَن لم تبكِ الدُّنيا عليه لم تضحكِ الآخرةُ له.

9- وقال أيضًا: ليس العِلْمُ بكثرة الرِّواية إنَّما العالم من اتَّبع العِلْمَ واستعملَه واقتدَىٰ بالسُّننِ وإنْ كان قليلَ العِلْمِ.

10- وقال إبراهيم بن شيبان رحمه الله: إنَّ التوكُّل بين العبد وربِّه فلا ينبغي أنْ يطَّلع علىٰ ذلك السِّر أحدٌ.

11- وقال أيضًا: تعلَّم العِلْمَ لآدابِ الظَّاهرِ واستعمِل الورَعَ لآدابِ الباطن، وإيَّاك أنْ يشغلَك عن الله شاغلٌ، فَقَلَّ مَن أعرضَ عنه فأقبَلَ عليه.

12- وقال أيضًا: التَّواضعُ مِن تَصفيةِ الباطنِ تُلْقِي بركاتُه علىٰ الظَّاهر، والتَّكبُّر من كُدورة الباطنِ تظهر ظُلمتُه علىٰ الظَّاهر.

13- وقال إبراهيم الصياد رحمه الله: علامةُ الفقيرِ الصَّادقِ كونُه في كُلِّ وقتٍ بِحُكْمِهِ.

14- وقال أبو القاسم النصرآباذي رحمه الله: مراعاةُ الأوقاتِ من علاماتِ التَّيقُّظِ.

15- وقال أيضًا: التَّصوُّف ملازمةُ الكِتاب والسُّنَّةِ، وتَرْكُ الأهواءِ والبدعِ، وتعظيم حُرُماتِ المشايخِ، والملازمةُ علىٰ الأورادِ، وتَرْكُ ارتكاب الرُّخص والتَّأويلات.

16- وقال إبراهيم الرَّقي رحمه الله: أضعفُ الخَلْقِ مَن ضَعُفَ عَنْ رَدِّ شَهوتِه، وأقوىٰ الخَلْقِ مَن قَوِي علىٰ ردِّها.

17- وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: علامةُ محبَّة الله إيثارُ طاعتِه ومتابعةُ نبيِّه ﷺ.

18- وقال أيضًا: ما ابتُلي عبدٌ بشيءٍ أشدَّ من الغفلةِ والقسوةِ.

19- وقال أيضًا: مَن أَنِسَ بغير الله فهو في وحشةٍ أبدًا.

20- لا نومَ أثقَل مِن غفلةٍ ولا رِقَّ أملكُ من شَهوةٍ، ولولا ثِقلُ الغَفلة ما ظفِرَت بكَ الشَّهوةُ.

21- وقال أحمد بن خضرويه رحمه الله: مَن أرادَ أن يكونَ الله معَه فليَلزمِ الصِّدقَ فإنَّ الله مع الصَّادقينَ.

22- وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله: علامةُ سكونِ القَلْبِ إلىٰ الله تعالىٰ أنْ يكونَ بما في يدِ الله أوثقُ منه بما في يدِه.

23- وقال أيضًا: اجتَنبوا دناءةَ الأخلاقِ كما تجتَنبون الحرامَ.

24- وقال أحمد بن عاصمٍ الأنطاكي رحمه الله: إذا طلبَتَ صلاحَ قلبِكَ فاستَعِن بحفظِ لسانِكَ.

25- وقال أيضًا: يسيرُ اليقين يخرج كلَّ الشَّكِّ من القلبِ، ويسيرُ الشَّكِّ يُخرج اليقينَ كُلَّه من القلبِ.

26- وقال أيضًا: مَن كان بالله أعرفَ كان له أخوَفَ.

27- وقال أبو علي الرُّوذْبَاري رحمه الله: مِن الاغترار أنْ تسيءَ فيُحسَنَ إليكَ فتترُكَ الإنابةَ والتَّوبةَ توهُّمًا أنَّك تُسامحُ في الهفَواتِ وترَىٰ أنَّ ذلكَ منَ بَسطِ الحقِّ عليك.

28- وقال الحسنُ بنُ أحمد الكاتب رحمَه الله: إذا انقَطَع العبدُ إلىٰ الله بكليَّته فأوَّل ما يفيدُ الاستغناءُ به عن النَّاس.

29- وقال أيضًا: إذا سَكَن الخوفُ في القلبِ لم ينطِق اللِّسانُ إلَّا بما يعنِيه.

30- وقال أبو العبَّاس بنُ عطاءٍ الآدمي رحمه الله: مَن ألزَمَ نفسَه آدابَ السُّنَّة نوَّرَ الله قلبَه بنورِ المعرفةِ، ولا أشرفَ مِن متابعةِ الحبيبِ ﷺ في أوامرِه وأفعالِه وأخلاقِه والتأدُّبِ بآدابِه.

31- وقال أيضًا: أعظمُ الغفلةِ غفلةُ العبدِ عن ربِّه وعن أوامرِه وعن آدابِ معاملتِه.

32- وقال أيضًا: سُئل ما العبوديَّة؟ فقال: تركُ الاختيارِ وملازمةُ الافتقارِ.

33- وقال أيضًا: سُئلَ ما المروءة؟ فقال: ألَّا تَستكثِر للهِ عملًا.

34- وقال أبو محمَّدٍ الجريري: مَن استولَت عليهِ النَّفسُ صارَ أسيرًا في حُكم الشَّهواتِ محصُورًا في سجنِ الهوَىٰ.

35- وقال أيضًا: الصَّبر ألا تُفرِّق بين حالتَي النِّعمة والمحنةِ وعلىٰ سكونِ الخاطرِ فيهما.

36- وقال أيضًا: الفقيرُ الصَّادقُ الذي يَملِك كلَّ شيءٍ ولا يملِكُه شيءٌ.

37- وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي رحمه الله: الأبدانُ في سجنِ النِّيَّاتِ والنَّاس ثلاثةٌ: رجلٌ تشاغَلَ بالدُّنيا عن الله مَذمومًا، ورجلٌ تشاغلَ بالآخرةِ محمودًا، ورجلٌ تشاغلَ بالله عمَّا دونَه مُقرَّبًا مَرفوعًا.

38- وقال أبو محمد الجريري رحمه الله: أدلُّ الأشياءِ علىٰ الله تعالىٰ ثلاثةٌ: مُلْكُه الظَّاهرُ ثمَّ تدبيرُه في مُلْكِه ثمَّ كلامُه الذي يَستوفي كلَّ شيءٍ.

39- وقال أبو عبدالله بن الجلَّاء رحمه الله: مَن استوىٰ عندَه المَدحُ والذَّم فهو زاهدٌ، ومَن حافَظَ علىٰ الفرائضِ في أوَّل مواقيتِها فهو عابدٌ، ومَن رأىٰ الأفعالَ كلَّها من الله فهو موحِّدٌ.

40- وقال بشر الحافي رحمه الله: لا تطمَع في الأُنسِ بالله مع الأُنس من المخلوقِين، ولا تطمَع في إلهامِ الحِكمة مع تركِ التَّقوىٰ، ولا تطمَع في لِين القَلب مع الجفاءِ لليتيم والأرملةِ والمسكينِ، ولا تَطمَع في رحمةِ الله مع تَركِ الرَّحمة للمخلُوقينَ.

41- وقال أيضًا: الصَّبر الجميل هو الذي لا شَكوَىٰ فيهِ إلىٰ النَّاسِ.

42- وقال أيضًا: لا تجد حلاوةَ العبادةِ حتَّىٰ تجعلَ بينكَ وبين الشَّهواتِ حائطًا من حديدٍ.

43- وقال أيضًا: إنْ لم تُطِع فلا تعصِ.

44- وقال السري السقطي رحمه الله: كلُّ الدُّنيا فضولٌ إلا خمسَ خصالٍ: خبزٌ يُشبعُه، وماءٌ يُرويه، وثوبٌ يَسترُه، وبيتٌ يُكنُّه، وعِلمٌ يستعملُه.

45- وقال أيضًا: أربعُ خصالٍ ترفعُ العبدَ: العلمُ والأدبُ والأمانةُ والعفَّةُ.

46- وقال أيضًا: مَن لم يعرِف قدرَ النِّعمةِ سُلِبها من حيثُ لا يعلَمُ.

47- وقال أيضًا: مَن هانَت عليه المصائبُ أحرزَ ثوابَها.

48- وقال أيضًا: قليلٌ في سُنَّةٍ خيرٌ من كثيرٍ في بدعةٍ، وكيف يقلُّ عملٌ مع تقوىٰ؟!

49- وقال أيضًا: الأمور ثلاثةٌ أمرٌ بَانَ لك رُشدُه فاتَّبعْهُ، وأمرٌ بانَ لك غيُّهُ فاجتَنبهُ، وأمرٌ أَشكَلَ عليكَ فقِفْ عندَه وَكِلْهُ إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، وليَكُن الله دليلَك، واجعلْ فقرَك إليهِ تستغنِ به عمَّن سِواه.

50- وقال أيضًا: مَن عَجَز عن أدبِ نفسِه كانَ عن أدَبِ غيرِه أعجز، ومَن أطَاع مَن فوقَه أطاعَه مَن دُونه.

51- وقال أيضًا: إنِ اغتَمَمتَ علىٰ ما يَنقُص مِن مالكَ فابكِ علىٰ مَا ينقُصُ من عمُرك.

52- وقال أيضًا: حُسنُ الخُلُقِ كفُّه الأذىٰ عن النَّاس واحتِمالُ الأذَىٰ مِنه بلا حقدٍ ولا مكافأةٍ.

53- وقال أيضًا: أحسنُ الأشياءِ خمسةٌ: البكاءُ علىٰ الذُّنوبِ، وإصلاحُ العيوبِ، وطاعةُ علَّامِ الغيوبِ، وجلاءُ الدِّين من القلوبِ، وألَّا تكونَ لكلِّ ما تَهوىٰ رَكوب.

54- وقال أيضًا: خمسةُ أشياءَ لا يسكُنُ في القلب معَها غيرُها: الخوفُ من الله وحدَه، والرجاءُ لله وحدَه، والحبُّ لله وحدَه، والأُنسُ بالله وحدَه، والحياءُ من الله وحدَه.

55- وقال أيضًا: الأدبُ ترجُمان العقلِ، ولسانُك تَرْجُمان قلبكَ.

56- وقال الحارث المُحاسبي رحمه الله: العِلْمُ يورِث المخافةَ، والزُّهد يُورِثُ الرَّاحةَ، والمعرفةُ تُورِث الإنابةَ.

57- وقال أيضًا: خيارُ هذه الأُمَّةِ لا تشغلُهم آخرتُهم عن دُنياهم، ولا دُنياهم عن آخرتِهم.

58- وقال أيضًا: صفةُ العبوديَّة ألَّا ترىٰ لنفسِكَ مُلْكًا، وتعلم أنَّك لا تملِك لنفسِكَ ضرًّا ولا نَفعًا.

59- وقال أيضًا: التَّسليم هو الثبوتُ عند نُزولِ البلاء من غيرِ تغيُّرٍ منه في الظَّاهر والباطنِ.

60- وقال أيضًا: الطَّمع في فَضْلِ الله تعالىٰ ورحمتِه هو الرجاءُ.

61- وقال أيضًا: حُسن الخُلُق: احتمالُ الأذىٰ، وقلَّةُ الغضبِ، وبَسْطُ الوجهِ، وطِيب الكلام.

62- وقال أيضًا: الظَّالم نادمٌ وإنْ مدَحَه النَّاسُ، والمَظلومُ سالمٌ وإنْ ذَمَّه النَّاسُ، والقانع غنيٌّ وإنْ جاعَ، والحريصُ فقيرٌ وإنْ مَلَكَ.

63- وقال أيضًا: مَن صحَّحَ باطنَه بالمُراقبةِ والإخلاصِ زيَّن الله ظاهرَه بالمجاهدةِ واتِّباع السُّنَّةِ.

64- وسُئل رحمه الله: مَن أقهرُ النَّاسِ لنفسِه؟ فقالَ: الرَّاضي بالمقدورِ.

65- وقال أيضًا: مَن لم يشكرِ الله علىٰ النِّعمة فقَد استَدعىٰ زوَالَها.

66- وقال شقيق البلخي رحمه الله: استعدَّ إذا جاءك الموتُ لا تسأل الرَّجعةَ.

67- وقال أيضًا: التَّوكُّلُ أن يطمئنَّ قلبُكَ بموعودِ الله.

68- وقال أيضًا: طهِّرْ قلبَكَ من حُبِّ عروض الدُّنيا حتَّىٰ يدخلَ فيه حبُّ الآخرةِ وثوابُ الله عزَّ وجلَّ.

69- وقال أيضًا: جعَل الله أهلَ طاعتِه أحياءً في مماتِهم وأهلَ المعاصِي أمواتًا في حياتِهم.

70- وقال أبو يَزيدٍ البسطامي رحمه الله: من عرفَ الله فإنَّه يزهد في كلِّ شيءٍ يشغله عنه.

71- وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله مَن أحسَنَ في نهارِه كُوفِئَ في ليلِه، ومَنْ أحسنَ في ليلِه كُوفِئَ في نهارِه، ومَن صدقَ في تَرْكِ شهوةٍ ذهَب الله بها من قلبِه، والله أكرمُ من أنْ يعذِّب قلبًا بشهوةٍ ترِكَت له.

72- وقال أيضًا: إذا سكَنتِ الدُّنيا في قلبٍ ترحَّلَت منه الآخرةُ.

73- وقال أيضًا: اجعَل ما طلَبتَ من الدُّنيا فلَم تظفَر به بمنزلةِ ما لَم يخطر بِبالِك ولم تطلُبْه.

74- وقال أيضًا: أفضلُ الأعمالِ خلافُ هوَىٰ النَّفسِ.

75- وقال أيضًا: مَن كان الصِّدقُ وسيلتَه كان الرِّضا من الله جائزتَه.

76- وقال أيضًا: لكلِّ شيءٍ صِدقٌ، وصدقُ اليقينِ الخوفُ مِن الله.

77- وقال معروفُ الكرخي رحمه الله: اللهمَّ إنَّ نواصِينا بيدِكَ لم تُملِّكْنا منها شيئًا، فإذا فعلتَ ذلك بنا فكُن أنتَ وليَّنا، واهدنا إلىٰ سواءِ السَّبيل.

78- وقال أيضًا: إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتحَ عليه بابَ العمَل وأغلق عليه بابَ الجدلِ، وإذ أراد الله بعبدٍ شرًّا أغلَق عنه بابَ العملِ وفتَحَ عليه بابَ الجدلِ.

79- وقال أيضًا: توكَّل علىٰ الله حتَّىٰ يكونَ هو مُعلمَّك ومُؤنسَك وموضعَ شكواكَ، فإنَّ الناسَ لا يَنفعونَكَ ولا يضرُّونَكَ.

80- وقال أيضًا: طلبُ الجنَّةِ بلا عمَلٍ ذنبٌ مِن الذُّنوب، وانتظارُ الشَّفاعةِ بلا سببٍ نوعٌ من الغرُور، وارتجاءُ رحمةِ مَن لا يُطاع جهلٌ وحمقٌ.

81- وقِيل له رحمه الله: ما تَشتهي؟ قال: أشتهي عافيةَ يَومي إلىٰ اللَّيل، فقيل له: أليست الأيَّامُ كلُّها عافيةً؟! فقال: إنَّ عافيةَ يَومي ألَّا أعصِي الله فيه.

82- وقال حاتم الأصم رحمه الله: الزَم خدمةَ مَولاكَ تأتِيكَ الدُّنيا راغمةً والجنَّةُ عاشقةً.

83- وقال أيضًا: تعهَّد نفسَك في ثلاثةِ مواضِع: إذا عَمِلْتَ فاذكُر نظرَ الله إليكَ، وإذا تكلَّمْتَ فاذكرِ سَمْعَ الله إليكَ، وإذا سَكنتَ فاذكُر عِلْمَ الله فيك.

84- قال رجلٌ لحاتم الأصمِّ: عِظْني، فقال: إنْ كنتَ تُريد أنْ تعصِي مولاك فاعصِه في موضعٍ لا يراكَ فيه.

85- وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: مَن عرفَ الدُّنيا زهِدَ فيها، ومَن عرفَ الآخرةَ رغِب فيها، ومَن عرفَ الله آثر رضاهُ.

86- وقال أيضًا: مَن لم يعرفْ نفسَه فهو من دِينه في غرورٍ.

87- وقال أيضًا: ما ابتلىٰ الله عبدًا أشدَّ من الغفلة والقسوةِ.

88- وقال أيضًا: إنَّ الله إذا أحبَّ قومًا أفادَهم في اليقظةِ والمنام؛ لأنَّهم طلَبوا رِضاه في اليقظةِ والمنامِ.

89- وقال أيضًا: إذا مرِضَ قلبُكَ بحبِّ الدُّنيا وكثرةِ الذُّنوب فداوِه بالزُّهد فيها وتَرْكِ الذُّنوب.

90- وقال أيضًا: إذا رأيتَ مِن قلبِك قَسوةً فجالِس الذَّاكرينَ، واصحَب الزَّاهدينَ، وأقلِل مطعمَك، واجتنِب مرادَكَ، وروِّض نفسَكَ علىٰ المكارِه.

91- وقال أبو الحسن الدِّينَوَريُّ رحمه الله: محبَّتُك لنفسِكَ هي التي تُهلِكُها.

92- وسُئل رحمه الله: ما المعرفة؟ فقال: رؤيةُ المِنَّةِ في كلِّ الأحوالِ، والعَجزُ عن أداءِ شُكْر النِّعَم مِن كلِّ الوجوه، والتَّبرِّي عن الحَولِ والقُوَّةِ في كلِّ شيءٍ.

93- وقال ممشاذ الدِّينوريُّ رحمه الله: ما أقبَحَ الغفلةَ عن طاعةِ مَن لا يغفُل عن برِّكَ، وما أقبحَ الغفلةَ عن ذِكرِ مَن لا يغفُل عن ذِكْرِكَ.

94- وقال إبراهيم القصَّار رحمه الله: قيمةُ كلِّ إنسانٍ بقَدر هِمَّته؛ فإنْ كانت هِمَّتُه الدُّنيا فلا قيمةَ له، وإنْ كانت همَّتُه رضَا الله تعالىٰ فلا يُمكِن استدراكُ غاية قيمتِه ولا الوقوفُ عليها.

95- وقال أيضًا: القدرةُ ظاهرةٌ والأعينُ مفتوحةٌ ولكنَّ أنوارَ البصائرِ قد ضعُفَت.

96- وقال أيضًا: الأبصارُ قويَّةٌ والبصائرُ ضعيفةٌ.

97- وقال أيضًا: مَن اكتفىٰ بغيرِ الكافي افتقَر من حيثُ استغنَىٰ.

98- وقال أيضًا: الكفاياتُ تصِل إليكَ بلا تَعبٍ، والاشتغال والتَّعب كلُّها في الفضولِ.

99- وقال أيضًا: أضعفُ الخَلْقِ مَن ضَعُفَ عن ردِّ شَهواتِه، وأقوىٰ الخَلْق مَن قَوِيَ علىٰ ردِّها.

100- وقال أيضًا: مَن تعزَّز بشيءٍ غيرِ الله فقد ذلَّ في عِزِّه.

101- وقال خير النساج رحمه الله: الصَّبرُ من أخلاق الرِّجال، والرِّضا من أخلاقِ الكِرام.

102- وقال أيضًا: الخوفُ سوطُ الله في الأرضِ يُقَوِّمُ به أَنفُسًا قد تعوَّدَت سوءَ الأدبِ، ومتىٰ أساءَتِ الجوارحُ الأدبَ فهو مِن غَفلةِ القَلبِ وظُلمة السِّرِّ.

103- وقال أبو حمزةَ الخُراساني رحمه الله: مَن استَشعر ذِكْر الموتِ حُبِّب إليه كُلُّ باقٍ وبُغِّض إليه كُلُّ فانٍ.

104- وقال أبو عبدالله الصبيحِي رحمه الله: أصولُ الدِّين: إثباتُ صِدقِ الافتِقار إلىٰ الله، وحُسن الاقتداءِ برسولِ الله ﷺ، وفروعُه أربعةُ أشياءَ: الوفاءُ بالعهودِ، وحفظُ الحدودِ، والرِّضا بالموجودِ، والصَّبرُ علىٰ المفقودِ.

105- وقالَ أبو جعفر بن سنان رحمه الله: أنتَ تُبغِض العاصي بذنبٍ واحدٍ تظنُّه، ولا تُبغِض نفسَك مع تيقُّنِك من ذنوبِك.

106- وقال أبو جعفر بن سنان رحمه الله: تَكبُّر المُطيعِين علىٰ العُصاةِ بطاعتِهم شرٌّ من معاصِيهم وأضرُّ عليهم.

107- وقال أيضًا: جمالُ الرَّجل في حُسن مقالِه، وكمالُه في صِدق فعالِه.

108- وقال أيضًا: ذمُّك لأخيكَ بعيوبِه يوقِعك فيما تذمُّه وشرٍّ منه، ولو وُفِّقت لدعوتَ له ورحمتَه وخِفتَ علىٰ نفسك من مثلِه، وشكَرتَ الله تعالىٰ حيثُ لم يَبلُكَ بما بلاه به.

109- وقال أيضًا: لا يعظِّم حرماتِ الله إلَّا من عظَّم الله، ولا يُعظِّم الله إلَّا مَن عرفَه، ومَن عرفه خَضَعَ له وانقادَ في خضُوعِه.

109- وقال أبو بكر الشبلي رحمه الله: الوفاءُ: هو الإخلاصُ بالنُّطق، واستغراقُ السَّرائر بالصِّدقِ.

110- وقال أيضًا: الزُّهد: هو تحويلُ القلبِ من الأشياءِ إلىٰ ربِّ الأشياء.

111- وقال أيضًا: مَن عرف الله خضعَ له كلُّ شيءٍ؛ لأنَّه عاين أثرَ مُلْكه فيه.

112- وقال أيضًا: كيف يصِحُّ لكَ التَّوحيد وكلَّما ملَكتَ شيئًا ملكَكَ؟ وكلَّما أبصَرتَ شيئًا أسرَك.

113- وقال أبو محمد المرتعش رحمه الله: اعتمدْ علىٰ ضمانِه لكَ في رزقِك واجتهِد في أداءِ ما افترضَه عليكَ تكُن مِن خواصِّه.

114- وقال أيضًا: السُّكونُ إلىٰ الأسبابِ يقطعُ القلوبَ عن الاعتمادِ علىٰ المسبِّبِ.

115- وقال أبو علي الروذباري رحمه الله: التَّوبة: هي الاعترافُ والنَّدم والإقلاعُ.

116- وقال أيضًا: أنفعُ اليقينِ ما عظَّم الحقَّ في قلبِك وعينَيك وصغَّرَ ما دُونَه عندَك وأثبتَ الخوفَ والرَّجاءَ في قلبِكَ.

117- وقال أيضًا: ليس شيءٌ أولىٰ بأنْ تمسِكَه مِن نفسِكَ، ولا شيءَ أولىٰ بأنْ تغلبَه مِن هوَاكَ.

118- وقال عبد لله بن منازل رحمه الله: العبوديَّةُ هي الرُّجوع في كلِّ شيءٍ إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ حدِّ الاضطرارِ.

119- وقال أبو الكتاني رحمه الله: إذا صحَّ الافتقارُ إلىٰ الله صحَّ الغِنىٰ بهِ؛ لأنَّهما حالَان لا يَتمُّ أحدُهما إلَّا بصاحبِه.

120- وقال أيضًا: مَن كان الله همَّه لا يستقطِعُه من الكونِ شيءٌ ولا يأسرُه من زينتِها قليلٌ ولا كثيرٌ.

121- وقال أبو يعقوب النَّهرجوري رحمه الله: الدُّنيا بحرٌ والآخرةُ ساحلٌ والمركَب التَّقوىٰ.

122- وقال أيضًا: مَن عرَفَ الله لم يَغترَّ باللهِ.

123- وقال أبو الحسن المزين رحمه الله: الذَّنبُ بعد الذَّنبِ عقوبةُ الذَّنب، والحسنةُ بعد الحسنةِ ثوابُ الحسنَة.

124- وقال أيضًا: مَن استغنىٰ باللهِ أحوجَ الله الخَلْقَ إليه.

125- وقال أيضًا: ملاكُ القَلبِ في التَّبرِّي من الحولِ والقوَّة.

126- وقال أبو الحسين بن بنان رحمه الله: المعجَبُ بعمَلِه مُستَدرَجٌ، والمستَحسِن لشيءٍ من أحوالِه ممكورٌ بهِ، والذي يظنُّ أنَّه مَوصولٌ فهو مَغرورٌ، وأحسنُ العَبيدِ حالًا مَن لا يُشاهد إلَّا واحدٌ ولا يأنَس إلَّا بهِ ولا يَشتاقُ إلَّا إليهِ.

127- وقال مظفَّر القرميسيني رحمه الله: التَّواضع قَبول الحقِّ ممَّن كانَ.

128- وقال أيضًا: الصَّومُ ثلاثة: صومُ الرُّوح بقصَر الأملِ، وصومُ العقلِ بخلافِ الْهَوىٰ، وصومُ النَّفسِ بالإمساكِ عن الطَّعامِ والمحارِم.

129- وقال أيضًا: لِيَكن نظرُك إلىٰ الدُّنيا اعتِبارًا، وسعيُك فيهَا اضطرارًا، ورفضُك لها اختِيارًا.

130- وقال أيضًا: خيرُ ما أُعطي العبدُ فراغُ القلبِ عمَّا لا يعنِيه ليَستفرِغَ إلىٰ ما يَعنيهِ.

131- وقال أيضًا: ليسَ لك من عُمُركَ إلَّا نَفسٌ واحدةٌ، فإنْ لم تُفنِها فيما لكَ فلا تُفنها فيما عليكَ.

132- وقال أيضًا: أفضلُ أعمالِ العبيدِ حفظُ أوقاتِهم وهو ألَّا يُقصِّروا في أمرٍ ولا يَتجاوزوا عن حدٍّ.

133- وقال أبو الحسين الفارسي رحمه الله: استَرِحْ معَ الله، ولا تَستَرِحْ عنِ الله، فإنَّ مَن استراحَ عن الله هَلَكَ ومن استراحَ مع الله نَجا، والاستراحةُ مع الله تَرَوُّحُ القلبَ بذِكْرِه، والاستِرَاحةُ عن الله مداومةُ الغفلةِ.

134- وقال أيضًا: أصولُ الخيرات أربعةٌ: السَّخاءُ، والتَّواضعُ، والنُّسُكُ، وحسنُ الخُلُقِ.

135- وقال أيضًا: عمارةُ القلبِ في أربعةِ أشياءَ: في العِلْم، والتَّقوىٰ، والطَّاعةِ، وذِكْرِ الله، وخرابُه مِن أربعةِ أشياءَ: مِن الجهلِ، والمعصيَة، والاغترِار، وطول الغَفلةِ.

136- وقال أيضًا: اجتهِد ألَّا تُفارِقَ بابَ سيِّدِك بِحالٍ فإنَّه مَلجأُ الكُلِّ.

137- وقال أيضًا: دُمْ علىٰ الصَّفاء إنْ كنت تَطمعُ في الوفاءِ.

138- وقال إبراهيم بن شيبان رحمه الله: مَن أرادَ أنْ يكونَ حرًّا من الكونِ فليُخلِص في عبادةِ ربِّه، فمَن تحقَّقَ في عبادة ربِّه صار حرًّا ممَّا سِواه.

139- وقال إبراهيم بن المولد رحمه الله: عجبتُ لمن عرَفَ أنَّ له طريقًا إلىٰ ربِّه كيفَ يعيشُ مع غيرِ الله تعالىٰ؟!

140- وقال أيضًا: نفسُك سائرةٌ بكَ، وقلبُك طائرٌ بكَ فكُن مع أسرعِهما وصُولًا.

141- وقال أبو عبدالله بن سالم رحمه الله: يَزولُ عن القَلب ظُلْم الرِّياء بنورِ الإخلاصِ وظُلْمُ الكذبِ بنورِ الصِّدقِ.

142- وقال أيضًا: مَن توكَّل علىٰ الله أسكَنَ الله قلبَه نورَ الحِكمةِ وكفَاه كلَّ همٍّ وأوصلَه إلىٰ كلِّ محبوبٍ.

143- وقال أيضًا: رُؤيةُ المنَّة مِفتاحُ التَّودُّد.

144- وقال أيضًا: اجتهِدْ في المرَاعاةِ لتَلحقَكَ الرِّعايةُ، فإنَّ مَن كانَ في رعايةِ الحقِّ كان في حِصنٍ حصِينٍ.

145- وقال محمَّد بن عليان النسوي رحمه الله: كيفَ لا تُحِبُّ مَن لم تَنفَكَّ مِن برِّه طرفةَ عينٍ؟ وكيف تدَّعي محبَّة مَن لَم توافِقْه طرفةَ عينٍ.

146- وقال أيضًا: لا يَصفو للسَّخيِّ سَخاؤه إلَّا بتَصغيره ورؤيةِ فضل مَن يقبَلُ منهُ.

147- وقال أيضًا: الخَوف له أثرٌ في القلبِ يؤثِّر علىٰ ظاهِرِ صاحِبهِ بالدُّعاءِ والتَّضرُّعِ والانكِسَارِ.

148- وقال أيضًا: مَن سَكَن إلىٰ غير الله تعالىٰ أهمَلَه تعالىٰ وتركَه، ومَن سَكَن إلىٰ الله تعالىٰ قطَعَ عليهِ طريقَ السُّكونِ إلىٰ شيءٍ سِواه.

149- وقال أبو سعيد بن الأعرابي رحمه الله: أخسرُ الأخسرينَ مَن أبدىٰ للنَّاسِ صَالِح أعمالِه وبارَزَ بالقَبيحِ مَن هو أقربُ إليه مِن حَبلِ الوريدِ.

150- وقال أبو بكر الرقي رحمه الله: مَن عَرفَ ربَّه لم يَنقطِع رجاؤه، ومَن عَرف نفسَه لم يُعجَب بعملِه، ومَن عرَفَ الله لَجَأ إليه، ومَن نَسِي الله لجأ إلىٰ المخلوقينَ، والمؤمنُ لا يَسهو حتَّىٰ يَغْفُلَ فإذا تفكَّر حَزِنَ واستغفرَ.

151- وقال أبو عبدالله الرَّازي رحمه الله: إنَّما تَتولَّد الشَّكوىٰ وضِيقُ الصَّدر مِن قِلَّة المعرفةِ بالله.

152- وقال إسماعيل بن نجيد رحمه الله: التَّوكُّلُ أَدْناه حُسنُ الظَّنِّ بالله.

153- وقال أيضًا: المتوكِّلُ الذي يَرضىٰ بحُكم الله فيه.

154- وقال أيضًا: الطُّمأنينة إلىٰ الخَلْقِ عجزٌ.

155- وقال أيضًا: الأُنس بغيرِ الله وَحشةٌ.

156- وقال أبو الحسن البوشنجي رحمه الله: النَّاسُ علىٰ ثلاثِ منازلَ: الأولياءُ وهم الذين باطنُهم أفضلُ مِن ظاهِرِهم، والعلماءُ وهم الذين سِرُّهم وعلانِيتُهم سواءٌ، والجهلاءُ وهم الذين علانيتُهم تُخالِف أسرارَهم، لا يُنصفِون من أنفسِهم ويطلبُونَ الإنصَافَ من غيرهِم.

157- وقال أيضًا: المرُوءةُ هي حُسن السِّرِّ والبِشرُ.

158- وقال أيضًا: الفتوَّةُ هي حسنُ المراعاةِ ودوامُ المرَاقبةِ، وألَّا ترَىٰ من نفسِكَ ظاهرًا يُخالفُ باطنَك.

159- وقال أيضًا: مَن ذلَّ في نفسِه رفَعَ الله قَدْرَه، ومَن عَزَّ نفسَه أَذلَّه الله في أَعينِ عبادِه.

160- وقال بندار الشِّيرازي رحمه الله: لا تُخَاصِم لنَفسِكَ فإنَّها ليسَت لك، دعْهَا لمالكِها يفعلُ بها كلَّ ما يُريد.

161- وقال أيضًا: اتركْ ما تَهوىٰ لما تأمَل.

162- وقال أبو عبدالله التُّرُوغبَذي رحمه الله: طُوبَىٰ لمَن لم يكُن له وسِيلةٌ إلىٰ الله سِواه، فإنَّه لا وسيلةَ إليه غيرُه.

163- وقال أيضًا: تَرْكُ الدُّنيا للدُّنيا مِن علاماتِ حبِّ الدُّنيا.

164- وقال علي بن بندار رضي الله عنه: التَّصوُّف إسقاطُ رؤيةِ الخَلْق ظَاهرًا وباطِنًا.

165- وقال أيضًا: إيَّاك والخلافَ علىٰ الخَلْقِ، رضي الله به عَبدًا فارضَ به أخًا.

166- وقال أيضًا: إيَّاك والاشتغالَ بالخَلْقِ، فقَد عدِمَ الرِّبح عليهم.

167- وقال أبو عبدالله الرازي رحمه الله: الفقيرُ الصَّادق الذي يَملكُ كلَّ شيءٍ ولا يَملِكه شيءٌ.

168- وقال أيضًا: الفتوَّة حُسْنُ الخُلُقِ مع مَن تَبغضُه، وبذلُ المالِ لَمن تكْرَهُه، وحُسن الصُّحبةِ مع مَن ينفُر قلبُك مِنه.

169- وقال أيضًا: التَّصوُّف استقامةُ الأحوالِ مع الحقِّ.

170- وقال يحيىٰ بن معاذ ﷺ: جميعُ الدُّنيا من أوَّلها إلىٰ آخرِها لا يُساوِي غمَّ ساعةٍ.

171- وقال أيضًا: ثلاثُ خصالٍ من صفةِ الأولياء: الثِّقةُ باللهِ في كلِّ شيءٍ، والغِنىٰ بهِ عن كلِّ شيءٍ، والرُّجوعُ إليه في كلِّ شيءٍ.

172- وقال أيضًا: علىٰ قَدْرِ حُبِّكَ للهِ يحبُّكَ الخَلْقُ، وبقدر خوفِكَ من اللهِ يهابُكَ الخَلْقُ، وعلىٰ قَدْرِ شُغلِك باللهِ يشتغِل في أمرِك الخَلْقُ.

173- وقال أيضًا: يا ابنَ آدمَ ما لَكَ تأسَف علىٰ مفقودٍ لا يردُّه عليكَ الفوتُ؟ وما لَكَ تفرحُ بموجودٍ لا يَتركُه في يدِك الموتُ.

174- وقال أيضًا: من سُرَّ بخدمةِ اللهِ سُرَّتِ الأشياءُ كلُّها بخِدمتِه، ومَن قرَّتْ عينُه باللهِ قرَّت عيونُ كلِّ شيءٍ بالنَّظر إليهِ.

175- وقال أيضًا: مَن لَم يعتبِرْ بالمعاينةِ لم يتَّعظْ بالمَوعظةِ، ومَن اعتبرَ بالمعايَنةِ استغنَ عن الموعظةِ.

176- وقال أيضًا: أبناءُ الدُّنيا تخدِمُهم الإماءُ والعَبيدُ، وأبناءُ الآخرةِ يخدمُهم الأبرارُ والأحرارُ.

177- وقال حمدون القصار رحمه الله: إنِ استطَعتَ ألَّا تغضَبَ لشيءٍ من الدُّنيا فافعَلْ.

178- وقال أيضًا: استعانةُ المخلوقِ بالمخلوقِ كاستعانةِ المَسجونِ بالمسجونِ.

179- وقال أيضًا: لا يجزَعُ مِن المصيبةِ إلَّا مَن يتَّهمُ ربَّه.

180- وقال أيضًا: تَهاونْ بالدُّنيا حتَّىٰ لا يعظُمَ في عينِك أهلُها ومَن يملِكُها.

181- وقال أيضًا: مَن رأيتَه في خصلةٍ من الخيرِ فلا تفارِقْه فإنَّه يُصِيبُك مِن بركاتِه.

182- وقال أيضًا: مَن استطاعَ مِنكم ألَّا يَعمىٰ عن نُقصانِ نفسِه فليَفعلْ.

183- وقال منصور بن عمار رحمه الله: سرورُك بالمعصيةِ إذا ظفرتَ بها شرٌّ من مباشرتِكَ المعصيةَ.

184- وقال أيضًا: مَنِ اشتغلَ بذِكْرِ النَّاس انقطعَ عن ذِكْرِ الله تعالىٰ.

185- وقال أيضًا: اترُكْ نهمةَ الدُّنيا تسترِحْ من الغمِّ، واحفَظْ لسانَك تسترِحْ من المعذرةِ.

186- وقال أيضًا: سلامةُ النَّفس في مخالفتِها، وبلاؤها في متابعتِها.

187- وقال أحمد الأنطاكي رحمه الله: أنفعُ العقل ما عرَّفكَ نِعَم الله عليكَ وأعانكَ علىٰ شُكرِها وقامَ بخلافِ الهوىٰ.

188- وقال أيضًا: أنفعُ التَّواضع ما نفىٰ عنكَ الكِبرَ وأماتَ منكَ الغضبَ.

189- وقال أيضًا: إذا طلبتَ صلاحَ قلبِك فاستَعِن عليه بحِفظِ لسانِك.

190- وقال أيضًا: اعمَلْ علىٰ أنَّه ليسَ في الأرض أحدٌ غيرُك ولا في السَّماء أحدٌ غيرُه.

191- وقال أيضًا: إنِ استطَعت ألَّا يَسبقَك أحدٌ إلىٰ مَولاك فافعَلْ، ولا تُؤثِر علىٰ مَولاك شيئًا.

192- وقال أيضًا: مَن أرادَ أنْ يعيشَ غنيًّا في حياتِه فلا يُسكِنُ الطَّمعَ قلبَه.

193- وقال أيضًا: أنفعُ الخوفِ ما حَجَزك عنِ المَعاصي وأطالَ منك الحزنَ علىٰ ما فاتَك وألزمَك الفِكْرةَ في بقيَّة عُمُرك.

194- وقال الإمام أبي القاسم الجنيد ﷺ: مَن عرفَ الله لا يُسَرُّ إلَّا به.

195- مَن عقَلَ الأشياءَ بالله فرجوعُه في كلِّ شيءٍ إلىٰ الله. (أبو الحسين النُّوري).

196- وقال أبو عُثمان النَّيسابوري رحمه الله: صلاحُ القلبِ في أربع خصالٍ: في التَّواضعِ لله، والفقرِ إلىٰ الله، والخوفِ من الله، والرَّجاءِ.

197- وقال أيضًا: الموفَّق مَن لا يخاف غيرَ الله، ولا يرجو غيرَه فيُؤْثِرُ رضاهُ علىٰ هوىٰ نفسِه.

198- وقال أيضًا: الخوفُ مِن الله يوصلُك إلىٰ الله، والكِبرُ والعُجْب في نفسِك يقطَعُك عن الله، واحتِقارُ النَّاسِ في نفسِكَ مَرَضٌ عَظيمٌ لا يُداوَىٰ.

200- وقال أيضًا: تعزَّزُوا بعزِّ الله كي لا تذِلُّوا.

201- وقال أيضًا: سرورُك بالدُّنيا أَذهبَ سرورَك بالله مِن قلبِك، وخوفُك مِن غيرِه أذهَب خوفَك منه عن قلبِك، ورجاؤُك مَن دونَه أذهبَ رجاءَك إيَّاه مِن قلبِك.

وفي الخِتام نحبُّ أنْ نختمَ هذا الكلامَ بدعاءٍ من إمامٍ من أئمَّة التَّصوُّفِ، وهو سيدي ابنُ عطاءِ الله السَّكندري:

اللهمَّ إنَّا نَسألك أنْ تُصلِّي علىٰ سيِّدنا محمَّد ﷺ وعلىٰ آلِ محمَّد، كما صلَّيت علىٰ إبراهيمَ وعلىٰ آلِ إبراهيمَ في العالِمين إنَّك حميدٌ مجيدٌ. اللهمَّ اجعلْنا من المُستسلِمين إليك، ومن القائمِين بين يدَيك، أخرِجْنا من التَّدبير معكَ أو عليك، واجعلنَا منَ المفوِّضين إليك. اللهمَّ إنَّكَ قد كنتَ لنا مِن قَبل أن نكونَ لأنفسِنا، فكُن لنا بعدَ وجودِنا كما كنتَ قبلَ وجودِنا، أَلْبِسنَا ملابسَ لُطفِك، وأقبِلْ علينَا بجَنابِكَ وعطفِك، وأخرِج ظُلماتِ التَّدبيرِ من قلوبِنا، وأشرِقْ نورَ التَّفويضِ في أسرارِنا، وأشهِدنا حُسنَ اختيارِك لنا حتَّىٰ يكونَ ما تقضِيهِ فينَا وتختَارُه لنَا أحبَّ إلينَا مِن مختارِنا لأنفُسِنا.

اللهمَّ لا تَشغلْنَا بما ضمِنتَ لنا عمَّا أمرتَنا، ولا بشيءٍ أنتَ ضامِنُه لنا عن شيءٍ أنتَ طالبُه منَّا. اللهم إنَّك دعوتَنا إلىٰ الانقيادِ إليكَ والدَّوامِ بين يديكَ، وإنَّا عن ذلكَ عاجزونَ إلَّا أنْ تقدرنا، وضُعفاء إلَّا أنْ تُقوِّينا. ومِن أين لنا أن نكونَ في شيءٍ إلا إنْ كَوَّنْتَنا؟ وكيف لنا أنْ نصلَ لشيءٍ إلَّا إن وصلْتَنا؟ وأنَّىٰ لنا أنْ نقوَىٰ علىٰ شيءٍ إلَّا إن أعنْتَنا؟ فوفِّقنا لما بِهِ أمرْتنا، وأعنَّا علىٰ الانكفَافِ عمَّا عنه زَجَرتنا. اللهمَّ أدْخِلنا رِياضَ التَّفويضِ وجنَّاتِ التَّسليمِ، ونعِّمنا بها وفيها واجعَل أسرارَنا معكَ لا مع نعيمِها ولذَّتِها.

اللهمَّ أشْرِق علينَا من أنوارِ الاستِسلَامِ إليكَ والإقبالِ عليكَ ما تبتَهجُ به أسرارُنا وتكتَملُ به أنوارُنا. اللهمَّ إنَّكَ قد دبَّرت كلَّ شيءٍ قبلَ وجودِ كلِّ شيءٍ. وقد علِمنَا أنَّه

لن يكونَ إلَّا ما تريد، وليس هذا العِلم نافعًا لنا إلَّا أنْ تُريدَ، فَزدنا بخيرِكَ وارفَع شأنَنا بفضلِك، واقصدْنَا بعنَايتِك، وحفَّنا برِعايتِك، واكسنَا مِن ملابس أهلِ ولايتِكَ، وأدخلنا في وجود حمايتِكَ، إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

اللهمَّ إنَّا علِمْنا أنَّ حُكمَك لا يُعانَد وقضاءَك لا يُضاد، وقد عجزنا عن ردِّنا ما قضَيتَ ومنع مَا أمضَيت، فنَسألُك لُطفًا فيما قضَيتَ، وتأييدًا فيما أمضَيتَ، واجعَلنا في ذلك ممَّن رعيتَ يا ربَّ العالَمين. اللهمَّ إنَّك قَد قسَمتَ لنا قسمًا أنتَ مُوصلُها لنا، فوصِّلنا إليها بالهناءِ والسَّلامةِ من العناءِ، ومُصانِين فيها منَ الحُجَّةِ مَحفوفِين فيهَا بأنوارِ الوصلةِ نشهدُها عنك، فنكون لك مِن الشَّاكِرين، ونُضيفُها لك ولا نضيفُها لأحدٍ منَ العالمينَ. اللهمَّ إنَّ الرِّزقَ بيدِكَ رزقَ الدُّنيا ورزقَ الآخرة، فارزقنَا مِنها ما علِمتَ فيه المصلحةَ لنا والعَود بالجَدوى علينا. اللهمَّ اجعلْنَا منَ المُختارِينَ لك، ولا تَجعلْنا منَ المختارِين عليك، ومِن المفوِّضِين لكَ لا مِن المعتَرِضِينَ عليكَ.

اللهمَّ إنَّا إليك مُحتاجون فأَعطِنا، وعنِ الطَّاعةِ عاجزونَ فأقدرنَا، وهَبْ لنا قدرةً على طاعتِك وعَجزًا عن معصيتِكَ، واستِسلامًا لربوبيَّتِك، وصَبرًا على أحكامِ إلهيَّتِك، وعِزًّا بالانتِساب إليك، وراحةً في قلوبِنا بالتَّوكُّل عليكَ، واجعلْنَا ممَّن دخَل ميادِين الرِّضا، وكَرَع من تسلِيم التَّسليمِ، وجنَىٰ مِن ثمارِ المعَارفِ وألبس خِلَعَ التَّخصيصِ وأتحفَ تحفةَ القُربِ وفوتح من حضرةِ الحبِّ، دائمينَ على خدمتِكَ محقِّقينَ لمعرفتِكَ، متَّبعِين لرسولِكَ وارثِين عنه وآخذِين منه، ومحقِّقينَ به وقائمين بالنِّيابة عنه، واختمْ لنا منكَ بخيرٍ يا ربَّ العالمين.

وصلى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا. ◆

الرسالة الرابعة عشرة
مقام النبي ﷺ بين قلوب المحبين وعقول الجفاة

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: تمهيد في تعريف النُّبوة.

المحور الثاني: أهميَّة العِلم بمقامِ رسول السله وخُطورة الجهل بمقامِه ﷺ.

المحور الثالث: خصائصه الشَّريفة والأدلة علىٰ أنَّه ﷺ أشرف الخَلق وأقربهم إلىٰ الله تعالىٰ.

المحور الرابع: فضلُ رسول الله ﷺ علىٰ أمَّته وشفقته بهم.

المحور الخامس: نماذج الحبِّ والتَّوقير من الصَّحابة والسَّلف مع الحبيبِ الأعظم ﷺ.

المحور السَّادس: صورٌ من حب المخلوقاتِ لرسولِ الله ﷺ.

المحور السابع: خاتمة في الأمور التي تُعينُ علىٰ زيادة محبَّة رسولِ الله في قلوبِنا. ◆



﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ – آية **255** من سورة البقرة

مقام النبي ﷺ بين قلوب المحبين وعقول الجفاة

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمَّا بعد:

فهذا بحثٌ يَسيرٌ نتناول فيه أعظمَ شخصيَّةٍ عرفها الوجودُ، وهي شخصيَّة النبيِّ المُجتبى والحبيب المُصطفى محمدٌ رسولُ الله ﷺ، نتحدث فيه عن جلال قدرِه وتعظيمِ جنابه ووُجوبِ محبَّته؛ التي هي من محبَّةِ الله، ونذكر خصائصَه وشمائلَه ومعجزاتِه، ونحن في كلِّ ذلك نلتمس زيادةَ المعرفة به ﷺ رجاءَ أن تنمُوَ في قلوبِنا شجرةُ الحبِّ والمودَّة لهذا النَّبيِّ الجليلِ الذي قال فيه ربُّنا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. وسيدُورُ الكلامُ حولَ هذا الموضوع في المحاور التالية:

المحور الأول: تمهيد في تعريف النُّبوة.

المحور الثاني: أهميَّة العِلم بمقام رسول الله وخُطورة الجهل بمقامِه ﷺ.

المحور الثالث: خصائصه الشَّريفة والأدلة على أنَّه ﷺ أشرف الخَلق وأقربهم إلى الله تعالى.

المحور الرابع: فضلُ رسول الله ﷺ على أمَّته وشفقته بهم.

المحور الخامس: نماذج الحبِّ والتَّوقير من الصَّحابة والسَّلف مع الحبيبِ الأعظم ﷺ.

المحور السَّادس: صورٌ من حب المخلوقاتِ لرسولِ الله ﷺ.

المحور السابع: خاتمة في الأمور التي تُعينُ على زيادة محبَّة رسولِ الله في قلوبِنا. ◆

تمهيد في تعريف النبوة

النُّبوةُ: هي اصطفاءٌ من الله سبحانه وتعالىٰ لعبدٍ من عبادِه واخْتياره وتهيئته لمهمَّةِ تلقِّي الوحي وتبليغ رسالة ربِّ العالمين إلىٰ الخَلقِ، فمنزلةُ النبوَّة عند الله جلَّ وعلا منزلةٌ كبيرةٌ؛ ذلك لأنَّ الأنبياءَ هم الواسطة في تبليغ الخلقِ مرادَ الخالق منهم، ماذا يريدُ منهم وماذا يريدُ لهم؟ ومنزلةُ الأنبياء عند المؤمنين هي أعظمُ منزلة؛ حيث يحتلُّون أعلىٰ مكانة في قلوبهم؛ فهمُ الذين قد اهتدوا بهم إلىٰ كل خيرٍ، فعِظَمُ مكانتِهم تنبعُ من عظم الأمانةِ التي يتحملونَها.

ولأهميَّةِ هذه الرُّتبة نجد أنَّ النبيَّ أو الرسولَ يتمُّ إعدادُه من قِبلِ الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ يتيسَّر له القيام بمهمَّة البلاغ، فيهيِّئ الله له العقلَ والقلبَ والبدنَ لتلقِّي الوحي؛ وذلك لأنَّ الاتصالَ بالملائكة أو الإلهام الإلهيَّ المباشر أو تكليم الله لأحدٍ من رسلِه كلُّ هذه الأمور وغيرها تتطلب تهيئةً خاصَّةً للأنبياء والمرسلين لا تتوفَّر لبقيَّة البشرِ، ولهذا السَّبب نجدُ أن بشرية الأنبياء تختلف عن بشرية باقي الخلق من حيث الخصائص التي يتمتعون بها؛ وذلك ليكونوا أهلًا للاتِّصال بالملأ الأعلىٰ وتلقِّي الوحي الإلهي.

فمقام الأنبياء عظيمٌ جدًّا، فكيف بمقام سيِّد الأنبياء محمد ﷺ؟! ورحم الله البوصيري حين قال:

كَيْفَ تَرْقَىٰ رُقِيَّكَ الأَنْبِياءُ ... يَا سَمَاءً مَا طاولتْها سَمَاءُ

فهو ﷺ أشرفُ الخلق وحبيب الحق، وهنا ننتقل إلىٰ المحور الثاني، وهي العِلم بمقام النَّبي ﷺ وأهمية معرفة ذلك، وما الذي يترتب علىٰ الجهل بهذا المقامِ وخطورة هذا الأمر.

أهميَّة العلم بمقامِ رسول الله وخُطورة الجهل بمقامِه ﷺ

من المعلوم أنَّ تولّدَ المحبَّةِ في القلب تجاه شخصٍ أو شيءٍ ما ناتجٌ عن المعرفةِ والإحاطة بهذا الشَّخص أو هذا الشيء، من خلال هذا يتبيَّن لنا أهمية معرفة مقام نبيِّنا ﷺ المعرفة اللائقة به وبجلال مقامِه العظيم، فعلىٰ كلِّ مسلمٍ بقدرِ المُستطاع أن يتعرفَ ويدركَ حالَ وحياةَ رسولِ الله ﷺ لأن هذه المعرفةَ وهذا الإدراكَ يولِّدان المحبَّة والإجلالَ والتَّوقير في القلب.

وممَّا ينبغي أن نلفت نظرَ المؤمن المحبِّ إليه هو أن هناك فرقًا كبيرًا بين الأثرِ القلبي الذي تحدثُه المعرفة الإجماليَّة وبين الأثر الذي تُحدثُه المعرفةُ التفصيليَّة لحياته وشمائله الشريفة وأخلاقه العظيمة ﷺ؛ فالمعرفةُ الإجمالية لا يتم بها إدراكُ ما يتمتع به نبينا ﷺ من الخصوصيات والشمائل والأخلاق وما اختصه الله به بين الأنبياء والمرسلين، وبالتَّالي فإن أثرَ هذه المعرفة السطحية سيكون أثرًا عابرًا غيرَ راسخٍ لا يولد مشاعرَ المحبة المطلوبة، أما المعرفة التفصيلية بأحواله وشمائله ﷺ فهي التي ينتج عنها زيادةُ الحبِّ والمودَّة والإجلال لهذه الشخصية المطهَّرة.

ولنضرب مثالًا يوضِّحُ هذه الفكرة، وهو هجرة النبيِّ ﷺ وهي حادثة معلومةٌ عند المسلمين بشكلٍ عامٍّ، والتي فيها أن النبي ﷺ هاجر من مكة إلىٰ المدينة، وهذا أمرٌ يعلمه المسلمون علىٰ وجه الإجمال.

لكننا لو تتبعنا تفاصيلَ هذه الرحلة المباركة وما كانَ فيها من المخاطر التي تعرَّض لها النبيُّ ﷺ وصاحبُه أبو بكر رضي الله عنه والصُّعوبات التي لاقاها، وكيف كانت مطاردة المشركين من قريش لهما، ومدىٰ المشقة التي تحمَّلها في رحلة الهجرة الشاقة في صحراء الجزيرة العربية حيث الحرارةُ الشديدة والشمس الحارقة، وغير ذلك من التَّفاصيل الكثيرة الَّتي تظهر لنا مقدارَ الجهد والتَّعب الَّذي كابده في سبيل الوصول إلىٰ المدينة-

لوقفنا علىٰ المعرفة الحقيقيَّة لمقام النبي ﷺ ولفهمنا كثيرًا من الخبايا في دعوته الشريفة وغير ذلك من الأمور التي تجعلنا نزدادُ يقينًا و إيمانًا وحبًّا وتعظيمًا للنبي ﷺ.

فإذن المعرفة الإجماليَّة لرحلة الهجرة لا تنتجُ أثرًا قلبيًّا مثلَ الأثر الذي يَحدُثُ نتيجةً للمعرفة التفصيليَّة بها، والتي تؤدي إلىٰ تشبُّع القلب بحبِّه ﷺ والشعور بمقدار ما بذلَه في سبيل الله وفي سبيل إبلاغ الرِّسالة.

وفي هذا السِّياق ينبغي أن ننبِّه إلىٰ خطورة الجهل بمقام رسولِ الله ﷺ فإنَّ مما يَنقصُ إيمان أي مسلم الجهل بمقام رسول الله ﷺ وأن لا يعرفَ ما يتوجَّب له ﷺ من المحبَّة والمودَّة والتعظيم والإجلالِ.

فالجهلُ بمكانة ومقام الحبيب الأعظم ﷺ عند ربِّه وقلة المعرفة بما مرَّ به رسولُنا الكريم من أحداثٍ وخُطوبٍ ومحنٍ وشدائدَ أثناء دعوته إلىٰ الله يجعل المحبَّةَ في القلبِ باهتةً، وبهذا الجهل تختفي مظاهرُ التوقير والتبجيل له ﷺ في كثير من مظاهر حياتِنا مما يفتحُ الباب للكافرين بالتعرُّض للجناب النبوي الشريف، فما كنا نسمع في العقود الأخيرة عن رسوماتٍ مسيئةٍ أو مقالاتٍ تتهكَّم من مقامِه أو أقوالٍ ساخرةٍ أو غيرِ ذلك؛ لولا أنَّ هؤلاء الأعداء لم يجدُوا في أمة الإسلام ما كان موجودًا سابقًا من عظيمِ الإجلال والمحبَّة لمقام المصطفىٰ ﷺ حيث لم يكن يتجرَّأ أيُّ شخصٍ علىٰ مقام النُّبوة.

فلو كان أثرُ محبَّته وتعظيمِه وإدراك مقامه وعدم الجهل به موجودًا بالدَّرجة التي تناسب عِظم منزلتِه وجلالةَ قَدره ﷺ ما تطاول أيُّ إنسان علىٰ أنْ ينطقَ بكلمةٍ في حقِّ الحبيب الأعظم ﷺ.

وكذلك القولُ علىٰ كل مَنْ ينتسب للسلمين الَّذينَ يسيئونَ إلىٰ مقام النَّبيِّ ﷺ وينكرونَ سُنَّتَه ويعترضونَ علىٰ الأحاديث الصَّحيحة، كل ذلك بجهلٍ أو سوءِ نية، ولو تعرَّفَ هؤلاء علىٰ الحياة التفصيليَّة للنبيِّ ﷺ ورأوا جميلَ حياته وروعة عصره لوقفوا

علىٰ معرفة مقامه العظيم، ولو كان هناك مَن يدافع وينافح عن نبيِّنا الكريم ومقامه الشريف لَمَا وجدنا أمثالَ هؤلاء.

أيضًا ينطبق الأمر علىٰ بعض الجماعات مِمَّنْ ينسب نفسَه إلىٰ الالتزام بالسُّنة، لكنهم لا همَّ لهم إلا محاربة مظاهر محبَّة النبي ﷺ ورمي مَن يتلبَّس بمظاهر حبِّ رسول الله بالبدعةِ والابتداع، فتراهُم ينكرونَ علىٰ مَنْ يظهر محبَّةَ النبي ﷺ بمدحِه وذِكر شمائله وإنشاد القصائدِ فيه ﷺ، أو يرمون بالبدعة مَن يتوسَّل به وبمقامه الكريم في الدُّعاء، والأدهىٰ من ذلك أنهم يرمون مَن يشدُّ الرِّحال لزيارة قبرِه الشَّريف أو قبور آل بيتِه الأطهار ﷺ بالشِّرك، بالإضافة إلىٰ مهاجمة مظاهر الاحتفال بمولدِه الشريف المتمثلة في الصَّلاة عليه ومدحه وقراءة القرآن وغير ذلك من مظاهر الاحتفال بمولده المبارك.

فإذا كان هذا حالَ بعض المسلمين فلا غرو أن نجد تطاولَ الأقزام من أهل الكفر علىٰ المقام النبويِّ والإساءة له؛ ولذلك علينا أن نستعيدَ الحال التي كان عليها المسلمون من التَّبجيل والتَّعظيم لجناب المصطفىٰ الشَّريف، وأن نحارب كلَّ مظاهر التَّقليل والتَّنقيص من مقام الحبيب الأعظم؛ لأن أيَّ أُمةٍ عاقلة مُدركة لتاريخها وحضارتها وواعية بقدْرِ ومقام صُنَّاع هذه الحضارة تحتفل وتحتفي برجال تاريخها فتحيي معالِمَهم وذِكراهم وتنشط ذاكرة أبنائها تجاههم وتعرِّفهم بخصالهم وسجاياهم، حتىٰ يكونوا في محل القُدوة والأسوة بالنسبة لسائر أفراد هذه الأُمة، في حين نرىٰ نحن أنَّ بعضَ أبناء أمَّة الإسلام يُريدُ أن يدفنَ ويحثُو الترابَ علىٰ آثار عظماء هذه الأمة ابتداءً من رسول الله ﷺ ومرورًا بآل بيتِه الأطهار وانتهاءً بسائر العلماء والصَّالحين، وإنَّه لأمر عجيب يدعو إلىٰ الرِّيبة في عِلم هؤلاء أو توجُّهِهم أو عقولِهم.

فمثل هذه الأفكار جعلت المحبةَ والإجلالَ والتوقير في قلوبِ كثيرٍ من المسلمين تجاه الحبيب المحبوب ﷺ باهتةً، ومِنْ ثمَّ فنحن بسكوتِنا علىٰ تنقيص قَدْر نبينا ﷺ في قلوب المسلمين نكون شركاءَ بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر فيما يحدث من تعرضٍ أو

انتقاصِ المشركين للجناب النبوي الشريف، وأول ما نقومُ به في هذا الأمر هو تجليةُ مقام النبي ﷺ للنَّاس، وهو الأمر الذي سنتكلَّم عنه في المحور الثالث، ونتناول فيه الحديثَ عن خصائصه التي ميَّزه الله بها، والتي تدل على عِظم مقامه ومكانته ﷺ.

خصائصه الشَّريفة والأدلة على أنَّه ﷺ أشرف الخَلق وأقربهم إلى الله تعالى

لو أنَّنا وجدْنا مَلِكًا من مُلوك الدنيا يُكثرُ من ذِكر شخص في خطاباتِه أو في مجالسِه يذكر مناقبَه ويسرد خصائصَه ويُعلي شأنَه ويُبرزُ فضلَه لقطعنا بما لا يدعُ مجالًا للشكِّ بعِظم مكانة هذا الإنسانِ وعلوِّ منزلتِه عند هذا الملك، ولله المثلُ الأعلى فنحنُ لو تتبعنا آيات القرآن الكريم وتعرُّضِها لذكر نبيِّنا الكريم ﷺ لوجدنا كثيرًا من المدح وإعلاءِ المكانة والملاطفةِ من الله سبحانَه وتعالى لنبيِّه ﷺ مما يدلُّ دلالة قاطعةً على عظمةِ ومكانة رسولِ الله عند ربِّه وقُربِه منه؛ ولذلك نجد أن الله اختصَّ رسولَنا وحبيبنا محمدًا ﷺ بكثيرٍ من الخصائص والمنح الإلهية والعطايا الربَّانيَّة، ولنتعرفْ على بعض ما أعطاه الله لنبيه ﷺ من الخصائص:

1- اختصه الله بأعظم الكُتب المنزلة وهو القرآن الكريم وما احتواه من النُّور والتَّوحيد والهداية قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113].

2- عمومُ رسالتِه إلى العالمينَ الإنس والجنِّ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:28] وهذه خاصةٌ بالإنس، أما الجنُّ فقد صرف الله إليه نفرًا من الجنِّ فسمعوا القرآنَ منه وآمنُوا به وكانوا منذرين إلى قومهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:29] والَّذي يدل على عموم رسالته

للعالمين قوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

3- أسرىٰ به الله من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ﴾ [الإسراء: 1].

ثمَّ بعد الإسراء عرجَ به إلىٰ السماءِ حيثُ اختصَّه الله بالآياتِ الباهراتِ، فرأىٰ ربَّه وكلَّمه الله في أعلىٰ مقامٍ عند سِدرة المنتهىٰ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿11﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿12﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿13﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿14﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿15﴾ إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿16﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿17﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: 11- 18].

4- أرسله الله إلىٰ العالمين رحمةً وهداية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينِ﴾ وقال ﷺ: ((إنَّما أنا رحمةٌ مهداةٌ))[1]، وقال ((أنا نبيُّ الرَّحمةِ))[2].

5- لا يكتمل إيمانُ المؤمن حتَّىٰ يكون الحبيبُ المحبوبُ ﷺ أحبَّ الخَلق إليه، وهذا ما جاء في الحديث المتَّفق عليه من قوله ﷺ: ((لا يُؤمنُ أحدُكم حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليه مِن والدِه وولدِه والنَّاسِ أجمعينَ))[3].

---

(1) جزء من حديث أخرجه ابن الأعرابي في معجمه (2452)، والآجري في الشريعة (1000)، والطَّبرانيُّ في الأوسط (2981)، والحاكم في مستدركه (1/35)، والبيهقي في دلائل النبوة (1/158) من طريق مالك بن سعير حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ﵁ به مرفوعًا.

وقال الحاكم: ((هذا حديث صحيح علىٰ شرطهما فقد احتجَّا جميعًا بمالك بن سعير، والتفرد من الثقات مقبول)). ووافقه الذهبي.

(2) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ (2355) من حديث أبي موسىٰ الأشعري ﵁.

(3) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (15)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعينَ، وإطلاق عدم

6- جعل الله طاعةَ رسوله ﷺ طاعةً له سبحانه وتعالىٰ فقال: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: 80]، وقرن سبحانه طاعتَه بطاعة نبيِّه حيثُ يقول: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: 32]. وحذَّر من مخالفة المصطفىٰ ﷺ عندما قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: 63].

اختصَّه ربُّه بأوصافٍ كثيرةٍ فهو النُّور والرءوف الرَّحيم، وهُو البشير النَّذير والسراج المنير وبلغ الوصف مَداه عندما وصفَه الله بأنه علىٰ خُلُقٍ عظيمٍ، وها هي الآيات تُحدِّثنا عن هذه الأوصاف قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 15] وقال جلَّ وعلا: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿45﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: 45-46] وقال أيضًا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

7- أعطاه الله سبحانه وتعالىٰ نهرَ الكوثر في الجنَّة ووصف عَدوَّه بالأبتر فقال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿1﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿2﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 1-3].

8- خَصَّه مولاه بالهديَّة العُظمىٰ منه فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

9- ومن خصائصه أنَّ الله أعطاه مزايا لم يشاركْه فيها أحدٌ من النبيِّين والمرسَلين مِنْ قبلُ؛ ففي الصحيحين من حديث جابرِ بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهنَّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعب مسيرةَ شهرٍ، وجُعلت ليَ الأرضُ مسجدًا وطهورًا، فأيُّما رجلٍ من أُمَّتي أدركتْه الصَّلاةُ فليُصلِّ، وأُحلَّتْ لي المغانمُ ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيتُ الشَّفاعةَ، وكان النبيُّ يُبعثُ إلىٰ

=

الإيمان علىٰ مَن لم يحبَّه هذه المحبة (44) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قومِه خاصَّةً وبُعثْتُ إلىٰ النَّاس عامَّةً))[1].

10- خاطبه ربُّه بوصف النُّبوة والرِّسالة فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وخاطب باقي الرُّسل بأسمائهم مجرَّدة من مثل: ﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾، ﴿قَالَ يَا نُوحُ﴾، ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾، ﴿يَا يَحْيَىٰ﴾ وهكذا.

11- أقْسَمَ سبحانه وتعالىٰ بحياتِه ولم يُقسِمْ بحياة أحدٍ غيره، وهذا نهاية التعظيم والبرِّ والتَّشريف فقال جلَّ وعلا: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: 72] قال ابن عبَّاس رضي الله عنه: ما خلقَ الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرمَ عليه من محمَّدٍ ﷺ وما سمعتُ الله أقسم بحياةِ أحدٍ غيره فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2]. يقول: وحياتِك يا محمَّد وعمرك وبقائك في الدنيا.

12- أبان الحقُّ سبحانَه وتعالىٰ علوَّ منزلته ﷺ وحظوته لدىٰ مولاه، وأنَّه لا يتركه وسوف يُرضيه فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحىٰ: 3- 5].

13- ميَّزه سبحانه وتعالىٰ بأنَّه ليِّن القلب عطوفٌ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]. وهو مع ذلك أشجعُ النَّاس عند اللِّقاء حتَّىٰ كانت الصَّحابة تحتمي به إذا اشتدتِ الحرب.

14- يقول الله له يوم القيامة: ((سَلْ تُعطَ واشفعْ تُشفَّعْ))[3] وهو صاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرَّفيعة ﷺ.

---

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جُعلتْ ليَ الأرض مسجدًا وطهورًا (438)، ومسلم في أول كتاب المساجدِ ومواضع الصَّلاة (521).

(2) أخرجه الطَّبريُّ في تفسيره (14/ 91- 92)، ومختصرًا أبو يعلىٰ في مسنده (2754)، والطبراني في الأوسط (2380)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (1/ 63)، والبيهقي في دلائلِ النبوة (5/487- 488) من طريق عمرو ابن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما به مَوقوفًا.

وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (7/132): ((رواه أبو يعلىٰ وإسناده جيِّد)).

(3) سيأتي تخريجه قريبًا.

15- اختصَّه الله بعاداتٍ وخوارقَ لا تقع تحتَ الحصر منها: إخبارُه ﷺ ببعض الغيبيَّات المستقبليَّة فوقعت كما أخبر، وذلك في أيَّامه وبعد أيَّامه ﷺ وإلىٰ يوم القيامة، ومنها تكليمُ الشَّجرة والشَّهادة له بالرِّسالة والنبوَّة[1]، ونبعُ الماءِ من بين يديه الشَّريفة حتىٰ سقىٰ المئات من النَّاس[2]، وتسبيحُ الحصىٰ بين يديه، وسماع الصَّحابة للتَّسبيح[3]، وكذا

---

(1) ورد ذلك في حديث أخرجه الدارمي في مقدمة سُننه (16)، وأبو يعلىٰ في مسنده (5662)، وابن حبان في صحيحه (6505)، والطبراني في الكبير (431/12)، والبيهقي في دلائل النبوة (14/6) من طريق محمد بن فضيل عن أبي حيان التيمي عن عطاء عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأقبل أعرابيٌّ، فلما دنا قال له النبيُّ ﷺ: ((أينَ تريدُ؟)) قال: إلىٰ أهلي. قال: ((هل لكَ في خيرٍ؟)) قال: ما هو؟ قال: ((تشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه؟)) قال: مَنْ شاهد علىٰ ما تقول؟ قال: ((هذه الشجرةُ)) فدعاها رسولُ الله ﷺ- وهي بشاطئ الوادي- فأقبلت تخدُّ الأرضَ خدًّا حتىٰ قامتْ بين يديه فاستشهدها ثلاثًا فشَهِدَتْ أنه كما قال، ثم رجعتْ إلىٰ منبتها، ورجع الأعرابيُّ إلىٰ قومه فقال: إنْ يتبعوني آتيكَ بهم، وإلَّا رجعتُ إليكَ فكنتُ معك.

وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (678/8): ((وهذا إسناد جيد)).

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (517/8): ((رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح)).

(2) ورد ذلك في حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3573)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب في معجزات النبيِّ ﷺ (2279) من حديث أنس ﷺ أنه قال: ((رأيتُ رسولَ الله ﷺ- وحانت صلاةُ العصر- فالتمس الناسُ الوَضوءَ فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوَضوءٍ فوضع رسولُ الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضئوا منه قال: فرأيتُ الماءَ ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ النَّاس حتىٰ توضئوا من عند آخرهم)).

(3) وردَ ذلك في حديث أخرجه البزار في مسنده (4040)، وأبو بكر بن الخلال في السُّنة (288/1)، وأبو نُعيم في دلائل النبوة (432/1)، والبيهقي في دلائل النبوة (64/6) من طريق قريش بن أنس عن صالح بن أبي الأخضر عن الزهري عن سويد بن يزيد عن أبي ذر ﷺ وفيه: ((فتناول النبيُّ ﷺ سبعَ حصياتٍ أو تسعَ حصياتٍ فسبَّحنَ في يدِه حتىٰ سمعتُ لهنَّ حنينًا كحنين النَّحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم وضعن في يد أبي بكر فسبَّحن في يدِه حتىٰ سَمِعَ لهنَّ حنينًا كحنين النَّحل فوضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعن في يد عمرَ فسبَّحن في يدِه حتَّىٰ سمعتُ لهن حنينًا كحنين النَّحل، ثم وضعن فخرسن، ثم تناولهنَّ فوضعن في يد عثمانَ فسبَّحن في يده حتىٰ سمعتُ لهن حنينًا كحنين النحل، ثم وضعن فخرسن)).

وقال البزَّار: ((صالح بن أبي الأخضر ليِّن الحديثِ، وقد احتمل حديثه جماعةٌ من أهل العلمِ، وحدَّثوا عنه)).

وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (528/8): ((رواه البزَّار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعفٌ)).

سماعهم لتسبيح الطَّعامِ بين يَديه ﷺ[1]، وحنينُ الجذع إليه حين تركه ولم يصعدْ عليه[2]، وغيرُ ذلك من البركة في الطَّعام والشرابِ، وصلاحُ نفوس الكافرين وتحولهم إلىٰ رقاق القُلوب فآمنوا به ونصروه، وإبراءُ المريض حتَّىٰ إنَّه ردَّ عين الصَّحابي بعدما أُصيبتْ وأرجعها إلىٰ مكانِها فكانتْ أحسن العينين[3]. إلىٰ آخرِ ما لا يُحصيه قلمٌ من المعجزاتِ الصَّحيحة الثَّابتة التي أكرمَ الله بها نبيَّه ورسولَه ﷺ.

16- أخذُ الميثاق من الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين من لدنْ آدم عليه السلام إلىٰ عيسىٰ عليه السلام أنَّه مهما آتىٰ الله أحدَهم من كتابٍ وحكمةٍ وبلغ أيَّ مبلغ، ثم جاءه محمدٌ ﷺ وأدرك زمانَه أنه يجبُ عليه الإيمان به والنُّصرة له، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

17- كان عليه الصَّلاةُ والسلامُ سيد الأخلاق مُتربِّعًا علىٰ سدَّتها، ومن أخلاقه ﷺ أنَّه كان لا يغضبُ لنفسه، فلا ينتقمُ لنفسه إلَّا أن تُنتهكَ حرمةُ الله فينتقم لله، وكان أجودَ الناس فكان ﷺ يعطي عطاءَ مَنْ لا يخشىٰ الفقر، ولم يكن رسولُ الله فاحشًا ولا

(1) ورد ذلك في حديث أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3579) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((ولقد كنَّا نسمع تسبيحَ الطَّعام وهو يُؤكل)).

(2) سيأتي تخريجه قريبًا.

(3) وَرَدَ ذلك في حديث أخرجه أبو يعلىٰ في مسندِه (1549)، وأبو عوانة في مستخرجه (6929)، والبيهقيُّ في دلائل النبوةِ (3/99- 100) من طريق يحيىٰ بن عبدالحميد الحماني حدثنا عبدالرحمن بن سليمان بن غسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن قتادة بن النعمان: أنَّه أصيبت عينُه يوم أُحد أو يوم بدر فسالت حدقتُه علىٰ وجنته، فأرادوا أن يقطعوها فسأل النبيَّ ﷺ فقال: ((لا)) فدعا به فغمز حدقتَه براحته، فكان لا يدري أي عينيه أُصيبت؟!

متفحِّشًا، وكان يقول: ((إنَّ مِنْ خيارِكم أحسنَكم أخْلَاقًا))[1]. وكان من خُلقه ﷺ الحياءُ، فقد كان ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خِدرها، وإذا كره شيئًا عُرفَ في وجهه[2].

فهذا هو رسولُنا الكريم ﷺ لا يُحيطُ به وصفُ واصفٍ ولا قلمُ كاتب، كان خيرَ النَّاس خُلُقًا وخَلْقًا، إذا تكلَّمَ رُئي كالنُّور يخرج من ثناياه، ألين النَّاس جسدًا وأطيبهم ريحًا بدون عِطرٍ، يقول أبو جحيفة رضي الله عنه: ((أخذتُ بيده- أي رسول الله ﷺ- فوضعتُها على وجهي فإذا هي أبردُ من الثَّلج وأطيب رائحةً من المسك))[3]. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: ((ما مسستُ حريرًا ولا دِيباجًا ألينَ من كفِّ رسولِ الله ﷺ))[4].

وكان أكمل النَّاس عقلًا وأكثرهم فِطنة، يتضح ذلك من سياسةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، فكان ﷺ يسوسُ أُمَّته سياسةً تحير اللَّبيب، فهو يتعامل مع الطَّيب والخبيث من البشر، والكبير والصَّغير، والرَّجل والمرأة، وذي العقل والأحمق، والشريف والصعلوك، والغني والفقير، والأعرابي والحضري، ووَسِعَهم كلَّهم ﷺ بصفاته الكريمة وشمائله العظيمة، وكان لكل فردٍ منهم نصيبٌ من رحمته ونبوَّته وعطفِه.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يُمازحُ النَّاسَ ويضحكُ معهم ولا يقولُ إلَّا حقًّا، ويلاطف الأطفالَ ويتكلَّم معهم ويسألُهم عن أحوالهم، ويتماشَى معهم في أحاديثهم وكلامهِم، أُوتِي جوامعَ الكلم ﷺ واختُصِرَ له الكلام اختصارًا، يَعلم كلَّ لهجاتِ العرب الخفيِّ والغامضِ منها، وهو أبلغُ البلغاء فقدْ أعجز كلامُه الأدباءَ والشُّعراءَ، وهو

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (3559)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب كثرة حيائِه ﷺ (2321) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(2) وَردَ ذلك في حديث متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (3562)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ (2320) من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاريُّ في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (3553).

(4) متَّفق عليه؛ أخرجَه البخاريُّ في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (3561)، ومسلم في كتاب الفضائلِ، باب طِيب النبي ﷺ ولين مسِّه والتبرك بمسِّه (2330).

أمانٌ للأُمَّة من العذابِ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33] وهو الماحي الَّذي يمحُو الله به الكُفر وهو الحاشر الَّذي يحشر النَّاس علىٰ قدمِه.

ومن تتبع سيرته ﷺ وجد أنَّه كان حليمًا صبورًا علىٰ أذىٰ النَّاس، رحيمًا بجميع المخلوقات، تعرفه الدَّوابُّ وتحنُّ إليه وتشكو حالَها إليه، وتتأدَّب في وجودِه الشَّريف وتسكن خشيةَ أن تُزعجه، حَسن العهد غيرُ غادر، موصولُ القلب بربِّه في اليقظة والنَّوم فكانتْ عيناه تنامُ ولا ينام قلبُه، شديد الخوف من ربِّه شديد الرجاء فيه، متعبدٌ له سبحانه، كثير القيام والصِّيام والذِّكر والعبادة، زاهدٌ في الدنيا وزينتِها.

وهو أكثر الأنبياء معجزاتٍ، كتابُه معجزة المعجزات، شُقَّ له القمر وأكثرَ الله له الطَّعامَ، فكان يكفي المئاتَ من الناس، شَفىٰ سبحانه المريضَ بدعائِه ويده الكريمة، أخبره عزَّ وجل بالغيوبِ وما يكون، رفعَ ذِكره فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4] أرسله الله إلىٰ الجنِّ كما أرسله للإنس، الله مولاه وجبريلُ وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، نصره الله علىٰ أعدائه بالرعب، وتكفَّل بنصرته وحمايته ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ [التوبة: 40] ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وأنزل الملائكةَ مددًا له ﷺ.

أعطاه مقامَ الشَّفاعة الكبرىٰ يومَ القيامة له وحده ﷺ، وجعله أوَّلَ مَن يدخل الجنة، وجعل أُمَّتَه أولَ الأمم دُخولًا للجنَّة وأكثرها ثوابًا علىٰ الأعمال، وعصمَها من أن تجتمعَ علىٰ ضلالةٍ.

وهو مع كل هذه المزايا كان ينامُ علىٰ الأرض ليس بينَه وبينها إلا فراش خشن أثَّر في جسده الشريف، وكان يقول: «أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا»[1]. وقد خيَّره الله سبحانه

---

(1) جزء من حديث أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه (2347)، وابن المبارك في الزهد (2/54)، وأحمد في مسنده (5/ 254) من طريقِ عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة ﷺ به مرفوعًا.

وقال الترمذي: «حديث حسن».

وتعالىٰ بين أن يكون عبدًا نبيًّا أو ملِكًا نبيًّا فتواضعَ واختار عبدًا نبيًّا، ولو شاء لكانت جبالُ الدُّنيا ذهبًا تسيرُ معه حيث يسير.

ظهرتْ علىٰ يديه خيرُ أمةٍ أُخرجت للناس، وكان يحمِلُ همَّ أمَّته فيناجي ربَّه ويناشده الرَّحمة بأُمَّته، هكذا كان نبينا ﷺ، فاللهمَّ اجزه عنَّا خيرَ ما جزيت به نبيًّا عن أُمته ورسولًا عن دعوته.

فهذه بعضُ خصائصه عليه الصَّلاة والسَّلام، والتي من أعظمها وأوضحها علىٰ مرِّ العصور والشاهدة بعظم مكانته وعلو درجة نبوَّته ﷺ هو وجودُ هذه الأُمة العظيمة، أمَّة الإسلام واستمرارُها شاهدةً علىٰ صِدق صاحب الرِّسالة وعلو منزلته ومنزلة أمَّته بين الأممِ، وأنه ﷺ هو أشرف الخَلق جميعًا علىٰ الإطلاق، والأدلة علىٰ ذلك لا تدخل تحت الحصر، وهو ما سنذكر طرفًا منها في المحور التالي.

الأدلة علىٰ أنَّه ﷺ أشرفُ الخَلق وأقربُهم إلىٰ الله تعالىٰ:

من المعلوم الذي ليسَ فيه خلافٌ بين أتباعِ الشرائع السماوية أنَّ الأنبياء والمرسلين هم صفوةُ الخَلق من البشرِ وأفضلِهم، وبعد أنْ شرُفتِ الأرضُ بمَقدمِ رسولِنا الكريم ﷺ وتحمُّلِه لرسالة ربِّه وأمانتِه إلىٰ خَلقِه فكان هو أفضل رسولٍ أرسلَه الله إلىٰ أهل الأرض جميعًا، فقد قال الله سبحانَه وتعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وختم به الرُّسل، وبرسالته جميعَ الرسالات فلا نبيَّ بعدَه ولا رسالةَ بعد رسالتِه ﷺ.

وقد أجمعت أمَّةُ الإسلام أن رسولَنا محمَّدًا ﷺ هو سيدُ ولد آدم، وإمامُ المرسلينَ والنَّبيين، وانعقد الإجماعُ علىٰ أنَّه أشرف خَلقِ الله جميعًا وسيدُ الكائنات كلِّها، وأنَّه ما من مخلوقٍ إلَّا ونبيُّنا الكريمُ أعلىٰ منه مقامًا ومنزلةً عند الله سبحانه وتعالىٰ، وأنَّه لا يساويه في مكانتِه عند ربِّه أيُّ مخلوقٍ من المخلوقاتِ، وسوف نورد من الأدلة ما يُثبتُ ذلك إن شاء الله:

1- روىٰ مسلمٌ في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((أنا سيِّدُ ولد آدم، وأول مَن تنشقُّ عنه الأرض، وأوَّل شافعٍ وأوَّل مشفَّعٍ))[1]. فمن هذا الحديث يتبيَّنُ عظيم فضلِ نبيِّنا ﷺ، وأنه سيِّد جميع ولدِ آدم، بما فيهم جميعُ الأنبياء والمرسلينَ.

2- إمامتُه ﷺ ورئاستُه للأنبياءِ والمرسَلين وتقدُّمُه عليهم؛ فقد ذكر المفسِّرونَ عند الكلام عن حادثةِ الإسراء أنَّ الله جمع الأنبياءَ والمرسلين لنبيِّه ﷺ في المسجد الأقصىٰ فأمَّهم في الصَّلاة، فوجودُ جميع الأنبياءِ والمرسلين تحت إمامتِه ﷺ يدلُّ علىٰ أفضليَّتِه وأنَّه المقدَّم عليهم، وقد رُويَ عند النَّسائي في سُننِه وهو حديثٌ طويلٌ يتحدَّث عن رحلة الإسراءِ والمعراج وفيه قال ﷺ: ((ثمَّ دخلتُ بيتَ المقدس فجُمعَ ليَ الأنبياءُ عليهم السَّلام فقدَّمني جبريلُ حتىٰ أمتُهمْ))[2].

3- رَوَىٰ الإمام التِّرمذيُّ في سننه من حديثِ أبي سعيد قال رسولُ الله ﷺ: ((أنا سيِّدُ ولد آدمَ يوم القيامةِ ولا فخرَ، وبيدي لواءُ الحمد ولا فخرَ، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدمُ فَمَنْ سواه إلا تحت لوائي، وأنا أوَّل مَن تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر...)) إلىٰ آخر الحديث[3].

فانظر أخي الكريم إلىٰ قوله ﷺ: ((أنا سيِّد ولد آدمَ يومَ القيامةِ ولا فخرَ)) وقوله: ((وما من نبيٍّ يومئذٍ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي)) صلواتُ الله وسلامُه عليه، فجميعُ الأنبياء والمرسلين تحتَ رئاستِه ﷺ.

---

(1) أخرجه مسلمٌ في كتاب الفضائل، باب تفضيل نبيِّنا ﷺ علىٰ جميع الخلائق (2278).

(2) أخرجه النسائيُّ في كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة (450) من طريق عمرو بن هشام قال: حدثنا مخلد عن سعيد بن عبدالعزيز قال: حدثنا يزيد بن أبي مالك قال: حدَّثنا أنس بن مالك رضي الله عنه به مرفوعًا.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (3148)، ومختصرًا ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة (4308)، والآجريُّ في الشريعة (1075) من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد به مرفوعًا. وقال الترمذي: ((حسن صحيح)).

4- قولُه سبحانه وتعالىٰ في سورة البينة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 7] وسيدُ المؤمنين وخيرُ مَنْ عَمِلَ الصالحاتِ هُو سيدنا مُحَمَّدٌ ﷺ ففي هذه الآية الكريمة يَصِفُ ربُّنا المؤمنين الذين عَمِلُوا الصالحاتِ بأنَّهم خير البرية علىٰ الإطلاقِ، وسيدُ المؤمنين وإمامُهم كما ثَبتَ هُو نبيُّنا محمد ﷺ فهو إذن خيرُ البريَّة.

قولُه تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم ﴿83﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِين ﴿84﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِين ﴿85﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِين﴾ [الأنعام: 83-86].

في هذه الآيات يُخبرُ ربُّنا عن تفضيلِ أنبيائه علىٰ العالمين، والعالمونَ هم كل ما سِوىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فيشملُ جميعَ المخلوقات وجميعَ العوالم، وقد ثَبتَ بالنُّصوص أن رسولَ الله ﷺ هو سيدُ جميع الأنبياءِ والمرسلينَ، فعلىٰ ذلك يكونُ هو سيدَ جميع العالمينَ وكلِّ المخلوقات، ومما يوضِّحُ ذلك ويؤيِّده ما رواه ابنُ أبي شيبة في مصنَّفِه والبيهقي في دلائل النُّبوة عن عبدالله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: ((إنَّ الله اتخذ إبراهيم خليلًا، وإنَّ صاحبَكم خليلُ الله، وإنَّ محمدًا أكرمُ الخَلْق علىٰ الله، ثم قرأ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]))[1].

---

(1) أخرجه الطيالسيُّ في مسنده (249)، وابنُ أبي شيبةَ في مصنفه (32343)، والبيهقيُّ في دلائل النبوة (5/ 484) من طريق المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه به موقوفًا.

ويُروىٰ مرفوعًا بنحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه أيضًا كما عند مسلم في كتاب فضائل الصَّحابةِ رضي الله تعالىٰ عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (2383) بلفظ: ((لو كنتُ متَّخِذًا خليلًا لاتخذتُ أبا بكر خليلًا، ولكنَّه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عزَّ وجلَّ صاحبَكم خليلًا)).

وله شاهدٌ من حديثِ أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه متَّفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب أصحاب النبيِّ ﷺ، باب قول النبي ﷺ: ((سدُّوا الأبوابَ إلا بابَ أبي بكر)) (3654)، ومسلم في الكتاب والباب السابقين (2382)،

وبهذا يقولُ سيِّدُنا عبدالله بن سلَام- وكان من أحبار اليهود وعلمائِهم في المدينةِ، ودخل الإسلامَ حين مقدم رسول الله للمدينة، وكان من أعلم الصحابة- في ما يَرويه البيهقيُّ عنه قال: ((إنَّ أكرمَ خليقة الله تعالىٰ علىٰ الله أبو القاسم ﷺ. قال بِشْر: قلتُ: رحمكَ الله فأين الملائكةُ؟! قال: فنظر إليَّ وضَحِكَ فقال: يا ابن أخي، وهل تدري ما الملائكةُ؟ إنَّما الملائكة خلقٌ كخَلْق الأرضِ وخَلْق السَّماءِ وخَلقِ الرِّياح وسائر الخَلق، وإن أكرم الخلائق علىٰ الله تعالىٰ أبُو القاسم ﷺ))[1].

5- ورویٰ الإمامُ أحمدُ في مسندِه من حديث جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تسألُوا أهلَ الكتابِ عن شيءٍ فإنَّهمْ لن يهدوكم وقد ضلُّوا، فإنَّكم إمَّا أن تصدِّقُوا بباطلٍ أو تكذِّبوا بحقٍّ، فإنَّه لو كان موسىٰ حيًّا بين أظهرِكم ما حَلَّ له إلَّا أنْ يَتَّبعني))[2]. فهنا يُخبرُ الرسولُ ﷺ أنَّه لو كان نبيُّ الله موسىٰ حيًّا في وقتِه ﷺ لا يجوزُ له إلَّا أنْ يكون من أتباعِ الرسولِ ﷺ، فهذه المنزلةُ تدلُّ علىٰ عظمِ مكانة نبيِّنا ﷺ وأنَّه إمامُ الأنبياء والمرسلينَ بمن فيهم كليم الله موسىٰ عليه السلام فهم جميعًا له تَبعٌ.

6- ومما يدلُّ علىٰ تفضيله أنه أعطي خصائصَ اختُصَّ بها ﷺ ولم يشاركْه فيها أحدٌ من النبيينَ والمُرسلينَ، فهذا الاختصاصُ من دون سائر الأنبياء لهو دليلٌ علىٰ أفضليَّته عليهم جميعًا، يقول رسول الله ﷺ: ((أُعطيتُ خمسًا لم يُعطهنَّ نبيٌّ قبلي ولا أقولهن فخرًا، بعثتُ إلىٰ الناسِ كافةً الأحمرِ والأسودِ، ونُصرتُ بالرُّعب مسيرةَ شهر، وأُحلَّتْ لي

وفيه: ((ولو كنتُ متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذتُ أبا بكر)).

(1) أخرجه الحاكمُ في مستدركِه (4/ 568)، والبيهقيُّ في دلائل النبوة (5/ 485) من طريق مهدي بن ميمون ثنا محمد بن عبدالله بن أبي يعقوب عن بشر بن شغاف عن عبدالله بن سلَام ﷺ به موقوفًا. وصحَّح إسناده الحاكم، ووافقَه الذهبيُّ.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (3/ 338)، والبزار (124- كشف الأستار)، وأبو يعلىٰ في مسنده (2135)، والبيهقي في شعب الإيمان (176) من طريق مجالد بن سعيد عن عامر الشعبي عن جابر بن عبدالله ﷺ به مرفوعًا.

الغنائمُ ولم تَحلَّ لأحدٍ قبلي وجُعلتْ لي الأرضُ مَسجدًا وطهورًا، وأعطيتُ الشَّفاعةَ فأخَّرتها لأمتي فهي لمن لم يُشركْ بالله شيئًا))[1].

7- حديثُ استشفاع آدمَ أبي البَشر عليه السَّلامُ بالنَّبيِّ ﷺ، وهو مرويٌّ عند الحاكم وغيره من حديثِ عمر بن الخطابِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((لَمَّا اقترفَ آدمُ الخطيئةَ قال: يا ربِّ أسألك بحقِّ محمد لما غفرتُ لي. فقال: يا آدمُ وكيف عرفتَ محمَّدًا ولم أخلقْه؟ قال: يا ربِّ لَمَّا خلقتني بيدكَ ونفختَ فيَّ من رُوحك رفعتُ رأسي فرأيتُ على قوائمِ العرشِ مكتوبًا لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله، فعلمتُ أنَّكَ لم تُضفْ إلىٰ اسمِك إلَّا أحبَّ الخَلقِ إليك، فقال الله: صدقتَ يا آدمُ، إنَّه لأحبُّ الخَلق إليَّ، ادعُني بحقِّه فقد غفرتُ لكَ، ولولا محمَّدٌ ما خلقتُك))[2]. فهذا نصٌّ صريح يفيد أنَّ نبيَّنا ﷺ هو أحبُّ الخَلق إلىٰ الله وأقربُهم له وأعظمُ مخلوق.

8- ما ذكرناه من أخذِ الميثاقِ علىٰ الأنبياء أن يؤمنُوا برسولِ الله إذا بُعث في فَترتِهم، وما هذا إلا دليلٌ علىٰ أفضليتِه ﷺ؛ لأنَّه إذا حضر الفاضلُ قُدِّم علىٰ المفضولِ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِين﴾ [آل عمران: 81].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه الحاكمُ في مستدركِه (2/ 615)، وبنحوه الطبرانيُّ في الأوسط (6502) من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه به مرفوعًا.

والحديثُ وإن كان في إسناده ضعف إلَّا أن له طُرقًا وشواهدَ يتقوَّىٰ بها.

وراجع: الرَّد المحكم المتين لأبي الفضل عبدالله محمد الصِّديق الغماري ص(122- 140) مكتبة القاهرة- الطَّبعة الثالثة- 1406هـ- 1986م.

وقال سيدنا عليُّ بنُ أبي طالب وعبدالله بن عبَّاس رضي الله عنهما: ((ما بَعثَ الله نبيًّا من الأنبياءِ إلَّا أُخذَ عليه الميثاقُ لئن بعثَ محمدٌ وهو حيٌّ ليؤمِننَّ به ولينصرنَّه، وأمرَه أن يأخذَ الميثاقَ على أمَّته لئن بُعثَ محمَّدٌ ﷺ وهم أحياءٌ أن يؤمنوا به وينصروه))[1].

9- أجمع المسلمونَ أنَّ البقعة الشريفةَ التي ضمَّتْ جسدَ المصطفى ﷺ أفضلُ بقعةٍ في السَّموات والأرضِ؛ وذلك لأنَّها احتوتْ على جسدِه الشَّريفِ عليه الصَّلاة والسَّلام، وقد نَقَلَ الإجماعَ كثيرٌ من أهل العلم؛ منهم:

1- الإمام ابنُ عقيل الحنبليُّ، فقد قال: ((سألني سائلٌ أيُّهما أفضلُ حجرةُ النبي ﷺ أم الكعبة؟ فقلتُ: إنْ أردتَ مجرد الحجرة فالكعبةُ أفضل، وإن أردتَ وهُو فيها فلا والله ولا العرش وحملتُه ولا جنَّة عدن ولا الأفلاكُ الدائرة؛ لأنَّ بالحجرةِ جسدًا لو وُزِنَ بالكونيْنِ لرجَح)). وقد أوردَ ذلك ابنُ القيِّم في بدائع الفوائد ولم يتعقَّبه أو ينفيه[2].

2- قال القاضي عياض في الشفا: ((ولا خلافَ أنَّ موضعَ قبرِه ﷺ أفضلُ بقاع الأرض))[3].

وعلَّق عليْه شارحُه الشيخ الخفاجيُّ فقال: ((بل أفضلُ منَ السَّمواتِ والعرشِ والكعبةِ؛ كما نقلَه السُّبكيُّ رحمَه الله)).

3- قال الشَّيخ عليش المالكي- وهُو من أكابر فقهاءِ المذهب المالكيِّ- في كتابه منح

---

(1) أما أثر علي رضي الله عنه؛ فأخرجه الطبري في تفسيره (5/ 540) من طريق سيف بن عمر عن أبي روق عن أبي أيوب عن عليٍّ رضي الله عنه بنحوه موقوفًا.

وأما أثرُ ابن عباس رضي الله عنهما؛ فأخرجه الطبرانيُّ في الكبير (22/12) من طريق علي بن عبدالعزيز ثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بنحوه موقوفًا.

وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (207/7): ((رواه الطبرانيُّ ورجاله رجالُ الصحيح)).

(2) بدائع الفوائد (655/3).

(3) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (91/2).

الجليلِ شرح مختصر خليل: ((ومحلُّ الخلاف في غير الموضع الذي ضمَّه ﷺ فإنَّه أفضلُ من الكعبة والسَّماء والعرش والكرسيِّ واللَّوحِ والقلمِ والبيتِ المعمورِ))[1].

فهذِه أقوالُ و إجماعاتُ علماء المسلمين، ولِمَ لا وقد حَوتْ جسدَ خيرِ خَلْق الله أجمعين و إمام المرسلينَ حبيبِ ربِّ العالمين أبي القاسم محمد بن عبدالله، القريبِ المقرَّبِ من مَولاه الَّذي اصطفاهُ واجتباهُ وأدناهُ.

فلقبره الشَّريفِ من الخصوصيَّةِ والبركةِ وتنزُّلِ رحماتِ ربِّ الأرضِ والسَّمواتِ وهُبوطِ الملائكةِ عليه ما لا يعلمُه إلَّا مانحُ هذه البركةِ والخصوصيَّةِ سبحانَه وتعالىٰ، ولساكنه عندَ الله من المحبَّةِ والاصطفاءِ ما تقصُر العقولُ عن إدراكِه والألسنُ عن القولِ فيه، والأقلامُ عن التَّعبيرِ عنه.

وكما قُلنا، فإنَّ الأمة أجمعتْ علىٰ أن الأنبياءَ والمرسلين خيرٌ من الملائكة، ونبيُّنا هُو إمامُ المرسلين والأنبياء فهو صفوةُ الصفوة من الخلائقِ كلِّها، قال الشاعر:

ونــبيُّنا خـيرُ الخـلائقِ أحـمدٌ ذُو الجاه عند الله والسُّلطانِ
لَا خَلْقَ أَفْضَلُ مِنْه لا بَشَـرٌ ولَا مَلَكٌ وَلَا كَوْنٌ مِنَ الأَكْوانِ
والـرُّسْلُ بَـعْدَ مُحمَّدٍ دَرَجَـاتُهُمْ ثُمَّ المَلَائِكُ عابِدُو الرَّحْــمنِ

وفي مُقابل هذه الصِّفات والمكانةِ العظيمة والمقامِ الرفيعِ للنَّبيِّ العظيم كان دائمًا مشغولًا بأمرِ أمَّته يتمنىٰ لهم كلَّ خير في الدنيا والآخرة، فكان أشفق نبيٍّ بأمَّته، وكل فضلٍ ومنزلةٍ للأمة الإسلامية فمن نعمة الله عز وجل علينا بإرسال خير خلقِه إلينا، وتمثَّل ذلك في صور كثيرة متعددة، وهو ما سنذكر بعضه في المحور التالي. ◆

---

(1) منح الجليل (5/481).

فضل رسول الله ﷺ علىٰ أُمَّته وشفقتُه بهم

قام الحبيب النبيُّ ﷺ بالدعوة إلىٰ توحيدِ الله تعالىٰ مُتعرِّضًا لأذىٰ شديدٍ من المشركينَ، وكان يُمكنُه ﷺ أن يدعوَ علىٰ الكافرين كما دعا الأنبياءُ من قبله علىٰ أقوامِهم فهلكوا، فقد وردَ في الصَّحيحين أن رسول الله ﷺ رفض أن يأمر ملَك الجبال حين آذاه الكفَّارُ أن يطبقَ عليهم جبالُ مكَّةَ، وقال: ((بل أرجُو أنْ يُخرجَ اللهُ من أصلابهم مَنْ يَعبدُ اللهَ وحدَه))(1). كما رفضَ ﷺ ما أغراهُ به المشركونَ من مُلكٍ وجاهٍ ومالٍ علىٰ أن يترك أمرَ الدَّعوة إلىٰ الإسلام فأبىٰ ﷺ قائلًا: ((والله يا عمَّاه لو وَضعُوا الشَّمسَ في يميني والقمرَ في يسارِي علىٰ أنْ أتركَ هذا الأمرَ ما تركتُه حتَّىٰ يُظهرَه اللهُ أو أَهلِكَ دُونه))(2).

إن جَميعَ ما يتمتَّع به المسلمونَ من معرفةٍ لله وتوحيدِه وعبادته إنَّما جاء عن طريق رسول الله ﷺ وما يُثابونَ به في الآخرة من الثَّوابِ العظيم أيضًا عن طريقِه ﷺ.

وقد كان المُصطفىٰ ﷺ حريصًا علىٰ التيسير والتَّخفيف علىٰ أمَّته في سائر الأحكام؛ فِمنْ ذلك مثلًا تخفيفُ الصلاةِ في ليلة الإسراء والمعراجِ فقد فُرضتِ الصلاة خمسينَ صلاةً في اليوم والليلة، فما زال رسولُ الله ﷺ يُراجعُ ربَّه سبحانَه وتعالىٰ ويسألُه

---

(1) متَّفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرىٰ غفر له ما تقدم من ذنبه (3231)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لَقِيَ النبي ﷺ من أذىٰ المشركين والمنافقينَ (1795) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(2) أخرجه ابن هشام في سيرته (1/ 266)، والطبري في تاريخه (2/ 326)، والبيهقي في دلائل النبوة (2/ 187) من طريق ابن إسحاق قال: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس به منقطعًا.

ورُوِيَ موصولًا بنحوه أخرجه البزَّارُ في مسنده (2170)، وأبو يعلىٰ في مسنده (6804)، والطَّبرانيُّ في الكبير (191/17)، والحاكم في مستدركه (577/3)، من طريق طلحة بن يحيىٰ عن موسىٰ بن طلحة أخبرني عقيل بن أبي طالب، وفيه: فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلىٰ السَّماء، فقال: ((ما ترونَ هذه الشَّمس؟)) قالوا: نعم. قال: ((ما أنا بأقدرَ علىٰ أن أدعَ ذلك منكم علىٰ أن تُشعلوا منها شعلةً)). وفي المطبوع من المستدرك: ((تشغلوا منها شغلة)).

وسكت عنه الحاكم، وحذفه الذهبي من التلخيص. وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (17/ 251).

التَّخفيف رحمةً بأمته وشفقةً بهم، حتىٰ خفَّفها الله إلىٰ خمس صلواتٍ في اليوم والليلة[1]، فتخيل أخي الكريم مدىٰ المشقة والشِّدة التي كانت ستلحقنا لولا رسول الله ﷺ.

ومن فضله ﷺ علىٰ هذه الأمة أنَّ وجوده عصمةٌ للأمَّة من العذاب، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33].

ومن مظاهرِ رحمتِه وشفقتِه وحرصِه علىٰ أمرِ أمَّتِه أنْ أخَّرَ دعوتَه فلم يدعُ بها في دار الدنيا، وإنَّما أجَّل دعوتَه ليوم القيامةِ شفاعةً لأُمته، ففي الصَّحيحيْنِ من حديثِ أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ يدعو بها، وأريد أن أختبئَ دعوتي شفاعةً لأمَّتي في الآخرة»[2].

ويوم القيامة وحين الحساب يقول الله سبحانه وتعالىٰ لنبيِّه حين يخر ساجدًا لله: «يا محمَّدُ ارفعْ رأسَكَ وقُلْ يُسمعْ لكَ، وسلْ تُعطَ، واشفعْ تُشفَّعْ» فماذا يقول نبينا الكريم؟ يقول: «أُمَّتي أُمَّتي»[3].

قال الله سبحانه وتعالىٰ عن نبيِّه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ فكان ﷺ ليِّنَ الجانب مع أمته، عطوفًا عليها، رحيمًا بها، وقال في حقِّه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] فوصفَه ربُّه سبحانَه أنه يَعِزُّ عليه الشيء الذي يشقُّ علىٰ أمَّته ووصفَه بالحرصِ عليهم وعلىٰ هدايتِهم ووصول

---

(1) ورَد ذلك في حديث الإسراءِ الطويل المتَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج (3887)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السَّموات وفرض الصَّلوات (162) من حديثِ أنسٍ ﷺ.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الدعوات، باب لكل نبيٍّ دعوة (6304)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمَّتِه (198).

(3) جزء من حديث الشَّفاعة الطويل المتفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب التوحيد، باب كلام الرب عزَّ وجلَّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرِهم (7510)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها (193) من حديث أنس ﷺ.

النَّفع الدنيويِّ والأخرويِّ إليهم، وأنه فوق ذلك كله بهم رءوفٌ رحيمٌ.

بُعثَ ﷺ إلىٰ أمَّته بالحنيفيَّة السمحاء التي لا تشدُّدَ فيها، بل كان يقول ﷺ: ((إذَا أمرتُكم بشيءٍ فأْتوا منه ما استطعتُم وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فانتهوا))[1]. فكان دِينه يُسرًا كُلُّه لا شِدَّةَ فيه.

كان ﷺ يترك الشيء من العبادةِ مخافةَ أن تُفرضَ علىٰ أمَّته رحمةً وشفقةً عليهم، وينهىٰ عن التشددِ في العبادة وعن التشبه به في صوم الوِصال وغير ذلك رحمةً بأمَّته، وكان كما أخبرتْ عنه أمُّ المؤمنين عائشة ﵂: ((أنَّه ما خُيِّر بين أمرينِ إلَّا اختارَ أيسرَهما))[2].

كان ﷺ يُشفقُ علىٰ المحتاج من أمَّته ويجمع له المال والطعام؛ كما في صحيح مسلم من حديث جرير بن عبدالله ﵁ قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صَدرِ النَّهار، فجاءه قومٌ حفاة عراة مجتابي النِّمار أو العباء، مُتقلِّدي السيوف، عامَّتهم من مُضر بل كلهم من مضر، فتمعَّر- أي تغير- وجُه رسولِ الله ﷺ لما رأىٰ بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بِلالًا فأذَّن وأقام، فصلَّىٰ ثم خطب فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلىٰ آخر الآية: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1] والآية التي في الحشر: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [الحشر: 18] ((تصدق رجلٌ من دينارِه من دِرهمه من ثوبه من صاع بُرِّه من صاع تمرِه)) حتىٰ قال: ((ولو بشقِّ تمرةٍ)) قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصرَّة كادت كفُّه تعجز عنها بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناسُ حتىٰ رأيتُ كومين من طعامٍ وثيابٍ، حتىٰ رأيتُ وجه رسولِ الله ﷺ يتهلَّل كأنَّه مذهَبة[3].

---

(1) متَّفق عليه؛ أخرجَه البخاريُّ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنة، باب الاقتداءِ بسنن رسول الله ﷺ (7288)، ومسلمٌ في كتاب الحج، باب فرض الحجِّ مرَّةً في العمر (1337) من حديثِ أبي هريرة ﵁.

(2) متَّفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (3560)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختيار من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماتِه (2327).

(3) أخرجه مسلمٌ في كتاب الزكاة، باب الحثِّ علىٰ الصدقةِ ولو بشقِّ تمرة أو كلمة طيِّبةٍ (1017).

وكان ﷺ يَعملُ علىٰ سدِّ حاجاتِ المحتاجين وقضاء دَين المدينين؛ كما رَوىٰ البخاريُّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((ما من مؤمنٍ إلَّا وأنا أولىٰ به في الدُّنيا والآخرة، اقرءوا إنْ شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيُّما مؤمنٍ مات وترك مالًا فليرثه عصبتُه مَنْ كانوا، ومَنْ ترك دَينًا أو ضياعًا فليأْتني فأنا مولاه))[1]. فهذا الرسولُ العطوف ﷺ يتكفَّلُ بأداء الدَّين عمَّن مات مديونًا أو ترك ضياعًا أي أولادًا فقراء فهُو مولاهم ﷺ.

وكان يحثُّ ويرشدُ من يؤمُّ النَّاس علىٰ التَّخفيفِ في الصَّلوات ففي الصَّحيحيْنِ من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((إذا صَلَّىٰ أحدُكم للنَّاسِ فليخفِّف؛ فإنَّ منهم الضَّعيفَ والسَّقيمَ والكبيرَ))[2].

وليس أدلَّ علىٰ خوفِ الحبيب المصطفىٰ ﷺ وشفقتِه علىٰ أمَّته من الحديثِ الَّذي رواه مُسلمٌ في صحيحه عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنَّ النبيَّ ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: 36] وقولَ عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118] فرفع يديه وقال: ((اللهم أُمَّتي أُمَّتي)) وبكىٰ، فقال الله عزَّ وجل: ((يا جبريلُ اذهب إلىٰ محمَّد- وربُّك أعلم- فسَلْه ما يبكيكَ؟ فأتاه جبريلُ عليه السَّلام فسأله فأخبرَه رسول الله ﷺ بما قال- وهو أعلم- فقال الله: يا جبريلُ اذهب إلىٰ محمَّد فقُل: إنا سنرضيكَ في أمَّتِك ولا نسوءكَ))[3].

(1) أخرجه البخاريُّ في كتاب الاستقراضِ وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصَّلاة علىٰ مَنْ ترك دَينًا (2399).

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب إذا صلىٰ لنفسه فليطوِّل ما شاء (703)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب أمر الأئمَّة بتخفيف الصلاة في تمام (467).

(3) أخرجه مسلمٌ في كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمَّته وبكائه شفقةً عليهم (202).

وشَملتْ رحمتُه ﷺ الحيوانَ بل والجماد، فحين أخذَ بعضُ الصَّحابة أفراخَ الطَّير الصِّغار وجاءتْ أمُّهم غضبَ رسول الله ﷺ وقال: ((مَن فجعَ هذِه بولدِها؟ ردُّوا ولدَها إليها))[1].

وذلك الجملُ الَّذي جاء إلىٰ النبيِّ ﷺ واشتكىٰ إليه فأخبر الصَّحابة أنَّه يشتكِي إليه كثرةَ العمل وقلَّةَ الزَّاد وأوصاهم به[2].

وحين صُنعَ له المنبر ﷺ وترك الجذعَ من النَّخل الذي كان يخطبُ عليه حنَّ الجذعُ إليه ﷺ حتَّىٰ سَمِعَ صوتَ حنينِه الصَّحابةُ في المسجد جميعًا، فنزل النبيُّ ﷺ فاعتنقه حتَّىٰ سكنَ رحمةً به[3].

---

(1) أخرجه أبو داودَ في كتاب الجهاد، باب في كراهية حَرقِ العدوِّ بالنَّارِ (2675)، والطيالسي في مسنده (334)، والحاكم في مستدركه (4/ 239) من طريق الحسن بن سعد عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه ﷺ به مرفوعًا.

وقال الحاكم: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)). ووافقه الذهبي. وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (ص 455).

(2) وَرَدَ ذلك في حديث أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب ما يؤمرُ به من القيام علىٰ الدواب والبهائم (2549)، وابنُ أبي شيبة في مصنفه (32415)، وأحمد في مسنده (1/ 204)، وأبو يعلىٰ في مسنده (6787)، وأبو عوانة في مستخرجه (497)، والطبراني في الكبير (13/ 78)، والحاكم في مستدركه (2/ 99)، والبيهقي في الكبرىٰ (8/ 13) من طريق مهدي بن ميمون، عن محمد بن عبدالله بن أبي يعقوب، عن الحسن بن سعد، عن عبدالله بن جعفر ﷺ: أرْدفَني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم فأسرَّ إلي حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسولُ الله ﷺ لحاجته هدفًا أو حائش نخل، قال: فدخل حائطًا لرجلٍ من الأنصار فإذا جمل، فلما رأىٰ النبيَّ ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النَّبيُّ ﷺ فمسح ذفراه فسكت، فقالَ: ((مَن رَبُّ هذا الجملِ، لمن هذا الجمل؟)) فجاء فتًىٰ من الأنصار فقال: لي يا رسولَ الله. فقال: ((أفلا تتَّقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنَّه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتدئبه)).

وقال الحاكمُ: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)). ووافقه الذهبي.

وأول الحديثِ أخرجه مسلمٌ في كتاب الحيض، باب ما يستتر به لقضاء الحاجة (342) من طريق محمد بن أسماء بهذا الإسناد دون ذكرِ قِصَّة البعيرِ.

(3) وردَ ذلك في حديث أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلامِ (3583) من حديثِ ابن عمرَ ﷺ.

وبالخصائصِ التي تحدَّثنا عن نبذةٍ منها وما ذكرناه من فضله ﷺ ورحمتِه بهذه الأمة يتبيَّنُ لنا عظم مقامِ رسول الله ﷺ وقدره عند ربِّه، ونخلُصُ بهذا إلىٰ أنه ﷺ أشرفُ خَلق الله تعالىٰ وأقربهم إليه.

وفي مُقابل هذه الصِّفات والمكانةِ العظيمة والمقامِ الرفيعِ للنَّبيِّ العظيم، وكيف كانت شفقته بأمته ﷺ فلابدَّ أن نجدَ نماذجَ عظيمةً من الحبِّ والتَّعظيمِ من الصَّحابةِ والسَّلف لرسولِ الله ﷺ، وصُورًا من تفاعُلِ المخلوقاتِ مع هذا الحبيبِ عليه الصَّلاة والسَّلام، وهُو ما سنتحدَّثُ عنه في المحور التالي.

نماذجُ الحبِّ والتَّوقير من الصَّحابة والسَّلف مع الحبيبِ الأعظم ﷺ

إنَّ المتتبع لحالِ صحابة رسولِ الله ﷺ مع النَّبيِّ الكريم وسلوكِهم وتعاملِهم معه يجدُ نفسَه في حالةٍ من الانبهارِ والإعجابِ الشديدينِ بهؤلاءِ الصَّفوةِ من الخَلق بعد الأنبياءِ والمرسلينَ، الذين اتَّصلوا بالنُّور المحمديِّ فتغيَّرتْ حياتُهم جملةً وتَفصيلًا، فكان سلوكُهم تجاه سيِّدهم ومعلِّمِهم ونبيِّهم محمدٍ ﷺ من الأمورِ التي ينبغِي لكل مُسلمٍ مؤمنٍ باللهِ ورسولِه أن يتَّخذَه قدوةً ونبراسًا وهاديًا في كيفية تعاملِه مع رسولِ الله، فهيا أخي الكريم ننظرُ ونَرىٰ بعضَ النماذج من سلوكِ الصَّحابة الكرام مع النَّبيِّ ﷺ وصُورًا من حبِّهم و إجلالهم له ﷺ.

ولندع رجلًا كانَ من المشركينَ يَصِفُ لنا موقفًا من الصَّحابةِ مع رسولِ الله ﷺ وورِدَ ذلك في حديثٍ طويلٍ رواهُ البخاريُّ في صحيحِه؛ ففي صُلح الحديبية جاء عروةُ ابن مسعود من قِبلِ قريش ليكلِّمَ النبيَّ ﷺ في أمرِ الصُّلح والرجوع عن مكة، فوصفَ حالَ صحابة رسول الله معه ﷺ فقالَ: ثُمَّ إنَّ عروةَ جعلَ يرمُقُ أصحابَ النبيِّ ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخَّم رسولُ الله ﷺ نُخامةً إلَّا وقعتْ في كفِّ رجلٍ

منهم فدلَكَ بها وجهَه وجِلدَه، وإذا أمرهم ابتدرُوا أمرَه، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلونَ علىٰ وضوئِه، وإذا تكلَّم خفضُوا أصواتَهم عندَه، وما يُحدُّون النَّظر إليه تَعظيمًا له، فرجع عروةُ إلىٰ قريش فقال: أي قوم، والله لقد وفدتُ علىٰ الملوكِ ووفدتُ علىٰ قيصرَ وكسرىٰ والنَّجاشيِّ، والله إنْ رأيت ملكًا قطُّ يعظِّمه أصحابُه ما يعظِّمُ أصحابُ محمدٍ محمدًا[(1)].

وهذا أحدُ صحابة الرَّسول ﷺ يشكو إلىٰ رسولِ الله أمرًا يؤرِّقه ويحزنُه، فهل كانت مشكلتُه الفقرَ أو غيرَه من الأمورِ التي تحزن الإنسان؟ فسنرىٰ؛ فقد أخرج الطبرانيُّ عن عائشةَ ﵂ قالتْ: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّكَ لأحبُّ إليَّ من نفسي، وإنَّكَ لأحبُّ إليَّ من ولدي، وإني لأكونُ في البيت فأذكركَ فما أصبرُ حتَّىٰ آتيَ فأنظرَ إليكَ، وإذا ذكرتُ موتي وموتَك عرفتُ أنَّكَ إذا دخلتَ الجنَّةَ رُفعتَ مع النَّبيِّينَ، وإنِّي إذا دخلت الجنةَ خشيتُ ألا أراك. فلم يردَّ عليه النبي ﷺ شيئًا حتَّىٰ نزل جبريلُ عليه السَّلام بهذه الآيةِ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69][(2)].

وهذا أنسُ بن مالك ﵁ خادمُ رسول الله ﷺ يصفُ لنا مشهدًا آخرَ من مشاهدِ المحبَّة والإجلالِ من الصَّحابة لرسولهم الكريم ﷺ ففي صحيحِ مسلمٍ عن أنسٍ قال: ((لقد

(1) جزء من حديث أخرجه البخاريُّ في كتاب الشروط، باب الشُّروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروطِ (2731) من حديث المسورِ بن مخرمة ومَرْوان بن الحكم.

(2) أخرجَه الطبراني في الصَّغير (52)، والأوسط (477) من طريق عبدالله بن عمران العابدي حدثنا فضيل ابن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة ﵂ به.

وقال الطَّبرانيُّ: ((تفرَّدَ به عبدالله بن عمران)).

وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (63/7): ((رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجالُه رجال الصحيح، غيرَ عبدالله بن عمران العابدي، وهو ثقةٌ)).

رأيتُ رسولَ الله ﷺ والحلَّاق يحلقه، وأطافَ به أصحابُه، فما يُريدونَ أن تقعَ شَعرةٌ إلَّا في يد رجلٍ))[1].

وفي الصَّحيحيْنِ من حديثِ أبي جُحيفةَ قال: ((أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فخرج بلالٌ بوضوئِه فرأيتُ الناسَ يَبتدرونَ ذلك الوضوءَ فَمَنْ أصابَ منه شيئًا تمسَّحَ به، ومَن لم يصب منه أخذَ من بللِ يد صاحبِه، وخرجَ النَّبيُّ ﷺ وقامَ النَّاسُ فجعلوا يأخذون يدَه ويمسحونَ بها وجُوههم، فأخذتُ يدَه فوضعتُها على وجهي فإذا هي أبردُ من الثَّلج وأطيبُ مِنْ ريحِ المسكِ))[2].

وعقب غزوةِ أُحد يصفُ لنا أنس بن مالك رضي الله عنه صورةً عظيمةً من صور محبَّة الصَّحابةِ للرَّسول الكريم ﷺ فيقول: ((لمَّا كانَ يوم أُحد حاص النَّاس حَيْصَةَ وقالوا: قُتل محمَّدٌ، حتَّى كثُرت الصَّوارخُ في نواحِي المدينة، قال: فخرَجَتِ امرأةٌ من الأنصارِ فاستُقبلت بأخيها وأبيها وزوجها وابنِها لا أدري بأيِّهم استقبلت أولًا، فلمَّا مرَّتْ على آخرهم، قالت: مَنْ هذا، قالوا: هذا أخوكِ وأبوكِ وزوجُك وابنُك، قالتْ: فما فعلَ رسولُ الله، فيقولون: أمامَك حتَّى ذهبت إلى رسولِ الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه، ثمَّ جعلت تقول: بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ الله، لا أُبالي إذ سَلِمْتَ مَن عَطِبَ))[3].

فكان لسانُ حال صحابة رسول الله ﷺ في محبَّتِهم لرسولهم الكريم يقولُ:

هُو المقدَّمُ في نفسِي على نفسِي ... وأهلِ بيتي وأحبابي وخِلَّاني

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب قُرب النَّبيِّ عليه السلام من النَّاس وتبركهم به (2325).

(2) تقدم تخريجه.

(3) أخرجه الطبرانيُّ في الأوسط (7499)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (2/ 71) من طريقِ محمد بن شعيب قال: ثنا عبدالرحمن بن سلمة قال: ثنا أبو زهير عبدالرحمن بن مغراء قال: ثنا المفضل بن فضالة عن ثابت عن أنسٍ رضي الله عنه به.

وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (165/6): ((رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه محمد بن شعيب ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات)).

وانظر أخي الكريم إلىٰ سيِّدنا زيد بن الدَّثِنة، وقد أسرَه المشركون، وحينَ قدَّموه ليقتلُوه قال له أبو سفيان بن حرب: يا زيدُ، أَيَسُرُّكَ أنَّ محمدًا عندنا نضربُ عنقَه وأنَّك في أهلك، فقال سيدنا زيد ﵁: لا والله ما يسرُّني أنِّي في أهلي وأنَّ محمدًا ﷺ في مكانِه الذي هُو فيه تُصيبه شوكةٌ تؤذيه[1].

وهذه صورةٌ من صور الإنفاق وبذلِ المال في سبيلِ الله وسبيلِ رسوله ﷺ، فهذا الصِّديقُ الأكبر لأمَّة الإسلام أبو بكر الصِّديقِ والفاروق عمر يبذلانِ من المال الكثير امتثالًا لأمرِ النَّبيِّ ﷺ فقد رَوَىٰ أبو داودَ في سُننه عن عمرَ بنِ الخطَّاب ﵁ قال: أمرَنا رسولُ الله ﷺ يومًا أن نتصدق فوافقَ ذلك مالًا عندي فقلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكرٍ- إنْ سبقتُه يومًا- فجئتُ بنصف مالي، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلكَ؟» قلتُ: مثلَه. قال وأتىٰ أبُو بكر ﵁ بكلِّ ما عنده، فقال له رسولُ الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلكَ؟» قال: أبقيتُ لهم الله ورسولَه، قلت: لا أسابقُك إلىٰ شيءٍ أبدًا[2].

وهذا سيدنا سعد بن الرَّبيع يجودُ بنفسِه في غزوة أُحد وبه سبعونَ ضربةً ما بين طعنةٍ برمحٍ ورميةٍ بسهم وضربةٍ بسيف، يقولُ لزيد بن ثابت: قُل لرسول الله إنِّي أجدُ ريحَ الجنة، وقل لقومي الأنصار لا عُذرَ لكم عند الله أن يخلص لرسولِ الله وفيكم عَينٌ تطرف. وفاضت رُوحُه من وقتِها[3].

---

(1) يشيرُ إلىٰ ما أخرجه ابنُ سعدٍ في الطَّبقات الكبرىٰ (403/4) من طريق عبدالله بن إدريس قال: حدَّثنا محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة به مُرسلًا.

(2) أخرجه أبو داود في كتابِ الزَّكاة، باب الرجل يُخرجُ من ماله (1678)، والترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر بن الصديق ﵁ (3675) من طريقِ الفضل بن دكين حدَّثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعتُ عمر بن الخطاب ﵁ يقول به.

وقال الترمذيُّ: «حسنٌ صحيحٌ».

(3) جزءٌ من حديث أخرجه الحاكم في مستدركه (3/ 201)، والبيهقيُّ في دلائل النُّبوة (3/ 248) من طريق محمد بن موسىٰ البصري ثنا أبو صالح عبدالرحمن بن عبدالله الطويل ثنا معن بن عيسىٰ عن مخرمة بن بكير عن أبيه عن أبي حازم عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه ﵁ به.

وعندما احتضرَ سيدُنا بلالٌ ﷺ قالت امرأتُه: واحُزناه، فقال: ((بل واطرباه، غدًا نلقَى الأحبَّةَ محمدًا وصحبَه))[1]. فمزجَ مرارة الموتِ بحلاوةِ الشَّوق إليْه ﷺ.

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ((إنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه لَمَّا حضرَته الوفاةُ قال: أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم الإثنين، قال: فإن مِتُّ من ليلتِي فلا تنتظروا بي الغد، فإنَّ أحبَّ الأيَّام واللَّيالي إليَّ أقربُها من رسول الله ﷺ))[2].

وهذه صورةٌ من صور تبركهم وشدَّة تعلُّقِهم برسول الله ﷺ؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: دخلَ علينا النبيُّ ﷺ فقالَ عندنا- أي نام نومةَ القيلولة- فعَرِقَ وجاءتْ أمِّي بقارورةٍ فجعلت تَسلُتُ- أي تمسح- العَرَقَ فيها فاستيقظَ فقال: ((يا أمَّ سُليْمٍ، ما هَذا الذي تَصنعينَ؟)) قالت: هذا عَرَقُك نجعله في طِيبنا، وهو من أطيبِ الطِّيب[3].

فهذه الصُّورُ من المحبَّة والحرصِ والإيثارِ منَ الصحابةِ لرسولِ الله ﷺ يجبُ أن تكونَ قُدوةً لنا في تعامِلِنا مع رسولِ الله نَقتدِي بها؛ عسىٰ أن ننالَ محبَّته ﷺ، فلم يكن حبُّ الصحابة لرسولِ الله قولًا فقط ولكنَّه كان أفعالًا أيضًا.

فهذا سعدُ بن معاذ رضي الله عنه يقولُ للنَّبي ﷺ: ((يا رسولَ الله، هذه أموالُنا بين يديك، خُذْ منها ما شئتَ ودَعْ منها ما شئتَ، وما أخذتَه كان أحبَّ إلينا مِمَّا تركتَه))[4].

وقال الحاكمُ: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)). ووافقه الذَّهبيُّ.

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (294) من طريق أبي الحسن قال: حدثنا أبو مسهر قال: حدَّثنا سعيد بن عبدالعزيز بنحوِه.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (1/ 8) من طريق محمد بن ميسر، وأبو بكر المروزي في مسند أبي بكر (41) من طريق أحمد بن علي قال: حدَّثنا أحمد بن منيع كلاهُما عن أبي سعد الصَّاغاني حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشةَ رضي الله عنها به.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (3/113): ((رواه أحمد وفيه شيخ أحمد: محمد بن محمد بن ميسر أبو سعد ضعفه جماعة كثيرون، وقال أحمد: صدوق)).

(3) أخرجه مسلمٌ في كتاب الفضائل، باب طِيبِ عرق النبي ﷺ والتبرك به (2331).

(4) جزء من حديث أخرجه البيهقي في دلائل النُّبوةِ (3/ 107) من طريق إبراهيم بن المنذر الحزامي قال:

وفي رِوايةٍ أُخرىٰ أنه رضي الله عنه قال للنَّبيِّ ﷺ: «لو استعرضْتَ بنا البحر لَخُضْناه معكَ ما تخلَّف منَّا أحدٌ، إنَّا والله لصبر في الحرب صدق عندَ اللِّقاء، فامضِ بنا حيث أمركَ الله»[1].

وقد سُئِلَ سيدُنا عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: كيفَ كان حبُّكم لرسولِ الله ﷺ؟ قال: كانَ والله أحبَّ إلينا من أموالِنا وأولادِنا وآبائِنا وأمَّهاتِنا ومن الماءِ البارد علىٰ الظَّمأ[2].

وهذا ثوبانُ مولَىٰ رسول الله ﷺ كان شديدَ الحبِّ لرسولِ الله، قليلَ الصَّبر عنه، فأتاه يومًا وقد تغيَّر لونُه، يعرفُ الحزنَ في وجهه فقال له رسول الله ﷺ: «ما غيَّرَ لونَكَ؟» فقال: يا رسولَ الله، ما بي مرضٌ ولا وَجعٌ غيرَ أنِّي إذا لم أَرَكَ استوحشتُ وحشةً شديدةً حتىٰ ألقاكَ[3].

ولا ننسىٰ الغلامَيْنِ من الأنصار في غزوةِ بدر حيثُ كانا يبحثانِ عن أبي جهلٍ حتىٰ يقتلاه وقالا: «بَلَغَنا أنَّه يَسُبُّ رسولَ الله» فكان أنْ بَحثا عنه وقتلَاه في بدرٍ[4]. فكان الدَّافعُ لحرص الغُلامينِ علىٰ قتل أبي جهلٍ لعنه الله حبُّهما لرسولِ الله والغيرةُ علىٰ جنابه الشَّريف والنُّصرةُ له والانتقامُ ممَّنْ يتنقَّصُه ﷺ.

وكان الصَّحابة لشدَّة ولهِهم وتعلُّقِهمْ بالحبيبِ الأعظم يتحدَّثونَ عنه فيذكرونَ صفاتَه الخَلْقيةَ ويتكلمونَ عن أخلاقِه العظيمةِ، فها هي السَّيدةُ أم مَعبد تصفُ النَّبيَّ ﷺ

أخبرنا محمد بن فليح عن موسىٰ بن عقبة مُنقطعًا.

(1) جزءٌ من حديث أخرجه مسلمٌ بنحوه في كتاب الجهاد والسِّير، باب غزوة بدر (1779) من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه.

(2) ذكره القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (2/ 22) بدون إسناد.

(3) ذكرَه الواحدي في أسباب النزول (ص 110) وعزاه للكلبيِّ بدون إسنادٍ.

(4) وردَ ذلكَ في حديثٍ متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب فرض الخمس، باب مَنْ لم يخمس الأخماس ومَنْ قتل قتيلًا فله سلبُه من غير أن يخمس وحكمِ الإمامِ فيه (3141)، ومسلمٌ في كتاب الجهاد والسير، باب استحقاقِ القاتل سلب القتيل (1752) من حديثِ عبدالرَّحمن بن عوف رضي الله عنه.

فتقول: ((أجملُ النَّاسِ من بعيدٍ، وأحلاه وأحسنُه من قريب))[1].

وها هو ابن عمه وصهره سيِّدُنا علي ﷺ يقول فيه: ((مَنْ رآه بَديهةً هابَه، ومَن خالطَه معرفةً أحبَّه، ألينُ الناس قلبًا وأكثرُهم عطفًا ﷺ، ليس بالفظِّ ولا الغليظِ، رحيمٌ شفوقٌ لينُ الأخلاقِ))[2].

والصَّحابيُّ كعب بن مالك ﷺ يتحدَّثُ عن رسول الله ﷺ فيقول: ((إذا سُرَّ استنارَ وجهُه حتىٰ كأنَّه قطعةُ قمرٍ، وكنَّا نعرفُ ذلك منه))[3].

وانظرْ إلىٰ أبي بكرٍ الصِّديق وهو يقول: ((كنَّا في الهجرةِ وأنا عطشان فجئتُ بمَذْقةِ لبنٍ فناولتُها للرَّسولِ ﷺ وقلتُ له: اشربْ يا رسول الله، يقول أبو بكر: فشربَ رسولُ الله ﷺ حتَّىٰ رضيتُ!))[4]. فلشِدَّةِ الحبِّ والاتِّصالِ به صارَ ارتواءُ رسولِ الله وشبعُه هو ارتواءً لسيدنا أبي بكرٍ ﷺ وذلك مِنْ شدَّة المودَّة والحبِّ.

---

(1) جزء من حديث طويل أخرجه ابن سعد في الطَّبقاتِ الكبرىٰ (1/ 197- 198) من طريق عبدالملك بن وهب المذحجي عن الحر بن الصياح عن أبي معبد الخزاعيِّ به.

وله شاهدٌ من حديث حبيش بن خالد ﷺ؛ أخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (4/ 48)، والحاكمُ في مستدركه (3/ 9)، والبيهقيُّ في دلائل النبوة (1/ 276) من طريق حزام بن هشام بن خالد عن أبيه هشام بن حبيش عن أبيه حبيش بن خالد به.

وقال الحاكم: ((إسناد صحيح عال للعرب الأعاربة)). وصححه الذهبي.

(2) جزءٌ من حديثٍ أخرجه الترمذيُّ في كتاب المناقب، باب ما جاءَ في صفة النبيِّ ﷺ (3638)، وابنُ أبي شيبة في مصنَّفه (32465)، والبيهقيُّ في دلائل النبوة (1/ 269) من طريق عيسىٰ بن يونس عن عمر مولىٰ غفرة قال: ثنا إبراهيم بن محمد من ولد علي قال: كان عليٌّ إذا نعت رسول الله ﷺ قال... به.

وقال الترمذي: ((حسنٌ غريبٌ ليس إسناده بمتَّصل)).

(3) جزءٌ من حديث متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب المناقب، باب صفة النَّبيِّ ﷺ (3556)، ومسلم في كتاب التوبة، باب توبة كعب بن مالك وصاحبيْه (2769).

(4) جزء من حديثٍ متَّفقٍ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب أصحاب النَّبيِّ ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (3652)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب جواز شرب اللبن (2009).

وهذا أحدُ الصحابة كما عند مسلمٍ في صحيحِه من روايةِ ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ رأىٰ خاتمًا من ذهبٍ في يد رجل فنزعَه فطرحَه وقال: ((يَعمدُ أحدُكم إلىٰ جَمرةٍ من نارٍ فيجعلها في يدِه)) فقيل للرجل بعدَما ذهبَ رسولُ الله ﷺ: خُذْ خاتمَك فانتفعْ به، فقال: لا والله لا آخذُه أبدًا وقد طرحَه رسولُ الله ﷺ(1).

وما رُوِيَ عن أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه أنَّه قال: ((والَّذي نفسِي بيدِه، لقرابةُ رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصلَ من قرابتِي))(2).

وعن سيِّدنا عمرِو بن العاص رضي الله عنه قال: ((وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنتُ أُطيقُ أن أملأَ عيني منه إجلالًا له، ولو سُئلتُ أن أصفَه ما أطقتُ؛ لأنِّي لم أكن أملأُ عيني منه))(3).

وكان الإمامُ مالكٌ رحمه الله إذا ذكرَ النَّبيَّ ﷺ يتغيَّرُ لونه وينحني حتَّىٰ يصعب ذلك علىٰ جلسائِه، ولا يحدِّث بحديث رسول الله إلا وهُو علىٰ طهارةٍ.

وهذا عبدُالرحمن بن مهدي من السَّلفِ إذا قرأ حديثَ رسولِ الله ﷺ أمرَ الموجودين في المجلسِ بالسكوت وقالَ: ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ويرىٰ أنَّ من الأدب عدمَ رفعِ الصوتِ عند قراءةِ حديثِه ﷺ، وكأنَّه هُو الَّذي يتكلَّم.

والتابعيُّ الجليلُ سعيد بن المسيِّب كان إذا سُئل عن حديثِ رسول الله وهُو مضطجع يجلسُ ويُحدِّثُ، ويقول: إنِّي كرهتُ أن أحدثكَ عن رسولِ الله وأنا مُضطجع.

---

(1) أخرجَه مسلمٌ في كتاب اللباسِ والزِّينة، باب تحريم خاتم الذهب علىٰ الرِّجال (2090).

(2) جزء من حديث متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي ﷺ (3711)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: ((لا نورث ما تركنا فهو صدقة)) (1759).

(3) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (121).

وكان الحسنُ البصريُّ رحمه الله يبكِي إذا حدَّثَ بحديثِ حَنِينِ الجذعِ للنَّبيِّ ﷺ الذي بكىٰ وحنَّ لَمَّا فارقه عليه الصَّلاةُ والسلامُ وخطبَ علىٰ المنبرِ بدلًا منه، ويقول: يا عبادَ الله، الخشبةُ تَحِنُّ إلىٰ رسولِ الله شوقًا إليه لمكانِه من الله، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إليه.

فهكذا كَما تَرىٰ أيُّها الأخ الكريم أحبَّ الصحابةُ والتابعون والسلف الصَّالحون رضوانُ الله عليهم صِغارًا وكِبارًا رجالًا ونساءً رسولَ الله ﷺ حبًّا عظيمًا فيه إجلالٌ لمقامه ﷺ محبَّة صادقة تَرجمُوها في تَقدِيمه ﷺ علىٰ أنفسِهم وأهلِيهم وأموالِهم والنَّاس أجمعين، بلغ بِهِمُ الحبُّ أنِ امتزجتْ واختلطتْ أرواحُهم مع الحبيبِ المُصطفىٰ ﷺ، فاللهمَّ ارزقنا اتِّباعهم علىٰ ذلك بمنِّك وكرمكَ يا ربَّ العالمينَ.

وهذه الصُّور والأمثلةُ الرَّائعة كانت من جانبِ الإنسانِ والأشخاص، بقِيَ لدينا توضيحُ تفاعل باقي المخلوقاتِ مع النبيِّ ﷺ، هذا التفاعلُ الذي يوضِّح لنا ويبيِّنُ لنا علوَّ مقامه الشريف وجميل مكانته العليَّة، وهذا ما سنتكلم عنه في المحور التالي.

صُورٌ من حب المخلوقاتِ لرسولِ الله ﷺ

ونتعرَّضُ هنا لأمثلةٍ تصوِّرُ انفعالَ جميع الكائناتِ والمخلوقاتِ مع سيِّدِ العالمين سيِّدنا محمدٍ عليه الصَّلاة والسلامُ، روىٰ الإمامُ أحمدُ من حديث عائشةَ رضي الله عنها قالت: ((كان لآلِ رسولِ الله ﷺ وحشٌ، فإذا خرجَ رسولُ الله ﷺ لَعِبَ واشتدَّ وأقبلَ وأدبرَ، فإذا أحسَّ برسولِ الله ﷺ قد دخلَ رَبَضَ فلم يَترمرمْ ما دام رسولُ الله ﷺ في البيتِ كراهيةَ أن يُؤذيَه))[1].

والوحشُ نوعٌ من الحيوانات التي كانت تسكنُ البُيوتَ كالقِطَّةِ في زماننا هذا، وقولها:

(1) أخرجه أحمد في مسنده (6/ 112- 113)، وأبو يعلىٰ في مسنده (4660) من طرقٍ عن يونس عن مجاهد قال: قالت عائشة به. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (8/555): ((رجال أحمد رجال الصحيح)).

((دخل ربض فلم يترمرم)) أي: جلس ولم يتحرَّك. فانظر إلىٰ أدبِ هذا الحيوان مع سيِّد الكائنات يتأدَّبُ في وجوده في البيت فلا يتحرك مخافةَ إزعاج رسولِ الله.

ورویٰ أحمدُ في مُسنده قصَّة البعيرِ الذي جاء إلىٰ الرسول ﷺ وهو في بُستانٍ أو حديقة من حدائقِ المدينة، فلمَّا رأىٰ البعيرُ رسولَ الله ﷺ حنَّ وذرَفتْ عيناهُ فَمسح النبيُّ ﷺ علىٰ جسدِ البعير فسكَن وقال: ((مَن صاحبُ الجمل؟)) فجاء فتًىٰ من الأنصار وقال: هُو لي يا رسول الله، فقال له: ((أمَّا تتَّقِي الله في هذِه البهيمة الَّتي ملَّكها الله لك؟ إنَّه شكىٰ إليَّ أنَّك تُجيعه وتدئبه))[1].

فهذا الجملُ يعرفُ رسولَ الله ﷺ ويَحنُّ إليه عندما يَراهُ ويَذرفُ الدَّمع، ويشكو إلىٰ رسولِ الله كثرةَ العمل وقلَّةَ الطَّعام، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

وليس الحيوانُ وحدَه هو مَن يعرفُ رسولَ الله ولكن الجماد أيضًا؛ رَوَىٰ الإمام مسلمٌ في صحيحِه عن جابر بن سمُرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((إنِّي لأعرفُ حجرًا بمكَّةَ كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعثَ، إنِّي لأعرفه الآن))[2]. فهذا حجرٌ من صخرٍ يُسلِّمُ علىٰ رسول الله وينفعلُ له.

أما الجِذعُ فقصَّتُه مَشهورةٌ كيف أنه حنَّ وأصدرَ صوتًا مثل البكاءِ حزنًا علىٰ فِراقِ النبي ﷺ؛ فعن جابرِ بن عبدالله رضي الله عنهما أنَّ امرأة من الأنصارِ قالت لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله، أَلَا أجعل لك شيئًا تقعدُ عليه، فإنَّ لي غلامًا نجَّارًا قال: ((إنْ شِئتِ)) قال: فعملت له المِنبرَ، فلمَّا كان يومُ الجمُعة قعدَ النبيَّ ﷺ علىٰ المنبرِ الذي صنعَ، فصاحتِ النَّخلةُ التي كان يخطبُ عندها حتىٰ كادت تنشقُّ، فنزل النبيُّ ﷺ حتَّىٰ أخذها فضمَّها

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (2277).

إليه، فجعلتْ تئنُّ أنينَ الصَّبيِّ الذي يُسكَّتُ حتَّىٰ استقرَّتْ[1].

وفي روايةٍ أُخرَىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((لو لم أحتضنْه لحنَّ إلىٰ يومِ القيامةِ))[2].

إذا كان هذا هو حالَ الجماد مع رسولِ الله فكيف ينبغي أنْ يكونَ حالُ المُسلمِ مع الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ؟ وما هو سبيل زيادة محبة رسول الله ﷺ ومتابعته؟ وهذا هو ما سنتحدث عنه في المحور التالي. ◆

---

(1) أخرجه البخاريُّ في كتاب البيوع، باب النجار (2095)، وبنحوه في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3584).

(2) أخرجه أحمد في مسنده (1/ 266) من طريق حسن بن موسىٰ ثنا حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس وثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه به.

خاتمة في الأمور التي تعينُ علىٰ زيادة محبَّة رسولِ الله في قلوبِنا

بعد أن تعرَّفْنا علىٰ ما يجبُ لرسولِ الله من المكانةِ والمنزلةِ عند الله تعالَىٰ يجبُ أن يكونَ لهذه المعرفةِ الأثرُ القلبيُّ والسلوكيُّ تجاه المُصطفىٰ ﷺ، فإن فضلَ رسول الله عليكَ أيُّها المسلم لا يندرجُ تحت حصرٍ، ففي كل يومٍ من أيام حياتِك لو تفكَّرتَ في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من تفاصيلِ حياتِك لوجدتَ هذا الفضلَ ظاهرًا واضحًا جليًّا، ومن هذه المننِ والنِّعم عليكَ أيُّها المحبُّ للحبيب الأعظم:

1- أنَّك من أمَّةِ الإسلامِ خير أُمَّةٍ أُخرجتْ للناس، وذلك فضلٌ من الله عليْكَ لا يوازِيه أيُّ فضلٍ، وهذه النِّعمةُ ما وصلتْ إليك إلَّا عن طريق سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ.

2- وَضَعَ رسولُ الله ﷺ منهجًا وطريقًا لحياتِك يُوفِّرُ لك أفضلَ حياةٍ وأهنئَها علىٰ الإطلاقِ في كلِّ الحالات؛ في الفقر والغِنىٰ، والصِّحةِ والمرضِ، والصِّغر والكِبر، وجنَّبكَ ما يُمكنُ أن تتعرَّضَ له في حياتِك من المنغِّصات والآلامِ ما دُمتَ متمسِّكًا بهذا المنهجِ.

فإذا أعرض النَّاسُ عن سُنَّة رسولِ الله ﷺ وخالفُوا منهاجَ سيرته الطَّيِّبة في أفعاله وأقوالِه ومواقفه باءُوا بالخُسرانِ والذلِّ والهوانِ، وأشرفُوا علىٰ الضَّياعِ والوُقوع في الفتن، وآلوا إلىٰ سوءِ المصيرِ؛ لهذا قال سبحانه محذِّرًا: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:63].

ولنضرِبْ مثالًا علىٰ هذا فنقولُ: إنَّ المسلمَ يَعلمُ أنَّ كلَّ شيءٍ بقدَرٍ، وأنَّ ما أصابَه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبَه، فيعيشُ حياتَه كلَّها هادِئَ النَّفس مرتاح البالِ طيِّبَ الخاطر، لا يعاني معاناةَ غير المسلمينَ من مشاكلَ نفسيَّةٍ واضْطراباتٍ سلوكيَّةٍ تُفسدُ عليه حياتَه، وقد جاءتْ هذه النِّعمةُ من التمسُّكِ بمنهج سيد المخلوقاتِ محمدٍ ﷺ في التَّعامُلِ مع الأحداث الَّتي تَعرِضُ للإنسان.

3- حَفِظَ الله في الدُّنيا منزلتَك وكرامتَك وإنسانيتَك بأوامرِ وتعاليمِ النبيِّ ﷺ واجتناب نواهيه، فهو الَّذي يقولُ: ((النَّاس سواسيةٌ كأسنان المُشطِ))[1]. ويقول: ((لا فضلَ لعربيٍّ علىٰ عجميٍّ إلَّا بالتَّقوىٰ))[2].

4- الثَّوابُ العظيمُ في الآخرةِ؛ حيث تثابُ بجنةٍ عرضها السمواتُ والأرضُ بمتابعتِك لرسولِ الله ﷺ وشفاعتِه لك يوم القيامةِ.

أفلا يستحقُّ رسولُ الله ﷺ منك أخِي المسلم، وقد عرفتَ ما له من منزلةٍ ومكانةٍ عند الله، وما له مِنْ فضلٍ عليك وعلىٰ الأمَّةِ كلِّها أنْ تنزِّله المنزلةَ اللائقةَ به من عقلِك وقلبِك وسُلوكِك، وأن تجعَلَ له من التَّوقيرِ والإجلالِ والمودَّة ما يكافئ منزلتَه وفضلَه، وأن تجعلَ بابَك وطريقَك إلىٰ الله محبَّةَ رسولِ الله ﷺ الَّتي هي مع محبَّة الله سبحانه وتعالىٰ تُعتبر أساسَ التَّوحيد، فمحبَّةُ رسول الله ﷺ أمرٌ فطريٌّ قبل أن يكون واجبًا علىٰ كل مسلمٍ ومسلمةٍ.

واعلمْ أنَّ الله تعالىٰ إذا وجدَ منكَ صدقَ المحبَّة لنبيِّه سيَفتحُ لقلبِكَ أبوابَ المعرفة له والشَّوق إليه، وسيصدقُ عليك قولُ رسول الله ﷺ: ((مِنْ أشدِّ أمَّتي لي حبًّا ناسٌ يكونونَ بَعدِي يَودُّ أحدُهُمْ لو رَآنِي بأهله ومالِه))[3].

---

(1) أخرجه ابن حبان في المجروحين (1/ 198- ترجمة بكار بن شعيب) من طريق بكَّار عن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((النَّاسُ سواءٌ كأسنان المُشط وإنَّما يتفاضلون بالعاقِبة)).

وقال: ((بكار بن شعيب يروي عن الثِّقات ما ليس من أحاديثهم لا يجوز الاحتجاج به)). ولكن يشهد له الحديث الآتي تخريجه.

(2) أخرجه بنحوه ابنُ المبارك في مُسنده (ص 146- 147)، وأحمدُ في مسنده (5/ 411)، والحارث في مسنده (51- بغية الباحث) من طريق سعيد الجُريري عن أبي نضرة حدثني مَن سمع خطبةَ رسول الله ﷺ في وسط أيام التَّشريق فقال: ((يا أيها النَّاس ألا إنَّ ربكم واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ، ألا لا فضلَ لعربيٍّ علىٰ عجميٍّ ولا لعجميٍّ علىٰ عربيٍّ ولا أحمرَ علىٰ أسودَ، ولا أسودَ علىٰ أحمرَ إلَّا بالتَّقوىٰ)).

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (3/ 586- 587): ((رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح)).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها، باب فيمَنْ يود رؤيةَ النبي ﷺ بأهلِه ومالِه

وقوله ﷺ: ((وَددتُ أنَّا قد رأينا إخوانَنا)) قالوا: أولسْنا إخوانكَ يا رسولَ الله؟ قال: ((أنتمْ أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بَعدُ))[1]. فهذا رسولُ الله يتمنَّىٰ ويوَدُّ لقاءكَ أيُّها المسلم فكن أنتَ حريصًا علىٰ لقائِه ومودَّتِه والشَّوقِ إليه ﷺ.

فمحبَّةُ المصطفىٰ ﷺ نفحةٌ ربانيَّة ومِنحةٌ إلهيَّة من الله لعبادِه يتنافسُ فيها المتنافسونَ، فهو نبيُّ الرَّحمة الَّتي أُرسلتْ للعالمين، فقد قالَ ﷺ: ((إنَّما أنا رحمةٌ مُهداةٌ))[2].

ولنذكرْ بعض الأشياءِ الَّتي تعينُنا علىٰ تحصيلِ محبَّة رسولِ الله ﷺ في قلوبِنا:

1- أنْ ندعُوَ الله سبحانَه وتعالَىٰ أن يرزقَنا المحبَّةَ الصَّادقةَ والمودَّة لرسوله الكريمِ، وأن يجعل ذلك من القُرُباتِ إليه جلَّ وعلَا.

2- مدارسةُ سيرته ﷺ والحرصُ علىٰ التعمُّقِ في معرفته، فإنَّه كلَّما ازدادت المعرفةُ برسول الله ﷺ ازدادَ الحبُّ بلا ريبٍ.

3- كثرةُ ذِكره ﷺ والمداومةُ علىٰ الصَّلاة والسَّلام عليْه.

4- الاقتداءُ به ﷺ في الأمرِ والنَّهي وتقديمُ كلامه علىٰ كلام كلِّ أحدٍ.

5- الشَّوقُ إلىٰ لقائه ﷺ.

6- اتِّباعُ سننه ﷺ بقَدرِ المستطاعِ وتقديم هَدْيهِ علىٰ كلِّ هدي.

7- محبَّةُ مَن يحبُّه الرَّسولُ ﷺ من آل بيتِه ﷺ وصحابتِه.

8- بُغضُ مَن يبغضه النبيُّ ﷺ.

(2832) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(1) أخرجه مسلم في كتاب الطَّهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتَّحجيل في الوضوء (249) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) تقدم تخريجه.

ومع وُجودِ المعرفة عنه ﷺ تنمُو في القلبِ شجرةُ المحبَّة الَّتي تكبر وتنمُو مع زيادة المعرفةِ، فيجدُ المرء نفسَه موصولًا بمحبَّة رسول الله ﷺ معظِّمًا له مجلًّا لمقامه الكريمِ، ويرىٰ فيه أنَّه البابُ الأكبرُ للدُّخول إلىٰ الله وأنَّه الصِّلة العظمىٰ بينه وبين خالقِه فيتقرَّبُ العبدُ إلىٰ الله بمحبَّته ويستمطرُ رحماتِ الله بذِكره ﷺ.

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فيه أنَّه بَشَرٌ ... وأنَّـه خَيرُ خَلقِ الله كُلِّهِمِ
وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي ... وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
يَا رَبِّ إنَّ ذُنوبِي فِي الْوَرَىٰ كَثُرَتْ ... وَلَيْسَ لِي عَمَلٌ فِي الحَشْرِ يُنْجِينِي
وَقَدْ أَتَيْتُكَ بِالتَّوْحِيدِ يَصحبُه ... حُبُّ النَّبِيِّ وَهَذَا الْقَدْرُ يَكْفِينِي
يَا مَنْ تَخَيَّرَه الْإِلَـهُ لِخَلْقِه ... فَحَبَاهُ بِالخُلُقِ الزَّكِيِّ الطَّاهِرِ
أَنْتَ النَّبِيُّ وخَيرُ عُصبةِ آدمٍ ... يَا مَنْ يَجُودُ كَفَيْضِ بَحرٍ زَاخِرِ
مِيكالُ مَعكَ وجبريلُ كِلاهُما ... مَدَدٌ لنصركَ مِنْ عَزِيزٍ قاهِرِ

اللهمَّ إنَّا نسألُك وأنتَ ربُّ العالمين إلهُ الأوَّلينَ والآخرينَ، نسألُكَ أن ترزقَنا حبَّك وحبَّ نبيِّك المصطفىٰ ﷺ، وأنْ تجمعَنا به يا ربَّنا علىٰ حوضِه الشَّريفِ، وأن تسقيَنا من يدِه الشَّريفةِ شَربةً لا نظمأُ بعدها أبدًا، اللهمَّ اجعل حُبَّ نبيِّكَ أحبَّ إلينا من المالِ والأهلِ والولدِ.

اللهمَّ صلِّ وسلِّم وباركْ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وعلىٰ آل سيِّدِنا مُحمَّدٍ كما صلَّيتَ وسلَّمتَ وباركتَ علىٰ سيِّدنا إبراهيمَ وعلىٰ آل سيِّدنا إبراهيم في العالمينَ، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمينَ. ◆

الرسالة الخامسة عشرة
رؤية النبي ﷺ في المنام واليقظة نظرة تأصيلية شرعية

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: مكانةُ ومنزلةُ رسولِ الله ﷺ وحصول رؤيته وكيفية الوصول إليها.

المحور الثاني: نبذةٌ من كلام أهل العلْم عن الرُّؤىٰ والأحلام.

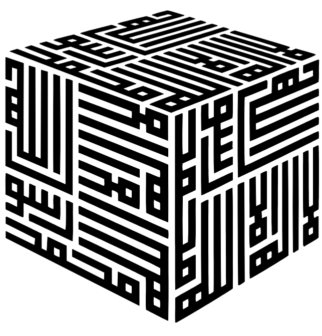
المحور الثالث: النُّصوصُ الشَّرعيَّة التي وردَت في رؤيا النَّبيِّ ﷺ في النَّومِ.

المحور الرابع: رؤيةُ النَّبيِّ ﷺ في اليَقظةِ.

المحور الخامس: كلمةٌ حولَ الكراماتِ وانكِشافِ الغيبِ.

المحور السادس: الآثار الدالة علىٰ حدُوثِ انكِشافٍ لبعضِ العوالِم الغَيبيَّةِ.

المحور السابع: الراويات الدالة علىٰ رؤية النَّبيِّ ﷺ في اليقظة. ◆




« أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا » - آية 15 من سورة نوح

رؤية النبي ﷺ في المنام واليقظة نظرة تأصيلية شرعية

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ موجَزةٌ نتكلَّم فيها عن بابِ مِنَّةٍ وفَضلٍ عظيم، وعن قُرَّةِ عينٍ للمؤمنِين، وعن مِنحَةٍ إلهيَّةٍ ونفحةٍ ربَّانيَّةٍ لعبادِه الصَّالحين، ألَا وهي رؤية النَّبيِّ صلوات الله وسلامه عليه، وعن إمكانيَّةِ وقوع ذلك في المنام واليَقظةِ، مع إيرادِ الأدلَّةِ العقليَّةِ والشَّرعيَّةِ على إمكانيَّةِ وجوازِ وقوعِ ذلك، وإيرادِ الرِّواياتِ التي جاءَت عن هذِه المسألةِ.

نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يرزقَنا رؤية الحبيبِ محمَّدٍ ﷺ في الدنيا والآخرة، وأن يرزقَنا صحبتَه في جنَّاتِ النَّعيم، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه، وسوف يكون الكلامُ عن هذه المسألة مُتمثِّلًا في المحاور التالية:

المحور الأول: مكانةُ ومنزلةُ رسولِ الله ﷺ وحصول رؤيته وكيفية الوصول إليها.

المحور الثاني: نبذةٌ من كلام أهل العلْم عن الرُّؤى والأحلام.

المحور الثالث: النُّصوصُ الشَّرعيَّة التي وردَت في رؤيا النَّبيِّ ﷺ في النَّومِ.

المحور الرابع: رؤيةُ النَّبيِّ ﷺ في اليَقظةِ.

المحور الخامس: كلمةٌ حولَ الكراماتِ وانكِشافِ الغيبِ.

المحور السادس: الآثار الدالة على حدُوثِ انكِشافٍ لبعضِ العوالِم الغَيبيَّةِ.

المحور السابع: الراويات الدالة على رؤية النَّبيِّ ﷺ في اليقظة. ◆

مكانةُ ومنزلةُ رسولِ الله ﷺ
وحصول رؤيته وكيفية الوصول إليها

في بداية الحديث عن الرؤيا يجدر بنا الإشارة إلىٰ تعريفها الذي ورد عند اللغويين، فقد قال ابن منظور في لسان العرب: «حلَمَ: الحُلْم والحُلُم: الرؤيا، والجمع أحلام. يقال: حلَم يحلُم إذا رأىٰ في المنامِ. ابن سيده: حلَم في نومِهِ يحلُم حُلمًا واحتلَم وانحلَم؛ قال بشر ابن أبي خازم:

أحقٌّ ما رأيتَ أم احتلامُ؟ ويُروىٰ أمِ انحلام. وتحلَّم الحُلم: استعملَه. وحلَم به وحلَم عنه وتحلَّم عنه: رأىٰ له رؤيا أو رآه في النوم. وفي الحديث: «مَن تَحلَّم مَا لَم يَحلُم كُلِّفَ أن يعقِد بين شعيرتَين»[1]. أي قالَ إنَّه رأَىٰ في النَّومِ ما لَم يرَه، وتكلَّفَ حُلمًا: لم يرَه، يقال: حلَم، بالفتح، إذا رأَىٰ، وتحلَّم إذا ادَّعىٰ الرُّؤيا كاذبًا، قال: فإن قِيل كذِبُ الكاذبِ في منامِهِ لا يَزيدُ علىٰ كذِبه في يقظَتِهِ، فَلِم زادَت عقوبتُه ووعيدُه وتكليفُه عقدَ الشَّعيرتَين؟ قِيلَ: قَد صحَّ الخبرُ أنَّ الرُّؤيا الصَّادقةَ جزءٌ منَ النُّبوَّةِ، والنُّبوَّةُ لا تكونُ إلَّا وَحيًا، والكاذبُ في رؤيَاه يدَّعي أنَّ الله تعالىٰ أَراهُ ما لَم يرَه، وأعطَاه جزءًا منَ النُّبوَّةِ ولَم يعطِه إيَّاه، والكذبُ علىٰ الله أعظمُ فريةً ممَّن كذَبَ علىٰ الخلقِ أو علَىٰ نفسِه، والحُلم: الاحتلامُ أيضًا، يجمَعُ علىٰ الأحلامِ، وفي الحديث: «الرُّؤيا منَ الله والحُلم منَ الشَّيطانِ»[2]. والرُّؤيا والحُلْم عبارةٌ عمَّا يرَاه النَّائمُ في نومِهِ منَ الأشياءِ، ولكِن غلبَت الرُّؤيا علىٰ ما يرَاه من الخيرِ والشَّيءِ الحَسَنِ، وغلَب الحُلم علىٰ ما يرَاه من الشَّر والقبيحِ؛ ومِنه قوله: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ﴾ [يوسف:44]. ويُستعمل كلُّ واحدٍ منهما موضعَ الآخرِ»[3].

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب من كذب في حلمه (7042) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب الحلم من الشيطان فإذا حلم فليبصق عن يساره وليستعذ بالله عز وجل (7005)، ومسلم في أول كتاب الرؤيا (2261) من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

(3) انظر: لسان العرب، مادة (ح.ل.م) تأليف: جمال الدين ابن منظور- دار صادر- بيروت- الطَّبعة الثَّالثة- 1414هـ.

ما سبق كان تعريفًا يسيرًا للرؤيا عند اللغويين، وهو تعريف يشدنا إلىٰ الشوق إلىٰ الكلام رؤية النبي ﷺ، بيد أنه قبل الكلام عن رؤيته ﷺ ينبغي أن نلمح إلىٰ عظم مكانته ﷺ؛ فمِن المعلومِ اليقينيِّ في دِين الإسلام عِظَمُ مكانةِ ومنزلةِ سيِّدِ الأكوان محَمَّدٍ ﷺ، وعلوِّ قَدْرِه علىٰ جميعِ الخَلْقِ، فلو تَتبَّعنا آياتِ القرآنِ الكريم وتعرُّضَها لذكر نبيِّنا الكريم ﷺ لوجَدنا كثيرًا مِن المدحِ وإعلاءِ المكانةِ والملاطفةِ من الله سبحانَه وتعالىٰ لنبيِّه ﷺ، مِمَّا يدلُّ دلالةً قاطِعةً علىٰ عِظَم مكانةِ رسولِ الله عندَ ربِّه وقُربِه منهُ؛ ولذلك نجد أنَّ الله اختَصَّ رسولَنا وحبيبَنا محَمَّدًا ﷺ بكثيرٍ من الخصَائصِ والمِنحِ الإلهيَّةِ والعطَايا الربَّانيَّةِ التي لا تَدخلُ تحتَ الحَصرِ أو العدِّ وقد سبق ذكر طَرَفٍ من ذلك في بحث سابق.

إنَّ رؤيا الإنسانِ لأحداثٍ وأشخاصٍ ووقائعَ وأماكنَ أثناءَ نومه هو مِن الأشياءِ المُسَلَّمةِ اليقينيَّةِ عندَ جميعِ البشَر، حتَّىٰ غير المبصِرين يرَون في نومِهم منَ الأحلَام والرُّؤىٰ مثلَ مَا يراه المبصِرون، وهذا الأمرُ لم يَتنازعْ فيه اثنان من البشَر؛ لأنَّه من الكونيَّاتِ اليقينيَّة التي يُدركها كلُّ إنسانٍ في خاصَّةِ نفسِه؛ بل قد يتعدَّىٰ الأمرُ إلىٰ اختراق حُجُبِ المستقبل أو الماضي عن طريق الأحلام والرُّؤىٰ، وإدراكِ الحقائقِ والإخبارِ عن المغيبات عن طريقِ الرُّؤىٰ.

أما عن كيفيَّةُ الوصُولِ إلىٰ رؤيةِ الرَّسولِ ﷺ؛ فعَن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((وليَأتينَّ علىٰ أَحَدِكُم زَمانٌ لأَن يَراني أَحبَّ إِليهِ مِنْ أَنْ يكونَ لهُ مِثْلُ أَهلِه ومالِه))[1].

إنَّ رؤيةَ وجهِ المصطفىٰ محَمَّدٍ ﷺ أُمنيةٌ غاليةٌ وبُغيةٌ سَاميةٌ ورُتبةٌ عاليةٌ يتَمنَّاها كلُّ مؤمنٍ صادقٍ، ونحن في هذا المحور نُحاولُ أن نُدوِّن ما ذكَره أهلُ العِلْم والعارفون المحِبُّون لرسولِ الله ﷺ منَ الطُّرُقِ والوسائلِ التي تؤدِّي إلىٰ رؤيةِ الحبيبِ الأعظَم صلواتُ الله

(1) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3589).

وسلامُه عليهِ؛ عسىٰ أن يفتَح لنا الله بابَ الخيرِ فنَحظَىٰ مِن رسولِ الله ﷺ بنظرةٍ تُصلِح لنَا أمرَ دينِنا ودُنيانا وآخرتِنا.

الطُّرق والوسائل الموصِّلة لرؤيةِ الحبيبِ المصطفَىٰ ﷺ:

1- صِدْقُ المودَّةِ والحبِّ له ﷺ، والتمسُّكُ الكاملُ بكتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلام، والعملُ علىٰ متابعتِه صلواتُ الله وسلامه عليهِ بقَدْر المستَطاعِ، وأن يكونَ ﷺ المثالَ الأسمىٰ الذي يَقتدِي به كلُّ مسلمٍ؛ اتِّباعًا لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31] مع تحقيقِ الحبِّ والمودَّةِ له ﷺ، وتقدِيم محبَّته علىٰ كلِّ محبَّةٍ، فقد رَوىٰ البخاريُّ في صحيحِه بسندِه عن عبدِالله بنِ هشامٍ قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عمرَ بنِ الخطَّابِ، فقال له عمر: يا رسولَ الله، لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلَّا من نفسي، فقال النَّبيُّ ﷺ: ((لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ)). فقال له عمر: فإنَّه الآن والله لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال النَّبيُّ ﷺ: ((الآنَ يا عُمَرُ))[1].

2- كثرةُ الصَّلاةِ علىٰ رسولِ الله ﷺ مِن القُرباتِ العظيمةِ التي تُيسِّر رؤيةَ النَّبيِّ صلواتُ الله وسلامُه عليه، فقَد ورَدَ في ذلك أقوالٌ كثيرةٌ للعارفين المجرِّبين.

- فقد جاءَ في كتابِ: ((جراب المسكِين لحفظِ بعض مسائلِ الدِّين)) أن الإكثار من هذه الصِّيغة للصَّلاة علىٰ النَّبيِّ: ((اللهم صلِّ وسلِّم علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وعلىٰ آل سيدِنا محمَّدٍ في كلِّ لَمْحةٍ ونَفَسٍ بعدد كُلِّ معلومٍ لكَ)) تؤدِّي إلىٰ رؤيةِ الحبيب الأعظم ﷺ وهذا مجرَّبٌ، وعددٌ كثيرٌ من الإخوانِ قرأَ هذِه الصَّلوات، ففي أوَّلِ ليلةٍ بدَأ بـ100 مرةٍ فرأىٰ النَّبيَّ ﷺ في المنام، وقال له: الشَّفاعةُ لكَ ولأبويكَ ولإخوانكَ[2].

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النَّبي ﷺ (6632).

(2) انظر: جراب المسكين لحفظ بعض مسائل الدين (ص194) للشيخ عبدالرحمن أحمد عبدالله الكاف- دار الحاوي- 2002م.

- ذكَر الشَّيخ الفاضلُ حسن محمَّد شدَّاد بن عمَر باعُمر في كتابه: كيفيَّة الوصولِ لرؤية سيِّدِنا الرَّسولِ: فوائدَ ونصائحَ وتوجيهاتِ أهلِ الله وأهلِ محبَّةِ رسولِ الله ﷺ للوصولِ إلىٰ رؤيةِ رسولِنا الكريمِ صلواتُ الله وسلامُه عليه، ومنها:

((أنَّ مِن الفوائدِ العظيمةِ لرؤيةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ المداومةَ علىٰ قراءةِ دلائلِ الخيراتِ في الماضي والحاضِر، وقد أخبَرني بذلكَ رجلٌ من الصَّالحين، قال لي: كثيرًا ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنامِ بعد مداومَتي في قراءةِ: دلائل الخيرات، وقبل ذلك بسنواتٍ عديدةٍ حثَّني علىٰ قراءتِها والدي رحمه الله.. ونفعنا بأسرارِه، وقال لي: ما وصل واصلٌ إلا بها؛ لما فيها مِن الخيراتِ والأنوارِ والأسرارِ والنَّفحاتِ، والقصد والإخلاص، والنيَّة الصَّادِقة، والله الموفِّق والهادي إلىٰ سواء السَّبيلِ، وصلىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ دليلِ الخيرات وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم...

وأيضًا لَمَّا كنَّا في شمامه صوماليا كان عندنا الشيخ عبدالمنصف محمود عبدالفتاح مبعوث الأزهر الشريف، وكان من الصَّالحين ولما دنىٰ رحيلُه إلىٰ بلاده مصر قالَ لي: أوصِيكَ بقراءةِ دلائلِ الخيراتِ، ما وَصلَ كلُّ واصلٍ إلَّا بها))[1].

- جاء في مَنبعِ السَّعاداتِ وفي الذَّخائرِ المحمَّديَّةِ فائدةٌ لرؤيةِ النَّبِي ﷺ وهي: ((اللهمَّ إنِّي أسألُك بنُورِ الأنوارِ الذي هو عينُك لا غيرُك أنْ ترِيَني وجهَ نبيِّكَ سيِّدنا محمَّدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم كما هو عندكَ)). مائة مرة[2].

- قال الإمام النَّبهاني: ومن منافعِ القرآنِ لجعفر الصَّادق: ((مَن قرأَ سورةَ الكوثرِ بعد صلاةٍ يُصلِّيها نصفَ اللَّيلِ مِن ليلةِ الجمُعة ألفَ مرةٍ رأىٰ في منامِه النَّبي ﷺ))[3].

---

(1) كيفيَّة الوصولِ لرؤية سيِّدنا الرَّسول محَمَّد ﷺ (ص74) للشيخ حسن محمد شداد بن عمر با عمر- مكتبة المطيعي.

(2) المصدر السابق (ص47).

(3) سعادة الدَّارين في الصَّلاة علىٰ سيد الكونين (ص486) للشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني- دار الفكر.

- وقال كذلك: قال الشَّيخ الصَّاوي في شرح وِرد الدَّردير: قال بعضُهم: إنَّ قراءةَ الصَّلاةِ الإبراهيميَّةِ ألفَ مرَّةٍ تُوجِبُ رؤيةَ النَّبيِّ ﷺ، وعبارةُ شيخِنا العدَوي في شرحِ دلائلِ الخيراتِ عن بعضِ العارفينَ: إنَّ استعمالَ صيغةِ التشهُّدِ التي رَواها البخاريُّ أَلْفًا ليلةَ الإثنين أو ليلة الجمُعة مُوجبٌ لرؤيته ﷺ[1].

- وقال أيضًا: «قال السَّيد أحمدُ دحلَان مفتي مكَّةَ المشرَّفةَ رحمَه الله في مجموعتِه التي جَمَع فيها جملةَ صلواتٍ على النَّبيِّ ﷺ: ومِن الصِّيغِ المجرَّبةِ للاجتِماعِ بالنَّبيِّ ﷺ هذهِ الصِّيغةُ: اللهمَّ صلِّ وسلِّم على سيِّدِنا محَمَّدٍ الجامعِ لأسرَارِك والدَّالِّ عليك وعلى آلهِ وصحبِه وسلِّم، كلَّ يومٍ ألفَ مرَّةٍ»[2]

فهذِه أيُّها الأخُ الكريم بعضُ النَّصائحِ والإرشاداتِ منَ العُلماءِ العارفين والعبَّادِ الرَّبانيين للوصولِ لمنَّة الله برؤيةِ وجهِ النَّبي الكَريم، فاستعِن بربِّك وتوكَّل عليهِ واعمَل بها، وأكثِر مع ذلك من الدُّعاءِ أن يرزقَك الله رؤيَته صلوات الله وسلامُه عليه فتكونَ من السُّعداءِ في الدُّنيا والآخرةِ.

نُبذةٌ من كلامِ أهل العِلم عن الرُّؤى والأحلَامِ

إنَّ لِلرُّؤى والأحلامِ تأثيرًا في حَياةِ الإنسانِ، وخيرُ مثالٍ على ذلك ما وَردَ في القرآنِ الكريم مِن قصَّةِ يوسُف النَّبيِّ الكريم عليهِ السَّلام وتعبيرِه لرؤيَا المَلِك، ومَا كانَ لهذه الرُّؤيا من إخبارٍ لمستَقبلِ البلادِ ومَا سَيؤولُ إليه حالُها، وقد وردَت في السنَّةِ الشَّريفةِ أحاديثُ تتكَلَّم عن الرُّؤيا بصفَةٍ عامَّةٍ، وكذلك ورَدَ عن أهلِ العِلْم كلامٌ عن مكَانةِ الرُّؤيا وفَضلِها فمِن الأحاديثِ:

---

(1) سعادة الدَّارين في الصَّلاة على سيد الكونين (ص490).

(2) المصدر السابق (ص489).

- ما روَاه الإمامُ البخاري في صحيحِه بسندِه عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: ((الرُّؤيا الصَّالحةُ جُزءٌ مِن سِتَّةٍ وأَربَعين جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ))[1].

- وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدَبٍ قال: كان النَّبِيُّ ﷺ إذا صلَّىٰ الصُّبحَ أقبلَ عليهم بوجهِهِ فقال: ((هَلْ رَأَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا))[2].

- وقد رَوىٰ البخاري في صحيحِه عن أبي هُريرةَ، قالَ: سمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: ((لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ)) قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: ((الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ))[3].

ومِن كلَامِ أهلِ العلْمِ في هذا الموضوعِ:

قال ابن العربي: ((صور العالَم الحقِّ مِن الاسمِ الباطن صورُ الرؤيا للنَّائم، والتَّعبير فيها كون تلك الصُّور أحوالَ الرائي لا غيره، فَمَا رأىٰ إلَّا نفسَه، فهذا هو قوله في حقِّ العارفين ﴿ويعلَمون أنَّ الله هو الحقُّ المبينُ﴾ [النُّور: 25] أي الظَّاهر، فمن اعتبرَ الرُّؤيا يرَىٰ أمرًا هائلًا ويَتبيَّن لَه ما لَا يُدرِكُه من غيرِ هذا الوجهِ، فلهذا كان المصطفىٰ ﷺ يسألُهم عنها؛ لأنَّها جزءٌ مِن النبوَّة، فكان يُحبُّ أن يشهدَها في أُمَّتِه، والنَّاسُ اليومَ في غايةٍ من الجهلِ بهذِه المرتبةِ التي كانَ المصطفىٰ ﷺ يعتَني بها ويسألُ كلَّ يومٍ عنها، والجُهلاءُ في هذا الزَّمانِ إذا سمعُوا بأمرٍ وقَع في النَّومِ لَم يرفعوا له رأسًا وقالوا: ليسَ لنا أن نحكُمَ بهذا الخيالِ، وما لنَا وللرؤيا! فيستَهزئونَ بالرَّائي، وذلك لجهلِ أحدِهم بمقامِها، وجهلِه بأنَّه في يقظتِه وتصرُّفِه في رؤيَا، وفي منامِه في رؤيا، فهو كَمَن يرىٰ أنَّه استيقَظَ وهو في نومه، وهو قولُه عليه السَّلام: ((النَّاسُ نِيامٌ))[4] فَمَا أعجَبَ الأخبارَ النَّبويَّةَ! لقد

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة (6989).

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (1386)، ومسلم في كتاب الرؤيا، باب رؤيا النَّبي ﷺ (2275) واللفظ لمسلم.

(3) أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب المبشرات (6990).

(4) ذكره الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص1358)، وقال: ((لم أجده مرفوعًا، وإنما يُعزىٰ

أَبَانَت عن الحقائقِ علىٰ ما هيَ عليهِ، وعظَّمَت ما استَهونَه العقلُ القاصرُ، فإنَّه ما صدَرَ إلَّا مِن عظيمٍ وهو الحقُّ تعالىٰ))[1].

- وقد ذكَر الإمامُ الغزاليُّ كلامًا يقرِّبُ فهمَ هذه الأمورِ فقالَ: ((اعلَم أنَّ أنوارَ البصائرِ المستفادةَ من كتابِ الله تعالىٰ وسُنَّةِ رسولهِ ﷺ ومِن مناهجِ الاعتبارِ تُعرِّفنا أحوالَ الموتَىٰ علىٰ الجملةِ، وانقسامَهم إلىٰ سعداءَ وأشقياءَ، ولكِن حال زيدٍ وعمرٍو بعينِه فلا يَنكَشِف أصلًا، فإنَّا إنْ عوَّلنا علىٰ إيمانِ زيدٍ وعمرٍو فلا نَدري علىٰ ماذا ماتَ؟ وكيف خُتم له؟ وإن عوَّلنا علىٰ صلاحِه الظَّاهرِ فالتَّقوىٰ محلُّه القلبُ وهو غامضٌ يَخفىٰ علىٰ صاحبِ التَّقوىٰ فكيفَ علىٰ غيره؟ فلا حكْمَ لظاهرِ الصَّلاحِ دونَ التَّقوىٰ الباطنِ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:27]. فلا يُمكِن مَعرفةُ حُكْمِ زيدٍ وعمرٍو إلَّا بِمشاهدَتهِ ومشاهدةِ مَا يَجري عليهِ، وإذا ماتَ فقد تحوَّلَ مِن عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ إلىٰ عالمِ الغيبِ والملكوتِ، فلا يَرىٰ بالعينِ الظَّاهرةِ وإنَّما يَرىٰ بعينٍ أخرىٰ، خُلِقت تلكَ العينُ في قلبِ كلِّ إنسانٍ ولكِن جُعلَ عليها غِشاوةٌ كثيفةٌ مِن شهواتِه وأشغالِه الدُّنيويَّةِ فصار لا يُبصِر بها ولا يَتصوَّر أن يُبصِرَ بها شيئًا مِن عالَمِ الملكوتِ ما لَم تنقَشِع تلكَ الغشاوةُ عن عَينِ قلبهِ.

ولَمَّا كانتِ الغِشاوةُ منقشِعةً عن أعينِ الأنبياءِ عليهم السَّلام فلَا جرَم نظَروا إلىٰ الملكوتِ وشاهدُوا عجائبَه، والموتىٰ في عالَمِ الملَكوت فشَاهدُوهم وأخبروا؛ ولذلكَ رأَىٰ رسولُ الله ﷺ ضَغطةَ القبرِ في حقِّ سعدِ بن معاذٍ[2]، وفي حقِّ زينبَ ابنتِه[3]، كذلكَ

إلىٰ علي بن أبي طالب)).

(1) فيض القدير شرح الجامع الصغير (5/147) للإمام عبدالرءوف المناوي- المكتبة التجارية- الطبعة الأولىٰ- مصر- 1356هـ.

(2) يشير إلىٰ حديث أخرجه أحمد في مسنده (6/ 55) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ للقبر ضغطةً ولو كان أحدٌ ناجيًا منها نَجا مِنها سعدُ بنُ معاذٍ)).

(3) يشير إلىٰ حديث أخرجه الطَّبراني في الكبير (22/433) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ماتت

حالُ أبي جابرٍ لَمَّا استُشهِد إذْ أخبرَه أنَّ الله أقعدَه بينَ يدَيهِ ليس بينَهما سِترٌ[1]، ومثلُ هذِه المشاهدةِ لا مَطمَعَ فيهَا لغيرِ الأنبياءِ والأولياءِ الذين تَقرُب درجتُهم مِنهم.

إنَّما الممكِنُ مِن أمثالنا مشاهدةٌ أخرىٰ ضعيفةٌ؛ إلَّا أنَّها أيضًا مشاهدةٌ نبويَّةٌ، وأعني بها المشاهدةَ في المنامِ، وهي مِن أنوارِ النُّبوَّةِ، قالَ رسولُ الله ﷺ: «الرُّؤيا الصَّالحةُ جزءٌ من ستَّةٍ وأربعين جُزءًا منَ النُّبوَّةِ»[2] وهو أيضًا انكِشافٌ لا يحصُل إلَّا بانقشاعِ الغشاوةِ عن القلبِ؛ فلذلك لا يوثَق إلَّا برؤيا الرَّجلِ الصَّالح الصَّادقِ، ومَن كثر كذبُه لم تُصدَّق رؤيَاه، ومَن كثُرَ فسادُه ومعاصِيه أظلَم قلبُه فكانَ ما يرَاه أضغاثَ أحلامٍ؛ ولذلك أمرَ رسولُ الله ﷺ بالطَّهارةِ عند النَّوم لينامَ طاهرًا، وهو إشارةٌ إلىٰ طهارةِ الباطن أيضًا فهو الأصلُ، وطهارةُ الظَّاهرِ بمنزلةِ التَّتمَّةِ والتَّكْملةِ لها، ومهما صفَا الباطنُ انكشَف في حدقةِ القلبِ ما سَيكونُ في المستقبلِ، كما انكشَف دخولُ مكةَ لرسول الله ﷺ في النَّوم حتَّىٰ نزَل قولُه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح:27] وقلَّما يخلُو الإنسانُ عن مناماتٍ دلَّت علىٰ أمورٍ فوجَدَها صحيحةً، والرؤيَا ومعرفةُ الغَيبِ في النَّوم مِن عجائبِ صُنعِ الله تعالىٰ وبدائعِ فطرةِ الآدميِّ، وهو مِن أوضَحِ الأدلَّةِ علىٰ عالَمِ الملكوتِ، والخَلقُ غافلون عنه كغَفلتِهم عن سائرِ عجائبِ القلبِ وعجائبِ العالَم، والقولُ في حقيقةِ الرُّؤيا مِن دقائقِ علومِ المكاشفةِ فلا يُمكِن ذِكْرُه علاوةً علىٰ عِلْمِ المعاملَةِ، ولكنَّ القدرَ الذي يمكِن ذِكره هاهُنا مِثالٌ يفهمُك المقصودَ: وهُو أن تعلَم أنَّ القلبَ مثالُه مثالُ مرآةٍ

=

زينب بنت رسول الله ﷺ ظهر من النبي ﷺ حزن، ثم سري عنه، فقلنا: يا رسول الله رأيناكَ حزينًا ثم سري عنك، فقال: «رأيتُ زينبَ وضعفَها ولقد هونَ عليها وعليَّ ذلك ولقد ضُغطت ضغطةً بلغت الخافقين».

(1) يشير إلىٰ ما أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران (3010) من حديث جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام رضي الله عنهما قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر ما لي أراك مُنكسرًا»؟ قلت: يا رسولَ الله استُشهد أبي وترك عيالًا ودَينًا، قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: بلىٰ يا رسول الله. قال: «ما كلم الله أحدًا قطُّ إلَّا مِن وراء حجابٍ وأحيَا أباكَ فكَلَّمَه كِفَاحًا».

(2) تقدَّم تخريجُه قريبًا.

تتراءَىٰ فيها الصُّورُ وحقائقُ الأمورِ، وأنَّ كلَّ ما قدَّره الله تعالىٰ من ابتداءِ خَلْق العالَم إلىٰ آخره مَسطورٌ ومُثبَّتٌ في خَلقٍ خَلَقَه الله تعالىٰ يُعبَّر عنه تارةً باللَّوح، وتارةً بالكتابِ المبين، وتارةً بإمامٍ مبينٍ كما ورَد في القرآنِ، فجميعُ ما جرَىٰ في العالَم وما سيَجري مكتوبٌ فيهِ ومنقوشٌ عليه نَقشًا، لا يُشاهَد بهذِه العين ولا تظنَّنَّ أنَّ ذلك اللَّوحَ مِن خشبٍ أو حديدٍ أو عَظمٍ، وأنَّ الكِتابَ مِن كاغَدٍ أو رَقٍّ؛ بل ينبغي أن تفهم قطعًا أنَّ لوحَ الله لا يشبِه لوحَ الخَلق، وكتابَ الله لا يشبه كتابَ الخَلق، كما أنَّ ذاته وصفاتَه لا تُشبه ذاتَ الخَلق وصفاتِهم؛ بل إن كنتَ تطلُبُ له مِثالًا يقرِّبه إلىٰ فهمِك فاعلَم أنَّ ثبوتَ المقادير في اللَّوح يُضاهي ثبوتَ كلماتِ القرآن وحروفه في دماغِ حافظِ القرآنِ وقلبِه، فإنَّه مَسطورٌ فيه حتَّىٰ كأنَّه حينَ يقرؤهُ ينظُرُ إليهِ، ولو فتَّشتَ دماغه جزءًا جزءًا لَم تشاهِد من ذلك الخطِّ حرفًا، وإن كان ليسَ هناك خطٌّ يُشاهَد ولا حرفٌ يُنظر، فمِن هذا النَّمطِ يَنبغي أن تفهَم كونَ اللَّوحِ مَنقوشًا بجميعِ ما قدَّرَه الله تعالىٰ وقضَاهُ، واللَّوحُ في المثالِ كَمِرآةٍ ظهَر فيها الصُّور، فلَو وضِع في مقابلَةِ المرآةِ مرآةٌ أخرىٰ لكانت صورةُ تلك المرآةِ تتراءَىٰ في هذِه إلَّا أن يكونَ بينَهما حِجابٌ، فالقلب مرآةٌ تقبَل رسومَ العِلْم، واللَّوحُ مِرآةٌ رسومُ العلْمِ كلُّها مَوجودةٌ فيها، واشتِغالُ القلبِ بشَهواتِه ومقتضَىٰ حواسِّه حِجابٌ مرسَلٌ بينَه وبينَ مطالعَةِ اللَّوح الذي هو مِن عالَم الملَكوتِ، فإنْ هبَّت ريحٌ حركَت هذا الحجابَ ورفعَته تلألأَ في مرآةِ القلبِ شيءٌ مِن عالَمِ الملكوتِ كالبَرقِ الخاطفِ، وقد يَثبُت ويدُوم وقد لا يدومُ وهو الغالِبُ، وما دَامَ مُتيقِّظًا فهو مَشغولٌ بما تُورِدُه الحواسُّ عليه مِن عالَم المُلك والشَّهادةِ، وهو حِجابٌ عن عالَم الملكوتِ، ومَعنىٰ النَّومِ أن تركُدَ الحواسُّ عليهِ فلا تُورِدُه علىٰ القلبِ، فإذا تخلَّصَ منه ومنَ الخيالِ وكانَ صافيًا في جوهرِه ارتفَع الحجابُ بينَه وبين اللَّوحِ المحفوظِ فوقعَ في قلبِه شيءٌ ممَّا في اللَّوحِ كما تقعُ الصُّورةُ مِن مرآةٍ في مرآةٍ أخرىٰ إذَا ارتفعَ الحجابُ بينَهما، إلَّا أنَّ النَّومَ مانعٌ سائرَ الحواسِّ عنِ العملِ وليس مانعًا للخيالِ عن عمَلِه وعن تَحركِهِ، فما يقعُ في القلبِ

يَبتدِرُه الخيالُ فيُحاكيهِ بمثالٍ يُقاربه، وتكون المتخيَّلاتُ أثبَت في الحفظِ مِن غيرها فيبقَىٰ الخيالُ في الحفظِ، فإذا انتبَه لم يتذكَّر إلا الخيالَ فيحتاجُ المعبِّـرَ أن ينظرَ إلىٰ هذا الخيالِ حكاية أي معنًىٰ مِن المعاني، فيرجع إلىٰ المعاني بالمناسبةِ التي بينَ المتخيَّل والمعاني، وأمثلةُ ذلك ظاهرةٌ عند مَن نظَر في علْمِ التَّعبير، ويكفيك مثالٌ واحدٌ وهو أنَّ رجلًا قال لابنِ سيرين: رأيتُ كأنَّ بيدي خاتمًا أختمُ به أفواه الرجالِ وفروجَ النِّساء. فقال: أنت مؤذِّن تؤذِّن قبلَ الصُّبحِ في رمضانَ! قال: صدَقت! فانظر إنَّ رُوح الخَتم هو المنعُ ولأجله يُراد الختم، وإنَّما ينكشِفُ للقلبِ حالُ الشَّخصِ منَ اللَّوحِ المحفوظِ كما هو عليه، وهو كونه مانعًا للنَّاسِ من الأكلِ والشُّرب، ولكنَّ الخيال أَلِفَ المنعَ عند الخَتم بالخاتَم فتمثَّله بالصُّورةِ الخياليَّةِ التي تتضمَّن رُوحَ المعنىٰ، ولا يبقىٰ في الحِفظ إلا الصُّورةُ الخياليَّةُ.

فهذه نُبذةٌ يسيرةٌ من بحرِ عِلم الرُّؤيا الذي لا تَنحصِر عجائبُه، وكيف لا وهو أخو الميِّتِ؟! وإنَّما الموتُ هو عَجَبٌ من العجائبِ! وهذا لأنَّه يشبِهُه من وجهٍ ضعيفٍ أثَّر في كشفِ الغطاءِ عن عالَمِ الغيبِ حتَّىٰ صارَ النَّائمُ يَعرفُ ما سيكونُ في المستقبل، فماذَا نرىٰ في الموتِ الذي يخرِقُ الحِجابَ ويكشِف الغطاءَ بالكليَّةِ؟ حتىٰ يرَىٰ الإنسانُ عند انقطاعِ النَّفَسِ مِن غير تأخيرٍ نَفْسَه إمَّا محفوفةً بالأنكالِ والمخازِي والفضائحِ- نعوذُ باللهِ من ذلك- وإمَّا مَكنوفًا بنعيمٍ مقيمٍ ومُلْكٍ كبيرٍ لا آخِرَ له، وعند هذا يُقالُ للأشقياءِ وقَد انكشَفَ الغطاءُ ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد﴾ [ق:22] ويقال: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُون ﴿15﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾ [الطور:15-16] وإليهم الإشارةُ بقولهِ تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُون﴾ [الزُّمَر:47].

فأَعلَمُ العلماءِ وأحكَمُ الحكماءِ ينكشِف له عقيبَ الموتِ من العجائبِ والآياتِ ما لَم يخطر قطُّ ببالهِ ولا اختلجَ به ضميرُه، فلو لَم يكن للعاقلِ همٌّ وغمٌّ إلَّا الفكرةُ في خطرِ تلك

الحالِ أنَّ الحجابَ عمَّاذا يرتفعُ؟ وما الذي ينكَشِف عنه الغطاءُ من شقاوةٍ لازمةٍ أم سعادةٍ دائمةٍ؟ لكان ذلكَ كافيًا في استِغراقِ جميعِ العمُر))[1].

- قال ابنُ القيِّم عن المناماتِ وما تحتَملُه: ((وهذا بابٌ طويلٌ جدًّا، فإن لم تسمَح نفسُك بتَصديقِه وقلت: هذه مناماتٌ وهي غيرُ معصومةٍ فتأمَّل مَن رأىٰ صاحِبًا له أو قريبًا أو غيرَه فأخبَره بأمرٍ لا يعلَمُه إلَّا صاحبُ الرُّؤيا، أو أخبرَه بمالٍ دفنه أو حذَّرَه من أمرٍ يقعُ أو بشَّره بأمرٍ يوجَد فوقَع كما قالَ، أو أخبَره بأنَّه يموتُ هو أو بعضُ أهلِه إلىٰ كذا وكذا فيَقعُ كما أخبَره، أو أخبَره بخِصبٍ أو جدبٍ أو عدوٍّ أو نازلةٍ أو مرضٍ أو بغرضٍ له فوقَع كما أخبَره، والواقعُ مِن ذلك لا يُحصِيه إلَّا الله، والنَّاسُ مشتركونَ فيهِ، وقد رأَينا نحنُ وغيرُنا من ذلكَ عجائبَ.

وأبطل مَن قال: إنَّ هذِه كلَّها علومٌ وعقائدُ في النَّفْس تظهَر لصاحبِها عند انقِطاع نفْسِه عن الشَّواغِلِ البدنيَّةِ بالنَّوم، وهذا مِن الباطلِ والمُحَالِ، فإنَّ النَّفسَ لَم يكن لها مَعرفةٌ قطُّ بهذه الأمورِ التي يُخبرُ بها الميِّتُ، ولا خطرَت ببالِها ولا عندَها علامةٌ عليها، ولا أمارةٌ بوجهٍ ما، ونحن لا نُنكِر أنَّ الأمرَ قد يقعُ كذلك.

وإنَّ من الرُّؤيا ما يكونُ مِن حديثِ النَّفسِ وصورةِ الاعتِقاد، بل كثيرٌ مِن مرَائي النَّاسِ إنَّما هي مِن مجرَّدِ صُورِ اعتقادِهم المطابقِ وغيرِ المطابقِ، فإنَّ الرُّؤيا علىٰ ثلاثةِ أنواع: رُؤيا من الله، ورؤيا الشَّيطان، ورؤيا من حديثِ النَّفسِ.

والرُّؤيا الصَّحيحة أقسامٌ: منها إلْهامٌ يُلقيهِ الله سبحانه في قَلبِ العبدِ وهو كلامٌ يُكلِّم به الرَّبُّ عبدَه في المنامِ، كما قالَ عبادةُ بن الصَّامتِ وغيرُه.

ومنها: مثلٌ يَضربُه له مَلكُ الرُّؤيا الموكَّلُ بها.

ومنها: التِقاءُ رُوحِ النَّائمِ بأرواحِ الموتىٰ مِن أهلِه وأقاربِه وأصحابِه وغيرِهم كما ذكَرنا.

---

(1) إحياء علوم الدين (4/490-488) للإمام أبي حامد الغزالي- مكتبة ومطبعة كرياطه فوترا- اندونيسيا.

ومنها: عروجُ رُوحِه إلىٰ الله سبحانه وخطابُها لَه.

ومنها: دخولُ رُوحِه إلىٰ الجنَّةِ ومشاهدتُها وغيرُ ذلك، فالتِقاءُ أرواحِ الأحياءِ والموتىٰ نوعٌ مِن أنواعِ الرُّؤيا الصَّحيحةِ التي هي عندَ النَّاسِ مِن جنسِ المحسوسَاتِ))[1].

النُّصوصُ الشَّرعيَّة التي وَرَدَت في رُؤيا النَّبي ﷺ في النَّومِ

إنَّ من المِنَنِ الكبرىٰ علىٰ أيِّ مسلِم أن تكتحِلَ عينَاه برؤيا سيِّدِ الأكوانِ محَمَّدٍ ﷺ في المنامِ، فهي مِنحةٌ منَ الله لَمَن يجتَبيه مِن عبادِه، وهي دليلُ قَبولٍ وفلاحٍ، وهي غايةٌ يتمنَّاها كلُّ مسلِمٍ؛ فقد روَىٰ الطَّبرانيُّ عن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ ﷺ قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يقولُ لنا: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ سَيُوشِكُ أَنْ يُحِبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ نَظْرَةً بِمَا لَهُ مِن أَهْلٍ وَمَالٍ))[2].

وعن أبي هريرةَ ﷺ عن النَّبي ﷺ أنَّه قالَ: ((وَلَيَأْتِيَنَّ علىٰ أَحَدِكُمْ زَمَانٌ لَأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ أَهْلِهِ وَمَالِهِ))[3].

ففي هذِه الأحاديثِ الشَّريفةِ يُخبر النَّبيُّ ﷺ عن حالِ أُمَّتِه واشتياقِهم إلىٰ رؤيتِه الكريمةِ صلوات الله وسلامُه عليهِ، حيثُ يرجو المسلِمُ رؤيةَ الرَّسولِ ﷺ، وتكونُ رؤيتُه هذِه أحبَّ إليه مِن المالِ والولدِ، وقد مَنَح الله سبحانَه وتعالىٰ أمَّةَ الإسلام هذِه النِّعمةَ الكبرَىٰ بأَن مَنَّ عليهم برؤيتِه صلواتُ الله وسلامُه عليه بعدَ مفارقتِه لهذِه الحياةِ الدنيا، وقد جاءَتِ الأحاديثُ الشَّريفةُ مقرِّرةً هذه الحقيقةَ:

---

(1) الروح (ص29) لابن قيم الجوزية- دار الكتب العلمية- بيروت.

(2) أخرجه البزار في مسنده (4629)، والطبراني في الكبير (323/7). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (8/ 619): ((رواه الطبراني ورجاله ثقات)).

(3) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3587)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب فضل النظر إليه ﷺ وتمنيه (2364). واللفظ للبخاري.

فقد روَىٰ البخاريُّ في صحيحِه عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: ((مَنْ رَآني في المنامِ فَسيراني في اليَقظَةِ ولَا يتمَثَّلُ الشَّيطانُ بِي)) قالَ أبو عبدالله: قال ابنُ سِيرين: إذا رَآه في صورتِه[1].

روَىٰ البخاري عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قالَ النَّبيُّ ﷺ: ((مَنْ رَآني فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآني فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَخَيَّلُ بِي وَرُؤْيَا المُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَربَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبوَّةِ))[2].

ورَوىٰ البخاريُّ عن أبي قتادةَ رضي الله عنه قالَ النَّبي ﷺ: ((مَنْ رَآني فَقَد رَأَىٰ الحَقَّ))[3].

وروىٰ كذلك عن أَبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه أنَّه سمِع النَّبيَّ ﷺ يقول: ((مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَىٰ الحَقَّ فإِنَّ الشَّيْطانَ لا يَتَكَوَّنُنِي))[4].

فهذِه الأحاديثُ الصَّحيحةُ تحمِل البُشرَىٰ الصَّريحةَ مِن سيِّدِ الخَلقِ صلواتُ الله وسلامُه عليه بإمكانيَّةِ رؤيتِه ﷺ في النَّومِ، وتُثبت وقوعَ ذلك في أُمَّةِ الإسلام، وتَنفي تمثُّل وتخيُّلَ الشَّيطانِ في شخصِ رسولِ الله ﷺ، ولنَذكر طرفًا من أقوالِ أهل العِلم في هذِه المسألةِ:

قال الإمامُ النَّووي رحمَه الله عندَ شرحِه للأحاديثِ التي تتكَلَّم عن رؤيةِ المصطَفىٰ ﷺ: روايةُ ((مَن رَآني فقَد رَأَىٰ الحقَّ)) وفي روايةٍ: ((مَن رَآني في المَنَامِ فسَيَراني في اليَقظةِ)) أو ((لكأنَّما رَآني في اليقظةِ)) اختلفَ العلماءُ في معنىٰ قوله ﷺ: ((فقَد رَآني)) فقالَ ابنُ الباقلَّاني: معنَاه أنَّ رُؤياه صحيحةٌ ليسَت بأضغاثٍ ولا مِن تشبيهاتِ الشَّيطانِ، ويؤيِّد قولَه روايةُ: ((فَقَد رَأَىٰ الحقَّ)) أي: الرُّؤيا الصَّحيحة، قال: وقَد يراه الرَّائي علىٰ

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب من رأىٰ النبي ﷺ في المنام (6993)، ومسلم في كتاب الرؤيا، باب قول النبي ﷺ مَن رآني في المنام فقد رآني (2266). واللفظ للبخاري.

(2) أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب من رأىٰ النبي ﷺ في المنام (6994).

(3) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين (6996).

(4) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين (6997).

خِلافِ صفتِه المعروفةِ كَمَن رآه أبيضَ اللِّحية، وقد يرَاه شخصان في زمنٍ واحدٍ أحدُهما في المشرقِ والآخرُ في المغربِ، ويرَاه كلٌّ منهمَا في مكانِه، وحكَىٰ المازريُّ هذا عن ابن الباقلَّاني ثمَّ قالَ: وقالَ آخرون بل الحديثُ علىٰ ظاهرِه، والمرادُ أنَّ مَن رَآه فقد أدركَه ولا مانعَ يَمنعُ مِن ذلك، والعَقلُ لا يُحيلُه حتَّىٰ يضطرَّ إلىٰ صرفِه عن ظاهرِه، فأمَّا قولُه: بأنَّه قد يُرىٰ علىٰ خلافِ صِفتِه أو في مكانين معًا فإنَّ ذلكَ غلطٌ في صفاتِه وتخيُّلٌ لَها علىٰ خلافِ ما هي عليه، وقد يَظنُّ الظَّانُّ بعضَ الخيالاتِ مرئيًّا لكونِ ما يتخيَّل مرتبطًا بما يرىٰ في العادةِ، فيكون ذاتُه ﷺ مَرئيَّةً وصفاتُه متخيَّلةً غيرَ مرئيَّةٍ، والإدراكُ لا يُشترطُ فيهِ تحدِيقُ الأبصارِ ولا قُربُ المسافةِ، ولا كونُ المرئيِّ مَدفونًا في الأرضِ ولا ظاهرًا عليها، وإنَّما يُشترط كونُه موجودًا ولَم يقُم دليلٌ علىٰ فناءِ جسمِه ﷺ بل جاءَ في الأحاديثِ ما يقتضي بقاءَه، قالَ: ولو رَآه يأمرُ بقَتلِ مَن يَحرُم قتلُه كان هذا مِن الصِّفاتِ المتخيَّلةِ لا المرئيَّةِ هذا كلامُ المازري، قال القاضي: ويُحتمل أن يكونَ قولُه ﷺ: ((فقَد رَآني)) أو: ((فَقَد رأَىٰ الحقَّ فإنَّ الشَّيطانَ لا يَتمثَّل في صُورَتي)) المرادُ به إذا رآه علىٰ صفتِه المعروفةِ له في حياتِه، فإن رأَىٰ علىٰ خلافِها كانَت رُؤيا تأويلٍ لا رؤيا حقيقَة، وهذا الذي قالَه القاضي ضعيفٌ؛ بلِ الصَّحيح أنَّه يرَاه حقيقةً سواءٌ كانَ علىٰ صفتِه المعروفةِ أو غيرِها؛ لما ذكَره المازريُّ قال القاضي: قال بعضُ العلماء خصَّ الله تعالىٰ النَّبيَّ ﷺ بأنَّ رؤيةَ النَّاسِ إيَّاه صحيحةٌ وكلها صدقٌ، ومنعُ الشَّيطانِ أن يَتصوَّرَ في خِلقتِه؛ لئلَّا يكْذِبَ علىٰ لسانِه في النَّوم، كما خرَقَ الله تعالىٰ العادةَ للأنبياءِ عليهم السَّلامُ بالمعجزةِ، وكَمَا استحالَ أن يتصوَّرَ الشَّيطانُ في صورتِه في اليقظةِ، ولو وقَع لاشتَبه الحقُّ بالباطلِ ولَم يوثَقْ بما جاءَ به مخافةً من هذا التَّصوُّرِ فحمَاها الله تعالىٰ منَ الشَّيطانِ ونَزغِه ووسوستِه وإلقائِه وكيدِه، قال: وكذا حَمَىٰ رؤيتَهم، قالَ القاضي: واتَّفقَ العلماءُ علىٰ جوازِ رؤيةِ الله تعالىٰ في المنامِ وصحَّتِها، وإن رآهُ الإنسانُ علىٰ صِفةٍ لا تلِيقُ بحالِه من صفاتِ الأجسامِ؛ لأنَّ ذلك المرئيَّ غيرُ ذاتِ الله تعالىٰ إذْ لَا يجوزُ عليهِ سبحانه

وتعالىٰ التَّجسمُ ولا اختلافُ الأحوالِ، بخلافِ رؤيةِ النَّبي ﷺ، قال ابنُ الباقلَّاني: رؤيةُ الله تعالىٰ في المنامِ خواطرُ في القلبِ وهي دلالاتٌ للرَّائي علىٰ أمورٍ ممَّا كانَ أو يكون كسائرِ المرئيَّاتِ والله أعلَم[1].

- وقد أورَد البدرُ العينيُّ عند شرحهِ لأحاديث الرُّؤيةِ مِن صحيحِ البُخاريِّ كلامًا منه: «وَذكَر أبو الحسَن عن عليِّ بن أبي طالبٍ في مَدخلِه الكبيرِ: رؤيةُ سيِّدنا رسولِ الله تدلُّ علىٰ الخِصب والأمطارِ وكثرةِ الرَّحمة ونَصرِ المجاهدِين وظهورِ الدِّين وظَفرِ الغُزاةِ والمقاتِلين، ودمارِ الكفَّار وظفرِ المسلِمين بهم، وصحَّةِ الدِّين إذْ رُئي في الصِّفاتِ المحمودةِ، وربَّما دلَّ علىٰ الحوادثِ في الدِّين وظهورِ الفِتن والبدَعِ إذا رُئي في الصِّفاتِ المكروهةِ»[2].

- وسنَنقلُ كلامَ الحافظِ ابنِ حجرٍ العسقلانيِّ في هذا الموضوع فقد جمع أقوالَ العلماءِ وأتىٰ ببيانٍ شافٍ في المسألةِ قالَ رحمَه الله: «كانَ محمَّد- يعني ابنَ سيرين- إذا قَصَّ عليه رجلٌ أنَّه رأىٰ النَّبيَّ ﷺ قالَ: صِفْ لي الذي رأيتَه، فإنْ وصَفَ له صِفةً لا يعرِفُها قال: لَم ترَه. وسندُه صحيحٌ، ووجدْت له ما يؤيِّده فأخرَج الحاكِم من طريقِ عاصمِ بن كُليبٍ حدَّثني أبي قالَ: قلتُ لابنِ عبَّاسٍ رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في المنامِ قال: صِفْه لي، قال: ذكرتُ الحسنَ بنَ عليٍّ فشبَّهتُه به، قال: قد رأيتَه»[3] وسندُه جيِّد.

ويعارضُه ما أخرجَه ابنُ أبي عاصم من وجهٍ آخرَ عن أبي هريرةَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ رَآني في المَنَامِ فقَد رَآني، فإنِّي أُرَىٰ في كُلِّ صُورَةٍ»[4] وفي سندِه صالحُ مولَىٰ التَّوأمَة، وهو ضعيفٌ لاختلاطِه، وهو مِن روايةِ مَن سُمِع منه بعدَ الاختلاطِ.

---

(1) شرح صحيح مسلم (25/15) تأليف: الإمام محيي الدين النووي- دار إحياء التراث العربي - بيروت- الطَّبعة الثانية- 1392هـ.

(2) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (140/24) لبدر الدين العيني- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

(3) أخرجَه الحاكم في مستدركه (393/4)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذا السياقة».

(4) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (636/3).

ويُمكِن الجمعُ بينَهما بما قالَ القاضي أبو بكرٍ بن العرَبي: رؤيةُ النَّبي ﷺ بصِفَته المعلومةِ إدراكٌ على الحقيقةِ، ورؤيتُه على غير صِفتِه إدراكٌ للمثالِ، فإنَّ الصَّوابَ أنَّ الأنبياءَ لا تُغيِّرهم الأرضُ، ويكون إدراكُ الذَّاتِ الكريمةِ حقيقةً و إدراك الصِّفاتِ إدراكَ المِثل، قال: وشَذَّ بعضُ القدَريَّةِ فقال: الرُّؤيا لا حقيقةَ لها أصلًا، وشذَّ بعضُ الصَّالحين فزعَم أنَّها تقعُ بعينَي الرأسِ حقيقةً، وقال بعضُ المتكلِّمين: هي مدركةٌ بعينَين في القلبِ، قال: وقوله: ((فسَيَراني)) معنَاه فسَيرىٰ تفسيرَ ما رَأىٰ؛ لأنَّه حقٌّ وغيبٌ أُلقِـيَ فيهِ، وقيلَ معناهُ فسَيراني في القِيامةِ، ولا فائدةَ في هذا التَّخصيصِ، وأمَّا قولُه: ((فكَأنَّمَا رَآني)) فهو تَشبيهٌ، ومعنَاه أنَّه لو رآهُ في اليقظةِ لطَابقَ ما رَآهُ في المنامِ فيكونُ الأوَّلُ حقًّا وحقيقةً والثَّاني حقًّا وتمثيلًا، قال: وهذا كُلُّه إذا رَآه علىٰ صورتِهِ المعروفةِ؛ فإنْ رآه علىٰ خلافِ صفتِه فهي أمثالٌ، فإن رآه مُقبِلًا عليه مثلًا فهو خيرٌ للرَّائي وفيهِ وعلىٰ العَكسِ فبالعَكسِ.

وقال النَّوويُّ: قال عياض: يُحتَمل أن يكونَ المرادُ بقوله: فقد رَآني أو فقَد رأَىٰ الحقَّ أنَّ مَن رَآه علىٰ صورته في حياته كانتْ رُؤيَاه حقًّا، ومَن رآه علىٰ غيرِ صُورتِهِ كانت رؤيا تأويلٍ، وتعقَّبه فقال: هذا ضعيفٌ بل الصَّحيح أنَّه يراه حقيقةً سواءٌ كانت علىٰ صِفتِه المعروفةِ أو غيرها انتَهىٰ. ولَم يظهَر لي مِن كلامِ القاضي ما يُنافي ذلك، بل ظاهرُ قوله: إنَّه يراه حقيقةً في الحالَين، لكِن في الأولَىٰ تكونُ الرُّؤيا ممَّا لا يَحتاجُ إلىٰ تعبيرٍ، والثَّانية ممَّا يَحتاجُ إلىٰ التَّعبيرِ. قالَ القرطبيُّ: اختُلِفَ في معنىٰ الحديثِ فقالَ قومٌ: هو علىٰ ظاهرِهِ فَمَن رآه في النَّومِ رأىٰ حقيقتَه كَمَن رآه في اليقظةِ سواء، قال وهذا قولٌ يُدرَك فسادُه بأوائل العقولِ، ويلزَم عليه أن لا يراه أحدٌ إلَّا علىٰ صورتِهِ التي مات عليها وأن لا يراه رائيان في آنٍ واحدٍ في مكانَين، وأن يَحيا الآن ويخرجَ من قبرِه ويَمشي في الأسواق ويخاطب النَّاس ويخاطبوه، ويلزَم من ذلك أن يَخلو قبرُه من جسدِه فلا يَبقىٰ من قبرِه فيه شيءٌ فيُزار مجرَّدُ القبرِ ويُسلَّم علىٰ غائبٍ؛ لأنَّه جائزٌ أن يُرىٰ في اللَّيل والنَّهارِ مع اتِّصالِ الأوقاتِ علىٰ حقيقتِه في غير قبرِه، وهذه جهالاتٌ لا يلتزِم بها مَن له أدْنىٰ مُسْكَةٍ من

عقلٍ، وقالت طائفةٌ: معناه أنَّ مَن رَآه رآه علىٰ صورتِهِ التي كانَ عليها، ويلزمُ منه أنَّ مَن رآه علىٰ غير صفتِه أن تكونَ رؤياهُ من الأضغاثِ، ومن المعلومِ أنَّه يُرىٰ في النَّوم علىٰ حالةٍ تُخالفُ حالتَه في الدُّنيا من الأحوالِ اللَّائقةِ به، وتقعُ تلك الرُّؤيا حقًّا كَمَا لو رُئي مَلَأَ دارًا بجسمِه مثلًا فإنَّه يدلُّ علىٰ امتلاءِ تلك الدَّارِ بالخيرِ، ولو تَمكَّن الشَّيطانُ مِن التَّمثيلِ بشيءٍ مِمَّا كانَ عليه أو يُنسَب إليهِ لعارَضَ عمومَ قوله: «فإنَّ الشَّيطانَ لا يَتمَثَّل بي» فالأولىٰ أن تُنزَّه رؤيَاه وكذا رُؤيا شيءٍ منه أو مِمَّا يُنسَب إليهِ عن ذلك، فهو أبلَغُ في الحُرمةِ وأليَقُ بالعِصمةِ كما عُصِم من الشَّيطانِ في يَقظتِه.

قال: والصَّحيحُ في تأويل هذا الحديثِ أنَّ مقصودَه أنَّ رؤيتَه في كلِّ حالةٍ ليسَت باطلةً ولا أضغاثًا بل هي حقٌّ في نفسِها، ولو رُئِيَ علىٰ غير صورته فتَصوُّرُ تلك الصُّورةِ ليس منَ الشيطانِ بل هو من قِبل الله. وقال: وهذا قولُ القاضي أبي بكر بنِ الطَّيِّب وغيرِه، ويؤيِّده قولُه: «فَقَد رَأىٰ الحقَّ» أي: رأَىٰ الحقَّ الذي قصَد إعلامَ الرَّائي بهِ، فإن كانت علىٰ ظاهرِها سعَىٰ في تأويلِها ولا يُهمَل أمرُها؛ لأنَّها إمَّا بُشرىٰ بخيرٍ أو إنذارٌ مِن شرٍّ، إمَّا ليخيفَ الرَّائي و إمَّا ليَنزجرَ عنه و إمَّا ليُنبِّه علىٰ حُكْمٍ يقعُ له في دِينِهِ أو دُنياه.

وقال ابن بطَّالٍ: قوله: «فسَيَراني في اليَقظةِ» يريدُ تصديقَ تلك الرُّؤيا في اليقظةِ وصحَّتِها وخروجِها علىٰ الحقِّ، وليس المرادُ أنَّه يَراه في الآخرةِ؛ لأنَّه سيَراه يومَ القيامةِ في اليَقظةِ فتراهُ جميع أمَّته مَن رآه في النَّوم ومَن لم يرَه منهم.

وقال ابن التِّين: المرادُ مَن آمنَ بهِ في حياتِه ولَم يرَه لكونهِ حِينئذٍ غائبًا عنه فيكونُ بهذا مبَشِّرًا لكلِّ مَن آمنَ بهِ ولَم يره أنَّه لابدَّ أن يرَاه في اليقظةِ قبلَ موتِه، قالَه القزَّاز. وقال المازرِي: إنْ كان المحفوظُ «فكأنَّمَا رَآني في اليَقظةِ» فمعناهُ ظاهرٌ، وإن كانَ المحفوظُ «فَسَيراني في اليَقظةِ» احتُمِلَ أن يكون أرادَ أهلَ عصره ممَّن يُهاجرُ إليهِ فإنَّه إذا رآه في المنامِ جُعِل علامةً علىٰ أنَّه يراه بعدَ ذلك في اليقظةِ، وأوحىٰ الله بذلك إليهِ ﷺ. وقالَ القاضي: وقيلَ معناه سيَرىٰ تأويل تلك الرؤيا في اليقظةِ وصحتَها، وقيل: معنىٰ الرؤيا في

اليقظةِ أنَّه سيَراه في الآخرةِ، وتُعقِّب بأنَّه في الآخرةِ يراه جميعُ أمته مَن رآه في المنام ومَن لم يرَه، يعني فلا يَبقىٰ لخصوصِ رؤيتِه في المنام مزيَّةٌ.

وأجابَ القاضي عياض باحتِمال أن تكونَ رُؤياه له في النَّومِ علىٰ الصِّفةِ التي عُرِفَ بها ووُصِفَ عليها موجبةً لتكرمتِه في الآخرةِ، وأن يرَاه رؤيةً خاصَّةً مِن القُرب مِنه والشَّفاعةِ له بعلوِّ الدَّرجةِ ونحو ذلك من الخصُوصيَّاتِ، قال: ولا يَبعُد أن يعاقبَ الله بعضَ المذنبين في القيامةِ بمنعِ رؤيةِ نبيِّه ﷺ مدَّةً.

وحملَه ابنُ أبي جمرَة علىٰ محملٍ آخرَ فذكر عن ابنِ عبَّاسٍ أو غيره أنَّه رأىٰ النَّبيَّ ﷺ في النَّومِ فبقِي بعد أن استَيقظَ متفكِّرًا في هذا الحديثِ فدخلَ علىٰ بعضِ أمَّهاتِ المؤمنينَ ولعلَّها خالتُه ميمونةُ فأخرجَت له المرآةَ التي كانت للنَّبي ﷺ فنظَرَ فيها فرأىٰ صورةَ النَّبي ﷺ ولم يرَ صورةَ نفسِه، ونُقِل عن جماعةٍ من الصَّالحين أنَّهم رأوا النَّبي ﷺ في المنامِ ثمَّ رأوهُ بعد ذلكَ في اليَقظةِ وسألوه عن أشياءَ كانوا مِنها متَخوِّفين فأرشَدَهم إلىٰ طريقِ تَفريجِها، فجاءَ الأمر كذلك.

قلت: وهذا مُشكل جدًّا ولو حُمِل علىٰ ظاهرِه لكان هؤلاءِ صحابةً، ولأمكَن بقاءُ الصحبةِ إلىٰ يوم القيامةِ، ويعكِّر عليه أنَّ جمعًا جمًّا رأوه في المنامِ ثمَّ لَم يذكُر واحدٌ منهم أنَّه رآه في اليقظةِ، وخبرُ الصَّادق لا يتخلَّف، وقد اشتدَّ إنكار القرطبي علىٰ مَن قال مَن رآه في المنام فقَد رأىٰ حقيقتَه، ثم يرَاها كذلك في اليقظةِ كما تقدم قريبًا، وقد تفطَّن ابنُ أبي جمرةَ لهذا فأحالَ بما قالَ علىٰ كراماتِ الأولياءِ، فإن يكن كذلكَ تعيَّن العدولُ عن العموم في كلِّ رَآءٍ، ثم ذكر أنَّه عامٌّ في أهل التَّوفيقِ وأمَّا غيرُهم فعلىٰ الاحتمالِ، فإنَّ خَرْقَ العادةِ قد يقعُ للزِّنديق بطريقِ الإملاءِ والإغواءِ، كما يقعُ للصِّدِّيق بطريقِ الكَرامة والإكرامِ، وإنَّما تحصُلُ التَّفرقةُ بينهما باتِّباع الكتابِ والسُّنَّة. انتهىٰ.

والحاصِلُ مِن الأجوبةِ ستَّةٌ؛ أحدُها: أنَّه علىٰ التَّشبيهِ والتَّمثيلِ، ودلَّ عليه قولُه في الروايةِ الأخرىٰ «فكأنَّما رَآني في اليَقظَةِ».

ثانيها: إنَّ معناهَا سيرىٰ في اليقظةِ تأويلَها بطريقِ الحقيقةِ أو التَّعبيرِ.

ثالثُها: إنَّه خاصٌّ بأهلِ عصرِه ممَّن آمَنَ بهِ قبلَ أن يَراه.

رابعها: إنَّه يرَاه في المرآةِ التي كانَت له إنْ أمكَنه ذلك، وهذا مِن أبعدِ المَحاملِ.

خامسها: إنَّه يراه يومَ القيامةِ بمزيدِ خصوصيَّةٍ لا مطلَق مَن يراه حِينئذٍ ممَّن لَم يرَه في المنامِ.

سادسُها: إنَّه يرَاه في الدُّنيا حقيقةً ويخاطبُه، وفيه ما تقَدَّمَ مِن الإشكالِ.

وقال القُرطبي: قد تقرَّر أنَّ الذي يُرىٰ في المنامِ أمثلةٌ للمرئيَّاتِ لا أنفسِها، غير أنَّ تلك الأمثلةَ تارةً تقعُ مطابقةً وتارةً يقع معنَاها؛ فمِن الأول رُؤياه ﷺ عائشةَ وفيه: ((فإذَا هِي أنتِ))[1] فأخبرَ أنَّه رأَىٰ في اليقظةِ ما رَآه في نومِه بعينِه. ومِن الثَّاني: رؤيا البقَر التي تُنحر[2]، والمقصود بالثَّاني التَّنبيه علىٰ معاني تلك الأمورِ.

ومِن فوائدِ رؤيته ﷺ تسكِينُ شوقِ الرَّائي لكونهِ صادِقًا في محبَّته ليعمَلَ علىٰ مُشاهدَتهِ، وإلىٰ ذلك الإشارةُ بقولهِ: ((فَسَيراني في اليَقَظةِ)) أي: مَن رآني رؤيةَ معظِّمٍ لحرمَتي ومُشتاقٍ إلىٰ مُشَاهدَتي وصلَ إلىٰ رؤيةِ محبُوبهِ وظَفِرَ بكلِّ مَطلوبهِ.

قال: ويجوزُ أن يكون مقصودُ تلك الرؤيا معنىٰ صُورتهِ وهو دِينُه وشريعتُه، فيُعبِّر بحسَب ما يرَاه الرَّائي مِن زيادةٍ ونقصانٍ أو إساءةٍ وإحسانٍ، قلتُ: وهذا جوابٌ سابعٌ والذي قبلَه لم يظهر لي، فإن ظهَر فهو ثامنٌ.

قوله: ((ولَا يَتمثَّل الشَّيطانُ بي)) في روايةِ أنسٍ في الحديثِ الذي بعدَه ((فإنَّ الشَّيطانَ لا يَتمثَّل بي)) ومضَىٰ في كتابِ العِلمِ من حديثِ أبي هريرةَ مثلُه لكِن قالَ: ((لَا يَتمثَّل

---

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب كشف المرأة في المنام (7011)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، باب في فضل عائشة ﵂ (2438) من حديث عائشة ﵂.

(2) يُشير إلىٰ حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب إذا رأىٰ بقرًا تنحر (7035)، ومسلم في كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ (2272) من حديث أبي موسىٰ الأشعري ﵁، وفيه: ((ورأيت فيها بقرًا والله خير فإذا هم المؤمنون يومَ أُحُد)).

في صُورَتي))[1]. وفي حديثِ جابرٍ عند مُسلِمٍ وابن ماجَه: ((إنَّه لا يَنبغي للشَّيطانِ أن يَتمثَّل بي))[2]. وفي حديثِ ابنِ مَسعودٍ عند الترمذيِّ وابن ماجَه: ((إنَّ الشَّيطَانَ لا يَستَطِيعُ أن يَتمثَّل بي))[3]. وفي حديثِ أبي قتادَةَ الذي يلِيه: ((وَإنَّ الشَّيطَانَ لا يَترَاءىٰ))[4] بالرَّاء بوزن يتعاطَىٰ، ومعناه لا يستطيعُ أن يصيرَ مرئيًّا بصُورتي، وفي روايةِ غير أبي ذرٍّ ((يتزَايا)) بزَاي وبعد الألفِ تحتانيَّة، وفي حديثِ أبي سعيدٍ في آخر البابِ: ((فإنَّ الشَّيطانَ لا يَتكوَّنُني))[5]، أمَّا قوله: ((لا يَتمثَّل بي)) فمعنَاه: لا يتشبَّه بي، وأمَّا قوله: ((في صُورَتي)) فمعنَاه لا يَصيرُ كائنًا في مثلِ صورَتي. وأمَّا قوله: ((لَا يَتراءَىٰ بي)) فرجَّحَ بعضُ الشُّرَّاحِ روايةَ الزَّاي عليها أي لا يظهرُ في زِيي، وليسَت الروايةُ الأخرىٰ ببعيدةٍ من هذا المعنىٰ، وأمَّا قوله: ((لَا يَتكوَّنُني)). أي: لا يَتكَوَّن كَوني، فحذفَ المضَافَ ووصَل المضافَ إليهِ بالفعلِ، والمعنىٰ لا يتكوَّن في صُورَتي، فالجميعُ راجعٌ إلىٰ معنًى واحدٍ، وقوله: ((لَا يستطِيعُ)) يشيرُ إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ وإنْ أمكنَه من التَّصور في أيِّ صورةٍ أرادَ فإنَّه لم يُمكِّنه من التصوُّرِ في صورةِ النَّبيِّ ﷺ، وقد ذهبَ إلىٰ هذا جماعةٌ فقالوا في الحديثِ: إنَّ محلَّ ذلك إذا رَآه الرائي علىٰ صُورتِه التي كانَ عليهَا، ومنهم مَن ضَيَّق الغرضَ في ذلك حتىٰ قال: لابدَّ أن يرَاه علىٰ صورته التي قُبِضَ عليها، حتىٰ يَعتبرَ عددَ الشَّعراتِ البيض التي لم تبلُغ عشرينَ شعرةً، والصَّوابُ التَّعميم في جميعِ حالاتِه بشَرطِ أن تكونَ صورتُه الحقيقيَّةُ في وقتٍ مَا سواءٌ كانَ في شبابه أو رجوليَّتِه أو كهوليَّتِه أو آخرِ عُمُره، وقد يكون لمَّا

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب إثم من كذب علىٰ النبي ﷺ (110).

(2) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الرؤيا، باب قول النبي عليه الصلاة والسلام: من رآني في المنام فقد رآني (2268)، وابن ماجه في كتاب تعبير الرؤيا، باب رؤية النبي ﷺ في المنام (3902).

(3) أخرجه بنحوه الترمذي في كتاب الرؤيا، باب ما جاء في قول النبي ﷺ: من رآني في المنام فقد رآني (2276)، وابن ماجه كتاب تعبير الرؤيا، باب رؤية النبي ﷺ في المنام (3900).

(4) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب من رأىٰ النبي ﷺ في المنام (6995).

(5) تقدم تخريجه.

خالَف ذلكَ تعبيرٌ يتعلَّق بالرَّائي.

قال المازرِي: اختلف المحقِّقونَ في تأويلِ هذا الحديثِ فذهبَ القاضي أبو بكر بنُ الطَّيِّبِ إلىٰ أنَّ المرادَ بقوله: «مَن رَآني في المنَامِ فقَد رَآني» أنَّ رؤياه صحيحةٌ لا تكونُ أضغاثًا ولا مِن تشبيهاتِ الشَّيطانِ، قال: ويُعضدُه قوله في بعضِ طرقهِ: «فقَد رَأىٰ الحقَّ». قال: وفي قولِهِ: «فَإِنَّ الشَّيطانَ لَا يَتمثَّل بي» إشارةٌ إلىٰ أنَّ رؤيَاه لا تكونُ أضغَاثًا، ثمَّ قالَ المازرِي: وقال آخرون بلِ الحديثُ محمولٌ علىٰ ظاهره، والمراد أنَّ مَن رآه فقد أدركه، ولا مانعَ يمنعُ مِن ذلك ولا عقلَ يُحيلُه حتىٰ يحتاجَ إلىٰ صرفِ الكلام عن ظاهرِه، وأمَّا كونُه قد يُرىٰ علىٰ غيرِ صفتِه أو يُرىٰ في مكانينَ مختلفين معًا فإنَّ ذلك غلطٌ في صفتِه وتخيُّلٌ لها علىٰ غيرِ ما هيَ عليه، وقد يظنُّ بعضَ الخيالاتِ مرئيَّاتٍ لكونِ ما يتخيَّل مرتبطًا بما يرَىٰ في العادةِ فتكونُ ذاتُه ﷺ مرئيَّةً وصفاتُه متخيَّلةً غيرَ مرئيَّةٍ، والإدراكُ لا يُشترط فيهِ تحديقُ البَصرِ ولا قُربُ المسافةِ ولا كونُ المرئيِّ ظاهرًا علىٰ الأرضِ أو مدفونًا، وإنَّما يُشترط كونُه موجودًا، ولم يقُم دليلٌ علىٰ فناءِ جسمِه ﷺ، بل جاءَ في الخبر الصَّحيحِ مَا يدلُّ علىٰ بقَائِه، وتكون ثمرةُ اختلافِ الصِّفات اختلافَ الدلالاتِ كما قالَ بعضُ علماءِ التَّعبيرِ: إنَّ مَن رآه شَيخًا فهو عامُ سِلْم أو شابًّا فهو عامُ حربٍ، ويُؤخذ مِن ذلك ما يتعلَّق بأقوالِه، كما لو رآه أحدٌ يأمرُه بقتل مَن لا يَحلُّ قتلَه فإنَّ ذلك يُحمَل علىٰ الصِّفةِ المتخيَّلةِ لا المرئيَّةِ.

وقال القاضِي عياضٌ: يحتملُ أن يكون معنىٰ الحديثِ إذا رآه علىٰ الصِّفةِ التي كان عليها في حياتِه لا علىٰ صفةٍ مضادَّةٍ لحاله، فإنْ رُئي علىٰ غيرِها كانت رُؤيا تأويلٍ لا رؤيا حقيقةٍ، فإنَّ مِن الرُّؤيا ما يَخرجُ علىٰ وجهِه، ومنها ما يَحتاجُ إلىٰ تأويلٍ.

وقال النَّووي: هذا الذي قاله القاضي ضعيفٌ، بلِ الصَّحيحُ أنَّه يراه حقيقةً سواءٌ أكانت علىٰ صفتِه المعروفةِ أو غيرها كما ذكَره المازرِي، وهذا الذي ردَّه الشَّيخ تقدَّم عن محمَّد بن سيرينَ إمامِ المعبِّرين اعتبارُه، والذي قاله القاضي توسُّطٌ حسنٌ، ويمكِن الجمعُ

بينه وبين ما قالَه المازرِي بأن تكونَ رؤياه علىٰ الحالَين حقيقةً لكِن إذا كانَ علىٰ صورتِهِ كأن يُرىٰ في المنامِ علىٰ ظاهرِه لا يَحتاج إلىٰ تعبيرٍ، وإذا كانَ علىٰ غير صورتِهِ كانَ النَّقصُ من جهةِ الرَّائي لتَخيُّلِه الصِّفةَ علىٰ غيرِ ما هي عليه، ويحتاجُ ما يراه في ذلك المنامِ إلىٰ التَّعبيرِ، وعلىٰ ذلك جرَىٰ علماءُ التَّعبير فقالوا: إذا قالَ الجاهلُ: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ فإنَّه يُسأل عن صفتِه، فإن وافقَ الصِّفةَ المرويَّةَ وإلَّا فلا يُقبلُ مِنه، وأشاروا إلىٰ ما إذا رآه علىٰ هيئةٍ تُخالفُ هيئتَه مع أنَّ الصُّورةَ كما هيَ، فقال أبو سعد أحمدُ بنُ محمَّد بنِ نصرٍ: مَن رأىٰ نبيًّا علىٰ حالِهِ وهيئته فذلك دليلٌ علىٰ صلاحِ الرَّائي وكمالِ جاهِه وظَفَرِه بـمَن عادَاه، ومَن رآه متغيِّر الحالِ عابسًا مثلًا فذاكَ دالٌّ علىٰ سوءِ حالِ الرَّائي.

ونَحا الشَّيخُ أبو محمَّدٍ بنُ أبي جمرة إلىٰ ما اختارَه النَّوويُّ فقالَ بعد أن حكَىٰ الخلافَ: ومنهم مَن قال إنَّ الشَّيطانَ لا يُتصوَّر علىٰ صورتِهِ أصلًا فمن رآه في صورةٍ حسنةٍ فذاك حُسنٌ في دِينِ الرَّائي، وإن كان في جارحةٍ من جوارحِه شَينٌ أو نقصٌ فذاك خلَلٌ في الرَّائي من جهةِ الدِّين، قال: وهذا هو الحقُّ وقد جُرِّب ذلك فوُجد علىٰ هذا الأسلوبِ، وبه تحصُلُ الفائدةُ الكبرىٰ في رؤياه حتىٰ يتبيَّن للرَّائي هل عندَه خللٌ أو لَا؟ لأنَّه ﷺ نورانيٌّ مثلَ المرآةِ الصَّقيلةِ ما كان في النَّاظر إليها مِن حُسنٍ أو غيره تصوَّر فيها وهيَ في ذاتِها علىٰ أحسنِ حالٍ لا نَقصَ فيها ولَا شَين، وكذلك يُقال في كلامِه ﷺ في النَّوم إنَّه يُعرَض علىٰ سُنَّتِه فما وافقها فهو حقٌّ وما خالفَها فالخَلَلُ في سمعِ الرَّائي، فرؤيا الذَّاتِ الكريمة حقٌّ والخللُ إنَّما هو في سَمعِ الرَّائي أو بصَرِه.

قال: وهذا خيرُ ما سمعتُه في ذلك، ثمَّ حكَىٰ القاضي عياض عن بعضِهم قال: خصَّ الله نبيَّه بعمومِ رؤياهُ كلِّها، ومنعَ الشَّيطانَ أن يتصوَّرَ في صورتِه؛ لئلَّا يَتذرَّعَ بالكذبِ علىٰ لسانِه في النَّوم، ولَمَّا خرَق الله العادةَ للأنبياءِ للدلالةِ علىٰ صحَّةِ حالِهم في اليقظةِ، واستحالَ تصوُّر الشَّيطان علىٰ صورتِهِ في اليقظةِ ولا علىٰ صفةٍ مضادَّةٍ لحالِه؛ إذْ لَو كانَ ذلك لدَخل اللَّبس بين الحقِّ والباطلِ، ولَم يُوثَق بما جاءَ مِن جهةِ النُّبوَّةِ حَمَىٰ الله حِمَاها

لذلك منَ الشَّيطانِ وتصوُّرِه وإلقائِه وكيدِه، وكذلك حَمَىٰ رؤيَاهم أنفسَهم ورؤيا غيرِ النَّبي للنَّبيِّ عن تمثيلٍ بذلك لتَصِحَّ رؤياه في الوَجهَين، ويكونَ طريقًا إلىٰ عِلْمٍ صحيحٍ لا ريبَ فيه، ولم يختلفِ العلماءُ في جوازِ رؤيةِ الله تعالىٰ في المنام وساق الكلام علىٰ ذلك.

قلتُ: ويَظهرُ لي في التَّوفيقِ بينَ جميعِ ما ذكروه أنَّ مَن رآه علىٰ صفةٍ أو أكثر مما يختصُّ به فقَد رآه ولو كانَت سائرُ الصِّفاتِ مخالفةً، وعلىٰ ذلك فتَتفاوتُ رؤيا مَن رآه، فمن رآه علىٰ هيئتِه الكاملةِ فرؤياه الحقُّ الذي لا يَحتاج إلىٰ تعبيرٍ، وعليها يتنزل قوله: «فَقَد رَأَىٰ الحقَّ» ومَهما نقَصَ مِن صفاتِه فيدخلُ التَّأويلُ بحسَبِ ذلك، ويصِحُّ إطلاقُ أنَّ كلَّ مَن رآه في أي حالةٍ كانت مِن ذلك فقد رَآه حقِيقةً.

تَنبيه: جوَّز أهلُ التَّعبير رؤيةَ الباري عزَّ وجلَّ في المنامِ مطلقًا ولم يُجرُوا فيها الخلافَ في رؤيا النَّبي ﷺ.

وأجابَ بعضُهم عن ذلك بأمورٍ قابلةٍ للتأويل في جميعِ وجوهِها فتارةً يُعبَّر بالسُّلطانِ، وتارةً بالوالدِ، وتارةً بالسَّيِّد، وتارةً بالرَّئيسِ في أي فنٍّ كان، فلمَّا كان الوقوفُ علىٰ حقيقةِ ذاته ممتنعًا وجميع مَن يُعبِّر بهِ يجوزُ عليهم الصِّدقُ والكَذِب- كانت رؤيَاه تحتاجُ إلىٰ تعبيرٍ دائمًا بخلافِ النَّبيِّ ﷺ فإذا رُئي علىٰ صفتِه المتَّفقِ عليها وهو لا يَجوز عليهِ الكذب كانت في هذِه الحالةِ حَقًّا محضًا لا يحتاجُ إلىٰ تعبيرٍ.

وقالَ الغزالي: ليسَ معنىٰ قوله: «رآني» أنَّه رأىٰ جسمي وبدني وإنَّما المرادُ أنَّه رأىٰ مِثالًا صارَ ذلك المثالُ آلةً يتأدَّىٰ بها المعنىٰ الذي في نفسِي إليه، وكذلك قولُه: «فَسَيراني في اليَقظَةِ» ليس المرادُ أنَّه يرَىٰ جسمِي وبدَني، قال: والآلةُ تارةً تكون حقيقيَّةً وتارةً تكون خياليَّةً، والنَّفسُ غيرُ المثالِ المتخيَّلِ، فمَا رآهُ مِن الشَّكلِ ليسَ هو رُوحَ المصطفىٰ

ولا شخصُه بل هو مثالٌ له علىٰ التَّحقيقِ))[1].

فهذه أيها الأخُ الكريم نُبذةٌ مِن أقوالِ أئمَّةِ المسلِمين وشرَّاحِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ عَن مسألةِ رؤيةِ المصطفىٰ ﷺ، ورأيتَ كيف أنَّهم أثبَتوا حقيقةَ الرؤيةِ الكريمةِ، وأنَّ الرَّسولَ الكريم صلواتُ الله وسلامُه عليه معصُومٌ مِن أن يتصوَّرَ الشَّيطانُ بصورته الشَّريفةِ، وأنَّ رؤيتَه دليلُ فلاحٍ وصلاحٍ وفَوزٍ بالخيراتِ.

الرِّواياتُ عن رُؤيا النَّبي ﷺ في النَّومِ:

إنَّ رُؤيا المصطَفىٰ ﷺ أثناءَ النَّومِ مِن الأمورِ المشهورةِ المتنَاقلةِ بينَ المسلِمين عبرَ القرونِ، وقَعَت للكثيرِ مِن النَّاسِ ممَّن لا يُحصِيهم العدُّ، ونُقِلَت عنهم مشافهةً أو مِن خِلال كُتبِ السِّير والتَّراجِم وغيرِ ذلك ممَّا يَجعلُ هذِه الحكاياتِ والرِّواياتِ من المتواتراتِ التي يَستحِيلُ أن يَتواطَأَ النَّاسُ علىٰ الكذبِ فيها، والتي تَسكُن النَّفسُ إلىٰ التَّصديقِ بها سكُونًا يزولُ معَه الشَّكُّ ويَحصُلُ به الجَزمُ القاطعُ، فضلًا علىٰ أنَّ غالبيةَ المسلمينَ أو كثيرٍ منهم قد سَمِع من غيرِه عَن رواياتٍ لأُناسٍ معاصرينَ له قد أكرَمَهم الله سبحانَه برؤيةِ النَّبي ﷺ، بل قَد ورَدَ بعضُ هذِه الرِّواياتِ في كتب السُّنَّةِ، وسوف نذكُر طرفًا من هذا لنرىٰ مدَىٰ تواترِ ذلكَ وشهرتِه:

- فقد رَوَىٰ ابنُ أبي شيبةَ في مُصنَّفه عن مالك الدَّار- وكان خازنَ عمرَ علىٰ الطَّعام- قال: أصابَ النَّاسَ قحطٌ في زمن عمرَ فجاءَ رجلٌ إلىٰ قبرِ النَّبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله استَسقِ لأمَّتك فإنَّهم قد هلَكوا، فأتىٰ- أي النَّبيُّ ﷺ- الرجلَ في المنام فقِيل له: ((ائتِ عمرَ فأقرئْه السَّلامَ وأخبره أنَّكم مَسْقِيُّونَ وقل له: عليكَ الكيسَ عليكَ الكيسَ))

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (12/338 إلىٰ 342) للإمام ابن حجر العسقلاني- المطبعة الكبرىٰ الخيرية- بولاق- مصر- 1300هـ.

فأتىٰ عمرَ فأخبرَه فبكىٰ عمرُ ثمَّ قال: يا ربِّ، لا آلُو إلَّا مَا عَجزتُ[1].

- وأوردَ ابنُ كثيرٍ في البداية والنِّهايةِ عن عاصمِ بنِ عمر بنِ الخطَّابِ ﭬ: أنَّ رجلًا من مُزَينةَ عامَ الرَّمادةِ سألَه أهلُه أن يذبحَ لهم شاةً، فقال: ليسَ فيهنَّ شيءٌ، فألحُّوا عليه فذبحَ شاةً فإذا عظامُها حُمرٌ فقال: يا محمَّداه، فلمَّا أمسَىٰ أُري في المنام أنَّ رسولَ الله ﷺ يقولُ له: «أَبْشِرْ بالحياةِ، ائتِ عمرَ فأقرئْه منِّي السَّلامَ وقل له: إنَّ عهدِي بكَ وفيٌّ العهد شديدُ العقدِ، فالكيسَ الكيسَ يا عمَر» فجاءَ حتَّىٰ أتىٰ بابَ عمَر فقال لغلامِه: استأذِنْ لرسولِ رسولِ الله ﷺ، فأتىٰ عمرَ فأخبره ففزِعَ ثمَّ صعَدَ المِنبرَ فقالَ للنَّاسِ: أُنشِدكُم الله الَّذي هداكُم للإسلامِ هل رأيتُم فيَّ شيئًا تكرهُونَه؟ فقالوا: اللهمَّ لا، وعمَّ ذاك؟ فأخبرهم بقول المُزَنيِّ، وهو بلالُ بنُ الحارثِ ففَطِنُوا ولم يفطَن، فقالوا: إنَّما استَبطَأكَ في الاستِسقاءِ فاسْتَسْقِ بنا، فنادَىٰ في النَّاس فخطَب فأوجزَ ثمَّ صلَّىٰ ركعتيْنِ فأوجَز ثمَّ قال: اللهم عجزَت عنَّا أنصارُنا، وعجز عنَّا حولُنا وقوَّتُنا، وعجزَت عنَّا أنفسُنا، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بك، اللهم اسْقِنا وأحيِي البلادَ والعبادَ[2].

رؤيا سيِّدنا عثمان بن عفَّان يومَ استِشهادِه:

فقَد روَىٰ البزَّارُ في مسندِ عثمانَ بسندِه عن نافعٍ عن ابن عمرَ عن عثمان: أنَّه أشرفَ عليهم، فقال: إنِّي رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنَامِ فقالَ: «يا عثمانُ إنَّك تُفطِر عندَنا اللَّيلةَ». فأصبَحَ صَائمًا فقُتل مِن يومِه[3].

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (32665)، والبيهقي في دلائل النبوة (7/47). وصحَّح إسنادَه ابنُ كثير في البداية والنهاية (10/74)، وابن حجر في فتح الباري (2/412).

(2) البداية والنِّهاية (10/ 72- 73) لابن كثير- دار هجر- الطبعة الأولىٰ- القاهرة- 1997 م.

(3) أخرجه البزَّار في مسنده (347).

رُؤيا سيِّدنا بلال رضي الله عنه واشتياقُ النَّبي ﷺ لزيارته:

وكان بلال رضي الله عنه قد غادرَ المدينةَ بعد وفاةِ النَّبي ﷺ لعدَم قُدرته على الإقامةِ فيها بعدَ فِراقِ رسولِ الله ﷺ، وانتهى به المقامُ في الشَّامِ في زمنِ عمرَ، وقد أوردَ ابنُ الأثيرِ في أُسْدِ الغابةِ أنَّ بلالًا رأى النَّبيَّ ﷺ في منامِه وهو يقول: ((ما هذِه الجفوةُ يا بلالُ ما آنَ لكَ أن تزورَنا؟!)) فانتبه حزينًا، فركب إلى المدينة فأتى قبرَ النَّبيِّ ﷺ وجعلَ يَبكِي عندَه ويتمرَّغُ عليهِ، فأقبَل الحسنُ والحسينُ، فجعل يُقبِّلُهما ويضمُّهما، فقالَا له: نَشْتَهِي أن تؤذِّنَ في السَّحَر، فعَلَا سطحَ المسجدِ، فلمَّا قالَ: الله أكبر الله أكبر ارتجَّتِ المدينةُ، فلمَّا قال: أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا الله زادَت رجَّتُها، فلمَّا قال: أشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله خرجَ النِّساءُ من خدورِهنَّ، فما رُئي يومٌ أكثر باكيًا وباكيةً من ذلكَ اليوم[1].

رؤيا أمِّ سلمة رضي الله عنها:

روى التِّرمذي في سننِه رؤيا السَّيِّدة أمِّ المؤمنين أمِّ سلَمَة للنَّبيِّ ﷺ بسنَدِه عن رَزِين قالَ: حدَّثَتني سلمى قالَت: دخلتُ على أمِّ سلَمةَ وهي تَبكِي، فقلتُ: مَا يُبكِيكِ؟! قالَت: رأيتُ رسولَ الله ﷺ- تَعني في المنامِ- وعلى رأسِه ولحيتِه الترابُ، فقلْت: ما لكَ يا رسولَ الله؟! قال: ((شهِدتُ قَتْلَ الحُسينِ آنفًا))[2].

- روَى الإمامُ أحمد بن حنبل بسندِه في كتابِ فضائل الصَّحابة فقال: عن محمَّد بن علي السَّمان قال: سمعتُ رضوان السَّمان قال: كان لي جارٌ في منزلي وسُوقي، وكان يشتم أبا بكرٍ وعمرَ قال: حتى كثُر الكلامُ بيني وبينَه، حتَّى إذا كان ذات يومٍ شتمَهما وأنا حاضرٌ، فوقع بيني وبينَه كلامٌ كثيرٌ حتى تَناولني وتناولتُه، قال: فانصَرفتُ إلى منزلي وأنَا مغمومٌ حزينٌ ألومُ نفسي، قال: فنِمتُ وتركتُ العَشاء من الغمِّ قال: فرأيتُ

---

(1) أُسد الغابة في معرفة الصَّحابة(245/1) لابن الأثير- دار الفكر- بيروت- 1989م.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين عليهما السَّلام (3771).

رسولَ الله ﷺ في مَنامي مِن ليلتي، فقلتُ له: يا رسولَ الله، فلانٌ جاري في منزلي وفي سُوقي وهو يسبُّ أصحابَك، فقال: ((مَن أصحابي؟)) فقلتُ: أبو بكرٍ وعمر، فقال رسولُ الله ﷺ: ((خذْ هذِه المُديةَ فاذبَحه بهَا)) قال: فأخذتُه فأضجعتُه فذبحتُه، قال: فرأيتُ كأنَّ يديَّ قد أصَابها مِن دمِه، فألقيتُ المُديةَ وضربتُ بيديَّ إلىٰ الأرضِ فمسحتُها بالأرض، فانتبهتُ وأنا أسمَع الصُّراخَ من نحوِ الدَّار، فقلتُ للخادِم: انظُر ما هذَا الصُّراخ؟ فقال: فلانٌ ماتَ فجأةً، فلمَّا أصبَحنا نظَرنا إلىٰ حَلْقِه فإذا فيهِ خطٌّ موضعِ الذَّبحِ))[1] .

- وفي الحديثِ عن تفسيرِ الآية الكريمةِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:64].

أوردَ أهلُ التَّفسير روايةً توضِّح ما تدلُّ عليه وما تُرشد إليه هذه الآيةُ الكريمة، فقد قالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ رحمَه الله عندَ حديثِه عن هذِه الآية الكريمةِ: وقد ذكَر جماعةٌ منهم الشَّيخ أبو النَّصر الصَّباغ في كتابه الشَّامل هذِه القِصَّةَ المشهورةَ عن العُتبيِّ قال: ((كنتُ جالسًا عند روضةِ النَّبيِّ ﷺ فجاء أعرابيٌّ فقال: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله سمعتُ اللهَ يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتُكَ مُستغفرًا لذنبي مُستشفِعًا بك إلىٰ ربِّي ثمَّ أخذَ يقول:

يا خيرَ مَن دُفِنتْ بالقاعِ أعظمُه ... فطابَ من طِيبهنَّ القاعُ والأكَمُ
نَفْسِي الفِداءُ لقَبرٍ أنتَ سَاكنُه ... فِيهِ الْعَفَافُ وفيهِ الجُودُ والكَرَمُ

ثمَّ انصَرفَ الأعرابيُّ، فغلَبَتْني عيني، فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النَّوم فقال: ((يا عُتْبيُّ،

(1) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة(1/299).

الحق الأعرابيَّ فبشِّره بأنَّ الله قد غَفَرَ له))[1].

وقد عَدَّ الإمام النوويُّ ﷺ أنَّ هذا القولَ من أحسنِ ما يقولُه الزَّائر عندَ زيارتِه لقبر النَّبيِّ ﷺ.

- وقد ذُكِر أنَّ أبا عُبيدٍ القاسمَ بن سلَّام بنِ عبدالله الهَرَوي البغدادي (المتوفى 224هـ) قدِمَ مكَّةَ حاجًّا، فلمَّا قضَىٰ حَجَّه وأرَادَ الانصِرافَ اكترَىٰ إلىٰ العِراقِ ليَخرجَ صبيحةَ الغدِ، قال أبو عُبيد: فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ في رُؤيَاي وهو جالسٌ، وعلىٰ رأسِه قومٌ يحجبُونَه، والنَّاسُ يدخلُون ويسلِّمون عليهِ ويصافحونَه قال: فكلَّما دنوت لأدخلَ مع النَّاس مُنِعتُ، فقلتُ لهم: لِمَ لا تُخلُّون بيني وبينَ رسولِ الله ﷺ؟ فقالوا لي: لا والله، لا تَدخل عليهِ ولا تُسلِّم عليهِ وأنت خارجٌ غدًا إلىٰ العراقِ، فقلتُ لهم: إنِّي لا أخرجُ إذًا، فأخذُوا عهدِي ثمَّ خلُّوا بيني وبينَ رسولِ الله ﷺ، فدخلتُ وسلَّمتُ عليه وصافَحني، وأصبَحتُ ففَسَخت الكِراءَ وسكَنتُ مكَّةَ[2].

- ذكَر الحافظُ ابنُ حجرٍ العسقلانيُّ في شرحِه لدعاءِ النَّبي ﷺ عندَ الكَربِ وهو: ((لَا إلهَ إلا الله العظِيم الحلِيم، لا إلهَ إلَّا الله ربُّ السَّمواتِ والأرضِ وربُّ العرشِ العظيم))[3].

فقالَ: وقال ابنُ بطَّالٍ حدَّثني أبو بكْرٍ الرَّازي قال: كنتُ بأصبهانَ عندَ أبي نُعيم أكتبُ الحديثَ وهناك شَيخٌ يُقال له: أبو بكرٍ بنُ علي عليهِ مدار الفُتيا فسُعي بهِ عند السُّلطان

(1) ذكرها النووي في المجموع (274/8)، وابن كثير في تفسيره (140/4) بدون إسنادٍ.

وأخرجها بنحوها البَيهقيُّ في شعب الإيمان (3880) من طريق أبي علي الروذباري، حدثنا عمرو بن محمد بن عمرو بن الحسين بن بقية- إملاءً- حدثنا شكر الهروي، حدثنا يزيد الرقاشي، عن محمد بن روح بن يزيد البصري، حدَّثني أبو حرب الهلالي قال:... بنحوها.

(2) انظر: إنباه الرُّواة علىٰ أنباه النحاة (21/3) لجمالِ الدِّين أبي الحسَن عليِّ بنِ يوسُف القفطي- دار الفكر العربي- القاهرة- مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1986م.

(3) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب (6345)، ومسلِم في كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب دعاء الكرب (2730) من حديث ابن عبَّاس ﷺ.

فسُجِنَ فرَأيت النَّبيَّ ﷺ في المنامِ وجبريلُ عن يمينِه يحرِّك شفتَيه بالتَّسبيح لا يفتُر، فقالَ لي النَّبيُّ ﷺ: ((قُل لأبي بكرٍ بنِ عليٍّ يَدعو بدعاءِ الكَربِ الذي في صحيح البخاريِّ حتَّىٰ يفرِّج الله عنه)) قال: فأصبَحتُ فأخبَرتُه فدعَا به فلَم يكُن إلَّا قليلًا حتَّىٰ أُخرِجَ[1].

- أوردَ الحافظُ ابنُ عساكِر رحمَه الله في تاريخِ دمشقَ بسندِه فقالَ: حدَّثني شيخٌ مِن أفاضلِ المسلِمين قالَ: دخلتُ إلىٰ صنعاءَ إلىٰ عبدِالرَّزاق لسَماع الكتبِ فكان يَمتنِع عليَّ فيه ويتعاسَر عليَّ فرأيتُ النَّبِيَّ ﷺ في منَامي فقلتُ: يا رسولَ الله أنَا علىٰ بابِ عبدِالرزَّاقِ منذ مدَّة وهوَ يَمتَنِع علينا في الرِّوايةِ، فقال النَّبي ﷺ: ((اذهَب إلىٰ مدينةِ الرَّسول واسْمَع من القَعنبي كتابَ الموطأ لمالكِ بن أنس، واذهَب إلىٰ الشَّام واسْمَع مِن محَمَّد ابنِ يوسُف الفِريابي كُتبَ سُفيَان الثَّوري، وارجِع إلىٰ البَصرةِ واسْمَع من أبي النُّعمان عارم كُتب حمَّاد بن زيد)) قال فبكَّرتُ إلىٰ عبدِالرزَّاقِ وقصَصْتُ عليه هذه الرُّؤيا، فقالَ: شكَوتَني إلىٰ رسولِ الله ﷺ أَقِمْ عندَنا واصبِرْ عليَّ حتىٰ أقرأَ لكَ الكُتبَ. قال: فقُلتُ والله لا أقَمتُ يَومًا واحدًا فإنِّي أمتَثِل أمرَ رسولِ الله ﷺ[2].

- وأورَد كذلك في تاريخ دمشقَ بسندِه عن يعقوب بن سفيان قال: كنتُ في رحلَتي في طلَبِ الحديثِ، فدخلتُ إلىٰ بعضِ المدنِ، فصادَفتُ بها شيخًا احتَجتُ إلىٰ الإقامةِ عليه للاستِكثَارِ منه، وكانت نفقَتي قد قلَّت، وقد بَعُدتُ عن بلَدي ووطَني، فكنتُ أُدمِن الكتبةَ ليلًا وأقرأ عليهِ نهارًا، فلمَّا كان ذاتَ ليلةٍ كنتُ جَالسًا أنسخُ في السِّراج، وكان شتاءً وقد تصرَّمَ الليلُ، فنزلَ الماءُ في عيني، فلَم أبصِر السِّراجَ ولا الكُتبَ ولا البيتَ، ولا النَّسخ الذي كانَ في يدِي، فبكيتُ علىٰ نفسِي لانقطاعي عن بلَدي، وعلىٰ ما فاتَني من العِلم الذي كتبتُ، وما يفوتني مما كنتُ عزمتُ علىٰ كَتْبِه، فاشتدَّ بكائي

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري (124/11).

(2) تاريخ دمشق (332/56) للإمام أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر- تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- 1995 م.

حتَّىٰ انثنَيتُ علىٰ جَنبي، فحمَلَتني عينايَ فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النَّومِ، فنادَاني: ((يا يعقوبُ بن سفيانَ لِمَ أنتَ كئيبٌ؟)) فقلتُ: يا رسولَ الله، ذهَبَ بصَري فتحسَّرت علىٰ ما فاتَني من كتب سُنَّتِك، وعلىٰ الانقطاعِ عن بلدِي، فقال: ((ادنُ منِّي)) فدنَوت منه فأمرَّ يدَه علىٰ عيني كأنَّه يقرأُ عليهما، ثمَّ استَيقظتُ فأبصَرت وأخذتُ نُسَخِي، وقعدتُ في السِّراج أكتُب[1].

– وقد أوردَ الحافظُ الذهبي في ترجمةِ أبي بكر بن المقرئ أحدِ أئمَّةِ الحديثِ كلَامًا مِن أحدِ معاصرِيه جاءَ فيهِ: وقَد أفردَ الحافظُ أبو موسَىٰ المدِيني ترجمةَ ابنِ المقرئ فقالَ: نا معمَر بنُ الفاخِر نا عمِّي سمعت أبا نصرٍ بنَ أبي الحسن يقول: سمعت ابنَ سلامة يقول: قِيل للصَّاحب بن عبَّاد: أنت رجلٌ معتزليٌّ وابنُ المقرئ محدِّثٌ وأنت تُحبُّه! قال: لأنَّه كانَ صديقَ والدِي وقيل: مودَّةُ الآباءِ قرابةُ الأبناءِ، ولأنِّي كنتُ نائمًا فرأيتُ النَّبيَّ صلىٰ الله عليه وآله وسلَّم في النَّومِ يقولُ لي: ((أنتَ نائمٌ ووليٌّ من أولياءِ الله علىٰ بابِك)) فانتبَهتُ فدعوتُ البوَّابَ وقلتُ: مَن بالبابِ؟ قال: أبو بكْرٍ بنُ المقرئ[2].

– وممَّا رُوي عن رجوعِ الإمامِ أبي الحسَن الأشعري عن مذهبِ الاعتزالِ إلىٰ مذهبِ أهل السُّنَّة ما أوردَه الإمام تاجُ الدين السُّبكي في طبقاتِ الشَّافعيَّةِ فقالَ: ويُحكَىٰ مِن مبدأ رجوعِه أنَّه كان نائمًا في شهر رمضانَ فرأىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال له: ((يا عليُّ انصرِ المذاهبَ المرويَّةَ عنِّي فإنَّها الحقُّ)) فلمَّا استيقَظَ دخلَ عليه أمرٌ عظيمٌ ولَم يزَل مُفكِّرًا مَهمومًا مِن ذلك، وكانت هذِه الرُّؤيا في العَشرِ الأُوَّلِ فلمَّا كانَ العَشر الأوسَطِ رأىٰ النَّبيَّ ﷺ في المنامِ ثانيًا فقالَ: ((ما فَعلتَ فيما أمَرتُك بهِ؟)) فقال: يا رسولَ الله ومَا عسَىٰ أن أفعَل وقد خرَّجتُ للمذاهبِ المرويَّةِ عنك محامِلَ صحيحةً، فقال لي: ((انصُر المذاهبَ المرويَّةَ عنِّي فإنَّها

(1) تاريخ دمشق (163/74).

(2) تذكرة الحفاظ (122/3) للإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- دراسة وتحقيق: زكريا عميرات- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولىٰ- بيروت- 1998م.

الحقُّ)) فاستَيقظَ وهو شديدُ الأسَف والحزنِ وأجمَع علىٰ تركِ الكلامِ واتِّباع الحديثِ وملازمةِ تلاوةِ القرآن، فلمّا كانت ليلةَ سبعٍ وعشرين وكان مِن عادتِه سهرُ تلك اللَّيلةِ أخذَه مِن النُّعاسِ ما لَم يتَمالَك معه السَّهرَ فنامَ وهو يتأسَّف علىٰ تركِ القيامِ فيهَا فرَأىٰ النَّبيَّ ﷺ ثالثًا فقالَ له: ((ما صنَعتَ فيما أمَرتُك بهِ)) فقالَ: قد تركتُ الكلامَ يا رسولَ الله ولزِمتُ كتابَ الله وسُنَّتك، فقالَ له: ((أنَا ما أمرتُك بتركِ الكلامِ إنَّما أمرتُك بنُصرةِ المذاهبِ المرويَّةِ عنِّي فإنَّها الحقُّ)) قال: فقلتُ يا رسولَ الله كيفَ أدعُ مذهبًا تصوَّرت مسائلَه وعرفتُ دلائلَه منذ ثلاثينَ سنةً لرؤيا؟! قال: فقال لي: ((لولَا أنِّي أعلَم أنَّ الله يمدُّك بمدَدٍ من عندِه لما قمتُ عنك حتَّىٰ أبيِّن لك وجوهَها فجُدَّ فيهِ فإنَّ الله سيمدُّك بمددٍ من عندِه)) فاستيقَظَ وقال: ما بعدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ، وأخذَ في نُصرةِ الأحاديثِ في الرُّؤيةِ والشَّفاعةِ والنَّظرِ وغيرِ ذلك[1].

- وروَىٰ السُّبكي كذلك في الطَّبقاتِ في ترجَمةِ الإمام أحمَدَ بنِ حنبل بسنَدِه عن الرَّبيع بنِ سلَيمان قالَ: إنَّ الشَّافعيَّ ﷺ خرَجَ إلىٰ مصرَ فقالَ لي: يا ربيعُ خُذ كتابي هذا فامضِ به وسلِّمْه إلىٰ أبي عبدِالله وائتِني بالجوابِ، قالَ الرَّبيعُ: فدَخلتُ بغدادَ ومعي الكتابُ فصادَفتُ أحمدَ بنَ حنبل في صلاةِ الصُّبحِ، فلَمَّا انفتَلَ منَ المحرابِ سلَّمتُ إليه الكتابَ وقلتُ: هذا كتابُ أخيكَ الشَّافعي مِن مصرَ، فقالَ لي أحمدُ: نظرتَ فيه؟ فقلْت: لا، فكسَر الختَم وقرأَ وتغَرغرَت عينَاه! فقلتُ له: أيش فيه أبا عبدِالله؟ فقال: يذكُر فيه أنَّه رأىٰ النَّبيَّ ﷺ في النَّومِ فقالَ له: ((اكتُب إلىٰ أبي عبدِالله فاقرأْ عليه السَّلام وقُل له إنَّك ستُمتَحن وتُدعىٰ إلىٰ خَلْق القرآنِ فلا تُجبهم فيرفعُ الله لك علَمًا إلىٰ يومِ القيامةِ)) قال الربيعُ: فقلتُ له البشارةَ يا أبا عبدِالله، فخلَع أحدَ قميصَيه الذي يلي جِلده فأعطانيه، فأخذت الجوابَ وخرجتُ إلىٰ مصرَ وسلَّمتُه إلىٰ الشَّافعيِّ ﷺ، فقال:

(1) طبقات الشافعية الكبرىٰ (3/349) لتاج الدِّين السبكي- تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبدالفتاح محمد الحلو- دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع- الطبعة الثانية- 1413هـ.

أيش الذي أعطَاك؟ فقلتُ: قميصَه، فقال الشَّافعيُّ: ليسَ نفجعُك به، ولكِن بلَّه وادفَع إليَّ الماءَ لأتبرَّكَ بهِ))[1].

- قالَ الشَّيخ عبدُالوهَّابِ الشَّعراني ﵁: أخبرَني الشَّيخُ سلَيمان الخضيري الصُّوفي ﵁ قالَ: بينَما أنا جالِسٌ في الخضيريَّةِ علىٰ بابِ الإمام الشَّافعي إذْ رَأيتُ جماعةً عليهم بياضٌ وعلىٰ رءُوسهم عمامةٌ مِن نورٍ يقصدُونني مِن ناحيةِ الجبَل فلمَّا قربُوا منِّي فإذا هو النَّبيُّ ﷺ وأصحابُه ﵃ فقبَّلتُ يدَه فقالَ النَّبيُّ ﷺ: ((امضِ معنا إلىٰ الرَّوضة)) فذَهبتُ مع النَّبيِّ ﷺ إلىٰ بيتِ الشَّيخ جلالِ الدِّين، فخرَج إلىٰ النَّبي ﷺ وقبَّل يدَه وسلَّم علىٰ أصحابِهِ ثمَّ أدخلَه الدَّارَ وأجلَسَه وجلَسَ بين يدَيه، فصارَ الشَّيخُ جلالُ الدِّين يسألُ النَّبيَّ ﷺ عن بعضِ الأحاديثِ، وهو يقولُ: ((هاتِ يا شيخَ السُّنَّة))[2].

- وقد ورَدَ في طبقاتِ الشَّافعيَّةِ للإمامِ تاجِ الدِّين السُّبكي ذِكْرُ المنامِ الذي أَبصَره الإمامُ عامر السَّاوي بمكَّةَ: قال الحافظُ أبو القاسمِ ابنُ عساكِر في كتابِ التَّبيينِ سمعْتُ الشَّيخَ الفقيهَ الإمامَ أبا القاسم سعدَ بنَ علي بنَ أبي القاسِم بنَ أبي هريرةَ الإسفرايني بدمشقَ قال سمعتُ الشَّيخَ الإمامَ الأوحدَ زينَ القرَّاءِ جمالَ الحرمِ أبا الفتحِ عامر بنَ نجا ابنِ عامرٍ العربيِّ السَّاوي بمكَّةَ- حرسَها الله- يقولُ: دخلتُ المسجدَ الحرامَ يومَ الأحدِ فيما بينَ الظُّهرِ والعَصرِ الرَّابعَ عشر مِن شوَّال سنةَ خمسٍ وأربَعين وخمسمائةٍ، وكان بي نوعًا تكسُّرٍ ودورانِ رأسٍ، بحيث إنِّي لا أقدِر أن أقِفَ أو أجلِسَ لشدَّةِ مَا بي، فكنتُ أطلُبُ مَوضِعًا أَستَريحُ فيهِ ساعةً علىٰ جَنبي، فرأيتُ بابَ بيتِ الجماعةِ للرِّباطِ الرامُشتي عندَ بابِ الحَزْوَرةِ مَفتوحًا فقصدتُه ودخلتُ فيه ووقَعتُ علىٰ جَنبي الأيْمَن بحذاءِ الكَعبةِ المشرَّفةِ مُفترَشًا يدي تحتَ خدِّي لكي لا يأخذَني النَّومُ فتَنتقِضَ طهارتي، فإذا رَجلٌ مِن

---

(1) طبقات الشافعية الكبرىٰ (2/36).

(2) الطبقات الصغرىٰ المسمىٰ لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية (ص15) للشيخ عبدالوهاب الشَّعراني- تحقيق وضبط: توفيق علي وهبة وأحمد عبدالرحيم السايح- مكتبة الثقافة الدينية.

أهلِ البدعةِ معروفٌ بهَا جاء ونشرَ مُصلَّاه علىٰ بابِ ذلك البيت وأخرَجَ لوَيحًا مِن جَيبه- أظنُّه كانَ من الحَجَر- وعليهِ كتابةٌ فقبَّلَه ووضعَه بين يدَيه، وصلَّىٰ صَلاةً طويلةً مُرسِلًا يدَيه فيها علىٰ عادتِهم، وكان يَسجدُ علىٰ ذلك اللوَيح في كلِّ مرةٍ، وإذا فرغَ مِن صلاتهِ سَجَد عليه وأطَالَ فيه، وكان يَمْعَكُ خدَّه من الجانبين عليه، ويتضرَّع في الدُّعاء، ثم رفَع رأسَه وقبَّله ووضعَه علىٰ عينَيه، ثم قبَّلَه ثانيًا وأدخلَه في جَيبه كما كان.

قالَ: فلمَّا رأيتُ ذلك كرِهتُه واستَوحشتُ منه ذلك، وقلتُ في نفسي: ليتَ كان رسول الله ﷺ حيًّا فيما بيننا ليُخبرهم بسوءِ صَنيعِهم ومَا هم عليه منَ البدعةِ، ومع هذا التَّفكر كنتُ أطردُ النَّومَ عن نفسي كي لا يأخذَني فتفسد طهارتي، فبينا أنا كذلك إذ طرأ عليَّ النُّعاس وغلبَني، فكأنِّي بين اليقظة والمنام، فرأيت عرصةً واسعةً فيها ناسٌ كثيرونَ واقِفون، وفي يدِ كلِّ واحدٍ منهم كتابٌ مجلَّدٌ، وقد تحلَّقوا كلُّهم علىٰ شخصٍ، فسألتُ النّاسَ عن حالِهم وعمَّن في الحلقةِ؟ فقالوا: هو رسولُ الله ﷺ وهؤلاءِ أصحابُ المذاهبِ يُريدونَ أن يقرءُوا مذاهبَهم واعتقادَهم من كُتبهم علىٰ رسولِ الله ﷺ ويُصحِّحُوها عليه.

قالَ: فبينَا أنا كذلكَ أنظُر إلىٰ القومِ إذ جاءَ واحدٌ مِن أهل الحلقةِ وبيدِه كتابٌ قيل: إنَّ هذا هو الشَّافعيُّ ﵁، فدَخلَ في وسطِ الحلْقةِ وسلَّم علىٰ رسولِ الله ﷺ قال: فرأيتُ رسولَ الله ﷺ في جمَاله وكمَاله متلبِّسًا بالثِّيابِ البِيضِ المغسولةِ النَّظيفةِ منَ العمامةِ والقَميصِ وسائرِ الثِّيابِ علىٰ زيِّ أهلِ التَّصوُّفِ، فردَّ عليه الجوابَ ورحَّبَ به، وقعَد الشَّافعيُّ بين يدَيه وقرأ من الكتابِ مَذهبَه واعتقَادَه عليه.

وبعد ذلكَ جاءَ شخصٌ آخر قيلَ: هو أبو حنيفةَ ﵁ وبيدِه كتابٌ، فسلَّم وقعَدَ بجَنبِ الشَّافعيِّ، وقرَأَ مِن الكتابِ مذهبَه واعتقادَه عليه، ثُم أتَىٰ بعدَه كلُّ صاحبِ مذهبٍ إلىٰ أن لَم يبقَ إلَّا القليلُ، وكلُّ مَن يقرأ يقعدُ بجَنبِ الآخرِ.

فلمَّا فرَغوا إذا واحدٌ من المبتدعةِ الملقَّبةِ بالرَّافضةِ قد جاء وفي يدِه كراريسُ غيرُ مجلَّدةٍ، فيها ذكرُ عقائدِهم الباطلةِ، وهمَّ أن يدخلَ الحلْقةَ ويقرَأَها علىٰ رسولِ الله ﷺ فخرَجَ

واحدٌ مِمَّن كانَ مع رسولِ الله ﷺ إليهِ وزَجرَه وأخذَ الكراريسَ من يدِه ورمَىٰ بهَا إلىٰ خارجِ الحلقةِ وطردَه وأهانَه.

قال فلمَّا رأيت أنَّ القومَ قد فرغُوا وما بقي أحدٌ يقرأُ عليهِ شيئًا تقدَّمتُ قلِيلًا وكانَ في يدِي كتابٌ مجلَّد، فنادَيت وقلتُ: يا رسولَ الله هذا الكتابُ معتقَدي ومعتقدُ أهلِ السُّنَّة لَو أذِنتَ لي حتَّىٰ أقرَأه عليك، فقالَ رسولُ الله ﷺ: ((وأيُّ شيءٍ ذاكَ)) قلت: يا رسولَ الله هو قواعدُ العقائدِ الذي صنَّفَه الغزاليُّ، فأذِنَ لي بالقراءةِ فقعَدتُ وابتدَأتُ: بسم الله الرَّحمن الرَّحيمِ، كتابُ قواعدِ العقائد، وفيه أربعةُ فصولٍ: الفصلُ الأوَّل في ترجمةِ عقيدةِ أهل السُّنَّةِ في كلمتَي الشَّهادةِ التي هيَ أحدُ مباني الإسلَام، فنقولُ وبالله التَّوفيق: الحمدُ للهِ المبدئ المُعيد، الفعَّالِ لما يريدُ ذي العرشِ المجيدِ والبطشِ الشَّديدِ، الهادي صفوةَ العبيد إلىٰ المَنهجِ الرَّشيدِ والمسلكِ السَّديد، المنعمِ عليهم بعدَ شهادةِ التَّوحيدِ بحراسةِ عقائدِهم عن ظلُماتِ التَّشكيكِ والتَّرديدِ، السَّائقِ بهم إلىٰ اتِّباعِ رسولهِ المصطفىٰ ﷺ واقتفاءِ صحبهِ الأكرمين بالتأييدِ والتَّسديدِ... إلىٰ أن قال: معنىٰ الكلمة الثَّانية وهي شهادةُ الرَّسولِ ﷺ وأنَّه تعالىٰ بعَثَ النَّبيَّ الأميَّ القرشيَّ محَمَّدًا ﷺ برسالتِه إلىٰ كافَّةِ العربِ والعجَم والجنِّ والإنس، قالَ: فلمَّا بلَغتُ إلىٰ هذا رأيتُ البشاشةَ والبِشرَ في وجهِه ﷺ إذِ انتَهيتُ إلىٰ نعتِه وصِفَتِه، فالتَفتَ إليَّ وقالَ: ((أينَ الغزاليُّ؟)) فإذَا بالغزَالي كأنَّه واقفٌ علىٰ الحلْقةِ بينَ يديه، فقال هأنَا ذَا يا رسولَ الله، وتقدَّم وسلَّم علىٰ رسولِ الله ﷺ، فردَّ عليه الجوابَ وناولَه يدَه العزيزةَ، والغزالي يقبِّل يدَه ويضعُ خدَّيه عليها تبركًا بهِ وبيدِه العزيزةِ المباركةِ ثمَّ قعَد.

قال: فمَا رأيتُ رسولَ الله ﷺ أكثرَ استبِشارًا بقراءةِ أحدٍ مثلَ ما كانَ بقرَاءَتي عليهِ قواعدَ العقائدِ، ثمَّ انتبَهت منَ النَّومِ وعلىٰ عَيني أثرُ الدَّمعِ ممَّا رأيتُ مِن تلكَ الأحوالِ

والمشَاهداتِ والكراماتِ، فإنَّها كانَت نعمةً جسيمةً من الله تعالىٰ سيما في آخرِ الزَّمان مع كثرةِ الأهوَاءِ))[1].

- قالَ الإمام المُرَّاكشي: سمعتُ الشيخَ الصَّالحَ عبدَالرَّحيم بنَ عبدِالرَّحمن بنِ أحمدَ يقول: أصابَني وجعٌ في يدِي من وقعةٍ وقعتُها في حمَّامٍ فورِمَت يدي، فبتُّ ليلةً متوجِّعًا، فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ في المنامِ فقلت: يا رسولَ الله! فقال لي: ((أوحشَتني صلاتُك عليَّ يا ولَدي)) فأصبَحتُ وقد زَال الوجعُ والورَمُ ببَركتِه ﷺ[2].

- ورَوىٰ أيضًا : ورُوي أنَّ أبا بكرِ بنَ مجاهدٍ المقرئَ أتىٰ إليهِ أبو بكْرٍ الشِّبلي فدخلَ إليه إلىٰ مسجدِه فقام إليهِ، فتحدَّث أصحابُ ابنُ مجاهدٍ بحديثِهما، وقالوا له: أنتَ لم تقم لعلي بن عيسىٰ وتقوم للشِّبلي؟! فقال: ألَا أقومُ لمَن يعظِّمُه رسولُ الله ﷺ، رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النَّومِ فقالَ لي: ((يا أبَا بكرٍ إذَا كان في غدٍ فسيَدخلُ عليكَ رجلٌ مِن أهل الجنَّةِ، فإذا دخَلَ عليكَ فأكرِمْه)) قال ابنُ مجاهد: فلما كان بعد ذلك بليلتين رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النوم فقال لي: ((يَا أبَا بكرٍ أكرمَك الله كَما أكرمتَ رجلًا مِن أهلِ الجنَّةِ)) قلتُ: يا رسولَ الله بِما استَحقَّ الشِّبليُّ هذا مِنك؟ فقالَ: ((هذا رجلٌ يُصلِّي خمسَ صلواتٍ يذكُرُ في إثرِ كلِّ صلاةٍ ويقرأ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:128] الآية، يقولُ ذلكَ منذ ثلاثينَ سنةً أفلَا أُكرِم مَن يفعلُ هذَا؟))[3].

- وقالَ أيضًا: وسمعتُ أبا موسىٰ يقول: بلغَني أنَّ شيخنَا أبا الغيثِ ربيعًا الماردينيَّ يقرأُ القرآنَ في المصحفِ من غيرِ تعليمٍ سبَقَ منه للكتابةِ، وكنتُ أُنكِر ذلكَ، فلمَّا دخلتُ عليه بمكةَ وجدتُه وهو يقرأُ القرآنَ في المصحَفِ قرَاءةً مجوَّدةً، فسألتُه عن سببِ ذلك؟ قال:

---

(1) طبقات الشافعية الكبرىٰ (6/237-228).

(2) مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام عليه الصلاة والسلام في اليقظة والمنام (ص235) للشَّيخِ أبي عبدالله محمَّد بن موسىٰ بن النعمان المزالي المراكشي- دار الكتب العلمية- بيروت.

(3) المصدر السابق (ص230).

كنتُ في مدينةِ النَّبيِّ ﷺ أبيتُ في المسجدِ وأخلُو به ﷺ، فتشفَّعتُ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بالنَّبي ﷺ أن يُسَهِّلَ عليَّ القرآنَ في المصحفِ قالَ: وجلَسْتُ وأَخَذَتني سِنةٌ فرَأيتُ النَّبيَّ ﷺ وهو يقولُ: ((قد أجابَ الله دعاءَك فافتحِ المصحفَ واقرأ القرآنَ)) فلمَّا أصبحَ الصَّباحُ فتحتُ المصحفَ وشرعتُ في القراءةِ، فكنتُ أقرأُ في المصحفِ، فربَّما تتصحَّفُ عليَّ الآيةُ، فأنامُ فأرىٰ مَنْ يقول: الآيةُ تصحَّفَت عليكَ كذا وكذَا[1].

رؤيةُ النَّبي ﷺ في اليقظةِ:

في هذا المحور وحانَ الوقتُ الآنَ للكلامِ عن الجزءِ الثَّاني من موضوعِ هذِه الرِّسالةِ، وهو رؤيةُ رسولِ الله ﷺ في اليقظةِ والاجتماعُ بِهِ صلواتُ الله وسلامُه عليهِ، هل هذَا الأمرُ مِن الأمورِ الثابتةِ أم أنَّه مِن الأمورِ التي لا تقَع أصلًا؟ وكيف نفسِّر ورودَ هذا الأمرِ عن الأئمَّةِ والعلماءِ الأجلَّاءِ الذين تكلَّموا فيهِ وصرَّحوا به، بل وقالوا بوقوعِه معهم ومع غيرِهم، فكيفَ نفهَم هذِه المسألةَ في ضوءِ الشَّرعِ الشَّريفِ والقواعدِ العقليَّةِ والواقعِ المحسوسِ والكونيَّاتِ في هذا الوجودِ؟ هل تَتَّفق الرؤيةُ في اليقظةِ مع القواعدِ الشَّرعيَّةِ والعقليَّةِ أم تُخالفُهما؟ ولبَيانِ ذلك الأمرِ سوفَ نتعرَّضُ لعِدَّةِ جزئيَّاتٍ تمهِّدُ لفهمِ هذه المسألةِ الكريمةِ، وهي رؤيةُ المصطفىٰ صلواتُ الله وسلامُه عليه ووضعُها في الإطارِ الصَّحيحِ لها.

1- تحرير القول في هذه القضية علىٰ ضوء الكتاب والسنة:

إنَّ مسألةَ الرُّؤيةِ الكريمةِ لرسولِ الله ﷺ يَقظةً ليستْ من مسائلِ التَّشريعِ أو الاعتِقاد التي يترتَّب علىٰ الكَلامِ فيها أحكَامٌ أو زيادةٌ في دِين المرءِ أو نقصانٌ مِنه، وإنَّما غايةُ المسألةِ أنَّها من الأمورِ التي يُكرم الله بها مَن يشاءُ من عبادِه، فهي عطاءٌ ربَّاني وفضلٌ إلهي يخصُّ الله به مَن يشاء مِن عبادِه، فهي مِن مِنن الرحمنِ، وهي من الأمورِ الواقعيَّة الكونيَّةِ

(1) مصباح الظلام (ص97).

التي تلزَم مَن تَحدُث له فقط، ويَتحمَّل هو أمرَها كلَّه، والمصدِّقُ لها لا يلتزمُ بأيِّ التزاماتٍ شرعيَّةٍ أو عمليَّةٍ، وليسَت هي مِن الأمورِ التي يُتعصَّب لها نفيًا أو إثباتًا، فهي مِن باب الكراماتِ والخوارق التي يُكرِمُ الله سبحانه بها مَن يشاء مِن عبادِه، والتي قد تستوعبُها عقولُ البعضِ ولا تُحيط بها عقولُ البعضِ الآخرِ، وغايةُ الأمرِ والبحثِ في هذه المسألةِ- أن نَنظرَ هل هي منَ المستحيلاتِ العقليَّةِ التي لا يَقبل العقلُ بوقوعِها والقَبولِ بها أم أنَّها من المُمكِناتِ؟ فَمحلُّ بحثِ هذه المسألةِ من حيث القبولُ أو الرَّد هو عرضُها على العقلِ؛ لأنَّها من المسائلِ الكونيَّةِ أي التي تقَع في هذا الوجودِ وذلك لإخبارِ البعضِ من النَّاسِ بوقوعِها لَهم، وليس محلُّ البحثِ فيها عن طريقِ الأدلةِ الشَّرعيَّةِ، فمحلُّ الدليلِ الشَّرعي والمطالبةِ بهِ هو في المسائلِ العلميَّةِ الشَّرعيَّةِ وليس في المسائلِ الكونيَّةِ التي تقعُ، فلا نَستطيعُ مَثلًا أن نَطلُبَ دليلًا شرعيًّا على شروقِ الشَّمسِ، فدليلُ ذلك حسيٌّ وليس شرعيًّا ندركُه بالحواسِّ، فالعُمدةُ ومدار الأمرِ هو عدمُ مخالفةِ هذه المسائلِ الكونية التي تقعُ لأحدٍ ما لميزانِ العقلِ وقواعدِه، وعدم وجودِ معارضٍ شرعيٍّ لها، فمحلُّ قَبول المستمعِ لهذِه المسألةِ يدورُ أولًا على أنَّها ليسَت مِن المُحالاتِ العقليَّةِ كما سيَأتي بيانُه، وثانيًا كونُ المخبرِ بها مِن الصَّادقين الذين عُرفوا بالصَّلاحِ والعِلمِ واشتهروا بهِ، بالإضافةِ إلى وجودِ ما يؤيِّدها منَ الأدلةِ الشَّرعيَّةِ إذا فُهمت على النَّحو الصَّحيح، ثم أخيرًا هو أن القبول لها بابٌ من أبواب المحبة والمودة والشوق لرسول الله ﷺ.

2- وجود عوالم غير البشر في عالم الغيب لا نستطيع رؤيتها:

مِن المسلَّماتِ أن هناك عالمان عالمين عالمًا مشهودًا وعالمًا غيبيًّا ولا يُنكِر ذلك إلَّا المكابرُ، فكلُّ شيءٍ يقَع تحتَ حواسِّنا فهو عالَمٌ مشهودٌ كالمرئياتِ والمسموعاتِ والمشموماتِ والملموسَاتِ وغيرها كلُّ هذا عالَم مَشهودٌ، ولكنَّ هناكَ مغيَّباتٍ نعرفُها مِن آثارِها وإن لم تدركْها حواسُّنا؛ مثالُ ذلك: الجاذبيَّةُ الأرضيَّةُ فنحن لا نُدركُها ولكِن نُدرك ونسلِّم

بوجودِ آثارها التي تدلُّ عليها، وكذلك هناكَ مِن الغيبِ ما هُو موجودٌ بالفعلِ ولكن الحواسَّ الإنسانيَّةَ غيرُ مؤهَّلةٍ لإدراكِه والإحاطة به، وأقربُ الأمثلةِ على ذلك عالَمُ الفيروسَاتِ والبكتريا والميكْروباتِ لا تستطِيع الحواسُّ البشريَّةُ وحدها إدراكَها دون الاستعانةِ بالوسائلِ الحديثةِ من المَجاهرِ الإلكترونيةِ التي تكشِفُ عن هذِه العوالِم، فهذِه العوالِمُ مَوجودةٌ بالفعلِ ولها وجودُها ودورةُ حياتها وتكاثرُها ولكنَّنا لا ندركُها، وعدمُ إدراكِها لا يَنفي وجودَها، فهي مَوجودةٌ منذ بدءِ الخَلقِ ومع ذلك لَم نَستطِع الاطِّلاعَ عليها إلَّا في القَرنِ العشرين، وكذلك جسدُ الإنسانِ فيهِ منَ الغيبِ ما لا يَنكشِف إلَّا مع توفُّر وسائلَ وظروفٍ تُهيئُ ذلك، فمثلًا دقَّاتُ قلبِ الإنسان مع التَّسليم بوجودِها منذ تكوينِ الجنين في مرحلةٍ معيَّنةٍ وولادتِه- إلَّا أنَّ الإنسانَ لا يسمَعُ دقَّاتِ قلبِه أو دقَّاتِ قلبِ إنسانٍ آخر إلَّا مَع توفُّرِ الأجهزة المساعدة، أو الاقترابِ بالأُذن مِن الصَّدرِ، فعدمُ سماعِنا لهذِه الضَّرباتِ لا يَعني عدمَ وجودِها، فهي موجودةٌ ولكنَّنا لا ندركُها، وكذلك فعالَم الغيبِ مَوجودٌ ويحتوي على الكثيرِ من التَّفصِيلاتِ وأنواعِ الوجودِ الغَير مدركَةٍ لنَا، بل والحياة الكَاملة لمَخلوقاتٍ لا نرَاها، كلُّ ذلك يقبلُه العقلُ ولا يرفضُه حتى قبلَ أن يُخبرَنا الشَّرعُ الشَّريفُ بوجودِه، فكلُّ مَا في الأمرِ هو عدمُ إدراكِنا بالحواسِّ لهذا الغيبِ، ولكن إذا توفَّرَت الظُّروفُ قد يَنكشِفُ لنا هذا الغيبُ، فعدَمُ الإدراكِ لا يعني عدمَ الوجودِ، وهذا الأمرُ أظهرُ مِن أن يُكابرَ فيهِ أحدٌ، وهذا ينطبِقُ على العوالِمِ الغَيبيَّةِ عنَّا، والتي أخبَرنا عنها الله سبحانه وتعالى في كتابِهِ، وأخبرنَا عَنها النَّبيُّ ﷺ فقَد ورَدَ ذِكْرُ الغيبيَّاتِ والعوالمِ المختلفةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ:

- وقد ورَدَ ذِكر عالَم الملائكةِ قالَ الله سبحانَه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30].

وقال سبحانه: ﴿الحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾ [فاطر:1] وقولُ النَّبي الكريم ﷺ: ((خُلِقَتِ الملائكةُ من نُورٍ وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نارٍ وخُلِقَ آدمُ ممَّا وُصِفَ لكُم))[1].

- وقَد ورَد كذلك ذِكر عالَمِ الجنِّ في القرآنِ الكريم وأخبرَ عنهم الله عزَّ وجلَّ في غيرِ موضوع فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحِجر:27] وقالَ سبحانَه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾[الجن:1]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56].

وقد ورد ذِكرهم في السُّنة النبوية المطهَّرة، فقد روىٰ البخاريُّ في صحيحِه عن أبي هريرةَ ﷺ: أنَّه كان يَحملُ مع النَّبي ﷺ إداوةً لوضوئه وحاجتِه، فبينَما هو يَتبعُه بها، فقال: ((مَن هَذا)) فقال: أنا أبو هريرة، فقال: ((ابغِني أحجارًا أستَنفِضُ بها ولا تأتني بعظمٍ ولا برَوْثةٍ)) فأتيتُه بأحجارٍ أحملُها في طرفِ ثوبي حتَّىٰ وضعتُها إلىٰ جَنبِه، ثمَّ انصَرَفتُ حتَّىٰ إذا فرَغَ مشيتُ فقلت: ما بالُ العَظمِ والرَّوثةِ؟ قال: ((هُما مِن طعَامِ الجِنِّ وإنَّه أتاني وفدُ جِنِّ نَصِيبِينَ ونِعم الجِنُّ، فسألوني الزَّادَ فدَعوتُ اللهَ لهم أن لا يَمرُّوا بعَظمٍ ولا برَوْثةٍ إلَّا وجدُوا عليهَا طعامًا))[2].

وكذلك وردَ ذِكر عالَمِ الشَّياطِين في الكتابِ والسُّنَّةِ، فقد قالَ ربُّ العِزَّةِ سبحانَه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:6] وقالَ سبحَانَه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم:68].

(1) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (2996) من حديث عائشة ﵂.

(2) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب ذكر الجن (3860).

وقد ورَدَ في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ مَا يؤكِّد وجودَ الشَّياطين، فقَد روَىٰ مسلِمٌ في صحيحِه بسندِه عن ابن قُسَيطٍ أنَّ عروةَ حدَّثه أنَّ عائشةَ- زوجَ النَّبيِّ ﷺ- حدَّثته أنَّ رسولَ الله ﷺ خرَجَ مِن عندِها ليلًا، قالَت: فغِرتُ عليه، فجاءَ فرأَىٰ ما أصنَعُ فقالَ: ((ما لك يا عائشةُ أغرتِ)) فقلتُ: ومَا لي لَا يَغارُ مِثلي علىٰ مِثلِك؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: ((أَقَد جاءَكِ شَيطَانُكِ)) قالَت: يا رسولَ الله أَوَمَعي شيطانٌ؟ قال: ((نَعَم)) قلت: ومع كلِّ إنسانٍ؟ قال: ((نعَم)) قلت: ومعكَ يا رسولَ الله؟ قالَ: ((نَعَم ولكِنَّ رَبِّي أعَانَني عَليهِ حتَّىٰ أَسْلَمَ))[1].

فهذِه الأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ تُقرِّر وتُثبتُ وجودَ عوالمَ عاقلةٍ غيرِ بني البشرِ مع عدَم رؤيتِنا لها، والعقلُ الإنسانيُّ لا يَرفضُ هذا؛ بل يُقِرُّه ويَعترفُ بِهِ، بالإضافةِ إلىٰ ما وَرَدَ عبرَ التَّاريخِ والرِّواياتِ مِن احتِكاكِ البَشرِ بهذِه العوالمِ والاطِّلاعِ علىٰ بعضِ ما يَخصُّهم وتجاوبهم معهَا، وذِكر هذِه العوالِم والمخلوقاتِ في تاريخِ جميعِ الحضاراتِ البشريَّة، وإن كان ذلكَ تحتَ مُسمَّياتٍ مختلِفةٍ، ولا يقتَصِر الغيبُ علىٰ المخلوقَاتِ العاقِلَةِ فقَط، ولكِن لا يُحيطُ بالغيوبِ إلا علَّامُ الغيوبِ سبحانه، فلا نعلَم عنها إلَّا ما أخبَرنا به ربُّنا جلَّ وعلَا، أو أخبرنا به نبِيُّنا الكَريمُ، أو سمَحَت الظروفُ أن نطَّلع عليهِ بشكلٍ أو بآخر.

كلِمةٌ حولَ الكَراماتِ وانكِشافِ الغَيبِ

قد يَستغربُ البعضُ الحديثَ عن انكِشافِ الغيب والعوالِمِ التي لَا نرَاها ويرىٰ أنَّ هذا مِن المستحِيلاتِ أو الأمورِ العجيبةِ، ولكِن سيزولُ هذا كله عندَ النَّظرِ إلىٰ أنَّ القُدرةَ الإلهيَّة مطلَقةٌ لَا حدَّ لَها، وأنَّ الكرامةَ هي فِعْلُ الله، وليس للإنسانِ مدخلٌ في حدُوثِها، وإنَّما هي صورةٌ مِن صورِ الكَرَمِ الإلهيِّ والرحمةِ الربَّانيةِ التي يُكْرِمُ الله بها مَن يشاءُ مِن عبادِه يدرِك المرءُ إمكانيَّةَ وقوعِ الكرامَاتِ.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينًا (2815).

وقد تَواتَرتِ النُّقولُ عن أهلِ العِلمِ وأئمَّةِ الإسلامِ من مختلَفِ الفِرَقِ والمذاهبِ على ثُبُوتِ وصحَّة كَراماتِ الأولياءِ، فالأولياءُ هم الصَّفوة بعدَ الأنبياءِ والرُّسل، والوليُّ مُشتَقٌّ مِن الوَلاءِ والقُربِ، وقَد قالَ الله سبحانَه وتعَالىٰ فيهم: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون ﴿62﴾ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُون ﴿63﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم﴾ [يونس: 62-64] وأُمَّةُ الإسلامِ لا تَخلو مِن الأولياءِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وذلك لعُلوِّ مَقامِها وأفضليَّتِها مع عُلوِّ قَدْر نَبيِّنا ﷺ.

قالَ الإمامُ أحمد بنُ محمَّد بنِ حجرٍ الهيتميُّ الشَّافعي في الفتاوىٰ الحديثيَّة: ((كراماتُ الأولياءِ حَقٌّ عندَ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ، خلافًا للخَاذيل المعتزلةِ)). ثمَّ قال: ((والحاصِلُ: أنَّ كرامةَ الوليِّ مِن بعضِ معجزاتِ النَّبي ﷺ؛ لكِن لعِظَم اتِّباعِه له أظهرَ الله بعضَ خواصِّ النَّبي علىٰ يدَي وارثِه ومُتَّبعه في سائرِ حركَاتِه وسكنَاتِه))[1].

ويقولُ الإمامُ الفَخرُ محَمَّد بنُ عمر الرازيُّ في كتابِهِ الأربعين في أصولِ الدِّين أثناءَ الحديثِ عن مَقامِ إثباتِ كراماتِ الأولياءِ: ((إنَّ حدوثَ الحَبَلِ لمريمَ مِن غيرِ الذَّكَر مِن خوارِق العادَاتِ، وحضورَ الرِّزقِ عندَها من غيرِ سَبَبٍ ظَاهرٍ من خَوارقِ العادَاتِ))[2].

وهذا أحدُ أئمَّةِ الحنابلةِ الإمام محَمَّد بنُ أحمد السَّفاريني يقولُ في كتابِهِ لوامع الأنوارِ البَهيَّة: ((والحاصِل: أنَّ الكرامةَ لابدَّ أن تكونَ أمرًا خارقًا للعادةِ أتىٰ ذلكَ الخارقُ عن امرئ صالحٍ، وهو الوليُّ العارفُ بالله وصفاتِه حسَب ما يُمكِن، المواظبُ علىٰ الطَّاعاتِ المجتَنبُ للمعاصِي))[3].

---

(1) الفتاوىٰ الحديثيَّة (ص 78، 79) للإمام ابن حجر الهيتمي- دار الفكر- بيروت.

(2) الأربعين في أصول الدين(199/2) للإمام فخر الدين الرازي- تحقيق: أحمد حجازي السَّقا- مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة- الطبعة الأولىٰ- 1406هـ.

(3) لوامعُ الأنوار البهيَّة وسواطعُ الأسرار الأثريَّة (392/2) للشيخ شمس الدين أبي العون محَمَّد بن أحمد ابن سالِم السفاريني- مؤسسة الخافقين- دمشق- الطبعة الثانية- 1982م.

وقالَ الإمامُ سعدُ الدِّين مسعودُ بنُ عمر التَّفتازانيُّ في شرحِ المقاصِد: ((الوليُّ: هو العارفُ باللهِ تعالىٰ، الصَّارفُ همَّتَه عمَّا سِواه، والكرامةُ: ظُهورُ أمرٍ خارقٍ للعادةِ من قِبلِهِ بلا دَعوىٰ النبوَّةِ، وهيَ جائزةٌ ولو بقَصدِ الوليِّ، ومِن جنسِ المعجزاتِ لشُمولِ قُدرةِ اللهِ تعالىٰ)) ثمَّ قال بعدَ ذلك: ((وبالجُملةِ ظهورُ كراماتِ الأولياءِ يكادُ يُلحَق بظُهورِ معجزاتِ الأنبياءِ، وإنكارُها ليسَ بعجيبٍ مِن أهل البدَعِ والأهواءِ))[1].

ويقول العلَّامةُ عبدالرحمنِ بنُ خلدون أثناءَ كلامِه عنِ الصُّوفيَّةِ: ((وأمَّا الكلامُ في كراماتِ القومِ وإخْبارِهم بالمغيَّباتِ وتصَرُّفِهم في الكائناتِ فأمرٌ صحيحٌ غيرُ منكَرٍ... إلىٰ أن قال: مع أنَّ الوجودَ شاهدٌ بوقوعِ الكثير من هذِه الكراماتِ، وإنكارُها نوعُ مكابرةٍ، وقد وقعَ للصَّحابة وأكابر السَّلفِ كثيرٌ من ذلك، وهو معلومٌ مشهورٌ))[2].

وقال الإمامُ أبو إسحَاق إبراهيمُ بن موسَىٰ الشَّاطبيُّ الغرناطيُّ في الموافقاتِ: ((إنَّ جميعَ ما أُعطيَتْ هذه الأُمَّةُ من المَزايا والكراماتِ والمُكاشفاتِ والتَّأييداتِ وغيرِها من الفضائلِ إنَّما هي مُقتبسَةٌ مِن مِشكاةِ نبيِّنا ﷺ لكن علىٰ مِقدارِ الاتِّباعِ، فلا يَظنُّ ظانٌّ أنَّه حصَلَ علىٰ خيرٍ بدون وساطةٍ نبويَّةٍ، كيف وهو السِّراجُ المنيرُ الذي يَستضيءُ بِهِ الجميعُ، والعَلَمُ الأعلَىٰ الذي يُهتدَىٰ به في سلوكِ الطريقِ؟!))[3].

وقالَ أيضًا: ((كلُّ مَا يُنقلُ عن الأولياءِ أو العلماءِ إلىٰ يومِ القيامةِ من الأحوالِ والخوارقِ والفُهومِ وغيرِها فهي أفرادٌ وجزئيَّاتٌ داخِلةٌ تحتَ كُليَّاتِ ما نُقلَ عنِ النَّبي ﷺ))[4].

---

(1) شرح المقاصد (5/72- 75) للإمام سعد الدين التفتازاني- تحقيق: عبدالرحمن عميرة- عالَم الكتب- بيروت- الطبعة الثانية- 1998م.

(2) مقدِّمة ابن خلدون (ص623) للعلامة عبدالرحمن بن محَمَّد الشهير بابن خلدون- دار الفكر- بيروت.

(3) الموافقات (2/438) للعلامة أبي إسحاق الشاطبي- ضبط نصه: مشهور بن حسن آل سلمان- دار ابن عفان- السعودية- الطبعة الأولىٰ- 1997م.

(4) المصدر السابق (2/439- 440).

وقال الإمامُ أبو عبدالله محَمَّد بنُ أحمدَ القرطبيُّ في الجامعِ لأحكامِ القرآنِ: ((كَـراماتُ الأولياءِ ثابتةٌ علىٰ مَا دَلَّتْ عليهِ الأخبارُ الثَّابتةُ والآياتُ المتواترةُ، ولا يُنكِرها إلَّا المبتدعُ الجاحدُ، أو الفاسقُ الحائدُ))[1].

وقال الإمامُ النَّووي في شرحِ صحيحِ مسلمٍ عند الحديثِ عن جُريج والصَّبيِّ الَّذي تكلَّم في المهدِ: ((ومنها: إثباتُ كراماتِ الأولياءِ وهو مذهبُ أهل السُّنَّةِ خلافًا للمعتزلةِ، وفيه أنَّ كراماتِ الأولياءِ قد تَقعُ باخْتِيارِهم وطلبِهم، وهذا هُو الصَّحيحُ عند إخوانِنا المتكلِّمينَ، ومنهم مَن قالَ: لا تقعُ باخْتِيارِهم وطَلبِهم، وفيه أنَّ الكراماتِ قد تـكونُ بخوارقِ العاداتِ علىٰ جميعِ أنواعِها، ومَنعَه بعضُهم وادَّعىٰ أنَّها تختصُّ بمثلِ إجابةِ دعاءٍ ونحوِه، وهذا غلطٌ مِن قائلِه وإنكارٌ للحِسِّ بل الصَّوابُ جرَيانُها بقلْبِ الأعيانِ وإحضارِ الشَّيءِ منَ العدَمِ ونحوِه))[2].

فهذِه أقوالُ بعضِ أهل العِلْم في إثباتِ الكراماتِ وحدوثِها في أمَّةِ الإسلامِ والأممِ السَّابقةِ، وعلىٰ أنَّ هذا هو مذهبُ أهل السُّنَّةِ والجماعةِ، فرُؤيةُ رسولِ الله ﷺ يقظَةً أو منَامًا كرامةٌ منَ الله سبحانَه وتعَالىٰ يُكْرِم بهَا مَن يشاءُ مِن عبادِه، ولا يُنكِرها العقلُ أو يقولُ باستحالتِها.

الآثار الدالة علىٰ حدُوثِ انكِشاف لبعضِ العوالِم الغَيبيَّةِ

روَىٰ الإمامُ أحمدُ بسنَدِه عن حارثةَ بنِ النُّعمان قالَ: مَررتُ علىٰ رسولِ الله ﷺ ومعَه جبريلُ عليهِ السَّلامُ جالسٌ في المقاعِد فسلَّمتُ عليه ثم أجزتُ فلمَّا رجعتُ وانصرفَ النَّبي ﷺ قالَ: ((هَل رَأيتَ الذي كانَ مَعِي)) قلتُ: نعَم. قال: ((فإنَّه جِبريلُ وقد رَدَّ

(1) تفسير القرطبي المسمىٰ الجامع لأحكام القرآن (28/11) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية- القاهرة- الطبعة الثانية- 1964م.

(2) شرح النَّووي علىٰ مسلم (108/16) تأليف: محيي الدين بن شرف النووي- دار إحياء التراث العربي- الطبعة الثانية- 1392هـ.

عليكَ السَّلامَ))[1]. وفي مسندِ أحمدَ أيضًا عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: كنتُ مع أبي عند رسولِ الله ﷺ وعنده رجلٌ يُناجِيه، فكان كالمُعرِض عن أبي فخرَجنا مِن عنده، فقالَ لي أبي: أي بُني ألم ترَ إلىٰ ابنِ عمِّك كالمُعرِضِ عنِّي! فقلتُ: يا أبتِ إنَّه كان عندَه رجلٌ يُناجِيه، قال: فرجَعنَا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقالَ أبي: يا رسولَ الله قلتُ لعبدالله كذا وكذا فأخبرني أنَّه كان عندك رجلٌ يناجيكَ، فهل كان عندَك أحدٌ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: ((وهل رأيتَه يا عبدَالله)). قال: قلتُ نعم. قال: ((فإنَّ ذاكَ جبريلُ وهُو الذي شغَلَني عنكَ))[2].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: عادَ رسولُ الله ﷺ رجلًا منَ الأنصارِ، فلمَّا دنَا مِن مَنزله، سمِعَه يتكَلَّمُ في الدَّاخلِ، فلَمَّا استَأذَنَ عليهِ دخَلَ فلَم يرَ أحدًا، قالَ له رسولُ الله ﷺ: ((سمِعتُك تُكلِّمُ غيرَكَ)) قال: يا رسولَ الله لقد دَخلتُ الداخلَ اغتِمامًا بكلامِ النَّاسِ مِمَّا بي مِن الحُمَّىٰ، فدخلَ عليَّ داخلٌ ما رأيتُ رجلًا قطُّ بعدَك أكرَمَ مجلِسًا ولا أحسنَ حدِيثًا منه، قالَ: ((ذلكَ جبريلُ وإنَّ منكم لرجالًا لَو أنَّ أحدَكم يقسمُ علىٰ الله لأبرَّهُ))[3].

وفي صحيحِ مسلِمٍ عن مطرف قال: قالَ لي عمرانُ بنُ حصَين أُحدِّثُك حدِيثًا عسىٰ الله أن ينفعَك بهِ: إنَّ رسولَ الله ﷺ جمعَ بين حجَّةٍ وعمرة، ثم لم يَنْهَ عنه حتَّىٰ ماتَ، ولم ينزلْ فيه قرآنٌ يحرِّمه، وقد كان يُسلَّمُ عليَّ حتىٰ اكتويتُ فترُكتُ، ثم تركتُ الكيَّ فعادَ[4].

وروىٰ الطَّبرانيُّ في المعجمِ الكبيرِ بسَندِه عن قتادةَ: أنَّ الملائكَةَ كانَت تُصَافِح عمرانَ ابنَ حُصَينٍ حتَّىٰ اكتَوىٰ[5].

(1) أخرجه معمر في جامعه (20545 - ملحق بمصنف عبدالرزاق) وأحمد في مسنده (5/ 433).
(2) أخرجه أحمد في مسنده (1/293- 294).
(3) أخرجه الطبراني في الكبير (12/ 11)، والبيهقي في دلائل النبوة(7/76).
(4) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب جواز التمتع (1226).
(5) أخرجه الطبراني في الكبير (18/ 107).

وقد قالَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ العسقَلاني: ((وقد ثبَتَ عن عِمران بنِ حُصينٍ أنَّه كانَ يسمعُ كلامَ الملائكَةِ))[1].

وقالَ المبَاركفوريُّ في شرحِ التِّرمذيِّ: ((عمران بنُ حُصين- بالتَّصغيرِ- كانَ مِن علماءِ الصَّحابةِ، وكانَت الملائكةُ تُسلِّمُ عليهِ وهو ممَّن اعتزلَ الفتْنةَ))[2].

- وقَد روَىٰ البخاريُّ في صحيحِه عن أبي هريرة ﵁ قالَ: وكَّلني رسولُ الله ﷺ بحفظِ زكاةِ رمضانَ، فأتَاني آتٍ فجعلَ يحثُو منَ الطَّعامِ فأخذتُه، وقلتُ: والله لأرفعنَّك إلىٰ رسولِ الله ﷺ، قال: إنِّي محتاجٌ، وعليَّ عيالٌ ولِي حاجةٌ شدِيدةٌ، قالَ: فخَلَّيتُ عنه، فأصبَحتُ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: ((يَا أبا هريرةَ، ما فعلَ أسيرُك البارحةَ؟)). قالَ: قلتُ: يا رسولَ الله، شكَا حاجةً شديدةً، وعيالًا، فرحمتُه، فخلَّيت سبيلَه، قالَ: ((أمَا إنَّه قَد كذَبَك، وسَيعودُ)) فعرَفت أنَّه سيعودُ، لقولِ رسولِ الله ﷺ إنَّه سيَعودُ، فرَصدتُه، فجاءَ يحثُو منَ الطَّعامِ، فأخذتُه، فقلت: لأرفعنَّك إلىٰ رسولِ الله ﷺ، قالَ: دَعني فإنِّي محتاجٌ وعليَّ عيالٌ، لا أعودُ، فرحِمتُه، فخلَّيتُ سبيلَه، فأصبَحتُ، فقالَ لي رسولُ الله ﷺ: ((يَا أبا هريرةَ، ما فعَلَ أسِيرُك؟)) قلتُ: يا رسولَ الله شكَا حاجةً شديدةً، وعيالًا فرَحِمتُه، فخلَّيتُ سبيلَه، قالَ: ((أمَا إنَّه قد كذَبَك وسَيعودُ)) فرصدتُه الثَّالثةَ، فجاء يحثُو مِن الطَّعامِ، فأخذتُه، فقلت: لأرفَعنَّك إلىٰ رسولِ الله، وهذا آخرُ ثلاثِ مرَّاتٍ، إنَّك تزعمُ لا تعودُ، ثمَّ تعودُ قالَ: دَعني أعلِّمْك كلماتٍ ينفعُك الله بهَا، قلتُ: مَا هو؟ قالَ: إذَا أَوَيتَ إلىٰ فرَاشِك، فاقرأْ آيةَ الكرسيِّ: ﴿الله لا إلهَ إلَّا هوَ الحيُّ القيُّومُ﴾ [البقرة: 255] حتَّىٰ تختمَ الآيةَ، فإنَّك لَن يزالَ عليك مِن الله حافظٌ، ولا يقربنَّك شيطانٌ حتَّىٰ تصبِحَ، فخلَّيتُ سبِيلَه، فأصبَحتُ فقالَ لي رسولُ الله ﷺ: ((مَا فعَل أسِيرُكَ

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري (1/115).

(2) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي(71/2) للعلامة أبي العلا محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري- دار الكتب العلمية- بيروت.

البارحةَ؟)) قلتُ: يا رسولَ الله، زعَمَ أنَّه يعلِّمُني كلِماتٍ يَنفعني الله بهَا، فخلَّيتُ سبيلَه، قالَ: ((ما هي؟)) قلتُ: قال لي: إذَا أَويتَ إلىٰ فراشِك فاقرأْ آيةَ الكُرسيِّ مِن أوَّلِها حتَّىٰ تختِمَ الآية: ﴿الله لا إلهَ إلَّا هوَ الحَيُّ القيُّومُ﴾[البقرة: 255] وقالَ لي: لَن يزالَ عليك مِن الله حافِظٌ، ولا يقربُكَ شيطانٌ حتَّىٰ تُصبحَ- وكانوا أحرصَ شيءٍ علىٰ الخيرِ- فقالَ النَّبيُّ ﷺ: ((أمَا إنَّه قد صدَقَك وهوَ كذوبٌ، تعلَمُ مَن تُخاطِبُ منذ ثلاثِ ليالٍ يا أبَا هريرةَ))، قالَ: لا، قال: ((ذاك شَيطانٌ))[1].

وقد رَوىٰ التِّرمذي عن أبي عُثمانَ ابنِ مسعودٍ قال: صلَّىٰ رسولُ الله ﷺ العشاءَ ثمَّ انصرَفَ فأَخذَ بيدِ عبدِالله بن مسعودٍ حتَّىٰ خرَجَ بِهِ إلىٰ بَطحاءِ مكَّةَ، فأَجلَسَه ثمَّ خَطَّ عليهِ خَطًّا، ثمَّ قالَ: ((لا تَبرَحنَّ خطَّكَ فإنَّه سيَنتَهي إليك رجالٌ فلا تُكلِّمُهم فإنَّهم لا يكلِّمونَكَ)) قال: ثُم مضَىٰ رسولُ الله ﷺ حيثُ أرادَ، فبينَا أنا جالِسٌ في خطِّي إذْ أتَاني رجالٌ كأنَّهم الزُّط، أشعارُهم وأجسامُهم، لا أرَىٰ عورةً ولا أرىٰ قِشْرًا، ويَنتهونَ إليَّ لا يُجاوزُون الخطَّ، ثمَّ يَصدرُون إلىٰ رسولِ الله ﷺ حتَّىٰ إذا كانَ مِن آخرِ اللَّيلِ، لكِنَّ رسولَ الله ﷺ قد جاءَني وأنَا جالسٌ، فقالَ: ((لقَد أُراني منذُ اللَّيلة)) ثمَّ دخَل عليَّ في خطِّي فتوسَّد فَخِذِي فرَقدَ، وكانَ رسولُ الله ﷺ إذا رقَدَ نفَخَ، فبينَا أنا قاعِدٌ ورسولُ الله ﷺ متَوسِّدٌ فخذِي إذَا أنا برجالٍ عليهم ثِيابٌ بيضٌ الله أعلَم ما بهِم مِن الجَمالِ فانتَهوا إليَّ، فجَلَس طائِفةٌ مِنهم عندَ رأسِ رسولِ الله ﷺ وطائفةٌ مِنهم عندَ رجلَيه، ثمَّ قالوا بينَهم: مَا رأينا عبدًا قطُّ أُوتي مِثلَ مَا أُوتي هذا النَّبيُّ، إنَّ عينَيه تَنامَان وقلبَه يقظَان، اضرِبوا له مَثلًا، مثلُ سيِّدٍ بَنَىٰ قَصرًا ثمَّ جعلَ مأدُبةً فدَعا النَّاسَ إلىٰ طعَامِه وشَرَابه، فَمن أجابَه أكلَ مِن طعامِه وشَرِبَ مِن شرابِهِ، ومَن لم يُجبْه عاقَبَه- أو قالَ: عذَّبَه- ثمَّ ارتفعُوا، واستيقَظَ رسولُ الله ﷺ عندَ ذلك فقالَ: ((سمِعتَ ما قالَ هؤلاءِ؟ وهل تَدري مَن

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكِّل فهو جائز وإن أقرضه إلىٰ أجل مسمًّىٰ جاز (2311).

هؤلاءِ؟)) قلتُ: الله ورسولُه أعلَم. قال: ((هم الملَائكةُ، فتَدري ما المَثلُ الذي ضرَبوا؟)) قلت: الله ورسولُه أعلَم. قال: ((المَثلُ الذي ضَرَبوا، الرَّحمنُ تباركَ وتعالىٰ بنَىٰ الجنَّةَ ودَعا إليهَا عبادَه فَمن أجابَه دخلَ الجنَّةَ ومَن لَم يُجبْه عاقَبَه أو عَذَّبَه))[1].

وعَن أبي سَعيدٍ الخدري أنَّ أُسيدَ بنَ حُضيرٍ بينَما هو ليلة يقرأُ في مِرْبَدِه، إذ جالَت فرَسُه، فقرَأَ، ثمَّ جالَت أخرَىٰ، فقرأَ، ثمَّ جالَت أيضًا، قالَ أُسيدٌ: فخشِيتُ أنْ تطَأَ يَحيىٰ، فقمتُ إليها، فإذا مثلُ الظُّلَّةِ فوقَ رأسِي فيها أمثالُ السُّرُجِ عرَجَت في الجوِّ حتىٰ ما أراها، قال: فغدَوتُ علىٰ رسولِ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله بينَما أنا البارحةُ مِن جَوفِ اللَّيل أقرأُ في مِرْبدي، إذ جالَت فرَسي، فقالَ رسولُ الله ﷺ: ((اقرأْ ابنَ حُضيرٍ)) قال: فقرَأت، ثم جالَت أيضًا، فقالَ رسولُ الله ﷺ: ((اقرَأ ابنَ حُضيرٍ)) قال: فقرأتُ، ثمَّ جالَت أيضًا، فقالَ رسولُ الله ﷺ: ((اقرَأْ ابنَ حُضيرٍ)) قال: فانصَرفتُ، وكان يَحيىٰ قريبًا مِنها، خَشِيتُ أن تطَأَه، فرأيتُ مثلَ الظُّلَّةِ فيهَا أمثالُ السُّرُجِ عرَجَت في الجوِّ حتَّىٰ ما أرَاها، فقالَ رسولُ الله ﷺ: ((تلكَ الملَائكةُ كانَت تَستَمعُ لك ولَو قرَأتَ لأصبَحَتْ يرَاها النَّاسُ ما تَستَتر مِنهم))[2].

قال ابنُ إسحاقَ: ((وحدَّثني عبدُالله بنُ أبي بكرٍ أنَّه حدَّثَ عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: حدَّثني رَجلٌ مِن بَني غِفارٍ قال: أقبَلتُ أنَا وابنُ عمٍّ لي حتَّىٰ أصعَدنا في جبلٍ يُشرفُ بنا علىٰ بدرٍ- ونحن مشرِكان- نَنتظِر الوقعةَ علىٰ مَن تكون الدَّبَرةُ فننتَهب مع مَن يَنتَهِب، قالَ: فبينَا نحن في الجبَلِ، إذ دَنَت منَّا سَحابةٌ، فسَمِعنَا فيهَا حَمحَمةَ الخيلِ، فسمِعتُ قائلًا

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الله لعباده (2861) وقال الترمذي: ((حسن صحيح غريب)).

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (5018)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن (796)، واللفظ لمسلم.

يقولُ: أَقدِم حَيْزوم، فأمّا ابنُ عمّي فانكَشَفَ قِناعُ قلبِه فماتَ مكَانَه، وأمّا أنا فكِدتُ أهلِك، ثمّ تماسَكتُ.

قال ابنُ إسحاقَ: وحدَّثني عبدُالله بن أبي بكرٍ عن بعضِ بني ساعدَة عن أبي أُسيدٍ مالكِ ابن ربيعة- وكان شَهِدَ بدرًا- قال بعدَ أنْ ذهَبَ بصَرُه: لو كنتُ اليومَ بِبَدرٍ ومعي بصَرِي لأَريتُكم الشِّعبَ الذي خرَجَت منه الملَائكةُ، لا أشكُّ فيهِ ولا أتَمارَىٰ))[1].

- وقد أورَد ابنُ القيِّم في كتابِ الرُّوحِ أمثلةً لبعضِ حالاتِ انكِشافِ العوالِم فقالَ:

((وذكر ابنُ أبي الدُّنيا: أنَّ عمرَ بن عبدِالعزيزِ لَمَّا كانَ في يومِه الذي ماتَ فيهِ قالَ: أَجلِسوني فأَجلَسوه فقالَ: أنا الذي أمَرتَني فقَصَّرتُ، ونَهيتَني فعصَيتُ- ثلاث مرَّاتٍ- ولكِن لا إلهَ إلَّا الله ثمّ رفَع رأسَه فأَحدَّ النَّظرَ، فقالوا: إنَّكَ لتَنظرُ نظرًا شديدًا يا أميرَ المؤمنين! فقالَ: إنِّي لأَرَىٰ حَضرةً ما هم بإنسٍ ولا جِنٍّ ثمَّ قُبِضَ[2].

وقالَ مَسلَمةُ بنُ عبدِالملكِ: لَمَّا احتَضَرَ عمر بنُ عبدِالعزيزِ كنّا عندَه في قُبَّةٍ، فأَومَأَ إلينَا أنِ اخرجُوا، فخرَجنَا فقعَدنا حولَ القُبَّةِ، وبَقِي عندَه وصِيفٌ فسمِعنَاه يقرأُ هذِه الآيةَ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:83] ما أنتُم بإنسٍ ولا جَانٍّ، ثم خرَجَ الوصيفُ فأَومَأَ إلينا أنِ ادخلُوا فدَخلْنَا فإذا هو قد قُبِضَ.

وقال فضالةُ بنُ دِينارٍ: حضرتُ محَمَّدَ بنَ واسعٍ وقد سُجِّي للموتِ فجعَلَ يقول: مَرحبًا بملائكةِ ربِّي ولا حولَ ولا قوَّةَ إلّا باللهِ، وشَمَمتُ رائحةَ طِيبٍ لَم أشَمَّ قطُّ أطيبَ مِنها، ثمَّ شَخَصَ ببَصَرِه فماتَ))[3].

---

(1) السيرة النبوية (633/1) لأبي محَمَّد جمالِ الدِّين عبدِالملك بنِ هشام- مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر- الطبعة الثانية.

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (ص 84).

(3) الروح (ص90- 91) تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية- بيروت.

ثم قال ابنُ القيِّم أيضًا: ((ولقد أخبرَ بعضُ الصَّادقينَ: أنه حفَرَ ثلاثةَ أقبرٍ، فلمَّا فرَغ منها اضطجَع ليَستريحَ، فرأىٰ فيما يرَىٰ النَّائمُ ملكَين نزلَا فوقَفَا علىٰ أحدِ الأقبُر، فقالَ أحدُهما لصَاحبِه: اكتُب فرسَخًا في فَرسَخٍ، ثمَّ وقَفَ علىٰ الثَّاني فقالَ: اكتُب مِيلًا في مِيلٍ، ثمَّ وقفَ علىٰ الثَّالث فقالَ: اكتب فِترًا في فِترٍ، ثم انتبَه فجِيءَ برجلٍ غريبٍ لا يُؤبَه له فدُفِن في القبرِ الأوَّلِ، ثم جِيءَ برجلٍ آخرَ فدُفن في القبرِ الثَّاني، ثمَّ جِيءَ بامرأةٍ مُترَفَةٍ من وجوهِ البلدِ حولَها ناسٌ كثيرٌ فدُفنَت في القبرِ الضَّيِّق الذي سمِعَه يقولُ فِترًا في فِترٍ، والفِتر: ما بينَ الإبهامِ والسَّبابةِ))[1].

روَىٰ ابنُ أبي الدنيا بسندِه عن الحجَّاج بنِ فُرافصَة قال: حدَّثني رَجلٌ مِن أهلِ فَدَك عن حذيفةَ قال: بينما أنا أُصلِّي إذْ سمعتُ مُتكَلِّمًا يقول: اللهم لك الحَمدُ كلُّه، ولك المُلكُ كلُّه، وبيدِك الخيرُ كلُّه، وإليكَ يَرجعُ الأمرُ كلُّه، علانيتُه وسِرُّه، أهلُ الحَمدِ أنتَ وعلىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، اللهمَّ اغفِر لي جميعَ ما مضَىٰ مِن ذنُوبي واعصِمني فيما بَقِي مِن عمري، وارزُقني عملًا يُرضِيكَ عنِّي إنَّك علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ. فقلتُ للنَّبي ﷺ: بينَما أنَا أُصلِّي إذْ سمِعتُ مُتكَلِّمًا يقولُ كذَا وكذَا، فنَظرتُ فلَم أرَ أحدًا فقال النَّبي ﷺ: ((ذلكَ ملَكٌ أتاكَ يُعلِّمكَ تحميدَ ربِّك))[2].

فهَذِه نُصوصٌ منَ السُّنةِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ والسيرةِ ومشاهداتِ النَّاسِ- أخبَرتْ عن انكِشافِ عوالِمَ مِن الغيبِ الذي حولَنا ولا نرَاه في ظروفٍ معيَّنةٍ لبعضِ النَّاسِ، فلا يوجدُ مانعٌ عقليٌّ مِن أن ينكَشِفَ لنا الغيبُ في بعضِ الأحوالِ فهذا مِن المُمكِناتِ وليسَ من المستَحيلاتِ العقليَّةِ، فكَما نُشاهدُ الواقعَ الماديَّ الملموسَ المخلوقَ أمامَنا في كلِّ وقتٍ، وهو مِن خَلْقِ الله وصَنعتِه، كذلك يُمكِن لنا أن نرَىٰ الغيبيَّاتِ المتواريةَ عنَّا أيضًا في بعضِ الأوقاتِ والتي هي كذلكَ مِن خَلْق الله وصُنعِه، وعالمُ الغيبِ أكبرُ معنًىٰ

---

(1) الروح (ص66).

(2) أخرجه أحمد في مسنده (5/ 395)، وابن أبي الدنيا في كتاب الهواتف (ص51).

مِن هذِه المخلوقاتِ بكثيرٍ، فيُوجد عوالِمُ غيبيَّةٌ أخرَىٰ مِثل: الجنَّة والنَّار، وعالَم الرُّوح، وعالَم البرزَخ، وعالَم المثالِ، وسوف نتَعرَّض إلىٰ عالَمِ البرزَخ وعالَم المثالِ، وذلك لارتبَاطِهما بمسألةِ رؤيةِ النَّبي صلواتُ الله وسلامُه عليهِ في اليَقظةِ.

عالمُ البرزخِ في الكتاب والسنة وأقوال الأئمة:

لمعرفةِ ما هو البرزخُ لابدَّ أن نتعرَّضَ للمعنىٰ اللُّغويِّ له أولًا، وإذا مَا رجعنَا لكتبِ اللُّغةِ نجِدُ أنَّ معنىٰ البرزَخ: هو الحاجزُ الفاصِلُ بين شيئَين مختلفَين والمانعُ لاختلاطِهما وامتزاجِهما؛ يقول ابنُ منظورٍ في لسانِ العرَب: البَرزخُ: ما بين كلِّ شيئَين، وفي الصِّحاح: الحاجزُ بينَ الشَّيئَين. والبرزخُ: ما بين الدُّنيا والآخرةِ قبلَ الحَشرِ مِن وَقتِ المَوتِ إلىٰ البعثِ، فَمن ماتَ فقد دخَلَ البرزخَ.

وقالَ الفرَّاءُ في قولهِ تعالىٰ: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُون﴾ [المؤمنون:100] قالَ: البرزَخُ مِن يوم يموتُ إلىٰ يومِ يُبعَث... وبرازخُ الإيمانِ: ما بينَ الشَّكِّ واليقينِ، وقيل: هو مَا بَين أوَّلِ الإيمانِ وآخرِه، وفي حديثِ عبدالله: وسُئِلَ عن الرَّجلِ يجدُ الوَسوسةَ، فقالَ: تلك برازخُ الإيمانِ[1] يريدُ ما بين أوَّلِهِ وآخرِه... والبرازِخُ جمعُ برزخٍ، وقولُه تعالىٰ: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخ لاَّ يَبْغِيَان﴾ [الرحمن:20] يعني حاجزًا مِن قُدرةِ الله سبحانَه وتعالىٰ، وقيلَ: أي: حاجزٌ خفيٌّ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَل بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان:53] أي: حاجزًا))[2].

ولقد جاءَ ذِكْرُ البرزخِ في القُرآنِ الكريمِ في ثلاثِ مواضعَ اثنَين مِنها بمعنًى مادِّيٍّ ملْمُوسٍ: الموضعُ الأوَّل في سورةِ الرَّحمنِ في قولهِ تعالَىٰ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَان ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَان ۝٢٠ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾[الرحمن19-21]. والموضعُ الثَّاني في سورةِ الفُرقانِ قالَ سبحَانَه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ

(1) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (2/59).

(2) لسان العرب مادة (ب.ر.ز.خ).

أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:53].

وأمَّا الموضعُ الثَّالثُ فقَد جاءَ البَرزخُ بمعنًى مختلفٍ يَدلُّ علىٰ عالَمٍ غيبيٍّ غيرِ مَلْموسٍ، وهو في سورةِ المؤمنُون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:99-100].

وقد تحدَّثت السُّنَّة النَّبويَّةُ عن عالَمِ البرزخِ والذي هو ما بعدَ الموتِ بالنِّسبةِ للإنسانِ إلىٰ يومِ القيامةِ، وتحدثت عن طبيعتِه وخصائصِه، فقَد جاءَت بعضُ الأحاديثِ ببعض صورِ تلك الحياةِ:

- روَىٰ الترمذيُّ بسندِه عن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: ((إذا قُبِرَ الميِّتُ)) أو قالَ: ((أحدُكم أتَاه ملكَانِ أسودَان أزرَقَان يُقالُ لأحدِهما المنكَر وللآخَر النَّكِير فيقولَان: ما كنتَ تقولُ في هذا الرَّجلِ؟ فيقولُ: ما كان يقولُ هو عبدُالله ورسولُه، أشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، فيَقولان: قَد كنَّا نعلَم أنَّك تقولُ هذا، ثمَّ يُفسَح لَه في قَبرِه سَبعونَ ذراعًا في سَبعينَ ثمَّ يُنوَّر لَه فيهِ، ثمَّ يُقالُ لَه: نَمْ فيقول: أَرجعُ إلىٰ أهلي فأُخبِرُهم، فيقولَان: نَمْ كنَومةِ العروس الذي لا يُوقظُه إلَّا أحبُّ أهلِه إليهِ حتىٰ يَبعثَه الله مِن مَضجَعِه ذلك، وإنْ كانَ منافقًا قالَ: سمِعتُ الناسَ يقولون فقلتُ مثلَه لَا أدري، فيقُولان: قد كنَّا نعلَم أنكَ تقول ذلك، فيُقال للأرضِ: التَئمِي عليه، فتَلتَئم عليهِ فتختَلفُ فيها أَضْلَاعُه، فلا يزَالُ فيها مُعذَّبًا حتَّىٰ يَبعثَه الله مِن مَضجَعِه ذلكَ))[1].

- وفي الصَّحِيحَين مِن حديثِ عبدِالله بنِ عمرَ ﷺ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: ((إنَّ أحدَكم إذَا مَاتَ عُرِضَ عليهِ مَقعدُه بالغَداةِ والعَشِي إنْ كانَ مِن أهلِ الجنَّةِ فمن

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (1071)، وقال: ((حسن غريب)).

أهل الجنَّةِ وإنْ كان من أهل النَّار فمن أهل النَّار فيُقال: هذا مقعدُك حتَّىٰ يبعثَك الله يومَ القيامةِ))[1].

فهذِه النُّصوصُ من القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ المطهَّرةِ تُثبِتُ وجودَ هذا العالَمِ البرزَخيِّ، فبعدَ خروجِ الرُّوحِ منَ الإنسانِ تبدأُ الحياةُ البرزخيَّةُ له والتي تحكمُها قوانينُ خاصَّةٌ بها ليست كقوانينِ عالَمِ المادَّةِ، وهذِه الحياةُ يظهَر فيها النَّعيمُ والعذَّابُ، ويَظهرُ فيها الاتِّصالُ بعالَم الأحياءِ كما سيَأتي بيانُه، ولكنَّنا نُقرِّر أمرًا في البدايةِ وهو أنَّ كلَّ موجودٍ في هذَا الكَونِ يُمكِن إدرَاكُه والاطِّلاعُ عليهِ ورؤيتُه إذا توافَرَت الأسبابُ، بمعنىٰ أنَّه يمكِن للإنسانِ في ظروفٍ معيَّنةٍ أن تَنفتِحَ له نافذةٌ علىٰ الغَيبِ وعوالِمِه، ويكونُ ذلك مِن بابِ الكَرامَاتِ التي يُكرم الله بها مَن يشاء مِن عبادِه، ومن العوالِم التي يُمكِن أن يقعَ فيها ذلكَ عالَمُ البرزخِ وتفاصِيلُه.

وعندَ النَّظرِ لمنازلِ الحياةِ البَرزخيَّةِ وتفاصِيلِها نجدُ صنفين مِنَ البَشرِ لا ثالثَ لهمَا في هذِه الحياةِ؛ صنفَ المعذَّبين وصنفَ المنَعَّمِين، وسيِّدُ المنعَّمين ومَن له أعلَىٰ مراتبِ الحياةِ البرزخيَّةِ هوَ رسولُنا الكريم صلواتُ الله وسلامُه عليهِ، والذي لَه فيها مِن الخصَائصِ مَا لا يقعُ تحتَ الحَصرِ، وهذِه الحياةُ البرزخيَّةُ الخاصَّةُ به أعلَىٰ وأكمل مِن حياةِ الشُّهداء التي ورَدَ فيها في القرآنِ الكَريم: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:169-170].

وهو في حياتِه البَرزخيَّةِ هذِه ﷺ مفتوحٌ له بابٌ مِن أبوابِ عوالِم الغيبِ، ومِن أبوابِ عوالِمِ الشَّهادةِ مَا لا يعلَمُه إلَّا الله سبحانَه وتعَالىٰ، دلَّ علىٰ ذلك أدلةٌ منَ السُّنَّة

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي (1379)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (2866).

النَّبويَّةِ الشَّريفةِ، وما ورَدَ كذلك مِن الرِّواياتِ المتواترةِ عبرَ تاريخِ الأُمَّةِ الإسلَاميَّةِ، مِمَّا سوفَ نتَعرَّضُ لبعضِ تفَاصيلِه كمقدِّمةٍ لرَبطِ ذلك بمسألةِ إمكَانيَّةِ رؤيتِه صلواتُ اللهِ وسلامُه في عالَمِ اليقظَةِ، فحياتُه ﷺ في عالَم البرزخِ هي حياةٌ تَتجاوزُ حدودَ الزَّمانِ والمكانِ والقوانينِ الأرضيَّةِ، فكَم مِن ملايين المسلمينَ يُصلُّونَ ويُسلِّمون عليهِ- صلواتُ ربي وسلامُه عليه- وهُو يُجيبُ الجميعَ؛ كما وردَ عندَ الإمامِ أحمدَ وأبي داودَ بإسنادٍ حسَنٍ مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه عنِ النَّبي ﷺ أنَّه قالَ: ((مَا مِن أحدٍ يُسلِّم عليَّ إلَّا ردَّ اللهُ عليَّ رُوحِي حتَّىٰ أرُدَّ عليه السَّلامَ))[1].

فحياتُه البَرزخيَّةُ ﷺ مرتبِطَةٌ بأُمَّتِهِ وأحوالِهم، ولكِن لا تَجرِي عليها القوانينُ الأرضيَّةُ البشريَّةُ فهو صلواتُ اللهِ وسلامه عليهِ- وللهِ ولرسولهِ المثلُ الأعلىٰ- كالشَّمسِ التي يُصِيب ضوءُها كلَّ مكانٍ في نفسِ الوقتِ.

ومِصداقُ ذلكَ الكلام يتَّضحُ مِن حديثِ عَرْضِ أعمَالِ الأُمَّة عليهِ ﷺ الذي روَاه الإمام البزَّارُ في مسندِه من حديثِ ابنِ مسعودٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: ((حَياتِي خَيرٌ لكُم تُحدِّثون ويُحدَّثُ لكُم، ووفَاتِي خيرٌ لكم تُعرضُ عليَّ أعمالُكم فما رأيتُ من خيرٍ حمدتُ اللهَ عليهِ ومَا رأيتُ مِن شَرٍّ استَغفَرتُ اللهَ لكم))[2].

فَالنَّبي ﷺ انتقلَ مِن هذِه الحياةِ الدُّنيا إلىٰ حياةٍ أعلَىٰ مَقامًا، وهو بهذا الانتقالِ لم ينقطِعْ عن أُمَّته، بل يعلمُ أمورَهم وأحوالَهم ويستغفرُ لَهم، فهو ﷺ حيٌّ في قبرِه حياةً كاملةً أعلَىٰ مِن الحياةِ الدُّنيا، والأحاديثُ التي تُثبت ذلك كثيرةٌ.

فقَد روَىٰ النَّسائيُّ في سننِه من حديثِ ابن مَسعودٍ رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ:

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (2041)، وأحمد في مسنده (527/2)، والطبرانيُّ في الأوسط (3092) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصحح إسنادَه النَّوويُّ في رياض الصالحين (ص482).

(2) جزءٌ من حديث أخرجه البزَّارُ في مسنده (1925). وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (594/8): ((رواه البزار ورجاله رجال الصحيح)). وصحح إسناده أيضًا السيوطيُّ في الخصائص الكبرىٰ (491/2).

((إنَّ للهِ مَلائكةً سيَّاحِين في الأرضِ يُبلِّغوني مِن أُمَّتي السَّلامَ))(1).

ورَوَىٰ البزَّارُ في مسندِه مِن حديثِ عمَّار بن ياسرٍ أنَّه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: ((إنَّ اللهَ وكَّل بقَبري مَلَكًا أعطَاهُ أسماعَ الخلائقِ فلا يُصلِّي عليَّ أحدٌ إلىٰ يومِ القيامةِ إلَّا أبلَغَني باسمِه واسمِ أبيهِ هذا فلانٌ ابن فلانٍ قَد صلَّىٰ عليكَ))(2).

ورَوَىٰ أبو داود في سُننِه عن أوس بن أوسٍ قالَ: قالَ النَّبي ﷺ: ((إنَّ مِن أفضَلِ أيَّامِكم يومَ الجمُعة فأكثرُوا عليَّ مِن الصَّلاةِ فيهِ فإنَّ صلاتكم مَعروضَةٌ عليَّ)) قال: فقالوا: يا رسولَ اللهِ: وكيف تُعرَض صلاتُنا عليكَ وقد أرِمت؟ قال: يقولونَ: بلِيت قالَ: ((إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتعَالىٰ حَرَّمَ علَىٰ الأرضِ أَجسَادَ الأنبياءِ صلَّىٰ اللهُ علَيهِم))(3).

ورَوىٰ ابنُ ماجَه في سنَنِه عن أبي الدَّرداءِ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((أكثروا الصَّلاةَ عليَّ يومَ الجمُعةِ فإنَّه مَشهودٌ تشهدُه الملائكةُ وإنَّ أحدًا لَن يُصلِّيَ عليَّ إلَّا عُرِضَتْ عليَّ صلاتُه حتىٰ يفرُغَ منها)) قال: قلتُ وبعدَ الموتِ؟ قال: ((وبعدَ الموتِ إنَّ اللهَ حرَّم علىٰ الأرض أن تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ فنبيُّ اللهِ حيٌّ يُرزَق))(4).

وبِما أنَّه قد ثبَت لدينا وجودُ عالَم البرزخِ من عوالِمِ الغَيبِ مِن خلالِ نصُوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ فنقولُ: إنَّه مِن المكِن أن يَكشِفَ اللهُ سبحانَه وتعالَىٰ لعَبدٍ ما عن هذَا العالَم البَرزخيِّ في النَّومِ أو اليَقظةِ علىٰ حدٍّ سواء، فلَا فرقَ بين نَومٍ ويقظةٍ بالنِّسبةِ للقُدرةِ الإلهيَّةِ، وقَد يُكْرِمُ اللهُ مَنْ يشاءُ مِن عبادِه فيُزيحُ الغِطاءَ الماديَّ عن عالَم البرزخ

---

(1) أخرجه النسائي في كتاب السهو، باب السلام علىٰ النبي ﷺ (1282)، وابن المبارك في مسنده (51)، وأحمد في مسنده (1/ 387).

(2) أخرجه البزار في مسنده (1425).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (1047)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة (1085).

(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ﷺ (1637)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (2/328): ((إسناده جيدٌ)).

فيَنكَشِفُ له يقظةً أو منامًا، وسوف نذكر مِن الرِّواياتِ الصَّحيحةِ عن رسولِ الله ﷺ وعنِ الصَّحابة الكِرامِ ومَن جاءَ بعدَهم ما يُثبِت حدوثَ ذلك؛ فمِن ذلك:

ما أخرجَه أحمدُ في مُسندِه عن أبي مُويهبَة مولىٰ رسولِ الله ﷺ قالَ: طرَقَني رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ فقالَ: ((يا أبا مُويهبة انطَلِق استغفرْ فإنِّي قد أُمِرتُ أنْ أستغفرَ لأهل هذا البَقيعِ)) فانطلقتُ معه فلمَّا بلَغ البقيعَ قال: ((السَّلامُ علَيكُم يا أهلَ البقيعِ لِيَهْنَ لكم مَا أصبَحتُم فيهِ لو تعلَمُون مَا أنجَاكم الله مِنه أقبَلَتِ الفِتنُ كقِطعِ اللَّيلِ المُظلِمِ يَتبَع أوَّلُها آخرَها))[1].

وروىٰ البَيهقي في دلائلِ النُّبوَّةِ بسندِه عن عمرَ بنِ عبدالله بنِ يعلىٰ بنِ مرَّة عن أبيهِ قالَ: مَررنَا مَع رسولِ الله ﷺ علىٰ مقابرِ فسمعتُ ضغطةً في قبرٍ! فقلت: يا رسولَ الله سمعتُ ضغطةً في قبرٍ! قال: ((وسَمعتَ يا يَعلىٰ؟)) قلت: نعم! قال: ((فإنَّه يُعذَّبُ في يسيرٍ مِن الأمرِ)) قلتُ: وما هو جعَلَني الله فداكَ؟ قال: ((كان رجلًا فتَّانًا يمشي بين النَّاسِ بالنَّميمةِ، وكان لا يَتنزَّه عن البولِ قُمْ يا يعلَىٰ إلىٰ هذِه النَّخلةِ فأْتني منها بجريدةٍ)) فجئتُه بها فشقَّها باثنتَين فقال: ((اغرِسْ إحدَاهما عندَ رأسِه والأخرَىٰ عند رجلَيه فلعلَّه أن يُرفَّه)) أو ((يُخفَّفَ عَنه ما لَم يَيبَس هاتَان))[2].

وفي الصَّحِيحين مِن حديثِ أبي أيوب قال: خرَجَ رسولُ الله ﷺ بعدَمَا غربَت الشَّمسُ فسَمِع صَوتًا فقالَ: ((يَهُودُ تُعذَّبُ في قبُورِها))[3].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (3/489)، والدارمي في سننه (79)، والطبراني في الكبير (22/346)، والحاكم في مستدركه (3/ 55)، وقال الحاكم: ((صحيح علىٰ شرط مسلم)) ووافقه الذهبيُّ.

(2) أخرجه البيهقيُّ في دلائل النبوة (7/42).

(3) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر (1375)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (2769).

وروى مسلمٌ في صحيحِه عن زيدِ بنِ ثابتٍ قال: بينَما النبيُّ ﷺ في حائطٍ لبَني النَّجار على بغلَةٍ لَه ونحنُ معَه إذ حادَت به فكادَت تلقيه، وإذَا أَقبرٌ ستَّةٌ أو خمسةٌ أو أربعةٌ- قال: كذَا كانَ يقول الجريري- فقالَ: ((مَنْ يَعرِفُ أصحابَ هذِه الأقبرِ؟)) فقال رجلٌ: أنا قال: ((فمتىٰ ماتَ هؤلاءِ؟)) قالَ: ماتُوا في الإشراك فقالَ: ((إنَّ هذِه الأُمَّة تُبتلىٰ في قبورِها فلولَا أن لَا تدَافنوا لدَعوتُ الله أن يُسمعَكُم مِن عذابِ القبرِ الذي أسمعُ منه)) ثم أقبلَ علينَا بوجهِهِ فقالَ: ((تعوَّذوا بالله مِن عذَابِ النَّارِ)) قالوا: نَعوذُ بالله من عذابِ النَّار فقال: ((تَعوَّذوا بالله من عذابِ القبرِ)) قالوا: نعوذُ بالله مِن عذابِ القَبر قال: ((تَعوَّذوا بالله من الفِتن ما ظَهَر مِنَها ومَا بَطنَ)) قالوا: نعوذُ بالله مِن الفِتن مَا ظَهَر مِنها ومَا بطَنَ قالَ: ((تَعوَّذوا بالله مِن فتنةِ الدَّجالِ)) قالُوا: نَعوذُ بالله مِن فتنةِ الدَّجالِ[1].

وأخرَجَ التِّرمذيُّ في سنَنِه عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: ضرَبَ بعضُ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ خِباءَه علىٰ قَبرٍ وهوَ لا يحسُبُ أنَّه قبرٌ، فإذا فيهِ إنسانٌ يقرأُ سورةَ تبارَك الذي بيدِه المُلكُ حتَّىٰ ختَمَها، فأتَىٰ النَّبيَّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله إنِّي ضَربتُ خِبائي علىٰ قَبرٍ وأنَا لا أحسَبُ أنَّه قَبرٌ، فإذَا فيهِ إنسَانٌ يَقرأُ سورَةَ تبارَك المُلك حتَّىٰ ختمَها، فقالَ رسولُ الله ﷺ: ((هِيَ المَانعَةُ هِيَ المُنجيةُ تُنجيهِ مِن عذَابِ القَبرِ))[2].

ومِن أمثلة انكِشافِ عالَم البرزخِ ما ذكَره ابنُ القيم فقالَ:

((وحدَّثني صاحبُنا أبو عبدِالله محَمَّدُ بن الرُّزيز الحرَّاني أنَّه خرَجَ مِن دارِه بعدَ العصرِ بآمدَ إلىٰ بستانٍ قالَ: فلَمَّا كانَ قبلَ غروبِ الشَّمسِ توسطتُ القبورَ فإذا بقَبرٍ مِنها وهو جمرةُ نارٍ مثل كوزِ الزُّجاج والميتُ في وسطِه فجعلتُ أمسَح عيني وأقولُ: أنائمٌ أنَا أم يقظَان؟! ثمَّ التَفتُّ إلىٰ سورِ المدينةِ وقلتُ: والله ما أنا بنائمٍ ثمَّ ذهَبتُ إلىٰ أهلي وأنَا

(1) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (2867).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الملك (2890).

مَدهوشٌ فأتوني بطعَامٍ فلَم أستطِع أن آكلَ، ثمَّ دخلْتُ البلدَ فسألت عن صاحبِ القَبر فإذَا بهِ مكَّاسٌ قد توفِّيَ ذلكَ اليومَ.

فرؤيةُ هذِه النَّارِ في القَبر كرؤيةِ الملائكَةِ والجنِّ تقَع أحيانًا لمَن شاءَ الله أن يريَه ذلك.

وقد ذكَر ابنُ أبي الدُّنيا في كتابِ القبورِ عن الشَّعبي أنَّه ذكَر رجلًا قالَ للنَّبي: مررتُ ببدرٍ فرأيتُ رجلًا يخرُجُ من الأرضِ فيَضربُه رجلٌ بمقمَعةٍ حتىٰ يَغيبَ في الأرضِ ثمَّ يخرجُ فيفعلُ بهِ ذلك، فقالَ رسولُ الله: «ذلكَ أبو جهلٍ بنُ هشامٍ يُعذَّب إلىٰ يومِ القِيامةِ»[1].

وذكر مِن حديثِ حمَّاد بنِ سلَمة عن عمرو بنِ دينارٍ عن سالِم بنِ عبدِالله عن أبيه قال: بَينا أنَا أسيرُ بينَ مكَّةَ والمدينة علىٰ راحِلةٍ وأنا مُحقِبٌ إدَاوةً إذْ مررتُ بمقبرةٍ فإذا رَجلٌ خارجٌ مِن قَبره يلتَهبُ نارًا وفي عنُقِه سلسلةٌ يجرُّها فقالَ: يا عبدَالله انضحْ يا عبدَالله انضحْ، فوالله ما أدرِي أعرفَني باسمِي أم كمَا تدعُو النَّاسُ، قالَ: فخرَجَ آخرُ فقالَ: يا عبدَ الله لا تَنضحْ يا عبدَ الله لا تَنضَح، ثم اجتذَبَ السِّلسلةَ فأعادَه في قَبرِه[2].

وقال ابنُ أبي الدُّنيا: حدَّثني أبي حدَّثنا موسَىٰ بن داود حدَّثنا حمَّادُ بنُ سلَمةَ عن هشامِ ابنِ عُروة عن أبيهِ قالَ: بينَما راكِبٌ يَسير بينَ مكَّةَ والمدينةِ إذْ مرَّ بمقبرةٍ فإذا برَجلٍ قد خرَجَ مِن قبرٍ يلتَهبُ نارًا مُصَفَّدًا في الحديدِ، فقالَ: يا عبدَ الله انضَحْ، يا عبدَ الله انضَحْ، قال: وخرجَ آخرُ يَتلوه فقالَ: يا عبدَ الله لا تَنضَح يا عبدَ الله لا تَنضَح، قال: وغُشِي علىٰ الرَّاكب وعدَلَت بهِ راحلَتُه إلىٰ العَرْجِ، قال: وأصبَحَ قَد ابيَضَّ شَعرُه، فأُخبِر عثمانُ بذلكَ فنَهىٰ أن يُسافِر الرجلُ وحدَه»[3].

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور (ص93).

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في نفس الموضع السابق.

(3) أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور (ص 95).

فهذِه حالاتٌ لانكِشافِ عالَمِ البَرزخِ لبعضِ النَّاسِ، فَمَا دامَ هذا العالَم مَوجودًا ومخلُوقًا فيمكِن أن يطَّلِعَ عليهِ البَعضُ، ومَا يَهمُّنا في هذِه الرِّسالةِ مِن هذَا الأمرِ هوَ أنَّ رسولَنا الكَريمَ محَمَّدًا صلواتُ الله وسلَامُه عليهِ أنه في أعلَىٰ درَجاتِ الحياةِ البرزخِيَّةِ، والتي تَتميَّز عن أنواعِ الحياةِ البَرزخيَّةِ لأيِّ مخلُوقٍ سِوَاه ﷺ، وقد ثَبَتَ عن النبي ﷺ أنَّه وجد سيدنا موسىٰ عليه السَّلام قائمًا يُصَلِّي في قَبرِه، فقد روَىٰ مسلِمٌ في صحيحِه بسَندِه عن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبي ﷺ قالَ: «مَرَرتُ علىٰ مَوسَىٰ لَيلةَ أُسرِيَ بِي عِندَ الكَثِيبِ الأَحمَرِ وهو قَائِمٌ يُصَلِّي في قَبرِهِ»[1]. فإذا كانَ سيِّدُنا موسىٰ عليه السَّلامُ حالُه في الحياةِ البرزخيَّةِ هكَذا فكيفَ بنَبيِّنا ﷺ صاحبِ المَنزلةِ العظيمةِ؟!

إذًا حدوثُ التَّواصلِ مع النَّبيِّ ﷺ وهو في برزَخِه الشريفِ بينَه وبينَ أُمَّتِهِ سواءٌ كانَ ذلكَ في عالَمِ الرُّؤيا أم عالَمِ اليَقظةِ هو أمرٌ لا يُستغرَب ولا يُحيلُه العقلُ، ولا فَرقَ بينَ رؤيتِه في المنَامِ أو رؤيتِه في اليقظةِ من حيثُ الإمكَانُ العقليُّ؛ لأنَّ كلَّ ذلك يَرجعُ إلىٰ القُدرةِ الإلَهيَّةِ وليسَ إلىٰ طاقةِ البشرِ، وسوف نوردُ بعضَ الأمثلةِ مِن وقوعِ التَّواصلِ بينَ النَّبي ﷺ وأُمَّتِه وهوَ في عالَمِ البَرزخِ، فإنَّ ذلكَ مِن بابِ الكَرامَاتِ والمِنَح الرَّبَّانيَّةِ التي يُكرِم الله بها مَن يشاءُ مِن عبَادِه، وكذَلك هيَ مِن تَمامِ الرَّحمةِ التي تُفتحُ للبَشرِ عن طريقِ النَّبي ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]. فهذِه الرَّحمةُ مُستمِرَّةٌ غيرُ منقَطِعةٍ بوفاتِه ﷺ، وتظهرُ في صوَرٍ مختلفةٍ: منها التَّواصُلُ مع أُمَّتِه يقظةً ومنَامًا، وهذا التَّواصُلُ ما هو إلَّا انكِشافُ ما هو مَوجودٌ وإزاحةُ الغِطاءِ عنه، فنَراهُ ونتَواصلُ معَه، وذلك فَضلُ الله يُؤتيه مَن يشاءُ، فليسَ هناك مانعٌ عقليٌّ مِن أن يحدُثَ التَّواصلُ بينَ رسولِ الله ﷺ وبينَ أُمَّته وهو في عالَمِ البرزَخِ، بعدَ مَا ثبَتَ أنَّ لَه في هذا العالَم أعلىٰ درجاتِ الحياةِ وجُمِعَ لَه منَ الخصائصِ والمِنَح مَا لَم يَحُزْه نَبيٌّ قبلَه

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسىٰ ﷺ (2375).

ﷺ، وقَد ورَدَ أنَّ الشُّهداءَ أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزَقون، فكيفَ بالأنبياءِ؟ وكيفَ بسيِّدِ الأنبياءِ والمرسَلين محمَّدٍ صلواتُ الله وسلَامُه عليهِ؟! فهوَ في أعلىٰ درجاتِ الحياةِ، والتي مِن خلالِها يَتواصلُ معنا ﷺ بردِّهِ السَّلامَ علينَا حينَ نُصلِّي ونُسَلِّم عليهِ، أو برؤيتِه الكَريمةِ في النَّوم أو في اليَقظةِ، وهذا كُلُّه لا يوجد له مُعارِضٌ عقليٌّ يجعلُه مِن الأمورِ المستحيلةِ الغيرِ ممكِنةٍ، وكلُّ مَا في الأمرِ أنَّ المستَمِعَ له يَستغربُه ويَتعجَّبُ مِنه فقَط؛ وذلك لأنَّه يقيسُ الأمورَ الرُّوحانيةَ والعوالِمَ الغَيبيَّةَ بميزانٍ ماديٍّ فقَط، ولَو أمعنَ النَّظرَ والفِكر قلِيلًا لوجدَ أنَّه لا فرقَ بينَ المادِّيَّاتِ والغَيبيَّاتِ في جَنابِ القُدرةِ الإلهيَّةِ.

وقَد ينكشِفُ لأحدِ النَّاسِ نوعٌ معَيَّنٌ من الغيبِ الذي حُجِبَ عنَّا فلا نُطَالبُه بدليلٍ شرعيٍّ علىٰ ذلك؛ لأنَّه حدَثَ وشاهدَه ووقَعَ معه وتيقَّنَ هو مِنه، فهو أمْرٌ كونيٌّ واقعيٌّ لا يُستدَلُّ عليهِ بالدَّليلِ الشَّرعيِّ الذي محلُّه المسائلُ العلميَّةُ، فأنَا أخبرك أيُّها القارئُ أنني رأيتُ كذا وكذَا منَ الأمورِ التي قَد ترَاها أنتَ مِن العجائبِ، فتَصديقُك أو تكذيبُكَ لي يَأتي مِن بابِ الثِّقةِ أو عدمِ الثِّقةِ في إخبَارِي لك بذلك، ما دَامَ الذي أُخبرُك بِه داخلٌ ضِمنَ دائرةِ الممكِناتِ وليس منَ المستَحيلاتِ، وليسَ لك أن تُطالبني بدليل منَ الشَّرعِ؛ لأنَّ ما أُخبرك بِهِ هو أمرٌ كونيٌّ حسِّيٌّ واقعيٌّ يُدرَك بالحواسِّ وليسَ أمرًا علميًّا، ولكِن لكَ أن تَنظُرَ هل هناك مِن نصُوصِ الشَّرعِ مَا يُعارضُ ما أخبَرتُكَ بِهِ أو لَا؟ ثمَّ بعدَ ذلك ننظرُ هل ما أخبرتُك به منَ المستحِيلاتِ أم مِن الأمورِ الممكِنِ حدُوثُها حتَّىٰ وإن تَعجَّبَ الكثيرُ منها، وهل لَها مُعارِضٌ عقليٌّ أم لا؟ ثم بعدَ ذلك يأتي دورُ الثِّقةِ في المتكَلِّمِ والثِّقةِ في النَّقلِ، بالإضَافةِ إلىٰ أنَّ هذَا الإخبارَ لا يَترتَّب عليهِ أيُّ إلزَاماتٍ شرعيَّةٍ، أو ادِّعاءُ منزلةٍ ودرجةٍ، فرؤيتُه صلواتُ الله وسلامُه عليهِ يقظَةً من هذا البابِ، فهيَ لا تَخرجُ عنِ انكِشافِ عالَم البرزخِ لنا، والذي لا يخضَع لمقياسِ الحياةِ الدُّنيا التي نَحياهَا ولا لقوَانينِها، وكما سبَقَ وذكرنا فإنَّ كلَّ مَوجودٍ في هذا الكونِ وإن كان غير ظاهرٍ لنا وغائبًا عن حوَاسِّنا- إلَّا أنَّه في ظرُوفٍ معيَّنةٍ قد يُكشَف هذا الغيبُ لنا، وقد يكونُ في

بعضِ الأحوالِ علىٰ سَبيلِ الكَرامَاتِ والمِنَحِ الإلهيَّةِ والفيوضَاتِ الربَّانيَّةِ التي يُكرِمُ اللهُ بها مَن يشاءُ مِن عبادِه فلا يُقال لماذَا تحدُث لشَخصٍ ولا تحدُثُ لآخرَ؟ فهو من قبيل قول الله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:21].

علاقة عالم المثال برؤية النبي ﷺ:

قَد يطرَح المرءُ سؤالًا، وهو هل من المُمكِن أن يُرىٰ النَّبيُّ ﷺ في عِدَّةِ أماكنَ في وقتٍ واحدٍ لأُناسٍ كثيرين في عالَم اليقظةِ أو في النَّومِ في اللَّيلةِ الواحدةِ وفي ذاتِ الوقتِ؟

والجوابُ عن ذلك: إنَّ هذا ممكِنٌ وليس منَ المستحِيلاتِ، وذلك مبنيٌّ علىٰ أنَّ ما يراه الرائي ليس ذاتَه البشريَّةَ الكريمةَ ﷺ وإنَّما هو مثالٌ حقِيقيٌّ لرسولِ الله عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كالمرَايا المتعدِّدةِ التي تعكِسُ صورةً واحدةً فلا تستطيعُ أن تقولَ أنَّ هذِه الصُّورَ هي الذَّاتُ الحقيقيةُ وإنَّما هيَ انعِكاسٌ حقيقيٌّ لها وليسَ لغَيرهَا، فَمَن يرَىٰ رسولَ الله ﷺ في النَّومِ أو اليقظةِ فهو يرىٰ مثالَ ذاتِه الشَّريفةِ، وهذا المِثالُ قد يراه مَن في الشَّرقِ ويراه مَن في الغَربِ في نَفسِ الوقتِ، ولا يَتنافىٰ ذلك مع العقلِ، فهذه الشَّمسُ وهي مِن مخلوقاتِ الله سبحانه وتعالىٰ يراها الملايين من البشر في وقتٍ واحدٍ وفي أماكنَ متعدِّدةٍ، وأيضًا عندما نجلِسُ أمام جهازِ التِّلفازِ ونشاهدُ مقدِّم البرامجِ ويراه معنا ملايينُ البشرِ في ذاتِ الوقت في أماكنَ مختلفةٍ، وما نراه وما نشاهدُه ما هو إلَّا إدراكٌ لمثالِ صورتِه وكلامِه وليس انطباعًا وحلولًا لذاته وجَسدِه في شاشةِ التِّلفاز، ولله المثل الأعلىٰ إذا كانَ البشرُ العاجزون استطَاعوا أن يَبثُّوا الصُّورةَ ومثالَها علىٰ مئاتِ الملايين منَ البَشرِ في وَقتٍ واحدٍ في الأماكنِ المختلفةِ، فَمَا بالُنا بقدرةِ ربِّ البشر سبحانه وتعالىٰ والتي تتجاوزُ حدودَ الزَّمانِ والمكَان، فلماذا نَمنَع حصولَ أعظمِ من ذلك في رُؤيةِ رسولِ الله ﷺ في أماكنَ متعددةٍ في وقتٍ واحدٍ؟!

ويقولُ الإمامُ الغزاليُّ في كتابِهِ المنقذ من الضَّلالِ بعد ذِكرِه لسلوكِه طريقَ مجاهدةِ النَّفس: ((ودُمتُ علىٰ ذلك مقدارَ عشرِ سنِينَ، وانكشفَت لي في أثناءِ هذه الخَلوات أمورٌ لا يُمكن إحصَاؤها واستقصَاؤها، والقَدْر الَّذي أذكُرُه ليُنتفعَ به أنِّي علمتُ يقينًا أنَّ الصُّوفيَّةَ همُ السَّالكونَ لطريقِ الله تعالىٰ خاصَّةً، وأنَّ سِيرتَهم أحسنُ السِّير، وطريقَهم أصوبُ الطُّرق، وأخلاقَهم أزكىٰ الأخلَاق، بَل لو جُمع عقلُ العقلاء وحكمةُ الحكماء وعلمُ الواقفِين علىٰ أسرارِ الشَّرع مِن العلماءِ ليُغيروا شيئًا مِن سِيَرِهم وأخلاقِهم، ويبدِّلوه بما هوَ خيرٌ منه- لم يجدُوا إليهِ سبيلًا.

فإنَّ جميعَ حركاتِهم وسكنَاتِهم في ظاهرِهم وباطنِهم مُقتبَسةٌ مِن نورِ مِشكاةِ النبوَّةِ، وليس وراءَ نورِ النُّبوَّة علىٰ وجهِ الأرضِ نورٌ يُستضاءُ بهِ... إلىٰ أن قالَ: حتَّىٰ إنَّهم في يقَظتِهم يُشاهِدون الملائكةَ وأرواحَ الأنبياءِ ويَسمعونَ أصواتًا ويَقتَبِسون مِنهم فوائدَ، ثم يَترقَّىٰ الحالُ مِن مشاهدةِ الصُّورِ والأمثالِ إلىٰ درجاتٍ يضِيقُ عنها النُّطقُ فلا يُحاولُ معبِّر أن يَعبِّرَ عنها إلَّا اشتملَ لفظُه علىٰ خطأ صريحٍ لا يُمكِنُه الاحترازُ عنه))[1].

- ويقولُ الإمامُ الآلوسي في تفسيرِه: وقال الإمامُ أبو محمَّدٍ بنُ أبي جَمرةَ في تعليقِه علىٰ الأحاديثِ التي انتقَاها مِن صحيحِ البخاري: هذا الحديثُ يدلُّ علىٰ أنَّ مَن يراه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم في النَّومِ فسَيرَاه في اليَقظةِ، وهل هذا علىٰ عمُومِه في حياتهِ وبعدَ مَماتهِ عليه الصَّلاةُ و السَّلام أو هذا كان في حياتهِ؟ وهل ذلك لكلِّ مَن رآه مطلقًا أو خاصٌّ بمَن فيهِ الأهليَّةُ والاتِّباعُ لسُنَّتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ اللَّفظ يعطِي العمومَ، ومَن يدَّعي الخصوصَ فيهِ بغير مخصِّصٍ منه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلَّم فمتعسِّفٌ.

وأطالَ الكلام في ذلك ثمَّ قالَ: وقد ذُكِر عن السَّلَفِ والخلَفِ وهلُمَّ جرا ممَّن كانوا رأوه صَلَّىٰ الله تعالَىٰ عليه وسلَّمَ في النَّومِ وكانوا ممَّن يُصدِّقونَ بهذا الحديثِ، فرأَوه بعد

(1) المنقذ من الضلال (ص 178) للإمام أبي حامد الغزالي- مكتبة الأنجلو المصرية- الطبعة الثالثة- 1962م.

ذلك في اليقظةِ وسألوه عن أشياءَ كانوا منها مُتشوِّشِين، فأخبَرَهم بتَفريجِها ونصَّ لهم علىٰ الوجوهِ التي مِنها يكونُ فرَجُها، فجاءَ الأمرُ كذلك بلا زيادةٍ ولا نقصٍ انتهىٰ المرادُ منه، ثم إنَّ رؤيتَه صلَّىٰ الله تعالىٰ عليهِ وسلَّمَ يقظةً عند القائلينَ بها أكثرُ ما تقَع بالقَلبِ ثمَّ يترَقَّىٰ الحالُ إلىٰ أن يُرىٰ بالبصرِ، واختلفوا في حقيقةِ المرئي فقالَ بعضُهم: المرئيُّ ذاتُ المصطفىٰ بجِسمِه ورُوحِه، وأكثرُ أربابِ الأحوالِ علىٰ أنَّه مثالُه، وبه صرَّح الغزاليُّ فقالَ : ليس المرادُ أنَّه يرىٰ جسمَه وبدنَه بل مثالًا له، صارَ ذلك المثالُ آلةً يتأدَّىٰ بها المعنىٰ الذي في نفسِه. قال: والآلةُ تارةً تكونُ حقيقةً وتارةً تكونُ خياليَّةً، والنَّفْسُ غيرُ المثالِ المتخَيَّلِ، فما رَآه مِن الشَّكلِ ليسَ هو رُوح المصطفىٰ ولا شخصُه، بل هو مثالٌ له علىٰ التَّحقيقِ.

وفصَّلَ القاضي أبو بكر بن العربي فقالَ: رؤيةُ النَّبي بصفتِه المعلومةِ إدراكٌ علىٰ الحقيقةِ ورؤيتُه علىٰ غيرِ صفَتِه إدراكٌ للمثالِ، واستحسَنَه الجلالُ السُّيوطيُّ وقالَ بعد نقلِ أحاديثَ وآثارٍ ما نصُّه: فحصَلَ مِن مجموعِ هذا الكَلامِ- النُّقول والأحاديث- أنَّ النَّبِي حيٌّ بجسدِه ورُوحِه، وأنَّه يَتصرَّفُ ويسيرُ حيثُ شاءَ في أقطارِ الأرضِ وفي الملكوتِ وهو بهيئَتِه التي كانَ عليها قَبلَ وفاتِه لم يَتبَدَّل منه شيءٌ، وأنَّه مغيَّبٌ عن الأبصارِ كما غيِّبَت الملائكةُ مع كونهِم أحياءً بأجسادِهِم، فإذا أرادَ الله تعالىٰ رفعَ الحجابِ عمَّن أرادَ إكرامَه برؤيتِه رآه علىٰ هيئتِه التي هو عليهِ الصَّلاة والسَّلام عليها لا مانعَ من ذلكَ ولا داعيَ إلىٰ التَّخصيصِ برؤيةِ المثالِ))[1].

وقال الآلوسيُّ أيضًا: ((والذِي يغلُبُ علىٰ الظَّنِّ أنَّ رؤيتَه ﷺ بعد وفاتِه بالبَصرِ ليسَت كالرُّؤيةِ المتعَارفَة عندَ النَّاسِ مِن رؤيةِ بعضِهم لبعضٍ، وإنَّما هي جمعيَّةٌ حاليَّةٌ وحالةٌ برزخيَّةٌ وأمرٌ وجدانيٌّ لا يدرِك حقيقتَه إلا مَن باشرَه، ولشدَّةِ شَبه تلكَ الرؤيةِ

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني(22/36- 37) للعلامة شهاب الدين الآلوسي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

بالرُّؤيةِ البصَريَّةِ المتعارَفةِ يَشتبهُ الأمر علىٰ كثيرٍ من الرَّائينَ فيظنُّ أنَّه رآه ﷺ ببصَرِه الرؤيةَ المتعارَفةَ وليسَ كذلكَ، وربَّما يُقال: إنَّها رؤيةٌ قلبيَّةٌ ولقوَّتِها تشتَبه بالبصريَّةِ، والمرئي إمَّا رُوحُه عليه الصَّلاة والسَّلام التي هيَ أكْمَل الأرواحِ تجرُّدًا وتقدُّسًا، بأن تكونَ قد تطوَّرَت وظهَرَت بصورةٍ مرئيَّةٍ بتلكَ الرؤيةِ مع بقاءِ تعلُّقِها بجسدِه الشَّريفِ الحيِّ في القبرِ السَّامي المنيفِ، علىٰ حدِّ ما قالَه بعضُهم من أنَّ جبريلَ عليهِ السَّلام مَع ظهورِه بينَ يدي النَّبي عليه الصَّلاةُ والسَّلام في صورةِ دحيةَ الكَلبي أو غيرِه لَم يفارِق سِدرةَ المنتَهىٰ، و إمَّا جسَدٌ مثاليٌّ تعلَّقَت به رُوحُه ﷺ المجرَّدةُ القدسيَّةُ، ولا مانعَ مِن أن يتعدَّدَ الجسدُ المثاليُّ إلىٰ مَا لا يُحصَىٰ مِن الأجسادِ مع تعلُّقِ رُوحِه القدسيَّةِ عليه مِن الله تعالىٰ ألفُ ألفِ صلاةٍ وتحيَّةٍ بكلِّ جسَدٍ مِنها ويكونُ هذا التعلُّقُ مِن قَبيلِ تعلُّقِ الرُّوحِ الواحدةِ بأجزاءِ بدَنٍ واحدٍ، ولا تحتاجُ في إدرَاكاتِها وإحساساتِها في ذلك التَّعلُّقِ إلىٰ ما تحتاجُ إليهِ مِن الآلاتِ في تَعلُّقِها بالبَدنِ في الشَّاهدِ، وعلَىٰ ما ذكِر يظهرُ وجهُ ما نقلَه الشَّيخُ صفيُّ الدِّين بن أبي مَنصورٍ والشَّيخُ عبدُالغفَّار عن الشَّيخ أبي العبَّاسِ الطنجي مِن أنَّه رأَىٰ السَّماءَ والأرضَ والعرشَ والكرسيَّ مملوءةً من رسولِ الله ﷺ، ويَنحَلُّ بهِ السُّؤالُ عن كيفيَّةِ رؤيةِ المتعدِّدين لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام في زَمانٍ واحدٍ في أقطارٍ متباعدةٍ.

ولا يحتاجُ معه إلىٰ مَا أشار إليهِ بعضُهم وقد سُئلَ عن ذلك فأنشدَ:

كالشَّمس في كبدِ السَّماء وضوءُها ... يَغشىٰ البلادَ مشارقًا ومغاربا

وهذِه الرُّؤيةُ إنَّما تقَع في الأغلَبِ للكاملِين الذين لَم يُخِلُّوا باتِّباعِ الشَّريعةِ قدرَ شعيرةٍ، ومتىٰ قويَت المناسبةُ بينَ رسولِ الله ﷺ وبينَ أحدٍ مِن الأُمَّةِ قويَ أمرُ رؤيتِه إيَّاه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد تقعُ لبعضِ صلحاءِ الأمَّةِ عندَ الاحتِضارِ لقوَّةِ الجمعيَّةِ حِينئذٍ، والرُّؤيةُ التي تكون يقظةً لَمن رآهُ ﷺ في المنامِ إنْ كانَت في الدُّنيا فهيَ علىٰ نحوِ

رؤيةِ بعضِ الكاملِين إيَّاه ﷺ، وهي أكمَلُ مِن الرُّؤيا وإن كانَ المرئيُّ فيهما هوَ رسولَ الله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وآخرُ مظانِّ تحقُّقِها وقتَ الموتِ))[1].

وقد أورَد الشيخ محمَّد بن علَوي المالكي رحِمَه الله عن أهلِ العِلْم في هذِه المسألةِ فقال: ((وقَالوا: إنَّ رؤيَا النَّبيِّ ﷺ ممكِنٌ لعَامَّة أهلِ الأرضِ في ليلةٍ واحدةٍ؛ وذلك لأنَّ الأكوانَ مرايَا وهو ﷺ كالشَّمسِ إذَا أشرَقَت على جميعِ المرَايا ظهرَ في كلِّ مرآةٍ صورتُها بحسَب كِبَرها وصِغرِها وصفائِها وكدَرِها ولطَافتِها وكثافتِها كبلَّورٍ أو مَعدِنٍ، وبحسَب أشكَالها مِن تدويرٍ إلى تثليثٍ إلى تربيعٍ إلى غير ذلك منَ الأشكالِ والألوانِ، فكلُّ مَن رأى النَّبيَّ ﷺ فإنَّما رَآه بحَسَبِ صفةِ نفسِه ومرآةِ قلبِه، فإن رآهُ بصفةِ كمالٍ فالكَمالُ في الرَّائي أو بصفةِ نقصٍ فلنقصٍ في الرَّائي))[2].

فعالَم المثالِ هو عالَمٌ تنعكِسُ فيه الصُّورُ في مرآةِ القلوبِ وتتحوَّل فيهِ الأمورُ المعنويَّة إلى أمورٍ حسيَّةٍ، فما يراه الرَّائي في اليَقظةِ هو مثالٌ لشخصِ رسولِ الله ﷺ من عالَم البرزخِ أو يحدُثُ نوعُ انكشافٍ لحياةِ رسول الله ﷺ البرزخيَّةِ في اليَقظةِ فيَطَّلعُ الشَّخصُ على ما شاءَ الله له أن يطَّلعَ ويَتواصَل مَع رسولِ الله ﷺ.

الروايات الدالة على رؤية النَّبيِّ ﷺ في اليقظة:

قَد تمَّ نقلُ كثيرٍ منَ الرِّواياتِ عن رؤيةِ الكثيرِ منَ العلماءِ والصَّالحينَ والعبادِ الرَّبانيين لرسولِ الله ﷺ في اليَقظةِ فمِن أمثلةِ ذلك:

- مَا أوردَه الإمامُ السيوطيُّ في فتَاويه فقالَ: ((وحُكي عن بعضِ الأولياءِ أنَّه حضَر مجلِسَ فقيهٍ فرَوى ذلك الفقيهُ حدِيثًا، فقالَ له الوليُّ: هذا الحديثُ باطلٌ، فقالَ الفقِيه: ومِن أينَ لك هذَا؟ فقالَ: هذا النَّبيُّ ﷺ واقفٌ على رأسِك يقول: إنِّي لَم أقل هذا

(1) روح المعاني (22/37).

(2) الذخائر المحمدية (ص147) للشيخ محمَّد بن علوي المالكي- دار جوامع الكَلِم- القاهرة.

الحديثَ، وكُشِفَ للفقيهِ فرَآه. وفي كتابِ المِنَح الإلهيَّة في مناقبِ السَّادةِ الوفائيَّة لابن فارسٍ قال: سمعتُ سيِّدي عليًّا ﷺ يقولُ: كنتُ وأنا ابنُ خمسِ سنينَ أقرأُ القرآنَ على رجلٍ يُقالُ له الشَّيخُ يعقُوب، فأتيتُه يومًا فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ يقَظةً لا مَنامًا وعليه قميصٌ أبيضُ قطنٌ ثم رأيتُ القميصَ عليَّ، فقال لي: اقرأْ، فقرأتُ عليه سورةَ والضُّحىٰ، وألَم نشرَح، ثم غابَ عنِّي، فلَّما أن بلَغتُ إحدىٰ وعشرينَ سنةً أحرَمتُ لصلاةِ الصُّبح بالقرافةِ، فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ قبالةَ وجهي فعانَقني، وقالَ لي: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث﴾ [الضُّحىٰ:11] فأُوتيتُ لسانَه مِن ذلك الوقتِ. انتهىٰ.

وفي بعض المجاميع: حجَّ سيِّدي أحمد الرِّفاعي، فلما وقف تجاه الحجرةِ الشَّريفةِ أنشدَ:

في حالةِ البُعد رُوحي كنتُ أُرسلُها ... تُقبِّلُ الأرضَ عنِّي فـهي نائبَتي
وهـذه نوبَةُ الأشباحِ قد حـضرَتْ ... فامدُدْ يمينَك كي تحظَىٰ بها شَفَتي

فخرجت اليدُ الشريفةُ من القبر الشَّريفِ فقبَّلَها.

وفي معجَمِ الشَّيخِ برهانِ الدِّين البقاعيِّ قال: حدَّثني الإمامُ أبو الفَضل بنُ أبي الفَضلِ النويريُّ: أنَّ السيِّدَ نورَ الدِّين الإيجي والدَ الشريفِ عفيفِ الدِّين لَّما ورَد إلىٰ الرَّوضةِ الشَّريفةِ وقالَ: السلامُ عليكَ أيُّها النَّبي ورحمةُ الله وبركاته، سَمِع مَن كان بحَضرتِه قائلًا من القبرِ يقول: وعليكَ السَّلامُ يا ولَدي.

وقال الحافظُ محِبُّ الدِّين بنُ النَّجَّارِ في تاريخِه: أخبرَني أبو أحمد داودُ بنُ عليٍّ بنِ هبةِ الله بنِ المُسلِمة أنا أبو الفرحِ المباركِ بن عبدِالله بن محَمَّد بن النقورِ قال: حكَىٰ شيخُنا أبو نصرٍ عبدالواحدِ بنُ عبدِالملكِ بنِ محَمَّدٍ بنِ أبي سعدٍ الصُّوفي الكَرخي قال: حججتُ وزُرتُ النبيَّ ﷺ فبينَا أنا جَالسٌ عندَ الحُجرةِ إذ دَخلَ الشَّيخُ أبو بكرٍ الدِّيار بـكْري ووقفَ بإزاءِ وجهِ النَّبيِّ ﷺ وقالَ: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله، فسمعتُ صوتًا مِن داخلِ الحجرةِ: وعليكَ السلام يا أبا بكر، وسمِعَه مَن حَضَر.

وفي كتابِ مصباحِ الظَّلام في المستغيثين بخيرِ الأنام للإمامِ شمس الدِّين محمَّد بنِ موسىٰ بنِ النُّعمان قال: سمعتُ يوسفَ بنَ علي الزناني يَحكِي عنِ امرأةٍ هاشميَّةٍ كانت مجاورةً بالمدينةِ، وكان بعضُ الخدَّام يؤذِيها، قالت: فاستغثتُ بالنبي ﷺ فسمعتُ قائلًا من الرَّوضة يقول: أما لكِ فيَّ أسوةٌ؟ فاصبري كما صبَرتُ- أو نحو هذا- قالت: فزالَ عنِّي مَا كنتُ فيهِ، وماتَ الخدَّامُ الثَّلاثةُ الذين كانوا يُؤذُونَني))[1].

- وقَد ذكرَ الإمامُ الآلوسيُّ في تفسيرِه رواياتٍ عن الرؤيةِ في اليقظةِ فقال:

((قال الشَّيخ عبدُالقادر الكيلاني قُدِّس سرُّه: رأيتُ رسولَ الله ﷺ قبلَ الظُّهرِ فقالَ لي: يا بُنيَّ لِمَ لا تتكلَّم؟ قلتُ: يا أبتَاه أنا رجلٌ أعجم كيفَ أتكلَّم علىٰ فصحاءِ بغدادَ؟ فقال: افتَح فاكَ ففتحتُه فتفلَ فيه سَبعًا وقال: تكلَّم علىٰ النَّاس وادعُ إلىٰ سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، فصَلَّيتُ الظُّهر وجلَستُ وحضرَني خَلقٌ كثيرٌ أُرْتِجَ عليَّ، فرأيتُ عليًّا كرَّم الله تعالىٰ وجهَه قائمًا بإزَائي في المجلسِ فقالَ لي: يا بُنيَّ لِم لا تَتكلَّم؟ قلتُ: يا أبتَاه قَد أُرْتِجَ عليَّ فقالَ: افتَح فاكَ ففتحتُه فتفَل فيهِ ستًّا فقلتُ: لِمَ لا تكْملها سَبعًا؟ قال: أدبًا مع رسولِ الله ﷺ ثم توَارَىٰ عنِّي، فقلتُ: غوَّاصُ الفكْرِ يغوصُ في بَحرِ القلبِ علىٰ دُررِ المعارفِ فيَستخرجُها إلىٰ ساحلِ الصَّدرِ، فيُنادِي عليها سمسار ترجمانِ اللِّسانِ فتَشتري بنفائسِ أثمانِ حُسنِ الطَّاعةِ في بيوتٍ أَذِنَ الله أن تُرفعَ، وقال أيضًا في ترجمة الشَّيخِ خليفةَ بنِ موسىٰ النَّهر مَلكي: كانَ كثيرَ الرُّؤيةِ لرسولِ الله عليه الصَّلاةُ والسَّلام يقظةً ومنَامًا فكان يُقال: إنَّ أكثرَ أفعالِه يتلقَّاه مِنه ﷺ يقَظةً ومَنامًا ورآه في ليلةٍ واحدةٍ سبعَ عشرةَ مرةً قالَ له في إحداهِنَّ: يا خليفة لا تضجَر منِّي، فكثيرٌ مِن الأولياءِ ماتَ بحَسرةِ رُؤيتي.

---

(1) الحاوي للفتاوي (261/2) للشيخ جلال الدين السيوطي- دار الكتب العلمية- بيروت.

وقالَ الشَّيخُ تاجُ الدِّين بنُ عطاءِ الله في لطائفِ المِنن: قال رجلٌ للشَّيخِ أبي العبَّاس المرسي: يَا سيِّدي صافِحني بكفِّكَ هذِه فإنَّكَ لقِيتَ رجالًا وبلادًا فقالَ: واللهِ ما صافَحتُ بكفِّي هذِه إلَّا رسولَ الله ﷺ قالَ: وقالَ الشَّيخُ لو حُجِبَ عنِّي رسولُ الله ﷺ طرفةَ عينٍ ما عددتُ نفسِي منَ المسلِمين، ومثلُ هذه النُّقول كثيرٌ مِن كُتبِ القومِ جدًّا))[1].

- ذكَر الحافظُ أبو القاسم ابنُ عساكر في تاريخِه: ((أنَّ أبا القاسِم ثابتَ بنَ أحمدَ البغداديَّ رأىٰ رجلاً بمدينة النَّبي ﷺ أذَّنَ الصُّبحَ عند قبرِ النَّبي ﷺ، فقالَ فيه: الصَّلاةُ خيرٌ مِنَ النَّوم، فجاءَه خادِمٌ مِن خُدَّامِ المسجدِ فلَطَمَه حينَ سمِعَ ذلك، فبكَىٰ الرَّجلُ، وقالَ: يا رسولَ الله في حَضرتِك يُفعل بي هذَا الفعلُ؟ ففُلِجَ الخادمُ في الحالِ، وحُمِلَ إلىٰ دارِه، فمكَثَ ثلاثةَ أيَّامٍ وماتَ))[2].

- وقد ذكَر الشَّيخ عبدُالوهَّابِ الشَّعراني رضوانُ الله عليهِ في ترجمةِ الشَّيخِ إبراهِيم المتبُولي فقالَ:

((ومِنهم سيِّدي إبراهيم المَتبولي رضيَ الله تعَالىٰ عنه كانَ مِن أصحابِ الدَّوائرِ الكبرىٰ في الولايةِ، ولَم يكُن لَه شيخٌ إلَّا رسولُ الله ﷺ، وكانَ يَبيعُ الحِمَّصَ المسلوقَ بالقُربِ مِن جامعِ الأمير شرفِ الدِّين بالحسينيَّةِ من القاهرةِ المحروسةِ، وكان يرَىٰ النَّبيَّ ﷺ كثيرًا في المنامِ فيُخبر بذلك أُمَّه فتقولُ: يا ولَدي إنَّما الرجلُ مَن يجتمعُ بهِ في اليقظةِ، فلمَّا صار يجتمعُ بهِ في اليقظةِ ويشاورُه علىٰ أمورِه، قالت لَه: الآنَ قد شرعتَ في مقامِ الرُّجوليَّةِ، وكان مِمَّا شاوَرَه عليه عمارةَ الزَّاويةِ التي ببِركة الحاجِّ، فقالَ: يا إبراهيمُ عمِّرها هُنا))[3].

---

(1) روح المعاني (36/22).

(2) تاريخ دمشق لابن عساكر (104/11).

(3) الطبقات الكبرىٰ المسمَّىٰ لواقح الأنوار في طبقات الأخيار (114/2) للعلامة عبدالوهاب الشَّعْراني-

وذكَر في ترجمةِ الشَّيخ أبي المواهبِ الشَّاذُلي رضي الله عنه:

وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: رأيتُ رسولَ الله ﷺ علىٰ سَطحِ الجامع الأزهرِ عامَ خمسةٍ وعشرين وثمانمائةٍ، فوضعَ يدَه علىٰ قَلبي وقالَ: يا ولَدي الغيبةُ حرَامٌ ألَم تسمَع قولَ الله تعالىٰ:﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحُجُرات:12]. وكانَ قَد جلَسَ عِندي جماعةٌ فاغتَابوا بعضَ النَّاسِ، ثمَّ قالَ ﷺ: فإنْ كانَ ولابُدَّ مِن سماعِك غِيبةَ النَّاسِ فاقرأْ سورةَ الإخلاصِ والمعوذتَين واهدِ ثوابَها للمغتابِ، فإنَّ الغيبةَ والثَّوابَ يتوارثَان ويَتوافقَان إن شاءَ الله تعَالىٰ، وكانَ رضي الله عنه يقولُ: رأيتُ رسولَ الله ﷺ فقالَ لي: هاتِ يدَك أبايعكَ، فقلت: يا رسولَ الله لا قدرةَ لي أخافُ أن يقعَ مني معصيةٌ بعد المبايعةِ، فقال: هاتِ يدَك فبايعْني، ولا تضرُّك الفلتةُ والزلَّةُ إنْ وقعَت وتُبتَ مِنها، وكأنَّه يُشير ﷺ إلىٰ أنَّ العبدَ قد يُصلِح الله تعالىٰ حالَه ليسدَّ عنه بها ثُلمَةً تقعُ في دينِهِ بعُجبٍ أو كبرٍ ونحوهِما، هذا منقولٌ مِن خَطِّه رضيَ الله تعالىٰ عنه. وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: جاءني جماعةٌ يأخذونَ عنِّي الطَّريقَ فرأيتُ النَّبي ﷺ فقالَ لي: الجماعةُ غيرُ مؤمنينَ بكَ إلَّا واحدًا بعضَ الإيمانِ فهوَ يرَاك بالعينِ العوراءِ، وسيَختِمُ الله له بخَاتمةِ الخيرِ والموتِ علىٰ الإسلامِ))[1].

- قال الشَّيخُ عبدالوهَّابِ الشعرانيُّ رضي الله عنه في ترجَمةِ الإمامِ جلَالِ الدِّين السُّيوطيٌّ: ((وكان رضي الله عنه يجتمعُ بالنَّبي ﷺ يقظةً، وأخبرني الشَّيخُ عبدُالقادِرِ الشَّاذليُّ أنَّه رأىٰ بخَطِّ الشَّيخِ جلالِ الدِّين ورقةً كتبَها لبعضِ أصحابهِ حينَ سألَه أن يقضيَ له حاجةً عندَ السُّلطانِ الغُوري فيها: يا أخِي إنِّي أرَىٰ النَّبيَّ ﷺ وأخَافُ أن أجالِسَ السُّلطانَ الغُوريَّ فيحتَجِبَ عنِّي عقوبةً لي يَقظةً، ولكِن أسألُ لكَ النَّبيَّ ﷺ، فقلتُ: يا سيِّدي فكَم مرَّةً نظَرتَ النَّبيَّ ﷺ يقظةً؟ قال: بِضعًا وسبعِينَ مرَّةً... وقال الشَّعرانيُّ أيضًا: وكانَ الشَّيخ

دار الطِّباعة العامرة الشَّرقيَّة- مصر- 1299 هـ.

(1) الطبقات الكبرىٰ للشعراني(2/100).

عطيَّةُ الأبيَاريُّ يقول: قالَ لي الشَّيخُ جلالُ الدِّين لما سألتُه يقضِي لي حاجةً عند السُّلطانِ: يا عطيَّةُ إنِّي أَجتمِع بالنَّبيِّ ﷺ يقظَةً وأَخافُ أن أَجتمعَ به فيحتجِبَ عنِّي النَّبيُّ ﷺ، ثمَّ قالَ له: اكتُم عنِّي ذلك ولا تُخبِر به إلَّا بعدَ مَوتي))[1].

- فهذِه أيُّها الأخُ المسلِم الكريمُ المحبُّ لسيِّدنا رسولِ الله ﷺ بعضُ الرِّواياتِ والحكاياتِ التي ورَدَت عنِ الصَّالِحين مِن رؤيتِهم لرسولِ الله ﷺ واجتماعِهم بهِ في اليقظةِ، وكَما رأيتَ قَد تواترَت هذِه الرِّواياتُ بأسانيدِها عنِ العلماءِ والصَّالِحين والعبَّادِ الربَّانيينَ الذين عُرِفوا باستِقامةِ الحالِ وعلُوِّ المنزلةِ والمقَامِ في أمَّةِ الإسلامِ ممَّا لا يُتصوَّر أبدًا اتِّفاقُهم علىٰ الكذبِ والافتراءِ علىٰ الله ورسولِهِ ﷺ في أمْرٍ عظيمٍ كهذا؛ إذْ كيف يمكِنُ أن يكونَ الأولياءُ والعلماءُ وبركةُ الوقتِ والمكانِ من أهلِ الكَذبِ علىٰ رسولِ الله ﷺ؟!

وليس أمرُ رؤيةِ رسولِ الله ﷺ في أوَّلِهِ وآخرِه إلَّا محضُ عطاءٍ ومنَّةٍ مِن الله سبحانَه وتعالىٰ يمتنُّ بها علىٰ مَن يشاءُ مَن عبادِه المحبِّين لرسولِ الله ﷺ. ◆

(1) الطبقات الصغرىٰ للشعراني (ص15-16).

الخاتمة

وفي الخِتامِ لابُدَّ لنا مِن التَّأكيدِ علىٰ الأمورِ التَّاليةِ فيما يخُصُّ رؤيةَ النَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ:

1- عدمُ استحالةِ الرؤيةِ عَقلًا، فهي مِن المُمكِناتِ، وأنَّ لكلِّ عالَمٍ منَ العوالِم خصائصَه، ويمكِن أن يُطلِعَ الله سبحانَه وتعالىٰ بعضَ عبادِه علىٰ ما يشاءُ.

2- إنَّ رؤيةَ الحبيبِ ﷺ من بابِ الكراماتِ التي يُكرم الله بها مَن يشاءُ مِن عبادِه ولا حدَّ للكرامةِ.

3- إنَّ الأمرَ فيها يخضع إلىٰ أنَّ القُدرةَ الإلَهيَّةَ مطلقةٌ لا حدَّ لَها وأنَّ منزلة نبيِّنا ﷺ عظيمةٌ عند ربِّه.

4- ورودُ أدلَّةٍ منَ النُّصوصِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ التي تحتمل هذا الأمرَ وتفسِّرُه.

5- ورودُ هذا الأمرِ عن أهلِ الصَّلاحِ والخيرِ والولايةِ في أُمَّةِ الإسلامِ، وتواترَ ذلك عنِ كثيرٍ مِنهم، وهم أهلُ الصِّدقِ والقُربِ مِن الله، والعهدَةُ عليهم في هذا الأمرِ، ولا يترتَّب علىٰ الإخبارِ بها أيُّ حُكْمٍ شرعيٍّ أو زَعمٍ لمنزلةٍ أو ادِّعاءٍ لوِلايةٍ.

6- إنَّ المرءَ لا يُقدِم علىٰ تكذيبِ ما لَم يُحِط به علمًا خاصَّةً فيما يتعَلَّق بأمرِ الجنَابِ المُحمَّدِي.

وفي الختام نسألُ الله الكريم الوهَّاب أن يمنَّ علينا برؤيةِ وجهِ نبيِّنا الكَريم محَمَّدٍ ﷺ في الدُّنيا يقَظةً ومنَامًا، وأن يَجمعَنا بهِ في الآخرة في مستقرِّ رحمته في جنَّاتِ النَّعيم، إنَّه وليُّ ذلك والقادرُ عليهِ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆



«إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ » - آية **95** من سورة الأنعام

الرسالة السادسة عشرة
محبة آل بيت النبي ﷺ بين الوسطيَّة والغلو

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: مكانةُ آل البيتِ عند الله ورسوله ﷺ والمؤمنينَ.

المحور الثاني: النُّصوصُ الواردة في فضلِ ومكانةِ آل البيت.

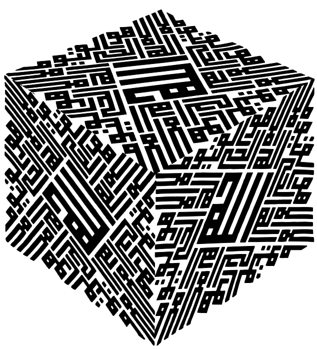
المحور الثالث: نَبذةٌ عن سِيَرَ آلِ البيتِ رضي الله عنهم.

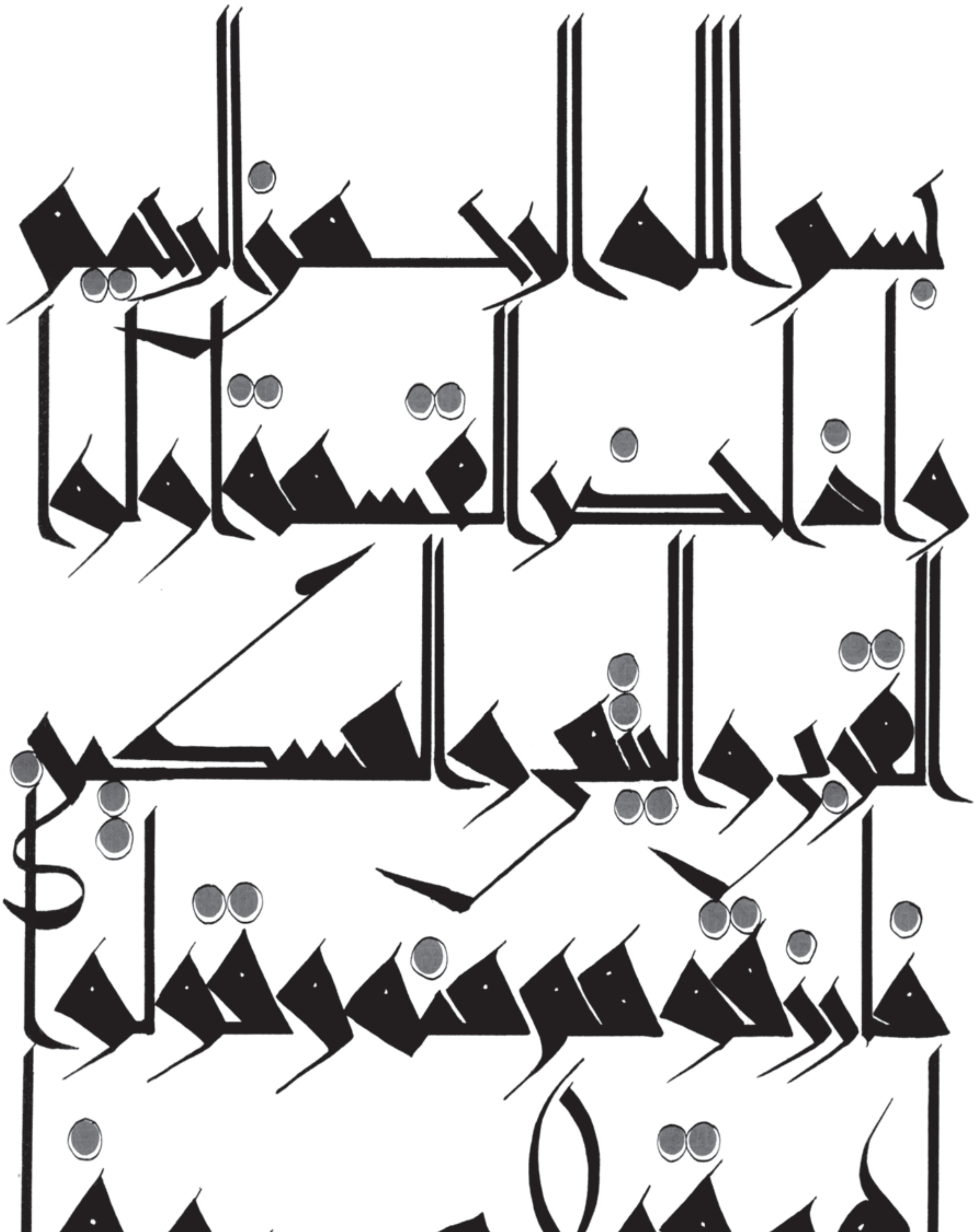
المحور الرابع: حياة النَّبيِّ ﷺ مع آل بيته.

المحور الخامس: خصائص زوجات النَّبيِّ ﷺ.

المحور السادس: حب الصَّحابة رضوان الله عليهم لآل البيتِ.

المحور السابع: الواجب المسلمين تجاه آلِ بيتِ رسول الله ﷺ. ◆





« وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا » – آية 8 من سورة النساء

محبة آل بيت النبي ﷺ بين الوسطيَّة والغلو

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا بحثٌ صغيرُ الحجمِ كبيرُ الفائدة إن شاء الله حول خيرِ آل بيت من لدن سيدنا آدمَ عليه السَّلام إلى قيامِ السَّاعة، وهم آلُ بيت المصطفى ﷺ، نتحدَّث فيه عن تعريفهم ومكانتِهم بين المسلمين؛ راجينَ بذلك ربطَ قلوبِنا بمحبَّة السِّراج المنير سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ وآل بيتِه، والذين قالَ الله فيهم في كتابِ الكريم على لسانِ نبيِّه ﷺ: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشُّورى: 23]. وسيكون بحثُنا في المحاور التالية:

المحور الأول: مكانةُ آل البيتِ عند الله ورسوله ﷺ والمؤمنينَ.

المحور الثاني: النُّصوصُ الواردة في فضلِ ومكانةِ آل البيت.

المحور الثالث: نَبذةٌ عن سِيَرِ آلِ البيتِ رضي الله عنهم.

المحور الرابع: حياة النَّبيِّ ﷺ مع آل بيته.

المحور الخامس: خصائص زوجات النَّبيِّ ﷺ.

المحور السادس: حب الصَّحابة رضوان الله عليهم لآل البيتِ.

المحور السابع: واجب المسلمين تجاه آلِ بيتِ رسول الله ﷺ. ◆

مكانةُ آل البيتِ عند الله ورسوله ﷺ والمؤمنينَ

إنَّ آلَ بيتِ رسول الله ﷺ بنصِّ كتابِ الله ووحيهِ هم البيتُ المطهَّر عالي الشَّرف، اختصَّهم الله سبحانَه وتعالىٰ بالتَّطهير، وأوجبَ الله تعالىٰ لهم مِنَ الحقوقِ والخصائصِ ما لم يكُن مثلُه لأهل بيتِ نبيٍّ أو رسولٍ قبل نبيِّنا ﷺ في القرآنِ والسُّنَّة أو في أيِّ كتابٍ أو وحيٍ سابقٍ.

فقد ثبَت لهم التَّطهير والتَّنزيه قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33] ومودَّتهم ومحبَّتهم فرضٌ بنصِّ الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فهم المصطفونَ وصفوةُ الصَّفوة مِن بيوت أهلِ الأرضِ كلِّهم، الطَّاهرون المطهَّرون آلُ رسولِ الله محمَّدٍ خير خلقِ الله أجمعين.

فشرَفُهم وعلوُّ مكانتِهم عطاءٌ إلهيٌّ ومنحةٌ ربَّانيةٌ إكرامًا مِن الله لنبيِّه وحبيبه ومصطفاه سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ رفعةً لمكانتِهِ عليه الصلاة والسَّلام، وإنَّ الإيمانَ بالله ورسولِه يُلزِمُ كلَّ مسلمٍ موحِّدٍ محبٍّ لله ولرسوله ﷺ أن يُنزل آلَ البيتِ عليهم السلام المنزلةَ التي أنزلَهم الله ورسولُه إيَّاها، فحبُّ آل البيتِ يَنبع مِن حبِّ الله لهم وحبِّ رسولِه، فمحبَّتهم ومودَّتُهم مِنَ الواجبات الشَّرعية الثَّابتة بنصوص الكتابِ والسُّنة، ولهم مِن المكانة وسموِّ المنزلةِ ما لا يشاركُهم فيها غيرُهم.

وسوف نوردُ إن شاءَ الله في ثنَايا هذا البحثِ الأدلَّةَ التي تحرِّك القلبَ والعقلَ عند كلِّ مسلمٍ لمودَّة ومحبَّة آل البيتِ رضوانُ الله عليهم، راجينَ بذلك أن نحقِّق واجبًا إيمانيًّا لا يكتمِلُ الإيمانُ إلَّا به، وهو محبَّةُ رسولِ الله ﷺ وآلِ بيتِه الطيِّبينَ الطَّاهرينَ.

وفي تعريف آل البيت نجد أن لهم معنيين؛ معنىٰ عام ومعنىٰ خاص، وسنبين ذلك علىٰ النحو التالي:

هناك معنًى عامٌّ يَشمل آلَ رسولِ الله ﷺ جميعًا، وهناك معنًى خاصٌّ خصَّ به رسولُ الله ﷺ أفرادًا معيَّنينَ مِن أهل بيته الشَّريف، كان لهم بهذا الاسم الاختصاصُ الأكبرُ به، كما سوف يتبيَّن لنا مِنَ النُّصوص إن شاء الله تعالىٰ.

فالمعنىٰ العامُّ لمصطلحِ أهل البيت يشمَل بني هاشم بنِ عبد منافٍ وبني المطلبِ بنِ عبد مناف وأمهاتِ المؤمنينَ وبناتِ وأبناءِ النَّبيِّ ﷺ.

فيَدخلُ فيهم آلُ العبَّاس بنِ عبدالمطَّلِب، وآلُ عَقيلِ بنِ أبي طالب، وآلُ الحارثِ بنِ عبدالمطلب، وآلُ علي بنِ أبي طالب، وآلُ جعفرِ بنِ أبي طالب، ويدخل أيضًا في المفهوم العامِّ موالي بني هاشم، وموالي بني المطَّلِب.

وهؤلاء جميعًا تحَرُمُ عليهم الصَّدقةُ؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنبَغِي لِآلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوسَاخُ النَّاسِ»[1].

وأمهاتُ المؤمنينَ زوجاتُ النَّبيِّ ﷺ داخلونَ في المفهومِ العامِّ لأهل البيتِ، ولهم مِنَ المكانةِ والمنزلةِ الخاصَّةِ بهم في أهلِ رسولِ الله الشَّيءُ الكثيرُ.

فقد روىٰ البخاري عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: بُنِيَ علىٰ النَّبيِّ ﷺ بزينبَ بنتِ جحشٍ بخبزٍ ولحم، فأُرسِلت علىٰ الطَّعام داعيًا، فيجيء قومٌ فيأكلونَ ويخرجونَ، ثُمَّ يجيء قومٌ فيأكلونَ ويخرجونَ، فدعوتُ حتَّىٰ ما أجدُ أحدًا أدعو، فقلتُ: يا نبيَّ الله ما أجدُ أحدًا أدعُوه. قال: «ارفَعُوا طَعَامَكُم» وبقي ثلاثةُ رهطٍ يتحدَّثون في البيتِ، فخرج النَّبيُّ ﷺ فانطَلَق إلىٰ حُجرة عائشةَ فقال: «السَّلامُ عَلَيكُم أَهلَ البَيتِ وَرَحمَةُ الله»[2].

فبهذا النَّصِّ تدخلُ أمَّهاتُ المؤمنينَ في المعنىٰ العامِّ لأهلِ البيتِ.

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي علىٰ الصَّدقة (1072) من حديث عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث رضي الله عنه.

(2) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ (4793).

وهؤلاء الدّاخلونَ في المعنىٰ العامِّ لأهل بيتِ رسول الله ﷺ يمثِّلون الدّائرةَ الأعمَّ مِن آل بيتِ رسول الله، ولهم مِنَ الحقوقِ الشَّرعيَّة والأحكامِ ما يُميِّزهم عن بقيَّة المسلِمينَ.

ثُمَّ نَجِدُ بعد ذلك الدَّائرةَ الخاصَّةَ والمعنىٰ الخاصَّ لأهل بيتِ رسول الله الَّذين اختصَّهم الله بالتَّطهير، وكانوا عترةَ النبيِّ ﷺ وصفوتَه مِن أهل بيتِه كما دلَّتِ النُّصوصُ علىٰ ذلك، وهم عليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ وأبناؤهما عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

روىٰ الإمامُ مسلم في صحيحِه من حديثِ عائشةَ رضي الله عنها قالت: خرَجَ النَّبيُّ ﷺ غداةً وعليه مِرطٌ مُرَحَّلٌ مِن شعرٍ أسودَ، فجاء الحسنُ بنُ عليٍّ فأدخلَه ثُمَّ جاء الحسينُ فدخلَ معه ثُمَّ جاءت فاطمةُ فأدخلَها ثُمَّ جاء عليٌّ فأدخلَه، ثُمَّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33][1].

روىٰ الطَّبراني في المعجم الأوسطِ عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: نزلَت في خمسةٍ في رسولِ الله ﷺ وعليٍّ وفاطمةَ والحسنِ والحسينِ رضي الله عنهم [2].

فهذه الأحاديثُ تثبِتُ أنَّ عليًّا وفاطمةَ والحسنَ والحسينَ هم صفوةُ الصَّفوةِ من آل بيتِ رسول الله ﷺ، وأكثرُ النَّاس اختِصاصًا وقُربًا مِن رسول الله، وهم الطَّاهرون المطهَّرونَ الَّذين اختصَّهم الله ورسولُه بذلك، عِترةُ رسول الله وإليه يُنسَبونَ، فَهُمْ بابُ الحبيبِ المصطفىٰ والطَّريقِ الموصل إليه، وأصلُ الدَّوحة النبويَّة الطَّاهرة المطهَّرة، والتي استمرت ذريَّةُ رسول الله ﷺ ونسلُه الشَّريف منهم. ◆

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ (2424).

(2) أخرجه الطَّبراني في المعجم الأوسط (3456) من طريق أبي الربيع الزهراني نا عمار بن محمد عن سفيان الثوري عن داود أبي الجحاف عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

النُّصوص الواردة في فضلِ ومكانةِ أهل البيت

إنَّ النُّصوص الواردةَ في فضل آل بيتِ رسولِ الله ﷺ لا حصرَ لها في دواوين وكُتبِ السُّنة، وسوف نعرِض لبعضِها مِنَ الصَّحيح الثَّابت إن شاء الله، والغرضُ مِن عرضِنا لهذه النُّصوصِ الدَّالةِ علىٰ مكانةِ ومنزلةِ آل بيتِ رسول الله ﷺ هو تنميةُ المحبةِ والتعظيمِ لقدرهم الشَّريف في القلوب، ولمعرفةِ فضلِهم ومنزلتِهم، وأن تكونَ هذه المعرفةُ هي المحرِّك لزيادةِ التعرُّف أكثر علىٰ أهلِ هذا البيتِ الطَّاهر الكريمِ، فلا يوجدُ علىٰ الأرضِ كلِّها أهلُ بيتِ نبيٍّ أو رسولٍ غيرُ أهلِ بيتِ رسولنا ﷺ، فهم الشَّجرةُ المباركةُ غيرُ المنقطعةِ إلىٰ أن يرِثَ الله الأرضَ ومَن عليها، فحُبُّهم وسيلةٌ لحبِّ الله ورسوله، وموَدَّتهم جالبةٌ لرضا الله ورضا رسوله، وبذكرِهم تستَروح القلوبُ ويزيد الإيمانُ، فيجب علىٰ كلِّ مسلمٍ وجُوبًا لازِمًا أن يَتعرَّفَ علىٰ آلِ بيتِ نبيِّه ﷺ ومكانِهم ومكانتِهم مِن رسول الله ﷺ.

وإذا عرَفنا ذلك وجَب علينا حبُّهم وتقديرُهم حبًّا لرسولِ الله عليه الصَّلاة والسَّلام وتقديرًا له، فهم أبناؤه وأحبَّاؤه وعصبتُه ونسلُه، فرسولُ الله ﷺ هو الأصلُ لهذه الشَّجرةِ المباركةِ وهم الفروعُ، وسوف تُدرِك فضلَهم ومنزلتَهم أخي الكريم مِن خلال قراءةِ النُّصوصِ والأحاديثِ التي نَرجو مِنَ الله أن تكونَ طريقًا لغَرسِ مودَّتِهم ومحبَّتهم في قلوبِنا، فالمرءُ مع مَن أحبَّ.

يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:33] في هذه الآيةِ الكريمةِ إثباتُ الطَّهارة والتَّطهير مِن الله سبحانه وتعالىٰ لآلِ بيتِ رسولِ الله، وكفىٰ بذلك مَنزلةً وشرفًا أن يخُصَّهم الله سبحانه وتعَالىٰ بالطَّهارة والتَّطهير، فهم طاهرونَ مطهَّرون بتطهيرِ الله لهم مِن كلِّ أذًىٰ وسوءٍ.

وقال عزَّ مِن قائل: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورىٰ: 23].

رُوي عن ابن عبَّاسٍ ﭬ أنَّه قالَ: لَمَّا نزلَت هذه الآيَةَ قالوا: يا رسول الله مَن قرابتُك هؤلاءِ الذينَ وجبَت علينا مودَّتُهم؟ قال ﷺ: ((عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابنَاهُمَا))[1].

قال زيد بنُ أرقم ﭬ: قامَ رسولُ الله ﷺ يومًا فينا خطِيبًا بماءٍ يُدعَىٰ خُمًّا ما بين مكَّةَ والمدينةَ، فحَمِدَ الله وأثنَىٰ عليه، ووعَظ وذكَّر، ثُمَّ قال: ((أَمَّا بَعدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَن يَأتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُم ثَقَلَينِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فيهِ الهُدَىٰ وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاستَمسِكُوا بِهِ)) فحَثَّ علَىٰ كتابِ الله ورغَّبَ فيه، ثُمَّ قال: ((وَأَهلُ بَيتِي أُذكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهلِ بَيتِي، أُذكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهلِ بَيتِي، أُذكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهلِ بَيتِي))[2].

فانظُر أيُّها الأخُ المسلم إلىٰ وصيَّة الحبيبِ الأعظَم ﷺ لأمَّته وهو يقول إنَّه تاركٌ فيهم ثقلَين هما كتابُ الله وأهلُ بيتِه، وفي ذلك مِنَ المنزلةِ والمكَانةِ لأهل البيتِ الكثيرُ والكثير، والثِّقل هو الشَّيء العظيمُ القدرِ.

وعن زيدِ بن ثابتٍ ﭬ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((إِنِّي تَارِكٌ فِيكُم خَلِيفَتَينِ: كِتَابَ اللهِ وَأَهلَ بَيتِي، وَإِنَّهُمَا لَن يَتَفَرَّقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الحَوضَ جَمِيعًا))[3].

وعن جابرِ بن عبدالله ﭬ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في حجَّته يوم عرفة، وهو علىٰ ناقتِه القَصواء يخطُب فسمعتُه يقول: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَرَكتُ فِيكُم مَا إِن أَخَذتُم بِهِ لَن تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ وَعِترَتِي أَهلَ بَيتِي))[4].

---

(1) أخرجه الطَّبراني في الكبير (11/ 444) من طريق محمد بن عبدالله الحضرمي ثنا حرب بن الحسن الطحان ثنا حسين الأشقر عن قيس عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﭬ به مرفوعًا.

(2) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ﭫ، باب من فضائل علي ﭬ (2408).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (5/ 189) من طريق أبي أحمد الزبيري ثنا شريك عن الركين عن القاسم بن حسان عن زيد بن ثابت ﭬ به مرفوعًا.

(4) أخرجه التِّرمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ (3786). وقال الترمذي: ((حسن غريب)).

وعن أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: ((إِنِّي أُوشِكُ أَن أُدعَىٰ فأُجِيبَ، و إِنِّي تَارِكٌ فيكُمُ الثَّقَلَينِ: كِتَابَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَعِترَتِي، كِتَابُ الله حَبلٌ مَمدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرضِ، وَعِترَتِي أَهلُ بَيتِي، وَإِنَّ اللَّطِيفَ الخَبِيرَ أَخبَرَنِي أَنَّهُمَا لَن يَفتَرِقَا حتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الحَوضَ، فَانظُرُوا بِمَ تَخلُفُونِي فِيهِمَا))[1].

ومعنىٰ التَّمسُّك بالعِترة: هو محبَّتُهم والاهتداءُ بهديهم وسيرتِهم، والمحافظةُ علىٰ حرمتِهم، والعملُ بما ثبَت وصحَّ مِن روايتهم[2].

وعن عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه قال: إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنقَطِعٌ يومَ القِيَامَةِ إِلَّا سَبَبِي وَنَسَبِي))[3].

وعنِ ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: كان آخرُ ما تكلَّم به رسول الله ﷺ: ((اخلُفُونِي فِي أَهلِ بَيتِي))[4].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((يَا بَنِي عَبدِالمُطَّلِبِ، إِنِّي سَأَلتُ الله لَكُم ثَلَاثًا: أَن يُثَبِّتُ قَائِمَكُم، وَأَن يَهدِيَ ضَالَّكُم، وَأَن يُعَلِّمَ جَاهِلَكُم، وَسَأَلتُ الله أَنْ يَجعَلَكُم جُودَاءَ نُجَدَاءَ رُحَمَاءَ، فَلَو أَنَّ رَجُلًا صَفَنَ بَينَ الركنِ وَالمَقَامِ فَصَلَّىٰ وَصَامَ ثُمَّ لَقِيَ الله وَهُوَ مُبغِضٌ لِأَهلِ بَيتِ مُحَمَّدٍ دَخَلَ النَّارَ))[5].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (3/17) من طريق أبي النضر ثنا محمد يعني بن طلحة عن الأعمش عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه به مرفوعًا.

(2) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (9/2974) تأليف: المُلَّا علي بن سلطان محمَّد القاري- دار الفكر- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 2002م.

(3) أخرجه الطَّبراني في الأوسط (6609)، والبيهقي في الكبرىٰ (7/64) من طريق سفيان بن وكيع ثنا روح بن عبادة عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة حدثني الحسن بن الحسن بن علي أن عمر بن الخطاب... فذكره.

(4) أخرجه الطَّبراني في المعجم الأوسط (3860) من طريق علي بن سعيد الرازي قال: نا يعقوب بن حميد ابن كاسب قال: نا الزبير بن حبيب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير قال: نا عصام بن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما به مرفوعًا.

(5) أخرجه الطَّبراني في الكبير (11/ 176- 177)، والحاكم في مستدركه (3/148). وقال الحاكم: ((حديث

وعن سَلَمَةَ بنِ الأكوع ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((النُّجُومُ جُعِلَت أَمَانًا لِأَهلِ السَّمَاءِ وَأَهلُ بَيتِي أَمَانٌ لِأُمَّتِي))(1).

وعن ابن عباسٍ ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغذُوكُم مِن نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ، وَأَحِبُّوا أَهلَ بَيتِي لِحُبِّي))(2).

وعن أبي ذر ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((مَثَلُ أَهلِ بَيتِي مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَن رَكِبَ فِيهَا نَجَا وَمَن تَخَلَّفَ عَنهَا هلَكَ))(3).

وعن أنسٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((وَعَدَنِي رَبِّي فِي أَهلِ بَيتِي مَن أَقَرَّ مِنهُم بِالتَّوحِيدِ وَلِي بِالبَلاغِ أَن لا يُعَذِّبَهُم))(4).

فكما رأيتَ أيُّها الأخُ المسلم ممَّا سبَق أنَّ شرف ومنزلةَ آل بيتِ رسول الله ﷺ ثابتٌ في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله، فهي مِن أصول الإيمان، كيف لا وقد نبَّه علىٰ عظيم فضلِهم ربُّنا تبارك وتعالىٰ ورسولُنا ﷺ؟ فلا يكتمِل إيمان مسلمٍ إلَّا بمعرفةِ ما لَهم مِنَ المنزلة والفضلِ، وينزِّلهم مِن نفسِه المكانةَ اللائقةَ بهم؛ طاعةً لله ومودَّةً لرسول الله ومحبَّةً

=

حسن صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه)). ووافقه الذهبي.

(1) أخرجه الروياني في مسنده (2/253)، والطَّبراني في الكبير (7/25) من طريق موسىٰ بن عبيدة نا إياس بن سلمة عن أبيه به مرفوعًا.

(2) أخرجه التِّرمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ (3789)، وأحمد في فضائل الصحابة (2/ 986) من طريق يحيىٰ بن معين قال: حدثنا هشام بن يوسف عن عبدالله بن سليمان النوفلي عن محمد ابن علي بن عبدالله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس ﵄ به مرفوعًا، وقال الترمذي: ((حديث حسن غريب)).

(3) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (2/ 785- 786)، والحاكم في مستدركه (2/343) من طريق مفضل ابن صالح عن أبي إسحاق عن حنش الكناني قال: سمعت أبا ذرٍّ به مرفوعًا. وقال الحاكم: ((حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه)).

(4) أخرجه الحاكم في مستدركه (3/150) من طريق أحمد بن مهدي بن رستم ثنا الخليل بن عمر بن إبراهيم ثنا عمر بن سعيد الأبحُّ عن سعيد بن أبي عروة عن قتادةَ عن أنس ﵁ به مرفوعًا. وقال: ((حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)).

فيه، فبمحبَّة أهل البيت يحصُل المسلم علىٰ محبَّة رسول الله ﷺ ورضا ربِّ العالمين، ومحبَّتُهم ومودَّتهم هي حقٌّ لرسول الله ﷺ علىٰ أمَّته.

نسأل الله العظيمَ ربَّ العرشِ العظيمِ أن يرزقنا حبَّ ومودَّة آل البيتِ.

نَبذةٌ عن سِيَر أهلِ البيتِ رضي الله عنهم

سنَأخذُ نبذةً مختصرةً عن حياةِ كلِّ فردٍ من أفرادِ هذا البَيتِ المباركِ لنتعرَّفَ عليهِم وعلىٰ سِيرتِهم العطِرةِ رضي الله عنهم، وسَيكون حديثنا مقتصرًا علىٰ التَّعريف بالإمام عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وزوجتِه السَّيدةِ فاطمةَ عليها السلام بنتِ رسول الله ﷺ وأبنائِهما الحسنِ والحُسين رضي الله عنهما.

فهؤلاء هم الصَّفوةُ والعِترة النَّبويَّة الشَّريفة وأصحابُ الكِساء وأهلُ العَباءةِ الطَّاهرونَ المطهَّرونَ.

1- الإمام عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه:

له مِنَ الفضائل الَّتي خصَّه الله بها، وله مِنَ السَّوابق الشَّريفة وعظيمِ القَدر عندَ الله وعندَ رسولِه ﷺ وعند أمَّةِ الإسلام كلِّها الشَّيءُ الكثيرُ، فقد جُمِع له الشَّرفُ مِن كلِّ جهةٍ؛ فهو ربيبُ النَّبيِّ ﷺ وابنُ عمِّه وزوجُ ابنتِه فاطمةَ، وأبو السِّبطَينِ الحسنِ والحسينِ رضي الله عنهما ريحانتَي رسولِ الله ﷺ، وهو فارس العربِ المجاهدُ في سبيل الله وسبيلِ رسوله ﷺ، تربَّىٰ في بيت النُّبوَّة، وكان مِن أوائل مَن دخَل في دِين الله وصلَّىٰ مع رسولِ الله، وكان الحبيب ﷺ الأبَ والمربِّي له رضي الله عنه.

وهو مِن أكثرِ الصَّحابة عِلمًا وشجاعةً، وروي له مِنَ الفضائلِ ما لم يروَ لغيره، فقد ورد عن الإمام أحمد بن حَنبل وإسماعِيل بن إسحَاق القاضي أنَّهما قالَا: لم يروَ في فضائلِ أحدٍ من الصَّحابةِ بالأسانيدِ الحسان مَا روي في فضائل علي بن أبِي طالب[1].

---

(1) الاستيعَاب في معرفةِ الأصحاب (2/1115) لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمَّد بن عبدالبر-دار

وقد آخىٰ رسولُ الله بينه وبين الإمام عليٍّ وقال له: ((أَنتَ أَخِي فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ))[1].

وقال النَّبيُّ ﷺ: ((عليٌّ مِنِّي وَأَنَا مِن عَليٍّ))[2].

وقال سيِّدنا عليٌّ رضي الله عنه: ((والَّذي فَلَقَ الحبَّة وبَرأ النَّسمةَ إنَّه لعهدُ النَّبيِّ الأميِّ ﷺ إليَّ أن لا يُحبَّني إلَّا مؤمنٌ ولا يُبغِضَني إلَّا منافقٌ))[3].

وأثبت الرَّسول ﷺ حبَّ الله وحبَّ رسوله للإمامِ عليٍّ كَرَّم الله وجهَه فقالَ يومَ خيبر: ((لَأُعطِيَنَّ الرَّايَةَ غدًا رَجُلًا يُفتَحُ عَلَىٰ يَدَيهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ)) قال: فتَطَاولنا لها، فقال: ((ادعُوا لي عَلِيًّا)) فأُتِيَ به أَرمَدَ، فبَصَقَ في عينِه ودفَعَ الرَّايةَ إليهِ ففَتَح الله عليهِ[4].

وقال النبي ﷺ له يومًا: ((أَنتَ مِنِّي وَأَنَا مِنكَ))[5].

وحين استَخلَفه علىٰ المدينةِ قال له ﷺ وهو خارجٌ لغَزوة تبوكٍ: ((أَلا تَرضَىٰ أَن تَكُونَ مِنِّي بِمَنزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَىٰ إِلَّا أَنَّهُ لَيسَ نَبِيٌّ بَعدِي))[6].

الجيل- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1992م.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه (3720) من طريق علي بن قادم قال: حدثنا علي بن صالح بن حي عن حكيم بن جبير عن جميع بن عمير التيمي عن ابن عمر رضي الله عنهما به مرفوعًا. وقال: ((حديث حسن غريب)).

(2) أخرجه الترمذي في الكتاب والباب السابقين (3719) من طريق إسماعيل بن موسىٰ قال: حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن حبشي بن جنادة به مرفوعًا. وقال: ((حديث حسن غريب)).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن حبَّ الأنصار وعليٍّ رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته وبغضهم من علامات النفاق (78).

(4) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم علىٰ يديه رجل (3009) ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل علي رضي الله عنه (2404) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(5) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان... (2699) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(6) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة (4416) ومسلم في كتاب

وقالَ فيه ﷺ: ((اللهمَّ مَن كُنتُ مَولاهُ فَعَلِيٌّ مَولاهُ، اللهمَّ وَالِ مَن وَالاهُ وَعَادِ مَن عَادَاهُ))[1].

ومِن جملة مَناقِبه وخصائصِه وشمائلِه رضي الله عنه:

1- أنَّه رأسُ أهل البيتِ بعد رسولِ الله، وابنُ عمِّه، وزَوجُ ابنتِه، وأبو الحسنَين.

2- ذريَّة النَّبيِّ ﷺ باقيةٌ مِن عَقِبه مِن أولاد فاطمةَ بنتِ رسول الله إلىٰ الآن، وإلىٰ أن يَرِثَ الله الأرضَ ومَن عليها إن شاءَ الله.

3- كان مِن أشجعِ النَّاس، وله مِن الجهادِ مع رسول الله المنزلةُ الكبرىٰ، فقد كان صاحبَ رايةِ رسول الله في غزواته.

4- الخليفة الرَّاشد الرَّابع في أمَّة الإسلام، قام مقامَ رسولِ الله في أمرِ أمَّته.

5- مِن أهل الكِساء الَّذين قال رسول الله فيهم إنَّهم أهلُ بيته المطهَّرينَ.

6- كان مِن أعلم الصَّحابة وأقضاهم ومِن أكثرِهم درايةً بآياتِ القرآنِ الكريم يعرف أينَ نزلَت؟ وفيمَ نزلَت؟

7- دعا له رسولُ الله ﷺ فقالَ: ((اللهمَّ اهدِ قَلبَهُ وَثَبِّت لِسَانَهُ))[2].

8- محبَّتُه لله ورسولِه، ومحبَّة الله ورسولِه له.

الفضائل، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (2404) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(1) أخرجه أحمد في مسنده (1/ 118)، وابن أبي شيبة في مسنده (32754) من طريق شريك عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع قال : بلغ عليًّا أن أناسًا يقولون فيه، قال: فصعد المنبر فقال : أنشد الله رجلًا ولا أنشده إلا من أصحاب محمد ﷺ سمع من النبي ﷺ شيئًا إلا قام، فقام مما يليه ستة، ومما يلي سعيد بن وهب ستة فقالوا: نشهد أن رسول الله ﷺ قال... به.

قال الإمام الذهبي في ((سير أعلام النبلاء)) (335/8): ((هذا حديث حسن عال جدًّا، ومتنه فمتواتر)).

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأحكام، باب ذكر القضاة (2310)، وابن أبي شيبة في مصنفه (32731) من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن علي رضي الله عنه به مرفوعًا.

9- كان ﷺ مِن أكثر النَّاس زهدًا في الدُّنيا مأكلًا ومَشربًا ومَلبسًا وسَكنًا، وقال عنه عمرُ بن عبدالعزيز رحمه الله: ((أزهدُ النَّاس في الدُّنيا عليُّ بن أبي طالبٍ))[1].

10- كان مِن أبلغ النَّاس وأفصحِهم بعدَ رسول الله ﷺ، وله مِنَ الحِكَم والأقوالِ والأشعارِ الكثيرُ والكثير.

هذه قطرةٌ مِن بحر فضائلِ ومكارمِ أمير المؤمنينَ عليِّ بن أبي طالب ﷺ، وقد أكرمَه الله بالشَّهادةِ آخرَ حياته وهو خارجٌ لصلاةِ الفجرِ في رمضانَ، رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه.

2- السَّيدة فاطمةُ بنت رسول الله ﷺ:

إنَّ محبَّة رسولِ الله ﷺ وعنايتَه بالسيِّدة فاطمةَ ﷺ مِنَ الأمور المشهورةِ، ولها مِنَ المناقبِ والخصائصِ ما امتلأت به كتبُ السُّنَّة، ومن ذلك:

1- ما روي عن جُمَيعِ بنِ عُميرٍ التَّيمِيِّ قال: دخلتُ مع عمَّتي علىٰ عائشةَ ﷺ فسُئلَت أيُّ النَّاس كان أحبَّ إلىٰ رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمةُ، فقِيل: مِنَ الرِّجال؟ قالت: زَوجُها إن كان مَا علمتُ صوَّامًا قوَّامًا[2].

2- عن أبي هريرةَ قال: قال عليُّ بن أبي طالبٍ ﷺ: يا رسول الله، أيُّما أحبُّ إليك أنا أم فاطمةُ؟ قال: ((فَاطِمَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنكَ، وَأَنتَ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنهَا))[3].

3- عن المِسوَر بنِ مَخرَمة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((فَاطِمَةُ بَضعَةٌ مِنِّي، فَمَن

---

(1) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (42/489).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل فاطمة ﷺ (3874) من طريق حسين بن يزيد الكوفي قال: حدثنا عبدالسلام بن حرب عن أبي الجحاف عن جميع بن عمير التيمي به. وقال: ((حديث حسن غريب)).

(3) أخرجه الطبراني في الأوسط (7675) من طريق عكرمة بن عمار عن يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال علي بن أبي طالب به.

أَغضَبَهَا أَغضَبَنِي))[1]. وفي روايةٍ: ((إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضعَةٌ مِنِّي يُؤذِينِي مَا آذَاهَا))[2].

4- وتقولُ السيِّدة فاطمةُ رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ أسرَّ إليها قائلًا: ((إِنَّ جِبرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي القُرآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَينِ، وَلا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهلِ بَيتِي لَحَاقًا بِي)) فبكيتُ فقال: ((أَمَا تَرضَينَ أَن تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهلِ الجَنَّةِ أَو نِسَاءِ المُؤمِنِينَ)) فضَحِكتُ لذلك[3].

5- وتقول السيِّدة عائشةُ رضي الله عنها: كُنَّ أزواجُ النبيِّ ﷺ عِندَه، لم يُغَادِرْ منهنَّ وَاحِدةً فأقبلَت فاطمةُ تمشي ما تخطئ مِشيتُها مِن مِشيةِ رسول الله ﷺ شيئًا، فلمَّا رآها رحَّب بها وقال: ((مَرحَبًا بِابنَتِي))[4].

6- وقالت أيضًا رضي الله عنها: ما رأيتُ أحدًا كان أشبَه سَمتًا وهَديًا ودَلًّا- وقالَ الحسَنُ: حديثًا وكلامًا، ولم يَذكُرِ الحسنُ السَّمتَ والهَدي والدلَّ- برسولِ الله ﷺ مِن فاطمةَ كرَّم الله وجهها، كانَت إذا دخلَت عليه قامَ إليها فأخذَ بيدِها وقبَّلَها وأجلَسَها في مجلسِه، وكانَ إذا دخَل عليها قامَت إليه فأخذَت بيدِه فقبَّلَته وأجلَسَته في مجلسِها[5].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب قرابة النبي ﷺ ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي ﷺ (3714).

(2) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام (2449).

(3) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3624) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام (2450) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(4) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان، باب مَن ناجىٰ بين يدي الناس ومَن لم يخبر بسرِّ صاحبه فإذا مات أخبر به (6285)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام (2450).

(5) أخرجه أبو داود في كتاب النوم، باب ما جاء في القيام (5217) واللفظ له، والترمذي في كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل فاطمة رضي الله عنها (3872) من طريق إسرائيل عن ميسرة بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن عائشة بنت طلحة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها به. وقال الترمذي: ((حديث حسن غريب من هذا الوجه)).

7- عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمةَ: ((إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ غَيرُ مُعَذِّبِكِ وَلَا وَلَدِكِ))[1].

6- أولادُها هم عصبةُ رسولِ الله وأبناؤه فعن عمرَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((كُلُّ بَنِي أُنثَىٰ فَإِنَّ عَصَبَتَهُم لِأَبِيهِم مَا خَلَا وَلَدَ فَاطِمَةَ فَإِنِّي أَنَا عَصَبَتَهُم وَأَنَا أَبُوهُم))[2].

فنَسلُ رسولِ الله ﷺ ليس مِن أحدٍ إلَّا منها، وفي هذا ميزةٌ وخصيصةٌ كبرىٰ لها.

7- وقال النبيُّ ﷺ عندما سُئل عن أحبِّ أهله إليه: ((فَاطِمَةُ بِنتُ مُحَمَّدٍ))[3].

قال المُناوي: والحقُّ أنَّ فاطمةَ لها الأحبيَّة المطلقةُ، ثبَت ذلك في عدَّة أحاديثَ أفادَ مجموعُها التَّواترَ المعنويَّ[4].

فهذا بعضُ ما وردَ في فضل السيِّدةِ فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ وأحبِّ أهلِه إليه، وفيه إشارةٌ بأفضليَّتها علىٰ نساءِ العالمين، وأنَّها سيِّدةُ نساءِ أهل الجنَّةِ، كيف لا وهي بَضعةُ رسولِ الله ﷺ، وكانَت تُكنَّىٰ بأمِّ أبيها؛ لرعايَتها لشأنِ وأحوالِ رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، وهي أوَّلُ أهلِ بيتِه لحاقًا به ﷺ بعد وفاتِه، فقد توفِّيت بعد وفاةِ النَّبيِّ ﷺ بستَّة أشهرٍ، وكان مِن نسلِها ذريَّةُ رسولِ الله ﷺ والدَّوحةُ النبويَّة المباركة، مفاتيحُ الرَّحمة ومعادن الحِكمة وأمنُ الأمَّة.

---

(1) أخرجه الطَّبراني في المعجم الكبير (263/11) من طريق محمد بن مرزوق ثنا إسماعيل بن موسىٰ بن عثمان الأنصاري قال: سمعت صيفي بن ربعي يحدث عن عبدالرحمن بن الغسيل عن عكرمةَ عن ابن عباس رضي الله عنهما به مرفوعًا.

(2) أخرجه الطَّبراني في المعجم الكبير (35/3) من طريق محمد بن زكريا الغلابي حدثنا بشر بن مِهران ثنا شريك بن عبدالله عن شبيب بن غرقدة عن المستظل بن حصين عن عمر رضي الله عنه به مرفوعًا.

(3) جزء من حديث أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أسامة بن زيد رضي الله عنهما (3819)، والطيالسي في مسنده (668) من طريق أبي عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أسامة به. وقال: ((حديث حسن)).

(4) انظر: التَّيسير شرح الجامع الصَّغير (38/1) تأليف: زين الدِّين محمَّد عبدالرءوف المناوي- مكتبة الإمام الشَّافعي- الرِّياض- الطَّبعة الثَّالثة- 1988م.

3- الإمام الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه:

أمير المؤمنينَ أبو محمَّدٍ سِبطُ رسولِ الله ﷺ، سمَّاه الحسنَ وعقَّ عنه يومَ سابعِه وحلَق شعرَه وتصدَّق بزِنَة شعرِه فِضَّةً، فهو حبيبُ النبيِّ وريحانتُه مِنَ الدُّنيا هو وأخوه الحسينُ رضي الله عنهما، وكان النبيُّ ﷺ يحبُّه ويداعبُه، وهو أكبر أولادِ عليٍّ وفاطمةَ رضي الله عنهما، وكان رسول الله يحملُه على عاتِقه وهو يقول: ((اللهمَّ إنِّي أحبُّه فأحِبَّه وأحبَّ مَن يُحبُّه))[1].

وكان رضوانُ الله عليه يَجيءُ فيَصعدُ على ظَهر النَّبيِّ ﷺ وهو ساجدٌ فيُطيلُ الرَّسولُ السُّجودَ حبًّا له، وكان رسول الله يَدعوه هو والحسين أبنائي فهو ابن رسول الله، وله مِنَ الشَّمائل والصِّفات الكثيرُ الذي ورَدَ في كتب السُّنة ومن ذلك:

ما في الصحيحين من حديث البراء بنِ عازبٍ رضي الله عنه قال: رأيتُ الحسنَ بنَ عليٍّ على عاتِق النَّبيِّ ﷺ وهو يقول: ((اللهمَّ إنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ))[2].

وعن أبي بكرةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ على المنبرِ والحسنُ إلى جَنبِه وهو ينظُر إلى النَّاس مرَّةً وإليه مرَّةً ويقول: ((ابنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَن يُصلِحَ بِهِ بَينَ فِئَتَينِ مِنَ المُسلِمِينَ))[3].

وقد أصلَحَ الله بهِ بينَ فئتَين من المسلِمين، فتنازَل رضوانُ الله عليه عنِ الخلافةِ لمعاوية رضي الله عنه؛ حقنًا لدماءِ المسلمينَ مع كونهِ كان معَه مِنَ الكتائبِ المحاربةِ أمثالُ الجبالِ ولكنَّه لم يرضَ أن يَقتلَ المسلمون بعضُهم بعضًا.

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب السِّخاب للصبيان (5884) ومسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل الحسن والحسين رضي الله عنهما (2421) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (3749)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل الحسن والحسين رضي الله عنهما (2422).

(3) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (3746).

وكان ﵁ أشبهَ النَّاس في الخَلْق برسول الله ﷺ فعَن أنسٍ ﵁ قال: لم يَكن أحدٌ أشبَهَ بالنَّبيِّ ﷺ من الحسنِ بنِ عليٍّ[1]، وفي هذا مَنقَبَةٌ عظيمةٌ وفضيلةٌ اختصَّ الله بها سيِّدنا الحسنَ في شبَهِهِ النبيَّ ﷺ.

وعن أبي سعيدٍ الخُدري ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحَسَنُ وَالحُسَينُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهلِ الجَنَّةِ»[2].

ورُوي عن أبي هريرةَ ﵁ أنَّه قال: خرَج رسولُ الله ﷺ ومعَه حسَنٌ وحسينٌ هذا علىٰ عاتِقه وهذا علىٰ عاتِقه، وهو يلثِم هذا مرَّةً وهذا مرَّةً حتَّىٰ انتهىٰ إلينا، فقال له رجلٌ: يا رسولَ الله إنَّك لتحبُّهما، فقال: «مَن أَحَبَّهُمَا فَقَد أَحَبَّنِي، وَمَن أَبغَضَهُمَا فَقَد أَبغَضَنِي»[3].

وكان ﵁ فصيحًا مِنَ البُلغاء، وكان إذا طافَ بالكعبةِ يكادُ النَّاس يقتتِلونَ عليه لشِدَّةِ ما يزدَحِمون عليهِ لأجلِ أن يُسلِّموا عليهِ، وكان إذا صلَّىٰ الصُّبحَ في مسجدِ رسولِ الله يجلِس في مصلَّاه حتَّىٰ ترتفعَ الشَّمسُ وهو يذكُر الله، ثُمَّ يقومُ فيدخلُ علىٰ أمَّهاتِ المؤمنينَ فيسلِّم عليهِنَّ.

وخرَج مِن ماله كلِّه للهِ مرَّتَين، واقتَسَم مالَه لله ثلاثَ مرَّاتٍ، وحَجَّ خمسًا وعشرين مرَّةً ماشيًا والنُّوقُ النَّجائب تُقادُ بين يدَيه ويقول: إنِّي أستَحيِي أن لا أَمشِي إلىٰ بيتِ الله، وكان كريمًا سخيًّا كجَدِّه ﷺ، حدَث ذات مرَّةٍ أن سَمِعَ رجلًا إلىٰ جانبه وهو يَدعو الله أن يرزقَه عشرة آلافِ درهمٍ فقامَ إلىٰ منزلِهِ وبعثَ بها إلىٰ الرَّجل، وكان يقول: مَن اتَّكل علىٰ

(1) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين ﵄ (3752).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام (3768)، وأحمد في فضائل الصحابة (2/757) من طريق يزيد بن أبي زياد عن ابن أبي نعم عن أبي سعيد الخدري به مرفوعًا، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(3) أخرجه أحمد في مسنده(2/440)، ومختصرًا علىٰ شطره الثاني ابن ماجه في مقدمة سننه، باب فضل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب ﵃ (143) من طريق أبي حازم عن أبي هريرة ﵁ به مرفوعًا.

حُسنِ اختيار الله له لم يَتمنَّ أن يكون في غيرِ الحالةِ التي اختارَ الله له، وماتَ رضوانُ الله عليه عام تسعٍ وأربعين مِنَ الهجرة النبويَّةِ الشَّريفةِ، ووقَف أبو هريرةَ علىٰ بابِ مسجدِ النبيِّ ﷺ وهو يُنادي يا أيُّها النَّاس قد ماتَ اليوم حِبُّ رسول الله فابكوا، وقد اجتمَع النَّاس لجنازته حتَّىٰ ما كانَ البقيعُ يَسَعُ أحدًا مِنَ الزِّحامِ رضي الله عنه.

4- الإمام الحسين بنُ عليٍّ رضي الله عنه:

أبو عبدالله الحسينُ بن عليٍّ سِبطُ رسولِ الله ﷺ وريحانتُه مِنَ الدُّنيا وقرَّةُ عِينه وحبيبُه، ولد في شعبان سنة أربعٍ مِنَ الهجرة فأذَّن رسولُ الله ﷺ في أُذنِه وتفَل في فِمِه ودعا له وسمَّاه حُسينًا، وكان له منَ الحبِّ والمكانةِ القلبيَّة عند رسول الله مَا كانَ لأخيه الحسنِ رضي الله عنهما، وثبَت له مِنَ المكانةِ والمنزلة عند رسولِ الله الكثيرُ، ومِن ذلك:

ما أخرجه ابن ماجه عن سعيد بن راشدٍ أنَّ يَعلَىٰ بنَ مُرَّةَ حدَّثهم أنَّهم خرَجوا معَ النَّبيِّ ﷺ إلىٰ طعامٍ دُعُوا له، فإذا حسينٌ يلعب في السِّكَّة قال: فتقدَّم النَّبيُّ ﷺ أمامَ القومِ وبسَط يدَيه فجعَل الغلامُ يفِرُّ هاهنا وهاهنا، ويضاحِكُه النَّبيُّ ﷺ حتَّىٰ أَخَذه، فجعَل إحدَىٰ يدَيه تحتَ ذَقنِه والأخرىٰ في فأسِ رأسِه فقبَّله وقال: «حُسَينٌ مِنِّي وَأَنَا مِن حُسَينٍ، أَحَبَّ اللهُ مَن أَحَبَّ حُسَينًا، حُسَينٌ سِبطٌ مِن الأَسبَاطِ»[1].

وعن أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه، سُئل رسول الله ﷺ أيُّ أهل بيتِكَ أحبُّ إليك؟ قال: «الحَسَنُ وَالحُسَينُ» وكان يقولُ لفاطمةَ: «ادعِي لِيَ ابنَيَّ» فيشمُّهما ويضمُّهما إليه[2].

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنه (144)، وابن أبي شيبة في مصنفه (32860)، ومختصرًا التِّرمذي في كتاب المناقب، باب الحسن والحسين عليهما السلام (3775) من طريق عبدالله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن راشد عن يعلىٰ بن مرَّة به مرفوعًا. وقال: «حديث حسن».

(2) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب الحسن والحسين عليهما السلام (3772) من طريق عقبة بن خالد قال: حدثني يوسف بن إبراهيم أنه سمع أنس بن مالك به مرفوعًا. وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه».

وقال ﷺ فيه وفي أخيهِ الحسَن: ((هُمَا رَيحَانَتَايَ مِنَ الدُّنيَا))[1].

وقال أيضًا فيهما عليه الصَّلاة والسَّلام: ((هَذَانِ ابنَايَ وَابنَا ابنَتِيَ، اللهمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَن يُحِبُّهُمَا))[2].

فهذا إخبارٌ من النبيِّ ﷺ عن حبِّه لهما ودعائهِ أن يُحبَّ الله مَن يُحبُّهما.

عن فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ أنَّها أتَت بالحسنِ والحسين إلىٰ رسول الله عليهِ الصَّلاة والسَّلام في شَكواه الذي توفِّي فيه فقالت: يا رسولَ الله هذان ابنَاك فورِّثهُما شيئًا، فقال: ((أَمَّا الحَسَنُ فَلَهُ هَيبَتِي وَسُؤدُدِي، وَأَمَّا حُسَينٌ فَلَهُ جُرأَتِي وَجُودِي))[3].

حياة النَّبي ﷺ مع آل بيته

حَظِي آلُ بيتِ رسول الله ﷺ بالكثير مِن اهتمامِه بهم وحُسنِ الرِّعاية لهم والحبِّ والعاطفةِ والرَّحمة الشَّديدةِ نحوهم، فكان هذا ممَّا اختصَّهم الله سبحانه به، كيف لا وهم أبناؤه وهو عصبتُهم ومربِّيهم ومؤدِّبهم؟!

وخاصَّة الخاصَّة مِن آل بيتِ رسول الله ﷺ كان لهم النَّصيبُ الأكبر مِن ذلك، وهم عليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ رضي الله عنهم، فهم صفوةُ أهلِ البيتِ وخاصَّةُ خاصَّته وعِترته الشَّريفة وأصلُ الدَّوحةِ النَّبويَّة الطَّاهرةِ، وقد ورَد فيهم بشكلٍ خاصٍّ ما لم يَرِد في غيرهم،

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (3753) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام(3769) من طريق خالد بن مخلد قال: حدثنا موسىٰ بن يعقوب الزمعي عن عبدالله بن أبي بكر بن زيد بن المهاجر قال: أخبرني مسلم بن أبي سهل النبال قال: أخبرني الحسن بن أسامة بن زيد قال: أخبرني أبي أسامة بن زيد به مرفوعًا. وقال: ((حديث حسن غريب)).

(3) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (5/370)، والطبراني في الكبير (22/ 423) من طريق يعقوب ابن حميد بن كاسب ثنا إبراهيم بن حسن بن علي عن أبيه قال: حدثتني زينب بنت أبي رافع عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ به مرفوعًا.

فهم خلاصةُ الخلاصةِ مِن أهل بيت النُّبوَّة.

ولنَذكرِ شيئًا مِنَ النُّصوص الَّتي تنوِّه بفضلِهم ومكانتِهم في أمَّة الإسلام.

وعن أمِّ سلمةَ رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ جلَّل علىٰ الحسنِ والحسينِ وعليٍّ وفاطمةَ كساءً، ثُمَّ قال: «اللهمَّ هَؤُلَاءِ أَهلُ بَيتِي وَخَاصَّتِي، أَذهِب عَنهُمُ الرِّجسَ وَطَهِّرهُم تَطهِيرًا» فقالت أمُّ سلمَةَ: وأنا معَهم يا رسولَ الله؟ قال: «إِنَّكِ إِلَىٰ خَيرٍ»[1].

وعن زيد بنِ أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ وفاطمةَ والحسنِ والحسينِ: «أَنَا حَربٌ لِمَن حَارَبتُم، وَسِلمٌ لِمَن سَالَمتُم »[2].

وعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يَمُرُّ ببيتِ فاطمةَ ستَّة أشهرٍ إذا خرج إلىٰ صلاة الفجرِ يقول: «الصَّلَاةَ يَا أَهلَ البَيتِ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[3].

وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعدًا فقال: ما منعك أن تسبَّ أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرتُ ثلاثًا قالهن له رسولُ الله ﷺ فلن أسبَّه، لأن تكون لي واحدةٌ منهن أحبُّ إلي من حُمْر النَّعَم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول له- وخلَّفَه في بعضِ مغازيه- فقال له عليٌّ: يا رسولَ الله خلَّفتني مع النِّساء

(1) أخرجه التِّرمذي في كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل فاطمة بنت ﷺ وسلم (3871) من طريق أبي أحمد الزبيري قال: حدثنا سفيان عن زبيد عن شهر بن حوشب عن أم سلمة به مرفوعًا. وقال: «حديث حسن صحيح وهو أحسن شيء».

(2) أخرجه التِّرمذي في كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل فاطمة بنت ﷺ وسلم (3870) وابن ماجَه في كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنه (145) من طريق أسباط بن نصر الهمداني عن السدي عن صبيح مولىٰ أم سلمة عن زيد بن أرقم به مرفوعًا، وقال الترمذي: «حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، وصبيح مولىٰ أم سلمة ليس بمعروف».

(3) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب من سورة الأحزاب(3206)، وابن أبي شيبة في مصنفه (32938) من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس بن مالك به مرفوعًا. وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه، وإنما نعرفه من حديث حماد بن سلمة».

والصِّبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: ((أما ترضىٰ أن تكونَ منِّي بمنزلة هارون من موسىٰ؟ إلَّا أنه لا نبوَّةَ بعدي)) وسمعتُه يقول يومَ خيبرَ: ((لأعطينَّ الرَّاية رجلًا يحبُّ الله ورسولَه، ويحبُّه الله ورسولُه)) قال فتطاولنا لها فقال: ((ادعوا لي عليًّا)) فأُتي به أرمدَ، فبصق في عينِه ودفع الرَّايةَ إليه، ففتح الله عليه، ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ﴾...الآية [آل عمران: 61] دعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمةَ وحسنًا وحسينًا فقال: ((اللهمَّ هؤلاء أهلي))(1).

فكانَ هؤلاء عليهُم السَّلامُ هم الصَّفوةُ الكرامُ الذين قدَّمَهم رسولُ الله للمَباهلةِ، والمقصود بأبنائنا الحسنُ والحسين رضي الله عنهما، والمقصودُ بنسَائِنا هي فاطمةُ رضي الله عنها، وأمَّا المقصودُ بأنفسِنا فهو رسولُ الله ﷺ وعليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

فتقدِيمُه ﷺ لهم في موقفِ المباهلةِ لمعرفة الحقِّ والباطلِ والإسلامِ والكُفر، واختيارُه عليه الصَّلاة والسَّلام لهم دونَ جميعِ الصَّحابة وأهله الآخرين، وذلك ليكونوا هم دون غيرهم الممثِّلين عن المسلمِين في مباهلتِهم للكافرين، فهذا دليلٌ علىٰ مكانتِهم عند رسولِ الله ﷺ.

خصائص زَوجات النَّبيِّ ﷺ

هم أمَّهات المؤمنينَ ومِن أهلِ بيتِ رسول الله الكِرام، أكرَمَهنَّ الله سبحانه وتعالىٰ وشرَّفهنَّ بكونهنَّ أزواجَ خيرِ الرُّسل ﷺ وهذه مَنقَبةٌ عظيمةٌ وشرَفٌ كبيرٌ، وهنَّ أزواجُه في الدُّنيا والآخرةِ، ولهنَّ بذلك مِن الخصائصِ التي اختَصَّهنَّ الله بها ما يدُلُّ علىٰ عِظَمِ مكانتِهنَّ ومن تلك الخصائصِ:

1- أكرَمَهُنَّ الله بأنْ صِرنَ أمَّهاتِ المؤمنينَ جميعًا لمَّا تزوَّجنَ رسولَ الله ﷺ قال الله تعالىٰ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6].

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (2404).

2- لا يجوزُ لهنَّ أن يتزَوَّجنَ بعد رسولِ الله أحدًا قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53].

3- علَّمنا النبيُّ ﷺ أن نُلحقَهنَّ بالصَّلاة عليهِ، فعن أبي حُميدٍ السَّاعدي أنَّهم قالوا: يا رسولَ الله كيف نُصلِّي عليك؟ فقال رسولُ الله ﷺ: قولوا: ((اللهمَّ صَلِّ علىٰ مُحَمَّدٍ وَأَزوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيتَ عَلىٰ آلِ إِبرَاهِيمَ، وَبَارِك عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَزوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِه كَمَا بَارَكتَ عَلَىٰ آلِ إِبرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ))[1].

4- أكرَمهنَّ الله سبحانه بمضاعفةِ الأجرِ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: 31].

أمَّا زوجاتُ رسولِ الله ﷺ فهنَّ: خديجةُ بنتُ خُويلِدٍ رضي الله عنها، سَودَة بنت زَمعَةٍ العامريَّة رضي الله عنها، عائشَة بنتُ أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنها، حَفصَة بنت عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنها، أمُّ سَلَمَةَ هندُ بنت أبي أميَّة المَخزوميَّة رضي الله عنها، أمُّ حَبيبةَ رَمْلَةُ بنتُ أبي سُفيانَ رضي الله عنها، زَينَبُ بنت جَحشٍ الأسديَّة رضي الله عنها، زَينَب بنت خُزَيمةَ رضي الله عنها، جُوَيرِيَّة بنت الحارثِ رضي الله عنها، صَفِيَّةُ بنت حُيَي بنِ أَخطَب الهارونيَّة رضي الله عنها، مَيمُونَة بنت الحارثِ الهلاليَّة رضي الله عنها.

ويجبُ علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يُكِنَّ لزوجاتِ النبيِّ ﷺ المحبَّةَ والمودَّة والاحترامَ وأن يتبرَّأ مِن كلِّ مَن يتنقصُ مِن شأنِهنَّ أو يَطعنُ فيهنَّ مِن الطَّوائف الضَّالةِ التي تَنتسِب زُورًا إلىٰ الإسلام، فهُنَّ أزواجُ رسولِ الله ﷺ وعِرضُه الشَّريف، وإنَّ مَن يتعرَّض لهنَّ فهو في الحقيقةِ يتعرَّضُ لِلمصطفىٰ محمَّدٍ ﷺ، فإنَّ إكرامَهنَّ مِن إكرامِ رسولِ الله ﷺ ورعايةَ جنابِهنَّ مِن رعايةِ جنابِهِ الشَّريف عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، وهنَّ أوَّلًا وآخرًا أمَّهاتُ

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب هل يصلىٰ علىٰ غير النبي ﷺ (6360)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب الصلاة علىٰ النبي ﷺ بعد التشهد (407).

المؤمنين بنصِّ كتابِ الله، فَمَن اعتَبر زوجاتِ النبيِّ أمَّهاتٍ له فهو مؤمنٌ، ومَن لم يَعتبر ذلك فليهلِكَ حيثُ شاءَ فإنَّه ليسَ من الإسلامِ في شيءٍ.

حب الصَّحابة رضوانُ الله عليهم لآل البيتِ

كان الصَّحابةُ رضي الله عنهم يحبُّون آل بيتِ رسول الله ﷺ ويحمِلون لهم المودَّةَ، وكيف لا وقد شاهَدوا وسمِعوا مِن رسول الله ﷺ ما قالَه فيهم مِنَ الفضلِ والإيصاءِ بهم؟! فكانوا يرَون أنَّ مودَّة ومحبَّة أهلِ البيتِ هي طاعةٌ لله ورسولِه، وأنَّ مودَّتهم مِن مودَّة النبيِّ ﷺ فكانوا يُقدِّمون أهلَ البيتِ على أنفسِهم وأهلِيهم، ويراعونَ جنابَهم الشَّريفَ؛ إجلالًا منهم لصاحبِ المقامِ المحمود سيِّدنا محمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعين.

فهذا سيِّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيق يقول للإمام عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: ((والَّذي نفسِي بيدِه لقَرابةُ رسولِ الله أحبُّ إليَّ أن أَصِلَ مِن قرابتي))[1].

وقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: ((ارقُبوا محمَّدًا ﷺ في أهلِ بيتِه))[2].

فهو يُخاطبُ النَّاسَ أن يَحفظُوا رسولَ الله ومنزلتَه في أهلِ بيتِه بالمودَّة والإكرامِ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يُداعِب الحسنَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما ويحمِلُه ويقول: ((بأبي شَبيهٌ بالنَّبيِّ ليس شَبيهٌ بعليٍّ)) وعليٌّ يضحكُ[3]. أي أنَّ الحسنَ أشبهُ برسولِ الله ﷺ مِنه بأَبيه عليٍّ رضي الله عنهما.

وهذا الفاروقُ عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه لَمَّا وضَع ديوانَ العطاءِ للمسلمينَ بدأَ بأقرَب النَّاس نَسبًا وقرابةً بالحبيبِ ﷺ.

---

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب قرابة النبي ﷺ ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي ﷺ (3712) ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: لا نُورَث ما تركنا فهو صدقة (1759) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ، ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي ﷺ (3713) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(3) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (3750) من حديث عقبة بن الحارث رضي الله عنه.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه بسنده عن ابن شهاب قال: ((كان أبو بكر وعمر في ولايتهما لا يلقىٰ العباس منهما واحدٌ وهو راكبٌ إلا نزل عن دابَّتِه وقادَها ومشىٰ مع العباس حتىٰ يبلغه منزلَه أو مجلسَه فيفارقه))[1]. وما هذا إلا لمقامِ عمِّ رسول الله ﷺ.

وكان عمر رضي الله عنه يختصُّ عبدَالله بنَ عبَّاسٍ بمجالِسه وهو حدَث السِّنِّ[2]، وأرسلَ إلىٰ اليمنِ يطلُب كُسوةً خاصَّةً للحسنِ والحسين رضي الله عنهما لَمَّا رأىٰ أنَّ الموجودَ لا يَتناسبُ مع مكانتِهم، ولَمَّا حضرَتِ الكُسوة قال: ((الآن طابَت نفسِي))[3]، وكان يقولُ في حقِّ عليٍّ رضي الله عنه: ((لولَا عليٌّ لهلَك عمرُ))[4].

وتزوَّج سيِّدنا عمر بن الخطَّاب السيِّدةَ أمَّ كلثوم بنتَ عليٍّ وفاطمةَ رضي الله عنهم أجمعين رغبةً في أن يُلحِق أبناءَه بسيِّدنا رسول الله ﷺ، فقال رضي الله عنه: أمَا والله مَا دعَاني إلىٰ تزويجها إلَّا أنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنقَطِعٌ يَومَ القِيَامَةِ إِلَّا مَا كَانَ مِن سَبَبِي وَنَسَبِي))[5]. وقد أنجب منها ولدًا سمَّاه زيدًا.

وهذا عمر بن الخطَّاب يقدِّم حُبَّ أهل البيتِ علىٰ حُبِّ أهل بيتِه، فقال رضي الله عنه للعبَّاس عمِّ رسول الله: والله لَإِسلامُكَ يوم أسلَمتَ كان أحبَّ إليَّ مِن إسلامِ الخطَّاب لو أسلَم؛ لأنَّ إسلامَك كان أحبَّ إلىٰ رسول الله ﷺ مِن إسلام الخطَّابِ[6].

---

(1) تاريخ دمشق (26/ 374) لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفىٰ: 571هـ) تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- 1415 هـ - 1995م.

(2) البداية والنهاية (12/89) للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير- تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي- دار هجر للطِّباعة والنشر- الطَّبعة الأولىٰ- 1998م.

(3) تاريخ الإسلام (627/2) شمس الدين محمَّد بن أحمد عثمان الذَّهبي- تحقيق: بشار عواد- دار الغَرب الإسلامي- الطَّبعة الأولىٰ- 2003م.

(4) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (1103/3) لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النميري- تحقيق محمد علي البجاوي- دار الجيل- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1992م.

(5) تقدم تخريجه.

(6) انظر: البداية والنهاية (537/6).

وكان ﵁ يستَسقي بالعبَّاس إذا حدث القَحطُ ويقدِّمه إمامًا.

وعن الحسين بن عليٍّ ﵄ قال: صعدتُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّاب المنبرَ، فقلتُ له: انزِل عن منبرِ أبي واصعَد منبرَ أبيكَ، قال: فقال لي: إنَّ أبي لم يكن له منبرٌ، فأقعَدَني معه، فلمَّا نزَل ذهب بي إلىٰ منزله، فقال: أي بُنَيَّ، مَن علَّمك هذا؟ قال: قلتُ: ما علَّمنيهِ أحدٌ، قال: أي بُنَيَّ، لو جعلتَ تأتِينا وتغشانا، قال: فجئتُ يومًا وهو خالٍ بمعاويةَ وابنُ عمرَ بالباب لم يُؤذَن له فرجعتُ، فلقِيَني بعدُ فقال لي: يا بُنَيَّ لم أرَك تأتينا، قال: قلتُ قد جئتُ وأنتَ خالٍ بمعاويةَ فرأيتُ ابن عمرَ رجَع فرجعتُ، قال: أنتَ أحقُّ بالإذن من عبدالله بنِ عمرَ، إنَّما أنبَتَ في رءوسِنا ما ترىٰ الله ثُمَّ أنتم، قال: ووضَع يدَه علىٰ رأسِه[1].

ومن أدبِ سيِّدنا زيد بن ثابتٍ مع آل البيتِ تَقبيلُه ليد عبدالله بنِ عبَّاسٍ ابنِ عمِّ رسول الله ﷺ، وذلكَ حين ركِبَ زيد بنُ ثابتٍ يومًا فأخذ ابنُ عبَّاسٍ بركابِه، فقال: تنحَّ يا ابنَ عمِّ رسول الله ﷺ، فقال: هكذا أُمِرنَا أن نفعلَ بعلمائنا وكُبرائنا، فقال زيدٌ: أرِني يدَك فأخرَجَ يدَه فقبَّلها، وقال: هكذا أُمِرنا أن نفعلَ بأهلِ بيتِ نبيِّنا[2].

وأمَّا أدب سيِّدنا أبي هريرةَ ﵁ مع آل البيتِ: فعن سعيد بن أبي سعيدٍ المَقبُريِّ قال: كنَّا مع أبي هريرةَ إذ جاء الحسنُ بن عليٍّ، فسلَّم فردَدنا عليه، ولم يعلم أبو هريرةَ، فمضَىٰ فقلنا: يا أبا هريرةَ هذا الحسنُ بن عليٍّ سلَّم علينا، قال: فتَبِعَه فلَحِقَه قال: وعليكَ السَّلام يا سيِّدي، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّهُ سَيِّدٌ»[3].

---

(1) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (6/408).

(2) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (19/326). وشطره الأول أخرجه الحاكم في مستدركه (3/ 423) بسنده عن أبي سلمة عن ابن عباس ﵄ به. وقال: «صحيح الإسناد علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه».

(3) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (6561)، والحاكم في مستدركه (3/169) من طريق محمد بن صالح التمار المدني حدثنا مسلم بن أبي مريم عن سعيد بن أبي سعيد المقبري به. وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وعن مُسَاوِرٍ مولىٰ بني سعدِ بن بكرٍ قال: رأيتُ أبا هريرةَ قائمًا علىٰ مسجد رسول الله ﷺ يومَ ماتَ الحسنُ بن عليٍّ رضي الله عنهما يبكي وينادِي بأعلَىٰ صوتِه: يا أيُّها النَّاس ماتَ اليومَ حِبُّ رسولِ الله ﷺ فابكُوا[1].

وأوصَىٰ الصَّحابي الجليل المقداد بنُ عمرٍو للحسنِ والحسين رضي الله عنهم جميعًا لكلِّ واحدٍ منهما بثمانيةَ عشرَ ألف درهمٍ[2]، وذلك محبَّةً لهم ومودَّةً لآل رسولِ الله.

وهذا عَمرو بن العاص رضي الله عنه كان جالسًا في ظلِّ الكعبةِ إذ رأَىٰ الحسين بنَ عليٍّ مُقبلًا فقال: هذا أحبُّ أهلِ الأرضِ إلىٰ أهلِ السَّماءِ[3].

فهذا أيُّها الأخ المسلم الكريمُ طرف مِن حُبِّ ومودَّةِ الصَّحابةِ الأجلَّاءِ لآل بيتِ رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأزواجِه وذريَّتِه وصحبِه أجمعينَ.

واجب المسلمين تجاه آلِ بيتِ رسولِ الله ﷺ

يتَّضح ممَّا سبَق مكانةُ آلِ بيتِ رسول الله ﷺ وما لَهم مِنَ الحقوق في رِقاب المسلمينَ، وتلك الحقوقُ ثابتةٌ بكتابِ الله وسُنَّة رسول الله ﷺ- كما مرَّ سابقًا- فحقوقُهم ومكانتُهم مستمدَّةٌ مِن انتسابهم لرسول الله ﷺ، فإكرامُهم ومعرفةُ حقِّهم هو إكرامٌ لرسول الله ورعايةٌ لجنابه الشَّريف قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورىٰ: 23] وقال ﷺ: ((أُذكِّرُكُمُ الله فِي أَهلِ بَيتِي))[4]. ◆

(1) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق(13/295).

(2) أخرجه البخاري في التاريخ الأوسط (1/ 108) عن كريمة بنت المقداد.

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (31292).

(4) تقدَّم تخريجُه.

الخاتمة

ولنذكِّر في الخاتمة بعض الأمور الَّتي يجبُ أن نكونَ عليها في حالِنا وسلوكِنا تجاهَ أهلِ بيتِ رسول الله ﷺ:

1- معرفتُهم: علينا بقدرِ المستطاعِ أن نعرِفَ أشخاصَ أهلِ بيت رسول الله عامةً، والعِترةَ الطَّاهرة خاصةً، فليس بمعقولٍ أن يكونَ المسلم علىٰ درايةٍ ومعرفةٍ بفلانٍ وفلانٍ مِن المشاهير ويكونَ جاهلًا بأهلِ بيت رسوله وحبيبِه محمَّدٍ ﷺ.

2- محبَّتُهم ومودَّتُهم و إجلالهم: وذلك ينبُع مِن حبِّ الله وحبِّ رسوله، فهُم قرابة رسول الله، وبحبِّهم ننال حبَّ الله وحبَّ رسوله ﷺ، فمودَّتهم فرضٌ مِن الله ورسوله، والمودَّة هي صفو المحبَّة، فإنَّ مودَّتهم يجب أن تكونَ فوق مودَّة كلِّ النَّاس.

3- دراسَةُ سِيَرِهم وحياتِهم ففيها الكثيرُ منَ العِبر والدُّروس والأخلاق والآدابِ، فهي تستحِقُّ أن تكونَ نِبراسًا وهاديًا لنا في الحياةِ، وأن يكونوا هم القدوةَ والأسوةَ الحسنةَ لنا فهؤلاءِ الطَّاهرون المطهَّرون هم مَن يستَحقُّون أن يكونوا قدوتَنا، وليس الوضَّعيين مِنَ النَّاس الذين لا خَلاق لهم ولا خُلُقَ.

4- غَرسُ معرفتِهم وحبِّهم ومودَّتِهم في قلوبِ أبنائِنا وأطفالِنا منذ الصِّغر، فليحدِّث كلٌّ منَّا ابنَه أو ابنتَه عن سيرةِ رسول الله ﷺ ومكانتِه ومنزلتِه ومكانةِ أهلِ بيتِه الطَّاهرين والصَّحابةِ رضوان الله عليهم.

5- مودَّتهم بزيارة قبورِهم وأضرحتِهم فإنَّ ذلك مِن أسبابِ اتِّصالِنا بهم وعدمِ انقطاعِ ذكرهم عن حياتِنا.

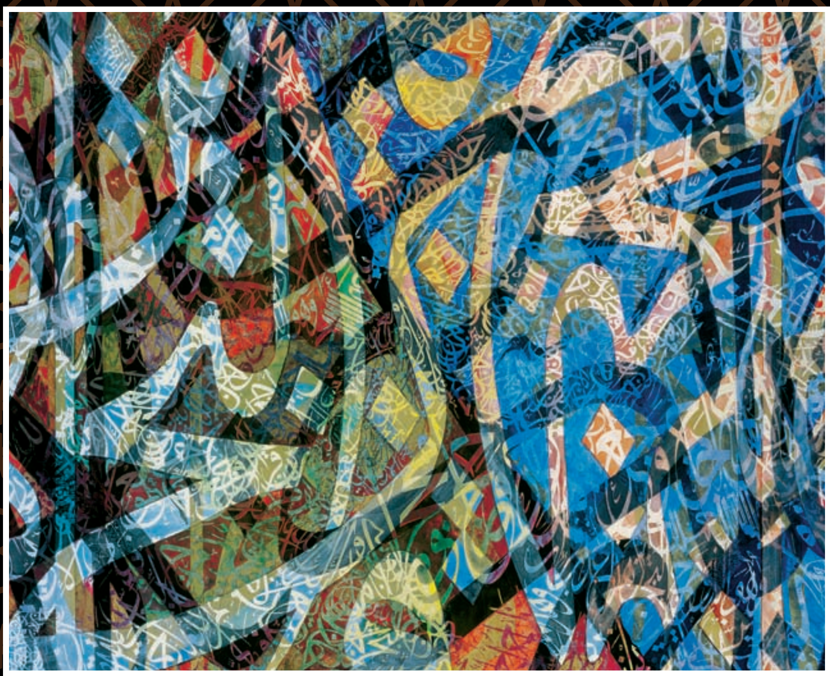
وختامًا نتوجَّه إلىٰ الله تعالىٰ بأسمائه الحُسنىٰ وصفاتِه العُليا أن يرزقَنا محبَّةَ رسولِهِ المصطفىٰ الكريم وآلِ بيتِه الطَّيِّبينَ الطَّاهرِين وذرِّيَّته ومَن يتَّصلُ برسول الله بسببٍ أو نسبٍ، وأن يرضَىٰ عنَّا بذلك، وأن يحشُرَنا تحتَ لواءِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين. ◆

موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

إعداد الشيخ أشرف سعد الأزهري ومجموعة من الباحثين بدار الفُلك



تقديم وتقريظ بقلم فضيلة

الأستاذ الدكتور / أسامة السيِّد الأزهري

2

دار الفُلك
DAR ALFULK

موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

المجلَّد الثاني [2]

دار الفُلك
DAR ALFULK

موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

الطبعة الأولى 1439هـ - 2017م

رقم الإيداع بدار الكتب: 3988 / 2017

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-85342-5-2

هاتف: 01002296403 - 37624719 / 02

6 شارع الجامع – العجوزة – القاهرة – جمهورية مصر العربية

www.dar-alfulk.com

يرتكز تصميم الغلاف على تكوين "ثلاثية حيث يلتقي البحران"

المستلهم من الآيات 19-21 من سورة الرحمن،

مزج بين الألوان الزيتية والمائية على ورق خاص بتجهيز يدوي

190 × 153 سم، من إبداع الفنان: أحمد مصطفى © 2006

المجلد الثاني من الأجزاء الثلاثة

طبعته شركة صحارا بالمنطقة الحرة العامة – مدينة نصر – القاهرة

تصميم الغلاف والإخراج العام

مؤسسة فنون أحمد مصطفى (المملكة المتحدة) المحدودة / دار الفُلك بالقاهرة

موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

إعداد الشيخ / أشرف سعد الأزهري
ومجموعة من الباحثين بدار الفُلك

تقديم وتقريظ بقلم فضيلة
الأستاذ الدكتور / أسامة السيِّد الأزهري

دار الفُلك للتحقيق والنشر والتوزيع
القاهرة – جمهورية مصر العربية

المجلَّد الثاني [2]

دار الفُلك
DAR ALFULK

المُجلَّد الثاني
قضايا عقائدية



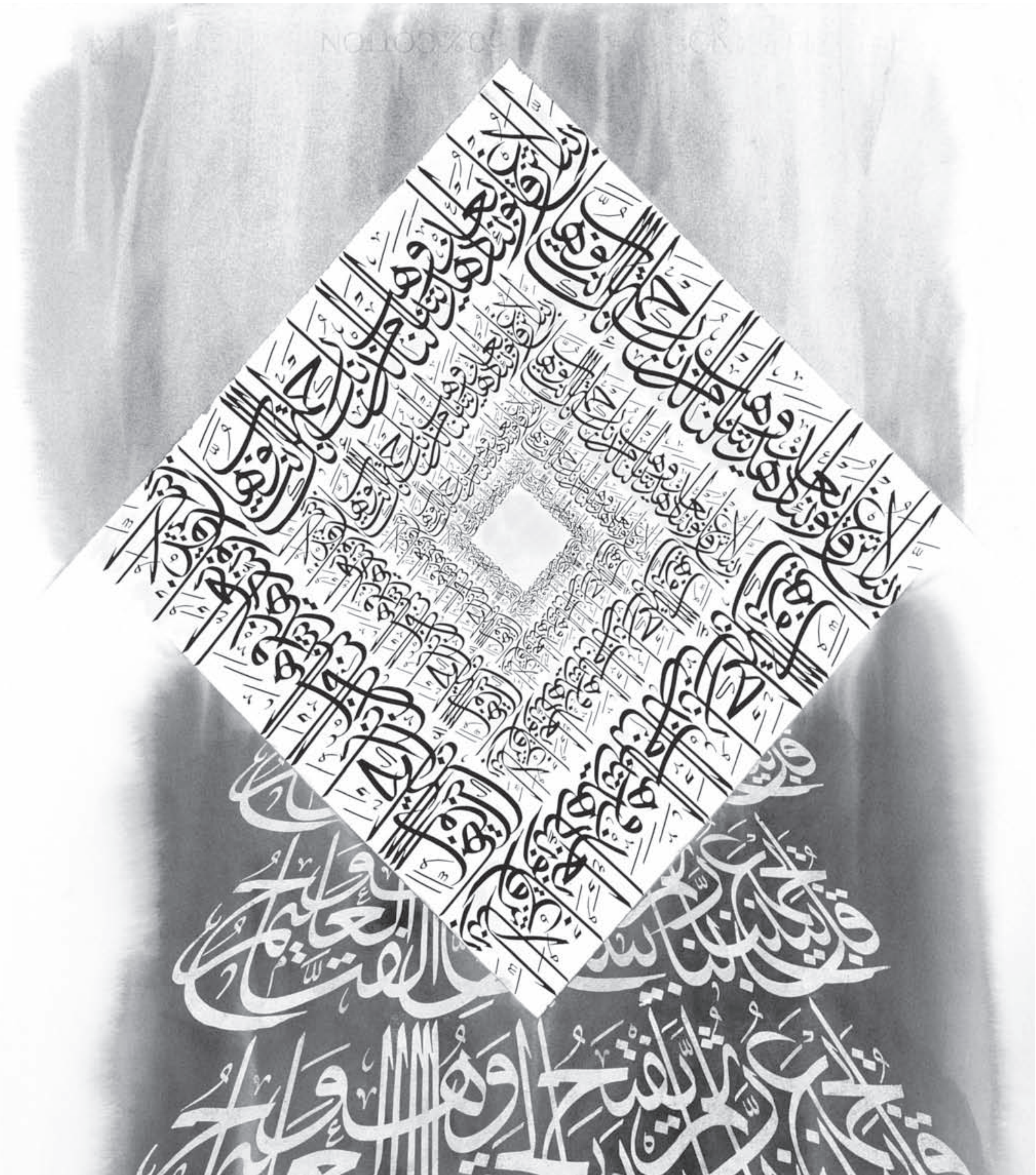
﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ – آية **34** من سورة فاطر

القسم الثاني



« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ
كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ » - آية **5** من سورة الزمر

فهرس المحتويات



« قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ » – آية **26** من سورة سبأ

المُجلد الأول – قضايا فقهية وصوفية

الرسالة الأولىٰ

مدخل عام إلىٰ التعريف بالتصوف (وتشمل ثمانية محاور) 25

الرسالة الثانية

التأصيل الشرعي لقضية التصوف في الكتاب والسنة (وتشمل خمسة محاور) 61

الرسالة الثالثة

دور التصوف في إصلاح الأفراد والمجتمعات الإسلامية (وتشمل عشرة محاور) 99

الرسالة الرابعة

دور التصوف في القضاء علىٰ البدعة والتحذير منها (وتشمل ثلاثة محاور)............... 123

الرسالة الخامسة

التصوف ودعاوىٰ الشطح بين الفهم الشرعي والمغالطات (وتشمل أربعة محاور)......... 139

الرسالة السادسة

معالم المنهج الصوفي في التربية الروحية والإصلاحية (وتشمل سبعة محاور)............... 165

الرسالة السابعة

علاقة الشيخ والمريد في المفهوم الصوفي الشرعي (وتشمل أربعة محاور) 191

الرسالة الثامنة

التأصيل لقضية العهد الصوفي وأدلته الشرعية (وتشمل عشرة محاور) 219

الرسالة التاسعة

نظرة التصوف إلىٰ حقيقة الجهاد في سبيل الله (وتشمل ثلاثة محاور)..................... 249

الرسالة العاشرة

المحبة ومراتبها عند السادة الصوفية (وتشمل ستة محاور) 281

الرسالة الحادية عشرة

دور الذكر في ترقية النفس عند الصوفية (وتشمل خمسة محاور) 303

الرسالة الثانية عشرة

التوكل علىٰ الله في ضوء المنهج الصوفي (وتشمل سبعة محاور)............................ 329

الرسالة الثالثة عشرة

وصايا العارفين والأولياء من أهل التصوف 353

الرسالة الرابعة عشرة

مقام النبي ﷺ بين قلوب المحبين وعقول الجفاة (وتشمل سبعة محاور) 375

الرسالة الخامسة عشرة

رؤية النبي ﷺ في المنام واليقظة نظرة تأصيلية شرعية (وتشمل سبعة محاور) 417

الرسالة السادسة عشرة

محبة آل بيت النبي ﷺ بين الوسطية والغلو (وتشمل سبعة محاور)...................... 491

المُجلد الثاني – قضايا عقائدية

الرسالة السابعة عشرة: **أصول عقيدة أهل السنة والجماعة** .. 15

المحور الأول: النسبة للأشعري معناها وحقيقتها 18

المحور الثاني: الأسس التي بني عليها المذهب الأشعري 19

المحور الثالث: ثناء العلماء على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري 21

المحور الرابع: الإلهيات.. 23

المحور الخامس: النبوات 50

المحور السادس: السمعيات... 65

الرسالة الثامنة عشرة: **نظرة تأصيلية إلى بدعة التقسيم الثلاثي للتوحيد** 75

المحور الأول: دعوة الرسل والأنبياء إلى توحيد الله عز وجل 80

المحور الثاني: بيان حقيقة التوحيد عند أهل السنة.................................. 89

المحور الثالث: مفهوم التوحيد عند مدعي السلفية.................................. 96

المحور الرابع: الأدلة على وقوع الشرك في الربوبية عند الكفار وعدم تحقق التوحيد عندهم 101

المحور الخامس: بطلان التقسيم الثلاثي للتوحيد والأدلة على بدعيته 107

المحور السادس: الرد على شبهة ادعاء وجود تقسيم للتوحيد عند الأشاعرة.......... 119

المحور السابع: أثر وخطورة التقسيم الثلاثي للتوحيد على واقع الأمة 121

الرسالة التاسعة عشرة: مرجعية المذاهب وحكم التقليد ومفهومه الصحيح 125

المحور الأول: تمهيد عن مكانة العلم وفضل أهله... 130

المحور الثاني: بيان حقيقة المذاهب الفقهية ونشأتها.. 132

المحور الثالث: نبذة عن المذاهب الإسلامية المشهورة والمعتمدة 135

المحور الرابع: تساؤلات حول المذاهب.. 139

المحور الخامس: بيان حكم تقليد المذاهب الفقهية.................................... 143

الرسالة العشرون: حجية الحديث الضعيف والعمل به عند الأصوليين والفقهاء................................... 151

مقدمة تمهيدية في بيان دعوى الرد المطلق للحديث الضعيف 154

المحور الأول: السنة النبوية من حيث التعريف والأهمية والمنزلة من التشريع...... 157

المحور الثاني: تعريف الحديث الضعيف وأنواعه 161

المحور الثالث: الحديث الضعيف جزء من السنة النبوية، وأقوال أهل العلم في كيفية العمل به... 165

المحور الرابع: دفع استشكال لابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله حول
العمل بالحديث الضعيف في الأحكام عند الإمام أحمد 207
المحور الخامس: بدعة تقسيم كتب السنن إلىٰ صحيح مقبول وضعيف مردود لا يعمل به..... 216
الرسالة الحادية والعشرون: مفهوم البدعة في واقعنا المعاصر
بين المنهج الوسطي والغلو 221
المحور الأول: خطورة الخوض في موضوع البدعة ممن ليس مختصا بالعلم............ 225
المحور الثاني: تعريف البدعة لغة واصطلاحا 227
المحور الثالث: الأحاديث الواردة في باب البدعة وبيان كلام العلماء فيها 232
المحور الرابع: هل ترك النبي ﷺ ينشئ حكما؟.. 235
المحور الخامس: أفعال من السلف الصالح لم تكن علىٰ عهد النبي ﷺ 241
المحور السادس: محاكمة المخالف وفقًا لقواعد منهجه.................................. 246
الرسالة الثانية والعشرون: الاستدلال الشرعي علىٰ جواز
الاجتماع علىٰ الذكر والجهر به 251
المحور الأول: تمهيد عن أهمية الذكر وتعريفه... 254
المحور الثاني: الأدلة التي تحض علىٰ ذكر الله من الكتاب والسنة................. 257
المحور الثالث: فوائد ذكر الله سبحانه وتعالىٰ 262
المحور الرابع: حكم الجهر بالذكر والاجتماع عليه..................................... 262
المحور الخامس: مسائل أخرىٰ تتعلق بهذه القضية.................................... 285

الرسالة الثالثة والعشرون: التأصيل الشرعي لقضية وصول ثواب الأعمال الصالحة إلىٰ الأموات 295

تمهيـد في الحديث عن الموت وحياة البرزخ والموتىٰ وأحوالهم 298

المحور الأول: اهتمام النبي ﷺ بأمر موتىٰ المسلمين 311

المحور الـثاني: طرف من القصص الواردة عن القبور وحياة البرزخ 316

المحور الـثالث: الأحكام الـفقهية المتعلقة بـإهداء ووصول ثـواب الأعـمال الصـالـحـة للأمـوات.. 326

المحور الرابع: خاتمة في رحمة الشريعة الإسلامية بالموتىٰ ودعوتها لرعاية حقوقهم ... 356

الرسالة الرابعة والعشرون: مشروعية الصلاة في المساجد ذات الأضرحة.............................. 359

المحور الأول: موضع قضية المساجد والأضرحة من مسائل الشريعة................ 363

المحور الـثاني: بيان دلالة الأحاديث الواردة في اتخاذ القبور مساجد............... 365

المحور الـثالث: توضيحات مهمة حول قضية المسجد الذي به قبر.................. 372

الرسالة الخامسة والعشرون: مشروعية التوسل وأدلة استحبابه من الكتاب والسنة وأقوال أهل السنة ... 383

المحور الأول: تعريف التوسل وشرح مفهومه وبيان صوره 387

المحور الـثاني: الأدلة الشرعية علىٰ جواز ومشروعية واستحباب التوسـل.......... 391

المحور الـثالث: توسل الصحابة والسلف الصالح برسول الله ﷺ 403

المحور الرابع: إيراد أقوال المذاهب وأهل العلم في قضية التوسـل.................... 408

المحور الخامس: أشعار قيلت في التوسل والاستشفاع برسول الله ﷺ 417
المحور السادس: توضيحات مهمة حول قضية التوسل 419
الرسالة السادسة والعشرون: كرامات الأولياء والصالحين
رؤية تأصيلية شرعية 429
المحور الأول: عظيم شأن الله سبحانه وتعالىٰ وطلاقة قدرته علىٰ خرق قوانين
خلقه ونواميس كونه 432
المحور الثاني: مناقشة قبول العقل للكرامات أو نفيها................................ 435
المحور الثالث: لمن تقع الكرامات؟ 438
المحور الرابع: الأدلة من الكتاب والسنة علىٰ وقوع الكرامات 440
المحور الخامس: أقوال علماء السنة في موضوع الكرامات.............................. 443
المحور السادس: صور من الكرامات في أمة الإسلام.................................. 447
الرسالة السابعة والعشرون: استحباب التبرك بآثار رسول الله ﷺ
وآثار الصالحين.............................. 459
المحور الأول: مقدمة عن التعريف بالتبرك لغة واصطلاحا، وبيان صوره وأشكاله...... 462
المحور الثاني: استحباب التبرك برسول الله ﷺ.................................. 465
المحور الثالث: استحباب التبرك بزيارة قبر رسول الله ﷺ 478
المحور الرابع: استحباب التبرك بزيارة قبور الصالحين............................. 481
الرسالة الثامنة والعشرون: مشروعية السبحة وأدلة جواز استعمالها 487
المحور الأول: تعريف السبحة من خلال أقوال أهل العلم 490

المحور الـثاني: الأدلة على جواز استعمال السبحة وغيرها في الذكر.................. 492

المحور الـثالث: أقوال أهل العلم في استعمـال السبحـة 494

الرسالة التاسعة والعشرون: مناقشات وردود حول قضية شد

الرحال لزيارة خير الأنام............ 497

المحور الأول: الأدلة على جواز واستحباب زيارة القبور 502

المحور الـثاني: مناقشة كلام ابن تيمية حول زيارة قبر النبـي ﷺ............... 508

المحور الـثالث: إيراد أقوال أهل العلم حول هذه القضيـة 517

المحور الرابع: مناقشة معتمدات ابن تيمية في هذه القضية والرد عليها 531

المحور الخامس: خاتمة في أمور متنوعة تتعلَّق بهذه القضيـة............................ 553

الرسالة الثلاثون: نظرة إلى قضية الاحتفال بالمولد النبوي

الشريف بين المحبين والجفاة................ 559

المحور الأول: عظيم مكانة النبي ﷺ وعلو مقامه الشريـف.......................... 562

المحور الـثاني: محبة النبي ﷺ وفوائد الاحتفال بمولده للأمة الإسلامية 565

المحور الـثالث: إيراد أقوال أهل العلم والأدلة الشرعية الدالة على جـواز

استحبـاب الاحتفال بالمولد النبـوي الشريـف 573

المحور الرابع: الرد على شبهات المخالفين المتعلقة بهذه القضيَّـة 587

المُجلد الثالث – قضايا فكرية

الرسالة الحادية والثلاثون

نشأة فكر التـكفير في المجتمعات الإسلامية (وتشمل خمسة محاور) 15

الرسالة الثانية والثلاثون

فكر الخوارج وأثره في إضعاف ووهن الأمة الإسلامية (وتشمل أربعة محاور)............ 85

الرسالة الثالثة والثلاثون

بطلان دعوىٰ جاهلية المجتمع الإسلامي في العصر الحديث (وتشمل أربعة محاور) 131

الرسالة الرابعة والثلاثون

عدم مشروعية الانتماء للجماعات الإرهابية المعاصرة (وتشمل سبعة محاور).............. 169

الرسالة الخامسة والثلاثون

الإمارة في فكر الجماعات الإرهابية في العصر الحديث (وتشمل سبعة محاور)........... 229

الرسالة السادسة والثلاثون

التمكين بين نصوص القرآن وفهم جماعات الخوارج (وتشمل خمسة محاور)............. 273

الرسالة السابعة والثلاثون

الرد علىٰ شبهة انتشار الإسلام بالسيف (وتشمل تسعة محاور).............................. 311

الرسالة الثامنة والثلاثون

الحاكمية وعلاقتها بالتَّكفير عند الجماعات المُتطرِّفة (وتشمل أربعة محاور).............. 395

الرسالة التاسعة والثلاثون

مبدأ الاستعلاء في منهج الجماعات التكفيرية (وتشمل خمسة محاور) 439

الرسالة السابعة عشرة
أصول عقيدة أهل السُّنة والجماعة

وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأول: النِّسبة للأشعري معناها وحقيقتها.

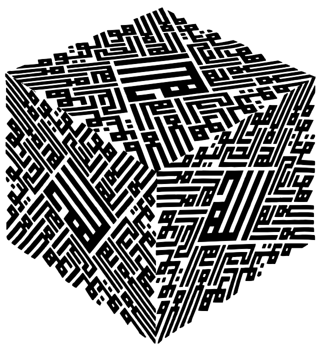
المحور الثاني: الأسس التي بني عليها المذهب الأشعري.

المحور الثالث: ثناء العلماء على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري.

المحور الرابع: الإلهيات.

المحور الخامس: النبوات.

المحور السادس: السمعيات. ◆





﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ – آية **28** من سورة الشورىٰ

أصول عقيدة أهل السُّنة والجماعة

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ لطيفةٌ عن منهج أهل السُّنة والجماعة على طريقة إمام أهل السُّنة الإمام أبي الحسن الأشعري ﷺ، وهذه الطَّريقة في معرفة العقائد تُسمى: طريقة أهل السُّنة والجماعة، أو طريقة السَّلف الصَّالح، أو طريقة الأشاعرة، أو عقيدة التنزيه، ونسبتها إلى الإمام أبي الحسن الأشعري نسبة تدوين وتحرير ومنهج وطريقة استدلال وحجاج وليست نسبة اختراع معتَقد؛ فالمعتَقد ذاتُه لا ابتداع فيه ولا اختراع، ومصدره كتاب الله عزَّ وجل، والمقطوع به من سُنة رسول الله ﷺ، والمقطوع به كذلك لدى أصحاب العقول القويمة والفطر السليمة والأنظار المستقيمة من تنزيه الباري تبارك وتعالى عن كلِّ نقص لا يليق بذاته العَلية المقدَّسة مع إثبات كل كمال يليق بالله تباركت أسماؤه، وسوف يكون الكلام في هذه الرسالة متمثلًا في المحاور التالية:

المحور الأول: النِّسبة للأشعري معناها وحقيقتها.

المحور الثاني: الأسس التي بني عليها المذهب الأشعري.

المحور الثالث: ثناء العلماء على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري.

المحور الرابع: الإلهيات.

المحور الخامس: النبوات.

المحور السادس: السمعيات. ◆

النِّسبة للأشعري معناها وحقيقتها

قال شيخنا الإمام العلَّامة في كتاب البيان لما يشغل الأذهان: «ونقول: إن الأشاعرة انتسبوا إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري؛ لأنه عندما اختلف الناس وظهر المبتدعة مِمَّن أساءوا الأدب مع الله ورسوله وكلهم زعموا أن هذه هي عقيدة النبي ﷺ وأصحابه، كان لازمًا علىٰ المعتقد بعد ظهور الفِرق أن يحدد ما هو علىٰ عقيدة النبي ﷺ وأصحابه كما بينها أبو الحسن الأشعري، فأبو الحسن الأشعري لم يبتدع مذهبًا في الاعتقاد، وإنما قرر مذهب أهل السُّنة والجماعة، وذلك ما صرَّح به السُّبكي حيث قال: «واعلم أن أبا الحسن الأشعري لم يبدع رأيًا ولم يُنشئ مذهبًا؛ وإنما هو مقرِّرٌ لمذاهب السَّلف مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ﷺ، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد علىٰ طريق السَّلف نطاقًا وتمسَّك به، وأقام الحجج والبراهين عليه فصار المقتدي به في ذلك السَّالك سبيله في الدلائل يُسمىٰ أشعريًّا» ثم قال بعد ذلك ما يؤكد كلامه فقال: قال المآيُرقي المالكي: ولم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السُّنة؛ إنما جرىٰ علىٰ سنن غيره، وعلىٰ نُصرة مذهب معروف فزاد المذهبَ حجةً وبيانًا، ولم يبتدع مقالةً اخترعها ولا مذهبًا به، ألا ترىٰ أن مذهب أهل المدينة نُسب إلىٰ مالك، ومن كان علىٰ مذهب أهل المدينة يقال له مالكي، ومالك إنما جرىٰ علىٰ سنن مَن كان قبله، وكان كثير الاتباع لهم، إلا أنه لما زاد المذهب بيانًا وبسطًا عزي إليه، كذلك أبو الحسن الأشعري لا فرقَ ليس له في مذهب السَّلف أكثر من بسطِه وشرحِه، وما ألفه في نصرته»[1].

ويقول التَّاج السُّبكي: «وهؤلاء الحنفية، والشَّافعية، والمالكية، وفضلاء الحنابلة في العقائد يد واحدة كلهم علىٰ رأي أهل السُّنةِ والجماعة يدينون لله تعالىٰ بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري رحمه الله... ثم يقول بعد ذلك: وبالجملة عقيدة

(1) طبقات الشافعية الكبرىٰ للإمام السبكي (3/367).

الأشعري هي ما تضمَّنته عقيدة أبي جعفر الطَّحاوي التي تلقَّاها علماء المذاهب بالقبول ورضوها عقيدةً))[1].

وقال العلَّامة ابن عابدين: ((قوله: عن معتقدنا)) أي عمَّا نعتقد من غير المسائل الفرعية مما يجب اعتقاده على كل مكلف بلا تقليد لأحدٍ، وهو ما عليه أهل السُّنة والجماعة وهم الأشاعرة والماتريدية، وهم متوافقون إلا في مسائلَ يسيرة أرجعها بعضهم إلى الخلاف اللفظي كما بين في محله))[2].

ولذلك كلِّه إذا قلنا: إن عقيدة النبيِّ ﷺ وأصحابه هي عقيدة الأشاعرة سيكون ذلك تقريرًا للواقع، كما قيل عن النبي ﷺ كانت أغلب قراءته نافع، رغم أن نافعًا لم يرَ النبيَّ ﷺ ونافع هو الذي يقرأ مثل النبي ﷺ وليس العكس رضي الله عنه ولكن لما كان نافع جامعًا منقحًا لتلك القراءة نُسبت إليه وقيل: ((إن أغلب قراءة النبي ﷺ نافع)) وعليه فيصح أن نقول: ((إن عقيدة النبي ﷺ وأصحابه هي عقيدة الأشاعرة))[3].

الأسس التي بني عليها المذهب الأشعري

وقد تأسَّس هذا المنهجُ على ركيزة صُلبة من التَّوفيق بين قطعيِّ العقل والنَّقل معًا، وأنَّ العقل والنَّقل كلاهما حججٌ تتآلف وتتَّفق في حقيقتها وغايتها وإنِ اختلفت في صياغتها وطريقتها وأسلوبها، فالعقلُ الصريح لا يتنافر أبدًا مع النَّقل القطعيِّ الصحيح، وبهذا وقف الإمام أبو الحسن الأشعري موقفًا وسطيًّا سُنيًّا بين مَن زعم الأخذ بالعقل وحده مع إهدار النَّقل فوقع في التعطيل وهو إنكار الصفات، وأثبت في باب العقائد أمورًا لم يرد بها الشرعُ الشَّريف كالمنزلة بين المنزلتين، وبين مَن قال آخذ بالظواهر النقلية مهما

(1) معيد النعم ومبيد النقم (ص62).

(2) رد المحتار على الدر المختار المعروف بحاشية ابن عابدين (1/49).

(3) البيان لما يشغل الأذهان (1/138) وما بعدها – تأليف: فضيلة الدكتور/ علي جمعة، دار المقطم- القاهرة- الطبعة الحادية عشر – 2009م.

تعارضت مع العقل فأثبتَ لله تعالىٰ صفاتٍ لا تليق به، حتىٰ وقع بعضُهم في التَّشبيه والتَّجسيم ونسبة بعض صفات الحوادث إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، وكِلا المسلكين بمعزلٍ عن العقل والنَّقل معًا.

ونظرًا لهذه الوسطية التي تميَّز بها المنهج الأشعري فقد أصبح منهجًا معتمدًا لغالب علماء الأُمة المحمَّدية في جميع الأقطار وسائر الأمصار، فاعتمد هذه الطَّريقة أغلب أئمَّة الفقه والأصول والحديث وشُراحه والمفسِّرون وعلماء اللغة العربية لغة القرآن الكريم وعلماء القراءات وعلماء العقائد، وسار علىٰ هديهم السَّواد الأعظم من المسلمين إلا مَن شذَّ.

والمنهج الأشعري منهجٌ فكريٌّ حضاريٌّ منفَتحٌ لا تعصبَ فيه ولا غلو ولا تكفير ولا مصادرة، استطاع بسهولةٍ ويسر أن يناقش جميعَ المعضلات الفلسفيَّة والقضايا الاعتقادية في ضوء كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ، واستطاع أن يستخدم العقل في تفكيك المشكلات التي طرحها المنهج الفلسفيُّ حول الوجود والقِدم والحدوث وطُرق المعرفة، والعالم الدنيوي والأخروي، والغاية من وجود الإنسان في هذا الكون، والغيبيات إلىٰ غير ذلك.

لقد تميَّزت مسيرة الإمام الأشعري بالتَّعمُّق والتَّدقيق في المناهج الكلاميَّة العقلية، وكذلك بالتَّعمق والتدقيق في مناهج علماء السُّنة والحديثِ؛ فكان لذلك التنوع أكبر الأثر في تأصيل منهج عقدي متكامل يعتمد العقل والنَّقل معًا.

والأصل العامُّ الذي قام عليه منهج الإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه في باب الصِّفاتِ هو التنزيه المطلق لله تعالىٰ، فهناك فارقٌ بين المخلوق والخالق، وكلُّ ما خطر ببالك فالله تعالىٰ بخلاف ذلكَ، وأن كلَّ ما يتَّصف به الحوادث من احتياجٍ وافتقار إلىٰ خالقٍ أو موجِدٍ أو مخصص أو حيزٍ أو جهةٍ أو تركيبٍ أو انتقالٍ أو أعضاءٍ أو فناء فالله

تعالىٰ منزَّهٌ عنه، ولا يجوز لمسلمٍ يؤمن بالله أو باليوم الآخر أن ينسبَ شيئًا من ذلكَ إلىٰ ربِّ العالمين تبارك وتعالىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَىٰ اللهِ واللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

فغناه سبحانه وتعالىٰ يعني استغناءه عن جميع ما مر.

ثناء العلماء علىٰ مذهب الإمام أبو الحسن الأشعري

هو الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله ابن موسىٰ بن بلال بن أبي بُردَةَ عامر بن صاحب رسول الله ﷺ أبي موسىٰ الأشعري.

ولد ﷺ سنة ستين ومائتين (260هـ) بالبصرة، وقيل: بل ولد سنة سبعين ومائتين (270هـ)، وفي تاريخ وفاته اختلاف منها أنه توفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة (333هـ) وقيل: سنة أربع وعشرين وثلاثمائة (324هـ)، وقيل: سنة ثلاثين وثلاثمائة (330هـ) توفي رحمه الله ببغداد ودفن بين الكرخ وباب البصرة.

كان أبو الحسن الأشعري سُنِّيًّا من بيت سنَّة، ثم درس الاعتزال علىٰ أبي علي الجبَّائي وتبعه في الاعتزال، ثم تاب ورَقِيَ كرسيًّا في المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة، ونادىٰ بأعلىٰ صوته: مَن عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فإني أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع، معتقد للردِّ علىٰ المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم[1].

قال الفقيه أبو بكر الصَّيرَفي: ((كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتىٰ نشأ الأشعري فحجزهم في أقماع السَّماسم))[2].

(1) فهرس ابن النديم، الفن الثالث من المقالة الخامسة (ص231)، ووفيات الأعيان (3/275).

(2) انظر هذا وأقوال العلماء فيه ﷺ: ((سير أعلام النبلاء))، للذهبي (15/85) وما بعدها.

قال عنه القاضي عياض المالكي: ((وصنَّف لأهل السُّنة التصانيفَ، وأقام الحججَ علىٰ إثبات السُّنة، وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالىٰ ورؤيته، وقدم كلامه، وقدرته، وأمور السمع الواردة. قال: تعلق بكتبه أهل السنة، وأخذوا عنه، ودرسوا عليه، وتفقهوا في طريقه، وكثر طلبته وأتباعه، لتعلم تلك الطرق في الذبِّ عن السُّنة، وبسط الحجج والأدلة في نصر الملَّة، فسموا باسمه، وتلاهم أتباعهم وطلبتهم، فعرفوا بذلك -يعني الأشاعرة- وإنما كانوا يعرفون قبل ذلك بالمثبتة، سمة عرفتهم بها المعتزلة؛ إذ أثبتوا من السُّنة والشرع ما نفوه. قال: فأهل السنة من أهل المشرق والمغرب، بحججه يحتجُّون، وعلىٰ مناهجه يذهبون، وقد أثنىٰ عليه غير واحدٍ منهم، وأثنوا علىٰ مذهبه وطريقه))(1).

وقال القاضي ابن فرحون المالكي عنه: ((كان مالكيًّا صنف لأهل السنة التصانيف وأقام الحجج علىٰ إثبات السُّنن وما نفاه أهل البدع.. ثم قال فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل الواضحة العقلية، ودفع شبه المعتزلة ومن بعدهم من الملاحدة، وصنَّف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة، وناظر المعتزلة وظهر عليهم، وكان أبو الحسن القابسي يثني عليه، وله رسالة في ذكره لمن سأله عن مذهبه فيه أثنىٰ عليه وأنصف، وأثنىٰ عليه أبو محمد بن أبي زيد وغيره من أئمَّة المسلمين))(2).

وبعد أن عرفنا أهم الملامح العامة للنهج الأشعري وشيئًا من سيرة الإمام أبي الحسن الأشعري نتناول بشيء من التفصيل أهمَّ الأصول الاعتقادية التي أصلها علماء الأشاعرة أخذًا من كتاب الله تعالىٰ ومن سُنة رسول الله ﷺ، وقد اشتمل بحثهم في العقائد الإسلامية علىٰ ثلاث مجالات؛ الإلهيات، والنبوَّات، والسمعيَّات. ◆

---

(1) ترتيب المدارك، للقاضي عياض (5 /24- 25).

(2) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكي (ص194).

الإلهيات

الأصل الأول معرفة الله تعالىٰ:

يؤمن الأشاعرة أهل السُّنة والجماعة بأن معرفة الله سبحانه والإيمان به واجبٌ بالشرع لا بمجرد العقل، فالله تعالىٰ لا يحاسب أحدًا من خَلْقِهِ حتىٰ يرسلَ إليه رسولًا يعرفه به وبمرادِهِ، وأن العقل البشريَّ وإن كان مستعدًّا لمعرفة الله بالنَّظر والتفكر والتدبر في الكون، إلا أن الله تعالىٰ لا يحاسب أحدًا من خَلْقه إلا بإرسال الرُّسل وإنزال الكُتب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولا﴾ [الإسراء: 15].

والحكمة في ذلك أنَّ النَّفس البشرية كثيرًا ما تُسيطر عليها الأهواء، وتنغمس في الشَّهوات والملهيات التي تُشتت العقل عن التَّدبر والنَّظر في الغاية العظمىٰ التي وُجدت من أجلِها، فاحتاجت العقول إلىٰ مَن ينبهها ويُرشدها إلىٰ طريق النَّظر والتدبر والتَّفكر في آيات الله سبحانه وتعالىٰ، وهم الرُّسل والأنبياء المؤيَّدون بالمعجزات والبراهين السَّاطعةِ علىٰ صِدق دعوتهم علىٰ أن الله سبحانه يقبل إيمانَ مَن اهتدىٰ إليه من أهل التَّفكر والتَّدبر، ولو كان ذلك قبل إرسالِ الرُّسلِ وإنزال الكُتب.

وعلىٰ ذلك فالإيمان واجبٌ شرعًا علىٰ المكلَّف العاقل البالغ الذي بلغته الدَّعوة علىٰ وجهٍ لافت صحيح غير مشوَّهٍ ولا فاسد، فيجب عليه أن يثبت لله تعالىٰ كلَّ كمالٍ يليق بذاته العَلية المقدَّسة، وأن ينزِّه الله تبارك وتعالىٰ عن كلِّ نقصٍ لا يليق بذاته.

وكذا يجب عليه شرعًا أن يؤمن بالأنبياء والمرسلين إجمالًا وأن يُثبت لهم ما ينبغي في حقِّهم من كمالٍ، وأن ينفي عنهم كلَّ نقص يخل بواجب التَّبليغ والرِّسالة.

ويجب علىٰ المكلَّف أن يؤمن بالوحي والكُتب المنزَّلة علىٰ الأنبياء كالتَّوراة والإنجيل والقرآن الكريم علىٰ الوجه الأتمِّ الذي نزلت به من عند الله تبارك وتعالىٰ، وهي جميعًا تدعو إلىٰ أصل واحدٍ هو الإيمان بالله الواحد الأحد.

ويجب شرعًا علىٰ المكلَّف أن يؤمن بالغيب من ملائكةٍ وجانٍّ، وأن يؤمن باليوم الآخر وما اشتمل عليه من ثوابٍ للمؤمن وعقابٍ للكافر المعاند، ورحمة وشفاعة للعُصاة والمذنبين.

وأن يؤمن بالقَدَر كلِّه خيره وشرِّه، وأن يطرح قلبَه علىٰ بساط التوحيد والتَّسليم.

وأهل السُّنة الأشاعرة يعتقدون بأن المقلِّد الذي اتبع غيرَه في أصول العقيدة الصحيحة إيمانه مقبولٌ، وهو ناجٍ إن شاء الله تعالىٰ، بشرط أن يكون جازمًا غير مترددٍ ولا شاكٍّ، وجميع عوامِّ المسلمين هكذا، والحمد لله رب العالمين، فليس من منهجنا تكفير أحدٍ من أهل القِبلة يقول: لا إله إلا الله سيِّدنا محمد رسول الله. وإنِ ارتكب المعاصيَ والكبائرَ، والواجب تعليمهم وإرشادهم بالتي هي أحسنُ، قال تعالىٰ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

الأصل الثاني: الإيمان بصفات الكمال لله تعالىٰ:

وصفات الله سبحانه وتعالىٰ التي يجب علينا الإيمان بها:

إما أن تكون نفسيَّةً، وإما أن يكون معناها سلب نقصٍ عن الله تعالىٰ، وتُسمىٰ صفات سلبيةً، وإما أن تكون إثباتَ كمالاتٍ لله تعالىٰ وتُسمىٰ صفات معانٍ.

وسوف نتكلَّم عنها بشيءٍ من التَّفصيل فيما بعدُ.

أركان التوحيد:

أولًا: الوحدانية في الذَّات:

يؤمن أهل السُّنة والجماعة بأن الله تعالىٰ واحدٌ في ذاته واحدٌ في صفاته واحدٌ في أفعالِه.

فالله سبحانه وتعالىٰ منزَّه عن مشابهة المخلوقاتِ في ذاتِه فلا يشبه أحدًا من خَلْقِه، ولا يشبهه أحدٌ من خَلْقِه، فذاتُه تعالىٰ قديمة يعني لا أوَّل لوجودها ولا خالقَ لها، ولا ممد لها بسببٍ من أسباب الوجود، وذاته سبحانه وتعالىٰ أزليَّة باقيةٌ لا يأتيها الفناءُ من أيِّ وجهٍ؛ لأنه سبحانه غني مستغنٍ عن جميع خلْقِه، وذاته سبحانه ذات صمدانية واحدةٌ

ليست مركبةً من أجزاء وأبعاضٍ كذوات المخلوقات؛ لأن المركب مفتقر إلىٰ التركيب، والله تعالىٰ غني، ويجمع هذا كله قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد ۝١ اللهُ الصَّمَد ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد﴾ [الإخلاص: 1-4].

وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَىٰ اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد﴾ [فاطر: 15].

وأهل السُّنة يؤمنون بأن كلَّ ما سوىٰ الله تبارك وتعالىٰ من أجناس وأفراد هذا العالم حادثةٌ؛ أي مخلوقة من العدم علىٰ نحوٍ وكيفيةٍ تتحير فيها العقول والأفهام لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

وأن ما قام بالعالَم من تغيُّرٍ كالوجود والعدم، والحياة والموت، والتنوُّع إلىٰ جمادٍ وحيوان، وأنهار وبحار وجبالٍ، وعرشٍ وفرشٍ، كل ذلك دليلٌ علىٰ أنه مخلوقٌ حادثٌ، وكلُّ مخلوقٍ له خالقٌ مدبِّر حكيمٌ سبحانه وتعالىٰ.

وله في كلِّ شيءٍ آيةٌ تدلُّ علىٰ أنَّه الواحدُ

وقد استدلَّ نبي الله إبراهيم عليه السلام بدليل التَّغير علىٰ وجود الخالق تبارك وتعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِين ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِين ۝٧٦ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّين ۝٧٧ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُون﴾ [الأنعام: 75-78].

وسمىٰ الله سبحانه وتعالىٰ هذا المنهجَ حجةً ونسبها إلىٰ ذاته سبحانه فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم﴾ [الأنعام: 83].

والعقل إذا نظر في هذا الكونِ الفسيح لوجدَه قد صُنع على غاية من الإتقان والإحكام والتدبير والنظام المطرد، ولعلِمَ أن خالقَه سبحانه واحدٌ لا شريكَ له ولا ندَّ له، فاستقامةُ الكون وسيره على نظامٍ واحدٍ دليلٌ على وحدانية خالقِه تبارك وتعالى، وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] وكلُّ الأدلة العقلية التي يستدلُّ بها العلماء في كتب العقائد هي في أصلِها أدلةٌ قرآنيةٌ أيضًا.

ثانيًا: الوحدانية في الصِّفات:

وكما يؤمن السَّادة الأشاعرة بأن الله واحدٌ في ذاته، فكذلك يؤمنون بأنه تعالى واحدٌ في صفاتِه، ومعنى الوحدانية في الصِّفات أن الله تعالى ليس متَّصفًا بأية صفةٍ من صفات المخلوقين، وأن المخلوق لا يتَّصف بأية صفةٍ من صفات الله تبارك وتعالى؛ لأنَّ صفات المخلوق صفات نقصٍ وفقرٍ، وصفات الخالق سبحانه صفات غِنًى وكمالٍ، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 180-181] وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

منهج الأشاعرة في فهم المحكم والمتشابه:

ويؤمن السَّادة الأشاعرة أهل السُّنة والجماعة بأن آياتِ القرآن الكريم التي تناولت أمرَ العقائدِ والصِّفاتِ كلَّها آياتٌ محكمةٌ قطعيةُ الثُّبوت والدلالة، وأن الآياتِ الظنيةَ الدلالة أو المتشابهات لا تكون أبدًا دليلًا على إثبات صفات الباري تبارك وتعالى، وأن القرآن الكريم قد حدَّثنا عن المغيبات التي لا تدركها عقولُنا بما نفهمه مما هو في عالَمِنا المنظور، وهذا من باب التقريب حتى لا تتحير العقولُ وتتشتَّت الأفهامُ بين عالم الغيب وعالم الشَّهادة، فيجب على المؤمن العاقل أن يفهم هذه المتشابهات في ضوء الآيات المُحكَمات اللاتي هنَّ أمُّ الكتاب، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ

آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7].

فالمحكَم: هو الواضح الذي لا يحتاج إلىٰ بيانٍ ولا تأويلٍ، والمتشابه ما قام الدليل القاطع من عقلٍ أو نقلٍ علىٰ أن ظاهره غير مرادٍ لله تعالىٰ.

وقد وردت في القرآن الكريم آياتٌ تخاطب العقل البشريَّ بما يقرب للأذهان بعضَ المفاهيم، واستعمل القرآن الكريمُ في ذلك ما اشتملت عليه لغةُ العرب من المجاز والكِناية، فاستعمل ألفاظًا مثل الوجه واليد والسَّاق والاستواء والعُلو والمجيء واليد، وكذلك ورد في السُّنة المطهَّرة مثلُ ذلك من النُّزول والضَّحك والعجب والغضب والرِّضا، فكلُّ ذلك لا يصحُّ أن ينتزع من سياقه القرآني العامِّ الذي ورد فيه، ولا يجوز أن تسمَّىٰ هذه الإضافات صفاتًا لله تبارك وتعالىٰ؛ لأن ظاهرها قطعًا غيرُ مرادٍ، والمؤمن الذي يتَّبع منهجَ أهل السُّنَّة له تجاه هذه المتشابهات مسلكان:

المسلك الأول: التَّفويض التامُّ بمعنىٰ قطع الطَّمع عن إدراك المعنىٰ مع نفي الكَيف والمماثلة والمشابهة عن كلِّ صفات ربِّ العالمين تبارك وتعالىٰ، وهذه الحالة هي التي كانت غالبةً علىٰ عموم السَّلف الصَّالح، و إن قال بعضُهم بالتأويل.

قال ابن قدامة المقدسي في ((لُمعة الاعتقاد)) عن تلك الألفاظ التي توهم التَّشبيه في حملها علىٰ الحقيقة اللغوية! حيث قال: ((وكلُّ ما جاء في القرآن أو صحَّ عن المصطفىٰ عليه السلام من صفات الرحمن وجب الإيمان به، وتلقِّيه بالتَّسليم والقبول، وترك التَّعرض له بالردِّ والتأويل، والتشبيه، والتَّمثيل، وما أشكل من ذلك وجب إثباتُه لفظًا، وتركُ التَّعرض لمعناه، ونردُّ عِلْمَه إلىٰ قائلِه، ونجعل عُهدَته علىٰ ناقِله اتباعًا لطريق الرَّاسخين في العِلم، الذين أثنىٰ الله عليهم في كتابِه المبين بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7] وقال في ذمِّ مبتغي التَّأويل لمتشابِه تنزيلِه:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ [آل عمران: 7] فجعل ابتغاء التأويل علامة على الزيغ وقَرَنه بابتغاء الفتنة في الذمِّ، ثم حجبهم عمَّا أمَّلوه وقطع أطماعَهم عمَّا قصدوه بقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾.

قال الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل ﷺ في قول النبي ﷺ: ((إنَّ الله ينزل إلىٰ سماءِ الدُّنيا))[1]، و((إنَّ الله يُرىٰ في القِيامةِ))[2].

وما أشبه هذه الأحاديث: نؤمن بها ونصدِّق بها بلا كيفٍ، ولا معنىٰ، ولا نردُّ شيئًا منها، ونعلم أنَّ ما جاء به الرَّسول حقٌّ، ولا نردُّ علىٰ رسول الله ﷺ، ولا نَصِفُ الله بأكثر مما وصف به نفسَه بلا حدٍّ ولا غايةٍ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرِ﴾ [الشورىٰ: 11] ونقول كما قال ونَصِفُه بما وصَفَ به نفسَه لا نتعدَّىٰ ذلك ولا يبلغه وصف الواصفينَ، نؤمن بالقرآن كلِّه مُحكمه ومتشابهه، ولا نُزيل عنه صفةً من صفاتِه لشناعة شنعت، ولا نتعدىٰ القرآنَ والحديثَ، ولا نعلم كيف كُنه ذلك إلا بتصديق الرَّسول ﷺ وتثبيت القرآن. قال الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي ﷺ: آمنتُ بالله، وبما جاء عن الله علىٰ مرادِ الله، وآمنتُ برسول الله، وبما جاء عن رسول الله علىٰ مرادِ رسولِ الله.

---

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (1145)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (758) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(2) يشير إلىٰ حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (7437)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (182) من حديث أبي هريرة ﷺ مطولًا، وفيه: أن الناسَ قالوا: يا رسولَ الله، هل نرىٰ ربَّنا يومَ القيامةِ؟

فقال رسولُ الله ﷺ: ((هل تضارُّون في القمرِ ليلةَ البدرِ؟)) قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: ((فهل تضارُّون في الشَّمسِ ليس دونَها سحابٌ؟)) قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: ((فإنَّكم ترونَه كذلكَ)).

وعلىٰ هذا درَج السَّلف وأئمَّة الخلَف كلهم ﵃ متَّفقون علىٰ الإقرار والإمرار والإثبات لما ورد من الصِّفات في كتاب الله وسُنة رسولِه من غير تعرُّضٍ لتأويلِه))[1].

الغزالي ومتشابه الآيات:

وقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي قاعدتان ذهبيَّتان في التَّعامل مع متشابه الآيات في باب الصِّفات، فقال رحمه الله تعالىٰ:

القاعدة الأولىٰ:

لا يُجمع بين متفرِّقٍ، ولقد بَعُدَ عن التَّوفيق مَن صنَّف كتابًا في جمع الأخبار خاصَّة ورسَم في كلِّ عضو بابًا فقال: بابٌ في إثبات الرَّأس، وبابٌ في اليد إلىٰ غير ذلك، وسمَّاه: كتاب الصِّفات. فإن هذه كلماتٌ متفرقةٌ صدَرت من رسول الله ﷺ في أوقاتٍ متفرقة متباعدةٍ اعتمادًا علىٰ قرائنَ مختلفةٍ تُفهم السَّامعين معاني صحيحة، فإذا ذكرت مجموعة علىٰ مثال خَلْقِ الإنسان صار جمع تلك المتفرقات في السمع دفعة واحدة عظيمة في تأكيد الظاهر وإيهام التشبيه.

القاعدة الثانية:

التفريق بين المجتمعات، فكما لا يجمع بين متفرِّقِه فلا يفرَّق بين مجتمِعه، فإن كلَّ كلمةٍ سابقةٍ علىٰ كلمة أو لاحقة لها مؤثرة في تفهُّم معناه مطلقًا، ومرجحة الاحتمال الضَّعيف فيه، فإذا فرِّقت وفصِّلت سقطت دلالتُها؛ مثال قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 18] لا تسلط علىٰ أن يقول القائل هو فوق؛ لأنه إذا ذكر القاهر قبلَه ظهر دلالةُ الفَوق علىٰ الفوقيَّة التي للقاهر مع المقهورِ، وهي فوقيَّة الرتبة، ولفظ القاهر يدلُّ عليه، بل لا يجوز أن يقول: وهو القاهر فوق غيرِه، بل ينبغي أن يقول فوق عبادِه؛ لأنَّ ذكر

---

(1) لمعة الاعتقاد الهادي إلىٰ سبيل الرشاد، لابن قدامة (ص5، 8).

العبودية في وصفه في الله فوقه يؤكد احتمال فوقية السِّيادة [1].

المسلك الثاني: التأويل وهو مسلك الرَّاسخين في العِلم لمن يفهم لغةَ العربِ وأساليبَ وتراكيب وأسرار القرآن الكريم، فيستطيع العالِم أن يفسِّر هذه الألفاظ تفسيرًا حسنًا لا يخلُّ بتنزيه الله سبحانه وتعالىٰ ولا بمحكمات القرآن الكريم، وقد كان سيدنا ابن عباس تَرجُمان وحَبر القرآن يلتزم التَّأويل في هذه الآيات، فورد عنه أنه أوَّل قولَه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: 42] قال الإمام البيهقي في الأسماء والصفات: سُئل- أي ابن عباس- عن قولِهِ سُبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: إذا اشتد الأمرُ فِي الحربِ قِيل: كشفتِ الحربُ عن ساقٍ. قال: فأخبرهم عن شِدةِ ذلك. قال أَبُو سُلَيمان رحمه الله: فإنما جاء ذِكرُ الكشفِ عنِ السَّاقِ علىٰ معنىٰ الشدةِ، فيُحتملُ والله أعلمُ أن يكُون معنىٰ الحدِيثِ أنهُ يبرُزُ مِن أمرِ القِيامةِ وشِدتِها ما ترتفِعُ معهُ سواتِرُ الامتِحانِ، فَيَمِيزُ عِند ذلِك أهلُ اليقِينِ والإِخلاصِ، فيُؤذنُ لهُم فِي السجُودِ، وينكشِفُ الغِطاءُ عن أهلِ النفاقِ فتعُودُ ظُهُورُهُم طبقًا لا يستطِيعُون السجُود.

وفيه أيضًا: عن عِكرِمة عنِ ابنِ عباسٍ أنهُ سُئل عن قولِهِ تبارك وتعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: 42] قال: إذا خَفِي عليكم شيءٌ مِن القُرآنِ، فابتغُوهُ مِن الشِّعرِ، فإِنهُ دِيوانُ العربِ. أما سمِعتُم قول الشاعِرِ:

اصبِر عناق إِنهُ شر باقٍ قد سن قومُك ضرب الأعناقِ

وقامتِ الحربُ بِنا علىٰ ساق

قال ابنُ عباسٍ: هذا يومُ كربٍ وشِدةٍ [2].

وقد ورد التَّأويل عن بعض أئمَّة السَّلف الصالح كأحمدَ بنِ حنبل والبخاريِّ والبيهقيِّ مما يدلُّ علىٰ أنه مسلكٌ سلفيٌّ أصيلٌ تتابع عليه السَّلف والخلف.

(1) إلجام العوام -دار الفكر- بيروت (ص 212).

(2) انظر الأسماء والصفات للبيهقي (2/186).

قال الإمام الخطابي في أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري: ((قال أبو عبدالله البخاري: معنىٰ الضحك الرحمة)) انتهىٰ[1].

وقال الإمام البخاري رحمه الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] إِلَّا مُلْكَهُ، وَيُقَالُ: ((إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ الله))[2].

روىٰ الإمام البيهقي من طريق الميموني قال: خرج إِليَّ يومًا أبُو عبدِالله أحمَدُ بنُ مُحمدِ ابنِ حنبلٍ، فقال: ادخُل فدخلتُ منزِلهُ فقُلتُ: أخبِرني عما كُنتَ فِيهِ مع القومِ وبِأي شيءٍ كانُوا يحتجون عليك؟ قال: بِأشياء مِن القُرآنِ يتأوَّلُونها ويُفسرُونها، هُمُ احتجوا بِقولِهِ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2] قال: ((قُلتُ: قد يُحتملُ أن يكُون تنزِيلُهُ إِلينا هُو المُحدَثُ لا الذكرُ نفسُهُ هُو المُحدَثُ)).

وروىٰ أيضًا بسنده الصَّحيح عن أبِي إِدرِيس الخولانِي عنِ النواسِ بنِ سمعان الكِلابِي قال: سمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: ((المِيزانُ بِيدِ الرَّحمنِ يرفعُ أقوامًا ويضعُ آخرِين، وقلبُ ابنِ آدم بين إِصبعينِ مِن أصابِعِ الرَّحمنِ إِن شاء أقامهُ وإِن شاء أزاغهُ)) وكان رسُولُ الله ﷺ يقُولُ: ((يا مُقلبَ القُلُوبِ ثبِّت قلبِي علىٰ دِينِكَ)) فقد قرأتُ بِخط أبِي حاتِمٍ أحمد بنِ مُحمدٍ الخطِيبِ رحِمهُ الله فِي تأوِيلِ هذا الخبرِ قِيل: معناهُ تحت قُدرتِهِ ومُلكِهِ[3].

وكتب التفاسير والسُّنة وشروح الحديث مليئةٌ ومشحونةٌ بمثل هذه النَّماذج من تأويلات السَّلف الصالح من الصَّحابة والتَّابعين، مما يدلُّ علىٰ أن التأويل منهجٌ ورثه الخلفُ الصالحُ عن السَّلف الصالحِ، وهذا الموقف كان فيه صيانةٌ كبيرةٌ للعقائد الإسلامية من مقالة التَّشبيه والتَّجسيم.

(1) انظر: أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري (3 / 1921).

(2) فتح الباري (8 / 505).

(3) الأسماء والصفات للبيهقي (2/ 173).

قال شيخُنا الإمام العلَّامة في كتاب البيان: ((ومتأخروهم سلكوا مسلكَ التَّأويل حين رأوا أن الإثباتَ على طريقة المشبِّهةِ أفضى عند بعضِهم إلى القول بالجسمية ولوازمها، والمتقدِّمون من أهل السُّنة والمتأخرون كلُّهم متَّفقون على الإمرار وعدم التَّعرض للفظةٍ بالنَّفي، وكذلك عدم اعتقاد حقيقتها اللُّغوية التي من شأنها تشبيه الربِّ سبحانه وتعالى بخلقِه، ولكن زاد المتأخِّرون بأن هذه الألفاظ لا يجوز أن يُفهم منها إلَّا ما يليق بالله، فكأنهم يقولون للخَصم: إذا صمَّمت أن تتكلم عن معنى لهذه الصِّفاتِ؛ فقل أيَّ معنى إلا المعنى الذي يُنقص من قَدْرِ الرَّبِّ ويشبِّهُه بخلقِه، فقالوا: أيها الخصم قل: عين الله تعني رعايته وعنايته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: 39] ولكن إيَّاك أن تقول: إنَّها جارحةٌ؛ ولذا يصلح أن نقول: إن مذهب السَّلف مذهب اعتقادٍ، ومذهب الخَلف مذهب مناظرةٍ))[1].

ثالثا: الوحدانية في الأفعال:

وهو سبحانه وتعالى أيضًا واحدٌ في أفعالِه، فهو سبحانه وتعالى المتفرِّد بالخَلْق والرِّزق، والإحياء والإماتةِ، والخَفضِ والرَّفع، والإغناءِ والإفقارِ، ولا يكون في مُلكه إلا ما يريد، فيجب علينا أن نعتقدَ وحدانيةَ الله تعالى في فِعْل هذه الأمورِ.

والأخذ بالأسباب في طلب الرِّزق لا ينافي اعتقادَ الوحدانيةِ؛ لأنَّ الله جعل بعضَ خلْقِه أسبابًا تجري عليها ما شاءت إرادتُه وقُدرتُه وتفتح بها أبوابه.

فالعمل سببٌ في جلب الرِّزق، والدُّعاء مطلقًا أو بالتَّوسل بالأنبياء وبالصَّالحين أو بالأعمال الصَّالحة سبب في كشف الضُّرِّ وجلب النَّفعِ لا شكَّ في هذا، والدواء كذلك سبب في جلب الشِّفاءِ، وكلها مجرَّد أسباب لا يعتقد المؤمن فيها أنها تؤثِّر في شيء في هذا الكون إلَّا بإذن الله تعالى، وأن الله تعالى أجرى سُننَ الكون العاديةَ على قانون

(1) البيان لما يشغل الأذهان (1/95).

ترتُّبِ النَّتائج على الأسباب.

ومقتضى صفة الوحدانية تنزُّهه تبارك وتعالى عن الضِّدِّ والشريك والصاحبةِ والولد، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 1-2].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: 111].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾ [الجن: 3].

صفات الله عز وجل عند أهل السنة والجماعة:

يتَّصف ربُّنا سبحانه وتعالى بصفات الكمال اللانهائي، وهو سبحانه منزَّه عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وليست صفاته سبحانه وتعالى محصورة في عددٍ معيَّن من الصِّفات، وإنما وجد العُلماء بالاستقراء والتَّتبع أن هذه الصِّفات هي أصول الكمال لله تعالى، وتنقسم هذه الصفات من حيث المفهوم والدلالة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صفات نفسية:

وهي التي يدلُّ الوصف بها على نفس الذَّات دون معنى زائد يطرأ عليها، وهي تنحصر في صفةٍ واحدةٍ هي الوجود.

القسم الثاني: صفات سلبية:

وهي التي تسلُب عن ذات الله سبحانه وتعالى معنًى لا يليق به، وهي خمسُ صفاتٍ:

القِدم، البقاء، المخالفة للحوادث، القيام بالنَّفس، والوحدانية.

القسم الثالث: صفات المعاني.

وسوف نتحدث عن كل قسم بشيءٍ من التَّفصيل:

أولا: الصفات النفسية

صفة الوجود: الوجود صفة يتصف بها الموجود. ومعناها التحقق والثبوت.

والوجود صفة واجبة لله تعالىٰ وهي ليست زائدة علىٰ ذاته و إنما هي نفس الذات ولذلك سميت صفة نفسية.

فالله سبحانه وتعالىٰ واجب الوجود.

ومعنىٰ كونه تعالىٰ واجب الوجود أنه لا يجوز عليه العدم ولا يقبله لا أزلًا ولا أبدًا.

والدليل علىٰ ذلك: أننا نقول العالم حادثٌ، وكلُّ حادثٍ يجب افتقاره لمُحدِثٍ، فوجب افتقار العالم إلىٰ المُحدِث، وهو الله تعالىٰ، وكل مَن وجب افتقار العالم إليه فهو واجب الوجود، فوجب وجود الله تعالىٰ، ولو لم يكن واجب الوجود لكان جائزه، ولو كان جائزَ الوجود لما ظهرت الأكوان، كيف وقد ظهرت؟! لأنه لو كان جائز الوجود لاحتاج إلىٰ مُحْدِثٍ يُحدِثه كما احتاج الكون الحادث إلىٰ مُحْدِثٍ، ثم لاحتاج مُحدثه إلىٰ مُحدثٍ كذلك؛ لوقوع المماثلة بينهما، وهكذا، فإمَّا أن يستمرَّ الحال إلىٰ ما لا نهاية، وهو التسلسل أو يرجع الأمر إلىٰ الأول، وهو الدَّور، وكلاهما باطلٌ، وما أدَّىٰ إليهما- وهو احتياجه سبحانه إلىٰ مُحْدِثٍ- باطلٌ أيضًا، فيثبت عدم احتياجه؛ أي وجوب وجودِه سبحانه.

فَوَاجِبٌ لَهُ الوُجُودُ وَالقِدَمْ كَذَا بَقَاءٌ لَا يُشَابُ بِالْعَدَمْ

ثانيًا: الصِّفات السَّلبية

وهي الصِّفات التي دلَّت علىٰ سَلْبِ ما لا يليق بالله سبحانه وتعالىٰ وتسلُب عن الذِّهن أضدادها.

وهي خمس صفات: القِدم، والبقاء، والمخالَفة للحوادث، والقيام بالنَّفس، والوحدانية.

القِدم:

القديم في اللغة: التقادم وعدم الحدوث.

وفي المصطلح عدم أوَّلية الوجود، أو عدم افتتاح الوجود، وهو معنىٰ عدم الحدوث.

والقِدم الذي يوصف به الحقُّ سبحانه وتعالىٰ: صفة سلبيةٌ تدلُّ علىٰ أنه سبحانه لم يُسبق بعدمٍ، وهو وصف لازمٌ لوجوده الذَّاتي تعالىٰ فلم يؤثِّر في هذا الوجود الذاتي مؤثرٌ.

والقِدم واجب له سبحانه وتعالىٰ.

ودليل وجوبه: أنه لو لم يكن قديمًا لكان حادثًا، ولو كان حادثًا لكان جائزَ الوجودِ، مع أنه ثبت أنه سبحانه وتعالىٰ واجبُ الوجود فبطلَ ما يخالف هذا الوجوب، فثبت له سبحانه وتعالىٰ القِدم.

ووصف القِدم في حقِّ الله سبحانه وتعالىٰ هو معنىٰ يليق بجلالِه مغايرٌ للمعاني التي تُطلق علىٰ المخلوقات.

ولفظ القِدم لم يرد في القرآن والسُّنة وصفًا لله تعالىٰ، وإنما ورد ما يدل عليه كقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ والمقصود بالأوَّل الذي لم يسبقه عدمٌ.

البقاء:

البقاء لغة: ضد الفناء، أو هو استمرار الوجود وسلب لحوق العدم.

وفي المصطلح هو: صفةٌ سلبيةٌ يدلُّ الوصف بها علىٰ نفي الفناء أو نفي لحوق العَدم، وهي صفة ثابتةٌ لله سبحانه وتعالىٰ، وهي صفةٌ لازمةٌ من لوازم وجوب الوجود، فكون وجوده سبحانه وتعالىٰ ذاتيًّا يلزم منه ألَّا يلحقه العدم.

ودليل ثبوت صفة البقاء لله تعالىٰ: أنه سبحانه لو جاز عليه العدمُ لاستحال عليه القِدم؛ إذ كل ما ثبت قِدمه استحال عدمُه، وقد سبق دليل وجوب القِدم، قال الله

تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88] وقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26-27].

المخالفة للحوادث:

المقصود بالمخالفة للحوادث: عدم المماثلة والمشابهة فهو سبحانه وتعالىٰ مخالفٌ للحوادث والمخلوقات لا يُشبِهُها ولا تُشبِهُه في شيءٍ لا في الذّات ولا في الصّفات ولا في الأفعال.

وأَنهُ لِمَا ينالُ العَدمُ　　　مخالفٌ بُرهانُ هَذا القِدَمُ

فواجب له سبحانه المخالفة للحوادث؛ إذ لو شابه المصنوعاتِ لجاز عليه ما يجوز عليها من صفات النّقصِ، وأمارات الحدوث.

فهو سبحانه وتعالىٰ متعالي عن الأجسام والتركيب والأعراض فكل هذه حوادث مخلوقة.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4] وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: 11].

القيام بالنفس:

قيامُهُ بالنّفسِ وَحدانيهْ　　　مُنزَّهًا أَوصَافُهُ سَنِيَّهْ

فواجب له سبحانه وتعالىٰ قيامه بالنفس والمراد بالنفس هنا الذّات.

والمراد بالقيام بالنفس: عدم افتقاره سبحانه وتعالىٰ إلىٰ محلٍّ كالأعراض أو مُخصِّصٍ ومُوجِد كالحوادث فهو سبحانه وتعالىٰ قائم بنفسه غير محتاج إلىٰ محلٍّ يقوم به، فلو لم يكن قائمًا بنفسه لكان قائمًا بغيرِه، ولو كان قائمًا بغيره لكان صفة؛ لأن الصِّفةَ هي التي تقوم بغيرها، ولو كان صفة لما صحَّ اتصافُه بصفات المعاني الثّابتة بالدّليل اليقيني؛ وذلك لأن الصِّفةَ لا تقوم بالصِّفة.

فذاته سبحانه وتعالىٰ مستغنيةٌ عن المحلِّ والمخصِّص معًا، وذوات المخلوقات الحوادثِ مفتقرةٌ إلىٰ المحلِّ والمخصِّص، فالله سبحانه وتعالىٰ غنيٌّ بالذَّات عن كل ذلك، والحوادث فقرها ذاتيٌّ.

الوحدانية:

أي: وواجبٌ له سبحانه وحدانيةٌ، ومبحثها هذا أشرفُ المباحثِ؛ لذا سُمِّي هذا الفن عِلم التوحيد.

واعلم أنه لما ثبت أنه لا خالقَ سوىٰ الله تعالىٰ لزم أنه لا يستحقُّ العبادةَ غيرُه.

فإنَّ القرآن إما خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاتِه وأفعاله، فهو التوحيد العلميُّ الخبريُّ، وإما دعوةٌ إلىٰ عبادته وحده وخلع ما يُعبد من دونه، فهو التوحيد الإراديُّ الطَّلَبيُّ، وإما أمرٌ ونهيٌ وإلزامٌ بطاعتِه، فذلك من حقوق التَّوحيد ومُكَمِّلاته، وإمَّا خبرٌ عن إكرامه لأهل التَّوحيد وما فعل بهم في الدُّنيا، وما يُكرمهم به في العُقبىٰ، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشِّرك وما فعل بهم في الدُّنيا من النَّكال، وما يحلُّ بهم في العُقبىٰ من العذاب والسَّلاسل والأغلال، فهو جزاء مَن خرج عن حُكم التوحيد.

إذن فالقرآن كلُّه في التوحيد وحقوق أهله والثناء عليهم، وفي شأن ذمِّ الشِّرك وأهلِه وجزائِهم. والمراد هنا وحدة الذَّات والصِّفات، بمعنىٰ عدم النَّظيرِ فيهما.

أما وحدة الذَّات بمعنىٰ عدم التركب من أجزاء، ووحدة الصِّفات بمعنىٰ عدم تعددها من جنس واحدٍ؛ كقُدرتين فأكثر.

وأما وحدة الأفعال بمعنىٰ أنه لا تأثير لغيره سبحانه في فعلٍ من الأفعال.

والحاصل أنَّ الوحدانية الشاملة لوحدانية الذَّات والصِّفات والأفعال تعني:

أولًا- بالنسبة للذات: أنها غيرُ مركبةٍ من أجزاءٍ، وأنها غير متعددةٍ، بحيث يكون ثَمَّة إلهٌ ثانٍ، فهي واحدةٌ من غير تركيب ولا تعدُّد.

ثانيًا- بالنسبة للصفات: تعني أنها غير متعدِّدةٍ من جنسٍ واحدٍ كقُدرتين فأكثر- مثلًا- وأنه لا يوجد صفةٌ لأحدٍ تُشبه صفتَه تعالىٰ.

ثالثًا- وبالنسبة للأفعال: فتعني أنه لا يُوجد لغير الله فعلٌ من الأفعال علىٰ وجه الإيجاد، وإنما يُنسب الفعل لغير الله تعالىٰ علىٰ وجه الكَسب والاختيار.

ثالثًا: صفات المعاني

وأما صفات المعاني: فهي القُدرة والإرادة والعِلم والحياة والسَّمع والبصر والكلام.

صفة القدرة:

هي صفةٌ واجبةٌ لله تعالىٰ بها يكون الإيجاد والإعدام، فلا شيء من الممكنات يخرج من حيز العدم إلىٰ حيز الوجود أو العكس إلا بقُدرته سبحانه وتعالىٰ، والله تعالىٰ قُدرته مطلَقةٌ لا يُعجزها شيءٌ من الممكنات.

وقال تعالىٰ: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: 50].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَالله هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورىٰ: 9].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ الله قَادِرٌ﴾ [الأنعام: 37].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: 99].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الله عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 20].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ الله عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: 44].

وروىٰ البخاري عن جابر بن عبدالله ﭫ قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السُّورة من القرآن يقول: ((إذا همَّ أحدُكم بالأمرِ فليركعْ ركعتينِ من غيرِ الفريضةِ ثمَّ ليقل: اللهمَّ إنِّي أستخيرُكَ بعِلْمِكَ وأستقدرُكَ بقدرتِكَ وأسألك من فضلكَ العظيمِ، فإنك تَقدِرُ ولا أقدِرُ وتَعْلَمُ ولا أعلمُ وأنت علَّام الغيوبِ))[1].

والدليل العقلي علىٰ اتصافه تعالىٰ بالقُدرة: أنه تعالىٰ لو لم يكن متَّصفًا بها لكان متصفًا بضدِّها وهو العجز، وسبحانه منزَّهٌ عنه.

والله تبارك سبحانه وتعالىٰ كان في الأزل قديرًا ولا مخلوقَ، فهو سبحانه لم يستفد اسمَ الخالق من المخلوق، ولا اسمَ القادر من المقدُور، والمخلوقات كلُّها في قبضة القُدرة الإلهيَّة إن شاء الله تعالىٰ أوجدَها و إن شاء تعالىٰ أعدَمها.

قال الإمام العلَّامة في عقيدة أهل السُّنة والجماعة:

وقدرته تعالىٰ مطلقةٌ غير متناهيةٍ من جهة الذَّات، ومن جهة ما تتعلَّق به.

أمَّا من جهة الذَّات فلأن التَّناهي من خواص الكَمِّ، والكم محالٌ عليه. وأمَّا من جهة ما تتعلَّق به، فمعناه أن تعلُّقَها لا يقف عند حدٍّ لا يمكن تعلقها بغيرِه، و إن كان كلُّ ما تتعلق به بالفعل متناهيًا، فتعلقاتها متناهيةٌ بالفعل غير متناهيةٍ بالقوَّة. انتهىٰ.

والله قادر أن يصحَّ منه إيجاد العالَم وتركه، وليس شيءٌ منهما لازمًا لذاته بحيث يستحيل انفكاكُه عنه، فالقادر الذي هو مؤثِّرٌ تامٌّ يجوز أن تتعلَّق قدرتُه بالإيجاد في ذلك الوقتِ الذي أوجدَ الحادثَ فيه دون غيرِه، بلا سببٍ يخصُّ ذلك الوقتَ.

وبناء علىٰ هذا فالأشاعرة أهل السُّنة والجماعة يعتقدون أن الله تعالىٰ وحدَه هو خالق العِباد، وخالق أفعالهم، كما دلَّ عليه صريح القرآن الكريم علىٰ لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 95-96].

(1) أخرجه البخاري في كتاب الدَّعوات، باب الدُّعاء عند الاستخارة (6382).

وهم كذلك يعتقدون بأن الثَّواب والعقاب في الآخرة حقٌّ، فالعبد مثابٌ على فِعل الطَّاعة معاقبٌ على فِعل المعصية إلا أن يرحمَه الله تعالى، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 52].

فمذهب الأشاعرة مذهبٌ وسطٌ بين مَن نسب للعبد قدرةً وتأثيرًا في الأفعال وهم القَدَريَّةُ، وبين الجَبريَّةِ الذين ينفون أن للعبد قدرةً واختيارًا، فالعبد عندهم مجبورٌ على كلِّ أفعاله غيرُ محاسَبٍ عليها.

صفة الإرادة:

صفة قديمة أزليةٌ زائدةٌ على الذَّات قائمةٌ بذاته تعالى من شأنِها تخصيصُ المُمكنات ببعض ما يجوز عليها، من وجودٍ وعدمٍ وتكيفٍ بقطع النَّظر عن أيِّ مؤثِّرٍ خارجيٍّ.

والإرادة واحدة وتعلُّق الإرادة الإلهية بإيجاد شيءٍ أو إعدامه قديمٌ، ولا يمكن أن يكون حادثًا إذ لو كان كذلك لكان من مستلزماته أن لا يكون الله عالمًا ببعض ما يريد خَلْقَهُ وفِعْلَهُ في المستقبل، وهو محالٌ، فثبت عكسه وهو أن الله يعلم في الأزل كلَّ ما سيفعله وسيخلقه في الحين والوقتِ الملائمَين.

والقدرة والإرادة يتعلَّقان بالممكنات فقط، ولا شأن لهما بالواجبِ أو المستحيلِ، وليس هذا عجزًا أو نقصًا و إنما الإرادة الكاملة التَّامة ليس من شأنها أن تتجه إلى الواجب ولا إلى المستحيل وكذلك القُدرة.

لأنه إنْ تعلَّقت إرادةُ الله بإيجاد المستحيلِ مثلَ الشَّريك في الأُلوهية فأوجَدَتْه فإنه حينئذٍ ما كان مستحيلًا؛ لأن معناه أن الله قد أوجد إلهًا مثلَه واجبَ الوجودِ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مسبوقًا بعَدَمٍ، فلا تتعلق القدرة أو الإرادة بالواجب أو

المستحيل؛ لأنها إنْ تعلقت بالواجب فلا يصحُّ أن تعدمه؛ لأنه لا يقبل العدَمَ ولا يصح أن تُوجِدَه؛ لأنه يلزم منه تحصيل الحاصلِ[1].

مسألة: خَلْق أفعال العباد والإرادة الإنسانية:

خَلْق الإيمان:

الإيمان مخلوق؛ لأنه إمَّا مع التَّصديق بالجَنان أو مع الإقرار باللِّسان وكلٌّ منهما مخلوقٌ.

والله عز وجل هو خالقُ كل شيء خالق الإنسان وخالق الأفعال، وخَلْقُ الفعلِ هو خَلْقُ القُدرةِ على فِعْله، والإنسان مخلوقٌ مكلَّف مختارٌ، ومعنى خَلْقِ الله لفِعْلِه هو أنه خَلَقَ في الإنسان قدرةً على الاختيار بين الفِعْل والتَّرك.

والفِعْل خيره وشره والإيمان والكُفر من خَلْق الله، ولكن الأدبَ يستوجب علينا أن لا ننسبَ لله إلَّا الحسن، فيُنسب الخيرُ لله، والشَّرُّ للنَّفْس كسبًا وإنْ كان منسوبًا لله إيجادًا.

قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ فَمَا لِهَـؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿78﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: 78-79].

وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30].

ومن أدب الخَضر أنه قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: 82].

بينما قال عن أمر السَّفينةِ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79].

وكذلك فعل الخليل إبراهيم عليه السلام.

---

(1) عقيدة أهل السنة والجماعة لفضيلة الدكتور/ علي جمعة (ص64).

قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿77﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿78﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: 77-79].

ثم قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80] فمن تأدُّبِه مع ربِّه لم يقلْ: ((أمرضَني)).

ثم عاد فقال: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿81﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: 81-82].

ومِنَ الـمُسَلَّمِ به أن الكلَّ من الله تعالىٰ.

فالمؤثِّر الحقُّ هو الله عز وجل، وليس بين الأسباب ومسبَّباتِها تلازمٌ ضروريٌّ عقليٌّ، ومَن اعتقد أن بين الأسباب ومسبَّباتِها تلازمًا عقليًّا بحيث لا يصح تخلُّفُها أبدًا- فهو جاهلٌ، وربَّما جرَّه ذلك إلىٰ الكُفر؛ لأنه تبعًا لذلك قد يُنكر معجزاتِ الأنبياءِ لكونها علىٰ خلاف العادة، والحقُّ أن يعتقد أن الله خلَق الأسبابَ والمسبَّبات، وجعل بينهما تلازمًا عاديًّا وسُنَّةً مُحكَمة، وأن الأمر بيده سبحانه، فقد يُعطِّل الأسبابَ فلا تُنتج مسبَّباتها وقد يخلق المسبَّبات بلا أسبابٍ بقُدرتِه.

فنعتقد أنه لا يقع شيءٌ في الكون إلَّا بإرادة الله ومشيئتِه، وإلا لكان ثَمَّةُ ما هو موجودٌ رغمًا عنه وفوق اختيارِه، وهذا هو عين العجز والضَّعف، والله منزَّهٌ عن ذلكَ.

فإرادة الله تعلَّقت بأن يوجد المؤمن والكافر في الحياة، وأن تنفعل مخلوقاتُ الله المسخَّرة للإنسان سواءٌ كان عاصيًا أم طائعًا، ولكنه تعالىٰ لا يرضىٰ لعبادِه إلا الإيمان ولا يحبُّ لهم إلا الطاعةَ، ولا يأمرهم إلا بالخير والعدلِ والتي هي أحسنُ.

قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7].

وإذًا فكُفر أبي جهل وعنادُ أبي لهبٍ داخلان في مراداتِ الله عز وجلَّ، دون رضاه وأمرِه.

فخلق الله لأفعال العباد لا يستلزم أن يكونوا مُكْرَهِين عليها، وليس هناك تلازمٌ بين الأمرين.

فإن اكتسابَ العبد لفِعْلٍ يتوقَّف على أمرين: وجود هذا الفعل في الخارج؛ أي وجود مقوِّماتِه كلِّها الماديَّة والمعنوية، وتوجه إرادته وقصدها إلى فعلِه.

والوجوب في حقِّ الله تعالى غير معقول على الإطلاق، فلا ابتداء الإنعام واجبٌ عليه فعلًا، ولا إذا قابل العبد نِعمَه تعالى بشكرٍ يسيرٍ كان الثوابُ واجبًا عليه.

ولا يجب على الله تعالى شيءٌ، فما أنعمَ به فهو فضلٌ منه، وما عاقبَ به فهو عدلٌ منه، ويجب على العبد ما يوجبُه الله تعالى عليه، ولا يُستفاد بمجرَّدِ العقول وجوبُ شيءٍ، بل جميع الأحكام المتعلِّقة بالتكاليف متلقَّاةٌ من قضيَّة الشَّرع وموجب السَّمع.

والدليل على أنه لا يجب على الله شيء: أن حقيقةَ الواجب ما يستوجب اللَّوم بتركِه، والربُّ سبحانه وتعالى يتعالى عن التعرُّض لذلكَ[1].

صفة العِلم:

وهي صفةٌ أزليةٌ متعلِّقةٌ بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات على وجه الإحاطةِ على ما هي به من غير سبق خَفاءٍ.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ [البقرة: 29].

وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَال﴾ [الرعد: 9].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الله عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور﴾ [فاطر: 38].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاء﴾ [البقرة: 255].

---

(1) عقيدة أهل السنة والجماعة لفضيلة الدكتور/ علي جمعة (ص66).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61].

والله عالم ضرورة، ودليل ذلك ما يظهر في خَلْقِه وفِعْلِه من الإتقان.

وهو سبحانه عالم بالكليَّات والجزئيَّات؛ لأنهما مقدوران له، وقد صدرا عنه علىٰ صفة الإتقان.

ومن نفىٰ العِلمَ عن الله بحُجَّة أن العِلم يتعدَّد ويتغيَّر بحسب كلِّ معلومٍ، فيلزم من إثباته أن يكون في ذات الله كثرةٌ غير متناهية.

فالجواب: أنها كثرةٌ في الإضافات فقط ولكن العِلمَ واحدٌ، وذلك غير ممتنعٍ.

فعلم الله تعالىٰ ليس زمنيًّا وهو علمٌ واحد، عِلْمُ ما وُجِدَ هو عين عِلْمِهِ بأنه سيُوجد، ولا تغيُّرَ في عِلم الله.

فالله عليمٌ حيث وجب له العِلم، وعلمه شاملٌ لكلِّ ما من شأنِه أن يُعْلَمَ، والمبالغة في الصِّيغة باعتبار الكثرة في المتعلَّق لا في الصِّفة، فصفة العِلم واحدةٌ لا تكثُّر فيها.

قال تعالىٰ: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

وقال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ اللهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾ [إبراهيم: 38].

والمولىٰ عز وجل يعلم الأشياءَ أزلًا إجمالًا وتفصيلًا، ويعلم الكُليَّاتِ والجزئيَّاتِ، ويعلم سبحانه ما لا نهاية له ككمالاته وأنفاس أهلِ الجنَّة، فيعلمُها تفصيلًا، ويعلم أنه لا نهايةَ لها، وتوقف التفصيل علىٰ التناهي إنما هو بحسب عقولنا.

ولا يقال لعلم الله أنه كسبيٌّ؛ لأنه يلزم منه قيامُ الحوادث بذاتِه تعالىٰ، ويلزم منه أيضًا سبق الجهل في حقِّه، وهو محالٌ.

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ [البقرة: 143].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: 12].

فهو مؤوَّل علىٰ أن المراد ليظهر لهم متعلَّق عِلْمنا.

وعلمه تعالىٰ غيرُ مكتَسَبٍ، وفعله غيرُ معلَّلٍ، واللام في الآية للعاقبةِ والفائدةِ[1].

صفة الحياة:

وهي صفةٌ يصحُّ لمن قامت به أن يتَّصف بصفات الإدراكِ، واتُّفقَ علىٰ اتِّصافه بالحياة؛ لأنه عالمٌ قادرٌ فهو حيٌّ بالضَّرورةِ.

قال تعالىٰ: ﴿الله لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255].

وقال تعالىٰ: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: 111].

وقال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: 58].

صفة الكلام:

وهي صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاته تعالىٰ، ليست بحرفٍ ولا صوتٍ، منزَّهة عن التَّقدم والتَّأخُّر، والإعراب والبناء، وعن السُّكوت النَّفسي الذي تُدَبِّرُ فيه النَّفسُ كلامَهَا مع القدرة عليه، ومنزهة عن الآفة الباطنية التي تُعْجِزُهُ عن الكلام.

ويكفي المكلَّف أن يعلم أن الله تعالىٰ متكلِّمٌ بكلامٍ قديمٍ بغير آلةٍ للكلام، وكلامُه ليس بحرفٍ ولا صوتٍ ولا ألحانٍ ولا نغماتٍ؛ لأنَّ الحروف تتوالىٰ وتترتب ويقع بعضُها مسبوقًا ببعض، وكلُّ مسبوقٍ فهو حادثٌ، والحدوث ممتنعُ الحصول في ذاته تعالىٰ.

وكلام الله قديمٌ لامتناع الحوادث بذاتِه تعالىٰ، والأصوات والحروف حادثةٌ، وإنما كلامه القديم هو المعنىٰ القائم بالنَّفس، وهو غير العبارات، إذ قد تختلف العبارات

(1) عقيدة أهل السنة والجماعة لفضيلة الدكتور/ علي جمعة (ص71).

بالأزمنة والأمكنة والأقوام، بل قد يدل عليه بالإشارة والكتابة كما يدلُّ عليه بالعبارة، والطلبُ واحدٌ لا يتغير.

فما يقرؤه القرَّاء بألسنتهم ويكتبوه في مصاحفهم فهو فِعْلُهم الذي أُمِرُوا به ويُجَازَوْنَ عليه، وأمَّا كلام الله فهو المعلوم المفهوم من هذه القراءة.

والكتابة ما هي إلا أحرفٌ منظومةٌ وأشكال مرقومةٌ، وهي حوادث، وأما المفهوم منها فهو كلامُ الله القديم.

وكلامُه تعالىٰ صفةٌ واحدةٌ لا تعدُّدَ فيها، ولكنْ لها أقسامٌ اعتباريةٌ، فمنها ما تعلَّق بطلب فعلٍ كالعدل فهو أمر، ومنها ما تعلَّق بتركِ فعلٍ كالزنا فهو نهيٌ، ومنها ما كان إخبارًا وإعلامًا فهو خبرٌ.

والكذب ممتنع علىٰ كلامه تعالىٰ؛ لأن الكذب قبيحٌ ومنافٍ للمصلحة وهو نقصٌ وعجزٌ.

وقد اتَّفق المسلمون كلُّهم علىٰ تنزيه الله تعالىٰ، والتمسُّك بمحكم النُّصوص القرآنية والأحاديث النبويَّة، وفَهْمِ بعض المتشابهات التي يُوهِمُ ظاهرُها إثبات ما ينافي كمالَ الله وألوهيتَه في ضوء ما قطعت به النُّصوص المحكَمَة من التنزيه[1].

صفة السَّمع:

السمع: صفةٌ وجوديةٌ أزليَّةٌ قائمةٌ بالله سبحانه وتعالىٰ تتعلَّق بالموجودات تعلُّقًا مغايرًا لصفة العِلم والبصر.

صفة البصر:

هي صفةٌ وجوديةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاته تعالىٰ تتعلَّق بالموجودات تعلقًا مغايرًا لتعلُّق العِلم والسَّمع.

(1) عقيدة أهل السنة والجماعة لفضيلة الدكتور/ علي جمعة (ص74).

أدلة ثبوت صفتي السَّمع والبصر:

الدليل النقلي: وهي الآيات الكثيرة في كتاب الله التي تحدِّثُنا عن وصف الله سبحانه وتعالىٰ بالسَّميع البصير، ومعانيها التي تدلُّ علىٰ ذاتٍ عَليَّة ثبت لها السَّمع والبصر، فإطلاق المشتقِّ علىٰ ذاتٍ يقتضي ثبوتَ مصدر الاشتقاق لتلك الذات، فسميعٌ مشتق من السَّمع، وبصيرٌ مشتقٌّ من البصر، فالسَّمع والبصر ثابتان للذات العليَّة.

يقول الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:11]

ويقول سبحانه: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر:56].

ومن الأدلة العقليَّة علىٰ ثبوت صفتي السمع والبصر لله تعالىٰ: هو أن انتفاءهما يعني أن يكون أصمَّ أعمىٰ- تعالىٰ الله عن ذلك- ويشير إلىٰ هذا الدليل قول النبي ﷺ: ((أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا))[1].

وللسَّمع وللبصر تعلقاتٌ ثلاثةٌ:

أولًا: صُلوحي قديمٌ، وهو صلاحيتهما في الأزل لاكتشاف ذواتِ الكائناتِ وصفاتِها بهما فيما لا يزال.

ثانيًا: تنجيزيٌّ قديمٌ، وهو انكشاف الذَّات العلية وصفاتها بهما انكشافًا يغاير انكشاف العِلم، إذ لكل صفةٍ حقيقة تخالف حقيقةَ الأخرىٰ.

ثالثًا: تنجيزيٌّ حادثٌ، وهو انكشافُ الممكنات بعد وجودِها بهما.

الفرق بين صفات المعنىٰ الذاتية وصفات الأفعال الحادثة:

بقي أن نشير إلىٰ أن الله عزَّ وجل قد يُحدث في خلْقِه أمورًا متغيِّرةً، من حيث حدوثها

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله (6610)، ومسلم في كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذِّكر (2704) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

في الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال؛ مثل الخَلق والرِّزق والإماتة والإحياء والرَّحمة والرِّضا والغضب... إلخ. وهي ما يُطلق عليها صفات الأفعال؛ أي أفعال خلَقَها الله عز وجل وأحدثها في خلْقِه ونسبها إلىٰ ذاته سبحانه أو أضافها إلىٰ ذاته، فسميت صفات، وهذه الأفعال ليست صفاتٍ ذاتية علىٰ الحقيقة؛ لأنَّ الصفة وصفٌ ملازم للذَّات لا ينفكُّ عنها ما دامت الذات، فلا يجوز أن نطلق علىٰ ما يحدث في زمنٍ دون آخر أنه صفة لله تعالىٰ، ومن ثَمّ فإن علماء أهل السنة والجماعة قد حقَّقوا هذه المسألة ومحّصوها في ضوء عقيدة تنزيه الله تبارك وتعالىٰ عن حُلول الحوادث بذاتِه الشَّريفة؛ وقرروا أنَّ ما لا يخلو من الحوادث فهو حادثٌ، وأن هناك فارقًا بين المخلوق والخالق، ومن ثَم فإنهم لما تأمَّلوا هذه الأفعال الحادثة وجدوا أنها في الحقيقة ليست صفاتٍ ذاتيةً، وإنما هي أثر للصِّفات الذاتية أو متعلِّقات لها.

فمثلًا الإحياء والإماتة والإشقاء والإسعاد والرزق والمنع كلُّها فيها معنىٰ الإيجاد أو الإعدام، والإيجاد والإعدام هو أثر صفة القدرةِ القديمةِ، فكل هذه الأفعال تؤوَّل إلىٰ قدرة الله عز وجل ولا إشكالَ في ذلك.

كذلك فعل العَجب والضَّحك والرحمة والرضا لا يجوز باعتبار معناها اللُّغوي أن ننسبها إلىٰ الله تعالىٰ كصفةٍ ذاتيةٍ لما فيها من معاني الانفعال البشري الذي لا يليق بالذَّات العليَّة المقدَّسة، ولكنها تعبر عن معنىٰ مجازي بديع، ألا وهو أن الله تعالىٰ يريد الخيرَ بعباده الذين يرحمهم أو يرضىٰ عنهم، فهي أفعال تعود إلىٰ صفة الإرادة وهي صفةٌ ذاتيةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذاته تعالىٰ.

ولك أن تقول: أن كل ما كان متعلقًا بمشيئة الله تعالىٰ، وأن الله تعالىٰ يفعله في وقتٍ دون وقت، أو لشخصٍ، هو أمرٌ حادثٌ لا يصحُّ إطلاق أنه صفةٌ ذاتيةٌ لله تعالىٰ إلا علىٰ سبيل المجاز، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ ﴿يهب لمن يشاء إناثا﴾... إلخ.

ويلزم مَن يطلق على هذه الأفعال أنها صفاتٌ لله تعالىٰ أن يعتقدَ قيامَ الحوادث المخلوقةِ بالذَّات الإلهيَّة العليَّةِ القديمة التي تنزَّهت عن مشابهة المخلوقات وعن أن يحلَّ بها حادث أو تحل في حادثٍ، وقيام الحوادث بذاته تعالىٰ ليست عقيدةَ أهل السُّنة والجماعةِ، وإنما هي عقيدة أهلِ التَّشبيه أو التَّجسيم، طهَّر الله معتقد الأُمة من التَّشبيه والتَّجسيم. ◆

النبوَّات

إن الله سبحانه وتعالىٰ أرحم بعباده من آبائهم وأمَّهاتهم، ومن رحمته سبحانه وتعالىٰ أنه أرسل الرُّسلَ وأنزل الكتب؛ ليعلم الناس ما يأمرهم به وما ينهاهم عنه وما يُرشدهم إليه؛ لتتحققَ مصالحهم في دُنياهم، وليجازيهم بما رتَّبه علىٰ أوامره ونواهيهِ من جزاءٍ في أُخراهم.

ومن هنا كان لابد أن نتعرف علىٰ مبحث النُّبوَّات في العقيدة.

تعريف النبوة والرسالة:

النبوة: مأخوذة من النَّبأ بمعنىٰ الخبر، ومعناها وصول خبرٍ من الله بطريق الوحي إلىٰ مَن اختاره من عبادِه لتلقِّي ذلك، فالكلمة تفسيرٌ للعلاقة بين النَّبي والخالق جلَّ جلالُه، وهي علاقة الوحي والإنباء.

الرسالة: تكليف الله أحدَ عبادِه بإبلاغ الآخرين بشرعٍ أو حُكمٍ معيَّن، فالكلمة إذن تفسيرٌ للعلاقة التي بين النبي وسائر النَّاس، وهي علاقة البعث والإرسال.

الفرق بين النبي والرسول:

النبي: هو مَن أوحىٰ الله تعالىٰ إليه بشرعٍ، وسمي نبيًّا لأنه نبِّئ وأخبر من قبل الله تعالىٰ، فإن أمره الله سبحانه بتبليغ الشرع إلىٰ الخلق سمي رسولًا أيضًا، لأن الله عز وجل أرسله وبعثه إلىٰ خلقه ليبلغهم شرعه، فهو إذن مُرسلٌ ومبعوثٌ وموفَدٌ من قِبل الله تعالىٰ إلىٰ الخَلق برسالةٍ معينةٍ.

أمَّا إذا لم يُؤمر بالتبليغ فهو نبيٌّ فقط وليس رسولًا؛ لأن معنىٰ النُّبوة قد تحقَّق فيه ولم يتحقَّق فيه معنىٰ الرِّسالة، ومن هنا فكلُّ رسولٍ نبيٌّ ولكن ليس كل نبيٍّ رسولًا، وبالتالي إذا انتفت النُّبوة عن شخصٍ انتفت الرِّسالة عنه تلقائيًّا؛ لأن الله سبحانه لا يُرسل أحدًا إلا إذا أنبأَه وأخبره بأنه اختارَه واصطفاه لوحيه أوَّلًا، ثم يُخبره بأنه أرسلَه إلىٰ مَن أرسله إليهم بعد ذلك، فالنبوَّة هي طريق الرِّسالة، ولا رسالةَ بدون نبوَّةٍ؛ ولذلك نجد أن إخبار

الله تعالىٰ في القرآن بأن سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ هو خاتم النَّبيين دليلًا علىٰ أنَّه لا نبيَّ ولا رسولَ بعد الحبيب المصطفىٰ ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40].

إذن خلاصة القول في الفرق بين النَّبي والرسول أن النبيَّ هو إنسانٌ أوحىٰ الله إليه بشرعٍ، فإن أُمِر بتبليغه فهو رسولٌ أيضًا، وإن لم يُؤمر بتبليغه فهو نبيٌّ فقط. وهذا القول هو القول المشهور في الفرق بين الرَّسول والنبيِّ.

وهناك رأي يقول: إن الرَّسول هو مَن بعثه الله بشريعة مجدَّدةٍ يدعو النَّاس إليها، والنبيُّ هو مَن بعثه الله لتقرير شرع مَن قبله مثل أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، وقيل: الرسول من جمع إلىٰ المعجزة كتابًا مُنزلًا عليه، والنبيُّ هو مَن لا كتاب له.

ما يجب في حق الرسل وما يستحيل عليهم:

أولًا: الصدق:

النُّبوَّة هي رسالةٌ من الله تعالىٰ علىٰ يد رجلٍ من الناس ليبلغ عن الله تعالىٰ ما أُرسل به، فإذا كان كذلك فإن أوَّلَ ما يجب أن يتَّصف به النبيُّ هو الصِّدقُ، سواء قبل البعثة أم بعدها، فمن غير الممكن أن يبعث الله تعالىٰ إنسانًا كاذبًا ليبلِّغ الرِّسالة التي أوحىٰ إليه بها، وقد وصف الله سبحانه رسلَه في القرآن بالصِّدق، فقال في إبراهيم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 56] وقال في إدريس: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

وقال في وصف إسحاق ويعقوب ابني إبراهيم عليهم السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿49﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: 49-50].

وقال في إسماعيل عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 54].

وقد كان العرب في جاهليَّتهم قبل مبعث النبيِّ ﷺ يلقِّبون سيدنا محمدًا عليه الصلاة والسلام بالصَّادق الأمين، فما كانوا يرون عليه كذبًا قط.

ثانيًا: الأمانة:

وهذه الصفة قرينةٌ للصِّدق فلا يكون الكاذب أمينًا كما أن الخائن لا يكون صادقًا، وضد الأمانة الخيانة، والله سبحانه وتعالىٰ يستحيل أن يأتمن الخائنَ لحمل رسالتِه إلىٰ الناس، كيف والرسل هم الخلاصة المختارة من البشر والتي تحظىٰ بالكمال الخلقي المستلزم لكل صفات الفضائل؟!

والأمانة صفة تشمل كثيرًا من الفضائل: ككتمان السِّر، والمحافظة علىٰ حقوق الناس، وتبليغ الرِّسالة كما جاءت من عند الله تعالىٰ من غير زيادةٍ ولا نقصان ولا تغيير ولا تحريفٍ ولا تبديل، قال الله تعالىٰ حكايةً عن شعيب عليه السلام وهو يخاطب قومَه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: 88] وقال الله تعالىٰ مخاطبًا رسولَ الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: 67] وقال تعالىٰ مشدِّدًا علىٰ عدم الزيادة علىٰ ما قد أوحاه إلىٰ رسول الله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿44﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿45﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿46﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: 44-47].

فلو جاز أن يكون الرسول خائنًا لَغَيَّرَ في الشَّرائع الإلهية، ولأفسد في الأحكام التي يتلقَّاها عن الله تعالىٰ، فيضيع بذلك الغرضُ من رسالته وهو الصَّلاح والعمل بأوامر الله تعالىٰ وحدَه، والله تعالىٰ لا يحبُّ المفسدين ولا يؤيِّد الخائنين فكيف يؤيد مَن خانه وينصره ويُظهره؟! ولذلك فإن رسل الله تعالىٰ جميعًا قد كانوا أُمناء في تبليغ ما حملوا،

ومن كمال صفة الأنبياء تبليغهم كلَّ ما أرسلهم الله تعالىٰ به وأداء رسالاتِهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: 54].

ثالثًا: الفِطنة:

وذلك بأن يكون الرسول فَطِنًا ذكيًّا يُدرك ما يدور حوله من الأمور إدراكًا سريعًا، ويتصرف فيه علىٰ حسب ما يقتضي العقل الحكيم، والفِطنة لازمةٌ للرسول حتىٰ يكون قادرًا علىٰ إقناع مَن يدعوهم من أهل الإنصاف والاعتدال؛ خلافًا للمعاندين الجاحدين، وحتىٰ يتمكَّنَ من إزالة الشُّبهة والشَّكِّ من نفوسهم.

ومن مواقف الفِطنة في الرُّسل ما حكاه الله تعالىٰ عن إبراهيمَ عليه السَّلام في حواره مع النُّمرود، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

وهذا سيِّدُنا موسىٰ عليه السلام في حواره مع فرعون تبرُز فِطنتُه وسرعة بديهته وثباته علىٰ حُجَّته دون أن يثيره استخفاف فرعون به، وقد ذكر الله تعالىٰ ذلك بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 23-29].

رابعًا: العِصمة:

العصمة: هي السِّياج المنيع الذي أكرم الله تعالىٰ به الرُّسل ليحميهم من التردِّي في مزالق العِصيان، فقد عصم سبحانه أنبياءَه مِن ارتكاب الذنوب والمعاصي وطهَّرهم من

ذلك، ولقد ذهب جمهور أهل السُّنة إلىٰ القول بامتناع الكبائر والصَّغائر في حقِّ الرُّسل خصوصًا بعد البعثة.

وسبب عصمة الله لهم أن الناس مأمورون باتباع الرُّسل والاقتداء بهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: 64] وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب: 21].

فلو جازت المعصية في حقهم لانتفت عنهم القدوة، إذن فكل ما يُنسب إلىٰ الأنبياء من المعاصي والآثام والقبائح إنما هو كذِبٌ وافتراء عليهم؛ لأن الله تعالىٰ قد عصمَهم من ذلك فلا يقع منهم لا اختيارًا ولا اضْطِرارًا، وكيف يُنسب إلىٰ أنبياء الله تعالىٰ شُرب الخمر والزنا والخيانة وغير ذلك من المنكرات وقد زكاهم الله تعالىٰ ومدحهم وهو الخبير بأحوالهم؟! قال الله تعالىٰ بعد أن ذكر قصة إبراهيم مع قومه ومحاولتهم تحريقَه فقال سبحانه: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِين ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِين ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِين ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِين﴾ [الأنبياء: 70-73].

هذا ما يجب في حق الرسل، وأما المستحيل في حقِّهم فهو عكس هذه الصِّفات فيستحيلُ في حقِّهم الكذبُ والخيانة و بلادة الذِّهن وارتكاب المعاصي.

الجائز في حق الرسل:

وأما الجائز في حقِّ الرُّسل عليهم الصَّلاة والسلام فهو كل ما يعرِض علىٰ البشر مما لا يؤدِّي إلىٰ نقصٍ في مكانة الرسول، فالرُّسل من البشر يجوز عليهم كلُّ ما يجوز علىٰ البشر من الأكل والشُّرب والنِّكاح والرِّضا والغضب والحياء والفرح والمرض- الذي لا يعيق القيام بمهام الرسالة ولا ينفِّر الناس منهم- وما قيل عن سيِّدنا أيوب عليه السلام

من أنه مَرِض مرضًا نفَّر الناس منه حتىٰ صار يخرج الدود منه- كذبٌ وافتراءٌ عليه، فالرسل بشرٌ فيهم جميع خواص البشرية أكرمهم الله بالرِّسالة، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: 110] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 43].

الإيمان بالرسل والأنبياء:

الإيمان بالرسل والأنبياء واجبٌ؛ لأنه أصلٌ من أصول الدِّين، مَن أخلَّ به كفر، قال تعالىٰ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: 285].

فيجب علىٰ كلِّ مكلَّف أن يعتقدَ أن الله سبحانه وتعالىٰ أرسلَ رسُلًا مبشِّرين ومنذِرين، قاموا بتبليغ ما أُمروا به، وأن يعتقدَ أن تصديقَهم واجبٌ.

ويجب الإيمان بجميع أنبياء الله ورسُله إجمالًا سواء مَن ذكرهم الله في كتابِه ومَن لم يذكرهم، وذلك أن الرُّسل والأنبياءَ عددهم غير معلومٍ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78].

وقال تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:164].

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿164﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 164-165].

ويجب الإيمان تفصيلًا بالمرسَلين الذين ورد ذِكرهم في القرآن الكريم، وعددهم خمسة وعشرون، وهم: آدم- إدريس- نوح- هود- صالح- إبراهيم- لوط- إسماعيل- إسحاق-

يعقوب- يوسف- شعيب- موسىٰ- هارون- يونس- داود- سليمان- إلياس- اليسع- ذو الكفل- زكريا- يحيىٰ- عيسىٰ- محمد عليهم وعلىٰ نبيِّنا أفضل الصَّلاة والسَّلام.

وقد ذكرت سورة الأنعام منهم ثمانية عشر في قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿83﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿84﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿85﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 83-86].

ويبقىٰ سبعة ذكرهم أحد الشُّعراء مع الإشارة إلىٰ آيات الأنعام في البيتين الآتيين:

في تلكَ حُجَّتُنا منهم ثمانيةٌ ... مِن بعدِ عشْرٍ ويبقىٰ سبعةٌ وهمو

إدريسُ هودٌ شعيبٌ صالحٌ وكذا ... ذو الكِفْل آدمُ بالمختارِ قد خُتِموا

أما أولو العَزم من الرُّسل الذين ذكرهم الله تعالىٰ في القران فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35] عددهم خمسة وهم: محمد- إبراهيم- موسىٰ- عيسىٰ - نوح عليهم الصلاة والسلام؛ وسمُّوا بذلك لأنهم صبروا علىٰ أذىٰ قومِهم، وصبروا علىٰ المشاقِّ والمتاعب، وتحمَّلوا أكثر من غيرهم.

والنبوُّة والرسالة لا يمكن لأحدٍ أن يكتسب إحديهما عن طريق المجاهدةِ والرِّياضة والتَّقوىٰ وغيرها؛ لأنهما منحةٌ من الله تعالىٰ يختصُّ بهما مَن يشاء من عبادِه ويتفضَّل بهما علىٰ مَن يختاره من خَلْقِه، فهما إذن من شأن الله وحده لا دخلَ للخَلق فيهما بأيِّ وجهٍ من الوجوه، قال تعالىٰ: ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124] وقال تعالىٰ: ﴿الله يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75].

الإيمان بنبوة سيِّدِنا محمَّد ﷺ:

يجب الإيمان بسيِّد الوجود سيدنا محمَّد أنه رسول ربِّ العالمين وأنه خاتَم النَّبيين، والإيمان بالكتاب الذي نزل عليه وهو القرآن الكريم، فهو رسول الله أرسلَه بالهدىٰ ودِين الحقِّ ليكون للعالمين بشيرًا ونذيرًا، ولابد أن نشيرَ هنا إلىٰ أنه يجب محبة آل بيت النَّبي عليه الصلاة والسلام واحترامهم، ويجب علينا أن نحبَّ أصحابَه الكرامَ الذين جاهدوا معه ونصروه وأن نُجلَّهم ونحترمَهم، فأي إساءةٍ لهم هي تعريض برسول الله، فصحابته عليه الصلاة والسلام قد اختارهم الله له، ومن هنا وجب علينا أن ندَعَ ذِكر الخلاف الذي حصل بينهم؛ تعظيمًا لمقام صُحبتهم لرسول الله ﷺ.

من خصائص النبي ﷺ:

1- خَتْمُ النبوَّة به، فإنه ﷺ خاتم النَّبيين وآخر المرسَلين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40].

2- إنه سيد المرسَلين؛ لقوله ﷺ: ((أنا سيِّدُ النَّاسِ))[1] وفي حديث آخر: ((سيِّد ولدِ آدمَ))[2]. ولصلاة النبيين والمرسلين خلفه ﷺ ليلة الإسراء والمعراج في المسجد الأقصىٰ، فقد جمع الله تعالىٰ أرواحهم في مثال أجسادهم وصلُّوا خلف رسول الله ﷺ مؤتمِّين به عليهم الصَّلاة والسلام جميعًا[3].

---

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (4712)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها (194) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ علىٰ جميع الخلائق (2278) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) فقد أخرج النسائي في كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة (450) من طريق عمرو بن هشام قال: حدَّثنا مخلد عن سعيد بن عبدالعزيز قال: حدثنا يزيد بن أبي مالك قال: حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه... وذكر حديث الإسراء الطويل، وفيه: ((ثمَّ دخلتُ بيتَ المقدس فجُمِع لي الأنبياءُ عليهم السَّلام فقدَّمني جبريلُ حتىٰ أَمَمْتُهم)).

3- أنه لا يتم إيمان عبد حتىٰ يؤمن برسالته وعمومها لجميع الناس، لقوله تعالىٰ: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65] ولقد أخذ كل نبي من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام علىٰ قومه ((أن إذا بعث فيكم محمد ﷺ لتؤمنن به ولتتبعنه)) تحقيقًا لما أخذ الله عليه من الميثاق بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 81].

ومن أدلة عموم رسالته قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: 28] وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158] وقوله ﷺ: ((وكان النبيُّ يبعث إلىٰ قومِه خاصَّةً وبُعِثتُ إلىٰ النَّاسِ عامَّةً))[1].

4- أنه صاحب الشَّفاعة العُظمىٰ، فلا يُقضىٰ بين النَّاس إلا بشفاعته، وهي الشفاعة العُظمىٰ التي يتخلَّىٰ عنها أولو العزم من الرُّسل حتىٰ تنتهيَ إليه، فيشفع فيشفِّعه الله، ويأتي للفصل بين عبادِه.

حكم التوسُّل إلىٰ الله تعالىٰ بالنبيِّ ﷺ:

ولابد ونحن نتحدَّث عن الحبيب المصطفىٰ ﷺ أن نتكلَّم عن مشروعية التوسُّل بالنبيِّ الكريم عليه أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم فنقول: إنَّ التوسُّلَ برسول الله أمرٌ جائزٌ؛ بل مستحبٌّ دلَّت عليه الأدلة الشَّرعية من الكتاب والسُّنة:

أولًا: من القرآن الكريم:

في القرآن الكريم آيات تحثُّ المسلمَ علىٰ التَّقرُّب إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ والتودُّد إليه، فيقول الحقُّ سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35] فقد أمر الله سبحانه وتعالىٰ أن نبتغي إليه الوسيلةَ والقُربىٰ.

---

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب قول النَّبي ﷺ جُعلت لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا (438) ومسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (521) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57] وهنا أثنىٰ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ الذين يبتغون الوسيلةَ إلىٰ الله تعالىٰ.

وأيُّ وسيلةٍ تقرِّبنا إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بعد معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته خيرٌ من نبيِّنا ﷺ؟! فهو الباب والطَّريق إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، يقول الحقُّ سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64] فهذه الآية الكريمة إرشادٌ للمسلمين لطلب شفاعة النَّبيِّ ﷺ في مغفرة الذُّنوب، وهذه آية مُطلقةٌ ليس لها مقيِّدٌ عقليٌّ أو مقيِّدٌ نصِّيٌّ، فليس فيها ما يقيِّد معناها بحياة النَّبي ﷺ الدُّنيويَّة، فدل ذلك علىٰ أن معنىٰ الآية باقٍ إلىٰ يوم القيامة.

ثانيًا: الأدلة من السُنة النبوية الشريفة:

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عثمان بن حنيف: أنَّ رجلًا ضريرًا أتىٰ النَّبي ﷺ فقال: يا نبيَّ الله ادعُ الله أن يعافيَني، فقال: «إنْ شئتَ أخرتُ ذلكَ فهو أفضلُ لآخرتِكَ وإن شئتَ دعوتُ لكَ» قال: لا، بل ادعُ الله لي، فأمره أن يتوضَّأ وأن يصليَ ركعتين، وأن يدعوَ بهذا الدُّعاء: «اللهم إنِّي أسألكَ وأتوجَّه إليكَ بنبيِّك محمَّدٍ ﷺ نبيّ الرّحمةِ، يا محمَّدُ إنِّي أتوجَّه بكَ إلىٰ ربِّي في حاجتي هذه فتُقضىٰ وتشفِّعني فيه وتشفِّعه فيه» قال: فكان يقول هذا مرارًا، ثم قال بعد: أحسبُ أنَّ فيها أن تشفِّعني فيه، قال: ففعل الرَّجلُ فبرأ[1].

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في دعاء الضيف (3578)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسُّنة فيها، باب ما جاء في صلاة الحاجة (1385)، وأحمد في مسنده (4/ 138)، والنسائي في الكبرىٰ (10420)، وابن خزيمة في صحيحه (1219)، والحاكم في مستدركه (1/ 313).

وليس عند الترمذي: «فصلِّ ركعتين».

وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب». وقال ابن ماجه: «قال أبو إسحاق: هذا حديث صحيح». وقال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه». وقال الذهبي: «رواته ثقات».

وأخرج النَّسائي في سُننه الكبرىٰ عن أبي أُمامة بن سَهل بن حنيف عن عمِّه: أنَّ أعمىٰ أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّه شقَّ عليَّ ذهابُ بصري، قال: ((فانطلِق وتوضَّأ ثم صلِّ ركعتين ثمَّ قل: اللهمَّ إنِّي أسألُك وأتوجَّه إليكَ بنبيِّي محمَّد نبيِّ الرَّحمةِ يا محمَّدُ إنِّي أتوجَّه بكَ إلىٰ ربِّكَ أن تكشفَ لي عن بصري، شَفِّعه فيَّ وشَفِّعني في نَفسي))، فرجع وقد كُشِفَ له عن بصره[1].

وأخرج الطبراني في معجمه الكبير والصغير عن عثمانَ بنِ حنيف: أنَّ رجلًا كان يختلف إلىٰ عثمانَ بن عفان رضي الله عنه في حاجةٍ له، فكان عثمان لا يلتفتُ إليه ولا ينظر في حاجتِه، فلقي عثمانَ بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمانُ بن حنيف: ائتِ الميضأةَ فتوضَّأ ثمَّ ائتِ المسجدَ فصلِّ فيه ركعتين ثمَّ قل: اللهمَّ إنِّي أسألكَ وأتوجَّه إليكَ بنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ نبيِّ الرَّحمة، يا محمَّدُ إنِّي أتوجَّه بكَ إلىٰ ربِّكَ جلَّ وعزَّ فيقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتَك، ورُح إليَّ حتَّىٰ أروحَ معكَ، فانطلق الرَّجلُ فصنعَ ما قال له عثمانُ ثمَّ أتىٰ بابَ عثمان- أي عثمان بن عفَّان- فجاء البوَّابُ حتَّىٰ أخذ بيدِه فأدخلَه علىٰ عثمانَ بنِ عفَّانَ فأجلسه معه علىٰ الطِّنفِسة، وقال: حاجتك؟ فذكر حاجتَه فقضاها له، ثمَّ قال: ما ذكرتُ حاجتَك حتَّىٰ كانت هذه السَّاعة، وقال: ما كانت لك من حاجةٍ فأْتنا، ثمَّ إنَّ الرَّجلَ خرج من عنده فلقيَ عثمانَ بنَ حنيفٍ فقال: جزاك الله خيرًا ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفتُ إليَّ حتَّىٰ كلَّمْتَه فيَّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمتُه ولكن شهدتُ رسولَ الله ﷺ وأتاه ضريرٌ فشكا عليه ذَهاب بصرِه فقال له النَّبيُّ ﷺ: ((أَفَتَصبِرُ؟)) فقال: يا رسولَ الله إنَّه ليس لي قائدٌ وقد شقَّ عليَّ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: ((ائتِ الميضأةَ فتوضَّأْ ثُمَّ صلِّ ركعتين ثم ادعُ بهذه الدَّعواتِ)) قال عثمان: فوالله ما تفرَّقنا وطال بنا الحديث حتَّىٰ دخلَ علينا الرَّجلُ كأنَّه لم يكن به ضررٌ قطُّ[2].

---

(1) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (10421).

(2) أخرجه الطبراني في معجميه الكبير (8311) والصغير (508).

وهذه الأدلة تشير إلىٰ:

1- جواز واستحباب التَّوسل برسول الله ﷺ.

2- التَّوسل هنا بالنَّبي ﷺ أي بذاتِه النبويةِ الشَّريفة الجامعة لنبوَّته ورسالتِه ومكانتِه عند الله.

3- فَهِمَ الصَّحابيُّ الجليلُ عثمانُ بن حنيف أن التَّوسلَ بالنَّبي ﷺ ليس مقتصرًا علىٰ حال حياتِه، ولذلك أرشد الرجلَ أن يتوسَّلَ بالنَّبي ﷺ وكان ذلك بعد وفاة النَّبي ﷺ.

إذن التوسُّل بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام جائزٌ، وليس لمُنكِر حُجَّةٌ أو دليلٌ يُعتدُّ به، والأدلة علىٰ جوازه كثيرةٌ، والعلماء من السَّلف والخَلف قاموا بالتوسُّل بالحبيب والشَّفيع الأعظم من غير نكيرٍ إلا من فئةٍ شاذَّةٍ لا يُلتفت إليها أنكرت مشروعيةَ التوسُّل بالمصطفىٰ ﷺ.

المعجزات:

تعريف المعجزة: هو كلُّ أمرٍ خارق للعادة يجريه الله علىٰ يد مدَّعي النُّبوَّةِ عند تحدي المُنكرين له علىٰ وجه يبيِّن صِدْقَ دعواه.

شروط المعجزة:

- أن تكون خارقةً للعادة؛ إذ العقل لا يُحيل إمكانَ وقوعِها.

- أن تظهر علىٰ يد مَن يدَّعي النُّبوة ليُعلم أنها تصديق له، فخرج بهذا الكرامةُ والمعونة والاستدراج.

- أن تكون مقرونةً بدعوىٰ النُّبوة، وخرج بهذا الإرهاصُ.

- أن تكون المعجزة تُصدِّق صاحبَها، فإن جاءت علىٰ عكس ما أراد سُمِّيت إهانة كما حصل لمُسَيلِمةَ الكذابِ، فإنه تفل في عينٍ لتبرأَ فعميت السَّليمة.

الفرق بين المعجزة وبين غيرِها من خوارق العادات:

- المعجزة: أمرٌ خارقٌ للعادة يظهر على يد مدَّعي النُّبوَّة.

أما الكرامة: فهي أمر خارق للعادة يظهر على يد الولي، وتكون بسبب مواظبة الوليِّ على الطَّاعات وتجنُّب المعاصي، والإعراض عن الانهماك في اللذَّات والشَّهوات، وكرامة الولي ليس فيها دعوى النبوة وبذلك تميز عن المعجزة.

- وأما المعونة: فهي أمرٌ خارق للعادة يظهر على يد بعض العوامِّ تخليصًا من شِدَّةٍ.

- الإهانة: أمرٌ خارق للعادة يظهر على يدِ كاذبٍ مدَّعٍ للنبوة خلاف مطلوبِه؛ كما حصل لمسيلمةَ الكذابِ.

- الاستدراج: أمرٌ خارقٌ للعادة يظهر على يد فاسقٍ، كما يظهر على يدِ المسيح الدجَّال.

- الإرهاص: أمرٌ خارقٌ للعادة يظهر على يد نبيٍّ قبل بِعثته، كتظليل الغمام لنبيِّنا محمد عليه الصلاة والسلام.

- السِّحر: قواعد يقتدرُ بها على أفعال غريبةٍ بالنَّظر لَمن جهل قواعدَه، ويمكن اكتسابه بالتَّعلُّم.

المعجزة والكرامة:

كل ما جاز أن يكون معجزةً لنبيٍّ جاز أن يكون كرامةً لوليٍّ، لكن ينبغي التنبيه على أن المعجزةَ والكرامةَ مصدرهما هو الله سبحانه وتعالى وليس شخص النبيِّ أو الولي، وعلى الإنسان أن يعتقدَ أن الله سبحانه هو الذي أجرى المعجزةَ والكرامةَ على أيدي رسلِه وأوليائه، وهذا يدخل ضمنَ شمول قُدرة الله سبحانه لجميع الأشياء. ◆

الإيمان بالكتب السماوية

ما هو الوحي؟

الوحي هو الصِّلة التي بين الله تعالىٰ وبين رُسُله وأنبيائِه كي يوصِّلَ إليهم ما يريد إيصالَه من عِلْمٍ وحُكمٍ وأمرٍ ونهيٍ وإرشادٍ وغيرِ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ [يوسف: 109] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

أنواع وحي الله تعالىٰ إلىٰ أنبيائه:

إن الله تعالىٰ حين يُكلِّم نبيًّا من أنبيائِه بوحيٍ فإنما يكلِّمه بأحد الأنواع الآتية:

1- يكلِّمه عن طريق الوحي- والمراد به هنا الإلهام في اليقظة أو في النوم- قال ﷺ: ((إنَّ رُوح القُدس نفث في رُوعي أنه لن تموتَ نفسٌ حتىٰ تستكمِلَ رزقَها وأجلَها، فاتقوا الله وأجملوا في الطَّلبِ))[1]. وهذا الإلهام في اليقظة. وقال تعالىٰ حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: 102] وأول الوحي إلىٰ نبينا محمد ﷺ كان في المنام مدةَ ستة أشهرٍ.

2- أو يكلم الله تعالىٰ نبيَّه من وراء حجاب. قال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

3- أو يرسل الله رسولًا من الملائكة كجبريلَ عليه السَّلام ليبلِّغ النبيَّ كلامَ الله تعالىٰ: وهذا هو الغالب.

(1) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده (1151) والبغوي في شرح السنة (4112).

قال تعالىٰ مبينًا أن الأنواع الثلاثة السابقة هي الوسائل لتكليمه أنبياءه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيم﴾ [الشورىٰ: 51].

الكتب السماوية:

1- صحف إبراهيم: وكانت حِكَمًا كلها، وفيها عنايةٌ بالتوحيد وأصول الملَّة، والمباينة للشِّرك وأهله.

2- صحف موسىٰ: وهي التوراة، وإنما سُميت صحفًا؛ لأنها نزلت من عند الله تعالىٰ مكتوبةً، وفيها العناية بالأحكامِ أكثر، وقد بقيت الشَّريعة العامَّة لبني إسرائيل حتىٰ نُسخت بالقرآن العظيم.

3- الزَّبور: وأُنزل علىٰ داودَ عليه السلام، وكانت العناية فيه بالثَّناء علىٰ الله تعالىٰ، والدَّعوات والأذكار.

4- الإنجيل: وأُنزل علىٰ عيسىٰ عليه السلام، وكان من جملة ما اشتمل عليه العناية بالأخلاقِ؛ كالتواضع والصَّبر التسامح والصَّفح وحسن الظَّنِّ، كما يُفهم ذلك مما ورد بشأنه من النُّصوص.

5- القرآن: وهو آخرها، والمهيمن عليها، والخاتم لها، وأنزل علىٰ محمَّد ﷺ، والتركيز فيه علىٰ جميع ما سبق، ولذا نسخها الله وأغنىٰ به عنها. ◆

السمعيات

تمهيد:

بعد أن قامت الدلائل العقلية والنَّقلية على وجوب الإيمان بالله سبحانه وتعالى ورُسلِه- كان لزامًا على مَن آمن وصدَّق أن يؤمن بكلِّ ما جاء في القرآن وأخبر عنه النبي عليه الصلاة والسلام مما لا يُدركه العقلُ، وهذه الأمور التي جاءت النُّصوص بها لا يوجد طريقٌ آخر لمعرفتها إلا من خلال النُّصوص اليقينيَّة الواردة في القرآن أو السُّنة، ومَن أنكر شيئًا منها ممَّا ثبت بالأدلَّةِ المتواترةِ القطعيَّةِ فقد أنكر معلومًا من الدِّين بالضرورة، يُخرجه ذلك عن الملَّة باتِّفاق العلماء، وأمَّا من أنكر منها ما ثبت بخبر الآحاد فلا يُحكم بكُفْره وخروجه عن الإسلام إلَّا أنه يفسق لأنكاره حديثًا ظنيًّا جاء عن رسول الله ﷺ.

والكلام في هذا الباب يكون في الغيبيات التي لا تقع تحت المشاهدةِ ولا يستطيع العقل إدراكها، وتنحصر في الأمور الآتية:-

1- عالم الملائكة.

2- عالم الجِنِّ.

3- أشراط السَّاعة.

4- البرزخ وما بعده من أحداث يوم القيامةِ. ◆

القسم الأول: عالم الملائكة

الملائكة: أجسامٌ لطيفةٌ نورانيةٌ قادرةٌ على التشكُّل بأشكالٍ مختلفةٍ في أشكال حسنةٍ، ويتمكَّنون من أفعال شاقة، يواظبون على الطَّاعة، ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة[1].

والكلام عن الملائكة سنتناوله من خلال ثلاثة محاور:

أولًا: وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم:

وردت النُّصوص الشرعية اليقينيَّة المتواترة المقطوع بصحَّتها ودلالتها على وجود الملائكةِ ووجوب الإيمان بهم، فَمَن أنكر وجودَ الملائكة فقد أنكر بذلك معلومًا من الدِّين بالضرورة، وأنكر صريحَ القرآن، ومن النصوص الواردة في ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285].

ومن النُّصوص الواردة في ذلك من السُّنَّةِ: حديث جبريل المعروف عندما سأل النبيَّ ﷺ عن الإيمان؟ قال: ((أنْ تُؤمنَ بالله وملائـكَتِهِ وكُتُبه ورُسلِه واليومِ الآخر، وأن تُؤمنَ بالقَدَرِ خيرِه وشَرِّه))[2].

ثانيًا: صفات الملائكة:

من خلال تتبُّع الآيات والأحاديث التي جاءت في الإخبار عن الملائكة وأوصافهم يظهر لنا أن الملائكة تتَّصف بعدَّة صفاتٍ، ومن أهم هذه الصِّفات:

1- أنهم مخلوقات لله ليسوا بأولادٍ ولا أندادٍ له. قال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: 172] وقال سبحانه:

---

(1) انظر: شرح المقاصد (62/5) تأليف: مسعود بن عمر، سعد الدين التفتازاني- تحقيق: الدكتور عبدالرحمن عميرة- عالم الكتب ببيروت- الطبعة الثانية 1998م. شرح الجوهرة (ص217) تأليف: إبراهيم الباجوري- تحقيق: الدكتور علي جمعة محمد- الطبعة الرابعة 2008م.

(2) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدَر الله سبحانه وتعالى (8) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُون﴾ [الأنبياء: 26].

2- العبودية الدَّائمة لله عز وجل، فهم مجبولون على الطَّاعة لا يعصون الله ما أمرهم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُون ﴿26﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون﴾ [الأنبياء: 26-27] وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُون﴾ [الأعراف: 206].

3- القُدرة على التَّشكُّل والظُّهور بمظهر الأجسام الكثيفةِ. قال الله تعالىٰ: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17].

ثالثًا: بعض وظائف الملائكة:

1- إبلاغ كلامِ الله إلىٰ الأنبياء والمرسلين، والموكَّل بهذه الوظيفة هو جبريل عليه السلام، ومن الأدلة علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًىٰ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِين﴾ [البقرة: 97].

2- رعاية الجنَّة وأهلِها. قال الله تعالىٰ عن أهل الجنة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَاب ﴿23﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّار﴾ [الرعد: 23-24].

3- القيام بشئون النار وأهلها. قال الله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون﴾ [التحريم: 6].

4- مراقبة أعمال المكَلَّفين وتصرُّفاتهم. قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيد ﴿17﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾ [ق: 17-18].

5- المحافظة على الإنسان، وسُمي مَن يقوم بذلك من الملائكة المعقِّبة والحفظة، قال الله تعالىٰ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد: 11].

6- قبْضُ الأرواحِ. قال الله تعالىٰ وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: 11].

القسم الثاني عالم الجن

الجن: مخلوقات ناريَّةٌ تواترت الأدلة على وجودِهم حتى إن منكرَ وجود الجنِّ منكرٌ لمعلوم من الدِّين بالضرورة، فقد جاء الحديث عنهم وعن صفاتهم في نصوصٍ صريحةٍ.

وأبرز صفات هذه المخلوقات هي:

1- الجن مخلوق من نارٍ. قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّار ﴿14﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّار﴾ [الرحمن: 14-15] أي: أخلاط من نارٍ صافيةٍ.

2- يتناسلون ولهم ذريةٌ. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

3- يرون الإنس، والإنس لا يرونهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: 27].

4- مخلوقاتٌ قابلةٌ للعِلمِ والمعرفة ومكلَّفون بالإيمان والعبادة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]. ◆

القسم الثالث أشراط الساعة

الساعة: اسم من أسماء يوم القيامة، وقد أخفىٰ الله موعدها عن جميع الخَلْق، وجعل لها علاماتٍ قبل قِيامها، وجاءت النصوص الشرعية من القرآن والسُّنة تبيِّن لنا هذه العلامات ومنها:

1- ظهور المهدي، وقد تواترت الأحاديث النبويَّة في ظهور المهدي في آخر الزَّمان، وجزم بتواترها غيرُ واحدٍ من الحفَّاظ منهم: السخاوي في فتح المغيث، ومحمد بن جعفر الكتاني في نظم المتناثر وغيرهما.

2- نزول عيسىٰ عليه السلام إلىٰ الأرض، ويمكث بها مدةً من الزمن وينشر بها رايةَ التوحيد التي أُمر بها الأنبياء جميعًا، ويطبق أحكامَ الشَّريعة الإسلامية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿57﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿58﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿59﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿60﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 57-61]. والشاهد في الآيات: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: وإن عيسىٰ ابن مريم لدليلٌ علىٰ قيام الساعة.

وقد قال رسولُ الله ﷺ: ((والذي نفسي بيدِه ليوشِكَنَّ أن ينزلَ فيكُم ابنُ مريمَ حكمًا عدلًا فيَكسِرَ الصَّليبَ ويقتلَ الخِنزيرَ، ويضعَ الجِزْيةَ، ويفيضُ المالُ حتىٰ لا يقبلَه أحدٌ، حتىٰ تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها)) ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إنْ شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 159][1].

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسىٰ عليه السلام (3448)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب نزول عيسىٰ ابن مريم حاكمًا بشريعة نبيِّنا محمد ﷺ (155) من

3- ظهور الدَّجَّال: وهو رجلٌ له قدراتٌ خارقة تعينه على دجَله وكذبه، يظهر من المشرق ويدَّعي الصلاح ثم يدَّعي الأُلوهية، وإحدى عينيه عوراءُ جاحظةٌ، مكتوبٌ على جبينه كافرٌ يقرؤها كل مسلم، يدخل جميعَ البلاد إلا مكةَ والمدينةَ، ويمكث في الأرض أربعين يومًا، ويقتله عيسى عليه السلام بباب لُدٍّ.

وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ في وصفه والتَّحذير منه والاستعاذة من فتنتِه، ومن هذه الأحاديث: أنَّ النبيَّ ﷺ قام بين النَّاسِ فحمد الله ثُمَّ أثنى عليه بما هو أهلُه، ثم ذكر الدَّجَّالَ فقال: ((إنِّي لأُنذِركموه، وما من نبيٍّ إلا وقد أنذرَ قومَه ولكنْ سأقول لكم فيه قولًا لم يقلْه نبيٌّ لقومِه: إنَّه أعورُ وإنَّ الله ليس بأعورَ))[1].

4- خروج يأجوج ومأجوج: وهي أُمَّةٌ كبيرةٌ من النَّاس تنشر الفسادَ والدَّمارَ، وقد أخبر القرآن عنهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 96-97].

هذه هي أهم علامات السَّاعة التي جاءت بها النُّصوص الشرعيَّةُ، وهناك علاماتٌ أخرى مثل حديث حذيفة بن أسيد ﵁ قال: طلع علينا رسولُ الله ﷺ ونحن نتذاكر فقال: ((ما تذاكرونَ؟)) قالوا: نذكر السَّاعةَ، قال: ((إنَّها لن تقومَ حتى تروا قبلَها عشْرَ آياتٍ: الدُّخَانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابةَ، وطلوعَ الشمسِ من مغربِها، ونزول عيسى ابن مريمَ، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثَةَ خسوفٍ: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من أرض اليمنِ تطردُ الناسَ إلى محشَرِهم))[2].

حديث أبي هريرة ﵁، واللفظ للبخاري.

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب ذِكر الدجَّال (7127)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (169) من حديث ابن عمر ﵄.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (2901).

القسم الرابع: اليوم الآخر

عالم البرزخ:

الموت أمرٌ مشاهَد محسوسٌ لا ينكره عاقلٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: 57] وقد جاءت النُّصوصُ لتخبرنا عن حياة برزخيَّةٍ بين الحياة الدُّنيا والآخرة، وقبل الكلام عنها لابدَّ من تقريرِ مسألةٍ مهمَّة من مسائل العقيدةِ الإسلاميَّة وهي: أنَّ كل ميِّت علىٰ أيِّ حالٍ مات سواءٌ أمات قتلًا أم لا؟ فإنه يستوفي أجلَه من غير تقدُّمٍ عنه ولا تأخُّرٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

أما الحياة البرزخيَّة فلا يمكن للعقل أن يتصوَّرها وإنما سبيل معرفتها هو النَّقل، وقد تواترت الأحاديث النبوية التي تحدِّثُنا عن نعيم القبر وعذابه وسؤال الملَكين، ومن ذلك ما في الصحيحين عن قتادة عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ العبدَ إذا وُضع في قبرِه وتولَّىٰ عنه أصحابُه- وإنَّه ليسمع قرْعَ نعالِهم- أتاه ملَكان فيُقعدانه، فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل- لمحمَّدٍ ﷺ- فأمَّا المؤمن فيقول: أشهدُ أنَّه عبدُالله ورسولُه، فيُقال له: انظر إلىٰ مقعدكَ من النَّار قد أبدلكَ الله به مقعدًا من الجنَّة، فيراهما جميعًا)) قال قتادة: وذكر لنا أنَّه يُفسح له في قبرِه، ثم رجع إلىٰ حديث أنس قال: ((وأمَّا المنافِقُ والكافرُ فيُقال له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرَّجل؟ فيقول: لا أدري كنتُ أقولُ ما يقول النَّاسُ، فيُقال: لا دريتَ ولا تليتَ، ويُضرب بمطارقَ من حديدٍ ضربةً فيصيح صيحةً يسمعُها مَن يلِيه غيرَ الثَّقلين))[1].

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (1374) واللفظ له، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميِّت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (2870).

يوم القيامة وأحداثها:

أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن هذه الحياة الدنيا سوف تفنىٰ ويفنىٰ أهلُها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68] فالنفخة الأولىٰ تعدم الحياةَ، والنفخة الثانية تبعث الناسَ من جديد، وبها تبدأ أحداثُ يومِ القيامة، فالبعث: إحياء الموتىٰ وإخراجُهم من قبورِهم ثم يُساقون جميعًا إلىٰ الموقف للحساب، قال الله تعالىٰ: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: 53] وطول هذا الحساب وقِصرُه ويُسره وصعوبتُه تختلف باختلاف الناس، فكلٌّ حسب عملِه في الدُّنيا، قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: 102-103].

وبعد ذلك يمرُّ الناس علىٰ جسرٍ ممدودٍ علىٰ نار جهنمَ، وهو أدقُّ من الشَّعرة وأحدُّ من السَّيف، ويكون رسولُنا ﷺ أوَّلَ مَن يعبره، ويكون دعاء الرُّسل يومئذٍ: «اللهمَّ سلِّم سلِّم» ولهذا الجسرُ كلاليبُ تخطَفُ الناسَ، فمنهم مَن يعبره ومنهم مَن تنزلق قدماه فيهوي في نارِ جهنَّم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: 71-72].

ومن مظاهر رحمة الله بعباده يومَ القيامة ما يُكرم الله به رسولَه محمدًا ﷺ بإعطائه الشفاعةَ الكبرىٰ لأهل الموقف عامَّةً ولأُمَّته خاصَّةً، قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: 109] وجاء في حديثٍ طويلٍ متفق

عليه أن الناس ينصرفون إلىٰ الأنبياء واحدًا واحدًا يرجون عندهم الشفاعة حتىٰ يشفعَ لهم نبيُّنا محمدٌ ﷺ[1].

ومن مظاهر التكريم أيضًا الورود علىٰ حوض النَّبيِّ ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 1-3]. وهذا الحوض: ((جسمٌ مخصوصٌ كبيرٌ متَّسع الجوانب، يكون علىٰ الأرض المبدَّلة، وهي الأرض البيضاء كالفِضَّة مَن شرب منه لا يظمأُ أبدًا))[2].

وبعد ذلك نعيمُ الجنة خالدٌ لا نهايةَ له، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: 107-108].

وكذلك عذابُ جهنمَ خالدٌ لا نهايةَ له، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: 74-75] وقال سبحانه: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: 77].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: 106-108]. فالاستثناء في هذه الآية ليس استثناءً من الخُلود، بل تقرَّرَ في الآيات السابقة خلودُ الجنة والنَّار، والمراد في هذه الآية جميعُ الأشقياء خالدون في النار إلا مَن شاء الله منهم أن لا يُخلَّد منهم، وهم العصاة من أهل الإيمان والتوحيد، وجميعُ أهلِ الجنة

(1) حديث الشفاعة الكبرىٰ ورد في أحاديث متعددة منها: حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (4712)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها (194) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مطولًا.

(2) انظر: شرح الجوهرة للباجوري (ص203).

خالدون فيها إلا مَن شاء الله أن يعذِّبَ بالنار إلىٰ أمدٍ قبل دخولِه الجنة، الذين لم تكتب لهم الشَّفاعةُ أولًا.

طبقات الجنة:

الفردوس ويليها عدن ثم الخلد ثم النعيم ثم المأوىٰ ثم السَّلام ثم الجلال.

طبقات النار:

جهنم ثم لظىٰ ثم الحُطمة ثم السَّعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية.

والجِنان كلُّها متصلة بمقام الوسيلة ليتنعَّمَ أهلُ الجنةِ بمشاهدته ﷺ لظهوره لهم منها؛ لأنها تشرق علىٰ أهل الجنة، كما أن الشمس تُشرق علىٰ أهل الدُّنيا.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆

الرسالة الثامنة عشرة
نظرة تأصيلية إلىٰ بدعة التقسيم الثلاثي للتوحيد

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: دعوة الرسل والأنبياءِ إلىٰ توحيد الله عزَّ وجلَّ.

المحور الثاني: بيان حقيقة التَّوحيدِ عندَ أهلِ السُّنَّةِ.

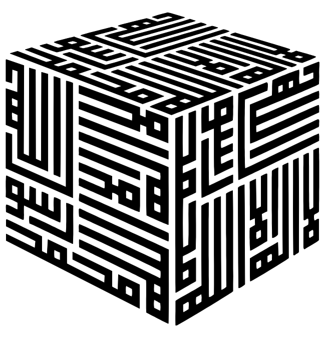
المحور الثالث: مَفهومُ التَّوحيدِ عندَ مُدَّعِي السَّلفيَّةِ.

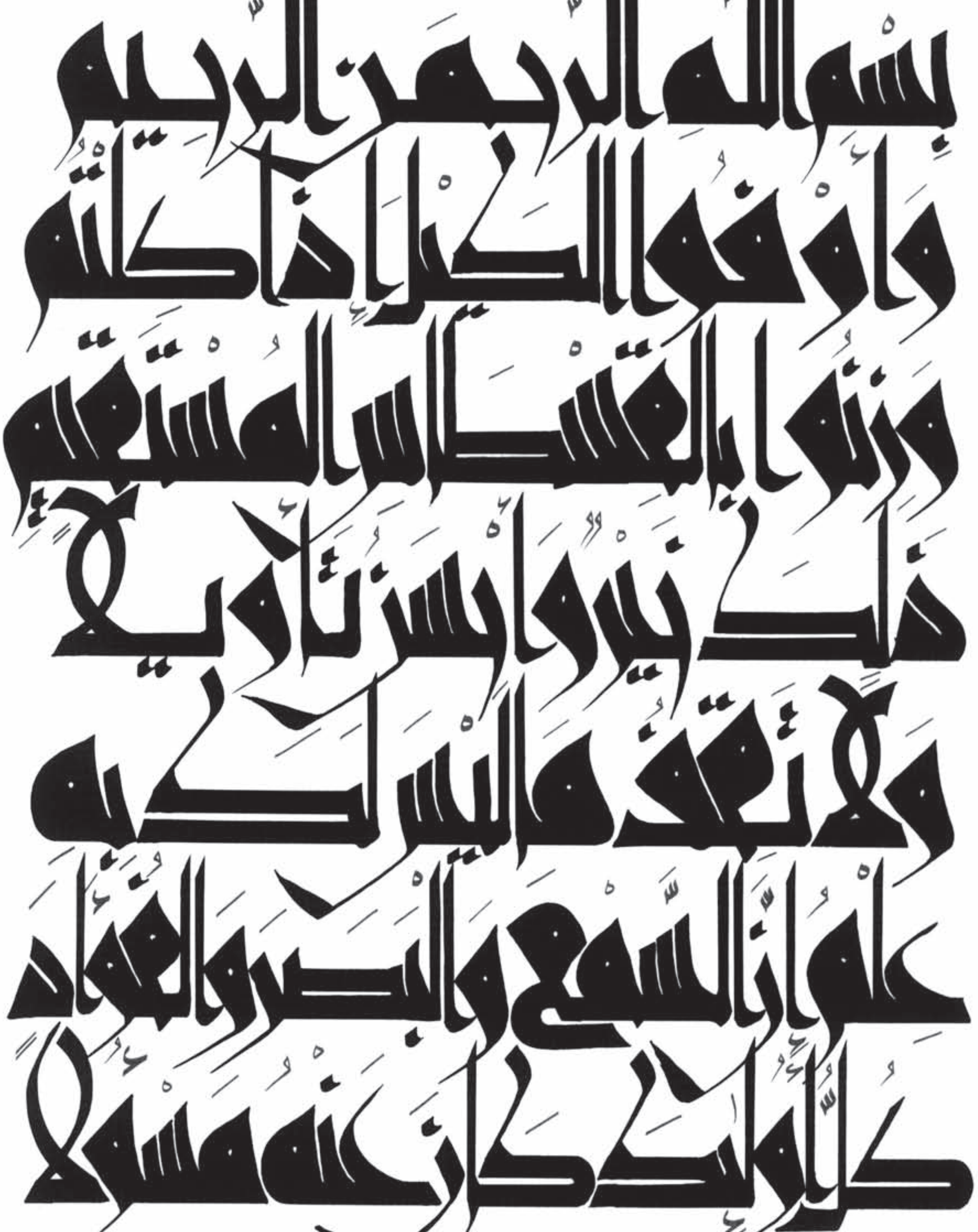
المحور الرابع: الأدلَّةُ علىٰ وقُوعِ الشِّركِ في الرُّبوبيَّةِ عندَ الكفَّارِ وعدَمِ تحقُّقِ التَّوحيدِ عندهم.

المحور الخامس: بُطلانُ التَّقسيمِ الثلاثي للتوحيد والأدلَّةُ علىٰ بِدعيَّتِه.

المحور السادس: الرد علىٰ شُبهةِ ادِّعاءِ وجودِ تَقسيمٍ للتَّوحيدِ عندَ الأشاعِرةِ.

المحور السابع: أثر وخطورة التقسيم الثلاثي للتوحيد علىٰ واقعِ الأمَّةِ. ◆





« وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ
إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا » – آية **35–36** من سورة الإسراء

نظرة تأصيلية إلىٰ بدعة التقسيم الثلاثي للتوحيد

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدِنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ موجَزةٌ نتكلَّم فيها عن بدعةٍ في بابِ التَّوحيدِ ظهَرت في تاريخِ الأمَّةِ الإسلاميَّة وَهي تَقسيم التَّوحيدِ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ، والتي كانَ لها كبيرُ الأثرِ في فُرقةِ المسلِمِينَ وانتشارِ خِطابِ التَّكفيرِ بينَهم ورَمي النَّاسِ بالشِّرك والوُقوعِ في الضَّلالِ، فهذا التَّقسيم مِن التَّقسِيماتِ المبتدعةِ المحدَثةِ في بابِ الإيمانِ بالله سبحانه وتعالىٰ وأسمائِه وصفاتِه، والتي لم تَرِد عنِ السَّلفِ الصَّالحِ ولم يَقُل بها أحدٌ مِن علماءِ المسلِمِينَ وأئمَّةِ المذاهبِ، وأوَّلُ مَن أحدثَها بهذِه الكيفيَّةِ وهذا الشَّكلِ هو الشَّيخُ أحمدُ بنُ عبدِالحليمِ بنِ تيميَّةَ، ثمَّ أخذَها عنه مَن تكلَّم بها بعدَ ذلك حتَّىٰ وصلَت إلىٰ العصرِ الحديثِ، فقامَ بعض مَن ادعىٰ النسبة إلىٰ السلف الصالح بنَشرِها والتَّرويجِ لها والإعلانِ بأنَّ التَّوحيدَ له أقسَامٌ ثلاثةٌ: توحيدُ الرُّبوبيَّةِ، وتوحيدُ الألوهيَّةِ، وتوحيدُ الأَسماءِ والصِّفاتِ.

فقام هؤلاء بتصنيفِ الكتُبِ والمنشورَاتِ التي تَعرِضُ التَّوحيدَ والعقيدةَ مِن خلالِ هذه البِدعةِ، وبنَوا علىٰ ذلكَ أنَّ مَن لم يَفهمْ فهمَهم فيها ولم يُؤمنْ بها ويلتزمْ بلوازِمِها فإنَّه يقعُ في الشِّركِ وعدمِ اكتِمالِ الإيمانِ، فسوُّوا بينَ عقيدةِ المسلمِ وعقيدةِ المشرِكِ نتيجةً لتقسيمِ اصطِلاحيٍّ مبتدَعٍ، وليسَ نتيجةً لتَقسيمٍ شَرعيٍّ جاءَت به النُّصوصُ، ثمَّ استخدَمَ هؤلاءِ القومُ هذا التَّقسيمَ في تَفريقِ المسلِمينَ، وجعَلوهُ ميزانَهم في الحُكم علىٰ عقائدِ النَّاسِ، فهم يَقولونَ: نعَم أنتَ تؤمنُ بوجودِ الله وبأنَّه الخالقُ المدبِّرُ الرازق فهذا توحيدُ الرُّبوبيَّةِ؛ ولـكنَّكَ لَستَ مِن الموحدِين توحيدَ الألوهيَّةِ وتوحيدَ الأسماءِ والصِّفاتِ بالمعَاني التي يُقرُّونَها هم من التَّجسيمِ والتَّشبيهِ، وعلىٰ هذا فأنتَ لستَ من المسلمِينَ حتَّىٰ الآنَ حتَّىٰ تكونَ المعَاني التي يَستنبِطُونَها هُم مِن أنواعِ تَوحيدِهم، والمعاني التي

يَستَخلِصُونَها هي مَعلوماتك عنِ التَّوحيدِ، فعندَ ذلك تستحِقُّ أن تَخرجَ مِن دائرةِ الشِّركِ إلىٰ دائرةِ التَّوحيدِ الذي يَرتَضونه هُم، أَلَا ساءَ ما يحكُمون.

لم تكتَفِ هذِه الشِّرذمةُ بما قَالَت، بَل زادَ بعضُهم في الابتدَاعِ في السَّنواتِ الأخيرةِ وأخرَجَ لنَا نوعًا رابعًا منَ التَّوحيدِ أسمَوهُ بتَوحيدِ الحاكميَّةِ حتَّىٰ تكتَمِلَ المَنظومةُ التي يَستطِيعونَ بهَا التَّكفير، فلا مَهربَ لكَ أيُّها الأخُ المسلمُ منَ الكُفر علىٰ مَذهبِ هؤلاءِ الجَهلةِ، فإنَّك إنْ نجوتَ عندَهم مِن اختبارِ التَّوحيدِ الأوَّلِ فقَد تهلِكُ في اختِبارِ النَّوعِ الثَّاني أو الثَّالث أو الرَّابع وهكذا، فالأصلُ في النَّاسِ علىٰ مَذهبِهم أنَّهم مَشكوكٌ في تَوحيدِهم حتَّىٰ يفهمُوا التَّوحيد كما فهِمَه ابنُ تيميةَ ومن نحىٰ نحوَه.

فهذا التَّقسيمُ أمرٌ محدَثٌ في بابِ العَقيدةِ وأوَّلُ مَن صنعه هو ابنِ تيميةَ، ولو كانَ ما فعله تَقسِيمًا شَرعيًّا مَدعومًا بالأَدلَّةِ لقُلنا إنَّ للرَّجلِ أن يصطلِحَ علىٰ ما يشاءُ، لكنَّ صنيعَه بدايةٌ لا دليلَ عليها مِن كتابٍ ولا سُنَّةٍ ولا أَقوالِ سلفِ الأمَّةِ، وبالتَّالي فتقسِيمُه للتَّوحيدِ وما يَشتمِلُ عليهِ وما يُؤدِّي إليهِ مُجانبٌ للصَّوابِ وليس صحيحًا، والذي يَبدو أنَّ هذا التَّقسيمَ غائيٌّ وُضِعَ لغايةٍ محدَّدةٍ عندَ ابنِ تيميَّة؛ كما يَظهرُ مِن ثنايَا كلامِه في بابِ الاعتِقادِ والأسماءِ والصِّفاتِ وهي تَشويهُ صورةِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ مِن عُلماءِ الأشاعرةِ والماتريديَّةِ الذين كانُوا الخصمَ الأكبرَ ضدَّ كلامِه بشكل عام وضدَّ انحرَافاتِه العلميَّةِ في بابِ الأسماءِ والصِّفاتِ الإلهيَّةِ بشكل خاصٍّ، وبعدما وَلَّىٰ زمَنُ ابنُ تيميةَ واختفىٰ هذا الفِكرُ لفَترةٍ منَ الزَّمانِ وبَقيَت كتبُ ابنِ تيميةَ ومؤلَّفاتُه رهِينةَ الإِهمالِ والنِّسيانِ، إلىٰ أَنْ جاءتْ طائفةٌ أعادت بَعثَ الفِكرِ التَّيميِّ بكلِّ أشكالِه وصُورِه وزادتْ مِن عندها ما زادت من الأفكار والأفعالِ.

ونحنُ في هذِه الرِّسالةِ الموجَزةِ أخي الكريم نحاولُ في البداية أن نُلقيَ الضَّوءَ علىٰ عدمِ صحَّةِ هذا التَّقسيمِ، ونوضِّحُ مَا نتَجَ عنهُ مِن انتشارِ ثقَافةِ رَمي النَّاسِ بالشِّركِ والخرُوجِ منَ

الدِّينِ، ثم الكلام عن سَلامةِ عقيدةِ المسلِمِينَ فيما يتعَلَّقُ بالجَنابِ الإلهيِّ، وسيكونُ الكَلامُ في هذِه الرِّسالةِ متَمثِّلًا في المحاور التالية:

المحور الأول: دعوة الرسل والأنبياءِ إلىٰ توحيد الله عزَّ وجلَّ.

المحور الثاني: بيان حقيقة التَّوحيدِ عندَ أهلِ السُّنَّةِ.

المحور الثالث: مَفهومُ التَّوحيدِ عندَ مُدَّعِي السَّلفيَّةِ.

المحور الرابع: الأدلَّةُ علىٰ وقُوعِ الشِّركِ في الرُّبوبيَّةِ عندَ الكفَّارِ وعدَمِ تحقُّقِ التَّوحيدِ عندهم.

المحور الخامس: بُطلانُ التَّقسيمِ الثلاثي للتوحيد والأدلَّةُ علىٰ بِدعيَّتِه.

المحور السادس: الرد علىٰ شُبهةِ ادِّعاءِ وجودِ تَقسيمٍ للتَّوحيدِ عندَ الأشاعِرةِ.

المحور السابع: أثر وخطورة التقسيم الثلاثي للتوحيد علىٰ واقعِ الأمَّةِ. ◆

دعوة الرسل والأنبياءِ إلىٰ توحيد الله عز وجلَّ

قبل أن نبدأ في توضيح وبيان دعوة الرسل والأنبياء إلىٰ التوحيد كان لازمًا علينا أن نبين في تمهيد يسير بَعض المُصطلحاتِ، فنلمح في البداية إلىٰ اسم الرب، وهو منَ الأسماءِ الجامعةِ العَظيمةِ التي تدلُّ علىٰ المَعاني الجَليلةِ في جنَابِ الله سبحانه، وقد ورَدَ لفظُ الرَّبِّ كثيرًا في كتابِ الله بصِيغٍ مختَلفةٍ، مُفردًا وجَمعًا، مُضافًا وغيرَ مضَافٍ، ولا يُقالُ الرَّبُّ لغَيرِ الله سُبحانَه وتعَالىٰ إلا بالإِضافةِ، وقَد ذكرَ أصحابُ المَعاجم لكلمَةِ الرَّبِّ معَانيَ مختَلفةٍ:

- قال الزَّبيديُّ في تاج العروس: «الرَّبُّ هو الله عزَّ وجلَّ، وهو ربُّ كلِّ شيءٍ؛ أي مَالكُه، له الرُّبوبيَّة علىٰ جميعِ الخَلق، لا شريكَ له، وهو ربُّ الأربابِ، ومالكُ الملوكِ والأملاكِ، قال أبو منصورٍ: والرَّبُّ يُطلَق في اللُّغة علىٰ المالك، والسَّيِّد، والمدبِّر، والمربِّي، والمتمِّم، وباللَّام لا يُطلَق لغَير الله عزَّ وجلَّ، وفي نسخةٍ: علىٰ غَير الله عزَّ وجلَّ إلَّا بالإِضافةِ، أي؛ إذا أُطلِقَ علىٰ غَيره أُضيفَ فقِيلَ: ربُّ كذَا، قالَ: ويُقال الرَّبُّ لغيرِ الله، وقد قالوه في الجاهليَّة لمَلكِ»[1].

- وقال ابن فارس في مقاييسِ اللُّغة: «(ربُّ) الرَّاء والباء يدلُّ علىٰ أصولٍ؛ فالأوَّل إصلاحُ الشَّيء والقيامُ عليهِ. فالرَّبُّ: المالكُ، والخالقُ، والصَّاحبُ. والرَّبُّ: المُصلِحُ للشَّيء. يقالُ: رَبَّ فلانٌ ضَيعتَه، إذا قامَ علىٰ إصلاحِها، وهذا سِقاءٌ مَربوبٌ بالرُّبِّ، والرُّبُّ للعنَبِ وغَيرِه؛ لأَنَّه يُرَبُّ به الشَّيءُ، والرَّبُّ: المُصلِح للشَّيءِ، والله جلَّ ثناؤهُ الرَّبُّ، لأَنَّه مُصلِحُ أحوالِ خَلقِه»[2].

فمِن هذِه المَعَاني في حقِّ الله سبحانَه وتعالىٰ يتَبيَّنُ لنا أنَّه هو الرَّبُّ المتكَفِّلُ بخَلقِ

---

(1) تاج العروس من جواهر القاموس (باب الباء فصل الراء) لمرتضىٰ الزَّبيدي- مطبعة حكومة الكويت 2004م.

(2) مقاييس اللغة (كتاب الراء، باب الراء وما معها في الثنائي والمطابق) لأبي الحسين أحمد بن فارس- عبدالسلام هارون- دار الفكر- 1979م.

الموجودَاتِ، وإخراجِها منَ العدَمِ إلىٰ الوجُودِ، والقيامِ علىٰ أَمرِها، وتَدبيرِ نظَامِها، وإمدَادِها ورِعَايةِ حَالها، فما مِن ذَرَّةٍ في السَّمواتِ والأرضِ ومَا بَينَهما ولَا أقلَّ مِن ذلكَ ولا أكبرَ إلَّا واللهُ سبحانَه هوَ مُوجِدُها ابتدَاءً وممدُّهَا بالمَددِ الرَّبانيِّ في كلِّ لحظَةٍ حتَّىٰ تظَلَّ قائمَةً مُستمرَّةً محتَفظَةً بوجُودِها وما خُلِقَت له وإليهِ سبحانَه عاقبةُ أمرِها.

- ولفظُ الإلهِ في كلَامِ العرَبِ يدلُّ علىٰ المَعبودِ.

- قال صاحب مقاييس اللغة: «أَلَه الهمزةُ واللَّامُ والهاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو التَّعبُّد. فالإلهُ اللهُ تعالَىٰ، وسُمِّيَ بذلِك لأنَّهُ معبُودٌ. ويقالُ: تألَّه الرَّجلُ: إذا تَعبَّدَ. قال رُؤبةُ:

لله دَرُّ الغانياتِ المُدَّهِ سَبَّحنَ واسترجَعن من تَألُّهِي

والإِلاهَةُ: الشَّمسُ؛ سُمِّيت بذلكَ لأنَّ قومًا كانوا يعبُدُونها»[1].

وعندَ النَّظرِ إلىٰ الوَاقعِ الحَقيقيِّ يتجلَّىٰ لنَا أنَّ المستَحِقَّ لجَميعِ أنواعِ العبادةِ هو اللهُ سبحانه وتعالىٰ لاتِّصافِه بالكَمالِ المُطلَقِ في ذاتِه وأَسمائِه وصفَاتِه وأَفعالِه، وأنَّ مَن سَمَّاهُم النَّاسُ بالآلهةِ عَبرَ التَّاريخِ هي مجرَّدُ أسماءٍ باطلةٍ ليسَ لها مِن استِحقاقِ العِبادةِ نَصيبٌ، وأنَّ اللهَ هو الإلَه الحَقُّ وهذَا هوَ مَدلولُ كلمةِ لا إلهَ إلَّا اللهُ.

ولابدَّ منَ التَّنبيه إلىٰ أنَّ هذا التفريق هو لغويٌّ، أمَّا استعمال كلٍّ منَ الكلمتينِ في القرآن فسيأتي خلال هذا البحثِ أنَّ القرآنَ الكريمَ جاء بهما علىٰ سبيلِ التَّرادفِ.

وبعد هذا البيان اليسير ندخل في موضوع رسالتنا فنوضِّح في البداية أنَّه لابدَّ من مَعرفة دَعوةِ الأَنبياءِ والمرسلينَ التي دَعوا إليها البشرَ، وإلىٰ أيِّ شيءٍ دَعوهُم؟ ومَا الذِي طلَبوا مِنهم تحقيقَه؟ والجوابُ علىٰ ذلكَ أنَّ جميعَ أنبياءِ اللهِ الكِرامِ تلخَّصَت دعوتُهم في مَعرفةِ اللهِ ربًّا وإلهًا مَوصُوفًا بكلِّ كمالٍ منزَّهًا عن كلِّ نُقصانٍ، وتوحيدِه وإفرَادِه وحدَه سبحانَه وتعَالىٰ بالعبادةِ ونَبذِ ما هُم عليه منَ الكُفرِ والشِّركِ فكانت شَهادةُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ عنوانَ دعوتِهم.

---

(1) مقاييس اللغة: (كتاب الهمزة، باب الهمزة واللام وما يثلثهما).

وأوضَحُ بيانٍ وأَتمُّه هو ما جَاءَ في القُرآنِ الكريمِ مِن آياتِ اللهِ سُبحانه وتعالىٰ في إرشَادِ عبادِه إلىٰ معرفتِه وتوحيدِه، وبما جاءَ في كتابِ اللهِ علىٰ لِسانِ الأنبياءِ والمرسلينَ صلوَاتُ اللهِ وسلامُه عليهِم للتَّعبيرِ عن هذِه الدَّعوةِ إلىٰ التَّوحيدِ الكاملِ دونَ تَقسيمٍ إلىٰ تَوحيدِ ربوبيَّةٍ وتَوحيدِ أُلوهيَّةٍ، فإدراكُ هذا البيانِ هو ما يُحدِّدُ المقصُودَ بالتَّوحيدِ ولا يَدَعُ مجالًا للاجتِهادِ؛ وذلك لخُطورةِ مَا يترتَّبُ علىٰ هذا الأمرِ مِن تحقُّقِ وصفِ التَّوحيدِ في حَقِّ النَّاسِ أو انتِفائِه عنهم، فعَلىٰ سَبيلِ المثالِ نجدُ في كتابِ اللهِ تعَالىٰ:

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿54﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 54-55].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿21﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21-22].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133].

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿193﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿194﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ

مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 193-195].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 170].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿174﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 175-174].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 106].

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿31﴾ فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: 31-32].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 73].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: 108].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿99﴾ وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿100﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿101﴾ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام99-102].

﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿2﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: 2-3].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12].

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿14﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: 14-15].

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿57﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿58﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿59﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 57-60].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29].

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿25﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿26﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: 25-27].

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴿54﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 54-55].

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21].

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 71].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 61].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 67].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 104].

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿23﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿24﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿25﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿26﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿27﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: 23-28].

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴿63﴾ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزُّخرُف: 63-64].

﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿116﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 116-117].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿59﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿60﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: 59-61].

﴿قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: 56].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴿1﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿2﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 1-3].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿21﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21-22].

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: 139].

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿49﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴿50﴾ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: 49-51].

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿55﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: 55-56].

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: 30].

﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿97﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿98﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: 97-99].

فَفي هذِه الآياتِ الكريماتِ تَتَّضِحُ لنا الصَّورةُ التي خاطَبَ الله تعالَىٰ بها النَّاسَ عندَ دعوتِهم للتَّوحيدِ، وكذلك الصُّورةُ التي خاطَب بها الأنبياءُ المرسلونَ أقوامَهم حيثُ لا نرَىٰ أيَّ فرقٍ بينَ الرُّبوبيَّةِ والأُلوهيَّة في دَعوةِ النَّاسِ إلىٰ التَّوحيدِ؛ بَل نَجدُ أنَّ الله يتعرَّفُ إلىٰ عبادِه بالرُّبوبيَّةِ التي تستَلزِمُ الألوهيَّةَ لهُ وحدَه، مُذكِّرًا إيَّاهُم بعظَمتِه وقدرَته وعظيمِ خلقِه، واستِحقَاقِه وحدَه أن يكونَ هو الإلهَ الحَقَّ، فلا يَستطيعُ إنسانٌ أن يُفرِّقَ في ذِهنِه أبدًا بينَ ربوبيَّةِ الله تعالىٰ وألوهيَّتِه، ولا أن يَجعلَ حدًّا فاصِلًا بينَ الإيمانِ بكلٍّ مِنهما، لأنهما متداخلتَان تدَاخُلًا تامًّا، فالرَّبُّ الحقُّ هو الإِلهُ الحقُّ، والرَّبُّ الباطلُ الذي لم يَجمَع صِفاتِ الرُّبوبيَّةِ فهُو ليسَ بإِلهٍ علىٰ الحقيقةِ.

ولقَد أَوضَحَ القُرآنُ الكريمُ أنَّ الأنبياءَ خاطَبُوا أقوامَهم بتَعريفِهم برُبوبيَّةِ الله تعالىٰ وخَصائصِ تلكَ الرُّبوبيَّةِ منَ القُدرةِ التَّامَّةِ، والتَّدبيرِ الكاملِ، والإِيجادِ والخَلقِ، والتَّفرُّدِ بالرِّزقِ والنَّفعِ والضُّرِّ، ثمَّ بيَّنوا لهُم أنَّه لا يَجوزُ أن يُصرَفَ شيءٌ مِن العِبادةِ إلَّا لمَنِ اتَّصَفَ بهذِه الصِّفاتِ الكَاملةِ سُبحَانَه وتعَالىٰ، وأنَّ صَرفَ العِبادةِ لغيرِه تعالىٰ ظُلمٌ كبيرٌ ووَضعٌ للشَّيءِ في غيرِ مكَانِه.

والرُّسُلُ أَثبَتوا كذَلك للمُشركينَ أنَّ مَعبودَاتِهم مِن دُونِ الله لا تتَّصِفُ بأيٍّ مِن صِفاتِ الرُّبوبيَّةِ، لأنَّ أهلَ الشِّركِ كانوا يَعتقِدُونَ في مَعبودَاتِهم كَثيرًا مِن صِفاتِ الرُّبوبيَّةِ، وقد يَصِيغُون ذلكَ في شَكلٍ فَلسفيٍّ في بعضِ الأحيانِ، فالتَّماثيلُ عندَهم تَنفعُ وتَضرُّ؛ لأنَّها صُورةٌ ومِثالٌ لقوَّةٍ حقِيقيَّةٍ تجسِّدُها هذِه التَّماثيلُ مادِّيًّا، ثمَّ مع مُرُورِ الأزمنةِ يصبِحُ التمثالُ المَصدرَ الحقِيقيَّ لهذه القوَّةِ فيتِمُّ العُكوفُ حولَه والطَّلبُ مِنه مباشرةً وتقديمُ القُرُباتِ لَه، فدَعوةُ الأنبياءِ في القُرآنِ الكريمِ كانَت تبيِّن للمشركينَ الأدِلَّةَ التي تُثبِتُ إفرادَ الله سبحانه بالخَلْق والإيجادِ والتَّدبيرِ والعبوديةِ له وحدَه، تعالىٰ الله عمَّا يقول المشركونَ علوًّا كبيرًا. ◆

بيان حقيقة التَّوحيدِ عند أهلِ السُّنَّةِ

إنَّ مِن أعظَم مِنَنِ الله سبحانَه وتعَالى على أمَّةِ الإسلامِ أنْ حَفِظَ لها دِينَها وعقِيدتَها مِن غلوِّ الغَالِينَ وتفريطِ المفرِّطينَ وانحرافِ أهلِ الضَّلالِ، وقيَّضَ لها مِن أهل العِلمِ وأئمَّةِ الدِّينِ وحَمَلةِ الشَّريعةِ مَن بَيَّنَ حدُودَ العَقيدةِ وأُصولَ الدِّينِ فاستقامَت عقَائدُ الأمَّةِ وعُصِمَت في مُجملِها العامِّ منَ الزَّيغِ والانحرَافِ في الاعتِقادِ، وقَد تمَّ ذلكَ على يدِ علماءِ أهلِ السُّنَّةِ مِن الأشاعرةِ والماتريديَّةِ الذين حفِظَ الله بهِم أصولَ الدِّينِ وفروعَه على مرِّ القرونِ، فقامَ الإمامُ أبو الحسَن الأشعريُّ ومَن جاءَ بعدَه مِن علماءِ الأشاعرةِ، وقامَ الإمامُ أبو منصورٍ الماتريدِيُّ ومَن جاءَ بعده مِن علماءِ الماتريديَّةِ بتَقريرِ عقائدِ أهلِ السُّنَّةِ وإيضَاحِها إيضاحًا تامًّا، وبَيانِ أُصولها وحدُودِها، مع الرَّدِّ على المبتدِعةِ وأهلِ الضَّلالِ مِن سَائرِ الفِرَقِ، وهم في ذلك لا يَبتدِعونَ مذهبًا عَقَديًّا بَل يُظهِرونَ عقيدةَ السَّلفِ موضَّحةً مَشروحةً.

والإمامُ تاجُ الدِّين السُّبكيُّ يؤكِّد على أنَّ الإمامَ الأشعريَّ ليس بمؤسِّسٍ لمذهبٍ في العقيدةِ وإنما هو مقرِّرٌ لما كانت عليه عقائدُ السَّلفِ الصَّالحِ، فيقول رحمه الله في طبقاتِه: «اعلم أنَّ أبا الحَسنِ لم يُبدِع رأيًا ولم يُنشِئ مذهبًا، وإنَّما هوَ مقرِّرٌ لمذاهبِ السَّلفِ، مناضِلٌ عمَّا كانَت عليه صحابةُ رسولِ الله ﷺ، فالانتِسابُ إليهِ إنَّما هو باعتِبارِ أنَّه عقَدَ على طَريقِ السَّلفِ نِطاقًا وتمسَّكَ بهِ، وأقامَ الحُجَجَ والبراهِينَ عليهِ فصَارَ المقتدِي بهِ في ذلكَ السَّالكُ سبيلَه في الدَّلائلِ يُسمَّى أَشعريًّا»[1].

- ويقولُ أيضًا: «ولَم يكُن أبو الحَسَنِ أوَّلَ متكلِّمٍ بلِسانِ أهلِ السُّنَّةِ إنَّما جرَى على سنَنِ غَيرِه وعلى نُصرةِ مَذهبٍ مَعروفٍ فزَادَ المذهبَ حُجَّةً وبيانًا، ولم يَبتدِع مَقالةً اختَرَعَها ولا مذهبًا انفرَدَ بهِ، ألَا ترَى أنَّ مذهَبَ أهلِ المدينةِ نُسِبَ إلى مالكٍ، ومَن

(1) طبقات الشَّافعيَّةِ الكبرى (365/3) للإمام تاجِ الدِّين السبكي- تحقيق: د. محمود محمد الطناحي- د. عبدالفتاح محمد الحلو- دار هجر- الطبعة الثانية- 1413هـ.

كانَ علىٰ مَذهبِ أهلِ المدينةِ يُقالُ لَه مالكيٌّ ومالكٌ إنَّما جرَىٰ علىٰ سنَنِ مَن كانَ قبلَه، وكانَ كثيرَ الاتباعِ لهم؛ إلَّا أنَّه لمَّا زَادَ المذهبَ بيانًا وبَسطًا عُزِيَ إليه، كذلك أبو الحسنِ الأشعَريُّ لا فرَقَ، ليس له في مَذهبِ السَّلفِ أكثرُ مِن بَسطِه وشَرحِه وتوَاليفِه في نُصرتِه))[1].

- ويقولُ في معيد النعم: ((وبالجُملةِ عقيدةُ الأشعريِّ هي مَا تضمنَتهُ عقِيدةُ أبي جَعفرٍ الطَّحاويِّ التي تلقَّاهَا عُلماءُ المذاهبِ بالقَبولِ وارتضوها عقيدةً))[2].

وبعدَ هذَين الإمَامَين الإمامِ أبي الحَسَن الأشعريِّ والإمامِ أبي مَنصورٍ الماتريديِّ صار أهلُ السُّنَّة يُنسَبُون إليهما، فيُقالُ لبعضِ أهلِ السُّنَّةِ الأشَاعرةُ ويُقالُ لبعضِهم الماتريديَّةُ، وكِلا الفَريقَين ليسَ بينَهم اختِلافٌ في أُصولِ العقائدِ، وإنَّما بينَهم بعضُ الاختِلافاتِ اللَّفظيَّةِ في الفُروعِ وفي طريقةِ التَّعبيرِ عنِ المعَاني.

- يقولُ العلامةُ ابنُ عابدِينَ خاتمةُ المحقِّقينَ الأحناف: ((ممَّا يجبُ اعتقادُه علىٰ كلِّ مُكلَّفٍ بلا تَقليدٍ لأحَد وهُو ما عَليْه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ وهُم الأشَاعرةُ والمَاتريديَّةُ، وهم متَوافقُون إلَّا في مسائلَ يسيرةٍ أرجَعَها بعضُهم إلىٰ الخِلافِ اللَّفظيِّ كما بُيِّنَ في محلِّه))[3].

وقرَّرَ هذَان الإمَامَان أصُولَ عَقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ وهيَ: اعتِقادُ أنَّ الله سبحانَه وتعَالىٰ واحدٌ لا شريك له، ليسَ بجسمٍ مُصوَّرٍ ولا جَوهرٍ محدَّدٍ مقدَّرٍ، ولا يُشبِه شَيئًا ولا يُشبِهُه شيءٌ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: 11] قديمٌ لا بدايةَ لوجُودِه، دائمٌ لا يطرَأُ عليهِ فناءٌ ولا تغييرٌ، لا يُعجِزُه شيءٌ، لا شبيهَ له في الذَّاتِ ولا في الصِّفاتِ ولا في الأَفعالِ، وأنَّه سبحانه ليسَ بمتحيِّزٍ في جهةٍ ولا مكانٍ، وأنَّه متعالٍ عنِ

---

(1) طبقات الشافعية الكبرىٰ (3/367).

(2) معيد النعم ومبيد النقم (ص75) للإمام تاج الدِّين السبكي- مكتبة الخانجي- القاهرة- 1993م.

(3) ردُّ المحتار علىٰ الدر المختار (1/49) لخاتمة المحققين العلامة محمد أمين الشهير بابن عابدين- دار الفكر- بيروت- الطَّبعة الثَّانية- 1992م.

الزَّمانِ والمكانِ، وأنَّ لَه الصِّفاتِ الأزليَّةَ الأبديَّةَ التي لا تُشبِه صفاتِ المخلوقينَ بأيِّ وجهٍ منَ الوجُوهِ، وأنَّ لَه الحياةَ الأبديَّةَ الأزليَّةَ، ولَه العِلمُ والإِرادةُ والسَّمعُ والبصرُ والكلامُ، والبقاءُ الذي لا يَلحقُه فناءٌ كما لم يَسبقْه عدمٌ، وأنَّه سبحَانَه وتعَالىٰ ليسَ كمِثلِه شيءٌ فهو متفرِّدٌ في الذَّاتِ والصِّفاتِ والأفعالِ.

وحينَ تكلَّمَ علماءُ أهلِ السُّنَّةِ عنِ التَّوحيدِ تكلَّموا عَنه مِن ثلاثِ جهاتٍ وهي: تَوحيدُ الذَّاتِ، وتوحيدُ الصِّفاتِ، وتوحيدُ الأفعالِ، مِن حيثُ إنَّ حقيقةَ ذاتِ الله سبحانَه وتعالىٰ ليسَت كذَواتِ المَخلوقاتِ بأيِّ وَجهٍ منَ الوجُوهِ، ولَا بأيِّ نِسبةٍ من النِّسبِ، وإنَّ صفاتِ البارِي جلَّ وعلَا ليسَت كصفاتِ المخلُوقاتِ فهيَ صِفاتٌ أبَديَّةٌ أزليَّةٌ لا يُحِيطُ بها العقلُ ولا يُدرِكُ كُنهَ حقِيقَتِها أو يَتوهمُها الخيالُ، وكذلكَ أفعَالُه سُبحانَه وتعَالىٰ؛ فاللهُ مُوجِدُ جميعَ الأشياءِ والمَفعولاتِ ومُخرِجُها من العدَمِ إلىٰ الوجُودِ، فهو خالقُ كلِّ شيءٍ، فلا خالقَ غيرُه سبحانَه ولا تَأثيرَ في المَخلوقاتِ لأحدٍ سِواه، مُطلَقُ القُدرةِ سبحانَه ظهرَت عِظَمُ قُدرتِه وجليلُ صفاتِه في خَلقِه للَخلوقَاتِ علىٰ غَيرِ مثالٍ سابقٍ مِن غيرِه، فأبدَع وصوَّرَ وضبَطَ وصرَّفَ شئونَ مُلكِه فلا خلَلَ فيه، سبحانَه لا يُعجِزُه شيءٌ ولا يَسبقُه شيءٌ فهوَ قبلَ كلِّ شيءٍ، وتَظهرُ عظَمتُه في كلِّ شيءٍ ومحيطٌ بكلِّ شيءٍ، وهو بعدَ كلِّ شيءٍ، وكانَ قبلَ أن يكون المكانُ بلا مكانٍ وهو الآن علىٰ ما كان قبلَ خلقِ الزَّمانِ والمكانِ، فلا يُقالُ متَىٰ كانَ؟ ولا كيفَ كانَ؟ ولا أينَ كان؟ سبحانَه لا يتقيَّدُ بالزَّمانِ ولا يتخَصَّصُ بالمكانِ، لا تَبلغُه الأوهَامُ ولا تُدركُه الأفهامُ، عَجزَت العقولُ عنِ الإحاطةِ بعظمتِه وصفتِه، سبحانَه ليسَ بمُتخيَّلٍ ولا مُتصوَّرٍ ولا دَاخلٍ في الوَهمِ، خلَقَ الخَلقَ وأعمالَهم، وقدَّر أرزاقَهم وآجالَهم، لا دَافعَ لما قدَّرَ وقضَىٰ، ولا مَانعَ لما أَعطَىٰ، ولا مُعطِي لما مَنَع، يَفعلُ في ملكِه ما يُريدُ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] ما شاءَ كانَ ومَا لم يَشَأ لم يكُن.

- قالَ الإمامُ أبو جعفرٍ الطَّحاويُّ- قدَّسَ الله سرَّهُ- في مَتنِ العَقيدةِ الطَّحاويَّة:

((نَقولُ في تَوحيدِ الله معتقدِينَ بتَوفيقِ الله تعَالىٰ: إنَّ الله واحدٌ لا شَريكَ له ولا شيءَ مِثله ولا شيءَ يُعجِزُه ولا إلهَ غيرُه، قديمٌ بلا ابتدَاءٍ دائمٌ بِلا انتِهاءٍ لا يَفنَىٰ ولا يَبيدُ، ولا يكونُ إلَّا ما يُريدُ، لا تَبلغُه الأوهَامُ ولا تُدركُه الأَفهامُ ولا يُشبهُ الأنامَ، حيٌّ لا يَموتُ قيُّومٌ لا يَنامُ، خالقٌ بلا حاجةٍ، رازِقٌ بلا مُؤنةٍ، مميتٌ بلا مَخافةٍ باعِثٌ بلا مشقَّةٍ، ما زَالَ بصِفاتِه قديمًا قبلَ خلقِه، لم يزدَد بكَونِهم شَيئًا لم يكُن قبلَهم من صفتِه، وكما كانَ بصفاتِه أزليًّا كذلكَ لا يزالُ عليها أبديًّا، ليسَ بعدَ خلقِ الخَلقِ استفَادَ اسمَ الخالق، ولا بإحداثِه البريَّةِ استفادَ اسمَ (البَارِي) له معنَىٰ الرُّبوبيَّةِ ولا مَربوبَ ومعنَىٰ الخَالِق ولا مَخلوقَ))[1].

- ويقولُ أيضًا: ((ومَن لم يَتوقَّ النَّفيَ والتَّشبيهَ زلَّ ولم يُصِبِ التَّنزيهَ، فإنَّ ربَّنا جلَّ وعلَا مَوصوفٌ بصِفاتِ الوحدانيَّةِ، مَنعوتٌ بنعُوتِ الفَردانيَّةِ ليسَ في مَعناهُ أحدٌ منَ البريَّةِ، وتعَالىٰ عنِ الحدُودِ والغاياتِ والأركانِ والأعضاءِ والأدواتِ، لا تَحويهِ الجِهاتُ السِّتُّ كسائرِ المُبتدعاتِ))[2].

- ويقولُ الإمامُ البيجوريُّ: ((والمرادُ بالتَّوحيدِ هُنا الشَّرعيُّ، وهوَ إفرادُ المَعبودِ بالعِبادةِ مَع اعتِقادِ وحدَتِه ذاتًا وصِفاتًا وأفعالًا))[3].

- وعِند النَّظرِ للغَالبيَّةِ العُظمىٰ مِن علماءِ أمَّةِ الإسلامِ علىٰ مَرِّ القُرونِ نجدُهم إمَّا علىٰ مَذهبِ الأَشعريِّ أو علىٰ مَذهبِ الماتريديِّ إلَّا مَن شذَّ مِن أهلِ الضَّلالِ والأَهواءِ؛ فهاتان المدرستَان أخرجَتا لأمَّةِ الإسلام تِلك العقولَ الجبَّارةَ الذَّكيَّةَ التي كوَّنَت تراثَ الأمَّةِ الإِسلاميَّةِ، وحفِظَت علىٰ المسلِمين أمرَ دينِهم وعقائدَهم، فكان مِنهم أئمَّةُ علم

---

(1) متن العقيدة الطحاوية (3 إلىٰ 6) للإمامِ أبي جعفرٍ الطَّحاويِّ- المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية- 1414هـ.

(2) متن العقيدة الطحاوية (ص7).

(3) تحفة المريد علىٰ جوهرة التوحيد (ص38).

التَّوحيدِ والمحدِّثون والمفسِّرون والفقهاءُ والأصُوليونَ وأئمَّةُ اللُّغة، وكذلكَ كانَ ولاةُ أمورِ المسلِمينَ وحكَّامُهم على مَرِّ العُصورِ من أهلِ السُّنَّةِ من الأَشعريَّةِ والماتريديَّةِ، قال الإمامُ تاجُ الدِّين السُّبكيُّ: «وهؤلاءِ الحنفيَّةُ والشَّافعيَّةُ والمالكيَّةُ وفُضلاءُ الحنابلةِ في العقائدِ يدٌ واحدةٌ على رَأي أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ يَدينونَ لله تعَالىٰ بطَريقِ شَيخِ السُّنَّةِ أَبي الحَسَن الأشعريِّ رحَمَه الله...»[1].

- فمِنهم عَلىٰ سَبيلِ المثالِ لا الحَصرِ:

- مِن علماءِ التَّفسيرِ: الإِمامُ القُرطبيُّ والإِمامُ الرَّازِيُّ والإمامُ البَيضاويُّ والإمام النَّسفيُّ والإمام أبو حيَّان الأندلسيُّ والعلَّامة أبو السُّعود والعلَّامةُ الأَلوسيُّ وغيرُهم.

- ومِن أهلِ الحديثِ وعلومِه: الإمامُ الحافِظُ ابنُ عسَاكِر، والإمامُ الحافِظُ أبو عمرو بنُ الصَّلاحِ، والإمامُ الحافظ مُحيِي الدِّينِ النَّوويُّ شارحُ صحيحِ مُسلمٍ، والإِمامُ ابنُ دقيقِ العِيد، والإمامُ الحافظُ زينُ الدِّين العِراقيُّ، وشيخُ الإسلامِ الحافظُ ابنُ حَجَر العَسقلانيُّ شارحُ صَحيحِ البُخاريِّ، والإمامُ الزَّيلعيُّ، والإمامُ السَّخاويُّ، والإمامُ السُّيوطيُّ، والإمامُ المناوي وغيرُهم.

- ومِن أهلِ الأصولِ والفِقهِ والقواعدِ: حُجَّةُ الإسلامِ الإمامُ الغزاليُّ، وإمامُ الحرَمَين أبو المعَالي عبدُالملك الجوينيُّ، والإمامُ أبو إسحَاق الشِّيرازيُّ، والإمامُ فخرُ الدِّين الرَّازيُّ، والإمام سيفُ الدِّينِ الآمدِيُّ، وسلطانُ العلماءِ العزُّ بنُ عبدِالسَّلامِ، والإمامُ تقيُّ الدِّين السُّبكيُّ، والإمام بدرُ الدِّين الزَّركشيُّ، والإمام جلالُ الدِّين المحلِّيُّ وغيرُهم.

- ومِن أهل اللُّغةِ وعلومِها: الجُرجانيُّ وابنُ الأنباري وابنُ مالكٍ وابنُ هشامٍ وابنُ الحاجِبِ والزَّبيديُّ وغيرُهم.

---

(1) معيد النعم ومبيد النقم (ص75) للإمام تاج الدِّين السبكي- مكتبة الخانجي- القاهرة- 1993م.

ومِن القادَةِ والملوكِ والسَّلاطِين الذينَ حفِظ الله بهم بلادَ المسلمينَ: السُّلطانُ ألْب أَرسلَان والوَزيرُ نِظامُ المُلكِ وسلَاطينُ الدَّولةِ السلجوقيَّةِ، والسُّلطان نورُ الدِّينِ محمودٌ الملقَّبُ بالشَّهيدِ، والنَّاصرُ صَلاحُ الدِّين الأيوبيُّ، والظَّاهرُ بيبَرس، وسَلاطينُ وملوكُ الدَّولةِ الأيوبيَّةِ ودولةُ المماليكِ، والسُّلطانُ محمَّدٌ الفاتحُ وجميع سلاطين الدَّولةِ العُثمانيَّةِ.

فالأشَاعرةُ والماتريديَّةُ هم حَمَلةُ الدِّينِ وحرَّاسُ العقيدةِ الذينَ قامُوا بنُصرَةِ شريعةِ الإِسلامِ وبيانِ حدُودِها؛ فصنَّف أَتباعُ الإمامِ الأشعريِّ والإمَامِ الماتريديِّ ومَن بعدَهما المئات منَ المجلَّداتِ في الرَّدِّ علىٰ أَهلِ الزَّيغِ والضَّلالِ مِن المُخالفِين في بابِ التَّوحيدِ والاعتِقادِ، والتي احتَوَت علىٰ البرَاهينِ النَّقليَّةِ والعقليَّة في إثباتِ المعتقَدِ الحَقِّ لأمَّةِ الإسلامِ، فقد انتشَر مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ من الماتريديَّةِ والأشاعرةِ في الخافقين، وأصبَحَت عقِيدةُ الأمَّة محفوظةً بفَضلِ هؤلاءِ العُلماءِ منَ الطَّائفةِ المَنصورةِ، ولم يَشذَّ عَن فهمِهم وعلومِهم إلَّا النَّزرُ اليَسيرُ ممَّن ليسَ لَه رسوخُ قدمٍ في العِلم.

ولقدْ كانَت كتبُ العقيدةِ الأشعريَّةِ والماتريديَّةِ تُدرَّس حتَّىٰ أوائلِ القرنِ العِشرين في الحرَمَين الشَّريفَين وفي المعاهدِ العِلميَّةِ في بلادِ الحجازِ، وما تزالُ تدرَّس في المراكزِ العِلميَّةِ الكُبرىٰ في بلادِ الإسلامِ كالأزهرِ الشَّريفِ وغيره والتي خرَّجَت أئمَّةً في كلِّ علومِ الشَّريعةِ.

وأقول: إن نَظرةً واحدةً علىٰ أسماءِ العُلماءِ والقادَةِ والملوكِ والسَّلاطينِ من أئمَّةِ أمَّةِ الإسلامِ ممَّن كانُوا علىٰ مذهبِ الأشعريِّ والماتريديِّ تَجعلُ المرءَ يُوقنُ ويُسلِّم أنَّ الأشاعِرةَ والماتريديَّةَ هم الطَّائفةُ المنصورةُ التي جاءَت فيهَا عدَّةُ أحادِيث عن رسولِ الله ﷺ منها: ما في الصَّحيحين من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا يَزالُ طَائفةٌ مِن أُمَّتي ظَاهرينَ حتَّىٰ يأتِيَهم أمرُ الله وهُم ظَاهرُونَ»[1]. فهُم جمهورُ أهل

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق يقاتلون، وهم أهل العلم (7311)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: لا

السُّنَّةِ والجَماعةِ وهُم السَّوادُ الأعظَمُ مِن الأُمَّةِ، والتي حضَّ رسولُ الله ﷺ علىٰ اتِّباعِه وعدمِ الشُّذوذِ عَنه، روَىٰ ابنُ عمرَ رضوانُ الله عليهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّ الله لا يَجْمَعُ هذِه الأُمَّةَ علىٰ ضَلالةٍ أبدًا، وإنَّ يدَ الله مَع الجَماعةِ، فاتَّبعُوا السَّوادَ الأَعظَمَ، فإنَّ مَن شَذَّ شَذَّ في النَّارِ»[1]. وَلابدَّ في هذا المقامِ من أخذِ نبذةٍ عن حياةِ إمامِ أهلِ الحقِّ الإمام أبي الحسَن الأشعريِّ توضِّحُ لنا إمامتَه ورسوخَه في العلم: يقولُ القاضي ابنُ فرحونَ المالكيُّ في تَرجمةِ الإمامِ الأَشعريِّ:

«عليُّ أبو الحسنِ المتكلِّمُ بنُ إسماعيلَ بنِ أبي بِشر بنِ إسحاقَ بنِ أبي سَالم بنِ إسماعيلَ بنِ عبدِالله بنِ مُوسَىٰ بنِ بلالَ بنِ أبي بُردة بن أبي مُوسَىٰ الأشعريِّ صاحبِ رسولِ الله ﷺ كانَ مالكيًّا، صنَّفَ لأهلِ السُّنَّةِ التَّصانيفَ، وأقامَ الحُججَ علىٰ إثباتِ السُّننِ وما نفَاه أهلُ البِدَعِ مِن صفاتِ الله تعَالىٰ، ورؤيتِه، وقِدَم كلامِه، وقدرتِه عزَّ وجلَّ، وأمورِ السَّمعِ الواردةِ: منَ الصِّراطِ، والميزانِ، والشَّفاعةِ، والحَوضِ، وفتنةِ القَبرِ الذِي نَفتْه المُعتزلةُ، وغَير ذلكَ مِن مذَاهبِ أهلِ السُّنَّةِ والحَديثِ، فأقامَ الحُجَجَ الواضحةَ عَليهَا مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ، والدَّلائلَ الواضِحَةِ العَقليَّةِ، ودَفعَ شُبَهَ المعتزلَةِ ومَن بعدَهم منَ الملاحدةِ والرَّافضةِ، وصنَّفَ في ذلكَ التَّصانيفَ المبسوطةَ التي نفَع الله بها الأمَّةَ، وناظَرَ المعتزلةَ وظهَر عليهم، وكان أبو الحَسنِ القابسيُّ يُثني عليهِ، ولَه رِسالةٌ في ذِكرِه لَمن سأَله عَن مَذهبِه فيهِ، أثنَىٰ عليهِ وأنصَفَ، وأثنَىٰ عليهِ أبو محمَّدٍ بن أبي زيد وغَيره من أئمَّةِ المسلمينَ.

ولأبي الحسَنِ من التَّآليفِ المَشهورَةِ كتبٌ كثيرةٌ جدًّا عليها معوَّلُ أهلِ السُّنَّةِ منها: كتابِ الموجزِ، وكِتاب التَّوحيدِ والقَدَر، وكتابِ الأصولِ الكبيرِ، وكتاب خلقِ الأفعالِ الكبيرِ، وكتاب الصِّفاتِ، وكتاب الاستِطاعةِ، وكتابِ الرُّؤيةِ، وكتاب الأسماءِ والأحكَامِ =

تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحقِّ لا يضرهم مَن خالفهم (1921).

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في وجوب لزوم الجماعة (2167)، والحاكم في مستدركه (1/ 115).

والخَاصِّ والعَامِّ، وكِتابِ إيضَاحِ البُرهانِ، وكتَاب الحَثِّ علىٰ البحثِ، والنَّقض علىٰ البَلخيِّ، والنَّقضِ علىٰ الجُبَّائيِّ، والنَّقض علىٰ ابنِ الرَّاونديِّ، والنَّقضِ علىٰ الخَالديِّ، وكتَابِ الدَّامِغ، وأدبِ الجَدلِ، وجوابَات الطَّبريِّينَ، وجواباتِ العمانيِّينَ، وجواباتِ الجُرجانيِّين، والجواباتِ الخراسانيَّةِ، وجواباتِ الرَّامَهرمُزيِّين، ومَقالاتِ الإسلاميِّينَ، والمَقالاتِ الكبيرةِ، ونَقضِ كتابِ التَّاجِ، وكتابِ النُّبوَّاتِ، وكتابِ اللُّمعِ الصَّغيرِ، وكتَابِ الشَّرحِ والتَّفصيلِ، وكتَابِ الإبانةِ في أصولِ الدِّيانةِ... ومَن وقفَ علىٰ تآليفِه رأىٰ أنَّ الله تعَالىٰ أيَّدَه بتَوفيقِه، وذُكِرَ أنَّه كانَ في ابتدَاءِ أمرِه مُعتزليًّا ثمَّ رجَعَ إلىٰ هذَا المذهبِ الحَقِّ ومَذهبِ أهلِ السُّنَّةِ فكثُرَ التعجُّبُ منه، وسُئِلَ عن ذلكَ فأَخبرَ أنَّه رأىٰ النَّبيَّ ﷺ في رمضانَ وأمَرَه بالرُّجوعِ إلىٰ الحَقِّ ونَصْرِه، فكانَ ذلكَ والحَمدُ لله تعَالىٰ))[1].

مفهومُ التَّوحيدِ عندَ مدعي السَّلفيَّةِ

يَنطلقُ مَفهومُ هؤلاء القوم للتَّوحيدِ مِن خلال تَقسيمةٍ ثُلاثيَّةٍ يتَّبعون فيهَا تقسِيمَ ابنَ تيميةَ الذي لم يُسبَق إليهِ، وهذِه القِسمةُ لم تَأتِ هكذَا؛ بل ثَمَّةَ مقدِّماتٌ أدَّت إليهَا، وهذِه المقدِّماتُ هيَ:

وقوعُ الخطَأ في فَهمِ حقِيقةِ التَّوحيدِ التي دَعَت إليهِ الأنبياءُ والمرسَلون، وإيجادُ التَّفرقةِ بينَ معاني التَّوحيدِ وتَخصِيصُ بعضِ معَاني التَّوحيدِ لقِسمٍ خاصٍّ والبَعضُ لقِسمٍ ثانٍ وثالثٍ ثمَّ افترَاضُ أن يتولَّدَ في قلبِ المرءِ التَّوحيدُ والشِّركُ في آنٍ واحدٍ، هذِه المقدِّمات أدَّتْ إلىٰ حدُوثِ التَّفريقِ عندَهم بينَ ربُوبيَّةِ الله وبين أُلوهيَّتِه وبين أَسمائِه وصِفاتِه، وقالوا بجوَازِ انفِصالِ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ عن توحيدِ الأُلوهيَّةِ في القُلوبِ والسُّلوكِ؛ ليَعمَلوا علىٰ تأصيلِ مَذهبِهم وهوَ جوازُ تلبُّسِ المسلِمينَ بأعمالِ الشِّركِ

(1) الدِّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (2/95- 96) للشيخ برهان الدين ابن فرحون المالكي- تحقيق وتعليق: د.محمد الأحمدي أبو النور- دار التراث- القاهرة.

والكُفرِ، وذلكَ مِن خِلالِ تَوصيفِ الأفعَالِ والأقوالِ الجائزةِ أو المختَلفِ عليهَا بأنَّها مِن بابِ الشِّركِ الأكبرِ.

ولكن بهذَا التَّصورِ قد يقَعونَ في إشكاليَّةٍ وهي كيفَ يكونُ المسلِمُ الموحِّدُ مُشركًا باللهِ في نَفسِ الوَقتِ؟!

وذلكَ أنَّهم قَد زعَموا أنَّ المشركينَ كانُوا مؤمنِينَ بربوبيَّةِ اللهِ إيمانًا تامًّا، وأنَّهم يَعتقِدونَ اعتِقادًا جازمًا بأنَّ اللهَ تَعالىٰ متَفردٌ بالتَّدبيرِ والنَّفعِ والضُّرِّ، إلَّا أنَّ شِركَهم قَد جاءَ فقَط مِن اتِّخاذِهم الوسائلَ من المَخلوقَاتِ والطَّلبِ منهَا، وزَعمُوا أنَّ الأنبياءَ لم يُخاصِموا أقوامَهم في الرُّبوبيَّةِ، وأنَّ المشركينَ في الرُّبوبيَّةِ قليلونَ منَ البَشرِ لا يَكادونَ يُذكرون، وبناءً علىٰ هذا الكلامِ فهُم يَعتبرونَ أنَّ كتبَ التَّوحيدِ عندَ أهلِ السُّنَّةِ من عُلماءِ الأشَاعرةِ والماتريديَّةِ التي تَبحثُ في تَمييزِ ما يجبُ ومَا يَستحِيلُ ومَا يجوزُ علىٰ اللهِ تعالىٰ إنَّما هو بحثٌ في أمرٍ اعترَفَ المشركونَ بهِ ولم يُدخلْهم في دينِ الإسلامِ، وأنَّ الدَّعوةَ إلىٰ الإيمانِ بربوبيَّةِ اللهِ تعالىٰ وصفاته، وإفرادِه بالتَّدبيرِ والتَّصرُّفِ والنَّفعِ والضُّرِّ ليسَت دعوةً للتَّوحيدِ الذي جاءَت بهِ الرُّسُلُ؛ لأنَّ الرسل بذلكَ يدعون إلىٰ تَوحيدٍ كان مَوجودًا عندَ أهلِ الشِّركِ!

ثمَّ بعدَ ذلكَ حتَّىٰ تكتَملَ الصُّورةُ أدرجُوا مَظاهرَ المحبَّةِ والتَّوسُّلِ بالصَّالحِينَ ضِمنَ مفهومِ العبادةِ الاصطِلاحيِّ دونَ تفريقٍ بينَ مَن يَعتقِدُ اعتقَادًا جازِمًا أنَّ اللهَ هو النَّافعُ الضَّارُّ ومَا المَخلوقاتُ إلَّا نافِذةٌ مِن نوافذِ القَدَرِ وسببٌ من الأسبَابِ يَسوقُ اللهُ بهَا مَا يُقدِّرُه في مُلكِه إلىٰ مَن يَشاءُ مِن عبَادِه، فلم يُفرِّقوا بينَ أصحَابِ هذا الاعتِقادِ مِن عامَّةِ المُسلِمِينَ وبينَ من يَعتقدُ في الأشخاصِ والأشياءِ أنَّ لها القُدرةَ الذَّاتيَّةَ علىٰ النَّفعِ والضُّرِّ، وهذَا لم يُوجَد أبدًا عندَ المسلمِينَ، فجعَلوا مِن مَفهومِهم هذَا للعِبادةِ والتَّوحيدِ مَدخلًا كبيرًا لرَمي المُسلِمِينَ بالشِّركِ واستبَاحوا بذَلكَ الدِّماءَ والأموالَ، ولبَيانِ مذهبِهم في هذِه البدعةِ نقولُ: ذهبَ ابنُ تيميةَ إلىٰ تَقسيمِ التَّوحيدِ إلىٰ ثَلاثةِ أنواعٍ:

الأوَّل: تَوحيدُ الرُّبوبيَّةِ: وهو مَوجودٌ عند جميعِ المُشركينَ- في رأيِهِ- فضلًا عنِ المؤمنينَ، وهو بذلكَ يَفترِضُ أنَّ المؤمنَ والمشركَ يوحِّدون اللهَ تعالىٰ هذا التَّوحيدَ، ويُؤمِنُون بأنَّ اللهَ خلقَ السَّمواتِ والأرضَ، وأنَّه هو المتكفِّلُ بالإيجادِ والتَّدبيرِ والرِّزقِ والمُلكِ.

الثَّاني: توحيدُ الألوهيَّةِ: وهو التَّوحيدُ في العِبادةِ فيقولُ: «ليسَ المرَادُ بالإله هو القادر علىٰ الاختراعِ؛ كما ظنَّه مَن ظنَّه مِن أئمَّةِ المتكلِّمينَ، حيثُ ظنُّوا أنَّ الإلهيَّةَ هي القُدرةُ علىٰ الاختراعِ دونَ غيرِه، وأنَّ مَن أقرَّ بأنَّ اللهَ هو القَادرُ علىٰ الاختراعِ دونَ غَيرِه فقَد شهِدَ أن لا إلهَ إلَّا هو، فإنَّ المشركينَ كانوا يُقرِّونَ بهذا وهم مُشركونَ كما تقدَّم بيانُه؛ بلِ الإلهُ الحَقُّ هوَ الذي يَستحِقُّ بأن يُعبَدَ فهوَ إلَهٌ بمعنَىٰ مَألوهٌ؛ لا إله بمعنَىٰ آلِهٌ.

والتَّوحيدُ أن يُعبدَ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، والإشراكُ أن يُجعَل معَ اللهِ إلهٌ آخرُ، وإذا تبيَّنَ أنَّ غايةَ ما يُقرِّرُه هؤلاءِ النُّظَّارُ أهلُ الإثباتِ للقَدَرِ المنتَسبونَ إلىٰ السُّنَّةِ إنَّما هو توحيدُ الرُّبوبيَّةِ وأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ، ومَعَ هذَا فالمُشركونَ كانوا مُقرِّينَ بذلكَ مع أنَّهم مُشركونَ، وكذلكَ طوائفُ من أهلِ التَّصوُّفِ والمنتَسبينَ إلىٰ المعرفةِ والتَّحقيقِ والتَّوحيدِ غايةُ ما عندَهم منَ التَّوحيدِ هو شهودُ هذا التَّوحيدِ، وأن يَشهدَ أنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُه وخالقُه، لاسيَّما إذا غابَ العارِفُ بمَوجودِه عن وجودِه، وبمَشهودِه عن شُهودِه، وبمَعرُوفِه عَن مَعرفتِه، ودَخلَ في فناءِ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ بحَيثُ يفنَىٰ مَن لم يكُن، ويبقَىٰ مَن لم يزَل، فهذا عندَهم هو الغايةُ التي لا غايةَ وراءَها، ومَعلومٌ أنَّ هذا هو تحقيقُ ما أقرَّ به المشركونَ منَ التَّوحيدِ ولا يَصيرُ الرَّجلُ بمجرَّدِ هذا التَّوحيدِ مُسلمًا فَضلًا عَن أن يكونَ وليًّا للهِ أو مِن سادَاتِ الأولِيَاءِ، وطائفةٌ مِن أهلِ التَّصوفِ والمعرفةِ يُقرِّرونَ هذا التَّوحيدَ مع إثباتِ الصِّفاتِ فيَفنون في تَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ مع إثباتِ الخَالقِ للعالَم المبَاينِ لمَخلوقاتِه،

وآخرونَ يَضمُّونَ هذا إلىٰ نَفي الصِّفاتِ فيَدخلونَ في التَّعطيلِ مع هذا، وهذا شرٌّ مِن حالِ كثيرٍ منَ المُشركِينَ))[1].

الثَّالثُ: تَوحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ: وهو إثباتُ مَفهومٍ محدَّدٍ لأسماءِ الله وصفاتِه بناءً علىٰ مَا توصَّلَ إليهِ اجتهادُه في هذا البابِ مِن لزُومِ ظواهرِ الأسماءِ والصِّفاتِ وحقَائقِها اللَّفظيَّةِ وظَواهرِها المَعروفةِ، ممَّا يُوقعُ الإنسانَ في بابِ التَّشبيهِ والتَّجسيمِ، هذا هو تَقسيمُ التَّوحيدِ عند ابن تيميةَ، ومَن جاءَ بعدَه نسجَ علىٰ مِنوالِه وأخذَ بأقوالِه.

- يَقولُ الشيخ عبدُالعَزيزِ بنُ بازٍ في مَجموعِ فتاويهِ: ((فهذِه أنواعُ التَّوحيدِ لكَ أن تُعبِّر عنها بنَوعَينِ، ولكَ أن تُعبِّرَ عنهَا بثلاثةِ أنواعٍ، ولكَ أن تعبِّر عنهَا بنَوعٍ واحدٍ- كمَا تقدَّمَ فيما ذكرنَا آنفًا- ولا مَشاحةَ في الاصطِلاحِ والتَّعبيرِ، وإنَّما المقصُودُ أن نَعرِفَ ما هوَ التَّوحيدُ الذي بعَثَ الله بِهِ الرُّسلَ وأنزَلَ بِهِ الكتبَ، ووقَعت فيهِ الخصُومةُ بينَ الرُّسلِ وأممِهم، وهوَ توحيدُ العِبادةِ، أمَّا كونُه سبحانَه ربَّ الجَميعِ وخالقَ الخلقِ ورازِقَهم، وأنَّه كاملٌ في ذاتِه وأَسمائِه وصفاتِه وأفعَالِه، وأنَّه لا شبيهَ لَه، ولا نِدَّ لَه، وَلا مَثيلَ لَه، فهذَا لم يقَع فيهِ الخِلافُ بينَ الرُّسلِ والأممِ؛ بَل جميعُ المشركين مِن قرَيشٍ وغيرِهم مقرُّونَ بِهِ، ومَا وقَعَ مِن إنكارِ فرعونَ وادِّعائِه الرُّبوبيَّةَ فَمُكابرةٌ، يَعلمُ في نفسِه أنَّه مُبطلٌ))[2].

- ويَقولُ عبدُالعزيزِ الراجحيُّ في كتابِه الهدايةِ الرَّبانيَّةِ في شرحِ العقيدةِ الطَّحاويَّةِ:

((القِسمُ الثَّالثُ: توحيدُ الألوهيَّةِ والعِبادةِ: وهذَا التَّوحيدُ هو الذي لأَجلِه خلَقَ الله الخَليقةَ، وأرسَلَ الله الرُّسلَ وأنزَلَ الله الكتبَ، وقامَ سُوقُ الجِهادِ، وحقَّتِ الحاقَّةُ، ووقَعتِ الوَاقعةُ، ولأَجلِه انقَسَم النَّاسُ إلىٰ شقيٍّ وسعيدٍ، إلىٰ كفَّارٍ ومؤمنينَ، وهذا التَّوحيدُ هو الغَايةُ المَحبوبةُ لله، والغايةُ التي ترضِي الله عزَّ وجلَّ، وهذا التَّوحيدُ هو الذِي

(1) مجموع الفتاوىٰ (102/3) تأليف: أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق: عبدالرحمن بن محمد ابن قاسم- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية- السعودية- 1995م.

(2) مجموع فتاوىٰ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز (71/2).

وقَعَت فيهِ الخُصُومةُ بينَ الأنبياءِ وأقوامِهم في قدِيمِ الدَّهرِ وحدِيثِه، بخِلافِ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وتَوحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ، فهما تَوحيدَان فطريَّان قَد أقرَّ بهِما جميعُ الخَلقِ إلَّا بعض الطَّوائفِ التي شذَّت وانتَكسَت فِطرتُها وعميَت بصِيرتُها، وإلَّا فجميعُ الخَلائقِ يُقرُّونَ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ وتوحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ، والنِّزاعُ والخُصومةُ بينَ الأنبيَاءِ والرُّسلِ وبينَ أقوَامِهم في هذَا التَّوحيدِ، وهَو تَوحيدُ الألوهيَّةِ والعِبادةِ))[1].

هذَا هو نموذج من كلامهم عن تَقسيمِ التَّوحيدِ، نلحظ فيه ما يَلي:

1- لم يَسبِق إلىٰ هذا التَّقسيمِ بهذِه الصُّورةِ والمعَاني أحدٌ مِن المسلِمِينَ قبل ابن تيميةَ، وتبعه في ذلك بعض الذين يدعون النسبة للسلف الصالح، ويُعدُّ بِدعةً مِن هذِه النَّاحيةِ وخاصَّةً أنَّه في بابِ التَّوحيدِ والاعتِقادِ.

2- عند ابن تيميةَ ومدعي السلفية المشركونَ كانوا مُؤمنينَ بربوبيَّةِ الله تعالىٰ إيمانًا تامًّا، وأنَّهم يَعتقِدونَ اعتِقادًا جازِمًا بتفرُّدِ الله تعَالىٰ بالتَّدبيرِ والنَّفعِ والضُّرِّ، وإنَّما جاءَ شركهُم فقَط من ناحيةِ اتِّخاذِهم آلهةً بصورٍ مختلفةٍ لتكونَ واسطةً بينَهم وبينَ الله سبحانَه وتعَالىٰ، فهُم موحِّدونَ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ وإنَّما أشرَكوا في توحيدِ الألوهيَّة.

3- توحيد الرُّبوبيَّةِ يُمكنُ أن ينفصِلَ عن تَوحيدِ الألوهيَّةِ ويُسمَّىٰ توحيدًا أيضًا، وبناءً علىٰ هذَا سيجتمعُ التَّوحيدُ والشِّركُ في قلبِ العبدِ فيصبحُ موحِّدًا ومُشركًا في نفس الوقتِ.

4- بناءً علىٰ هذَا التَّقسيمِ هم يُلصِقونَ بالمسلِمينَ صفاتِ المشركينَ، ويَحكُمونَ عليهِم بأحكامِ المُشركينَ؛ وذلكَ مِن حيثُ إنَّهم يَفترضُونَ أنَّ مِن المُسلِمِين مَن يقومُ بمِثل ما كانَ يقومُ بهِ المشركونَ في طَلَبِ النَّفعِ وكشفِ الضُّرِّ مِن المَخلوقاتِ، وبالتَّالي فهُم موحِّدونَ

---

(1) الهداية الرَّبانيَّة في شرح العقيدة الطَّحاوية (1/31- 32) لعبدالعزيز بن عبدالله الراجحي- دار التوحيد- الرياض.

في الرُّبوبيَّةِ ويَقَعونَ في الشِّرْكِ في تَوحيدِ الألوهيَّةِ، فيدخُل أصحاب هذا المسلك مِن هذا البابِ إلىٰ تكفيرِ المسلِمِين مِن نواحي كثيرةٍ.

- والإنسانُ المسلمُ بفطرتِه وقلبِه وعقلِه يجدُ أنَّ مِن الصُّعوبةِ بمَكانٍ تقسيم التَّوحيدِ وجعلَه في خاناتٍ مُخصَّصَةٍ بها؛ بل إنَّ التَّوحيدَ هو المعرفةُ الكامِلةُ التي لا تَتجزَّأ والتي تَزدادُ في القلبِ تَراكميًّا فتولِّدُ نورَ التَّوحيدِ، فلا يستطيعُ المرءُ عَمَليًّا أنْ يُقسِّمَ هذِه المَعرفةَ الكليَّةَ باللهِ تعالىٰ إلىٰ أَقسامٍ يُسمَّىٰ كلٌّ منها توحِيدًا، أو يفصلَ معانيَ التَّوحيدِ في قلبِه وعقلِه بعضَها عن بَعضٍ؛ إذْ إنَّها مُتكاملةٌ يَمدُّ بعضُها بعضًا فتنتجُ أعمالَ القلوبِ من المحبَّةِ والانقِيادِ للهِ تعَالىٰ وتَظهرُ آثارُ ذلكَ علىٰ الجوارحِ في صُورةِ العباداتِ المختلفةِ ما لم تُوجَد معَارضاتٌ.

الأدلَّةُ علىٰ وقُوعِ الشِّركِ في الرُّبوبيَّةِ عند الكفَّارِ وعدمِ تحقُّقِ التَّوحيدِ عندهم

قد ظهَر فيما سبَقَ أنَّ أصحابَ تقسيمِ التَّوحيدِ يعتقدُونَ أنَّ الكفَّارَ والمشركينَ كانُوا يوحِّدونَ اللهَ في الرُّبوبيَّةِ من حيثُ اعتقادُ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالىٰ الخَالقُ المالكُ المدبِّرُ لأمرِ الخَلقِ، وأنَّه هُو النَّافعُ الضَّارُّ إلىٰ آخرِ ما تدلُّ عليهِ ربوبيَّتُه مِن أفعالٍ، ولكن هل هذا كانَ واقعًا بالفَعلِ مِن أهلِ الشِّركِ أم أنَّ الأمرَ مجرَّدُ ادِّعاءٍ؟

فنقولُ: لا شكَّ أنَّ أَهلَ الشِّركِ أقرُّوا للهِ سبحانَه وتعَالىٰ بَعضِ أفعالِه كما ورَدَ في بَعضِ آياتِ القُرآنِ الكريمِ، ولذلكَ كانَت رسالةُ الرُّسلِ آتية بتأصيل تَوحيدِ الألوهيَّةِ دونَ التَّعرُّضِ لتَوحيدِ الرُّبوبيَّة، ومع ذلك فإن المشركين لم يُفردُوه سبحانَه بهَا، ودَعوىٰ أنَّ المُشركِين قَد أفرَدوا اللهَ تعالىٰ بالأَفعالِ وأنَّهم أقرُّوا بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ دعوَىٰ باطلةٌ لسببَين:

الأوَّل: أنَّ النُّصوصَ الشَّرعيَّة الكثيرةَ قد دلَّت دَلالةً واضِحةً علىٰ وقُوعِ الشِّركِ مِنهم، وأنَّهم يَعتقدونَ في آلهتِهم أنَّهم شركاء للهِ تعَالىٰ في بعضِ الأفعَالِ.

الثاني: أنَّ النُّصوصَ الشَّرعيَّةَ الكثيرةَ قَد دلَّت دَلالةً قاطِعةً علىٰ أنَّهم كفَروا ببعضِ أفعالِ الله سبحَانه وتعَالىٰ.

فكيفَ يكونُ مَن وقع منه هذا محققًا لتوحيدِ الرُّبوبية؟!

والأدلة علىٰ ما ذكرناه هي:

- أنَّ الله سبحانَه وتعَالىٰ قَد بيَّنَ في كتَابِه الكريمِ في السُّورِ المكيَّةِ معَانيَ ربوبيَّتِه المطلَقةِ الكامِلةِ وأوضَحَها أتمَّ إيضاحٍ، وألزَمَ أهلَ الشِّركِ بهَا وبما تدلُّ عليهِ، فلِمَ يوجِّه هذَا الخِطابَ إلىٰ أُناسٍ هم بهَا مؤمنونَ، ويجادِلهم فيهَا إذا كانُوا بالفِعل موحِّدينَ توحيدَ ربوبيَّةٍ؟

- قولُه سبحَانه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 17] هذِه الآيةُ تدلُّ علىٰ وقوعِ الشِّركِ في تَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ عندَ الكفَّارِ، فهُم يعتقِدونَ أنَّ آلهتَهم بيدِها مقَاليدُ الرِّزقِ، ولو كانَ الأمرُ كما يَصِف مدعو السلفية مِن إقرارِ المشركينَ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ وأنَّ الرِّزقَ مِنه سبحانَه فإنَّهم وبكلِّ بساطةٍ سيقُولونَ: نحنُ بالفعلِ كذلك، نعلَم أنَّ الله هو الرزَّاقُ وحدَه، وأنَّ آلهتَنا لا تملِكُه، فما بالُك يا محمَّدُ تخاطِبُنا بذلكَ ونحن مقرِّينَ بهِ؟! وحِينئذٍ فسوفَ تكونُ الدَّعوةُ لهم تَحصيلَ حاصلٍ، والله منزَّهٌ سبحانَه أن يجعلَ في كتابِه الكريمِ خِطابًا لا فائدةَ مِنه في الوَاقعِ، إذن فهؤلاءِ يُثبتونَ الشَّركَةَ لآلهتِهم مع الله في الرِّزقِ والتَّدبيرِ.

- ومِن الآياتِ الدَّالةِ علىٰ وقُوعِ الشِّركِ في تَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ عندَ الكفَّارِ قولُه تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: 81] فالآيةُ قطعيَّةُ الدَّلالةِ علىٰ أنَّ المُشركِين عبدُوا آلهتَهم واعتقدُوا فيهَا تحققَ العزَّةِ والنَّصرِ، وهذا مِن أفعالِ الرُّبوبيَّةِ التي ينفرِدُ بها ربُّ العبادِ سبحانه، فكيفَ يُقالُ إنَّ الكفَّارَ لم يُشركُوا في الرُّبوبيَّةِ؟!

- كذلكَ قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: 36] ففي هذهِ الآيةِ الكريمةِ تصريحٌ بأنَّ المشركينَ يخوِّفونَ رسولَ الله ﷺ بآلهتِهم لاعتقادِهم أنَّ لها قُدرةً على النَّفع والضُّرِّ، وقد ذكر الإمامُ البغويُّ في تفسيرِه لهذِه الآيةِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: 36] بأنَّهم خوَّفُوا النَّبيَّ ﷺ معاداةِ الأوثانِ وقالُوا: ((لتَكُفَّنَّ عن شَتمِ آلهتِنا أو لَيُصِيبَنَّكَ مِنهُم خبَلٌ أو جُنونٌ))[1].

- وَمِن الأدِلَّةِ أيضًا مَا ذكَرَه الله عن قومِ هودٍ حيثُ قالَ: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝53 إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: 53-54].

يُخبرُ الله سبحانَه وتعَالىٰ عن ما قَاله قومُ هودٍ لنبيِّهم عليهِ السَّلامُ عندَما نصَحَ لهم ودعَاهم إلىٰ التَّوحيدِ مِن أنَّهم لن يَتركوا عبادةَ آلهتِهم، وأنَّه قَد أصابَه منهَا سوءٌ وضررٌ، فهم يَعتقِدونَ في آلهتِهم القدرةَ علىٰ أن تُوقع الضُّرَّ؛ وذلك إشراكٌ لها في ربوبيَّةِ الله تعَالىٰ، فكيفَ يكونُ هؤلاءِ المشركونَ محقِّقين لتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ؟!

- ومِن الأدلَّةِ أيضًا إنكارُ المشركينَ للبَعثِ وهو مِن أَفعالِ الرَّبِّ سبحانَه وتعالىٰ، فهُم يكفرُون بالبَعثِ والنُّشورِ، قالَ سبحانَه: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7] فهُنا أهلُ الشِّركِ أنكَروا أن يَبعثَ الله العِبادَ مِن بعدِ المَوتِ، فأينَ توحِيدُهم لربوبيَّتِه سبحانه وهم يُنكِرونَ قدرتَه علىٰ ذلكَ؟ ليسَ هذَا فقَط؛ بَل هم يَصِفون البَعث بأنَّه أساطيرُ الأوَّلين قال تعالىٰ: ﴿بَلْ قَالُوا

(1) معالم التنزيل في تفسير القرآن (4/90) للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغويِّ- تحقيق: عبدالرزاق المهدي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1420هـ. وهذا الخبر أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (173/2) عن معمر في قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: 36] قال: قال لي رجلٌ: ((إنَّهم قالوا للنَّبي ﷺ: لتكفنَّ عن شَتم آلهتِنا أو لنأمرنَّها فلتخبلنَّكَ)).

مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 81-83].

- ويقول الله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 78-79].

وسَببُ نزُولِ هذِه الآياتِ ما أخرجه الحاكمُ في مستدركِه من حديث ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: جاء العاص بن وائل إلىٰ رسولِ الله ﷺ بعظمٍ حائلٍ فَفتَّه فقال: يا محمَّد أيبعثُ الله هذا بعد ما أرمَّ؟ قال: «نعمْ، يبعثُ الله هذا ثمَّ يميتُك، ثمَّ يُحْيِيك، ثمَّ يُدخلُكَ نارَ جهنَّمَ» قال: فنزلت الآيات[1].

فكيفَ لقَومٍ موحِّدِين توحيدَ الرُّبوبيَّة ثم يأتِي الواحدُ منهُم بالعَظمِ الرَّميمِ ويفتِّته أمامَ رسولِ الله ﷺ ويقولُ لَه: يا محمَّد، هل يَستطيعُ ربُّك أن يَجمعَ هذِه؟ فهَل هذا يَعرفُ شيئًا عَن ربوبيَّةِ الله؟!

- ويُخبرنا الله تعَالىٰ عَن عقِيدةِ هؤلاءِ المشركينَ فَيقولُ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24] فأيُّ ربوبيَّةٍ يؤمنُ بهَا هؤلاءِ الكفَّارِ وهُم يَجحدونَ أنَّ الله هو المُحيِي المِميتُ، وأنَّ الدَّهرَ هوَ الذِي يَقضِي عليهِم بالمَوتِ؟!

- ويَقصُّ الله تعالىٰ علينا خبرَ صاحبِ الجنَّة فيقولُ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 42] فهذَا تصريحٌ منهُ بأنَّه أشرَك بالله، وذلكَ أنَّه أنكَر نِعَمَ الله عليهِ وفَضلَه ورزقَه لَه، وجحَدَ قدرةَ الله علىٰ البَعثِ فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: 36].

(1) أخرجه الحاكم في مستدركه (2/429) وقال: «صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

- يذكرُ الله لنا خطَابَ المشركِينَ للأصنَام يومَ القيامةِ حيثُ يقولونَ لهم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿97﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 97-98] في هذِه الآيةِ نجدُ الندَمَ بادٍ علىٰ المشركينَ حيثُ اتَّخذوا هذِه الآلهةَ أربابًا مِن دونِ الله، إذن فكيفَ كانُوا موحِّدينَ لله تعَالىٰ توحِيدَ ربُوبيَّةٍ؟!

- وَمِن الأدلَّةِ أيضًا: أنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ يُصرِّحونَ بالشِّركِ الصَّريحِ في إثباتِ نَصيبٍ لمعبُودَاتِهم البَاطلةِ، فكيفَ يكونونَ محقِّقينَ لتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ وهم القائلون كما نقَل القرآنُ الكريمُ عنهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136].

- وينهانَا الله عن أن نسُبَّ آلهةَ المشركينَ حتَّىٰ لا يَسبُّوا الله عدوًا بغَيرِ عِلمٍ قالَ تعَالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 108] والسؤالُ هنا هل مَن يَسبُّ الله يصِحُّ لَه توحِيدٌ أو يَجوزُ أن نَقولَ أنَّه كانَ موحِّدًا تَوحِيدَ ربوبيَّةٍ؟!

- والسؤالُ أيضًا كيف يكونُ موحِّدًا لله في رُبوبيَّتِه مَن ينسبُ إليهِ البناتِ؟ ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: 40] ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ﴿21﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: 21-22] ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [الصَّافات: 149] ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿151﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿152﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿153﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: 151 -154] فهَل هذا الذي نسَب إلىٰ الله أنَّه اتَّخذَ البناتِ منَ الملائكةِ يكونُ عندَه توحيدٌ؟!

- هل مَن عندَهم تَوحيدٌ لله في الرُّبوبيَّةِ يقولونَ مقالةَ أبي سفيانَ يومَ غزوةِ أحدٍ: ((اعلُ هُبَلُ)) فأجابَه النَّبيُّ ﷺ بقَولِه: ((اللهُ أعلَىٰ وأجلُّ))[1]. فهَل الموحِّد تَوحيدَ رُبوبيَّةٍ يُعلنُ علوَّ إلهِهِ الذي يَعبدُه علىٰ الله سبحانَه وتعالَىٰ؟!

- وفي الحديثِ الذي أخرَجه الحاكمُ في المستدركِ عن إياسَ بنِ معاويةَ بنِ قرَّة عَن أبيهِ قال: ((لَمَّا كانَ يومَ القادسيَّةِ بُعِثَ بالمُغيرةِ بنِ شُعبةَ إلىٰ صَاحبِ فارِس، فقالَ: ابعثوا معِي عشرةً فبَعَثوا، فشدَّ عليهِ ثيابَه، ثمَّ أخذَ حَجفةً، ثمَّ انطلَقَ حتَّىٰ أتَوه، فقالَ: أَلقُوا لي تُرْسًا، فجلسَ عليهِ. فقال العِلجُ: إنَّكم معاشرَ العرَبِ قَد عرَفتُم الذِي حمَلَكم علىٰ المَجيءِ إلينَا، أنتم قَومٌ لا تجِدونَ في بلادِكم منَ الطَّعامِ ما تَشبعونَ مِنه، فخذُوا نُعطِيكم منَ الطَّعامِ حاجتكم، فإنَّا قومٌ مجوسٌ، وإنَّا نكرَه قَتلَكُم، إنَّكم تنجِّسُون علينَا أرضَنا، فقال المغيرةُ: واللهِ ما ذاكَ جاءَ بِنا، ولكنَّا كنَّا قومًا نَعبدُ الحِجارةَ والأوثانَ، فإذا رأينَا حَجَرًا أحسَنَ مِن حَجَرٍ ألقَيناهُ وأخَذنا غيرَه، ولا نَعرِفُ ربًّا حتَّىٰ بعَثَ اللهُ إلينا رسولًا مِن أنفسِنا، فدعانَا إلىٰ الإسلامِ فاتَّبعنَاهُ...))[2].

هذَا الصَّحابيُّ الجليلُ المغيرةُ بن شُعبة رضي الله عنه يُخبرُ عَن حالِهم في الجاهليَّة فيَقولُ: ((وَلا نَعرِفُ ربًّا)) فكيفَ يكونُ مَن لا يَعرفُ ربًّا موحدًا توحيدَ ربوبيَّةٍ علىٰ زَعمِ هؤلاءِ؟!

وبعدَ سردِ هذِه الأدلَّةِ نقولُ: ربَّما نجدُ عند هؤلاءِ المشركِينَ نوعَ معرفةٍ بالخالقِ عَلىٰ الجُملةِ، أو عندَهم شيءٌ من الإقرارِ ببَعضِ صفاتِ الرُّبوبيَّةِ؛ لكِن لَا يُتصوَّرُ أن يُطلقَ علىٰ هذِه المعرفةِ أو ذاك الإقرارِ الجزئيِّ أنَّه تَوحيدٌ، فهذا أمرٌ محالٌ، فمعاني رُبوبيَّتِه سبحانَه ولوَازمُها ليسَت عندَهم بدَليلِ تعبُّدِهم وطلَبِهم مِن آلهتِهم واعتِقادِهم أنَّها تنفعُ

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة أحد (4043) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(2) أخرجه الطبراني في الكبير (20/369)، والحاكم في مستدركه (3/ 451) وقال: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)) ووافقه الذهبي.

وتَضرُّ بذَاتِها- كما ذكرنا- فهُم قد اعتقدُوا ربوبيَّتها بصورةٍ أو بأخرَىٰ، وبأنَّ لها تصرُّفًا في الوجودِ وشَركةً مع الله في ذلكَ، فهَل بقِيَ عندَ هؤلاءِ بعدَ كلِّ ما قلنَاه تَوحيدٌ لربوبيَّةٍ علىٰ حدِّ زعمِ ابنِ تيميةَ وأتباعِه؟ اللهمَّ لَا.

بُطلانُ التَّقسيمِ الثلاثي للتوحيد والأدلَّةُ علىٰ بِدعيَّتِه

سوفَ نقومُ بالتَّعرُّضِ لبيانِ بُطلانِ هذا التَّقسيمِ البدعيِّ للتَّوحيدِ مِن عدَّةِ زوايا:

أ - بُطلانُ تقسِيمِ التَّوحيدِ مِن حيثُ العقلُ:

إنَّ حدوثَ التَّقسيمِ للعلومِ والمعَارِفِ تتضحُ صحَّتُه وقَبولُه بمجيءِ الشَّرعِ بِهِ أو قَبولِ العقلِ لَه وسَوف ننظُرُ هنا هلِ القَولُ بتَقسيمِ التَّوحيدِ هذا التَّقسيمَ الثُّلاثيَّ هو أمرٌ صحِيحٌ منطِقيٌّ يقبلُه العقلُ، فيقالُ التَّقسيمُ نوعَان:

1- تَقسيمُ الكليِّ إلىٰ جُزئيَّاتِه.

2- تَقسيمُ الكلِّ إلىٰ أَجزائِه.

فالنَّوعُ الأوَّلُ: كلُّ واحدٍ منَ الجُزئيَّاتِ يَجوزُ أن يَحمِل اسمَ الكليِّ؛ لأنَّ الكُليَّ جِنسٌ لها، وهي أنواعٌ لَه، ومثالُ ذلكَ تقسِيمُ الكلمةِ إلىٰ اسمٍ وحرفٍ وفعلٍ، فيَجوزُ أن نقولَ: إنَّ الاسمَ كلمةٌ وأنَّ الحرفَ كلمةٌ وأنَّ الفِعلَ كلمةٌ أي؛ يَصلحُ أن يُطلَقَ علىٰ كلِّ واحدٍ منَ الثَّلاثةِ أنَّه كلمةٌ؛ أي مِن جِنسِ الكَلمةِ، فالكَلمةُ جنسٌ وهذِه الثَّلاثةُ أنواعٌ لَها.

وأمَّا النَّوعُ الثَّاني: فلا يجوزُ أن يُطلَقَ اسمُ الكلِّ علىٰ أيِّ جزءٍ من هذِه الأجزاءِ، فَمثلًا المنضَدةُ تتكوَّنُ مِن خَشبٍ ومَساميرَ وطلاءٍ هي المكونات في النِّهايةِ لكلمةِ المِنضدَةِ وهيئتِها وشكلِها فهي كلٌّ يتكوَّنُ مِن أجزاءٍ مجتمِعةٍ بصُورةٍ معيَّنةٍ يُطلَقُ عليهِ اسمُ المنضدةِ؛ ولكنَّ كلَّ جزءٍ من هذِه الأجزاءِ مُنفردًا لا يَصلُحُ أن يُطلَقَ عليه اسمُ المنضَدةِ أبدًا؛ لأنَّه لا يَحملُ الخصائصَ الكامِلةَ لهذا الكلِّ، وبالعَودةِ إلىٰ مسألةِ تقسيمِ التَّوحيدِ نسألُ: هل يَصِحُّ ويُقبَل هذا التَّقسيمُ الثلاثيُّ وِفقًا لهذَين النَّوعَين؟ وهَل يُمكِن أن ينطبِقَ

اسمُ التَّوحيد علىٰ كلِّ نوعٍ من أنواعِ هذا التَّقسيمِ؟ الجوابُ: لا يجوزُ أن يكونَ هذا التَّقسيمُ مِن النَّوعِ الأوَّلِ أو النَّوعِ الثَّاني إلَّا إذا انطبقَت عليه خصائصُ وشروطُ أيٍّ منهما، وأمَّا إذا لم تتحقَّق شروطُ أيٍّ منهُما فيهِ فإنَّه يكونُ تَقسيمًا فاسدًا، والتَّقسيمُ الفاسدُ تَنتجُ عنه أحكامٌ فاسدةٌ؛ لأنَّه لابُدَّ لصحَّةِ التَّقسيمِ أن يوجدَ التَّصوُّرُ الصَّحيحِ للشَّيءِ، وإذَا انتفَت شروطُ صحَّةِ التَّقسيمِ فإنَّ كلَّ مَا ينتُجُ عَنه مِن أحكامٍ والتزامَاتٍ يُصبحُ مشكوكًا في صحَّتِها خاصَّةً في مسألَةِ تَقسيمِ التَّوحيدِ الثُّلاثيِّ هذِه؛ لما يُرتِّبُه أصحَابُها والآخذُون بهَا عليها مِن أحكامٍ مِن حيثُ إدخَالُ النَّاسِ في دائرةِ الإسلامِ أو وقُوعُهم في الشِّركِ المُخرجِ مِن هذِه الدَّائرةِ.

- ففي النَّوعِ الأوَّلِ لو نظرنَا إلىٰ تَقسيمِ التَّوحيدِ وأردنا أن نضَعَه تحتَ هذا النَّوعِ مِن تَقسيمِ الجنسِ الكُليِّ إلىٰ جُزئيَّاتِه لوجدْنا هناكَ عائقًا وهو أنَّ من يُقسِّمُ التَّوحيدَ إلىٰ توحيدِ ربوبيَّةٍ وتوحيدِ ألوهيَّةٍ لا يقولُ عن أحدِ التَّوحيدَين أنَّه التَّوحيدُ الكاملُ بحيثُ مَن يؤمنُ به يصيرُ موحِّدًا خالصًا؛ بل يقولُ: إنَّه حقَّقَ جُزءًا منَ التَّوحيدِ ولم يُحقِّقِ التَّوحيدَ الكُليَّ؛ وبذلكَ لا ينطبِقُ تقسِيمُ الكليِّ إلىٰ جُزئيَّاتِه علىٰ هذا التَّقسيمِ.

والسَّببُ هو أنَّ في هذا التَّقسيمِ تَستطيعُ أن تُطلقَ علىٰ أيٍّ من الجزئيَّاتِ ما تُطلِقه علىٰ الكليِّ؛ فالكلمة وهي كليٌّ تستطيعُ أن تُطلقَها علىٰ الفِعل فتَقولُ عنهُ إنَّه كلمةٌ كما ذكرنا، أمَّا هُنا فتوحيدُ الرُّبوبيَّةِ أو الألوهيَّةِ لا يُمكنُ أن تقولَ عن أحدِهما أنَّه تَوحيدٌ كالذي يدلُّ عليهِ لفظُ التَّوحيدِ بالمعنىٰ الكُليِّ.

وإن من المَعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ مَن حقَّقَ ما يُسمَّىٰ تَوحيدًا في الشَّرعِ فهوَ مؤمنٌ موحِّدٌ يدخلُ تحتَ المعنىٰ الكليِّ لجنسِ التَّوحيدِ عند أهلِ السُّنَّةِ، وعلىٰ هذَا لا يُمكِن أن يكونَ ما يُسمِّيه مدعي السلفية توحيدَ ربوبيَّةٍ هو في ذاتِه تَوحيدًا؛ إذنْ علىٰ مَذهبِ المخالفِ لا يكونُ هذا التَّقسيمُ مِن تَقسيمِ الكُليِّ إلىٰ جُزئيَّاتِه.

- وأمَّا في النَّوعِ الثَّاني وهو تقسيمُ الكلِّ إلىٰ أجزائِه فهل يُمكِن أن يكونَ هذا التَّقسيمُ داخلًا تحتَ تَقسيمِ الكلِّ إلىٰ أجزائِه، نجدُ أنَّ ذلكَ لا يتأتَّىٰ عندَ تطبيقِه علىٰ قولِ مَن يقولُ بالتَّقسيمِ الثُّلاثيِّ للتَّوحيدِ؛ لأنَّه ثَمَّة اشتراكٌ واتِّحادٌ بينَ هذِه الأقسامِ مِن حَيثُ المعاني، وشَرطُ وقوعِ الشَّيءِ تحتَ هذا التَّقسيمِ هو أن تَكونَ أجزَاؤهُ متميِّزةً بعضُها عن بَعضٍ؛ وذلكَ غيرُ متحقِّقٍ في قَضيَّةِ التَّوحيدِ مِن وجهةِ نَظَر مَن يُقسِّمُه.

والسَّببُ هو أنَّ ابنَ تيميةَ ومَن نحا نَحوه يقولُونَ: إنَّ الموحِّدَ توحيدَ ربوبيَّةٍ لا يلزَمُ مِن ذلكَ أن يكونَ موحِّدًا تَوحيدًا كامِلًا؛ بل قد يكونُ موحِّدًا في الرُّبوبيَّةِ ومُشركًا في الألُوهيَّةِ، ولكنَّ الموحِّدَ في الإلهيَّةِ يجبُ أن يكون موحِّدًا في الرُّبوبيَّةِ وفي الأسماءِ والصِّفاتِ؛ فعلىٰ كلامِهم هذا يلزمُ أنَّ يكونَ تَوحيدُ الرُّبوبيَّةِ جزءًا من توحيدِ الألوهيَّةِ وقِسمًا مِنه في نفسِ الوَقتِ، وعلىٰ هذا لا يَدخلُ هذا التَّقسيمُ تحتَ تَقسيمِ الكلِّ إلىٰ أجزَائِه.

فمِمَّا سبقَ يتبيَّنُ لنَا بُطلانُ هذا التَّقسيمِ للتَّوحيدِ مِن حَيثُ عدمُ إمكانيَّةِ وَضعِه في تَصوُّرٍ عقليٍّ صحيحٍ يتماشَىٰ مَع مَا وضَعه أَهلُ العِلمِ واللُّغةِ مِن تَعريفاتٍ ومعَانيَ عقليَّةٍ لتقسِيمِ الأَشياءِ، مع مُلاحظةِ أنَّ صحَّةَ وضعِ تَقسيمِ التَّوحيدِ تحتَ هذِه التَّعريفاتِ أو عدَمِ صحَّتِه ليسَت هيَ الأصلَ في الحُكمِ علىٰ المعاني المندَرجةِ تحتَ هذا التَّقسيمِ، إنَّما الكلامُ من حَيثُ صحَّةُ صورةِ وهيئةِ التَّقسيمِ، أمَّا المعَاني فلها كلامٌ آخرُ.

تَقسيمُ التَّوحيدِ مناقضٌ لمفهومِ كلمةِ تَوحيدٍ؛ فالتَّوحيدُ يدلُّ علىٰ مَعنًىٰ واحدٍ يتولَّدُ بدايةً في القُلوبِ بصُورٍ مختَلفةٍ إمَّا أن يُوجَد كلُّه أو لا يوجدَ شيءٌ مِنه، فلا يُتصوَّر أن يَجتمِع التَّوحيدُ والشِّركُ باللهِ في قَلبِ العَبدِ، فلَو قُلنا إنَّ هناكَ ثلاثَ توحيداتٍ: توحيد ربوبيَّة، وتوحيد ألوهيَّة، وتوحيد أسماءٍ وصِفاتٍ، فهنا التَّوحيدُ لم يُصبحْ توحيدًا؛ بمعنَىٰ أنَّ الكلمَةَ وحدَها لم تَعُد كافيةً في الدَّلالةِ علىٰ المعنَىٰ الأَصيلِ لهَا مِن مجرَّدِ إطلاقِها، وإنَّما يَجبُ أن تُتبعَ بتفريعَاتٍ وتَقسيماتٍ أخرَىٰ، أما الذي ورَدَ في القُرآنِ

الكريمِ وفي سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ أنَّه كانَ يَدعو النَّاسَ إلىٰ توحيدٍ واحدٍ غيرِ مقَسَّمٍ، وكذلكَ فَعَلَ جميعُ الأنبياءِ والمرسلينَ مِن قَبلُ.

ب - الخطاب القرآني المبين لبطلان إقرار المشركين ربوبية الله سبحانه وتعالىٰ:

مِن الأُسسِ التي يَنطلِقُ منهَا القائلونَ بهذَا التَّقسيمِ للتَّوحيدِ افتراضُ أنَّ المشركينَ كانوا مُقرِّينَ بربوبيَّةِ الله سبحانه وتعالىٰ إقرارًا كاملًا محقِّقِين بذلك التَّوحيدَ في هذا الجانبِ كما سَبَقَ وتبيَّنَ مِن أقوالِهِم، ولكنْ عندَ النَّظرِ إلىٰ كتابِ الله وسنَّةِ رسولِ الله ﷺ نجد أنَّ الخِطابَ الذي وجَّهَه الأنبياءُ والمرسلونَ فيه إرشادٌ ودَعوةٌ لمُشركينَ والكفَّارِ إلىٰ الإيمانِ بالله سبحانه وتعالىٰ عَن طريقِ تَوضيحِ رُبوبيَّتِهِ وفيه إنكارٌ عليهِم اتِّخاذهم أربابًا مِن دونِ الله، ممَّا يدلُّ علىٰ عدَمِ تحقيقِهم لهذَا التَّوحيدِ وإلَّا فَمَا فائدةُ أن ينشَغِلَ الأنبيَاءُ والمرسلونَ بدَعوتِهم إلىٰ شَيءٍ هو متَحقِّقٌ عندَهم، بَل والأكثرُ دلالةً مِن هذا الخِطاب القُرآني الذِي يوجِّهُ البَشرَ عامَّةً إلىٰ ربوبيَّةِ الله سبحَانه وتعَالىٰ، ويُنكرُ عليهِم اتِّخاذَهم الأربَابَ مِن دونِ الله، فكَيفَ يُنكرُ عليهِم جُحودَ شيءٍ هو مُتحصِّلٌ في نفُوسِهم وهم مُؤمنونَ بِهِ؟! وسوفَ نَقومُ هنا بسَردِ بعضِ الآياتِ التي تَدلُّ علىٰ هذا:

قال تعالىٰ علىٰ لسان يوسف عليه السلام: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 39-40].

فهذَا خِطابُ نبيِّ الله يُوسُف عليهِ السَّلامُ إلىٰ أَصحابِه في السِّجنِ عندَ عَرْضِ قضيَّةِ الإيمانِ والتَّوحيدِ فهو يسأَلُهم عَن سببِ اتِّخاذِهم الأربابَ من دونِ الله، فهَل يسألُ نبيٌّ عن شيءٍ لم يقَع منَ المشركين ويلومُهم عليهِ، فدلَّ ذلك علىٰ عدمِ تحقيقِ هؤلاءِ القومِ للتَّوحيدِ في ربوبيَّةِ الله ووقوعِهم في الشِّرك باتخاذِهم أربابًا من دونِ الله، وفي هذِه الآيةِ

دِلالةٌ أيضًا علىٰ بُطلانِ تقسيمِ التَّوحيدِ وأنَّه لا يوجدُ شيءٌ يُسمَّىٰ تَوحيدَ ربوبيَّةٍ وآخرَ يسمَّىٰ توحيدَ ألوهيَّةٍ؛ إذْ إنَّ نبيَّ الله يوسفَ وهو يَعرضُ التَّوحيدَ خاطبَهم في ذلكَ المقامِ بكلمةِ (رَب) ولم يخاطبْهم بكلمةِ (إله) فكلمةُ الرُّبوبيَّةِ تدلُّ علىٰ معاني التَّوحيدِ التي تَدلُّ عليهَا كلمةُ إله.

قوله تعالىٰ: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: 30].

يُرشِد الله النَّبيَّ الكريمَ إلىٰ إعلانِ خضُوعِه لربوبيَّةِ الله التي لم يَخضعْ لها الكافرونَ، فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ هؤلاءِ الكفَّارِ لم يكونوا لها خاضعِين أو بها مؤمنين، والآياتُ في هذا المعنىٰ كثِيرةٌ منها:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 73].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85].

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿25﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿26﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: 25-27].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 67].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: 104].

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴿63﴾ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزُّخرُف: 63-64].

﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿116﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 116-117].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿59﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿60﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: 59-61].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿55﴾ قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: 55-56].

ج- الكلامُ علىٰ أنَّ معانيَ الرُّبوبيَّةِ لا تَنفصِلُ عن معَاني تَوحيدِ الألوهيَّةِ:

مِن أسبابِ الخطأ في هذِه المسألةِ هو التَّفريقُ بينَ الرَّبِّ والإلهِ في المعنىٰ الشَّرعيِّ؛ وذلكَ لأنَّ كلاهما وصفٌ لا يَصِحُّ أن يُطلقَ إلا علىٰ الله سبحانَه وتعالَىٰ، فالله هو الرَّبُّ وهوَ الإلهُ، وإذا كانَ هناكَ فرقٌ في اللُّغةِ بينَ معنَىٰ كلمةِ الرَّبِّ ومعنَىٰ كلمةِ الإلهِ إلَّا أنَّهما في

الاستِعمالِ الشَّرعيِّ لا يُطلقَان بحقٍّ إلَّا علىٰ الله تعالىٰ، وذلك ما عليهِ الاعتمادُ في المسألةِ فليسَ هناكَ فرقٌ في النُّصوصِ الشَّرعيَّة بينَهما.

فلفظُ الرَّبِّ والإلهِ تُطلقُ شَرعًا علىٰ الإلهِ الحقِّ وهوَ الله سُبحانَه وتعَالىٰ؛ كما أنَّ لفظَ الرَّبِّ والإلهِ يُطلقُ علىٰ الأربابِ الباطلةِ، والفرقُ الجوهريُّ في ذلك أنَّ إطلاقَها علىٰ الله سبحانَه وتعالىٰ إطلاقٌ مُطابقٌ للواقعِ وحقيقة الأمر، وذلكَ لما يتفرَّدُ بهِ سبحانَه وتعالَىٰ مِن الكمالِ المُطلقِ وجلالِ الصِّفاتِ وصفاتِ الجَلال، أمَّا إطلاقُها علىٰ غيرِه فهو إطلاقٌ باطلٌ موافقٌ لزَعمِ المشرِكينَ في آلهتِهم الباطلةِ التي لا حولَ لها ولا قُوَّةَ، وأمَّا افتراضُ وجودِ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ عندَ المشركينَ وأنَّ شركَهم إنَّما كانَ في جانبِ الألوهيَّةِ فقَط هو افتراضٌ ظهَر عدمُ صحَّتِه مِن خلالِ معَاني الآياتِ التي ورَدَت فيما سبَقَ، والتي بيَّنَت وقُوعَ الشِّركِ من أهلِ الكُفرِ في جَميعِ هذِه المعَاني منَ الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ.

والمعنَىٰ الذي نُريدُ توضيحَه هنا هو تلازمُ دَلالةِ تَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ ومظاهرِه مع دَلالة تَوحيدِ الألوهيَّة ومظاهرِه، وذلك أنَّ هذِه المعاني مِن تَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ وتَوحيدِ الألوهيَّةِ ودَلالتِها قَد استُخدِمَت في كتابِ الله وفي سنَّةِ رسولِ الله بمعنىٰ واحدٍ، فعندما أرادَ الله منَ الخَلقِ تحقِيقَ التَّوحيدِ التَّامِّ منهم والتزامَ مقَامِ المَعرفةِ والعبوديَّةِ له سبحانه فإنَّما خاطبَهم بربوبيَّتِه الجامعةِ لحقائقِ ألوهيَّتِه التي تَستلزِمُ تعبُّدَهم لَه وصَرف العبادةِ إليهِ وحدَه سبحانَه وتعَالىٰ، فكلمةُ (رب) و(إله) قد استُخدِمت في كتابِ الله بنفسِ المعاني الدَّاعيةِ للتَّوحيدِ المطلقِ والدَّالةِ عليهِ، فيَقولُ ربُّنا سبحانَه وتعَالىٰ:

﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2] حينمَا يُذكر الحَمدُ وهو أعلىٰ أنواعِ الكَمالِ المُطلَقِ لله يُستخدَم معَه كلمةُ رَب التي تدلُّ علىٰ جَميعِ المعاني التي تَستلزمُ ألوهيَّته وحدَه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَت: 30] ذكَرَ سبحانه الإذعانَ بالرُّبوبيَّةِ الجامعةِ لمعَاني الألوهيَّةِ، ثمَّ ذكَرَ الاستقامةَ ورتَّبَ علىٰ ذلكَ البشارةَ بالجنَّةِ.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿3﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 3-4]. عرضَ الله سبحانَه وتعالَىٰ معانيَ ربوبيَّتِه وعظمتِه ثم أكدَها بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ ولم يذكر سبحانَه إلهكم لتلازمِ المعنَىٰ وعدمِ انفصَالِه.

﴿لَٰكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 38].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿21﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21-22].

ذكرَ سبحانَه الرُّبوبيَّةَ عندَما أمرَ بالعِبادةِ ولم يَذكرِ الألوهيَّةَ ولو كان هناك فرقٌ بين الاثنَين لوجَبَ ذِكْرُ اعبدُوا إلهكم ولم يكتفِ بذِكْرِ اعبدوا ربّكم.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: 55-56].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿54﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 54-55].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 170].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

إن أوَّلَ مَا خاطَبَ الله به الأرواحَ في آيةِ الميثاقِ أن قالَ: ألستُ بربِّكم، فاكتفىٰ سبحانه مِنهم بالتَّعرُّفِ عليهِ والإقرارِ بربوبيَّتِه التي تَستلزمُ الألوهيَّةَ.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿161﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 161-162].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَت: 30].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 13].

ففي هذه الآياتِ الكريمةِ وعدَ الله سبحانَه مَن يقولُ: (ربُّنا الله) بالجنَّةِ جزاءً، ولم يقُل سبحانه وتعالىٰ: (إلهنَا الله) فإذا كان الإقرارُ بالرُّبوبيَّةِ لا يتضمَّنُ الإقرارَ بالألوهيَّةِ علىٰ زَعمِ أصحابِ التَّقسيمِ الثُّلاثيِّ للتَّوحيدِ فَلِمَ قالَ ربُّ العالمينَ ربُّنا ولم يَقل إلهُنا؟!

- وقالَ سبحانَه وتعالىٰ في ذَمِّ الكافرين وبيانِ جزَائهِم: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: 60].

وقال سبحَانه: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: 68].

وقال في بَيانِ سبَبِ العذَابِ: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المُلك: 6].

في كلِّ هذِهِ الآياتِ يصفُهم الله بالكُفرِ بربوبيَّتِه سبحانَه.

- بل إنَّ القرآن الكريمَ ذكَر عن رسول الله أنَّه يدعو الصَّحابةَ للتَّوحيدِ وهم أعلىٰ الخلْقِ إيمانًا بعد الأنبياءِ والمرسلينَ فيقول: ربكم ولا يقولُ: إلهكم. ممَّا يدلُّ علىٰ ترادف معنىٰ الربوبيَّة والألوهيَّة في الاصطلاح الشرعيِّ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: 8].

- وقال سبحَانه: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ [الحج: 40]. فربُّ العالمينَ حينَ ذكَر سببَ إخراجِ الصَّحابةِ مِن قِبَل كفَّارِ قُريشٍ كانَ سببُه إعلانُهم الإيمانَ بربوبيَّةِ اللهِ سبحانَه وتعالىٰ الجامعةِ لمعَاني ألوهيَّتِه.

- وكذلك فإنَّ الميِّتَ حينَ يوضَع في قَبرِه ويأتِيه الملَكان لسؤالِه فيقولانِ لَه: مَن ربُّك؟ كما جاء بذلك الحديثُ الصَّحيحُ[1]، وذلكَ لاختِبارِ حالِه ومعرفةِ إيمانِه وتَوحيدِه؛ ولكنَّ السُّؤالَ المهمَّ هنا هو: لماذَا لم يقولَا لَه مَن إلهُكَ مثلًا؟ وأيضًا المؤمنُ عندما يُجيبُ عن سؤالِ الملَكين يَقول: ربِّي الله، فهذَا الإقرارُ بالرُّبوبيَّةِ يجمعُ التَّوحيدَ والإيمانَ، وإلَّا لكانَ منَ الواجبِ عليهِم أن يَسألوهُ: مَن إلهُكَ أيضًا لو لم تَتضمَّنِ الرُّبوبيَّةِ معاني الألوهيَّةِ؛ إذ إنَّه علىٰ فَهم مَن قسَّمَ التَّوحيدَ يمكِن أن يكونَ عندَه توحيدُ الرُّبوبيَّةِ ولا يَكونُ مِن أهلِ توحيدِ الألوهيَّةِ.

- وممَّا يدلُّ علىٰ استِحداثِ هذا التَّقسيمِ وبُطلانِه وعدمِ صحَّةِ ما يترتَّبُ عليهِ عندَ القائلينَ بهِ منَ الأحكامِ هوَ أنَّ رسولَ الله ﷺ ما كانَ يقولُ لأحدٍ دخلَ في دينِ الإسلامِ: إنَّ هناكَ توحيدين توحيد ربوبيَّةٍ وتوحيد ألوهيَّةٍ، وإنَّك حتَّىٰ يصِحَّ إسلامُك وتوحيدُك يَجبُ أن توحِّد توحيدَ ألوهيَّةٍ، فلا يُوجدُ مثلُ هذَا الكلامِ في كتبِ السُّنَّةِ أبدًا، وإنَّما مدلولُ الشَّهادةِ يشملُ معاني التَّوحيدِ كلَّها.

ثمَّ بعد ذلكَ في عصرِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ كيف كانتِ الدَّعوةُ للإسلامِ والتَّوحيدِ؟ هَل دعَا الصَّحابةُ ومَن تبعَهم النَّاسَ إلىٰ تَوحيدٍ مقسَّمٍ، هَل يمكِن أن يكُونوا قَد غفَلوا عن أهمِّ الضَّروريَّاتِ وهي بيانُ التَّوحيدِ وتقسِيمُه، فلماذا لا يَسعُ أصحابَ هذا التَّقسيمِ المبتَدعِ ما وَسِعَ خيرَ القُرونِ؟!

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (4753)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة إبراهيم عليه السلام (3120) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعًا. وقال الترمذي: ((حسن صحيح)).

والجوابُ: إنَّهم لا يَستطيعونَ في ظلِّ ذلكَ أن يُطبِّقوا ما يُريدُون من إطلَاق أحكامِ التَّكفيرِ ورَمي النَّاسِ بالشِّركِ.

- حقيقةُ التَّوحيدِ: هي المعاني التي تَتولَّد في قَلبِ العَبدِ من نورِ المعرفةِ واليَقينِ بربِّ العالمين سبحَانه والتي يتفاوَتُ العِبادُ في مِقدارِها وقوَّتِها، فقلوبُ الأنبياءِ والمرسلينَ هي أوسعُ القلوبِ احتِواءً لمعاني التَّوحيدِ التي تُكوِّنُ الصُّورةَ النِّهائيَّة عن مَعرفةِ الله وعظمتِه وجلالِه، فمَن آمنَ بربوبيَّةِ الله فهوَ مؤمنٌ بألوهيَّتِه وَمَن كانَ مؤمنًا بألوهيَّتِه فهوَ مؤمنٌ بالرُّبوبيَّةِ وبمَا تَحويهِ مِن جَليلِ الصِّفاتِ وعَظيمِ الأسمَاءِ، فَمن أقرَّ بالرُّبوبيَّةِ فقَد أقرَّ بالألوهيَّةِ، فالرَّبُّ الحقُّ هو الإلهُ الحقُّ الذي تَتوجَّه له القُلوبُ والجَوارحُ بالتَّقوىٰ والعبادةِ، وبيانُ ذلكَ أنَّ مَدلولَ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا الله ومعَانيهَا متَحصِّلٌ في: لا رَبَّ إلا الله، فالله هو الرَّبُّ الحقُّ علىٰ الحقِيقةِ ولذلك فهو الإلهُ الحَقُّ الذِي تَخضَعُ لجَلالِهِ العُقولُ والأنفسُ.

فالله واحدٌ في ذاتِه واحدٌ في صفاتِه واحدٌ في أفعالِه، والإيمانُ بالرُّبوبيَّةِ يُولِّد الإيمانَ بالألوهيَّةِ لَه سُبحانَه وتألُّه القَلبِ لَه، وانقِيادِ الجوارحِ في طَاعتِه فلَا تُوَجَّهُ عِبادةٌ إلَّا لَه؛ لأنَّه لا يَستحِقُّ أن يكونَ هناك معبود إلَّا هوَ؛ لأنَّه الرَّبُّ، فالله هو الرَّبُّ وهوَ الإلهُ، فقَولُنا: لا رَبَّ إلَّا الله تَشملُ معَاني لَا إلهَ إلَّا الله، والعَكسُ صحيحٌ، والرَّبُّ الحقُّ هوَ الإلهُ الحَقُّ والإلهُ الحَقُّ هوَ الرَّبُّ الحَقُّ، فكلمةُ ربيَ الله يَتحقَّقُ بهَا مِن معَاني التَّوحيدِ مَا يتحقَّقُ مِن قَولي: إلهيَ الله مِن حيثُ تلازمُ كلٍّ مِنهما لمعاني الأُخرَىٰ، فلا يمكِنُ للعَقلِ أن يتصوَّرَ انفِكاكَ معاني الرُّبوبيَّةِ عن مَعاني الألوهيَّةِ.

فَمن ثبَتَت لَه الرُّبوبيَّةُ فهو المستحِقُّ للعبادةِ؛ أي المُستحِقُّ أن يكونَ هو الإلهَ، ومَن انتَفَت عنهُ الرُّبوبيَّةُ فهوَ غيرُ مستحقٍّ للعِبادةِ، فثبُوتُ الرُّبوبيَّةِ واستِحقاقُ العِبادةِ متَلازِمَان في دلالةِ العقلِ ودَلالةِ الشَّرعِ، ومِن هُنا فمعَاني الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ متَلازمةٌ لا تَنفكُّ إحدَاها عَن الأخرىٰ، فمَن اعترَفَ بأنَّه لا ربَّ إلَّا الله كان مُعترفًا بأنَّه لا يَستحِقّ

العبادةَ غيرُه، ومَن أقرَّ بأنَّه لا يَستحِقُّ العِبادةَ غيرُ الله كانَ مُذعِنًا أنَّه لا ربَّ سِواهُ، وهو مَعنىٰ لا إلهَ إلَّا الله.

- وفي الحَديثِ الذي رواهُ مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيدٍ، مَنْ رَضِي بالله ربًّا، وبالإسلامِ دِينًا، وبمُحمَّدٍ نبيًّا وجبتْ لهُ الجنَّةُ»[1].

فهُنا رسولُنا الكريمُ يُرشدُ إلىٰ أمرٍ يُحقِّقُ رضَا الله وهو تَحقيقُ التَّوحيدِ، والرَّسولُ الكريمُ صلواتُ الله وسلامُه عليهِ الذي أُوتِيَ جوَامعَ الكَلِمِ يُرشدُه إلىٰ أن يَقولَ: رَضِيتُ بالله ربًّا وليس رَضيتُ بالله إلهًا؛ إذًا فمفهومُ الألوهيَّةِ ليس مُغايرًا لمفهومِ الرُّبوبيَّةِ.

- وهناكَ نقطةٌ يجِبُ الالتِفاتُ إليهَا وهيَ أنَّ الاختِلافَ في اللُّغةِ بينَ مَفهومِ كلمةِ ربٍّ وكلمةِ إلهٍ أو الاختلافَ بينَ مفهومِ الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ حاصلٌ لغويًّا؛ لكِن ليسَ هذا محلَّ الخلافِ إنَّما محلُّ الخِلافِ هو في تَلازمِهما.

فمدعي السَّلفيَّةِ يقولون بعدَمِ تلازُمِ المعاني وأنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ حاصلٌ عند الكفَّارِ وأنَّ الأنبياءَ إنَّما دَعوهم لتَوحيدِ الألوهيَّةِ فقط، وقد ثبَت عكسُ ذلكَ فِيما سبَقَ بيانُه مِن كتابِ الله، بينما توحيدُ الرُّبوبيَّةِ والأُلوهيَّةِ مُتلازِمان عندَ أَهلِ السُّنَّةِ الأشاعرةِ لا يَنفكُّ أحدُهما عنِ الآخرِ، فَمن كان موحِّدًا في أحدِهما فهوَ مُوحِّدٌ في الآخَرِ في تكاملٍ لا ينفصِلُ أبدًا، ولا يَستطيعُ الإنسانُ أن يُفرِّقَ بينَهما لا في عقلِه ولا في قلبِه.

فالخِلافُ ليسَ في كَونِ المفهومَين متَغايرَين في اللُّغةِ، إنَّما الخِلافُ في تلازمِهمَا عندَ الإنسانِ المكلَّفِ. والتَّلازمُ بينَهما يَظهرُ في معنَىٰ العِبادةِ وهي غَايةُ الذُّلِّ والخُضوعِ لَمن يعتقِدُه العابدُ رَبًّا، وهذِه العِبادةُ هيَ قِمَّةُ التَّألُّهِ لله سبحانه وتعَالىٰ واتِّخاذُه إلهًا لا شريك لَه في أُلوهيَّتِه، وقَصدُه بالعبادةِ، وإفرادُه بكمالِ المحبَّةِ والانقِيادِ، فتَحقيقُ وجودِ

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب بيان ما أعده الله تعالىٰ للمجاهد في الجنة من الدرجات (1884).

مَعاني الرُّبوبيَّةِ في القَلبِ مَع الإقرارِ والإذعانِ عندَ الإنسانِ لابُدَّ وأن يَنتُجَ مِنه مَعاني تَوحيدِ الألوهيَّةِ.

الرد علىٰ شُبهة ادِّعاءِ وجودِ تَقسيمٍ للتَّوحيدِ عند الأشاعرةِ

وهنَا شُبهةٌ يوردُها البَعضُ عَن مسألةِ التَّقسيمِ في التَّوحيدِ وهيَ: أنَّ الحديثَ عن تَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ وتَوحيدِ الألوهيَّةِ قَد ذُكِر في بعضِ مصنَّفاتِ الأشاعرةِ؛ كما هو موجودٌ عند ابنِ تيميةَ ومدَّعِي السَّلفيَّةِ، فلِمَ تُنكرونَ عليهِم ولا تُنكِرونَ علىٰ الأشاعرةِ؟

فنقُول: إنَّ علماءَ الأشَاعرةِ حينَ يَتحدَّثون عن توحيدِ الرُّبوبيَّةِ وتَوحيدِ الألوهيَّةِ فإنَّهم يتكلَّمونَ عن شَيئين متلازمَين لا انفِكاكَ لأحدِهمَا عنِ الآخرِ، فلا يُوجدُ شخصٌ عندَ الأشاعرة يُسمَّىٰ موحِّدًا في الرُّبوبيَّةِ ولكنَّه يُشرِكُ في الألوهيَّةِ؛ كما قال ابنُ تيميةَ ومدعو السَّلفيَّة.

فالكلامُ عنِ الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ عندَ الأشاعِرةِ يكون مِن حيثُ الصِّفاتُ التي تَتَّصِفُ بها الذَّاتُ الإلهيَّةُ ومَا يجِبُ لها بِناءً علىٰ ثُبوتِ هذِه الصِّفاتِ وليس تَقسيمًا لجِنسِ التَّوحيدِ، إنَّما هو من بابِ البيانِ بالمُصطَلحاتِ العِلميَّةِ للتَّوحيدِ كمفهومٍ واحدٍ لا ينقسمُ.

وحتَّىٰ إذا قلنَا وسلَّمنَا للمُخالفِ بأنَّ هذا تَقسيمٌ فلنَنظر مَا هو غايةُ هذا التَّقسيمِ عندَ كلِّ فريقٍ، فغايةُ هذا التَّقسيمِ عندَ الأشاعرةِ هوَ بيانُ الفَرقِ المعنويِّ واللُّغويِّ بينَ مَدلولِ الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ ولا يَبنونَ عليه انقِسامًا في التَّوحيدِ وتَعديدًا له.

علىٰ عكسِ مدَّعي السَّلفيَّةِ الذين يَقولونَ: هناكَ نوعانِ مِن التَّوحيدِ: تَوحيدُ ربوبيَّةٍ وتوحيدُ ألوهيَّةٍ، ويَبنونَ علىٰ كلامِهم أنّ التَّوحيدَين غيرُ متلازِمَين، فالذِي يوحِّدُ توحيدَ ربوبيَّةٍ لا يُشترطُ عندَهم أن يوحِّدَ توحيدَ ألوهيَّة! وهذِه هي المصيبةُ والدَّاهيةُ الكُبرَىٰ التي فتَحَت بابَ التَّكفيرِ و إدخالَ المسلِمينَ في دائرةِ الشِّركِ.

أمَّا عندَ أهلِ السُّنَّةِ من الأشاعرةِ فتَوحيدُ الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ مُتلازِمان لا يَنفكَّان أبدًا، ولا يُتصوَّر أن يقَعَ بينَهما اختلافٌ عندَ الشَّخصِ؛ وذلِك لأنَّ الذي يَعبُدُ غيرَ الله سبحانَه وتعَالَىٰ لا يَعبدُه إلَّا لصِفاتِ ربوبيَّةٍ اعتقَدها فيه، ولا تُسمَّىٰ هذه العباداتُ عِبادةً إلَّا إذا صَاحبَها اعتقادٌ وتعظِيمٌ في نَفسِ العابدِ للمعبودِ، وهذا الاعتقادُ والتَّعظيمُ هو إثباتُ صِفاتٍ من صِفاتِ الرُّبوبيَّةِ لهذا المعبودِ فلا يُتصوَّرُ انفِكاكُ مَفهومِ الرُّبوبيَّةِ عَن الأُلوهيَّةِ في نَفسِ الشَّخصِ أَبدًا؛ وذلكَ لأنَّ مَن صرَفَ العِبادةَ لله وحدَه سبحَانه فعلَ ذلكَ بناءً علىٰ اعتِقادِه أنَّه الرَّبُّ الأَوحدُ الذي لَه صِفاتُ الكَمالِ التي تَجعلُه وحدَه هوَ المستَحِقَّ للعِبادةِ، والذي صرَفَ العِبادةَ لغيرِ الله لم يَفعلْ ذلكَ إلَّا لأنَّه يرىٰ أنَّ هذَا الغيرَ لَه مِن صفاتِ الرُّبوبيَّةِ مَا استحَقَّ بهَا أن يَعبُدَه، فمِن المستَحيلِ أن يكونَ عندَ الشَّخصِ توحيدٌ في الرُّبوبيَّةِ ولا يُوجدُ معَه تَوحيدٌ في الألوهيَّةِ.

وبغضِّ النَّظرِ عن أثرِ هذا التَّوحيدِ في السُّلوكِ الظَّاهريِّ في أفعالِ الإنسانِ وعباداتِه لكن ما ينبغِي الاهتِمامُ بِه هو أنَّ الذِي وقرَ في قَلبِ الإنسانِ أنَّه لا يَستحقُّ أن يُعبدَ إلَّا الله بأيِّ قَولٍ أو عَملٍ أو تَوجُّهٍ قلبيٍّ سواءٌ أحدَثَ مِنه هذا التَّعبُّد أو منَعتهُ الموانعُ، ولذلكَ فعندَ أهلِ السُّنَّةِ الأَشَاعرةِ لا يُوجدُ شيءٌ اسمُه إشراكٌ في الألوهيَّةِ مِن غَير أن يكونَ هناكَ إشراكٌ في الرُّبوبيَّةِ عندَ الشَّخصِ، وذلكَ بِناءً علىٰ عدمِ انقِسامِ التَّوحيدِ.

وهذا علىٰ عَكسِ طوائف أخرىٰ من الذين يقولونَ إنَّ التَّوحيد يَنقسِم إلىٰ أكثر من توحيدٍ؛ ليتمكَّنوا مِن تَطبيقِ مَنهجِهم ومَا ورثوهُ مِن رَمي النَّاسِ بالكُفرِ والشِّركِ بناءً علىٰ عدَمِ تحقيقِهم لتَوحيدِ الألوهيَّة، فمُشركو قُريشٍ كانوا يَعتقدونَ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وهُم في هذَا التَّوحيدِ كالمؤمنينَ يعتقِدونَ في الله أنَّه هو الرَّبُّ والخالقُ والمعطِي المانعُ والضَّارُّ النَّافعُ، وأنَّ أصنامَهم لا تَقدِرُ علىٰ شيءٍ مِن ذلكَ، وأنَّها لا تَضرُّ ولا تَنفعُ ولا تُنازعُ الله في رُبوبيَّتِه، وهوَ ما ثبتَ عكسُه ممَّا مرَّ سَابقًا من الأدلَّةِ.

ولَئن سَألتَ هؤلاء لماذَا كان مُشركو قُريشٍ يَقومونَ بعبادةِ الأَصنامِ مع عدَمِ اعتقَادِهم فيهَا علىٰ حدِّ زَعمِكم؟ سيَقولون: إنَّ عبادتَهم لهَا لتكونَ وسيلةً لهم إلىٰ الله. والمصيبة أنهم يُسقطُونَ إجابتهم هذه علىٰ المسلمينَ ممَّن يحبُّونَ أهلَ البَيتِ والأولياءَ والصَّالحينَ ويتوسَّلونَ بهم وبمحبَّتِهم إلىٰ الله تعالَىٰ، فعِندَهم أنَّ كلَّ مَن تَحدُثُ مِنه منَاجاةٌ للأولياءِ والصَّالحين اعتِقادًا مِنه في قُربِهم منَ الله هو مُشرك غيرُ محقِّقٍ للتَّوحيدِ، وينسُونَ أنَّه ما مِن مُسلمٍ إلَّا ويَعتقِدُ أنَّ الضُّرَّ والنَّفعَ بيدِ الله سبحانَه وتعالىٰ، وأنَّ المتوسِّلينَ بالأولياءِ والصَّالحينَ لا يَعتقِدونَ بأنَّ الأولياءَ يَملِكون ضرًّا أو نَفعًا، وإنَّما هم مِن النَّوافذِ التي يَنفُذُ بها العَطاءُ الإلهيُّ علىٰ الخَلقِ، وأنَّ الله هو الفَاعلُ الحقِيقيُّ علىٰ عكسِ الكفَّارِ والمُشركينَ الذين يُثبتُونَ النَّفعَ والضُّرَّ لمعبودَاتِهم كما يقولُ أهلُ السُّنَّةِ، وليسَ كما يقرِّرُ هؤلاءِ ممَّا مرَّ بيانُه سَابقًا.

أثر وخطورة التَّقسيمِ الثلاثي للتوحيد علىٰ وَاقعِ الأمَّةِ

إنَّ مِن أهمِّ العواملِ التي يُمكنُ أن تُقسِّمَ أمَّةً منَ الأممِ أو مجتمعًا من المجتمعَاتِ هو اختِلافَ المرجعيَّةِ الفِكريةِ لهذَا المجتمَعِ وتلكَ الأمَّةِ؛ ولذلكَ نجدُ أنَّ الله عزَّ وجلَّ قَد جعَلَ المرجعيَّةَ الفِكريَّةَ لهذِه الأمَّةِ مرجعيَّةً واحِدةً لا اختِلاف فيها وهي الكتابُ والسُّنَّة، وحثَّ سبحانَه علىٰ وحدَةِ الأمَّةِ وعدمِ فُرقتِها قال تعالَىٰ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92] وبيَّن الرَّسولُ ﷺ خَطَر التَّفرُّقِ وحذَّر مِنه، ففي الحدِيث الذي رواه أحمدُ في مسنَدِه عن عبدِالله بن مَسعود قالَ: خطَّ لنَا رسولُ الله ﷺ خطًّا ثمَّ قالَ: «هذا سَبيلُ الله» ثمَّ خَطَّ خُطوطًا عَن يَمِينِه وعَن شمَاله، ثمَّ قالَ: «هذِه سُبُلٌ - قال يَزيدُ: متفرِّقةٌ - عَلَىٰ كُلِّ سَبيلٍ مِنها شَيطَانٌ يَدعُو إِلَيهِ» ثمَّ قرأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153][1].

(1) أخرجه الطيالسي في مسنده (241)، وأحمد في مسنده (1/ 435)، والدارمي في سننه (208)، والبزار في

ولو تَتبَّعنَا أثرَ هذا التَّقسيمِ وما جرَّه علىٰ الأمَّةِ من الفُرقةِ لوجدنا أنَّ مَن يَقولُ بهذَا التَّقسيمِ قَد أوجَدَ مَدخلًا لتقسيمِ المسلمينَ إلىٰ موحِّدِينَ ومُشركِين، أو علىٰ أقلِّ تَقديرٍ إلىٰ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ وأنَّ غيرَهم أهلُ الابتداعِ أصحابُ الفِرَق الضَّالَّةِ، في حِين أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ وعقِيدتَه تَجمعُ ولا تُفرِّقُ، وليسَ في هذا تجنِّيًا عليهِم، وإنَّما الأحداثُ المتتابعةُ ليلَ نهارَ في بلادِ المسلِمينَ وواقعُ أمَّتِنا يُخبرُنا بأنَّ هؤلاءِ القومَ ما وُجِدوا في مكانٍ إلَّا وكانُوا أهلَ فِتنةٍ وشقٍّ للصَّفِّ، ومِن أدواتِهم في ذلك الحدِيثُ عن العقيدةِ والتَّوحيدِ، فشتَّتوا عُقولَ النَّاسِ وشوَّشُوا عقائدَهم ببدَعِهم المحدَثةِ وجعلوا مِن العقائدِ البسيطةِ السَّهلةِ المستقرَّةِ في قلوبِ المسلمينَ أمرًا جامدًا يتمُّ حفظُه وتكرارُه دونَ أن يكونَ له أثرٌ في ربطِ القُلوبِ بالله عزَّ وجلَّ.

ولو نظَرنا لوَجدْنا أنَّ هذه الطَّائفةَ بِمُهاجمتِها لأهلِ السُّنَّة والجماعةِ من علماءِ الأشاعرةِ وأهلِ الفقهِ وأئمَّةِ المذاهبِ قد فصَلَت حاضرَ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ عن ماضِيها، وقَد نَتجَ مِن هذَا الانفصالِ المَعنويِّ أن ضَعُفَت الأمَّةُ فكريًّا وعقديًّا، وأصبَحت فرِيسةً سهلةً لأيِّ فكرٍ مُنحرفٍ ينشُرُ سمومَه ويشُقُّ صفَّ المسلمينَ، وقَد قام مدعو السَّلفية بدورٍ كبيرٍ في رمي علماءِ الأمَّةِ منَ الأشَاعرةِ والماتريديَّة بالضَّلالِ، وأعلنُوا أنَّ التَّوحيدَ هو ما في كلامِهم ورؤيتِهم التي ورِثُوها عنِ ابنِ تيميَّةَ، فأصبَحَت عقيدةُ قِطاعٍ كبيرٍ منَ الأمَّةِ مقطوعةَ الصِّلةِ بالسَّلفِ، وإنَّما غايةُ أحدِهم أن يقولَ في المسألةِ أو القَضيَّةِ: قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ في هذا الأمرِ كذَا وكذَا، فيكونُ هذا هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ الذي إذا لم تَقُل بهِ في كلِّ قضيَّةٍ- وخاصَّةً في العقائدِ- فأنتَ خارجٌ عن دائرةِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ.

مسنده (1718)، والنسائي في الكبرىٰ (11109)، وابن حبان في صحيحه (6)، والحاكم في مستدركه (2/ 318). قال الحاكم: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)) ووافقه الذهبيُّ.

ولم يُكلِّفْ هؤلاء أنفسَهم بالسُّؤالِ كيف تتصوَّرونَ حالَ العُلومِ الشَّرعيَّةِ مِن أُصولٍ وفقْهٍ ولُغةٍ عَربيَّةٍ بفرُوعِها وباقي العُلومِ الشَّرعيَّةِ والقرآنِ والحديثِ وأسانيدِه لَولا علماءُ الأشاعرةِ على مرِّ العُصورِ، فكانَ لموضوعِ التَّوحيدِ وتَقسيمِه البِدعيِّ الذِي جاءُوا بِهِ والكلامِ عن أسماءِ الله وصفاتِه أكبرُ الأثرِ في حصُولِ الانقِسامِ الفِكريِّ على الأقلِّ بين طوائفَ كثيرةٍ من أبناءِ الأمَّةِ، وأيضًا ما تبعَ ذلك مِن انتِشارِ هذا التَّيَّار في بلاد المسلمينَ والذي أصبحَ لَه أنصَارُه ومُؤيِّدُوه والمنافحونَ عنه والمموِّلونَ له، والذي استُخدِمَ أبشَعَ الاستِخدامِ في تَفرقةِ المسلمينَ الذينَ كفَلَ لهُم دينُهم الوحدةَ على كافَّةِ المستوياتِ؛ فحارَب أتباعُ هذا التَّيَّارِ أهلَ العِلمِ الحقيقيِّين الذين يَستحِقُّونَ لَقبَ العُلماءِ، وتصَدَّرُوا هم لقيادةِ الجَماهيرِ عِلميًّا وفكريًّا واجتِماعيًّا فأَوردُوا النَّاسَ المهالكَ على كافَّةِ المستوياتِ، وهؤلاءِ بصنِيعهم هذا فتحوا البابَ أمامَ العلمانيِّين فسَلكُوا نفسَ مَسلَكِهم، فبِمَا أنَّهم أهلُ اجتِهادٍ وقُدرةٍ على رَدِّ تراثِ الأمَّةِ وعلمِ الأئمَّةِ تحتَ زَعمِ الأخذِ بالدَّليلِ ومحَاربةِ التَّقليدِ والمذهبِيَّةِ، فلماذا لا يَقومُ بذلكَ المفكِّرونَ منَ العِلمانيِّين ويقومونَ بتَبديلِ وتَغييرِ الدِّينِ جُملةً وتَفصيلًا، وإلغاءِ مَا لا يُوافِقُ هوَاهُم مِن أحكَامِ الله وشَريعتِه تحتَ سِتارِ التَّنويرِ، وإذا كانَ الكلُّ رِجالًا وأهلَ اجتهادٍ فليَفعلْ كلُّ ذي هوًى ما يُرِيدُ، ويَضِيعُ دينُ الأمَّةِ بين جاهلٍ ومنافقٍ، ويُصابُ النَّاسُ بالحَيرةِ؛ بل يَصِلُ الأمرُ بهِم إلى فَقدِ الثِّقةِ في أَمرِ دِينِهم مِن الأصلِ.

فماذا فعل أصحاب هذا المسلك في الأمَّةِ غيرَ أنَّهم قطعوا الصِّلةَ بالمَاضي الإِسلاميِّ العَريقِ بكلِّ ما يَحويهِ مِن تراثٍ فكريٍّ وعقليٍّ لأئمَّةِ المسلمينَ تحتَ زَعمِ الأخذِ المباشرِ من الكتابِ والسُّنَّةِ، واتجهوا باندفاعٍ نحوَ التَّبديعِ والتَّفسيقِ والتَّكفيرِ لكلِّ مخالفٍ لما هُم عليهِ، وكتبُهم وفتَاويهم طافحةٌ بذلك، ممَّا أنتجَ تيَّارًا متشدِّدًا متَنطِّعًا عِندَ قِطاعٍ كبيرٍ منَ النَّاسِ لا يَقبلُ الاختِلافَ؛ بَل وقَد يَتَّجِه إلى تبَنِّي أساليبَ عنيفةٍ لفَرضِ رأيه ومذهبِه.

وأخيرًا نقُول: لَن تَصلُحَ هذِه الأُمَّةُ إلَّا بمَا صَلحَ بهِ أَوَّلُها، وهو العَودةُ الصَّادقةُ إلىٰ كتابِ الله وسنَّةِ رسولِهِ الكريمِ ﷺ، والسَّيرُ وراءَ أَهل العلمِ مِنَ العُلماءِ الرَّبانيِّين الذينَ لا تَخلُو منهم أمَّةُ الإسلامِ في زمانٍ أو مكانٍ، والتَّمسُّكُ بما كانَ عليهِ أئمَّةُ المسلمينَ عبرَ العُصورِ، وعَدمُ الانقيادِ والانخِدَاعِ في ظواهرَ صوتيَّةٍ فارغةٍ مِن العِلم والقُدرةِ علىٰ تحمُّل مسئوليَّةِ قيادةِ الأمَّةِ فكريًّا وعلميًّا.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆

الرسالة التاسعة عشرة
مرجعية المذاهب وحكم التقليد ومفهومه الصحيح

وتشمل المحاور التالية:

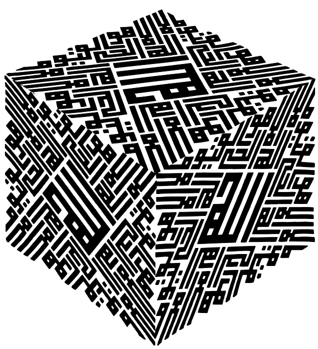
المحور الأوَّل: تمهيد عن مكانةِ العِلم وفضل أهلِه.

المحور الثَّاني: بيان حقيقة المذاهبِ الفقهيَّةِ ونشأتها.

المحور الثَّالث: نبذةٌ عن المذاهب الإسلاميَّةِ المشهورةِ والمعتمدةِ.

المحور الرَّابع: تساؤلات حولَ المذاهبِ.

المحور الخامس: بيان حكم تَقليد المذاهبِ الفقهية. ◆





« وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ »

آية **39** من سورة الروم

مرجعية المذاهب وحكم التقليد ومفهومه الصحيح

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذِه ورقاتٌ يسيرةٌ تَشتملُ على كلمةٍ عن المذاهبِ الفقهيَّةِ الإسلاميَّةِ والتَّقليدِ في حياةِ المُسلمِ، نَتناولُ فيها معرفةَ المذاهبِ الفقهيَّةِ، وكيف نشأت وأهميتها؟ وهل هي شيءٌ آخر مُوازٍ للكتاب والسنَّة؟ وهل يَجوزُ لمُسلمٍ أن يأخذَ الأحكامَ الشرعيَّةَ مباشرةً من الكتاب والسُّنَّة أو لابدَّ له من متابعة إمامٍ من أئمَّة الشَّريعة؟

وتأتي أهميَّةُ الكلام عن هذا الموضوع نظرًا لخطورة الآثارِ المترتبةِ عليه؛ وذلك لأنَّ المذاهبَ الفقهيَّةَ واتِّباعَ وتقليدَ أئمَّة المذاهبِ على مدارِ التَّاريخِ الإسلاميِّ كان هو صِمامَ الأمان لأمَّة الإسلامِ، والعاصمَ لها من الزَّيغ وتفرُّقها وضياعِ دِينها، فالمذاهبُ الإسلاميَّة المعتمدة وجهودُ علمائها على مرِّ السِّنينَ حفظت على المسلمين شريعتَهم وسُنَّةَ نبيِّهم وقواعدَ دينهم، ونظَّمتْ حياةَ المسلمينَ أفرادًا ومجتمعاتٍ.

ثمَّ مع مُرورِ القرونِ وإصابةِ الأمَّة الإسلاميَّة بالضَّعف؛ وذلك لعواملَ مُتعدِّدةٍ ومتشعبةٍ نشأتْ في تلك الظُّروفِ، وخصوصًا في القرن الثَّاني عشر الهجري- الدَّعوةُ إلى هَجْرِ المذاهب الإسلاميَّةِ المستقرَّةِ منذ اثنا عشر قرنًا وهي عُمُرُ أمَّةِ الإسلامِ، والدَّعوةُ إلى الأخذِ المباشرِ من الكتابِ والسُّنةِ والاستقلالِ بالفَهمِ، فكانتْ هذِه الخُطوةُ من أوَّل الخُطُواتِ الَّتي فتحتِ البابَ بعد ذلكَ أمام تيارَيْنِ مُتعارضيْنِ نَتجَ عنهم كثيرٌ مِنَ المصائبِ في بلادِ الإسلامِ، وهذانِ التَّياراِنِ هما:

1- التيَّارُ العلمانيُّ؛ وهو الَّذي يدعُو إلى هَجْرِ الدِّينِ جملةً وتفصيلًا وخاصَّةً المذاهبَ الفقهيَّة وأحكامَها.

2- التيَّارُ الذي يَنتسبُ إلىٰ الإسلامِ؛ وهُو الذي يُسمِّي نفسَه بالسَّلفيَّةِ وما تفرَّعَ عنها من جماعاتٍ وأشكالٍ وصورٍ لأفرادٍ وهيئاتٍ متنوعةٍ، وهو أيضًا يدعُو إلىٰ هجرِ المذاهبِ الفقهيَّةِ المعتمدةِ والأخذ المباشرِ من الكتاب والسُّنَّةِ تحت دعوىٰ اتباع الدليل.

فالتيارُ العلمانيُّ وما تفرَّعَ منه يريدونَ إبعادَ المُسلمينَ عن دِينهم جملةً وتفصيلًا، وهدمَ مكانة المذاهبِ الإسلاميَّة في نُفُوسِ المُسلمينَ، راجينَ أن يتوصَّلُوا بذلك إلىٰ قطع الصِّلةِ بين المسلمينَ وفَهمِ دِينهم، فيُصبحُ الإسلامُ عندهم اسمًا لا معانيَ حقيقية له، مُفرَّغٌ من مَضمُونِه، وقد نجحُوا إلىٰ حدٍّ ما في نَشْرِ أفكارِهم بين أعدادٍ كبيرةٍ لا يُستهانُ بها من المُسلمينَ.

والتيَّارُ الذي يُدعىٰ بالتَّيَّارِ الإسلامي أو السَّلفي يقومُ علىٰ نبذِ المذاهب الفقهيَّة تحتَ دَعوىٰ رفضِ التَّقليد، والدَّعوىٰ إلىٰ الأخذِ المباشِرِ من الكتابِ والسُّنَّة، وإباحةِ الاجتهاد في استنباطِ الأحكام مع عدم القدرة علىٰ ذلكَ، وانعدام آلاتِ وأدوات ذلك عندهم، فنَتَجَ عن هذا ظهورُ الأفكارِ الَّتي تتعارضُ جملةً وتفصيلًا مع حقيقةِ الإسلام، ونشأتِ الجماعاتُ علىٰ تنوُّع أشكالِها وأفكارِها، فما دامتِ المذاهبُ الفقهيَّةُ لا أهميَّةَ لها، وما دام كلُّ امرئٍ يستطيعُ أن يأخذَ مباشرةً من الكتابِ والسُّنَّةِ فالنَّتيجةُ الطبيعيَّةُ هي ظهورُ آلافِ الأقوالِ والأفعالِ والمناهجِ الَّتي تبتعدُ كلَّ البُعدِ عن الدِّينِ.

وكما أسْلفنا إنَّ صمام الأمانِ من انزلاقِ المُجتمعاتِ الإسلاميَّةِ هو الالتزامُ بحدود المذاهبِ الفقهيَّةِ المعتبَرة، وليستْ هذه دعوةً للجمود والانغلاقِ وإنَّما هي دعوةٌ للانضباطِ ووضع الأمورِ في أماكنِها الطبيعيَّةِ، فلا مانعَ من التَّجديدِ بل هُو مطلوبٌ ولكن بشروطٍ وضوابطَ، وسوفَ يكونُ الكلامُ في هذا البحثِ مكوَّنًا من المحاور التالية:

المحور الأوَّل: تمهيد عن مكانةِ العِلم وفضل أهلِه.

المحور الثَّاني: بيان حقيقة المذاهبِ الفقهيَّةِ ونشأتها.

المحور الثَّالث: نبذةٌ عن المذاهب الإسلاميَّةِ المشهورةِ والمعتمدةِ.

المحور الرَّابع: تساؤلات حولَ المذاهبِ.

المحور الخامس: بيان حكمِ تَقليد المذاهبِ الفقهية. ◆

تمهيد عن مكانة العِلم وفَضْلِ أهله

إنَّ الإسلامَ هو دِينُ العِلمِ والمعرفةِ، وقد مَدحَ الله سبحانَه وتعالىٰ العِلمَ والعُلماءَ وبَيَّنَ فضلَهُم، وكذلكَ حَضَّ علىٰ الاجتهادِ في فهم وفِقه شريعةِ الله، وحَثَّ علىٰ وُجوبِ طلبِ العِلمِ وسؤالِ العُلماء في غير آيةٍ من كتابِه فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ [فاطر: 28].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُون﴾ [الأنبياء: 7].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَاب﴾ [الزمر: 9].

وقال سبحانه وتَعالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون﴾ [التوبة: 122].

وقال سبحانه وتَعالىٰ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: 79].

وقال سبحانه وتَعالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَىٰ الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلا﴾ [النساء: 83].

وجاء في سُنَّة المصطفىٰ ﷺ ما يحضُّ علىٰ الفَهْمِ والاجتهادِ في معرفةِ أحكامِ الشَّريعةِ؛ فعَنِ الحارثِ بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة عن ناسٍ من أصحابِ معاذ من أهل حِمص عن معاذ: أنَّ رسُولَ الله ﷺ حين بعثه إلىٰ اليمن فقالَ: ((كَيْفَ تصنعُ إنْ عرضَ لك قضاءٌ؟)) قال: أقضِي بما في كتابِ الله. قال: ((فَإنْ لم يكنْ في كتابِ الله؟)) قال: فبسُنَّةِ رسول الله ﷺ. قال: ((فإنْ لم يكنْ في سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ؟)) قال: أجتهدُ

رأيي ولا آلُو. قال: فضربَ رسول الله ﷺ صدري، ثمَّ قال: ((الحمدُ لله الَّذي وفَّقَ رسُولَ رسُولِ الله لما يُرضِي رسولَ الله))[1].

---

(1) هذا الحديثُ اختُلفَ في وصلِه وإرساله؛ فأمَّا المرسل: فأخرجه أبو داود في كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء (3592)، والترمذيُّ في كتاب الأحكام، باب ما جاءَ في القاضي كيف يقضي؟ (1327)، وأحمد في مسنده (5/ 230)، والدَّارمي في سننه (170)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (2/ 758) من طريق شُعبة عن أبي عون عن الحارث بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شُعبة عن أناسٍ من أهل حِمص من أصحاب مُعاذ بن جبل به.

وأما الموصولُ: فأخرجَه أبو داود في الكتاب والباب السابقيْنِ (3593)، والترمذي في الكتاب والباب السابقيْنِ (1328)، وابن سعد في الطَّبقات الكبرىٰ (3/ 540)، وابن أبي شيبة في مصنَّفه (23442)، وأحمد في مسنده (5/ 230)، والطَّحاوي في شرح مشكل الآثار (3582)، والعقيلي في الضعفاء (1/ 215- ترجمة الحارث بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة)، والخطيبُ البغدادي في الفقيه والمتفقه (1/ 397) من طريق شُعبة قال: أخبرني أبو عون الثَّقفي قال: سمعتُ الحارثَ بن عمرو يحدِّث عن أصحاب معاذٍ من أهل حِمص عن معاذ ﷺ بنحوِه.

وأخرجه مَوصولًا ومرسلًا الطيالسيُّ في مسنده (560)، والبيهقيُّ في الكبرىٰ (114/10)، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (470/1) من طريق شعبة قال: أخبرني أبو عون الثقفي قال: سمعتُ الحارث بن عمرو يحدث عن أصحاب معاذ من أهل حِمص قال: وقال مرة عن معاذ... بنحوه.

وقال البخاريُّ في التَّاريخ الكبير (2/ 277): ((الحارث بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة الثقفي، عن أصحابِ معاذ عن معاذ، روىٰ عنه أبو عون، ولا يصحُّ ولا يُعرفُ إلا بهذا، مرسل)).

وقال التِّرمذيُّ: ((هذا حديثٌ لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه، وليسَ إسنادُه عندي بمتصل)).

وذكر الدارقطنيُّ في علـله (س1001): ((أن شعبةَ رواه عن أبي عون هكذا، وأرسله ابنُ مهدي وجماعات عنه، والمرسل أصحُّ)).

ولكن مالَ الخطيبُ البغداديُّ في الفقيه والمتفقه إلىٰ تصحيحِه فقال: ((فإنِ اعترض المخالفُ بأن قال: لا يصحُّ هذا الخبر؛ لأنه يُروىٰ عن أناسٍ من أهل حِمص لم يُسمَّوا فهم مجاهيل فالجوابُ: أنَّ قولَ الحارث بن عمرو: عن أناسٍ من أهل حِمص من أصحابِ معاذ. يدلُّ علىٰ شهرة الحديث وكثرةِ رُواته، وقد عُرف فضل معاذ وزهده، والظَّاهر من حال أصحابه الدِّين والثِّقة والزهد والصلاح، وقد قِيل: إنَّ عبادة بن نسي رَوَاه عن عبدالرحمن بن غنم عن معاذٍ، وهذا إسناد متَّصلٌ، ورجالُه معروفونَ بالثِّقة علىٰ أنَّ أهلَ العلم قد تقبَّلُوه واحتجُّوا به، فوقفنا بذلك علىٰ صحَّته عندهُم)).

وقال ابنُ الجوزيِّ: ((هذا حديثٌ لا يصحُّ، وإن كان الفقهاءُ كلُّهم يذكرونَه في كتبِهمْ ويعتمدونَ عليه، ولعَمْري إن كان معناه صَحِيحًا إنما ثبوتُه لا يُعرف؛ لأنَّ الحارثَ بن عمرو مجهولٌ، وأصحاب معاذ من أهل حِمص لا يُعرفون، وما هذا طريقه فلا وجهَ لثبوته)).

وقال ابنُ الملقن في البدر المنير (534/9): ((هذا الحديث كثيرًا ما يتكرَّر في كتبِ الفقهاء والأصول

- وقال ﷺ: ((مَن يردِ الله به خيرًا يُفقِّهه في الدِّينِ))[1].

- فهذه النُّصوصُ تدلُّ على أهميَّةِ العلم، وأنَّ هناك مَن هو مؤهلٌ وميسَّرٌ لنَيْلِ الفقهِ والفهمِ في دينِ الله، هم أهل العِلمِ والذِّكر وهم المختصُّونَ بالفَهمِ والاجتهادِ، وظهرتْ هذه الصُّورةُ وتبلورتْ في ظهورِ المذاهبِ الإسلاميَّةِ وأئمَّتِها، وهذا ما سنتعرض للمحة عنه في المحور التالي.

بيان حقيقة المذاهبِ الفقهيَّةِ ونشأتها

المذهبُ في اللغة: هو الطَّريقة[2]. وهو يعني: ذلك الاتِّجاه الَّذي سار عليْه كلُّ إمامٍ من أئمَّةِ الاجتهاد في استنباطِهم للأحكامِ.

والمذاهبُ الفقهيَّةُ بصُورتِها الحاليَّةِ هي نِتاجُ جهود أئمَّة المسلمينَ وعلمائِهمْ على مرِّ العصورِ، هذه الجهودُ هي عبارةٌ عن بذل الوُسعِ في استنباط الأحكامِ الشَّرعيَّة وفقًا لقواعدَ علميَّةٍ ومناهجَ وُضعتْ للتَّعامل مع نصوصِ الكتابِ والسُّنَّة.

ولا تظننَّ أخي الكريم أنَّ المذاهبَ الفقهيَّةَ هي شيءٌ آخرُ غيرُ الكتابِ والسُّنَّةِ، بل هي في جوهرِها وحَقِيقتِها مأخوذةٌ من الكتابِ والسُّنَّة، وهي شرحٌ للكتاب والسُّنة، فالمذهبُ الفقهيُّ هو النَّافذةُ الَّتي نطلُّ منها على الكتابِ والسُّنَّة وليسَ شيئًا مُستقِلًّا أو مُغايرًا للقرآنِ والسُّنَّةِ.

والمحدِّثين ويعتمدون عليه، وهو حديثٌ ضعيفٌ بإجماع أهل النَّقل)).

وهذا الحديث اختُلف فيه اختلافًا كثيرًا، فانظرْ تفصيله في البدرِ المنير (9/ 534 - 541)، والتلخيص الحبير (4/ 446 - 447).

(1) جزءٌ من حديث متَّفقٍ عليه؛ أخرجَه البخاريُّ في كتاب العلم، باب مَن يُرد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدِّين (71)، ومسلمٌ في كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألةِ (1037) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(2) المعجم الوسيط(ذ هـ ب) مجمع اللغة العربية بالقاهرة- الطبعة الرابعة -1425هـ-2004م.

فالمذاهبُ المعروفةُ الآن هي المذهب الحنفيُّ والمذهب المالكيُّ والمذهب الشَّافعيُّ والمذهب الحنبليُّ، وهي ليستْ من تأليف الأئمَّة ونَسجِ عقولِهم، وإنَّما هي عبارةٌ عن استخراجٍ للأحكام من القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة المطهَّرةِ، والاجتهاد في بيانِ هذه الأحكام التي دُوِّنتْ ووصلتْ إلينَا في صورة كتبِ الأئمَّة ومذاهبِهم، فالمذاهبُ عبارة عن فَهْمٍ منضبطٍ بقواعدَ وأصولٍ شرعية وعقلية للقرآن والسُّنة لبيان الأحكام وتوضيحِها.

وإنَّ ممَّا يُميِّزُ دِينَ الإسلامِ ويُظهِرُ عظمتَه وجودَ هذه المذاهبِ والاجتهاداتِ، فلو اقتصرَ الأمرُ في قضيَّةٍ أو مسألةٍ معيَّنة على رأيٍ واحدٍ قطعيٍّ لا كلامَ فيه لشقَّ ذلك على كثيرٍ من النَّاسِ، ولكن باخْتلافِ وتنوُّعِ الآراء في المذاهبِ المختلفةِ في المسائل المتعدِّدةِ وفقًا للفهمِ والاجتهادِ تظهر حقيقة ثابتةٌ يتميَّز بها الإسلامُ وهي التيسيرُ والاحتواءُ لكل المتطلباتِ والمتغيراتِ في المسائلِ والأزمنة والأشخاصِ، ففي زمانٍ معيَّنٍ تصلحُ أحكامٌ لا تصلحُ في زمانٍ آخرَ أو تناسبُ أشخاصًا ولا تناسب آخرينَ، كل هذا استوعبتْه المذاهبُ الفقهيَّةُ ولا تخرج هذه المذاهب أبدًا عن دائرة الكتاب والسُّنَّةِ، فمهما بحثتَ في مسألةٍ أو قضيَّة في أيِّ مذهبٍ من المذاهب الفقهيَّة المعروفةِ وتتبعتَها ورددتَها إلى أصولها فلن تخرجَ عن كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ.

نشأةُ المذاهب الفقهيَّة:

تعود نشأةُ المذاهب الفقهيَّة إلى عصر الصَّحابة رضوانُ الله عليهم، ففي ذلكَ العصر حصل اختلافٌ في الفُروع الفقهيَّة بين علماء الصَّحابةِ، هذا الاختلافُ نشأ عن الاختلافِ في فهم النُّصوصِ الشَّرعيَّة واستنباطِ الأحكام منها، فالمذاهبُ بدايتُها من عصر صحابةِ رسول الله وليستْ شيئًا مُنفصِلًا أو مقطوعَ الصِّلة بهم.

ومن فُقهاء وعلماء الصحابة الذين كان لهم مذهبٌ خاصٌّ أو اجتهادات خاصةً: سيدنا علي بن أبي طالب، وسيدنا عبدالله بن مسعود، وسيدنا عبدالله بن عباس، وسيدنا عبدالله بن عمر بن الخطاب رضوانُ الله عليهم أجمعين.

ثمَّ تتابعَ الأمرُ بعد ذلك في عصر التَّابعين وتتلمذ أعدادٌ منهم على صحابةِ رسول الله ﷺ، وطلبوا العِلم عندهم، فكانت هذه الطَّائفةُ هي نواةٌ وأصلٌ لطائفة الأئمَّة والعلماء وأربابِ المذاهب في أمَّة الإسلام التي أتتْ بعد ذلك.

وبالنَّظر إلى تاريخ المجتمعاتِ في ظلِّ الدَّولةِ الإسلاميَّة وفي رُبوع بلادِ المسلمين قديمًا وحديثًا نجدُ أنَّ المذاهبَ الإسلاميَّةَ كانت أداةً لوحدة المسلمينَ وتمسُّكهم بأمر دِينهم وشريعتِهم؛ فقد قيَّضَ الله مَن حَفِظَ على المسلمينَ أمرَ دينِهم من العلماءِ والفقهاءِ الذين لم يخلُ عصرٌ أو بلدٌ منهم، فكانتِ المذاهبُ الإسلاميَّةُ في المجتمعات هي العاصمَ من اختلالِ الأفكارِ وانفراطِ عِقد الشَّريعةِ والدِّين، وكانت مَظلَّةً يَستظلُّ بها المُسلمونَ في حياتِهم وتعامُلاتِهم ممَّا حَفِظَ على الأمَّة تماسكها على مرِّ السِّنين.

وللتَّأكُّدِ من صحَّة هذا القولِ فلننظرْ ماذا حدثَ حين تخلَّتْ بعضُ المجتمعاتِ المسلمةِ عن الأخذِ بالمذاهب الفقهيَّةِ كطُرُقٍ لفهمِ وتطبيقِ دين الإسلام، حَدَثَ أن ظهرت أفهامٌ قاصرة وتطبيقات خاطئة وأفعال مدمرة، ثم تنشغل بعد ذلك تلك المجتمعاتُ بالبحث عن حلولٍ لتلك المشكلاتِ الَّتي صنعوها بأيديهم.

أيضًا مع الابتعاد عن المذاهب المعتمدةِ والمعتبرة على مدار أربعة عشر قرنًا من الزَّمان أصبح لكل جماعةٍ أو مجموعة أو طائفةٍ مذهبٌ ومسلكٌ وطريقةٌ لفهمِ الدِّين يجتهدونَ ويستنبطونَ الأحكامَ، فكان أنْ فرَّقوا المُسلمينَ وصنَّفوهم إلى مُسمَّياتٍ مختلفةٍ، كلُّ ذلك لتفريطنا في الحصنِ والسِّياج الذي حَفِظَ على أمَّة الإسلام على مرِّ القرونِ دينَها ووحدتَها وتماسكها وخصوصيتَها، ألا وهو المذاهبُ الإسلامية. ◆

نُبذة عن المذاهبِ الإسلاميَّة المشهورة والمعتمدة

من الضَّروريِّ أن يكون لدىٰ المسلم معرفةٌ بالمذاهبِ الإسلاميَّة المعتمدة عندَ المسلمين والَّتي اتخذها المسلمونَ وسيلةً لفهم شريعة الإسلام وتطبيقًا لها في حياتهم وتعاملاتِهم؛ فقد ظهرَ في تاريخ الإسلام كثيرٌ من المذاهب الفقهيَّة والمدارس الَّتي وضعتْ قواعدَ لفهم كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، ولكن لم يُكتبْ لها الانتشار مثلما كُتب للمذاهبِ الأربعة المشهورة، إلَّا أنَّ تراثهم الفقهي لا يزال محفوظًا وموجودًا في بطون الكتبِ، شاهدًا بما كانت عليه أمَّةُ الإسلام من العظمةِ العلميَّة.

فَمِنَ المذاهبِ الفقهيَّة غير المشهورة أو المُندثرة: مذهب داود بن عليٍّ الظَّاهريِّ، ومذهب عبدالرَّحمن الأوزاعيِّ، ومذهب اللَّيث بن سعد، ومذهب عطاء بن أبي رباح، ومذهب سفيان الثَّوريِّ، ومذهب الحسن البصريِّ، ومذهب عامر الشَّعبي، ومذهب إسحاق بن راهُويه، ومذهب سفيان بن عُينية، ومذهب محمد بن جرير الطَّبريِّ وغيرهم.

ولنأخُذْ لمحةً موجزةً عن المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ المعتمدة، التي تلقَّتْها الأمَّةُ بالقَبُولِ، وكتبَ الله لها الانتشارَ في بلادِ الإسلام، وذلك لتكوينِ صلةٍ بيننا وبينَ سلفِنا الصَّالح الَّذين حَفِظَ الله بهم الدِّينَ وأوصلوه لنا سَليمًا كاملًا لا تَشُوبُه شائبةٌ.

أولًا: المذهب الحنفي:

نسبة إلىٰ الإمام الأعظم النُّعمان بن ثابت بن النُّعمان المعروف بأبي حنيفةَ، وُلِدَ رحمه الله في مدينة الكوفةِ سنة (80 هـ) وتوفي سنة (150هـ) قضىٰ معظم حياتِه مُتعلِّمًا ومعلِّمًا، والتقىٰ بكبار الفقهاءِ والحفَّاظ من التابعينَ، ودارَسَهم وتعلَّم منهم، ويعدُّ حمَّاد بنُ أبي سليمان شيخَه، وبعد وفاته ترأس الحلقة الفقهيَّة والتفَّ حولَه تلاميذُه ينهلون من علمِه.

تكوَّنتْ أصولُ المذهب الحنفيِّ علىٰ يديه، وحدد منهجه في مذهبه بقوله: ((آخذ بكتاب الله، فما لم أجد فبسُنة رَسُول الله، فإن لم أجد في كتاب الله ولا سُنة رَسُول الله، أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول مَن شئت منهم، وأدع مَن شئت منهم، ولا أخرج من

قولهم إلىٰ قول غيرهم، فَأَمَّا إِذَا انتهىٰ الأمر- أَوْ جاء إلىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَالشَّعْبِي، وابن سيرين، والحَسَن، وعطاء، وسعيد بن المسيب، وعدَّدَ رجالًا، فقوم اجتهدوا فأجتهدُ كما اجتهدوا))[1]. قال عنه الإمام الشافعيُّ رضي الله عنهما: ((النَّاسُ في الفِقهِ عيالٌ علي أبي حنيفةَ))[2].

وهُو رضي الله عنه إمامُ أهل الرَّأي وفقيهُ العراق، وسندُه في الفقه متَّصلٌ فقد أخذَ الفقهَ عن حمَّاد بن أبي سليمان الذي أخذه عن إبراهيم النَّخعيِّ عن عبدالله بن مسعود الصَّحابي الجليل رضي الله عنه، واعتمدَ في مذهبه علىٰ الكتابِ والسُّنة والإجماع والقياس والاستحسانِ والعُرف وقول الصَّحابيِّ وشرعِ مَن قبلنا، وله في علمِ العقيدةِ كتابُ الفقه الأكبر، توفِّي ببغداد، من أبرز تلاميذه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، ومحمد بن الحسن الشيباني، وزُفر بن الهذيل، والحسن بن زياد اللؤلؤيُّ.

أبرزُ المؤلَّفات ومعتمداتُ المذهب: المبسوط لشمس الدين السرخسي، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني، وشرح كنز الدقائق للزَّيلعي، وحاشية ابن عابدين.

ثانيًا: المذهب المالكي:

وهو مذهبُ الإمام أبي عبدالله مالك بن أنس بن مالك، وُلِدَ عام (93هـ) بالمدينة المنورةِ ولم يرحلْ منها لتوافُرِ الأئمَّةِ وكبارِ العلماء بها، فطلبَ العلم منذُ الصِّغرِ فحصَّل فيه منزلةً عظيمةً في علوم الشَّريعةِ حديثًا وفقهًا، وكانَ مَشهورًا بالورع عارفًا بقدر نفسِه حتَّىٰ قال: ((ما جلستُ حتَّىٰ شَهِدَ لي سبعونَ شيخًا من أهل العِلمِ أنِّي أهلٌ لذلك))[3].

---

(1) تاريخ بغداد (502/15) لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي- تحقيق الدكتور/ بشار عواد معروف- دار الغرب الإسلامي- بيروت- الطبعة الأولىٰ، 1422هـ - 2002م.

(2) مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه (ص30) لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي- عني بتحقيقه والتعليق عليه: محمد زاهد الكوثري، أبو الوفاء الأفغاني- الناشر: لجنة إحياء المعارف النعمانية، حيدر آباد الدكن بالهند.

(3) انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك (142/1) تأليف: أبي الفضل القاضي عياض اليحصبي- تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- المغرب- الطبعة الثانية- 1983م.

وأعظمُ آثارِه التي تشهدُ بالإمامةِ في الحديثِ والفقه كتابه ((الموطَّأ)) ويُعدُّ الإمام مالك أشهر الفقهاء الذين لازموا نافِعًا مولى عبدالله بن عمر بن الخطَّاب ﵄، وقيل: إنَّ عددَ شيوخ مالك قد بلغ ثلاثمائة شيخٍ، وعُرف بتقديسِه للحديث الشريفِ وتوقيرِه للرسولِ ﷺ، وقال فيه الإمامُ البخاريُّ: ((أصحُّ الأسانيد- أي في الحديث- مالك عن نافع عن ابن عمر))[1]. وقال الشَّافعيُّ: ((ما ظهرَ على الأرضِ كتابٌ بعد كتابِ الله أصحُّ من كتاب مالك))[2]. توفِّي رحمَه الله سنة (179هـ) ودُفن في البقيعِ بالمدينة المنورةِ.

من أبرزِ تلاميذِه ﵃ عبدُالرحمن بن القاسم المصريُّ، وعبدالله بن وهب بن مسلم، ومحمد بن إدريس الشافعي وغيرهم كثيرٌ.

من أبرز المؤلَّفات في المذهبِ: الموطَّأ للإمام مالك، والمدوَّنة للإمام سُحنون، والرِّسالة لابن أبي زيد القيرواني، ومختصر الإمام خليل بن إسحاق المصريِّ.

ثالثًا: المذهبُ الشَّافعيُّ:

وهُو مذهبُ الإمام محمد بن إدريس الشافعي المطَّلبيِّ (204-150هـ) وُلِدَ يتيمًا فتولَّتْ أمُّه تربيتَه وتعليمَه، وكان في ابتداءِ أمره يطلبُ اللغة والشِّعْر وأيَّامَ العرب والأدب، ثم اتَّجه نحو الفقه وعلوم الشريعة، فأخذ من مُسلم بن خالد الزنجيِّ، وكان مفتيَ مكَّةَ وقتئذٍ، ثمَّ رَحَلَ الشَّافعيُّ من مكَّةَ إلى المدينةِ قاصدًا الأخذَ عن الإمامِ مالك بن أنس إمام دار الهجرةِ فلازَمَه، ثمَّ رحل إلى اليمنِ والعراقِ، ونشر عِلم الحديثِ، وكان رحمَه الله إمامًا في اللُّغة كما كان إمامًا في الفِقه، وصَنَّفَ أوَّلَ كتابٍ في أصول الفِقهِ، ومكث مدَّةً في العراقِ، وتُعرفُ هذه الفترة بمذهبِ الشافعي القديمِ، ثمَّ رحل إلى مصرَ، وصنَّفَ كتبَه

(1) انظر: محاسن الاصطلاح بهامش مقدمة ابن الصلاح (ص 154) تأليف: عمر بن رسلان البلقيني- تحقيق: عائشة عبدالرحمن- دار المعارف-1989م.

(2) انظر: شرح الزُّرقاني على موطَّأ مالك (9/1) تأليف: محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري - المطبعة الخيرية.

الجديدةَ بها، وقصده النَّاسُ من سائر النَّواحي للأخذِ عنه وسماع كُتبِه، مِنْ تلاميذه الرَّبيع الجيزي، والبويطي، وأحمد بن حنبل، والمُزَني.

ومن مصنَّفاته: ابتكرَ كُتبًا لم يُسبَقْ إليها؛ منها كتاب الأمِّ في الفِقهِ، وكتاب الرِّسالة في أصولِ الفِقهِ، وكتاب القسامة، وكتاب قتال أهلِ البغي، وديوان شعر، توفِّي رحمه الله بمصرَ سنة (204هـ).

من أشهر مؤلَّفات المذهب: نهاية المطلبِ للجويني، والوسيط في المذهبِ للغزالي، والمجموع شرح المهذَّب وروضة الطَّالبين منهاج الطَّالبين للإمام النَّووي وغيرها.

رابعًا: المذهبُ الحنبلي:

وهُو مذهبُ الإمام الجليل أبي عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني، وُلِدَ في بغدادَ عام (164هـ) ورحلَ في طلبِ العِلمِ إلىٰ عواصِم الإسلام المشهورةِ كالكوفةِ والبصرة ومكَّةَ والمدينة والشَّام، وتتلمذَ علىٰ يد الإمامِ الشَّافعيِّ حتَّىٰ قالَ فيه الإمام الشافعيُّ: «خرجتُ من بغدادَ وما خلفت بها أفقه ولا أورعَ ولا أزهدَ ولا أعلمَ من أحمدَ»[1].

ومذهبُه من أكثر المذاهبِ السُّنِّيَّة محافظةً علىٰ النُّصوصِ وابتعادًا عن الرَّأي، واشتُهرَ أحمدُ أنَّه مُحدِّثٌ أكثر من كونه فقيهًا، وكان شديدَ الورع في الفَتوَىٰ، وامتُحن في فتنةِ خَلْقِ القرآن وثبتَ علىٰ رأيه وأُوذي في سبيل ذلك إيذاءً شديدًا، تُوفي رحمه الله تعالىٰ ودُفِنَ في بغداد سنة (241هـ) وكانت جِنازتُه كبيرةً جدًّا.

ومن مؤلَّفاته: المسنَد ويحتوي علىٰ ما يقرب من ثمانية وعشرين ألف حديثٍ، والناسخ والمنسوخ، والزهد، والسُّنن في الفقه.

ومن أشهر تلاميذِه: ابناه صالح، وعبدالله، وأبو بكر الأثرم، وأبو بكر المروذي،

---

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرىٰ (27/2) تأليف: تاج الدين علي بن عبدالكافي السبكي- تحقيق: د: محمود الطناحي، د: عبدالفتاح الحلو- دار هجر- الطبعة الثانية- 1988م.

وإبراهيم بن إسحاق الحربي وغيرهم.

أبرز مؤلفات المذهب: مختصر عمر بن حسين الخِرَقي، والمغني شرح مختصر الخِرَقي لعبدالله بن أحمد بن قُدامة المقدسي، والفروع لمحمد بن مُفلح المقدسي، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف لعلي بن سليمان المرداوي، وشرح منتهى الإرادات، وكشّاف القناع كلاهما لمنصور بن يونس البُهوتي وغيرها.

تساؤلات حول المذاهب

نَعرِضُ في هذا المحور بعضَ التساؤلاتِ حول المذاهب الفقهيَّة وحيثية وجودها في الدِّينِ الإسلاميِّ، هذه التساؤلاتُ التي تكشفُ لنا مدى أهمية اتباع المذاهب الفقهيَّة والسَّير حسب نظامِها الذي حدَّده علماء الشريعة، ولنذهبْ لنبدأ تلك التساؤلات:

1- هل وجودُ المذاهب الإسلامية أمرٌ مهمٌّ أو أنَّه مسألة ثانويَّة، ولماذا يقوم الدِّين الإسلامي على المذاهب؟

الجوابُ: هي مسألةٌ في غاية الأهميَّةِ، ويقومُ الدينُ الإسلاميُّ على المذاهبِ لأنَّ هذه المذاهبَ هي التي حفظتْ وضمَّتْ بينَ سطورِها أركانَ وقواعدَ وأصولَ وفروعَ دين الإسلام، فالمذاهبُ عبارةٌ عن توضيحٍ وشرحٍ وتفسيرٍ للدِّين، وليست المذاهب شيئًا غيرَ هذا.

2- ما فائدةُ المذاهبِ والالتزامِ بها؟

الجواب: فائدتُها أنْ تحفظَ عليْكَ دينك من أيِّ خللٍ قد يتطرَّق إليه أو أي خطأ علميٍّ أو عمليٍّ، فإنَّ بَيْنَ يدي المسلم مناهجَ صقلتْ على مرِّ أربعةَ عشرَ قرنًا من الزَّمانِ بواسطة أذكى وألمع العقولِ البشريَّة وأكثرها وَرَعًا وتقوًى.

فبمُجرَّدِ التزامِك بمذهبٍ مُعيَّنٍ سوفَ تجدُ ذهنَك وأفعالك مُنضبطيْنِ بهذِه القواعدِ التي التزمَ بها الأئمَّةُ في فَهمهم للدِّين، وسوف تُجنِّبُ نفسَك ما وقعَ فيه الآخرونَ من

أخطاءٍ نتيجةَ هَجرِهِم للمذاهبِ، وستكونُ معصومًا فكريًّا ونفسيًّا وعمليًّا مِن الانزلاقِ في أيِّ طريقٍ خاطئٍ، وتحفظُ دينَك من أن يدخلَه ما ليسَ منه.

3- ما مدىٰ الثِّقةِ بما في كُتُب المذاهبِ الإسلاميَّة؟

الجواب: نَثِقُ بأنَّ العِلمَ الموجودَ فيها محفوظٌ بالتَّواترِ المكتوبِ والمشافهةِ بين العلماءِ وطلَّابِ العلمِ، وهذا التَّواترُ علىٰ مدار اثنا عشَر قرنًا لم يَنقطعْ يومًا في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها بين أهل المذاهبِ، فمُعلِّمٌ يسلِّم مُتعلِّمًا، ومتعلِّمٌ يصيرُ معلِّمًا وهكذا... إلخ.

4- هل المذاهبُ الفقهيَّة جامدةٌ ومُنغلقةٌ؟

الجوابُ: المذاهبُ الفقهيَّةُ ليستْ جامدةً، بل إنَّها تتميَّز بالحيويَّة والتَّجدُّد، وفي بطون الكتب عشرات بل مئات الآلافِ من المسائل العلميَّة العميقةِ، والَّتي تُناسبُ أُمَّة الإسلامِ في أيِّ عصرٍ أو بلدٍ.

أيضًا المذاهب لا تَتَّصفُ بالشِّدَّةِ والتَّعنتِ؛ لأنَّها عبارةٌ عن صورةٍ من صُور رحمة الله بأمَّة الإسلام؛ بل هي تجسيدٌ للحنيفيَّة السَّمحة ويُسرِ دِين الإسلام.

5- هل المذاهبُ الفقهيَّةُ متعارضةٌ؟

الجواب: لا تعارُضَ بين المذاهبِ، بل هي متكاملةٌ متَّصلةٌ ببعضِها يمدُّ بعضُها بعضًا في وحدةٍ علميَّةٍ لا تضادَّ فيها.

6- هلِ المذاهبُ شيءٌ لم يعرفْه سلفُنا الصَّالحُ؟

الجوابُ: إنَّ سلفَنا الصَّالحَ هُم من أسَّسُوا قواعدَ المذاهب، ووضعوا لنا القواعدَ التي سارتْ عليها كتبُ المذاهبِ وعقولُ أئمَّةٍ وعلماءِ المذاهبِ بعدَ ذلك.

7- هل ثمَّة مشكلةٌ في حال أنَّ الشخصَ لم يلتزم مذهبًا معينًا، وما الخطرُ الذي سينعكسُ علىٰ تركِها وعدم الأخذِ بها؟

الجوابُ: بِالطَّبعِ هناك مشكلةٌ عند التَّخلِّي عن المذاهبِ وهي فَقْدُ الحصانةِ الفكريَّةِ والعلميَّة التي تُحصِّنُ بها أفكارَك ومعتقداتك وأفعالَك، وتكون عرضةً للوقوعِ في الخطأ

بسُهولةٍ، أو عرضةً لتقبُّل الآراءِ والأفكارِ غير السَّليمةِ، وليسَ المهمُّ أن تلتزمَ مذهبًا واحدًا، وإنَّما المهمُّ أن تكونَ المذاهبُ كلُّها أو أحدُها هي طريقك لفهمِ وتَطْبيقِ الدِّينِ.

والخطرُ الَّذي سينعكسُ علىٰ ترك المذاهب يتمثَّل أوَّلًا في انقطاع السُّلم الموصِّلِ للكتاب والسنَّة وانطفاء المصباح الَّذي يكشفُ عن الطُّرقِ الموصِّلة لفهم الكتاب والسُّنَّة ومرادِ الله من الخَلْق في أحكامِه وشريعتِه.

وثانيًا: فَهمُ كلِّ إنسانٍ من القرآنِ الكريمِ والسنَّةِ الشَّريفةِ ما يحلو له فهمُه، فيستنبطُ من الأحكامِ ثمَّ يطبِّقُ ذلك علىٰ نفسِه وعلىٰ النَّاس، وتلك هِي الفوضَىٰ الفِكريَّة، والَّتي أدَّت إلىٰ ظهور الأفكارِ المنحرفةِ والحركاتِ الهدَّامةِ باسم الإسلام، وذلك بعد أن استقلُّوا في فهم كتابِ الله وسُنَّة نبيِّه بعقولِهم ضاربِينَ عرضَ الحائط بالنُّورِ المبينِ الموجود في المذاهبِ.

8- هل الالتزامُ بالمذاهبِ كان أحدَ الأسباب المؤدِّيةِ إلىٰ تخلُّفِ المُسلمينَ؟

الجوابُ: تخلُّف المسلمين أتىٰ عندما تركُوا المذاهب الإسلاميَّة، وهانتْ عليهم تحت دعاوىٰ حقٍّ يُرادُ بها باطل؛ كدعوىٰ الدَّليل وعدم التَّقليدِ، وكأنَّ المذاهب الإسلامية التي طبَّقها المسلمونَ طيلة أربعة عشر قرنًا كانت تقومُ علىٰ اتِّباع الهوىٰ.

9- هل الأفضلُ تعدد المذاهبِ أم الاقتصارُ علىٰ مذهبٍ واحدٍ؟

الجوابُ: إنَّ هذا التَّعدد من أكبر النِّعم والمننِ الَّتي منَّ الله بها علىٰ أُمَّةِ الإسلام؛ لأنَّ الاختلافَ والتنوعَ يجعل الأمَّة الإسلاميَّة في سَعةٍ من أمرِها، فتصوَّر معي أخي الكريم مسألةً قُطع فيها برأيٍ واحدٍ فإنَّه يَعسرُ علىٰ النَّاس الالتزام بهذا الرَّأي في كلِّ الأحوالِ والأوقاتِ والأماكنِ.

أمَّا في حالةِ تعدُّدِ الآراءِ في المسألةِ الواحدةِ سيجعل عباداتِ النَّاس وتعاملاتهم تتَّسمُ بالمرونةِ والسُّهولةِ واليُسرِ حين يأخُذ كلُّ واحدٍ ما يناسبُه، وليس التنوعُ هذا بحكمِ الهوَىٰ،

وإنَّما حسب الأدلَّةِ وظنِّيَّتِها واحتمالها أكثر من وجهٍ فتختلفُ الأحكامُ الاجتهاديَّةُ وتتنوَّعُ تبعًا لتنوُّعِ الأدلَّةِ.

10- ما رأيُكم فيمَن يقول: لا اعتبارَ للمذاهب فهي لم تكنْ في عهد رسولِ الله ﷺ؟

الجواب: في العصر النَّبويِّ لا حاجةَ للمذاهب فصاحبُ الشَّريعة ﷺ موجودٌ، وهو الذي يوجِّه المسلمين، ويرجعُ الصَّحابة إليه ﷺ دون أن يستقلُّوا بأفهامِهم عمَّا يأمرُ به أو ينهىٰ عنه أو يرشد إليه، وهذا هُو ما نقوله من أنَّ علىٰ المسلم أن يكونَ علىٰ صلةٍ بورثة العِلم النَّبوي، وهذه الصِّلةُ تكونُ بالتزام المذاهب الفقهيَّة المختلفةِ.

11- هل أئمَّةُ وعلماءُ المذاهب معصومونَ حتَّىٰ نقلدَهم؟

الجواب: لا، إنَّهم ليسُوا معصومينَ علىٰ المستوىٰ الشخصي، ولكنَّ أفهامَهم وعقولَهم واجتهاداتِهم معصومةٌ من الانزلاقِ في تحريفٍ أو تغييرٍ أو الزِّيادة والنُّقصان في شريعة الإسلام؛ نظرًا لوُجود القواعدِ التي تضبطُ خُطواتِ اجتهادهم واستنباطِهم للأحكامِ، فأنت حينَ تُقلِّدُ إنِّما تُقلِّدُ المذهبَ المعصومَ بالضَّوابطِ والقواعدِ الموضوعةِ للتَّعاملِ مع الكتاب والسُّنَّةِ.

12- لماذا نرىٰ بعضَ مَن يتكلَّم في العِلمِ يهاجمُ المذاهبَ؟

الجواب: حتَّىٰ يجرِّدَك من حصانتِك الفكريَّة والفقهيَّة، فيسهُلَ عليه إدخالُ الأفكار والمعتقداتِ التي يريدُها، وإلَّا فهل أُمَّةُ الإسلام علىٰ مدىٰ أربعةَ عشرَ قرنًا من الزَّمان في ضلالٍ وجمودٍ ديني حتَّىٰ أتىٰ هؤلاء الأدعياءُ فبيَّنوا للأمَّة طريقَها- وهم جماعة لا يُحسنونَ تحقيقَ مسألةٍ واحدةٍ من العلوم؟! انظرْ إلىٰ حالهم في العِلمِ أخي الكريم ماذا يُحسنون؟ وأنتَ عندها ستعرف سبب هجومهم علىٰ المذاهب. ◆

بيان حكم تقليد المذاهب الفقهيَّة

إنَّ الحديثَ السَّابقَ عن المذاهبِ الإسلاميَّةِ وأهميَّتها ووجوبِ الأخذِ بها هُو أساسُ ومنطلق الكلام عن مبحثٍ وموضوع التَّقليدِ، وأهميَّةُ موضوع تقليدِ المذاهبِ يأتي من ظهورِ اتجاهٍ منتشرٍ بين بعضِ المُتصدِّرينَ للدَّعوة والوعظ والإرشاد، هذا الاتجاه يتمثَّل في التَّحذيرِ من تقليدِ المذاهبِ الفقهيَّة الأربعةِ بدَعوىٰ أنَّ الواجبَ أخذُ الأحكامِ من الكتاب والسُّنَّةِ فقط.

وكما سبق وتكلَّمنا عن أنَّ المذاهبَ الإسلاميَّةَ مصدرُها الأساسيُّ هو الكتابُ والسُّنَّة، وأنَّها الطَّريق الذي يُتوصَّل به إلىٰ فَهم مُرادِ الله تعالَىٰ ومراد رسول الله ﷺ من هذا القول أو ذاكَ فنتكلم أيضًا عن تقليدِ المذاهبِ الفقهيَّة في شتَّىٰ أمور الدين؛ فإنه إذا انقطعتْ صِلتُنا بالمذاهبِ الفقهيَّةِ أخي الكريم فلا شَكَّ أنَّ هذا يُعدُّ انقطاعًا عن المفهومِ الحقيقيِّ للإسلامِ.

إذن لابدَّ من استمرارِ الاتِّصالِ بهذه المذاهبِ، وذلك يكونُ عن طريقِ تقليدِ مذهبٍ من هذه المذاهب، وفي هذا مصلحةٌ للمسلم، ذلك أنَّنا لو قَبلنا بدعوىٰ المخالِف وتركنا التَّقليد وأخذنا مُباشرةً من الكِتابِ والسُّنَّةِ فسيكونُ عندنا مئات بل آلافُ المجتهدينَ والفقهاء الَّذين يستقونَ الأحكامَ مُباشرةً من الكتاب والسُّنَّةِ بحسبِ ما تُرشد إليه أفهامُهم السَّقيمة، وعندها سنجدُ شيئًا آخرَ غيرَ دين الإسلام الَّذي نعرفه والذي أتىٰ به رسولُ الله ﷺ.

ثمَّ نقولُ لهؤلاءِ: سلَّمنا لكم بهذه الدَّعوىٰ وتركْنَا تَقْليدَ أئمَّةِ المذاهبِ الفقهيَّةِ، فماذا نفعلُ في أُمورِ دِيننا ودُنيانا والَّتي نحتاجُ فيها في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ لمعرفةِ حكم الشَّرع فيها؟

سيقولون: ابحثْ في الكتاب والسنَّة لتقف علىٰ ما تحتاجُه.

فسأقول: ليس عندي المقدرةُ علىٰ ذلك، فأنا من عامَّة المسلمينَ لا أعرفُ حتَّىٰ القراءة والكتابة فماذا أفعلُ؟

يقولون: عليك أن تسأل أهلَ العِلمِ غيرَ الملتزمينَ بالمذاهبِ، وافعلْ ما يرشدونك إليْه.

نقولُ لهم: سامحكُم الله، نهيتُم أن نُقلدَ أئمَّةَ الشَّريعةِ وفقهاءَ المذاهب وأردتُم منَّا أن نُقلِّدَ هؤلاء، ما لكم كيف تَحكمونَ؟! هل في هذا العصرِ مَنْ هو كأبي حنيفةَ ومالكٍ والشَّافعيِّ وأحمد؟!

وهَلْ تملكونَ من العِلْمِ وأدواتِ الاجتهاد مثلما امتلكُوا حتَّىٰ تأمرونَنا بالأخْذِ عنكم؟ ثمَّ أولم تنهوا عن التَّقليدِ فماذا يكونُ هذا الفعل؟! هل أعملُ بكلامِكم وأنا رجلٌ عاميٌّ بسيطٌ لا أفهمُ في الدَّليل ولا المدلول ولا النَّاسخ ولا المنسوخِ ولا غير ذلك؟ لقد منعتمُوني من تقليدِ أبي حنيفةَ ومالكٍ والشَّافعيِّ وأحمدَ وأمرتُموني أن أُقلِّدَكم، نهيتُم عن التَّقليدِ وأمرتُم به في نهاية المطافِ، وما دام الأمرُ بهذه الصُّورة فإنَّ فَهْمَ وعِلْمَ واجتهادَ أئمَّة المذاهبِ أولىٰ عندِي من فَهمِكم وعلومِكم إنْ كان عندكم فَهمٌ أو عِلمٌ.

فأنتَ أخي المُسلم الكريم مع المذاهبِ الإسلاميَّةِ تكونُ في عصمةٍ تكوَّنتْ خلالَ أربعةَ عشرَ قرنًا متواصلةً من الفَهمِ ومُدارسة الكتاب والسُّنَّة والكشف عن الأحكام، فهُمْ أهلُ القرون الفاضلةِ الَّتي زكَّاها رسولُ الله ﷺ.

وسوف نتعرَّض لموضوع التَّقليدِ ببعض التَّفصيل بعد هذا الكلام، ونبدأ أوَّلًا بتعريف التَّقليدِ:

تعريف التقليد:

التَّقليد في اللُّغة: مأخوذٌ من القِلادةِ، وهي ما جُعلت في العُنق وتكونُ للإنسان والفَرس والبدنةِ التي تُهدَىٰ[1].

(1) تاج العروس (باب الدال فصل القاف مع اللَّام).

والتَّقليدُ اصطلاحًا يعني: العملَ بقول الغيرِ من غير حُجَّةٍ من الحُججِ الشَّرعيَّة المُلزمةِ، أي بدونِ دليلٍ قائم على هذا القول[1]. والتقليد أيضًا هو عملُ العامي بقول المجتهد تقليدًا من غير معرفة دليله وبلا حجة ملزمةٍ[2].

ويتَّضحُ لك أخي الفاضل من خلال التعريف الاصطلاحي أنَّ التَّقليدَ هو أخذُ المسلِم العاميِّ بقول العالم المجتهدِ من غير معرفةِ أدلَّتِه أصلًا، أو من غيرِ معرفةِ الأدلة معرفةً تامَّةً، وذلك التَّقليدُ يكونُ بالأخذ المُباشِرِ عن المجتهدِ إمَّا بواسطةِ عالمٍ موثوقٍ به يروي عن المجتهد، أو عن طريقِ أقوالِ المجتهد المدوَّنة في الكتبِ المعتمدَة.

وقد تَستشكلُ أيها الأخُ الكريم هذا وتقول: وكيف أحقِّقُ هذا عمليًّا على أرضِ الواقع؟

نقولُ: هناك نوعانِ من المسائلِ والأحكامِ:

1- نوعٌ لا يستطيعُ أيُّ مسلمٍ أن يَستغنِي عنه أو يتركَه كأحكامِ الوضوءِ والغُسل والطَّهارةِ والصَّلاة والصِّيام والزَّكاة من الأمورِ الَّتي تتكرَّر يوميًّا أو عدة مرَّات في السَّنةِ أو يحتاج إليها المسلمُ دائمًا.

2- نوعٌ قد يَعرِضُ للُسلمِ مرَّاتٍ قليلةً في حياتِه؛ كالحجِّ والعمرة والزَّواجِ والطَّلاق والميراث وما شابَه ذلك من الأمورِ والنَّوازلِ التي قد تَقعُ في الحياةِ.

ففي النَّوع الأوَّل يجبُ على المسلمِ وُجوبًا لازمًا معرفةُ تلكَ الأحكامِ وتفصيلاتِها، والَّتي بها تصحُّ عبادتُه ومعاملاتُه اليوميَّة، وذلك قد يحدثُ مرَّةً واحدةً في العمرِ على أقلِّ تقديرٍ؛ كأن يتعلَّمَ المسلمُ من دُرُوسٍ علميَّةٍ سواء أكانتْ مسموعةً أم مرئيَّةً أو من كتابٍ

---

(1) انظر: الإحكام في أصول الأحكام (269/4) تأليف: أبي الحسن علي بن أبي علي الآمدي- تحقيق: عبدالرزاق عفيفي- دار الصَّيمعي- الطبعة الأولى- 2003م.

(2) انظر: التحبير شرح التحرير (ص 4011) تأليف: أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي- تحقيق: عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين- مكتبة الرشد- الرياض. وحاشية العطار على جمع الجوامع (432/2) تأليف: حسن العطار- دار الكتب العلمية- بيروت.

مُعتَبرٍ مُعتمَدٍ فيه أحكامٌ يوميَّة ويسير عليها بقيَّةَ عمُره، وذلك بواسطةِ عالمٍ متخصِّصٍ أو طالب عِلمٍ من أتْباعِ المذاهبِ المعروفين بالعِلمِ والإلمام بأحكام الشَّريعةِ.

والنَّوعُ الثَّاني: يَكفيكَ فيه أخي المسلم أن تَقصِدَ بسؤالكَ واستفتائك أهلَ الفتوىٰ في بلدِك أو مكانِ إقامتك ممَّن اشتُهر عنهم العِلم؛ بأن يكونوا من الدَّارسينَ الحاصلينَ علىٰ المؤهلاتِ الشَّرعيةِ المتخصِّصةِ الَّذين أُذِنَ لهم بالفتوىٰ، أو تقصد مَن يُعيِّنُه وُلاةُ الأمورِ من العلماءِ والمشايخِ لتَحمُّلِ هذه المسئوليَّة والقيام بإفتاءِ النَّاس وتبيينِ أمورِ الشَّريعةِ لهم، أو ما قد يُعرف في بلادِنا وغيرها من البلادِ الإسلاميَّةِ بهيئاتِ ولجان ودُور الإفتاء، والحمد لله الاتِّصالُ بهذه الهيئات مُيسَّرٌ في هذا العصر عن طريق الذِّهاب المباشر أو الاتِّصال التليفوني أو عن طريق شبكة المعلومات الَّتي تعرف بالإنترنت.

وإنْ حقَّقتَ تلك الخُطوات البَسيطة أخي المسلم تكونُ قد حصلتَ علىٰ ما هُو واجبٌ عليكَ في أمرِ دِينكَ وعصمتَ نفسَك مِنَ الوقوعِ في الخطأ أو الضَّلال، ولا تُصغِ إلىٰ دَعاوَىٰ ترك التَّقليدِ والأخذِ المباشرِ من الكتاب والسُّنَّة؛ لأنَّ ذلك عملُ العلماء والمُجتهدينَ، وليس في هذا الكلامِ أخي الكريم دعوةٌ إلىٰ هجرِ القراءة والعلمِ؛ بل هذا مندوبٌ مطلوبٌ، وإنَّما المحذورُ الممنوعُ هو الاستقلالُ بالقِراءةِ في فَهم واستخلاصِ الأحكامِ.

فالنَّاسُ بالنِّسبةِ للشَّريعة قسمان: قسم مجتهدٌ من أهل العِلم والاستنباطِ، وقسمٌ ليس من أهل العِلمِ وليس له قدرةٌ علىٰ استنباطِ الأحكام وهم المقلِّدونَ.

فأنا وأنتَ أخِي الكريم لسنا من أهلِ الاجتهادِ في معرفةِ الأحكامِ، ومئاتُ الملايينِ من المُسلمينَ علىٰ مرِّ الزَّمان مثلنا، فنحنُ من المقلِّدينَ، وقد أوضحَ وبيَّنَ جمهورُ علماءِ الأُصولِ أنَّ المُقلِّدَ يشملُ العاميَّ لعَجْزِه عن النَّظرِ والاجْتهادِ، ويشْمُلُ العالِمَ الذي ألَمَّ ببعضِ العلوم المعتبرةِ في الاجتهادِ لكنَّه لم يبلغْ رتبةَ الاجتهاد، فكلٌّ منهم يلزمُه التَّقليد، كما قال علماءُ الأصولِ.

ما حُكمُ التَّقليدِ؟

اتَّفقَ جُمهورُ العلماءِ علىٰ مشروعيَّةِ التَّقليدِ ووجُوبِه عند عدمِ التَّمكُّنِ مِنَ الاجتهادِ، وهذا الوجوبُ هو الَّذي ينطبقُ علىٰ كلِّ المسلمينَ ما عدا المؤهَّلينَ فقط للاجتهادِ واستنباطِ الأحكامِ، يقول العلَّامة محمد حسنين مخلوف في كتابه: ((بلوغ السُّول)) تحت عنوان: استناد أقوال المجتهدينَ إلىٰ المآخِذِ الشَّرعيَّة:

((وقدِ اعتبر الأصوليُّونَ وغيرُهم أقوالَ المجتهدينَ في حقِّ المقلِّدين كالأدلَّة الشَّرعيَّة في حقِّ المجتهدينَ، لا لأنَّ أقوالَهم لذاتها حُجَّةٌ علىٰ النَّاس تَثبتُ بها الأحكام الشَّرعيَّة كأقوالِ الرُّسلِ عليهم الصَّلاة والسَّلام، فإنَّ ذلك لا يقولُ به أحدٌ؛ بل لأنَّها مستندةٌ إلىٰ مآخذَ شرعيَّةٍ بذلُوا جُهدَهم في استقرائِها وتمحيص دلائلِها مع عدالتِهم وسعةِ اطِّلاعِهم واستقامة أفهامِهم وعنايتِهم بضبطِ الشَّريعةِ وحِفظ نصوصِها، ولذلك شرطُوا في المُستثمِرِ للأدلَّةِ المستنبِط للأحكامِ الشَّرعيَّة من أدلَّتها التَّفصيليَّةِ- لكونها ظنيَّةً لا تنتج إلَّا ظنًّا- أن يكونَ ذا تأهلٍ خاصٍّ وقوَّةٍ خاصَّة ومَلَكةٍ قويَّة يتمكَّنُ بها من تمحيصِ الأدلَّة علىٰ وجهٍ يجعلُ ظُنونَه بمثابة العِلمِ القطعيِّ؛ صَونًا لأحكام الدِّينِ عن الخطأ بقدر المُستطاع)).

ثمَّ قال: ((وكما أمر الله ورسولُه ﷺ المستعدِّين للاجتهادِ ببذل الوُسعِ في النَّظر في المآخذ الشَّرعيَّةِ لتحصيلِ أحكامه تعالىٰ- أَمَرَ القاصرينَ عن رُتبةِ الاجتهادِ من أهل العِلمِ باتِّباعِهم والسَّعيِ في تحصيل ما يُؤهلهُم لبلوغِ هذا المنصبِ الشَّريفِ، أو ما هو دُونَه حسب استعدادِهم في العِلمِ والفَهم، وأمر العامَّةَ الذين ليسوا من أهل العِلم بالرُّجوع إلىٰ العلماء والأخذ بأقوالهم؛ كما قالَ تعالىٰ: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُون﴾ [النَّحل: 43] أي: بحكمِ النَّازلةِ ليخبرُوكم بما استنبطُوه من أدلَّة الشَّريعةِ مقرونًا بدليلِه من قول الله أو قول رسولِ الله ﷺ أو مُجرَّدًا عنه، فإنَّ ذِكرَ الدَّليل من المجتهدِ أو العالم الموثوقِ به بالنِّسبةِ لمن لم يعلمْ حُكمَ الله في النَّازلة غيرُ لازمٍ، خصوصًا إذا كان ممَّن لا

يفهمُ وجهَ الدلالة كأكثر عامَّة الأُمَّة، أو كان الدَّليلُ ذا مقدِّماتٍ يتوقَّف فهمُها وتقريبُ الاستدلالِ بها على أمورٍ ليس للعاميِّ إلمامٌ بها))[1].

فهذا كلامُ أهلِ العِلمِ من أهل الاختصاصِ في وجوبِ التَّقليدِ مع عدم القدرةِ على الاجتهادِ، وهُو حالُ أغلبِ الأمَّة.

وعوامُّ المسلمينَ في عهدِ الصَّحابةِ ﭫ كانُوا إذا حدثتْ لهم أيُّ حادثةٍ أو قضيَّة أو مسألة يذهبونَ للصَّحابةِ ليسألوهم عن الحُكم الشَّرعيِّ لها، وكانوا يُجيبونَهم من غيرِ أنْ ينكرُوا عليهم ذلك ولم ينقل عنهم أنَّهم أمرُوا هؤلاء السَّائلين بأن يجتهدُوا ليعرفوا الحُكمَ بأنفسِهم، فكان ذلك حال خير القُرُون، وأيضًا مَن جاءَ بعدهُم كان الَّذي لا يستطيعُ الفَهم والاجتهاد يُقلِّد العالمَ المجتهدَ.

هل يجبُ على المُقلِّدِ أن يلتزمَ مذهبًا معيَّنًا لا يحيد عنه؟

اختُلفَ في ذلك على قوليْن:

1- أنَّه يجبُ التزامُ مذهبٍ معيَّن، ذكرَ ذلك الجلال المحليُّ في شرحه لجمعِ الجوامع[2].

2- أنَّه لا يجبُ على المقلِّدِ التزام مذهبٍ معين في كلِّ واقعةٍ، بل له أن يأخذ بقول أيِّ مجتهد شاء وهو الصَّحيح، ولذلك اشتُهر عن الأئمَّة أن العاميَّ لا مذهبَ له بل مذهبُه مذهبُ مُفتيه؛ قال الإمامُ النَّوويُّ: ((الذي يقتضِيه الدَّليلُ أنَّه لا يلزمُه التَّمذهب بمذهبٍ بل يستفتي مَن شاءَ أو مَن اتفق لكن من غير تلقُّطٍ للرُّخص))[3].

---

(1) انظر: بلوغ السُّول مدخل علم الأصول (ص 15- 16) لمحمد حسنين مخلوف- مطبعة الحلبي- الطبعة الثانية- 1966م.

(2) انظر: حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع(2/440) لحسن بن محمد بن محمود العطار الشافعي- دار الكتب العلمية.

(3) روضة الطَّالبين (11/117) تحقيق: زهير شاويش- المكتب الإسلامي- بيروت- الطَّبعة الثالثة- 1991م.

فهذا كلامُ أهل العِلم الذي وَسِعَ المسلمينَ علىٰ مرِّ العصور، ولم تظهرْ المشكلاتُ الفكريَّة والعقدية والخلاف في هذه العصور بشكلٍ كبيرٍ، وإن ظهرتْ فإنَّ أغلب المسلمينَ كانوا يقفونَ منها موقف الرَّفض والرَّدِّ والمقاومةِ؛ وذلك لوُجودِ العصمةِ الشَّرعيَّة لأمَّةِ الإسلام وهي المذاهبُ الإسلاميَّةُ وتقليدُ هذه المذاهبِ، والَّتي كانتْ كحائط الصَّدِّ أمامَ أيِّ فكرٍ دخيلٍ علىٰ الإسلامِ وأمام أيِّ حركاتٍ تريدُ تَغْييرَ شكل ونمطِ حياةِ المسلمينَ.

فيا أخي الكريم أنت تُصلِّي صلاةً مثلما صلَّاها رسولُ الله ﷺ منذ أكثرَ من ألف وأربعمائة عام، فَمَنْ حَفِظَ لنا هذا؟ إنَّهم أئمَّةُ المذاهب، تصوَّر معي لو لم تكن هذه المذاهب بهذا الشَّكل والتَّرتيبِ والاعتناء، تصوَّر أنَّها غير موجودة فهل ستكون صلاتُنا اليوم صحيحة هيئةً ومضمونًا؟ وقِسْ علىٰ ذلك كلَّ العبادات والمعاملاتِ.

إنَّ وجودَ المذاهب فضلٌ من الله تعالىٰ علىٰ هذه الأمَّة، حَفِظَ بها أمرَ دينها، ولم يندثرْ أو يتبدَّلْ كما حَدَثَ مع الأممِ السابقةِ لنا.

وتصوَّر أيضًا لو طبَّقْنا دعوىٰ مَن يدعُو لتركِ التَّقليدِ والأخذِ مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ مُباشرةً لأصبحَ عندنا بعدد المسلمينَ في الأرضِ مذاهبُ وآراء، وما ينتجُ عن ذلكَ من الهَوَىٰ وضياع الدِّين، فترىٰ أنتَ رأيًا في الصَّباح، ثم تجتهدُ وتأخذُ رأيًا غيرَه في المساءِ، ثمَّ تُبدله في اليوم التَّالي تبعًا لفهمِكَ المباشر من الكتابِ والسُّنَّةِ.

ولقد رأينا وشاهدنا الدِّماءَ الَّتي سالتْ والأموالَ التي نُهبتْ والأعراضَ الَّتي هُتكتْ، وذلك في جميعِ بلاد الإسلام قديمًا وحديثًا، وذلك تحتَ غطاءِ الأخذِ من الكتاب والسُّنَّة مُباشرةً ونبذ التَّقليد و إهمال المذاهبِ، ووجدنا بعضَ مَن تسببت فتاواهم في سفك الدِّماء يعترف بأنه أخطأ وصام هو وأتباعه شهرين كفارة قتل الخطأ في نظرهم!

فالحمدُ لله الذي قيَّض لهذِه الأمَّة المحمَّدية مَن يحفظُ لها دِينَها وتراثَها مكتوبًا مدوَّنًا محفوظًا علىٰ مرِّ السِّنينَ يُسلِّمه الأستاذُ للتلميذِ والعالِمُ لطالب العِلم، وهكذا في تتابعٍ وتواصلٍ لا ينقطعُ أبدًا إنْ شاء الله تعالىٰ.

وهناك أمرٌ يجب أن يُتنبَّه له وهو أنَّه مع وجود كلامِ هؤلاء العُلماء المدوَّن في الكُتب عن أهميَّة التَّقليد والمذاهبِ سوف تجدُ مَن يصمُّ أُذنيْه عن سماعِ ذلك وقبوله، وليس عنده استعدادٌ أن يفهمَ ويتفهَّمَ أن الَّذي يدعو إليْه من تَرْكِ التَّقليدِ والأخذِ من الكتاب والسُّنَّةِ مباشرةً إنَّما هو وسيلةٌ لهدم الدِّين، فمثلُ هؤلاء لن يصلح معهم نقاشٌ.

فنقولُ لهم: أنتم رضيتم لأنفسكم منهجًا محدَّدًا فهنيئًا لكم به، ولكن لا تُفسِدوا علىٰ النَّاس دينَهم وطُرقَ حياتِهم المستقرَّةِ، فدعُوهم كما كانوا مُتابعينَ للأئمَّة والمذاهبِ واذهبوا أنتُم حيث شئتُم، فإنَّا لم نستفدْ من تجاربِكمْ ومنهجِكُمْ إلَّا الأضرارَ وتشويهَ الإسلامِ في الدَّاخلِ والخارجِ، ولو أردْتُمْ أن تُكوِّنوا لأنفسِكم مذاهبَ خاصَّةً لكم فافْعلُوا، ولكن اتركُوا المسلمينَ ينعمونَ بدينِهم ومذاهبِهم واستقرارِ مُجتمعاتِهم وحياتِهم التي تَسبَّبَ بعضُ الناسِ منكم في تعكيرِها بسببِ اجتهاداتِكم وفتاويكم وآرائكم المُضلَّة.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆

الرسالة العشرون
حجية الحديث الضعيف والعمل به عند الأصوليين والفقهاء

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأوَّل: السُّنة النبوية من حيث التَّعريفُ والأهميةُ والمنزلةُ من التَّشريع.

المحور الثاني: تعريف الحديث الضَّعيف وأنواعه.

المحور الثالث: الحديثُ الضَّعيف جزءٌ من السُّنة النبوية، وأقوال أهل العِلم في كيفية العمل به.

المحور الرابع: دفع استشكال لابن تيميةَ وتلميذِه ابن القيم رحمهما الله حول العمل بالحديث الضَّعيف في الأحكام عند الإمام أحمد.

المحور الخامس: بدعةُ تقسيمِ كُتب السُّنن إلىٰ صحيحٍ مقبول وضعيف مردودٍ لا يُعمل به. ◆



« إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا » - آية **56** من سورة الأحزاب

حجية الحديث الضعيف والعمل به عند الأصوليين والفقهاء

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا بحثٌ حول الحديث الضَّعيف ومكانته في شريعة الإسلام ومنزلته من السُّنة النبويَّة المشرَّفة، وأثره في استنباط وكشف الأحكام الشرعيَّةِ، ودوره في الفقه الإسلامي، وما معنىٰ أن يوصف الحديث بالضَّعف؟ وهل ذلك يضعُه في مكانة المكذوب علىٰ رسولِ الله ﷺ أم أنَّ له من الخصائص التي تميِّزُه وتجعلُ له دورًا ووظيفةً في شريعة الإسلام؟ ولذلك فإنَّنا سوف نتعرَّضُ في هذا البحثِ إن شاء الله تعالَىٰ لبعض الدَّعاوىٰ التي ظهرتْ حديثًا حول الحديثِ الضَّعيف من أنه يجب ردُّه مطلقًا وعدمُ العمل به.

وسوف نتناول في الرَّدِّ عليهم ذِكرَ أقوال أهل العِلم المعتبرينَ في هذا الشَّأن من سلف الأُمَّة وخلَفِها حول ما يتعلَّقُ بالحديث الضَّعيف، موضِّحينَ بُطلانَ هذه الدَّعوىٰ، وأنَّ السَّلف والخلَفَ قد وضعُوا منهجًا للتعامُلِ مع الحديث الضَّعيفِ ليس فيه الرَّدُّ المطلقُ هكذا، وسنتطرَّقُ لخطورةِ هذه الدَّعوىٰ وما يترتَّب عليها من آثارٍ جسيمةٍ يَنتُجُ عنها خللٌ في مجال الفقه والأحكامِ، وتتسبَّب في إغلاق كثيرٍ من أبواب العمل بالفضائل في كثيرٍ من القُرُباتِ والطَّاعاتِ، وذلك تحتَ دعوىٰ ضعفِ الأحاديثِ الوارِدَةِ فيها، وسوف يكون الكلامُ في هذا البحث مشتملًا علىٰ:

- مقدِّمة تمهيديَّة في بيان دَعْوَىٰ الرَّدِّ المطلقِ للحديثِ الضَّعيفِ، ثمَّ نَتناولُ البحثَ في المحاور التالية:

- المحور الأوَّل: السُّنة النبوية من حيث التَّعريفُ والأهميةُ والمنزلةُ من التَّشريع.

- المحور الثاني: تعريف الحديث الضَّعيف وأنواعه.

- المحور الثالث: الحديثُ الضَّعيف جزءٌ من السُّنة النبوية، وأقوال أهل العِلم في كيفية العمل به.

- المحور الرابع: دفع استشكال لابن تيميةَ وتلميذِه ابن القيم رحمهما الله حول العمل بالحديث الضَّعيف في الأحكام عند الإمام أحمد.

- المحور الخامس: بدعةُ تقسيمِ كُتب السُّنن إلىٰ صحيحٍ مقبول وضعيف مردودٍ لا يُعمل به.

مقدمة تمهيدية في بيان دعوىٰ الرَّدِّ المطلقِ للحديثِ الضَّعيفِ

تأتي أهميَّةُ الحديث عن هذا الأمر- أمر الحديث الضَّعيف ومكانته في الشَّريعة الإسلامية- من حيث إنَّه يمثِّل جزءًا من السُّنة النبوية المطهرة تعامل معه أهلُ العِلم في القديم والحديث بمنهجٍ مُنضبطٍ من حيث القبولُ والرَّدُّ والعملُ به، ولم يتعاملوا معه بمبدأ الردِّ المطلَق له، وكذلك تأتي أهميَّةُ الكلام عن الحديثِ الضَّعيفِ والتفاصيل المتعلِّقة به من أنَّه يُعدُّ في حقيقة الأمر دفاعًا عن السُّنة النبويَّةِ المطهَّرة بصورةٍ كُليَّة.

فدعوىٰ الرَّدِّ المطلق للحديث الضَّعيف في فضائِلِ الأعمالِ والترغيبِ والتَّرهيبِ، وعدم اعتباره علىٰ الإطلاق في مجال الأحكام والفقه بالضَّوابطِ والقرائنِ والشَّواهدِ التي اعتبرها أهلُ العِلمِ من الأصوليينَ والمحدِّثين والفقهاء هي دعوةٌ تُخالفُ ما كان عليه علماءُ هذه الأُمة، بالإضافة إلىٰ أنَّها دعوة تفتح البابَ أمام تَفكيكِ واضطراب جانبٍ كبير من الفقه، وحرمان الأمَّةِ من جانبٍ كبير في التَّرغيبِ والترهيب، كل هذا تحت دعوة تنقية الفقهِ.

ونجدُ هنا نوعَ تَشابهٍ بين هذه الدَّعوىٰ ونتائجِها مع الدَّعاوىٰ التي تتربَّصُ بالسُّنة النبويَّةِ وتقوم بردِّ الأحاديثِ الصَّحيحةِ لمجرد الهوىٰ، وترفض الأحكامَ المجمَعَ عليها الَّتي استنبطها أهل العِلمِ من السُّنة النبويَّة تحت دعوىٰ التجديدِ الفقهيِّ الذي يريدونَ أن يكون في الأصول نفسها ويصل إلىٰ التَّشكيكِ فيما هو مُجمَعٌ عليْه، فهَذا المَسلكُ من هذه الطَّائفةِ يؤدِّي في نهايةِ الأمرِ إلىٰ تفكُّكِ أركان هذه الشريعةِ المُحكَمة، ووقوعِها

في التَّحريفِ الذي وقعتْ فيه الشَّرائعُ السابقةُ.

ونجدُ أنَّ هذه النتيجةَ أو قريبًا منها أو بينهُما نوع شُبَهٍ تتحصَّلُ أيضًا نتيجة لمسلك طائفةٍ أخرىٰ زعمتِ الانتسابَ إلىٰ السُّنة النبويَّةِ والعمل علىٰ صيانتِها؛ فإذا بها عن قَصدٍ أو غيرِ قصدٍ تَسْلُكُ في التَّعامُلِ مع الحديث الضَّعيف- الذي هو جزءٌ من سُنَّة النبيِّ ﷺ نُقل إلينا- مسلكًا مشابهًا من حيثُ الردُّ المطلق وادِّعاءُ عدمِ الاعتدادِ به في الأحكامِ الفقهيَّةِ مطلقًا، فخالفُوا بذلك علماءَ الأُمة الذين وضعُوا منهجًا خاصًّا بالحديثِ الضَّعيفِ تمَّ فيه قَبولُه في حالاتٍ معينةٍ بضوابطَ محددةٍ كما سيأتي لاحقًا.

كل هذا يقع منهم تحتَ دعوىٰ الاكتفاءِ بما يصفونَه بالصِّحَّةِ أو الحسنِ من السُّنة وفقًا لمنهجِهم ورؤيتِهم بزعم تقديمِ الفِقهِ الصَّحيحِ الخالصِ وعدم التَّقيُّدِ بالمذاهبِ الفقهيَّةِ المعتبرةِ.

هذا المَسلكُ يَنتُجُ عنه خللٌ في الفقهِ والأحكامِ والأدلَّةِ الشرعيَّةِ، وينتُجُ عنه حرمانُ الأُمَّةِ من جانبٍ كبيرٍ من نصوصِ التَّرغيبِ والترهيبِ تحت دَعْوَىٰ الضَّعفِ.

وهذا المسلكُ من هذه الطَّائفةِ التي تزعم الانتسابَ للسُّنةِ وأنَّهم أصحابُ الحديث- يخالفُ المنهجَ الَّذِي سار عليه أهل العلم بالأصولِ والفقه والمحدِّثين في استنباط الأحكام، وتكوين المنظومة الفقهيَّة المنضبطة التي سارتْ عليها الأُمَّةُ علىٰ مرِّ القرون، وذلك يتضح في قبول أهلِ الفقه لأحاديث حُكم علىٰ أسانيدِها بالضَّعف وفقًا للصناعة الحديثيَّةِ، وبجانب هذا الضَّعفِ الذي حُكم به علىٰ السَّند من قِبل المحدِّثين تمَّ قبولُ متنِ الحديث والاعتمادُ عليه في جانب استنباطِ الأحكام من قِبل الفقهاء؛ نظرًا لشواهدَ أخرىٰ عضَّدتْ هذا القبولَ وارْتقتْ به لأَنْ يكون دليلًا يصحُّ الاستدلال به في جانب الفقه والأحكام كما سيأتي الحديث عنه في حينِه في هذه الرِّسالةِ.

فأصحابُ التَّيار الأوَّل من العلمانيِّينَ وأشباههم يحاولونَ ردَّ السُّنة النَّبويةِ والتَّشكيك فيها، وينادونَ بعدم حُجِّيتها في استنباطِ الأحكام إلا ما راقَ لهم بحسبِ ما يَرونَه،

ويبذلونَ في ذلك الجهودَ المتنوِّعةَ لنزع القداسةِ من نفوس المسلمينَ عن سُنَّة النبيِّ ﷺ تحت دعاوىٰ التَّجديدِ والتَّنويرِ والتطويرِ والتَّنقيةِ.

وأصحابُ التيَّار الثاني القائلونَ بإسقاط الحديث الضَّعيف بالكليَّة وردِّه وعدمِ جواز العملِ به علىٰ الإطلاقِ، فيسقطون جزءًا من السُّنة النبوية، والتي وضع لها العلماءُ الأقدمون من أهل الحديث وأهل الفقه منهجًا متكاملًا للتَّعامُل معه فأفادوا منه كثيرًا، فأتىٰ هؤلاءِ ببدعَةِ تقسيمِ السُّنةِ النبويَّةِ المدوَّنةِ في كتب السُّننِ إلىٰ صحيحٍ أو حَسَنٍ يُعمل به ويقبلُ، وضعيف يُرَدُّ يُلحقونَه بالأحاديث الموضوعة أو الواهية، وما استتبع ذلك المنهج من الكلام في أصحاب السُّنن ورميهم بما هم منه براء، فنتج عن ذلك أن تجرَّأ كثيرٌ من عامَّة المسلمين علىٰ الكلام في الأحاديث تضعيفًا وتصحيحًا وقبولًا وردًّا.

ونحن في هذه الرِّسالة الموجَزةِ أيها القارئ الكريم نتكلَّم عن الحديث الضَّعيف بوصفِه جزءًا وصلَ إلىٰ الأمة الإسلامية من سُنة نبيِّها ﷺ ومثَّل جانبًا من هذه الشَّريعة، وقد وضعَ له أهلُ العِلم منهجًا متكاملًا للتعامُلِ معه بما حقَّقَ التَّناغمَ العلميَّ العقليَّ والعمليَّ الذي هو من أهمِّ خصائصِ الشَّريعةِ والفقه الإسلاميِّ، وتمثَّل ذلك في تيارِ أهل العلم من المحدِّثينَ وتعاملهم مع الأسانيدِ وبيان درجة الأحاديث الشَّريفة، وتيار أهل الفقه في توظيفهم لهذه الأحاديثِ واستنباط الأحكامِ الشرعيَّةِ منها مع باقي الأدلَّة الشرعية من قُرآنٍ و إجماعٍ وقياسٍ واستحسانٍ وعُرفٍ وأقوالِ الصَّحابة الكرام، واهتمُّوا كثيرًا بالقرائن والشَّواهدِ التي تُصاحب الحديث الضَّعيف من حيثُ السَّندُ.

وقبلَ الخوضِ في قضيَّةِ الحديث الضَّعيف وما يتعلَّقُ به علينا أن نذكر نبذةً مختصرةً عن السُّنةِ النبوية ومكانتها من الشَّريعة الإسلامية واستنباط الأحكام.

السُّنةُ النبويَّةُ من حيثُ التَّعريفُ والأهميَّةُ والمنزلةُ من التَّشريعِ

للسُّنة معانٍ كثيرةٌ منها ما هو لُغويٌّ، ومنها ما هو عامٌّ، ومنها ما هو خاصٌّ لدىٰ أهل كل عِلم.

فالسُّنة في اللغة: لفظة مشتقَّةٌ من سَنَّ، قال ابن فارس: ((السين والنون أصلٌ واحد مطرد، وهو جريَان الشيء واطِّرادُهُ في سهولةٍ، والأصل قولهم: سَنَنْتُ الماءَ علىٰ وجهي أَسُنُّه سَنًّا، إذا أرسلتَه إرسالًا، ثمَّ اشتُقَّ منه رجل مسنون الوجه، كأنَّ اللحم قد سُنَّ علىٰ وجهه. والحَمَأُ المسنون من ذلك، كأنه قد صُبَّ صَبًّا.

ومما اشتقَّ منه السُّنَّة، وهي السِّيرة، وسُنَّة رسول الله عليه السلام سِيرته.

قال الهذلي:

فَلا تَجْزَعَنْ مِنْ سُنَّةٍ أنتَ سِرْتَها فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَن يَسيرُها

وإنّما سُمِّيَت بذلك لأنَّها تجري جريًا))[1].

وقال ابنُ منظور: ((السُّنَّةُ الطَّرِيقَةُ المحمُودَةُ المُسْتَقِيمَةُ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ: فُلَانٌ مِنْ أَهلِ السُّنَّة؛ مَعْنَاهُ مِنْ أَهل الطَّرِيقَةِ المستَقِيمَةِ المحمُودَةِ، وهي مأخوذةٌ منَ السَّنَنِ وهو الطَّرِيقُ. ويقال للخطِّ الأسودِ علىٰ متن الحِمارِ سُنَّة. والسُّنَّةُ الطَّبِيعَةُ))[2].

وكذلك تطلق السُّنة في اللغة علىٰ معانٍ عديدة منها:

1- الأُنموذج الذي يُحتذىٰ والمثال الذي يُقتدىٰ.

2- البيان: يقال سنَّ الأمر بيَّنه، وسنَّ الله سُنة بيَّن طريقًا قويمًا.

3- وتُطلق السُّنة كذلك علىٰ ابتداء كلِّ أمرٍ.

---

(1) معجم مقاييس اللغة (60/3) تأليف: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا- تحقيق: عبدالسلام هارون- دار الفكر- 1979م.

(2) انظر: لسان العرب (س.ن.ن) لمحمد بن مكرم بن علي بن منظور- دار صادر- بيروت- الطبعة الثالثة- 1414هـ.

- أما السُّنة في اصطلاح أهل العلم فلها اصطلاحاتٌ خاصة بحسب أغراض العلوم الشَّرعية وتخصُّصِها. فعلماءُ الحديث يَرونَ أنَّ معنىٰ السُّنَّةِ واسعٌ يشمل ما يلي:

كل قولٍ أو فعلٍ أو إقرارٍ، حقيقةً أو حكمًا، وسِيرة وصِفة خَلقية وخُلقية حتىٰ الحركات والسَّكنات في اليقظةِ والمنام قبل البَعثةِ وبعدَها.

- وأمَّا علماءُ الأصول فيرون: أنَّها ما أُضيفَ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ.

- وعلماءُ الفقه يطلقونَ السُّنَّة ويُريدونَ بها:

المندوب؛ أي غيرَ الفريضةِ من الأعمالِ التي طلبها الشَّارعُ الحكيمُ، إلَّا أنهم يُفرِّقونَ بينَ المندوب والسُّنة، بأنَّ المندوب يشمل ما نَدب إليه الشارع سواءٌ أثبت في السُّنة أم من استقراءِ أصول الشَّريعةِ.

- وعلماء العقيدة: يُطلقون السُّنة علىٰ هَدي النبي ﷺ في أصول الدِّين، وما كان عليْه من العِلم والعمل والهُدىٰ، وقد تُطلقُ السُّنة أيضًا بمعنىٰ الدِّين كلِّه.

وقد دُوِّنت وحُفظتْ جميعُ هذه المظاهر المتنوِّعة لمعنىٰ الاصطلاحيِّ للسُّنَّة المطهَّرة في كُتب السُّنة المختلفةِ مما استلزم قيامَ علومٍ وأدواتٍ خادمةٍ لهذا الأمرِ، فظهرتْ علومُ الحديثِ المتنوِّعةِ كعِلم المصطلحِ، وعِلم التَّراجم والوفياتِ، وعِلم الجرح والتَّعديلِ، وعِلم عِلل الحديث، وعِلم النَّاسخ والمنسوخ، وما نَتَجَ عن ذلك من عِلم شرح الحديث وفهمِه وبيانِه.

فهذه العلومُ تمَّ من خلالها التَّعاملُ مع كلِّ نصٍّ ورد في السُّنةِ النبويَّةِ، وتمَّ إخضاعُ طريق ورودِه لقواعد الكشفِ والبيانِ من القبول والرَّدِّ والتَّمحيصِ أولًا فيضعونَه في مكانه الصَّحيحِ من حيث النَّوعُ والرُّتبةُ والدَّرجةُ والحكمُ علىٰ سَندِه، ثم يأتي بعد ذلك دورُ الفهمِ والفقهِ والاستنباطِ بعد ذلك من هذا النَّصِّ.

وعن الحديثِ وعُلُومِه يقول العلَّامة ابن الوزير اليماني في الرَّوضِ الباسمِ: «فإنَّه علمُ الصَّدر الأوَّل والذي عليه بعد القرآن المعوَّلُ، وهو لعلومِ الإسلام أصلٌ وأساسٌ. وهو

المفسِّرُ للقرآنِ بشهادة: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [النحل:44] وهو الَّذي قال الله فيه تصريحًا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:4] وهو الذي وصفه الصَّادقُ الأمين بمماثلةِ القرآن المبين حيثُ قالَ في التَّوبيخِ لكل مترفٍ إمَّعةٍ: ((أَ لاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ))[1]. وهو العِلمُ الذي لم يشارِكِ القرآن سواه في الإجماعِ علىٰ كُفر جاحد المعلوم مِن لَفظِه ومعناه.

وهو العِلم الذي إذا تجاثتِ الخصوم للرُّكَبِ، وتفاوتتِ العُلوم في الرُّتبِ، أصمَّت مِرْنانُ[2] نوافله كلَّ مناضلٍ، وأَصمَّت برهانُ معارفه كلَّ فاضل. وهو العِلمُ الذي ورَّثَه المصطفىٰ المختارُ، والصَّحابة الأبرار، والتَّابعون الأخيار. وهو العلم الفائضةُ بركاتُه علىٰ جميع أقاليمِ الإسلامِ، الباقيةُ حسناتُه في أمَّة الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ))[3].

مكانة السُّنَّة من التَّشريع:

السُّنَّةُ هي المصدرُ الثَّاني للتَّشريعِ في الإسلام فمن القرآن الكريم ومنها تُستمد الأحكام الشَّرعية، ولها حُجِّيةٌ في إنشاءِ وتقرير الأحكام، فهي وحيٌ من الله مثل القرآن الكريم فيجبُ اتباعُها، وتحرم مخالفتُها.

وقد تضافرتِ الأدلةُ القطعيَّةُ علىٰ ذلك، فأوجبَ الله سبحانه علىٰ النَّاسِ طاعةَ رسولِه ﷺ وبيَّنَ أنَّه ﷺ هو المبيِّن لما أنزل من القرآن، وذلك بعد أن عَصَمَه من الخطأ والهوىٰ والزَّلل في كلِّ أمرٍ من الأمور: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم:3-5]. كما عَصَمَه من النَّاس حين أَمرَه بتبليغ ما أُنزل إليه قالَ تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ

---

(1) جزءٌ من حديث أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة (4604)، وأحمد في مسنده (130/4) من طريق حريز بن عثمان عن عبدالرحمن بن أبي عوف عن المقدام بن معدي كرب به مرفوعًا.

(2) القوسُ الَّتي يُسمع لَها رنين إذا نُزع فِيهَا. جمهرة اللغة (630/2).

(3) الرَّوضُ الباسم في الذَّبِّ عَنْ سُنَّةِ أَبِي القَاسم ﷺ (8/1) لابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضىٰ بن المفضل الحسني القاسمي، أبي عبدالله عز الدين- تحقيق: علي بن محمد العمران- دار عالم الفوائد.

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:67]. فهو إذن قد مَهَّد لرسولِه ﷺ طريق الدعوة، وذلَّل له مهمة تبليغها، فبَيَّنَ سبحانَه وتعالىٰ للنَّاسِ ما يجبُ عليهم تجاه السُّنة ومن ذلك:

أوَّلًا: وُجوبُ طاعة الرَّسولِ ﷺ.

ثانيًا: أنَّ الرَّسولَ ﷺ هو الذي يُبيِّنُ للناس كتابَ ربِّهم عزَّ وجلَّ، وهذان الأمرانِ مُتلازمانِ تمام التَّلازُم في إثباتِ حُجيَّةِ السُّنَّةِ؛ لأنَّ الله تعالىٰ أوجبَ طاعةَ رسولِه ﷺ؛ لأنَّه مبيِّن للناس ما أُنزل إليهم، قال الإمامُ الشَّاطبيُّ: ((فإذا عَمِلَ المكَلَّفُ علىٰ وَفْقِ البيانِ؛ أطاعَ الله فيما أرادَ بكلامِهِ، وأطاعَ رسوله في مقتضىٰ بيانِه، ولو عمِل علىٰ مخالفةِ البَيانِ عصىٰ الله تعالىٰ في عمله علىٰ مخالفةِ البيانِ؛ إذ صارَ عمله علىٰ خلافِ ما أراد بكلامِهِ، وعصىٰ رسوله في مُقتضىٰ بيانِهِ))[1].

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾ [النساء:59].

﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة:92].

﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:80].

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:7].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65].

---

(1) الموافقات (332/4) تأليف: إبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي- تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان- دار ابن عفان- الطبعة الأولىٰ- 1417هـ/ 1997م.

وكذلك ورد العديد من نصوص السُّنة المطهَّرة توضِّحُ أهمية طاعة رسول الله ﷺ فمن ذلك:

1- ما أخرجَه الحاكمُ في مستدركه من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب النَّاسَ في حِجَّة الوداع فقال ضمن خطبتِه تلك: ((يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ))[1].

2- وروى الحاكم أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا كِتَابَ الله وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ))[2].

تعريف الحديث الضَّعيف وأنواعه

نتعرض لتعريف الحديث الضَّعيف من خلال كلام أهل العِلم وما يتعلق بهذا التعريف:

معنى الضعف في اللغة: ضد القوة.

قال ابن منظور: ((الضَّعْفُ والضُّعْفُ خِلافُ القُوَّةِ، وقيل الضُّعْفُ بالضم في الجسد والضَّعف بالفتح في الرَّأْي والعَقْلِ، وقيل: هما معًا جائزان في كل وجه، وخصَّ الأَزهريُّ بذلك أَهل البصرة فقال: هما عند أهل البصرة سِيَّانِ يُسْتعملان معًا في ضعف البدن وضعف الرَّأْي))[3].

---

(1) جزءٌ من حديث أخرجه الحاكم في مستدركه (93/1) من طريق ابن أبي أويس حدثني أبي عن ثور بن زيد الديلي عن عكرمة عن ابن عباس به مرفوعًا.

وقال الحاكم: ((وقد احتجَّ البخاري بأحاديث عكرمة واحتجَّ مسلم بأبي أويس، وسائر رواته متَّفق عليهم)). ثم ذكر له شاهدًا من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه وهو الحديثُ الآتي تخريجُه.

(2) أخرجه البزار في مسنده (8993)، والدارقطني في سننه (4606)، والحاكم في مستدركه (93/1) من طريق داود بن عمرو نا صالح بن موسى عن عبدالعزيز بن رفيع عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا.

(3) انظر: لسان العرب (ض. ع. ف).

الحديث الضَّعيف في الاصطلاح:

هو ما فقد شرطًا من شروط الحديث المقبول (الصحيح أو الحسن) وهي ستة:

1- العدالة: أي الصدق والتقوىٰ والالتزام الظاهر بأحكام الإسلام.

2- الضبط: هو الدقة في الحفظ والإتقان ثم الاستحضار عند الأداء.

3- اتصال السند: أي كل واحد من الرواة قد تلقَّاه من رواة الحديث حتىٰ النهاية دون إرسال أو انقطاع.

4- عدم الشذوذ: وهو مخالفة الرَّاوي الثِّقة لمن هو أوثقُ منه.

5- عدم وجود العلة القادحة: أي سلامة الحديث من وصف خفي قادح في صحة الحديث والظاهر السلامة منه.

6- العاضدُ عند الاحتياج إليه.

قال الشيخ ابن الصلاح: ((كُلُّ حديثٍ لم يجتمعْ فيه صفاتُ الحديثِ الصَّحيحِ، ولا صفاتُ الحديثِ الحسنِ، فهو حديثٌ ضعيفٌ))[1].

وعلىٰ هذا التَّعريف سار كثيرٌ ممَّن جاء بعده فشرح كلامَه أو اختصره أو هذَّبه.

قال الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني: ((وما مِن صفةٍ من صفات الحَسن إلا وهي إذا انعدمتْ كان الحديثُ ضعيفًا، ولو عبَّر بقوله: كل حديثٍ لم تجتمع فيه صفات القبول لكان أسلم من الاعتراض وأخصر))[2].

وصفاتُ القَبول قد بيَّنها الحافظُ العراقيُّ بقوله: ((صفاتُ ما يُحتجُّ به وهو الصَّحيحُ والحَسن وهىٰ ستة: اتصالُ السَّند أو جبر المرسَل بما يؤكِّده، وعدالة الرِّجال، والسَّلامةُ من

---

(1) معرفة أنواع علوم الحديث - مقدمة ابن الصلاح (ص41) تأليف: عثمان بن عبدالرحمن المعروف بابن الصلاح- تحقيق: نور الدين عِتر- دار الفكر- سوريا، دار الفكر المعاصر- بيروت- 1986م.

(2) النكت علىٰ ابن الصلاح (1/492) للحافظ ابن حجر العسقلاني- تحقيق: ربيع بن هادي عمير- دار الراية- الرياض- الطبعة الثالثة- 1415هـ.

كثْرة الخطأ والغفلة، ومجيءُ الحديث من وجهٍ آخر حيث كان في الإسناد مستورٌ ليس منهما كثيرُ الغلط، والسَّلامة من الشُّذوذ، والسَّلامة من العِلَّة))[1].

وقال الإمام النووي: ((وَهُوَ مَا لَمْ يَجْمَعْ صِفَةَ الصَّحِيحِ أَوِ الْحَسَنِ. ويتفاوتُ ضَعْفُهُ كَصِحَّةِ الصَّحِيحِ، وَمِنْهُ مَا لَهُ لَقَبٌ خَاصٌّ: كَالمَوْضُوعِ، والشَّاذِّ، وَغيرِهما))[2].

قال الإمام السيوطي في تدريب الرَّاوي: ((الضَّعِيفُ: وَهُوَ ما لَمْ يَجْمَعْ صِفَةَ الصَّحِيحِ أَوِ الْحَسَنِ))[3].

وفي المنظومة البيقونية:

وكُلُّ ما عن رُتْبَةِ الحُسنِ قَصَرْ فَهْوَ الضَّعيفُ وَهْوَ أقْسامًا كَثُرْ[4]

أقسام الحديث الضَّعيف:

للحديث الضَّعيف أقسام كثيرة جدًّا، وبلغ بها الحافظ العراقي اثنين وأربعين قسمًا، حيث قال في آخر تقسيمه لها: ((فهذهِ أقسامُ الضَّعيف باعتبارِ الانفرادِ، والاجتماع وقد تركتُ من الأقسامِ التي يظنُّ انقسامُهُ إليها بحسَبِ اجتماعِ الأوصافِ عدَّة أقسامٍ، وهي اجتماعُ الشُّذوذِ، ووجودُ ضعيفٍ أو مجهولٍ أو مستورٍ في سندِهِ؛ لأنَّه لا يمكنُ اجتماعُ ذلك على الصَّحيحِ؛ لأنَّ الشُّذوذَ تفردُ الثقةِ فلا يمكنُ وصفُ ما فيه راوٍ ضعيفٌ، أو مجهولٌ أو مستورٌ بأنَّهُ شاذٌّ، واللهُ أعلمُ))[5].

---

(1) التَّقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح (63/1) للحافظ أبي الفضل عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن العراقي- تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان- المكتبة السلفية- المدينة المنورة- الطبعة الأولى-1969م.

(2) التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير (31/1) للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي- تحقيق: محمد عثمان الخشت- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الأولى- 1985م.

(3) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (195/1) لجلال الدِّين السيوطيِّ- تحقيق: أبي قتيبة نظر محمد الفاريابي- دار طيبة.

(4) المنظومة البيقونيَّة (ص 8) تأليف: عمر بن محمد بن فتوح البيقوني- دار المغني- الطَّبعة الأولى- 1999م.

(5) شرح التبصرة والتذكرة - ألفية العراقي (179/1) تأليف: أبي الفضل عبدالرحيم بن الحسين الحافظ

وعن أقسام الحديث الضَّعيف وكثرتها يقول الإمام السيوطي: ((قال ابنُ الصَّلاحِ: وقد قسَّمَهُ ابنُ حِبَّانَ إلىٰ خمسينَ إلَّا قِسمًا. قال شيخُ الإسلامِ: ولم نقِفْ عليها. ثم قسَّمه ابنُ الصلاح إلىٰ أقسامٍ كثيرةٍ باعتبارِ فَقْد صفةٍ من صفات القبول السِّتَّةِ، وهي الاتِّصالُ والعدالةُ والضَّبطُ والمتابعةُ في المستورِ وعَدمِ الشُّذوذِ وعدم العلَّةِ، وباعتبار فَقْدِ صفةٍ مع صفةٍ أخرىٰ تَلِيها أولًا، أو مع أكثر من صفةٍ إلىٰ أن تفقد الستة. فبلغتْ فيما ذكَرَه العراقيُّ في شرح الألفية اثنيْنِ وأربعينَ قسمًا، ووَصلَه غيرُه إلىٰ ثلاثةٍ وستِّينَ. وجمع في ذلك شيخُنا قاضي القضاة شرف الدين المناوي كرَّاسةً، ونوَّع ما فَقَد الاتِّصالَ إلىٰ ما سقط منه الصحابيُّ، أو واحدٌ غيرُه، أو اثنان، وما فقد العدالةَ إلىٰ ما في سندِه ضعفٌ أو مجهولٌ، وقسَّمَها بهذا الاعتبار إلىٰ مائةٍ وتسعةٍ وعشرين قسمًا باعتبار العقلِ، وإلىٰ واحدٍ وثمانينَ باعتبار إمكانِ الوجودِ، وإن لم يتحقَّقْ وقوعُها، وقد كنتُ أردتُ بسطَها في هذا الشَّرح، ثم رأيتُ شيخَ الإسلام قال: إنَّ ذلك تعبٌ ليس وراءَه أربٌ))[1].

وهذه الأقسامُ والأنواعُ ليستْ واحدةً من حيث الرُّتبةُ، ولكن يُمكِنُ حصرُها في ثلاثةِ أقسامٍ بحسب تقسيمِ أهلِ العِلِم واصطلاحهم في توصيفِ الحديث الضَّعيف:

الأول: الموضوع وهو شَرُّ أنواع الضَّعيفِ (لأنَّه ليس بحديثٍ أصلًا) وهو ما أُضيفَ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ كذبًا من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ، وقد يكونُ ذلك من نسج خيال الرَّاوي الكاذب، أو قولًا لأحد الحُكماء، أو غير ذلك من الأمثال العربيَّة أو الإسرائيليات، سواءٌ أكان ذلك لأغراضٍ سيئةٍ أم حسنةٍ.

الثاني: شديد الضَّعف وهو أخفُّ من سابقِه، وهو ما قِيلَ فيه متهم أو ذاهبُ الحديث، أو منكر أو ساقط، أو ليس بشيءٍ.

العراقي- تحقيق: عبداللطيف الهميم وماهر ياسين فحل- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 2002م.

(1) تدريب الراوي (1/196).

الثالث: الضَّعيف الذي يَنجبرُ بمثلِه، وهو ما كان في سنده سيءُ الحِفظ أو له أوهامٌ أو يَهِم، أو مختلِط، أو ما قيل فيه ضعيف فقط، ونحو ذلك.

ومن فوائدِ هذا التَّقسيمِ لنوعيَّةِ الحديثِ الضَّعيفِ معرفة ما يَنجبرُ وما لا يَنجبرُ، وما له مدخل في العمل في الفضائلِ أو الفِقهِ، وما ليس له مدخلٌ، وكيف تعامَلَ أهل العِلم مع هذه الأنواع من حيث القبولُ والردُّ؟ وما هو الحالُ في هذا القسم ودوره في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ.

الحديثُ الضَّعيف
جزءٌ من السُّنة النبويَّة، وأقوال أهل العِلم في كيفية العمل به

بالنظر إلىٰ السُّنَّة النبويَّة المطهَّرة التي جمعَها أهلُ العِلم في دواوين السُّنَّةِ نجدُ أنَّ منها جزءًا هو الحديث الضَّعيف- غير شديد الضَّعفِ الذي ينجبرُ- ومن خلال استقراءِ كلام أهل العِلم من المحدِّثين ومَن صنَّف في علوم الحديث، وكذا أهلُ الفقه واستنباط الأحكام من حيث بيانُ أقسامِ الحديثِ النبويِّ الشَّريفِ وأنواعه ورُتبتِه، ومن حيثُ استخدامُه في استنباطِ الأحكام نجدُ أنَّهم قد وضعوا منهجًا للتعامل مع هذا الجزء من السُّنَّة النبويَّةِ الواردةِ إلينا من حيث القبولُ والاستخدامُ، وليس من بين هذا المنهجِ فكرةُ الردِّ المطلق لجزءٍ من الشَّريعة الإسلاميَّة، والذي ينادي به بعضُ الطوائف التي تزعمُ النِّسبةَ للسُّنة والعِلم بالرغم من اطِّراحهم لجزءٍ هامٍّ من السُّنة التي بنيت عليها بعض الأحكام في الشَّريعةِ بدعوىٰ أنها أحاديث ضعيفةٌ، ولا ينظرون إلىٰ أيِّ قرينةٍ تشهد لهذه الأحاديث والتي عمل بها علماء الأُمة من قبلُ علىٰ مرِّ الأجيال.

ومن خلال استيعاب هذه المقدِّمة وكذا ما سوف نوردُه من أقوال علماء الأمة والتي يتَّضحُ لنا من خلالها أن هناك منهجًا متكاملًا للمحدِّثينَ والفقهاءِ في التَّعامل مع الحديث الضَّعيف بأنواعِه، وهو المنهجُ المتوارثُ في علماء الأمة الإسلامية والأساسُ في عمل أهل العِلم بالحديث الضَّعيف (غير شديد الضَّعف) في فضائل الأعمال والأحكامِ الفقهية

وغيرها، ومن هنا يتبيَّن لنا ضلال الدَّعوةِ إلىٰ ترك وردِّ جميع الأحاديث الضَّعيفة في الفضائل أو الأحكام بالكليَّةِ ومساواتِه بالباطِل المكذوب، فَمسلكُ أهل العِلم والفقهاء والذي هو مسطورٌ في كتبهم يوضِّح أنَّ للحديث الضَّعيفِ مجالًا شرعيًّا يَدورُ فيه، خاصةً في مجال الفضائل أوَّلًا، وبعد ذلك في مجال الأحكام ثانيًا بشروطٍ وضوابطَ سيأتي الحديثُ عنها، ويخرج عن هذا الحديثُ الموضوع والشَّديد الضَّعف فهما خارج هذه الدائرةِ وليسا موضعًا للكلامِ.

ولإثباتِ وُجودِ هذا المنهج وبيانِ سماتِه نعرضُ نماذجَ من أقوال أهل العِلمِ من أهل الحديث والفِقهِ عن الحديث الضَّعيف والعملِ به بما يفنِّدُ منهجَ ودعاوىٰ تَرْكِ العملِ بالحديث الضَّعيفِ، والتي يترتبُ عليها خللٌ في المنظومة الفقهيَّةِ بالإضافةِ إلىٰ حرمان المسلمينَ من جانبٍ كبيرٍ من السُّنة فيما يتعلَّق ببعض الفضائلِ والمواعظ:

- يقولُ الإمامُ ابن الصَّلاحِ في مقدمتِه: «يَجوزُ عند أهلِ الحديثِ وغيرِهم التَّساهلُ في الأسانيدِ ورواية ما سوىٰ الموضوعِ من أنواع الأحاديثِ الضَّعيفةِ من غير اهتمامٍ ببيان ضعفِها، فيما سوىٰ صفاتِ الله تعالىٰ وأحكامِ الشَّريعةِ من الحلالِ والحرامِ وغيرِها، وذلك كالمواعظ، والقَصص، وفضائل الأعمالِ، وسائر فنون التَّرغيب والتَّرهيبِ، وسائر ما لا تعلُّق له بالأحكامِ والعقائد. وممَّن روينا عنه التَّنصيص علىٰ التَّساهل في نحو ذلك عبدُالرحمن بن مهدي وأحمدُ بن حنبل رضي الله عنهما»[1].

قال الحافظُ ابنُ حجر العسقلانيُّ في دفاعه عن مسندِ الإمام أحمد فيما عدَّه ابنُ الجوزيِّ من الأحاديث الموضوعةِ فيه بما يوضِّح موقفَه من العمل بالحديثِ الضَّعيفِ، وهو مَن هو في منزلتِه في عِلم الحديث: «ثمَّ نشرع الآن في الجوابِ عن الأحاديث التِّسعة التي أوردهَا واقتصرَ عليها ونُجيبُ عنها أولًا من طريق الإجمالِ بأن الأحاديثَ التي ذكرها ليس فيها

---

(1) مقدمة ابن الصلاح (ص103).

شيءٌ من أحاديثِ الأحكامِ في الحلال والحرامِ والتَّساهل في إيرادِها مع ترك البيانِ بحالها شائعٌ، وقد ثَبَتَ عن الإمام أحمد وغيرِه من الأئمَّة أنَّهم قالوا: إذا روينا في الحلال والحرام شدَّدنا، وإذا روينا في الفضائلِ ونحوِها تساهلنا، وهكذا حالُ هذه الأحاديثِ))[1].

وكذلك قال رحمه الله في النُّكت على مقدمة ابن الصَّلاح: ((وقد صرَّح أبو الحسن ابن القطَّان- أحدُ الحفاظ النُّقاد من أهل المغرب في كتابه ((بيان الوهم والإيهام)) بأن هذا القسم لا يحتجُّ به كلِّه، بل يُعمل به في فضائل الأعمالِ، ويتوقَّف عن العملِ به في الأحكام إلَّا إذا كثرت طُرُقُه، وعضَّده اتصالُ عملٍ، أو موافقةُ شاهدٍ صحيح، أو ظاهر القرآن. وهذا حسنٌ قويٌّ رائقٌ ما أظنُّ منصفًا يأباه، والله الموفِّق))[2].

- وعن هذا الأمر يقولُ الإمام النَّووي رحمه الله: ((الرَّابعُ: أنَّهم قد يروونَ عنهم أحاديثَ التَّرغيب والتَّرهيب وفضائل الأعمال والقَصص وأحاديث الزُّهد ومكارم الأخلاق، ونحو ذلك مما لا يتعلَّق بالحلال والحرام وسائر الأحكام، وهذا الضَّربُ من الحديث يجوز عند أهلِ الحديث وغيرِهم التَّساهل فيه ورواية ما سوى الموضوع منه والعمل به؛ لأنَّ أصول ذلك صحيحةٌ مقررةٌ))[3].

- وقال كذلك: ((ويجوز عند أهلِ الحديث وغيرِهم التساهلُ في الأسانيد ورواية ما سوى الموضوع من الضَّعيف، والعملُ به من غير بيانِ ضعفِه في غير صفاتِ الله تعالى والأحكامِ كالحلال والحرام، ومما لا تعلُّق له بالعقائدِ والأحكامِ))[4].

- وقال في كتابه الإرشاد: ((يجوزُ عند أهل الحديثِ وغيرِهم التَّساهلُ في الأسانيدِ

---

(1) القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد (11/1) تأليف: أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني- مكتبة ابن تيميَّة- القاهرة- الطبعة الأولى- 1401 هـ.

(2) النكت على ابن الصلاح (402/1).

(3) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (125/1) تأليف: محيي الدين يحيى بن شرف النووي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثانية- 1392هـ.

(4) التَّقريب والتَّيسير لمعرفة سنن البشير النَّذير (48/1).

ورواية ما سوىٰ الموضوعِ من أنواع الضَّعيفِ من غير اهتمامٍ ببيانِ ضعفِها، ويجوزُ العمل بها فيما سوىٰ صفاتِ الله وأحكامِ الشَّرع من الحلال والحرام وغيرِها، وذلك كالمواعظ والقَصصِ وفضائل الأعمال وسائر فنون التَّرغيب والتَّرهيب وما لا تعلُّق له بالأحكام والعقائدِ))[1].

- وكذلك قال رحمه الله في مقدِّمة كتابه الأذكارِ: ((فصل في حُكم العمل بالحديث الضَّعيف في الفضائل والتَّرغيب والتَّرهيب:

قال العلماءُ من المحدِّثين والفقهاء وغيرهم: يجوز ويُستحبُّ العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضَّعيف ما لم يكن موضوعًا. وأما الأحكام، كالحلال والحرام والبيع والنِّكاح والطَّلاق وغير ذلك؛ فلا يُعْمَل فيها إلا بالحديث الصحيح أو الحسن إلا أن يكون في احتياطٍ في شيءٍ من ذلك، كما إذا وردَ حديثٌ ضعيفٌ بكراهة بعض البيوع أو الأنكحة، فإن المستحبَّ أن يتنزَّه عنه، ولكن لا يجب. وإنَّما ذكرتُ هذا الفصل؛ لأنَّه يجيءُ في هذا الكتاب أحاديثُ أنُصُّ علىٰ صحَّتها أو حسنها أو ضعفها، أو أسكتُ عنها لذهول عن ذلك أو غيرِه، فأردتُ أن تتقرَّر هذه القاعدة عند مُطالِعِ هذا الكتاب))[2].

وقال كذلك في الأذكار عند تعليقه علىٰ حديث: ((مَن قام لَيلتَي العيدِ محتسبًا لله لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ حينَ تَمُوتُ القُلُوبُ))[3]؛ هكذا جاء في رواية الشافعي، وابن ماجه وهو حديثٌ

---

(1) إرشاد طلاب الحقائق إلىٰ معرفة سنن خير الخلائق (270/1) تأليف: محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي- تحقيق: عبدالباري فتح الله السلفي- مكتبة الإيمان- المدينة المنورة- الطَّبعة الأولىٰ- 1987م.

(2) الأذكار (36/1) تأليف: محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي- دار ابن حزم- الطبعة الأولىٰ-2004م.

(3) رُوِيَ هذا الخبرُ مرفوعًا وموقوفًا؛ أمَّا المرفوعُ فأخرجه ابن ماجه في كتاب الصِّيام، باب فيمَنْ قام ليلتي العيد (1782) من طريق ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أبي أمامةَ رضي الله عنه به.

وأمَّا الموقوفُ؛ فأخرجه الشَّافعيُّ في الأم (485/2) من طريق ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أبي الدَّرداءِ رضي الله عنه به.

ضعيفٌ، رويناهُ من رواية أبي أمامة مرفوعًا وموقوفًا، وكلاهما ضعيفٌ، لكن أحاديثَ الفضائل يُتسامح فيها كما قدَّمناه في أول الكتاب))[1].

وقال رحمه الله في المجموعِ: ((قال العلماءُ: الحديثُ ثلاثةُ أقسامٍ صحيحٌ وحسنٌ وضعيفٌ. قالوا: وإنما يجوز الاحتجاج من الحديث في الأحكام بالحديث الصَّحيح أو الحسن، فأما الضَّعيف فلا يجوز الاحتجاج به في الأحكام والعقائد، وتجوز روايتُه والعمل به في غير الأحكام كالقَصص وفضائلِ الأعمالِ والتَّرغيبِ والترهيب))[2].

وقالَ الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله في مَعرِضِ تَعليقِه على حديث أبي سعيدٍ ﷺ في وصيَّةِ النَّبي ﷺ بطلبة العِلم: ((قد ضعَّف الجمهور أبا هارون العبديَّ، ولكنَّ هذا الحديثَ من بابِ الفضائلِ، وقد اتَّفق أهلُ الحديث وغيرُهم على العمل في الفضائِلِ ونحوِها من القَصص وشبهِها مما ليسَ فيه حكمٌ ولا شيءٌ من العقائِدِ وصفاتِ الله تعالى بالحديثِ الضَّعيفِ))[3].

وذكر الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله بِسَندِه عن الإمام أحمدَ بنِ حنبل قال: ((إذا رُوِّينا عن رسولِ الله ﷺ في الحلالِ والحرامِ والسُّنن والأحكامِ تشدَّدْنا في الأسانيدِ، وإذا رُوِّينا عَنِ النَّبيِّ ﷺ في فضائل الأعمال وما لا يَضعُ حُكمًا ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيدِ)).

وقالَ أيضًا: حدثتُ عن عبدالعَزيزِ بن جعفرٍ قال: أخبرنا أبو بكرٍ أحمدُ بن محمد بن هارونَ الخلال قال: أخبرني الميمونيُّ قال: سمعتُ أبا عبدالله يقول: الأحاديث الرقاق يحتملُ أن يتساهل فيها حتَّى يجيءَ شيءٌ فيه حكمٌ.

أخبرنا محمد بن أحمدَ بنِ يعقوب قالَ: أخبرنا محمد بن نُعيمٍ النيسابوريُّ قال: سمِعتُ أبا

---

(1) الأذكار (301/1).

(2) المجموع شرح المهذَّب (59/1) تأليف: محيي الدين يحيى بن شرف النووي- المطبعة المنيريَّة- القاهرة.

(3) الترخيص بالقيام لذوي الفضل والميزة من أهل الإسلام (ص17) تأليف: محيي الدين يحيى بن شرف النووي- مكتبة العلوم العصرية- القاهرة.

زكريا العنبريُّ يقول: الخبرُ إذا وَرد لم يُحرِّمْ حلالًا ولم يحِلّ حرامًا، ولم يُوجِبْ حكمًا، وكان في ترغيبٍ أو ترهيبٍ، أو تشدِيدٍ أو ترخِيصٍ، وجب الإغماضُ عنه والتّساهلُ في روايته))[1].

وقد نقلَ الخطيبُ البَغداديُّ رحمَه الله طائفةً من أقوالِ أهل العِلم الكرام عن مسلكِ أهل العلم في تعامُلهم مع نصوص السُّنة النبويَّةِ فقال:

((وَينبغِي لِلمحدِّثِ أن يتشدَّدَ في أحاديثِ الأحكامِ التي يفصِلُ بها بين الحلالِ والحرامِ فلا يَرْويها إلَّا عن أهل المعرفةِ والحِفظِ وذَوِي الإتقانِ والضَّبطِ، وأمَّا الأحاديثُ التي تتعلَّق بفضائِلِ الأعمالِ وما في معناها فيحتملُ روايتَها عن عامَّةِ الشيوخِ. وكان سفيان الثَّوريُّ يقول: ((خُذُوا هذهِ الرَّغائِبَ وهذهِ الفضائلَ من المشيخةِ، فأمَّا الحلالُ والحرامُ فلا تأخذُوه إلَّا عمَّن يعرِفُ الزِّيادةَ فِيهِ مِن النَّقْصِ. وقال محمدُ بن إسحاق بنِ راهويهِ: كان أبِي يحكِي عن عبدِالرحمنِ بنِ مَهدِي أنَّه كان يقولُ: ((إذا روينا في الثَّوابِ والعِقابِ وفضائلِ الأعمالِ تساهلنا فِي الأسانِيدِ والرجالِ، وإذا روينا فِي الحلالِ والحرامِ والأحكامِ تشدَّدنا فِي الرِّجالِ))[2].

ويقول الخطيب البغدادي تحتَ عنوان: ما لا يفتقر كَتْبُه إلىٰ الإسنادِ: ((وأمَّا أخبارُ الصَّالحينَ وحكايات الزُّهاد والمتعبِّدينَ ومواعظ البُلغاء وحِكَمُ الأدباءِ فالأسانيدُ زينةٌ لها وليستْ شرطًا في تأديتِها))[3].

وعن هذا المسلكِ في قبول الحديثِ الضَّعيف والعمل به يقول ابنُ قدامة المقدسيُّ

---

(1) الكفاية في معرفة أصول علم الرواية (134/1) تأليف: أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي- تحقيق أبي عبدالله السورقي، إبراهيم حمدي المدني- المكتبة العلمية - المدينة المنورة.

(2) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (91/2) تأليف: الخطيب البغدادي- تحقيق: د. محمود الطحان- مكتبة المعارف — الرياض 1403هـ.

(3) الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع (213/2).

الحنبليُّ في المغني: ((فإنَّ النَّوافلَ والفضائلَ لا يُشترطُ صحَّةُ الحديثِ فِيهَا))[1].

وقال الحافظُ العراقي في شرحه على ألفيَّته:

((وَسَهَّلُوا في غَيْرِ مَوْضُوعٍ رَوَوْا   مِنْ غَيْرِ تَبْيِينٍ لِضَعْفٍ وَرَأَوْا

بَيَانَهُ في الحُكْمِ والعقائِدِ   عَنِ ابنِ مَهْدِيٍّ وَغَيْرِ واحِدِ

تقدَّمَ أنَّهُ لا يجوزُ ذِكرُ الموضوعِ إلَّا مع البيانِ في أيِّ نوعٍ كان، وأمَّا غيرُ الموضوعِ فجوَّزوا التساهُلَ في إسنادِهِ وروايتِهِ من غيرِ بيانٍ لضَعْفِهِ إذا كانَ في غيرِ الأحكامِ والعقائدِ؛ بل في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ من المواعِظِ والقِصَصِ، وفضائلِ الأعمالِ، ونحوِها. أمَّا إذا كانَ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ من الحلالِ والحرامِ وغيرِهما، أو في العقائدِ كصفاتِ الله تعالى، وما يجوزُ ويستحيلُ عليه، ونحوِ ذلكَ- فلم يَرَوُا التَّساهُلَ في ذلك. ومِمَّنْ نصَّ على ذلك من الأئمَّةِ عبدُالرحمنِ بنُ مهديٍّ، وأحمدُ بنُ حنبل، وعبدُالله بنُ المباركِ، وغيرُهُمْ. وقد عقدَ ابنُ عديٍّ في مقدِّمةِ ((الكاملِ)) والخطيبُ في ((الكفايةِ)) بابًا لذلكَ))[2].

- قال ابن مُفلح الحنبليُّ رحمه الله في الآداب الشَّرعية: ((فصلٌ في العمل بالحديث الضَّعيفِ وروايته والتَّساهل في أحاديث الفضائلِ دون ما تَثْبُتُ به الأحكامُ والحلال والحرام والحاجة إلى السُّنة وكونها بيانًا للقرآن يجب اتِّباعُه، ولأجل الآثار المذكورةِ في الفصل قبل هذا ينبغي الإشارةُ إلى ذِكر العمل بالحديث الضَّعيفِ، والذي قطع به غير واحد مِمَّنْ صنَّفَ في علوم الحديثِ حكايةً عن العُلماء أنه يُعمل بالحديث الضَّعيفِ فيما ليس فيه تحليلٌ ولا تحريمٌ كالفضائلِ، وعن الإمام أحمدَ ما يوافق هذا))[3].

(1) المغني شرح مختصر الخرقي (438/1) تأليف: ابن قدامة المقدسي- دار إحياء التراث العربي- الطَّبعة الأولى- 1405هـ.

(2) ألفية العراقي (325/1).

(3) الآداب الشرعيَّة والمنح المرعيَّة (285/2) تأليف: أبي عبدالله محمد بن مفلح- تحقيق: شعيب الأرناءوط، وعمر القيام- مؤسسة الرسالة- بيروت- 1996م.

- وجاءَ في ((شرح علل الترمذي)) للحافظِ ابن رجب الحنبليِّ رحمه الله ما نصُّه: ((فقد رخَّص كثيرٌ من الأئمَّة في رواية الأحاديثِ الرِّقاق ونحوِها عن الضُّعفاء، منهم: ابنُ مهدي وأحمد بن حنبل. وقال رواد بن الجرَّاح: سمعتُ سفيانَ الثَّوريَّ يقول: لا تأخذُوا هذا العِلم في الحلالِ والحرام إلا من الرُّؤساء المشْهورينَ بالعِلم الذينَ يعرفونَ الزِّيادةَ والنُّقصانَ، ولا بأسَ بما سِوَىٰ ذلك من المشايخ. وقال ابنُ أبي حاتم: ثنا أبي ثنا عبدة قال: قيل لابنِ المبارك- وروىٰ عنْ رجلٍ حديثًا- فقِيلَ: هذا رجلٌ ضعيفٌ. فقال: يُحتملُ أن يُروىٰ عنه هذا القَدْرُ، أو مثل هذه الأشياءِ. قلت لعبدةَ: مثل أيِّ شيء كان؟ قال: في أدبٍ، في موعظةٍ، في زهدٍ.

وقال ابن معين في موسىٰ بن عبيدة: يُكتب من حديثِه الرقاق. وقال ابن عيينة: لا تسمعُوا من بقِيةَ ما كان في سُنَّةٍ، واسمعوا مِنه ما كان في ثوابٍ وغيرِه.وقالَ أحمدُ في ابن إسحاق: يُكتبُ عنه المغازي وشبهها. وقال ابنُ معين في زياد البكَّائيِّ: لا بأس به في المغازي، وأما في غيرِها فلا، وإنَّما يُروىٰ في التَّرهيبِ والتَّرغيبِ والزُّهد والآدابِ أحاديثُ أهل الغفلةِ الذين لا يُتهمونَ بالكذبِ، فأما أهل التُّهَمة فيُطرح حديثُهم، كذا قال ابن أبي حاتم وغيرُه))[1].

- قال الإمام شمسُ الدين السَّخاوي في ((فتح المغيث)) ما نصه: (((وَسَهَّلُوا فِي غَيْرِ مَوْضُوعٍ رَوَوْا) حيث اقتصروا علىٰ سِياقِ إسنادِه (مِن غيرِ تبيينٍ لِضعفٍ) لكِن فيما يكون في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ من المواعِظِ، والقصصِ، وفضائلِ الأعمالِ، ونحوِ ذلك خاصة (ورأوْا بيانَه) وعدمَ التَّساهلِ في ذلك، ولو ساقوا إسنادَه (في) أحاديث (الحُكم) الشَّرعِيِّ مِن الحلالِ والحرامِ وغيرِهِما (و) كذا في العقائِدِ كصِفاتِ الله تعالىٰ، وما يجوزُ له، ويستحِيل عليه، ونحوِ ذلِك، ولِذا كان ابنُ خزيمةَ وغيره مِن أهل الديانةِ إذا روىٰ حدِيثًا ضعِيفًا قال: حدَّثَنا فلانٌ مع

(1) شرح علل الترمذي (372/1) تأليف: عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي- تحقيق: د/همام عبدالرحيم سعيد- مكتبة المنار- الأردن- الطبعة الأولىٰ- 1987م.

البراءةِ مِن عهدتِه، وربَّما قال هو والبيهقيُّ: إِنْ صحَّ الخبرُ. وهذا التَّساهُلُ والتشدِيدُ منقولٌ (عنِ ابنِ مهدِي) عبدِالرحمنِ (وغيرِ واحِدٍ) مِن الأئِمَّةِ كأحمدَ بنِ حنبلٍ، وابنِ معِينٍ، وابنِ المباركِ، والسُّفيانَينِ؛ بحيث عقدَ أبو أحمد بن عدِي في مقدمةِ كاملِه، والخطِيب في كِفايتِه لذلك بابًا.

وقال ابنُ عبدِالبرِّ: أحاديثُ الفضائلِ لا يُحتاجُ فِيها إِلىٰ من يُحتجُّ به. وقال الحاكمُ: سمعتُ أبا زكريا العنبريَّ يقول: الخبرُ إذا وردَ لم يحرِّم حلالًا ولم يحِل حرامًا، ولم يُوجِبْ حكمًا، وكان في ترغيبٍ أو ترهيبٍ أَغمِض عنه، وتسهَّل في رُواتِه. ولفظ ابنِ مهدِي فيما أخرجه البيهقيُّ في المدخل: إذا روينا عن النبيِّ ﷺ في الحلالِ والحرامِ والأحكامِ شدَّدنا في الأسانيدِ وانتقدنا في الرِّجالِ، وإذا روينا في الفضائلِ والثَّوابِ والعِقابِ سهَّلنا في الأسانيدِ وتسامحنا في الرِّجالِ.

ولفظُ أحمد في رِوايةِ الميموني عنه: الأحاديثُ الرقائِق يُحتملُ أن يتساهل فِيها حتىٰ يجِيء شيءٌ فيه حكمٌ. وقال في رِوايةِ عباسٍ الدُّورِيِّ عنه: ابن إسحاق رجلٌ تكتب عنه هذهِ الأحاديث- يعني: المغازي- ونحوها، وإذا جاء الحلالُ والحرامُ أردنا قومًا هكذا- وقبض أصابعَ يديهِ الأربع- لكِنَّه احتجَّ رحِمه الله بالضَّعيفِ حيث لم يكن في البابِ غيرُه، وتبِعه أبو داود وقدَّماه علىٰ الرأيِ والقِياسِ، ويُقالُ عن أبي حنيفة أيضًا ذلك، وأن الشَّافعيَّ يحتجُّ بالمرسلِ إذا لم يجِد غيرَه كما سلف كلُّ ذلِك في أواخرِ الحسنِ. وكذا إِذا تلقَّتِ الأمةُ الضَّعيفَ بالقَبُولِ يُعمل بِهِ علىٰ الصَّحيحِ حتَّىٰ إنَّه ينزلُ مَنزلةَ المتواترِ في أنَّه يَنسخ المقطوعَ بِهِ؛ ولهذا قالَ الشَّافعيُّ رحمه الله في حديثِ: «لا وصِيَّةَ لِوَارِثٍ»[1]. إنَّه لا

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث (2870)، والترمذي في كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث (2120)، وابن ماجه في كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث (2713)، والطيالسي في مسنده (1223)، وأحمد في مسنده (267/5) من طريق إسماعيل بن عيَّاش قال: حدثنا شُرَحْبيل بن مسلم الخَوْلاني عن أبي أمامة الباهلي ﷺ به مرفوعًا.

وقال الترمذي: «حديث حسن». وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (142/2) «قال الترمذي: حسن. قلت: فيه إسماعيل بن عياش وهو مختلف في الاحتجاج به، وقال أحمد والبخاري وغيرُهما: ما رواه عن أهل الشام

يثبته أهلُ الحدِيثِ، ولكِن العامَّة تلقَّته بِالقبولِ، وعمِلوا به حتىٰ جعلوه ناسِخًا لِآيةِ الوصِيةِ لَه))[1].

- قال الإمام ابن حجر الهيتميُّ: ((قدِ اتَّفق العلماءُ علىٰ جواز العملِ بالحديثِ الضَّعيف في فضائل الأعمال[2]؛ لأنَّه إن كان صحيحًا في نفس الأمر فقد أُعطيَ حقَّه من العمل به، وإلَّا لم يترتب علىٰ العملِ به مفسدةُ تحليلٍ ولا تحريمٍ ولا ضياعُ حقٍّ للغير))[3].

وقال رَحِمَه الله عند حكايةِ النَّوويِّ الاتِّفاقَ علىٰ قبولِ الحديثِ الضَّعيفِ في الفضائل: ((أشارَ المصنِّفُ بحكاية الاتِّفاقِ علىٰ ما ذكَرَه إلىٰ الرَّدِّ علىٰ مَن نازَعَ فيه بأنَّ الفضائلَ إنما تُتلقَّىٰ من الشَّارعِ فإثباتُها بما ذكر اختراعُ عبادةٍ وشرع في الدِّين لم يأذن به الله. ووجه ردِّه أنَّ الإجماعَ لكونه قطعيًّا تارةً وظنيًّا ظنًّا قويًّا أخرىٰ لا يُرد بمثل ذلك لو لم يكن عنه جوابٌ، فكيف وجوابه واضحٌ؟! إذ ليس من باب الاختراع والشرع المذكورين، وإنَّما هو من باب ابتغاء فضيلةٍ ورجائِها بأمارةٍ ضعيفةٍ من غير ترتُّب مفسدة عليه))[4].

وقال في الفتاوىٰ الحديثيَّة: ((وَلَا يضرُّ أن في بعض أحاديثها ضعفًا؛ لِأَن الحَدِيث الضَّعِيف والمرسَلَ والمعضل والمنقطع يُعْمل به في فضائلِ الأعمالِ اتِّفاقًا بل إجماعًا علىٰ ما فيه))[5].

صحيح. قلت: وقد رواه عن شُرَحْبيل بن مسلم وهو حِمصي من أهل الشام ثقة)).

(1) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي (350/1) تأليف: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي- تحقيق: علي حسين علي- مكتبة السنة- مصر-الطبعة الأولىٰ: 1424هـ - 2003م.

(2) هذه الجملة من كلام الإمام النووي رحمه الله.

(3) الفتح المبين بشرح الأربعين (109/1) تأليف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي- دار المنهاج- جدة- المملكة العربية السعودية- الطبعة الأولىٰ- 2008م.

(4) المصدر السابق نفس الموضع.

(5) الفتاوىٰ الحديثية (96/1) تأليف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي- دار الفكر.

وقال رحمه الله في الفتاوىٰ الفقهيَّة الكبرىٰ: ((والظَّاهِر أنَّ المأثور عنه ﷺ لا فرق فيه بين أن يصِحَّ سندُه أو لا؛ لأنَّ الحديث الضَّعيفَ والمرسَلَ والمنقطِع يُعمل بهِ في فضائلِ الأعمالِ اتِّفاقًا كما في المجموع))[1].

وقال رحمه الله في تطهير اللسان والجَنان: ((فإن قلتَ: هذا الحديثُ المذكورُ سندُه ضعيفٌ فكيف يُحتجُّ به؟ قلت: الذي أطبق عليه أئمَّتُنا الفقهاءُ والأصوليُّونَ والحفَّاظ أن الحديثَ الضَّعيف حُجةٌ في المناقب، كما أنه تمَّ بإجماع مَن يُعتد به، حجة في فضائل الأعمالِ، وإذا ثَبتَ أنَّه حجةٌ في ذلك، لم يبقَ شبهةٌ لمعاندٍ))[2].

بل قد ذهبَ ابنُ تيميَّة رحمه الله- والذي هو من المعتبرينَ المتبوعِينَ عند مَن يزعم النِّسبةَ للسلف الصالح ويحملون لواءَ دعوىٰ عدم العمل بالحديثِ الضَّعيف- إلىٰ القولِ بكلامٍ قَريبٍ من كلام هؤلاء العلماء القائلينَ بجوازِ العملِ بالحديثِ الضَّعيفِ في فضائلِ الأعمال بالشُّروط السَّابقةِ فقال: ((فإذا رُوي حديثٌ في فضل بعض الأعمالِ المستحبَّة وثوابها وكراهة بعض الأعمال وعقابها فمقاديرُ الثَّواب والعقابِ وأنواعِه إذا رُويَ فيها حديثٌ لا نعلمُ أنَّه موضوعٌ جازتْ رِوَايتُه والعملُ به، بمعنىٰ أن النَّفسَ ترجو ذلكَ الثوابَ أو تخاف ذلك العقاب؛ كرجلٍ يَعلمُ أنَّ التجارةَ تربح لكن بلغَه أنها تربحُ ربحًا كثيرًا فهذا إن صدق نفعه وإن كذب لم يضرَّه.

ومثال ذلك التَّرغيب والترهيب بالإسرائيليات والمنامات وكلمات السَّلف والعلماء، ووقائع العلماء، ونحو ذلك ممَّا لا يجوزُ بمجرَّده إثباتُ حكمٍ شرعيٍّ؛ لا استحباب ولا غيره، ولكن يجوزُ أن يُذكر في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ والتَّرجيةِ والتَّخويف. فما عُلم حُسنُه أو قبحُه بأدلة الشَّرع فإنَّ ذلك ينفع ولا يضرُّ وسواءٌ كان في نفس الأمر حقًّا أو باطلًا، فما عُلم أنه

---

(1) الفتاوىٰ الفقهية الكبرىٰ (2/116) تأليف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي.

(2) تطهير الجنان واللسان عن ثلب معاوية بن أبي سفيان مع المدح الجلي وإثبات الحقِّ لعليٍّ (ص 55) تأليف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي- دار الصحابة للتراث- مصر- الطَّبعة الأولىٰ- 1413هـ.

باطلٌ موضوعٌ لم يجز الالتفاتُ إليه، فإنَّ الكذب لا يُفيد شيئًا وإذا ثبتَ أنَّه صحيحٌ أُثبتتْ به الأحكامُ، وإذا احتملَ الأمرين رُوي لإمكانِ صِدقِه ولعدم المضرَّةِ في كذبِه، وأحمد إنَّما قال: إذا جاءَ التَّرغيبُ والترهيبُ تساهلنا في الأسانيد. ومعناه: أنَّا نروي في ذلك بالأسانيدِ وإنْ لم يكن محدِّثوها من الثِّقات الذين يُحتجُّ بهم))[1].

وقال أيضًا: ((ولهذا كانوا يسهِّلون في أسانيدِ أحاديث التَّرغيبِ والتَّرهيبِ ما لا يسهِّلون في أسانيدِ أحاديثِ الأحكامِ؛ لأنَّ اعتقادَ الوعيد يحمل النُّفوس على التَّركِ فإن كان ذلك الوعيدُ حقًّا كان الإنسانُ قد نجا، وإن لم يكنِ الوعيدُ حقًّا بل عقوبةُ الفعل أخفُّ من ذلك الوعيد لم يضرَّ الإنسانَ إذا ترك ذلك الفِعلَ خطؤُه في اعتقادِه زيادةَ العقوبة؛ لأنَّه إنِ اعتقد نقصَ العقوبةِ فقد يُخطئ أيضًا، وكذلك إن لم يَعتقِدْ في تلكَ الزِّيادةِ نفيًا ولا إثباتًا فقد يُخطئُ، فهذا الخطأُ قد يُهوِّنُ الفعلَ عنده فيقعُ فيه فيستحقُّ العقوبةَ الزَّائدةَ إن كانتْ ثابتةً أو يقوم به سبب استحقاقِ ذلك. فإذنِ الخطأُ في الاعتقاد على التَّقديريْنِ تقديرِ اعتقادِ الوَعيدِ وتقدير عدمه سواءٌ والنَّجاة من العذاب على تقدير اعتقاد الوعيد أقربُ، فيكون هذا التَّقدير أولَى))[2].

وقال رحمه الله: ((ولا يجوز أن يُعتمد في الشَّريعة على الأحاديثِ الضَّعيفةِ التي ليستْ صحيحةً ولا حسنةً لكن أحمد بن حنبلٍ وغيرَه من العلماء جوزوا أن يُروى في فضائِلِ الأعمالِ ما لم يُعلم أنَّه ثابتٌ إذا لم يُعلم أنه كذبٌ. وذلك أن العملَ إذا عُلم أنه مشروعٌ بدليلٍ شرعيٍّ ورُوِيَ في فضله حديثٌ لا يُعلم أنه كذبٌ جاز أن يكون الثَّوابُ حقًّا، ولم يقل أحدٌ من الأئمَّة: إنه يجوز أن يُجعل الشيء واجبًا أو مستحبًّا بحديث ضعيفٍ، ومن قال هذا فقد خالف الإجماعَ، وهذا كما أنه لا يجوزُ أنْ يحرم شيءٌ إلا بدليلٍ شرعيٍّ لكن

(1) مجموع الفتاوى (66/18) تأليف: أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق: عبدالرحمن محمد قاسم- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية- المملكة العربية السعودية- 1995م.

(2) المصدر السابق (262/20).

إذا علم تحريمُه ورُوِيَ حديثٌ في وعيد الفاعل له ولم يعلم أنه كذبٌ جاز أن يرويه فيجوز أن يُروَىٰ في التَّرغيبِ والترهيب ما لم يعلم أنَّه كذبٌ، لكن فيما عُلِمَ أن الله رغَّب فيه أو رهَّبَ منه بدليلٍ آخرَ غير هذا الحديثِ المجهول حاله. وهذا كالإسرائيليَّاتِ يجوزُ أن يُروَىٰ منها ما لم يُعلم أنه كذبٌ للترغيبِ والتَّرهيبِ فيها عُلِمَ أنَّ الله تعالىٰ أَمر به في شَرعِنا ونهىٰ عنه في شرعِنا))[1].

وفي فتاوىٰ الإمام الرَّملي: ((سُئِل عن معنىٰ قولهم: يُعمل بالحديثِ الضَّعيفِ في فضائلِ الأعمال هل معناه إثباتُ الحكمِ به؟ وإذا قلتُم معناه ذلك فما الجوابُ عن قول ابن دقيق العيد في كلامٍ علىٰ شروطِ العمل بالحديثِ، وأن لا يلزم عليه إثبات حكمٍ؟ فأجابَ: بأنه قد حكىٰ النَّوويُّ في عدةٍ من تصانيفِه إجماعَ أهل الحديث علىٰ العمل بالحديث الضَّعيف في الفضائل ونحوِها خاصةً. وقال ابنُ عبدالبرِّ: أحاديثُ الفضائل لا يحتاجُ فيها إلىٰ مَن يُحتجُّ به. وقال الحاكمُ: سمعتُ أبا زكريا العنبريَّ يقول: الخبرُ إذا ورد لم يُحرِّم حلالًا ولم يُحلِّل حرامًا ولم يُوجب حُكمًا وكان فيه ترغيبٌ أو ترهيبٌ أُغمض عنه وتُسوهلَ في روايتِه. ولفظُ ابن مهدي- فيما أخرجَه البيهقيُّ في المدخلِ- إذا رُوِّينا عن النبيِّ ﷺ في الحلال والحرامِ والأحكام شدَّدنا في الأسانيدِ وانتقدنا في الرِّجالِ، وإذا رُوِّينا في الفضائلِ والثَّوابِ والعقابِ سهَّلنا في الأسانيدِ وتسامحنا في الرجالِ. ولفظُ الإمام أحمد في رواية الميمونيِّ عنه: الأحاديثُ الرَّقائق يُحتمل أن يُتساهلَ فيها حتىٰ يجيءَ شيءٌ فيه حكمٌ. وقال في رواية عياشٍ عن ابن إسحاق: رجلٌ نكتبُ عنه هذه الأحاديثَ يعني المغازي ونحوَها، وإذا جاء الحلالُ والحرامُ أردنا قومًا هكذا وقبضَ أصابع يديه الأربع. وقد عُلِم أنَّ كلامَ ابنِ دقيق العيد موافقٌ لكلامِ الأئمَّةِ وهو خارجٌ بقولهم من فضائِلِ الأعمال، وعُلِم أيضًا أن المراد الأعمال، وعُلِم أيضًا أن المراد بفضائل الأعمال التَّرغيب

(1) مجموع الفتاوىٰ (1/251).

والترهيب، وفي معناها القَصص ونحوُها))[1].

وفي إحكام الأحكام لابن دقيق العيد كلامٌ جيِّد حول دور الحديث الضَّعيف والعمل به فيقول رحمه الله: ((الحقُّ والله أعلم في هذا الباب أعني ما ورد في أحاديث بالنِّسبة إلىٰ التَّطوعات والنَّوافل المُرسلة أنَّ كلَّ حديث صحيحٍ دلَّ علىٰ استحباب عددٍ من هذه الأعداد أو هيئة من الهيئات أو نافلةٍ من النَّوافل يُعمل به في استحبابِه، ثم تختلفُ مراتبُ ذلك المستحب؛ فما كانَ الدليل دالًّا علىٰ تأكُّده- إما بملازمتِه فعلًا أو بكثرة فعلِه وإمَّا بقوة دلالة اللَّفظِ علىٰ تأكُّد حُكمِه، وإما بمعاضدة حديثٍ آخرَ له أو أحاديثَ فيه- تعلُو مرتبتُه في الاستحبابِ، وما يقصُرُ عن ذلك كان بَعده في المرتبة، وما ورد فيه حديثٌ لا ينتهي إلىٰ الصِّحة؛ فإنْ كان حسنًا عُمل به إنْ لم يُعارضه صحيحٌ أقوىٰ منه وكانت مرتبتُه ناقصةً عن هذه المرتبة الثانية؛ أعني الصحيح الذي لم يدم عليه أو لم يؤكد اللفظ في طلبه، وما كان ضعيفًا لا يَدخُلُ في حيِّزِ الموضوعِ فإن أحدث شعارًا في الدين مُنع منه، وإن لم يحدث فهو محلُّ نظرٍ يُحتمل أن يقال: إنه مستحبٌّ لدخوله تحت العُمُوماتِ المقتضيةِ لفعلِ الخير واستحبابِ الصَّلاة، ويُحتملُ أن يُقال: إن هذه الخصوصيَّاتِ بالوقت أو بالحال والهيئةِ، والفعلُ المخصوص يحتاجُ إلىٰ دليلٍ خاصٍّ يقتضي استحبابَه بخصوصه، وهذا أقربُ والله أعلمُ، وهاهنا تنبيهاتٌ.

الأولىٰ: أنَّا حيث قلنا في الحديث الضَّعيف: إنه يحتمل أن يُعملَ به لدخولِه تحت العموماتِ فشَرْطُه أن لا يقومَ دليلٌ علىٰ المنع منه أخصُّ من تلك العُمُوماتِ؛ مثالُه: الصَّلاةُ المذكورةُ في أوَّل ليلة جُمعة من رجب لم يَصِحَّ فيه الحديثُ ولا حَسُنَ، فَمَنْ أراد فعلها إدراجًا لها تحت العموماتِ الدَّالة علىٰ فضل الصلاة والتَّسبيحاتِ- لم يستقم؛ لأنَّه

---

(1) فتاوىٰ الرملي (383/4) شهاب الدين أحمد بن حمزة الأنصاري الرملي الشافعي- جمعها ابنه: شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي- المكتبة الإسلامية.

قد صحَّ أن النَّبيَّ ﷺ نهىٰ أن تُخصَّ ليلة الجمُعة بقيام[1]. وهذا أخصُّ من العمومياتِ الدَّالة علىٰ فضيلة مُطلق الصَّلاةِ.

الثاني: أن هذا الاحتمالَ الَّذي قلناه- من جوازِ إدراجِه تحت العُمُوماتِ- نريدُ به في الفعل لا في الحُكم باستحبابِ ذلك الشيءِ المخصوصِ بهيئتِه الخاصَّة؛ لأن الحُكم باستحبابِه علىٰ تلك الهيئةِ الخاصَّةِ يحتاج دليلًا شرعيًّا عليه ولابدَّ، بخلافِ ما إذا فعل بناءً علىٰ أنَّه من جملة الخيراتِ الَّتي لا تختصُّ بذلك الوقتِ ولا بتلكَ الهيئةِ فهذا هُو الذي قلنا باحتمالِه))[2].

وقال الشَّيخُ أبو العباس أحمد بن محمد الصَّاوي من أئمَّة المالكية: ((قوله: قال الغزالي: لا يُنْظَرُ للصِّحَّةِ إلَّا في باب الأحكامِ؛ أي التَّكْلِيفِيَّةِ والوَضْعِيَّةِ، وأمَّا فضائلُ الأعمالِ والآدَابُ الحُكْمِيَّةُ فلا تتوقَّفُ علىٰ ذلك بل يتأنَّسُ لها بالحديثِ الضَّعِيفِ وبالآثارِ المرويَّة عن السَّلَفِ))[3].

قال الشيخ الإمام المحدِّث الفقيه عبدالحي اللَّكنوي رحمه الله في ظفر الأماني: ((ومنهم مَن ذهب إلىٰ ثُبُوتِ الاستحبابِ في الحديث الضَّعيف، وهو الَّذِي نصَّ عليه ابن الهُمام في كتاب الجنائز من ((فتح القدير)) حيث قال: الاستحبابُ يُثبتُ بالضَّعيف غيرِ الموضوعِ، وإليه يشير كلامُ النَّوويِّ في ((الأذكار)) حيث قالَ: قال العلماءُ من المحدِّثين والفقهاءِ وغيرِهم: يَجوزُ ويستحبُّ العملُ بالفضائل والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ بالحديث

(1) ورد ذلك في حديث أخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب كراهة صيام يوم الجمعة منفردًا (1144) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لا تختصُّوا ليلةَ الجمُعةِ بقيامٍ من بين الليالي، ولا تخصوا يومَ الجمُعةِ بصيامٍ من بين الأيام إلَّا أن يكونَ في صوم يصومُه أحدُكم)).

(2) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (201/1) تأليف: أبي الفتح محمد بن علي المعروف بابن دقيق العيد- تحقيق: أحمد محمد شاكر- مكتبة السنة- الطبعة الأولىٰ- 1414هـ.

(3) بُلغة السالك لأقرب المسالك - حاشية الصاوي علىٰ الشرح الصغير (771/4) تأليف: أبي العباس أحمد بن محمد الخلوتي الصاوي- دار المعارف.

الضَّعيف ما لم يكن موضوعًا، وأمَّا الأحكامُ كالحلالِ والحرام والبيع والنِّكاح والطَّلاق وغيرِ ذلك فلا يُعمل فيها إلَّا بالحديثِ الصَّحيح أو الحسن، إلا أن يكونَ في احتياطٍ في شيءٍ من ذلك. وهو الذي يقتضِيه استدلالُ ابنُ حجرٍ المكِّيُّ في «الفتح المبين في شرح الأربعين» لقَبولِ الحديثِ الضَّعيفِ في فضائل الأعمال بقوله: لأنَّه إنْ كان صحيحًا في نفسِ الأمرِ فقد أُعطي حقَّه، وإلَّا لم يترتبْ على العمل به مفسدةُ تحليلٍ ولا تحريمٍ ولا ضياع حقِّ الغير.

وأشارَ المصنِّفُ بحكايتِه الإجماعَ إلى الرَّدِّ على مَن نازع فيه بأنَّ الفضائلَ إنَّما تُتلقى من الشَّرع فإثباتُها بالحديثِ الضَّعيف اختراعُ عبادةٍ وشرع من الدِّين لم يأذن به الله. ووجه ردِّه: أن الإجماع لكونه قطعيًّا تارة وظنيًّا ظنًّا قويًّا تارة لا يردُّ بمثل ذلك لو لم يكن عنه جوابٌ فكيف وجوابه واضحٌ؟! وهو أن ذلك ليس من باب الاختراع في الشَّرع وإنَّما هو ابتغاءُ فضيلة ورجاؤُها مع أمارةٍ ضعيفة من غير ترتُّب مفسدة كما تقرَّرَ»[1].

وقال رحمَه الله في الأجوبة الفاضلة: «لكنَّه- أي القول بعدم ثُبوتِ الاستحباب بالضَّعيف- مخدوشٌ بأنه يخالفُه صنيعُ كثيرٍ من الفقهاءِ والمحدِّثين حيث يستدلونَ على مندوبية أمرٍ- لم يثبت ندبُه بحديثٍ صحيحٍ- بحديثٍ ضعيفٍ، ويذكرونَه في مَعرِضِ الاستنادِ، وبأنَّه تخالفُه عباراتُ المحدِّثينَ، حيث ذكروا قبولَ الضَّعيف في التَّرغيب والترهيبِ والمناقب وفضائل الأعمال، فإنَّه لو كان المُرادُ بفضائلِ الأعمال ما ذكرَه لم يكن ذلكَ مُغايرًا لقبولِه في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وكلامهم يدلُّ على المغايرة، وبأنه تخالفه عبارة النَّووي في «الأذكار» وحملُها على ما ذكره بعيدٌ جدًّا»[2].

(1) ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني في مصطلح الحديث (191/1) تأليف: محمد عبدالحي اللكنوي الهندي- اعتنى به: عبدالفتاح أبو غدة- مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب- الطبعة الثالثة- 1416هـ.

(2) الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة (ص55) تأليف: محمد عبدالحي اللكنوي الهندي- تعليق: عبدالفتاح أبو غدة- مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب- الطبعة الأولى- 1384هـ.

فهذه أيُّها القارئ الكريم بعضُ النماذج لكيفيَّةِ تعامل أئمَّة الشَّريعةِ وحَمَلَة الدِّين مع جزءٍ من سُنة النبي ﷺ وهو المعروفُ بالحديث الضَّعيف، ويتضح لنا من خلال ما سَبق عدةُ أمورٍ:

1- أنَّ هناك جزءًا من السُّنَّة النبويَّةِ المطهَّرةِ وبالتَّالي جزءٌ من الشَّريعة الإسلاميَّةِ يُسمَّىٰ الحديث الضَّعيف له وجود وحضور في دواوين السُّنة، وأن هذا الجزءَ له دور هامٌّ في مواطنَ كثيرةٍ من هذا الدِّين وهذه الشَّريعة من حيث مجالاتُ الترغيب والترهيب بل والفقه والأحكام أيضًا كما سنوضِّحه فيما بعد.

2- أنَّه لم يكن في هذا المنهجِ الذي تعامَل به العلماءُ مع الحديث الضَّعيف (النوع الذي ينجبر بالقرائن) مبدأُ الردِّ المطلَق للحديث الضَّعيف وعدمُ العمل به، وعلىٰ هذا ومن خلال كلام أهل العِلم وأئمَّة الشَّريعةِ يتضح بطلانُ دعوة بعض الطَّوائف التي تزعُمُ النِّسبةَ إلىٰ السَّلف الصالح، أو إلىٰ السُّنة النبوية أو إلىٰ أهل الحديث بعدم العملِ بالحديث الضَّعيف لا في الأحكام ولا في الفضائِلِ فكلامُ أئمَّة الحديث وأصحابه يخبرنا بعكس ذلك كما تبيَّن فيما سبق.

3- لو دقَّقنا النظر في حقيقةِ هذه الدَّعوىٰ لوجدنا أنها تنطوي علىٰ تبديل للدِّين وتحريفٍ للشَّريعةِ من حيث النتائجُ التي تترتب عليها حينما نُنحِّي جانبًا من سُنَّةِ النبيِّ ﷺ ونمنع العمل به تحت دعوىٰ الضَّعف، وفي ظلِّ هذه الدعوىٰ وتحت زعم تنقيةِ السُّنة يتم تقسيم دواوين السُّنة إلىٰ كتبٍ تَحوِي صحيحًا وحسنًا مقبولًا يُعمل به، وضعيفًا مردودًا يُنحَّىٰ جانبًا؛ بل ويجعلونَه كالمكذوب علىٰ رسولِ الله ﷺ، ويروِّجونَ هذه الدَّعوىٰ علىٰ عامة النَّاس ومَن ليس عنده تصورٌ صحيحٌ لقضية الحديث الضَّعيف، فهذا المسلك الخاطِئُ يضع الحديثَ الضَّعيفَ في مرتبةٍ واحدةٍ مع الحديث الموضوعِ.

وكل هذا يتم وفقًا لقواعدهم ونهجهم الذي خالفوا فيه المحدِّثين من سلف الأُمة بوضعهم قواعد للنَّقد والجرح والتَّعديل يتمُّ فيها في أحيان كثيرة الاعتماد علىٰ الأهواء

والرغبة في نُصرة مذهبٍ معيَّن أو قولٍ بعينِه أو آراء محددة سلفًا تكون هي المتحكِّمة في مسلك التَّحسين والتَّضعيف.

فخلاصةُ ما سبق أنَّنا أمام جزءٍ من السُّنة النبوية يُسمَّىٰ الحديث الضَّعيف له منهجٌ في التعامل معه كجزء من مكوِّناتِ الشريعة الإسلاميَّةِ، هذا المنهجُ يحتوي علىٰ طريقتيْنِ في التَّعامل مع هذا الحديث، أو مدرستيْنِ إنْ صحَّ التعبيرُ هما: طريقة أهل الحديث (المحدِّثين) وطريقة الفقهاء، وسوف يكونُ الكلام فيما يلي عن الحديثِ الضَّعيف من خلالِ طريقة تناوُلِ هاتين المدرستيْنِ له والَّتي تؤكِّدُ في نهاية الأمرِ أنَّ الحُكم علىٰ الحديث بالضَّعفِ لا يَعنِي الحكمَ بعدَم العمل به أو ردِّه واطِّراحِه.

أولًا: الحديث الضَّعيف عند المحدِّثين:

من المنن الكُبرىٰ علىٰ الأمَّة الإسلامية أنْ حَفِظَ الله لها أركانَ دِينِها وأوجدَ لها الوَسائلَ التي تحفظ تراثَها، ومن هذه الوسائل الإسنادُ، وما يهمُّنا في هذا المقال هو تعريفُ الإسنادِ عندَ المحدِّثين؛ إذ إنَّه أولُ الطُّرق لمعرفةِ قبولِ الحديثِ مِنْ رَدِّه. قال الحافظُ ابنُ حجر العسقلانيُّ: «الإسنادُ: حكايةُ طريقِ المتن»[1]. الْإِسْنَادُ- وهو الطريق الموصلة إلىٰ المتن، والمتن هو غاية ما ينتهي إليه الإسناد من الكلام- إمَّا أن ينتهي إلىٰ النبي صلَّىٰ الله تعالىٰ عليه وسلَّم تصريحًا، أو حُكمًا من قولِه، أو فِعلِه، أو تقريرِه[2].

وروىٰ الخطيب البغدادي بسنده عن عبدالله بن المبارك قال: «الإسنادُ عندي من الدِّين، لولا الإسنادُ لقال مَن شاءَ ما شاءَ»[3].

---

(1) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (ص37) تأليف: أبي الفضل أحمد بن علي حجر العسقلاني- تحقيق: عبدالله بن ضيف الله الرحيلي- مطبعة سفير- الرياض- الطبعة الأولىٰ- 1422هـ.

(2) نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (مطبوع ملحقًا بكتاب سُبل السلام) (ص724) للحافظ ابن حجر العسقلاني- المحقق: عصام الصبابطي وعماد السيد- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الخامسة- 1997م.

(3) الكفاية في معرفة أصول علم الرواية (1/393).

والإسناد من خصائص الأمة المحمَّدية، ففي المواهب اللَّدُنِّيَّة عند الحديث عن خصائص هذه الأمة: ((ومنها: أنَّهم أُوتُوا الإسنادَ، وهو خِصيصةٌ فاضلةٌ من خصائص هذه الأمَّةِ، وسُنة بالغة من السُّنن المؤكَّدة. وقد رُوِّينا من طريق أبي العباس الدَّغُولي قالَ: سمعتُ محمد بن حاتم بن المظفَّر يقولُ: إنَّ الله قد أكرمَ هذه الأمَّةَ وشرَّفها وفضَّلها بالإسنادِ، وليس لأحدٍ من الأمم كلِّها قديمِها وحديثِها إسنادٌ موصولٌ، إنما هو صُحُف في أيديهم، وقد خلطُوا بكتبِهم أخبارَهم، فليس عندهُم تمييز بين ما نزلَ مِنَ التَّوراةِ والإنجيل وبين ما ألحقوه بكتبِهم من الأخبار التي اتَّخذوها عن غير الثِّقاتِ.

وهذه الأمةُ الشَّريفةُ- زادها الله شرفًا بنبيها- إنما تَنُصُّ الحديثَ عن الثِّقةِ المعروفِ في زمانه بالصِّدق والأمانةِ عن مثلِه حتىٰ تتناهَىٰ أخبارُهم، ثم يبحثونَ أشدَّ البحث حتىٰ يعرفوا الأحفظَ فالأحفظَ، والأضبط فالأضبطَ، والأطولَ مجالسةً لمَنْ فوقه ممن كان أقصرَ مجالسةً، ثم يكتبونَ الحديثَ من عشرين وجهًا وأكثر، حتىٰ يهذِّبوه من الغلط والزَّلل، ويضبطوا حروفَه ويعدُّوه عدًّا، فهذا من فضلِ الله علىٰ هذه الأُمَّةِ))[1].

وفي هذا المجال يظهر عمل المحدِّثين وجهودُهم في تمييز المقبولِ من غير المقبول من حديث رسول الله ﷺ وبيان درجة الحديث ورُتبته، ومن ذلك الحديث الضَّعيف والذي تعامل معه المحدثون بنظرةٍ شاملةٍ ليس فيها الرَّدُّ أو القطعُ بعدم نسبتِه إلىٰ النبيِّ ﷺ فممَّا تقدَّم من أقوالِ المحدِّثين نجدُ أنَّهم قد قالوا بقَبول الحديث الضَّعيف والعمل به، فإنَّ حصول العِلم بصدق الخبر أو كذبه لا تتوقَّف فقط علىٰ مجرد النَّظر في رواته ونَقلته؛ بل إن من الأخبار ما لا يتوقَّف معرفة صدقه أو كذبه علىٰ نَقلته من الأصل؛ بل قد يكون نقلة الخبر من الفسَّاق وبعد التثبُّت والنظرِ يتَّضح صدق الخبر، وقد ينقلُ الخبرَ الثِّقةُ الصَّادقُ ولكن تقوم القرائنُ الدَّالةُ علىٰ كذبِه وعدم مطابقتِه للواقع وأنَّه قد

---

(1) المواهب اللدنية بالمنح المحمَّدية (2/415) تأليف: أبي العباس أحمد بن محمد القسطلَّاني- المكتبة التوفيقية- مصر.

أخطأَ أو قامتْ عِلةٌ تمنع صحة وصدق خبرِه، وهذه القرائنُ التي توجبُ صدقَ الخبر أو كذبه لا تحصُلُ إلا لذي درايةٍ بهذا الشَّأن، وقد تعامَلَ المحدثون مع الرِّواياتِ بمنظورٍ شاملٍ ليس فيه الاعتمادُ علىٰ السَّند فقط بل إلىٰ جانبِ ذلك نظروا إلىٰ قرائنَ أخرىٰ تُصاحب ذلك وتوجب صِدقَ قبول الخبر أو ردَّه.

وعَنْ مثال ذلك يقول ابن تيميَّةَ رحمه الله: «الرَّاوي إمَّا أن تُقبلَ روايتُه مطلقًا أو مقيدًا، فأمَّا المقبول إطلاقًا فلا بدَّ أن يكونَ مأمونَ الكذبِ بالمظنَّة، وشرطُ ذلك العدالةُ وخلوه عن الأغراضِ والعقائدِ الفاسدةِ التي يُظنُّ معها جوازُ الوضع، وأنْ يكونَ مأمونَ السَّهوِ بالحفظِ والضَّبط والإتقانِ، وأمَّا المقيَّد فيختلف باختلاف القرائنِ ولكل حديثٍ ذوقٌ ويختصُّ بنظرٍ ليس للآخرِ.

كم من حديثٍ صحيحِ الاتِّصالِ ثم يقع في أثنائِه الزيادة والنُّقصان، فرُبَّ زيادة لفظةٍ تُحيل المعنىٰ ونقصِ أخرىٰ كذلك، ومَن مارَس هذا الفنَّ لم يكد يخفىٰ عليه مواقعُ ذلك، ولتصحيحِ الحديث وتضعيفه أبوابٌ تُدخل وطرقٌ تُسلك ومسالك تُطرق»[1].

وقد سلكَ أهلُ العِلمِ مسالكَ كثيرةً في التعامل مع الحديث الضَّعيف عند النَّظرِ إليه من ناحية السَّند، فلم يردُّوه مطلقًا، وإنَّما نظروا إلىٰ شواهدَ أخرىٰ يتقوَّىٰ بها الحديثُ رأوا أنها تَجبر ما وَقَعَ في هذا السَّند من الضَّعف وأسباب الرَّدِّ، وسلكوا في سبيل ذلك مسالكَ كثيرةً من اعتبارِ العمل به وموافقة الخبر للقرآن الكريم أو الإجماع، فدلَّ ذلك علىٰ أن وَصْفَ الضَّعفِ عندهم لسندٍ ما لا يلزم منه الرَّدُّ؛ لأنه بجانب هذا وُجد هناك من الشَّواهد والقرائن ما يَجبر ذلك من تعدد الطُّرق، فللأدلة والشَّواهد عند اجتماعِها من القوَّةِ والاعتبارِ ما ليس لها عند الانفرادِ، وقد سلكَ أصحابُ الحديث هذه المسالك كجزءٍ من جهودِهم لحفظ السُّنة النبويَّة وعدم رد جزءٍ منها يمثل جزءًا من شريعة الإسلام،

(1) مجموع الفتاوىٰ (18/47).

والمتتبع لكتبهم يلمس هذا الأثر من حيث كيفيَّةُ بيانِ ارتقاء الحديثِ الضَّعيف إلىٰ المقبولِ؛ دلَّ علىٰ ذلك كثيرٌ من أقوال أهل العِلم فَمِنْ ذلكَ:

- ما قاله ابن تيميَّة رحمه الله في مجموع الفتاوىٰ: ((وقد يكونُ الرَّجل عندهُم ضعيفًا لكثرة الغلطِ في حديثِه ويكونُ حديثه إذن الغالب عليه الصِّحَّةُ لأجل الاعتبارِ به والاعتضادِ به، فإن تعدُّدَ الطُّرقِ وكثرتها يقوِّي بعضُها بعضًا حتىٰ قد يحصُلُ العِلم بها، ولو كان النَّاقلونَ فُجَّارًا فُسَّاقًا فكيفَ إذا كانوا علماءَ عُدُولًا ولكن كثر في حديثِهمُ الغلطُ؟ ومثلُ هذا عبدالله بن لهيعة فإنَّه مِنْ أكابرِ علماءِ المسلمينَ، وكان قاضيًا بمصرَ كثيرَ الحديثِ لكنِ احترقت كتُبه فصار يُحدِّث من حِفظه، فوقع في حديثه غلطٌ كثيرٌ، مع أنَّ الغالبَ علىٰ حديثه الصِّحَّةُ. قال أحمدُ: قد أكتبَ حديثَ الرجلِ للاعتبارِ بهِ: مثلَ ابنِ لهيعةَ. وأمَّا مَن عُرف منه أنه يتعمَّدُ الكذب فمنهم مَن لا يَروِي عن هذا شيئًا، وهذه طريقة أحمدَ بنِ حنبلٍ وغيرِه لم يروِ في مسنده عمَّن يُعرف أنه يتعمَّدُ الكذب؛ لكن يروِي عمَّن عُرف منه الغلط للاعتبار به والاعتضادِ))[1].

- وقال رحمَه الله أيضًا: ((ثُمَّ الحديثان إذا كان فيهما ضعفٌ قليلٌ مثلَ أن يكونَ ضعفُهما إنَّما هو من جهة سوءِ الحِفظ ونحوِ ذلك، إذا كانا من طريقين مختلفين عضَّد أحدُهما الآخر، فكان في ذلكَ دليلٌ علىٰ أنَّ للحديثِ أصلًا محفوظًا عَنِ النبيِّ ﷺ))[2].

يقولُ الذَّهبيُّ: ((ثم لا تَطمَعْ بأنَّ للحَسَنِ قاعدةً تندرجُ كلُّ الأحاديثِ الحِسانِ فيها، فأَنَا علىٰ إِياسٍ من ذلك! فَكَمْ مِن حديثٍ تردَّدَ فيه الحُفَّاظُ: هل هو حسَنٌ، أو ضعيفٌ، أو صحيحٌ؟ بل الحافظُ الواحدُ يتغيَّرُ اجتهادُه في الحديث الواحدِ، فيومًا يَصِفُه بالصِّحَّة،

---

(1) مجموع الفتاوىٰ (27/18).

(2) الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية (241/6) تأليف: أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولىٰ- 1987م.

ويومًا يَصِفُه بالحُسْن، وَلَرُبَّما استَضْعَفَه))[1].

- قال الشَّيخُ ابن الصَّلاح: ((ليس كلُّ ضعفٍ في الحديثِ يزولُ بمجيئهِ من وُجوهٍ؛ بل ذلكَ يتفاوتُ: فمِنه ضعفٌ يزيلُه ذلك بأن يكونَ ضعفُه ناشئًا من ضَعف حِفظِ راويه، مع كونِه من أهل الصِّدق والدِّيانة. فإذا رأينا ما رَواه قد جاء من وجهٍ آخرَ عرفنا أنَّه مما قد حفظه ولم يختلَّ فيه ضبطُه له. وكذلكَ إذا كان ضَعْفُه من حيث الإرسالُ زال بنحو ذلك، كما في المرسل الذي يرسلُه إمامٌ حافظٌ؛ إذ فيه ضعفٌ قليلٌ يزولُ بروايتِه من وجهٍ آخر، ومن ذلك ضعفٌ لا يزولُ بنحو ذلك؛ لقوةِ الضَّعفِ وتقاعد هذا الجابر عن جبرِه ومقاومتِه، وذلك كالضَّعف الذي ينشأُ من كون الرَّاوي متهمًا بالكذب، أو كون الحديث شاذًّا. وهذه جملةٌ تفاصيلها تُدرَك بالمباشرةِ والبحثِ، فاعلم ذلك فإنَّه من النَّفائسِ العزيزةِ))[2].

وقال رحمَه الله في المقدِّمةِ: ((ثم اعلمْ أنَّه قد يدخل في باب المتابعةِ والاستشهادِ روايةُ مَن لا يُحتجُّ بحديثِه وحدَه، بل يكون معدودًا في الضُّعفاءِ، وفي كتابي البخاري ومُسلمٍ جماعةٌ من الضُّعفاءِ ذِكراهم في المتابعاتِ والشَّواهِدِ، وليس كل ضعيفٍ يصلُحُ لذلك، ولهذا يقول الدارقطنيُّ وغيرُه في الضُّعفاء: فلانٌ يُعتبر به وفلانٌ لا يُعتبر به))[3].

وقال رحمَه الله: ((فلنُنبِّه الآنَ على أمورٍ مهمَّةٍ؛ أحدها: إذا رأيتَ حديثًا بإسنادٍ ضعيفٍ فلكَ أن تقول: هذا ضعيفٌ، وتَعني أنَّه بذلك الإسنادِ ضعيفٌ، وليسَ لك أن تقولَ هذا ضعيفٌ وتعني به ضعفَ متنِ الحديث بناءً على مجرَّد ضعفِ ذلك الإسنادِ، فقد يكون مرويًّا بإسنادٍ آخرَ صحيحٍ يثبُتُ بمثله الحديثُ، بل يتوقَّف جوازُ ذلك على حُكم

---

(1) الموقظة في علم مصطلح الحديث (ص29) تأليف: أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي- اعتنى به: عبدالفتاح أبو غُدَّة- مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب- الطبعة الثانية- 1412هـ.

(2) مقدمة ابن الصلاح (ص34).

(3) المصدر السابق (ص84).

إمامٍ من أئمَّة الحديثِ بأنه لم يروَ بإسنادٍ يثبُت به، أو بأنَّه حديثٌ ضعيفٌ، أو نحو هذا مُفسِّرًا وجهَ القدحِ فيه. فإن أطلق ولم يفسِّرْ ففيه كلامٌ يأتي إن شاءَ الله تعالىٰ، فاعلم ذلك فإنَّه مما يغلطُ فيه، والله أعلم))[1].

قال الحافظُ ابنُ حجر العسقلانيُّ: ((ومتىٰ تُوبعَ سيءُ الحفظِ بمعتبرٍ، وكذا المستورُ، والمرسلُ، والمدلِّس- صارَ حديثُهم حسنًا لا لذاته بل بالمجموع))[2].

وقالَ رحمَه الله: ((فالضَّعفُ يتفاوت فإذا كثُرتْ طُرُقُ حديثٍ رَجَحَ علىٰ حديثٍ فَرْدٍ فكونُ الضَّعف الذي ضعفُه ناشئٌ عن سوء حِفظ رواتِه إذا كثرت طرقُه ارتقىٰ إلىٰ مرتبة الحسنِ، والَّذي ضعفُه ناشئٌ عن تُهَمةٍ أو جهالةٍ إذا كثرت طرقُه ارتقىٰ عن مرتبةِ المردودِ المنكَرِ الَّذي لا يجوزُ العملُ به بحالٍ إلىٰ رتبة الضَّعيف الذي يُجوزُ العملُ به في فضائلِ الأعمالِ))[3].

وقالَ رحمه الله: ((المقبولُ ما اتَّصل سندُه وعدلتْ رجالُه أو اعتضدَ بعضُ طرُقه ببعضٍ حتَّىٰ تَحصُلَ القوة بالصُّورةِ المجموعة، وكان كلُّ طريقٍ منها لو انفردتْ لم تكنِ القوةُ فيها مشروعةً، وبهذا يظهرُ عذرُ أهل الحديثِ في تكثيرِهم طرقَ الحديثِ الواحدِ ليعتمدَ عليه؛ إذِ الإعراضُ عن ذلك يستلزمُ تركَ الفقيهِ العملَ بكثيرٍ من الأحاديث اعتمادًا علىٰ ضعف الطَّريقِ التي اتَّصلتْ إليْهِ))[4].

- قال الحافظُ أبو محمد عبدالقادر الرَّهاويُّ الحنبليُّ كما نقله عنه الإمامُ السيوطيُّ: ((إنَّ الأحاديثَ الضِّعافَ إنِ انضمَّ بعضُها إلىٰ بعضٍ مع كثرة تعاضُدٍ وتتابُعٍ أحدثتْ قوَّةً،

(1) مقدمة ابن الصلاح (ص103).

(2) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر (ص277).

(3) الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع (70/1) تأليف: أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي- دار الكتب العلمية- بيروت الطبعة الأولىٰ-1997م.

(4) قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج (ص 149) تأليف: أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1988م.

وصارتْ كالاشتهارِ والاستفاضة اللَّذين يحصُلُ بهما العِلمُ في بعض الأمورِ))[1].

- وقد نقَلَ ابنُ رجب الحنبليُّ رحمه الله مثالًا علىٰ ذلك من أقوال العلماء في جامع العلوم والحِكم فقال: ((وقد قالَ البيهقيُّ في بعض أحاديث كثيرِ بن عبدالله المُزَنيِّ: إذا انضمَّتْ إلىٰ غيرِها من الأسانيد التي فيها ضعفٌ قَوِيتْ.

- وقالَ الشَّافعيُّ في المرسَل: إنَّه إذا أُسند من وجهٍ آخرَ، أو أرسله مَن يأخذ العِلمَ عن غير مَن يأخُذُ عنه المرسل الأوَّل فإنه يُقبلُ.

وقال الجُوزَجَانيُّ: إذا كان الحديثُ المسندُ من رجلٍ غيرَ مقنعٍ - يعني: لا يقنع برواياته- وشدَّ أركانه المراسيل بالطُّرق المقبولة عند ذوي الاختيار، استعمل واكتُفي به، وهذا إذا لم يُعارَضْ بالمسند الَّذي هو أقوىٰ منه))[2].

- فهذه أيها القارئ الكريم نماذجُ لِـمَا كان عليه أهلُ العِلم من المحدِّثين في تعاملهم مع الحديث الضَّعيف، فنجدهم بداية قد قاموا بروايته أولًا حيث أخرجوه في كُتبهم، فتبيَّن لنا من صنيعهم هذا أن معنىٰ الحُكم عندهم بالضَّعف علىٰ روايةٍ لا يعني ردَّها أو القطعَ بعدم نسبتِها للنبيِّ ﷺ، وإنما ترتفعُ إلىٰ درجةٍ من القبول عند وجودِ ما يساندها من تعدُّد الطُّرقِ والمتابعات والشَّواهدِ والقَبولِ من الأُمة، فليس مفهوم الضَّعف يستلزم الردَّ، وليس مفهوم الضَّعف يستلزمُ ترك العملِ وإلا لصارَ معنىٰ الحديث الضَّعيف هو الحديثَ الموضوع، وليس ضعف السَّند يَستلزمُ بطلان المتنِ، وليس ضعف السندُ يستلزم عدم العملِ بما في المتن، وإنما للحديث الضَّعيفِ دورٌ في فضائل الأعمال، ودورٌ في كونه يصلح للاستشهادِ به في الأحكام الفقهيَّةِ؛ كما سيأتي.

---

(1) البحر الذي زخر في شرح ألفية الأثر (1027/2) تأليف: جلال الدين السيوطي- تحقيق: أنيس بن أحمد بن طاهر الأندونيسي- مكتبة الغرباء الأثرية.

(2) جامع العلوم والحكم (210/2) تأليف: ابن رجب الحنبلي- تحقيق: شعيب الأرناءوط وإبراهيم باجس- مؤسسة الرسالة — بيروت- الطبعة السابعة- 2001م.

الحديث الضَّعيف في الفقه والأحكام، وكيفيَّةُ تناول الفقهاءِ له:

وحتىٰ يكتملَ الكلامُ عن الحديث الضَّعيف يجب أن نتحدَّث عن دور الحديث الضَّعيف في الأحكام الشرعيَّة، وكيف تعامل الفقهاء مع الحديث الضَّعيف؟ وكيف كان جزءًا من منظومة الفقه والأحكام؟ ولكي يتم إدراك هذا الأمر وفهمه والإحاطة به يجبُ أن يتمَّ ذلك في ضوءِ عدَّةِ أمورٍ:

- معرفةُ صِدقِ الخبر أو كذبِه غيرُ محصورةٍ في مجرد حال الرُّواة جرحًا وتعديلًا؛ بل هناك مسالكُ أخرىٰ سلَكَها أهلُ العِلم في ذلك.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «الخبر إما أن يُعلم صِدقه أو كذبه أوْ لا:

الأول: ما عُلم صدقُه وهو في غالب الأمر بانضمام القرائن إليه: إما رواية مَن لا يقتضي العقل تعمُّدَهم وتواطؤهم علىٰ الكذب أو احتفاف قرائن به وهو علىٰ ضربين؛ أحدهما: ضروري ليس للنَّفس في حصوله كسبٌ، ومنه ما تلقَّته الأُمةُ بالقبول وأجمعوا علىٰ العمل به أو استندوا إليه في العمل؛ لأنه لو كان باطلًا لم يعملوا به لامتناع اجتماعهم علىٰ الخطأ وهو لا يضرُّه كونه بنفسه لا يفيد العِلم كالحُكم المجمَع عليه المستند إلىٰ قياسٍ واجتهادٍ ورأيٍ و... المختلف هو في نفسه ظنِّيٌّ فكيف ينقلب قطعيًّا، ولم يعلم أن الظَّنَّ والقطعَ من عوارض اعتقادِ النَّاظر بحسب ما يظهرُ له من الأدلَّة والخبر في نفسه لم يكتسب صفةً؟

الثاني: ما يُعلمُ كذبُه أو بتكذيبِ العقل الصريح أو الكتاب أو السُّنة أو الإجماع أو غيرِ ذلك عند أقسام تلك التَّأويلاتِ، وهو كثيرٌ أو بقرائن، والقرائن في البابينِ لا تحصل محققةً إلا لذي درايةٍ بهذا الشَّأنِ وإلا فغيرهم جهلةٌ به.

الثَّالث: المحتمِل؛ ويَنقسمُ إلىٰ مستفيضٍ وغيرِه، وله درجاتٌ، فالخبرُ الَّذي رواه

الصِّديقُ والفاروق لا يساوي ما رواه غيرُهما من أصاغر الصَّحابة وقليل الصُّحبة))[1].

قال الشيخ أبو بكر محمد بن موسىٰ الحازميُّ رحمه الله: ((ينبغي أن يُعلم أن جهات الضَّعف متباينة متعددة، وأهل العِلم مختلفون في أسبابه، أمَّا الفقهاء فأسباب الضَّعف عندهم محصورةٌ، وجلُّها منوطٌ بمراعاة ظاهر الشَّرع، وعند أئمَّة النقل أسباب أُخر مرعية عندهم، وهي عند الفقهاء غير معتبرةٍ))[2].

- إنَّ العلماءَ من أهل الأصول والفقهِ واستنباط الأدلَّةِ لم يستدلُّوا بالحديث الضَّعيفِ في باب الأحكامِ لكونِه هو في حدِّ ذاته دليلًا مستقلًّا معتبرًا قائمًا بذاته يثبتونَ به الحُكمَ الشرعيَّ، فليس الأمرُ كذلك لأنَّ الأصل في الأحكامِ أنَّها تقومُ علىٰ الأدلَّة الصَّحيحةِ الموثَّقة المقبولةِ، وقد مَرَّ قولُ الخطيب البغداديِّ حيث قال: ((وينبغِي لِلمحدِّثِ أن يتشدَّدَ في أحاديثِ الأحكامِ التي يفصِلُ بها بين الحلالِ والحرامِ فلا يَرويها إلَّا عن أهل المعرفةِ والحفظِ، وذَوِي الإتقانِ والضَّبطِ)).

فهم لم يقبلوا العَمَلَ بالحديث الضَّعيف في مسألةٍ ما أو فرعٍ من الفروع وهم ينطلقونَ من قاعدة إثبات حُكمٍ بحديثٍ ضعيفٍ، وإنما نظروا إلىٰ جوانبَ أخرىٰ وشواهدَ وقرائنَ وهيئاتٍ وتطبيقاتٍ عمليَّة محيطةٍ بهذا الضَّعيفِ وخُلوِّه من حديثٍ صحيحٍ معارضٍ له ارتقتْ به أن يصلحَ لأن يكون دليلًا في مسألة معينةٍ، فهم لم يَعتمدُوا علىٰ دليلٍ يتَّصف بالضَّعفِ، وإنَّما اعتمدوا علىٰ مجموعِ أدلَّةٍ مجتمعةٍ كان هذا الحديثُ الضَّعيفُ معبِّرًا عنها وعنوانًا لها، وقد سَبقَت الإشارةُ إلىٰ قاعدة مهمة؛ وهي: أن للأدلَّة عند اجتماعها من القوَّة ما ليس لها عند افتراقِها، فهذِه الأدلةُ مجتمعةً ارتقتْ بهذا الضَّعيف إلىٰ أن يُصبحَ معتمدًا في مسألةٍ ما.

---

(1) مجموع الفتاوىٰ (18/45).

(2) شروط الأئمة الخمسة (ص 173) تأليف: أبي بكر محمد بن موسىٰ الحازمي- تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة- مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب. (ضمن ثلاث رسائل في علم مصطلح الحديث).

وإدراكُ هذه المسألة هو مفتاحُ الجواب علىٰ سؤال كيف استدلَّ أهل الفقه بحديثٍ ضعيفٍ وجعلوه دليلًا في مسألة ما أو مستندًا لقولٍ أو فعلٍ مع قولهم إنَّ الضَّعيف لا يستدلُّ به في الأعمال؟!

فهم إذن لم يقولوا بارتقاءِ الحديثِ الضَّعيفِ وحدَه في الاعتمادِ عليه كدليلٍ، وإنَّما إلىٰ جانبِ هذا الضَّعيف السَّندِ وُجدت شواهدُ أخرىٰ، وبهذا يرتفعُ هذا الإشكالُ تمامًا.

فنظرةُ الأصوليِّ الفقيهِ الذي يستنبطُ الحُكم الشَّرعيَّ من النصوص هي نظرةٌ أوسعُ وأعمقُ من مجرد النَّظر في الأسانيد والرواةِ والوصولِ إلىٰ تصحيح الروايةِ أو تحسينها أو تضعيفها، فهيَ وإن كانت مشتملةً عليها إلَّا أنها ليست كلَّ شيءٍ في إثبات حُكمٍ أو نفيِهِ، والواقع العمليُّ يشهدُ بذلك فقد وجدنا أحاديثَ صحيحةً والعمل بخلافها عند الأُمَّة، ووجدنا أحاديثَ ضعيفةً قد تلقَّتها الأُمة بالقبولِ والعملِ عليها عند أهل الفِقهِ، وبذلك يُفهم كلام أهل العِلم عند كلامهم عن الحديثِ الضَّعيف والمنع من العمل به في جانب الأحكامِ، ثم نجدُ بعد ذلك أنهم عملوا بأحاديثَ ضعيفةٍ في مجال الفقه، فهم ينطلقونَ من قاعدةِ وجوب صحَّة الدَّليلِ الذي يَنبني عليه التَّكليف وخلوِّه من المعارضات، ويقبلونَ الضَّعيفَ الذي يتقوَّىٰ بالقرائن والشواهدِ وغيرِها بحيث ينجبرُ ضعفُه بها فيرتقي في جانب الاستدلالِ إلىٰ القَبولِ الذي يجعل منه دليلًا في مسألةٍ ما، فهذا الدَّليلُ الكليُّ من الرواية والشَّواهد والقرائنِ هو في مجملِه لا يوصف بالضَّعفِ.

وبالنظرِ إلىٰ الطُّرق والقرائنِ والشَّواهدِ والهيئات المحيطةِ (والتي تمثِّل ملامح المنهج في التَّعامل مع الحديث الضَّعيف) التي اعتبرها أهلُ العِلم في تقويةِ الحديثِ الضَّعيفِ بحيثُ يصلحُ أن يكونَ منطلقًا للأدلَّة في المسائل نجدُ منها:

1- تلقِّي الأُمة له بالقبولِ واستقرارِ العملِ عليه عند أهلِ العِلمِ يجبر الكلامَ عن إسنادِه.

2- الشُّهرةُ: وهو أن يشتهر الحديثُ عند أهل العِلم من غير نكير منهم.

3- كثرة طُرقِ الحديث وتعددها تجبر الضَّعفَ في كثيرٍ من الحالات بشرط ألا يكون

في السَّند متهمٌ بالكذبِ.

4- وجودُ حديث ضعيفٍ ولا يوجد في الباب من الصَّحيح ما يُعارضُه.

5- اندراجُه تحت أصلٍ عامٍّ فتشهد له عمومات الشَّريعة ويوافقُ القرآن الكريمَ.

6- تقوي الضَّعيف بقول بعض الصَّحابةِ أو عملِهم يجبُر ما يَعرض بعد ذلكَ للسَّند الذي وصلَ به الحديثُ إلينا، فقد عمل الصَّحابة رضوان الله عليهم بالأحاديثِ قبل تدوينِها.

7- قد يكون الحديثُ الضَّعيف دليلًا إجماليًّا تدخل المسألةُ تحتَه وتقوم عليه.

8- عند موافقتِه للقياسِ.

نصوصٌ من أقوال الفقهاء في العمل بالحديث الضَّعيف بضوابطِه:

ونَعرضُ الآن لصورٍ وأمثلةٍ من كلام أهل العِلمِ تُعطينا فكرةً عامةً عن تطبيق هذا المنهجِ الذي تعامل به حملةُ الشَّريعةِ مع الحديث الضَّعيفِ، والَّتي تشمل الضوابطَ والشُّروطَ التي بها يتمُّ اعتبار الضَّعيف في الشَّريعة بعامَّةٍ، وفي الأحكام الفقهيَّةِ بصفةٍ خاصَّةٍ.

يقول الشيخ المحدِّث العلَّامة عبدالله بن الصِّديق الغُماري رحمه الله في كتابه «القول المقنِع» ما نصُّه: «على أنَّ قولهم: لا يجوزُ العَملُ بالحديثِ الضَّعيفِ في الأحكام، ليس على عمومِه؛ لأن الأئمَّة عملِوا بالحديث الضَّعيف في كثيرٍ من الأحكام، وللحافظ ابن الملقِّن كتابٌ جمع فيه الأحاديثَ الضَّعيفةَ التي عمِل بها الأئمَّةُ مجتمعين أو منفردين، ورتَّبه على الأبواب الفقهِّية، وهو جديرٌ بأن يُطبع»[1].

قال ابن الصلاح رحمه الله: «ومتى قالوا: هذا حديثٌ صحيحٌ. فمعناه: أنه اتَّصل سندُه مع سائر الأوصاف المذكورة، وليس من شرطه أن يكون مقطوعًا به في نفس الأمر؛ إذ

(1) القول المقنع في الردِّ على الألباني المبتدع (ص5) تأليف: أبي الفضل السيد عبدالله بن الصديق الغُماري.

منه ما ينفرد بروايته عدلٌ واحدٌ، وليس من الأخبار التي أجمعت الأمة علىٰ تلقِّيها بالقبول. وكذلك إذا قالوا في حديثٍ: إنه غير صحيحٍ. فليس ذلك قطعًا بأنه كذبٌ في نفس الأمر؛ إذ قد يكون صِدقًا في نفس الأمر، وإنما المراد به أنَّه لم يصحَّ إسنادُه علىٰ الشَّرط المذكور، والله أعلم))[1].

قال الإمام البيهقي رحمه الله: ((ونحن إنَّما لا نقول بالمنقطع إذا كان منفردًا، فإذا انضمَّ إليه غيرُه، أو انضمَّ إليه قولُ بعضِ الصَّحابة، أو ما تتأكَّد به المراسيلُ، ولم يعارضْه ما هو أقوىٰ منه فإنَّا نقول به))[2].

- وعن تقوية المرسل بعمل الصحابي يقول البيهقي رحمه الله: ((وإذا انضمَّ إلىٰ هذا الحديث المرسل قولُ صحابيٍّ كانت فيه الحُجَّة عند الشَّافعي رحمه الله))[3].

وقال الحافظ السَّخاوي رحمه الله في فتح المغيث: ((وكذا إذا تلقَّت الأُمةُ الضَّعيف بالقَبول يُعمل به علىٰ الصَّحيح، حتىٰ إنه ينزِّل منزلةَ المتواتر في أنه ينسخ المقطوعَ به؛ ولهذا قال الشافعيُّ رحمه الله في حديث: ((لا وصيةَ لوارثٍ))[4] إنه لا يُثبته أهلُ الحديث، ولكن العامَّةَ تلقَّته بالقبول، وعمِلوا به حتىٰ جعلوه ناسخًا لآيةِ الوصيَّةِ له))[5].

وعَن مِثلِ هذه القرائن التي ترتقي بالضَّعيف وتجعله مقبولًا في مجال العمل؛ يقول الإمامُ السُّيوطي في تدريبِ الرَّاوي: ((قال بعضهم: يُحكم للحديث بالصِّحَّةِ إذا تلقَّاه النَّاسُ بالقَبول وإن لم يكن له إسنادٌ صحيحٌ. وقال ابن عبدالبر في الاستذكار: لما حُكِيَ

---

(1) مقدمة ابن الصلاح (ص14).

(2) معرفة السنن والآثار (402/1) تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي- تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي- الناشرون: جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي- باكستان)، دار قتيبة (دمشق- بيروت)، دار الوعي (حلب- دمشق)، دار الوفاء (المنصورة- القاهرة)- الطبعة الأولىٰ- 1991م.

(3) معرفة السنن والآثار (30/7).

(4) تقدم تخريجه.

(5) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي (350/1).

عن الترمذيِّ أن البخاريَّ صحَّح حديث البحر: ((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ))[1]: وأهلُ الحديث لا يصحِّحون مثلَ إسنادِه؛ لكنَّ الحديث عندي صحيحٌ؛ لأنَّ العلماء تلقَّوه بالقبولِ. وقال في التَّمهيد: رَوَىٰ جابرٌ عن النبي ﷺ: ((الدِّينَارُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ قِيرَاطًا))[2]. قال: وفي قول جماعةِ العلماء و إجماع الناس علىٰ معناه غِنًىٰ عن الإسناد فيه. وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني: تُعرَفُ صحَّةُ الحديثِ إذا اشتُهرَ عندَ أئمَّةِ الحديثِ بغير نكيرٍ منهم. وقال نحوَه ابنُ فُورك، وزاد بأن مثَّل ذلك بحديث: ((فِي الرِّقَةِ[3] رُبُعُ الْعُشْرِ))[4]. ((وَفِي مِائَتَيْ دِرْهَمٍ خَمْسَةُ دَرَاهِمَ))[5].

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الطَّهارة، باب الوُضوء بماءِ البحرِ (83)، والتِّرمذيُّ في كتابِ الطَّهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنَّه طَهورٌ (69)، والنَّسائيُّ في كتابِ الطَّهارة، باب ماء البحر (59)، وابن ماجه في كتاب الطَّهارة وسُننها، باب الوضوء بماء البحر (386)، ومالك في موطئه (2/ 29)، وأحمد في مسندِه (2/ 237، 361)، وابن خُزيمة (111)، وابن حبَّان (1243، 5258) في صحيحيهما، والحاكمُ في المستدرك (1/ 140، 141) وغيرهم من طريق عن صَفوان بن سليم عن سعيد بن سلمة من آل بني الأزرق؛ أنَّ المغيرة بن بُردة من بني عبد الدَّار أخبره أنَّه سَمِع أبا هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا.

قال الترمذيُّ: ((هذا حديثٌ حسن صحيح، وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبيِّ ﷺ)).

(2) أخرجه الدَّيلميُّ في مسند الفردوس (3/236).

(3) الرِّقة: الفِضَّة. انظر: تاج العروس (باب القاف فصل الواو مع الراء).

(4) جزءٌ من حديثٍ أخرجَه البخاريُّ في كتاب الزَّكاة، باب زكاة الغنم (1454) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كتب له هذا الكتاب لما وجَّهه إلىٰ البحرين... فذكرَه.

وقال البيهقيُّ في معرفة السنن (20/6): ((قال أحمدُ: ولا نعلمُ من حَملةِ الحديثِ وحفَّاظهم مَنِ استقصىٰ في انتقادِ الرُّواة ما استقصَىٰ محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله مع إمامتِه وتقدُّمِه في معرفة الرجال وعللِ الأحاديثِ، ثم إنَّه اعتمدَ في هذا الباب علىٰ حديث عبدالله بن المثنىٰ الأنصاريِّ عن ثمامة بن أنس فأخرجَه في الصحيحِ عن محمد بن عبدالله بن المثنَّىٰ عن أبيه؛ وذلك لكثرةِ الشَّواهدِ لحديثِه هذا بالصِّحَّة)).

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة (1573)، وابن وهب في موطئه (ص 71)، والبيهقي في الكبرىٰ (4/137) من طريق أبي إسحاق عن عاصم بن ضَمْرة والحارث الأعور عن عليٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((إذا كانت لك مائتا درهمٍ وحال عليها الحولُ ففيها خمسةُ دراهمَ)).

وحسنه الزيلعي في نصب الراية (2/ 328).

وقالَ أبو الحسن بن الحصار في تَقريبِ المدارك علىٰ موطأ مالكٍ: قد يعلم الفقيه صحَّةَ الحديث إذا لم يكن في سندِه كذابٌ بموافقة آيةٍ من كتاب الله أو بعض أصول الشَّريعةِ، فيحملُه ذلك علىٰ قبولِه والعملِ به))[1].

قال ابنُ عبدالبرِّ وهو يتكلَّمُ عن كتاب عمرو بن حزم في الصَّدقاتِ: ((إنَّ في الكتابِ الذي كتبَه رسولُ الله ﷺ لعمرو بن حزمٍ في العُقول: ((إن في النَّفس مائةً من الإبل، وفي الأنفِ إذ أُوعِيَ جدعًا مائةٌ من الإبل، وفي المأْمومةِ ثُلُثُ الدِّيَةِ، وفي الجَائفَةِ مِثْلُهَا، وَفِي الْعَيْنِ خَمْسُونَ، وَفِي الْيَدِ خَمْسُونَ، وَفِي الرِّجْلِ خَمْسُونَ، وفي كُلِّ إِصْبَعٍ مِمَّا هُنَالِكَ عَشْرٌ مِنَ الْإِبِلِ، وَفِي السِّنِّ خَمْسٌ، وَفِي الْمُوضِحَةِ خَمْسٌ))[2]. لا خلافَ عن مالكٍ في

---

(1) انظر: تدريب الراوي (1/66).

(2) أخرجه النَّسائيُّ في كتاب القسامةِ، باب ذكر حديث عمرو بن حزم في العقول واختلاف النَّاقلين له (4857) ومالك في موطئه (5/ 1243) والشافعي في مسنده (ص347) والبيهقي في الكبرىٰ (8/ 73) من طريق عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه مرسلًا.

وأخرجَه ابنُ وهب في جامعه (514)، وأبو داود في مراسيله (257) من طريق يونس عنِ ابن شهاب قال: قرأتُ في كتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلىٰ نَجران، وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم... فذكره مطوَّلًا.

وقال أبو داود: ((قد أُسند هذا الحديثُ ولا يصح رواه يحيىٰ بن حمزة عن سليمان بن أرقم عن الزُّهْري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جدِّه)).

وأخرجه موصولًا النسائيُّ في الكتاب والباب السابقيْنِ (4853)، وابن حبان في صحيحه (6559)، والحاكم في مستدركِه (1/ 397)، والبيهقيُّ في الكبرىٰ (8/73) من طريق سليمان بن داود حدَّثني الزُّهريُّ عن أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم عن أبيه، عن جدِّه مرفوعًا مطولًا، وفيه: ((وإنَّ في النَّفس الدِّيةَ مائة من الإبل، وفي الأنف إذا أُوعِبَ جَدْعُه الدِّية، وفي اللِّسان الدِّيةُ، وفي الشَّفتين الدِّيةُ، وفي البَيضتَين الدِّيةُ، وفي الذَّكر الدِّيةُ، وفي الصُّلبِ الدِّيةُ، وفي العَينَين الدِّيةُ، وفي الرِّجْلِ الواحدةِ نصفُ الدِّيةِ، وفي المأمومَة ثلُثُ الدِّيةِ، وفي الجائفة ثلُثُ الدِّيةِ، وفي المُنقِّلة خمسَ عشرةَ من الإبل، وفي كلِّ إصْبَعٍ منَ الأصابع من اليد والرِّجل عشرٌ من الإبل، وفي السِّنِّ خمسٌ من الإبل، وفي الموضحة خمسٌ من الإبل، وإنَّ الرَّجُلَ يُقتلُ بالمرأةِ، وعلىٰ أهل الذَّهبِ ألفُ دينارٍ)).

وقال الحاكم: ((هذا حديثٌ صحيحٌ كبيرٌ مفسَّرٌ في هذا الباب، يشهد له أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، وأقامَ العلماء في عصره محمد بن مسلم الزُّهري بالصِّحَّةِ)). وصحَّحه الذَّهبيُّ.

إرسال هذا الحديثِ بهذا الإسنادِ، وقد روي مسندًا من وجهٍ صالحٍ وهو كتابٌ مشهورٌ عند أهل السِّير معروفٌ ما فيه عند أهل العِلم معرفةً تستغني بشهرتِها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواترَ في مجيئه لتلقِّي الناس له بالقبول والمعرفة))[1].

وقال رحمه الله: ((حديثٌ سادسٌ وعشرون من البلاغات: مالكٌ أنه بلغه أن عبدالله ابن مسعودٍ كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: ((أيُّما بيِّعين تبايعا فالقول قولُ البائعِ أو يترادَّانِ))[2]. هكذا قال مالكٌ في هذا الحديث: ((أيُّما بيِّعين تبايعا)) ولم يقل: فاختلفا. وهي لفظةٌ مدار الحديث عليها ومن أجلِها وردَ، وسقطت لمالك كما ترىٰ، وفي قوله فيه: فالقول قول البائع. دليلٌ علىٰ اختلافهما، والله أعلم.

وهذا الحديث محفوظٌ عن ابن مسعودٍ كما قال مالكٌ وهو عند جماعة العلماء أصلٌ تلقَّوه بالقبول وبنوا عليه كثيرًا من فروعِه، واشتهر عندهم بالحجاز والعراق شهرةً يستغنىٰ بها عن الإسناد، كما اشتُهِرَ عندهم قوله عليه السَّلام: ((لا وَصِيَّةَ لوارثٍ))[3] ومثلُ هذا من الآثارِ التي قد اشتُهرتْ عند جماعة العلماء استفاضةً يكاد يُستغنَىٰ فيها عن الإسنادِ؛ لأن استفاضتَها وشهرتَها عندهم أقوىٰ من الإسنادِ))[4].

وقال الحافظ ابن حجر في التَّلخيصِ الحبير (4/ 58): ((وقد صحح الحديثَ بالكتاب المذكور جماعة من الأئمَّة، لا من حيث الإسناد، بل من حيث الشهرة، فقال الشافعي في رسالته: لم يقبلوا هذا الحديث حتىٰ ثبت عندهم أنه كتاب رسول الله ﷺ)).

(1) التَّمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (339/17) لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر ابن عاصم النمري القرطبي- تحقيق: مصطفىٰ بن أحمد العلوي، محمد عبدالكبير البكري- الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية- المغرب- 1387هـ.

(2) أخرجه مالك في موطئه (4/ 969).

(3) تقدَّم تخريجه.

(4) التَّمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (290/24).

- قال الحافظُ ابن حجر العسقلانيُّ رحمه الله في فتح البارِي في كتاب الصَّوم في باب الحجامة والقيء للصَّائم: ((كأنَّه يشير بذلك إلىٰ ما رواه- أي البخاري- هو في التَّاريخ الكبير قال: قال لي مسددٌ: عن عيسىٰ بن يونسَ، حدَّثنا هشام بن حسَّان، عن محمد بن سيرينَ عن أبي هريرةَ رفعه قال: ((مَنْ ذَرَعَهُ الْقَيْءُ وَهُوَ صَائِمٌ فَلَيْسَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ وَإِنِ اسْتِقَاءَ فَلْيَقْضِ))[1]. قال البخاريُّ: لم يصح، وإنما يُروىٰ عن عبدالله بن سعيدٍ المقبري عن أبيه عن أبي هريرة وعبدالله ضعيفٌ جدًّا. ورواه الدَّارمي من طريق عيسىٰ بن يونس ونقل عن عيسىٰ أنَّه قال: زعم أهلُ البصرةِ أن هشامًا وَهِم فيه. وقال أبو داود: سمعتُ أحمدَ يقول: ليس من ذا شيءٌ. ورواه أصحاب السُّنن الأربعة، والحاكم من طريق عيسىٰ بن يونس به، وقال الترمذيُّ: غريبٌ لا نعرفه إلا من رواية عيسىٰ بن يونس عن هشامٍ، وسألت محمدًا عنه؟ فقال: لا أراه محفوظًا. انتهىٰ. وقد أخرجَه ابن ماجه والحاكم من طريق حفص بن غياثٍ أيضًا عن هشامٍ قال: وقد رُوي من غير وجهٍ عن أبي هريرةَ ولا يصحُّ إسنادُه ولكنَّ العملَ عليه عند أهل العِلم))[2].

وقال رحمه الله في النُّكت علىٰ ابن الصَّلاحِ: ((من جملةِ صفاتِ القَبولِ الَّتي لم يتعرَّضْ لها شيخُنا- يعني الحافظ العراقي- أن يتَّفقَ العلماءُ علىٰ العمل بمدلولِ حديثٍ، فإنه يُقبل حتىٰ يجبَ العملُ به. وقد صرَّحَ بذلك جماعةٌ من أئمَّة الأصول.

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الصوم، باب الصائم يستقيء عامدًا (2380)، والترمذي في كتاب الصوم، باب ما جاء فيمن استقاء عمدًا (720)، وابن ماجه في كتاب الصيام، باب ما جاء في الصائم يقيء (1676)، وأحمد في مسنده (2/ 498)، والنسائي في الكبرىٰ (317/3)، وابن خزيمة في صحيحه (1960)، وابن حبان في صحيحه (3518)، والدارقطني في سننه (2273)، والحاكم في مستدركه (1/ 426) من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا.

وقال الدارقطني: ((رواته ثقات كلهم)). وقال الترمذي: ((حسن غريب)). وقال الحاكم: ((صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه)). ووافقه الذهبي.

(2) فتح الباري شرح صحيح البخاري (175/4) لابن حجر العسقلاني- رقم كُتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي- دار المعرفة - بيروت- 1379هـ.

ومن أمثلتِه قول الشافعيِّ ﷺ: ((وما قلتُ من أنَّه إذا غيَّرَ طعم الماء وريحه ولونه يُرْوَىٰ عن النبيِّ ﷺ من وجهٍ لا يُثبت أهلُ الحديث مثلَه، ولكنه قولُ العامَّة لا أعلم بينهم فيه خلافًا. وقالَ في حديث: ((لا وَصِيَّةَ لوارثٍ)) لا يُثبته أهلُ العِلم بالحديثِ، ولكنَّ العامَّةَ تلقَّته بالقبولِ وعمِلوا به حتىٰ جعلوه ناسخًا لآية الوصيةِ للوارث))[1].

يقول الشيخ محمَّد أنور شاه الكشميري في فيض الباري علىٰ صحيح البخاري عند باب قول البخاري باب ((لا وصيةَ لوارثٍ)): ((وهذا الحديثُ ضعيفٌ باتِّفاق، مع ثبوت حُكْمه بالإجماع، ولذا أخرجه المصنِّف في ترجمته، وإلا فإنْه لا يأتي بالأحاديث الضِّعاف مِثْله، ثم لم يعبِّر عنه بالحديث، علىٰ ما عرفت من دَأبه فيما مرَّ، وبَحَث فيه ابنُ القَطَّان أن الحديثَ الضَّعيف إذا انعقد عليه الإِجماعُ هل ينقلب صحيحًا أم لا؟ والمشهور الآن عند المحدِّثين أنه يبقىٰ علىٰ حالِه، والعُمْدة عنده في هذا الباب هو حال الإِسناد فقط، فلا يَحْكُمون بالصِّحة علىٰ حديثٍ في إسناده راوٍ ضعيفٌ، وذهب بعضُهم إلىٰ أن الحديثَ إذا تأيَّد بالعملِ ارتقىٰ من حال الضَّعْف إلىٰ مرتبة القبول.

قلت: وهو الأَوْجَهُ عندي، وإن كَبُر علىٰ المشغوفين بالإِسناد. فإني قد بلوت حالَهم في تَجَازُفِهم، وتسامحهم، وتماكُسِهم بهذا الباب أيضًا. واعتبارُ الواقع عندي أولىٰ مِن المَشْي علىٰ القواعد، وإنَّما القواعدُ للفَصْل فيما لم يَنْكَشِف أمرُه من الخارج علىٰ وَجْهِه، فاتِّباع الواقِع أَوْلىٰ، والتمسُّك به أَحْرَىٰ))[2].

قال ابن النَّجار الحنبليُّ: ((وفي جامع القاضي: أن الحديث الضَّعيف لا يُحتجُّ به في المآثم. وقال الخلال: مذهبه- يعني الإمام أحمد- أنَّ الحديثَ الضَّعيفَ إذا لم يكن له معارضٌ قال به. وقال في كفَّارة وطء الحائض: مذهبُه في الأحاديث إن كانت مضطربةً

---

(1) النكت علىٰ ابن الصلاح (495/1).

(2) فيض الباري شرح البخاري (130/4) تأليف: محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولىٰ: 2005م.

ولم يكن لها معارضٌ قال بها. وقال أحمدُ في رواية عبدالله: طريقي لستُ أخالف ما ضَعُفَ من الحديث إذا لم يكن في البابِ ما يدفعُه))[1].

وقال الشيخ ابن الصلاح رحمه الله: ((حكىٰ أبو عبدالله بن مَنده الحافظ أنَّه سَمِعَ محمد بن سعدٍ الباوردي بمصر يقول: كان من مذهبِ أبي عبدالرحمن النَّسائيِّ أنْ يخرج عن كل مَنْ لم يجمع علىٰ تركه. وقال ابن مَنده: وكذلك أبو داود السِّجستانيُّ يأخذ مأخذَه، ويخرِّج الإسناد الضَّعيف إذا لم يجد في الباب غيره؛ لأنَّه أقوىٰ عنده من رأي الرِّجال، والله أعلم))[2].

ويقولُ ابن قيِّم الجوزية رحمه الله: ((والمُرسَل إذا اتَّصل به عَملٌ، وعضَّده قِياسٌ، أو قولُ صحابيٍّ، أو كان مُرسِله معروفًا باختيار الشُّيوخ ورغبتِه عن الرِّواية عن الضُّعفاء والمتروكينَ ونحوِ ذلك ممَّا يقتضي قُوَّتَه عُمِلَ به))[3].

وقال الكمال ابن الهمام رحمه الله في فتح القدير: ((روىٰ التِّرمذيُّ مرفوعًا: ((مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا فَلْيَغْتَسِلْ، وَمَنْ حَمَلَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ))[4]. حسَّنهُ التِّرمذيُّ، وضعَّفه الجمهور، وليس في

(1) شرح الكوكب المنير (2/573) تأليف: أبي البقاء محمد بن أحمد بن عبدالعزيز بن علي الفتوحي، المعروف بابن النجَّار الحنبلي- تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد- مكتبة العبيكان- الطبعة الثانية: 1997م.

(2) مقدمة ابن الصلاح (ص37).

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد (1/367) تأليف: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطَّبعة السابعة والعشرون- 1994م.

(4) هذا الحديثُ قد رُوي عن حوالي ستَّة من صَحابة النبيِّ ﷺ وأشهَره حديث أبي هريرة ﷺ الذي رُوي مرفوعًا وموقوفًا من حوالي عَشرة طرق.

ومنه: ما أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب في الغُسل مِن غُسل الميِّت (3161)، والترمذي في كتاب الجنائز، باب ما جاء في الغسل من غسل الميت (993)، وابن ماجه في كتاب الجنائز، باب في الغسل من غسل الميت (3161).

وقد ذكر ابن الملقِّن في البدر المنيرِ (2/ 524 - 543) طرقَ الحديثِ وتكلَّم عنها تفصيلًا، وأوْضَح اختلافَ العُلماءِ في تَضعيفه أو قَبوله، وكلام مَن قال بالنَّسخ كأبي داود عليه رحمه الله حيث قال عقب تخريجِه لحديث (3162): ((هذا منسوخ، وسَمعت أحمد بن حنبل وسُئل عن الغسل من غُسل الميت، فقال: يُجزئه الوُضوء)).

هذا ولا في شيءٍ من طرق عليٍّ حديثٌ صحيحٌ، لكن طرق حديث عليٍّ كثيرةٌ، والاستحبابُ يثبت بالضَّعف غيرُ الموضوع))[1].

وقال الإمام ابن قُدامة من أئمَّة الحنابلة: ((ولم يُثبِتْ أحمدُ الحديثَ المرويَّ فيها- أي صلاة التَّسبيح- ولم يرَها مستحبةً، وإنْ فعلها إنسانٌ فلا بأسَ؛ فإنَّ النوافلَ والفضائلَ لا يُشترط صِحَّةُ الحديثِ فيها))[2].

ويحدِّثنا أهل العِلم عن الواقع العمليِّ للفقه وحال الفقهاء في اعتبارهم الحديث الضَّعيف المنجبر بالقرائن والشَّواهد المحيطة به:

ومن رجَّح النَّسخ استدلَّ بحديثٍ أخرَجه الحاكمُ في مُستدركِه (1/ 386)، والدَّارقطنيُّ في سُننه (2/ 76)، والبيهقيُّ في الكبرىٰ (1/ 306) من طريقِ سُليمان بن بِلال عن عَمرو بن أبي عمرو عن عِكرمة عن ابن عبَّاس به مرفوعًا.

قال الحاكمُ: ((هذا حديثٌ صحيحٌ علىٰ شرطِ البخاريِّ ولم يُخرجاه، وفيه رفضٌ لحديثٍ مختلفٍ فيه علىٰ محمَّد ابن عمرو بأسانيد: من غسَّل ميتًا فليَغتسل)). ووافَقه الذَّهبيُّ أنَّه علىٰ شَرط البخاريِّ.

ورِجالُه ثِقات رِجالُ الصَّحيح، وحسَّن إسنادَه الحافظُ في التَّلخيص (1/ 372).

إلا أنَّ الحافظَ جنَح إلىٰ الجمعِ بين الحَديثين وأنَّ الأمرَ في الحديثِ الأولِ إنَّما هو للنَّدب؛ فقال في التَّلخيص الحبير (1/ 372): ((فيُجمع بينه وبين الأمرِ في حَديثِ أبي هُريرة بأنَّ الأمرَ علىٰ النَّدب)).

ثمَّ أورَد الحافظُ شاهدًا للندبِ من حديثِ ابن عمر رضي الله عنهما؛ وهو ما أخرَجه الدَّارقطنيُّ في سُننه (72/2)، ومن طريقِه البيهقيُّ في الكبرىٰ (1/ 306) عن ابن صاعِد: ثنا محمد بن عبدالله المخرمي: ثنا أبو هِشام المُغيرة بن سَلمة المَخزومي: ثنا وُهيب: ثنا عُبيدالله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: ((كنَّا نُغسل الميتَ فِمِنا مَن يغتَسل ومنَّا مَن لا يغتَسل)).

ورِجاله ثِقات، وابن صاعِد هو يحيىٰ بن محمد الحافظُ الثِّقة المصنِّف، ووُهيب هو ابن خالد صاحِب الكرابيس الثِّقة الثَّبت.

قال الحافظُ: ((وهذا إسنادٌ صحيحٌ، وهو أحسن ما جُمع به بين مختلف هذه الأحاديثِ، والله أعلَمُ)).

وأخرج عبدالرزاق في مصنفه (6108) من طريق معمر عن أبي إسحاق عن الحارث عن عليٍّ رضي الله عنه قال: ((مَن غَسَّل ميتًا فليغتسل)). ثم قال عقبه: ((وبه نأخذ)).

(1) فتح القدير (139/2) تأليف: محمد بن عبدالواحد المعروف بابن الهُمام- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- 1424هـ.

(2) المغني شرح مختصر الخرقي (438/1).

يقول ابن قيم الجوزية وهو يتحدَّث عن ملامح وسمات مذهب الإمام أحمد الفِقهيِّ: ((وقال عبدالله بن أحمد: سمعتُ أبي يقول: الحديث الضَّعيف أحب إليَّ من الرأي، فقال عبدالله: سألتُ أبي عن الرَّجل يكون ببلدٍ لا يجد فيه إلا صاحب حديثٍ لا يعرف صحيحَه من سقيمِه وأصحاب رأيٍ، فتنزل به النازلة؟ فقال أبي: يسألُ أصحابَ الحديث، ولا يسأل أصحابَ الرَّأي، ضعيفُ الحديث أقوىٰ من الرَّأي. وأصحابُ أبي حنيفة- رحمه الله- مُجمِعونَ علىٰ أن مذهبَ أبي حنيفةَ أنَّ ضعيفَ الحديث عندَه أولىٰ من القياس والرَّأي، وعلىٰ ذلك بنىٰ مَذهبَه، كما قدَّم حديث القَهْقَهة[1] مع ضعفه علىٰ القياس والرَّأي، وقدَّمَ حديث الوضوء بنبيذ التَّمر في السَّفر[2] مع ضعفِه علىٰ الرَّأي والقياس، ومنع قطعَ السَّارق بسرقةٍ أقلِّ من عشرة دراهمَ والحديث فيه ضعيفٌ، وجعل أكثرَ الحيض عشرةَ أيامٍ والحديث فيه ضعيفٌ، وشرط في إقامة الجمُعة المصرَ والحديث فيه كذلك، وترك القياسَ المحضَ في مسائلِ الآبار لآثارٍ فيها غيرِ مرفوعةٍ؛ فتقديمُ الحديث الضَّعيف وآثار الصَّحابة علىٰ القياس والرَّأي قولُه وقولُ الإمام أحمد))[3].

---

(1) يشير إلىٰ ما أخرجه البيهقي في الخلافيات (345/2) من طريق سهل بن عفَّان السِّجْزي ثنا الجارود ابن يزيد عن ابن أبي ذئب عن الزُّهْري عن سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يُعاد الوضوءُ من سبعٍ: من إقطارِ البول، والدَّم السَّائل، والقيء، ومن دَسْعةٍ يملأ بها الفم، والنَّوم المضطجع، وقهقهة الرَّجل في الصَّلاة، ومن خروج الدَّم)).

وقال البيهقي: ((سهل بن عفَّان مجهولٌ، والجارود بن يزيد ضعيفٌ في الحديث، ولا يصحُّ هذا)).

وقال الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (33/1): ((إسناده واهٍ جدًّا)).

(2) يشير إلىٰ ما أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب الوضوء بالنبيذ (84)، والترمذي في كتاب الطهارة، باب ما جاء في الوضوء بالنبيذ (88) من طريق شريك عن أبي فزارة عن أبي زيد عن عبدالله بن مسعود قال: سألني النبي ﷺ: ((ما في إداوتك؟)) فقلت: نبيذ، فقال: ((تمرةٌ طيبةٌ، وماءٌ طَهورٌ)). وزاد الترمذيُّ: ((قال: فتوضأ منه)).

ثم قال: ((إنما رُوِيَ هذا الحديث عن أبي زيد عن عبدالله عن النبي ﷺ، وأبو زيد رجلٌ مجهولٌ عند أهل الحديث لا تُعرف له روايةٌ غيرُ هذا الحديث)).

(3) إعلام الموقعين (146/2-145) تأليف: ابن قيم الجوزية- تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان- دار ابن

وعن تطبيق هذا المنهج في اعتبار الحديث الضَّعيف في الفقه بالشروط والقرائن وقبول الأُمة له وأهل العِلم يقول ابن رجب الحنبليُّ وهو يتكَلَّم عن حديث «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»[1]. عن أبي سعيدٍ الخدري ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال: «لا ضررَ ولا ضرارَ» حديثٌ حسنٌ، رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسندًا، ورواه مالكٌ في الموطأ عن عمرو بن يحيىٰ عن أبيه عن النبي ﷺ مرسلًا، فأسقط أبا سعيدٍ، وله طرقٌ يقوِّي بعضُها ببعضٍ.

فيقول ابن رجب رحمه الله: «حديث أبي سعيدٍ لم يخرِّجه ابن ماجه، وإنما خرَّجه الدَّارقطنيُّ والحاكم والبيهقي من رواية عثمان بن محمد بن عثمان بن ربيعة حدثنا الدراوردي عن عمرو بن يحيىٰ المازني عن أبيه عن أبي سعيدٍ الخدري عن النبي ﷺ قال: «لا ضررَ ولا ضِرارَ، مَن ضارَّ ضرَّه الله، ومن شاقَّ شقَّ الله عليه» وقال الحاكم: صحيح الإسناد علىٰ شرط مسلمٍ، وقال البيهقي: تفرَّد به عثمان عن الدَّراوَرْديِّ، وخرجه مالكٌ في الموطإ عن عمرو بن يحيىٰ عن أبيه مرسلًا.

قال ابن عبدالبرِّ: لم يختلف عن مالكٍ في إرسال هذا الحديث، قال: ولا يُسند من وجهٍ صحيحٍ، ثم خرَّجه من رواية عبدالملك بن معاذٍ النَّصيبي عن الدَّراوَرْديِّ موصولًا، والدراوردي كان الإمام أحمد يضعِّف ما حدَّث به من حفظه، ولا يعبأ به، ولا شكَّ في =

الجوزي- الرياض- الطبعة الأولىٰ- 1423هـ.

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأحكام، باب مَن بنىٰ في حقِّه ما يضر بجاره (2341)، وأحمد في مسنده (1/313)، والطبراني في الأوسط (3777) من طريق معمر عن جابر الجعفي عن عكرمةَ عن ابن عباس ﵄ به مرفوعًا.

وذكره ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (2/ 438) وقال: «قال ابن الصلاح: حسن. قال أبو داود: وهو أحد الأحاديث التي يدور عليها الفقه»، وذكر أيضًا أن الإمام الشافعي صحَّحه في سنن حرملة.

وأخرجه مالك في موطئه (4/ 1078) عن عمرو بن يحيىٰ المازني عن أبيه مرسلًا، ووصله الدارقطنيُّ في سننه (3079)، والحاكم في مستدركِه (2/ 57) من طريق عبدالعزيز بن محمد الدَّراوَردي عن عمرو بن يحيىٰ المَازِنِيِّ، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري ﵁ مرفوعًا، وقال: «صحيح الإسناد علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وحسَّنه النَّووي في الأربعين النووية حديث (32).

تقديم قول مالكٍ علىٰ قوله. وقال خالد بن سعدٍ الأندلسي الحافظ: لم يصحَّ حديثُ: «لا ضررَ ولا ضِرار» مسندًا.

وأما ابن ماجه، فخرجه من رواية فُضيل بن سُليمان حدثنا موسىٰ بن عقبة حدثنا إسحاق بن يحيىٰ بن الوليد عن عُبادة بن الصَّامت: «أن رسول الله ﷺ قضىٰ أن لا ضررَ ولا ضِرارَ» وهذا من جملة صحيفةٍ تُروىٰ بهذا الإسناد، وهي منقطعةٌ مأخوذةٌ من كتابٍ، قاله ابنُ المديني وأبو زرعة وغيرُهما، وإسحاق بن يحيىٰ قيل: هو ابن طلحة، وهو ضعيفٌ لم يسمع من عُبادة، قاله أبو زرعة وابنُ أبي حاتمٍ والدارقطني في موضعٍ، وقيل: إنه إسحاق بن يحيىٰ بن الوليد بن عُبادة، ولم يسمع أيضًا من عُبادة، قاله الدارقطنيُّ أيضًا.

وذكره ابن عدي في كتابه «الضعفاء» وقال: عامَّة أحاديثه غيرُ محفوظةٍ، وقيل: إن موسىٰ بن عقبة لم يَسمع منه، وإنما روىٰ هذه الأحاديث عن أبي عياشٍ الأسدي عنه، وأبو عياشٍ لا يُعرف.

وخرَّجه ابنُ ماجه أيضًا من وجهٍ آخر من رواية جابرٍ الجُعفيِّ عن عكرمةَ عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ضررَ ولا ضرارَ» وجابرٌ الجعفي ضعَّفه الأكثرونَ، وخرَّجه الدارقطنيُّ من رواية إبراهيم بن إسماعيل عن داود بن الحصين عن عكرمةَ وإبراهيم ضعَّفه جماعةٌ، وروايات داود عن عكرمةَ مناكير...

وأطالَ ابنُ رجبٍ رحمه الله في تخريج هذا الحديث إلىٰ أن قالَ:

«وقال الشافعيُّ في المرسَل: إنَّه إذا أُسندَ من وجهٍ آخر، أو أرسلَه مَن يأخذ العِلمَ عن غير مَن يأخذ عنه المرسِل الأول فإنه يُقبل. وقال الجُوزَجَانيُّ: إذا كان الحديثُ المسند من رجلٍ غير مقنعٍ- يعني لا يقنع برواياته- وشدَّ أركانَه المراسيلُ بالطُّرق المقبولة عند ذوي الاختيار- استُعمل واكتُفي به، وهذا إذا لم يعارض بالمسنَد الذي هو أقوىٰ منه. وقدِ استدلَّ الإمام أحمد بهذا الحديث وقال: قال النبي ﷺ: «لا ضررَ ولا ضِرارَ».

وقال أبو عمرو بن الصَّلاح: هذا الحديثُ أسنده الدَّارقطني من وجوهٍ، ومجموعها

يقوي الحديثَ ويحسِّنُه، وقد تقبَّله جماهيرُ أهل العِلم، واحتجُّوا به، وقول أبي داود: إنَّه من الأحاديثِ التي يدور الفقه عليها يُشعر بكونه غيرَ ضعيفٍ، والله أعلم»[1].

فوائد أخرىٰ لهذا النَّوع من الحديث الضَّعيف:

بل إنَّ الحديثَ الضَّعيفَ له فوق دورِه في فضائل الأعمالِ والتَّرغيبِ والترهيبِ وبعض الأحكام الفقهيَّة نجدُ له فوائدَ أخرىٰ تدخل في تشكيل منظومة الشَّريعة الكليَّةِ؛ بحيث يصبح مثل العامل المساعد أو العامل المنشط أو الكاشف عن وجه الحقِّ في مسائلَ كثيرة يساعدُ وجوده علىٰ الوصولِ إلىٰ وجه الصَّوابِ فيها مثال ذلك:

وظيفة الحديث الضعيف في التَّرجيحِ بين الرِّواياتِ:

يقولُ الإمامُ النوويُّ في المجموعِ: «قال الشَّافعيُّ: وإرسال ابن المسيِّب عندنا حسنٌ هذا نصُّ الشَّافعيِّ في المختصر نقلتُه بحروفه لما يترتَّب عليه من الفوائد، فإذا عُرف هذا فقد اختلف أصحابُنا المتقدِّمون في معنىٰ قول الشافعي: إرسال ابن المسيِّب عندنا حسنٌ علىٰ وجهين؛ حكاهما المصنِّفُ الشَّيخ أبو إسحاق في كتابه اللُّمع، وحكاهما أيضًا الخطيبُ البغداديُّ في كتابيه: كتاب الفقيه والمتفقه، والكفاية، وحكاهما جماعاتٌ آخرون؛ أحدهما: معناه أنَّها الحُجة عنده بخلافِ غيرها من المراسيل. قالوا: لأنها فُتشت فوُجدتْ مسندةً. والوجه الثَّاني: أنَّها ليستْ بحجةٍ عنده بل هي كغيرها علىٰ ما ذكرناه. وقالُوا: وإنما رجَّح الشافعيُّ بمرسله والتَّرجيح بالمرسَل جائز. قال الخطيبُ البغداديُّ في كتاب الفقيه والمتفقه: والصَّوابُ الوجه الثاني، وأما الأوَّلُ فليس بشيءٍ، وكذا قال في الكفاية: الوجهُ الثَّاني هو الصَّحيح عندنا من الوجهين؛ لأن في مراسيل سعيدٍ ما لم يوجد مسندًا بحالٍ من وجهٍ يصح. قال: وقد جعل الشافعيُّ لمراسيل كبار التَّابعين مزيَّةً علىٰ غيرِهم كما استحسن مرسل سعيدٍ. هذا كلام الخطيب. وذكر الإمام الحافظ أبو بكرٍ البيهقيُّ نصَّ

---

(1) جامع العلوم والحكم (2/211-207).

الشافعي كما قدَّمتُه ثم قال: فالشافعيُّ يقبل مراسيلَ كبار التَّابعين إذا انضمَّ إليها ما يؤكِّدُها، فإن لم ينضمَّ لم يقبلْها سواءٌ كان مرسل ابن المسيِّب أو غيره. قال: وقد ذكرنا مراسيل لابن المسيِّب لم يقبلْها الشَّافعي حين لم ينضمَّ إليها ما يؤكِّدها، ومراسيل لغيره قال بها حيث انضمَّ إليها ما يؤكِّدُها»[1].

وظيفة الحديث الضعيف في تعيينِ الرَّاوي المُبهم:

قال الزركشيُّ: «الأحاديثُ التي يقعُ فيها تعْيينُ المبهماتِ وصحَّ أصلُها في طريقٍ آخرَ هل يُتسامَح في أسانيدِها من جهةِ أنَّه لا يتَعَلَّق بتعيينه حكمٌ شَرْعِيٌّ أم لَا؟ فيه نظرٌ والأقربُ التَّسامح»[2].

وظيفة الحديث الضعيف في الدلالة على صُحبة النبي ﷺ:

يقول الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في مقدمة كتابه الإصابة: «وقد كثُر سؤال جماعةٍ من الإخوان في تبييضِه، فاستخرتُ الله تعالى في ذلك، ورتبتُه على أربعة أقسام في كل حرف منه: فالقسم الأول - فيمَنْ وردتْ صحبتُه بطريق الرِّواية عنه أو عَن غيره، سواء كانت الطريق صحيحةً أو حسنةً أو ضعيفةً، أو وقع ذِكره بما يدلُّ على الصُّحبة بأيِّ طريقٍ كان»[3].

فانظر أيُّها الأخ الكريم كيف يُثبت الصُّحبةَ للنبيِّ ﷺ بخبرٍ ضعيفٍ ويتسامحُ في ذلك.

(1) انظر: المجموع شرح المهذب (61/1).

(2) النكت على مقدمة ابن الصلاح (322/2) تأليف: أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن بهادر الزَّركشي- تحقيق: د. زين العابدين بن محمد بلا فريج- أضواء السلف- الرياض- الطبعة الأولى- 1998م.

(3) الإصابة في تمييز الصحابة (12/1) تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني- مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية.

وظيفة الحديث الضعيف في مجالِ تَفسيرِ القُرآنِ الكريمِ:

قال الإمام البيهقي في دلائل النبوة: «سمعتُ أبا عبدالله الحافظ يقول: سمعتُ أبا زكريا يحيىٰ بن محمدٍ العنبري يقول: سمعتُ أبا الحسن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الحنظليَّ يقول: كان أبي يحكي عن عبدالرحمن بن مهدي أنه قال: إذا رَوينا في الثَّواب والعقاب وفضائل الأعمال تساهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرِّجال، وإذا روينا في الحلال والحرامِ والأحكامِ تشدَّدنا في الأسانيد وانتقدنا الرجالَ.

أخبرنا محمد بن عبدالله الحافظ أخبرنا أبو العباس: محمد بن أحمد المحبوبيُّ- بمرو- أخبرنا أحمد بن سيارٍ قال: سمعت أبا قدامة يقول: قال يحيىٰ بن سعيد- يعني القطَّان: تساهلوا في التَّفسير عن قومٍ لا يوثقونهم في الحديث. ثم ذكر ليث بن أبي سليمٍ، وجويبر ابن سعيد، والضحَّاك، ومحمد بن السَّائب- يعني الكلبي، وقال: هؤلاء يُحمدُ حديثُهم ويُكتب التفسير عنهم. قال الشيخ: وإنما تساهلوا في أخذ التفسير عنهم؛ لأن ما فسروا به ألفاظَه تشهد لهم به لغاتُ العرب، وإنما عملُهم في ذلك الجمعُ والتَّقريبُ فقط»[1]. ◆

(1) دلائل النبوة (1/34- 37) تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي- تحقيق: د. عبدالمعطي قلعَجي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1408هـ.

دفع استشكال لابن تيميَّة وتلميذه ابن القيم رحمهما الله حول العملِ بالحديث الضَّعيف في الأحكام عند الإمام أحمد

تقدَّم لنا نصوصُ الأئمَّةِ من الفقهاءِ المجتهدينَ والحفاظ المصنِّفينَ علىٰ العمل بالحديث الضَّعيف الذي لم يشتد عند المحدِّثين ضعفُه في الأحكامِ.

لكن ابن تيمية أورد إشكالًا- لم يُسبَقْ إليه- علىٰ العمل بالحديثِ الضَّعيفِ في الأحكام وغيرِها، وهذا الإشكالُ يخصُّ احتجاجَ أحمد بالضَّعِيفِ؛ قال في مجموع الفتاوىٰ: «ومَن نقلَ عن أحمدَ أنَّه كان يحتجُّ بالحديث الضَّعيفِ الذي ليس بصحيحٍ ولا حسنٍ فقد غلطَ عليه، ولكن كان في عُرف أحمد بن حنبل ومَن قبلَه من العلماء أنَّ الحديثَ ينقسم إلىٰ نوعين: صحيح وضعيف. والضَّعيف عندهم يَنقسِمُ إلىٰ ضعيفٍ متروكٍ لا يُحتجُّ به، وإلىٰ ضعيفٍ حسنٍ، كما أنَّ ضعفَ الإنسان بالمرض يَنقسمُ إلىٰ مرضٍ مخُوفٍ يمنع التبرع من رأس المالِ وإلىٰ ضعيفٍ خفيف لا يمنعُ من ذلك.

وأوَّلُ مَن عرفَ أنه قسَّم الحديثَ ثلاثة أقسامٍ- صحيح وحسن وضعيف- هو أبو عيسىٰ الترمذي في جامعِه. والحسن عنده ما تعدَّدت طرقُه ولم يكنْ في رُواتِه متَّهم وليس بشاذٍّ. فهذا الحديثُ وأمثالُه يسمِّيه أحمدُ ضعيفًا ويَحتجُّ به، ولهذا مثَّل أحمد الحديث الضَّعيف الذي يُحتج به بحديث عمرو بن شعيب، وحديث إبراهيم الهَجَرِي ونحوِهما»[1].

وقد تَبعَ ابن تيميَّةَ في ذلك تلميذَه ابن القيم في مواضعَ كثيرة من كتبه مثل: إعلام الموقِّعين، فقال وهو يتحدَّث عن ملامح وسمات مذهب الإمام أحمد الفقهيِّ: «الأخذُ بالمرسَلِ والحديثِ الضَّعيفِ، إذا لم يكن في الباب شيءٌ يدفعُه، وهو الذي رجَّحه علىٰ القياسِ، وليس المرادُ بالضَّعيفِ عنده الباطلَ ولا المُنكرَ، ولا ما في روايته متَّهمٌ؛ بحيث لا يسوغ الذِّهاب إليه فالعملُ به؛ بل الحديثُ الضَّعيفُ عنده قسيمُ الصَّحيح وقسمٌ من أقسام الحَسن، ولم يكن يقسم الحديثَ إلىٰ صحيحٍ وحسنٍ وضعيفٍ، بل إلىٰ صحيحٍ

(1) انظر: مجموع الفتاوىٰ (1/251).

وضعيفٍ، وللضَّعيفِ عنده مراتبُ»[1].

وهذا الكلامُ منهما رحمهما الله قد خالفَا فيه ما عُرف عند علماءِ الحديثِ قبل الإمام التِّرمذيِّ، وفيه نظرٌ من عدَّةِ وُجُوهٍ:

الأوَّل: من المعلومِ أنَّ كلًّا من الصَّحيحِ والضَّعيفِ علىٰ أنواعٍ ودرجاتٍ، فالقولُ بحصرِهما في درجتيْنِ فقط يخالفُ صنيعَ العلماء قبل التِّرمذيِّ؛ حيث إنَّهم وضعوا أقسامًا ودرجاتٍ بينَ الصَّحيح والضَّعيفِ.

الثَّاني: إضافة هذا التَّقسيمِ والحصرِ لأحمدَ نصًّا أو لغيره من العلماء الذين سبقوه تحتاجُ لنقلٍ صحيحٍ لا يحتملُ غيرَه.

الثَّالث: أنَّه علىٰ هذا القولِ يلزمُ أن الأئمَّةَ رحمهم الله كانوا لا يحتجُّونَ بالحديثِ الحسنِ في الأحكام، وإنما يحتجُّونَ في الأحكام بالصَّحيح فقط، أمَّا التَّرغيبُ والترهيبُ وسائر الفضائل فكانوا يحتجُّون فيها بالحديثِ الحسنِ.

وهذا مُخالفٌ للواقعِ لما سَبَقَ أن نقلناه عن العلماءِ في هذا الشَّأنِ.

- وأمَّا قولُ ابن تيميَّةَ رحمه الله: «وأوَّل مَن عرف أنه قسَّم الحديثَ ثلاثة أقسام- صحيح وحسن وضعيف- هو أبو عيسىٰ التِّرمذيُّ في جامعِه».

فيُقالُ له: نسبة الأوليَّةِ للترمذيِّ فيها نظر؛ حيث إنَّ الترمذيَّ نفسه لم يصرِّح بسبقه لهذا التَّقسيمِ في كُتبه كالسُّنن أو العلل الكبير أو الصَّغيرِ.

فهذا التَّقسيمُ الثُّلاثيُّ كان معروفًا عند أهل الحديثِ من قبلِ الترمذيِّ، فقد أضافَه إليهم الخطابيُّ (ت388)، وكذا ابنُ الصلاح (ت629) وغيرُهم.

وقد يُقالُ: إنَّ ابنَ رجب الحنبليَّ قد نسبَ هذا التقسيمَ إلىٰ الترمذيِّ كما في شرح علل التِّرمذيِّ حيث قال: «اعلم أنَّ الترمذيَّ قسَّم في كتابه هذا الحديث إلىٰ صحيحٍ، وحسن،

---

(1) انظر: إعلام الموقِّعين عن رب العالمين (2/55- 59).

وغريب، وقد يجمع هذه الأوصافَ الثَّلاثة في حديث واحد، وقد يجمع منها وصفين في الحديثِ، وقد يفرد أحدها في بعض الأحاديثِ...)).

فيُقالُ له: إنَّ ابن رجبٍ قدِ استدركَ وبيَّن أن الترمذيَّ مسبوقٌ بهذا التَّقسيمِ، وردَّ هذه الشبهة فقال: ((وقد نسب طائفةٌ من العلماء الترمذيَّ إلىٰ التفرُّد بهذا التقسيمِ، ولا شكَّ أنه هو الذي اشتُهرت عنه هذه القِسمةُ، وقد سبقه البخاريُّ إلىٰ ذلك، كما ذكَرَه التِّرمذيُّ عنه في كتاب العِللِ أنه قال في حديث البحر ((هو الطَّهورُ ماؤه))[1]. هو حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، و إنه قال في أحاديث كثيرة: هذا حديث حسن، وكذلك ذكر ابن أبي حاتم عن أبيه أنَّه قال في حديث إبراهيم بن أبي شيبان عن يونس بن ميسرة بن حلبس عن أبي إدريس عن عبدالله بن حوالة عن النبي ﷺ: ((تجندون أجنادًا...)) الحديث. قال: هو صحيح حسن غريب[2]. وقد كان أحمد وغيره يقولون: حديث حسن))[3]. ففرَّقَ بين الشهرة بالتَّقسيم والقول بالأوليَّةِ به.

ومما يدلُّ أيضًا علىٰ أنَّ مصطلحَ الحديث الحسن كان معروفًا في طبقة شيوخ التِّرمذيِّ؛ بل وفي الطبقة التي فوقها ما أكَّده ابنُ الصلاح في مقدمته حيث قال:

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (83)، والترمذيُّ في كتاب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهورٌ (69)، والنَّسائي في كتاب الطهارة، باب ماء البحر (59)، وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بماء البحر (386)، ومالك في موطئه (2/ 29)، وأحمد في مسنده (2/ 237، 361)، وابن خزيمة (111)، وابن حبان (1243، 5258) في صحيحيهما، والحاكم في المستدرك (1/140- 141) وغيرهم من طريق صَفوان بن سليم عن سَعيد بن سَلمة من آل بني الأزرق أنَّ المغيرة بن بُردة من بَني عبدالدَّار أخبَره أنَّه سَمِع أبا هريرةَ ﷺ به مرفوعًا.

قال الترمذيُّ: ((هذا حديثُ حسن صحيح، وهو قول أكثر الفُقهاء من أصحابِ النبيِّ ﷺ)).

(2) انظر: علل ابن أبي حاتم (س1001).

(3) انظر: علل التِّرمذيِّ (2/574- 575) لزين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي، البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي- تحقيق: الدكتور همام عبدالرحيم سعيد- مكتبة المنار- الزرقاء- الأردن- الطبعة الأولىٰ- 1407هـ - 1987م.

((كتاب أبي عيسىٰ التِّرمذيِّ رحمه الله أصلٌ في معرفة الحديث الحسن، وهو الذي نوَّه باسمه وأكثر من ذِكره في جامعه. ويوجد في متفرِّقات من كلام بعضِ مشايخه، والطَّبقة التي قبله كأحمد بن حنبل، والبخاري، وغيرهما))[1].

ويقول الحافظُ العراقيُّ أيضًا في التَّقييد والإيضاح: ((وقد وُجد التعبيرُ به في شيوخ الطبقةِ التي قبله أيضًا كالشَّافعيِّ رحمه الله تعالىٰ فقالَ في كتابِ اختلافِ الحديثِ عند ذِكرِ حديث ابنِ عمرَ: ((لقدِ ارتقيت علىٰ ظهرِ بيتٍ لنا...)) الحديث[2]. حديثُ ابن عمر مسندٌ حسنُ الإسنادِ، وقالَ فيه أيضًا: وسمعتُ مَن يَروِي بإسنادٍ حسن: أنَّ أبا بكرةَ ذكر للنبيِّ ﷺ أنَّه ركع دون الصَّفِّ...))[3] الحديث))[4].

وإذا أردنا معرفةَ الإمام السَّابقِ في هذا الاصطلاح وكيف وصل للإمامِ التِّرمذيِّ؟ فيحدثنا عن ذلك الحافظ ابنُ حجرٍ في النُّكت علىٰ ابن الصَّلاح فيقول: ((وأمَّا عليُّ بن المَدينيِّ فقد أكثرَ من وصف الأحاديثِ بالصِّحَّةِ والحسن في مسنده وفي عِلِلِه، فظاهر عبارته قصد المعنىٰ الاصطلاحيِّ، وكأنَّه الإمام السَّابق لهذا الاصطلاح، وعنه أخذ البخاريُّ، ويعقوب بن شَيبةَ، وغيرُ واحد. وعن البخاريِّ أخذَ الترمذيُّ))[5].

- وأما قولُ ابن تيميَّةَ رحمه الله: ((والحسن عنده- أي الترمذيِّ- ما تعدَّدت طرُقُه ولم يكن في رواته مُتَّهمٌ بالكذب وليس بشاذٍّ، فهذا الحديث وأمثاله يسمِّيه أحمد

---

(1) انظر: مقدمة ابن الصلاح (ص46).

(2) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب من تبرز علىٰ لَبِنتيْنِ (145)، ومسلم في كتاب الطهارة، باب الاستطابة (266).

(3) أخرجه البخاريُّ في كتاب الأذانِ، باب إذا ركع دون الصف (783) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه أنه انتهىٰ إلىٰ النبي ﷺ وهو راكع، فركع قبل أن يصل إلىٰ الصفِّ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: ((زادك الله حرصًا ولا تعد)).

(4) انظر: التَّقييد والإيضاح (ص46).

(5) انظر: النُّكت علىٰ ابن الصلاح (1/428- 430).

ضعيفًا ويحتجُّ به)).

فنقولُ وبالله التوفيق: لقدِ اختصرَ ابنُ تيميَّةَ كلام الترمذيِّ، واعتمد علىٰ حفظه كما ترىٰ فجَانَبَه الصوابُ، وذلك أن التِّرمذيَّ عرَّف نوعًا واحدًا من الحَسنِ هو الحسن لغيره، ولم يعرِّف الحسن لذاتِه، ومعلومٌ أن الاختلافاتِ في كشف اصطلاحاتِ التِّرمذيِّ مشهورة.

والإمام أحمدُ وأصحابه أطلقوا الاحتجاجَ بالضَّعيف ولم يقيِّدوه بنوع واحدٍ؛ فالضَّعيفُ المحتجُّ به عند أحمدَ وأصحابِه له عدةُ صُور منها: إذا انفردَ به ضعيف، وهذا لا يقابل الحسن لغيرِه عند التِّرمذيِّ المفترض فيه تعددُ الطرق والوجوه، ولم يصرِّح الإمام أحمد أو أحدُ أصحابِه رحمهم الله تعالىٰ أنَّ مرادَهم بالضَّعيف المحتجِّ به في الأحكام هو الضَّعيفُ الذي تعدَّدت طرقُه ولم يكن شاذًّا ولا معللًا ولا فيه راوٍ متهمٌ بالكذبِ.

- وأمَّا قولُه: ((ولهذا مثَّل أحمد الحديث الضَّعيف الذي يُحتجُّ به بحديث عمرِو بن شعيب، وحديث إبراهيم الهَجَرِي ونحوِهما، ومَن نقل عن أحمدَ أنَّه كان يحتجُّ بالحديثِ الضَّعيفِ الَّذي ليس بصحيحٍ ولا حسنٍ فقد غلط عليه)).

وهذه الشبهةُ مردودةٌ عليها أيضًا من عدة أوجهٍ:

أولًا: أنَّ نصوص الإمام أحمدَ التي بين أيدينا عن الرَّجلين ضدَّ ما يراه ابن تيميَّةَ، وهي مسقطةٌ لهذه الدَّعوىٰ.

أمَّا عن عمرو بن شعيب: ففي كتاب: بحر الدم فيمَنْ تكلم فيه الإمام أحمد بمدحٍ أو ذمٍّ: ((وقال الميمونيُّ عن أحمدَ: له مناكيرُ، وإنما يُكتبُ حديثُه يعتبر به، فأمَّا أن يكون حجةً فلا))[1].

(1) انظر: بحر الدم فيمَنْ تكلم فيه الإمام أحمد بمدحٍ أو ذم (ت762) تأليف: يوسف بن حسن بن أحمد ابن حسن بن عبدالهادي الصَّالحي- تحقيق وتعليق: د/روحية عبدالرحمن السويفي- دار الكتب العلميَّة- لبنان- الطَّبعة الأولىٰ- 1992م.

فهذا جرحٌ مُفسَّرٌ من الإمام أحمدَ، وهو قوله: ((له مَناكيرُ)) وهذا يجعل حديثَه حجة بغيرِه لا بنفسِه، أمَّا إذا انفرد فضعيفٌ؛ كما هو ثابتٌ عند المحدِّثينَ.

وأمَّا عن إبراهيم الهَجَرِي: فهو ابن مسلم الكوفي العبديُّ.

قال عنه ابن معينٍ: ((ليس حديثُه بشيءٍ. وقال أبو زرعة: ضعيفٌ. وقال أبو حاتم: ضعيفُ الحديثِ منكرُ الحديثِ. وقال البخاريُّ: منكر الحديث. وقال الترمذيُّ: يضعَّف في الحديثِ. وقال النسائيُّ: منكر الحديث. وقال عبدالله بن أحمد عن أبيه: كان الهَجَرِيُّ رفَّاعًا وضعَّفه))[1].

فالرجل فيه كلام مشهور بسبب كونه رفَّاعًا، وهذه علامةٌ علىٰ مخالفاتِه الصَّريحة للثِّقات.

فالرَّجلُ فيه جرحٌ مفسَّرٌ من أحمدَ، فمثله يُكتبُ حديثُه وينظر فيه، وإذا انفرد فضَعيفٌ عند التِّرمذيِّ وغير الترمذيِّ.

وبذلك تكونُ دعوىٰ: الحسنُ عند الترمذيِّ ضعيف عند أحمدَ دعوىٰ باطلةٌ لا تستندُ إلىٰ دليلٍ.

ثانيًا: جاءت نصوصٌ كثيرة عن أحمدَ وأصحابِه رحمه الله تعالىٰ في إطلاقِ العملِ بالضَّعيفِ الذي في إسنادِه راوٍ ضعيفٌ ولم يُروَ إلَّا من هذا الوجه، أو فيه انقطاع، وهذه بعضُ نصوص الإمام أحمدَ وأصحابِه رحمهم الله:

جاء في المسوَّدة في أصول الفقه لآل تيميَّة: ((ذكر القاضي كلامَ أحمد في الحديث الضَّعيف والأخذِ به، ونقل الأثرم قال: رأيتُ أبا عبدالله إن كان الحديثُ عن النبي ﷺ في إسنادِه شيء يأخذ به إذا لم يجئ خلافُه أثبت منه مثل حديث عمرو بن شعيب وإبراهيم الهَجَرِي وربما أخذ بالمرسَلِ إذا لم يجئ خلافُه...

قال القاضي: قد أطلق أحمدُ القولَ بالأخذ بالحديثِ الضَّعيف، فقال مهنا: قال أحمدُ:

(1) انظر: تهذيب التهذيب (1/165) تأليف: ابن حجر العسقلاني- مطبعة دائرة المعارف النظامية- الهند- الطَّبعة الأولىٰ.

النَّاسُ كلُّهم أَكْفَاء إلا الحائكَ والحَجَّامَ والكساح. فقيل له: تأخذ بحديث «كلُّ الناس أَكْفَاء إلا حائكًا أو حَجَّامًا»[1] وأنت تضعفه؟ فقال: إنما نضعِّف إسنادَه ولكن العمل عليه»[2].

وفي المسودة أيضًا: «قال الأثرم: سمعتُ أبا عبدالله يقول: إذا كان في المسألةِ عنِ النَّبيِّ ﷺ حديثٌ لم نأخذ فيها بقول أحدٍ من الصَّحابة ولا مَن بعدهم خلافه، وإذا كان في المسألةِ عن أصحابِ رسول الله ﷺ قولٌ مختلفٌ نختار من أقاويلهم ولم نخرج عن أقاويلهم إلىٰ قولِ مَن بعدهم، وإذا لم يكن فيها عن النبيِّ ﷺ ولا عن الصحابة قولٌ نختار من أقوال التَّابعينَ، وربما كان الحديث عن النبيِّ ﷺ في إسناده شيءٌ فنأخذ به إذا لم يجئ خلافه أثبت منه، وربما أخذنا بالحديث المرسل إذا لم يجئ خلافه أثبت منه»[3].

ويمكن إيرادُ إشكالٍ قويٍّ علىٰ ابن تيميةَ؛ وهو أنك بمقارنة الرُّواة تجد اختلافًا ظاهرًا للنُّقاد فيهم، وعند المقابلة يمكن أن تقول بناءً علىٰ توثيق البخاري لراوٍ أو لرواةٍ وتضعيف أبي داود مثلًا له أو لهم: إن الصحيح عند البخاريِّ ضعيفٌ عند أبي داود، أو تقول: إن الصَّحِيحَ عند البخاريِّ حسنٌ عند الترمذيِّ بناء علىٰ تحسين الترمذيِّ لأحاديثَ في البخاريِّ، ولا يخفىٰ ضعف ذلك.

وفي شرح الكوكب المنير: «وقال الخلَّال: مذهبه - يعني الإمام أحمد- أنَّ الحديثَ الضَّعيفَ إذا لم يكن له معارِضٌ قال به. وقال في كفَّارةِ وطء الحائض: مذهبه في الأحاديث إن كانت مضطربةً ولم يكن لها معارضٌ قالَ بها.

---

(1) أخرجه ابنُ الأعرابي في معجمه (3/953- 954)، والبيهقي في الكبرىٰ (7/135) من طريق الحكم بن عبدالله الأزدي حدثني الزهري عن سعيد بن المسيب عن عائشةَ رضي الله عنها به مرفوعًا. وضعَّفه البيهقي.

(2) انظر: المسودة في أصول الفقه (ص273، 274) تأليف: آل تيمية؛ مجد الدين عبدالسلام بن تيمية (ت 652هـ)، وعبدالحليم بن تيمية (ت: 682هـ)، وأحمد بن تيمية (728هـ)- تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد- دار الكتاب العربي.

(3) المصدر السابق (ص276).

وقال أحمد في رواية عبدالله: طريقي لستُ أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن في البابِ ما يدفعُه))[1].

فهذه تصريحاتٌ مُتتابعةٌ تدل على العمل بمطلقِ الضعيفِ، وبيان نوع منه وهو الحديثُ المضطرب، وهو ضعيفٌ عند المتقدّمين والمتأخِّرينَ- أحمد والترمذي وغيرهما- ولم يصرِّحْ أحدٌ بأن المضطرب حسن عند الترمذي، فتدبر.

- دفعُ الإمام السخاويِّ لاستشكالِ ابن تيميَّةَ رحمهما الله:

وقد رَدَّ الحافظُ السخاويُّ على هذه الشبهة في فتح المغيثِ فقال: ((على أنَّ بعضَهم- كما حكاه المؤلِّفُ في أثناء مَن تُقبل روايته وتُردُّ من النكت- حمل قول ابن منده على أنَّه أريد بالضَّعيف هنا الحديث الحسن، وهو بعيدٌ. وكلام أبي داودَ في رسالتِه التي وصف فيها كتابَه إلى أهل مكة- مُشعرٌ بخلافه؛ فإنه قال: سألتم أن أذكر لكم الأحاديثَ التي في كتاب السُّنن أهي أصحُّ ما عرفتُ في الباب؟ فاعلموا أنَّه كذلك كله؛ إلا أن يكون قد رُوي من وجهين صحيحيْنِ، وأحدُهما أقدم إسنادًا، والآخر صاحبه قدم في الحفظ، فربما كتبت ذلك؛ أي الذي هو أقدم إسنادًا، ولا أرى في كتابي من هذا عشرة أحاديث...)).

إلى أن قال: ((وليس في كتاب السُّنن الذي صنفتُه عن رجلٍ متروك الحديث شيءٌ، وإذا كان فيه حديثٌ منكرٌ بينتُه أنه منكرٌ، وليس على نحوه في الباب غيره.

إلى آخر الرسالة. وقد روينا أنه عرض سننَه على شيخه أحمد، فاستحسنه))[2].

وبهذا يتبيَّنُ لنا مما سبق أنه لم ينقل عن أحد تصريحًا أو تلميحًا أنَّ الضعيف عند أبي داود حَسَنٌ عند الترمذيِّ، ولكن يلزم القائل بأنَّ الحسن عند الترمذيِّ ضعيفٌ عند أحمدَ أن الضَّعيف عند أبي داود حسن عند الترمذي، وهذا إلزامٌ لا تشغيبَ فيه، فتأمَّل.

ثالثا: أصول الإمام أحمد تدفع استشكال ابن تيمية:

(1) انظر: شرح الكوكب المنير (2/573).

(2) انظر: فتح المغيث (1/97).

من المعلوم المتفق عليه أن أصول الإمام أحمد خمسة، وهي علىٰ الترتيب[1]:

1- النصُّ من الكتابِ والسُّنة الثَّابتة.

2- فتاوىٰ الصَّحابة.

3- إذا اختلف الصَّحابة تخيَّر من أقوالهم أقربها للنصِّ.

4- الأخذ بالمرسل والحديث الضَّعيف.

5- القياس.

وبهذا يتبيَّن لنا أن السُّنة عند الإمام أحمد قسمان:

أ- السُّنة الثابتة، وجعلها في أصلٍ واحدٍ مع القرآن الكريم.

ب- السُّنة التي لم يثبتْ إسنادُها، وأخَّرها إلىٰ المرتبةِ الرَّابعة بعد فتاوىٰ الصَّحابةِ ﵃، وبعد التخيُّر من أقوالهم عند الاختلاف.

فهذا صريحٌ في أن الإمام أحمد رحمه الله يعمل بالحديث الضَّعيفِ الذي يَعلم ضعفَه.

ولو كانت ثابتةً عنده كثبوتِ الحَسن بقسميه عند التِّرمذيِّ لما أخَّرها ولجعلها مع الأصل الأول.

فالذي يقول: إنَّ الحسن عند الترمذي ضعيفٌ عند أحمدَ ويرىٰ أن أحمدَ يأخذ بالثَّابتِ فقط- يكون بذلك قد خالف أصولَ الإمام، وقدَحَ في إمامِه فوصفه بأنه يؤخِّر السُّنة الثابتةَ ويُقدِّمُ عليها الموقوفاتِ من أقوال الصحابة، والإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ أجلُّ من هذا الإلزام، فتنبَّه. ◆

---

(1) انظر: إعلام الموقِّعين (2/50).

بدعة تقسيم كتب السُّنن
إلىٰ صحيحٍ مقبول وضعيفٍ مردودٍ لا يُعملُ به

نتعرَّض الآن أيها القارئ الكريم إلىٰ صورةٍ محدَثة في التَّعامل مع السُّنة النبويَّة ومصنَّفاتها تخالفُ ما كان عليه سلفُ هذه الأُمة وعلمائها في جمعهم لأحاديثِ رسولِ الله ﷺ وتصنيفهم لدواوينِ السُّنة المطهَّرة؛ ألا وهي بدعةُ تقسيم كُتب السُّنن النبويَّة إلىٰ صحيحٍ مقبول يُعمل به، وضعيفٍ مردود مطلقًا لا يُعمل به، وذلك بِناءً علىٰ منهجهم الذي ابتدعوه القائمِ علىٰ فكرة تصفية السنة النبوية من غير الصحيح، وما يتبعه من تقديمِ الفقه الصحيح القائم علىٰ الأدلة الصحيحة- من وجهة نظرهم- الذي يقوم علىٰ الأدلة الصحيحة وردِّ الحديثِ الضَّعيفِ وعدم العمل به لا في الفضائل والتَّرغيب والترهيبِ، ولا في الأحكام بالشُّروط التي وضعها الأئمَّة كمنهجٍ للعمل بالحديث الضَّعيف في مجال الفقهِ.

فكانت دعوىٰ التَّقسيمِ هذه تشتملُ علىٰ بدعتيْن:

الأولىٰ: تغيير الهيكل العام لكتب السُّنن كما أرادها الأئمَّة المصنِّفونَ، حيث جمعوا في البابِ الواحد بين الصَّحيح والحسن والضَّعيف في تكاملٍ تامٍّ وبناء واحدٍ، يعطي للموضوع الواحد وحدةً كاملة متناغمةً لكلِّ نوعٍ من أنواع الحديث دورًا فيها، فهم لم يخرِّجوا الأحاديثَ في كُتبهم وهم لا يعرفون درجتَها، وإنما وُضعت كجزءٍ من السُّنة النبوية لها دورٌ في الشَّريعة الإسلاميَّة.

الثانية: مُخالَفة ما كان عليه أئمَّة الشريعة وحملة الدِّين من عملِهم بالحديث الضَّعيف في الأبواب المختلفة من الفضائل والأحكام بالشروط المعروفة والقرائن المعضِّدة.

وقد نَتَجَ عن هذه البدعة (بدعة التَّقسيم، وبدعة الرَّد) هذا المسلك الخاطئ في التَّعامُل مع مصنَّفات السُّنن الأربعة وغيرها نتائجُ سلبية كثيرة، ظهرت آثارُها في واقع المسلمين المقلِّدين لأصحاب هذا المسلك يتمثل ذلك في حدوث خللٍ كبير واضطرابٍ في أدلَّة

الفقهِ الإجماليَّةِ والفرعيَّةِ عندما تردُّ كثيرًا من الأدلة تحت دعوىٰ الضَّعف والاكتفاء بالصَّحيحِ، ودعوىٰ تحذير الأمة من الأحاديث الضَّعيفة بزعمه، وغلق الباب أمام العمل بكثيرٍ من الفضائِل، وكذلك وضع الحديث الضَّعيف في درجةٍ واحدة مع الحديث الموضوع المكذوب علىٰ رسول الله ﷺ من حيث النظرة إليه أولًا، وطريقة التعامل معه ثانيًا، وفي هذا من الخطر والاعتداء علىٰ الشَّريعةِ ما فيه؛ وذلك لأن إهدار الحديث الضَّعيف يهدر جانبًا من السُّنة يوضح به المجمل، أو يزيد في قوَّة الدليل، أو يوضح مُبهمًا.

هذا بالإضافة إلىٰ الاعتماد في ذلك كلِّه علىٰ رؤيةٍ أُحاديةٍ في منهج التَّصحيح والتَّضعيف والحُكم علىٰ الرواة والأسانيد لا يسلَّم لصاحبها بصحَّتها في غالب الأحوالِ، فنجدهم قد هجروا منهجَ الأئمة المتقدِّمين في التَّصحيح والتَّضعيف، والذين هم بلا شكٍّ أعلم من المتأخرين في الصِّناعة الحديثية نظريًّا وعمليًّا، وما يمثله ذلك من عدوانٍ علىٰ المنهج العِلميِّ المنضبطِ عند أصحاب هذا الشَّأنِ، ومخالفة القواعد العلمية الموضوعة في هذا الفنِّ، بل وتجهيل هؤلاء الأئمَّة الكرام الذين نقلوا إلينا سُنة النَّبي ﷺ.

ولزيادةِ الفائدة نذكر بعضًا من الفوارقِ بين الحديث الضَّعيف والموضوع؛ ليتبيَّنَ لنا خطأ المساواة بينهما في فكرة الردِّ المطلقِ للحديث الضَّعيف وسلخه من دواوينِ السُّنةِ وجعله في مصنَّفات خاصة، ووضعه عمليًّا في مكانة واحدةٍ مع الحديث الموضوع؛ وذلك لعدة أسباب منها:

1- أن الحديث الضَّعيف في أصله هو منسوبٌ إلىٰ النبيِّ ﷺ بوجهٍ من الوجوه ولو كان احتماليًّا، وإنما لحقه وصفُ الضَّعف لسقط في السَّند، أو للعوارض البشريَّة من سوءِ الحِفظ أو الوهم أو الغلط، أو جهالة الرَّاوي، علىٰ عكس الموضوع فهو كذبٌ مختلَق يُنسب زورًا إلىٰ النبي ﷺ وله أسبابه المختلفة كالزندقة، ونُصرة المذاهب والأهواء والأغراض الدنيوية، فلا يجوزُ إذن أن يوضع مع الضَّعيفِ في كِفَّة واحدةٍ من حيث التَّعامل معهما.

2- الحديثُ الضَّعيف تحِلُّ روايتُه بخلاف الموضوع الذي لا تحُلُّ روايته إلا لبيان وضْعِه حتَّىٰ يحذرَه الناس.

3- الحديثُ الضَّعيفُ عَمِلَ به العلماءُ والأئمة في الفضائلِ والتَّرغيب والتَّرهيبِ، وعمل عامة أهل العِلم في الأحكام بشروطِه كما سبق، بخلافِ الموضوع فإنه يحرُم العملُ به.

4- الحديثُ الضَّعيفُ يغلُبُ علىٰ الظَّن إضافتُه للنبيِّ ﷺ بخلاف الموضوعِ حيث يُجزم بكذبِه للقرائن والشَّواهِدِ التي تدلُّ علىٰ ذلكَ.

5- الحديث الضَّعيف إذا تعدَّدت طرقه ووُجد له متابعاتٌ وشواهد فإنه يرتقِي إلىٰ مرتبةِ الحسن، بخلاف الموضوعِ فمهما تعدَّدت طرقُه فهو مكذوبٌ لا يوجد سبيل إلىٰ تقويتِه ولا يحلُّ العمل به.

6- علماءُ الحديث قد يتساهلونَ في بيان الضَّعفِ في روايات فضائل الأعمال لكنهم أبدًا لا يتساهلون في بيان الوضع ولا يجيزونَ روايتَه إلا لبيان حالِه.

وسبق أن قدَّمنا نصوصًا متعدِّدة لأئمة الفقهاء والمحدِّثين تؤكِّد هذه المعاني. ◆

الخاتمة

كان الهدفُ من هذه الرسالة الصغيرةِ إلقاءَ الضَّوءِ علىٰ جُزءٍ من السُّنَّة النبويَّة المطهَّرةِ، ألَا وهو الحديثُ الضَّعيف، وبيان منهج أهل العِلم في التَّعاملِ مع هذا الجزء، وإظهار فساد دعوىٰ الرَّدِّ المطلق للحديث الضَّعيف، وبيان أنَّ له دورًا في شريعة الإسلام في فضائل الأعمالِ وفي مجالِ التَّرغيب والتَّرهيب والمناقب والتَّاريخ والسِّيَر؛ بل وفي الأحكام والفِقهِ بضوابط وشروطٍ.

ونؤكِّدُ علىٰ أنَّ منهجَ حملة الشَّريعة وأئمَّة الدِّين الذي دلَّ عليه كلامُهم أنَّ الأصلَ في الاحتجاج في الأحكام هو بالحديث المقبول، وفي العقائد بالصَّحيحِ المتواترِ، وأنَّ مجال الاحتجاجِ بالضَّعيف في كُتب الأحكام ليس لقيام الضَّعيف وحده بالحجة واستقلاليته بالدَّليل وإنما لما احتفَّ به من القرائن والشَّواهد التي ترتفعُ به ليصلح دليلًا في المسائل، تجعل من العسيرِ تجاهله، فمجالُ عمل الفقه أوسعُ من مجرَّد النظر إلىٰ الإسناد فقط، وإنما يُنظر فيه إلىٰ عدَّةِ عواملَ أخرىٰ وشواهد للكشف عن الحُكم الشَّرعي.

فليس علينا أن نضيِّق ما وسَّعه الله علينا من العمل بالضَّعيف المُنجبِر في مجالاته، ولا نحرم أنفسَنا من وجوه الخيرِ تحت دعوىٰ الرَّدِّ المطلق للحديثِ الضَّعيفِ.

ونسألُ الله سبحانه وتعالىٰ أن نكونَ قد وُفقنا في عرض هذه المسألةِ علىٰ الوجه الذي يرضيه سبحانه وتعالىٰ عنا، ونسأل الله تعالىٰ القبول لنا جميعًا، والتوفيق لما يحبه ويرضاه.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆



« مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » – آية **245** من سورة البقرة

الرسالة الحادية والعشرون
مفهوم البدعة في واقعنا المعاصر بين المنهج الوسطي والغلو

وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأول: خطورةُ الخوضِ في موضوعِ البدعةِ مِمَّنْ ليس مُخْتَصًّا بالعِلْمِ.

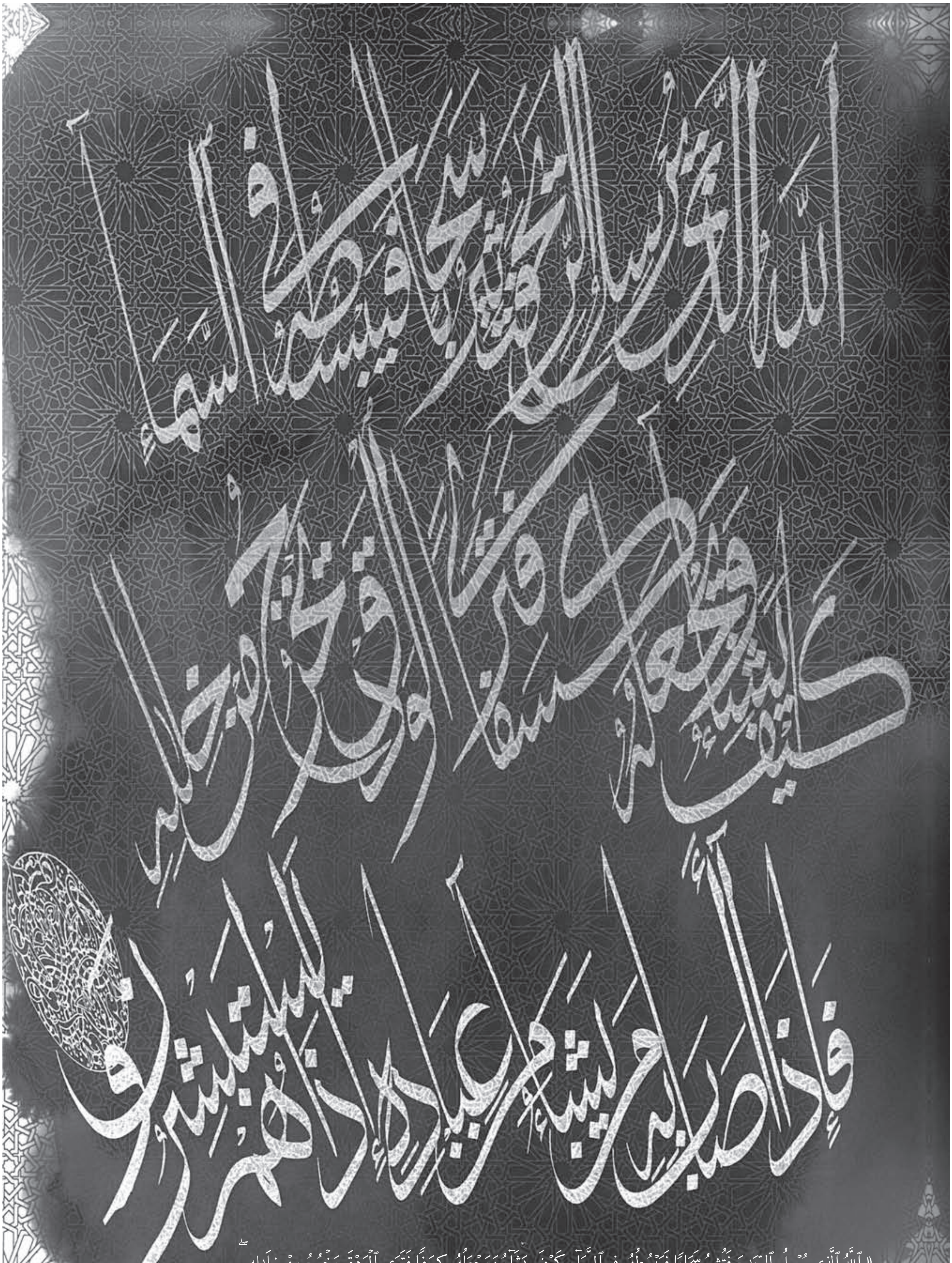
المحور الثاني: تعريف البدعة لغة واصطلاحًا.

المحور الثالث: الأحاديثُ الواردةُ في باب البدعةِ وبيانُ كلام العلماء فيها.

المحور الرابع: هل تَرْكُ النبيِّ ﷺ يُنْشِئُ حُكْمًا؟

المحور الخامس: أفعالٌ من السَّلف الصَّالحِ لم تكن على عهد النبيِّ ﷺ.

المحور السادس: مُحاكمةُ المخالِف وَفقًا لقواعد مَنهجِه. ◆



« ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ
فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » - آية **48** من سورة الروم

مفهوم البدعة
في واقعنا المعاصر بين المنهج الوسطي والغلو

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فإنَّ موضوعَ البدعةِ والبدعِ منَ الموضوعاتِ المهمة ذاتِ الشَّأن فمن الناحية العلمية والعملية في حياة المسلمين؛ وذلك لما يترتَّبُ عليه من أقوالٍ وأفعالٍ تُساهِمُ في تَوحيدِ المسلمين أو في شَقِّ صفوفهم، لكن المُشاهَدَ في مُجتمعاتِنا أنَّ موضوعَ البدعةِ وتطبيقاتِه في حياة المسلمينَ كان له أثرٌ سلبيٌّ على وحدةِ المسلمين وترابطِ أبناء المجتمعِ الواحد، وسبب ذلك أنَّه تكلَّم في أمرِ العِلْم ومباحثِه مَنْ لا يُتقنُ ذلك ولا يُحسنُه، وجَعَلَ الحقَّ ما يعتقدُه ويتبنَّاه من أمورِ الدين وأصوله وفقهِهِ وغيرِ ذلك.

والحديثُ في موضُوع البدعةِ أيها الأخ الكريم حديثٌ ذو شجونٍ وألمٍ على واقع مجتمعنا وحياتنا التي تتَّصل بدينِنا ومدى فَهمِه الذي ينبني عليه التَّقربُ لربِّ العالمين والسير على طريقة النبي الكريم ﷺ؛ وذلك نظرًا لما يترتَّبُ عليه من رَمي النَّاسِ بالابْتداعِ وحملِ النَّاس على رأيٍ واحدٍ ومذهبٍ واحدٍ، والتَّشويشِ على دِين النَّاس وعبادتِهم وأفكارهم وعاداتهم، وتضييقِ ما وسَّعه الله على المسلمين في أمورِ دِينهم وعباداتِهم وقُرُباتِهم، الأمرُ الذي يترتَّب عليه توقُّفُ أفعال الخير والعبادات خشيةَ أن تدخل تحت مُسمَّى البدعة.

وسوفَ يكون عملُنا في هذا البحثِ اليسير عبارة عن مُحاولةٍ لنقلِ وجمعِ كلام أهل العِلْم المعتبرينَ في أمَّة الإسلام قديمًا وحديثًا حولَ هذا الموضوعِ، وذلك في محاولة للرَّدِّ على بعض الأسئلة التي تُثارُ في مجتمعنا الإسلاميِّ، والتي من قبيل هل هناك بدعةٌ حسنة أو أنَّ كلَّ بدعةٍ مذمومةٌ؟ هل تَرْكُ النَّبيِّ ﷺ لأمرٍ يجعلُ فعل هذا الأمر داخلًا تحت مسمى البدعة وبالتَّالي يحرُم فعله؟ ما فَهمُ عُلماء المسلمين لهذا الموضوع وكلامهم فيه؟ وغير ذلك من الأمورِ الَّتي يَقتضيها الكلامُ في هذا الأمر، راجينَ بذلك أنْ نوضِّحَ ونقرِّبَ

صورة وحقيقةَ البدعةِ من خلال عرضْنا لكلام أهلِ العِلْم في هذا الأمرِ، وسوف يكون الحديث فيه ممثَّلًا في المحاور التَّالية:

المحور الأول: خطورةُ الخوضِ في موضوعِ البدعةِ ممَّنْ ليس مُخْتصًّا بالعِلْمِ.

المحور الثاني: تعريف البدعة لغة واصطلاحًا.

المحور الثالث: الأحاديثُ الواردةُ في باب البدعةِ وبيانُ كلام العلماء فيها.

المحور الرابع: هل تَرْكُ النبيِّ ﷺ يُنشِئُ حُكْمًا؟

المحور الخامس: أفعالٌ من السَّلف الصَّالحِ لم تكن على عهد النبيِّ ﷺ.

المحور السادس: مُحاكمةُ المخالِف وَفقًا لقواعد مَنهجِه. ◆

خُطورةُ الخوض في موضوعِ البدعةِ ممَّن ليس مختصًّا بالعِلم

إنَّ الكلام في دِين الله وأحكامِه وشريعتِه من قِبَلِ مَن ليسوا أهلًا للعِلم أمرٌ خطيرٌ وغيرُ جائزٍ، وتزدادُ خطورتُه عند الكلامِ في أمورِ البِدعة والبِدع؛ الأمرُ الَّذي يترتَّبُ عليه تحريمُ ما أحلَّه الله تعالىٰ وتحليلُ ما حرَّمه الله، ورميُ المُسلمينَ بالوقوعِ في البدعةِ وهُم بريئونَ من ذلك، ثم ما يترتَّبُ علىٰ ذلك من حُدوث الشَّحناءِ ووُقوعِ البغضاءِ بين عِبادِ الله، والتَّنافُرِ بين القُلوب، وهو أمر لم تأت به الشريعة وحذَّر منه النبي ﷺ.

لكنْ لو رَدَّ النَّاسُ أمورَ دينِهم إلىٰ أهله كما يردُّون أمورَ دنياهُم إلىٰ أهلِها لصلح للنَّاس أمورُ دينِهم ودُنياهم، فإنَّ التكلُّم في دين الله بغير عِلْمٍ مصيبةُ المصائبِ وموردُ الهلاك للنَّاس، وإنَّ مَنْ سلكَ هذا المسلك لابدَّ أن يجلبَ علىٰ نفسِه وعلىٰ الآخرين من الشُّرورِ والمصائبِ ما لا يعلمُه إلَّا الله سبحانه، وقد أمرَ الله بردِّ أمرِ الدِّين والشَّريعةِ إلىٰ أهلِه فقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلا﴾ [النساء:83].

فالله عزَّ وجلَّ يأمُرنا أنْ نردَّ الأمورَ إلىٰ أهلِها، وأنْ نسأل أهلَ الذِّكر؛ وهم أهل العِلمِ والاستنباطِ والفهمِ، فليس كلُّ أحدٍ يُحسنُ الكلامَ في دِينِ الله والعِلمِ، وإن تكلَّم فسوفَ يكون شرُّه أضعافَ خيرِه إنْ سلمنا أنه أتىٰ منه خيرٌ؛ ولذلكَ جاء التَّحذيرُ من القولِ علىٰ الله بغير علمٍ، قالَ سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:33].

وكذلكَ أرشدَ رسولُنا الكريمُ إلىٰ السُّؤالِ عن أمورِ الدِّين؛ فقد رَوىٰ أبو داودَ بسندِه عن عطاء بن أبي رباح أنَّه سَمِعَ ابنَ عبَّاس يُخبرُ أنَّ رجلًا أصابه جُرحٌ في عهْدِ رسول الله ﷺ

ثمَّ احتلم فأُمِر بالاغْتسالِ فاغتسل فماتَ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: ((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله، أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالَ))[1].

ففي هذا الحديث أنكر رسولُ الله ﷺ على مَن تجرَّأ على الفتوى بغير علمٍ وألحقَ بهم الوعيد ودعَا عليهم وجعلَهم في الإثمِ قتلةً للرجل، وذلك أنَّهم تكلَّموا بجهلٍ فأفسدوا من حيثُ أرادوا أن يُصلحوا، وأرشدَ ﷺ إلى أنَّ شفاءَ العيِّ- وهو الجهل- السُّؤالُ والتَّعلُّم.

فعلى كلِّ مسلمٍ ألَّا يستفتي في أمرِ دِينه إلَّا أهلَ العِلْمِ والوَرعِ والدِّيانة، وذلك والحمد لله ميسَّرٌ وسهلٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ولا تخلو الأُمَّة من القائمين بالحقِّ أبدًا؛ وذلك حتَّى يكونَ كلُّ امرئٍ على بيِّنةٍ من أمرِ دِينه ولا ينطبقَ علينا حديثُ النَّبي ﷺ: ((إنَّ الله لا يقبِض العِلْمَ انتزاعًا يَنتزِعُه من العِبادِ، ولكن يَقْبِضُ العِلْمَ بقبضِ العُلماء حتَّى إذا لم يُبْقِ عَالِمًا اتَّخذَ النَّاسُ رُءوسًا جُهَّالًا فَسُئلُوا فَأَفْتَوا بغيرِ عِلْمٍ فَضلُّوا وأَضَلُّوا))[2]. فنسأل السلامة والعافية من الجهل والتَّخبط في أمورِ ديننا، ومع هذا التَّوضيح اليسير لخطورةِ الكلام في البدعة يَنبغي علينا أن نعرف معنى واتِّجاهات العلماء المبنيَّة على معناها. ◆

---

(1) جزء من حديثٍ أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم (337)، والدارميُّ في سننه (779) من طريق الأوزاعي أنَّه بلغه عن عطاء. وأخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب في المجروح تصيبه الجنابة فيخاف على نفسه إنِ اغتسل (572)، وأبو يعلى في مسنده (2420) من طريق الأوزاعيِّ عن عطاء، وأخرجه عبدالرزاق في مصنفه (867) من طريق الأوزاعي عن رجلٍ عن عطاء كلهم أنَّه سمع عبدالله بن عباس رضي الله عنهما به مَرفوعًا.

وتابع الوليد بن عبيد الله الأوزاعي؛ فأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (273)، وابنُ حبَّان في صحيحه (1314)، والحاكمُ في مستدركه (1/ 165) من طريق الوليد أنَّ عطاء حدَّثه عن ابن عباسٍ بنحوه مرفوعًا. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وله شاهد من حديث جابر رضي الله عنه؛ أخرجه أبُو داودَ في الكتاب والباب السابقيْنِ (336)، والدَّارقطنيُّ في سننه (729) من طريق الزُّبير بن خُرَيق عن عطاء عن جابر بنحوه مرفوعًا.

(2) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يُقبض العلم (100)، ومسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (2673) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

تعريف البدعة لغةً واصطلاحًا

البدعةُ لغةً: مِنْ بَدَعَ الشيءَ يبدعه بدعًا، وابتدعَه: إذا أنشأه وبدأه. والبِدْعُ: الشَّيءُ الذي يكونُ أوَّلًا، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9]. أي: لستُ بأوَّلِ رسولٍ بُعثَ إلىٰ الناس، بل قد جاءتِ الرُّسلُ من قبل، فما أنا بالأمرِ الذي لا نظيرَ له حتىٰ تَستنكروني.

والبدعةُ: الحدثُ. قال في لسان العرب: المبتدعُ الذي يأتي أمرًا علىٰ شبه لم يكن ابتدأه إياه. وأبدع وابتدع وتبدَّع: أتىٰ ببدعة، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللهِ﴾ [الحديد: 27]. وبدَّعه: نسبَه إلىٰ البدعَةِ، والبديع: المحدَثُ العجيبُ، وأبدعت الشَّيء: اخترعتُه لا علىٰ مثالٍ[1].

والبَديعُ من أسماء الله تعالىٰ لإبداعِه الأشياءَ وإحداثِه إيَّاها، وهو البديعُ: أي الأوَّلُ قبلَ كلِّ شيءٍ، وهُو أبدع الخَلْقَ أي: بدأه؛ كما قالَ سبحانَه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: 117].

أمَّا تعريفُ البدعةِ في الاصطلاحِ الشَّرعيِّ؛ فقد تعدَّدتْ تعريفاتُ البدعة وتنوَّعتْ لاختلافِ أنظارِ العُلماء في مفهومِها ومدلولِها، وتتمثَّل هذه التَّعريفاتُ في اتِّجاهيْن:

1- الاتِّجاه الأوَّل: أطلقَ أصحابُ هذا الاتِّجاه البدعةَ علىٰ كلِّ أمرٍ مُحدَثٍ لم يَكن في عهد النَّبِيِّ ﷺ، أو لم يفعلْه رسولُ الله عليْه الصَّلاة والسَّلام سواءٌ أكان مذمومًا أم غيرَ مذمُومٍ، وهو مذهبُ الجمهورِ.

2- الاتِّجاه الثَّاني: اتَّجه أصحابُ هذا الاتِّجاه إلىٰ جعل مفهومِ البدعة في الشَّرع أخصَّ، فكلُّ مُحدَثٍ لا يشهدُ له أصلٌ في الشَّرعِ مذمومٌ وحرامٌ.

الكلامُ علىٰ البدعة من حيث الاتِّجاهُ الأوَّل:

---

(1) انظر: لسان العرب (ب. د. ع)، والموسوعة الفقهية الكويتية (21/8).

هو الاتِّجاهُ الَّذي يعتبرُ أنَّ ما لم يفعلْه النَّبيُّ ﷺ أو لم يكن في زمانِه بدعةٌ، ولكنَّ هذه البدعة بهذا المفهوم عندهم يتنوَّع حكمُها، وتأخذ أحدَ الأحكامِ الخمسةِ: من واجبٍ وحرامٍ ومندوبٍ ومكروهٍ ومباحٍ.

وقد تَبِعَ هذه الطريقةَ كثيرٌ من العلماء والسلف الصالح منهم الإمام الشافعي رضي الله عنه؛ فقد رُوِيَ عنه أنَّه قال: ((المُحدَثاتُ من الأمورِ ضَربانِ؛ أحدُهما: ما أُحدثَ ممَّا يخالفُ كتابًا أو سُنَّةً أو أثرًا أو إجْماعًا، فهذه لبدعةُ الضَّلالة. والثَّانيةُ: ما أُحدثَ من الخير لا خلافَ فيه لواحدٍ من هذا، فهذه مُحدثةٌ غيرُ مذمومةٍ))[1].

أيضًا يقول الإمامُ أبو حامد الغزاليُّ رحمه الله: ((وما يقال إنَّه أُبدع بعد رسول الله ﷺ، فليس كلُّ ما أُبدع منهيًّا عنه بل المنهيُّ بدعةٌ تُضادُّ سنةً ثابتةً وترفع أمرًا من الشَّرع مع بقاء عِلَّته؛ بل الإبداعُ قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيَّرت الأسباب))[2].

وقال الإمامُ الشَّيخ العزُّ بن عبدالسَّلام في كتابه قواعد الأحكام في مصالح الأنام: ((البدعةُ: فِعلُ ما لم يُعهدْ في عصر رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وآله، وهي منقسمةٌ إلى بدعةٍ واجبةٍ، وبدعةٍ محرَّمةٍ، وبدعةٍ مندوبةٍ، وبدعةٍ مكروهةٍ، وبدعة مباحةٍ، والطَّريقُ في معرفة ذلك أنْ تُعرضَ البدعةُ على قواعد الشَّريعةِ، فإنْ دخلت في قواعد الإيجابِ فهي واجبةٌ، وإنْ دخلت في قواعد التَّحريمِ فهي محرَّمةٌ، وإنْ دخلت في قواعد المندوبِ فهي مندوبةٌ، وإنْ دخلتْ في قواعد المكروهِ فهي مكروهةٌ، وإنْ دخلت في قواعد المباحِ فهي مباحةٌ))[3]. اهـ.

---

(1) المدخل إلى السنن الكبرى (206/1) تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي- تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي- دار الخلفاء للكتاب الإسلامي- الكويت.

(2) إحياء علوم الدين (3/2) تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي- دار المعرفة- بيروت- 1982م.

(3) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (337/2) تأليف: أبي محمد عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام- تحقيق: نزيه كمال حماد- عثمان جمعة ضميرية- دار القلم- دمشق- 2000م.

ونقل الإمام النَّووي رحمه الله في تهذيب الأسماء واللغات: ((البِدعة- بكسر الباء- في الشَّرع: هي إحداثُ ما لم يكنْ في عهدِ رسول الله ﷺ، وهي منقسمةٌ إلىٰ حسنةٍ وقبيحةٍ....)). ثم ساق كلام العز بن عبدالسلام المتقدم[1].

وقال ابنُ الأثير في النّهايةِ في غريبِ الحديث: ((البدعةُ بدعتانِ: بدعةُ هدًىٰ وبدعةُ ضلالٍ، فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسولُه فهو في حيِّز الذَّمِّ والإنكارِ، وما كان واقعًا تحت عمومِ ما نُدبَ إليه وحضَّ عليه الله فهو في حيِّز المدحِ، وما لم يكنْ موجودًا كنوعٍ من الجُود والسَّخاءِ وفعلِ المعروفِ فهو في الأفعال المحمودةِ))[2].

وأوردَ الحافظُ ابن حجر العسقلاني كلامًا عن البدعة في فتح الباري فقال: ((وكلُّ ما لم يكن في زمنِه ﷺ يُسمَّىٰ بدعةً، لكن منها ما يكون حسنًا، ومنها ما يكونُ بخلاف ذلك)). اهـ. ثم قال بعد ذلك: ((قولُه قال عمر: ((نعم البدعة)) وفي بعض الروايات: ((نعمت البِدعة)) بزيادة التَّاء، والبدعة: أصلُها ما أُحدثَ علىٰ غير مثالٍ سابقٍ، وتُطلق في الشَّرعِ في مقابل السُّنَّةِ فتكون مذمومةً، والتَّحقِيقُ إنْ كانت مما تندرجُ تحت مستحسنٍ في الشَّرع فهي حسنةٌ، وإنْ كانت ممَّا تندرج تحت مستقبحٍ في الشَّرع فهي مستقبحةٌ وإلَّا فهي من قسم المباح، وقد تنقسمُ إلىٰ الأحكام الخمسة)).

وقال أيضًا: ((والمُحدَثات- بفتح الدَّال- جمع محدثة، والمرادُ بها: ما أُحدث وليس له أصلٌ في الشَّرع، ويُسمَّىٰ في عُرف الشَّرع بدعةً، وما كان له أصلٌ يدلُّ عليه الشَّرعُ فليس ببدعة، فالبدعةُ في عُرف الشَّرع مذمومةٌ بخلاف اللُّغة، فإنَّ كلَّ شيءٍ أُحدثَ علىٰ غير مثالٍ يُسمَّىٰ بدعةً، سواءٌ كان محمودًا أو مذمومًا))[3].

---

(1) انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي (22/3) تأليف: أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي- دار الكتب العلمية- بيروت.

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر (106/1) تأليف: أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير- تحقيق: محمود محمد الطناحي- طاهر أحمد الزاوي- مؤسسة التاريخ العربي.

(3) فتح الباري (394/2) و(28/4) و(266/13).

وقال الإمام أحمد بن يحيىٰ الوَنْشَرِيسيُّ المالكيُّ في كتاب المعيار المُعرب: ((وأصحابنا وإنِ اتَّفقوا علىٰ إنكار البدع في الجملة، فالتَّحقيقُ الحقُّ عندهم أنَّها خمسةُ أقسام)). ثمَّ ذكر الأقسامَ الخمسةَ وأمثلةً علىٰ كل قسم، ثمَّ قال: ((فالحقُّ في البدعة إذا عرضت أن تُعرض علىٰ قواعد الشَّرعِ، فأيُّ القواعد اقتضتها أُلحقت بها، وبعد وقوفك علىٰ هذا التَّحصيل والتَّأصيلِ لا تشكُّ أنَّ قولَه ﷺ: ((كل بدعةٍ ضلالةٌ))[1]، من العامِّ المخصوص؛ كما صرَّح به الأئمَّة رضوان الله عليهم))[2].

وقال خاتمةُ المحقِّقينَ وعُمدة المُفتينَ العلَّامةُ ابن عابدين الحنفيُّ في حاشيتِه: ((فقد تكون البدعةُ واجبةً كنصبِ الأدلَّةِ للرَّدِّ علىٰ الفِرق الضَّالة، وتعلُّم النَّحو المُفهم للكتابِ والسُّنَّة، ومندوبةً كإحداث نوع رباط ومدرسةٍ، وكلِّ إحسانٍ لم يكن في الصَّدر الأوَّل، ومكروهةً كزخرفة المساجد، ومباحةً كالتَّوسع بلذيذ المآكل والمشاربِ والثِّياب))[3].

فهذه هي أقوالُ علماء الإسلام وأئمَّتِه في الكلام علىٰ مفهوم البدعةِ وأحكامِها، فهم قد وضعُوا كلَّ فعلٍ لم يفعلْه النبيُّ ﷺ أو لم يكنْ علىٰ عهده في ميزانِ القواعدِ الشَّرعيَّةِ، وأدرجُوا كلَّ فعلٍ تحتَ ما يناسبه من أحكام الوجوبِ، أو الحُرمةِ، أو النَّدبِ، أو الكراهةِ، أو الإباحةِ طبقًا لاتِّفاق الفعل أو اختلافه مع أصول الشَّرع وقواعدِه.

الكلامُ علىٰ البدعة من حيث الاتِّجاه الثَّاني:

أخذَ أصحابُ هذا الاتِّجاه بجَعْلِ مفهوم البدعةِ في الشَّرع مخصوصًا بالبدعة المذمومةِ فقط، ولم يوجد فيه تفصيلٌ أو تقسيم كالتَّقسيمِ السَّابق من حيث الوجوبُ والنَّدبُ

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (867) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(2) المعيار المعرب والجامع المغرب (1/358) المؤلف: أحمد بن يحيىٰ بن محمد الونشريسي التلمساني- خرجه جماعة من الفقهاء: بإشراف الدكتور/ محمد حجي- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.

(3) رد المحتار علىٰ الدر المختار(1/560) تأليف: محمد أمين بن عمر ابن عابدين- دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية- 1992م.

والكراهةُ... إلخ، وإنَّما جُعل إطلاقُ لفظ البدعةِ علىٰ المحرَّمِ من الأفعالِ وما ليسَ له أصلٌ في الشَّرع، فهو لم يُسمِّ ما له أصلٌ في الشَّرع بدعةً أصلًا، وإن كانتْ في اللُّغة تُسمَّىٰ بدعةً، وإنَّما قصر مصطلحَ البدعةِ علىٰ ما هُو مذمومٌ محرَّمٌ ممَّا لا أصلَ له.

وممَّن سلك هذا الاتجاه ابنُ رجب الحنبليُّ؛ فيقولُ: ((المرادُ بالبدعةِ ما أُحدثَ ممَّا لا أصلَ له في الشَّريعةِ يدلُّ عليه، وما كان له أصلٌ من الشَّرع يدلُّ عليه فليسَ ببدعةٍ شرعًا، وإنْ كان بدعةً لغةً))(1).

وعند النَّظر يتبيَّن أنَّ كلا الاتِّجاهين اتَّفقا علىٰ حقيقة مفهوم البدعة المذمومة شرعًا، وهو ما ليس له أصلٌ في شريعةِ الإسلام يلحقُ به أو يندرج تحتَه، وليس هناك اختلافٌ بين الاتِّجاهين، بل إنَّ الاتجاه الأوَّل يشمل في مجمله الاتَّجاه الثَّاني.

لكن هناك بعضُ مَن شذَّ عن هذيْن الاتِّجاهيْنِ وقال بتحريم كلِّ عملٍ لم يكن علىٰ عَهْدِ النَّبي ﷺ من أفعالٍ وأقوالٍ وعباداتٍ؛ لكنَّه في حقيقة الأمرِ لم يستطعِ الالتزام بذلك عند التَّطبيقِ، ولو ألزم نفسَه ولم يضع المحدَثَ من الأفعالِ والأقوال تحت القاعدةِ السَّابقة من التَّقسيمِ إلىٰ المحرَّم والمكروه والواجب والمندوب والمباح فإنَّه يَلزمُه أن يُبدِّع نفسَه في كثير من الأقوال والأفعال؛ بل يلزمُه أن يُبدِّع السَّلفَ الصَّالحَ رضي الله عنهم أجمعين، وأصحاب هذا المنحىٰ نبَّه عليهم السَّعد التفتازانيُّ في شرحه علىٰ المقاصد حيث قال: ((ومِنَ الجهلة مَن يجعل كلَّ أمرٍ لم يكنْ في عهد الصَّحابة بدعةً مذمومةً وإنْ لم يقم علىٰ قُبحه دليلٌ؛ تمسُّكًا بقوله عليه السَّلام: ((إيَّاكم ومُحدَثاتِ الأُمورِ))(2). ولا يعلمونَ أنَّ

(1) جامع العلوم والحكم (127/2) تأليف: عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي- تحقيق: شعيب الأرناءوط و: إبراهيم باجس- مؤسسة الرسالة- بيروت.

(2) جزء من حديثٍ أخرجَه أبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السنة (4607)، والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسُّنَّةِ واجتناب البدع (2676) من طريق خالد بن معدان قال: حدَّثني عبدالرحمن بن عمرو السلمي وحجر بن حجر، عن العرباض بن سارية ﷺ به مرفوعًا، وأخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب اتِّباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (42) من طريق ضمرة بن حبيب، عن عبدالرحمن بن عمرو السلمي أنَّه سمع

المرادَ بذلك هو أنْ يجعلَ من الدِّين ما ليسَ منه))[1].

ودعنا أخِي الكريم نبيِّنُ لك مدىٰ شذوذ هذا الرأي الأخِير، وأنَّه بهذا الأمر قد اتَّجه اتجاهًا خاطئًا ترتَّبَ عليه أمورٌ غير مقبولة في الشَّرع الحنيفِ، وبيان هذا الشُّذوذ يأتي أوَّلًا من إيراد الأحاديثِ الواردة في باب البدعةِ.

الأحاديثُ الواردة في باب البدعة، وبيان كلام العلماء فيها

قد جاء في كُتب السُّنَّة نصوصٌ تحذِّرُ من البدع ومُحدثاتِ الأمور، نذكر منها نصوصًا من أجل توضيح المُرادِ؛ لأنَّه من الخطورة بمكان أنْ يَستقلَّ المسلمُ بفهمِ حديث رسول الله ﷺ ويستنبطُ بذلك الفهم أحكامًا، إنَّما لابدَّ من الرُّجوعِ لأهل الاختصاصِ والعِلم بالأحاديثِ، فإنَّ ذلك بابٌ كبيرٌ من أبواب الفِتنة والشَّرِّ وهو الاستقلالُ بالفهم دون الرُّجوع إلىٰ أقوال أهل العِلم، وخاصَّةً في الأحاديثِ التي يُستنبط منها الأحكامُ.

1- عن جابرِ بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((أمَّا بعدُ، فإنَّ خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهَدي هَديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ))[2].

2- عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: ((مَن أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ منه فَهُو ردٌّ))[3].

3- ((مَن عَمِلَ عملًا ليسَ عليْه أمرُنا فَهو رَدٌّ))[4].

العرباض بن سارية رضي الله عنه به مَرفُوعًا. وقال التِّرمذيُّ: ((حسن صحيح)).

(1) شرح المقاصد في علم الكلام (466/3) تأليف: سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني- دار الكتب العلمية- بيروت- 2001م.

(2) تقدم تخريجه قريبًا.

(3) متَّفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الصُّلح، باب إذا اصطلحوا علىٰ صلح جور (2697)، ومسلمٌ في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورَدِّ محدثاتِ الأمور (1718).

(4) أخرجه مسلمٌ في نفس الكتاب والباب السابقين (1718) أيضًا من حديث عائشة رضي الله عنها.

4- عن جرير بن عبدالله البَجَلي ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((مَن سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ مَن عَمل بها بعدَه، مِن غير أنْ يَنقصَ مِن أجورِهم شيءٌ، ومَن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيِّئةً كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها من بعدِه مِن غير أنْ يَنقصَ مِن أوزارِهم شيءٌ))[1].

5- روىٰ البخاريُّ في صحيحِه عن عبدالرَّحمن بن عبدالقاري أنَّه قال: خرجتُ مع عمرَ بنِ الخطَّاب ﵁ ليلةً في رمضانَ إلىٰ المسجد، فإذا النَّاسُ أوزاعٌ متفرِّقون؛ يُصلِّي الرَّجل لنفسه ويصلِّي الرَّجل فيصلِّي بصلاتِه الرَّهطُ، فقال عمرُ: ((إنِّي أرىٰ لو جمعتُ هؤلاءِ علىٰ قارئٍ واحدٍ لكان أمثَلَ)) ثُمَّ عَزم فجمعَهم علىٰ أُبي بنِ كعبٍ، ثمَّ خرجتُ معه ليلةً أخرىٰ والنَّاس يصلُّون بصلاة قارئِهم قال عمر: ((نِعْمَ البدعةُ هذه))[2]، وفي رواية الموطَّأ بلفظ: ((نِعْمَتِ البدعةُ هذه))[3].

- قال الإمام النَّوويُّ في شرح صحيح مسلم عند الكلام علىٰ حديث جابر ﵁ المتقدِّم قريبًا: ((قولُه ﷺ: ((وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ)) هذا عامٌّ مخصوصٌ، والمرادُ غالبُ البدعِ، قال أهلُ اللُّغة: هي كلُّ شيءٍ عُمل علىٰ غير مثالٍ سابقٍ.

قال العلماءُ: البدعةُ خمسةُ أقسام: واجبةٌ، ومندوبةٌ، ومحرَّمةٌ، ومكروهةٌ، ومباحةٌ.

فمِنَ الواجبة: نَظْمُ أدلَّةِ المتكلِّمين للرَّدِّ علىٰ الملاحدةِ والمبتدعينَ وشبه ذلك.

ومن المندوبة: تصنيفُ كُتبِ العِلمِ وبناءُ المدارس والرُّبطِ وغيرُ ذلك.

ومن المباح: التبسُّطُ في ألوانِ الأطعمة وغيرُ ذلك.

(1) أخرجه مسلمٌ في كتاب العلم، باب من سنَّ سنة حسنةً أو سيئةً ومن دعا إلىٰ هدًىٰ أو ضلالةٍ (1017).

(2) أخرجه البخاريُّ في كتاب الصوم، باب فضل من قام رمضان (2010).

(3) أخرجه مالك في موطَّئه (2/ 158) من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزُّبير عن عبدالرَّحمن بن عبدالقاري به.

والحرامُ والمكروهُ ظاهرانِ، فإذا عُرِفَ ما ذكرْتُه عُلِم أنَّ الحديثَ من العامِّ المخصوص، وكذا ما أشبه من الأحاديثِ الواردةِ، ويؤيِّدُ ما قلناه قولُ عمر بن الخطَّاب ﷺ في التَّراويح: ((نعمت البدعةُ)). ولا يمنعُ من كون الحديث عامًّا مخصوصًا قوله: ((كلَّ بدعةٍ)) مؤكَّدًا بكُل؛ بل يدخله التَّخصيصُ مع ذلك؛ كقوله تعالىٰ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: 25]))[1].

فهذا الإمام النَّوويُّ رحمه الله يوجِّه ويوضِّحُ ويبيِّنُ المراد من قول رسول الله ﷺ: ((كل بدعةٍ ضلالةٌ)) أنَّه مخصوصٌ بالمذموم من الأفعال والأقوالِ وليس مطلقًا.

- وأما قولُه ﷺ: ((مَن أحدثَ في أمرِنا هذا مَا ليس منهُ فَهو ردٌّ)).

فجملة: ((مَا ليس منهُ)) تحلُّ الإشكالاتِ في الحدِّ بين البِدعة وغيرِها، أي: إنَّ الـمُحْدَثَ يكون مَردُودًا إذا كان علىٰ خلافِ الشَّريعة، وإنَّ الُمحْدَثَ الموافقَ للشَّريعةِ ليس مردُودًا، فما له أصلٌ يندرجُ تحتَه فليس بمذمومٍ، وما ليسَ له أصلٌ يندرجُ تحته فهو البدعةُ المذمومةُ المردُودةُ.

قال الحافظُ ابن حجر في الفتحِ: ((هذا الحديثُ معدودٌ من أصولِ الإسلامِ وقاعدةٌ من قواعدِه، فإنَّ معناه مَنِ اخترعَ في الدِّين ما لا يَشْهدُ له أصلٌ من أصولِه فلا يُلتفتُ إليْه))[2].

قال الشَّيخ العلَّامة عبدالله بن الصِّدِّيق الغُماري- وهو أحدُ حفَّاظ وأئمَّة الحديثِ المعاصرينَ: ((هذا الحديثُ مخصِّصٌ لحديث: ((كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ)) ومبيِّنٌ للمرادِ منه كما هُو واضحٌ؛ إذ لو كانت البدعةُ ضلالةً بدون استثناءٍ لقال الحديث: مَن أحدث في أمرنا هذا شيئًا فهو ردٌّ. لكن لَّما قال: ((مَنْ أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليس منه فهُو ردٌّ)). أفاد أنَّ الُمحدَثَ نوعان: ما ليس منَ الدِّين؛ بأنْ كان مخالفًا لقواعدِه ودلائلِه فهو مردودٌ وهو

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (6/154).

(2) فتح الباري (5/ 302).

البدعةُ الضَّلالة، وما هُو من الدِّين؛ بأنْ شَهِدَ له أصلٌ أو أيَّدَه دليلٌ فهو صحيحٌ مقبولٌ، وهو السُّنَّةُ الحسنةُ))[1].

وقال الإمامُ النَّوويُّ عند تعرُّضِه لحديث: ((مَن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً فله أجرُها...)). إلىٰ آخره: ((وفي هذا الحديثِ تخصيصُ قولِه ﷺ: ((كل محدثة بدعةٌ وكل بدعةٍ ضلالةٌ)) وأنَّ المراد به الـمُحْدَثاتُ الباطلةُ والبدعُ المذمومةُ))[2].

قال البدر العيني في شرحه لصحيح البخاري عند شرحه لقول عمر بن الخطَّاب ﷺ: ((نِعْمَتِ البدعةُ)). قال: ((والبدعة في الأصل: إحداثُ أمرٍ لم يكن في زمن رسولِ الله ﷺ، ثُمَّ البدعة علىٰ نوعين: إنْ كانت مِمَّا يندرجُ تحت مستحسَنٍ في الشَّرع فهي بدعةٌ حسنة، وإنْ كانت مِمَّا يندرجُ تحت مستَقبَحٍ في الشَّرع فهي بدعةٌ مستقبحةٌ))[3].

فهذه أقوال أهلِ العِلْم والمُحَدِّثين في فهمهم للأحاديث الواردةِ في البدع، وأنَّ الذَّمَّ يكون واقعًا علىٰ ما لا أصل له في الدِّين، وأنَّ ما له أصلٌ في الدِّين فإنه لا يقع عليه لفظُ البدعة المستقبحة أو القولُ بعدم جواز العمل به، وإنَّما يُرَدُّ كلُّ أمرٍ إلىٰ أصلِه في الشَّريعة، فإنْ وُجد له أصلٌ فهو محمودٌ، وإنْ لم يوجد له أصلٌ فهو مذمومٌ.

هل تَرْكُ النَّبيِّ ﷺ يُنشئ حُكْمًا؟

هل عدمُ فِعْلِ رسولِ الله ﷺ لأمرٍ معيَّنٍ يعني عدمَ جوازِ فِعْلِ هذا الأمر أو بدعيَّته؟ وهل عدمُ فِعْلِ السَّلفِ الصَّالحِ لأمرٍ ما يجعلُه من البدعِ؟

مـن الـمعلوم مـن خلال تتبُّع سِيرة النَّبيِّ ﷺ أنَّه صلواتُ الله وسلامُه عليه لم يفعلْ

(1) إتقان الصَّنعة في تحقيق معنىٰ البدعة (23/1) عبدالله بن محمد بن الصديق الغماري- عالم الكتب- بيروت- 2006م.

(2) صحيح مسلم بشرح النَّووي (124/7).

(3) عمدة القاري شرح صحيح البخاريِّ (126/11) تأليف: أبي محمد محمود بن أحمد بدر الدين العيني الحنفي- دار الفكر- بيروت.

جميعَ المباحاتِ الشَّرعيَّةِ ولم يباشِرْها بنفسِه ﷺ؛ وذلك لأسبابٍ منها: أنَّها كثيرة جدًّا لا يستطيعُ بشرٌ أنْ يُحصيَها فضلًا عن أنْ يفعلها، ولأنَّ رسولَ الله ﷺ كان أزهدَ النَّاسِ في الحياة الدُّنيا ومتاعِها، وكان يَقتصرُ من المُباحِ علىٰ ما يَسدُّ الحاجةَ فقط ويترك ما فوقَ ذلك، فمَنْ زعمَ أنَّ حُرْمةَ شيءٍ أو بِدعيَّته تأتي من عدم فِعْلِ رسولِ الله ﷺ له أو مباشرته له بنفسِه فقدِ ادَّعىٰ أمرًا لا دليلَ عليه، ودعواهُ هذه باطلةٌ.

والدَّليلُ علىٰ ذلك أنَّ تَرْكَ رسولِ الله ﷺ فِعْلَ شيءٍ لا يدل علىٰ حُرمة هذا الشَّيء أو بدعيَّته ما لم يصحبْ هذا التَّركَ نصٌّ علىٰ كون المتروكِ محظورًا أو محرَّمًا، فيجبُ أن يكون بجانبِ التَّركِ بيانٌ وتوضيحٌ من رسولِ الله عليه الصَّلاة والسَّلام يفيدُ أنَّ الفعلَ نفسَه محرَّمٌ ممنوعٌ، وغايةُ ما يمكن أنْ يُستفاد من تَرْكِ النَّبيِّ ﷺ لشيءٍ ما هُو أنَّ تركَ ذلك الفعلِ مشروعٌ ومُباحٌ ولا حرجَ في تَركِه إنْ أردْتَ أنْ تتركَه، ولم يأتِ في حديثٍ أو أثرٍ أنَّ مجرَّد تَرْكِ النَّبيِّ ﷺ لشيءٍ يجعله حرامًا أو مكروهًا.

وحتَّىٰ يكون الأمرُ محرَّمًا شرعًا لابدَّ فيه من وُرودِ أحدِ هذه الأمور؛ إمَّا النَّهيُ، أو لفظ التَّحريمِ، أو ذمُّ الفعل، أو التَّوعُّد عليه بالعقاب، أو دخوله تحت قاعدةٍ شرعيَّةٍ تقتضي تحريمَه، أو قرينة تدلُّ علىٰ التَّحريم، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: 7]. ولم يقل سبحانه: وما تركه فانتهوا. فلابدَّ من وُجود قولٍ صريحٍ حتَّىٰ يتمَّ التَّحريمُ.

وانظرْ إلىٰ قول النَّبيِّ ﷺ: ((ما نهيتُكمْ عنه فاجتنبُوه وما أمرتُكم به فافعلُوا منه ما استطعتمْ، فإنَّما أَهلَكَ الَّذين من قبلِكم كثرةُ مسائلِهم واختلافُهم علىٰ أنبيائِهمْ))[1]. فهذا قول النَّبيِّ ﷺ: ((ما نهيتُكمْ عنه فاجْتنبُوه)). ولم يقل: وما تركتُه فاجتنبُوه. فكيف يدلُّ

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنة، باب الاقتداء بسننِ رسول الله ﷺ (7288)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عمَّا لا ضرورةَ إليه أو لا يتعلق به تكليفٌ وما لا يقع ونحو ذلك (1337) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللَّفظ لمسلم.

التَّركُ علىٰ التَّحريم؟! ولم يذكرْ أحدٌ من أئمَّة عِلمِ الأصولِ في قواعِدِه أو فُروعِه أنَّ التَّركَ دليلٌ علىٰ التَّحريم، فالتَّركُ من غير بيانٍ يصاحبُه كالسُّكوتِ تمامًا.

ومما سبق يتَّضحُ لنا أمرٌ هامٌّ وهو أنَّ عدمَ فِعْلِ رسول الله ﷺ لأمرٍ ما أو عدمَ فِعْلِ السَّلفِ الصَّالحِ له لا يعني الحُرمة والبِدعيَّة، فمجرَّد التَّرك للفعل ما لم يَصْحَبْه دليلٌ لا يمكن أن نَستنبطَ منه حُكمًا بالحُرمةِ أو البِدعةِ.

وللإمام الشَّيخ المحَدِّث عبدالله بن الصدِّيق الغُماريِّ كلامٌ يوضِّحُ هذه المسألةَ بجلاءٍ، ومنه هذه الأبياتُ:

التَّـركُ ليسَ بحجَّةٍ في شرعِنا ... لا يَـقتضي مـنعًا ولا إيـجــابَا
فَمَنِ ابْتَغَىٰ حَظْرًا بتَرْكِ نـبيِّنا ... ورَآهُ حُـكْمًا صادقًا وَصَـوابَــا
قَدْ ضلَّ عن نَهْجِ الْأَدِلَّـةِ كُلِّهَا ... بَلْ أَخْطَأَ الحُكْمَ الصَّحِيحَ وخَابَا
لا حَظْرَ يُمْكنُ إلَّا إنْ نهيٌ أَتَىٰ ... مُـتوَعِّدًا لـمُخالِفِيهِ عَــذَابَــا
أَوْ ذَمُّ فِـعْلٍ مُـؤْذنٌ بِــعُقوبـةٍ ... أَوْ لَـفْظُ تـحريمٍ يُـواكِبُ عَابَا[1]

فهناك اتِّفاقٌ من علماء المسلمينَ أنَّ مجرَّد التَّرك ليس طريقًا للاستدلالِ بمفردِه، وإنَّما طريق العلماء لإثباتِ حكمٍ شرعيٍّ بالوُجوب أو النَّدبِ أو الإباحةِ أو الكراهةِ أو الحرمةِ هو:

1- ورودُ نصٍّ من كتاب الله.
2- وُرودُ نصٍّ من سُنَّة رسولِ الله ﷺ.
3- الإجماعُ علىٰ الحُكْم من العُلماء.
4- القياسُ.

هذا، وقد أوردَ العلماءُ طرقًا أخرىٰ لإثباتِ الحكمِ الشَّرعيِّ منها:

(1) إتقان الصنعة في تحقيق معنىٰ البدعة (1/96).

الحديث الضَّعيفُ، والحديثُ المرسَل، وقول الصَّحابي، وسدُّ الذَّريعة، وعَملُ أهل المدينة، والاستحسانُ، في كل المسالك وغيرها الَّتي اعتبرَها العلماءُ طريقًا لاستنباطِ الأحكام الشَّرعيَّةِ لم يكن من بينها التَّركُ وحدَه، فلا يمكنُ أن تأتيَ طائفةٌ بعد ذلك وتزعم أنَّ مجرَّدَ عدم فِعْلِ رسولِ الله ﷺ لأمرٍ وتركِه له أو عدم فِعْل السَّلفِ الصَّالحِ يُدخله في مجال المحرَّمِ أو البدعةِ، فالتَّركُ لا يُفيدُ حُكمًا شرعيًّا بمُفردِه، وهذا محلُّ اتِّفاقٍ بين المسلمين، وهناك مِنَ الشَّواهدِ والآثار- كما سيأتي- ما يدلُّ على أنَّ الصَّحابةَ رضوان الله عليهم أو السَّلفَ الصَّالحَ في القرون الخيريةِ قد فَهِمُوا أنَّ تركَ رسولِ الله ﷺ لا يقتضي أنْ يكونَ المتروكُ ممنوعًا أو مُحرَّمًا أو من البدعِ، ما دامَ لم يصحبْ هذا التَّركَ بيانٌ أو قولٌ يوضِّحُ الحرمةَ.

وهناك أحاديثُ واردةٌ عن رسول الله ﷺ تؤكِّد هذا المعنى:

1- ما رواه البزَّارُ والطَّبرانيُّ والدَّارقطنيُّ بالسَّندِ عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا أحلَّ الله في كتابه فهو حلالٌ وما حرَّمَ فهو حَرامٌ، وما سَكَتَ عنه فهو عفوٌ، فاقبْلُوا من الله عافِيتَه، فإنَّ الله لم يكنْ لينسَى شيئًا، ثمَّ تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾» [مريم: 64][1].

2- وما رَواهُ الدَّارقطنيُّ بسندِه عن أبي ثعلبة الخُشَنيِّ رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ الله فَرَضَ فرائضَ فَلا تُضيِّعوها، وحرَّمَ حُرُماتٍ فلا تَنتهكُوها، وحدَّ حُدودًا فَلا تَعْتَدُوها، وسَكتَ عن أشياءَ من غير نِسيانٍ فلا تَبْحثُوا عنها»[2].

---

(1) أخرجه البزَّار في مسنده (4087)، والطَّبراني في مسند الشاميين (2102)، والدَّارقطني في سننه (2066)، والحاكم في مستدركه (375/2)، والبيهقي في السُّنن الكُبرى (12/10) من طُرقٍ عن عاصم بن رجاء بن حَيْوَة عن أبيه عن أبي الدرداء رضي الله عنه به مرفوعًا. وقال البزَّار: «إسنادُه صالح». وقال الحاكم: «صحيحُ الإسناد ولم يخرِّجاه» ووافقه الذَّهبيُّ.

(2) أخرجه الدَّارقطنيُّ في سننه (4396)، والحاكمُ في مستدركه (115/4) من طريق داود بن أبي هند عن مكحول عن أبي ثعلبة الخُشَني به مَرفوعًا. وسكت عنه الحاكم وكذا الذَّهبي.

فهذه الأحاديثُ دلالتُها صريحةٌ علىٰ أنَّ الرَّسولَ ﷺ قد بيَّن أمرَ الحلالِ والحرام، وأنَّ الحرامَ هو ما ورد نصٌّ بتحريمه، أو دلَّتِ الشَّريعةُ علىٰ تحريمِه باستعمالِ الأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ بلا تعسُّفٍ ولا تكلُّفٍ.

وممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ تَرْكَ الرَّسولِ ﷺ قد يكون لأسبابٍ أخرىٰ غير التَّحريمِ ما رَواه البخاري ومسلمٌ عن خالد بن الوليد أنَّه دخلَ مع النَّبيِّ ﷺ بيتَ ميمونة فأُتي بضبٍّ محنوذٍ، فأهوىٰ إليه رسولُ الله ﷺ بيده فقيل: هو ضبٌّ يا رسولَ الله، فرفع يدَه فقلتُ: أحرامٌ هُو يا رسولَ الله؟ فقال: ((لَا، ولكنْ لم يَكنْ بأرضِ قومي فأجدُني أعافُه)). قال خالدٌ: فاجتررتُه فأكلتُه، والنَّبيُّ ﷺ ينظر فلم ينهني[1]. وضب محنوذ أي: ضب مَشوي.

فتَرْكُ النَّبيِّ ﷺ هنا سببُه أنَّ نفسَه لم تقبل لحمَ الضَّبِّ، ولكن مع هذا فإنَّ خالدًا قد تناوله فأكلَه، فهو حلالٌ له ولجميعِ المسلمينَ، وهذا الحديثُ دليلٌ للقاعدة التي تقول: إنَّ تَرْكَ الشَّيءِ لا يقتضي تحريمَه كما قال أهلُ العِلْم، ولم يأتِ في حديثٍ ولا أثرٍ تصريحٌ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ إذا تركَ شيئًا كان حرامًا.

وفِعْلُ سلفِ الأمَّة يشهدُ أنَّ تَرْكَ النَّبيِّ ﷺ لفعلٍ لا يجعلُه من المحرَّماتِ أو البدعِ، فقد وردتْ عن الصَّحابةِ والتَّابعين أفعالٌ وعباداتٌ لم يفعلها رسولُ الله عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فمن أصرَّ بعد هذا البيان علىٰ إلزام النَّاس بالتقيُّد بما قد ورد والنَّهيِ عمَّا دونَ ذلك من أفعالٍ وأقوالٍ لها شواهدُ في الشَّريعةِ تشهدُ لها وأصولٌ ترجع إليها وقواعدُ عامَّة تندرج تحتَها، فبدَّعَ وشنَّع علىٰ المسلمينَ في أمرِ قُرُباتهم وتعبُّدِهم لله سبحانه وتعالىٰ- فقد تشدَّدَ وتعنَّت وقال في دين الله برأيه، فضَيَّقَ علىٰ المُسلمينَ ما وسَّعه الله من أمورِ الدِّين والدُّنيا؛ ولذلك ليسَ لأحدٍ أن يحتكرَ الحقَّ أو ينسبَ لنفسِه أنَّ مذهبَه هو مذهبُ أهل

---

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الذبائح والصَّيد، باب الضب (5537)، ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يُؤكلُ من الحيوان، باب إباحة الضب (1946).

السُّنَّةِ والجماعةِ وأنَّ الحقَّ هو قولُه وقولُ طائفتِه ومَنْ يتبعهم، وأنَّ سائر علماء الأمَّة وأتباعِهم أهلُ ضلالٍ وبدعٍ.

ونقولُ أيضًا لمن أُصيبَ بالجُمودِ على رأيه: إنَّ لك أنْ تعتقدَ ما تشاءُ من بدعيَّةِ أمرٍ أو عدم بدعيَّته ما دام هذا على المستوى الشَّخصيِّ، ولكن ألا ترى أنَّه من حقِّ الآخرينَ أيضًا- بِناءً على اتِّباع علماء الأمَّة من أئمَّةِ المذاهب الفقهيَّة على مرِّ السِّنين- أنْ تتعبَّدَ لله وتتقرَّب إليه بأقوالٍ أو أفعالٍ تندرجُ تحتَ أصولِ وقواعدِ الشَّريعة العامة حتَّى وإنْ لم تكنْ على عهد رسول الله ﷺ أو على عهد السَّلف، فلئن كنتَ غيرَ مقرٍّ لفعل غيرِك فلا أقلَّ من أن تجعل مثل هذه الأمورِ من الخلافات الَّتي يسعُ جميعَ المسلمين قبولُها والتَّعايشَ معها بحيثُ لا نُدخلها في باب التَّبديعِ والتَّفسيقِ، وليس في ذلك دعوى لفَتْحِ بابِ البدعِ والعياذ بالله؛ وإنما هُو عبارةٌ عن وَضعِ الأمور في نِصابها والتَّعاملِ معها حسبِ علوم الشَّرعِ الحنيفِ ودينِنا السمح.

إذنْ فأفعالُ الخير والعبادات الَّتي لها أصول في الشَّريعة تندرجُ تحتها لا تكونُ من البدعِ أبدًا؛ حتَّى ولو لم تكنْ على عهدِ رسول الله ﷺ، لكنَّ المشكلة- كما ذكرنا- فيمَنْ يَتسرَّعُ في رَمي النَّاس بالبدعةِ، ويصدُّ عن سبيلِ الله بطريقٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ، فنجدُه يشوِّشُ على المسلم في عِبادتِه أو أذكارِه أو صلواتِه التي يلتزمُ بها ويتقرَّبُ بها إلى ربِّه عندما يقولُ له: إن ما تفعله بدعةٌ وغيرُ جائزٍ وضلالةٌ... إلخ. فيترك ذلك الإنسان القربات والطَّاعات بالكليَّة خَشْيةَ الوقوعِ في البدعةِ والإثمِ.

فإذا كنت أخِي الكريم تفعل شيئًا من الطَّاعات والقربات التي يهاجمها من ليس له من العلم نصيب فلا تَقُلْ عنها إنَّها بدعة وتتركها، بل هو بإذن الله يرجع إلى أصلٍ موجودٍ في الشريعة، وتنطبق عليه الأحكامُ الخمسةُ التي ذكرناها، كما أنَّه لا يُمكنُ معرفتُك بهذا الأمرِ إلَّا بعد سؤال أهل العلم الموثوقِ فيهم، المتمثلين من قبل الهيئاتِ المعروفةِ الَّتي لها ثِقلٌ وتاريخٌ علميٌّ.

ومع كلِّ ما ذكرنا ينبغي علينا عدمُ التَّسامُحِ فيما أجمع عليه المُسلمونَ من أنَّه بدعةٌ ويجبُ علينا عدمُ فعلِه وتحذيرِ المسلمينَ منه، أمَّا ما وسعتْه دائرةُ الشَّريعة وسماحتُها ومقاصدُها فلنقبل به حتَّى وإن لم نكن نفعلْه، ولكنْ أنْ نجعلَ من كلِّ جزئيَّةٍ من الفُروعِ ذاتِ الأدلَّة الظنيَّةِ قضيَّةً كبرى للنِّزاعِ والتَّفريقِ وشقِّ الصُّفوفِ فإنَّ هذا لا يَرضاهُ الله ولا رسولُه.

أفعالٌ من السَّلف الصَّالحِ لم تكن على عهد النَّبِيِّ ﷺ

من خلال تَتبُّع سير وتراجمِ السَّلف الصَّالح بدايةً من عصر الصَّحابة رضوانُ الله عليهم نجدُ أنَّهم في سلوكهم وعباداتِهم وقُرُباتِهم من الله سبحانَه وتعالى قد أحدثوا أمورًا لم تكنْ على عهدِ رسول الله ﷺ ولم يفعلْها، فكان هذا دليلًا عمليًّا واضحًا من خيرِ النَّاس بعد رسولِ الله ﷺ على أنَّ البدعةَ ليستْ هي كلَّ ما لم يَفعلْه رسولُنا الكريم، وبالتَّالي فهو مُحرَّمٌ، أو أنَّ مجرَّدَ تَركِه صلواتُ الله وسلامه عليه يجعل الفعلَ غيرَ جائزٍ، وسوف نقومُ بإيرادِ بعض أفعال السَّلف التي تدلُّ على مخالفةٍ لفَهْمِ هؤلاء الَّذين شذُّوا في فهمِهم لمعنى البدعةِ.

1- جَمْعُ القرآن الكريم في عَهْدِ صحابةِ رسولِ الله ﷺ: فقد أوردَ البخاريُّ في صحيحِه قضيَّةَ جَمْعِ القرآن الكريم، ولم يكنْ القرآن قد جُمِعَ في شيءٍ واحدٍ كالمُصحفِ في عَهْدِ رسولِ الله ﷺ، فعن زيدِ بن ثابتٍ رضي الله عنه قال: ((أرسل إليَّ أبو بكرٍ مَقْتَلَ أهل اليمامة، فإذا عمرُ بنُ الخطَّاب عنده، قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: إنَّ عمر أتاني فقال: إنَّ القتلَ قدِ استحرَّ يومَ اليمامة بقُرَّاء القرآن، وإنِّي أخشى أن يستحرَّ القتلُ بالقرَّاء بالمواطنِ فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإنِّي أرى أنْ تأمرَ بجَمْعِ القرآن، قلتُ لعمر: كيف تفعل شيئًا لم يفعلْه رسولُ

الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خيرٌ، فلم يزل عمرُ يراجعني حتَّى شرحَ الله صدري لذلك ورأيتُ في ذلك الَّذي رأىٰ عُمرُ))[1].

الشَّاهدُ من هذا الحديث أنَّ هذا الأمرَ وهو مِن أهمِّ الأمور في دِين الإسلام، وهو جَمْعُ كتابِ الله وقرآنِه في كتابٍ واحدٍ، مع أنَّ رسولَ الله ﷺ لم يفعلْه وقد فعله الصَّحابة رضوانُ الله عليهم، وقد استشكَلَ أبو بكرٍ ﵁ فقال: كيف تفعلُ شيئًا لم يَفعلْه رسولُ الله ﷺ؟ فكان جوابُ عمر الَّذي انشرح له صدرُ أبي بكر: هذا والله خيرٌ، أي: جمعُ القرآن خير لا يخالفُ الشَّرعَ ولا يُوجد معارضٌ له، فكَونُ الأمرِ لم يفعلْه رسولُ الله ﷺ لم يمنع الصَّحابةَ مِن فعله ما دام ليس له معارِضٌ شرعيٌّ.

2- تغييرُ مكان مقام إبراهيمَ في البيتِ الحرام: أخرجَ عبدالرَّزاق في مصنَّفه عن ابن جريج قال: سمعتُ عطاءً وغيرَه من أصحابنا يزعمونَ أنَّ عمرَ أوَّلُ مَن رفع المقامَ، فوضعَه موضعَه الآن، وإنَّما كان في قِبَل الكعبةِ[2].

وأخرج البيهقيُّ في دلائل النُّبوةِ عن عائشةَ رضي عنها قال: ((إنَّ المقام كان في زمانِ رسول الله ﷺ وزمانِ أبي بكر ملتصقًا بالبيتِ، ثم أخَّرَه عمرُ بن الخطَّاب))[3].

3- وصيَّة عمرو بن العاص ﵁ وفيها أنَّه قال: ((أقيمُوا حولَ قبري قدرَ ما تُنحر جزور...)) الحديث، وذلك في وصيَّته أنْ يجلسُوا حولَ قبره بعد دفنِه ﵁[4].

(1) جزء من حديث أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (4986).

(2) أخرجه عبدالرَّزاق في مصنَّفه (8955) بهذا الطَّريق، وأخرج نحوه في مصنَّفه (8953) أيضًا من طريق معمر عن حميد عن مجاهد.

وصحَّح إسناديهما الحافظُ ابن حجر في فتح الباري (8/169).

(3) أخرجه البيهقيُّ في دلائل النبوة (2/ 63) من طريق محمد بن إسماعيل السلمي قال: حدَّثنا أبو ثابت قال: حدثنا الدراورديُّ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشةَ به. وقوَّىٰ إسناده الحافظ في الفتح في نفس الموضع السَّابق.

(4) وَرَدَ ذلك في حديثٍ أخرجه مسلمٌ في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يَهدمُ ما قبلَه وكذا الهجرةُ والحجُّ (121).

4- تقدَّم أنَّ عمر بن الخطَّاب ﷺ جَمَعَ النَّاسَ في رمضانَ على إمامٍ واحدٍ، وقوله: ((نعمت البدعة هذِه))[1].

5- كان النَّاس في زمانِ عمرَ يقومون رمضانَ بثلاثٍ وعشرين ركعةً[2]، ولم يكن ذلك في عهدِ النبيِّ ﷺ.

أخرج الـمَرْوَزيُّ عن زيد بن وهبٍ أنَّه قال: ((كان عبدُالله بن مسعود يُصلِّي لنا في شهر رمضان فينصرف وعليه ليلٌ)). قال الأعمشُ: ((كان يُصلِّي عِشرينَ ركعةً يوتر بثلاثٍ))[3].

6- كان سيِّدنا عثمان بن عفَّان رضوانُ الله عليه يُحيِي اللَّيل كلَّه في ركعةٍ[4].

7- وكان الشَّافعيُّ رحمه الله يختم القرآنَ في اللَّيل واليوم[5].

---

(1) تقدَّم تخريجُه.

(2) أخرجه البيهقيُّ في الكبرىٰ (2/ 496) من طريق محمد بن إبراهيم، حدثنا ابن بكير، حدثنا مالك عن يزيد بن رومان قال...به. وصحَّح إسنادَه ابنُ الملقِّنِ في البدر المنير (350/4).

(3) أخرجه المروزيُّ كما في مختصر قيام الليل للقريزيِّ (ص221).

وأخرجه عبدالرَّزاق في مصنفه (7741)، والطَّبراني في الكبير (369/9) من طريق الثَّوري، عن الأعمش، عن زيد بن وهب به، دون زيادة الأعمش.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (402/3): ((رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح)).

(4) يشير إلىٰ ما أخرجَه ابن المبارك في الزُّهد (1276)، والبيهقيُّ في الكبرىٰ (25/3) من طريق فليح بن سليمان، عن محمد بن المنكَدِر، عن عبدالرحمن بن عثمان التيمي قال: قلت: ((لأغلبنَّ الليلة علىٰ المقام فسبقت إليه، فبينا أنا قائمٌ أصلِّي إذ وضع رجلٌ يدَه علىٰ ظهري، فنظرتُ فإذا هو عثمان بن عفَّانَ رحمةُ الله عليه وهو خليفة، فتنحيتُ عنه فقام، فما برح قائمًا حتىٰ فرغَ من القرآن في ركعةٍ لم يزد عليها، فلما انصرف قلت: يا أمير المؤمنين إنما صليتَ ركعةً! قال: أجل هي وِتري)).

وصحَّحه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الأذكار (161/3).

(5) أخرجَه الخطيب البغداديُّ في تاريخ بغداد (402/2) من طريق علي بن المحسن القاضي قال: حدَّثنا أبو بكر محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصفار قال: حدَّثنا عبدالله بن محمد بن جعفر القزويني بمصر قال: سمعتُ الربيع بن سليمان يقول: ((كان الشافعيُّ يختمُ في كل ليلة ختمةً، فإذا كان شهر رمضان ختمَ في كل ليلة منها ختمة وفي كل يوم ختمة، فكان يختمُ في شهر رمضان ستِّين ختمة)).

8- الإمامُ أبو الحسن الأشعريُّ مكث عشرينَ سنةً يصلِّي الصُّبحَ بوُضوء العشاء[1].

9- الإمام الأعظم أبو حنيفة النُّعمان كان يصلِّي في اليوم مائةَ ركعةٍ[2].

10- الإمام أحمد بن حنبل كان يصلِّي في اليوم واللَّيلة ثلاثمائة ركعةٍ[3].

11- وكان مُرَّة بن شُرَحْبيل يصلي في اليوم والليلة ألفَ ركعة[4].

12- قال سبط ابن الجوزي: ((كان عبدُالغني ورعًا زاهدًا عابدًا، يُصلي في كلِّ يوم ثلاثمائة ركعةٍ كوِرد الإمام أحمد، ويقومُ اللَّيلَ ويصوم عامَّةَ السَّنةِ)). المقصودُ هو الإمامُ الحافظ عبدالغني المقدسي صاحب كتاب عمدة الأحكام[5].

13- تتبُّعُ ابن عمر ﵁ للأماكن والبُقع التي نزل فيها النَّبيُّ ﷺ ومشىٰ فيها، وكان يصبُّ الماءَ في الأماكن الَّتي صبَّ فيها النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام الماءَ فيها، ويتتبَّع الصَّلاةَ في الأماكن الَّتي صلَّىٰ فيها رسولُ الله[6].

14- تميم الدَّاري ﵁- من صحابة رسول الله- كان يختِمُ القرآنَ في ركعةٍ[7].

15- ومن تابعي التَّابعين: مصعب بن ثابتِ بن عبدالله بن الزبير (ت 157) قال عنه الذهبي: القدوةُ الإمام كان يصلِّي في اليوم والليلةِ ألف ركعة[8].

---

(1) انظر: الطَّبقات الكبرىٰ لابن سعد (2/190).

(2) انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغداديِّ (6/14).

(3) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (16/734).

(4) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (4/162)، البداية والنهاية لابن كثير (8/70).

(5) البداية والنهاية لابن كثير(13/39).

(6) من ذلك ما أخرجه البخاريُّ في كتاب الصَّلاة، باب المساجد التي علىٰ طُرق المدينة والمواضع التي صلَّىٰ فيها النَّبيُّ ﷺ (483) وفيه: أنَّ موسىٰ بن عقبة قال: ((رأيتُ سالم بن عبدالله يتحرَّىٰ أماكنَ من الطَّريق فيصلي فيها، ويُحدِّث أنَّ أباه كان يصلِّي فيها، وأنَّه رأىٰ النبيَّ ﷺ يُصلِّي في تلك الأمكنةِ)).

(7) أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه (3711) من طريق أبي معاوية عن عاصم عن ابن سيرينَ: ((أنَّ تميمًا الدَّاري كان يقرأُ القرآنَ كلَّه في ركعةٍ)).

(8) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (7/ 29).

ولا تتعجَّبْ من الأعداد أيُّها الأخُ الكريمُ وإمكانيَّة وقوع ذلك، فإنَّ الله يُبارك للمقرَّبينَ في أوقاتِهم وأعمارِهم ما لا يكونُ لغيرِهم، وذلك مُشاهدٌ من التَّتبُّع لسِيَرِ وتراجِمِ العُلماء والصَّالحينَ والأولياءِ والعباد الرَّبانيِّين في كُتُب التَّاريخ.

فانظر أيُّها الأخُ الكريم إلىٰ عبادة السَّلفِ الصَّالحِ وأفعالِهم وأقوالِهم- وهم خيرُ القُرون- قد وردَ عنهم من العِباداتِ والذِّكرِ والصِّيامِ والمُجاهداتِ ما لم يفعلْه الرَّسول صلوات الله وسلامه عليه ولم يكن علىٰ عَهْده، فهل كان هؤلاء الأئمَّةُ من المبتدعة الَّذين يتقرَّبون إلىٰ الله بالبدع؟! وهل الخلل في سلفنا الصالح أم في فَهْمِ مَن يقول ببدعيَّة وتحريم كلِّ ما لم يكن علىٰ عَهْدِ رسولِ الله ﷺ؟!

وقدِ اتَّضح ممَّا سبق أنَّ فهمَ الصَّحابةِ وسلفنا الصَّالح للبدعة مختلفٌ عن فَهم مَن يدَّعي أنَّ كلَّ ما لم يكن علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ أو تَرَكَهُ النَّبيُّ ولم يفعله بدعةٌ وبالتالي فهو محرَّمٌ.

ثم إنَّ هناك نقطةً يجبُ أن ينتبهَ لها حين يتكلَّم مَن يتشدَّد ويقول ببدعيَّة وحُرمةِ كلِّ ما لم يَرِدْ عن رسولِ الله ﷺ من أفعالِ الخير والقُرباتِ من الله والَّتي تندرج تحتَ أصولِ الشَّريعة العامَّة، فحين يُذكر له صورةٌ من عبادةٍ أو ذِكْر يقول: لم يرد هذا عن السلف! فنقول: بل وَرَدَ عن السَّلفِ كما سبقَ. فيقولون: إنَّ فعلَهم ليس بحُجَّةٍ؛ محاولًا إثباتَ مذهبِه بأيِّ طريقةٍ، ففِعْلُ السَّلف عنده حجَّةٌ في الأمور الَّتي يهواها ويقول بها، ويرفض فعلَ السَّلفِ فيما لا يراه مناسبًا له، فماذا يُسمَّىٰ هذا أيُّها الأخ الكريم إنْ لم يكنْ اتِّباعًا للهوىٰ؟! ◆

مُحاكمةُ المخالِف وفقًا لقواعد مَنهجِه

أولئكَ الَّذينَ يجعلونَ البدعةَ هي كلَّ ما لم يَفعلْه النَّبيُّ ﷺ أو السَّلفُ الصَّالحُ، ويزعمونَ أنَّهم ملتزمونَ بهذا الفَهم وهذا المسلك في التَّطبيق، فنقولُ لهم: أنتم قُمتم بمخالفاتٍ لهذا المنهج، وهناك نماذجُ من الأفعال الَّتي ابتدعتموها لم تكن موجودةً علىٰ عهدِ رسولِ الله ﷺ أو السَّلفِ الصَّالحِ، ونحنُ لا نقول ببدعيَّة أكثر هذه الأشياء ولكن نُلزمكم بما ألزمتم به أنفسَكم، فإمَّا أن تكونُوا مبتدعةً أو أنَّ مفهومَ البدعةِ أعمُّ وأشملُ من فَهمِكم الضَّيقِ، وهذه بعضُ الأمثلة لما أحدثتمُوه:

1- بدعة تقسيم التوحيد إلىٰ توحيد أُلوهية، وربوبية، وأسماء وصفات، ولم يكن ذلك علىٰ عهدِ رسول الله ﷺ ولا الصَّحابةِ ولا السَّلفِ، وهنا البدعةُ في أصلِ أصولِ الدِّين.

2- تخصيصُ ليلة السَّابع والعشرينَ من رمضان لختم القرآنِ في الحَرم الشَّريف، وذلك لم يُنقلْ عن السَّلف.

3- جَمْعُ النَّاسِ في صلاة التَّهجُّدِ علىٰ إمامٍ واحدٍ بعد صلاةِ التَّراويح لم يكن علىٰ عهد الصَّحابة ولا السَّلفِ.

4- أين وَرَدَتِ التَّسميةُ بُمسمَّىٰ السَّلفيَّة أو أنا سلفي؟! هل فَعَلَ ذلك الرَّسول ﷺ أو الصَّحابةُ أو السَّلفُ؟

5- أين ورد عن النَّبيِّ ﷺ والصَّحابة والسَّلف وجودُ درسٍ أو كلمةٍ بعد صلاة الجمُعةِ مباشرةً أو تنظيمُ الأسابيع العلميَّةِ والثَّقافيةِ؟

6- أين وردَ في الكتاب والسُّنة تقسيمُ المسلمين إلىٰ مُلتزمين وعوامَّ، وأن تجعلوا أنفسَكم من الخواصِّ؟!

7- عمل أسبوع من أجل الاحتفال بشيخ معين، ثم يأتي بعد ذلك الإنكار علىٰ مَنِ احتفل بالمولد النبويِّ الشريفِ ﷺ!

8- الدُّعاءُ في الأواخر من رمضانَ وعند خَتْمِ القرآن بهذه الصُّورةِ المطوَّلة مع رفع الأصوات بالتَّأمين والبُكاء، فهل كان ذلك من فِعْل رسولِ الله والصَّحابة والسَّلفِ؟!

9- الاستماعُ إلىٰ الأناشيد والقصائدِ والاهتمام بها بهذا الشَّكل لم يَرِدْ عن السَّلفِ، وفي نفس الوقتِ يحرِّمونَ المدائح النبوية!

10- تطويلُ خُطبة الجمُعة علىٰ ما يزيد عن السَّاعة- وقد كانت خطبةُ النَّبيِّ ﷺ قصدًا- وتقصيرُ الصَّلاة، وذلك خلافُ هدي النَّبيِّ ﷺ.

فهذه بعضُ الأمثلة من الأفعالِ وفقًا للقاعدة التي وضعتموها أنتم- من أنَّ كلَّ فعلٍ لم يكن في عهدِ النَّبيِّ ﷺ من البدعِ- فأنتُمْ وفقًا لقاعدتِكم هذه من المُبتدعة. ◆

الخاتمة

أخي المسلم الكريم، إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ بعث محمَّدًا ﷺ موحِّدًا لا مُفرِّقًا، رحيمًا لا فظًّا غليظًا، وجعل شريعةَ الإسلامِ حنيفيةً سمحة، فإنَّ الإسلامَ يُجَمِّع ولا يفرِّق، والعِلْم ليس أداةً لشقِّ صفوفِ المسلمين وإنَّما أداةٌ لوحدتِهم، وليس التَّحكُّم أو التَّنطُّع من الدِّين في شيءٍ؛ ففي الصحيحيْنِ أن عائشةَ ﵂ قالت: ((ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين- أحدُهما أيسرُ من الآخر- إلا اختارَ أيسرَهما ما لم يكن إثمًا، فإنْ كان إثمًا كان أبعدَ النَّاسِ منه))[1].

فلا نُغلقْ علىٰ أنفسِنا أبوابَ الرَّحمة والسَّعةِ في الدِّين، ولا نضيِّق علىٰ أنفسِنا ما وسَّعه الله علينا، ولا تجمُد عقولُنا علىٰ فَهمٍ واحدٍ لا نرىٰ الحقَّ إلَّا فيه، ونردُّ ونرفضُ أقوالَ واجتهاداتِ عُلماء المسلمينَ علىٰ مرِّ العُصورِ.

فلنتعاملْ مع البدعةِ وأحكامِها بمفهومٍ أوسعَ وأكثرَ مرونةً وفقًا للأصُولِ والقواعد الشَّرعيَّة، ونحترم فَهْمَ العلماءِ واجتهاد المجتهدينَ، ونرىٰ أنَّ أفضلَ مفهومٍ للتَّعامل مع هذا الأمرِ بما يُوافق حاجةَ المسلمينَ وزمانِهم هو خضوعُ الأفعالِ والأقوالِ المستحدثةِ والقديمةِ تحت قاعدة: (الوجوب، المحرَّم، المكروه، المندوب، المباح) السَّابق ذِكْرُها.

فهذا فَهْم الجمهور من عُلماء أُمَّة الإسلام، وبهذا تتحقَّقُ المصالحُ والغاياتُ ويتَّسع نطاقُ الخير والبرِّ، وتظهرُ مرونةُ دِين الإسلامِ في إحاطةِ واستيفاءِ كلِّ متطلَّباتِ البشرِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وليس في كلامِنا هذا تساهلٌ في موضوعِ البدعة أو نفيٌ لوُجودِها، وإنَّما ننظرُ إلىٰ كلام جمهور علماءِ الأُمَّة قديمًا وحديثًا من أهل العِلْم الحقيقي وليس الأدعياء، ونضع

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله (6786)، ومسلمٌ في كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماتِه (2327).

الأمورَ في نصابِها، فلا نُغلق الطُّرقَ أمام مَن يريد أن يتقرَّبَ إلىٰ ربِّه بصلاةٍ أو ذِكْرٍ أو صيامٍ أو إنفاقٍ بدعوىٰ البِدْعةِ فنكون من الَّذين يصدُّونَ عن سبيل الله بغير علمٍ، نعوذُ بالله من الخِذلانِ ونسأله سبحانه وتعالىٰ الهدايةَ لما يحبُّه ويرضاه. وآخرُ دعوانا أنِ الحمدِ لله رب العالمينَ، وصلَّىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم. ◆



« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ » – آية **15** من سورة فاطر

الرسالة الثانية والعشرون
الاستدلال الشرعي علىٰ جواز الاجتماع علىٰ الذكر والجهر به

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: تمهيد عن أهمية الذِّكر وتعريفه.

المحور الثاني: الأدلة التي تحضُّ علىٰ ذِكر الله من الكتاب والسُّنَّة.

المحور الثالث: فوائد ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ.

المحور الرابع: حكم الجهر بالذِّكر والاجتماع عليه.

المحور الخامس: مسائل أخرىٰ تتعلق بهذه القضية. ◆



﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ - آية **49** من سورة القمر

الاستدلال الشرعي علىٰ جواز الاجتماع علىٰ الذكر والجهر به

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ لطيفةٌ نتكلم فيها عن ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ وما يتعلَّق به من جزئياتٍ ومسائلَ، ونخص بالحديث مسألتين ألا وهما: مشروعية الجهر بالذِّكر، وكذا الاجتماع عليه بصوره المختلفة والمتعددةِ وعدم صحَّة القول ببدعيَّةِ ذلك.

وسوف يكون الكلام في هذه الرسالةِ من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: تمهيد عن أهمية الذِّكر وتعريفه.

المحور الثاني: الأدلة التي تحضُّ علىٰ ذِكر الله من الكتاب والسُّنَّة.

المحور الثالث: فوائد ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ.

المحور الرابع: حكم الجهر بالذِّكر والاجتماع عليه.

المحور الخامس: مسائل أخرىٰ تتعلق بهذه القضية. ◆

تمهيد عن أهمية الذكر وتعريفه

أيها الأخ المسلم الكريم إنَّ الغرضَ من هذه الرسالة الموجزة هو أن نصلَ إلىٰ مراد الله سبحانه من كلامِه الكريم حين قال في مُحكَم كتابه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:152].

فذِكر الله سبحانه وتعالىٰ هو لواءُ الإسلام وشعار عباده المؤمنين، وهو علامة الإيمان وبراءةٌ من النِّفاق، وهو حياة القلب ومعراج الرُّوح إلىٰ فاطر السَّمواتِ والأرض، فربُّ العالمين سبحانه وتعالىٰ هو أهلٌ لأن يُذكر ويَلهج القلبُ واللِّسان بذِكره وشُكره، ولِمَ لا وهذا الكون بسمواته وأراضيه عُلويه وسُفليه شاهدٌ لله سبحانه وتعالىٰ بربوبيته وألوهيَّته وتفرُّده بالخَلْقِ والتدبير؟ فهو الأحد الذي لا إله لا إله إلا غيره ولا ربَّ سواه، سبحانه لا تحيط به العقولُ ولا تتوهَّمه الظُّنون، فعندما ينظر الإنسان إلىٰ ما حوله من مظاهر طلاقةِ القُدرة الإلهيَّة في الخَلق والتدبير، وضبط أمر السَّموات والأرضِ وما فيها من مخلوقاتٍ كل هذا يدفع الإنسان إلىٰ تسبيح بارئ هذا الخَلْق ومُخرجِه من العدم إلىٰ الوجود، وإلىٰ أن يذكره بلسان الحال والمقال، وأن ينشغل القلب واللسان بذِكر الرحمن سبحانه وتعالىٰ فتتصل الرُّوح بخالقِها وينعم القلبُ في جنَّات الذِّكر.

وقد اهتمَّت الشَّريعة الإسلاميَّة بتوجيه الإنسان إلىٰ التعرف علىٰ خالقِه ومولاه، فنجد كثيرًا من النصوص التي تحثُّ علىٰ التقرب إلىٰ الله بذِكره، وذلك بصور مختلفة تحقِّق صلاحَ الباطن والظَّاهر، وتصل بالإنسان إلىٰ تحصيل رضا الله سبحانه وتعالىٰ ومعيَّتِه الخاصَّة بتحقيق مقام: «وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي»[1]، وتتحقق تزكية النفوس ونعيم القلوب بنزول الأنوار القدسية علىٰ الذَّاكر حتىٰ يصل إلىٰ مقام: «وَمَا يزَالُ عَبْدِي

---

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ (7405) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث علىٰ ذكر الله تعالىٰ (2675) من حديث أبي هريرة ﵁.

يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا))[1].

فمن خلال هذه الرسالة البسيطة نتعرض لموضوع ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ، وما يتعلَّق به من أحكامٍ شرعيةٍ، مع التركيز علىٰ مشروعية صورٍ متنوِّعة من الذِّكر وعدم انحساره في شكلٍ واحدٍ، وبيان أن هذه الصُّور تقع داخل دائرة الشَّريعة وغير خارجة عنها، مع بيان عدم صحة القول ببدعية الجهر بالذِّكر أو بدعيَّةِ الاجتماع عليه، كما تزعم بعضُ الطوائف التي وصفت الكثيرَ من الأمور المشروعةِ بالبدعة ومخالفة السُّنَّة والهدي النبوي الشريف، وذلك نتيجة فهمهم المغلوط لمفهوم البدعة وما يتعلَّق بها من أمورٍ، وما يندرج تحتها من المسائل والأفعال، والتي سوف يأتي بيانُها في موضعها إن شاء الله.

ونعود فنؤكد علىٰ أنَّ غرضَ هذه الرسالةِ هو فتح باب الخير واغتنام الأوقات في ذكر الله سبحانه وتعالىٰ، نتخذ من الذِّكر وسيلةً وسُلمًا للوصول للمعرفة والمحبَّة راجين به رضا ربِّنا سبحانه وتعالىٰ.

تعريف الذكر:

أما عن تعريف الذِّكر فالذِّكْرُ لُغَةً: مَصدرُ ذَكَرَ الشَّيءَ يَذْكُرُهُ ذِكْرًا وَذُكْرًا، وقال الكِسائيُّ: الذِّكْرُ باللِّسانِ ضِدُّ الإِنْصَاتِ- ذَالُهُ مَكْسُورَةٌ، وَبِالْقَلْبِ ضِدُّ النِّسْيَانِ- وَذَالُهُ مَضْمُومَةٌ، وقال غيرُه: بل هما لُغَتَانِ.

وهو يأتي في اللغة لمعانٍ:

الأوَّل: الشَّيءُ يجري علىٰ اللِّسانِ؛ أي ما ينطقُ به، يقال: ذكرت الشيءَ أذكُرُهُ ذُكْرًا وَذِكْرًا إذا نطقتَ باسمِه أو تحدَّثتَ عنه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم :2].

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع (6502) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والثاني: استحضار الشيء في القلب- ضدُّ النسيان. قال تعالىٰ حكايةً عن فتىٰ موسىٰ: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف:63].

قال الراغب في المفردات، ونقله عنه صاحبُ القاموس في بصائرِه: الذِّكر تارةً يُراد به هيئةٌ للنَّفس بها يمكن الإنسانُ أن يحفظَ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يُقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكر يقال باعتبار استحضاره، وتارةً يقال لحضور الشيءِ القلبَ أو القول، ولذلك قيل: الذِّكر ذِكران: ذكرٌ بالقلب، وذكرٌ باللسان، وكلُّ واحدٍ منهما ضربان: ذكرٌ عن نسيانٍ، وذكرٌ لا عن نسيانٍ، بل عن إدامة حفظٍ. وكل قولٍ يقال له ذكرٌ. ومن الذِّكر بالقلب واللسان معًا قولُه تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة 200].

ذكر الله في الاصطلاح الشَّرعي:

أما في الاصطلاح فيُستعمل الذِّكر بمعنىٰ ذِكر العبد لربِّه عز وجل، سواءٌ بالإخبار المجرَّدِ عن ذاته أو صفاتِه أو أفعالِه أو أحكامِه أو بتلاوة كتابِه أو بمسألتِه ودعائه، أو بإنشاء الثَّناء عليه بتقديسِه وتمجيدِه وتوحيدِه وحمدِه وشُكره وتعظيمِه. ويستعمل الذِّكر اصطلاحًا بمعنًىٰ أخصَّ من ذلكَ، فيكون بمعنىٰ إنشاءِ الثَّناء بما تقدَّم، دون سائرِ المعاني الأخرىٰ المذكورة، ويشير إلىٰ الاستعمال بهذا المعنىٰ الأخصِّ قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت : 45] فجعلت الآية الذِّكرَ غيرَ الصَّلاةِ علىٰ التفسير بأنَّ نهيَ ذِكرِ الله عن الفحشاء والمنكر أعظمُ من نهيِ الصَّلاةِ عنهما، وهذا الاستعمال الأخصُّ هو الأكثر عند الفقهاء[1]. ◆

(1) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (219/21).

الأدلة التي تحضُّ على ذِكر الله من الكِتاب والسُّنَّة

قد جاءت نصوص الكتاب الكريم والسُّنَّةِ المطهَّرةِ بما يحقِّق سعادةَ الإنسان في الدُّنيا والآخرة، وترشده إلى ما فيه فلاحُ أمرِه روحيًّا وقلبيًّا ماديًّا وجسديًّا بحيث يصل إلى تحقيق الحياة الطَّيبة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون﴾ [النحل:97] فاهتمَّت النصوص الشريفة بالحضِّ على ذِكر الله سبحانه وتعالى كطريقٍ من طرق تحقيق هذه الحياة الطَّيبة ونيل أحسن الجزاء .

ففي كتاب الله يقول الله عز وجل:

- ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة:152].
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ الله كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُون﴾ [الأنفال: 45].
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿41﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 41-42].
- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَاب ﴿190﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار﴾ [آل عمران:190-191].
- ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ الله لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:35].
- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ الله كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَق﴾ [البقرة:200].

- ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ولَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِين﴾ [الأعراف:205].

- ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ولَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَار﴾ [النور:37].

- ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ الله وَاذْكُرُوا الله كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾ [الجمعة:10].

وغير ذلك من الآيات الكثيرةِ التي حثَّت علىٰ ذِكر الله في جميع المواقف والأحوال والأوقات.

وفي سنة رسول الله ﷺ:

نجد أن نبيَّنا الكريم ﷺ أرشدنا إلىٰ ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ والإكثار منه في أحاديث كثيرة، وكان ﷺ المثل الأسمىٰ في هذا الأمر، فقد جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه كثير من الأحاديث الشَّريفةِ التي تحثُّ علىٰ ذِكر الله فمن ذلك :

1- عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: ((مَثَلُ الَّذِي يَذكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ))(1).

2- عن عبدالله بن بُسر أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله إنَّ شرائعَ الإسلامِ قد كَثُرت عليَّ فأخبرني بشيءٍ أتشبَّث به، فقال ﷺ: ((لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطبًا مِن ذِكرِ الله))(2).

3- عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: ((أَلَا أُنَبِّئُكُم بِخَيرِ أَعمَالِكُم وَأَزكَاهَا عِندَ مَلِيكِكُم وَأَرفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُم وَخَيرٌ لَكُم مِن إِنفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ وَخَيرٌ

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل (6407)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (779).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر (3375) وابن ماجه في كتاب الأدب، باب فضل الذكر (3793) من طريق زيد بن حباب، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس، عن عبدالله بن بسر رضي الله عنه به مرفوعًا. وقال الترمذي: ((حسن غريب من هذا الوجه)).

لَكُم مِن أَن تلقَوا عَدُوَّكُم فتَضرِبُوا أَعنَاقَهُم وَيَضرِبُوا أَعنَاقَكُم؟)) قالوا: بلىٰ، قال: ((ذِكْرُ اللهِ تَعَالَىٰ))[1].

4- عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: ((يقولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِن ذَكَرَنِي فِي نَفسِهِ ذَكَرتُهُ فِي نَفسِي وَإِن ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرتُهُ فِي مَلَإٍ خَيرٍ مِنهُم))[2].

5- وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يسِير في طريقِ مكَّةَ فمرَّ علىٰ جبلٍ يقال له جُمْدَان، فقال: ((سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُون)) قالوا: وما المفرِّدون يا رسولَ الله؟ قال: ((الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ))[3].

6- وقد احتلَّ الحديث عن ذِكر الله وفوائده ومنزلته في الشريعة مكانةً بارزةً في الكُتب التي صنِّفت في الإرشاد للخير وفضائل الأعمال، فقد روىٰ الإمام المنذري في الترغيب والترهيب عدَّةَ أحاديث عن رسولِ الله ﷺ تبيِّن فضلَ الذِّكر ومنزلته مع نسبَتها لكُتب السُّنَّة وبيان حُكمها، فمن ذلك:

- فعن أبي الْمُخَارِق رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((مَرَرْتُ لَيْلَةَ أسرِي بِي بِرَجُل مُغيَّب في نورِ الْعَرْش قلت: من هَذَا أَهَذَا ملَكٌ؟ قيل لَا، قلت: نَبِيٌّ؟ قيل لَا، قلت: مَن هُوَ؟ قَالَ: هَذَا رجلٌ كَانَ فِي الدُّنْيَا لِسَانه رطبٌ من ذِكر الله وَقَلبه مُعَلَّق بالمساجد وَلم

(1) أخرجه الترمذي في الكتاب والباب السابقين (3377)، وابن ماجه في الكتاب والباب السابقين (3790)، والحاكم في مستدركه (1/ 496) من طريق زياد بن أبي زياد عن أبي بَحْرِيَّةَ عن أبي الدرداء رضي الله عنه به مرفوعًا.

وقال الحاكم: ((صحيح الإسناد)).

(2) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (7405) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلىٰ الله تعالىٰ (2675).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث علىٰ ذكر الله تعالىٰ (2676).

يستتسب لوَالِديهِ)). رواه ابن أبي الدُّنيا هكذا مرسَلًا[1].

وعن سالم بن أبي الجعد ﷺ قال: قيل لأبي الدَّرْدَاء ﷺ: إن رجلًا أعتقَ مائَة نسمَةٍ. قال: ((إِن مائةَ نسمَةٍ من مَال رجلٍ لكثيرٌ، وَأفضل من ذَلِك إِيمَانٌ ملزومٌ بِاللَّيْلِ والنَّهَار وأنْ لَا يزَال لِسَانُ أحدكُم رطبًا من ذِكر الله))[2].

- وعن عبدالله بن عمرو ﷺ عن النَّبِي ﷺ أنه كان يقول: ((إِنَّ لكلِّ شَيْءٍ صقالةً وَإِن صقالةَ الْقُلُوب ذِكر الله، وَمَا من شَيْءٍ أنجىٰ من عَذَابِ الله من ذِكر الله)) قالوا: ولا الجِهاد في سَبيلِ الله؟ قال: ((وَلَو أنْ يَضْربَ بِسَيْفِهِ حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ))[3].

- وَرُوِيَ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﷺ أن رسولَ الله ﷺ سُئِلَ أيُّ العبادِ أفضلُ دَرَجَةً عِنْد الله يَوْم الْقِيَامَة؟ قَالَ: ((الذَّاكرون الله كثيرًا)) قال: قلتُ يَا رَسُولَ الله ومِن الْغَازِي فِي سَبِيل الله؟ قَالَ: ((لَو ضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي الكفَّارِ وَالْمُشْرِكينَ حَتَّىٰ ينكسرَ وَيَخْتَضِبَ دَمًا لَكَانَ الذَّاكرون الله كثيرًا أفضلَ مِنْهُ دَرَجَةً))[4]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيث غَرِيب))[5].

---

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (ص 38- 39) من طريق عون بن إبراهيم الشامي، ذكر أحمد بن أبي الحواري، نا أبو المُخارق به مرسلًا.

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (36205) من طريق شريك عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال: قيل لأبي الدرداء... به موقوفًا.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (62/2) من طريق محمد بن إسحاق حدثنا علي بن عياش حدثنا سعيد ابن سِنان حدثني أبو الزاهرية عن أبي شجرة، واسمه كثير بن مرة عن عبدالله بن عمر ﷺ به مرفوعًا.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر (3376) من طريق قتيبة قال: حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به مرفوعًا.

(5) انظر: الترغيب والترهيب من الحديث الشريف (2/254-253) لعبدالعظيم بن عبدالقوي بن عبدالله، أبي محمد زكي الدين المنذري- المحقق: إبراهيم شمس الدين- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1417هـ.

- وقد جاءت أحاديثُ أخرى توضِّحُ كيف كان النبيُّ ﷺ يذكر ربَّه؟ وكيف كان يُرشد الصحابة الكرام إلى طريقة الذِّكر وثوابه، فمن أمثلة ذلك:

- روى مسلمٌ في صحيحه عن عائشةَ قالت: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ))[1].

- وروى الترمذي في سُننه عنِ ابنِ عمرَ قال: ((كَانَ تُعَدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي المجلِسِ الوَاحِدِ مِائَةُ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقُومَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ))[2].

- وكذلك روى مسلم في صحيحه عن مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ عن أبيهِ قال: جاءَ أعرابِيٌّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: عَلِّمْنِي كلامًا أقولُهُ. قال: ((قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ)) قَالَ: فَهَؤُلَاءِ لِرَبِّي، فَمَا لِي؟ قَالَ: ((قُلْ: اللهمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي))[3].

- وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ))[4].

- روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قَالَ: ((مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مائةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ))[5]. ◆

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (373).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في الاستغفار (1516)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس (3434)، وابن ماجه في كتاب الأدب، باب الاستغفار (3814) من طريق محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما به.

(3) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (2696).

(4) أخرجه مسلم في كتاب الآداب، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة (2137).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه (6405).

فوائد ذكر الله سبحانه وتعالىٰ

بالإضافة إلىٰ ما سبق ذكره نجد أن فوائد الذِّكر ومزاياه لا تدخل تحتَ العدِّ ولا يحصيها حصرٌ؛ إذ كيف تُحصر بركات ذِكر مَن له صفات الجلال والكمال سبحانه وتعالىٰ؟ وكيف تُحصىٰ بركات ونفحاتٌ تأتي من عند ملك الملوك الكريم الوهاب الذي بيده خزائن السَّموات والأرض سبحانه؟ ففي ذِكر الله من البركات الربَّانية والنَّفحاتِ الإلهيَّة ما لا يصفه القلمُ ولا يحدُّه الحدُّ، إذ كيف توصف بركةُ وفوائدُ: «أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»[1].

وقد سبقت الإشارة إلىٰ شيء من ذلك عند الحديث عن المنهج الصوفي والحض علىٰ ذكر الله تعالىٰ.

حكم الجهر بالذكر والاجتماع عليه

إن الكلام عن مشروعية الجهر بالذِّكر واجتماعِ النَّاسِ عليه في المساجدِ أو الأماكن المختلفة هو مطلبٌ شرعيٌّ واضحٌ من مطالب الشريعة الإسلاميَّة، قد أكَّده فهم المسلمين وممارساتهم علىٰ مرِّ القرون، وكفىٰ بذلك دليلًا وبيانًا واضحًا علىٰ المشروعيَّةِ والجوازِ، وذلك لأن الله عز وجل قد عصم هذه الأمة المسلمة أن تجتمعَ علىٰ ضلالةٍ أو باطلٍ[2]، فلم يكن ليحتاج منَّا إلىٰ سرد الأدلة ونصوص العلماء، وقد تقدمت إشارة مجملة إلىٰ طرف من

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب، باب فضل الذكر (3792)، وابن المبارك في الزهد (956)، وابن حبان في صحيحه (815) من طريق إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها: حديث ابن عمرَ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ لا يَجْمَعُ هذِهِ الأُمَّةَ علىٰ ضَلالةٍ أبدًا، وإنَّ يدَ الله مَع الجَماعةِ فاتَّبعُوا السَّوادَ الأَعظَمَ فإنَّ مَن شَذَّ شَذَّ في النَّارِ».

وقد أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في وجوب لزوم الجماعة (2167)، والحاكم في مستدركه (115/1) قال الترمذي: «حديث غريب من هذا الوجه». والحديث له طرق وشواهد كثيرة يرتقي بها لدرجة الحسن، وسيأتي تخريجه مُفصَّلًا في رسالة: «بطلان دعوىٰ جاهلية المجتمع الإسلامي في العصر الحديث» فلينظر هناك.

هذه الأدلة قبل ذلك، ولكن لما خاض في هذا الأمر بعض مدعي العلم من المبتدعين القائلين ببدعية الجهر بالذِّكر، أو بدعية الاجتماع بغرض ذِكر الله بصوره المختلفة، فلزم توضيح الأمرِ وسردُ الأدلة بتفصيلاتها، وذكر أقوال أهل العِلم لكي يتم تصحيح المفاهيم المغلوطة عن هذا الأمر، والذي هو أهم أهداف هذا البحث الذي بين يديكَ.

أولًا: حكم الجهر بالذكر:

الجهر بالذِّكر أمرٌ مستحسنٌ إذ تبين أنه يجمع حواسَّ الإنسان ويزيد تركيزه فيما يقول ويجنبه الشرود؛ لأنه في حالة متابعةٍ لما يصدُر منه من ألفاظٍ، كحال مَن يتحدَّث إلى الناس فهو في الغالب لا يمكن أن يشرد وهو يتحدث و يوجِّه الكلامَ، وإلَّا ظهر عليه عدم انضباط الحديث وتبعثر الكلماتِ وصرف الذِّهن عمَّن يخاطبه، فالجهر بالذِّكر ورفع الصوت به يفتح البابَ لاتصال القلب باللِّسان ويشعر بعد ذلك بأثر الذِّكر من انشراح القلب واتصاله بالله، فالجهر بالذِّكر يوقظ الذِّهنَ بدايةً كطريق لفتح القلب بعد ذلك، وهذا الأمر يدركه الإنسان بحواسِّه ويشهد له الواقع.

وقد جاءت نصوص السُّنَّة المطهرة تذكر لنا حالاتٍ وصورًا من رفع الصَّوت بالذِّكر في مواطنَ مختلفةٍ، فمن هذه الأحاديث ما يحثُّ على استحباب الجهر بالذِّكر تصريحًا أو بدلالة اللُّزوم، فمن ذلك:

ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((يقولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِن ذَكَرَنِي فِي نَفسِهِ ذَكَرتُهُ فِي نَفسِي وَإِن ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرتُهُ فِي مَلَإٍ خَيرٍ مِنهُم، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))[1].

(1) تقدم تخريجه.

ومحل الشاهد من هذا الحديث: «ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ» والذِّكر في الملأ لا يكون إلا عن جهرٍ فهو يدل صراحةً علىٰ جواز الجهر بالذِّكر.

وكذلك ما في الصحيحين: أنَّ أبا مَعْبَدٍ مَوْلَىٰ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَخْبَرَهُ أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ حِينَ يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنَ الْمَكْتُوبَةِ كَانَ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وقال ابنُ عَبَّاسٍ: «كُنْتُ أَعْلَمُ إِذَا انْصَرَفُوا بِذَلِكَ إِذَا سَمِعْتُهُ»[1].

وعن ورَّاد مولىٰ الْمُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ قال: كتبَ مُعَاوِيَةُ إلىٰ الْمُغِيرَةِ: اكْتُبْ إِلَيَّ بشيءٍ سمِعْتَهُ من رسولِ الله ﷺ قال: فكتبَ إليهِ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ إذا قضىٰ الصَّلاةَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»[2].

وجه الدلالة هنا: التَّصريح بسماع رسول الله ﷺ وهو يقول هذا الذِّكر عقب الصَّلاة، ومعلومٌ أنه لا يُسمع القولُ إلا إذا جهر به القائلُ.

وعن أَبِي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ أن رسولَ الله ﷺ قال: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ حَتَّىٰ يَقُولُوا مَجْنُونٌ»[3].

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة (841)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة (583).

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة (844)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (593).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (3/71)، وابن حِبان في صحيحه (817)، والحاكم في مستدركه (1/499) من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه به مرفوعًا.

وقال الحاكم: «هذه صحيفة للمصريين صحيحة الإسناد، وأبو الهيثم سليمان بن عتبة العتواري من ثقات أهل مصر». ووافقه الذهبي.

وعن سعيد بن عبدالرحمن بن أَبزَىٰ عن أبيه ﷺ قال: ((كان رسولُ الله ﷺ يُوتر بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ﴾ و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ فإذا أراد أن ينصرفَ قال: ((سُبحانَ الملكِ القُدوسِ)) ثلاثًا يرفعُ بها صَوتَه))[1].

وأخرج عبدالرزاق في مصنفه أن ابنَ جُرَيْجٍ قال: سمعتُ الحسنَ بنَ مُسْلِمٍ وغيرَهُ من أصحابِهِ يقولونَ: كان رجلٌ من أهلِ نَجْدٍ إنْ دعا رفعَ صَوْتَهُ وإنْ صلَّىٰ رفعَ صَوْتَهُ، وإنْ قَرَأَ رفعَ صَوْتَهُ، فشكَاهُ أبو ذَرٍّ إلىٰ رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّ هذا الأعرابيَّ قد آذَاني، لَئِنْ دَعَا لَيَرْفَعَنَّ صَوْتَهُ، وَلَئِنْ قَرَأَ لَيَرْفَعَنَّ صَوْتَهُ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: ((دَعْهُ فَإِنَّهُ أَوَّاهٌ))[2].

وجاء في صحيح البخاري: ((أنَّ ابنَ عمرَ وأبا هريرةَ كانا يخرجانِ إلىٰ السُّوقِ في أيَّامِ العَشْرِ يُكَبِّرَانِ وَيُكَبِّرُ النَّاسُ بِتكبيرِهما))[3].

فهذه بعض النُّصوص من السُّنَّةِ المطهَّرة التي توضح أن رفع الصَّوتِ بذِكرِ الله والجهر به كان شيئًا موجودًا في زمن سيِّدِنا رسولِ الله ﷺ وأنَّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يجهرونَ بذِكرِ الله سبحانه وتعالىٰ في مواضعَ كثيرةٍ كبعدِ التَّسليم من الصَّلاة وغيرِ ذلك.

وهنا يجب التنبه إلىٰ نقطةٍ هامَّةٍ، وهي كيف نجمع بين النصوص التي تحث علىٰ عدم رفع الصوت في الدُّعاء أو الذِّكر، وبين النصوص التي جاءت بالجهر بالذِّكر ورفع الصوت به؟

---

(1) أخرجه النسائي في كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب التسبيح بعد الفراغ من الوتر وذكر الاختلاف علىٰ سفيان فيه (1752)، وأحمد في مسنده (3/406) من طريق سفيان عن زبيد عن ذَرِّ بن عبدالله عن سعيد بن عبدالرحمن بن أبزىٰ عن أبيه به.

(2) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (6559).

(3) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب العيدين، عقب باب فضل العمل في أيام التشريق.

فنقول وبالله التوفيق:

إن الجهرَ بالذِّكر يدخل دائرةَ الجائزِ والمباح بل والمستحبِّ كما ورد في السُّنَّة النبوية في بعض الحالات، ونتيجة ذلك فهو فعلٌ مباحٌ يرجع لكلِّ إنسانٍ مسلمٍ أن يختارَ بين أن يجهرَ بالذِّكر أو أن يُسِرَّ به في نهاية الأمر، وهذا يخضع لحال الشَّخصِ والواقع المحيط به من حيث الوقتُ والمكانُ والأحوالُ، فقد يكون الإسرارُ في وقتٍ أفضلَ من الجهر، وفي وقت آخرَ يكون الجهر أفضلَ، فليس المقصود من ذِكر الأدلَّة هو القول بوجوب الجهرِ بالذِّكر وإنما القول بجوازِه ومشروعيتِه وعدم دخولِه في دائرة البدعةِ، ثم بعد ذلك يختار المسلمُ ما يناسبه بحسب الحالِ، فقد يكون الجهر في حقِّه أفضلَ في بعض الأحوال، وقد يكون الإسرارُ أفضلَ، وهو لا يخرج في الحالتين عن كونه مقتديًا بسيدِنا رسولِ الله ﷺ عاملًا بسُنَّته.

فعند التَّنبه لهذه النقطة والإحاطة بها نستطيع أن نفهمَ كلامَ أهلِ العِلم حين تكلموا عن مسألة الجهر بالذِّكر وعدم الجهر به، وتنوعت آراؤهم في أيهما أفضل؛ إذ إنه في نهاية الأمر يخضع لتنوُّع الأدلة، وتعدد مفهوم دلالتها، حيث تنوَّعت أشكال وهيئات الذِّكر في هذه الأمة، فهي ليست قاصرةً علىٰ هيئةٍ واحدةٍ.

من أقوال أهل العِلم في مسألة الجهر بالذكر:

قال الإمام النووي رحمه الله تعليقًا علىٰ حديث: ((كنَّا نعرفُ انقضاءَ صلاةِ رسولِ الله ﷺ بالتَّكبيرِ))[1]. وذكر له عدة روايات- والتي سبق أن ذكرناها- ثم قال: ((هذا دليلٌ لما قاله بعضُ السَّلف: أنه يستحبُّ رفعُ الصَّوت بالتَّكبيرِ والذِّكر عقب المكتوبة، وممَّن استحبَّه من المتأخِّرين ابنُ حزم الظَّاهري، ونقل ابنُ بَطَّالٍ وآخرون أنَّ أصحاب المذاهب المتبوعةِ وغيرهم متفقون علىٰ عدم استحبابِ رفع الصَّوت بالذِّكر والتَّكبير))[2].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) انظر: شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (5/84) لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي- المطبعة المصرية بالأزهر- الطبعة الأولىٰ: 1347هـ - 1929م.

قال الإمام ابن عابدين في الحاشية: ((وفي الفتاوى الخيرية من الكراهية والاستحسان: جاء في الحديث ما اقتضى طلب الجهر به نحو: ((وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ)) رواه الشيخان[1]. وهناك أحاديثُ اقتضت طلبَ الإسرارِ، والجمع بينهما بأنَّ ذلك يختلف باختلافِ الأشخاصِ والأحوالِ، كما جُمع بذلك بين أحاديث الجَهر والإخفاء بالقراءة، ولا يعارض ذلك حديثُ: ((خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ))[2] لأنه حيث خِيف الرِّياء أو تأذي المصلِّين أو النيام، فإن خلا مما ذكر؛ فقال بعض أهل العِلم: إنَّ الجهر أفضلُ لأنه أكثر عملًا ولتعدي فائدته إلى السَّامعين، ويوقظ قلبَ الذَّاكر فيجمع همَّه إلى الفِكر، ويصرف سمعَه إليه، ويطرد النومَ، ويزيد النشاطَ))[3].

قال الإمام جلال الدِّين السُّيوطي: ((إذا تأمَّلتَ ما أوردنا منَ الأحاديث عرفتَ من مجموعِها أنه لا كراهةَ البتةَ في الجهرِ بالذِّكر؛ بل فيه ما يدلُّ على استحبابِهِ إما صريحًا أو التزامًا، كما أشرنا إليه، وأما معارضته بحديث: ((خير الذِّكر الخفي)) فهو نظير معارضة أحاديث الجهر بالقرآن بحديث: ((المسرُّ بالقرآنِ كالمسرِّ بالصَّدقةِ))[4] وقد جمع النَّووي بينهما بأن الإخفاء أفضلُ حيث خاف الرياءَ أو تأذَّى به مصلُّون أو نيامٌ، والجهر أفضلُ في غير ذلكَ؛ لأن العمل فيه أكثرُ ولأن فائدته تتعدَّى إلى السَّامعين، ولأنه يوقظ قلبَ القارئ ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه ويطرد النَّوم ويزيد في النشاطِ، وقال

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (30279)، وأحمد في مسنده (172/1)، وابن حبان في صحيحه (809) من طريق أسامة بن زيد عن محمد بن عبدالرحمن بن أبي لبيبة عن سعد بن أبي وقاص به مرفوعًا.

(3) انظر: رد المحتار على الدر المختار (660/1) لابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز عابدين الدمشقي الحنفي- دار الفكر-بيروت- الطبعة الثانية: 1412هـ - 1992م.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (1333)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ماله من الأجر (2919)، والنسائي في كتاب الزكاة، باب المسر بالصدقة (2561)، وقال الترمذي: ((حسن غريب)).

بعضهم: يستحبُّ الجهرُ ببعض القراءة والإسرار ببعضِها؛ لأن المسرَّ قد يملُّ فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكلُّ فيستريح بالإسرار. انتهىٰ، وكذلك نقول في الذِّكر علىٰ هذا التَّفصيل، وبه يحصل الجمع بين الأحاديث.

فإن قلتَ: قال الله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: 205] قلتُ: الجوابُ عن هذه الآيةِ من ثلاثةِ أَوْجُهٍ:

الأول: أنها مكيةٌ كآية الإسراءِ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: 110] وقد نزلت حِين كان النبيُّ ﷺ يجهر بالقرآنِ فيسمعه المشركون فيسبُّون القرآنَ ومَن أنزله، فأُمِر بتركِ الجهرِ سدًّا لِلذَّريعةِ، كما نُهِي عن سبِّ الأصنامِ لِذلِك في قولهِ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108] وقد زال هذا المعنىٰ، وأشار إلىٰ ذلك ابن كثير في تفسيره.

الثَّاني: أنَّ جماعةً مِن المُفسِّرين، مِنهُم عبدُالرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلم شيخُ مالك، وابنُ جريرٍ حملُوا الآيةَ علىٰ الذَّاكِرِ حالَ قِراءةِ القُرآنِ، وأنَّهُ أمر لهُ بِالذِّكرِ علىٰ هذه الصِّفةِ تعظِيمًا لِلقُرآنِ أن تُرفع عِندهُ الأصواتُ، ويُقوِّيهِ اتِّصالُها بِقولِهِ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: 204] قُلتُ: وكأنَّهُ لَمَّا أُمِر بِالإِنصاتِ خشِي مِن ذلك الإخلاد إلىٰ البطالةِ فنبَّه علىٰ أنَّهُ وإن كان مأمُورًا بِالسُّكُوتِ بِاللِّسانِ إلا أنَّ تكلِيفَ الذِّكرِ بِالقلبِ باقٍ حتىٰ لا يغفُل عن ذِكرِ الله؛ ولِذا ختمَ الآيةَ بِقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205].

الثَّالِثُ: ما ذكرهُ الصُّوفِيَّةُ أنَّ الأمرَ في الآيةِ خاصٌّ بِالنَّبيِّ ﷺ الكامِلِ المُكمِّلِ، وأمَّا غيرُهُ مِمَّن هو محلُّ الوساوِسِ والخواطِرِ الرَّدِيَّةِ فمأمُورٌ بِالجهرِ؛ لِأنَّهُ أشدُّ تأثِيرًا في دفعِها، قُلتُ: ويُؤيِّدُهُ من الحديثِ ما أخرجهُ البزَّارُ عن مُعاذِ بنِ جبلٍ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَن صلَّىٰ مِنكُم بِاللَّيلِ فَليجهرْ بِقِراءتِهِ؛ فإنَّ الملائِكةَ تُصلِّي بِصلاتِهِ وتسمعُ لِقِراءتِهِ، وإنَّ مُؤمِني الجنِّ الذِينَ يكُونُون في الهواءِ وجِيرانهُ معهُ في مَسكَنِهِ يُصلُّونَ بِصلاتِهِ

ويستمِعُونَ قِراءته، وإِنَّهُ يَنطرِدُ بِجَهرِهِ بِقِراءَتِهِ عن دَارِهِ وعنِ الدُّورِ التي حَولهُ فُسَّاقُ الجِنِّ ومَرَدةُ الشَّياطِينِ[1]))[2].

أَيُّها القارئُ الكريم ما سبق من نصوصِ السُّنَّة المطهَّرة وأقوال أهل العِلمِ يؤصِّل ويقرِّر مشروعيةَ الجهر بذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ورفع الصوت به، ويؤكِّد أن المسلمَ في سعةٍ من أمرِه بحسبِ الحالِ، وبعد أن تقررت هذه المسألة واتضحت صورتها في الأذهان، ننتقل بعد ذلك إلىٰ مسألة أخرىٰ متعلِّقة بالذِّكر أيضًا ألا وهي مشروعية الاجتماع علىٰ ذِكر الله بصورِه المختلفةِ.

ثانيًا: حكم الاجتماع علىٰ ذكر الله:

المتتبع لنصوص الشَّريعة الإسلامية ومعانيها ومقاصدها العامَّة يدرك أنَّ الاجتماعَ علىٰ الخيرات هو مقصدٌ شرعيٌّ؛ بل هو من أهمِّ أهداف هذه الشَّريعة المطهَّرةِ، فالعبادات مع الجماعة والتي تشمل الذِّكر- بالمعنىٰ الخاص- وغير الذِّكر تزيد في الفضل والأجرِ عن العبادات في حالة الانفراد، ففي الاجتماعات تلتقي القلوبُ وتتآلفُ وتُحدث صورةً من صور التَّأثير والتأثُّر الرُّوحي والقلبي؛ بل إنَّها تفتح بابًا من أبواب الرَّحمات لا يوجد في غيرِها حتىٰ لمن لا يستحقُّ كما دلَّت علىٰ ذلك النُّصوص، فالاجتماعات مهبط الرَّحمات ومحلُّ الفيوضات والبركات وأماكن الوحدة والأخوة بين المسلمين، ومن ذلك أماكن الاجتماع علىٰ ذِكر الله، ومجالس الذِّكر أوسعُ وأشملُ من معنًىٰ محدَّدٍ بصورةٍ معينةٍ، وإنما تتعدد صُورُها وهيئاتها فمنها مجالس الوعظ والعِلمِ والتعلُّم، ومجالس قراءة القرآن الكريم والحديث، ومجالس التَّسبيح وتقديس الله سبحانه وتعالىٰ، والجهر بذلك، كل هذه

(1) جزء من حديث أخرجه البزار في مسنده (2655) من طريق نصر بن عبدالله أبي الفتح عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل به مرفوعًا.

(2) انظر: الحاوي للفتاوىٰ (1/472-471) لعبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدِّين السيوطي- دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت- لبنان- 1424هـ - 2004م.

الهيئاتِ تدخلُ تحت مسمَّىٰ مجالسِ الذِّكر، وقد ورَد العديدُ من الأدلة علىٰ استحباب الاجتماع علىٰ الذِّكر من سُنَّة النبيِّ ﷺ ومن فِعْل الصَّحابة والعلماءِ:

بعض الأدلة من السُّنَّة النبويَّة علىٰ جواز واستحباب الاجتماعِ علىٰ الذِّكر:

لقد تعدَّدت صور الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في فضل الاجتماع علىٰ الذِّكر؛ فمنها ما جاء يحضُّ علىٰ الاجتماع علىٰ ذِكر الله أو يقرِّرُه أو يُخبر عن كثير ثوابِه أو مدحِه إلىٰ غيرِ هذا من الصور، ومن ذلك:

ما رواه الإمام الترمذيُّ في سُننه بسنده عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((إِذَا مَرَرتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارتَعُوا)) قالوا: وما رياضُ الجنَّة؟ قال: ((حِلَقُ الذِّكرِ))[1].

وعن أنسٍ أيضًا قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((لَأَنْ أجلِسَ مع قومٍ يذكُرُون الله بعد صلاةِ الصُّبحِ إلىٰ أنْ تَطلُعَ الشَّمسُ أحبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعت عليهِ الشَّمسُ، ولَأن أجلِسَ مع قَومٍ يذكُرُونَ الله بعد العَصرِ إلىٰ أنْ تغِيبَ الشَّمسُ أحبُّ إليَّ من أنْ أعتِقَ ثمانِيةً مِن ولدِ إسماعِيل، دِيةُ كُلِّ رجُلٍ مِنهُمُ اثْنا عشَرَ ألفًا))[2].

وعن أبِي هُريرة رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: ((إنَّ لله تباركَ وتَعالىٰ ملائِكةً سيَّارةً فُضُلًا يتتبَّعُونَ مجالِسَ الذِّكرِ، فإذا وَجدُوا مجلِسًا فِيهِ ذِكرٌ قَعدُوا معهُم، وحفَّ بعضُهُم بعضًا بأجنِحتِهِم حتَّىٰ يَملئُوا ما بينهُم وبين السَّماءِ الدُّنيا، فَإذا تفرَّقُوا عَرجُوا وصَعِدُوا إلىٰ السَّماءِ)) قال: ((فيسألُهُمُ الله عزَّ وجلَّ- وهو أعلمُ بِهِم: مِن أينَ جِئتُم؟ فيقُولُون: جِئنا مِن عِندِ عِبادٍ لكَ فِي الأرضِ يُسبِّحُونكَ ويُكبِّرُونكَ ويُهلِّلُونكَ ويحمَدُونكَ ويسألُونكَ. قال:

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد (3510)، وأحمد في مسنده (150/3) من طريق عبدالوارث بن عبدالصمد بن عبدالوارث قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن ثابت هو البناني قال: حدثني أبي عن أنس بن مالك به مرفوعًا. وقال: ((حديث حسن غريب من هذا الوجه)).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب في القصص (3667)، والطيالسي في مسنده (2218)، والبيهقي في الكبرىٰ (38/8) من طريق موسىٰ بن خلف العَمِّي عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه به مرفوعًا.

وماذا يسألُوني؟ قالُوا: يسألُونكَ جنَّتك. قال: وهل رأوا جنَّتِي؟ قالوا: لا، أي ربِّ. قَال: فكيف لو رأوا جنَّتِي؟ قالوا: ويستجِيرُونكَ. قال: ومِمَّ يستجِيرُونني؟ قالُوا: مِن نارِكَ يا ربِّ. قال: وهل رأوا نارِي؟ قالُوا: لا. قال: فكيفَ لو رأوا نارِي؟ قالوا: ويستغفِرُونكَ. قال: فيقُولُ قد غَفرتُ لهُم فأعطيتُهُم ما سألُوا وأَجرتُهُم مِمَّا استجارُوا. قال: فيقُولُون ربِّ فِيهِم فُلانٌ عبدٌ خطَّاءٌ، إِنَّما مرَّ فجلس معهُم. قال: فيقُولُ ولهُ غَفرتُ هُمُ القومُ لا يَشقَىٰ بِهِم جَلِيسُهُم))[1].

وعَن يَعلىٰ بنِ شدَّادٍ قال: حدَّثني أَبِي شدَّادُ بنُ أوسٍ وعُبادةُ بنُ الصَّامِتِ حاضِرٌ يُصدِّقُهُ قال: إِنَّا لعِند رسُولِ الله ﷺ إذ قال: ((هل فِيكُم غرِيبٌ؟)) يعنِي أهل الكِتابِ قُلنا: لا يا رسُولَ الله، فأمر بِغلقِ البابِ فقال: ((ارفعُوا أيدِيَكُم فقُولُوا: لا إلهَ إِلَّا الله)) فرفعنا أيدِيَنا ساعةً، ثُمَّ وضعَ رسُولُ الله ﷺ يدَهُ ثُمَّ قال: ((الحمدُ لله، اللهمَّ إِنَّكَ بعثْتَنِي بِهَذِهِ الكلِمةِ وأَمرتنِي بِها ووعدْتَنِي عليها الجنَّةَ إِنَّكَ لا تُخلِفُ المِيعادَ)) ثُمَّ قال: ((أَبشِرُوا فإِنَّ الله قَد غَفَرَ لكُم))[2].

فهذا مجلس ذِكرٍ واجتماع عليه في مكانٍ محددٍ معلومٍ بأمر النَّبيِّ ﷺ بل ومشاركته ﷺ فيه.

وفي صحيح مسلم عن الأغرِّ أبي مسلم أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخُدري أنهما شهدا على النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((لَا يَقعُدُ قَومٌ يَذكُرُونَ الله عَزَّ وجلَّ إِلَّا حَفَّتهُمُ المَلَائِكَةُ وَغَشِيَتهُمُ الرَّحمَةُ وَنَزَلَتْ عليهمُ السَّكِينَةُ وَذكَرَهُمُ الله فِيمَن عِندَهُ))[3].

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل (6408)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر (2689) واللفظ لمسلم.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (124/4)، والبزار في مسنده (2717)، والحاكم في مستدركه (501/1) من طريق إسماعيل بن عياش عن راشد بن داود عن يعلى بن شدّاد به مرفوعًا.

(3) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذِّكر (2700).

عن أبي سعيدٍ الخُدري قال: خرج معاويةُ علىٰ حَلْقةٍ في المسجدِ فقال: ما أجلَسَكُم؟ قالوا: جلسنا نذكُر الله. قال: الله ما أجلَسَكم إلَّا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلَسَنا إلَّا ذاك، قال: أمَا إنِّي لم أستحلِفكم تُهمةً لكم، وما كانَ أحدٌ بمنزلَتِي مِن رسولِ الله ﷺ أقلَّ عنه حديثًا منِّي، وإنَّ رسولَ الله ﷺ خرَجَ علىٰ حلقةٍ مِن أصحابه فقال: «مَا أَجلَسَكُم؟» قالوا: جلَسنا نذكُر الله ونحمدُه علىٰ ما هدانا للإسلامِ ومَنَّ به علينا.

قال: «آللهِ مَا أَجلَسَكُم إِلَّا ذَاكَ؟» قالوا: والله ما أجلَسَنا إلَّا ذاك. قال: «أَمَا إِنِّي لَم أَستَحلِفكُم تُهمَةً لَكُم، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبرِيلُ فَأَخبَرَنِي أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ المَلَائِكَةَ»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ للهِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرضِ فُضُلًا عَن كُتَّابِ النَّاسِ، فَإِذَا وَجَدُوا أَقوَامًا يَذكُرُونَ الله تَنَادَوا: هَلُمُّوا إِلىٰ بُغيَتِكُم، فَيَجِيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِم إِلىٰ سَماءِ الدُّنيَا، فَيَقُولُ الله: أَيُّ شَيءٍ تَركتُم عِبَادِي يَصنَعُونَ؟

فَيَقُولُونَ: تَركنَاهُم يَحمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيَذكُرُونَكَ»[2].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: خرجَ علينا النَّبيُّ ﷺ فقال: «يا أيُّها النّاسُ إنَّ للهِ سرايا مِنَ الملائِكةِ تحِلُّ وتقِفُ علىٰ مجالِسِ الذِّكرِ في الأرضِ فَارتعُوا في رِياضِ الجنَّةِ». قالُوا: وأين رِياضُ الجنَّةِ؟

قال: «مجالِسُ الذِّكرِ فاغدُوا ورُوحُوا في ذِكرِ الله، وذَكِّرُوهُ أنفُسَكُم مَن كان يُحِبُّ أن يعلمَ مَنزِلتهُ عِند الله فَلينظُرْ كيف منزِلةُ الله عِندهُ، فإِنَّ الله يُنزِلُ العبدَ مِنهُ حيثُ

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وعلىٰ الذكر (2701).

(2) جزء من حديثٍ أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء أن لله ملائكة سيَّاحين في الأرض (3600) من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرةَ أو عن أبي سعيد رضي الله عنهما به مرفوعًا. وقال: «حديث حسن صحيح».

أنزلهُ مِن نفسِهِ))[1].

وعن أنس ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((إنَّ لله سيَّارةً مِنَ الملائِكةِ يَطلُبُونَ حِلَقَ الذِّكرِ، فإذا أتوا عليهم حَفُّوا بِهِمْ ثُمَّ بعثُوا رائِدَهُم إلى السَّماءِ إلى ربِّ العِزَّةِ تباركَ وتعالى فيقُولُونَ: ربَّنا أَتيْنا على عِبادٍ مِن عِبادِك يُعظِّمُونَ آلاءَك ويتلُونَ كِتابَكَ ويُصلُّونَ على نبِيِّكَ ﷺ ويسألونكَ لآخرتِهم ودُنياهم. فيقُولُ تبارك وتعالى: غَشُّوهُم رحمتي. فيقُولُون: يا ربِّ إنَّ فيهم فُلانًا الخطَّاء إنَّما اعتنقهم اعتناقًا! فيقُولُ تبارك وتعالى: غشُّوهُم رَحمتِي فهُمُ الجُلساءُ لا يشقى بِهِم جَلِيسُهُم))[2].

وعن سلمانَ الفارِسِيِّ قال: كان سلمانُ فِي عِصابةٍ يذكُرُون الله فمرَّ بِهِم رسولُ الله ﷺ فجاءهُم قاصِدًا حتَّى دنا مِنهُم فكَفُّوا عنِ الحدِيثِ إعظامًا لِرسُولِ الله ﷺ فقال: ((ما كُنتم تقُولُونَ؟ فإنِّي رَأيتُ الرَّحمةَ تَنزلُ عَليكُم فأحببتُ أنْ أُشارِككُم فِيها))[3].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ قال: كان عبدُالله بنُ رَواحةَ إذا لَقِي الرَّجُل مِن أصحابِهِ يقُولُ: تعالَ نُؤمِنُ بِربِّنا ساعةً، فقال ذاتَ يوم لِرجُلٍ فَغضِبَ الرَّجُلُ، فجاءَ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال: يا رسُولَ الله ألا ترى إلى ابنِ رَواحةَ يَرغَبُ عَن إيمانِكَ إلى إيمانِ ساعةٍ؟ فقال النَّبِيُّ ﷺ: ((يَرحمُ الله ابنَ رَواحةَ إنَّهُ يُحِبُّ المجالِسَ التي تتباهى بِها الملائِكةُ))[4].

---

(1) أخرجه أبو يعلى في مسنده (1865)، والطبراني في الأوسط (2501)، والحاكم في مستدركه (1/494) من طريق بشر بن المفضل حدثنا عمر بن عبدالله مولى غفرة قال: سمعتُ أيوبَ بنَ خالد بن صفوان الأنصاري يقول: قال جابر بن عبدالله ﵄ به مرفوعًا. وصحح إسناده الحاكم.

(2) أخرجه البزار في مسنده (6494) من طريق أحمد بن مالك القشيري حدثنا زائدة بن أبي الرُّقاد عن زياد النميري عن أنس ﵁ به مرفوعًا.

(3) أخرجه الحاكم في مستدركه (1/122) من طريق سيار بن حاتم حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي ﵁ به. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(4) أخرجه أحمد في مسنده (3/265) من طريق عبدالصَّمد ثنا عمارة عن زياد النميري عن أنس بن مالك ﵁ به.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (10/75): ((رواه أحمد وإسناده حسن)).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ النَّبيُّ صلى الله عليهِ وآلِهِ وسلَّم بِعبدِالله بنِ رواحة الأنصارِيِّ وهُو يُذكِّرُ أصحابَهُ، فقال رسُولُ الله صلَّى الله عليه وآلِهِ وسلَّم: «أمَا إنَّكُم الملأُ الذِينَ أمرني الله أن أصبرَ نفسِي معكُم» ثُمَّ تلا هذه الآيةَ ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:28] أمَا إنَّهُ ما جلسَ عِدَّتُكُم إلَّا جلسَ مَعهُم عِدَّتُهُم مِنَ الملائِكةِ إنْ سبَّحُوا الله سبَّحُوهُ وإنْ حَمِدُوا الله حَمِدُوهُ، وإنْ كبَّرُوا الله كبَّرُوهُ، ثُمَّ يَصعدُونَ إلىٰ الرَّبِّ- وهُو أعلمُ مِنهُم- فيقُولُون: يا ربَّنا عِبادُكَ سَبَّحُوكَ فسبَّحْنا، وكبَّرُوكَ فكبَّرنا، وحمِدُوكَ فحمِدْنا، فيقُولُ ربُّنا: يا ملائِكتِي أُشهِدُكُم أنِّي قد غفرتُ لهُم، فيقُولُون: فِيهِم فُلانٌ وفُلانٌ الخطَّاءُ فيقُولُ: هُمُ القومُ لا يَشقىٰ بِهِم جَلِيسُهُم»[1].

وعن الحسن البصري عن أبي رَزِين العُقيلي رضي الله عنه أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أدلُّك علىٰ مَلاك هذا الأمرِ الذي تُصيبُ به خيرَ الدُّنيا والآخرةِ؟ عليكَ بمجالسِ أهلِ الذِّكر، وإذا خلوتَ فحرِّكْ لسانكَ ما استطعتَ بذِكر الله، وأحبَّ في الله، وابغضْ في الله»[2].

وعنِ الأسودِ بنِ هِلالٍ قال: «كان مُعاذٌ يقولُ لِرجُلٍ مِن إخوانِهِ: اجلِسْ بِنا فَلنُؤمِن ساعةً، فيجلِسانِ يَتذاكرانِ الله ويَحمَدانِهِ»[3].

فهذه أيُّها الأخ الكريم عدَّةُ أحاديث من سُنَّة سيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغِّب في الذِّكر وتقرِّر مشروعيةَ الاجتماع عليه، وتمدح المجتمعين علىٰ الذِّكر، وتخبرُنا بعِظم ثوابِهم

(1) أخرجه الطبراني في الصغير (2/ 227) من طريق محمد بن حماد الكوفي حدثنا عمر بن ذر الهمداني حدثنا مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما به مرفوعًا.

(2) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (1/ 366- 367) من طريق عبدالملك بن محمد بن عدي ثنا العباس بن الوليد أخبرني أبي ثنا عثمان بن عطاء عن أبيه عن الحسن عن أبي رزين به.

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (31002) من طريق أبي أسامة عن الأعمش عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال به.

ومنزلتهم عند الله، فهي تؤصِّل لمسألة جوازِ اتخاذ مجالسِ الذِّكر بدايةً، ثم تأتي بعد ذلك مسألة تعدُّد الهيئات والصُّور والأشكال التي تندرج تحت هذا الأصل، بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة وطبيعة حياة الناس والمجتمعات، فقد يحتاج النَّاس في بعض الأزمنةِ إلى الاتفاق على موعدٍ ومكانٍ لعقد مجلس ذِكر فلا شيءَ يمنع من ذلك لاندراجِه تحت الأصلِ، وهو مشروعية مجالس الذِّكر بعامَّةٍ كما هو مُشاهَدٌ معروفٌ في تاريخ المسلمين من عقدهم لدروس ومجالس العلم والفقه والوعظ وغير ذلك في أماكنَ معلومةٍ وأوقات محدَّدةٍ ولم يقل أحد من أهل العِلم أن الاجتماع على ذلك بدعة فما الذي يخرج مجالس التحميد والتهليل والتسبيح والصلاة على النبيِّ وإنشاد المدائح النبوية، والتذكير بصلاح القلوب عن تلك الصُّورةِ، فكل هذه المجالس داخلة تحت مسمَّى مجالس الذِّكر وإنِ اختلفت هيئاتُها وصورها. وما قلناه ليس بدعًا من القول في شيء بل هذا هو المتوارث عن علماء الأمة المحقِّقين، وهو ما سنذكر بعضَه في النقطة التالية.

من أقوال أهل العِلم في جواز الاجتماع على الذِّكر:

ولنتعرض الآن لبعض أقوال أهل العِلم عن جواز مجالسِ الذِّكر حتى تتمَّ الفائدةُ المرجوَّةُ إن شاء الله تعالى من هذه الرسالة بحيث يكون ذلك كلُّه دافعًا لنا على الحِرص على مجالسِ الذِّكر والمسارعة إليها بل والعمل على إنشائها في مساجدنا ومجالسنا وبيوتِنا حتى نرى الأُسرَ المسلمةَ وأولاد المسلمين يجتمعون في حلقات الذِّكر فإن ذلك هو طريق الرَّحمات والبركات والنُّور من ربِّ الأرض والسَّموات، وهو السبيل لإصلاح حال المسلمين سواء كانوا مجتمعاتٍ أو أفرادًا.

- يقول الإمام الطَّحطاوي في حاشيته على مراقي الفلاح: «قال في الفتاوى: لا يَمنع من الجهر بالذِّكر في المساجد احترازًا عن الدخول تحت قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: 114] كذا في البزَّازية.

ونصّ الشَّعرانيُّ في ذِكرِ الذَّاكرِ للمذكور والشَّاكرِ للمشكور ما لفظه: وأجمع العلماء سلفًا وخلفًا على استحباب ذِكرِ الله تعالى جماعةً في المساجد وغيرِها من غير نكيرٍ؛ إلا أن يشوِّش جهرُهم بالذِّكر على نائمٍ أو مصلٍّ أو قارئ قرآنٍ، كما هو مقررٌ في كُتب الفقه.

وفي الحلبي: الأفضلُ الجهرُ بالقراءة إنْ لم يكن عندَ قومٍ مشغولين؛ ما لم يُخالطه رياءٌ))[1].

- ويقول الإمام أحمد بن يحيى بن محمد الوَنشَريسي التِّلمسانيُّ، أبو العباس المالكيُّ المتوفى سنة 914 من الهجرة: ((ومما يقع السؤال عنه هنا الاجتماع على الذِّكر ألهُ أَصلٌ في الشريعة يَهدي إليه؟

فأقول: وقع في الصَّحيح عن أبي هريرةَ وأبي سعيد رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول ﷺ أنَّه قال: ((لَا يَقعُدُ قَومٌ يَذكُرُونَ الله إِلَّا حَفَّتهُمُ المَلَائِكَةُ وَغَشِيَتهُمُ الرَّحمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ وَذكَرَهُمُ الله فِيمَن عِندَهُ))[2].

ومثل هذا الخبر رُوي في الصحيح في الاجتماع على تلاوةِ القرآن، قال رسول الله ﷺ في بعض الخبر عنه: ((ومَا اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله يتلُونَ كِتابَ الله ويتدارسونَه بَينَهم إلَّا نَزلتْ عَليهمُ السَّكينةُ وغَشيتهمُ الرَّحمةُ وحفَّتهُمُ الملائكةُ وذكرَهمُ الله فيمَن عندَه، ومَن أبطأَ بِهِ عَملُه لم يُسرعْ بِهِ نَسَبُه))[3].

قال الإمام المازَري: ظاهره يبيح الاجتماعَ لقراءة القرآنِ في المساجدِ، وإن كان مالكٌ قد كَرِه ذلك في المدونة، ولعلَّه إنما قال ذلك؛ لأنَّه لم يرَ السَّلف يفعلونَه مع

(1) انظر: حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح (318/1) لأحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي- تحقيق: محمد عبدالعزيز الخالدي- دار الكتب العلمية بيروت- لبنان-الطبعة الأولى: 1418هـ - 1997م.

(2) تقدم تخريجه.

(3) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر (2699) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حرصهم علىٰ الخير. قال بعض الشيوخ: ولعلَّه من البدع الحسنةِ كقيام رمضانَ وغيرِه. وقد جرىٰ الأمر عليه ببلدِنا بين أيدي العلماء، والأمر فيه خفيف.

قلتُ: وجرىٰ الأمر عليه بالمغرب كلِّه، بل وبالمشرق فيما بلغنا ولا نكيرَ وما هو إلَّا منَ التعاون علىٰ البرِّ وعمل الخيرِ، ووسيلةٌ لنشاط الكسلانِ. وقد نصُّوا علىٰ أن حكمَ الوسائل علىٰ حكم المتوسَّل إليه. وأمَّا استماعهم لتالٍ يتلو آياتٍ من كتابِ الله بصوتٍ حسنٍ فمستحبٌّ، لأنه يوجب الخشوعَ ورقَّة القلوب ويدعو إلىٰ الخير.

وما وقع لمالك، وقد سُئل عن النَّفر يكونون في المسجد فيحفُّ أهلُ المسجد فيقولون لرجلٍ حسنِ الصَّوت: اقرأْ علينا. يريدون حُسْنَ صوتِه- فكَرِهَ ذلكَ وقال: إنَّ هذا يُشبه الغِناءَ. فحمله عند الشيخِ ابنِ رُشد علىٰ مَن كان يطلب ذلك استلذاذًا بحُسْنِ الصَّوتِ وهو ظاهرٌ من قولِه في الرواية: يريدون حُسن صوته. أمَّا إنْ كان القصدُ بهم استدعاءَ رقَّةِ قلوبِهم بسماعِهِم قراءتَه الحسنةَ- فلا كراهة. وقد روي أن رسولَ الله ﷺ قال: ((مَا أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصَّوتِ يَتغنَّىٰ بالقرآنِ))[1]. أي ما استمع لشيءٍ ما استمع لنبيٍّ يُحَسِّن صوتَه بالقرآن طلبًا لرقَّةِ قلبِه.

وقد كان عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه إذا رأىٰ أبا موسىٰ الأشعريَّ قال: ((ذَكِّرْنَا ربَّنا- وكان حسن الصَّوت- فيقرأُ عندَه))[2]. فلم يكن عمرُ يقصد الالتذاذَ بسماع صوتِه، وإنما استدعىٰ رقَّةَ قلبِه بسماع قراءةِ القُرآن. وقال ﷺ لأبي موسىٰ تغبيطًا له بما وهبه الله من حُسْنِ الصَّوتِ: ((لَقد أُوتيتَ مِزمارًا مِن مزاميرِ آلِ داودَ))[3].

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن (5023)، وفي كتاب التوحيد، باب الماهر بالقرآن مع الكرام البررة (7544)، ومسلم في كتاب صلاةالمسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (792) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (4181) من طريق ابن جريج عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبدالرحمن أن عمر... به.

(3) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن (5048)،

وقريبًا من هذا الخبر عند بعضِهم ما رُوي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ((ليس منَّا مَن لم يَتغَنَّ بالقُرآنِ))[1]. فقيل معناه: مَن لم يُحسِّن صوتَه استدعاءً لرِقَّة قلبه. ويشهد لهذا الحمل قوله ﷺ: ((زينوا القُرآنَ بأصواتِكُمْ))[2]. وقال أبو موسىٰ للنبي صلىٰ الله عليه وسلم: ((لَو عَلِمتُ أنكَ تَسمعُ لحَبَّرْتُهُ لكَ تحبيرًا))[3].

وتقريره عليه السلام حكمٌ شرعيٌّ. وقد قيل: إن المعنىٰ في يتغنَّىٰ يستغني؛ أي أن القرآنَ يحصل به غِنىٰ النَّفسِ بالزهد واليقين. وقال ﷺ: ((القرآن غِنًىٰ لا غِنًىٰ دونَه ولا فقرَ بعدَه))[4]. وقيل: مَن لم يتغنَّ به لم يرَهُ أنَّه أفضلُ مالًا مِنَ المَغْنِي لغِنَاهُ.

وأما سماعهم الشِّعر المتضمِّن لمدح النبي ﷺ والحثِّ علىٰ الخير والعملِ به فسائغٌ أيضًا؛ بل قد وقع الترغيبُ فيه، وقد أنشد بحضرته ﷺ وأثاب عليه، واستدعي من حسَّان ينافح به عند المشركين، ودعا له بالتأييدِ في ذلك[5]. ويقع الترغيبُ في سماعه عند

=

ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (793) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ (7527) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الصَّلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة (1468)، والنسائي في كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت (1015)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في حسن الصوت بالقرآن (1342) من طريق طلحة بن مصرف عن عبدالرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(3) جزء من حديث أخرجه البزار في مسنده (3160)، وأبو يعلىٰ في مسنده (7279)، وابن حبان في صحيحه (7197) من طريق أبي بردة عن أبي موسىٰ به. وأوله: ((لَقد أُوتيتَ مِزمارًا مِن مزاميرِ آلِ داودَ)) وهو متفق عليه، وتقدم تخريجه قريبًا.

(4) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (2773)، والطبراني في الكبير (1/ 255) من طريق الأعمش، عن يزيد بن أبان، عن الحسن، عن أنس به مرفوعًا.

(5) ورد في حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب هجاء المشركين (6153)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل حسان بن ثابت (2486) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لحسان: ((اهْجُهم)) أو قال: ((هاجِهِم وجبريلُ معكَ)).

الفتورِ وسآمةِ القلوب؛ لأن الوسائل إلى المندوباتِ مندوبةٌ؛ لما ينشأ عنها من المصلحةِ))[1].

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: ((اعلم أنَّه كما يُستحبُّ الذِّكر يُستحبُّ الجلوسُ في حِلَق أهلِه، وقد تظاهرت الأدلةُ على ذلك، وستردُ في مواضعها إن شاء الله تعالى))[2]. ثم ساق رحمه الله عدَّة أحاديث، والتي سبق أن أوردناها.

ويقول الإمام السيوطي عن اجتماع الذاكرين: ((إذا كانُوا مُجتمِعِين على الذِّكر فالأولى في حقِّهِم رَفعُ الصَّوتِ بِالذِّكرِ والقُوَّةُ، وأمَّا إذا كان الذَّاكِرُ وَحدهُ فإن كانَ مِن الخاصِّ فالإخفاءُ فِي حقِّهِ أولى، وإنْ كان مِن العامِّ فالجهرُ فِي حقِّهِ أفضلُ. وقد شبَّه الإمامُ الغَزالِيُّ ذِكرَ الإنسانِ وَحدهُ وذِكرَ الجماعةِ بِأذانِ الْمُنفرِدِ وأذانِ الجماعةِ، قال: فكما أنَّ أصواتَ الْمُؤذِّنِين جماعةً تقطعُ جُرمَ الهواءِ أكثرَ مِن صَوتِ الْمُؤذِّنِ الواحِدِ كَذلِك ذِكرُ الجماعةِ على قَلبٍ واحِدٍ أكثرُ تأثِيرًا فِي رَفعِ الحُجُبِ الكثِيفةِ مِن ذِكرِ شَخصٍ واحِدٍ، ومِن حيثُ الثَّوابُ فلِكُلِّ واحِدٍ ثوابُ ذِكرِ نَفسِهِ وثوابُ سماعِ ذِكرِ رُفقائِهِ، وأمَّا قولُه: إنه أكثرُ تأثيرًا في رفعِ الحُجُبِ. فلأنَّ الله تعالى شبَّه القُلوبَ بالحجارةِ في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: 74] ومعلُومٌ أنَّ الحجرَ لا يَنكسِرُ إلَّا بِقُوَّةٍ، فقُوَّةُ ذِكرِ جماعةٍ مُجتمِعِين على قلبٍ واحِدٍ أشدُّ من قُوَّةِ ذِكرِ شَخصٍ واحِدٍ؛ ولهذا قال الشيخُ نجم الدِّين البكري رحمةُ الله عليه: إنَّ القُوَّة في الذِّكرِ شرطٌ، واستدلَّ بهذه الآيةِ))[3].

---

(1) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب (11/60-61) تأليف: أحمد ابن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني، أبو العباس المالكي- خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي- الناشر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية للملكة المغربية- 1401هـ.

(2) الأذكار للنووي (ص37) لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي- الناشر: الجفان والجابي- دار ابن حزم للطباعة والنشر- الطبعة الأولى- 1425هـ- 2004م.

(3) انظر: الحاوي للفتاوى (2/377).

وعن حكمة الاجتماع على الذِّكر وفوائده يقول الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني عند حديثه عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾[طه: 29] وما بعدها فقال: ((أي مُعينًا ومُقويًّا مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي ليعينَني على تحمُّلِ ما كَلَّفْتني به من أعباء التَّبليغ. ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه: 31] أي يقوى به ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: 32] واجعله شريكًا لي في أمرِ الرِّسالةِ حتى نتعاونَ على أدائِها كما ينبغي ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: 33] هو غاية للأدعية الثلاثةِ الأخيرةِ من قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾... إلخ. ولا شكَّ أن الاجتماعَ على العبادةِ والذِّكرِ سببٌ في دوامِهما وتكثيرِهما، وفي الحديث: ((يدُ الله معَ الجماعةِ))[1]. ولذلكَ ورد الترغيبُ في الاجتماع على الذِّكر والجمع في الصلاة ليقوى الضَّعيفُ بالقوي، والكسلان بالنشيط، وقيل: المراد بكثرة التَّسبيحِ والذِّكر ما يكون منها في تضاعيف أداء الرِّسالة ودعوة المردة العُتاة؛ لأنه هو الذي يختلف في حالتي التَّعدد والانفرادِ، فإنَّ كُلًّا منهما يصدر منه بتأييد الآخر من إظهار الحقِّ ما لا يصدر منه حالَ الانفرادِ))[2].

وعن فوائد ذكر الله والاجتماع عليه يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في تعليقه على حديث طلبِ الملائكةِ لِحلَقِ الذِّكر- المتقدم ذِكره- فقال: ((وفِي حدِيثِ أنسٍ عِند البزَّارِ: ((ويُعظِّمُون آلاءَكَ ويتلُون كِتابكَ ويُصلُّون على نبِيِّكَ ويسألُونكَ لِآخِرتِهِم ودُنياهُم)) ويُؤخذُ مِن مجموعِ هذه الطُّرُقِ المُرادُ بمجالسِ الذِّكرِ وأنَّها التي تشتمِلُ على ذِكْرِ الله بِأنواعِ

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (2166)، والحاكم في مستدركه (1/116) من طريق عبدالرزاق قال: أخبرنا إبراهيم بن ميمون عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما به مرفوعًا.

وقال الترمذي: ((حسن غريب)). وقال الحاكم: ((إبراهيم بن ميمون قد عدله عبدالرزاق وأثنى عليه، وعبدالرزاق إمام أهل اليمن وتعديله حجة)). ووافقه الذهبي.

(2) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (384) لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي- تحقيق: أحمد عبدالله القرشي رسلان- الناشر: الدكتور حسن عباس زكي- القاهرة- 1419هـ.

الذِّكرِ الوارِدَةِ مِن تَسبيحٍ وتكبيرٍ وغيرِهما وعلىٰ تلاوةِ كتابِ الله سبحانه وتعالىٰ، وعلىٰ الدُّعاءِ بِخيرَيِ الدُّنيا والآخِرةِ، وفِي دُخولِ قراءةِ الحديثِ النَّبويِّ ومُدارسةِ العِلمِ الشَّرعِيِّ ومُذاكرتِهِ، والاجتماعِ علىٰ صلاةِ النَّافلةِ فِي هذهِ المجالسِ نظرٌ، والأشبهُ اختِصاصُ ذلك بمجالسِ التَّسبيحِ والتَّكبيرِ ونحوِهما والتِّلاوةِ فحسبُ، وإن كانت قِراءةُ الحديثِ ومُدارسةُ العِلْمِ والمُناظرةُ فِيهِ مِن جُملةِ ما يدخُلُ تحت مُسمَّىٰ ذِكرِ الله تعالىٰ))[1].

وجاء في الفتاوىٰ الفقهية الكبرىٰ للحافظ ابن حجر الهيتمي رحمه الله ما نصُّه:

((وسُئِل ﷺ عمَّا اعتادَهُ الصُّوفيَّةُ مِن عَقْدِ حِلَقِ الذِّكرِ والجَهرِ بهِ في المساجدِ هل فيه كراهةٌ؟

فأجاب بقوله: لا كراهةَ فيه، وقد جمع بين أحادِيثَ اقتضت طلبَ الجهرِ نحو: ((وإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذكرتُه في مَلإٍ خَيرٍ مِنهُم)) رواهُ البُخارِيُّ. والذي في الملإِ لا يكونُ إلَّا عن جهرٍ، وكذا حِلَقُ الذِّكرِ وطوافُ الملائِكةِ بِها، وما فِيها مِنَ الأحادِيثِ فإنَّ ذلك كُلَّهُ إنما يكون في الجهرِ بالذِّكرِ.

وأخرج البيهقيُّ: مرَّ بِرجُلٍ يَرفعُ صوتَهُ، قُلتُ: يا رسولَ الله عسىٰ أن يكُونَ هذا مُرائِيًا. قال: ((لَا ولَكِنَّهُ أَوَّاهٌ))[2]. وأُخرىٰ اقتضت طلب الإِسرارِ بأنَّ ذلكَ يختلِفُ باختلافِ الأشخاصِ والأحوالِ، كما جمع النوويُّ- رحمه الله تعالىٰ- بذلك بين الأحاديثِ الطَّالبةِ للجهرِ بالقراءةِ والطَّالبةِ للإسرارِ بها؛ فحينئذٍ لا كراهةَ في الجهرِ بالذِّكرِ البتَّة؛ حيثُ لا مُعارِضَ بل فِيها ما يدلُّ علىٰ استحبابِهِ إمَّا صريحًا أو التِزامًا، ولا يُعارِضُ ذلِك خبرُ الذِّكرِ الخفِيِّ، كما لا يُعارِضُ أحادِيثُ الجهرِ بالقرآنِ بخبرِ ((السِّرُّ بِالقُرآنِ كالسِّرِّ

---

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (212/11) للحافظ أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي- دار المعرفة- بيروت- 1379هـ- رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي- قام بإخراجه وصححه وأشرف علىٰ طبعه: محبُّ الدِّين الخطيب.

(2) تقدم تخريجه.

بِالصَّدقَةِ))[1] وقد جمع النَّوويُّ بينهُما بِأنَّ الإخفاءَ أفضلُ حيثُ خاف الرِّياءَ أو تأذَّىٰ بِهِ مُصلُّون أو نِيامٌ، والجهرُ أفضلُ فِي غيرِ ذلِك؛ لِأنَّ العملَ فيه أكثرُ؛ ولِأنَّ فائِدتَهُ تتعدَّىٰ لِلسَّامِعِين؛ ولأنَّهُ يُوقِظُ قلبَ القارئِ ويجمعُ همَّهُ إلىٰ الفِكرِ ويصرِفُ سمعَهُ إليهِ ويطرُدُ النَّومَ ويزِيدُ النَّشاط، فكذلكَ الذِّكرُ علىٰ هذا التَّفصيلِ))[2].

وانظر إلىٰ ما جاء في مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية رحمه الله ما نصه:

((وسُئِل: عن رجُلٍ يُنكِرُ علىٰ أهلِ الذِّكرِ يقُولُ لهُم: هذا الذِّكرُ بِدعةٌ وجهرُكُم فِي الذِّكرِ بِدعةٌ. وهُم يَفتتِحُون بِالقُرآنِ ويَختتِمُون ثُمَّ يَدعُونَ لِلمُسلِمِينَ الأحياءِ والأمواتِ ويَجمعُون التَّسبِيحَ والتَّحمِيدَ والتَّهلِيلَ والتَّكبِيرَ والحوقلةَ ويُصلُّونَ علىٰ النَّبِيِّ ﷺ، والمُنكِرُ يعملُ السَّماعَ مرَّاتٍ بِالتَّصفِيقِ ويبطُلُ الذِّكر في وقتِ عملِ السَّماعِ؟

فأجاب: الاجتماعُ لذكرِ الله واستماعِ كتابِهِ والدُّعاءِ عملٌ صالحٌ وهو من أفضلِ القُرُباتِ والعباداتِ في الأوقاتِ، ففِي الصَّحِيحِ عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قال: ((إنَّ لله ملائِكةً سيَّاحِين في الأرضِ فإذا مرُّوا بقومٍ يَذكُرُونَ الله تَنادَوْا هَلُمُّوا إلىٰ حاجَتِكُم)) وذكر الحدِيث وفِيهِ: ((وَجدناهُم يُسبِّحُونكَ ويَحمدُونكَ))[3]. لكِن ينبغِي أن يكُونَ هذا أحيانًا فِي بعضِ الأوقاتِ والأمكِنةِ، فلا يُجعَلُ سُنَّةً راتِبةً يُحافَظُ عليها؛ إلا ما سَنَّ رسُولُ الله ﷺ المداومةَ عليه فِي الجماعاتِ مِن الصّلواتِ الخمسِ فِي الجماعاتِ ومِن الجُمُعاتِ والأعيادِ ونحوِ ذلِك، وأما مُحافظةُ الإِنسانِ علىٰ أورادٍ له من الصلاةِ أو القراءةِ أو الذِّكرِ أو الدُّعاءِ طرفي النهارِ وزُلفًا مِن الليلِ وغيرُ ذلِك: فهذا سُنَّةُ رسُولِ الله ﷺ والصَّالِحين من عبادِ الله قدِيمًا وحديثًا، فما سُنَّ عملُهُ علىٰ وجهِ الاجتِماعِ كالمكتوباتِ فُعِل كذلِك، وما

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) انظر: الفتاوىٰ الكبرىٰ الفقهية (1/176) لشهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي- دار الفكر- 1403هـ 1983م.

(3) تقدم تخريجه.

سُنَّ المُداومةُ عليهِ علىٰ وجهِ الانفرادِ مِنَ الأورادِ عُمِل كذلِك، كما كان الصَّحابةُ ﷺ يجتمِعُونَ أحيانًا يأمُرُون أحدَهُم يقرأُ والباقُون يستمِعُون، وكان عمرُ بنُ الخطَّابِ يقُولُ: يا أبا مُوسىٰ ذكِّرنا ربَّنا، فيقرأُ وهُم يستمِعُون[1]. وكان مِنَ الصَّحابةِ مَن يقُولُ: اجلِسُوا بِنا نُؤمِنُ ساعةً. وصلَّىٰ النَّبيُّ ﷺ بأصحابِهِ التَّطوُّعَ في جماعةٍ مرَّاتٍ، وخرجَ علىٰ الصَّحابةِ مِن أهلِ الصُّفَّةِ وفيهم قارِئٌ يقرأُ فجلسَ معهُم يستمِعُ.

وما يحصُلُ عِند السَّماعِ والذِّكرِ المشرُوعِ مِن وَجلِ القلبِ ودمعِ العينِ واقشِعرارِ الجُسُومِ فهذا أفضلُ الأحوالِ التي نطق بِها الكِتابُ والسُّنَّةُ، وأمَّا الِاضطِرابُ الشَّدِيدُ والغشيُ والموتُ والصَّيحاتُ، فهذا إن كان صاحِبُهُ مغلُوبًا عليهِ لم يُلم عليهِ، كما قد كان يكونُ في التَّابِعِين ومَن بعدهم، فإنَّ منشأهُ قُوَّةُ الوارِدِ علىٰ القلبِ مع ضعفِ القلبِ، والقُوَّةُ والتَّمكُّنُ أفضلُ كما هو حالُ النَّبِيِّ ﷺ والصَّحابةِ، وأمَّا السُّكُونُ قسوةً وجفاءً فهذا مذمُومٌ لا خيرَ فِيهِ))[2].

يقول الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله وهو يتكلم عن مسألة الاجتماع علىٰ الذكر: ((والمسالك والأعمال الاجتهادية التي تدخل في نطاق السَّعي إلىٰ التحلي بحقائق الإسلام ولُبابه- والتي أخذت فيما بعد اسمَ التصوُّف- كثيرةٌ ومتنوعةٌ، فلنضرب المثَلَ بطائفةٍ منها، ولنعرض أكثرها شيوعًا بين الأطراف المتخاصمة والمتصارعة.

فمن ذلك التداعي إلىٰ حَلَقات الذِّكر في أوقاتٍ محددةٍ وعلىٰ نحوٍ معين.

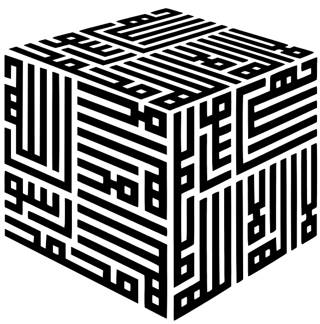
فإن كثيرًا ممَّن ينتسبون إلىٰ المذهب المزعوم المسمَّىٰ بالسَّلفية ينكرون مثل هذا الذِّكر وينكرون علىٰ أصحابِه، وينسبونهم إلىٰ الابتداعِ والضَّلالِ؛ مستدلين بأن هذه الجلسةَ

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) مجموع الفتاوىٰ (22/522-521) لتقي الدِّين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحرَّاني-تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية- المملكة العربية السعودية - 1416هـ- 1995م.

المحددةَ بهذا الشَّكل وعلىٰ هذا النِّظام لم تكن معروفةً في عصر السَّلف، ولا نرىٰ شاهدًا عليها في كتابٍ ولا سُنَّةٍ غير أن الذين يتداعون إلىٰ هذه الحلقات ويحضرونها يحتجُّونَ بالعموم الذي يدلُّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران-191] وهو عمومٌ بيِّنٌ لا يخرج من نطاقِهِ إلَّا ما أخرجه نصٌّ آخر عن طريق الاستثناءِ والتَّخصيص وذلك كأن يتلبَّس الذِّكر بعملٍ منهيٍّ عنه كالرَّقص والتثنِّي- فهذا ممنوعٌ وخارجٌ من عموم النَّصِّ القُرآني العام استنادًا إلىٰ دليل حُرمة الرقص والتَّثني، وإذا اجتمع المشروع والمحرَّم في مناطٍ واحدٍ كان الأثر الأقوىٰ للمحرَّم عملًا بقاعدةِ ((دَرءُ المفاسد مقدَّمٌ علىٰ جلْبِ المصالحِ)) فأمَّا إنْ مارسَ الإنسانُ ذِكرَ الله تعالىٰ مُنفردًا أو مع أصحابٍ له علىٰ أيِّ حالةٍ وفي أيِّ وقتٍ بعيدًا عن وضعٍ خاصٍّ دلَّ الدليلُ علىٰ حُرمَته، فكلُّ ذلك مشروعٌ مبرورٌ بدلالة عمومِ هذا النَّصِّ القُرآني))[1]. ◆



(1) السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي (ص 191- 192) تاليف: محمد سعيد رمضان البوطي- دار الفكر- دمشق- الطبعة الرابعة عشرة: 2010م- 1431هـ.

مسائل أخرىٰ تتعلق بهذه القضية

أيُّها الأخ الكريم ما ورد في الصَّفحات السَّابقةِ كان عرضًا لمسألة الجهر بالذِّكر والاجتماع عليه من خلال كتاب الله وسُنَّةِ سيدِنا رسولِ الله ﷺ ومن خلال كلام أهل العِلم، وتبيَّن لنا أهميةُ ذكر الله سبحانه وتعالىٰ في شريعة الإسلام وفوائده، وأنه وسيلةٌ ومقصد في ذاته، فهو وسيلةٌ إلىٰ تحقيق محبَّة الله ومقصدٌ في ذاتِه؛ لأنه تنفيذٌ لأمرِ الله لنا بذِكره وعدم جحودِ نِعَمِه وآلائِه سبحانه وتعالىٰ، وقد تبيَّن مما سبق أن الاجتماعَ علىٰ الذِّكر والجهر به أمرٌ جائزٌ لا حرمةَ فيه، فقد ظهر بتتبع أقوال أهل العِلم أن هذا هو فهمُهم وتفسيرُهم لكثيرٍ منَ النُّصوصِ التي تناولت أمرَ الذِّكر والاجتماعِ عليه.

ولكن يورد المُخالِفُ بعضًا من الشبه التي يحاول أن يعكِّرَ بها علىٰ هذا الأمر ويثير الشُّكوكَ في نفوس الناس، وهذا المخالِف لا يخرج عن كونه يترك المُحكَم من الأدلة في الباب ويتمسَّك بالمتشابه، فمن ذلك:

1- ما يزعمه المخالِفون في هذه المسألة من القائلين ببدعية الاجتماع علىٰ الذِّكر والجهر به من أن معهم دليلًا يؤيِّد ما ذهبوا إليه، وهو الأثر المنسوب لعبدالله بن مسعود ﷺ رواه الدارميُّ في سُننه جعلوا منه عُمدةً في ردِّ كلِّ الأحاديث وأقوالِ أهل العِلم التي أجازت الاجتماعَ علىٰ الذِّكر.

فقد روىٰ الإمام الدارميُّ في سُننه فقال: أخبرنا الحكَمُ بنُ المُباركِ أنبأنا عمرُو بنُ يحيىٰ قال: سمِعتُ أبِي يُحدِّثُ عن أبيهِ قال: كُنَّا نجلِسُ علىٰ بابِ عبدِالله بنِ مسعُودٍ ﷺ قبل صلاةِ الغداةِ، فإذا خرج مشينا معه إلىٰ المسجدِ، فجاءنا أبو موسىٰ الأشعرِيُّ ﷺ فقال: أَخرَجَ إليكم أبو عبدالرحمنِ؟ قُلنا: لا بعدُ. فجلسَ معنا حتىٰ خرج، فلمَّا خرجَ قُمنا إليه جميعًا، فقال لهُ أبو موسىٰ: يا أبا عبدِالرحمنِ، إنِّي رأيتُ في المسجدِ آنفًا أمرًا أنكرتُهُ ولم أرَ والحمد لله إلَّا خيرًا. قال: فما هو؟ فقال: إنْ عشتَ فستراهُ. قال: رأيتُ في المسجدِ قومًا حِلَقًا جُلُوسًا ينتظِرُونَ الصَّلاةَ في كُلِّ حَلْقةٍ رجلٌ وفي أيديهِم حصًىٰ، فيقولُ: كبِّرُوا مِائةً،

فيُكبِّرُون مِائةً، فيقولُ: هلِّلُوا مِائةً، فيُهلِّلُون مِائةً، ويقُولُ: سبِّحُوا مِائةً، فيُسبِّحُون مِائةً، قال: فماذا قُلتَ لهُم؟ قال: ما قُلتُ لهُم شيئًا انتِظارَ رأيِكَ أوِ انتظارَ أمرِكَ. قال: أفَلا أمرتَهُم أنْ يعُدُّوا سيِّئاتِهِم وضمِنتَ لهُم أن لا يضِيعَ مِن حسناتِهِم، ثُمَّ مضىٰ ومضَينا معَهُ حتَّىٰ أتىٰ حَلْقةً مِن تِلكَ الحِلَقِ، فوقف عليهِم فقال: ما هذا الذي أراكُم تَصنعُونَ؟! قالوا: يا أبا عبدالرحمنِ حصًىٰ نَعُدُّ بِهِ التَّكبِيرَ والتَّهلِيلَ والتَّسبِيحَ. قال: فَعُدُّوا سيِّئاتِكُم فأنا ضامِنٌ أن لا يضِيعَ مِن حَسَناتِكُم شيءٌ وَيْحَكُم يا أُمَّةَ مُحمَّدٍ، ما أسرع هلَكَتِكُم! هؤُلاءِ صحابةُ نبِيِّكُم ﷺ مُتوافِرُون، وهذه ثِيابُهُ لم تبلَ، وآنِيتُهُ لم تُكسرْ، والذي نَفسِي بِيدِهِ إنَّكم لعلىٰ مِلَّةٍ هي أهدىٰ مِنْ مِلَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ أو مُفتَتِحُو باب ضَلالةٍ. قالُوا: واللهِ يا أبا عبدِالرحمنِ ما أردنا إلا الخيرَ. قال: وكم مِن مُرِيدٍ لِلخيرِ لنْ يُصِيبَهُ، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ حدَّثنا: «أنَّ قومًا يقرءُونَ القُرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقِيهُم» وايمُ اللهِ ما أدري لعلَّ أكثرهُم مِنكُم، ثُمَّ تولَّىٰ عنهم. فقال عمرو بنُ سلمة: رأَينا عامَّةَ أُولئِكَ الحِلَقِ يُطاعِنُونا يومَ النَّهروانِ مع الخوارجِ»[(1)].

وقد تكلَّم أهلُ العِلم في بيان أمر هذا الأثر من ناحيتَين:

أولًا: الكلام في ثبوت هذه القصَّة عن عبدالله بن مسعود بدايةً، وسنرىٰ أن للعلماء كلامًا في هذا الأمرِ.

فيقول الإمام السيوطي: « فإن قُلتَ: فقد نُقِلَ عنِ ابنِ مسعودٍ أنَّهُ رأىٰ قومًا يُهلِّلُونَ بِرفْعِ الصَّوتِ في المسجدِ فقال: ما أراكُم إلا مُبتدِعِينَ، حتىٰ أخرجَهُم مِنَ المسجدِ. قُلتُ: هذا الأثرُ عن ابنِ مسعُودٍ يحتاجُ إلىٰ بيانِ سَندِهِ ومَن أخرجهُ مِنَ الأئمَّةِ الحُفَّاظِ في كُتُبِهِم، وعلىٰ تقدِيرِ ثُبُوتِهِ فهُو مُعارَضٌ بالأحاديثِ الكثِيرةِ الثَّابتةِ المُتقدِّمةِ، وهِي مُقدَّمةٌ عليه عِندَ التَّعارُضِ، ثُمَّ رأيتُ ما يقتضي إنكارَ ذلك عنِ ابنِ مسعودٍ، قال الإمامُ

(1) أخرجه الدرامي في سننه (210).

أحمد بنُ حنبلٍ في كتابِ الزُّهدِ: ثنا حسين بن محمد ثنا المسعودي عن عامر بن شقيق عن أبي وائل قال: هؤلاءِ الذين يزعُمُونَ أن عبدَالله كان ينهىٰ عنِ الذِّكر، ما جالَستُ عبدَالله مَجلِسًا قطُّ إلا ذكَرَ الله فيه.

وأخرج أحمد في الزُّهدِ عَن ثابتٍ البُنَانيِّ قال: إنَّ أهلَ ذِكرِ الله لَيجلِسُونَ إلىٰ ذِكْرِ الله، وإنَّ عليهم مِنَ الآثامِ أمثالَ الجِبالِ، وإنَّهُم لَيقُومُونَ مِن ذِكرِ الله تعالىٰ ما عَلَيهِم مِنها شيءٌ))[1].

وقال نحو هذا أيضًا الإمامُ ابن حجر الهيتمي في الفتاوىٰ الفقهية الكبرىٰ[2].

قال الإمام المحدِّثُ المُناوي: ((وأمَّا ما نُقل عن ابن مسعود من أنه رأىٰ قومًا يهلِّلون برفعِ الصَّوتِ في المسجدِ فقال: ما أراكم إلَّا مبتدعينَ وأمرَ بإخراجِهم فغير ثابتٍ، وبفرض ثبوتِه يعارضُه ما في كتاب الزهد لأحمد عن شفيق بن أبي وائل قال: هؤلاءِ الذين يزعمون أن عبدَالله كان ينهىٰ عن الذِّكر ما جالسْتُه مجلسًا قطُّ إلَّا ذكر الله فيه.

وأخرج أحمد في الزهد عن ثابت البُنانيِّ: إنَّ أهل الذِّكر ليجلسونَ إلىٰ ذكر الله وإن عليهم من الآثام مثلَ الجبالِ وإنهم ليقومونَ من ذِكر الله ما عليهم منها شيءٌ))[3].

وقال العلامة الألوسي: ((وما ذُكر في الواقعات عن ابن مسعود من أنَّه رأىٰ قومًا يهلِّلونَ برفع الصَّوتِ في المسجدِ فقال: ما أراكم إلَّا مبتدعينَ حتىٰ أخرجَهم من المسجد لا يصحُّ عند الحفَّاظ من الأئمَّة المحدِّثين، وعلىٰ فرض صحَّته هو معارَضٌ بما

---

(1) الحاوي للفتاوىٰ (1/472).

(2) انظر: الفتاوىٰ الفقهية الكبرىٰ (1/177) لأحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدِّين شيخ الإسلام، أبي العباس- جمعها: تلميذ ابن حجر الهيتمي، الشيخ عبدالقادر بن أحمد بن علي الفاكهي المكي- المكتبة الإسلامية.

(3) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير (1/457) لزين الدين محمد المدعو بعبدالرءوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المُناوي القاهري- المكتبة التجارية الكبرىٰ- مصر- الطبعة الأولىٰ: 1356هـ.

يدلُّ علىٰ ثبوت الجهرِ منه رضي الله تعالىٰ عنه مما رواه غيرُ واحدٍ من الحفَّاظ، أو محمولٌ علىٰ الجهر البالغِ))[1].

ثانيًا: لو سلَّمنا بأنها ثابتةٌ فهل تقوم هذه الرواية بنسخ كلِّ نصوصِ السُّنَّةِ النبويَّةِ التي جاء فيها مشروعيةُ الاجتماع علىٰ الذِّكر وإقرارِ النَّبيِّ ﷺ للصَّحابة علىٰ ذلك، فعند ذلكَ نتَّجه في استنباط فقه هذه الرِّواية علىٰ فرض صحَّتها أنَّ مراد الصحابي الجليل ليس المنع المطلق للاجتماع علىٰ الذِّكر أو عدِّ الذِّكر وإنما خشية أمورٍ أخرىٰ؛ لأن هذا الأثر بهذه الصورة هو من المُجمل الذي يحتمل تعدُّدَ الدلالة لمفهوم النَّهي أو الإنكار الذي أراده سيدُنا ابن مسعود رضي الله عنه، ويؤيد هذا أنه ما من صورةٍ من الصُّور التي أتت في هذه الروايةِ وفعلها هؤلاء المجتمعون إلا وقد جاءت بها أحاديثُ تبيِّن مشروعيتها مثلَ مسألة الاجتماع علىٰ الذِّكر، وقد سبق بيان الأحاديث فيها ومسألة عد التسبيح بالحصىٰ[2]، والعدد مائة كذلك قد جاءت نصوصٌ كثيرةٌ من

(1) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (163/16) لشهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي- دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان.

(2) فمن هذه الأحاديث:

1- عن صفيَّةَ رضي الله عنها قالت: دخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ وبينَ يديَّ أربعةُ آلافِ نواةٍ أُسبِّح بهنَّ فقالَ: ((لَقَدْ سَبَّحْتِ بِهَذِهِ، أَلَا أُعَلِّمُكِ بِأَكْثَرَ مِمَّا سَبَّحْتِ؟)) قلتُ: بلىٰ علِّمْني. فقال: ((سُبْحَانَ الله عَدَدَ خَلْقِهِ)). أخرجَه التِّرمذي في كتاب الدعوات، باب (3554) وقال: ((هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلَّا من هذا الوجه من حديث هاشم بن سعيد الكوفي وليس إسناده بمعروف وفي الباب عن ابن عباس)) ثم ساق الترمذي شاهدًا لحديث صفية رضي الله عنها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال فيه: ((هذا حديث حسن صحيح)).

2- عن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه أنَّه دخل مع النَّبيِّ ﷺ علىٰ امرأةٍ وبين يدَيها نوًىٰ أو حصًىٰ تُسبِّح به فقال: ((أُخْبِرِكِ بِمَا هُوَ أَيسَرُ عَلَيكِ مِن هَذَا - أَو أَفضَلُ)) فَقَالَ: ((سُبحَانَ الله عَدَدَ مَا خَلَقَ في السَّمَاءِ، وَسُبحَانَ الله عَدَدَ مَا خَلَقَ في الأَرضِ، وَسُبحَانَ الله عَدَدَ مَا خَلَقَ بَينَ ذلكَ، وَسُبحَانَ الله عَدَدَ مَا هو خَالِقٌ، والله أَكبَرُ مِثلُ ذَلِكَ، وَالْحَمدُ لله مِثلُ ذَلِكَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله مِثْلُ ذَلِكَ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بالله مِثلُ ذَلِكَ)). أخرجه أبو داود في كتاب تفريع أبواب الوتر، باب التسبيح بالحصىٰ (1500) والترمذي في

الشريعة باعتباره في الذِّكر.

فنحن هنا أمام نصٍّ لو اعتبرناه دليلًا لوجدنا له معارضاتٌ كثيرةٌ جاءت نصوصُ منَ السُّنَّةِ بمشروعيَّتِها ووجدنا التطبيق العمليَّ من الصحابة يؤيد هذه المشروعية، فهذا الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه علىٰ فرض صحته قد احتوىٰ علىٰ:

1- اجتماع في المسجد علىٰ الذِّكر في انتظار الصلاة (وهذا جائز).

2- العد بالحصىٰ (وقد جاءت به نصوصُ كثيرة كما مرَّ سابقًا).

فعند النظر لا نجد فيما فعله هؤلاء المجتمعون أيَّ معارض شرعيٍّ جاء به نصٌّ من كتابٍ أو سُنَّة بل العكس هو الصحيح؛ بل لو كان الأمر فيه معارضٌ شرعيٌّ لَمَا توقَّف سيدُنا أبو موسىٰ الأشعري في الحكم عليهم، وإنما قال: لم أرَ إلا خيرًا. وإنما حدث له نوع من التعجُّب منَ الهيئةِ ومع ذلك وصفها بالخير.

وغالب الظن أن الغرض الذي جعل سيدنا عبدالله بن مسعود يُنكر عليهم هو خوفُه من أن تُلصق هذه الهيئة وتلك الصُّورة بالسُّنَّةِ النبوية حيث إن زمن هذا الأثر ووقته تدلُّ ألفاظه علىٰ قُرب عهدٍ بزمن النبيِّ صلى الله عليه وسلم مثل قوله: ((هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبلَ وآنيتُه لم تُكسر)) فخشي ابنُ مسعود رضي الله عنه من التحاق هذه الصورة

=

كتاب الدعوات، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وتعوذه دبر كل صلاة (3568). وقال: ((حديث حسن غريب من حديث سعد)).

3- عن القاسِمِ بن عبدالرَّحمنِ قال: ((كانَ لأبي الدَّرداءِ نوًىٰ مِن نوَىٰ العَجوةِ- حَسَبتُ عشرًا أو نحوَها- في كِيسٍ، وكانَ إذا صَلَّىٰ الغدَاةَ أقعَىٰ علىٰ فِراشِه، فأَخذَ الكِيسَ فأَخرَجهنَّ واحدةً واحدةً يسبِّح بهنَّ، فإذا نَفَدْنَ أعادهنَّ واحدةً واحدةً، كلُّ ذلك يسبِّح بهنَّ)). أخرجه الإمام أحمد في الزهد (758).

4- وروىٰ نُعيم بنُ المحرَّر بنِ أبي هريرةَ عن جدِّه أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه كان له خيطٌ فيه ألفَا عُقدةٍ فلا يَنام حتَّىٰ يسبِّح به. أخرجه الأصبهاني في حلية الأولياء (383/1).

5- ومن ذلك: أنَّ أبا سَعيدٍ الخُدري رضي الله عنه كانَ يأخذُ ثلاثَ حصياتٍ فيَضَعُهُنَّ علىٰ فخذِه فيسبِّح ويضع واحدةً ثُمَّ يسبِّح ويضعُ أخرىٰ ثُمَّ يسبِّح، ثُمَّ يرفَعُهنَّ ويضعُ مثلَ ذلك. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (7742).

وتلك الهيئة بالسُّنَّةِ الشريفةِ كصورةٍ محددةٍ في السُّنَّة للذِّكر أو أن يتمَّ نسبتها لرسول الله ﷺ بهذه الهيئة بغضِّ النظر عن جوازِها أو عدم جوازِها.

هذا ما يمكن أن يستنتجه الذِّهنُ من نهي الصحابي الجليل علىٰ فرض ثبوتِه، وإلا فإن هذا الأثر لا يَنسخُ النصوصَ النبويَّةَ الثابتةَ ولا فَهْمَ الصَّحابة الكرام، هذا إنْ غضضنا الطَّرفَ عن الأحكام الأصولية المتعلِّقة بحجيَّة فِعل الصَّحابي منفردًا، أو قاعدة الدليل إذا تطرَّق إليه الاحتمالُ سقط به الاستدلالُ.

وهذا الأثر يوجد له الكثيرُ من المعارضات، فلا يصلح لأن يكون دليلًا علىٰ بدعية الاجتماع علىٰ الذِّكر أو رفع الصوت به والالتزام بعددٍ محدد.

ثم لو غضضنا الطَّرفَ عن ذلك كلِّه واعتبرناه دليلًا فعندئذٍ تُصبح المسألةُ ظنيةَ الدلالة تقع داخلَ دائرة الخلافِ الجائز فيه تنوع الآراءِ وليست من القطعيات، فتحتمل أن تكون محلًّا لتعدُّد الآراءِ في المسألة ويصبح الأمرُ فيه سعة فلا ينكر علىٰ مَن قال بالجواز.

هذا عرض لمعظم الاحتمالات أو الاستنتاجات التي يمكن أن يزعمها مَن يحتجُّ بهذا الأثر؛ وإلا فالمسألة أصلًا بذاتها فيها نصوصٌ واضحةٌ تُبيح الجهرَ بالذِّكر والاجتماعَ عليه.

2- قد يحتج المانعون والقائلون ببدعية الاجتماع علىٰ الذِّكر بمسألة الصُّورة والهيئة التي تكون عليها اجتماعات الذِّكر فيتوصَّلون بذلك إلىٰ القول بالبدعية.

ويُرد علىٰ هؤلاء بأن هناك أمورًا قد اكتسبت الجوازَ الشرعيَّ من حيث إنها تندرجُ تحت أصلٍ عامٍّ، أما تفصيلات الأفعال وهيئاتها وصُورها فتخضع لطبيعة الزَّمان والمكان والأحوال فقد يكون الاجتماع في المسجد، وقد يكون في بيتٍ، وقد يكون في أماكنَ تجمعات عامَّةٍ إلىٰ غير ذلك، وقد يجلس الناس صفوفًا، وقد يجلسون حلقاتٍ، وقد يجلسون علىٰ الأرض أو علىٰ الكراسي إلىٰ غير ذلك من الهيئات التي لا دخلَ لها في نفي

الجواز عن الفِعل، وهذا حتىٰ لا يتجرأ أحدٌ من الناس ويقول: لكي يكون الفعل مباحًا لابد أن يكون علىٰ هيئةٍ موحدةٍ مثل التي كانت في عهد الصحابة مثلًا و إلا لحكمنا بعدم جوازِه وقلنا ببدعيَّتِه.

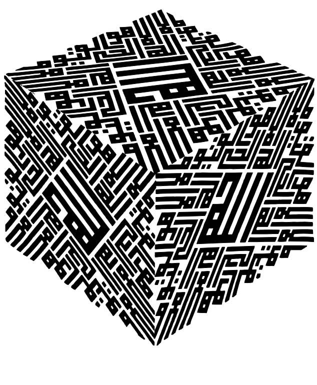
فمن المعلوم أن فهم الأُمة علىٰ مرِّ القرون يخالف تحتم وجود هيئة واحدة للذكر؛ لأن الأمة بعلمائها وأئمَّتها قد استحدثت صورًا وهيئاتٍ كثيرةٍ لم تكن موجودةً في عهد النبوة في مجالات التعلُّم والتعليم وحلقات الذِّكر وقراءة القرآن الكريم، وسائر القُربات من بناء المساجد والأسبلة، وأماكن إطعام الطعام وأماكن إعاشة طلبة العِلم، وكذا صورة الدروس الشرعية وهيئاتها الحالية بهذا التنظيم، وتلك الصور لم تكن موجودة في زمن النبي ﷺ ولا الصحابة الكرام، إلا أنها جميعًا تندرج تحت أصلٍ عامٍّ يُكسبها صفة الجواز من جواز التعلُّم والتعليم وجلوس النَّبيِّ ﷺ لتعليم الصحابة والحض علىٰ ذكر الله وفعل الخيرات.

فجواز الفعل لا يعني انحصارُه في هيئةٍ واحدةٍ أو صورة محددة ولا يستلزم ذلك، فكذلك الاجتماع علىٰ الذِّكر ليس له صورةٌ واحدةٌ أو هيئةٌ محددة هي وحدها الجائزة وما عداها يكون بدعة.

3- حدوث بعض المخالفات من عوامِّ المسلمين في بعض الأحيان في مجالس الذِّكر لا تنفي أصلَ مشروعيتها، وذلك أمر معلومٌ فلا يحتجُّ أحدٌ بعدم جواز الاجتماع علىٰ الذِّكر لوقوع بعض المخالفات سواء كانت هذه المخالفات حقيقية أو مجرد ظنٍّ وتوهُّم فقط في ذِهن المُنكِر علىٰ مجالس الذِّكر؛ ذلك لأن كثيرًا من الأفعال التي تُرمىٰ بأنها من المخالفات الشرعية لها وجه في الشريعةِ تُحمل عليه، ولكن مع التسليم بوقوع مخالفة فلا يكون القول بالمنع من تلك المجالس هو حكم الشَّرع، وإلا لقلنا بعدم جواز الكثير من القُربات الشرعية لحدوثِ بعضِ المخالفاتِ أثناءَ القيام بها، فالحل إذن هو تعليم المسلمين الجائزَ وغيرَ الجائزِ مع وضع الخلاف المعتبر في الحُسبان.

4- عند التعرض لهذه المسألة وقراءة كلام أهل العِلم يجب التنبُّه إلىٰ الألفاظ والكلمات التي يتم بها توصيف المسألة، فمثلًا كلمة الجهر بالذِّكر لا يستلزم منها رفع الصَّوتِ إلىٰ الحدِّ الذي يشوِّش علىٰ الناس، فالجهر بالذِّكر ليس محصورًا في رفع الصَّوت والمبالغة في ذلك، فالمراد بيانُ جوازِ ذلك، ويقدَّر هذا الجهر بحسب حالة الشخصِ الذاكرِ من أن يكون منفردًا أو في جماعةٍ من الناس.

فلا يوجد ما يمنع من أن تكون درجةُ الجهر هي الصوتَ العاديَّ الذي يتحدَّث به الإنسان في حياته اليوميةِ أو يكون أقلَّ من ذلك، فلا يلزم من القول بجواز الجهر المبالغة في رفع الصوت رفعًا مبالغًا فيه بحجَّة جواز ذلك فلابد أن يراعي عدم التشويش علىٰ مَن بجانبه إن كان في محضر عبادة جماعيةٍ ولا يوجد ما يلزم أن يرفع صوته رفعًا بالغًا، وكل ذلك يخضع للحال والواقع المحيط. ◆



الخاتمة

أيها الأخ المسلم الكريم في نهاية هذه الرِّسالة نرجو من الله أن تكون عونًا لنا علىٰ سلوك سبيل سلفِنا الصَّالح والسَّيرِ علىٰ طريقتِهم في اقتطاع الأوقاتِ لذكر الله منفردين أو مجتمعين سرًّا وجهرًا بالقلب وباللسان، فهذا هو الهدف الأساس الذي من أجلِه وُضعت له هذه الرسالة و إنْ كنَّا قد ركَّزنا فيها علىٰ جانب الأدلة الموضِّحة لجواز الجهر بالذِّكر أو الاجتماع عليه، فما ذاك إلا لضبط المفاهيم، وتنشيط النَّفْس نحو الانطلاقِ إلىٰ ذكر بارئ النُّفوسِ سبحانه وتعالىٰ مع وجود رصيد من الأدلةِ الشرعيةِ التي تجعل المسلمَ في حالة من الاطمئنان القلبي إلىٰ أن ما يقوم به موافقٌ لسُنَّة المصطفىٰ ﷺ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆



﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ - آية **24** من سورة الحشر

الرسالة الثالثة والعشرون
التأصيل الشرعي لقضية
وصول ثواب الأعمال الصالحة إلىٰ الأموات

وتشمل علىٰ تمهيد وأربعة محاور:

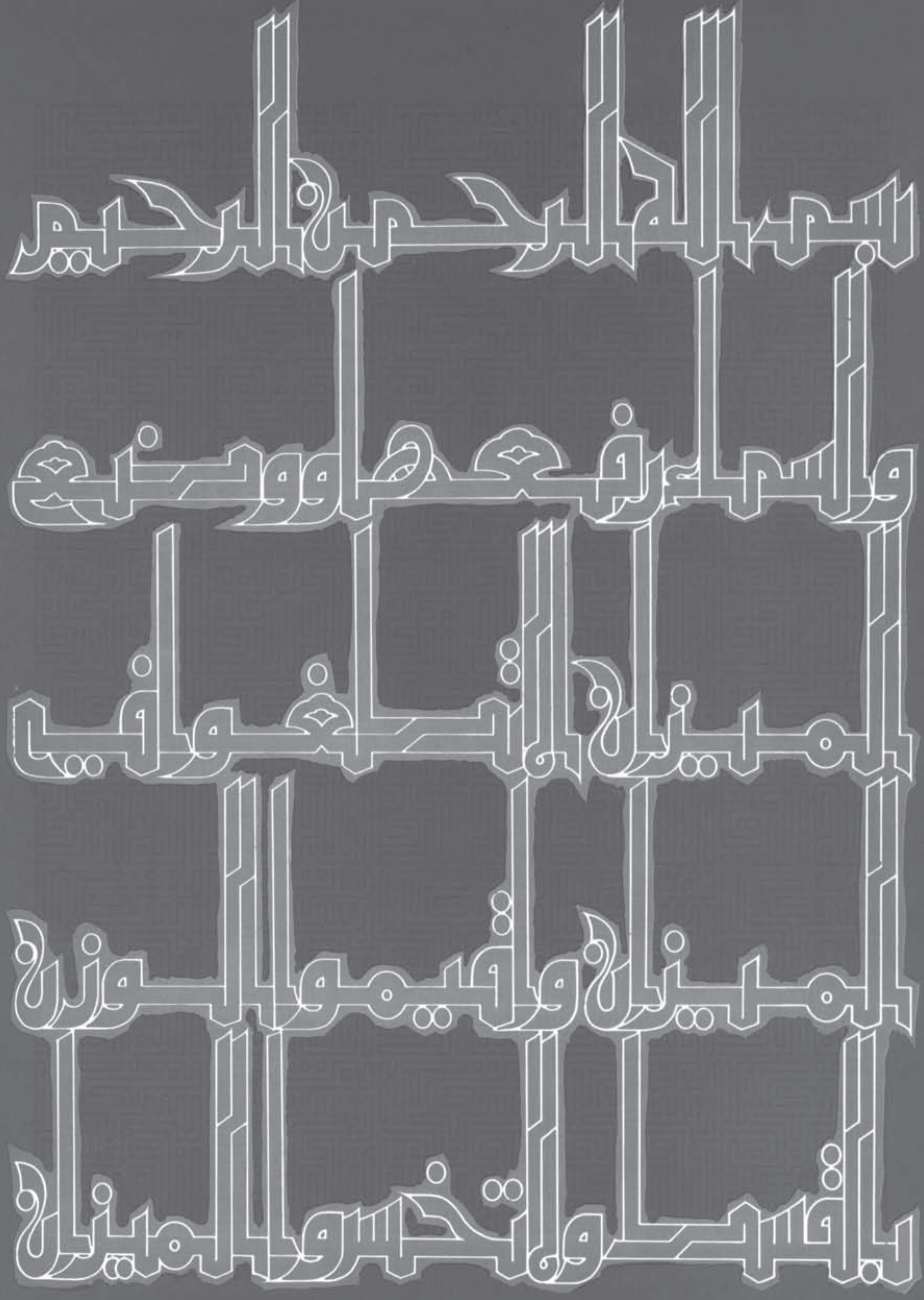
تمهيد في الحديث عن الموت وحياة البرزخ والموتىٰ وأحوالهم.

المحور الأول: اهتمام النبيِّ ﷺ بأمر موتىٰ المسلمين.

المحور الثاني: طرف من القصص الواردة عن القبور وحياة البرزخ.

المحور الثالث: الأحكام الفقهية المتعلقة بإهداء ووصول ثواب الأعمال الصَّالحة للأموات.

المحور الرابع: خاتمة في رحمة الشَّريعة الإسلامية بالموتىٰ ودعوتها لرعاية حقوقهم. ◆



« وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ » - آية **7–9** من سورة الرحمن

التأصيل الشرعي لقضية
وصول ثواب الأعمال الصالحة إلىٰ الأموات

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ لطيفة صغيرة الحجم نعرض فيها لموضوع انتفاع الأموات بالأعمال الصالحة من الأحياء، ووصول الثواب لهم، وبيان موقف الشريعة من هذا الأمر، وبيان أنه من أبواب الرحمات التي فُتحت لأُمَّة الإسلام، وسوف نتناول هذا الموضوع في تمهيد وأربعة محاور:

تمهيد في الحديث عن الموت وحياة البرزخ والموتىٰ وأحوالهم.

المحور الأول: اهتمام النبيِّ ﷺ بأمر موتىٰ المسلمين.

المحور الثاني: طرف من القصص الواردة عن القبور وحياة البرزخ.

المحور الثالث: الأحكام الفقهية المتعلقة بإهداء ووصول ثواب الأعمال الصَّالحة للأموات.

المحور الرابع: خاتمة في رحمة الشَّريعة الإسلامية بالموتىٰ ودعوتها لرعاية حقوقهم. ◆

تمهيد في الحديث عن الموت وحياة البرزخ والموتى وأحوالهم

قد حظيت حياة البرزخ في شريعة الإسلام باهتمامٍ كبيرٍ، فبموت الإنسان يدخل في هذه الحياة البرزخية، التي هي حاجزٌ بين الحياة الدُّنيا والآخرة.

لكن ما هو البرزخ؟

البرزخ في اللغة: هو الحاجز بين الشيئين، يقول الله تعالىٰ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿19﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:19-20].

ويطلق البرزخ علىٰ الحياة التي تعقب موت الإنسان، والفترة التي يقضيها بين خروجه من الحياة الدُّنيا إلىٰ يوم القيامة، يقول تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿99﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99-100].

ومنه قيل للميت هو في بَرْزَخٌ؛ لأنه بين الدنيا والآخرة، وبَرازِخُ الإيمان ما بين الشك واليقين، وقيل: هو ما بين أَول الإِيمان وآخره. وفي حديث عبدالله وسُئل عن الرجل يجد الوسوسة؟ فقال: تلك بَرازِخُ الإِيمانِ[1]. يريد ما بين أَوَّله وآخره. وأول الإيمان الإقرار بالله عز وجل وآخره إماطة الأذىٰ عن الطريق[2].

وأما البرزخ من الناحية الشرعية: فقد ورد في كتاب الله تعالىٰ كما سبق وأشرنا، وكذلك تحدثت السُّنة النبوية عن عالم البرزخ- وهو ما بعد الموت بالنسبة للإنسان- عن دخوله في هذه الحياة البرزخيَّة التي تمتد إلىٰ يوم القيامة، وعن صورٍ من طبيعتها وخصائصها، ومن تلك الأحاديث التي فيها بعض صور تلك الحياة:

- ما أخرجه الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا قُبر الميتُ)) أو قال: ((أحدُكم أتاه ملَكانِ أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر

(1) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ (3/59).

(2) انظر: لسان العرب لابن منظور (برزخ)، وتاج العروس (باب الخاء فصل الباء مع الزاي).

وللآخر النكير فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول هو عبدالله ورسولُه، أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقولان: قد كُنَّا نعلم أنك تقول هذا، ثم يُفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ثم ينوَّر له فيه، ثم يقال له: نَمْ فيقول: أرجع إلىٰ أهلي فأُخبرهم، فيقولان: نَمْ كنومة العروس الذي لا يُوقظه إلا أحبُّ أهلِه إليه حتىٰ يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإنْ كان منافقًا قال: سمعتُ الناسَ يقولون فقلتُ مثلَه لا أدري، فيقولان: قد كنَّا نعلم أنكَ تقول ذلك، فيُقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه فتختلف فيها أضلاعُه فلا يزال فيها مُعذَّبًا حتىٰ يبعثَه الله من مضجعِه ذلكَ))[1].

- وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر ﭭ: أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِض عليه مقعدَه بالغَداةِ والعَشي إنْ كان من أهل الجنَّةِ فمن أهل الجنةِ، وإنْ كان من أهل النَّار، فمن أهل النَّار فيُقال: هذا مقعدُك حتىٰ يبعثكَ الله يومَ القيامةِ))[2].

فعالمُ البرزخ حقيقةٌ موجودة واقعةٌ ثابتة بكلام الله سبحانه وتعالىٰ، وأحاديث النبيِّ ﷺ، وهو من العوالم العديدة التي خلقها الباري سبحانه وتعالىٰ وقدَّر وجودَها، وله من الخصائص ما يتميَّز به عن عالم الحياة الدُّنيا وعالم الآخرة، وقد يفتح الله سبحانه وتعالىٰ بصائرَ وبصيرةَ بعض العِباد، فيطَّلعون علىٰ هذا العالم الغيبي في بعض الحالات، ويحدث نوع التقاء بين عالم الحياة الدُّنيا المشهود وعالم البرزخ الغيبي.

وأما كيفيَّة دخول هذا العالم؛ فباب دخول عالم البرزخ هو ما بعد خروج الرُّوح بالنسبة للموتىٰ، وبالنسبة للأحياء فهو نوع انكشاف وكشف، يرزقه الله تعالىٰ لمن يشاء

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (1071). وقال: ((حسن غريب)).

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي (1379) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (2866).

من عباده، يطلع فيه علىٰ بعض ما يكون في العالَم البرزخي، وقد يحدث هذا الكشف والاطِّلاع في اليقظة أو النوم، وأعلىٰ الخَلْق اطلاعًا علىٰ عالم البرزخ هم الأنبياء والرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا بحكم أن من كمال رسالتِهم أن يُخبروا العباد عما يحدث لهم بعد الموت، وأعلىٰ الرسل معرفةً بعوالم الله المختلفة وغيبه هو إمام الأنبياء والمرسلين سيدُنا محمدٌ ﷺ، ويتضح ذلك فيما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه من الأحاديث الشريفة التي تصف هذا العالَم الغيبي- عالم البرزخ- وما له من خصائصَ وما فيه من النَّعيم أو العذاب، وما ينفع الميتَ فيه ويَفتح له بابَ الرَّحمات.

ويمكن أن نصف عالم البرزخ بأن الغالب عليه أنه عالم الأرواح التي تستقر فيه إلىٰ يوم البعث والنشور، ولعالم الرُّوح طبيعة تختلف عن عالم المادة؛ فالرُّوح خَلْقٌ آخر لا يعلم حقيقتَه إلا ربُّ العالمين سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا﴾ [الإسراء:85]. ولا سبيل إلىٰ معرفة الحقائق عن هذا العالم إلا من خلال ما وصل إلينا من كتاب الله سبحانه وتعالىٰ، ومن فَمِ الصَّادق المصدوق نبينا الكريم ﷺ، أو من خلال ما رُوي من وقائع اطِّلاع بعض العباد علىٰ هذا العالَم مما لا يُخالف النُّصوصَ الشَّرعية ويقبله العقل ولا يقول باستحالته، فكلُّ موجودٍ من عوالم الله ومخلوقاته يمكن إدراكُه والاطلاع عليه إذا أراد الله ذلك، فتنكشف الحُجُب وتُرفع أستار الغيب، فيحدث نوع تلاقي بين عالَم الحياة الدنيا المشهود وعالم البرزخ الغيبي، تتغيَّر فيه معايير الزمان والمكان، ولا يخضع للقوانين المادِّية في حياتِنا الدنيا.

فبدايةُ عالم البرزخ بالنسبة للإنسان هو دخوله في لحظات الاحتضار وحضور الملائكة لقبض الرُّوح، ويُحدثنا القرآن الكريم عن هذا فيقول: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُوم ﴿83﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُون ﴿84﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُون ﴿85﴾ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِين ﴿86﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِين ﴿87﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِين ﴿88﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيم ﴿89﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِين ﴿90﴾ فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ

أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة 83- 96].

ويحدثنا القرآن الكريم عن حياة الشهداء البرزخية فيقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154] ويقول تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 169- 170].

فأثبت القرآن الكريم حياة خاصة بالشُّهداء، يتميَّزون بها عن غيرهم من الموتىٰ، فهم في درجةٍ عاليةٍ من الحياة البرزخية، كما أخبرتنا السُّنَّة النبويةُ، فقد روىٰ مسلم في صحيحه بسنده عن مَسْرُوقٍ قال: سَأَلْنَا عبدَالله عن هذه الآية: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك؟ فقال: ((أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ لها قناديلُ معلقةٌ بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلىٰ تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطلاعةً فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شِئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مراتٍ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يَسألوا قالوا: يا ربِّ نريد أن تردَّ أرواحنَا في أجسادِنا حتىٰ نُقتلَ في سبيلكَ مرةً أخرىٰ، فلما رأىٰ أن ليس لهم حاجةٌ تُرِكُوا))[1].

- ومن الأحاديث الجامعة التي تُعطي لنا صورةً ومثالًا عن بعض ما يكون في حياة البرزخ ما رواه أحمد في مسنده من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جِنازةِ رجلٍ من الأنصار فانتهينا إلىٰ القبر ولَمَّا يُلحَد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأنَّ علىٰ رُءوسنا الطَّير، وفي يده عودٌ ينكُت في الأرضِ، فرفع رأسَه

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (1887).

فقال: ((استعيذُوا بالله من عذابِ القبرِ)) مرتين أو ثلاثًا. ثم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا وإقبالٍ من الآخرة نزل إليه ملائكةٌ من السَّماء بيض الوجوه كأن وجوهَهم الشَّمسُ، معهم كفنٌ من أكفان الجنَّةِ وحَنوطٌ من حَنوط الجنة حتىٰ يجلسوا منه مَدَّ البصرِ، ثم يجيء ملَك الموت عليه السلام حتىٰ يجلس عند رأسِه فيقول: أيَّتُها النفس الطيبة اخرجي إلىٰ مغفرةٍ من الله ورضوانٍ)). قال: ((فتخرجُ تسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من فِيِّ السِّقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدَعوها في يدِه طرفة عينٍ حتىٰ يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحَنوط، ويخرج منها كأطيبِ نفحةِ مِسْكٍ وُجدت علىٰ وجه الأرضِ)) قال: ((فيصعدون بها فلا يمرُّون- يعني بها- علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الرُّوح الطَّيب؟ فيقولون: فلان بن فلانٍ بأحسن أسمائِه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدُّنيا حتىٰ ينتهوا بها إلىٰ السَّماء الدُّنيا فيستفتحون له فيُفتح لهم، فيُشيعه من كلِّ سماءٍ مُقرَّبوها إلىٰ السَّماء التي تليها حتىٰ يُنتهىٰ به إلىٰ السَّماء السَّابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابَ عبدي في عِلِيِّين وأعيدُوه إلىٰ الأرضِ فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارةً أخرىٰ)) قال: ((فتُعاد رُوحه في جسدِه فيأتيه ملكان فيُجلسانه فيقولان له: مَن ربُّك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينُكَ؟ فيقول: ديني الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرَّجلُ الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله ﷺ فيقولان له: وما عِلْمُكَ؟ فيقول: قرأتُ كتابَ الله فآمنت به وصدَّقتُ، فيُنادي منادٍ في السَّماء أنْ صدقَ عبدي فأفرشوه من الجنَّةِ وألبسوه من الجنَّةِ وافتحوا له بابًا إلىٰ الجنَّةِ)) قال: ((فيأتيه من رُوحها وطِيبِها ويُفسَح له في قبرِه مَدَّ بصرِه)) قال: ((ويأتيه رجلٌ حَسنُ الوجهِ حَسنُ الثِّياب طيِّبُ الرِّيحِ فيقول: أبشر بالذي يسرُّكَ هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَد فيقول له: من أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيء بالخيرِ فيقول: أنا عملُك الصَّالح فيقول: ربِّ أقم السَّاعة حتىٰ أرجعَ

إلىٰ أهلي ومالي)) قال: ((وإنَّ العبدَ الكافرَ إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا وإقبالٍ من الآخرة نزل إليه من السَّماء ملائكةٌ سُود الوجوه معهم المُسوح[1] فيجلسون منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملَكُ الموت حتىٰ يجلسَ عند رأسِه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلىٰ سخطٍ من الله وغضبٍ)). قال: ((فتَفرَّق في جسده فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصُّوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عينٍ حتىٰ يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن رِيح جيفةٍ وُجدت علىٰ وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرُّون بها علىٰ مَلأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الرُّوح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلانٍ بأقبح أسمائِه التي كان يُسمَّىٰ بها في الدُّنيا حتىٰ ينتهىٰ به إلىٰ السَّماء الدنيا فيُستفتَح له فلا يُفتَح له)) ثم قرأ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: ((﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:40] فيقول الله عز وجل: اكتبُوا كتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلىٰ فتُطرح رُوحه طرحًا)) ثم قرأ: ((﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:31] فتُعاد رُوحه في جسدِه ويأتيه ملَكان فيُجلسانه فيقولان له: مَن ربُّكَ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيُنادي منادٍ من السَّماء أن كذَب فافرشوا له من النار وافتحوا له بابًا إلىٰ النار فيأتيه من حرِّها وسمومِها ويضيق عليه قبرُه حتىٰ تختلفَ فيه أضلاعُه ويأتيه رجلٌ قبيح الوجه قبيح الثِّياب مُنتن الرِّيح فيقول: أبشرْ بالذي يسوءُك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: مَن أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملُكَ الخبيثُ فيقول: ربِّ لا تُقم السَّاعةَ))[2].

---

(1) المُسوح: جمع مِسح وهو اللباس الخَشن. انظر: مرقاة المفاتيح (1179/3) للملا علي القاري- دار الفكر- بيروت- لبنان.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (4753)، وأحمد في مسنده

وقد سبقت الإشارة في رسالة رؤية النبي صلىٰ الله عليه وسلم في المنام واليقظة إلىٰ كلام الإمام الغزالي عن عالم البرزخ وأحوال الموتىٰ ووصف النبي صلىٰ الله عليه وسلم لهذا العالم فأتىٰ بما لا مزيد عليه في هذا الباب فليراجع كلامه في رسالة رؤية النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

وحياة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أعلىٰ من حياة الشُّهداء بلا ريب، وأعلىٰ المنازل في ذلك هي منزلة نبيِّنا ﷺ، والتي يكون له فيها اطلاع علىٰ عالم الشَّهادة، ويحدث منه صلواتُ الله وسلامُه عليه تواصلٌ مع أُمَّته، وسوف نورد طرفًا من الأحاديث والآثار والحكايات التي تُعطي لنا فكرةً عن طبيعة هذه الحياة البرزخية وتقرِّب لنا الأمرَ، وإلا فطبيعة هذه الحياة والإحاطة بها لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالىٰ الذي لا يحيط بعظمة خلقه إلا هو، فعالم الرُّوح أغرب من أن يُحيطَ به العقلُ.

فمن ذلك: حياة رسول الله ﷺ البرزخية، والَّتي جاءت بعض الأحاديث والآثار فأعطت لنا فكرةً عنها وعن علاقتها بعالم الشَّهادة عندنا، وتواصله صلوات الله وسلامه عليه مع أمته.

فقد روىٰ ابن أبي شيبة في مُصنَّفه: عن مالك الدَّار- وكان خازن عمر علىٰ الطعام- قال: أصاب النَّاسَ قحطٌ في زمن عمر فجاء رجلٌ إلىٰ قبر النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله استسقِ لأمَّتك فإنَّهم قد هلكوا، فأتىٰ- أي النَّبيُّ ﷺ- الرجلَ في المنام فقيل له: «ائتِ عمرَ فأقرئه منِّي السَّلام وأخبِرْه أنَّكم مُستقون وقل له: عليكَ الكيسَ عليكَ الكيسَ» فأتىٰ عمرَ فأخبره فبكىٰ عمرُ ثم قال: يا ربِّ لا آلو إلَّا ما عجزتُ[1].

(4/287- 288)، واللفظ لأحمد.

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (32665)، والبيهقي في دلائل النبوة (7/47). وصحح إسناده ابن كثير في البداية والنهاية (10/ 74)، وابن حجر في فتح الباري (2/ 495).

- حديث عرضِ أعمال الأُمَّة عليه ﷺ الذي رواه الإمام البزَّار في مسنده من حديث ابن مسعود أن النَّبي ﷺ قال: ((حياتِي خيرٌ لكم تُحدِّثون ويُحدَّث لكم، ووفاتي خيرٌ لكم تُعرض عليَّ أعمالكم فما رأيتُ من خيرٍ حمدتُ الله عليه وما رأيتُ من شرٍّ استغفرتُ الله لكم))[1].

فالنَّبيُّ ﷺ انتقلَ من هذه الحياة الدُّنيا إلىٰ حياةٍ أعلىٰ وأجل مقامًا، وهو بهذا الانتقال لم ينقطع عن أمَّته بل يعلم أمورهم وأحوالهم، وأنَّه ﷺ حيٌّ في قبرِه حياة كاملة أعلىٰ من الحياة الدُّنيا.

وكما في حديث أبي داود: ((لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ولا تجعلوا قَبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تبلغني حيثُ كنتم))[2]. فهذه أحد صور التَّلاقي بين حياتنا الدُّنيوية وحياة رسولنا الكريم ﷺ البرزخية.

- ومن صُورِ تداخل عالم الشَّهادة والتقائه مع عالم البرزخ ما حدث ليلةَ الإسراء والمعراج للرسول ﷺ، حيث جُمع له الأنبياء والمرسلون في بيت المقدس وصلَّىٰ بهم إمامًا، فقد روىٰ مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((وقد رأيتُني في جماعةٍ من الأنبياء فإذا موسىٰ قائمٌ يُصلِّي فإذا رجلٌ ضَرْبٌ جعدٌ كأنه من رجال شَنوءة، وإذا عيسىٰ بن مريم عليه السلام قائمٌ يصلي أقربُ النَّاس به شبهًا عروة بن مسعودٍ الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائمٌ يصلي أشبه الناس به صاحبكم- يعني نفسه- فحانت الصلاة فأممتُهم))[3].

---

(1) جزء من حديث أخرجه البزار في مسنده (1925). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (594/8): ((رواه البزار ورجاله رجال الصحيح)) وصحح إسناده أيضًا السيوطي في الخصائص الكبرىٰ (491/2).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (2042)، وأحمد في مسنده (367/2) والطبراني في الأوسط (8030)، والبيهقي في شعب الإيمان (3865) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا. وحسن إسناده النووي في خلاصة الأحكام (440/1).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال (172).

وهو كذلك عند النَّسائي في سُننه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه قال صلى الله عليه وسلم: ((ثمَّ دخلتُ بيتَ المقدس فجُمع لي الأنبياء عليهم السلام فقدَّمني جبريلُ حتىٰ أممتُهم))[1].

وقد صحَّ أنَّ الأنبياءَ يتعبَّدون لله بعد انتقالهم من الحياة الدنيا، فعن أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مررتُ علىٰ موسىٰ ليلةَ أُسري بي عند الكثيب الأحمرِ وهو قائمٌ يُصلِّي في قبره))[2].

فهذا النبيُّ الكليم موسىٰ عليه السلام يصلِّي في قبره وهو في هذه الحياة البرزخية.

- ومن صور التقاء عالم البرزخ مع عالم الشَّهادة والتواصل معه ما رواه الحاكم في مستدركِه بسنده عن عطاء الخراسانيِّ قال: قدمت المدينة فأتيت ابنة ثابت بن قيس بن شمَّاس، فذكرت قصة أبيها قالت: لما أنزل الله علىٰ رسولِه صلى الله عليه وسلم ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحُجُرات:2] الآية، وآية: ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:23]. جلس أبي في بيتِه يبكي، ففقده رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن أمره، فقال: إني امرؤٌ جهير الصَّوت وأخاف أن يكون قد حَبِطَ عملي. فقال: ((بل تعيش حميدًا وتموت شهيدًا ويدخلك الله الجنةَ بسلامٍ)) فلما كان يوم اليمامة مع خالد بن الوليد استُشهد فرآه رجلٌ من المسلمين في منامه فقال: إني لما قُتلتُ انتزع درعي رجلٌ من المسلمين وخبَّأه في أقصىٰ العسكر وهو عنده، وقد أكبَّ علىٰ الدِّرع بُرمة وجعل علىٰ البُرمة رحلًا، فائتِ الأميرَ فأخبره، وإيَّاك أن تقول هذا حُلمٌ فتضيعه، وإذا أتيتَ المدينةَ فائتِ فقل لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ عليَّ من الدَّين كذا وكذا، وغلامي فلان من رقيقي عتيقٌ، وإيَّاك أن تقول هذا حُلم فتضيِّعه، قال: فأتاه فأخبره

---

(1) أخرجه النسائي في كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة (450).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسىٰ صلى الله عليه وسلم (2375) من حديث أنس رضي الله عنه.

الخبرَ فوجد الأمرَ علىٰ ما أخبره، وأتىٰ أبا بكر فأخبره فأنفذ وصيتَه، فلا نعلم أحدًا بعد ما مات أنفذ وصيتَه غير ثابت بن قيس بن شمَّاس))[1].

- ومن صور انكشاف عالم البرزخ ما ذكره ابن قيم الجوزية في كتابه الرُّوح فقال:

((وحدثني الحسين العجلي حدثنا عبدالله بن نمير حدثنا مالك بن مِغول عن منصور عن زيد بن وهب قال: خرجتُ إلىٰ الجبانة فجلست فيها، فإذا رجلٌ قد جاء إلىٰ قبرٍ فسوَّاه، ثمَّ تحوَّلَ إلي فجلس. قال: فقلتُ لمن هذا القبر؟ قال: أَخٌ لي. فقلتُ: أخٌ لك. فقال: أخ لي في الله رأيته فيما يرىٰ النَّائم. فقلت: فلان عشتَ الحمد لله ربِّ العالمين. قال قد قلتَها لأَن أقدر علىٰ أَن أقولها أحبُّ إلي من الدُّنيا وما فيها. ثم قال: ألم ترَ حيث كانوا يدفنونني فإن فلانًا قام فصلىٰ ركعتين لأَن أكون أقدرَ علىٰ أَن أصليهما أحب إليَّ من الدُّنيا وما فيها.

حدثني أبو بكر التَّيمي حدثنا عبدالله بن صالح حدثني الليث بن سعد حدثني حُميد الطَّويل عن مطرِّف بن عبدالله الحَرَشي قال خرجنا إلىٰ الربيع في زمانه فقلنا ندخل يوم الجمعة لشهودها، وطريقنا علىٰ المقبرة. قال: فدخلنا فرأيتُ جِنازةً في المقبرة. فقلت: لو اغتنمتُ شهودَ هذه الجِنازة فشهدتُها. قال: فاعتزلتُ ناحيةً قريبًا من قبر فركعت ركعتين خفَّفتُهما لم أرضَ إتقانهما ونعستُ، فرأيتُ صاحبَ القبر يُكلِّمني وقال: ركعتَ ركعتين لم ترضَ إتقانهما. قلت: قد كان ذلك. قال: تعملون ولا تعلمون ولا نستطيع أن نعملَ لأن أكون ركعتُ مثلَ ركعتَيكَ أحبُّ إليَّ من الدُّنيا بحذافيرها. فقلتُ: مَن هاهنا؟ فقال: كلهم مسلمٌ، وكلهم قد أصاب خيرًا. فقلت: مَن هاهنا أفضل؟ فأشار إلىٰ قبرٍ فقلتُ في نفسي: اللهمَّ ربَّنا أخرجْه إلي فأُكلِّمه. قال: فخرج من قبره فتىٰ شابٌّ، فقلت: أنتَ أفضلُ مَن هاهنا؟ قال: قد قالوا ذلك. قلت: فبأي شيءٍ نلتَ ذلك فوالله ما أرىٰ لك ذلك السن؟ فأقول: نلتَ ذلك بطول الحجِّ والعمرةِ والجهادِ في سبيل الله والعمل! قال:

(1) أخرجه الحاكم في مستدركه (3/235).

قد ابتليتُ بالمصائب فرزقتُ الصبرَ عليها فبذلك فضلتُهم))[1].

وكذلك أورد ابن القيم أيضًا:

ما ذكره صالح بن بشير قال: رأيتُ عطاءً السُّلميَّ في النوم بعد موته فقلت له: يرحمك الله لقد كنتَ طويلَ الحزنِ في الدُّنيا. فقال: أمَا والله لقد أعقبني ذلك فرحًا طويلًا وسرورًا دائمًا. فقلتُ: في أي الدَّرجات أنتَ؟ قال: مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقال عبدالله بن المبارك: رأيتُ سفيان الثَّوري في النَّوم فقلت له: ما فعل الله بكَ؟ قال: لقيتُ محمدًا وحزبَه.

وقال صخر بن راشد: رأيتُ عبدَالله بنَ المبارك في النوم بعد موته، فقلت: أليس قد مِتَّ؟! قال: بلىٰ. قلت: فما صنع الله بكَ؟ قال: غفر لي مغفرةً أحاطت بكلِّ ذنبٍ، قلتُ: فسفيان الثَّوري؟ قال: بخٍ بخٍ ذاك مع الذين أنعم عليهم من النَّبيين والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين وحسُن أولئك رفيقًا.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث حمَّاد بن زيد عن هشام بن حسَّان عن يقظة بنت راشد قالت: كان مَرْوان المحلمي لي جارًا وكان قاضيًا مجتهدًا، قالت: فماتَ فوجدتُ عليه وجدًا شديدًا. قالت: فرأيتُه فيما يرىٰ النائم قلت: أبا عبدالله ما صنع بكَ ربُّكَ؟ قال: أدخلني الجنة. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم رُفعتُ إلىٰ أصحاب اليمين. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم رفعتُ إلىٰ المقرَّبين. قلت: فَمن رأيتَ من إخوانِكم؟ قال: رأيتُ الحسنَ وابنَ سيرين وميمونَ بن سِياه.

قال حماد: قال هشام بن حسان: فحدَّثتني أم عبدالله- وكانت من خيار نساء أهل البصرة- قالت: رأيتُ فيما يرىٰ النائم كأني دخلتُ دارًا حسنةً، ثم دخلتُ بستانًا فذكرت من حُسنه ما شاء الله، فإذا أنا فيه برجلٍ مُتكئ علىٰ سرير من ذهبٍ وحوله

---

(1) الروح (ص9) لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية- دار الكتب العلمية- بيروت.

الوُصفاء بأيديهم الأكاويب، قالت: فإني لمتعجبةٌ من حُسن ما أرىٰ إذ قيل هذا مَرْوان المُحَلِّمي أقبل، فوثب فاستوىٰ جالسًا علىٰ سريره. قالت: واستيقظتُ من منامي فإذا جِنازة مَرْوان قد مُرَّ بها علىٰ بابي تلكَ السَّاعة))[1].

وقال عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز: رأيتُ أبي في النَّوم بعد موته كأنه في حديقة فدفع إليَّ تفاحاتٍ فأَوَّلتُهن الولدَ، فقلت: أي الأعمال وجدتَ أفضلَ؟ فقال: الاستغفارُ أي بُني.

ورأىٰ مسلمة بن عبدالملك عمرَ بن عبدالعزيز بعد موته فقال: يا أميرَ المؤمنين ليت شِعري إلىٰ أي الحالات صرتَ بعد الموت؟ قال: يا مسلمة هذا أوان فراغي، والله ما استرحتُ إلا الآن. قال: قلتُ: فأين أنتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: مع أئمَّة الهُدىٰ في جنة عدن.

قال صالح البرَّاد: رأيتُ زُرارة بن أوفىٰ بعد موته فقلت: رحمك الله ماذا قيل لكَ وماذا قلتَ؟ فأعرض عني، قلتُ: فما صنع الله بكَ؟ قال: تفضَّل عليَّ بجوده وكرمه، قلتُ: فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرِّف؟ قال: ذاكَ في الدرجات العُلىٰ، قلتُ: فأي الأعمال أبلغ فيما عندكم؟ قال: التَّوكل وقِصر الأمل))[2].

وفي موضع آخر يقول ابن القيم:

وقال سعيد بن داود: حدثني ابن داود أخي جويرية بن أسماء قال: كنَّا بعبَّادان، فقدم علينا شابٌّ من أهل الكُوفة متعبدٌ فمات بها في يوم شديد الحرِّ، فقلت: نُبْرِد ثم نأخذ في جَهازه فنمتُ، فرأيتُ كأني في المقابر، فإذا بقبَّة جوهر تتلألأ حُسنًا وأنا أنظر إليها، فأشرفتْ منها جاريةٌ ما رأيتُ مثلَ حُسنها، فأقبلتْ عليَّ فقالت: بالله لا تحبسه عنَّا إلىٰ

(1) الروح (ص19).

(2) المصدر السابق (ص22).

الظُّهر، قال: فانتبهتُ فزِعًا وأخذتُ في جهازه وحفرتُ له قبرًا في الموضع الذي رأيتُ فيه القُبة فدفنتُه فيه))[1].

والإسلام كما أرشد الإنسانَ إلىٰ ما ينفعه في حياته الدُّنيا والآخرة أرشده كذلك إلىٰ ما يقيه شرَّ حياة البرزخ، ألا وهو عذاب القبر، وأرشده إلىٰ ما يجلب له نعيم هذه الحياة البرزخية، ومن مِنَن الله علىٰ الأُمة المحمَّدية أنْ فتح لها بابًا لجلب الحياة الطيبة في دار البرزخ؛ بأن جعل لها طريقًا لجلب الخير وهي في حياتها البرزخية، بأن منح الحيَّ سبيلًا من الأعمال التي تنفع الميِّت كالدعاء له وهبة ثواب الأعمال الصالحة له والتي تصل إليه وهو في دار البرزخ، فكان ذلك من باب الرَّحمات التي تُعد من مزايا الأُمة الإسلامية أن جعل أبواب الخير غير منغلقة عنها في الحياة والممات، وذلك عن طريق تواصل الأحياء مع الأموات ووصول الثواب والنفع للحي والميت، فللميت بزيادة التنعيم ورفع العذاب، وللحي بتنفيذه لما ترشد إليه الشريعة من مراعاة حق الأخ المسلم- أيًّا كانت الصِّلة به- وذلك بالقيام ببره وتسكين جزع الفراق ولوعته، ويتحقق هذا بالشُّعور بالصلة بين الحي والميت وعدم انقطاعها.

والهدف من هذه الرسالة الصغيرة- التي بين يديك- هو التأكيد علىٰ هذا الجانب الرُّوحي، وبيان اهتمام الشريعة الإسلامية بجانب الرحمة تُجاه مَن غادروا الحياة الدنيا وتدعيم ذلك بالأدلة الشرعية وأقوال أهل العِلم من أئمَّة المذاهب المختلفة، وبيان أن في هذا الأمر سَعةً للسلمين، وليس كما فعلت طائفةٌ من المعاصرين الذين يزعمون النِّسبة إلىٰ السِّلف فضيَّقوا الأمر وقصروه علىٰ صورٍ محددة جعلوها هي المسموح بها في الشريعة فقط؛ زعمًا منهم أن هذه الصور هي مذهب أهل السُّنَّة والجماعة وما دونها عدُّوه من البدع التي لا يجوز العمل بها، وذلك في تحكُّم واضحٍ بعدم الاعتداد بأقوال أهل العِلم من

(1) الروح (ص25).

السَّلف والخلف في هذه المسألة.

فالشَّريعة الإسلامية اهتمَّت بالتواصل مع الميت وزيارته والدُّعاء له، ولم تنظر للموت على أنه انتهاء التواصل بين الميت والحي، وإنما هو انتقالٌ من مرحلةٍ لمرحلةٍ أخرى من هذا الوجود لها ما يناسبها من طرق التَّواصل معهم وبرهم والقيام بحقِّهم، ففتحت بذلك الأبوابَ أمام وصول الرَّحمات للموتى بطرقٍ مختلفةٍ من وصول ثواب الأعمال الصَّالحة.

اهتمام النبي ﷺ بأمر موتى المسلمين

الكلام عن إيصال النَّفع لموتى المسلمين والدُّعاء لهم هو في حقيقة الأمر اقتداءً برسول الله ﷺ في رحمتِه بالأمة المسلمة في الحياة وبعد الموت، فقد كان ﷺ أرحم الخَلْق بالخَلْق فهو كما وصفه الحقُّ سبحانه وتعالى في محكم كتابه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

وتخبرنا الأحاديث الشريفة برأفته ﷺ واهتمامه بأمر أُمَّته؛ فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ تلا قولَ الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ الآية [إبراهيم: 36] وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118] فرفع يديه وقال: ((اللهمَّ أُمتي أُمتي)) وبكى، فقال الله عز وجل: ((يا جبريلُ اذهب إلى محمَّد- وربُّكَ أعلم- فسَلْه ما يُبكيكَ؟)) فأتاه جبريلُ عليه السَّلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم فقال الله: ((يا جبريلُ اذهبْ إلى محمَّدٍ فقُل: إنَّا سنرضيك في أُمَّتِكَ ولا نسوءك))[1].

فلننظر أيها الأخ الكريم لحال رسول الله ﷺ واهتمامه بأمر موتى المسلمين، كما جاءت بذلك السنة المطهرة:

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (202).

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ امرأة سوداء كانت تقمُّ المسجدَ- أو شابًّا- ففقدها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عنها- أو عنه- فقالوا: مات. قال: ((أَفَلَا كُنتم آذَنْتُمُونِي)) قال: فكأَنَّهم صغَّروا أمرَها- أو أمره- فقال: ((دُلُّونِي علىٰ قبرِها)) فدلُّوه، فصلَّىٰ عليها، ثم قال: ((إنَّ هذه القبورَ مملوءةٌ ظلمةً علىٰ أهلِها و إنَّ الله عز وجل ينوِّرُها لهم بصلاتِي عليهم))[1].

وأخرج أبو داود الطيالسي في مسنده هذا الحديث أيضًا، وزاد في آخره: فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله إن أبي- أو أخي- مات ودُفِنَ فصلِّ عليه، قال: فانطلقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مع الأنصاري[2].

فانظر أخي الكريم إلىٰ عطف رسولِ الله واهتمامه بأمر أحد أفراد أُمَّته قد مات فيسأل عن قبرها ويصلِّي عليها، وكان يكفيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها بالرحمة والمغفرة وهو في مكانه، ولكنَّه ذهب بنفسه إلىٰ قبرِها، وكيف لما طلب منه أحد أفراد أُمته أن يصلي علىٰ ميِّت له ففعل صلوات الله وسلامُه عليه.

وبالإضافة إلىٰ ما ورد من الأحاديث الشريفة يأتي أيضًا قصد النبي صلى الله عليه وسلم للقبور كي يدعو لأهلها:

- ففي صحيح مسلم قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب قالا: حدثنا محمد ابن عبدالله الأسدي عن سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بُريدة عن أبيه قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُعلِّمُهم إذا خرجوا إلىٰ المقابر فكان قائلُهم يقول- في رواية أبي بكرٍ: ((السَّلامُ علىٰ أهل الدِّيارِ)). وفي رواية زهيرٍ: ((السَّلام عليكم أهلَ الدِّيارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ و إنَّا إنْ شاء الله للاحقونَ أسألُ الله لنا ولكم العافيةَ))[3].

---

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب الصلاة علىٰ القبر بعد ما يدفن (1337)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب الصلاة علىٰ القبر (956)، واللفظ لمسلم.

(2) أخرجه أبو داود الطَّيالسي في مسنده (2568).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (975).

- وكذلك روىٰ مسلم عن عائشةَ أنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ كلَّما كان ليلتُها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر اللَّيل إلىٰ البَقيع فيقول: ((السَّلام عليكم دارَ قومٍ مؤمنين وأتاكم ما تُوعدونَ غدًا مؤجَّلونَ وإنَّا إنْ شاء الله بكم لاحقونَ، اللهم اغفِرْ لأهل بقيعِ الغَرقدِ))[1].

- وروىٰ الترمذي من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه، فقال: ((السَّلام عليكم يا أهلَ القبورِ يغفرُ الله لنا ولكم أنتُم سلفُنا ونحن بالأثَرِ))[2].

- وروىٰ مسلم في صحيحه بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ علىٰ أبي سلمةَ وقد شَقَّ بصرُه فأغمضَه ثم قال: ((إنَّ الرُّوحَ إذا قُبض تبعه البصرُ)) فضجَّ ناسٌ من أهلِه، فقال: ((لا تدعوا علىٰ أنفسِكم إلا بخيرٍ فإنَّ الملائكةَ يؤمِّنونَ علىٰ ما تقولونَ)) ثم قال: ((اللهمَّ اغفر لأبي سلمةَ وارفع درجتَه في المهديِّين واخلفه في عقبِه في الغابرينَ واغفرْ لنا وله يا ربَّ العالمينَ وأفسحْ له في قبرِه ونوِّر له فيه))[3].

- وروىٰ مسلم أيضًا بسنده عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: صلىٰ رسول الله ﷺ علىٰ جنازةٍ، فحفظتُ من دعائه وهو يقول: ((اللهمَّ اغفِرْ له وارحمْهُ وعافِه واعفُ عنه وأكرِمْ نُزُلَه ووسِّع مُدْخَلَه واغسلْه بالماءِ والثَّلج والبرَدِ، ونقِّه مِنَ الخطايا كما نقَّيت الثوبَ الأبيضَ من الدَّنس، وأبدلْه دارًا خيرًا من دارِه وأهلًا خيرًا من أهلِه وزوجًا خيرًا من زوجِه، وأدخِلْه الجنَّةَ وأعِذْهُ من عذاب القبرِ- أو- من عذاب النَّارِ)) قال: حتىٰ تمنيتُ أن أكونَ أنا ذلكَ الميتَ[4].

---

(1) أخرجه مسلم في الكتاب والباب السابقين (974).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الجنائز، باب ما يقول الرجل إذا دخل المقابر (1053) وقال: ((حسن غريب)).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر (920).

(4) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة (963).

- وروى أبو داود في سننه من حديث عثمان بن عفان ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميتِ وقف عليه فقال: ((اسْتغفِرُوا لأخيكم وسَلُوا له بالتثبيتِ فإنَّه الآنَ يُسأَلُ))[1].

- وروى أيضًا بسنده عن وَاثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ قال: صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ على رجلٍ من المسلمينَ فسمعتُه يقول: ((اللهمَّ إنَّ فلانَ بنَ فلان في ذمَّتِكَ فَقِهِ فتنةَ القبرِ)) قال عبدالرحمن- هو ابن إبراهيم الدمشقي: ((مِن ذِمَّتِكَ وحبلِ جوارِكَ فَقِهِ من فتنةِ القبرِ وعذابِ النَّارِ وأنتَ أهلُ الوفاءِ والحمدِ، اللهمَّ فاغْفِرْ له وارْحَمْهُ إنَّكَ أنتَ الغفورُ الرَّحيمُ))[2].

- وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباسٍ قال: مرَّ النَّبيُّ ﷺ بقبرين فقال: ((إنَّهما ليعذَّبان وما يُعذَّبان في كبيرٍ أمَّا أحدُهما فكان لا يَستتر من البولِ، وأمَّا الآخرُ فكان يمشي بالنَّميمةِ)) ثمَّ أخذ جريدةً رطبةً فشقَّها نصفين فغرز في كلِّ قبرٍ واحدةً، قالوا: يا رسولَ الله، لم فعلتَ هذا؟ قال: ((لعلَّه يُخفَّفُ عنهما ما لم يَيْبَسا))[3].

- وروى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ الرَّجلَ لتُرفع درجتُه في الجنَّةِ فيقول أنَّى هذا؟ فيُقال باستغفارِ ولدِكَ لكَ))[4].

- وروى الدَّارقطنيُّ في سننه بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: أبصرَ رسولُ الله ﷺ قبرًا حديثًا فقال: ((أَلَا آذَنْتُموني بِهَذا)) قالوا: كنتَ نائمًا فكرهنا أن نُوقظكَ، فقام فصلَّى عليه فقمتُ عن يسارِه فجعلني عن يمينِه[5].

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف (3221).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت (3202).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول (218).

(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب، باب بر الوالدين (3660)، وأحمد في مسنده (2/509).

(5) أخرجه الدارقطني في سننه (1845).

- روى أبو نعيم في الحلية بسنده عن أَنس بن مالكٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ وقف على قبر رجلٍ من أصحابه حين فرغ منه فقال: ((إنَّا لله و إنَّا إليه راجعونَ، اللهمَّ نزل بكَ وأنتَ خيرُ مَنزُولٍ به، جافِ الأرضَ عن جنبِه وافتح أبوابَ السَّماء لرُوحه واقبلْه منكَ بقَبولٍ حسنٍ، وثبِّتْ عندَ المسائلِ مَنطقَه))[1].

- وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن يزيد بن عبدالله بن ركانة بن المطلب قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام للجِنازة ليُصلِّي عليها قال: ((اللهمَّ عبدُكَ وابنُ أَمَتكَ احتاجَ إلى رحمَتِكَ وأنتَ غنيٌّ عن عذابِه إنْ كان مُحسنًا فزِدْ في إحسانِه وإنْ كان مُسِيئًا فتجاوَزْ عنه))[2].

- وروى الحاكم أيضًا بسنده عن أبي سعيدٍ الخدري قال: كنَّا مقدم النَّبي ﷺ إذا حضر منَّا الميت آذنَّا النبيَّ ﷺ فحضره واستغفر له، حتى إذا قدمنا انصرف النبي ﷺ ومَن معه، وربَّما قعدوا حتى يُدفنَ، وربما طال حبس ذلك على نبي الله ﷺ، فلما خشينا مشقَّةَ ذلك، قال بعض القوم لبعضٍ: لو كنَّا لا نُؤذِنُ النَّبيَّ ﷺ بأحدٍ حتى يُقبَض، فإذا قُبض آذناه، فلم يكن في ذلك مشقةٌ ولا حبسٌ، فكنَّا نُؤذنه بالميِّت بعد أن يموتَ فيأتيه فيصلِّي عليه))[3].

فهذه الأحاديث الشَّريفة تبيِّن لنا اهتمامَ رسولِ الله ﷺ بأمر موتى المسلمين، وحرصه على إيصال الرَّحمة لهم في قبورهم ومعافتهم من فتنة القبر وعذابه، وإرشاد أُمته إلى ما تصنعه تجاه الموتى شفقة منه ﷺ على أُمَّتِه، فهذه الأحاديث الشَّريفة دافعٌ لكلِّ مُسلمٍ إلى حفظ حقوق موتى المسلمين وبرِّهم بعد موتهم عن طريق فعل ما يوصل لهم الرَّحمات في قبورهم وحياتِهم البرزخية.

---

(1) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (5/201).

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه (1/359)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(3) المصدر السابق (1/357)، وصححه ووافقه الذهبي.

طَرَفٌ من القصص الواردة عن القبور وحياة البرزخ

من المعلوم الثَّابت أنه لا تنقطع صلة الميت بالأحياء بعد دفنه؛ بل ما يزال هناك نوع اتصال بينهما، ففي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّ العبدَ إذا وُضع في قبرِه وتولَّىٰ عنه أصحابُه إنَّه ليسمعُ قرعَ نعالِهم))[1].

هذا وقد ذكر أهل العِلم وأئمَّةُ الشَّريعة في مصنَّفاتهم أمثلةً من المنامات التي تدلُّ علىٰ التواصل مع الموتىٰ في حياتِهم البرزخيَّة عن طريق وصول ثواب الدُّعاء والأعمال الصَّالحة من الأحياء لهم، فمن ذلك:

- ما أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجلٍ من آل عاصم الجَحْدريِّ قال: ((رأيتُ عاصمًا الجَحْدريَّ في منامي بعد موته بسنتين فقلتُ: أليس قد مِتَّ؟ قال: بلىٰ، قلتُ: فأين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة، أنا ونفرٌ من أصحابي نجتمع كلَّ ليلةِ جُمُعة وصبيحتها إلىٰ بكر بن عبدالله المُزني فنتلقىٰ أخبارَكم. قال: قلت أجسامُكم أم أرواحُكم؟ قال: هيهات! قد بليت الأجسامُ، وإنما تتلاقىٰ الأرواحُ، قال: قلتُ فهل تعلمون بزيارتِنا إيَّاكم؟ قال: نعلم بها عشيةَ الجُمُعة ويومَ الجُمُعة كله، ويومَ السبت إلىٰ طلوع الشَّمسِ. قال: قلت فكيف ذلكَ دون الأيام كلِّها؟ قال: لفضل يومِ الجمُعة وعظمتِه))[2].

- وأخرج البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن حسن القصَّاب قال: ((كنتُ أغدو مع محمد بن واسع في كلِّ غداةِ سبتٍ حتىٰ نأتيَ أهل الجبَّان، فنقف علىٰ القبور فنسلِّم عليهم، وندعو لهم ثم ننصرف، فقلتُ ذات يومٍ: لو صيَّرت هذا اليوم يومَ الإثنين؟ قال: بلغني أنَّ الموتىٰ يعلمون بزوَّارهم يوم الجمُعة ويومًا قبلها ويومًا بعدها))[3].

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال (1338)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (2870).

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات (ص 47).

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (8862).

وأخرج أيضًا بسنده عن سفيان الثوري قال: ((بلغني عن الضَّحاك أنه قال: مَن زار قبرًا يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمُعة))(1).

- روىٰ ابن أبي الدنيا بسنده عن مَعْرُوفٍ الكَرْخِيِّ قال: ((أتاني شابٌّ فقال لي: يا أبا محفوظ رأيت أبي في النَّوم؟ فقال لي: يا بُني ما منعكَ أن تُهدي مما يهدي الأحياء إلىٰ موتاهم؟ قلتُ: يا أبت أهدي إليك! قال: تقول: يا عليمُ يا قديرُ اغفر لي ولوالديَّ إنَّكَ علىٰ كلِّ شيء قديرٌ. قال: فجعلتُ أقولُها، فأُريتُ أبي- يعني في النوم- فقال: يا بُني قد وصلت إلينا هديتكَ))(2).

- وقد أورد ابن قيم الجوزية في كتابه الروح حكايةً عن أحوال الموتىٰ ووصول الثواب لهم فقال: ((وقال ابن أبي الدنيا حدثني الحسين بن علىٰ العجلي حدثنا محمد بن الصَّلت حدثنا إسماعيل بن عياش عن ثابت بن سليم حدثنا أبو قلابة قال أقبلتُ من الشَّام إلىٰ البصرة، فنزلت منزلًا فتطهَّرت وصليت ركعتين بليلٍ، ثم وضعت رأسي علىٰ قبر فنمتُ ثم انتبهت، فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول: قد آذيتني منذُ الليلةِ، ثم قال: إنكم تعملونَ ولا تعلمونَ ونحن نعلمُ ولا نقدرُ علىٰ العملِ، ثم قال: الركعتان اللتان ركعتَهما خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ثم قال: جزىٰ الله أهلَ الدُّنيا خيرًا أقرِئْهم منَّا السلامَ فإنه يدخلُ علينا من دُعائِهم نورٌ أمثال الجبال))(3).

- وأخرج أبو بكر الخلال في كتابه القراءة عند القبور بسنده عن الشعبي قال: ((كانت الأنصار إذا مات لهم الميتُ اختلفوا إلىٰ قبره يقرءون عنده القرآنَ))(4).

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (8863).

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات (ص150).

(3) الروح لابن القيم (ص8).

(4) القراءة عند القبور (ص 89) لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي- تحقيق: د. يحيىٰ مراد- دار الكتب العلمية- بيروت - الطبعة الأولىٰ.

وقال أيضًا: ((وأخبرني أبو يحيىٰ الناقد قال: سمعت الحسن بن الجَرَويِّ يقول: مررتُ علىٰ قبر أختٍ لي فقرأتُ عندها تبارك؛ لما يُذكر فيها، فجاءني رجلٌ فقال: إني رأيتُ أختَكَ في المنام تقول: جزىٰ الله أبا عليٍّ خيرًا فقد انتفعتُ بما قرأَ.

أخبرني الحسن بن الهيثم قال: كان خطاب يجيئني ويده معقودة فيقول: إذا وردتَ المقابرَ فاقرأْ قل هو الله أحد، واجعل ثوابها لأهل المقابر.

أخبرني الحسن بن الهيثم قال: سمعت أبا بكر بن الأطروش ابن بنت أبي نصر التمَّار يقول: كان رجلٌ يجيء إلىٰ قبر أُمِّه يوم الجمُعة، فيقرأ سورة يس، فجاء في بعض أيَّامه فقرأ سورةَ يس، ثم قال: اللهمَّ إنْ كنتَ قسمتَ لهذه السورة ثوابًا فاجعلها في أهل هذه المقابر، فلمَّا كان في الجمُعة التي تليها جاءت امرأةٌ فقالت: أنتَ فلان بن فلانة؟ قال: نعم. قالت: إن بنتًا لي ماتت فرأيتُها في النَّوم جالسةً علىٰ شفير قبرِها، فقلت: ما أجلسكِ هاهنا؟ فقالت: إنَّ فلان بنَ فلانة جاء إلىٰ قبر أُمِّه فقرأ سورةَ يس وجعل ثوابها لأهل المقابر، فأصابنا من روح ذلك، أو غُفر لنا، أو نحو ذلك))[1].

- وأورد ابن القيم في كتابه الروح طرفًا من الرِّوايات المتعلِّقة بالقبور والدُّعاء ووصول الثواب للأموات فقال:

((ذكر عبدُالحقِّ عن بعض الصَّالحين قال: مات أخٌ لي، فرأيتُه في النوم فقلت: يا أخي ما كان حالُك حين وُضِعتَ في قبركَ؟ قال: أتاني آتٍ بشهابٍ من نارٍ فلولا أنَّ داعيًا دعا لي لهلكتُ.

وقال شبيب بن شيبة: أوصتني أمي عند موتِها فقالت: يا بُنيَّ إذا دفنتني فقُم عند قبري وقُل: يا أمَّ شبيب قولي لا إله إلا الله. فلما دفنتُها قمتُ عند قبرِها فقلت: يا أمَّ شبيب قولي لا إله إلا الله، ثم انصرفتُ فلما كان من الليل رأيتُها في النَّوم، فقالت: يا بُنيَّ

---

(1) القراءة عند القبور (ص 90).

كدتُ أهلِكُ لولا أنْ تداركتْني لا إله إلا الله، فقد حفظتَ وصيتي يا بُنيَّ.

وذكر ابن أبي الدُّنيا عن تُماضِر بنت سهل امرأة أيوب بن عيينة قالت: رأيت سفيانَ ابن عيينة في النَّوم فقال: جزىٰ الله أخي أيوب عنىٰ خيرًا فإنه يزورني كثيرًا، وقد كان عندي اليوم، فقال أيوب: نعم حضرتُ الجبَّانَ اليومَ فذهبتُ إلىٰ قبرِه.

وصحَّ عن حمَّاد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب أنَّ الصَّعب بن جثامة وعوف ابن مالك كانا متآخِيَين، قال صعب لعوف: أي أخي أيُّنا مات قبل صاحبِه فليتراءىٰ له، قال: أويكون ذلك؟ قال: نعم. فمات صعب فرآه عوف فيما يرىٰ النائم كأنَّه قد أتاه، قال: قلتُ أي أخي؟! قال: نعم. قلت: ما فُعِلَ بكم؟ قال: غُفِرَ لنا بعد المصائبِ قال: ورأيتُ لمعةً سوداءَ في عُنُقِه، قلت: أي أخي ما هذا؟ قال: عشرة دنانير استسلفتُها من فلان اليهودي فهُنَّ في قَرني فأعطوه إيَّاها، واعلم أنْ أي أخي أنه لم يحدث في أهلي حدثٌ بعد موتي إلا قد لحق بي خبرُه حتىٰ هِرةٌ لنا ماتت منذ أيام، واعلم أن بنتي تموت إلىٰ ستة أيامٍ فاستوصوا بها معروفًا، فلما أصبحتُ قلت: إنَّ في هذا لمعلمًا فأتيتُ أهلَه فقالوا: مرحبًا بعوف أهكذا تصنعون بتركة إخوانكم؟ لم تقربنا منذ مات صعب! قال: فأتيتُ فاعتللتُ بما يعتلُّ به الناس، فنظرتُ إلىٰ القَرن فأنزلتُه فانتثلتُ ما فيه فوجدتُ الصُّرة التي فيها الدنانير، فبعثت بها إلىٰ اليهودي، فقلت: هل كان لك علىٰ صعب شيء؟ قال: رحم الله صعبًا كان من خيار أصحاب رسول الله ﷺ هي له، قلتُ: لتخبرني. قال: نعم أسلفتُه عشرةَ دنانيرَ فنبذتُها إليه. قال: هي والله بأعيانها. قال: قلت هذه واحدةٌ.

قال: فقلت هل حدث فيكم حدث بعد موت صعب؟ قالوا: نعم حدث فينا كذا حدث. قال: قلت اذكروا. قالوا: نعم هرة ماتت منذ أيام. فقلت: هاتان اثنتان.

قلت: أين ابنة أخي؟ قالوا: تلعب فأتيتُ بها فمسستُها فإذا هي محمومةٌ فقلت: استوصوا بها معروفًا فماتت في ستة أيام))[1].

وذكر الإمام القرطبي طرفًا من تلك المنامات فقال: ((وقد حكي أن امرأة جاءت إلىٰ الحَسن البصري رحمه الله فقالت: إنَّ ابنتي ماتت وقد أحببتُ أن أراها في المنام، فعلِّمني صلاةً أُصلِّيها لعلِّي أراها، فعلَّمها صلاةً، فرأت ابنتَها وعليها لباسُ القَطران، والغُل في عنقِها، والقيد في رجلها، فارتاعت لذلك، فأعلمَت الحسنَ، فاغتمَّ عليها، فلم تمضِ مدّةٌ حتىٰ رآها الحسنُ في المنام وهي في الجنة علىٰ سريرٍ وعلىٰ رأسِها تاجٌ. فقالت له: يا شيخ أمَا تعرفني؟! قال: لا، قالت له: أنا تلك المرأة التي علَّمت أمي الصَّلاةَ فرأَتْني في المنام، قال لها: فما سبب أمرك؟ قالت: مرَّ بمقبرتنا رجلٌ فصلَّىٰ علىٰ النبيِّ ﷺ، وكان في المقبرة خمسمائة وستون إنسانًا في العذاب، فنُودي: ارفعوا العذابَ عنهم ببركة صلاة هذا الرجل علىٰ النبيِّ ﷺ))[2].

- وكذلك روىٰ الإمام القرطبي: قال أبو محمد عبدالحق: حدثني أبو الوليد إسماعيل ابن أحمد- عُرِفَ بابن أفرند- وكان هو وأبوه صالحَين معروفَين قال: مات أبي رحمه الله فحدَّثني بعض إخوانِه ممَّن يوثَق بحديثه، قال لي: زرتُ قبرَ أبيك فقرأتُ عليه حزبًا من القُرآن، ثم قلتُ: يا فلانُ، هذا قد أهديتُه لكَ فماذا لي؟ قال: فهبَّت عليَّ نفحةُ مسك غشيتني وأقامت معي ساعةً، ثم انصرفتُ وهي معي، فما فارقتني إلَّا وقد مشيتُ نصفَ الطريقِ.

قال أبو محمد: ورأيتُ لبعض مَن يوثَق به قال: ماتت لي امرأةٌ، فقرأتُ في بعض الليالي آياتٍ من القرآن، فأهديتُها لها، ودعوتُ الله عزَّ وجلَّ واستغفرتُ لها وسألتُ، فلما كان

---

(1) الروح لابن القيم (ص14).

(2) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة (ص280) لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي- تحقيق: د. الصادق بن محمد بن إبراهيم- دار المنهاج- الرياض- الطبعة الأولىٰ- 1425هـ.

في اليوم الثاني حدَّثتني امرأةٌ تعرفها وتعرفني قالت لي: رأيتُ البارحةَ فلانةً في النوم- تعني الميتةَ المذكورةَ- في مجلسٍ حسنٍ في دارٍ حسنةٍ، وقد أخرجتْ لنا أطباقًا من تحت سريرٍ كان في البيت، والأطباق مملوءة قواريرَ أنوارٍ، فقالت لي: هذا أهداه لي صاحبُ بيتي قال: وما كنتُ أعلَمْتُ بذلك أحدًا))[1].

- وقال البيهقي في شعب الإيمان: ((قال بِشر بن منصور: كان رجلٌ زمن الطاعون يختلف إلىٰ المقابر ثم يستقبل القبور فيقول: أمَّن الله روعتكم آنسَ الله وحشتكم رحم الله غُربَتكم تقبَّل الله حسناتِكم تجاوزَ الله عن سيئاتِكم، لا يزيد علىٰ هؤلاء الكلمات. قال الرجل: فانصرفتُ ذات يومٍ ولم أدعُ، فلما كان الليل رأيتُ فيما يرىٰ النائم خلقًا كثيرًا قد جاءوني، فقلت لهم: مَن أنتم؟ قالوا: أهل المقابر. قلت: وما حاجتكم؟ قالوا: إنكَ قد عوَّدتنا منكَ هديةً تُهديها إلينا عند انصرافك. قلت: وما هي؟ قالوا: الدعواتُ التي كنتَ تدعو بها لنا. قلت: فإني أعود لما كنتُ أدعو به. قال: فما تركتُ ذلك بعدُ))[2].

- وروىٰ ابن أبي الدُّنيا بسنده عن جميل بن مُرة قال: ((كان مُوَرِّقٌ العِجْليُّ لي أخًا وصديقًا، فقلت له ذات يوم: أيُّنا مات قبل صاحبه فليأتِ صاحبه فليخبره بالذي صار إليه. قال: فمات مُورِّق فرأتْ أهلي في منامِها كأنَّ مورِّقًا أتانا كما كان يأتي وقرع الباب كما كان يقرع. قالت: فقمتُ ففتحتُ له كما كنتُ أفتحُ. فقلت: ادخل أبا المعتمِر، الآن يأتي أخوك جميل. قال: فقال: كيف أدخل وقد ذقتُ الموتَ؟! إنما جئتُ لأُعلِمَ جميلًا بما صنع الله بي، أعلميه أنه قد جعلني من المقرَّبين))[3].

---

(1) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة (ص287).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (8859).

(3) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات (ص36- 37).

- وكذلك روىٰ بسنده عن حُميد الرؤاسي قال: ((رأيتُ الكسائي في النَّوم فقلت: إلىٰ ما صرت؟ قال: إلىٰ الجنة. قلت: بأي شيء؟ قال: رحمني بالقرآن. قال حُميد: يا أبا هند منذ رأيت هذه الرؤيا أترحم عليه وأدعو له))[1].

- وروىٰ بسنده أيضًا عن أبي صالح- كاتب الليث- ثني الليث: أن عميرة بن أبي ناجية الرُّعَيني قال: أَخذتُ يتيمًا من قريش وذهبتُ به إلىٰ منزلي فأطعمتُه ودهنته ووهبت له فلوسًا، وقلت: اللهمَّ أشرِكْ أُمي معي فيما صنعتُ بهذا اليتيم، ثم نمتُ فرأيتُ أمي أقبلتْ متلبِّسة علىٰ أحسن ما كانت، معها ذلك اليتيم تمشي حتىٰ وقفت عليَّ، ثم قالت: أي بُني لو رأيتَ ما صنع بي هذا الغلام منذ اليوم! قال: يقول الليث: أصابت به خيرًا للذي كان من ابنِها إلىٰ اليتيم))[2].

- أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق- عند ترجمته للشاعر المشهور أبي نواس- بسنده عن أسد بن القاسم الحلبي قال: ((حدثني خالي عبدالله بن صالح- وكان قد تأدَّب علىٰ الصنوبري- حدثني مَن أثق به: أنَّه رأىٰ أبا نُواس الحسن بن هانئ في النوم وهو في نعمةٍ كبيرة! فقال له: أبا نُواس؟! قال: نعم. قال: ما فعل الله بكَ؟ قال: غفر لي وأعطاني هذه النِّعمة. قال: قلت ومِمَّاذا وأنت كنتَ مُخلِّطًا؟! فقال لي: إليكَ عني، جاء بعض الصَّالحين إلىٰ المقابر في ليلةٍ من الليالي، فبسط رداءه في المقابر وصفَّ قدمه وصلَّىٰ ركعتين لأهل المقابر عن آخرهم، فدخلتُ أنا في جُملتهم))[3].

- أخرج البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عُيينة قال: ((لما مات أبي جزعتُ جزعًا شديدًا فكنتُ آتي قبرَه في كل يومٍ، ثم إني قصرتُ عن ذلك فرأيتُه في النوم فقال: يا بُني ما أبطأ بكَ عني؟ قلت: وإنكَ لتعلم

---

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات (ص57).

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات (ص135).

(3) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (13/465).

بمجيئي؟! قال: ما جئتَ مرةً إلا علمتُها، وقد كنتَ تأتيني فأُسرُّ بكَ ويُسرُّ مَن حولي بدعائك. قال: فكنتُ بعدُ آتيه كثيرًا))[1].

- وأخرج البيهقي بسنده عن أبي الدَّرداء هاشم بن محمد قال: سمعتُ رجلًا من أهل العِلم يقول: إنه كان يزور قبرَ أبيه، فطال عليه ذلك فقلت: أزور الترابَ، فرأيته في منامي فقال: يا بُني ما لك لا تفعل كما كنتَ تفعل؟! فقلت: أزور الترابَ. فقال: لا تفعل يا بُني فوالله لقد كنتَ تُشرف عليَّ فيبشرني بكَ جيراني، ولقد كنتَ تنصرف فما أزال أراكَ حتىٰ تدخل الكوفةَ))[2].

- وأخرج البيهقي أيضًا عن عثمان بن سودة- وكانت أُمُّه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة- قال: لما ماتت كنتُ آتيها في كلِّ ليلةِ جمُعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور قال: فرأيتُها ليلةً في منامي، فقلت: يا أُمَّه كيف أنت؟ فقالت: يا بُني إن الموتَ لشديد كربه، وأنا بحمد الله في برزخٍ محمودٍ أفترش فيه الرَّيحانَ وأتوسَّد فيه السُّندسَ والإستبرقَ، فقلت: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قلت: ما هي؟ قالت: لا تدع ما تصنع من زيارتِنا والدُّعاء لنا، فإني آنسُ بمجيئك يومَ الجُمعة إذا أقبلتَ من أهلِك يقال: يا راهبةُ قد أقبل من أهلكِ زائرٌ، فأُسرُّ ويُسرُّ بذلك مَن حولي من الأموات))[3].

- وقال الحافظ ابن رجب: ((أنبأني عليُّ بن عبدالصمد عن أحمد البغدادي عن أبيه قال: أخبرني قُسطنطين بن عبدالله الرُّومي، سمعت الأسد بن موسىٰ يقول: كان لي صديقٌ فمات فرأيتُه في النَّوم وهو يقول لي: سبحان الله! جئتَ إلىٰ قبر فلان صديقِكَ قرأتَ عنده وترحَّمت عليه، وأنا ما جئتَ إليَّ ولا قربتني! قلتُ له: وما يدريكَ؟ قال: لما جئتَ إلىٰ قبر صديقِكَ فلان رأيتُك، قلت: وكيف رأيتني والتراب عليكَ؟! قال: ما

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (7525).

(2) المصدر السابق (7526).

(3) المصدر السابق (7528).

رأيت الماء إذا كان في الزُّجاج ما يتبين؟ قلت: بلىٰ، قال: فكذلك نحن نرىٰ مَن يزورنا))[1].

- وأخرج ابن أبي الدنيا عن بعض السلف قال: ((رأيت أخًا لي في النوم بعد موته، فقلت: أيصل إليكَ دعاءُ الأحياء؟ قال: إي والله يترفرف مثلَ النور ثم نلبسُه))[2].

وعن عمرو بن جرير قال: ((إذا دعا العبدُ لأخيه الميتِ أتاه بها إلىٰ قبره ملَكٌ فقال: يا صاحبَ القبر الغريب هذه هدية من أخٍ عليك شفيق))[3].

- وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو الحسن البصري حدثني رباح- شيخ كان ينزل بالعدوية- عن جارٍ له قال: ((مررتُ بالمقابر فترحَّمتُ عليهم، فهتف بي هاتفٌ: نَعَمْ فترحَّم عليهم، فإن فيهم المهمومَ والمحزونَ))[4].

- وقال ابن رجب: ((روىٰ جعفر الخُلْدي حدثنا العباس بن يعقوب بن صالح الأنباري سمعت أبي يقول: رأىٰ بعضُ الصالحين أباه في النَّوم فقال له: يا بُنيَّ لِمَ قطعتم هديتكم عنَّا؟ قال: يا أبتِ وهل تعرف الأمواتُ هديةَ الأحياءِ؟ قال: يا بُنيَّ لولا الأحياء لهلكت الأموات))[5].

- وأخرج ابن النَّجار في تاريخه عن مالك بن دينار قال: دخلتُ المقبرةَ ليلةَ الجمُعة فإذا أنا بنورٍ مشرقٍ فيها، فقلت: لا إله إلا الله نرىٰ أنَّ الله عز وجل قد غفر لأهل المقابر، فإذا أنا بهاتف يهتف من البُعد وهو يقول: يا مالك بن دينار هذه هدية المؤمنين إلىٰ إخوانِهم من أهل المقابر، قلت: بالذي أنطقكَ إلا أخبرتني ما هو؟ قال: رجل من المؤمنين قام في هذه الليلة فأسبغ الوضوءَ وصلَّىٰ ركعتين وقرأ فيهما فاتحة الكتاب

(1) أهوال القبور وأحوال أهلها إلىٰ النشور (ص146) لابن رجب الحنبلي- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الثالثة- 1414هـ.

(2) ذكره الحافظ ابن رجب في أهوال القبور (ص218) وعزاه لابن أبي الدنيا.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (8858).

(4) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (49).

(5) أهوال القبور لابن رجب (ص219).

و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وقال: اللهم إنِّي قد وهبتُ ثوابَها لأهل المقابر من المؤمنين، فأَدخلَ الله علينا الضِّياء والنُّور والفسحة والسُّرور في المشرقِ والمغربِ. قال مالك: فلم أزل أقرؤهما في كلِّ ليلة جُمُعة، فرأيت النبيَّ ﷺ في منامي يقول لي: ((يا مالك بن دينار قد غفر الله لكَ بعدد النُّور الذي أهديتَه إلىٰ أُمتي ولكَ ثواب ذلك)) ثم قال لي: ((وبنىٰ الله لك بيتًا في الجنة في قصر يقال له: المنيف)) قلت: وما المنيف؟ قال: المُطل علىٰ أهل الجنة))[1].

- وأخرج ابن أبي الدنيا عن بشار بن غالب قال: ((رأيت رابعةَ في النوم- وكنت كثير الدُّعاء لها- فقالت لي: يا بشار هداياك تأتينا علىٰ أطباقٍ من نورٍ مخمَّرة بمناديل الحرير. قلت: وكيف ذاك؟ قالت: هكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتىٰ فاستُجيب لهم جُعل ذلك الدُّعاء علىٰ أطباق النُّور، ثم خُمِّر بمناديل الحرير، ثم أُتي به الذي دُعِي له من الموتىٰ فقيل له: هذه هدية فلان إليكَ))[2].

فهذه أيها الأخ الكريم صورٌ من تواصل الأموات مع الأحياء في النَّوم وغيره، وبيان أنهم ينتفعون بثواب الأعمال، وليس في ذلك التواصل شيءٌ من الاستحالة العقلية، فحياة البرزخ والقبور يمكن أن يحدث بينها وبين عالم الأحياء نوع اتصال، كما ورد ذلك في آلاف الروايات علىٰ مرِّ التاريخ البشري كله، وأيدته الشرائع والواقع المحسوس عبر العصور، وفي كل وقتٍ. ◆

(1) ذكره السيوطي في شرح الصدور بشرح حال الموتىٰ والقبور (ص306) وعزاه لابن النجار- دار المدني- جدة.

(2) ذكره ابن رجب في أهوال القبور (ص218)، وعزاه لابن أبي الدنيا.

الأحكام الفقهية المتعلقة
بإهداء ووصول ثواب الأعمال الصالحة للأموات

ونتعرَّض الآن لجانب الأحكام الفقهيَّةِ المتعلِّقةِ بهذه المسألة حتىٰ نرىٰ أن الشَّريعةَ قد فتحتْ أبوابَ الرَّحمةِ للأموات ولم تحرمهم من وصول النَّفع إليهم، حتىٰ وهم في عالم البرزخ، وسوف نذكر بعون الله تعالىٰ كلامَ أهل المذاهب الفقهيَّة المعتمدة في هذا الباب، وسيتبيَّن أن في الأمر سعةً كبيرة للمسلمين، وأنَّ الميِّتَ ينتفعُ بالأعمال التي تُوهب له في كافَّةِ أنواع الخير والعبادات، وسوف يتضح أنَّ عمل السلف الصالح وعلماء المسلمين وعامتهم كان وفقًا لهذا الأمر، وأن انتفاع الميت بأعمال الخير هو من الأمور المجمع عليها بين علماء المسلمين وأئمَّة المذاهب، و إنْ صاغوا كيفيَّةَ النفع والاستفادة التي تحصل للميت بعباراتٍ مختلفة لكنهم جميعًا متَّفقون علىٰ وصول خيرٍ ينتفع به الميت في حياته البرزخية بِوَهْبِ الأعمال الصَّالحة، فتُفتح له بذلك أبواب الرَّحمة ويُغلق عنه باب العذاب، وسيتضح من خلال أقوال العلماء في هذه المسألة أن مَن يقول بأن إهداءَ الأعمال للميت هو من البدع- أنه قد ضيَّق ما وسَّعته الشريعة علىٰ الناس، وخالف ما كان عليه السَّلف الصالح من إهدائِهم ثواب الأعمال الصالحة علىٰ اختلاف أنواعها البدنيَّة والماليَّة للموتىٰ، و إليك بعض التَّفصيل عند المذاهب الأربعة في هذه المسألة:

أولا: المذهب الحنفي:

يقول الشيخ فخر الدين الزيلعي الحنفي في تبيين الحقائق: ((باب الحج عن الغير: الأصل في هذا الباب أن الإنسانَ له أن يجعل ثوابَ عملِه لغيره عند أهل السُّنة والجماعة، صلاةً كان أو صومًا أو حجًّا أو صدقةً أو قراءةَ قرآنٍ أو الأذكار إلىٰ غير ذلك من جميع أنواع البرِّ، ويصل ذلك إلىٰ الميِّت وينفعه))[1].

---

(1) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق بحاشية الشِّلبيِّ (83/2) للإمام فخر الدين الزيلعي- المطبعة الأميرية - القاهرة- الطبعة الأولىٰ- 1313هـ.

ويقول ابن عابدين في كتابه رد المحتار علىٰ الدر المختار:

((ويقرأ يس لما ورد: ((مَن دخلَ المقابرَ فقرأ سورةَ يس خفَّف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد مَن فيها حسناتٌ))[1]. وفي شرح اللباب: ويقرأ من القرآن ما تيسر له من الفاتحة، وأول البقرة إلىٰ ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:5] وآية الكرسي و﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة:285] وسورة يس، وتبارك الملك، وسورة التكاثر، والإخلاص اثنىٰ عشر مرة أو إحدىٰ عشر أو سبعًا أو ثلاثًا، ثم يقول: اللهم أوصل ثوابَ ما قرأناه إلىٰ فلانٍ أو إليهم. اهـ)).

ثم قال رحمه الله: ((مطلب في القراءة للميت وإهداء ثوابها له: صرح علماؤنا في باب الحج عن الغير بأن للإنسان أن يجعل ثوابَ عمله لغيره صلاةً أو صومًا أو صدقةً أو غيرَها كذا في الهداية؛ بل في زكاة التتارخانيَّة عن المحيط: الأفضل لمن يتصدق نفلًا أن ينويَ لجميع المؤمنين والمؤمنات؛ لأنها تصل إليهم ولا ينقص من أجره شيءٌ. اهـ هو مذهب أهل السنة والجماعة، لكن استثنىٰ مالك والشَّافعي العبادات البدنية المحضة كالصَّلاةِ والتلاوةِ فلا يصل ثوابها إلىٰ الميت عندهما، بخلاف غيرها كالصَّدقة والحجِّ. وخالف المعتزلة في الكلِّ، وتمامه في فتح القدير.

أقول: ما مرَّ عن الشافعي هو المشهور عنه، والذي حرَّره المتأخرون من الشافعية وصول القراءة للميِّت إذا كانت بحضرته أو دعا له عقبها ولو غائبًا؛ لأن محل القراءة تنزل الرحمة والبركة، والدعاء عقبها أرجىٰ للقبول، ومُقتضاه أنَّ المرادَ انتفاعُ الميت بالقراءة لا حصول ثوابها له؛ ولهذا اختاروا في الدعاء: اللهم أوصلْ مثلَ ثواب ما قرأْتُه إلىٰ فلانٍ، وأما عندنا فالواصل إليه نفس الثواب.

وفي البحر: مَن صام أو صلَّىٰ أو تصدَّق وجعل ثوابَه لغيره من الأموات والأحياء جازَ، ويصل ثوابُها إليهم عند أهل السُّنة والجماعة كذا في البدائع. ثم قال: وبهذا عُلم أنه

(1) أخرجه الثعلبي في تفسيره (119/8) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

لا فرق بين أن يكون المجعول له ميتًا أو حيًّا. والظَّاهر أنَّه لا فرقَ بين أن ينويَ به عند الفعل للغير أو يفعله لنفسِه، ثم بعد ذلك يجعل ثوابه لغيره؛ لإطلاق كلامهم، وأنَّه لا فرق بين الفرض والنَّفل. اهـ وفي جامع الفتاوىٰ: وقيل: لا يجوزُ في الفرائض. اهـ

وفي كتاب الروح للحافظ أبي عبدالله الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية ما حاصله: أنه اختُلف في إهداء الثَّواب إلىٰ الحي؛ فقيل: يصح لإطلاق قول أحمد: يفعل الخير ويجعل نصفَه لأبيه أو أُمه. وقيل: لا لكونِه غير محتاج؛ لأنه يمكنه العمل بنفسه.

وكذا اختُلف في اشتراط نية ذلك عند الفعل، فقيل: لا لكن الثواب له فله التبرع به وإهداؤه لمن أراد كإهداء شيءٍ من ماله، وقيل نعم؛ لأنَّه إذا وقع له لا يُقبل انتقاله عنه، وهو الأولىٰ. وعلىٰ القول الأوَّل لا يصح إهداء الواجبات؛ لأن العامل ينوي القُربةَ بها عن نفسِه. وعلىٰ الثاني يصح، وتُجزئ عن الفاعل. وقد نُقل عن جماعةٍ أنهم جعلوا ثوابَ أعمالهم للسلمين، وقالوا: نلقىٰ الله تعالىٰ بالفقر والإفلاسِ، والشَّريعة لا تمنع من ذلك. ولا يُشترط في الوصول أن يهديه بلفظه، كما لو أعطىٰ فقيرًا بنيَّة الزكاة؛ لأن السُّنة لم تشترط ذلك في حديث الحجِّ عن الغير[1] ونحوه، نعم إذا فعله لنفسِه ثمَّ نوىٰ جعل ثوابه لغيره لم يكفِ، كما لو نوىٰ أن يهبَ أو يعتِق أو يتصدَّق، ويصح إهداء نصف الثَّواب أو رُبعه كما نصَّ عليه أحمد، ولا مانع منه. ويوضِّحه أنه لو أهدىٰ الكلَّ إلىٰ أربعةٍ يحصل لكل منهم ربعه، فكذا لو أهدىٰ الرُّبعَ لواحد وأبقىٰ الباقي لنفسه. اهـ ملخصًا.

---

(1) يشير إلىٰ حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب جزاء الصيد، باب الحج عمَّن لا يستطيع الثبوت علىٰ الراحلة (1853) ، ومسلم في كتاب الحج، باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما (1334) من حديث ابن عباس ﭭ قال: جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع قالت: يا رسولَ الله إنَّ فريضةَ الله علىٰ عباده في الحجِّ أدركتْ أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يستوي علىٰ الراحلة، فهل يقضي عنه أن أَحُجَّ عنه؟ قال: «نعم».

قلت: لكن سُئل ابنُ حجر المكي عمَّا لو قرأ لأهل المقبرة الفاتحة؛ هل يقسم الثواب بينهم أو يصل لكلٍّ منهم مثلَ ثواب ذلك كاملًا؟ فأجاب بأنه أفتىٰ جمعٌ بالثاني، وهو اللائق بسعة الفضل))[1].

ثانيًا: المذهب المالكي:

جاء في كتاب مواهب الجليل في شرح مختصر خليل للعلَّامة شمس الدِّين أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطَّاب الرُّعَيني المالكي (المتوفىٰ: 954هـ) ما نصه:

((قال القرطبيُّ: وينبغي لمن عزم علىٰ زيارة القبور أن يتأدَّب بآدابها ويُحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظُّه التطوافَ علىٰ الأجداث فإنَّ هذه حالة تشاركه فيها البهيمة؛ بل يقصد بزيارته وجهَ الله تعالىٰ، وإصلاح قلبه، ونفع الميت بالدعاء وما يتلو عنده من القرآن، ويسلِّم إذا دخل المقابر ويخاطبهم خطابَ الحاضرين فيقول: ((السلام عليكم دارَ قومٍ مؤمنين وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقونَ)) رواه أبو داود[2]. وكنىٰ بالدار عن عمَّارها، وإذا وصل إلىٰ قبر معرفته سلَّم عليه أيضًا، ويأتيه من تلقاء وجهه ويَعتبر بحاله.

ثم ذكر عن عاصم الجَحْدري أنه سُئل بعد موته: هل تعلمونَ بزيارتنا إياكم؟ فقال: نعلم به عشيةَ الخميس ويومَ الجمُعة كله ويومَ السبت إلىٰ طلوع الشمس لفضل يوم الجمُعة وعظمها.

وعن ابن واسع أن الموتىٰ يعلمون بزوَّارهم يومَ الجمعة ويومًا قبله ويومًا بعده، ثم قال سيدي عبدالرحمن الثَّعالبي: قال القرطبي وقد قيل: إن الأرواح تزور قبورَها كلَّ جمُعة علىٰ الدَّوام؛ ولذلك تُستحب زيارة القبور ليلة الجمُعة ويوم الجمُعة وبكرة السبت فيما ذكر العلماء رحمة الله عليهم.

---

(1) رد المحتار علىٰ الدر المختار (243/2) لمحمد أمين ابن عابدين- دار الفكر- بيروت.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (249) ، وأبو داود في كتاب الجنائز، باب ما يقول إذا زار القبور أو مر بها (3237) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وذكر ابن رشد في البيان والتحصيل: وقد جاء في الأرواح أنَّها بأفنية القبور، وأنَّها تطلع برؤيتها، وأن أكثر إطلاعها يومُ الخميس ويومُ الجمعة وليلةُ السبت. انتهىٰ.

ثم ذكر عن أحمدَ بنِ حنبل أنه قال: إذا دخلتم المقابرَ فاقرءُوا الفاتحة والمعوذتين، وقل هو الله أحد، واجعلوا ثوابَ ذلك لأهل المقابر فإنَّه يَصِلُ إليهم. ثم ذكر عن القرطبي من حديث علي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَن مَرَّ علىٰ المقابر وقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾ إحدىٰ عشرة مرةً ثم وهب أجرَه للأمواتِ أُعطي منَ الأجرِ بعددِ الأمواتِ))[1]. انتهىٰ.

ثم ذكر عن القرطبي أيضًا عن الحسن قال: مَن دخل المقابرَ فقال: اللهمَّ ربَّ هذه الأجسادِ البالية والعظامِ النَّخرةِ التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنةٌ أدخِل عليها روحًا منك وسلامًا منِّي- إلا كُتب له بعددهم حسناتٌ. انتهىٰ))[2].

وفي حاشية العلَّامة الدسوقي علىٰ الشرح الكبير للإمام أحمد الدردير ما نصُّه:

((وفي آخر نوازل ابن رشد في السؤال عن قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: 39] قال: وإنْ قرأ الرجل وأهدىٰ ثوابَ قراءته للمِّيت جاز ذلك وحصل للميت أجره. اهـ

وقال ابن هلال في نوازله: الذي أفتىٰ به ابنُ رشد وذهب إليه غيرُ واحدٍ من أئمَّتنا الأندلسيين أن الميت ينتفع بقراءة القرآن الكريم ويصل إليه نفعُه، ويحصل له أجرُه إذا وهب القارئ ثوابَه له، وبه جرىٰ عملُ المسلمين شرقًا وغربًا، ووقفوا علىٰ ذلك أوقافًا واستمرَّ عليه الأمر منذ أزمنةٍ سالفةٍ. ثم قال: ومن اللطائف أن عِزَّ الدِّين بن عبدالسَّلام

---

(1) أخرجه الحسن الخلال في فضائل سورة الإخلاص (ص 101).

(2) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (51/3) للإمام أبي عبدالله محمد بن محمد الحطاب الرُّعيني- ضبطه: زكريا عميرات- دار عالم الكتب.

الشافعي رُئي في المنام بعد موته فقيل له: ما تقول فيما كنت تُنكر من وصول ما يُهدىٰ من قراءة القرآن للموتىٰ؟ فقال: هيهات وجدتُ الأمرَ علىٰ خلافِ ما كنتُ أظنُّ))[1].

ثالثًا: المذهب الشَّافعي:

قد توافرتِ النصوصُ في مذهب الشَّافعية بانتفاع الأموات بسعي وأعمال الأحياء من القراءة والدُّعاء وسائر أعمال الخير، ولم يقل أحد منهم بأن الميِّتَ لا يصل إليه نفع من قراءة القرآن والعمل الصالح، وإنَّما الذي تكلموا فيه أنَّه لا يصلُ إليه عين الثواب الذي يحصل للقارئ أو عين ثواب الفعل، وإنَّما يصلُ للمِّيت نوع ثواب ورحمة ونفع بما يُفعل من أجله من سائر أعمال الخير، وهذا أمرٌ متَّفق عليه بين علماء المسلمين، فليسَ عند الشَّافعية أنَّه لا يصل لميت بقراءة القرآن مثلًا ثواب ونفعٌ، وإنَّما قالوا بعدم حصول نفس ثواب العمل الذي هو للفاعل والقارئ مع حدوث نفع وفائدة لميت، وهذا هو الذي وضَّحه أئمَّة المذهب ومحقِّقوه، وليس كما يزعم البعضُ أن مذهب الشافعية يقول بعدم وصول الثَّواب لميت من القراءة أخذًا بظاهر عباراتهم دون معرفة لإطلاقاتهم، فحيثما وُجدت عبارة تقول بعدم وصول ثواب القراءة فالمقصود بها عين ثواب هذه القراءة التي للقارئ وليس المقصود منها نفي انتفاع الميت مطلقًا بالقراءةِ، فربما وقع لميت أضعافٌ مضاعفة من النَّفع أكثر مما يقع للقارئ؛ لأنَّه من المعلوم أنَّه لا حرج علىٰ فضل الله ورحمته، وهذا هو ما تبينه نصوص وفهم علماء المسلمين من سائر المذاهب وما أيَّدته الرِّوايات التي وردت عن أحوال الموتىٰ وأمور البرزخ، فلا يحقُّ لمن يعظ النَّاس ويتكلم في العِلم أن يضيق علىٰ المسلمين ما وسَّعه الله عليهم، ويرجِّح بهواه ما يراه مناسبًا مع ما يلزم نفسه به من مسلك متشدد، ويزعم أن هذا هو مذهب أهل السُّنة.

(1) حاشية الدسوقي علىٰ الشرح الكبير (423/1) لمحمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي - دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ الحلبي.

وهناك نقطة يجب الالتفات لها وهي أنَّ قراءة القرآن للميت ينبغي أن تكون أهم المسائل التي تُتناول في مسألة انتفاع الميت بأعمال الخير؛ وذلك لأنها في متناول كلِّ شخصٍ مسلم صغير أو كبير، فليس في متناول كل شخص مثلًا أن يتصدَّق أو يوقِف أوقافًا لصالح الميت، ولكن في وُسع عامة المسلمين أن يقرءوا القرآن الكريم علىٰ أرواح موتاهم، ولو آية واحدة، ونورد الآن طرفًا من أقوال علماء الشافعية:

قال الإمام النووي في المجموع: ((قال أصحابنا رحمهم الله: ويستحب للزائر أن يسلِّم علىٰ المقابر ويدعو لمن يزوره ولجميع أهل المقبرة، والأفضل أن يكون السَّلام والدعاء بما ثَبَتَ في الحديث، ويُستحبُّ أن يقرأ من القرآن ما تيسَّر، ويدعو لهم عقبها، نَصَّ عليه الشافعي واتَّفق عليه الأصحابُ))[1].

وقال في الأذكار: ((باب ما يقوله بعد الدَّفن: السُّنة لمن كان علىٰ القبر أن يحثي في القبر ثلاث حثيات بيديه جميعًا من قِبل رأسِه . قال جماعة من أصحابنا: يستحب أن يقول في الحثية الأولىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وفي الثانية : ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾. وفي الثالثة: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:55]. ويستحب أن يقعد عنده بعد الفراغ ساعةً قدر ما يُنحر جَزورٌ ويقسم لحمها، ويشتغل القاعدون بتلاوة القرآن والدعاء للميت والوعظ، وحكايات أهل الخيرِ وأحوال الصَّالحين))[2].

وقال في رياض الصالحين: قال الشافعي رحمه الله: ((ويُستحب أن يُقرأ عنده شيءٌ من القرآن، و إن ختموا القرآنَ عنده كان حسنًا))[3].

---

(1) المجموع شرح المهذب (192/5) لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي- إدارة الطباعة المنيرية.

(2) الأذكار من كلام سيد الأبرار (186/1) للنووي- مكتبة نزار مصطفىٰ الباز- مكة المكرمة- الطبعة الأولىٰ 1417هـ-1997م.

(3) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين (363/1) للنووي- تحقيق علي بن حسن بن علي الحلبي- دار ابن الجوزي- الطبعة الأولىٰ 1421هـ.

ويقول الإمام أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي- وهو من أئمة المذهب المتأخرين ومن عليهم الفتوىٰ في المذهب الشافعي في كتابه تحفة المحتاج في شرح المنهاج:

((وقد نصَّ الشافعي والأصحاب علىٰ ندب قراءة ما تيسَّر عند الميتِ والدُّعاء عقبها أي؛ لأنه حينئذٍ أرجىٰ للإجابة؛ ولأن الميت يناله بركةُ القراءة كالحيِّ لا المستمع؛ لأن الاستماع يستلزم القصد فهو عمل، وهو منقطعٌ بالموت، وسماع الموتىٰ هو الحق، وإن قيل لا يلزم من السلام عليهم سماعهم؛ لأن القصد به الدعاء بالسَّلامة لهم من الآفات، كما في: السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلىٰ عباد الله الصَّالحين.

قال ابن الصلاح: وينبغي الجزمُ بنفع اللهم أوصل ثوابَ ما قرأناه، أي: مثله فهو المراد، وإنْ لم يصرح به لفلان؛ لأنه إذا نفعه الدعاء بما ليس للدَّاعي فما له أولىٰ، ويجري هذا في سائر الأعمال، وبما ذكره في أوصل ثوابَ ما قرأناه إلىٰ آخره يندفع إنكار البرهان الفزاري قولهم: اللهم أوصل ثوابَ ما تلوتُه إلىٰ فلانٍ خاصَّةً وإلىٰ المسلمين عامَّةً؛ لأن ما اختصَّ بشخصٍ لا يُتصور التعميم فيه))[1].

وقال الإمامُ النَّوويُّ في كتابه روضة الطالبين وعمدة المفتين:

((فرع: عن القاضي حسين في الفتاوىٰ: أنَّ الاستئجار لقراءة القرآن علىٰ رأس القبر مدةً جائزٌ، كالاستئجار للأذان وتعليم القرآن.

واعلم أن عود المنفعة إلىٰ المستأجِر شرطٌ، فيجب عودها في هذه الإجارة إلىٰ المستأجِر أو ميِّتِه، فالمستأجر لا ينتفع بقراءة غيرِه، ومعلوم أن الميت لا يلحقه ثواب القراءة المجرَّدة، فالوجه تنزيل الاستئجار علىٰ صورة انتفاع الميت بالقراءة، وذكروا له طريقين:

أحدهما: أن يعقب القراءة بالدُّعاء للميت؛ لأن الدعاء يلحقه، والدعاء بعد القراءة أقربُ إجابةً وأكثرُ بركةً.

---

(1) تحفة المحتاج في شرح المنهاج (7/75) لأحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي- المكتبة التجارية- مصر.

والثاني: ذكر الشيخ عبدالكريم السَّالوسي: أنه إن نوىٰ القارئ بقراءته أن يكون ثوابُها للميت- لم يلحقه. وإنْ قرأ، ثم جعل ما حصل من الأجر له، فهذا دعاءٌ بحصول ذلك الأجر للمِّيت، فينفع الميتَ.

قلتُ: ظاهر كلام القاضي حسين: صحة الإجارة مطلقًا- وهو المختارُ- فإنَّ موضع القراءة موضع بركة، وبه تنزل الرَّحمة، وهذا مقصودٌ ينفع الميت. والله أعلم))[1].

قال الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشِّربيني الشافعي:

((ويُندب أن يُسلِّمَ الزائر لقبور المسلمين مستقبلًا وجهَ الميت قائلًا ما علمه ﷺ إذا خرجوا للمقابر: ((السلام علىٰ أهل الدَّار من المؤمنين والمسلمين وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقونَ أسألُ الله لي ولكم العافيةَ)). أو: ((السلام عليكم دارَ قومٍ مؤمنين وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقونَ)) رواهما مسلم[2]. وزاد أبو داود: ((اللهمَّ لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنَّا بعدَهم))[3]. لكن بسند ضعيف.

وقوله: إن شاء الله. للتبرُّك، ويقرأ عندهم ما تيسر من القرآن، فإن الرحمة تنزل في محل القراءة، والميت كحاضر تُرجىٰ له الرحمة، ويدعو له عقب القراءة؛ لأن الدُّعاء ينفع الميتَ، وهو عقب القراءة أقربُ إلىٰ الإجابة، وأن يَقرُبَ زائرُه منه كقربه منه في زيارته حيًّا احترامًا له، قاله النووي. ويستحب الإكثار من الزيارة، وأن يكثر الوقوفَ عند قبور أهلِ الخيرِ والفضلِ))[4].

---

(1) روضة الطالبين وعمدة المفتين-لأبي زكريا محيي الدين النووي- تحقيق: زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- بيروت-الطبعة الثالثة- 1991م.

(2) تقدم تخريجهما.

(3) لم نقف عليه في المطبوع من سنن أبي داود، وقد أخرجه ابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر (1546)، وأحمد في مسنده (6/ 71) من حديث عائشة رضي الله عنها به مرفوعًا. وعزاه الحافظ ابن حجر في تخريج الأذكار (5/ 23) لأحمد وابن ماجه ولم يعزه لأبي داود.

(4) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (424/1) للإمام الخطيب الشربيني- تحقيق: علي محمد معوض وعادل

قال الإمام أبو بكر (المشهور بالبكري) عثمان بن محمد شطا الدِّمياطي الشافعي: ((وحكىٰ المصنِّف في شرح مسلم والأذكار وجهًا: أنَّ ثوابَ القراءةِ يصل إلىٰ الميت، كمذهب الأئمَّة الثلاثة، واختاره جماعةٌ من الأصحاب، منهم ابن الصَّلاح، والمحب الطَّبريُّ، وابن أبي الدم، وصاحب الذخائر، وابن أبي عصرون. وعليه عمل الناس. وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسنٌ. وقال السُّبكي: الذي دلَّ عليه الخبرُ بالاستنباطِ أنَّ بعضَ القرآن إذا قُصد به نفع الميت وتخفيف ما هو فيه- نفعه؛ إذ ثبت أنَّ الفاتحة لمَّا قَصد بها القارئُ نفعَ الملدوغ نفعته، وأقره النبيُّ ﷺ بقوله: ((وما يدريكَ أنها رقيةٌ؟))[1]. وإذا نفعت الحيَّ بالقصدِ كان نفع الميت بها أولىٰ))[2].

رابعًا: المذهب الحنبلي:

يقول ابن قدامة رحمه الله في المغني ما نصه: ((فصل: قال ولا بأس بالقراءة عند القبر، وقد رُوي عن أحمدَ أنه قال: إذا دخلتم المقابرَ اقرءوا آيةَ الكرسيِّ وثلاثَ مرات ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، ثم قل: اللهم إنَّ فضله لأهل المقابر. وروي عنه أنه قال: القراءة عند القبر بدعةٌ، وروي ذلك عن هشيم قال أبو بكر: نقل ذلك عن أحمدَ جماعةٌ، ثم رجع رجوعًا أبان به عن نفسه، فروىٰ جماعةٌ أن أحمد نهىٰ ضريرًا أن يقرأ عند القبر، وقال له: إنَّ القراءة عند القبر بدعةٌ. فقال له محمد بن قُدامة الجوهري: يا أبا عبدالله: ما تقول في مُبشر الحلبي؟ قال: ثقة. قال: فأخبرني مُبَشِّر عن أبيه: أنه أوصىٰ إذا دُفن يقرأ عنده بفاتحة

أحمد عبدالموجود- دار الكتب العلمية- بيروت.

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب ما يعطىٰ في الرقية علىٰ أحياء العرب بفاتحة الكتاب (2276) ، ومسلم في كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة علىٰ الرقية بالقرآن والأذكار (2201) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(2) إعانة الطالبين علىٰ حل ألفاظ فتح المعين (3/258) لأبي بكر عثمان بن محمد شطا الدِّمياطي الشافعي- دار الفكر- الطبعة الأولىٰ- 1997م.

البقرة وخاتمتها. وقال: سمعتُ ابنَ عمر يوصي بذلك. قال أحمد بن حنبل: فارجع فقُل للرَّجل يقرأ.

وقال الخلال: حدثني أبو علي الحسن بن الهيثم البزّار- شيخنا الثِّقة المأمون- قال: رأيت أحمد بن حنبل يصلي خلف ضرير يقرأ على القبور. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَن دخل المقابرَ فقرأ سورةَ يس خُفِّفَ عنهم يومئذٍ وكان له بعدد مَن فيها حسناتٌ))[1]. وروي عنه عليه السلام: ((مَن زارَ قبرَ والديه أو أحدِهما فقرأ عندَه أو عندَهما يس غُفِر له))[2].

فصل: وأي قُربة فَعَلَها وجعل ثوابَها للمِّيت المسلم نفعه ذلك إن شاء الله، أما الدعاء والاستغفار والصدقة وأداء الواجبات- فلا أعلم فيه خلافًا إذا كانت الواجبات مما يدخله النِّيابة، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر:10]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد:19]. ودعا النبي ﷺ لأبي سلمة حين مات[3]، وللميت الذي صلَّىٰ عليه في حديث عوف بن مالك[4]، ولكل ميت صلىٰ عليه. ولذي البِجادين حتىٰ دفنه[5]. وشرع الله ذلك لكل مَن صلَّىٰ علىٰ ميت. وسأل رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ أمي

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه ابنُ عديٍّ في الكامل (5/152- ترجمة عمرو بن زياد بن عبدالرحمن بن ثوبان) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(3) تقدم تخريجه.

(4) تقدم تخريجه.

(5) يشير إلىٰ حديث أخرجه البزار في مسنده (1706) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: والله لكأني أسمع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبر عبدالله ذي البِجادين وأبو بكر وعمر- رحمة الله عليهما- وهو يقول: ((فأولوني صاحبَكما)) حتىٰ وسَّده في لحده، فلما فرغ من دفنه استقبل القبلة فقال: ((اللهمَّ إني أمسيتُ عنه راضيًا فارضَ عنه)).

ماتت، فينفعها إنْ تصدقتُ عنها؟ قال: ((نعم)) رواه أبو داود. وروي ذلك عن سعد بن عُبادة...))[1].

ثم قال بعد ذلك- أي ابن قدامة: ((وهذه أحاديث صحاحٌ، وفيها دلالة علىٰ انتفاع الميت بسائر القُرب؛ لأن الصوم والحج والدعاء والاستغفار عبادات بدنية، وقد أوصل الله نفعها إلىٰ الميت، فكذلك ما سواها، مع ما ذكرنا من الحديث في ثواب مَن قرأ يس، وتخفيف الله تعالىٰ عن أهل المقابر بقراءته. وروىٰ عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال لعمرو بن العاص: ((لو كان أبوك مسلمًا فأعتقتم عنه أو تصدَّقتم عنه أو حَجَجْتُم عنه بلغه ذلكَ))[2]. وهذا عامٌّ في حجِّ التَّطوع وغيرِه؛ ولأنه عمل برٍّ وطاعةٍ، فوصَل نفعُه وثوابُه، كالصَّدقة والصِّيام والحجِّ الواجب.

وقال الشافعي: ما عدا الواجب والصَّدقة والدعاء والاستغفار لا يُفعل عن الميتِ، ولا يصل ثوابه إليه؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:39]، وقول النبي ﷺ: ((إذا مات ابنُ آدمَ انقطع عملُه إلَّا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ أو عِلْمٍ يُنتفع به من بعدِه أو ولدٍ صالحٍ يدعو له))[3]. ولأنَّ نفعه لا يتعدىٰ فاعلَه، فلا يتعدىٰ ثوابه.

وقال بعضهم: إذا قُرئ القرآن عند الميت أو أُهدي إليه ثوابُه- كان الثواب لقارئِه، ويكون الميِّت كأنَّه حاضرها، فتُرجىٰ له الرَّحمةُ.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضًا ولم يبين الحدود فهو جائز وكذلك الصدقة (2770)، وأبو داود في كتاب الوصايا، باب ما جاء فيمن مات عن غير وصية يتصدق عنه (2882) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأما حديث عبادة؛ فأخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب إذا قال أرضي أو بستاني صدقة لله عن أمي فهو جائز وإن لم يبين لمن ذلك (2756) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) جزء من حديث أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا، باب ما جاء في وصية الحربي يُسْلِم وليُّه أيلزمه أن ينفذها؟ (2883).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (1631) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولنا: ما ذكرناه وأنه إجماع المسلمين؛ فإنهم في كل عصرٍ ومِصْرٍ يجتمعون ويقرءون القرآنَ، ويُهدون ثوابَه إلىٰ موتاهم من غير نكيرٍ؛ ولأنَّ الحديث صحَّ عن النبي ﷺ: ((إنَّ الميتَ يعذَّبُ ببكاءِ أهلِه عليه))[1].

والله أكرم من أن يوصل عقوبةَ المعصيةِ إليه ويحجبَ عنه المثوبةَ، ولأنَّ المُوصلَ لثواب ما سلَّموه قادرٌ علىٰ إيصال ثواب ما منعوه، والآية مخصوصة بما سلَّموه، وما اختلفنا فيه في معناه فنقيسه عليه.

ولا حجة لهم في الخبر الذي احتجُّوا به، فإنما دلَّ علىٰ انقطاع عملِه، فلا دلالة فيه عليه، ثم لو دلَّ عليه كان مخصوصًا بما سلَّموه، وفي معناه ما منعوه، فيتخصص به أيضًا بالقياس عليه، وما ذكروه من المعنىٰ غير صحيح، فإن تعدِّي الثواب ليس بفرعٍ لتعدِّي النفع، ثم هو باطلٌ بالصوم أو الحجِّ، وليس له أصلٌ يُعتبر به، والله أعلم))[2].

- ويقول الشيخ أبو إسحاق برهان الدين ابن مُفلح الحنبلي- وهو من أئمة الحنابلة- تحت عنوان: ما ينفع الميت بعد موته:

((وأي قُربة فعلها) من دعاءٍ واستغفارٍ وصلاةٍ وصومٍ وحجٍّ وقراءةٍ، وغيرِ ذلك (وجعل ثوابَ ذلك للميتِ المسلم نفعَه ذلكَ).

قال أحمد: الميتُ يصل إليه كلُّ شيء من الخير للنصوص الواردة فيه؛ ولأن المسلمين يجتمعون في كل مِصْرٍ ويقرءون ويُهدون لموتاهم من غير نكيرٍ فكان إجماعًا، وكالدعاء والاستغفار، حتىٰ لو أهداها للنَّبيِّ ﷺ جاز، ووصل إليه الثوابُ. ذكره المجد.

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: ((يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه)) إذا كان النوح من سُنته (1286)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه (927) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) المغني شرح مختصر الخِرَقي (3/518-523) لأبي محمد موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قُدامة المقدسي الحنبلي - تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي وعبدالفتاح محمد الحلو- دار عالم الكتب- الرياض- الطبعة الثالثة 1997م.

وقال الأكثر: لا يصل إلىٰ الميت ثوابُ القراءة، وإنَّ ذلك لفاعِله، واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: 39]، و﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، وبقوله عليه السلام: ((إذا مات الإنسانُ انقطعَ عملُه)). وجوابه: بأن ذلك في صحف إبراهيم وموسىٰ[1].

قال عكرمة: هذا في حقِّهم خاصة بخلاف شرعنا؛ بدليل حديث الخثعمية[2]، أو بأنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ [الطور: 21]، أو أنها مختصة بالكافر، أي: ليس له من الجزاء إلا جزاءُ سعيه توفَّاه في الدُّنيا، وما له في الآخرة من نصيبٍ، أو أن معناه: ليس للإنسان إلا ما سعىٰ عدلًا، وله ما سعىٰ غيرُه فضلًا، أو أن اللام بمعنىٰ علىٰ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: 25].

وعن الثانية: بأنها بدل المفهوم، ومنطوق السُّنة بخلافه.

وعن الحديث: بأن الكلام في عمَلِ غيرِه لا عمَلِه، فعلىٰ هذا لا يفتقر أن ينويه حالَ القراءةِ. نصَّ عليه. وذكر القاضي أنه يقول: اللهم إن كنتَ أَثَبْتَني علىٰ هذا فاجعله أو ما يشابه لفلانٍ.

وقيل: يسير الثواب ثم يجعله له، ولا يضر جهلُه به؛ لأن الله يعلمه.

وبالغ القاضي فقال: إذا صلىٰ فرضًا وأهدىٰ ثوابَه صحَّت الهدية، وأجزأ فاعله، وفيه بُعدٌ، فلو أهدىٰ بعضَ القُربة، فنقل الكحَّال في الرجل يعمل شيئًا من الخير من الصلاة ونحوها، ويجعل نصفه لأبيه أو أمه قال: أرجو- وظاهر كلامه وكلام صاحب التلخيص والمحرر- أنه إذا جعل ثواب قُرْبَةٍ لحيٍّ لا ينفعه ذلك، والمذهب: أنَّ الحيَّ كالميت في ذلك.

---

(1) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿36﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: 36- 37].

(2) تقدَّم تخريجه.

قال القاضي: لا يُعرف روايةٌ بالفَرق بل ظاهر الرواية يَعُمُّ؛ لأن المعنىٰ فيهما واحد، قال ابن المُنجَّا: ولعل المصنف إنما ذكر الميت لأنَّ أكثر الأدلة فيه، وحاجته إلىٰ الثَّواب أكثرُ، وأنه إذا جعلها لغير مُسلِم لا ينفعه، وهو صحيح لنصٍّ ورد فيه))[1].

- وقال الشيخ أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ:

((فصل: وأمَّا القراءة والصَّدقة وغيرهما من أعمال البرِّ فلا نزاعَ بين علماء السُّنة والجماعة في وُصُولِ ثواب العبادات الماليَّة كالصَّدقة والعِتقِ، كما يصل إليه أيضًا الدُّعاء والاستغفار والصَّلاة عليه- صلاة الجنازة- والدعاء عند قبرِه.

وتنازعُوا في وُصُولِ الأعمال البدنيَّة: كالصوم والصَّلاة والقراءة. والصواب أن الجميع يصل إليه، فقد ثبت في الصَّحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَن مات وعليه صيامٌ صام عنه وليُّه))[2]. وثبت أيضًا: أنه أمر امرأةً ماتت أمُّها وعليها صومٌ أن تصوم عن أمِّها[3]. وفي المسند عن النبي ﷺ أنه قال لعمرو بن العاص: ((لو أن أباك أسلم فتصدقتَ عنه أو صمتَ أو أعتقتَ عنه نفعَه ذلك))[4]. وهذا مذهب أحمد وأبي حنيفة وطائفة من أصحاب مالك والشافعي.

وأما احتجاج بعضهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: 39].

فيقال له: قد ثبت بالسُّنة المتواترة وإجماع الأمة: أنه يُصلىٰ عليه ويُدعىٰ له ويستغفر له، وهذا من سعي غيره، وكذلك قد ثبت ما سلف من أنه ينتفع بالصَّدقة عنه

(1) المبدع في شرح المقنع (2/282) للإمام إبراهيم بن محمد بن مفلح - تحقيق محمد حسن إسماعيل الشافعي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1997م.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب مَن مات وعليه صوم (1952)، ومسلم في كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت (1147) من حديث عائشة ﵂

(3) يُشيرُ إلىٰ حديث أخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت (1148) من حديث ابن عباس ﵄.

(4) تقدم تخريجه.

والعتق، وهو من سعي غيرِه، وما كان من جوابهم في موارد الإجماع فهو جواب الباقين في مواقع النزاع.

وللناس في ذلك أجوبة متعددة، لكن الجواب المحقَّق في ذلك: أنَّ الله تعالىٰ لم يقل إن الإنسان لا ينتفع إلا بسعي نفسه وإنما قال: ﴿لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ فهو لا يملك إلا سعيه ولا يستحقُّ غيرَ ذلك، وأما سعي غيره فهو له، كما أنَّ الإنسان لا يملك إلا مال نفسِه ونفع نفسِه، فمال غيره ونفع غيره هو كذلك للغير؛ لكن إذا تبرع له الغير بذلك جاز. وهكذا هذا إذا تبرع له الغير بسعيه نَفعَه الله بذلك كما ينفعه بدعائه له والصَّدقة عنه، وهو ينتفع بكلِّ ما يصل إليه من كلِّ مسلمٍ سواء كان من أقاربه أو غيرِهم كما ينتفع بصلاة المصلِّين عليه ودعائِهم له عندَ قبرِه))[1].

- وفي كتاب الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي، وهو من أكثر الكتب تحريرًا لمذهب الإمام أحمد:

((قوله: (ولا تكره القراءة علىٰ القبر في أصحِّ الروايتين) وهذا المذهب قاله في الفروع وغيره، ونصَّ عليه. قال الشارح: هذا المشهورُ عن أحمد.

قال الخلَّال وصاحب المذهب: رواية واحدة لا تُكره، وعليه أكثرُ الأصحاب، منهم القاضي وجزم به في الوجيز وغيره، وقدَّمه في الفُروع، والمغني، والشرح، وابن تميم، والفائق وغيرهم.

والرِّواية الثانية: تُكره. اختارها عبدالوهاب الورَّاق، والشيخ تقي الدِّين، قالَه في الفروع واختارها أيضًا أبو حفص.

قال الشيخ تقي الدين: نقلها جماعة، وهي قول جمهور السلف، وعليها قدماء أصحابه، وسمَّىٰ المروذي. انتهىٰ.

---

(1) مجموع الفتاوىٰ (367/24) تأليف: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية- المحقق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم- مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة.

قلت: قال كثير من الأصحاب: رجع الإمام أحمد عن هذه الرواية، فقد روىٰ جماعةٌ عن الإمام أحمد: أنه مرَّ بضريرٍ يقرأ عند قبرٍ فنهاه، وقال: القراءة عند القبر بدعةٌ...)). ثم ذكر قصة رجوعه والتي سبق أن نقلناها عن ابن قدامة في المغني قريبًا.

ثم قال الإمام المرداوي بعد ذلك: ((قال في الفائق: يستحبُّ القراءة علىٰ القبر. نصَّ عليه أخيرًا. قال ابن تميم: لا تُكره القراءة علىٰ القبر؛ بل تُستحبُّ. نصَّ عليه، وقيل: تباح. قال في الرعاية الكبرىٰ: وتُباح القراءة علىٰ القبر. نصَّ عليه، وقدَّمه في الرعاية الصُّغرىٰ والحاويين. قال في المغني والشرح وشرح ابن رزين: لا بأس بالقراءة عند القبر، وأطلقهما في الفروع.

قوله: (وأي قُربةٍ فعلها وجعلها لميت المسلم نفعه ذلك) وهو المذهب مطلقًا، وعليه جماهير الأصحاب وقطع به كثير منهم، وهو من المفردات))[1].

- قال الشيخ العلَّامة منصور البهوتي- وهو من أئمَّة المذهب الحنبلي المعتمدين: (((ولا تُكره القراءةُ علىٰ القبر و) لا (في المقبرة بل تُستحب) لما روىٰ أنسٌ مرفوعًا قال: ((مَن دخل المقابرَ فقرأ فيها يس خُفِّفَ عنهم يومئذٍ وكان له بعددِهم حسنات))[2]. وصحَّ عن ابن عمرو: أنَّه أوصىٰ إذا دُفن أن يُقرأ عنده بفاتحة البقرة وخاتمتها. ولهذا رجع أحمدُ عن الكراهة. قاله أبو بكر، لكن قال السَّامري: يُستحب أن يُقرأ عند رأسِ القبر بفاتحة البقرة وعند رجلَيهِ بخاتمتِها.

(وكل قُربة فعلها المسلم وجعل ثوابها أو بعضها كالنِّصف ونحوه) كالثلث أو الربع (لمسلم حيٍّ أو ميتٍ جاز) ذلك (ونفعه ذلك لحصول الثواب له حتىٰ لرسول الله ﷺ) ذكره المجد (من) بيان لكل قُربة (تطوع وواجب تدخله النِّيابة كحجٍّ ونحوِه) كصوم نذرٍ (أو لا)

(1) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (2/559) للإمام أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي- دار إحياء التراث العربي.

(2) تقدم تخريجه.

تدخله النِّيابة (كصلاةٍ وكدعاء واستغفار وصدقةٍ) وعتق (وأضحية وأداء دَينٍ وصومٍ وكذا قراءة وغيرها).

قال أحمد: الميت يصل إليه كلُّ شيء من الخير؛ للنصوص الواردة فيه؛ ولأن المسلمين يجتمعون في كل مِصْرٍ ويقرءون ويُهدون لموتاهم من غير نكير فكان إجماعًا))[1].

فهذه أيها الأخ الكريم نصوص ومعتمدات المذاهب الأربعة التي تصرِّحُ بوصول النَّفع إلىٰ الميت بسائر الأعمال، سواءٌ أُطلق علىٰ هذا النَّفع عين ثواب الفعل أو غيره من صور الرَّحمة والبركة ورفع العذاب وحدوث التنعيم، ولم يقل أحد من علماء المسلمين بالتَّفريقِ في حدوث النفع بين القراءة وغيرها من الأعمال الصالحة في وصول الثواب والنفع؛ لأنه لا يوجد نصٌّ أو خاصية تسمح بوصول ثواب الصيام والصدقة مثلًا وتمنع وصول النَّفع للميت بقراءة القرآن الكريم له، مع تسليمِنا بأنَّ كلام الله لا يُعادله شيءٌ، وأنَّ بركته لا يعادلها بركةٌ، فلا فرق بين سائر أعمال الخير من حيث وصول نفعها للميت.

وأما أن يقول قائل: إن هذا عملٌ لم يَرِد عن رسول الله ﷺ والسلف الصالح.

فيقال له: بل ورد في نصوص السُّنة ما يأمر بقراءة القرآن الكريم للموتىٰ، ووردَ في سلوك الصَّحابة وسلفنا الصالح وتراجم أهل العِلْم والصَّالحين من الأفعال ما يؤكِّد أخذهم بذلك وتحريهم قراءة القرآن للموتىٰ بغيةَ النفع وإيصال الثواب لهم، وقد مرَّت بنا بعض هذه النصوص، وسوف نزيد الأمر تأكيدًا بذِكر طرفٍ آخر منها:

1- فقد روىٰ أبو داود في سننه بسنده عن مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ أن رسول الله ﷺ قال: ((اقْرَءُوا ﴿يس﴾ علىٰ مَوتاكم))[2]. وهذا يحتمل أن تكون هذه القراءة عند الميت في حال موته، ويحتمل أن تكون عند قبره، أو في أي مكان.

---

(1) كشاف القناع عن متن الإقناع (618/1) لمنصور بن يونس بن إدريس البهوتي- تحقيق: محمد أمين الضناوي- عالم الكتب- بيروت.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب القراءة عند الميت (3121).

2- روىٰ الطَّبراني في معجمه الكبير بسنده عن عبدالرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال: قال لي أبي: ((يا بني إذا أنا مِتُّ فألحدني، فإذا وضعتني في لحدي فقل: بسم الله وعلىٰ ملَّةِ رسولِ الله، ثم سنَّ عليَّ الثرىٰ سنًّا، ثم اقرأْ عند رأسي بفاتحة البقرةِ وخاتمتها، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ذلك))[1].

وجاء هذا الأثر بزيادة في بعض كتب السُّنة وهو أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما كان يستحب ذلك، فقد روىٰ البيهقي في السنن الكبرىٰ بسنده عن عبدالرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه... فذكره وزاد في آخره: ((فإنِّي رأيتُ ابنَ عمر يستحبُّ ذلكَ))[2].

3- وفي شرح السُّنة للإمام البغوي عند تعرُّضه لحديث الجريدتين علىٰ القبر قال:

((وفيه دليل علىٰ أنه يستحبُّ قراءة القرآن علىٰ القبور؛ لأنه أعظم من كل شيءٍ بركة وثوابًا))[3].

4- وأورد الإمام بدر الدِّين العيني في شرحه علىٰ صحيح البخاري عند تعليقه علىٰ حديث الجريدتين: ((قال الخطابي: فيه دليل علىٰ استحباب تلاوة الكتاب العزيز علىٰ القبور؛ لأنَّه إذا كان يُرجىٰ عن الميت التخفيف بتسبيح الشَّجر، فتلاوة القرآن العظيم أعظمُ رجاءً وبركةً.

قلت: اختلف الناس في هذا المسألة، فذهب أبو حنيفة وأحمد رضي الله تعالىٰ عنهما: إلىٰ وصول ثواب قراءة القرآن إلىٰ الميت؛ لما روىٰ أبو بكر النجار في كتاب السُّنن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((مَن مرَّ بين المقابرِ فقرأَ: قل هو الله أحد

(1) أخرجه الطبراني في الكبير (220/19).

(2) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (4/ 56- 57).

(3) شرح السنة (372/1) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي- تحقيق: شعيب الأرناءوط ومحمد زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية- 1983م.

أحد عشر مرة ثم وهب أجرها للأمواتِ أُعطي من الأجر بعدد الأمواتِ))[1]. وفي سننه أيضًا عن أنس يرفعه: ((مَن دخل المقابرَ فقرأ سورة: يس خفَّف الله عنهم يومئذٍ))[2]. وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه، قال رسول الله ﷺ: ((مَن زار قبرَ والديه أو أحدِهما فقرأ عنده أو عندهما يس غُفر له))[3]. وروىٰ أبو حفص بن شاهين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَن قال الحمد لله ربِّ العالمين ربِّ السَّموات وربِّ الأرضِ ربِّ العالمين وله الكبرياءُ في السَّموات والأرضِ وهو العزيز الحكيم، لله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين، وله العظمة في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم هو الملك رب السموات ورب الأرض ورب العالمين، وله النور في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم- مرة واحدة- ثم قال: اللهم اجعل ثوابَها لوالدي لم يبقَ لوالدَيه حقٌّ إلا أدَّاه إليهما))[4].

5- يقول الإمام القرطبي وهو يتكلم عن أحوال الدفن وما ينفع الميت تحت باب:

ما جاء في قراءة القرآن عند القبر حالةَ الدَّفن وبعده، وأنه يصل إلىٰ الميت ثوابُ ما يُقرأ ويُدعىٰ ويُستغفَر له ويُتصدق عليه: ((قلتُ: وقد استدلَّ بعض علمائِنا علىٰ قراءة القرآن علىٰ القبر بحديث العسيب الرَّطب الذي شقَّه النبيُّ ﷺ باثنين ثم غرس علىٰ هذا واحدًا وعلىٰ هذا واحدًا، ثم قال: ((لعلَّه أن يُخفف عنهما ما لم يَيْبسا)) خرَّجه البخاري ومسلم[5]. وفي مسند أبي داود الطيالسي: ((فوضع علىٰ أحدِهما نصفًا وعلىٰ الآخر نصفًا،

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

(4) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (3/119) للإمام بدر الدين العيني- دار الفكر.

(5) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب الجريد علىٰ القبر (1361) ، ومسلم في كتاب الطهارة، باب الدليل علىٰ نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (292) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال: «إنَّه يهوَّن عليهما ما دام فيهما من بُلُولَتِهما شيءٌ»[1]. قالوا: ويُستفادُ من هذا غرسُ الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خُفِّف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن؟!»[2].

ثم ذكر عدة أخبار سبق ذكرها قريبًا، ثم قال بعدها: «أصلُ هذا الباب الصدقة الَّتي لا اختلافَ فيها فكما يصل للميِّت ثوابُها، فكذلك تصل قراءة القرآن والدعاء والاستغفار إذ كل ذلك صدقة، فإن الصدقة لا تختص بالمال.

وقال ﷺ: وقد سُئل عن قَصر الصَّلاة في حالة الأمنِ؟ فقال: «صَدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقتَه»[3].

وقال عليه السلام: «يُصبح على كلِّ سُلَامَىٰ من أحدِكم صدقة، فإنَّ كل تسبيحةٍ صدقةٌ وكلَّ تهليلة صدقةٌ وكلَّ تكبيرة صدقةٌ وكلَّ تحميدةٍ صدقةٌ، وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، ويُجزئ عن ذلك ركعتانِ يركعهما من الضُّحىٰ»[4].

ولهذا استحبَّ العلماء زيارة القبور؛ لأن القراءةَ والدُّعاء تحفة الميت من زائره»[5].

6- وقال الإمام النووي في شرحِه على صحيح مسلم عند شرحه لحديث العسب الرطب فقال: «واستحبَّ العلماءُ قراءةَ القرآن عند القبرِ لهذا الحديث؛ لأنَّه إذا كان يُرجىٰ التَّخفيف بتسبيح الجريد فتلاوةُ القرآنِ أولىٰ والله أعلم.

---

(1) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (908) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(2) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة (1/277-274).

(3) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها (686) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(4) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحىٰ وأن أقلها ركعتان وأكملها ثمان ركعات... (720) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(5) التذكرة (1/279-277).

وقد ذكر البخاريُّ في صحيحه أن بُريدة بن الحَصيب الأسلمي الصَّحابي ﵁ أوصىٰ أن يجعل في قبره جريدتان[1]. ففيه أنَّه ﵁ تبرَّك بفعلٍ مثلَ فِعْلِ النبي ﷺ))[2].

7- ومن الآثار في ذلك عن السلف الصَّالح: ما أخرجَه ابنُ أبي شيبةَ في مصنَّفه عن الإمام الشعبي رحمه الله قال: ((كانتِ الأنصارُ يقرءون عندَ الميِّتِ بسورةِ البقرةِ))[3].

8- يقول الإمام السيوطي: ((واستدلوا علىٰ الوصول بالقياس علىٰ ما تقدم من الدعاء والصدقة والصوم والحج والعتق فإنه لا فرقَ في نقل الثَّواب بين أن يكون عن حجٍّ أو صدقةٍ أو وقفٍ أو دعاء أو قراءةٍ، وبالأحاديث الآتي ذِكرُها، وهي وإن كانت ضعيفة فمجموعها يدلُّ علىٰ أن لذلك أصلًا، وبأن المسلمين ما زالوا في كلِّ عصرٍ يجتمعون ويقرءون لموتاهم من غير نكيرٍ، فكان ذلك إجماعًا، ذكر ذلك كله الحافظ شمس الدين بن عبدالواحد المقدسي الحنبلي في جزءٍ ألَّفه في المسألة. قال القرطبي: وقد كان الشيخ عزُّ الدِّين بن عبدالسلام يُفتي بأنه لا يصل إلىٰ الميت ثوابُ ما يُقرأ له، فلما توفي رآه بعض أصحابه فقال له: إنك كنتَ تقول: إنَّه لا يصل إلىٰ الميت ثوابُ ما يُقرأ ويُهدىٰ إليه، فكيف الأمر؟ قال له: كنتُ أقول ذلك في دار الدُّنيا والآن فقد رجعتُ عنه؛ لما رأيتُ من كرم الله في ذلك، وأنَّه يصل إليه ثوابُ ذلك.

وأمَّا القراءة علىٰ القبر فجزمَ بمشروعيتها أصحابُنا وغيرُهم. وقال الزَّعفراني: سألتُ الشافعيَّ رحمه الله عن القراءة عند القبر؟ فقال: لا بأس به. وقال النوويُّ رحمه الله في شرح المهذب: يُستحبُّ لزائر القبور أن يقرأَ ما تيسَّر من القرآن ويدعو لهم عقبها، نصَّ عليه

---

(1) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب الجنائز، عقب باب الجَريد علىٰ القبر، ووصله ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (8/9) بسنده عن عاصم الأحول قال: قال مورق به.

(2) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (202/3) لأبي زكريا محيي الدين النووي- المطبعة المصرية بالأزهر- الطبعة الأولىٰ- 1347هـ-1929م.

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (10953).

الشافعي، واتَّفق عليه الأصحاب. وزاد في موضع آخر: وإن ختموا القرآنَ علىٰ القبر كان أفضلَ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يُنكر ذلك أولًا حيث لم يبلغه فيه أثرٌ ثم رجع حين بلغه، ومن الوارد في ذلك ما تقدَّم في باب ما يُقال عندَ الدفن من حديث ابن العلاء بن اللجلاج مرفوعًا كلاهما»[1].

وقال السيوطي أيضًا: «في فتاوي قاضي خان من الحنفية: مَن قرأ القرآن عند القبور فإنْ نوىٰ بذلك أن يُؤنسهم صوتُ القرآن فإنَّه يقرأ، وإنْ لم يقصد ذلك فالله يسمع القراءةَ حيث كانت. اهـ»[2].

وقال القرطبي: «وقد قيل: إن ثواب القراءة للقارئ وللميت ثوابُ الاستماع، ولذلك تلحقه الرحمةُ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون﴾ [الأعراف:204]. قال: ولا يبعد في كرم الله تعالىٰ أن يلحقَه ثوابُ القراءة والاستماع معًا، ويلحقه ثوابُ ما يُهدىٰ إليه من القراءة وإنْ لم يسمع كالصَّدقة والدُّعاء»[3].

- ويقول الشيخ الإمام محمد بن علي بن محمد بن عمر القطان العسقلاني الشافعي:

«بل نقل عن الإمام أحمد: يصل إلىٰ الميت كلُّ شيء من صدقةٍ وصلاةٍ وصومٍ وحجٍّ واعتكافٍ وقراءةٍ وذِكْرٍ وغيرِ ذلك. ونُقل عن جماعةٍ من السَّلف، ونُقل عن الشافعي رحمه الله انتفاعُ الميت بالقراءة علىٰ قبره، وسيأتي في قراءة الشافعي عند قبر اللَّيث ما يدلُّ عليه.

واختار شيخُنا شهاب الدِّين عقيل رحمه الله وصولَ ثواب القراءة للميِّت، وكنا نزور معه جماعة موتىٰ من الصَّالحين بالقراءة، منهم الصَّحابي عُقبة بن عامر، وسيدي إسماعيل

---

(1) شرح الصدور بشرح حال الموتىٰ والقبور (ص311- 312).

(2) المصدر السابق (ص312).

(3) التذكرة في أحوال الموتىٰ (288/1).

المُزَني، والقاضي بكَّار، والإمام الشافعي، وسيدي أبو العباس الحرار، وسيدي اللَّيث بن سعد. وصحَّ واشتُهر وتواتر أنَّ الشافعيَّ رحمه الله أثنىٰ عليه خيرًا متزايدًا، وذكر أنه كان أفقه من غيرِه ممَّن هو من أكابر السَّادات العلماء، ولكن أضاعوه أصحابُه، وقرأ عنده ختمةً، وقال: أرجو أن تدوم القراءة عنده كذلك دائمة لا تنقطع. ويمضي لهم ليلة عظيمة، وربما اجتمع عنده عشرون جوقةً[1] أو أكثر من أكابر السَّادة القرَّاء والمشايخ والصَّالحين. تقبَّلَ الله منهم وأثابهم.

ووصول ثواب القراءة إلىٰ الميت قريبًا أو أجنبيًّا هو الصحيح؛ كما تنفعه الصَّدقة والدُّعاء والاستغفار بالإجماع. وقد أفتىٰ القاضي حُسين بأن الاستئجار للقراءة علىٰ رأس القبر جائز كالاستئجار للأذان وتعليم القرآن، ولكن قال الرافعي وتبعه النَّوويُّ رحمهما الله تعالىٰ: عود المنفعة إلىٰ المستأجِر شرطٌ في الإجارة كما سبق، فيجب عود المنفعة في هذه الإجارة إلىٰ المستأجِر أو ميِّتِه، لكن المستأجر لا ينتفع بأن يقرأ الغير له، ومشهور بأن الميت لا يلحقه ثوابُ القراءة المجرَّدة، فالوجه تنزيلُ الاستئجار علىٰ صور انتفاع الميت بالقِراءةِ وذكر له طريقتين:

أحدهما: أن يعقب القراءة بالدعاء للميت فإن الدُّعاء يلحقه، والدعاء بعد القراءة أقربُ إلىٰ الإجابة وأكثر بركة.

والثاني: ذكر الشيخ عبدالكريم السالوسي أنَّه إن نوىٰ القارئ بقراءته أن يكون ثوابها للميِّتِ لم يلحقه، لكن لو قرأ ثم جعل ما حصل من الأجر فهذا محصول ذلك الأجر للميِّت فينتفع الميت.

قال النَّوويُّ في زيادات الروضة: ظاهرُ كلام القاضي حسين صحةُ الإجارة مطلقًا وهو المختارُ، فإنَّ موضعَ القراءة موضع بركة وتنزُّل الرحمة وهذا مقصودٌ بنفع الميت. وقال الرَّافعيُّ

(1) الجوقة: الجماعة. تاج العروس (باب القاف فصل الجيم مع الواو).

وتبعه النَّوويُّ رحمهما الله تعالىٰ في كتاب الوصيَّة: الذي يعتاد من قراءة القرآن علىٰ رأس القبر، قد ذكرنا في باب الإجارة طريقيْن في عود ما يقرؤها إلىٰ الميِّت، وعن القاضي أبي الطيب طريق ثالث: وهو أنَّ الميتَ كالحيِّ الحاضرِ فيُرجىٰ له الرحمةُ ووصولُ البركةِ إذا أُهدي الثواب إلىٰ القارئ. وعبارة الرَّوضةِ: إذا أهدي الثَّواب إلىٰ القارئ. انتهىٰ.

وعن القاضي أبي الطيب: الثواب للقارئ والميت كالحاضر فتُرجىٰ له الرحمة والبركة، وعن السالوسي عبارة أوسع مما تقدم وهي: القارئ إن نوىٰ بقراءته أن يكون ثوابها للميت لم تلحقه إذا جعل ذلك قبل حصوله، وتلاوته عبادة البدن فلا تقع عند القبر، وإن نوىٰ ثم جعل ما حصل من الثواب للميت ينفعه؛ إذ قد جعل من الأجر لغيره والميت يُؤجر بدعاء الغير له، وسيأتي أن النَّوويَّ نقل عن العلماء استحبابَ قراءة القرآن عند القبر، وإطلاق أنَّ الدُّعاء ينفع الميت اعترض عليه بعضهم، فقال: هو وغيره موقوفٌ علىٰ الإجابة، ويمكن أن يقالَ: الدُّعاء للميت مستجابٌ كما أطلقُوا اعتمادًا علىٰ فضل الله الواسع، وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ القائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر:10]. قال الرَّافعيُّ وتبعه النوويُّ رحمهما الله تعالىٰ: يستوي في الصَّدقة والدعاء الوارثُ والأجنبيُّ. قال الشَّافعيُّ رحمه الله: وفي وُسع الله تعالىٰ أن يثيبَ الله المتصدِّق أيضًا، وعلىٰ هذا قال الأصحاب: يستحب أن ينوي المتصدِّق الصدقةَ عن أبويه، فإن الله يُنيلهما الثوابَ ولا ينقص من أجره شيئًا))[1].

- وأخرج أبو بكر الخلال بسنده في كتابه: القراءة علىٰ القبور عِدةً أخبار توضِّح فهمَ السَّلف وسلوكَهم لمسألة قراءة القرآن للموتىٰ، نذكر منها:

---

(1) القول بالإحسان العميم في انتفاع الميت بالقرآن العظيم (1/261-257) تأليف: محمد بن علي بن محمد ابن عمر القطان العسقلاني- تحقيق: أبي عبدالرحمن شوكت بن رفقي- الدار الأثرية [طبع ضمن مجموع فيه رسائل في حُكم إهداء ثواب قراءة القرآن للأموات] الطبعة الأولىٰ 1430هـ - 2009م.

((عن عطاء بن أبي رباحٍ المكِّي قال: سمعتُ ابنَ عمر قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: ((إذا مات أحدُكم فلا تجلسوا وأسرعوا به إلىٰ قبره، وليقرأ عند رأسِه بفاتحة البقرةِ وعندَ رجلَيه بخاتمتِها في قبرِه)).

وعن سلمة بن شبيبٍ قال: أتيتُ أحمدَ بنَ حنبلٍ فقلت له: إني رأيت عفَّان يقرأ عند قبرٍ في المصحف. فقال لي أحمد بن حنبلٍ: خُتم له بخيرٍ.

وعن روح بن الفرج قال: سمعت الحسن بن الصباح الزَّعفراني، يقول: سألتُ الشافعيَّ عن القراءة عند القبر فقال: لا بأسَ به.

وعن إبراهيم النَّخَعي قال: لا بأس بقراءة القرآنِ في المقابر.

وعن أبي يحيىٰ النَّاقد قال: سمعت الحسن بن الحر وهو يقول: مررتُ علىٰ قبر أختٍ لي، فقرأتُ عندها ﴿تَبَارَكَ﴾ [المُلك:1] لما يُذكر فيها، فجاءني رجلٌ فقال: إني رأيت أختَك في المنام تقول: جزىٰ الله أبا عليٍّ خيرًا، فقد انتفعتُ بما قرأ))[1].

- وذكرت لنا كتب التاريخ والسِّير والتراجم أمثلةً لسلوك السلف تُجاه الموتىٰ فمن ذلك:

ما ذكره الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء في سيرة أبي جعفر الهاشمي- شيخ الحنابلة في وقته (توفي 470هـ) فقال عنه: ((وكانت جِنازته مشهودة، ودُفن إلىٰ جانب قبر الإمام أحمدَ، ولزم النَّاس قبرَه مدةً حتىٰ قيل: خُتم علىٰ قبره عشرة آلاف ختمةً))[2].

- ويقول في ترجمة الخطيب البغدادي: ((الإمام الأوحد، العلَّامة المفتي، الحافظ النَّاقد، محدِّث الوقت، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، صاحب التصانيف، وخاتمة الحفَّاظ.... إلىٰ أن قال: وكان بين يدي الجِنازة جماعة ينادون: هذا

(1) القراءة عند القبور للخلال (1/90-88).

(2) سير أعلام النبلاء (547/18) لشمس الدين الذهبي- تحقيق شعيب الأرناءوط- مؤسسة الرسالة- الطبعة الثالثة- 1405 هـ / 1985 م.

الذي كان يذبُّ عن النبي ﷺ الكذبَ، هذا الذي كان يحفظ حديثَ رسول الله ﷺ. وخُتم علىٰ قبرِه عدة ختمات))[1].

- وفي ترجمة محمد بن أحمد بن عبدالباقي البغدادي المعروف بـابن الخاضبة يقول عنه الذهبي: الشَّيخ، الإمام، المحدِّث، الحافظ، الصَّادق، القدوة، بركة المحدِّثين، أبو بكر محمد ابن أحمد بن عبدالباقي بن منصور البغدادي، الدقَّاق، عرف: بابن الخاضبة.

ما كان في الدنيا أحدٌ أحسن قراءة للحديث من ابن الخاضبة في وقته، لو سمع إنسانٌ بقراءته يومين لما ملَّ.

قال السلفي: سألت أبا الكرم خميسًا الحوزي عن ابن الخاضبة، فقال: كان علَّامة في الأدب، قدوة في الحديث، جيد اللسان، جامعًا لِخلال الخير، ما رأيت ببغدادَ من أهلها أحسن قراءة للحديث منه، ولا أعرف بما يقوله، ويقول الذهبي عن موته: مات ابن الخاضبة: في ثاني ربيع الأول، سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت جِنازته مشهودةً، وختم علىٰ قبره عدة ختمات))[2].

- وقال في ترجمة الإمام القزويني: ((الإمام، القدوة، العارف، شيخ العراق، أبو الحسن علي بن عمر بن محمد، ابن القزويني البغدادي...)) ثم نقل وَصْفَ العلماء له فقال: ((كان عَلَم الزُّهاد والصَّالحين، وإمام الأتقياء الورعين، له كراماتٌ ظاهرة معروفة يتداولها الناس، لم يزل يُقرئ ويُحدِّث إلىٰ أن مات...)) إلىٰ أن قال عنه: ((وحدثني هبة الله بن أحمد الكاتب: أنَّه زار قبر ابن القزويني، ففتح ختمةً هناك، وتفاءل للشيخ، فطلع أول ذلك: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: 45]))[3].

---

(1) سير أعلام النبلاء (18/286).

(2) المصدر السابق (19/113)

(3) المصدر السابق (17/ 609- 611).

بل ووَرَدَ في السِّير والتراجم عند موت الشيخ أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية ما يبيِّنُ أنه قد تمَّ قراءة القرآن له ترحّمًا عليه، فقد ذكر ابنُ كثير عند ترجمته له وذكر وفاته وجِنازته ما نصُّه: ((وحصل في الجِنازة ضجيجٌ وبكاء وتضرعٌ، وخُتمت له ختماتٌ كثيرة بالصَّالحية والبلد، وتردد الناس إلىٰ قبره أيامًا كثيرة ليلًا ونهارًا، ورُئيتْ له منامات كثيرة صالحة، ورثاه جماعةٌ بقصائد جمَّةٍ))[1].

بل قد ذكر بعض مَن لا يرىٰ مشروعية القراءة ووصول النَّفع للأموات بها عند ذكره لوفاة ابن تيميَّة ما نقله أهل السير والتاريخ عن وصف موته وجنازته ما نصُّه: ((ووقت الصَّلاة عليه امتلأ الجامع أكثر من يوم الجمُعة، وحضرت الأمراء والحجَّاب وحملوه علىٰ رءوسهم وخرجوا به من باب الفرج، وامتدَّ الخَلق إلىٰ مقابر الصُّوفية، وختموا علىٰ قبره ختمات، وبات أصحابُه علىٰ قبره ليالي عديدة))[2].

فمما سبق يتضح لك أيها الأخ الكريم أنَّ أمر وصول النَّفع للأمواتِ بأعمال الأحياء الصالحة مجمعٌ عليه بين علماء الأمة، وإنَّما الخلافُ في كيفيَّة الصورة التي يصل بها هذا النفع، وماذا يُطلَق عليه هل هو عين ثواب العمل؟ أم نفع مطلق ورحمات غير محدودة؟ وهذا عند النظر يتبيَّن أنَّه أمر لا ينبني عليه أيُّ خلافٍ أو اختلافٍ؛ لأنه ما دام النفع ثابتًا وحاصلًا ففضل الله أوسع من أن يحدَّه حدٌّ أو يحصيه عدٌّ، وهو أرحم بالنَّاس من الوالدة الشفيقة بولدِها، وإذا فتح الله علينا بابَ الرحمات ونفع الأموات فلا نسده علىٰ أنفسنا، ونُشدِّد فيشدَّد علينا، فقد ظهر أن في الأمر سعةً فلا نضيِّق علىٰ أنفسنا ما وسَّعه الله علينا، فإن ملة الإسلام حنيفية سمحاء، ولو نظرنا فيما سبق لوجدنا أن الأدلة تعضد

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير (297/18) تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي- دار هجر- الطبعة الأولىٰ- 1418هـ- 1997م.

(2) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص563) جمع وتحقيق: محمد شمس وعلي بن محمد العمران- دار عالم الفوائد- مكة- الطبعة الثانية- شوال 1422هـ.

ذلك، وكذا فهم الصحابة يؤيده، وعمل سلف الأمة عليه، فلا يتنطع المتنطِّعون الذين يزعمون أنهم متَّبِعون لسلف الأمة، ويقولون: إن ذلك بدعة لم ترد عن السَّلف! فهذه أفعال السلف قد وردت بذلك، فلا ندري بأي سند أو عقل أنكروا الرحمات التي تتنزل بقراءة القرآن للأموات! فكلام الله سبحانه وتعالىٰ هو البركة والنور، كما قال الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء:82] فلا شيء يُعادل كلامَ الله في بركاته ورحماته، فإذا قرئ القرآن الكريم لتحصل البركة للحي والميت ولتنزل الرحمات فهذا مقصد من مقاصد إنزاله، وهو كونه رحمة لجميع المؤمنين الأحياء والأموات علىٰ حدٍّ سواء، ونقول: حتىٰ لو لم ترد هذه الأدلة الخاصة من المذاهب وفعل سلف الأمة في هذه المسألة فلا يجوز لأحدٍ أن يمنع أفعال الخير إلا بدليلٍ من الكتاب والسُّنة، فكيف وقد ورد عن خير السلف وهم الصَّحابة الأجلَّاء أنهم فعلوا ذلك؟! فكيف يمنع منه مانع؟ أو كيف يُجوِّز لنفسه أن يصف أفعالًا وردت عن الصحابة الكرام والسَّلف الصالح وقال بها علماءُ الشَّريعة وأئمتها وحَمَلة أمانتها بالبدعة؟! فما البدعة إلا هذا القول، وما المبتدِع إلا مَن يقول بذلك لا لشيء إلا اتباع الهوىٰ والتعصب الممقوت لرأيه، فهو معتدٍ علىٰ الشريعةِ بذلك، مضيقٌ علىٰ المسلمين ما وسَّعه الله عليهم.

ثم أيُّها الأخ الكريم هل كلٌّ منَّا يجد ما يتصدَّق به عن الميت؟ وهل لو وجد هل يستمر علىٰ ذلك؟ الجواب في الغالب: لا؛ ولكن الله سبحانه وتعالىٰ قد فتح لنا بابَ رحمةٍ دائم، وهو قراءة كتابه العزيز بنية الرحمة لميت، وكل إنسان بحسبِ ما يطيق في ذلك، فمتاح لنا آية فما فوقها تنوِّر قبورَ أموات المسلمين، وتنزل عليها الرَّحمات، وتصل ما بيننا وبينهم، ونبرهم بذلك، ونقوم ببعض حقوقهم علينا، ولعلها تكون سبيلًا أن يتذكَّرنا الأحياء بمثل ما فعلنا بعد موتنا.

وهناك كلمة توجه إلىٰ من يبدِّعون الأفعال والناسَ بغير عِلْمٍ ولا بيِّنةٍ: إنْ أصررتَ بعد ذلك كلِّه علىٰ أنك لا ترىٰ مشروعيةَ ذلك فهذا شأنك، ولكن يلزمك بعد اطِّلاعك علىٰ هذه الأدلة وكلام أهل العِلم في هذه المسألة- أن تدع الأُمةَ الإسلامية والمسلمين في السَّعة التي جعلها الله لهم، ولا تجترأ علىٰ الناس بالتَّضليل والتَّبديع في أمور قد شهد لصحة أفعالهم فيها نصوصُ الشريعةِ وكلامُ أهل العِلم، وفعلُ السَّلف الصالح، وله أن يلتزم ما يريد إلزام نفسه به؛ لكن لا يكون أداةً لتفريق أمر المسلمين وتشتيت فهمهم للدين، وذلك بالتشويش عليهم ورميهم بالابتداع، فلابد أن نعي جميعًا أن ما احتمله الدليلُ وقال به إمامٌ من أئمَّة المسلمين- فقد خرج من أمر البدعة إلىٰ الإباحة والجواز، وبدون هذا سوف يُبدِّع بعضُنا بعضًا في أمورٍ هي من شريعة الله عز وجل، وليست خارجة عن الشريعة في شيء.

ونختم بأصل من أصول الشريعة المستقرة وهو: رحمة الشريعة الإسلامية بالموتىٰ ودعوتها لرعاية جنابهم في المحور الآتي. ◆

خاتمة في رحمة الشريعة الإسلامية بالموتىٰ ودعوتها لرعاية حقوقهم

لقد كرم الحقُّ سبحانه وتعالىٰ الإنسان وفضَّله علىٰ كثيرٍ من المخلوقات، وخصَّه بالعديد من النِّعم والهبات الإلهية والمنح الربَّانية التي ميزته عن سائر الخَلق، والتي لا يحدُّها حدٌّ، ولا يحصرها عدٌّ، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:70].

وكما كرم الله سبحانه وتعالىٰ الإنسانَ حال حياتِه كرَّمه بعد موته، ومن ذلك ما أوجبَه علينا من تغسيل الميت وتطهيره والصلاة عليه وتكفينه ودفنه... ويظهر ذلك جليًّا واضحًا أشدَّ الوضوح في شريعة الإسلام التي نجد فيها سمة الرَّحمة بالخَلْقِ هي الغالبة عليها، والتي دعت إلىٰ الرحمة بالحيِّ والميتِ في كلِّ الأحوال، وكان النبي المصطفىٰ الكريم ﷺ هو المثال الأسمىٰ في الرحمة بالحي والميت علىٰ السواء، وظهر ما يتعَّلق برحمته بالموتىٰ في مواطنَ كثيرة، منها ما ورد عنه صلوات الله وسلامه عليه في الأحاديث الشريفة من إرشادٍ لأُمَّته إلىٰ فعل ما فيه تكريم الميت، وكذا بين لنا كلَّ الأبواب الموصلة لرحمة الميت ونفعه من لحظة الاحتضار فما بعدها، فمن ذلك:

قوله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه بسنده من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ))[1]. فيكون بذلك آخر ما يقوله الميت: هو شهادة التوحيد التي تضمن له النَّجاةَ من النَّار.

وكذا حثَّ النبيُّ الكريم ﷺ علىٰ الوفاء بحقِّ المسلم باتباع جِنازته، ورغب في ذلك، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ شَهِدَ الجِنازَةَ حتىٰ يُصَلِّيَ فله قِيرَاطٌ ومَنْ شَهِدَ حتىٰ تُدفَنَ كان له قِيرَاطانِ)) قيل: وما

(1) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب تلقين الموتىٰ لا إله إلا الله (916).

القِيراطانِ؟ قال: ((مثلُ الجبلَين العظيمَيْنِ)) وزاد مسلم: وكان ابن عمر يصلِّي عليها ثم ينصرف، فلما بلَغَه حديث أبي هريرة قال: لقد ضيعنا قراريطَ كثيرةً[1].

كما أرشد ﷺ إلىٰ زيارة الميت والاستغفار له، فقد أخرج الطبراني عن ثوبان رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((إنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عن زيارةِ القبورِ فَزُورُوها واجعلوا زيارتكم لها صلاةً عليهم واستغفارًا لهم))[2].

وما جاء عن النبي ﷺ في الحثِّ علىٰ التصدُّق عن الميت، فقد روىٰ الطبراني في المعجم الكبير بسنده عن عُقبةَ بن عامرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ الصَّدقةَ لَتُطْفِئُ عن أهلِها حَرَّ القبورِ، وإنَّما يستظلُّ المؤمنُ يومَ القيامةِ في ظِلِّ صَدقَتِهِ))[3].

وما رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه بسنده عن الحجَّاجِ بن دِينارٍ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ منَ البِرِّ بَعْدَ البِرِّ أنْ تُصَلِّيَ عليهما مع صَلَاتِكَ وأنْ تصومَ عنهما مع صِيَامِكَ وأنْ تَصَدَّقَ عنهما مع صَدَقَتِكَ))[4].

وأخرج الطَّبراني في المعجم الأوسط بسنده عن أنس رضي الله عنه أنَّ سعدًا أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّ أمي تُوفيت، ولم توصِ، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال: ((نَعَمْ وعليكَ بالماءِ))[5].

وحثَّنا ﷺ علىٰ حفظ سيرة الموتىٰ، فقد أخرج أبو داود بسندِه عن ابن عمرَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((اذكُرُوا محاسنَ مَوْتَاكُمْ وكُفُّوا عن مَسَاوِيهِمْ))[6].

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب من انتظر حتىٰ تدفن (1325)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة علىٰ الجنازة واتباعها (945).

(2) أخرجه الطبراني في الكبير (2/94).

(3) المصدر السابق (17/286).

(4) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (12210).

(5) أخرجه الطبراني في الأوسط (8061).

(6) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في النهي عن سب الموتىٰ (4900).

فقد كرَّمت الشَّريعة الإسلاميَّة الميتَ بما لا مزيد عليه، فحثت علىٰ معاملة جسده أرقىٰ معاملة، من حيث الغُسل والتَّكفين وجمع الناس للصَّلاة عليه والحث علىٰ الإخلاص له في الدُّعاء، وتشييع جِنازته واختيار المكان المناسب لدفنه، وحفظ جسده، فجعلت الشريعة ونصوصها حُرمته حيًّا كحرمته ميتًا، وجعلت من قبره حرمًا لا يُنتهك، وندبت زيارته وتعهده بالدعاء له والتعزية فيه، ومواساة أهله في مصابِهم، والعمل علىٰ جبر خواطرهم، ورعاية جنابه في كلِّ ما يتعلق بشئونه، من أهلٍ وزوجة وولدٍ، أو دين، وجعلت لوصيته شأنًا عظيمًا، وجعلت من الواجب رعايتها والاهتمام بتنفيذها في حدود ما تسمح به الشريعة المطهرة، بل وتعدىٰ اهتمام الإسلام إلىٰ مَن كانوا أهلَ مودَّةٍ للميت من أهلٍ أو أصحابٍ أو معارفَ، فجعل مودَّتهم والتواصلَ معهم من رعايةِ حقِّ الميت وحفظ عهدِه.

وفي ختام هذه الرسالة: نسأل الله عزَّ وجل أن نكون قد وفقنا الله سبحانه وتعالىٰ في تبيين مسألة وصول ثواب الأعمال الصالحة من الأحياء للأموات، وأن يَمُنَّ علينا جميعًا بمن يتذكرنا بأعمال صالحة يهب ثوابها لنا بعد الممات تكون سببًا في التخفيف عنا وفي رفع الدرجات، حتىٰ نلقىٰ نبيَّنا ﷺ علىٰ حوضه، فيمتِّعُنا الله عز وجل بالشُّرب من يده الشريفة ﷺ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆

الرسالة الرابعة والعشرون
مشروعيَّة الصلاة في المساجد ذات الأضرحة

وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأوَّل: مَوضِعُ قضيَّة المساجد والأضرحةِ مِنْ مسائل الشَّريعةِ.

المحور الثَّاني: بيان دلالة الأحاديثِ الواردةِ في اتِّخاذِ القبور مساجد.

المحور الثَّالث: تَوضيحاتٌ هامة حول قضية المسجدِ الَّذي به قبرٌ. ◆



« إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ » – آية 13–15 من سورة البروج

مشروعيَّة الصلاة في المساجد ذات الأضرحة

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فإنَّ المساجدَ من أفضل الأماكن الَّتي نتركُ قلوبَنا عندَها كي نرجعَ إلَيْهَا مرَّةً أخرى؛ ذلك لأنها مواطن الهدوء والراحة والسَّكينة، ويسيرُ على نفس الأمر أضرحةُ السَّادةِ أولياء الله الصالحين، الذين عاشوا وماتوا ولا نعرفُ عنهم إلا كلَّ جميل في دين الله تعالى ودنيا الناس، بهذه الكلمات اليسيرة نبدأُ الكلام في هذه الورقات التي تتناولُ قضيةً تشغلُ بالَ كثيرٍ من النَّاسِ، وتهمُّ بها عقول المسلمينَ، وتُشوِّشُ أمور دِينِهم وعِبادتِهم وصلواتِهم، وهِي قضيَّةُ المساجدِ التي تحتوِي على أضْرحةٍ وقبورٍ والصَّلاة فيها.

وقد دعانا الحديثُ عن هذه القضيَّةِ الهامَّةِ ما وجدناهُ من جرأةِ الإفتاءِ والقولِ بحُرمةِ وعدمِ جوازِ الصَّلاةِ في المساجدِ الَّتي فيها أضرحة أهل البيتِ والأولياء والصَّالحين ممَّنْ يدَّعي المعرفةَ والعلمَ، ثم ضربُوا بأقوالِ وأفهامِ عُلماء المسلمينَ عبرَ القرونِ عرضَ الحائط، ناسبينَ لأنفسِهم أنَّهم أهل السُّنَّةِ والجماعةِ من دون المسلمينَ، وأنَّ فهمَهم هو صحيح الدِّينِ وقولهم هو حُكْمُ الشَّرع، متَّخذينَ من هذه الفتاوَى والأقاويل أداةً لشقِّ صفِّ المسلمين وتَقسيمِهم، ورمي النَّاس بالوُقوعِ في الشِّرك والبدعةِ، ويصمُّونَ آذانَهم عن أيِّ مذهبٍ أو رأيٍ مخالفٍ لرأيهم ومذهبهم، ماحِينَ بذلك أربعةَ عشرَ قرنًا من العلوم الشَّرعيَّةِ وجهود علماء المسلمين، داعينَ النَّاس إلى الأخذِ عنهم دون غيرهم، ويا ليتهم كانوا أهلًا لهذا الاجتهادِ والكلام في دِينِ الله تعالى، وإنَّما هُم في أكثر كلامِهم يتصدَّون إلى ما ليسَ لهم به طاقةٌ أو علم، ثم إذا ما ذهبتَ لتَنبيهِهم ووعظِهم وأقمت عليهم الحجَّة الظَّاهرة على خَطَئهم وجهلهم قالوا لكَ: لستَ ربًّا ولا بُعثتَ رسولًا.

ونحنُ في هذه الورقاتِ لا نَجتهدُ أو نُصدرُ أحكامًا شرعيَّةً، إنَّما نجمعُ وننقلُ كلامَ أهل العِلْمِ في هذه القضية، ثم نعرضها بصورتِها في الواقعِ العمليِّ في حياتِنا؛ محاولين

بذلك تقريبَها من العقول والأفهامِ، عسىٰ أن يفهمَ مَن لم يكنْ يفهم، ويتيقَّن مَن كان علىٰ عِلْمٍ بها أنَّ صلاتَه وصلاةَ ملايين المُسلمينَ صحيحةٌ في تلك المساجدِ التي بها أضرحةٌ لا شيءَ فيها. وسوفَ يكون الكلامُ فيها بإذنِ الله في المحاور التَّالية:

المحور الأوَّل: مَوضِعُ قضيَّة المساجد والأضرحةِ مِنْ مسائل الشَّريعةِ.

المحور الثَّاني: بيان دلالة الأحاديثِ الواردةِ في اتِّخاذِ القبور مساجد.

المحور الثَّالث: تَوضيحاتٌ هامة حول قضية المسجدِ الَّذي به قبرٌ. ◆

مَوضِعُ قضيَّة المساجد والأضرحةِ مِنَ مسائل الشَّريعةِ

يقولُ الله سبحانَه وتعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]. وروىٰ ابن ماجه في سننِه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((تَرَكْتُكُم علىٰ البَيْضَاءِ؛ ليلُها كنهارِها لَا يزيغُ عنها إلَّا هَالكٌ))[1]. فأهم مَا ميَّز الله به تعالىٰ شريعةَ الإسلام أنَّها شريعةٌ واضحةُ الأركانِ محددةُ المعالِم، فكلُّ حادثةٍ أو مسألةٍ لها مكانُها المحدَّدُ المعلومُ في دِينِ الإسلام، والمسائلُ العلميَّةُ في الدِّين الإسلاميِّ تنقسمُ إلىٰ ثلاثة أقسام:

1- مَسائلُ تندرجُ تحت بابِ عقيدةِ المسلمينَ وما يدينونَ به وما يعتقدونَه تجاه ربِّهم ونبيِّهم وكتابِهم واليوم الآخر والغيب، فهذه الأصولُ العقديَّة واضحةُ المعالم بيِّنةُ الأركان والحدودِ. وقد جاءتْ بهذه الأصولِ آياتُ القرآنِ الكريمِ، والسُّنَّةُ النبويَّةُ الشَّريفةُ و إجماعُ علماء المسلمين المعتمَدُ عليهم علىٰ مرِّ العصورِ، فكانتْ هذه الأصولُ ثوابتَ في شريعةِ الإسلام لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ.

2- مسائلُ فقهيَّةٌ عمليَّةٌ من عباداتٍ ومعاملاتٍ تتنوَّع أشكالُها وهيئاتُها وصورُها تبعًا لاختلاف وتنوُّع الأدلَّة، وبحسب ما يحتملُه الدَّليلُ.

وهذا الاختلافُ والتنوُّعُ يُعدُّ صورةً من صُور الرَّحمة واليُسر والسَّعة الَّتي اختُصَّت به هذه الأُمَّة، فالدِّينُ يُسرٌ لا عُسرَ فيه، وحنيفيَّة سمحاء لم يُضيِّقْ علىٰ المسلمينَ فيها بفَهْمٍ واحدٍ ولا صورةٍ واحدةٍ من الأحكام ولا هيئةٍ واحدةٍ في العبادات والمعاملاتِ، وتجسَّد هذا اليُسر وتلك الرَّحمة في صورة المذاهب الفقهيَّة المعتمَدة والمعتبَرة علىٰ مرِّ العصور،

(1) جزءٌ من حديثٍ أخرجَه ابنُ ماجَه في مقدِّمةِ سننه، باب اتِّباع سنة الخلفاء الرَّاشدين المهديين (43)، وأحمدُ في مسندِه (4/126)، وأبو نُعيم في مستخرجِه (1/36) من طريق عبدالرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن ضمرة بن حبيب، عن عبدالرحمن بن عمرو السلمي أنَّه سَمِعَ العرباضَ بن سارية به مرفوعًا.

وقال أبو نُعيم: ((هذا حديث جيِّدٌ من صحيح حديث الشاميِّينَ)).

فكان المسلمونَ يَستمدُّونَ أحكامَ شَريعتِهم ويتعرَّفونَ عليها من خلال هذه المذاهب، يأخُذُ قومٌ بقولِ مجتهدٍ ويأخذُ آخرونَ بقول مجتهدٍ آخرَ، والمجتهدونَ يَستمدُّون أحكامَهم من الكتاب والسُّنَّةِ، والمُقلِّدون لهؤلاءِ المجتهدين متابِعونَ للكتاب والسُّنَّة، فلا يُنكِر مقلِّدٌ على مقلِّدٍ، أو متابعٌ لإمامٍ على متابعٍ لإمامٍ آخر؛ لأنَّ مدارَ المسائل الفقهيَّة الاجتهادُ وكشفُ الأحكامِ الشَّرعيَّة، وما دامَ الاجتهادُ سليمَ الأساسِ والأدواتِ والخُطُواتِ فما ينتج عنه داخلٌ في دائرةِ الشَّريعةِ وليس بخارجٍ عنها.

3- مسائلُ تتعلَّقُ بالأخبارِ بصورها المختلفةِ من قصص الأنبياء وأُمرِ الأُممِ السَّابقة والسِّير والتَّاريخ وما يشبه ذلك.

ولو طبَّقنا ما سَبَقَ من تقسيماتٍ على قضيَّة المساجدِ التي بها أضْرحةٌ لوجدْناها بلا شكٍّ من مسائلِ الفِقهِ والعِباداتِ، التي لو وُجد اختلافٌ فيها فهو نزاعٌ فقهيٌّ لا نزاعٌ عقدي، فهي مسألةٌ من مسائِلِ الفِقه وليستْ من مسائل العقيدةِ، ومحاولةُ إدخالِ هذه المسألةِ في مسائلِ الاعتقاد يُعدُّ من بابِ الجهلِ بأُصُولِ هذا الدِّينِ وفُروعِه، فالمسألةُ تخضعُ للاجتهاد في استنباطِ حُكمِها، وليس اجتهادُ مَن منعَ أولى بالاتِّباع مِن اجتهاد مَنْ أجاز، والفِقهُ وفروعُه واختلافُ الآراء الَّتي يَحتويها هو أمرٌ يَسعُ جميعَ المسلمينَ.

فهذِه التَّفصيلاتُ السَّابقةُ تضَعُ تلك المسألةَ في حجمها الطَّبيعيِّ ومكانتِها، ولا ينتجُ عن الاختلافِ فيها أيُّ تبديعٍ أو تَضْييقٍ أو رميٍ للنَّاس بالشِّركِ والكُفرِ لمجرَّد أنَّهم قد أخذُوا بالرَّأي المُخالِفِ. ◆

بيان دلالة الأحاديث الواردة في اتخاذ القبور مساجد

إنَّ من الأهميَّةِ بمكانٍ عند استنباطِ حُكْم شرعيٍّ في مسألةٍ أو قضيَّةٍ مُعيَّنَةٍ الإحاطةَ بالنُّصوصِ الشَّرعيَّةِ التي تقومُ عليها المسألةُ، وبيانُ معناها الإجماليِّ والتَّفصيليِّ، وفي مسألة المسجدِ الَّذي به ضريحٌ أو قبر نجدُ أنَّ مَن قال بالمنعِ قد قال به بِناءً على استنباطٍ وفهمٍ خاطئٍ غيرِ مرادٍ في الأحاديثِ الواردةِ في هذا الشَّأن، وسوف نعرِضُ لذلك إنْ شاءَ الله تعالىٰ، ونُوردُ أوَّلًا الأحاديثَ الواردةَ عن رسول الله ﷺ في هذه المسألة:

1- أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحيهما عن السيدة عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسولَ الله ﷺ قال في مرضِه الذي لم يقمْ منه: ((لَعنَ الله اليهودَ والنَّصارىٰ اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجد)) قالت: ((فلولا ذلكَ أُبرز قبرُه غير أنَّه خَشِي أو خُشي أن يُتَّخذ مَسجدًا))[1].

2- وفي روايةٍ لأحمدَ تقول السيدةُ عائشةُ رضي الله عنها: ((يُحذِّرهم مثلَ الَّذي صنعُوا))[2].

3- وروىٰ أحمدُ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: ((اللهمَّ لا تجعلْ قَبْرِي وَثنًا، لعنَ الله قومًا اتَّخَذُوا قبورَ أنبيائِهم مساجِدَ))[3].

4- رَوَىٰ الإمامُ مالك في الموطَّأ عن عطاء بن يَسار أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ((اللهمَّ لا تَجعلْ قَبرِي وثنًا يُعبدُ، اشتدَّ غضبُ الله علىٰ قومٍ اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ))[4].

5- رَوَىٰ ابن أبي شيبةَ في مصنَّفه عن زيد بن أسلم قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: ((اللـهمَّ لا

---

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما (1390)، ومسلمٌ في كتاب المساجدِ ومواضع الصَّلاة، باب النَّهي عن بناء المساجد علىٰ القبور واتِّخاذ الصُّور فيها والنَّهي عن اتِّخاذ القبور مساجد (529).

(2) أخرجَه أحمدُ في مسنده (6/ 34) من طريق عبدالأعلىٰ عن مَعمر، عن الزُّهريِّ، عن عبيد الله بن عبدالله ابن عتبة، عن عائشة رضي الله عنها به موقوفًا.

(3) أخرجَه أحمدُ في مسنده (2/246)، وأبو يعلىٰ في مسنده (6681) من طريق سفيان، عن حمزةَ بن المغيرة، عن سُهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به مَرْفوعًا.

(4) أخرجَه مالكٌ في موطَّئه (2/240- 241) من طريق زيد بن أسلم، عن عطاءِ بن يسار به مُرسلًا.

تجعلْ قَبرِي وثنًا يُصلَّىٰ له، اشتدَّ غَضَبُ الله علىٰ قومٍ اتَّخذوا قُبُورَ أنبيائِهم مساجِدَ))[1].

- فهذه بعضُ الأحاديث التي وردتْ في هذه المسألةِ، والتي فَهِمَ منها مَن فَهم أنَّ المرادَ بذلك حرمةُ بناء المسجدِ علىٰ قبرٍ وحرمة الصَّلاة في المساجدِ المحتوية علىٰ قُبُورِ الصَّالحين والأولياءِ.

ولـكن كما هُو مَعلومٌ أنَّ النُّصوصَ الشَّرعيَّةَ يُفسِّرُ بعضُها بعضًا ويوضِّحُ بعضُها بعضًا، ولنأخذْ أوَّلًا الحديثَ المرويَّ في مصنَّف ابن أبي شيبةَ عن زيد بن أسلم قالَ رسول الله ﷺ: ((اللهمَّ لا تجعلْ قبرِي وثنًا يُصلَّىٰ له، اشتدَّ غضبُ الله علىٰ قومٍ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجِدَ)).

ففي هذا الحديثِ الشَّريفِ يُحذِّرُ النَّبيُّ ﷺ أمَّتَه من الوُقوعِ فيما وقعتْ فيه بعضُ الأممِ السَّابقةِ التي ضلَّتْ باتِّخاذها قبورَ أنبيائِها أوثانًا كالأوثانِ التي يُصلِّي لها المشركونَ، فصارتْ هذه الأمم تُصلِّي إلىٰ قبورِ الأنبياء السَّابقينَ وتركوا عبادةَ الله- والَّتي ينبغي ألا تكونَ إلا له سبحانَه- ممَّا ترتَّبَ علىٰ فِعلهم وقوعُهم في الغضب الشَّديد من الله، كما وقعَ من أمَّة اليهودِ والنَّصارىٰ.

فليسَ في الحديثِ ما يدلُّ علىٰ أنَّ الصُّورةَ المُرادةَ من وُقوع الغضبِ هي الصَّلاةُ في مسجدٍ به قبرٌ، أو بناء المسجد علىٰ القبرِ، أو إدخال القبر للمسجدِ، وإنَّما الصُّورةُ التي ترتَّبَ عليْهَا وقوعُ غضبِ الله عليهم بها هي صلاتُهم للقبر ذاتِه علىٰ وَجْه العبادة والتَّعظيم، وذلك لا يجوزُ إلَّا لله وحدَه سبحانه وتعالَىٰ، فهذا ما كانَ يقع من الأمم السَّابقة في صلاتهم إلىٰ القبر وصرف العبادة له، سواءٌ كان هذا القبر في بِناءٍ أو ليسَ في بناءٍ.

وهُنا ملاحظةٌ جديرةٌ بالتَّفكُّر؛ وهي أنَّ دعوةَ رسول الله ﷺ مُجابةٌ من الله قطعًا، وذلك لا شكَّ فيه عند أحدٍ من المُسلمينَ، وليس علىٰ مرِّ السِّنين- بفضل الله- مَن يقصدُ

---

(1) أخرجَه ابنُ أبي شيبةَ في مصنَّفه (7626) من طريق أبي خالد، عن ابن عجلان، عن زيد بن أسلم به مُرسلًا.

قبرَ رسول الله ﷺ من أجل الصَّلاة إلىٰ القبر وصَرْفِ العبادة له، وعلىٰ ذلك فإنَّ هذه الصُّورةَ المحرَّمةَ التي أوقعتْ في غضب الله ليستْ مَوجودةً في أمَّة الإسلام، وإنَّما الصُّورةُ الموجودةُ والمشاهَدةُ هي وجودُ القبرِ الشَّريفِ في مسجدِه ﷺ، وعلىٰ ذلك فهذا الشَّكلُ ليس هو المقصود بالمنع والتَّحريمِ، وكذلك وُجود القبر في أيِّ مسجدٍ ليس هو صورة الاتِّخاذ المذكورِ في الأحاديثِ.

وهذا أيضًا هُو المفهومُ من الحديثِ المتقدِّم المرويِّ عند أحمدَ في مسندِه عن أبي هريرةَ ﵁ قال: عَن النَّبيِّ ﷺ قال: ((اللهمَّ لا تَجْعَلْ قبري وثنًا، لَعنَ الله قومًا اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجِدَ)).

- فاللَّعنُ الذي استحقَّه هؤلاءِ القوم هو اتِّخاذهم قبورَ أنبيائهم مساجدَ بالصَّلاةِ إليْها أو عليها وصرف العبادة لها؛ ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: ((اللهمَّ لا تجعل قبري وثنًا)). وهي الصُّورة التي وقعتْ من الأمم السَّابقة والَّتي جعلتْهم مستحقِّينَ للَّعنِ من الله تعالىٰ، وهي السُّجود له أو عليه قصدًا لتعظيم صاحبِ القبر.

فسببُ اللَّعن هو جَعْلُ القبر مقصودًا بالعبادة بالسُّجود له أو عليه، ومعنىٰ حديث أحمد: اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُسجد له ويُعبد كما عَبدت الأممُ السَّابقةُ قبورَ أنبيائِهم.

وليس في هذا الحديثِ صورة دخول قبرٍ في مسجدٍ أو بناء مسجد علىٰ قبر؛ لأنَّ الـمُشاهد والموجودَ الآن هو وجود قبر رسول الله ﷺ وقبر أبي بكر وعمر ﵄ داخلَ المسجد النَّبويِّ، وهو أفضلُ مساجد الأرض بعد المسجد الحرام، والذي تعدِلُ الركعةُ فيه ألف ركعة؛ كما جاءَ عن رسول الله ﷺ: ((صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه إلَّا المسجدَ الحرامَ))[1].

---

(1) متَّفق عليه؛ أخرجَه البخاريُّ في كتاب التَّهجد، باب فضل الصَّلاة في مسجد مكَّةَ والمدينة (1190)، ومسلم في كتاب الحج، باب فضلِ الصَّلاة بمسجدي مكَّة والمدينة (1394) من حديث أبي هريرة ﵁.

فهل الصُّورة التي عليها المسجد النَّبويُّ الشَّريف مع وجود قبر رسول الله ﷺ بداخله وقبريْ صاحبَيه هي المقصودةُ بالمنع والتَّحذير يا أخي الكريم من الأحاديث السابقة؟!

وهل يقول أيُّ مسلم عاقلٍ إنَّ هذه الصُّورة وهذا الشَّكل من وُجودِ القَبرِ في المسجد الشَّريف هي الصُّورة المقصودةُ بوقوع اللَّعن والغضبِ من الله؟

بل إنَّه يُمكنُ القول: أيُّ قلبٍ يَستطيعُ أن يستقرَّ بين جنبي صاحبِه يقول بمثل هذا القول على مسجد النبيِّ ﷺ؟!

اللهمَّ إنَّه لا يقولُ بذلك عاقلٌ، فالصُّورةُ المحذَّرُ منها في الأحاديثِ هي صورةُ اتِّخاذ القبرِ بذاتِه مَقْصِدًا للصَّلاة إليه، وعليْه هي المستوجِبة للغضبِ واللَّعن من الله، والحمدُ لله هذه الصُّورةُ ليست موجودةً في مسجدٍ من مساجد المسلمين على مرِّ السنينَ وفي كلِّ الأماكن فَضْلًا عن مسجدِ رسول الله ﷺ، فدعاءُ رسول الله ﷺ المُستجابُ بأنْ لا يجعل الله قبرَه وثنًا يُخرجُ صورةَ وجودِ قبرٍ في مسجدٍ أو بناء مَسجدٍ عليه من الصُّورِ المحرَّمةِ؛ وذلك لأنَّه كما قلنا سابقًا إنَّه من المعلومِ أنَّ دعاءَ رسولِ الله مُستجابٌ من الله، فلا يُعقلُ أنْ يدعوَ رسولُ الله بدعوةٍ ثمَّ يكونُ الحالُ الموجودُ عكسَ هذه الدَّعوة في أمرٍ خطيرٍ قد أوجبَ للأممِ السَّابقةِ اللَّعنَ.

ولنتكلم الآن عن الاتِّخاذ المحذَّرِ منه في الأحاديث السَّابق ذكرُها: ((لعنَ الله اليهودَ والنَّصارى اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ))[1].

يخبرُنا الرَّسولُ الكريم ﷺ في هذا الحديثِ عن وقوع لعنةِ الله على اليهود والنَّصارى، واللعنُ في معناه الأصليِّ هو الطَّردُ والإبعادُ من رحمة الله، ولكن لماذا وقعتْ هذه العقوبة الشَّديدةُ من الله على اليهود والنَّصارَى؟ هل اتَّخذُوا مكانًا بداخله قبرٌ وكانوا يصلونَ فيه لله تعالى؟

---

(1) تقدَّم تخريجُه قريبًا.

الجوابُ: لا، بل لأنَّهم اتَّخذوا القبرَ بذاتِه مسجدًا بالسُّجود إليه وعليه بطريقِ العبادةِ والتَّعظيمِ، وتعمَّدُوا أن يجعلُوه في قبلتهم للصلاة، فاتَّخذُوا القبورَ بذاتِها قبلةً تُصرف لها العبادةُ التي لا تجوزُ إلَّا لله، وهذا مُشاهَدٌ حتَّى الآنَ من السُّجود لقبور المعظَّمينَ عند اليهود والنَّصارىٰ، بل والسُّجود لتماثيل وصُور مَن يدَّعونَ قُدسيتَهم وتعظِيمَهم.

وزادَ هذه الصورةَ وُضوحًا قولُ عائشة ﷺ السابق: «لولا ذلك أُبرز قبرُه، غير أنَّه خَشي أو خُشي أنْ يُتَّخذَ مسجدًا»، والحمدُ لله لم يحدث ولنْ يحدُثَ أن يتخذ المسلمونَ قبرَ رسول الله ﷺ مسجدًا يسُجدون إليْه أو عليْه.

ونؤكِّدُ مرَّةً أخرىٰ علىٰ أنَّ وُجودَ القبر الشَّريف داخل المسجد يُعدُّ دليلًا علىٰ أنَّ الأحاديثَ الواردةَ في هذا البابِ ليس المقصود منها تحريمَ بناء مسجد علىٰ قبرٍ أو إدخال قبرٍ إلىٰ مسجدٍ كما فَهِمَه بعض النَّاسِ في هذا الزَّمان، ولو كان هو المقصود للَزِمَ أن نقول: إنَّ اللَّعنةَ والغضبَ الَّتي استحقتها الأممُ السَّابقةُ قد وقعَت في أمَّة الإسلام بوُجود قبر النَّبيِّ ﷺ داخل المسجد!

فكلمة: «خَشِيَ أو خُشِيَ أن يتَّخذ مسجدًا». لم تَحدثْ بفضلِ الله في أُمَّة الإسلام فلم نسمعْ أو نشاهد أنَّ مسلمًا من المسلمينَ سجدَ لقبر النَّبيِّ ﷺ أو صلَّىٰ إليْه واتَّخذه قِبلةً لصلاتِه.

وقد تبيَّنَ والحمد لله أنَّ كلمة الاتخاذ في الأحاديث السَّابقة لا تنصرفُ إلَّا إلىٰ القبر فقط والتوجُّه إليه، والتَّحذير ممَّا وقعت فيه الأمم السَّابقة، وكما وردَ في رواية أحمد من حديث السيدة عائشةَ ﷺ: «يحذرهم مثلَ الَّذي صنعوا»[1]. وهو السُّجود للقُبورِ أو إليها قصدًا أو جعلها قِبلةً للصَّلاةِ، أمَّا وُجودُ القبرِ داخلَ المسجدِ أو بناءُ مَسجدٍ علىٰ قبرٍ أو

(1) تقدَّم تخريجُه.

ضريحٍ وتكونُ الصَّلاةُ في هذا المسجد صلاةً لله وحدَه فلا تدخلُ هذه الصُّورةُ في الحديثِ، فالأحاديثُ الَّتي أتتْ بالتَّحريمِ والوعيدِ تدورُ حولَ محورٍ واحدٍ وهُو اتِّخاذُ القبرِ بذاتِه مَسجدًا فلا يدخُلُ في الأحاديثِ ما حولَ القبر أو ما جاورَه.

ونُوردُ هنا بعضًا من أقوالِ أهل العلمِ في المسألة لزيادةِ الإيضاحِ:

قال ابنُ عبدالبرِّ في التَّمهيد- وهو يتكَّلم عن هذه الأحاديث: ((في هذا الحديث إباحةُ الدُّعاء علىٰ أهل الكُفرِ وتحريمُ السُّجودِ علىٰ قبورِ الأنبياء، وفي معنىٰ هذا أنَّه لا يجوزُ السُّجودُ لغير الله عزَّ وجلَّ، ويحتمِلُ الحديثُ أن لا تُجعل قبورُ الأنبياء قِبلةً يُصلىٰ إليها))[1].

وقالَ في مَوضعٍ آخر في التَّمهيدِ: ((وكانتِ العربُ تُصلِّي إلىٰ الأصنام وتعبدُها فخَشِيَ رسولُ الله ﷺ علىٰ أُمَّته أنْ تصنعَ كما صنع بعضُ مَن مضىٰ مِنَ الأُمم، كانوا إذا مات لهم نبيٌّ عكفوا حول قبرِه كما يُصْنَعُ بالصَّنم، فقال ﷺ: ((اللهمَّ لا تجعلْ قَبْرِي وثنًا يُصلَّىٰ إليه))[2]. ويُسجد نحوه ويُعبد، فقدِ اشتدَّ غضبُ الله علىٰ مَن فعلَ ذلك، وكان رسولُ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُحذِّرُ أصحابَه وسائرَ أُمَّته من سُوءِ صَنيعِ الأُمم قبلَه الَّذين صلَّوا إلىٰ قبور أنبيائِهم واتخذُوها قبلةً ومسجدًا، كما صنعتِ الوثنيَّةُ بالأوثان الَّتي كانوا يسجُدون إليها ويعظِّمونَها، وذلك الشِّرك الأكبر، فكان النبيُّ ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سَخط الله وغضبه، وأنَّه ممَّا لا يرضاه خشيةً عليهم امتثالُ طرقهم))[3].

وقال شهاب الدين القسطلانيُّ: ((قال البيضاويُّ: لَمَّا كانت اليهودُ والنَّصارىٰ

---

(1) التَّمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (383/6) تأليف: أبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري القرطبي- تحقيق: مصطفىٰ بن أحمد العلوي، محمد عبدالكبير البكري-الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية — المغرب- 1387 هـ.

(2) تقدَّم تخريجُه.

(3) التَّمهيد لابن عبدالبر (45/5).

يَسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لشأنِهم ويجعلونها قِبلةً يتوجَّهون في الصَّلاة نحوَها واتَّخذوها أوثانًا لعنهُم ومنع المسلمينَ عن مثلِ ذلك، فأمَّا مَنِ اتَّخذ مسجدًا في جوارِ صالحٍ وقصد التبرُّك بالقربِ منه لا التَّعظيم له ولا التَّوجُّه نحوه فلا يدخلُ في ذلك الوعيد))[1].

قال العلامةُ ابن بطَّال في شرح صحيح البخاريِّ: ((فإن قيلَ: فهل يجوزُ أن يُبنىٰ المسجدُ علىٰ قُبورِ المسلمينَ؟ وهل يدخلُ ذلك في معنىٰ لعنة اليهودِ لاتِّخاذِهم قُبورَ أنبيائهم مساجد؟ قِيلَ: لا يدخلُ ذلك لافتراقِ المعنىٰ، وذلك أنَّه عليْه السَّلام أخبرَ أنَّ اليهودَ يتَّخذونَ قبورَ أنبيائهم مساجدَ ويقصدُونَها بعبادتِهم، وقد نسخَ الله جميعَ المعبُوداتِ بالإسلامِ والتَّوحيدِ، وأمرَ بعبادتِه وحدَه لا شريكَ له))[2].

نقل المباركفوري في شرحه لجامع التِّرمذي قولَ الإمام التُّورِبشْتِي عند الكلام عن حديث: ((لَعنَ الله اليهودَ والنَّصارىٰ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). قال: ((قال التُّورِبشْتي: هو مخرجٌ علىٰ الوجهين؛ أحدُهما: كانوا يَسجدون لقبورِ الأنبياء تعظيمًا لهم وقصدَ العبادة في ذلك. وثانيهما: أنَّهم كانُوا يتحرَّون الصَّلاةَ في مدافن الأنبياءِ والتَّوجُّهَ إلىٰ قبورهم في حالةِ الصَّلاة والعبادةِ لله))[3].

فهذا ما فَهِمَه علماءُ المسلمينَ مِنْ معاني اتِّخاذ القبرِ مَسجدًا، فالسُّجودُ علىٰ القبور أو السُّجود لها أو الصَّلاة إليها تَعظيمًا لها أو جعلها في قِبلةِ الصَّلاة هي المُستوجِبةُ للَّعن والغضب، وهِي المحذَّرُ منها في هذه الأحاديثِ وليس فيها الصُّورُ الموجودةُ الآن في واقعِ المسلمين مِن وُجود قبرٍ في مَسجد؛ كما هو الحالُ في مسجد رسول الله ﷺ، والَّذي تتشَابه

(1) إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري (525/1) تأليف: شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني- المطبعة الأميرية الكبرىٰ- مصر- الطبعة السابعة- 1323هـ.

(2) شرح صحيح البخاري (81/2) تأليف: أبي الحسن علي بن خلف بن عبدالملك ابن بطال- تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم- دار النشر: مكتبة الرشد - الرياض- الطبعة الثانية- 1423هـ - 2003م.

(3) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (226/2) تأليف: أبي العلا محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري- دار الكتب العلمية- بيروت- 1422هـ.

معه كثيرٌ مِن مساجدِ المسلمينَ الَّتي فيها قبورٌ من حيثُ إنَّ المسجدَ النبويَّ فيه القبرُ الشَّريفُ، فينبغي علىٰ مَن يَرمي النَّاس بالوقوع في اللَّعنة والغضبِ والشِّركِ أن يعرفَ الصُّورةَ المنهيَّ عنها، لا أن ينظرَ إلىٰ ما فعلَه المسلمون في مساجدِهم، ثم يقول: إنَّ الأحاديثَ قد وردت فيهم، فيأتي لنصوصٍ وردت في المشركينَ فيُسقطها علىٰ المسلمين ويصدر أحكامًا جُزافًا. فخلاصةُ القول أنَّ المحرَّمَ والممنوعَ والموجِبَ للَّعنةِ والغضبِ من خلالِ معاني هذه الأحاديث هو اتِّخاذُ القبر مسجدًا بحيث يُسجَدُ عليه أو يُسجَدُ له أو يُتَّخذُ القبرُ نفسُه قِبلةً للصَّلاة.

توضيحاتٌ مهمة حول قضية المسجدِ الذي به قبرٌ

في هذا المحور نتناولُ بعضَ الأمورِ حولَ المسجد الذي به قبر، ممَّا يوقفُنا علىٰ الفهمِ الحقيقيِّ لهذه المسألةِ سواءٌ في مسجدِ النَّبيِّ ﷺ، ثم بعد ذلك نُوردُ فتوىٰ دار الإفتاءِ المصريَّةِ حولَ الصَّلاةِ في المسجد الذي به قبر، وهاكَ الكلامَ في هذا المحور:

أوَّلًا: المسجدُ النَّبويُّ الشَّريفُ هو المثالُ العمليُّ الواضحُ في هذه المسألة فهو- مع وُجودِ قبر النبي ﷺ وصاحبيْه فيه- خيرُ المساجدِ بعد المسجدِ الحرامِ، فهُو وغيرُه من المساجدِ الَّتي تكون بها قبور خارجونَ عن الصُّورة الموجِبةِ للغضبِ واللَّعنة؛ وذلك لأمريْنِ:

1- أنَّ الأمَّة الإسلاميَّة أجمعتْ منذ عهد الصَّحابة وكبار التَّابعينَ باختلافِ مذاهبِها العقديَّة والفقهيَّة علىٰ أنَّ إدخالَ قبرِ النَّبيِّ ﷺ وقبرِ أبي بكر وعمرَ في مسجد النَّبيِّ ﷺ أمرٌ جائزٌ وليس محرَّمًا شرعًا، ولا تجتمعُ أمَّةُ المسلمينَ علىٰ ضلالٍ، فكان هذا دليلًا علىٰ أنَّ الشكلَ الموجودَ به مسجدُ رسول الله أو غيره من المساجد الَّتي بها قبورٌ ليستْ هي المقصودةَ بالتَّحريمِ.

2- رَوَىٰ أحمدُ والبزَّارُ في مُسنديْهما، والطَّبرانيُّ في معجمه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَا بينَ قَبري ومِنبري روضةٌ من رِياضِ الجنَّة»[1]. فهلِ البُقعةُ المباركةُ الموصوفةُ بأنَّها روضةٌ من رِياضِ الجنَّةِ- والَّتي هي بداخلِ المسجدِ الشَّريفِ الَّذي يحتوي قبرَ النَّبيِّ ﷺ- داخلةٌ في صورةِ التَّحريمِ والمنع الَّذي يستوجبُ الغضب واللَّعنة من الله عزَّ وجلَّ؟! فذلك تناقضٌ ما بعدَه تناقض.

وهلِ الصَّلاةُ في الرَّوضة الشَّريفةِ- وهي بجوارِ القبر الشَّريف- داخلةٌ في النَّهي والوعِيدِ الواردِ في هذه الأحاديث علىٰ فَهمِ مَن فَهِمَ أنَّ المُرادَ هو المنعُ مِنْ إقامةِ وبناءِ مَسجدٍ علىٰ القبرِ أو دخولِ قبرٍ داخل المسجد؟! بالطَّبعِ لا يقولُ بحُرمةِ ذلك إلَّا مختلُّ التَّفكيرِ أو جاهلٌ لا يعلمُ أيَّ شيءٍ عن دِينِ الإسلامِ.

ولا يزعمُ أحدٌ أنَّ هذا الأمرَ خاصٌّ بالنَّبيِّ ﷺ وفيه خصوصيَّةٌ له؛ لأنَّ الخصوصيَّات لا تَثبتُ إلَّا بدليلٍ واضحٍ، وأيضًا الخصوصيَّةُ تكونُ في أمورٍ مباحةٍ وجائزةٍ في أَصْلِها.

---

(1) أخرجَه أحمدُ في مسندِه (64/3) من طريق عفانَ حدثنا عبدالواحد يعني: ابن زياد، حدَّثنا إسحاق بن شرفي مولىٰ عبدالله بن عمر قال: حدَّثنا أبو بكر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عمر، عن عبدالله بن عمر قال: حدَّثني أبو سعيد الخُدري به مرفوعًا.

وله شاهدٌ من حديث أبي هريرة ﵁؛ أخرجَه ابنُ أبي شيبة في مصنَّفه (32316)، والبزَّار في مسنده (8200) من طريق خبيب بن عبدالرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرةَ به مرفوعًا.

وآخرُ من حديث ابن عمرَ ﵄؛ أخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (294/12) من طريق محمد بن أحمد بن أبي خيثمة قال: قلتُ لإدريس بن عيسىٰ القطَّان: حدَّثكم محمد بن بِشر العبدي، ثنا عبيد الله بن عمر، عن أبي بكر بن سالم، عن سالم، عن ابن عمر به مرفوعًا.

وأصلُ الحديث متَّفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب التَّهجد، باب فضل ما بين القبرِ والمنبرِ (1196)، ومسلمٌ في كتاب الحجِّ، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رِياضِ الجنَّة (1391) من حديث أبي هريرة ﵁ بلفظ: «مَا بين بَيتي ومِنْبَري رَوْضةٌ من رِياض الجنَّةِ».

إذنْ لا عِبرةَ لقولِ مَنْ يجعلُ هذا خاصًّا بقَبرِ رسولِ الله ﷺ؛ لأنَّ هذا ينتجُ عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ له خصوصيَّةٌ في أمرٍ وردَ فيه اللَّعنُ والغضبُ من الله تعالىٰ، وحاشاه عليه الصَّلاة والسَّلام أنْ يكونَ له اختصاصٌ بأمرٍ مُحرَّمٍ.

وممَّا يزيدُ الأمرَ تأكيدًا في أنَّ وجودَ المسجدِ علىٰ قبرٍ لا حُرمةَ فيه في شريعةِ الإسلام ما أخرجَه البزار في مسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: ((في مسجدِ الخَيْفِ قُبِرَ سَبْعونَ نَبيًّا))[1].

وقد قال الإمامُ القرطبيُّ رضي الله عنه في الجامع لأحكام القرآن: روىٰ محمَّد بن سابط عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((كان النَّبيُّ من الأنبياءِ إذا هَلَكَتْ أُمَّتُه لحقَ مَكَّةَ فتعبَّدَ بها هُو ومَنْ آمنَ معَه حتَّىٰ يَمُوتُوا، فماتَ بها نوحٌ وهودٌ وصالحٌ، وقُبورُهم بَيْنَ زمزمَ والحِجْرِ))[2].

ثانيًا: ينبغي علينَا أنْ نَنْتبه إلىٰ مسألةٍ في غايةِ الأهميَّةِ وهي أنَّ هناك فرقًا كبيرًا بينَ التَّصرُّفاتِ الَّتي نشاهدُها من بعض المسلمينَ في المسجد الَّذي فيه قبرٌ ممَّا لا يؤيِّدُه الإسلامُ بحالٍ وبين حُكم المساجدِ الَّتي بها أضْرحةٌ، فيجبُ عدمُ الخلطِ بين تصرُّفات بعض الجُهلاءِ في تلك المساجدِ أمامَ القبرِ وبينَ حُكم الصَّلاةِ في المسجدِ الذي به قبرٌ، فلكلٍّ من الموضعَيْنِ كلامٌ وأحكامٌ وتوضيحاتٌ تخصُّه، وما نَدينُ الله به أنَّ أيَّ فعلٍ أو قولٍ لا تسمحُ به شريعةُ الإسلام أو ليس له وجهةٌ مقبولةٌ فهو مرفوضٌ ولا نقبلُ به.

لكنْ علينا أنْ نُعلِّمَ النَّاسَ الصَّوابَ لا أنْ نَربطَ بين أيِّ فعلٍ أو قولٍ يصدرُ من النَّاس لعدمِ العِلْم وبين مسألةِ وجود القبر في المسجد؛ لأنَّ المحرَّمَ محرَّمٌ سواءٌ أكانَ في

---

(1) أخرجَه البزَّار في مسنده (1175- كشف الأستار)، والطَّبرانيُّ في الكبير (12/ 414) من طريق إبراهيم ابن طهمان، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عمر به مَرفوعًا. وقال الهيثميُّ في مجمعِ الزَّوائد (3/640): ((رواه البزَّار ورجالُه ثِقاتٌ)). وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في مختصر زوائد البزَّار (1/ 476).

(2) أخرجه الأزرقيُّ في أخبار مكة (1/68)، وبنحوه الحاكم في مستدركِه (2/563) من طريق حمَّاد بن سلمة عن عطاء بن السائب، عن محمد بن سابط به مُرسلًا. وسكتَ عنه الحاكمُ وكذا الذَّهبيُّ. وانظر: تفسير القرطبي (2/130).

مسجدٍ به ضريحٌ أم مسجدٍ ليس به ضريحٌ، والواجِبُ في هذه الحالةِ أنَّنا إذا شاهدنا أُمورًا نُنكرُها ممَّا وَرَدَ الشَّرعُ بتحريمِها أو كراهتِها أنْ نُعَلِّم مَن يقومُ بهذا الفِعلِ ونرشدَه إلىٰ أنَّ صَنِيعَه أمامَ القبرِ هو ممَّا نهىٰ الشَّارعُ الحكيمُ عنه ونوجِّهه الوجهةَ السليمةَ لا أنْ نُحرِّم الصَّلاةَ في المسجد؛ لأنَّ بعضَ الجهلاءِ تصرَّفُوا أمام القبورِ بما لا يُسيغه العقلُ والشَّرع.

ثالثًا: علينا أنْ نعلمَ أنَّ مَن يُصلي في المسجد الذي به قبرٌ لا يخطرُ في باله أنَّه يصرفُ صلاتَه أو عِبادتَه أو قُرُباتِه للقبرِ أو للقبورِ فيه، فإنَّنا إذا سألنا أحدَهم ممَّنْ يدخلُ هذه المساجدَ ويُصلِّي بها وقلنا له: هل تقصدُ يا أخي المسلم يا مَن تُصلِّي في مسجدٍ به ضريحٌ بصلاتِك هذه غيرَ وَجْهِ الله وإقامةِ فَرِيضتِه الَّتي فرضَها عليك؟ فإنَّ الجوابَ بكلِّ تأكيدٍ سيكونُ من كلِّ مسلمٍ علىٰ وجه الأرضِ هو أنَّني لا أقصدُ بصلاتي إلَّا وجهَ الله تعالىٰ، سواءٌ أكان في مسجدٍ به ضريحٌ أم ليس به ضَريحٌ.

ومِنْ هُنا يَنبغِي علينا أنْ نظنَّ الخيرَ فيمَنْ يُصلِّي في المساجدِ الَّتي فيها قبرٌ وأن نحذِّرَ مِن أن نظنَّ بالنَّاس ظنًّا محرَّمًا لا دليلَ عليه؛ لأنَّ الأصلَ في جميع المسلمينَ سلامةُ الاعتقاد ما لم يظهرْ ما يُخالفُ ذلك، ولو سألتَ أيًّا من رُوَّاد المساجد الَّتي فيها أضرحةُ أهل بيت رسول الله ﷺ أو أحدِ الأولياء أو العلماء- هل تعتقدُ في صاحب الضَّريحِ أنَّه يملكُ لكَ نفعًا أو ضرًّا؟ لأجابك من فورِه: لا، ولقال لك: إنَّ الَّذي يملكُ الضُّرَّ والنَّفعَ هُو الله سبحانَه وتعالَىٰ، وما ساقني إلىٰ هذه المساجد إلَّا حبُّ آلِ البيت وحبُّ الأولياء والتقرُّبُ إلىٰ الله بمودَّتِهم وحبِّهم وإنزالهم المنزلةَ الَّتي يستحقُّونها بحُكم الشَّرع، أمَّا صلاتي فهي لربِّي سبحانه وتعالَىٰ.

فَتْوىٰ دار الإفتاءِ المصريَّة في حكمِ الصلاةِ في المساجدِ الَّتي بها أضرحةٌ:

وإتْمامًا للفائدةِ نُوردُ فتوىٰ دار الإفتاءِ المصريَّةِ عن حكمِ الصَّلاةِ في المساجدِ الَّتي بها قبورٌ حتَّىٰ يطمئنَّ قلبُ كلِّ مُسلمٍ أنَّ الصَّلاةَ في هذه المساجدِ مُباحةٌ وصحيحةٌ إنْ شاءَ الله، وهذا نصُّ الفتوىٰ التي تحمِلُ رقم مسلسل (4483) وتاريخ الإجابة: 2012/06/3م.

السؤال: ما حكمُ الصَّلاة في المساجدِ التي بها أضرحةٌ؟

الجواب: الصَّلاةُ في المساجدِ الَّتي بها أضرحةُ الأولياءِ والصَّالحينَ صحيحةٌ ومشروعة، بل إنَّها تَصِلُ إلىٰ درجةِ الاستحبابِ، وذلك ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وفِعلِ الصَّحابةِ وإجماع الأُمَّة الفعليِّ:

فمِنَ القرآن الكريم قولُه تعالىٰ: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:21].

وسياقُ الآية يدلُّ علىٰ أنَّ القولَ الأوَّلَ هو قولُ المشركين، والقولَ الثَّاني هو قولُ الموحِّدينَ، وقد حكىٰ الله تعالىٰ القوليْنِ دونَ إنكارٍ، فدلَّ ذلك علىٰ إمضاءِ الشَّريعة لهما، بل إنَّ سياقَ قولِ الموحِّدينَ يُفيدُ المدح، بدليل المقابلةِ بينَه وبينَ قولِ المشركينَ المحفوفِ بالتَّشكيكِ، بينما جاء قولُ الموحِّدين قاطِعًا، وأنَّ مرادَهم ليسَ مجرَّدَ البناء، بل المطلوبُ إنَّما هو المَسجدُ، قال الإمام الرَّازي في تفسير قولِه تعالىٰ: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ((نعبدُ الله فيه، ونستبقِي آثارَ أصحابِ الكهف بسبب ذلك المسجد))[1]. اهـ.

ومن السُّنَّة: حديث أبي بَصيرٍ ﷺ الذي رَوَاه عبدالرزاق عن مَعمَر، وابن إسحاق في السِّيرة، وموسىٰ بن عقبة في مَغازِيه- وهي أصحُّ المغازِي كما يقول الإمامُ مالك- ثلاثتهم عن الزُّهري، عن عروةَ بن الزُّبير، عن المِسوَر بن مَخْرمةَ ومَرْوان بن الحكم ﷺ: ((أنَّ أبا جَندل بن سُهيل بن عمرو دَفنَ أبا بَصير ﷺ لَّما مات وبَنىٰ علىٰ قبرِه مَسجدًا بسيفِ

(1) مفاتيح الغيب المشهور بتفسير الفخر الرازي (106/21) دار الفكر- الطَّبعة الأولىٰ- 1981م.

البحرِ، وذلك بمَحضر ثلاثمائةٍ من الصحابة))[1]. وذلك إسنادٌ صحيحٌ، كلُّه أئمةٌ ثقاتٌ، ومثلُ هذا الفِعْلِ لا يخْفَىٰ علىٰ رسُولِ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، ومع ذلك فلم يَرِدْ أنَّه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أمرَ بإخراجِ القبرِ من المسجدِ أو نَبْشِه.

كما ثَبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((في مَسجدِ الخَيْفِ قَبْرُ سبعينَ نبيًّا)). أخرجَه البزَّار، والطَّبرانيُّ في المعجم الكبير.

وقال الحافظُ ابنُ حجر في مختصر زوائد البزَّار: ((هو إسنادٌ صحيحٌ))[2].

وقد ثَبتَ في الآثار: أنَّ سيِّدَنا إسماعيل عليْه السَّلام وأُمَّه هاجر رضي الله عنها قد دُفنا في الحِجْر من البيتِ الحرامِ، وهذا هُو الذي ذكره ثقاتُ المؤرِّخينَ واعتمدَه علماءُ السِّير كابنِ إسحاقَ في السِّيرة، وابن جرير الطَّبريِّ في تاريخِه، والسُّهيليُّ في الرَّوض الأُنُف، وابن الجوزي في المنتظم، وابن الأثير في الكامل، والذَّهبي في تاريخِ الإسلام، وابنُ كثير في البدايةِ والنِّهاية، وغيرُهم من مؤرِّخي الإسلام، وأقرَّ النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ذلك ولم يأمر بنبشِ هذه القبور وإخراجِها من مسجد الخَيْف أو من المسجد الحرامِ.

---

(1) وَرَدَ ذلك في حديثٍ أخرجَه البخاريُّ في كتاب الشُّروط، باب الشروط في الجهادِ والمصالحةِ مع أهل الحرب (2731) من طريق عبدالرزاق المذكورِ مطوَّلًا، ولكن دون ذكر بناء مسجد علىٰ قبرِ أبي بَصير، وكذلك لم يحدِّد عدد الصحابة الذين كانُوا معه، وإنَّما فيه: ((فجعَلَ لا يخرجُ من قريشٍ رجلٌ قد أسلم إلا لحقَ بأبي بصيرٍ، حتىٰ اجْتمعَتْ منهم عصابةٌ)).

وبذكر بناءِ المسجد عليه؛ أخرجَه ابن سعد في الطَّبقاتِ (4/125) من طريق الواقديِّ منقطعًا، وذكر أنَّ عدد مَن كان مع أبي بصيرٍ هو سبعون رجلًا.

وذكر ابنُ عبدالبر في الاستيعابِ (4/1612): ((أن مَن كان مع أبي بصيرٍ ثلاثمائة وعزاه لعبدِالرزاق عن معمر عن ابن شهاب به مرسلًا)).

وذكر أيضًا في الاستيعابِ (4/1613): ((أنَّ موسىٰ بن عقبة ذكرَ هذا الخبر في أبي بصير بأتم ألفاظٍ وأكملِ سياقه)). وفي (4/1614): ((أن ابن إسحاقَ ذكر هذا الخبر بهذا المعنَىٰ، وبعضُهم يزيد فيه علىٰ بعض، والمعنىٰ متقارب إن شاءَ الله تعالىٰ)).

(2) تقدَّم تخريجُه.

وأمَّا فِعلُ الصَّحابة: فقد حكاهُ الإمامُ مالك في الموطَّأ بلاغًا صحيحًا عندما ذكر اختلافَ الصَّحابة في مكان دفنِ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فقال ناسٌ: يُدفنُ عند المنبرِ، وقال آخرون: يُدفن في البقيعِ، فجاء أبو بكر الصديق ﵁ فقال: سمعتُ رسولَ الله صلَّىٰ الله عليْه وآله وسلَّم يقول: «مَا دُفِنَ نَبِيٌّ قَطُّ إِلَّا في مكانِه الَّذي تُوُفِّيَ فِيه» فحُفِرَ لَهُ فيه[1]. اهـ.

والمنبرُ من المسجد قطعًا، ولم ينكر أحدٌ من الصَّحابة هذا الاقتراح، وإنَّما عدل عنه أبو بكر تطبيقًا لأمرِ النَّبيِّ صلىٰ الله عليْه وآله وسلَّم أن يُدفنَ حيثُ قُبِضَتْ رُوحه الشَّريفةُ صلَّىٰ الله عليْه وآله وسلَّم، فدُفِنَ في حُجرةِ السَّيدةِ عائشةَ ﵂ المتَّصلةِ بالمسجدِ الذي يُصلِّي فيه المسلمونَ، وهذا هو نفسُ وضع المساجدِ المتَّصلةِ بحُجراتِ أضرحةِ الأولياءِ والصَّالحين في زمانِنا هذا.

وأمَّا دعوىٰ الخُصُوصيَّةِ في ذلك للنبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فهي غيرُ صحيحةٍ؛ لأنَّها دعوىٰ لا دليلَ عليها؛ بل هي باطلةٌ قطعًا بدفنِ سيِّدنا أبي بكر وسيِّدِنا عمر ﵄ في هذه الحُجرةِ التي كانت السَّيِّدةُ عائشةُ ﵂ تعيشُ فيها وتُصلِّي فيها صلواتِها المفروضةَ والمندوبةَ، فكان ذلك إجماعًا من الصَّحابة ﵃ علىٰ جوازِه.

(1) أخرجه مالكٌ في موطَّئه (2/ 323- 324) بلاغًا.

وأخرجَه من غير هذا الوجه التِّرمذيُّ في كتاب الجنائز، باب ما جاء في دفنِ النبيِّ ﷺ حيثُ قُبض (1018) من طريق أبي كريب قال: حدَّثنا أبو معاوية عن عبدالرحمن بن أبي بكر، عن ابن أبي مليكة، عن عائشةَ، عن أبي بكر ﵄ به.

وله شاهدٌ من حديثِ ابن عبَّاسٍ ﵄؛ أخرجَه ابنُ ماجه في كتاب الجنائزِ، باب ذكر وفاتِه ودفنِه ﷺ (1628) من طريق نصر بن علي الجهضميِّ قال: أنبأنا وهب بن جرير قال: حدَّثنا أبي، عن محمد بن إسحاق قال: حدَّثني حسين بن عبدالله، عن عكرمة، عن ابن عباس مطوَّلًا، وذكر فيه قولَ أبي بكرٍ ﵁.

والحديثُ حسَّنَ إسناده الصالحيُّ في سُبل الهدىٰ والرَّشاد (12/334).

ومن إجماع الأُمَّةِ الفِعْليِّ وإقرار علمائِها لذلك صلاةُ المسلمينَ سلفًا وخلفًا في مسجدِ سيِّدنا رسولِ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم والمساجدِ التي بها أضْرحةٌ من غير نكيرٍ، وإقرار العلماءِ من لَدُنِ الفقهاء السَّبعة بالمدينة المنوَّرة الذينَ وافقُوا علىٰ إدخال الحُجرة النبويَّة الشَّريفة إلىٰ المسجد النَّبوي سنة ثمانٍ وثمانينَ للهجرةِ، وذلك بأمر الوليد بن عبدالملك لعامله علىٰ المدينة حينئذٍ عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، ولم يعترضْ منهم إلا سعيدُ بنُ المسيِّب، لا لأنه يرىٰ حُرمةَ الصَّلاة في المساجد التي بها قبورٌ؛ بل لأنَّه كان يُريدُ أنْ تبقىٰ حُجراتُ النَّبيِّ صلَّىٰ الله عليْه وآله وسلَّم كما هي، يطَّلعُ المُسلمونَ عليها حتَّىٰ يزهدوا في الدُّنيا ويعلموا كيفَ كان يعيشُ نبيُّهم صلَّىٰ الله عليْه وآله وسلَّم.

وأمَّا حديثُ عائشةَ رضي الله عنها في الصَّحيحيْنِ أن النَّبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: ((لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ والنَّصارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ))[1]. فالمساجدُ جمع مَسْجِدٍ، والمسجد في اللُّغةِ مصدر ميمي يصلحُ للدلالة علىٰ الزَّمان والمكان والحدث، ومعنىٰ اتِّخاذ القبورِ مساجدَ السُّجودُ لها علىٰ وجه تعظيمِها وعبادتِها كما يسجدُ المشركون للأصنام والأوثانِ، وكما فسَّرته الرِّوايةُ الصَّحيحةُ الأخرىٰ للحديث عند ابن سعد في الطَّبقات الكُبرىٰ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: ((اللهمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا لَعَنَ اللهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبيائِهِمْ مَسَاجِدَ))[2]، فجملةُ: ((لَعَنَ اللهُ قَوْمًا)) بيانٌ لمعنىٰ جَعْلِ القبر وثنًا، والمعنىٰ: اللهمَّ لا تجعل قبري وثنًا يُسجدُ له ويُعبد كما سجد قومٌ لقبورِ أنبيائِهم.

قال الإمام البيضاويُّ: ((لمَّا كانتِ اليهودُ والنَّصارىٰ يسجدونَ لقبور أنبيائِهم، تعظيمًا لشأنهم، ويجعلونَها قِبلةً، ويتوجَّهونَ في الصَّلاة نحوَها، واتَّخذوها أوثانًا، لعنهمُ الله، ومنع المسلمين عن مثل ذلك ونهاهم عنه، أمَّا مَن اتَّخذَ مسجدًا بجوارِ صالحٍ أو صلَّىٰ في مقبرتِه وقصدَ به الاستظهارَ برُوحِه ووصول أثرٍ من آثارِ عبادته إليه- لا التَّعظيم

(1) تقدَّم تخريجُه.

(2) تقدَّم تخريجُه.

والتوجُّه- فلا حَرَجَ عليه، أَلَا ترىٰ أنَّ مدفنَ إسماعيل في المسجد الحرامِ ثم الحَطِيم، ثمَّ إنَّ ذلكَ المسجد أفضلُ مكانٍ يتحرَّىٰ المصلِّي بصلاتِه، والنَّهيُ عن الصَّلاةِ في المقابر مختصٌّ بالمنبوشةِ؛ لما فيها من النَّجاسةِ)). اهـ.

وبِناءً علىٰ ذلك فإنَّ الصَّلاةَ في المساجد الَّتي بها أضرحةُ الأولياءِ والصَّالحينَ جائزةٌ ومشروعةٌ، بل ومُستحبَّةٌ أيضًا، والقولُ بتحريمِها أو بُطلانِها قولٌ باطلٌ لا يُلتَفَتُ إليه ولا يعوَّل عليْه. والله سبحانه وتعالىٰ أعْلمُ. اهـ. ◆

الخاتمة

لم يكن الهدفُ من هذا البحث المجادلةَ أو الانتصارَ لمذهبٍ دون آخرَ، وإنَّما هو خطوةٌ نحو فَهْمِ المسألةِ وتوضيحِ الرَّأيِ والرَّأيِ الآخر، فقد تتبنَّى أنتَ مذهبًا معيَّنًا أو رأيًا معيَّنًا في مسألةٍ ما وترىٰ أنَّها حقٌّ، ولو سُلِّمَ لكَ بهذا فهلِ اطَّلعتَ علىٰ ما عندَ الآخرين مِن مذاهبَ وآراء؟ إنَّه مِنَ الأمور الَّتي أوقعت الشِّقاق بين المسلمينَ هو عدمُ اطِّلاع كل فريقٍ علىٰ ما عندَ الآخر وعدمُ تَقَبُّلِه، وذلك بشكلٍ عامٍّ وفي مسألتِنا بشكل خاصٍّ.

ثمَّ بعد اطِّلاعِك علىٰ كُتب الطَّرفِ الآخرِ هل لا زلتَ تقول: إنَّها خطأٌ؟ وتَرىٰ مع إيرادِ الأدلَّة علىٰ جوازِ الصَّلاةِ في المساجد الَّتي فيها قبرٌ أنَّ هذا محرَّمٌ ولا جدالَ فيه، إنْ كان هذا هو الحالَ أليسَ من الإنصاف بعد اطِّلاعِكَ علىٰ ما عندَ الآخرين أن تعتبرَهم ممَّن قلَّدوا علماءَ أباحُوا هذا مثلما اتَّبعتَ أنت مَن يرونَ الحرمةَ وأنَّ لهم مذهبًا مُعتبرًا في هذا الأمر؟ فالمجوِّزُ للصَّلاة قلَّد مَن أباح وأنتَ قلَّدْتَ مَن حرَّمَ، ولستَ أنتَ ومَن قلَّدْتَه ممَّن اختصَّ وحدَه بالحقِّ والدَّليلِ، فالَّذي اتَّبعَ مَنْ أباحَ أقلُّ درجاته الَّتي يجبُ أن تتعاملَ معه بها هُو أنَّه مخالفٌ لك ولكن له سندٌ وسلفٌ وعلماءُ في هذا الخلافِ.

وأخيرًا فإنَّ جماعَ هذا كلِّه أخي الكريم يا مَن ترىٰ الجوازَ ويا مَن ترىٰ الحُرمةَ أنَّ مسألةَ المساجدِ علىٰ المقابرِ من المسائل الفقهيَّةِ الَّتي يُقبلُ فيها الاختلافُ والتنوعُ، وليستْ من أصولِ دِين الإسلام، وأنَّ محلَّها مِن كُتبِ الشَّريعة كتبُ الفروع الفِقهيَّةِ وليس كُتب العقيدة، فلتوضع المسألةُ في هذا إطارها الصحيح، ولا يتمُّ رميُ النَّاسِ بالشِّرك والبِدعة واللَّعنة لمجرَّدِ أنَّهم يرون رأيًا في مسألةٍ فقهيَّةٍ يخالفُ ما أنت عليه وما تعتقدُه.

فلو اتَّبعنا هذا المنهجَ في كلِّ المسائل الخِلافيَّة سنجدُ أنفسَنا قد تجنَّبنا الشِّقاقَ والنِّزاعَ، ولنْ تُصبحَ هذه المسائلُ أداةً لتفريقِ المسلمين وتصنيفِهم، وليس في ذلك أيُّ دعوةٍ أبدًا إلىٰ التَّفريطِ في شريعةِ ربِّ العالمينَ أو التَّهوين من مخالفةِ الشريعة، وإنَّما الكلام عن أنَّ احترامَ الاختلافِ هو من الشريعة، وأن نفهم أنَّ مَن خالفَ داخلٌ في دائرة شريعة الإسلام لم يخرجْ منها، والحمدُ لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ خيرِ خَلقِه سيِّدِنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبِه أجمعينَ. ◆

الرسالة الخامسة والعشرون
مشروعية التوسل وأدلة استحبابه
من الكتاب والسنة وأقوال أهل السنة

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: تعريفُ التَّوسُّل وشرح مفهومِه وبيان صُورِه.

المحور الثاني: الأدلَّة الشَّرعيَّة على جوازِ ومشروعيَّةِ واستحبابِ التَّوسُّل.

المحور الثالث: توسل الصَّحابةِ والسَّلف الصَّالح برسُول الله ﷺ.

المحور الرابع: إيراد أقوال المذاهب وأهلِ العلم في قضية التَّوسُّل.

المحور الخامس: أشعار قيلت في التَّوسل والاستشفاعِ برسُولِ الله ﷺ.

المحور السادس: توضيحات مهمة في قضية التَّوسُّل. ◆





﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ - آية **93–95** من سورة مريم

مشروعية التوسل وأدلة استحبابه
من الكتاب والسنة وأقوال أهل السنة

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فقد قال الله سبحانَه وتعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] وقال جلَّ وعلا وهو يُثني علىٰ خُلُقه الشَّريف: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] وأخبرنا ربُّ العالمين مُتحدِّثًا عن نعمتِه علىٰ حبيبِه ومُصطفاه فقال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]. وإنَّ أعظمَ مننِ الخالقِ سبحانه وتعالَىٰ وأجلَّ نِعمِه علىٰ خَلْقِه هي إرسالُ الرُّسلِ وبعثُ النَّبيِّينَ لهدايةِ الخَلْق وفَتْحِ بابِ الرَّحماتِ من ربِّ الأرضِ والسَّموات للمخلوقاتِ علىٰ يد الأنبياءِ والمرسَلين، وخيرُ نبيٍّ وأعظمُ مُرسَلٍ هو سيِّدُ الأنبياء سيدنا محمَّد ﷺ الهاشميُّ القُرشيُّ العربيُّ سيِّد ولد آدم وأشرفُ مخلوقٍ خصَّه الله سبحانَه وتعالىٰ بختْمِ رسالاته، فكان ﷺ آخرَ مُستقبِلٍ لوحي السَّماء، وحباه الله سبحانه بخيرِ الكُتبِ المنزَّلة، فكان دِينُه خيرَ دينٍ، وشريعتُه أحكمَ الشَّرائع، وأُمَّتُه خيرَ الأمم، وأصحابُه خيرَ الأصحابِ، وأهلُ بيته خيرَ وأطهرَ أهل بيتٍ، فهُو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الطريقُ إلىٰ الله والدَّربُ الذي سلكَه السَّالكونَ إلىٰ رِحابِ مولاهُم، فبِه صلَّىٰ الله عليه وسلَّم يتقرَّبُ المتقرِّبونَ إلىٰ ربِّهم، وبحُبِّه ومودَّته ﷺ يسترضونَ ربَّهم، وباتِّباعه ﷺ يحبُّهم الله جلَّ وعلَا، فهُو الخليلُ الذي نسألُ الله بمحبَّته ونتقرَّبُ إلىٰ ربِّنا برعاية جنابِه الكريمِ وتَوقيرِه وتعظيمِه ﷺ.

ومن الأبوابِ الكبيرةِ المفتوحةِ إلىٰ ربِّ الأرض والسَّماء وإلىٰ خَزائنِ مالك المُلك والملكُوتِ الجوادِ الكريم سبحانَه- سؤالُه والتَّوجُّه والتَّوسُّل إليه سبحانَه وتعالىٰ بنبيِّه المُصطفىٰ وحبيبه المُجتبىٰ ﷺ أن يقضِي لنا الحاجاتِ ويُيسِّرَ لنا الأمورَ ويُجيبَ الدَّعواتِ ويُنزلَ البركاتِ ويُصلحَ الحالَ والبالَ.

وسوف يتَّضح لك- فيما سيأتي- أخِي المسلم المحبَّ لرسُولِنا ﷺ أنَّك تفعلُ ما فعله الصَّحابةُ وسلفُ الأمَّةِ وعلماؤُها الأجلَّاءُ والصَّالحونَ علىٰ مدارِ تاريخِ أمَّة الإسلامِ بل وقبل ذلكَ كما سَوفَ يأتي.

فهيَّا نتذاكرُ سويًّا عظمةَ نبيِّنا الكريمِ محمَّد ﷺ، مُستكشفينَ جانبًا من جوانبِ الرَّحمةِ المهداةِ للعالمينَ عن طريقِ تعرُّفِنا علىٰ موضوعِ التَّوسُّلِ والاستشفاعِ برسولِ الله ﷺ نسألُ الله عزَّ وجلَّ أن يجعلَ ما نكتبُ وما نقرأُ في سبيلِ مَرضاتِه ومحبَّته ومودَّته، وأن يفتحَ لنا بذلك بابًا لمحبَّة رسُولِنا الكريمِ ﷺ، والحمدُ لله أوَّلًا وآخِرًا.

وسوفَ نتناولُ مسألةَ التَّوسُّلِ والاستشفاعِ من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: تعريفُ التَّوسُّل وشرح مفهومِه وبيان صُورِه.

المحور الثاني: الأدلَّة الشَّرعيَّة علىٰ جوازِ ومشروعيَّةِ واستحبابِ التَّوسُّل.

المحور الثالث: توسل الصَّحابةِ والسَّلف الصَّالح برسُول الله ﷺ.

المحور الرابع: إيراد أقوال المذاهب وأهلِ العلم في قضية التَّوسُّل.

المحور الخامس: أشعار قيلت في التَّوسل والاستشفاعِ برسُولِ الله ﷺ.

المحور السادس: توضيحات مهمة في قضية التَّوسُّل. ◆

تعريفُ التَّوسُّل وشرح مفهومه وبيان صُوره

التوسُّلُ له معانٍ ومفاهيمُ مُتعدِّدةٌ؛ ففي اللُّغةِ العربيَّةِ التَّوسل هُو: التقرُّبُ. يُقال: توسَّلتُ إلىٰ الله بالعملِ؛ أي تقرَّبتُ إليه، وتوسَّل إلىٰ فلانٍ بكذا تقرَّبَ إليه بحرمةِ آصرةٍ؛ أي قرابةٍ تعْطفه عليْه.

والوسيلةُ: هي التي يُتوصَّلُ بها إلىٰ تحصِيلِ المقصُودِ فتكون بمعنىٰ السَّببِ. ومن معانِيها: المَنزلةُ عند الملك، والدَّرجة، والقُربة. يقولُ الله سبحانَه وتعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35].

ووَسَلَ إلىٰ الله تعالىٰ: عَمِلَ عملًا تقرَّبَ به إليه سبحانَه، والواسل: الرَّاغب[1].

والتَّوسُّل اصطلاحًا لا يخرجُ عن معناهُ في اللُّغة، فيُطلقُ علىٰ ما يُتقرَّب به إلىٰ الله تعالَىٰ من فعل الطَّاعاتِ، وترك المنهيَّاتِ، وعلىٰ الأقوال الحسنة الطيبة، وعلىٰ هذا المعنىٰ حمل المفسِّرونَ قوله تعالىٰ: ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ ويُطلقُ التَّوسلُ أيضًا علىٰ التقرُّبِ إلىٰ الله تعالىٰ بطلب الدُّعاءِ من الغير.

وأُطْلقتِ الوسيلةُ في الحديثِ الشَّريفِ علىٰ منزلةٍ في الجنَّة، قال النَّبيُّ ﷺ: ((سَلُوا اللهَ ليَ الوسيلةَ فإنَّها مَنزلةٌ في الجنَّة لا تَنبغِي إلَّا لعَبدٍ من عبادِ الله، وأرجُو أنْ أكونَ أنا هذا العَبدَ))[2].

فممَّا سَبَقَ يتَّضحُ أنَّ التَّوسلَ يَشْتملُ علىٰ معاني التقرُّبِ والقُربة إلىٰ المتوسَّل إليه، والمعتمدُ في الوسيلةِ أن يكون للوسيلةِ قدرٌ وحُرمةٌ عند المتوسَّل إليْه.

ثم نأتي إلىٰ صورِ وأشكالِ وألفاظِ التَّوسُّل التي تَجرِي علىٰ ألسنةِ المُسلمينَ في توسُّلهم برسُولِ الله، فالأمثلةُ علىٰ ذلك كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ منها:

---

(1) لسان العرب، أساس البلاغة، مادة (و. س. ل).

(2) أخرجه مسلمٌ في كتاب الصَّلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذِّن لمَنْ سمعه ثم يصلِّي علىٰ النبيِّ ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلةَ (384) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

1- أن يدعوَ المسلمُ ربَّه قائلًا: ((اللهمَّ إني أسألُك وأتوسَّل إليكَ بنبيِّك محمَّد ﷺ أن تفعلَ لي كذا وكذا، أو أن تقضِيَ الأمر الفلاني... إلخ)).

2- اللهم إني أتوسَّل إليكَ بنبيِّك محمَّد ﷺ أن...

3- اللهم بجاه نبينا محمَّد أسألُك...

4- اللهم إنِّي أستشفعُ إليك بنبيِّك محمَّد ﷺ...

5- يا رسولَ الله إنِّي أستشفعُ بكَ إلىٰ الله...

6- يا ربِّ بالمصطفىٰ محمَّدٍ أَجِبْ دُعائي واسمع نِدائِي...

7- يا رسولَ الله توجَّهتُ بكَ إلىٰ الله...

هذه بعض الصُّورِ والأشكال من الألفاظِ التي تجري علىٰ ألسنةِ المُسلمينَ، وسوفَ تجدُ أخي في الله أنَّ السَّلف والخلفَ من المسلمينَ قد وَرَدَتْ عنهم هذه الألفاظُ منذ عهدِ الصَّحابةِ رضوانُ الله عليهم في استشفاعِهم وتوسُّلِهم واستغاثتِهم بسيِّدنا رسولِ الله ﷺ، وسيتَبيَّنُ الأمرُ جليًّا واضِحًا إن شاءَ الله فيما سيأتي.

هل قضيَّة التَّوسُّل عقَدية أو فقهيَّة؟

إنَّ ممَّا ميَّزَ الله تعالىٰ به شريعةَ الإسلام أنَّها شريعةٌ واضحةُ الأركان والمعالِم، محدَّدةُ الجوانب، يقولُ الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]. وقال رسولُ الله ﷺ: ((قَدْ تَركتُكمْ علىٰ البَيْضَاءِ؛ ليلُها كنَهارها لا يَزيغُ عنها بعدِي إلَّا هَالِكٌ))[1].

(1) جزءٌ من حديث أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب اتِّباع سنة الخلفاء الرَّاشدين المهديين (43)، وأحمد في مسندِه (4/ 126)، والحاكم في مستدركه (1/ 96)، وأبو نُعيم في مستخرجه (1/36) من طريق عبدالرَّحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن ضَمْرة بن حبيب عن عبدالرحمن بن عمرو السُّلَمي أنَّه سمع العِرباض بن سارية ﵁ به مرفوعًا.

وقال الحاكم: ((وقد تابع عبدالرحمن بن عمرو علىٰ روايتِه عن العرباض بن سارية ثلاثةٌ من الثِّقاتِ الأثباتِ من أئمَّة أهل الشَّام منهم حُجْر بن حُجْر الكَلاعي)) وسكتَ عنه الذَّهبي. وقال أبو نُعيم: ((وهذا حديثٌ جيدٌ من صحيح حديث الشَّاميِّين)).

فكُلُّ مسألةٍ أو قضيَّةٍ علميَّةٍ أو عمليَّةٍ أو قوليَّةٍ لها مكانُها المحدَّدُ المعلومُ في شريعةِ الإسلامِ؛ فهناك من المسائل ما يَندرجُ تحت بابِ عقيدة المسلمين وما يدينونَ به وما يعتقدونَه تجاه ربِّهم ونبيِّهم وكتابِهِمْ واليوم الآخر والغيب، فهذِه أصولٌ عقَديَّةٌ واضحةُ المعالم بيِّنةُ الأركانِ والحدودِ.

وقد جاءتْ بهذه الأُصولِ العقديَّة آياتُ القرآنِ الكريم والسُّنَّةُ النبويَّة الشَّريفةُ وإجماعُ علماء المسلمينَ المعتمَد عليهم في كل عصرٍ وكل وقتٍ، فأصبحتْ ثوابتَ في شريعة الإسلامِ على مرِّ الزَّمانِ، وهي قطعيَّةُ الثُّبوتِ قطعيَّةُ الدَّلالة.

هذا إلى جانبِ المسائلِ الفقهيَّةِ العمليَّةُ الظَّنيةِ، وهذه المسائلُ الفقهيَّةُ من العباداتِ والمعاملاتِ وغيرها تنوَّعت أشكالُها وهيئاتُها وصورُها تبعًا لاختلافِ وتنوُّع الأدلَّة واتِّساعِ ظنِّيَّةِ الدَّليل أو عدم اتِّساعِه، وكان هذا الاختلافُ صورةً من صُورِ الرَّحمة واليُسرِ والسَّعة الَّتي اختُصَّتْ به هذه الأمَّة، فكان الدِّين يُسرًا لا عُسرَ فيه، فلم يضيِّقْ على المسلمين بفهمٍ واحدٍ أو صُورةٍ واحدةٍ من الأحكام والصُّور في العبادات، وظهرت هذه الرَّحمةُ وهذا اليُسرُ في المذاهبِ الفقهيَّة المعتمَدةِ والمعتبَرةِ على مرِّ العصور، فكان المسلمونَ يستمدُّون أحكامَ شريعتِهم ويتعرَّفونَ عليها من خلال هذه المذاهب، يأخذ قومٌ بقول مجتهدٍ ويأْخُذُ آخرونَ بقول مجتهدٍ آخر، وكلٌّ مجتهدٍ يستمدُّ الأدلَّةَ من الكتاب والسُّنَّةِ، والمقلِّدون على كل الأحوال مقلِّدونَ لإمامٍ من أئمَّةِ الدِّينِ والشَّريعةِ المُعتَبرينَ في تلقِّيهم وأخْذِهم الأحكامَ من الكتابِ والسُّنَّةِ، فلا ينكر مُقلِّدٌ على مُقلِّدٍ، أو متابِعٌ لإمام على مُتابعٍ لإمامٍ آخر؛ لأنَّ مدارَ المسائل الفقهيَّةِ على الاجتهاد في فَهْمِ واستنباطِ وكَشْفِ الأحكام، ولكن في نهايةِ الأمرِ الكلُّ داخلٌ في دائرة الشَّريعة المحدَّدة المعالم الواضحةِ الأركانِ.

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ الأمورَ العلميَّةَ أو العمليَّةَ في دِينِ الإسلامِ لا تخرجُ عن:

1- مسائل تتعلَّق بالعقيدة.

2- مسائل فقهيَّةٌ تعبديَّةٌ عمليَّةٌ.

3- مسائل تتعلَّق بالأخْبارِ بصُورِها المختلفةِ.

ولو طبَّقْنا هذا التَّقسيمَ علىٰ مسألة التَّوسُّلِ لوجدْنا أنَّها من المَسائلِ الفقهيَّة الَّتي لو وُجِدَ اختلافٌ فيها فلن يخرجَ عن إطارِ الأدلَّة الظَّنيَّةِ؛ لأنَّها فعلُ المكلَّف، فإنَّها أولًا وآخرًا صُورةٌ وشكلٌ من أشكالِ الدُّعاء وهيئاتِه، يُناجي العبدُ ربَّه، مُتقرِّبًا إليه بما يُحبُّ وبما هو مَظنَّة استجابة الدُّعاءِ تفضُّلًا مِنَ الله علىٰ عبادِه، وإعلاءً لمقامِ نبيِّه ﷺ من أن يَردَّ مَنْ سُئلَ به.

وهِي في الحقيقةِ من أعلىٰ الصُّورِ وأجلِّها الَّتي يَستخدمُها المسلمُ في دعائه، ولكنَّها في جوهرِها بالطَّبع تتعلَّق بجانبٍ مهمٍّ من مُعتقَدِ المسلمينَ ألا وهو محبَّةُ رسولِ الله وإجلاله والتعلُّق به.

فالمُسلمُ حينَ يُناجِي ربَّه رافعًا يديه إلىٰ السَّماءِ مُتوسِّلًا في قضاءِ حوائجِه بالمُصطفىٰ محمَّدٍ ﷺ فالمسئولُ هنا هو الله وحدَه لا شريكَ له المعطِي المانع، والسَّائل هنا هو العبد الدَّاعي، والمتوسَّل به إلىٰ الله النَّبيُّ ﷺ أحب العباد إلىٰ الله، فالتوجُّه في هذه الصُّورة إلىٰ الله سبحانَه أن يقضيَ الحاجاتِ ويجيبَ الدَّعواتِ.

فالتَّوسُّل برسولِ الله ﷺ إنَّما هو وسيلةٌ لنَيْلِ رِضا الله تعالىٰ، وتطلُّعٌ إلىٰ مِنَّة الله بإجابة الدُّعاء؛ وذلك لأنَّنا نقدِّم حين نسألُ الله تعالىٰ التَّوسل بخيرِ خَلْقِه وسيِّد المخلوقاتِ وإمامِ المُرْسلينَ سيِّدنا محمَّد ﷺ.

وعندَما يأتي- بإذنِ الله- الحديثُ عن أدلة المسألةِ فإننا سنجدُ أن مكانَ وُرود المسألة هو كُتب الحديث ومصنَّفاته بدايةً، ثمَّ المصنَّفات الفقهيَّة متمثِّلة في كُتب المذاهب المعتمدة وفروعها، والتي تلقتْها الأمة بالقبول وكتب الله لها الانتشار، والتي تُمثِّل الرَّحمة والسَّعة الَّتي ميَّزتْ شريعةَ الإسلام، واختُصَّتْ بها أمَّةُ المُسلمينَ دون الأُممِ، والَّتي تجعلُ المسلمَ في سَعةٍ من أمرِ دينِه وعِبادتِه ومُعاملاته مُقلِّدًا مَنْ شاءَ من أئمَّةِ الدِّين الَّذين أجْمعتِ

الأمَّة علىٰ جلالتِهم وتعظيم مكانتِهم في العِلم، فتتنوَّعُ أشكالُ وصور وهيئاتُ المعاملات والعبادات، فيأخذ هذا برأيٍ ويأخذُ هذا برأيٍ والجميعُ داخل دائرة الشَّريعة لم يخرج عنها، وتتحقق السَّعة والرَّحمة والتَّيسيرُ، وهذه الأُمورُ من أهمِّ ميِّزاتِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ.

ومِنْ هنا ينبغي أن نعلمَ أنَّه لابدَّ من وضع كلِّ مسألةٍ في مكانها المحدَّدِ حتَّىٰ لا تختلَّ الأمورُ والأحكامُ والتَّقديراتُ، ولا تتضخَّمَ أمورٌ هي في حقيقتها بَسيطةٌ، ونَبني علىٰ ذلك أحكامًا من التَّبديع ورَمي النَّاس بالشِّركِ والفِسقِ والخروجِ منَ الدِّين علىٰ أمرٍ هو في ذاته جائزٌ، وغايةُ ما يُمكنُ أن يزعمَ مَن لم يرَ جوازَه أنَّه من المختَلف فيه الَّذي لا يُنكرُ.

الأدلَّة الشَّرعيَّة علىٰ جواز ومشروعيَّةِ واستحبابِ التَّوسُّلِ

1- أدلة القرآن الكريم:

حَثَّ القرآنُ الكريم المسلمَ علىٰ التَّقربِ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ والتودُّدِ إليه فقال سبحانَه وتعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57]. وهنا أَثْنَىٰ الله سبحانَه وتعالىٰ علىٰ الَّذين يَبتغونَ الوسيلةَ إلىٰ الله تعالىٰ.

وأيُّ وسيلةٍ أخي المسلم تقرِّبنا من الله سبحانه وتعالىٰ بعد معرفتِه ومعرفة أسمائه وصفاته خيرٌ من نبيِّنا ﷺ! فهو البابُ والطَّريقُ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، يقول الحقُّ سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64].

فهذه الآية الكريمة إرشادٌ للمسلمين لطلبِ شفاعةِ النَّبيِّ ﷺ في مغفرة الذُّنوب، وهي آيةٌ مطلَقةٌ ليس لها مقيِّدٌ عقليٌّ أو مقيِّدٌ نصِّي، فليسَ فيها ما يُقيِّد معناها بحياةِ النَّبيِّ ﷺ الدُّنيويَّة، فمعنىٰ الآية باقٍ إلىٰ يوم القيامةِ، ومَن زَعَمَ أنَّ الآيةَ خاصَّةٌ بحياته ﷺ

فعليه أن يأتيَ بدليلٍ علىٰ هذا الزَّعم، فالإطلاقُ لا يحتاج إلىٰ دليل؛ لأنَّه الأصل، وإنَّما التَّخصيصُ والتَّقييدُ هو الَّذي يحتاج إلىٰ دليلٍ، وليس هناك مخصِّصٌ أو دليلٌ علىٰ أنَّ الأمر بطلب الاستغفارِ من النَّبيِّ ﷺ كان في حياتِه الدُّنيا فقط ثم انقطعَ بعدَ وفاتِه.

2- أدلَّة السُّنة النبويَّة الشريفة:

اعلم أخِي المُحبَّ لحضْرَةِ النَّبيِّ ﷺ أنَّ الأدلةَ المؤيدةَ والتي تحثُّ علىٰ التَّوسُّلِ والتقرُّبِ إلىٰ الله بسيِّدنا رسولِ الله من السُّنة المطهَّرةِ كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ، وسوفَ نُوردُ منها أخي الكريم ما تقرُّ به عينُك ويطمئنُّ له قلبُك، وتوقنُ أنَّك تفعلُ ما فعله الصَّحابةُ وسلفُ الأمَّة الصَّالحونَ، مُتقرِّبًا بذلك الفِعْلِ إلىٰ ربِّك متودِّدًا به إلىٰ رسولِك، فقد نقلَ حفَّاظُ الأُمة وأئمَّةُ المسلمين والمحدِّثون ومصنِّفو كُتب الحديث نصوصًا متواترةً عن التَّوسل والاستشفاعِ برسول الله ﷺ، ومِنْ أكثر هذه النُّصوصِ شُهرةً في هذا الباب الحديث المرويُّ عن سيدنا عثمانَ بنِ حُنَيف- وهو أحد صحابة الرَّسول الأجلَّاء- والحديثُ له قصةٌ متعلِّقةٌ به موضِّحةٌ له مبيِّنة لفوائده وما يرشدُ إليه.

الحديث الأول:

فقد وردَ في مسندِ الإمام أحمد من طريقِ شُعبة عن أبي جعفر المديني قال: سمعتُ عمارة ابن خزيمة بن ثابت يحدِّث عن عثمان بن حُنَيف: أنَّ رجلًا ضريرًا أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، ادعُ الله أن يعافيني، فقال: «إنْ شئتَ أخَّرتُ ذلك فهو أفضلُ لآخرتكَ، وإنْ شئتَ دعوتُ لكَ» قال: لا، بل ادعُ الله لي، فأمره أنْ يتوضَّأ وأنْ يصلِّيَ ركعتيْنِ وأنْ يدعوَ بهذا الدُّعاء: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ وأتوجَّه إليكَ بنبيِّكَ محمَّدٍ ﷺ نبيِّ الرَّحمة، يا محمَّدُ إنِّي أتوجَّه بكَ إلىٰ ربِّي في حاجتِي هذه فتُقضىٰ وتُشفِّعني فيه وتُشفِّعه فيه» قال: فكان يقولُ هذا مِرارًا، ثم قالَ بعد: أحسب أنَّ فيها: «أنْ تُشفِّعني فيه» قال: ففعل الرَّجلُ فبرأَ[1].

---

(1) أخرجه التِّرمذيُّ في كتاب الدَّعواتِ، باب في دعاء الضَّيف (3578)، وابن ماجه في كتاب إقامة

وروىٰ الإمامُ النَّسائيُّ: أخبرنا زكريَّا بن يحيىٰ قال: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ قال: حدَّثنا معاذ بن هشام قال: حدَّثني أبي عن أبي جعفر عن أبي أُمامة بن سهل بن حُنَيف عن عمِّه: أنَّ أعمىٰ أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّه شقَّ عليَّ ذهابُ بصري، قال: ((فانْطلِقْ وتوضَّأ ثم صَلِّ ركعتيْنِ ثمَّ قل: اللهمَّ إني أسألُكَ وأتوجَّه إليكَ بنبيِّي محمَّد نبيِّ الرَّحمةِ، يا محمَّدُ إنِّي أتوجَّه بكَ إلىٰ ربِّكَ أن تكشفَ لي عَنْ بصري، شَفِّعه فيَّ وشَفِّعني في نَفسِي)) فرجعَ وقد كُشِفَ له عن بصرِه[1].

وقد روىٰ الإمامُ الطَّبرانيُّ في المعجم الصَّغيرِ الحديثَ مُشتملًا علىٰ إرشادِ الصَّحابيِّ راوِي الحديثِ لأحد التَّابعين في زمان سيدنا عثمان بن عفَّان وقتَ خلافته إلىٰ أن يفعل مثلَ فعلِ الضَّرير؛ فقد روىٰ الإمامُ الطَّبرانيُّ بسنده عن رَوْحِ بن القاسم عن أبي جعفر الخَطْمي المدني عن أبي أمامةَ بن سهل بن حُنيف عن عمِّه عثمان بن حُنيف أنَّ رجلًا كان يختلفُ إلىٰ عثمان بن عفان ﷺ في حاجةٍ له، فكان عثمانُ لا يلتفتُ إليه ولا ينظرُ في حاجته، فلَقِيَ عثمانَ بن حُنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمانُ بن حُنيف: ائتِ الميضأةَ فتوضَّأ ثمَّ ائتِ المسجدَ فصَلِّ فيه ركعتيْنِ ثمَّ قل: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ وأتوجَّه إليكَ بنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ نبيِّ الرَّحمة، يا محمَّدُ إنِّي أتوجَّه بكَ إلىٰ ربِّكَ جلَّ وعزَّ، فيقضي لي حاجتي وتذكرُ حاجتَك، ورُحْ إليَّ حتَّىٰ أروحَ معكَ، فانطلقَ الرَّجلُ فصنع ما قال له عثمانُ ثمَّ أتىٰ بابَ عثمان- أي عثمان بن عفَّان- فجاء البوَّابُ حتَّىٰ أخذ بيدِه فأدخلَه علىٰ عثمانَ بن عفَّان فأجلسه معه علىٰ الطِّنفِسة، وقال: حاجتك؟ فذكر حاجتَه فقضاها له، ثمَّ قال: ما

=

الصَّلاة والسنة فيها، باب ما جاءَ في صلاة الحاجة (1385)، وأحمدُ في مسنده (4/ 138)، والنسائيُّ في الكبرىٰ (10420)، وابن خزيمةَ في صحيحه (1219)، والحاكم في مستدركه (1/ 313). وليس عند الترمذيِّ: ((فصَلِّ ركعتين)).

وقال التِّرمذي: ((حسن صحيح غريب)). وقال ابن ماجه: ((قال أبو إسحاق: هذا حديثٌ صحيح)). وقال الحاكم: ((صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه)). وقال الذهبي: ((رواتُه ثقاتٌ)). وللحديث روايات أخرىٰ ستأتي بعده.

(1) أخرجه النَّسائيُّ في الكبرىٰ (10421).

ذكرتُ حاجتَك حتَّىٰ كانتْ هذه السَّاعة، وقال: ما كانت لك من حاجةٍ فأْتنا، ثمَّ إنَّ الرَّجل خرج من عنده فلَقِيَ عثمانَ بن حُنيف فقال: جزاكَ الله خيرًا ما كان ينظرُ في حاجتي ولا يلتفتُ إليَّ حتَّىٰ كلَّمْتَه فيَّ، فقال عثمانُ بن حنيف: والله ما كلَّمتُه ولكن شهدتُ رسولَ الله ﷺ وأتاه ضريرٌ فشكا عليه ذهابَ بَصْرِه فقال له النَّبيُّ ﷺ: «أفتصبرُ؟» فقال: يا رسُولَ الله إنَّه ليس لي قائدٌ وقد شقَّ عليَّ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «ائْتِ الميضأةَ فتوضَّأْ ثُمَّ صلِّ ركعتَيْنِ ثم ادعُ بهذه الدَّعواتِ» قال عثمانُ: فوالله ما تفرَّقنا، وطال بنا الحديثُ حتَّىٰ دخل علينا الرَّجُل كأنَّه لم يكنْ به ضررٌ قطُّ[1].

ويُستفاد من هذا الحديثِ الشَّريفِ:

1- جوازُ واستحبابُ التَّوسُّل برسُولِ الله ﷺ.

2- التَّوسُّل هنا بالنَّبيِّ ﷺ أي بذاتِه النَّبويَّة الشَّريفةِ الجامعةِ لنبوَّته ورسالتِه ومكانتِه عند الله.

3- فَهمُ الصَّحابيِّ الجليل عثمان بن حنيف أن التَّوسلَ بالنَّبيِّ ﷺ ليسَ مُقتصرًا حالَ حياتِه؛ ولذلك أرشدَ الرَّجلَ أن يتوسلَ بالنَّبيِّ ﷺ، وكان ذلك بعد وفاةِ النَّبي ﷺ.

4- معجزةٌ عظيمةٌ لنبيِّنا الكريم وبيانٌ لعُلوِّ مقامِه عند ربِّه بأن شُفي الأعمىٰ ورُدَّ عليه بصرُه لتوسُّله بحبيبنا محمَّدٍ ﷺ.

الحديثُ الثَّاني:

وفيه توسُّل أبينا آدمَ عليه السَّلام بسيِّدنا محمَّد ﷺ:

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا اقترفَ آدمُ الخطيئةَ قال: يا ربِّ أسألُك بحقِّ محمَّدٍ لما غفرتَ لي. فقال الله: يا آدمُ، وكيف عرفتَ محمدًا ولم أخلُقْه؟ قال: يا ربِّ لما خلقتَني بيدكَ ونفختَ فيَّ مِن رُوحكَ رفعتُ رأسي فرأيتُ علىٰ قوائمِ

(1) أخرجه الطَّبراني في الصَّغير (306/1).

العرشِ مكتوبًا: لا إله إلا الله محمَّدٌ رسولُ الله، فعلِمتُ أنَّك لم تُضِف إلىٰ اسمِكَ إلَّا أحبَّ الخَلقِ إليكَ، فقال الله: صدقتَ يا آدمُ إنَّه لأحبُّ الخَلقِ إليَّ، ادعني بحقِّه فقد غفرتُ لكَ، ولولا محمَّدٌ ما خلقتُكَ))[1].

يُستفادُ من الحديثِ الشَّريفِ:

1- أنَّ رسولَ الله ﷺ هو أحبُّ الخَلْق إلىٰ الله تعالىٰ.

2- ثُبوتُ نبوَّة نبيِّنا ﷺ قبلَ خَلقِ المخلوقاتِ وأنَّ اسمَه مكتوبٌ مع اسمِ الله سبحانه فوقَ قوائمِ العرشِ، وكان هذا الاستشفاعُ قبلَ وجودِ رسولِ الله ﷺ في دار الدُّنيا.

3- استشفاعُ آدمَ وهُو أبو البشر بسيِّدنا رسولِ الله ﷺ مقدِّمًا ذلك قربةً إلىٰ الله في غُفرانِ خطيئتِه.

4- تفضُّلُ الله سبحانه وتعالىٰ بإجابة دُعاء أبينا آدم لتوسُّلِه برسولِ الله ﷺ.

5- استحبابُ وجَوازُ السُّؤالِ برسولِ الله وبحقِّه العظيمِ.

---

(1) أخرجَه الحاكم في مستدركه (2/ 615)، وبنحوه الطَّبراني في الأوسط (6502) من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جدِّه، عن عمر بن الخطاب ﷺ به مرفوعًا، والحديثُ وإن كان في إسناده ضعفٌ؛ إلا أنَّ له شاهدًا يتقوَّىٰ به أخرجَه ابنُ الجوزي في الوفا بفضائل المصطفىٰ نقلَه عنه ابن تيميَّة في مجموع الفتاوىٰ (150/2) مُستشهدًا به من طريق ابن بشران حدَّثنا أبو جعفر محمد بن عمرو، حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح، ثنا محمد بن صالح، ثنا محمد بن سنان العوفي، ثنا إبراهيم بن طهمان، عن يزيد بن ميسرة، عن عبدالله بن سفيان، عن ميسرة قال قلت: يا رسولَ الله متىٰ كنتَ نبيًّا؟ قالَ: ((لما خلق الله الأرضَ واستوىٰ إلىٰ السَّماء فسوَّاهنَّ سبعَ سمواتٍ وخلق العرشَ كتبَ علىٰ ساق العرش: محمدٌ رسولُ الله خاتَم الأنبياء، وخلق الله الجنَّةَ التي أسكنها آدمَ وحواءَ، فكتب اسمي علىٰ الأبواب والأوراقِ والقِباب والخيام، وآدمُ بين الرُّوحِ والجسدِ، فلمَّا أحياه الله تعالىٰ نظر إلىٰ العرشِ فرأىٰ اسمي فأخبرَه الله أنَّه سيِّدُ ولدِك، فلمَّا غرَّهما الشَّيطان تابَا واستشفَعا باسمي إليه)). وللحديثِ طرقٌ وشواهدُ أخرىٰ يتقوَّىٰ بها.

وراجع: الرَّد المحكم المتين لأبي الفضل عبدالله محمد الصِّديق الغماري ص (122- 140). مكتبة القاهرة. الطبعة الثالثة. 1406هـ- 1986م.

وانظر أيضًا: رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة ص (242- 249) د. محمود سعيد ممدوح- دار الإمام الترمذي- الطبعة الثانية- 1418هـ- 1997م.

الحديثُ الثَّالث:

وهو جزءٌ من حديث رواه أبو داودَ في سننه؛ روى أبو داود بسندِه عن جُبير بن محمَّد ابن جبير بن مطعم عن أبيه عن جدِّه قال: أتى رسولَ الله ﷺ أعرابيٌّ فقال: يا رسولَ الله جُهِدَت الأنفسُ وضاعت العيالُ ونُهِكَتِ الأموالُ وهلكت الأنعامُ فاستسقِ الله لنا، فإنَّا نَستشفعُ بكَ على الله، ونستشْفِعُ بالله عليكَ، قال رسولُ الله ﷺ: «ويحكَ أتدرِي ما تقولُ؟» وسبَّح رسولُ الله ﷺ فما زال يُسبِّح حتَّى عُرف ذلك في وُجوه أصحابه، ثمَّ قال: «وَيْحكَ إنَّه لا يُستشفعُ بالله على أحدٍ من خَلْقِه، شأنُ الله أعظمُ من ذلك...» إلى آخرِ الحديث[1].

ما يُستفادُ من الحديثِ:

1- التجاءُ المسلمينَ إلى سيِّدنا رسول الله ﷺ وجوازُ الاستشفاع به ﷺ إلى الله تعالى في رفع الكربِ وكشف البلاءِ.

2- سُكوتُ رسول الله ﷺ على ذلك و إقرارُه للرَّجل في قوله: «نستشفع بكَ على الله» فلو لم يكن جائزًا لما سكتَ، في حين أنَّه غَضِبَ ﷺ من قولِه: «نستشفعُ بالله عليكَ».

---

(1) أخرجَه أبو داود في كتاب السُّنة، باب في الجهميَّة (4726)، من طريق عبدالأعلى بن حمَّاد ومحمد بن المثنى ومحمَّد بن بشار وأحمد بن سعيد الرباطي قالوا: حدَّثنا وهب بن جرير قال أحمد: كتبناه من نسختِه وهذا لفظُه قال: حدثنا أبي قال: سمعت محمد بن إسحاق يُحدِّثُ عن يعقوب بن عتبة عن جُبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جدِّه به مرفوعًا.

وأخرجه الدارمي في الرَّدِّ على الجهمية (ص 49) من طريق محمد بن بشار العبدي وابن أبي عاصم في السنة (575) من طريق عبدالأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى، والبزار في مسنده (3432) من طريق سلمة بن شبيب ومحمد ابن علي بن الوضاح، وأبو عوانة في مستخرجه (2517) من طريق أبي الأزهر، والطَّبراني في الكبير (128/2) من طريق عبدالأعلى بن حماد النرسي، ح وثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل ثنا يحيى بنُ معين، ح وثنا معاذ بن المثنى ثنا علي بن المديني كلهم من طريق وهب بن جرير بإسنادِه به مَرفوعًا.

وقال أبو داود: «والحديثُ بإسناد أحمد بن سعيد هو الصَّحيح وافقَه عليه جماعةٌ منهم يحيى بن معين، وعلي ابن المديني».

الحديثُ الرَّابعُ:

عن أنسِ بن مالك قال: جاءَ أعرابيٌّ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله لقد أتيناكَ وما لنا بعيرٌ يئطُّ ولا صبيٌّ يصطبح وأنشدَه:

أتـيناكَ والـعَذراءُ تَـدْمِي لِبانُها　　　وقد شُغلتْ أمُّ الصَّبيِّ عَنِ الطِّفـلِ
وَأَلْـقَىٰ بِـكفَّيْهِ الْـفَتَىٰ اسْتِكَانةً　　　مِنَ الجُوعِ ضَعْفًا ما يُمِرُّ وما يُحْـلِي
ولا شيءَ ممَّا يـأكلُ النَّاس عنـدَنا　　　سوىٰ الحَنظلِ العاميِّ والعِلْهِزِ الفَسْلِ
وَلَـيْـسَ لـنا إلَّا إلَـيْكَ فِـرارُنَا　　　وأيـنَ فِـرارُ النَّـاس إلَّا إلىٰ الـرُّسْلِ

فقام رسولُ الله ﷺ يجرُّ رداءَه حتَّىٰ صَعِدَ المنبرَ، ثمَّ رفع يديْه إلىٰ السَّماءِ فقالَ: ((اسْقِنا غيثًا مُغيثًا مَريًّا مَريعًا غَدقًا طبقًا عاجلًا غير رائثٍ نافعًا غير ضارٍّ تَملأُ به الضَّرعَ وتنبتُ به الزَّرعَ وتُحيي به الأرضَ بَعْدَ موتِها)) فوالله ما رَدَّ يديه إلىٰ نَحرِه حتَّىٰ ألقت السَّماءُ بأوراقِها وجاء أهل البِطاح يعجُّون: يا رسولَ الله الغرقَ! فقال رسولُ الله ﷺ: ((حَوَالَيْنا ولَا عَلَيْنَا)) فانجابَ السَّحابُ عن السَّماءِ حتَّىٰ أحدقَ بالمدينة كالإكليلِ، فضَحِكَ رسولُ الله ﷺ حتَّىٰ بدتْ نواجذُه ثمَّ قال: ((لله أبُو طالب لو كان حيًّا قرَّتْ عيناهُ، مَن ينشدنا قولَه؟)) فقام عليٌّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله كأنَّك أردتَ قولَه:

وأبـيضَ يُستسقَىٰ الغمامُ بوجهِهِ　　　ثِمَالُ اليَتَامىٰ عِصَمةٌ للأرَامِلِ
يَلُوذُ بِهِ الُهلَّاكُ مِنْ آلِ هاشِـمٍ　　　فَـهُـمْ عِنْدَه فِي نِعمَةٍ وفَوَاضِلِ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتُ الله يُبْزَىٰ مُحَمَّدٌ　　　وَلـمَّا نُـقَاتِلُ دُونَـهُ وَنُـنَاضِلِ
وَنُسْلِمُهُ حَـتَّىٰ نُصَـرَّعَ حَوْلَهُ　　　وَنَذْهَلُ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالحَلائِلِ

فقال رسولُ الله ﷺ: ((أجلْ)) فقامَ رجلٌ من مكانِه فقالَ:

لَكَ الحَمْدُ والحمدُ مـمَّـنْ شَكَرْ　　　سُقِينَا بِـوَجْهِ الـــنَّبِيِّ المَطَرْ
دَعَـا الله خَـالِقَـه دَعْـــــوَةً　　　أُجِيبَتْ وَأَشْخَصَ مِنْهُ الْبَـصَرْ
وَلَمْ يَـكُ إِلَّا كَـقَلْبِ الرِّدَاءِ　　　وَأَسْـرَعَ حَـتَّىٰ رَأَيْـنَـا المَطَرْ

وَكَـانَ كَـمَـا قَـالَـه عَـمُّـه   أَبُو طَالِبٍ أَبْيَضُ ذُو غُرَرْ
وَيَسْقِي بِكَ اللهُ صَوْبَ الْغَمَامِ   وَهَـذَا الْعَيَانُ لِذَاكَ الْخَبَرْ
فَمَنْ يَشْكُرِ اللهَ يَـلْـقَ الْمَـزِيدَ   ومَـنْ يَـكْفُرِ اللهَ يَلْقَ الْغِيَرْ

فقال رسولُ الله ﷺ: ((إنْ يكُ شاعرٌ قد أَحْسنَ فقدْ أَحْسنتَ))[1].

ما يُستفادُ من الحديثِ:

1- في هذا الحديثِ آيةٌ ودلالةٌ كبرىٰ من دلائلِ نبوَّته ﷺ وعِظم مكانته عندَ خالقه جلَّ وعلا، وانفعال الكون وتغيره بدعواتِ رسوله ﷺ.

2- فزع النَّاس والتجاؤُهم لرسولِ الله ﷺ في النَّوازل والكُروبِ، وعظيم شفقته ﷺ علىٰ أُمَّته ورأفته بهم.

3- إقرار النَّبي ﷺ قول الأعرابيِّ وعدم الإنكارِ عليه في قوله:

وليس لنا إلَّا إليكَ فِرارنا   وأين فرار النَّاس إلَّا إلىٰ الرُّسل

4- استجابة ربِّ العالمينَ لرسوله الكريمِ ﷺ في الحديث: فوالله ما ردَّ يديْه إلىٰ نحرِه حتَّىٰ ألقتِ السَّماءُ بأوراقِها.

---

(1) أخرجه الطَّبراني في الأحاديث الطِّوال (28)، وفي الدُّعاء (2180)، وابن عدي في الكاملِ (3/ 408- ترجمة سعيد بن خثيم)، والبيهقيُّ في دلائل النبوة (141/6) من طريق أحمد بن رشيد بن خثيم الهلالي حدَّثنا أبو معمر: سعيد بن خثيم عمي، عن مسلم الملائي عن أنس بن مالك به. وقال ابن عدي: ((سعيد بن خثيم ما يَروِيه غيرُ محفوظٍ)). وقال الحافظ ابن حجرٍ في فتح الباري (495/2): ((وإسنادُ حديثِ أنس وإن كان فيه ضعفٌ لكنَّه يصلح للمتابعةِ)).

وللحديث أصلٌ متَّفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الاستسقاءِ، باب إذا استشفعوا إلىٰ الإمامِ ليستسقي لهم لم يردَّهم (1019)، ومسلمٌ في كتاب الاستسقاءِ، باب الدُّعاء في الاستسقاء (897) من حديثِ أنس بن مالك ﵁ أنَّه قال: جاء رجلٌ إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله هلكتِ المواشي وتقطَّعتِ السُّبلُ فادعُ اللهَ، فدعا اللهَ، فمُطِرْنا من الجُمُعة إلىٰ الجُمُعة، فجاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله تهدَّمتِ البيوتُ وتقطَّعت السُّبلُ وهلكتِ المواشي، فقال رسولُ الله ﷺ: ((اللهمَّ علىٰ ظهور الجِبال والآكامِ وبُطُونِ الأودية ومنابتِ الشَّجر)) فانْجابتْ عن المدينةِ انجيابَ الثَّوب. واللَّفظُ للبخاريِّ.

5- في أبيات أبي طالبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ دليلٌ علىٰ سؤال الله بوجهه الشريف ﷺ ولم يُنكر النبي ﷺ هذه الأبيات، بل طلب سماعها ممَّن يحفظُها، وكذلك إقرار النَّبي ﷺ لشعر الشَّاعر في قولِه:

سُقينا بِوَجْهِ النَّبيِّ المَطَرَ

الحديثُ الخامسُ:

وفيه صُورةٌ من استغاثةٍ وتوسُّل الأمَّة بِنبيِّها بعد مُفارقتِه للحياة الدُّنيا، وجاءَ برواياتٍ مُتعدِّدةٍ في مصنَّف ابن أبي شيبةَ وعند البيهقيِّ؛ فقد رَوَىٰ ابنُ أبي شيبةَ في مُصنَّفه عن مالك الدَّار- وكان خازنَ عمرَ علىٰ الطَّعام- قال: أصابَ النَّاسَ قحطٌ في زمن عمرَ، فجاءَ رجلٌ إلىٰ قبرِ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله استسقِ لأمَّتك فإنَّهم قد هلكوا، فأتىٰ- أي النبيُّ ﷺ- الرجلَ في المنام فقيل له: ((ائتِ عمرَ فأقرئْه السَّلامُ وأخبره أنَّكم مَسْقِيُّونَ وقل له: عليكَ الكيسَ عليكَ الكيسَ)) فأتىٰ عمرَ فأخبره فبكىٰ عمرُ ثمَّ قال: يا ربِّ، لا آلُو إلَّا ما عجزتُ[1].

وفي رواياتٍ أُخرىٰ: أنَّ هذا الرَّجل هو الصَّحابيُّ بلال بن الحارث المُزَني رضي الله عنه[2].

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (32665)، والبيهقي في دلائل النبوة (47/7) من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن مالك الدار به. وصحَّح إسنادَه ابنُ كثير في البداية والنهاية (74/10)، وابن حجرٍ في فتح الباري (495/2).

(2) وردتْ تسميةُ هذا الصحابي في البداية والنهايةِ (71/10) لابن كثير حيث قال: ((قال سيف بن عمرو عن سهل بن يوسف السلمي عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك قال: كان عام الرمادة في آخر سنة سبع عشرة وأول سنة ثماني عشرة أصاب أهلَ المدينةِ وما حولَها جوعٌ فهلكَ كثيرٌ من النَّاس حتىٰ جعلت الوحش تأوِي إلىٰ الإنس، فكان الناس كذلك وعمر كالمحصورِ عن أهل الأمصار، حتىٰ أقبل بلال بن الحارث المُزَني فاستأذن علىٰ عمر...)) فذكرها. وأقرَّ ذلك ابنُ حجر في فتح الباري (496/2) فقال: ((روَىٰ سيف في الفتوح أنَّ الذي رأىٰ المنامَ المذكورَ هو بلال بن الحارث المزني أحدُ الصَّحابة)).

وأوردَ ابنُ كثير في البداية والنِّهاية عن عاصم بن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما: أنَّ رجلًا من مُزينةَ عام الرَّمادة سألَه أهلُه أن يذبحَ لهم شاةً، فقال: ليس فيهنَّ شيءٌ، فألحُّوا عليه فذبحَ شاةً فإذا عظامها حُمر فقال: يا محمَّداه، فلمَّا أمسىٰ أُري في المنام أنَّ رسول الله ﷺ يقول له: «أَبْشِرْ بالحياةِ، ائتِ عمرَ فأقرئْه منِّي السَّلام وقل له: إنَّ عهدِي بكَ وفيَّ العهدِ شديدَ العقدِ، فالكيسَ الكيسَ يا عمرُ» فجاء حتَّىٰ أتىٰ بابَ عمر فقال لغلامه: استأذِنْ لرسول رسولِ الله ﷺ، فأتىٰ عمرَ فأخبره ففزِعَ ثمَّ صعد المِنبر فقال للناس: أُنشدكم الله الَّذي هداكُم للإسلام هل رأيتم فيَّ شيئًا تكرهُونَه؟ فقالوا: اللهمَّ لا، وعمَّ ذاك؟ فأخبرهم بقول المزَنيِّ، وهو بلال بن الحارث ففَطِنُوا ولم يفطن، فقالوا: إنَّما استبطأكَ في الاستسقاءِ فاسْتَسْقِ بنا. فنادىٰ في النَّاس فخطب فأوجزَ ثمَّ صلَّىٰ ركعتيْنِ فأوجز ثمَّ قال: اللهم عجزت عنَّا أنصارُنا، وعجز عنَّا حولُنا وقوتُنا، وعجزت عنَّا أنفسُنا، ولا حولَ ولا قوة إلَّا بكَ، اللهم اسْقنا وأحيِي البلادَ والعبادَ[1].

يُستفاد من الحديثِ والرِّواية:

1- مجيءُ الرَّجل إلىٰ قبر النَّبيِّ ﷺ واستغاثتُه به، وكان ذلك بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ وطلبه منه أن يستسقيَ لأمَّته.

2- إحاطةُ رسول الله ﷺ بأمر أُمَّته واتِّصاله بهم، ويتَّضحُ ذلك من أمرِه للرَّجل أن يأتي عمرَ رضي الله عنه ويرشده ويخبره أنَّهم سوف يُسقون.

3- لا خلافَ بين المسلمينَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ يسمعُ مَن يُسلِّم عليه من أمَّته ويردُّ عليه السَّلام، ويسمعُ صلاةَ مَنْ يصلِّي عليه مِن أمَّته، فلا فرقَ بين القُرب أو البعد منه ﷺ في المسافات والبلاد؛ كما في حديث أبي داود: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تَجْعلُوا قَبرِي

---

(1) قال ابن كثير في البداية والنهاية (10/ 72- 73) روىٰ سيف بن عمرو عن مُبَشِّر بن الفضيل عن جبير ابن صخر عن عاصم بن عمر بن الخطاب... فذكرها.

عيدًا، وصلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تبلغني حيثُ كُنتمْ))[1]. فرسولُ الله ﷺ يسمعُ مَن يُسلِّمُ عليه ويصلِّي عليه ومَن يزورُ قبرَه الشَّريف يسأل الله مُستشفعًا به إلىٰ الله

ويُستفادُ من الرِّواية الَّتي أوردَها ابنُ كثيرٍ عن الرَّجل الَّذي ذبح الشَّاةَ ولم يجدْ فيها أيَّ لحمٍ يُنتفع به فنادَىٰ يا مُحمَّداه:

1- استغاثةٌ برسول الله ﷺ، واستجابةٌ وغوثُ النَّبي ﷺ وقوله له: ((أبشرْ بالحياةِ)).

2- ظهورُ صورةٍ من صور الرَّحمة المهداة المتمثِّلة في نبيِّنا الكريم وإرسال الله المطرَ، وإصلاح حال النَّاس والبلاد.

3- لم نجدْ إنكارًا من أحدٍ من الصَّحابة وفيهم عمرُ رضي الله عنه علىٰ مَن أتىٰ القبرَ الشَّريف وشكَا إلىٰ رسول الله ﷺ.

الحديث السادس:

عن أنس رضي الله عنه قال: لَمَّا ماتت فاطمةُ بنتُ أسدٍ رضي الله عنها - أمُّ علي رضي الله عنه وكانت ربَّت النَّبي ﷺ- دخل رسولُ الله ﷺ وجلس عند رأسِها وقال: ((رحمكِ الله يا أمِّي بعد أمِّي)) وأثْنىٰ عليها وكفَّنها ببُردةٍ، وأمر بحفرِ قبرها فلمَّا بلغوا اللَّحدَ حفرَه رسولُ الله ﷺ بيدِه وأخرج تُرابَه بيدِه، فلما فرغَ دخل رسولُ الله ﷺ فاضْطجعَ فيه ثمَّ قال: ((الله الَّذي يُحيي ويُميتُ وهو حيٌّ لا يموتُ، اغْفِرْ لأمِّي فاطمةَ بنتِ أسدٍ ووسِّع عليها مُدخلَها بحقِّ نبيِّكَ والأنبياءِ الَّذين مِن قَبلي فإنَّكَ أرحمُ الرَّاحمينَ))[2].

---

(1) أخرجَه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (2042)، وأحمد في مسنده (2/367) والطَّبراني في الأوسط (8030)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان (3865) من طريق عبدالله بن نافع أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا.

وحسن إسنادَه النوويُّ في خلاصة الأحكام (1/440).

(2) أخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (24/351)، وفي الأوسط (189)، وعنه أبو نُعيم في حلية الأولياء (3/121) من طريق أحمد بن حماد حدَّثنا روح بن صلاح أخْبرَنا سفيان عن عاصم عن أنس بن مالك به.

وقال الطَّبرانيُّ: ((لم يروِ هذا الحديث عن عاصم الأحول إلَّا سفيان الثَّوري، تفرَّد به روح بن صلاح)).

يُستفادُ من الحديثِ الشَّريفِ:

1- جواز التَّوسل والاستشفاع إلىٰ الله برسول الله ﷺ فقد فعل ذلك الرَّسول الكريم بنفسِه، واستشفعَ إلىٰ ربِّه بحقِّه فقال: ((بحقِّ نبيِّكَ)).

2- جوازُ الاستشفاع بعد الوفاة فقد استشفع رسولُ الله ﷺ بإخوانِه من النَّبيِّين فقال: ((والأنبياءِ الَّذين مِنْ قَبْلي)).

الحديثُ السَّابع:

أورد المفسِّرونَ عند الحديثِ عن هذه الآية الكريمةِ من سُورة البقرةِ: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الْكَافِرِين﴾ [البقرة: 89].

استفتاحُ وتوسُّل أهل الكتابِ من اليهودِ برسولِ الله ﷺ قبل وجودِه في الدُّنيا، فكان اليهودُ يَستفتحونَ بظُهورِ رسول الله، وأنَّهم سوفَ يكونونَ أوَّلَ النَّاس اتِّباعًا له، وكانتِ اليهودُ تُقاتلُ غطفانَ فكانت غطفان تهزمهم، فيدعونَ الله برسولِ الله فينصرهم علىٰ غطفانَ، وذلك قبلَ وجودِه ﷺ في الدُّنيا.

فقد روىٰ الحاكمُ في المُستدركِ والبَيهقيُّ في دلائلِ النبوَّة عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: كانتْ يهودُ خيبر تقاتلُ غَطفانَ فكلَّما التقوا هُزمتِ اليهود، فعاذت اليهودُ بهذا الدُّعاء: اللهم إنَّا نسألُك بحقِّ محمَّد النَّبي الأمِّي الَّذي وعدْتَنا أن تخرجَه لنا في آخر الزَّمان إلَّا نصرتَنا عليهم، فكانوا إذا التقوا دَعَوْا بهذا الدُّعاء فهزموا غطفانَ، فلمَّا بُعثَ النَّبيُّ ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (9/414): ((رَواهُ الطَّبرانيُّ في الكبير والأوسط، وفيه روح بن صلاح؛ وثَّقه ابنُ حِبان والحاكم وفيه ضعف، وبقيَّةُ رجالِه رجالُ الصَّحيح)).

(1) أخرجه الآجريُّ في الشريعة (3/1452)، والحاكم في مستدركِه (2/ 263)، وعنه البيهقيُّ في دلائل النبوةِ (2/ 76) من طريق عبدالملك بن هارون بن عنترة عن أبِيه عن جدِّه عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما به.

فانظرْ أخي الكريم إلىٰ توسُّل أهلِ الكتابِ بالرَّسولِ ﷺ قبل وُجودِه في الدُّنيا، واستشفاعهم بحقِّه ومَنزلتِه عند ربِّه والَّتي هي موجودةٌ قبل أن يوجد بيننا في دار الدُّنيا، ومنزلته وحُرمته ومكانتُه موجودةٌ عند ربِّه بعد وجودِه وباقيةٌ أبدًا.

توسل الصَّحابةِ والسَّلف الصَّالحِ برسُولِ الله ﷺ

ممَّا سبقَ أخي المسلم المحب لرسولِ الله ﷺ يُعلم أنَّ التَّوسل والاستشفاعَ برسولِ الله ﷺ جائزٌ بل مستحبٌّ، وجرىٰ ذلك في حياةِ رسول الله ﷺ وبعدَ وفاتِه، وذلك كلُّه مع معرفة أنَّ المقصودَ الأكبرَ هو الله سبحانَه وتعالىٰ وأنَّ حبَّه ﷺ من حُبِّ الله سبحانه وتعالىٰ، وتوقير النَّبي ﷺ هو مِنْ توقير الله وتعظيمِه.

ولقد توسل الصحابة والتابعون إلىٰ الله عز وجل برسول الله ﷺ في مواطن كثيرة، ومن ذلك:

=

وقال الحاكم: «أدتِ الضَّرورةُ إلىٰ إخراجه في التَّفسير وهو غريبٌ».

وقال الذَّهبيُّ: «لا ضرورةَ في ذلك - أي: لإخراجه - فعبدُالملك متروكٌ هالكٌ».

ولكن أخرجه من غير هذا الوجه الطَّبريُّ في تفسيره (2/237)، وابنُ أبي حاتم في تفسيره (1/172)، وأبو نعيم في دلائل النُّبوة (1/82) من طريق ابن إسحاق قال: حدَّثني محمد بن أبي محمد مولىٰ آل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير أو عكرمة مولىٰ ابن عباسٍ عن ابن عباسٍ: «أن يهود كانوا يستفتحونَ علىٰ الأوس والخزرجِ برسولِ الله ﷺ قبل مَبعثِه، فلمَّا بعثَه الله من العربِ كفروا به وجحدُوا ما كانوا يقولونَ فيه، فقال لهم معاذُ بن جبلٍ وبِشر ابن البراء بن معرور أخو بني سلمة: يا مَعشرَ يهود اتَّقوا الله وأسلمُوا فقد كنتُم تستفتحونَ علينا بمُحمَّدٍ ﷺ ونحنُ أهل شِرك، وتخبروننا أنَّه مبعوثٌ وتصفونه لنا بصفتِه...».

وأخرجَه من غير هذا الوجه الطَّبريُّ في تفسيره (2/238) من طريق محمد بن سعد قال: حدَّثني أبي قال: حدَّثني عمِّي قال: حدَّثني أبي عن أبيه عن ابن عباس: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 89] يقول: يستنصرونَ بخروجِ محمد ﷺ علىٰ مشركي العرب، يعني بذلك أهل الكتاب، فلما بُعثَ الله محمدًا ﷺ ورأوْه من غيرهم كفروا به وحَسدُوه».

ثم أخرج الطَّبريُّ عقبها طرقًا أخرىٰ بنحوها موقوفةً عن ابن عباس وأخرىٰ مقطوعةً عن التَّابعينَ كقتادة وعطاء وغيرِهم، وإن كانتْ لا تخلُو من مقالٍ إلا أنها تُقوِّي بعضُها بعضًا، وهي بكثرتِها تدلُّ علىٰ شهرةِ هذه الآثارِ وصحَّتِها. ويكفي نصُّ الآية الكريمة التي تُثبتُ استفتاحَ اليهودِ برسول الله ﷺ قبل بعثتِه.

1- قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64].

أوردَ كثيرٌ من الحفَّاظِ وأئمَّة المسلمينَ والمفسِّرين في الحديث عن هذه الآية الكريمة روايةً توضِّح مثالًا تطبيقيًّا لما فَهِمَه المسلمونَ من هذه الآية وكيف قامُوا بالعمل بما ترشد إليه.

ونذكرُ في هذا المقامِ الحافظَ ابنَ كثير رحمه الله؛ لأنَّه من أكثر المفسرين التزامًا بالآثارِ؛ فعند حديثه عن هذِه الآية الكريمةِ قال: وقد ذكر جماعةٌ منهم الشَّيخ أبو النَّصر الصَّباغ في كتابه الشَّامل هذه القصَّةَ المشهورة عن العُتبيِّ قال: ((كنتُ جالسًا عند روضةِ النَّبيِّ ﷺ فجاء أعرابيٌّ فقال: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله سمعتُ الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتُكَ مُستغفرًا لذنبي مُستشفعًا بكَ إلىٰ ربِّي ثمَّ أخذَ يقولُ:

يا خيرَ مَن دُفنتْ بالقاعِ أعظمُه ... فطابَ من طِيبهنَّ القاعُ والأكَمُ
نَفْسِي الفِداءُ لقَبرٍ أنتَ سَاكنُه ... فِيهِ الْعَفَافُ وفِيهِ الجُودُ والكَرَمُ

ثمَّ انصرفَ الأعرابيُّ، فغلبتْني عيني، فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النَّوم فقال: ((يا عُتْبيُّ، الحقِ الأعرابيَّ فبشِّره بأنَّ الله قد غَفَرَ له))[1]. وقد عَدَّ الإمام النوويُّ رضي الله عنه أنَّ هذا القولَ من أحسنِ ما يقولُه الزائر عند زيارتِه لقبر النَّبيِّ ﷺ.

والاستدلالُ هنا ليس بالرُّؤيا، وإنَّما بإقرارِ إمام من أئمَّة التَّفسير المهتمين بالأثرِ لفَهْمِ الأعرابي وعدم اعتراضِه علىٰ القصَّة الَّتي ساقها في تعرُّضه لتفسير تلكَ الآية.

---

(1) ذكرها النووي في المجموع (274/8)، وابن كثير في تفسيره (140/4) بدون إسنادٍ.

وأخرج البَيهقيُّ في شعب الإيمان (3880) من طريق أبي علي الروذباري حدثنا عمرو بن محمد بن عمرو بن الحسين بن بقية- إملاءً- حدثنا شكر الهروي حدثنا يزيد الرقاشي عن محمد بن روح بن يزيد البصري حدَّثني أبو حرب الهلالي قال... فذكر نحوها.

- وقدِ استدلَّ بتلك الآيةِ الكريمةِ أغلبُ الفقهاء علىٰ استحباب زيارةِ قبرِ النَّبي ﷺ، كما استحبُّوا قِراءتَها أثناءَ زيارةِ روضتِه الشَّريفةِ ﷺ وإتْيانِه ﷺ والاستشفاع به والدُّعاء عندَه.

وقد ذكرَ الإمامُ النَّوويُّ القصَّة في المجموعِ عند الحديثِ عن آدابِ زيارةِ النَّبيِّ ﷺ مُستحسِنًا لها ومُحبِّذًا صيغتَها عند الزِّيارةِ.

ووردتْ أيضًا في كتبِ الأحكام الفقهيَّةِ والمناسكِ عند الحديثِ عن زيارةِ قبر النَّبيِّ ﷺ عند أئمَّة المذاهبِ الأربعة- كما سيأتي- مستدلِّينَ بهذه القصَّة الجميلةِ علىٰ الاستشفاعِ بنفسِ الصورة التي توسَّل بها الأعرابيُّ برسول الله، بالإضافةِ إلىٰ ثُبُوتِ الاستشفاعِ والتَّوسل بدايةً بالآية الكريمة، والَّتي هي آيةٌ عامَّةٌ مطلقةٌ ثابتةُ الحُكمِ إلىٰ يوم القيامة تحضُّ علىٰ إتيانِ رسول الله ﷺ سواءٌ في حياته أو بعد وفاتِه ﷺ والتَّوسل به إلىٰ الله تعالىٰ والاستشفاع به إلىٰ ربِّه سبحانَه في مغفرة الذُّنوب وقضاء الحاجات، وعدم تفرقة العلماءِ بين حياتِه ﷺ أو وفاته، فالآيةُ الكريمةُ آيةٌ مُطلَقةٌ ليس لها مقيِّدٌ نصيٌّ أو مقيِّدٌ عقليٌّ، وليس هناك ما يقيِّد معناها بحياة النَّبي ﷺ الدُّنيويَّة فهي باقيةٌ إلىٰ يوم القيامة، ومَن زعم غيرَ ذلك من تخصيصِ الآية الكريمة بحياتِه ﷺ الدُّنيويَّةِ فقط فعليه أن يأتيَ بدليلِ التَّخصيصِ، فالإطلاقُ لا يحتاج إلىٰ دليلٍ ولكنَّ التخصيص هو الَّذي يحتاجُ إلىٰ دليلٍ.

2- جاءَ في كتاب الأدب المفرد للإمامِ البخاريِّ تحت عنوان: ما يقول الرجل إذا خدرتْ رجلُه. عن عبدالرَّحمن بن سعدٍ قال: «خدرتْ رِجلُ عبدالله بن عمر رضي الله عنه فقال له رجل: اذكر أحبَّ النَّاس إليكَ، فقال: يا مُحمَّد»[1]. وذلك بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ.

---

(1) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (964) من طريق أبي نُعيم قال: حدَّثنا سفيان عن أبي إسحاق عن عبدالرحمن بن سعد به.

3- أنَّ النَّبيَّ ﷺ تُنالُ وتدركُ بشفاعتِه أعلىٰ الدَّرجاتِ، فقد وَردَ في صحيحِ مسلم: أنَّ ربيعةَ بن كعب الأسلميَّ؛ الَّذي خدم رسولَ الله ﷺ قال له رسولُ الله: ((سَلْنِي)) فقال: أسألُكَ مرافقتَك في الجنَّة، فلم يُنكرْ عليه الرَّسول ﷺ، وإنَّما قال علىٰ سبيل التَّواضع منه ((أو غيرَ ذلك؟)) فقال ربيعة: هو ذاكَ، فقال له ﷺ: ((أعنِّي علىٰ نفسِكَ بكثرةِ السُّجود))[1].

- فتأمَّلْ أيُّها الأخُ الكريمُ قولَ النَّبي ﷺ لربيعةَ: ((سَلْني)) وهو فعل أمرٍ من سأل، وتأمَّل قولَ الصحابيِّ الجليل: أسألُك مرافقتكَ في الجنَّة. ففي هذا جواز السُّؤال والطَّلب من رسول الله ﷺ مع تمام الإيمان والعِلم- وكما قررنا قبل ذلك- أنَّ المعطيَ المانعَ هُو الله، وأنَّه يُجري الأشياءَ علىٰ يد مَنْ يشاءُ من عبادِه، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هُو الوسيلةُ والواسطةُ العُظمَىٰ في وُصُولِ خيري الدُّنيا والآخرة إلىٰ أُمَّته بل إلىٰ الخَلقِ أجمعينَ، فانظرْ إلىٰ قوله تعالَىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: 74] وقوله ﷺ: ((إنَّما أنا قاسمٌ والله يُعطِي))[2].

فالتَّوسل برسول الله ﷺ يشملُ أيضًا طلبَ الأمرِ منه مباشرةً، بمعنىٰ أنَّه ﷺ قادرٌ علىٰ التَّسببِ فيه بسؤاله وشفاعتِه إلىٰ ربِّه فيعودُ إلىٰ طلب دعائِه وإن اختلفتِ العبارةُ، ومنه قولُ القائل: ((أسألُكَ مرافقتَك في الجنَّة)) مع أنَّ الحكم في دخول الجنَّة ودرجاتها هو الله سبحانه وتعالىٰ، وذلك معلومٌ، ولكن يُقصدُ به كونه ﷺ سببًا وشافعًا ووسيلةً إلىٰ ذلك.

4- أورد الحافظُ ابنُ كثير في كتابِ البداية والنِّهاية حين ذكرَ الكلام عن حروب الرِّدة في قِتالِ المسلمين لمسيلمةَ الكذَّاب، فذكر التقاءَ المسلمينَ وفيهم الصَّحابة الكرام من أمثال

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (489).

(2) جزء من حديث متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب العلم، باب: مَنْ يردِ الله به خيرًا يفقهه في الدين (71)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب النَّهي عن المسألة (1037) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﵄.

خالد بن الوليد، وأبي حذيفة، وزيد بن الخطَّاب، وغيرهم من الصَّحابة حملةِ القرآن. فقال: ((وحمل خالد بن الوليد حتىٰ جاوزَهم، وسار لقتال مُسيلمةَ، وجعل يترقَّب أن يصلَ إليه فيقتلُه، ثم رجع ثمَّ وثب بين الصَّفين ودعا البِرَاز- أي المبارزة- وقال: أنا ابن الوليد العَود أنا ابن عامرٍ وزيد، ثمَّ نادىٰ بشعار المسلمين وكان شعارهم يومئذٍ يا محمَّداه))[1]. فهذا أيها المحبُّ لرسول الله فِعلُ صحابةِ رسول الله ﷺ في حُروبِ الرِّدة بعد وفاةِ النَّبي ﷺ، واستغاثتُهم برسول الله ﷺ.

5- استسقاءُ سيِّدنا عمر بن الخطَّاب بسيِّدنا العبَّاس عمِّ رسول الله ﷺ في عام الرَّمادة؛ فعن أنس رضي الله عنه أنَّ عمرَ بن الخطَّاب كان إذا قحطوا استسقىٰ بالعبَّاس بن عبدالمطَّلب فقال: ((اللهمَّ إنَّا كنَّا نتوسَّل إليكَ بنبيِّنا ﷺ فتسقينا، وإنَّا نتوسَّل إليك بعمِّ نبيِّنا فاسْقنا)) قال: فيُسقونَ[2].

فقد قدَّمه سيدنا عمرُ بن الخطَّاب لقرابتِه ومكانته وحِفظًا لمقام عمومتِه لرسول الله وحبِّه له، فالخصيصةُ هنا هي لرسولِ الله أوَّلًا وآخرًا، فقد كان رسولُ الله ﷺ يحبُّ العبَّاسَ رضي الله عنه ويُقدِّمُه ويرىٰ أنَّه في مقام الوالدِ[3]. ولذلك قال العبَّاس: ((اللهم قد توجَّه القوم بي لمكانتِي من نبيِّك فاحفظْ نَبيَّكَ في عمِّه))[4]. وهنا أمرٌ لابدَّ أن يتنبَّه إليه وهو أنَّ

(1) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (9/ 468- 467).

(2) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه (3710).

(3) وَرَدَ ذلك في حديث أخرجه الطَّبرانيُّ في الدعاء (2211)، والحاكمُ في مستدركِه (3/ 334) من طريق الزبير بن بكار حدثني ساعدة بن عبيد الله المزني عن داود بن عطاء المدني عن زيد بن أسلم عن ابنِ عمرَ أنَّه قال: خطب عمرُ النَّاس فقال: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ رسول الله ﷺ كان يَرىٰ للعبَّاس ما يرىٰ الولدُ لوالدِه يعظِّمه ويفخمُه ويبر قسمَه، فاقتدوا أيُّها الناسُ برسولِ الله ﷺ في عمِّه العبَّاسِ، واتَّخذُوه وسيلةً إلىٰ الله عزَّ وجلَّ فيما نزل بكُمْ)).

وسكتَ عنه الحاكمُ، وقال الذَّهبيُّ: ((داود بن عطاء متروكٌ)). ورمز له السيوطيُّ بالصِّحةِ في الجامع الصَّغير (2/434).

(4) ذكره الماورديُّ في أعلام النبوة (ص142) بدون إسنادٍ. وعزاه ابنُ حجرٍ في فتح الباري (2/497) للزبير

خروج المسلمين للاستسقاءِ والصَّلاة والدُّعاء يتطلَّبُ وجود إمامٍ بينهم يؤمُّهم ويدعو ويؤمِّنونَ وراءَه؛ فلذلك قدموا العباس رضي الله عنه.

6- فعلُ الصَّحابة والسَّلف رضوان الله عليهم في الاستسقاء بقبر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ فقد رَوىٰ الدَّارميُّ في سننه عن أبي الجوزاء أوس بن عبدالله قال: قَحِطَ أهلُ المدينة قحطًا شديدًا فشكوا إلىٰ عائشةَ رضي الله عنها، فقالتْ: انظُروا قبرَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فاجعلوا منه كُوًىٰ إلىٰ السَّماء حتَّىٰ لا يكونَ بينه وبين السَّماء سقفٌ، قال: ففعلُوا فمُطرنا مطرًا حتَّىٰ نبت العشبُ وسَمنتِ الإبل حتَّىٰ تفتَّقتْ من الشَّحم فسُمِّي ذلك العام بعام الفَتْقِ[1].

فانظرْ أخي المسلم إلىٰ فِقه السَّيِّدةِ عائشة أمِّ المؤمنين؛ إذْ رأتْ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو في قبره سببٌ لرحمة الله للأمَّة، فطلبتْ منهم أن يفتحوا فتحاتٍ بينَه وبين السَّماء، وكأنَّ لسانَ حال المسلمينَ يقول لله ربِّ العالمين: يا ربَّنا من أجل حبيبك هذا الَّذي في هذا القبر الشَّريف ارْحمنا واسقنا، فأنزلَ الله الغيثَ والمطرَ، وما ذلك إلا من أجلِ الحبيب المقرَّب محمَّد صلى الله عليه وسلم، فنبتَ العشبُ ورغدت الحياةُ مُراعاةً من الله سبحانه وتعالىٰ لجنابِ حبيبِه محمَّد؛ إذ توسَّل النَّاس به إليه سبحانَه.

إيراد أقوال المذاهب وأهلِ العلم في قضية التَّوسُّلِ

في هذا المحور سنعرضُ لأقوال وتقارير علماء المذاهب الأربعة المعتمدة في التوسل؛ كي يثبت لدينا أن التوسُّل أمرٌ مشهور في شريعة رب العالمين، ثم بعد ذلك نعرض لطَرَف من أدعية العلماء والأئمة المصنِّفين في كُتبهم، وهم يتوسَّلون بخير الخلق أجمعين كي تعم البركة علىٰ مصنَّفاتهم ومؤلفاتِهم، وقد عمَّتِ البركة علىٰ مؤلَّفاتهم ببركة التقرُّب إلىٰ الله بسيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإليك أخِي الكريمَ عرضُ الأقوال والأدعية:

ابن بكار في الأنسابِ بإسنادِه، ولم يذكر هذا الإسنادَ.

(1) أخرجه الدارميُّ في سننه (93) من طريق أبي النعمان حدَّثنا سعيد بن زيد حدَّثنا عمرو بن مالك النكري حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبدالله به موقوفًا علىٰ عائشةَ رضي الله عنها، ورجالُه ثِقاتٌ.

1- المذهبُ الحنفيُّ:

الإمام كمالُ الدِّين ابنُ الهمام الحنفي (ت 861 هـ) في كتابه فتح القديرِ في كتاب الحج، باب زيارة النَّبي ﷺ قال رحمه الله: ((ويسأَلُ الله حاجتَه متوسِّلًا إلىٰ الله بحضرة نبيِّه)) ثمَّ قال: ((يسأَلُ النَّبيَّ ﷺ الشَّفاعةَ فيقول: يا رسولَ الله، أسألُك الشَّفاعةَ، يا رسولَ الله أتوسَّل بكَ إلىٰ الله))[1].

وجاء في الفتاوىٰ الهنديَّة، كتاب المناسك، باب: خاتمة في زيارة قبرِ النَّبيِّ ﷺ. وهو يذكُرُ كيفيَّةَ وآداب زيارة قبر النَّبي ﷺ والأدعيةَ التي يقولها الزَّائر، قال: ((يُبلِّغه سلام مَن أوصاه فيقول: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله من فلان بن فلان يَستشفعُ بكَ إلىٰ ربِّكَ فاشفعْ له ولجميعِ المُسلمينَ)). ثم قال بعد ذلك: ((ثمَّ يقف- أي الزَّائر- عند رأسه ﷺ كالأوَّل ويقول: اللهمَّ إنَّك قلتَ وقولك الحقُّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جِئناكَ سامِعينَ قولك طائعينَ أمرك مُسْتشفِعينَ بِنبيِّكَ إليكَ))[2].

2- المذهب المالكي:

قصَّة الخليفة المنصور مع الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وهي أنَّ أبا جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العبَّاس- كان في زيارةٍ لقبر النَّبيِّ ﷺ في حجَّته- سأَلَ الإمامَ مالكًا فقال له: يا أبا عبدالله أأسْتقبل رسولَ الله ﷺ وأدعو أم أستقبل القبلة وأدعو؟ فقال له مالك: ولِـمَ تَصرِفُ وجهَك عنه وهو وسيلتُك ووسيلةُ أبيك آدم عليه السَّلام إلىٰ الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة، بل استقبلْه واستشفعْ به فيشفِّعه الله[3].

---

(1) انظر: فتح القدير (2 /339) المطبعة الأميرية- 1315هـ.

(2) انظر: الفتاوىٰ الهندية (1/292- 293) تأليف: الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند- ضبط وتصحيح: عبداللطيف حسن عبدالرحمن- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 2000م.

(3) أخرج هذه القصَّة القاضي عياض في الشِّفا بتعريف حُقوقِ المُصطفىٰ (2/40- 41) من طريق محمد بن

- قال الشَّيخُ الإمام أبو عبدالله محمد بن محمد بنُ الحاج المالكيُّ (737 هـ): ((فالتَّوسُّل به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هو محلُّ ومحطُّ أحمال الأوزار وأثقال الذُّنوبِ والخطايا؛ لأنَّ بركةَ شفاعتِه عليه الصَّلاة والسَّلام عند ربِّه لا يتعاظمُها ذنبٌ، فليستبشرْ مَنْ زاره ويلجأ إلىٰ الله بشفاعتِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ومَن لم يزرْه فليقل: اللهمَّ لا تحرمنا شفاعتَه بحُرمتِه عندك آمينَ يا ربَّ العالمين.

ومَنِ اعتقدَ غيرَ ذلك فهو المحرومُ، ألم يسمعْ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ فَمَنْ جاءَه ووقفَ ببابه وتوسَّل به ﷺ وجدَ الله توَّابًا رحيمًا؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ مُنزَّهٌ عن خلفِ الميعادِ، وقد وعدَ سبحانَه وتعالىٰ بالتَّوبةِ لمَنْ جاءَه ووقفَ ببابِه وسألَه واستغفرَ ربَّه، فهذا لا يَشُكُّ فيه ولا يرتابُ إلَّا جاحدٌ للدِّين معاندٌ لله ولرسولِه ﷺ نعوذُ بالله من الحرمانِ))[1].

وقال الإمام أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبيُّ المالكيُّ الغرناطيُّ (ت 757 هـ): ((ينبغي لمن حجَّ أن يقصدَ المدينةَ فيدخل مسجدَ النَّبي ﷺ فيصلِّي فيه ويُسلِّم علىٰ النَّبيِّ ﷺ وعلىٰ صَحبيْه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويَسْتشفعُ به إلىٰ الله ويصلِّي بين القبرِ والمنبرِ ويودِّعُ النَّبيَّ ﷺ إذا خرجَ من المدينة))[2].

وقال الشيخ العلامة الكبير إبراهيم اللَّقاني المالكي صاحب جوهرة التَّوحيد: ((ليس للشَّدائد مثلُ التَّوسل به ﷺ))[3].

عبدالرحمن الأشعري وأبي القاسم أحمد بن بقي الحاكم وغير واحد فيما أجازونيه قالوا: أخبرنا أبو العباس أحمد بن عمر بن دِلهاث قال: حدثنا أبو الحسن علي بن فهر حدَّثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج حدَّثنا أبو الحسن عبدالله بن المنتاب حدَّثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل حدَّثنا ابن حميد فذكرها.

وجوَّد إسناده الصَّالحيُّ في سُبل الهدىٰ والرشاد (395/12).

(1) انظر: المدخل (259/1) لابن الحاج- مكتبة دار التراث- القاهرة.

(2) انظر: القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية (ص257) لابن جزي- تحقيق: د. محمد بن محمد مولاي.

(3) انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (8/1) لمحمد أمين المحبي- دار صادر- بيروت.

3- المذهبُ الشَّافعيُّ:

قال الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ) في إحياء عُلوم الدِّين في باب زيارة المدينة وآدابها: ((يقول الزّائر: اللهم قصدنا نبيَّك مُستشفعينَ به إليكَ في ذنوبِنا... وشفِّع نبيَّكَ هذا فينا وارفعنا بمنزلتِه عندكَ وحقِّه عليكَ))[1].

وقال الإمام محيي الدين النَّوويُّ في المجمُوعِ في كتاب صفة الحجِّ، باب زيارة النَّبيِّ ﷺ: ((ثمَّ يرجعُ إلىٰ موقفِه الأوَّل قُبالة وجه رسول الله ﷺ ويتوسَّل به في حقِّ نفسِه، ويَستشفعُ به إلىٰ ربِّه...))[2].

وقال الإمام تقيُّ الدِّين علي بن عبدالكافي السُّبكيُّ في كتابه شفاء السِّقام (ت 756 هـ) ما نصُّه: ((اعلمْ أنَّه يجوز ويحسُنُ التَّوسل والاستعانةُ والتَّشفُّع بالنَّبي ﷺ إلىٰ ربِّه سبحانه وتعالَىٰ، وجوازُ ذلك وحسنُه من الأمورِ المعلومةِ لكلِّ ذي دِين، المعروفةِ من فعلِ الأنبياءِ والمُرسلينَ وسير السَّلفِ الصَّالحين للأمَّة والعلماء والعوامِّ من المسلمين، ولم ينكرْ ذلك من أهل الأديانِ ولا سمع به في زمنٍ من الأزمانِ))[3].

وقال الإمامُ الفَقيه أبو بكر تقي الدين الحصنيُّ (ت 829 هـ) قال في كتابِه دفع شبه من شَبَّه وتمرَّدَ: ((والمرادُ أنَّ الاستغاثةَ بالنَّبيِّ واللَّواذَ بقبرِه مع الاستغاثةِ بهِ كثيرٌ علىٰ اختلافِ الحاجاتِ، وقد عقدَ الأئمَّةُ لذلك بابًا وقالوا: إنَّ استغاثةَ مَنْ لاذَ بقبرِه وشكَىٰ إليه فقرَه وضُرَّه توجبُ كَشْفَ ذلك الضُّرِّ بإذنِ الله تَعالىٰ))[4].

وقال الإمام أبو العبَّاس أحمد بن محمد بن عبدالملك القسطلَّانيُّ (ت 923 هـ) في

(1) انظر: إحياء علوم الدين (1/360) مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا- أندونيسيا.

(2) انظر: المجموع للنووي (8/274).

(3) انظر: شفاء السقام في زيارة خير الأنام (ص 160).

(4) انظر: دفع شبه من شبه وتمرَّد (ص 133) تحقيق: محمد زاهد الكوثري- المكتبة الأزهرية للتراث- القاهرة- 2010م.

المواهب اللَّدنيَّة: ((ويَنبغِي للزَّائرِ له ﷺ أن يُكثرَ من الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ والاستغاثةِ والتَّوسُّل به ﷺ فجديرٌ بمَنِ استشفعَ أن يشفِّعَه الله فيه))[1].

وقال الإمام أبو بكر ابن السَّيِّد محمَّد شطا الدِّمْياطيُّ (ت 1310 هـ) في إعانةِ الطَّالبين عند ذكر القصد من الصَّلاة على النَّبي ﷺ فقال: ((بل يَقصدُ أنَّه مُفتقِرٌ له عليه الصَّلاة والسَّلام، وأنَّه يتوسَّلُ به إلى ربِّه في نيل مَطْلُوبِهِ؛ لأنَّه الواسطةُ العُظمى في إيصَالِ النِّعَمِ إليْنَا))[2].

4- المذهبُ الحنبليُّ:

أجازَ الإمامُ أحمد بن حنبل التَّوسلَ بالنَّبي ﷺ كما نقلَه عنه الإمام أبو الحسن علي بن سليمان المرداويُّ الحنبليُّ في الإنصاف في كتاب صلاة الاستسقاء: ((ومنها- أي من الفوائدِ- يجوزُ التَّوسُّلُ بالرَّجُلِ الصَّالحِ على الصَّحيحِ من المذهبِ، وقيل: يستحبُّ، وقال الإمامُ أحمد بن حنبل للمروذي: يتوسل بالنبي في دعائه...)) ثمَّ قال: ((والتوسُّل بالإيمانِ به وطاعته ومحبَّته والصلاة والسلام عليه، وبدعائه وشفاعتِه، ونحوه مما هو من فِعله أو أفعال العباد المأمور بها في حقِّه مشروع إجماعًا))[3].

وقال الإمام أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي (ت 597 هـ) في كتابه المُسمَّى بالمدهش: ((لم يزلْ ذكرُ نبيِّنا ﷺ منشورًا وهو في طَيِّ العدم توسَّل به آدم وأُخِذَ له الميثاق من الأنبياء على تصديقِه))[4].

---

(1) انظر: المواهبُ اللدنية بالمنح المحمديَّة (413/3) تعليق: مأمون محيي الدين- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولى- بيروت- 1996م.

(2) انظر: إعانة الطالبين (266/4) للدمياطي- دار الفكر- بيروت.

(3) انظر: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (456/2) للمرداوي- تحقيق: حامد الفقي- الطبعة الأولى- 1956م. وانظر: المبدع في شرح المقنع (204/2) تأليف: إبراهيم بن محمد بن مفلح- المكتب الإسلامي- بيروت- 1400 هـ.

(4) انظر: المدهش (141/1) لابن الجوزي- تحقيق: مروان قباني- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- 1985م.

وأرشدَ الإمام أبو محمد عبدالله بن أحمد بنُ قدامةَ (ت 620 هـ) إلىٰ تلاوةِ آية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وذلك عند حديثِه عن آدابِ زيارة القبرِ الشَّريفِ حيث قال في كتابِه المغني ما نصُّه: «ثُمَّ تأتي القبرَ فتولِّي ظهركَ القِبلةَ وتستقبل وسطَه وتقول: السَّلام عليكَ أيُّها النَّبي ورحمةُ الله وبركاته، السَّلام عليكَ يا نبيَّ الله وخيرته من خلقِه وعباده، أشهدُ أن لا إلَه إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أشهدُ أنَّكَ قد بلغَّتَ رسالاتِ ربِّكَ ونصحتَ لأمَّتك ودعوتَ إلىٰ سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظة الحسنةِ، وعبدتَ الله حتَّىٰ أتاكَ اليقينَ، فصلَّى الله عليك كثيرًا كما يحبُّ ربُّنا ويرضىٰ، اللهمَّ اجزِ عنَّا نبيَّنا أفضل ما جزيتَ أحدًا من النَّبيينَ والمرسلينَ، وابعثه المقامَ المحمود الَّذي وعدتَه، يغبطه به الأوَّلون والآخرون. اللهمَّ صلِّ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ كما صلَّيتَ علىٰ إبراهيمَ وآل إبراهيمَ إنَّك حميدٌ مجيدٌ، وبارك علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ كما باركتَ علىٰ إبراهيمَ وآل إبراهيمَ إنَّك حميدٌ مجيدٌ، اللهم إنَّكَ قلتَ وقولُك الحقُّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد أتيتُك مُستغفرًا من ذنوبي مُستشفعًا بكَ إلىٰ ربِّي فأسألُك يا ربِّ أن تُوجبَ لي المغفرةَ كما أوجبتَها لمَنْ أتاه في حياتِه، اللهمَّ اجعلْه أوَّل الشَّافِعينَ وأنجحَ السَّائلينَ وأكرمَ الآخرينَ والأوَّلينَ برحمتِك يا أرحمَ الرَّاحمين، ثمَّ يدعُو لوالدَيْه ولإخوانِه وللُمسلمينَ أجمعينَ»[1].

فهذه نقولٌ من المذاهب الأربعة تدلُّ علىٰ مشروعيَّة التوسُّل بالنبي ﷺ ونحن في هذا الأمر لم نستقصِ كلَّ ما كُتبَ فهذا أمر سيأخذُ مساحاتٍ واسعةً غيرَ هذه الورقات، وإنَّما أردنا إلقاءَ الضَّوء علىٰ ما في كتب الأئمَّة.

---

(1) المغني (3/298) دار إحياء التراث العربي- الطبعة الأولىٰ- 1405 هـ. والشرح الكبير (3/495) دار الكتاب العربي.

ونَعرِضُ فيما يأتي أدعيةَ علماء السَّلف والخلفِ من أئمَّة الدِّين وحملةِ الشَّريعةِ والعلماء الرَّبانيينَ في مصنفاتِهم التي تدلُّ علىٰ توسُّلهم بجاهِ النبيِّ ﷺ فمنها:

ما جاء في وصيَّة الإمام ابن قُدامة المقدسي الحنبلي ما يلي: ((وإذا كانَت لك حاجةٌ إلىٰ الله تعالىٰ تريدُ طلبَها منه فتوضَّأ، وأحسِن وُضوءَك واركع ركعتَين وأثنِ علىٰ الله عزَّ وجلَّ وصلِّ علىٰ النَّبي ﷺ ثمَّ قُل: لا إلهَ إلَّا الله الحليم الكريم سبحان رب العرشِ العظيم الحمدُ لله ربِّ العالمين، أسألك موجباتِ رحمتكَ وعزائمَ مغفرتكَ والغنيمةَ من كل برٍّ والسَّلامةَ من كلِّ إثم لا تدع لي ذنبًا إلَّا غفرته ولا همًّا إلا فرجته ولا حاجةً هي لك رضًا إلَّا قضيتَها يا أرحمَ الرَّاحمين، وتقولُ: اللهم إنِّي أسألُكَ وأتوجَّه إليكَ بنبيِّكَ محمَّدٍ ﷺ نبيِّ الرَّحمة، يا محمَّد إنِّي أتوجَّه بكَ إلىٰ ربي فيقضي لي حاجتي، ويذكر حاجتَه))[1].

ودعاء الإمام الكبير أبي عبدالله القرطبيِّ صاحب التَّفسير الشَّهير (ت 671 هـ) في كتابه التَّذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة حيث قال: ((نجَّانا الله من أهوالِ هذا اليوم بحقِّ محمَّدٍ نبيِّ الرَّحمةِ وصحبِه البررة، وجعلنا ممَّن حُشر في زمرتِهم))[2].

قال الحافظُ أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن بنُ الصَّلاح الشَّافعيُّ (ت 643 هـ) في فتاويه وهو يتكلَّم عن معجزاتِ النَّبي ﷺ حيث قال: ((فإنَّها ليستْ محصُورةً علىٰ ما وجد منها في عصره ﷺ بل لم تزل تتجدَّدُ بعده ﷺ علىٰ تعاقُبِ العصورِ، وذلك أنَّ كراماتِ الأولياء من أمَّته وإجابات المتوسِّلينَ في حوائجِهم عقيب توسُّلهم به في شدائدهم براهينُ له ﷺ قواطعُ ومعجزاتٌ له سواطعُ ولا يعدُّها عدٌّ ولا يحصرها حدٌّ،

(1) انظر: وصيَّة الإمام ابن قدامة المقدسي الحنبلي (ص 95) تحقيق: أم عبدالله محروس العسيلي- دار تيسير- الطبعة الأولىٰ- 1411هـ.

(2) انظر: التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة (1/ 269) تحقيق: أبي عبدالله الداني- المكتبة العصرية- بيروت- 1423هـ.

أعاذنا اللهُ مِنَ الزَّيغ عن ملَّته، وجعلنا من المهتدينَ الهادين بهديه وسُنَّته))[1].

وقالَ الإمامُ أبو العبَّاس أحمد بن أحمد بن عبداللَّطيف الزَّبيدي (ت 893 هـ) في كتابه التَّجريد الصَّريح لأحاديثِ الصَّحيح في دعاءٍ له يقولُ: ((وأن يُصلحَ المقاصدَ والأعمالَ بجاه سيِّدنا محمَّدٍ وآله))[2].

وقال الحافظُ أبو الخير شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السَّخاويُّ (ت 902 هـ) في نهاية شرحِه لألفيَّةِ العراقيِّ في الحديث: ((سيِّدنا محمَّد سيِّد الأنام كلهم، ووسيلتُنا وسندُنا في الشَّدائد والنَّوازلِ ﷺ))[3].

قال الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السُّيوطي (ت 911 هـ) في نهاية كتابه تاريخ الخلفاء: ((وأسأل الله أن يقبضنا إلىٰ رحمته قبل وقوع فتنة المائة التاسعة بجاه محمَّد ﷺ وصحبه أجمعين آمين))[4].

وما ذكرَه الإمام أبو الفضْلِ محمد خليل بن علي المُرادي الحنفي (ت 1206هـ) في كتابِه: ((سلك الدُّرر في أعيان القرن الثاني عشر)) حيث قال: ((فنتوجَّه اللهمَّ إليكَ به ﷺ إذ هو الوسيلة العُظمىٰ))[5].

وقال الشَّيخ أبو عبدالله محمد بن عليش المالكي (ت 1299 هـ) في كتابه مِنح الجليل شرح مختصر خليل قال: ((ونسأَلُ الله تعالىٰ التَّوفيقَ للصَّوابِ وأنْ يسلك بنا الزُّلفىٰ وحُسن

(1) انظر: فتاوىٰ ومسائل ابن الصلاح (2/210) تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي- دار المعرفة-بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1986م.

(2) انظر: التَّجريد الصَّريح (1/15) اعتنىٰ به: حسن شلبي وكسرىٰ علي- مؤسسة الرسالة ناشرون- الطبعة الأولىٰ- 2009م.

(3) انظر: شرح ألفيَّة العراقي في الحديث (4/410) تحقيق: علي حسين علي- دار الإمام الطبري- الطبعة الثانية- 1992م.

(4) انظر: تاريخ الخلفاء (ص 452) تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد- دار السعادة.

(5) انظر: سلك الدُّرر في أعيان القرن الثاني عشر (1/2) دار البشائر الإسلامية ودار ابن حزم- الطبعة الثالثة- 1988م.

مآب بجاهِ سيِّدنا محمَّد ﷺ وعلىٰ آلِه والأصحابِ))(1).

وقالَ الإمام علي العدوي المالكي في حاشيتِه علىٰ شرح مختصر خليل للإمام محمد ابن عبدالله الخرشي: ((نتوسَّلُ إليكَ بجاه الحبيب أن تُبلِّغَ المقاصدَ عن قريب فإنَّك قريبٌ مجيبٌ))(2).

وقال الإمام أحمد بن محمد المقري التِّلمسانيُّ (ت 1041 هـ) في كتابه نفح الطيب: ((نعوذُ بالله من شرِّ أنفسنا ومن شرِّ كل ذي شرٍّ، بجاه نبيِّنا عليه أزكىٰ صلوات الله وأفضلُ سلامه))(3).

وقال الإمام عبدالرحمن بن حسن الجبرتي (ت 1237 هـ): ((ويتوسَّل إليه في ذلك بمحمَّدٍ ﷺ))(4).

فهذه أخي الفاضِل والمحبُّ لرسولِ الله ﷺ بعض ممَّا ذكَرَه العلماءُ والأئمَّةُ في أدعيتِهم في بعض مصنَّفاتهم، ولو ذهبنا كي نجمعَ لك كلَّ ما ذكَرُوه غيرَ هذه الأدعية التي تدلُّ علىٰ توسُّلِهم بالنَّبيِّ ﷺ ومقامِه عند الله ما وَسِعتْنا هذه الصَّفحاتُ ولا انتهىٰ الكلامُ من جميلِ هذه المعلومات(5).

ونقول لك أخي الكريم: إنه بتتبُّع النُّقولاتِ وما وَرَدَ عن علماء الأمَّة وأئمَّة المذاهب علىٰ مرِّ السِّنين تجدُ أنَّهم كانوا يتقرَّبونَ إلىٰ الله بتوسُّلهم برسولِ الله واستشفاعِهم به إلىٰ الله، وأنَّهم كانوا يرونَ ذلك من أعظم القُرباتِ إلىٰ الله سبحانَه وتعالىٰ، وأنَّها تجلبُ

---

(1) انظر: منح الجليل شرح مختصر خليل (705/3) مكتبة النجاح- ليبيا.

(2) انظر: شرح مختصر خليل للخرشي وبهامشه حاشية العدوي (58/1) المطبعة الأميرية- 1317 هـ.

(3) انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (603/1) تحقيق: إحسان عباس- دار صادر- بيروت.

(4) انظر: عجائب الآثار في التَّراجم والأخبار (470/1) دار الكتب المصرية- 1997.

(5) وانظرْ أيضًا أنواع التوسل به ﷺ التي ذكرها الإمام محمد بن يوسف الصَّالحي في كتابه: ((سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد)) وقد بوب لذلك عدة أبواب في التوسل.

الخيرات للبلادِ والعباد وتغفرُ الذُّنوبَ والخطايا؛ تفضُّلًا من ربِّ العالمينَ سبحانه علىٰ نبيِّه بأن يكون ذلك بسببِه ﷺ، ولم يقل أحدٌ من العلماءِ بتحريمِ التَّوسل برسولِ الله إلا مَنْ شذَّ في هذه المسألةِ.

وهل يُعقل أن يجتمعَ هؤلاء وهم الصَّفوةُ علىٰ بدعةٍ أو ضلالٍ أو أمرٍ شركيٍّ ويكونُ مَن شذَّ هو المُصيبَ؟ حاشا لله فقَد عَصَمَ الله أمَّة الحبيبِ الأعظمِ ﷺ من الاجتماع علىٰ الضَّلالِ.

أشعار قيلت في التَّوسل والاستشفاعِ برسُولِ الله ﷺ

ولنذهَبْ إلىٰ واحة الشِّعر والجمال التي تُطلُّ علينا بالأنس والانشراحِ والسَّعادة في كلمات قالها المحبُّونَ لسيد البشر وحبيب الحقِّ وأشرف الخلقِ، كلماتٌ توسَّل بها المتوسِّلون ورجا بها الرَّاجون ربَّ العزةِ، وتوجَّهوا إليه بسيِّدنا رسولِ الله ﷺ، فمِنْ تلك الكلمات:

ما قاله سيِّدُنا حسَّان بن ثابت الصَّحابيُّ الجليل وشاعر الرَّسول واصفًا النَّبيَّ ﷺ:

يــا رُكنَ معتمدٍ وعِصْمةَ لائذٍ ... ومَـلَاذَ مُـنتَجعٍ وجـارَ مُجـاورِ
يَـا مَـنْ تـخـيَّـره الإلهُ لخَلْقِهِ ... فَـحَبَاهُ بِـالخُـلُقِ الزكيِّ الـطَّاهِرِ
أنْـتَ الـنَّبيُّ وخيرُ عُصْبَةِ آدَمٍ ... يَا مَن يَجودُ كَفَيْضِ بَحرٍ زاخرِ
مِيكـالُ معكَ وجبرئيلُ كلاهما ... مَـدَدٌ لِنَصْرِكَ مِنْ عَزيزٍ قَـاهِرِ [1]

وقد سَمِعَه النبي ﷺ ولم ينكِرْ عليه هذه الأبياتَ من أنَّه ركنُ المعتمدِ وعصمةُ اللَّائذ وملاذُ المنتَجع وجارُ المجاورِ، مع أنَّ هذه صفاتُ الله سبحانه وتعالىٰ وأفعاله، ولكنَّ الأمرَ يتعلَّق هنا بالسَّبب وأنَّ الله هو الفاعل علىٰ الحقيقة، أو هي من بابِ الاشتراك اللَّفظيِّ

---

(1) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (276/1) تأليف: أبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر- تحقيق: علي محمد البجاوي- دار الجيل- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1992م.

الَّذي له معنًىٰ في حقِّ الله سبحانَه وتعالىٰ لا يُشاركُه فيه أحدٌ، ومعنًىٰ في حقِّ البشر يتناسبُ معهم، ولا يخرجهم ذلك عن كونهم عبيد من عباد الله.

وقال مازن بن الغضُوبة الطَّائيُّ حينما قَدِمَ علىٰ رسول الله ﷺ مُسلمًا:

إِلَيْك رَسولَ الله حَنَّتْ مَطِيَّتي ... تجوبُ الفيَافي مِنْ عُمَانَ إلىٰ العَرْجِ

لِتشفَعَ لي يا خَيرَ مَن وَطِئَ الحَصَا ... فـيَغْفِرَ لي رَبِّي فـأرْجِعَ بـالـفَلْجِ[1]

وقد تقدَّم قول أبي طالبٍ عمِّ النبي ﷺ:

وأبيضَ يُستسقىٰ الغمامُ بوجهِه ... ثِمالُ اليتامىٰ عِصمةٌ للأراملِ

يَلوذُ به الهُلَّاك من آل هاشِمٍ ... فَهُمْ عندَه في نِعمَةٍ وفواضِلِ[2]

وقال قاضي القضاة محمد بن علي بن عبدالواحد بن الزَّمْلَكاني الشَّافعيُّ (ت 727 هـ):

يَا صاحبَ الجاهِ عندَ الله خالـقِهِ ... مـا رَدَّ جاهَك إلَّا كـلُّ أفَّاكِ

أنْتَ الْوجيهُ علىٰ رغمِ العِدَا أبدًا ... أنـتَ الـشَّفِيعُ لفُتَّاكٍ[3] ونُسَّاكِ

يا فرقةَ الزَّيْغِ لا لقيتِ صـالحةً ... ولا سَقَىٰ الله يومًا قلبَ مَرضاكِ

ولا حَظِيتِ بِجَاهِ المُصْطَفىٰ أَبـدًا ... وَمَنْ أعانَكِ في الدُّنيا ووالاكِ[4]

وقال الإمام تقي الدِّين أبو الفتح مُحَمَّد بن عبداللَّطِيف بن يحيىٰ بن علي بن تَمام السبكيُّ (744 هـ):

وارْغَـبْ إلـيْهِ بالنَّبِيِّ المُصْطفىٰ ... في كَشْفِ ضُركَ علَّ يَأْسُو ما انْجَرحْ

تَــالله مَــا يَرْجُو نداهُ مُخْلِصٌ ... لِـسُـؤالِـهِ إلَّا تَـهَـلَّـلَ وَانْـشَـرَحْ

---

(1) انظر: الحماسة المغربية (71/1) تأليف: أبي العباس أحمد بن عبدالسلام الجراوي التادلي- تحقيق: محمد رضوان الداية- دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بسوريا- الطبعة الأولىٰ- 1991م.

(2) تقدم تخريجه.

(3) الفتاك: جمع فاتك، وهو الجريء، والفتك: ركوب ما همَّ من الأمور ودعت إليه النَّفس. لسان العرب (ف ت ك).

(4) انظر: الوافي بالوفيات (27/2) تأليف: صلاح الدين بن أيبك الصفدي- تحقيق: أحمد الأرناءوط وتركي مصطفىٰ- دار إحياء التراث العربي- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 2000م.

فَهْوَ النَّبيُّ الهَاشِمِيُّ وَمَنْ لَهُ   جَاهٌ عَلَا وَعُلُوُّ قدْرٍ قَدْ رَجَحْ(1)

وقال أبُو المواهب بن محمَّد بن علي البكريُّ الصِّديقيُّ المصريُّ الشَّافعي (ت 1037هـ):

بِجَاهِ رَسُولِ الله أَفْضَلِ مُرسلٍ   تَرَىٰ الأُسد في الغابات من خوفه صَرعىٰ

عـليه صـلاةُ الله ثـمَّ سـلامُه   وأصحـابِـه والآلِ أجـمعهم جَمعًا(2)

توضيحاتٌ مهمة في قضية التَّوسُّل

من خلال ما سبق نَستطيعُ أن نقفَ علىٰ بعض النَّتائجِ في قضية التوسُّلِ، وأهم هذه الأمور:

- أنَّ المسلمَ المؤمنَ بربِّه سبحانه وتعالىٰ لابدَّ أن يكونَ عنده يَقينٌ كاملٌ وجزمٌ بأنَّ الله جلَّ جلالُه هو الخالق الملك المالك، وأنَّه المُعطي المانع، وأنَّه النَّافع الضَّارُّ، وأنَّه ليس لأحدٍ من الخَلق فِعلٌ علىٰ الحقيقة دونَه سبحانه، فالأمر منه وإليه أوَّلًا وآخرًا، وهو الذي يوصِّل الخير لعبادِه علىٰ يد مَن يشاءُ، ويسبِّبُ الأسبابَ بسبب هذا الخير، وأنَّ ما شاءَ الله كان وما لم يشأْ لم يَكُنْ، والتَّوسل برسولِ الله ﷺ ما هو إلَّا وسيلة وقُربةٌ إلىٰ الله لقضاءِ الحاجات، والمتوسِّل إلىٰ الله تعالىٰ بنبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام لا يعتقدُ أنَّ هناكَ تأثيرًا ذاتيًّا للنَّبيِّ ﷺ في الأشياءِ، سواءٌ كان ذلكَ في حياتِه أو بعد وفاتِه ﷺ.

- في الحديثِ الشَّريف: ((إنَّما أنا قاسمٌ والله يُعطي))(3)، فالتَّوسُّل به ﷺ سببٌ عظيمٌ من أسبابِ العطاء الإلهيِّ تكريمًا مِنَ الله لنبيِّه الكريم ورفعةً لمقامِه الشَّريف، وأنَّه في الحقيقةِ ما هو إلَّا جزءٌ من رحمةِ الله للعالمينَ علىٰ خلْقِه تُساقُ بنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] وكما قال ﷺ: ((إنَّما أنا رَحمةٌ مهداة))(4).

---

(1) انظر: طبقات الشَّافعيَّة الكبرىٰ (181/9) تأليف: تاج الدين علي بن عبدالكافي السبكي- تحقيق: د: محمود الطناحي، د: عبدالفتاح الحلو- دار هجر- الطبعة الثانية- 1988م.

(2) انظر: خلاصة الأثر للمحبي (147/1).

(3) تقدم تخريجه.

(4) جزء من حديث أخرجه ابن الأعرابي في معجمه (2452)، والآجريُّ في الشريعة (1000)، والطبرانيُّ في الأوسط (2981)، والحاكم في مستدركه (35/1)، والبيهقيُّ في دلائل النبوة (158/1) من طريق مالك بن سعير حدثنا

فكُلُّ مسلمٍ يؤمنُ يقينًا بأنَّ الله هو الملكُ المالكُ المدبِّر لأمرِ مُلكه وملَكوتِه المتصرِّف في شُئونِ خَلْقِهِ، وأنَّ إسنادَ أيِّ تأثيرٍ أو سببيَّةٍ لشخصٍ أو لشيءٍ إنَّما هو بعدَ وُجودِ الإذنِ الإلهيِّ، وإنَّما تُساقُ المقاديرُ بأسبابها، ومِن أعظمِ تلك الأسباب الرَّسولُ الكريم محمَّد ﷺ الَّذي لو تفكَّرَ المسلم لوجدَ أنَّ كلَّ خيرٍ مُتحصِّلٌ له في الدُّنيا والآخرةِ هُو بِسببِه وببركتِه، فهو الَّذي دلَّك علىٰ كل خيرٍ وحذَّرك من كلِّ شرٍّ، وهذا الخير وصلَ إلىٰ جميع الخَلْق عن طريقِه ﷺ.

- حقيقةُ التَّوسُّل برسولِ الله ﷺ هو التَّعلُّق بالسَّبب الموصِّلِ إلىٰ أبوابِ العطاءِ الإلهيِّ، وتظهرُ أعلىٰ صُورِ العطاء الإلهيِّ لعبادِه عن طريقِ نبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في نعمةِ المعرفةِ بالله الَّتي جاءتْنا عن طريقِ رسول الله ﷺ، وتظهرُ وتجلَّىٰ أيضًا في أعلىٰ أشكالها في مقام الشَّفاعة الكُبرىٰ يومَ القيامة الَّتي تشمل الخلقَ أجمعينَ مؤمنَهم وكافرَهم إنسَهم وجِنَّهم، حين يقومُ الرَّسولُ الكريمُ يسألُ ربَّه التَّخفيفَ عن الخَلق في المحشرِ، وهو المقامُ المحمودُ هذا المقام الذي يتضمَّنُ أمرين:

الأوَّل: تشفُّع الخَلقِ به في يوم الحشر.

والثَّاني: أنَّ الله سبحانَه لم يكرِّمْ أحدًا مِنَ الأوَّلين والآخِرينَ ولا الملائكةِ المقرَّبينَ بهذا المقامِ وتلك المنزلة، والحديثُ بذلك ثابتٌ في صحاح السُّنَّة[1]، ثم بعد ذلك حديث استشفاع النَّبي ﷺ لأمَّته خاصَّةً فيمن استحقَّ دخول النَّار أن يعتقه الله من دخولها

الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا.

وقال الحاكمُ: «هذا حديثٌ صحيحٌ علىٰ شرطهما فقدِ احتجَّا جميعًا بمالك بن سعير، والتفرد من الثِّقاتِ مقبولٌ». ووافقه الذهبيُّ.

(1) حديث الشَّفاعة الكبرىٰ وردَ في أحاديثَ متعدِّدة منها: حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (4712)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها (194) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مطوَّلًا.

بشفاعة سيِّدنا رسولِ الله؛ كما وَرد عنه ﷺ: «شفاعَتي لأهلِ الكبائِرِ مِنْ أُمَّتي»[1].

وقال النووي: «الشفاعة خمسة أقسام: أولها مختصةٌ بنبينا ﷺ وهي الإراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب. الثانية: في إدخال قوم الجنةَ بغير حسابٍ. الثالثة: الشفاعة لقوم استوجبوا النارَ فيشفع فيهم نبينا ﷺ ومَن شاء الله تعالىٰ. الرابعة: فيمن دخل النارَ من المذنبين، فقد جاءت هذه الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبيِّنا ﷺ والملائكة وإخوانهم من المؤمنين، ثم يخرج الله تعالىٰ كلَّ مَن قال: لا إله إلا الله. الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلِها، وهذه لا ينكرها المعتزلة ولا ينكرون أيضًا شفاعة الحشر الأول. قال القاضي عياض: وقد عُرف بالنقل المستفيض سؤالَ السلف الصالح ﷺ شفاعةَ نبيِّنا ﷺ ورغبتهم فيها، وعلىٰ هذا لا يُلتفت إلىٰ قول مَن قال: إنه يكره أن يسأل الإنسان الله تعالىٰ أن يرزقه شفاعةَ محمد ﷺ لكونها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات، ثم كل عاقلٍ معترفٌ بالتقصير محتاجٌ إلىٰ العفو غير معتدٍّ بعمله مشفق من أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرةِ والرحمةِ؛ لأنها لأصحاب الذُّنوب! وهذا كله خلاف ما عُرف من دعاء السَّلف والخلف»[2].

- ممَّا سبق يتَّضحُ ويتقرَّرُ أن تنوعَ ألفاظ التَّوسلِ والاستشفاعِ بالنَّبيِّ ﷺ وتعدد صوره مِن قول: «يا رسولَ الله»، أو «مدد يا رسولَ الله»، أو «توسلنا برسولِ الله»، أو

(1) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنة، باب في الشفاعة (4739)، وأحمد في مسنده (3/ 213) من طريق سليمان بن حرب حدثنا بسطام بن حريث عن أشعث الحداني عن أنس بن مالك رضي الله عنه به مرفوعًا، والترمذيُّ في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في الشَّفاعة (2435)، وابن حبان في صحيحه (6468)، والحاكم في مستدركه (1/ 69) من طريق معمر عن ثابتٍ عن أنسٍ رضي الله عنه به مرفوعًا.

وقال الترمذيُّ: «حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجهِ». وقال الحاكم: «صحيحٌ علىٰ شرط الشيخيْنِ ولم يخرِّجاهُ بهذا اللَّفظِ».

(2) انظر: شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (3/35- 36) بتصرف.

((يا محمَّد))، أو ((وامحمَّداه))، أو ((اللهم أسألكَ بالنَّبيِّ محمَّد ﷺ))، أو ((اللهم إنِّي أتوسَّل إليكَ بمحمَّد ﷺ)) أو ((توجهت لك يا رب بمحمَّد)) أو ((بمحمَّد يا ربِّ اقضِ حاجتي))، أو ((أستغيثُ برسول الله)) كلُّها تعبِّر عن معنًى واحدٍ وصورةٍ واحدةٍ، وهي وصولُ الإجابة والعطاءِ الإلهيِّ المتعدِّد الصُّور عن طريق السَّببِ ونافذة العطاء الإلهيِّ وهو رسولُ الله ﷺ.

والمتتبِّع لكلِّ صيغ وأشكال التَّوسلِ يجدُ لطيفةً من اللَّطائف تحلُّ كل إشكال عند المخالف وتُسكِتُ كلَّ معارض، وهي أنَّ المتوسِّل أو الدَّاعي عندما يناجي الله وحدَه يستخدم هذه الصيغ وهي: أسألُك. أتوسل إليكَ. أتوجه إليكَ. يا محمَّد إني أتوجه بكَ إلىٰ الله، يا رسول الله إنِّي أستشفعُ بكَ إلىٰ الله، برسول الله توجَّهتُ إليكَ يا الله، فمن هذه الصِّيغ يتبيَّن لنا أنَّ المسئول في كلِّ صيغة أو دعاء هو الله سبحانه وتعالىٰ وليس غيره، وأنَّ الطَّلب منه سبحانه وحدَه، فهناك سائلٌ ومسئول وحاجة مطلوبة، فالسَّائل الداعي المتوسِّل، والمسئول: الله سبحانه وتعالىٰ وحدَه، والحاجة المطلوبة من الله المرجو قضاؤها، فالتوجُّه القلبيُّ لله وحده لا شريكَ له مقدِّمين بين يديِّ هذا التَّوجُّه تقرُّبًا بحبيبهِ المصطفىٰ.

والرَّجلُ قد يُوصف بأنَّه رحيمٌ، والله سبحانه وتعالىٰ رحيمٌ، ولا يوجد تشابهٌ البتةَ بين صفة الخالقِ وصفةِ المخلوقِ، فخلاصةُ الأمر أنَّ هذه الكلمات في حقِّ البشر من المجاز الَّذي لا تُرادُ حقيقتُه فعندما تقول: رواني الماء وأشبعني الطَّعام وداواني الطبيب فأنت تنسِبُ الفعل للأشياء مجازًا وسببًا، والفاعلُ علىٰ الحقيقة هو الله سبحانَه وتعالىٰ وهذه أسباب وصورٌ لظهور الفعل الإلهيِّ.

- المقرَّر في القواعد الفقهيَّة التي تجسَّد فيها سماحةُ هذه الشَّريعة ويُسرُ هذا الدِّين قاعدة: ((لا يُنكَر المختلفُ فيه وإنَّما ينكَر المتَّفق عليه)) فقد يقول قائل- مع وضوح

الأدلة وكثرتها في جانب جواز وندب التَّوسل: إنَّ مَن أجاز التَّوسل من العلماء وندبَ إليه وفعله اجتهد فأخطأَ.

ولو سلَّمنا لهذا القائل بذلك تمشيًا مع المخالفِ، فنقولُ بنفس المنطق: إنَّ من منعَ التَّوسل قد يكون هو المخطِئَ في اجتهادِه بالمنع، ويلزمُك من قولكَ هذا أن تجعلَ المسألة في دائرة الخلافِ الَّذي لا يُنكِرُ فيها مجتهدٌ علىٰ مجتهدٍ، ولا مخالفٌ علىٰ مخالفٍ، لا أن تضعها في دائرة التَّبديع والتَّفسيق والتَّكفير؛ لأنَّنا لو طبقنا نفس المقياس فهل يحقُّ لمن يقول بجواز التَّوسل، وهو يرىٰ أنَّ المسألة تتعلَّق بالجانب النبويِّ والمقام المحمَّدي أن يرميك أيها المخالف بعداوةِ النَّبي ﷺ وبُغضِه؟!

- إن القولَ والدعوةَ إلىٰ التَّوسل بسيدنا رسول الله ﷺ لا يستلزمُ أبدًا القول بَهجرِ باقي القُربات والوسَائل، بل لُلسلمِ أن يُنوِّع أو يجمعَ في أنواع التَّوسل إلىٰ الله، فلا مانع أن تتوجَّه أخي الكريم إلىٰ ربِّك وسيدكَ ومولاكَ بجميع أنواعِ السؤال والتَّوسل في دعاءٍ واحدٍ قائلًا علىٰ سبيل المثال: اللهم إنِّي أسألُك بأسمائك وصفاتك ورحمتك، وأسألك وأتوجَّه إليك بنبيِّك محمَّد ﷺ وأسألك ببرِّي بوالديَّ أن تفعل لي كذا وكذا.

- يوجدُ استشكال، فبعضُ الناسِ يزعمُ أن الإنسانَ لا يجوزُ له التَّوسلُ بالنَّبيِّ ومقامِه وجاهه العظيمِ؛ لأنَّه ليسَ للإنسانِ كسبٌ فيه أو ليس من عمله هو، فلا يحق له أن يُستشفعَ به.

والجوابُ عن هذا الاستشكال أن جاه النَّبي ﷺ ومقامَه فضلٌ من الله علىٰ نبيِّه واصطفاءٌ منه له سبحانَه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: 253] ثمَّ إنَّ التفضُّل بقبولِ الدُّعاء والتَّوسل هو محضُ فضلٍ من الله ليس للعبد فيه كسب ولا لرسول الله ﷺ، وإنَّما المتعلِّقُ بالمسألةِ في الجانب النبويِّ هو أنَّ سببَ الخير والإجابةِ إظهارُ علوِّ المقام النبويِّ عند ربِّ العالمين، ثمَّ هل كل ما يتوسَّلُ به الإنسان إلىٰ ربِّه ويسأله به هل هُو من عملِ الإنسان وكسبه؟ فلو

سأل المسلم ربَّه بأسمائه وصفاته هل يكون له كسبٌ أو عمل في ذلك؟ حاشا لله، وإنما هو أولًا وآخرًا وسيلةٌ تكرَّمَ الله بها على عباده في القُربِ له بها سبحانه.

- أيضًا قد يزعمُ بعضُ النَّاس أنَّه لا يجوزُ أن يتوسَّل إلى الله بمخلوقٍ نبيٍّ أو غيرِه، والردُّ عليه أنَّ النُّصوصَ الشَّرعيَّة قد جاءتْ بجوازِ التَّوسُّل بالأعمالِ الصَّالحةِ كما جاء في حديثِ الثَّلاثةِ الَّذين أُغلقَ عليهم الغار بالصَّخرة، فتوسَّلَ كلُّ واحدٍ منهم وسأله بعمل صالحٍ يرجو من الله قبولَه والتَّفريجَ عنهم بسببِه، ففرَّج الله عنهم وأزاح عنهُمُ الصَّخرةَ[1].

ولا خلافَ أنَّ العمل الصالح أو غير الصالح مخلوقٌ، فكيف نجوِّز توسلًا بعملٍ مخلوقٍ صالحٍ لا ندري أقُبل أم لا، ونمنع التَّوسلَ بأشرفِ مخلوقٍ وسيِّد المخلوقات وإمام النَّبيينَ والمرسلين سيدنا محمَّد ﷺ وصاحب الشَّفاعة الكبرىٰ والمقام المحمود.

- أيضًا لا فَرْقَ بين التَّوسُّلِ بالنَّبيِّ ﷺ من حيثُ الجوازُ في حياتِه ﷺ أو بعدَ وفاتِه كما مرَّ سابقًا من فَهْمِ الصَّحابيِّ الجليلِ عثمان بن حنيف في إرشاده الرَّجل إلىٰ التَّوجُّه إلىٰ الله وسؤالِه بنبيِّه ﷺ في قضاءِ حاجتِه، وممَّا سبق ذكرُه مِنْ توسُّلِ علماء وأئمَّة الأمة بالحبيب الأعظم ﷺ، وذلك بلا شكٍّ كان بعد وفاتِه.

فلا فَرْقَ في التَّوسل بالنَّبيِّ ﷺ في حياتِه أو بعد وفاتِه ﷺ؛ لأنَّ نبوَّتَه ثابتةٌ له قبل أن يخلُق الله السَّمواتِ والأرضَ فهو نبيٌّ قبل خَلق الخَلقِ، وبعد الخلقِ هو نبيٌّ، وقبل أن يوجدَ في الحياة الدُّنيا هو نبيٌّ، ولَّما أذن الله بنزولِ الوحي إليه هو نبيٌّ، ولَّما انتقل إلىٰ ربِّه هو نبيٌّ، ويوم القيامة هو نبيٌّ، وبعد دخوله الجنَّة ﷺ هو نبيٌّ، فوَصْف النبوَّة لا ينفكُّ عنه ﷺ طرفةَ عَين، وكما يتضح من أَخْذِ الله سبحانه وتعالىٰ الميثاق علىٰ الأنبياء والمرسلين في الإيمان بـمحمَّد ﷺ ونصرته إن بُـعث وهم في الدُّنيا قال تعالىٰ:

---

(1) وَردَ ذلك في حديث متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب أحاديث الأنبياءِ، باب حديث الغار (3465)، ومسلمٌ في كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتَّوسل بصالح الأعمالِ (2743) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا مطوَّلًا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81]. فدعوىٰ تخصيص التَّوسل به في حياته فقط باطلة؛ لأنَّه لا دليلَ علىٰ التَّخصيص.

- مِن المقرَّرِ أنَّه من المعاني المتصوَّرةِ والموجودةِ في قلبِ وذهنِ كلِّ متوسِّلٍ برسولِ الله ﷺ في دعائِه هو مكانةُ سيِّدنا محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلام ومقامُه وعُلو قدرِه وقربُه من ربِّه وعظيمِ عطاءِ الله له ولأمَّته، وأنَّه سيِّدُ المخلوقاتِ الشَّفيع المشفَّعِ ذو الخُلُق العظيمِ، والمرشدُ للأُمة إلىٰ كلِّ خيرٍ والمحذِّر لهم من كلِّ شرٍّ، إلىٰ آخر هذه المعاني السَّامية والصِّفات الطَّيبة والشَّمائل الشَّريفةِ المتعلِّقةِ بشخصه الكريمِ.

- وهناك جانبٌ آخرُ وهو جانبُ معاني العطاءِ الإلهي اللَّامحدود مِنَ الله سبحانه وتعالىٰ لرسوله ونبيِّه من التَّكريم والتَّشريف بالنبوَّة الكبرىٰ والرِّسالة العظمىٰ إلىٰ العالمينَ.

كلُّ هذه المعاني تجسَّد وتمثَّل في ذات رسول الله محمَّد ﷺ لا تنفكُّ عن ذاته الشَّريفة، وهي معانٍ وتصوراتٌ حاضرةٌ في قلب المستشفِعِ برسُولِ الله، المتوجِّهِ به إلىٰ الله مع المحبَّة والتَّوقيرِ والتَّعظيمِ والشَّوقِ إليه ﷺ، ولا يستطيع إنسانٌ أن يَفصِلَ هذه المعاني والصُّور والمِنح والهبات عن ذاتِ المُصطفىٰ ﷺ، فإنَّ قلبَ المسلم حين يتوجَّه إلىٰ الله مُستشفعًا برسول الله ﷺ يكون مُتقرِّبًا إلىٰ الله بالذَّات النبويَّة الكريمةِ الَّتي طَهُرتْ وعظمتْ بالنبوَّة والرِّسالة والعطاء الإلهي والمنزلة الكبرىٰ عند الله، وفي الوقتِ نفسِه فإن هذا الاستشفاعَ يتضمَّنُ محبَّةَ المُستَشفِع لرسول الله ﷺ وإجلاله وتوقيره والشَّوق إليه.

- حياتُه ﷺ في عالم البرزخِ حياةٌ تجاوزُ حدودَ الزَّمانِ والمكان والقوانين الأرضيَّة، فكم من ملايينِ المسلمينَ يصلُّونَ ويُسلِّمون عليه، صلواتُ ربي وسلامُه عليه وهُو يُجيبُ الجميعَ؛ كما وردَ عند الإمام أحمد وفي سنن أبي داود بإسنادٍ حسن من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَا مِن أحدٍ يُسلِّم عليَّ إلَّا ردَّ الله عليَّ رُوحي حتَّىٰ أرُدَّ عليه

السَّلام))[1]. فحياتُه البرزخية ﷺ مرتبطةٌ بأمَّته وأحوالهم، ولكن لا تجرِي عليها القوانينُ الأرضيَّة البشريَّة.

ومِصداقُ ذلك الكلام يتَّضحُ من حديث عرضِ أعمال الأمَّة عليه ﷺ الذي رواه الإمام البزَّارُ في مسنده من حديث ابن مسعود أنَّ النَّبي ﷺ قال: ((حياتِي خيرٌ لكم تُحدِّثون ويُحدَّثُ لكم، ووفاتي خيرٌ لكم تُعرضُ عليَّ أعمالُكم فما رأيتُ من خيرٍ حمدتُ الله عليْه، وما رأيتُ من شرٍّ استغفرتُ الله لكم))[2].

فالنَّبيُّ ﷺ انتقلَ من هذه الحياة الدُّنيا إلىٰ حياةٍ أعلىٰ وأجلَّ مقامًا، وهو بهذا الانتقالِ لم ينقطعْ عن أمَّته، بل يعلمُ أمورَهم وأحوالهم، وأنَّه ﷺ حيٌّ في قبرِه حياةً كاملةً أعلىٰ من الحياة الدُّنيا، وقد صحَّ أنَّ الأنبياءَ يعبدونَ الله بعد انتقالِهم من الحياةِ الدنيا، فعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((مَررتُ علىٰ مُوسىٰ ليلة أُسرِيَ بي عند الكثيبِ الأحمرِ وهو قائمٌ يُصلِّي في قبرِه))[3].

وكما وَرَدَ وصحَّ عنه ﷺ: ((إنَّ الله حرَّم علىٰ الأرْضِ أن تأْكُلَ أجسادَ الأنبياء))[4].

---

(1) أخرجه أبو داودَ في كتاب المناسِك، باب زيارة القبور (2041)، وأحمد في مسندِه (527/2)، والطَّبرانيُّ في الأوسط (3092) من طريق عبدالله بن يزيدحدثنا حيوة حدثني أبو صخر أن يزيد بن عبدالله بن قسيط أخبرَه عن أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا.

وصحح إسنادَه النَّوويُّ في رياض الصالحين (ص482).

(2) جزءٌ من حديث أخرجه البزَّارُ في مسنده (1925) من طريق عبدالمجيد بن عبدالعزيز بن أبي رواد عن سفيان عن عبدالله بن السائب عن زاذان عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه به مرفوعًا.

وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (594/8): ((رَواهُ البزارُ ورجالُه رجالُ الصَّحيح)). وصحح إسناده أيضًا السيوطيُّ في الخصائص الكبرىٰ (491/2).

(3) أخرجه مسلمٌ في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسىٰ ﷺ (2375) من حديث أنس رضي الله عنه.

(4) جزء من حديثٍ أخرجه أبو داود في كتاب الجُمُعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (1047)، والنَّسائيُّ في كتاب الجمعة، باب إكثار الصَّلاة علىٰ النبيِّ ﷺ يوم الجمعة (1374)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصَّلاة والسنة فيها، باب في فضْلِ الجمعة (1085)، وأحمد في مسنده (8/4)، وابن خزيمةَ في صحيحه (1733)،

فالنَّبيُّ ﷺ حيٌّ في قبرِه بروحِه وجسدِه الشَّريفِ، وحياته البرزخيَّة له فيها بابان بابٌ علىٰ الله مُتعبِّدًا لربِّه متَّصلًا به سبحانه، وبابٌ إلىٰ أمَّته شفوقًا عليهم مُتابعًا لهم مُستغفرًا لهم يردُّ السَّلامَ علىٰ مَن سلَّم عليْه. ◆

=

والحاكمُ في مستدركه (1/ 278) من طريق حسين الجعفي عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس به مرفوعًا.

وقال الحاكمُ: «صحيحٌ علىٰ شرط البخاري، ولم يخرِّجاه» ووافقه الذهبيُّ. وصحَّح إسناده النوويُّ في خلاصة الأحكام (2/814).

الخاتمة

ومجمَلُ القولِ في مسألةِ التَّوسُّل والاستشفاع والاستغاثة أولًا وآخرًا أنها عبارة عن تقربٍ إلىٰ الله سبحانَه وتعالَىٰ بإظهارِ الحبِّ والمودَّة لنبيِّه ﷺ، وإنزاله المنزلة الَّتي أنزلها الله سبحانَه وتعالىٰ فيها، والله سبحانه وتعالىٰ يسوقُ الأقدار بأسبابٍ ومن خلال نوافذَ تنفذُ منها المقادير، فالله هو القادر الملكُ المالك وحدَه المدبِّر لأمرِ خلقِه لا شريكَ له ولا وزير ولا مشير.

وخِتامًا أيُّها المسلم الكريمُ فسعادة الإنسان أن يعيش حياته مختلطة بحبِّ النبيِّ المُصطفىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام، وعندها فلن يحيلَ بينكَ وبين الله شيء وإنما القرب له سبحانه بالتوسل بسيدِنا رسول الله ﷺ، وأذكِّرُ نفسي وإيَّاكَ أن نجعل وسيلتَنا إلىٰ الله تعالىٰ في الدعاء رسولَ الله ﷺ، ولسوفَ نرىٰ من فضلِ الله تباركَ وتعالىٰ ومَنِّه وكرمِه علينا ما لا يُحصىٰ من النِّعم.

نسألُ الله سبحانه وتعالىٰ أن يكونَ الحبيبُ المحبوب وسيلتَنا إلىٰ مولانا في تحقيقِ الغايات ونوال الأمنيات، والحمدُ لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ خير خلقِه سيِّدِنا محمَّد وعلىٰ آلِه وصحبه أجمعينَ، ربنا تقبَّل منا واقبلنا بجاه النبي ﷺ. ◆

الرسالة السادسة والعشرون
كرامات الأولياء والصالحين رؤية تأصيلية شرعية

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأولى: عظم شأن الله سبحانه وتعالى وطلاقة قُدرته على خرق قوانين خَلْقِه ونواميس كونه.

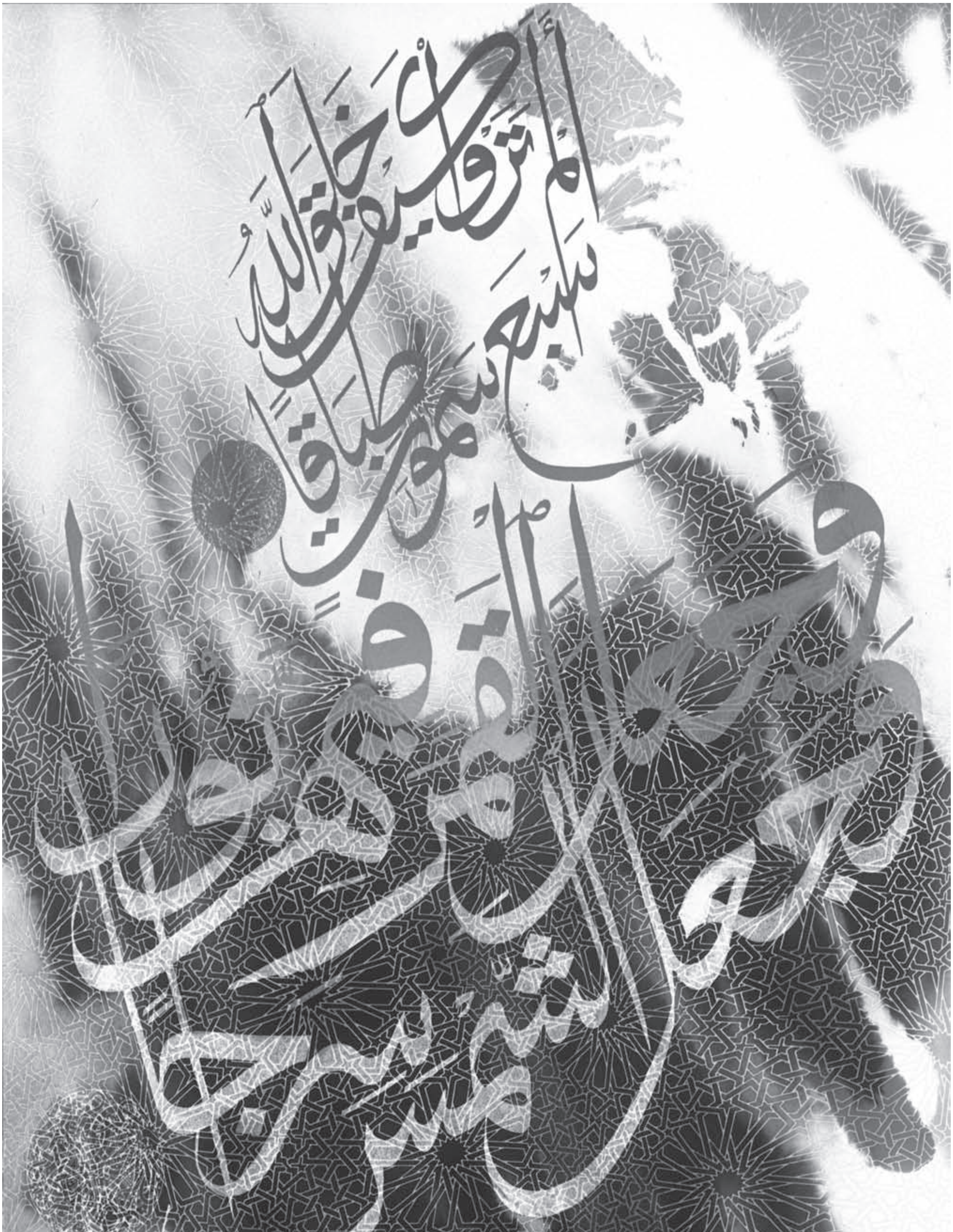
المحور الثاني: مناقشة قبول العقل للكرامات أو نفيها.

المحور الثالث: لمن تقع الكرامات؟

المحور الرابع: الأدلَّة من الكتاب والسنَّة على وقوع الكراماتِ.

المحور الخامس: أقوال علماء السُّنَّة في موضوع الكرامات.

المحور السادس: صورٌ من الكرامات في أُمَّة الإسلام.



«أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ
ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا» - آية 15-16 من سورة نوح

كرامات الأولياء والصالحين رؤية تأصيلية شرعية

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فإنَّ العطاءَ الإلهيَّ والكرمَ الرَّبانيَّ للعِبادِ جميعًا شَاهدٌ بألُوهيَّة الله سبحانه وتعالىٰ وربوبيتِه وتفرُّدِه بالخَلْقِ والتَّدبيرِ، فإنَّ مِننَ الله علىٰ خلقِه غيرُ مُتناهيةٍ لا يحصرُها العدُّ ولا يُحيطُ بها العقلُ، ومِنْ هذه المننِ النَّفحاتُ الإلهيَّةُ والرَّحماتُ الرَّبانيَّة للعبادِ الصَّالحين المقرَّبينَ ألَا وهي الكراماتُ.

والحديثُ عن الكراماتِ يعد حديثًا عن جانبٍ من جوانبِ عطايا الله ومِنَنِهِ وكَرَمِه علىٰ عبادِه، وهو صُورةٌ من صُورِ رحمة الله وإمدادِه لِعبادِه الصَّالحينَ.

ونحنُ في هذه الورقاتِ الموجزةِ نُحاولُ أن نُعطيَ صُورةً مُبسَّطةً عن هذا الأمرِ؛ ليكونَ سبيلًا وطريقًا لرِقَّةِ القلبِ وتفتُّحِ العقل وتوجُّههما إلىٰ الله سبحانَه وتعالَىٰ، وأن يكونَ سببًا لزيادةِ الإيمانِ وقوَّةِ اليقينِ ومحبَّةِ الله ربِّ العالمينَ، وسوف يكونُ الكلامُ في هذا الموضوعِ مُتمثِّلًا في المحاور التالية:

المحور الأولىٰ: عظيمُ شأنِ الله سبحانَه وتعالىٰ وقُدرته اللامتناهيَّة.

المحور الثاني: مناقشة قبول العقل للكرامات أو نفيها.

المحور الثالث: مع مَن تحدثُ الكرامات؟

المحور الرابع: الأدلَّة من الكتاب والسنَّة علىٰ وقوع الكراماتِ.

المحور الخامس: أقوال علماء السُّنَّة في موضوع الكرامات.

المحور السادس: صورٌ من الكرامات في أُمَّة الإسلام.

ثمَّ بعد ذلكَ نختمُ بكلمةٍ نُذكِّرُ فيها باستمراريَّة الكرامات سواءٌ في الحياة أم بعد المماتِ. ◆

عظم شأن الله سبحانَه وتعالَىٰ
وطلاقة قدرته علىٰ خرق قوانين خلقه ونواميس كونه

كلُّ شيءٍ في هذا الكون عُلويِّه وسفليه شاهدٌ لله تعالىٰ بأُلوهيَّتِه وربوبيَّته، وأنَّه لا إله إلَّا هُو المتفرِّدُ بالخَلقِ والتَّدبير، والتَّفكرُ وإعمالُ العقلِ في ظواهِرِ هذا الكون سيؤديان إلىٰ التَّسليمِ لله سبحانَه والخُضوعِ له ومحبَّتِه، والشَّهادة له بالوحدانيَّة والرُّبوبيَّةِ وكمال الصِّفاتِ.

وهذا الَّذي يَصلُ إليه العقلُ ويُقرُّ به من الإذعانِ للصَّانعِ والشُّهودِ بجلالِ صفاتِه عند أدنىٰ تدبُّرٍ في المكوِّناتِ يُوافقُه النَّقلُ ويتكاملُ معه، فالنُّصوصُ تحدِّثنا عن الله وصفاتِه وجلالِه وكمالِه سبحانَه وتعالَىٰ؛ فالقُرآنُ الكريمُ فيه كثيرٌ من الآياتِ الَّتي تُعرِّفنا بالله عزَّ وجلَّ، وسنَّةُ النَّبيِّ ﷺ مَليئةٌ بالحديثِ عن رَبِّ العالمينَ وجلالِه وقُدرتِه وعظمتِه.

فربُّنا جلَّ وعلا يُحدِّثنا عن ذاتِه العُليا ويتعرَّف إليْنا بكمال صفاتِه وصفاتِ كماله فيقولُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54] ويقول سبحانه: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّىٰ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2] ويبيِّنُ قدرتَه وإحاطتَه في علم الغَيبِ فيقول تعالَىٰ: ﴿وَلِلهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: 77].

ثم إنَّه عزَّ وجلَّ يرشدُ النَّاسَ إلىٰ التفكُّرِ في خلقِه فيقولُ تعالَىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20].

ويتحدَّىٰ خلقَه الَّذين ظلمُوا أنفسَهم وغرَّتهمُ الحياةُ الدُّنيا ويقولُ لهم: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [القمان: 11] ويحدِّثنا أيضًا عن أن السَّمواتِ والأرضَ والدَّوابَّ عبارةٌ عن آيةٍ من آياتِه تعالىٰ فيقولُ تعالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ﴾ [الشورىٰ: 29].

والآياتُ الدالَّة علىٰ عظيمِ شأنِه كثيرةٌ جدًّا، فمنها قولُه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿55﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: 84-85]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67] وقوله تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿1﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿2﴾ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 1- 3] وقوله تعالىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]. وغيرُها من الآيات الكريمات الَّتي هِي مثالٌ لعظمةِ الله وجليلِ قَدْرِه وعِظَم شأنِه سبحانَه.

ومن عظيمِ شأنه تعالىٰ أنَّه خَلَقَ الخلائقَ وكان بهم رءُوفًا رحيمًا، ولم يتركْهُمْ سُبحانَه سُدًىٰ، وإنَّما أرسلَ إليهم الرُّسل وبعثَ فيهم النَّبيينَ ليُبيِّنوا للخلْقِ مُرادَ الله ماذا يُريدُ منهم وماذا يُريدُ لهم، وأيَّدَ سبحانَه الأنبياءَ وأمدَّهُم بالمُعجزاتِ الدَّالَّةِ علىٰ صِدقِهم ومكانتِهم مِنْ ربِّهم، والَّتي تجعلُ النَّاسَ يُسلِّمونَ لهم ويتَّبعونَهم، فلا يكفرُ إلَّا المعاندُ المتكبرُ، فكانتِ المعجزاتُ المؤيِّدةُ لهم من الله سبحانَه دليلَ صدقٍ لنبوَّتِهم ورسالتِهم إلىٰ الخلقِ، فكلُّ مَنْ يرىٰ المعجزةَ يُسلِّم أنَّها ليستْ من عند النَّبيِّ أو الرَّسولِ، وإنَّما مِنْ

عند فاطِرِ السَّمواتِ والأرضِ فيؤمنُ أو يكفرُ، وكذلكَ أيَّد أولياءَه الصَّالحينَ بالكراماتِ الَّتي تدلُّ علىٰ أنهم يرون بنور الله، وسواء أكان التأييدُ بالمعجزة للنبيِّ ﷺ أم بالكرامةِ للوليِّ ينبغي علينا أوَّلا أنْ نُعرِّفَ المعجزةَ والكرامةَ ونوضِّحَ الفرقَ بينهما، وهذا ما سنتناولُه في النُّقطة التَّاليةِ.

تعريفُ المُعجزةِ والكرامة والفرق بينهما

تعريف المعجزة:

المعجزةُ في اللُّغة: اسم فاعلٍ من الفعل أعجزَ. وعجزَ عن الشيء عَجْزًا: ضعُفَ ولم يقدِر عليه، والمعجزةُ بفتح الجيم وكسرِها مفعلة من العَجْزِ، وهو عدمُ القدرة، وأصل العجز: التَّأخُّر عن الشَّيء وهو ضدُّ القُدرة[1]. والإعجازُ الفوتُ والسَّبقُ.

والمُعجزةُ اصْطلاحًا هي: أمرٌ خارقٌ للعادةِ يُظهرُه الله علىٰ يد مدَّعي النُّبوَّة تصديقًا له في دَعواه مقرونٌ بالتَّحدِّي مع عدم المعارضَةِ[2].

إذنْ فالمُعجزةُ أمرٌ خارقٌ للقَوانينِ والنَّواميسِ الكونيَّةِ الثَّابتةِ تقعُ علىٰ يدِ الأنبياءِ والرُّسلِ وتكونُ مُقترنةً بالتَّحدِّي، ولا يَسْتطيعُ العقلُ البشريُّ إلَّا التَّسليمَ بأنَّها لَيستْ في مُستطاعِ البشرِ.

تعريفُ الكَرامة:

الكرامةُ لغةً: مصدر كَرُم، يُقال: كرم الرجلُ كرامةً، أي: عزَّ[3].

فالكرامةُ مُشتقَّةٌ من الكَرمِ وهُو العطاءُ والجودُ، واسمُ الله الكريمُ يَتضمَّنُ صفةَ الكَرَمِ.

---

(1) انظر: لسان العرب، مادة (ع. ج. ز).

(2) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (216/34) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- الكويت- الطبعة الثانية-1404هـ-1983م.

(3) انظر: لسان العرب مادة (ك. ر. م).

والكرامةُ اصْطِلاحًا هي: ظهورُ أمرٍ خارقٍ للعادةِ علىٰ يدِ شخصٍ ظاهرِ الصَّلاحِ غير مقرون بتَحدٍّ ولا ادِّعاءٍ للنبوَّةِ[1].

الفرقُ بينَ المعجزةِ والكرامةِ:

مِنْ خِلالِ التَّعريفيْنِ للُعجزةِ والكرامةِ ترَىٰ أخي الكريم أنَّ المعجزةَ والكرامةَ يَشْترِكانِ في كونهما أمرًا خارِقًا للعادةِ والقَوانِينِ الطَّبيعيَّةِ والنَّواميسِ الكونيَّةِ، وقد تكونُ الكرامةُ مُشابهةً للُعجزةِ مِن وجهٍ، ولكن تَختلِفُ عنها مِن وُجوهٍ، فيختلفانِ في كونِ المعجزةِ يُتحدَّىٰ بها والكرامةِ لا يُتحدَّىٰ بها، والمعجزةُ مقرونةٌ بدعوىٰ النبوَّةِ، بخلافِ الكرامة فإنَّ صاحبَها لا يدَّعي النبوَّة.

مناقشة قبول العقل للكرامات أو نفيها

إنَّ العقلَ الواعيَ المُنضبطَ بقواعدِ النَّظر السَّليمِ والتَّفكيرِ لا يَنفِي وُقوعَ الكراماتِ ولا يجعلُها من مُستحيلاتِ الوُقوعِ، وذلكَ مِن عدَّة جهاتٍ:

الجِهةُ الأولىٰ: أنَّ مُشاهدةَ وُقوعِ الكرامةِ في الواقع المَحسوسِ ثُمَّ إنكارَها يُعدُّ مكابرةً وشكًّا في الحواسِّ البشريَّةِ التي بها نتلقَّىٰ ونَستقبلُ كلَّ أمرٍ صَغِيرٍ أو كَبيرٍ في الحياةِ.

الجِهة الثَّانية: أنَّ حُدوثَ الكراماتِ مِنْ حيثُ إمكانيَّةُ وُقوعِها أمرٌ يرجعُ إلىٰ القدرةِ الإلهيَّةِ وليس مُتعلِّقًا بالعبدِ الصَّالحِ، ففاعلُ هذه الكرامةِ وخالقُها هو الله وليس العبد الصَّالح، وقدرتُه سبحانَه وتعالَىٰ مطلقَةٌ، فالَّذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وأبدعَ نظامَ الكونِ عُلويِّه وسفليِّه وأقامَه علىٰ قوانينَ وسُننٍ قادرٌ علىٰ أن يخرقَ هذه القوانينَ والسُّننَ، ويبدِّلها في حالةٍ خاصَّةٍ بقانونٍ خاصٍّ.

الجِهةُ الثَّالثةُ: وأمَّا مِنْ حيثُ التَّصديقُ بها وبحدوثها بالفعلِ، فإنَّ نَقْلَ الكراماتِ والخَوارقِ عن الأولياءِ والصَّالحينَ كان كثيرًا في أمَّة الإسلامِ، وموجودٌ في كُتُب الشريعةِ

(1) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (34/216).

كالمُتواتراتِ الَّتي تُفيدُ اليَقِينَ في وُقوعِها، ولا يجوزُ أن نَطْعنَ في المُتواترِ بعد أنْ سلَّمْنا بإمكانيَّةِ الوقوعِ، ثم بعدَ ذلكَ قلبُ المؤمنِ التَّقيِّ يُسلِّمُ بل ويَستريحُ للتَّصديقِ بالكرامةِ؛ وذلك لأنَّه ما مِنْ إنسانٍ إلَّا وقد وَقعَ في مأزقٍ أو مُشكلةٍ يرىٰ أنَّه لا مَخرجَ له مِنها، ثم يأتِيه العونُ والفرجُ من الله سبحانَه وتعالَىٰ من أبوابٍ لا يتوقَّعُها، فالعقلُ والنَّفسُ والقلبُ يَنْسجمانِ مع التَّصديقِ بالكراماتِ وعدمِ إنكارِها.

فالكراماتُ من حيثُ النَّظرُ إليها تَنحصرُ في طَرفَيْنِ:

1- الطَّرف الأوَّل: جوازُ وُقوعِها عقلًا.

2- الطَّرفُ الثَّاني: وُقوعُها حِسًّا؛ أي في الواقِعِ الذي نعيشه.

فمن حيثُ الوقوعُ العقليُّ فظهورُ الكراماتِ من المُمكناتِ الَّتي لا يُنكِر العقلُ حُدوثَها؛ لأنَّها لو لم تكنْ منَ الممكنِ فإنَّها إمَّا أن تكونَ مِن الواجِبِ العقليِّ؛ أي أنَّها تجبُ لكلِّ وليٍّ لله ويجبُ حدوثها له- وذلك غيرُ صحيحٍ والواقعُ يَشهدُ به، وهو أنَّ هناكَ من الأولياءِ مَن لا تنخرقُ لهم العاداتُ ولا تحدثُ لهم الكراماتُ وهم في أعلىٰ درجاتِ الولايةِ.

وإمَّا أن تكونَ الكرامةُ من المُستحِيلِ العقليِّ؛ أي من المُحالِ الَّذي لا يقبلُه العقلُ ولا يتصوَّر حدوثُه، وذلك ممتنعٌ؛ لأنَّ الكراماتِ من جنسِ المعجزاتِ، والعقلُ لا ينفِي وقوعَ المعجزاتِ وخرقَ القوانينِ الطبيعيَّةِ.

وإمَّا أن تكونَ الكرامةُ جائزٌ حدوثها عقلًا، والواقعُ المشاهدُ في حياتِنا يَشْهدُ بوقُوعِ الخَوارقِ، فكم قد شاهدْنا أفرادًا أُصيبُوا بأمراضٍ أجمعَ الأطِّباءُ علىٰ أنَّه لا نجاةَ منها، وإذْ بنا نجدهم قد نَشِطُوا من مرضِهم كأنَّهم لم يكن بهم أيُّ آفَةٍ، وكلُّ هذا من غيرِ أن يتدخَّلَ الطِّبُّ؟! وكمْ من أُناسٍ قد تعرَّضوا لحوادثَ قاتلةٍ وضرباتٍ مميتةٍ ومع ذلك نجدُ منهم مَنْ بَقِي سَليمًا معافًىٰ؟!

فكما أنَّ الله سبحانه يُوجِدُ الأشياءَ بأسبابٍ فهو أيضًا يُمكنُ أن يُوجِدَها بدون أسبابٍ؛ وذلك لحكمةٍ يَعلمُها هو سبحانَه ولا نَعلمُها نحنُ، بل حتَّىٰ السَّببُ الطَّبيعيُّ لا يؤثِّر إلَّا بإرادتِه تعالىٰ، فالنَّارُ سببٌ للإحْراقِ، والسُّقوطُ من شاهقٍ سببٌ للهلاك بشَرْطِ وُجودِ الإذنِ الإلهيِّ بذلك، فإن لم يوجَدِ الإذن الإلهي فلا النَّارُ تحرقُ ولا السقوط يُميتُ، وكذلك أمرُ الكراماتِ هو أمرٌ ومشيئةٌ إلهيَّة أوَّلًا وآخرًا تُذهلُ العقلَ ويَحارُ فيها ولكنَّه لا يَنفيها ولا يُنكرُها.

إذنْ فكلُّ أمرٍ لا يقولُ العقلُ باستحالةِ وقوعه ولا يحظره الشَّرعُ يمكنُ أن يقعَ، فمن هذا الباب تقع الكرامات لأولياء الله تعالىٰ، ولنضرب مثالًا علىٰ ذلك:

رحلةُ الإسراء والمعراجِ الَّتي حدثت لنبيِّنا ﷺ وهي ثابتةٌ بالكتاب والسنَّة- فقد تبدَّلتْ في هذه الرِّحلةِ قوانينُ الزَّمانِ والمكانِ الَّتي نعرفُها ونتعاملُ وفقًا لها في حياتِنا، ولكنَّ الله سبحانَه ربٌّ وخالقٌ ومنظِّمٌ لهذه القوانينِ، يُمكن أن يوقفَها أو يبدِّلها وغير ذلك، فخالقُ القانونِ الطَّبيعيِّ والنَّواميسِ الكونيَّةِ سبحانه هو الَّذي يحكمُها وليستْ هي الحاكمةَ بذاتِها، فقدْ توقَّفَ ذلك كلُّه في رحلةِ الإسراءِ والمعراجِ؛ بحيث أُسرِيَ برسُولِ الله ﷺ من مكَّةَ إلىٰ القدسِ ثم عُرِجَ به إلىٰ السَّمواتِ العُلا ثمَّ رجعَ إلىٰ مكَّةَ، كلُّ هذا كانَ في جزءٍ من اللَّيل مع ما كانَ في هذه اللَّيلةِ من الأحداثِ الكثيرةِ والوقائع، فهاهُنا قد أُوقف قانونُ الزَّمانِ والمكانِ بقدرةِ خالقِ الزَّمان والمكانِ، فيتضحُ من هذا أنَّ العقلَ لا ينفي وُقوعَ الكراماتِ، وإنَّما قد يستغربُها ويتعجَّب منها، لكنَّه لا يحكمُ عليها بالاستحالةِ، وعدمُ استحالة وقوعها يجعلنا نتساءلُ سؤالًا يطرأُ علىٰ أذهانِنا وهو: مَعَ مَنْ تحدثُ تلك الكرامات؟ وهُو الأمرُ الذي سنتناولُه في المحور التالي. ◆

لمن تقع الكرامات؟

الكراماتُ في حَقيقتِها منحٌ إلهيَّةٌ وصورةٌ من صُورِ العطاءِ الإلهيِّ للعباد المؤمنينَ ورحمةٌ من الله للخَلْق وإظهارُ نعمة الله عليهم، وصورُ وُقوع الكراماتِ وأشكالِها لا تُعدُّ ولا تُحصَىٰ، فقد تكونُ حسيَّةً وقد تكونُ معنويَّة، ويختصُّ بها الصَّالحون والعُبَّاد الرَّبانيونَ في المقام الأوَّل، ولكن قد يُكرِمُ الله بها مَن يشاءُ مِنْ عباده إظْهارًا للرَّحمةِ والتودُّد إلىٰ خَلْقِه.

فالكرامةُ يُظهرُها الله تعالىٰ علىٰ يدِ وليٍّ من أوليائِه تكريمًا له سرًّا أو علانيَّةً؛ وذلك إظهارًا لمحبَّة الله تعالىٰ لعبدِه الَّذي اصطفاهُ وجعلَه من خواصِّ العبادِ المؤمنينَ الذين توعَّد الله مَن يعاديهم بالحرب، فقد رَوَىٰ البخاريُّ عن أبي هريرةَ ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((إنَّ الله قال: مَنْ عادَىٰ لي وليًّا فقد آذَنتُه بالحربِ، وما تقرَّبَ إليَّ عبدِي بشيءٍ أحبُّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليْه، وما يزالُ عبدِي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافلِ حتَّىٰ أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الَّذي يسمعُ به، وبَصرَه الَّذي يُبصرُ به، ويدَه الَّتي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه الَّتي يمشي بها، وإنْ سألني لأُعطِينَّه، ولئنْ استعاذَني لأعيذنَّه، وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه تردُّدِي عن نفسِ المؤمنِ يكرهُ الموتَ وأنا أكرهُ مساءَتَه))[1].

فهذِه مكانةُ العبدِ الرَّبانيِّ عند سيِّدِه ومولاه، فحركاتُه وأقوالُه وأفعالُه كلُّها مِن الله وفي الله وإلىٰ الله، ويُظهرُ الله فضلَه في الدُّنيا ويُظهرُ مكانتَه أمامَ النَّاسِ بكراماتٍ تَظهرُ علىٰ يدَيْه، سواءٌ عَلِمَها أم لم يَعْلَمْها.

وكلُّ كرامةٍ لوليٍّ هي في الحقيقة دليلٌ علىٰ صِدق النَّبيِّ ﷺ في أمَّةِ الإسلام وفي غيرِها مِن الأممِ السَّابقةِ، فإنَّ الكرامةَ ثمرةُ الاستقامةِ، وهي شاهدةٌ بأنَّ المنهجَ والدِّينَ والطَّريق السَّائرَ عليه صاحبُ الكرامة هو طريقُ الحقِّ؛ لأن كلَّ ما يحدثُ من الكراماتِ في أمَّة الإسلام منبعُها ومصدرُها مُتابعةُ رسولِ الله ﷺ، فَمن كان ملتزمًا بشريعتِه ظاهرًا وباطنًا فهو العبدُ الرَّبانيُّ الَّذي يكونُ محلًّا وأهلًا لكراماتِ وعطايا الرَّحمن، ومَن

---

(1) أخرجه البخاريُّ في كتاب الرِّقاق، باب التَّواضع (6502).

كان غير ذلك فلَا يُعدُّ أهلًا لعطايا الرحمن، فمهما حدثَ معه من خوارقَ فإنَّما هو استدراجٌ من الله تعالىٰ، ولهذا قيل: ((لو رأيتُمُ الرَّجلَ يطيرُ في الهواءِ أو يَمشي علىٰ الماء فلا تغترُّوا به حتَّىٰ تنظرُوا وقوفه عند الأمرِ والنَّهي)) وينسب هذا القولُ للإمام الشَّافعي، وينسبُ أيضًا للإمام أبي يزيد البِسطامي.

فالكرامةُ تكون من الله للعبد الرَّبانيِّ والوليِّ المحمَّدي الَّذي يسيرُ علىٰ قدم المصطفىٰ ﷺ في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: 31].

والكرامةُ الَّتي تقعُ للعبد الصَّالح لا تَثبتُ بها أيَّةُ أحكامٍ أو واجباتٍ شرعيَّةٍ في حقِّ مَن حدثَتْ له أو مَن رآها، فهي عبارةٌ عن نفحاتٍ من الله لعبادِه لا تضيفُ أو تُنقِصُ من الشَّريعةِ شيئًا أو يَنبني عليها مَزيَّةُ تقديسٍ لمن تجرِي علىٰ يديه الكرامةُ، بل إنَّ الوليَّ يَسعىٰ إلىٰ إخفائها، فقد كان السَّلفُ الصَّالحُ والعلماءُ الرَّبانيُّون وأهلُ التَّصوُّف الصَّادق والطَّريق إلىٰ الله تعالىٰ يُخفونَ ما يفتحُ الله لهم من الكراماتِ، ولا يُحبُّونَ أن يَتحدَّثَ النَّاسُ عنها ولا أنْ تُنسبَ إليهم، وكانُوا يَفِرُّونَ منها.

وهذا يؤكِّد لنا أن كراماتِ الأولياءِ إنَّما هي ترشُّفُ رشفاتٍ من مُعجزاتِ الأنبياء، وهذا هُو المددُ الحقيقيُّ، وتكونُ الكرامةُ مع المعجزاتِ شاهدةً علىٰ صدقِ مبادِئ النُّبوةِ وشاهدةً علىٰ صِدقِ الوليِّ وصدقِ اتِّباعه، فكلُّ عبدٍ ربانيٍّ صالحٍ هو تابعٌ لرسُولِ الله ﷺ لا محالةَ، أيضًا صحَّةُ دِين الوليِّ التَّابع تَستلزمُ صِحَّةَ دِينِ الرَّسولِ المَتْبُوعِ وصدقَه فيما بلَّغ عن ربِّه، فظُهورُ الكراماتِ وكثرتُها في أمَّةِ الإسلام بحيث إنَّها لا تقعُ تحت الحصر تعدُّ من الشَّواهدِ الدالَّةِ علىٰ صِدقِ نبوَّة رسولِ الله ﷺ وأنَّ المددَ الإلهيَّ لأُمَّتِه لا يتوقَّفُ ولا يَنقطعُ في صورٍ متعدِّدةٍ منها الكراماتُ، كُلُّ هذه الأمور تُبيِّنُ لنا أهميَّةَ الاتِّباع والسير علىٰ الهَدي النَّبويِّ، الأمرُ الذي يستلزمُ منَّا أن نقفَ علىٰ وُجودِ أدلةٍ تدل علىٰ الكراماتِ من الكتابِ والسُّنةِ، وهذا جانبٌ سنتناوله في النقطة التَّالية.

الأدلة من الكتاب والسنة على وقوع الكرامات

أخانا الكريم، هيا بنا نجُوبُ في رِحابِ القرآنِ ونطَّلع على كنوز سنَّة النبيِّ ﷺ ممَّا يؤكدُ لنا ولك وقوعَ الكرامة ووجودها.

أوَّلًا: الأدلَّةُ من كتابِ الله عزَّ وجلَّ:

وَردَ في القُرآنِ الكريمِ الحديثُ عن الخوارقِ للقوانينِ والنَّواميسِ والعاداتِ الكونيَّة، وإكرامُ الله سبحانَه وتعالىٰ لبعضِ عبادِه بهذا الأمرِ ممَّا يُعطِينا فكرةً عن إمكانيَّة وقوعِ هذا، بل وحدُوثه بالفعل، فذكرَ الله سبحانَه وتعالىٰ عدَّةَ أمثلةٍ في كتابِه الكريمِ عن هذِه الكَراماتِ وهي على النحو التَّالي:

- حدَّثنا الله سبحانَه وتعالَىٰ في سورة النَّملِ عن قِصَّة نبيِّ الله سليمانَ مع بِلْقيس ملكة سبأ، وخبر الهدهد، وإرادة نبيِّ الله سليمانَ عليْه السَّلام إحضار عرش بِلْقيس من اليمنِ إلىٰ أرضِ فِلَسْطين قبل أن تأتيَ مع قومِها مسلمةً لله ربِّ العالمين:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 38-40].

ففي هذه الآيات الكريمات إثباتٌ لوجودِ الخوارقِ والكراماتِ، فإنَّ العبدَ الصَّالحَ- الذي كان عنده عِلمٌ من الكتاب وهو اسمُ الله الأعظم- قال لسُليمانَ عليه السَّلامُ: إنَّه في مَقدُورِه أن ينقُلَ إليه عرشَ بلقيس من أقصىٰ البِلادِ قبل أنْ يرتدَّ طَرْفُ سيِّدِنا سليمانَ، وقد حدثَ ذلك فبمُجرَّد أنْ قال العبدُ الصَّالح ذلك كان عرشُ بِلْقيس مُستقِرًّا أمامَ نبيِّ الله سُليمانَ في طرفةِ عين، ولا شكَّ أن ذلك خرقٌ لقوانين ونواميسِ الكون وكرامةٌ من الكراماتِ الَّتي أظهرَها الله على يدِ عبدٍ من عباده الصَّالحين أنْ طَوىٰ له الزَّمانَ والمكانَ.

- قصَّةُ أصحاب الكهفِ وقدِ احتلَّتْ مكانةً بارزةً في سُورة الكهفِ، وهي تتحدَّثُ عن الفتيةِ الَّذين خالفُوا قومَهم المشركينَ وآمنُوا باللهِ ربِّ العالمينَ، وهربُوا بإيمانِهم إلىٰ الكهفِ حِفاظًا علىٰ دينِهم وحياتِهم، فأوقفَ اللهُ سبحانَه وتعالىٰ عنهم جَريان الزَّمان، وأدخلهم في النَّوم، وحَفِظَ لهم أبدانَهم وحياتَهم، وأخبرَ عنهم سبحانَه أنَّهم لَبِثُوا السِّنينَ والقرونَ الطِّوالَ فقالَ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25].

فهنا خَرقَ اللهُ قوانينَ الكون والطَّبيعةِ وأوقفَ عنهم تأثيرَ الزَّمانِ بل جعلَ ذلك الوقتَ الطَّويلَ في حَقِّهم كاليومِ أو بعضِه: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: 19] وحَفِظَ أبدانَهم من الآفاتِ والأضرارِ طوالَ هذه المدَّةِ.

أيضًا حكايةُ الغلامين في سُورة الكهفِ وتَسخير رجلَيْنِ صالحيْن لهما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82].

فانظر أخِي الكريمِ إلىٰ هذه المنحة الجليلةِ من اللهِ والَّتي حدثَتْ بعدَ وفاةِ الأبِ، هذا الأب الَّذي وردَ في بعض رِواياتِ التَّفسير أنَّه كان الجَدَّ السَّابعَ لليتيمَيْن، وسواءٌ كان الجدَّ السَّابعَ أو الأبَ المُباشرَ فهذِه كرامةٌ أكرمَ اللهُ بها عبدَه الصَّالحَ بعدَ موتِه؛ وذلكَ بأنْ قيَّضَ وسخَّرَ له في حِفْظِ كنزِ أبنائِه اثنَيْنِ من الأنبياءِ المكرَّمين وهما سيِّدُنا موسىٰ وسيِّدُنا الخَضِر عليهما السَّلام، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ كراماتِ عبادِ اللهِ الصَّالحينَ لا تَنقطعُ بخُرُوجِهم من هذه الحياةِ الدُّنيا، فلا تَنتفي عنهم الولايةُ بالمُوتِ.

وهذه السَّيدة مريم عليها السَّلام كلَّما دخلَ سيدُنا زكريَّا عليه السَّلام المحراب الذي تتعبَّدُ فيه كان يجدُ عندها رِزقًا، يقال: إنَّه كان يجدُ عندها فاكهةَ الصَّيف في الشِّتاءِ وفاكهةَ الشِّتاء في الصَّيفِ، قال تعالىٰ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37] فهذه كرامةٌ من الله سُبحانَه وتعالَىٰ لتلك الأَمَةِ الصَّالحةِ مريمَ بنت عِمران.

وهناك كثيرٌ من أدلة القرآنِ الكريمِ الَّتي تُثبتُ وجودَ الكرامةِ في هذِه الأمَّة لا يتَّسعُ المقامُ لذكرِها، وننتقلُ إلىٰ أدلة السُّنَّةِ النبويَّةِ.

الأدِلَّة مِنَ السُّنة النبوية:

وَرد في سنَّةِ النَّبي ﷺ كثيرٌ من الأدلَّة علىٰ وقوع الكراماتِ، سواءٌ في الأمِمِ السَّابقة أو في أُمَّته ﷺ فمنها:

قصَّةُ الذِّئب الَّذي تكلَّمَ والبقرةِ التي تكلَّمت، وكما ذكرنا سابقًا ينبغِي علينا أن لا ننظُرَ إلىٰ الفِعْلِ ولكن علينا أنْ ننظرَ مَنِ الفاعِلُ، فالفاعِلُ علىٰ الحقيقةِ هو الله سبحانه وتعالَىٰ وقدرتُه غير محدودة ولا يتعاظمُها شيءٌ.

ففي الصَّحيحيْنِ عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال: سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((بَينما راعٍ في غنمٍ عدا عليه الذِّئبُ فأخذَ منها شاةً، فطلبَه الرَّاعي فالتفتَ إليه الذِّئبُ فقال: مَن لها يومَ السَّبُعِ، يومَ ليسَ لها راعٍ غيري؟! وبَيْنَما رجلٌ يسوقُ بقرةً قد حمَلَ عليها فالتفتتْ إليه فكلَّمَتْه فقالتْ: إنِّي لم أُخلقْ لهذا ولكنِّي خُلقتُ للحَرْثِ)) فقال النَّاسُ: سبحان الله! قال النَّبي ﷺ: ((فإنِّي أؤمنُ بذلكَ وأبو بكرٍ وعُمرُ))[1].

ومنها قصَّةُ جُريج الرَّاهب الَّذي كلَّم الطِّفلَ الرَّضيعَ وقال له: مَن أبوك؟ فأنطقَ الله الطِّفلَ في المهدِ وقال: الرَّاعي، وهِيَ في الصَّحيحينِ أيضًا[2].

---

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (3471)، ومسلمٌ في كتاب فضائل الصَّحابة، باب من فضائل أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه (2388).

(2) وَرد ذلك في حديث متَّفقٍ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب المظالم والغصب، باب إذا هدم حائطًا فليبنِ مثله (2482)، ومسلمٌ في كتاب البرِّ والصِّلة والآداب، باب تقديم بِرِّ الوالدين علىٰ التَّطوع بالصلاةِ وغيرها

ومِنَ الكراماتِ التي حصلتْ في الأمم السَّابقةِ وحدَّثنا عنها رسولُ الله ﷺ ما أَخبرَ به ﷺ عن الغلامِ الَّذي كان يُبرئُ الأكمَهَ والأبرصَ ويُداوِي النَّاسَ حتىٰ عَلِمَ به مَلِكُ بلادِهِ فعذَّبه بألوان العذابِ ليقتلَه[1].

وقصَّةُ أصحابِ الغارِ الثَّلاثة الذين أَوَوْا إلىٰ الغارِ فأطبقتْ عليهم صخرةٌ علىٰ باب الغار وأغلقتْه، فدعا كلُّ واحدٍ منهم بدعوةٍ فانفرجتْ عنهم الصَّخرةُ، وهذه القصة في الصَّحِيحيْنِ[2].

هذا، والسُّنةُ النبويَّةُ الصَّحيحةُ مليئةٌ بما يُثبتُ وقوعَ الخوارقِ والكراماتِ إكرامًا من الله تعالىٰ لعبادِهِ المؤمنينَ الموحِّدينَ علىٰ مرِّ العُصورِ.

هذه هي الأدلَّة التي تبيِّنُ لنا وجود الكرامات وتركنُ إليها النَّفس وتهدأُ بوُجودِها، ولو ذهبنا لاستقصاءِ واستقراءِ هذه الأدلَّة ما وسعتْنا هذه الصَّفحات، ولكنَّنا نريدُ أن نمزجَ هذه الأدلَّةَ بأقوالِ علماء أهل السُّنةِ في الكراماتِ، فالشَّوقُ يدفعنا إلىٰ معرفةِ أقوال سلفنا ويشدُّنا لنرىٰ كراماتِهم في أقوالِهم عَنِ الكراماتِ.

أقوالُ علماءِ أهل السُّنةِ في موضوعِ الكراماتِ

تواترتِ النُّقولُ عن أهلِ العِلمِ وأئمَّةِ الإسلامِ مِن مختلفِ الفِرَقِ والمذاهبِ علىٰ ثُبُوتِ وصحَّة كراماتِ الأولياء، فالأولياءُ هُمُ الصَّفوة بعد الأنبياء والرُّسل، والوليُّ مشتقٌّ من الولاء والقُرب، وقد قالَ الله سبحانَه وتعالىٰ فيهم: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون ﴿62﴾ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُون ﴿63﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي

= (2550) من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(1) ورد ذلك في حديثٍ أخرجه مسلم في كتاب الزُّهد والرقائق، باب قصَّة أصحاب الأخدود والسَّاحر والرَّاهب والغلام (3005) من حديث صُهيب رضي الله عنه.

(2) ورد ذلك في حديث متَّفقٍ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب أحاديثِ الأنبياء، باب حديث الغار (3465)، ومسلمٌ في كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثَّلاثة والتوسُّل بصالح الأعمال (2743) من حديث ابن عمرَ رضي الله عنهما.

الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿64﴾ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: 62-64]. وأُمَّةُ الإسلامِ لا تَخلُو من الأولياءِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وذلك لعُلوِّ مَقامِها وأفضليتِها مع عُلوِّ قدر نَبيِّنا ﷺ.

قال الإمام أحمد بن محمد بن حجرٍ الهيتميُّ الشَّافعي في الفتاوَىٰ الحديثيَّة: ((كراماتُ الأولياء حقٌّ عند أهل السُّنَّة والجماعة، خلافًا للمخاذيل المعتزلة)) ثمَّ قال: ((والحاصِلُ: أنَّ كرامةَ الوليِّ من بعضِ معجزاتِ النَّبيِّ ﷺ؛ لكن لعِظَمِ اتِّباعِه له أظهرَ الله بعضَ خواصِّ النَّبيِّ علىٰ يدي وارثه ومُتبعه في سائرِ حركاتِه وسكناتِه))[1].

ويقولُ الإمامُ الفخرُ محمد بن عمر الرازيُّ في كتابه الأربعينَ في أصولِ الدِّين أثناء الحديث عن مقامِ إثبات كرامات الأولياء: ((إنَّ حُدُوثَ الحَبَل لمريمَ من غير الذَّكَر مِنْ خَوارقِ العاداتِ، وحضور الرِّزقِ عندها من غير سببٍ ظاهرٍ من خَوارقِ العاداتِ))[2].

وهذا أحدُ أئمَّةِ الحنابلةِ الإمام محمد بن أحمد السَّفاريني يقولُ في كتابه لوامع الأنوار البَهيَّة: ((والحاصلُ أنَّ الكرامةَ لابدَّ أن تكونَ أمرًا خارقًا للعادةِ أتىٰ ذلك الخارق عن امرئٍ صالحٍ، وهُو الوليُّ العارفُ بالله وصفاتِه حسب ما يُمكن، المواظبُ علىٰ الطَّاعاتِ المجتنبُ للَمعاصِي))[3].

وقال الإمامُ سعدُ الدين مسعود بن عمر التَّفتازانيُّ في شرح المقاصد: ((الوليُّ: العارفُ بالله تعالَىٰ الصَّارفُ همَّتَه عمَّا سواه، والكرامةُ ظُهورُ أمرٍ خارقٍ للعادةِ قبله بلا دَعوىٰ النبوَّة، وهي جائزةٌ ولو بقصدِ الوليِّ، ومِن جنسِ المعجزاتِ لشُمول قُدرةِ الله تعالَىٰ)) ثم

(1) الفتاوىٰ الحديثيَّة (ص 78، 79) لأحمد بن محمد بن حجرٍ الهيتمي الشَّافعي- دار الفكر.

(2) الأربعين في أصول الدين (199/2) للإمام الفخر محمد بن عمر الرازي- تحقيق: د. أحمد حجازي السقا- مكتبة الكليات الأزهرية- الطبعة الأولىٰ- 1406هـ.

(3) لوامعُ الأنوار البهيَّة وسواطعُ الأسرار الأثريَّة (392/2) للسفاريني مؤسسة الخافقين- دمشق- الطبعة الثانية- 1982م.

قالَ بعد ذلك: ((وبالجُملةِ ظهورُ كَراماتِ الأولياءِ يكادُ يلحق بظهورِ معجزاتِ الأنبياء، وإنكارُها ليس بعجيبٍ من أهل البدعِ والأهواءِ))[1].

ويقولُ العلّامةُ عبدالرحمن بن خلدون أثناءَ كلامِه عن المتصوِّفة: ((وأمَّا الكلامُ في كَراماتِ القومِ وإخْبارِهم بالمغيَّباتِ وتصرُّفهم في الكائناتِ فأمرٌ صحيحٌ غيرُ منكرٍ... إلىٰ أنْ قال: مع أنَّ الوجودَ شاهِدٌ بوُقوعِ الكثيرِ من هذِه الكراماتِ، وإنكارُها نوعُ مكابرةٍ، وقد وقعَ للصَّحابة وأكابرِ السَّلفِ كثيرٌ من ذلك، وهو مَعلومٌ مشهورٌ))[2].

وقال الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسىٰ الشَّاطبيُّ الغرناطيُّ في الموافقاتِ: ((إنَّ جميعَ ما أُعطيتْ هذه الأُمَّة مِن المزايا والكرَاماتِ والمُكاشفاتِ والتأييداتِ وغيرها من الفضائلِ إنَّما هي مُقتبسةٌ من مِشكاةِ نبيِّنا ﷺ لكن علىٰ مقدار الاتِّباع، فلا يظنُّ ظانٌّ أنَّه حصلَ علىٰ خيرٍ بدون وساطة نبويَّة، كيف وهو السِّراج المنيرُ الَّذي يُستضاء به، والعَلَمُ الأعلىٰ الَّذي يُهتدَىٰ به في سلوك الطَّريق؟!

وقال أيضًا: ((كلُّ ما يُنقلُ عن الأولياءِ أو العلماءِ إلىٰ يوم القيامةِ من الأحوالِ والخوارقِ والفهومِ وغيرِها فهي أفرادٌ وجزئيَّاتٌ داخلةٌ تحت كُليَّاتِ ما نُقلَ عن النَّبيِّ ﷺ))[3].

وقال الإمامُ أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبيُّ في الجامعِ لأحكام القرآنِ: ((كراماتُ الأولياءِ ثابتةٌ علىٰ ما دلَّتْ عليه الأخْبارُ الثَّابتةُ والآياتُ المتواترةُ، ولا يُنكرها إلَّا المبتدعُ الجاحدُ، أو الفاسقُ الحائدُ))[4].

---

(1) شرح المقاصد في علم الكلام (72/5- 75) لسعدُ الدين مسعود بن عمر التَّفتازانيُّ- تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة- عالم الكتب- الطبعة الثانية- 1998م.

(2) مقدِّمة ابن خلدون (ص623) ضبط متنَه: خليل شحادة- دار الفكر- 2001م.

(3) الموافقات (438/2) ضبطه وعلَّق عليه: مشهور بن حسن آل سلمان- دار ابن عفان- الطبعة الأولىٰ- 1997م.

(4) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (28/11) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية- القاهرة- الطبعة الثانية- 1964م.

وقال الإمام النَّووي في شرح صحيح مسلم عند الحديث عن جُريج والصَّبي الَّذي تكلَّم في المهد: ((ومنها إثباتُ كراماتِ الأولياءِ، وهو مذهبُ أهل السُّنَّةِ خلافًا للمعتزلةِ، وفيهِ أنَّ كراماتِ الأولياءِ قد تقعُ باخْتِيارِهم وطلبِهم، وهذا هُو الصَّحيحُ عند إخوانِنا المتكلِّمينَ، ومنهم مَن قال: لا تقعُ باخْتِيارِهم وطَلَبِهم، وفيه أنَّ الكراماتِ قد تكونُ بخوارقِ العاداتِ علىٰ جميعِ أنواعِها، ومَنعَه بعضُهم وادَّعىٰ أنَّها تختصُّ بمثلِ إجابةِ دعاء ونحوِه، وهذا غلطٌ من قائلِه وإنكارٌ للحسِّ بل الصَّوابُ جريانُها بقلْبِ الأعيانِ وإحضارِ الشَّيء من العَدمِ ونحوِه))[1].

قال الإمامُ البيجوريُّ في حاشيته علىٰ مَتْنِ جوهرة التوحيدِ عند شرح هذا البيت:

وَأَثْبِتَنْ لِلْأَوْلِيَا الْكَرَامَه وَمَنْ نَفَاهَا فَانْبِذَنْ كَلَامَه

((أي: اعتقدْ جوازَ وقوع الكرامةِ، ووقوعِها لهم في الحياة الدنيا وبعد المماتِ؛ كما ذهبَ إليه جمهور السُّنة، وليس مذهبٌ من المذاهب الأربعةِ قال بنفيها بعد الموتِ بل ظهورُها حينئذٍ أولىٰ؛ لأنَّ النَّفسَ حينئذٍ صافية من الأكدار، فهي كالسَّيف سُلَّ من غِمده، وعلىٰ هذا قيل: مَن لم تظهرْ كرامتُه بعد موتِه كَما كانَت في حياتِه فليس بصادقٍ))[2].

فهذه نصوصٌ صريحةٌ عن بعضِ أهل العِلمِ في إثبات الكراماتِ وحدوثِها في أمَّةِ الإسلام والأممِ السَّابقة، وأنَّ هذا هو مذهبُ أهل السُّنَّةِ والجماعةِ.

فَقَدْ تمَّت النعمةُ بالوقفِ علىٰ الأدلَّة، واستجبنا للشَّوق في معرفة نُقول أهلِ العلمِ، وما بقِي إلا إحياءُ النفس بمعرفة صُور الكرامات في أمَّتِنا الإسلامية، فإحياءُ النفس مطلوب والرُّقيُّ بها أمرٌ مرغوبٌ. ◆

---

(1) شرح النَّووي علىٰ مسلم (108/16) دار إحياء التراث العربي- الطبعة الثانية- 1392هـ.

(2) حاشية البيجوري علىٰ جوهرةِ التَّوحيد (ص 252) تأليف: برهان الدين إبراهيم البيجوري- تحقيق: د. علي جمعة- دار السلام- مصر- الطبعة الأولىٰ- 2008م.

صورٌ من الكراماتِ في أمَّة الإسلام

لم تشهدْ أمَّةٌ من الأممِ الَّتي أرسلَ الله إليها الرُّسلَ وبَعثَ فيها النبيِّينَ من الكراماتِ مثلما شَهِدَتْ أمَّةُ الإسلام، وذلك لمنزلتِها بين الأممِ وعُلوِّ شأنِها وجلالةِ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ عند ربِّه جلَّ وعلَا، وكثرة الأولياء والصَّالحين والعُبَّاد الرَّبانيِّين في أُمَّته ﷺ، وكانتْ هذه الكراماتُ في الأمَّةِ الإسلاميَّةِ كثيرةً بحيثُ لا تقعُ تحت الحصرِ منذ عهد رسولِ الله ﷺ إلى الآنَ، وقد وردتْ في كُتُبِ السُّنة والسِّير والتَّراجم والتَّواريخ حكاياتٌ عن الكرامات التي وقعتْ للصَّحابة والتابعين والسلف الصالح والعُبَّاد والعلماء رِضوانُ الله عنهم أجمعين.

ودعنا أخي الحَبيب ننتقلُ إلى طَرَفٍ من كراماتِ الصَّحابةِ رِضوانُ الله عليهم أجمعينَ وغيرِهم من السَّلف الصَّالح، الذين كانوا خيرَ مَنْ آمنوا بالله تعالى حَقَّ الإيمان وصدَّقُوا النبيَّ العدنان وصابروا وصبرُوا على إيمانِهم، فكان من ضِمنِ جزائهم أنَّهم يرونَ بنورِ الله سبحانه، وقد قالَ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((اتَّقوا فِراسةَ المؤمنِ فإنَّه يَنظرُ بنورِ الله))[1].

فكانَ من كراماتِهم ما نُقِلَ في صحيحِ البُخاريِّ من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه: ((أنَّ رَجُليْنِ خرجَا من عند النَّبيِّ ﷺ في ليلةٍ مُظلمةٍ، وإذا نورٌ بين أيدِيهما حتَّى تفرَّقا، فتفرَّق النُّورُ مَعهما)) وهما أُسيد بن حُضير وعبَّاد بن بِشْرٍ رضي الله عنهما[2].

---

(1) أخرجه الترمذيُّ في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحِجرِ (3127)، والطَّبرانيُّ في الأوسط (7843) من طريق عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه به مَرفوعًا.

وقال الترمذيُّ: ((حديثٌ غريبٌ)).

وله شاهدٌ من حديث أبي أمامةَ رضي الله عنه؛ أخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (121/8)، والأوسط (3254)، والقضاعيُّ في مسند الشِّهابِ (1/ 387)، والبيهقيُّ في الزهدِ الكبير (ص 159) من طريق معاويةَ بن صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة به مرفوعًا.

وحسَّنَ إسناده الهيثميُّ في مجمع الزَّوائدِ (473/10).

(2) أخرجه البخاريُّ في كتاب مناقبِ الأنصار، باب منقبة أُسيد بن حضير وعباد بنِ بشر رضي الله عنهما (3805).

وفي روايةٍ: أنَّ أُسيدَ بنَ حُضَير ورجلًا آخرَ منَ الأنصارِ- هو عبَّاد بنُ بِشر- تحدَّثا عندَ رسولِ الله ﷺ ليلةً حتَّىٰ ذهبَ مِنَ اللَّيل ساعةٌ في ليلةٍ شديدةِ الظُّلمةِ، ثمَّ خرجَا مِن عندِ النبيِّ ﷺ يَنقلِبان وبيدِ كلِّ واحدٍ منهما عصاه، فأضاءَتْ عصا أحدِهما لهمَا حتَّىٰ مَشيَا في ضوئِها، حتَّىٰ إذا افترقَتْ بهمَا الطَّريقُ أضاءَت بالآخرِ عصَاه، فمَشَىٰ كلُّ واحدٍ منهُما في ضَوْئِها حتَّىٰ بَلَغَ أهلَه))[1].

وعن حمزةَ الأسلميِّ رضي الله عنه قال: ((كنَّا مع النبيِّ ﷺ في سفرٍ فتفرَّقنا في ليلةٍ ظلماء فأضاءَت أصابعِي حتَّىٰ جمعُوا عليها ظهرَهم وما هلكَ منهم، وإن أصابعي لَتُنيرُ))[2].

أخرجَ التِّرمذيُّ وحسَّنه والحاكمُ وصحَّحَه والبَيهقيُّ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: ضربَ بعضُ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ خباءَه علىٰ قبرٍ وهُو لا يحسب أنَّه قبرٌ، فإذا فيه إنسانٌ يقرأُ سورةَ تبارك الَّذي بيده الملكُ حتَّىٰ ختمَها، فأتَىٰ النَّبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنِّي ضربتُ خِبائي علىٰ قبرٍ وأنا لا أحسب أنَّه قبرٌ، فإذا فيه إنسانٌ يقرأُ سورةَ تبارك الملك حتَّىٰ ختمَها، فقال رسول الله ﷺ: ((هي المانعةُ، هي المنجيةُ، تُنجيه مِن عذابِ القبرِ))[3].

---

(1) أخرجه معمرُ في جامعِه (20541- ملحق بمصنف عبدالرزاق)، وابن حبَّانَ في صحيحِه (2030) من طريقِ ثابتٍ عن أنسٍ رضي الله عنه به.

(2) أخرجه البخاريُّ في التاريخ الكبير (3/46)، والطَّبرانيُّ في الكبير (3/175)، والبيهقي في دلائل النبوة (6/79) من طريقِ سفيان بن حمزة عن كثير بن زيد عن محمد بن حمزة الأسلميِّ عن أبِيه به.

وقال الهيثميُّ في مجمع الزَّوائد (9/684): ((رواه الطَّبراني ورجاله ثقاتٌ، وفي كثير بن زيد خلافٌ)).

وجوَّد إسناده الصالحيُّ في سبل الهدىٰ والرشاد (10/ 288).

(3) أخرجه التِّرمذيُّ في كتاب فضائل القرآنِ، باب ما جاء في فضل سورة الملكِ (2890)، والطَّبرانيُّ في الكبيرِ (12/ 174- 175)، والبيهقيُّ في دلائل النبوةِ (7/41) من طريقِ محمد بن عبدالملك بن أبي الشَّوارب قال: حدَّثنا يحيىٰ بن عمرو بن مالك النُّكْري عن أبيه عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما به مَرْفوعًا.

وقال التِّرمذيُّ: ((حسنٌ غريبٌ)).

أيضًا مِنَ الكراماتِ الَّتي نُقِلَتْ عَنِ الصَّحابةِ ما ثَبتَ بالإسنادِ الصَّحيح عن عمرَ بن الخطَّاب ﵁ وهو في المدينة يَخطبُ على المنبرِ، وإذ به يُنادِي أحدَ أُمراء جيوش المسلمينَ في بلاد فارس ويقول: ((يا ساريةُ، الجبلَ الجبلَ)) وسَمِعَه ساريةُ وهو على بُعدِ آلاف الأميالِ[1].

ورُوِيَ أنَّه وقعتِ الزَّلزلةُ في المدينةِ زمنَ عمرَ فضربَ عمرُ الدِّرَّةَ على الأرضِ، وقال: يا أرضُ اسكني ألم أعدلْ عليكِ؟! فسكنتْ، وما حدثت بالمدينة زلزلةٌ بعد ذلكَ[2].

ورُوِيَ أنَّه أصابَ النَّاسَ قحطٌ شديدٌ على عهد عمرَ، فخرج بالنَّاسِ فصلَّى بهم ركعتيْنِ وخالف بين طرفي رِدائِه فجعلَ اليمينَ على اليسارِ واليسارَ على اليمين، ثم بسط يدَيْه فقال: ((اللهمَّ إنَّا نستغفرُكَ ونَستسقيكَ)) فما بَرِحَ مكانَه حتَّى مُطِرُوا، فبينما هم كذلك إذا أعرابٌ قد قَدِمُوا فأتوا عمرَ فقالوا: يا أميرَ المؤمنينَ بينما نحن في بَوادِينا في يوم كذا وكذا إذ أظلَّنا غَمامٌ فسمعنا فيها صوتًا: أتاكَ الغوثُ أبا حفصٍ، أتاكَ الغوثُ أبا حَفصٍ[3].

وعن عبدالله بنِ عمرَ ﵄ أنَّه قال: ((ما سمعتُ عمر لشيءٍ قطُّ يقولُ: إنِّي لأظنُّه كذا إلَّا كان كما يظُنُّ))[4].

---

(1) أخرجه البيهقيُّ في دلائل النبوة (6/ 370) من طريق ابن وهب قال: أخبرنا يحيى بنُ أيوب عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمرَ: ((أنَّ عمرَ بعثَ جيشًا وأمَّر عليهم رجلًا يُدعى سارية، فبينما عمر ﵁ يخطبُ فجعل يصيحُ: يا ساري الجبلَ، فقدم رسولٌ من الجيشِ فقال: يا أمير المؤمنين، لقينا عدوَّنا فهزمونا، فإذا صائحٌ يصيح: يا ساري الجبلَ، فأسندنا ظهورَنا إلى الجبلِ فهزمهم الله، فقلنا لعمر: كنتَ تصيحُ بذلك)).

وقال ابنُ كثير في البداية والنهاية (175/10): ((وهذا إسنادٌ جيِّدٌ حسنٌ)).

(2) ذكره الرَّازي في تفسيره (21/ 433) ولم يعزه لأحد.

(3) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في الهواتفِ (16)، ومن طريقِه ابن عساكر في تاريخ دمشق (346/44) من طريق عبدالله بن عفان حدثني عطاء بن مسلم الحلبي عن العمري قال: خوات بن جبير به.

(4) جزء من حديثٍ أخرجه البخاريُّ في كتاب مناقب الأنصارِ باب إسلام عمر بن الخطَّاب ﵁ (3866).

وأخرج الحاكمُ في المستدرك عن قيس بن أبي حازم قال: ((شتم رجلٌ عليًّا فقال سعد: اللهم إنَّ هذا شتَمَ وليًّا مِن أوليائِك فلا تُفرِّق هذا الجمعَ حتَّىٰ تُريهم قدرَتك، فوالله ما تفرَّقنا حتَّىٰ ساخَت به دابَّته فرمتْه علىٰ هامتِه في تلك الأحجارِ، فانفلق دماغُه وماتَ))[1].

وأخْرَجَ ابنُ سعدٍ في الطَّبقاتِ عن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ قال: ((كنتُ ممَّنْ أحفر لسعدٍ قبرَه فكان يفوحُ علينا المِسكُ كلَّما حفرنا قترةً من تُرابٍ حتىٰ انْتهيْنَا إلىٰ اللَّحدِ))[2].

أخرج البيهقيُّ عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: ((أُخرجَ أبي من قبرِه في خلافةِ معاويَة فأتيتُه فوجدتُه علىٰ النَّحو الَّذي تركتُه لم يتغيَّرْ منه شيءٌ فَوَاريتُه))[3].

وأبو جابر هو الصَّحابيُّ الجليل عبدُالله بن حرام ﷺ من شهداء أُحُد، وهذِه الواقعةُ بعد حوالي أربعينَ سنةً من دَفنِهم.

وأوردَ السُّبكيُّ في الطَّبقاتِ من كراماتِ عبدالله بن عمر ﷺ أنَّه قال للأسدِ الَّذي مَنَعَ النَّاسَ الطريق: تنحَّ. فبصبص بذنبِه؛ أي حرَّك ذَيْلَه- وذهبَ[4].

---

(1) أخرجه الحاكمُ في مستدركه (3/499) من طريقِ الحسن بن علي بن زياد ثنا حامد بن يحيىٰ البلخي بمكَّة ثنا سفيان عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم بنحوِه.

وقال الحاكمُ: ((صحيحٌ علىٰ شرط الشيخيْنِ ولم يخرِّجاه))، ووافقه الذَّهبيُّ. وصحَّح إسناده الحافظُ ابن حجر في المطالبِ العاليةِ (17/ 94).

(2) أخرجه ابنُ سعد في الطَّبقات الكبرىٰ (3/ 398) من طريق محمد بن عمر قال: حدَّثني سعيد بن محمد ابن أبي زيد عن ربيح بن عبدالرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن جدِّه به.

(3) جزءٌ من حديثٍ أخرجه أحمد في مسندِه (3/ 397)، والدَّارمي في سننه (46)، والبيهقيُّ في دلائل النبوةِ (3/ 292) من طريق عفان ثنا أبو عوانة ثنا الأسود بن قيس عن نبيح العَنَزِي عن جابر بن عبدالله ﷺ به مطوَّلًا.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (243/4): ((رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح خلا نُبيح العَنَزِي وهو ثقة)).

(4) طبقات الشافعية الكبرىٰ (2/332، 333) تأليف: تاج الدين علي بن عبدالكافي السبكي- تحقيق: د: محمود الطناحي، د: عبدالفتاح الحلو- دار هجر- الطبعة الثانية- 1988م.

وشَرِب سيدُنا خالدُ بنُ الوليد رضي الله عنه السُّمَّ فلم يضرَّه[1].

أيضًا أُتيَ سيدنا خالد بن الوليد مرَّة برجل معه زِقُّ خمر، فقال: ((اللهمَّ اجعله عسلًا)) فصار عسلًا[2].

وخبر سيِّدنا خُبيب الأنصاري المرويُّ في البخاريِّ وهو أسيرٌ عند المشركين في مكَّةَ وكان يوجدُ عنده العنبُ في محبسِه وهو موثق بالحديدِ[3].

وما وَرَدَ عن سَفِينةَ مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضَلَّ الطَّريق فتعرَّض له الأسدُ، فقالَ له سفينةُ: أنَا سَفِينةُ صاحبُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فطأطأ الأسدُ رأسَه ومشىٰ أمامَه كأنَّه يدلُّه علىٰ الطَّريق[4].

---

(1) أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في مصنَّفِه (34419)، وأبُو يعلىٰ في مُسندِه (7186)، والبيهقيُّ في دلائل النبوة (106/7) من طريق يونس بن أبي إسحاق عن أبي السَّفَر قال: نزل خالد بن الوليد الحيرة علىٰ أمر بني المرازبة، فقالوا له: احذر السُّمَّ لا يسقيكه الأعاجمُ، فقال: ((ائتوني به))، فأُتي به فأخذه بيدِه، ثم اقتحمَه وقال: ((بسم الله)) فلم يضرَّه شيءٌ.

وأخرج نحوَه الطَّبرانيُّ في الكبير (4/ 105) من طريق يونس بن أبي إسحاق عن أبي بردةَ.

وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (582/9): ((رَواه أبو يعلىٰ والطَّبرانيُّ بنحوه، وأحد إسنادي الطَّبراني رجالُه رجالُ الصَّحيح، وهو متَّصلٌ ورجالُهما ثقاتٌ، إلَّا أنَّ أبا السَّفَر وأبا بردةَ بن أبي موسىٰ لم يسمعَا من خالدٍ، والله أعلم)).

(2) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في مجابو الدعوة (53)، واللالكائي في كراماتِ الأولياء (152/9- 153) من طريقِ أبي بكر بن عياش عن الأعمشِ عن خيثمةَ به.

وصحَّح إسنادَه الحافظُ ابن حجرٍ في الإصابةِ (175/3).

(3) أخرجه البخاريُّ في كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل ومَنْ لم يستأسر ومن رَكَعَ ركعتين عند القَتْل (3045) من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه مطوَّلًا، وفيه أنَّ امرأةً من بنات الحارث بن عامر- التي كان خبيب رضي الله عنه مأسورًا في بيتها- قالتْ: ((والله لقدْ وجدتُه يومًا يأكلُ من قطف عنب في يدِه، وإنه لموثقٌ في الحديدِ، وما بمكَّةَ من ثمر، وكانتْ تقول: إنَّه لرزقٌ من الله رزقه خبيبًا)).

(4) أخرجه معمر في جامعِه (20544- ملحق بمصنَّف عبدالرزاق) من طريق سعيد بن عبدالرحمن الجحشي عن ابنِ المنكدر: ((أن سفينةَ مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطأ الجيشَ بأرض الروم- أو أُسر- فانطلقَ هاربًا يلتمسُ الجيشَ، فإذا بالأسدِ! فقال له: يا أبا الحارثِ أنا مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنَّ من أمري كيتَ وكيتَ،

وأَوْردَ الطَّبرانيُّ وغيرُه حكايةً عن أحد شُهداء المسلمينَ من الصَّحابة الذين استُشْهدوا في معركة اليمامةِ، وهو الصَّحابيُّ الجليلُ ثابت بن قيس بن شَمَّاس ﷺ، قال الطَّبرانيُّ: ((ورأىٰ رجلٌ من المُسلمينَ ثابتَ بن قيس في منامِه فقال: إنِّي لما قُتلت بالأمسِ مرَّ بي رجلٌ منَ المسلمين فانتزعَ مني دِرعًا نفيسةً، ومنزلُه في أقصىٰ المعسكَرِ، وعند منزلِه فرسٌ يستنُّ في طِوَلِه، وقد أكْفأَ علىٰ الدِّرعِ بُرمةً، وجعل فوق البُرمة رَحْلًا، فائتِ خالدَ بن الوليد، فليبعثْ إلىٰ دِرعي فليأخُذْها، فإذا قدِمتَ علىٰ خليفة رسولِ الله ﷺ فأعلمْه أنَّ عَلَيَّ من الدَّينِ كذا ولي مِن المال كذا، وفلانٌ مِن رقيقي عتيقٌ، وإيَّاك أن تقولَ هذا حُلمٌ فتضيِّعَه. قال: فأتىٰ خالدَ بن الوليد فوجَّه إلىٰ الدِّرع فوجدَها كما ذكرَ، وقدم علىٰ أبي بكرٍ رضي الله تعالىٰ عنه فأخبرَه، فأنفذ أبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه وصيَّته بعد موتِه، فلا نعلمُ أنَّ أحدًا جازتْ وصيَّتُه بعد موتِه إلَّا ثابت بن قيس بن شَمَّاس رضي الله تعالىٰ عنه))[1].

=

فأقبل الأسدُ له بصبصة حتىٰ قامَ إلىٰ جنبه، كلما سَمِعَ صوتًا أتىٰ إليه، ثم أقبل يمشي إلىٰ جنبِه، فلم يزل كذلك حتىٰ بَلَغَ الجيش، ثم رَجَع الأسدُ)). ورواتُه ثِقاتٌ.

وأخرجه من غير هذا الوجه الرُّويانيُّ في مسندِه (436/1)، والطَّبرانيُّ في الكبير (94/7)، والحاكمُ في مستدركه (606/3)، والبيهقيُّ في دلائل النُّبوة (45/6) من طريق أسامةَ بن زيد، عن محمد بن عمرو، عن محمد بن المنكدر، عن سفينة مولىٰ رسول الله ﷺ قال: ((ركبتُ سفينةً في البحر فانكسرتْ فركبت لوحًا منها فأخرجني إلىٰ أجمة فيها أسدٌ...)). فذكر نحوَه.

وقال الحاكم: ((صحيحٌ علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه)) ووافقه الذهبي.

(1) جزءٌ من حديثٍ أخرجَه ابنُ أبي عاصم في الآحادِ والمثاني (461/3)، والطَّبرانيُّ في الكبير (70/2)، والحاكمُ في مستدركه (235/3) من طريقِ عبدالرَّحمن بن يزيد بن جابر عن عطاء الخراسانيِّ قال: قَدِمتُ المدينة فسألتُ عمَّن يحدِّثني بحديث ثابت بن قيس بن شماس فأرشدُوني إلىٰ ابنتِه فسألتُها فقالتْ: سمعتُ أبي يقول... به مطوَّلًا.

وقد ساق الحاكمُ هذا الحديثَ عقب حديث لأنس ﷺ- سيأتي تخريجُه- مُقدِّمًا له بقوله: ((والحديث وصاياه- أي قيس بن شماس- قصة عجيبة)). وسكتَ عنه الذَّهبيُّ.

وقال الهيثميُّ في مجمعِ الزوائد (535/9): ((رواهُ الطَّبرانيُّ وبنت ثابت بن قيس لم أعرفْها وبقية رجالِه رجال الصحيح، والظَّاهر أنَّ بنت ثابت بن قيس صحابيَّة فإنَّها قالتْ: سمعتُ أبي والله أعلم)).

وقوله: ((ليستنَّ في طِوَلِه)) أي: يمرحُ بنشاطٍ في الحبل المشدودِ به، والطِّوَل- بكسر الطَّاء وفتح الواو؛ أي الحبل. وقوله: ((بُرمة)) بضم الباء هو القِدرُ.

قالَ أحمدُ بن الحواريِّ في كتاب الزُّهد له: حدَّثني أبو سليمان قال: ((كان عبدُالواحد بن زياد ﷺ أصابَه الفالجُ فسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يُطلقَه في أوقاتِ الوضوءِ، فكان إذا كانَ في وقت الوضوءِ قام من سريرِه حتىٰ يذهبَ فيتوضَّأ فإذا عاد إلىٰ سريرِه عاد إليْه الفالجُ))[1].

وقد أوردَ الإمامُ النَّوويُّ عدَّةَ صورٍ من كراماتِ أولياء الله وخواصِّ عباده في كتابه بستان العارفين قال: ((قالت امرأةُ أبي مسلم- يعني الخَوْلاني: يا أبا مُسلم ليس لنا دقيقٌ، قال: عندكِ شيءٌ؟ قالت: درهمٌ بعنا به غزلًا. قال: أعطِنيه وهاتِ الجراب. فدخل السُّوق فوقفَ علىٰ رجلٍ يبيعُ الطَّعامَ، فوقف عليه سائلٌ وقال: يا أبا مسلم تصدَّق عليَّ. فهرَب منه وأتىٰ حانوتًا آخر فتَبعه السَّائلُ فقال: تصدَّق علينا، فلمَّا أضْجرَه أعطاه الدِّرهم، ثمَّ عَمَدَ إلىٰ الجرابِ فملأهُ من نُحاتةِ النَّجارينَ مع الترابِ، ثم أقبل إلىٰ بابِ منزلِه فنقر البابَ وقلبُه مرعوبٌ من أهلِه، فلما فتحتِ البابَ رمىٰ بالجرابِ وذهب، فلمَّا فتحته إذا هي بدقيقٍ حُوَّاري فعجنتْ وخَبزتْ، فلمَّا ذهبَ من اللَّيلِ الهَوِيُّ جاء أبو مسلم فنقر البابَ فلمَّا دخل وضعتْ بين يديه خِوانًا وأرغفة حواري، فقال: من أين لكم هذا؟ فقالت: يا أبا مسلم مِنَ الدَّقيقِ الَّذي جِئتَ به فجعل يأكلُ ويبكي)).

وجوَّد إسناده الصَّالحي في سبل الهدىٰ والرشاد (10/ 95).

وله شاهدٌ من حديث أنس بن مالك ﷺ؛ أخرجه الحاكم في مستدركه (235/3)، والبيهقيُّ في دلائل النبوة (6/ 356) من طريق محمد بن صالح بن هانئ حدثنا السري بن خزيمة حدثنا موسىٰ بن إسماعيل حدثنا حماد حدَّثنا ثابت عن أنس بنحوه مختصرًا.

وقال الحاكم: ((صحيحٌ علىٰ شرط مسلم، ولم يخرِّجاه)) ووافقه الذَّهبيُّ.

(1) أخرجه أبو نُعيم في حلية الأولياء (155/6)، وابنُ عساكر في تاريخ دمشق (226/37) من طريق إسحاق ابن أحمد بن عليٍّ ثنا إبراهيم بن يوسف بن خلاد ثَنا أحمدُ بن أبي الحواري به.

وفي بُستان العارفين أيضًا كان أبُو مسلمٍ الخَوْلاني جالسًا مع أصحابه في أرض الرُّوم يحدِّثُهم فقالوا: يا أبا مسلم، قدِ اشتهينا اللَّحمَ، فلو دعوتَ الله لنا فرزقنا، فقال: اللهمَّ قد سمعتَ قولَهم وأنتَ علىٰ ما سألُوا قادرٌ، فما كان إلَّا أن سَمِعُوا صِياح العسكرِ فإذا بظبيٍ قد أقبل حتَّىٰ مرَّ بأصحابِ أبي مُسلم فوثَبُوا إليه فأخذُوه[1].

وأوردَ الإمامُ الذَّهبيُّ عن الإمام عبدالله بن منير قال: ((كان يخرجُ إلىٰ البريَّةِ يجمعُ شيئًا مثل الأُشنانِ وغيرِه فيبيعُه في السُّوق فيعيشُ منه، فخرج يومًا مع أصحابِه فإذا هو بالأسدِ رابضٌ فقال لأصحابه: قِفوا وتقدَّم هو إلىٰ الأسد، فلَا تَدري ما قال له فقامَ الأسدُ فذهبَ))[2].

وكان بُنَان بن محمد بن حمدان أبو الحسن الزَّاهد عابدًا يُضربُ به المثَلُ في وقتِه، يُذكر أنَّه لَمَّا دخلَ علىٰ ابنِ طولون حاكمِ مِصر وأمرَه بالمعروف غَضِبَ وأمر بسجنِه وأن يُجوَّعَ الأسدُ ويُدخل عليْه، فلمَّا أُدخلَ أقبلَ عليه الأسدُ ولحسَه ثمَّ تركه، قيل له: ما الَّذي كان في قلبك حين شمَّك الأسد، قال: كنتُ أتفكَّر في سؤر السِّباع ولُعابها أطاهرٌ هو أم لا؟[3].

أيضًا قصة العُتبيِّ التي أوردها أهلُ التَّاريخ والتفسير عند كلامهم علىٰ هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: 64].

فقد قال ابنُ كثير في تفسيرِه عند الحديثِ عن هذِه الآية الكريمةِ وقد ذكر جماعةٌ منهم

---

(1) بستان العارفين (ص 69- 71) تأليف: أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي- دار الريان للتراث.

(2) سير أعلام النبلاء (317/12) تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- تحقيق: شعيب الأرناءوط، محمد نعيم العرقسوسي- مؤسسة الرسالة- الطبعة الحادية عشرة- 2001م.

(3) انظر: المنتظم في تاريخ الملوك (273/13) تأليف: أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي- تحقيق: محمد عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 1992م.

الشَّيخ أبو النَّصر الصَّباغ في كتابه الشَّامل هذه القصَّةَ المشهورةَ عن العُتبيِّ قال: ((كنتُ جالسًا عند روضةِ النَّبيِّ ﷺ فجاء أعرابيٌّ فقال: السَّلامُ عليك يا رسولَ الله سَمِعْتُ الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتُكَ مُستغفرًا لذنبي مُستشفعًا بكَ إلىٰ ربِّي ثمَّ أخذَ يقولُ:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أَعْظمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهنَّ الْقَاعُ وَالْأَكَمُ
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الجُودُ وَالْكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابيُّ، فغلبتني عيني، فرأيت النَّبيَّ ﷺ في النَّوم فقال: ((يَا عُتْبيُّ الحقِ الأعرابيَّ فبشِّره بأنَّ الله قد غفرَ له))[1].

وغيرُ ذلك كثيرٌ ثابتٌ في السُّنَّةِ الصَّحيحةِ وسير السلف الصالح، وقد تقدَّمَ أنَّ جامعَ مسألةِ الكراماتِ هو العطاءُ الإلهيُّ والرَّحمات، وأنَّ قدرةَ الله لا حدَّ لها، فلا تنظرْ إلىٰ العبدِ ولكنِ انظُرْ إلىٰ قُدرةِ الرَّبِّ سُبحانَه.

وبعدَ معرفةِ كل هذِه الأمورِ يطرأُ علىٰ ذهنِنا أمرٌ يدفعُنا إليه الفِكرُ دفعًا، ألا وهُو معرفةُ إلىٰ أيِّ حدٍّ تصلُ إليه الكراماتُ، وهو ما سنبيِّنُه في النقطة التالية.

وهنا علينا أن نبين الحدَّ الذي يمكن أن تصل إليه الكرامات فنقول: إن الَّذي ذهبَ إليه أغلبُ أهل العلمِ أنَّ الكرامات يمكنُ أن تبلغَ مبلغ معجزاتِ الأنبياء عليهم السَّلام في جِنسها وعظمتِها؛ فمن ذلك أن تكونَ الكرامةُ عبارةً عن الاطِّلاع علىٰ المغيَّبات، والإخبارِ بما في المستقبلِ، أو قَطع الأرضِ من أقصىٰ المشرق إلىٰ أقصىٰ المغربِ في لمح

(1) ذكرها بهذا اللفظ النوويُّ في المجموع (8/274)، وابنُ كثيرٍ في تفسيره (4/140) بدونِ إسنادٍ.
وأخرجها البيهقيُّ في شعب الإيمان (3880) من طريق أبو علي الروذباري حدثنا عمرُو بن محمَّد بن عمرو بن الحسين بن بقية- إملاء- حدثنا شكر الهرويُّ حدثنا يزيد الرقاشي عن محمد بن رَوح بن يزيد البصريِّ حدَّثني أبو حرب الهلالي قال... بنحوِها.

البصرِ، ومن هنا جاءَ قولُ الأئمَّة: ما جازَ أن يكونَ مُعجزةً لنبيٍّ جاز أن يكونَ كرامةً لوليٍّ لا فارقَ بينهما إلا التَّحدِّي، ومع كون الكرامةِ لا تَصِلُ لمرتبةِ المعجزةِ في التَّحدِّي وليس مطلوبٌ منها ذلك إلَّا أنها تَشهدُ لصَاحبِها بصِدقِ الولايةِ وصلاحِ الحالِ، فخلاصةُ القولِ أنَّه من الممكنِ أنْ يُجرِيَ الله علىٰ يد الأولياءِ ما يُجريه من الخوارقِ علىٰ يد الأنبياءِ والمُرسلينَ، وهذا أمرٌ لا ينفي العقلُ إمكانيَّة وُقوعِه، سواءٌ أوقع بالفعل أم لم يقع؟ ◆

الخاتمة

هذه خاتمةٌ نختمُ بها هذا الموضوع الجميلَ نُذكّر فيها بأنّ الكراماتِ والخوارقَ في أمّة الإسلام لا تَنقطعُ ولن تنقطعَ إن شاءَ الله إلىٰ أن يرثَ الله الأرضَ ومَن عليها، وذلك لكرامةِ هذِه الأُمّة عند ربِّها ولكرامةِ نبيِّها ﷺ عند مولاه وقربه منه، فكلُّ كرامةٍ حدثَت وتحدثُ في أمّة الإسلام هي مِن مَددِ رسولِ الله وبركاتِه ونورِه الّذي أضاءَ الطّريقَ لأمّته عليه الصّلاةُ والسّلامُ.

فكراماتُ الأولياءِ والعبادِ الصّالحينَ لا تَنتهي بموتِهم ومُفارقتِهم لهذه الحياةِ الدُّنيا، فقد رأينا في سورة الكهفِ عند الحديثِ عن الخَضِرِ عليه السّلام وإقامتِه الجدارَ للغلاميْنِ الّذي أوشكَ أن ينهدمَ، فإنه يُوجدُ الكثير- كما سبقَ- من الأدلّةِ في تراجم العلماءِ وكتبِ سِيَرِ الصّالحينَ التي تدلُّ علىٰ إرشادِ الأولياء الأموات للأحياءِ ومَعُونتِهم، وليسَ ذلك إلّا صورةٌ من صُورِ رحمة الله بأمّةِ الإسلام، وبابُ فرجٍ ومَعونةٍ من الله سبحانه، فخروجُ الوليِّ المُقرَّبِ مِنَ الله من هذه الدُّنيا يُعدُّ انتقالًا من دارٍ إلىٰ دارٍ أُخرىٰ هي الحياة البرزخيّة الّتي هي أكثرُ رُوحانيّة واتّساعًا من هذه الحياةِ الأرضيّةِ.

وفي هذا الأمر يحدِّثنا ابن قيم الجوزيّة في كتابه الرُّوح حيث قال: ((وقد دلَّ الْتقاءُ أرواحِ الأحياءِ والأمواتِ أنَّ الحيَّ يرىٰ الميّتَ في منامِه فيَستخبرُه ويُخبره الميِّتُ بما لا يَعلم الحيُّ فيصادِفُ خبرُه كما أخبرَ في الماضي والمُستقبلِ، وربّما أخبرَه بمالٍ دفنَه الميِّت في مكانٍ لم يَعلم به سِواه، وربّما أخبرَه بدَيْنٍ عليْه، وذكرَ له شواهدَه وأدِلّته، وأبلغُ مِن ذلك أنّه يُخبره بما عَمِلَه من عملٍ لم يطّلع عليه أحدٌ مِنَ العالمين، وأبلغُ من ذلك أنّه يبلغه أنّك تأتينا وقتَ كذا وكذَا فيكونُ كما أخبرَ، وربّما أخبرَه عن أمورٍ يقطعُ الحيُّ أنّه لم يكنْ يعرفُها غيرُه))[1].

---

(1) الرُّوح (ص 39) تعليق: إبراهيم رمضان- دار الفكر العربي- بيروت- 1996م.

أيضًا ليسَ هناك مانعٌ عقليٌّ أو شرعيٌّ يَمنعُ أن يَمدَّ الله عبدَه الصَّالحَ بالكراماتِ الحسِّيَّةِ والمعنويَّةِ بعد موتِه، وأن يكونَ بابَ خيرٍ وإمدادٍ للمسلمينَ كرامةً له من الله، وأن يجعلَه سببًا في خيرٍ يصلُ إلىٰ المسلمينَ وهو في دارِ البرزخِ، فهذا يحدثُ لآحادِ المسلمينَ وعوامِّهم فكيف بخواصِّهم من الأولياءِ الصَّالحين الَّذين قالَ الله فيهم: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون﴾ [يونس: 62] فإنَّ لهم من المنزلةِ في دارِ البرزخ ما يَسمحُ لهم بالدُّعاء للأحياءِ والاستغفارِ لهم والاستشفاعِ عند الله في قضاءِ الحاجاتِ.

أخي المسلم حديثُنا السَّابقُ عن الكراماتِ لم يكن ضربًا من تغييبِ العقلِ أو نوعًا من ترداد كلام لا نعرفُه أو لم نقتنع به، أو أنَّه كلامٌ من بابِ ما يُسمَّىٰ بـ((الدروشة)) وإنَّما هو تطلُّعٌ إلىٰ بابٍ من أبواب الكرمِ الإلهيِّ والنَّفحاتِ الرَّبانيَّةِ والتشوفُ إلىٰ لمسةٍ رُوحانيَّة في أيام قد طغتْ فيها الماديَّةُ.

وإنَّ الفرحَ والبَهجةَ الحاصلةَ بالكرامةِ مِن حيثُ وقوعُها أو القِراءةُ عنْهَا هو فرحٌ برحمةِ الله وفضلِه، وزيادةٌ في الإيمانِ واليقينِ بأنَّ وراءَ ما نراهُ من المادَّةِ هناك عوالمُ أخرىٰ من عالم الملكوتِ، وأنَّ الله تعالىٰ هو الفاعلُ علىٰ الحقيقةِ، يدبِّر الأمورَ في مَلَكوتِه ويكرمُ عبادَه بعطايا من عندِه.

ألَا فليكنِ الكلامُ عن الكرامةِ دافعًا لك يا عبدَ الله إلىٰ سلوكِ طريقِ أصحابِها من حيثُ الاستقامةُ وصِدقُ التَّوجُّه إلىٰ الله ربِّ العالمين، عسىٰ أن يفتحَ الله لكَ بابَ النِّعمِ والإكرامِ فتكونَ من عباده المقرَّبينَ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆

الرسالة السابعة والعشرون
استحباب التبرك بآثار رسول الله ﷺ وآثار الصالحين

وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأوَّل: مقدِّمةٌ عن التعريف بالتبرُّك لغةً واصطلاحًا، وبيانُ صوره وأشكاله.

المحور الثَّاني: استحباب التبرُّك برسولِ الله ﷺ.

المحور الثَّالث: استحباب التبرُّك بزيارة قبر رسول الله ﷺ.

المحور الرَّابع: استحباب التَّبرُّك بزيارة قبورِ الصَّالحين. ◆



« هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ » - آية **22** من سورة الحشر

استحباب التبرك بآثار رسول الله ﷺ وآثار الصالحين

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه مجموعةٌ من الأوراقِ نتكلَّمُ فيها عن أمرٍ قلبيٍّ رُوحانيٍّ، وباب عطاءٍ إلهيٍّ يُفتحُ لعبادِ الله لينهلُوا من نفحاتِ الله وفضلِه وكرمِه ورضوانِه، ألَا وهو موضوعُ التَّبركِ برسول الله ﷺ وآثار الصالحين.

وقضية التَّبركِ قد تُكلِّمَ فيها من قِبَلِ أهلِ العلم الفُضلاء، وتُكلِّمَ فيها أيضًا من قِبَلِ أهلِ الجهلِ الأغبياءِ، والذي يَعنينا في هذا الموضوع هو معرفةُ ما إذا كان التبرُّك مَسنونًا أم مبتدَعًا؟ وهل له في القرآن والسُّنَّة ذِكرٌ؟ وهل فَعَلَه المسلمون الأوائلُ؟ وهل له قواعدُ وضَوابطُ؟ هذا ما سَوْفَ نُحاولُ أن نجيبَ عنه إن شاءَ الله تعالىٰ:

وحتىٰ نقرِّبَ المسألةَ من الأفهام ونوضِّحَها يجب أن نضعَ هذه المسألةَ في إطارها الطَّبيعيِّ من شريعة الله، حتَّىٰ لا يحدُث كما نشاهد مثل الذي يحدثُ مِنْ قِبَل بعضِ الجهلة المتعصِّبين الَّذينَ لا عِلمَ لهم ولا فقهَ؛ حيث يجعلونَ مثل هذه المسائل أداةً للتَّبديع ورمي النَّاس بالشِّرك والوثنيَّةِ والمُروقِ من الإسلامِ، ويستخدمون هذه المسألةَ ومسائلَ أخرىٰ كمِعولِ هدمٍ وتقسيمٍ للمسلمينَ ووحدتِهم، وبَثِّ النِّزاع والفُرقةِ بين أبناء المجتمعِ الواحدِ، وسوف يكون بحثُنا مقسَّمًا إلىٰ المحاور التَّالية:

المحور الأوَّل: مقدِّمةٌ عن التعريف بالتبرُّك لغةً واصطلاحًا، وبيانُ صوره وأشكاله.

المحور الثَّاني: استحباب التبرُّك برسولِ الله ﷺ.

المحور الثَّالث: استحباب التبرُّك بزيارة قبر رسول الله ﷺ.

المحور الرَّابع: استحباب التَّبرُّك بزيارة قبورِ الصَّالحين. ◆

مقدِّمةٌ عن التعريف بالتبرُّك لغةً واصطلاحًا، وبيان صوره وأشكاله

أولًا: المقدِّمة:

التبرُّكُ في حقِيقتِه هو طلبُ النَّفحاتِ الإلهيَّةِ والعطايا الرَّبانيَّةِ والتعرُّضُ لها، وهذه النَّفحاتُ والعطايا هبةٌ من الله سبحانَه وتعالىٰ، متنوِّعة الأشكال والصُّور والهيئات، يُرزقُ بها العبدُ المسلمُ حين يتقرَّبُ إلىٰ الله بفِعلٍ أو قولٍ أو حركةٍ أو اعتقادٍ.

فعلىٰ سبيل المثال نحنُ نطلبُ البَركةَ من الله حين نتدارسُ كتابَه العزيز، ونطلب البركةَ مِن الله ونتقرَّب إليه ونتوسَّل إليه حين نذكُره سبحانه وتعالىٰ، ونطلبها من الله حين نصلِّي أو نصومُ، وكذلك حين نذكرُ رسولَ الله وشمائلَه، ونطلبُها بالْتماسِ آثارِ رسول الله ﷺ وما يخصُّ ذاته الشَّريفةَ ومتعلَّقاتِه، أو حين زيارةِ عالمٍ أو عبدٍ من عباد الله الصَّالحين أحياء أو أموات، فإنَّنا بهذه الأفعالِ والأقوالِ نتعرَّض للعطايا الإلهيَّة والمنح الرَّبانيَّةِ الَّتي نجني من خلالها البركةَ، وهذه البركةُ لا يُعبِّرُ عنها القلم بقَدْرِ ما يَستشْعِرُها القلبُ وتنعمُ بها الرُّوحُ.

وإنَّ الدَّافعَ لطلبِ البركةِ هو المحبَّةُ القلبيَّةُ التي تُحرِّكنا لفعلٍ أو قولٍ نتقرَّبُ به إلىٰ الله لطلبِ الخيرات الَّتي تترتَّب علىٰ هذا الفعل أو القولِ؛ فعلىٰ سبيل المثال أنت تتقرَّبُ إلىٰ الله بمحبَّة أهل العلم والصَّالحينَ لأنَّك ترىٰ فيهم أنهم أهلُ الله ويأخذونَ بيدك إلىٰ الله، فالَّذي دفعَك لمحبَّتهم هو حرصُك علىٰ السَّعي في رضا الله بذلك الفِعلِ، وهنا يحدثُ العطاء الإلهيُّ المتعدِّد الصُّور الَّذي لا يقع تحت حصرٍ، وهُو ما يسمَّىٰ بالبركة، وذلك يَسري علىٰ جميع أشكال وصور التبرُّك وطلب حصول الخير الإلهي، فالدَّافع لطلب البركة هو المحبَّة والتَّقدير والإجلالُ للمتبرَّك به سواءٌ أكان إنسانًا أو زمانًا أو مكانًا أو عَينًا من الأعيانِ.

فالبركةُ الَّتي تُصيبُك هي جزاءُ صدق المحبَّة والتَّوجُّه القلبيِّ إلىٰ الله، لكي ينزلَ عليك بركاته ورحماته، والمسلم في ذلك كلِّه لا يُثبت أيَّ تأثير أو ذاتيَّة في جلب نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ لأيِّ مخلوقٍ مِن مخلوقاتِ الله تعالىٰ أو أيِّ شيءٍ ماديٍّ، إنَّما النَّافع الضَّارُّ هو الله، والمعطي المانعُ هو الله، وما التبرُّكُ إلَّا توسُّلٌ إلىٰ الله تعالىَ أن يَهبَ وأن يَمنحَ ويتفضَّلَ عند فِعلٍ مُعيَّنٍ أو قولٍ أو حركةٍ أو توجُّهٍ قلبيٍّ.

ثانيًا: تعريفُ التبرُّك:

التَّبرُّكُ لغةً: طلبُ البركةِ، والبركةُ هي النَّماءُ والزِّيادةُ، والتَّبريكُ: الدُّعاءُ للإِنسانِ بالبركةِ. وبارَكَ الله الشيءَ وبارَكَ فيه وعليْه: وضعَ فيه البركةَ، وفي التَّنزيل: ﴿وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 155].

وتبركتُ به: تيمَّنتُ به. قال الرَّاغبُ الأصفهانيُّ: البركةُ ثُبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ. قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:96]. ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء:50] تَنْبيهًا علىٰ ما يَفيضُ به مِنَ الخيراتِ الإلهيَّةِ.

أمَّا التَّبرُّكُ اصطلاحًا فهُو: طلبُ ثُبُوتِ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ. وقالَ ابن الأنباريِّ: تبارك الله. أي: يُتبرَّك باسْمِه في كلِّ أمرٍ[1].

والبركةُ بِمعناها العام: هِي زيادةٌ ونماءٌ في شيءٍ يُريدُه المُتبرِّكُ في تبركِه بما تبرَّك به.

ثالثًا: صور وأشكالُ التبرُّك والبركة في الإسلامِ:

صُور وأشكالُ التَّبرُّكِ والبركةِ كثيرةٌ ومتعدِّدةٌ في حياتِنا ودينِنا، وهذا من فَضْلِ الله علينا كي نَسعدَ في الدُّنيا ونرىٰ جمالَ وجلالَ دينِنا، فهناكَ البركةُ الدنيويةُ والبركةُ الدينيَّةُ

(1) انظر: تاج العروس (باب الكاف فصل الراء مع الباء)، الموسوعة الفقهية الكويتية (10/69).

والبركةُ الَّتي تكونُ دينيَّة ودنيويَّة، ومِنْ أمثلةِ ذلك التبرُّك بالقرآن الكريم وقراءاته والنَّظر فيه، ثم تطبيق ما فيه من آياتٍ وأحكامٍ وأوامرَ ونواهٍ.

أيضًا التَّبركُ بسنَّةِ النَّبيِّ ﷺ وتطبيقِها والالتزام بتعاليمه، وأنَّه ﷺ ما ترك شيئًا من الخير إلَّا ودلَّنا عليْه وما ترك شيئًا من الشَّرِّ إلا ونهانا عنه، كذلك التَّبرك بالأنبياء والرسل صلواتُ الله عليهم أجمعين، مثل زيارة مقامِهِمْ والدُّعاء بدعائهم الوارد في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

أيضًا التبرُّكُ بالصَّالحينَ من البشرِ عن طريقِ طلبِ الدُّعاءِ منهم وهم أحياء وزيارة مقامهم بعد موتِهم والدُّعاء لهم وقراءة ما تيسَّرَ من القرآن عند مقامِهِمْ. أيضًا التبرُّك وطلب البركة بالأماكن، وأفضل الأماكن التي تُطلبُ البركةُ فيها بيوت الله وخاصَّة المساجد الثَّلاثة: المسجد الحرام ومسجد سيِّدنا رسول الله والمسجد الأقصىٰ؛ فهذه خيرُ بقاعِ الأرض سار فيها خيرُ الناس وخير العالمين، فالبركةُ فيها مطلوبةٌ والتبرك بها بُغية كل طالب، كذلك التبركُ بمجالسِ العلم والذِّكر واجتماعِ الصَّالحينَ من أهل الله الذين يتصفون بالورع والتَّدين.

أيضًا التبرُّكُ وطلب البركة بالأزمنة وما فيها من نفحاتٍ مثل شهر رمضان، وأيام العَشر من ذي الحجَّة، ويوم عرفة، والأشهر الحرم، وليلة القدر، ويوم الجمعة، ووقت السَّحر، وليلة الإسراء والمعراج، ويوم مولد النَّبيِّ ﷺ، ووقت السَّحور، وغير ذلك من صُور التَّبرُّكِ الَّتي لا يَسعُنا في هذا المقامِ ذكرُها.

لكن أهم ما يمكنُ أن نتحدَّث عنه في هذا المقامِ هو التبرُّك بسيِّدنا رسول الله ﷺ، ومحاولة طلبِ البركةِ عنده ﷺ، أيضًا التبرُّك بأهل بيتِه الشَّريفِ ﷺ والعلماء الرَّبانيِّينَ والصَّالحين أهلِ الله، وذلك في محاولة للوُقوفِ علىٰ جلالِ الاهتمام بهذا الأمرِ، وهذا ما سنوضِّحُه في الحديثِ الآتي. ◆

استحباب التبرُّك برَسُولِ الله ﷺ

أجمعتْ أمَّةُ الإسلامِ قاطِبةً في القديمِ والحديثِ علىٰ استحبابِ ونَدْبِ وجوازِ التبرُّكِ برسولِ الله ﷺ وجميع ما يتعلَّق بذاتِه الكريمةِ ومتعلَّقاته وما يخصُّه، وما كان يلمسُه أو يحبُّه صلواتُ الله وسلامُه عليه، وذلك في حياتِه وبعد وفاتِه ﷺ ولم يخالفْ في ذلك أحدٌ.

فعِظَمُ مقامِ رسولِ الله ﷺ عند ربِّه وجليل منزلتِه وقُربه من ربِّ العالمينَ وأنَّه أفضلُ الخلقِ علىٰ الإطلاق أمرٌ لا شكَّ فيه، وأنه لا يُدانيه في مكانتِه من الرَّحمن أحدٌ من المخلوقاتِ فهو كما قيل فيه ﷺ:

فَمَبْلغُ العِلْمِ فيه أنَّه بشرٌ وأنَّه خيرُ خَلقِ الله كلِّهمِ

هذا النَّبيُّ الكريمُ الَّذي أثنىٰ عليْه ربُّ العالمين سبحانَه وزكَّاه في كتابِه الكريمِ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. ووصفَه بأنَّه رحمةٌ لكلِّ الخلق: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. وجعله عصمةً للخلق من العذاب: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]. وخصَّه سبحانَه وتعالىٰ بأنَّه خاتم الرُّسلِ والنَّبيين الَّذين يحملونَ رسالاتِه إلىٰ خلقِه، وجعل كتابَه خيرَ الكتبِ وأكملَها وأمَّتَه خيرَ الأمم، وجعل رسالتَه للخلقِ كافَّةً وليست إلىٰ قومه فقطْ كما كان حالُ الأنبياءِ والمرسلينَ، وكان إمامَ الأنبياء والمرسلينَ ومُقدَّمهم في الصَّلاة لربِّ العالمين ليلةَ الإسراء في بيتِ المقدسِ، وجعل طاعتَه ﷺ من طاعة الله، وخاطبَه في القرآن بالتَّعظيم والتَّبجيل والإكرام، وأقسَمَ سبحانه بحياتِه ولم يُقسِمْ بحياةِ غيره من النَّبيينَ، وخصَّه بالإسراءِ والمعراجِ والوُصولِ إلىٰ أعلىٰ مكانةٍ ومكانٍ، وكلَّمه سبحانه وتعالَىٰ مباشرةً دون واسطةٍ، وأرَاه الآياتِ الكبرىٰ في تلك اللَّيلة، وجعلَه صاحبَ مقام الشَّفاعةِ العظمىٰ للخلقِ أجمعينَ مؤمنِهم وكافرِهم لكي يبدأ الحسابُ يوم القيامةِ، وخصَّه بالدَّرجةِ العاليةِ الرَّفيعةِ والوسيلةِ والفضِيلةِ.

ففضْلُ رسولِ الله ﷺ ومنزلتُه عند ربِّه لا يُحيطُ بها وصفُ واصفٍ ولا قلمُ كاتبٍ، بل هو كما أثنىٰ عليه ربُّه وزكّاه وأخبرَ عنه صلواتُ الله وسلامُه عليْه، وخصائصُه ومناقبُه وشمائلُه صلواتُ الله وسلامُه عليه وما أعطاهُ ربُّه مِن عظيمِ الفضلِ وجليلِ المكانة أمرٌ مُقدَّرٌ في الأزلِ من الله سبحانَه وتعالىٰ ومُستمرٌّ إلىٰ الأبد، فنبوته ﷺ وصفٌ لازمٌ له لا تنفكُّ عنه حتّىٰ مِن قبل وجودِه في دار الحياةِ الدُّنيا.

ويؤكِّدُ هذا الأمرَ الحديثُ الّذي رواه الحاكمُ في المستدركِ من حديثِ عمر بن الخطّابِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((لَمَّا اقترفَ آدمُ الخَطِيئةَ قال: يا ربِّ أسألُك بحقِّ محمَّدٍ لما غفرتَ لي، فقال الله: يا آدمُ، وكيف عرفتَ محمَّدًا ولم أخلُقْه؟ قال: يا ربِّ لَمَّا خلقتَني بيدكَ ونفختَ فيَّ مِن رُوحكَ رفعتُ رأسي فرأيتُ علىٰ قوائمِ العرشِ مكتوبًا لا إله إلا الله محمَّدٌ رسولُ الله فعلِمتُ أنَّك لم تُضِفْ إلىٰ اسمِكَ إلَّا أحبَّ الخلقِ إليكَ، فقال الله: صدقتَ يا آدمُ إنَّه لأحبُّ الخلق إليَّ، ادعني بحقِّه فقد غَفرتُ لك، ولولا مُحمَّدٌ ما خلقتُكَ))[1].

---

(1) أخرجَه الحاكم في مستدركه (2/615) وبنحوه الطَّبرانيُّ في الأوسط (6502) من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه به مرفوعًا، والحديثُ وإن كان في إسنادِه ضَعفٌ؛ إلَّا أنَّ له شاهدًا يتقوَّىٰ به؛ أخرجه ابن الجوزيِّ في ((الوفا بفضائل المصطفىٰ)) نقله عنه ابن تيميَّةَ في مجموع الفتاوىٰ (2/150) مُستشهدًا به من طريق ابن بشران، حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو، حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح، ثنا محمد بن صالح، ثنا محمد بن سنان العوفي، ثنا إبراهيم بن طهمان، عن يزيد بن ميسرة، عن عبدالله بن سفيان، عن ميسرة قال: قلت: يا رسولَ الله، متىٰ كنتَ نبيًّا؟ قال: ((لَمَّا خلق الله الأرضَ واستوىٰ إلىٰ السَّماء فسوَّاهنَّ سبع سمواتٍ وخلق العرشَ كتبَ علىٰ ساقِ العرش: محمدٌ رسولُ الله خاتَم الأنبياء، وخلق الله الجنَّةَ التي أسكنها آدمَ وحواءَ، فكتب اسمي علىٰ الأبواب والأوراقِ والقِباب والخيام، وآدمُ بين الرُّوحِ والجسدِ، فلمَّا أحياهُ الله تعالىٰ نظر إلىٰ العرشِ فرأىٰ اسمي فأخبرَه الله أنَّه سيِّدُ ولدِك، فلمَّا غرَّهما الشَّيطانُ تابا واستشفَعا باسمي إليه)).

وللحديث طُرُقٌ وشواهدُ أخرىٰ يتقوَّىٰ بها.

وراجع: الرَّد المحكم المتين لأبي الفضل عبدالله محمد الصِّديق الغماري (ص 122-140) مكتبة القاهرة- الطبعة الثالثة- 1986م.

وانظر أيضًا: رفع المنارة لتخريج أحاديث التَّوسل والزيارة (ص 242- 249) تأليف: د. محمود سعيد ممدوح- دار الإمام الترمذي- الطبعة الثانية- 1997م.

فنبوَّتُه- صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- ومنزلتُه ومكانتُه مستمرَّةٌ حتَّىٰ بعد انتقالِه من هذه الحياة الدُّنيا، وما أعطاهُ الله له من الكراماتِ والمعجزاتِ والبركاتِ لم ينقطعْ بوفاتِه بل هو مستمرٌّ ودائم، وإمدادُ الله له لا ينتهي أبدًا صلواتُ ربِّي وسلامُه عليه.

فهذا هُو رسولُ اللهِ محمَّد خِيرةُ اللهِ مِن خلقِه، والذي يجبُ علىٰ كلِّ مسلمٍ مؤمنٍ أن يُنزلَه المنزلةَ اللَّائقة به ﷺ، وأن يجعلَ له من التَّوقيرِ والإجلالِ والمحبَّةِ ما يكافئُ منزلته وفضلَه ﷺ، وأنْ يكون قلبُ المسلمِ موصولًا بمحبَّة النَّبيِّ ﷺ، فليس هناك أحدٌ- أخي الكريم- أولَىٰ برسولِ الله منك ولا أَولَىٰ بكَ مِنهُ ﷺ، وكيف لا وقد قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6]. فهُو أولىٰ بك مِن نفسِك الَّتي بين جَنبَيْك، أليس هو حبيبَك محمَّدًا الَّذي دلَّك علىٰ الخير في الدُّنيا والآخرةِ؟ أيكونُ مَن سبقَنا مِن أمَّةِ الإسلامِ أولىٰ بهِ منَّا؟! فحبُّه ومودَّتُه وتوقيرُه ﷺ وتعظيمُ أمرِه ونهيه ومراعاةُ جنابه الشَّريف كلُّ هذا من دلائلِ الإيمانِ واستقامَةِ العقيدة، فبِه وبواسطتِه ﷺ يُكرمُك الله بجنَّةٍ عرضُها السَّمواتُ والأرضُ، ويُنجيك مِن عذابِ الجحيم.

ومِن علاماتِ حُبِّه ﷺ حبُّ ما يحبُّ وبُغضُ ما يُبغضُه ومتابعةُ هديه الكريمِ في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، ومِن أهمِّ مظاهر التَّوقيرِ والتَّعظيمِ والإجلالِ لرسولِ الله ﷺ التبرُّكُ به وبآثارِه ﷺ، فلا نحرمُ أنفسنا من هذا الباب المفتوحِ للخيرِ.

والتبرُّكُ بسيدنا رسولِ الله ﷺ يأخُذُ صُورًا شتَّىٰ وهيئاتٍ متعدِّدةً، وأوقاتٍ مختلفةً، فهو من الكثرة بمكانٍ تبعًا لعُلوِّ مقامِه ﷺ، وسوفَ نذكُرُ أهمَّ ما يتبرك به ﷺ، وهُو التبرُّكُ باسمِه الشَّريفِ ﷺ، والتبرك برؤيتِه والانتفاع بها يقظةً ومنامًا، ثمَّ بعد ذلك التبرُّك بجسده الشَّريف ﷺ؛ ومنها التبرُّك بشعَرِه وعَرَقِه ولُعابِه ونُخامتِه ﷺ، وذلكَ علىٰ النَّحو التالي:

أولًا: التَّبرُّك باسمِه الشَّريفِ ﷺ:

تبرَّك المُسلمونَ علىٰ مرِّ السِّنينَ بتسميةِ مَن يُولدُ لهم باسمِ النَّبيِّ ﷺ تيمنًا وتبركًا باسمه الشَّريف، فقد أخرجَ ابن بكير في فضائل التَّسمية بأحمد ومحمد من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((مَن وُلِدَ له مَولودٌ فسمَّاه محمَّدًا حبًّا وتبركًا باسْمي فإنَّه هُو ومَولودُه في الجنَّة))[1].

وقد وَردَتْ أحاديث كثيرة غير الحديث السَّابقِ، والتي تدلُّ علىٰ فضل التَّسميةِ باسم رسولِ الله ﷺ والتَّبرُّكِ به.

فقد أوردَ ذلك الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله في الأذكار حيث قال: رُوِّينا في كتاب ابن السُّنيِّ عن الهيثم بن حنش قال: كنَّا عندَ عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فخَدِرَتْ رِجلُه فقال له رجلٌ: اذكر أحبَّ الناس إليك فقال: يا محمَّدُ ﷺ. فكأنَّما نَشِطَ من عقَال[2].

وخَدِرَتْ رجلُه أي أنَّه لا يَستطيعُ أن يُحركَها، فهنا نرىٰ بركة اسم النبيِّ ﷺ وما له من فضلٍ علىٰ مَنْ تسمَّىٰ بهذا الاسم.

ثانيًا: التبرُّكُ برؤيتِه ﷺ والانتفاعِ بها وذلك حالَ حياته أو في المَنام:

قال الله سبحانَه وتعالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يونس:43].

إنَّ النَّظرَ إلىٰ رسولِ الله ﷺ بسَمتِه و هَديه وجميلِ صورتِه آيةٌ من آيات الله تعالىٰ

---

(1) أخرجَه ابن بكير في فضائل التَّسمية بأحمد ومحمد (ص 39)، وقاضي المارستان في المشيخة الكبرىٰ (1041/3) من طريق حامد بن حماد بن المبارك العسكري، ثنا إسحاق بن يسار أبو يعقوب النَّصيبي، حدثنا حجاج ابن المنهال، حدثنا حمَّاد بن سلمة، عن بُرْد بن سِنان، عن مكحول عن أبي أُمامة به مرفوعًا.

وذكره السُّيوطي في اللآلئ المصنوعة (97/1)، وقال: ((هذا أمثلُ حديث وَرَدَ في الباب وإسناده حسن)).

(2) الأذكار للنَّوويِّ (ص 492)، وانظر: إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين (ص 50 و51) تأليف الشيخ: عثمان عمر داود- مراجعة: الشَّيخ عبدالنَّاصر علي حسين- لاهور- باكستان- الطَّبعة الثانية- 1425هـ.

تخضَعُ لها القلوبُ، وتسلم العقولُ أنَّه رسولٌ مِن عندِ الله سبحانه تنتفعُ الرُّوح برؤيته وينفتحُ القلبُ للإيمانِ به.

ففي الصَّحيحيْنِ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: يأتي على النَّاس زمانٌ يغزو فِئامٌ من النَّاس فيقالُ لهم: فيكم مَن رأى رسولَ الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم، ثم يغزو فِئامٌ من النَّاس. فيُقال لهم: فيكم مَن رأى مَن صَحِبَ رسولَ الله ﷺ؟ فيقولونَ: نعم، فيُفتح لهم، ثمَّ يغزو فِئامٌ من النَّاس فيُقال لهم: هل فيكم مَن رأى مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم[1]. والفِئامُ بكسْرِ الفاء أي الجماعة.

ففي هذا الحديثِ أخِي الكريم يَتبيَّنُ لنا أنَّ رؤيةَ النَّبي ﷺ وصُحبتَه تجلبُ بركةً لمَنْ رآه ولمَن رأى صحابةَ رسول الله ﷺ، فرؤيته ﷺ تعدُّ سببًا للبركة واليقينِ والإيمانِ، فقد كان الكفَّارُ لمجرَّدِ رؤيتِهم لرسولِ الله ﷺ وهيئتِه يعرفون صِدْقَه وأنَّه نبيٌّ ورسولٌ من عند الله حقًّا؛ كما حدث مع الحَبر عبدالله بن سلَام وهو مِن علماء اليهود، الَّذي أتى النَّبيَّ ﷺ عند مقدَمِه المدينة فقال عندما رآه: «فعرفتُ أنَّ وجهَه ليس بوجه كذَّاب»[2].

وقد أجمع العلماءُ على أنَّ الصَّحابةَ رِضوانُ الله عليهم أفضلُ مِنَ الذين جاءوا بعدهم بلا خلافٍ، وذلك لشَرفِ الصُّحبة والرُّؤية لرسول الله ﷺ، قال العلماءُ: إنَّ إدراكَ صحبةِ رسول الله ﷺ لحظةً خيرٌ وفضيلةٌ لا يُوازيها عملٌ، ولا تُنالُ درجتُها بشيءٍ[3].

---

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب المناقب، باب علامات النبوةِ في الإسلام (3594) ومسلم في كتابِ فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونَهم ثم الذين يلونُهم (2532).

(2) جزءٌ من حديث أخرجه الترمذيُّ في كتاب صفة القيامة والرَّقائق والورع، باب ما جاءَ في صفة أواني الحوض (2485) وابن ماجَه في كتاب إقامة الصَّلاة والسنة فيها، باب ما جاءَ في قيام اللَّيل (1334) وابن أبي شيبةَ في مصنَّفه (25898) وأحمد في مسنده (5/ 451) والدارميُّ في سننه (1501) من طريق عوف بن أبي جميلة الأعرابي عن زرارة بن أوفى عن عبدالله بن سلام به. وقال الترمذيُّ: «حديثٌ صحيحٌ».

(3) عمدة القارِي شرح صحيحِ البُخاريِّ (6/129) تأليف: أبي محمد محمود بن أحمد الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني- دار الفكر- بيروت.

ورؤيتُه ﷺ في النَّوم فيها من البركةِ والخير ما لا يُحصَىٰ ولا يُعدُّ، وتدلُّ علىٰ صلاحِ الشَّخص وحُسن الخاتمة، وتُبشِّر برؤيتِه ﷺ في الآخرةِ بأن لا يكونَ من المحجوبين عنه ﷺ.

ثالثًا: التبرُّك بجسدِه الشَّريف ﷺ؛ منها التبرُّك بشعَرِه وعرقِه ولعابِه ونُخامتِه ﷺ:

مِن المعلوم أخِي الكريم أنَّ الصَّحابة رضوانُ الله عليهم كانُوا يتبركونَ بآثارِ رسول الله ﷺ في حياتِه وبعد مماتِه، ولا زالَ المسلمونَ بعدهُم إلىٰ يومِنا هذا علىٰ هذا النَّحو، وجواز هذا الأمرِ يُعرَفُ من أفعالِ النَّبيِّ ﷺ مع الصَّحابةِ وأفعالِ الصَّحابة مع رسولِ الله ﷺ.

كان الصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم يلتمسونَ أيَّةَ مناسبةٍ لمسِّ جسدِ رسول الله والنَّيلِ من بركتِه ﷺ؛ ففي غزوة بدر كان رسولُ الله ﷺ يقومُ بتعديل صفوف المسلمين ويُسوِّي بينها، وكان في يدَيه قدحٌ، وهو شيءٌ يُشبه العَصا القَصيرةَ، يعدل بها، وكان سَوَاد بن غَزِيَّة مستنصلًا من الصَّفِّ فطعنه ﷺ في بطنه بالقدح وقال: ((استوِ يا سَوَاد)) فقال سَواد: يا رسول الله أوجعتني فَأَقِدْنِي. فكشف ﷺ عن بطنِه وقال: ((استَقِد)) فاعتنقَه سواد وقبَّل بطنه فقال ﷺ: ((ما حَملَكَ علىٰ هذا يا سَواد؟)) قال: يا رسول الله قد حضرَ ما ترىٰ فأردتُ أن يكون آخِرَ العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدَك فدعا له رسولُ الله ﷺ بخَيرٍ[1].

- وقد روىٰ البخاريُّ في صحيحه- عند الحديث عن صلح الحديبية- صورةً مِن صور تبرُّك ومحبَّة الصَّحابة لرسول الله ﷺ حين وفدَ عليه رجلٌ من مشركي قريشٍ ليُكلِّمَ

(1) أخرجَه ابنُ هشامٍ في سيرتِه (626/1)، والطَّبريُّ في تاريخِه (446/2)، وأبو نعيمٍ في معرفةِ الصَّحابة (1404/3)، وابن الأثيرِ في أسدِ الغابة (332/2) من طريق ابن إسحاق قال: وحدَّثني حبَّان بنُ واسع بن حبَّان عن أشياخٍ من قومه به. وله شاهدٌ من حديث الحسن مرسل؛ أخرجَه ابنُ سعد في الطَّبقاتِ (478/3) من طريقِ إسماعيلَ بن إبراهيم، عن أيوب، عن الحسنِ بنحوِه. ورواتُه ثقات.

النبيَّ ﷺ في أمرِ الصُّلح، ولندع رجلًا من المشركينَ وهو عُروة بن مسعود- ولم يكن قد أسلمَ حينها ﷺ- يَصِفُ لنا حالَ الصَّحابة مع رسُولِ الله ﷺ، وذلك عندما رَجعَ عروةُ إلىٰ أصحابِه قال لهم: ((أي قوم، والله لقد وفدتُ علىٰ الملوكِ ووفدتُ علىٰ قَيصر وكِسرىٰ والنَّجاشي، والله إن رأيتُ مِلِكًا قَطُّ يعظِّمُه أصحابه ما يعظِّم أصحابُ مُحمَّد محمَّدًا ﷺ، والله إنْ تنخَّم نُخامةً إلَّا وقعتْ في كفِّ رجلٍ منهم فدَلكَ بها وجهَه وجلدَه، وإذا أمرَهم ابتدرُوا أمرَه، وإذا توضَّأ كادُوا يقتتلونَ علىٰ وَضوئِه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتَهم عندَه، وما يحدُّون إليه النَّظر تعظيمًا له))[1].

قال الحافظُ ابن حجر: ((وفيه- أي هذا الحديثِ- طهارة النُّخامة والشعر المنفصل والتَّبرك بفضلاتِ الصَّالحينَ الطَّاهرة))[2].

أيضًا روىٰ البخاريُّ عن أنسٍ بن مالك ﷺ قال: إنَّ أمَّ سُليم كانتْ تبسط للنَّبي ﷺ نطعًا فيَقيلُ عندَها علىٰ ذلك النِّطع، قال: فإذا نامَ النَّبيُّ ﷺ أخذَتْ مِن عَرقه وشَعره فجمعتْه في قارُورةٍ ثمَّ جمعتْه في سُكٍّ، فلمَّا حضرت أنسَ بن مالك الوفاةُ أوصىٰ أن يجعلَ في حَنوطه من ذلك السُّكِّ[3].

والنِّطعُ بكسْرِ النُّونِ هُو البِساطُ الذي يُبسطُ للجُلوسِ عليه، والسُّكُّ بضمِّ السِّينِ وتشديدِ الكاف عبارة عن طِيبٍ مُركَّبٍ.

وفي رِواياتٍ أخرىٰ: أنَّ أمَّ سُليمٍ قالتْ لرسول الله عندما سألها عمَّا تفعلُه، قالتْ: يا رسول الله نجعله في طِيبِنا[4]. أي: تَضَعُ عرقَه الشَّريفَ ﷺ في زُجاجاتِ العطرِ الخاصَّةِ بهم تبرُّكًا به.

---

(1) جزءٌ من حديث أخرجه البخاريُّ في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (2731) من حديثِ المِسور بن مَخرمة ومَرْوان بن الحكم مُطوَّلًا.

(2) انظر: فتح الباري (341/5).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان، باب من زار قومًا فقال عندهم (6281).

(4) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب طيب عرق النبي ﷺ والتبرك به (2331) من حديث أنس ﷺ.

وفي رِوايةٍ أخرىٰ: أنَّه ﷺ لَمَّا قالَ لأمِّ سُليمٍ ما تَصْنعينَ؟ قالت له: آخذُ هذا للبركة الَّتي تخرجُ منك[1].

ومِن صور التبرُّك برسول الله ﷺ الثَّابتة في السُّنَّة ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أنس رضي الله عنه قال: ((لَمَّا ولدَتْ أمُّ سُليم قالت لي: يا أنسُ انظرْ هذا الغلامَ، فلا يُصيبن شيئًا حتَّىٰ تغدوَ به إلىٰ النَّبيِّ ﷺ يُحنِّكه))[2].

والتَّحنيك: هو أن يمضغَ تمرةً فيضعَها في فمِ الطِّفل؛ ليكونَ أوَّل شيء يَصلُ إلىٰ جوفه هو ريقُ رسولِ الله ﷺ رجاءَ البركةِ.

وحدثَ ذلك أيضًا مع وِلادةِ سيِّدنا عبدالله بن الزُّبير إذْ حنَّكه رسولُ الله ﷺ بريقِه الشَّريف فكان أوَّلَ شيءٍ يصلُ إلىٰ جوفه، وسمَّاه رسولُ الله ﷺ عبدَالله ومسح جسدَه بيده الشَّريفة[3].

وفي الصَّحيحيْنِ في غزوة خيبرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((أين عليُّ بن أبي طالب؟)) فقالوا: هُو يا رسولَ الله يشتكي عينيْه، قال: ((فَأَرْسِلُوا إليه فَأْتوني به)). فلما جاء بَصَقَ في عينيه ودعَا له، فبرأ حتَّىٰ كأنْ لم يكُن به وجعٌ[4].

---

(1) أخرجه ابن سعد في الطَّبقات الكبرىٰ (10/ 398) من طريق عبدالله بن جعفر حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبدالكريم عن البراء بن زيد به مرسلًا.

(2) جزء من حديث متَّفقٍ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب اللباس، باب الخميصة السوداء (5824) ومسلمٌ في كتاب اللباس والزينة، باب جواز وسم الحيوانِ غير الآدميِّ في غير الوجه، وندبه في نَعم الزكاة والجِزية (2119).

(3) ورد ذلك في حديثٍ متفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابِه إلىٰ المدينة (3910)، ومسلمٌ في كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادتِه وحمله إلىٰ صالحٍ يحنِّكه... (2146) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(4) جزء من حديث متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه (3701)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (2406) من حديث سهل بن سعدٍ رضي الله عنه.

وعن أمِّ محمَّد بن حاطب رضي الله عنها أنها قالتْ لابنها: أقبلتُ بكَ من أرض الحبشةِ حتَّىٰ إذا كنتُ منَ المدينة بليلةٍ أو ليلتيْنِ طبختُ لك طبيخًا ففَنِي الحطبُ فرحت لطلبِ الحطبِ فتناولتَ القِدرَ فانكفأت علىٰ ذِراعك فقَدِمتُ المدينةَ فأتيتُ بك النَّبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله هذا محمَّد بن حاطب وهُو أوَّل من سُمِّي بكَ، فمسح علىٰ رأسِكَ ودعا بالبركة، ثمَّ تَفَل في فِيكَ، وجعل يتفُل علىٰ يديك وهو يقول: «أَذهبِ البأسَ ربَّ النَّاس اشفِ أنت الشَّافي لا شفاءَ إلَّا شفاؤُك، شفاءً لا يغادرُ سقمًا». قالت: فما قُمتُ من عنده حتَّىٰ برئتْ يدُك[1].

فلا عجب فإنَّ رسولَ الله ﷺ هو بركةُ هذا الوُجود وهُو الطَّاهرُ المطهَّرُ، وجميع ما يخرج منه طاهرٌ ﷺ وسببٌ لحدُوثِ البركةِ والشِّفاء، ويَشْهدُ لذلكَ حرصُ الصَّحابة علىٰ التِماس بركة جسدِ رسول الله ﷺ.

وكان المسلمونَ يتبركونَ بالشربِ من مياه الآبار التي شَرِبَ منها النَّبيُّ ﷺ أو استعملَها أو بَصقَ فيها وباركها؛ فقد ذكر الفقهاءُ والعلماءُ أنَّه ﷺ بَصَقَ في آبار المدينة المنوَّرة، وأنه يسنُّ الشُّرب منها، وذكر الهيتميُّ منها سبعة في حاشيته علىٰ (مناسك الحج) للإمام النوويِّ رحمهما الله تعالىٰ[2] وهي:

(1) أخرجَه أحمدُ في مسنده (418/3)، وابن أبي الدنيا في النَّفقة علىٰ العيال (1/ 409)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (2/ 85)، والبخاريُّ في التاريخ الكبير (1/ 17)، وابن حبان في صحيحِه (2977)، والطبراني في الكبير (24/ 363)، والحاكم في مستدركه (4/ 62- 63) من طريق عبدالرحمن بن عثمان بن إبراهيم بن حاطب قال: حدَّثني أبي عن جده محمد بن حاطب عن أمِّه أمِّ جميل رضي الله عنها به. وسكتَ عنه الحاكمُ وكذا الذَّهبيُّ.

وأخرجَه من غير هذا الوجه الطَّيالسيُّ في مسنده (1290)، وأحمدُ في مسنده (259/4)، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (ص151)، والنَّسائيُّ في الكبرىٰ (10796)، وابن حبان في صحيحه (2976)، والطَّبرانيُّ في الكبير (240/19) من طريق شعبة عن سماك بن حرب قال: سمعتُ محمد بن حاطب يقولُ: وقعت علىٰ يدي القِدرُ فاحترقت فانطلقَتْ بي أُمِّي إلىٰ رسولِ الله ﷺ فجعل يتفُل عليها ويقول: «أذهبِ البأسَ ربَّ الناسِ» وأحسبه قال: «واشفِ أنتَ الشَّافي». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (194/5): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(2) حاشية ابن حجر الهيتمي علىٰ شرح الإيضاح في مناسك الحج (ص508- 509). دار الحديث-

1- بئر غرس.

2- وبئر بُضاعة، وقالت عنها أسماء بنت أبي بكر ﭬ: ((كنَّا نغسل منها المرضَىٰ ثلاثةَ أيام فيعَافونَ))[1].

3- بئرُ أنس بن مالك ﭬ، وكان النَّبيُّ ﷺ بَزَقَ فيها فلم يكنْ بالمدينةِ أعذبُ منها[2].

4- بئر القراضة.

5- بئر إهاب.

6- بئر الفريضة.

7- بئر اليسيرة.

فكان المسلمونَ يشربونَ منها ويتبركونَ بها لبركة لُعَاب رسولِ الله ﷺ فيها أو وُضوئه منها ﷺ.

ورَوىٰ الإمامُ أحمد عن وائل بن حجر ما لفظُه: ((أَتىٰ رسولُ الله ﷺ بدلوٍ من ماء فشَربَ منه ثم مجَّ في الدلو ثمَّ في البئر، ففاحَ منه مثلُ ريح المسكِ))[3].

بيروت- المكتبة السلفية- المدينة المنورة.

(1) ذكره ياقوتُ الحموي في معجم البلدان (443/1)، والقزويني في آثارِ البلاد وأخبار العباد (ص 109). وأخرجه بنحوِه ابنُ سعد في الطَّبقات الكُبرىٰ (1/ 435) من طريق محمد بن عمر الأسلمي حدَّثني أبي بن عباس بن سهل بن سعد، عن أبيه قال: سمعتُ عدَّةً من أصحاب النبيِّ ﷺ فيهم أبو أسيد وأبو حميد وأبي سهل بن سعد يَقولونَ: أَتىٰ رسولُ الله ﷺ بئرَ بُضاعة فتوضَّأ في الدَّلو وردَّه في البئر، ومجَّ في الدَّلو مرةً أخرىٰ وبَصَقَ فيها وشَرِبَ من مائِها، وكان إذا مَرِضَ المريضُ في عهدِه يقول: ((اغْسلُوه من ماءِ بُضاعة)) فيُغسل فكأنَّما حَلَّ من عقال.

(2) أخرجه بنحوِه البزَّار في مسنده (7327) من طريقِ الوليد بن عمرو بن سكين، حدَّثنا محمد بن عبدالله ابن المثنىٰ، عن أبيه، عن ثمامة عن أنسٍ قال: ((أَتىٰ النبيُّ ﷺ منزلَنا فسقيْناه من بئرٍ لنا في دارنا كانت تُسمَّىٰ البَرور في الجاهليَّة فنهلَ فيها فكانت لا تَنزَحُ بَعدُ)). وقال البزَّار: ((هذا الحديثُ لا نعلمُ رواه إلا أنسٌ، ولا نعلم له طريقًا عن أنسٍ إلا هذا الطَّريق)). ورواتُه ثقاتٌ.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطَّهارة وسننها، باب المجِّ في الإناء (659)، والحميديُّ في مسندِه (910)، وأحمد في مسندِه (318/4)، والطَّبرانيُّ في الكبير (22/ 31) من طريق مِسعر، عن عبدالجبار بن وائل، عن أبيهِ به. وقال البوصيريُّ في مصباح الزُّجاجة (84/1): ((هذا إسنادٌ منقطعٌ؛ عبدالجبار لم يسمعْ من أبيه شيئًا. قاله ابن

- ورُوِيَ أنَّ نافعًا شيخَ القرَّاء كان إذا تكلَّم توجدُ مِن فِيهِ ريحُ المسكِ، فسُئلَ عنه؟ فقالَ: ((رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النَّوم تَفَلَ في فِي))[1].

- وكان المُسلمونَ يطلبونَ بركةَ رسولِ الله ويتبعونَ ذلك، روىٰ مسلمٌ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال: ((كان رسولُ الله ﷺ إذا صلَّىٰ الغداةَ جاء خدمُ المدينةِ بآنيتِهم فيها الماءُ فما يؤتَىٰ بإناءٍ إلا غمسَ يدَه فيها، فربَّما جاءُوه في الغداةِ الباردة فيَغمسُ يدَه فيها))[2].

قال النَّوويُّ رحمَه الله في شرحِه علىٰ صحيحِ مُسلم: ((في هذا الحديثِ صبرُه ﷺ علىٰ المشقَّة في نفسِه لمصلحة المسلمينَ وإجابتُه مَن سأله حاجةً أو تبريكًا بمسِّ يده وإدخالها في الماء كما ذكرُوا، وفيه التبرُّك بآثارِ الصَّالحين وبيانُ ما كانَ عليه الصَّحابةُ من التبرُّكِ بآثارِه ﷺ وتبركِهم بإدخالِ يدِه الكريمةِ في الآنيةِ))[3].

وروىٰ التِّرمذيُّ عن أمِّ ثابت كبشة بنتِ ثابت أخت حسَّان بن ثابت رضي الله عنهما قالت: ((دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فشَربَ مِن فِي قِربةٍ معلَّقةٍ قائمًا، فقمتُ إلىٰ فِيهَا فقطعتُه)). قال التِّرمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[4]. أي: فقطعتْ فمَ القربة لتحتفظَ بمكانٍ لامسَ فمَ رسولنا الكريم تبركًا به ﷺ.

=

معين والبخاريُّ)). وقد وصلَه أحمد في مسنده (4/ 315)، والطَّبرانيُّ في الكبير (22/ 51)، والبيهقيُّ في دلائل النبوة (257/1) من طريق مِسعر عن عبدالجبار بن وائل قال: حدَّثني أهلي عن أبي قال... به. ورواته كلهم ثقاتٌ، ولا تضر جهالةُ الرُّواة الذين حدَّثَ عنهم عبدُالجبار؛ لأنَّهم جمع.

(1) سير أعلام النبلاء (337/7).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من النَّاس وتبركهم به (2324).

(3) شرح صحيح مسلم للنَّوويِّ (82/15).

(4) أخرجه التِّرمذي في كتاب الأشربة، باب ما جاء في الرخصة في ذلك- عَقِبَ باب ما جاء في النهي عن اختناث الأسقية- (1892)، وابن ماجه في كتاب الأشربةِ، باب الشرب قائمًا (3423)، وابن حبَّانَ في صحيحِه (5318)، والطَّبرانيُّ في الكبير (15/25)، والبيهقيُّ في معرفة السُّنن (14468) من طريق سفيان بن عُيينة، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن عبدالرحمن بن أبي عَمرة، عن جدَّةٍ له يقال لها: كَبشة الأنصارية به.

وهذا نابعٌ من الحبِّ والمودَّة لرسول الله ﷺ ولِمَ لا؟ وسيِّدُنا محمَّد ﷺ أكرمُ الخلق علىٰ ربِّه وأطهرُهم وأزكاهم عنده سبحانه وتعالىٰ.

وهذا الصَّحابيُّ الجليل زاهر رضي الله عنه كان يُحضِرُ الأشياءَ للنَّبيِّ ﷺ من الباديةِ، وكان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقول: ((زاهرٌ باديتُنا ونحنُ حاضِرتُه)) وكان ﷺ يحبُّه، فمشىٰ ﷺ يومًا إلىٰ السُّوق فوجدَه قائمًا فجاء مِن قِبَل ظهرِه وضمَّه بيدِه إلىٰ صدره فأحسَّ زاهرٌ أنَّه رسول الله فجعلَ يمسحُ ظهرَه بصدرِ النَّبيِّ ﷺ رجاءَ البركة[1].

وهذا عبدالله بنُ الزُّبير يشربُ دمَ حجامة رسول الله رجاءَ البركة، وحينما سأله ﷺ: ((لِمَ فعلتَ ذلك؟)) قال: أحببتُ أن يكون دمُ رسول الله في جَوفي[2].

---

(1) أخرجه معمرٌ في جامعِه (19688- ملحق بمصنف عبدالرزاق)، وأحمدُ في مسنده (3/ 161)، والترمذيُّ في الشَّمائل (ص156)، والبزَّارُ في مسندِه (6922)، وأبو يَعلىٰ في مسنده (3456)، وابن حبَّانَ في صحيحِه (5790)، والبيهقيُّ في الكبرىٰ (10/ 248)، والضِّياء في المختارةِ (5/ 181) من طريق ثابت البُناني عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه بنحوِه. وصحَّحه الحافظُ ابنُ حجر في الإصابةِ في تمييز الصحابة (4/ 6- ترجمة زاهر بن حرام الأشجعيِّ).

(2) أخرجه ابن الغطريف في جزئه (ص 104)، وأبو نُعيم في حلية الأولياء (1/330) من طريق سعد أبو عاصم مولىٰ سُليمان بن علي عن كَيسان مولىٰ عبدالله بن الزبير قال: أخبرني سَلْمان الفارسي أنَّه دخل علىٰ رسولِ الله ﷺ، وإذا عبدالله بن الزُّبير معه طَست فشَربَ ما فيه، فقال رسولُ الله ﷺ: ((ما شأنُك يا ابنَ أخي؟)) قال: إنِّي أحببتُ أن يكونَ من دم رسول الله ﷺ في جوفي، فقال: ((ويلٌ لكَ منَ النَّاس، وويلٌ للنَّاس منكَ، لا تمسُّك النَّارُ إلَّا قَسم اليمين)).

وله شاهدٌ من حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما؛ أخرجه الحاكمُ في مُستدرَكِه (3/ 554)، والبزَّار في مُسنده (2210)، وأبو نُعيم في مَعرفة الصَّحابة (3/ 1652) من طريقِ مُوسىٰ بن إسماعيل: ثنا الهُنيد بن القاسِم بن عبدالرَّحمن بن ماعِز قال: سَمعت عامر بن عبدالله بن الزُّبير يحدِّث أنَّ أباه حدَّثه أنَّه أتىٰ النبيَّ ﷺ وهو يحتَجم، فلمَّا فرَغ قال: ((يا عبدالله اذهَب بهذا الدَّم فأهرقه حيث لا يَراك أحدٌ)). فلمَّا برَزتُ عن رسولِ الله ﷺ عَمدتُ إلىٰ الدَّم فحَسوتُه، فلمَّا رجعتُ إلىٰ النبيِّ ﷺ قال: ((ما صَنعتَ يا عبدالله؟)) قال: جعَلته في مكان ظننتُ أنَّه خافٍ علىٰ النَّاس. قال: ((فلعلَّكَ شربتَه؟)) قلتُ: نعم. قال: ((ومَن أمرَك أن تشربَ الدَّم، ويلٌ لك من النَّاس وويلٌ للنَّاس منكَ)). وسكت عنه الحاكمُ وكذا الذهبي.

وقال البوصيريُّ في إتحاف الخيرة (4/ 434): ((هذا إسنادٌ حسنٌ)).

وهذا عبدالله بن عمر يتبعُ الأماكن الَّتي صلَّىٰ رسولُ الله فيها فيصلِّي فيها[1]، ويتبعُ أماكنَ مشيه ﷺ فيمشي عليها، ويضعُ يده علىٰ مقعد النبيِّ ﷺ من المنبر، ثمَّ يمسحُ بها وجهَه رجاءَ البركة[2]، وفَعَلَ ذلك كثيرٌ من الصَّحابةِ رضوانُ الله عليهم.

فهذا أيُّها الأخ المسلم الكريم حالُ صحابة رسول الله في تبركهم ومحبَّتِهم لرسولنا الكريم ﷺ، فبركتُه وطهارة وزكاء جسدِه الشَّريف لا حدَّ له، فليتَ في قُلوبنا مثلَ هذا الحبِّ وهذا التَّقدير لرسولنا الكريم ﷺ، وإن لم يتيسَّر لنا أن نحصُلَ علىٰ ما حصلَ عليه الصَّحابةُ الكرامُ فلنتبرَّكْ بمحبَّته وقراءة شمائلِه الشَّريفة وسِيرَته العطرَة وكثرة الصَّلاة عليه وتعظيم جنابه عسىٰ أن تُصيبنا نفحةٌ من بركاتِه ﷺ.

والتَّبرُّكُ بالنَّبيِّ ﷺ له كثيرٌ من الصُّور غير الثَّلاثة السَّابقة؛ وكلُّها وردتْ في السنة النبوية، ودلَّت عليه الأحاديث؛ فمن التبركِ به ﷺ التبرُّكُ بالإيمان بنبوَّته وعمومِ رسالتِه صلواتُ الله وسلامُه عليه، والتبركُ بالانتماءِ إلىٰ أُمَّته ﷺ، والتبرُّك بذكره وسِيرته وجهادِه في نَشرِ دين الله ﷺ، والتبرُّك بالشَّوقِ إليه ورجاء لقائه ﷺ، والتبرُّك بما يُفضِّلُه ويحبُّه ﷺ من ألوانِ الطَّعام والشرابِ والملبسِ وهيئة الجلسة وغير ذلك، والتبرُّك بخاتَم النُّبوَّةِ الَّذي كان علىٰ كَتِفه ﷺ، والتبرُّك بالمواضع الَّتي صلَّىٰ فيها صلواتُ الله وسلامُه عليه، والتبرُّك بموضِع قدمِه ﷺ، والتبرُّك بِمنبره ﷺ، والتبرُّك بثيابِه ﷺ وملابسه، والتبرُّك بما غَمَس يده فيه ﷺ، والتبرُّك بوضوئه ﷺ، والتبرُّك

---

(1) ورد ذلك في حديثٍ أخرجه البخاريُّ في كتاب الصَّلاة، باب المساجد الَّتي علىٰ طرق المدينة والمواضع التي صلَّىٰ فيها النبيُّ ﷺ (483) عن موسىٰ بن عقبة قال: ((رأيتُ سالم بن عبدالله يتحرَّىٰ أماكنَ من الطَّريق فيصلِّي فيها، ويحدِّث أنَّ أباه كان يصلي فيها، وأنَّه رأىٰ النبيَّ ﷺ يصلِّي في تلك الأمكنة)). وحدَّثني نافع عن ابن عمر: ((أنَّه كان يصلِّي في تلك الأمكنة)).

(2) أخرجه ابن سعدٍ في الطَّبقاتِ الكبرىٰ (218/1) من طريق محمد بن إسماعيل بن أبي فديك قال: أخبرني ابن أبي ذئب، عن حمزة بن أبي جعفر، عن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عبدالقاري: ((أنَّه نظر إلىٰ ابن عمر وضع يدَه علىٰ مقعدِ النبيِّ ﷺ من المنبر ثم وضعَها علىٰ وجهِه)). وذكره ابن حبانَ في الثِّقاتِ (9/4).

بدمِه ﷺ، والتبرُّك بيد مَن مسَّ رسول الله ﷺ، والتبرُّك بسيفه ﷺ، والتبرُّك بنعله ﷺ، والتبرُّك والاستشفاء بغسالة جُبَّتِه ﷺ، والتبرُّك بالآبارِ الَّتي كان يَشرب من مائها أو يستعملُها ﷺ. فهذه صورُ التبرُّكِ برسول الله ﷺ والتي وردتْ في كُتبِ السُّنَّة الشَّريفة.

استحباب التَّبرُّك بزيارة قبرِ رسول الله ﷺ

أجمعَ المسلمونَ أنَّ البقعةَ الشَّريفةَ الَّتي ضمَّتْ جسدَ المُصطفىٰ صلواتُ الله وسلامُه عليه أفضلُ بقعةٍ في السَّموات والأرض؛ وذلك لأنَّها احتوتْ علىٰ جسده الشَّريف ﷺ، وقد نقلَ الإجماعَ علىٰ هذا كثيرٌ من أهلِ العلم:

1- قال الإمام الحصكفيُّ الحنفي في الدر المختار: «لا حَرَمَ للمدينة عندنا ومكةُ أفضل منها علىٰ الراجح إلا ما ضمَّ أعضاءه عليه الصَّلاة والسَّلام فإنه أفضلُ مطلقًا حتَّىٰ من الكعبة والعرش والكرسي، وزيارةُ قبره مندوبةٌ، بل قيل واجبةٌ لَمَنْ له سَعَة»[1].

2- الإمامُ ابنُ عقيل الحنبليُّ قال: سألني سائلٌ أيُّهما أفضلُ حجرةُ النَّبيِّ ﷺ أمِ الكعبةُ؟ فَقُلْتُ: «إن أردتَ مجرَّدَ الحجرةِ فالكعبةُ أفضلُ، وإن أردتَ وهُو فيها فلا والله ولا العرش وحملتُه ولا جنَّة عدن ولا الأفلاك الدَّائرة؛ لأنَّ بالحجرةِ جسدًا لو وُزِنَ بالكونيْنِ لرَجَحَ» وقَدْ أوردَ هذا ابنُ القيِّم في بدائعِ الفوائِدِ ولم يتعقَّبه أو يَنفِيه[2].

3- قال القاضِي عياضٌ في كتابه الشِّفا: «ولا خلافَ أنَّ موضعَ قبرِه ﷺ أفضلُ بقاع الأرض»[3]. وعقَّب عليه الشَّيخ الخفاجيُّ بقوله: «بل أفضلُ من السَّموات والعرش

---

(1) الدر المختار، شرح تنوير الأبصار وجامع البحار (176/1) تأليف: محمد بن علي بن محمد الحصني المعروف بعلاء الدين الحصكفي الحنفي- تحقيق: عبدالمنعم خليل إبراهيم- دار الكتب العلمية- بيروت- 2002م.

(2) بدائع الفوائد (1056/3) تأليف: ابن قيم الجوزية — تحقيق: علي بن محمد العمران-دار عالم الفوائد- مكة المكرمة.

(3) الشِّفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (91/2) تأليف: القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي- دار الكتب

والكعبة كما نقلَه السُّبكيُّ رحمه الله))[1].

4- قال الشَّيخ عليش المالكيُّ وهُو من أكابرِ فقهاءِ المذهبِ المالكيِّ في شَرْحِه على مختصرِ خليل في الفقه: ((ومحلُّ الخلافِ في غيرِ الموضعِ الَّذي ضمَّه ﷺ فإنَّه أفضلُ من الكعبةِ والسَّماءِ والعرش والكرسيِّ واللَّوح والقلم والبيتِ المعمور))[2].

فهذِه أقوالُ علماء المسلمينَ، ولِمَ لَا وقد حوتْ هذه البقعةُ جسدَ خيرِ خَلْقِ الله أجمعينَ وإمامِ المُرسلينَ أبي القاسم محمد بن عبدالله المقرَّبِ من مَولاه الَّذي اصطفَاه واجتباه وأدناه؟!

فلقبرِه الشَّريفِ من الخصوصيَّةِ والبركة وتنزُّلِ رحماتِ ربِّ الأرضِ والسَّمواتِ وهُبوطِ الملائكة عليه ما لا يَعلمُه إلَّا مانحُ هذه البركةِ والخصوصيَّةِ سبحانه وتعالىٰ، ولساكنِه عند الله من المحبَّةِ والاصطفاءِ ما تقصُرُ العقولُ عن إدراكِه والألسنُ عن القولِ فيه، والأقلامُ عن التَّعبيرِ عنه صلَّىٰ الله عليك وسلَّم يا سيدِي يا رسول الله.

فزيارةُ قبرِ رسولِ الله ﷺ من أعظم القُرباتِ إلىٰ الله، والتَّبرُّكُ بتلك الزِّيارةِ دأبُ المسلمين قديمًا وحديثًا، فالشَّوقُ إلىٰ رسولِ الله في قلبِ كلِّ مُسلمٍ مُحبٍّ لرسول الله، ومَنْ لا يجدُ الشَّوقَ لزيارة رسولِ الله فقد جفاه، ونحنُ لا نَجفوه ﷺ أبدًا، ومعاذ الله أنْ نجفوَه فرُوحنا تهفُو إليه وإلىٰ زيارتِه والسَّلامِ عليه، فهُو حيٌّ في قبرِه ﷺ حياةً أعلىٰ من الحياة الدُّنيا يسمعُ مَنْ يسلِّمُ عليه ويردُّ عليه السَّلام ويدعُو له ويَستغفرُ له، ولنَرَ أخي الكريم الأمثلةَ الدَّالَّةَ علىٰ ذلك مِن فعل السَّلفِ والخلف.

=

العلمية- بيروت.

(1) هذا نص التقي السبكي في فتاويه في كتاب سماه: ((تَنزُّل السكينة علىٰ قناديل المدينة)) قال رحمه الله: ((أما المدفنُ الشريف فلا يشملُه حكم المسجد بل هو أشرفُ من المسجد وأشرف من مسجد مكة وأشرف من كل البقاع كما حكىٰ القاضي عياض الإجماع علىٰ ذلك...)). انظر: فتاوىٰ السبكي علي بن عبدالكافي (1/288، 289) عُنيت بنشره: مكتبة القدسي- القاهرة- 1356هـ.

(2) انظر: منح الجليل شرح مختصر خليل (3/133) تأليف: محمد بن أحمد بن محمد عليش- دار الفكر- بيروت.

قال الله سبحانَه وتعالَىٰ في كتابِه الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64].

أوردَ كثيرٌ منَ الحفَّاظِ وأئمَّة التَّفسيرِ عند الحديثِ عن هذه الآيةِ الكريمةِ روايةً توضِّحُ مثالًا عمليًّا تطبيقيًّا لما فهمَه المُسلمونَ من هذه الآيةِ وكيف قامُوا بالعمل بما ترشدُ إليْه.

فقدَ عقَّبَ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِه وهُو مِنْ أكثرِ المفسِّرينَ التزامًا بالآثارِ الصَّحيحةِ عند حديثِه علىٰ هذه الآيةِ الكريمةِ بقولِه: وقد ذكرَ جماعةٌ منهم الشَّيخُ أبو النَّصر الصَّباغ في كتابه الشَّامل هذه القصَّةَ المشهورةَ عن العُتبيِّ قال: كنتُ جالسًا عند روضةِ النبيِّ ﷺ فجاء أعرابيٌّ فقال: السَّلامُ عليك يا رسولَ الله سمعتُ الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتُكَ مستغفرًا لذنبي، مُستشْفِعًا بك إلىٰ ربي، ثمَّ أخذ يقول:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أَعْظمُهُ   فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ الْقَاعُ وَالْأَكَمُ
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ   فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الجُودُ وَالْكَرَمُ

ثمَّ انصرف الأعرابيُّ فغلبتني عيني فرأيتُ النَّبي ﷺ في النَّومِ، فقال: «يا عُتْبِيُّ، الْـحَقِ الأعرابيَّ فبشِّرْه بأنَّ الله قد غَفَر له»[1].

---

(1) ذكرها النَّوويُّ في المجموع (8/274)، وابنُ كثير في تفسيرِه (4/140) بدون إسنادٍ. وصدرها ابنُ كثير بقوله: «وقد ذكر جماعةٌ منهم الشَّيخ أبو نصر بن الصَّباغ في كتابِه الشَّامل الحكاية المشهورة عن العُتْبي». فذكرها.

وأخرجه بنحوه البيهقيُّ في شعب الإيمان (3880) من طريقِ أبو علي الرُّوذباريُّ حدَّثنا عمرو بن محمد بن عمرو ابن الحسين بن بقية- إملاءً- حدثنا شكر الهروي، حدثنا يزيد الرقاشي، عن محمد بن روح بن يزيد البصري، حدثني أبو حرب الهلالي قال: حجَّ أعرابيٌّ، فلما جاء إلىٰ باب مسجد رسول الله ﷺ أناخ راحلتَه فعقلَها، ثم دخل المسجدَ حتىٰ أتىٰ القبرَ ووقفَ بحذاء وجهِ رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمِّي يا رسولَ الله، جئتك مثقلًا بالذُّنوب والخطايا، مستشفعًا بك علىٰ ربِّك؛ لأنه قال في محكم كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتُك بأبي أنتَ وأمِّي مثقلًا بالذُّنوب والخطايا أستشفعُ بكَ علىٰ ربِّكَ أن يغفرَ لي ذنوبي، وأن تشفع فيَّ، ثم أقبل في عرض الناس ويقولُ:

فهذه بركاتُ ونفحاتُ زيارةِ سيدنا رسول الله ﷺ والتبرُّك وطلب الرَّحمات عند قبره الشَّريفِ حيث تُجابُ الدَّعواتُ وتُقضىٰ الحاجاتُ من الله تعالىٰ تَفضُّلًا ورعايةً منه لمقام وجَنابِ حبيبه المُصطفىٰ ﷺ.

استحباب التَّبرُّك بزيارة قبورِ الصَّالحين

زيارةُ قبورِ الصَّالحينَ من آل البيتِ والعلماءِ والأولياءِ من الأمور المستحبَّة والمندوبةِ، ومن بابِ مودَّة أصحابِ القبور؛ وذلك لمنزلتِهم وعظيمِ جاهِهم عند الله سبحانَه وتعالىٰ، وإنَّ زيارتَهم تعودُ بالفوائدِ الجمَّةِ علىٰ الزَّائرِ، وتفتحُ له أبوابَ رحماتِ ربِّ الأرض والسَّموات، والمسلمُ بزيارتِه للصَّالحينَ أو غيرِهم لا يعتقدُ النَّفعَ والضُّرَّ في أحدٍ غير الله سبحانَه وتعالىٰ.

وإنَّ زيارةَ قبور الصَّالحينَ والانتفاعَ بزيارتهم إنَّما دافعهما الحبُّ والمودَّة والتَّقديرُ لقُربهم من الله تعالىٰ، فالنَّظرُ لا يكونُ إلىٰ القبرِ وإنَّما إلىٰ ساكن القبرِ وقُربِه من الله تعالىٰ، وأنَّه من الصَّالحين الَّذين ينفعُ الله بزيارتِهم، وأنَّه لولا صلاحُهم وقربُهم من الله لما زُرناهُم.

فهل يا أخي الكريم إذا زُرتَ عالمًا من العلماء المخلصِينَ أو رجلًا صالحًا من العُبَّاد الرَّبانيين في دار الدُّنيا أفلا تنتفعُ بزيارتِه ومودَّته ورؤيتِه؟ فكذلك العطاءُ الإلهيُّ والمَنْحُ الرَّباني لا ينقطعُ عن عبادِ الله الصَّالحينَ وهم في دار البرزخِ والَّتي هي أعلىٰ من دار الدنيا رُوحانيَّةً وعطاءً وإمدادًا إلهيًّا، فقبورُ الأولياءِ والصَّالحين محلُّ روضاتِ الجنَّة؛ كما في الحديثِ الشَّريف: «القبرُ رَوضةٌ من رِياضِ الجنَّةِ أو حُفرةٌ من حُفَرِ النَّارِ»[1].

=

يا خير مَن دُفنتْ بالقاعِ أعظمُه — فطاب من طِيبهنَّ القاعُ والأكَمُ
نفسي الفداء لقبرٍ أنت ساكنُه — فيه العِفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

(1) جزءٌ من حديث أخرجه الترمذيُّ في كتاب صفة القيامة والرَّقائق والورع، باب ما جاءَ في صفة أواني الحوضِ (2460) من طريق محمد بن أحمد وهو ابن مدُّويه قال: حدَّثنا القاسم بن الحكم العرني قال: حدَّثنا عبيد الله

فقُبورُ آل بيتِ رسول الله ﷺ وقبورُ الصَّالحينَ والعلماءِ هي روضاتُ الجنَّاتِ ومَهبطُ الرَّحمات من ربِّ الأرض والسَّمواتِ، فبزيارة قُبورهم يأخذُ الزَّائر من هذه الرَّحمات وتلك العطايا الإلهيَّة وتُجاب دعواتُه وتُنال رغباتُه، وكلُّ هذا إكرامًا لصاحبِ القبرِ.

فهذه هي حقيقةُ بركاتِ الصَّالحينَ من أهل القبورِ، فإنَّه لا إثباتَ لأيِّ تأثيرٍ أو ذاتيَّةٍ لأي أحدٍ، فإنَّ الفاعلَ هو الله والمعطي المانعُ هو الله سبحانه وتعالىٰ، والمسلمُ المؤمن بربِّه سبحانه وتعالىٰ يعلمُ ويُوقِنُ ويجزمُ أنَّ الله سبحانَه وتعالَىٰ هو الملك المالك، وأنَّه ليسَ لأحدٍ مِن الخلق سِواه فِعلٌ علىٰ الحقيقة، فالأمرُ منه وإليه سبحانه أوَّلًا وآخرًا، وإنَّ زيارةَ قبورِ آل البيتِ والأولياء والعلماء الرَّبانيين والتبرُّك بزيارتهم ما هُو إلَّا وسيلة وقربة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فإنَّنا إنَّما أحْببناهُم في الله لمنزلتِهم من الله ورسولِه ومكانتِهم بين أمَّة الإسلام، وإنَّ التبرُّكَ بزيارة قُبورهم هو صورةٌ من إظْهارِ المودَّة والحبِّ تجاه آل بيتِ رسول الله وعباد الله الصَّالحينَ، هذا الحبُّ هو سببٌ من أسباب العطاء الإلهيِّ للعبدِ وحُصولِ إجابةِ الدُّعاءِ، وانشراح القلبِ وطمأنينة النَّفس وراحة البالِ.

وعطاءُ الله سبحانه لا ينقطع بالموتِ، وإنَّما هو تفضُّلٌ من الله علىٰ بعضِ عبادِه اختصَّهم بعنايتِه واصطفاهم لنفسه، وقدَّر ذلك حتَّىٰ قبل خلق المخلوقاتِ، ففي الحديث الشَّريفِ: «كَتَبَ الله مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يخلقَ السَّمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألف سنةٍ»[1].

ابن الوليد الوصافي، عن عطية، عن أبي سعيد به مرفُوعًا.

وقال الترمذيُّ: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه».

وله شاهد من حديث أبي هريرة ﵁؛ أخرجه الطبراني في الأوسط (8613) من طريق مسعود بن محمد الرَّملي ثنا محمد بن أيوب بن سويد نا أبي نا الأوزاعي عن يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة به مرفوعًا. وقال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن الأوزاعي إلا أيوب بن سُويد، تفرد به ابنه».

(1) أخرجَه مسلم في كتاب القدرِ، باب حجاج آدم ومُوسىٰ عليهما السَّلام (2653) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ﵄ به مَرفوعًا.

فالعبدُ الصَّالح المقرَّبُ مِن الله أو الوليُّ منزلتُه ثابتةٌ عند الله حتَّىٰ قبلَ وُجودِه في دار الدُّنيا، وهذه المنزلةُ والمكانة لا تزولُ بموتِه وانتقالِه إلىٰ عالم البرزخِ، بل علىٰ العكسِ يكونُ في مكانةٍ أسمىٰ وأعلىٰ وأكثر قُربًا من الله من حيثُ مشاهدةُ عالم الملكوت فالمنزلةُ ثابتةٌ للوليِّ الصَّالح قبل وُجودِه في دار الدُّنيا وبعدَ وُجودِه فيها وبعد انتقالِه منها.

ونذكر مثالًا يُوضِّحُ ذلك ففي سورة الكهف حين أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن سيدنا موسىٰ وسيدنا الخضر صلواتُ الله وسلامه عليهم، لَمَّا قام سيِّدنا الخضر بإقامةِ الجدار- الَّذي كاد أن ينهدمَ- أخبر مُوسىٰ عليه السَّلام عن سبب ذلك فقال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:82].

سبحانَ الله! لماذا يُسخِّرُ الله سبحانه وتعالىٰ نبيين كريمين في حاجة يتيميْنِ؟ يأتي الجوابُ في كتاب الله ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فبِصلاحِ الأب حُفظ الأبناء، وقد وَرَدَ في بعض التَّفاسير أنَّه ليس الأب المباشر لهما إنَّما هو الجدُّ السَّابع، فالصَّلاحُ والمنزلة والقرب من الله لا يُرفع بالموت وآثارُ الصَّالحين باقية لا ترفع أيضًا.

والشَّاهدُ أخي الكريم أنَّ بركةَ عباد الله الصَّالحين معهم في حياتِهم الدُّنيا ومعهم في برزخِهم إلىٰ يومِ القيامة، وسوفَ نُوردُ إن شاءَ الله فيما يلي أقوال السَّلف رضوانُ الله عليهم في زيارتِهِمْ لقُبور أهل الصَّلاح والعلم والعلماء الربَّانيينَ والعباد المقرَّبينَ حتَّىٰ نرىٰ أنَّ هذا الأمرَ كان نهجَ سلفنا الصَّالح وليس من البدعِ؛ كما يدَّعي بعضُ النَّاس وليس شركًا أو ذَريعةً إلىٰ الشِّرك كما يقولون.

ولنعرضْ في الكلمات التَّالية أمثلةً من أقوالٍ وأفعال السَّلف الصَّالح في زيارة قبور الصالحين والتبركِ بزيارتهم.

أمثلةٌ من أقوال وأفعال السَّلفِ الصَّالح والعُلماء في القبور وزيارتها:

- قال الإمامُ بدرُ الدين العينيُّ: ((إنَّ الإنسانَ له أن يجعل ثوابَ عملِه لغيره... كالحجِّ وقراءة القرآن والأذكار وزيارة قبور الأنبياءِ والشُّهداء والأولياءِ والصَّالحين...))[1].

- قالَ الإمامُ الشَّيخ ابن الحاج وهُو من عُلماء المالكيَّة في كتابه المدخل: ((وما زالَ النَّاسُ من العلماءِ والأكابرِ كابرًا عن كابرٍ مشرقًا ومغربًا يتبركونَ بزيارة قبورِ الصَّالحين ويجدونَ بركةَ ذلك حِسًّا ومعنًىٰ، وقد ذكرَ الشيخُ الإمامُ أبو عبدالله بن النُّعمان رحمه الله في كتابه المُسمَّىٰ ((سفينة النجاء لأهل الالتجاء في كراماتِ الشيخ أبي النجاء)) في أثناء كلامِه علىٰ ذلك ما لفظُه: تحقَّقَ لذَوي البصائر والاعتبار أنَّ زيارةَ قبورِ الصَّالحين محبوبةٌ لأجل التبرُّك مع الاعتبار، فإنَّ بركةَ الصَّالحين جاريةٌ بعد مماتهم كما كانت في حياتِهم، والدُّعاءُ عند قبورِ الصَّالحينَ والتَّشفعُ بهم معمولٌ به عند علمائِنا المحقِّقينَ من أئمَّة الدِّين))[2]. انتهىٰ.

- قال الإمامُ الغزاليُّ في كتابه الإحياءِ وذلك في كتاب آداب الحجِّ: ((ويدخُلُ في جملته زيارةُ قبورِ الأنبياءِ عليهم السَّلام وزيارةُ قبورِ الصَّحابة والتَّابعينَ وسائر العلماءِ والأولياءِ وكلُّ من يُتبرَّك بمشاهدتِه في حياتِه يتبرَّكُ بزيارته بعد وفاتِه))[3].

- قال ابنُ قدامةَ في المُغني: ((ويُستحبُّ الدَّفنُ في المقبرة الَّتي يكثُرُ بها الصَّالحون والشُّهداء لتنالَه بركتُهم وكذلك في البقاع الشَّريفة، وقد رَوَىٰ البخاريُّ ومُسلمٌ بإسنادهما: أنَّ مُوسىٰ عليه السَّلام لما حضرَه الموتُ سأل الله أن يُدنيه إلىٰ الأرض المقدسة رَميةً بحَجرٍ))[4].

---

(1) البناية شرح الهداية (466/4) تأليف: بدر الدين العيني- تحقيق: أيمن صالح شعبان- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 2000م.

(2) المدخل (255/1) تأليف: أبي عبدالله محمد بن محمد الشهير بابن الحاج - دار التراث- القاهرة.

(3) إحياء علوم الدين (247/2) دار المعرفة- بيروت.

(4) انظر: المغني لابن قدامة (193/2) دار إحياء التُّراث. والحديث جزء من حديث متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الجنائز، باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها (1339)، ومسلمٌ في كتاب

- فهذه أيُّها الأخُ الكريمُ أقوالُ أهل العلم وأئمَّة المسلمينَ في بركة قُبورِ الصَّالحين وأنَّها محلُّ نزول الرَّحماتِ والبَركاتِ.

ولنأتِ إلىٰ السُّلوكِ العمليِّ للأئمَّةِ والشُّيوخ تجاه قبور أهل البيتِ والصَّالحينَ فسنرىٰ أنَّه كان من عادتهم وقُرُباتهم إلىٰ الله زيارة قبور أهل الصَّلاحِ والعلم والتبرُّك بقبورهم.

- قال الخطيبُ البغداديُّ في ((تاريخ بغداد)) عن عليِّ بن ميمون قال: ((سمعتُ الشَّافعيَّ يقول: إنِّي لأتبرَّك بأبي حنيفةَ وأجيءُ إلىٰ قبره في كل يوم- يعني: زائرًا- فإذا عرضت لي حاجةٌ صلَّيتُ ركعتيْنِ وجئتُ إلىٰ قبره وسألتُ الله تعالَىٰ الحاجةَ عنده، فما تبعد عنِّي حتَّىٰ تُقْضَىٰ))[1].

- أورد أبو عبدالرَّحمن السُّلمي في كتابه طبقات الصُّوفيَّة في ترجمة معروف الكَرْخي- وهو أحد أكابر المتصوِّفة والعبَّاد الرَّبانيين رضوان الله عليهم- عن إبراهيم الجزري قال: ((قبرُ معروف التِّرياقُ المجرَّب))[2].

- أخرج الخطيبُ البغداديُّ في التَّاريخ، وابن عساكر في ((تاريخه)) أنَّ أحمدَ بن العبَّاس قال: خرجتُ من بغداد فاستقبلني رجلٌ عليه أثرُ عبادةٍ فقال لي: مِن أين خرجتَ؟ قلتُ: من بغدادَ هربتُ منها لَمَّا رأيتُ فيها من الفسادِ خِفْتُ أن يُخسف بأهلها، قال: ارجعْ ولا تخفْ فإنَّ فيها قبورَ أربعةٍ من أولياء الله هُم حِصنٌ لهم من جميعِ البلايا، قلت: ومَن هُم؟ قال: أحمدُ بن حنبل ومعروف الكرخيُّ وبِشر الحافي ومنصور بن عمَّار، فرجعتُ وزُرْتُ القبور ولم أخرج تلك السَّنة[3].

الفضائل، باب من فضائل مُوسىٰ ﷺ (2372) من حديثِ أبي هريرةَ ﷺ.

(1) تاريخ بغداد (1/ 445) تحقيق د. بشار عواد- دار الغرب الإسلامي — الطبعة الأولىٰ — 2002م.

(2) طبقات الصوفيَّة للسلمي (ص 81) دار الكتب العلمية.

(3) انظر: تاريخ بغداد (1/443) للخطيب البغدادي. وتاريخ دمشق (60/344) لابن عساكر- طبعة دار الفكر.

- وأوردَ الإمامُ ابنُ الجوزيِّ في كتاب «المنتظم في التاريخ» عن الحسين بن إبراهيم الخلال قال: ما أهمَّني أمرٌ فقصدتُ قبرَ موسىٰ بن جعفر فتوسَّلتُ به إلَّا سهَّل الله لي ما أحبُّ[1].

- فهذا أيُّها الأخ الكريمُ فَهمُ وسلوكُ علماء وسلفِ الأمَّة مع قبورِ الأولياء والصَّالحين، فهل كانوا يقعونَ بذلك في الشِّرك أو البدعة؟ حاشا لله، بل هُم خير القُرونِ، ثم هل أثبتوا للقبور نَفعًا أو ضرًّا؟ اللهمَّ لا، إنَّما هِي المحبَّةُ والمودَّةُ تجاه عباد الله الصَّالحين والتَّوسل بهم وبمكانتِهم عند الله سبحانَه وتعالىٰ في قضاءِ الحاجات وإجابة الدَّعوات.

وأسألُك أخي المسلم الكريم في نهاية هذه الكلمة أنَّك لو شعرتَ في يومٍ من الأيام أنَّك مُشتاقٌ لزيارة قبرٍ أو ضريحِ سيِّدٍ من ساداتِ آل بيت رسول الله أو أحد الأولياءِ الصَّالحينَ ممَّنْ قرأتَ عنهم واطَّلعت علىٰ سِيرهم وتشوقتَ إليهم، هل تجدُ في قلبك أنَّك تُثبت لهم نفعًا أو ضرًّا؟ هل تجدُ في قلبك دعوةً للشرك بالله أو صرف العبادة لغيره سبحانه؟ الجوابُ: لا، بل أنتَ وجميعُ المسلمين يعتقدونَ أنَّ النَّفع والضرَّ بيد الله وحدَه، وإنَّما هي المودَّةُ والحبُّ والتَّشوقُ لأهلِ الخير والصَّلاح.

وبهذا الحبِّ والشَّوقِ وهذه المودَّة تكون أهلًا للبركةِ الَّتي تشعرُ بها عند زيارتِك لقبور الأولياءِ والصَّالحينَ وأهلًا للصَّفاء الرُّوحي والرَّاحة النفسيَّة وإجابةِ دعائك وقضاءِ حوائجك من الله سبحانَه وتعالَىٰ.

نرجُو من الله سُبحانه وتعالىٰ أن يَرزقَنا بركةَ القرآنِ والسُّنَّةِ المطهَّرةِ، وبركةَ رسولِ الله ﷺ وبركةَ آل بيتِه الطَّاهرينَ، وبركةَ عباده الصَّالحين، وأن يرزقَنا من بركات الدُّنيا والآخرة، وآخرُ دَعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمينَ. ◆

---

(1) المنتظم لابن الجوزي (9/89) دار الكتب العلمية.

الرسالة الثامنة والعشرون
مشروعية السبحة وأدلة جواز استعمالها

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: تعريف السبحة من خلال أقوال أهل العلم.

المحور الثاني: الأدلة على جواز استعمال السبحة وغيرها في الذكر.

المحور الثالث: أقوال أهل العلم في استعمال السبحة. ◆





« هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا » – آية **28** من سورة الفتح

مشروعية السبحة وأدلة جواز استعمالها

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا بحثٌ لَطيفٌ حولَ مشروعيَّة الذكر والتَّسبيح بالسُّبْحَةُ، نذكر ونوضِّح فيه مشروعيَّةَ وجوازَ اتِّخاذِ السُّبحةِ في التَّسبيحِ والذكر وضبطِ أعدادِ الأذكارِ، نورد فيه الأدلَّةَ الشَّرعيَّة، مع ذِكْر أقوالِ العلماء في هذِه المسألةِ؛ وذلك لأنه قد قَام بالتَّشويشِ علىٰ عوامِّ المسلِمين بعضُ مَن يدَّعي العِلم ممَّن يُلبِّسون علىٰ النَّاس دِينهم، قائلين بأنَّ السُّبحةَ بدعةٌ، وأنَّه لا يجوزُ الذكر بهَا، وفوق ذلك اتَّهموا مَن يحمِلُ السُّبحةَ بالرِّياء وحبِّ الظُّهورِ. وسوف نورِد في ثنايا هذا البحثِ ما يثبتُ جواز استخدامِ واتخاذِ السُّبحةِ، وأنَّ العلماء مِن سلف الأمَّة قاموا باتِّخاذ السُّبحة وذلك في المحاور التالية:

المحور الأول: تعريف السبحة من خلال أقوال أهل العلم.

المحور الثاني: الأدلة علىٰ جواز استعمال السبحة وغيرها في الذكر.

المحور الثالث: أقوال أهل العلم في استعمال السبحة. ◆

تعريف السبحة من خلال أقوال أهل العلم

قال الإمامُ النَّووي في تهذيب الأسماء واللُّغات: ((السُّبْحَة- بضمِّ السِّين وإسكان البَاءِ- خرَزَاتٌ منظومةٌ يُسبَّح بها، معروفةٌ يعتادُها أهلُ الخيرِ، مأخوذةٌ مِن التَّسبيح))[1].

وقالَ الفيومي في المصباحِ: ((السُّبْحَةُ: خَرَزَاتٌ منظومَةٌ، وهي التي يُسبَّح بها، وجمعها سُبَحٌ، مثل غرفَة وغُرَفٌ))[2].

كلِمةٌ حول المسألةِ:

قال الله تعَالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون﴾ [الذاريات:56] وقال سبحانَه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:41].

فالإنسان خُلِق لعبادةِ الله وتوحيدِه وتنزيهِه والتَّسبيحِ بحمدِه، وعليه أن يستغِلَّ جميعَ ما خلَقه الله وسخَّره له، ويحرِصَ علىٰ ما يقرِّبه مِن ربِّه سبحانه وتعالىٰ، متَّخذًا مِن الوسائلِ ما يُسَهِّل له ذلك، واتِّخاذُ السُّبْحَة مِنَ الأشياءِ التي تُعِين المُسلِم علىٰ المدَاومةِ علىٰ الذكر والتَّسبيحِ، فهي تُذكِّر حاملَها دائمًا بذكْرِ الله وتَضبطُ له أذكارَه وأورادَه، فهي إذن وسيلةٌ محمودةٌ تساعد المُسلمَ علىٰ أداء عبادةٍ من أعلىٰ العِباداتِ شَأْنًا في شريعةِ الإسلامِ ألا وهيَ ذكْرُ الله؛ قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرَّعد: 28].

فِمنَ النَّاس مَن لا يَستطيعُ ضَبْط التَّسبيح علىٰ أصابعِه، وخاصَّةً إذا أرادَ أن يذكرَ الله بأعدادٍ كبيرةٍ فلا يتسنَّىٰ له أن يضبطَ العدد إلَّا بالسُّبْحَة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:41] فالسُّبْحة حينئذٍ تكونُ محفِّزًا علىٰ الذكر فكلَّما كانت في متنَاولِ يدِه ينطلِق لسانُه بذكْرِ الله عزَّ وجلَّ، وفي ذلك مِنَ الخير ما فيهِ.

---

(1) انظر: تهذيب الأسماء واللُّغات (144/1/2) للإمام النووي- إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة.

(2) انظر: المصباح المنير في غريب الشَّرح الكبير (س.ب.ح) للشَّيخ أحمد بن محمَّد بن علي الفيومي- المطبعة الأميرية- الطَّبعة الخامسة.

والأصلُ في المسلمين سلامةُ القصدِ والنِّيةِ، فلا يجوزُ أبدًا أن نرميَ النَّاسَ الذين يحمِلون السُّبْحَة بالرِّياء وحبِّ الظُّهور، فذلك يرجِع إلىٰ القلوب التي لا يطَّلع عليها إلَّا الله سبحانَه وتعالىٰ.

وعلىٰ مَن يتكلَّم في دِين الله أن يَحذرَ مِنَ الوقوعِ في رَمي النَّاس بالبدعةِ لمجرَّدِ أنَّه يرىٰ عدمَ جوازِ اتِّخاذِ السُّبْحَة، ويَنسىٰ أو يَتناسَىٰ الأدلَّةَ التي تُرجِّح جوازَ اتِّخاذِها، ويُغمِضُ عينَه عنِ العلماءِ الذين اتَّخذوها أداةً لضَبطِ تسبيحِهم وأذكارِهم.

والوسَائلُ لها أحكامُ المقاصدِ، فالمقصِدُ هو ذِكْر الله، والوسيلةُ للذكرِ وضبطِه والإكثارِ منه هو السُّبْحَة، ففي هذِه الحالةِ تكونُ السُّبحة مَندوبةً مُستحبَّةً؛ لأنَّها ممَّا يبلِّغ الإنسانَ مقصدَه، وهو الإكثارُ من ذِكْر الله.

وعلىٰ المسلِم دائمًا مراعاةُ سماحةِ الشَّريعة الإسلاميَّة، فلا يُنكَر المختلَفُ فيه، وإنَّما يُنكَر المُجمَع عليه، ومَن قلَّد إمامًا مِن أئمَّة الشَّريعة أو عالِمًا مِن العلماءِ في جواز شيءٍ معيَّنٍ فإنَّه بذلك يكون غيرَ ملومٍ أو متَعدٍّ لحدود الشَّرع، فلا يُرمَىٰ بالابتداع والبِدعةِ؛ لأنَّ هذه المسألةَ ومثيلاتِها إنَّما هي مِنَ الفروعِ وليست مِنَ الأصول، فما دامَ في الأمرِ سَعةٌ ويسرٌ فلا نضيِّق ما وسَّعَه الله علينا تعصُّبًا لرأيٍ أو مذهبٍ. ◆

الأدلة على جواز استعمال السبحة وغيرها في الذكر

1- عن صفيَّةَ رضي الله عنها قالت: دخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ وبينَ يديَّ أربعةُ آلافِ نواةٍ أُسبِّح بهنَّ فقالَ: ((لَقَدْ سَبَّحْتِ بِهَذِهِ، أَلَا أُعَلِّمُكِ بِأَكْثَرَ مِمَّا سَبَّحْتِ؟)). قلتُ: بلى علِّمْني. فقال: ((سُبْحَانَ الله عَدَدَ خَلْقِهِ))[1].

2- عن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه أنَّه دخل مع النَّبيِّ ﷺ على امرأةٍ وبين يدَيها نوًى أو حصًى تُسبِّح به فقال: ((أُخْبِرِكِ بِمَا هُوَ أَيسَرُ عَلَيكِ مِن هَذَا - أَو أَفضَلُ))، فَقَالَ: ((سُبحَانَ الله عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ، وَسُبحَانَ الله عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي الأَرضِ، وَسُبحَانَ الله عَدَدَ مَا خَلَقَ بَينَ ذلكَ، وَسُبحَانَ الله عَدَدَ مَا هو خَالِقٌ، والله أَكبَرُ مِثلُ ذَلِكَ، وَالْحَمدُ لله مِثلُ ذَلِكَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله مِثْلُ ذَلِكَ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بالله مِثلُ ذَلِكَ))[2].

3- عن القاسِمِ بن عبدالرَّحمنِ قال: كانَ لأبي الدَّرداءِ نوًى مِن نوَى العَجوةِ- حَسَبتُ عشرًا أو نحوَها- في كِيسٍ، وكانَ إذا صَلَّى الغدَاةَ أقعَى على فِراشِه، فأَخَذَ الكِيسَ فأَخرَجهنَّ واحدةً واحدةً يسبِّح بهِنَّ، فإذا نَفَدْنَ أعادهنَّ واحدةً واحدةً، كلُّ ذلك يسبِّح بهنَّ[3].

4- وروى نُعيم بنُ المحرَّر بنِ أبي هريرةَ عن جدِّه أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّه كان له خيطٌ فيه ألفَا عُقدةٍ فلا يَنام حتَّى يسبِّح به[4].

---

(1) أخرجَه التِّرمذي في كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ (3554) وقال: ((هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلَّا من هذا الوجه من حديث هاشم بن سعيد الكوفي وليس إسناده بمعروف وفي الباب عن ابن عباس)).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب تفريع أبواب الوتر، باب التسبيح بالحصى (1500) والترمذي في كتاب الدعوات، باب دعاء النبي ﷺ وتعوذه دبر كل صلاة (3568). وقال: ((حديث حسن غريب من حديث سعد)).

(3) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (758).

(4) أخرجه الأصبهاني في حلية الأولياء (1/383).

5- عن أبي نضرة الغفاري قال: حدَّثني شيخٌ من طفاوة قال: تثوَّيتُ أبا هريرةَ بالمدينة فلَم أرَ رجلًا مِن أصحابِ النَّبيِّ ﷺ أشدَّ تشمِيرًا ولا أقومَ علىٰ ضَيفٍ منه، فبَينَما أنا عندَه يومًا وهو علىٰ سريرٍ له ومعه كيسٌ فيه حصًىٰ أو نوًىٰ وأسفلَ منه جاريةٌ له سوداءُ، وهو يسبِّح بها حتَّىٰ إذ أنفدَ ما في الكيس ألقَاه إليها فجمعَتهُ فأعادَتهُ في الكيسِ فدفعَتهُ إليه[1]. تثوَّيت؛ أي نزَلتُ ضيفًا عليهِ.

6- ومن ذلك: أنَّ أبا سَعيدٍ الخُدري ﵁ كانَ يأخذُ ثلاثَ حصياتٍ فيَضَعُهُنَّ علىٰ فخذه فيسبِّح ويضع واحدةً ثُمَّ يسبِّح ويضعُ أخرىٰ ثُمَّ يسبِّح، ثُمَّ يرفَعُهنَّ ويضعُ مثلَ ذلك[2].

فهذِه نصوصٌ مِنَ السُّنَّة وفعلِ الصَّحابة رضوان الله عليهم تُبيِّن لنا أنَّ السُّبحةَ وما يُشبِهُها ممَّا يُعين علىٰ ذِكر الله وضبطِ أعدادِه لها أصلٌ في سُنَّةِ المصطفىٰ ﷺ وفي فعلِ الصَّحابةِ الكِرام.

ففي حديثِ صفيَّةَ ﵂ أنَّها كانت تُسبِّح بأربعةِ آلافِ نواةٍ ولم يُنكِر عليها رسولُ الله ﷺ فِعلَها وإنَّما أرشدَها إلىٰ ما هو أيسرُ، والصَّحابةُ رضوان الله عليهم كانوا يستخدِمونَ الحصَىٰ والنَّوىٰ والحَبل الذي بِهِ عُقَدٌ لضَبطِ تسبيحِهم، ومَا السُّبحةُ إلَّا شكلٌ مِن هذه الأشكالِ التي كانَت مُستخدمةً عندَهم، فهي خرَزَاتٌ مَنظومةٌ في خيطٍ بعدَدٍ محدَّدٍ فلا فرقَ بينها وبينَ الصُّوَرِ السَّابقةِ مِن حيثُ الهيئةُ والاستعمالُ. ◆

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح، باب ما يكره من ذكر الرجل ما يكون إصابته أهله (2174).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (7742).

أقوال أهل العلم في استعمال السبحة

قد دلَّ كلام علماء المذاهبِ الأربعة علىٰ جوازِ اتِّخاذ السُّبحةِ، وأنَّها منَ الأمور التي تُستَحبُّ نظرًا إلىٰ غايتِها ومقصَدِها، وإليك أخي القارِئ بعضًا من نصوصِ العلماءِ في ذلك:

1- قال العلامةُ ابن نُجيم الحنفيُّ معلِّقًا علىٰ حديث سعد بن أبي وقَّاص الذي سَبَق ذِكره: «فَلَم يَنهها النَّبيُّ عن ذلك، وإنَّما أرشَدَها إلىٰ ما هو أيَسرُ وأفضلُ، ولو كانَ مَكروهًا لبيَّن لها ذلكَ، ثُمَّ هذا الحديثُ ونحوُه ممَّا يَشهدُ بأنَّه لا بأسَ باتِّخاذ السُّبحةِ المعروفةِ لإحصاءِ عددِ الأذكارِ؛ إذْ لا تزيدُ السُّبحةُ علىٰ مَضمونِ هذا الحديثِ إلَّا بضَمِّ النَّوىٰ ونحوِه في خيطٍ، وَمِثلُ هذا لا يَظهَرُ تَأثيرُهُ فِي المَنعِ فلا جرمَ إنْ نُقِلَ اتِّخاذُها والعملُ بها عن جَماعةٍ منْ الصُّوفيَّةِ الأخيارِ»[1].

2- ويقول الإمامِ الملَّا علي القارِّي الحنفي عند الكلام عن حديثِ سعدِ بن أبي وقَّاص: «وهذا أصلٌ صحيحٌ لتجويزِ السُّبحة بتقريره ﷺ فإنَّه في معنَاها؛ إذ لا فرقَ بين المنظومةِ والمنثورَةِ فيما يُعَدُّ بهِ، ولا يُعتَدُّ بقولِ مَن عدَّها بدعةً، وقد قالَ المشايخ: إنَّها سَوطُ الشَّيطان. وروي أنَّه رُئِيَ مع الجُنيد سبحةٌ في يده حال انتهائه، فسُئل عنه فقال: شيءٌ وصلْنَا به إلىٰ الله كيف نتركه؟!»[2]، ومعنىٰ أنَّها سوط الشيطان: أنَّها في شدَّتها علىٰ الشَّيطان كالسَّوط تؤلمه؛ لكونها أداةً لذكر الله. وللإمام القاري كتابٌ في هذا الخصوص سمَّاه إيقاد المصابيح لمشروعيَّةِ اتِّخاذِ المَسابيحِ.

3- وصنَّف الإمامُ جلال الدِّين السُّيوطي الشَّافعي كتابًا سمَّاه: «المنحَة في السُّبحة» أورد فيه الأدلَّة علىٰ جوازها واستحبابِها، وقال في مدح اتِّخاذ السُّبحة: «فانظر يا أخي

---

(1) انظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق (31/2) زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري- دار الكتاب الإسلامي- الطَّبعة الثَّانية- بدون تاريخ.

(2) انظر: مِرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (1601/4) دار الفكر- الطبعة الأولىٰ- لبنان- 2002م.

إلىٰ هذه الآلةِ المباركةِ الزَّاهرةِ وما جُمِعَ فيها مِن خيري الدُّنيا والآخرة، ولم يُنقَل عن أحدٍ مِنَ السَّلف ولا مِنَ الخلف المنْعُ مِن جواز عدِّ الذكر بالسُّبحة، بل أكثرهم يعدُّونَه بها، ولا يرَونَ ذلك مَكروهًا، قد رُئِيَ بعضهم يعدُّ تسبيحًا فقيل له: أتعدُّ علىٰ الله؟! فقال: لا، ولكن أعدُّ له، والمقصودُ أنَّ أكثر الذكر المعدودِ الذي جاءَت به السُّنَّةُ الشَّريفةُ لا ينحَصِر بالأنامل غالبًا، ولو أمكَن حصرُه لكانَ الاشتغالُ بذلك يذهبُ الخشوعَ))[1].

4- وابنُ علَّان الشَّافعي يَنقُل في كتابهِ ما ذكَره ابنُ حجرٍ في شرحِه لحديثِ عَقْدِ التَّسبيحِ بالأنامل فيقولُ: ((وفي شرحِ المشكاةِ لابن حجرٍ ويُستفاد مِنَ الأمرِ بالعَقدِ المذكور في الحديثِ ندبُ اتِّخاذِ السُّبحة، وزَعْمُ أنَّها بدعةٌ غيرُ صحيحٍ، إلَّا أن يُحمَلَ علىٰ تلك الكيفيَّاتِ التي اختَرعها بعضُ السُّفهاء مِمَّا يُمحِّضُها للزِّينة أو الرِّياء أو اللَّعبِ))[2].

5- وقال ابنُ تيمية: ((وعَدُّ التَّسبيحِ بالأصابع سنةٌ كما قالَ النبيُّ ﷺ للنِّساء: ((سَبِّحْنَ وَاعْقِدْنَ بِالأَصَابِعِ فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولَاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ))[3]. وأمَّا عدُّه بالنَّوىٰ والحصَىٰ ونحو ذلك فحَسَنٌ، وكان مِنَ الصَّحابة ﵃ مَن يفعل ذلك، وقد رأىٰ النبيُّ ﷺ أمَّ المؤمنين تسبِّح بالحصىٰ وأقرَّها علىٰ ذلك، ورُويَ أنَّ أبا هريرةَ كان يُسبِّح بهِ، وأمَّا التَّسبيحُ بما يُجعَل في نظامٍ مِنَ الخَرزِ ونحوه فمِنَ النَّاس مَن كرِهَه، ومنهم مَن لم يكْرَهه، وإذا أحسَنتَ فيه النِّيَّة فهو حسَنٌ غيرُ مكروه))[4].

(1) انظر: الحاوي للفتاوىٰ (5/2) للحافظ جلال الدين السيوطي- دار الكتب العلميَّة- بيروت لبنان- 1983م.

(2) انظر: الفتُوحات الرَّبانيَّة علىٰ الأذكارِ النَّوويَّة (251/1) دار إحياء التراث العربي- بيروت لبنان.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب التسبيح بالحصىٰ (1501)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب في التسبيح والتهليل والتقديس (3583)، وابن أبي شيبة في مصنفه (7738) من طريق هانئ بن عثمان، عن أُمِّه حُمَيْضة بنت ياسر عن جدتها يُسيرة- وكانت من المهاجرات- قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: ((عليكُنَّ بالتَّسبيحِ والتَّهليلِ والتَّقديسِ، واعْقِدْنَ بالأناملِ فإنَّهنَّ مسئولاتٌ مُستنطقاتٌ، ولا تَغفُلن فتنسَيْنَ الرَّحمةَ)).

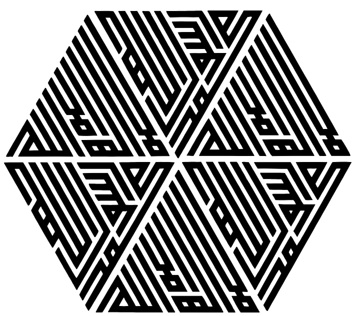
وقال الترمذي: ((حديث غريب)). وحسَّن إسناده النووي في خلاصة الأحكام (472/1).

(4) انظر: مجموع الفتاوىٰ (506/22) للشَّيخ تقي الدِّين أبي العبَّاس أحمدَ بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق:

فهذِه أخي الكريم نقولاتٌ عن أئمَّة الشَّريعةِ مِنَ السَّلَف والخلَف واضحةٌ جليَّةٌ في جوازِ واستِحبابِ اتِّخاذِ السُّبحةِ لضَبط الذكر والأورادِ، فلَا التِفاتَ لَمن يوهِم النَّاسَ ببدعيَّتِها وأنَّها لا أصلَ لها في دينِ الإسلامِ.

فها أنتَ قد رأيتَ النُّصوصَ والأحاديثَ ونقُولَ العلماءِ مصرِّحةً بمشروعيَّتها واستحبابِها، ومِن مجموعِ ما ذُكِر أيُّها الأخُ الكريم يُعلَم أنَّ أصلَ اتِّخاذِ السُّبحةِ قائمٌ في الإسلام، وأنَّ الذي تغيَّر وتطوَّر هو الصورةُ فقط فبدلًا من النَّوىٰ والحصىٰ صارَت علىٰ الشَّكلِ الذي نرَاه اليومَ.

واللهَ أسأل وبنبيه أتوسَّل أن يجعلَنا منَ الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكراتِ الذين أعدَّ لهم أجرًا عظِيمًا، والحمدُ لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارَك علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ أجمعِين. ◆



عبدالرحمن بن محمد بن قاسم- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشَّريف- 2004م.

الرسالة التاسعة والعشرون
مناقشات وردود حول قضية شد الرحال لزيارة خير الأنام

وتشمل تمهيدًا ومحاور خمسة:

تمهيد.

المحور الأوَّل: الأدلة على جواز واستحباب زيارة القبور.

المحور الثاني: مناقشة كلام ابن تيميَّةَ حول زيارة قبر النَّبيِّ ﷺ.

المحور الثالث: إيراد أقوال أهل العلم حول هذه القضية.

المحور الرابع: مناقشة معتمداتِ ابن تيميةَ في هذه القضية والردُّ عليها.

المحور الخامس: خاتمة في أمور متنوعة تتعلَّق بهذه القضية. ◆



﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ - آية 65 من سورة طه

مناقشات وردود
حول قضية شد الرحال لزيارة خير الأنام

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فإنَّ من أعظم الطاعات والقُربات التي ينال بها المسلم رضاء الله سبحانه وتعالىٰ هي مودَّة ومحبَّة النَّبي المصطفىٰ الكريم سيِّدنا محمَّد ﷺ، وذلك أنها من علامات صِدق الإسلامِ والإيمان، ونحن في هذه الرِّسالة الموجزةِ نستعرض مسألةً من المسائل التي تتعلق بالجناب المحمَّدي، والتي كَثُر فيها القيل والقال من الأدعياء في السَّنوات الأخيرة من مُدَّعي العِلم، ألَا وهي مسألة «شد الرِّحال لزيارة القبر النَّبوي الشَّريف» زاعمين أنها من المحرَّمات؛ بل وصل الأمر ببعضهم إلىٰ عدِّها من باب الشِّرك، واتخذوا من هذه المسألة وأشباهها طريقًا لغرس الفِتن بين المسلمين، يشوِّشون بذلك علىٰ عقائدهم، وهم يستدلُّون بأدلةٍ ليست في محلِّ النِّزاع، ويحمِّلون الدليل ما لا يحتمله، وسوف نحاول أن نُلقيَ الضَّوءَ في هذه الرسالة الموجزةِ علىٰ هذه المسألة، من باب التَّذكير بمحبَّة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، عسىٰ أن تكونَ باعثًا للشَّوق لزيارته وزيادة محبَّته في القلوب، فإن ذِكْر رسول الله ﷺ يُجلي القلوبَ ويبهج الأرواحَ ويقرِّب المسلم من ربِّ العالمين، فهو صلوات الله وسلامه عليه بابُ الرَّحمة وإمام أهل القُرب من الله وسيِّد الخَلْق، وحبيب ربِّ الأرض والسَّموات، الشَّفيع المشفَّع، خليلُ الله وحبيبه، نسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن ينفعنا بما يُكتَب في هذه الرِّسالة الموجزةِ، وسوف يكون الحديث في هذه المسألة متمثلًا في المحاور التالية:

تمهيد.

المحور الأوَّل: الأدلة علىٰ جواز واستحباب زيارة القبور.

المحور الثاني: مناقشة كلام ابن تيميَّةَ حول زيارة قبر النَّبيِّ ﷺ.

المحور الثالث: إيراد أقوال أهل العلم حول هذه القضية.

المحور الرابع: مناقشة معتمداتِ ابن تيميةَ في هذه القضية والردُّ عليها.

المحور الخامس: خاتمة في أمور متنوعة تتعلَّق بهذه القضية. ◆

تمهيد

ما من مسلمٍ صادق الإيمان إلَّا وقلبه يهفو، ورُوحه تحنُّ لزيارة الحبيب محمد ﷺ، بالإضافة إلىٰ النصوص الشَّرعية وأقوال أهل العِلم في هذه المسألة والتي تندب هذه الزيارة وتحثُّ عليها، وترىٰ أن الوسائل لها من المباحات، وليس كما زعم أناسٌ أنَّها تجوز فقط بدون شدِّ رحالٍ أو سفر، ولننظر قولَ أحد الشعراء حينما وصل إلىٰ المدينة المنورة فهزَّه الشوقُ فأنشدَ هذه الأبيات:

قِفْ بالركابِ فهذا الرَّبع والدَّارُ — لاحتْ علينا منَ الأحبابِ أنوارُ
بشراكَ بشراكَ قد لاحت قبابُهمُ — فانزل فقد نلتَ ما تهوىٰ وتختارُ
هذا المحصَّب هذا الخِيف خِيفُ — مِنىٰ هذي منازلُهم هذي هي الدَّارُ
هذي قبابُ قُباء آثار وطئهمُ — وذا هو الجذع فابكِ ذا هو الغارُ
هذا النَّبيُّ الحجازيُّ الذي شهدتْ — له بتقديمِه رسْلٌ وأحبارُ
هذا الحبيبُ الذي أسرىٰ لخالقِه — ليلًا وقد ضربتْ بالليلِ أستارُ
هذا الرَّسولُ الذي من أجله شهدَت — لنا علىٰ غيرِنا فضلٌ وآثارُ
هذا الشَّريفُ الذي سادتْ به مُضَرُ — هذا الذي تُرْبه كالمسكِ معطارُ
هذا الشَّفيع الذي تُرجىٰ شفاعتُه — للمذنبينَ إذا ما اسودَّتِ النارُ
بادرْ وسلِّم علىٰ أنوارِ روضتِه — قبل المماتِ فلا تَشغلْكَ أعذارُ
إنْ لم تُعاين ثراه العينُ يا أسفىٰ — أو لم تزرْه فإنَّ الشوقَ زوَّارُ
يا أهلَ طَيبةَ حلَّ رَبعَكمُ قمرٌ — برٌّ عطوفٌ لفعلِ الخيرِ أمَّارُ
يا خِيرةَ الرُّسل يا أعلىٰ الورىٰ شرفًا — قد أثقلتْ ظهري آثامٌ وأوزارُ
وأشغلتْني ذنوبٌ عنكَ مؤلمةٌ — أخاف تُحرقني من أجلِها النَّارُ
فكُن شفيعي لما قدَّمتُ من زللٍ — ومِن خطايا فإنَّ الرَّبَّ غفَّارُ
صلىٰ عليه إلهُ العرشِ ما سجَعتْ — ورقٌ وما نفحت في الرَّوضِ أزهارُ
وآله وعلىٰ أصحابِه السُّعدا — ما لاحَ نجمٌ وما تنهَّل أمطارُ

الأدلة علىٰ جواز واستحباب زيارة القبور

إن القبرَ هو أوَّل منازل الآخرة، وهو محلُّ الحياة البرزخيَّة إلىٰ يوم البعثِ والنُّشورِ، وزيارةُ القبورِ من السُّنن النَّبوية التي فعلها رسولُ الله صلوات الله وسلامه عليه، وهذه أخي القارئ أدلةُ زيارةِ القبور بشكلٍ عامٍّ وقبرِ النبيِّ صلوات الله وسلامه عليه بشكلٍ خاصٍّ؛ ليظهرَ لك أنَّ القائلين بالمنع لـمَن قصد زيارةَ المصطفىٰ صلوات الله وسلامه عليه قد خالفوا ما دلَّت عليه النُّصوصُ الشَّرعيةُ وكلامُ أهل العِلم.

أدلة جواز زيارة القبور عامةً

أولًا: من السُّنَّة:

قد بلغت أدلَّة جواز زيارةِ القبور مِن الأحاديث النبوية الشريفة أعلىٰ درجات الصِّحةِ، بحيث لا مكان لمنكرٍ علىٰ زائرِ القبورِ لمخالفته السُّنة الصَّحيحةَ الثَّابتة، ومن ذلك:

- ما رواه مسلم من حديث بُريدةَ بن الحصيب الأسلمي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كنتُ نَهَيْتُكُم عن زيارةِ القبورِ فَزُورُوهَا»[1].

- وروىٰ النسائي في سُننه من حديث بريدةَ ﷺ وفيه: أن رسول الله ﷺ قال: «وَنَهَيْتُكُمْ عن زيارةِ القُبُورِ فَمَنْ أرادَ أن يَزُورَ فَلْيَزُرْ ولا تقولوا هُجْرًا»[2].

- أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: زار النبيُّ ﷺ قبرَ أُمِّه فبكىٰ وأبكىٰ مَن حوله، فقال: «استأذنتُ ربِّي في أن أستغفرَ لها فلم يُؤذن لي واستأذنتُه في أن أزورَ قبرَها فأَذِنَ لي فزُوروا القبورَ فإنَّها تُذكِّرُ الموتَ»[3].

- وأخرج ابن ماجه من حديث أمِّ المؤمنين عائشة ﷺ: «أنَّ رسولَ الله ﷺ رخَّصَ

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ربَّه عز وجل في زيارة قبر أُمه (977).

(2) أخرجه النسائي في كتاب الجنائز، باب زيارة القبور (2033)، وأحمد في مسنده (361/5).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه (976).

في زيارةِ القبورِ))[1].

وعنها أيضًا رضي الله عنها أنَّها قالت: كان رسول الله ﷺ كلَّما كان ليلتُها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر اللَّيل إلىٰ البَقيع فيقول: ((السَّلام عليكم دارَ قومٍ مؤمنينَ وأتاكم ما تُوعدونَ غدًا مؤجَّلونَ، وإنَّا إنْ شاءَ الله بكم لاحقونَ اللهمَّ اغفِرْ لأهلِ بقيعِ الغَرقدِ))[2].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ خرج إلىٰ المقبرة فقال: ((السَّلامُ عليكم دارَ قومٍ مؤمنينَ وإنَّا إن شاءَ الله بكم لاحقونَ))[3].

- وكذلك ما رواه مسلم في حديث طويلٍ عن أمِّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها جاء فيه عن النبي ﷺ وهو يرشد السَّيدةَ عائشة رضي الله إلىٰ ما تفعله عند زيارتِها للقبور، فقال لها:

((فإنَّ جبريلَ أتاني حين رأيتِ فناداني فأخفاه منكِ فأجبتُه فأخفيتُه منكِ، ولم يكنْ يدخلُ عليكِ وقد وضعتِ ثيابَكِ وظننتُ أنْ قدْ رقدتِ فكرهتُ أنْ أوقظكَ وخشيتُ أنْ تستوحشي فقالَ: إنَّ ربَّكَ يأمركَ أنْ تأتيَ أهلَ البَقيعِ فتستغفرَ لهم)) قالت: قلتُ كيف أقولُ لهم يا رسولَ الله؟ قال: ((قولي السَّلامُ علىٰ أهلِ الدِّيارِ منَ المؤمنينَ والمسلمينَ ويرحمُ الله المستقدمينَ منَّا والمستأخرينَ وإنَّا إنْ شاء الله بِكم للاحقونَ))[4].

- وروىٰ مسلم في صحيحه بسنده عن سليمان بن بُريدةَ عن أبيه قال: كان رسولُ الله ﷺ يُعلِّمهم إذا خرجوا إلىٰ المقابر فكان قائلُهم يقول: ((السَّلام عليكم أهلَ الدِّيار منَ المؤمنينَ والمسلمينَ وإنَّا إنْ شاء الله للاحقونَ أسألُ الله لنا ولكُمُ العافيةَ))[5].

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة القبور (1570).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (974) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (249).

(4) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (974).

(5) أخرجه مسلم في الكتاب والباب السابقين (975).

فهذه أيها الأخ الكريم نصوصٌ من السُّنة النَّبوية الشَّريفة قطعيةُ الدلالة في جواز زيارةِ القبور.

ثانيًا: أقوال أهل العِلم في حُكم زيارة القبور:

لا خلاف بين أهل العِلم في إباحة زيارة القبور للرِّجال، بل نقَل بعضُهم الإجماعَ فيها كالحازمي في الاعتبار في النَّاسخ والمنسوخ حيثُ قال: ((وزيارة القبور مأذونٌ فيها للرِّجال، اتفق علىٰ ذلك أهلُ العِلْم قاطبةً))[1].

وقال النووي في المجموع: ((أمَّا الأحكام: فاتَّفقت نصوص الشَّافعي والأصحاب علىٰ أنه يُستحب للرِّجال زيارةُ القبور، وهو قول العلماء كافَّةً، نقَل العبدريُّ فيه إجماعَ المسلمين، ودليله مع الإجماع الأحاديث الصحيحة المشهورة، وكانت زيارتها منهيًّا عنها أولًا ثم نُسخ، فقد ثبَت في صحيح مسلم رحمه الله عن بُريدةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((نهيتُكم عن زيارةِ القبور فزُوروها))[2]. وزاد أحمد بن حنبل والنَّسائي في روايتِهما: ((فزورُوها ولَا تقولوا هُجْرًا))[3]. والهُجر: الكلام الباطل، وكان النَّهيُ أوَّلًا لقُرب عهدهم من الجاهليَّة، فربَّما كانوا يتكلَّمون بكلام الجاهليَّة الباطلِ، فلما استقرَّت قواعدُ الإسلامِ وتمهَّدت أحكامُه واستشهرت معالمُه أُبيح لهم الزيارةُ))[4].

وأمَّا الزيارةُ للنِّساء فاختلف فيها الفقهاء علىٰ ما يأتي:

ذهب الحنفيَّة- في الأصح- إلىٰ أنه يُندب للنِّساء زيارة القبورِ كما يندبُ للرِّجال؛ لقوله ﷺ: ((إنِّي كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور...)) الحديث.

---

(1) الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار(ص130) لأبي بكر محمد بن موسىٰ بن عثمان الحازمي الهمداني- دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد- الطبعة الثانية- 1359 هـ.

(2) تقدم تخريجه قريبًا.

(3) تقدم تخريجه قريبًا.

(4) المجموع شرح المهذب (310/5) لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي- المطبعة المنيرية- مصر.

وقال الخير الرَّملي: إن كان ذلك لتجديدِ الحزنِ والبكاءِ والنَّدبِ وما جرت به عادتُهنَّ فلا تجوز، وعليه حُمِل حديث: «لعن الله زوَّاراتِ القبورِ»[1]. وإن كان للاعتبار والتَّرحُّم من غير بكاءٍ، والتَّبرُّكِ بزيارة قبور الصَّالحين فلا بأس- إذا كُنَّ عجائز- ويكره إذا كُنَّ شوابَّ، كحضورِ الجماعةِ في المساجد. قال ابنُ عابدين: وهو توفيقٌ حسنٌ[2].

مذهب المالكية: «سُئل مالكٌ عن النِّساءِ يخرجنَ إلىٰ الجنائزِ علىٰ الرحائل ومشاة؟ قال: قد كان النِّساء يخرجنَ فيما مضىٰ منَ الزَّمان، ولقد كانت أسماء بنت أبي بكرٍ تخرج تقود فرسَ الزُّبير وهي حاملٌ مثقل حتَّىٰ عُوتبت في ذلك. فقيل له: أفترىٰ بخروجهنَ بأسًا؟ فقال: ما أرىٰ بأسًا إلَّا أن يكون أمرًا يُستنكرُ»[3].

مذهب الشَّافعية: قال بعضهم بكراهة زيارة النِّساء للقبور، والراجح عندهم التفصيل؛ فتُباح زيارتُهن عند أمن الفتنةِ، ويُشترط في ذلك ما يُشترط عند ذهابها للمسجدِ، وإلَّا حَرُم، واستدلوا بأحاديث منها: أنَّ النبيَّ ﷺ رأىٰ امرأةً بمقبرةٍ ولم يُنكر عليها[4][5].

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء (1056)، وابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ما جاء في النهي عن زيارة النساء للقبور (1576) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(2) انظر: رد المحتار علىٰ الدر المختار(2/242) لابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز عابدين الدمشقي الحنفي- دار الفكر-بيروت- الطبعة الثانية.

(3) البيان والتحصيل (2/221- 222) لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي- تحقيق: محمد حجي وآخرون- دار الغرب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية - 1988.

(4) يشير إلىٰ حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب زيارة القبور (1283)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب في الصبر علىٰ المصيبة عند الصدمة الأولىٰ (926) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مرَّ النبيُّ ﷺ بامرأةٍ تبكي عند قبرٍ فقال: «اتقي الله واصبري» قالت: إليكَ عني فإنَّكَ لم تُصب بمصيبتي- ولم تعرفه- فقيل لها: إنه النبيُّ ﷺ فأتتْ بابَ النبيِّ ﷺ فلم تجدْ عندَه بوَّابينَ فقالت: لم أَعرفكَ، فقال: «إنَّما الصَّبرُ عندَ الصَّدمةِ الأولىٰ».

(5) انظر: تحفة المحتاج في شرح المنهاج (3/201) لابن حجر الهيتمي مع حاشية الشرواني وابن قاسم العبَّادي- المكتبة التجارية الكبرىٰ بمصر.

مذهب الحنابلة: قالوا بكراهة زيارة القبور للنِّساء؛ لحديث أمِّ عطية رضي الله عنها: ((نُهينا عن اتِّباع الجنائزِ ولم يعزمْ علينا))[1]. فإنْ عُلِم أنه يقع منهنَّ محرَّمٌ حَرُمَت زيارتُهن القبورَ، وعليه يُحمَل قوله صلى الله عليه وسلم: ((لعنَ الله زوَّاراتِ القبورِ))[2].

- فهذه نُبذةٌ من أقوال أهلِ العِلم والمذاهبِ الفقهيَّة في جواز زيارةِ القبورِ بصفةٍ عامَّةٍ مع اشتراطِهم بعضَ الشُّروط بالنِّسبة للنِّساء، ولنرجع إلىٰ المسألة التي نحن بصددِها ألَا وهي زيارة قبرِ نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه فنقول:

إنَّ الألفاظَ الواردةَ في الأحاديث ألفاظٌ عامةٌ تدلُّ علىٰ مطلق زيارة القبور، فيدخُل فيها قبرُ نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه وقبورُ غيرِه من الأنبياءِ والصَّالحين والعلماءِ، إضافةً إلىٰ أحاديثَ أخرىٰ تحضُّ علىٰ زيارة قبر النبيِّ صلى الله عليه وسلم بخصوصِه، ولما كانت الزيارة أمرًا مشروعًا كان الانتقال أو السفر لزيارته مشروعًا؛ إذِ الزيارة المباحة للقبور لا تحدث إلَّا بذلك، والأمرُ إذا ثبتَ ثبتتْ لوازمُه تبعًا لذلك، وعليه فكون الزيارةِ لأيِّ قبرٍ تستلزم انتقالًا أو سفرًا فإنه لا يُمنع منها؛ وذلك لأنه لم يرِدْ في الأحاديث الشَّريفةِ أو في أقوال أهل العِلم ما يجعل شرطَ جواز الزيارة للقبور أن تكونَ بلا سفرٍ أو بلا انتقالٍ من مكانٍ لآخرَ، فَمَن زعم قَصْر جواز زيارة القبور بأن لا يكون في هذه الزيارة سفرٌ فقد تحكَّم وأتىٰ بما ليس له دليلٌ، خاصَّةً وأن لفظَ الزيارةِ الواردَ في الأحاديث الشريفة يحتمل أن يكون بسفرٍ أو بغير سفرٍ، كما هو معلومٌ من دلالة اللغة، حيث إن الإنسانَ قد يقصد زيارةَ قريبٍ له، وهذا القريب قد يكون في بلدٍ آخرَ، ومع هذا فلا يُطلق علىٰ هذا السَّفر إلَّا لفظ الزيارة، فكذلك زيارة القبور بسفرٍ أو غير سفرٍ لا تُسمَّىٰ إلَّا زيارة،

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب اتباع النساء الجنائز (1278) ومسلم في كتاب الجنائز، باب النهي عن اتباع النساء الجنائز (938).

(2) انظر: المغني (401/3) لابن قدامة المقدسي- تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، وعبدالفتاح الحلو، عالم الكتب- الرياض- الطبعة الثالثة.

وهي ما جاءت السُّنة النبوية الشريفة بالأمر بها و إباحتها.

وهناك أمرٌ آخر يُعضِّد هذا القولَ، وهو أنه لو فُرض أن شخصًا ما قام بدفن أحد أبويه أو عزيزٍ لديه من أسرته في بلدةٍ ما وهو يعيش في بلدةٍ أخرىٰ حيث يحرص الناس علىٰ أن يَدفنوا موتاهم في مسقط رأسِهم كما هو مُشاهَد في بلادٍ كبلادِنا- وأراد هذا الشخصُ أن يبرَّ أُمَّه أو أباه بزيارة قبرِهما، وحركه الشَّوقُ إلىٰ هذه الزيارة التي لا تتمُّ إلَّا بسفرٍ، فهل نقول له: لا يجوز لكَ أن تفعل ذلك؟! لا شكَّ أن هذا تنطُّعٌ في استنباط أحكامٍ لم تأتِ في نصٍّ شرعيٍّ ولا اجتهادٍ تحتمله النصوصُ الواردةُ في هذه المسألة.

ولنسقط هذا الكلامَ- أخي الكريم- علىٰ مسألة زيارة قبر نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه فهو خيرُ خَلْقِ الله، وأحبُّ إلينا من كلِّ محبوبٍ، وهو مَن تهفو القلوبُ لزيارته والوقوفِ في رحابِه الكريمِ، والتوسُّلِ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ به وبمحبَّته وبالإيمان به في قضاء الحاجات ورِفعة الدرجات، فهل يَقبل قلبُ مسلمٍ أن يقول: إنه لا يجوز شدُّ الرِّحال والسَّفر قصدًا لزيارته ﷺ؟!

أدلَّة ندبِ واستحبابِ زيارة قبر نبيِّنا ﷺ من الأحاديث النبوية:

قد ورد في كُتب السُّنة النبوية أحاديثُ تحثُّ المسلمَ وترغبه في زيارة قبر رسولِ الله ﷺ، فهذا نبيُّكَ الكريم وحبيبكَ أيها المسلم الموحِّد يدعوكَ لزيارته ﷺ فهل تتخلَّف عن مودَّته وأنت في وسعكَ زيارته؟ فكم كان السَّلف الصَّالح رضوان الله عليهم يتجشَّمون الصِّعاب وركوبَ البحار بغرض زيارتِه صلوات الله وسلامه عليه؟! ونحن الآن رغم توفُّر وسائل المواصلات المريحة ألَا يجدُر بنا أن نلبِّي نداءَ نبيِّنا ﷺ حيث دعانا لزيارته في أحاديثه الشريفةِ؟ ومن هذه الأحاديث:

- ما روي عن ابن عمرَ رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن زارَ قبري وجبتْ له شَفاعتي))[1].

- وعنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ جاءني زائرًا لا يعلمه حاجة إلَّا زيارتي كان حقًّا عليَّ أن أكونَ له شفيعًا يومَ القيامةِ))[2].

- وعنه أيضًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن حجَّ فزارَ قبري بعدَ وفاتِي فكأنَّما زارَني في حياتِي))[3].

- وعن أبي الجراح العبدي قال: حدَّثني رجلٌ من آل عمرَ عن عمرَ قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((مَن زارَ قبري)) أو قال: ((مَن زارني كُنتُ له شفيعًا أو شهيدًا ومَن ماتَ في أحدِ الحرَمَين بعثه الله منَ الآمنين يومَ القيامةِ))[4].

مناقشة كلام ابن تيمية حول زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم

سوف نتعرض الآن لبعض كلام ابن تيمية حول هذه المسألة، وسوف نرىٰ أنه أتىٰ فيها بما لم يقلْه أحدٌ من قبله، والذي يرجع لـكُتب التاريخ والتراجِم والسِّير فسوف يجد أنَّ علماء عصره ومَن جاءوا من بعده قاموا باستنكار هذه الأقوالِ منه، ورفعوا أمرَه فيها إلىٰ وُلاة الأمور، بل وصل الأمر إلىٰ سجنه بسبب كلامه فيها؛ لما تضمنه من التَّعرض للجناب النَّبوي الشَّريف بما يُشعر بالتَّنقيص، ولنرىٰ طرفًا من كلامه هو حول هذه المسألة:

(1) أخرجه الدارقطني في سننه (2695)، والبيهقي في شعب الإيمان (6/ 51)، وصححه عبدالحق الإشبيلي في الأحكام الصغرىٰ (1/467)، وأخرجه البزار في مسنده (1198- كشف الأستار) بلفظ: ((حلت)) بدل ((وجبت)). وقال السيوطي في مناهل الصفا (ص208): ((وله طرق وشواهد حسَّنه الذهبي لأجلها)). ويشهد له أيضًا الأحاديث الآتي تخريجها. وسيأتي مزيد تفصيل في تحسين العلماء لهذه الأحاديث في مباحث هذه الرسالة.

(2) أخرجه الطبراني في الكبير (12/291).

(3) أخرجه الطبراني في الكبير (12/406)، والدارقطني في سننه (2693).

(4) أخرجه الطيالسي في مسنده (65).

- يقول: في مجموع الفتاوىٰ: «وأمَّا زيارته فليست واجبةً باتفاق المسلمين؛ بل ليس فيها أمرٌ في الكتاب ولا في السُّنة، وإنَّما الأمر الموجود في الكِتاب والسُّنة بالصلاة عليه والتسليم، فصلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا، وأكثرُ ما اعتمده العلماء في الزيارةِ قوله في الحديث الذي رواه أبو داود: «ما من مُسلمٍ يُسلِّم عليَّ إلَّا ردَّ الله عليَّ رُوحي حتىٰ أردَّ عليه السَّلام»»[1][2].

- وفي موضع آخر يقول: «وهذا ظَنَّ أنَّ السَّفر إلىٰ زيارة نبيِّنا كالسَّفر إلىٰ غيرِه منَ الأنبياء والصَّالحين وهو غلطٌ من وجوه:

أحدها: أنَّ مسجدَه عند قبرِه، والسَّفر إليه مشروعٌ بالنَّصِّ والإجماع؛ بخلاف غيرِه.

والثاني: أنَّ زيارته كما يُزار غيره ممتنعةٌ، وإنَّما يصل الإنسان إلىٰ مسجده، وفيه يفعل ما شُرع له.

الثالث: أنه لو كان قبر نبيِّنا يُزار كما تُزار القبور لكان أهلُ مدينته أحقَّ الناس بذلك، كما أنَّ أهل كلِّ مدينة أحقُّ بزيارة مَن عندهم من الصَّالحين، فلما اتفق السَّلف وأئمة الدِّين علىٰ أنَّ أهل مدينتِه لا يزورون قبرَه؛ بل ولا يقفون عنده للسَّلام إذا دخلوا المسجدَ وخرجوا وإن لم يُسمَّ هذا زيارة بل يُكرَه لهم ذلك عند غير السَّفر، كما ذكر ذلك مالكٌ وبيَّن أن ذلك من البِدَع التي لم يكن صدر هذه الأُمة يفعلونه- عُلِم أنَّ مَن جعل زيارةَ قبره مشروعةً كزيارة قبر غيرِه فقد خالف إجماعَ المسلمين.

الرابع: أنه قد نهىٰ أن يُتخذ قبرُه عيدًا وأمر الأُمةَ أن تُصلي عليه وتُسلِّم حيثما كانت

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (2041)، وأحمد في مسنده (2/ 527)، والطبرانيُّ في الأوسط (3092) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «ما من أحد...» وصحح إسنادَه النَّوويُّ في رياض الصالحين (ص482).

(2) انظر: مجموع الفتاوىٰ (26/27) لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية- جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم- طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف2004م- المدينة المنورة.

وأخبر أنَّ ذلك يبلغه، فلم يكن تخصيصُ البقعة بالدُّعاء له مشروعًا))[1].

- ويقول أيضًا: ((إنَّ إتيانَ مسجد رسولِ الله ﷺ وقصد ذلك والسَّفر لذلك أولىٰ من إتيان قبرِه لو كانت الحجرة مفتوحةً والسَّفر إليه بإجماع المسلمين، فإنَّ الصحابة كانوا يأتون مسجدَه في اليوم والليلة خمس مرات والحجرة إلىٰ جانب المسجد لم يدخلْها أحدٌ منهم؛ لأنَّهم قد علموا أنه نهاهم أن يتَّخذوا القبورَ مساجد وأن يتَّخذوا قبرَه عيدًا أو وثنًا. وأنه قال لهم: ((صلُّوا عليَّ حيثما كُنتم))[2]. وكذلك قد علِموا أنَّ صلاتهم وسلامَهم عليه في المسجد أولىٰ من عند قبرِه، وكلُّ مَن يسافر للزيارة فسفره إنَّما يكون إلىٰ المسجد سواءٌ قصد ذلك أو لم يقصده، والسَّفر إلىٰ المسجد مستحبٌّ بالنَّصِّ والإجماع))[3].

- ويقول في الإخنائية وهو يتكَّلم عن قصد القبر الشريف: ((وإنَّ ذلك يُكره لأهل المدينة إلَّا عند السَّفر، ومعلومٌ أنَّ أهل المدينة لا يُكره لهم زيارة قبور أهل البقيع وشهداء أُحد وغيرهم، بل هم في ذلك ليسوا بدون سائر الأمصار، فإذا لم يكن لأولئك الامتناع عن زيارة القبورِ بل يُستحبُّ عند جمهور العلماء كما كان النبيُّ ﷺ يفعل، فأهل المدينة أولىٰ ألا يُكره بل يُستحب لهم زيارة القبور كما يُستحب لغيرهم اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، ولكن قبر النبيِّ ﷺ خُصَّ بالمنع شرعًا وحسًّا كما دفن في الحجرة، ومنع النَّاس من زيارة قبره من الحجرة كما تزار سائر القبور، فيصلِّ الزائر إلىٰ عند القبر، وقبر

---

(1) انظر: مجموع الفتاوىٰ(27/243).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (1047)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة (1085) من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((إنَّ مِن أفضل أيَّامكم يومَ الجمُعة فأكثروا عليَّ من الصَّلاة فيه فإنَّ صلاتكم معروضةٌ عليَّ)).

وأخرج أبو يعلىٰ في مسنده (469) من حديث علي بن حسين أنَّه رأىٰ رجلًا يجيء إلىٰ فُرجةٍ كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو فنهاه، فقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: ((لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا فإنَّ تسليمكم يبلغُني أينما كنتم)).

(3) انظر: مجموع الفتاوىٰ (27/309).

النبي ﷺ ليس كذلك، فلا تُستحبُّ هذه الزيارة في حقِّه ولا تمكن، وهذا لعلوِّ قَدْرِه وشَرفه، لا لكون أنَّ غيره أفضل منه، فإنَّ هذا لا يقوله أحدٌ من المسلمين فضلًا عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين بالمدينة وغيرها.

ومن هنا غلط طائفةٌ من النَّاس يقولون: إذا كانت زيارة قبر آحادِ النَّاس مستحبةً فكيف بقبر سيِّد الأولين والآخرين؟ وهؤلاء ظنُّوا أنَّ زيارة قبر الميت مطلقًا هو من باب الإكرام والتعظيم له، والرسول أحقُّ بالإكرام والتعظيم من كلِّ أحدٍ، وظنوا أنَّ تركَ الزيارة له فيها تنقُّص لكرامته، فغلطوا وخالفوا الكتابَ والسُّنةَ وإجماعَ الأُمةِ سلفها وخلفها.

فقولهم نظيرُ قول مَن يقول: إذا كانت زيارةُ القبورِ يصل الزائر فيها إلىٰ قبرِ المزورِ فإنَّ ذلك أبلغ في الدُّعاء له، وإن كان مقصوده دعاءه كما يقصده أهل البِدَع فهو أبلغ في دعائه فالرسول أولىٰ أن نصلَ إلىٰ قبرِه إذا زرناه.

وقد ثبَت بالتواتر وإجماع الأُمَّة أنَّ الرسول لا يُشرع الوصول إلىٰ قبره، لا للدعاء له ولا لدعائه ولا لغير ذلك، بل غيره يُصلَّىٰ علىٰ قبره عند أكثر السَّلف كما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة، والصلاة علىٰ القبر كالصَّلاة علىٰ الجِنازة تُشرع مع القُرب والمشاهدة، وهو بالإجماع لا يُصلَّىٰ علىٰ قبرِه سواء كان للصلاة حدٌّ محدود أو كان يُصلَّىٰ علىٰ القبر مطلقًا، ولم يُعرف أن أحدًا من الصحابة الغائبين لما قدِمَ صلَّىٰ علىٰ قبره ﷺ.

زيارةُ القبورِ المشروعةِ هي مشروعةٌ مع الوصول إلىٰ القبرِ بمشاهدته، وهذه الزيارةُ غير مشروعةٍ في حقِّه بالنَّصِّ والإجماع، ولا هي أيضًا ممكنةٌ فتبيَّن غلط هؤلاء الذين قاسوه علىٰ عموم المؤمنين))[1].

---

(1) انظر: الإخنائية أو الرد علىٰ الإخنائي (275/1) لابن تيمية- تحقيق أحمد بن مونس العنزي- دار الخراز- جدة- الطبعة الأولىٰ.

- ويقول في مجموع الفتاوىٰ: ((إنَّهم احتجُّوا بنقل مَن نقَل من العلماء أنَّ زيارة النبيِّ ﷺ فضيلةٌ مرغَّب فيها وسُنة مُجمَعٌ عليها، وهؤلاء نقلوا الإجماع علىٰ الزيارة لا علىٰ السَّفر لمجرد القبر، ولو نقلوا الإجماع علىٰ السَّفر للزيارة فمعلومٌ أنَّ المسلمين يقصدون المسجدَ والقبرَ، لا يَقصد القبرَ دون المسجدِ إلَّا جاهلٌ، وإذا قصد الزائر المسجدَ والقبرَ جميعًا- فالمجيب لم يذكر القولين في هذه الصورة وإنَّما ذكرهما فيمن لم يسافر إلَّا لمجرد زيارة القبور))[1].

- ويقول في الفتاوىٰ أيضًا: ((نفس السَّفر لزيارة قبرٍ من القبور- قبر نبيٍّ أو غيره- منهيٌّ عنه عند جمهور العلماء حتىٰ إنَّهم لا يُجوِّزون قصدَ الصلاة فيه بناء علىٰ أنه سفر معصيةٍ؛ لقوله الثابت في الصَّحيحين: ((لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلىٰ ثلاثةِ مساجدَ: المسجدُ الحرام والمسجدُ الأقصىٰ ومسجدي هذا))[2] وهو أعلم النَّاس بمثل هذه المسألة، وكلُّ حديثٍ يروىٰ في زيارة القبر فهو ضعيفٌ بل موضوعٌ))[3].

- ويقول في موضع آخر: ((ومَن اعتقد في السَّفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين أنَّه قُربة وعبادة وطاعة فقد خالف الإجماعَ، وإذا سافر لاعتقاده أنه طاعة فإن ذلك مُحرَّم بإجماع المسلمين، فصار التَّحريم من جهة اتخاذه قُربة، ومعلومٌ أنَّ أحدًا لا يسافر إليها إلَّا لذلك، وأما إذا قُدِّر أنَّ شدَّ الرَّحل إليها لغرضٍ مباحٍ فهذا جائزٌ من هذا الباب.

الوجه الثاني: أنَّ النفي يقتضي النَّهي والنَّهي يقتضي التحريم، وما ذكروه مِن الأحاديثِ في زيارة قبر النبيِّ ﷺ فكلُّها ضعيفةٌ باتِّفاق أهل العِلم بالحديث؛ بل هي موضوعةٌ لـم يروِ أحدٌ من أهل السُّنن المعتمدة شيئًا منها، ولم يحتجَّ أحدٌ من الأئمَّة بشيءٍ

---

(1) انظر: مجموع الفتاوىٰ(27/292)

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (1188)، ومسلم في كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد (1397) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) انظر: مجموع الفتاوىٰ (4/521).

منها، بل مالكٌ إمام أهل المدينة النبوية الذين هم أعلم النَّاس بحكم هذه المسألة كرِه أن يقولَ الرجل: زرتُ قبرَ النبيِّ، ولو كان هذا اللفظ معروفًا عندهم أو مشروعًا أو مأثورًا عن النبيِّ ﷺ لم يكرهه عالِمُ المدينة))[1].

التعليق على كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى السابق واستخلاص أفكاره عن المسألة:

في حديثه عن مسألة زيارةِ القبر الشَّريف وشدِّ الرِّحال إليه وقصدِه بالسَّفر، نستخلص منه عدَّة نقاطٍ:

1- زعمه أنَّ زيارة النبيِّ ﷺ ليست واجبةً باتفاق المسلمين، وأنه ليس فيها أمرٌ في الكتاب أو في السُّنة.

والجواب على ذلك: أنَّ هذا الكلام وإن أمكن أن يكون مستقيمًا من النَّاحية الفقهية مع أن بعض أهل العِلم قد أوجبها؛ لكن عدم الوجوبِ لا ينفي ندبَها واستحبابَها ولا القول بعدمِ مشروعيَّة قصد القبر الشريف بسفرٍ أو بغير سفرٍ، فمن خلال الأحاديث التي تحثُّ على زيارة القبرِ الشريفِ والتي وردَت في كتُبِ السُّنة وصحَّح طُرقَها جمْعٌ من العلماء يتبيَّن أنها من المندوبات الشَّرعية، وما يتمُّ به المندوب والمستحبُّ من الوسائل فهو مندوبٌ، فإذا كان ابن تيميةَ يتكلَّم عن عدم وجوب الزِّيارة لعدم وجود نصٍّ فيها، فكذلك لا يوجد نصٌّ شرعيٌّ يمنع من السَّفر لزيارة القبور عامةً أو قبرِ نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه، فكيف يأمر الشَّرعُ بشيءٍ ويزعم مَن يزعم أنَّ وسيلةَ تحصيلِه ممنوعةٌ؟!

فكلام ابن تيميةَ عن عدم وجوبها في النُّصوص الشرعية ليس في محلِّ النزاع، وإنَّما الكلام على استحباب قصْدِ القبرِ الشريف بالزيارة بسفرٍ أو بغير سفرٍ والنَّدبِ إلى ذلك، خاصَّةً أنَّ هذا الأمر يتعلَّق بالجناب المحمَّدي، والزيارة ما هي إلَّا تعبيرٌ عن المحبَّة والمودَّة، والتي جاء الأمر بها في نصوص الكتاب والسُّنة.

(1) انظر: الفتاوى الكبرى (5/289) أحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق محمد عبدالقادر عطا- الطبعة الأولى 1987م- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.

2- إخراجه زيارةَ قبر نبيِّنا ﷺ من الإذن العامِّ بالزيارة للقبور الوارد في الأحاديث الصحيحة حيث قال: ((والثاني: أن زيارته كما يُزار غيرُه ممتنعةٌ، وإنما يصل الإنسان إلىٰ مسجدِه وفيه يفعل ما يفعل)).

وهنا يُطالَب ابنُ تيمية وغيرُه ممَّن يتَّبع قولَه ويقول برأيه بدليلٍ شرعيٍّ يُخرج قبرَ النبيِّ ﷺ من دائرة الإذن العامِّ في زيارة القبور إلىٰ تخصيصه بأنه لا يُزار كما تُزار القبور! فهذا تحكُّمٌ من ابنِ تيميةَ، ونفترض هنا صورة معيَّنة وهي أنه ماذا لو قُدِّر أن النبيَّ الكريم محمَّد صلوات الله وسلامه عليه قد دُفن في مكان آخر غير المدينة المنوَّرة، فهل تماشيًا مع كلام ابن تيمية يُخرَج القبرُ الشريف من الإذن العامِّ الواردِ في الأحاديث الصحيحة بإباحة زيارة القبور، مع أنَّ لازم كلامه ومذهبه في هذه المسألة أنَّه لا يجوز حينئذٍ أن يَقصدَ أحد منَ المسلمين مكانَ القبر الشَّريف للزيارة؟ والمتأمِّل في كلام ابن تيمية يُدرِكُ أنَّه يحوم حولَ فكرة أن زيارةَ قبر المصطفىٰ ﷺ تابعةٌ لزيارة المسجد فقط، ولا يجوز أن تُقصد لذاتها أو تُفردَ بنيَّةٍ.

3- ادعاؤه الإجماع حين قال: ((عُلم أن مَن جعل زيارةَ قبره مشروعةً كزيارة قبر غيرِه فقد خالفَ إجماعَ المسلمين)).

فيقال له: أين هذا الإجماع الذي تدَّعيه أولًا؟ وكذلك يقال له: بل إجماع المسلمين يُخالف ما تقول، وفعلُهم المتواتر عبر العصور يُكذِّب كلامَك من قصدهم القبرَ الشريف بالزيارة، ويكفي في هذا الأمر أن الأُمَّة لا تجتمع علىٰ ضلالةٍ.

4- زعمه أنَّ كلَّ مَن يسافر للزيارة إنَّما هو لزيارة المسجد حيث قال: ((وكلُّ مَن يسافر للزيارة فسفره إنَّما يكون إلىٰ المسجدِ سواءٌ قصد ذلك أو لم يقصده، والسَّفر إلىٰ المسجد مستحبٌّ بالنصِّ والإجماع)).

فهو يفرض ما يراه بأنَّ كلَّ مَن يسافر للمدينة فهو مسافرٌ لقصد زيارةِ المسجدِ النبويِّ، ويعبِّر بقوله: سواءٌ قصَد ذلك أو لم يقصده. ويقول: إنَّ السَّفر للمسجد مستحبٌّ

بالنَّص والإجماع حتىٰ يُخرج توافر النِّية، والسَّفر بقصد زيارة قبرِ المصطفىٰ صلوات الله وسلامه عليه من نية كلِّ مسافرٍ ويجعل منها مجرَّد زيارةٍ تابعةٍ لزيارة المسجدِ فقط.

وهنا نكرِّر القول بأنه يلزم مِن كلامه أنَّ قبر الرسول الكريم لو قُدِّرَ مثلًا أنه في مدينةٍ أخرىٰ بعيدةٍ عن المسجد النبوي لم يكن لأحدٍ من المسلمين أن يقصدَه بالزيارة أبدًا علىٰ مذهب ابن تيمية ووفقًا لكلامه! فكلُّ مَن حركه الشَّوق لزيارة النبي ﷺ مثلًا علىٰ هذه الصورة، يقال له: لا يجوز لك وفقًا لتصور ابن تيميةَ في عدم مشروعيَّة قصد القبر الشَّريف بالزيارة.

5- زعمه كراهية زيارة القبر الشَّريف لأهل المدينة إلَّا عند السَّفر، وزعمه أنَّ قبر النبيِّ ﷺ خُصَّ بالمنع شرعًا وحسًّا، ولسنا ندري مِن أينَ أتىٰ بالمنع الشَّرعي؟! وأيُّ دليلٍ عليه؟ ومِن أين تصوَّر وزعم أنَّ هذا المنع واقعٌ حسًّا؟ حيث قال: إنه لا يتمكَّن أحدٌ من الوصول للقبر، فهو ينفي مسمَّىٰ الزيارة بناءً علىٰ عدم تمكُّن أحدٍ من الوصول للقبرِ الشَّريف، فتصوُّر أنَّ عدم تمكُّن النَّاس من دخول الحجرة النبويَّة الشَّريفة ووقوفِهم بالخارج منها يَمنع تسميةَ هذا زيارةً للقبر، فعلىٰ فهْمِه هذا لا يقال لأحدٍ زار قبرَ النبي ﷺ ولم يدخل إلىٰ الحجرةِ الشَّريفة زائرٌ، وهذا يظهر جليًّا واضحًا من قوله السابق: ((زيارة القبور المشروعة هي مشروعةٌ مع الوصول إلىٰ القبر بمشاهدته، وهذه الزيارة غير مشروعةٍ في حقِّه بالنَّصِّ والإجماع، ولا هي أيضًا مُمكِنة فتبيَّن غلطُ هؤلاء الذين قاسوه علىٰ عموم المؤمنينَ)).

فكلامُ ابنِ تيميةَ يتلخَّص في أنه يحاول إخراجَ القبرِ النبويِّ الشَّريف من الإذن العامِّ في زيارة القبورِ ولم يأتِ علىٰ ذلك بدليلٍ شرعيٍّ، ثم هو بعد ذلك يجعل الزيارة للقبر تبعًا لزيارة المسجد، ولا يجوز أن تستقلَّ بنيَّة قصْدِ سفرٍ لها، والمتتبِّع لكلام ابن تيميةَ في مصنَّفاته وكُتبِه يجد عنده هاجسًا مِن زيارة القبور وقصدِها، ويفترض أنَّ الذي يزور قبورَ الأنبياءِ والصَّالحينَ سيقع في الشِّرك ويتوجَّه لغير الله ويعبدُ القبورَ من دون الله، مع

أنَّ الأصل في أفعال المسلمينَ سلامتُها من كلِّ ذلك، والأصلُ في عقيدةِ المسلمين التوحيدُ والسَّلامة من الشِّرك، ولكنَّ ابنَ تيميةَ ومَن سار على نهجِه ينظرون لزائر مقابر الأنبياء والصالحينَ أنه يحمل في قلبه التوجُّه لأصحاب هذه القبورِ بالعبادة، بل ويصف في كُتبِه ومصنَّفاته قبورَ الأولياء بالأوثانِ.

وفي مسألتنا هذه بالذات هناك نصٌّ قطعيٌّ في حماية القبر النَّبوي من أن يكون مظنَّة الشِّرك أو قبلة أو وثنًا، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه وهو يدعو ربَّه في الحديث الذي رواه الإمام مالك في الموطَّأ عن عطاء بن يَسار أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ لا تَجعلْ قَبري وثنًا يُعبَدُ»[1]. ومعلوم أن دعوة سيِّد الكائنات محمد صلوات الله وسلامه عليه مجابة قطعًا من الله، فلم يكن يومًا ما قبر الحبيب محمَّد مكانًا للشِّرك بالرحمن أبدًا، وإنما يزعم ذلك طوائفُ ضلَّت الطريقَ فأخذت تُبدِّع الأمةَ الإسلامية وتُسارع في رميها بالوقوعِ في الشِّرك.

وسوف تزداد الأمور وضوحًا في المبحث التالي الذي يتناول تعرُّض العلماء لهذه المسألة. ◆

---

(1) أخرجه مالك في موطئه (2/240- 241) من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار به مرسلًا. وله شاهد مرفوع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أخرجه أحمد في مسنده (2/246) به دون لفظة «يُعبَد».

إيراد أقوال أهل العِلم حول هذه القضية

ولنذكرِ الآن أيُّها الأخ المسلم الكريم المحبُّ لسيدنا محمد رسول الله ﷺ طرفًا من أقوال أهل العِلمِ في هذه المسألة، وسترىٰ أنَّ عامةَ علماء المسلمين يقولون بجواز شدِّ الرِّحال لزيارة قبرِ المصطفىٰ صلوات الله وسلامه؛ بل ذكروا أنَّ هذا من أفضلِ أنواع التقرُّب إلىٰ الله عز وجل، وأنه من علاماتِ زيادة الإيمان، وقاموا بالردِّ علىٰ الشيخ ابن تيميةَ في منعه السَّفرَ بقصد زيارة النبيِّ ﷺ، وبيَّنوا الكلام في هذه المسألة أتمَّ بيانٍ، وهذه المسألة لم يقل بها أحدٌ قبل ابن تيميةَ وتابعه فيها مدعو السَّلفية الذين يدندنون بكلام ابن تيميةَ في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من مسائل العِلمِ، ولا يكتفون بحمْلِ أنفسِهم علىٰ ذلك بل يلزمون غيرَهم به جاعلينَ من ابن تيميةَ واجتهاداته حَكَمًا علىٰ باقي عُلماء الأُمة، ولو تمهَّلوا قليلًا لوجدوا أنَّه عالِمٌ من آلاف العلماء الذين خدموا الدِّين وبيَّنوا الشريعة، له ما له وعليه ما عليه، ولكنَّ الهوىٰ ونُصرةَ المذهب والعملَ علىٰ رواج مذهبٍ معيَّن هو ما يدعوهم إلىٰ تقديم كلام ابن تيميةَ وفتاويه علىٰ أنها تُمثِّل مذهب أهل السُّنَّةِ والجماعة، وأنَّها القول الفصل الذي لا قولَ بعده لقائلٍ، مع أنَّ هذا الوصفَ لا يصح أن يطلق إلَّا علىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ولم يكتفوا بذلك بل نجدهم يُخفون أقوالَ أهل العِلمِ من أصحاب المذاهب المختلفة في المسائل التي لا تُوافق هواهم، يظهر هذا جليًّا في مصنَّفاتهم التي تتحدَّث عن تلك المسائل، بل وصل الأمر بهم إلىٰ حذف أقوال بعض أهل العِلمِ التي لا تتماشىٰ مع رأيهم، وإذا اضطروا إلىٰ ذِكرِ قولٍ من أقوال علماء المسلمين لا يُوافق مذهبَهم فيعملون علىٰ تضعيفه، بل وجعْلِه من البدع المخالفة للسُّنة وأنه لا يجوز لمسلمٍ أن يأخذَ به، كلُّ هذا لمجرَّد أنه لا يوافق رؤيتهم التي يريدون فرْضَها علىٰ باقي المسلمين، ولكن لله الحمد والفضل والمِنَّة أنَّ الله وحده تكفَّل بحفظ هذا الدِّين فقيَّض الله له من العلماءِ وأئمَّة الدِّين مَن يُبطل باطلَهم وزيغهم، ويُبيِّن للناس السَّعة واليُسر في أمرِ دِينهم، وينفي عنه ما

ليس منه، كما أخبر بذلك المصطفىٰ ﷺ حيث قال: ((يَحْمِلُ هذا العِلْمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنفُونَ عنه تحريفَ الغالينَ وانتحالَ المبطلينَ وتأويلَ الجاهلينَ))[1].

ومثال هذا الكلام علىٰ مسألتِنا هذه وهي السفر وشد الرِّحال لزيارة قبرِ نبيِّنا ﷺ، والتي تمثِّل نموذجًا واضحًا يظهر فيها تعاطي الفكر السَّلفي المعاصر مع القضايا التي يجعلون منها الصِّبغة التي تُميِّز مذهبَهم وطريقتهم مثل الحديث عن البدعة والشِّركِ والتَّقليد والمذاهب والفقه والتصوُّف، حتىٰ و إنْ سُلِّم لهم في بعض ما يدَّعونه فيها، فهذه المسائل أولًا وآخرًا قضايا اجتهادية لا يجوز لهم أن يحملوا الأُمة كلَّها علىٰ ما يرونه فيجعلون من أنفسهم- بغير حقٍّ ولا دليلٍ- أصحابَ الحقِّ المُطلَق في الدِّين والمتحدِّثين باسم منهج أهل السُّنَّة والجماعة، فيشوِّشون علىٰ الناس أمرَ دينِهم بحديثِهم عن البدعة والشِّرك وأمرِ التوحيد، وكأنَّما الأصل في المسلمين أنَّهم يسارعون في البدعة وفيما يقدح في التوحيد، وتصوِّر لهم عقولُهم أنَّ منعَ الزِّيارةِ أو السَّفرِ إليها هو حمايةٌ لجناب التوحيد، ولسنا ندري أيَّ نقصٍ قد يلحق بتوحيد العبدِ إذا أخذه الشَّوقُ وَشَدَّ الرَّحلَ وعزم السَّفر بنيَّةِ زيارة الحبيب محمَّدٍ ﷺ.

ولنعد الآن إلىٰ ما نحن بصددِه، وهو نقْل أقوال أهل العِلْم في هذه المسألة:

- قال الحافظ ابن حجر العسقلاني شارح صحيح البخاري: ((قال الكرمانيُّ: وقع في هذه المسألة في عصرنا في البلاد الشَّامية مناظراتٌ كثيرةٌ، وصُنِّف فيها رسائل من الطَّرفين- قلتُ: يشير إلىٰ ما ردَّ به الشيخ تقيُّ الدِّين السُّبكي وغيرُه علىٰ الشيخ تقي الدِّين ابن تيميةَ، وما انتصر به الحافظ شمس الدِّين ابن عبدالهادي وغيره لابنِ تيميةَ وهي مشهورة في بلادنا- والحاصل: أنَّهم ألزموا ابنَ تيميةَ بتحريم شدِّ الرَّحل إلىٰ زيارة قبر سيِّدنا رسول

(1) أخرجه البزار في مسنده (9423) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (599).

الله ﷺ، وأنكرنا صورةَ ذلك، وفي شرح ذلك من الطَّرفين طولٌ، وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابنِ تيميةَ[1].

ومن جملة ما استدلَّ به على دفْعِ ما ادَّعاه غيره من الإجماع على مشروعيَّة زيارة قبر النبيِّ ﷺ ما نُقل عن مالكٍ أنَّه كره أن يقول: زرتُ قبرَ النَّبيِّ ﷺ. وقد أجاب عنه المحقِّقون من أصحابه بأنه كرِه اللفظَ أدبًا لا أصل الزِّيارةِ، فإنَّها من أفضل الأعمال وأجلِّ القُربات الموصِّلة إلى ذي الجلال، وإنَّ مشروعيتها محلُّ إجماعٍ بلا نزاعٍ، والله الهادي إلى الصواب.

قال بعض المحققين: قوله ((إلَّا إلى ثلاثةِ مساجدَ))[2]. المستثنى منه محذوفٌ، فإما أن يُقدَّر عامًّا فيصير: لا تشدُّ الرِّحال إلى مكانٍ في أيِّ أمرٍ كان إلَّا إلى الثلاثة، أو أَخَصَّ من ذلكَ، لا سبيل إلى الأوَّل لإفضائه إلى سدِّ باب السَّفر للتِّجارة وصلة الرَّحم وطلب العِلم وغيرها فتعيَّن الثاني، والأولى أن يُقدَّر ما هو أكثر مناسبةً وهو لا تُشدُّ الرِّحال إلى مسجدٍ للصَّلاة فيه إلَّا إلى الثلاثة، فيبطل بذلك قول مَن منع شدَّ الرِّحال إلى زيارة القبر

---

(1) وينسج على منوال ابن تيمية في هذه المسألة كثير من المنتسبين للعلم الذين يسارعون جاعلين من أنفسهم حَكمًا في المسائل، ففي هذه المسألة على سبيل المثال يعلِّق الشيخ ابنُ باز على قول الحافظ ابن حجر فيقول: ((والحاصل أنهم ألزموا ابن تيمية بتحريم شدِّ الرَّحل.... إلخ)) فيقول: هذا اللازم لا بأس به، وقد التزمه الشيخ، وليس في ذلك بشاعةٌ بحمد الله عند مَن عرف السُّنَّة مواردها ومصادرها. والأحاديث المروية في فضل زيارة قبر النبي ﷺ كلُّها ضعيفةٌ بل موضوعة كما حقَّق ذلك أبو العباس في منسكه وغيره، ولو صحَّت لم يكن فيها حجةٌ على جواز شدِّ الرِّحال إلى زيارة قبره عليه الصلاة والسلام من دون قصد المسجد بل تكون عامة مطلقة، وأحاديث النهي عن شدِّ الرِّحال إلى غير المساجد الثلاثة يخصها ويقيدها، والشيخ لم يُنكِر زيارةَ قبر النبي ﷺ من دون شدِّ الرِّحال، وإنما أنكر شدَّ الرَّحل من أجلها مجردًا عن قصد المسجدِ، فتنبه وافهم. والله أعلم)). اهـ

فانظر أيها الأخ الكريم إلى محاولة نُصرة المذهب بأي وسيلةٍ كانت، ضاربًا بأقوال أهل العِلم في هذه المسألة- والتي يعلمها الشيخ جيدًا- عرض الحائط، فعلى أقلِّ تقدير كان عليه أن يعتبرَ هذه المسألةَ من الأمور الاجتهادية التي لا يُنكَر فيها على المخالِف، ولكن صفة نُصرة مذهبٍ بعينه وإرادة فرض آراء طائفة بعينِها، واعتبارها المثلة الوحيدة لمذهب أهل السُّنة والجماعة.

(2) تقدم تخريجه.

الشَّريف وغيره من قبور الصَّالحين، والله أعلم.

وقال السُّبكي الكبير: ليس في الأرض بقعةٌ لها فضلٌ لذاتها حتىٰ تُشدَّ الرِّحال إليها غير البلاد الثلاثة، ومرادي بالفضل ما شهِد الشَّرع باعتباره ورتَّب عليه حُكمًا شرعيًّا، وأمَّا غيرها من البلاد فلا تُشدُّ إليها لذاتها بل لزيارةٍ أو جهادٍ أو عِلْم أو نحوِ ذلك من المندوبات أو المباحات. قال: وقد التبس ذلك علىٰ بعضِهم، فزعم أن شدَّ الرِّحال إلىٰ الزيارة لمن في غير الثَّلاثة داخلٌ في المنع، وهو خطأٌ لأنَّ الاستثناء إنَّما يكون من جنس المُستثنىٰ منه، فمعنىٰ الحديث: لا تشدُّ الرِّحال إلىٰ مسجدٍ من المساجد أو إلىٰ مكانٍ من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلَّا إلىٰ الثَّلاثة المذكورة، وشدُّ الرِّحال إلىٰ زيارةٍ أو طلب عِلْمٍ ليس إلىٰ المكان بل إلىٰ من في ذلك المكان، والله أعلم»[(1)].

قال الإمام أبو زكريا النَّووي رحمه الله: «واعلم أنَّ زيارة قبر رسولِ الله ﷺ من أهم القُربات وأنجح المساعي، فإذا انصرف الحُجَّاج والمعتمرونَ من مكةَ استُحبَّ لهم استحبابًا متأكِّدًا أن يتوجَّهوا إلىٰ المدينة لزيارته ﷺ وينوي الزائر مع الزيارة التقرُّب وشدَّ الرَّحل إليه والصَّلاة فيه وإذا توجه فليُكثِر من الصلاة والتسليم عليه ﷺ»[(2)].

- وقال كذلك رحمه الله تحت عنوان: «في زيارة قبر سيِّدنا ومولانا رسول الله ﷺ وشرَّفَ وكرَّمَ وعظَّمَ وما يتعلَّق بذلك... وفي الباب مسائل:

الأولىٰ: إذا انصرف الحُجَّاج والمعتمرون من مكةَ فليتوجَّهوا إلىٰ مدينة رسولِ الله ﷺ لزيارة تُربته ﷺ فإنَّها من أهم القُربات وأنجح المساعي.

وقد روىٰ البزَّار والدَّارقُطني بإسنادهما عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (66/3) للحافظ أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني- رَقَّم أحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي- المكتبة السلفية.

(2) انظر: المجموع شرح المهذب للنووي (272/8).

((مَن زارَ قبري وجبَتْ له شفاعتي))[1].

الثانية: يستحبُّ للزائر أن ينويَ مع زيارته ﷺ التقرُّبَ إلىٰ الله تعالىٰ بالمسافرة إلىٰ مسجدِه ﷺ والصَّلاةِ فيه.

الثالثة: يستحبُّ إذا توجَّه إلىٰ زيارته ﷺ أن يُكثِر من الصلاة والتَّسليم عليه في طريقه، فإذا وقَع بصرُه علىٰ أشجار المدينة وحرمِها وما يُعرف بها زاد من الصَّلاة والتَّسليم عليه ﷺ، ويسأل الله تعالىٰ أن ينفعَه بزيارته وأن يتقبَّلها منه.

الرابعة: يستحبُّ أن يغتسلَ قبل دخولِه ويلبسَ أنظفَ ثيابِه.

الخامسة: يستحضِر في قلبه حينئذٍ شرفَ المدينة، وأنها أفضل الدُّنيا بعد مكةَ عند بعض العلماء، وعند بعضهم أفضلها علىٰ الإطلاق، وأنَّ الذي شُرِّفَتْ به ﷺ خيرُ الخلائقِ أجمعينَ. وليكن من أوَّل قدومه إلىٰ أن يرجعَ مستشعرًا لتعظيمه ممتلىء القلبِ من هيبتِه كأنَّه يراه))[2].

- وكذلك قال رحمه الله: في زيارة قبر رسول الله ﷺ وأذكارها: ((اعلم أنَّه ينبغي لكل مَن حَجَّ أن يتوجَّه إلىٰ زيارة رسول الله ﷺ، سواءٌ كان ذلك طريقه أو لم يكن، فإن زيارتَه ﷺ من أهم القُربات وأربح المساعي.

أخرج أبو داودَ وغيره عن أبي هريرةَ عنه ﷺ أنه قال: ((ما مِن أحدٍ يُسلِّم عليَّ إلَّا ردَّ الله عليَّ رُوحي حتىٰ أردَّ عليه السَّلامَ))[3].

فإذا توجَّه للزيارة أكثر مِنَ الصَّلاة عليه ﷺ في طريقِه، فإذا وقَع بصرُه علىٰ أشجار المدينة وحرمِها وما يُعرف بها زاد من الصَّلاة والتَّسليم عليه ﷺ وسأل الله تعالىٰ أن

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) انظر: الإيضاح في مناسك الحجِّ والعمرة للنووي (ص447) دار البشائر الإسلامية- بيروت- لبنان 1994م.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (2041)، وأحمد في مسنده (2/ 527)، والطبراني في الأوسط (3092). وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (ص482).

ينفعه بزيارته ﷺ وأن يسعدَه بها في الدارين، وليقل: اللهمَّ افتح عليَّ أبواب رحمتك وارزقني في زيارة قبرِ نبيِّكَ ﷺ ما رزقتَه أولياءَك وأهلَ طاعتِك، واغفر لي وارحمني يا خيرَ مسئولٍ))[1].

- ويقول شيخ الإسلام الإمام زكريَّا بن محمد بن زكريَّا الأنصاري- وهو من كبار أئمَّة الشافعية: ((ومَن نذرَ زيارةَ قبرِ النَّبي ﷺ لزمه الوفاءُ به؛ لأن زيارةَ قبرِه من القُرب المطلوبةِ، وفي لزومه بنذرٍ زيارة قبرِ غيره ترددٌ- أي: وجهان- أوجههما اللُّزوم في حقِّ الرجل، لاسيما إذا كان المقبور صالحًا؛ لأنَّ ذلك قُربةٌ لخبر: ((زوروا القبورَ))[2]. وظاهر كلامِهم: أن زيارة سائر قبورِ الأنبياء كزيارة قبورِ غير النبيِّ ﷺ))[3].

- قال الشيخ الفقيه البكري بن شطا الدِّمْياطي- وهو من فقهاء الشافعية: ((قوله (فائدة يُسن متأكَّدًا زيارة قبر النبي ﷺ) لَّما أنهىٰ الكلامَ علىٰ ما يتعلَّق بالمناسك من الأركان والواجبات والسُّنن شرَع يتكلَّم فيما هو حقٌّ مؤكَّدٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ خصوصًا الحاج، وهو زيارة سيِّدنا رسول الله ﷺ ولو أخَّر ذلك عن محرمات الإحرام كغيره لكان أنسب، واعلم أنَّهم اختلفوا فيها؛ فجرىٰ كثيرون علىٰ أنها سُنةٌ متأكَّدةٌ، وجرىٰ بعضُهم علىٰ أنها واجبةٌ، وانتصر له بعض العلماء. وقوله: (ولو لغير حاجٍّ ومعتمِر) غاية في سَنِّ تأكُّد الزِّيارة، لكن تتأكد الزيارة لهما تأكدًا زائدًا؛ لأنَّ الغالب علىٰ الحجيج الورود من آفاقٍ بعيدةٍ، فإذا قربوا من المدينة يَقبح تركُهم الزيارةَ، ولحديث: ((مَن حجَّ ولم يزرْني فقد جفاني))[4]. وإن كان التقييد فيه غير مرادٍ. (وقوله: لأحاديثَ وردت في فضلِها) أي

---

(1) انظر: الأذكار للنووي (ص350) دار ابن حزم للطباعة والنشر- الطبعة الأولىٰ 2004م.

(2) تقدم تخريجه.

(3) انظر: أسنىٰ المطالب شرح روض الطالب (587/1) تأليف: شيخ الإسلام زكريا الأنصاري- دار الكتاب الإسلامي.

(4) أخرجه ابن حبان في المجروحين (73/3- ترجمة النعمان بن شبل) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الزيارة، منها قوله ﷺ: ((مَن زارَني بعد موتي فكأنَّما زارَني في حياتي))[1]. وقوله ﷺ: ((مَن زارَ قبري وجبتْ له شفاعَتي))[2]. ومفهومه: أنها جائزةٌ لغير زائرِه))[3].

ثم قال أيضًا: ((قال بعضهم: ولزائر قبرِ النَّبي ﷺ عشْرُ كراماتٍ:

إحداهن: يُعطىٰ أرفعَ المراتب.

الثانية: يبلغ أسنىٰ المطالب.

الثالثة: قضاء المآرب.

الرابعة: بذل المواهب.

الخامسة: الأمن من المعاطب.

السادسة: التطهير من المعايب.

السابعة: تسهيل المصاعب.

الثامنة: كفاية النوائب.

التاسعة: حسن العواقب.

العاشرة: رحمة رب المشارق والمغارب.

(والحاصل) زيارة قبرِ النَّبيِّ ﷺ من أفضل القُربات، فينبغي أن يحرص عليها، وليحذر كلَّ الحذر من التخلُّف عنها مع القدرة، وخصوصًا بعد حَجَّةِ الإسلام؛ لأن حقَّه ﷺ علىٰ أُمَّته عظيمٌ، ولو أنَّ أحدهم يجيء علىٰ رأسه أو علىٰ بصره من أبعد موضعٍ من الأرض لزيارته ﷺ لم يقم بالحقِّ الذي عليه لنبيِّه، جزاه الله عن المسلمين أتمَّ الجزاء))[4].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) انظر: إعانة الطالبين علىٰ حل ألفاظ فتح المعين(355/2) لأبي بكر عثمان بن محمد شطا الدِّمياطي (المشهور بالبكري).

(4) المصدر السابق نفس الموضع.

- وفي كتاب الفتاوىٰ الهندية في كتاب المناسك: باب خاتمة في زيارة قبر النَّبي ﷺ. وذلك بعد أن ذكر كيفية وآداب زيارة قبر النَّبي ﷺ، وذكر الأدعية التي يقولها الزائر فقال: ((يُبلِّغُه سلامَ مَن أوصاه فيقول: السَّلام عليكَ يا رسولَ الله من فلان بن فلان يستشفع بكَ إلىٰ ربِّك فاشفع له ولجميع المسلمين...)).

ثم قال بعده أيضًا: ((ثمَّ يقف- أي الزائر- عند رأسِه ﷺ كالأوَّل، ويقول: اللهم إنَّكَ قلتَ وقولك الحقُّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64] وقد جئناكَ سامعين قولَك طائعين أمركَ مستشفعين بنبيِّكِ إليكَ))[1].

- قال الشيخ الإمام الكمال بن الهمام- وهو من كبار أئمَّة الحنفية: ((في زيارة قبر النَّبي ﷺ قال مشايخنا رحمهم الله تعالىٰ: من أفضل المندوبات، وفي مناسك الفارسي وشرح المختار: أنها قريبةٌ من الوجوب لمن له سَعة...)).

ثم استدل بالأحاديث التي تحثُّ علىٰ زيارته ﷺ، والتي سبق ذِكْرها ثم قال: ((هذا والحجُّ إن كان فرضًا فالأحسن أن يبدأ به ثم يُثنِّي بالزيارة، وإن كان تطوعًا كان بالخيار، فإذا نوىٰ زيارة القبر فلينوِ معه زيارةَ المسجد؛ أي مسجدَ رسولِ الله ﷺ))[2].

- وقال الشيخ الفقيه عبدالله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي: ((فصلٌ في زيارة قبر النبي ﷺ: ولما جرىٰ الرَّسم أنَّ الحجَّاج إذا فرغوا مِن مناسكهم وقفلوا عن المسجدِ الحرام قصدوا المدينةَ زائرينَ قبر النَّبي ﷺ إذ هي من أفضل المندوبات والمستحبَّات، بل تَقرُب من درجة الواجبات، فإنه ﷺ حرَّض عليها وبالغ في النَّدب إليها فقال: ((مَن

---

(1) انظر: الفتاوىٰ الهندية في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان(266/1) لمجموعة من علماء المذهب الحنفي في الهند- الطبعة الثانية- المطبعة الأميرية بمصر- 1310 هـ.

(2) انظر: فتح القدير(167/3) لكمال الدين محمد بن عبدالواحد السيواسي، المعروف بابن الهمام- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 2003م.

وجدَ سَعةً ولم يزرْني فقد جفاني))[1]. إلىٰ غير ذلك من الأحاديثِ، ثم رأيتُ أكثر النَّاس غافلينَ عن آدابها ومستحبَّاتها جاهلينَ بفروعها وجزئيَّاتها، أحببتُ أن أذكر فيها فصلًا عقيب المناسك من هذا الكتاب، أذكر نُبذًا من الآداب فأقول: ينبغي لـمَن قصد زيارةَ قبر النَّبي ﷺ أن يكثر الصلاةَ عليه، فقد جاء في الحديث أنه يبلغه ويصل إليه))[2].

- وقال القاضي عياض من فقهاء المالكيَّة: ((فصلٌ في حُكم زيارة قبرِه ﷺ وفضيلة مَن زاره وسلَّم عليه، وكيف يسلم ويدعو؟ وزيارة قَبْرِه ﷺ سُنَّةٌ من سُنَن المسلمين مجمعٌ عليها وفضيلةٌ مُرَغَّبٌ فِيهَا))[3].

- وقال الشيخ الفقيه ابن الحاجِّ المالكيُّ: ((وذكر العبدريُّ رحمه الله في شرحه لرسالة ابن أبي زيد رحمه الله ما هذا لفظه: وأما النَّذر للشي إلىٰ المسجد الحرام، والمشي إلىٰ مكةَ فله أصلٌ في الشرع وهو الحجُّ والعمرة، وإلىٰ المدينة لزيارة النبيِّ ﷺ، والنبيُّ أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس، وليس عنده حجٌّ ولا عمرةٌ، وهذا الذي قاله مسلم صحيحٌ لا يرتاب فيه إلا مشركٌ أو معاندٌ لله ولرسوله ﷺ، وقد نقل ابن هُبيرة في كتاب اتفاق الأئمَّة قال: اتفق مالكٌ والشَّافعي وأبو حنيفةَ وأحمدُ بن حنبل رحمهم الله تعالىٰ علىٰ أن زيارة النبيِّ ﷺ مستحبةٌ، ونقَل عبدالحقِّ في تهذيب الطالب عن أبي عمران الفاسي: أنَّ زيارة النبيِّ ﷺ واجبةٌ. قال عبدالحق: يريد وجوبَ السُّنن المؤكَّدة.

والحاصل من أقوالهم: أنها قُربةٌ مطلوبةٌ لنفسِها لا تعلُّق لها بغيرِها، فتنفرد بالقصدِ وشدِّ الرِّحال إليها، ومَن خرج قاصدًا إليها دون غيرِها فهو في أجلِّ الطَّاعات وأعلاها،

---

(1) تقدم تخريجه بلفظ: ((مَن حجَّ ولم يزرْني فقد جفاني))، وقد ذكره المصنف هنا بمعناه.

(2) انظر: الاختيار لتعليل المختار (175/1) لعبدالله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.

(3) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (83/2) للقاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.

فهنيئًا له ثم هنيئًا له، اللهمَّ لا تحرمنا من ذلكَ بمنّكَ يا كريمُ))[1].

- وقال الإمام ابن قدامة المقدسي من أئمَّة المذهب الحنبلي ((فصلٌ زيارة قبر النبيِّ ﷺ: ويستحبُّ زيارة قبرِ النَّبي ﷺ...)) ثم ساق بعض الأحاديث الدَّالة على استحباب الزيارة السَّابق ذكرها))[2].

- وقال الشيخ منصور بن يونس البُهوتي الحنبلي: ((وإذا فرغَ من الحجِّ استُحبَّ له زيارةُ قبر النَّبي ﷺ وقبرَي صاحبَيه أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما؛ لحديث الدَّارقُطني عن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ ((مَن حجَّ فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي)) وفي رواية: ((مَن زارَ قبري وجبتْ له شفاعتي))[3]. تنبيهٌ: قال ابن نصر الله: لازم استحبابِ زيارةِ قبرِه ﷺ استحبابُ شدِّ الرِّحال إليها؛ لأنَّ زيارته للحاجِّ بعد حجِّه لا تُمكن بدون شدِّ الرَّحل، فهذا كالتَّصريح باستحباب شدِّ الرَّحلِ لزيارتِه ﷺ))[4].

- قال الشيخ أبو زرعة العراقي: ((لو نذَر إتيانَ مسجد المدينة لزيارة قبر النَّبِيِّ ﷺ لزمه ذلك؛ لأنه مِن جملة المقاصد التي يُؤتىٰ لها ذلك المحلُّ؛ بل هو أعظمها، وقد صرَّح بذلك القاضي ابنُ كَجٍّ من أصحابِنا فقال: عندي إذا نذَر زيارةَ قبر النبيِّ ﷺ لزمه الوفاءُ وجهًا واحدًا، ولو نذر أن يزورَ قبرَ غيره فوجهان، وللشيخ تقي الدِّين ابن تيميةَ هنا كلامٌ بشعٌ عجيبٌ يتضمن منْعَ شدِّ الرَّحل للزيارة، وأنه ليس من القُرَبِ بل بضدِّ ذلك، وردَّ عليه الشيخ تقي الدِّين السُّبكي في شفاء السِّقام فشفىٰ صدورَ المؤمنين، وكان والدي

---

(1) انظر: المدخل (256/1) لأبي عبدالله محمد بن محمد بن محمد العبدريِّ الفاسيِّ المالكيِّ، الشهير بابن الحاج- دار التراث - القاهرة.

(2) انظر: المغني (465/5) لأبي محمد موفق الدِّين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة- تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو- دار عالم الكتب- الرياض- الطبعة الثالثة- 1997م.

(3) تقدم تخريجه.

(4) انظر: كشاف القناع عن الإقناع (343/6) لمنصور بن يونس البُهوتي الحنبلي- طبعة وزارة العدل- المملكة العربية السعودية 2004م.

رحمه الله يحكي أنَّه كان معادلًا للشَّيخ زين الدِّين عبدالرحيم بن رجب الحنبلي في التوجُّه إلىٰ بلد الخليل عليه السلام، فلما دنا من البلد قال: نويت الصلاة في مسجد الخليل ليحترز عن شدِّ الرَّحل لزيارته علىٰ طريقة شيخ الحنابلة ابن تيمية، قال: فقلتُ نويت زيارةَ قبر الخليل عليه السلام. ثم قلتُ له: أما أنتَ فقد خالفتَ النبيَّ ﷺ؛ لأنه قال: ((لا تُشَدُّ الرِّحال إلَّا إلىٰ ثلاثة مساجد)) وقد شددتَ الرَّحل إلىٰ مسجدٍ رابعٍ، وأما أنا فاتبعتُ النبيَّ ﷺ؛ لأنه قال: ((زوروا القبورَ)) أفقال: إلَّا قبور الأنبياء؟! قال: فبُهِتَ.

قلتُ: ويدلُّ علىٰ أنه ليس المراد إلَّا اختصاصَ هذه المساجد بفضل الصَّلاة فيها وأنَّ ذلك لم يَرِد في سائر الأسفار قولُه في حديث أبي سعيد المتقدم: ((لا ينبغي لِمَطِي أنْ تُشَدَّ رحالُه إلىٰ مسجدٍ تُبتغىٰ فيه الصَّلاة غيرَ كذا وكذا))[1]. فبيَّن أن المراد شدُّ الرَّحل إلىٰ مسجدٍ تُبتغىٰ فيه الصَّلاة، لا كل سفرٍ والله أعلم))[2].

- وانظر إلىٰ قول الإمام الذهبي، وهو مَن هو في علوم الحديث، وفوق ذلك كان من تلاميذ ابن تيميةَ ماذا يقول عن زيارة قبر رسول الله؟ ((فمَن وقف عند الحجرةِ المقدَّسة ذليلًا مُسلِّما مُصليًا علىٰ نبيِّه، فيا طوبىٰ له، فقد أحسن الزيارةَ، وأجمَلَ في التذلُّل والحبِّ، وقد أتىٰ بعبادةٍ زائدة علىٰ مَن صلىٰ عليه في أرضِه، أو في صلاتِه، إذ الزائرُ له أجرُ الزيارة وأجرُ الصلاة عليه، والمصلِّي عليه في سائر البلاد له أجرُ الصَّلاة فقط، فمَن صلىٰ عليه واحدةً صلىٰ الله عليه عشرًا، ولكن مَن زارَه صلوات الله عليه وأساء أدبَ الزِّيارة، أو سجد للقبر، أو فعل ما لا يُشرع، فهذا فعَل حسنًا وسيئًا، فيُعلَّم برفق والله غفور رحيم، فوالله ما يحصل الانزعاج لمسلم والصِّياح وتقبيل الجدران وكثرة البكاء إلا

(1) أخرجه أحمد في مسنده (64/3)، وقوله: ((غير كذا وكذا)) يريد بقية لفظ الحديث: ((غير المسجد الحرام والمسجد الأقصىٰ ومسجدي هذا)).

(2) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب (43/6) لزين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي، وأكمله ابنه: أبو زرعة أحمد بن عبدالرحيم- دار التراث العربي- بيروت- لبنان.

وهو محبٌّ لله ولرسوله، فحبُّه المعيار والفارق بين أهل الجنَّة وأهل النَّار، فزيارة قبره من أفضل القُرَب))[1].

- ويقول الشيخ تقي الدِّين الحِصْني الشافعي عن مسألة السَّفر لزيارة قبر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وينتقد كلامَ ابن تيمية فيها فيقول: ((فصلٌ: فتوىٰ ابن تيميةَ في تحريم السَّفر لزيارة قبر النبيِّ ﷺ أو قبور الأنبياء عليهم السَّلام، وهو الزائغ يُطالَب بما ادَّعاه من إجماع الصَّحابة ﷺ وكذا التابعين ومن بعدهم أئمة المسلمين إلىٰ حين ادِّعائه ذلك.

وما أعتقد أن أحدًا يتجاسر علىٰ مثل ذلك، مع أنَّ الكتبَ المشهورةَ بل والمهجورةَ وعمَل النَّاس في سائر الأعصار علىٰ الحثِّ علىٰ زيارته من جميع الأقطار، فزيارته من أفضل المساعي وأنجحِ القُرَبِ إلىٰ ربِّ العالمين، وهي سُنَّة من سُنن المرسلين، ومجمعٌ عليها عند الموحِّدين، ولا يطعن فيها إلا مَن في قلبه مرضُ المنافقين، ومَن هو مِن أفراخ اليهود وأعداء الدِّين من المشركين الذين شرقوا بسيِّد الأولين والآخرين.

ولم تزل هذه الأُمَّة المحمَّدية علىٰ شدِّ الرِّحال إليه علىٰ مرِّ الأزمان من جميع الأقطارِ والبلدان، سواءٌ في ذلك الزَّرافات والوحدان والعلماء والمشايخ والكهول والشباب))[2].

- قال العلَّامة القسطلَّاني: ((وينبغىٰ لكلِّ مسلمٍ اعتقاد كون زيارته ﷺ قُربةً؛ للأحاديث الواردة في ذلك، ولقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء:64] الآية؛ لأنَّ تعظيمه ﷺ لا ينقطع بموته، ولا يقال: إنَّ استغفارَ الرسول لهم إنَّما هو في حال حياتِه وليست الزيارة كذلك،

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (485/4) لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- دار الرسالة- الطبعة الثالثة- 1405 هـ / 1985 م.

(2) انظر: دفع شُبه مَن شبَّه وتمرَّد ونسب ذلك إلىٰ السيد الجليل الإمام أحمد (ص457) لتقي الدِّين أبي بكر الحصني الشافعي الدمشقي- دار الرازي- عمَّان- الأردن.

لما أجاب به بعض أئمَّة المحقِّقين: أنَّ الآية دلَّت علىٰ تعليق وجدان الله توابًا رحيمًا بثلاثة أمورٍ: المجيء، واستغفارهم، واستغفار الرَّسول لهم، وقد حصل استغفارُ الرسول لجميع المؤمنين والمؤمنات؛ لأنه ﷺ قد استغفرَ للجميع، قال الله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد:19] فإذا وُجد مجيئهم واستغفارهم تكمَّلت الأمورُ الثلاثة الموجبة لتوبة الله ورحمته.

وقد أجمع المسلمون علىٰ استحبابِ زيارة القبور كما حكاه النَّووي، وأوجبها الظاهرية، فزيارته ﷺ مطلوبةٌ بالعموم والخصوص؛ لما سبَق، ولأنَّ زيارة القبور تعظيمٌ، وتعظيمه ﷺ واجبٌ؛ ولهذا قال بعض العلماء: لا فرقَ في زيارته ﷺ بين الرجال والنِّساء وإنْ كان محلُّ الإجماع علىٰ استحبابِ زيارة القبور للرِّجال، وفي النِّساء خلافٌ، والأشهر في مذهب الشافعي الكراهة.

قال ابن حبيبٍ من المالكية: ولا تَدعْ زيارةَ قبره ﷺ والصلاة في مسجده، فإنَّ فيه من الرَّغبة ما لا غِنىٰ بكَ ولا بأحدٍ عنه.

وينبغي لمن نوىٰ الزيارةَ أن ينوي مع ذلك زيارةَ مسجده الشَّريف والصَّلاة فيه؛ لأنه أحد المساجد الثلاثة التي لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إليها، وهو أفضلها عند مالكٍ، وليس لشدِّ الرِّحال إلىٰ غير المساجد الثلاثة فضلٌ؛ لأنَّ الشرع لم يجئ به، وهذا الأمر لا يدخله قياسٌ؛ لأنَّ شرَف البُقعة إنَّما يُعرف بالنَّصِّ الصريح عليه، وقد ورَد النَّص في هذه دون غيرها.

وقد صحَّ أنَّ عمر بن عبدالعزيز كان يبرد البريد للسَّلام علىٰ النبيِّ ﷺ، فالسَّفر إليه قُربةٌ لعموم الأدلة، ومَن نذَر الزيارة وجبَت عليه كما جزم به ابن كَجٍّ من أصحابِنا، وعبارته: إذا نذر زيارة قبر النبيِّ ﷺ لزمه الوفاء، وجهًا واحدًا. انتهىٰ))(1).

(1) انظر: المواهب اللدنية (3/589) لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني- المكتبة التوفيقية- القاهرة- مصر.

فهذه أيُّها الأخ المسلم بعضَ أقوالِ علماء المسلمين وأئمَّة المذاهب الفقهيَّة المعتمدة عند المسلمين على مرِّ القرون في هذه المسألة، والتي يبيِّنون فيها استحبابَ قصد زيارةِ قبر رسول الله ﷺ؛ بل ويصرِّحون بأنَّ ذلك من أقرب القُربات إلى الله سبحانه وتعالى، وأنها دليلٌ على الإيمان والتوحيد والتَّصديقِ بهذا الدِّين العظيم أن يقصدَ المسلمُ مَن شرَّفه الله سبحانه وتعالى بحمْلِ أمانة الرِّسالة إلى العالمين؛ شوقًا إليه صلوات الله وسلامُه عليه ومحبةً ومودةً له، وليست كما يزعم هؤلاء مِن أنها ليست بقُربةٍ وأن شروط جوازها هو أن تكون بدون شدِّ رحْلٍ ولا سفرٍ إليه، فيا عجبًا لقلوب ضلَّت طريقَها إلى محبَّة سيدنا محمد ﷺ.

هذا وقد أفاض علماؤنا في مناقشة ابن تيمية والردِّ عليه، وهذا ما سنتناوله بشيءٍ من التفصيل في المبحث الآتي. ◆

مناقشة معتمدات ابن تيميةَ في هذه القضية والردُّ عليها

إنَّ عمدة ابن تيميةَ ومَن تابعه في عدم جواز شدِّ الرِّحال والسَّفر إلىٰ زيارة قبر النَّبي ﷺ وقبور الأنبياء والصالحينَ- هو فهمهم لحديثٍ ورد عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنزلوه في غير موضِعه، واستدلوا به في غير مكانِه وجعلوه دليلًا علىٰ منْعِ السَّفر بقصد زيارة قبر النَّبي صلوات الله وسلامه عليه، فضلًا عن ذلك قبور الأنبياءِ والعلماءِ والأولياءِ، وهذا الحديث: «لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إلىٰ ثلاثةِ مساجدَ: المسجدِ الحرامِ والمسجدِ الأقصىٰ ومسجدي هذا»[1].

ثم أضاف إلىٰ فهمه لهذا الحديث ثلاثةَ أمورٍ:

الأول: أنَّ هذا الأمرَ من البدع- أي: قَصْد قبرِ النبيِّ ﷺ بالزيارة- التي لم يفعلها السَّلف والتي لم ترِد عن أحدٍ، وادَّعىٰ الإجماعَ علىٰ أنَّ زيارة قبرِه ليست مشروعةً كزيارة قبر غيرِه محاولًا بذلك إخراجها من الإذن العام بزيارة القبورِ.

الثاني: هو افتراض أنَّ الزيارةَ تُفضي إلىٰ الشِّرك.

الثالث: زعمه أنَّ أحاديث زيارةِ قبر النبيِّ ﷺ موضوعةٌ.

فخرج مِن كلِّ هذا إلىٰ تحريم قصْدِ قبر نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه والأنبياء والصَّالحين بالسَّفر للزيارة والتقرُّب إلىٰ الله بذلكَ، وسوف نتكلَّم عن كلِّ جزئيةٍ من هذه الجزئيات:

أوَّلًا: الكلام علىٰ حديث: «لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إلىٰ ثلاثةِ مساجدَ المسجدِ الحرامِ والمسجدِ الأقصىٰ ومسجدي هذا».

إنَّ دلالة مفهوم هذا الحديثِ أبعدُ ما يكون عن الاستدلال بالمنع مِن شدِّ الرِّحال والسَّفر لزيارة قبر نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه، وقد تقدَّم كلامُ الحافظِ ابن حجرٍ والتَّقي السُّبكي في معنىٰ الحديث، والمراد: أنَّ الرِّحال لا تشدُّ إلىٰ مسجدٍ للصلاة فيه إلَّا إلىٰ

(1) تقدم تخريجه.

الثلاثة، فيبطل بذلك استدلال ابن تيميَّة مِن منْعِ شدِّ الرِّحال إلىٰ زيارة القبر الشَّريف وغيرِه من قبور الصَّالحين.

فلو أُخِذ بالحديث بناءً علىٰ فهْمِ ابن تيميةَ لأدَّىٰ ذلك الفهمُ بمنع شدِّ الرحال إلىٰ أيِّ مكانٍ فيه مصلحة دينيَّة أو دنيويةٌ، وليس في الحديثِ الشريفِ ما يشير إلىٰ ذلك من قريبٍ ولا من بعيدٍ، وإنَّما الأمر المذكور في الحديث الشريف هو الكلام عن شدِّ الرحال للمساجدِ دون غيرها.

وقال الإمام الكبير تقي الدِّين السُّبكي الشافعي في بيان المرادِ من هذا الحديثِ: ((اعلم أنَّ هذا الاستثناءَ مفرَّغٌ، تقديره: لا تُشدُّ الرِّحال إلىٰ مسجدٍ إلَّا إلىٰ المساجد الثلاثةِ، أو لا تشدُّ الرِّحال إلىٰ مكانٍ إلَّا إلىٰ المساجد الثلاثة، ولابد مِن أحد هذين التقديرينِ ليكون المستثنىٰ مندرجًا تحت المستثنىٰ منه، والتقديرُ: الأولُ؛ لأنه جنسٌ قريبٌ))[1].

فانظر أيها الأخ الكريم إلىٰ فهْمِ هذا الفقيه الذي بيَّن أن مفهوم الاستثناء الواردِ في هذا الحديث؛ أي المنع من شدِّ الرِّحال لا يخرج عن حالتَين، فإمَّا أن يكون النهي عامًّا عن شدِّ الرحال مطلقًا إلىٰ أيِّ مكانٍ غير هذه المساجد الثلاثة، وهذا لا يقول به عاقلٌ فضلًا عمَّن له اطلاعٌ واسعٌ علىٰ شريعة الإسلامِ، فالرِّحال كلُّها تُشَدُّ في جميع أمور الدِّين والدُّنيا من طلب عِلمٍ وطلبِ رزقٍ وصلةِ رحمٍ وبِرٍّ وغير ذلك من المباحات، وإمَّا أن يكون معناه لا تُشدُّ الرِّحال لمسجدٍ من المساجد لاعتقاد فضيلتِه إلَّا لهذه المساجد الثلاثة فقط.

فالحديث الشريف لا يدلُّ بمنطوقه أو بمفهومه إلىٰ تحريم السَّفر لزيارة القبور فضلًا عن السفر لزيارة قبر نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه، فالحديث خاصٌّ بالمساجد وشدِّ الرِّحال إليها.

---

(1) انظر: شفاء السقام في زيارة خير الأنام (ص118) لعلي بن عبدالكافي تقي الدين السبكي الشافعي- طبعة دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد- الهند- 1982م.

وانظر إلىٰ قول العلَّامة ابن حجرٍ الهيتمي حيث قال في تعليقه علىٰ موقف ابن تيمية في هذه المسألة: «فإن قلتَ: كيف التشنيع عليه مع ما استمسك به من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إلىٰ ثلاثة مساجدَ» والشدُّ للزيارة خارجٌ عن هذه الثلاثةِ فليكن منهيًّا عنه؟

قلتُ: ليس معنىٰ الحديث ما فَهم؛ لما يأتي موضَّحًا، وإنَّما معناه: لا تُشدُّ الرحال إلىٰ مسجدٍ لأجل تعظيمه والتقرُّب بالصَّلاة فيه إلَّا إلىٰ المساجد الثلاثة لتعظيمها بالصَّلاة فيها، وهذا التقدير لابدَّ منه عند كلِّ أحدٍ ليكون الاستثناء متصلًا؛ ولأنَّ شدَّ الرِّحال إلىٰ عرفةَ لقضاء النُّسك واجبٌ إجماعًا، وكذا للجهاد والهجرةِ من دار الكُفر بشرطها، وهو لطلب العِلم سُنةٌ أو واجبٌ، وقد أجمعوا علىٰ جواز شدِّها للتجارة وحوائج الدُّنيا، فحوائج الآخرة لاسيَّما ما هو من آكدها وهو الزيارة للقبر الشريف أولىٰ.

ومما يدلُّ أيضًا لتأويل الحديث بما ذُكِر: التصريح به في حديثٍ سنده حسنٌ، وهو قوله ﷺ: «لا ينبغي لمَطي أن تُشدَّ رحالُها إلىٰ مسجدٍ تُبتغَىٰ فيه الصَّلاة غيرَ المسجد الحرامِ ومسجدي هذا والمسجدِ الأقصىٰ»[(1)]»[(2)].

- قال الشوكاني عند حديثه عن زيارة رسول الله ومعاني شدِّ الرحال: «فائدة: لم يذكر المصنِّف رحمه الله تعالىٰ في كتابه هذا زيارة قبر النبيِّ ﷺ، وكان الموطِن الذي يحسُن ذِكرها فيه كتاب الجنائز؛ ولكنَّها لما كانت تُفعل في سفر الحجِّ في الغالب ذكرها جماعةٌ من أهل العِلم في كتاب الحجِّ، فأحببنا ذِكرها هاهنا تكميلًا للفائدة، وقد اختلفت فيها أقوال أهل العِلم، فذهب الجمهور إلىٰ أنَّها مندوبةٌ، وذهب بعض المالكيَّة وبعض الظاهريَّة إلىٰ أنها واجبةٌ، وقالت الحنفية: إنها قريبةٌ من الواجبات.

---

(1) الحديث بهذا اللفظ هو جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (3/64).

(2) انظر: الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم (ص59) لأحمد بن محمد بن حجر الهيتمي- دار الحاوي- بيروت- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 2007م.

وذهب ابن تيميةَ الحنبليُّ حفيدُ المصنِّف المعروفُ بشيخ الإسلام إلىٰ أنَّها غير مشروعة، وتبِعَه علىٰ ذلك بعض الحنابلة، وروي ذلك عن مالكٍ والجويني والقاضي عياض كما سيأتي.

احتجَّ القائلون بأنها مندوبةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:64] الآية.

ووجه الاستدلال بها: أنه ﷺ حيٌّ في قبره بعد موتِه، كما في حديث: ((الأنبياء أحياءٌ في قبورِهم))[1]. وقد صحَّحه البيهقي وألف في ذلك جزءًا، قال الأستاذ أبو منصورٍ البغدادي: قال المتكلمون المحقِّقون من أصحابنا: إن نبيَّنا ﷺ حيٌّ بعد وفاته. انتهىٰ.

ويؤيد ذلك ما ثبت أنَّ الشهداء أحياءٌ يُرزقون في قبورِهم، والنبي ﷺ منهم، وإذا ثبت أنه حيٌّ في قبره كان المجيء إليه بعد الموتِ كالمجيء إليه قبلَه، ولكنه قد ورَد أنَّ الأنبياء لا يَتركون قبورَهم فوق ثلاث، وروي فوق أربعين، فإن صحَّ ذلك قدح في الاستدلال بالآية. ويعارض القول بدوام حياتهم في قبورهم ما سيأتي من أنه ﷺ تُرد إليه رُوحه عند التسليم عليه، نعم حديث: ((مَن زارني بعدَ موتي فكأنَّما زارَني في حياتي))[2]. الذي سيأتي إن شاء الله تعالىٰ إنْ صحَّ فهو الحجَّة في المقام.

واستدلوا ثانيًا بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: 100] الآية، والهجرة إليه في حياته الوصول إلىٰ حضرته كذلك الوصول بعد موته، ولكنه لا يخفىٰ أنَّ الوصول إلىٰ حضرتِه في حياتِه فيه فوائدُ لا تُوجد في الوصول إلىٰ حضرته بعد موته، منها النظر إلىٰ ذاتِه الشَّريفة وتعلُّم أحكام الشريعة منه، والجهاد بين يديه، وغير ذلك.

---

(1) أخرجه البزار في مسنده (6391)، وأبو يعلىٰ في مسنده (3425)، والبيهقي في حياة الأنبياء في قبورهم (ص 69) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (8/ 386): ((رواه أبو يعلىٰ والبزار، ورجال أبو يعلىٰ ثقات)).

(2) تقدم تخريجه.

واستدلوا ثالثًا بالأحاديث الواردة في ذلك، منها الأحاديث الواردة في مشروعية زيارة القبور على العموم والنبي ﷺ داخلٌ في ذلك دخولًا أوليًّا، وقد تقدم ذِكرها في الجنائز، وكذلك الأحاديث الثابتة من فعله ﷺ في زيارتها، ومنها أحاديث خاصة بزيارة قبرِه الشَّريف...))[1]. ثم ذكر أحاديثَ الزيارةَ التي سبَق ذكرها.

وقال أيضًا: ((وقد أجاب الجمهور عن حديث شدِّ الرَّحل بأنَّ القصر فيه إضافيٌّ باعتبار المساجد لا حقيقي. قالوا: والدليل على ذلك أنه قد ثبت بإسنادٍ حسن في بعض ألفاظ الحديث: ((لا ينبغي للمَطِي أن يُشدَّ رحالُها إلى مسجدٍ تُبتغى فيه الصلاة غيرَ مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى)). فالزيارة وغيرها خارجة عن النَّهي.

وأجابوا ثانيًا بالإجماع على جواز شدِّ الرِّحال للتجارة وسائر مطالب الدُّنيا، وعلى وجوبه إلى عرفةَ للوقوف، وإلى مِنى للمناسك التي فيها، وإلى مزدلفة، وإلى الجهاد، والهجرة من دار الكُفر، وعلى استحبابه لطلب العِلم.

وأجابوا عن حديث: ((لا تتَّخذوا قبري عيدًا))[2]. بأنه يدلُّ على الحثِّ على كثرة الزيارة لا على منعها، وأنه لا يُهمل حتى لا يُزار إلَّا في بعض الأوقات كالعيدين، ويؤيده قوله: ((لا تجعلوا بيوتكم قبورًا))[3] أي: لا تتركوا الصَّلاةَ فيها. كذا قال الحافظ المُنذري.

وقال السُّبكي: معناه أنه لا تتخذوا لها وقتًا مخصوصًا لا تكون الزيارة إلا فيه، أو لا تتخذوه كالعيد في العُكوف عليه وإظهار الزِّينة والاجتماع للهو وغيره كما يُفعل في الأعياد؛ بل لا يؤتى إلا للزيارة والدُّعاء والسلام والصَّلاة ثم ينصرف عنه.

---

(1) انظر: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار(6/320-318) لمحمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني- تحقيق: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد- دار ابن عفان القاهرة- الطبعة الأولى- 2005 م.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (2042)، وأحمد في مسنده (2/ 367) والطبراني في الأوسط (8030) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحسن إسناده النووي في خلاصة الأحكام (1/440).

(3) جزء من الحديث السابق.

وأجيب عما رُوي عن مالك من القول بكراهة زيارة قبره ﷺ بأنه إنما قال بكراهة زيارة قبره ﷺ قطعًا للذريعة. وقيل: إنما كره إطلاقَ لفظ الزِّيارة؛ لأن الزيارة مَن شاء فعلها ومَن شاء تركها، وزيارة قبره ﷺ من السُّنن الواجبة. كذا قال عبدالحق.

واحتجَّ أيضًا مَن قال بالمشروعية بأنه لم يزل دأب المسلمين القاصدين للحجِّ في جميع الأزمانِ علىٰ تباين الدِّيار واختلاف المذاهب الوصول إلىٰ المدينة المشرفة لقصد زيارته، ويعدُّون ذلك من أفضل الأعمال، ولم ينقل أنَّ أحدًا أنكر ذلك عليهم فكان إجماعًا»[1].

وانظر أيها الأخ الكريم إلىٰ فَهم الحافظ ابن حجر العسقلاني لحديث صلاة النبي ﷺ في مسجد قُباء، حيث بوَّبَ البخاري لهذا الحديث بقوله: باب إتيانِ مسجد قُباء ماشيًا وراكبًا... عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النَّبِيُّ ﷺ يأتي مسجدَ قُباء راكبًا وماشيًا» زاد ابن نميرٍ حدثنا عبيد الله عن نافعٍ «فيُصلِّي فيه ركعتَين»[2].

قال الحافظ ابن حجرٍ: «قوله: باب إتيان مسجد قُباء ماشيًا وراكبًا، أفرد هذه الترجمة لاشتمال الحديث علىٰ حُكمٍ آخر غير ما تقدَّم. وفي هذا الحديث علىٰ اختلاف طُرقه دلالةٌ علىٰ جواز تخصيص بعضِ الأيام ببعضِ الأعمال الصَّالحة والمداومةِ علىٰ ذلك، وفيه أنَّ النهي عن شدِّ الرِّحال لغير المساجد الثلاثة ليس علىٰ التَّحريم»[3].

- وإليك أيضًا كلام الإمام الغزالي في السَّفر وقصْدِ القبور للزيارة:

«السفر لأجل العبادة إما لحجٍّ أو جهادٍ، وقد ذكرنا فضلَ ذلك وآدابه وأعماله الظَّاهرة والباطنة في كتاب أسرار الحجِّ، ويدخل في جملتِه زيارةُ قبورِ الأنبياء عليهم السلام، وزيارةُ قبورِ الصحابة والتابعين وسائرِ العلماء والأولياءِ، وكلِّ مَن يُتبرَّك

---

(1) انظر: نيل الأوطار (6/325).

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب إتيان مسجد قباء ماشيًا وراكبًا (1194)، ومسلم في كتاب الحج، باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته (1399).

(3) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (3/69).

بمشاهدته في حياته يُتبرَّك بزيارته بعد وفاته.

ويجوز شدُّ الرِّحال لهذا الغرض ولا يَمنع من هذا قوله ﷺ: ((لا تُشدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثةِ مساجدَ مسجدي هذا والمسجدِ الحرامِ والمسجدِ الأقصى)) لأنَّ ذلك في المساجد فإنها متماثلةٌ بعد هذه المساجد، وإلَّا فلا فرقَ بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتًا عظيمًا بحسب اختلاف درجاتهم عند الله))[1].

- وهذا الفقيه ابن الضِّياء الحنفي يحدِّثنا عن شدِّ الرِّحال وزيارة قبر المصطفى فيقول: ((وأمَّا حديث: ((لا تُشدُّ الرِّحال إلَّا إلى ثلاثة مساجدَ)) فلا دلالةَ فيه على النَّهي عن الزيارة؛ بل هو حجَّةٌ في ذلك، ومَن جعله دليلًا على حُرمة الزيارة فقد أعظم الجرأةَ على الله وعلى رسوله، وفيه برهانٌ قاطعٌ على غباوة قائله وقصوره عن ذوق صافي العِلم، وقصورِه عن نيل درجة كيفية الاستنباط والاستدلال.

والحديث فيه دليلٌ على استحباب الزيارة من وجهين:

الأول: أنَّ موضع قبرِه الشريف أفضل بقاع الأرض، وهو ﷺ أفضل الخَلق وأكرمهم على الله تعالى؛ لأنه لم يُقسم بحياة أحدٍ غيره، وأخذ الميثاق من الأنبياء بالإيمان به وبنصرِه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:81] الآية. وشرَّفه بفضله على سائر المرسلين وكرَّمه بأن ختَم به النبيين ورفَع درجتَه في علِّيين، فإذا تقرَّر أنه أفضل المخلوقين وأن تُربته أفضل بقاع الأرض- استُحبَّ شدُّ الرِّحال إليه وإلى تربته بطريق الأولى.

---

(1) انظر: إحياء علوم الدين (247/2) لأبي حامد الغزالي- مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا- سماراغ.

الوجه الثاني: أنه استُحب شدُّ الرِّحال إلىٰ مسجد المدينة، ولا يُتصور من المؤمنين المخلصين انفكاكَ قصْدِه عنه ﷺ، وكيف يُتصوَّر أنَّ المؤمن المعظِّم قدرَ النَّبي ﷺ يدخل مسجدَه ويشاهد حجرته ويتحقَّق أنه يسمع كلامه، ثم بعد ذلك يسعه أن لا يقصد الحجرة والقبرَ ويسلِّم علىٰ رسول الله ﷺ، هذا ممَّا لا خفاءَ فيه علىٰ أحدٍ، وكذلك لو قصَد زيارةَ قبره لم ينفكَّ قصْدُه عن قصْدِه المسجدَ، ومن الدليل علىٰ الزيارة الأحاديثُ الكثيرة الصحيحة في فضل زيارة الإخوان في الله، فزيارة النبيِّ ﷺ أولىٰ وأولىٰ.

ومنها: أن حُرمته ﷺ واجبةٌ حيًّا وميتًا، ولا شكَّ أنَّ الهجرةَ إليه كانت في حياته من أهمِّ الأشياء فكذا بعد موته.

ومنها: الأحاديث الدَّالة علىٰ استحباب زيارة القبورِ، وهذا في حقِّ الرجال مجمعٌ عليه، وفي حقِّ النِّساء فيه خلافٌ، هذا في غير قبر النَّبي ﷺ، وأما زيارة قبره ﷺ فالإجماع علىٰ استحبابها للرجال والنساء.

ومنها: أنَّ الإجماع علىٰ جواز شدِّ الرِّحال للتجارة وتحصيل المصالح الدُّنيوية فهذا أولىٰ؛ لأنه من أعظم المصالح الأُخروية.

ومنها: إجماع النَّاس العملي علىٰ زيارته ﷺ وشدِّ الرِّحال إليه بعد الحجِّ من بعد وفاته إلىٰ زماننا هذا.

ومنها: الإجماع القولي. قال القاضي عياض: زيارة قبرِه ﷺ سُنَّةٌ من المسلمين مُجمَعٌ عليها))[1].

فهذه أيُّها الأخ المسلم نقولات متنوعةٌ عن فهْمِ علماء المسلمين لحديث شدِّ الرِّحال، والتي بيَّن فيها أهلُ العِلم مفهومَ الحديث ودلالته وما هو المقصود منه، وليس كما ادَّعاه ابنُ تيميةَ واستدلَّ به في غير محلِّه.

---

(1) انظر: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف(ص338) لمحمد بن أحمد ابن الضياء محمد القرشي العمري المكي الحنفي بهاء الدين أبي البقاء المعروف بابن الضياء- تحقيق: علاء إبراهيم، أيمن نصر- دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان.

- ثم نأتي بعد ذلك للأمر الثاني الذي اعتمد عليه ابنُ تيمية في تحريمه لقصد القبرِ النَّبويِّ الشَّريف بالزيارة إلىٰ جانب فهْمِه لحديث ((لا تُشدُّ الرِّحال)) وذلك أنه زعم أنَّ هذا الأمر من البِدَع- أي قصد قبر النبي ﷺ بالزيارة- التي لم يفعلها السَّلف والتي لم ترد عن أحد، وادَّعىٰ الإجماعَ علىٰ أن زيارة قبره ليست مشروعة كزيارة قبر غيره محاولًا بذلك إخراجها من الإذن العام بزيارة القبور.

والجواب عن هذه الشبهة: هذا الزعم مردودٌ عليه فإنه لا دليلَ علىٰ هذا الخروج من الإذن، ويضاف بعد ذلك ما اختُصَّ به القبر النبوي من مزيد شرفٍ فوق كلِّ قبرٍ وبُقعةٍ علىٰ وجه الأرض، ويقال له أيضًا أين هذا الإجماع الذي زعمته علىٰ هذا الأمر؟ وفي أيِّ مصدرٍ من مصادر العِلمِ ورد؟ وعن أيٍّ من أئمة المذاهب نُقل؟ بل الحاصل- كما نقلنا سابقًا من أقوالهم- أنَّ قَصْد القبر بالزيارة هو من المندوبات ومن أقرب القُربات إلىٰ ربِّ الأرض والسَّموات، ولننظر طرفًا من كلام وسُلوك أئمَّة الإسلام والمسلمين مع القبر الشريف عبر العصور، هل كانوا لا يقصدونه بالزيارة فعلًا كما ادَّعىٰ ابن تيمية؟ أم ماذا كانوا يفعلون؟

1- قال الشَّيخ ابن الحاجِّ المالكيُّ في كتابه المدخل ما نصُّه: ((فالتَّوسُّل به عليه الصَّلاة والسَّلام هو محلُّ ومحطُّ أحمال الأوزار وأثقال الذُّنوب والخطايا؛ لأنَّ بركة شفاعته عليه الصَّلاة والسَّلام عند ربِّه لا يتعاظمها ذنبٌ، فليستبشر مَن زاره ويلجأ إلىٰ الله بشفاعته عليه الصلاة والسلام، ومَن لم يزرْه فليقل: اللهم لا تحرمنا شفاعتَه بحُرْمَتِه عندكَ، آمين يا ربَّ العالمين.

ومَن اعتقد غير ذلك فهو المحرومُ، ألم يسمع قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:64] فمن جاءه ووقَف ببابه وتوسَّل به ﷺ وجد الله توابًا رحيمًا؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ مُنزَّهٌ عن خلف الميعاد، وقد وعَد سبحانه وتعالىٰ بالتَّوبة لمن جاءه ووقَف ببابِه وسأله

واستغفر ربَّه، فهذا لا يشكُّ فيه ولا يرتاب إلَّا جاحدٌ للدِّين معاندٌ لله ولرسوله ﷺ نعوذ بالله مِن الحرمان))[1].

2- وقال القاضي عياض: ((قال إسحاق بن إبراهيمَ الفقيهُ: ومما لم يزل من شأن مَن حجَّ المرورُ بالمدينة والقصدُ إلىٰ الصَّلاة في مسجد رسول الله ﷺ، والتبرُّكُ برؤية روضته ومِنبَره وقبرِه ومجلسه وملامسِ يديه ومواطئ قدمَيه والعمودِ الذي كان يستند إليه وينزل جبريل بالوحي فيه عليه، وبمن عمَّره وقصده من الصَّحابة وأئمَّة المسلمين والاعتبار بذلك كلِّه.

وقال ابن أبي فديك سمعتُ بعضَ مَن أدركتُ يقول: بلغنا أنَّه مَن وقف عند قبرِ النبي ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:56] ثم قال: صلَّىٰ الله عليكَ يا محمَّد، مَن يقولها سبعين مرة- ناداه ملَكٌ صلَّىٰ الله عليكَ يا فلانُ ولم تسقط له حاجةٌ))[2].

3- أورد الحافظ الذَّهبي في ترجمة سيِّدنا بلال بن رباح رضوان الله عليه رواية جاء فيها:

((لما دخل عمر الشَّام سأل بلالٌ أن يقرَّه به، ففعل. قال: وأخي أبو رويحة الذي آخىٰ رسولُ الله ﷺ بيني وبينه، فنزل بداريَّا في خَوْلان، فأقبل هو وأخوه إلىٰ قومٍ من خَوْلان، فقالوا: إنا قد أتيناكم خاطبَين، وقد كنَّا كافرَين فهدانا الله، ومملوكَين فأعتقنا الله، وفقيرَين فأغنانا الله، فإنْ تُزَوِّجونا فالحمدُ لله، وإن تردُّونا فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله. فزوَّجوهما.

ثم إنَّ بلالًا رأىٰ النَّبيَّ ﷺ في منامه وهو يقول: ما هذه الجفوة يا بلالُ؟ أمَا آن لكَ أن تزورني؟ فانتبه حزينًا، وركب راحلتَه وقصَد المدينةَ، فأتىٰ قبرَ النَّبي ﷺ فجعل يبكي عندَه، ويمرِّغ وجهَه عليه، فأقبل الحَسن والحُسين، فجعل يضمُّهما ويقبِّلُهما.

---

(1) انظر: المدخل لابن الحاج (1/259).

(2) انظر: الشفا للقاضي عياض(1/85).

فقالا له: يا بلالُ! نشتهي أن نسمعَ أذانَكَ.

ففعل وعلا السَّطحَ ووقف. فلمَّا أن قال: الله أكبر الله أكبر- ارتجَّتِ المدينةُ.

فلمَّا أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله- ازداد رجَّتُها.

فلما قال: أشهد أنَّ محمدًا رسول الله- خرجت العواتِق من خُدورهنَّ، وقالوا: بُعث رسولُ الله. فما رُئي يومٌ أكثر باكيًا ولا باكيةً بالمدينة بعد رسولِ الله ﷺ من ذلك اليوم))[1].

4- وهذا الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ﷺ كان يبعث السَّلامَ لرسول الله مع مَن يسافر إلىٰ المدينة المنوَّرة، وهو حينئذٍ بدمشق مقرِّ خلافته، فقد ورد في تاريخ مكةَ المشرفة والبيت الحرامِ: ((عن يزيدَ المهدي قال: لما ودَّعتُ عمرَ بن عبدالعزيز قال: إنِّي لي إليكَ حاجة. قلتُ: يا أميرَ المؤمنين كيف ترىٰ حاجتَك عندي؟ قال: إني أراكَ إذا أتيتَ المدينةَ سترىٰ قبرَ النبيِّ ﷺ فأقرئه منِّي السلامَ.

وعن حاتم بن وَردان قال: كان عمر بن عبدالعزيز يوجِّه البريدَ قاصدًا من الشام إلىٰ المدينةِ؛ ليُقرئ عنه النبي ﷺ السلامَ))[2].

5- وانظر إلىٰ فعل الفاروق عمر لما فتح بيت المقدس؛ ففي فتوح الشام: ((أنَّ عمر رضي الله تعالىٰ عنه لما صالح أهلَ بيت المقدس، وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم وفرح بإسلامِهِ قال له: هل لكَ أن تسير معي إلىٰ المدينة وتزور قبرَ النبيِّ ﷺ وتتمتع بزيارته؟ فقال: نعم يا أميرَ المؤمنين أنا أفعل ذلك، ولما قدِمَ عمر المدينةَ كان أوَّل ما بدأ بالمسجد وسلَّم علىٰ رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم))[3].

---

(1) انظر: سير أعلام النبلاء(1/358).

(2) انظر: تاريخ مكة المشرفة (ص338).

(3) انظر: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ (4/183) نور الدين علي بن عبدالله السمهودي- دار الكتب العلمية- بيروت.

6- ومما جاء في قصْدِ القبر الشريف الحكايةَ المشهورة عن قصدِ الأعرابي لقبر رسول الله، والتي جاء فيها ما أورده الكثير من الحفَّاظ وأئمَّة المسلمين والمفسِّرين عند الحديث عن هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:64] روايةً توضِّح مثالًا تطبيقيًّا لما فهمه المسلمون من هذه الآية، وكيف قاموا بالعمل بما تُرشد إليه.

فهذا مثال لما فهمه المفسِّرون وأهلُ العِلم عند الكلام عن هذه الآية الكريمة.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: ((وقد ذكَر جماعةٌ منهم الشَّيخ أبو النَّصر الصَّباغ في كتابه الشَّامل هذه القصَّةَ المشهورة عن العُتبي قال: كنتُ جالسًا عند روضة النَّبيِّ ﷺ فجاء أعرابيٌّ فقال: السَّلام عليك يا رسولَ الله سمعتُ الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64] وقد جئتُكَ مُستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلىٰ ربِّي ثمَّ أخذ يقول:

يا خيرَ مَن دُفنت بالقاعِ أعظمُه فطابَ من طِيبهنِّ القاعُ والأكـمُ

نَــفْسي الفداءُ لقبرٍ أنتَ ساكنُه فيه الـعفافُ وفـيه الـجودُ والكرمُ

ثم انصرف الأعرابيُّ، فغلبتني عيني فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النَّوم فقال: ((ياعُتْبيُّ الْحَقِ الأعرابيَّ فبشِّره بأنَّ الله قد غَفَرَ له))[1].

7- أورد القاضي عياض رحمه الله صورًا من زيارة القبر الشَّريف من الصَّحابة والسَّلف الصَّالح فقال: ((قال بعضهم: رأيتُ أنسَ بن مالك أتىٰ قبرَ النبيِّ ﷺ فوقف فرفع يدَيه حتىٰ ظننتُ أنه افتتح الصلاةَ، فسلَّم علىٰ النبيِّ ﷺ ثم انصرف.

---

(1) ذكرها النووي في المجموع (8/ 274)، وابن كثير في تفسيره (4/140) بدون إسناد.

وأخرجها البيهقيُّ في شُعَب الإيمان (3880) من طريق أبو علي الروذباري حدثنا عمرو بن محمد بن عمرو بن الحسين بن بقية إملاءً حدثنا شكر الهروي حدثنا يزيد الرقاشي عن محمد بن روح بن يزيد البصري حدثني أبو حرب الهلالي... ثُمَّ ساق القِصةَ بنحوها.

وقال مالك في رواية ابن وهبٍ: إذا سلَّم على النبي ﷺ ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة، ويدنو ويسلِّم ولا يمسَّ القبرَ بيدِه))[1].

8- وهذا هو الصَّحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري يقصد ويزور قبرَ رسولِ الله ﷺ في وقتٍ كان فيه مَرْوان بن الحكم واليًا على المدينة المنورة، فقد روى الحاكم في المستدرك بسندِه عن داودَ بنِ أبي صالح قال: أقبل مَرْوان يومًا فوجد رجلًا واضعًا وجهَه على القبر فأخذ برقبته وقال: أتدري ما تصنع؟ قال: نعم، فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال: جئتُ رسولَ الله ﷺ ولم آتِ الحَجَر سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((لا تبكُوا على الدِّين إذا وَلِيَه أهلُه ولكنِ ابكُوا عليه إذا وَلِيَه غيرُ أهلِه)). قال الذهبي: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد، ولم يخرجاه[2].

9- ومِن صورِ قصد الصحابة لقبرِ النبيِّ ﷺ ما روى أوسُ بن عبدالله قال: قحط أهلُ المدينة قحطًا شديدًا فشكوا إلى عائشةَ رضي الله عنها فقالت: انظروا قبرَ النَّبي ﷺ فاجعلوا منه كُوًى إلى السَّماء حتَّى لا يكون بينه وبين السَّماء سقفٌ. قال: ففعلوا فُمطرنا مطرًا حتَّى نبت العشبُ وسمنت الإبلُ حتَّى تفتَّقت من الشَّحم، فسمِّي ذلك العام بعام الفتق[3].

10- وهذه صورةٌ أخرى من صورِ زيارة القبرِ النبويِّ حدَثت في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد روى ابن أبي شيبة في مصنَّفه عن مالك الدَّار- وكان خازن عمر على الطَّعام- قال: أصاب النَّاسَ قحطٌ في زمن عمرَ فجاء رجلٌ إلى قبر النَّبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله استسقِ لأمَّتك فإنَّهم قد هلكوا، فأتى- أي النَّبيُّ ﷺ- الرجلَ في المنام فقيل له: ائتِ عمرَ فأقرئه منِّي السَّلام وأخبره أنَّكم مُستقون وقل له: عليكَ الكيسَ

(1) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (2/85).

(2) أخرجه أحمد في مسنده (5/422)، والحاكم في مستدركه (4/515).

(3) أخرجه الدارمي في سننه (93).

عليكَ الكيسَ، فأتىٰ عمرَ فأخبره فبكىٰ عمرُ ثم قال: يا ربِّ لا آلو إلَّا ما عجزت[1].

فلم يُنكر عليه عمر رضي الله عنه ولا قال له: كيف تقصد قبرَ النبيِّ ﷺ؟ أو كيف تزوره؟ فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ قصْدَ قبرِ النبيِّ صلوات الله وسلامه عليه بالزيارة كان من عادة الصَّحابة الكرام رضوان الله عليهم.

فهذه بعض الأمثلة أيها الأخ المسلم عن قصْدِ المسلمين قبرَ رسولِ الله ﷺ بالزيارة، وأنه ليس من البِدَع التي لم يعرفها السَّلف كما قال ابن تيمية وبنىٰ كلامَه في المنع علىٰ أساس هذا الادعاء.

- ثم نعرض للأمرِ الثالث مِن معتمدات ابن تيميةَ وأدلَّته وهو ادعاؤه أنَّ جميع أحاديث الحثِّ علىٰ زيارة قبر رسول الله ﷺ إمَّا موضوعةٌ أو ضعيفة جدًّا، فيقول وهو يتحدَّث عن أحاديث الزيارة: ((فهذا الأحاديث وما أشبهها كلها كذبٌ موضوعٌ علىٰ النبيِّ ﷺ لم يثبت عنه لفظٌ واحدٌ في زيارة قبرِه، ولكن روىٰ الأولان مَن قد يروي الموضوعات كالبزار والدارقطني))[2].

- ويقول كذلك: ((وكذلك كلُّ حديث يُروىٰ في زيارة قبر النبي ﷺ فإنه ضعيفٌ؛ بل موضوعٌ، ولم يروِ أهلُ الصِّحاح والسُّنن والمسانيد كمسند أحمد وغيره من ذلك شيئًا))[3].

فلكي يُثبت ابن تيمية مذهبَه في هذه المسألة حكم علىٰ الأحاديث التي فيها الحثُّ علىٰ زيارة قبرِ رسول الله ﷺ بالوضعِ والضَّعفِ، وأغفل تصحيحَ أهل العِلمِ لهذه الأحاديث، وبيان صحة طُرقِها، فعلىٰ سبيل المثال ممَّن قام بالردِّ علىٰ ابن تيميةَ في كلامه عن أحاديثِ زيارةِ القبر الشَّريفِ:

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (32665)، والبيهقي في دلائل النبوة (7/47). وصحح إسناده ابن كثير في البداية والنهاية (10/74)، وابن حجر في فتح الباري (2/495).

(2) انظر: الرد علىٰ البكري (1/144) لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق: أبي عبدالرحمن محمد بن علي عجال- مكتبة الغرباء الأثرية.

(3) انظر: مجموع الفتاوىٰ (27/16).

1- الإمام العلَّامة تقي الدِّين علي بن عبدالكافي السُّبكي الشَّافعي في كتابه الجامع لمسألة الزيارة، حيث أورد الأحاديث الواردة عن النبيِّ ﷺ والتي تحثُّ علىٰ زيارة القبر الشَّريف وبيان طُرقِها وحال رواتها وأشبع الكلام في هذه المسألة، وفنَّد كلامَ ابن تيميَّة في ردِّه لتلك الأحاديث، حيث قال في مقدمة هذا الكتاب: ((وضمَّنتُ هذا الكتابَ الردَّ علىٰ مَن زعم أن أحاديث الزيارة كلها موضوعة، وأنَّ السَّفر إليها بدعةٌ غير مشروعةٍ، وهذه المقالة أظهر فسادًا من أن يرُدَّ العُلماء عليها))[1].

2- وهذا الحافظ جلال الدِّين السُّيوطي وهو يتكلَّم عن أحاديث زيارة قبرِ النبيِّ ﷺ يقول:

((حديث: ((مَن زار قبري وجبَتْ له شفاعتي)) رواه ابن أبي الدُّنيا والطَّبراني والدَّارقطني وابن عدي من طرقٍ عن ابن عمر. قال الذهبي: طُرقه كلها لينةٌ يُقوي بعضُها بعضًا؛ لأنَّ ما في رواتها متهمٌ بالكذب. قال: ومن أجودها إسنادًا حديث حاطب: ((مَن زارني بعد موتي فكأنَّما زارني في حياتي)) أخرجه ابن عساكر وغيرُه))[2].

3- وانظر إلىٰ أحد أئمَّة الشَّافعية وهو الشيخ الإمام تقي الدِّين الحِصني وهو يفنِّد كلامَ ابن تيميَّة عن أحاديث الزيارة فيقول: ((وقوله-أي ابن تيميةَ: إنَّ ما ذكروه من الأحاديثِ في زيارة قبر النَّبي ﷺ فكلُّها ضعيفةٌ باتِّفاق أهل العِلم؛ بل هي موضوعةٌ لم يروِها أحدٌ من أهل السُّنن المعتمدة شيئًا منها. أعوذ بالله مِن مكر الله عز وجل، انظر أدام الله تعالىٰ لك الهداية وحماك من الغواية إلىٰ فجورِ هذا الخبيثِ كيف جعَل الأحاديث المروية في زيارةِ قبر خير البريةِ ضعيفةً؟! ثم أردف ذلك بقوله: باتفاق أهل العِلْمِ بالحديث. ولم يجعل هذه الأئمَّة الذين أذكرهم من أهل الحديث، والعجب أنه يروي عنهم

(1) انظر: شفاء السقام في زيارة خير الأنام (ص2).

(2) انظر: الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (ص190) تأليف: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد بن لطفي الصباغ- عمادة شئون المكتبات- جامعة الملك سعود- الرياض. والحديثان قد تقدم تخريجهما.

في مواضعَ عديدةٍ من كُتبه، وهذا من جهله وبلادة ذِهْنه وعماوة قلبِه من أنه لا يعلم تناقضَ كلامِه ونقضه بذلك، ثم إنه لم تخمد نارُ خُبثه بما ذكره منَ الفجور حتىٰ أردف ذلك بأنَّ الأحاديث المروية في زيارةِ قبرِه المكرَّمِ موضوعةٌ- يعني أنها كذبٌ- وهذا شيءٌ لم نرَ أحدًا من علماء المسلمين ولا من عوامِّهم فاهَ به ولا رمزَ إليه لا مَن في عصره ولا مَن قبلَه قاتله الله))[1].

- ويقول الشيخ العلَّامة عليٌّ القاري في شرح الشِّفا: وقد أفرط ابن تيميَّة من الحنابلة حيث حرَّم السَّفر لزيارة النبيِّ ﷺ))[2].

فهذه نُبذةٌ من أقوال أهل العِلم في كلام ابنِ تيميةَ عن الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبيِّ ﷺ وبيان فسادِ كلامه.

- ومِن أجملِ الأحاديث التي توضِّح مشروعيةَ قصْدِ قبر رسولِ الله صلوات الله وسلامه عليه بالزيارة ما رواه الحاكم في المستدرك بسنده عن عطاء مولىٰ أمِّ حبيبةَ قال: سمعتُ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: ((ليَهبِطنَّ عيسىٰ بنُ مريمَ حكَمًا عدلًا وإمامًا مُقْسِطًا وليسلكنَّ فجًّا حاجًّا أو مُعتمرًا أو بنيَّتِهما وليأتينَّ قبري حتىٰ يُسلِّمَ عليَّ ولأردنَّ عليه))[3]. وقال عنه الحاكم: هذا حديثٌ صحيح الإسنادِ، ووافقه الحافظ الذهبي.

- ثم نأتي علىٰ رابع الأمور التي جعلت ابنَ تيميةَ يسلُك هذا المسلكَ الغريبَ في تعامله مع مسألة قصْدِ قبر النبيِّ ﷺ بالزيارة بوجهٍ خاصٍّ، ومسألة الزيارة بدون شدِّ رحلٍ بوجه عامٍّ، ألَا وهو أنَّ منهجَ ابن تيميةَ ومصنَّفاته تجعل من زيارة القبورِ مظنَّة للشِّرك بالله، فهو يبني تعامله وتصورَه لتلك المسألة علىٰ أنَّ زيارة المرء للقبر قد تُوقِعه في الشِّرك بالله؛ بل ويسمِّي الزائرينَ لقبور الصالحين علىٰ طريق المودَّة والمحبَّة والتقرُّب من الله

(1) انظر: دفع شُبه مَن شبَّه وتمرد ونسب ذلك إلىٰ السيد الجليل الإمام أحمد (ص485).

(2) انظر: شرح الشفا(2/152) تأليف: ملا علي القاري- دار الكتب العلمية- بيروت.

(3) أخرجه الحاكم في مستدركه (2/595).

سبحانه وتعالىٰ بمحبَّة عباده الصَّالحين الذين يرغبون بالتعرض للنَّفحات الإلهية والعطايا الربَّانية- يسمِّيهم بالقبوريين الذين يقعون في الشِّرك فيقول:

«ثم إنَّك تجد كثيرًا من هؤلاء الذين يستغيثونَ عند قبرٍ أو غيره كلٌّ منهم قد اتخذ وثنًا وأحسن الظَّن به وأساء الظنَّ بآخرَ، وكلٌّ منهم يزعم أنَّ وثنه يُستجاب عنده ولا يستجاب عند غيرِه، فمنَ المحال إصابتهم جميعًا، وموافقة بعضهم دون بعضٍ تحكُّمٌ وترجيحٌ بلا مرجِّحٍ، والتدين بدينِهم جميعًا جمعٌ بين الأضداد، فإنَّ أكثر هؤلاء إنما يكون تأثُّرهم فيما يزعمون بقدر إقبالهم علىٰ وثنِهم وانصرافهم عن غيرِه، وموافقتهم جميعًا فيما يثبتونه دون ما ينفونه بضعف التأثير علىٰ زعمِهم، فإنَّ الواحد إذا أحسن الظنَّ بالإجابة عند هذا وهذا، لم يكن تأثره مثلَ تأثُّر مَن حسَّن الظنَّ بواحدٍ دون آخرَ، وهذا كله من خصائص الأوثانِ، ثم قد استُجيب لبلعام بن باعوراء في قوم موسىٰ المؤمنين وسلبَه الله الإيمانَ، والمشركون قد يستسقون فيُسقَون، ويستنصرون فيُنصَرون.

وأمَّا الجواب المفصَّل فنقول: مدار هذه الشُّبهة علىٰ أصلين: منقول وهو ما يُحكىٰ من نقلِ هذا الدُّعاء عن بعض الأعيان. ومعقول: وهو ما يعتقد من منفعته بالتجاربِ والأقيسةِ.

فأما النَّقل في ذلك فإمَّا كذبٌ أو غلطٌ وليس بحُجَّةٍ؛ بل قد ذكرنا النقل عمَّن يقتدىٰ به بخلاف ذلك.

وأما المعقول فنقول: عامَّة المذكور من المنافع كذبٌ، فإن هؤلاء الذين يتحرَّون الدعاء عند القبور وأمثالهم إنما يُستجاب لهم في النَّادر، ويدعو الرجل منهم ما شاء الله من دعواتٍ فيُستجاب له في واحدةٍ، ويدعو خلقٌ كثير منهم فيُستجاب للواحد بعد الواحدِ، وأين هذا من الذين يتحرَّون الدعاء في أوقات الأسحار ويدعون الله في سجودِهم وأدبارَ صلواتهم وفي بيوت الله؟! فإنَّ هؤلاء إذا ابتهلوا ابتهالًا من جنس القبوريين لم تكد تسقط لهم دعوةٌ إلَّا لمانعٍ؛ بل الواقع أنَّ الابتهال الذي يفعله القبوريون إذا فعلَه المخلصون لم يُردَّ المخلِصون إلَّا نادرًا ولم يستجب للقبوريين إلا نادرًا، والمخلصون كما قال

النبي ﷺ: ((ما مِن عبدٍ يدعو الله بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحمٍ إلَّا أعطاه الله بها إحدىٰ خصالٍ ثلاثٍ: إما أن يُعجِّل الله له دعوتَه أو يدَّخرَ له من الخيرِ مثلَها أو يصرفَ عنه من الشَّرِّ مثلَها)) قالوا: يا رسولَ الله إذًا نُكثر. قال: ((الله أكثر))[1].

فهُمْ في دعائهم لا يزالون بخيرٍ، وأما القبوريون فإنَّهم إذا استُجيب لهم نادرًا فإنَّ أحدهم يضعف توحيده ويقلُّ نصيبُه من ربِّه، ولا يجد في قلبه مِن ذوق طعْمِ الإيمان وحلاوتِه ما كان يجده السَّابقون الأوَّلون، ولعلَّه لا يكاد يُبارَك له في حاجتِه))[2].

- ويقول أيضًا: ((وقد بلغ الشَّيطان بهذه البِدع إلىٰ الشِّرك العظيم في كثيرٍ من الناس حتَّىٰ إنَّ منهم مَن يعتقد أنَّ زيارة المشاهد التي علىٰ القبور إمَّا قبر نبيٍّ أو شيخ أو بعض أهل البيت أفضلُ من حجِّ البيت الحرام، ويسمِّي زيارتَها الحجَّ الأكبر، ومن هؤلاء مَن يرىٰ أنَّ السَّفر لزيارة قبر النبيِّ ﷺ أفضل من حجِّ البيت، وبعضهم إذا وصل إلىٰ المدينة رجَع ولم يذهب إلىٰ البيت الحرام، وظنَّ أنه حصل له المقصود، وهذا لأنَّهم ظنُّوا أن زيارة القبور إنَّما هو لأجل الدُّعاء عندها والتوسُّل بها وسؤال الميت ودعائه، ومعلومٌ أنَّ النبي ﷺ أفضل من الكعبة، ولو علموا أنَّ المقصود إنَّما هو عبادةُ الله وحده لا شريك له وسؤالُه ودعاؤه، وأنَّ المقصود بزيارة القبور هو الدُّعاء لها كما يقصد بالصَّلاة علىٰ الميت لزال هذا الشِّرك عن قلوبهم، ولهذا نجد كثيرًا من هؤلاء يسأل الميتَ والغائب كما يسأل ربَّه، فيقول: اغفر لي وارحمني وتُب عليَّ ونحو ذلك))[3].

والعجب كلَّ العجب ممَّن هو مثل ابن تيميَّةَ في الفقه أن يتجرَّأ علىٰ الله ويرمي

---

(1) أخرجه بنحوه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك (3573) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وقال الترمذي: ((حسن صحيح غريب)).

(2) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم(2/696-694) لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق ناصر بن عبدالكريم العقل- مكتبة الرشد- الرياض.

(3) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (2/748).

المسلمينَ بالشِّرك! فهو يتَّهمهم بأنَّهم يتَّخِذون القبورَ أوثانًا يُقبِلون علىٰ عبادتها من دون الله، ويرميهم بقلَّة الإيمان، وأنَّهم يفضلون زيارةَ القبور عن حجِّ البيت الحرام، وأنَّهم يسألون المغفرةَ والرحمةَ من الموتىٰ، ولسنا ندري من أيِّ خيال أتىٰ ابنُ تيميةَ بهذا الكلامِ؟ هل قال به أحدٌ من المسلمين؟ هل قالوا: إنهم يتوجَّهون للقبر من دون الله سبحانه ويتخذونه معبودًا حتىٰ يقال إنه وثنٌ لهم؟! وهل شاهدتَ أخي المسلم الكريم مَن يقول: إنَّ زيارة القبور هي أفضل من الحجِّ؟ وهل شاهدتَ أحدًا من الذين يزورون القبورَ يطلب من المقبور المغفرةَ والرحمةَ؟ فما يقوله ابنُ تيمية ما هو إلا افتراءٌ وخلطٌ للأمور ليصل بذلك إلىٰ تحريم الزيارة وقصْدِ قبور الصَّالحين، ويربط في تمويه عجيبٍ بين الشِّرك والقبر، وكأن الإنسان المسلم ما إن يرىٰ قبرَ وليٍّ أو عابدٍ صالحٍ أو عالمٍ ربَّاني إلا يقع في الشِّرك إن قام بزيارتِه واعتاد ذلك، ونسي أو تناسىٰ أنَّ الأمة المحمَّديةَ معصومةٌ من الشِّرك وقصْدِ غير الله في عبادتها، وأنَّ غاية الأمر في زيارة قبور الصالحين عامَّةً هو المودَّةُ والمحبَّة لهم؛ لمكانتهم من الله والطَّمع في فضْلِ الله أن يصيبَنا بسبب هذا الحبِّ والمودَّة نفحات الخير والبركة من الله الذي بيده وحده سبحانه النَّفع والضُّر والعطاء والمنعُ.

ففي الصَّحيحين من حديث عقبةَ بن عامرٍ ﭬ قال: صلَّىٰ رسولُ الله ﷺ علىٰ قتلىٰ أُحد بعد ثماني سنين كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع إلىٰ المِنبَر فقال: «إنِّي بين أيديكم فرطٌ، وإني عليكم لشهيدٌ، إنَّ موعدكم حوضٌ، وإنِّي لأنظر إليه من مقامي هذا، وإنِّي لستُ أخشىٰ عليكم أن تُشركوا ولكنِّي أخشىٰ عليكم الدُّنيا أن تنافَسوها»[1].

فالأمةُ المسلمة معصومةٌ في مجمَلِها من الوقوع في الشِّرك وإن وقع منها بعض المخالفات أو التجاوزات التي لا تُخرج صاحبها عن دائرة الإيمان والإسلامِ، فالأصل في المسلمين سلامةُ الاعتقاد، فكيف يخرج المسلمُ من الإسلام ويقع في الشِّرك لمجرَّد قيامه بزيارة

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة أُحد (4042)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبيِّنا ﷺ وصفاته (2296).

قبور الصالحين ومودَّتهم؟! وما حرَّكه إلىٰ ذلك إلَّا مكانتهم من الله سبحانه، فهو لم يعتقد فيهم ذاتيةً في النَّفع أو الضُّر.

وأمَّا قبر النَّبي ﷺ فهو خير القُبور وأشرفها، وقد حاز علىٰ براءةٍ من أن يكون مظنَّةً للشِّرك، حيث ورَد في كتُبِ السُّنة الشَّريفة أحاديث تخبرنا عن ذلك:

- فقد روىٰ أحمدُ في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((اللهمَّ لا تجعلْ قَبري وَثنًا، لعنَ الله قومًا اتَّخَذُوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ))[1].

- وروىٰ الإمام مالك في الموطَّأ عن عطاء بن يَسار أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ((اللهمَّ لا تَجعلْ قَبري وثنًا يُعبد، اشتدَّ غضبُ الله علىٰ قومٍ اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ))[2].

- وروىٰ ابن أبي شيبة في مصنَّفه عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: ((اللهمَّ لا تجعل قبري وثنًا يُصلَّىٰ له، اشتدَّ غضبُ الله علىٰ قومٍ اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ))[3].

فدعاء النبي صلوات الله وسلامه عليه مستجابٌ من ربِّ العالمين قطعًا، ولا يمكن أبدًا أن يكون قبرُه الشريفُ مظنةً للشِّرك، وما قصدتِ الأمةُ القبرَ الشريفَ إلَّا محبةً للجَناب المحمَّدي، ورعايةً للمقام المصطفويِّ، ومودةً وقُربةً لنبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه، والذي هو علامة علىٰ أعلىٰ مقامات التوحيد كما دلَّ عليه الحديث الذي رواه البخاري بسندِه عن عبدالله بن هشام قال: كنا مع النبيِّ ﷺ وهو آخذٌ بيد عمرَ بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسولَ الله لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيء إلَّا من نفسي. فقال النبي ﷺ: ((لا والذي نفسِي بيدِه حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسكَ)) فقال له عمر: فإنه الآنَ والله لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال النبيُّ ﷺ: ((الآنَ يا عمرُ))[4].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (2/246)، وأبو يعلىٰ في مسنده (6681) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (7626) من حديث زيد بن أسلم به مرسلًا.

(4) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (6632).

فهل من المتصوَّر من مسلمٍ- أيها الأخ الكريم- يقصدُ قبرَ رسول الله ﷺ بالزيارة ويقف في هذا المقام العظيم فيكون بوقوفِه في حضرة رسول الله ﷺ واقعًا في الشِّرك؟! ومن أين يأتي هذا الشِّرك الذي يتوهَّمه ابن تيميةَ ومن تابعه على ذلك؟! وهل المسلمين فعلًا يعتقدون الضُّرَّ والنَّفع في أحدٍ غير ربِّ العالمين؟! أم أنَّ غاية الأمر أنهم ينظرون إلى المخلوقات على أنها نوافذ للقدور يسوق الله بها الخيرَ إلى مَن يشاء من عباده، وأن الواسطة الكبرى بين الله وبين العباد في إيصال الخير هو رسولُنا الكريم ﷺ ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107] فهو صلوات الله وسلامه عليه رحمةٌ من الرحمن الرحيم لجميع الخَلْقِ، فكيف يُتصوَّر أن يكون مصدر الرحمة مصدرًا للشرك في نفس الوقتِ؟ أو يكون مكان القبر الشَّريف موقعًا للشِّرك؟! ونحن نعلم أنَّ الحقيقة التي لا مريةَ فيها أن موضعَ قبرِه ﷺ مهبطُ الرَّحمات ومحل نزول الملائكةِ، وهو أشرف بقعةٍ في السموات والأرض لأنه ضمَّ جسدَ المصطفى ﷺ كما نُقل ذلك عن أهل العِلم، فقد ورَد ذلك عن جمعٍ كبيرٍ منهم، ومن هؤلاء:

1- الإمام ابن عقيل الحنبلي: فقد قال- كما نقل عنه ابنُ القيم في بدائع الفوائد- أنه قال: «سألني سائلٌ أيُّما أفضل حجرة النبيِّ ﷺ أم الكعبة؟ فقلت: إن أردتَ مجرَّد الحجرة فالكعبة أفضل، وإن أردتَ وهو فيها، فلا والله ولا العرش وحملته ولا جنَّة عدنٍ ولا الأفلاك الدائرة؛ لأنَّ بالحجرة جسدًا لو وُزن بالكونين لرجح»[1].

2- قال القاضي عياض في كتابه الشفا: «ولا خلافَ أن موضع قبرِه ﷺ أفضلُ بقاع الأرضِ»[2].

(1) انظر: بدائع الفوائد (1065/3) لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية- تحقيق علي بن محمد العمران- دار عالم الفوائد.

(2) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (91/2).

3- قال الشيخ عِلِيش المالكي- وهو من فقهاء المذهب المالكي في كتابه منح الجليل شرح مختصر خليل: ((ومحلُّ الخلاف في غير الموضع الذي ضمَّه ﷺ فإنه أفضل من الكعبة والسَّماء والعرشِ والكرسي واللوحِ والقلمِ والبيتِ المعمورِ))[1].

فهذه أقوال و إجماعاتُ علماء المسلمين، ولِمَ لا وقد حوت جسدَ خير خَلْقِ الله أجمعين و إمامِ المرسلين وحبيب ربِّ العالمين أبي القاسم محمد بن عبدالله القريبِ المقرَّبِ من مولاه الذي اصطفاه واجتباه وأدناه؟.

فلقبره الشَّريف من الخصوصيَّة والبركةِ وتنزُّل رحمات ربِّ الأرض والسموات وهبوطِ الملائكة عليه ما لا يعلمه إلَّا مانحُ هذه البركاتِ سبحانه وتعالىٰ، ولساكنه عند الله من المحبَّة والاصطفاء ما تقصر العقول عن إدراكِه، والألسنُ عن القولِ فيه، والأقلامُ عن التعبيرِ عنه.

ونبيُّنا خيرُ الخلائقِ أحمد ... ذو الجاهِ عندَ الله والسُّلطانِ
لا خَلْقَ أفضلُ منه لا بشرٌ ولَا ... مَلَكٌ ولَا كونٌ مِنَ الأكوانِ
والرُّسْل بعدَ محمدٍ درجاتُهمْ ... ثمَّ الملائكُ عابدو الرَّحمنِ[2]

فكيف يكون قصد هذا المكان لزيارة رسولِنا الكريم ﷺ محرَّمًا؟ كلُّ هذا لأنَّ القبور في فقه ابن تيمية ومَن سار علىٰ دربه مظنَّة الشِّرك بمجرد أن يقتربَ المسلم من قبور الأنبياء والصَّالحين فهو في طريقه للشِّرك بالله، وتغافل الشيخ رحمه الله أنَّ الأمر في أوَّله وآخره إنَّما هو إرادة الله وقصده بمحبَّة عباده الصَّالحين، وعلىٰ رأسِهم سيِّد الخلائق أجمعين سيدنا محمد ﷺ.

---

(1) انظر: منح الجليل (707/1) تأليف: الشيخ محمد عليش- الناشر مكتبة النجاح- سوق الترك- طرابلس- ليبيا.

(2) من قصيدة طويلة لتاج الدين عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي ذكرها في طبقات الشافعية الكبرىٰ(382/3) تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبدالفتاح محمد الحلو- دار هجر- الطبعة الثانية 1413هـ.

خاتمة في أمور متنوعة تتعلَّق بهذه القضية

وفي ختام هذه الرِّسالة نحب أن نذكُر بعض الأمور الأخرىٰ التي تتعلَّق بهذه القضية:

أولًا: خطورة تحويل النِّزاع الفقهي إلىٰ نزاع عَقَدي، فما يندرج تحت باب الفقه لا يجوز أن نُدخِله تحت باب العقيدة؛ وذلك لأنَّ باب الفقه يسع المسلمون الخلاف فيه ولا تثريب علىٰ أحدٍ منهم ولا تضييق، ولكن أن تأتي طائفةٌ تزعم الانتماء للسَّلف وتنقل كلَّ نزاعٍ فقهيٍّ وتجعله من أمور العقيدة؛ لتتوصل به إلىٰ تصنيف الناس إلىٰ موحِّدين ومشركين، أو أهل سُنة ومبتدعةٍ، وهذا ما لم يقل به أحدٌ من سلف الأمة قطُّ، بالإضافة إلىٰ ذلك أنَّ هؤلاء الأفراد غير مؤهَّلين أصلًا لأن يكونوا من أهل الكلام في العِلم؛ وذلك لأنَّ غاية أمرهم وأقوالهم في كلِّ مسألةٍ ليست إلا: قال شيخ الإسلام ابن تيمية كذا، وقال ابن القيم كذا، وقال فلان كذا، ويريدون قصرَ الصَّواب عليهم في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من أمور الدِّين، ويتغافلون أنَّ في أمة الإسلام عشرات الآلاف من العلماء وأئمَّة المذاهب الفقهية، الذين سارت الأُمة خلفهم في طريق الهداية عبر القرون، فهذا الأمر في غاية الخُطورةِ أن نحوِّل النِّزاع الفقهي- والذي يقوم علىٰ الأدلة الظنيَّة والاجتهاد- إلىٰ أمر عَقَدي يفرِّقون به وحدة المسلمين، وقِس علىٰ ذلك أيها الأخ الكريم مئات المسائل الفقهيَّة التي تمَّ تحويلها علىٰ يد مدَّعي السَّلفية إلىٰ مسائل عقديةٍ، يصنِّفون النَّاس من خلالها ويُدخلونهم في أهل السُّنة والجماعة أو يخرجونهم منها.

ثانيًا: أهمية تعظيم الجناب النبويِّ عند المسلمين، خاصَّة في هذه السنوات التي كثُر فيها التشويش في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من أمور ديننا، فرسول الله هو رمزُ هذه الأمة وقائدُها، وإجلاله فرض عينٍ علىٰ كلِّ مَن انتسب إلىٰ الإسلام، وكلُّ أمرٍ فيه تعظيم للجناب المحمَّدي هو فرضٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ومُسلمة، وليس في هذا شيءٌ من الغُلوِّ أو التجاوزِ، إنَّما هو بعض ما لرسول الله ﷺ علينا من حقوقٍ، فنحن علىٰ يديه قد اهتدينا: ﴿لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ

آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:164]. فجميع ما يوجد على الأرض من هُدىً جاء على يد سيِّد الخلق سيِّدنا محمد ﷺ، وجميع ما نحن فيه من خيرٍ كان هو الدالَّ عليه والموصِّل إليه، وعلى ذلك فكلُّ ما فيه توقيرٌ لرسول الله وإظهارٌ لمكانته يُعدَّ من أكثر الأمور التي تُقربنا من الله سبحانه وتعالى، وهو أحد أبواب جذب الناس للإسلام، وذلك عندما يرون تعظيمَ أهل الإسلام لنبيِّهم، فيكون ذلك الأمر دافعًا لهم للتعرُّف على شخصيته ﷺ ويتطلَّعون إلى معرفة سرِّ هذه المكانة التي يتمتَّع بها بين المسلمين، فيكون ذلك حافزًا لهم لمعرفة دِين الإسلام، ما هو وإلى ماذا يدعو، وليس في هذا نوعٌ من الخيال؛ بل إن كثيرًا من الأجانب الذين دخلوا الإسلام دخلوه من باب التعرُّف على شخصية النبي ﷺ لرؤيتهم عِظمَ مكانته عند المسلمين، فيتطلعون إلى معرفة هذا النبيِّ الذي يجلُّه المسلمون كلَّ هذا الإجلال، فتنفتح أمامَهم أبواب الهداية، فلماذا نجد أن بعض الناس لا همَّ لهم إلَّا صرف الناس عن قيامهم بهذا الإجلال تحت دعوى عدم الغُلو في رسول الله؟ ومَن ذا الذي وصل من الأصل إلى توفيتِه حقَّه من التعظيم والمودَّة حتى نقول إنه قد تجاوز الحدَّ وخرج إلى حدِّ الغلو؟

وما أجمل قول الإمام البوصيري في بُردته الشَّريفة وهو يصف نبيَّنا ﷺ:

فاقَ النَّبيينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... ولمْ يدانوهُ في عِلمٍ ولا كَرَمِ
وكلُّهمْ من رسولِ الله ملتمسٌ ... غَرْفًا مِنَ البَحْرِ أوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ
وواقفونَ لديهِ عندَ حَدِّهمُ ... من نقطةِ العِلمِ أو منْ شَكْلَةِ الحِكَمِ
فهْوَ الذي تمَّ معناهُ وصُورَتُه ... ثمَّ اصطفاهُ حبيبًا بارئَ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عن شريكٍ في محاسنهِ ... فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فيهِ غيرُ مُنْقَسِمِ
دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارىٰ في نَبيِّهِمُ ... وَاحكُمْ بما شِئْتَ مَدْحًا فيهِ واحْتَكِمِ
وانْسُبْ إلىٰ ذاتِهِ ما شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ ... وَانْسُبْ إلىٰ قَدْرِهِ ما شِئْتَ منْ عِظَمِ

فـإنَّ فضلَ رسولِ الله ليسَ لهُ ... حَـدٌّ فـيُعْرِبَ عـنه نـاطِقٌ بــفَمِ
لـو نـاسبتْ قدرهُ آياتهُ عظمًا ... أحيا اسمهُ حينَ يُدعىٰ دارسَ الرِّمَمِ
لـم يَمْتحنَّا بما تعيا العقولُ به ... حِـرصًا عـلينا فـلم نَـرتبْ ولم نَهِمِ
أعيا الورىٰ فَهْمُ معناه فليس يُرىٰ ... في القُرْبِ والبُعدِ فيهِ غـير مُنفحِمِ
كالشَّمسِ تظهرُ للعينينِ من بُعُدٍ ... صَغِيرةً وَتُـكِلُّ الـطَّرْفَ مِـنْ أَممِ
وكيفَ يُدْرِكُ في الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ ... قـومٌ نـيامٌ تـسلَّوا عــنهُ بـالـحُلُمِ
فـمبلغُ الـعِلمِ فـيهِ أنـهُ بــشرٌ ... وأنـهُ خـيرُ خَـلْـقِ الله كــلِّهِمِ[1]

ثالثًا: من المعلوم أن المدينة المنورة قد حظيت بحلول رسولِ الله فيها بالشَّرف الأبدي، فهي دار المحاسن، طِيبةُ الغرَّاء، مهبط الوحي، ومحلُّ البركات، فقد روىٰ الإمام التِّرمذي رحمه الله في سُننه بسنده عن أنس بن مالكٍ ﷺ قال: ((لما كان اليوم الذي دخَل فيه رسولُ الله ﷺ المدينةَ أضاء منها كلُّ شيءٍ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلَمَ منها كلُّ شيءٍ، وما نفضنا عن رسولِ الله ﷺ الأيديَ وإنَّا لفي دفنِه حتىٰ أنكرنا قلوبَنا))[2].

فقد استنارت المدينة بوجودِه ﷺ فيها وطابت وطاب ما فيها، وكثرت بركتُها، فهي حَرَمُ رسولِنا الكريم، كما ورد عنه ﷺ: ((لكلِّ نبيٍّ حَرَمٌ وحَرَمِي المدينةُ اللهمَّ إنِّي أُحَرِّمُها بحرَمِكَ))[3].

وهي دار هجرته ومسكنه، فهي مهبط الرَّحمات ومحلُّ البركات، ففي الحديث المتفق عليه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((اللهمَّ اجْعَلْ بالمدينةِ ضِعْفَيْ ما

---

(1) انظر: البردة للإمام البوصيري وشرحها للشيخ إبراهيم الباجوري- مكتبة الآداب- القاهرة- الأبيات من (39- 52).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ (3618)، وابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (1631). وقال الترمذي: ((حديث غريب صحيح)).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (1/318) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (3/ 648): ((إسناده حسن)).

جعلتَ بمكةَ من البركةِ))[1].

وهي محلُّ الإيمان والإسلام، ومرجع التَّوحيد إليها، كما ورد في الأحاديث الشريفة؛ فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَىٰ المَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَىٰ جُحْرِهَا))[2].

وفضائلها لا تُعدُّ ولا تُحصىٰ، وقد صنَّف فيها العلماءُ الكثيرَ والكثيرَ، فقد كانت مركزَ التوحيد، ومنها انتشر النُّور إلىٰ سائر أنحاء الدُّنيا، ببركة ساكنها ﷺ، فكيف لا تحنُّ القلوب لزيارته صلوات ربي وسلامُه عليه، وتشدُّ الرِّحال إليه، وتكتحل العيون برؤية الحجرة النبوية الشريفة؟

رابعًا: إن شرَف المسجد النبويِّ راجعٌ لنسبته إلىٰ النبي ﷺ ولم يَحصُل هذا الشَّرف له إلا بوجودِه فيه، وقيامه بالدَّعوة لدِين الله من خلاله، فلولا وجوده صلوات الله وسلامه عليه في هذا المكان لم يكن له أيةُ ميزةٍ أو فضلٍ عن باقي بقاع الأرضِ، فشرف المسجدِ مستمدٌّ أولًا وآخرًا من كونه مسجده ومحل دعوته ﷺ وزاد شرفًا ورِفعةً ومكانةً بعد أن أصبح يضمُّ جسدَه الشريف صلوات الله وسلامه عليه، كما أشرنا سابقًا من بيان شرف البقعة التي حوت جسد سيِّد الدنيا والآخرة، وهنا تساؤل يطرح نفسَه وهو: هل لو لم يكن قبرُ رسولِ الله ﷺ في المسجد النبويِّ الشريفِ وافترض أنه كان في مكانٍ آخر غير المدينة المنورة، فهل يقول عاقل من العقلاء- فضلًا عن العلماء- حينئذٍ أنه لا يجوز شد الرِّحال لزيارة قبرِه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ وفقًا لمذهب ابن تيمية ومَن تبعه؟

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث (1885)، ومسلم في كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة... (1369).

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرِز إلىٰ المدينة (1876)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وإنه يأرِز بين المسجدين (147).

خامسًا: الملاحظ أن كثيرًا ممن يتصدون لإثارة هذه المسائل هم أصحاب التيَّار المسمَّىٰ بالسَّلفي، الذي يستمد فتاويه وكلامَه من تراث ابن تيميةَ وابنِ قيم الجوزية، فيثيرون مثلَ تلك المسائل بين عامَّة المسلمين، والتي يدخلون منها للحديث عن الشِّرك ووقوعِ المسلمين في الشِّركِ واتخاذ القبور أوثانًا تُعبد من دون الله، ولو تمهَّلوا قليلًا لأدركوا أنَّ عقائد المسلمين سليمةٌ، وأن محبَّتهم لرسول الله والشوق إلىٰ زيارته وزيارة قبور عباد الله الصَّالحين من أهل البيت وغيرِهم هي داخل دائرة الشريعة الإسلامية لم تخرج عنها، وأن ما يدور في أذهانهم عن فسادِ عقائد الناس، ما هي إلا أوهامٌ وظنُّ سوءٍ بالمسلمين، فيا ليتَ هؤلاء القوم يتوقَّفون عن رمي الناس بالوقوع في الشِّرك، ويحملون أفعالَهم علىٰ المحمَل الحسنِ كما أمر الشَّرعُ.

وفي الختام أخي الكريم نرجو أن نكون ممَّن كتب الله سبحانه وتعالىٰ لهم التوفيقَ والسَّعادةَ بزيارته صلوات الله وسلامه عليه، والوقوف في حضرتِه، والسلام عليه وعلىٰ صاحبيه ووزيريه أبي بكر وعمرَ رضوان الله عليهما، وأن نقف في الحضرة المحمَّدية نناجي رسولَنا الكريمَ، وندعو الله عز وجل بما نريد متوسِّلين إليه بسيِّد الأولين والآخرين في قضاء حوائجنا، وتحقيق آمالِنا في الدُّنيا والآخرة، فاللهمَّ لا تحرمنا من زيارة حبيبِك المصطفىٰ ونبيِّك المجتبىٰ محمد ﷺ، واجمعنا به في الدُّنيا والآخرة، وارزقنا الشُّربَ من حوضِه بيدِه الشَّريفةِ، واجعله يا ربَّ العالمين شفيعًا لنا يوم لقاكَ، وبلِّغنا بحبِّه الدرجاتِ، وأعتق رقابَنا من النار، اللهم إنا نتوسَّل إليك بخير خلقكَ سيدنا محمَّد، إمام الموحِّدين، وسيد الأنبياء والمرسلين، نسألك يا ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ بِحُبِّكَ لسيِّدنا محمد ﷺ أن ترزقَنا رضاكَ ومحبَّتكَ ورضا رسولِكَ ومحبَّته، وأن تفتح لنا ببركتِه ﷺ أبوابَ الخيرِ، وأن تجعلنا من أهل المودَّةِ والقُربِ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆



« إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » - آية 40 من سورة مريم

الرسالة الثلاثون
نظرة إلىٰ قضية الاحتفال
بالمولد النبوي الشريف بين المحبين والجفاة

وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأول: عظيم مكانةِ النَّبيِّ ﷺ وعُلو مقامِه الشريف.

المحور الثَّاني: محبَّة النبي ﷺ وفوائد الاحتفالِ بمولِده للأمة الإسلامية.

المحور الثالث: إيراد أقوال أهل العلم والأدلة الشرعية الدالة علىٰ جواز استحباب الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

المحور الرابع: الرد علىٰ شبهات المخالفين المتعلقة بهذِه القضيَّةِ. ◆



« شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ » - آية **18** من سورة آل عمران

نظرة إلىٰ قضية الاحتفال
بالمولد النبوي الشريف بين المحبين والجفاة

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ لطيفةٌ نتكلَّم فيها عن الاحتفالِ بمولدِ النَّبيِّ ﷺ ومشروعيَّتِه واستحبابِ ذلك وما تحوِيه ذِكرَىٰ مولدِه ﷺ من الخير والبركات، وبيانِ الأدلَّة علىٰ جواز هذا الأمر، وأنَّ الشريعةَ تدعو إلىٰ ذلك وتستحبُّه، ونوردِ في ثنايا هذه الرسالة كلامَ أهل العِلمِ في ذلك، والرُّدودَ علىٰ مَنْ قال ببدعيَّةِ الاحتفالِ وعدمِ مشروعيَّتِه، ونهدف أيضًا في حديثنا عن هذه المسألة أن يكون بابًا من أبوابِ التَّعرُّفِ علىٰ مقام نَبيِّنا الكريم ﷺ ووسيلةً إلىٰ تَعظيم وتوقيرِ رسولِ الله ﷺ حتَّىٰ نحقِّقَ أمرَ الله سبحانه وتعالىٰ القائل في كتابِه الكريم: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:9] ونتذكَّرَ فَضْلَ الله علينا باختصاصِنا بهذا النَّبيِّ الكريمِ صلواتُ الله وسلامُه عليه الذي قالَ الله سبحانه وتعالىٰ عنه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:164].

وسيكونُ الكلامُ في هذه الرِّسالة متمثِّلًا في المحاور التَّاليةِ:

المحور الأول: عظيم مكانةِ النَّبيِّ ﷺ وعُلو مقامِه الشريف.

المحور الثَّاني: محبَّة النبي ﷺ وفوائد الاحتفالِ بمولِده للأمة الإسلامية.

المحور الثالث: إيراد أقوال أهل العلم والأدلة الشرعية الدالة علىٰ جواز استحباب الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

المحور الرابع: الرد علىٰ شبهات المخالفين المتعلقة بهذِه القضيَّةِ. ◆

عظيم مكانةِ النَّبيِّ ﷺ وعُلوُّ مقامِه الشريف

قد يتعجَّبُ المرءُ من الحاجةِ إلىٰ تصنيف رِسَالةٍ أو بحثٍ أو كتابٍ في مثل هذه المسألة التي لا يُتصوَّر أن يُتنازعَ فيها بين المسلمينَ، ولكنَّنا في العُقود الأخيرة ما إنْ تحلُّ ذكرىٰ المولد النبويِّ الشَّريف في كلِّ عامٍ إلَّا ونجدُ طائفةً ممَّنِ ادَّعتِ النِّسبةَ إلىٰ السَّلفِ الصَّالحِ قد أخرجَتْ أقلامَها ووجَّهتْ أبْواقَها لتقولَ للنَّاس: إنَّ الاحتفالَ بمولدِه ﷺ بدعةٌ لا تجوزُ.

وقد صارَ هذا تقليدًا سنويًّا من هذه الطَّائفة ومَن نَحَىٰ نحوَها يتَّبعونَه في كلِّ عامٍ ممَّا شوَّشَ علىٰ بعض المسلمين الأمرَ، وتصوَّر البعضُ منهم -نتيجةً لهذا المسلكِ من هذه الطَّائفة- أنَّهم يقعونَ في بدعةٍ محرَّمةٍ، فيتوقَّف البَعضُ منهم ويسأل نفسَه سؤالًا: هل يحتفِلُ أو لا يحتفلُ؟ هل يَجعلُ هذا اليومَ يمرُّ عليه كسائرِ الأيَّام، أو يخصُّه بشيءٍ من تذكُّرِ سِيرةِ النَّبيِّ ﷺ وغيرِ ذلك من صَالِح الأعمالِ والقُرُبات؟! وليس الأمرُ عند هذه الطائفة مُتعلقًا بالاحتفالِ بذكرىٰ مولدِ رسول الله ﷺ فقط؛ وإنَّما يتعلق بكثيرٍ من القضايا التي هي مُستقرَّةٌ عند المسلمين، فإذا بهذه الطَّائفةِ التي تدَّعي النِّسبةَ إلىٰ سلفنا الصَّالح تعملُ علىٰ تغييرِ ما هو مُستقرٌّ من الأحكامِ والأفهامِ، والذي كان تحريمُهم الاحتفالَ بذكرىٰ المولد الشَّريف أحدَ المظاهر المعبِّرة عن ذلكَ، فعَسَىٰ أن يكون الكلامُ عنْ هذا الأمرِ بابًا من أبواب بيانِ الحقِّ وكَشْفِ الغِطاءِ عن هذه المسألةِ وبيانِ مشروعيَّةِ ونَدْبِ واسْتِحبابِ الاحتفالِ بمولدِ سيِّد الكائنات ﷺ بحيثُ تكون هذه الرِّسالةُ الصَّغيرةُ سندًا لكُلِّ مسلمٍ مُحبٍّ للنَّبيِّ ﷺ في الرَّدِّ علىٰ مَن يَقُول ببدعيَّة الاحتفال بمولدِه ﷺ وفقًا لما يذهبونَ إليه في أمرِ البِدْعَة كما سيأتي بيانُه فيما بعد.

وسوف نجعلُ المدخلَ لهذه المسألَةِ أن نتحدث عن جانب من منزلةِ ومكانةِ سيِّدنا رسولِ الله ﷺ الذي قال فيه الحقُّ تباركَ وتعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]

وقال فيه أيضًا: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿45﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: 45-46].

فمِنَ الأهميَّة بمكانٍ إدراكُ المسلِم لعِظَم مكانةِ النَّبيِّ ﷺ ومعرفتُه بعُلوِّ مقامِه؛ لأنَّ هذا الإِدراكَ وتلك المعرِفة هما جزءٌ من الإيمان والاعتقادِ الذي هو أصلُ الدِّين وأساسُه، بجانبِ أنَّ الجهلَ بمقامِ النَّبيِّ ﷺ يعدُّ مصيبةً كُبرَىٰ ونقصًا في الدِّين ينْتُج عَنْه بطريقٍ مباشرٍ وغيرِ مباشرٍ ضَعْفٌ أو قِلَّةٌ في محبَّته ﷺ، بما يَسْتَتبعُ في غَالِب الأحوال نقصًا في الانقيادِ لَمَا أمر به ﷺ أو الانتهاءِ عمَّا نهىٰ عَنْه، فإدراكُ المنزِلَة هي أولىٰ الخُطواتِ في سبيل المعرفةِ والمحبَّةِ اللتانِ تُؤدِّيان إلىٰ التَّعظيم أو الإِجلالِ الذي يستلزِمُ الانقيادَ والطَّاعةَ، ومن هذا المبدأ كان لزامًا علينا أن نلمحَ إلىٰ مكانة النبيِّ ﷺ عند ربِّه تباركَ وتَعالىٰ.

فهو رسولُ الله محمَّدٌ ﷺ عَبدُالله ومصطفَاهُ وخلِيلُه ومختارُه ورحمتُه للعَالَمِين، وهو العَبْدُ المقرَّبُ من ربِّ العالمين، إمامُ أهل التَّوحيد وخاتمُ الأنبياءِ والمرسلِينَ، خَصَّه الله سبحانَه وتعالىٰ بأقربِ منزلةٍ منه، ظهرَ ذلك مِنْ خلالِ آياتِ القرآنِ الكريمِ والتي خاطبَ الله سبحانَه وتعالَىٰ فيها نبيَّه ﷺ بصُوَرٍ كثيرةٍ من المدحِ والمَلَاطَفَة والتَّخفِيف عنْه فيما يلَاقيه، وقبلَ ذلك خطابه سبحانَهُ له ﷺ بتحمُّل أمانةِ الدَّعوةِ إلىٰ توحيدِ الله والقيامِ بأعباءِ آخرِ الرِّسالاتِ لأهلِ الأَرضِ كلِّهم أجمعينَ.

كما أنَّ الله تعالىٰ خَصَّ نبيَّه ﷺ بأكملِ الكُتُبِ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّساء:113] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:48].

وقرنَ سبحانه وتعالىٰ طاعةَ النَّبيِّ بطَاعتِه في آيات كثيرة منها قوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النِّساء:80].

وقالَ في تزكيتِه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النَّجم: 1-5] وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4].

وقد تعبَّدنا ربُّنا سبحانه وتعالىٰ بالتأدُّبِ مع رسولِ الله ﷺ فأمرَنا بتوقيرِه وإعْلَاءِ شأنِه فقال سبحانه: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:63].

وأمرَنا بطاعتِه وجعلَ طاعتَه الدَّليلَ علىٰ صِدْقِ حبِّ الله، وطَريقَ الوُصول إِلَيه والحصولِ علىٰ مغفرتِه، فقالَ في ذلك: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:31] وقَرَنَ سبحانَه طاعتَه بطاعةِ نبيِّه حيثُ قال: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:32] وحذَّر من مخالَفَة المصطفىٰ ﷺ عندما قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:63] وجعلَ الله سُبحانَه وتعالىٰ وجُودَ النَّبيِّ ﷺ في الأمَّة حاجزًا من العَذَابِ فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:33].

وقَد تَفضَّل الله علىٰ عبْدِه وخليلِه محمَّدٍ ﷺ بأمورٍ أخرىٰ؛ منها ما كان في الحياةِ الدنيا من الخصائصِ التي تمتلئُ بها كُتب السُّنَّة والسِّيرة بالحديثِ عَنْها، ومنها ما سيكون في الآخرةِ من المنازِلِ والقُرْبِ من ربِّه وإعطائه الوَسيلة والفضِيلَة والشَّفاعة الكبرىٰ والحوض العَظيمِ والكَوثَر، فهو أوَّلُ شافع، وأوَّلُ مَنْ يَسْتَفتِحُ أبوابَ الجنَّة، ولبركتِه ﷺ ومنزلَتِه عندَ ربِّه تجاوزَ الله لأمَّتِه عن الـزَّلَّاتِ، ومنَحَها الكثيرَ من المِنَحِ الرَّبانيَّة فاختصَّ أمَّته بالخيريَّةِ، وجعلها خيرَ أمَّةٍ أُخرِجتْ للنَّاس، وأحلَّ لها الغَنَائمَ، وتجاوَزَ لها عن الخطَأ والسَّهو والنِّسيانِ، وحَفِظَها الله سبحانه وتَعَالىٰ من الاستِئْصَال، وجَعَل أمَّتَه شاهدةً علىٰ

باقِي الأُمِمِ وأنَّها سوف تكون أكثرَ أهلِ الجنَّة، وَكلُّ هذه المنح والبركاتِ مصدرُها فَضلُ الله سبحانَه وتعالىٰ والذي جَعَل البابَ الذي تصلُ منه هذه المِنَح هو سيِّدنا رسول الله ﷺ، فهذا هو النبيُّ المصطفىٰ الكريم ﷺ، وكلُّ ما نحنُ فيه من حياتِنا عبارة عن قطرةٍ من بَحْرِ فَضْلِه ومَنْزلتِه صلوَاتُ الله وَسَلامُه علَيْه، وإلَّا فكيفَ يحيطُ قَلمٌ بفضلِ مَن اصطفاه ربُّه وقرَّبه واتَّخذه خليلًا وارتَضَاه لحملِ أمانَةِ النُّبوَّةِ، ومعرفةُ الفَضْل والمنزلةِ هي المُنطَلَق للشُّعورِ بالمحبَّة والتَّقدير والمودَّة لنبيِّنا ﷺ والتي مِنْ مظاهِرِهَا الاحتفالُ بمولدِه الكريم.

محبة النبي ﷺ وفوائد الاحتفالِ بمولِدِه للأمة الإسلامية

أولًا: محبة النبي ﷺ:

لكي نُحيطَ بهذا الموضوع ينبغي أن نتحدَّثَ عن معانِي الاحتِفَالِ بمَوْلدِ رَسُولِنا الكرِيم، وما المقصودُ بأنَّنا نحتفلُ بذكرَىٰ ميلادِه ﷺ وتشريفِه لهذه الدُّنيا، فالمعنىٰ الأساسيُّ الذي ينطلِقُ مِنْه الاحتفَاءُ والاحتفالُ بذكْرَىٰ مَولدِ سيِّد الكائناتِ ﷺ هو المحبَّةُ والمودَّةُ والإجلالُ والتَّقدير لهُ والفرحُ بِهِ ﷺ تحقيقًا لقولِ الله سبحانَه وتعَالَىٰ في كتابِه الكريم: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:58] وهو مظهرٌ مِنْ مظاهرِ تَحقيقِ قولِه ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1].

ومحبَّةُ النَّبيِّ ﷺ مظهرٌ من مظاهر محبَّةِ الله سبحانه وتعالىٰ، فَمَنْ أحبَّ الله أَحَبَّ رَسُولَه ﷺ، فهو الذي جاء لنا بالخيرِ وتَحمَّلَ في سبيل ذلك ما تحمَّل من عناءٍ ومشقَّةٍ

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (15)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان علىٰ مَن لم يحبه هذه المحبة (44) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

كما هو معلومٌ من سِيرته الشَّريفة ﷺ، وقد جاءتِ الأحاديثُ الشَّريفةُ بإخبارنا بالمكانةِ التي يجبُ أن تكونَ لرسولِ الله ﷺ في قلوبِنا حتىٰ نُحقِّقَ أصلَ الإيمانِ وكمالَه، يقولُ الإمامُ ابنُ رجبٍ الحنبليُّ رحمه الله: «محبَّةُ النَّبي ﷺ مِن أصولِ الإيمان، وهي مقارِنةٌ لمحبَّةِ الله عزَّ وجلَّ، وقد قرنَها الله بها، وتوعَّدَ مَنْ قدَّم عليهما محبَّةَ شيءٍ من الأمور المحبوبة طبعًا مِنَ الأقاربِ والأموالِ والأوطانِ وغير ذلك فقال تعالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: 24].

ولَمَّا قالَ عمرُ للنَّبيِّ ﷺ: أنْتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلَّا من نفسي فقالَ: «لا يا عمرُ؛ حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليك مِن نفسكَ» فقال عمرُ: واللهِ أنت الآن أحبُّ إليَّ من نفْسِي، قالَ: «الآنَ يا عمرُ»[1].

ولكي نحقِّقَ كمالَ الإيمان يجبُ أن تكونَ محبَّتُنا لرسولِنا الكريم ﷺ علىٰ القَدْر الذي أرادَه ﷺ من سيِّدنا عمرَ رضي الله عنه وهي الدَّرجةُ التي ينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يَعْمَلَ علىٰ الوصُول إليها.

ولو بحثْنا عن كلِّ خيرٍ أصابكَ أو كلِّ شرٍّ صُرِفَ عنك ستجدُ أنَّ مصدرَ ذلك هو الخيرُ الذي جاء به رسولُ الله ﷺ ومنهجُه، وستجدُ أنَّ دخولك الجنَّة سيكونُ ببركةِ هذا النَّبيِّ الكريم ﷺ، فلذلك هو مُستَحقٌّ لكلِّ حبٍّ وتقديرٍ، وأن تكونَ منزلتُه في القَلْبِ أعْلَىٰ من أيِّ منزلةٍ بعد حبِّ الله سبحانه وتعَالَىٰ، وحقيقةُ الأمرِ أنَّ حبَّ رسولِ الله ﷺ هو تابعٌ لحبِّ الله عزَّ وجَلَّ.

---

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري (48/1) تأليف: زين الدِّين عبدالرحمن بن أحمد بن رجبٍ الحنبلي- مكتبة الغرباء الأثريَّة- المدينة النبويَّة- الطَّبعة الأولىٰ- 1996م. والحديث أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النَّبي ﷺ (6632) من حديث عبدالله بن هشام رضي الله عنه.

وتعالوا لنَنظُرْ إلىٰ حبِّ الصَّحابةِ لرسولِ الله ﷺ وسلوكِهم معه ﷺ، وعند ذلك سوف نعرفُ ما مقدار المودَّةِ التي تجب أن تكونَ لرسولِ الله ﷺ في قلوبنا، فمِنْ أمثلةِ ذلك:

ما أخرجه الطَّبرانيُّ عن عائِشةَ رضي الله عنها قالتْ: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّك لأحبُّ إليَّ مِنْ نفسي، وإنَّك لأحبُّ إليَّ مِنْ ولَدِي، وإنِّي لأكون في البيت فأذكُركَ فما أصبرُ حتَّىٰ آتيَ فأنظُر إليك، وإذا ذكرتُ مَوْتي وموتَك عرفتُ أنَّك إذا دخلْتَ الجنَّة رُفعتَ مع النَّبيِّينَ، وإنِّي إذا دخلتُ الجنَّة خشيتُ ألَّا أراكَ. فلم يردَّ عليه النَّبيُّ ﷺ شيئًا حتَّىٰ نزَلَ جبريلُ عليه السَّلام بهذه الآيةِ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء: 69][(1)].

وفي الصَّحيحِ من حديثِ أبي جُحيفةَ قال: «أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فخرجَ بلالٌ بوضوئِه فرأيتُ النَّاسَ يَبتدرونَ ذلك الوضوءَ فَمَنْ أصابَ منه شيئًا تمسَّحَ به، ومَن لم يُصِبْ مِنْه أخذَ من بللِ يَدِ صاحبِه»[(2)].

وعنه أيضًا رضي الله عنه أنه قال: «قام النَّاسُ فجَعَلُوا يأخذونَ يدَهُ ويمسحونَ بها وجُوهَهُم، فأخذتُ يدَه فوضعتُها علىٰ وجهِي فإذا هيَ أبردُ منَ الثَّلج وأطيبُ مِنْ ريحِ المسكِ»[(3)].

وهذا أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه خادمُ رسُولِ الله ﷺ يصفُ لنا مشهدًا آخرَ من مَشاهدِ

---

(1) أخرجه الطبراني في الصَّغير (52)، والأوسط (477) من طريق عبدالله بن عمران العابدي حدثنا فضيل ابن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها به. وقال الطَّبرانيُّ: «تفرَّدَ به عبدالله بن عمران». وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (63/7): «رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجالُه رجال الصحيح غيرَ عبدالله ابن عمران العابدي، وهو ثقةٌ».

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب الصلاة في الثوب الأحمر (376)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب سترة المصلي (503).

(3) جزء من حديث أخرجه البخاريُّ في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (3553).

المحبَّةِ والإجلالِ من الصَّحَابةِ لرسولِهم الكريم ﷺ؛ ففي صحيحِ مُسلمٍ عن أنسٍ قال: ((لقَدْ رأيتُ رسولَ الله ﷺ والحلَّاقُ يَحلِقُه، وأطافَ به أصحابُه، فما يُرِيدونَ أن تقعَ شَعرةٌ إلَّا في يد رَجُلٍ))[1].

وعقِبَ غزوةِ أُحد يصفُ لنا أنس بنُ مالك رضي الله عنه صورةً عظيمةً من صُور محبَّة الصَّحابةِ للرَّسول الكريم ﷺ فيقول: ((لمَّا كانَ يوم أُحد حاصَ النَّاس حَيْصَة وقالوا: قُتِل محمَّدٌ، حتَّىٰ كثُرتِ الصَّوارخُ في نواحِي المدينةِ، قال: فخرَجَتِ امرأةٌ من الأنصارِ فاستُقْبِلَتْ بأخِيها وأبيها وزوجِها وابنِها، لا أدري بأيِّهم استُقبِلَتْ أوَّلًا، فلمَّا مرَّتْ علىٰ آخرِهم، قالت: مَنْ هذا؟ قالوا: هذا أخوكِ، أبوكِ، زوجُكِ، ابنُكِ، قالتْ: فما فعلَ رسولُ الله؟ يقولون: أمامَك، حتَّىٰ ذهبت إلىٰ رسولِ الله ﷺ فأخذت بناحيةِ ثوبِهِ، ثمَّ جعلَتْ تقولُ: بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ الله، لا أُبالي إذْ سَلِمْتَ مَنْ عَطِبَ))[2].

وقد سُئلَ سيدُنا عليُّ بنُ أبي طَالبٍ رضي الله عنه: كيفَ كان حبُّكم لرسولِ الله ﷺ؟ قال: كانَ والله أحبَّ إلينا من أموالِنا وأولادِنا وآبائِنا وأمَّهاتِنا ومن الماءِ البارِدِ علىٰ الظَّمأ[3].

وهذا ثوبانُ مولىٰ رسولِ الله ﷺ كان شديدَ الحبِّ لرسولِ الله، قليلَ الصَّبرِ عَنْه، فأتَاهُ يومًا وقد تغيَّرَ لونُه، يُعرفُ الحزنُ في وَجْهِه، فقالَ له رسولُ الله ﷺ: ((ما غَيَّرَ لونَكَ؟)) فقال: يا رسولَ الله، ما بي مرضٌ ولا وَجعٌ غيرَ أنِّي إذا لم أَرَكَ استوحشْتُ وحشةً شديدةً حتَّىٰ ألقاكَ[4].

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب قُرب النَّبيِّ عليه السلام من النَّاس وتبركهم به (2325).

(2) أخرجه الطبرانيُّ في الأوسط (7499)، وأبو نُعيم في حلية الأولياء (2/71) من طريق محمد بن شعيب قال: ثنا عبدالرحمن بن سلمة قال: ثنا أبو زهير عبدالرحمن بن مَغْراء قال: ثنا المفضل بن فضالة عن ثابت عن أنسٍ رضي الله عنه به. وقال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (6/165): ((رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه محمد بن شعيب ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات)).

(3) ذكره القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (2/ 22) بدون إسناد.

(4) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص 110) وعزاه للكلبيِّ بدون إسنادٍ.

وهذا سيِّدنا عمرو بن العاص ﷺ يقولُ: ((وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رَسولِ الله ﷺ ولا أجلَّ في عَيْنِي مِنهُ، وما كنتُ أُطيقُ أَنْ أملأَ عيني منه إجْلالًا لَهُ، ولو سُئلتُ أَنْ أصفَه ما أطَقْتُ؛ لأنِّي لم أكن أملأُ عَيْني مِنْه))[1].

ومِنْ مظاهر محبَّةِ الصَّحابةِ رضوَان الله عليهم لرسول الله تبركهم به ﷺ التِماسًا للرَّحَمات والأنوار والبركات، فمِن ذلك:

في غزوَةِ بدرٍ كان رسولُ الله ﷺ يقومُ بتَعْديلِ صفوفِ المسلِمينَ ويُسَوِّي بينها، وكان في يدَيه قدحٌ، وهو شيءٌ يُشبِهُ العَصا القَصيرةَ يُعدِّل بها، وكان سَوَادُ بن غَزِيَّة مُستَنصِلًا من الصَّفِّ فطَعَنه ﷺ في بطنِه بالقَدَحِ وقال: ((استَوِ يا سَوَاد)) فقال سَوادُ: يا رسولَ الله أوجعتَنِي فَأَقِدْنِي. فكشف ﷺ عن بطنِه وقال: ((استَقِد)) فاعتَنَقَه سوادُ وقبَّل بطنَه فقال ﷺ: ((ما حَملَكَ على هذا يا سَوادُ؟)) قال: يا رسولَ الله قد حضرَ ما ترى فأردتُ أن يكون آخِرَ العهد بكَ أَنْ يمسَّ جلدِي جلدَك، فدَعَا له رسولُ الله ﷺ بخَيرٍ[2].

وكان المُسلمونَ يطلبونَ بَركةَ رسُولِ الله ويتتبَّعونَ ذلك؛ فقد روَى مسلمٌ عن أنسِ ابن مالك ﷺ قال: ((كان رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى الغداةَ جاءَ خدمُ المدينةِ بآنيتِهم فيها الماءُ فما يؤتَى بإناءٍ إلَّا غمسَ يدَه فيها، فربَّما جاءُوه في الغَداةِ الباردَةِ فيَغمسُ يدَه فيها))[3].

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (121).

(2) أخرجه ابنُ هشامٍ في سيرتِه (626/1)، والطَّبريُّ في تاريخِه (446/2)، وأبو نعيمٍ في معرفةِ الصَّحابة (1404/3)، وابن الأثيرِ في أُسد الغابة (332/2) من طريقِ ابن إسحاق قال: وحدَّثني حبَّان بنُ واسع بن حبَّان عن أشياخٍ من قومه به.

وله شاهدٌ من حديث الحسن مرسلًا؛ أخرجه ابنُ سعد في الطَّبقاتِ (478/3) من طريقِ إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن الحسنِ بنحوِه. ورواتُه ثقات.

(3) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من النَّاس وتبرُّكهم به (2324).

وهذا عبدُالله بنُ عمرَ يتبعُ الأماكنَ الَّتي صلَّىٰ رسولُ الله فيها فيصلِّي فيها[1]، ويتبعُ أماكنَ مَشْيِهِ ﷺ فيمشي عليها، ويضعُ يدَهُ علىٰ مقعدِ النَّبيِّ ﷺ من المِنْبر، ثمَّ يمسحُ بها وجهَه رجاءَ البَركةِ[2].

فهذه المظاهرُ والسُّلوكيَّاتُ والأفعالُ مِنَ الصَّحابة الكرامِ تدلُّ علىٰ شدَّةِ محبَّتِهِم ومودَّتهم للمصطفىٰ ﷺ ولنا بهم أسوةٌ، فلنعْمَل علىٰ تحقيقِ ذلك الحبِّ في قُلوبِنا ونُترجم ذلك إلىٰ الأعمالِ فنتعلَّق بجنابِ رسولِ الله ﷺ في كلِّ أمورنا، ففي جانبِ العقلِ نرتبطُ به معرفةً وعلمًا نقرأُ سِيرتَه ونعرفُ هَدْيَه وسُنَّته ونتعلَّم مِنْه ونلزمُ منهجَه وشريعتَه، وفي جانبِ القَلْب نعملُ علىٰ شَحْنِ قلوبِنا بمحبَّتِه ﷺ ومودَّتِه، وأن يكون القلبُ مائلًا إليه ﷺ، ثمَّ بعد ذلك محبَّةُ الجوارحِ التي تُترْجَمُ فيها العواطفُ والمودَّة إلىٰ الاتِّباع، ونحن باحتفالِنا بذكْرَىٰ مولدِ نبيِّنَا ﷺ نقومُ باسْتِحضَارِ كلِّ هذه المعاني الجليلَةِ، ونجدِّدُ الذِّكْرىٰ بعِظَم نِعْمَة الله علينا وعلىٰ العالمين أَن اختصَّنَا الله سبحانَه وتعالَىٰ بِهَذا النَّبيِّ الكريمِ صلوَاتُ الله وسلامُه عليه.

وكلُّ هذه المعاني هي مقاصِدُ شرعيَّة وأهدافٌ مطلُوبةٌ غيرُ خارجةٍ عن الدِّين؛ بل هي أصْلُ الدِّينِ وأساسُه، ويكونُ التَّعبيرُ عن هذهِ المقاصدِ من خلالِ مظاهر تعبِّر عن المَحبَّة والمودَّة والتَّقديرِ لنبيِّنا الكريم ﷺ مِنْ أعمالِ البرِّ والخير والقرُبَات من قراءةِ القُرآنِ الكريمِ وتذكُّرِ سِيرته ﷺ وجِهَادِه في سَبِيل تبليغِ رِسَالة الله سُبحانَه وتعالَىٰ وإنشادِ

---

(1) ورد ذلك في حديثٍ أخرجه البخاريُّ في كتاب الصَّلاة، باب المساجد التي علىٰ طرق المدينة والمواضع التي صلَّىٰ فيها النبيُّ ﷺ (483) عن موسىٰ بن عقبة قال: «رأيتُ سالم بن عبدالله يتحرَّىٰ أماكنَ من الطَّريق فيصلِّي فيها، ويحدِّث أنَّ أباه كان يصلي فيها، وأنَّه رأىٰ النبيَّ ﷺ يصلِّي في تلك الأمكنة» وحدَّثني نافع عن ابن عمر: «أنَّه كان يصلِّي في تلك الأمكنة».

(2) أخرج ابن سعدٍ في الطَّبقاتِ الكبرىٰ (218/1) من طريق محمد بن إسماعيل بن أبي فديك قال: أخبرني ابن أبي ذئب عن حمزة بن أبي جعفر عن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عبدالقاري: «أنَّه نظر إلىٰ ابن عمر وضع يدَه علىٰ مقعدِ النبيِّ ﷺ من المنبر ثم وضعَها علىٰ وجهِه» وذكره ابن حبانَ في الثِّقاتِ (9/4).

المدائحِ النَّبويَّة التي تعرِضُ أخلاقَه وفضائِلَه ﷺ وما أعطَاهُ ربُّه من المِنَحِ والعَطَايا، كلُّ هذه المظاهرِ وغيرها هي في ذاتِها مشروعةٌ، بل ومندُوبَةٌ في كلِّ الأوقاتِ، فما الذي يجعَلُها تدخلُ في نِطاقِ البِدْعةِ في ذِكْرَىٰ المَوْلدِ النَّبويِّ عند مَن يقولون بهذا القَوْل.

ثانيًا: فوائدُ الاحتِفالِ بمولدِه ﷺ:

نودُّ هنا أن نُشيرَ إلىٰ بعضِ فوائدِ الاحتفالِ بذكرىٰ المولدِ النَّبويِّ الشَّريفِ التي تجعلُ مِنْه أمرًا مندُوبًا خاصَّةً في هذه السَّنواتِ الأخيرةِ والمستجدَّات التي حدَثَتْ للأمَّةِ الإسلاميَّةِ والعالم من حولِنا، فمِنْ ذلك:

- بالنِّسبة للمسلمينَ يعدُّ الاحتفالُ بالمولدِ النَّبويِّ ومظاهرُه هو تجديدٌ للإيمانِ، وذلك عن طريقِ استرْجَاعِ المعاني التي يَحتويها المولدُ الكريمُ، فيتمُّ شحنُ القلوبِ بمعاني الإيمان والرَّحمة والسَّكينة والنُّورِ قال تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:5] فالمولدُ الشَّريفُ هو تثبيتٌ لقُلُوبِ المؤمنينَ ومناسبةٌ لزيادة اليقين: ﴿وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِين﴾ [هود:120] فذكرىٰ المولدِ الشَّريفِ وسيلةٌ لمعرفةِ أخبارِه ﷺ وسيرته ومُعجزاتِه وجهاده في سبيلِ الله ممَّا يولِّدُ معاني الإيمان واليقِين في القُلوبِ.

- كذلك الاحتفالُ بمولدِ النَّبيِّ ﷺ هو مظهرٌ من مظاهرِ تعظيمِ شعائِرِ الله، وهو مصداق قوله سُبحانَه وتعالَىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَىٰ الْقُلُوب﴾ [الحج:32] والَّذي يمثِّل في هذه السَّنوات مظهرًا من مظاهِرِ عظمةِ هذه الأمَّة وأحدَ معالمِ التَّذكير بأرْكانِ هذا الدِّين العظِيم، ففي ظلِّ حالةِ التَّغْريبِ وتغييرِ المفاهيمِ التي نعيشُها في هذا العصْرِ يمثِّـلُ الاحتفالُ بذكرىٰ مولدِ نبيِّنا ﷺ دعوةً للرُّجوعِ للدِّينِ والاعتزازِ به خاصَّةً بالنِّسبة للشَّباب وأطفالِنا الصِّغار الذين يتأثَّرونَ بما في العَالَمِ مِنْ حولِهم من ثقافاتٍ تختلفُ عنَّا كلَّ الاختلافِ، فهو مُناسَبةٌ للتَّعريف بدينهم وإبرازِ ما جاءَ به النبيُّ ﷺ،

وتوضيحٌ لمنهجِ النُّبوَّة وسماحةِ الدِّين عن طريقِ إيضاح جوانبِ العظمَةِ والسَّماحةِ والرَّحمة في شخصيَّة نبيِّنا الكريم ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107].

- أيضًا نجد الاحتِفَال بذكْرَىٰ المولدِ النَّبويِّ هو جانبٌ من جوانبِ إظهارِ عزَّة هذه الأمَّة للعالمِ أجمع، فمِئَات الملايينَ الذينَ يحتفلونَ في ذكرىٰ مولدِهِ ويُظهِرون البَهْجةَ والسُّرورَ وجميعَ مظاهرِ الاحتِفالِ الأخرىٰ يُعلِنُون للعالمِ أجمعَ أنَّ هذه الأمَّة ما زالتْ حيَّةً، وأنَّ دينَها هو سرُّ حياتِها، وأنَّها تستمدُّ النُّورَ مِنْ هَدي هذا النَّبيِّ العَظيمِ الذي تحتفِلُ به، وكذلك تعدُّ مظاهرُ الاحتِفالِ نوعٌ من أنواعِ حوائطِ الصَّدِّ أمامَ الهجمات علىٰ النَّبيِّ ﷺ أو عَلَىٰ سنَّته وهدْيِهِ الشَّريف، سواءٌ في الدَّاخل أو الخارج بطريقٍ مُباشِرٍ وغيرِ مُباشرٍ من المسلمين وغيرِ المسلِمِينَ، فحين يرىٰ أصحابُ هذا المسلَكِ مظاهرَ الحفاوَةِ والاحتفاءِ بذكرىٰ مولدِ نبيِّنا ﷺ والملايين من البشر التي لا تُعدُّ ولا تُحصَىٰ وسلوكَها في هذا اليوم يحسَبُون ألفَ حسابٍ قبل التَّعرُّض لجنابِ المصْطَفَىٰ ﷺ.

- أمَّا بالنِّسبةِ لغير المسلمينَ في العالَم كلِّه فإنَّ ذكرىٰ الاحتِفال بالمولدِ النَّبويِّ ومظاهرها نوعٌ من أنواع الدَّعوةِ إلىٰ دِينِ الله بطريقٍ مباشرٍ وغيرِ مباشر، فحينها يتساءلُ غيرُ المسلمينَ عن هذه المظاهرِ ماذا تعْنِي؟ وإلىٰ مَاذا ترمُز؟ ويريدُون التَّعرُّفَ علىٰ هذه الشَّخصيَّةِ التي تتمَتَّعُ بكلِّ هذه الحفاوةِ وكلِّ هذا الاهتمامِ علىٰ مرِّ السنين، فينفتِحُ البابُ أمامَهم للتعرُّفِ علىٰ دِينِ الإسلامِ عن طريقِ تعرُّفِهم علىٰ نبيِّنا ﷺ، وكَمْ مِنْ غير المسلمينَ دخَلَوا الإسلامَ عندمَا شاهدوا أو سَمِعوا مظهرًا مِنْ مظاهرِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة، أو فُتِحَ لهم بابُ التَّعرُّف علىٰ نبيِّنا ﷺ والذي يُمثِّل الاحتفالُ بذِكْرَىٰ مولدِه الكريم ﷺ بابًا مِنْ أبوابِ التَّوصُّل إليْه، وكذلِكَ يمثِّل الاحتفالُ بذكْرَىٰ مولدِ النَّبيِّ ﷺ مناسبةً لتصحيحِ المفاهيمِ المغلُوطةِ لدىٰ غيرِ المسلِمين عن الإسلام ورسولِ الإسلام ﷺ عن طريقِ إبرازِ أخلاقِه الكريمةِ وشمائِلِه الشَّريفةِ وأنَّه رحمةٌ مُهداةٌ منَ الله للعالَمين للمسلمين

وغيرِ المسلمين، وأنَّ الله سبحانه وتعالَىٰ جعلَه بابَ رَحمةٍ للخَلْقِ كلِّهم، وأنَّ أبرزَ صفاتِ شريعتِه هي السَّماحةُ والتَّعايشُ مع الآخرِ.

كلُّ هذه الفوائد والنَّتائجِ الطَّيبةِ تحدثُ عند احتفالِنا بمولدِه ﷺ، فهل كُلُّ هذا الخير والذي هُو مطلبٌ شرعيٌّ يُعَدُّ بدعةً؟! الأمرُ الذي يجعلُنا نناقشُ مفهومَ البدعةِ في السُّطورِ القادمة؛ ذلك لأنَّ المفهومَ الخاطِئَ للبِدعةِ وأحكامِها عند طوائِفَ ممَّن يدَّعُونَ الانتسابَ للعِلْم والسَّلفِ جعلتْهُم يقولون ببدعيَّةِ أشياءَ وأفعالٍ هي جائزةٌ بل مندوبةٌ في شريعةِ الإسلامِ.

إيراد أقوال أهل العلم والأدلة الشرعية الدالة علىٰ جواز استحباب الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

سوف نَعرِضُ في هذه الجزئيَّةِ الأدلَّةَ الشَّرعيَّةَ التي تجعلُ من أمرِ الاحتفال بمولدِ سيِّد البَشر داخلَ دائرة الشَّريعة وليس خارجًا عنْها؛ بل داخلَ دائرة المنْدُوباتِ وليس داخلَ دائرة الجواز فقط.

أوَّلًا: تأصيلُ الاحتفالِ بمولد النَّبيِّ ﷺ:

إنَّ الاحتفالَ بمولد النبي ﷺ لم يكن بِدعًا من القول أو الفعل، فقد ورد ما يُفيدُ الاحتفال بمولدِه في الشريعة الإسلامية؛ ففي صحيح مسلم عنه ﷺ ما يؤكِّد ذلك، فعن أبي قتادةَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ؟ قالَ: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ- أَوْ- أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ»[1].

فنحن إذا تأمَّلنا هذا الحديث وجدناه نصًّا واضحًا في هذه المسألة؛ فقد صام النبي ﷺ يوم الإثنين لأنه ذكرىٰ مولده، وذلك إظهارًا لشكر الله سبحانه وتعالىٰ، والصِّيامُ

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس(1162) من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

من أفضلِ القربات التي يتقرَّب بها العبد إلىٰ ربِّه، وهذا الصيام منه ﷺ هو في حقيقة الأمر احتفالٌ منه بهذا اليوم الَّذي عبَّر فيه بقوله: «وُلدتُ فِيه» فمن هذا المنطلَق حبِّبَ إلينا السيرُ علىٰ نفس ما فعلَه النبي في يوم مولدِه، وهو احتفالٌ يندرجُ تحتَ باب القربات والطَّاعاتِ وإدخال السُّرورِ علىٰ المسلمين؛ لأن دواعيَ الاحتفال تشمل تلاوةً لكتاب الله عزَّ وجلَّ وذِكرَه، ثم تذكُّرَ سيرته ﷺ وجهاده وسُنَّتِه المطهَّرة، وتشمل سَرْدَ القصائد في شمائله الشريفة وإطعام الطعام وغير ذلك من الأفعالِ الجائزة والمستحبَّة التي لا تُخرجنا عن دائرة الشَّرع الشَّريف.

ونحن نؤكِّد علىٰ أننا إنما نتكلَّمُ عن المباح من الأفعال والأعمال، ولا ندعو في هذا اليوم المبارك أن نحتفل به بفعلِ المحرَّمات والمكروهاتِ، فليست هي المقصودةَ بمعاني الاحتفالِ بذكرىٰ نبيِّنا الكريم ﷺ؛ إذ إنَّ المحرمات محرمةٌ في كل وقتٍ ومكانٍ ولا يجعلها مُباحةً احتفالٌ أو ذِكرىٰ، وعندما تكلَّم الجلالُ السيوطيُّ عن شهر ربيعٍ الذي وُلدَ فيه النبيُّ ﷺ وساق كلامًا عن الحديث السَّابق فقال: «أشارَ عليه السَّلام إلىٰ فضيلةِ هذا الشَّهرِ العظيمِ بقوله للسَّائل الذي سألَه عن صومِ يومِ الإثنين: «ذاكَ يومٌ وُلدْتُ فيه» فتشريفُ هذا اليوم مُتضمِّنٌ لتشريفِ هذا الشَّهر الذي وُلدَ فيه، فينبغي أن نحترمَه حقَّ الاحترام ونفضِّله بما فضل الله به الأشهر الفاضلة وهذا منها؛ لقوله عليه السَّلام: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ»[1]. «آدمُ فمَنْ دونَه تحتَ لوائِي»[2]. وفضيلةُ الأزمنةِ والأمكنةِ بما خصَّها الله به من العباداتِ الَّتي تُفعلُ فيها لما قد علم أنَّ الأمكنةَ والأزمنةَ لا تشرف لذاتِها، وإنما

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ علىٰ جميع الخلائق (2278) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) جزء من حديث أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (3148)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة (4308)، والآجري في الشريعة (1075) من طريق علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد به مرفوعًا. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

يحصُلُ لها التَّشريفُ بما خُصَّتْ به من المعاني، فانظرْ إلىٰ ما خَصَّ الله به هذا الشهرَ الشَّريف ويوم الإثنين، ألا تَرَىٰ أنَّ صومَ هذا اليوم فيه فضلٌ عظيمٌ؛ لأنَّه ﷺ وُلِدَ فيه، فعلىٰ هذا ينبغِي إذا دخل هذا الشَّهرُ الكريم أن يكرم ويعظَّم ويُحترم الاحترام اللَّائق به اتِّباعًا له ﷺ في كونه كان يخصُّ الأوقاتَ الفاضلة بزيادةِ فِعل البرِّ فيها وكثرةِ الخيراتِ، ألا تَرىٰ إلىٰ قول ابن عبَّاسٍ: ((كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس بالخيرِ وكان أجودَ ما يكونُ في رمضانَ))[1]. فنمتثِلُ تعظيمَ الأوقاتِ الفاضلة بما امتثله علىٰ قدر استطاعتِنا))[2].

ثانيًا: أقوالُ أهل العلم في الاحتفالِ بمولده ﷺ:

يقول الحافظُ السُّيوطيُّ رحمه الله نقلًا عن الحافظِ ابن حجرٍ العسقلانيِّ: ((وقدْ سُئِلَ شيخُ الإسلام حافظُ العصر أبو الفضل بن حجر عن عمل المولدِ فأجابَ بما نصُّه: أصلُ عمل المولد بِدعةٌ لم تُنقلْ عن أحدٍ من السَّلف الصَّالح من القرونِ الثَّلاثة، ولكنَّها مع ذلك قدِ اشتملتْ علىٰ محاسنَ وضدِّها، فمَنْ تحرَّىٰ في عملِها المحاسنَ وتجنَّبَ ضدَّها كان بدعةً حسنةً وإلَّا فلا، قال: وقد ظهرَ لي تخريجُها علىٰ أصلٍ ثابتٍ وهو ما ثبتَ في الصَّحيحيْنِ من أنَّ النبيَّ ﷺ قَدِمَ المدينة فوجدَ اليهودَ يصومونً يوم عاشوراءَ، فسألهم فقالوا: هو يومٌ أغرقَ الله فيه فرعونَ ونجَّىٰ موسىٰ فنحن نصومُه شكرًا لله تعالىٰ[3].

فيُستفادُ منه فعلَ الشُّكر لله علىٰ ما مَنَّ به في يومٍ مُعيَّنٍ من إسداءِ نِعمةٍ أو دفعِ نقمةٍ، ويُعادُ ذلك في نظيرِ ذلك اليوم من كلِّ سنةٍ، والشكرُ لله يَحصُلُ بأنواعِ العبادةِ كالسجودِ

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ (6)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (2308).

(2) الحاوي للفتاوىٰ (1/194) تأليف: جلال الدين السيوطي- دار الكتب العلمية- بيروت-1983م.

(3) متفق عليه بنحوه؛ أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (2004)، ومسلم في كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (1130) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والصِّيامِ والصَّدقةِ والتِّلاوةِ، وأيُّ نعمةٍ أعظم من النِّعمةِ ببُروزِ هذا النبيِّ نبيِّ الرحمة في ذلك اليوم! وعلىٰ هذا فينبغي أن يُتحرَّىٰ اليومَ بعينِه حتىٰ يطابقَ قصة موسىٰ في يوم عاشوراءَ، ومَنْ لم يلاحظ ذلك لا يبالي بعمل المولدِ في أي يوم من الشَّهرِ، بل توسَّعَ قوم فنقلوه إلىٰ يومٍ من السَّنةِ، وفيه ما فيه. فهذا ما يتعلَّق بأصلِ عملِه.

وأمَّا ما يُعملُ فيه فينبغِي أن يُقتصرَ فيه علىٰ ما يُفهِمُ الشُّكرَ لله تعالىٰ من نحو ما تقدَّم ذِكرُه من التِّلاوةِ والإطعام والصَّدقةِ وإنشاد شيءٍ من المدائحِ النبويَّةِ والزُّهديةِ المحرِّكة للقلوبِ إلىٰ فِعلِ الخيرِ والعمل للآخرةِ، وأمَّا ما يتبعُ ذلك من السَّماعِ واللهوِ وغير ذلك فينبغِي أن يقال: ما كانَ من ذلكَ مباحًا بحيث يقتضي السرورَ بذلك اليوم لا بأسَ بإلحاقِه به، وما كان حرامًا أو مكروهًا فيمنعُ، وكذا ما كان خلافَ الأولىٰ» انتهىٰ.

ثم يقول السيوطيُّ: «قلتُ: وقد ظهرَ لي تخريجُه علىٰ أصل آخرَ، وهو ما أخرجَه البَيهقيُّ عن أنسٍ: أن النبيَّ ﷺ عقَّ عن نفسِه بعد النبوَّة[1]. مع أنه قد وردَ أنَّ جدَّه عبدالمطَّلبِ عقَّ عنه في سابع ولادتِه، والعقيقةُ لا تُعادُ مرةً ثانيةً، فيُحملُ ذلك علىٰ أنَّ الذي فعلَه النبيُّ ﷺ إظهارٌ للشُّكرِ علىٰ إيجاد الله إيَّاه رحمةً للعالمين وتشريعٌ لأُمته كما كان يُصلِّي علىٰ نفسه لذلك، فيُستحبُّ لنا أيضًا إظهارُ الشُّكرِ بمولدِه بالاجتماعِ وإطعامِ الطَّعامِ ونحو ذلك من وُجُوهِ القُرباتِ وإظهارِ المسرَّات، ثم رأيتُ إمامَ القرَّاء الحافظَ شمسَ الدِّين ابنَ الجزريِّ قال في كتابه المُسمَّىٰ: «عُرف التَّعريفِ بالمولدِ الشَّريف» ما نصُّه: قد رُئيَ أبو لهب بعد موتِه في النوم، فقِيلَ له: ما حالُك، فقال: في النَّارِ، إلَّا أنه يُخفَّفُ عني كلَّ ليلةِ إثنينِ وأمصُّ من بين إصبعيْ ماءً بقدرِ هذا- وأشار لرأس إصبعه- وأنَّ ذلك بإعتاقِي لثويبةَ عندما بشَّرتْني بوِلادةِ النَّبيِّ ﷺ وبإرضاعِها له.

---

(1) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (7960)، والبيهقي في الكبرىٰ (9/ 300) من طريق عبدالله بن محرر عن قتادة عن أنس ﷺ به.

فإذا كان أبُو لهبٍ الكافرُ الذي نزل القرآنُ بذمِّه جُوزيَ في النار بفرحِه ليلةَ مولدِ النبيِّ ﷺ به، فما حالُ المسلمِ الموحِّد من أُمَّةِ النبي ﷺ يُسَرُّ بمولدِه ويَبذلُ ما تَصِلُ إليه قدرتُه في محبَّتِه ﷺ؛ لعمري إنَّما يكون جزاؤُه من الله الكريمِ أنْ يُدخلَه بفضلِه جناتِ النَّعيم.

وقال الحافظُ شمس الدين ابن ناصر الدِّين الدمشقي في كتابِه المسمىٰ: مَورد الصَّادي في مولد الهادي: قد صَحَّ أنَّ أبا لهبٍ يخفَّفُ عنه عذاب النارِ في مثل يوم الإثنين لإعتاقه ثويبةَ سرورًا بميلادِ النبي ﷺ، ثم أنشد:

إذَا كانَ هـذَا كـافرًا جاء ذمُّه ... وتـبَّتْ يـداه في الجحيمِ مُخلَّدَا
أتىٰ أنَّـه في يوم الاثنينِ دائـمًا ... يُـخفَّفُ عـنه للسُّرورِ بأحمَدَا
فما الظَّنُّ بالعبدِ الذي طولَ عُمرِه ... بأحمَدَ مسرورًا ومات موحِّدَا[1]

وقال الكمال الأُدفُويُّ في ((الطَّالع السَّعيد)) حكىٰ لنا صاحبُنا العدل ناصر الدِّين محمود ابن العماد أنَّ أبا الطيب محمد بن إبراهيم السَّبتيَّ المالكيَّ نزيل قوص- أحد العلماءِ العاملينَ- كان يجوزُ بالمكتب في اليوم الذي فيه وُلد النَّبيُّ ﷺ فيقول: يا فقيه، هذا يوم سرورٍ اصرف الصبيانَ، فيصرفنا، وهذا منه دليلٌ علىٰ تقريرِه وعدم إنكارِه، وهذا الرجلُ كان فَقيهًا مالكيًّا متفننًا في علومٍ، متورعًا، أخذ عنه أبو حيان وغيرُه، ومات سنة خمس وتسعين وستمائة))[2].

- ويقولُ الإمامُ السيوطيُّ أيضًا: ((عندِي أنَّ أصلَ عمل المولدِ الذي هو اجتماعُ الناسِ وقراءة ما تيسَّرَ من القرآنِ ورِوايةُ الأخبار الوارِدةِ في مبدأ أمرِ النبيِّ ﷺ وما وقع في مولدِه من الآياتِ ثمَّ يُمَدُّ لهم سماطٌ يأكلونه وينصرفونَ من غير زيادةٍ علىٰ ذلك- هُو من البدع الحسنةِ التي يثابُ عليها صاحبُها؛ لما فيه من تعظيمِ قدرِ النَّبيِّ ﷺ وإظهارِ الفرحِ والاستبشارِ بمولدِه الشريفِ، وأوَّلُ مَن أحدثَ فِعلَ ذلك صاحبُ إِرْبِل الملك المظفَّر أبو

(1) الحاوي للفتاوىٰ (1/197-196).
(2) المصدر السابق نفس الموضع.

سعيد كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين، أحد الملوكِ الأمجاد والكُبراء الأجواد، وكان له آثارٌ حسنة... قال ابنُ كثيرٍ في تاريخِه: كان يعملُ المولد الشريف في ربيع الأول ويَحتفِلُ به احتفالًا هائلًا، وكان شَهمًا شجاعًا بطلًا عاقلًا عالمًا عادلًا، رحمَه الله وأكرمَ مَثواه، قال: وقد صنَّفَ له الشيخُ أبو الخطاب بن دحية مجلدًا في المولدِ النَّبويِّ سماه: التَّنوير في مولدِ البشير النذير. فأجازه على ذلك بألفِ دِينارٍ، وقد طالتْ مدتُه في الملك إلى أن ماتَ وهو محاصِرٌ للفرنج بمدينة عكا سنة ثلاثين وستمائة، محمود السِّيرة والسَّريرةِ))[1].

- وينقلُ لنا الشيخُ عليُّ بن برهان الدين الحلبيُّ طَرَفًا من ذلك في سيرته الحلبيَّة فيقولُ: ((قالَ ابنُ حجر الهيتميُّ: والحاصِلُ أنَّ البدعةَ الحسنةَ متَّفقٌ على ندبِها، وعملُ المولدِ واجتماع النَّاس له كذلكَ؛ أي بدعةٌ حَسنةٌ، ومِنْ ثَمَّ قال الإمام أبو شامة شيخ الإمام النَّوويِّ: ومن أحسن ما ابتدعَ في زمانِنا ما يُفعلُ كلَّ عامٍ في اليوم الموافِقِ ليومِ مولدِه ﷺ من الصَّدقاتِ والمعروفِ وإظهارِ الزِّينةِ والسُّرورِ، فإنَّ ذلك مع ما فِيه من الإحسانِ للفقراء مُشعرٌ بمحبَّته ﷺ وتعظيمِه في قلبِ فاعل ذلك وشكرِ الله على ما مَنَّ به من إيجاد رسوله ﷺ الذي أرسله رحمةً للعالمين... قال السَّخاويُّ لم يفعله أحدٌ من السَّلف في القرونِ الثَّلاثةِ، وإنَّما حدثَ بعدُ، ثمَّ لا زال أهل الإسلام من سائِرِ الأقطارِ والمدنِ الكبار يعملونَ المولد ويتصدَّقونَ في لياليه بأنواعِ الصَّدقاتِ ويَعتنونَ بقراءةِ مولدِه الكريمِ ويظهر عليهم من بركاتِه كلَّ فضلٍ عميمٍ، قال ابنُ الجوزيِّ: من خَوَاصِّه أنَّه أمانٌ في ذلك العام وبُشرى عاجلةٌ بنيلِ البُغيةِ والمرامِ... وقدِ استخرجَ له الحافظُ ابن حجر أصلًا من السُّنَّةِ، وكذا الحافظُ السيوطيُّ ورَدًّا على الفاكهانيِّ المالكيِّ في قوله: إنَّ عمل المولد بدعة مذمومةٌ))[2].

(1) الحاوي للفتاوى (1/222).

(2) السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (1/137) تأليف: أبي الفرج علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية- 1427هـ. وانظر كلام الإمام أبي شامة في: الباعث

وقول الحلبيِّ في السيرة الحلبية: ((قال السَّخاويُّ: لم يفعله أحدٌ من السَّلف في القرونِ الثَّلاثةِ)) يجب أن نلفت القارئ هنا إلىٰ أنَّ المقصودَ من كلام السَّخاويِّ أنَّه لم يُعمل بصورةٍ معيَّنةٍ من الاحتفالات التي أُحدثت بعد ذلك بشكلٍ معيَّنٍ ونظامٍ وهيئةٍ مخصوصةٍ، لا أنَّ أصلَ الاحتفالِ والحفاوةِ والفَرحةِ بيوم المولدِ لم يكن موجودًا عند عامَّةِ المسلمينَ أفرادًا وجماعاتٍ بطرقٍ متنوعةٍ ومختلفةٍ، فهذا لم يقلْ به أحدٌ أو ينقل عن أحدِ العلماءِ، فالفرحُ بمولدِه ﷺ تعدَّدت مظاهره علىٰ مختلف العصور، ولو افترضنا جدلًا أنهم تركوا الاحتفال فلا يدلُّ ذلك علىٰ عَدمِ الجوازِ؛ لأنَّ التركَ وعدمَ الفعل لا ينفي الجوازَ كما سيأتي فيما بعد عند الكلام عن مسألة التَّركِ والفِعلِ وأثرها في الجوازِ وعدمِه.

وقد ذكر ابنُ الحاجِّ جواز واستحباب الاحتفالِ بمولدِه ﷺ مع تجنُّبِ المحرَّماتِ والبُعد عن البدع فقال: ((هذا الشهرُ الكريمُ الَّذي مَنَّ الله تعالَىٰ علينا فيه بسيِّد الأوَّلين والآخرينَ، فكان يجبُ أن يُزادَ فيه من العباداتِ والخير شكرًا للمولىٰ سبحانَه وتعالَىٰ علىٰ ما أولانا من هذه النِّعمِ العظيمةِ و إن كان النبيُّ ﷺ لم يَزِدْ فيه علىٰ غيره من الشُّهور شيئًا من العباداتِ وما ذاك إلا لرحمتِه ﷺ بأمَّتِه ورفقِه بهم؛ لأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام كان يتركُ العَملَ خشيةَ أن يُفرضَ علىٰ أمتِه رحمةً منه بِهم كما وَصَفَه المولَىٰ سبحانَه وتعالَىٰ في كتابه حيث قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] لكن أشار عليه الصَّلاة والسَّلام إلىٰ فضيلةِ هذا الشَّهرِ العظيمِ بقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام للسائل الذي سأله عن صوم يوم الإثنين؟ فقال له عليه الصلاة والسلام: ((ذلك يومٌ ولدتُ فيه)) فتَشريفُ هذا اليوم مُتضمِّنٌ لتشريفِ هذا الشهر الذي وُلدَ فيه، فينبغِي أن نحترمَه حقَّ الاحترامِ ونفضلَه بما فضَّلَ الله به الأشهرَ الفاضلةَ، وهذا منها؛ لقوله عليه الصلاة والسَّلام: ((أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ)) ولقولِه عليه الصلاة والسلام: ((آدمُ ومَن دونَه تحت لوائي))

=

علىٰ إنكار البدع والحوادث (24/1).

انتهىٰ. وفضيلةُ الأزمنةِ والأمكنة بما خصَّها الله تعالىٰ به من العباداتِ التي تُفعلُ فيها؛ لما قد عُلِمَ أنَّ الأمكنةَ والأزمنةَ لا تتشرفُ لذاتِها و إنَّما يحصل لها التشريفُ بما خُصَّت به من المعاني.

فانظر رَحِمَنا الله و إيَّاك إلىٰ ما خَصَّ الله تعالىٰ به هذا الشَّهر الشريف ويوم الإثنين، ألا ترىٰ أن صوم هذا اليوم فيه فضلٌ عظيمٌ لأنه ﷺ وُلِدَ فيه، وعلىٰ هذا ينبغي إذا دخلَ هذا الشهرُ الكريم أن يُكرَّمَ ويعظَّمَ ويُحترمَ الاحترام اللَّائقَ به، وذلك بالاتباع له ﷺ في كونهِ عليه الصَّلاة والسَّلام كانَ يخصُّ الأوقاتَ الفاضلةَ بزيادةِ فعل البرِّ فيها وكثرة الخيراتِ، ألا ترىٰ إلىٰ قولِ ابن عباس رضي الله عنهما: كان النَّبيُّ ﷺ أجودَ الناسِ بالخير وكان أجودَ ما يكونُ في رمضانَ[1]. فنمتثل تعظيمَ الأوقات الفاضلة بما امتثلَه عليه الصَّلاة والسَّلام - علىٰ قدر استطاعتِنا))[2].

فهذه نبذة من كلام أئمَّةِ الإسلام وحفَّاظِ الحديث وشرَّاحِ السنةِ النبويَّةِ من أهل العلم قديمًا عن الاحتفال بذكرَىٰ مَولدِ النبيِّ ﷺ نلحظُ فيه أنَّ مفهومَ بدعيةِ الاحتفال بمولد سيدنا النبي ﷺ يختلفُ عن غيرِهم ممَّن يحاولونَ فرضَ تلك المفاهيم المغلوطةِ علىٰ المسلمينَ من الطَّوائف التي تدَّعِي الانتسابَ للسَّلفِ والعِلم والسُّنَّةِ النبويَّة، وأنَّهم كانوا يَرونَ في الأمرِ سَعة ما دام له أصلٌ في الشريعة يندرجُ تحتَه.

والأمرُ لم يكن عند العلماءِ قديمًا فقط، بل نصَّ عليه علماء العصر الحديث وهم في هذا الأمر يؤكِّدونَ علىٰ ما نصَّه عليهم مَنْ سبقهم من العلماء، ونسوقُ بعضًا من أقوالِ أهل العلم في العصرِ الحديثِ في قضيَّةِ الاحتفال بمولدِ رسولِ الله ﷺ:

- يقولُ الشَّيخ الإمام محمد الطَّاهر بن عاشور شيخ جامع الزَّيتونة والذي يُعدُّ من أبرز علماء المالكيَّةِ في العصر الحديث: ((جعل الله للمواقيتِ المحدودة اعتبارًا يُشبهُ

(1) تقدم تخريجه.

(2) المدخل (2/3-2) تأليف: أبي عبدالله محمد بن محمد الشهير بابن الحاج- دار التراث- القاهرة.

اعتبارَ الشيءِ الواحد المتجدِّد، وإنَّما هذا اعتبارٌ للتَّذكيرِ بالأيَّامِ العظيمة المقدارِ كما قال تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ [إبراهيم: 5] فخلعَ الله على المواقيتِ التي قارنها شيءٌ عظيمٌ في الفضلِ أن جعلَ لتلك المواقيت فضلًا مُستمرًّا تنويهًا بكونها تذكرةً لأمرٍ عظيمٍ، ولعلَّ هذا هو الذي جعل الله لأجله سُنة الهَدي في الحجِّ؛ لأنَّ في مثل ذلك الوقت ابتلى الله إبراهيمَ بذبحِ ولدِه إسماعيلَ، وأظهر عزمَ إبراهيم وطاعتَه ربَّه، ومنه أخذَ العلماءُ تعظيمَ اليوم الموافِقِ ليومِ وِلادةِ النَّبيِّ ﷺ ويجيءُ من هذا إكرام ذرِّيَّةِ رسول الله وأبناءِ الصَّالحينَ وتعظِيمِ ولاةِ الأمورِ الشرعيَّة القائمينَ مقام النبي ﷺ في أعمالِهم من الأمراءِ والقُضاةِ والأئمَّةِ))[1].

- ويقول الشَّيخ محمد حسنين مخلوف شيخ الأزهر الأسبق: ((إنَّ إحياءَ ليلةِ المولد الشَّريفِ وليالي هذا الشَّهرِ الكريم الذي أشرقَ فيه النُّورُ المحمَّديُّ إنَّما يكون بذِكْرِ الله تعالىٰ وشُكرِه لما أنعمَ به على هذه الأمَّةِ من ظهور خيرِ الخَلقِ في عالم الوُجودِ، ولا يكونُ ذلك إلَّا في أدبٍ وخشوعٍ وبُعدٍ عنِ المحرَّماتِ والبدعِ والمُنكراتِ. ومن مظاهرِ الشُّكرِ إطعامُ الطَّعامِ على حُبِّه مِسكينًا ويتيمًا، ومواساة المحتاجينَ بما يخفِّفُ ضائقتَهم وصلة الأرحام، والإحياءُ بهذه الطَّريقة وإن لم يكنْ مأثورًا في عهدِه ﷺ ولا في عهدِ السَّلفِ الصَّالحِ إلا أنَّه أمرٌ لا بأسَ به وبدعةٌ حسنةٌ))[2].

فهذِه نماذجُ من كلامِ أهلِ العِلمِ ونظرتِهم للاحتفالِ بذكْرَى مولدِ رسولِ الله ﷺ والقول بمشروعيَّتِه، فهل غابَ عنْ كلِّ هؤلاء العلماءِ مفهوم البدعة والتَّحريم الذي يُنادِي به مَنْ يُحرِّمُ الاحتفالَ بمولده الشَّريف؟ وهل لو كان هناك دليلٌ يصلحُ للتَّحريمِ أو التَّبديعِ أمَا كانَ يتَّضحُ أمام العلماء السَّابقينَ؟!

---

(1) التَّحرير والتنوير ((تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)) (172/2) تأليف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور- الدار التونسية للنشر- تونس- 1984م.

(2) فتاوى شرعية وبحوث إسلامية (131/1) تأليف: حسنين محمد مخلوف.

ثالثًا: فتوىٰ دار الإفتاء المصرية عن حكم الاحتفال بمولده الشريف ﷺ:

وإتمامًا للفائدة أيُّها الأخ المسلم الكريم نُورِدُ في الأسطر القادِمة فَتوىٰ دار الإفتاء المصريَّة عن حكمِ الاحتفالِ بمولد النبيِّ ﷺ، وهي فتوىٰ صادرة عن أهل التَّخصصِ في العلومِ الشَّرعيَّةِ الحامِلينَ لأمانةِ الشَّريعةِ، وهذا هو نصُّ الفتوىٰ:

((الحمدُ لله وحدَه والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ مَنْ لا نبيَّ بعدَه سيِّدنا محمَّدًا رسول الله وعلىٰ آله وصحبِه ومَنْ تَبِعَه بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّينِ... اطَّلعنا علىٰ البريدِ المقدَّمِ من/ حاتم بن عبدالله بتاريخ 2012/10/30م المقيَّدِ برقم 455 لسنة 2012م والمتضمِّن: في إطار الاستعدادِ للاحْتِفالِ بإحياءِ ذكرىٰ مولد سيِّدِ البشر ﷺ والتَّحضير لإحياءِ وليالي شهر ربيع الأنور قيامًا ببعضِ حقوقِه علينا ﷺ تتعالَىٰ بعضُ الأصواتِ المُناديةِ بتبديعِنا وتكفيرِنا بحجَّةِ أنَّ هذا الفعل لم يَرِدْ عنِ السَّلفِ الصَّالح وأنَّه بدعةٌ في الدِّين، نلتمسُ من سيادتكم توضيحَ المسألة وتأصيلَها عبر مكتوبٍ؛ لدفع الشُّبهات والدَّعاوىٰ الباطلة.

الجوابُ: المولدُ النبويُّ الشَّريفُ إطلالةٌ للرحمةِ الإلهيَّةِ بالنِّسبةِ للتَّاريخِ البشريِّ جميعِه؛ فلقد تحدَّث القرآنُ الكريمُ عن وُجودِ النَّبيِّ ﷺ بأنه رحمةٌ للعالمين، وهذِه الرحمةُ لم تكن محدودةً؛ فهي تشملُ تربيةَ البشرِ وتزكيتَهم وتعليمَهم وهدايتَهم نحوَ الصِّراطِ المستقيمِ وتقدمَهم علىٰ صعيد حياتِهم الماديَّة والمعنويَّة، كما أنها لا تقتصرُ علىٰ أهلِ ذلك الزَّمان؛ بل تمتدُّ علىٰ امتدادِ التَّاريخ بأسرِه: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة:3].

والاحتفالُ بذكرىٰ مولدِ سيِّدِ الكونيْنِ وخاتمِ الأنبياءِ والمرسلينَ نبيِّ الرحمةِ وغوثِ الأمةِ سيِّدنا محمد ﷺ من أفضلِ الأعمالِ وأعظمِ القُرُباتِ؛ لأنَّها تعبِّرُ عن الفرحِ والحبِّ

للنَّبيِّ ﷺ، ومحبةُ النَّبيِّ ﷺ أصلٌ من أصولِ الإيمانِ، وقد صحَّ عنه أنَّه ﷺ قال: ((لا يؤمنُ أحدُكم حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليْه من والدِه وولَدِه والنَّاسِ أجمعينَ))[1].

قال ابنُ رجب: ((محبَّةُ النبيِّ ﷺ من أصولِ الإيمان، وهي مُقارِنةٌ لمحبَّة الله عزَّ وجلَّ، وقد قرَنَها الله بها وتوعَّدَ مَنْ قدَّم عليهما محبَّة شيءٍ منَ الأمور المحبوبة طبعًا، من الأقاربِ والأموالِ والأوطانِ وغير ذلك، فقالَ تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: 24] ولمَّا قالَ عمرُ للنَّبيِّ ﷺ: يا رسولَ الله، لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلا من نفسي، قال النَّبيُّ ﷺ: ((لا يا عُمرُ حتىٰ أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسك)) فقال له عمرُ: فإنَّه الآنَ والله، لأنتَ أحبُّ إليَّ مِن نفسِي، فقال النبيُّ ﷺ: ((الآنَ يا عُمرُ))[2]. رواه البخاريُّ)). اهـ.

والاحتفالُ بمولدِه ﷺ هو الاحتفاءُ به، والاحتفاءُ به ﷺ أمرٌ مقطوعٌ بمشروعيَّتِه؛ لأنَّه أصلُ الأصولِ ودعامتُها الأولىٰ، فقد عَلِمَ الله سبحانه وتعالىٰ قدرَ نبيِّه، فعرَّفَ الوجودَ بأسرِه باسمِه وبمبعثِه وبمقامِه وبمكانتِه، فالكونُ كلُّه في سُرورٍ دائمٍ وفرحٍ مطلَق بنورِ الله وفرجه ونعمتِه علىٰ العالمين وحجتِه.

وقد دَرَجَ سلفُنا الصَّالحُ منذ القرنِ الرَّابع والخامسِ علىٰ الاحتفالِ بمولد الرَّسولِ الأعظمِ صلواتُ الله عليه وسلامُه بإحْياءِ ليلةِ المولدِ بشتَّىٰ أنواع القُرُباتِ من إطعام الطَّعامِ وتلاوة القرآنِ والأذكار وإنشادِ الأشعارِ والمدائحِ في رسولِ الله ﷺ، كما نصَّ علىٰ ذلكَ غيرُ واحدٍ من المؤرِّخينَ مثلَ الحافظيْنِ ابن الجوزيِّ وابن كثيرٍ، والحافظ ابن دِحيةَ الأندلسيِّ، والحافظِ ابنِ حجرٍ، وخاتمةِ الحفَّاظ جلال الدِّين السيوطي رحمَهم الله

(1) تقدم تخريجه

(2) تقدم تخريجه.

تعالىٰ، ونصَّ جماهيرُ العلماء سلفًا وخلفًا علىٰ مشروعيَّةِ الاحتفالِ بالمولدِ النبويِّ الشَّريفِ، بل أَلَّفَ في استحبابِ ذلك جماعةٌ من العلماءِ والفُقهاءِ، بيَّنُوا بالأدلة الصحيحةِ استحبابَ هذا العمل؛ بحيثُ لا يَبقَىٰ لـمَنْ له عقلٌ وفهمٌ وفكرٌ سليمٌ إنكارُ ما سلكَه سلفنا الصالحُ من الاحتفالِ بذكرىٰ المولدِ الشَّريفِ، وقد أطالَ ابن الحاجِّ في «المدخلِ» في ذكرِ المَزايا المتعلِّقة بهذا الاحتفالِ، وذكر في ذلكَ كلامًا مفيدًا يَشرحُ صدورَ المؤمنينَ، مع العلم أنَّ ابن الحاجِّ وضع كتابه «المدخل» في ذم البِدعِ المُحدَثةِ التي لا يتناولُها دليلٌ شرعيٌّ، وللإمامِ السيوطيِّ في ذلك رسالةٌ مستقلَّةٌ سمَّاها: «حسن المقصد في عمل المولد».

والاحتفالُ في لغةِ العربِ: مِنْ حَفَلَ اللَّبنُ في الضَّرعِ يحفِلُ حفلًا، وحفلًا وتحفَّل واحتفَلَ: اجتمَعَ، وحَفَلَ القومُ من باب ضربَ واحتفلُوا: اجتمعُوا واحتشدُوا. وعنده حفلٌ من النَّاسِ: أي جمع، وهو في الأصلِ مصدر، ومحفِلُ القومِ ومحتفلهم مجتمعُهم، وحفله: جلاه فتحفَّلَ واحتفلَ، وحفل كذا: بالَىٰ به، ويقال: لا تَحفَلُ به.

وأمَّا الاحتفالُ بالمعنىٰ المقصودِ في هذا المقامِ، فهو لا يختلفُ كثيرًا عن معناه في اللُّغة؛ إذِ المرادُ من الاحتفالِ بذكرىٰ المولدِ النَّبويِّ هو تجمُّعُ الناسِ علىٰ الذِّكرِ والإنشادِ في مدحِه والثَّناءِ عليه صلىٰ الله عليْه وآلِه وسلَّم وإطعامُ الطَّعام صدقةً لله؛ إعلانًا لمحبَّةِ سيدنا رسول الله ﷺ، وإعلانًا لفرحِنا بيوم مجيئه الكريم صلَّىٰ الله عليه وعليه وآله وسلَّم، ويدخل في ذلكَ ما اعتادَه الناسُ من شِراءِ الحلوَىٰ والتَّهادي بها في المولد الشَّريفِ؛ فإنَّ التَّهاديَ أمرٌ مطلوبٌ في ذاتِه لم يقم دليلٌ علىٰ المنعِ منه أو إباحتِه في وقتٍ دون وقتٍ، فإذا انضمَّتْ إلىٰ ذلك المقاصدُ الصَّالحةُ الأخرَىٰ كإدخالِ السُّرورِ علىٰ أهل البيتِ وصلةِ الأرحامِ فإنَّه يُصبحُ مُستحبًّا مَندوبًا إليه، فإذا كان ذلك تعبيرًا عن الفرحِ بمولدِ المُصطفىٰ ﷺ كان أشدَّ مشروعيَّةً وندبًا واستحبابًا؛ لأن للوسائلِ أحكامَ المقاصد، والقولُ بتَحريمِه أو المنعِ منه حِينئذٍ ضربٌ من التَّنطُّعِ المذمومِ.

وممَّا يلتبسُ على بعضِهم دَعوى خُلوِّ القرونِ الأولى الفاضلةِ من أمثالِ هذه الاحتفالاتِ، ولو سُلِّم هذا لعَمْرُ الحقِّ فإنَّه لا يكون مُسوِّغًا لمنعِها؛ لأنَّه لا يشكُّ عاقلٌ في فرحِهم رَضي الله تعالى عنهم به ﷺ، ولكن للفرح أساليبُ شتَّى في التَّعبيرِ عنه وإظهارِه، ولا حرجَ في الأساليبِ والمسالكِ؛ لأنَّها ليستْ عِبادةً في ذاتِها، فالفرحُ به ﷺ عبادةٌ وأيُّ عبادةٍ! والتَّعبيرُ عن هذا الفَرح إنَّما هو وسيلةٌ مباحةٌ، لكلٍّ فيها وجهة هو مولِّيها، على أنَّه قد وَردَ في السُّنةِ النبويَّةِ ما يدلُّ على احتفالِ الصَّحابةِ الكرام بالنبيِّ ﷺ مع إقرارِه لذلك وإذنِه فيه؛ فعن بُريدةَ الأسلميِّ رضي الله عنه قال: خَرجَ رسولُ الله ﷺ في بعض مغازِيه، فلمَّا انصرف جاءتْ جاريةٌ سوداءُ فقالتْ: يا رسولَ الله إنِّي كنتُ نذرتُ إنْ ردَّكَ الله سالمًا أن أضربَ بين يديكَ بالدُّفِّ وأتغنَّى، فقال لها رسولُ الله ﷺ: ((إن كنتِ نَذَرْتِ فاضْربي وإلَّا فلَا)) رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ[1]. فإذا كان الضَّربُ بالدفِّ إعلانًا للفرحِ بقدومِ النَّبيِّ ﷺ من الغزو أمرًا مشروعًا أقرَّه النَّبيُّ ﷺ وأمَرَ بالوَفاءِ بنذرِه، فإنَّ إعلانَ الفرح بقدومِه ﷺ إلى الدنيا- بالدُّفِّ أو غيرِه من مظاهر الفرحِ المُباحة في نفسِها- أكثر مشروعيةً وأعظمَ استحبابًا.

وإذا كان الله تعالى يخفِّفُ عن أبي لهبٍ- وهُو مَنْ هُو كُفرًا وعِنادًا ومحاربةً لله ورسولِه- بفرحه بمولدِ خيرِ البَشرِ بأن يجعلَه يَشربُ من نقرةٍ من كفِّه كل يوم إثنين في النَّارِ؛ لأنه أعتق مولاتَه ثويبة لـمَّا بَشَّرَتْه بميلادِه الشَّريف ﷺ، فما بالُكم بجزاءِ الرَّبِّ لفرحِ المُؤمنينَ بميلادِه وسطوع نورِه على الكون!

وقد سَنَّ لنا رسولُ الله ﷺ جنسَ الشُّكرِ لله تعالى على ميلادِه الشَّريفِ، فقد صحَّ أنَّه كان يصومُ يومَ الإثنينِ ويقول: ((ذَاكَ يَومٌ وُلدْتُ فيهِ)). فهو شكرٌ منه عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ

(1) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (3690)، وأحمد في مسنده (353/5)، وابن حبان في صحيحه (4386) من طريق حسين بن واقد قال: حدثني عبدالله بن بريدة عن أبيه به.

علىٰ منّةِ الله تعالىٰ عليْه وعلىٰ الأُمةِ بذاتِه الشَّريفةِ، فالأَولىٰ بالأمَّةِ التأسي به ﷺ بشكرِ الله تعالىٰ علىٰ مِنَّتِه ومِنحتِه المُصطفويَّة بكل أنواعِ الشُّكر، ومنها الإطعامُ والمديحُ والاجتماعُ للذِّكرِ والصِّيامِ والقيامِ وغيرِ ذلك، وكل ماعونٍ ينضَحُ بما فيه، وقد نقل الصَّالحيُّ في ديوانه الحافل في السيرةِ النَّبويَّةِ ((سُبل الهدىٰ والرَّشاد في هدي خيرِ العِبادِ)) عن بعض صالحي زَمانِه: أنَّه رأىٰ النَّبيَّ ﷺ في منامه، فشكَىٰ إليه أنَّ بعضَ من ينتسبُ إلىٰ العِلمِ يقول ببدعيَّةِ الاحتفالِ بالمولد الشريفِ، فقال له النبيُّ ﷺ: ((مَنْ فَرِحَ بنا فَرِحْنا به)) وقد وَرَدَ الأمرُ الشَّرعيُّ أيضًا بالتَّذكيرِ بأيَّامِ الله في قوله سبحانَه: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:5] ومِنْ أيَّامِ الله تعالىٰ أيامُ الميلادِ وأيَّام النَّصر، وأعظمها يوم ميلاد النَّبيِّ المصطفىٰ والحبيبِ المجتبَىٰ ﷺ؛ ولذلك كان النبيُّ ﷺ يَصومُ يومَ الإثنينِ من كل أسبوع شكرًا لله تعالَىٰ علىٰ نعمةِ إيجادِه واحتفالًا بيومِ ميلادِه كما سبق في حديث أبي قتادَة الأنصاريِّ في صحيح مُسلمٍ، كما كانَ يصومُ يومَ عاشوراءَ ويأمر بصيامِه شكرًا لله تعالىٰ وفرحًا واحتفالًا بنجاةِ سيِّدنا موسىٰ عليه السَّلام، وقد كرَّم الله تعالَىٰ يومَ الولادةِ في كتابِه وعَلىٰ لسان أنبيائِه فقال سبحانَه: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ [مريم:15]. وقال جلَّ شأنُه علىٰ لسانِ السيِّدِ المسيحِ عليه وعلىٰ نبيِّنا أفضل الصَّلاةِ وأزكىٰ التَّسليمِ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ [مريم: 33] وذلك أنَّ يوم الميلادِ حصلت فيه نِعمة الإيجادِ، وهي سببٌ لحصولِ كل نعمة تَنالُ الإنسانَ بعد ذلك، فما بالُنا بيوم ميلادِ المصطفىٰ ﷺ الذي هو سببٌ لكلِّ خيرٍ ونعمةٍ نالها في الدُّنيا والآخرة، فكان تذكُّرُه والتَّذكيرُ به من أعظمِ أبواب شُكر نعم الله تعالىٰ علىٰ النَّاسِ، ولا يقدحُ في هذه المشروعيَّة ما قد يحدُثُ في هذه المواسم الشَّريفةِ المباركةِ من أمور محرَّمةٍ؛ بل تُقامُ هذه المناسباتُ مع إنكارِ ما قد يَكتنفُها من منكراتٍ، وينبِّه أصحابُها إلىٰ مخالفةِ هذه المنكراتِ للقصدِ الأساس الذي أُقيمتْ من أجلِه هذه المناسباتُ الشَّريفةُ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

أمانة الفتوىٰ

2012/10/31م

الرد علىٰ شبهات المخالفين المتعلقة بهذِه القضيَّة

سوف نَعرضُ تحتَ هذا العنوانِ عدةَ نِقاطٍ متعلِّقةٍ بموضوع هذا البحث من جزئياتٍ مختلفةٍ موضحةٍ له، وما يعرض من شبهات المخالفينَ:

أ - رد قول المخالف بأن النبي ﷺ وصحابته لم يحتفلوا بمولده عليه السلام:

من أعظمِ النِّقاط التي يَعترضُ بها القائلونَ بعدم جوازِ الاحتفالِ أو الاحتفاءِ بمولد النبيِّ ﷺ ويقولون ببدعيَّة ذلك هو مسألة عدم فِعلِ النَّبيِّ ﷺ لذلك أو الصَّحابة الكِرام أو السَّلف الصَّالحِ، ولو غضضنَا الطَّرفَ عن الحديثِ الذي سَبَقَ وتَّمتِ الإشارةُ إليه من حيثُ كونُه هو المنطلَقَ في مشروعيَّةِ الاحتفال وهو حديث: «ذاكَ يومٌ وُلِدْتُ فيه» فلا يُمكنُ إثباتُ أنَّ الصَّحابةَ الكرامَ أو السَّلفَ الصَّالحَ لم يقع منهم الاحتفاءُ بذكرىٰ مولدِ النَّبيِّ ﷺ وذلك لتعدُّدِ صُورِ الاحتفاءِ والاهتمامِ من الفرحةِ القلبيَّةِ بهذا اليومِ أو زيادة الطَّاعاتِ والقُرُبات فيها بمُستوًىٰ فرديٍّ أو علىٰ مُستوَىٰ المجموعاتِ بحيثُ كان يوم ذِكرَىٰ مولدِ النَّبيِّ ﷺ عندهم ليسَ كباقي الأيَّامِ.

ولكن لنفرض عدمَ حُدوث ذلك؛ فهل عَدمُ فِعلِ الأمرِ في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ من قِبَلِ النَّبيِّ ﷺ أو الصَّحابةِ الكرام أو السَّلفِ الصَّالح يجعلُه مِنَ المحرَّماتِ أو البدع، وهنا نَعرِضُ لمسألةٍ تَعرَّضَ لها أهلُ العِلمِ وهي مسألة الفِعلِ والتَّرك فنقولُ: إنَّ من كلامِ أهل العِلمِ المحقِّقينَ أنَّ عدمَ الفعل لأمرٍ معيَّنٍ لا يُدخلُه أبدًا في دائرة البِدعةِ أو التَّحريمِ دُونَ أن يكونَ بجانب التَّركِ أدلةٌ أخرَىٰ، إذنْ الحكم بالحرمةِ أو البِدعةِ علىٰ فعلٍ معيَّنٍ له أسبابٌ أخرَىٰ غيرُ التَّركِ، ولنبحثْ هل تَرْكُ النبيِّ ﷺ يُنشئُ حكمًا؟ هل عَدمُ فِعلِ رسولِ الله ﷺ لأمرٍ معيَّنٍ يعني عدمَ جوازِ فعل هذا الأمرِ وبدعيتِه؟ وهل عدمُ فعل السَّلف الصَّالح لأمرٍ ما يجعله من البدع؟

فالجواب: لا؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ باستقراء سُنَّتِه الشَّريفة وتفاصيل حياتِه لم يفعل كلَّ المباحاتِ؛ إذ إنَّه لا يستطيعُ إنسانٌ أن يحصيها فضلًا عن أنْ يفعلَها بنفسه ويباشرَها، فعَدمُ الفعل في حدِّ ذاتِه لا يُضيفُ حُكمًا ببدعةٍ أو حُرمةٍ ما لم يُضفْ إلىٰ ذلك نصٌّ جليٌّ واضحٌ علىٰ أنَّ هذا الفعلَ المتروكَ محرمٌ أو بدعةٌ. كما أنَّه لا يوجدُ في القرآن أو السُّنةِ الشريفة قولًا يخبرنا أنَّ مجرَّدَ ترك النبي ﷺ للشَّيءِ يجعله محرَّمًا أو مكرُوهًا، فلكي يصبح الأمرُ محرَّمًا في الشَّريعة فإنه يكتسبُ هذه الصِّفةَ من وُرُودِ أحد الأمورِ بشأنِه من النَّهي أو لفظِ التَّحريم أو الذمِّ له أو التَّوعدِ عليه بالعقابِ أو دخوله تحت قاعدةٍ شرعيَّةٍ تقتضي تحريمَه أو قرينةٍ تدلُّ علىٰ التَّحريمِ، لكن مجرَّدُ تركِ النبيِّ ﷺ للفِعلِ بدونِ قرينةٍ فهذا لا يدلُّ علىٰ بدعيَّة أو حرمةِ ذلك الفعل ما لم يصحبْ ذلك التَّرك دليلٌ آخرُ؛ فقد قالَ الله تعالَىٰ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] فلم يقلْ سبحانه: وما تركه فانتهوا.

وانظر كذلكَ إلىٰ قول النَّبيِّ ﷺ: «ما نهيتُكمْ عنه فاجتنبُوه وما أمرتُكمْ به فافعلُوا منه ما استطعتمْ، فإنَّما أهلكَ الذينَ مِن قبلكُم كثرةُ مسائلِهم واختلافُهم علىٰ أنبيائِهم»[1]. فقد قال النَّبيُّ ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبُوه» ولم يقل: وما تركته فاجتنبوه. فكيفَ يدلُّ التركُ علىٰ التَّحريم؟!

فهذا هو فَهْمُ العلماء من سلفِ الأمَّةِ وأئمَّةِ علم الأصولِ والفِقهِ، فهم لم يذكروا في أدلَّة التحريم أن مجرَّدَ الترك يعطي حُكمًا شرعيًّا، بل إنهم نصُّوا علىٰ طُرقِ إثباتِ الحُكمِ الشَّرعيِّ بالوجوبِ أو النَّدب أو الإباحة أو الكراهة أو الحُرمةِ وهي:

أولًا: وُرودُ نصٍّ من كتابِ الله.

---

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنة، باب الاقتداء بسننِ رسول الله ﷺ (7288)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عمَّا لا ضرورةَ إليه أو لا يتعلق به تكليفٌ وما لا يقع ونحو ذلك (1337) من حديث أبي هريرة ﷺ، واللَّفظ لمسلم.

ثانيًا: ورود نصٍّ من سُنة رسول الله ﷺ.

ثالثًا: الإجماع على الحُكم من العلماء.

رابعًا: القياس. بجانبِ طُرق إثباتٍ أخرى للحُكم الشَّرعيِّ، والتي منها الحديث الضعيف، والحديث المرسل، وقول الصَّحابي، وسد الذَّرائع، وعمل أهل المدينة، والاستحسان، والمصالح المرسلة، والاستصحاب.

وفي كلِّ تلك المسالكِ السَّابقةِ وغيرِها الَّتي اعتبرَها العلماءُ طُرقًا لاستنباطِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ لم يكن مِنْ بينها التَّركُ وحدَه أبدًا، وعلى هذا الأمرِ لا يُمكنُ أن تأتيَ طائفةٌ وتزعم أن مجرَّدَ عدم فِعلِ رسولِ الله ﷺ لأمرٍ وتركِه له أو عدم فعل السَّلفِ الصَّالح يُدخلُه في مجال المحرَّمِ أو البدعة، فالتَّركُ لا يُفيدُ حُكمًا شرعيًّا بمُفردِه، وهذا محلُّ اتفاقٍ بين المسلمينَ.

وهذا القولُ هو الَّذي تدلُّ عليه سيرةُ الصَّحابةِ الكرامِ وسلفِنا الصَّالح رضوان الله عليهم جميعًا، فعند النظر في أحوالهم نجدُ أنَّهم قدِ استحدثوا قُرُباتٍ وأمورًا وأفعالًا وأعمالَ خيرٍ لم يفعلْها النَّبيُّ ﷺ لأن لها أصلًا شرعيًّا عامًّا أو خاصًّا تندرج تحتَه، ونحنُ إذا طبَّقْنا هذا المنهج على مسألة الاحتفالِ بذِكرَى سيد الكائنات ﷺ لوجدناها تندرجُ تحتَ العديد من الأصول الشرعيَّةِ التي تندبها وتؤكِّدها.

ب - النَّظرةُ للمَسائِلِ الاجتهاديَّة:

تماشيًا مع المخالفِ في هذه المسألةِ- مع عِظَمِ الخجلِ والحياءِ في جعلِ الاحتفالِ بمولد نبيِّنا ﷺ محلَّ اختلافٍ- مع شهادةِ الواقعِ بأنَّها من الأمور التي تلقَّتْها الأمةُ بالقبولِ واجتمعتْ عليها، فإننا نقرِّرُ أنَّ تلك القضيَّة من باب قوله ﷺ: ((ما رآه المسلمونَ حسنًا فهو عند الله حَسنٌ، وما رآه المُسلمونَ سيِّئًا فهو عند الله سيِّئٌ))[1]. فيجبُ علينا أن نضعَ

(1) أخرجه أحمد في مسنده (379/1)، والبزار في مسنده (1816)، والطبراني في الكبير (118/9)، والحاكم في

المسائِلَ في موضعها الصَّحيح، ولا نجعل المسائل التي تقعُ تحتَ محلِّ اختلافِ الآراء وتنوعِها وتحتملُ الاجتهادَ في الحكم عليها فنجعلُها من المسائلِ الأصوليَّةِ التي لا تحتملُ تنوُّعَ الآراءِ ونبني علىٰ هذا أحكام التَّبديعِ أو مخالفة الشَّريعةِ، في حين أننا نجد علماءَ الأمَّةِ وحملةَ الشَّريعةِ كلامُهم واضحٌ لا يحتاجُ إلىٰ بيانٍ في جوازِ الاحتفالِ بمولدِ سيِّدِ البشرِ ﷺ ومَشروعيَّةِ ذلك مع الالتزام بالضَّوابطِ الشرعيَّةِ في الأفعالِ والأقوالِ، ونجد في مقابِلِهم طائفةً زَعمتْ عدمَ جوازِ ذلك وبدعيَّته، فإذنْ فلماذا لا يَنظرُ مَنْ يخالفُ في هذا الأمرِ إلىٰ أنَّ تلكَ المسألة من المسائل التي يَسع فيها المسلم فيها أن يتَّبعَ مَن يشاءُ مِنْ أهلِ العلمِ خاصَّةً وأنَّ القائلينَ بالإباحةِ أو بالاستحبابِ هم جمهورُ علماء الأمة علىٰ مرِّ القرونِ، والقاعدةُ الفقهيَّةُ الشَّرعية تقول: «لا يُنكرُ المختلَفُ فِيه، وإنَّما يُنكرُ المجمَعُ عليْه»[1]. فلا إنكارَ في مسائِلِ الخِلافِ، ويجب أن يَعِيَ هذا الكلام جيدًا كلُّ مَن يتصدَّر لقضايا الدَّعوةِ في أيِّ وقتٍ ويَستصْحِبُ معه أقوالَ العلماءِ في جوازِ ذلكَ.

ج - الرد علىٰ احتجاجهم بوقوع بعض الأمور المنكرة في المولد:

من الأمورِ الَّتي يَحتجُّ بها القائلونَ ببدعيَّةِ الاحتفالِ بالمولد النبويِّ الشريف وقوعُ بعض الأمور المنكَرة كمظهرٍ من مظاهر الاحتفال بالمولد، وهي أمور تنشأُ من جهلِ النَّاسِ، وتكون في الاحتفال بمولدِ النَّبيِّ أو في غيرِه من المواسمِ الدِّينيةِ التي يكون فيها احتفالٌ، فيَستنتجُ المخالفونَ من ذلكَ القول ببدعيَّةِ الاحتفال، علىٰ أنَّه لا تلازُمَ بين هذه المظاهِرِ وبين الاحتفالِ بالمولد الشَّريف علىٰ الطريقة الصَّحيحةِ المرضيَّة في الشَّريعةِ.

وهذه المنكراتُ تقعُ في مواسمَ خيراتٍ كثيرةٍ وأوقاتٍ فاضلةٍ، ومن أمثلةِ ذلك أيام الأعيادِ وشهر رمضانَ وغير ذلك، فقدْ حَوَّلَ بعضُ النَّاس هذه المواسم الطَّيبة التي هي

مستدركه (3/ 78) من طريق عاصم عن زِر بن حبيش عن عبدالله بن مسعود به موقوفًا. وقال الحاكم: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(1) الأشباه والنظائر (158/1) تأليف: جلال الدين السيوطي- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولىٰ- 1990م.

محلُّ تنزل الرحماتِ إلىٰ أيام لهوٍ محرَّم وليالٍ مصحوبةٍ بالمُنكراتِ، والعيبُ هنا يكمُن في فَهم وتَطبيقِ بعض النَّاس لبعض الأفعال في هذه الأيام، ومن هنا يجبُ العملُ علىٰ توضيحِ معاني الاحتفالِ بالأعيادِ والاحتفال بمولدِ رسولِ الله ﷺ علىٰ الوجْهِ الشَّرعيِّ ومنع أي منكرٍ يُصاحبُ هذا الاحتفال، ولكن لا يُوجَدُ أحدٌ من العقلاءِ الذين يعلمونَ أصولَ الدِّينِ وفروعَه ينادي بمَنْعِ النَّاسِ من هذا الخير العميمِ في تلك الأيام بصُورِه المتنوِّعةِ لمجرَّد وقوع بعض المُنكراتِ من آخرينَ وإلَّا لزِمَ من ذلك أنْ نمنعَ كلَّ عيدٍ أو كل موسمِ خيرٍ، فالواجبُ علينا تعليمُ النَّاسِ كيف تحتفلُ لا منعُهم من الاحتفالِ نفسِه.

د - شبهة أن الاحتفال ابتداع عبادة، والعبادة توقيفية:

مِنَ الشُّبه الَّتي يتشدَّقُ بها المانعونَ للاحتفالِ بذكرَىٰ المولد النَّبويِّ الشَّريفِ شبهةُ أنَّه نوع عبادةٍ (بالمعنىٰ الاصطلاحيِّ) وأنَّ العباداتِ توقيفيَّةٌ، ويَبنونَ علىٰ ذلك أنَّه لا يَجوزُ الاحتفالُ بمولدِه ﷺ ويدخلونَه تحتَ بابِ بدعة الضَّلالة لأنَّه زيادةٌ في الدين، وهذه الشُّبهةُ مَردودٌ عليها بثلاثةِ أمورٍ:

أوَّلًا: أنَّه لم يقلْ أحدٌ من المُسلمينَ أنَّ الاحتفال بمولد النبي ﷺ يحتلُّ مكانةَ العبادةِ الَّتي تحتاجُ إلىٰ نصٍّ من الشَّرعِ، وإنَّما هو من بابِ الأعمالِ والقُرباتِ المُباحةِ والعاداتِ الطَّيبة التي تندرِجُ تحت أصلٍ عظيمٍ من أصولِ هذا الدِّينِ وهو محبَّةُ النَّبيِّ ﷺ، والذي يُبيحُ هذه الأعمالَ أو يمنعُها هو طبيعتُها؛ أي ألَّا لا يكونَ هناك ما يمنعُها من نصوصِ الشَّريعةِ، فالاحتفالُ في مضْمونه عبارةٌ عن وسيلةٍ من وسائِلِ الدَّعوةِ إلىٰ الله وتذكيرِ المسلمين بسيرةِ نبيِّهم ﷺ وشمائلِه وحياتِه وجهادِه في سبيل تبليغ دعوة الله تعالىٰ.

ثانيًا: أنَّ كلَّ عملٍ من أعمال الخير والبرِّ والقُرُباتِ في شريعةِ الإسلامِ لا يحتاجُ إلىٰ نصٍّ خاصٍّ به، فإنَّنا نجدُ أنَّ سلفَنا الصَّالحَ قد أحدثُوا أمورًا من فِعلِ الخيرِ والعاداتِ الحسنةِ ليس عليها نَصٌّ مُحدَّدٌ ولم يقلْ منهم أحدٌ إنَّ هذه الأفعالَ من العباداتِ تحتاجُ إلىٰ

نوعِ توقيفٍ، فلو طبق هذا المفهوم على أعمالِ الخيرِ والعاداتِ الحسنةِ لتمَّ تبديعُ الأمَّةِ كلها؛ إذْ ليسَ كلُّ فعلٍ أو عادةٍ حسنة لها نصٌّ وإنما تندرجُ تحتَ نصٍّ.

ثالثًا: ادِّعاءُ ذلك الأمرِ يُعبِّر عن تجهيلِ أهل العلمِ من المُحدِّثينَ والفقهاءِ والأصوليِّينَ الذي قالوا بمشروعيَّةِ الاحتفال بالمولدِ، فهَلْ جَهِلَ هؤلاء مفهومَ العبادةِ التَّوقيفيِّ الذي يريد هؤلاء المانعونَ إدخال الاحتفال تحتها حتى يتمكَّنُوا من القول ببدعيتِه؟!

هـ - تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال:

إذا كان الاحتفالُ بالمولدِ يدخل تحت البدعِ فإنه لزامًا علينا في زمننا هذا وما فيه من بُعد عن الدِّين والتفلُّت ومحاولة أصحاب التيارات الضَّالةِ من كافة الاتجاهاتِ النَّيلَ من الإسلام وأهلِه ورموزِه فإنَّه يجبُ علينا أن نستحضر قاعدةً هامَّةً في الشريعة وهي أنَّ الفعل قد يكون منهيًّا عنه ومحرمًا لكنَّ حكمَه يتغيَّرُ لظرفٍ طارئٍ أو حالٍ خاصٍّ، وهو ما قرَّره العلماءُ بتأصيلِ الأصل الذي يقولُ إنَّ الأحكام تتغير بتغيُّرِ الزَّمانِ، أو الظُّروف المحيطة بالحكمِ، أو الفعل المراد معرفة حكمِه؛ فقد رَوَى الطَّبرانيُّ بسندِه عن خالد بن سليمان ابن عبدالله بن خالد بن سماك بن خرشة عنْ أبيه عن جدِّه أنَّ أبا دجانةَ يوم أُحدٍ أعلم بعصابةٍ حمراء، فنظر إليه رسولُ الله ﷺ وهو مختالٌ في مِشيتِه بين الصَّفينِ، فقال: ((إنَّها مِشيةٌ يُبغضُها الله إلَّا في هذا الموضعِ))[1].

وكذلك حديث: ((وإنَّ مِنَ الخيلاءِ ما يُبغض الله ومنها ما يُحب الله؛ فأمَّا الخيلاءُ الَّتي يحب الله فاختيالُ الرجل نفسَه عند اللِّقاء))[2]. وقد قيل: ((الخضوعُ واجبٌ في كلِّ

(1) أخرجه الطبراني في الكبير (123/7) من طريق مسعدة بن سعد العطار المكي وأحمد بن إبراهيم بن عنبر البصري ثنا إبراهيم بن المنذر وثنا محمد بن عبدالله القرمطي من ولد عامر بن ربيعة ثنا عثمان بن يعقوب العثماني قالا: ثنا محمد بن طلحة التيمي عن خالد بن سليمان بن عبدالله بن خالد بن سماك بن خرشة عن أبيه عن جده أن أبا دُجانة به. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (157/6): ((رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه)).

(2) جزء من حديث أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في الخيلاء عند الحرب (2659)، والنسائي في كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة (2558)، وسعيد بن منصور في سننه (2548)، وأحمد في

حالٍ إلىٰ الله تعالَىٰ باطنًا وظاهرًا، فإذَا اتَّفقَ أنْ يُقامَ العبدُ في موطنٍ الأَوْلَىٰ فيه ظهورُ عزةِ الإيمانِ وجَبروتِه وعظمتِه لعِزِّ المؤمنِ وعظمتِه وجبروته ويَظهرُ في المؤمن من الأنفةِ والجبروت ما يناقض الخضوعَ والذِّلة؛ فالأولىٰ إظهارُ ما يقتضيه ذلك الموطن قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ الآية [آل عمران: 159].

وقال: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 73] فهذا من باب إظهارِ عزة الإيمان بعزة المؤمنِ، وقد سبق في الحديثِ أنَّ التَّبخترَ مِشيةٌ يبغضها الله إلَّا في المواطِنِ الَّتي يُحتاج فيها إلىٰ إظهار عزة المسلمين، فإذا علمتَ أنَّ للمواطن أحكامًا فافعل بمقتضاها تكن حكيمًا.

وما يُحيطُ بالمُسلمينَ اليومَ من أحوالٍ وظروفٍ وتربُّص واستهزاءٍ وجرأةٍ علىٰ مقام النبيِّ ﷺ من الكفَّارِ عن طريق رسومٍ مسيئةٍ أو مقالاتِ هجومٍ وتهكُّمٍ المرادُ منها إغاظةُ المسلمين ومشاهدةُ رَدِّ فعلهم تُجاه النَّيْلِ من مقدَّساتهم فهذا يجعل من الاحتفال بالمولد الشريف مناسبةً لردِّ ذلك الكيد، فالاحتفالُ بالمولدِ النَّبويِّ الشَّريفِ والمبالغةُ فيه علىٰ الوجه الشَّرعيِّ يَرُدُّ علىٰ الكافرين ويوقعُ الحسرةَ في نُفوسِهم ويُشعرهم أنَّ هذه الأمةَ لا تزال حيةً تعتزُّ بدينها ونبيِّها الكريم ﷺ وتوقِّرُه، وأن هذه الاحتفال يعبِّرُ عن مكانته الكبيرة التي في قلوبنا تجاهَه ﷺ. ◆

=

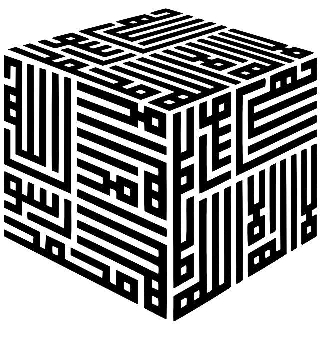
مسنده (5/445)، وابن حبان في صحيحه (295) من طريق محمد بن إبراهيم عن ابن جابر بن عتيك عن جابر بن عتيك به مرفوعًا.

الخاتمة

كانت الغايةُ من هذه الرِّسالة توضيح أن المرادَ منها أن تكون بابًا إلىٰ معرفةِ ومحبَّةِ وتوقيرِ سيِّدنا محمد ﷺ رسول الله، والتي تعتبرُ ذِكرَىٰ مولدِه الشَّريفِ في كلِّ عام مناسبة لهذا الهدفِ الكريمِ، فأحببنا أن نتكلَّم عن هذِه المسألةِ وما يتعلَّقُ بها من الأمورِ والأحكام حتَّىٰ يكونَ المُسلمُ علىٰ بيِّنةٍ من أمرِه فيما يتعلَّقُ بما يثار حولَ مشروعية الاحتفالِ من شُبُهاتٍ كل عامٍ، وقد حاولْنا أن نَصِلَ فيها إلىٰ نقاطٍ مشتركةٍ بيننا وبين المخالفِ عن طريقِ إبرازِ سَعةِ الشريعةِ واحتمالها لتنوُّعِ الآراء واختلافِ الاجتهاداتِ.

ولله الحمد والمنة علىٰ كل شيء.

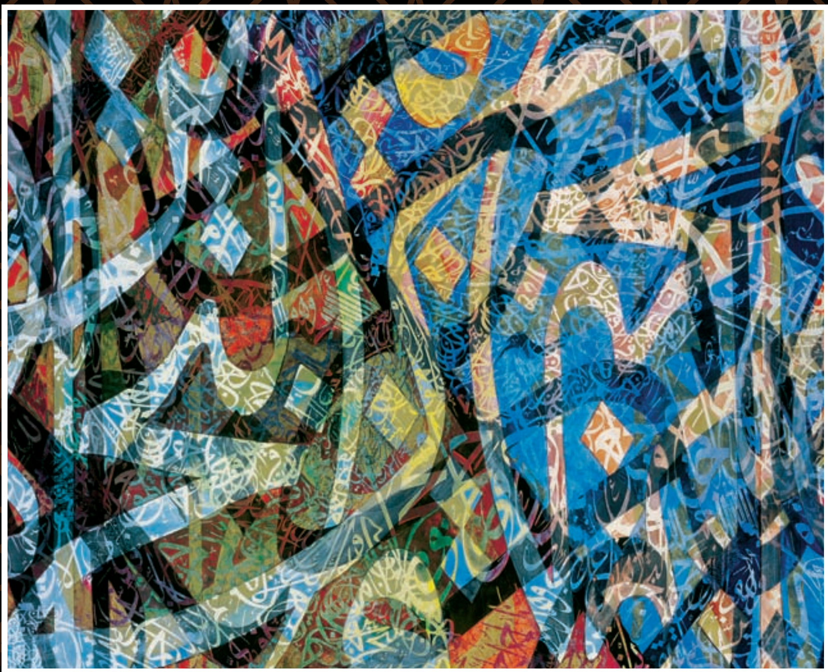
﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆



موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

إعداد الشيخ أشرف سعد الأزهري ومجموعة من الباحثين بدار الفُلك



تقديم وتقريظ بقلم فضيلة

الأستاذ الدكتور / أسامة السيِّد الأزهري

3

دار الفُلك
DAR ALFULK

موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

المجلَّد الثالث [3]

دار الفُلك
DAR ALFULK

موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

الطبعة الأولى 1439هـ - 2017م

رقم الإيداع بدار الكتب: 20452 / 2017

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-85342-6-9

هاتف: 01002296403 - 37624719 / 02

6 شارع الجامع – العجوزة – القاهرة – جمهورية مصر العربية

www.dar-alfulk.com

يرتكز تصميم الغلاف على تكوين "ثلاثية حيث يلتقي البحران"

المستلهم من الآيات 19-21 من سورة الرحمن،

مزج بين الألوان الزيتية والمائية على ورق خاص بتجهيز يدوي

190 × 153 سم، من إبداع الفنان: أحمد مصطفى © 2006

المجلَّد الثالث من الأجزاء الثلاثة

طبعته شركة صحارا بالمنطقة الحرة العامة – مدينة نصر – القاهرة

تصميم الغلاف والإخراج العام

مؤسسة فنون أحمد مصطفى (المملكة المتحدة) المحدودة / دار الفُلك بالقاهرة

موسوعة تصحيح المفاهيم والأفكار

في قضايا حارت فيها الأمة وفقًا لمنهج أهل السنة والجماعة

إعداد الشيخ / أشرف سعد الأزهري
ومجموعة من الباحثين بدار الفُلك

تقديم وتقريظ بقلم فضيلة
الأستاذ الدكتور / أسامة السيِّد الأزهري

دار الفُلك للتحقيق والنشر والتوزيع
القاهرة – جمهورية مصر العربية

المجلَّد الثالث [3]

دار الفُلك
DAR ALFULK

المُجلَّد الثالث
قـضـايـا فـكـريـة



« رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » – آية **17–18** من سورة الرحمن

القسم الثالث



« إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ » – آية 13 من سورة البروج

فهرس المحتويات



«...وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ» – آية **129** من سورة الأعراف

المُجلد الأول – قضايا فقهية وصوفية

الرسالة الأولىٰ

مدخل عام إلىٰ التعريف بالتصوف (وتشمل ثمانية محاور)................................ 25

الرسالة الثانية

التأصيل الشرعي لقضية التصوف في الكتاب والسنة (وتشمل خمسة محاور) 61

الرسالة الثالثة

دور التصوف في إصلاح الأفراد والمجتمعات الإسلامية (وتشمل عشرة محاور) 99

الرسالة الرابعة

دور التصوف في القضاء علىٰ البدعة والتحذير منها (وتشمل ثلاثة محاور)............... 123

الرسالة الخامسة

التصوف ودعاوىٰ الشطح بين الفهم الشرعي والمغالطات (وتشمل أربعة محاور)......... 139

الرسالة السادسة

معالم المنهج الصوفي في التربية الروحية والإصلاحية (وتشمل سبعة محاور)............... 165

الرسالة السابعة

علاقة الشيخ والمريد في المفهوم الصوفي الشرعي (وتشمل أربعة محاور) 191

الرسالة الثامنة

التأصيل لقضية العهد الصوفي وأدلته الشرعية (وتشمل عشرة محاور) 219

الرسالة التاسعة

نظرة التصوف إلىٰ حقيقة الجهاد في سبيل الله (وتشمل ثلاثة محاور).................... 249

الرسالة العاشرة

المحبة ومراتبها عند السادة الصوفية (وتشمل ستة محاور) 281

الرسالة الحادية عشرة

دور الذكر في ترقية النفس عند الصوفية (وتشمل خمسة محاور) 303

الرسالة الثانية عشرة

التوكل علىٰ الله في ضوء المنهج الصوفي (وتشمل سبعة محاور)............................ 329

الرسالة الثالثة عشرة

وصايا العارفين والأولياء من أهل التصوف 353

الرسالة الرابعة عشرة

مقام النبي ﷺ بين قلوب المحبين وعقول الجفاة (وتشمل سبعة محاور) 375

الرسالة الخامسة عشرة

رؤية النبي ﷺ في المنام واليقظة نظرة تأصيلية شرعية (وتشمل سبعة محاور) 417

الرسالة السادسة عشرة

محبة آل بيت النبي ﷺ بين الوسطية والغلو (وتشمل سبعة محاور)...................... 491

المُجلد الثاني – قضايا عقائدية

الرسالة السابعة عشرة

أصول عقيدة أهل السنة والجماعة (وتشمل ستة محاور)...................................... 15

الرسالة الثامنة عشرة

نظرة تأصيلية إلىٰ بدعة التقسيم الثلاثي للتوحيد (وتشمل سبعة محاور) 75

الرسالة التاسعة عشرة

مرجعية المذاهب وحكم التقليد ومفهومه الصحيح (وتشمل خمسة محاور) 125

الرسالة العشرون

حجية الحديث الضعيف والعمل به عند الأصوليين والفقهاء (وتشمل خمسة محاور) 151

الرسالة الحادية والعشرون

مفهوم البدعة في واقعنا المعاصر بين المنهج الوسطي والغلو (وتشمل ستة محاور) 221

الرسالة الثانية والعشرون

الاستدلال الشرعي علىٰ جواز الاجتماع علىٰ الذكر والجهر به (وتشمل خمسة محاور) 251

الرسالة الثالثة والعشرون

التأصيل الشرعي لقضية وصول ثواب الأعمال الصالحة إلىٰ الأموات (وتشمل أربعة محاور) 295

الرسالة الرابعة والعشرون

مشروعية الصلاة في المساجد ذات الأضرحة (وتشمل ثلاثة محاور)...................... 359

الرسالة الخامسة والعشرون: مشروعية التوسل

وأدلة استحبابه من الكتاب والسنة وأقوال أهل السنة (وتشمل ستة محاور) 383

الرسالة السادسة والعشرون

كرامات الأولياء والصالحين رؤية تأصيلية شرعية (وتشمل ستة محاور)................. 429

الرسالة السابعة والعشرون

استحباب التبرك بآثار رسول الله ﷺ وآثار الصالحين (وتشمل أربعة محاور) 459

الرسالة الثامنة والعشرون

مشروعية السبحة وأدلة جواز استعمالها (وتشمل ثلاثة محاور).......................... 487

الرسالة التاسعة والعشرون

مناقشات وردود حول قضية شد الرحال لزيارة خير الأنام (وتشمل خمسة محاور) 497

الرسالة الثلاثون

نظرة إلى قضية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بين المحبين والجفاة (وتشمل أربعة محاور) 559

المُجلد الثالث – قضايا فكرية

الرسالة الحادية والثلاثون: **نشأة فكر التكفير في المجتمعات الإسلامية** 15

تمهيد في بيان خطورة فكر التكفير 18

المحور الأول: أثر ابن تيمية في تأصيل فكر التكفير 20

المحور الثاني: تغلغل فكر التكفير عند الحركات المتطرفة المعاصرة................. 40

المحور الثالث: التَّكفير في فكر الجماعات السَّلفية................................. 56

المحور الرابع: مظاهر التكفير والضلال عند الخوارج 62

المحور الخامس: نقد الفكر التَّكفيري 75

الرسالة الثانية والثلاثون: فكر الخوارج وأثره في إضعاف ووهن الأمة الإسلامية................. 85

المحور الأول: مفهوم مصطلح الخوارج من خلال أحاديث النبي ﷺ 89

المحور الثاني: أقوال أهل العلم في ذم الخوارج 97

المحور الثالث: بداية ظهور الخوارج في أمة الإسلام 101

المحور الرابع: الفتنة الحاصلة من خوارج العصر الحديث.............................. 113

الرسالة الثالثة والثلاثون: بطلان دعوى جاهلية المجتمع الإسلامي في العصر الحديث 131

المحور الأول: نظرة على الواقع المعاصر للأمة الإسلامية 133

المحور الثاني: خطورة فكرة الجاهلية التي دعا لها سيد قطب.......................... 138

المحور الثالث: الأفكار التي قامت على مقولة الجاهلية في العصر الحديث.......... 141

المحور الرابع: أفكار من الواقع تتعلق بالجاهلية.................................. 161

الرسالة الرابعة والثلاثون: عدم مشروعية الانتماء للجماعات الإرهابية المعاصرة......................... 169

المحور الأول: الواقع المعاصر الداعي لظهور تلك الجماعات 173

المحور الثاني: حقيقة تلك الجماعات والتنظيمات................................. 177

المحور الثالث: مفهوم الجماعة في الشريعة الإسلامية.............................. 190

المحور الرابع: كيفية ثبوت عقد الإسلام للأشخاص.................................. 197

المحور الخامس: أقوال أهل العلم في تكوين الجماعات و إحداث الفرقة بين المسلمين ... 202

المحور السادس: المظاهر السلبية الفكرية للتنظيمات والجماعات 206

المحور السابع: التنظيمات في ميزان الشريعة 216

الرسالة الخامسة والثلاثون: الإمارة في فكر الجماعات الإرهابية في العصر الحديث 229

المحور الأول: مقدمة عن الإمارة والقيادة في الإسلام................................ 232

المحور الثاني: الإمارة في فكر الإخوان المسلمين 238

المحور الثالث: الإمارة في فكر الجماعة الإسلامية 256

المحور الرابع: الإمارة في فكر جماعة الجهاد الإسلامي................................ 260

المحور الخامس: الإمارة في فكر حزب التحرير.. 263

المحور السادس: الإمارة في فكر الجماعات السلفية.................................. 264

المحور السابع: الإمارة في فكر تنظيم القاعدة.. 267

الرسالة السادسة والثلاثون: التمكين بين نصوص القرآن وفهم جماعات الخوارج........... 273

المحور الأول: حول مفهوم التمكين وتعريفه 277

المحور الثاني: فكرة التمكين عند جماعة الإخوان المسلمين 279

المحور الثالث: التمكين في فكر الجماعات السلفية 292

المحور الرابع: التمكين عند الأحزاب السياسية ذات المرجعية الدينية 298

المحور الخامس: نظرة الشريعة الإسلامية إلى قضية التمكين.......................... 300

الرسالة السابعة والثلاثون: الرد على شبهة انتشار الإسلام بالسيف 311

المحور الأول: توطئة أصولية ينبني عليها ما بعدها 318

المحور الثاني: إطلالة على مصطلح «الجهاد» بين الفقه التراثي والمعاصر 321

المحور الثالث: الجهاد في القرآن الكريم والسنة النبوية.................................... 326

المحور الرابع: مفهوم الجهاد بين الغاية والوسيلة.. 339

المحور الخامس: أهداف ومقاصد الجهاد في التشريع الإسلامي........................ 351

المحور السادس: التقسيم الفقهي للعالم «دار الإسلام ودار الكفر» 360

المحور السابع: مناط تشريع الجهاد القتالي في الإسلام شبهات وردود 367

المحور الثامن: السلم والدعوة هما مناط العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية......... 382

المحور التاسع: شبهة انتشار الإسلام بالسيف والرد عليها 387

الرسالة الثامنة والثلاثون: الحاكمية وعلاقتها بالتَّكفير عند الجماعات المُتطرِّفة 395

المحور الأول: صحوة الأمة بين الحقيقة والخيـال 398

المحور الثاني: تمهيد في بيان مصطلح الحاكمية 402

المحور الثالث: الملامح الفكرية لمصطلح الحاكميَّة في العصر الحديث 405

المحور الرابع: الفهم الصحيح لقضية تحكيم الشريعة....................................... 422

الرسالة التاسعة والثلاثون: مبدأ الاستعلاء في منهج الجماعات التكفيرية.................. 439

المحور الأول: المساواة بين الناس والتواضع هما سمة الشريعة الإسلامية، وهدي النبي ﷺ.. 443

المحور الثاني: نحو فهم صحيح لمصطلح استعلاء الإيمان، والفرق بين الاعتزاز بالإيمانِ والاستعلاء على الغير 446

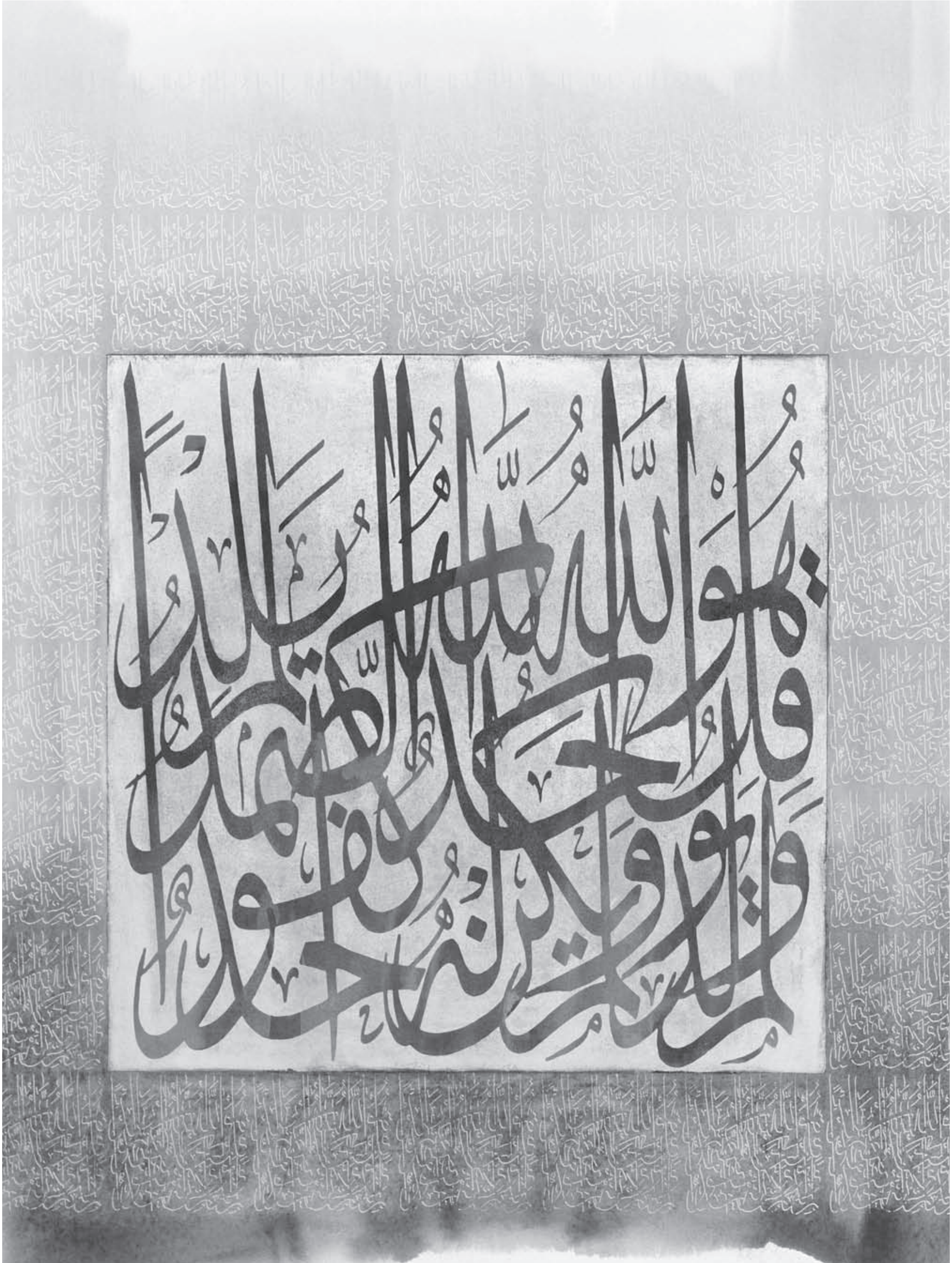
المحور الثالث: الدعوة للدين بين المراد الإلهي والمصالح الذاتية........................ 448

المحور الرابع: الاستعلاءُ في منهج الإخوان من خلالِ أدبيات قادة هذه الجماعة .. 450

الاستعلاء في فكر حسن البنا 452

الاستعلاء في فكر سيد قطب... 460

المحور الخامس: الآثار العملية لتأصيل هذا المبدأ في منهج هذه الجماعات......... 465



«قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ» - آية **1–4** من سورة الإخلاص

الرسالة الحادية والثلاثون
نشأة فكر التكفير في المجتمعات الإسلامية

وتشمل تمهيدًا وخمسة محاور:

تمهيد في بيان خطورة فِكر التَّكفير.

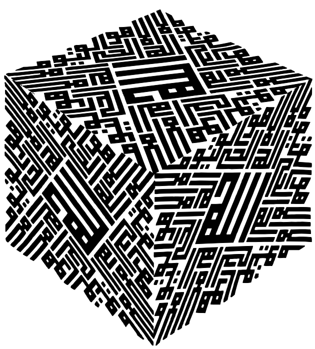
المحور الأوَّل: أثر أفكار وأقوال ابنِ تيميَّةَ في تأصيل فِكْرِ التَّكفير.

المحور الثاني: تغلغل فكر التكفير عند الحركات المتطرفة المعاصرة.

المحور الثالث: التكفير في فكر الجماعات السَّلفية.

المحور الرابع: مظاهرُ التَّكفيرِ والضَّلالِ عندَ الخوارجِ.

المحور الخامس: نقدُ الفكر التَّكفيري. ◆





قال صلَّىٰ الله عليهِ وسَلَّم: قيِّدوا العِلْـمَ بالـكتاب.

نشأة فكر التكفير في المجتمعات الإسلامية

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا مبحثٌ يتناول شجرةً خبيثةً نَمَت في أرض بلاد الإسلام، وظهرت ثمارُها المُرَّةُ في حياةِ المسلمين خاصَّةً في هذه السَّنوات الأخيرةِ، هذه الشَّجرةُ هي الفِكر التَّكفيريُّ الذي انتشر عند طوائفَ من المسلمين اليوم في جميع البلادِ الإسلاميَّة وغير الإسلاميَّة، وما نتجَ عن انتشار هذا الفِكر القاتلِ من مظاهر الفسادِ والإفساد في الحياة، وتخريبِ عقولِ وقلوبِ المسلمين عامَّةً والشَّبابِ المسلمِ خاصَّةً، والإساءةِ إلى ديننا الحنيف، وتصويرِه بصورةٍ همجيَّةٍ دمويَّةٍ صِدَاميَّةٍ.

وسوف تكون طريقتُنا في هذا البحث اليسير هي رصدُ هذِه الفكرة الشَّيطانيةِ من حيث نشأتُها وتطوُّرها، ومظاهرُ وجودِها في المصنَّفات العِلْميَّةِ، وأثرُ ذلك على الواقعِ العمليِّ في الحياةِ الإسلاميَّة وصولًا إلى واقِعنا المعاصرِ في هذه الأيَّام وما يَحدُث فيها، وسوفَ تكونُ مظاهرُ هذا الرَّصدِ متمثِّلةً في تمهيد وخمسة محاور، وهي على النحو التالي:

تمهيد في بيان خطورة فِكر التَّكفير.

المحور الأوَّل: أثر أفكار وأقوال ابنِ تيميَّةَ في تأصيل فِكْرِ التَّكفير.

المحور الثاني: تغلغل فكر التكفير عند الحركات الإسلاميَّة المعاصرة.

المحور الثالث: التكفير في فكر الجماعات السَّلفية.

المحور الرابع: مظاهرُ التَّكفيرِ والضَّلالِ عندَ الخوارجِ.

المحور الخامس: نقدُ الفكر التَّكفيري. ◆

تمهيد في بيان خطورة فِكر التَّكفير

إنَّ الذي يَنظر عبرَ العُصورِ والتَّاريخ وعلىٰ مرِّ السِّنين والأيَّام يَجِد أنَّ كلَّ نشَاطٍ بشَريٍّ أو سلوكٍ أو قولٍ أو فِعلٍ مهما صَغُر أو كبُر كان منشؤُه ومبتدأ أمرِه فِكرةً تتولَّد في العقولِ ثمَّ تختمرُ وتنمو، ثمَّ تخرج علىٰ اللِّسانِ، ثمَّ تُترجمُ إلىٰ أفعالٍ، ولا يتخلَّف عن هذِهِ المقولةِ شيءٌ إلَّا ردودُ الأفعالِ عند الكائن الحيِّ من إنسانٍ أو حيوانٍ عند تعرُّضه للخطرِ أو المواقفِ المفاجئةِ أو ما شابَه ذلك، أمَّا فيما عدا ذلك فالسُّلوك والقولُ والنَّشاطُ الإنسانيُّ مبدؤُه فكرةٌ، سواءٌ كانت هذه الفكرةُ حسنةً أم سيئةً.

وفي بحثِنا هذا نجدُ أنَّ فِكرةَ التَّكفير خطرٌ يُهدِّدُ الفردَ والمجتمعَ؛ ذلك لأنَّ انتهاجَ منهجِ رمي النَّاسِ والمجتمعاتِ بتُهمةِ الكُفر والخروجِ عن دِين الله يكون بناءً علىٰ أفكارٍ وأصولٍ محدَّدةٍ عند مَن يقوم بذلك الفعل، وخطورةُ هذه الفكرةِ هي تبنيها كَمنهجٍ يَزعُم أصحابه أنَّه شَرعيٌّ من عندِ الله، ويتجلَّىٰ ضررُ هذه الفكرةِ الشَّيطانيَّة عندما نجدُ هؤلاءِ قد خصُّوا أنفسَهم بمهمَّة الحُكم علىٰ النَّاسِ والمجتمعاتِ بالإيمانِ أو بالكفرِ، وبالدُّخول في دِين الإسلام أو الخروجِ منه، فنصَّبوا أنفسَهم حكمًا علىٰ غيرهم في أمور دينِهم ودُنياهم أيضًا، حتَّىٰ ظنُّوا أنَّهم أصحابُ الحقِّ المُطلَق في الحُكم علىٰ عقائد الآخرين، بل ومحاسبتهم علىٰ نيَّاتهم وما تُخفي صدورُهم التي لا يعلمها إلا الله، بل وتجاوزوا كلَّ الحدودِ حتَّىٰ استباحوا دماءَ وأموالَ وأعراضَ كلِّ مَن يخالفُهم، والخطرُ أنَّهم يظنُّون أنَّ ما يفعلونَه جهادٌ في سبيل الله، و مَنشأ هذا كله تبنِّي فِكرةَ التَّكفيرِ الخبيثةِ.

ولو بحثنَا في تاريخِ البشريَّةِ لوجدْنا أنَّ صاحبَ أيِّ فكرةٍ أو خلافٍ يُمكن أن تلتقي معه عند نقطةٍ أو أخرىٰ من نقاطِ الالتقاءِ والتَّفاهم إلَّا مَن يرمي المسلمين بالكفرِ، فليس هناك من سبيلٍ إلىٰ الالتقاءِ معه لا فكريًّا ولا عمليًّا، كيف وقد حكَم علىٰ النَّاس والمجتمعاتِ بالرِّدَّة والكُفر؟! وهل هناك لقاءٌ أو تعايشٌ أو تفاهمٌ بين مَن يُمثِّل الإيمانَ والدِّينَ والشَّريعةَ وبين مَن خرَج عن الدِّين في نظرِه؟! بالطبع لا، فليس هناك أخطر من

أن يُرمىٰ إنسانٌ أو مجتمعٌ بالرِّدَّةِ والكُفر؛ لأنَّه يكون قد فقَد الحصانةَ الطَّبيعيةَ التي كفَلَتها الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ له من عصمةِ دمٍ ومالٍ وعِرْضٍ ونظامِ حياةٍ، فيَسهلُ عندَ مَن يحكم عليهِ بالكُفر أنْ يستحلَّ ضِدَّهُ كلَّ الأفعال من سَفْكِ دمٍ أو اغتصابِ مالٍ أو سَبي نساءٍ، كلُّ هذا ويزعمُ أنَّه يَتقرَّب إلىٰ الله بتلكَ الأفعالِ.

ونحن هنا لا نتكلَّم عن نظرياتٍ أو أوهامٍ لم تحدث وليس لها وجودٌ، إنَّما نتكلَّم عن واقعٍ مريرٍ تعيشُه أُمَّةُ الإسلامِ في السَّنواتِ الأخيرةِ واكتَوت بنارِه، وعانَت منه كثيرٌ من بُلدان المسلمينَ بسَبب هذا الفِكْر السَّرطانيِّ الذي ما إنْ يُصيبَ أُمَّةً أو مجتمعًا إلا ويُوردها المهالكَ فيشُقَّ صفَّها، ويُفرِّقَ وحدَتَها، ويُريقَ دمَاءَها.

ونحن هنا في هذِه الرِّسالةِ نحاول أنْ نُلقي الضوءَ علىٰ مَنابع هذا الفِكر الأسود، وكيف تسرَّبَ إلىٰ عُقول أبناءِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ، بداية من بداية تأصيل هذا الفكر عند ابن تيمية وتشبع الجماعات المعاصرة بأفكاره، مع محاولة للتعرُّض لموقف الجانبِ الشَّرعيِّ من هذا الفِكر والسُّلوكِ الضَّالِّ. ◆

أثر أفكار وأقوال ابنِ تيميَّةَ في تأصيل فِكْرِ التَّكفير

يُعدُّ أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسَّلام ابن تيميَّةَ الحنبلي (661/728هـ) (1263/1328م) من أصحاب الأسماءِ البارزة في مجال ظهور مدرسة التَّكفير- إنْ صحَّ التعبير- والتي كانت لأفكاره وآرائِه وفتاويه اليدُ الطُّولىٰ في انتشار فِكر التَّكفير عند طوائفَ من المسلمين في العصر الحديث بطريقٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشرٍ، وهنا نحن نحاول أن نلقيَ الضَّوءَ علىٰ ملامح فِكر ابن تيميَّةَ ومنهجِه وكلامِه فيما يتعلَّق بإطلاق أحكامِ التَّكفير في حقِّ طوائفِ المسلمين وأهلِ السُّنَّة والجماعةِ؛ بل وعلمائِهم في بعض الأحيانِ، ومن المهمِّ أنْ نلاحظَ عِدَّةَ أمورٍ عند الحديث عن أثر منهجِ ابن تيميَّةَ في المسائل العلميَّةِ بشكل عامٍّ وفي مسائل التَّكفيرِ بشكل خاصٍّ من حيث التأثير في عامَّة المسلمين وبخاصَّةٍ في الشَّباب، وهذه الأمور علىٰ النحو التالي:-

1- الشُّهرة الواسعة التي حاز عليها ابنُ تيميَّةَ في العصر الحديثِ كمرجعيَّةٍ لطوائفَ كثيرةٍ من المسلمين، خاصَّة ما يُعرف بالجماعات السَّلفيَّة ومَن يأخذ بمنهجهم، والذين اختصُّوا ابنَ تيميَّةَ بلقب شيخ الإسلام، فحينما يُطلقون لقب شيخ الإسلام يُراد به عندهم ابن تيميَّةَ وليس أحد غيره، هذه الشُّهرة التي تولَّدت من إعادة بعث ونشر كُتب ابن تيميَّةَ علىٰ نطاقٍ واسعٍ، وذلك في مطلع القرن العشرين في بعض الدول الإسلامية، وما تبع ذلك من انتشار هالةٍ كبيرةٍ حول عِلْم ابن تيميَّةَ ومنزلتِه، فانتشرت آراؤه وأفكارُه وفتاويه علىٰ أنَّها التعبير الحقيقي لمنهج أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في مقابل مناهج أهلِ البدع والضَّلال بمختلف فرقهم، فبمجرد أنْ يكتب في كتاب أو ينشر في فتوىٰ أو يقول داعية: قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ في هذه المسألة كذا وكذا... فإنَّه يُعدُّ القول الفَصل فيها ويصبح مقدسًا في نظر هؤلاء، فعنه يصدرون وبه يعملون، بل وصل بهم الحالُ إلىٰ تقديم رأي ابنِ تيميَّةَ في المسائل التي خالف فيها فقهاءَ المذاهبِ الأربعةِ مجتمعين.

وهؤلاء قد يكون لهم العذر لو لم يكن في الأُمة الإسلامية مَن يَعْدِلُ ابنَ تيميَّةَ، في حين أننا نجد في كتب التَّراجم والطَّبقات تراجِم العلماء الرَّبَّانيين الذين يفوقون ابنَ تيميَّةَ علمًا وتصنيفًا، قدَّموا للأمة الإسلامية مئات الكتب النَّفيسة التي ما تزال حبيسةً في خزائن المخطوطات، وهؤلاء لو قُيِّض لهم مَن ينشر كُتُبَهم وسيرَتَهم وعِلمَهم لتبيَّن لكلِّ مُنصفٍ أنَّهم أولىٰ وأجدرُ بلقب شيخ الإسلام.

2- نلاحظ أيضًا: التناقض الواضح في كثير من كلام ابن تيميَّةَ في مسألة التَّكفير، فتجد أن ابن تيميَّةَ في بعض المصنَّفات يُحذِّر مِنَ التَّكفير والوقوعِ فيه، ويضع لذلك الضوابطَ بحيث يُخيِّل للقارئ أنَّه أبعدُ النَّاسِ عن التَّكفير، ثم في مصنَّفاتٍ أخرىٰ يستخدم ألفاظَ التَّكفير والتَّبديعِ والضَّلالِ والتَّفسيقِ لوصف طوائفَ من المسلمين، بل ورمي العلماء بذلك؛ ولذلك تجد أنَّ مَن يستقي منهجه من خلال كتب ابن تيميَّةَ يمكن أن يستدلَّ لك علىٰ أنه لا يُقدم علىٰ التَّكفير، وإذا أراد أن يجد سبيلًا لتكفير مخالفِه في قولٍ أو مذهبٍ فإنَّه يستطيع أنْ يجدَ ذلك بسهولةٍ في كلام ابن تيميَّةَ أيضًا.

3- وجود كثيرٍ من الأحكام المطلَقة في كلام ابنِ تيميَّةَ عند الحديث عن الإجماعات ومذهبِ الصَّحابة والسَّلف، وعند مراجعة أقوال أهل العِلْمِ في ذلك الأمر نجد كثيرًا من الاختلاف بين ما يزعم ابنُ تيميَّةَ أنَّه إجماعٌ أو مذهب السَّلف الصَّالح وبين حقيقة الأمر في الواقع.

4- قد لا يكون التَّكفير عند ابن تيميَّةَ واضحًا بصريح اللَّفظ ولكنَّه يتضح بدلالة اللُّزوم من الأحكام التي يُطلقها في المسألة أو الفتوىٰ. وإليك نماذج من صور التَّكفير والتَّضليل والحُكم بالرِّدَّة من كلام ابن تيميَّةَ:

أ - موقفُه من أئمَّة أهلِ السُّنَّة الأشاعرةِ:

تدور كلماتُ وفتاوىٰ ابنِ تيميَّةَ في باب الاعتقاد خاصةً في باب الأسماء والصِّفات بالتَّصريح بضلال الأشاعرةِ في هذا الباب، وغمزهم ولمزهم بأنَّهم جهميَّةٌ نفاةٌ لصفات الله سبحانه وتعالىٰ فيقول في مجموع الفتاوىٰ: ((ومَن قال: الظَّاهر غير مرادٍ- بالتَّفسير الثاني، وهو مراد الجهميَّة ومَن تبعهم من المعتزلة وبعضِ الأشعريَّة وغيرِهم- فقد أخطأ. ثم أقرب هؤلاء- الجهميَّة الأشعريَّة- يقولون: إنَّ له صفاتٍ سبعًا: الحياة، والعِلْم، والقدرة، والإرادة، والكلامِ، والسَّمع، والبصر. وينفون ما عداها وفيهم مَن يضم إلىٰ ذلك ((اليد)) فقط، ومنهم مَن يتوقَّف في نفي ما سواها، وغلاتُهم يقطعون بنفي ما سواها. وأمَّا المعتزلة فإنَّهم ينفون الصِّفات مطلقًا ويُثبتون أحكامَها، وهي ترجع عندَ أكثرِهم إلىٰ أنَّه عليمٌ قديرٌ، وأمَّا كونُه مريدًا مُتكلِّمًا فعندهم أنَّها صفاتٌ حادثةٌ أو إضافيَّةٌ أو عدميَّةٌ. وهم أقرب النَّاسِ إلىٰ الصَّابئينَ الفلاسفة من الرُّوم ومَن سلك سبيلَهم منَ العرب والفُرس، حيث زعموا أنَّ الصِّفات كلَّها ترجع إلىٰ سَلْبٍ أو إضافةٍ، أو مركبٍ من سَلْبٍ و إضافةٍ، فهؤلاء كلُّهم ضُلَّالٌ مكذِّبون للرُّسل، ومَنْ رَزقَه الله معرفةَ ما جاءت به الرُّسل وبصرًا نافذًا وعرف حقيقة مأخذ هؤلاء عَلِمَ قطعًا أنَّهم يُلحدون في أسمائِه وآياته، وأنَّهم كذَّبوا بالرُّسل وبالكتابِ وبما أرسل به رسلَه؛ ولهذا كانوا يقولون: إنَّ البدعَ مشتقَّةٌ من الكُفْرِ وآيلةٌ إليه، ويقولون: إنَّ المعتزلةَ مخانيثُ الفلاسفة والأشعريَّة مخانيث المعتزلة. وكان يحيىٰ بن عمَّارٍ يقول: المعتزلةُ الجهميَّةُ الذُّكور، والأشعريَّة الجهمية الإناث. ومرادُهم الأشعرية الذين ينفون الصِّفات الخبريَّةَ، وأمَّا مَن قال منهم بكتاب ((الإبانة)) الذي صنَّفه الأشعريُّ في آخر عُمُرِه ولم يظهر مقالةً تناقض ذلك فهذا يعد من أهل السنة؛ لكن مجرَّد الانتساب إلىٰ الأشعري بدعةٌ))[1]. اهـ.

---

(1) مجموع الفتاوىٰ (358/6) جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمَّد بن قاسم- طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة المنورة- 2004م.

فهنا يتعرَّض ابن تيميَّةَ إلىٰ طائفتيْن من طوائف علماء المسلمين؛ وهما طائفة المعتزلة وطائفة الأشاعرة، ويصف المعتزلة بأنَّهم أقربُ النَّاسِ إلىٰ طائفة الفلاسفةِ الصَّابئة. مع ما لهذه الطَّائفةِ من جهود في الردِّ علىٰ الفلاسفة ونَصْرٍ للدِّين، ومحاولة إثبات عقائدِ الإسلامِ من الجانب العقليِّ كردٍّ علىٰ هجمات الفلاسفة، ويصفهم بأنَّهم ضُلَّالٌ مكذِّبون للرسل وللكُتب، وأنهم أهلُ إلحادٍ في أسماء الله وآياته[1]، ثم ينقل وصف علماء الأشاعرة بأنَّهم الجهميَّة الإناث، فيُلحقهم بأتباع جَهْم بنِ صفوان أحد أئمَّة المبتدعة في العقائد القائلين بنفي صفاتِ الله سبحانه وتعالىٰ، والقائلين بالجَبر وفناء الجنَّة والنَّار، وأنَّ عِلْمَ الله مُحدَثٌ[2].

ب - كلام ابن تيميَّةَ عن الإمام الرازي:

«أبو عبدالله الرَّازي: فيه تجهُّم قويٌّ؛ ولهذا يُوجد ميلُه إلىٰ الدَّهرية أكثر من ميلِه إلىٰ السَّلفية، الذين يقولون: إنه فوق العرش، وربَّما كان يوالي أولئكَ أكثرَ من هؤلاءِ، ويعادي هؤلاءِ أكثرَ من أولئكَ؛ مع اتِّفاق المسلمين علىٰ أنَّ الدَّهرية كفارٌ، وأنَّ المثبتةَ للعلوِّ فيهم من خيار المسلمين مَن لا يُحصيه إلَّا الله تعالىٰ، وقد صنَّف علىٰ مذهب الدَّهريَّةِ- المشركينَ والصَّابئين- كُتُبًا حتَّىٰ قد صنَّف في السِّحر، وعبادة الأصنام- وهو الجِبْت والطَّاغوت- وإنْ كان قد أسلم من هذا الشِّركِ وتاب من هذه الأمور، فهذه الموالاةُ والمعاداة لعلَّها في تلك الأوقاتِ، ومَن كان بتلكَ الأحوالِ، فهو قبلَ الإسلامِ والتَّوبةِ، ومَن فعل هذا كان له نصيبٌ من قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء:51] إلىٰ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

---

(1) مع الوضع في الاعتبار ما علىٰ هذه الطائفة من المآخذ الكثيرة والتي أوضحت علماء أهل السنة عدم صحة مذهبهم فيها.

(2) انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (279/1).

أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء:60-61] إلىٰ آخر الآياتِ.

يقرر ذلك: أنه احتجَّ في مقدمة هذا العِلْم الشَّريف بكلام أرسطو مُعلِّم المشائين من الدَّهريَّةِ، ولم يكن عنده من آثار الأنبياء والمرسلين ما يُقدِّمه علىٰ كلام الدَّهرية، واحتجَّ أيضًا بما نقلَه عن أبي مَعْشَر البَلْخي المُنجِّم- وهو من أتباع الصَّابئين، بل كان تارةً من المشركينَ- عُبَّاد الشَّمس والقمرِ- وعَبَدَ القمرَ مُدَّةً، كما أخبرَ بذلك عن نفسِه، وصنَّف ما صنَّف في ذلك، وجواب الدَّهرية: أنه قبل العالَم وما فيه من الزَّمان، وقولهم: والعلم الضَّروري حاصلٌ بأنَّ هذه القَبْلِيَّةَ لا تكون إلا بالزَّمان والمدَّة))[1].

جـ - ويقول ابن تيميَّةَ عن الإمام الجُويني، وابنِ العربي المالكيِّ، وحُجَّةِ الإسلام الغزاليِّ، والإمامِ الباقلَّاني:

((وأمَّا هذا القانون الذي وضعوه فقد سبقهم إليه طائفةٌ؛ منهم أبو حامد، وجعله قانونًا في جواب المسائل التي سُئل عنها في نصوص أشكلت علىٰ السَّائل، كالمسائل التي سأله عنها القاضي أبو بكر بن العربي، وخالفه القاضي أبو بكر العربي في كثيرٍ من تلك الأجوبة، وكان يقول: شيخنُا أبو حامد دخل في بطون الفلاسفةِ، ثم أراد أن يخرجَ منهم فما قدر، ووضع أبو بكر بن العربي هذا قانونًا آخرَ مبنيًّا علىٰ طريقة أبي المعالي ومَن قبله، كالقاضي أبي بكر الباقلَّاني، ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء يضع كلُّ فريق لأنفسهم قانونًا فيما جاءت به الأنبياء عن الله، فيجعلون الأصلَ الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنُّوا أنَّ عقولَهم عرفَتْهُ، ويجعلون ما جاءتْ به الأنبياء تبعًا له، فما وافق

(1) بيان تلبيس الجهمية (410/1) تحقيق يحيىٰ بن محمَّد الهنيدي- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- الطبعة الأولىٰ- 1426هـ.

قانونهم قَبِلُوه وما خالفه لم يتَّبعوه، وهذا يشبه ما وضعته النَّصارىٰ من أمانتهم التي جعلوها عقيدةَ إيمانِهم، وردُّوا نصوصَ التَّوراةِ والإنجيلِ إليها، لكنَّ تلك الأمانةَ اعتمدوا فيها علىٰ ما فهموه من نصوص الأنبياءِ أو ما بلغهم عنهم، وغلطوا في الفَهم أو في تصديق النَّاقلِ كسائر الغالطين ممَّن يحتجُّ بالسَّمعيات، فإنَّ غلطه إمَّا في الإسناد وإمَّا في المتن، وأما هؤلاء فوضعوا قوانينَهم علىٰ ما رأوه بعقولِهم، وقد غلطوا في الرأي والعقل، فالنَّصارىٰ أقرب إلىٰ تعظيم الأنبياء والرُّسل من هؤلاء، ولكنَّ النَّصارىٰ يشبههم مَنِ ابتدع بدعةً بفهمِهِ الفاسدِ من النُّصوص أو بتصديقِهِ النَّقلَ الكاذبَ عن الرَّسول، كالخوارج والوعيديَّة والمُرجئة والإمامية وغيرِهم، بخلاف بدعةِ الجهميَّةِ والفلاسفةِ فإنَّها مبنيةٌ علىٰ ما يُقرُّون هم بأنَّه مخالفٌ للمعروف من كلام الأنبياءِ، وأولئك يظنُّون أنَّ ما ابتدعوه هو المعروف من كلام الأنبياءِ وأنَّه صحيحٌ عندهم»[1].

د - ويقول عن أبي محمَّد عبدالله بن مسلم بن قُتيبة الدينوري:

«وأبو محمَّدٍ وأمثالُه قد سلكوا مسلكَ الملاحدةِ الذين يقولون: إنَّ الرَّسولَ لم يبيِّن الحقَّ في باب التَّوحيدِ ولا بيَّنَ للنَّاسِ ما هو الأمر عليه في نفسِه بل أظهرَ للنَّاس خلافَ الحقِّ، والحق: إمَّا كتمه، وإمَّا أنَّه كان غيرَ عالمٍ به. فإنَّ هؤلاءِ الملاحدة من المتفلسفة ومَن سلك سبيلَهم من المخالفين لما جاء به الرَّسولُ في الأمور العِلْميَّةِ كالتَّوحيدِ والمعادِ وغيرِ ذلكَ، يقولون: إنَّ الرسولَ أحكَمَ الأمورَ العمليَّةَ المتعلقةَ بالأخلاقِ والسِّياسةِ المنزليةِ والمدنيةِ»[2].

ويتكلم ابنُ تيميَّةَ عن علماء التَّوحيدِ والكلامِ الذين حفظوا للأُمَّة دينَها وعقائدَها، فيقرِنُهم بالجَهم بن صفوان- أحد أئمَّة المبتدعةِ الضَّالِّين في العقائد- ويتَّهمهم بالوقوع في الرِّدَّة فيقول: «فإنَّه لا يُعرف من أهل الكلامِ أحدٌ إلَّا وله في الإسلام مقالةٌ يُكفِّر

(1) درء تعارض العقل والنقل (7/1) تحقيق: عبداللطيف عبدالرحمن- دار الكتب العلمية- بيروت- 1417هـ - 1997م.

(2) مجموع الفتاوىٰ (4/159).

قائلُها عمومَ المسلمين حتَّىٰ أصحابه، وفي التَّعميم ما يُغني عن التَّعيين، فأيُّ فريقٍ أحقُّ بالحشوِ والضَّلال من هؤلاء؟ وذلك يقتضي وجودَ الرِّدَّة فيهم، كما يوجد النِّفاقُ فيهم كثيرًا، وهذا إذا كان في المقالاتِ الخفيَّة فقد يقال: إنَّه فيها مخطئٌ ضالٌّ لم تقم عليه الحُجَّة التي يكفُر صاحبُها؛ لكنَّ ذلك يقع في طوائفَ منهم في الأمور الظَّاهرةِ التي تعلم العامَّة والخاصَّة من المسلمين أنَّها من دِين المسلمين؛ بل اليهود والنَّصارىٰ يعلمون أنَّ محمَّدًا ﷺ بُعِثَ بها وكفَّر مخالفَها، مثلَ أَمْرِه بعبادة الله وحده لا شريكَ له، ونهيِه عن عبادة أحدٍ سوىٰ الله من الملائكة والنَّبيينَ والشَّمسِ والقمرِ والكواكبِ والأصنامِ وغيرِ ذلك؛ فإنَّ هذا أظهرُ شعائرِ الإسلامِ، ومثل أمرِه بالصَّلوات الخمسِ وإيجابِه لها وتعظيمِ شأنِها، ومثل معاداتِه لليهود والنَّصارىٰ والمشركينَ والصَّابئينَ والمجوسِ، ومثل تحريمِ الفواحشِ والرِّبا والخَمْرِ والمَيْسِرِ ونحوِ ذلك.

ثم تجد كثيرًا من رُؤسائهم وقعوا في هذه الأمورِ فكانوا مرتدين، وإن كانوا قد يتوبون من ذلك ويعودون إلىٰ الإسلامِ، فقد حُكي عن الجَهم بن صفوان: أنَّه ترك الصَّلاةَ أربعين يومًا لا يرىٰ وجوبَها؛ كرؤساء العشائر مثلَ: الأقرعِ بنِ حابسٍ، وعُيينةَ ابنِ حصنٍ، ونحوِهم ممَّن ارتدَّ عن الإسلامِ ودخل فيه، ففيهم مَن كان يُتَّهم بالنِّفاقِ ومرضِ القلبِ، وفيهم مَن لم يكن كذلك. أو يُقال: هم لما فيهم من العِلْم يُشبَّهون بعبدِالله بنِ أبي سرحٍ، الذي كان كاتِبَ الوحي، فارتدَّ ولَحِقَ بالمشركينَ، فأهدر النَّبيُّ ﷺ دمَه عامَ الفتحِ، ثمَّ أتىٰ به عثمانُ إليه فبايعه علىٰ الإسلام. فَمن صنَّف في مذهب المشركين ونحوِهم أحسنُ أحوالِه أنْ يكونَ مُسلمًا، فكثيرٌ من رءوس هؤلاء هكذا تجدُه تارةً يرتدُّ عن الإسلام رِدَّةً صريحةً، وتارةً يعود إليه مع مرضٍ في قلبه ونفاقٍ، وقد يكون له حالٌ ثالثةٌ يغلب الإيمانُ فيها النِّفاقَ لكن قَلَّ أنْ يَسْلَموا من نوع نفاقٍ، والحكايات عنهم بذلك مشهورةٌ.

وقد ذكر ابن قتيبة من ذلك طرفًا في أول مختلف الحديث، وقد حكىٰ أهلُ المقالات لبعضِهِم عن بعضٍ من ذلك طَرفًا، كما يذكره أبو عيسىٰ الورَّاق، والنُّوبختيُّ، وأبو الحسن الأشعريُّ، والقاضي أبو بكرٍ بن الباقلانيُّ، وأبو عبدالله الشهرستانيُّ، وغيرُهم ممَّن يذكر مقالات أهل الكلام، وأبلغ من ذلك: أنَّ منهم مَن يُصنِّف في دِين المشركينَ والرِّدَّة عن الإسلام، كما صنَّف الرازيُّ كتابَه في عبادةِ الكواكبِ والأصنامِ، وأقام الأدلَّةَ علىٰ حُسن ذلك ومنفعتِه ورغَّب فيه، وهذه رِدَّةٌ عن الإسلام باتِّفاق المسلمينَ، وإن كان قد يكون تاب منه وعاد إلىٰ الإسلام))[1].

موقف ابن تيميَّةَ من التَّصوُّف وأهلِه:

إنَّ الكلامَ عن موقف ابنِ تيميَّةَ من التَّصوُّف يتطلَّب أنْ نَعْرِفَ أنَّ ابنَ تيميَّةَ نفسَه لم يتَّخذ من التَّصوُّفِ بشكل عامٍّ موقفًا عدائيًّا، ولكنَّ المتتبِّع لتُراثِ ابنِ تيميَّةَ يجد أنَّه قلَّما نجا من قلمِه ونَقْدِه عالمٌ، فهو يتَّخذُ موقفَه بناءً علىٰ ما وصل إليه فَهْمُه واجتهادُه في مسألةٍ ما، وهذا مقبولٌ أنْ يلتزم العالِم بما وصل إليه من نتائجَ، ولكنَّ غيرَ المقبول هو أنْ يعد هذا الرَّأي وتلك النتيجةَ هي الحقَّ الذي لا خلافَ فيه، وهي حُكم الدِّين والشَّريعة التي لا ضدَّ لها، فمِن هنا تأتي الخطورةُ بأن يصدرَ كلامٌ من أهل العِلْم فيه قطعٌ بأحكامٍ وأوصافٍ بالضَّلال علىٰ طائفةٍ من المسلمين؛ بناءً علىٰ مقدِّماتٍ ظنيَّة، أو بناءً علىٰ أفكارٍ استنتاجيَّة، قد تصحُّ أو لا تصحُّ، فهذا الكلام ينطبق علىٰ كثيرٍ من كلام ابن تيميَّةَ في التَّصوُّف وأهلِه من ناحية استخدامِه للألفاظ التي تَنْعَتُ طوائفَ منهم بالضَّلالِ والإلحادِ، وفي إصدارِه الأحكامَ التي أصبحت مدخلًا لكثيرٍ من أدعياء العِلْم لمهاجمة التَّصوُّف والصُّوفيَّةِ، ومستندهم في ذلك هو كلامُ ابنِ تيميَّةَ.

---

(1) مجموع الفتاوىٰ (4/55).

- والأمثلةُ علىٰ ذلك في كُتُبِه كثيرةٌ، ومِن ذلك ما في كتابِه: درء تعارض العقلِ والنَّقلِ، وهو يتحدَّث عن الصُّوفية وأكابر العُلماء الذين انتسبوا للتصوُّف فيقول:

((ومن هنا دخل أهلُ الإلحاد من أهل الحُلول والوحدةِ والاتِّحادِ حتىٰ آل الأمرُ بهم إلىٰ أنْ جعلوا وجودَ المخلوقات عينَ وجودِ الخالقِ سبحانه وتعالىٰ، كما فعل صاحبُ الفصوص ابنُ عربي وابنُ سبعين، وأمثالُهما من الملاحدة المنتسبينَ إلىٰ التَّصوُّفِ والتَّحقيق، وهم من جنس الملاحدة المنتسبين إلىٰ التَّشيُّع، لكن تظاهر هؤلاءِ من أقوال شيوخِ الصُّوفيةِ وأهل المعرفة بما التبسَ به حالُهم علىٰ كثيرٍ من أهل العِلْم المنتسبين إلىٰ العِلْم والدِّين، بخلاف أولئكَ الذين تظاهروا بمذهبِ التَّشيُّعِ، فإنَّ نفورَ الجمهور عن مذهب الرَّافضة مما نفَّر الجمهور عن مثلِ هؤلاء، بخلاف جِنس أهلِ الفَقر والزُّهدِ ومَن يدخل في ذلك من مُتكلِّمٍ ومتصوِّفٍ وفقيرٍ وناسكٍ وغيرِ هؤلاء، فإنَّهم لمشاركتهم الجمهورَ في الانتساب إلىٰ السُّنَّة والجماعةِ يخفىٰ مِن إلحاد المُلحِد الدَّاخلِ فيهم ما لا يخفىٰ من إلحاد ملاحدة الشِّيعة، وإنْ كان إلحادُ المُلحِدِ منهم أحيانًا قد يكون أعظمَ، كما حدَّثني نقيبُ الأشراف أنَّه قال للعفيف التِّلمسَاني: أنتَ نُصَيريٌّ؟ فقال: نُصَيرٌ جزءٌ منِّي، والكلام علىٰ بسْطِ هذا له موضعٌ آخرُ غيرُ هذا))[1].

- وأما في إطلاقه للأحكام والاستقلال بالفَهم والرُّؤية في الحُكم علىٰ الطَّوائف والأشخاص فله في ذلك أمثلةٌ كثيرةٌ، فمن ذلك ما يقوله في مجموع الفتاوىٰ: ((ولهذا قَربت فلسفةُ اليونان إلىٰ أهل الإلحادِ المبتدعةِ من أهل المِلل؛ لما فيها من شوب المِلَّة؛ ولهذا دخل فيها بنو عبيدٍ الملاحدة فأخذوا عن هؤلاءِ الفلاسفةِ الصَّابئةِ المشركينَ العقلَ والنَّفسَ، وعن المجوسِ النُّورَ والظُّلمةَ، وسموه هم السَّابق والتَّالي، وكذلك الملاحدة المنتسبون إلىٰ التَّصوُّف والتألُّهِ: كابن سبعينَ وأمثالِه سلكُوا مسلكًا جمعوا فيه بزعمِهم

---

(1) درء تعارض العقل والنقل (1/318).

بين الشَّرع والفلسفةِ، وهم ملاحدةٌ ليسوا من الثِّنتين والسَّبعين فرقةً، وقد بُسِطَ الكلامُ علىٰ هؤلاءِ وهؤلاءِ في غيرِ هذا الموضعِ؛ وإنَّما ذُكِروا هنا لأنَّ أهلَ الكلامِ المُحدَثِ صاروا لعدم عِلْمهم بما عَلِمَهُ السَّلفُ وأئمَّةُ السُّنَّةِ من الكتابِ والسُّنَّة وآثارِ الصَّحابةِ، ولما وقعوا فيه من الكلاميات الباطلة- يُدخِل بسببِهم هؤلاءِ الفلاسفةُ في الإسلام أمورًا باطلةً، ويحصُل بهم منَ الضَّلال والغيِّ ما لا يتَّسع هذا الموضع لذِكْرِه))[1].

- ويقول ابن تيميَّةَ أيضًا: ((وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون جبريلَ هو الخيال الذي يتشكَّل في نَفْسِ النَّبيِّ ﷺ، والخيال تابعٌ للعقل، فجاء الملاحدةُ الذين شاركوا هؤلاءِ الملاحدة المتفلسفة وزعموا أنَّهم أولياء الله، وأنَّ أولياءَ الله أفضلُ من أنبياء الله، وأنَّهم يأخذونَ عن الله بلا واسطةٍ؛ كابن عربي صاحب ((الفتوحات)) و((الفصوص)). فقال: إنَّه يأخذ من المعدِن الذي أخذ منه الملَك الذي يُوحي به إلىٰ الرَّسول، والمعدِن عنده هو العقل، والملَك هو الخيال، والخيال تابعٌ للعقل، وهو بزعمِه يأخذ عن الذي هو أصل الخيال، والرَّسول يأخذ عن الخيال، فلهذا صارَ عند نفسِه فوقَ النَّبيِّ، ولو كان خاصَّة النَّبي ما ذكروه، ولم يكن هو من جنسه، فضلًا عن أن يكون فوقَه، فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين؟! والنُّبوَّة أمرٌ وراءَ ذلك، فإنَّ ابنَ عربي وأمثالَه وإنِ ادَّعوا أنَّهم من الصُّوفيَّةِ، فهم من صوفيَّةِ الملاحدةِ الفلاسفةِ، ليسوا من صوفيَّةِ أهلِ العِلْم، فضلًا عن أنْ يكونوا من مشايخ أهلِ الكتابِ والسُّنَّةِ))[2].

كذلك نجده يرمي الصُّوفية بتُهَمٍ هم منها براء؛ كزعمه أنَّهم يُفضِّلون شيوخهم علىٰ الأنبياء مثلًا، ودون أن يذكر مستندًا صحيحًا لذلك، أو نجده أحيانًا يؤول كلامَهم بما لا يحتمله الكلام، فمن ذلك:

---

(1) مجموع الفتاوىٰ (17/336).

(2) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص103) تحقيق: عبدالقادر الأرناءوط- مكتبة دار البيان- دمشق- 1985م.

ما قاله في مجموع الفتاوىٰ: ((وكذلكَ جُهَّالُ القادريَّةِ والأحمديَّةِ واليُونُسية قد يُفضِّلونَ شيخَهم علىٰ النَّبيِّ أو غيرِه من الأنبياءِ، وربَّما ادَّعوا في شيخِهم نوعًا من الإلهيَّة، وكذلك طائفةٌ من السَّعدية يُفضِّلونَ الوليَّ علىٰ النَّبيِّ))[1].

ويقول أيضًا: ((ومَن سلكَ مسلَكهم إذا عظَّمَ الأمرَ والنَّهيَ غايتُه أن يقولَ- كما نُقل عن الشَّاذُلي: يكون الجمع في قلبك مشهودًا والفَرق علىٰ لسانِك موجودًا، كما يوجد في كلامِه وكلامِ غيرِه أقوالٌ وأدعيةٌ وأحزابٌ تستلزم تعطيلَ الأمرِ والنَّهي، مثل: دعوىٰ أنَّ الله يُعطيه علىٰ المعصية أعظمَ مما يعطيه علىٰ الطَّاعة، ونحو هذا ممَّا يُوجب أنَّه يجوز عنده أن يجعلَ الذين اجترحوا السيئاتِ كالذين آمنوا وعملوا الصَّالحات أو أفضلَ، ويَدعُونَ بأدعيةٍ فيها اعتداءٌ كما يُوجد في حزب الشَّاذُلي، وآخرون من عوامِّهم يُجوِّزون أنْ يُكرم الله بكرامات أكبرَ الأولياءِ مَن يكون فاجرًا؛ بل كافرًا))[2].

- ويقول أيضًا: ((ولهذا كان هؤلاء كابن سبعينَ ونحوِه يعكسون دِين الإسلامِ فيجعلون أفضلَ الخَلْقِ المُحقِّق عندَهم وهو القائل بالوحدة، وإذا وصل إلىٰ هذا فلا يضرُّه عندهم أنْ يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا؛ بل كان ابنُ سبعينَ وابن هود والتِّلمساني وغيرُهم يسوِّغون للرَّجل أن يتمسَّك باليهوديَّةِ والنَّصرانيَّةِ كما يتمسَّك بالإسلامِ، ويجعلون هذه طرقًا إلىٰ الله بمنزلة مذاهب المسلمين، ويقولون لَمن يختص بهم من النَّصارىٰ واليهودِ: إذا عرفتم التَّحقيقَ لم يضركم بقاؤكم علىٰ مِلَّتِكم. بل يقولون مثلَ هذا للمُشركينَ عُبَّاد الأوثان))[3].

- وقال ابن تيميَّةَ- وهو يرمي المتصوِّفة وعلماء الكلام بالحُلول والشِّرْك: ((ولهذا لما كان صاحبُ الفصوص ونحوُه من القسم الأول جعلوه نفس الموجودات، وجوزوا كلَّ شِرْكٍ

---

(1) مجموع الفتاوىٰ (17/336).

(2) المصدر السابق (8/232).

(3) الصفدية (1/269) تحقيق: محمَّد رشاد سالم- دار الهدي النبوي- المنصورة- مصر.

في العالَم وجعلوه نفسَ العابدِ والمعبودِ، والنَّاكح والمنكوح، والشَّاتم والمشتوم، وقالوا: ما عبد أحدٌ إلا الله ولا يمكن أن يعبد إلَّا الله، بل لا يُتصور أن يكون العابدُ والمعبودُ عندهم إلا الله، ولما كان صاحب التَّأسيس[1] ونحوُه من القسم الثاني جعلوه كالمعدومات المحضةِ، ولهذا يقال فيهم: مُتكلمة الجهميَّة لا يعبدون شيئًا، وهذا هو نهاية التَّعطيل، ومتصوفتهم يعبدون كلَّ شيءٍ وهذا نهاية الإشراك))[2].

- ويرميهم بالوقوع في إنكار وجود الله وجودًا حقيقيًّا فيقول: ((ثم منهم مَن قد يخرج منها إلىٰ مذهب الجَهميَّة الاتِّحادية والحُلوليَّة؛ فيقول: إنَّ ذلك الوجهَ هو وجودُ الكائنات، ووجه الله هو وجودُه، فيكون وجودُه وجود الكائنات، لا يُميِّز بين الوجود الواجب والوجود الممكن، كما هو قول ابن عربي وابن سبعين ونحوِهما- وهو لازمٌ لـمَن جعل وجودَه وجودًا مطلقًا لا يتميَّز بحقيقةٍ تخصُّه سواءٌ جعله وجودًا مُطلقًا بشرط الإطلاق- كما يزعم ابنُ سينا ونحوه من المتفلسفة- أو جعلَه وجودًا مطلقًا لا بشرط- كما يقوله الاتِّحاديَّة))[3].

- ويقول أيضًا: ((ولم يكن بعدُ ظهر من قولِه: إنَّ العالَم هو الله وإنَّ العالَم صورةُ الله وهوية الله، فإنَّ هذا أعظمُ من كُفْر القائلين بقِدَمِ العالَم الذين يُثبتون واجب الوجود، ويقولون: إنه صدر عنه الوجودُ الممكنُ. وقال عنه مَن عاينه من الشيوخ: إنَّه كان كذابًا مفتريًا، وفي كتبه- مثل الفتوحات المكية وأمثالِها- من الأكاذيب ما لا يخفىٰ علىٰ لبيبٍ، هذا وهو أقرب إلىٰ الإسلام من ابن سبعينَ ومن القُونَوي والتِّلمساني وأمثالِه من أتباعه، فإذا كان الأقرب بهذا الكفر- الذي هو أعظمُ من كُفر اليهود والنَّصارىٰ- فكيف بالذين هم أبعد عن الإسلام؟! ولم أَصِفْ عُشرَ ما يذكرونه من الكُفر، ولكن

(1) هو الإمام الفخر الرازي.

(2) بيان تلبيس الجهمية (3/784).

(3) مجموع الفتاوىٰ (2/25).

هؤلاء التبس أمرُهم علىٰ مَن لم يعرف حالَهم، كما التبس أمرُ القرامطة الباطنيَّة لما ادَّعوا أنَّهم فاطميُّون وانتسبوا إلىٰ التشيُّع، فصار المتَّبعون مائلينَ إليهم غير عالمين بباطن كُفرهم، ولهذا كان مَن مال إليهم أحدُ رجلين: إمَّا زنديقًا منافقًا، وإمَّا جاهلًا ضالًّا. وهكذا هؤلاء الاتِّحادية، فرءوسهم هم أئمَّة كُفْرٍ يجب قتلُهم ولا تُقبل توبةُ أحدٍ منهم إذا أُخذ قبل التَّوبةِ، فإنَّه من أعظم الزَّنادقة الذين يُظهرون الإسلامَ ويُبطنون أعظمَ الكُفر، وهم الذين يفهمون قولَهم ومخالفتَهم لدِين المسلمين، ويجب عقوبةُ كلِّ مَنِ انتسبَ إليهم، أو ذَبَّ عنهم، أو أثنىٰ عليهم، أو عظَّم كُتبَهم، أو عُرف بمساعدتِهم ومعاونتِهم، أو كره الكلامَ فيهم، أو أخذ يعتذر لهم بأنَّ هذا الكلامَ لا يدري ما هو؟ أو مَن قال: إنَّه صنَّف هذا الكتابَ، وأمثالَ هذه المعاذير التي لا يقولها إلَّا جاهلٌ أو منافقٌ؛ بل تجب عقوبةُ كلِّ مَن عَرف حالَهم ولم يعاون علىٰ القيام عليهم، فإنَّ القيامَ علىٰ هؤلاءِ مِن أعظم الواجباتِ؛ لأنَّهم أفسدوا العقولَ والأديانَ علىٰ خَلْقٍ من المشايخ والعُلماءِ والمُلوكِ والأُمراءِ، وهم يسعون في الأرض فسادًا ويصدُّون عن سبيل الله، فضررهم في الدِّين أعظمُ من ضرر مَن يفسد علىٰ المسلمين دُنياهم ويترك دينَهم، كقُطَّاع الطَّريقِ وكالتَّتار الذين يأخذون منهم الأموالَ ويبقون لهم دينَهم، ولا يستهين بهم مَن لم يعرفهم، فضلالُهم وإضلالهم أعظمُ من أنْ يوصفَ، وهم أشبه النَّاس بالقرامطة الباطنيَّة.

ولهذا هم يريدون دولةَ التَّتار ويختارون انتصارَهم علىٰ المسلمين؛ إلَّا مَن كان عاميًّا من شيَعِهم وأتباعهم فإنَّه لا يكون عارفًا بحقيقة أمرِهم، ولهذا يُقرُّون اليهودَ والنَّصارىٰ علىٰ ما هم عليه، ويجعلونهم علىٰ حقٍّ، كما يجعلون عُبَّادَ الأصنام علىٰ حقٍّ، وكلُّ واحدةٍ من هذه من أعظم الكُفر، ومَن كان محسنًا للظَّنِّ بهم- وادَّعىٰ أنَّه لم يعرف حالَهم- عرف حالَهم، فإنْ لم يباينهم ويُظهر لهم الإنكارَ وإلَّا ألحق بهم وجُعل منهم.

وأما مَن قال: لكلامهم تأويلٌ يوافق الشَّريعةَ- فإنَّه من رُءوسهم وأئمَّتهم، فإنَّه إنْ كان ذكيًّا فإنَّه يَعرف كَذِبَ نَفْسِه فيما قالَه، وإنْ كان معتقدًا لهذا باطنًا وظاهرًا فهو

أكفر من النَّصارىٰ، فَمَن لم يُكفِّر هؤلاءِ، وجعل لكلامِهم تأويلًا- كان عن تكفير النَّصارىٰ بالتَّثليث والاتحاد أبعدَ، والله أعلم))[1].

- ويقول أيضًا: ((وكان كثيرٌ من أهل التَّصوف والسُّلوك والطَّالبين لطريق التَّحقيق والعِرفان- مع أنَّهم يظنُّون أنَّهم متابِعون للرُّسل، وأنَّهم متَّقون للبدع المخالفة له- يقولون هذا الكلامَ ويعظِّمونَه، ويعظِّمون ابنَ عربيٍّ لقوله مثل هذا، ولا يعلمون أنَّ هذا الكلام بناه علىٰ أصلِه الفاسدِ في الإلحادِ الذي يجمع بين التَّعطيل والاتِّحاد؛ فإنَّ حقيقةَ الرَّبِّ عنده وجودٌ مجردٌ لا اسمٌ له ولا صفةٌ، ولا يمكن أن يُرىٰ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، ولا له كلامٌ قائمٌ به ولا علمٌ ولا غيرُ ذلك، ولكن يُرىٰ ظاهرًا في المخلوقاتِ متجليًا في المصنوعاتِ))[2].

- ويرمي ابن تيمية بعضَ المتصوفة بطلب النبوَّة فيقول:

((فلهذا كانت النُّبوَّة عندهم مكتسبةً، وصار كُلُّ مَن سلك سبيلَهم كالسُّهْرَوَردي المقتول، وابنِ سبعينَ المغربي وأمثالِهما - يطلب النُّبوَّةَ، ويطمع أنْ يُقال له: قُم فأنذِر. هذا يقول: لا أموتُ حتَّىٰ يُقال لي: قُم فأنذِر. وهذا يُجاور بمكةَ، ويعمد إلىٰ غار حِراء، ويطلب أنْ ينزلَ عليه فيه الوحيُ كما نزل علىٰ المُزمِّلِ والمدَّثرِ مثلُه، وكلٌّ منهما ومِن أمثالِهما يسعىٰ بأنواع السِّيمياء- التي هي من السِّحر- ويتوهَّمُ أنَّ معجزاتِ الأنبياء كانت من جنس السِّحر السِّيميائي))[3].

- ويتحدَّث عن العَفيف التِّلمسَاني من مشايخ التصوف فيقول: ((وأمَّا التِّلمساني فإنَّه لا يثبت تعددًا بحال، فهو مثل يعاقبة النَّصارىٰ وهم أكفرهم، والنَّصارىٰ قالوا بذلك في شخصٍ واحدٍ، وقالوا: إنَّ اللاهوتَ يتدرَّع بالنَّاسوتِ بعد أنْ لم يكن متدرِّعًا به،

---

(1) مجموع الفتاوىٰ (131/2).

(2) المصدر السابق (590/7).

(3) المصدر السابق (588/7).

وهؤلاء قالوا: إنَّه في جميع العالَم وأنَّه لم يزل، فقالوا بعموم ذلكَ ولزومِه، والنَّصارىٰ قالوا بخصوصِه وحدوثِه، حتىٰ قال قائلهم: النَّصارىٰ إنَّما كفروا لأنَّهم خصَّصوا، وهذا المعنىٰ: قد ذكره ابنُ عربي في غير موضعٍ من الفصوص، وذكر أنَّ إنكارَ الأنبياء علىٰ عُبَّاد الأصنامِ إنَّما كان لأجل التَّخصيص وإلَّا فالعارف المكمل مَن عَبَدَه في كلِّ مَظهرٍ، وهو العابد والمعبود، وأنَّ عُبَّاد الأصنام لو تركوا عبادتهم: لتركوا من الحقِّ بقدر ما تركوا منها...)).

إلىٰ أن قال: ((هؤلاء المفترونَ علىٰ الله الذين هم في مشايخ الدين نظير جنكيزخان في أمرِ الحرب، فديانتُهم تشبه دولتَه ولعلَّ إقراره بالصَّانع خيرٌ من إقرارهم؛ لكنَّ بعضَهم قد يُوجب الإسلامَ فيكون خيرًا من التَّتار من هذا الوجه، وأما محقِّقوهم وجمهورُهم فيجوز عندهم التَّهوُّدُ والتَّنصُّر والإسلامُ والإشراكُ لا يحرِّمون شيئًا من ذلك، بل المحقِّقُ عندهم لا يَحرُم عليه شيءٌ ولا يَجب عليه شيءٌ، ومعلومٌ أنَّ التتار الكفَّارَ خيرٌ من هؤلاءِ، فإنَّ هؤلاءِ مُرتدُّون عن الإسلام من أقبح أهل الرِّدة، والمرتدُّ شرٌّ من الكافر الأصليِّ من وجوهٍ كثيرةٍ، وإذا كان أبو بكرٍ الصِّدِّيق قاتَلَ المرتدينَ بمنعِهم الزكاة- فقِتالُ هؤلاءِ أولىٰ))[1].

- وهذه نبذة من فتاوىٰ وردود ابن تيميَّةَ عن مسائلَ سُئل عنها فيقول:

((وكذلك كلُّ طائفةٍ ممتنعةٍ عن شريعةٍ واحدةٍ من شرائع الإسلامِ الظَّاهرةِ أو الباطنة المعلومةِ فإنَّه يجب قتالُها، فلو قالوا: نَشْهدُ ولا نُصلِّي قوتلوا حتىٰ يُصلُّوا، ولو قالوا: نُصلِّي ولا نُزكِّي قوتلوا حتىٰ يُزكُّوا، ولو قالوا: نُزكِّي ولا نصومُ ولا نحجُّ- قوتلوا حتَّىٰ يصوموا رمضانَ ويحجُّوا البيتَ، ولو قالوا: نفعل هذا لكِنْ لا ندع الرِّبا، ولا شُرْبَ الخَمْرِ، ولا الفواحشَ، ولا نجاهدُ في سبيل الله، ولا نضرب الجزيةَ علىٰ اليهودِ والنَّصارىٰ، ونحو

---

(1) مجموع الفتاوىٰ (2/192- 193).

ذلك- قُوتلوا حتىٰ يفعلوا ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:193]، وقد قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿278﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ الله وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: 278-279]. والرِّبا آخر ما حرَّم الله))[1].

((مسألةٌ: في أقوامٍ يؤخِّرون صلاةَ اللَّيل إلىٰ النَّهار، لأشغالٍ لهم مِن زرعٍ أو حَرْثٍ أو جَنابةٍ أو خدمة أُستاذٍ، أو غير ذلك، فهل يجوزُ لهم ذلك أم لا؟ الجواب: لا يجوز لأحدٍ أنْ يؤخِّر صلاةَ النَّهار إلىٰ اللَّيل، ولا يؤخِّر صلاةَ الليل إلىٰ النَّهار لشُغُلٍ من الأشغال، لا لحصدٍ ولا لحرثٍ ولا لصناعةٍ ولا لجنابةٍ ولا نجاسةٍ ولا صيدٍ ولا لهوٍ ولا لعبٍ ولا لخدمة أستاذٍ، ولا غيرِ ذلك؛ بل المسلمون كلُّهم متَّفقون علىٰ أنَّ عليه أن يُصلِّيَ الظُّهرَ والعصرَ بالنَّهار، ويصلِّي الفجرَ قبل طلوعِ الشَّمس، ولا يترك ذلك لصناعةٍ من الصِّناعات، ولا للهوٍ ولا لغيرِ ذلك من الأشغالِ، وليس للمالك أنَ يمنعَ مملوكَه ولا للمستأجر أنْ يمنعَ الأجير من الصَّلاة في وقتها، ومَن أخَّرها لصناعةٍ أو صيدٍ أو خدمة أستاذٍ أو غيرِ ذلك حتىٰ تغيبَ الشَّمسُ وجبت عقوبتُه؛ بل يجب قتلُه عند جمهورِ العُلماءِ بعد أنْ يُستتاب))[2].

- بعد أنِ استعرضنا بعضًا من أقوال وفتاوىٰ ابنِ تيميَّةَ، والتي احتوتْ علىٰ رمي طوائفَ من المسلمين بالضَّلال والإلحادِ، والحكم عليهم بالقتل والرِّدَّة، فنستعرض ما يميِّز هذه الأقوال، والتي ما زالت الأُمَّة تعاني مِن آثارها حتىٰ الآن من الذين حملوا أفكارَه ومنهجَه:

---

(1) الفتاوىٰ الكبرىٰ (32/2) تحقيق: محمَّد عبدالقادر عطا ومصطفىٰ عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1987م.

(2) مجموع الفتاوىٰ (9/2).

1- فيما يتعلق بجناب علماء أهل السُّنَّة من الأشاعرة الذين دافعُوا عن عقائد المسلمين، بدايةً من الإمام الشَّيخ أبي الحسن الأشعري وإلىٰ المعاصرين له، فنجده ينعتهم بوصفِ الجَهْميَّة- وهي فرقة ضالةٌ من أضل الفرق- ويصفهم أيضًا بأنهم مخانيثُ المعتزلة، وأنَّهم أهلُ الإلحاد في صفات الله عزَّ وجل، ويرمي واحدًا من أكابر علماء المسلمين في علوم المنقول والمعقول بأنَّه من الدَّهريَّة المشركينَ.

2- اتِّهامه لهؤلاء الأئمَّة بأنَّهم يقدمون علومَهم وكلامَهم علىٰ كلام الأنبياء، وأنَّ النَّصارىٰ أقربُ إلىٰ تعظيم الرُّسل منهم، فيذكر الغزالي والجويني والباقلَّاني وابن العربي المالكي بهذه الأوصاف، مما يفتح الطَّريقَ أمامَ الجهلةِ وأدعياء العِلْمِ إلىٰ رمي هؤلاء الأكابر بالانسلاخ من الدِّين، ويرمي علماء التَّوحيد وأصحاب عِلم الكلام بأنَّهم أهلُ رِدَّة ونفاقٍ.

وهناك نكتةٌ لطيفة يلاحظها القارئ في كلام ابن تيميَّةَ ومصنفاته عن العلماء ومناهجهم حين يتصدَّىٰ للكلام عنها والحُكم عليها، ألا وهي أنَّه لا يأتي بنصِّ كلامهم، وإنَّما مدارُ الأمرِ يكون علىٰ حكايتِه لكلامِهم من خلال ما فهمه واستنبطه من مذاهبهم، ويحكم عليهم من خلال هذا الفهم، فلا يُوجد نقلٌ ولا عزوٌ لكلامٍ واضحٍ محدَّدٍ يُصدِّقُ كلامَه ويوفِّر أساسًا لأحكامِه، وإنَّما هو مجرَّد كلامٍ مرسلٍ، وإطلاقٍ لأوصاف وأحكامٍ وتصنيفاتٍ، والعمدة في ذلك كله هو عقل وفَهْم ابن تيميَّةَ المعصوم من الخطأ في نظر أتباعه.

3- فيما يتعلَّق بالتَّصوف فقد رمىٰ أئمَّته وشيوخَه بأنَّهم من أهل الإلحادِ- أصحابِ وحدة الوجودِ والحلولِ والاتِّحاد في ذات الباري سبحانه، وأنَّهم من أهل الزَّندقة المستترين بالتَّصوف والزُّهد، وأنَّ منهم مَن يريد الوصولَ لدرجةِ النُّبوَّة، وأنَّهم في حقيقة أمرهم ينفون الوجودَ الحقيقيَّ لله سبحانه وتعالىٰ، ويجعلون وجودَ المخلوقاتِ هو عينُ وجودِ الخالقِ، وهم براء من كلِّ هذا.

- وبعد استعراض النصوص السابقة من كلام ابن تيميَّةَ في كُتبه ومصنَّفاته نتعرَّض لنصوصٍ أخرىٰ تتناقض تمامًا مع نصوصه السابقة، نجده يتحدث فيها عن التَّحذير من التَّكفير فيقول:

- «وسبب هذا التنازع تعارض الأدلَّة، فإنَّهم يرون أدلةً تُوجب إلحاقَ أحكامِ الكُفْر بهم، ثمَّ إنَّهم يرونَ من الأعيان الذين قالوا تلك المقالاتِ مَن قام به من الإيمان ما يمتنع أنْ يكونَ كافرًا، فيتعارض عندهم الدَّليلان، وحقيقة الأمر أنَّهم أصابهم في ألفاظ العموم في كلام الأئمَّة ما أصاب الأولينَ في ألفاظ العُموم في نصوص الشَّارع، كلما رأوهم قالوا: مَن قال كذا فهو كافرٌ- اعتقد المستمع أنَّ هذا اللفظَ شاملٌ لكلِّ مَن قاله، ولم يتدبَّروا أنَّ التكفير له شروطٌ وموانع قد تنتفي في حقِّ المُعيَّن، وأنَّ تكفيرَ المطلقِ لا يستلزم تكفيرَ المعيَّن، إلا إذا وُجدت الشَّروط وانتفت الموانع.

يبين هذا أنَّ الإمامَ أحمدَ وعامَّةَ الأئمَّةِ الذين أطلقوا هذه العمومات لم يُكفِّروا أكثرَ مَن تكلَّم بهذا الكلامَ بعينِه، فإنَّ الإمامَ أحمدَ مثلًا قد باشر الجهمية- الذين دعوه إلىٰ خَلْقِ القرآنِ ونَفْيِ الصِّفات وامتحنوه...». إلىٰ أن قال: «ومعلومٌ أنَّ هذا من أغلظ التَّجَهُّم، فإنَّ الدُّعاءَ إلىٰ المقالة أعظم من قولِها، وإثابة قائلِها وعقوبة تاركِها أعظمُ من مجرَّد الدُّعاءِ إليها، والعقوبة بالقتل لقائلِها أعظمُ من العقوبة بالضَّرب، ثم إنَّ الإمامَ أحمدَ دعا للخليفة وغيرِه ممَّن ضربه وحبسه، واستغفرَ لهم، وحلَّلهم مما فعلوه به من الظُّلم والدُّعاءِ إلىٰ القول الذي هو كفرٌ، ولو كانوا مرتدِّين عن الإسلام لم يجزِ الاستغفارُ لهم؛ فإنَّ الاستغفارَ للكفَّار لا يجوز بالكتاب والسُّنَّة والإجماع، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيرِه من الأئمَّة صريحةٌ في أنَّهم لم يُكفِّروا المعينين من الجَهميَّة الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوقٌ، وإنَّ الله لا يُرىٰ في الآخرة، وقد نُقل عن أحمدَ ما يدلُّ علىٰ أنَّه كفَّرَ به قومًا معيَّنينَ، فأمَّا أن يُذكر عنه في المسألة روايتان- ففيه نظرٌ، أو يُحمَل الأمرُ علىٰ التَّفصيل؛ فيقال: مَن كفَّره بعينِه؛ فلقيام الدَّليل علىٰ أنَّه وُجدت فيه شروط التَّكفير وانتفت

موانعه، ومَن لم يُكفِّره بعينِه؛ فلانتفاء ذلك في حقِّه، هذا مع إطلاق قولِه بالتَّكفير علىٰ سبيلِ العُموم، والدليل علىٰ هذا الأصل الكتابُ والسُّنَّة والإجماعُ والاعتبارُ. أما الكتاب: فقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب:5]. وقوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:286][1].

- ويقول محذرًا من التَّكفير أيضًا: ((ولهذا أكثر السَّلف يأمرون بقتل الدَّاعي إلىٰ البدعةِ الذي يضلُّ النَّاس لأجل إفسادِه في الدِّين، سواء قالوا: هو كافرٌ أو ليس بكافرٍ، وإذا عُرف هذا فتكفير المعيَّنِ من هؤلاء الجُهَّالِ وأمثالِهم- بحيث يُحكَم عليه بأنَّه من الكفَّار- لا يجوز الإقدامُ عليه إلَّا بعد أنْ تقومَ علىٰ أحدِهم الحُجَّةُ الرِّساليةُ التي يتبيَّن بها أنَّهم مخالفون للرُّسل، وإنْ كانت هذه المقالةُ لا ريبَ أنَّها كُفْرٌ، وهكذا الكلام في تكفير جميع المعينين مع أنَّ بعضَ هذه البدعة أشدُّ من بعضٍ، وبعضُ المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعضٍ، فليس لأحدٍ أنْ يُكفِّرَ أحدًا من المسلمين وإنْ أخطأ وغلط حتىٰ تُقام عليه الحُجَّةُ وتُبيَّنَ له المحجَّةُ، ومَن ثبت إيمانُه بيقينٍ لم يزُل ذلك عنه بالشَّكِّ، بل لا يزول إلا بعد إقامةِ الحُجَّةِ وإزالةِ الشُّبهةِ))[2].

- ويقول في موضع آخر: ((وأمَّا التَّكفير: فالصَّواب أنَّه مَنِ اجتهد من أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ وقصدَ الحقَّ فأخطأ- لم يكفر؛ بل يُغفر له خطؤُه، ومَن تبيَّنَ له ما جاء به الرَّسولُ فشاقَّ الرسول من بعد ما تبين له الهدىٰ واتَّبع غيرَ سبيلِ المؤمنينَ- فهو كافرٌ، ومن اتَّبع هواه وقصَّر في طلب الحقِّ وتكلَّم بلا عِلْمٍ- فهو عاصٍ مذنبٌ، ثم قد يكون فاسقًا وقد تكون له حسناتٌ ترجحُ علىٰ سيِّئاته. فالتَّكفير يختلف بحسب اختلاف حالِ الشَّخص، فليس كلُّ مخطئٍ ولا مبتَدِعٍ ولا جاهلٍ ولا ضالٍّ يكون كافرًا؛ بل ولا فاسقًا، بل ولا عاصيًا، لاسيَّما في مثل مسألةِ القرآنِ، وقد غلط فيها خلقٌ من أئمَّةِ الطَّوائف المعروفين عند

(1) مجموع الفتاوىٰ (12/486).

(2) المصدر السابق (12/501).

النَّاس بالعِلْم والدِّين، وغالبهم يقصِد وجهًا من الحقِّ فيتبعه ويعزُب عنه وجهٌ آخر لا يُحقِّقُه، فيبقىٰ عارفًا ببعض الحقِّ جاهلًا ببعضه؛ بل مُنكرًا له))[1].

- ويقول في موضعٍ آخر: ((وهكذا الأقوالُ التي يَكْفُر قائلُها، قد يكون الرَّجُلُ لم تبلغه النُّصوصُ الموجبةُ لمعرفة الحقِّ، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكَّن من فهمِها، وقد يكون قد عَرَضَتْ له شبهاتٌ يعذره الله بها، فَمَن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحقِّ وأخطأ، فإنَّ الله يغفر له خطأَه كائنًا ما كان، سواءٌ كان في المسائل النَّظرية أو العمليَّة هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ))[2].

ولك أنْ تعجبَ أيُّها القارئُ الكريمُ من أنَّ هذا الكلامَ في التَّحذير من التَّكفير والتماس الأعذار في الأقوال المُكفِّرة في العقائد وغيرِها قد صدرت من نفس الشَّخص الذي رمىٰ علماءَ المسلمين بالإلحادِ والمروقِ من الدِّين، وكنَّا نودُّ أنْ يُطبِّقَ ابنُ تيميَّةَ هذه القواعدَ وتلكَ الضوابط في عدم التَّسرع في التَّكفير علىٰ أقوال هؤلاء العلماء، وأنْ يلتمسَ لهم الأعذارَ، أو يتَّهم نفسَه في الفهم، خاصَّةً أنَّ هؤلاء الذين رماهم بالكُفر والإلحادِ والخروجِ من الدِّين وعقيدةِ السَّلف من العلماء المعروفين بإسلامِهم وعلومِهم الشَّرعية ودفاعهم عن الإسلام، فكيف يزول هذا اليقين بشكٍّ قد نتج مِن فهْمِ ابن تيميَّةَ غير المعصوم؟! أفلم يكن التَّريث في هذا هو الأليق بعالِـمٍ مثل ابن تيميَّةَ؟ ولكننا لا نجد سببًا للإقدام علىٰ تكفيرِهم ورميهِم بهذه التُّهم إلا التَّعصُّب لرأيه ومذهبِه الذي يظنُّه حقًّا مطلقًا، بحيث يرفض أيَّ تأويلٍ لكلامِهم، بالرغم من أنَّ تأويل كلام المسلمين علىٰ مَحْمَلٍ حسن ما أمكن هو حقٌّ لهم؛ لأنَّ إسلامَهم مُتيقَّنٌ، واليقين لا يزول بالشَّكِّ.

وما مرَّ في الصَّفحات السَّابقة من الكلام عن فتنةِ الخوارجِ، وعن مصنَّفات ابن تيميَّةَ يُعدُّ الأساسَ الذي تنطلق منه فِتَنُ التَّكفير واستحلال الدِّماءِ وتضليل النَّاسِ وتبديعهم

(1) مجموع الفتاوىٰ (12/180).

(2) المصدر السابق (23/346).

في أيَّامنا هذه، فكانت أقوالُ ابنِ تيميَّةَ وكتبُه تمثِّل المنطلقَ العِلْمِيَّ والمرجعيةَ الدِّينيَّةَ لكثيرٍ من حركات الفِكْرِ المُتشدِّدِ المعاصرة في العالم الإسلاميِّ، وكانت حركاتُ الخوارجِ تُمثِّل التَّطبيقَ العمليَّ للانحراف عن منهج أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وعن صراطِ الله المستقيمِ بالممارسة الفعليَّةِ، والتي تكرَّرتْ صُورُها المتعدِّدةُ والمختلفةُ في القرون التَّاليةِ.

تغلغل فكر التكفير عند الحركات الإسلاميَّة المعاصرة

عند النَّظر إلىٰ كثير من الحركات المتطرفة المعاصرةِ نجدُ أنَّ الفِكر التَّكفيريَّ باختلاف درجاتِه وصوره ومظاهرِه يمثِّل ركنًا أساسيًّا في منهجِ هذه الحركات؛ وذلك لأنَّه يُمثِّل لهم نقطةَ الانطلاقِ لتنفيذِ أهدافِهم وتصوُّراتِهم نحو القضايا والموضوعاتِ التي يعملونَ من خلالِها، فمَن يريدُ أن يُحدِثَ خلخلةً لمجتمعاتٍ مستقرَّةٍ فما عليه إلا أنْ يزرعَ فِكرةَ التَّكفير للمسلمينَ من خلال تناول موضوعٍ من الموضوعاتِ الفقهيَّةِ والشَّرعيَّة، أو مظهرٍ من مظاهر الحياةِ في بلاد المسلمين، ويجعلَ منه مدخلًا لإسقاطِ أحكامِ الكُفر والرِّدَّة علىٰ الأشخاص والمجتمعات، فهو يُكَوِّنُ وجهةَ نظرٍ مُعيَّنةٍ تجاه قضيةٍ ما، يجعل منها أصلًا من أصولِ الدِّين وفقًا لمنهجِه وفَهمِه، ثم يُؤصِّلُ لوجهة النَّظر هذه ويربطُها بأحكامِ الكُفر والإيمانِ، وينتقلُ بعد ذلك إلىٰ تطبيقِ ذلك عمليًّا علىٰ المجتمعاتِ والأفراد، وفي أثناءِ هذه المرحلةِ من التَّأصيلِ لهذه الفِكرةِ يُحاوِلُ تكوينَ القاعدةِ التي تُؤمنُ بهذه القضيَّةِ أصولًا وفُروعًا من المتحمِّسينَ للدِّين، ولحُدُوثِ ذلك يتمُّ الاستعانةُ بمصنَّفاتٍ عِلْميَّةٍ محددةٍ لعلماء ممَّنْ تعرَّضوا لقضايا وأحكام التَّكفير من خلالِ تناولِهم لمسائل فقهيَّة معيَّنة، وعلىٰ سبيل المثالِ لهؤلاء العلماءِ يتمُّ استحضارُ كلامِ ابن تيميَّةَ ومصنَّفاتِه، وتبنِّي آرائه وفتاويه، واعتبار أنَّها تُمثِّل الحكمَ الشَّرعيَّ الوحيدَ ومذهبَ أهل السُّنَّةِ والجماعةِ في هذه المسائِلِ، ثم بعدَ مرحلة تكوينِ الفئة التي تشبَّعتْ بهذه الأفكارِ وآمنتْ بها وأخلصتْ لها يتمُّ التَّعامُلُ مع مجتمعاتِهم وفقًا لهذا المنهج، فهم يَعملونَ علىٰ نشر هذا المنهجِ ووضْعِه في

صورة الحاكِمِ الضَّابط لكثيرٍ من السُّلوكيَّاتِ والتَّعاملاتِ، واعتباره المقياسَ الشَّرعيَّ للحكم على الأشخاص بالدُّخول في الدِّين أو الخروجِ منه، وقد يتمُّ بعدُ استدعاءُ نموذجِ الخوارجِ القدماءِ كمثالٍ عمليٍّ في التَّعامل مع هذه القضايا على أرض الواقعِ، ويستلهمونَ سُلوكَهم ومنهجَهم.

وتظهرُ هذه الصورة عمليًّا على أرض الواقع من خلال تناوُلِ هذه الجماعاتِ قضايَا ومسائلَ علميَّةٍ مثلَ: قضية الحاكميَّة، وتحكيم الشَّريعةِ، والقوانين الوضعيَّة، وقضايا الولاء والبراء، وقضيَّة الجهاد في سبيل الله، وقضية جاهليَّة المجتمعِ، وقضية شَكْلِ وهيئة أنظمة الحُكم في بلادِ المسلمينَ في العصر الحديث، وقضايا الاستحلال وأحكامها، وقضية العُذرِ بالجهل، وكذا التَّعرُّض للجانب الرُّوحي في دِين الإسلام، وهو جانبُ التَّصوُّف والسُّلوك ومظاهر وجودِه في بلاد المسلمين، فهذه تعدُّ أبرزَ القضايا والمسائل التي يبرز فيها الفِكرُ التَّكفيريُّ بمختلف صُوَرِه عند كثيرٍ من أتباع الحركاتِ المتطرفة المُعاصرةِ والتي يتمُّ من خلال تناولِها الظُّهورُ العمليُّ على أرض الواقع لفِكر التَّكفير، وإصدارُ أحكام الكُفر والرِّدَّة على الأشخاص والهيئات والمجتمعات.

- وهناك جانبٌ يجب أن يكونَ في ذِهن القارئ وهو يتابع فِكرةَ التَّكفير ومظاهرَه عند أصحاب هذه المناهج والجماعات- أنَّ تبنِّي هؤلاء لمبدأ التَّكفير كطريقٍ لتناولهم لهذه القضايا والمسائل هو في حقيقتِه أكبرُ دليلٍ على الضَّلال والانحرافِ؛ لأنه علاوة على ما جاء في النُّصوص الشَّرعيَّة من التَّحذير من رمي المسلمين بالكُفر والخروج من الدِّين فإنه يوضِّح لكَ أنَّ هدفَ هذه الطَّوائفِ التي ترمي النَّاس بالكُفر والشِّرك ليس توعيةَ النَّاسِ بأمر دينِهم وإرشادِهم، إنَّما هو مقدمةٌ لاستحلال الأموال والدِّماء، وإشاعة الفوضى في المجتمعاتِ، فما دام المرءُ قد وقع في الكُفر وكذا المجتمع فسوف يستحلُّ منه كلَّ شيءٍ عند مَن يرميهم بهذا، فطريقُ التَّكفير هو أقصر الطُّرق لتحقيق الأهداف الخبيثةِ عند الأفراد والطَّوائف التي تتَّخذه منهجًا لها في تصدُّرهم لقضية الدِّينِ والدَّعوة، وهناك جانبٌ

آخر يجب مراعاتُه عند التَّعرُّض لسلوك هذه الجماعات، وهو أنَّه قد لا يُوجد لدىٰ بعضِهم أيُّ كلامٍ عن التَّكفير أو أحكام الرِّدَّةِ عند تعرُّضِهم لمسألةٍ أو قضيةٍ، وإنَّما يُوجد لديهم نوعٌ من التَّكفير الخفيِّ الذي يتمثل في الانعزالية عن المجتمع في الحياة العملية وتجنب الانخراط في الحياة العادية بين النَّاس، فهؤلاء إنْ سُئلوا عن التَّكفير يُنكرونه أشدَّ الإنكار ولكنَّه يظهر في السُّلوكيَّات حتىٰ دون إرادةٍ منهم.

- وسوف نتناول فيما يلي بعضًا من الجماعات المعاصرةِ التي ظهرت علىٰ ساحة البلاد الإسلاميَّة في العقود الأخيرةِ، والتي ظهر من خلالِها فكرُ التَّكفير، سواءٌ كان ذلكَ بالأقوال أو الأفعال، والملاحَظ عند التَّعرُّض لهذه الجماعات أنَّ درجةَ ظهور الفِكر التَّكفيريِّ لديهم ليست علىٰ درجةٍ واحدةٍ، وإنَّما قد تظهر واضحةً جليَّةً عند مجموعاتٍ، في حين أنَّها تكون خفيةً عند مجموعاتٍ أخرىٰ يتمُّ استدعاؤها وقتَ الحاجة وكلَّما سنحت الظُّروف، وعلىٰ ذلك ننظر مدىٰ ظهور الفِكر التَّكفيريِّ ودرجته عند هذه الجماعات.

أ - التَّكفير في منهج الإخوان المسلمين:

عند الرُّجوع لِـمَا عليه جماعة الإخوان المسلمين ومُصنَّفات أكابرهم نجد أنَّ الفكر التَّكفيريَّ يَظهرُ التَّأصيلُ له من خلال تلك المُصنَّفات تصريحًا وإشارةً، ففكرة تكفير المجتمعات الإسلاميَّةِ تظهر بوضُوحٍ في مصنَّفات كثيرةٍ تمثل مرجعيةً فِكريَّةً ومنهجيَّةً للإخوان، خاصَّةً مصنَّفات الأخوَين سيِّد قطب ومحمَّد قطب، وسوف نقومُ في مبحث آخر عن الجاهلية برصد بعض مظاهر هذا الفِكر وبيان كيف أن أفكار هذه الجماعة تحتوي علىٰ أسس تكفيرية تُستغل لتبرير الأعمال الإجراميَّة.

إنَّ وجودَ فكر تكفير المجتمعاتِ الإسلاميَّةِ يُعدُّ مِن أوسع الأبوابِ لانتشارِ البُعد بين أفراد تلك المجتمعات، ولا نُنكِر أنَّ المجتمعاتِ المسلمةَ يوجد بها تقصيرٌ هنا أو هنالك،

لكن اعتقاد كفر المجتمع ينسحب في وُجدان المرء دون أن يدرِي إلىٰ الاعتقادِ بوقوعِهم في ضلالِ الشِّرك والكُفر، حتَّىٰ ولو لم يظهر ذلك علىٰ اللِّسان، وإنَّما يجدُ مَن يؤمِنُ بهذا الفِكرِ نفسِه منعزلًا لا إراديًّا عن مُجتمعِه وأهلِه وأُسرتِه، ويكون بذرةً صالحةً لتطوُّر الأمورِ عنده بعد ذلك إلىٰ تبني لغة العُنف والقوة في مواجهة هذه المجتمعاتِ الكافرةِ من وجهةِ نظرِه.

ب - التَّكفير في منهج جماعة التَّكفير والهجرة:

كانت جماعة التَّكفير والهجرة من أبرز الطَّوائف التي يتَمثَّل فيها الفِكر التَّكفيريُّ، وظهر عندها بصورةٍ واضحةٍ جليَّةٍ؛ فقد أطلقت علىٰ نفسِها جماعةَ المسلمين، وأطلق عليه أهلُ العِلْم جماعة التَّكفيرِ والهجرةِ، وهو اسمٌ ينمُّ عن صفتين من سمات هذه الجماعة: هو تكفير المجتمع والأفراد، والعُزلة عن المجتمع ومفارقته بالهجرة عنه.

ويُعد العنصر البارز والأكثر تأثيرًا في هذه الجماعة وأفكارِها هو شكري مصطفىٰ، وكان متزوجًا من شقيقة أحدِ المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين، ويُدعىٰ محمَّد صبحي مصطفىٰ، وكان من المتعاطفين مع فِكر الإخوان المسلمين في فترة الستينيَّات، وتمَّ القبض عليه عام 1965م، وأفرج عنه عام 1971م، وكانت كتابات سيِّد قطب عن المفاصلة والعُزلة وجاهلية المجتمعات الإسلاميةِ تُمثِّل النَّصيبَ الأوفرَ في مرجعيَّته الفِكرية، وفي فترة سجنه هذه- ونظرًا لما لاقاه في السِّجن من محنةٍ وتعذيبٍ- تبلورت أفكارُ شكري مصطفىٰ التي عُرف بها هو، والتي كان منها:

- يعد الحكمُ بالتَّكفير عنصرًا أساسيًّا في معتقدات هذه الجماعة، فهم يُكفِّرون نظامَ الحُكْمِ وقتئذٍ ممثَّلًا في رئيس الدَّولة وجميع مَن يعمل معه، وكل مَن رضي عن نظامِه، وتكفير جميعِ المجتمع بأفرادِه؛ لأنَّهم موالون للحُكَّام، وبالتالي لا ينفعهم صومٌ ولا صلاةٌ ولا أيُّ ممارسة لشعائر الإسلامِ.

- الانعزال والانفراد بأفراد جماعتِه عن المجتمع الجاهليِّ، والعُزلة عندهم نوعان: عُزلة مكانية، وعُزلة شُعورية، بحيث عندما تعيش الجماعةُ في بيئةٍ تتحقَّق فيها الحياةُ الإسلاميةُ الحقيقية، تعيش فيها الجماعة منفصلة عن الكفَّار؛ لأنهم اعتبروا أنَّ كلَّ مَن هو خارجٌ عن جماعتِه- والتي أسموها بجماعة المسلمين- سواء المجتمعات أو الأفراد من الكفَّار، وإذا ترك العضو جماعتَه اعتُبر كذلك من الكفَّار ويجب تصفيتُه جسديًّا.

- وقوع الأمة الإسلاميَّة في الجاهلية والكُفر من بعد القرن الرَّابع الهجري؛ لتقديسِهم التَّقليد في الأحكام من وجهة نظرهم، فعندهم يجب أنْ يعرفَ المسلمُ الأحكامَ بأدلَّتها، ولا يجوز لهم التَّقليد في أيِّ أمرٍ من أمورِ الدِّين، وأنَّ مَن يُسمون بعلماء الدِّين في القديم والحديث لا قيمةَ لهم وإنَّما المعتبرُ الكتاب والسُّنَّة.

- قالوا بترك صلاة الجمُعة والجماعة بالمساجد؛ لأنَّ المساجد كلَّها مساجدُ ضِرار، وأئمَّتها كفارٌ؛ إلا أربعةَ مساجدَ: المسجدَ الحرامَ، والمسجدَ النبويَّ، ومسجدَ قُباء، والمسجدَ الأقصىٰ، وهم لا يصلون فيها أيضًا إلَّا إذا كان الإمام منهم.

- يحرِّمون الانتسابَ إلىٰ المدارس والمعاهد والكليَّات إسلامية أو غير إسلامية؛ لأنَّها مؤسساتٌ للحكومات الكافرة، ويحرمون العمل في المؤسسات الحكومية حتىٰ لو كان العمل في ذاتِه مباحًا؛ لأن في ذلك دعمًا للمجتمع الكافر.

وقد تورَّطت هذه الجماعةُ في اغتيال وزيرِ الأوقاف المصري الشيخ محمد حسين الذهبي عام 1978م؛ بسبب انتقاد الشيخ الذَّهبيِّ لمنهج الجماعة الضَّالِّ، والتي انتهت بالقبض عليهم ومحاكماتهم والقضاء بإعدام شكري مصطفىٰ وآخرين.

ومن أبرز ما اتَّسمت به جماعةُ التَّكفير والهجرة- ما قاله مصطفىٰ شكري أمام هيئة محكمة أمن الدولة العليا (القضية رقم 6 لسنة 1977م) والتي نُشرت في الصُّحف المصريَّة يوم (1979/10/21م) جاء فيها: إنَّ كلَّ المجتمعات القائمة مجتمعاتٌ جاهليةٌ وكافرةٌ قطعًا، وبيان ذلك أنَّهم تركوا التَّحاكم لشرع الله واستبدلوه بقوانين وضعية، ولقد قال

الله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:44]. بيد أنَّ الأفرادَ أنفسَهم لا نستطيع الحكمَ عليهم بالكُفر؛ لعدم التَّبيُّن من ذلك؛ لذا فهم فقط جاهليُّون ينتمون لمجتمعٍ جاهليٍّ يجب التَّوقف في الحكم عليهم حتى يتبيَّن إسلامُهم من كُفرهم، إنَّنا نرفض ما يأخذون من أقوال الأئمَّة والإجماع وسائر ما تسميه الأصنام كالقياس، وبيان ذلك: أنَّ المسلمَ ملتزمٌ فقط بما ذُكر في القُرآن الكريم والسُّنة المطهَّرةِ، سواءٌ كان أمرًا أو نهيًا، وما يزيد عن ذلك عن طريق الإجماع أو القياس أو المصالح المرسلة فهو بدعةٌ في دِين الله، إنَّ الالتزام بجماعة المسلمين ركنٌ أساسٌ كي يكونَ المسلمُ مسلمًا، ونرفض ما ابتدعوه من تقاليدَ وما رخَّصوا لأنفسهم فيه، وقد أسلموا أمرَهم إلى الطَّاغوت: وهو الحكمُ بغير ما أنزل الله، واعتبروا كلَّ مَن ينطق بالشَّهادتين مسلمًا، إنَّ الإسلامَ ليس بالتَّلفُّظِ بالشَّهادتين، ولكنَّه إقرارٌ وعملٌ، ومن هنا كان المسلم الذي يفارق جماعةَ المسلمين كافرًا، الإسلامُ الحقُّ هو الذي تتبناه جماعةُ المسلمين، وهو ما كان عليه الرَّسول وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط، وبعد هذا لم يكن ثمةَ إسلامٌ صحيحٌ على وجه الأرض، حتى الآن حياة الأسرة داخل الجماعة مترابطةٌ ببعضِها بحكم عدم الاختلاط بالعالم الخارجي.

- ومن جوانب الفكر التَّكفيري عند هذه الجماعة قولهم: بتكفير كلِّ خارج عن جماعتِهم؛ لأنَّهم جعلوا من جماعتِهم جماعة المسلمين، وهذه صورةٌ لحوارٍ دار بين عبدالرحمن أبي الخير ورجلٍ آخر من جماعة مصطفى شكري:

أبو الخير: لماذا لا نصلي على الشيخ صالح سرية، وكارم الأناضولي[1]؟

الآخر: لأنَّا بلغناهم الحقَّ فرفضوا.

أبو الخير: علامَ اتَّفقتم وعلامَ اختلفتم؟

---

(1) صالح سرية وكارم الأناضولي شخصان من قيادة جماعة مخالفة لجماعة شكري مصطفى، وهي الجماعة المعروفة بجماعة: ((الفنية العسكرية)).

الآخر: اتَّفقنا في مسألة أقوال الصحابة، وأقوال الفقهاء فهم يأخذون بهذه الأقوالِ ونحن لا نقول بها.

أبو الخير: ولكني قرأتُ محاكمة (صالح)، وسمعتُ مرافعة (كارم) عن نفسِه، فتبيَّنت وضوحَ المصطلحات: ((الطاغوت، والكفر، والإيمان، والجاهلية، والإسلام)). فضلًا عن إدراك كارم لطبيعة المعركةِ ضدَّ الحركة الإسلامية عبرَ السِّنين.

الآخر: ولكنَّهما رفضا أنْ يُبايعا الجماعةَ ونحن جماعةُ الحقِّ ومَن عدانا فليس بمسلمٍ.

أبو الخير: ألا يجوز أنْ نعترف بالأمرِ الواقعِ وتعدُّدِ الجماعات القائمة علىٰ التَّصوُّر الصَّحيح؟

الآخر: لا يجوز أنْ تتعدد الجماعةُ المسلمةُ. اهـ.[(1)].

- فهذه الجماعة بمعتقدِها ومنهجِها تعد فاتحة انتشارِ الآراءِ التَّكفيريَّة في البلاد الإسلاميَّة في العصر الحديث؛ لأنَّه وإنْ كانت هذه الجماعة قد قُضي علىٰ وجودِها ككيانٍ ماديٍّ، إلَّا أنَّ كثيرًا من أفكارِها ظلَّت موجودةً وتأثَّرت بها جماعاتٌ أخرىٰ ظهرت بعد ذلك، سواءٌ بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ.

جـ - التَّكفير في منهج الجماعات الجهاديَّة:

ونقصد بالجماعات الجهاديَّةِ جميعَ أشكالِ المجموعات التي اتَّخذت من استخدام القوَّةِ بكافَّة صُورِها ودرجاتِها منهجًا لتحقيقِ أهدافِها، وما ترىٰ أنَّه يُمثِّل عندها صحيح الدِّين ومنهجَ أهل السُّنة والجماعة ومراد الله من المسلمين في هذه الأرض، متَّخذةً لها عدَّة شعاراتٍ منها: عودة الخلافة الإسلامية أو إقامة الدَّولة الإسلامية، العُنوان الذي تنضوي تحته هذه الجماعات التي بلغَت مِنَ الكثرة حدًّا يصعب معه حصرُها وضبط منهج

(1) انظر: الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة (ص304) لعبدالرحمن بن معلا اللويحق- الطبعة الأولىٰ- 1992م- مؤسسة الرسالة- لبنان.

وطريقة كلٍّ منها، ولكنَّ الثابت في حقِّ كلِّ هذه الجماعاتِ هو استمدادُ أصولِ مناهجها وخُطواتِ تحقيقِ أهدافِها من مذهب الخوارج الأوائل، ويظهر ذلك جليًّا واضحًا في استحلالهم تكفير المسلمين، وتجهيل المجتمعاتِ، والخروج علىٰ وُلاة الأمور، وإشاعة الفوضىٰ، متَّخذينَ من ادِّعاء الجهادِ في سبيل الله ونُصرة الدِّين ستارًا لتبرير أعمالِهم، آخذينَ بمبدأ الانتقاء من الآيات القُرآنية والنُّصوص الشَّرعية والأحكام الفقهيَّة ما يوافق أهواءَهم، ويغضُّون الطَّرف عن ضوابط التَّعامل مع هذه النُّصوص وفهمِها ووجه الدلالة فيها، وفيما نزلت أو لأيِّ مناسبةٍ قيلت فيها، أو هل ما يأخذون به من أحكامٍ فقهيَّةٍ يتَّخذونها مبرِّرًا لأعمالهم متوافقٌ من جميع نواحِيه ومتطابقٌ مع الحالة والوقتِ والظُّروفِ التي يعيشها المسلمون الآن؟!

ودرجة ظهور الفِكر التَّكفيري في هذه الجماعات ليست واحدةً، فقد تظهر درجةُ التَّكفير ساطعةً واضحةً في منهجِ جماعةٍ وسُلوكِها، وتُعلن بالقول الصَّريح تبنِّيها للتَّكفير وتوزيع أحكامِ الرِّدَّةِ والخروج من مِلَّة الإسلام، وأنَّ هذا هو الدِّين، بل وتُنفِّذ من الأعمال علىٰ أرض الواقع ما يؤكِّد ذلك.

وقد يختفي هذا الفِكر التَّكفيريُّ في منهج جماعةٍ أخرىٰ تحت ستارٍ من العِلْم والفِقه والعمل الدَّعوي ونشر عقيدة التَّوحيد، لكنه يظهر من خلال تناولِهم لقضية الحاكميَّة والحُكم بما أنزل الله، والكلام عن الشَّريعة الإسلاميَّةِ، والتي تُعَدُّ المدخل الواسع لظهور فِكْرِ التَّكفير، إلىٰ جانب الكلامِ عن جهاد الكفَّار والمرتدِّين، وبابِ الولاء والبراء، وأبوابِ إنكار المُنكَر والعمل علىٰ تغييره، فتظهر حقيقةُ مذهبِهم التَّكفيري أثناءَ تناولهم لمثل هذه المسائل.

وهناك من الجماعات مَن تُنكر تبنِّيها لفِكر التَّكفير بل وتتبرَّأ منه، ولكنْ بالنَّظر إلىٰ طبيعة موقفِهم من أفعال وأقوالِ جماعاتِ العُنف تجد صمتًا وعدمَ إنكارٍ منها لأيِّ فعل من هذه الأفعالِ، وإنِ اضْطُرَّت تحت ضغطِ الواقعِ والظُّروفِ إلىٰ تبني موقفٍ محددٍ تجاه

مثل هذه الأمور فيتمُّ استدعاءُ مذهب التَّقيَّة والأخذ به، وإظهارُ إنكارٍ زائفٍ مُخالفٍ لما في النَّفس من تقبُّل وتفهُّم فِكر التَّكفير وما ينتج عنه من أعمال.

وسوف نحاول رصدَ أقوالٍ لبعض المنتمينَ لأمثال هذه الجماعات فيما يتعلَّق بظهور فِكر التَّكفير، وإن كان من الصَّعب في بعض الأحيان العثورُ على العبارات الصَّريحةِ في التَّكفير لبعض المنتمين لهذه الجماعات، ولكن ظهوره يكون من خلال تبنِّي المواقفِ من الأحداث، وما يتمُّ اختياره من الفتاوى التي تُؤيِّد ما يرمون إليه نجد عندهم القابليةَ لفكرة التَّكفير، ولنَرَ الآن بعضًا من هذه النَّماذج الصَّريحة أو الخفيَّة من خلال أقوالِ وتصريحاتِ أفرادِ هذه الجماعاتِ:

أولًا: الجماعة الإسلاميَّة في مصر من خلال كتابهم:

«ميثاق العمل الإسلامي»، والذي تمَّ كتابتُه في السِّجن أثناء وجود قيادات هذه الجماعة في السُّجون المصريَّة، وبالتحديد في عام 1984م من أمثال: عاصم عبدالماجد، وعصام الدِّين دربالة، مقدِّمين فيه ملامح منهجهم والذي يقولون فيه: «مَن منَّا لا يتمزَّق وهو يرى أُمَّته تتفتت، وعقائدَها تتخبَّطُ بين الإرجاء والتَّكفير، وتتنازعها البدعُ والأهواءُ والخزعبلات، فالحكَّام موالون موالاةً صريحةً وقبيحةً للشَّرق أو للغربِ وكلاهما كافرٌ، والحبُّ كلَّ الحبِّ لليهود والنَّصارى، والعداءُ والحربُ والكيدُ والمكرُ للإسلامِ وأهلِه، وهم في ذات الوقت تاركون الحكم بكتاب الله، مبدلون للشَّرع، وهم بعد كلِّ هذا ورغم كلِّ هذا يدَّعون أنَّهم مسلمون»[1].

- ثم يقول قائلُهم لتوصيف الواقع: «وتبحث في وسط هذا الركام عن عقيدة سلفنا الصَّالح فلا تكاد تراها، فلقد تاهت وغابت عن العقول والقلوبِ، وضاعت مظاهرُ

(1) الجماعة الإسلامية- ميثاق العمل الإسلامي (ص26)، «ويجب ملاحظة أن هذا الكتاب غير مطبوع عن طريق دور نشر أو ما شابه ذلك، أو متداول في الأسواق بالطُّرق المعتادة، إنما هو من خلال مواقع الجماعة على شبكة المعلومات الدولية والمواقع الجهادية».

وجودِها وتلاشت من حياة النَّاس أفرادًا وجماعاتٍ إلَّا مَن رحم ربُّك وقليلٌ ما هم، وتبقىٰ كلُّ هذه الصُّور التي نراها في صفحة الواقع- تبقىٰ دليلًا علىٰ أنَّ الإيمانَ الحقَّ غائبٌ عن مجتمعاتِنا، وأنَّ العقيدةَ تائهةٌ عن القلوب أو مُضْطَربةٌ مهزومةٌ فينا علىٰ الأقل))[1].

- وعن أهدافهم يقولون: ((لذا كان هدفنا أن نعيدَ هذه الفلول الشاردةَ الآبقةَ الضَّالَّةَ عن صراطه المستقيم- نعيدُها إلىٰ فِطرتها التي فُطرت عليها، ونردُّها إلىٰ رُشدها، وهو ما عنيناه بقولنا: (تعبيد النَّاس لربِّهم) تعبيد النَّاس لربِّهم في عقائدِهم وشرائعِهم وأخلاقيَّاتهم ومعاملاتهم وتحاكمهم وتقاليدهم، وحيث إنَّ ذلك يتطلَّب أنْ يكون النِّظام السِّياسيُّ الحاكمُ المهيمنُ علىٰ النَّاس ومجتمعاتِهم نظامًا معبَّدًا هو الآخر لله، نظامًا يدين بالإسلام ويعمل به ويحكم به، يحمي للنَّاس دِينَهم، ويدفع عنهم شياطين الإنس والجِنِّ التي تريد أن تخرجَهم من دِين الله، وحيث إنَّ النَّاس يعيشون في ظلِّ نظامٍ غير إسلاميٍّ- أي: غير مُعبَّد لله- يعني أنَّ النَّاس لن يتحاكموا للإسلام ولن يستطيعوا أنْ يُقيموا دينَهم كاملًا، كما أنه يعني وجود سُلطةٍ ذاتِ سُلطان تحاول إخراجَ النَّاسِ من دِين الله وإدخالهم في شِرعتها الجاهليَّة بكافَّة ما تملكُه من وسائلَ ونفوذٍ وإمكاناتٍ وعتادٍ))[2].

فيظهر من كلمات هذه الجماعة تكفير الحُكَّام وأنظمة الحُكم، وترىٰ أنَّ الإيمانَ الحقَّ قد غاب عن مجتمعات المسلمين، وأنَّ العقيدةَ الحقَّة غائبةٌ عن بلاد المسلمين.

ثانيًا: جماعات الجهاد المصرية:

يندرج تحت اسمِ جماعة الجهادِ في مصرَ مجموعاتٌ كثيرةٌ اتَّخذت من العمل الصِّدامي واستخدام القُوَّة ضدَّ أجهزة الدَّولة ونظامِ الحُكم منهجًا لها، فكانت هذه الصِّفة هي أحد

(1) الجماعة الإسلامية- ميثاق العمل الإسلامي.

(2) المصدر السابق، تحت عنوان: هدفنا.

السِّمات البارزة في تكوين ونشاط هذه المجموعات، ومن أمثلة هذه الجماعات التي اندرجت تحت مُسمَّىٰ جماعات الجهاد:

أ- التكفير في منهج جماعة الجهاد:

تأسَّست عام 1964م علىٰ يد علوي مصطفىٰ، وإسماعيل طنطاوي، وأيمن الظواهري، ونبيل البرعي، ومن أبرز أسماء المنتمين وقتئذٍ رفاعي سرور، وكان هدفهم العمل علىٰ إقامة الدولة الإسلامية، واقتلاع النِّظام الكافر المعادي للإسلام في مصر وذلك عن طريق تبني مبدأ الانقلاب العسكري عن طريق محاولة التَّغلغل واختراق صفوف الجيش، وذلك من خلال الدَّفع بالأشخاص المنتمين لهذا التَّنظيم في دخول الكليَّات العسكريَّة ممَّا يُؤهِّلهم بعد ذلك من التَّمكُّن من إحداث التَّغيير المطلوب بالقوَّة المُسلحة، وقد اعتمدت هذه الجماعة علىٰ كتابات سيِّد قطب- خاصةً كتابي: ((في ظلال القرآن، ومعالم في الطريق)) في مرجعيَّتهم الفكريَّة وإصباغ الشَّرعية علىٰ فِكرهم التَّكفيريِّ وجاهليَّة المجتمع.

ومِن مظاهر وجود فِكر التَّكفير في هذه الجماعة وجود خلافٍ بين أعضاء هذا التَّنظيم أثناء خوض مصرَ لحرب تحرير أرضِها مع إسرائيل عام 1973م وما حقَّقته من انتصاراتٍ، وكان خلافُهم بشأن مدىٰ إسلام ضباط الجيش من أعضاء التَّنظيم الذين شاركوا في الحرب، خاصةً مَن مات منهم، فتزعَّم بعضُهم القولَ بأنَّهم غير شهداء؛ لأنَّهم قاتلوا تحتَ راية الطَّاغوت وتحقيق أهدافِه.

ب - التكفير في منهج تنظيم الجهاد:

الذي ظهر علىٰ أرض الواقع علىٰ يد المهندس محمَّد عبدالسَّلام فرج عام 1980م، والذي ضمَّ كلًّا من عبود الزُّمر وطارق الزُّمر وأحمد سلامة، وهو التنظيم الذي تمَّ علىٰ يديه اغتيال الرئيس الرَّاحل محمَّد أنور السَّادات رحمه الله خلال الاحتفال بذكرىٰ نصر

أكتوبر عام 1981م، و محمَّد عبدالسَّلام فرج هو مؤلِّف كتاب: «الفريضة الغائبة» الذي يُعد دستور ومرجعيَّة هذا التَّنظيم، بل إن محمَّد عبدالسَّلام فرج يعد الفيلسوف والمُنظِّر له والرَّاسم لخُطُواته وأفكاره التي تمثَّل في كُفر الأنظمة الحاكمة لبلاد المسلمين ووجوب الجهاد ضدَّهم.

- ومن أقواله في هذا الكتاب تحت عنوان: «العدو القريب والعدو البعيد» يقول:

«وهناك قولٌ بأنَّ ميدانَ الجهادِ اليوم هو تحريرُ القُدس كأرضٍ مقدَّسة، والحقيقة أنَّ تحرير الأراضي المُقدَّسة أمرٌ شرعيٌّ واجبٌ على كلِّ مُسلم؛ ولكنَّ رسولَ الله ﷺ وصف المسلمَ بأنَّه: «كَيِّسٌ فَطِنٌ»[1]. أي أنَّه يعرف ما ينفع وما يغير، ويُقدم الحلولَ الحازمةَ الجذريَّةَ، وهذه نقطةٌ تستلزم توضيح الآتي:

أولًا: أنَّ قتال العدوِّ القريب أولى من قتال العدوِّ البعيد.

ثانيًا: أنَّ دماءَ المسلمين ستنزف حتى وإنْ تحقَّق النَّصرُ! فالسُّؤال الآن: هل هذا النَّصر لصالح الدَّولة الإسلامية القائمة؟ أم أنَّ هذا النَّصر لصالح الحُكم الكافر؟ وهو تثبيتٌ لأركان الدَّولة الخارجةِ عن شرع الله؟ وهؤلاء الحُكَّام إنَّما ينتهزون فرصةَ أفكار هؤلاء المسلمين الوطنيَّة في تحقيق أغراضِهم غير الإسلامية وإنْ كان ظاهرها الإسلام، فالقتال يجب أنْ يكونَ تحت رايةٍ مسلمةٍ وقيادةٍ، ولا خلافَ في ذلك.

ثالثًا: أنَّ أساس وجود الاستعمار في بلاد الإسلام هم هؤلاء الحُكَّام، فالبدء بالقضاء على الاستعمار هو عملٌ غيرُ مُجدٍ وغيرُ مفيدٍ وما هو إلَّا مضيعةٌ للوقتِ، فعلينا أنْ نُركِّزَ على قضيَّتنا الإسلامية، وهي إقامة شرع الله أولًا في بلادِنا، وجعل كلمة الله هي العليا،

(1) ورد ذلك في حديث؛ أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (1/ 107)، والديلمي في مسند الفردوس (175/4) من طريق سليمان بن عمرو النخعي عن أبان عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن كيِّسٌ فطنٌ حذر». وضعفه العجلوني في كشف الخفاء (293/2) وسليمان بن عمرو النخعي: كذاب. انظر: لسان الميزان (163/4).

فلا شكَّ أنَّ ميدانَ الجهادِ هو اقتلاع تلك القيادات الكافرة واستبدالها بالنِّظام الإسلاميِّ الكامل، ومن هنا تكون الانطلاقة))[1].

فكانت المجموعات التي تستظل بمظلة الجهاد والتي استمرَّت في وجودِها وتطوُّرِها بعد ذلك يتَّضح في مناهجِها مظاهرُ وجودِ فِكر التَّكفير واستحلال دماءِ المسلمين، وذلك من خلال تبنِّيها لعدَّة أفعالٍ تُنبئ عن ذلك مثل:

1- محاولات استهداف واغتيال العديد من ضباط الشُّرطة المصريَّة، خاصةً في فترة التسعينيات من القرن العشرين.

2- الهجوم على مديرية أمن أسيوط في عام 1981م بعد اغتيال الرئيس السادات، والاشتباك مع ضباط وجنود الشرطة مما أدَّى إلى مصرع كثير من الأبرياء، الذين تقع على عاتقهم مهمَّةُ حفظ الأمنِ في الشَّارع المصري.

3- محاولة اغتيال وزير الدَّاخلية الأسبق اللواء حسن الألفي عبرَ تفجير أحدِ أعضاء التنظيم نفسه في موكب الوزير أمام الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد قُتل عضو التَّنظيم، فين حين أُصيب الوزيرُ وعددٌ من حُرَّاسه بجراحٍ بالغةٍ، وذلك في صيف سنة 1993م.

4- محاولة اغتيال رئيس الوزراء الأسبق عاطف صدقي بتفجير موكبه بسيارةٍ ملغومةٍ تم تفجيرُها عن بُعد بأحد شوارع حي مصر الجديدة بالقاهرة، ولم يُصب رئيس الوزراء بأذًى، ولكن أُصيب بعضُ المارة بإصاباتٍ مختلفةٍ عام 1993م.

وتُعد جماعة الجهاد وأفكارها هي التي خرجت منه جماعاتُ السَّلفية الجهاديَّة في السَّنوات القلائل الأخيرةِ في مصر، فنجد التَّشابه الواضحَ في الأفكار والمنهجِ، مما يمكن معه القول: إنَّ جماعات السَّلفية الجهاديَّة ما هي إلا تنظيمُ الجهاد المصريِّ القديم في ثوبه الجديدِ، فنجد التَّشابه والتطابق بين هذه الجماعات وبين تنظيم الجهاد من حيث كُفر

(1) من كتاب الجهاد الفريضة الغائبة- لمحمَّد عبدالسلام فرج، والذي كتبه عام 1981م، وهو من الكتب المعتمدة عند جماعة الجهاد.

الحُكَّام، وحتميَّة الجهاد، وعودة الخلافة الإسلامية، واستحلال قتل أفرادِ الجيشِ والشُّرطة، وتميَّز الخطابات الجهادية بطابع الحديث عن كفر الطَّواغيت الذين يحكمون بلاد المسلمين، ووجوب جهادهم والخروج عليهم، والحديث عن الولاء والبراء في الشَّريعة الإسلامية، وجعله بابًا كبيرًا من أبواب التَّكفير للمسلمين.

جـ - التَّكفير في منهج داعش:

داعش هي آخرُ الثمار المرَّة التي نتجتْ من شجرة التَّكفير، وهي عبارةٌ عن تنظيم مُسلحٍ يتبنَّى الفكرَ السلفيَّ الجهاديَّ التَّكفيريَّ لكن بصورةٍ أكثر وُضوحًا ودمويةً، وأصبح يُسمِّي نفسَه الآن الدولةَ الإسلاميَّةَ، والهدفُ من هذا التنظيم- فيما يزعمون- إعادةُ الخلافةِ الإسلاميَّة، وهو منتشر في بعض البلدان مثل سوريا والعراق وبعض أماكن المغربِ العربيِّ، وزعيم هذا التَّنظيم هو أبو بكر البغدادي.

ففي (29/4/2013م) تمَّ إعلانُ الدولة الإسلاميَّة في العراق والشامِ مع كلمة صوتيَّةٍ بثْتها قناة الجزيرةِ، ثم بعد ذلكَ أعلنتْ (داعش) بتاريخ (29 يونيو 2014م) الخلافةَ الإسلامية ومبايعةَ أبي بكر البغدادي خليفةً للمسلمينَ، وقال النَّاطقُ الرَّسميُّ باسم الدولةِ أبو محمَّد العدناني إنَّه تم إلغاءُ اسمي العراقِ والشامِ من مسمى الدولة، وأن مقاتِليها أزالُوا الحدودَ التي وصفها بالصنم، وأن الاسمَ الحالي سيلغى ليحل بدلًا من اسم الدولة الإسلامية فقط[1].

ولو نظرنا إلى طبيعةِ ما تقومُ به هذه الجماعة المعروفةُ بداعش على أرضِ الواقع لأدركنا تطابُقَ ما جاءَ من الأحاديث النبويَّةِ الشريفةِ المحذرةِ من طائفة الخوارجِ وحالهم على هذه الجماعة الضَّالَّة.

(1) موقع الـ BBC العربي على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

وأيضًا لو نظرنا علىٰ أرض الواقع وما تقوم به من أعمال عنفٍ وسفكِ دماءٍ وتخريبٍ لبلاد المسلمينَ تجدُ الصِّلةَ الوثيقةَ بين الخوارج الأوائل المؤسِّسينَ والأحفاد الداعشيِّينَ، تجدُ ذلك في أصولِ الاعتقادِ من حيث إنَّهم يرونَ كُفْرَ من لم يكن علىٰ طريقِهم ومنهجِهم، ويعتبرونَ أنفسَهُم جماعة المسلمينَ، وأضافُوا مِنْ عندهم أنَّهم أصبحوا أداةً من أدوات تَفتيتِ شمل أمة الإسلام والعمل علىٰ إضعافِ كيانها، بل واقعُ الحال يُنبئُ عن عمالتِهم للدولِ الأجنبيَّةِ التي تَعملُ علىٰ تخريبِ بلاد المسلمينَ والنَّيْلِ منهم بدون أن تُراقَ لهم في ذلك الأمر قطرة دمٍ واحدةٍ، ولم لَا وقد وَجدُوا في بعض المغفلينَ من المُنتسبين للإسلام من يقوم بذلك نيابة عنهم، فخرجت هذه الطَّائفةُ الضَّالةُ علينا بمُسمَّىٰ دولة الخلافة بزعامة أبي بكر البغداديِّ سائرة علىٰ دَربِ أسلافهم الخوارجِ فذهبوا يكفِّرون مَنْ لم يسمع لهم ويأخذْ برأيهم ويستحلونَ دمَه ويرون المسلمين إما كفارًا أو مرتدين، وعليهم إن أرادوا أن يعصمُوا أنفسهم ودماءهم وأعراضَ نسائِهم أن يُسلمُوا من جديدٍ، ثم يقوموا ببيعةِ الخليفةِ البغداديِّ المزعوم؛ الذي تولَّىٰ أمر قيادة الأمة المحمدية، وهكذا شاهدنا علىٰ شاشات الفضائيَّاتِ أصنافًا من الناس تحت التَّهديدِ والخوفِ في مدينتي الرَّقَّة والموصل وفي القرىٰ التي استولَىٰ عليها هؤلاء الفجرَةُ يقفون الساعات الطِّوالَ في المساجدِ لإعلان إسلامِهم من جديدٍ ودخولهم تحتَ إمرة داعش ومبايعةِ الأمير الذي أوكلَ إليه الخليفةُ البغداديُّ المزعوم أخذ البيعة من رَعَاياه المخلصين، هذا وإلا فمصيرُهم معروفٌ محتومٌ وهو القتل.

والمتابع لنشأةِ هذا التَّنظيم سيتوقف قليلًا وهو ينظر إلىٰ المستوىٰ الثَّقافيِّ والفقهيِّ لقادة هذه الفئة الضَّالَّة وتلك السَّطحيَّة التي يتميزونَ بها في الفهم والمعرفة، والتي يحاولونَ التَّغطية عليها بغطاءِ التَّشدُّد والعنف اللفظيِّ والجسديِّ تحت مُسمَّىٰ الجهاد، فالتَّوقفُ أمام هؤلاء القادةِ والتمعُّنُ في حالهم يكشفُ لنا أننا إزاءَ جهلة بالدين والسِّياسة معًا فكيف بالأتباع؟!

وما فعلتْه داعش موثَّقٌ بالصوت والصورة في شتَّى أنحاء العالم، بل على المواقع الخاصَّة بهم على شبكة المعلومات الدولية ((الإنترنت)) وتمثلت أفعالهم فيما يلي:

1- تشويهُ صورة دينِنا الحنيفِ واستغلاله لتحقيقِ الأهدافِ الشخصيَّة والأطماع الطائفيَّة، فلا هم نصروا دينًا ولا أقاموا دنيا، بل أساءوا إلى الإسلام بأفعالهم الخبيثة.

2- قيامُهم بذبح المخالفِ لهم بأبشع الطُّرُق بدون رحمةٍ أو شفقةٍ تحت مُسمَّى أنهم بذلك يطبقون الحدودَ.

3- القِيامُ بسبي نساء المسلمينَ وغيرِ المسلمينَ تحت ستار الدِّين والجهاد وفتح أسواقِ النخاسة، محقِّقين بذلك أغراضهم الدَّنيئة، وتوزيعهنَّ كغنائم على بعضهم البعضِ.

4- دعوتهم لهجرة المسلمينَ إليهم من دِيارِ الكفر إلى دولة خلافتِهم المزعومةِ، بل قد وَصلَ الأمرُ بأنَّهم يدعونَ المهاجر إليهم بأن يقتل ذَوِيه إن لم يكونُوا على نفس منهجِه، بحسبِ ما ذكره مرصد دارِ الإفتاء المصرية لفتاوى التَّكفيرِ.

5- دعوتهم الفتياتِ عبر مواقعهم الخاصة إلى ما يُسمى بزواج الفيديو كونفرانس؛ تمهيدًا لسفرهم بعد ذلك إلى مناطق هذا التَّنظيم الإرهابيِّ، للعمل على استقطابِ منتمين جدد للتنظيم من خلال زعم توفيرِ زوجة للمنتمي لهُم.

6- العملُ على تجنيدِ الأطفالِ بغَرْسِ مبادئ تنظيمِهِمْ الضَّال داخلهم عن طريقِ نَشْرِهم لدليلٍ إرشاديٍّ يشرح للأمهاتِ المنتمياتِ لهذه الفئة كيفيَّة تنشأة أطفالهنَّ؛ طبقًا لمبادئ وتعليماتِ التَّنظيم، لضمان استمرار وُجود جيل يؤمنُ بشرعية تنظيمهم، وأنَّه هو التمثيل الحقيقيُّ للإسلامِ.

7- استحلالُ حرقِ مَنْ يقع في أيدِيهم من المخالفينَ والأسرى متذَرِّعين في ذلك بفتاوَى ضالَّةٍ من أئمتهم، مستندينَ فيها إلى الأخبار الواهية بشرعية ذلك في دين الإسلام، متناسين أنَّ الإسلامَ قد أمر بالإحسان إلى أسرى الحُروب.

8- تصدريهم أقوالهم وبيانتهم بـ: قد جئناكم بالذَّبح. بل قد أصدر هذا التَّنظيمُ الضَّال فتوىٰ بعنوان: ((الذَّبح فريضة إسلامية غائبة)) فقد زعمتْ هذه الفئة الفاجرةُ أن نبيَّ الرَّحمة صلواتُ الله وسلامه عليه قد جعل من القَتلِ والذَّبحِ شعارًا لهذا الدين الكريمِ.

تلك كانت صورةً من أفعالهم المخزيةِ المَشينةِ، وهي أفعال كشفتْ فسادَ وخُبثَ منهجهم أمامَ الجميع، وقد تكون في ذاتها حصنًا ودِرعًا لأيِّ مُسلمٍ عاقلٍ يعلمُ ولو أقلَّ القليلَ عن دينه أنَّ هؤلاء القوم هم أهل ضلالٍ، وأنَّ دين الرحمة لا يمكنُ بأيِّ حالٍ من الأحوال أن يكون دين الإفساد في الأرض ودين سفكِ الدِّماءِ.

التكفير في فكر الجماعات السَّلفية

يُعدُّ مصطلح السَّلفية مُصطلحًا كبيرًا واسعًا يدخل فيه كثيرٌ من الأفراد الذين يحبُّون أن يُسَمَّوا بهذا الاسم ((السَّلفية))، وينسبون فِكرَهم ومنهجَهم إلىٰ السَّلف الصَّالح والقرون الفاضلة الأولىٰ، وإنْ كان في صِحَّة تسميتهم بهذا الاسم نظرٌ، وهي طَوائف كثيرةٌ ومنتشرةٌ ليست في مصرَ فقط ولكن في جميع أنحاءِ البلادِ الإسلاميَّةِ وجميع بلاد العالم، فمظاهر التَّكفير عند هذه الطَّوائف تأتي بتبنِّيها لتجاوزِ الحدِّ والمغالاةِ بغير حقٍّ في رَمي النَّاسِ بالكُفر والمروقِ من الدِّين ويتَّخذون، من الدعوة إلىٰ التَّوحيد وسيلةً لتوزيع أحكام التَّكفير والتبديع علىٰ عامَّة المسلمين ممَّن لا يرَون رأيهم وليسوا علىٰ مذهبِهم، وتظهر من خلال مُسمَّىٰ السَّلفية ثلاثُة صورٍ؛ وهي: ((السَّلفية العلميَّة-السَّلفيَّة الحركيَّة-السَّلفيَّة الجهاديَّة)).

أولا: السلفية العلمية:

هي الطَّائفة التي تزعم أنَّها تجعل من طلب العِلْمِ الشَّرعي طريقًا للإصلاح، وتعمل علىٰ تأصيل منهجٍ خاصٍّ بهم لفهم الدِّين أصولًا وفروعًا، وإصلاح المفاهيم وفق مرجعيَّة خاصَّة بهم، وما يتبع ذلك من تبني طُرق وأشكالٍ في التَّطبيق، ومحاولة الرَّبط

بين ما يتبنُّوه من المنهج والأفكارِ وبين السَّلف الصَّالح في محاولةٍ لإثبات تفرُّد منهجهم بالصَّحة والعِصمة، ويعتمدون في ذلك على تراث عُلماء محدَّدين من أمثال ابن تيميَّةَ وابن قيِّم الجوزية لا يتعدُّونَهم إلى غيرِهم، ويجعلون منهما الحَكَم والفَيصل في كثير من الأمور العلميَّة والعمليَّة مما صبغ هذا المنهجَ بطريقةٍ واحدةٍ في تناوله وفَهْمِه للقضايا والمسائل الدِّينية القديمة والحديثة منها على السَّواء، وتُعد السَّلفية العلميَّة هي المصدر والمرجعيَّة الحقيقية لأي انطلاقةٍ حركيَّة عمليَّةٍ على أرض الواقع مهما اختلفت صورُها وأشكالُها، ممَّا يجعلها الأخطر والأكثر تأثيرًا خاصَّةً في مجال تبنِّي فكرةِ التَّكفير أو التَّبديع تُجاه بعض القضايا أو المذاهب، وملامحُ الدَّعوة عندهم هو الدَّعوة إلى إصلاح عقائد النَّاسِ، وتنقية ما يعدونه من مظاهر الشِّركِ والبدع في أُمَّة الإسلام، ومحاربة التَّصوفِ، والدَّعوة إلى عدم الأخذِ بالمذاهب الفقهيَّةِ في الأحكام؛ بزعم الاحتكام إلى الدَّليل والأخذ المباشر من الكتاب والسُّنَّةِ، وتبنِّي نمطٍ محددٍ خاصٍّ بهم في مجال التَّزكية والتَّربية لا يتعدونه.

ثانيًا: السَّلفية الحركية:

وهي الطائفة التي تتحرك نحو تكوين رأي وموقفٍ محدَّدٍ لأتباعها تجاه قضايا ومسائل معيَّنة، خاصةً قضايا الحاكميَّة وتحكيم الشَّريعة، فهي بالإضافة إلى اعتمادها على ثمار ونتاج السَّلفية العِلميَّة من الأشخاص المنتمين لها والأفكار الخاصة بها فهي تتبنَّى نشرَ قضايا تكفير الحُكَّام، والولاء والبراء، والدَّعوة للجهاد، وجاهلية المجتمع، والعمل على نشر هذه الأفكار بين أكبر قدر من الناس، مع ادِّعائهم رفضهم للعمل المُسلَّح، أو تبني منهج العُنف والصِّدام مع السُّلطة، فهم ينطلقونَ من السَّلفيَّة العلميَّة، ولكنهم يُركِّزون على قضايا محددةٍ يدعون إليها ويهتمُّون بها.

ثالثًا: السلفية الجهادية:

هي التي تُؤمن بمبدأ المفاصلة مع المجتمعات والحكوماتِ، وتتبنَّىٰ الأعمالَ الجِهاديَّة المسلحة داخليًّا أو خارجيًّا؛ للعمل علىٰ التَّخلص من أنظمة الحُكم في البلادِ الإسلاميَّة، وينطلقون من مرجعيَّة تبنيهم تكفيرِ أنظمة الحُكم وأجهزة الدَّولة الأمنيَّة ومَن يقبل بهم من المجتمع، ويقولون: إنَّ ذلك هو الطَّريق الأمثل لتغيير المجتمعاتِ وليس العُكوف علىٰ طلب العِلْم والتَّربية، وينتقدون التَّيَّارات السَّلفية الأخرىٰ، ويعتبرون أنفسَهم أنَّهم يعملون وفق المنهج السَّلفي، ويزعمون النِّسبة إليه.

- وسوف نتعرَّضُ الآن لبعضٍ من مظاهر الفكر التَّكفيريِّ عند التيار السلفيِّ، والتي تنبعثُ من اعتقاد المنتمينَ إليه من أنهم حملةُ الحقِّ دون غيرِهم، وأنَّهم يمثلون مذهب أهل السُّنةِ والجماعة والفرقة الناجية، وكذلك هم المتصلونَ بالسلف الصالح، وعلىٰ ذلك فمِنْ حقِّهم التَّوجيه الديني والفكري لباقي أفراد المسلمين وفَرْض ما يتبنونه من آراءٍ، وتولي إصلاح عقائد الناس وفقًا لتصوراتهم وقناعتهم الفكريَّة.

- فالتيار الذي يسمِّي نفسه اصطلاحًا بالسلفية العلميَّة يُعدُّ من أخطر منابعِ وجودِ الاتِّجاه التَّكفيريِّ المتشدِّد عند كثيرٍ من الناس؛ باعتباره الذي يؤصِّلُ لتبني هذه الأفكار وينشرُها في الكتب من خلال تبنيه نهجَ تبديع وتفسيقٍ وتكفيرِ كثيرٍ من طوائف المسلمينَ ممَّن لا يرونَ رأيَهم ولا يعتنقون مذهبَهم، وذلك من خلال وسائلَ عديدة كنشر الكتب التي تشتملُ علىٰ هذا المنهج، والمعاهد العلميَّة التي تتولَّىٰ تدريس هذا المنهج، وإعداد مجموعات تمثل الذخيرة والمعتمدَ لاستمراريته، وتصدَّر مجموعة من الدعاة تعتبر البوق الإعلامي الذي يغرسُ هذا الفكرَ في عُقول الناس علىٰ أساسٍ أنَّه هو مذهب أهل السنة والجماعةِ تجاه القضايا المختلفة، والسَّيطرة علىٰ مجموعة كبيرةٍ من المساجد في مختلف المناطقِ؛ لتكونَ المنبرَ الذي يتيح لهم التواصلَ مع النَّاس، بالإضافة إلىٰ كثيرٍ من القنوات الفضائيَّةِ ومواقع شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

- موقفُهم من علماء أمة الإسلام- علماء الأشاعرة والماتريدية- الذين حَفِظَ الله بهم على الأمة دينها، وكانوا الدِّرعَ الحصينَ لحمايةِ عقائدِ المسلمينَ على مرِّ العصور، فمُدعُو السَّلفية يرمون الأئمة الكبار من الأشاعرةِ أمثال أبي حامد الغزالي والإمام الفخر الرازيِّ والجويني والباقلاني، ومن ورائهم غالبيةُ أئمة السنة بالخروجِ عن مذهبِ أهل السُّنةِ والجماعةِ في باب العقيدة وما يتعلَّقُ بالجناب الإلهي من الأسماءِ والصفات، بل ويهاجمونَ مَناهج التَّوحيد في معاهد المسلمينَ الكبرى كالأزهر الشَّريف، ويتهمون علماءَه بالإلحادِ والتَّعطيل في صفات البارِي سبحانه وتعالى، اتباعًا لإمامهم ابن تيميَّةَ في هذا الأمر، الذي تفرَّدَ في باب العقائد بطامات كبرى وأتى بالعجائبِ التي لم يسبق إليها، وتبنَّى مذهب المجسِّمة في صفاتِ الله.

- أما التَّصوُّفُ وهو الجانبُ الرُّوحي للإسلام، والَّذي انتمى إليه الآلافُ من علماء المسلمينَ وحملة الشَّريعة عبر العصور، فضلًا عن مئاتِ الملايين من المسلمين فقد نالَ قسطًا كبيرًا من التَّكفير السَّلفيِّ والرمي بالخروجِ من الدينِ والابتداع، فيصفونهم بأنهم عبدةٌ للقبور مشركينَ بالله؛ فيقول قائلُهم وهو يَصِفُ مظهرًا من مظاهر حبِّ الناس للأولياء:

((ثم تعالَ معي إلى الجامع الأحمديِّ الكبير أو هيكل الطاغوت الأكبر؛ لترى هذه الحشودَ التي يمورُ ويموج بها الجامع من نساءٍ ورجالٍ وأطفالٍ، وفدوا إلى الصنم من كلِّ فجٍّ عميقٍ))[1]. فهو يَصِفُ الأضرحةَ بالأصنامِ والزَّائرينَ لها من المسلمينَ ممَّنْ يحجُّونَ إلى هذه الأصنام.

---

(1) انظر كتاب: هذه هي الصوفية (ص6) عبدالرحمن الوكيل- دار الكتب العلمية- الطبعة الثالثة- 1979م.

- ثم يَصِفُ التَّصوفَ والصُّوفيةَ بالزَّندقة فيقول:

((لقد كان للشَّيخِ الأكبر شيخٌ هو تاجرُ خيطٍ في المدينة وقد أعطاه العهدَ، وألبسه خِرقةَ التصوف، وكان التاجرُ علىٰ أمية وجهالةٍ، بَيْدَ أنَّه كان خبيرًا بزندقة الصوفيَّة، مؤمنًا بها، يبثُّها ويهوىٰ بالهالكين في حمأتها، ولقد كنَّا نرىٰ الشيخ الأكبرَ يخفضُ من رأسِه عبوديةً للتَّاجرِ الصوفي))[1].

- ويقول أيضًا: ((للصوفية مددٌ من كلِّ نحلةٍ ودين إلا دين الإسلام، اللهمَّ إلَّا حين نظنُّ أن للباطل اللئيم مددًا من الحقِّ الكريم، وأنَّ للكفرِ الدَّنَسَ روحًا من الإيمان الطهورِ، والصُّوفية نفسُها تبرأ إلَّا مِنْ دين طواغيتِها مؤمنةً بأنَّه هو الحقُّ الخالص))[2].

- ثم يقول: ((كُلُّ شيء ربٌّ للصوفية، لقد كفرت الصابئة لأنَّهم عبدوا الكواكبَ، وكفرتِ اليهود لأنهم عبدوا العجلَ، وكفرتِ النَّصارىٰ لأنهم عبدوا ثلاثة أقانٍ، وكفرت الجاهليَّةَ لأنهم عبدوا أصنامًا أقامُوها لَمَن ماتَ من أوليائهم؛ لتكون مَقْصِدَ الرجاءِ ومَطافَ الآمال كما كانَ أصحابُها، وهم ناعمون بالحياة. فماذا تقول في الصُّوفيَّة، أو بماذا تحكم عليها، وهي تدعُو إلىٰ عبادة كلِّ شيءٍ؟!)).

ثم يقول: ((فهل تراني جنحتُ إلىٰ غلوٍّ ما حينَ قلت لك: إنَّ الصوفية استمدتْ من كُلِّ كفرٍ، ودانتْ بكل ما دَانَ به الكافرون من قَبلُ، فكانت هي وحدَها تاريخ الوثنية كلها، وحمأتها منذُ ابتدعَها إبليسُ ليضلَّ الكافرين؟))[3].

- ويقول أحد مَن يُصدرونَ أحكام الكفر ضدَّ التَّصوفِ والصوفيَّة: ((التَّصوفُ بحرٌ من القاذورات: اعلمْ أولًا أن التصوفَ بحرٌ من القاذوراتِ فقد جَمعَ المتصوفة كلَّ أنواعِ الكفرِ والزَّندقة التي توجدُ في فلسفات الهند و إيران واليونان، وكلَّ مَكر القرامطة والفرق

(1) انظر كتاب: هذه هي الصوفية (ص5).

(2) المصدر السابق (ص19).

(3) المصدر السابق (ص38).

الباطنيَّةِ، وكلَّ خرافات المخرفينَ، وكلَّ دجل المدجلين وكلَّ وحي الشياطين، ووضعُوا كلَّ ذلك في إطار التصوف وعلومه ومبادئه وكُشوفه، فلا يتصور عقلُك عقيدةً كفرية في الأرضِ إلا تجدُها في التصوف بدءًا بنسبة الألوهيَّة إلىٰ المخلوقاتِ وانتهاءً بجعل كلِّ موجودٍ هو عين الله، تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا))[1].

ما مرَّ سابقًا هو مثالٌ يسير لما تتبنَّاه فرقة السلفيةِ من تبنِّي خطابٍ تكفيريٍّ تجاه طوائف كثيرة من المسلمين، مما هو مسطورٌ في كتبهم وخطبِهم ودُرُوسِهم ومجلاتِهم الدوريَّةِ، هذا بالإضافة إلىٰ الكمِّ الكبيرِ من الرَّمي بالبدعة، وعدم اعتبارِ الخلافات الفقهيَّة والمذهبيَّة، وتَضييق ما وسَّعه الله علىٰ المسلمين، ممَّا نتج عنه انحرافٌ فكريٌّ عند كثيرٍ من الناس تجاه القضايا وتقسيم النَّاس ووقوع الشَّحناء والاختلاف نتيجةً لإلقاء الأحكام وتصنيفِ النَّاس إلىٰ موحِّدٍ ومشركٍ تبعًا للأهواء ونصرة لمذهبهم.

- أما فيما يتعلَّق بالسلفيةِ الحركيَّة فيما يتعلق بمظاهر التَّكفير فهي بالإضافةِ إلي تبنِّيهم ما تتبناها السلفية العلميَّةُ من آراء فهُم يُظهرونَ وَلَعهم الدائم في خطبهم الدعوية بالحديث عنِ أحكام الكفر والإيمان، وهل مَنْ وقع في كذا وكذا من الخلافات الفقهيَّة يكفُر بذلك أو لا؟ وشروط التَّكفير وموانعُه تحت زعم حماية التَّوحيدِ، مما يجعل المنتمِي لهذا التيار والمتلقِّي منه كأنَّه في حالة تربصٍ بالناس ليطبق عليهم ما تعلَّمه من أحكام الكفرِ والشِّرك وَفقًا لمذهبه وشيوخِه في هذا الأمر.

- أمَّا السَّلفيةُ الجهادية فرأتْ أن أفضلَ الطرق وأقصرَها هو جعل هذه الأحكام النَّظرية والخطب المنبرية واقعًا عمليًّا ملموسًا، فكانتْ أن أخذتْ طريقَ الاصطدامِ والعنفِ والقتل ضدَّ كل مخالفٍ لما تعتقدُه، سواءٌ كان حكومات أم شعوب فأفرزتْ النِّتاجَ الماديَّ الدمويَّ للفكرِ السلفيِّ التَّكفيريِّ في صورته الأخيرةِ علىٰ أرض الواقع،

(1) فضائح الصوفية (ص42) عبدالرحمن بن عبدالخالق -مكتبة ابن تيميَّةَ- الطبعة الأولىٰ- 1984م.

وخرج كثيرٌ من حملة السلاح المفسدينَ في الأرضِ.

وقد يقول قائلٌ: ليس كل منتمٍ للفكر السلفي يكفر أو يتبنىٰ التَّكفير كمنهجٍ له.

نقول: نعم، يُمكنُ أن يكون كذلك، ولكن المشكلة الكبرىٰ عند مَنْ ينتمون إلىٰ هذا التَّيارِ هو اعتقادهم أنَّهم وحدَهم حملة الحقِّ وحماة الدِّين، بالإضافةِ إلىٰ محاولةِ الوِصايةِ علىٰ النَّاسِ، وتوجيهِهم في اتِّجاهِ ما يَتبنونَه من أفكارٍ ومذاهبَ، فهنا تكون النتيجةُ شبيهةً بالأخذ بالتَّكفيرِ؛ وهي ظهور الانعزاليَّةِ عن المجتمع والنَّظرةِ المتعاليةِ نحوَ الناس.

مظاهر التَّكفير والضَّلال عند الخوارج

سوف نورد فيما يلي أمثلةً من سُلوك وأقوالِ هذه الطَّائفةِ الضَّالَّةِ، التي توضِّح صِدقَ انطباق ما جاء عن رسولِ الله ﷺ في الأحاديث عليهم، فَرَصْدُ المرجعيَّةِ الفكريَّةِ والعَقَديةِ وظاهرةِ تكفير المسلمين لدىٰ طائفة الخوارج- يتَّضح من خلال المواقفِ والأفعالِ التي تبنَّوها والتي نقلها عنهم علماء المسلمين وأئمَّتُهم:

- روىٰ الإمام الطَّبريُّ بسندِه إلىٰ ابن أبزىٰ: ((أنَّ رجلًا مِنَ الخوارجِ جاءَه يقرأ عليه هذه الآية: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]. قال له: أليس الَّذين كفروا بربِّهم يعدِلون؟ قال: بلىٰ. قال: وانصرفَ عنه الرَّجل. فقال له رجلٌ مِنَ القومِ: يا ابن أبزىٰ، إنَّ هذا قد أراد تفسيرَ هذه غيرَ هذا، إنَّه رجلٌ مِنَ الخوارج. فقال: ردُّوه عليَّ، فلمَّا جاءَه قال: هل تدري فيمَن نزلَت هذه الآية؟ قال: لا. قال: إنَّها نزلَت في أهل الكتابِ، اذهب ولا تضعْها علىٰ غيرِ حدِّها))[1].

(1) انظر: تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل الآي والقرآن) (253/11) لمحمَّد بن جريرٍ الطبري- تحقيق: محمود شاكر، راجعه وخرَّج أحاديثه: أحمد محمَّد شاكر، مكتبة ابن تيميَّةَ، الطبعة الثانية.

- وروىٰ الإمام الطَّبريُّ أيضًا بسندِه إلىٰ قتادة أنَّه قال: ((قال رجلٌ مِنَ الخوارج خلْفَ عليٍّ في صلاة الغَدَاة: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65]، فأنصَت له عليٌّ رضي الله عنه حتَّىٰ فهم ما قال، فأجابه وهو في الصَّلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60]))[1].

- وروىٰ الطَّبريُّ بسنده إلىٰ عَون بن أبي جُحيفةَ أنَّه قال: ((إنَّ عليًّا لَّما أراد أنْ يبعثَ أبا موسىٰ للحكومةِ أتاه رجلانِ مِنَ الخوارج: زُرعَةُ بنُ البُرْجِ الطَّائيُّ وحُرْقُوص بنُ زُهيرٍ السَّعديُّ فدخَلا عليه فقال له حُرقوص: لا حُكْمَ إلَّا لله. فقال عليٌّ: لا حُكْمَ إلَّا لله. فقال له حُرقوص: تُبْ مِن خطيئتكَ وارجِع عن قضيَّتِكَ واخرج بنا إلىٰ عدوِّنا نقاتلْهم حتَّىٰ نلقَىٰ ربَّنا. فقال لهم عليٌّ: قد أردتُكُم علىٰ ذلكَ فعصيتُمُوني، وقد كتَبنا بينَنا وبينَهم كتابًا، وشرَطْنا شُروطًا، وأعطَينا عليَها عُهودَنا ومواثيقَنا، وقَد قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 91].

فقال له حُرقوص: ذلك ذنبٌ يَنبغِي أن تَتوبَ مِنه.

فقالَ عليٌّ: ما هو ذَنبٌ، ولكنَّه عَجزٌ مِنَ الرَّأي، وضعفٌ مِنَ الفعل، وقد تقدَّمتُ إليكم فيما كان منه ونهيتُكم عنه.

فقال له زُرعَة بنُ البُرج: أما واللهِ يا عليُّ لئن لم تدَع تحكيمَ الرِّجال في كتاب الله عزَّ وجلَّ قاتلتُكَ؛ أطلبُ بذلك وجهَ اللهِ ورضوانه. فقال له عليٌّ: بؤسًا لكَ ما أشقاكَ كأنِّي بكَ قتيلًا تسفيٰ عليك الرِّيحُ. قال: ودِدتُ أنْ قد كان ذلك. فقال له عليٌّ: لو كنتَ محقًّا كان في الموتِ علىٰ الحقِّ تعزيةٌ مِنَ الدُّنيا، إنَّ الشَّيطان قد استهواكُم فاتَّقوا اللهَ عزَّ وجلَّ،

(1) انظر: تفسير الطبري (21/20).

إنَّه لا خيرَ لكم في دُنيا تقاتلون عليها))[1].

- وقال الطَّبريُّ: ((قال أبو مِخْنَف عن عبدالملك بن أبي حرَّة: إنَّ عليًّا لَمَّا بعث أبا موسىٰ لإنفاذِ الحكومةِ- لقِيَتِ الخوارجُ بعضَها بعضًا، فاجتمَعوا في مَنزِلِ عبدِالله بنِ وهبٍ الرَّاسبيِّ، فحمدَ الله وأثنىٰ عليه، ثم قالَ: أما بعد؛ فوالله ما يَنبغي لقومٍ يؤمنونَ بالرَّحمن ويُنيبونَ إلىٰ حُكْم القرآن أنْ تكونَ هذه الدُّنيا- التي الرِّضا بها والرُّكونُ إليها والإيثار إيَّاها عناءٌ وتبارٌ- آثرُ عندهم مِنَ الأمر بالمعروف والنهيِّ عن المنكر والقولِ بالحقِّ، فاخرجوا بنا إخوانَنا مِن هذه القريةِ الظَّالم أهلُها إلىٰ بعض كُوَرِ الجبال أو إلىٰ بعض هذه المدائن مُنكرين لهذه البِدَعِ المُضلَّةِ.

فقال له حُرقوص بن زهير: إنَّ المتاعَ بهذه الدنيا قليلٌ، وإنَّ الفراقَ لها وشيكٌ، فلا تدعونَّكم زينتُها وبهجتُها إلىٰ المُقام بها، ولا تلفتنَّكم عن طلبِ الحقِّ وإنكارِ الظُّلمِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]))[2].

- أورد الحافظ ابنُ كثير في تفسيره: عن مصعب بن سعد بن أبي وقَّاص: ((مَرَّ سعدٌ- أي: ابن أبي وقَّاصٍ- برجلٍ مِنَ الخوارج، فقال الخارجيُّ: هذا مِن أئمَّة الكُفر، فقال سعدٌ: كذبتَ بل أنا قاتلتُ أئمَّةَ الكُفر))[3].

- قال ابن كثير في تاريخه: ((أُسِرَ عبدُالله بن خبَّاب- ابنُ صاحب رسول الله ﷺ- وامرأتُه معه وهي حاملٌ، فقالوا: مَن أنتَ؟ قال: أنا عبدالله بن خبَّاب صاحب رسولِ الله ﷺ، وإنَّكم قد روَّعتُمُوني، فقالوا: لا بأسَ عليكَ، حدِّثنا ما سمعتَ مِن أبيكَ، فقال:

(1) انظر: تاريخ الرسل والملوك (72/5) لمحمَّد بن جرير الطبري- تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم- دار المعارف- مصر- الطبعة الثانية.

(2) انظر: تاريخ الطبري (74/5).

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (116/4) تحقيق: سامي بن محمَّد سلامة- دار طيبة- الرياض- الطبعة الثانية- 1999م.

سمعتُ أبي يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((ستكُونُ فِتْنَةٌ القاعدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، والقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي))[1]. فقَادُوه بيدِه، فبينما هو يَسيرُ معهم إذ لَقِيَ بعضُهم خِنزيرًا لبعض أهلِ الذِّمَّة فضربَه بعضُهم بسيفه فشقَّ جِلدَه، فقال له آخرُ: لِمَا فعلتَ هذا وهو لذمِّيٍّ؟! فذهب إلىٰ ذلك الذِّمِّيِّ فاستحلَّه وأرضَاهُ، وبينما هو معهم إذْ سقطت تمرةٌ مِن نخلةٍ فأخذها أحدُهم فألقاها في فِمِه، فقال له آخرُ: بغير إذنٍ ولا ثمنٍ؟! فألقاها ذاكَ مِن فِمِه، ومع هذا قَدَّمُوا عبدَالله بن خبَّاب فذبحوه، وجاءوا إلىٰ امرأتِه فقالت: إنِّي امرأةٌ حبلىٰ ألا تتَّقون الله عزَّ وجلَّ! فذبحُوها وبَقَروا بطنَها عن ولدها فَلَمَّا بلغَ النَّاسَ هذا من صنيعِهم، خافوا إنْ هُم ذَهبوا إلىٰ الشَّامِ واشتَغلوا بقِتالٍ أنْ يَخلُفَهم هؤلاءِ في ذراريهِم وديارِهم ويفعلوا هذا الصَّنيعَ، فخَافوا غائلتَهم، وأشارُوا علىٰ عليٍّ بأنْ يبدأ بهم، ثمَّ إذا فرغ منهم سارُوا معه إلىٰ الشَّام، والنَّاس آمنون من شرِّهم، فاجتمع الرأيُ علىٰ هذا، وفيه خيرةٌ عظيمةٌ لهم ولأهل الشَّام أيضًا؛ إذ لو قَوِيَ هؤلاء لأفسدوا الأرضَ كلَّها عراقًا وشامًا، ولم يتركوا طفلًا ولا طِفلةً ولا رجلًا ولا امرأةً؛ لأنَّ النَّاسَ عندهم قد فسَدوا فسادًا لا يُصلِحهم إلا القتلُ جملةً))[2].

- قال الإمام أبو الحَسن الأشعريُّ عن الخوارج: ((أجمعتِ الخوارجُ علىٰ إكفار عليِّ بن أبي طالب رضوان الله عليه أنْ حَكَّمَ، وهم مختلفون هل كفرُه شركٌ أم لا؟ وأجمعوا علىٰ أنَّ كلَّ كبيرةٍ كفرٌ إلَّا النَّجَدات فإنَّها لا تقول ذلك، وأجمعوا علىٰ أنَّ الله سبحانه يُعذِّب

---

(1) الحديث من هذا الوجه؛ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (39051)، وأحمد في مسنده (110/5)، وأبو يعلىٰ في مسنده (7215)، والطَّبراني في الكبير (59/4- 60) أمَّا أصل نص الحديث مرفوعًا، فهو متفق عليه من حديث أبي هريرة ﵁؛ أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم (7081، 7082)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (2886).

(2) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (585/10) تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي - دار هجر- الطبعة الأولىٰ- 1997م.

أصحابَ الكبائر عذابًا دائمًا، إلَّا النَّجَداتِ أصحابَ نَجْدة))[1].

- ويتحدث عن طائفة الأزارقة من الخوارج فيقول: ((والأزارقةُ تقول: إنَّ كلَّ كبيرةٍ كفرٌ، وأنَّ الدَّار دارُ كُفرٍ- يَعنون دارَ مخالفيهم- وأنَّ كلَّ مرتكبِ معصيةٍ كبيرةٍ ففي النَّار خالدًا مخلَّدًا، ويُكفِّرون عليًّا رضوان الله عليه في التَّحكيم، ويكفِّرون الحَكَمين أبا موسىٰ وعَمرو بنَ العاص، ويرون قَتْلَ الأطفالِ))[2].

- وينقُل عن طائفة الصُّفْرِيَّة من الخوارج من كلامِهم فيقول: ((وقال عبيدة- من رءوس الصُّفْرية- بجملةِ مذهب الخوارجِ: من أنَّ مخالِفِيهم مشركونَ، السِّيرةُ فيهم السيرةُ في أهلِ حَرْبِ رسولِ الله ﷺ، الذينَ حارَبوه منَ المُشركينَ))[3].

- ويَنقُل عنهم أيضًا: ((ومِن قول الصُّفْريةِ وأكثرِ الخوارج: أنَّ كلَّ ذنبٍ مُغلَّظٍ كُفرٌ، وكلَّ كُفْرٍ شِركٌ وكلَّ شِرْكٍ عبادةٌ للشَّيطانِ))[4].

- وينقُل عن طائفةِ الإباضيَّة منَ الخوارجِ فيقول: ((وجمهورُ الإباضيَّة يتولَّىٰ المُحكِّمةَ كلَّها إلَّا مَن خرَجَ، ويَزعمونَ أنَّ مخالِفِيهم مِن أهلِ الصَّلاةِ كُفَّارٌ وليسوا بمُشركينَ، حلالٌ مناكحتُهم وموارثتُهم، حلالٌ غنيمة أموالِهم من السِّلاح والكُراع عند الحربِ، حرامٌ ما وراء ذلك، وحرامٌ قتلُهم وسبيُهم في السِّرِّ إلَّا مَن دعا إلىٰ الشِّرْكِ في دار التَّقيَّة ودَانَ به، وزعموا أنَّ الدَّار- يعنون دارَ مخالفيهم- دار توحيدٍ إلَّا عسكرَ السُّلطانِ فإنَّه دارُ كُفرٍ يعني عندَهم))[5].

- وينقُل عنهم أيضًا فيقول: ((والإباضيَّة يقولون: إنَّ جميعَ ما افترضَ الله سبحانه علىٰ

---

(1) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلِّين (1/86).

(2) المصدر السابق (1/87).

(3) المصدر السابق (1/101).

(4) المصدر السابق (1/118).

(5) المصدر السابق (1/104).

خَلْقِه إيمانٌ وأنَّ كلَّ كبيرةٍ فهي كُفْرُ نعمةٍ لا كُفْر شِرْكٍ، وأنَّ مرتكبي الكبائرِ في النَّار خالدون مخلَّدونَ فيها))[1]. ((وقالوا جميعًا: إنَّ الواجبَ أنْ يَستَتِيبوا مَن خالفَهم في تَنزيلٍ أو تأويلٍ فإنْ تاب وإلَّا قُتل، كان ذلك الخلافُ فيما يَسَعُ جَهْلَه أو فيما لا يسعُ جَهْله))[2].

- وعن طائفة البَيْهَسيَّةِ ينقل: ((وقالت طائفةٌ من البَيْهَسيَّة: إذا كفَرَ الإمامُ كفَرَتِ الرَّعيةُ، وقالت: الدَّارُ دارُ شِرْكٍ وأهلُها جميعًا مشركونَ، وتركَتِ الصَّلاةَ إلَّا خلفَ مَن تعرف، وذهبت إلىٰ قَتْل أهلِ القِبلةِ وأخذِ الأموال، واستحلَّت القَتْلَ والسَّبيَ علىٰ كلِّ حالٍ))[3].

- وينقل عنهم قولَهم في السَّيف- أي الخروج بالسَّيف والقوة علىٰ المسلمين وولاة الأمر:

((وأمَّا السَّيفُ: فإنَّ الخوارجَ تقول به وتراه، إلَّا أنَّ الإباضيةَ لا ترىٰ اعتراضَ النَّاسِ بالسَّيف، ولكنَّهم يرون إزالةَ أئمَّةَ الجَوْرِ ومنعَهم من أنْ يكونوا أئمَّةً، بأيِّ شيءٍ قدروا عليه بالسَّيف أو بغيرِ السَّيف))[4].

وينقل عنهم عبدالقاهر البغداديُّ فيقول: ((وَقد اخْتلفُوا فِيمَا يجمع الْخَوَارِجَ علىٰ افْتِرَاق مذاهبها: فَذكر الكعبيُّ فِي مقالاته: أَنَّ الذي يجمع الخَوَارِجَ علىٰ افْتِرَاق مذاهبها: إكفارُ عليٍّ وَعُثْمَانَ والحَكَمَيْنِ وَأَصْحَابِ الجَمَلِ وكلِّ مَن رضي بتحكيم الْحكَمَيْنِ، والإكفارُ بارتكابِ الذُّنوبِ، وَوُجُوبُ الْخُرُوج علىٰ الإِمَام الجائرِ. وَقَالَ شَيخنَا أَبُو الْحسن: الذىٰ يجمعها: إكفارُ عليٍّ وَعُثْمَانَ وَأَصْحَابِ الجَملِ والحَكَمَيْنِ، وَمَن رضي بالتَّحكيمِ وصوَّبَ الحَكَمَيْنِ أو أَحدَهمَا، وَوُجُوبُ الْخُرُوجِ علىٰ السُّلْطَان الجائرِ، وَلم

(1) مقالات الإسلاميين (1/110).

(2) المصدر السابق (1/107).

(3) المصدر السابق (1/116).

(4) المصدر السابق (1/125).

يرضَ مَا حَكَاهُ الكعبيُّ من إجماعِهم علىٰ تَكْفِيرِ مُرتَكبِي الذُّنُوبِ، والصَّوَابُ مَا حَكَاهُ شَيخُنَا أَبُو الْحسن عَنْهُم))[1].

- وينقل عبدالقاهر البغداديُّ عن المُحَكِّمة الأولىٰ من الخوارج فيقول: ((المُحَكِّمة الأولىٰ: وكانَ دينُهم إكفارَ عليٍّ وَعُثْمَانَ، وَأَصْحَابِ الجَملِ، وَمُعَاوِيَةَ وأصحابِه، والحَكَمَيْنِ، وَمنْ رضي بالتَّحكيم، وإكفارُ كلِّ ذي ذَنْبٍ ومعصيةٍ، ثمَّ خرج علىٰ عليٍّ بعدَ ذلك من الخوراج جَمَاعَةٌ كَانُوا علىٰ رَأْيِ المُحَكِّمة الأولىٰ))[2].

- ويتحدَّث عن الإباضية فيقول: ((ذِكْرُ الإباضية وفِرَقِها: أجمعتِ الإباضيةُ علىٰ القَوْل بإمامة عبدالله بن إباض، وافترقت فِيمَا بَينهَا فرقًا، يجمعها القَوْلُ بأَنَّ كُفَّارَ هَذِه الأُمَّةِ- يعنون بذلك مخالفيهم من هَذِه الأُمَّةِ- برَاءٌ من الشِّرْكِ وَالإِيمَان، وأَنَّهم لَيْسُوا مُؤمنين وَلَا مُشْرِكينَ وَلَكنَّهُمْ كفَّارٌ، وأجازوا شَهَادَتَهم، وحرَّموا دِمَاءَهُمْ فِي السِّرِّ، واستحلُّوها في العلانيةِ، وصحَّحوا مناكحَتَهم والتَّوارثَ مِنْهُم، وزَعَمُوا أَنَّهم فِي ذَلِك محاربونَ لله ولرسولِهِ لا يَدِينون دِينَ الحقِّ، وقالوا: باستحلال بعضِ أموالِهم دون بعضٍ، والذي استحلُّوهُ الخيلَ والسِّلاحَ، فأمَّا الذَّهبُ والفِضَّة فإنَّهم يردُّونهما علىٰ أصحابِهما عند الغنيمةِ))[3].

- ويتحدَّث عن الأزارقة منَ الخوارجِ فيقول:

((هؤلاءِ أتباع نافع بنِ الأزرقِ الحنفيِّ، المُكنىٰ بأبي راشد، ولم تكن للخوارج قطُّ فِرقةٌ أكثرُ عددًا ولا أَشدَّ مِنْهُم شَوكَةً، والذي جمعهم من الدِّين أشياءُ؛ منها: قَوْلُهم بأَنَّ مخالفيهم من هَذِه الأُمَّةِ مشركونَ، وكَانَت المُحَكِّمَةُ الأولىٰ يَقُولُونَ: إنَّهم كفرةٌ لَا مشركونَ. ومنها: قَوْلُهم إنَّ القَعَدَةَ مِمَّن كان علىٰ رأيِهم عن الهجرةِ إليهم مشركون وإنْ

(1) الفرق بين الفِرق وبيان الفرقة النَّاجية (ص72) لأبي منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي- تحقيق: محمَّد عثمان الخشت- مكتبة ابن سينا- القاهرة.

(2) المصدر السابق (ص77).

(3) المصدر السابق (ص95).

كانوا علىٰ رأيهم، وكانت المُحَكِّمةُ الأولىٰ لا يُكفِّرونَ القَعَدَةَ عنهم إذا كانوا علىٰ رأيهم. ومنها: أنَّهم أوجبوا امتحانَ مَن قَصَدَ عَسْكَرَهُم إذا ادَّعىٰ أنَّه منهم: أنْ يُدْفَعَ إليه أسيرٌ مِن مُخالفيهم وأمروه بقَتْلِه، فإنْ قَتَلَه صدَّقوه في دعواه أنَّه منهم، وإنْ لم يقْتُلْهُ قالوا: هذا منافقٌ ومُشركٌ وقتلوه. ومنها: أنَّهم استباحوا قَتْلَ نساءِ مخالفيهم وقَتْلَ أطفالِهم، وزَعموا أنَّ الأطفالَ مشركونَ، وقطَعوا بأنَّ أطفالَ مخالفِيهم مخلَّدونَ في النَّارِ))[1].

- ويقول عنهم الشَّهرستاني: ((اجتمعتِ الأزارقةُ علىٰ أنَّ مَن ارتكبَ كبيرةً من الكبائر كَفَرَ كُفْرَ مِلَّةٍ خَرَج بهِ عن الإسلام جملةً، ويكون مُخلَّدًا في النَّار مع سائرِ الكفَّارِ))[2].

- وتحدَّث عنهم الحافظُ أحمد بن حجر العسقلانيُّ عند شرحه للحديث الذي رواه البخاريُّ في صحيحِه من حديث ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، وذَكَرَ الحَرُورِيَّةَ فقال: قال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: ((يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ))[3]. فقال: ((قوله: باب قتل الخوارج والمُلحدينَ بعد إقامة الحُجَّةِ عليهم، وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:115]. أمَّا الخوارجُ فهم جمع خارجة أي: طائفة، وهم قوم مبتدعون سُمُّوا بذلك لخروجِهم عن الدِّين وخروجِهم علىٰ خيار المسلمين... ثم قال: وكان يُقال لهم: القُرَّاء؛ لشدَّةِ اجتهادهم في التِّلاوة والعِبادة، إلَّا أنَّهم كانوا يتأوَّلون القرآنَ علىٰ غير المُرادِ منه، ويستبدُّون برأيهم، ويتنطَّعون في الزُّهد والخشوعِ وغيرِ ذلك))[4].

---

(1) انظر: الفرق بين الفِرق (ص79).

(2) انظر: الملل والنحل (1/139) للشهرستاني.

(3) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (6932).

(4) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (12/283) لابن حجر العسقلاني.

- قال الإمام الحافظ السُّيوطي في الدُّر المنثور عن منهج الخوارج واعتقادهم: ((أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جُبير قال: المتشابهات آياتٌ في القرآن يتشابهنَ علىٰ النَّاس إذا قرءُوهنَّ، ومن أجل ذلكَ يَضل مَن ضلَّ، فكلُّ فرقةٍ يقرءون آيةً من القرآن يزعمون أنَّها لهم، فمما يتَّبع الحروريَّةُ من المتشابه قول الله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:44]. ثم يقرءون معها: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:1]. فإذا رأوا الإمامَ يحكمُ بغير الحقِّ قالوا: قد كَفَرَ، فَمن كَفَر عدلَ بربِّه، ومَن عدلَ بربِّه فقد أشركَ بربِّه، فهذه الأئمَّة مشركونَ))[1].

- وينقل الإمام محمَّد أبو زهرة عن مسلك الخوارج في التَّكفير فيقول: ((ويرىٰ الخوارجُ تكفيرَ أهل الذُّنوبِ، ولم يفرِّقوا بين ذنبٍ وذنبٍ، بل اعتبروا الخطأَ في الرأي ذنبًا إذا أدَّىٰ إلىٰ مخالفة وجهة الصَّواب في نظرِهم ولذا كفَّروا عليًّا ﷺ بالتَّحكيم مع أنَّه لم يُقدِم عليه مختارًا، ولو سُلِّم أنَّه اختاره فالأمرُ لا يعدو أنَّه اجتهادٌ قد أخطأ فيه، إنْ كان التَّحكيمُ جانَبَ الصَّوابَ فلجاجتُهم في تكفيرِه ﷺ دليلٌ علىٰ أنَّهم يرونَ الخطأَ في الاجتهادِ يُخرج من الدِّين، كذلك كان شأنُ طلحةَ والزُّبيرِ ﷺ وغيرِهم من علية الصَّحابة الذين خالفوهم في جزئيةٍ من جزئياتٍ كانت نتيجةً لاجتهادِهم.

- وإنَّ هذا المبدأ هو الذي جعلهم يَخرجون علىٰ جماهير المسلمينَ، ويعتبرون مخالفيهم مشركينَ، وأقضَّوا مضجعَ الحُكَّام بسببه، ولذا وجب علينا أن نتبيَّن الأدلةَ التي اتَّخذوها حُجَّةً لقولهم، وهذه الأدلة ساقها ابن أبي الحديد في كتابه: شرح نهج البلاغة، وهي أدلةٌ كثيرةٌ ساقها، وإنها لتدلُّ علىٰ مدىٰ تفكيرِهم.

- منها قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ

---

(1) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (3/449- 450) للحافظ جلال الدين السيوطي- تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي- دار هجر- القاهرة- الطبعة الأولىٰ- 2003م.

الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:97]. فجعل تاركَ الحجِّ كافرًا، وتَرْك الحجِّ ذنبٌ، فكلُّ مرتكبٍ للذَّنب كافرٌ.

- منها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:44]. وكلُّ مرتكبٍ للذُّنوبِ فقد حكم لنفسِه بغير ما أنزل الله فيكون كافرًا، وقد كرَّر سبحانه مثلَ هذا النَّصِّ في أكثر من آيةٍ.

- ومنها قول تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:106]. قالوا: والفاسقُ لا يجوزُ أنْ يكون ممَّن ابْيضَّت وجوهُهم فوجب أنْ يكون ممَّن اسودَّت وجوههم، ووجب أن يُسمَّىٰ كافرًا.

- ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿38﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿39﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿40﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿41﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:38-42]. والفاسق علىٰ وجهِه غبرةٌ فوجب أنْ يكونَ من الكَفَرةِ.

- ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:33]. وبهذا ثبت أنَّ الظُّلمَ جحودٌ، ولا شكَّ أنَّ مرتكب الذَّنبِ ظالمٌ.

وكلُّ هذه الدَّلائل تمسُّكٌ بظواهر النُّصوص، وأكثرها كان الحديثُ فيه عن مشركِي مكةَ فهي أوصافٌ لهم، وفي آية الحجِّ ليس الكُفر وصفًا لمن لم يحجَّ إنَّما الكُفر لمَن أنكرَ فريضةَ الحجِّ. ولأنَّهم يتمسَّكون بظاهر الألفاظ نرىٰ عليًّا ﷺ عندما ناقشَهم في هذا لم يجادلْهم بالنُّصوص؛ لأنَّهم لا يأخذون إلا بظواهرِها بل كان يُناقشهم بعملِ الرَّسولِ ﷺ))[1].

- و عن طائفة الأزارقة يقول: ((ومبادئُهم التي تميَّزوا بها عن غيرِهم من الخوارج هي:

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية (ص 62- 63) للإمام محمَّد أبي زهرة- دار الفكر العربي- القاهرة.

أ- أنَّهم لا يرونَ مخالفيهم غيرَ مؤمنين فقط؛ بل يرون أنَّهم مشركون مُخلَّدون في النَّار، ويحلُّ قتالُهم وقَتْلُهم.

ب- وأن دارَ أولئكَ المخالفين دارُ حربٍ يُستباح فيها ما يُستباح في قِتال الكفَّار مِن نهْبِ أموالِهم وسبي الأولادِ والنِّساءِ، وبالتالي يُباح استرقاقُ مخالفيهم ويُباح قَتْلُ مَن قعدوا عن القِتال.

جـ- ومن آرائهم أيضًا: أنهم يقولون: إنَّ أطفالَ مخالفيهم مُخلَّدونَ في النَّار، أي: إنَّ الذَّنب الذي أوجب كُفْرَ مخالفيهم يَسـرِي إلىٰ أولادِهم مع أنَّ أولادَهم لم يرتكِبوه ولكنَّه انحرافٌ فكريٌّ من أصحابِهم.

د- ويرون أنَّه يجوز علىٰ الأنبياء أنْ يرتكبوا الكبائرَ والصَّغائرَ، وأنَّ ذلك بلا ريبٍ من المتناقضات في أقوالِهم؛ إذ إنَّهم بينما يُكفِّرونَ مرتكب الكبيرةَ يجوِّزونها علىٰ الأنبياءِ، فالنَّبيُّ قد يَكفُر ثم يتوب، وذلك أخذوه من ظاهر قولِه تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:1-2][1].

- قال الخازن في تفسيره: ((قوله عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 269]. قال ابن عباس: هي عِلْمُ القرآنِ ناسخِه ومنسوخِه ومُحكَمِه ومُتشابِهِه ومُقدَّمِه ومُؤخَّرِه وحلالِه وحرامِه، وقال الضَّحاك: القُرآن والفهمُ فيه، وإنَّما قال ذلك لتضمُّن القرآن الحكمةَ، وقال: في القرآن مائة وتسعُ آياتٍ ناسخةٌ ومنسوخةٌ، وألفُ آيةٍ حلال وحرامٌ لا يَسَعُ المؤمنين تركُهُنَّ حتَّىٰ يعلموهنَّ، ولا يكونوا كأهل النَّهْرَوان- يعني: الخوارج- تأوَّلوا آياتٍ مِنَ القرآن في أهل القِبلةِ، وإنَّما نزلَت في أهل الكتاب، فجهِلوا عِلمَها فسَفَكُوا بها الدِّماءَ وانتَهَبُوا الأموالَ، وشهِدوا علىٰ أهل السُّنَّةِ بالضَّلالةِ، فعليكم بعِلْمِ القُرآنِ، فإنَّه مَن عَلِمَ فيما نزَل لم يختلف في شيءٍ منه))[2].

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية (ص 70).

(2) انظر: تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (1/204) لعلاء الدين علي بن محمَّد الخازن

- قال الإمام أبو جعفرٍ محمَّدُ بن جريرٍ الطَّبري في تفسيره: ((حدَّثنا الحسن بنُ يحيىٰ قال: أخبرنا عبدالرزاق قال: أخبرنا مَعمَر عن قتادةَ في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: 7] وكان قتادةُ إذا قرأ هذه الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ قال: إنْ لم يكونوا الحَرُورِيَّةَ والسَّبائيَّةَ فلا أدري مَن هم؟ والحَرُورِيَّة: هم الخوارج في مبدأ أمرهم؛ لأنَّهم تجمَّعوا في منطقةٍ تُسمَّىٰ حَرُوراءَ، ولعَمْري لقد كان في أهل بدرٍ والحُديبية الذين شهدوا مع رسولِ الله ﷺ بيعةَ الرِّضوان مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ خبرٌ لمَن استخبر وعبرةٌ لمَن استعبر لـمَن كان يعقِل أو يُبصِر أنَّ الخوارجَ خرجوا وأصحابُ رسول الله ﷺ يومئذٍ كثيرٌ بالمدينة والشَّام والعراقِ، وأزواجُه يومئذٍ أحياءٌ، والله إنْ خرَج منهم ذكرٌ ولا أنثىٰ حَرُوريًّا قطُّ، ولا رضوا الَّذي هم عليه، ولا مالئوهم فيه، بل كانوا يُحدِّثون بنعتِ رسولِ الله ﷺ إيَّاهم ونَعْتِه الَّذي نعتَهم به، وكانوا يبغضُونَهم بقلوبِهم ويعادونَهم بألسنتِهم، وتشتدُّ والله عليهم أيديهم إذا لقوهم، ولَعَمْري لو كان أمرُ الخوارجِ هُدًىٰ لاجتمع ولكنَّه كان ضلالًا فتفرَّق، وكذلك الأمرُ إذا كان مِن عند غيرِ الله وجدتَ فيه اختلافًا كثيرًا، فقد أَلَاصُوا[1] فهل أفلحوا فيه يومًا أو أنجحوا؟ يا سبحان الله! كيف لا يَعتبِر آخرُ هؤلاء القومِ بأوَّلهم؟ لو كانوا علىٰ هدًىٰ قد أظهَره الله وأفلَجه[2] ونصَره، ولكنَّهم كانوا علىٰ باطلٍ أكذبَه الله وأدحضَه، فهم كما رأيتَهم كلَّما خرج لهم قرنٌ أدحض الله حجَّتَهم وأكذبَ أُحدوثَتَهم وأهرَاقَ دماءَهم، إنْ كتَموا كان قَرْحًا في قلوبِهم وغمًّا عليهم، وإنْ أظهَره أهرَاقَ الله دماءهم، ذاكُمْ والله دِينُ سُوءٍ فاجتنبوه، والله إنَّ اليهوديَّة لبدعةٌ، وإنَّ النَّصرانيَّة لبدعةٌ، وإنَّ الحَرُورِيَّة لبدعةٌ،

=

(741هـ) تصحيح: محمَّد علي شاهين- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1995م.

(1) ألاص فلانًا علىٰ الشيء: أداره عليه، وأراده منه. انظر: تاج العروس (باب الصاد فصل اللام مع الواو).

(2) أفلجه: أظفره. انظر: تاج العروس (باب الجيم فصل الفاء مع اللام).

وإنَّ السَّبائية لبدعةٌ، ما نزَل بهن كتابٌ ولا سَنَّهُنَّ نبيٌّ))[1].

أيها القارئ الكريم:

في ختام هذه النُّبذة عن منهج هذه الطَّائفةِ الخبيثةِ التي حذَّر منها رسولُ الله ﷺ نعرض بعضًا من سماتهم التي تميَّزوا بها، وذلك من خلال استقراء ما مرَّ من نصوصٍ فنجد أنَّهم تميَّزوا بما يلي:

1- تقديمهم الهوىٰ والرَّأي علىٰ حُكْمِ الشَّرعِ الـمُجمَعِ عليه من طوائف المسلمين منذ عهد الصَّحابة إلىٰ الآن، وإعجابهم برأيهم في مقابل فَهْمِ خيرِ النَّاسِ بعد الأنبياءِ والمرسلين ألَا وهم الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

2- الاستقلال بفَهْمٍ مُعيَّنٍ للنُّصوص يخالف فَهْمَ أُمَّةِ الإسلام ويوافق هواهم ينطلقون منه إلىٰ تحقيق أهدفِهم.

3- مناداتهم بالشِّعارات الصَّادقة التي تُخفي أهدافًا خبيثةً، مثل شعار: الحاكمية لله، أو: لا حكم إلا لله.

4- إنزال الآيات والنُّصوص القُرآنية التي نزلت في أهل الشِّرْكِ علىٰ أهل الإسلام.

5- سُهولة سَفك الدَّم المحرَّمِ عندهم حتىٰ لو كان دمَ أكابر الصَّحابة.

6- المبالغة في العبادة والوَرَعِ الكاذبِ مع إقدامهم علىٰ سَفْكِ الدِّماء المعصومةِ، ونهبِ الأموالِ المحرَّمةِ، واسترقاق نساء المسلمين.

7- يختصُّون أنفسهم باسم جماعة المسلمين.

8- تفرقهم وتشعبُهم إلىٰ طوائفَ كثيرةٍ، وعدم ثبات أقوالِهم في المسائل، وعدم وجود منهجٍ علميٍّ منضبطٍ، وبوار أمرِهم في نهاية كلِّ أمرٍ يدخلون فيه مما يدلُّ علىٰ الخُسران وأنَّهم من الفِرَقِ الهالكةِ. وقد تقدَّم في رسالتنا عن فكر الخوارج تتبعهم التاريخي وبداية

---

(1) انظر: تفسير الطبري (6/187- 189).

ظهورهم في أمة الإسلام ومعرفة مصطلح الخوارج في التراث الإسلامي.

نقد الفكر التَّكفيري

إن دينَ الإسلام الحنيفِ في حقيقتِه وجوهرِه هو الرَّحمة التي أهداها الله سبحانه وتعالىٰ للنَّاس أجمعين المسلم وغير المسلم، فقد وضَع الحقَّ جلَّ جلالُه في هذا الدين القدرة علىٰ استيعابِ النَّاس جميعًا من شتَّىٰ الطوائف والملل، ولما أنزل الله سبحانه الآياتِ التي فيها ذكر الكُفر والكافرينَ وَضعَ معها ضوابطَ لحماية وصيانة حياة كلِّ إنسانٍ مسلمٍ وغير مسلم، ولكن لَمَّا كانت ظاهرةُ التَّكفيرِ وأحكامه تتوجَّه في المقام الأوَّل في هذا العصرِ نحو المسلمِ مِن قِبل معتنقِي الفكر التَّكفيريِّ، وسوف نتعرَّضُ للكلام عن حكم التَّكفير من النَّاحية الشَّرعيَّة:

فالنبي ﷺ قد قَبِلَ الإسلام وأثبتَ الإيمانَ بمجرَّد نطق المرء بالشَّهادة أو التَّصريح بما عليه المسلمين في عقيدتهم، ومخالفةِ عقيدة أهل الكفر، فيصبح المرءُ داخلًا ضمن دائرةِ الإسلام بالشَّهادة، وكذلك أقوالُ علماء الأمَّة مِن أهل السُّنة في تقرير ثُبُوتِ الإسلامِ بمُجرَّد النُّطق بالشَّهادتيْنِ أو ما يدلُّ عليها إن كانَ لا يَستطيعُ النُّطق أو لا يُحسِن العربيَّةَ.

فأقوالُ النبي ﷺ وأقوال علماء الأمة تكفي كلَّ إنسان مسلمٍ يخشَىٰ الله سبحانه وتعالَىٰ أن يقدم علىٰ تَكفيرِ من أعلن الشَّهادتيْنِ ما لم يأتِ بناقض واضحٍ جليٍّ لهذه الشَّهادة ليس فيه خلافٌ بين أهل العلم، فالأصلُ فيمَنْ أعلن الإسلام أو وُلدَ بين المسلمين سلامةُ العقيدة، فالإسلام يقينٌ لا يزول بشكٍّ أو ظنٍّ أو توقفٍ في أمره، والذي يَرمِي الناس بالكفرِ بلا بينةٍ واضحةٍ جلية قطعيَّةٍ لا احتمالَ فيها قد عَرَّضَ نفسَه لسخط الله سبحانَه وتعالىٰ، وقد وَرَدَ التَّحذيرُ الشديدُ من التكلم في الحلالِ والحرام في دين الله تعالىٰ، فكيف بالتَّكفير وإخراج النَّاس من دينهم قالَ تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا

ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:33].

والذي يرمي الناس بالكفر هو علىٰ خطرٍ عظيمٍ من حيث إنه قد يقعُ في الكفر بسبب ذلك؛ فقد ورد عن النبيِّ ﷺ كلامٌ صريحٌ في التَّحذير من رمي المسلمِ بالكفرِ؛ فعند البخاريِّ ومسلم من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ((أَيُّمَا رَجُلٍ قال لأَخِيهِ يا كافِرُ، فَقَدْ باءَ بِهَا أَحَدُهُمَا))[1]. وكذلك المكفِّر للمسلمينَ بلسانِه إثمُه كإثم من تسبَّبَ في قتلِهم، ولا يخفىٰ علىٰ أيِّ مسلمٍ ألهمه الله رشده ما في سفكِ الدَّم الحرامِ وخاصةً دماء المسلمين من الإثمِ العظيمِ، فقد روىٰ البخاري عن ثابتٍ بن الضحاك عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ مِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلامِ فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَلَيْسَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ نَذْرٌ فِيمَا لا يَمْلِكُ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهُوَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ))[2].

- وقد روىٰ أبو داود في سننه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثٌ من أصلِ الإيمان: الكفُّ عمَّن قال: لا إله إلا الله، ولا نكفِّره بذنبٍ، ولا نخرجُه من الإسلام بعملٍ، والجهادُ ماضٍ منذ بعثني الله إلىٰ أن يقاتلَ آخرُ أمتي الدَّجال لا يبطلُه جَورُ جائرٍ، ولا عدلُ عادلٍ، والإيمان بالأقدار))[3].

إنَّ تكفير أيِّ إنسانٍ أو اتِّهامه بالفسق والضَّلال والانحراف أو النِّفاق يجرِّده عمليًّا من حقوقه الإنسانيَّة، ويعرضه للإهانة والطَّرد من المجتمع، وإذا اتخذت عملية التَّكفير طابعًا جماعيًّا- جماعة التكفير- وشملت جماعةً أو طائفةً فإنَّها تُعرِّض المجتمعَ الإسلاميَّ

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (6104) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (60).

(2) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهىٰ من السِّباب واللعن (6047).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب الغزو مع أئمة الجور (2532).

إلىٰ الفُرقة والاختلاف، و إذا انهارت الرَّابطةُ الدينية فلا مجالَ لأن نستعيض عنها بأيِّ شيء آخرَ.

وإدراكًا من الإسلام لخطورة عملية التَّكفير فقد دعا إلىٰ احترام هويَّة كل مَن يتشهَّد الشَّهادتين ويلتزم بأركان الدِّين، وعدم التَّشكيك بإسلام مَن يُعلن إسلامَه حتىٰ في ساحات القتال وتحت بريق السيوف، يقول الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:94].

ومن المميزات التي تميَّزت بها الشَّريعة الإسلامية اليُسْرُ والسُّهولة، وحمل الأشياء والأفعال والأقوال علىٰ أفضل المحامل، ولمَّا كان أهم ما يملكه الفرد المسلم في حياته كلِّها هو العقيدة والإيمان، فقد كفلت شريعةُ الإسلام صيانةَ هذا الإيمانِ من الاعتداء عليه أو سلبه من أيِّ شخصٍ تحت أي دعاوىٰ، وقد جاءت بهذه المعاني كتبُ أهل العِلْم ومتون العقائد التي تلقَّتها الأُمة كلُّها بالقبول؛ وذلك لأنَّ الأصلَ أنَّ مَن يثبت إيمانُه بيقينٍ فلا يزول عنه بشكٍّ، ولذلك إذا دار فعلُ المسلم أو قولُه بين مَحْملٍ حسنٍ بعيدٍ ومَحْملٍ قريبٍ قبيحٍ- حُمِلَ علىٰ الحسن ولو كان بعيدًا؛ استصحابًا ليقين إسلامِه وإحسانًا للظَّنِّ به، واحترازًا من الوقوع في تكفير المسلمين، والمستقرُّ المعتمد عند أهلِ السُّنة والجماعة أنَّ مرتكبَ المعصيةِ لا يَكفر بمجرَّد ارتكابها مهما كان مقدار هذه المعصية، فقد قال الإمام أبو جعفر الطَّحاوي في متن عقيدته التي تلقَّتها أُمَّة الإسلام بالقبول: ((ولا نُكفِّر أحدًا من أهل القِبلة بذنبٍ ما لم يستحلَّه))[1].

---

(1) متن العقيدة الطحاوية (ص57) لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي- المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية- 1414 هـ.

قال شارحه العلامة البابرتي: ((وإنما قال هذا ردًّا على الخوارج الذين قالوا بأنَّ المسلمَ إذا ارتكبَ كبيرةً يخرج من الإيمان ويدخل في الكُفر، وعلى المعتزلة الذين قالوا: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكُفر، ويكون بين المنزلتين))[1]. فمجرَّد ارتكاب المرء للذَّنب- حتى لو كان أكبر الكبائر- لا يُخرجه عن دائرة الإسلام بحالٍ؛ إلَّا أنْ يستحلَّ ذلك الذَّنبَ ويُعلن أنَّه غيرُ مُلْزَم بالتَّحريم، فما دام لم يُعلن بلسانه فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وهذا أَصلٌ عظيمٌ من أصول معتقد أهل السُّنَّة والجماعة أنَّهم لا يُكفِّرون أحدًا من أهلِ القِبلةِ بمجرَّد حدوثِ أيِّ ذنبٍ، فإنَّ مَن دخل في الإسلام بيقينٍ وشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله- لم تُنقض هذه الشَّهادة عنده لمجرَّد ارتكابه للمعصيةِ مهما بلغ شأنُها؛ فقد قال الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:178].

فالقتل معصيةٌ وكبيرةٌ من الكبائر التي جاء فيه من الوعيد الشيء الكثير، ومع ذلك فقد سمَّى الله سبحانه وتعالى القاتلَ أخًا، والمتبادَر من وصف الأُخوة تقييدُه بالإيمانية، كما وَرَدَ في صدر الآية، وقد ورد في الحديث الذي رواه البخاريُّ وغيرُه عن عمرَ بن الخطَّاب ﷺ: أنَّ رجلًا على عهد النَّبيِّ ﷺ كان اسمه عبدالله وكان يلقب حمارًا، وكان يُضحك رسولَ الله ﷺ وكان النبي ﷺ قد جلده في الشَّراب، فأُتي به يومًا فأمر به فجُلد فقال رجلٌ من القوم اللهم العنه ما أكثر ما يُؤتى به؟ فقال النبي ﷺ: ((لا تلعنوه فوالله ما علمتُ إلا أنَّه يحبُّ الله ورسولَه))[2].

---

(1) شرح العلامة البابرتي على متن العقيدة الطحاوية (ص102) - طبعة وزارة الأوقاف الكويتية.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وأنه ليس بخارج من الملة (6780).

فأهل السُّنة أبعدُ ما يكونوا عن التَّكفير الذي هو منهج أهل الضلال والبغي وتعدِّي حدود الله، ومنهجُهم هو المنهج المنضَبط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ولذلك جاءت النصوص عن علماء أهل السُّنة محذِّرة من الوقوع في تكفير المسلمين فيما دون الشِّرك بالله فلا يُحكم على مرتكبه بالكُفر، وإنما يحكمون عليه بالفسق إنْ كان مرتكبًا لكبيرةٍ من الكبائر، وذلك لأنَّ أصلَ الكُفر هو التكذيب المتعمَّد، وشرح الصَّدر له، وطمأنينة القلب به، وسكون النَّفس إليه، وقد جاء عن رسول الله ﷺ فيما يرويه أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثةٌ من أصل الإيمان: الكفُّ عمن قال لا إله إلا الله، ولا نكفِّره بذنبٍ، ولا نخرجه من الإسلام بعملٍ))[1].

- قال الإمام الغزالي في: فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة: ((اعلم أنَّ شرحَ ما يكفر به ممَّا لا يكفر به يستدعي تفصيلًا طويلًا يفتقر إلى ذِكر كلِّ المقالات والمذاهب، وذكر شبهة كلِّ واحدٍ ودليله، ووجه بُعده عن الظَّاهر، ووجه تأويله، وذلك لا يَحويه مجلدات، ولا تتَّسع لشرح لذلك أوقاتي، فاقنع الآن بوصيةٍ وقانونٍ: أمَّا الوصية: فأنْ تكفَّ لسانك عن أهل القِبلة ما أمكنك، ما داموا قائلين: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، غير مناقضين لها، والمناقضة: تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذرٍ أو غير عذرٍ، فإنَّ التَّكفير فيه خطرٌ والسُّكوت لا خطر فيه، أمَّا القانون: فهو أنْ تعلم أنَّ النَّظرياتِ قسمان؛ قسمٌ يتعلَّق بأصول القواعد، وقسمٌ يتعلَّق بالفروع....)).

إلى أنْ قال: ((لا تكفير في الفروع أصلًا إلَّا في مسألةٍ واحدةٍ، وهي أن يُنكر أصلًا دينيًّا عُلِم من الرَّسول الله ﷺ بالتواتر، لكن في بعضها تخطئة كما في الفقهيات وفي بعضها تبديعٌ كالخطأ المتعلِّق بالإمامة وأحوال الصحابة))[2].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة (ص61- 62) لأبي حامد الغزالي- تحقيق: محمود بيجو- دار البيروتي- الطبعة الأولى- 1993م.

فالتكفير حكم قضائي شرعي، والمرجع في الأحكام الشرعية إلىٰ أهل العِلمِ والقضاء الشرعيِّ وليس إلىٰ عامة الناس.

وقد حذَّر أهـل العلم مـن رمي النَّاس بالكفرِ، وأبانوا خطورة هذه المسألة، وبيَّنوا أنَّ الأصلَ في المسلمين هو الإسلام فهو يَقينٌ لا يزول بشكٍّ، ولا ينقل المسلم عن هذا الأصل إلَّا ببينةٍ مثل الشمس في رائعة النهار.

- قال الإمام النَّوويُّ: «واعلمْ أنَّ مذهبَ أهل الحقِّ أنَّه لا يكفر أحد من أهل القبلةِ بذنبٍ، ولا يكفر أهل الأهواءِ والبدع، وأنَّ مَنْ جحد ما يُعلمُ مِنْ دين الإسلام ضرورةً حُكِمَ بردَّتِه وكفرِه، إلَّا أن يكون قريبَ عهدٍ بالإسلام أو نَشأَ بباديةٍ بعيدة ونحوه ممَّن يخفىٰ عليه فيعرف ذلك، فإن استمرَّ حُكِمَ بكفره، وكذا حُكْمُ مَنِ استحلَّ الزنا أو الخمرَ أو القتلَ أو غيرَ ذلك من المحرَّماتِ الَّتي يعلمُ تحريمها ضرورةً»[1].

- قال الإمامُ ابن دقيق العيد في إحكام الأحكام: «وهذا وعيدٌ عظيمٌ لِمَنْ أكفرَ أحدًا من المسلمين وليس كذلك، وهي ورطةٌ عظيمةٌ وقع فيها خلقٌ كثيرٌ من المتكلمين ومن المنسوبين إلىٰ السُّنة وأهل الحديث، لما اختلفوا في العقائد فغلظُوا علىٰ مخالفيهم وحكمُوا بكفرهم، وخرَقَ حجابَ الهيبةِ في ذلك جماعةٌ من الحشويَّةِ، وهذا الوعيدُ لاحِقٌ بهم إذا لم يكن خصومُهم كذلك»[2].

- وقال أبو محمَّد ابنُ حزم رحمه الله: «والحق هُو أنَّ كل من ثَبت لَه عقد الإِسلام فإنَّه لا يزولُ عنه إلَّا بنصٍّ أو إجماع، وأما بالدَّعْوىٰ والافتراء فلا، فوجب أن لا يكفر أحدٌ بقولٍ قالَه إلَّا بأنْ يُخالِفَ مَا قد صَحَّ عندَه أن الله تعالىٰ قالَه أو أنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَه

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (151/1) لأبي زكريا محيي الدين النووي — المطبعة المصرية بالأزهر.

(2) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (420/1) لابن دقيق العيد- تحقيق: مصطفىٰ شيخ مصطفىٰ ومدثر سندس- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولىٰ- 2005 م.

فيستجيزُ خلافَ الله تعالىٰ وخلاف رَسُوله عليْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ))[1].

- وقال الشَّوكانيُّ رحمه الله في السيل الجرار: ((اعلمْ أنَّ الحكمَ علىٰ الرجلِ الـمسلم بخروجِه من دين الإسلام ودخولِه في الكفر لا ينبغي لمسلمٍ يُؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يقدمَ عليه إلَّا ببرهانٍ أوضحَ من شمسِ النَّهارِ، فإنَّه قد ثَبتَ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ المرويَّةِ من طريقِ جماعة من الصَّحابةِ ((أنَّ مَنْ قال لأخيه: يا كافر فقد باءَ بها أحدُهما)). هكذا في الصَّحيح، وفي لفظ آخر في الصحيحين وغيرهما: ((مَنْ دعا رجلًا بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حارَ عليه)). أي: رجع، وفي لفظٍ في الصحيح: ((فقد كفر أحدهما)). ففي هذه الأحاديثِ وما وَرَدَ موردَها أعظمُ زاجرٍ وأكبر واعظٍ عن التسرُّع في التَّكفيرِ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: 106] فلا بدَّ من شرح الصدر بالكفر وطمأنينة القلب به وسكون النفس إليه، فلا اعتبارَ بما يقعُ من طوارِقِ عقائدِ الشر، لاسيَّما مع الجهلِ بمخالفتها لطريقة الإسلامِ، ولا اعتبار بصُدُور فعل كفري لم يُرِدْ به فاعلُه الخروجَ عن الإسلام إلىٰ ملَّة الكفرِ، ولا اعتبارَ بلفظ تلفَّظَ به المسلم يدلُّ علىٰ الكفر وهو لا يَعتقدُ معناه))[2].

- ويقول الإمام الطَّحاوي رحمه الله: ((ونرىٰ الصَّلاةَ خلف كل بَرٍّ وفاجرٍ من أهل القبلة، ونصلِّي علىٰ مَنْ ماتَ منهم، ولا نُنزل أحدًا منهم جنةً ولا نارًا ولا نَشهدُ عليهم بكفرٍ ولا بشركٍ ولا بنفاقٍ ما لم يظهر منهم شَيءٌ من ذلك ونَذَرُ سرائرَهم إلىٰ الله تعالىٰ))[3].

---

(1) الفصل في الملل والأهواء والنحل (232/2) لأبي محمد بن حزم الأندلسي- تحقيق: يوسف البقاعي- دار إحياء التراث العربي- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 2002م.

(2) السيل الجرار المتدفق علىٰ حدائق الأزهار (578/4) للشوكاني- تحقيق: محمود إبراهيم زايد- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ.

(3) متن العقيدة الطحاوية (ص31) لأبي جعفر الطحاوي- المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية- 1414هـ.

- ويقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: ((والذي يَنبغِي أن يميل المحصِّلُ إليه الاحترازُ من التَّكفير ما وجد إليه سبيلًا؛ فإنَّ استباحةَ الدماء والأموال من المصلِّين إلىٰ القبلة المصرِّحين بقول لا إله إلا الله محمَّد رسول الله خطأٌ، والخطأ في ترك ألفِ كافر في الحياةِ أهون من الخطأ في سفك محجمة من دمِ مسلمٍ))[1].

- وقال الإمام ابن عابدين: ((لا يُفتىٰ بكفر مسلمٍ أمكن حمل كلامِه علىٰ مَحملٍ حسنٍ، أو كان في كفره خلافٌ، ولو كان ذلك روايةً ضعيفةً))[2].

- وجاء في كتاب البحر الرائق، وهو من معتمدات المذهب الحنفي: ((وفي جامع الفصولين: روىٰ الطَّحاويُّ عن أصحابنا: لا يُخرجُ الرجل من الإيمان إلا جحودُ ما أدخله فيه ما تُيقِّن أنه رِدةٌ يحكم بها به، وما يُشكُّ أنه ردَّة لا يَحكمُ بها؛ إذ الإسلامُ الثَّابتُ لا يزول بشكٍّ، مع أنَّ الإسلام يعلُو، وينبغي للعالم إذا رُفع إليه هذا أن لا يبادرَ بتكفيرِ أهل الإسلام، مع أنه يقضي بصحَّة إسلام المكره، أقول: قدمت هذه لتصير ميزانًا فيما نقلتُه في هذا الفصل من المسائلِ فإنه قد ذكر في بعضها أنَّه كفرٌ مع أنَّه لا يكفر علىٰ قياسِ هذه المقدمة فليتأمل. اهـ وفي الفتاوىٰ الصغرىٰ: الكفرُ شيءٌ عظيمٌ فلا أجعل المؤمن كافرًا متىٰ وجدتُ روايةً أنه لا يكفر. اهـ))[3].

فهذه أيُّها الأخ الكريم نصوصُ السُّنة وكلام أهل العلمِ في التحذيرِ من تكفير المسلمين ورميهم بالمروق من الدين، وهي النُّور الهادي والصراط المستقيمُ التي تكفي كلَّ عبدٍ منيبٍ يخشىٰ الله ويعظِّمُه أن ينتهك حرماتِ الله ويجترأ علىٰ تكفير المسلمين، فإنَّ رميَ الناس بالكفر لا يقرِّبُ من الله ولا ينصر الدِّين، وإنَّما ما يقرِّبُ من الله هو دعوة

---

(1) الاقتصاد في الاعتقاد (ص157) لأبي حامد الغزالي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- 1983م.

(2) رد المحتار علىٰ الدر المختار (224/4) لمحمد أمين بن عمر ابن عابدين- دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية- 1992م.

(3) البحر الرائق شرح كنز الدقائق (134/5) لابن نجيم الحنفي- دار الكتب العربية الكبرىٰ- 1333هـ.

الناس لدينه وتعريفهم بربِّهم والعمل على تقريبهم منه، والخطابُ التَّكفيريُّ إنَّما ينفرُ النَّاسَ من الدِّين مسلمينَ وغير مسلمينَ، وقد أوضح الله لنا طريق الهدى وبَيَّنَ لنا معالم دينِنا، فلا نشتري الضلالة بالهدى وننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆



« وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا » – آية 37 من سورة الإسراء

الرسالة الثانية والثلاثون
فكر الخوارج وأثره في إضعاف ووهن الأمة الإسلامية

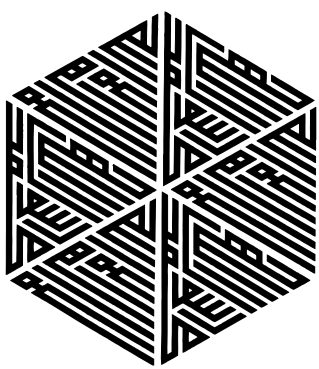
وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأول: مفهوم مصطلح الخوارجِ من خلال أحاديث النبي ﷺ.

المحور الثاني: أقوالُ أهلِ العلْمِ في ذمِّ الخوارجِ.

المحور الثالث: بداية ظُهور الخوارجِ في أمَّةِ الإسلامِ.

المحور الرابع: الفتنة الحاصلة من خوارج العصر الحديثِ. ◆





« مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ »

آية **41** من سورة العنكبوت

فكر الخوارج وأثره في إضعاف ووهن الأمة الإسلامية

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ صغيرةٌ نحن في أشدِّ الحاجةِ إليها وخاصَّةً في الآونةِ الأخيرة، وهي تتكلَّم عنِ الخوارج ومنهجِهم وطريقِهم، ومتى ظهَر مصطلحُ الخوارجِ في أمَّة الإسلامِ، وكيف نشأَ هذا الفِكر، وما الأصولُ التي انبنَىٰ عليها؟ وما صورُ وجودِ وظهورِ هذا الفِكر في بلادِ المسلمين حدِيثًا؟ وتأتي أهميَّةُ الحديثِ عن هذا الأمرِ بسببِ انتشارِ فكرِ ومبادئ الخَوارجِ عند جماعاتٍ من المسلِمين قدَّموا أنفسَهم على أنَّهم هم الممثِّلون للإسلامِ ولا أحدَ سِواهم وأنَّهم أهلُ الحقِّ وغيرُهم أهلُ الباطلِ، وقد اتَّخذوا مِن الدَّعوةِ إلى الجهادِ وإقامةِ دولةِ الإسلامِ شِعارًا يستَقطِبون به الشَّبابَ، ولكِنَّ المتأمِّلَ في حالِ هؤلاءِ سيَجدُ في نهايةِ المطافِ أنَّ المُمسِكَ بخيوطِ هذه الأمورِ كلِّها هم أعداءُ الأمَّةِ وأعداءُ دِينها مِن دوَلٍ وأجهزةٍ أجنبيَّةٍ؛ تحرِّك كلَّ هؤلاءِ مِن وراءِ السِّتار فتَستخدِمُ الشَّبابَ في تَحقيقِ أهدافِها مِن زعزعةِ الأمنِ في بلادِ الإسلامِ، والعَملِ على تقسِيمها ونَشرِ التَّخريبِ تحتَ مُسمَّياتٍ مختلفةٍ وعناوينَ برَّاقةٍ تَستهوي الكثيرَ مِنَ النَّاس فينخَدعونَ بها، أو يُثيرونَ عاطفةَ بعضِهم بِما يرفعونَه من شِعاراتٍ إسلاميَّةٍ تُعتبر مَدخلًا لتَقبُّل أفكارِ التَّكفير واستِحلالِ الدِّماءِ والأعراضِ والأموالِ.

وسَنقومُ في هذِه الرِّسالةِ بعَرضِ النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ المتَّصِلةِ بهذا الموضوعِ، وسنذكُر كلامَ أهلِ العِلْم في هذِه الطَّائفةِ، والوقائعَ التَّاريخيَّةَ المتعلِّقةَ بسلوكِهم ومنهجِهم، ومَظاهرَ وجودِ فكْرِ الخوارجِ في أمَّة الإسلامِ خاصَّةً هذه الأيَّامَ عسى أن يوفِّقنا الله سبحانَه وتعالى لبيانِ الحقِّ وتوضيحِ الأمورِ في هذِه المسألةِ، ولن نَستقِلَّ بفهمٍ أو نصدرَ أحكامًا، بل سننقُل أقوالَ أهلِ السُّنَّةِ عبرَ العصورِ في هذِه الطَّائفةِ وفي كلِّ مَن تفرَّع عنها وتَشبَّع بمبادِئها، مع محاولةِ إلقاءِ نظرةٍ على الواقع الذي نعِيشُه والتَّفكُّرِ فيما يجري

حولنَا مِن أمورٍ ترتَبط ارتباطًا وثيقًا بهذا الفِكر، عسىٰ أن يـكونَ الكلامُ في هذا الأمرِ حائطًا لصَدِّ شرورِ تلك المناهجِ والأفكارِ، وسيـكون الكلامُ عن هذا الأمرِ متمثِّلًا في المحاور التَّالية:

المحور الأول: مفهوم مصطلح الخوارجِ من خلال أحاديث النبي ﷺ.

المحور الثاني: أقوالُ أهلِ العلْمِ في ذمِّ الخوارجِ.

المحور الثالث: بداية ظُهور الخوارجِ في أمَّةِ الإسلامِ.

المحور الرابع: الفتنة الحاصلة من خوارج العصر الحديثِ. ◆

مفهوم مصطلح الخوارجِ من خلال أحاديث النبي ﷺ

مِنَ الأهميَّةِ عندَ الحديثِ عن فتنةِ الخوارجِ وفكْرِهم أن نعرفَ المقصودَ بكلمةِ الخوارجِ المذمومةِ في دِينِ الإسلامِ؛ لأنَّ كلمةَ الخوارجِ قدِ استُعمِلَت للدلالةِ علىٰ طوائفَ شتَّىٰ، والمقصودُ هنا هو بيانُ الفِرقةِ التي خالفَت المسلمينَ في الاعتقادِ والفَهمِ لدينِ الإسلامِ ومَا تَبع ذلك مِن ظهورِ تكفيرِ المسلمين، وظهورِ استِحلالِ الدِّماء والأموالِ، وحمِلِهم الآياتِ الَّتي نزَلَت في الكفَّارِ والمشركين علىٰ المسلمينَ وإسقاطِها عليهم، متَّخذِين لأنفسِهم مَنهجًا وسلوكًا مخالِفًا لمنهجِ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ منذ بدايةِ الصَّدرِ الأوَّلِ في الإسلامِ، وسيأتي بيانُ ذلك مِنَ الأحاديثِ الواردةِ عن رسولِ الله ﷺ في وصفِهم ووَصفِ أفعالِهم وتصرُّفاتِهم والتَّحذيرِ مِنهم، وقد ظهَر الخوارجُ في أواخرِ عهدِ أمير المؤمنين عليٍّ ابن أبي طالبٍ الخليفةِ الرَّاشديِّ الرَّابعِ من الخلفاءِ الرَّاشدِينَ المهديينَ، ومِن ثَمَّ استُعمِل مصطلحُ الخوارجِ علىٰ هذه الطَّائفةِ ومَن نَحا نحوَها، وأُطلِق علىٰ طائفةِ الخوارجِ عدَّةُ مسمَّياتٍ مِنها:

1- الخوارجُ: يُعدُّ هذا الاسم من أشهرِ الأسماءِ التي عُرِفَت بها هذه الطَّائفةُ، فهم خارجونَ عنِ الدِّين وعنِ الجماعةِ وعنِ إمامِ المسلمين، وهم يقبَلون هذه التَّسميةَ مِن جهةٍ أخرَىٰ فيرَون أنَّ خروجَهم في سبيلِ الله وأنَّه مأخوذٌ من قولهِ تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ﴾ [النِّساء: 100].

2- الحَرُوريَّة: نسبةً إلىٰ مكانٍ يسمَّىٰ حروراء قربَ الكوفةِ، وهو المكانُ الذي اجتمعَ فيه أوائلُ الخوارجِ الذين خرَجوا علىٰ الإمامِ عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، فيقالُ لِلخارجيِّ حَرُوريٌّ نسبةً إلىٰ حَرُورَاء.

3- المارِقة: فهم مِن أوَّل الفِرَق التي مَرَقَت مِنَ الدِّين وشقَّت جماعةَ المسلمين، وجاءَت فيهم الأحاديثُ عنِ النَّبيِّ ﷺ بمروقِهم مِنَ الدِّين كمروقِ السَّهم مِنَ الرَّميَّةِ.

4- المُحَكِّمَة: وهي مِن أوَّل أسمائِهم التي أُطلِقَت عليهم، والسَّبب في إطلاقِه عليهم إمَّا لرفضِهم قضيَّة تحكِيم الحكَمين أبي موسىٰ الأشعريِّ وعمرو بن العاصِ رضي الله عنهما، أو لرفعهِم شعارَ (لا حُكْمَ إلَّا لله).

5- النَّواصِب: وسمُّوا أيضًا بالنَّواصِب لمبالغتِهم في نَصبِ العداءِ لعليِّ بن أبي طالبٍ وذريَّتِه مِن بعدِه[1].

ولنَذكر تعريفَ بعضِ أهل العلْمِ بهم حتَّىٰ يتَّضِحَ الأمرُ:

يقول الإمامُ أبو الحسَن الأشعري: «فأَبَوا إلَّا خلعَه وإكفارَه بالتَّحكيم، وخرَجوا عليهِ، فسُمُّوا خوارجَ؛ لأنَّهم خرَجوا علىٰ عليِّ بن أبي طالبٍ رضوانُ الله عليه وصارَ اختِلافًا إلىٰ اليومِ»[2].

وأمَّا الإمام ابنُ حزمٍ فيرَىٰ أنَّ الخارجيَّ اسمٌ يتعدَّىٰ إلىٰ كلِّ مَن أشبَه أولئكَ النَّفرَ الذين خرَجوا علىٰ الإمامِ عليٍّ رضي الله عنه وشاركَهم في مُعتقدِهم، فقالَ: «ومَن وافَق الخوارجَ مِن إنكارِ التَّحكيمِ وتكفِيرِ أصحابِ الكبائرِ والقولِ بالخروجِ علىٰ أئمَّةِ الجَور، وأنَّ أصحابَ الكبائرِ مخلَّدون في النَّارِ، وأنَّ الإمامةَ جائزةٌ في غيرِ قريشٍ فهوَ خارجيٌّ»[3].

وقال الحافظُ ابنُ حجرٍ العَسقلانيُّ رحمَه الله في تعريفِ الخوارجِ: «والخوارجُ الذين أنكَروا علىٰ عليٍّ التَّحكِيمَ، وتبرَّءوا منه ومِن عثمانَ وذرِّيَّته وقاتَلُوهم، فإن أَطلَقوا تكفيرَهم فهم الغلاةُ مِنهم»[4]. وقال في تعريفٍ آخرَ: «أمَّا الخوارجُ فهم جمعُ

---

(1) انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلِّين (167/1) للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري- تحقيق: محمَّد محيي الدين عبدالحميد- المكتبة العصريَّة- بيروت- 1990م.

(2) انظر: مقالات الإسلاميين (64/1).

(3) انظر: الفِصَل في المِلل والأهواء والنِّحل(90/2) لابن حزم الظاهري- مكتبة الخانجي- القاهرة.

(4) انظر: هدي السَّاري مقدمة فتح الباري (ص459) للإمام ابن حجر العسقلاني- تحقيق: الشَّيخ محب الدِّين الخطيب- المطبعة السَّلفيَّة.

خارجةٍ- أي: طائفةٍ- وهم قومٌ مبتدِعون، سمُّوا بذلك لخروجِهم عنِ الدِّين وخروجِهم على خِيارِ المسلِمينَ))[1].

الأحاديثُ الوارِدةُ في طائفةِ الخوارجِ:

ورَد في كتبِ السُّنَّةِ كثيرٌ مِن الأحاديثِ التي تَتكلَّم عن أمرِ طائفةِ الخوارجِ وصفاتِهم ونعوتِهم وأقوالِهم وأفعالِهم منها:

- عن سُوَيد بن غَفَلَة قالَ: قال عليٌّ رضي الله عنه: إذا حدَّثتُكم عن رسولِ الله ﷺ حدِيثًا، فوالله فلأَن أخِرَّ مِنَ السَّماء أحبُّ إليَّ مِن أن أكذبَ عليه، وإذا حدَّثتُكم فيما بيني وبينكم فإنَّ الحربَ خدعةٌ، وإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((سَيَخرُجُ قَومٌ في آخِرِ الزَّمانِ، أَحدَاثُ الأَسنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحلامِ، يقُولُونَ مِن خَيرِ قَولِ البَرِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُم حَنَاجِرَهُم، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فأينَما لَقِيتُمُوهُم فَاقتُلُوهُم، فَإِنَّ فِي قَتلِهِم أَجرًا لِمَن قَتَلَهُم يَومَ القِيَامَةِ))[2].

- عن عاصم بن كُليب عن أبيه قال: كنتُ جالسًا عند عليٍّ فقال: إنِّي دخلتُ على رسولِ الله ﷺ وليس عندَه أحدٌ إلَّا عائشةُ فقال: ((يَا ابنَ أَبِي طَالِبٍ كَيفَ أَنتَ وَقَومَ كَذَا وكَذَا؟)) قال: قلتُ: الله ورسولُه أعلَم، قال: ((قَومٌ يَخرُجُونَ مِنَ المَشرِقِ يَقرَءُونَ القُرآنَ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَمِنهُم رَجُلٌ مُخدَجُ اليدِ كَأَنَّ يدَيه ثَديُ حَبَشِيَّةٍ))[3]. ومُخدج اليد أي قصير اليد.

- عن عليِّ بن أبي طالبٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: ((سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَحدَاثُ الأَسنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحلامِ، يَقُولُونَ مِن أَحسَنِ النَّاسِ قَولًا، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمرُقُ

---

(1) انظر: فتح الباري (283/12).

(2) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (6930).

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (160/1).

السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، هُم شَرُّ الخَلقِ وَالخَلِيقَةِ، وَطُوبَىٰ لِمَن قَتلَهُم أَو قَتَلُوهُ))[1].

- عن جابرٍ قال: أَتَىٰ رجلٌ رسولَ الله ﷺ مُنصَرَفَه مِن حُنين، وفي ثوب بلالٍ فضَّةٌ يقبِض منها، وجعل يُعطِي النَّاس، فقال: يا محمَّد اعدِل، فقال: ((وَيلَكَ! مَن يَعدِلُ إِذَا لَم أَعدِل؟! لَقَد خِبتَ وَخَسِرتَ إِن لَم أَعدِل)) فقال عمر بن الخطاب: دَعني فأقتلَ هذا المنافقَ، فقال: ((مَعَاذَ الله أَن يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقتُلُ أَصحَابِي، إِنَّ هذا وَأَصحَابَهُ يَقرَءُونَ القُرآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ))[2].

- عَن أَبِي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه قالَ: بينمَا نحنُ عندَ رسولِ الله ﷺ وهوَ يقسِم قسمًا أتَاهُ ذُو الخُويصِرةِ- وهو رجلٌ مِن بَنِي تَميم- فقالَ: يا رسولَ الله اعدِل، فقالَ: ((وَيلَكَ! وَمَن يَعدِلُ إِذا لَم أَعدِل، قدْ خِبتَ وَخَسِرتَ إِن لَم أَكُن أَعدِلُ)) فقالَ عمرُ: يا رسولَ الله ائذَن لي فيهِ فأضرب عنقَه، فقالَ: ((دَعهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصحَابًا يَحقِرُ أَحَدُكُم صَلاتَهُ مَع صَلاتِهِم، وَصِيَامَه مَع صِيَامِهِم، يَقرَءُونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ))[3].

- عَن أَبِي سلَمَةَ وعطاء بنِ يسارٍ أَنَّهما أتيَا أبا سعيدٍ الخُدري فسألَاه عنِ الحَرُورِيَّة أسمعتَ النَّبيَّ ﷺ؟ فقال: لا أَدرِي مَا الحَرُورِيَّة؟ سمِعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: ((يَخرُجُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ[4] قَومٌ تَحقِرُونَ صَلاتَكُم مَعَ صَلاتِهِم، يَقرَءُونَ القُرآنَ لَا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُم- أَو حَنَاجِرَهُم- يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَيَنظُرُ الرَّامِي إِلَىٰ سَهمِهِ إِلَىٰ نَصلِهِ إِلَىٰ رِصَافِهِ، فَيَتَمَارَىٰ فِي الفُوقَةِ، هَل عَلِقَ بِهَا مِنَ الدَّمِ شَيءٌ))[5].

---

(1) أخرجه الطَّبراني في المعجم الأوسط (6142).

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (3/353) والطَّبراني في المعجَم الأوسط (9060).

(3) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3610).

(4) لم يقل ﷺ مِن هذه الأمَّة.

(5) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (6931) ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (1064).

- عن أبي سَعيدٍ الخُدري وأنسِ بنِ مالكٍ عن رسولِ الله ﷺ قالَ: ((سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اختِلَافٌ وَفُرقَةٌ، قَومٌ يُحسِنُونَ القِيلَ وَيُسِيئُونَ الفِعلَ، يَقرَءُونَ القُرآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يَرجِعُونَ حتَّىٰ يَرتَدَّ علىٰ فُوقِه، هُـم شَرُّ الخَلقِ وَالخَلِيقَةِ، طُوبَىٰ لِمَن قَتَلَهُم وَقَتَلُوهُ، يَدعُونَ إِلَىٰ كِتَابِ الله وَلَيسُوا مِنهُ فِي شَيءٍ، مَن قَاتَلَهُم كان أَولَىٰ بِالله مِنهُم)) قالُوا: يا رسُولَ الله ما سِيمَاهم؟ قالَ: ((التَّحلِيق))[1].

- عن أبي سعيدٍ الخُدري أنَّ أبا بكرٍ جاءَ إلىٰ رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنِّي مررتُ بوادِي كذا وكذا فإذا رجلٌ متخشِّعٌ حَسَنُ الهيئةِ يُصلِّي، فقال له النَّبيُّ ﷺ: ((اذهَب إِلَيهِ فَاقتُلهُ)) قال: فذهبَ إليهِ أبو بكرٍ فلمَّا رآه علىٰ تلكَ الحالِ كَرِهَ أن يَقتلَه، فرجَع إلىٰ رسولِ الله ﷺ قالَ: فقال النَّبيُّ ﷺ لعمرَ: ((اذهَب فَاقتُلهُ)) فذهبَ عمرُ فرَآه علىٰ تلك الحالةِ التي رآهُ أبو بكر، قال: فكَرِه أن يقتُلَه قال: فرجَع فقال: يا رسولَ الله، إنِّي رأيتُه يصلِّي متخشِّعًا فكرهتُ أن أقتلَه. قال: ((يَا عَلي؛ اذهَب فَاقتُلهُ)) قال: فذَهَب عليٌّ فلَم يرَه فرجعَ عليٌّ فقالَ: يا رسولَ الله لم أرَه، قال: فقال النَّبيُّ ﷺ: ((إِنَّ هَذَا وَأَصحَابَهُ يَقرَءُونَ القُرآنَ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ حتَّىٰ يَعُودَ السَّهمُ فِي فُوقِهِ، فَاقتُلُوهُم هُم شَرُّ البَرِيَّةِ))[2].

- عن عبدِالله بنِ عمرَ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: ((يَخرُجُ مِن أُمَّتِي قَومٌ يُسِيئُونَ الأَعمَالَ، يَقرَءُونَ القُرآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهـم- قال يزيدُ: لا أعلَمُ إلَّا قالَ- يَحقِرُ أَحَدُكُم عَمَلَه مِن عَمَلِهِم، يَقتُلُونَ أَهلَ الإِسلَامِ، فإذا خرجُوا فاقتلُوهُم، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقتُلُوهُم، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فاقتلُوهُم، فطُوبَىٰ لِمَن قَتَلَهُم، وَطُوبَىٰ لِمَن قَتَلُوهُ، كُلَّمَا طَلَعَ مِنهُم قَرنٌ قَطَعَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ)) فرَدَّدَ ذلكَ رَسُولُ الله ﷺ عشرِينَ مَرَّةً أَو أَكثَرَ وَأَنَا أَسمَعُ[3].

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب السنَّة، باب في قتال الخوارج (4765) وأحمد في مسنده(3/224).

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (3/15).

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (2/84).

- عن حذيفةَ ﵁ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: ((إنَّ مَا أَتَخوَّفُ علَيكُم رَجُلٌ قرَأَ القُرآنَ حتَّىٰ إذا رُئِيَت بَهجَتُهُ عَليهِ وكَانَ رِدْئًا للإِسلامِ غَيَّرَه إلىٰ ما شاءَ الله فانسَلَخَ مِنهُ، وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهرِه، وسَعَىٰ عَلَىٰ جارِهِ بِالسَّيفِ ورَمَاه بِالشِّركِ)) قال: قلتُ: يا نبيَّ الله، أيُّهما أولَىٰ بالشِّرك المَرميُّ أم الرَّامي؟ قال: ((بل الرَّامِي))[1].

- عن أبي أُمامةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118] قال: ((همُ الخَوَارِجُ))[2].

- عَن أبي غالبٍ قالَ: رأىٰ أبو أُمامةَ- أي: الصَّحابيُّ- رءوسًا مَنصوبةً علىٰ دَرَجِ دمشقَ، فقال أبو أُمامةَ: ((كلابُ النَّارِ شرُّ قَتلَىٰ تحتَ أديمِ السَّماءِ، خيرُ قتلَىٰ مَن قَتَلُوه، ثُمَّ قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106] إلىٰ آخرِ الآيةِ، قلتُ لأبي أُمامةَ: أنتَ سمِعتَه مِن رسول الله ﷺ قالَ: لَو لَمْ أسمعْهُ إلَّا مرَّةً أو مرَّتَين أو ثلاثًا أو أربعًا حتَّىٰ عدَّ سبعًا ما حدَّثتُكُمُوه[3].

- عن أبي سعيدٍ ﵁ قال: بعَثَ عليٌّ ﵁ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ بذهبيَّةٍ فقسَّمها بينَ الأربعةِ: الأقرعِ بن حَابِسٍ الحنظليِّ ثُمَّ المُجَاشِعيِّ وعُيينةَ بنِ بدرٍ الفَزَاريِّ وزيدٍ الطَّائيِّ، ثُمَّ أحدِ بني نَبْهان وعلقمةَ بنِ عُلاثةَ العامريِّ، ثُمَّ أحدِ بني كِلاب، فغضبَت قريشٌ والأنصارُ، قالوا: يُعطي صناديدَ أهل نجدٍ ويدعُنا، قال: ((إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُم)) فأقبَلَ رجلٌ غائرُ العينَين، مُشرِفُ الوجْنَتَينِ، ناتئُ الجبين، كثُّ اللِّحيةِ محلوقٌ، فقال: اتقِ الله يا محمَّد، فقال: ((مَن يُطِعِ الله إِذَا عَصَيتُ؟! أَيَأمَنُنِي الله عَلَىٰ أَهلِ الأَرضِ فَلا تَأمَنُونِي))

---

(1) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه (81).

(2) أخرجه الطَّبراني في المعجم الكبير (8047).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران (3000) وقال: حديثٌ حسنٌ.

فسألَه رجلٌ قَتْلَه- أحسبُه خالدَ بن الوليد- فمنَعه، فلمَّا وَلَّىٰ قال: ((إِنَّ مِن ضِئضِئِ هذا- أَو: فِي عَقِبِ هَذَا- قَومًا يَقرَءُونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُم، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقتُلُونَ أَهلَ الإِسلامِ وَيَدَعُونَ أَهلَ الأَوثَانِ، لَئِنْ أَنا أَدرَكتُهُم لَأَقتُلَنَّهُم قتلَ عَادٍ))[1].

- عن أبي ذَرٍّ الغفاريِّ ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: ((إِنَّ بَعدِي مِن أُمَّتِي- أَو سَيَكُونُ بَعدِي مِن أُمَّتِي- قَومٌ يَقرَءُونَ القُرآنَ لَا يُجَاوِزُ حَلَاقِيمَهُم، يَخرُجُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَخرُجُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ، هُم شَرُّ الخَلقِ وَالخَلِيقَةِ))[2].

- عن ابن عمرَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((يَنشَأُ نَشأٌ يَقرَءُونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، كُلَّمَا خَرَجَ قَرنٌ قُطِعَ)) قالَ ابنُ عمر: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((كُلَّمَا خَرَجَ قَرنٌ قُطِعَ- أَكثَرَ مِن عِشرِينَ مَرَّةً- حَتَّىٰ يَخرُجَ فِي عِرَاضِهِمُ الدَّجَّالُ))[3].

- عن أنسٍ قال: ذُكِرَ لي أنَّ رسول الله ﷺ قال- ولَم أسمعْه مِنه: ((إِنَّ فِيكُم قَومًا يَعبُدُونَ وَيَدأَبُونَ حَتَّىٰ يُعجَبَ بِهِمُ النَّاسُ وَتُعجِبَهُم نُفُوسُهُم، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ))[4].

- عَن ابنِ أَبِي أوفَىٰ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: ((الخَوَارِجُ كِلابُ النَّارِ))[5].

- عَن أَبِي كثيرٍ مَولَىٰ الأنصارِ قالَ: كنتُ مع سيِّدي عليِّ بن أبي طالبٍ حيثُ قُتِلَ أهلُ النَّهرَوانَ، فكأنَّ النَّاسَ وجدُوا في أنفسِهم مِن قَتلِهم فقال عليٌّ: يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ شديدة ﴿عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6] (3344).

(2) أخرجه مسلِم في كتاب الزكاة، باب الخوارج شر الخلق والخليقة (1067).

(3) أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب في ذكر الخوارج (174).

(4) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (3/183).

(5) أخرجه ابن ماجه مقدمة سننه، باب في ذكر الخوارج (173).

رسولَ الله ﷺ قَد حدَّثنا بأقوامٍ يَمرُقُون مِنَ الدِّين كما يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لا يرجِعُون فيهِ أبدًا حتَّىٰ يرجِعَ السَّهمُ علىٰ فُوقِهِ[1].

فهذِه جُملةٌ مِن أحاديثِ سيِّد البشرِ ﷺ في بيانِ أمرِ هذِه الطَّائفةِ التي ابتُلِيَت بها أمَّةُ الإسلامِ، فقَد أوضَح عليه الصَّلاة والسَّلامُ أمرَها وأظهرَه؛ نُصحًا لأمَّته وتحذيرًا لها لِمَا سوفَ تجلِبُه طائفةُ الخوارجِ علىٰ مرِّ العصورِ علىٰ هذِه الأمَّةِ مِنَ المِحَن والمصائبِ، فليسَ بعدَ كلام رسولِ الله فيهم كلامٌ وليسَ بعدَ بيانهِ ﷺ بَيانٌ، ويتَّضح لنا مِن خلالِ هذه الأحاديثِ علَاماتُ وصِفاتُ هذه الطَّائفةِ التي حَذَّر مِنها النَّبيُّ ﷺ ومِن هذِه الصِّفاتِ والعلَاماتِ والإرشادات:

1- وَصفُهم بأنَّهم سفهاءُ الأحلامِ- أي: العقولِ- يقولون بقولِ خيرِ البريَّة، يُجمِّلون حالَهم ومنطقَهم بحديثِ رسولِ الله ﷺ.

2- الأمرُ بقِتالِهم وقَتلِهم حيثُ كانوا، وأنَّ في قتلِهم أجرًا لِمَن قتلَهم، وأخبرَ ﷺ أنَّه لو أدركَهم لقتَلهم قتلَ عادٍ.

3- إنَّهم يمرُقون مِنَ الدِّين كما يمرُق السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّة.

4- يُكثرون مِن قراءةِ القرآنِ ولكنَّه لا يجاوزُ تراقِيهم، فلا تدخُل معانيه في قلوبِهم.

5- شَرُّ الخَلقِ والخَلِيقة.

6- اجتهادُهم في العِبادةِ، فيُعرفون بكثرةِ التَّعبُّدِ، وليسَت كثرةُ التَّعبُّدِ هي المقصودةَ بالذَّمِّ، وإنَّما هي علامةٌ مع باقي العلامات الَّتي تميِّزهم إظهارًا لحالهم وتوضيحًا له، لدرجةِ أنَّ الصَّحابة ومَن بعدهم يُحقِّرون عباداتِهم إلىٰ جانبِ عبادةِ هذه الطَّائفةِ، فالمشكِلةُ عندَ هؤلاءِ هي أنَّ أصلَ الدِّين عندهم فيه خللٌ لذلك لا نفعَ ولا أثرَ طيِّب لهذه العبادةِ الكثيرةِ.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (1/88).

7- سِيماهم التَّحليق- أي: حَلقُ الرَّأسِ.

8- مُسارعتُهم في رَمي النَّاسِ بالشِّركِ.

9- وصفُهُم بكلابُ النَّار.

10- يَقتلون المسلمينَ ويتركون جِهادَ الكفَّار.

أقوال أهلِ العلْمِ في ذمِّ الخوارجِ

نورِد في هذا المحور طرفًا مِن أقوال أهل العلْمِ في الخوارج ومَن يحذو حَذوهم علىٰ مرِّ العصور:

قال الإمام أبو جعفرٍ مُحَمَّدُ بن جريرٍ الطَّبري في تفسيره: «حدَّثنا الحسن بنُ يحيىٰ قال: أخبَرنا عبدُالرَّزَّاق، قال: أخبرنا مَعمَر عن قتادةَ في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: 7] وكان قتادةُ إذا قرأَ هذِه الآيةَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ قال: إن لم يكونوا الحَرُوريَّةَ والسَّبائيَّة فلا أدري مَن هُم[1] ولعَمري لقد كانَ في أهل بدرٍ والحُديبيَّة الذين شهدُوا مع رسولِ الله ﷺ بيعةَ الرِّضوان مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ خبرٌ لمَن استخبَر وعبرةٌ لمَن استَعبر لمَن كان يعقِل أو يُبصِر، إنَّ الخوارجَ خرَجوا وأصحابُ رسولِ الله ﷺ يومئذٍ كثيرٌ بالمدينةِ والشَّامِ والعراقِ، وأزواجُه يومئذٍ أحياءٌ، والله إنْ خرَج منهم ذكَرٌ ولا أُنثىٰ حَرُوريًّا قَطُّ، ولا رَضُوا الَّذي هم عليهِ، ولا مَالأوهُم فيه، بَل كانوا يُحدِّثون بعَيبِ رسولِ الله ﷺ إيَّاهم ونَعتِه الَّذي نعتَهم بهِ، وكانوا يُبغضُونَهم بقلوبِهم ويعادونَهم بألسنتِهم، وتَشتدُّ والله عليهم أيدِيهم إذا لَقُوهم، ولعَمري لو كانَ أمرُ الخوارجِ هدًىٰ لاجتَمعَ، ولكنَّه كان ضَلالًا فتَفرَّق، وكذلك الأمرُ إذا كان مِن عند غيرِ الله وجدتَ فيه اختِلافًا كثيرًا، فقَد أَلَاصُو[2] فهل أفلَحوا فيهِ يومًا أو أنجَحوا؟!

---

(1) الحرُوريَّة: هم الخوارج في مبدأ أمرهم؛ لأنَّهم تجمَّعوا في منطقةٍ تسمَّىٰ حَرُوراء.

(2) ألاصَ الأمر: أداره وحاوله، وألاص فلانًا علىٰ هذا الأمر: أداره علىٰ الشيء الذي يريده.

يا سبحانَ الله كيفَ لا يَعتبِر آخرُ هؤلاءِ القومِ بأوَّلِهم؟! لو كانوا علىٰ هدًىٰ قد أظهَره الله وأفلَجَه ونصَره، ولكنَّهم كانوا علىٰ باطلٍ أكذبَه الله وأدحضَه، فهم كما رأيتَهم كلَّما خرَجَ لهم قرنٌ أدحضَ الله حُجَّتهم وأكذبَ أحدوثَتَهم وأهرَاقَ دماءَهم، إن كتَموا كان قَرحًا في قلوبِهم وغمًّا عليهم، وإن أظهَروه أهرَاقَ الله دماءَهم، ذاكُم والله دِينُ سوءٍ فاجتَنبوه، والله إنَّ اليهوديَّة لبِدعةٌ، وإنَّ النَّصرانيَّة لبِدعةٌ، وإنَّ الحَرُوريَّة لبِدعةٌ، وإنَّ السَّبائيَّةَ لبدْعَةٌ، ما نزَل بهِنَّ كتابٌ ولا سنَّهُنَّ نبيٌّ))[1].

أقول: سبحانَ الله ما أشبَه اللَّيلةَ بالبارحةِ، وكأنَّ الشَّيخَ رحِمَه الله يَصِفُ حالَنا في بلادِ المسلمين في القرنِ الخامسَ عشر مِنَ الهجرةِ وقد سَطَّر هذا الكَلامَ منذ أكثرَ مِن اثنا عشرَ قرنًا مِنَ الزَّمانِ عن حالِ خوارجِ هذا الزَّمنِ ومَن يَتأثَّر بأفكارِهم ويتحمَّسُ لها، أفلَا نعقِلِ الأمورَ ونرجِع ونراجِع ما نحن عليه مِن المخالفاتِ لأصولِ دِيننا الحنيفِ، ولهَدي سلفِنا الصَّالحِ في الإصلاحِ والدَّعوةِ للدِّين والخير؟!

- وقال الإمامُ الطَّبري أيضًا: ((حدَّثنا ابنُ وكيعٍ، قال: حدَّثنا أبي، عن حمَّاد بن سلمةَ والرَّبيع بن صُبيحٍ، عن أبي مُجالدٍ، عن أبي أُمامةَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: 106] قال: همُ الخوارِج))[2].

- ورَوىٰ الإمامُ الطَّبري بسندِه إلىٰ ابنِ أَبزَىٰ أنَّ رجلًا مِنَ الخوارجِ جاءَه يقرأُ عليهِ هذه الآيةَ ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1] قالَ له: أَليس الَّذين كفَروا بربِّهم يعدِلون؟ قال: بلىٰ. قال: وانصَرفَ عنه الرَّجلُ، فقالَ له رجلٌ مِنَ القومِ: يا ابنَ أبزَىٰ، إنَّ هذا قد أرادَ تفسيرَ هذه غيرَ هذا، إنَّه رجلٌ مِنَ الخوارجِ، فقال: ردُّوه عليَّ، فلمَّا جاءه قال: هل

(1) تفسير الطَّبري = جامع البيان في تأويل الآي والقرآن (187/6) للإمام محمد بن جريرٍ الطبري- حقَّقه وعلَّق حواشيه: محمود محمد شاكر، راجعه وخرَّج أحاديثه: أحمد محمد شاكر- مَكتبة ابن تيميَّة- الطبعة الثانية.

(2) انظر: تفسير الطَّبري (94/7).

تدري فيمَن نزلَت هذه الآيةُ؟ قال: لا، قال: إنَّها نزلَت في أهلِ الكتابِ، اذهَب ولا تضَعها علىٰ غير حدِّها))[1].

وفي هذِه الرِّوايةِ ملمَحٌ مِن أهمِّ ملَامحِ الخوارجِ في القديمِ والحديثِ، وهو إسقاطُ الآياتِ الَّتي نزلَت في الكفَّار والمشركينَ علىٰ المسلمينَ وإعمالُ أحكامِها عليهم؛ اتِّباعًا لِهواهم في تكفيرِ أهل القِبلة، فهذا الرَّجلُ مِنَ الخوارجِ أرادَ أن يقولَ إنَّ قَبولَ سيِّدنا عليٍّ ومَن تبعَه التَّحكيمَ هو عَدلٌ باللهِ سبحانَه وتعَالىٰ وإشراكٌ في حُكْمِه، ولذلك فهُم كفَّارٌ مشركون.

- ورَوىٰ الإمامُ الطَّبري أيضًا بسندِه إلىٰ قتادةَ أنَّه قالَ: ((قال رجلٌ مِنَ الخوارجِ خلفَ عليٍّ في صلاةِ الغدَاةِ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65] فأنصَت له عليٌّ رضي الله عنه حتَّىٰ فهِمَ ما قالَ، فأجابَه وهو في الصَّلاةِ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60]))[2].

فهؤلاءِ الخوارجُ يكفِّرون الصحابيَّ الجليلَ سيِّدنا عليًّا رضي الله عنه، أوَّلَ مَن أسلَم مِنَ الصِّبيان، والذي لَم يسجُدْ لصَنمٍ ولم يرتكِب كبيرةً، وجاهدَ مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في غزَواتِه، وهو ابنُ عمِّه وزوجُ ابنتِه، ثُمَّ إنَّنا نَجدُ أنَّ مَن سارَ علىٰ نهجِهم يكفِّرون ويفسِّقون علماءَ الأمَّةِ وَأئمَّتَها لُمجرَّدِ الهوَىٰ واختلافِ الرَّأي، يتكلَّمون في أعراضِ العلماءِ؛ لأنَّهم لم يوافِقوا اجتهادَهم في وقائع سالَت فيها الدِّماءُ ورُوِّعَت البلادُ، وانقسَم فيها النَّاسُ، وظهرَت فيها الفِتنةُ، فكلُّ عالمٍ حاولَ حَسمَ أسبابِ الفتنةِ وغلقَ أبوابِها اتَّهمَه هؤلاءِ الضَّالُّون المضِلُّون بأنَّه مِنَ الكفَّارِ والمنافقينَ كما اتَّهم أسلافُهم مِنَ الخوارجِ إمامَ المسلمينَ وأميرَ المؤمنينَ عليَّ بنَ أبي طالب بالكُفر.

(1) انظر: تفسير الطَّبري (11/253).

(2) المصدر السابق (20/21).

- قال البغويُّ في تفسِيره: ((قولُه عزَّ وجلَّ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 269] قال ابنُ عبَّاسٍ: هي عِلْمُ القرآنِ ناسخه ومَنسوخه ومحكَمه ومُتشَابهه ومقدَّمه ومؤخَّرِه وحَلالِه وحرامِه وأمثالِه، وقال الضَّحاكُ: القرآنُ والفَهمُ فيهِ، وقال: في القرآنِ مائةٌ وتسعُ آياتٍ ناسخةٍ ومَنسوخةٍ، وألفُ آيةٍ حلالٍ وحرامٍ لا يَسَعُ المؤمنينَ تركُهنَّ حتَّىٰ يتعلَّموهنَّ، ولا يكونوا كأهلِ النَّهرَوان- يَعني: الخوارجَ- تأوَّلوا آياتٍ مِنَ القرآنِ في أهلِ القِبلة، وإنَّما أُنزلَت في أهلِ الكتابِ، جهِلوا عِلمَها فسَفَكُوا بها الدِّماءَ وانتَهَبُوا الأموالَ، وشهِدوا علينا بالضَّلالِ، فعليكم بعِلْم القرآنِ فإنَّه مَن عَلِمَ فيـمَ أُنزل لَم يختِلف في شيءٍ مِنه))[1].

- قالَ ابنُ كثيرٍ: ((مَرَّ سعدٌ- أي: ابن أبي وقَّاصٍ- برجلٍ مِنَ الخوارجِ، فقال الخارجيُّ: هذا مِن أئمَّةِ الكفرِ، فقالَ سعدٌ: كذبتَ بل أنا قاتلتُ أئمَّةَ الكفرِ))[2].

- وقال ابنُ كثيرٍ: ((إنَّ أوَّل بدعةٍ وقعَت في الإسلام فتنةُ الخوارجِ، وكان مبدؤهم بسبب الدُّنيا حينَ قسَّم النَّبيُّ ﷺ غنائمَ حُنين، فكأنَّهم رأَوا في عقولهم الفاسدةِ أنَّه لم يعدِل في القِسمة، ففاجَئوا بهذِه المقالةِ، فقال قائلُهم- وهو ذو الخُويصِرَة بقَرَ الله خاصِرتَهُ: اعدِل فإنَّك لم تعدِل... الحديث. ثُمَّ كان ظهورُهم أيَّامَ عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وقتلُهم بالنَّهرَوان، ثُمَّ تشعَّبت منهم شعوبٌ وقبائلُ وآراءٌ وأهواءٌ ومقالاتٌ ونِحَلٌ كثيرةٌ مُنتشرةٌ))[3]. ◆

---

(1) انظر: تفسير البغوي (334/1) للإمام محيي السنة أبي محمَّد الحسين بن مسعود البغوي- حقَّقه وخرَّج أحاديثه: محمَّد عبدالله النَّمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلِم الحرش- دار طيبة- الطَّبعة الرَّابعة- 1997م.

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم (116/4) للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير- تحقيق: سامي بن محمد سلامة- دار طيبة- الطبعة الثانية- الرياض- 1999م.

(3) انظر: تفسير ابن كثير (10/2).

بدايةُ ظُهور الخوارجِ في أمَّةِ الإسلامِ

كما سبَق واتَّضحَ أنَّ بذرةَ الخوارجِ الخبيثةَ مِن حيثُ الفكرةُ قد وُجِدَت في صورة ذِي الخويصرةِ الَّذي اعتَرَض علىٰ رسولِ الله ﷺ، واتَّهمَه بالجَورِ في القِسمةِ، وأخبَر الرَّسولُ ﷺ أنَّ لهذا المرءِ أصحابًا سوفَ يَظهرونَ يحقِّر المسلِم عبادتَه إلىٰ جانبِ عبادتِهم واجتهادَه في الطَّاعاتِ، وأخبرَ عنهم ﷺ أنَّـهم شِرارُ الخَلق، يَمرُقون مِنَ الدِّين كما يَمرُقُ السَّهمُ مِن الرَّميَّةِ، ولكنَّ الظُّهورَ الفعليَّ لهم علىٰ أرضِ الواقعِ كانَ في عهدِ الإمام عليِّ بنِ أبي طالبٍ وقتَ خلافتِه، وهذِه هيَ بدايةُ أمرِ الخوارجِ وظهورِ أفكارِهم ومعتقداتِهم وسلوكِهم ومنهجِهم، ثُمَّ بعدَ ذلك تفرَّعَت مِن هذِه الجماعةِ جماعاتٌ كثيرةٌ، وظهَرت أفكارٌ أخرىٰ عبرَ السِّنين في تاريخِ الأمَّةِ وصُولًا إلىٰ العصرِ الحديثِ، وسنَعرِض أقوالَ أهلِ التَّاريخِ والسِّيَر مِن علماءِ المسلمينَ عن مَبدأ أمرِهم وظهورِ فتنَتِهم بعدَ القِتالِ الذي وقَع بينَ أميرِ المؤمنينَ عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ومَن معَه وبينَ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ رضي الله عنه ومَن معَه مِن أهلِ الشَّام.

نقل الإمام الطَّبري عن الزُّهريِّ أنه قال: ((فأصبحَ أهلُ الشَّامِ قد نشَروا مصاحِفَهم- أي: حين كاد أهلُ العِراق أن يغلِبوهم- ودعَوا إلىٰ مَا فيها، فهَاب أهلُ العِراق، فعندَ ذلك حكَّموا الحكَمَينِ، فاختارَ أهلُ العِراقِ أبا موسىٰ الأشعري، واختارَ أهلُ الشَّامِ عمرو بنَ العاصِ، فتفرَّق أهلُ صِفِّين حينَ حكَم الحكَمان، فاشترطَا أن يرفعَا ما رفَع القرآنُ ويخفِضَا ما خفَض القرآن، وأن يختارَا لأمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وأنَّهما يَجتمعان بدُومَةِ الجَندَل، فإن لم يَجتمِعَا لذلك اجتمَعا مِن العامِ المقبلِ بأَذرُح، فلمَّا انصرَف عليٌّ خالفَتِ الحروريَّةُ (الخوارج) وخرجَت، وكان ذلك أوَّلَ ما ظهرَت، فآذَنوه بالحربِ، وقالوا: لا حُكْمَ إلَّا لله))[1].

(1) انظر: تاريخ الرسل والملوك (5/57) للإمام محمَّد بن جرير الطَّبري- تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم- دار المعارف- مصر- الطَّبعة الثَّانية.

فكان ذلك مبدأَ أمرِهم وخروجِهم علىٰ عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بعد أن وافقَ علىٰ التَّحكيمِ، واعتَبروا قَبولَه التَّحكيمَ كفرًا، مع أنَّهم هم وغيرهم الَّذين أكْرَهوا سيِّدَنا عليًّا رضي الله عنه علىٰ قَبولِ التَّحكيمِ عندما رفَع أهلُ الشَّام أصحابُ معاويةَ رضي الله عنه المصاحفَ؛ رَوىٰ الطَّبري بسندِه إلىٰ عَون بن أبي جُحيفةَ أنَّه قال: ((إنَّ عليًّا لَمَّا أرادَ أن يبعثَ أبَا موسَىٰ للحكومةِ أتَاه رجلانِ مِنَ الخوارج: زُرعَةُ بنُ البُرجِ الطَّائي وحُرقُوص بنُ زُهيرٍ السَّعدي، فدخلا عليه فقال له حُرقوص: لا حُكمَ إلَّا لله، فقال عليٌّ: لا حُكْمَ إلَّا لله، فقال له حُرقوص: تُب مِن خطيئتكَ وارجِع عن قضيَّتِكَ واخرجْ بنا إلىٰ عدوِّنا نقاتلْهم حتَّىٰ نلقىٰ ربَّنا، فقال لهم عليٌّ: قد أردتُكُم علىٰ ذلك فعصَيتُمُوني، وقد كتَبنا بينَنا وبينَهم كتابًا، وشرَطنا شروطًا، وأعطَينا عليها عُهودَنا ومواثيقَنا، وقد قالَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النَّحل: 91].

فقال له حُرقوص: ذلك ذنبٌ يَنبغي أن تتوبَ منه.

فقال عليٌّ: ما هو ذَنبٌ، ولكنَّه عجزٌ مِنَ الرَّأي، وضَعفٌ مِنَ الفعل، وقد تقدَّمتُ إليكُم فيما كانَ منه ونهيتُكم عنه.

فقال له زُرعَة بنُ البرجِ: أمَا والله يا علي لئن لم تَدَع تحكيمَ الرِّجالِ في كتابِ الله عزَّ وجلَّ قاتلتُكَ؛ أطلبُ بذلك وجهَ الله ورضوانَه، فقال له عليٌّ: بؤسًا لك مَا أشقاكَ! كأنِّي بكَ قتِيلًا تُسفىٰ عليك الرِّيحُ، قال: ودِدتُ أن قد كان ذلكَ، فقال له عليٌّ: لو كنتَ محِقًّا كان في الموتِ علىٰ الحقِّ تعزيةٌ مِنَ الدُّنيا، إنَّ الشَّيطانَ قدِ استهوَاكُم فاتَّقوا الله عزَّ وجلَّ، إنَّه لا خيرَ لكم في دنيا تقاتلونَ عليها))[1].

(1) انظر: تاريخ الرسل والملوك (72/5).

ولَّما رأىٰ رءُوسُ الخوارجِ عزمَ الإمام عليٍّ علىٰ إنفاذِ الحكومةِ والرِّضا بالتَّحكيم وبعثَه أبا موسىٰ الأشعري قرَّروا الانفصالَ عنه وتعيينَ أميرٍ لهم.

- يقول الإمام الطَّبري: «قال أبو مِخنَف عن عبدِالملك بنِ أبي حرَّة: إنَّ عليًّا لَّما بعَث أبا موسىٰ لإنفاذِ الحكومةِ لقِيَت الخوارجُ بعضَها بعضًا، فاجتَمعوا في منزلِ عبدالله بنِ وهب الرَّاسبي، فحمدَ الله وأثنىٰ عليه ثمَّ قال: أمَّا بعد، فوالله ما يَنبغي لقومٍ يؤمنون بالرَّحمن وينيبون إلىٰ حُكْمِ القرآنِ أن تكونَ هذِه الدُّنيا التي الرِّضا بها والركونُ إليها والإيثارُ إيَّاها عناءٌ وتَبارٌ آثرَ عندهم مِنَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِّ عن المنكَرِ والقولِ بالحقِّ، فاخرجوا بنا إخوانَنا مِن هذه القرية الظَّالمِ أهلُها إلىٰ بعض كُوَرِ الجبالِ أو إلىٰ بعضِ هذِه المدائنِ منكرينَ لهذِه البِدَع المُضلَّةِ. فقال له حُرقوص بن زهير: إنَّ المتاع بهذه الدنيا قليلٌ، وإنَّ الفراقَ لها وشيكٌ، فلا تدعونَّكم زينتُها وبهجتُها إلىٰ المقامِ بها، ولا تَلفِتنَّكم عن طلبِ الحقِّ وإنكارِ الظُّلم ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]»[1].

واجتمعَ أمرُ الخوارج وتولَّىٰ أمرَ رئاستِهم أناسٌ منهم، وظلُّوا يجتمعونَ وتتزايدُ أعدادُهم ويَتَّفقون علىٰ ضلالِهم ومخالفتِهم لجماعةِ المسلمينَ حتَّىٰ كانت واقعةُ النَّهرَوان ولقاءُ الإمام عليٍّ بالخوارجِ وانتصارُه عليهم، وفيه قتِل المُخدَج مِنَ الخوارجِ الَّذي أَخبَرَ عنه رسولُ الله ﷺ وكانَ ذلك آيةً لعليٍّ وأصحابِهِ أنَّ الحقَّ معهم، ولم يَنجُ مِنَ الخوارجِ إلَّا قليل منهم في هذهِ المعركةِ، ولم يُقتَل مِن أصحابِ الإمام إلَّا القليلُ.

روَىٰ الإمامُ أحمدُ بسندِه عن طارقِ بن زياد قال: سارَ عليٌّ إلىٰ النَّهرَوان فقتَل الخوارجَ، فقال: اطلبُوا فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «سَيَجِيءُ قَومٌ يتَكَلَّمُونَ بِكَلِمَةِ الحَقِّ لَا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُم، يَمرُقُونَ مِنَ الإِسلَامِ كَمَا يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، سِيمَاهُم- أَو فِيهِم- رَجُلٌ أَسوَدُ مُخدَجُ اليَدِ، فِي يَدِهِ شَعَرَاتٌ سُود، إِن كَانَ فيهِم فَقَد قَتَلتُم شَرَّ النَّاسِ، وَإِن

(1) انظر: تاريخ الرسل والملوك (5/74).

لَم يَكُن فيهِم فَقَد قَتَلتُم خَيرَ النَّاسِ)) قال: ثُمَّ إنَّا وَجَدنا المُخدَجَ، قال: فخَرَرنا سُجُودًا وخَرَّ عليٌّ ساجدًا معنَا[1].

وقضِيَ الأمرُ بتفرُّق الخوارجِ في المدنِ والمناطقِ بعد واقعة النَّهرَوان؛ والَّتي كانت سنةَ سبعٍ وثلاثين مِنَ الهجرة إلىٰ أن تَمَّ قتلُ أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه سنةَ أربعينَ مِنَ الهجرة علىٰ يدِ عبدالرَّحمن بنِ عَمرو بن مُلجم الذي شجَّعَه علىٰ قتلِه رغبتُه في الزَّواج مِن امرأةٍ جميلةٍ قُتِلَ أبوها وأخُوها وكانوا من الخوارجِ فأرادَتِ الثَّأر مِن أميرِ المؤمنين فحرَّضَت علىٰ قتلِه، وقام ابنُ ملجم بقتلِه رضي الله عنه وهو خارجٌ لصلاةِ الفَجر لسبعَ عشرةَ ليلة خلَت مِن شهرِ رمضان.

- فهذا هو مبدأُ أمرِ الخوارجِ، طائفةٌ باغيةٌ خرجَت علىٰ الإمام عليِّ بن أبي طالبٍ أميرِ المؤمنين وانشقَّت عنه بفَهمٍ مَغلوطٍ، ثُمَّ بنَوا علىٰ فهمِهم السَّقيمِ مبادئَ وأفكارَ ما أنزلَ الله بها من سلطانٍ، فانعزَلوا عن عامَّةِ المسلمينَ، وأطلقوا لقَبَ الجماعةِ المؤمنةِ علىٰ أنفسِهم، وشَتَموا وكفَّروا أئمَّةَ الأمَّةِ وعلماءَها مِّمن تربَّىٰ وتخرَّج بمدرسةِ سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ومن جهلِهم بكتاب الله وسنَّةِ رسولِه صلى الله عليه وسلم أنَّهم أنزَلوا آياتِ الكفَّارِ علىٰ المسلمينَ، وكفَّروا العُصاةَ والمذنبين واستحَلُّوا الأموالَ والدِّماءَ فكانوا يقتلونَ أهلَ الإسلامِ كما أخبرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ويتركونَ أهلَ الكفرِ، وصارَ كلُّ مَن لا يحمِل منهجَهم حلالَ الدَّمِ والمالِ حتَّىٰ يؤمنَ بأفكارِهم ومعتقدِهم، وزعمُوا أنَّهم يريدون بكلِّ ذلك وجهَ الله والخيرَ لأمَّة المسلمين، ولم يكن الأمرُ كذلك حتَّىٰ وإن ظهرَت النَّوايا الحسَنةُ عند بعضِهم، فالذي قتَل الإمامَ عليًّا رضي الله عنه قتلَه رغبةً في الزَّواجِ مِن امرأةٍ جميلةٍ[2]. وقد أجمعَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (1/147).

(2) انظر: البداية والنهاية (13/11) للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير- تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي- دار هجر- الطبعة الأولىٰ- 1998م.

الَّذين كانوا موجودِين في تلك الفترةِ على ضلالِ تلك الطَّائفةِ ولعنِهم ووصفِهم بأنَّهم كلابُ النَّارِ.

وقد انتهت هذِه الفترةُ باستشهادِ أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وبذلك انتَهت مَرحلةُ تكوينِ وظهورِ هذِه الفئةِ المبتدِعةِ الضَّالَّة، لكنَّ الأمرَ تطوَّر على مرِّ التَّاريخِ الإسلاميِّ فظهرَت مِن رَحِم هؤلاءِ الخوارجِ طوائفُ تخرُج بالسيف على الأئمَّة وعلى عامة المسلمين، ولو كانَ هذا الخروجُ خروجًا هادئا غير مصحوب بالفتن والسلاح لِلمطالبةِ بالعدلِ والحقوقِ لكان له وجهٌ في الشَّريعةِ يُحمَل عليه، ولكنَّ خروجَهم يَحمِل سِمَةَ الخوارجِ من الانسِلاخِ عن مجتمعِ المسلِمين، والاعتقادِ بخروجِ النَّاس من الدِّين وكفرِهم، وأنَّ المسلمين يعيشون في الجاهليَّة، وما يترتَّب على هذا من تكفيرِ عامَّة المسلِمين واستحلالِ الدِّماء والأعراضِ والأموالِ، أو في أَحسنِ الأحوالِ القَولُ بالتوقُّف في الحُكْمِ لهم بالإسلامِ حتَّى يَتبَيَّن أمرُهم، وهذِه الطَّوائفُ التي التزَمَت هذا الفكْرَ أضافَت عليهِ مُعتقداتٍ ومناهجَ بحسبِ كلِّ عَصرٍ وهم دائمًا يحاولُون أن يُؤصِّلوا لمذهبِهم هذا مِن الشَّريعةِ مخالفينَ بذلك مذهبَ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ، ولقد كانت قوَّتُـهم في كلِّ العصورِ موجَّهةً للمسلمين في المقامِ الأوَّلِ، ولَم يكن لَهم في جهادِ أعداءِ الدِّين نصِيبٌ، وسبحانَ الله لو أنَّك اطَّلعَت على تاريخِهم فستجدُهم دائمًا منقسِمين متفرِّقين متنَازعينَ، وليسَ هذا إلَّا مِن شُؤمِ الضَّلالِ الذي رَكِبوه ونسَبوهُ للإسلَامِ.

مناظرة ابن عباس رضي الله عنهما للخوارج:

والكلام عن بداية ظهور الخوارج يقتضي التعرض للمناظرة التي دارت بينهم وبين ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما؛ فقد نقلَت كتب السُّنَّة لقاءً ومناظرةً للصَّحابي الجليل عبدالله بن عبَّاسٍ حَبرِ الأمَّة وترجُمان القرآن وابنِ عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لطائفةِ الخوارج؛ الَّذينَ اعتزلوا جماعةَ المسلمينَ وأعلَنوا كفرَ الإمامِ عليٍّ رضي الله عنه، والخروجَ عليهِ والاستعدادَ لِحربه، وقد

وردَت هذه المناظرةُ في العديد مِن كُتبِ السُّنَّةِ، نذكُر منها ما أخرَجَه الحاكِم في مُستدرَكِهِ والبيهقيُّ في سننِه الكبرىٰ بسندِهما إلىٰ ابن عبَّاسٍ ﭬ أنَّه قالَ:

لَمَّا خرجَتِ الحَرُورِيَّة اجتمعوا في دارٍ وهم ستَّة آلافٍ، أتيتُ عليًّا فقلتُ: يا أمير المؤمنين أَبرِد بالظُّهر لعلِّي آتي هؤلاء القومَ فأكلِّمهم، قال: إنِّي أخافُ عليكَ، قلتُ: كلَّا.

قال ابنُ عبَّاسٍ: فخرجتُ إليهم ولبستُ أحسنَ ما يكون مِن حُلَلِ اليَمَن- قال أبو زُمَيل: كان ابنُ عبَّاسٍ جميلًا جهيرًا- قال ابنُ عبَّاسٍ: فأتيتُهم وهم مجتمعون في دارِهم قَائِلُونَ، فسلمتُ عليهم فقالوا: مرحبًا بكَ يا ابن عبَّاسٍ، فما هذه الحُلَّة؟ قال: قلتُ: ما تعيبون عليَّ! لقد رأيتُ علىٰ رسول الله ﷺ أحسنَ ما يكون مِنَ الحُلَل، ونزلَت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]. قالوا: فما جاء بكَ؟ قلتُ: أتيتُكم مِن عند صحابة النَّبيِّ ﷺ مِن المهاجرين والأنصار لأُبَلِّغكُم ما يقولون وتُخبِروني بما تقولون، فعليهم نزَل القرآن وهُم أعلمُ بالوحي منكم، وفيهم أُنزِلَ وليس فيكم منهم أحدٌ. فقال بعضُهم: لا تخاصِموا قريشًا، فإن الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: 58].

قال ابن عباس: وأتيتُ قومًا لم أرَ قومًا أشدَّ اجتهادًا منهم، مُسهِمَةٌ وجوههم مِنَ السَّهر، كأنَّ أيديَهم وركبَهم تُثنَىٰ عليهم، فمضىٰ مَن حضَر، فقال بعضهم: لنُكلِّمَنَّه ولنَنظُرَنَّ ما يقول. قلتُ: أخبروني ماذا نقمتُم علىٰ ابنِ عمِّ رسول الله ﷺ وصهرِه والمهاجرينَ والأنصارِ؟ قالوا: ثلاثًا. قلتُ: ما هنَّ؟ قالوا: أمَّا إحداهنَّ: فإنَّه حكَّم الرِّجال في أمرِ الله، وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ [الأنعام: 57] وما للرِّجال وما للحُكمِ؟! فقلتُ: هذه واحدةٌ. قالوا: وأمَّا الأخرىٰ فإنَّه قاتَلَ ولم يَسبِ ولم يغنم، فلئن كان الذي قاتل كُفَّارًا لقد حلَّ سَبيُهم وغنيمتُهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حَلَّ قتالُهم. قلتُ: هذه اثنتان، فما الثَّالثة؟ قالوا: إنَّه محا اسمَه مِن أميرِ المؤمنينَ فهو أميرُ الكافرينَ. قلتُ: أعندَكم سوىٰ هذا؟ قالوا: حسبُنا هذَا.

فقلتُ لهم: أرأيتُم إن قرأتُ عليكم مِن كتاب الله ومِن سنَّة نبيِّه ﷺ ما يَرُدُّ به قولكم أترضَونَ؟ قالوا: نعم.

فقلتُ: أمَّا قولُكم حكَّم الرِّجال في أمرِ الله فأنا أقرأُ عليكم ما قَد رُدَّ حكْمُه إلىٰ الرِّجالِ في ثمنِ ربع درهمٍ في أرنبٍ ونحوها مِنَ الصَّيد، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 95] إلىٰ قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، فنَشَدتُكم بالله أحكم الرِّجال في أرنبٍ ونحوها مِنَ الصَّيد أفضلُ أم حُكْمُهم في دمائهم وصلاحِ ذاتِ بينهم؟ وأن تعلَمُوا أنَّ الله لو شاء حَكَمَ ولم يصيِّر ذلك إلىٰ الرِّجال، وفي المرأة وزوجِها قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النِّساء: 35] فجَعلَ الله حُكمَ الرِّجال سُنَّة مأمونةً، أَخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم.

قال: وأمَّا قولكم: قاتَلَ ولم يَسبِ ولم يغنم، أَتَسبُونَ أمَّكم عائشةَ ثُمَّ تستحلُّونَ منها ما يُستحلُّ مِن غيرها؟ فلئن فعلتُم لقد كفرتُم وهي أمُّكم، ولئن قلتُم: ليست أُمَّنَا لقد كفرتم، فإنَّ الله يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6] فأنتُم تدورُونَ بين ضلالتَينِ أيُّهما صِرتُم إليها صِرتُم إلىٰ ضلالةٍ- فنَظر بعضُهم إلىٰ بعضٍ- قلتُ: أَخرجتُ مِن هذِه؟ قالوا: نعَم.

قال: وأمَّا قولكم محا اسمَه مِن أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بمَن ترضَون وأُريكُم، قد سمعتُم أنَّ النَّبيَّ ﷺ يومَ الحديبية كاتَبَ سهيلَ بنَ عَمرٍو وأبا سفيانَ بنَ حربٍ، فقال رسولُ الله ﷺ لأميرِ المؤمنين: ((اكتُب يَا علي، هذا مَا اصطَلَحَ عليه محَمَّدٌ رسولُ الله)) فقال المشركون: لا والله مَا نَعلَم أنَّك رسولُ الله، لَو نعلَمُ أنَّكَ رسولُ الله ما قاتلنَاكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: ((اللهمَّ إنَّكَ تَعلَمُ إنِّي رسولُ الله، اكتُب يَا عليُّ، هذا ما اصطَلَحَ عليه محَمَّدُ بنُ عبدالله)) فوالله لرسولُ الله خيرٌ مِن عليٍّ، وما أخرجه مِنَ النُّبوَّة حين محَا اسمَه.

قال عبدالله بنُ عبَّاسٍ: فرجَع مِنَ القوم ألفَان، وقتَلَ سائرهم علىٰ ضلالةٍ[1].

فهذه صورةٌ من صور مناظرةِ عالِمٍ ربانيٍّ وفقيهٍ مِن أئمَّة المسلمين مع هذِه الفئةِ الضَّالة مِن الخوارج، تبين لكَ الآتي:

- سطحيَّةَ فهمِ هذه الطائفةِ وعنادَهم، وعُجبَهم بأنفسِهم والتَّسرُّعَ في التَّكفير.
- عدمَ التعرُّفِ علىٰ حقيقةِ ومعاني نصوصِ القرآنِ وتأويلها علىٰ حسَب هواهم.
- الأخذَ ببعضِ الأدلَّة دونَ بعضٍ.
- بناء الأحكام علىٰ الفهم الشَّاذِّ والمغلوطِ وترجمَتها إلىٰ أفعالٍ وسلوكٍ ومنهجٍ.
- ظهور جانبٍ من جوانبِ تعلُّقهم بالدُّنيا عندَ سؤالِهم عنِ الغنائمِ والسَّبي، وحرصِهم علَيها.

وأوضحَت هذه المناظرةُ أنَّ آفةَ كلِّ فئةٍ ضالَّةٍ الجهلُ والاعتدادُ بالرَّأي، وأنَّ أهلَ البدَع والزَّيغِ والضَّلالِ يُمكِن أن يكونوا مِن أهلِ الاجتهادِ في العبادةِ والطَّاعاتِ الظَّاهرةِ ممَّا يُسبِّب الاغترارَ بحالِهم ومنهجهم، وليسَ الأمرُ كذلك فالاقتِصادُ في العِبادةِ مع التزامٍ بالسُّنَّة خيرٌ مِن الاجتهادِ فيهَا علَىٰ المَنهجِ الباطلِ المخالفِ للسُّنَّةِ.

وإليك أيُّها القارئُ هذِه القِصَّةَ التي تَدلُّ وتُظهِر مقدارَ ما كانَ عليهِ هؤلاءِ القومُ مِن جهلٍ وضلالٍ واستخفافٍ بالأرواحِ والدِّماء وتناقضٍ وسوءِ فهمٍ للشَّريعة المطهَّرةِ؛ فقد أُسِرَ عبدالله بن خبَّاب- ابنُ صاحبِ رسولِ الله ﷺ- وامرأتُه معه وهي حاملٌ، فقالوا: مَن أنتَ؟ قال: أنا عبدالله بن خبَّاب صاحبِ رسولِ الله ﷺ، وإنَّكم قد روَّعتُمُوني، فقالوا: لا بأسَ عليك، حدِّثنا ما سمعتَ مِن أبيكَ، فقال: سمعتُ أبي يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «سَتَكُونُ فِتنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ خَيرٌ مِنَ الماشِي، وَالمَاشِي خَيرٌ مِنَ السَّاعِي»[2]. فقَادُوه بيدِه، فبينَما هو يسيرُ معهم إذْ لَقِيَ بعضُهم خنزيرًا

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (2/150) والبيهقي في السُّنن الكبرىٰ (8/179) قال الحاكِم: «صحيحٌ علىٰ شرطِ مسلِم ولم يخرِّجاه». ووافقَه الذَّهبي.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (5/110) وأبو يعلىٰ في مسنده (7215) والطَّبراني في المعجم الكبير (3630).

لبعضِ أهلِ الذِّمَّة فضَرَبَه بعضُهم بسيفِه فشقَّ جلدَه، فقالَ له آخرُ: لِمَ فعلتَ هذا وهو لذمِّيٍّ؟! فذَهب إلىٰ ذلك الذِّمي فاستحلَّه وأرضاهُ، وبينما هو معَهم إذ سقَطتَ ثَمرةٌ مِن نَخلةٍ فأخذَها أحدُهم فألقَاها في فَمِه، فقال له آخرُ: بغير إذنِه ولا ثمنٍ؟! فألقاها ذاكَ مِن فِمِه، ومع هذا قَدَّمُوا عبدالله بن خبَّابٍ فذبَحوه، وجاءُوا إلىٰ امرأتِهِ فقالت: إنِّي امرأةٌ حُبلَىٰ ألَا تتَّقون الله عزَّ وجلَّ؟ فذبَحُوها وبَقَروا بطنَها عن ولَدِها[1].

فانظُر أيُّها الأخُ الكريم إلىٰ هؤلاء الذين زَعموا أنَّهم غضِبوا لله ولانتهاكِ الحُرُماتِ، انظُر إلىٰ فعلِهم في ابنِ هذا الصَّحابي لمَّا طلَبوا منه أن يُسمعَهم شيئًا عن رسولِ الله ﷺ فأخبرَهـم بما عندَه فلمَّا وجدوا أنَّ الذي عندَه مِنَ العِلم والهدَىٰ عن رسولِ الله ﷺ لا يوافِقُ هواهُم استحلُّوا دمَه بعد أن أمَّنوه، وانظُر إلىٰ فعلِهم بامرأتِه وهي حاملٌ كيف قتلُوها قِتلةً بشعةً، مستخفِّين بدماءِ المسلمينَ، والعجَب مِن حُمقِهم وسوءِ فهمِهم يتورَّعون عن ضربِ حيوانٍ بسيفٍ، وعن أكلِ تمرةٍ ساقطةٍ علىٰ الأرض، ويسفِكون دماءَ أبناءِ صحابةِ رسولِ الله ﷺ، فهَل كان هؤلاءِ أصحابُ دينٍ أمْ أهلُ ضلَالٍ وفسوقٍ وخروجٍ عن الدِّين؟

عرض لأهم فرق وأفكار الخوارج:

مِن رحمة الله بأمَّة الإسلام أنَّ الخوارج تفرَّقوا فيما بينهم، ومِن المفيد للمسلم أن يتعرَّف علىٰ أهمِّ الفِرَق التي تَشعَّبت إليها الخوارجُ؛ ليَحْذَرَ مِن أفكارِها ومبادئِها، فقد ذكر علماءُ الفِرَق أنَّ الخوارجَ انقسَموا إلىٰ عشرينَ فرقةً، وعند النَّظرِ إلىٰ تلك الفِرَق نجدُ أنَّ أصولَها في الضَّلالِ واحدٌ، وأنَّ الخلافَ والنِّزاعَ بينها لم يكن في أمورٍ مهمَّةٍ وفروقٍ جوهريَّةٍ تؤدِّي إلىٰ تكوينِ جماعاتٍ مستقلَّةٍ، بل إنَّ نزاعَهم في معظمِه كانَ حولَ أمورٍ فرعيَّةٍ، وسنَذكُر هنا أهمَّ فِرَقِهم وهي: المُحكِّمةِ الأولَىٰ، والأزَارِقَة، والنَّجَدات،

(1) انظر: البداية والنهاية (10/584).

والصُّفريَّة، والإباضيَّة، وعدا هذه مِن فرقهم متفرعةٌ عنها وداخلةٌ تحتها، وإليك بيان فرق الخوارج قديمًا:

أوَّلًا: المُحكِّمة الأولىٰ: ويقصد بها هؤلاء الضُلَّال الَّذين خرجُوا علىٰ الإمام عليٍّ بن أبي طالبٍ، وهم الَّذين أعلنوا شِعار «لا حُكم إلَّا لله» والتفُّوا حولَه، وقاموا باعتزالِ المسلمينَ، وأقاموا في حَرُورَاء، وكفَّروا الإمام عليًّا وطوائفَ المسلمينَ، واستحلُّوا الدِّماء والخروجَ بالسَّيف علىٰ المسلمينَ أئمَّتهم وعامَّتهم، وهم الَّذين قاتلَهم الإمام عليٌّ في موقعة النَّهرَوان وانتصَر عليهم، وقطَع دابرَهم، ولم يُبقِ منهم إلَّا فلولًا قليلةً كانت هي الَّتي حملَت هذا الفكر بعد ذلك في أمَّة الإسلام، وخرج مِن هذه الفرقة قتلةُ الإمام عليٍّ ﵁، وتتابعَ تجمُّعهم وقتالُهم في أوائلِ الدَّولة الأمويَّةِ[1].

وأهمُّ ما تميَّزت به هذه الطَّائفةُ هو أنَّهم يرَون أنَّ مخالِفهم كافرٌ حلالُ الدَّمِ، ويرونَ أنفُسَهم بأنَّهم الجماعةُ المؤمنةُ، وهؤلاءِ مِن أظهرِ النَّاس ضلالًا وجهلًا، وكان في وقتهم أكابرُ الصَّحابة الَّذين هم حملةُ الدِّين وأعلَم النَّاس بهِ.

ثانيًا: الأزارِقَة: هم أتباعُ نافعِ بنِ الأزرق، وكانوا مِن أكثر طوائفِ الخوارج عددًا، وأشدِّهم شوكةً، وهم يرونَ أنَّ مَن خالفَهم مِن هذه الأمَّةِ يُسمَّىٰ مشركًا، وأنَّ مَن وافقَهم الرَّأيَ ولم يهاجرْ إليهم أيضًا فهو مُشركٌ، وكانوا يَمتحنون مَن يهاجرُ إليهم بأن يُعطوه أسيرًا مِن أسرَىٰ مخالفِيهم أو أطفالِهم ويأمروه بقتلِه، فمَن قتلَه صدَّقوه في دعوَاه أنَّه منهم، وإن لَم يقتُله قالوا: هذا مُنافقٌ ومشركٌ وقتَلوه. ويرونَ أنَّ أطفالَ مخالفِيهم مشركونَ مخلَّدون في النَّار، ونادَوا بإسقاطِ حدِّ الرَّجم بحجَّة أنَّه لم يرِد في القرآنِ نصٌّ عليهِ.

---

(1) انظر: البداية والنهاية (308/7)، الملل والنِّحل (114/1) للشيخ محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني- تحقيق: محمد سيد كيلاني- دار المعرفة- بيروت.

وقد اشتدَّت شوكةُ الأزارِقة وصارَت لهم قوَّةٌ حتَّىٰ تغلَّبوا علىٰ مناطقَ كثيرةٍ مِنَ الأهوازِ وأرضِ فارس أيَّامَ عبدالله بنِ الزُّبير، وكانَت لَهم مع قوَّادِه معاركُ انتَصَر فيهَا الأزارِقةُ وقوِيَت شوكتُهم أكثرَ فأكثر حتَّىٰ كانت نهايتُهم في زمنِ الحجَّاج بنِ يوسفَ علىٰ يد المهلَّب بن أبي صفرة[1].

ثالثًا: النَّجدات: وهؤلاءِ أتباع نَجدة بن عامرٍ، وكانَ باليَمامة، وممَّا أحدثَه في مذهبِ الخوارجِ: استِباحةُ قتلِ أطفال مخالفِيه، وذهبَ النَّجَدات إلىٰ أنَّ الدِّين أمران؛ أحدُهما: معرفةُ الله تعالىٰ، ومعرفةُ رُسلِه، وتحريمُ دمِ مَن وافقَ مذهبَهم، والإقرارُ جملةً بما جاءَ مِن عندِ الله، فهذا واجبٌ علىٰ الجميعِ والجهلُ به لا يُعذَر فيهِ. والثَّاني: ما سِوىٰ ذلك، فالنَّاس معذورُون فيهِ إلىٰ أن تقومَ عليهم الحجَّةُ في الحلالِ والحرامِ، وحدَث خلافٌ بين نَجدةَ وأتباعِه انتهَىٰ بقَتلِه، وانقسمَت هذه الفِرقةُ إلىٰ ثلاثِ فِرَقٍ، واضمحلَّ أمرُهم وتلاشىٰ أثرُهم[2].

رابعًا: الصُّفريَّة: اختلفوا عن باقي فرقِ الخوارج في عدم تكفير مَن يقعُد عنِ الهجرةِ إليهم ممَّن هو علىٰ مذهبِهم، ولم يكفِّروا مرتكِبَ الكبيرةِ علىٰ الإطلاقِ، ولَم يحكُموا بكفرِ أطفالِ مخالفِيهم ولا استِحلالِ قتلِهم[3].

خامسًا: الإباضيَّة: هذه الطَّائفةُ مِن طوائفِ الخوارجِ الَّتي لا تزالُ موجودَةً، ورئيسُهم جابرُ بنُ زيدٍ الأزدي، ويُعد المذهبُ الإباضيُّ المذهب الرَّسميَّ في سلطنة عُمان، وهم يحاولون التَّنصُّلَ مِن مذهبِ الخوارج غير أنَّهم يعتَرفون بإنكارِ التَّحكيم، واستُعمِلَ اسمُ الإباضيَّة في القَرنِ الثَّالث الهجريِّ، وكانوا يُطلِقون علىٰ أنفسِهم «جماعةَ المسلمينَ» أو «أهلَ الدَّعوة» أو «أهلَ الاستقامةِ» وهم يَتبرَّءون مِن الإمام عليٍّ وعثمانَ رضي الله عنهما، وهم يرَونَ

(1) انظر: تاريخ الرُّسل والملوك (6/202).

(2) انظر: الملل والنِّحل (1/66).

(3) المصدر السابق (1/137).

تكفِيرَ أئمَّةِ الجَور ويَتبرَّءون منهم، ومِن عقائدِهم إنكارُ الشَّفاعةِ للعصاةِ، ونفي رؤيةِ الله يومَ القِيامةِ.

وفي الجملةِ: يعتقدون الشِّركَ في مخالفِيهم أحيانًا كما يظهرُ مِن كلامِهم، وأحيانًا أخرىٰ يُظهِرونَ التَّسامحَ فيقولون نحن لا نكفِّر أحدًا إلَّا المشرِكَ وأهلَ الكتابِ وأئمَّةَ الجَور، وعلىٰ كلٍّ فهُم أقلُّ خطورةً مِن فِرَق الخوارجِ الأخرىٰ، قال الشَّهرَستاني: ((الإباضيَّة أصحاب عبدالله بنِ إباضٍ الَّذي خرج في أيام مروانَ بنِ محمَّد فوجَّه إليه عبدَالله ابنَ محمَّد بنِ عطيَّة فقاتَله، وقيل: إنَّ عبدالله بنَ يحيىٰ الإباضيَّ كان رفِيقًا له في جميع أحواله وأقواله، قال: إنَّ مخالفِينا مِن أهل القِبلة كفَّارٌ غير مشركينَ، ومناكَحتُهم جائزةٌ، ومواراثُهم حلالٌ، وغنيمةُ أموالِهم مِنَ السِّلاح والكُراع عند الحرب حلالٌ، وما سِواه حرامٌ، وحرامٌ قتلُهم وسَبيهم في السِّرِّ غِيلةً إلَّا بعدَ نصْبِ القتالِ وإقامةِ الحجَّة. وقالوا: إنَّ دارَ مخالفِيهم مِن أهلِ الإسلام دارُ توحيدٍ إلَّا معسكَرُ السُّلطانِ فإنَّها دارُ بغي، وأجازوا شهادةَ مخالفِيهم علىٰ أوليائِهم، وقالوا في مرتَكبي الكبائرِ إنَّهم موحِّدون لا مؤمنون))[1].

فهذه أشهر فِرَق الخوارجِ الَّتي نشأت منذ القرن الأوَّل الهجري، والَّتي جلبَتِ الخرابَ والفِرقةَ إلىٰ المسلمينَ، واستحلَّت الدَّم والمال، وكانت فتنةً بأفكارها ومبادئها لكثيرٍ مِنَ النَّاس، ولقد وصلَ كثير مِن أفكارهم وأُسُسِ طريقتِهم إلينا في القرونِ الثَّلاثةِ الأخيرة، ومشَت علىٰ نهجِها وتبنَّت فكْرها ومبادِئها طوائفُ كثيرةٌ، وإن كانت في القرنِ الأخير أشدَّ ظهورًا وأكثرَ إعلانًا عن نفسِها، وسنتعرَّف علىٰ مظاهرِ وجودِ هذا الفكْرِ في أمَّة المسلِمين الذي عادَ من جديدٍ في عصرِنا الحاضرِ، سائلينَ المولىٰ تبارك وتعالىٰ أن يُرِيَنا الحقَّ حقًّا ويرزقَنا اتِّباعَه، وأن يريَنا الباطلَ باطلًا ويرزقَنا اجتنابَه. ◆

(1) انظر: الملل والنحل (1/156).

الفتنة الحاصلة من خوارج العصر الحديث

لو نَظَرنا إلىٰ أغلبِ مصائبِ المسلمينَ علىٰ مرِّ السِّنين لوجدنَا سببَها هو ما يَجنِيه الإنسانُ مِن مخالفةِ المنهجِ الرَّبانيِّ، فالله سبحانَه وتعالىٰ أعطَىٰ هذِه الأمَّةَ أسبابَ النَّجاحِ والفلاحِ، وأكْمَل لها الدِّينَ وأتمَّ عليها النِّعمةَ ووحَّدَ وألَّفَ بين قلوبِ أبنائِها؛ ومع كلِّ هذه المِنَن والنِّعم ترىٰ كثيرًا مِنَ النَّاسِ يَستبدِلون الَّذي هو أدنَىٰ بالذي هو خيرٌ، ومثالُ ذلك عَودة ظهورِ فِكرِ الخوارجِ بأشكالٍ وصورٍ حديثةٍ، فالخوارجُ الَّذين خرَجوا علىٰ الإمامِ عليٍّ ﷺ واستحلُّوا دماءَ المسلمينَ وأموالَهم وأعراضَهم لا يزَالون يخرُجون في كلِّ عصرٍ ومصرٍ وإن اختلفَت أسماؤهم غير أنَّ فكْرَهم ومنهجَهم واحدٌ، فتجِد إفسادَهم في بلادِ المسلمينَ وتنفيرَهمُ النَّاسَ مِنَ الدِّين وأحكامِه حين يصوِّرونَ الباطلَ والإفسادَ في الأرض في صورةِ الحقِّ والجهادِ وإنكارِ المنكَر؛ فيغترُّ بها أقوامٌ وتَنطلي شبهاتُهم علىٰ سفهاءِ الأحلامِ وأحداثِ الأسنانِ، وتشتَبِه الأمورُ علىٰ كثيرٍ منَ النَّاس، فيصدُّون بذلك عن سبيلِ الله، ويُشوِّهونَ صورةَ الإسلامِ والدِّين، وحقَّ عليهم قولُ الله سبحانَه وتعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 103-104]. فالشَّبهُ حاصِلٌ بين خوارجِ اليومِ وخوارجِ الأمسِ، والشَّبه حاصلٌ بين المصائبِ الَّتي ترتَّبت علىٰ خروجِهم في الأمسِ وخروجِهم اليوم، والصِّفاتُ والأفعالُ والأقوالُ والقلوبُ تشابهَت أيضًا.

ولو أرَدنا أن نعلَمَ ماذا أخَذَ خوارجُ اليوم مِن خوارجِ الأمسِ؟ لقُلنا هم أخذوا شقَّ صفِّ جماعةِ المسلمين، وتكفيرَ مَن لَم يكن علىٰ طريقِهم، واستحلالَهم الدَّمَ والمالَ والعِرضَ، والاستقلالَ بفهمٍ مَغلوطٍ لأصولِ الشَّريعةِ وفروعها، وبناءَ أفعالِهم الشَّاذةِ علىٰ هذا الفَهمِ المغلوطِ السَّقيمِ، وهذه الأفكارُ والأفعالُ الشَّاذة التي نَسبوها إلىٰ الإسلامِ زُورًا وبهتانًا أساءَت إلىٰ الإسلامِ عند مَن لا يَعرفه، فلا يُذكَر الإسلامُ عند طوائفَ كثيرةٍ ممَّن لا يَدينونَ بهِ إلَّا وجاءَت في أذهانِهم صورُ العنفِ والقتلِ والدِّماءِ،

مع أنَّ حقيقةَ الدِّين الحنيفِ ليست كذلك وسَنوضِّح ذلك ونبيِّنه إن شاءَ الله تعالىٰ، إضافةً إلىٰ كيفيَّةِ تحصينِ المسلمينَ أنفسِهم مِن أن يقَعوا فريسةَ الفهمِ السَّقيمِ للقرآنِ والسُّنَّة، وهذِه الأفكارُ الشَّاذَّةُ هي ثِمارُ شجرةِ الخوارجِ الخبيثةِ، والواجبُ علىٰ كلِّ مسلِمٍ محبٍّ لدِينه يَغار عليهِ أن يُنبِّه ويحذِّرَ مِن كلِّ فَهمٍ مَغلوطٍ يُنسَبُ إلىٰ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ والدِّين الحنيفِ، والمنافِحون- بحمدِ الله- عن هذا الدِّين مِن هذِه الأمَّةِ كثيرٌ، فأمَّةُ الإسلامِ هي الأمَّةُ التي قالَ الله فيهَا ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]. وقالَ عنها رسولُ الله ﷺ: ((لا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حتَّىٰ يَأْتِيَهُم أَمرُ الله وَهُم ظَاهِرُونَ))(1). فأمَّةُ الإسلامِ دينُها محفوظٌ، والأمَّة معصومةٌ مِنَ الاجتماعِ علىٰ الضَّلالِ، ومَن شذَّ مِنها عن صِراط الحقِّ فإنَّما يشذُّ في النَّار، وليستِ الدَّعوةُ لبيان حالِ الأفكارِ الضَّالةِ والجماعاتِ المنحرفةِ إلَّا دعوةً للتمسُّك بدين الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ الدِّين هو العاصم مِنَ الفتن في هذا الزَّمان، ولا ينبغي لأحدٍ سواءٌ أكان شخصًا أو هيئةً أو جماعةً أن يستعملَ الدِّين مطيَّةً لنيل الدُّنيا.

والله بعَث رسولَه محمَّدًا ﷺ بالحنيفيَّة السَّمحاء التي تَسَع كلَّ الأجناس والأعراق مِن بني آدمَ، أرسلَه ربُّه رحمةً للعالَمين المؤمنِين والكافرين علىٰ السَّواء، ولم يُرسِلْه مُنفِّرًا ولا سفَّاكًا للدِّماءِ، وأمَّا جهادُه ﷺ فإنَّه كان لفَتحِ الطَّريقِ لهدايةِ النَّاس، فأيُّ انحرافٍ عن هذِه الحنيفيَّةِ السَّمحاءِ هو انحرافٌ عن الهدي النبويِّ.

وانظر يا أخي كيف وضَعَت الأفكارُ المنحرفةُ والمتشدِّدة الإسلامَ في حربٍ مع باقي الحضاراتِ والأممِ؛ وسببُ ذلك عدمُ العرضِ الصَّحيح لدينِ الله في أنحاءِ العالَمِ، ماذا جنَىٰ الإسلامُ مِن هذا؟ وماذَا ربحَ المسلمون؟ فنَحن في حاجةٍ لوَقفاتٍ مع النَّفسِ لتَحديدِ أولويَّاتِ أمَّتِنا، والمحافظةِ علىٰ هويَّتِنا وشبابِنا وثرواتِ أمَّتِنا، وإلَّا سوفَ تُنصَب

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب (7311) ومسلِم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: ((لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين علىٰ الحقِّ لا يضرُّهم من خالفَهم)) (1920) واللَّفظ للبخاري.

لنا الشِّباكُ، وتُحاك ضدَّنا المؤامراتُ ونحن ننسَاقُ خلفَها، ونساعدُ أعداءَ الدِّين علىٰ تدميرِ بلادِنا وحضارتِنا ودِينِنا، وليس في التَّمسُّكِ بدينِنا والتحمُّسِ له أيُّ مشكلةٍ؛ لأنَّ ذلك مطلوبٌ بل واجبٌ، إنَّما المشكلةُ أن نتمسَّك بفهمٍ خاطئٍ للدِّين ونظنَّ أنَّ هذا هو الصَّحيح مِنَ الدِّين، ونَبني علىٰ هذا الفهمِ سلوكًا وأفعالًا تضُرُّ بالبلادِ والأمَّةِ، وتمرُّ السُّنون ولا نجدُ أنفسَنا لا في دُنيا أقمنَاها، ولا في دِينٍ نشَرنَاه، فلا نجاحَ ولا فلاحَ إلَّا باتِّباع المنهجِ النبَّويِّ الصَّافي، قالَ الله تعالىٰ ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23].

فلو نظَرنا وتتبَّعنا خطوات الحركاتِ المتطرفة الَّتي تَستظلُّ بمظلَّةِ الدِّين، وترفع شِعار الدِّين كمنهجٍ وطريقٍ لها ماذا تحقَّقَ علىٰ أيديهم للدِّين والدُّنيا؟ نجد أنهم لَم يُحقِّقوا إلَّا الهزائمَ والخسائرَ لِلمسلمين والتَّشويهَ لدِينهم، ولو كان سَيرهم علىٰ منهجِ النبوَّة فلماذا يفشلون في كل الأحوال ممَّا يُحوجنَا إلىٰ التبرُّؤ مِن هذا الفردِ وذاك أو هذِه الجماعةِ ومنهجِها والتَّنصُّل مِن أفعالِهم وأقوالِهم؟

فهنَا يجبُ مراجعةُ المنهج كلِّه وتخليصِه ممَّا علِق به مِن أفكارٍ وسلوكياتٍ ليست علىٰ هدَي رسولِ الله ﷺ ولا علىٰ طريقتِه في نَشرِ دِين الله، وأوَّل ما يجبُ التَّخلُّصُ منه ممَّا علِقَ بالأفكارِ والمناهجِ هو فِكْر ومبادئُ الخوارج وما يتشعَّب عنها مِن سلوكيَّاتٍ وأفعالٍ؛ لأنَّها مِن أقصَرِ الطُّرق نحو خرابِ البلادِ وإسالةِ الدِّماءِ وشُيوعِ الفوضَىٰ في بلادِ المسلمين.

فكْرةُ الجاهليَّةِ كمظهرٍ من مظاهرِ فكْرِ الخوارجِ في العصرِ الحديثِ:

إنَّ فكرةَ جاهليَّةِ المجتمعاتِ الإسلاميَّة هي أوسعُ الأبوابِ لانتشارِ فكرِ الخوارجِ بينَ الغافلِين، ولا نُنكِر أنَّ المجتمعاتِ المسلِمةَ فيها تقصيرٌ تجاهَ دينِها، ولكنَّ كلمةَ الجاهليَّةِ في المدلولِ الشَّرعيِّ لا تَدلُّ إلَّا علىٰ المجتمعاتِ في عصورِ ما قبل الإسلامِ، أي: في عصورِ الكفرِ والشِّركِ، والاعتقادُ بجاهليَّةِ المجتمعِ يؤدِّي بالمرءِ بدون أن يَدري إلىٰ الاعتقادِ

بجاهليَّةِ أفرادِه ووقوعِهم في ضلالِ الشِّركِ والكفرِ حتَّىٰ ولو لَم يظهَرْ ذلك علىٰ اللِّسانِ، ومَن يؤمنُ بهذه الفِكرةِ يجدُ نفسَه مُنعزلًا لا إراديًّا عن مجتمعِه وأهلِه وأسرتِه.

وسوف نتحدث لاحقًا في بحث مستقلٍّ عن قضيَّة رمي المجتمعات المسلمة بالجاهليَّة كمثالٍ عملي لظهور فكر الخوارج في العصر الحديث، وفي نهاية هذا البحث ينبغي التنبيهُ علىٰ بعض المسائلِ المتعلِّقةِ بالكلام علىٰ فكر الخوارج:

أولًا: التَّحذير مِن تسلُّلِ فكْر الخوارجِ إلىٰ النَّفس:

قَد لا يكونُ المرءُ متأثِّرًا بأفكارِ التَّكفيرِ ومَنهجِ الخوارجِ أو مقتنعًا بها، ولكنَّه في الوقتِ نفسِه يتصرَّف وكأنَّه مِنهم حتَّىٰ وإن لَم يفعلْ شيئًا، مثالُ ذلك الرَّغبةُ في العُزلةِ والانطواءِ والبُعدِ عنِ النَّاسِ بدَعوىٰ المحافظةِ علىٰ الدِّين، وذلك مَطلوبٌ طبعًا- أي: المحافظةُ علىٰ الدِّين- ولكِنَّ هديَ رسولِ الله ﷺ لم يكن كذلك، ولأنَّ هذا السُّلوكَ يفتحُ الباب أمامَ إحساسِ المرءِ بأنَّه مختلفٌ عنِ النَّاس، وأنَّه منعزِلٌ لأمرِ دِينه، وهذه هي بدايةُ تولُّد أفكارِ تخطئةِ المجتمعاتِ، والشُّعورِ نحوهم بنوعٍ مِنَ البُغض تحت دعوىٰ تفَلُّتِهم مِن الدِّين.

ومِن مظاهرِ تَسرُّبِ هذا الفِكر للنُّفوس الوقوفُ دائمًا موقفَ العنادِ النَّفسيِّ والبغضِ مع وُلاةِ الأمور وأهلِ الحكم وهيئاتِ الحكومةِ؛ حتَّىٰ وإن عمِلوا لصَلاحِ البلادِ فيجد المرءُ نفسَه مدفوعًا لا شُعوريًّا لتَمنِّي فشلِهم، فالحذر مِن مثلِ تلك الأفكارِ والاتِّجاهاتِ؛ لأنَّها توقعُ المرءَ في النِّفاقِ، وليسَت هي بالسُّلوكِ الإسلاميِّ الذي أمَرنا الله ورسولُه به، فالمسلِم مَنبعُ خيرٍ أينما وُجِد، فهو يخالِط النَّاسَ ويَنظُر إليهم مِن نافذةِ المودَّةِ والرَّحمةِ الَّتي أمرَ بها الشَّرعُ، ويعاونُ وُلاةَ أمورِ المسلمين لِمَا فيه خيرُ البلادِ والشعوبِ، ويجبُ علىٰ المسلمِ الحذرُ مِنَ الرِّضا بأفعالٍ مخالفةٍ للشَّرع حتَّىٰ ولو لم يُساهم فيها، وليحذرْ من التَّعاطفِ

معها أو غضِّ الطَّرفِ عنها؛ لأنَّ الميزان الذي توزَن به الأمورُ عند الله سبحانَه وتعالىٰ هو الشَّرعُ وليست النَّفسَ أو العاطفةَ.

ثانيًا: التَّمكين للدِّين ليس وظيفة فرد أو جماعة بل هو بقدرة الله عز وجل فقط:

إنَّ سيطرةَ فكرةِ التَّمكين للدِّين تجعلُ المرءَ علىٰ استعدادٍ لتَبنِّي مناهجَ ضالَّةٍ في سبيلِ تحقيقِ هذا الهدفِ مِن وجهة نظرِه ويلتمسُ لنفسِه الأعذارَ مِن هنا وهناك، وهو لا يعلَم أنَّ الذي يمكِّن للدِّين هو الله سبحانَه وتعالىٰ، وأنَّ الذي يقوِّي دولةَ الإسلامِ هو الله تعالىٰ، وأنَّ مهمَّةَ المسلِمِ فقط هي الاستقامةُ وتحقيقُ العبوديَّة الحقَّةِ لله سبحانَه، وإصلاحُ النَّفسِ والمجتمع، وأن تكون حياةُ رسول الله ﷺ هي الهاديةَ في هذه الحياةِ لا وضعَ الخططِ والتَّصوُّراتِ لِلمجتمعاتِ الإسلاميَّة وفقَ رؤيةٍ محدَّدةٍ.

والقدَرُ قبل ذلك وبعدَه هو لله وحدَه ليس لك، وهذِه النُّقطةُ مِنَ الأهميَّةِ بمكانٍ حيث يظنُّ المرءُ أنَّ مِن واجبِه الشَّرعيِّ أن يمكِّن للدِّين، وأن يحقِّق تصوُّرًا معيَّنًا للحياةِ الإسلاميَّة، فالتَّمكِين للدِّين هو لله وحدَه، والمسلِمُ ملزَمٌ بشريعةِ الله وليس بالهوَىٰ والمَيلِ القلبيِّ، كما أن الاستهانة بدماءِ النَّاسِ كبيرةٌ من الكبائرِ، قال النَّبيُّ ﷺ: ((لَن يَزَالَ المُؤمِنُ فِي فُسحَةٍ مِن دِينِهِ مَا لَم يُصِب دَمًا حَرَامًا))[1]. وقالَ ﷺ: ((وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَقَتلُ مُؤمِنٍ أَعظَمُ عندَ الله مِن زَوَالِ الدُّنيا))[2].

وكذلك ترويعُ النَّاسِ في أوطانِهم وبلادِهم وبثُّ الخوفِ وعدمِ الأمنِ ببعضِ التَّصرُّفات الَّتي تخلُّ بأمنِ بلاد المسلمينَ تحتَ أيِّ مُسمًّىٰ مِنَ المسمَّياتِ الباطلةِ، فإنَّ هذا ليس مِنَ الدِّين، ولا يأمرُ به الإسلامُ ولا يقرُّه.

---

(1) أخرجه البخاري في أول كتاب الديات (6862) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدَّم، باب تعظيم الدَّم (3986) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

ثالثًا: ثِمار ونَتائجُ هذا المنهج الضال؟

بعدَ كلِّ هذه السِّنين مِن تبنِّي هذه المناهجِ الَّتي بُنيت على فِكر التَّكفير والخوارجِ من قِبل جماعاتٍ مِنَ المسلمينَ والتي شكَّل الشَّبابُ القسمَ الأكبر مِنها لنَا أن نتسَاءلَ ما هي ثمارُ ونتائجُ التزامِ هذه المناهجِ؟

1- شيوعُ الفوضَى في البلاد الإسلاميَّة؛ فقد تفرَّق المسلمون إلى أحزابٍ وشيعٍ تتحزَّب ضدَّ بعضِها البعضِ، فجماعةُ كذا تناحِر وتقاتِل جماعةَ كذا، وتسِيلُ الدِّماء تحتَ مسمَّى الدِّين، وصارَ الانتصارُ والانتماءُ للأشخاصِ والهيئاتِ والجماعاتِ بدلَ الانتصارِ لدينِ الله تعالى.

2- استِحلالُ الدِّماءِ المحرَّمةِ باسم الدِّين تحت دَعوى الجهادِ الباطلةِ، وإنَّما هي في حقيقتِها بحثٌ عن مصالِحَ وأهدافٍ لأشخاصٍ وجماعاتٍ وهيئاتٍ يقف وراءَها أعداءُ الإسلامِ بالتَّمويلِ؛ لتَحقيقِ أهدافِهم في بلادِ المسلِمين، فما لَم يقدِروا هم على فعلِه على مرِّ القرونِ يفعلُه بعضُ أبناءِ المسلمين ببِلادِهم.

3- إلصاقُ تُهمِ الإرهابِ والعنفِ بدينِ الإسلامِ في الدَّاخلِ والخارجِ، ووضعُ الإسلامِ دائمًا في مَوقفِ المتَّهَمِ الَّذي يَنبري النَّاسُ للدِّفاعِ عنه ومحاولةِ تَجميلِه.

4- التَّغريرُ بكثيرٍ مِنَ الشَّبابِ تحت دَعاوى دينيَّةٍ برَّاقةٍ، والاصطدامُ بولاةِ الأمورِ والسُّلطانِ، وغيابُ كثيرٍ منهم في السُّجونِ في داخلِ بلاد المسلمينَ وخارجِها نتيجةَ هذه المناهجِ والأفكارِ.

5- التَّنفيرُ مِنَ الدِّين لدى بعضِ النَّاس، وفتحُ بابِ الشَّكِّ والإلحادِ أمام الشَّبابِ؛ لظنِّهم أنَّ هذه هي حقيقةُ الإسلامِ ومنهجُه مِن كَذبٍ ودماءٍ، وظنِّهم أنَّ الغايةَ تُبرِّر الوسيلةَ.

6- تَعريضُ المسلِمينَ الَّذين يُحاولونَ التَّمسُّكَ والالتزامَ بدينِهم والدِّفاعَ عنه ونشرَه للمحاربةِ والهجومِ؛ وذلك لإيقاعِهم في دائرةِ الاتِّهام بأنَّهم مِن حملَةِ هذِه المناهجِ الباطلةِ،

وفَتحُ الأبواب أمامَ العلمانيِّين للهجومِ علىٰ الإسلامِ والتَّحذيرِ مِن أيِّ كلامٍ عنِ الالتزامِ بأحكامِ الدِّين في الحياةِ الخاصَّةِ والعامَّةِ.

هذه بعضُ النَّتائجِ وهناك غيرُها مِنَ الثِّمارِ الخبيثةِ والحصادِ المرِّ الَّذي نتَجَ مِن انتشارِ فكْرِ الخوارجِ بصُورةٍ أو بأخرىٰ في مجتمعاتِ المسلمين، والذي لم نر منه إلَّا النَّكباتِ والشَّرَّ الذي يليهِ الشَّرُّ، والألَمَ الَّذي يظهرُ أثرُه بالمجتمعاتِ الإسلاميَّةِ، ممَّا يلزَم عنه أنَّ هذا المنهجَ هو منهجٌ غيرُ صالحٍ؛ إذْ مِن غيرِ المعقولِ أن يكون هذا المنهجُ هو المنهج الرَّبانيَّ ويَنتجُ عنه هذا الفَشلُ، فحاشَا لله أن يكون مَنهجُ الحقِّ منهجَ فسادٍ وشرٍّ، بل منهجُ هذه الجماعاتِ هو في ذاتِه باطلٌ لا يَنتمي لدينِ الله تعالىٰ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ.

ودلائلُ الفشلِ في تَبنِّي هذا المنهجِ واضحةٌ وظاهرةٌ لكلِّ ذِي عينَين، فالذي فتَحَ أبوابَ الشُّرورِ على البلادِ الإسلاميَّةِ وجعَل لأعداءِ الأمَّة موطِئَ قدمٍ علىٰ أرضِها هم أصحاب هذه المناهجِ، فجاءَ الأعداءُ تحت دعوىٰ مكافحةِ الإرهابِ والقضاءِ علىٰ التَّنظيماتِ الإرهابيَّة، واقتطعوا أراضٍ مِن بلادِ المسلمينَ واحتلُّوها بعد أنْ تمَّت تأديةُ الأدوارِ المرسومةِ لهذه الجماعاتِ بغباءٍ شديدٍ منهَا أو ربَّما بعمَالةٍ لأعداءِ الإسلامِ.

فعلىٰ كلِّ مَن يعتنِق أو يتأثَّر بهذا الفِكرِ وتلك المَناهِجِ أن يَتوقَّف ليسألَ نفسَه هل هو بالفعلِ يعملُ لله سبحانَه وتعالَىٰ ولصَالح الدِّين والأمَّة، أمْ أنَّه بأفعالهِ يُسيءُ لدِينهِ وأمَّتِه ويمهِّد السُّبُل أمامَ خرابِ بلادِ الإسلامِ.

رابعًا: رفعُ الشِّعاراتِ الإسلاميَّةِ:

إنَّ رفعَ الشِّعاراتِ الدِّينيَّةِ واتِّخاذَ المظاهرِ الإسلاميَّةِ لتَحقيقِ أهدافٍ دُنيويَّةٍ هو علامةٌ مِن علاماتِ النِّفاقِ، سواءٌ أكانَ ذلك علىٰ المستوىٰ الشَّخصيِّ أو الجماعيِّ، فالمسلمونَ كلُّهم تحتَ رايةِ الإسلامِ، يستَوي في النِّسبةِ للإسلامِ الملتزمُ والمفرِّطُ والطَّائعُ والعاصِي، فكلُّ مَن شهِد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله هو تحتَ هذه الرَّايةِ،

فليسَ لشخصٍ بعينِه أو جماعةٍ مَا اختِصاصُ أو احتِكارٌ للدِّين، وليس الدِّينُ ممثَّلًا في أحدٍ بحيثُ يكونُ نجاحُه أو فشلُه نجاحًا أو فشلًا للدِّين، هذا فهمٌ مغلوطٌ لا يَمتُّ إلىٰ الإسلامِ بصلةٍ، وليسَ لأحدٍ كائنًا مَن كان أن يدَّعي تمثيلَ الإسلامِ أو انحصارَ الإسلامِ في جماعتِه.

وأمَّا بالنِّسبةِ لِما كان عليهِ النَّاسُ مِن قبلُ فإنَّا نقول لقد كان المسلِمون يحبُّون أن ينسِبوا أنشطتَهم ومعاملاتِهم عبر السِّنين لأسماءٍ ذاتِ طابعٍ إسلاميٍّ رجاءَ نَيلِ البركةِ مِن ذلك، وليسَ لإظهارِ الانفرادِ والتَّميُّزِ، فليس الدِّينُ حِكْرًا لمسلِمٍ دونَ مسلمٍ، ثمَّ إنَّ رفعَ هذه الشِّعاراتِ والأسماءِ والتَّصريحَ بأنَّ الأعمالَ الدُّنيويَّةَ الَّتي يُرادُ بها المصالحُ الشَّخصيَّةُ هي لله سبحانه هو نوعٌ مِنَ النِّفاقِ وأكلِ الدُّنيا بالدِّين، ثم إنَّ حدوثَ فشَلٍ في توجُّهٍ معيَّنٍ أو أنشِطةٍ أو رؤيةٍ رُفعَت فوقَها الشِّعاراتُ الإسلاميَّة تَتسبَّب في أن يُنسبَ الفشلُ إلىٰ الإسلامِ في نفُوسِ بعضِ النَّاسِ.

خامسًا: الخلَلُ في فَهمِ أصولِ الدِّين:

إنَّ الأفعالَ والسُّلوكيَّاتِ تنتجُ مِن الاقتناعِ بالأفكارِ، فالأفكارُ الصَّالحةُ المستقيمةُ سيَنتج عنها أفعالٌ وسلوكيَّاتٌ صالحةٌ ومستقِيمةٌ، والعَكسُ بالعكسِ، ويظهر ذلك جليًّا واضحًا في فَهمِ الدِّين وتطبيقِه، فمتىٰ كانَ المنبع الَّذي يَشربُ منه المرْءُ صافيًا صالحًا كانت الأفعالُ طيِّبةً ومنضَبطةً، ومَن شرِب مِن مستنقعٍ خبيثٍ لابدَّ وأن تكون أفعاله فاسدةً سيِّئةً، فالخوارجُ الأوائل لمَّا استقلُّوا بفهمٍ مغلوطٍ وفسَّروا آياتِ الله بحسب هواهم وسمَّوا أنفسَهم جماعةَ المسلِمين وانعزَلوا عن أمَّةِ الإسلامِ استحلُّوا دماءَ المسلِمينَ.

فيَا أخي الكريم؛ إنَّ دِين الله متِينٌ وسَهلٌ، وأهلُه هم أهلُ الذِّكرِ والعِلْم؛ الذين لا يَخلو منهم عصرٌ ولا مِصرٌ مِن أمصارِ المسلِمين، هم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ؛ الذين أخذوا العِلمَ الحقَّ عن شيوخهم بسِلسلةٍ متَّصلةٍ إلىٰ سيِّدِنا رسولِ الله ﷺ ، هؤلاء هم مَن يَنبغي أن يُرجعَ

إليهم ويُلتزم كلامُهم، أمَّا الأدعياءُ ممَّن يَزعمونَ لأنفسِهم مكانةً في العِلْم والفقهِ فلا يُلتَفت إليهم؛ حيث لم يأخذوا العلْمَ عن أهلِه، فسندُهم مقطوعٌ، وعلمُهم مغشوشٌ؛ ولذلك أضاعوا الشَّبابَ بأفكارهم وأطروحاتِهم، ثُمَّ إذا حلَّتِ الكوارثُ بسببِهم يَختفونَ عن المشهدِ ويلتزمونَ الصَّمتَ.

فالفَهمُ الصَّحيحُ لكتابِ الله وكلامِ سيِّدنا رسولِ الله ﷺ يَعصِم مِنَ الزَّلل والوقوعِ في الخطأ والانحرافِ، فابتعِد أيُّها المسلِم عن الذين يأكلون الدنيا بالدِّين، ولا تأخذ إلَّا مِن أهلِ الله الصَّادقين أصحابِ العِلمِ والفِقه العَالِمين بالشَّريعةِ ومقاصدِها، الذين لا يُحركون النَّاسَ للفِتن والصِّدام مع ولاةِ الأمورِ وأصحابِ السُّلطةِ، ولا يعملونَ على إشعالِ النِّيرانِ في البلادِ وبينَ العبادِ.

واعلم أيُّها الأخُ الكريم أن المطلوبَ منكَ أوَّلًا أن تصلحَ نفسَك وتزكِّيها وتعملَ على إصلاحِ حالِك مع الله وتزيدَ مِن طاعتِك، ثُمَّ تعملَ على فعلِ ذلك على مَن تَرعاهُم وعلى مَن تستطِيع مِن أهلِك وصَحبِكَ، وهكذا إلى أن تُعمَّم هذه الطريقةُ في المجتمعِ الإسلامي، وبالتَّالي سينصلِحُ حالُ جميعِ الأفرادِ والمجتمعاتِ على كافَّةِ المستوياتِ دينًا ودُنيا، هذا هو المنهجُ الربَّاني المحمَّدي، سهلٌ ويسيرٌ وغيرُ معقَّدٍ، فلا تحتاج بعدَ ذلك إلى مفاهيمَ ومصطلحاتٍ فاسدةٍ ومغلوطةٍ.

فكُن مع ربِّك والتَزم بدينِك بقدْرِ وُسعِك، وأكثر مِن العباداتِ والنَّوافلِ، وتخلَّق بالأخلاقِ الحسَنةِ، واعمَل على نَشرِ ذلك بالموعظةِ الحسنةِ، واعلَم أنَّ خيرَ النَّاسِ أنفعُهم للنَّاس، وانظر نتيجةَ هذا في مجتمعِك الصَّغيرِ ثُمَّ تصوَّره في مجتمعِك الكبيرِ وفي أمَّةِ الإسلامِ وسوفَ تجدُ البركاتِ والخيراتِ على بلاد المسلمينَ مجتمعاتٍ وأفرادٍ، فالطَّريقُ الحقُّ هو مَنهجٌ تربويٌّ على النَّهج المحمَّدي وليس على النَّهج التَّكفيري أو فِكر فلان أو فلانٍ أو مبادئ جماعةٍ أو هيئةٍ لتحقيقِ أهدافٍ دنيويَّةٍ.

سادسًا: ضرورةُ المواجهةِ العلميَّةِ مع المناهجِ الضَّالةِ:

لو بحثنا في فكْرِ الحركاتِ الَّتي اتَّخذَتْ مِن مَنهجِ الخوارجِ طرِيقًا لَها لوَجدْنا أنَّها اعتمدَت في كثيرٍ مِن أفعالِها علىٰ كتبِ ابنِ تيميَّةَ وابنِ القيِّمِ في تبريرِ الأفعالِ والسُّلوكيَّاتِ وإخراجِها في قالَبٍ شرعيٍّ، فقد قاموا بإسقاطِ كلامِهم عنِ جهادِ الكفَّارِ علىٰ مجتمعاتِ المسلِمينَ في العصرِ الحالي بدونِ مراعاةٍ لأيِّ فَهمٍ أو فِقهٍ أو اختِلافٍ في الأحوالِ والأزمنةِ والنَّاسِ بينَ كلِّ زمانٍ وزمانٍ وكان عليهم فهمُ ما كتبَه العلماءُ بناءً علىٰ عَصرِهم وظروفِهم وطبيعةِ بلادِهم في ذلك الوقتِ.

ولقد اعتمدَت أيضًا هذه الحركاتُ في سلوكِها علىٰ كتبٍ في العصرِ الحديثِ فكتُبُ سيِّد قطب ومحمَّد قطب كانت الزَّادَ الفكريَّ والرُّوحيَّ لأهلِ التشدُّد والتَّكفيرِ وكانتِ المرجعَ والمبرِّر لكثيرٍ مِنَ المصائبِ التي جرَتْ علىٰ أيدِيهم.

وعلىٰ فرضِ أنَّنا سلَّمنا بالمكانةِ العلْميَّة لبعضِ هؤلاءِ فهل اجتهاداتُهم وأفكارُهم هي نوعٌ مِن أنواعِ الوحي المقدَّسِ الذي يجبُ أن تأخذَ به الأمَّةُ ولا تحيدُ عنه؟ بالطبع لا فإنَّ أمَّةَ الإسلامِ بها آلافٌ مِن أهلِ العِلْم الذينَ تُعدُّ كتابتُهم وفكْرُهم ومصنَّفاتُهم ومشروعاتُهم الفكريَّةُ هي الَّتي تقومُ عليها نهضةُ الأمَّة في هذه السَّنوات، وَلْنَذكر علىٰ سبيلِ المثالِ الإمامَ أبا حامدٍ الغزالي صاحبَ الرُّؤيةِ المتكاملةِ في إصلاحِ المجتمعاتِ، والعلَّامةَ ابنَ خلدون وغيرَهما ممَّن كانوا يحمِلونَ رؤًىٰ شاملةً في الإصلاحِ والنَّهضةِ بالمجتمعاتِ المسلمةِ.

إذن ففهمُ الدِّين والنُّهوضُ به لم يقِف عندَ ابن تيميةَ أو ابنِ القيِّم أو غيرِهم ، بل علىٰ العكس مِن ذلك فَما مِن باحثٍ في أيِّ فكْرٍ متَشدِّدٍ أو مَنهجٍ عنيفٍ إلا وسيَجدُ أفكارَ هؤلاءِ هي المغذِّي لهذا التَّشدُّدِ والعنفِ، والغريبُ هو هذه الهالةُ من القداسةِ التي تُحيط أقوالَ هؤلاءِ وكأنَّ فكْرَهم وكلامَهم نزَلَ مع القرآنِ حتىٰ يُعاملَ بكلِّ هذا التَّعظيمِ، إلَّا أنَّ

هذِهِ الغرابةَ ستزولُ عندما نعلَم أنَّ مثلَ هذه الأفكارِ تخدم المصالِح وترضي الأهواءَ ولذلك نجِدُ التَّحزُّبَ والتَّحيُّزَ لَها.

سابعًا: أهميَّةُ فهمِ فِقهِ الجهادِ في الإسلامِ ومَقاصدِه:

يجبُ على الجماعاتِ التي تَتَخفَّى وراءَ ستارِ الجهادِ في سبيلِ الله وتقومُ بالأعمالِ المحرَّمة في الشَّريعةِ وتشيعُ الفوضَى والإفسادَ في الأرضِ وتستحِلُّ الدِّماءَ والأعراضَ والأموالَ وترمي النَّاسَ بخروجِهم منَ الدِّين أن تعلَمَ أنَّ الجهادَ في الإسلامِ لَم يُشْرَع لذاتِه وإنَّما هو وسيلةٌ لتَبليغِ رسالةِ الله تعالى إلى أهلِ الأرضِ، ولم يُشرَع لتَحقيقِ الأهدافِ الدُّنيويَّةِ أو لتَحصيلِ مكاسبَ أو لإسالةِ الدِّماءِ والعملِ على وقوعِ الصِّدام بين حضارةِ الإسلامِ وغيرِها مِن الحضاراتِ.

فالغايةُ والهَدفُ مِنَ الجهادِ فَتحُ الأبوابِ أمامَ تبليغِ رسالةِ الإسلامِ، وفقهُ الجهادِ له مِن المقاصدِ والأركانِ والشُّروطِ والضوابطِ الَّتي تحدِّد صورَه وأشكالَه في الشَّريعةِ، ورسولُ الله ﷺ خيرُ مثالٍ لهذا، فهل مِنَ الحكمةِ أخي الكريم أن يُعرَضَ الإسلامُ دائمًا في صورةِ المهاجِمِ للمجتمعاتِ والنَّاسِ تحت مسمَّى الجهادِ، ويلصقَ كلُّ هذا زورًا وبهتانًا بالإسلام والجهادِ في الإسلامِ؟

نحنُ الآن في أشدِّ الحاجةِ للجهادِ بالدَّعوة الحسنةِ والكلمةِ الطيِّبةِ داخلَ المجتمعاتِ الإسلاميَّةِ وخارجَها، وأن يبلِّغ كلٌّ منَّا دِينَ الله بقدْرِ المستطاعِ وبحسَبِ الطَّاقةِ على مستَوى الفردِ والمجتمعِ، وأن نتذكَّر دائمًا أنَّ الجهادَ الأكبرَ هو جهادُ النُّفوسِ وتزكيتُها، وأنَّ أمورَ الشَّريعةِ وخاصَّةً أحكامَ الجهادِ لابدَّ أن نرجعَ فيها إلى أهلِ العِلْم والتَّحقيقِ وليس للجهلةِ والأدعياءِ الَّذين أدخَلوا أمَّتنا في نفقٍ مظلِمٍ، وليُعلَم أنَّ للجهادِ في كلِّ زمانٍ فِقهًا وأحكامًا وضوابطَ يأمرُ بها ويقومُ على أمرِها ولاةُ أمورِ المسلمينَ وعلماؤهم ومَن بيدهم القيادةُ ممَّن توفَّرت لديهم الرُّؤيةُ المتكاملةُ لواقعِ الأمورِ وظروفِ البلادِ، فلا يَقومُ بالجهادِ

أفرادٌ أو جماعاتٌ مِن تلْقاءِ أنفسِهم لمجرَّد أنَّ فكرةَ الجهادِ استَهوتْهم وتحمَّسوا لَها، لأنَّهم بذلك يَخدمُون أعداءَ الأمَّةِ ويجلِبون للأمَّةِ الخرابَ والاحتلالَ وسفكَ الدَّم وإشاعةَ الفوضَىٰ وإلصاقَ تهمةِ الإرهابِ والدَّمويَّةِ بالإسلامِ وأنَّه هو الخطَر الَّذي يهدِّد الحضارةَ الإنسانيَّة، وكلُّ ذلك تحت مسمَّىٰ الجهادِ، والجهادُ منهم براءٌ.

إنَّ هذِه الجمَاعاتِ فتَحت بابَ الشَّرِّ علىٰ المسلمين وشقَّت صفَّهم ورفعَت شعاراتِ العملِ المسلَّح ضدَّ أوطانِها المسلمةِ تحت مسمَّىٰ الجهاد، ولا يُقبَل أنَّ نيَّتَهم كانت حسنةً وأنَّهم أرادوا الخيرَ ولم يُدركوه، لأنَّهم ليسُوا مِن أهل العِلم والاجتهادِ في الدِّين وإصدارِ الأحكامِ ورسمِ منهجِ المسلمينَ، فالنيَّاتُ الصَّالحةُ لا تصلِح الأعمالَ الفاسدةَ، والغايةُ لا تبرِّر الوسيلةَ، ويكفي لظهورِ خبثِ النَّوايا عندهم ردُّهم لكلامِ أهلِ العِلم ورفضُهم الاستماعَ إليهم، بل ورَميهم بالمروقِ مِنَ الدِّين وبأنَّهم علماءُ السلطة لمجرَّدِ أنَّهم يكشِفون لهم عوارَ منهجِهم وفسادَ طريقتِهم.

ثامنًا: المُراجعاتُ الفكريَّة ودلالاتُها:

بعدَ سنينَ طوالٍ مِن العمل المسلَّح والتَّكفيرِ واستحلالِ الدِّماءِ وإشاعةِ الفوضَىٰ ونشرِ الفتنِ قامَ عددٌ من القادةِ ممَّن كانوا يَحمِلون هذه الأفكارَ، ويرسمونَ خططَها بالرُّجوعِ عن تلك الأفكارِ والفتاوىٰ الَّتي تكفِّر المجتمعاتِ وأنظمةَ الحكمِ في بلادِ المسلمين، وأدَانوا العنفَ وأعلَنوا أنَّهم كانوا علىٰ خطأ في كثيرٍ مِنَ الأمورِ، وهذا خيرٌ كبيرٌ في حدِّ ذاتِه، فمِن الخيرِ أن يعودَ المخطِئُ عن خطئه ويعلنَ توبتَه مِن فِكر التَّكفيرِ واستحلالِ الدِّماء، وأن يلتزمَ بأحكامِ دِينِه علىٰ الوجهِ الصَّحيحِ، ولكن للأسف حصَل هذا بعدَ أنْ سالَت دِماءٌ كثيرةٌ وبعد أن أفسدَت كثيرًا من الشَّبابِ وضيَّعَتهم، فهل نحن في حاجةٍ إلىٰ مآسٍ جديدةٍ من التَّكفير والدِّماءِ؟

فعلَينا أن نرجعَ إلىٰ الحقِّ ونحسمَ ونغلِقَ هذه الأبوابَ، ونتَّحِدَ جميعًا علىٰ أمْرِ دينِنا السَّمحِ، ونعتصِمَ بأمرِ الله، ونتَبنَّىٰ مناهِجَ الإصلاحِ التَّربويِّ كوسيلةٍ لإسعادِ بلادِ المسلمينَ وإصلاحِ حالِهم ورقيِّ الفردِ المسلِم ورفعتِه بدلًا مِن مظاهرِ الفَقرِ والبؤسِ والتخلُّفِ المنتشرةِ في بلادِ المسلِمين.

تاسعًا: مظاهرُ الفِكْرِ التَّكفيريِّ في بلادِ المسلِمينَ:

ظهرَت في الخمسينَ سنةً الأخيرةِ في بلادِ المسلِمين أشكالٌ كثيرةٌ وصورٌ مُتنوِّعةٌ مِن انبعاثِ فكرِ الخوارجِ فظهَرت كثيرٌ مِن الجماعاتِ والأفرادِ ممَّن تحمِلُ أفكارَ الخوارجِ وتَزيدُ عليها فتَبنَّتِ المناهجَ المتشدِّدةَ والأفكارَ التَّكفيريَّةَ، وقامَت بالدَّعوةِ للعملِ السِّريِّ وتجنيدِ الأتباعِ، والعملِ علىٰ تكوينِ خلَايا في المجتمعاتِ الإسلاميَّةِ تَدينُ بالطَّاعةِ والولاءِ لمبادئ جماعتِها، ونشَرَت أعمالَ الخرابِ والقتلِ والتَّدميرِ، وقد أشرنا لهذه المظاهر والأفكار سابقًا عند حديثِنا عن التَّيار الجهاديِّ.

فهذه الأفكار والسُّلوكيات الَّتي ظهرَت في بلاد المسلمينَ منذ الستِّينات مِنَ القرنِ الماضي، بالإضافةِ إلىٰ الحالاتِ الفرديَّةِ الخاصَّةِ والَّتي تعتَنق فِكْرَ الخوارجِ والتَّكفيرِ إلَّا أنَّها لا تَنتمي لتَنظيمٍ معيَّنٍ، ويُمكِن لك أن تعدَّ أكثرَ من ثلاثين جماعةً ظهَرت في بلادِ المسلِمين تَتبنَّىٰ هذه الأفكارَ الخبيثةَ، ونحن حين نذكُرُ هذِه المبادئَ والأفكارَ لا نتجنَّىٰ عليهم، فهذا كُلُّه مسطَّرٌ في كتبِهم ومقالاتِهم وخطبِهم، ولم تكن جهودُهم وأفكارُهم في صالحِ المسلمينَ وصالحِ أوطانِهم، ولَم تكُن دَعوتُهم لدين الله تعالىٰ علىٰ المنهجِ الحقِّ مَنهجِ رسولِ الله ﷺ، فأساءُوا لأنفسِهم ولأمَّتِهم ولدِينِهم ولأوطانِهم، وهؤلاءِ يقعُ علىٰ عاتِقهم نصيبٌ كبيرٌ من المسئوليَّةِ لما تعانيهِ الأمَّةُ مِن فتنٍ وعدمِ استِقرارٍ في هذِه الأيَّام.

فهل هؤلاءِ هم أصحابُ المنهجِ الحقِّ الَّذي جاءَ به سيِّدنا محمَّدٌ ﷺ؟ وهل هؤلاءِ هم أهلُ التَّمكين والفتحِ والنَّصرِ؟

لو كانوا كذلك فإنَّ وعدَ الله لا يُخلَف، وكنَّا رأينا علىٰ أقلِّ تقديرٍ بشائرَ نصرٍ وتمكينٍ علىٰ صَعيدٍ واحدٍ، ولكنَّ النَّصر والتَّمكينَ لا يكون مع فسادِ المنهجِ وانحرافِه، ولا يفيدُهم الاعتذارُ بالحُججِ والأسبابِ الَّتي تَدفعُهم إلىٰ سلوكِ هذِه الطُّرقِ مِن إقامةِ شرعِ الله وتحقيقِ المجتمع المسلِم ومحاربةِ صُوَرِ الفسادِ في البلادِ، فإنَّ ذلك أمرٌ يحقِّقه الإسلامُ ولكن بطريقِ الهدي النبويِّ، وليس بهوىٰ كلِّ واحدٍ، ولْيَسأل كلُّ مَن يحمِل هذا الفِكر نفسَه ماذا قدَّم لدِين الله علىٰ الحقيقةِ، وماذا قدَّم لنفعِ المسلمين في أمرِ الدِّين أو الدُّنيا، وماذا قدَّم لوطنِه، هل وجودُه هو وأمثالُه في بلادِ الإسلامِ قد حقَّق النَّفع والهدايةَ والتفافَ النَّاسِ حول الدِّين والتزامَهم به في الأقوالِ والأعمالِ والسُّلوكِ أم كان سَببًا في الصَّدِّ عن سبيلِ الله مِن طرُقٍ كثيرةٍ، وإلصَاقِ التُّهَم بأهلِ العِلْم والرَّمي بهِم في كثيرٍ مِن المهالكِ والمشكلات، فَضلًا عن وَضعِ الإسلامِ مَوضعَ التُّهمةِ؟

ثُمَّ يا مَن تشبَّعت بهذا الفِكر وسلكتَ هذا المسلكَ ورضِيتَ بهذا المنهجِ بعد كلِّ هذه الأحداثِ والنَّتائج علىٰ مرِّ السِّنين ألَا تقفُ مع نفسِك وقفةً لله عزَّ وجلَّ ثُمَّ لأمَّتك وتفترِض أنَّك مخطئٌ، ألَا تُعطي لنفسِك فرصةً لتراجعَ هذا الفكْرَ بالرُّجوعِ إلىٰ أهل العِلْم الصَّادقين المؤهَّلين لذلك لتَسألَهم هل أنا علىٰ نهجِ رسولِ الله ﷺ وهَديِه؟ وهل أنَا علىٰ مَنهجِ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ بعد سلوكِ هذا الطَّريقِ؟ فإن وافقُوك فاثبُت علىٰ ما أنتَ عليه، وإن خالفوك فارجِع إلىٰ طريقِ الحقِّ وتُب إلىٰ ربِّك وانخلِع مِن كلِّ منهجٍ باطلٍ، ولا تستعظِم أن تفعلَ هذا مهمَا عظُمَت درجةُ انغماسِك في هذِه المناهِجِ، فالرُّجوعُ إلىٰ الحقِّ مِن صفاتِ المسلِم الَّذي يرجُو وجهَ الله والدَّارَ الآخرةَ بعمَلِه، واجعل جُهدَك ووقتَك في نصرةِ الدِّين ونشرِه علىٰ هدي سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ وليسَ علىٰ هوىٰ فلانٍ أو غيرِه مِنَ المخادعينَ الَّذين يأكلونَ الدُّنيا بالدِّين ولا يهتمُّون إلَّا بتحقيقِ أهدافِهم الخبيثةِ، ويزيِّنونَ لك الباطلَ ويوهِمونك أنَّك في جهادٍ في سبيلِ الله، فلابدَّ لكَ مِن وَقفةٍ وتفكيرٍ وطلَبِ الهدايةِ مِنَ الله أن يريَك الحقَّ حقًّا ويرزقَك اتِّباعَه، وأن يريَك الباطلَ

باطلًا ويرزقَك اجتنابَه، ولا يجعلُه مُشتبِهًا عليك فتضِلَّ، وعليك بهَدي رسولِ الله ﷺ فإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ بعثَ محمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هاديًا رحيمًا مؤلِّفًا لقلوب النَّاسِ ولم يبعثْه سفَّاكًا للدَّم مفسِدًا في الأرضِ وحاشَاه صلوات ربِّي وسلامُه عليه.

عاشرًا: الإسلامُ السِّياسي وخطورته:

هذا مصطلحٌ يرفعُه مَن يعمَل في حقلِ العملِ السِّياسيِّ تحت مِظلَّةِ الدِّين، وبالنَّظر إلىٰ تاريخِ وممارساتِ كثير مِن هذه الهيئاتِ والجماعاتِ والأحزابِ نَجد أنَّ الدِّين عندَهم ما هو إلَّا وسيلةٌ وغِطاءٌ لتحقيقِ الأهدافِ السِّياسيَّةِ والَّتي تَتنوَّع بحسَبِ الحالِ والزَّمانِ والمكانِ.

ونقولُ لمَن ينتَسِب إلىٰ الإسلامِ السِّياسي: مَا دُمتَ تعملُ مِن أجلِ دينِ الله ولصالحِ البلادِ والعبادِ فيجبُ أن تكونَ وسائلُك مَشروعةً وفقًا للدِّين وأصولِه وفروعِه، فليسَ مِن دِين الله أن تبرِّرَ الغاياتُ الوسائلَ، وليس مِن دينِ الله إبرامُ الصَّفقاتِ لتحقيقِ الأهدافِ والمصالحِ، وليس مِن دينِ الله أن نضعَ الهدفَ أوَّلًا ثُمَّ نَصُوغَ له الأدلَّةَ علىٰ أنَّه لا يُخالِف شريعةَ الله، بل إنَّ الدِّينَ هو السَّيرُ علىٰ المَنهجِ أوَّلًا وعرضُ الأهدافِ والخطُواتِ عليهِ، وليسَ التَّحيُّل لصَبغِ ما هو مِنَ الأهدافِ الدُّنيويَّة بصِبغةٍ دينيَّةٍ، وليس مِنَ الدِّين أن تجعلَ المخالفَ لك في الرُّؤيةِ والفِكرِ في جانبِ المعادِي للدِّين؛ فأنتَ لا تمثِّل الدِّينَ؛ لأنَّ الدينَ أعظمُ مِن أن يُمثِّلَه شخصٌ أو هيئةٌ أو جماعةٌ تُخطِئُ وتُصِيبُ.

وليسَ مِنَ الدِّين استغلالُ حاجاتِ النَّاس وفَقرهم والزَّجُّ بهم نحوَ الاحتشادِ والتَّجمُّع وراءَ أفكارٍ محدَّدةٍ حتَّىٰ وإن كنتَ ترَاها صَوابًا وأنَّها في صالِحِهم.

وليس مِنَ الدِّين استغلالُ العاطفةِ الصَّادقةِ عندَ المسلمينَ نحو دِينهم ومقدَّساتِهم، وشحنُ النَّاسِ بالأفكارِ التي تُحقِّقُ أغراضَك.

وليس مِنَ الدِّين نَقضُ العهودِ ما دامَ ذلك يُحقِّقُ المصالِحَ الشَّخصيَّةَ والحزبيَّةَ، وليس مِنَ الدِّينِ إشاعةُ الفوضَىٰ في البلادِ وإذَاعةُ الخوفِ وإفسادُ حياةِ النَّاس تحتَ مُسمَّياتٍ مختلِفةٍ يُلبَس فيها الحقُّ بالباطِلِ.

ويُلاحظ أنَّ هذِه الجماعاتِ بعد تحقيقِ الأهدافِ السِّياسيَّةِ والدُّنيويَّةِ تظهَرُ وجوهُ كثيرٍ مِنها علىٰ حَقيقَتِها فتَضَع أمرَ الدِّين جانبًا وتَتفرَّغ لقطفِ الثِّمارِ والعملِ علىٰ فرضِ الوجودِ والاستحواذِ بشتَّىٰ الطُّرقِ والوسائلِ، وإنْ أخفَقوا في تَحقيقِ الأهدافِ المَرجوَّةِ ولم يُثبِتوا كفاءَتهم وأظهَرْت لهم فشلَهم أقاموا عليك الدُّنيا ولَم يُقعدوها وأشعَلُوا النَّارَ في الأخضرِ واليابسِ، وصوَّروا الأمورَ علىٰ أنَّها حربٌ علىٰ الإسلامِ، وكأنَّهم الإسلام.

إذن علىٰ كلِّ مسلِمٍ أن يراجِع نفسَه وحالَه مع ربِّه وليَنظرْ هل ما يفعلُه هو لله سبحانه كما يدَّعي أو مِن أجلِ الدُّنيا والمصالحِ الشَّخصيَّة أو الجماعيَّة؟ وهل إنْ رفضَ النَّاسُ قبولَه والرِّضا به سَيسُلُّ عليهم سيفَ التَّكفيرِ والمروقِ مِنَ الدِّين ومعاداةِ الإسلامِ ويستبيحُ دماءَهم وأموالَهم وممتلكاتِهم، ويسعىٰ في الأرضِ فسادًا كفعلِ الخوارجِ لمجرَّدِ أنَّه خَسِر مكاسبَ دنيويَّةً كبُرت أم صغُرت؟

وإنَّنا في معرض الكلام عن الخوارج وخروجهم في هذه الأمة نبين لكلِّ مَن يزعمُ أنَّه يَنصُر دِينَ الله ويعملُ علىٰ رِفعتِه ونقولُ له: لستَ أحرصَ مِن سيِّد البشرِ محمَّدٍ ﷺ في هذا المجالِ، فهل فعَل رسولُ الله ﷺ ما تفعلُه هذه الجماعاتُ؟ هل كان مِن هَديهِ سفكُ الدِّماء المحرَّمةِ والعملُ علىٰ شيوعِ الفوضَىٰ وإهدارُ طاقاتِ الأمَّة وتخريبُ المنشآت؟ هل هذه الأفعالُ من سنَّة الحبيبِ المصطَفىٰ محَمَّدِ بن عبدِالله ﷺ؟ أليسَت الدِّماءُ والأموالُ والأعراضُ مَعصومةً في شريعةِ الإسلامِ؟ أليسَ الأجدَىٰ مِن ذلك كلِّه البَدءُ في الإصلاحِ عن طريقِ الدَّعوةِ إلىٰ الله بالحِكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وإعمالِ حُسنِ الظَّنِّ بالمسلِمين، ونشرِ التَّربيةِ الرُّوحيَّةِ، وبيانِ الجانبِ الأخلاقيِّ في الإسلامِ، كما فعَل رسولُ الله ﷺ في دَعوتهِ فكان أصحابُه أطهرَ النَّاسِ قلوبًا وأحسَنَهم أعمالًا، فكَلِمةُ

طيِّبةٌ قد تُصلِح إنسانًا طوالَ حياتِه وتحوِّلُه إلىٰ رجلٍ دَيِّنٍ خَلوقٍ؟ أمْ أنَّه مِن الأفضلِ نشرُ ثقافةِ العُنفِ والصِّدامِ وأجواءِ الكراهيةِ تحت مُسمَّىٰ الجهادِ وإجبار النَّاسِ علىٰ تَطبيقِ شريعةِ الله؟

فهذِه التَّصرُّفاتُ تصُدُّ عن سبيلِ الله حيث يظن النَّاسُ أنَّ الدين يعطِّلُ الحياةَ ويمنعُ مِن ممارسةِ الأعمالِ بصورةٍ طبيعيَّةٍ فينفرون مِن أيِّ كلامٍ عنه وما ذلك إلا نَتيجةً لِلخلطِ الحاصِل عندهم بينَ الدِّين وبينَ تلك الثَّقافةِ الَّتي تَحُضُّ علىٰ العُنفِ والتي تقُدَّمُ من قِبَلِ هذِه الجماعاتِ علىٰ أنَّها هي الدِّينُ. ◆

الخاتمة

في ختام هذه الرسالة نوضح النقاط التي أردنا توضيحها فيها، وهي على النحو التالي:

1- محاولةُ بيانِ الحقِّ على ضوءِ كلامِ الله وكلامِ رسولهِ ﷺ وكلامِ أهلِ العِلْم.

2- إنارةُ الطَّريقِ وسطَ هذه الفِتن الصَّماءِ العمياءِ في هذِه الأيّامِ الَّتي انتَشرَت في بلادِ المسلِمينَ.

3- إنقاذُ الشَّبابِ المحبِّ لدِينه مِن أن يَصيرَ أداةً للتخريبِ والقَتلِ في بلادِ الإسلامِ.

4- توضيحُ أنَّ خير الهَدي هديُ سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ لا هديَ جماعةٍ كذا ولا حزبِ كذا.

5- التَّأكيدُ على أنَّ الإسلامَ دِينُ يُسرٍ ورَحمةٍ وسَماحةٍ في حقيقةِ أمرِه، لا دِينُ عنفٍ ودمٍ.

6- توضيحُ أنَّ مقاومةَ الأفكارِ والسُّلوكيَّاتِ الهدَّامةِ يَشغَل الأمةَ الإسلاميَّةَ عن أهدافِها الأساسيَّةِ من الإعمارِ ونَشرِ الخيرِ والعَدلِ.

وأخيرًا أيُّها الأخ الكريمُ لا تجعلْ نفسَك في حالةِ عداءٍ مع أهلكَ وبلدِك، وقفْ مع نفسِك وقفةً لله تعالى تُراجع فيها حالكَ وسلوكَك، واعلَم أنَّ بابَ التَّوبةِ والرُّجوعِ إلى الله مفتوحٌ، فكُن أداةَ خيرٍ لأمَّتِك ولا يمنعك أحدٌ مِن أن تَلتزمَ بدينِك فهذا واجبٌ عليك، ولكِن لا تَتَّبع كلَّ نعَّاقٍ ولا تمِلْ مع كلِّ صائحٍ، وعليكَ بهَدي رسولِك ﷺ الذي نقلَه وأخبَرنا به أهلُ العلْمِ المخلِصون فهو العاصِمُ لك مِن كلِّ فتنةٍ في الدِّين والدُّنيا.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆

الرسالة الثالثة والثلاثون

بطلان دعوىٰ جاهلية المجتمعات الإسلامية في العصر الحديث

وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأول: نظرةٌ علىٰ الواقع المعاصر للأمة الإسلامية.

المحور الثَّاني: خطورة فكرة الجاهلية التي دعا لها سيد قطب.

المحور الثَّالث: الأفكار التي قامت علىٰ مقولة الجاهلية في العصر الحديث.

المحور الرابع: أفكارٌ من الواقع تتعلق بالجاهلية. ◆

بطلان دعوى جاهلية المجتمعات الإسلامية في العصر الحديث

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فإنَّ رميَ المجتمعاتِ المسلمةِ بأنَّها جاهليَّةٌ يعد من أشدِّ البلايا التي ابتُليتْ بها أُمَّةُ الإسلامِ في العصر الحديث، فقد تأثَّر كثيرٌ من أبناء المسلمين بهذه الفكرة وما نتج عنها من قيامِ مرجعيات فكريَّةٍ تكفيريةٍ قامت على فكرة جاهليَّةِ المجتمع، والتي ولَّدت أفكارًا أخرى كانت المصدرَ والملهمَ لحركاتٍ وجماعاتٍ آمنت بالفِكر التَّكفيري، وترجمت هذا الفِكر إلى سُلوكٍ وأفعالٍ على أرض الواقع، كلُّ ذلك نبتَ من فكرة جاهليَّةِ المجتمعات المسلمة، ونحن في هذه الرِّسالة الموجزة نحاول إلقاء الضوءِ على هذه الفِكرة من جوانبَ متعددةٍ، عسى أنْ يكون هذا الطَّرح مانعًا من الوقوع في هذه الفكرة ودافعًا لمن اعتنقها أنْ يُراجعَ نفسَه وينظرَ إلى أفكارِه وأفعالِه، ويرى هل تتوافقُ مع دِين الله وشريعة الإسلام أو لا تتوافق؟ وسوف يكون الكلام عن هذا الأمر متمثلًا في المحاور التَّالية:

المحور الأول: نظرةٌ على الواقع المعاصر للأمة الإسلامية.

المحور الثَّاني: خطورة فكرة الجاهلية التي دعا لها سيد قطب.

المحور الثَّالث: الأفكار التي قامت على مقولة الجاهلية في العصر الحديث: (سيد قطب - محمد قطب).

المحور الرابع: أفكارٌ من الواقع تتعلق بالجاهلية. ◆

نظرةٌ على الواقع المعاصرِ للأُمَّة الإسلامية

إنَّ الله سبحانه وتعالى خصَّ هذه الأمةَ المسلمةَ بخصائصَ عظيمةٍ وجليلةٍ وفضَّلَها على سائر الأُمم، والمتأمِّلُ لخصائص هذه الأُمة المحمَّديَّة يجدُ أنَّها لم تجتمع لأُمَّةٍ من الأُمم بمثل ما اختُصَّت به هذه الأُمَّةُ من المنح الإلهيةِ، فكانت خاتمةَ الأُمم التي تلقَّت وحيَ الله ومنهجَه، وكان رسولُها ﷺ خاتمَ الرُّسلِ وخيرَهم وأعلاهم منزلةً، وكانت شريعةُ هذه الأُمَّة أتمَّ الشَّرائعِ وأكملَها وأكثرها تسامحًا، وجمعَ الله لها من الفضائل والميزاتِ ما لم تجتمع لأُمَّةٍ قبلها مما لا يدخلُ تحت حصرٍ، فنذكر منها على سبيل المثال:

1- خص الله سبحانه هذه الأُمَّة بأنَّها خيرُ أُمَّة، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]. وقال رسولُ الله ﷺ عن أُمَّته: ((نُكمِلُ يومَ القيامةِ سبعينَ أُمَّةٍ نحنُ آخرُها وخيرُها))[1].

2- لا يجمع الله أُمَّةَ رسول الله ﷺ على ضلالة؛ فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((لا يجمعُ الله هذه الأُمَّةَ على الضَّلالةِ أبدًا)). وقال: ((يدُ الله على الجماعةِ فإنَّه مَن شذَّ شَذَّ في النَّارِ))[2].

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران (3001)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (4287)، وابن المبارك في مسنده (106)، وأحمد في مسنده (3/5)، والدارمي في سننه (2802)، والحاكم في مستدركه (4/ 84) من طريق بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده به مرفوعًا. وقال الترمذي: ((حديث حسن)). وقال الحاكم: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)) ووافقه الذهبي.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في وجوب لزوم الجماعة (2167)، والحاكم في مستدركه (115/1) من طريق المعتمر بن سليمان قال: حدثنا سليمان المدني، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ الله لا يجمع أمتي- أو قال: أُمَّة محمَّد ﷺ- على ضلالة، ويدُ الله مع الجماعة، ومَن شذَّ شذَّ إلى النَّارِ)).

وقال الترمذي: ((حديث غريب من هذا الوجه)). وذكر في علله (س 597): أنَّه سأل البخاريَّ عن هذا الحديث؟ فقال: ((سليمان المدني هذا منكر الحديث)). وذكر الحاكم أنه اختلف فيه على المعتمر بن سليمان على طرق سبعة، ثم ساقهم، وقال: ((لو كان محفوظًا من الرَّاوي لكان من شرط الصحيح)). وله شاهد من حديث أبي مالك الأشعريِّ رضي الله عنه؛ أخرجه أبو داود في كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها (4253)، والطَّبراني

وقد ثبتَ عن ابن عمر عن عمرَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((عَلَيكُمْ بالجماعةِ وإيَّاكم والفُرقَةَ، فمَن أراد بُحْبُوحة الجنةِ فليلزمِ الجماعةَ))[1].

3- اختصاصُها أنَّها أوَّلُ الأممِ دخولًا الجنة[2].

4- اختصاصُها بالوَسطيَّةِ والشَّهادةِ على الناس، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:143].

5- اختصاصُها أنها أكثرُ الأممِ دخولًا الجنة[3].

= في الكبير (3/3440)، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (1/407) من طريق إسماعيل بن عياش حدثني أبي حدثني ضمضم بن زُرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعريِّ مرفوعًا: ((إنَّ الله أجارَكم من ثلاثِ خلالٍ: أن لا يدعو عليكم نبيُّكم فتهلِكوا جميعًا، وأن لا يظهر أهلُ الباطل على أهل الحقِّ، وأن لا تجتمعوا على ضلالةٍ)).

وآخر من حديث أنس ﷺ؛ أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب السَّواد الأعظم (3950)، وعبد بن حميد في مسنده (1220)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (1/117) من طريق معان بن رفاعة السلامي عن أبي خلف الأعمى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ أمَّتي لن تجتمعَ على ضلالةٍ)).

وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (4/169): ((هذا إسناد ضعيف لضعف أبي خلف الأعمى... وقد روي هذا الحديث من حديث أبي ذر وأبي مالك الأشعري وابن عمر وأبي نصرة وقدامة بن عبدالله الكلابي، وفي كلها نظر قاله شيخنا العراقي رحمه الله)).

والحديث بمجموع هذه الطرق والشواهد يرتقي لدرجة الحسن إن شاء الله.

(1) جزء من حديث أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (2165)، وأحمد في مسنده (1/18)، وابن حبان في صحيحه (7254)، والحاكم في مستدركه (1/113) من طريق محمد بن سوقة عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية به مرفوعًا. وقال الترمذي: ((حسن صحيح غريب)). وقال الحاكم: ((صحيح على شرط الشَّيخين)) ووافقه الذهبي.

(2) دليل ذلك: حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة (876)، ومسلم في كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (855) من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((نحنُ الآخرونَ الأوَّلونَ يومَ القيامةِ، ونحنُ أولُ مَن يدخلُ الجنةَ)).

(3) الدليل على ذلك: حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب كيف الحشر (6528)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (221) من حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال لنا رسول الله ﷺ: ((أمَا ترضون أن تكونوا ربُعَ أهل الجنَّةِ؟)) قال: فكبَّرنا، ثم قال: ((أما ترضون أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنة؟)) قال: فكبَّرنا، ثم قال: ((إنِّي لأرجو أنْ تكونوا شطرَ أهلِ الجنَّة)).

6- اختصَّها الله بخير كتابٍ وهو القرآن الكريم ويسَّره للذِّكر، ويسَّر سُنَّةَ رسولِ الله لكلِّ مسلمٍ قارئٍ أو غير قارئٍ.

7- اختصَّها بأنها أُمَّةٌ أقلُّ عملًا وأكثرُ أجرًا[1].

8- جعلَ الله لها منهجًا للرحمة واليسر والسماحة في الأحكام والشَّرائعِ لم يكن لأُمَّةٍ من الأُمم قبلَها.

9- جمعَ الله بين أُمَّة الإسلام بروابطَ رُوحيَّةٍ قلبيةٍ يشعرُ بها كلُّ مسلمٍ تجاه المسلمين في شتَّى بقاع الأرضِ.

وغير ذلك من الخصائص التي لا تسعها هذه الرِّسالةُ الموجزةُ، وذلك كُلُّه ثابتٌ من كتاب الله ومن سُنَّةِ رسول الله ﷺ.

والمرادُ من عَرْضِ هذه الخصائص بيانُ فَضْلِ هذه الأُمَّةِ التي حمَّلها الله أمانةَ لا إله إلا الله ودعوةَ التَّوحيد، وجعلها أُمَّةً مرحومةً، فلا يمكن أن تتحولَ هذه الأُمَّةُ إلى أُمَّةٍ جاهليَّةٍ، أو تكونَ بلادُ الإسلامِ مجتمعاتٍ جاهليَّة تتَّسم بالكُفر أو الشِّركِ ومفارقةِ دِين الله، ومع عدمِ خُلوِّ مجتمعات المسلمين من نور القرآنِ والسُّنَّةِ، ووجود أهلِ العِلْم والفقه بين النَّاسِ، ورفع شعائرِ الإسلامِ من صلاةٍ وصومٍ وحجٍّ وقراءةِ قرآنٍ، وغيرِ ذلك من مظاهر دِينِ الإسلام على المستوى الشَّخصي والجماعي في بلاد المسلمين، وإعلانِ النَّاس بأنَّهم مسلمون موحِّدون، مُقرُّون بالله ربًّا وبمحمدٍ رسولًا وبالقرآن كتابًا، وبشريعة الإسلام منهجًا وطريقًا في الحياة.

---

(1) دليل ذلك: ما أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام (5021) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبيَّ ﷺ قال: ((إنَّما أجلكم في أجل مَن خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشَّمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالًا، فقال: مَن يعمل لي إلى نصف النهار على قيراطٍ، فعملت اليهود، فقال: مَن يعمل لي من نصف النهار إلى العصر على قيراط، فعملت النَّصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملًا وأقلُّ عطاءً، قال: هل ظلمتكم من حقِّكم؟ قالوا: لا، قال: فذاك فضلي أوتيه مَن شئتُ)).

وعند النظر لواقع الأمة الإسلامية نجد أنَّ ظهورَ الأفكارِ التي تصفُ المجتمعاتِ الإسلاميةَ بالجاهليَّةِ، وأنَّها واقعةٌ في الشِّركِ والكُفر جاء نَتيجةً لأخطاءٍ في الرُّؤية لهذه المجتمعاتِ والأفرادِ، فخلطَ في النَّظرة إلىٰ ظُهور المعاصي ومخالفةِ بعضِ أحكام الشَّريعةِ كسلوكٍ فرديٍّ- أو ما يُسمَّىٰ بالمعصيةِ الفرديةِ- وبين القولِ بانتفاء صفةِ الإسلامِ عن المجتمعات ككلٍّ ووصمِها بالجاهليَّةِ، فيحكمون بدرجةِ وجود المعاصي والمخالفاتِ علىٰ خروج المجتمعِ عن الإسلام، وسببُ ذلك: هو عدمُ وجودِ قاعدةٍ علميَّةٍ سليمةٍ من الشَّرع والفِقه أدَّت إلىٰ تسرُّب أفكارٍ مخالفةٍ للشَّريعةِ في الحُكْم علىٰ الأفرادِ والمجتمعاتِ، ومبدأُ هذه الأفكار من جماعةِ الخوارج الأولىٰ التي تتسرع في تكفيرِ المجتمع لوجودِ أيِّ درجةٍ من درجات المعاصي.

ومن المعلومِ أنَّ أيَّ درجةٍ لوجود المعاصي في مجتمعٍ مسلمٍ لا تنقلُه أبدًا لمجتمعٍ جاهليٍّ وتسمحُ بوسمِه بالوقوع في الكُفر والشِّرك، فمجتمعٌ تُعلَن فيه شعائرُ الإسلام واضحةً ظاهرةً، وتُعلَن فيه شهادةُ أن لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، وتظهرُ فيه الصِّبغة الإسلامية لممارسات النَّاسِ كما يظهر في بلاد المسلمين- لا ينقلُه ظهورُ المعصية أو المخالفةُ للشَّريعة فيه إلىٰ مجتمعٍ جاهليٍّ لمجرَّد حدوثِ ذلك، ولا تُنفىٰ عنه صفةُ الإسلامِ ويُنعت بصفةِ الجاهلية.

وهؤلاء يستغلُّون بعضًا من مظاهرِ الظُّلم والفساد الواقعِ في بعض الأحيان في مجتمعٍ ما إلىٰ نَعْتِ وَوصفِ المجتمعاتِ بالجاهليَّةِ والخروجِ عن الإسلام، ولو طبَّقنا مفاهيمَهم وأفكارَهم لقُلنا إن جميع بلاد المسلمين علىٰ مرِّ العصور هي مجتمعاتٌ جاهليَّةٌ، فآفةُ هذه الفكرةِ الخبيثة هي في النَّظرةِ المبنيةِ علىٰ أفكارٍ خاطئةٍ من التَّكفير بالمعصيةِ، وأن المخالفةَ مهما صغُرت فهي كفرٌ، ويضمُّون ذلك إلىٰ بعض مظاهر القصور والفسادِ والاستبداد الواقعةِ في بعض بلادِ المسلمين؛ ليخرجَ لك في نهاية الأمرِ بفكرة: «جاهليَّة المجتمعِ وانسلاخه من الدِّين». ويحاول أن يربطَ بين كلِّ هذه المظاهر ويجمعَها برباطٍ واحدٍ ليصلَ

بذلك إلى أن هذه المجتمعاتِ جاهليَّةٌ، ويُدلِّل على ذلك بمظاهرَ من المخالفات، فيقولُ: انظر إلى كذا وكذا في هذا المجال، وانظر إلى هذه المخالفاتِ في هذا المجال، وإلى تلك وتلك؛ ليخرج بكَ إلى القول: أنَّ هذا مجتمعٌ جاهليٌّ لا يتحقَّقُ فيه الإسلامُ فهو بالتالي مجتمع كفرٍ.

فهو يضعُ الفكرةَ أوَّلًا، ثم يجمعُ الظَّواهر التي يعتقدُ أنَّها تؤيِّدُ فكرتَه ليدلِّل على صحَّتها، ولا يلتفتُ إلى ما يُعارِضُ هذه الفكرةَ من أصلِها من معارضاتٍ قويةٍ تنفي فكرةَ وقوعِ المجتمعِ المسلمِ تحت مُسمَّى الجاهليَّةِ، فيرى لرؤيته هذه الصحةَ والعصمةَ، ولمنهجه أنَّه المنهجُ السَّليمُ، وأنَّ فهمَه هو الفهمُ الأكمُل لأصول الإسلامِ وفروعِه، ويعملُ على نشر رُؤيتِه، ويستغلُّ العواملَ المهيأة لنشر هذا الفكر حتَّى يصبحَ واقعًا ملموسًا وموجودًا ومُعلنًا عنه، له مَن يقتنعُ به من النَّاس ويُترجمه إلى سلوكٍ وأفعالٍ تُعبِّر عن تكفير المجتمعاتِ والمجاهدةِ ضِدَّها.

وكما مر سابقًا فقد دلَّت أقوالُ أهلِ العِلْم في تقرير ثبوتِ الإسلامِ بمجرَّد النُّطق بالشَّهادتين وما يدلُّ عليها إن كان لا يستطيعُ النُّطق أو لا يُحسن العربيةَ.

والمجتمعاتُ تتكوَّن من مجموعةِ أفراد، فكيف لا يثبت الإسلامُ لمجموعةٍ من النَّاس تنطق الشَّهادتين على الدَّوام؛ بل ويظهرُ من سُلوكِهم وأفعالِهم مظاهرُ وأفعالٌ إسلاميةٌ من رَفْع أذانٍ وإقامةِ صلواتٍ وصيامٍ وحجٍّ، وغير ذلك من شعائر الإسلام، فكما ثبتَ للفرد الإسلامُ بنطقِ الشَّهادةِ بدايةً، وأيَّد ذلك بممارسة شعائرِ الدِّينِ كذلك وجب إثباتُ الإسلامِ للمجموعاتِ التي تُعلِن ذلك وتمارس شعائرَه في حياتِها اليومية.

قد يقول قائلٌ إنَّ المجتمعاتِ قد انتشرت فيها مظاهرُ البُعدِ عن الإسلام من تفشِّي المعاصي والموبقاتِ على مختلف المجالات، وابتعدَ النَّاسُ عن الدِّين فلذلك نستخدمُ وصْفَ الجاهليَّة لوصف المجتمع.

فيقال لهذا القائل: أولًا إنَّ المعاصيَ والموبقاتِ مهما كثُرت لا تعني الانسلاخَ من

دِين الإسلام سواءٌ كان ذلك علىٰ مستوىٰ الفردِ أو المجتمع، وإلا لزِم من ذلك القولُ بالتَّكفير بالذُّنوب والمعاصي، وهو من مذاهبِ الفِرَق الضَّالةِ مثل: الخوارج.

وثانيًا: إنَّك استخدمتَ لفظَ: «الجاهليَّة» لوصفِ المجتمعات المسلمة، وهو مصطلحٌ استُخدم في كُتبِ الفقه والعقيدة والشَّريعة علىٰ فترة ما قبل الرِّسالة، أي: فترةٍ كانت المجتمعات علىٰ الكُفر والشِّرك والخروج عن دِين الله، فهذا المصطلحُ لا يُطلق إلَّا علىٰ مجتمعات الكُفرِ والشِّركِ، فإطلاقُه علىٰ المجتمعات المسلمة يفتح البابَ لفكرة التَّكفير، أو علىٰ أقلِّ تقدير يفتح الباب لفكرة الانعزالِ عن المجتمع ورفضِه، ثم تتراكمُ وتتضخَّم الأفكارُ لتُنتجَ منهجًا تكفيريًّا له وجودٌ فعليٌّ وأقوالٌ وأفعالٌ وسُلوكيَّاتٌ بسبب التَّهاون في تلك اللفظة، ولسنا نتكلمُ عن خيالٍ في الأذهان وإنَّما عن واقعٍ متحققٍ في دُنيا النَّاس، ولسنا أيضًا ندافعُ عن ارتكاب المعاصي أو تفلُّتٍ من الدِّين، ولكننا ندعو لضبطِ المسألة، ففرقٌ كبيرٌ بين وسمِ شخصٍ أو مجتمعٍ بالمعصية مع إثبات أصلِ الإسلامِ له، ووسمِ شخصٍ أو مجتمعٍ بالجاهليَّة، وهنا يجب عليك الدَّعوةُ إلىٰ دِين الله، وبيان الحَسنِ من السَّيِّئِ بحسب طاقتِك، وليس عليك تصنيفُ النَّاس وتوزيعُ الأحكامِ.

خطورة فكرة الجاهلية التي دعا لها سيد قطب

جهل: الجَهْلُ ضدُّ العِلْمِ، وقد جَهِلَ من باب فَهِمَ وَسَلِمَ، والتَّجْهِيلُ: النِّسبة إلىٰ الجَهْلِ[1].

والجاهليَّة هي: ما كان عليه العربُ قبل الإسلامِ من الجهالة والضَّلالة. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: 33]، وزمانُ الفترةِ بين رسولين[2].

---

(1) انظر: مختار الصحاح مادة (ج. هـ. ل) (ص 104) زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي- دار السلام للطباعة والنشر- القاهرة-2007م.

(2) انظر: المعجم الوسيط مادة (ج. هـ. ل) مجمع اللغة العربية- مكتبة الشروق الدولية -الطبعة الرابعة- 2004م.

و قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: والجاهليةُ: ما كان قبلَ الإسلامِ[1].

وقال المُناوي رحمه الله: والجاهليةُ: ما قبل البعثةِ، سُمُّوا به لفرْطِ جهلهِم[2].

والمرادُ من كلمة الجاهليَّة في هذه الرِّسالة: هو المصطلحُ الذي أَطلقَه بعضُ مَن يحملون فِكرَ التَّكفير والخوارجِ على المجتمعات الإسلامية، جاعلين من ذلك المصطلح مدخلًا لتكفير ولاةِ الأمورِ والأنظمةِ الحاكمةِ، وقد يتعدون إلى الشُّعوب لجماعاتٍ وأفرادٍ، وهؤلاء قد أَعلنوا تميزَهم عن هذه المجتمعاتِ وانفصالهم عنها.

والَّذي ينظرُ عبرَ العصور والتَّاريخ، وعلى مرِّ السِّنين والأيام يجدُ أنَّ كلَّ نشاطٍ بشريٍّ أو سلوكٍ أو قولٍ أو فعلٍ مهما صغُر أو كبُر كان منشؤُه ومبتدأُ أمرِه فكرةً تتولَّد في العقولِ ثمَّ تختمرُ وتنمو، فالحروبُ التي دمَّرت البشريَّةَ على مرِّ تاريخها كانت فكرةً وتُرجمت بعد ذلك إلى سلوكٍ وأفعالٍ؛ وعلى سبيل المثال: ففي العصر الحديث ظهرَ هذا الطَّاغيةُ الدَّمويُّ هِتلَر، والذي آمن بفكرة سُمُوِّ الجنس الآري، الذي ينتمي إليه الشَّعبُ الألمانيُّ، وضرورة علوه على باقي الشُّعوب والأجناس في الأرض، وفي سبيل هذه الفِكرة وتحقيقها ظهرت وسائلُ وأفعالٌ وحروبٌ دمَّرت البلادَ وأهلكت الملايين من البشر في شتَّى أنحاء العالَم، ومثلُها: التوسُّعُ الاستعماريُّ البغيضُ، والاستيلاءُ على موارد وخيراتِ الشُّعوبِ، نشأ عن فِكرة العُلوِّ والاستحواذ؛ فكذلك أيُّ حضارةٍ أو مظهرٍ من مظاهر الرُّقي والعظمةِ والخير نتجَ عن الفِكر، والمكتشفات على مرِّ العصورِ والاختراعاتُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ كانت فكرةً، ثُمَّ تُرجمت على مراحلَ مختلفةٍ إلى أقوالٍ ومناقشاتٍ ثم أفعالٍ ثم ظهرت النتيجةُ، وكذلك في مجال الدَّعوات والنَّظرياتِ تُوضعُ الفكرةُ ثم يُعمَل على

---

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري (468/10) الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- رقم أحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي — دار المعرفة - بيروت.

(2) فيض القدير شرح الجامع الصغير (462/1) تأليف: عبدالرءوف المناوي- المكتبة التجارية الكبرى- مصر.

نشرِها، ثم ينتجُ منها الأقوالُ والأفعالُ والسُّلوكيات، وذلك علىٰ مستوىٰ الفرد والجماعة والدوَلِ، وكذلك العلومُ وفروعها هي أفكارٌ متراكمةٌ تخرج منها أنشطةُ الجِنس البشريِّ.

ولو نظرنا لوجدنا ذلك ينطبقُ علىٰ فِكرة وصف المجتمعاتِ الإسلاميةِ بأنَّها مجتمعاتٌ جاهليَّةٌ، أو أنَّنا نحيا حياةَ الجاهليَّةِ، وما ينتج بعد ذلك عن هذه الفكرة من الأقوال والأفعالِ والسُّلوكياتِ الفرديةِ والجماعيةِ التي شَغَلتْ معظمَ بلادِ المسلمين في السَّنوات الأخيرةِ.

فقد نبتت الفكرةُ الخبيثةُ في عقولِ بعض مَن أسس لها وبنىٰ لها بنيانًا وشيَّد لها أركانًا، وجمَّلها بمسحاتٍ من الأباطيل لترويجها، ثم أخرجَها وأعلنَها، فآمن بها بعضُ السفهاءِ ضعافُ العقولِ، وترجموها إلىٰ سلوكٍ ضالٍّ وأفعالٍ تُخالفُ الشَّريعةَ جملةً وتفصيلًا، ونتجَ عن ذلك استحلالُ الدِّماء والأموالِ والتَّخريبُ والإفسادُ في الأرض وكلُّ الموبقات، ولم لا والمجتمعُ قد أُلصق به تهمَة أنَّه جاهليٌّ والنَّاسُ في جاهلية؟ فالإيمان بالفكرةِ سواءٌ كانت باطلةً أمّ حقةً تنتجُ عنها المناهجُ والأفعالُ، وتنشأُ عنها النَّظرياتُ والمرجعياتُ، ففكرةٌ تبني أُمَّة وأخرىٰ تهدمُها، وفكرةٌ تبني الإنسانَ وأخرىٰ تهدمه، وفكرةٌ تهديه وأخرىٰ تُضلُّه.

وينبغي أن ننبه وكما أشرنا سابقًا أنَّ دخولَ فكرِ التَّكفير والقولَ بجاهليَّة جماعةِ المسلمين- قد بدأ مع ظُهور جماعةِ الخوارجِ الذين خرجوا علىٰ الإمام عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وانعزلوا عنه؛ بل وكفَّروه هو ومَن معه، واعتزلوا جماعةَ المسلمين، وأخرجوا النَّاسَ بالمعصيةِ من دِين الإسلامِ، وأعلنوا أنفسَهم أنَّهم الجماعة المؤمنةُ، وفارقوا أهلَ العِلْم بالدِّين والشَّريعة من الصَّحابة في ذلك الوقت، وأنزلوا الآياتِ التي نزلت في الكافرين علىٰ المسلمين، وتطوَّرَ الأمرُ مع هذه الفِرقة الضَّالَّةِ عبرَ السِّنين، وأصبح لها مبادئُها الخبيثةُ التي تقومُ عليها وتُنظِّم أفكارها، ثم بعد ذلك تلقَّفَ بعضُ خوارج هذا الزَّمانِ بعضًا من مبادئ الخوارجِ القُدامىٰ وألبسوها ثيابًا عصريَّةً ليصلوا منها إلىٰ صياغة فكرةٍ

تقولُ بأنَّ مجتمعاتِ المسلمين في بلاد الإسلام هي مجتمعاتٌ جاهليَّةٌ مثل الجاهليَّة الأولىٰ أو أشدَّ، وما ينتج عن ذلك من ظهور تيارٍ تكفيريٍّ يبدأ بالحُكَّام والحكومات ولا يقفُ عند هذا الحدِّ بل ينتهي إلىٰ القولِ برفض المجتمع ككلٍّ، ووقوعِ المفاصلة بين هذا التيار والمجتمع، وحصول الشُّعور بالعزلة والمباينة بين مَن يعتنق هذا الفِكر وبين المجتمعات الجاهليَّة من وجهةِ نظره، وبعضُ هذه النَّتائج تتبلور في صورة دعاوىٰ التَّغيير باليد والخروجِ علىٰ نُظم الحُكم في بلاد الإسلام ووجوبِ الصِّدام مع هذه الأنظمة، بل والشُّعوبِ إذا لزم الأمرُ، ويعدونَ ذلك من أبوابِ الجهاد في سبيل الله، ومحاولةً منهم لرفع الجاهليَّةِ المزعومةِ عن بلادِ المسلمينَ.

الأفكارُ التي قامت علىٰ مقُولة الجاهلية في العصر الحديث (سيد قطب - محمد قطب)

إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد خصَّ أُمَّةَ الإسلام بالدِّين الحقِّ الذي ارتضاه لها، وأتمَّ عليها النِّعمةَ به، دينٌ يعصمُ الأُمَّةَ إذا التزمت به من الفِتن ما ظهرَ منها وما بطن، وجعلَ لهذا الدِّين معالمَ وأركانًا يهتدي النَّاسُ بها، فلا يقعون في ضلالٍ ولا يلتبسُ عليهم حالٌ، وكما قال رسول الله ﷺ: ((تَركتُكم عَلىٰ البَيضَاءِ، ليلُها كنهارِها، لا يزيغُ عنها بعدي إلَّا هَالكٌ))[1].

فأَمْرُ أُمَّةِ الإسلامِ هو أمرٌ معصومٌ من الضَّلالة والفِتنة والزيغ، والسَّواد الأعظمُ من

---

(1) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (43)، وأحمد في مسنده (4/ 126)، والحاكم في مستدركه (1/ 96)، وأبو نُعيم في مستخرجه (1/ 36) من طريق عبدالرحمن ابن مهدي عن معاوية بن صالح عن ضَمْرة بن حبيب عن عبدالرحمن بن عمرو السُّلَمي أنه سمع العِرباض بن سارية ﷺ به مرفوعًا.

وقال الحاكم: ((وقد تابع عبدالرحمن بن عمرو علىٰ روايته عن العرباض بن سارية ثلاثةٌ من الثِّقات الأثبات من أئمة أهل الشَّام منهم حُجْر بن حُجْر الكَلَاعي)). وسكت عنه الذهبي. وقال أبو نُعيم: ((وهذا حديث جيدٌ من صحيح حديث الشَّاميين)).

الأُمَّة مع صحيح الدِّين، وهم معتصمون به حتىٰ وإنْ ظهرت فيهم بعضُ المعاصي والمخالفات- وذلك لابدَّ منه لأن العصمة الكاملةَ لم يجعلها الله إلا للأنبياء وحدهم- ومع ذلك نجدُ كثيرًا ممن يقعُ في المعاصي أو المخالفاتِ يُسارعون إلىٰ التَّوبة والتَّمسُّك بتعاليم الدِّين والشَّرع لا يقبلون تركها أو الاستغناءَ عنها. فمن أين أتت هذه الفكرة الخبيثة إذن؟

قد تتضافر عواملُ كثيرةٌ علىٰ مختلف الأصعدة والنَّواحي، فتكون مناخًا خصبًا لظهور فكرة جاهليَّة مجتمعات المسلمين، ثم بعد ذلك تتقبَّلها بعضُ الطَّوائف، وسوف نَعرضُ في السطور التالية لكتابات تناولت تلك الفكرة في العصر الحديث، من خلال الكتابات والأقوال التي مهدت لقبول فكرة مجتمع الجاهلية بطريق مباشر أو غير مباشر.

أولًا: سيد قطب وفكرة جاهلية المجتمعات المسلمة (1906 - 1966م):

من الذين أصَّلوا لفكرةِ ومصطلحِ جاهليَّة المجتمعاتِ المسلمةِ في كتاباتِه سيد قطب، فقد صرَّح بذلك في كثيرٍ من كُتبه، واستخدمَ عباراتٍ لوصفِ مجتمعاتِ المسلمين بالجاهليَّة، ونحن هنا لا نتكلَّمُ عن شخصٍ ولكننا نتكلَّم عن فكرٍ موجودٍ ومسطورٍ في الكُتب، ومنهجٍ محدَّدِ المعالِم، تأثَّرَ به كثيرٌ من المسلمين علىٰ مرِّ السِّنين، ونَتَجَ عنه انتشارُ فِكرةِ التَّكفير، ورمي مجتمعاتِ المسلمين بالجاهليَّةِ، واستحلالُ الدِّماء، واعتنقَ طوائفُ من النَّاس هذه الفكرة، والتي مهَّدتْ لها كتاباتُ سيِّد قُطب، ونَمَتْ وترعرعت بمرور الأيَّام، وأُضيفت إليها أفكارٌ أخرىٰ، وسوف نعرضُ هذه الأقوال لبيانِ مرجعيَّةِ هذه الفِكرة، والتَّحذيرِ منها، ولإيضاح أنَّها ليست الطَّريقَ لإصلاح حالِ المسلمين وبلادِهم، والتي انبنت في أساسِها علىٰ أنَّ المجتمعاتِ المسلمةَ المعاصرةَ مجتمعاتٌ جاهليَّةٌ قد وقعت فيها الرِّدَّةُ عن الإسلام.

- فيقول في كتابه: ((في ظلالِ القرآن)) : ((لقد استدار الزمانُ كهيئتِه يومَ جاء هذا الدِّينُ إلىٰ البشريَّةِ بلا إله إلا الله، فقد ارتدَّت البشريةُ إلىٰ عبادة العِباد، وإلىٰ جَوْرِ

الأديان، ونَكَصَتْ عن لا إله إلا الله؛ وإنْ ظلَّ فريقٌ منها يُرَدِّدُ على المآذن: ((لا إله إلا الله)) دون أنْ يدركَ مدلولَها، ودون أنْ يعيَ هذا المدلولَ، وهو يُرَدِّدُها ودون أن يرفضَ شرعيَّة الحاكمية التي يدَّعيها العِبادُ لأنفسِهم، وهي مرادفُ الأُلوهية سواءٌ ادَّعوها كأفرادٍ، أو كتشكيلاتٍ تشريعيَّةٍ، أو كشعوبٍ، فالأفرادُ كالتَّشكيلات كالشُّعوب ليست آلهةً، فليس لها إذن حقُّ الحاكميَّة، إلا أنَّ البشريَّةَ عادت إلى الجاهليَّة وارتدَّت عن لا إله إلا الله فأعطَت لهؤلاء العباد خصائصَ الألوهيَّة، ولم تعد توحِّدُ الله وتُخلِصُ له الولاءَ))[1].

فهو يقرِّرُ رِدَّة البشرية أولًا، ثمَّ يضعُ معهم مَن يردِّدُ لا إله إلا الله مِنَ المسلمين مفترضًا أنَّهم لا يعرفون معناها، وأنهم يقبلون بأُلوهية الخَلْقِ من دون الله؛ لأنَّهم يرضون بحاكميَّةِ غيرِ الله، وهذه افتراضاتٌ منه وتفسيراتٌ لحالِ مجتمعات مسلمةٍ، قد يكون فيها تفلُّتٌ وفسادٌ وظلمٌ هنا أو هناك، أو انتشارُ معاصٍ، فيخرجُه هو في صورة رِدَّةٍ وجاهليَّةٍ ورفضٍ لتحكيم شَرْعِ الله.

ويقول أيضًا: ((إنَّه ليس على وجهِ الأرض اليوم دولةٌ مسلمةٌ ولا مجتمعٌ مسلمٌ قاعدةُ التَّعامل فيه هي شريعةُ الله والفقهُ الإسلاميُّ))[2].

وفي كتابِه ((معالم في الطريق)) يقولُ: ((يَدخلُ في إطارِ المجتمعِ الجاهليِّ تلك المجتمعاتُ التي تزعمُ لنفسها أنَّها مسلمةٌ، وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنَّها تعتقدُ بأُلوهية أحدٍ غيرِ الله، ولا لأنَّها تقدِّمُ الشَّعائرَ التعبديةَ لغير الله أيضا؛ لكنها تدخل في هذا الإطار لأنَّها لا تدينُ بالعبوديَّةِ لله وحده في نظام حياتِها))[3].

---

(1) انظر: في ظلال القرآن (2/1057) سيد قطب إبراهيم- دار الشروق - بيروت- القاهرة-الطبعة السابعة عشر- 1412هـ.

(2) المصدر السابق (4/2122).

(3) انظر: معالم في الطريق (ص 91) سيد قطب- دار الشروق1973م.

هنا هو يضعُ الفكرةَ وفقًا لرؤيتِه، ثم يُدلِّل عليها بما يراهُ هو، فيقرِّرُ أنَّ المجتمعاتِ المسلمةَ تدخلُ في المجتمعاتِ الجاهليَّة، ولم؟ فإذا به يقرر وفقًا لما يراه ويعتقدُه- أنَّها لا تدين بالعبوديةِ لله في نظامِ حياتِها.

ويقدِّمُ سيد قُطب رؤيةً ونصيحةً لما يُسمِّيه حركاتِ البعثِ الإسلاميِّ فيقولُ: ((أن تستيقن أنَّ وجودَ الإسلامِ اليوم قد توقَّف))[1].

- ويقول: ((إنه لا نجاةَ للعُصبة المسلمةِ في كلِّ أرضٍ من أن يقعَ عليها هذا العذابُ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: 65]. إلَّا بأن تنفصلَ هذه العُصبة عَقديًّا وشُعوريًّا ومنهجَ حياةٍ عن أهل الجاهليَّةِ من قومِها- حتىٰ يأذنَ الله لها بقيام دارِ إسلامٍ تعتصمُ بها- وإلا أنْ تشعرَ شعورًا كاملًا بأنَّها هي الأمة المسلمة، وأنَّ ما حولها ومَن حولها ممَّن لم يدخلوا فيما دخلت فيه جاهليَّةٌ وأهلُ جاهليَّةٍ، وأن تُفاصلَ قومَها علىٰ العقيدةِ والمنهجِ، وأنْ تطلبَ بعد ذلك من الله أنْ يفتح بينَها وبينَ قومِها بالحقِّ وهو خيرُ الفاتحين، فإذا لم تُفاصل هذه المفاصلة، ولم تميز هذا التَّميُّز- حقَّ عليها وعيدُ الله هذا، وهو أن تظلَّ شيعةً من الشِّيَع في المجتمع، شيعةٌ تتلبَّسُ بغيرِها منَ الشِّيَعِ، ولا تتبينُ نفسها، ولا يتبينُها النَّاسُ ممَّا حولها، وعندئذٍ يُصِيبُها ذلك العذابُ المقيمُ المديدُ دون أنْ يدركَها فتحُ الله الموعودُ.

إنَّ موقفَ التَّميُّز والمفاصلة قد يُكلِّف العُصبةَ المسلمةَ تضحيَّاتٍ ومشقَّاتٍ، غيرَ أنَّ هذه التَّضحياتِ والمشقَّاتِ لن تكونَ أشدَّ ولا أكبرَ من الآلام والعذابِ الذي يُصيبُها نتيجةَ التباسِ موقفها وعدم تَميُّزِه، ونتيجةَ اندغامِها وتميُّعِها في قومِها والمجتمع الجاهليِّ مِن حولها.

ومراجعةُ تاريخ الدَّعوة إلىٰ الله علىٰ أيدي جميع رُسل الله يُعطينا اليقينَ الجازم بأنَّ

(1) العدالة الاجتماعية في الإسلام (ص216) سيد قطب- دار الشروق القاهرة- الطبعة الثالثة عشر- 1993م.

فَتْحَ الله ونصرَه وتحقيقَ وَعْدِه بغلبة رُسُلِه والذين آمنوا معهم- لم يقع في مرةٍ واحدةٍ قبل تَميُّز العُصْبةِ المسلمةِ ومفاصلتِها لقومها على العقيدةِ وعلى منهجِ الحياة))[1].

عند النَّظر لهذا الكلامِ من سيِّدِ قُطب نجد أنَّه قد احتوى أمورًا خطيرةً:

1- فهو يَفترضُ وجودَ عُصبةٍ مسلمةٍ بين أهل جاهليَّةٍ من قومِها، ويُطالبها بالانفصال شعوريًّا ومنهجيًّا عن هؤلاء القوم، وهذا تقريرٌ لمفهوم جاهليَّةِ المجتمعات بدون بيِّنةٍ سوى الرُّؤْيةِ الشَّخصيةِ، والنَّظرةِ العامَّة، فكيف يستطيعُ فردٌ أنْ يستقرئ رأيَ كُلِّ واحدٍ في مجتمعاتِ المسلمين ليعلم رأيَه واعتقادَه وموقفَه من دِين الإسلام أصولًا وفروعًا، ويخرجَ من هذا إلى أنَّ الغالبيةَ من هذا المجتمع تقفُ موقفَ العداءِ والرَّفضِ لهيمنة الإسلامِ على حياتِهم، مع وجود عُصبةٍ أخرى مسلمةٍ قد رَضيتْ بالدِّين؟ فهذا ضربٌ من المُحال، وكذا وضعُ قاعدةٍ: أنَّ الأصلَ في بلاد المسلمين هو الجاهليَّةُ والوقوعُ في الكُفر إلى أنْ يثبت العكس.

2- نجده يضع الحلولَ لهذا الأمرِ، والتي منها أنْ تشعرَ هذه الطَّائفة بأنَّها هي الأُمَّةُ المسلمةُ، وأنَّ مَن لم يدخل فيما دخلوا فيه من منهجٍ ورُؤيةٍ ومبادئ أهلُ جاهليَّةٍ، بمعنى قد ترى أنتَ أن الدِّين كذا وكذا، ويرى غيرُك أنَّ الدِّينَ كذا وكذا، وكلٌّ بحسب رُؤيته واجتهادِه، فيجب على النَّاس اتِّباعك والسَّير على منهجِكَ وإلَّا صاروا أهلَ جاهليَّةٍ، ولا ندري من أين أتت العصمةُ لسيد قُطب في هذه الأفكار؟ أو في أي كتابٍ من كُتب الله نزلت أن يفترض ثم يُلزمَنا بصحة ما يفترض؟

3- ثم بعد تلك المرحلة المهمة، وهي طلبُ الفَتح من الله بينهم وبين هؤلاء الجاهليين عن طريقِ وقوعِ المفاصلةِ والمراجعة، فهو يضعُ الفكرةَ ويضع تصوُّرَها وهيأتها، ويضع تطوُّرَها، ويضع كيفيةَ التَّمكين لها على أرضِ الواقعِ حتى وإنْ خالفَتْ الواقعَ

---

(1) في ظلال القرآن (2/1125).

المحسوسَ، وخالفَتِ الشريعةَ حين تُقسِّم المجتمعاتِ والنَّاسِ، فكلُّ مَن أراد أنْ يؤسِّسَ لجمعيةٍ أو جماعةٍ فما عليه إلا أنْ يطبِّقَ هذا الفهمَ ثم ينظر أمره في تحقيق هذا النَّجاحِ بدارِ الإسلامِ وسط هذه المجتمعاتِ الجاهليةِ.

وقد يقول قائلٌ: لم يُرِدْ سيِّد قُطب ما تستنتجونه! فنقول: إنه ليس استنتاجًا بل هو نقلٌ للألفاظِ والأقوالِ، ورؤيةٌ متكاملةٌ موضوعيةٌ، أليس الواقعُ الذي نعيشُه يشهدُ بوجود أُناسٍ متشبِّعين بفكرة جاهليَّةِ المجتمعاتِ الإسلاميةِ، ويستدلُّون بكتابات سَيِّد قُطب في التَّدليلِ علىٰ صحَّة منهجهم، ثم بعد ذلك يرسمون لهم طريقًا لتحصيلِ المجتمع المسلم أو دارِ الإسلام، ولا مانعَ في سبيل ذلك من استخدامِ القوة والسِّلاح وجميعِ الوسائل في المفاصلة مع الجاهليِّين؟ فهدفُنا التَّحذيرُ من فِكرةٍ خبيثةٍ نتجَ وينتجُ عنها أفعالٌ وسلوكٌ بعيدٌ كلَّ البُعد عن الإسلام جملةً وتفصيلًا، والبليَّةُ أن ذلك كلَّه يُفعل باسم الدِّين وتحت مظلَّتِه عند مَن يعتنق هذا الفِكر.

وعند النَّظرِ إلىٰ كلام سيِّد قُطب وتحليلِه مع النَّظر إلىٰ ملابساتِ العصر الذي كان فيه نجدُ أنَّه قد خلطَ بين أمورٍ منها: توهم وقوع ظُلْمٍ من الحكَّام أو السُّلطةِ علىٰ طائفةٍ معينةٍ، أو وجود فسادٍ أو صور تفلُّتٍ، أو نشأة تيَّاراتٍ فكريةٍ معينةٍ، فجمع هذا كلَّه بعضَه إلىٰ البعض وصاغَ منه فكرةَ جاهليَّة المجتمعِ وأنَّ المجتمعَ في خُصومةٍ مع الدِّين، وذلك مردودٌ بنصوص الشَّرعِ وقواعدِ النَّظر والعقل، فلو سألت أيَّ مسلمٍ- مهما كان اقترافُه للمعاصي ووقوعُه فيها- عن الإسلامِ وحبِّه له واعتزازِه به فسوف يجيبُك بما يوضِّحُ لك أنَّه يحبُّ الإسلامَ والدِّينَ ويتبرأُ من كلِّ ما يُخالف الدِّينَ، ويعتذرُ عن نفسه، ويسألُ الله أنْ يتوبَ عليه من المعصية والتَّفلُّتِ، فهو معتزٌّ بدينِه رغمَ كلِّ شيء، ولو تعدَّدت صورةُ وجودِ هذا الشَّخصِ في مجتمعٍ ما فلا يستلزم إطلاقَ وصفِ الجاهليَّةِ علىٰ هذا المجتمع، وإفرادَ طائفةٍ بأنَّها هي الطَّائفةُ المسلمةُ، والتَّقسيمَ إلىٰ دار إسلامٍ ودار جاهليَّةٍ وسط مجتمعٍ تظهر فيه شعائرُ الإسلام وصورُه المختلفةُ في الحياة اليوميَّة بين الناس،

فيقومُ بطرح فكرةِ المفاصلةِ والانعزالِ ووجود عُصبة مسلمةٍ وعُصبةٍ جاهليَّةٍ، ممَّا يُؤدِّي لفتح البابِ لفِكرة التَّكفير التي نَمت وترعرعت في عُقول كثيرٍ من النَّاس نتيجةً لهذه الأقوال، التي علىٰ أقلِّ تقدير تكون بذرةً لشجرةِ العُنفِ، والتي ما إنْ تجد مَن يرويها ويوفِّرُ لها المناخَ الفاسد من الدَّعاوىٰ الهدَّامةِ إلَّا وتثمرُ الثِّمارَ الـمُرَّةَ، مما نراه الآن في واقعنا المعاصرِ من التَّخريب والدِّماء، وانقسامِ المسلمين شيعًا وأحزابًا، واستحلالٍ للدَّمِ والمالِ، والعملِ علىٰ تفتيت البلادِ تحت زَعْمِ إقامةِ دارِ الإسلامِ ومجتمعِ المسلمين، والتَّميزِ عن أهلِ الضَّلالةِ والجاهليةِ.

فزَرْعُ فكرة جاهليَّة المجتمعاتِ المسلمة فكرةٌ لا تُقرِّبُ من الله، ولا تنصرُ الدِّينَ، ولا تُقيم دنيا، وإنما تُولِّد المآسيَ في بلاد المسلمين، خاصةً أنَّ هذه الجاهليَّة التي تتحدَّث عنها كُتب سيِّد قُطب يُقصد بها جاهليَّةُ اعتقادٍ وتوحيدٍ، أي: في أصلِ الدِّين، إنَّها الشِّركُ والكُفرُ والرِّدَّةُ عن الإسلام، فلو أنَّه سلكَ غيرَ هذا المسلك في دعوته ووعظِه لكان أولىٰ به، بدلًا من أنْ يتحمَّلَ وِزْرَ كلِّ مَن صار علىٰ دَرْبِه في هذا المنهج وتأثَّر بكلامِه وكتاباتِه، وتشبَّع بهذا الفِكر وطبَّقه علىٰ النَّاس ودعا إليه، فلو كان كلُّ هذا الجهدِ الذي بذلتْه الحركاتُ الإسلاميةُ في سبيل دعوةِ النَّاسِ إلىٰ الله علىٰ منهجِ رسول الله ووسطيةِ الإسلام- لكان حالُ المسلمين أفضلَ بكثير، ولكنَّ الشَّجرةَ الخبيثةَ لا تُنبت إلَّا ثمرةً خبيثةً.

- ويقولُ في كتابِه ((العدالة الاجتماعية)) تحت عُنوان: ((حاضر الإسلامِ ومستقبله)) : ((نحن ندعو إلىٰ استئناف حياةٍ إسلاميةٍ في مجتمعٍ إسلاميٍّ تحكمُه العقيدةُ الإسلاميةُ والتَّصوُّرُ الإسلاميُّ، كما تحكمُه الشَّريعةُ الإسلاميةُ والنِّظامُ الإسلاميُّ، ونحن نعلم أنَّ الحياةَ الإسلاميَّةَ علىٰ هذا النَّحوِ قد توقَّفت منذ فترةٍ طويلةٍ في جميع أنحاءِ الأرض، وأن وجودَ الإسلامِ ذاتَه من ثَمَّ قد توقَّفَ كذلك، ونحن نجهرُ بهذه الحقيقة الأخيرة علىٰ الرَّغم مما قد تحدثه من صدمةٍ وذُعرٍ وخيبةِ أملٍ للكثيرين ممَّن لا يزالون يحبُّون أن يكونوا

مسلمين...)). إلىٰ أن قال: ((نرىٰ أنَّ الجهرَ بهذه الحقيقةِ المؤلمةِ- حقيقة أنَّ الحياةَ الإسلاميَّةَ قد توقَّفت منذ فترةٍ طويلةٍ في جميعِ أنحاءِ الأرضِ، وأنَّ وجودَ الإسلام ذاته من ثَمَّ قد توقَّفَ كذلك- نرىٰ أنَّ الجهرَ بهذه الحقيقةِ ضرورةٌ من ضروراتِ الدَّعوةِ إلىٰ الإسلام، ومحاولةُ استئناف حياةٍ إسلاميةٍ ضرورةٌ لا مفرَّ منها))[1].

- وقال وهو يتكلَّمُ ويمهِّدُ لفكرةِ الحاكميَّة من وجهةِ نظره هو:

((ونحن لا نحدِّدُ مدلولَ الدِّين ولا مفهومَ الإسلام علىٰ هذا النَّحو من عند أنفسِنا، ففي مثل هذا الأمرِ الخطيرِ الذي يترتَّب عليه تقريرُ مفهومٍ لدِين الله، كما يترتَّبُ عليه الحُكم بتوقُّفِ وجودِ الإسلامِ في الأرض اليوم، وإعادةُ النَّظر في دعوىٰ مئات الملايين من النَّاس أنَّهم مسلمون))[2].

- ويقول: ((وحين نستعرضُ وجهَ الأرضِ كلَّه اليوم علىٰ ضوءِ هذا التَّقرير الإلهيِّ لمفهوم الدِّين والإسلامِ لا نرىٰ لهذا الدِّين وجودًا، إن هذا الوجودَ قد توقَّفَ منذ أنْ تخلَّت آخرُ مجموعةٍ من المسلمين عن إفرادِ الله سبحانه بالحاكميَّة في حياةِ البشر، وذلك يوم أنْ تخلَّتْ عن الحُكْم بشريعتِه وحدها في كلِّ شئون الحياة))[3].

- ويقول في الظِّلال: ((فأما اليوم فماذا؟! أين هو المجتمع المسلمُ الذي قرَّرَ أن تكون دينُونتُه لله وحدَه والذي رفضَ بالفعل الدَّيْنُونَة لأحدٍ من العبيد، والذي قرَّرَ أن تكون شريعةُ الله شريعتَه، والذي رفض بالفعل شرعيةَ أيِّ تشريعٍ لا يجيءُ من هذا المصدر الشَّرعيِّ الوحيد؟ لا أحدَ يملكُ أنْ يزعمَ أنَّ هذا المجتمعَ المسلمَ قائمٌ موجودٌ))[4].

(1) العدالة الاجتماعية في الإسلام (ص 182).

(2) المصدر السابق (ص 183).

(3) المصدر السابق نفس الصفحة.

(4) في ظلال القرآن (3/1735).

ويقول: ((إنَّ هذا المجتمعَ الجاهليَّ الذي نعيشُ فيه ليس هو المجتمعَ المسلمَ))[1].

هذا هو كلامُ سيِّد قُطب ومصطلحاتُه في كتاباتِه تحومُ وتدورُ حولَ تثبيت فِكرة جاهليَّة مجتمعاتِ المسلمين، وعدمِ وجودِ الإسلام في الأرض، وتبثُّ من وراء الكلمات فكرةَ التَّكفير والمفاصلة والعُزلة، وإعادةِ النَّظر في إسلام المسلمين، فيشكُّ المرءُ في إسلامِه أولًا وفقًا لمعايير سيِّد قُطب، ثم بعد ذلك يشكُّ في إسلام مَن حولَه وإسلامِ المسلمين، ثم يخرج لنا وهو مزهوٌّ أنَّه عرف طريقَ التَّوحيد على طريقة سيِّد قُطب، ثم يحاول نشرَ الفكرة ثمَّ يجاهدُ في سبيل تحقيقِها بحسب المتاح له في هذه المجتمعات الجاهليةِ.

فالفكرةُ التي تنطقُ بها كُتب ومؤلَّفات سيِّد قُطب تسيرُ في اتِّجاهٍ واحدٍ، وهو رِدَّةُ المجتمعاتِ المسلمةِ، ووقوعُها في الشِّركِ ووصفُها بالجاهليَّة، وتكوينُ فكرةِ المجتمع الجاهليِّ في ذِهن القارئِ والمتلقِّي، والمجتمعُ الجاهليُّ في نظر سيد قُطب ليس تعبيرًا رمزيًّا أو صفةً مجازيةً لبعض السُّلوكيات في المجتمع؛ بل تعبيرٌ محدَّدٌ يعني الكُفرَ والشِّركَ الذي كان عليه أهلُ الجاهليَّة الأولى.

فانظر إليه وهو يصنِّف مَن هو المسلم ومَن المشرك؟ ويؤصِّل لفكرته التي تجعل العاقلَ في حيرةٍ من أمرِه، فهو يصرُّ على أنَّك مشركٌ وأنت تقول: لا إله إلا الله- حتى تُقرَّ بفكرتِه وتصوُّرِه عن حاكمية الله، وحتى تتبنى المنهجَ والخُطوات فيقول:

((والذين لا يفردون الله سبحانه بالحاكمية في أيِّ زمانٍ وفي أيِّ مكانٍ هم مشركون، لا يُخرجهم من هذا الشِّرك أن يكون اعتقادُهم أن لا إله إلا الله مجرَّدَ اعتقادٍ ولا أن يقدِّموا الشَّعائرَ لله وحدَه- فإلى هنا يكونون كالحنفاءِ الذين لم يعتبرهم أحدٌ مسلمين، إنَّما يُعتبر النَّاسُ مسلمين حين يُتمّون حلقاتِ السلسلة، أي: حين يضمُّون إلى الاعتقاد والشَّعائر

---

(1) في ظلال القرآن (4/2009).

إفرادَ الله سبحانه بالحاكميَّة، ورفضَهم الاعتراف بشرعيَّة حُكْم أو قانونٍ أو وضعٍ أو قيمةٍ أو تقليدٍ لم يصدر عن الله وحده، وهذا وحدَه هو الإسلام؛ لأنه وحدَه مدلولُ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، كما عُرِفَ هذا المدلولُ في الاعتقاد الإسلاميِّ وفي الواقع الإسلاميِّ سواء، ثم أن يجتمع هؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله على هذا النَّحو وبهذا المدلول في تجمُّعٍ حركيٍّ بقيادةٍ مسلمة، وينسلخوا من التَّجمُّع الجاهليِّ وقيادتِه الجاهليةِ، وهذا ما ينبغي أن يتبيَّنه الذين يريدون أن يكونوا مسلمين، فلا تخدعُهم عن حقيقةِ ما هم فيه خدعةُ أنَّهم مسلمون اعتقادًا وتعبُّدًا، فإن هذا وحدَه لا يجعلُ الناسَ مسلمين ما لم يتحقَّق لهم أنَّهم يُفردون الله سبحانه بالحاكميَّة ويرفضون حاكميةَ العبيدِ، ويخلعون وَلاءَهم للمجتمع الجاهليِّ ولقيادتِه الجاهليَّة))[1].

هذا نصٌّ يوضِّح ما يدور في ذِهن سيِّد قُطب من فِكرٍ يتلخص في الآتي:

1- أنه يفترضُ النَّظريةَ أو الفِكرةَ ويتكلَّم على أنَّها مُسَلَّمَةٌ، وهي رفضُ النَّاس لشريعةِ الله أو ما يُطلق عليه هو الحاكمية.

2- أنَّ الناس مشركون حتى مع قولِهم لا إله إلا الله.

3- غموضُ مفهومِ الحاكميَّة الذي يريده، فما معنى أن يصدر عن الله وحده القوانينَ والأوضاعَ والتَّقاليدَ؟ أوليس ذلك عن طريق البشر إنشاءً وتنظيمًا، ومرجع ذلك إلى الشِّريعة؟

4- ثم بعد ذلك يحدث تجمُّع لِمَن يشهد لا إله إلا الله- بفهمه هو- في تجمُّعٍ حركيٍّ بقيادةٍ مسلمةٍ- نفس صورةِ الجماعاتِ والميليشيات- ويحدث الانسلاخُ من المجتمع الجاهليِّ، وغير ذلك فهو خداعٌ ولن يكونوا على الإسلام.

والله إنَّ في القلوب ألَمًا وحُرقةً أن تكونَ الجهودُ الفِكريةُ تتجه هذا الاتِّجاه الأسودَ،

---

(1) في ظلال القرآن (3/1493).

الذي يُؤصِّل ويمهِّدُ لانحراف العقولِ والعقائدِ، ويولِّد تيارًا من التَّكفير ومفارقة المجتمعاتِ المسلمةِ، ووصفها بالجاهليَّةِ، والإتيان بفهمٍ جديدٍ باطلٍ لمفهوم التَّوحيد والإسلامِ، ثم مَن الذي جعل منكَ حاكمًا على عقائدِ النَّاسِ وقلوبِهم؟ ومَن الذي جعلَ منكَ مُحدِّدًا لحدودِ الإسلامِ والتَّوحيد؟

ثم بعد ذلك، ماذا تنتظر أنْ يحدثَ يا مَن زرعتَ هذا الفِكْرَ في عقول طائفةٍ من النَّاس؟ أليست كلُّ نقطةِ دمٍ حرامٍ أُسيلت بسبب هذا الفِكْرِ عليكَ منها كفلٌ؟ أولستَ تتحمل مسئوليةَ ضياعِ الشَّبابِ وانحرافِهم وغيابهم وراء السجونِ؟ ثم ماذا أنجزتَ؟ هل أقمتَ دُنيا أو نصرتَ دينًا؟

الجواب: لا؛ بل وقعت تحت حديث: ((مَن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سيئةً كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عمل بها مِن بعده))[1].

- ثم يؤكِّد سيِّد قُطب معنى جاهليَّة المجتمعات المسلمة، فيقول: ((ولكن ما هو المجتمعُ الجاهليُّ؟ وما هو منهجُ الإسلام في مواجهتِه؟ إنَّ المجتمعَ الجاهليَّ: هو كلُّ مجتمعٍ غيرِ المجتمع المسلم، وإذا أردنا التَّحديدَ الموضوعيَّ قلنا: إنَّه هو كلُّ مجتمعٍ لا يُخلِصُ عبوديتَه لله وحده متمثلةً هذه العبودية في التَّصورِ الاعتقاديِّ وفي الشَّعائر التَّعبدية، وفي الشَّرائع القانونيَّة، وبهذا التَّعريف الموضوعيِّ تدخلُ في إطارِ المجتمعِ الجاهليِّ جميعُ المجتمعات القائمةِ اليومَ في الأرض فعلًا...)). إلى أن يقولَ: ((وأخيرًا يدخلُ في إطار المجتمع الجاهليِّ تلك المجتمعاتُ التي تزعمُ لنفسِها أنَّها مسلمةٌ))[2].

فخطوةُ الإصلاحِ الأولى عند سيِّد قُطب من خلالِ أفكاره من كُتبه: الحُكم بأنَّه لا وجودَ للإسلام ولا المسلمين خارجَ المفهومِ الذي يُؤمنُ به ويعرضُه، وذلك من خلال

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب العِلم، باب مَن سنَّ سُنَّةً حسنة أو سيئةً ومن دعا إلى هدىً أو ضلالة (1017) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

(2) معالم في الطريق (ص 88-91).

كلامِه عن توقُّف وجودِ الإسلام كما مرَّ سابقًا.

ثم الخطوةُ الثَّانية: الانعزال عن مجتمعِ الجاهليَّة، ثم تُجمعُ فئةُ المسلمين الحقَّة وانعزالها، والعملُ علىٰ تغيير الواقع فيخلط بخبثٍ ودهاءٍ بين صورةِ مجتمع الجاهلية قبلَ مجيءِ الإسلامِ وبين حال المسلمين اليوم في تعامُلِهم مع تلكَ المجتمعاتِ الجاهليَّةِ، ويُسقط ذلك كلَّه علىٰ بلاد المسلمين.

ثم نجده يضع التَّصورَ والخطوات العملية للإصلاح- من وجهة نظره- فيقول: «لقد كان الرَّجلُ حين يدخلُ في الإسلام يخلع علىٰ عتبته كلَّ ماضيه في الجاهليَّة، كان يشعرُ في اللَّحظة التي يجيء فيها إلىٰ الإسلام أنَّه يبدأ عهدًا جديدًا منفصلًا كلَّ الانفصالِ عن حياتِه التي عاشَها في الجاهليَّة، وكان يقفُ من كلِّ ما عَهِده في جاهليَّته موقفَ المستريبِ الشاكِّ الحَذِرِ المتخوِّفِ، الذي يُحسُّ أنَّ كلَّ هذا رجسٌ لا يصلحُ للإسلام، وبهذا الإحساسِ كان يتلقَّىٰ هَدْي الإسلام الجديد، فإذا غلبته نفسُه مرةً، وإذا اجتذبته عاداتُه مرةً، وإذا ضعفَ عن تكاليفِ الإسلام مرةً- شعر في الحال بالإثمِ والخطيئةِ، وأدرك في قرارة نفسِه أنَّه في حاجةٍ إلىٰ التَّطهُّر ممَّا وقع فيه، وعادَ يحاولُ من جديدٍ أن يكونَ علىٰ وفق الهَدْي القرآنيِّ، كانت هناك عزلةٌ شعوريةٌ كاملةٌ بين ماضي المسلم في جاهليَّتِه وحاضرِه في إسلامِه، تنشأُ عنها عزلةٌ كاملةٌ في صِلاته بالمجتمع الجاهليِّ من حولِه وروابطِه الاجتماعية، فهو قد انفصلَ نهائيًّا من بيئته الجاهليَّة واتَّصل نهائيًّا ببيئته الإسلامية، حتىٰ ولو كان يأخذُ من بعض المشركين ويعطي في عالَم التِّجارة والتَّعامل اليوميِّ، فالعزلةُ الشُّعوريةُ شيءٌ والتَّعامل اليوميُّ شيءٌ آخرُ. وكان هناك انخلاعٌ من البيئة الجاهليَّة وعُرْفِها وتصوُّرِها وعاداتِها وروابطِها، ينشأُ عن الانخلاع من عقيدة الشِّرك إلىٰ عقيدة التَّوحيد، ومن تصوُّرِ الجاهليَّةِ إلىٰ تصوُّرِ الإسلام عن الحياة والوجود. وينشأُ من الانضمام إلىٰ التَّجمعِ الإسلاميِّ الجديدِ بقيادتِه الجديدة، ومنحِ هذا المجتمعِ وهذه القيادةِ كلَّ ولائِه وكلَّ طاعتِه وكلَّ تبعيتِه، وكان هذا مفرقَ الطَّريق، وكان بدءُ السَّير في

الطَّريق الجديد السَّيرَ الطَّليق مع التَّخفُّفِ من كلِّ ضغطٍ للتَّقاليد التي يتواضعُ عليها المجتمعُ الجاهليُّ، ومن كلِّ التَّصوُّرات والقيم السَّائدة فيه، ولم يكن هناك إلا ما يلقاه المسلمُ من أذًى وفتنةٍ، ولكنَّه هو في ذاتِ نفسِه قد عزمَ وانتهى، ولم يعد لضغط التَّصوُّرِ الجاهليِّ ولا لتقاليدِ المجتمع الجاهليِّ عليه من سبيلٍ. نحن اليوم في جاهليَّةٍ كالجاهليَّةِ التي عاصرها الإسلامُ أو أظلم. كلُّ ما حولنا جاهليَّة، تصورات النَّاس وعقائدُهم، عاداتُهم وتقاليدُهم، مواردُ ثقافتهم، فنونُهم وآدابُهم، شرائعُهم وقوانينُهم، حتى الكثيرُ مما نحسبه ثقافةً إسلاميةً ومراجعَ إسلاميةٍ، وفلسفةً إسلاميةً، وتفكيرًا إسلاميًّا- هو كذلك من صُنع هذه الجاهليَّة؛ لذلك لا تستقيمُ قِيمُ الإسلام في نُفوسِنا، ولا يتَّضحُ تصوُّرُ الإسلامِ في عقولِنا، ولا ينشأ فينا جيلٌ ضخمٌ من النَّاس من ذلك الطِّراز الذي أنشأه الإسلامُ أوَّلَ مرةٍ، فلابدَّ إذن في منهج الحركةِ الإسلامية أنْ نتجردَ في فترةِ الحضانة والتَّكوينِ من كلِّ مؤثراتِ الجاهليَّةِ التي نعيشُ فيها ونستمدُّ منها))[1].

- ويقولُ: ((الإسلامُ لا يعرف إلَّا نوعين اثنين من المجتمعات: مجتمعٌ إسلاميٌّ ومجتمعٌ جاهليٌّ؛ المجتمعُ الإسلاميُّ: هو المجتمعُ الذي يطبَّق فيه الإسلام عقيدةً وعبادةً وشريعةً ونظامًا وخُلُقًا وسُلوكًا. والمجتمع الجاهلي: هو المجتمع الذي لا يُطبَّق فيه الإسلامُ، ولا تحكمُه عقيدتُه وتصوراتُه وقيمُه وموازينه ونظامُه وشرائعُه وخُلُقُه وسلوكُه. ليس المجتمع الإسلاميُّ هو الذي يضمُّ ناسًا ممَّن يسمُّون أنفسَهم مسلمين؛ بينما شريعةُ الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع، وإنْ صلَّى وصام وحجَّ البيتَ الحرامَ، وليس المجتمع الإسلامي هو الذي يبتدع لنفسه إسلامًا من عند نفسِه غيرَ ما قرَّره الله سبحانه وفصَّله رسولُه ﷺ، ويسمِّيه مثلًا: الإسلام المتطوِّرُ))[2].

- ((ثم لابدَّ لنا من التَّخلُّص من ضغطِ المجتمع الجاهليِّ والتَّصوُّرات الجاهليَّة والتقاليدِ

(1) معالم في الطريق (ص 16-18).

(2) المصدر السابق (ص 105).

الجاهلية والقيادةِ الجاهليَّة في خاصَّة نفوسنا، ليست مهمتُنا أنْ نصطلحَ مع واقع هذا المجتمعِ الجاهليِّ ولا أن نَدين بالولاءِ له، فهو بهذه الصِّفة- صفة الجاهليَّة- غيرُ قابلٍ لأنْ نصطلح معه، إنَّ مهمَّتَنا أنْ نغيرَ من أنفسِنا أوَّلًا لنغيرَ هذا المجتمع أخيرًا. إنَّ مهمَّتَنا الأولى هي تغييرُ واقعِ هذا المجتمع، مهمتُنا هي تغييرُ هذا الواقعِ الجاهليِّ من أساسه، هذا الواقعُ الذي يصطدمُ اصطدامًا أساسيًّا بالمنهجِ الإسلاميِّ وبالتَّصور الإسلاميِّ، والذي يحرمُنا بالقهرِ والضَّغطِ أنْ نعيشَ كما يريدُ لنا المنهجُ الإلهيُّ أنْ نعيشَ. إنَّ أُولى الخُطُوات في طريقنا هي أنْ نستعليَ على هذا المجتمع الجاهليِّ وقِيَمِه وتصوُّراتِه، وألا نعدلَ نحن في قيمنا وتصوراتِنا قليلًا أو كثيرًا لنلتقيَ معه في منتصف الطَّريق، كلا! إنَّنا وإيَّاه على مفرقِ الطريق، وحين نسايره خُطوةً واحدةً فإننا نفقدُ المنهجَ كلَّه ونفقد الطَّريقَ. وسنلقى في هذا عنتًا ومشقَّةً وستفرضُ علينا تضحياتٌ باهظةٌ، ولكننا لسنا مخيَّرين إذا نحن شئنا أنْ نسلكَ طريقَ الجيل الأول الذي أقرَّ الله به منهجَه الإلهيَّ ونصرَه على منهج الجاهليةِ، وإنَّه لمن الخيرِ أنْ ندركَ دائمًا طبيعةَ منهجِنا وطبيعةَ موقفنا وطبيعةَ الطَّريق الذي لابدَّ أن نسلُكَه للخروج من الجاهليَّة كما خرجَ ذلك الجيلُ المميَّزُ الفريدُ))[1].

- ويقولُ: ((وجودُ الأُمةِ المسلمة يُعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة، فالأُمَّةُ المسلمةُ ليست أرضًا كان يعيش فيها الإسلام، وليست قومًا كان أجدادُهم في عصرٍ من عصور التَّاريخ يعيشون بالنِّظام الإسلاميِّ؛ إنَّما الأُمَّة المسلمةُ جماعةٌ من البشر تنبثقُ حياتُهم وتصوراتُهم وأوضاعُهم وأنظمتُهم وقيمُهم وموازينُهم كلُّها من المنهجِ الإسلاميِّ، وهذه الأُمَّةُ بهذه المواصفاتِ قد انقطعَ وجودُها منذ انقطاع الحُكم بشريعة الله من فوق ظهرِ الأرضِ جميعًا، ولابدَّ من إعادة وجودِ هذه الأُمَّة لكي يؤدِّي الإسلامُ دورَه المرتقبَ في قيادةِ البشريةِ مرَّةً أخرى. ولابدَّ من بعثٍ لتلك الأُمَّة التي واراها ركامُ الأجيال، وركامُ

(1) معالم في الطريق (ص 19).

التَّصوُّرات، وركامُ الأوضاع، وركامُ الأنظمة التي لا صلةَ لها بالإسلامِ ولا بالمنهجِ الإسلاميِّ، وإنْ كانت ما تزال تزعمُ أنَّها قائمةٌ فيما يُسمَّى العالم الإسلامي))[1].

هذه بعض النُّقولاتِ والنَّماذجِ من كتابات سيِّد قُطب التي تُؤصِّل لفكرة الجاهليَّة والتَّكفير، وقد نسج مَن جاء بعده على منوالِه وصاروا على طريقِه، فأخرجوا لنا مناهجَ التَّكفيرِ والعُنفِ، وجعلوا لهم نظريةً وفكرةً عامَّةً يعملون تحت رايتِها، أركانُها: هي تكفيرُ وُلاة الأمور، ووصفُ المجتمعات بالجاهليَّة، ومفاصلةُ المجتمعات شعوريًّا وماديًّا .

ثانيًا: محمد قطب وفكرةُ الجاهليَّةِ (1919م - 2014م):

لقد كان لمحمد قُطب- وهو الأخُ الأصغر لسيِّد قُطب- تأثرٌ بآراء جاهليَّة المجتمعات المسلمة، ثم التصنيفُ والكتابةُ وفق هذه الفكرةِ والتي كانت امتدادًا لأراءِ وأفكارِ سيِّد قُطب، والدليل على ذلك ما سنورده من نصوص في كتبه:

- ففي كتابِهِ ((واقعنا المعاصر)) وهُو يصفُ حالَ بلاد المسلمين وما أصابَ الإسلامَ فيقولُ: ((حين حدثَ هذا القدرُ الهائلُ منَ التَّخلف العَقَديِّ أولًا، ثمَّ العِلمي والحضاريِّ والاقتصاديِّ والحربيِّ والثقافيِّ والفكري... فماذا بقي؟ إسلامٌ بلا أخلاقٍ، إسلامٌ بلا حضارةٍ، إسلامٌ بلا عِلْمٍ، إسلامٌ بلا ثقافةٍ ولا فكرٍ، إسلامٌ متهالكُ القُوى الاقتصاديةِ والحربيةِ والماديةِ... ماذا بقي فيه من حقيقةِ الإسلام؟ فأمَّا الفكرُ الإرجائيُّ: فقد رضي عن هذا الإسلامِ المتخلِّف المتهالِك، وقال: لا ضيرَ؛ لأنَّه لا يضرُّ مع الإيمان شيءٌ، وأمَّا الاتجاهُ الصُّوفيُّ: فقد رضي كذلك عن هذا الإسلامِ المتخلِّف المتهالكِ، وقال: لا ضَير، فهذه كلُّها من أمور الدُّنيا الفانية، وليس المهمُّ هو الدُّنيا إنَّما هو الآخرة، ليس عالَم المادة وإنما عالَم الرُّوح، وأما بالنسبة لحقيقة الإسلام، فقد كان هذا الإسلام المتخلِّف

(1) معالم في الطريق (ص 6).

المتهالِكُ يوشك في الحقيقة أنْ يُصبح إسلامًا بلا إسلامٍ))[1].

فانظر إلىٰ الاتِّجاه المتشدِّد في وصفِ حال ووضعِ المجتمعاتِ الإسلاميَّة، فضلًا عن فظاظةِ الألفاظ ذاتها، فكما هو معلومٌ أنَّه لا يوجد شيءٌ في واقع الأمر اسمه ((الإسلامُ المتخلِّف المتهالكُ)) وذلك لأنَّ دينَ الإسلام في ذاتِه عظيمٌ، سواءٌ آمن به النَّاس أم لم يؤمنوا، ومثلُ هذه الكلمات تؤيِّدُ وتُنشئ فكرةَ جاهليَّةِ المجتمعِ حتَّىٰ وإنْ لم يذكرها صراحةً.

وفي موضعٍ آخرَ من الكتاب وهو يتحدَّثُ عن مسألةِ تقسيم النَّاس إلىٰ مسلمين وكفار يقولُ: ((كنتُ أقول في نفسي قبلَ عشرين سنةً: لو أنَّ تميز هذه الكتلة إلىٰ عُنصريها المتميزَين: الكُفر الصَّريح، والإيمان الصريح، قد استغرق خمسين سنةً من تلك اللَّحظةِ ما استوجب الأمرُ أنْ نُجهدَ أنفسنا في استصدارِ الحُكم عليها، فضلًا عن أن نختلفَ ونتخاصمَ في أمرِ ذلك الحُكم، ونجعلَه نقطةَ الشَّدِّ التي نشدُّ إليها النَّاسَ، ونشدُّ إليها العملَ في حقلِ الدعوة، والآن- بعد عشرين سنة[2]- أرىٰ بوادرَ التَّميُّزِ في هذه الكُتلة، فهناك شبابٌ من الجنسين تميَّع وتفكَّكَ وانحلَّ واتَّجه إلىٰ الكُفر بغير رجعةٍ؛ إلا أنْ يشاء الله، وشبابٌ من الجنسين التزمَ الإسلامَ في وضوحٍ متميِّزٍ لا خفاءَ فيه.

وأرىٰ ظاهرةً لها دلالتها الضخمةُ، ظاهرة الفتيات المحجَّبات يملأنَ الجامعاتِ والمدارسَ، ويملأنَ من الجامعاتِ كُليَّاتِها العملية بصفةٍ خاصةٍ، وهي التي أُنشئت في الأصل لتكون معاقلَ للكفرِ والإلحادِ والانسلاخِ من الإسلام، ويتحدين بزيِّهنَّ الجاهليَّةَ العالميةَ كلَّها لا الجاهليَّةَ المحليةَ فحسْب، رافعات الرَّأس مستعلياتٍ بالإيمان، لا يصدُّهنَّ عن الالتزامِ بالحجابِ كلُّ سخريةِ الجاهليَّةِ وحقدِها))[3].

---

(1) واقعنا المعاصر (ص 173) محمد قطب- دار الشروق- القاهرة - الطبعة الأولىٰ- 1997م.

(2) كتب هذا في عام 1986م.

(3) واقعنا المعاصر (ص424).

عند النَّظر في هذا الكلام يعجِز القلمُ عن وصفِ خطورتِه، وما يمهِّد له، وما يخفي وراءَه من فكرٍ هدَّام، فهو يريدُ أنْ يرىٰ تمايزًا في المجتمع المسلم إلىٰ مسلمين وكفار، وذلك طبقًا ووفقًا لرؤيته، وفهمِه لأصول الدِّين وفروعِه وفقًا لمنهجه الذي ارتضاه، وهنا كارثةُ الكوارث، فأيُّ شخصٍ يستطيع أنْ يقسم النَّاسَ وفقًا لما يراه، ونقول له: مَن أعطىٰ هذه الصَّلاحيةَ والمهمَّة لك أو لغيرك؟ هل كان ذلك من هَدي صحابة رسول الله؟ أم أنَّنا أمام فعل الخوارج الذين قسَّموا المسلمين إلىٰ جماعةِ المؤمنين وجماعة غير المؤمنين، وزعموا أنَّهم وحدهم المؤمنون وغيرهم أهل الكفر، فإلىٰ أي القواعد الدينية تستندُ في تقسيم الناس؟ أم هي مجرد الرؤية والقناعة الذَّاتية؟

ثمَّ عندما تكلَّم عن حجاب الفتيات- ونسأل الله أن يجعل جميعَ نساء المسلمين وبناتهنَّ ممَّن يلتزمون بالزِّيِّ الشَّرعي والحجابِ- عندما تكلم عن ذلك جعل منه ظاهرةً دالةً علىٰ التَّباين والاختلاف بين الإسلام والجاهليَّة، وذلك ربطٌ عجيبٌ، وجعل منه إظهارًا للتَّحدِّي، كما أننا لا ندري من أين أتىٰ بفكرة أنَّ الكليَّاتِ العمليَّةَ أُنشئتْ في بلاد المسلمين؛ لتكون معاقلَ للكُفْرِ والإلحادِ والانسلاخِ من الإسلام.

وعند التمعُّن في هذا الكلام نجد أنَّ فكرةَ المفاصلة بين مجتمعٍ جاهليٍّ ومجتمعٍ مؤمنٍ موجودةٌ في ذِهن الكاتب يدور حولها ويعبِّر عنها مما يؤدي إلىٰ تولُّد هذه الفكرة عند القارئ والمتلقِّي ما لم يكن ذا معرفة ودرايةٍ بأمورٍ دينِه، فمثلُ هذه العبارات الموجودة بين بطون الكُتب التي ترسم وتُخطِّط لمستقبل الدِّين وأُمة الإسلام- من وجهة نظرهم- تجعل القارئَ لها أكثرَ قابليَّة لنموِّ فِكرٍ متشددٍ في أيِّ اتِّجاه، سواءٌ ظهر ذلك في صورة الانعزال أو العُنف، أو اعتناقِ مبادئ التَّكفير فهي كالسَّهم المسموم لابدَّ أن يقتل مَن يتعرَّض له.

وقد يقول قائل: هذا فهمكم للكُتب ولا يلزمنا هذا الفهم بشيء. فنقول: كنَّا نودُّ أن يكون هذا سوءَ فهمٍ منَّا، وأنَّ الأمورَ تُخالف ذلك، ولكن مع الأسف أنَّ الواقع يؤيِّد

أن مثلَ هذه الكتاباتِ والأفكار كانت الوقودَ لفتن التَّكفير وجماعاتِه، ورمي المجتمعاتِ المسلمة بالضَّلالِ والجاهليَّة، وأصحاب مذهب التَّوقُّف والتَّبين في الحكم بإسلام النَّاس من عدمه، فكلٌّ يبني على أقوالِ سيد قطب ومحمد قطب في تضليل المجتمعاتِ وردِّها إلى الجاهليَّة، ثم يجتهد هو أو جماعتُه في الطَّريقة التي يرى بها كيفية ردِّ هذه المجتمعات إلى الإسلام، ونظلُّ في هذا العبث وهذا التِّيهِ المنتشر في بلاد المسلمين؛ لمجرد رؤيةٍ شخصية منمقةٍ ومعروضةٍ بأسلوب أدبيٍّ جيدٍ تُثير الحماسةَ في صدور الشَّباب، وينتج عنها ما ينتج من ظهور أفكار التَّكفير والعُنف، وتشغَلُ البلاد والعبادَ بأمورٍ لا طائلَ من ورائها، وقد كان في سؤال أهل العِلم عن النَّوازل والأفكار، ثم اتِّباعهم بعد ذلك- ما يغني عن إضاعةِ جهود الأفراد والجماعاتِ والأوطان في محاربة فِكْرٍ هنا أو هناك، وكانت قد جنَّبتِ الكثيرَ من شباب المسلمين سنواتٍ من السجون كنتيجةٍ لاعتناق فكرٍ منحرف.

ثم شُغلت عقولُهم وأفكارُهم بما لم ينتج عنه ثمرةٌ في صالح الإسلام والمسلمين؛ بل قد شاهدنا ما يثبت عمليًّا بطلانَ هذا الفِكر والمنهج، وذلك بحدوث مراجعات لأئمةٍ وأفرادٍ جماعاتٍ قد اتَّخذت من هذا الفِكر مرجعيةً لها، وإعلانهم التَّوبة والرجوع عنه، وهذا خيرٌ والحمد لله، ولكن بعدَ كم من الوقت حدث هذا؟ وبعد كم من الدِّماء والمآسي حدث هذا؟

فيا أخي الكريم إنَّ الله قد حفظ لهذه الأمة دينَها وعقيدتَها ومنهجَ حياتِها، فلا نتلقَّف من صاحب كلِّ فكرٍ فكرَه ورؤيتَه ونجعلُها المنظارَ الذي ننظرُ به إلى الدِّين والدنيا، خاصةً وبلاد المسلمين لا تخلو من العلماء الرَّبَّانيين الذين يحفظ الله بهم الدِّينَ أصولًا وفروعًا.

ولو اتَّجه المسلمُ إلى أهل العِلم لجعل الله له نورًا وفرقانًا يفرِّقُ به بين المنهجِ الصَّحيح السَّليم الذي يتوافقُ مع شِرعة الله، وبين المناهجِ الباطلة الضَّالة الـمُضلَّة التي تنحرفُ به هنا أو هناك، فتزرعُ في وِجدانه مقولةَ أنَّ المجتمعات المسلمةَ مجتمعاتٌ جاهليَّةٌ، وأنَّ المسلمين في الحقيقة بلا إسلامٍ؛ مما يولِّد في النَّفس فكرةَ وبذرة التَّكفير ورمي النَّاس بالشِّرك وما ينتج عن ذلك من اعتناق فكرةِ العُنف كوسيلة لتغيير المجتمعات، والجهادِ-

لا في مواجهةِ الكافرين المحاربين وإنما وجَّهوه لمجتمعاتِ المسلمين- زاعمين إقامةَ دولة الإسلام، وكان خيرًا لهم من ذلك كُلِّه الالتزامَ بهدي رسول الله ﷺ في دعوة النَّاس إلىٰ أمور دينِهم، ونشرِ العِلم بينهم، والرفقِ بمن يَجهل، وعدمِ نصب النَّفس كقيِّم علىٰ النَّاس وحَكمًا علىٰ عقائدهم، وليس في هذا الكلام تميُّعٌ لقضية الدِّين أو الدَّعوة، ولكن تحذيرًا من فِكرةٍ خبيثةٍ تُكفِّر المسلمين أفرادًا وجماعاتٍ، ولا ينتج عنها خيرٌ في دينٍ ولا دُنيا، فبابُ الدَّعوة إلىٰ الله ودينِه مفتوحٌ لكل من كان علىٰ علمٍ وهُدًىٰ وبصيرةٍ، وليس لمن كان علىٰ جهلٍ وضلالٍ وعمىٰ.

وأصلُ هذا الانحراف أنه يدور حول فكرةِ الحاكمية؛ ليجعلَ منها مدخلًا لتصوُّرِه في وقوع النَّاس في الجاهليَّة، مع أنَّ المصطلحَ نفسه يحتاج إلىٰ بيانٍ وتوضيحٍ ودراسةٍ لأحوال المجتمعات والأفراد، إلا أنَّه نظرَ في الجُملة إلىٰ هذا الموضوعِ ليخرجَ للنَّاس والمجتمعات ليقول لهم: إنكم لستم مسلمين ما دمتم لا تؤمنون بفِكر الحاكمية كما أفهمها أنا.

- ثم يقول في كتابه ((جاهليَّة القرن العشرين)) مسقطًا الفكرةَ علىٰ مجتمعات المسلمين: ((ولقد انحرفت الأُمَّةُ المسلمة كثيرًا عن منهجِ الله أدركتْهَا- بالتدريج- جهالةُ الجاهليَّة، فَفَصَلَتِ العقيدةَ عن الشَّريعةِ، وأخذت الدِّين عقيدةً مستسرَّةً في القلب منقطعةً من الواقع، بينما الواقعُ يحكمه دينٌ غير دين الله، فلم يَعُد منهجُ الله هو المحكَّم في واقع الأمة الإسلامية، ومن ثَمَّ لم تَعُد أُمَّةً مسلمة، وإن كانت ما تزال تتسمَّىٰ بأسماء المسلمين وتصلِّي- أحيانًا- وتصوم، ثم إنَّها كذلك فقدتْ حضارتَها وحاسَّتها العلمية الفردية، وانزوَتْ في داخل نفسها تستسلمُ للضَّعف والهوان، فزادت بذلك بُعدًا عن الإسلام وانحلَّت أخلاقُها، فلم تَعُدْ تَصْدُقُ ولا تُخلِص ولا تَستقيم في المعاملة، ولا تقومُ بينها روابطُ الإنسان، ثم زادت فانزلقت في تيار الجِنسِ الجارفِ في مصيدةِ يهود، وبذلك خرجت عن كلِّ الإسلام))[1].

---

(1) جاهلية القرن العشرين (ص 222) محمد قطب- دار الشروق- القاهرة- الطبعة الثانية عشرة- 1992م.

وفي كتاب «واقعنا المعاصر» يقول تحت عنوان: ماذا نتقلَّد من الوظائف في المجتمع الجاهلي؟ «إنَّ هذه المجتمعاتِ التي نعيشُ فيها اليوم مجتمعاتٌ جاهليَّةٌ كما أسلفنا القولَ من قبل؛ لأنها لا تَحكُم ولا تُحكَم بشريعةِ الله إنَّما تَحكُم وتُحكَم بمناهجَ جاهليَّةٍ وشرائعَ جاهلية»[1].

لقد كان لفكرِ ومنهجِ ومصنَّفات سيِّد قُطب ومِن بعدِه محمد قُطب أثر كبير في نشأةِ فكر جاهليَّةِ مجتمعاتِ المسلمين، وكانت كتاباتُهم هي الزَّاد التي يتقوَّت عليه أصحابُ فِكر التَّكفير ورمي النَّاس بالجاهليَّة، وكانت مصنَّفاتُهم هي المرجعيةَ التي يعتمدون عليها في ضلالِهم بالقول بجاهليَّة المجتمعات المسلمةِ ويسقطون من أقوالِهم ما يرون أنَّه مناسبٌ لأي مجتمعٍ لكي يخرجوا من ذلك إلىٰ تكوين فِكرة جاهليَّة مجتمعِهم الذين يعيشون فيه، ثم يرتِّبون بعد ذلك من الخُطُوات العمليَّةِ ما يرونه مناسبًا لتحويل المجتمع من مجتمعٍ جاهليٍّ إلىٰ مجتمعٍ مسلمٍ وفقًا لتصوُّرِهم.

والذي يتتبَّع فِكرَ جميع الجماعاتِ التي تنسب نفسَها إلىٰ التَّيار الإسلاميِّ يجدُ جزءًا كبيرًا من أفكارِها ومناهجها قائمة علىٰ فكرة جاهليَّةِ المجتمعاتِ المسلمةِ وضلالِها، فكانت لكتاباتِهم أهميةٌ كبرىٰ عندهم في تأصيلِ هذه الفِكرة وما يتبعُها من أفعالٍ وسلوكيَّاتٍ، وإسقاطِ فكرة وقوع المجتمع في الجاهليَّةِ علىٰ طوائفِ الشُّعوب، وإخراجِ النَّاس من الإسلام ورميهم بالكُفر بناءً علىٰ تلك الفكرة، ثم يحدثُ استحلال الدِّماء والأموالِ، والعملِ علىٰ إشاعة الفوضىٰ تحت مسمَّىٰ الجهاد في سبيل الدِّين ومحوِ جاهليَّة المجتمع. ◆

---

(1) واقعنا المعاصر (ص 484).

أفكارٌ من الواقع تتعلق بالجاهلية

سوف نستعرض فيما يلي بعضًا من الأفكار التي لها علاقة بفكرة الجاهلية.

- العواملُ الاجتماعية وظروفُ الحياة وغيرها أمور تؤدي إلىٰ قبول فكرة جاهليَّة المجتمع؛ لأنَّ مما يمهِّد لدىٰ بعضِ الأفراد القبول بفكرة جاهليَّة المجتمع وخروجِه عن دائرةِ الإسلام وإلباسِ هذه الفكرة لباسَ الشَّريعة والدِّين- سوءَ الحالة الاجتماعية والمعيشيَّة لدىٰ بعض الأفراد، فيتلقَّفهم دعاةُ الفِتنةِ وأصحابُ المناهج الباطلة فيغذُّون في أنفسهم رُوح الإحباط والكراهية تجاه مجتمعِهم تحت تأثيرِ ظروفهم المعيشية، ثم لا يحتاجُ هو إلىٰ أكثر من قراءة كتابٍ أو سماع خُطبةٍ عن الظُّلم والجهل والبُعد عن الدِّين إلا وتتولَّدُ لديه عقيدةٌ بخروجِ هذا المجتمع الظَّالم عن شريعة الله، وأنَّه مجتمعٌ جاهليٌّ، ثم قد يتطوَّرُ الأمرُ معه إلىٰ الانعزال أو القولِ باستحلال أموالِ وممتلكاتِ هذا المجتمع.

- اقتناعُ بعضِ الفئات وخاصة الشَّباب أنَّ الالتزامَ بالدِّين وهديه يتطلَّب منه القولُ بوقوع النَّاس في الجاهليَّةِ والبراءةِ من المجتمع الجاهليِّ ويجمعُ صورَ الفساد في ذِهنه بعضها إلىٰ بعض لإقناع نفسه بهذه الفكرة، وتتولَّد عنده فكرةُ الانعزاليَّةِ عن مجتمعه، بل حتَّىٰ عن أُسرته، وشعورُه بعدم الانتماء لوطنِه.

- كثرةُ المعاصي وصورِ الظلم لا يعني أن المجتمعَ جاهلي، فوقوعُ صور المعاصي والتفلُّتِ لا يعني أن المجتمع جاهليٌّ وخارجٌ عن شريعة الله؛ لأنك لو سألتَ أكثرَ الأشخاص معصيةً وفسادًا من المسلمين هل هو ممَّن يرون عدمَ أهمية الدِّين وشعائرِه في المجتمع؟ لرفض ذلك، ولربما تشاجَرَ معك، فهو مع تفلُّته لا يقبل الاستغناءَ عن دينِه، ويعتذرُ إليكَ بأنَّه يعرف أنَّه علىٰ خطأ، وأنَّه يرجو الإقلاعَ عن السَّيئات ويتمنَّىٰ صلاحَ حاله، ولذلك فإنَّ إخراجَ النَّاسِ بالمعاصي من الدِّين ورميهم بالجاهليَّة علىٰ العموم- هو فكرُ الخوارج، وليس منهجَ أهل السُّنة والجماعة أبدًا، فلا يجوز رميُ النَّاس بالجاهليَّة لمجرَّدِ المعصية وإنْ كثرت، ولأنَّه من المعلوم بالضرورة أنه لا معصومَ من البشر إلا الأنبياء،

فعدمُ التَّفرقة بين إمكانيةِ وجود فساد أو معاصٍ في مجتمعٍ يعتنق الإسلام دينًا فيشبِّهونه بأنه مثل مجتمعات الكفر من حيث اشتراكُهما في وصف المعصية، وأنَّه لا فرقَ بينهما في الكفر أيضًا ما داموا مشتركين في المعصية- فهذا ضلالٌ فكريٌّ مُستمدٌّ من فِكر الخوارج أصحابِ مذهب التَّكفير بالمعصية.

- وضوحُ ظاهرة عدمِ الانتماء وحب الوطن عند مَن يعتنقونَ هذا الفِكر، بل وإظهارِ الشَّماتة نحو أي مصيبةٍ أو واقعةٍ تَلمُّ بأوطانِهم، مع عدم إدراكِهم أن حبَّ الأوطانِ من الإيمانِ وحُسنِ الإسلام، وأنَّ سيِّدَ الخَلْقِ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ كان يحب مكةَ والمدينة حبًّا جمًّا[1]، فالاعتزازُ بالوطن ليس ضدَّ الدِّين، ولا ضدَّ التَّوحيد، وإنَّما هو من الدِّينِ ولوازمِ التَّوحيد، فدينُنا يأمرنا بالسَّعي والعمل والإصلاح، وصلاحُ بلادِ المسلمين وتقدُّمِها مقصدٌ شرعيٌّ؛ لأنَّه بقوة بلاد المسلمين يعتزُّ الإسلامُ ويكون له صوتٌ مسموعٌ في عالَم اليوم.

- نجدُ أيضًا عند مَن يؤمنُ بفكرة جاهليَّة المجتمع، أو مَن يتأثر بها على وجه ما- سلوكَ التفتيش عن عقائد النَّاس ومَن يحيطون به، ويقوم بتصنيف النَّاس: هذا من أهل السُّنَّة، وهذا مبتدعٌ، وهذا واقع في الشِّرك... إلى غير ذلك من المصطلحات التي تلقَّاها من

---

(1) مما ورد في ذلك: ما أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب فضل مكة (3925)، وابن ماجه في كتاب المناسك، باب فضل مكة (3108)، وأحمد في مسنده (305/4)، والدارمي في سننه (2552)، وابن حبان في صحيحه (3708)، والحاكم في مستدركه (7/3) من طرقٍ عن الزُّهري عن أبي سلمة عن عبدالله بن عدي بن حمراء قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ واقفًا على الحَزْوَرة، فقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منكِ ما خرجتُ».

وقال الترمذي: «حسن غريب صحيح». وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

وورد في حبه للمدينة أحاديث منها: حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة (3926)، ومسلم في كتاب الحج، باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها (1376) من حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ حبِّبْ إلينا المدينةَ كحُبِّنا مكَّةَ أو أشدَّ، وصححها وبارك لنا في صاعها ومُدِّها».

الـكُتب، ويظنُّ نفسه قيِّمًا علىٰ عقائد النَّاس وسلوكِهم، وتتعاظمُ في نفسِه فكرةُ أنَّه مميزٌ عن الآخرين عقيدةً وسلوكًا، مما يزيد في قابليتِه للفكرة، وأنَّ ذلك في سبيل الله، وأنَّ حالَه مع حالِ مجتمعه كحالِ الصَّحابة رضوان الله عليهم مع مُشركي قريشٍ.

- وضوحُ فكرةِ الانعزال والمفاصلةِ عن المجتمع عند الكثيرِ من المتأثِّرين بهذا الفِكر، حتَّىٰ ولو لم يقولوا بجاهليَّة المجتمع الذي يعيشون فيه، فتجدُ أحدَهم ينعزلُ عن جيرانِه، ويحاولُ أنْ ينعزلَ في مجال عمله، ويفضلُ الأعمالَ التي لا تتطلب اختلاطًا بالناس، وبالطَّبع فكثيرٌ منهم لا يرىٰ جوازَ الالتحاقِ بأي أعمالٍ تتبع الحكومات أو تحت نظام الدَّولة، وإنْ فعل ذلك فيكون من بابِ الضَّرورة، وليس من باب أنَّ هذا أمرٌ طبيعيٌّ.

- وتوجد سمةٌ أخرىٰ ظاهرةٌ في أصحاب هذا الفِكر والمنهج، وهو رفضُ الأخذِ والتَّلقِّي العِلمي من غير أكابر طريقِهم وأئمَّتهم المقدَّمين عندهم، والذين يمثِّلون عندهم شيوخ الإسلام وأهل العِلم والفقه، في حين أنَّهم ليسوا من أهل العِلم والفِقه علىٰ الحقيقة، ولكنهم يُشبعون في أنفسهم حاجاتِ الشُّعور بالتَّميُّز والانفصالِ والتَّعالي بالمظاهر الدِّينية علىٰ النَّاس والمجتمعات، ويرفضُ هؤلاء أي نُصح أو توجيهٍ من أهل العِلم الحقيقيين من حملة الشَّريعة، ويرمونهم بالتُّهم والمساوئ، وأنَّهم علماء ضُلالٌ، وأبواقٌ للسُّلطان.

ويوجد سؤالٌ يجب أن يُوجَّه لكل معتنقٍ لأي فكرٍ تكفيريٍّ أو فكرٍ ينطوي علىٰ القول بجاهليَّة المجتمعاتِ: هل هذا مما يقرِّبُكَ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ؟ أوليس من الدِّين أنْ تقفَ مع نفسك وقفةً لله سبحانه وتعالىٰ وترىٰ موضعَ قدمك؟ وأن تكفيرَ المسلمين ذنبٌ عظيمٌ يعود عليكَ أنت بالكُفر، وأنَّ النَّافذة التي تنظر منها إلىٰ المجتمع ليست هي النافذة الصَّحيحة، وأنَّ المسلمين لم يستغنوا عن دينِهم- وإنْ وُجدَتْ فيهم المعاصي والتفلُّت؟ ثم لماذا لا تنظر إلىٰ الجوانب الإيجابيَّة في حياة المجتمع، والتي تدلُّ علىٰ وجودِ الروح الدِّينية في نفوس الناس؟ وتذكر حديثَ رسولِ الله ﷺ الذي قال فيه: ((إذا قال

الرجُلُ هَلَكَ الناسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ))[1]. فَمَن يرمي النَّاسَ بأنَّهم في جاهليَّةٍ وفسادٍ وأنَّهم ضالون- فهو أولىٰ بهذه الأوصاف منهم.

- تبنِّي الأفكار المنغلقةِ والمتشدِّدة تفتحُ الأبوابَ أمام خصومِ الدِّين من كافَّة الطَّوائف والتَّيارات إلىٰ وجود باب ينفذُون منه إلىٰ محاربة الدِّين بسبب هذه الأفكار، فيهاجمون جميعَ أهل العِلم، وأيَّ صورةٍ من صور ومظاهر الشَّريعة تحت مُسمَّىٰ محاربة الفِكر الضَّال، فمن اعتنقَ الأفكار الخبيثة هو الذي يتحمَّل فتحَ هذا الباب أمامَهم، ويضع أمامَهم الفُرصة لاستغلال هذه المواقف.

- متىٰ يتفرَّغُ المسلمون للبناءِ والمعرفة؟ وكم تأخذُ محاربةُ هذه الأفكار من الجهودِ والأوقات في عُمر أُمَّة الإسلام؟ وكم يتحمَّلُ الإسلامُ أفعالَ وأقوالَ بعض مَن ينتسبون إليه فيُلصقون به من التُّهم ما هو منه بريءٌ، ويضعون دينَهم في موضع التُّهَمَة والتَّنقيص أمام العالَم؟ فكم صدَّ هذا الفِكر وتلك المناهج عن سبيل الله؟ وكم منعت أناسًا من الدُّخول في دين الله؛ لتأثُّرِهم بحوادثَ تقعُ هنا أو هناك تحتَ زَعْمِ أنَّها تحت مظلة الإسلامِ، وباسم الجهادِ في سبيل الله؟ والإسلامُ منها براء.

- في مقابلِ هذا الفِكْر المتشدِّد ومحاولةِ نشره بين الناس يقوم بعضُ الأفراد وخاصَّةً من بين الشَّباب بصورةٍ سلبيةٍ من مقاومةِ هذا الفِكر، وهي إعلان عدمِ انتمائهم للدِّين وعدم رضاهم عنه، وذلك في صورةٍ من صور العِناد الفكريِّ والاعتقاديِّ، حتىٰ ولو لم يكونوا بالفعل معتقدين لذلك، وإنَّما كردِّ فعلٍ يتَّسم بالعند والتَّحدي في مواجهة أصحابِ الفِكرِ المتشدِّد؛ نتيجةً لرميهم بالتَّفلُّت والجاهليَّةِ والخروجِ عن الدِّين، ويندرج تحت هذا كثيرٌ من الأفعال والأقوال حين يتم الدَّعوة إليها من قِبل أصحاب المناهج المتشدِّدةِ تُقابَل بالرفض والعنادِ من طائفةٍ أخرىٰ، حتىٰ ولو كان ما يدعون إليه- في

(1) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن قول: هلك الناس (2623) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بعض الحالات- من أفعالِ الخيرِ، ولكنْ لأنَّه يخرجُ مِن تحت مظلَّة الفِكر المتشدِّد المنغلقِ يتمُّ رفضه والعمل علىٰ محاربته، بل قد يتطور الأمرُ عند البعض إلىٰ إعلان الإلحاد كمبدأ وعقيدةٍ لهم من باب الاعتراض علىٰ المنهج المقابل، والحق بين طرفي النَّقيض.

- أصحابُ هذه المقولة وهذا الفِكر يدندنون حولَ قضية الشَّريعة والحاكمية، وأحكام التَّكفيرِ، والعُذرِ بالجهل والرِّدَّة والخروج عن الملَّة، وغير ذلك من مصطلحاتٍ تخرجُ من قاموس منهجهم، ولا تَلحظُ في مصطلحاتِهم وأقوالِهم صورًا من التَّسامح أو الشَّفقة علىٰ النَّاس وحياتِهم، مع أنَّ أصولَ الشَّريعة وفروعَها تحضُّ علىٰ ذلك، ولكنْ هذه هي البضاعة الرَّائجة بين أنصارِهم.

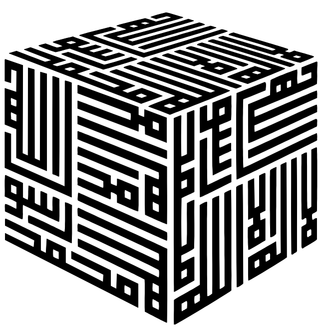
- أصحابُ هذا الفِكر يركِّزون علىٰ قضية الوَلاء والبراءِ كمدخلٍ لزرع فِكرة جاهليَّة المجتمعِ، ووجوب البراءة منه ومن أهلِه، فينزعون من الشَّخص فِكرةَ الانتماء والمواطنة، ويزرعون بدلًا منه حبَّ النَّقد للمجتمع والدَّولة والسُّلوكيات، فيصبحُ هذا الشخص ناقمًا علىٰ كلِّ شيءٍ، ويصل به إلىٰ درجة مزاجيةٍ سوداء علىٰ استعدادٍ للتخريبِ وإسالةِ الدِّماء تحت مُسمَّىٰ الجهاد والشَّهادة في سبيل الله، ودائمًا من يتأثَّرون بهذا الفِكر ويدعون إليه يحاولون جَعْلَ أتباعِهم في حالة صِدامٍ ومعاداةٍ لأنظمة الحُكم وأجهزةِ الأمن في بلادهم، يوهمونهم بأنَّ ذلك صورةً من صور البراءةِ من أعداء الله.

- يضع مَن يدعون لفكرِ التَّجهيل ورمي المجتمعات بالشِّرك والجاهليَّة دعاوَىٰ وطموحاتٍ كبيرةً مبهرةً لجذب عقول وعواطف الشَّباب، مثل: عودة الخلافة الإسلامية، وتحقيق الدولةِ الإسلامية، مما يُحفِّز بعضَ النَّاس لقبول الفِكرة المزيَّنةِ، ويجدُ نفسَه في آخر المطاف أنَّه ما هو إلا أداةٌ في أيدٍ خفيةٍ تُحركُه لتحقيق أهدافٍ ومطامعَ في بلاد المسلمين.

- محاولةُ التَّقليل من أيِّ نجاحاتٍ أو تقدُّمٍ لأي مجتمعٍ إسلاميٍّ؛ لأنَّ ذلك ضدُّ منهجهم، فتراهم لا يسعدون بحدوث أيِّ تقدمٍ في أي مجالٍ من المجالات تحدث في

أوطانِهم؛ بل ينزِعون عنها كلَّ نجاح ويحولونه إلىٰ فشلٍ؛ وذلك حتىٰ لا ينكشفَ ضلالُهم، وحتىٰ يثبتوا لأتباعِهم أنَّ منهجَهم منهجٌ سليمٌ، وأنَّ هذه المجتمعات الجاهليَّة مجتمعاتٌ فاشلةٌ.

- الاقتناعُ بأنَّهم يحملون قضيةَ التَّمكين لدين الله في الأرض، وأنَّ لهم أنْ يتخذوا ما يشاءون من الخُطوات والمناهج التي تُحقق هذا الغرض؛ رغم أنَّ هذه الفكرة في ذاتِها غيرُ صحيحةٍ، فإنَّ التَّمكين للدين هو لله سبحانه وتعالىٰ وليس إليكَ، وأنتَ ما عليك إلَّا أنْ تلتزمَ بما يأمرُك به الدِّين، وتدع القَدرَ لله سبحانه يفعلُ ما يشاء. ◆



الخاتمة

أخي المسلم الكريم إنَّ من أعظم مِنن الله علينا مِنة الإسلام، وهو دينٌ سمح نقيٌّ، فعلينا أن لا نسمح لأنفسنا أنْ نُلصق به ما يعيبه بجهلنا، وإنَّ من مِنن الله علينا نعمةَ الأوطانِ والأمن والأمان فلا نجلب الخرابَ لبلادنا فإنَّ ذلك لا يرضي الله ولا يُقيم دُنيا ولا دِين، فيجبُ أن نكونَ أدوات إعمار لا أدوات تخريب، فهذا هو ما يأمر به الدِّين، ولا نجعل من أنفسِنا حكَّامًا على عقائد النَّاسِ وأفعالِهم، ولا نزيل عن أنفسِنا نِعَمَ الله علينا بجهلِنا واعتناقِنا لأفكارٍ سوداءَ ومناهجَ ضالَّةٍ ليست من دِين الله في شيءٍ، فهي يا أخي الكريم لا تُقرِّبُكَ من الله ولا من النَّاس، فلا تخدع نفسكَ بأنَّكَ على الصِّراط المستقيم وأنَّ النَّاسَ على الضَّلالة، ولتأخذ بيد النَّاسِ نحو سماحةِ الإسلام وهدي نبيِّك محمَّدٍ ﷺ، فإنَّ ذلك هو ما يُرضي الله عنكَ ويحقِّقُ الخيرَ كلَّ الخيرِ لكَ ولجميعِ المسلمين.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆



﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ - آية **5–8** من سورة الضحىٰ

الرسالة الرابعة والثلاثون
عدم مشروعية الانتماء للجماعات الإرهابية المعاصرة

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: الواقع المعاصر الداعي لظهور تلك الجماعات.

المحور الثاني: حقيقة تلك الجماعات والتنظيمات.

المحور الثالث: مفهومُ الجماعة في الشَّريعة الإسلاميَّة.

المحور الرابع: كيفية ثبوت عقد الإسلام للأشخاص.

المحور الخامس: أقوال أهل العلم في تكوين الجماعات و إحداث الفرقة بين المسلمين.

المحور السادس: المظاهر السلبية الفكرية للتنظيمات والجماعات.

المحور السابع: التنظيمات في ميزان الشريعة. ◆



« قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ » – آية **135** من سورة الأنعام

عدم مشروعية
الانتماء للجماعات الإرهابية المعاصرة

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا مبحثٌ عن الجماعاتِ الإرهابية الناشئة في العصر الحديث، نتحدث عن مفهومها وهل تختصُّ بفئةٍ معينةٍ من النَّاس أو تشملُ جميعَ مَن يقف تحت رايةِ الشَّهادتين؟ ونذكرُ بعضَ الأدلة على ذلك من الكتاب والسُّنَّة، وأقوالِ أهلِ العِلْم، وهل يجوزُ تكوينُ الجماعات والتَّنظيمات التي تنتسب للإسلام؟ وما هو الموقفُ الشرعيُّ منها ومن مناهجِها؟ وهل قيامُ هذه الجماعات والتنظيمات يتَّسق مع دِين الإسلام ومقاصدِ الشريعة أو لا؟ وهل التَّكتُّل والتَّحزُّب تحت رايةٍ لجماعةٍ أو حركةٍ أمرٌ تقبلُه الشَّريعة أم هو مخالفٌ للشريعة؟ ومتى يكون التجمعُ في مجموعةٍ أو جماعةٍ متسقًا مع الدِّين ومقاصدِه؟ ومتى يكون ذلك مخالفًا له؟ وما الأثرُ الإيجابيُّ أو السَّلبيُّ الذي أحدثه قيامُ هذه الجماعات والانتماءُ إليها في المجتمع؟ وما مدى شرعية وجود قِيادات لهذه الجماعاتِ والتنظيماتِ يُدان لها بالسَّمع والطَّاعة؟ وهل هذه الجماعات تُكرِّس للفُرقةِ وتشتيت شملِ المجتمعاتِ المسلمةِ أم كانت أداةً لتوحُّدها؟ وهل انتماءُ وولاءُ الأفراد المنتسبين لهذه التَّكتُّلات والجماعات للدِّين الإسلاميِّ بشموليته أو أنَّ انتماءَهم لتحزُّبهم؟ ونأملُ من الله سبحانه وتعالى أنْ تُسهِمَ تلك الرِّسالةُ الموجزةُ في إعطاءِ صورةٍ صحيحةٍ عن هذا الأمرِ، وسيكون الكلام فيها مشتملًا على المحاور التالية:

المحور الأول: الواقع المعاصر الداعي لظهور تلك الجماعات.

المحور الثاني: حقيقة تلك الجماعات والتنظيمات.

المحور الثالث: مفهومُ الجماعة في الشَّريعة الإسلاميَّة.

المحور الرابع: كيفية ثبوت عقد الإسلام للأشخاص.

المحور الخامس: أقوال أهل العلم في تكوين الجماعات و إحداث الفرقة بين المسلمين.

المحور السادس: المظاهر السلبية الفكرية للتنظيمات والجماعات.

المحور السابع: التنظيمات في ميزان الشريعة. ◆

الواقع المعاصر الداعي لظهور تلك الجماعات

إنَّ المتأمِّل لحال بلادِ المسلمين خلال القرن الأخير يجد أنَّه قد حدث بها كثيرٌ من التغيُّراتِ السِّياسية والاجتماعية والدِّينية مثلما حدث في العالَم أجمع حولنا، وقد كان من مظاهرِ هذا التَّغيُّر ظهورُ ما يُسمَّىٰ بالجماعات الإرهابية أو المتطرفة التي نشأت خارجَ المؤسَّسات الدِّينيةِ التَّقليديةِ التي كانت تتولَّىٰ القيادةَ الدِّينيةَ والرُّوحيةَ للمسلمين مثل الأزهرِ الشَّريفِ عبرَ تاريخِه الطَّويل، فبرزت التَّياراتُ الفكريَّةُ والحزبيَّةُ التي تعملُ تحت مظلَّةِ الدِّينِ وترفعُ الشِّعاراتِ الإسلاميَّة، ومِن أوائل هذه الجماعات جماعةُ الإخوانِ المسلمين، التي انطلقت من مصرَ ثم مرَّت بمراحل تطوَّرت إلىٰ أن نتج منها التَّنظيم الدَّموي التَّكفيريَّ المُسمَّىٰ بداعش وغيره في بعض البلاد الإسلامية، ومع ظهور تلك الجماعات وُجد منها علىٰ أرض الواقع مَن رفعت الشِّعارات الإسلاميَّةَ، وانتمىٰ إليها كثيرٌ من شباب المسلمين؛ ظنًّا منهم أنَّهم بذلك يعملون علىٰ نُصرة دِين الله ونشر الدَّعوة، وحدث علىٰ مرِّ السِّنين التقاءٌ وافتراقٌ بين فِكر ومناهج الجماعات بعضها مع بعض، والجميع يزعم لنفسِه احتكارَ الحقيقةِ المُطلقة لفهم الدِّين، وأحقيَّته لقيادة الأُمَّةِ، فما كان منهم إلَّا شقُّ صفِّ المسلمين وتشتيتهم، وأصبح حالُهم كما أنبأنا الله في كتابه الكريم: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:32].

ثم ظهرت مفاهيمُ جديدةٌ للجماعات الإرهابية، حُدِّدَ بناء عليها مَن يدخل ومَن يخرج في هذه الجماعة، وفقًا لتصوُّرات ومرجعيَّات هذه الجماعات، وتمَّ إفرازُ عقولٍ مؤمنة بأفكار هذه الجماعات والتَّنظيمات أكثر منها إيمانًا بمبادئ الدِّين، وليس في هذا شيءٌ من المبالغة، فالواقع يُخبرنا أنَّ الولاءَ أصبحَ عند أغلبِ المُنتمين لهذه الجماعات والتَّيارات للجماعة والتَّنظيم والأهداف المحددة سلفًا، ويكفي للتدليل علىٰ صحَّة هذا القول الخلاف والتَّضارب بين كثير من هذه الجماعات وتبديع بعضِهم بعضًا، بل وصل الأمرُ في

أحيانٍ كثيرةٍ إلىٰ التَّكفير والقِتال، والاتِّهام بالعمالة لأعدائهم، ورأوا في أنفسهم أنهم المبعوثون من رب العزة لإنقاذ الأُمَّة من أفكارها ومناهجها، وأنَّ رؤيتَها هي الرُّؤية الصائبة من حيث تصوُّرُ إقامتها للدِّين علىٰ الأرض والدَّعوة إليه، وأنَّه يجب عليها أنْ تعملَ وفقًا لهذه الرؤية وتكافح من أجلِها ومن أجل ترويجها بل وفَرْضِها إنْ لزم الأمرُ، فظهر لنا عشراتُ المناهج والطُّرق التي ترسم الطَّريقَ وتضع التَّصوراتِ لإعلاء كلمةِ الدِّين والنُّهوض بشأن المسلمين، وضاع وسط هذا الركام الفِكري المنهجُ الحقُّ الذي وضعه الله سبحانه وتعالىٰ للمسلمين، فانقسمت الأُمَّة علىٰ نفسِها، وأصبحت ليست في حاجةٍ لمن يَكيد لها ويحيك المؤامرات ضدَّها، بل تكفل بعض بنيها داخلها بذلك، حتىٰ وصل بنا الحالُ إلىٰ ما وصل إليه الآن، حال يعبِّر عن التفرق والتشرذم والنزاع والابتعاد عن حقيقة الدِّين، وتمسكٌ بظواهرَ شكليَّة وقضايا فرعيَّة نقضي السِّنينَ تلو السِّنين في النِّزاع والنِّقاش فيها، ونرتِّب بعد ذلك الموالاة والمعاداة بيننا وبين أنفسنا بناءً علىٰ هذه القضايا البسيطة، ونجعل منها أداةً لشقِّ الصَّفِّ الإسلامي، وزرع الاختلاف والخلاف بين المسلمين، ونترك في خِضمِّ هذا حقيقةَ الدِّين وجوهرَه ومقاصد الشَّريعة الكريمة الَّتي حمَّلنا الله سبحانه وتعالىٰ أمانتَها، كلُّ هذه الأمور كان لقيام هذه الجماعات والانتماء إليها دورٌ كبيرٌ في حدوثِها؛ بسبب ما تحملُه من فكرٍ ومنهجٍ نسبَته للدِّين، والدِّينُ منه براءٌ، فشغلتِ البلاد والعباد بما لا طائلَ من وراءه، ولا نفع في دِينٍ ولا دُنيا منه، وأضاعت جهودَ المسلمين بترَّهاتٍ فكانت وبالًا علىٰ البلاد والعباد، وأضلَّت وأضاعت الكثيرَ من شباب المسلمين الذين هم الأمل في نهضةِ الأُمَّة وتقدُّمِها، فكان كثيرٌ منهم- مع الأسف الشَّديد- معولَ هدمٍ وسببًا للتقهقر إلىٰ الخلف.

وفي بداية الكلام علىٰ هذا الموضوع فإنه لزامًا علينا أن نوضِّح بداية الضلال وجذوره في هذا الشأن العظيم الذي أطاح بأفكار كثير من شباب المسلمين، فإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد بيَّن لهذه الأُمة طريقَ فلاحِها وهدايتِها، ووضع لها المنهجَ الربَّانيَّ

الذي تُفلح به في الدُّنيا والآخرة إن سارت عليه، فقال سبحانه وتعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ [الأنعام:153] وقد كان بيان هذا الصِّراط المستقيم وتجليةُ حاله علىٰ يدِ رسولِنا الكريمِ محمَّدٍ ﷺ الذي جاء عنه ما رواه ابنُ ماجه في سُننه من حديث العِرباض بن سارية قال: وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ منها العيونُ، وَوَجِلَتْ منها القلوبُ، فقلنا: يا رسولَ الله، إنَّ هذه لموعظةُ مُوَدِّع، فما تعهدُ إلينا؟ قال: ((قد تركتُكم علىٰ البيضاءِ، لَيلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يَزِيغُ عنها بعدي إلَّا هالكٌ، فمَنْ يَعِش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عَرَفتم من سُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاء الرَّاشدينَ المهديِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجذِ))[1].

فكان كتاب الله وسُنَّةُ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ وهدي الخُلفاء الرَّاشدين رضوان الله عليهم هو المنهجَ والطَّريق والدُّستور لأُمَّة الإسلامِ، الذي يكفُل لها العصمةَ والاستقامةَ وعدم الزَّيغ، فما دام هَدْيُ رسولِ الله ﷺ هو المصباحَ الذي يُنير لنا الظَّلامَ فلا زيغ، أمَّا لو أصبح هناك هوىٰ متبعٌ، وإعجابُ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، واستغنىٰ النَّاس بفهمِهم عن هَدْيِ رسولِ الله- فهنا يحدث الخللُ في أمرِ هذه الأُمَّة، فرسولُنا الكريمُ صلوات الله وسلامه عليه هو تَرْجُمان النُّورِ الإلهيِّ الذي أضاء الله به دُنيا النَّاسِ، فمَن استغنىٰ برأيه عن هَدي رسولِ ﷺ فسيَضلُّ لا محالة.

(1) أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب اتباع سُنة الخلفاء الراشدين المهديين (43)، وأحمد في مسنده (126/4)، والحاكم في مستدركه (96/1)، وأبو نُعيم في مستخرجه (36/1) من طريق عبدالرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن ضَمْرة بن حبيب عن عبدالرحمن بن عمرو السُّلَمي أنه سمع العِرباض بن سارية ﷺ به مرفوعًا.

وقال الحاكم: ((وقد تابع عبدالرحمن بن عمرو علىٰ روايته عن العرباض بن سارية ثلاثةٌ من الثِّقات الأثبات من أئمة أهل الشَّام منهم حُجْر بن حُجْر الكَلَاعي)). وسكت عنه الذهبي. وقال أبو نُعيم: ((وهذا حديث جيدٌ من صحيح حديث الشَّاميين)).

ويتَّضح أوَّلُ ظهورٍ لشكل هذا الضَّلال وبدايته في أمر الأُمَّة المحمَّدية في صورة هذا الرَّجل الذي كان أوَّلَ مَن اعترض علىٰ هَدْيِ رسولِ الله ﷺ وأَمْرِه، وأُعجِبَ برأيه، فكان فاتحةَ أمرِ الخوارج في بلاد المسلمين والتي اغترَّت برأيها فخرجت عن كتاب ربِّها وعن هَدْي نبيِّها، وجاء مَن بعدَهم فأخذ من منهجهم ما أخذ، فضَلَّ وأضَلَّ؛ فقد روىٰ البخاري ومسلم حديثًا يخبر عن بداية ظهورِ الفِكر المُنحرفِ في أُمَّة الإسلامِ، والذي خرجت منه فكرةُ الجماعات والانتماء إليها، وذلك علىٰ اختلافٍ في درجات البُعد والقُرب من هذا الفِكر الخارجيِّ:

فعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: بعث عليٌّ رضي الله عنه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ بذهبيَّةٍ، فقسَّمها بين الأربعةِ: الأقرعِ بن حَابِسٍ الحنظليِّ ثُمَّ المُجَاشِعيِّ، وعُيينةَ بنِ بدرٍ الفَزَاريِّ، وزيدٍ الطَّائيِّ ثُمَّ أحدِ بني نبهان، وعلقمةَ بنِ عُلَاثةَ العامريِّ ثُمَّ أحدِ بني كِلاب، فغضبَت قريشٌ والأنصارُ، قالوا: يُعطي صناديدَ أهلِ نَجْدٍ ويَدَعُنا! قال: «إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ» فأقبَلَ رجلٌ غائرُ العَينين، مُشرِفُ الوجنَتَينِ، ناتئُ الجبين، كثُّ اللِّحية محلوقٌ، فقال: اتقِ الله يا محمَّدُ. فقال: «مَنْ يُطِعِ اللهَ إِذَا عَصَيْتُ؟! أَيَأْمَنُنِي اللهُ علىٰ أَهْلِ الأَرْضِ فَلا تَأْمَنُونِي!». فسأله رجلٌ قَتْلَهُ- أحسبُه خالد بن الوليد- فمَنعه، فلمَّا وَلَّىٰ قال: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا- أَوْ فِي عَقِبِ هَذَا- قَوْمًا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»[1].

فهذا رجلٌ تُوسوس له نفسُه أنَّه أعلم من رسول الله ﷺ ويتهمه- حاشاه صلوات الله وسلامه عليه- بالجَور في القِسمة وعدم العدلِ، وهنا كانت بداية ظهورِ الفِكْر المُنحرف في مقابل الشَّريعة الواضحةِ والمحجَّة البيضاءِ وظهورِ طائفة تُسمَّىٰ بالخوارج

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضي الله عنه إلىٰ اليمن (4351)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (1064).

الذين اعتزلوا المسلمينَ، وأعلنوا أنَّهم الطائفةُ المسلمةُ المؤمنةُ، وكفَّروا الصَّحابةَ، فهذا صاحب الشَّريعة صلوات الله وسلامُه عليه أعدلُ الخَلْق يُعارَضُ برأيِ رجلٍ وهوىٰ نفسٍ، فكانت هذه الصُّورة هي الهيئة التي تتكرَّر علىٰ مرِّ القرونِ بعد ذلك.

فالشَّريعة موجودةٌ بنصوصِها ولسان حالها ومقالها، ممثلة في ورثة عِلْمِ النُّبوَّة مِن حملة العِلْم وأئمَّةِ الدِّين، وذلك في مقابل أُناسٍ يُعجبون برأيِهم وحالِهم، ويظنُّون أنَّهم علىٰ الصِّراط المستقيم، فقد تشابهت الصُّور والهيئات، فهناك عامَّة المسلمين وجماعتهم جمعهم الله علىٰ أمرِ دينِهم ودُنياهم، مستقرَّةٌ أمورهم، ومنتظمةٌ حياتُهم وأحوالُهم ومجتمعاتُهم، وتأتي طائفةٌ تعتزلُ عنهم بصورةٍ أو بأخرىٰ مكوِّنة لنفسها جماعةً وطريقًا خاصًّا بها، وترسم لنفسِها منهجًا، فكانت طائفة الخوارج هي المُنطلَق الذي انتشر منه الانحرافُ الفكريُّ في أُمَّة الإسلام عبرَ العصورِ، الذي هو هجرٌ لمنهج رسولِ الله وهَدْيِه وطريقِه إلىٰ منزلق الأهواءِ والآراءِ والمطامع، وهذا الانحراف كان ينبعث في كلِّ عصرٍ بصورةٍ تناسبه من أقوالٍ ومُصنَّفاتٍ وكُتبٍ وأفعالٍ وحركاتٍ مُسلحةٍ وتنظيماتٍ، فظهور ذلك كلِّه كان مبدؤه فِكر هذه الطَّائفة المعروفة باسم الخوارج، والتي مثَّلت المرجعيَّة الفكريَّة والعمليَّة لغالب الانحرافات التي جاءتْ بعدَها.

حقيقة تلك الجماعات والتنظيمات

هناك تساؤلاتٌ تطرح نفسها ينبني عليها كثيرٌ من المواقف التي يجب أنْ يتَّخذها المسلم بعد ذلك، ألَا وهي: هل الجماعات والتَّنظيمات الإرهابية المعاصرة علىٰ هَدي رسولِ الله ﷺ؟ وهل في كتاب الله وسُنَّةِ رسوله صلوات الله وسلامه عليه ما يُبيح إنشاءَ هذه الجماعاتِ والتنظيماتِ؟ وهل إذا قام بعضُها علىٰ أساسٍ سليمٍ استمرَّت في السير علىٰ المنهج الصحيح أم أصابها الانحراف عن المنهج المحمَّدي حتىٰ أصبح لها منهجٌ خاصٌّ تُحدِّدُه المطامعُ المتنوعة والأغراضُ الشخصيةُ؟ وهل وحَّدت هذه الجماعات صُفوفَ

المسلمين أمْ فرَّقتهم؟ وهل جعلت الولاء للدِّين أم جعلت الولاء لمبادئها؟ وللإجابة على تلك التساؤلات لابد من عرض جانب لفكر تلك التَّنظيمات المعاصرة من خلال محاولة استقراء لواقعها الذي نعيشه، وعقد مقارنةٍ بين مفهوم الدِّين والجماعة عند هذه الجماعاتِ وبين المفهوم الحقيقي الموجود في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ للوقوف على حقيقتها، وسيتمثل الوقوف على حقيقتها في النقاط التالية:

أ - مُسمَّى السَّلفية وما يندرج تحتها من تنظيماتٍ:

السَّلفية من المسمَّيات التي يندرج تحتها العديدُ من أشكال التَّنظيمات والتَّجمُّعات التي تزعم النِّسبة إلى السَّلف الصَّالح في فَهْم الدِّين وتطبيقِه، ويُعتبر مُسمَّى السَّلفية مظلةً ضخمةً لانتماء كثيرٍ من المسلمين في الوقت الحالي يدَّعون نسبتَهم إلى السَّلف الصَّالح، ويحملون منهجًا خاصًّا بهم، أقاموه على أفكار ابنِ تيميَّةَ ومؤلَّفاته ورؤيتِه التي كوَّن بها مذهبًا خاصًّا به في العلوم الإسلامية، فكانت نظرية الجماعة السَّلفية- إنْ صحَّ هذا التَّعبير أو مَن يحملون الفِكر السَّلفي- في بدايتها تقوم على الرُّؤية الموجودة في مصنَّفات ابن تيميَّةَ ومن نحى نحوه كبدايةٍ لظهور السَّلفيين، ثم بعد ذلك أضافوا إلى منهجِهم ما يوافق مبادئَهم من آراء أهل العِلْم والمُفكِّرين، وصاغوه بعد ذلك في رؤيةٍ واحدةٍ خاصة بهم وبفكرِهم ثُمَّ يُقدِّمونها للنَّاس على أنَّها هي منهج السَّلف الصالح رضوان الله عليهم، وظهرت هذه السَّلفية في صورٍ عديدةٍ، كلُّها تزعم أنَّ منهجَها هو المنهج الصَّحيح، ويجب على المسلمين متابعته ليكونوا من أهل السُّنة والجماعة!

- فمن هذه الصور والأشكال: (السلفيَّة العلمية- السلفيَّة الحركية- السلفيَّة الجهادية- السَّلفية التي تنتمي إلى فردٍ واحدٍ).

- فالسَّلفية العلميَّة: تجعل من الدَّعوة في المساجد وطلب العِلم وإنشاء المعاهد العلميَّة لدراسة المنهج السَّلفي وفق رؤيتِهم، وإعادة طبع ونشر الكُتب التي يرون أنَّها تُمثِّل نهجَ

أهل السُّنَّة والجماعة وإصلاح المفاهيم والتَّربية الفردية وفقًا لمنهجهم- فجعلوا من هذا كلِّه طريقًا لتكوين قاعدة كبيرةٍ تُؤمن بهذا المنهج، مع الحرص علىٰ عدم التعرُّض للأمور السِّياسيَّة في المُجمل العامِّ من منهجِهم؛ لأن ذلك من شأنه أنْ يُعيق مسيرتَهم ويقيِّد من انتشارِهم.

- السَّلفية الحركيَّة: وهي أشبه بتنظيم حركيٍّ كبيرٍ يضم الكثيرَ من الذين تجمعهم نفس المرجعيَّة، وإنْ لم يكن تنظيمًا بالشَّكل المعهود؛ لكنَّه رابطةٌ فكريَّةٌ يستظلُّ تحتَها الكثيرُ من المنتسبين للسَّلفية، وهي بالإضافة إلىٰ طلبِ العِلْم والدَّعوة والتَّربية يتبنَّىٰ دعاةُ هذا التَّيار الكلامَ عن قضايا الحاكميَّة وتكفير الحُكَّام، والدَّعوة للحُكم بالشَّريعة، والتَّركيز علىٰ مفاهيم الولاء والبراءِ، وتبني الخطاب التَّحريضي ضدَّ الآخر، وتعتمد في مرجعيَّتها علىٰ كتب سيِّد قطب ومحمَّد قطب، بالإضافة إلىٰ كتب ابن تيميَّةَ، مع إعلان رفضِهم للأعمال المسلحة لأنَّها تؤدي للصدام مع السُّلطة قبلَ اكتمال القُوَّة المناسبة لذلك، وإنْ كانوا في واقع الأمر لا ينكرون شرعيَّتَها، ولكن لا يرونَ أنَّ الوقتَ مناسبٌ لها.

- السَّلفية الجهاديَّة: وهي المجموعات التي تتبنَّىٰ منهجَ الأعمال الجهادية المسلحة داخليًّا أو خارجيًّا كوسيلةٍ لحدوث التَّمكين للدِّين، وتعلن رِدَّةَ الحكومات، وتتعدَّىٰ بذلك إلىٰ رِدَّة الأجهزة الأمنية في بلاد المسلمين، وترىٰ أنَّ الطريق لحدوث التَّمكين للدِّين في الأرض وإقامة الدَّولة الإسلامية وتحكيم شريعة الله لا يأتي إلَّا بزوال هذه الحكومات، ويرون أنَّها هي العدوُّ القريب الذي يجب الجهادُ ضدَّه، وهم مع تبنِّيهم للصِّدام والقتال يعتبرون أنفسهم يعملون وفق المنهج السَّلفي.

- السَّلفية التي تنتمي إلىٰ فردٍ واحدٍ: وهؤلاء مجموعات كثيرة، يرون في أحد الشُّيوخ أو مَن يُسمون بالعلماء عندهم رأسًا من رُءوس أهلِ السُّنَّةِ في هذا الزَّمان، فمنه يأخذون، وعن عِلْمِه يصدرونَ، فهو يمثل لهم النافذةَ والمدخلَ لفهم الدِّين، ويرون أنَّ العِلْمَ قد حطَّ

رحالَه في رحابِه، وأنَّ كلامَه هو النُّور المبين الذي لا يُخطئ! فهو يمثِّل لهم المرجعيةَ في حياتِهم في كافَّة الأمور.

ب - مفهوم الانتماء عند السَّلفية بأنواعها:

الانتماء عند السَّلفيين تحوَّل من الانتماء للدِّين الإسلامي بمفهومه الكليِّ الشَّامل بمبادئِه وعلومه وعلمائِه علىٰ مرِّ العصورِ، ونظرته الوسطيَّة للأمور كافة، وما يترتَّب علىٰ ذلك من وجود انتماءٍ للوطن الذي يَحيون فيه- إلىٰ الانتماء إلىٰ فِكْرٍ محدَّدِ الأركان والمعالم يقوم علىٰ تراثٍ علميٍّ محددٍ لأُناس مُعينين قديمًا وحديثًا، يُطلقون عليه أنه هو منهج أهل السُّنة والجماعة، ويرتِّبون علىٰ ذلك دخولَ مَن يُؤمن بهذا الفِكر السَّلفي في دائرة أهل السُّنة، ومَن لا يؤمن به فهو عندهم من المبتدعةِ الضَّالين، فعند مَن يدَّعون العِلم من السَّلفيَّة أصبح الانتماء والحميَّة الدِّينية لـكُتب ابن تيمية وابن القيم فيجعلون من أقوالهم وفتاويهم دينًا لهم لا يجوز الخروج عنه، وينعكس ذلك عندهم بعد التشبُّع بهذا التَّراث فيعتقدون أنَّ لهم تميُّزًا عن باقي المسلمين، وكيف لا وهم يمثِّلون أهلَ السُّنة والجماعة؟! ويترتب علىٰ ذلك حدوثُ تقسيم بين المسلمين إلىٰ السَّلفي الذي يُمثِّل أهل السنة والجماعة، وإلىٰ عامة المسلمين الذين قد يدخلون أو لا يدخلون في هذه الدائرة من وجهة نظر هؤلاء! وينطبق هذا القول علىٰ السَّلفية الجهادية والحركيَّة مع زيادة التَّعصُّب عندهم في الانحياز لما ذكرنا سابقًا من قضايا محددةٍ تتعلَّق بالشَّريعة والحاكمية والجهاد والخروج علىٰ وُلاة الأمور والتركيز عليها، مما يجعلهم يتصوَّرون أنَّهم هم السَّلفية الحقيقية أصحاب الرُّتبة الأعلىٰ في الهرم السَّلفي.

أما ما يُمكن أنْ يُسمَّىٰ بسلفية الشُّيوخ، وهي الانتساب لشيخٍ معيَّنٍ يرون فيه أنَّه إمام أهلِ السُّنة في هذا العصر، أو علىٰ أقل تقدير يصفونه بأنه ممَّن يُرجع له في أمورِ المسلمين، فيصبح الانتماء عندهم لهذا الشَّيخ وما يصدر عنه من فتاوىٰ وآراء وما يُرجِّحه

وما يختاره من طرق في التعامل مع واقع الحياة، فيصبح هذا الشيخ محلَّ الانتماء عند هؤلاء النَّاس، فله ينتسبون وعلىٰ دربه يسيرون، وتصبح كلماته وما يراه المنهجَ الحقَّ الذي لا ينبغي العدول عنه.

وخلاصة القول: أنَّ الانتماءَ عند السَّلفية هو مفهومٌ محددٌ مسبقًا عندهم علىٰ اختلاف أطيافِهم وتنوِّع أسمائهم، فيصبح أشبه بالانتماء الحزبيِّ الذي لا يرضىٰ إلَّا بالتعصب لمبادئ الحزب وأفكارِه ومنهجِه، وينسىٰ في خضمِّ هذا كلِّه الرَّابطةَ الكُبرىٰ؛ وهي الإسلام بشموليَّته التي تسَعُ كلَّ المسلمين جميعًا علىٰ اختلاف أشكالهم وألوانهم، ولكنهم أبوا إلَّا شقَّ صف المسلمين وتهديدَ وحدتهم، وهو ما يتمناه أعداء الإسلام.

وهذا التيار يتصدر مشهده الخطابيَّ والإعلاميَّ مجموعةٌ من الدُّعاة عندهم، يتولون توجيه جموع السَّلفيَّة، وتكوين اتجاهاتهم الفكريَّة والسُّلوكيَّة، وهذا أمرٌ مشاهَدٌ ملموسٌ، فإنَّنا نجد الغالبيةَ العظمىٰ من أتباع هذا التَّيار يقتصرونَ علىٰ هذه المجموعة من الدُّعاة لا يتعدَّونهم، ينظرون إليهم علىٰ أنَّهم أهلُ العِلْمِ والإخلاصِ والعملِ للدِّين دون غيرِهم، وأنهم يمثلون أئمَّةَ أهل السُّنَّة والجماعة في هذا العصر فلا يلتفتون لغيرِهم من أهلِ العِلْم، مهما علا شأنُهم وارتفعت مكانتُهم العِلميَّةُ؛ بل ينظرون إليهم بِرِيبَةٍ وشكٍّ نحوَ فتاويهم وكُتبِهم وخُطبِهم و إرشادِهم، ويتَّهمونَهم بأنَّهم شيوخُ السُّلطان، ومن أهل البدعِ والمناهج الباطلةِ، وبالنَّظر إلىٰ الواقع من حولنا نجد هذه الطَّائفة تميز بأمور في نظرتهم للمجتمع وهي متعلقة بجوانب العلم والمعرفة:

1- ففي جانب العقائد: يرون أنَّ الأُمَّة بأخذها للمناهج الدراسية التي تُدرس في الجامعات الشَّرعية العريقة كالأزهر وغيرِه- يرونَهم علىٰ غير منهج السَّلف وليسوا من أهل السُّنَّة والجماعة؛ لأنَّهم يدرسون المنهجَ الأشعريَّ أو الماتريديَّ- الذي هو في حقيقة الأمر منهج أهل السُّنَّة والجماعة علىٰ مرِّ القرون، والذي يمثله علماءُ المذاهب الأربعة وعشراتُ الآلاف من علماء المسلمين علىٰ مرِّ السِّنين- إلا أنَّ هذا التيار السَّلفيَّ قد حصر عقيدةَ

أهل السُّنةِ والجماعةِ في مجموعةٍ من الأشخاص كابن تيميَّةَ وابنِ قيِّم الجوزيَّة يُمثلون- من وجهة نظره- الحقَّ المطلقَ.

2- وفي جانب الفقه يحاربون المذهبيَّة الفقهيَّة تلك المذاهب التي حفظت للمسلمين دينَهم على مدار السِّنين، والتي كوَّنتْ تراثًا علميًّا تفخر به أيُّ أُمَّةٍ من الأُمم المتحضرة، فنجد هؤلاء لا يقبلون تقليدَ الأئمَّة تحت زعم الأخذ بالدَّليل، فهم يظنُّونَ أنفسَهم أقدر من الأئمَّة على استخراج الحكم من الدَّليل.

3- وفي الجانب الرُّوحي والقلبي: يرفضون التَّصوف جملةً وتفصيلًا، بل يرمون أهلَ التَّصوفَ بالشِّرك وأنهم عُبَّاد للقبورِ، ولا يلتفتون إلى مصنَّفات أئمَّة المسلمينَ المعتبرينَ التي تأخذ بالتَّصوُّف وجوانبه الرُّوحية، وتحضُّ على سلوك سَبيلِه في التَّقرُّب من الله.

4- كما أنَّهم ينظرون إلى المجتمعات المسلمة على أنَّها بعيدةٌ عن الإسلام، ويرمونها بالتَّفلُّت بصورةٍ عامة؛ بل وصل الأمرُ ببعضهم إلى رمي هذه المجتمعات بالكُفر والضَّلالِ.

5- بجانب أن كثيرًا منهم لا يعترف بالحكومات القائمة على الحكم في بلاده، وينظر إليهم على أنَّهم حُكَّامٌ غيرُ شرعيين، وعليه فلا مانعَ من الخروج عليهم والاصطدام بهم، وإنما الأمر يتعلَّق بالتوقيت المناسب فقط.

وتأتي أهميَّةُ إصلاح وتقويم هذا الفِكر لأنه أصبح يُمثِّل مرجعيَّةً لكثيرٍ من المسلمين في شتَّى بلادِ الإسلامِ، الذين يعتقدون أنَّهم على الصِّراط المستقيم في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في فهمِهم للدِّين، وما يترتَّب على هذا الفهم من سُلوكيَّات وأفعالٍ وأنشطةٍ ظهرت في المجتمعات الإسلاميَّة، فهذا الفِكر السَّلفي بصورتِه الحالية مصدرٌ من مصادر تفريخ أدمغة وعقول تحمل رؤيةً واحدةً ضيقةً منغلقةً، ممَّا يجعل منها بيئةً مناسبةً لتولُّد التَّيَّارات المتشدِّدة بكافَّة صُورِها.

جـ - مفهوم الانتماء عند جماعة الإخوان المسلمينَ:

من أكثر التَّنظيمات التي يتَّضح فيها مفهومُ الانتماء الحزبيِّ هو تنظيم جماعة الإخوان المسلمين، والتي تُعتبر من أكثر الجماعات تنظيمًا وتأثيرًا في الشَّأن المصريِّ خاصة، وفي الشَّأن العربي بصفةٍ عامَّة، والذي تحول الانتماء عند مَن ينتسب إليها- والذي من المفترض أنْ يكون لدِين الله والدَّعوة إليه- إلىٰ انتماءٍ وتعصُّبٍ وتحزُّبٍ لمنهج الجماعة ولرؤية الجماعة ولبيعة مُرشدهم، وسوف نحاول استكشاف ذلك الأمر من خلال كلامِهم في رسائلِهم ومصنَّفاتهم ومنهجهم الذي يطرحونه علىٰ النَّاس، وذلك بعرض نماذجَ يتَّضح لنا منها، أين يكون ولاء وانتماء الفرد الإخواني المنتمي لهذه الجماعة؟ والذي من المفترض أن يكونَ لدين الله وليس لجماعةٍ أو فردٍ مهما بلغ شأنُه:

- يقول حسن البنا في كتابه رسالة التعاليم: ((أيُّها الإخوة الصَّادقون: أركان بيعتِنا عشر فاحفظوها: الفهم، والإخلاص، والعمل، والجهاد، والتَّضحية، والطَّاعة، والثَّبات، والتجرُّد، والإخوة، والثِّقة))[1].

- ثم يوضِّح حسن البنا المراد بالفهم من أركان بيعة الإخوان فيقول: ((إنَّما أريد بالفهم: أن توقِن بأنَّ فكرتَنا إسلاميةٌ صميمةٌ، وأنْ تفهمَ الإسلام كما نفهمه في حدود هذه الأصول العشرين...)). ثم يذكر البنا في كتابه عشرين فكرةً عن تصوُّره وفهمه للإسلام والذي سوف تلتزم به جماعةُ الإخوان[2].

- وهذه هي ألفاظ البيعة التي يُبايع بها الفرد الذي ينتمي بعدها إلىٰ الجماعة انتماءً فعليًّا، فيصبح جزءًا من كيان جماعة الإخوان المسلمين، ويقوم بتأدية الدَّور المنوط به وفقًا لمنهج هذه الجماعة ومرجعيتها، فيقول: ((أُعاهدُ الله العليَّ العظيمَ علىٰ التمسُّك بدعوة الإخوان المسلمين، والجهاد في سبيلها، والقيام بشرائط عضويَّتِها، والثِّقة التَّامة بقيادتها،

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص355)- دار الفتح للإعلام العربي.

(2) المصدر السابق نفس الصفحة.

والسَّمع والطَّاعة في المنشط والمَكْرَه، وأقسم بالله العظيم على ذلك، وأبايع عليه، والله على ما أقول وكيلٌ))[1].

فبهذا القسم الذي يتَّضح من ألفاظه: أنَّ الولاء والانتماءَ هو لجماعة الإخوان، وأنَّ الالتزام بالعمل هو في سبيلها، والثِّقة في المرشد، وإرساء مبدأ السَّمعِ والطَّاعة في سبيل الجماعة.

- ثم يفسر حسن البنا ركنَ الثِّقةِ من أركان البيعة فيقول:

((وأريد بالثِّقة: اطمئنان الجندي إلى القائد في كفاءته وإخلاصِه اطمئنانًا عميقًا ينتج الحب والتقدير والاحترام والطاعة ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

والقائد جزء من الدَّعوة، ولا دعوة بغير قيادةٍ، وعلى قدر الثِّقة المتبادلة بين القائد والجنود تكون قوةُ نظامِ الجماعةِ وإحكام خططِها ونجاحها في الوصول إلى غايتِها، وتغلُّبها على ما يعترضها من عقباتٍ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد:21].

وللقيادة في دعوة الإخوان حقُّ الوالد بالرَّابطة القلبيَّة، والأستاذ بالإفادة العلميَّةِ، والشيخ بالتَّربية الرُّوحية، والقائد بحكم السِّياسة العامَّة للدَّعوة، ودعوتنا تجمع هذه المعاني جميعًا، والثِّقة بالقيادة هي كلُّ شيءٍ في نجاح الدَّعوات؛ ولهذا يجب أن يسأل الأخ الصَّادق نفسَه هذه الأسئلة ليتعرَّف على مدى ثقته بقيادتِه:

1- هل تعرَّف إلى قائده من قبلُ ودرس ظروفَ حياتِه؟

2- هل اطمأنَّ إلى كفايته وإخلاصِه؟

3- هل هو مستعدٌّ لاعتبار الأوامر التي تصدر إليه من القيادة- في غير معصيةٍ- طبعًا

(1) مادة (4) من اللائحة الداخلية لجماعة الإخوان المسلمين عام 1948م.

قاطعًا لا مجالَ فيها للجدل ولا للتردد ولا للانتقاص، ولا للتحوير، مع إبداء النَّصيحة والتنبيه إلىٰ الصواب؟

4- هل هو مُستعدٌّ لأن يفترض في نفسِه الخطأَ وفي القيادة الصَّوابَ إذا تعارض ما أُمِر به مع ما تعلَّم في المسائل الاجتهاديَّة التي لم يرد فيها نصٌّ شرعيٌّ؟

5- هل هو مستعدٌّ لوضع ظروفه الحيويَّة تحت تصرف الدَّعوة؟ وهل تملك القيادة في نظره حقَّ التَّرجيح بين مصلحتِه الخاصَّةِ ومصلحة الدَّعوةِ العامَّةِ؟

بالإجابة عن هذه الأمثلة وأشباهِها يستطيع الأخُ الصَّادق أنْ يطمئن علىٰ مدىٰ صلتِه بالقائد وثقته به، والقلوبُ بيد الله يصرِّفها كيف يشاء))[1].

- ثم يضع حسن البنا واجبات توجبها البيعة علىٰ الأخ الصادق أن يؤديها فمنها:

1- أن تستصحب دائمًا نيَّةَ الجهادِ، وحُبَّ الشَّهادة، وأنْ تستعدَّ لذلك ما وسعك الاستعدادُ.

2- أن تعرفَ أعضاءَ كتيبتك فردًا فردًا معرفةً تامَّةً، وتعرفهم نفسَك معرفةً تامَّةً كذلك، وتؤدي حقوقَ أخوتهم كاملةً من الحبِّ والتقدير والمساعدة والإيثارِ، وأنْ تحضر اجتماعاتِهم فلا تتخلف عنها إلا بعذرٍ قاهرٍ، وتُؤثرهم بمعاملتِك.

3- أنْ تتخلَّىٰ عن صلتِك بأية هيئةٍ أو جماعةٍ لا يكون الاتِّصال بها في مصلحة فكرتِك، وخاصة إذا أُمرتَ بذلك.

4- أن تعملَ علىٰ نشر دعوتِك في كلِّ مكان، وأنْ تُحيط القيادةَ علمًا بكلِّ ظروفِك، ولا تقدم علىٰ عملٍ يؤثِّر فيها جوهريًّا إلَّا بإذن، وأن تكون دائمَ الاتصال الرُّوحي والعملي بها، وأن تعتبرَ نفسَك دائمًا جنديًّا في الثَّكنة تنتظر الأوامرَ))[2].

---

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص367).

(2) المصدر السابق نفس الصفحة.

- ولمعرفة مدىٰ تأثُّر واقتناع العضو الإخواني بفِكر جماعتِه، يقول صلاح شادي- وهو من المنتمين إلىٰ جماعة الإخوان في سنواتها الأولىٰ: «الانتماء إلىٰ الإخوان المسلمين له مفهومٌ خاصٌّ يخالف الانتماءات الأخرىٰ للأحزاب التي كانت تحكم مصر» ثم يذكر بعد ذلك أركانَ البيعة فيقول: «أركان هذه البيعة العشرة وهي: الفهم، والإخلاص، والعمل، والجهاد، والتضحية، والطاعة، والثبات، والتجرد، والأخوة، والثقة. وعلىٰ هذه الأصول العشرة تقوم البيعةُ، فإذا تمَّ هذا أدرك الأخ حقيقةَ الرِّباط بينه وبين الجماعة، وأنَّه لا يتصوره جلبابًا يخلعه، وإنَّما هو عهدٌ وموثَّقٌ ورباط، مَن خانه فقد خان عهدَ الله، ومَن نكثَ فإنَّما ينكثُ علىٰ نفسِه»[1].

- ويتضح جانبٌ من جوانب الانتماء عند هذه الجماعة عند حديثِهم عن منزلة المُرشد في جماعة الإخوان المسلمين، حيث تحظىٰ مرتبة المرشد في جماعة الإخوان بمنزلةٍ كبيرةٍ جدًّا تقترب من التَّقديس، بحيث وضع لهذا المنصب هالة كبيرة من الإجلال والتَّقدير عند أبناء الجماعة.

وحظي حسن البنا بالنصيب الأكبرِ من هذه الهالة التَّقديسية، فحظيت شخصية حسن البنا عند مؤلفي الإخوان وقادتهم باهتمامٍ كبيرٍ- حتىٰ بين مَن تولوا منصب الإرشاد بعد ذلك- سواء من ناحية الكتابة عنه، أو تحليل مواقفه واستلهام خطواته، ومن ذلك:

- في كتاب ذكريات لا مُذكِّرات تحت عنوان عبقرية حسن البنا يقول عمر التلمساني: «وكما يحدث في كلِّ جماعةٍ أو حزبٍ أو مجتمعٍ، فقد كان لبعض الإخوان آراءٌ واقتراحاتٌ تتعارض مع فريقٍ آخر، ولكني بحمد الله كنتُ بعيدًا عن هذه الخلافات كلِّها، وكنت أرىٰ وأسمع وأُفكِّر بعين فضيلتِه وآذانِه وعقلِه؛ لثقتي المطلقة في صواب

---

(1) صفحات من التاريخ (الإخوان المسلمين وسنوات الحصاد) لصلاح شادي (ص 100).

كلِّ ما يَرىٰ، وقد يكون في هذا شيءٌ من الخطأ أو إلغاء الشَّخصية عند بعضِ الناس؛ ولكنني كنتُ معه كالميت بين يدي مغسله! وكنتُ سعيدًا بهذا كل السَّعادة! وللحقيقة فقد كانت مكانة الإمام الشَّهيد والإمام الهضيبي فوقَ كلِّ مكانة في جماعة الإخوان المسلمين، فما تمرَّد عليهما أحدٌ اعتدادًا بمكانته إلَّا وكان مصيره النبذَ والإبعادَ، وتلك من مميِّزات جماعة الإخوان الطَّاعة المُطلقة لمرشدِهم في غير معصيةٍ))[1].

- ويقول سعيد حوىٰ: ((ولا نعلم أنَّه من بين خَلق الله مَن فطن لهذا كُلِّه من شروط قيام أو إقامة جماعة المسلمين، كما فطن إلىٰ مجموع ما يلزم لتحقيق الجماعة الإسلامية أهدافها علىٰ كل مستوىٰ من صياغة للسلم، إلىٰ إقامة للدولة المسلمة في كلِّ قطر، إلىٰ الوصول للدَّولة الإسلامية العالمية كحسن البنا))[2].

ويقول أيضًا: ((ثم إنَّه نبتت هنا وهناك أفكارٌ مريضةٌ تريد أنْ تتخلصَ من دعوة حسن البنا، ومن أفكارِه، فكان لابد أنْ يعرف هؤلاء وغيرُهم أنَّ الانطلاقةَ علىٰ غير فِكْرِ الأستاذ البنا في عصرِنا قاصرةٌ أو مستحيلةٌ أو عمياءُ إذا ما أردنا عملًا متكاملًا في خدمة الإسلامِ والمسلمين))[3].

ويقول في كتابه: جولات في الفقهيْن الكبير والأكبر: ((إنَّ حسن البنا من بين خلق الله في هذا العصر استطاع أن يوجد القاسم المشترك الوحيد الذي يمكن أن يلتقي عليه المسلمون ويقوم لهم به صفٌّ واحدٌ دون أن يتخلىٰ عن شيءٍ من الحقِّ الذي أنزله الله عز وجل وكل ذلك في بابه عجيبٌ لا يتم إلا بتوفيق))[4].

---

(1) ذكريات لا مذكرات عمر التلمساني (ص56) دار الاعتصام.

(2) من أجل خطوة إلىٰ الأمام علىٰ طريق الجهاد المبارك (ص29) لسعيد حوىٰ- مكتبة وهبة- القاهرة- الطَّبعة الثانية 1979م.

(3) آفاق التعاليم دراسة في آفاق دعوة الأستاذ البنا (ص5) مكتبة وهبة.

(4) جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما (ص65) دار عمار - بيروت - 1988م.

- ويقول أيضًا في كتابه: آفاق التعليم: ((ولكن الأيَّام ستكشف- والله أعلم- أنَّه لن تستطيعَ الحركة الإسلاميَّةُ، ولا في طورٍ من أطوارها- سواء قبل الدعوة أو بعدها، أو في السِّياسة الداخلية، أو في السِّياسة الخارجية للدَّولة الإسلاميَّة، أو في التَّربية، أو في التَّكوين، أو في الإستراتيجية والحركة- أنْ تستغنيَ عن فِكر الأستاذ البنا))(1).

- ويقول أيضًا في كتابه: المدخل إلىٰ دعوة الإخوان المسلمين: ((إنَّ نقطة البداية في الثِّقة المُطلقة بالإسلام ترجع إلىٰ الثِّقة بشخص رسولِ الله ﷺ، ونقطة البداية في الثِّقة المُطلقةِ بدعوة الإخوان المسلمين ترجع إلىٰ الثِّقة بشخص حسن البنا رحمه الله، ولقد أخذنا هذه الثِّقةَ ووضعناها عمَّن لهم أمثال الجبال في الثِّقة، منهم شيخنا محمد الحامد رحمه الله الذي كان يعتبر حسن البنا مجدد القرون السَّبعة الماضية، وليس مُجدِّدًا لقرن واحد والذي كان يعتبر حسن البنا قد وصل إلىٰ رتبة الاجتهاد، مع أن الشيخ الحامد- رحمه الله- كان لا يسلِّم أنَّ الأمة قد وجد فيها مجتهدون منذ عشرة قرون، وكل ذلك عن تجربة شخصية مع حسن البنا- رحمه الله- وكان يعتبر حسن البنا هو الوحيد الذي أعطته النفس مقاليد القيادة كاملة))(2).

- ويقول سعيد حوىٰ: ((إنَّ المسلمين ليس أمامهم إلا فكر الأستاذ البنا إذا ما أرادوا الانطلاقَ الصَّحيحَ))(3).

ويقول محمود عبدالحليم في كتابه: الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ- وهو يصف حسن البنا: ((لقد كنت أحار في تصوُّر قول أم المؤمنين عائشة ﵂ عن رسول الله ﷺ: ((إنَّه كان خُلُقُه القرآنَ))(4) حتىٰ لقيتُ حسن البنا وصاحبتُه، فبدت الصُّورة

(1) آفاق التعليم (ص13).

(2) المدخل إلىٰ دعوة الإخوان المسلمين (ص186) سعيد حوىٰ- مكتبة وهبة- القاهرة 1984 م.

(3) آفاق التعليم (ص5).

(4) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (746) مطولًا، وفيه: ((فإن خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ)).

تـتضَّح أمـامـي))[1].

وينقل ثروت الخرباوي عن عمر التِّلِمْسَاني قوله: ((لما كان الأمرُ أمرَ تجميع وتكوين وتوحيد مفاهيم أُمَّةٍ مسلمةٍ، ولما كان الأمرُ عودةَ المسلمين إلىٰ الإيمان- لما كان الأمر كذلك اختار الله لهذه الدَّعوة إمامها الشَّهيد حسن البنا))[2].

- ويقول كامل شافعي- وهو من الجيل الأول للإخوان عن حاله عندما كان يُقبل يد الأستاذ حسن البنا: ((لقد كنتُ أُقبل يديه، وأشعر حين تقبيلها أنني أعبد الله!))[3].

فهذه صورةٌ من صور المغالاة في الانتماء والتَّقديس من قِبَلِ أشخاصٍ قد بلغوا درجةً من العِلِم والفقه في الدِّين، فكيف بعامَّة أفراد الجماعة؟! وإلىٰ أيِّ مدىٰ بلغت درجة تعصُّبهم وانتمائهم لقادتهم وجماعتهم؟!

فما سبق كان عبارة عن إلقاء الضوء علىٰ واقع منهجين من أكبر المناهج الموجودة في العالم الإسلامي اليوم، وكان لابد من هذا الاستقراء؛ لأنَّه قد خرج من هذين المنهَجين جميعُ التَّيارات الأخرىٰ، التي تزعم الانتسابَ إلىٰ العمل الإسلامي بشتَّىٰ صورها الفكرية والحركية والسياسية والجهادية، وحتىٰ التَّيارات التَّكفيرية الدَّموية خرجت من عباءة هذين المنهجين، فهما يُمثِّلان المرجعيَّةَ الفكريَّةَ لقيام كافة الحركات والجماعات التي شقَّت بلادَ الإسلامِ وقسَّمت المسلمين، فكان لابد من معرفة الإطار الفكري لهما كتقدمةٍ ومدخلٍ مهمٍّ لمسألة جماعة المسلمين في شريعة الإسلام، ومفهوم جماعة المسلمين عند هذه التَّيارات. ◆

---

(1) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ (1/187) محمود عبدالحليم — دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع — الطبعة الخامسة 1994 م.

(2) أئمة الشر (ص184) ثروت الخرباوي- دار نهضة مصر - الطبعة الأولىٰ 2013م.

(3) حسن البنا بأقلام تلاميذه ومعاصريه - لجابر رزق (ص156).

مفهوم الجماعة في الشَّريعة الإسلامية

إنَّ النصوصَ الشَّرعيَّةَ من كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِ الله، وما فهمه أهل العلم منها يوضح أنَّ مَن شهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، ولم ينقض هذه الشَّهادة بناقضٍ- فقد دخل بذلك داخلَ دائرة جماعة المسلمين، وأصبح من أهل السُّنَّة والجماعة بهذه الشَّهادة ما دام متمسِّكًا بأركان الإسلام وأصوله، غير متلبِّس ببدعةٍ في أصول العقيدة، وهذا موجودٌ بفضل الله عند الغالبية العُظمىٰ من المسلمين لم يشذَّ عن ذلك إلَّا طوائفُ من المبتدعة في باب الاعتقاد الذين خرجوا عن دائرة أهل السُّنة والجماعة، وإنْ كانوا لم يخرجوا من دين الإسلام.

فمفهوم الجماعة في الإسلام هو السواد الأعظم من أُمَّة الإسلام علىٰ اختلاف طوائفهم وأعراقهم وأجناسهم وبلادهم، الذين وقر في قلوبهم أصولُ الدِّين من معرفة الله وتوحيدِه والإيمانِ بأركان الإسلامِ علىٰ الجُملة ولم يتلبسوا ببدعة في المعتقد، فأخصُّ خصائص الأُمَّةِ المحمَّدية أنَّها أمةٌ واحدةٌ، وحدتها واجبةٌ بنصِّ كتاب ربِّها، لا شقَّ بين صفوف أفرادِها تحت أيِّ مُسمًّىٰ، ومفهوم الجماعة متسعٌ ليشمل عمومَ المسلمين دون حصرِه في تجمّع أو تيارٍ بعينِه.

- ولفظة الجماعة لم ترد نصًّا في كتاب الله، وإنَّما ورد ما عبر عنها وعن وحدة الأُمَّة مثل:

- ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ [المؤمنون:52].

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَىٰ اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِين﴾ [فُصِّلَت:33].

- ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ [الأنعام:153].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿102﴾ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:102-103].

- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:110].

- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:143].

- ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:115].

- ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:92].

- ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿31﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:31-32].

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:159].

- ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:46].

- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيب﴾ [الشورىٰ:13].

- ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِير﴾ [الحج:78].

فهذه آياتٌ من كتاب الله سبحانه وتعالىٰ تتحدث عن أمر الأُمَّةِ المحمَّديَّةِ متضمنةً الإخبارَ والوصفَ لهذه الأُمَّة والإرشادَ والأمرَ لها بالاعتصام بأمر الله، والتَّوحُّد وعدم الاختلاف، وأنَّ هذه الأُمَّة أمةٌ واحدة وليست شيعًا وأحزابًا مختلفة السُّبل، وأنَّها أُمة المسلمين، ولم يَدْعُها باسمٍ آخرَ، فقد تضمَّنت هذه الآياتُ وصفَ الحالِ، والأمرَ بلزوم الأسبابِ المؤدِّية له، وهو طاعة الله ورسوله.

- ثم تأتي بعد ذلك السُّنة النَّبوية الشَّريفة التي تبين ما أجملَه القرآن الكريم وترشد الأُمَّة إلىٰ طريق وحدتها:

1- فقد روىٰ الترمذي وغيرُه من حديث الحارث الأشعري ﵁ قولَ النبي ﷺ في حديث طويل: ((وأنا آمركم بخمسٍ الله أمرني بهنَّ، السَّمع والطَّاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنَّه مَن فارق الجماعةَ قِيدَ شبرٍ فقد خلع رِبْقةَ الإسلامِ من عُنقه إلا أنْ يرجعَ، ومن ادَّعىٰ دعوىٰ الجاهليَّةِ فإنَّه من جُثا جهنم[1])) فقال رجلٌ: يا رسولَ الله وإنْ صلَّىٰ وصام؟ قال: ((وإنْ صلَّىٰ وصامَ، فادعوا بدعوىٰ الله الذي سمَّاكم المسلمينَ المؤمنينَ، عباد الله))[2].

---

(1) جثا جهنم: من جماعات جهنم. انظر: مرقاة المفاتيح للملا علي القاري (2407/6).

(2) جزء من حديث أخرجه الترمذي في كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة

2- وجاء عن النبيِّ ﷺ فيما رواه أحمد في مسنده من حديث النُّعمان بن بشير مرفوعًا: ((الجماعةُ رحمةٌ والفُرقةُ عذابٌ))[1].

3- وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أنْ تعبدوه ولا تُشركوا به شيئًا، وأنْ تعتصموا بحبلِ الله جميعًا ولا تفرَّقوا، ويَكْرَهُ لكم قيل وقال، وكثرةَ السُّؤال، وإضاعةَ المالِ))[2].

4- وعن عَرْفَجَةَ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ[3] وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أرادَ أنْ يُفَرِّقَ أمرَ هذه الأُمَّةِ وهي جميعٌ فاضربُوهُ بالسَّيفِ كائِنًا مَنْ كانَ))[4].

5- وروى الترمذي عن عمر رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((عَليكُم بالجماعةِ وإيَّاكم والفُرْقَةَ، فإنَّ الشَّيطانَ مع الواحدِ وهو من الاثنينِ أبعدُ، مَن أرادَ بُحْبُوحَةَ الجنَّةِ فليلزمُ الجماعةَ، مَن سَرَّتْهُ حسنتُه وساءته سيِّئَتُهُ فذلكَ المؤمنُ))[5].

=

(2863)، وأحمد في مسنده (4/202)، وابن خزيمة في صحيحه (1895)، وابن حبان في صحيحه (6233)، والحاكم في مستدركه (1/421) من طريق يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام أن أبا سلام حدثه أن الحارث الأشعري رضي الله عنه به مرفوعًا.

وقال الترمذي: ((حسن صحيح غريب)). وقال الحاكم: ((صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)) ووافقه الذهبي.

(1) أخرجه أحمد في مسنده (4/278)، وابن أبي عاصم في السنة (895) من طريق يونس بن محمد عن أبي وكيع عن القاسم بن الوليد عن الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما به مرفوعًا. وقال العجلوني في كشف الخفاء (1/333): ((وسنده ضعيف؛ لكن له شواهد)). وهذه الشواهد يأتي تخريجها قريبًا.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة... (1715).

(3) هنات: أي شرور وفسادات متتابعة خارجة عن السُّنَّة والجماعة، والمراد بها الفتن المتوالية. انظر: مرقاة المفاتيح (6/2399).

(4) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب حكم من فرَّق أمر المسلمين وهو مجتمع (1852).

(5) جزء من حديث أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (2165)، وأحمد في مسنده (1/ 18)، وابن حبان في صحيحه (7254)، والحاكم في مستدركه (1/ 113) من طريق محمد بن سوقة عن عبدالله

6- وروىٰ الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النَّبي ﷺ أنه قال: ((يَدُ الله مع الجماعةِ))[1].

7- وروىٰ أحمد وغيره عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: خَطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطًّا، ثم قال: ((هذا سبيلُ الله)) ثم خطَّ خطوطًا عن يمينِه وعن شمالِه، ثم قال: ((هذه سبلٌ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه)) ، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ [الأنعام:153]))[2].

8- وروىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((مَن خرجَ منَ الطَّاعةِ وفارقَ الجماعةَ فمات ماتَ مِيتَةً جاهليَّةً، ومَن قاتلَ تحت رايةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لعَصَبَةٍ، أو يدعو إلىٰ عَصَبَةٍ، أو ينصرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جاهليَّةٌ، ومَن خرجَ علىٰ أُمَّتي يضربُ بَرَّهَا وفاجرَهَا، ولا يتحاشىٰ من مُؤْمِنِهَا، ولا يفي لذي عَهْدٍ عَهْدَهُ فليس مِنِّي ولستُ منه))[3].

9- في الصحيحين من حديث حُذَيْفَةَ بن اليمانِ رضي الله عنه قال: كان النَّاس يسألونَ رسولَ الله ﷺ عن الخيرِ وكنتُ أسأله عن الشَّرِّ مخافةَ أنْ يُدركَني، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّا كنَّا في جاهليةٍ وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخيرِ، فهل بعد هذا الخير شرٌّ؟ قال: ((نَعَمْ)) فقلتُ: هل

ابن دينار عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية به مرفوعًا.

وقال الترمذي: ((حسن صحيح غريب)). وقال الحاكم: ((صحيح علىٰ شرط الشَّيخين)) ووافقه الذهبي.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (2166)، والحاكم في مستدركه (116/1) من طريق عبدالرزاق قال: أخبرنا إبراهيم بن ميمون عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما به مرفوعًا.

وقال الترمذي: ((حسن غريب)). وقال الحاكم: ((إبراهيم بن ميمون قد عدله عبدالرزاق وأثنىٰ عليه، وعبدالرزاق إمام أهل اليمن وتعديله حجة)). ووافقه الذهبي.

(2) أخرجه الطيالسي في مسنده (241)، وأحمد في مسنده (435/1)، والدارمي في سننه (208)، والبزار في مسنده (1718)، والنسائي في الكبرىٰ (11109)، وابن حبان في صحيحه (6)، والحاكم في مستدركه (318/2) من طريق حماد بن زيد حدثنا عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه به مرفوعًا.

وقال الحاكم: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)) ووافقه الذهبي.

(3) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج علىٰ الطاعة ومفارقة الجماعة (1848).

بعدَ ذلك الشَّرِّ من خيرٍ؟ قال: ((نَعَمْ، وفيه دَخَنٌ)) قلتُ: وما دَخَنُهُ؟ قال: ((قومٌ يستنُّونَ بغير سُنَّتي ويهدون بغير هَديي، تعرفُ منهم وتُنكر)) فقلت: هل بعد ذلك الخيرِ من شرٍّ؟ قال: ((نَعَمْ، دُعاةٌ على أبواب جهنَّمَ مَن أجابَهم إليها قذفوه فيها)) فقلتُ: يا رسولَ الله صِفهم لنا، قال: ((نَعَمْ، قومٌ من جِلْدَتِنَا ويتكلَّمونَ بألسِنَتِنا))، قلت: يا رسولَ الله، فما ترى إنْ أدركني ذلك؟ قال: ((تَلْزَمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهم)) فقلتُ: فإنْ لم تكنْ لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: ((فاعتزِلْ تلكَ الفِرَقَ كُلَّها، ولو أنْ تعضَّ على أصل شجرةٍ حتَّى يُدركك الموتُ وأنتَ على ذلك))[1].

10- وروى الترمذي في سُننه عن عبدالله بن عمرَ رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّ اللهَ لَا يَجْمَعُ أمَّتِي- أو قال- أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم على ضلالةٍ، ويدُ الله مع الجماعةِ، ومَنْ شَذَّ شَذَّ إلى النَّارِ))[2].

11- ورَوَى أحمد في مسنده عن ابن عمرَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: ((مَن نزع يدًا من طاعة الله فإنَّه يأتي يومَ القيامة لا حُجَّةَ له، ومَن ماتَ وهو مفارقٌ للجماعة، فإنَّه يموت مِيتةً جاهليَّةً))[3].

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (7084)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال... (1847).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في وجوب لزوم الجماعة (2167)، والحاكم في مستدركه (1/ 115) من طريق المعتمر بن سليمان قال: حدثنا سليمان المدني عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر به مرفوعًا. وقال الترمذي: ((حديث غريب من هذا الوجه)).

والحديث ذكره الشيخ عبدالله الصديق الغماري في إتحاف ذوي الفضائل المشتهرة ملحق بالأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة (ص116) - مطبعة دار التأليف.

(3) أخرجه أحمد في مسنده (83/2) من طريق عبدالملك حدثنا هشام يعني ابن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر به مرفوعًا.

وأصله عند مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال... (1851) بلفظ: ((مَن خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حُجَّةَ له، ومَن مات وليس في عنقه بيعةٌ مات ميتة جاهلية)).

12- روى ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((إنَّ بني إسرائيل افترقتْ على إحدى وسبعينَ فرقةً، وإنَّ أُمَّتي ستفترِقُ على ثِنتين وسبعينَ فرقةً، كلُّها في النَّار إلَّا واحدةً، وهي الجماعةُ))[1].

13- روى أيضًا بسنده عن أنس ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((إنَّ أُمَّتي لن تجتمعَ على ضلالةٍ، فإذا رأيتم الاختلافَ فعليكم بالسَّوادِ الأعظمِ))[2].

فهذه طائفةٌ من أقوال رسولِ الله ﷺ يوضِّح ويبيِّن فيها لأُمَّته أمرَ فلاحِها وهدايتِها واستقامتها على طريق الخيرِ والنَّجاح، والمحافظة على وجودِها وقوَّتِها، وليس بعد كلامِ رسولِ الله كلامٌ، وليس بعد بيانِه صلواتُ الله وسلامُه عليه بيانٌ، فقد أوضحَ الأمورَ التي تحفظ سلامةَ أُمَّته فأمر بالجماعة والاجتماع وعدم التَّفرُّقِ، وبيَّن أنَّ الله قد عصم الأُمَّةَ المحمَّديةَ من أن تجتمعَ على الضَّلال، فما يجتمع عليه السَّواد الأعظمُ من المسلمين فهو معصومٌ من أن يكون ضلالًا، فهم الجماعة وهم مَن يمثِّلونَ الأُمَّةَ المحمَّديةَ، لا مَن شذَّ عنهم.

كذلك بيَّن ﷺ أنَّ يدَ الله مع الجماعة، وأنَّ سبيل الأُمَّة واحدٌ، وهو ما كان عليه سوادُ المسلمين وعامَّتُهم، وأنَّ غير ذلك هي سُبل الشَّيطان، وحضَّ صلوات الله وسلامُه عليه على الطَّاعة وحذَّر من مخالفة وُلاة الأمر بما يكفل للمسلمين انتظامَ حالِهم ومعيشتهم،

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (3993)، وابن أبي عاصم في السُّنة (64) من طريق هشام بن عمار ثنا الوليد بن مسلم ثنا الأوزاعي ثنا قتادة عن أنس به مرفوعًا.

وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (4/180): ((إسناد صحيح رجاله ثقات)).

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب السواد الأعظم (3950)، وعبد بن حميد في مسنده (1220) من طريق معان بن رفاعة السلامي قال: حدثني أبو خلف الأعمى قال: سمعت أنس به مرفوعًا.

وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (4/169): ((إسناد ضعيف لضعف أبي خلف الأعمي واسمه حازم بن عطار... وقد روي هذا الحديث من حديث أبي ذر وأبي مالك الأشعري وابن عمر وأبي نصرة وقدامة بن عبدالله الكلابي، وفي كلها نظرٌ قاله شيخنا العراقي رحمه الله)).

لكن الشطر الأول: ((إنَّ أُمَّتي لن تجتمعَ على ضلالةٍ)) هو من المتواتر كما تقدم تخريجه قريبًا.

وأمر بطاعتهم إلا فيما يُغضب الله سبحانه وتعالىٰ، فكلُّ تحزُّب وتفرُّق تقوم به مجموعةٌ أو هيئةٌ يؤدِّي في نهاية المطاف إلىٰ تفرُّق الأُمَّة الإسلاميَّة وتشتُّتِ شملِها، وهذا هو المُشاهَد المحسوس في الأزمنة المعاصرة، وهو أنَّه ما من جماعةٍ أو هيئةٍ قامت أو انتمت لفكرٍ معيَّنٍ إلا وكانت سببًا للنِّزاع وللفُرقة والتَّشويش علىٰ حياةِ النَّاس وعباداتِهم ومعاملاتِهم بل وعقائدِهم، وكانت أداةً لتصنيف المسلمين بين سُنِّي وبدعي، وداخل في أهل السُّنَّة والجماعة وخارجٍ عنها، ولم يقدموا للنَّاس شيئًا في أمرِ دينِهم ولا دُنياهم؛ بسبب ما وَقَرَ في عقولِهم أنَّ الأُمَّةَ في ضلالٍ، وأنَّهم المؤهَّلونَ وحدهم للقيام بهداية النَّاسِ! مع أنَّ كلامَ رسولِ الله ﷺ السابق ذِكْره واضح البيان في أنَّ مَن شَذَّ شذَّ في النار - وهو يَنطبِقُ علىٰ كثيرٍ منهم لتفريقِهم أمرَ الأُمَّة فكريًّا وعقديًّا وعمليًّا.

كيفيَّة ثبوت عقد الإسلام للأشخاص

وقبل التَّعرُّض لكلام أهل العلم في تلك الجماعات نوضِّح أمرًا في غاية الأهميَّة وهو: بِمَ يثبت عقدُ الإسلام للشَّخص؟ وكيف يدخل في دِين الإسلام؟ وبالتَّالي يدخل في جماعة المسلمين فيصير له ما لهم وعليه ما عليهم، وهل يستلزم ذلك قيامَه بالانتماء إلىٰ منهجٍ معيَّنٍ أو فكرٍ معيَّنٍ أو مجموعةٍ ما ليكون مسلمًا من جماعة المسلمين؟ وكيف كان هذا الأمر علىٰ عهد رسول الله؟ وكيف كان يقبل دخولَ النَّاس إلىٰ جماعة المسلمين؟ فهذا الأمر مع بساطتِه وسهولتِه هو القاعدةُ التي ينطلق منها أيُّ كلامٍ عن أيِّ طائفةٍ انتسبت للإسلام وحملَت أفكارًا دخيلةً عليه، وهو الحصانة التي تردُّ أيَّ دعوىٰ تستبيح تكفيرَ المسلمينَ أو استحلالَ أموالِهم وأعراضِهم ودمائهم تحت دعوىٰ خروجهم من الدِّين، أو تختصُّ نفسَها بأنَّها جماعة المسلمين دون السَّوادِ الأعظمِ لأُمَّة الإسلام، وهذا الأمر لو تمَّ فهمُه فهمًا جيدًا، وتمَّ استيعابُ الكلام فيه مِن كلام الله سبحانه وتعالىٰ ومِن سُنَّة رسول الله ﷺ ومِن أقوال سلف الأُمَّة الصَّالح وعلمائها وأئمَّة المذاهب المعتبرة عند المسلمين، وتمَّ

تطبيق هذا الفهم وما يحويه، وتمَّ العمل بناءً علىٰ هذا الفهم- لتمَّ إغلاقُ كثيرٍ من أبواب الشُّرورِ الفكريَّة التي تسلَّلت إلىٰ عقول طوائفَ مِنَ الأُمَّة ونتج عنها مِنَ الفتن والدِّماء أشياء كثيرة.

وقد يقول قائل: إنَّ هذا الأمر مشهورٌ عند المسلمينَ ليس بحاجةٍ إلىٰ بيانٍ. فنقول له: نعم هو يسير وسهلٌ استيعابه في قلب كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ، ولكن ما يعكر هذا اليُسر دخول أفكار مِنَ اليمين واليسار إلىٰ هذا الأمر لا تستند إلىٰ كتابٍ أو سُنَّةٍ أو عقلٍ ينتج عنها تشويشُ الصُّورة في ذهن المسلمين مِن ناحية تشكيك النَّاس في دينهم، وأنَّ الحَقَّ هو كذا وكذا مِن الأفكار والمبادئ التي لا أصلَ لها في الدِّين والشَّريعة، والتي تكون البذرة لظهور أُطروحات فكريَّةٍ ومرجعيَّةٍ باطلةٍ هدَّامة ينتج عنها سلوكياتٌ وأفعالٌ ضد الدِّين الإسلامي، وهذه الأطروحات تُفعَل باسم الدِّين وتُعرَض للنَّاس علىٰ أنَّها مِنَ الدِّين، وأنَّ مَن لا يحمل هذه المرجعيَّةَ ويعمل بمقتضاها ليس مِنَ المسلمينَ، فيقع المرءُ في حيرةٍ مِن أمرِه أينَ الحقُّ؟ وما هو الطريق؟ أو ينتج مِن عدم وضوح هذا الأمرِ- أي أمر ثبوت الإسلام والدخول فيه- أنْ تعتقدَ طائفةٌ مِنَ النَّاس أنَّ هذه الأفعال والأفكار والسُّلوكيات الباطلة الخبيثة هي حقيقة الدِّين، وأنَّ الدين في جوهره يدعو إلىٰ ذلك فيَكْفرونَ بهذا الدِّين.

ولنجعل الكلام عن المدخل لبيان أمر الإسلام والإيمان به لإمامٍ مِن أئمَّة المسلمين مِن أهل السُّنة والجماعة هو: الشَّيخ الإمام أبو جعفرٍ أحمدُ بن محمَّد بن سلامةَ الطَّحاوي في رسالته الهامة والمعروفة باسم: «العقيدة الطحاوية» وهي متنٌ جمع فيه الشَّيخ رحمه الله عقائدَ أهل السُّنَّة والجماعة، وقد تلقَّت الأُمَّة وعلماؤها هذه العقيدة بالقبول؛ لما احتوت

عليه من جامع البيان لعقائد دِين الإسلام حيث قال فيها: ((ونُسمِّي أهلَ قبلتنا مسلمينَ مؤمنينَ ما داموا بما جاء به النَّبيُّ ﷺ معترفينَ، وله بكلِّ ما قاله وأخبر مصدِّقين))[1].

فكل إنسانٍ صدَّق برسول الله ﷺ وبرسالتِه ونطقَ بالشَّهادتين، فقد ثبتَ له عَقْدُ الإسلام ودخوله فيه، وأصبح مِن أُمَّة الرَّسول ﷺ، فَمَن صدَّق وشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وأيقن بقلبِه وأعلن ذلك بلسانِه فقد صار منَ المسلمين ودخل دِين الإسلام، ثُمَّ يُطالب بعد ذلك بالصَّلاة وما سواها من فروض الدِّين.

فهذا رسول الله ﷺ لَمَّا بعث معاذًا إلىٰ اليمن قال له: ((ادعُهم إلىٰ شَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا الله وأنِّي رسولُ الله، فإنْ هم أطاعُوا لذلكَ فأَعْلِمْهم أنَّ الله قد افترَض عليهم خمسَ صَلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فإنْ هم أطاعُوا لذلكَ فأَعْلِمْهم أنَّ الله افترَض عليهم صدقةً في أموالهم تُؤخَذ من أغنيائِهم وتُردُّ علىٰ فُقرائِهم))[2].

وفي حديث جبريل المشهور: يا محمَّدُ، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسولُ الله ﷺ: ((الإسلامُ أنْ تشهدَ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتحجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليه سبيلًا)) قال: صدقتَ، فعجبنا له يسأله ويصدقُه، قال: فأخبِرْنِي عن الإيمان؟ قال: ((أنْ تُؤْمنَ بالله وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخرِ، وتُؤمنَ بالقَدَرِ خيرِه وشَرِّه))[3].

روىٰ مسلم عن أبي الحكم السُّلمي- وهو يخبر رسول الله ﷺ عن أمور ويسأله عن أشياء- قال: وكانت لي جاريةٌ ترعىٰ غنمًا لي قِبَل أُحُدٍ والجَوَّانيَّة، فاطلعتُ ذات يومٍ فإذا

---

(1) متن العقيدة الطحاوية (ص9) المكتب الإسلامي – بيروت.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (1395)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلىٰ الشهادتين وشرائع الإسلام (19).

(3) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدَر الله سبحانه وتعالىٰ (8).

الذِّئب قد ذهب بشاةٍ مِن غنمها وأنا رجلٌ مِن بني آدم آسف كما يأسفون؛ لكنِّي صَكَكْتُها صَكَّةً، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فعظم ذلك عليَّ، قلتُ يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: ((ائْتِنِي بِهَا)) فأتيتُه بها، فقال لها: ((أَينَ اللّٰه؟)) قالت: في السَّماء. قال: ((مَنْ أَنا؟)) قالت: أنتَ رسولُ الله. قال: ((أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ))[1].

وفي الصحيحين عن أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سريَّةٍ فصبحنا الحُرَقاتِ من جُهينة، فأدركتُ رجلًا فقال: لا إله إلا الله، فطعنتُه، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتُه للنبيِّ ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ((أَقالَ لا إلهَ إلا الله وَقَتَلْتَهُ؟)) قال: قلتُ: يا رسولَ الله إنَّما قالها خوفًا مِنَ السِّلاح. قال: ((أَفَلَا شققتَ عن قلبِه حتىٰ تعلمَ أقالها أم لا؟)) فما زال يُكرِّرُها عليَّ حتىٰ تمنيَّتُ أنِّي أسلمتُ يومئذٍ[2].

فهذه أحاديث النبيِّ ﷺ صاحبِ الشَّريعة ومُبيِّن أمرها توضِّح أنَّ الإسلامَ يثبت للنَّاس بمجرَّد نُطقِهم للشَّهادة، فيصحبوا بذلك معصومي الدَّم والمال، ويكون لهم جميعُ حقوق المسلمين وواجباتِهم.

ولنذكر طرقًا مِن أقوال أهل العِلم في هذه المسألة:

ذكر الفقهاء أنَّ هناك طرقًا ثلاثةً يُحكَم بها علىٰ الشَّخص في كونه مسلمًا وهي: النصُّ، والتَّبعيَّة، والدلالة.

أمَّا النَّص: فهو أن يأتيَ بالشَّهادتين صريحًا، وما يقوم مقامَ النُّطق كالتبرُّؤ مِن كلِّ دينٍ غير دِين الإسلام.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (537).

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلىٰ الحرقات من جهينة (4269)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (96) واللفظ لمسلم.

وأمَّا التَّبعيَّة: فهي أن يأخذَ التَّابعُ حُكْمَ المتبوع في الإسلام، فالطِّفل يُعتبر مسلمًا تبعًا لوالديه، وكذا الكافر إذا أسلم فإنَّ ابنَه الصَّغير يُعتبر مسلمًا تبعًا لإسلام أبيه.

وأمَّا الدّلالة: فهي دلالة الأفعال العملية التي تدل على أن من يقوم بها من أمة الإسلام، فحُكْم الإسلام في الظَّاهر يثبت بالشَّهادتين أو ما يؤدِّي معناهما؛ لتقامَ عليه أحكام الشَّريعة فيما له وما عليه؛ كما جاء في حديث الجارية التي سألها عن ربها وعنه ﷺ فأقرت بما يقتضي الحكم عليها بالإسلام فأُعتقت بسبب ذلك، قال الإمام النَّووي رحمه الله: ((اتَّفق أهلُ السُّنة مِنَ المحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين على أنَّ المؤمن الذي يُحكَم بأنَّه مِن أهل القبلة ولا يخلَّد في النَّار لا يكون إلَّا مَن اعتقد بقلبه دِينَ الإسلام اعتقادًا جازمًا خاليًا مِنَ الشُّكوك ونطق بالشَّهادتين، فإنِ اقتصر على إحداهما لم يكن مِن أهل القِبلة إلَّا إذا عجز عنِ النُّطق لخللٍ في لسانه، أو لعدم التَّمكُّنِ منه لمعاجلة المنيَّة له أو لغير ذلك فإنَّه يكون مؤمنًا))[1].

وسئل الإمام أبو يوسف- تلميذ الإمام أبي حنيفة- عنِ الرَّجل كيف يُسلِمُ؟ فقال: ((يقول: أشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، ويقرُّ بما جاء مِن عند الله، ويتبرَّأ منَ الدِّين الذي انتحله))[2].

فهذا رسول الله ﷺ قد قَبِلَ الإسلامَ وأثبتَ الإيمانَ بمجرَّد نُطق المرء بالشَّهادة أو التَّصريح بما عليه المسلمين في عقيدتِهم، ومخالفةِ عقيدة أهل الكُفر، فيصبح المرء داخلًا ضمن دائرة الإسلام بالشَّهادة ومن جماعة المسلمين، وهذه أقوالُ علماء الأُمَّة مِن أهل السُّنة في تقرير ثبوت الإسلام بمجرَّد النُّطق بالشَّهادتين أو ما يدلُّ عليها إنْ كان لا يستطيع

(1) انظر: صحيح مسلم بشرح النَّووي (149/1) المطبعة المصرية بالأزهر — القاهرة - الطبعة الأولى- 1929 م.

(2) انظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق (138/5) لزين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري- دار الكتاب الإسلامي-الطبعة الثانية.

النُّطقَ أو لا يُحسِن العربية، ولو نظرنا للسَّواد الأعظم من الأُمَّة الإسلامية لوجدنا هذا الكلامَ السَّابقَ ينطبق عليهم، فهم مسلمون داخلون في دائرة الجماعة لا يجب تمييزُهم بأي اسمٍ آخر غير المسلمين.

أقوال أهل العلم في تكوين الجماعات وإحداث الفُرقة بين المسلمين

ننتقل هنا إلىٰ كلام أهل العِلم عن جماعة المسلمين الواردة في أحاديث النبي ﷺ:

1- قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في ((باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة)): ((قال الطبري: اختلف في هذا الأمر وفي الجماعة، فقال قومٌ: هو للوجوب، والجماعة السَّواد الأعظم، ثم ساق عن محمد بن سيرين عن أبي مسعود أنَّه وصَّىٰ مَن سأله لَمَّا قُتل عثمان؟ عليك بالجماعة، فإنَّ الله لم يكن ليجمع أُمَّةَ محمَّدٍ علىٰ ضلالةٍ. وقال قومٌ: المراد بالجماعة الصَّحابة دون مَن بعدهم. وقال قومٌ: المراد بهم أهل العِلْم؛ لأن الله جعلهم حُجَّةً علىٰ الخَلْق والنَّاس تبعٌ لهم في أمر الدِّين. قال الطبري: والصواب أنَّ المراد من الخبر لزوم الجماعةِ الذين في طاعة مَن اجتمعوا علىٰ تأميرِه، فمن نكث بيعتَه خرج عن الجماعةِ، قال: وفي الحديث أنَّه متىٰ لم يكن للنَّاس إمامٌ فافترق النَّاس أحزابًا فلا يتبع أحدًا في الفرقة ويعتزل الجميع إنِ استطاع ذلك؛ خشيةً من الوقوع في الشَّرِّ))[1].

2- قال ابن قُتيبةَ: ((ومنها قوله: ((إن أمتي لا تُجمَع علىٰ ضلالةٍ، فإذا رأيتم الاختلافَ فعليكم بالسَّواد الأعظمِ))[2]. وليست كلُّ جماعةٍ اجتمعت هي في هذا السَّوادَ الأعظم، إنَّما السَّواد الأعظم جملةُ النَّاس التي اجتمعت علىٰ طاعة السُّلطان وبَخَعَتْ بها، برًّا كان أو فاجرًا ما أقام الصلاة، كما قال أنس بن مالك. وقال يزيد الرَّقاشي: روىٰ عثمان

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (13/37) دار المعرفة- بيروت- 1379هـ.

(2) تقدم تخريجه قريبًا، وفيه: ((لا تجتمع)).

بن عبدالرحمن عن عكرمةَ بن عمَّار عن يزيد بن أبان الرَّقاشي قال: قلتُ لأنس: أين الجماعة؟ فقال: أمراؤكم))[1].

3- وقال أبو محمد بن حزم رحمه الله: ((الأخبار التي ذكرنا عن رسول الله ﷺ فإنما فيها أنَّ أُمَّته عليه السَّلام لا تجتمع ولا ساعةً واحدةً من الدَّهر على باطلٍ؛ بل لابد أنْ يكون فيهم قائلٌ بالحقِّ وقائم به، وهكذا نقول))[2].

4- وقد أورد الشَّاطبي تفصيل هذه المسألة فقال: ((اختلف النَّاس في معنى الجماعة المرادة من هذه الأحاديث على خمسةِ أقوالٍ فذكر منها: أنَّها السَّواد الأعظمُ من أهل الإسلام، وهو الذي يدلُّ عليه كلامُ أبي غالب: إنَّ السواد الأعظم هم النَّاجون من الفِرَقِ، فما كانوا عليه من أمرِ دينِهم فهو الحقُّ، ومَن خالفهم مات مِيتةً جاهليَّةً، سواء خالفهم في شيءٍ من الشَّريعة، أو في إمامهم وسلطانهم، فهو مخالفٌ للحقِّ، وممَّن قال بهذا أبو مسعود الأنصاري، وابن مسعود رضي الله عنهما))[3].

5- ورُويَ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾ [آل عمران:103] ((هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنَّها حبل الله الذي أمر به، وإنَّ ما تكرهون في الجماعة والطَّاعة خيرٌ ممَّا تحبُّون في الفُرقة))[4].

6- قال الإمام الشَّافعي: ((ومَن قال بما تقول به جماعةُ المسلمين فقد لزم جماعتَهم، ومَن

---

(1) غريب الحديث لابن قتيبة الدينوري (319/1) مطبعة العاني- بغداد- 1977م.

(2) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (496/4) مطبعة العاصمة- القاهرة.

(3) الاعتصام للشاطبيِّ (260/2) تقديم محمد رشيد رضا- المكتبة التجارية بمصر.

(4) معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (480/1) دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الأولى-1420هـ.

خالف ما تقول به جماعةُ المسلمين فقد خالف جماعتَهم التي أُمر بلزومها، وإنما تكون الغفلة في الفُرقة، فأمَّا الجماعة فلا يُمكن فيها كافةً غفلةٌ عن معنىٰ كتاب الله تعالىٰ ولا سُنةٍ ولا قياسٍ إنْ شاء الله))(1).

7- ويقول الإمام أبو جعفر الطحاوي في متن عقيدته: ((ونرىٰ الجماعةَ حقًّا وصوابًا، والفُرقة زيغًا وعذابًا، ودِين الله في الأرض والسَّماءِ واحدٌ وهو دين الإسلام، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران:19] وقال تعالىٰ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:3]))(2).

فمما سَبَقَ من آيات كتاب الله وسُنَّة رسولِ الله ﷺ، وكلام أهل العِلم نخلُصُ إلىٰ مفهوم وطبيعة الجماعة المسلمة التي حضَّنا الله عليها، فبيَّنها الرَّسول أتمَّ بيان بأنَّها السَّوادُ الأعظم وعامة المسلمينَ، فالأُمَّة بعامَّة أفرادها محفوظةٌ من أن تضلَّ، وإنَّما يقع الضَّلال حين يشذُّ مَن يشذُّ، ويدَّعىٰ أنه أتىٰ بمعنىٰ جديدٍ لجماعة المسلمين، يُحدِّد به كيفيةَ الدُّخول فيها، ومَن يدخل ومَن يخرج منها، فهذا يكون مُفرِّقًا للجماعة الحقَّةِ، وهو من أهل البدع، ومن الفِرَقِ الهالكةِ التي أخبر عنها رسولُ الله ﷺ فالمسلمُ ما دام منتميًا إلىٰ أُمَّته غير مُنحازٍ إلا للدِّين بعامَّة فهو من جماعة المسلمين، وهي الفرقة الناجية التي يدخل فيها مَن ينطق الشَّهادتين، وتَسْلَمُ فيها العقيدةُ من الزيغ والانحرافِ في قواعدها الكليَّة وأصولِها.

وتنطلق المنطلقات الفكرية الساذجة للتجديد عند تلك التنظيمات من خلال فكرة تجديد الدِّين هي النَّظرة الخاطئة والساذجة تِجاه المجتمعات الإسلامية، فحكموا عليها بدايةً بالتَّفلُّت من الدِّين، وبعضهم حكَم عليها بأنَّها مجتمعاتٌ جاهليةٌ، وتجاوز بعضُهم فحكَم علىٰ النَّاس بالرِّدَّة والخروج من الدِّين، فجاءت أُطروحاتهم للتَّجديد في هيئة دعوة

---

(1) الرسالة للشافعي (ص221) تحقيق: رفعت فوزي عبدالمطلب- دار الوفاء المنصورة- مصر.

(2) متن العقيدة الطحاوية (ص15).

أُناسٍ خارجينَ عن الدِّين إلىٰ العودة إليه وليست علىٰ هيئة دعوة مسلمين وقع منهم التَّقصير هنا أو هناك.

وهنا فارقٌ كبيرٌ بين الحُكم بجاهليَّة المجتمعات المسلمة كدولٍ وأفرادٍ، وبين رؤية أنَّ المسلمين قد غفلوا عن أوامر الدِّين وسُننه ومكارم الأخلاق مع سلامة أصول الدِّين في قلوبهم وعدم انهدام شيءٍ منها:

ففي الاتجاه الأول نجد أنَّ الدَّعوةَ التي تُطلقها الجماعات والتَّنظيمات والهيئات للتجديد بشتَّىٰ صورها تعمل علىٰ المُفاصلة وشقِّ وحدة الصفِّ وتقسيم الناس إلىٰ فريقين: فريق المتَّبعين لهم ولأُطروحاتهم الفِكريَّة والدَّعوية، فهؤلاء هم المؤمنون المسلمون، وفريق المخالفين لهم وهؤلاء هم الخارجون عن الإسلام، أو علىٰ أقلِّ تقدير يجعلونهم من الطَّوائف الهالكة الخارجة عن جماعة المسلمين، ولكَ أنْ تتخيل ما يُمكن أن يُنتجه هذا التصوُّر عند مَن يتبنَّاه من اعتبار نفسه مندوبَ العناية الإلهية لإنقاذ الإسلامِ والمسلمين، وأنَّه يمثِّلُ طائفة الحقِّ التي يجوز لها اتِّخاذ ما تراه من خُطوات عمليَّة وفكريَّة لإرجاع النَّاس إلىٰ حظيرة الإسلامِ التي خرجوا منها، فكلُّ الخيارات أمامَهم جائزةٌ ومتاحةٌ، وكانت النتيجة أنْ حدث أمران: ظهور مشروعاتٍ فكريَّةٍ ضلَّلت الناسَ وأبعدتهم عن حقيقة دينِهم تفريطًا وإفراطًا، ومشروعات جهادية أسالت الدِّماء في نواحي البلاد الإسلامية، وزلزلت استقرار المجتمعات.

وأما الاتجاه الثَّاني: فنتج عنه التَّعامل مع المجتمعات في البلاد الإسلامية بمنطق الدَّعوة وإرشاد النَّاس إلىٰ طُرق الخير، وإلىٰ ما فيه صلاحُ دينِهم ودُنياهم، مع عدم إخراجهم من دائرة الإسلام، أو اتِّهامهم بانهدام أصلٍ من أصول الدِّين في قلوبِهم، يحاولون بذلك إحياءَ ما اندرس من السُّنن ومكارم الأخلاق ومقاصد الشَّريعة في قلوب المسلمين، وينظرون إلىٰ مجتمعاتهم بنظرة الطَّبيب الشَّفيق النَّاصح لهم، وليس نظرة الحاكم عليهم والقيِّم علىٰ حالِهم. ◆

المظاهر السلبية الفكرية للتنظيمات والجماعات

إنَّ الناظر والمتفحِّص لأحوال التَّنظيمات والتَّجمعات التي قامتْ في بلاد المسلمين في القرن الماضي وما تلاه من السَّنوات يجد أنَّها ساهمت في شقِّ الصَّف وتفريق المسلمين ولم تكن أداةً لتجميعهم، ونَتجَ ذلك عن اختلاف المفهوم الذي وضعتْه هذه الجماعات للجماعة المسلمة، وفقًا للمنهج الذي ارْتضته لنفسِها وأهدافِها، ولكن واقع الحال يؤكد لنا انحراف هذه الجماعات عن المفهوم الشَّرعي الصَّحيح لجماعة المسلمين والخروج عنه إلىٰ مفاهيمَ متعددةٍ ومتنوعةٍ خاصَّةً بها.

وبالنَّظر إلىٰ الواقع الحالي نجد أنَّ الحركات المتطرفة المعاصرة انقسمت حول مفهوم جماعة المسلمينَ إلىٰ اتجاهين رئيسيين: السَّلفي والحركي، وهذان التَّياران تشعَّب منهما بعد ذلك كافَّةُ صور وأشكال التَّنظيمات التي تولَّدت بعد ذلك، فوضَع كلُّ تيارٍ منهم تصوُّرًا معينًا لجماعة المسلمين وشكلها وهيئتها، وما يجب أنْ تكونَ عليه من العقيدة والعبادة، والأنماط الاجتماعيَّة وطُرق التَّفكير والمذاهب؛ بل والتَّفريعات الفقهيَّة في نظرة ضيِّقةٍ جامدةٍ لا تتناسب مع شموليَّة الإسلام، فيُدخلون مَن يلتزم بتصوُّرهم ومنهجهم وطريقتهم في التَّعامل مع الدِّين والحياة في مذهب أهل السُّنَّة والجماعة فيكون من جماعة المسلمينَ، ويُخرجون مَن ليس علىٰ فِكْرِهم وطريقهم من هذه الدَّائرة إلىٰ دائرة الفِرَقِ الهالكةِ، والتي هم أحقُّ النَّاس بأن يكونوا من أهلِها؛ نظرًا لما أحدثوه من ضَرْبِ وحدةِ الأُمَّةِ وتشتيت مرجعيَّةِ المسلمينَ، فأصبح النَّاس بسبب فِكرهم وطرحهم للدِّين في حيرةٍ من أمرِهم لا يدرون في أيِّ جانب يكون الحقُّ، فقيام هذه الجماعات والتَّنظيمات علىٰ نمط ومرجعيةٍ محددةٍ قسَّموا به الأُمَّة؛ بل وكفَّروا مَن لم ينتمِ إليهم ويهتد بهديهِم ويسير علىٰ دَربهم، فاعتقدت هذه الجماعات والتَّنظيمات وظنَّت في نفسِها عصمة الرُّسل والأنبياء، فبدلًا من أنْ تكون أداةَ جمعٍ للمسلمين من خلال عملٍ خيريٍّ أو دعويٍّ يوسِّع من دائرة التَّلاحم والتَّكافل بين المسلمينَ ويوحِّد فيما بينهم، إذا بها تظنُّ في نفسِها أنَّها

الإسلام أو المتحدِّث الرَّسمي باسم الإسلام ومنهج أهل السُّنَّة والجماعة، وما عداهم إما جاهلٌ أو كافرٌ، وأنها جماعة المسلمين وليست جماعة مِن المسلمين، فهم وإنْ أنكروا ذلك بلسانِهم وتبرءوا منه إلا أنَّ الواقع يُخبرنا بعكس قولهم، وذلك من خلال تحزُّبهم لجماعتِهم وأفكارِها وليس تحزُّبهم لدينِهم وأُمَّتِهم، وسنحاول أنْ نرصدَ بعض ما نتج عن هذين التَّيارين من مظاهرَ سلبيةٍ في أُمَّة الإسلام، وما يتميَّز به كلُّ تيارٍ.

أ - التَّيار السَّلفي:

1- خرج من رحم هذا المنهج جميعُ الأفكار المتشدِّدة وغالب الجماعات التي اتَّخذت من العُنف والتَّكفير منهجًا لها، وكان لهذا التَّيار أثرٌ كبيرٌ في تفتيت وحدة الأُمَّة في مجالاتٍ عديدةٍ فأحيوا المذاهبَ الباطلة في باب العقيدةِ، وقدَّموها للمسلمين في صورة أنَّها مذهب الصَّحابة والسَّلف الصَّالح، وألزموا النَّاس الاعتقادَ بها، وذلك عن طريق التَّنفير من المذهب الحقِّ- مذهب أهل السُّنَّة من عُلماء الأشاعرةِ والماتريدية وأئمَّة المذاهب الفقهيَّة- وذلك كلُّه في صالح نُصرة المذهب السلفي بزعمهم، والعمل على فرضِه وجَعْلِه مرجعيةً عامَّةً للمسلمين.

2- في مجال الفِقه والمذاهب الفقهيَّة نادىٰ هذا التَّيار بنبذ المذاهب الإسلاميَّة وأقوال الأئمَّة؛ تحت زعم الأخذ المباشر من الكتاب والسُّنَّة، وادَّعوا لأنفسِهم حقَّ الاجتهاد والتَّرجيح، مما فتح البابَ أمام العوامِّ المنتمينَ إلىٰ السَّلفية أن يأخذوا مباشرةً من الكتاب والسُّنَّة والكتب العلميَّة ويُطبق ما يفهمه منها، ويضيق بابَ الرَّحمة المتمثل في اختلاف المذاهب بما يتناسب مع حال كلِّ شخص، ممَّا نتج عنه المصائب والويلات في المجتمعات الإسلاميَّة من انتشار الآراء المُتشدِّدة التي ليس لها سندٌ من الشَّريعة؛ بل وانتشار التَّكفير ورمي النَّاس بالشِّرك والبدعة وتبني الخطاب التَّحريضي.

3- تعميق صورة الانقسام بين عامَّة المسلمين بتقسيم النَّاس بين سلفي وغير سلفي، أو بين أتباعٍ للشيخ الفلاني وحزب العالِم الفلاني.

4- محاولة فرض عادات وتقاليد ليستْ من الدِّين، ولم يوجبها الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ مجتمعاتٍ إسلاميَّةٍ لا تتناسبُ مع طبيعتِها ولا نمط حياتها.

5- التوسُّع في رَمي النَّاس بالبدعة بدون عِلْمٍ، وإخراج الفتاوىٰ التي ترمي العبادات والقُربات والسُّلوكيَّات المشروعة بالبدعة.

6- اختفاء معاني الوطنية والمواطنة في هذا الفِكر تحت زَعم أنها متنافيةٌ مع الدِّين.

7- التكتل في مساجدَ خاصَّةٍ بهم تحت زَعم خُلوِّها من البدع واعتبارها مساجد التَّوحيد والسُّنَّة؛ مما يُعطي لهم إحساسًا بالتَّميُّزِ والخصوصية، ويولِّدُ الانقسام بين المسلمينَ.

8- ظهور التَّيار التَّكفيري من رحم السَّلفية في كثيرٍ من الأحوال، خاصَّةً فيما يتعلَّق بالكلام علىٰ الحاكميَّة وتطبيق الشَّريعة، ومهاجمة وُلاة الأُمور، والتَّحريض عليهم.

وعلىٰ الجملة؛ فمِن هذا التَّيَّارِ خرج الاعتقادُ بأنَّهم أصحاب منهج أهل السُّنَّةِ والجماعة المقصودون في نصوص الشَّريعة، وأمَّا مَنْ لا يرتضي طريقَهم ومنهجهم فهو علىٰ بدعةٍ ويخرج من أهل السُّنَّة والجماعة، وليس في هذا تَجَنٍّ عليهم أو ادعاءٌ بغير حقٍّ، فالمتتبِّع لما يقدِّمونه من خطابٍ دعويٍّ يجد أنَّهم يجعلونه في اتِّجاه توجيه المسلمين للنهج السَّلفي- في زعمهم- ويعتبرون أنَّ هذا المنهج بأصولِه وفروعِه ومصنَّفاتِه وفتاويه هو ما يُمثل جماعةَ المسلمين والفرقةَ النَّاجيةَ من المسلمين، فهم لا يكتفون بأنْ يكون المرءُ مسلمًا يعرف أركانَ دينِه ويؤدِّي ما افترضه الله عليه، بل يُلزمونه أنْ يلتزمَ مفاهيمَ معيَّنةً، ويتَّخذ مواقفَ معينةً تجاه القضايا التي يتبنَّونها وإلَّا فلا يدخل عندهم في نطاق أهل السُّنَّة والجماعة، فهذه التسمية وهي السلفية كانت أداة لشق المسلمين والتفريق بينهم؛ لأنك إن لم تكن سلفيًّا تكون قد خرجت عن دائرة أهلِ السُّنَّةِ عندهم، بمعنىٰ أنَّك لَو اتَّخذتَ موقفًا مخالفًا تجاه قضية معينةٍ أو اتَّبعت أقوالًا غير أقوالِ دُعاتهم ومشايخهم فأنت مُبتدعٌ

وتخرج من دائرة أهل السُّنَّة لأنَّ عقيدتَك لا تُماثل ما هم عليه، فيا ليتهم إذ هم انتموا إلىٰ فكرٍ محددٍ خاصٍّ بهم سكتوا، و إنَّما هاجموا كلَّ مَن ليس مثلهم وصوَّبوا سهامهم نحو المذاهب والعُلماء ورموهم بالابتداع وشكَّكوا المسلمين في أهل العِلْم الحقيقيينَ، حتَّىٰ لا يجد المسلمون غيرهم، ثم لما طال الأمدُ وانتشرت هذه الدعاوىٰ خرج من هذا التَّيار مَن يبحث في الكُتب ويخرج عليهم هم أيضًا بالمناهج الجديدة والأفكار التي تُهاجمهم وتتهمهم بالضَّلال والتَّخاذل والعمالة وعدم نُصرة الدِّين وأنَّهم من المبتدعة، فبدَّع بعضُهم بعضًا، فخرج ضلالٌ من ضلالٍ، وانقلب السِّحر علىٰ السَّاحر، ممَّا زاد الأُمَّة تمزيقًا وتفريقًا بسبب التَّعصب والتَّحزُّب لأفكارٍ ورؤية معينةٍ لقضايا الدِّين والشَّريعة، التي لو سلَّمنا بصحَّتها فلا تعدو أنْ تكون رأيًا من الآراء لا يلزمُ المسلم الأخذ به فضلًا عن أنْ يكون هو محلَّ دخوله وخروجه من جماعة المسلمين.

ب - التَّيار الحركي:

وهو نوعان:-

1- التيارُ الحركي السياسي أو ما يمكن تسميته اصطلاحًا بالإسلام السياسي، والحركاتُ الجهاديَّةُ المسلَّحةُ.

- أما التيار الحركي السياسي فأوضح الصُّور التي يمكن أنْ يتَّضح فيها التَّيار الحركيُّ السياسيُّ هي جماعة الإخوان المسلمين ومسيرتها في العمل السياسي، ومحاولاتها منذ نشأتها التغلغل في صفوف المجتمع المصري تحت ستارٍ من الدِّين والدَّعوة لتحقيق أهدافٍ معلنةٍ وغير معلنةٍ، فقد أعلنت الجماعة أنَّها جماعة دعويةٌ تعمل علىٰ نشر الدَّعوة الدِّينية في مصر، فقد تبلورت وظهرت فِكرة الدَّعوة للدِّين بفهم جماعة الإخوانِ، ثمَّ تطوَّرت الفِكرة وتكوَّنت إلىٰ أنْ صارتِ الدَّعوة للجماعة، وصارت جميعُ المصنَّفات والمؤلَّفات التي جاءت في وقت حسن البنا وبعده تُوُصِّل أنَّ التمكين هو التَّمكين لجماعة الإخوان، وأنَّ هذا

التَّمكين هو تمكينٌ للدِّين في صورة الجماعةِ، وصورة هذا التَّمكين هو الحضور السياسي والاجتماعي والحركي في بلاد المسلمين لهذه الجماعة وأفرادها، والذي نتج عنه تبني جماعة الإخوان لخُطط ومناهج الجماعات السِّريَّة في أنحاء العالم، مع أنَّ الأصل الذي كُونت من أجلِه وفقًا لأقوالهم المعلنة هو الدَّعوة لدِين الله والذي يتنافى مع مبدئهم الذي يتمثل في أنَّ الغايةَ تُبرِّرُ الوسيلةَ.

- يقول حسن البنا في كتابه رسالة التعاليم موضِّحًا المنهجَ وراسمًا طريقَ السير لجماعتِه: ((الحمد لله والصَّلاة والسَّلام علىٰ إمام المتَّقين وقائد المجاهدين سيِّدنا محمَّد النَّبي الأُمِّي وعلىٰ آله وصحبه ومَن تبع هداهم إلىٰ يوم الدِّين، أما بعد؛ فهذه رسالتي إلىٰ الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسموِّ دعوتِهم وقُدسية فكرتِهم، وعزموا صادقين أنْ يعيشوا بها أو يموتوا في سبيلها، إلىٰ هؤلاء الإخوان فقط أُوجِّه هذه الكلماتِ، وهي ليست دروسًا تُحفظ، ولكنَّها تعليماتٌ تُنفَّذ، فإلىٰ العمل أيُّها الإخوان الصادقون. ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَىٰ اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:105]. ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:153] أما غير هؤلاء فلهم دروسٌ ومحاضراتٌ وكتبٌ ومقالاتٌ ومظاهرُ وإدارياتٌ، ولكل وجهةٌ هو موليِّها فاستبقوا الخيرات وكلًّا وعد الله الحُسنىٰ. والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أركان البيعة: أيها الإخوة الصَّادقون أركان بيعتنا عشرة فاحفظوها: الفهم، والإخلاص، والعمل، والجهاد، والتَّضحية، والطَّاعة، والثَّبات، والتَّجرُّد، والإخوَّة، والثِّقة))[1].

فهذه رؤية حسن البنا وكلماته التي يُلِّخص فيها دعوتَه، ويظهر فيها أنَّها إلىٰ جماعة الإخوان فقط، وأنَّها للتَّنفيذ وليست للمعرفة والحفظ، وأن هناك بيعةً وأركانًا يجب

---

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص 355).

الالتزام بهم، وهذه الصُّورة أعطت لهذه الجماعة التي تعمل تحت مظلَّة الدَّعوة الإسلاميَّة شكلًا ليس حزبيًّا فقط في بداية أمرِها ولكنَّه أعطاها شكلَ الجمعيات المُنغلقة علىٰ أعضائِها فقط من أجل تحقيق أهداف محدَّدةٍ سلفًا، والتي وضح فيما تلاه من السِّنينَ أنَّ هذه الأهداف هي الوصول للسُّلطة والتَّمكين لجماعة الإخوان تحت ستارٍ من الدِّين والدَّعوة، والتي أصبح لكلِّ مرحلةٍ فيها خصائصُ مميزةٌ اتَّسمت بها هذه الجماعة من حيث الأهدافُ والمناهج والطُّرق.

- وقد تقدم كلام صلاح شادي عن مفهوم الانتماء لجماعة الإخوان وعن مدىٰ تأثُّر واقتناع العضو الإخواني بفكر جماعتِه.

فمما سبق يتَّضح لك أيُّها القارئ الكريم أنَّ المسألةَ ليست مسألةَ دِين ودعوة إليه، فلو كان الأمرُ كذلك في حقيقتِه فما معنىٰ أنْ يصوِّرَ الأمرَ علىٰ أنَّه رباطٌ بين الفرد وبين جماعة وعهدٌ مَن خانه فقد خان الله؟! وبالطَّبع في هذا فكرة خفيَّة أو معلنةٌ وهي أنَّ هذه الجماعة تمثِّل المنهجَ الإلهيَّ علىٰ هذه الأرض، فقد ينتمي أيُّ مسلم إلىٰ مجموعةٍ تقوم بالعمل الدَّعوي إلىٰ الله، وقد يُعطِّل استمراره معها أمورٌ متعددةٌ من مشاغل حياة وغير ذلك من اختلافات فكريَّة أو عمليَّة فيترك هذه المجموعة ولا ضيرَ عليه في ذلك ولا ذنبَ، فما بال الانتماء إلىٰ الإخوان يُوصف بأنَّه عهدٌ وميثاقٌ ومَن تراجع عن السَّير فيه نُعِت بالخيانة لله سبحانه وتعالىٰ.

نتج عن هذا المنهج وتلك التَّعاليم والأوامر أن ولاءَ الفرد المنتمي لجماعة الإخوان هو لجماعته وتواصله ومودَّته وتعاونه مع أفرادِها؛ بل وَصلَ الأمر إلىٰ قَصْرِ الزواج من بعضِهم البعض داخل الجماعة وعدم تخطِّيه إلىٰ أيِّ فئات أخرىٰ من المجتمع، أو حتىٰ تيارات تحسب علىٰ التَّيار الإسلامي، فنجد الإخواني يتزوَّج بإخوانية والعكس صحيح، وينتج عن ذلك أسرة تنتمي لجماعة الإخوان انتماءً كليًّا وجزئيًّا، حتىٰ إن خطواتِ حياتِها يجب أنْ تتلاءم مع منهج وطريق الجماعة.

- ولو كان الأمر أمر حمية للدِّين والدَّعوة والعمل علىٰ نُصرة الإسلام، فضابط الصدق والكذب في ذلك أن ينتصر الإسلام سواء كان النصر علىٰ يد جماعته أو غيرها، ولكن المُلاحَظ أنَّ خطوات جماعة الإخوان كانت تريد أنْ يأتي كلُّ خيرٍ ونصرٍ مُعلن للنَّاس علىٰ يديها، فتظهر بمظهر المُدافع عن الدِّين، ويتجلَّىٰ ذلك في استغلالهم الإعلامي للقضايا التي تمسُّ الدِّينَ والشَّريعةَ وبلادَ المسلمين ومقدَّساتهم، وتحريكهم لأتباعهم في مختلف الأماكن لتحقيق هدفٍ معيَّنٍ، واستخدام الخطوات والنَّتائج كأوراق ضغطٍ علىٰ الحُكومات والأنظمة لجني المكاسب التي تصبُّ في مصلحة الجماعة.

- قيام هذه الجماعة عبر تاريخها الطَّويل بتكوين الخلايا السِّرية، التي كان من مهامِّها تصفية خصوم الإخوان، وإشاعة الفوضىٰ في البلاد عن طريق التفجيرات، وذلك منذ أيام حسن البنا.

- إلزام الفرد المنتمي لجماعة الإخوان أنْ يفهم الإسلامَ من خلال تعاليم حسن البنا ومرشدي الجماعة، خاصَّةً الأصولَ العشرين، وأن تكون هي النافذة التي يطلُّ منها علىٰ الدِّين، وذلك علىٰ الرغم من عدم محدودية الدِّين في أي أصول يكتبها شخص ما، مما يُمهِّد الطَّريق لقبول فِكرة أنَّ الإخوان هم جماعة المسلمين، حتَّىٰ ولو كانت هذه الفكرة لا تظهر في العلن؛ إلا أنَّ الفرد الإخوانيَّ متلبِّسٌ بها، لا يفصل أبدًا بين الدِّين وبين جماعةٍ من البشر، فيرىٰ أنَّها تمثل الدِّين علىٰ الأرض، ومن ثَمَّ يحق لها أنْ تملكَ وتتحكمَ في البلاد والعِباد، وتتخذ ما تراه من خُطوات وأفعالٍ تحقق مصلحتَها؛ لأنها هي والدِّين شيءٌ واحدٌ!

جـ - التيار الجهادي:

وهذا هو الثمرة النهائية لأي منهجٍ مخالفٍ لهدي رسولِ الله ﷺ وانتهاج طريقٍ غير الطَّريق الذي رسمه نبيُّ الهُدىٰ وبيَّنته الشَّريعة، ففهم مَن يريد مِن الدِّين ما يشاء، واعتقد

أنه هو الحقُّ، فترجم ذلك إلىٰ حراكٍ علىٰ الأرض، فنظَّم الجماعات المسلَّحة، والتي اتَّخذت من الصِّدام مع غيرِها من الحُكَّام والمحكومين منهجًا لها، واتَّخذت من منهج التَّكفير الكُلي أو الجزئي للمجتمعات والطَّوائف مرجِعًا لها حتىٰ تتمكَّن من تنفيذ مُخططَّاتها وأهدافِها، فما أيسر أنْ يُستباح الدَّم والمال والعِرض بعد القول بكُفر النَّاس، فالمنتمي لهذه الجماعات المسلحة أقرب النَّاس إلىٰ الفِكر التكفيري، وإنْ لم يكن كلُّهم يُقرُّون بذلك، فيحملون فكرًا محدَّدًا يقوم علىٰ مبادئ توحيد الحاكمية وقواعد الولاء والبراء وفقه الجهاد، ويعتمدون علىٰ أُطروحات سيِّد قطب وكُتبه كمرجعيةٍ لهم، إلىٰ جانب كُتب وفتاوىٰ ابن تيميَّةَ، فتتبنىٰ منهجَ الأعمال الجهاديَّة المُسلَّحةِ داخليًّا أو خارجيًّا كوسيلةٍ لحدوث التَّمكين للدِّين، وتُعلن رِدَّة الحكومات، وتتعدَّىٰ ذلك إلىٰ رِدَّةِ الأجهزة الأمنيَّة في بلاد المسلمين، وترىٰ أنَّ أفضل الطُّرق لحدوث التَّمكين للدِّين في الأرض وإقامة الدَّولة الإسلامية وتحكيم شريعة الله لا يأتي إلا بزوال هذه الحكومات، ويرون أنَّها العدوُّ القريبُ الذي يجب الجهادُ ضدَّه، وهم مع تبنِّيهم للصِّدام والقتال يعتبرون أنفسهم يعملون وفق المنهج السَّلفي! فخرجت صورٌ وهيئاتٌ متعددةٌ تمثِّل هذا الفكر في مصرَ والبلاد العربية والإسلامية؛ كجماعة الجهاد، والجماعة الإسلامية، والجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر، وحديثًا تنظيم القاعدة، وتنظيم دولة الإسلام في العراق والشام، المعروف باسم داعش، وهم يعتبرون أنفسهم الفرقة النَّاجية والطَّائفة المنصورة التي يجب علىٰ المسلمين الانضمام تحت لوائِها والعمل تحت قيادتِها بل والهجرة إليها، وبالتتبُّع لتاريخِ ومناهج هذه الجماعاتِ وجدنا أنَّ أفكارَهم ومبادئهم وصورَ ظهورِها تمثَّلت فيما يلي:-

1- تأثُّرهم بأصولِ فكرِ الخوارجِ مِن حيثُ تكفيرُ المجتمعاتِ المسلمةِ والانعزالُ وتكفيرُ ولاةِ الأمورِ.

2- القولُ بالعملِ السِّري في المجتمعات المهيَّأة لقبولِ أفكارِهم، والتدرُّجُ للوصول إلىٰ درجة التَّمكين.

3- القولُ بكفرِ الأنظمةِ الحاكمةِ في بلاد المسلمينَ وجميعِ الحكومات، وكلِّ مَن يعمل في مصالحِ الحكومةِ وأجهزةِ الجيشِ والشُّرطةِ؛ بل وصَلَ الأمرُ ببعضهم إلىٰ تكفيرِ مَن يحمل البطاقة الشخصيَّة (الهويَّة).

4- القولُ بجاهليَّة المجتمعِ ووجوبِ الهجرةِ منه والانعزالِ عنه؛ فرارًا بالدِّين مِن ديارِ الكفرِ.

5- تنامي شعورُ البغضِ والانعزاليَّة تجاه المجتمعاتِ المسلمةِ، والإحساسُ بالاستعلاءِ والتميُّز.

6- حرَّم بعضُهم الالتحاقَ بالجامعاتِ والمدارسِ والدِّراسةِ علىٰ اعتبار جاهليَّة المجتمعِ وردَّتِه.

7- ظهورُ منهجِ التَّوقُّف في الحُكمِ علىٰ النَّاس حتَّىٰ يتبيَّنَ كفرُهم مِن إيمانهم مِن خلال قبولِ أو رفضِ أفكارِ أصحابِ هذا المنهجِ.

8- عدمُ الاعتدادِ بكلام أهلِ العِلم المعتبرينَ في أُمَّة الإسلامِ علىٰ مرِّ العصورِ، وجعلوا لأنفسهم مرجعيَّاتٍ خاصَّةٍ.

9- التَّبرِّي مِن فكرةِ المواطنةِ وحبِّ الأوطان، حيث يرونَ أنَّ ذلك مِن أمورِ الجاهليَّة، ويطلقونَ علىٰ فكرة الوطنيَّة مسمَّىٰ الوثنيَّة.

10- الغالبُ علىٰ أصحابِ هذه الأفكارِ قِلَّة العِلم وضحالةُ الثَّقافة.

11- بعضهم لا يرىٰ الصَّلاة في المساجدِ إذ هي مثل مسجدِ الضِّرار.

12- بعضُهم لا يرىٰ وجوبَ صلاةِ الجمعةِ علىٰ أساس أنَّها لا تجب في دِيار الكُفْر.

13- يكفِّرونَ مَن لم يلتحِق بهم ويساندهم.

14- الأخذُ المباشرُ مِنَ الكتابِ والسُّنة بحسب فهمِهم وما يريدونَ التَّوصُّل إليه تحتَ زعم اتباعِ الدَّليل.

15- التَّشدُّد في العباداتِ مع رمي النَّاس بالتَّفريط في عباداتِهم مِن وجهة نظرِهم.

16- الادِّعاء بأنَّهم هم وحدهم الفِرقة النَّاجية وأنَّ مَن سواهم مِن أهل النَّار.

17- سهولةُ سفكِ الدِّماء عندهم والاعتذارُ عن موت أبرياء بأنَّهم يُبعثون علىٰ نيَّاتِهم.

18- الدَّعوىٰ لأنفسهم تحتَ مسمَّيات زائفة مثل: أمير المؤمنين، ومنهم مَن ادَّعىٰ أنَّه المهديُّ، واحتلَّ هو وأتباعه الحرمَ المكيَّ في فتنةٍ كبيرةٍ.

19- يولعونَ بالحديثِ عنِ الحاكميَّة وتحكيمِ الشَّريعة، كمدخلٍ سهلٍ لتوجيه الفِكر والسَّيطرةِ علىٰ العقولِ وإلهابِ الحماس، وتُرجمتِ الأفكارُ إلىٰ أفعالٍ موجَّهةٍ ضدَّ الحكوماتِ.

20- وجودُ نظامِ الأميرِ ونوَّابه، والبيعةِ، وجماعةِ المسلمينَ، وذلك في كلِّ الجماعات.

21- تبديعُ هذه الفِرَق بعضِها بعضًا، بل وتكفيرُ بعضها بعضًا فلا يتَّفقون أبدًا.

22- تهييجُ النَّاس علىٰ حكَّامهم، وإحداثُ الفِتن والوقيعةِ بين الشُّعوب وولاةِ الأمورِ، فلا يرونَ طاعةَ أولي الأمرِ؛ بل يزيِّنون الخروجَ عليهم ويوجبونَ ذلك.

23- يرونَ استحلالَ أموالِ غيرِ المسلمينَ ودمائهم مِن أهلِ الذِّمَّةِ في بلاد المسلمينَ.

24- يُوجِبونَ القتالَ والصِّدامَ لقيامِ الدَّولة الإسلاميَّة في زعمِهم، ولا فرقَ في ذلك عندهم بينَ وُلاةِ الأمورِ والشُّعوبِ.

25- تبنِّي مسألة تغيير المنكرِ باليدِ وبشتَّىٰ الوسائل.

26- يرونَ أنَّ العدوَّ القريبَ وهو الأنظمةُ الحاكمةُ أولىٰ مِنَ العدوِّ البعيدِ.

27- ظهرَت أفرادٌ منهم اشتركوا في الحروبِ خارجَ بلادِهم، ثُمَّ بعد رجوعِهم إلىٰ بلادِهم تبنَّوا فِكر العنفِ والقتالِ ضدَّ مجتمعاتِهم وارتكبوا التَّفجير.

28- يتكلَّمون كثيرًا عن فقهِ الولاءِ والبراءِ في الإسلامِ وفقًا لمذهبهم وقواعدِهم كمدخلٍ مِن مداخل الانسلاخِ مِنَ المجتمعاتِ.

29- تبنِّي فكرة الاغتيالاتِ السِّياسيَّةِ والتَّخريبِ ومحاولاتِ قتْل وُلاةِ الأمور.

التَّنظيمات في ميزان الشريعة

بقي لنا في نهاية المطاف معرفة مدى مشروعية انضمام المسلم إلى تجمُّعٍ أو جماعةٍ معيَّنة تحت مسمى ديني، وما يتفرَّع على الجواز أو المنع من أمورٍ، وقد ذكرنا فيما سبق نصوصًا من آيات الله وأحاديث رسول الله ﷺ تحضُّ على وحدة الأُمَّة، وبينت لنا أن شريعة الإسلام تأمر وتوجب وحدة المسلمين وعدم تفرقهم، وعرفنا أنه ليس في كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ما يُجوِّزُ تقسيم المسلمين تحت أسماء ومسميات مختلفة، فضلًا عن أن يكونَ ذلك مندوبًا في الشَّريعة كما يدَّعي أفراد هذه الجماعات، فرسول الله ﷺ والصَّحابة الكِرام كانت دعوتُهم لتكوين الجماعة المسلمة الواحدة، والنهي عن الاستقلال بجماعة والشذوذ عن جماعة المسلمين التي سمَّانا الله بها في كتابه فقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرِ﴾ [الحج:78] فليس من الجائز في شريعة الإسلام قيامُ جماعة أو مجموعة تنظيميةٍ بشكلٍ معيَّن وهيئات محددة تضع لأنفسها أهدافًا وتصوُّراتٍ، تخرج بها عن الهدي العام الذي وضعه ربُّ العالمين سبحانه وتعالى لفلاح هذه الأُمَّة واستقامتها إلى منهجٍ بشريٍّ مهما بلغ من ذكائه وحُسن نيَّته، فلن يجلب على الأُمَّة إلَّا التَّفتُّتَ والتَّمزُّقَ، والواقع يشهد بذلك أتمَّ شهادة، فبدلًا من أنْ يعلن المرءُ أنَّه مسلمٌ إذا به يتحوَّل بعد انتمائه ليعلن: أنا سلفيٌّ، أنا إخواني، أنا جهادي... إلخ هذه المسمَّيات، وخطوة فخطوة يُصبح

الولاءُ لمبادئ هذه الجماعات وطريقها ورءوسها وأئمَّتها، ويتمُّ التَّحزب علىٰ ذلك، وهو تحزب تغلب عليه غلبة الهوىٰ والمصلحة والرؤية الضَّيِّقة، ومحاولة جني المكاسب تحت ستارٍ من الدَّعاوىٰ الدِّينية، وما قد يلتزم به المنتمي لهذه الجماعات أو الأحزاب من البيعة والتقيُّد بطاعة إمامٍ، وبقيَّة الشروط الأخرىٰ التي لا تُجيزها الشَّريعة من التفريط والإفراط والسِّرية، علاوة علىٰ الجرأة علىٰ الشَّريعة، واقتحام الاجتهاد والإفتاء، وليِّ عُنُقِ النُّصوص لكي تناسب أفعالَهم، كلُّ هذه الموبقات يكون الباعث عليها التحيُّز للجماعة، ومحاولة إثبات صحة موقفها الشَّرعي، فتكون النتيجة أنَّهم يجعلون المذمومَ المحرَّم في الشَّرع ممدوحًا مباحًا.

فالمسلمون جماعةٌ واحدةٌ، لا يجوز لهم أنْ يتفرَّقوا إلىٰ جماعاتٍ، حتىٰ وإنْ ظنَّ البعضُ أنَّ هناك أمورًا لابدَّ من الوقوف ضدَّها والاعتراض عليها، فإذا كان هذا الاعتراض يؤدي إلىٰ تفتيت وحدة المجتمعات المسلمة وذهاب قوتها، فالشَّريعة تمنع هذا الاعتراضَ ما دام سيؤدِّي إلىٰ الفساد في الأرض؛ ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّبيَّ ﷺ قال: «مَن رأىٰ مِن أميرِه شيئًا فَلْيَصْبِرْ عليه، فإنَّه مَن فارقَ الجماعةَ شِبرًا فماتَ فمِيتتُه جاهليَّةٌ»[1].

فإذا كان رسول الله ﷺ يحذِّر أُمَّته من الخروج علىٰ وُلاة الأمور لما في ذلك من المفسدة التي تنتج عن ذلك، حتىٰ مع وقوع نوع من الظلم، فما بالنا بخروجِ طوائفَ تتكتَّل وتتحزَّبُ تحت شعاراتٍ ومسمَّياتٍ شتىٰ، وتجعل من أهمِّ أهدافها محاربة ولاة الأمور في بلاد المسلمين بشتَّىٰ الصُّور والوسائل، والتَّحريض عليهم، والعمل علىٰ شقِّ الصَّف وعدم اجتماع الكلمة، فهذا بلا شك أولىٰ بالمنع من مجرَّد حالة فرديَّة تخرج عن طاعة وليِّ

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السَّمع والطَّاعة للإمام ما لم تكن معصية (7143)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج علىٰ الطاعة ومفارقة الجماعة (1849).

الأمرِ، وعن الإطار العامِّ الذي يحفظ وجودَ المجتمعِ المسلمِ واستقرارَه في أي بلدٍ، ولا يوجد أصدق من الواقع يخبرنا بنتائج هذا التَّكتُّل والتحزُّب وماذا جرَّ على بلاد المسلمين من مفاسدَ وويلاتٍ وتنافر قلوبٍ.

ولاء المسلم لله ولرسوله ولدين الإسلامِ وللوطن الذي يحيا فيه، وليس لجماعةٍ أو حزبٍ أو شخصٍ أو زعيمٍ تنظيم:

من المبتدعات التي توجد في هذه التَّنظيمات والتَّجمُّعات مسألةُ البيعة والولاء لكبير ورأس هذا التَّجمُّع، والذي قد تختلف صورُه وأشكالُه، فنجدها عند الجماعات الجهاديَّة تتمثل في بيعةٍ لأميرٍ يأتمرون بأمرِه ويهتدون بهديه، وفي جماعات الإسلام السياسي- إنْ صحَّ التَّعبير- نجدها متمثلةً في رؤساء الأحزاب أو المرشد كما في جماعة الإخوان، أو تكون البيعة في شكل رابطةٍ قلبيَّة وفكريَّة وتبعية مُطلقة للشيوخ والدُّعاة كما في التيَّارات السَّلفية، فمنصب الإمارة وأخذ البيعة عليها بصورها المختلفة الماديَّةِ والمعنويَّةِ أمرٌ لا يُجيزه الشَّرعُ إلَّا لولاة الأمور فقط، وذلك بما يُناسب كلَّ عصرٍ، وبما هو متاحٌ من الوسائل في ذلك الوقت قديمًا وحديثًا، أمَّا أنْ تستقلَّ جماعةٌ بأنْ تكون بيعتُها وطاعتُها لفردٍ أو منهجٍ فهذا لا دليلَ عليه أبدًا، بل الأدلَّة ضدَّ ذلك؛ لأنَّ نصب الإمارة والبيعة أو تنصيب الحاكم وولي الأمر من الأمور المضبوطة بضوابط الشَّريعة، التي أوضحت هذه الأمورَ بما يُناسب كلَّ عصرٍ وزمنٍ ومجتمعٍ، وبما يكفل سلامةَ المجتمعِ المسلمِ من الانشقاق الذي سوف يحدث مع تفرُّقه لجماعاتٍ وشيعٍ وأحزابٍ وبيعات تتمُّ في الخفاء، فالبيعة والطَّاعةُ لولاة الأمور تحفظ استقرار المجتمعات، وأما التزام بيعةٍ بشكل ماديٍّ أو معنويٍّ لأي شخصٍ أو جماعةٍ أو فِكرٍ أو منهجٍ غيرِ دينِ الإسلامِ أو ولاة الأمور الشرعيِّين فهذا قد يُخرج المرءَ عن جماعة المسلمين.

- فسبيل المؤمنين التي أمرنا الله سبحانه وتعالىٰ باتِّباعها هي سبيل الجماعة المسلمة، وهم عامَّة المسلمين وسوادهم، وليست السبيل هي سبيل الفِرق والجماعات والمناهج المبتدعة، التي ضيَّقت مفهوم الجماعة المسلمة من مفهوم الأُمَّة كلها إلىٰ مفهومٍ لا ينطبق إلَّا عليهم هم فقط أو مَن ينهج نهجَهم ويعتقد بأفكارِهم، فهذا هو الدَّاخل في جماعة المسلمين في وجهة نظرهم، فضيَّقوا ما وسَّعه الله في كلِّ مجالٍ علميٍّ أو عمليٍّ، وزعموا لأنفسهم وتجمُّعاتهم العِصمة العِلميَّة والعمليَّة، وعند التمعُّن والنظر في كفاءاتهم لا تجِدُ عندهم من المؤهِّلات العلميَّة أو الماديَّةِ أو الفكريَّةِ ما يُؤهِّلهم لتحمُّل مسئولية أفراد قريةٍ صغيرةٍ فضلًا عن أمَّةٍ كبيرةٍ كالمسلمين أو أي مجتمعٍ أو بلد من البُلدان، والمشاهدة الواقعية عن فشلهم تُغني عن الخبر في تصديق ذلك.

- السِّريَّة في منهج هذه الجماعات أو إخفاء الأهداف عند طوائفَ منهم لحين حصول التَّمكين المراد عندهم، بالرغم من أنَّ دين الله قد كُمل، ومرحلة سريَّة الدَّعوةِ كانت في بداية الوحي؛ نظرًا لطبيعة المجتمع الجاهليِّ وقتها وضعف المسلمين وقِلَّتِهم وسط أعداد الكافرين، وهذا مع معرفة أهل قريش بالرِّسالة وبإعلان النبي ﷺ أنَّه رسولٌ من عِند الله، فكان المسلمون الأوائل يتخفُّون بعبادتِهم مثلَ الصَّلاة أو قراءة القُرآن خوفًا من بطش قريش بهم أو منعهم من ذلك، أمَّا في بلاد الإسلام فلا حُجَّة لأي مسلم أنْ يُكوِّنَ جماعةً أو تنظيمًا سريًّا غيرَ مُعْلَنٍ تحت زعم أنَّه يعمل من أجل الدَّعوة، فيصبح تنظيمًا سريًّا يمارس نشاطًا غيرَ مشروعٍ وليس دعوةً للدِّين والأخلاقِ، فسريَّتُهم هذه لم يأتِ بها نقلٌ صحيحٌ ولا عقلٌ صريحٌ، فالدِّين ليس به أسرارٌ أو مخططاتٌ؛ لأنَّك لو دعوتَ أيَّ مسلمٍ لأي خيرٍ أو لنشر العِلم الصحيح في العَلن فلن تجد مَن يصدُّكَ أو يمنعُكَ، أمَّا عندما تدعوه لشيءٍ ما في الخفاء فهذا يدل علىٰ أنَّ للدَّعوة هدفًا آخرَ غير الدِّين والدَّعوة إليه، وكما

قال عمر بن عبدالعزيز: ((إذا رأيت قومًا يتناجون في دينِهم دون العامّة فاعلم أنَّهم على تأسيس ضلالةٍ))[1].

- وموقف أصحاب هذه الجماعات والتَّنظيمات من أهل العِلم وحملة الشَّريعة يخبرنا بحقيقة حالهم، فهم أبعدُ النَّاسِ عن الرُّكون لأهل العِلم الحقيقيِّ؛ وذلك لأنَّه بسهولة سينكشف باطلُهم عند عرض منهجِهم من قبل العلماء، فيروِّجون ضدَّهم التُّهم ويرمونهم بالنقائص؛ لتنفير النَّاس عنهم، يحاولون بذلك التَّشويش على الحقِّ الذي يهدم مذاهبَهم الباطلة ويفضح عوارَهم أمام المسلمين.

- تفريقهم بين بيوت الله من المساجد إلى مساجدَ بدعيةٍ ومساجدَ سُنِّيةٍ، بأمورٍ ما أنزل الله بها من سُلطان، مما يعمل على زيادة الفُرقة بين المسلمين بشكلٍ أو بآخر، ويُشوش على بسطاء النَّاس.

التجمُّعات بين الإباحة والمنعِ:

قد يقول قائل هل كلُّ تجمُّعٍ مذموم شرعًا؟ الإجابة هي لا، بل إن تجمُّع المسلمين أمرٌ مطلوبٌ ومندوبٌ إليه في دين الإسلام، وقد جاءت بذلك نصوصُ الكتابِ والسُّنة النبوية الشَّريفة، ولكنَّ السؤالَ الهامَّ هو أيُّ تجمُّعٍ هو الممدوح في الشريعة وأيُّ تجمُّعٍ هو المذموم؟ وقبل أن نَتعرَّضَ لمناقشة هذا الأمر نورِد نصوصًا من الكتاب والسُّنة تدعو إلى الاجتماع وعدم الفرقةِ، فالله سبحانه وتعالى أَمَرَ بالاجتماع على الخير وعدم التشرذُم، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون ﴿103﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ

---

(1) أخرجه أحمد في الزهد (ص235) من طريق عبدالله بن عمرو حدثنا ابن المبارك أخبرني الأوزاعي قال: قال: عمر بن عبدالعزيز به مقطوعًا.

يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون ﴿104﴾ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:103-105]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:208]. وقال عزَّ مِن قائل سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ [الأنعام:153] وقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:2].

وأمرنا رسولنا الكريم ﷺ بالاجتماع على الخير وعدم الفرقةِ كما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه أنَّه قال: ((إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا ، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ))[1] وروى التِّرمذيُّ عن عمرَ رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((عليكُم بالجماعةِ وإيَّاكم والفُرْقَةَ، فإنَّ الشَّيطانَ مع الواحدِ وهو من الاثنينِ أبعدُ، مَن أرادَ بُحْبُوحَةَ الجنَّةِ فليلزم الجماعةَ، مَن سَرَّتْهُ حسنتُه وساءته سيِّئَتُهُ فذلكَ المؤمنُ))[2].

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تدعو للجماعةِ والوحدةِ بين المسلمينَ وعدمِ التفرُّق، وهذا هو المناسب واللائقُ بالنفس البشرية، وهو أنَّ الإنسان كائنٌ اجتماعيٌّ بطبعه وجاءت الشريعة الإسلامية مؤكِّدة على هذا وواضعةً الضوابطَ التي تنظِّم هذا الاجتماع حتى لا يخرج عن مقاصده المشروعة.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

- الاجتماع في صورة جمعيَّات خيريةٍ تتولَّىٰ أعمال البرِ في المجتمع، وتنشر هذه الأعمال وتعمل علىٰ تنظيمِها والعملِ علىٰ زيادة نسبة المشاركة فيها بين أبناء المجتمعِ الواحدِ لتحقيقِ أنواعٍ من الرعاية الاجتماعيَّة والصحيَّة والتكافل الاجتماعي - هو من التجمُّعات المندوب إليها في الشَّريعة الإسلاميَّة بل هي في جوهرها روح الشريعة، ولكن إذا تمَّ الانحراف بهذه الجمعيات عن الأهداف الشرعيَّة وأصبح العمل الخيري ستارًا لأعمال سياسيةٍ وأهدافٍ خفيَّةٍ هنا يصبح هذا التجمُّع محرمًا شرعًا؛ لأنه لا ينبني علىٰ مقاصدَ شرعيَّةٍ وإنَّما قيامه علىٰ أهدافٍ تراعي مصلحة فردٍ أو جماعةٍ بعينها تسعىٰ لتحقيقها من خلال عملٍ خيري، فالعمل الخيريُّ بصوره المتعدِّدة الذي يدعو إليه الشرع هو العمل الخالص لوجه الله الكريم الذي لا يبتغي القائمون به إلَّا تحقيق رضا الله سبحانه وتعالىٰ مِن خلال تنفيذِ أوامرِه بالإحسانِ إلىٰ الخَلْق أجمعين مسلمينَ وغير المسلمينَ، وتحقيق التكافل الاجتماعيِّ الذي هو من أهمِّ مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، ولا يجعلون من عملهم وسيلةً لجمعِ النَّاس حول فكرةٍ معينةٍ أو حشدهم لتأييدِ تجمُّعٍ له أهداف وغايات أخرىٰ، فهنا في هذه الحالة يصبح العمل الخيري عملًا سياسيًّا في واقع الأمر وليس عملًا خيريًّا فيتخطَّىٰ هذا العمل دائرة الشرع إلىٰ دائرةِ الأغراض والأهواءِ التي تحكمها أمورٌ كثيرةٌ ليس منها العمل علىٰ مرضاة الله ومساعدة العباد، فالذي يُخرج العمل الخيري من دائرة الحلِّ إلىٰ دائرة الحرمة هو صبغه بأيِّ صبغةٍ سياسيةٍ أو جعله مطيةً للتوصُّل إلىٰ أهدافٍ أخرىٰ غير إيصال المنفعة للناس والمجتمعات.

- الاجتماع علىٰ طلب العلمِ الشَّرعيِّ والتفقُّه في الدِّين أمرٌ مندوبٌ إليه حين يَجعل المسلمُ من ذلك وسيلةً لنفع نفسِه ومجتمعِه ونشرِ الخير والفضيلةِ والعلم بين الناس، وليجعل طالبُ العلمِ مِن عِلمه وسيلةً للتواصُل مع الناس لا أن يتميَّز عليهم وأن يحدِث نوعًا من العزلة الحسيَّة أو المعنويَّة بينه وبين النَّاس، أما أن يكون في التجمُّع لطلب العلوم الشرعية وسيلةً لشقِّ صفوف المسلمين عن طريق تبنِّي المناهج الباطلة التي تعمل

علىٰ تفرقة المجتمعِ المسلم وتقسيمِه إلىٰ مسمَّياتٍ ما أنزل الله بها مِن سلطانٍ، وتزكيةِ نفسِه ووصفِ طريقه ومنهجِه بأنه هو التمثيلُ الحقيقيُّ لجماعة المسلمين فإنَّ ذلك هو الضلال بعينه، وهو بداية طريق الخوارج الذين يرَون أنفسهم الطائفة المؤمنة، أو أن يكون العلم موجهًا لنصرة تيَّارٍ بعينه وإثبات شرعيَّته ومحاولة إيجاد المبررات الشرعيَّة له ولأعماله، فبمثلِ هذه الأشياء يخرجُ الاجتماع علىٰ العلم وطلبه مِن النَّدب إلىٰ الحرمةِ لأنه لم يقدِّم للمسلمين أيَّ منفعةٍ وإنَّما علىٰ العكس من ذلك قسَّم المجتمعات المسلمة ونشَر الفرقةَ بينهم، هذا فضلًا عن أن القائمين علىٰ هذه التجمُّعات العلمية التي تخفي ورائها أهدافًا أخرىٰ هم في أنفسهم غيرُ مؤهَّلين للقيام بهذا الدور العلميِّ والتعليمي.

- العلنية والسِّرية هي فارقٌ جوهريٌّ بين المشروع والممنوعِ في دِين الإسلام، فلا يوجد في الإسلام ولا مجتمعاتِ المسلمين وبلادِهم قيودٌ علىٰ الدعوة إلىٰ الله عز وجل بالمنهجِ الوسطي المنضبطِ، فنجد أنَّ الذين يقومون بالدَّعوة إلىٰ الله يعملون في العلن وبدون مدارةٍ، وبما يتَّفق مع ما تضعه كلُّ بلدٍ من القوانين والتعليمات التي تنظِّم العمل الدعوي، بما يحقِّق الانضباطَ في المجتمعات وعدمَ حدوثِ أيِّ نوعٍ من أنواع الفوضىٰ أو الفتن بين أيِّ طائفةٍ من طوائف المجتمعات، أمَّا مَن يتَّخذ مِن السِّرية طريقًا لنشر مبادئه والدَّعوة إليها، فهذه علامةٌ علىٰ فساد المنهجِ والطريقِ، وعلامةٌ علىٰ الضلالِ المبين؛ لأنك في وسط مجتمعٍ مسلمٍ فلماذا تتخفىٰ بدعوتك؟! إلَّا إذا كانت هذه الدَّعوة دعوةً باطلةً لا تتَّفق مع الشرع ولا تروَّج إلَّا علىٰ ضِعاف العقول، ولوكانت هذه الدعوات لا تحمل الشر بين طيَّاتها لما كانت سريةً، أما دعاوىٰ الخيرِ وتزكيةِ النُّفوس ونشرِ الأخلاق وتحقيقِ روح الشريعة ومقاصدِها فنجد أنها تتميَّز بالعلنيَّة والوضوحِ وعدم التلوُّنِ وذلك لخلوِّها عن أيِّ غرضٍ إلَّا إصلاحَ الناس وتقريبهم من الله.

- هناك فرقٌ جوهريٌّ بين التجمُّعات الضالة وتكتُّلِها وبين التجمُّعات المنضبطةِ وهي أنَّ التجمُّعات المستقيمة في فكرها ومنهجِها تنطلق مِن أنَّها تتعامل مع مجتمعٍ مسلمٍ،

وهي تعمل في خدمة هذا المجتمع المسلم بصورةٍ أو بأخرىٰ فهي جماعةٌ مِن المسلمين في خدمة المسلمينَ، أما المجموعات التي تتكتَّل وتتجمَّع وتضع لها منهجًا وطريقًا وتصوُّرًا وتدَّعي أنها تدعو المجتمعاتِ المسلمةِ إلىٰ الإسلام وتكوين مجتمعٍ مسلمٍ، فهي تظنُّ في نفسها أنَّها هي جماعة المسلمين وهي مَن تمثِّل الإسلام، أو علىٰ أقل تقديرٍ هي مَن تمثِّل منهجَ أهلِ السُّنة والجماعة وسط مجتمعٍ جاهليٍّ، تحاول إخراجَه من جاهليتِه إلىٰ الإسلامِ، وترىٰ لنفسها الحقَّ في اتخاذ ما تراه صوابًا مِن خطواتٍ نظريةٍ أو عمليةٍ نحو هذه الغايةِ.

- دائمًا تجد أنَّ أصحاب التجمُّعات الباطلة من أصحاب الهوىٰ يحرِّضون النَّاس والشُّعوب ضدَّ وُلاة الأمور، والسبب في ذلك ظاهرٌ وواضحٌ لكلِّ لبيبٍ، وهو أنَّ لهم أهدافًا لا يستطيعون تحقيقها في ظلِّ استقرار المجتمعاتِ، ولذلك فهم يعملون علىٰ إثارة الفوضَىٰ بدرجاتها المختلفة بحسب ما يُتاح لهم مِن فُرَصٍ وظروفٍ، ولا يضعون في اعتبارهم خرابَ البلادِ أو ضياعَ مصالحِ العباد، أمَّا أصحاب التجمُّعات الوسطيَّة المنضبطة فترىٰ نفسها جزءًا من المجتمع، وأنَّ طاعة ولاة أمورِ المسلمين والالتزام بقوانين البلاد من مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة لما يحقِّقه من سلامٍ للمجتمع وأنَّ المسلم يجب عليه أن يكون عنصرَ بناءٍ لا عنصر هدمٍ.

- ويكون التجمُّع محمودًا في الشَّريعة الإسلاميَّة إذا كان في شكلٍ من أشكال الجمعيات الخيريَّة أو العِلميَّة أو الرُّوحية التي تعمل علىٰ نشر الدِّين وأعمال البرِّ، ولا تضع لها أهدافًا محدَّدةً تعمل علىٰ الوصول إليها، وإنَّما هي تمارس عملَها ونشاطَها في العَلن كما أمر الله وسمحت به حدود ومعالم الشَّريعة الإسلاميَّة، وبما يتوافق مع نمط المجتمع وقوانينِه، وبذلك تكون أداةً لتجميع المسلمين علىٰ الخير تحت مظلة السُّمو الرُّوحي والأخلاقي في الإسلام، وليس تحت مظلة شعاراتٍ أو منهجٍ محددٍ لتحقيق مكاسبَ علىٰ المدىٰ القريب والبعيد، أو تجميع أفرادٍ يجعلون ولاءَهم لشخصٍ يُحركهم حسبما يشاءُ.

ومن أمثلة ذلك الطُّرق أو التجمُّعات الصُّوفية المنضبطة الشَّرعية التي تعمل علىٰ نشر قيم الإسلام الرُّوحية في جوٍّ من الوسطية والاعتدال والتَّناغم مع المجتمع، فتُخرج لنا الشَّخص المتوازن في أمور الدِّين والدُّنيا، وهي تتحاشا أيضًا مسألة التَّحزُّب لشخصٍ أو أهدافٍ شخصية، وإنَّما الهدف من الاجتماع هو تزكية النُّفوس والتَّقرُّب من الله والاجتماع علىٰ المحبَّة والمودَّة والأُلفة في أجواءٍ رُوحية تربويَّة تصلح الإنسان المسلم في الباطن والظَّاهر، وتجعل منه عنصرًا نافعًا لأُمَّته ومجتمعه وتُجنِّبه مُنزلقات الفِكر الخبيث في أيِّ اتِّجاهٍ.

ولمعرفة صِحَّة هذا الكلام فلننظر لشخصٍ انتمىٰ لهذه التَّجمُّعات الرُّوحية ذات الطَّابع الصُّوفي، وشخصٍ آخر انتمىٰ للتَّجمُّعات الحزبيَّة التي ترفع الأسماء الدِّينية ونرىٰ أثرَ كلٍّ منهم في المجتمع سلبًا وإيجابًا، والحال يُغني عن المقال كما هو معروف، فمثل هذه التجمُّعات لم تجمع إلَّا لتحقيق تزكية الإنسان وأعمال البرِّ وليس لتحقيق مكاسب مادية علىٰ أرض الواقع، أو توجيه الجماهير في اتجاهٍ معين، فهي لم تختصَّ نفسها بمنهجٍ غير المنهج العامِّ الذي رسمه الإسلامُ، ولم تضع فواصل لتصنيف المسلمين وتكتُّلِهم، وإنما أخذت بالجانب الرُّوحي التَّربوي الذي يُصلح القلوب ويأخذ بها إلىٰ الصَّلاح، ينطبق عليها قولُ رسولِ الله ﷺ: «ألَا وإنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّه وإذَا فسدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه ألَا وهي القلبُ»[1]. فمثل هذه التجمُّعات إنَّما هي امتدادٌ للنهج الإسلاميِّ وليست خارجةً عنه.

- وما يدلُّ علىٰ فساد التَّحزُّبِ والتَّجمُّعِ تحت المسمَّيات الدِّينية تراجع كثير من أفراد هذه الجماعات والتَّيارات عن تلك المناهج، وحدوث ما يُسمَّىٰ بالمراجعات الفكريَّة، التي إنْ دلَّت علىٰ شيءٍ فإنَّما تدلُّ علىٰ التَّأكُّد من فساد الطَّريق والمنهج بعد الدُّخول فيه والانغماس في

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (52)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (1599) من حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما.

خطواته لسنواتٍ طوال، ثم بعد ذلك يقولون: نأسف نحن كنا على خطأ! وهذا في حدِّ ذاتِه جيدٌ، فالرجوع إلى الحقِّ من الفضائل، وهو أولى من الاستمرار على الباطل، حتى ولو طال الأمد بالتَّورُّط فيه، ولكن أليس من الأولى لكلِّ مسلم أنْ ينتبه ويأخذ العِبرة ممَّن سبق فلا يدخل في تجربةٍ فاسدةٍ تستنفذ عُمُرَه وطاقتَه ولا تجلب له أو لبلاده أيَّ خيرٍ؟!

- العُزلة في وقت الفتن والفساد خيرٌ من المشاركة في خيرٍ مظنونٍ قد يحدث وقد لا يحدث، بل ما ينتج عن هذه المشاركة من المفاسدِ في غالب الأحوال أكثر؛ فلذلك أمرنا النَّبيُّ ﷺ بالانعزال عن مزالق الفِتن وقتَ وقوعِها، فعلى المسلم أنْ يكونَ مع الجماعة والسَّواد الأعظم من المسلمين، فهو بذلك في دائرة العِصمة منَ الضَّلال والفِتن، أمَّا لو اختلط عليه الأمرُ في زمانٍ لا يَعرف فيه الحقَّ من الباطلِ، أو كان في مكانٍ غلب عليه الباطلُ فالعزلة خير له، ففي الصحيحين عن أبي هريرةَ ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((سَتَكُونُ فِتَنٌ القَاعِدُ فيها خيرٌ مِنَ القَائِمِ، والقَائِمُ فيها خيرٌ منَ الماشي، والماشي فيها خيرٌ منَ السَّاعي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وجدَ منها مَلْجَأً أو مَعَاذًا فَلْيَعُذْ به))[1].

- وقد بوَّب الإمام البخاري في الصحيح باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟ ثم ذكر بإسناده حديث حذيفة بن اليمان ﵁ السابق ذكره في هذه الرسالة، وفيه: فقلتُ: فإنْ لم تكنْ لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: ((فاعتزِلْ تلكَ الفِرَقَ كُلَّها، ولو أنْ تعضَّ على أصل شجرةٍ حتَّى يُدرِكَكَ الموتُ وأنتَ على ذلكَ))[2].

ففي هذه الأحاديث البيان الشَّافي والدَّواء الكافي لمسألة الفتن، فهذا نبي الرَّحمة محمَّد ﷺ يأمر بلزوم جماعة المسلمين وعامَّتهم، وإذا كانت هناك فِتَنٌ وفِرَقٌ وفُرقةٌ فبيَّن ﷺ

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم (7081، 7082)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (2886).

(2) تقدم تخريجه.

أنَّ أفضلَ حالٍ يكون عليه المسلم هو اعتزال هذه الفِرق والفِتن، والأمر بالاعتزال إنْ دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على الضَّلال الذي يُميِّز هذه الفِرق، إذ لو كان إحداها على الهُدى لأمر النَّبيُّ ﷺ المسلمَ أنْ يتحرَّى وجودَها ويبحث عنها وينحاز إليها، فالعزلة عنها تدلُّ على فساد المنهج وبطلان الطَّريقة. ◆

الخاتمة

أخي المسلم الكريم إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ بعث محمَّدًا ﷺ موحِّدًا لا مُفرِّقًا، رحيمًا لا فظًّا غليظًا، وجعل شريعةَ الإسلامِ معتدلةً سمحاءَ، فالإسلام يَجمَع ولا يُفرِّق، والعِلْم ليس أداةً لشقِّ صفوف المسلمين وإنَّما هو أداةٌ لوحدتِهم، وليس التَّحكُّم أو التَّنطُّع من الدِّين في شيءٍ، ففي الصحيحين أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين -أحدُهما أيسرُ من الآخر- إلَّا اختارَ أيسرَهما ما لم يكن إثمًا، فإنْ كان إثمًا كان أبعدَ النَّاسِ منه))[1].

فماذا علينا إنْ تركنا أهواءنا حسبةً لله عز وجل، وفي سبيل ديننا والحفاظ علىٰ وَحدة أُمَّتنا وسلامة مجتمعاتنا، فإنَّ أعدىٰ الأعداء لهذه الأُمَّة لا يستطيع أنْ يكيدَ لها بما تكيد هي لنفسها الآن، وبما نفعله نحن من تفرُّقٍ وتشرذُمٍ واتِّباعٍ للهوىٰ، فالأمر أمانةٌ كبيرةٌ وحِمْلٌ ثقيلٌ علىٰ مَن يشارك فيه، فعليه أنْ يتقيَ اللهَ سبحانه، فلا يكون أداةً لتفريق المجتمعات وإضلال المسلمين بإبعادهم عن حقيقةِ دينِهم السَّمحة وعن اتِّساعه لشمول نواحي حياتِهم في كلِّ عصرٍ ومصر، والسبب في هذا الزَّلل هو السعي في إلزام المسلمين بمفاهيمَ وفكرِ هذه الجماعات والتَّنظيمات التي ما أنزل الله بها من سلطانٍ، نعوذ بالله من الخذلان.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله (6786)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته (2327).

الرسالة الخامسة والثلاثون
الإمارة في فكر الجماعات الإرهابية في العصر الحديث

وتشمل المحاور التَّالية:

المحور الأول: مقدمة عن الإمارة والقيادة في الإسلام.

المحور الثاني: الإمارة في فِكر الإخوانِ المسلمين.

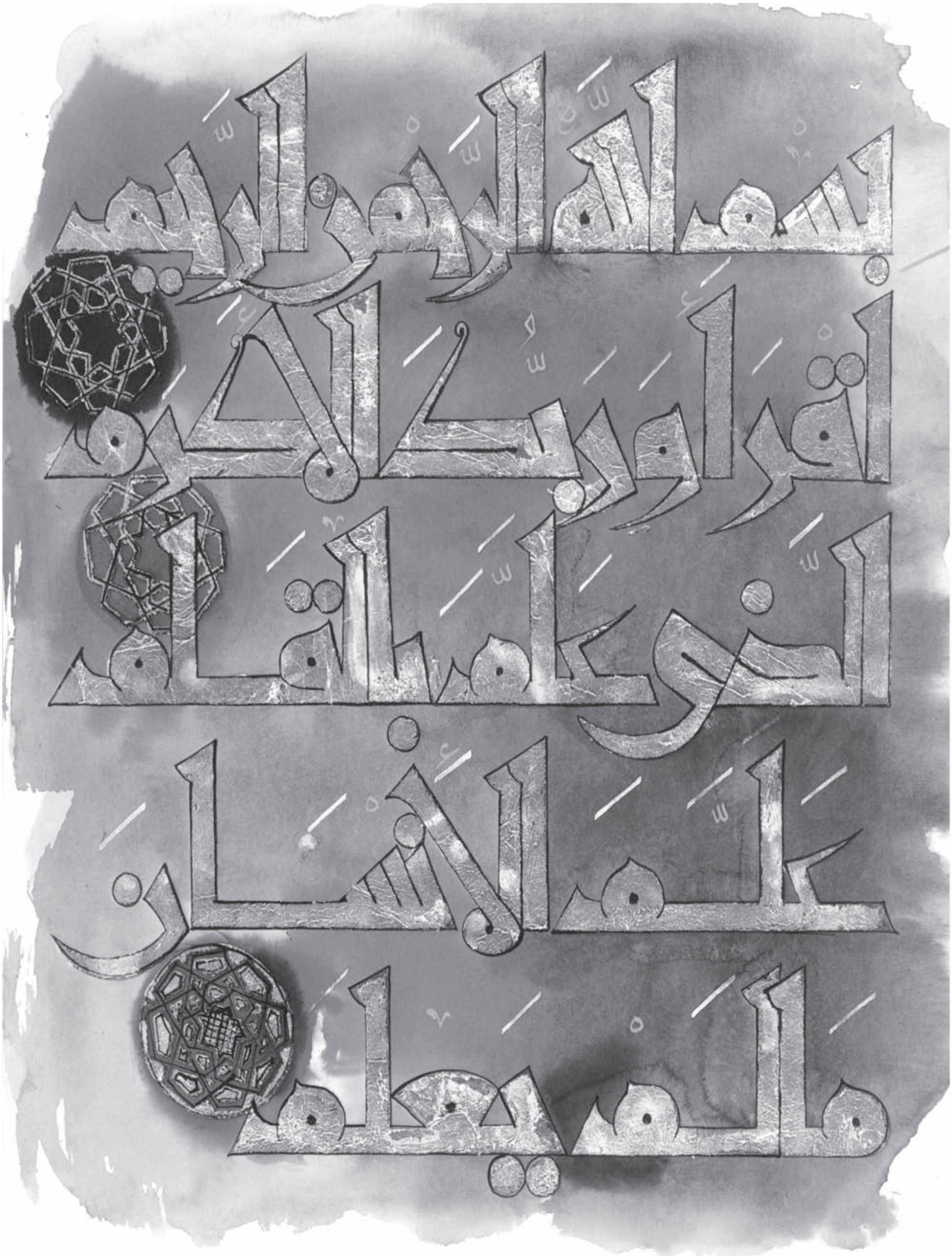
المحور الثالث: الإمارة في فكر الجماعة الإسلاميَّة.

المحور الرابع: الإمارة في فكر جماعة الجهادِ الإسلاميِّ.

المحور الخامس: الإمارة في فكر حزب التَّحرير.

المحور السادس: الإمارة في فكر الجماعات السَّلفيَّة.

المحور السابع: الإمارة في فكر تنظيم القاعدة. ◆



«ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» - آية **3-5** من سورة العلق

الإمارة في فكر الجماعات الإرهابية في العصر الحديث

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا مبحثٌ يسير عن فكرة الإمارةِ والقيادةِ عند مَن يُسمَّون بجماعات الإسلام السِّياسي، نقوم فيه برصدِ هذه الفكرة مِن خلال أقوال ومنشورات هذه الجماعاتِ والواقعِ المعاصرِ، ورؤيةِ هذه الجماعات لفكرة القيادة والإمارةِ، والأُسسِ والأركانِ التي تتكوَّن منها فكرة الإمارة عندهم، وسوف يكون الكلام في هذا الأمر متمثلًا في المحاور التَّالية:

المحور الأول: مقدمة عن الإمارة والقيادة في الإسلام.

المحور الثاني: الإمارة في فِكر الإخوانِ المسلمين.

المحور الثالث: الإمارة في فكر الجماعة الإسلاميَّة.

المحور الرابع: الإمارة في فكر جماعة الجهادِ الإسلاميِّ.

المحور الخامس: الإمارة في فكر حزب التَّحرير.

المحور السادس: الإمارة في فكر الجماعات السَّلفيَّة.

المحور السابع: الإمارة في فكر تنظيم القاعدة. ◆

مقدمة عن الإمارة والقيادة في الإسلام

إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد حفظ للمسلمين أمرَ دينِهم ودُنياهم وأرشدَهم إلىٰ ما فيه تحقيق مصالحهم في الدُّنيا والآخرة، وقد بيَّن النبيُّ ﷺ لأُمَّته ذلك، فما ترك من خيرٍ إلَّا وأمرنا به، ولا شرٍّ إلَّا وحذَّرنا منه صلوات الله وسلامه عليه، ومن الأمور التي تحفظ للمسلمين أمرَ دينِهم ومصالحَ دُنياهم ولاةُ أمور المسلمين القائمين بأمر الإمارة، أو ما استُحدث من أسماءٍ تناسب العصرَ الحديثَ كرئيس الجمهوريَّة، أو الأمير، أو الملك، أو غير ذلك من الأسماء التي تعبِّر عن القيادة وتولِّي الأمور في بلاد المسلمين؛ لتحقيق مصالح العباد وإقامة أمر الدِّين والدُّنيا وحفظ بلاد المسلمين.

فولي الأمر في بلاد الإسلام له أهميةٌ كبيرة؛ لأن منصبه يقوم بأمر الدِّين والدُّنيا، فهو يقوم علىٰ رعاية مصالح المسلمين، وإقامة العدل ونصرة المظلوم، وحفظ الأمن ورد المعتدين عن بلاد الإسلام، وكل ذلك لا يتم إلَّا في طاعته فيما يرضي الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ تستقيم الحياة، والواقع يشهد بذلك والتَّجربة تُبينه؛ ولذلك جاء الشَّرع بالأوامر والنُّصوص التي تأمر بطاعة ولاة الأمر؛ لما في ذلك من حِفظ أمر الدِّين والدُّنيا، فقد قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59]. وأولوا الأمر: هم الأُمراء علىٰ الرَّاجح من أقوال أهل العِلم.

وقد نبهنا النبي ﷺ إلىٰ ذلك؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((إنَّ الله يرضىٰ لكم ثلاثًا ويسخط لكم ثلاثًا، يرضىٰ لكم أنْ تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأنْ تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، وأنْ تُناصحوا مَن ولَّاه الله أمرَكم، ويسخط لكم قيل وقال، وإضاعةَ المالِ، وكثرةَ السُّؤالِ))[1].

---

(1) أخرجَه بهذا اللفظ مالك في موطئه (2/990)، وأحمد في مسنده (2/367)، والبخاري في الأدب المفرد (442)، وأبو عوانة في مستخرجه (4/165)، وابن حبان في صحيحه (3388) من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعًا. وأخرجه مختصرًا مسلم في كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة... (1715).

وقال ﷺ: ((مَن خلع يدًا من طاعة لقِيَ الله يومَ القيامة لا حُجَّة له، ومَن مات ليس في عُنقه بيعةٌ مات ميتةً جاهليةً))[1].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((مَن رأى مِن أميرِه شيئًا فَلْيَصْبِرْ عليه، فإنَّه مَن فارقَ الجماعةَ شِبرًا فماتَ فمِيتتُه جاهليَّةٌ))[2].

وروى البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((اسمعوا وأطيعوا وإنِ استُعمل عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأنَّ رأسَه زبيبةٌ))[3].

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّها ستكون بعدي أثرةٌ وأمورٌ تُنكرونها)). قالوا: يا رسولَ الله كيف تأمر مَن أدرك منَّا ذلك؟ قال: ((تؤدُّونَ الحقَّ الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم))[4].

وفي الحديث المتفق عليه من حديث عُبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: دعانا رسولُ الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا: ((أنْ بايعنا على السَّمع والطَّاعة في منشطنا ومكرهنا، وعُسرِنا ويُسرِنا، وأثرةٍ علينا، وأن لا ننازعَ الأمرَ أهلَه)). قال: ((إلَّا أنْ تَروا كُفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهانٌ))[5].

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال... (1851) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السَّمع والطَّاعة للإمام ما لم تكن معصية (7143)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (1849).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (7142).

(4) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3603)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (1843).

(5) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سترون بعدي أمورًا تنكرونها (7055، 7056)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (1709).

فهذه أحاديث رسولِ الله ﷺ التي يأمر فيها بطاعة ولاة الأمر والسَّمع لهم في المكره والمنشط، وليس ذلك من أجل شخصية وليِّ الأمرِ ولكنْ لما يمثله من إقامة النَّظام وحفظ كيان بلاد المسلمين، وإلَّا لو فتح باب التَّفلت من طاعة وُلاة الأمور والخروج عليهم لعَمَّتِ الفوضىٰ في بلاد الإسلام، وانفرط عقد النِّظام الذي يربط مصالحَ الدُّنيا والدِّين، وقد أكَّد الله تعالىٰ ورسولُه ﷺ علىٰ طاعة أولي الأمر؛ لأن الطَّاعة دعامةٌ من دعائم الحُكم في الإسلام، وقاعدةٌ من قواعد نظامه السِّياسي، وهي من الأمور الضَّرورية التي تمكِّن الإمامَ من القيام بواجبه المُلقىٰ علىٰ عاتقه الذي يتمثل في تمكين الدَّولة من تنفيذ أهدافها وحفظ نظامِها حتىٰ وإنْ حدث نوعُ ظلمٍ من وُلاة الأمور؛ لأنَّ مفسدة نزع يد الطَّاعة منهم تفوق آثارَ ظُلمهم بعدة مرَّات، والمفسدة الكبرىٰ تدفع بالمفسدة التي دونها، ويختار أهون الضَّررين، قال الإمام النووي في تعليقه علىٰ حديث عبدالله بن مسعود: ((إنها ستكون بعدي أثرة)): ((فيه الحث علىٰ السَّمع والطَّاعة وإنْ كان المتولي ظالمًا عسوفًا فيُعطىٰ حقَّه من الطَّاعة ولا يُخرج عليه، ولا يُخلع بل يُتضرَّع إلىٰ الله تعالىٰ في كشفِ أذاه ودفع شرِّه وإصلاحه))[1].

ولذلك نجد أن مذهب أهل السُّنَّة والجماعة هو السَّمع والطَّاعة لمن ولَّاه الله أمرَ المسلمين، وعدم الإثارة عليهم، وذلك لأنَّ الخروج علىٰ وُلاة الأمور يسبِّبُ فسادًا كبيرًا وشرًّا عظيمًا، فيختل به الأمنُ وتضيع الحقوقُ، فوجوب طاعتِهم- حتىٰ وإنْ ظهر منهم ظلمٌ- لما في ذلك من دَرْءِ المفاسدِ، وقد أخبر الرَّسول ﷺ: أنَّه يكون في آخر الزَّمان ولاةٌ لا يهتدون بهديه ولا يستنُّون بسُنَّته، فقال حذيفة ﷺ: كيف أصنع يا رسولَ الله إنْ أدركتُ ذلكَ؟ قال: ((تسمعُ وتطيعُ للأمير، وإنْ ضَرب ظهرَكَ وأَخَذَ مالَك فاسمعْ وأطعْ))[2].

---

(1) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (232/12) المطبعة المصريَّة بالأزهر- الطبعة الأولىٰ- 1930م.

(2) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور

والمتتبع للتَّاريخ الإسلامي وخصائص جماعات الخوارج منذ ظهورهم الأول يجد أنَّ ديدَنهم كان الخروجَ علىٰ وُلاة أمور المسلمين الصَّالحين والطَّالحين علىٰ حدٍّ سواء، ولو انتقلنا إلىٰ حال جماعات العصر الحديث لوجدنا أنَّهم شابهوا الخوارجَ في باب الخروج علىٰ وُلاة الأمر والصِّدام معهم؛ بل وتكفيرهم، فيأتون إلىٰ بلدة آمنةٍ مطمئنةٍ فيشعلون بها الفِتنَ الفكريَّةَ أولًا، ثم الفتن الصِّدامية، ويقلبون حالَ البلاد من الأمن إلىٰ الفوضىٰ وسفك الدِّماء، فهذه جماعةٌ تخطط لجمع الحشود حتىٰ تُحصِّل القوَّةَ ثم تبدأ الصِّدام مع الحكومات، وهذه جماعات ترىٰ الاستيلاء علىٰ السُّلطة عن طريق الانقلابات والاغتيالات، أو تكوين المليشيات والتنظيمات السِّرية، وهذه أحزابٌ تعمل علىٰ نشر أفكارِها، وتلك جماعةٌ تقوم باجتياح بلاد المسلمين واستحلال دمائهم، وإعلان واحدٍ منهم خليفة علىٰ جميع المسلمين، ويدعونَ النَّاس والشُّعوبَ المسلمة إلىٰ بَيْعَتِه.

وحجج كلِّ هذه الفرق واهية داحضة، فشريعة الله بيِّنةٌ واضحة في دحض شبهاتهم، وأهل الذِّكر من مذهب أهل السُّنَّة والجماعة- الذين لا تخلو منهم بلاد المسلمين- قد أوضحوا أمرَ هذه الجماعات والأحزاب، وبيَّنوا بطلان ما يدعون إليه من إمارة زعمائهم وبيعتهم؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله أوصني، قال: «اعبدِ الله ولا تشركْ به شيئًا، وأقم الصَّلاةَ وآتِ الزكاةَ، وصُمْ رمضانَ، وحُجَّ البيتَ واعتَمِرْ، واسمَعْ وأطِعْ، وعليكَ بالعلانيةِ وإيَّاك والسِّرَّ»[1].

الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج علىٰ الطاعة ومفارقة الجماعة (1847).

(1) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (1070)، والطَّحاوي في شرح مشكل الآثار (2658)، والحاكم في مستدركه (51/1)، والبيهقي في شعب الإيمان (441/5) من طريق محمد بن الصباح، ثنا سعيد بن عبدالرحمن الجمحي، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر به مرفوعًا. وقال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط الشيخين» وأقره الذهبي.

وعن الحسن قال: خرج علينا عثمان بن عفان ﵁ يومًا يخطبنا فقطعوا عليه كلامه فتراموا بالبطحاء حتى جعلت ما أُبصر أديم السَّماء. قال: وسمعنا صوتًا من بعض حُجَرِ أزواج النَّبيِّ ﷺ فقيل هذا صوت أم المؤمنين. قال: فسمعتُها وهي تقول: «ألا إنَّ نبيَّكم قد برئ ممَّن فرَّق دينَه واحتزبَ، وتلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾» [الأنعام: 159].[1]

فالأحزاب والجماعات فُرقة نهى الله عنها لأنها تُفرِّق المسلمين، فكيف إذا أضيف إليها استحداث منصب إمارة وقيادة ترجع إليها هذه الجماعات والأحزاب وتخرج عن طاعة ولاة الأمور الشَّرعيين؟! ومن المعلوم أنه لا يجوز أخذ بيعةٍ من أحد على الطَّاعة والولاء إلَّا لولي الأمر الشَّرعي، والذي سبق وألمحنا إلى أنه قد يكون رئيسًا أو ملكًا أو أميرًا أو غير ذلك من مستحدثات العصر، وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن التَّفرُّق في البيعة، أو تعدُّدها وقال: «مَن أتاكُم وأمرُكم جميعٌ على رجلٍ واحدٍ يُريدُ أنْ يشقَّ عصاكُم أو يُفرِّقَ جماعتَكُم، فاقتلوه»[2].

وهؤلاء يُحدِثون ويبتدعون بيعةً وطاعةً ما أنزل الله بها من سُلطان، ويُحدِثون تعصُّبًا لشيخٍ أو داعيةٍ يجعلون منه حَكَمًا على أمور حياتِهم ودينِهم، يعادون ويوالون على رأيه وكلامه، فالدخول في هذه الجماعات في بَيْعَتِها شقٌّ لصفِّ المسلمين وأداةٌ لتفرقهم، فهذا يُقيم لنفسه جماعةً وبيعةً وإمارةً، وهذا يُقيم لنفسه تنظيمًا ومنهجًا وبيعة وطاعةً، وهكذا إلى أنْ تتفرَّق الأُمة إلى أحزابٍ متناحرةٍ على آراء أُمراء وقادة هذه الجماعات، وهذا يخالف مقصودَ الشَّرع في إقامة الإمام أو الأمير، فالإمام إنَّما يُقام ليجتمع عليه النَّاس، ويكون هو الآمر النَّاهي الذي يَرعى مصالحَ المسلمين، فتستقيم بذلك أمورُ دينِهم ودُنياهم.

---

(1) ذكره الشاطبي في الاعتصام (1/80) دار ابن عفان- تحقيق: سليم بن عيد الهلالي- الطبعة الأولى- 1992م.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (1852) من حديث عَرْفَجة بن شُريح ﵁.

وأما هذه الطَّاعة الحزبية والإمارة البدعية فمآلها إلىٰ عكس هذا المقصد العظيم؛ إذ إنها ستقضي علىٰ الأمة بالشَّتات والتَّفرق، وكذلك إيجاب الطَّاعة عند هذه الجماعات والأحزاب ليس له مستندٌ شرعيٌّ؛ بل هو منقوضٌ، فالطاعة يجب أن تكون بدليلٍ، فطاعة الله ورسوله واجبةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ، وطاعة المأمورين للأمير واجبةٌ بإيجاب الشَّرعِ لها في غير معصية، وكذلك طاعة الولد لوالديه وطاعة الزوجة لزوجها واجبة، بإيجاب الشارع لذلك، فما وجْهُ إيجاب الطَّاعة في هذه الجماعات والأحزاب؟! وما وجْهُ البيعة عندهم؟ فعند هذه الجماعات البيعة علىٰ الطَّاعة بيعةٌ شرعيَّةٌ لا بيعةٌ تنظيميَّةٌ، وهذه البيعة الشَّرعيَّة لا تكون إلا لوليِّ الأمر.

وهنا يتبادر سؤالٌ: هل أُمراء وقادة هذه الجماعات مؤهَّلين لتولي أمور المسلمين؟ وسوف نفترض جدلًا إمكانية حدوث بيعة لهم وتوليهم إمارة ببيعةٍ من أتباعهم، فهل الواقع يشهد لهم بأنَّهم من أهل العِلْمِ والقوَّةِ والسِّياسية؟ وهل هم من أهل العدالة والكفايةِ للقيام بأمور المسلمين؟

فالإجابة علىٰ كل هذا يشهد بها الواقع؛ إذ إنه يخبرنا بحالهم خاصَّة في السَّنوات الأخيرة، وكيف زجُّوا ببلاد الإسلام في الصِّدام مع الآخر، في وقتٍ تحاول فيه بلادُ المسلمين النَّهضةَ وتحقيقَ عناصرِ القوَّةِ والرُّقيِّ، ثم هل تحقَّقت عندهم شروط صحَّة البيعة؟ فمن المعلوم أنَّ من شروط الإمارة والإمامة أن يتولَّىٰ أمرَ هذه البيعة أهلُ الحَلِّ والعقد من المسلمين، وأن لا يكون هناك بيعةٌ أخرىٰ لأميرٍ أو قائدٍ آخر. وهل يجوز تعدُّد الأئمة وولاة الأمر في زمنٍ واحدٍ في بلدٍ واحدٍ؟ قال الإمام النووي: «اتَّفق العلماء علىٰ أنَّه لا يجوز أنْ يُعقد لخليفتين في عصرٍ واحدٍ»[1]. وهذا ينطبق علىٰ البلد الواحدة التي اجتمع أهلُها علىٰ حاكمٍ مسلمٍ وارتضوه، فلا يجوز شرعًا أن يكون لأحدٍ سواه بيعةُ طاعةٍ بأيِّ صيغةٍ كانت.

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (232/12).

ثم لو غضضنا الطَّرف عن عدم مشروعية هذه الجماعات والبَيعات والإمارة ابتداءً، ثم نظرنا بعد ذلك هل نتج من قيام هذه الجماعات والحركات خيرٌ لبلاد المسلمين؟ كلَّا فما من مكانٍ وجدت فيه هذه الجماعات إلَّا واشتعلت فيها نارُ الفِتنة والشَّحناء بين المسلمين، وسُفكت الدِّماءُ تحت مُسمَّىٰ الجهاد مع الأمير الشَّرعيِّ، وفيما يلي سنعرض لقضية الإمارة في فكر تلك الجماعات.

الإمارة في فكر الإخوانِ المسلمين

الإمارةُ في تنظيم جماعة الإخوان المسلمين تميَّزت بكثير مِنَ الخصائص التي انفردَت بها عن باقي التنظيمات والتيَّارات المتطرفة التي أتت بعدها، فالإمارة في جماعة الإخوان تتمثَّل في منصب المُرشد العام لجماعة الإخوان، أو ما اصطُلِح علىٰ تسميته بالأستاذ المرشد، وهو منصب تكوَّن مع نشأة الجماعة في خُطواتها الأولىٰ التي تأسَّست عام 1928م علىٰ يد حسن البنا (1949-1906م) وهو أول مَن تسمَّىٰ باسم الأستاذ المرشد، أو الإمام، أو الأستاذ الإمام في تاريخ هذه الجماعة، ويُعد منصب الإرشاد هو رأس التَّنظيم في جماعة الإخوان المسلمين، والمحرِّك لكلِّ أفكارِ ومناهجِ واتِّجاهاتِ الجماعةِ، وظهر ذلك جليًّا في مرحلة قيادة حسن البنا.

تُعدُّ فِكرة الإمارة في مرجعيَّة جماعة الإخوان فكرةَ العمل علىٰ تكوين تنظيمٍ قويٍّ مُعَدٍّ بإعدادٍ جيِّدٍ لتحقيق أهداف الجماعة المعلَن عنها وغير المعلَن، ويتَّضح هذا من خلال أقوال حسن البنا مؤسِّس الجماعة التي توضِّح دورَ المرشد ومهمَّتَه في وضع النَّواة الأولىٰ لتكوين تنظيمٍ محدَّدِ المعالَم والأركان، ثم بعد التَّكوين يتم الإشراف علىٰ منهجه والسَّير به نحو تحقيقِ الأهداف، وفيما يلي بيان قضية الإمارة في فكر الإخوان منذ تكوينهم:

- يقول حسن البنا عن تأسيس جماعة الإخوان في كتابه مذكِّرات الدَّعوة والدَّاعية: «وفي ذي القَعدة سنة 1347هـ مارس سنة 1928م فيما أذكر زارني بالمنزل أولئك الإخوة

السِّتة: حافظ عبدالحميد، أحمد الحصري، فؤاد إبراهيم، عبدالرحمن حسب الله، إسماعيل عز، زكي المغربي، وهم الذين تأثَّروا بالدروس والمحاضرات التي كنتُ ألقيها وجلسوا يتحدَّثون إليَّ وفي صوتهم قوَّة، وفي عيونهم بريقٌ، وعلىٰ وجوههم سنا الإيمان والعزم، قالوا: لقد سمعنا ووعينا وتأثَّرنا ولا ندري ما الطَّريقة العمليَّة إلىٰ عزَّة الإسلام وخير المسلمين؟ ولقد سئمْنا هذه الحياة- حياة الذلة والقيود- وها أنت ترىٰ أنَّ العرب والمسلمين في هذه البلد لا حظَّ لهم من منزلةٍ أو كرامةٍ وأنهم لا يعدُون مرتبةَ الأُجراء التَّابعين لهؤلاء الأجانب، ونحن لا نملك إلا هذه الدماء تجري حارَّة بالعزَّة في عروقِنا، وهذه الأرواح تسري مُشرقة بالإيمان والكرامة مع أنفسِنا، وهذه الدَّراهم القليلة من قوت أبنائنا، ولا نستطيع أنْ ندركَ الطَّريقَ إلىٰ العمل كما تدرك، أو نتعرَّف السَّبيلَ إلىٰ خدمة الدِّين والوطن والأُمة كما تعرف، وكلُّ الذين نريده الآن أنْ نُقدِّم لك ما نَمْلِكُ لنبرأَ من التَّبعة بين يدي الله، وتكون أنت المسئول بين يديه عنَّا وعمَّا يجب أن نعمل، وإن جماعةً تعاهد الله مخلصةً علىٰ أنْ تحيا لدينِه وتموت في سبيلِه، لا تبتغي بذلك إلَّا وجهَه- لجديرةٌ أنْ تنتصرَ وإنْ قلَّ عَدَدُها وضعفت عُدَدُها.

كان لهذا القول المخلص أثرُه البالغُ في نفسي ولم أستطعْ أن أتنصَّلَ من حمل ما حُمِّلتُ، وهو ما أدعو إليه وما أعمل له، وما أحاول جمعَ النَّاس عليه، فقلتُ لهم في تأثُّرٍ عميقٍ: شكر الله لكم، وبارك هذه النِّيَّة الصَّالحة، ووفقنا إلىٰ عملٍ صالحٍ يُرضي الله وينفع النَّاسَ، وعلينا العمل وعلىٰ الله النَّجاح، فلنبايع الله علىٰ أنْ نكون لدعوة الإسلام جُندًا وفيها حياة الوطن وعزة الأُمَّة، وكانت بيعة، وكان قسَمًا أنْ نحيا إخوانًا نعمل للإسلام ونجاهد في سبيله، وقال قائلهم: بِمَ نسمِّي أنفسنا؟ وهل نُكوِّن جمعيةً أو ناديًا أو طريقةً أو نقابةً حتىٰ نأخذ الشَّكلَ الرَّسميَّ؟ فقلتُ: لا هذا ولا ذاك، دعونا من الشَّكليَّات ومن الرَّسميات، وليكن أول اجتماعنا وأساسه: الفكرة والمعنويات والعمليَّات، نحن إخوةٌ في خدمة الإسلام، فنحن إذن: ((الإخوان المسلمون))، وجاءت بغتةً وذهبَت مثلًا، ووُلِدت

أَوَّلُ تشكيلة للإخوان المسلمين من هؤلاء السِّتَّة حول هذه الفكرةِ، على هذه الصُّورة وبهذه التَّسمية)) [1].

فكانت هذه هي البدايةَ الفعليَّةَ والعمليَّة لتكوين جماعة الإخوان المسلمين بقيادة حسن البنا، وتولَّى منذ ذلك اليوم حسن البنا قيادةَ هذه الجماعةِ الوليدة، وهي توضح وتبين حيثيات فكر الإمارة عند الإخوان المسلمين.

- ملامح منهج حسن البنا في تكوين وقيادة تنظيم جماعة الإخوان المسلمين:

1- وضعُ منهج الجماعةِ وتحديدُ أهدافها والإشرافُ على بلوغ هذه الأهداف:

ويتَّضح ذلك من خلال أقوالِه وتوجيهاته وخُطبِه الموجَّهة إلى جماعة الإخوان المسلمين، فهو يعلن اتِّصاف دعوتِه بالإسلاميَّة، فيقول: ((اسمع يا أخي: دعوتُنا أجمع ما تُوصف به أنها إسلاميَّة، ولهذه الكلمة معنى واسع غير ذلك المعنى الضيِّق الذي يفهمه النَّاس، فإننا نعتقد أنَّ الإسلام معنى شاملٌ ينتظم شئونَ الحياة جميعًا)) [2].

ويقول عن الوسائل التي تدور حولها فكرةُ الإخوان وأنَّها ثلاثة أركان:

((أولها: المنهاج الصَّحيح: وقد وجده الإخوان في كتاب الله وسُنَّةِ رسولِه وأحكامِ الإسلام حين يفهمها المسلمون على وجهها غضَّةً نقيَّةً بعيدةً عن الدخائل والمفتريات، فعكفوا على دراسة الإسلام على هذا الأساس دراسةً سهلةً واسعةً مستوعبةً.

وثانيها: العاملون المؤمنون: ولهذا أَخَذ الإخوان أنفسهم بتطبيق ما فهموه من دِين الله تطبيقًا لا هوادةَ فيه ولا لين، وهم بحمد الله مؤمنون بفكرتهم، مطمئنونَ لغايتهم، واثقونَ بتأييد الله إيَّاهم، ما داموا له يعملون، وعلى هَدي رسولِه يسيرون.

---

(1) مذكرات الدعوة والداعية (ص85) حسن البنا- مكتبة آفاق- الكويت- 2012 م.

(2) رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص16) دار الفتح للإعلام العربي- 2012 م.

وثالثها: القيادة الحازمة الموثوق بها: وقد وجدها الإخوان المسلمون كذلك فهم لها مطيعون، وتحت لوائها يعملون.

هذا ما أردْتُ أنْ أتحدثَ به إليك عن دعوتِنا، وهو تعبيرٌ له تعبيرٌ، وأنت يوسف هذه الأحلام، فإنْ راقك ما نحن عليه فَيَدُكَ مع أيدينا لنعمل سويًّا في هذا السَّبيل، والله ولي توفيقنا، وهو حسبنا ونِعْم الوكيل، فنِعْم المولىٰ ونِعْم النَّصير» [1].

فهذا حسن البنا المؤسس الأوَّل لجماعة الإخوان المسلمين، والمفكِّر الأصيل لها، يُلخص حالَ دعوتِه وجماعته بأنَّها إسلاميَّة محددة الأركان، وأنَّ من أركانها «القيادة الحازمة الموثوق بها» والتي يلتزم الإخوان بطاعتِها والعمل تحت قيادتها، فهنا يتضح ركنٌ من أهم أركان دعوة الإخوان المسلمين منذ نشأتها الأولىٰ- ألَا وهي القيادة، والممثَّلة في شخصية المُرشد العام للجماعة، والذي كان في ذلك الوقت هو حسن البنا، فقد كان في جميع رسائله وخُطبِهِ الموجَّهة يؤكد علىٰ هذه الأركان، خاصَّةً فكرةَ القيادة الحازمة الموثوق بها.

2- تكوين جماعة تدين بالطَّاعة المُطلقة لفكر الإخوان المسلمين وقيادتها:

وذلك من خلال إلزام أفراد جماعة الإخوان المسلمين بمنهجٍ محدَّدٍ لا يملكون أن يخرجوا عن الدور المرسوم لهم فيه، والعمل وفقًا لهذا المنهج، مع بروز دور القيادةِ في هذا المنهجِ، ومن مظاهر ذلك ما نجدُه في أقوال حسن البنا، فتحت عنوان: أركان البيعة، من كتاب رسالة التعاليم لحسن البنا يقول:

«أيها الإخوة الصادقون: أركان بيعتنا عشرٌ فاحفظوها: الفهم، والإخلاص، والعمل، والجهاد، والتَّضحية، والطَّاعة، والثَّبات، والتجرُّد، والثِّقة» [2]. ثم يُفصل هذه

---

(1) رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص30).

(2) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص 355).

الأركان، فيقول عن ركن الطاعة: ((وأريدُ بالطَّاعة: امتثال الأمر وإنفاذه توًّا في العُسر واليُسر، والمنشطِ والمكرهِ، وذلك أنَّ مراحل الدَّعوة ثلاثٌ:

أ- التعريف: بنشر الفِكرة العامَّة بين النَّاس، ونظام الدَّعوة في هذه المرحلة نظام الجمعيات الإداريَّة ومهمَّتها العمل للخير العامِّ، ووسيلتها الوعظ والإرشاد تارةً، وإقامة المنشآت النافعة تارةً أخرىٰ، إلىٰ غير ذلك من الوسائل العمليَّة، وكل شُعَب الإخوان القائمة الآن تُمثِّل هذه المرحلة من حياة الدَّعوة، وينظمها القانون الأساسي وتشرحها وسائل الإخوان وجريدتُهم، والدَّعوة في هذه المرحلة عامَّة، ويتَّصل بالجماعة فيها كل مَن أراد من النَّاس؛ متىٰ رغب المساهمةَ في أعمالها ووعد بالمحافظة علىٰ مبادئِها، وليست الطَّاعة التَّامَّة لازمةً في هذه المرحلة بقدر ما فيها احترام النُّظم والمبادئ العامَّة للجماعة.

ب- التَّكوين: باستخلاص العناصر الصَّالحة لحمْلِ أعباء الجهاد وضمِّ بعضها إلىٰ بعضٍ، ونظام الدَّعوة في هذه المرحلة صوفيٌّ بحتٌ من النَّاحية الرُّوحية، وعسكريٌّ بحت من النَّاحية العمليَّة، وشعار هاتين النَّاحيتين: أمر وطاعة من غير تردُّدٍ ولا مراجعةٍ ولا شكٍّ ولا حرجٍ، وتُمثل الكتائب الإخوانية هذه المرحلة من حياة الدَّعوة، وتُنظمها رسالةُ المنهج سابقًا، وهذه الرسالة الآن، والدَّعوة فيها خاصة لا يتَّصل بها إلَّا مَن استعدَّ استعدادًا تامًّا حقيقيًّا لحمل أعباء جهادٍ طويلِ المدىٰ كثيرِ التَّبعات، وأوَّل بوادر هذا الاستعداد كمالُ الطَّاعة.

ج- التَّنفيذ: وهي مرحلة جهادٍ لا هوادةَ فيها، وعملٍ متواصلٍ في سبيل الوصول إلىٰ الغاية، وامتحانٍ وابتلاءٍ لا يصبر عليها إلَّا الصَّادقون، ولا يكفل النجاح في هذه المرحلة إلَّا كمال الطَّاعة كذلك، وعلىٰ هذا بايع الصَّفُّ الأول من الإخوان المسلمين في يوم 5 ربيع الأول سنة 1359 هجرية، وأنتَ بانضمامك إلىٰ هذه الكتيبة وتقبُّلك لهذه الرِّسالة

وتعهُّدك بهذه البَيعة تكون في الدور الثاني وبالقرب من الدور الثالث، فقدِّرْ التَّبعيةَ التي التزمتَها، وأعدَّ نفسَك للوفاء بها...))[1] .

ركن الثقة من أركان البيعة:

ثم يفصِّل حسن البنا ركن الثِّقة من أركان البيعة فيقول: ((وأريد بالثِّقة: اطمئنان الجندي إلىٰ القائد في كفاءته وإخلاصِه اطمئنانًا عميقًا ينتج الحبَّ والتقديرَ والاحترامَ والطَّاعةَ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]. والقائد جزءٌ من الدَّعوة، ولا دعوةَ بغير قيادةٍ وعلىٰ قدر الثِّقة المتبادلة بين القائد والجنود تكون قوة نظام الجماعة وإحكام خُططها ونجاحها في الوصول إلىٰ غايتِها وتغلبها علىٰ ما يعترضها من عقبات ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿20﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ [محمد: 20- 21]. وللقيادة في دعوة الإخوان حقُّ الوالد بالرَّابطة القلبية، والأستاذِ بالإفادة العلميَّة، والشيخِ بالتَّربية الرُّوحية، والقائدِ بحُكم السياسة العامة للدَّعوة، ودعوتُنا تجمع هذه المعاني جميعًا، والثِّقة بالقيادة هي كلُّ شيء في نجاح الدَّعوات؛ ولهذا يجب أنْ يسأل الأخُ الصَّادقُ نفسَه هذه الأسئلة؛ ليتعرف علىٰ مدىٰ ثقته بقيادتِه:

1- هل تعرَّف إلىٰ قائده من قبلُ ودرس ظروفَ حياتِه؟

2- هل اطمأنَّ إلىٰ كفايته وإخلاصه؟

3- هل هو مستعدٌّ لاعتبار الأوامر التي تصدر إليه من القيادة في غير معصية طبعًا قاطعًا لا مجالَ فيها للجدل ولا للتردُّد ولا للانتقاص ولا للتحوير؛ مع إبداء النَّصيحة والتَّنبيه إلىٰ الصَّواب؟

4- هل هو مستعدٌّ لأن يفترض في نفسه الخطأَ وفي القيادة الصَّوابَ إذا تعارض ما أُمر به مع ما تعلَّم في المسائل الاجتهاديَّة التي لم يرِدْ فيها نصٌّ شرعيٌّ؟

---

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص 361).

5- هل هو مستعدٌّ لوضع ظروفه الحيوية تحت تصرُّف الدَّعوة؟ وهل تملك القيادة في نظره حقَّ الترجيح بين مصلحتِه الخاصَّة ومصلحة الدَّعوة العامَّة؟ بالإجابة عن هذه الأمثلة وأشباهها يستطيع الأخ الصَّادق أنْ يطمئن علىٰ مدىٰ صلتِه بالقائد وثقته به، والقلوب بيد الله يصرِّفها كيف يشاء)) [1].

3- واجبات توجبها البيعةُ ما أنزل الله بها من سلطان:

ثم يضع حسن البنا واجبات توجبها البيعةُ علىٰ الأخ الصَّادق أن يؤدِّيها فيقول:

((1- أن تستصحبَ دائمًا نيةَ الجهادِ وحبَّ الشَّهادةِ، وأنْ تستعدَّ لذلك ما وسعك الاستعدادُ.

2- أن تعرف أعضاءَ كتيبتك فردًا فردًا معرفةً تامَّةً، وتعرِّفهم نفسَك معرفةً تامَّةً كذلك، وتؤدِّي حقوقَ أُخوَّتِهم كاملةً من الحُبِّ والتَّقدير والمساعدة والإيثار، وأنْ تحضُر اجتماعاتِهم فلا تتخلَّف عنها إلَّا بعذرٍ قاهرٍ وتُؤثرهم بمعاملتِك.

3- أنْ تتخلَّىٰ عن صلتك بأية هيئةٍ أو جماعةٍ لا يكون الاتِّصال بها في مصلحة فكرتِك، وخاصةً إذا أُمرت بذلك.

4- أنْ تعملَ علىٰ نشر دعوتِك في كلِّ مكانٍ، وأنْ تُحيط القيادة علمًا بكلِّ ظروفك، ولا تُقدم علىٰ عملٍ يؤثِّر فيها جوهريًّا إلَّا بإذنٍ، وأن تكونَ دائمَ الاتِّصال الرُّوحي والعملي بها، وأنْ تعتبر نفسَك دائمًا جنديًّا في الثَّكنة تنتظر الأوامرَ)) [2].

فكما ترىٰ أيُّها الأخ الكريم في الفقرة السَّابقة وضوحَ أهمية دور القائدِ أو المرشد في منهج جماعة الإخوان المسلمين، فهو يرسم طريقةَ نشر دعوة الجماعة والتَّمكين لها، والتَّأكيد علىٰ أهمية دور القائد والثِّقة به الأمر الذي أنْ يُخضِعَ المرءُ حياتَه وظروفَه

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص 364).

(2) المصدر السابق (ص 367).

تحت تصرف القيادة، ويحيطها علمًا بكلِّ ما يؤثِّر جوهريًّا في حياة الفرد المنتمي للجماعة، ثم أنْ يكون جنديًّا ينتظر الأوامر، مما يوضِّح أهمية الدور الذي يلعبه رأسُ جماعة الإخوان ممثَّلةً في شخصية المرشد، والعمل على ترسيخ أهمية ذلك الدور في نفوسِ أعضاء الجماعة من خلال غرس تعاليمٍ محدَّدةٍ واجبةِ التَّنفيذ.

4- مبدأُ البيعة عند كلِّ فردٍ من أفراد الجماعة كركنٍ أساسٍ من شروط الانتماء:

الركن الأساس للانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين والعملُ من خلال منهجها أن يؤدِّي الشخص بيعةً وقَسَمًا تجعل منه جزءًا من كيان الجماعة فيقول:

«أعاهد الله العظيمَ على التَّمسُّك بدعوة الإخوان المسلمين، والجهاد في سبيلها، والقيام بشرائط عضويَّتها، والثِّقة التَّامَّة بقيادتِها، والسَّمع والطَّاعة في المنشط والمكره، وأقسم بالله العظيمِ على ذلكَ، وأُبايع عليه، والله على ما أقول وكيلٌ»[1].

ففي هذه البيعة يتَّضح ما للقيادة- ممثَّلةً في المُرشد العامِّ- من أهميةٍ حيث الثِّقة بها والطَّاعة التَّامَّة لها.

5- مرحلة التَّنفيذ وتحقيق الأهداف:

وهي مرحلةُ العمل على تنفيذ أهداف جماعة الإخوان المسلمين المحدَّدة سلفًا، ويتَّضح فيها بجلاء دور قيادة الإخوان المسلمين ممثلةً بالمرشد العام لها فيُعلن حسن البنا عن مرحلة التنفيذ فيقول تحت عنوان: متى تكون خطوتنا التَّنفيذيَّة؟

«وفي الوقت الذي يكون فيه منكم معشر الإخوان المسلمين ثلاثمائة كتيبةٍ قد جُهِّزت كلٌّ منها نفسيًّا ورُوحيًّا بالإيمان والعقيدة، وفكريًّا بالعِلم والثَّقافة، وجسميًّا بالتَّدريب والرِّياضة في هذا الوقت- طالبوني بأنْ أخوضَ بكم لُجَج البِحار، وأقتحم بكم عَنان

(1) مادة 4 من اللَّائحة الداخلية لجماعة الإخوان المسلمين عام 1948م.

السَّماء، وأغزو بكم كلَّ جبارٍ عنيدٍ فإني فاعلٌ إن شاء الله، وصدَق رسول الله ﷺ القائل: ((ولن يُغلب اثنا عشرَ ألفًا من قِلَّةٍ))[1]. إنِّي أُقدِّر لذلك وقتًا ليس طويلًا بعد توفيق الله واستمداد معونته وتقديم إذنه ومشيئته، وقد تستطيعون أنتم معشر النُّواب ومندوبيهم أن تقصروا هذا الأجلَ إذا بذلتم هِمَّتَكُم، وضاعفتم جهودَكم، وقد تهملون فيخطئ هذا الحساب وتختلف النتائجُ المترتِّبة عليه، فأشعروا أنفسكم العبءَ، وألِّفوا الكتائبَ، وكوِّنوا الفِرَقَ، وأقبِلوا على الدُّروس، وسارِعوا إلى التَّدريس، وانشروا دعوتكم في الجهات التي لم تَصِل إليها بعدُ، ولا تُضيِّعوا دقيقةً بغير عمل))[2].

فهذه مرحلة التَّنفيذ العمليِّ لأهداف جماعة الإخوان المسلمين، يتَّضح فيها بجلاء دَور مُرشدِهم كمحرِّكٍ لأي توجُّهٍ يتمُّ، وأن تنفيذَ الأهداف مرهونٌ برؤية المُرشد، وتحديده للوقت تبعًا لما يراه من بلوغ القوَّة التي تُمكِّنه من ذلك.

6- منزلة المرشد في جماعة الإخوان المسلمين:

وتلخيصًا لما سبق نجد أنَّ كيان هذه الجماعة مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بشخصية المُرشد الذي يقوم بدور القائد أو الإمام لهذه الجماعة في جميع مراحلِها من حيثُ:

1- فكرة تكوينها منذ البداية - تظهر شخصية المُرشد القائد بوضوح.

2- تحديد الأهداف ووضع المنهج والإشراف على بلوغ هذه الأهداف، وفيه التَّأكيد على أهميَّة قيادة الإخوان ووجوب طاعتِها.

---

(1) جزء من حديث أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب فيما يستحب من الجيوش والرُّفقاء والسرايا (2611)، والترمذي في كتاب السير، باب ما جاء في السرايا (1555)، وأحمد في مسنده (1/294)، وأبو يعلى في مسنده (2587)، وابن خزيمة في صحيحه (2538)، وابن حبان في صحيحه (4717)، والحاكم في مستدركه (1/443) من طريق وهب بن جرير حدَّثنا أبي قال: سمعت يونس يحدث عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما به مرفوعًا. وقال الترمذي: ((حسن غريب)). وقال الحاكم: ((هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه)). ووافقه الذهبي.

(2) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص 165).

3- إرساء مبدأ الطَّاعة، ويظهر جليًّا من خلال أهمية الثِّقة التَّامة في شخصية القائد.

4- وجود بيعة يُقسم فيها على السَّمع والطَّاعة للقيادة.

5- مرحلة التَّنفيذ، ويظهر فيها دور المُرشد في قيادة الجماعة نحو تنفيذ أهدافِها.

فمنذ مراحل التَّكوين الأولى للجماعة وجميع أدوار انتشارها يظهر بجلاء أهمية دور المرشد، وأنَّه هو المحرِّك الفعليُّ في جميع مراحل عمل الجماعة إلى الحدِّ الذي يجعل كل فرد فيها يرتبط رُوحيًّا وفكريًّا وعمليًّا بشخصية المرشد، حتَّى في حياته الشَّخصيَّة.

وقد ظهرَت وتُرجِمت هذه المبادئ من الثِّقة والطَّاعة في شخصية المرشد من خلال أقوال الذين كانوا مقرَّبين من المرشد العام وجميع الأفراد المنتمين لجماعة الإخوان.

تحظى مرتبة الإرشاد في جماعة الإخوان بمنزلة كبيرةٍ جدًّا تقترب من التَّقديس بحيث وضعَت لهذا المنصب هالةً كبيرةً من الإجلال والتَّقدير عند أبناء الجماعة.

7- نماذج من الغلو في مكانة حسن البنا:

نال حسن البنا النَّصيب الأكبر من هذه الهالة التقديسية، ظهر ذلك جليًّا في مؤلِّفات الإخوان وكتاباتهم حيث أطلق عنان القلم في سيرته ومواقفه وكلامه وصفًا وتحليلًا، حتى أصبحت حياة حسن البنا ومنهجه وتاريخه وأعماله وكتاباته هي الدُّستور المقدَّسُ عند جماعة الإخوان المسلمين، يستلهمون منه النُّور والطَّريق، وحظيت كتاباته وأقوالُه بكثير من الشُّروح والتَّدريس والتآليف عنها، وسوف نورد نُبذة من الأقوال توضِّح المدى الذي وصلت إليه النظرة إلى منصب القائد في جماعة الإخوان المسلمين ممثلة في مرشدها العامِّ حسن البنا.

- في كتاب: ذكريات لا مذكِّرات، تحت عنوان: عبقرية حسن البنا، يقول عمر التلمساني: ((وكما يحدث في كلِّ جماعةٍ أو حزبٍ أو مجتمعٍ فقد كان لبعض الإخوان آراءٌ واقتراحاتٌ تتعارض مع فريقٍ آخر، ولكني بحمد الله كنتُ بعيدًا عن هذه الخلافات

كلِّها، وكنت أرىٰ وأسمع وأُفكر بعين فضيلته وآذانه وعقله؛ لثقتي المطلقة في صواب كلِّ ما يرىٰ، وقد يكون في هذا شيءٌ من الخطأ أو إلغاء الشَّخصية عند بعض النَّاس، ولكنني كنتُ معه كالميت بين يدي مغسله، وكنت سعيدًا بهذا كل السَّعادة، وللحقيقة فقد كانت مكانة الإمام الشَّهيد والإمام الهضيبي فوق كل مكانة في جماعة الإخوان المسلمين، فما تمرد عليهما أحدٌ؛ اعتدادًا بمكانته إلا وكان مصيره النَّبذ والإبعاد، وتلك من مميِّزات جماعة الإخوان الطَّاعة المطلقة لمرشدهم في غير معصية))[1].

- يقول سعيد حوىٰ في كتابه: من أجل خطوة إلىٰ الأمام:

((ولا نعلم أنَّه من بين خَلق الله مَن فطن لهذا كله من شروط جماعة الإخوان المسلمين، وفطن إلىٰ مجموع ما يلزم لتحقق الجماعة الإسلامية أهدافَها علىٰ كل مستوىٰ: من صياغةٍ للسلم، إلىٰ إقامةٍ للدولة المسلمة في كلِّ قُطر، إلىٰ الوصول للدَّولة الإسلامية العالمية لحسن البنا))[2].

ويقول أيضًا: ((ثم إنه نبتتْ هنا وهناك أفكارٌ مريضةٌ تريد أنْ تتخلَّص من دعوة حسن البنا ومن أفكارِه، فكان لا بدَّ أن يعرف هؤلاء وغيرُهم أنَّ الانطلاقة علىٰ غير فِكر الأستاذ البنا في عصرنا قاصرةٌ أو مستحيلةٌ أو عمياءُ، إذا ما أردنا عملًا متكاملًا في خدمة الإسلام والمسلمين))[3].

ويقول في كتابه: في جولات في الفقهين الكبير والأكبر: ((ولا شكَّ أنَّ دور الجماعة قبل السُّلطة وبعدها هو المنظم لهذا كله ونقصد بالجماعة المسلمين ونعتقد أنه لا جماعة كاملة للمسلمين إلَّا بفكر الأستاذ البنا، إلَّا بنظرياته وتوجيهاته التي في جملتها الحب لكل العاملين المخلصين))[4].

---

(1) ذكريات لا مذكرات عمر التلمساني (ص 56) دار الاعتصام.

(2) من أجل خطوة إلىٰ الأمام علىٰ طريق الجهاد المبارك(ص29) لسعيد حوىٰ- مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة الثانية- 1979م.

(3) آفاق التعاليم (دراسة في آفاق دعوة الأستاذ البنا) لسعيد حوىٰ (ص13) مكتبة وهبة.

(4) جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما (ص65) دار عمار- بيروت- 1988م.

- ويقول أيضًا في كتابه آفاق التعليم: ((ولكن الأيَّام ستكشف- والله أعلم- أنَّه لن تستطيع الحركة الإسلامية ولا في طور من أطوارها سواء قبل الدَّعوة أو بعدها، أو في السِّياسة الدَّاخلية، أو في السِّياسة الخارجية للدَّولة الإسلامية، أو في التَّربية، أو في التَّكوين، أو في الإستراتيجية والحركة- أن تستغني عن فكر الأستاذ البنا))[1].

- ويقول أيضًا في كتابه: المدخل إلىٰ دعوة الإخوان المسلمين: ((إنَّ نقطة البداية في الثِّقة المُطلقة بالإسلام ترجع إلىٰ الثِّقة بشخص رسولِ الله ﷺ، ونقطة البداية في الثِّقة المطلقةِ بدعوة الإخوان المسلمين ترجع إلىٰ الثِّقة بشخص حسن البنا رحمه الله، ولقد أخذنا هذه الثِّقة ووضعناها عمَّن لهم أمثال الجبال في الثِّقة، منهم شيخنا محمد الحامد رحمه الله الذي كان يعتبر حسن البنا مجدِّد القرون السَّبعة الماضية، وليس مُجدِّدًا لقرن واحدٍ والذي كان يعتبر حسن البنا قد وصل إلىٰ رتبة الاجتهاد، مع أنَّ الشيخ الحامد رحمه الله كان لا يسلِّم أن الأمة قد وجد فيها مجتهدون منذ عشرة قرون، وكل ذلك عن تجربةٍ شخصيةٍ مع حسن البنا رحمه الله، وكان يعتبر حسن البنا هو الوحيد الذي أعطته النفس مقاليد القيادة كاملةً))[2].

- ويقول كامل شافعي- وهو من الجيل الأول للإخوان- عن شعوره عندما كان يُقبِّل يدَ حسن البنا: ((لقد كنتُ أُقبِّل يديه، وأشعر حين تقبيلها أنني أعبد الله))[3].

- ويقول محمود عبدالحليم في كتابه: الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ وهو يصف حسن البنا: ((لقد كنت أحار في تصوُّر قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: ((إنَّه كان خلُقُه القرآنَ))[4]؛ حتىٰ لقيتُ حسن البنا وصاحبتُه، فبدتِ الصُّورة تتضَّح أمامي))[5].

---

(1) آفاق التعاليم دراسة في آفاق دعوة الأستاذ البنا (ص5) مكتبة وهبة.

(2) المدخل إلىٰ دعوة الإخوان المسلمين (ص 186) سعيد حوىٰ- مكتبة وهبة- القاهرة 1984م.

(3) حسن البنا بأقلام تلاميذه ومعاصريه لجابر رزق (ص 156).

(4) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (746) مطولًا، وفيه: ((فإن خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ)).

(5) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ (1/187) محمود عبدالحليم- دار الدعوة للطبع والنشر-

- وينقل ثروت الخرباوي عن عمر التِّلمساني قوله: ((لما كان الأمرُ أمرَ تجميع وتكوين وتوحيد مفاهيم أُمَّةٍ مسلمةٍ، ولما كان الأمرُ عودةَ المسلمين إلىٰ الإيمان- لما كان الأمر كذلك اختار الله لهذه الدَّعوة إمامها الشَّهيد حسن البنا))[1].

قال ثروت الخرباوي: في مقال له تحت عنوان: المنحرف حسن البنا: ((وإنِّي لا أنسىٰ أبدًا درسًا ألقاه علينا أحدُ شيوخ الجماعة الكبار حين كنتُ في شبابي الأول أحثُّ الخطىٰ نحو الجماعة إذ قال هذا الشيخ وهو يتحدث عن حسن البنا: لكل أمةٍ نبيٌّ ورسولٌ؛ ولأن سيدَنا محمد ﷺ هو آخر الأنبياء والرسل؛ لذلك وهب الله للأُمَّة في كلِّ جيل نبيًّا غير مرسلٍ، ولكنه مُلهمٌ من الله سبحانه للقيام بدوره كنبيٍّ في تبليغ رسالة الأُمَّة، وهو غير الذي يُجدد للأمة أمرَ دينها، فالذي يُجدد لأُمتنا أمرَ دينها قد يكون فردًا أو جماعةً أو مؤسسةً أو مجموعةً من العلماء، ولكن النبيَّ غيرَ المرسل هو دائمًا شخصٌ واحد، وقد كان نبيُّنا غير المرسل هو الإمام الرَّبَّاني حسن البنا، وأذكر أنَّنا دخلنا في جدلٍ فقهيٍّ بعد ذلك عن مسألة: النبي الملهم غير المرسل، وما هي الأدلة الدِّينية علىٰ صحة هذا الأمر؟ وحين توجَّه بعضُنا إلىٰ الشيخ عبدالمنعم تعيلب- أحد كبار دعاة الجماعة- قال تبريرًا لهذا الرأي: الحكمة هي النُّبوة، والله يهب الحِكمة أي النُّبوة لمن يشاء، ألم يقل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 269]. وقد وهب الله الحكمةَ- أي: النبوة- لحسن البنا، وكان من دلائل ذلك أنه أنشأ هذه الجماعة فانتشرت في ربوع الأرض، وهي في ذات الوقت تُعيد للدُّنيا من جديد الإسلامَ الذي غفلت عنه الأمة، وبهذه المثابة نبيٌّ لم يرسله الله، ولكن ألهمه وآتاه الحكمة، ورغم التَّلفيق الواضح إلا أنَّ البعض اقتنع، والبعض الآخر أوهم الآخرين أنَّه اقتنع، ولكنْ ظلَّت في قلبه غصَّةٌ، فلا هذا دِين ولا

=

الطبعة الخامسة- 1994 م.

(1) كتاب أئمة الشر (ص184) ثروت الخرباوي- دار نهضة مصر- الطبعة الأولىٰ- 2013م.

تلك قراءة صحيحة للدِّين، ولكن البنا انحرفَ فانحرف رجالُه))[1].

وتحت عنوان زينب الغزالي والبيعة يقول علي العشماوي في كتابه: التاريخ السِّري لجماعة الإخوان المسلمين: ((وسألتُها عن البيعة وكيف كانت ومَن مِن الإخوان قَبِلَ بيعتها؟ فقالت: إنها في إحدىٰ الليالي وكانت حالتها الرُّوحانية في غاية الصَّفاء صلَّتِ العشاءَ ثم نامت، وفي نومها رأت الشَّيخ حسن البنا- مؤسس الجماعة- وقد جاء إليها وأمرها بالجلوس، فجلستْ أمامه، وقال لها: إنَّه قد آن الأوانُ لأن تُصحح مسارَ عملِها الإسلاميِّ، وتعمل من خلال جماعة الإخوان، وقدَّم لها يدَه، ووضع كفَّها بين كفَّيه، ثم تلا البيعة وهي تُردِّد خلفه حتىٰ انتهت، ومن يومها وهي تعمل مع الإخوان بتلك البَيعةِ))[2].

فهذه أيُّها القارئ الكريم نماذجُ من رؤية أعضاء جماعة الإخوان المسلمين لمرشدهم حسن البنا ومنزلته، حيث سموا به إلىٰ درجاتٍ عليا من التَّقدير، فكان نظرهم إليه نظرة التَّابع إلىٰ متبوعه المقدَّس الملهَم، فكانوا بين يديه كالميت بين يدي مُغسله في الطَّاعة المُطلقة، ويرون أن رؤيته هي الوحيدة القادرة علىٰ تحقيق معنىٰ الجماعة في مجتمعات المسلمين، وأن الانطلاق نحو نهضة المجتمعات المسلمة علىٰ غير فِكر حسن البنا هي دعوةٌ قاصرةٌ أو مستحيلةٌ، ويظهر هذا التقديس في شعور أحدهم بأنَّه في عبادةٍ لله حين يُقبِّل يدَ حسن البنا، وتشبيه الثِّقة بشخص حسن البنا كالثِّقة بشخص رسولِ الله ﷺ، وأنَّ اختيار حسن البنا لتجميع أمر أُمَّةِ الإسلام هو اختيارٌ ربَّانيٌّ، وأنَّه ليس أمام المسلمين إلا فِكر حسن البنا للانطلاق الصحيح، بل وصل الأمر ببعضهم أنْ جعل البنا هو النَّبي المُلهَم غير المُرسَل صاحب الحكمة، وكيف يُعصىٰ النبي؟ أو كيف لا يُطاع؟ أو

---

(1) ثروت الخرباوي- مقال من جريدة الدستور المصرية العدد 3537 بتاريخ 18/2/2014.

(2) التَّاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين (ص144) علي العشماوي- مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية.

كيف لا يكون المنهج الذي وضعه هو المنهج الصحيح؟ فكانت هذه النَّظرة لشخصية حسن البنا الأثر الأكبر في إرساء مبدأ السَّمع والطَّاعة في نفوس أعضاء جماعة الإخوان، وجعلت لكلمات حسن البنا في وقته ولكتاباته بعد وفاته نظرة مُقدَّسةً لمنهجٍ مُقدَّسٍ تظهر من أقوالهم في وصف حسن البنا دائمًا بالأستاذ الإمام، أو الإمام الشَّهيد.

8- كلمات حسن البنا تُظهر فكرة القيادة المتحكِّمة المتجهة لتحقيقِ الأهداف:

كتَب حسن البنا في افتتاحية العدد الأول من مجلة النَّذير التي صدر العدد الأول منها في مايو 1938م تحت عنوان: ((خطوتنا الثانية)) جاء فيه:

((ويتساءل الناس: ما خطوتُكم الثَّانية؟ سننتقل من خير دعوة العامة إلىٰ خير دعوة الخاصَّة، ومن دعوة الكلام وحده إلىٰ دعوة الكلام المصحوب بالنِّضال والأعمال، وسنتوجه بدعوتِنا إلىٰ المسئولين من قادة البلد وزعمائه ووزرائه وحُكَّامه وشيوخه ونوابه وأحزابه، وسندعوهم إلىٰ مناهجنا، ونضع بين أيدِيهم برنامجنا، وسنطالبهم بأن يسيروا بهذا البلد المسلم بل كل الأقطار الإسلامية في طريق الإسلام، في جرأةٍ لا تردُّدَ معها، وفي وضوحٍ لا لبسَ فيه، ومن غير مواربة أو مداراةٍ، فإنَّ الوقتَ لا يتَّسع للمداورات، فإنْ أجابوا الدَّعوة وسلكوا السبيلَ إلىٰ الغاية آزرناهم، وإن لجئوا إلىٰ المواربة والرَّوغان وتستروا بالأعذار الواهيةِ والحُجج المردودة فنحن حربٌ علىٰ كلِّ زعيم أو رئيسِ حزبٍ أو هيئةٍ لا تعمل علىٰ نُصرة الإسلام، ولا تسير في الطَّريق لاستعادة حُكم الإسلام ومجد الإسلام، سنعلنُها خصومةً لا سِلْمَ فيها ولا هوادةَ معها حتىٰ يفتح الله بيننا وبين قومِنا بالحقِّ وهو خيرُ الفاتحين)) [1].

وعن موقف الإخوان من الحُكَّام والزُّعماء والأحزاب والهيئات يقول حسن البنا في نفس الافتتاحية مخاطبًا الإخوان: ((في هذه الخطوة ستخاصمون هؤلاء جميعًا في الحُكمِ

(1) المقالة الافتتاحية من العدد الأول لمجلة النذير- السنة الأولىٰ- 30 ربيع الأول 1357هـ.

وخارجِه خصومةً شديدةً لديدةً إنْ لم يستجيبوا لكم ويتَّخذوا تعاليم الإسلام منهاجًا يسيرون عليه ويعملون له، وسيكون هؤلاء جميعًا منضمين لكم في وحدةٍ قويَّةٍ وكتلةٍ متراصَّةٍ متساندةٍ إنْ أجابوا داعيَ الله وعملوا معكم، وحينئذٍ يجتمعون ولا يتفرَّقون، ويتحدثون ولا ينتقدون، فهو موقف إيجابيٌّ واضح لا يعرف التَّردد، ولا يتوسَّط بين الحبِّ والبغض، فإما ولاء وإما عداء، ولسنا في ذلك نُخالف خُطَّتنا أو ننحرف عن طريقِنا، أو نغير مسلكنا بالتَّدخل في السِّياسة كما يقول الذين لا يعلمون، ولكِنَّا بذلك ننتقل خطوةً ثانيةً في طريقتنا الإسلامية وخطتنا المحمدية ومنهاجنا القرآني، ولا ذنب لنا أنْ تكون السياسة جزءًا من الدِّين، وأن يشمل الإسلامُ الحاكمين والمحكومين، ليس في تعاليم الإسلام أعطِ ما لقيصرَ لقيصرَ وما لله لله، ولكن في تعاليم الإسلام قيصر وما لقيصر لله الواحدِ القهَّار.

أيُّها الإخوان، أُعلن لكم هذه الخطوة على صفحات جريدتِكم هذه لأول عددٍ منها، وأدعوكم إلى الجهاد العمليِّ بعد الدَّعوة القوليَّة، والجهاد بثمن، وفيه تضحيَّاتٌ، وسيكون من نتائج جهادكم هذا في سبيل الله والإسلام أنْ يتعرَّض الموظفون منكم للاضطهاد وما فوق الاضطهاد، وأن يتعرَّض الأحرارُ منكم للمعاكسة وأكثر من المعاكسة، وأنْ يدعى المترفون منكم إلى السُّجون وما هو أشقُّ من السُّجون، ولتبلون في أموالكم وأنفسكم، فَمَن كان معنا في هذه الخطوة فليتجهَّز ويستعدَّ لها، ومَن قعدت به ظروفُه، أو صعبت عليه تكاليفُ الجهاد- سواء كان شعبةً من شُعب الإخوان أو فردًا من أفراد الجماعة- فليبتعد عن هذا الصفِّ قليلًا وليدع كتيبة الله تسير، ثم فليلقنا بعد ذلك كله في ميدان النَّصر إن شاء الله، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾. ولا أقول لكم إلا كما قال إبراهيم عليه السلام من قبل: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36]))[1].

(1) العدد الأول من مجلة ((النذير)) مايو 1938.

لا تعبر أيُّ كلمات عن منهج التَّنفيذ والقيادة أو تبني الإمارة في فكر حسن البنا مثلما عبَّرت كلمات هذا المقال، فهو يعلن فيه بعد أن مرَّت مراحل تكوين وتنظيم وتدريب الجماعة وإرساء مبدأ الطَّاعة والثقة في القيادة، وأصبح لجماعة الإخوان المسلمين كيانٌ موجودٌ قويٌّ محسوسٌ في المجتمع- أنه قد حانت لحظةُ التَّنفيذ العمليِّ، واستخدام هذا الكيان في تنفيذ الأهداف في قوةٍ وعزمٍ وجرأةٍ، والاستعداد للدُّخول في خصومةٍ مع الجميع في مفاصلة إمَّا ولاء وإمَّا عداء، ويعلن أنَّه ليس في ذلك تغيير في منهج جماعته وإنما هو فقط الانتقال للخطوة الثانية، وينبُّه أعضاءَ جماعتِه إلىٰ ما قد يلقَوْنَه في سبيل تحقيق الأهداف، مطالبًا لهم بالثَّبات أو الابتعاد.

ففي هذه الكلمات تظهر في حسن البنا شخصيةُ القائد الذي كوَّن جماعةً، ووضع لها منهجًا، ورسم لها طريقًا، وربَّاها علىٰ مبادئَ محددةٍ، ووضع لها الأهدافَ حتىٰ إذا ما رأىٰ أنَّ ساعة العمل قد حانت أعلن ذلك في صراحةٍ.

9- تكوين حسن البنا للتنظيم الخاص:

كان لتكوين حسن البنا التنظيم الخاص دورٌ كبيرٌ ومؤثِّرٌ في دعوة الإخوان المسلمين، فعلىٰ هذا التنظيم يقع عبءٌ كبيرٌ في العمل لتحقيق أهداف الجماعة، يقول محمود الصَّبَّاغ- وهو أحد أعضاء التَّنظيم الخاص للإخوان المسلمين في كتابه: حقيقة التنظيم الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين، وهو بتقديم مصطفىٰ مشهور مرشد جماعة الإخوان المسلمين في الفترة من (2002-1996م):

((1- فقد زالت دواعي السِّريَّة عن حقبة من تاريخ هذه الدَّعوة المباركة- دعوة الإخوان المسلمين- وقد كانت ضرورة من ضرورات عملها العسكري في سبيل الله، حيث يفرض دينُنا الحنيف أن نستعين بالسِّريَّة والكتمان علىٰ قضاء حوائجنا، وبخاصة علىٰ

أعداء الله الذي ينصر الله عليهم أحبابَه وأنصارَه بالرُّعب، فالسِّريَّةُ عنصرٌ هامٌّ من عناصر الرُّعب والرَّهبة في القتال، وبها يضمن المقاتلون عنصرَ المفاجأة، ومن ثَمَّ النصر)) [1] .

((2-وقد ذكرتُ في الفصل الثَّاني أيضًا أنني خرجتُ بعد لقائي الأول مع الإمام الشَّهيد أخًا مسلمًا دون أن أقدم استمارة عضويَّة أو أدفع اشتراكًا شهريًّا أو سنويًّا، أبحث مع أخي مصطفىٰ مشهور وسيلةَ التنفيذ باتباع ما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله، وهي واضحة ظاهرةٌ، حيث لابد من مقاتلة العدوِّ من جيشٍ مسلم مُعَدٍّ بسلاحٍ يتناسب مع أسلحة العدوِّ- ولكن بقدر الاستطاعة- فلم يكلفنا ربُّنا غيرَ حدود الاستطاعة، وأنَّ النَّصر مؤكَّدٌ بإذن الله لو أنَّنا صدقنا الله وذلك وعده المحتوم لمن ينصره من الصَّادقين، وهو الله الذي لا إله إلا هو، وهو علىٰ كل شيء قدير.

بداية التكوين:

عرفني الأخ مصطفىٰ مشهور علىٰ أخي في الله الأستاذ عبدالرحمن السندي- يرحمه الله- بصفته المسئول عن إعداد هذا الجيش المسلم في تنظيم الإخوان المسلمين، وقد كان ذلك عام 1939م، وكان الأسلوب في ذلك الوقت هو أن يربط بالأخ عبدالرحمن السندي كل من يرىٰ نفس الرأي ويشعر نفسَ الشُّعور، ويحب الارتباط بالجيش المسلم الذي يجري إعداده لأداء فريضة الجهاد.

وكان أوَّل ما يتعاهد عليه الأخ الصَّالح للارتباط بهذا الجيش مع العضو الجديد هو تميز هذا الجيش عن الدَّعوة العامَّة بالسِّريَّة في كلِّ أقواله وأفعاله، فلا يصحُّ الحديث في شأنه إلا مع زميل من أعضائه الذين يتعرف عليهم بواسطة قيادة النِّظام.

وكان أول ما يختبر به جدِّية العضو الجديد فيما أعلنه من رغبةٍ صادقةٍ في الجهاد في سبيل الله أنْ يُكلَّف بشراء مُسدسٍ علىٰ نفقته الخاصة، ولم يكن ثمن المسدس يتعدىٰ ثلاثةَ

(1) حقيقة التنظيم الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين (ص 6) دار الاعتصام - القاهرة.

جنيهاتٍ يكلِّف العضو الجديد بادِّخارها من مصروفه إذا كان طالبًا، أو دفعها من كسب يده إذا كان مُكتسبًا لا يُستثنىٰ أحدٌ من هذه القاعدة لأي عذرٍ من الأعذار، وقد ادَّخرتُ فعلًا الجنيهات الثلاثة واشتريتُ بها مسدسًا افتتحت به باكورة عملي في سبيل الله» [1].

كان تكوين هذا التَّنظيم الخاص السريِّ خطوة تعبِّر عن دهاء حسن البنا، فهي تمثل إمساك حسن البنا بخيوطٍ قويَّة نحو تحقيق أهداف جماعتِه، فهو تنظيم سريٌّ داخل الجماعة له مهامُّه الخاصَّةُ غيرُ المُعلنة، والذي كان له اليدُ الطُّولىٰ في تنفيذ عمليات الاغتيال التي تمَّت في تلك الفترة، وتصفية خصوم الإخوان المسلمين، والذي يظهر من الأدلة حول هذه الاغتيالات أنَّها كانت بعِلْمٍ من حسن البنا، أو علىٰ أقل تقديرٍ لم يُمانع في تنفيذِها.

وبتكوين هذا التَّنظيم الخاص اكتملت أدواتُ القوة في أيدي مُرشد جماعة الإخوان، والذي بدأها بتكوين جماعةٍ ووضْعِ منهجٍ لها وأهدافٍ وطرقِ تربيةٍ، ثم بعد ذلك بجهازٍ سريٍّ مُدَربٍ علىٰ الأعمال العسكريَّة ينتظر الأوامر، فتكاملت صورة القائد الموجِّه في شخصية حسن البنا بما يملكه من رؤيةٍ محددةٍ لمشروعٍ ينتابه الغموض في بعض جوانبه، وكانت هذه الجماعة هي الحقل الذي أنبتَت بعد ذلك جميعَ جماعات الإسلام السِّياسي والجهاديِّ.

الإمارة في فكر الجماعة الإسلاميَّة

تأسَّست الجماعة الإسلامية في مصرَ في صورة جماعة دعويَّةٍ في أوائل السبعينيات من القرن العشرين، واتَّسعت قاعدة هذه الجماعة، واتَّخذوا اسمَ: «الجماعة الإسلامية» ومن الأساسيات التي قام عليها منهجُ هذه الجماعة هو إعلانهم أنَّ من أهدافهم تعبيد النَّاس لربِّهم وإقامة خلافةٍ علىٰ نَهْجِ النبوة، وهذا الهدف موجودٌ في ميثاق العمل الإسلامي، والذي يُعد مرجعًا للجماعة الإسلامية في مصرَ.

(1) حقيقة التَّنظيم الخاص (ص63).

فيقولون فيه: ((طريقنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الجهاد من خلال جماعةٍ منضبطةٍ حركتها بالشَّرع تأبىٰ المداهنةَ أو الركونَ، وتستوعب ما سبقها من تجارب))[1].

ولتحقيق هذا الهدف علىٰ أرض الواقع أصبح لزامًا علىٰ أفراد الجماعة هذه أنْ يكون لهم تكوين وهيئةٌ محددةٌ وفكر محدد عبروا عنه في ميثاق العمل الإسلامي بقولهم: ((الدعوة والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والجهادُ في سبيل الله من خلال جماعة منضبطة حركتها بالشرع الحنيف، إنَّ الجماعة والعمل الجماعي هو الترجمة الوحيدة لأمر الله ورسوله بالوحدة وعدم التَّفرقة وبالتعاون علىٰ البرِّ والتَّقوىٰ وبالاعتصام بدينه، و إنَّ الجماعة هي الصُّورة للموالاة الكاملة بين المؤمنين.

إنَّ ترك العمل الجماعي وتفضيل الفردية والعشوائية في العمل عليه إنَّما يعني: معصيةَ أمرِ الله ورسولِه، والوقوع في الفُرقة وترك الوحدة، وإهمال التَّعاون علىٰ البر والتقوىٰ، والانتقاص من درجة الموالاة للمؤمنين، كل هذا يعطينا المبرِّرات الكافيةَ والأسبابَ الموجبةَ لتبنِّي أسلوب العمل الجماعيِّ، واختيار الجماعة كطريقٍ أوحد لطاعة الله ورسوله في هذه الأوامر، ولكن ليست هذه هي كل المبررات والأسباب التي تُوجب الجماعة كأسلوب عمل بقيت واحدة هامة وخطيرة لم يهملها دينُنا أيضًا، إنَّ ديننا ليقرر أنَّ: ما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجبٌ. وكم من واجباتٍ مفروضةٍ علينا لا يُمكن إطلاقًا القيام بها علىٰ الوجه الذي أمر به الشَّرعُ إلا بالتزام الجماعة والعمل الجماعي))[2].

فبهذه الجمل والكلمات حدَّدت الجماعة الإسلامية أهدافَها، ووسيلتُها لتحقيق هذه الأهداف يستلزم بالضَّرورة أن يكون لها قيادةٌ تُنظِّم العملَ وترسم المنهجَ وتضع الأهدافَ، تمثَّلت في منصب أمير الجماعة، واشتهر من أمراء الجماعة الإسلامية في

(1) ميثاق العمل الإسلامي-الجماعة الإسلامية بمصرَ.

(2) المصدر السابق.

مصرَ عمرُ عبدالرحمن الذي كان له دورٌ أساسٌ في نشاط الجماعة الإسلامية، وكان مفتيًا ومرجعية في الفتوىٰ للجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد، وكانت القيادة وإمارة الجماعة أمرًا مهمًّا لدىٰ جميع أفراد الجماعة الإسلامية.

وأعضاء الجماعة الإسلامية ينتمون للتنظيم دون أداء قسم للطَّاعة، وليس لها بيعةٌ ملزمة للأعضاء؛ رغم أنَّها جماعة كبيرة، ولها أجنحة عسكريةٌ، وإنَّما يكون العمل بأفكارها وفق التزامٍ أدبيٍّ لَمن يقبل الانتماء.

يقول عاصم عبدالماجد- عضو مجلس شورىٰ الجماعة الإسلامية: ((إنَّ بيعة أعضاء الجماعة الإسلامية موجودةٌ لكنها غير مكتوبة أو منطوقة وهي بمثابة التزام أدبي، وبمجرد مشاركة العضو في العمل الدعوي يتم اعتباره أخًا، له جميع الحقوق وعليه جميعُ الواجبات، وهناك عَقدٌ بين الجماعة والأخ ليس من الوَرَقِ أو اللفظ؛ لكنَّه مكتوبٌ في القلب بمداد من الحبِّ والوُدِّ))[1].

وتميَّزتِ الإمارة في الجماعة الإسلامية بالميل لتغيير المنكر باليد علىٰ كافَّة المستويات، مما انعكس علىٰ رؤيتهم لمنصب القيادة (الإمارة).

وتحت عنوان: متىٰ تئول سلطة التأمير إلىٰ الرَّعية؟ يقول صاحب كتاب العمدة في إعداد العدة: ((بيَّنتُ فيما سبق وجوب الإمارة، وأنَّ التأمير من حقِّ إمام المسلمين ومَن يحل محلَّه؛ كولي أمرٍ مسئولٍ عن عملٍ من الأعمال؛ إلَّا أنَّه في بعض الأحوال يتعيَّن علىٰ جماعة المسلمين أنْ يختاروا الأميرَ بأنفسِهم.

-إذا فُقِدَ الأميرُ المعيَّن من جهة الإمام بقتلٍ أو أَسْرٍ أو عجزٍ، ولم يتمكَّن المسلمون من مراجعة الإمام، ولم يكن لهم عِدَّةُ أُمراء علىٰ التَّرتيب أو انتهوا.

---

(1) مقال بعنوان: العمل ميثاق والجهاد بيعة، نشر في جريدة المصري اليوم في العدد (2885)، بتاريخ: 2012/5/7.

- إذا شرع المسلمون أو طائفةٌ منهم في عملٍ من الأعمال الجماعية، خاصة التدريب والجهاد، ولم يكن للمسلمين إمامٌ كما هو الحال في زمانِنا الآن، فعلىٰ المسلمين أن يختاروا أحدَهم للإمارة، ولا يصح أن يعملوا بدون إمارةٍ، وقد أعطاهم النبيُّ ﷺ صلاحية التَّأمير هذه بقوله: ((فليُؤمِّروا)) من حديث: ((إذا خرج ثلاثةٌ في سفرٍ فليؤمِّروا أحدَهم))[(1)][(2)].

رؤية أعضاء هذه الجماعات لمسألة الإمارة عندهم:

يقول صاحب العمدة في إعداد العدة للجهاد:

((1- الإمارة علىٰ الجماعات الإسلامية التي قامت علىٰ التَّعاون علىٰ البرِّ والتَّقوىٰ هي إمارةٌ شرعيَّةٌ صحيحةٌ، كما سبق تفصيلُ ذلك في الباب الثَّالث.

2- إذا ثبت شرعية هذه الإمارة فيجب علىٰ كلِّ مَن قَبِلَها السَّمعُ والطَّاعة للأمير في غير معصيةٍ، وإنْ لم يعاهد علىٰ ذلك؛ إذ إنَّ هذا يجب بالشَّرع ابتداءً بدون عهدٍ.

3- ذكرتُ في مسألة فائدة العهد والغرض منه: أنَّ العهد له فائدتان؛ الأولىٰ: توكيد ما وجب بالشَّرع ابتداءً، وهي طاعة أولياء الأمور ومعاونتهم علىٰ الحقِّ ومناصحتهم، إلىٰ غير ذلك مما أمر به الله تعالىٰ ورسولُه ﷺ.

والثَّانية: الالتزام بشروطٍ أخرىٰ لم يوجبها الشَّرع ابتداءً وإنَّما تجب وفاء بالعهد، ما لم تخالف الكتاب والسُّنة.

فإذا قامت جماعةٌ بغرض نصرة الدِّين فيجب علىٰ كلِّ مسلم معاونةُ هذه الجماعة، عاهدَها أم لم يعاهدْها، إذ إنَّ هذا واجب بالشَّرع ابتداءً؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:2]. فإذا عاهدها تأكَّد هذا الوجوب لوجوب الوفاء بالعهد

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم (2608)، وأبو يعلىٰ في مسنده (1359)، وأبو عوانة في مستخرجه (7538)، والطبراني في الأوسط (8093) من طريق محمد بن عجلان عن نافع عن أبي سلمة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه به مرفوعًا. وحسنه النووي في رياض الصالحين (ص 299).

(2) العمدة في إعداد العدة للجهاد في سبيل الله لعبدالقادر بن عبدالعزيز (ص54).

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34]. وكذلك السَّمع والطَّاعة واجبان على كلِّ فردٍ في مثل هذه الجماعات لأولي الأمر منهم، عاهد على هذا أم لم يُعاهد، فإنْ عاهد تأكَّد الوجوبُ)) [1].

والغالب على أعضاء الجماعة الإسلامية النَّظر إلى الجانب الجهادي العسكريِّ في أمر الإمارة والطَّاعة؛ وذلك نظرًا للأهداف التي حدَّدتها الجماعة لنفسها من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والخروج على وُلاة الأمور، والجهاد المسلح، وإنْ كانت لم تمتلك الكوادر العسكرية، ولكنها أظهرت قوتها في استعمال القوة فيما اعتبرته من المخالفات لتعاليم الإسلام في المجتمع.

يقول منتصر الزيات في كتابه الجماعات الإسلامية: ((بدأت الجماعة الإسلامية تُنشئ لها هيكلًا تنظيميًّا مرتبًا، فحتى هذا الوقت كانت المسألة اجتهاداتٍ فرديةً في كلِّ محافظةٍ وفي كلِّ جامعةٍ على حدة، وفي مؤتمر دعت له الجماعة الإسلامية في آذار مارس 1978م في مسجد عمر مكرم بأسيوط، وفي ظلِّ حضور حاشد قامت البيعة للدكتور ناجح إبراهيم- كان طالبًا يوم ذاك في كلية الطِّب- أميرًا للجماعة الإسلامية في صعيد مصر، وتم اتباع الأسلوب نفسه في جامعة القاهرة، وبويع الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح)) [2].

الإمارة في فكر جماعة الجهاد الإسلامي

نشأت أوَّل مجموعة جهادية في مصرَ حوالي عام 1964م وكان أبرز مؤسسيها ثلاثة: علوي مصطفى، إسماعيل طنطاوي، ونبيل البرعي، وكان من بين أعضاء هذا التَّنظيم في نهاية الستينيات أيمن الظواهري، ومصطفى يسري، وحسن الهلاوي.

وكانت مرجعية هذا التَّنظيم يعتمد مناهجَ لتعليم الدِّراسات الشَّرعية تقوم على أساس

(1) العمدة في إعداد العدة (ص169-170).

(2) الجماعات الإسلامية رؤية من الداخل لمنتصر الزيات- دار مصر المحروسة- 2005م.

المنهج السَّلفي، كما ألزم الأعضاء بحضور دروس الشيخ محمد خليل هرَّاس بمسجد قَوَلَة بعابدين، وهو المقرُّ العام لجماعة أنصار السُّنَّة المحمَّديَّة بمصرَ، كما تضمنت المناهج الدِّراسية بجماعة الجهاد الأولىٰ هذه كتابَي: في ظلال القرآن، ومعالم في الطَّريق لسيِّد قطب)) [1].

وكانت الأهداف التي تعمل من أجلها جماعة الجهاد هو التَّخلص من نظام الحكم وإقامة حكومة ودولة إسلامية، واعتمدت في ذلك علىٰ أسلوب الانقلاب العسكري لتحقيق هذا التغيير، وتبنىٰ نهج الاعتماد علىٰ اختراق الجيش من خلال إلحاق أفرادٍ ينتمون إلىٰ فِكر جماعة الجهاد، سواء كانوا جنودًا أو ضباطًا.

وتمثل القيادة في جماعة الجهاد الإسلامي في أمير التَّنظيم الذي ظهر بداية في عام 1974م في شخصية المهندس أحمد صالح، ثم الدكتور مصطفىٰ يسري الذي قام بحلِّ التَّنظيم عام 1979م علىٰ إثر الاختراقات الأمنية للتنظيم وتوجيه ضربات إليه، يقول عبدالمنعم منيب: ((حل تنظيم الجهاد بقرار من الدكتور مصطفىٰ يسري- أمير التنظيم آنذاك- وامتناع القيادات الوسطىٰ للتَّنظيم عن إبلاغ قرار الحل للمجموعات، واستقلال كل منهم بمجموعته للعمل منفردًا وفق آرائه الخاصة التي تعلمها في إطار التَّنظيم المحلول)) [2].

ففكرة وجود القيادة الواحدة في تنظيم الجهاد لم تكن بنفس الصُّورة عند الجماعة الإسلامية، بل وُجدت عدة قيادات في نفس الوقت؛ يقول منتصر الزيات: ((وكان محمد عبدالسلام فرج خطيبًا يجمع بين العلنيَّة والسِّرية، أما الظَّواهري فكان يرفض ذلك تمامًا، ويرىٰ أنَّ العمل لابدَّ أن يكون سريًّا؛ لذلك كان يأمر أتباعه أن يحلقوا لِحَاهُم، وهو لم يُطلق لحيته إلا في السِّجن، ولما أفرج عنه في 1984م حلق لِحيتَه وعاد إلىٰ ما كان عليه، فهو كان يُمعن في التَّمويه والخداع؛ لذلك استطاع أنْ يُجنِّد هذا العدد من الضُّباط

(1) خريطة الحركات الإسلامية في مصر لعبدالمنعم منيب (ص44) - مكتبة مدبولي- القاهرة.

(2) كتاب خريطة الحركات الإسلامية في مصر (ص50).

ويجمع هذا الكم من الأسلحة؛ إذ ضُبطت في منزل صديقه نبيل البرعي في المعادي ترسانة من الأسلحة وصناديق من السلاح الآلي.

الخلاصة: هي أن الظَّواهري كان يرىٰ أن الإطاحة بالنِّظام لابد أن تكون بالانقلاب العسكري، وهو وافق علىٰ التَّعاون مع الجماعة الإسلامية من منطلق ثقته في محمد عبدالسَّلام فرج.

كان أيمن الظَّواهري ولا يزال يميل إلىٰ الانطواء، ومشكلته من وجهة نظري تكمن في نزوله عند رغبات الآخرين، ففي مراحل كثيرة من حياته خضع لرأي معاونيه بصرف النَّظر عن صواب ذلك الرأي أو خطئه، وداخل السجن كان يُجاهر برفض ولاية الشيخ عمر عبدالرحمن لأنه ضرير، وكان أول مَن جاهر بهذا الرأي عصام القمري، وانضم إليه عبود الزمر، وفي المقابل كان تنظيم «الجماعة الإسلامية» في الصَّعيد، والذي يقوده كرم زهدي يناصر ولاية عمر عبدالرحمن كأمير للتَّنظيم، وعندما صدر كتاب: «بطلان ولاية الضَّرير» وصلتنا نسخةٌ منه، وكان يعمل معي ويشاركني في مكتب المحاماة الأخ ثروت صلاح شحاتة، ويتردد علينا نعيم عبدالفتاح- القيادي في جماعة الجهاد- فصارحتهما أن يبلغا الظَّواهري بأن هذا الكتاب سيُحدث انقسامًا، وينبغي منعه وتدخلت مرةً أخرىٰ لمنع هذا الكتاب»[1].

فمن خلال هذا النَّص عند منتصر الزَّيات- وهو أحد كوادر العمل الجهادي في السابق- يتبيَّن أنَّ فكرة القيادة أو الإمارة لم تكن واضحةَ المعالم، حتىٰ إنه لم يجمع علىٰ الولاء لشخصية واحدةٍ في قيادة التَّنظيم، وأن المنهج والطريقة لتحقيق الأهداف لم يكن متَّفقًا عليهما بين البارزين في تنظيم الجهاد الإسلامي، ذلك التَّنظيم أدىٰ إلىٰ إحداث تغييرات سياسية كبيرة في بلد مثل مصر، بنجاحه في اغتيال رئيس الجمهورية محمد أنور السَّادات، وذلك في السَّادس من أكتوبر عام 1981م.

---

(1) كتاب الجماعات الإسلامية رؤية من الداخل.

الإمارة في فكر حزب التحرير

تأسس حزب التحرير عام 1953م على يد تقي الدِّين إبراهيم النَّبهاني في الأُرْدُن، وكان تحت قيادة النبهاني حتى وفاته 1977م، وهو تكتُّلٌ سياسيٌّ إسلاميٌّ يدعو إلى إنشاء دولة الخلافة الإسلامية والعودة إلى الحُكم بما أنزل الله.

منهج حزب التحرير:

ومنهج حزب التحرير يتَّضح من خلال نشاطه في المجالات السياسيَّة والإعلاميَّة، وفي مجال الدَّعوة الإسلامية، وبناء على منشورات الحزب فإنه يتَّخذ من العمل السياسي والفكريِّ طريقًا لعمله، ولا يرى الأخذَ بالأعمال المسلحة لتحقيقِ أهدافه.

تُسمى القيادةُ السياسية في حزب التَّحرير بالإمارة، يتولاها أميرُ الحزب الذي يتمُّ انتخابه داخليًّا طبقًا لآليات حزبية، وتكون مدة إمارته غيرَ محدودة المدة، وإمارته عالميةٌ، بمعنى أنَّه أمير على كلِّ أفراد الحزب في جميع أنحاء العالم، وكان النبهاني هو الأمير المؤسس، وبقي يقود الحزب حتى وفاته عام 1977م[1].

عمل حزب التحرير:

أما عن عمل حزب التحرير، فعمله هو حمل الدَّعوة الإسلاميَّة لتغيير واقع المجتمع الفاسد وتحويله إلى مجتمع إسلاميٍّ، وذلك بتغيير الأفكار الموجودة فيه إلى أفكار إسلامية حتى تصبح رأيًا عامًّا عند النَّاس ومفاهيمهم تدفعهم لتطبيقِها والعمل بمقتضاها، وتغيير المشاعر فيه حتى تصبحَ مشاعرَ إسلاميةً ترضى لما يُرضي الله وتثور وتغضب لما يُغضب الله، وتغيير العلاقات فيه حتى تصبح إسلامية، تسير وفق أحكام الإسلام ومعالجته.

وهذه الأعمالُ التي يقوم بها الحزب هي أعمالٌ سياسيةٌ؛ إذ الحزب يرعى فيها شئونَ الناس وفق الأحكام والمعالجات الشَّرعية لأن السياسة هي رعاية شئون الناس بأحكام

(1) موقع حزب التحرير على شبكة المعلومات الدولية.

الإسلام ومعالجاته[1] .

طريقة عمل حزب التَّحرير:

حدد الحزب طريقة سيرِهِ بثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة التَّثقيف لإيجاد أشخاص مؤمنين بفكرة الحزب وطريقته لتكوين الكتلة الحزبيَّة.

الثَّانية: مرحلة التَّفاعل مع الأمة لتحميلها الإسلام حتى تتخذه قضية لها؛ كي تعمل على إيجاده في واقع الحياة.

الثالثة: مرحلة استلام الحُكم وتطبيق الإسلام تطبيقًا عامًّا شاملًا وحمله رسالة إلى العالم[2] .

وفكرة الإمارة أو القيادة في حزب التحرير تتمثل في أمير الحزب، الذي يُمثل المُنظِّر للنهج والخُطوات العمليَّةِ التي تحقِّق الأهداف، فأقرب التَّصورات لمنهج هذا الحزب هو أنَّه يُعدُّ نفسَه في مرحلة الانتشار والتَّكوين حتى تتسنى له الفرصة في الوصول إلى السُّلطة، ويتضح ذلك من طريقة عمل الحزب السَّابق ذكرها.

الإمارة في فكر الجماعات السَّلفية

يعد مصطلح السَّلفية مصطلحًا كبيرًا واسعًا يدخل فيه كثيرٌ من الأفراد الذين يحبُّون أنْ يُسموا بهذا الاسم: السَّلفية، وينسبون فِكرهم ومنهجهم إلى السَّلف الصَّالح والقرون الفاضلة الأولى، وإنْ كان في صحَّة تسميتِهم بهذا الاسم نظر.

وهذه الطَّوائف التي تنتمي إلى مسمَّى السَّلفية كثيرةٌ ومنتشرة ليست في مصرَ فقط ولكن في جميع أنحاء البلاد الإسلامية، وجميع بلاد العالَم، ولكن تكوين الدَّعوة

---

(1) موقع حزب التحرير على شبكة المعلومات الدولية.

(2) موقع حزب التحرير.

السَّلفية ككيان محدد بدأ في الإسكندرية في السَّبعينيات من القرن الماضي (بين عامي 1972م– 1977م).

ثم مع انتشار التَّيار الدِّيني بعد ذلك وانضمام الكثيرين إليه تحت مُسمَّىٰ السَّلفية أصبحت السَّلفية منهجًا ومجموعةً من الأفكار المحدَّدة، ومنهجًا للدَّعوة تبنَّاها الكثيرون من أبناء التَّيار الإسلامي، وإنْ كان كلٌّ منهم يتبع جماعاتٍ أو هيئاتٍ أخرىٰ.

وعلىٰ ذلك ففكرة الإمارة والقيادة لهذه الجموع ليست بالوضوح الكامل الذي يظهر في الجماعات الأخرىٰ مثل جماعة الإخوان، وإنَّما هي مرجعيَّاتٌ فكريَّة دعويَّةٌ، إلا عند السَّلفية الجهادية؛ فأتباع هذه الدَّعوة ينظرون إلىٰ طوائفَ من الشيوخ والدُّعاة علىٰ أنَّهم مرجعيَّتُهم العلميَّة والفكريَّة والمنهجيَّة، وطبقًا لاختلاف الرؤيا في معالجة القضايا الفقهية أو الواقعية لدىٰ هؤلاء الشُّيوخ يظهر لكل شيخٍ أو مجموعةٍ من الشُّيوخ والدُّعاة طائفةٌ أو جمهورٌ يعملون برأيه ويسيرون وفقًا لتوجيهاته ورؤيته، التي يعتبرونها الرؤية الشَّرعية الصَّحيحة، وإنْ كان لا يمنع انضواءُ الجميع تحت مسمَّىٰ السَّلفية.

والخلاصة: أن فكرة القيادة في هذا التَّيار السَّلفي تتمثل في الدُّعاة والشُّيوخ الذين يمثلون المرجعية الدِّينية التي لا يستطيعون الخروج عن آرائهم وفتاويهم، وبمرور الوقت وازدياد الشَّعبية لهؤلاء الدُّعاة، أصبح لهم مكانةُ الإمارةِ والتَّحكُّم في السُّلوك والمواقف التي تكون للأتباع من القضايا المختلفة، بطريق مباشرٍ وغير مباشر.

وتظهر من خلال المنهج السَّلفي صورٌ ثلاثةٌ هي: (السَّلفية العلميَّة-السَّلفية الحركية- السَّلفية الجهاديَّة) هذه الصورة التي تقدم الكلام عليها في: نشأة فكر التكفير في المجتمعات الإسلامية؛ فراجعه ففيه تفصيل عن تلك الصورة الثلاث.

نموذج عملي للإمارة في التنظيمات الجهادية:

فتحت عنوان التَّنظيم العام للجماعة السَّلفية للدعوة والقتال يوضِّح المنظِّرون وواضعي المنهج لهذه الجماعة شروط العضوية، وهي:

1- الإسلام.

2- سلامة العقل.

3- سلامة الأعضاء التي لا تعيقه عن الجهاد.

4- وأن لا يكون ملتزمًا بتنظيم غير تنظيم الجماعة السَّلفية للدَّعوة والقتال.

5- البيعة لأمير الجماعة السَّلفية للدَّعوة والقتال ولمجلس الأعيان ورؤساء اللِّجان والهيئات الذين يشكِّلون مجلس شورىٰ الجماعة السَّلفية، وعملهم عملٌ متكاملٌ، وذلك من خلال تنسيق العمل بينهم.

أما عن صلاحيات أمير الجماعة السَّلفية للدعوة والقتال:

1- القيام الكلي علىٰ إدارة شئون الجماعة السَّلفية.

2- تنسيق العمل مع المجلس الشورىٰ ورؤساء الهيئات وأهل الرأي وذوي الخبرات.

3- إلزام أفراد الجماعة السَّلفية بالقرارات والتَّعليمات الصَّادرة عنها.

4- حماية أصول الجماعة السَّلفية وضوابطها وأهدافها من الخلل.

5- تعيين الأعضاء والأُمراء علىٰ المهام.

6- يستخلف عنه مَن يرىٰ فيه الكفاءة لإدارة شئون الجماعة السَّلفية نيابةً عنه مؤقتًا.

7- إصدار القرارات والتَّوجيهات والتَّعليمات للجماعة السَّلفية باستثناء القضايا المصيريَّة الكبرىٰ التي يُشترط فيها حضور كلِّ أفراد مجلس الأعيان أو جلِّهم (مجلس الأعيان: أهل الحل والعقد)[1].

---

(1) انظر: ميثاق الجماعة السَّلفية للدعوة والقتال (ص20).

فنلاحظ أن التَّيار السلفي الجهادي هو الذي تظهر فيه فكرة الإمارة والقيادة بشكل واضح أكثر من أي تيارٍ سلفيٍّ، وذلك نظرًا لما قلناه سابقًا من طبيعة العمل الجهادي العسكري الذي يتبنَّاه هذا التَّيار السَّلفي الجهاديُّ.

الإمارة في فكر تنظيم القاعدة

تنظيم القاعدة هو عبارة عن منظمة وحركة متعددة الجنسيات تدعو إلىٰ الجهاد، ومرجعيتها تعتمد علىٰ أقوال من التراث الإسلامي عند علماء من المسلمين أمثال ابن تيميَّةَ وغيره خاصَّةً في فقه الجهاد والحاكميَّة وأحكام الرِّدَّة.

وكانت الشخصية الواضحة في هذا التنظيم في الآونة الأخيرة هو أسامة بن لادن، كان أسامة يتَّفق مع مجموعة من المشاركينَ في تلك الاجتماعات في 20 أغسطس 1988م علىٰ أنَّ القاعدة ستكون الجماعة الرَّسمية التي تجمع كل الفصائل التي تزعم أن هدفها رفعُ كلمة الله والانتصارُ لدينه، وكانت هناك قائمةُ شروطٍ للعضوية مثل: السَّمع والطَّاعة وحُسن الخُلق والتَّعهد بطاعة القادَة؛ يقول الصحفي بيتر بيرجن: ((فاسم تنظيم القاعدة لم يُستخدم في التَّصريحات العلنية مثل: فتوىٰ 1998م لقتل الأمريكيين وحلفائهم؛ ذلك لأن وجودها كان لا يزال سريًّا، وذلك أنَّ القاعدة تشكَّلت في 11 أغسطس 1988م في اجتماعٍ مع عدد من كبار قادة الجهاد الإسلامي المصري مثل: سيد إمام الشريف، وأيمن الظواهري، وعبدالله عزام مع أسامة بن لادن، حيث اتَّفق علىٰ توظيف أموال بن لادن مع خبرة منظمة الجهاد الإسلامي، ومواصلة الجهاد في مكان آخر بعد أن انسحب السُّوڤيت من أفغانستان))[1].

وفكرة الإمارة عندهم تتمثَّل في الظَّاهر في صورة رأس التَّنظيم، والذي كان في السَّابق أسامة بن لادن، وحاليًا أيمن الظواهري، لكن الهيكل التنظيمي لهم غير معروفٍ علىٰ

---

(1) مقال بواسطة لورانس ريت في مجلة نيو يوركر بتاريخ 2 يناير 2008م – The New Yorker.

الوجه الكامل إلَّا من خلال ما يمكن تخمينه من التَّسريبات التي تُبَثُّ لأعضاء وزعيم تنظيم القاعدة من آن لآخرَ.

ونظرًا لتشعب تنظيم القاعدة في كثير من دول العالم، وانضمام كثير من التيارات الجهادية في بلاد المسلمين لهم أو السير على منهجهم- فإنَّه يمكن القول: إن القيادة في تنظيم القاعدة تعتمد على مركزيَّة المنهج والقرار، وتترك تفاصيل التَّنفيذ للمُنتسبين إليها.

ولكن الذي ميَّز قيادات القاعدة هو إقدامهم على إصدار الفتاوى بالرغم من عدم امتلاك بن لادن ولا الظواهري المؤهّلات العلميَّة الشَّرعية لإصدار تلك الفتاوى، فقد شارك أسامة بن لادن وأيمن الظواهري- زعيم الجهاد المصري- إلى جانب ثلاثة آخرين من الزُّعماء الإسلاميين في توقيع وإصدار فتوى تحت اسم: الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصَّليبيِّين أعلنوا فيها: «أنَّ حكم قتل الأمريكيين وحلفائهم مدنيين وعسكريين فرضُ عينٍ على كلِّ مسلم في كلِّ بلد متى تيسَّر له ذلك حتى يتحرَّرَ المسجدُ الأقصى والمسجد الحرام من قبضتهم، وحتى تخرج جيوشهم من كل أرض الإسلام كسيرة الجَناح، عاجزة عن تهديد أيِّ مسلم، وذلك وفقًا لقول الله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: 36]. وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 193]»[1].

فالقيادة في هذا التَّنظيم تعتبر نفسها مرجعيةً دينيَّةً للعمل الجهادي، وتقوم من خلال وسائل الإعلام بتوجيه رسائل إلى جميع المسلمين، معتبرة نفسها في دورٍ قياديٍّ للعالَم الإسلاميِّ في مواجهة القوى الغربيَّة، وقد تفرع من هذا التنظيم تنظيم داعش الذي يسمي نفسه بتنظيم الدولة الإسلاميَّة وقد تقدم الكلام عليه في بحث نشأة فكر التكفير في المجتمعات الإسلامية.

---

(1) جريدة القدس العربي بتاريخ 2007/1/9م.

ومن خلال هذا الحال الذي تعرَّضنا له في الصَّفحات السَّابقة نستطيع أن نلقي نظرة عامَّة على حال هذه الجماعات، فإنَّ النَّاظر لحال الجماعات السَّابق ذِكْرها في هذا البحث يجد بينهم قاسمًا مشتركًا، وهو رفع لواء الإصلاح الدِّيني والسياسي، وإعلان أنَّ ذلك يهدف لإنقاذ الأُمَّة وإعادة الحياة الإسلامية إلى بلاد الإسلام، وتحاول هذه الجماعات أن تُؤصِّل لهذه الرُّؤية من وجهة نظرها من الشَّريعة الإسلامية ومِن كُتُبِ بعض أهل العِلْم لإثبات صحَّة رؤيتهم لحال المسلمين وبلادهم، ثم بعد ذلك محاولة إيجاد الأدلَّة التي تُؤيد الطَّريقة التي يتعاملون بها لتغيير هذا الحال وإصباغها بصبغةٍ شرعية دينيَّة، ونجد أنَّ رؤية هذه الجماعات لحال المجتمعات المسلمة وطُرق إصلاحها تمثَّلت في النقاط التالية:-

1- رمي المجتمعات المسلمة بالبُعد عن الدِّين والانفلات من الإسلام.

2- تكفير وُلاة الأمور والحكومات.

3- العمل من خلال جماعاتٍ تنظيميَّةٍ ذات أشكالٍ وهيئاتٍ محدَّدة، تُمثِّل فيها القيادة أو الإمارة رأسَ الهرم التَّنظيميِّ، الذي تمثِّل رؤيتُه ومنهجُه الطَّريقَ الصَّحيحَة لفهم الإسلام وتطبيقِه.

4- الادِّعاء بأنَّ منهجَهم منهجُ جماعة المسلمين، ومن يخرج عنها فهو خارج عن الإسلام عند بعضهم، أو من أهل الضَّلال والبدع عند آخرينِ.

5- اتِّحادهم في الهدف، وهو إعادة الدَّولة الإسلامية وقيام الخلافة، ووضع الخُطط المرسومة مسبقًا لتحقيق هذا الهدف، وأن وسائل تحقيق هذا الهدف من الواجبات التي يأمر بها الدِّين.

6- منهج أغلب هذه الجماعات المفاصلة والصِّدام بينه وبين المسلمين ممَّن لا يرون رأيهم.

إنَّنا في نهاية هذا العرض لفكر الإمارة عند الجماعات الإرهابية نكرر ونقول: إن ما اتَّخذته تلك الجماعات من الطُّرق والوسائل والمناهج لا يتوافق مع أصول الدِّين وفروعه،

فبالتتبع نجد أنَّ منهجَهم وخُطواتِهم اتُّخذت من مبدأ: «الغاية تُبرِّر الوسيلةَ» فمن هذه القاعدة انطلقوا نحو تنفيذ أهدافِهم، ومن ذلك ابتداعهم لمنصب الأمير أو القائد المرشد، والذي جعلوا له بيعةً وطاعةً شرعيَّةً لا تكون إلا لوُلاة الأمر الشَّرعيين.

ثم إننا نقول أيضًا: إن ما مرَّ في الصَّفحات السَّابقة كان بعضًا مِن مظاهر وأفكار وسلوك كثيرٍ من الجماعاتِ الدِّينيَّة الَّتي ظهرَت في بلاد المسلمين، بالإضافة إلىٰ الحالاتِ الفرديَّة الخاصةِ الَّتي تعتنق فِكر الخوارجِ والتَّكفير ولكنَّها تكون متقوقعةً علىٰ نفسِها بدون الالتزامِ والانتماءِ لتنظيمٍ معيَّن، وتحت هذه السِّمات والأفكارِ يمكن لكَ أن تعدَّ ما فوق ثلاثينَ جماعةً وتنظيمًا ظهر في بلاد المسلمين يتبنَّىٰ هذه الأفكار الخبيثةِ، ونحن حين نذكر هذه الأفكار والمبادئَ لا نتجنَّىٰ عليهم، فهذا كلُّه مسطَّرٌ في كتبهم ومقالاتِهم وخطبِهم، ولم تكن جهودهم وأفكارُهم في صالح المسلمينَ وصالحِ أوطانِهم، ودعوتُهم لدين الله لم تكن علىٰ منهجِ الحقِّ منهجِ رسول الله ﷺ، فأساءوا لأنفسهم ولأمَّتِهم ولدِينهم ولأوطانِهم، وما حال الأمَّة وما تعانيه مِن فتنٍ وعدمِ استقرارٍ في هذه الأيام إلَّا ويقع علىٰ عاتِقهم نصيبٌ كبيرٌ من المسئوليَّة.

فهل هؤلاء هم أصحابُ المنهجِ الحقِّ الَّذي جاء به سيدنا محمَّد ﷺ؟ وهل هؤلاء هم أهل التَّمكين والفتحِ والنَّصرِ؟ فلو كانوا كذلك فإنَّ الله لا يخلِف وعدَه، وكنَّا رأينا علىٰ أقلِّ تقديرٍ بشائرَ نصرٍ وتمكينٍ علىٰ صعيدٍ واحدٍ، ولكن النَّصر والتَّمكين لا يكون مع فسادِ المنهجِ وانحرافِه، ولا يفيد منهم الاعتذارُ بالحججِ والأسبابِ الَّتي تدفعهم إلىٰ سلوكِ هذه الطُّرقِ مِن إقامة شرع الله وتحقيقِ المجتمع المسلمِ ومحاربةِ صورِ الفساد في البلادِ، فإنَّ ذلكَ أمرٌ يحقِّقه الإسلام ولكن بطريق الهدي النبويِّ، وليس بهوىٰ كلِّ واحدٍ، وليسأل كلُّ مَن يحمل هذا الفِكر نفسَه: ماذا قدَّم لدِين الله علىٰ الحقيقةِ، وماذا قدَّم لنفعِ المسلمين في أمرِ الدِّين أو الدُّنيا، وماذا قدَّم لوطنه، هل وجوده وأمثاله في بلاد الإسلام قد حقَّق النَّفع والهدايةَ والتفافَ النَّاس حول الدِّين والتزامَهم به في الأقوالِ والأعمالِ والسُّلوك أم كان

سببًا في الصَّدِّ عن سبيلِ الله مِن طرقٍ كثيرةٍ وإلصاق التُّهم بأهل العِلم والرمي بهم في كثيرٍ مِن المهالكِ والمشاكلِ، فضلًا عن وضعِ الإسلام موضعَ التُّهمةِ.

ثُمَّ يا مَن تشبَّعت بهذا الفِكر وسلكتَ هذا المسلكَ ورضيتَ بهذا المنهجِ بعد كلِّ هذه الأحداثِ والنَّتائج علىٰ مرِّ السِّنين أَلَا تقفُ مع نفسِك وقفةً لله عز وجل ثُمَّ لأمَّتك وتفترِض أنَّك مخطئٌ، أَلَا تعطي لنفسِك فرصةً لتراجِع هذا الفِكر بالرُّجوع إلىٰ أهل العِلم الصَّادقين المؤهَّلين لذلك لتسألهم هل أنا علىٰ نهجِ سيدنا رسول الله ﷺ وهدْيه؟ وهل أنا علىٰ منهجِ أهل السُّنة والجماعة بعد سلوك هذا الطَّريق؟ فإن وجدتَ الإجابة بنعم ولنْ تجد فاثبت علىٰ ما أنتَ عليه، وإن كانتِ الأخرىٰ فارجع إلىٰ طريقِ الحقِّ وتُب إلىٰ ربِّك وانخلع مِن كلِّ منهجٍ باطلٍ، ولا تستعظم أن تفعلَ هذا مهما كانت درجةُ انغماسِك في تلك المناهج، ومهما كانت المدَّة الَّتي عشت فيها ممارسًا لها فالرُّجوع إلىٰ الحقِّ مِن صفات المسلم الَّذي يرجو وجه الله والدَّار الآخرة بعمله، واجعل جُهدَك ووقتك في نصرةِ الدِّين ونشرِه علىٰ هدي سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ وليس علىٰ هوىٰ فلانٍ أو غيره مِنَ المخادعينَ الَّذين يأكلون الدُّنيا بالدِّين ولا يهتمُّون إلَّا بتحقيق أهدافِهم الخبيثة، ويزيِّنون لك الباطلَ وأنَّك في جهادٍ في سبيل الله، فلابدَّ لكَ مِن وقفةٍ وتفكيرٍ وطلبِ الهداية مِنَ الله أن يريَك الحقَّ حقًّا ويرزقَك اتباعه، وأن يريَك الباطلَ باطلًا ويرزقَك اجتنابَه، ولا يجعله مشتبهًا عليك فتضلَّ، فعليك بهدي سيدنا رسول الله ﷺ فإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ بعثَ سيدنا محمَّدًا ﷺ هاديًا رحيمًا مؤلِّفًا لقلوب النَّاس ولم يبعثْه سفَّاكًا للدَّم مفسدًا في الأرضِ وحاشاه صلوات ربِّي وسلامه عليه.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆



«سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ»

آية 1–2 من سورة الحديد

الرسالة السادسة والثلاثون

التمكين بين نصوص القرآن وفهم جماعات الخوارج

وتشمل المحاور التالية:

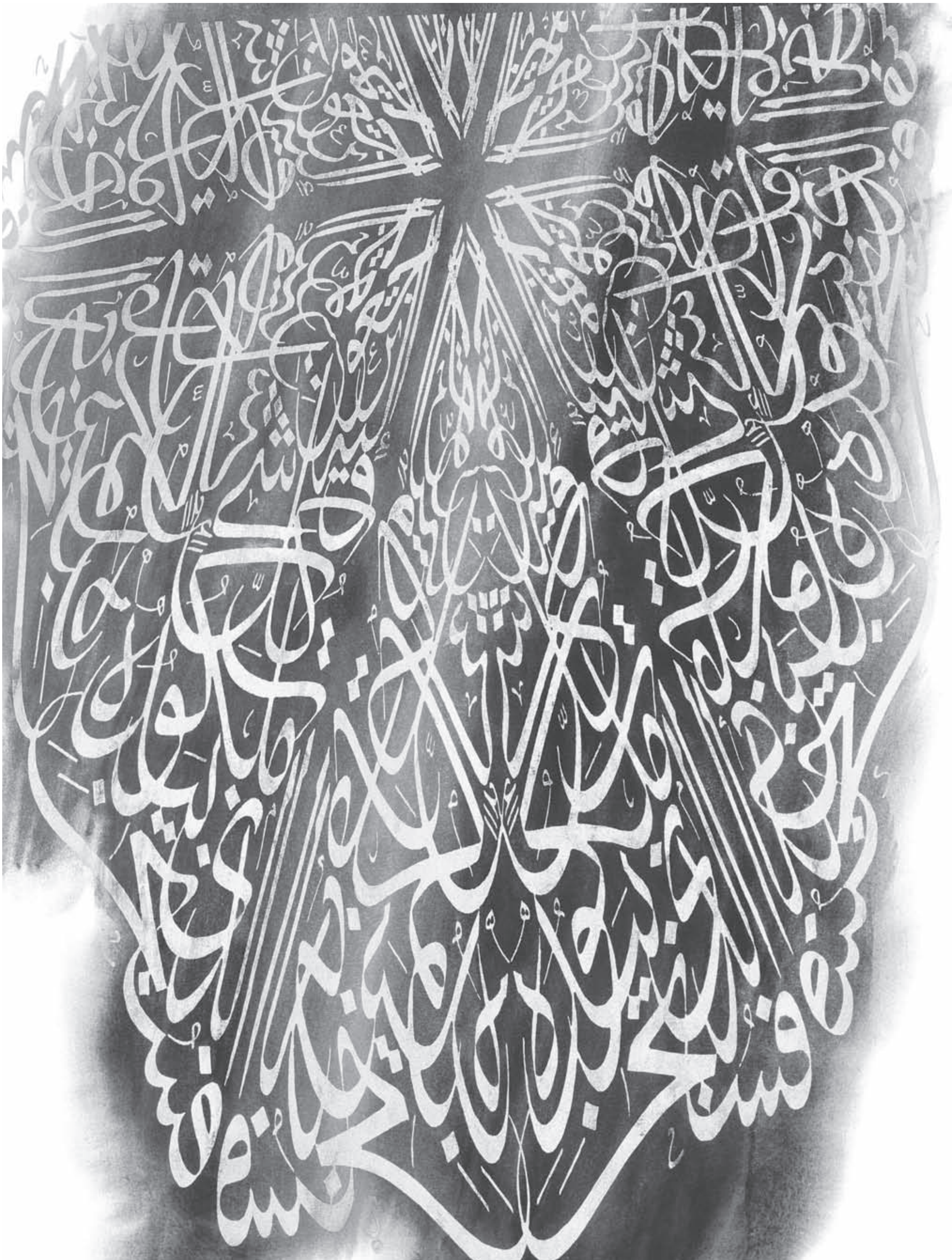
المحور الأول: حولَ مفهومِ التَّمكينِ وتَعريفهِ.

المحور الثاني: فكرةُ التَّمكينِ عند جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ.

المحور الثالث: التَّمكينُ في فكرِ الجماعاتِ السَّلفيَّة.

المحور الرابع: التَّمكينُ عند الأحزابِ السِّياسيَّةِ ذاتِ المَرجعيَّة الدِّينيَّةِ.

المحور الخامس: نَظرةُ الشَّريعةِ الإسلاميَّة إلىٰ قضية التَّمكينِ. ◆



﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ - آية **83** من سورة يس

التمكين بين نصوص القرآن الكريم وفَهم جماعات الخوارج

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذا بَحثٌ بَسيطٌ عَن فكرةِ التَّمكينِ للدِّينِ عندَ الجماعاتِ التي اصطُلِحَ علىٰ تَسميَتِها بجماعاتِ الإسلامِ السِّياسيِّ بأنواعِها المختلفةِ.

وذلك في نظرَتِهم لأمرِ التَّمكينِ، ومَا يَرونَه مِن منَاهِجَ وخُطواتٍ وأدواتٍ لتَحقيقِ رؤيَتِهم، وما هو السَّلوكُ العمليُّ الذي ينتهجونه لتحقيقِ هذا المبدأ، ثمَّ نتعرَّضُ بعدَ ذلك لِفكرةِ التَّمكينِ الصَّحيح مِن خلالِ فَهمِ عُلماءِ المسلمِينَ والسَّلفِ الصَّالحِ، ومِن خلالِ أقوالِ أهلِ العِلمِ المتخَصِّصِين.

وتَأتي أهميَّةُ التعرُّضِ لهذَا الأمرِ بسَببِ وجودِ تصوُّرٍ معيَّنٍ ومحدَّد لفِكرةِ التَّمكينِ لدينِ الله عندَ كثيرٍ منَ الجماعاتِ والتَّنظيماتِ التي تَزعمُ العملَ تحتَ مِظلَّةِ الدِّين، وما نتَجَ عن هذا التَّصوُّرِ مِن سلوكيَّاتٍ مَنهجيَّةٍ وعمَليَّةٍ، وتأثُّرِ الكثيرِ منَ المسلِمينَ بهذا التَّصوُّرِ في السَّنواتِ الأخيرةِ، وتقبُّلِهم لكلِّ الأفكارِ والأقوالِ التي تَخرجُ مِن هذِه التَّنظيماتِ والجماعاتِ يظنُّونَ أنَّها صَحيحُ الدِّينِ وأنها الطَّريقُ المؤدِّي لنُصرةِ الدِّين ونَيلِ رضَا الله سبحانَه وتعَالىٰ.

فالتَّمكينُ مَفهومٌ قُرآنيٌّ فسَّرَه أهلُ العِلمِ تفسيرًا مُتوافِقًا مع مقاصدِ الشَّريعةِ ونصُوصِها، ولم يَجعلِ القُرآنُ التَّمكينَ السِّياسيَّ أو تَحصيلَ القوَّةِ والثَّروةِ هو المَقصِدُ الشَّرعيُّ.

وسوف نُحاولُ في هذا البحثِ مناقشةَ الموضوعِ مِن زوايا متعدِّدةٍ نتَطرَّقُ فيهَا إلىٰ الجانبِ الشَّرعيِّ، وإلىٰ الواقعِ الحياتيِّ؛ عسَىٰ أن يُوفقَنا الله سبحانَه وتعَالىٰ إلىٰ تَحصيلِ رُؤيةٍ متكامِلةٍ لمَفهومِ التَّمكينِ، وحدِيثُنا في هذا الأمرِ سَيكونُ متمثِّلًا في المحاور التالية:

المحور الأول: حولَ مفهومِ التَّمكينِ وتَعريفهِ.

المحور الثاني: فكرةُ التَّمكينِ عند جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ.

المحور الثالث: التَّمكينُ في فكرِ الجماعاتِ السَّلفيَّة.

المحور الرابع: التَّمكينُ عند الأحزابِ السِّياسيَّةِ ذاتِ المَرجعيَّة الدِّينيَّةِ.

المحور الخامس: نَظرةُ الشَّريعةِ الإسلاميَّة إلىٰ قضية التَّمكينِ. ◆

حولَ مفهومِ التَّمكينِ وتَعريفِه

التَّمكينُ في اللُّغة العربيَّة:

التَّمكين لُغةً: مَصدرٌ منَ الفِعل مَكُنَ؛ أي قَوِيَ واشتدَّ.

- مَكُنَ فلانٌ عندَ السُّلطانِ مكانةً.

- ومكَّنتُه منَ الشَّيءِ تَمكينًا جَعَلتُ لهُ عليهِ سُلطَانًا وقُدرةً فتَمكَّنَ مِنُه، واستَمكنَ قَدَرَ عليهِ، وله مكنَةٌ؛ أي قوَّةٌ وشِدَّةٌ. وَأَمكَنَني الأمرُ سَهُلَ وَتَيَسَّرَ[1].

- التَّمكينُ: إزالةُ الموانعِ، مكَّنَ الله تعالىٰ العبدَ؛ أي أعطاهُ آلةً يَقدِر معها علىٰ الفعلِ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: 26] ومكَّنَ لَه في الأرضِ ومكَّنَه فيهَا قال الله تعالىٰ: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف:21] أي ولَّيناهُ[2].

والتَّمكينُ في الاصطلاحِ الشَّرعيِّ:

والمقصودُ بالتمكين في الاصطِلاحِ الشَّرعيِّ: هو مَعاني التَّمكينِ التي ورَدَت في كتابِ الله، وفي سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ وفي كتُبِ الفقهِ الإسلاميِّ، ونَستطيعُ أن نَقولَ: بأنَّ استِخداماتِ كلماتِ التَّمكينِ في مَصادرِ الشَّريعةِ لم تخرج عن الإطار اللُّغويِّ لَها.

فقَد ورِدَت بمَعنىٰ المُلكِ والقوَّةِ والسُّلطانِ، ووَرَدت بمَعنىٰ تَسهيلِ الأمرِ وتَيسيرِه وإزالةِ المَوانعِ وتَوفيرِ الأسبابِ.

التَّعدُّدُ الدَّلاليُّ لمفهومِ التَّمكينِ في القُرآنِ الكريم:

قَد ورَدَ مُصطَلَحُ التَّمكينِ في القرآنِ الكريمِ بدَلالاتٍ متعدِّدةٍ تُشيرُ إلىٰ تعدُّدِ غايَاتِه، ومِن هذه الدِّلالاتِ:

---

(1) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (م.ك.ن) لأبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ محمَّدٍ بن عليٍّ الفيوميِّ- المكتبة العلمية- بيروت.

(2) انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم- باب الميم والكاف وما بعدها (6361/9) لنشوان بن سعيد الحميري اليمني- دار الفكر- دمشق- الطبعة الأولىٰ- 1999 م.

1- إقامةُ الدِّين؛ كما في قَولِه تعَالىٰ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41] وهي الغايةُ القُصوىٰ للتَّمكينِ.

2- تَسخيرُ الأرضِ لبَني آدمَ؛ كَمَا في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10].

3- حيازَة الثَّرواتِ وامتِلاكُ الأموالِ؛ كما في قوله تعَالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6].

4- الأمنُ والتَّمتعُ بالخَيراتِ؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 57].

5- المُلكُ والنُّفوذُ قالَ تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: 56].

6- تحقيقُ الاستِخلافِ في الأرضِ، ويَظهر هذا المعنىٰ في قَولِ الله سبحانَه وتعَالىٰ: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النُّور: 55].

7- التَّقدِمةُ علىٰ الخَلقِ وتَحصيلُ الإمامةِ قال تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 5-6].

8- المُلكُ والأسبابُ يقول الله في كتابه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 83-84].

فهذِه الآياتُ الكريماتُ توضِّحُ وتبيِّنُ المَدلولَ الشَّرعيَّ الاصطِلاحيَّ لمعَاني التَّمكينِ ومَا تدُلُّ عليهِ، وهذِه الآياتُ مِن كلامِ الله هي العُمدةُ في فَهمِ معَاني التَّمكينِ في شَريعةِ الإسلامِ.

فكرةُ التَّمكينِ عندَ جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ

لقَد كانَ للأحداثِ التي مرَّت بهَا البِلادُ الإسلاميَّةُ والعربيَّةُ في السَّنواتِ القَلائلِ الأخيرةِ مِن تغيُّراتٍ سياسيَّةٍ الدَّورُ الكبيرُ في انكشافِ أفكارِ ومنَاهجِ وطرُقِ الكثيرِ مِن جماعاتٍ وتنظيماتٍ ما يُسمَّىٰ بالإسلامِ السياسيِّ، والتي لم تَكُن معروفةً قبلَ ذلكَ لعامَّةِ النَّاسِ، وظهرَ ذلكَ أكثرَ وضُوحًا في جانبِ جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ.

تولَّدَت فكرةُ تَحصيلِ التَّمكينِ للدِّين عندَ الإخوانِ المسلمينَ منذُ عهدِ المؤسِّس الأوَّلِ لها حسنِ البنَّا (1906-1949م) فقَد تأسَّسَت جماعةُ الإخوانِ المسلمينَ عام 1928م.

وفِكرةُ تَحصيلِ التَّمكينِ للدِّين بفَهمِ جماعةِ الإخوانِ مَا لبِثَت أن تطوَّرت بعدَ حينٍ حتَّىٰ صارَ معنَاها التَّمكينَ للجماعةِ، وأصبَحَت كلُّ المصنَّفاتِ والمؤلَّفاتِ التي جاءَت في وَقتِ حسَنِ البنَّا وبعدَه تؤصِّلُ لفكرةِ أنَّ التَّمكينَ هو التَّمكينُ لجماعةِ الإخوانِ، وأنَّ هذا التَّمكينَ هو تمكينٌ للدِّين في صُورةِ الجماعةِ.

وصورةِ هذا التمكينِ عندَهم هو الحضور السِّياسيُّ والاجتِماعيُّ والحرَكيُّ في بلادِ المسلِمينَ لهذِه الجماعةِ وأفرَادِها، والذي نتَجَ عنه تبنِّي جماعةِ الإخوانِ لخُططِ ومنَاهجِ الجماعَاتِ السِّريَّةِ في أنحَاءِ العالَم، مع أنَّ الأصلَ الذي كوِّنَت مِن أجلِه- وِفقًا لأقوال المُؤسسينَ لَها المعلنةِ- هوَ الدَّعوةُ لدينِ الله تعالىٰ.

ولكنَّ الذي حصل هو أنَّ هذه الجماعةَ اتَّخذَت لنَفسِها المبدَءَ الميكافليَّ الشهيرَ، وهو أنَّ الغايةَ تُبرِّرُ الوسِيلةَ، وهذا يَتنافَىٰ جملةً وتفصِيلًا مَع ما هو مُعلَنٌ عندهم مِن تبنِّي الدَّعوةِ إلىٰ الله سبحانه.

مثال للخطوات العملية لتحقيق الأهداف والتمكين عند جماعة الإخوان:

وسوفَ نَستعرِضُ فيما يَلي بعضَ أقوالِ جماعةِ الإخوانِ المسلمِين وغَيرِهم لرَصد خُطواتِ هذه الجماعةِ في سبيلِها لتَحصيلِ التَّمكينِ السِّياسيِّ لَهَا في الأرضِ:

ويتحدَّثُ حسنُ البنا مُوضِّحًا المنهجَ ورَاسمًا طريقَ السَّيرِ لجمَاعتِه، وذلكَ في كتابهِ ((رسالةُ التَّعاليم)) فيقول:

((الحَمدُ لله والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ إمَامِ المتَّقينَ وقائدِ المجَاهدِين سيِّدِنا محمَّدٍ النَّبيِّ الأميِّ وعلىٰ آلهِ وصَحبِه ومَن تَبعَ هُداهُم إلىٰ يَومِ الدِّينِ.

أمَّا بعدُ؛ فهذِه رسالتِي إلىٰ الإخوانِ المجاهدِين مِن الإخوانِ المسلمينَ الذين آمنوا بِسمُوِّ دَعوتِهم وقُدسيَّةِ فكرَتِهم، وعزَموا صادقين أن يَعيشُوا بهَا أو يَموتُوا في سبِيلها، إلىٰ هؤلاءِ الإخوانِ فقَط أوجِّهُ هذه الكلماتِ، وهي ليسَت درُوسًا تُحفَظُ ولكنَّها تعليماتٌ تُنفَّذُ، فإلىٰ العَملِ أيُّها الإخوانُ الصَّادقونَ.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التَّوبة: 105].

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

أمَّا غيرُ هؤلاءِ فلَهم دروسٌ ومحاضَراتٌ وكُتبٌ ومقالاتٌ ومَظاهرُ وإداريَّاتٌ، ولكلٍّ وِجهةٌ هو مولِّيها فاستَبِقُوا الخيرَاتِ، وكلًّا وعَد اللهُ الحُسنَىٰ.

والسَّلام عليكم ورَحمةُ الله وبرَكاتُه[1].

فهذه رسالة حسن البنَّا يلخِّصُ فيها دعوتَه والتي يخصُّها بجماعتِه فقَط، وهي رسالة للتَّنفيذِ لا للحِفظ، يتحدَّثُ فيها عَن بيعةٍ وأركانٍ لهذِه البَيعةِ يَجب الالتزامُ بهَا وعدمُ المَحيدِ عنَها.

---

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص355) دار الفتح للإعلام العربي.

فهذه الصُّورةُ أعطَت لهذه الجماعةِ التي تعمَلُ تحتَ مِظلَّةِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ شَكلًا ليسَ حزبيًّا فقط في بدَايةِ أمرِها؛ ولكنَّه أعطَاهَا شَكلَ الجمعيَّاتِ المنغلِقةِ علىٰ أعضائِها فقَط؛ لتَحقيقِ أهدافٍ محدَّدةٍ سَلفًا والتي وضَحَ عبر السِّنين أنَّ هذه الأهدافَ هي الوصولُ للسُّلطةِ والتَّمكينُ لجماعةِ الإخوانِ تحتَ ستارٍ منَ الدِّين والدَّعوةِ.

خُطُواتُ التَّمكينِ في مَنهجِ جماعةِ الإخوانِ منذُ النَّشأةِ:

لتَحقيقِ الأهدافِ التي قامَت مِن أجلِها جماعةُ الإخوانِ المسلِمِينَ، والتي سوفَ تُذكر في ثنايَا هذا البحثِ، سواءٌ المعلَنُ مِنها أو الخفيُّ، اتَّخذَت قيادةُ هذه الجماعةِ ممَّثلَةً في حَسنِ البنَّا في ذلكَ الوَقتِ خطُواتٍ لتَكوينِ هذِه الجمَاعةِ أو التَّنظيمِ علىٰ نَمطٍ وأساسٍ يَسمَحُ لها بالانتشارِ والاستمرارِ والتَّمدُّدِ، ويَجعلُ لها المَقدرَةَ علىٰ تَحقيقِ الأهدَافِ ممَّا يؤدِّي للتَّمكينِ لهَا، ومِن هذِه الخطُواتِ:

1- مبدأ تكوين الأخ المنتمي إلىٰ جماعة الإخوان:

لتَكوينِ الفَردِ الإخوانيِّ الذِي يَلتزِمُ بمَنهجِ ومبادئ جماعتِه، والذي يُعتَبر هو النَّواةُ الأوَّليَّةُ لتَكوينِ هذا التَّنظيمِ، يَنطلِقُ هذا الفَردُ مِن محطَّةِ البَيعةِ للجَماعةِ ولمُرشدِها ليُصبحَ بعدَ ذلكَ عُضوًا حقِيقيًّا في الجماعةِ.

يَقولُ حسنُ البنَّا في كتابِهِ رسالةُ التَّعاليمِ: «أيُّها الإخوةُ الصَّادقون: أركانُ بيعتِنا عشرةٌ فاحفظُوها: الفَهمُ والإخلاصُ والعَملُ والجهادُ والتَّضحيةُ والطَّاعةُ والثَّباتُ والتَّجرُّدُ والإخوَّةُ والثِّقةُ»[1].

ثمَّ يُوضِّحُ حسنُ البنَّا المرَادَ بالفَهمِ والذي هو أحد أركانِ بَيعةِ الإخوَانِ فيَقولُ: «إنَّما أُريدُ بالفَهم أن تُوقِنَ بأنَّ فكرتَنا إسلاميَّةٌ صمِيمةٌ، وأن تَفهمَ الإسلامَ كما نَفهمُه في حدُودِ

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص355).

هذه الأُصولِ العِشرينَ)) ثمَّ يذكرُ حسنُ البنَّا في كتابِه عشرينَ فكرةً عن تَصوُّرِه وفَهمِه للإسلامِ والذي سوفَ تَلتزِمُ بِهِ جماعةُ الإخوانِ[1].

وهذِه هي ألفاظُ البَيعةِ التي يَقولُها الفَردُ الذي يَنتمي بعدَ أخذِ البَيعةِ إلىٰ الجماعةِ انتماءً فِعليًّا فيُصبحُ جُزءًا مِن كِيانِ جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ، فيَقومُ بتأديَةِ أيِّ دورٍ مَنوطٍ بهِ وِفقًا لمَنهجِ هذِه الجماعةِ ومرجعيَّتِها فيقولُ:

((أُعاهِدُ الله العليَّ العظِيمَ علىٰ التَّمسُّكِ بدَعوةِ الإخوانِ المسلِمِينَ، والجِهادِ في سبيلِها، والقِيامِ بشرَائطِ عُضويَّتِها، والثِّقةِ التَّامةِ بقيادَتِها، والسَّمعِ والطَّاعةِ في المَنشطِ والمكرَهِ، وأقسمُ باللهِ العظيمِ علىٰ ذلكَ وأبايعُ عليهِ، واللهُ علىٰ مَا أقولُ وكيلٌ))[2].

فبِهذا القَسَمِ الذي يتَّضِحُ مِن ألفَاظِه إرساءُ مَبدأ السَّمعِ والطَّاعةِ في سَبيلِ الجمَاعةِ، وأنَّ الوَلاءَ والانتِماءَ هوَ لجماعةِ الإخوانِ، وأنَّ الالتِزامَ بالعَملِ هوَ في سبيلِها، وأنَّ الثِّقةَ تكونُ في قِيادَاتِ هذه الجماعةِ.

فبِهذِه العَقليَّةِ وهذَا الفهمِ تتكوَّن شخصيَّةُ المُنتمِي لجَماعةِ الإخوانِ المُسلِمِينَ، ويبدأُ بعدَها في السَّيرِ علىٰ مَنهجِ الجماعةِ ووِفقِ منهجِها ولتَحقيقِ أهدافِها.

2- العَملُ علىٰ الانتِشارِ والتَّغلغُلِ في المحافظاتِ في بدَايةِ النَّشأةِ:

وضعَت قيادةُ الإخوانِ المسلمِينَ في بدايةِ النَّشأةِ ممثَّلةً في حسَنِ البنَّا الأُسُسَ والخطُواتِ لحصُولِ الانتِشارِ والتَّمكينِ لجمَاعةِ الإخوانِ المسلمِينَ في مصرَ.

فيقول حسنُ البنَّا عَن وسائلِ تحقيقِ ذلكَ، تحتَ عنوانِ: الطَّاعةُ من أركَان البَيعةِ: ((وأُريدُ بالطَّاعةِ امتِثالَ الأمرِ وإنفَاذَه توًّا في العُسرِ واليُسرِ والمَنشطِ والمكرَه؛ وذلكَ أنَّ مراحلَ الدَّعوةِ ثلاثٌ.

---

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص355).

(2) مادة (4) من اللائحة الداخلية لجماعة الإخوان المسلمين عام 1948م.

1- التَّعريفُ: وذلكَ بنشرِ الفكرةِ العامَّة بينَ النَّاسِ، ونظامُ الدَّعوةِ في هذه المرحلةِ نظامُ الجمعيَّاتِ الإداريَّةِ، ومهمَّتُها العَملُ للخيرِ العامِّ ووسيلتُها الوَعظُ والإرشادُ تارةً وإقامةُ المنشآتِ النَّافعةِ تارةً أخرَىٰ، إلىٰ غيرِ ذلكَ منَ الوسائلِ العمليَّةِ، وكلُّ شُعَبِ الإخوانِ القائمةِ الآن تمثِّلُ هذِه المرحلةَ مِن حياةِ الدَّعوةِ، وينظِّمُها القانونُ الأساسيُّ وتَشرحُها وسائلُ الإخوانِ وجريدتُهم، والدَّعوةُ في هذِه المرحلةِ عامَّةٌ.

ويتَّصلُ بالجماعةِ كلُّ مَن أرادَ مِنَ النَّاسِ متىٰ رَغِبَ بالمساهمةِ في أَعمالِها ووعَدَ بالمحافظةِ علىٰ مبادِئِها، وليست الطَّاعةُ التَّامةُ لازمةً في هذه المرحلةِ بقَدرِ مَا يلزَمُ فيها احترامُ النُّظُمِ والمبادِئ العامَّةِ للجماعةِ.

2- التَّكوينُ: ويكونُ هذا باستخلاصِ العناصرِ الصَّالحةِ لحَملِ أعباءِ الجِهادِ وضَمِّ بعضِها إلىٰ بَعضٍ، ونظامُ الدَّعوةِ في هذه المرحلةِ صوفيٌّ بحتٌ منَ النَّاحيةِ الرُّوحيَّةِ، وعَسكريٌّ بحتٌ منَ النَّاحيةِ العمَليَّةِ، وشِعارُ هاتَين النَّاحيتَين (أمرٌ وطاعةٌ) مِن غيرِ تردُّدٍ ولا مُراجعَةٍ ولا شَكٍّ ولا حَرَجٍ، وتمثِّلُ الكتائبُ الإخوانيَّةُ هذِه المرحلةَ مِن حياةِ الدَّعوةِ، وتنظِّمُها رسالةُ المَنهجِ سابقًا، وهذِه الرِّسالةُ الآنَ[1].

والدَّعوةُ فيهَا خاصَّةٌ لا يتَّصِلُ بها إلَّا مَن استعدَّ استعدادًا تامًّا حقِيقيًّا لتحمُّلِ أعباءِ جهادٍ طويلِ المدَىٰ كثيرِ التَّبِعاتِ، وأوَّلُ بوادرِ هذا الاستعدادِ كمالُ الطَّاعةِ.

3- التَّنفيذُ: وهيَ مرحلةُ جِهادٍ لا هوَادةَ فيها، وعملٍ متواصلٍ في سبيلِ الوصولِ إلىٰ الغايةِ، وامتِحانٍ وابتلاءٍ لا يَصبرُ عليها إلَّا الصَّادِقون، ولا يكفلُ النَّجاحَ في هذِه المرحلةِ إلَّا كمالُ الطَّاعةِ.

وعلىٰ هذَا بايَعَ الصَّفُّ الأوَّلُ منَ الإخوانِ المسلمينَ في الخامسِ من ربيعٍ الأوَّل سنةَ (1359) هجريَّة.

---

(1) أي: رسالتُه التي يَشرحُ من خِلالهَا.

وأنتَ بانضِمامِكَ إلىٰ هذه الكتيبةِ وتقبُّلكَ لهذه الرِّسالةِ وتعهدِكَ بهذه البَيعةِ تكونُ في الدَّورِ الثَّاني وبالقُربِ من الدَّورِ الثَّالثِ، فقدِّر التَّبعةَ التي التزَمتَها وأعدَّ نفسَك للوفاءِ بها))[1].

فمِمَّا سبَقَ يتَّضِح لكَ أيُّها القارِئُ الكريمُ فكرةَ ووسائلَ تحقيقِ التَّغلغُلِ والانتِشارِ لجمَاعةِ الإخوانِ في المجتَمعِ، وما يُميِّزُ هذه الوسائلَ والمراحلَ مِن سِماتٍ، وكلُّ ذلك للوصولِ إلىٰ مَرحلةِ التَّنفيذِ مِن مراحلِ دَعوةِ الإخوانِ المسلمينَ.

فكلامُ حسنِ البنَّا السَّابقُ عن مرَاحلِ الدَّعوةِ الثَّلاثةِ يُعطي لكَ أيُّها الأخُ الكريمُ فكرةً عنِ الصُّورةِ المَرسومةِ في ذِهنِ حسَن البنَّا عن أهدافِ جماعةِ الإِخوانِ وطريقةِ تحقيقِ هذه الأهدافِ.

والسؤال هل كانت هذِه الأهدافُ تحقِّق الدَّعوةَ للدِّينِ ونَشره ودَعوةَ النَّاسِ إليهِ أم أنَّه وراءَ هذه الأهدافِ هدفٌ آخرُ يُقرأُ مِن بين السُّطورِ؟ ألا وهو تكوينُ قوَّةٍ وجمَاعةٍ أشبَهُ بتنظيمٍ عسكريٍّ يُعَدُّ ويُهيَّئُ لتَنفيذِ أهدَافِ جماعةِ الإخوانِ.

- ولمَعرفةِ مدَىٰ تأثُّر واقتِناعِ العُضوِ الإخوانيِّ بفِكرِ جماعتِه يقولُ صلاحُ شادِي- وهو مِن المنتَمِين إلىٰ جمَاعةِ الإخوانِ في سنَواتِها الأُولىٰ:

((الانتماءُ إلىٰ الإخوانِ المسلِمين له مفهومٌ خاصٌّ يُخالِفُ الانتماءَاتِ الأخرىٰ للأحزابِ التي كانت تحكُمُ مِصرَ)) ثمَّ يذكرُ بعدَ ذلك أركانَ البَيعةِ فيقولُ: ((أركانُ هذه البَيعةِ عَشرة وهي: الفَهمُ، والإخلاصُ... وعلىٰ هذه الأصولِ العشرةِ تقومُ البَيعةُ، فإذا تمَّ هذا أدرَك الأخُ حقيقةَ الرِّباطِ بينه وبينَ الجماعةِ، وأنَّه لا يَتصوَّرُه جلبَابًا يَخلعُه، وإنَّما هو عَهدٌ ومَوثِقٌ ورِباطٌ، مَن خانَه فقَد خانَ عهدَ الله، ومَن نكَث فإنَّما يَنكُثُ علىٰ نَفسِه))[2].

---

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص361).

(2) صفحات من تاريخ الإخوان المسلمين وسنوات الحصاد لصلاح شادي (ص100).

فمِن العِباراتِ السَّابقةِ يتَّضحُ لكَ أيُّها القارئ الكريمُ أنَّ المسألةَ ليست مسألةَ دِينٍ ودَعوةٍ إليهِ، فلَو كانَ الأمرُ كذلك في حقِيقتِه فما مَعنىٰ أن يُصوَّرَ الأمرُ علىٰ أنَّه رِباطٌ بين الفَردِ وبينَ جماعةٍ، وَعهدٌ مَن خانَه فقَد خانَ اللهَ؟!

وبالطَّبعِ ففِي هذا فِكرةٌ خفِيَّةٌ أو مُعلَنةٌ وهيَ أنَّ هذِه الجَماعةَ تمثِّلُ المنهَجَ الإلهيَّ علىٰ هذِه الأرضِ، وبالتَّالي فَمن يَنتمي إليها هو ممَّن يمثِّلون هذا المَنهجَ ولذلكَ مَن يتركُها فقَد خانَ الله بزعمِهم.

ولو كانَت هذه الجماعةُ مجرَّدَ جماعةٍ دَعويَّةٍ؛ كما تدَّعي فلِلمُسلمِ حريَّةُ الاختيارِ فقد يَبقىٰ فيها وقد يَتركُها، فأيُّ مُسلمٍ يَنتمِي إلىٰ مَجموعةٍ ما تَقومُ بالعَملِ الدَّعويِّ، قد يعطل استِمرارُاه معها أمورٌ متعدِّدةٌ مِن مَشاغلِ حياةٍ وغيرِ ذلكَ مِن اختلافاتٍ فكريَّةٍ أو عمَليَّةٍ فيترُكُ هذه المجمُوعةَ، ولا ضَيرَ عليهِ في ذلكَ ولاحرجَ، فما بالُ الانتماءِ إلىٰ الإخوانِ يُوصَفُ بأنَّه عهدٌ ومِيثاقٌ وأنَّ مَن تراجعَ عنِ السَّيرِ فيهِ هو خائنٌ للهِ ورَسولِه؟!

كلام حسنِ البنَّا عن تَحقيقِ الأهدافِ والمنهجِ والتَّمكينِ:

سوف نَعرِضُ هنا نُبذَةً مِن أقوالِ حسنِ البنَّا يستعرض فيها منهجَ جماعتِه وأهدافَها فيقولُ:

1- أيُّها الإخوانُ المسلمون- وبخاصَّةٍ المتحمِّسونَ المَتعجِّلُون مِنكم- إنَّ طريقكم هذا مَرسُومةٌ خُطُواتُه مَوضُوعةٌ حدودُه، ولَستُ مخَالِفًا هذه الحدودَ التي اقتَنَعتُ بأنَّها أسلَمُ طريقٍ للوصُولِ، أجل قد تكونُ طريقًا طويلةً؛ ولكِن ليسَ هناكَ غيرَها، إنَّما تظهرُ الرُّجولةُ بالصَّبرِ والمثابرةِ والجدِّ والعملِ الدَّائبِ.

فَمن أرادَ مِنكم أن يَستعجِلَ ثمرةً قبلَ نُضجِها أو يقتَطِفَ زهرةً قبلَ أوانِها فلَستُ معَه في ذلك بحالٍ، وخيرٌ لَه أن يَنصرِفَ عن هذِه الدَّعوةِ إلىٰ غيرِها مِن الدَّعواتِ.

ومَن صَبرَ مَعي حتَّىٰ تَنموَ البِذرةُ وتنبُتَ الشَّجرةُ وتَصلحَ الثَّمرةُ ويحينَ القِطافُ فأجرُه في ذلكَ علىٰ اللهِ، ولن يَفوتَنا وإيَّاهُ أجرَ المحسِنينَ؛ إمَّا النَّصرُ والسِّيادةُ وإمَّا الشَّهادةُ والسَّعادةُ.

أيُّها الإخوانُ المسلمُون: ألجِمُوا نزوَاتِ العوَاطفِ بنَظَراتِ العُقُولِ، وأنيرُوا أشعَّةَ العُقولِ بلَهبِ العواطفِ، ولا تميلُوا كلَّ الميلِ فتَذرُوها كالمُعلَّقةِ، ولا تُصادِمُوا نواميسَ الكونِ فإنَّها غلَّابةٌ؛ ولكِن غالبُوهَا واستَخدِموها وحوِّلوا تيارَها واستَعينوا ببعضِها علىٰ بعضٍ، وترقَّبوا ساعةَ النَّصرِ، وما هيَ منكُم ببعيدٍ.

إنَّ التَّجارِبَ في الماضِي والحاضرِ قَد أثبَتَت أنَّه لا خيرَ إلَّا في طريقِكم، ولا إنتاجَ إلَّا مَع خُطَّتِكم، ولا صَوابَ إلَّا فيما تعمَلونَ فلا تُغامِروا بجُهودِكم، ولا تُقامِروا بشِعارِ نجاحِكم))[1].

2- وقال حسنُ البنَّا في رسالةِ المؤتمرِ الخامسِ: ((وعلىٰ هذا فالإخوانُ المسلِمُون أَعقَلُ وأحزَمُ مِن أن يَتقدَّموا لمهمَّةِ الحُكمِ ونُفوسُ الأمَّةِ علىٰ هذا الحالِ، فلابُدَّ مِن فَترةٍ تنتَشرُ فيها مبَادئُ الإخوانِ وتَسودُ، ويتعلَّمُ فيها الشَّعبُ كيفَ يُؤثِرُ المصلحةَ العَامَّةَ علىٰ المَصلحةِ الخاصَّةِ))[2].

3- وتحت عُنوان: متىٰ تكونُ خطوتُنا التَّنفيذيَّةُ؟ يقولُ حسنُ البنَّا: ((وفي الوقتِ الذي يكونُ فيهِ مِنكم مَعشرَ الإخوانِ المسلمينَ ثلاثُمائةِ كتيبةٍ قد جُهِّزَت كلٌّ مِنها نَفسيًّا ورُوحِيًّا بالإيمانِ والعَقيدةِ، وفِكريًّا بالعِلمِ والثَّقافةِ، وجِسميًّا بالتَّدريبِ والرِّياضةِ؛ في هذا الوقتِ طَالبُوني بأنْ أخوضَ بكُم لُجَجَ البحارِ، وأقتحِمَ بكم عَنانَ السَّماءِ، وأغزُو بكم كلَّ جبَّارٍ عنيدٍ، فإنِّي فاعلٌ إن شاءَ اللهُ، وصدَقَ رسولُ اللهِ ﷺ القائلُ: ((وَلَن يُغلَبَ اثنَا عَشَرَ ألفًا مِن قِلَّةٍ))[3].

(1) الفقه السِّياسي عند الإمام الشهيد حسن البنا للدكتور محمد أبو فارس (ص26).

(2) الفقه السِّياسي عند الإمام الشهيد حسن البنا (ص27).

(3) جزء من حديث أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب فيما يستحب من الجيوش والرفقاء والسَّرايا

إنِّي أُقدِّرُ لذلك وَقتًا ليسَ طويلًا بعدَ تَوفيقِ الله تعالىٰ واستِمدادِ مَعونتِه وتقديمِ إذنِه ومَشيئتِه.

وقَد تَستطيعونَ أنتم مَعشَر النُّوَّابِ ومَندوبِيهم أن تُقصِّروا هذا الأجَلَ إذا بذَلتُم هِمَّتَكم وضاعَفتُم جهُودَكم، وقَد تهمِلون فيُخطئُ هذا الحِسابُ وتَختلفُ النَّتائجُ المتَرتِّبةُ عليهِ، فأَشعِروا أنفسَكم العِبءَ، وألِّفُوا الكتَائبَ، وكوِّنُوا الفِرقَ، وأقبلُوا علىٰ الدُّروسِ، وسارِعُوا إلىٰ التَّدريبِ، وانشرُوا دعوتَكم في الجِهاتِ التي لم تَصِل إليهَا بَعدُ، ولا تُضيِّعُوا دقيقةً بغيرِ عمَلٍ))[1].

فهذِه كلماتُ حسنِ البنَّا بألفاظِها توضِّحُ الفِكرةَ والثَّمرةَ المرَادَ تحصِيلُها مِن هذه الجُهودِ، ولم يَرِد في هذه الأقوالِ كلمةُ انتِشارٍ لتعاليمِ الدِّينِ أو غَيرِ ذلكَ منَ الكلماتِ التي تُوضِّحُ أنَّ هدفَ الجماعةِ هو نَشرُ دينِ الله بينَ النَّاسِ، وتَوضيحُ سماحتِه أو غيرُ ذلكَ منَ الكلماتِ التي تُعلِن بها الجَمعيَّاتُ الدِّينيَّةُ عن مَنهجها وطرِيقِها.

ولكِن وُجدَت كلماتٌ تعبِّر عن أهدافٍ أخرَىٰ، مِثل: المنهجِ المَرسومِ المحدَّدِ الأهدافِ، مهمَّةِ الحُكمِ، الخطوَاتِ التَّنفيذيَّةِ، الكتائب، الغَزوِ، تكوينِ الفِرَقِ والمُسارعةِ إلىٰ التَّدريبِ، فهذِه الكلماتُ التي توضِّحُ منهجَ وطرِيقةَ هذه الجماعةِ لا تُعبِّر عن مَنهجٍ دِينيٍّ بقدرِ ما تُعبِّر عنِ الأهدافِ السِّياسيَّة والحَرَكيَّةِ.

وضعُ آليَّاتٍ لتَحقيقِ التَّمكينِ للجِماعةِ وتَحقيقِ أهدَافِها:

رسَمَت جماعةُ الإخوانِ منذُ النَّشأةِ مَنهجًا محدَّدًا للسَّيرِ عليهِ لتَحقيقِ التَّمكينِ للجَماعةِ في أوسَاطِ المجتَمعاتِ، سواءٌ علىٰ المستَوىٰ الشَّعبيِّ أو المُستوىٰ الرَّسميِّ، وتميَّزَ هذا المَنهجُ =

(2611)، والترمذي في كتاب السير، باب ما جاء في السرايا (1555)، وأحمد في مسنده (1/294)، وأبو يعلىٰ في مسنده (2587)، وابن خزيمة في صحيحه (2538)، وابن حبان في صحيحه (4717)، والحاكم في مستدركه (1/443). وقال الترمذي: ((حسن غريب)). وقال الحاكم: ((هذا إسناد صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه)) ووافقه الذهبي.

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص165).

بقابليَّتِه للتَّغيُّرِ والتَّطوُّرِ وفقًا لطَبيعةِ الأحدَاثِ والظُّروفِ التي يَمرُّ بها المُجتمعُ، ومِن خطواتِ هذا المَنهجِ:

1- استِغلالُ العاطفةِ الدِّينيَّةِ عند جَماهيرِ المُسلِمينَ: إنَّ أقربَ الطُّرقِ للوصُولِ إلىٰ قُلوبِ الجَماهيرِ هو الدُّخولُ عن طريقِ الدِّينِ؛ وذلك لأنَّ غالبَ المسلِمِينَ في بقَاعِ الأرضِ يَحتلُّ الدِّينُ عندَهم جُزءًا أساسيًّا في تكوينِ شَخصيَّتِهم ومَرجعيَّتِهم وتَفكِيرِهِم، فَمَن يتَوجَّه إليهِم بالخِطابِ الدِّينيِّ فسَوفَ يَجِد الأُذُنَ التي تَسمَعُ والعَاطفةَ التي تَستجِيبُ، بَل والتَّعاونُ والانضِمامُ إلىٰ أصحابِ هذا الخِطابِ.

وقد أحسنَ الإخوانُ المسلِمونَ استِثمارَ هذا الجانبِ في شَخصيَّةِ المِصريينَ بصِفةٍ خاصَّةٍ؛ فقَدَّمُوا مَنهجَهم بخِطابٍ دينيٍّ يُصوِّرُهم في صُورةِ حَمَلةٍ للدِّينِ والمدَافعِين عنِ الإسلَامِ، الذينَ يبحَثونَ عن مصالحِ البلادِ والعِبادِ، فوجَدوا الأُذُنَ التِّي تَستَمِع والقُلوبَ التي تَنفعِلُ وتتعاطَفُ.

والناس بحكم عاطفتهم الدينيَّة يَحسَبون أنَّهم يعمَلُون لصَالحِ دِينِهم مِن خِلالِ حَماسِهم ودَعمِهم المتعدِّدِ الصُّورِ والأشكالِ لهذِه الجماعةِ- جماعةِ الإخوان المسلمين- والتي قدَّمَت لهم المنهَجَ السِّياسيَّ في صُورةٍ دينيَّةٍ.

ومِن أمثلةِ تَقديمِ الإخوانِ لمنهجِهم بمَظهرٍ دينيٍّ:

أ- استِخدامُ الشِّعاراتِ الدِّينيَّةِ كصورةٍ لفِكرِ الجماعَةِ ومَنهجِها، مِثل: ((دَعوةٌ سلفيَّةٌ، وطرِيقةٌ سُنيَّةٌ، وحقِيقةٌ صوفيَّةٌ، وعقِيدةٌ وعبادةٌ، ودِينٌ ودَولةٌ)) ومن مِثل رَفعِ شعَارِ ((الإسلامُ هو الحلُّ)) وشِعار ((الله غايتُنا، والرَّسولُ قُدوتُنا، والقُرآنُ دُستورنا، والجِهادُ سبيلُنا، والمَوتُ في سبيلِ الله أسمَىٰ أمانينَا)).

فَمَن مِن المسلِمِين يَرفضُ هذا؟ وبالتَّالي ينطَبعُ في ذِهنِ المسلِمِ وعاطفتِه أنَّ قَبولَه لشعاراتِ الجماعةِ هو قَبولٌ للدِّينِ، وأنَّ رفضَه لشِعاراتِ الجماعةِ هو ابتِعادٌ عنِ الدِّينِ.

ب- تصدِّي مجموعةٍ منَ الدُّعاةِ الذِين يُحسنونَ التَّأثيرَ في النَّاسِ للقِيامِ بنَشرِ فِكرِ الإِخوانِ المسلِمِين وسَطَ الجماهيرِ، وذلك بطَريقةٍ تَجعلُ ذِهنَ المُتَلقِّي وأفكارَه مرتبطةً بينَ نُصرَةِ الدِّينِ ونُصرةِ الجَماعةِ، وأنَّ دَعمَ الجَماعةِ هوَ دعمٌ للدِّينِ.

جـ- نَشْرُ فكرةِ مَظلوميَّةِ الجماعةِ بتقديمِ أفرادِ الجماعةِ عند جماهيرِ المسلمينَ في صُورةِ المضَّطهَدِين مِن قِبلِ الحُكوماتِ الظَّالمة؛ نَظَرًا لتَبنِّيهِم الدَّعوةَ الإسلاميَّةَ، واستِخدامِ صُورِ صِدَامِهم مع السُّلطاتِ كدِعايةٍ لوَضعِهم في صُورةِ المدَافعينَ عنِ الدِّينِ.

د- العَمَلُ علىٰ تَقديمِ عمَلٍ دَعَويٍّ مَكتوبٍ يتمثَّلُ في كتَيِّباتٍ صَغيرةٍ تَطرحُ رُؤيةَ جماعةِ الإخوانِ مِن خلالِ نصائحَ وتوجيهاتِ حسَن البنَّا ورؤيتِه الدِّينيَّةِ؛ ممَّا يُولِّدُ عندَ القارئ رَبطًا بينَ الدِّينِ وبينَ الشَّخصيَّةِ الإخوانيَّةِ، ويَجعلُ لها مِن المكَانةِ والقَداسةِ في نفُوسِ العامَّةِ منَ النَّاسِ مَا يُؤهِّلُهم لتَقبُّلِهم كقادةٍ دينيِّين ومُرشِدِين رُوحانِيِّين.

2- تَقديمُ الخدَماتِ والعَملُ في مجالِ الأعمالِ الخَيريَّةِ: جُبِلَت النُّفوسُ علىٰ حُبِّ مَن أحسَنَ إليهَا، هذا قَولٌ صحيحٌ يُصَدِّقُه الواقعُ، وقد أحسَنَت جمَاعةُ الإخوانِ استِغلالَ هذا الجانبِ لنَشرِ دَعوتِهم ومَنهجِهم بينَ النَّاسِ عن طريقِ الخدمَاتِ والأعمالِ الخَيريَّةِ التي يوفِّرونها للنَّاسِ، ومِن الخدمات التي يقدمونها:

أ- بذل الخدماتِ الصِّحيَّةِ في شَكلِ مُستَوصفَاتٍ طبيَّةٍ وعيادَاتٍ يَقومُ بالعمَلِ فيهَا أطبَّاءُ مِن المنَتمينَ لفِكر الإخوانِ.

ب- إنشاءُ مرَاكزَ تضمُّ مدرِّسينَ منَ المنتَمينَ للجَماعةِ لإعطاءِ التَّلاميذِ دروسَ تقويةٍ في المرَاحلِ الدِّراسيَّةِ المُختلفةِ.

ج- تَقديم المساعدَاتِ في صورةٍ نقديَّةٍ أو عينيَّةٍ، وغيرِ ذلكَ مِن مجَالاتِ الأعمالِ الخَيريَّةِ.

والخدَماتُ التي تُقدَّمُ للنَّاسِ سوَاءٌ ما كانَ مِنها مجَّانًا أو التي بأُجورٍ زهيدةٍ لا تُذكرُ تَجعلُ للجماعةِ قَبولًا عند العامَّةِ؛ وخاصَّةً أنَّ النَّاسَ بأَمسِّ الحاجةِ لمثلِ هذه الخدَماتِ،

وبالتالي يتحقَّقُ للجماعةِ ولأفكارِها الانتشَار الأوسعُ في الأوساطِ الشَّعبيَّة، ويُصبِحُ للإخوانِ المسلِمِين قاعِدةٌ عرِيضةٌ منَ المؤيِّدين لهَا والمتعاطِفِينَ مع أفرادِها.

3- العَملُ على التَّغلغلِ والانتِشارِ في الهَيكلِ التَّعليمِيِّ للدَّولةِ بمَراحلِه المختلفةِ: إنَّ مِن المُلاحظِ أنَّ جماعةَ الإخوانِ لديَها اهتِمامٌ بدُخولِ عددٍ كبيرٍ مِن أفرَادِها إلى كليَّاتِ التَّربيةِ؛ وما ذلك إلا ليحتلُّوا مَواقعَ التَّدريسِ في المَدارسِ بمُختلفِ أنوَاعِها؛ ممَّا يُمكِّنُهم مِن السَّيطرةِ على عُقولِ الطُّلابِ مِن خلالِ التَّوجيهِ غَيرِ المباشرِ وزَرعِ الأَفكارِ التي تَخدُمُ منهَجَهم، وبالتالي تنتشرِ أفكَارُهم ومنهجُهم بينَ التَّلاميذِ والطَّلبةِ، وكذلكَ الحالُ بالنِّسبةِ للتَّعليمِ الجامعيِّ.

4- العَملُ على خَوضِ الانتِخاباتِ في جَميعِ قِطاعاتِ وهيَاكلِ الدَّولةِ: فقَد حَرَصَت جماعةُ الإخوانِ على التَّغلغُلِ في الهَيكلِ التَّنظيميِّ والإداريِّ للدَّولةِ مِن خلالِ الزَّجِّ بأَفرادِها لخَوضِ الانتِخاباتِ المتنوِّعةِ، مثل: انتِخاباتِ اتِّحادِ الطَّلبةِ على المُستَوى التَّعليمِيِّ، وانتِخاباتِ النَّقاباتِ المِهنيَّةِ؛ كنَقابةِ المُحامِين والأطبَّاءِ والمُهندسينَ وغيرِها، ومحَاولةِ الوصُولِ إلى المجَالسِ النِّيابيَّةِ في البِلادِ، وتَكوينِ كتلةٍ إخوانيَّةٍ داخلَ تلكَ المجَالسِ.

يُساعدُهم في ذلكَ كلِّه وجودُهم وحضورُهم بينَ النَّاسِ، وحُسْنُ التَّنظيمِ، والدَّفعُ بأعدادٍ كبيرةٍ مِن المنتَمينَ للجماعةِ لعَملِ الدِّعايةِ لمُرشَّحيها، وحَشدِ النَّاسِ للتَّصويتِ لهم.

5- العَملُ على وجُودِ أبواقٍ إعلاميَّةٍ على كافَّةِ المُستوياتِ تَعرِضُ فِكرَ ومَنهجَ الجَماعةِ؛ وذلكَ بغرَضِ تَكوينِ قاعدةٍ كبيرةٍ منَ المتَعاطِفِينَ مَع فِكرِ ومَنهجِ الجَماعةِ أو عَلى أقلِّ تَقديرٍ مِن المتقبِّلينَ لمَنهجِها.

ويتمثَّلُ ذلكَ في الكتُبِ التي تَحمِلُ الفِكرَ الإخوانيَّ والصَّحافةِ النَّاطقةِ بلِسانِهم فيما سَبَق، ثمَّ بعدَ ظهُورِ الفضَائيَّاتِ تَمثَّل ذلكَ في وجُودِ قنَواتٍ وإعلاميِّينَ، وظيفتُهم

عَرضُ المَنهجِ والرُّؤيةِ الإخوانيَّةِ، وتَبريرُ المَواقفِ للجماعةِ، والعمَلُ على إيجَادِ قاعدةٍ شَعبيَّةٍ مؤَازِرةٍ لهَا مِن خِلالِ الجَذبِ الإعلاميِّ.

6- تَكوينُ خلايا سِريَّةٍ في مَراحلَ معيَّنةٍ مِن تاريخِ الجَماعةِ: إنَّ ممَّا اعتَمدَت عليهِ جَماعةُ الإخوانِ المُسلِمين لتَحصِيلِ التَّمكينِ لهَا هوَ وجودُ تَنظيمٍ سِريٍّ عسكريٍّ داخلَ الجماعةِ لا يَعلمُ عَنه أفرادُ الجماعةِ شيءٌ، فهوَ مَقصورٌ على أفرادِ التَّنظيمِ فقَط.

ومِن مهَامِه التي اكتُشِفَت: تَصفيةُ المعارضِين لجماعةِ الإخوانِ جسَديًّا، وتكوينُ نواةٍ لميليشياتٍ عسكريَّةٍ تابعَةٍ للإخوانِ وصَبغِ ذلك بصِبغةٍ دينيَّةٍ، اشتُهِر بعدَ ذلكَ بالتَّنظيمِ الخَاصِّ، والذي كُشِفَت أسرَارُه عن طريقِ مَن انتَمى إليه فيما بَعد، وهذه الأعمالُ وأمثالُها ممَّا ارتَكبَتها هذه المليشياتُ قد نتَجَ عنها تقدِيمُ الدِّينِ وكأنَّه في صِدامٍ معَ المجتَمعاتِ؛ لأنَّ الذينَ يقومون بذلكَ قد قدَّموا أنفسَهُم في هَيئةٍ دِينيَّةٍ إسلاميَّةٍ.

7- عقدُ التَّحالفاتِ لجَني الثِّمارِ بأيِّ وسِيلةٍ، والتَّلوُّنُ السِّياسيُّ وتَغييرُ المَواقفِ حتَّى معَ المختَلفِين معهم في الأُصولِ المَرجعيَّةِ؛ كما حدَثَ في تَحالفِهم مع حزبِ الوَفدِ ذِي الأصولِ اللِّيبراليَّةِ في عامِ 1987م لخَوضِ انتِخاباتِ مَجلسِ الشَّعبِ المِصريِّ في قوَائمَ مُشتَركةٍ.

وقد تبين لنا مما سبَقَ ذِكرُه مِن خُطُواتٍ كانت مِثالًا للأَدواتِ التي تَستخدِمُها جَماعةُ الإخوانِ المُسلمينَ؛ لحصُولِ التَّمكينِ للجماعةِ ومنَاهجِها، فوجدناها في مجملِها تعملُ تحت مبدأ الميكافيليَّةِ وهو (الغَايةُ تُبرِّرُ الوَسيلةَ).

فالعَملُ تحتَ ستارِ الدِّينِ لتَحصِيلِ التَّمكينِ السِّياسيِّ للجَماعةِ هوَ نَوعٌ مِن أكلِ الدُّنيا بالدِّين، وتَحمِيلٌ للدِّينِ نتائجَ وممارساتٍ حزبيَّةٍ وسياسيَّةٍ والدِّينُ مِنها بريءٌ، وبالتالي نِسبةُ الفَشلِ السِّياسيِّ إلى المَنهجِ الدِّينيِّ، وهذا يصبُّ في مصلحة التيارات العلمانية، وهذا خَلطٌ نتَجَ عن ممَارسةِ السِّياسةِ مِن مَدخلِ الدِّينِ، فالسِّياسة إنما تُمارَس مِن خلالِ القواعدِ والضَّوابطِ التِّي تُحدِّدُ آلياتِ العَمل السِّياسيِّ في كلِّ مجتَمعٍ.

ثمَّ مَن الذي سلَّمَ لجماعةٍ منَ الجماعاتِ أنَّ التَّمكينَ لهَا هو تَمكينٌ للدِّينِ؟! بلِ التَّمكينُ الذِي نرَاهُ لهذه الجماعاتِ إنَّما هو في الواقعِ والحقيقةِ يكونُ للأَشخاصِ أو الهَيئاتِ التي تَحصُدُ وتَجني ثمارَ العَملِ مِن خِلالِ الدِّينِ، ومِن بعدَ ذلك يُنحَّى الدِّينُ نفسُه جَانبًا في سَبيلِ جَني هذه الثِّمارِ.

وهنا تكونُ المفارقةُ حيثُ يقولُ هؤلاءِ: نَحنُ نتَغاضَى عنِ الدِّينِ وأوَامرِه؛ لكَي نُمَكِّنَ للدِّينِ في المجتَمعِ!

ويُبرِّرُونَ ذلكَ لأنفسِهم تحتَ بابِ أنَّ ذلكَ مِن فِقهِ الضَّرورةِ التي يَفرضُها الواقعُ المحِيطُ والظُّروفُ، والتي يجبُ أن نتكيَّفَ معها حتَّى نتَمكَّنَ مِن تَغييرِها.

التَّمكِينُ في فكرِ الجماعَاتِ السَّلفيَّةِ

يُعتبرُ مسمَّى السَّلفيَّةِ مظلَّةً ضخمَةً يَنتمِي إليها الكَثيرُ منَ المُسلِمين في الوَقتِ الحاليِّ يَدَّعونَ نِسبتَهم إلى السَّلفِ الصَّالحِ.

وهؤلاء يَحمِلونَ مَنهجًا خاصًّا بهِم أقامُوه على أفكارِ ابنِ تيميةَ ومؤلَّفاتِه ورُؤيتِه التي شكَّلَت مذهبًا خاصًّا بهِ في العُلومِ الإسلاميَّةِ، والتي انفَردَ بهَا عنِ المَذاهبِ الإِسلاميَّةِ.

فالفِكرُ السَّلفيُّ في بدَايتِه إنَّما يقومُ على الرُّؤيةِ المَوجودةِ في مُصنَّفاتِ ابنِ تيميةَ وابن قيم الجوزية، ثمَّ بعدَ ذلكَ أضَاف السَّلفيُّون إلى مَنهجِهم ما يُوافِقُ مبادِئَهم مِن آراءِ أهلِ العِلمِ والمفكِّرينَ، وصِياغةِ ذلكَ كلِّه بعدَ ذلكَ في رُؤيةٍ واحدةٍ خاصَّةٍ بهِم وبفِكرِهم يُقدِّمُونَها للنَّاسِ على أنَّها هي مَنهجُ السَّلفِ رِضوانُ الله عليهِم.

ولِفَهم نَظرةِ السَّلفيَّةِ لمَفهومِ التَّمكينِ يَجبُ أن نتَبيَّنَ نَظرتَهم لوَاقعِ المُجتمعَاتِ المُسلمَةِ والتَي تتمثَّلُ في الآتي:

أولًا: جَانبُ العقائدِ:

يرىٰ هذا التَّيارُ أنَّ الأُمَّةَ بأَخذِها لمناهجِ الأشاعرةِ والماتريديَّة في دراسةِ العقيدةِ الإسلاميَّةِ تخالفُ مَنهجَ السَّلفِ، وبالتَّالي فهم ليسُوا مِن أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وبذلك فقد حصرَ هذا التَّيارُ السَّلفيُّ مَذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في بَابِ العَقائدِ في مجموعةٍ مِن الأشخَاصِ هُم الذين يُمثِّلونَ- مِن وِجهةِ نظَرِهم- حَمَلةَ الحقِّ، ويأتي علىٰ رَأسِ هؤلاءِ ابنُ تيميةَ وابنُ قيِّم الجَوزيَّةِ.

مَع أنَّ الحقَّ الذي يَنبغي المصيرُ إليهِ هو أنَّ منهجَ الأشاعرةِ والماتريديَّةِ هوَ منهجُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ علىٰ مَرِّ القرونِ، وهوَ الذِي يمثِّلُه علماءُ المَذاهبِ الأربعَةِ والمشَاهيرُ مِن علماءِ المسلِمِينَ علىٰ مرِّ السِّنينَ، وهو المنهَجُ الذي كانَ ولا يزال يُدرَّسُ في أعرَقِ المراكزِ العِلميَّةِ الإسلاميَّةِ؛ كالأَزهرِ والزَّيتونةِ والقرَويين وغيرِها.

ثانيًا: جانبُ الفِقه:

يُحاربونَ المذهبيَّةَ الفِقهيَّةَ والمذَاهِبَ التي حفِظَت علىٰ المسلِمين دِينَهم علىٰ مَدارِ السِّنينَ، والتي كوَّنَت ترَاثًا عِلميًّا تَفخرُ بهِ أيُّ أمَّةٍ منَ الأممِ المتحضِّرةِ، ولا يَقبلونَ تَقليدَ الأئمَّةِ تحتَ زعمِ الأَخذِ بالدَّليلِ، والذي يَظنُّونَ في أنفسِهم أنَّهم أقدَرُ مِن الأئمَّةِ علىٰ إدراكِه، بالإضافة إلىٰ ما فيه من الاتهام الباطل لفقهاء المذاهب بأنهم لا يتبعون الدَّليلَ، أو أنهم يُقدِّمون آراءَهم علىٰ الكتاب والسُّنة، وحاشاهم أن يفعلوا ذلك فهم الذين نقلوا الشريعة إلينا، ومنهم رواة الأحاديث عن رسول الله ﷺ المذكورون في الأسانيد المتصلة برسول الله ﷺ كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وهم من القرون الثلاثةِ الأولىٰ الفاضلة، وهم أعلم النَّاسِ بلُغة القرآن والسُّنة النبوية، وباستنباط الأحكام الشَّرعية، وهم الذين وضعوا لنا الأصولَ والقواعدَ في ذلك، وغير ذلك من الفضائلِ التي لا نستطيع حصرَها، فلا أدري كيف تجرَّأ هؤلاء الذين يزعمون السَّلفية علىٰ هذا العمل الشَّنيع؟!

ثالثًا: في الجانبِ الرُّوحيِّ والقَلبيِّ:

يرفضُ السَّلفيُّون التَّصوُّفَ جملةً وتفصِيلًا، ويَرمونَ أهلَ التَّصوُّفِ بالوقُوعِ في الشِّركِ وعبادةِ القُبورِ، ولا يلتَفتونَ إلىٰ مُصنَّفاتِ أئمَّةِ المسلِمين المعتَبرِين التي تَأخذُ بالتَّصوُّفِ وجوَانبِه الرُّوحيَّةِ، وتَحضُّ علىٰ سُلوكِ سبِيلِه في التَّقرُّبِ إلىٰ الله سبحَانه وتعالىٰ.

رَابعًا: في رُؤيتِهم للمُجتمعاتِ المسلِمةِ:

ترَىٰ الغَالبيَّةُ العُظمَىٰ مِنهم ابتِعادَ المسلِمين عن الإِسلامِ، ورَميَ المجتَمعاتِ الإِسلاميَّة بالتَّفلُّتِ بصورةٍ عامَّةٍ؛ بل وصَلَ الأمرُ ببعضِهم إلىٰ رَمي هذِه المجتمعاتِ بالكُفرِ والضَّلالِ.

خامسًا: في تعاملهم مع أُولي الأمر:

الكَثيرُ مِنهم لا يَعترِفُ بالحُكوماتِ في بلادِ المسلِمينَ، ويَنظُرُ إليهِم علىٰ أنَّهم حُكَّامٌ غيرُ شَرعيينَ، لا مَانعَ مِن الخرُوجِ عليهِم والاصطِدامِ بهِم، ورأينا ذلك بأعيُنِنا منهم.

مِن خلالِ ما سبَق يتَّضِحُ لنا أنَّ القاعدةَ العامَّةَ التي تَنطَلقُ منها الجماعاتُ المستَظلَّةُ بمُسمَّىٰ السَّلفيَّةِ هي وقوعُ الخَللِ علىٰ كلِّ المُستوياتِ في بلادِ الإِسلامِ، ومِن ثمَّ يجِبُ العَملُ علىٰ إصلَاحِ الخَللِ.

ويقرِّرونَ أنَّ المَنهجَ الذي يَستطيعُ القِيامَ بسَدِّ الخَللِ هو المَنهجُ السَّلفيُّ برُؤيتِهم وفَهمِهم لَه، ويتَجلَّىٰ تحقِيقُ هذا المَنهجِ بتَطبيقِ أركانِه وحدُودِه، والذي مِن أركانِه العملُ علىٰ التَّمكينِ لدِينِ الله تعالىٰ في الأرضِ مِن خلالِ نشرِ المَنهجِ السَّلفيِّ الخاصِّ بهِم، ولكن لابُدَّ مِن مقدِّماتٍ وخطُواتٍ تمهِّدُ لحدُوثِ التَّمكينِ للدِّينِ وإقامةِ دولةِ الإِسلامِ، والتَّخلُّصِ مِن الحكُوماتِ القائِمةِ علىٰ أَمرِ بلادِ المسلِمين.

وقدِ انتمَىٰ إلىٰ هذا الفِكرِ السَّلفيِّ جَماعاتٌ كثيرةٌ تنطلِقُ مِن خِلالِه، وتُؤصِّلُ لنَفسِها قواعدَ ومناهجَ وخطُواتٍ تَزعمُ فيها أنَّ هذا هو طَريقُ السَّلفِ الصَّالحِ في فَهمِ الدِّينِ، والذِي يَجبُ العَملُ مِن خِلالِه لحدُوثِ التَّمكينِ للدِّين في الأَرضِ.

وبالنَّظرِ إلىٰ وَاقعِ بلادِ المسلمِينَ في السَّنواتِ الأخيرةِ نجدُ أنَّ المفهومَ السَّلفيَّ في العَصرِ الحاضرِ قَد ضمَّ تحتَه الكثيرَ ممَّن يُمكِنُ تقسِيمهم إلىٰ: السَّلفيَّةِ العِلميَّة- السَّلفيَّة الحركيَّة- السَّلفيَّة الجِهاديَّة.

فالسَّلفيَّةُ العِلميَّة: هي التي تتَّخذُ منَ الدَّعوةِ في المساجدِ، وطَلبِ العلمِ، وإنشاءِ المعاهدِ العلميَّةِ لدراسةِ المنهجِ السَّلفيِّ وِفقَ رُؤيتِهم، وإعادةِ طَبعِ ونَشرِ الكتُبِ التي يرَونَ أنَّها تمثِّلُ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وإصلاحِ المفاهيمِ والتَّربيةِ الفرديَّةِ وِفقًا لمنهَجهم- طريقًا لها؛ لِتكوينِ قاعدةٍ كبيرةٍ تؤمنُ بأفكارِها، مع الحِرصِ علىٰ عدمِ التَّعرُّضِ للأُمورِ السِّياسيَّةِ في المُجمَلِ العامِّ؛ لأنَّ ذلكَ مِن شأنِه أن يُعيقَ مسِيرتَهم ويُقيِّدَ مِن انتشارِهم.

والسَّلفيَّةُ الحركيَّةُ: وهي أشبَه بتنظيمٍ حركيٍّ كبيرٍ يَضمُّ الكثيرَ من الذينَ تَجمَعُهم نفسُ المَرجعيَّةِ، وإن لم يكُن تنظِيمًا بالشَّكلِ المَعهودِ؛ لكنَّه رابطةٌ فكريَّةٌ يَستظلُّ تحتَها الكثيرُ من المنتَسبينَ للسَّلفيَّةِ.

فبالإضَافةِ إلىٰ طَلبِ العِلمِ والدَّعوةِ والتَّربيةِ، يتبنَّىٰ دُعاةُ هذا التَّيَّارِ قضَايا الحاكميَّةِ، وتكفير الحكَّام، والدَّعوةِ للحُكمِ بالشَّريعة، والتَّركيز علىٰ مَفاهيمِ الوَلاءِ والبرَاءِ، وتعتمدُ في مرجعيَّتِها علىٰ كتُبِ سيِّدِ قُطب ومحمَّد قُطب بالإضافةِ إلىٰ كتُبِ ابنِ تيميةَ مَع إعلانِ رَفضِهم للأعمالِ المُسلَّحةِ.

السَّلفيَّةُ الجهاديَّة: إنَّ كلَّ ما سبقَ مِن الطُّرقِ والخطُواتِ علىٰ طريقِ التَّمكينِ التي تتَّخذُه السَّلفيَّةُ العلميَّةُ والسَّلفيَّةُ الحركيَّةُ؛ كطريقٍ للتَّمكين تَتبنَّاهُ الجماعاتُ السَّلفيَّة الجهاديَّة ولا ترَفضُه، إلَّا أنَّها تَتبنَّىٰ مع ذلكَ مَنهجَ الأعمالِ المسلَّحةِ داخليًّا أو خارجيًّا كوَسيلةٍ لحدُوثِ التَّمكينِ للدِّين، وتُعلِنُ هذه الجماعات رِدَّةَ الحكوماتِ والأجهزةِ الأمنيَّةِ في بلادِ المسلِمين.

وترَىٰ السَّلفيَّةُ الجِهاديَّة أنَّ أفضَلَ الطُّرُقِ لحدُوثِ التَّمكينِ للدِّينِ في الأرضِ، وإقامةِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ، وتَحكيمِ شريعةِ الله عزَّ وجلَّ هو إزالةُ هذِه الحكومَاتِ، ويرَون أنَّها هيَ العدوُّ القَريبُ الذي يَجبُ الجِهادُ ضدَّه.

وهُم مَع تبنِّيهم للصِّدامِ والقِتالِ يَعتبرُون أَنفسَهم يعمَلون وِفقَ المَنهجِ السَّلفيِّ.

فالقَاسمُ المشترَكُ بينَ هذه الجمَاعاتِ أو المَجموعاتِ التي تَنتمِي إلىٰ هذا الفِكرِ السَّلفيِّ هو ضرُورةُ التَّربيةِ الفرديَّةِ، وتَجهيزُ جيلٍ ينهضُ للتَّمكينِ للدِّينِ في الأرضِ يَحمِلُ هذَا الفِكرَ السَّلفيَّ وِفقًا لمنَاهجِهم، وَالعملُ علىٰ إقامةِ الخِلافةِ الإسلاميَّةِ، ويتَّخذُون في سَبيلِ تحقِيقِ ذلك الوسائلَ العِلميَّةَ والتَّربويَّةَ وِفقَ مَنهجٍ محدَّدٍ يتَّخذونَه من تُراثِ بعضِ العلماءِ السَّابقينَ أمثالَ ابنِ تيميةَ، وابنِ قيِّمِ الجوزيَّة.

ويتصدَّر المشهدَ الخطابيَّ والإعلاميَّ عندَهم مَجموعةٌ منَ الدُّعاةِ يقومُون بتَوجيهِ جمُوعِ السَّلفيَّةِ وتكوينِ اتِّجاهاتِهم الفِكريَّةِ والسُّلوكيَّةِ؛ بحَيثُ يَظهرُ عندَ الغالبيَّةِ العُظمَىٰ مِن أتباعِ هذا التَّيارِ اقتِصارُهم علىٰ مَجموعةٍ منَ الدُّعاةِ لا يتعدُّونَهم، ويَنظرُونَ إليهِم علىٰ أنَّهم هم أهلُ العِلمِ والإخلاصِ والعمَلِ للدِّين دونَ غَيرِهم وأنَّهم يمثِّلونَ أئمَّةَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ في هذا العَصرِ.

ثمَّ إنَّ هؤلاءِ يَقصرُون أنفسَهم علىٰ مَشايخِهم ولا يَلتفتونَ إلىٰ غَيرِهم من أهلِ العِلمِ مَهما علَت مكانتُهم العلميَّةُ؛ بل يَنظرونَ بريبةٍ وشكٍّ نحو فتاوِيهم وكُتبهم وخُطبِهم وإرشادِهم، ويتَّهمُونَهم بأنَّهم شيوخُ السُّلطانِ ومِن أهلِ البدَعِ والمنَاهجِ الباطلةِ.

وتتميَّزُ عنهم الجماعاتُ السَّلفيَّةُ الجهاديَّة أنَّها ترَىٰ ضرورَةَ الأخذِ بالجِهادِ المسلَّح ضدَّ الحكومَاتِ الإسلاميَّةِ والاستيلاءِ علىٰ السُّلطةِ لكي تَستطيعَ إقامةَ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ، وتَعتبرُ كلَّ مَن يقِفُ في طريقِها منَ المحاربينَ للدِّين يجبُ قِتالُه، وتَدعو المسلمينَ للالتِحاقِ بهم ومُساندتِهم مَع عدمِ رفضِها للمَناهجِ السَّلفيَّةِ الأُخرَىٰ إلَّا أنَّها ترَىٰ أنَّ هذِه المناهجَ تَستهلِكُ الوَقتَ ولا تُعجِّلُ بالنَّتائجِ مثلَ الأعمالِ الجِهاديَّةِ مِن وِجهةِ نَظَرِهم.

وهناكَ أمرٌ يجبُ مُلاحظتُه في جميعِ الجمَاعاتِ السَّلفيَّة وهو أنَّه مع اختلافِهم في أَولويَّاتِ وخطُواتِ المنهجِ إلَّا أنَّهم لا يرفضُون أن يؤدِّي أيُّ طريقٍ من هذه الطُّرقِ للتَّمكينِ الذِي يَنشدُونَه إن حدَثَ؛ بل يُمكنُ أن يحصُلَ تغيُّرٌ في خُطُواتِ المنهَجِ عندَهم، ويقبَلون ما كانُوا يرَونَه خارجًا عن إطارِ المنهَجِ السَّلفيِّ إذا كانَ ذلكَ يَصبُّ في تَحقيقِ التَّمكينِ الذي يَنشدونَه.

إذن لا يوجدُ هناكَ اختِلافٌ بينَهم في الأصُولِ التي يبنونَ عليهَا منهجَهم، ولكنَّ بعضَهم يُعلنُ ويجاهرُ وبعضُهم يُخفي حتَّى تَسمحَ لهُم الظُّروفُ بالإِعلانِ والتَّنسيقِ فيمَا بَينَهُم.

وأَبرزُ الأشكالِ التي تَظهرُ فيها صورةُ هذِه الجماعَاتِ السَّلفيَّةِ الجِهاديَّةِ علىٰ سَبيلِ المِثالِ:

1- الجَماعةُ الإسلاميَّةُ في مصرَ وجماعةُ الجهادِ في مصرَ، اللَّتان مثَّلتَا صورةَ الفِكرِ الجِهاديِّ السَّلفيِّ منذُ السَّبعينياتِ في القَرنِ الماضِي.

2- تنظيمُ قاعدةِ الجِهادِ بقيادةِ أسامةَ بنِ لادِن، والتي عُرِفَت باسمِ «تَنظيمِ القَاعدةِ» ولهَا انتِشارٌ في مُعظَمِ البلادِ العرَبيَّةِ؛ خاصَّةً في السَّنواتِ الأخيرةِ.

وكانَ لهذا التَّنظيمِ الدَّورُ الأكبرُ في جرِّ البلادِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ لمَواجهَاتٍ معَ القِوىٰ الغَربيَّةِ، وقد أَحسَنَت هذه القِوىٰ استِغلالَ الفُرصةِ لتَوطيدِ مكانِها في بلادِ المُسلمِينَ، وتَكوينِ وجُودٍ عسكريٍّ دائمٍ لهَا تحتَ مسمَّىٰ محاربةِ الإرهابِ ومكافحةِ تنظيمِ القاعدةِ.

3- جماعةُ التَّوحيدِ والجهادِ في العراقِ بقِيادةِ أبي مُصعَبٍ الزَّرقاويِّ، والتي انضمَّت فيما بَعدُ إلىٰ تَنظيمِ القَاعدةِ.

4- الجماعةُ السَّلفيَّةُ للدَّعوةِ والقتالِ الجزائريَّةُ، والتي أعلنَت انضِمامَها إلىٰ تَنظيمِ القاعدةِ عام 2006م وتسمَّت بتنظيمِ القاعدةِ في بلادِ المغربِ العربيِّ.

5- تنظيمُ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ في العِراق والشَّام ((دَاعِش)) والتي ظهَرت في السَّنواتِ الأخِيرةِ في العِراقِ وسُوريا، وانتَهىٰ بهِم الحالُ إلىٰ إعلانِ الخِلافةِ الإسلاميّةِ، ففِي 2013/4/29م تمَّ إعلانُ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ في العِراقِ والشَّام مَع كلمةٍ صوتيَّة بثَّتها قناةُ الجزيرة، وأعلَنَت ((داعش)) بتاريخ 29 يونيو 2014 الخلافةَ الإسلاميَّةَ ومبايَعةَ أبي بكرٍ البَغداديِّ خليفةً للمُسلمينَ.

وقال النَّاطقُ الرَّسميُّ باسمِ الدَّولةِ أبو محمَّدٍ العَدنانيُّ: إنَّه تمَّ إلغاءُ اسمَي العراقِ والشَّام مِن مُسمَّىٰ الدَّولةِ، وإنَّ مقاتلِيها أزَالُوا الحدُودَ التي وصَفَها بالصَّنمِ، وإنَّ الاسمَ الحاليَّ سيُلغَىٰ ليَحُلَّ بدَلًا مِنه اسمَ الدَّولةِ الإِسلاميَّةِ فقَط[1].

التَّمكينُ عند الأحزَابِ السِّياسيَّة ذاتِ المَرجعيَّةِ الدِّينيَّةِ

رأَت بعضُ الطَّوائفِ مِن المُهتمِّين بالعَملِ الإسلاميِّ أنَّ التَّمكينَ للدِّين في الأرضِ يَستلزِمُ امتِلاكَ الأدواتِ للوصولِ إلىٰ السُّلطةِ السِّياسيَّةِ، وأنَّ أقربَ الطُّرقِ لذلكَ هو العَملُ مِن خِلالِ أحزابٍ تتَّصِفُ في برَامجِها المعلنَةِ بالالتزامِ بقوانينِ البلادِ التي تتبعُها؛ ولكنَّ المرجعيَّة لدِيهم هي مَرجعيَّةٌ دينيَّةٌ.

وعمِلَت هذِه الأحزابُ علىٰ تكوينِ قاعدةٍ جماهيريَّةٍ لها عن طريقِ تَقديمِ نَفسِها في صُورةِ أحزابٍ إصلاحيَّةٍ دينيَّةٍ غَيرِ مُنغلقةٍ، وكانَت شِعاراتُها التي تقدِّمها للنَّاسِ مَزيجًا منَ الشِّعاراتِ الدِّينيَّةِ والدِّيمقرَاطيَّةِ؛ خاصَّةً عندَ وجودِ انتخَاباتٍ بَرلمانيَّةٍ في مُحاولةٍ منهَا لحَصدِ أكبرِ عدَدٍ منَ المقَاعدِ في البَرلمانِ؛ لإثبَاتِ الوجُودِ الحِزبيِّ لهَا، ثمَّ بعد ذلكَ تَسيرُ هذه الأحزابُ في تَنفيذِ برَامجِها بحَسَب مَا تُتيحُ لهَا الظُّروفُ والتَّحالفاتُ التي ترَىٰ أنَّها تَصُبُّ في مَصلَحةِ أهدافِها، ومِن أمثلَة هذِه الأحزَابِ.

---

(1) موقع الـ BBC العربي علىٰ شبكة المعلومات الدولية بتاريخ 30 يونيو 2014م.

1- حزبُ العمل المصريِّ: وهو حِزبٌ تأسَّسَ كحزبٍ اشترَاكيٍّ عامَ 1978م، ثمَّ اتَّجه الحِزبُ اتِّجاهًا إسلاميًّا، وكانَت جرِيدةُ الشَّعبِ هي النَّاطقةُ بلسان الحزبِ، وتمَّ تَجميدُ نشاطِ الحزبِ وإيقافِ جرِيدَتِه في 20 مايو 2000م، ثمَّ عادَ الحِزبُ للعملِ بعدَ قيامِ ثَورة يناير 2011م، وأصبحَ حِزبًا قانونيًّا ومُعترَفًا بهِ من الدَّولةِ.

2- حزبُ العدَالةِ والتَّنميةِ التُّركيُّ: وهو حزبٌ سياسيٌّ تركيٌّ يصنِّفُ نفسَه علىٰ أنَّه يتبَع مَسارًا معتدِلًا غيرَ معادٍ للغَربِ، والبعضُ يُطلقُ عليهِم لقبَ العُثمانيينَ الجُدُدِ مع أنَّ الحِزبَ يُعلِن عن التِزامِه بمَبادئ الدَّولةِ العَلمانيَّةِ إلىٰ أنِ استطاعَ الوصُولَ للحُكمِ في يونيو عام 2011م.

ويَظهرُ النَّشاطُ الحزبيُّ ذُو المَرجعيَّةِ الدِّينيَّةِ في بَعضِ دُولِ الخَليجِ كالكُويتِ، ويَظهرُ في المملكةِ الأردُنيَّةِ، وإنْ لم تكُن هناكَ نتائجُ مَلموسَةٌ ذاتُ شأنٍ كبيرٍ ظهَرَت لوجودِ هذِه الأحزابِ إلَّا ما تمَّ في تُركيَّا في السَّنواتِ الأخيرةِ.

بالنَّظرِ لما سبَقَ نجِدُ أنَّ التَّياراتِ التي تبنَّتِ العمَلَ التَّنظيميَّ أو الفكريَّ مِن أجلِ هدَفِ التَّمكينِ للدِّينِ مِن خِلالِ المِنهاجِ الخاصِّ بهم تمثَّلت في التنظيمات التالية:

1- جماعة الإخوانِ المسلمينَ.

2- التِّيار السَّلفيُّ بأنواعِه.

3- الأحزاب ذات المرجعيَّةِ الدِّينيَّةِ.

وسوفَ نتعرَّضُ الآنَ لفكرةِ التَّمكينِ منَ الجانبِ الشَّرعيِّ مِن خلالِ النَّظرةِ في دَلالاتِ الآياتِ القُرآنيَّةِ، والأحاديثِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ، وأقوالِ أهلِ العِلمِ. ◆

نَظرةُ الشَّريعةِ الإسلاميَّة إلىٰ قضية التَّمكينِ

إنَّ فكرةَ التَّمكينِ في الأرضِ لدينِ الإسلامِ تختَلطُ فيها المفَاهيمُ والمصطلحَاتُ بينَ تمكين الله سبحانَه وتعالىٰ لدينِه وبين وعدِ الله لأُمَّة الإسلامِ علىٰ مَرِّ العُصورِ، وبينَ وجوب عملِ المسلمِ علىٰ التَّمكينِ للدِّينِ مِن خلالِ مَنهجٍ محدَّدٍ وخطُواتٍ مَرسومةٍ وأهدافٍ مَوضوعةٍ؛ لكي يحدثَ هذا التَّمكينُ.

فحدوثُ التَّمكينِ للدِّين أمرٌ إلهيٌّ وقَدَرٌ ربَّانيٌّ لابُدَّ مِن وقُوعِه؛ ويَكونُ ذلكَ بصُورٍ مختلفةٍ قد تتغيَّرُ عبرَ العصورِ، أمَّا حَصرُ التَّمكينِ للدِّينِ ولُلمسلِمين في صُورةٍ واحدةٍ هي أقرَبُ ما تَكونُ إلىٰ الشَّكلِ السِّياسيِّ وتكوينِ الدَّولةِ الإِسلاميَّةِ وِفقَ تَصوُّرٍ معيَّنٍ، والسَّعيِ لإعادةِ الخِلافةِ- فهو تَضييقٌ لَمفهومِ التَّمكِينِ الإلهيِّ، فالله سبحانَه وتعالىٰ يقول: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النُّور:55].

ففي هذِه الآياتِ الكرِيمَاتِ يُبيِّنُ سبحَانَه شرُوطَ الاستِخلافِ والتَّمكينِ في الأرضِ، وحدُوثَ الأَمنِ لُلمسلمينَ وعدَمَ الخَوفِ، وهذِه الشُّروطُ هيَ الإيمانُ وعمَلُ الصَّالحاتِ، وبمعنَىٰ أشمَل الالتِزامُ بالشَّريعةِ أصُولًا وفرُوعًا.

وهناكَ فرقٌ دقيقٌ بينَ أن يلتزِمَ المسلمُ بأوامِرِ الدِّينِ أُصولًا وفرُوعًا؛ لأنَّ الله يأمُرُه بذلكَ فيَفعلُ ذلكَ طاعةً لله جلَّ وعلَا، وبينَ أن يَفعلَ ذلكَ مِن خِلال الانتِماءِ إلىٰ مَنهجٍ محدَّدٍ وجماعةٍ وتنظيمٍ؛ لكي يمكَّنَ للدِّينِ في الأَرضِ.

ففِي الحالةِ الأُولىٰ المحرِّكُ للالتزامِ بالدِّين والشَّريعةِ علىٰ المستَوىٰ الشَّخصيِّ والجماعيِّ هو طاعةُ الله، والقُربُ مِنه، وتَحقيقُ معَاني العبوديَّةِ ابتغَاءَ رِضَا الله سبحانه.

وفي الحالةِ الثَّانيةِ المحرِّكُ للطَّاعةِ هو أنَّها الطَّريقُ لحدوثِ نَوعٍ معيَّنٍ من الظُّهورِ وتَحصيلِ المَنَعةِ والقُوَّةِ بصورةٍ معيَّنةٍ.

ففِي الأُولَىٰ جميعُ المسلمينَ مطلوبٌ منهم أفرَادًا وجمَاعاتٍ تحقيق معاني العبوديَّةِ لله سبحانه، سواءٌ أحْدَث هذا تمكينًا للدِّين أم لم يُحدِث، وفِي الثَّانيةِ المحرِّكُ هو هدَفٌ معيَّنٌ ومحدَّدٌ قد تَختلِطُ فيه النيَّةُ الصَّالحةُ بالأَغراضِ الدُّنيويَّةِ.

القرآن الكريم وحديثه عن التمكين:

الآياتُ التي تتحدَّث عن التَّمكينِ في الأرضِ بصُورِه المختلفةِ قد نطقَت بأنَّ الاستخلافَ في الأَرضِ والتَّمكينَ والظُّهورَ لا يَكونُ إلَّا مِن الله تعَالىٰ، وذلكَ بِالاصطِفاء الرَّبانيِّ، أو يكونُ ثمرةً للإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ، وإمَّا بالدِّلالةِ العامَّةِ علىٰ التَّمكينِ؛ كمَا جاءَ في بَعضِ الآيَاتِ:-

1- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:28]

2- ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:5]

3- ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:129].

4- ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:41].

5- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:6]

6- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:74].

7- ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:21].

8- ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:54].

9- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿83﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:83- 84].

فهذِهِ آياتُ اللهِ وكلامُه تخبرُنا عن صُورِ التَّمكينِ في الأرضِ بالقَدَرِ الإلهيِّ، فإنَّه لا يكونُ في كونِ اللهِ إلَّا ما يُريدُ.

والذي يُكلَّفُ بهِ المسلمُ تكليفًا شَرعيًّا وَيجبُ عليهِ القِيامُ بهِ وألَّا يفرِّطَ فيهِ هو تَحقيقُ معنى العبُوديَّةِ للهِ تعَالىٰ في كلِّ حياتِه وأَوقاتِه؛ وذلكَ بتَنفيذِ أوامِرِ الشَّريعةِ والالتِزامِ برُوحِها وتَطبيقِها علىٰ نَفسِه، فإنَّ ذلكَ مِن أعلَىٰ درَجاتِ التَّمكينِ علىٰ المستَوىٰ الشَّخصيِّ.

السنة النبوية والحديث عن التَّمكين:

وقَد دلَّتِ الأحاديثُ النَّبويَّةُ الشَّريفةُ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَىٰ ناصرٌ دينَه ومظهرٌ أمرَه في الوَقت الذي يريدُه وبالطَّريقةِ التي يَشاءُ.

وليسَ التَّمكينُ للدِّينِ محصورًا في شكلِ دولةٍ أو خِلافةٍ أو سُلطةِ حكمٍ إنَّما هو مَفهومٌ أوسعُ من ذلكَ بكثيرٍ، فقَد تكونُ هناكَ دَولةٌ وخِلافةٌ لكنَّها غيرُ ممكَّنةٍ فلا استقرَارَ

فيها ولا أمانَ، وبالتَّالي لا تحقُّقُ صورةَ المجتمَعِ المسلِمِ الصَّحيحةِ، وقَد تختفِي رسومُ وشكلُ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ بالمفهُومِ السِّياسيِّ ولكنَّ أفرادَ هذِه الدَّولةِ وهذَا المجتمَعِ يحقِّقونَ في أنفسِهم وبينَ بعضِهِم البعضَ النَّموذجَ الكاملَ للإسلامِ.

ولنتعرَّضَ لجانبٍ من أحاديثِ رسولِ الله ﷺ التي تتحدَّث عنِ التَّمكينِ:

1- عن البرَاء بن عَازبٍ الأنصَاريِّ قال: لَمَّا كانَ حين أمرنا رَسولُ الله ﷺ بحَفرِ الخندقِ، عرَضَ لنا في بعضِ الخَندقِ صَخرَةٌ عظيمَةٌ شديدةٌ لا تأخُذُ فيها المعاوِلُ، قال: فشكَوا ذلك إلىٰ النَّبيِّ ﷺ قال: فلمَّا رآها أخذَ المِعولَ وقال: ((بِسمِ الله)) وضربَ ضربةً فكسرَ ثُلُثَها، فقالَ: ((الله أكبَرُ أُعطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، واللهِ إنِّي لَأُبصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ إن شَاءَ الله)) ثمَّ ضربَ الثَّانيةَ، فقطع ثُلُثًا آخرَ فقالَ: ((الله أكبَرُ أُعطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَالله إنِّي لأُبصِرُ قَصرَ المَدَائِنِ الأَبيَضَ)) ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالثةَ فقالَ: ((بِسمِ الله)) فقطعَ بقيَّةَ الحَجرِ فقال: ((الله أكبَرُ أُعطِيتُ مفَاتِيحَ اليَمَنِ، والله إنِّي لَأُبصِرُ أبوَابَ صَنعَاءَ مِن مَكَانِي السَّاعَةَ))[1].

2- روَىٰ البُخاريُّ في صحيحِه عن خبَّابِ بنِ الأرَتِّ قال: شكونَا إلىٰ رسولِ الله ﷺ وهو مُتوسِّدٌ بُردَةً له في ظلِّ الكعبةِ فقلنَا: ألا تَستَنصِرُ لنا، ألا تدعُو لنا؟ فقال: ((قَد كَانَ مَن قَبلَكُم يُؤخَذُ الرَّجُلُ فَيُحفَرُ لَهُ فِي الأَرضِ فَيُجعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالمِنشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأسِهِ فَيُجعَلُ نِصفَينِ، وَيُمشَطُ بِأَمشَاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ لحمِهِ وَعَظمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَن دِينِهِ، وَالله لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمرُ حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعَاءَ إِلَىٰ حَضرَمَوتَ لَا يَخَافُ إِلَّا الله وَالذِّئبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُم تَستَعجِلُونَ))[2].

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (37975)، وأحمد في مسنده (4/303)، والنسائي في الكبرىٰ (8807)، وأبو يعلىٰ في مسنده (1685)، والبيهقي في دلائل النبوة (3/421) من طريق عوف عن ميمون قال: حدثنا البراء بن عازب به، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (7/397).

(2) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3612).

3- روىٰ مسلمٌ في صحيحه عن ثَوبان ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((إنَّ اللهَ زَوَىٰ لِي الأَرْضَ فَرَأَيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنهَا، وَأُعطِيتُ الكَنْزَينِ الأَحْمَرَ وَالأَبيَضَ، وَإِنِّي سَأَلتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَن لَا يُسَلِّطَ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن سِوَىٰ أَنفُسِهِمْ فَيَستَبِيحَ بَيضَتَهُم، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعطَيتُكَ لِأُمَّتِكَ أَن لَا أُهلِكَهُم بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَن لَا أُسَلِّطَ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن سِوَىٰ أَنفُسِهِم يَستَبِيحُ بَيضَتَهُم، وَلَوِ اجتَمَعَ عَلَيهِم مَن بِأَقطَارِهَا)) أو قال: ((مَنْ بَينَ أَقطَارِهَا حَتَّىٰ يَكُونَ بَعضُهُم يُهلِكُ بَعضًا، وَيَسبِي بَعضُهُم بَعضًا))[1].

4- عن أُبيِّ بنِ كَعبٍ قال: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ وأَصحَابُه المدِينةَ وَآوَتهُم الأنصارُ- رَمَتهُم العرَبُ عن قَوسٍ واحدةٍ، وكانوا لا يَبِيتُون إلَّا بالسِّلاحِ ولا يُصبِحُون إلَّا فِيه، فقالُوا: تُرَونَ أَنَّا نَعِيشُ حَتَّىٰ نَبِيتَ مُطمَئِنِّينَ لَا نَخَافُ إِلَّا اللهَ عزَّ وجلَّ؟ فنَزَلَت: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قَرَأَ إِلَىٰ قَولِه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55][2].

روىٰ الطبري عندَ تفسيرِ هذِه الآيةِ ما قاله أبو العاليةِ: مكثَ رسولُ الله ﷺ بمكَّةَ عشرَ سنينَ بعدَ ما أُوحِي إليهِ خَائفًا هو وأصحابُه يدعونَ إلىٰ الله سرًّا وجهرًا، ثمَّ أُمِرَ بالهِجرةِ إلىٰ المدينةِ، وكانوا فيهَا خائفِينَ، يُصبِحونَ ويُمسونَ في السِّلاحِ، فقالَ رجلٌ: يا رَسولَ الله أمَا يَأتِي عَلينا يومٌ نأمنُ فيهِ ونَضعُ السِّلاحَ؟ فقالَ عليهِ السَّلامُ: ((لَا تَلبَثُونَ إِلَّا يَسِيرًا حتَّىٰ يَجلِسَ الرَّجُلُ مِنكُم في المَلأِ العَظِيمِ مُحتَبِيًا لَيسَ عَليهِ حَدِيدَةٌ)) ونزلَت هذِه الآيةُ، وأظهرَ اللهُ نبيَّه علىٰ جزِيرةِ العرَبِ، فوَضعُوا السِّلاحَ وأَمِنوا[3].

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (2889).

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه (401/2)، والبيهقي في دلائل النبوة (6/3) من طريق علي بن الحسين بن واقد حدثني أبي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب ﷺ به، وقال الحاكم: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)) ووافقه الذهبي.

(3) أخرجه ابن إسحاق في سيرته (154/2)، والطبري في تفسيره (348/17) من طريق يونس عن عيسىٰ بن عبدالله التميمي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية به مرسلًا.

قالَ النَّحاسُ: ((فكانَ في هذِه الآيةِ دِلالةٌ علىٰ نبوَّةِ رسولِ الله ﷺ؛ لأنَّ الله جلَّ وعزَّ أنجزَ ذلكَ الوعدُ))[1].

5- روَىٰ ابنُ حِبَّانَ في صحيحِه بسندِه عن المِقدَادِ بنِ الأسودِ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: ((لَا يَبقَىٰ علَىٰ الأَرضِ بَيتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدخَلَهُ الله الإسلَامَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَو ذُلِّ ذَلِيلٍ))[2].

- فهذا كلامُ الصَّادقِ المصدُوقِ ﷺ الذي يخبرُ عن ظهُورِ أمرِ الدِّينِ وانتشارِه، وحدُوثِ التَّمكينِ لَه ولو كَرِهَ الكارِهونَ، والذي يَنظرُ لما كانَ مطلوبًا مِنَ الصَّحابةِ في تلكَ الأوقاتِ لا يجدُ إلا طلبَ الثَّباتِ علىٰ الدِّين وليسَ وَضعَ الخططِ والتَّصورَاتِ لكيفيَّةِ تحقِيقِ التَّمكينِ، فكذلكَ المسلمُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ المطلوبُ مِنه هو الالتزامُ بدينِه ويَتركُ النَّتائجَ القدَريَّةَ لله عزَّ وجلَّ.

- وهناك آيةٌ عامَّةٌ يُخبرنا الله سبحانَه وتعَالىٰ فيهَا عن وعدٍ لا يَتخلَّفُ فقالَ عزَّ من قائلٍ: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادِلة:21].

ففِي هذِه الآيةِ وعدٌ منَ الله تعالىٰ بالغَلبةِ لرُسلِه؛ لكنَّ هذه الآيةَ لم تُوضِّح معنَىٰ الغَلبةِ بالتَّحديدِ.

فمَعَ التَّسليمِ بأنَّ الله سبحانَه وعدَ بالغلَبةِ لرُسلِه إلَّا أنَّنا لا نَستطيعُ أن نَقصِرَ معنَىٰ هذِه الغلبَة في صورةٍ دنيويَّةٍ خالصةٍ، ثمَّ إنَّ هذا الوعدَ الإلهيَّ لا يَستلزمُ أن تكونَ الغَلبةُ بمعنَىٰ المُلكِ أوالسَّيطرةِ أو كثرةِ الأتباعِ.

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره (297/12).

(2) أخرجه أحمد في مسنده (4/6)، وابن حبان في صحيحه (6699)، والطبراني في الكبير (20/254- 255)، والحاكم في مستدركه (4/430) من طريق الوليد بن مسلم حدثني ابن جابر قال: سمعت سليم بن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود ﷺ به مرفوعًا. قال الحاكم: ((صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه)) ووافقه الذهبي.

والدليلُ علىٰ مَا فَهمناهُ منَ الآيةِ مَا في الصحيحين من حديث ابنِ عبَّاسٍ ﵄ قالَ: خرجَ علينا النَّبيُّ ﷺ يومًا فقالَ: «عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهطُ، وَالنَّبِيُّ لَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوتُ أَن تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَىٰ وَقَومُهُ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انظُر، فَرَأَيتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انظُر هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ: هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلاَءِ سَبعُونَ أَلفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ»[1].

فهُنا رسولُ الله ﷺ يُخبرُنا عَن حالِ الأمَمِ والأنبياءِ فيَقولُ: إنَّ النَّبيَّ يَمرُّ ومعَه الرَّهَطُ، والنَّبيُّ ومعه الرَّجلان، والنَّبيُّ ومعه الرَّجلُ؛ أي ممَّن آمنُوا بهِ وكانُوا أمَّته التي استجَابَت لَه، ويخبرنَا ﷺ أنَّ النَّبيَّ يأتي ولَيسَ معَه أحدٌ؛ أي لم يَستجِب لَه أحدٌ، مَع التَّسليمِ بأنَّ هؤلاءِ الأنبيَاءِ الذِين لم يَستَجِبْ لهم إلَّا القَليلُ، أو لَم يستجِبْ لهُم أحدٌ علىٰ الإطلاقِ داخِلون في الوَعدِ الإلهيِّ بمُقتضَىٰ الآيةِ السَّابقةِ.

إذن فصورةُ التَّمكينِ الماديَّةِ عن طَريقِ ظُهورِ القُوَّةِ والسُّلطةِ والمُلكِ ليسَت هيَ بالضَّرورةِ الصُّورةُ المطلوبَةُ منَ الشَّخصِ المسلمِ أن يُحقِّقَها؛ لأنَّها لم تتحقَّق لبَعضِ الأنبياءِ.

وليسَ معنَىٰ مَا ذكَرناه أنَّ التَّمكينَ الماديَّ بصُورِه المتنوِّعةِ غيرُ مطلوبٍ أو مرفوضٌ؛ بَل كلُّ مَا في الأَمرِ أنَّ الذِي دلَّت عليهِ الآياتُ والأحادِيثُ أنَّ التَّمكينَ قدَرٌ ربَّانيٌّ من قَضاءِ الله تعَالىٰ قَد يقَعُ وقَد لا يقَع، وقَد يتقَدَّمُ وقَد يتَأخَّرُ.

إذن المطلوبُ مِن المسلِمين هو الاشتغالُ بوَاجباتِ الدِّينِ مِن الاهتِمامِ بالدَّعوةِ ونَشرِ تعاليمِ الدِّينِ علىٰ كافَّةِ المُستوياتِ، وليسَ في ذلكَ دعوةٌ للتَّراخِي وإهمالُ تحصيلِ مصادرِ

---

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب من اكتوىٰ أو كوىٰ غيره وفضل مَن لم يكتوِ (5705)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (220).

القُوَّةِ للمسلمين في شتَّىٰ النَّواحِي، علَىٰ أن يكونَ ذلكَ العَمَلُ مِن أجلِ طاعةِ الله تعالىٰ وتَنفيذِ أوامرِه وليسَ مِن أجلِ تَحديدِ هدفٍ معيَّنٍ مِن تَحصيلِ قوَّةٍ وسُلطةٍ وغَلبةٍ سياسيَّةٍ، أو تكوينِ إمارةٍ أو دَولةٍ ووَضعِ المَناهِجِ والخُططِ وتكوينِ الميليشياتِ المسلَّحةِ مِن أَجلِ تَحقيقِ ذلكَ.

- ومِن صُورِ التَّمكينِ في أمَّة الإسلامِ صَلاحُ حالِ المجتَمع وانتظامُه أخلَاقيًّا وسلوكيًّا فهذا نوعُ تمكينٍ، وشيُوعُ الأَمنِ والأَمانِ ورَغدُ العَيشِ وتَرابطُ المجتَمعِ، وحدُوثُ التَّراحمِ فِيما بينَ أفرادِه هوَ نوعُ تمكينٍ.

- تَحصِيلُ العبُوديَّةِ الحقَّةِ لقَيُّومِ السَّمواتِ والأرضِ، والعَملُ علىٰ تَزكيةِ النُّفوسِ والتَّربيةِ علىٰ المَنهجِ المحمَّديِّ هوَ نوعُ تمكينٍ.

- اهتمامُ المسلِمين بالدَّعوةِ إلىٰ الدِّين بحقَائقِه وأصولِه، وليسَ علىٰ حسَبِ رؤيةِ جماعةٍ أو فَردٍ، وبذلُ الجُهدِ في نَشرِ الدِّينِ هوَ نوعُ تمكينٍ.

- يجبُ أن يفرِّقَ المسلمُ بينَ ما هو واجبٌ عليهِ من الالتِزامِ بالدِّينِ أُصولًا وفروعًا، وبينَ مَا هوَ مِن أمرِ الله تعَالىٰ القَدَريِّ، فتَحقيقُ الأهدافِ ليسَت مِن الوَاجباتِ علىٰ المسلمِ وإنَّما الالتزامُ بالمنهجِ الشَّرعيِّ هو الواجبُ، وقَد يحدُثُ التَّمكينُ الماديُّ بعدَ ذلكَ وقَد لا يحدُثُ، فذلكَ أمرُه إلىٰ الله سبحانَه أوَّلًا وآخرًا.

- مِن الممكنِ أن نجِدَ صورةً من صورِ القوَّةِ والثَّروةِ والتَّمكينِ الماديَّةِ التي تحدُثُ في بعضِ الأوقاتِ مع أنَّ المجتمعَ فارغٌ منَ الحالةِ الإيمانيَّة والرُّوحيَّةِ التي تُحصِّنُ المجتمعَاتِ منَ الفسَادِ والانهيَارِ، فيَكونُ هذا التَّمكينُ وبالًا علىٰ المسلِمين، فما تلبَثُ إلَّا أن تزولَ صورةُ هذه القوَّةِ، أو تتغيَّر والمجتمع خالٍ من أيِّ مَسحةٍ إيمانيَّةٍ صادقةٍ ممَّا يؤدِّي إلىٰ انتِشارِ أمرَاضِ المجتمعَاتِ.

ومِن هنا فوجُودُ الرُّوحِ الإيمانيَّةِ الصَّادقةِ وما ينتُجُ عنهَا منَ الأعمالِ الصَّالحةِ في مجتمعٍ هو أعلَىٰ صُورِ التَّمكينِ وهو أفضل مِن وجودِ قوَّةٍ ماديَّةٍ وسُلطةٍ حاكمة بدُونِ إيمانٍ حقيقيٍّ.

وخيرُ مثالٍ تتضِّحُ فيهِ هذِه الصُّورةُ هو مثالُ الدُّولِ الكُبرىٰ التي تمتلِكُ القوَّةَ الماديَّةَ والتِّكنولوجيَّا ومقاليدَ السَّيطرةِ علىٰ مقدَّراتِ دولٍ أخرَىٰ، ومع ذلك فهي فقيرةٌ بل مُعدَمةٌ في الجَانبِ الإيمانيِّ والأخلاقيِّ فتَنتشرُ فيها جميعُ الموبِقاتِ وأشكالِ الفَسادِ، ويكونُ مصِيرُها إلىٰ الزَّوالِ؛ كما حدَثَ لحضَاراتٍ سابقةٍ.

- وإنَّ مِن صورِ التَّمكينِ في المُجتمعَاتِ الإسلاميَّةِ الحفاظُ علىٰ مَصالحِ العِبادِ ورِعايتِها وعدَمِ التَّفريطِ فيهَا، وهذَا مَا فعلَت عكسَه جميعُ الجماعاتِ التي تشَدَّقَت بأنَّها تريدُ عزَّةَ الإسلامِ والمسلمينَ، وتريدُ التَّمكينَ للدِّين فلا دِينًا أقامَت ولا دُنيا حَفِظَت.

والحمدُ لله أنَّ في التُّراثِ الإسلاميِّ مِن المناهجِ والمصنَّفاتِ مَا يَصلُحُ مرجعيَّةً للقِيامِ بنَهضةِ المجتمَعاتِ الإسلاميَّةِ نَهضةً رُوحيَّةً وماديَّةً وعلىٰ كافَّةِ المستَوياتِ.

ولنضرب مثالًا علىٰ هَذا فنحنُ نجِدُ أنَّ مصنَّفاتِ الإمامِ أبي حامدٍ الغزاليِّ رحمه الله، والتي رَسَمت منهَجَ إصلاحٍ يؤسِّسُ لنهضةٍ عظيمةٍ لَمَّا وُضِعَت موضعَ التَّطبيقِ كانَتِ السَّببَ الأكبَرَ في ظهُورِ دَولةِ الإسلامِ القويَّةِ في عَهدِ السُّلطانِ نورِ الدِّين محمُود، ومِن بعدِه صلاحُ الدِّين الأيوبيُّ، وأدَّت إلىٰ نهضةٍ في بلادِ المسلمينَ، والتي تُوِّجَت باستِعادةِ بَيتِ المقدِسِ منَ الصَّليبيِّين.

إنَّ كلَّ ذلكَ حدَثَ نتيجةَ مَنهجٍ علميٍّ شرعيٍّ وليسَ نتيجةَ جماعاتٍ ومِليشياتٍ وتَنظيماتٍ وخُططٍ وأهدافٍ، حدثَ هذا نتيجَةَ الاهتمامِ بالتَّربيةِ الفَرديَّةِ علىٰ الهدي المحمَّديِّ بتَوجيهاتِ أهلِ العِلمِ الكِبار في أمَّةِ الإسلامِ وليسَ المدَّعينَ، فبِمثلِ هذِه الطُّرُقِ تنتجُ الثِّمارُ الطَّيِّبةُ التي تَحفظُ الدِّينَ والدُّنيا، ولن تكونَ الثَّمرةُ أبدًا علىٰ مَنهجٍ باطلٍ يتمُّ التَّوبةُ مِنه بعدَ ذلكَ، وإعلانُ النَّدمِ علىٰ اتِّخاذِه طريقًا للتَّمكينِ، والبكاءُ علىٰ الدِّماءِ التي سُفِكَت في هذا الطَّريقِ، والإقرارُ ببطلانِه بعدَ عشراتِ السِّنين.

إنَّ المجتمعاتِ المسلمةَ في هذه السَّنواتِ أمامَ تحديَّاتٍ فكريَّةٍ وعمليَّةٍ كبيرةٍ بينَ أن تَنسَاقَ ورَاءَ بعضِ مدَّعِي العِلمِ والفِقهِ الذين يتصدَّونَ للسِّياسةِ والقِيادةِ وهم ليسُوا لهَا بأهلٍ فيُوردُونَ الأمَّةَ مَوردَ الهَلاكِ.

وبينَ أن تعتَصِمَ الأمَّةُ بالدِّينِ علىٰ النَّهجِ المحمَّديِّ الصَّحيحِ، والذي يُمثِّلُه أهلُ العِلمِ والوَرعِ والدِّيانةِ منْ عُقلاءِ أُمَّةِ الإسلامِ في كافَّةِ المجَالاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ فتحقِّقُ رِضَا الله سبحَانه وتعَالىٰ، و تحقِّقُ الالتزامَ بالدِّينِ، ويحدُثُ لها التَّمكينُ الذِي يرضَاه الله لهَا.

فلا تمكينَ مع المنَاهجِ الباطلةِ، وإن حدَثَ نوعٌ مِن تَحصيلِ القوَّةِ والظُّهورِ في مَرحلةٍ ما فإنَّما تكونُ حالتُه كمَا وصفَ الله سبحانَه: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: 39] وتَنتهي هذِه القوَّةُ إلىٰ مَا ينتهي لَه السَّرابُ.

وإنَّما التَّمكينُ الحقيقيُّ هو اتِّباعٌ للدِّينِ علىٰ الحَقيقةِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ تكونُ النَّتائجُ من ربِّ العبادِ سبحانَه وتعالىٰ الذي لَه الأمرُ مِن قبلُ ومِن بعدُ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆



«بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» - آية 117 من سورة البقرة

الرسالة السابعة والثلاثون
الرد على شبهة انتشار الإسلام بالسيف

المحور الأول: توطئة أصولية ينبني عليها ما بعدها.

المحور الثاني: إطلالة على مصطلح «الجهاد» بين الفقه التراثي والمعاصر.

المحور الثالث: الجهاد في القرآن الكريم والسنة النبوية.

المحور الرابع: مفهوم الجهاد بين الغاية والوسيلة.

المحور الخامس: أهداف ومقاصد الجهاد في التشريع الإسلامي.

المحور السادس: التقسيم الفقهي للعالم.

المحور السابع: مناط تشريع الجهاد القتالي في الإسلام شبهات وردود.

المحور الثامن: السلم والدعوة هما مناط العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية.

المحور التاسع: شبهة انتشار الإسلام بالسيف والرد عليها. ◆



« ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ » - آية **30** من سورة لقمان

الرد علىٰ شبهة انتشار الإسلام بالسيف
(نظرة عامة لقضية الجهاد في الإسلام)
تمهيد

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فقد تكررَ الحثُّ علىٰ الجهادِ في القرآن الكريم، وجعله الرَّسُول ﷺ ذروةَ سنام الإسلام، وأعدَّ الله تعالىٰ للقائمين بهذا الفرض العظيم أجرًا عظيمًا، بيد أن الجهاد الذي أنيط به هذا المقام الرفيع من الدرجات العُلىٰ يحتاج إلىٰ توضيح معناه الصحيح في ضوء القرآن الكريم وفعل النَّبيِّ ﷺ وصحابته الكرام. وميادين الجهاد في سبيل الله رحبة واسعة سعة الإسلام، وليست ضيقة ولا محصورة في نطاق معين، فقد قال الله تعالىٰ فيه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 218]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78]، ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

ويصدق عليه قول النَّبيِّ ﷺ: ((والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلىٰ أن يقاتل آخر أمَّتي الدَّجَّال لا يبطله جور جائرٍ ولا عدل عادلٍ))[1]. وهو الذي يصدق عليه قول النَّبيِّ

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في الغزو مع أئمة الجور (2532) من حديث أنس رضي الله عنه.

ﷺ: ((الجهاد عمود الإسلام وذروة سنامه))[1].

وروى الشيخان عن عبدالله بن عمرٍو يقول: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال: ((أحيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد))[2].

وبوب البخاري باب: ((من جاهد نفسه في طاعة الله)) فالجهادُ الذي هو ذروةُ سنام الإسلام ماضٍ إلى يوم القيامة، أمَّا القتالُ فهو نوع من أنواع الجهاد، فهو حالة استثنائيةٌ توجدُ إذا تواجدت الظروف والشروط الموجبة لها، وترتفع إذا لم توجد الحاجة إليه.

وإنَّ من الظَّواهر المؤسفة التي تشهدها السَّاحةُ الإسلامية المعاصرة أنْ يُختزل مفهوم الجهاد - على سعته وشموله وأهميته - في معنًى من معانيه ألا وهو ((القتال)). ولا شكَّ أنَّ هذا الاختزال قد أحدث خللًا وترتبت عليه مفاسدُ عظيمة، على المستوى الداخليِّ للأُمة، وعلى المستوى الخارجي، وقد زاد من أثر هذا الاختزال وضرره بالأمة عدم الفهم الصحيح لمنشأ القول بتقسيم المعمورة إلى ((دار كفر)) أو ((حرب)) و((دار إسلام)). وهذه المفاسد العظيمة والآثار الفادحة، تُحتم علينا إعادةَ النَّظرِ في قصر المفهوم العام للجهاد على المفهوم القتاليِّ فقط، وما يتعلقُ به من أحكامٍ، مثل تقسيم العالم إلى دار كفر وإسلام، وعلينا حتما أنْ نُعيد النَّظر في الوسائلِ الُمعينة على إيصال رسالة الإسلام إلى قلوب الناس، وإزاحة العوائق التي تحول بين الناس وبين وصلهم برب العالمين. وليس من أغراض هذا البحث إلغاء معنى ((القتال)) من مفهوم ((الجهاد)) بل الغرضُ الأساسُ منه إعادةُ النَّظرِ في مفهوم ((الجهاد)) وما يتعلق به من أحكام؛ على وفق ما جاء في القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهرة؛ وأقوال العلماء في دائرة المقاصد الشرعية، وذلك حتَّى يتسع هذا المفهوم ويشمل آفاقًا عدة تناسب واقعنا المعاصر بما يحقق المقصد الشرعي من الجهاد.

---

(1) أخرجه أحمد في المسند عن معاذ رضي الله عنه (5/234) حديث (22100).

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين (3004) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به (2549).

وكان التركيزُ في هذا البحث على أنَّ قصر مفهوم ((الجهاد)) على ((القتال)) ليس وضعًا شرعيًّا إلهيا، بل هو وضعٌ اصطلاحيٌّ فقهيٌّ قام على أُسسٍ ومبررات لم تعدْ موجودة، ومِنْ ثَمَّ يمكنُ التوسعُ في هذا المفهوم- على وفق القرآن والسُّنة- وفتح آفاق جديدة لجهاد الطَّلب بحسب ما يحقق مقصود الجهاد في عصرنا الحديث، وقد توسَّلنا لهذا المقصد بعدة محاور:

المحور الأول: ((توطئة أصُولية)) ينبني عليها ما بعدها، بيَّنا فها أولًا أهمية تصُور الموروث الفقهيِّ تصورًا صحيحًا، وأهمية الوقُوف على القطعيات الثابتة والظَّنيات المتغيرة، ثم تعرضنا ثانيًا إلى علاقة الوسائل بالمقاصد، وأنَّ الوقُوف الصحيح على الثانية يساعد في التعيين الصحيح للأولى، وأما ثالثًا فقد تعرضنا إلى خطورة عدم الوقوف على المفهومين السابقين بالنسبة إلى قضية الاجتهاد المعاصر، موضحين الفرق بين ظاهرة ((الاجترار))، ومفهوم ((الاجتهاد)).

المحور الثاني: إطلالة على مصطلح ((الجهاد)) بين الفقه التُّراثيِّ والمعاصر، والغرضُ منه الوقُوف على مفهوم الجهاد عند الفقهاء، وما طرأ على هذا المفهوم من تطور، مع بيان ما تضمنته تعريفات الفقهاء من عناصر توضح اندراج المفهوم القتالي للجهاد ضمن مفهومه الواسع الشامل.

المحور الثالث: الجهاد في القرآن الكريم والسُّنة النبوية.

المحور الرابع: مفهوم الجهاد بين الغاية والوسيلة، وفي هذا المحور تعرضنا للخلل والتكلس الذي أصاب مفهوم ((الجهاد)) بحيث اختُزل في الوعي الثقافي العام في المفهوم القتالي فقط؛ وقد جاء هذا الخلط نتيجةً لعدم إدراك طبيعة الجهاد في سبيل الله، وأنه وسيلة لغاية أسمى وليس غايةً في نفسه، وأنَّ القتال وإن كان وسيلةً في وقتٍ ما إلا أنه ليس متعينًا في نفسه للجهاد في سبيل الله، بل إنَّ الوسائل إنما تتعين بحسب ما تحققه من المقاصد، وبيان مدى وضوح هذه القضية لدى أسلافنا ﭫ.

المحور الخامس: أهداف ومقاصد الجهاد في التشريع الإسلامي.

المحور السادس: التقسيم الفقهي للعالم: وفيه نبين مدىٰ ارتباط المفهوم القتالي للجهاد بالتقسيم الفقهي للمعمورة، وأنَّ الجهل بفلسفةِ - أو قانون - التقسيم عند العلماء جعل بعض الناس يقفُون عندما اصطلح عليه الأقدمون، وعدم القدرة علىٰ تجاوز ما تجاوزه الزمن من اصطلاحات وتقسيمات، ثم بيَّنا الأساس التاريخي الواقعي الذي قامت عليه عملية التقسيم الثلاثي، وبيَّنا أنَّ هذه الحيثيات لا وجُود لها الآن، مما يجعل القول ببقاء بهذا التقسيم محل إرباك وخلل شديدين، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ الأمْر بحاجةٍ إلىٰ اجتهادٍ جماعيٍّ جديد.

المحور السابع: مناط تشريع الجهاد القتالي في الإسلام شبهات وردود:

أولًا: تحرير مناط الخلاف بين العلماء في علة تشريع القتال في الإسلام، وبيان أنَّ الراجح أنَّ القتال إنما شُرع لدرء الحرابة الواقعة أو المتوقعة.

ثانيًا: التعرض لأدلة من قال إنَّ العلة في القتال هي مجرد وصف الكفر دون وصفٍ زائدٍ عليه، والرد علىٰ هذه الشبهات بالتفصيل: آيةُ السَّيف ودعوىٰ نسخها لآيات الصَّبر والصَّفح والعفو، مع بيان مجافاة هذا القول لقواعد النَّسخ في أصُول الفقه، وتفصيل أقوال العُلماء في ذلك.

حديثُ: «أُمرتُ أن أُقاتل الناس»، وعدم دلالته علىٰ المدَّعىٰ.

حديثُ: «بُعثت بالسَّيف»، وبيان عدم دلالته- علىٰ فرض صحته- علىٰ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مأمورٌ ببدء غير المسلمين بالقتال، وأنَّ السَّيف متعين في تحقيق فريضة الجهاد.

حديثُ: «لقد جئتكم بالذَّبح»: بيانُ أنَّ مُدَّعاهم مبنيٌّ علىٰ مُغالطة في فهم الحديث والخروج به عن سياقه الذي قيل فيه، وأنَّ الذَّبح هُنا لا سبيل لحمله علىٰ ظاهره المتبادر، ولابدَّ من المصير إلىٰ التأويل علىٰ وجه حسن يتلاءم مع أصُول الشَّرع الحنيف.

المحور الثامن: السِّلْمُ الدَّعويُّ هو مناطُ العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، والقتال حالة استثنائية، بينا فيه أنَّ العلاقة بين المسلمين وغيرهم مبناها على السِّلم الإيجابي الدَّعوي لا السِّلم السَّلبي؛ انطلاقًا من فهم الأمة لرسالتها وواجبتها المنوطة بها تجاه العالم.

المحور التاسع: شبهةُ انتشار الإسلام بالسَّيف والردُّ عليها: بيَّنا فيه أنَّ طبيعة العقائد والمبادئ عامَّة تتأبى على أن تُفرض بالقوة؛ وأنَّ الإسلام خاصة قد حباه الله بالخصائص والبراهين الكفيلة بإبهار العقول وجذب القلوب.

كما تعرضنا فيه إلى القتال على عهد النَّبيِّ ﷺ كتطبيق عملي مثالي لمفهوم الجهاد، ثم تعرضنا للفتوحات الإسلامية بشكل عام، وبيَّنا أن المعدلات الواقعية لانتشار الإسلام في الأقاليم المختلفة تتعارض بشكل قاطع مع مقولة انتشار الإسلام بالسيف، وبينا خصائص ذلك الانتشار والآثار الحضارية التي ترتبت عليه. ◆

توطئة أصوليَّة ينبني عليها ما بعدها

من الأمور التي ينبغي علينا أن نلتفت إليها أثناء معالجتنا للقضايا الفقهية والفكرية المعاصرة قضيةُ تحرير المصطلحات، ومراعاة التغيرات التي قد تطرأ علىٰ دلالة مصطلح فقهي أو فكري ما؛ نتيجة عوامل مختلفة كتغير الزمان والبيئة والأفكار والأعراف الَّتي قد يتواضع عليها النَّاس أو العُلماء، ثم تتغير الظروف فيتواضعون علىٰ غيرها... وهكذا.

وقد يساعدنا علىٰ هذا أن نفهم طبيعة بناء الفقه الإسلاميِّ بمدارسه ومذاهبه المختلفة وامتزاجه من مكونات بعضها ثابت وبعضها متغير، والثابت في البناء الفقهي هو مجملُ الأحكام التي تستند إلىٰ الأصُول القطعية المحكمة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ((نصوص الكتاب والسُّنة والإجماع القطعي)) أمَّا المتغيرُ فهو مجموعة الأحكام المتغيرة بعددٍ من العوامل التي تُسمَّىٰ ((جهات التغير)): الزمان المكان والأحوال والأشخاص؛ فالأحكامُ الاجتهادية والمصطلحات بل والتقسيمات تتغير بتغير هذه الجهات. ولا شكَّ أنَّ امتزاج الثابت والمتغير في بناء الفقه الإسلامي أكسبه خاصية المسايرة والمواكبة لكافة العصور، وأكسبه أيضًا خاصية الملائمة لكافة الظروف والأشخاص، كما أكسبه المرونة والصلاحية لكافة الأحوال.وإذا أمعنا النظر في صنيع فقهاء الصحابة[1] وكبار التابعين

---

(1) ومن الأمثلة علىٰ مراعاة فقهاء الصحابة للفقه المقاصدي: جمع القرآن في عهد أبي بكر، وكتابته في المصحف الإمام في عهد عثمان، والمقصد هو حفظ دستور الدولة الناشئة، والمنبع الأول لهدي العالم وصلاحه، والمصدر الأساس للتشريع والنظام والقانون. زيادة الاجتماع في المساجد لقيام رمضان، والمقصد هو المحافظة علىٰ الجماعة وفوائدها ومصالحها المتعلقة بزيادة الأجر وتحقيق الوحدة وتعليم الناس وتيسير العبادة بأدائها جماعة، وغير ذلك. أمر عثمان رضي الله عنه التقاط ضالة الإبل والتعريف بها وبيعها حتىٰ إذا جاء صاحبها أعطاه ثمنها، ولم يكن هذا موجودا في العصر النبوي لقوة الوازع الديني، والمقصد هو حفظ حق الغير وسد ذريعة التهاون بممتلكات الغير. وصية عمر رضي الله عنه أمراءه بعدم إقامة الحد في الغزو، والمقصد هو درء مظنة لحوق المسلم المحدود بالعدو، وتقديم ذلك علىٰ مصلحة تطبيق الحد نفسه، أو أن تطبيق الحد أشد ضررًا من تأخير إقامة الحد عليه.

عدم إقامة حد السرقة عام المجاعة، وذلك لما رآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه من عدم استيفاء الشروط الضرورية الباعثة علىٰ التطبيق، والتي منها شبهة المجاعة الملجئة علىٰ أخذ حق الغير بدون إذن منه للضرورة، والمقصد هو

والفقهاء المتبوعين، علمنا أنَّ مراعاة المقاصد الشَّرعية والأصول الكلية، والنظر إلى المآلات في سائر التصرفات كان منهجًا واضحًا مطردًا يساعدُ على معرفة الحكم المناسب للواقع، وتجاوز ما لم يعُد ملائما و إن كان موروثًا.

علينا إذن أن نتعامل مع ثروتنا الفقهية بطريقة تتجاوز الظاهرة الصورية المادية أو الاجترارية إلى المنهجية الواقعية[1]، ونعني بالظاهرة الصورية أو المادية هو أن ننظر إلى الموروث الفقهي بشكل عام باعتباره صالحًا لكل زمان ومكان، فننزل الفقه منزلة الشريعة وهذا خطأ منهجي بالغ، لا يمت بصلة إلى منهج أسلافنا الصالحين، بل ويوقعنا في كثير من المشاكل عندما نواجه تلك التراكمات التي ازدحمت بها حركة الحياة في مجالات معاصرة متعددة أبرزها قضايا المعاملات المالية والاقتصادية برمتها وبخاصة المصرفية، ومنها أيضًا مجالات السياسة الشرعية والعلاقات الدولية، ومنها كثير من القضايا المتعلقة بالقضاء الشرعي وطرق الإثبات، فلا شك أنَّ قدرًا كبيرًا مما كتبه أسلافنا الصالحون في هذه المجالات كان مرتبطًا ولصيقًا بالواقع الذي دوِّن فيه، ولا شك أنَّ تلك الأحكام التي كان الواقع مكونًا أساسًا من مكوناتها تتغير بتغير هذا الواقع، وهذا هو المعنى الحقيقي لصلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان. أما منهج «الاجترار» فإنه يتمثل في التمسك بمسائل التراث تمسكًا يحكي صورتها ومادتها دون الوقوف عند المقاصد الشرعية والأصول العامة؛ حتى يمكن تطويرها إن احتاجت إلى تطوير، أو الاستفادة بها على حالها إن كانت تصلح لذلك. وهذا المعنى يبين لنا

=

الرفق والتخفيف بمن اضطر إلى السرقة دون اختيار منه ومراعاة ظروف تطبيق الحكم كي يحقق أغراضه وفوائده، غير أن هذا لا يهمل تعزيره وتأديبه. قتل الجماعة بالواحد، والمقصد هو حفظ حياة النفوس وقمع الجناة وزجر الناس كي لا يفكروا في القتل، وسد ذريعة الفرار من القصاص بشبهة الاشتراك في القتل.

(1) يراجع في هذا المعنى كتاب: سمات العصر رؤية مهتم. لشيخنا الدكتور علي جمعة (ص39) طبعة دار الفاروق للاستثمارات الثقافية.

الفرق بين الاجتهاد والاجترار؛ فالاجتهادُ عبارة عن مجموعة من الآليات التي يسلكها المجتهد لإعمال نصوص الكتاب والسنة ((الثابت)) في واقعٍ ما ((المتغير))، وفق المقاصد الشرعية الكلية والجزئية، هذا هو الاجتهاد بمعناه الواسع الشَّامل[1]. أما ظاهرةُ ((الاجترار)) فهو التعامل مع التراث ككل علىٰ أنه ثابت لا متغير فيه بما في ذلك الزمان والمكان والأحوال والأشخاص. فالاجتهادُ إذن ظاهرة صحية وهي جزأٌ لا يتجزأ من مفهوم التجديد، والمجتهد الحقيقيٌّ يتعامل مع التراث بمبدأ الموازنة بين الثابت والمتغير، فيأخذ من التراث روحه، ومن الواقع أساسًا يبني عليه حكمه.

والقضيةُ الَّتي نحن بصددها- قضية دوافع الجهاد والقتال في الإسلام- من الأمثلة الواضحة علىٰ ما نبهنا عليه سلفًا؛ فقد نظر بعض الناس إلىٰ أحكام الفقه الإسلامي المدون في هذا المجال علىٰ أنه أحكام الشريعة التي لا تتبدل ولا تتغير بحال من الأحوال، فقصر مفهوم الجهاد الواسع الشامل علىٰ القتال الذي دوَّن الفقهاء أحكامه ورسموا حدوده بناء علىٰ واقع معين كان يحكم صلة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول، بل ويحكم مسألة العلاقات الدولية بشكل عام، كما سنبين إن شاء الله. ولست أشك ولو للحظة واحدة أنَّ فقهاءنا الأسلاف العظام لو امتد بهم العُمر أو بعثهم الله تعالىٰ من قبورهم مجتهدين في هذا الزمان لغيروا كثيرًا مما اجتهدوا فيه بناء علىٰ ما تغير من الواقع وما ازدحمت به حركة الحياة في كلِّ مجال؛ هذا ما نعني به المنهجية الفقهية. ◆

---

(1) يراجع في هذا المعنىٰ أيضًا حول تجديد الفقه والاجتهاد كتاب: سمات العصر رؤية مهتم. لشيخنا الدكتور علي جمعة (257 – 267) طبعة دار الفاروق للاستثمارات الثقافية..

إطلالة على مصطلح «الجهاد» بين الفقه التراثي والمعاصر

التعريف: الجهادُ مصدر جاهد، وهو من الجهد -بفتح الجيم وضمها- أي الطاقة والمشقة، وقيل: الجهد -بفتح الجيم- هو المشقة، وبالضَّمِّ الطاقة.

والجهاد: القتال مع العدو كالمجاهدة، قال تعالىٰ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]. وفي الحديث الشريف: ((لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيةٌ وإذا استنفرتم فانفروا))[1].

قال الراغب[2]: والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظَّاهر، ومجاهدة الشَّيطان، ومجاهدة النَّفس، وتدخل ثلاثتها في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: 72].

وبالنسبة لتعريفه في اصطلاح الفقهاء: عند الحنفية:

قال ابن عابدين: بذل الوسع في القتال في سبيل الله مباشرة أو معاونة بمال أو تكثير سواد[3].

وقال الكمال ابن الهمام: دعوة الكفار إلىٰ الدين الحق وقتالهم إن لم يقبلوا[4].

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب جزاء الصيد، باب لا يحل القتال بمكة (1834) ومسلم في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها (1353) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد (101/1)، طبعة دار المعرفة بيروت.

(3) رد المحتار على الدر المختار المشهورة بحاشية ابن عابدين (121/4)، ط: دار الفكر للطباعة والنشر بيروت سنة النشر 1421هـ.

(4) فتح القدير للكمال ابن الهمام محمد بن عبدالواحد السيواسي الحنفي (435/5) ط: الحلبي.

فمن الواضح أنَّ التعريف الثاني نظر إلىٰ الجهاد بمعناه الأعم وهو الجهاد في سبيل الله بالدعوة بالحجة والبرهان، أما التعريف الأول فقد نظر إليه بمعناه الأخص وهو قتال الكافرين، والذي يلفتُ النظر في هذين التعريفين أنَّ الأول قدَّمَ الوسيلة «الجهاد» علىٰ الغاية «الدعوة إلىٰ الإسلام و إعلاء كلمة الله» أمَّا التعريفُ الثاني فجعل الغاية «الدعاءُ إلىٰ الدين الحقِّ» مقدَّمةً علىٰ الوسيلة «القتال».

عند المالكية:

الجهادُ اصطلاحًا: قتالُ مسلمٍ كافرًا غير ذي عهد لإعلاء كلمة الله أو حضوره له أو دخوله أرضه له[1]. ومن الواضح هنا أنَّ مصطلح الجهاد أيضًا أعم من القتال لأنه يتضمن دخول المسلم أرض الكافر إما لدعوته أولًا أو لقتاله إن رفض دعوة الإسلام.

عند الشَّافعية:

قال العلامة الباجوريُّ: الجهاد؛ أي القتال في سبيل الله مأخوذ من المجاهدة وهي المقاتلة لإقامة الدين وهو الجهاد الأصغر[2]. وذهب الشَّافعية -كما هو رأي جميع الفقهاء- إلىٰ عدم جواز قتال العدو حتىٰ يُدعىٰ إلىٰ الإسلام أولًا؛ لأنه لا يلزمهم الإسلام قبل العلم به؛ لذا لا يجوز قتالهم علىٰ ما لا يلزمهم، وعليه لا يكون القتال إلا بعد الدَّعوة إلىٰ دين الحق أو الدخول في الأمان ودفع الجزية[3]. فالشَّافعية متفقون علىٰ أنَّ القتال ليس مقصود الجهاد الأول، بل إن دخول الكفار في الإسلام وقبولهم الدعوة أو نزولهم علىٰ دفع الجزية أولىٰ من القتال.

---

(1) حاشية العدوي العلامة علي الصعيدي العدوي المالكي، علىٰ كفاية الطالب الرباني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني (2/2) ط: دار الكتب العلمية.

(2) حاشية البيجوري، إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري المصري الشافعي علىٰ شرح ابن قاسم الغزي علىٰ متن ابن أبي شجاع (2/487) ط: دار الكتب العلمية.

(3) المهذب لأبي إسحاق الشيرازي (2/232) دار الفكر بيروت.

تعريف الحنابلة:

قال ابن قدامة: الجهاد هو القتال وبذل الوسع فيه لإعلاء كلمة الله تعالىٰ. ويؤخذ من هذا التعريف أيضًا أنَّ القتال وسيلة لإعلاء كلمة الله تعالىٰ وليس غاية في نفسه[1]. والناظر في هذه التعاريف جميعًا يرىٰ أن الفقهاء علىٰ الرغم من قصرهم مفهوم الجهاد في مصطلح القتال إلا أن كون القتال وسيلة وليس غاية، كان حاضرًا ماثلًا في أذهانهم، وسيأتي حديث موسع عن ارتباط الوسائل بالمقاصد طردًا وعكسًا.

الفرق بين مفهوم الجهاد ومفهوم الحرب في الفقه المعاصر:

والجدير بالذكر هنا أن نبين اختلاف مفهوم الجهاد عن مفهوم الحرب في فقه القانون الدولي الحديث؛ حيث ينظر فقهاء القانون الدولي للحرب علىٰ أنها وسيلة لغاية السياسة للحصول علىٰ بعض المكاسب المادية أو السياسية دون مراعاة للقيم أو المبادئ الأخلاقية أو الروحية. وقد عرَّف فقهاء القانون الدولي الحرب بأنها: حالة قانونية تتولد عند نشوب كفاح مسلح بين القوات المسلحة كدولتين أو أكثر مع توفر نية إنهاء العلاقات السلمية بين إحدىٰ هذه الدول، أو لديها جميعًا[2]. فالحرب عبارة عن صراع دموي بين إرادتين، مراد كل منهما التفوق علىٰ الأخرىٰ، وتحطيم مقاومتها، وحملها علىٰ التسليم لها بما تريده من شروط معينة يفرضها الطرف القوي، وينزل عليها الطرف الضعيف المنهزم، وصورة هذا الصراع هي العنف أبدًا، وشكله القتال بين قوتين متخاصمتين، وبذلك تكون الحرب هي أقصىٰ صورة للتنافس البشري، وهي أشبه ما تكون بعملية التطور الذي يأخذ دوره بين الكائنات الحية في صورة صراع دائم، ينتهي ببقاء الأقوىٰ أو الأصلح، ثم يتجدد بظهور عناصر أقوىٰ وأصلح تقضي علىٰ ما قبلها.

---

(1) المغني لابن قدامة (206/1) ط: دار المعرفة بيروت تحقيق: خليل مأمون شيحا.

(2) جرائم الحرب في الفقه الإسلامي والقانون الدولي تأليف الدكتور خالد رمزي البزايعة (ص26) ط: دار النفائس، الأردن. آثار الحرب في الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي، (ص 35) ط: دار الفكر سوريا.

أما علماءُ الفقه الإسلامي فإنهم لم يعبروا عن مفهوم الجهاد بالحرب اتباعًا للقرآن الكريم، ولما تحمله هذه الكلمة من معنىٰ الصراع والتناحر ومحاولة الاستيلاء علىٰ ممتلكات الغير بغير وجه حق، إنما عبروا بلفظ الجهاد وهو لفظ شرعيٌّ، ولم يكن الجهاد يومًا مقصورًا علىٰ القتال وحده، ولم تكن كذلك كلمة الجهاد في عرف المسلمين ولا مفهوم أهل اللغة مرادفة لمفهوم الحرب، بمعنىٰ إرغام الناس علىٰ اعتناق دين معين أو الاستيلاء علىٰ ممتلكاتهم، كما فهم ذلك خطًا بعض علماء الغرب وشعوبهم. ونظرًا لتمايز مفهوم الجهاد في المنظور الإسلامي عن مفهوم الحرب في منظور القانون الدولي الحديث، تمايز تبعًا لذلك مفهوم العهد أو المعاهدة بين المنظور الإسلامي والقانون الدولي. ويوضح الدكتور خالد رمزي الفرق بين المعاهدات في الإسلام والمعاهدات الحديثة بقوله: يفهم من قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4] عدم قتال أهل العهد ما داموا في عهدهم، وحتىٰ إن نقضُوا عهدهم، فإنَّ الأصل ألا يقاتلوا إلا بعد إعلامهم أنَّ العهد معهم تم نقضُهُ من طرفهم، ولا يمكن تصور قتالهم غدرًا من قبل المسلمين؛ لأنَّ النُّصوص الشَّرعية تعتبر الغدر خُلقًا ذميمًا ينبغي البعد عنه.

بينما النَّاظر في أحوال الحروب الحديثة يرىٰ أنها لا تُراعي حرمة المعاهدات، إنما تعتبرها حبرًا علىٰ ورق، ومقياس الالتزام بهذه المعاهدات في أيامنا هذه مدىٰ ما تحققه من مصالح، بعكس النظرة الإسلامية لمسألة الالتزام بالمعاهدات، فإنَّها غير مرتبطة بالمصالح، وإنما بمسألة الوفاء بالعقود، وهي مسألة تتعلق بأصول العقيدة مما يعطي المسألة بُعدها الدِّينيِّ. ا.هـ[1].

ومن خلال تحليل هذه التعاريف يتبين لنا الآتي:

أنَّ الجهاد غايتُهُ إعلاء كلمة الله تعالىٰ ويكون ابتداء بالطُّرق السِّلمية، وذلك بالدَّعوة

---

(1) جرائم الحرب للدكتور خالد رمزي البزايعة (ص30، 31).

الصحيحة إلىٰ دين الله عزَّ وجلَّ، بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو جهاد الحجة. أن الجهاد كما يكون بالحجة، قد يلجأ فيه إلىٰ القتال، وإن وقع القتال فإنه يكون بين المسلمين وأعدائهم من الكافرين -المعتدين المحاربين- ولا يمكن تصور وقوعه بين المسلمين أنفسهم، وحين يلجأ ضرورة للقتال فإنَّ الغرض منه يكون واضحًا، وهو حماية دولة الإسلام ورعاياها والمحافظة علىٰ سير الدعوة الإسلامية دون صعوبات، ولا يمكن أن يكون غرض الجهاد التسلط علىٰ رقاب الناس وسيادة الأمم، وهذا بخلاف ما نصَّ عليه فقهاء القانون الدولي في تعريف الحرب فإنَّهم لم يراعُوا في تعاريفهم سوىٰ الاستيلاء والسَّيطرة علىٰ ممتلكات الغير، وتدمير مقاومة الخصم، حتىٰ ولو كانوا جميعًا من نفس الدِّين. ◆

الجهاد في القرآن الكريم والسُّنة النبوية

أولًا: الجهاد في القرآن الكريم:

عند بحثنا قضية الجهاد في الإسلام وعلاقته بالقتال في سبيل الله، ينبغي أن يكون ذلك من خلال التأمل في نصوص الكتاب والسُّنة المطهرة الواردة في هذا الشَّأن، فهما المعين الأساس للتشريع في الإسلام، ومن خلال التأمل في تلك النصوص نستطيع أن نفهم قضية الجهاد بمعناها الشَّامل وعلىٰ وجهها الصَّحيح، وأن نرصد ما طرأ علىٰ مفهوم الجهاد من تخصيص أو تضييق، ونستطيعُ كذلك أن نعمل علىٰ إحياء هذا المفهوم الشَّامل بما يتناسب مع العصر الذي نعيش فيه. ونحن في هذه الدراسة نستعرض معاني الجهاد في القرآن الكريم مكية ومدنية، وننظر في هذه المعاني والدّلالات، ونستعرض كذلك مفهوم القتال في القرآن الكريم لنرىٰ أيَّ تطورٍ طرأَ علىٰ مفهوم الجهاد بعد تشريع القتال في العهد المدني، ونوازن بين ذلك كله وبين تلك المفاهيم في السُّنة النبوية المشرفة حتىٰ نصل إلىٰ ما يشبه النظرية العامة لمفهوم الجهاد وعلاقة ذلك بالقتال في سبيل الله تعالىٰ في نظرنا؛ لأن الأمر محل بحث اجتهادي.

1- الجهاد في القرآن المكيِّ:

إنَّ حديث القرآن الكريم عن الجهاد في سبيل الله بمعناه الشَّامل قد بدأ من القرآن المكي الذي نزل في مرحلة الاقتصار علىٰ الدعوة وإقامة البينات والبراهين علىٰ دعوة التوحيد، مع النهي عن القتال والأمر بالصبر، فالله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52]. وقد أجمع المفسرون علىٰ أن مرجع الضمير في (به) عائد إلىٰ القرآن الكريم كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه[1].

(1) انظر: تفسير البغوي للحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء أبو محمد البغوي (373/3) بتحقيق خالد عبدالرحمن العك، طبعة دار المعرفة بيروت. أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (63/6) طبعة دار الفكر بيروت 1415هـ - 1995م.

وسورة الفرقان مكية أُمِر النَّبيُّ ﷺ فيها بالجهاد بالبيان، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بالحُجَّة وهو أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد الخواص وأفراد العالم، والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددًا فهم الأعظمون عند الله قدرًا، ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن يتكلم به عند من يخاف سطوته، كان للرسل صلوات الله وسلامه عليهم من ذلك الحظ الأوفر، وكان له ﷺ من ذلك أكمله وأتمه، ولما كان جهاد أعداء الله فرعًا على جهاد النَّفس، كما قال ﷺ: ((المجاهدُ من جاهدُ نفسَهُ في ذَاتِ الله))[1].

والمعنى كما قال المفسرون: إنهم يجتهدون في إبطال حقك فقَابِلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحة باطلهم ((جهادًا كبيرًا)) لأنَّ مجاهدة السُّفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسَّيف [2]. وقد ردَّ العلامة أبو السُّعود قول من زعم أنَّ المقصود بالجهاد الكبير هنا هو مجرد اعتزال الكفار وترك طاعتهم، ورجح أنَّ المقصود بالجهاد الكبير هنا هو إقامة الحجج والبراهين على هؤلاء الكافرين فقال في تفسيره: ((وجاهدهم به)) أي بالقرآن بتلاوة ما في تضاعيفه من القوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الأمم المكذبة ((جهادًا كبيرًا)) فإنَّ دعوة كُلِّ العالمين على الوجه المذكور جهادٌ كبيرٌ لا يقادر قدره كما وكيفًا.

وقيل: الضميرُ المجرورُ لترك الطاعة المفهوم من النهي عن الطاعة، وأنت خبير بأن مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة أصلًا، وليس فيه شائبةُ الجهاد فضلًا عن الجهاد الكبير، اللهمَّ إلَّا أن تجعل الباء للملابسة ليكون المعنى: وجاهدهم بما ذُكِر من أحكام القرآن الكريم ملابسًا بترك طاعتهم[3].

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن فضالة بن عبيد (309/18) بتحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، طبعة دار الزهراء بالموصل الطبعة الثانية سنة (1404هـ - 1983م)، وابن حبان في صحيحه (11/ 5) تحقيق شعيب الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية (1414هـ ـ1993م).

(2) تفسير البيضاوي للقاضي ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي الشافعي (224/4).

(3) تفسير أبي السعود (225/6).

وقال العلامة الآلوسيُّ: وأنت تعلم أنَّ السُّورة مكية ولم يُشرع في مكة الجهادُ بالسَّيف ومع هذا لايخفىٰ ما فيه، ويُستدل بالآية علىٰ الوجه المأثور علىٰ عظم جهاد العُلماء لأعداء الدِّين بما يوردون عليهم من الأدلة وأوفرهم حظًّا المجاهدون بالقرآن منهم [1]، وفي سورة النَّحل المكية يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 110].

ففي هذه الآية سمَّىٰ الله سبحانه معاناة الصَّحابة في المرحلة المكية، واحتمالهم الأذىٰ في سبيل الله تعالىٰ ونشر دعوة التوحيد دون قتال سماه الله جهادًا ولم يُسمّه صبرًا فقط، بل أطلق عليه هذا الاسم تنبيهًا علىٰ معنىً جليل؛ ألا وهو أنَّ كُلَّ ما يُبذل من جهد ومشقة في سبيل نشر هذا الدِّين حقيقٌ أن يُسمَّىٰ جهادًا، وأن يُسمَّىٰ القائمون به بالمجاهدين في سبيل الله تعالىٰ، وقد ورد ذكر الجهاد مرتين في سورة العنكبوت وهي مكية أيضًا في موضعين من السورة، وهما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 6]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]. والمقصود بالجهاد في الآية الأولىٰ هو العمل الصالح وتربية النفس وجهادها حتىٰ تستقيم علىٰ أمر الله سبحانه.

قال صاحب الكشاف: ومن جاهد نفسه في منعها ما تأمر به وحملها علىٰ ما تأباه فإنما يجاهد لها لأن منفعة ذلك راجعة إليها وإنما أمر الله عز وجل ونهىٰ رحمة لعباده وهو الغني عنهم وعن طاعتهم. ا.هـ [2].

والمقصود بقوله ((جاهدوا فينا)) في الآية الثانية، هو النظر في الدلائل الموصلة إلىٰ

---

(1) روح المعاني (33/19).

(2) الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (445/3) بتحقيق عبدالرزاق المهدي- طبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت، وانظر: تفسير أبي السُّعود محمد بن محمد العمادي (30/7) طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت.

معرفة الله سبحانه [1].

أو ما هو أعم من ذلك؛ قال الضَّحَّاك: معنى الآية والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سُبل الثبوت على الإيمان، والسُّبل هاهنا يحتمل أن تكون طرق الجنة ومسالكها، ويحتمل أن تكون سبل الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد النيرة، قال يوسف بن أسباط: هي إصلاح النية في الأعمال، وحب التزيد والتفهيم، وهذا هو أنْ يجازى العبد على حسنة بازدياد حسنة، وبعلم يقتدح من علم متقدم وهي حال من رضى الله عنه [2].

لقد انحصرت دلالة الجهاد في القرآن المكي على مجموعة العناصر التربوية المكونة للفرد المسلم المستأهل لبناء الدولة الإسلامية، وإقامة شرع الله عز وجل ونشر تعاليمه السَّمحة في بقاع المعمورة، ونستطيعُ أن نجمل هذه المكونات في الآتي:

- إخلاص النية لله عزَّ وجلَّ في جميع الأمور.
- التزام طاعة الله سبحانه وتعالى.
- مجاهدة النفس والهوى.
- معرفة الله سبحانه وتعالى بالأدلة الكونية والبراهين القطعية.
- دعوة غير الموحدين والعمل على هدايتهم بالقرآن الكريم.
- الصبر على تحمل الأذى والمشاق في سبيل نشر هذا الدين.
- الاعتقاد بأن ثمرة هذا الجهاد عائدة إلى نفس المؤمن ومنفعته في الدنيا والآخرة قبل أن تكون عائدة إلى الإسلام ذاته. وثمرة هذا الجهاد في الله تعالى نيل رضا الله سبحانه وتعالى والحصول على الهداية للسبل الربانية.

---

(1) التفسير الكبير المسمى بمفاتح الغيب لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي (83/25) طبعة دار الكتب العلمية بيروت (1421هـ -2000م).

(2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي (326/4) تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، طبعة دار الكتب العلمية- طبعة أولى- سنة: (1413هـ - 1993م).

2- آيات الجهاد في القرآن المدني:

إذا تأملنا الآيات المدنية التي ورد فيها ذكر الجهاد لوجدنا أنها الأكثر من حيث العدد، والأوسع والأشمل من حيث الدّلالة، فمن حيث العدد فقد ورد ذكر الجهاد ومشتقاته في القرآن الكريم إحدىٰ وأربعين مرة، واقتصر ذكره في المكي علىٰ أربع مرات، بينما كانت بقية الآيات من المدني.

ومن ناحية الدلالة اتسعت دائرة المفهوم لتشمل عناصر جديدة كالجهاد بالهجرة والجهاد بالمال والنفس وإعداد العدة في سبيل الله ونصرة المستضعفين... إضافة إلىٰ العناصر المكية السَّالفة الذِّكر، فالقرآنُ المدني لم يضيق دلالة الجهاد بل زادها ووسعها، ولم يقصر دلالته علىٰ مفهوم القتال في سبيل الله بل جعله أحد العناصر المكونة لمفهوم الجهاد، ولعل هذا ما يفسر انفراد آيات القتال وتمايزها عن آيات الجهاد في القرآن المدني؛ فهناك حديث عن الجهاد في القُرآن المدني يعدُّ امتدادًا وتأكيدًا لما ورد في القرآن المكيِّ، وهناك حديثٌ آخر عن تشريع القتال وتفصيل أحكامه ومقاصده وهو منفصل ومستقل عن حديث الجهاد.

إذا تأملنا في الآيات المدنية التالية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 218]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 142]، ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ

فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72]، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 16]، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿10﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: 10-11]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: 9].

من خلال النَّظر في التفاسير نستطيع أن نقول: يُراد بالجهادِ جهاد الكفار أو جهاد النَّفس والشَّيطان أو الهوىٰ أو العموم في ذلك، ومعنىٰ حقِّ الجهاد في آية الحج؛ أن لا يُفعل الجهاد إلَّا عبادةً لا رغبة في الدُّنيا من حيث الاسم أو الغنيمة، وأن يجاهدوا آخرًا كما جاهدوا أولًا، فقد كان جهادهم في الأول أقوىٰ وكانوا فيه أثبت- وهو مروي عن

عمر وابن عباس رضي الله عنهم- وقال الضَّحَّاك: ((اعملوا لله حق عمله، واستفرغُوا وسعكم في إحياء دين الله و إقامة حقوقه بالحرب باليد واللسان وجميع ما يمكن، وردُّوا أنفسكم عن الهوىٰ والميل)) وقال عبدالله بن المبارك حق جهاده: ((مجاهدة النفس والهوىٰ، والأولىٰ أن يُحمل ذلك علىٰ كل التكاليف؛ فكل ما أمر به ونهىٰ عنه فالمحافظة عليه جهاد)).

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال: إنَّ الرجل ليجاهد في الله حق جهاده وما ضرب بسيف.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل رضي الله عنه: ((وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ)) يعني العمل أن يجتهدوا فيه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّديِّ رضي الله عنه: ((وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ)) قال: يُطاع فلا يعصىٰ.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه: ((وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ)) قال: لا تخافُوا في الله لومة لائم.

فالجهادُ إذن بذلُ الوسع في حصُول الغرض المطلوب، فالجهادُ في الله حقَّ جهاده هو القيام التَّام بأمر الله، ودعوة الخلق إلىٰ سبيله بكل طريق موصل إلىٰ ذلك؛ من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ وغير ذلك[1].

آيات القتال في التشريع المدني:

ما ورد من آيات تتحدَّث عن القتال في القرآن المجيد تقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

1- آيات شُرِّعت الجهاد، وأذنت به بعد أن كان غير مأذون به وهي قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا

(1) التفسير الكبير (63/23)، التسهيل لعلوم التنزيل (47/3)، الدر المنثور (78/6)، تفسير ابن أبي حاتم (3034/9)، تفسير ابن كثير (237/3)، تفسير البغوي (300/3).

شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝39 الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 39، 40].

وهي أوّل آية نزلت للإذن بالقتال، وكما سيتضح أنَّ الإذن في هذه الآية هو للدّفاع، وليس للهجوم؛ لأنَّهُ مرتبط ببيان سبب الإذن بالقتال، وهو الظُّلم والإخراج من الدّيار لإيمانهم بالله سبحانه.

2- الآيات التي تُحرِّض على القتال والجهاد بالمال والنَّفس بعد توفر الموجبات والأسباب التي بيَّنتها الآيات الخاصة بهذا الشَّأن وهي نمطٌ من أنماط الإعلام الحربي، والحرب النفسية ضدَّ العدو، ومهمتها تعبوية، ورفع الروح المعنوية مثل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65]، ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41]، ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60].

3- الآيات التي حددت الأسباب الموجبة للقتال.. ومن خلال دراسة وتحليل مضامين هذه الآيات نفهم أنَّ الجهاد لم يشرَّع للانتقام والتسلط والعدوان والإرهاب، بل شُرع للدفاع ومواجهة الظُّلم والطَّاغُوت والعدوان ونصرة الحق والمستضعفين.. الخ.

لنقرأ تلك الآيات ولنستنتج منها:

أ - قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿190﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿191﴾ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿192﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 190- 193].

ب ـ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

ج ـ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 75].

د - ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: 90].

هـ - ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 8]، ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿12﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا

نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 13].

ط- ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

وإذًا فلنقرأ تلك المجموعة من النُّصوص القُرآنية المبيِّنة لموجبات القتال ومجوزاته لتتضح أسباب القتال والجهاد في الاسلام، ولنثبِّت فقه هذه الآيات، كما أوضحها المفسرون[1]:

يستفاد من النص (أ) المعاني الآتية:

1- إنَّ الأمر بالقتال هو أمرٌ دفاعيٌّ، وأن السَّبب هو الدِّفاع، فالقتالُ هو ضد من يقاتل الأمَّة الاسلامية، وهذا البيانُ واضحٌ من قوله تعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾... لذا فإنَّ المسالم الذي لا يقاتل المسلمين، ليس مقصودًا بالقتال.

2- لم تكتف الآية بأن توضِّح أنَّ القتال، هو دفاعٌ ضدَّ من يقاتل المسلمين، بل ونهىٰ عن الاعتداء علىٰ الآخرين، والبدء بالعدوان بالقتال.. وذلك واضح في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾.. بل يوضح القرآن أنَّ الله سبحانه لا يرضىٰ بالعدوان ولا يحب المعتدي.. وذلك يعني أنَّ العُدوان محرَّم في الاسلام، وإن كان باسم الجهاد، أو القتال في سبيل الله.

أنَّ النص (ب) يوضح أنَّ هناك أسبابًا أُخرىٰ للقتال هي:

1- أنَّ من واجب الأُمَّة الاسلامية أن تجاهد وتقاتل من أجل الحفاظ علىٰ الوطن، وإنَّ من حقِّ المسلم أن يُقاتل مَنْ يخرجه من وطنه، أو يستولي عليه.. ورد هذا الموجب أيضًا

---

(1) راجع موقع البلاغ بحث بعنوان الجهاد في القرآن الكريم:
http://www.balagh.com/mosoa/tafsir/m40n4iyu.htm .

في العهد المدني الذي كتبه الرسُول بين أهل المدينة، نقرأ هذا الموجب في النَّصِّ الآتي: ((وإنَّ أهل هذه الصحيفة بينهم النصر على مَن حاربهم، وعلى مَنْ دهم المدينة))[1].

2- يجب قتالُ مَن يفتن المسلمين عن دينهم، ويعمل على إخراجهم من دينهم بالاغراء والارهاب، أو غير ذلك.. جاء بيان هذا السَّبب في قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217].

3- يجب قتال من يخطط ويهيئ لقتال المسلمين للقضاء على الاسلام، وردِّ المسلمين عن دينهم، سواء باشر هذا القتال أو أعدَّ له... قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: 217].

والنصُّ (ج) يوجب القتال من أجل نصرة وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال الذين يشتد عليهم الظلم والطغيان ويستغيثون لطلب العون والإنقاذ والنصرة قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 75].

والنصُّ (د) يوضح، إنما يجب قتال من يقاتل المسلمين، أما من يعتزل القتال ويسالم ولا يقاتل، فليس للمسلمين حق مقاتلته.. قال تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: 90].

والنصُّ (هـ) يوضح مسألتين أساسيتين هما:

1- أنَّ السَّبب الموجب للقتال أنَّ المشركين، وهم الَّذين لا يؤمنون بتوحيد الله الحقِّ يتحالفون فيما بينهم ليقاتلوا المسلمين كافة؛ لذا يجب قتالهم كافة، وهذا القتال والجهاد هو أيضًا دفاعيٌّ؛ لأنَّ أولئك الأعداء قد اجتمعوا وتحالفوا على قتال المسلمين، قال تعالى:

(1) الأموال لابن زنجويه (2/117)، الأموال للقاسم بن سلام (1/479).

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36].

2- يؤكد القرآن أنَّ الله مع المتقين وهي دعوة للمسلمين أن يلتزموا جانب التقوىٰ، ومن التقوىٰ أن لا يكون القتال لمطامع دنيوية، كالتسلط والعدوان والانتقام، بل يكون القتال لأسبابه المشروعة، والتي مرَّ ذكرها آنفًا ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194].

كما يوضح ذلك قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

إنَّ هذه الآية تصفُ المؤمنين إذا تحقق لهم النَّصرُ والغلبة والسَّيادة في الأرض بأنهم مصلحون في الأرض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وهكذا تتضح أسباب القتال وموجباته في الإسلام، وهي أسباب وموجبات مشروعة يقرها العقل والمنطق والأخلاق.

ثانيًا: الجهاد في السُّنة النبوية:

بالإضافة إلىٰ القتال في سبيل الله تعالىٰ وردت معان كثيرة للجهاد في سبيل الله بمعناه العام، منها:

طاعة الوالدين وبرُّهما من الجهاد:

روىٰ البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدالله بن عمرو يقول جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال: ((أحيٌّ والداك)) قال: نعم. قال: ((ففيهما فجاهد))[1].

السَّعيُ علىٰ خدمة الأرملة والمسكين:

روىٰ البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة قال قال النَّبيُّ ﷺ: ((السَّاعي علىٰ الأرملة والمسكين

---

(1) تقدَّم تخريجُه.

كالمجاهد في سبيل الله أو القائم اللَّيل الصَّائم النَّهار))[1].

العمل والتَّكسب لإعفاف النفس والعيال وبرِّ الوالدين:

وروىٰ الطَّبرانيُّ في معاجمه الثلاثة بإسناد صحيح عن كعب بن عجرة، قال: مرَّ علىٰ النَّبيِّ ﷺ رجلٌ، فرأىٰ أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَدِهِ ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله: لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ((إن كان خَرَجَ يسعىٰ علىٰ ولدِهِ صِغارًا فهو في سَبيلِ الله، وإن كان خَرَجَ يسْعَىٰ علىٰ أبوين شَيخَينِ كبيرين فهو في سَبِيلِ الله، وإن كان يَسْعَىٰ علىٰ نفسِهِ يعفُّها فهو في سبيلِ الله، وإن كان خرج رِياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان))[2].

الحجُّ والعمرة من الجهاد:

روىٰ الطَّبرانيُّ عن عبدالملك بن عُمير، عن عثمان بن أبي سليمان، عن جدَّته أمِّ أبيه، قالت: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فقال: إنِّي أريد الجهاد في سبيل الله، فقال: ((ألا أدلُّك علىٰ جهادٍ لا شَوكَةَ فيه؟قلتُ: بلىٰ، قال: حجُّ البيت))[3].

وروىٰ الطَّبرانيُّ عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال جاء رجل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال إني جبان وإني ضعيف قال: ((هَلُمَّ إلىٰ جهادٍ لا شَوكة فيه؛ الحجُّ))[4].

مجاهدة النفس:

عن أبي ذرٍّ الغِفَاريِّ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((أفضلُ الجهادِ أنْ يجاهدَ الرَّجُلُ نفسَهُ وهوَاهُ)) رواه ابن النجار كما في الكنز (11262).

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب فضل النفقة علىٰ الأهل (5353) ومسلم في كتاب الزهد والرقاق، باب الإحسان علىٰ الأرملة والمساكين واليتم (2982).

(2) أخرجه الطَّبراني في معجمه الكبير (129/19)، والأوسط (56/7)، والصغير (148/2)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (325/4): ورجال الكبير رجال الصحيح، وكذا قال المنذري في الترغيب والترهيب (335/2).

(3) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (24/ 314).

(4) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (3/ 135).

أخرج ابن حبان في صحيحه والطبراني في الكبير عن فضالة بن عبيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((المجاهدُ من جاهد نفسه في الله))[1].

مفهوم الجهاد بين الغاية والوسيلة

تعريف الوسيلة لغة واصطلاحًا:

الوسيلة في اللغة: هي ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوُسُل والوسائل. وتأتي الوسيلة في اللغة لمعان عدة منها: المنـزلة عند الملك، والدرجة، والقرابة، والرغبة[2].

تعريف الوسائل في الاصطلاح الأصولي:

لعلماء الأصول اصطلاحات عدة في تعريف الوسائل أهمها:

1- الاصطلاح العام وهو: اعتبار الوسائل بمعنى: ((الطرق المفضية إلى المصالح والمفاسد))[3] وهذا التعريف يتفق مع المعنى اللغوي للوسائل، ومن ثم فالوسائل في اصطلاحها العام تمتد لتشمل:

أ - الطرق المؤدية إلى المصالح كالأسباب والشروط الشرعية.

ب - الطرق المؤدية إلى المفاسد كالحيل الباطلة والذرائع المؤدية إلى الحرام.

2- الاصطلاح الخاص للوسائل: ((وهي المسالك المفضية إلى تحقيق المصالح الشرعية)) ويعبر عنها ابنُ عاشور بقوله: ((هي الأحكام التي شُرعت لأن بها تحصيل أحكام أخرى، فهي غير مقصودة لذاتها بل لتحصيل غيرها على الوجه المطلوب الأكمل؛ إذ بدونها قد لا يحصل المقصد أو يحصل معرضًا للاختلال والانحلال))[4].

---

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه (5/11)، والطَّبرانيُّ في المعجم الكبير (309/18)..

(2) لسان العرب (724/11)، التعريفات للجرجاني (84)، الصحاح في اللغة (2/ 279)، كشف الأسرار (4/ 134).

(3) أنواع البروق في أنوار الفروق (32/2).

(4) مقاصد الشريعة الإسلامية (ص 148).

والملاحظ في هذا الاصطلاح الخاص للوسائل ما يلي:

أ - أن فيه تقييدًا للمعنىٰ اللغوي للوسيلة ليقصرها علىٰ الوسيلة المؤدية لمصلحة فقط.

ب - الوسيلة في اصطلاحها الخاص تقابل الذريعة بمعناها الخاص، والذي قال عنه ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: ((والذَّريعةُ ما كانت وسيلة وطريقًا إلىٰ الشَّيءِ لكن صارت في عُرفِ الفُقهاء عبارةً عما أفضت إلىٰ فعل محرم - ولو تجردت عن ذلك الإفضاء لم يكن فيها مفسدة - ولهذا قيل: الفعل الذي ظاهره أنه مباح وهو وسيلة إلىٰ فعل المحرم))[1].

والوسائل بمعناها الخاص تمتد لتشمل ((كُلَّ ما يتوقف عليه تحقيق المصالح الشرعية، من لوازم وشروط وأسباب وانتفاء موانع، ويدخل فيها أيضًا ما يفيد معنىٰ كصيغ العقود وألفاظ الواقفين في كونها وسائل إلىٰ تعرف مقاصدهم فيما عقدوه أو شرطوه))[2].

الجهاد والمقاصد:

الجهاد علىٰ أربعة أنواع:

1- جهاد بالقلب.

2- وجهاد باللسان.

3- وجهاد باليد.

4- وجهاد بالسيف.

فأما الأول: فجهاد النفس والشيطان عن المحرمات والشهوات، وذلك بمخالفتهما، والابتعاد بهما عن كل ما يغضب الله سبحانه وتعالىٰ.

وأما الثاني: فهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشروطه وهي ثلاثة:

1- أن يكون متحققًا من مذهب الفاعل، حيث لا إنكار في مسائل الاجتهاد.

---

(1) الفتاوىٰ الكبرىٰ (6/ 172).

(2) مقاصد الشريعة الإسلامية (ص148).

2- ألَّا يؤدي إلىٰ منكر أعظم من المنكر القائم.

3- أن يسلم فيه من الضَّرر البالغ في دينه ونفسه وأهله وعرضه.

وأما الثالث: فجهاد العامة بإقامة الحدود، وغيرها من أمور السياسة الشرعية، صيانة للحقوق وقيامًا بالواجبات، وهذا الجهاد ليس من اختصاص الأفراد و إنما هو من اختصاص ولاة الأمر.

وأما الرابع: فجهاد الكفار والمارقين عن دين الله سبحانه وتعالىٰ وهذا كسابقه.

فالنوعان الأخيران من اختصاص الإمام أو من ينوب عنه بإذنه في نصرة دين الله سبحانه، و إعلاء كلمة المسلمين، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73].

فإذا تحقق الجهاد بأنواعه المذكورة علىٰ وجهه المشروع بلا إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا انحراف، سُلِّمت مقاصدُهُ الشَّرعية علىٰ اختلاف أنواعها وعمَّت مراميها العبادَ والبلاد، فسادَ شرعُ الله سبحانه، وأمِنَ النَّاسُ علىٰ أنفسهم ودينهم ونسلهم وعقلهم وعرضهم ومالهم. وبالنسبة للجهاد بمعناه الأخص وهو القتال في سبيل الله لإعلاء كلمته فهو وسيلة شرعية لها مقصود شرعيٌّ؛ ولا شكَّ أنَّ كلمة ((الجهاد)) إذا أُطلقت إنما يُراد بها في وعينا الثقافيِّ -القديم والمعاصر- الجهادُ بمعناه الأخصِّ ألا وهو القتال في سبيل الله- بقسميه المشهورين قتال الدفع وقتال الطلب- وهذا المفهومُ الفقهيُّ قد سيطر علىٰ الأذهان وأخذ قدرًا وافرًا من الشُّهرة والذُّيوع بحيث إذا أُطلق انصرف الذِّهنُ إليه دون غيره من أنواع الجهاد، علىٰ الرغم من تسمية النَّبيِّ ﷺ له بالجهاد الأصغر، وتسميته تربيةَ النَّفسِ و إصلاحَها بالجهاد الأكبر.

ففي الحديث: ((رَجَعنا من الجِهادِ الأصْغَرِ إلىٰ الجِهادِ الأكبَرِ، ألا وهُو جِهَادُ النَّفسِ)) وللحديثِ رِواياتٌ أُخرىٰ[1]، وليس من الأحاديث الموضُوعة كما زعم البعض، فقد رواهُ

(1) أخرجه الخطيب البغدادي في ((تاريخ بغداد)) (15/ 685) حديث (7345) بلفظ: ((قَدِمتم خيرَ مقدَمٍ، وقَدِمتم مِن الجهاد الأصغر إلىٰ الجهاد الأكبر)). قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: ((مجاهدة العبدِ هواه)) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

البيهقيُّ[1] وخرَّجَهُ العِرَاقيُّ علىٰ ((الإحياء))[2].

فالجهاد ليس منحصرًا لغةً ولا شرعًا في القتال، بل إنَّ مجاهدة الكفَّار تقعُ باليد وبالمال وباللِّسان وبالقلب، وكلُّ أولئك سبيله الدَّعوة إلىٰ الله بالطَّريق الذي رسمه الله تعالىٰ في القرآن، واتَّبعه رسول الله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

علىٰ أننا نحفظ للقُدماء من علماء الأمة وسلفها الصالح، إدراكهم ووعيهم لضرورة الموازنة بين الجهاد بمعناه الأعمِّ والجهاد بمعناه الأخصِّ، وإنَّ الجهود الدعوية والإصلاحية والرُّوحية التي قام بها العلماء المجتهدين في الأمة وغيرهم من المصلحين، لتشهد علىٰ التوازن المعرفيِّ والثقافي الذي كان يتمتع به هؤلاء الأئمة الأعلام.

قال العلَّامة البهوتي: ((قال الشيخ: الأمر بالجهاد)) أعني: الجهاد المأمور به ((منه ما يكون بالقلب)) كالعزم عليه. ((والدعوة)) إلىٰ الإسلام وشرائعه ((والحجة)) أي: إقامتها علىٰ المبطل ((والبيان)) أي: بيان الحقِّ وإزالة الشبهة ((والرأي والتدبير)) فيما فيه نفع المسلمين ((والبدن)) أي: القتال بنفسه ((فيجب)) الجهاد ((بغاية ما يمكنه)) من هذه الأمور قلتُ: ومنه هجو الكفار كما كان حسَّانُ - رضي الله تعالىٰ عنه - يهجو أعداءَ النَّبيِّ ﷺ[3].

وقد نصَّ علماءُ الأصُول علىٰ أنَّ ((الوسائل تأخذُ أحكام المقاصد)) فالوسيلةُ إلىٰ أفضل المقاصد هي أفضلُ الوسائل، والوسيلةُ إلىٰ أرذل المقاصد هي أرذلُ الوسائل، ثم تترتب الوسائل بترتب المصالح والمفاسد، فمن وفقه الله للوقوف علىٰ ترتب المصالح عرف فاضلها

---

(1) أخرجه البيهقي في ((الزهد الكبير)) ص165 حديث (373) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما. وقال: ((هذا إسناد فيه ضعف)).

(2) ((تخريج أحاديث الإحياء)) للحافظ العراقي (2/ 709) حديث (2584) في كتاب ((شرح عجائب القلب)) وعزاه للبيهقي ونقل تضعيف البيهقي لسنده.

(3) كشاف القناع عن متن الإقناع تأليف منصور بن يونس بن إدريس البهوتي (36/3) ط: عالم الكتب 1403هـ، مطالب أولي النهىٰ شرح غاية المنتهىٰ، مصطفىٰ السيوطي الرحيباني (503/2)، ط: المكتب الإسلامي.

من مفضولها، ومقدمها من مؤخرها، وقد يختلف العلماءُ في بعض رُتب المصالح فيختلفون في تقديمها عند تعذُّرِ الجمع، وكذلك من وفقَّهُ الله لمعرفة رُتب المفاسد، فإنه يدرأ أعظمَها بأخفِّها عند تزاحمها، وقد يختلف العلماءُ في بعض رُتب المفاسد فيختلفون فيما يُدرأ منها عند تعذُّر دفع جميعها[1].

ولا يخلو كتاب من كتب الفقهاء من التنبيه على أنَّ الجهاد وسيلةٌ وليس غاية في نفسه.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: ((والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدِّين كلُّه لله. ا هـ))[2].

وقال الأتقانيُّ رحمه الله: تناسُبُ الحدودِ والسِّيَر من حيثُ إنَّ كُلًّا من الحدِّ والجهاد حسنٌ لمعنى في غيره لا عينه ثم المعنى المحسِّن يحصل فيهما جميعًا بفعل المأمُور به بدون الإتيان بفعل آخر مقصود، وذلك المعنى في الحدود الزجرُ عن المعاصي، وفي الجهاد قهرُ أعداء الله تعالى.اهـ[3].

فالجهاد وسيلةٌ لغايةٍ ساميةٍ وهي إعلاء كلمة الله، وإبلاغ الدعوة الإسلامية ونشر العدل والحرية والقيم السَّامية بين النَّاس؛ وإزالة الحواجز والقيود التي تعوق إيصال الحقِّ إلى المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها، وإزاحة الظُّلم الجاثم على صدور الضُّعفاء، والتخلية بين عباد الله وما يختارون لأنفسهم من عقائد وأديان، وقد جاءت كلمةُ القُرآن الكريم واضحةً محكمة جلية، لا لبس فيها ولا إشكال، فيها من البيان فوق كل بيان، ومن البرهان ما لا تختلف فيه الأذهان؛ فقال الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ

(1) قواعد الأحكام في مصالح الأنام لعز الدين ابن عبدالسلام الشافعي (54/1) ط: أم القرى للطباعة والنشر القاهرة، أنوار البروق في أنواع الفروق للقرافي (33/2)، ط: عالم الكتب.

(2) مجموع فتاوى أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (343/3)، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد ابن قاسم العاصمي النجدي ط: مكتبة ابن تيمية القاهرة.

(3) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق لفخر الدين عثمان الزيلعي(240/3)، ط: دار الكتاب الإسلامي.

تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

وارتباطُ القتال بالجهادِ كوسيلة ليس متعينًا في نفسه، بل المتعين كُلُّ ما يحققُ المقصودَ من إيصال الدَّعوة وتبليغها لكافة الناس، ولا نبالغُ إذْ نقُول قد يُصبح تركُ القتال نفسه -كوسيلة من وسائل الجهاد- مُحتما لتحقيق المقصود وهو إعلاءُ كلمة الله سبحانه وتعالىٰ؛ فعلاقةُ الوسائل بالمقاصد ليست علىٰ مستوىٰ الجانب الإيجابيِّ فقط، بلْ إنَّ الوسيلة ترتبطُ بالمقصِدِ سَلبًا وإيجابًا؛ بمعنىٰ أنَّهُ كُلما كانت الوسيلةُ محققةً للمقصِد أخذت حكم المقصِد الشَّرعيِّ من حيث الوجوبُ أو الندبُ... إلخ. وقد ينعكس الأمرُ فلا تحققُ الوسائلُ مقاصدَها التي شُرعت لأجلها، فالقاعدةُ— والحالة هذه- أنَّ الوسائل تسقط بسقوط المقاصد[1].

---

(1) قواعد الأحكام في مصالح الأنام لعز الدين بن عبدالسلام (125/1).

ومن الأمثلة التي ضربها العز ابن عبدالسلام علىٰ ذلك: إذا كان الصبي لا يصلحه إلا الضرب المبرح فهل يجوز ضربه تحصيلا لمصلحة تأديبه؟ قلنا: لا يجوز ذلك. بل يجوز أن يضربه ضربا غير مبرح؛ لأن الضرب الذي لا يبرح مفسدة، وإنما جاز لكونه وسيلة إلىٰ مصلحة التأديب، فإذا لم يحصل التأديب سقط الضرب الخفيف، كما يسقط الضرب الشديد؛ لأنَّ الوسائل تسقط بسقوط المقاصد. (121/1).

من فاتته الجُمُعات والجماعات أو الغزوات سقط عنه السعي إليها؛ لأنه استفاد الوجوب من وجوبهن. وكذلك تسقط وسائل المندوبات بسقوطهن لأنها استفادت الندب منهن؛ فمن نسي صلاةً من صلاتين مكتوبتين لزمه قضاؤهما؛ فيقضي إحداهما لأنها المفروضة، ويقضي الثانية؛ فإنها وسيلة إلىٰ تحصيل مصلحة المفروضة. (125/1) إن علم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن أمره ونهيه لا يجديان ولا يفيدان شيئا، أو غلب علىٰ ظنه، سقط الوجوب؛ لأنه وسيلة وبقي الاستحباب، والوسائل تسقط بسقوط المقاصد، وقد كان صلىٰ الله عليه وسلم يدخل إلىٰ المسجد الحرام وفيه الأنصاب والأوثان ولم يكن ينكر ذلك كلما رآه. وكذلك لم يكن كلما رأىٰ المشركين ينكر عليهم، وكذلك كان السلف لا ينكرون علىٰ الفسقة والظلمة فسوقهم وظلمهم وفجورهم كلما رأوهم مع علمهم أنه لا يجدي إنكارهم. (128/1)

وقد استثنىٰ في سقوط الوسائل بسقوط المقاصد أن الناسك الذي لا شعر علىٰ رأسه مأمور بإمرار الموسىٰ علىٰ رأسه مع أن إمرار الموسىٰ علىٰ رأسه وسيلة إلىٰ إزالة الشعر فيما ظهر لنا، فإن ثبت أن الإمرار مقصود في

وقد فَهِمَ العلماءُ أنَّ القتال غير متعين كوسيلة للجهاد، واعتبروا أنَّ مجردَ إرسال الجيوش إلىٰ الثُّغور دون قتالٍ أو دخول لأراضي غير المسلمين كافيًا في تحقيقِ المقصود من جهاد الطلب، وهو حمايةُ أراضي المسلمين من الغزو الخارجي، وهذا أشبهُ بالمناورات الحربية التي تقوم بها الجيوش الحربية المعاصرة؛ لإظهار القوة والرَّدع للغير؛ تفاديا للدخول في حرب مع الغير.

والذي يُفهم من هذا أنَّ المقصود من الجهاد – وهو حماية حوزة الإسلام - إذا حصل بوسيلة غير القتال فلا يصار إليه.

جاء في ((نهاية المحتاج)) للرملي: ويحصل- أي جهاد الطلب- إما بتشحين الثُّغور وهي محالُّ الخوف التي تلي بلادهم بمكافئين لهم لو قصدوها مع إحكام الحصُون والخنادق وتقليد ذلك لأمرائنا المؤتمنين المشهورين بالشَّجاعة والنصح للمسلمين، وإما بأن يدخل الإمام أو نائبه بشرطه دارهم بالجيوش لقتالهم؛ لأنَّ الثُّغور إذا شُحنت كما ذُكر، كان في ذلك إخمادٌ لشوكتهم، وإظهارٌ لقهرهم لعجزهم عن الظفر بشيء منا، وأقله مرة في كل سنة. اهـ[1].

وإذا قيل لنا: إنَّ قولكم بالتوسع في مفهوم الجهاد، يعني إلغاءَ القتال في أوقات معينة يعطل الجهاد، ويكرُّ عليه بالإلغاء وهذا لا يجوز لأنَّ استمرار الجهاد في سبيل الله ماضٍ إلىٰ يوم القيامة وهو من ثوابت الإسلام، والقاعدةُ الأصولية تقول: لا يجوز استنباط معنىٰ من النصِّ يكر عليه بالإلغاء والبطلان.

نفسه لا لكونه وسيلة كان هذا من قاعدة من أمر بأمرين فقدر علىٰ أحدهما وعجز عن الآخر. قواعد الأحكام في مصالح الأنام (125/1).

(1) نهاية المحتاج شرح المنهاج للرملي: محمد بن شهاب الدين أحمد بن أحمد حمزة الأنصاري شمس الدين (46/8) ط: دار الفكر دمشق 1404هـ، تحفة المحتاج شرح المنهاج للهيتمي: أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي شهاب الدين المكي الشافعي (213/9)، ط: دار الفكر 1408هـ.

قلنا: نحن لا نمنع أن يكون «القتال» داخلًا في مفهوم «الجهاد» إذا توافرت الدَّواعي والشروط الموجبة والملجئة له، وانتفت الموانع المناعة منه، لكنَّ الذي نمنعه أنَّ ينحصر مفهومُ الجهاد في «القتال» فقط، بحيثُ إذا تعطَّل القتال أو توقف أو انتفت الحاجة إليه، تعطل معه الجهادُ في سبيل الله الذي نعتقد أنه ماضٍ إلىٰ يوم القيامة، ونعتقدُ أيضًا أنَّ هذا من ثوابت الإسلام، وهو ذروة سنامه.

وبالنسبة للقاعدة الأصولية فهي تشهد لنا لا علينا؛ فالاتساعُ في دلالة مصطلح الجهاد وعدم قصره علىٰ المعنىٰ القتالي متناسق مع القاعدة، وهي للإمام الشَّافعيِّ رحمه الله ونصُّها: أنه يستنبط من النَّصِّ معنًىٰ يخصصه أو يعممه، ولا يستنبط منه معنىٰ يعود عليه بالبطلان[1].

وقال الزركشيُّ شرحًا لهذه القاعدة: اعلم أنه يجوز أن يستنبط من النَّصِّ معنىٰ يعممه قطعًا، كاستنباط ما يشوش الفكر من قوله عليه السَّلام: «لا يقضي القاضي وهو غضبان» وكاستنباط الاستنجاء بالجامد الطَّاهر القالع من الأمر بالأحجار وهو غالب الأقيسة. ولا يجوز أن يستنبط منه معنىٰ يعود عليه بالبطلان[2].

وهذا هو الذي نقولُ به بالنسبة لمصطلح «جهاد الطلب» أنْ يُعمم ليشمل كُلَّ أنواع الجهاد التي تحقق المقصود في واقعنا المعاصر. ◆

---

(1) الفتاوىٰ الفقهية الكبرىٰ للهيتمي: أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي شهاب الدين المكي الشافعي (1/210)، ط: دار الفكر 1403هـ.

(2) البحر المحيط للزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي بدر الدين المصري الشافعي (4/499)، ط: دار الكتبي القاهرة 1414هـ.

بعض الأحكام العامة المتعلقة بالجهاد عند فقهاء المذاهب الأربعة

أولًا: متى يكون الجهاد فرض كفاية:

يكونُ الجهادُ في سبيل الله فرضَ كفاية في حالة الغزو والطلب، وذلك لنشر دعوة التوحيد في ربوع المعمورة، وليس لأجل القتل وسفك الدماء وإهدار كرامة الشعوب واستبدال ظلم قديم بظلم جديد، فالقتال وسيلة لا غاية.

وإليك أقوال علماء المذاهب الإسلامية:-

الحنفية: قال منلا خسرو الحنفي: ((وجه كونه فرض كفاية أنه لم يشرع لعينه؛ لأنه قتل وإفساد في نفسه، بل شرع لإعلاء كلمة الله تعالى وإعزاز دينه ودفع الفساد عن العباد. اهـ))[1].

المالكية: قال الخرشي: ((وإن خاف محاربًا، يعني أنَّ الجهاد فرض كفاية، وإن حصل الخوف من المحاربين، وسواء كان المحارب في طريق المجاهدين أو على حدة، أي في جهة، فهو مبالغة في الحكم المذكور بعده، وهو قوله فرض كفاية مقدم عليه))[2].

الشَّافعية: قال الهيتميُّ: ((جزم الزَّركشيُّ بأن وجوبه وجوب الوسائل لا المقاصد؛ إذ المقصود منه الهداية، ومن ثم لو أمكنت بإقامة الدليل كانت أولى منه على أن هدايتهم لاسيما على العموم بمجرد إقامة الدليل نادرة جدًّا، بل محال عادة))[3].

لكن مع ذلك تبقى الدعوة هي الأصل والغاية، والقتال وسيلة لنشرها.

الحنابلة: قال البهوتي: ((الجهاد مصدر جاهد جهادًا ومجاهدة، من جهد أي بالغ في قتل عدوه، فهو لغة: بذل الطاقة والوسع. وشرعًا: قتال الكفار خاصة، وهو فرض

---

(1) درر الحكام (1/282).

(2) شرح مختصرخليل (3/109).

(3) تحفة المحتاج (9/211).

كفاية؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، مع قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية. فإذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، وإلا أثموا كلهم. وسُن جهاد بتأكد مع قيام من يكفىٰ به؛ للآيات والأخبار، ومعنىٰ الكفاية هنا: نهوض قوم يكفون في قتالهم، جندًا كانوا لهم دواوين أو أعدوا أنفسهم له تبرعًا، بحيث إذا قصدهم العدو حصلت المنعة بهم. ويكون بالثغور من يدفع العدو عن أهلها))[1].

وهناك من أهل العلم من قال باستحباب جهاد الطلب ولم يوجبه؛ ومن هؤلاء: سفيان الثوري وعطاء وعمرو بن دينار وابن شُبرمة[2]، وعبدالله بن الحسن[3]، وسحنون[4]، وابن عبدالبر[5].

والملاحظ في كل هذه النقول أن تشريع جهاد الطلب ليس مقصودًا لذاته، بل مقصود لغاية أخرىٰ وهي نشر دعوة الإسلام، وإيصال الهدىٰ لكافة الناس، فهذه وظيفة أساسية للأمة الوسط التي جعلها الله تعالىٰ خير أمة أخرجت للناس.

وعلىٰ الرغم من بروز الملمح القتالي كأحد معاني الجهاد لدىٰ فقهاء المذاهب علىٰ تنوعهم واختلاف مذاهبهم، إلا أن تأكيدهم دائمًا علىٰ أنَّ إيجابه من قبيل إيجاب الوسائل لا المقاصد يحدد الدائرة الضيقة التي شرع القتال من أجلها، ألا وهي أن تتعين تلك الوسيلة وحدها لإيصال دعوة التوحيد إلىٰ الخلق، ولا يكون هذا واقعًا إلا في حالة وجود طغام جبابرة من المشركين يمنعون أي دعوة أو قبس من هداية يصل إلىٰ عقول الناس أو قلوبهم؛ إذ من الخطر المحدق علىٰ هذه الفئة المتجبرة أن تهتدي الشعوب إلىٰ دين حق ينادي بالمساواة بين الجميع حكامًا ومحكومين، وينهي كل أشكال العبادة

---

(1) شرح منتهىٰ الإرادات (617/1).
(2) أحكام القرآن للجصاص (311/4).
(3) بداية ابن رشد (305/1).
(4) قوانين ابن جُزي (163).
(5) حاشية الدسوقي (173/2).

والوثنية والخضوع لغير الله الواحد الأحد، ويخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة.

وثمة ملاحظة أخرىٰ علىٰ بروز الجانب القتالي في جهاد الطلب عند الفقهاء القدامىٰ، وهي أن البيئة والعصر الذي نشأت فيه هذه الأقوال، أدىٰ إلىٰ شيوع هذه الثقافة، وأصبح من المستحيل أو النادر في تلك الأعصار أن يتصور أن يدخل جماعة من الدعاة لنشر دعوة التوحيد داخل إمبراطورية مثل الفرس أو الروم قديمًا، تلك الحضارات التي قامت علىٰ استعباد الإنسان، وجعله وسيلة للوصول إلىٰ مطامح الأكاسرة ومطامع القياصرة- ثم يأمن هذا الداعي علىٰ نفسه أو دعوته وطينه. فإذا تغير هذا الواقع، فلا شك أنه يحتاج إلىٰ نظرة جديدة لا تخرج عن ثوابت الإسلام، ولا عن مواطن الإجماع بيد أنها تحتاج إلىٰ نظر أعمق إلىٰ مقاصد الشريعة الإسلامية في تشريع الجهاد بشكل عام، وتجاوز ما تجاوزه العصر مما غلب علىٰ آراء فقهائنا القدامىٰ جزاهم الله عن الإسلام كل خير.

هذا وقد اتفق الفقهاء علىٰ أن الجهاد يكون فرض عين في ثلاث حالات:

1- أن يلتحم الصفان:

فيتعين علىٰ من حضر الصف البقاء ولا يجوز لهم الفرار إلا لتحيز أو تحرُّف قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾... الآية [الأنفال: 15].

لكن إذا كان عدد الكفار أكثر من ضعفي عدد المسلمين جاز لهم الفرار قال تعالىٰ: ﴿الْآنَ خَفَّفَ الله عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾... الآية [الأنفال: 66].

2- عند الاستنفار:

بأن يستنفر الإمامُ النَّاسَ للجهاد قال تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالحيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحيَاةِ

الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38]. فيتعين على من استنفرهم الإمام أن يخرجوا للجهاد كما حصل ذلك للمسلمين في غزوة تبوك.

3- جهاد العدو المحتل:

بأن يَدهمَ العدو بلاد المسلمين فيتعين على أهل تلك البلاد أن يدفعوا العدو عنهم، فإن عجزوا أو أهملوا تعين على من يليهم من المسلمين نصرتهم، فإن عجزوا فمن يلي من يليهم حتى تعم الدائرة كل المسلمين، وقد تعين الجهاد في عهد رسول الله ﷺ على المسلمين في المدينة عندما دهمهم الأحزاب في غزوة الخندق.

وزاد الحنفية والشافعية- وهو قول في مذهب المالكية- حالة رابعة وهي: فك الأسير انظر للحنفية مثلا البحر الرائق لابن نجيم (78/5) وللمالكية كفاية الطالب لأبي الحسن المالكي (3/2) وللشافعية شرح البهجة لشيخ الإسلام الأنصاري (130/5). ◆

أهداف ومقاصد الجهاد في التشريع الإسلامي

تبين مما سبق أَنَّ الجهاد أوسعُ وأشملُ معنًى ودلالة من القتال، وأَنَّ الجهاد وإن كان يراد به أحيانا القتال في سبيل الله، إلا أنه ليس الوسيلة الوحيدة المتعينة لإعلاء كلمة الله تعالىٰ، وإذا نظرنا إلىٰ المراحل والأطوار التي مرَّ بها تشريع القتال في الإسلام لاتضح لنا أنَّ هذا التشريع جاء كحالة استثنائية وليس أصلًا أو قاعدة مستمرة تحكم علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الديانات والملل الأخرىٰ.

لقد بدأت آياتُ القتال تنزل علىٰ الرسول ﷺ بعد ثلاثةَ عشرَ عامًا من القهر والتعذيب وتتابع الهجرات الجماعية الكبيرة من المؤمنين إلىٰ الحبشة والمدينة، ولقد أنزلت آيات القتال في تدرج تشريعي يرتبط بالأحداث والظُّروف التي نزلت بشأنها؛ إذ نظر الوحي الشَّريف إلىٰ القتال باعتباره واقعا سلوكيًّا إنسانيًّا وظاهرة لا يمكن إنكارها أو التغاضي عنها او تغافلها، ولقد صرَّح العلامة ابن خَلدون بهذا المعنىٰ بقوله: إنَّ الحرب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ بدأها الله تعالىٰ، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من البعض، ويتعصب لكل منها أهل عصبيته، فإذا توافقت الطائفتان إحداها تطلب الانتقام والأخرىٰ تدافع، كانت الحروب، وهو أمر طبيعي في البشر لم تخل منه أمة ولا جيل. اهـ[1].

ولأنَّ تشريع القتال في الإسلام جاء علىٰ خلاف الأصل وهو السِّلم؛ فقد جاء مقيدًا بأهداف محددة، وهذه الأهدافُ هي الحاكمة لكل صور الحرب في الإسلام، فالجهادُ لا يكون وفق شرع الله إلا إذا أخلصت فيه النية لله سبحانه وتعالىٰ، وأريد به إعلاء كلمة الله، ونصرة المستضعفين والمظلومين، فإذا أريد به شيء من حظوظ الدنيا ليس في سبيل الله، وهذا مصداقٌ لقول النَّبيِّ ﷺ فيما رواه البخاريُّ عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه

(1) مقدمة ابن خلدون (ص235) للعلامة عبدالرحمن ابن خلدون — تحقيق: علي عبدالواحد وافي – ط: دار التراث – بيروت.

قال: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال يا رسول الله ما القتالُ في سبيل الله فإنَّ أحدنا يقاتل غضبًا ويقاتل حميَّةً فرفع إليه رأسه قال وما رفع إليه رأسه إلَّا أنَّه كان قائمًا فقال: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عزَّ وجلَّ))[1].

والخلاصة أَنَّ الإسلامَ لم يسع إلىٰ فرضِ عقيدته علىٰ الآخرين بقوة السِّلاحِ، وقد أباحَ القتالَ لضرورة تقدر بقدرها، وقد بينت الآياتُ القُرآنية الحالات التي يُصار فيها إلىٰ الحرب، وحددت متَىٰ تكون مشروعةً ومتىٰ تكون ممنوعة، وهذه الدَّواعي التي شُرع القتال لأجلها ترجع إلىٰ ضرورة حفظ الدين والنفس والوطن والمال والأمن، ومن خلال استعراض الآيات القُرآنية الَّتي تعالج أمر القتال يمكن أن تتضح لنا الأهداف والمقتضيات التي أُنيط بها تشريع القتال، وهي كالآتي:

أولًا: الحرب لدفع الظلم ورد العدوان:

إذا تأملنا قول الله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 39-40].

قال الفخرُ الرَّازي: أمَّا قوله: ﴿يُقَاتَلُون بأنَّهم ظُلموا﴾، فالمراد أنهم أُذنوا في القتال بسبب كونهم مظلومين، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، كان مشركو مكة يؤذونهم أذىً شديدًا، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه؛ فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بقتال حتىٰ هاجر، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، وهي أول آية أُذن فيها بالقتال بعد ما نُهيٰ عنه في نيف وسبعين آية، وقيل: نزلت في قوم خرجوا

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالمًا جالسًا (123) ومسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (1904).

مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن في مقاتلتهم. اهـ[1].

فالآياتُ واضحةُ الدِّلالةِ على أَنَّ القتالَ أُذِنَ به بعد أن كان ممنوعًا، والأصل في الأذن الإباحة وليس الوجوب هذا أولًا، وثانيا: أنَّ الإذن أُعطي لأناس ظُلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق، ليس هذا فحسب بل أُعلنت عليهم الحرب من قبل أعدائهم، فلم يكن هذا الإذن شاملًا للكافرين جميعًا، وإنما على هؤلاء الذين يقاتلونهم اعتداء عليهم.

فالإذن بالقتال منوط بالظلم، فإذا ما وقع ظلم او اعتداء على المسلمين شرع لهم رد هذا الظلم والعدوان ولو بالقتال.

يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

فبعد الإذن بالقتال جاءت الآية الكريمة السابقة تبيح القتال للمسلمين ليس على وجه عام، ولكنها خصصت بمقاتلة المعتدين الذين يقاتلون المسلمين؛ كما تقرر الآية الكريمة مبدأ تحريم القتال، إلا في حالة الدفاع عن النفس ضد الظلم والعدوان، وقررت أن تعدي حدود الدفاع الشرعي عدوان حرمه الله تعالى، فلا يجوز تعدي هذا الحد، ولا يجوز التمادي في القتال لمجرد الانتقام وإشباع الشهوة.

والذي يؤيد هذا المعنى أيضًا قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: 90].

فإباحةُ القتالِ من المسلمين متوقفةٌ على وجود القتال من غيرهم، وقتال من لم يبدأ بالقتال يعد منهيًّا عنه، بل هو من الظُّلم والعدوان كما تقرر الآيات، وفي هذا المعنى يقول الشيخ محمَّد أبو زهرة: إنَّ قتال النَّبيِّ ﷺ لم يكن إلا دفعًا للاعتداء، والاعتداء الذي حدث على عهده كان على صورتين: إحداهما أن يهاجم الأعداءُ النَّبيَّ ﷺ، فيردُّ

---

(1) التفسير الكبير للرازي: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (35/23) ط: دار الكتب العلمية بيروت 1421هـ.

كيدهم في نحورهم، والثَّانية أن يفتنوا المسلمين في دينهم، ولابدَّ أن يمنع النَّبيُّ هذا الاعتداء علىٰ حرية الفكر والعقيدة. اهـ[1].

ثانيا: القتال من أجل حرية المستضعفين:

هناك حالات يشرع فيها القتال لأجل نصرة فئة مستضعفة من الناس بغض النظر عن كونهم من المسلمين أو غيرهم، فرفع الظلم والعدوان يعد من المبادئ التي تتفق عليها الإنسانية جمعاء، وقد ناصر النَّبيُّ ﷺ خزاعة علىٰ قريش في هدنة الحديبية بعد أن استنصروا به، لما هادن قريشًا عام الحديبية دخل بنو خزاعة في عهده وبنو بكر في عهد قريش ثم عدا بنو بكر علىٰ خزاعة، فأعانتهم قريش بالكراع والسلاح، فجعل سيِّدُنا النَّبيُّ ﷺ ذلك نقضًا للعهد، فركب عمرو بن سالم إلىٰ سيِّدنا رسول الله ﷺ حتىٰ قدم المدينة علىٰ النَّبي ﷺ فأنشده:

اللهمَّ إنِّي نـاشـدٌ محـمَّدًا حِلفَ أبينا وأبيك الأَتْلدا
إنَّ قُريشًا أخلفُوكَ الموعِدَا ونـقضُوا ذمـامَكَ المؤكَّدَا
هُمْ بيَّتُونَا بالحطِيمِ هُـجَّدَا وقـتَـلُونا رُكـَّعًا وسُـجَّدَا

فقال رسول الله ﷺ: ((لا نُصرت إن لم أنصركم))[2].

يقول الله سبحانه وهو يحض المؤمنين علىٰ القتال لأجل حرية المستضعفين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 75].

---

(1) نظرية الحرب في الإسلام، للشيخ محمد أبو زهرة، (ص8، 9). ط: دار الفكر العربي القاهرة.

(2) القصة أخرجها البيهقي في سننه (9/ 233)، وابن أبي شيبة في المصنف (398/7)، والطبراني في المعجم الكبير (434/23)، وأخرجها الحافظ ابن عبدالبر في الاستيعاب (1175/3)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (162/6) إسناده حسن ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو وحديثه حسن، وقال الحافظ في الفتح (519/7) عن إسناد القصة إنه حسن،. اهـ، وقد أوردها من أصحاب السير الفاكهي في (أخبار مكة) (103/5)، وابن حجر في الإصابة (122/1).

ثالثًا: تشريع القتال لحفظ الأمن الداخلي للمجتمع المسلم:

قد تقوم فئة من المسلمين بالخروج على الحاكم المسلم بتأويل غير سائغ، فتقوم الحرب لإجبار الطائفة الباغية على الإذعان لمقتضيات الأمن الداخلي لمجتمع المسلم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9].

رابعًا: تشريع القتال لتأمين الدعوة الإسلامية وليس لفرض العقيدة:

الدعوة إلى الحق والخير من الأصول الهامة في الإسلام، وقد اقتلع الإسلام من قلوب المسلمين الحقد على أصحاب الأديان الأخرى، وأقر بوجود زمالة عالمية إنسانية تجمع بين أفراد النوع البشري، وإن اختلفت عقائدهم وأديانهم، وقد جاء في رسالة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، للأشتر النخعي حين ولاه على مصر: الناس عندك صنفان؛ إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق(1).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 105].

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

فالإسلامُ ليس دينًا منغلقًا ولا متقوقعًا على نفسه وأتباعه، لا تربطه بأصحاب الديانات الأخرى أي علاقة أو وشيجة، بل هو دينٌ منفتح على الجميع، والدعوةُ فيه

(1) نهج البلاغة، للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه (111).

أصلٌ أصيلٌ؛ فهو دين بلاغ وإرشاد وتواصل؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

فالإسلام ليس عنيفًا ولا متعطشًا للدماء، وليس من أهدافه أن يفرض نفسَه علىٰ النَّاسِ قهرًا حتىٰ يكون هو الديانة الوحيدة؛ فهذا مناقض لسنن الوجود كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 118، 119].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

لَقد كانت حريةُ العقيدةِ معلمًا أصيلًا من معالمِ الإسلام، قالَ تعالىٰ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

فالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ليست إلَّا بالحجة والبرهان، كما قال تعالىٰ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125].

وهنا لابد علينا من التفريق بين أمرين؛ انتشار الدعوة وامتداد الدولة، فعلىٰ الرغم من التلازم الواضح بين قيام الدولة الإسلامية واتساعها من جهة وبين انتشار الإسلام من جهة أُخرىٰ، إلا أنَّ قبول الإسلام بالنسبة لمعتنقيه كان بمعزل تام عن سلطان الدولة الإسلامية، التي كانت مهمتها رد العدوان عن المؤمنين بالدين الجديد.

وهذه الحقيقة قد فَطِنَ إليها المستشرقُ أرنولد حيث قال: من المؤكد أنَّ هذه الفتوح الهائلة التي وضعت أساس الإمبراطورية العربية لم تكن ثمرة حرب دينية قامت في سبيل نشر الإسلام، وإنما تلتها حركة ارتداد واسعة عن الديانة المسيحية، حتىٰ لقد ظن

دائمًا أنَّ هذا الارتداد كان الغرض الذي يهدف إليه العرب، ومن هنا أخذ المسيحيون ينظرون إلى السيف على أنه أداة الدعوة الإسلامية. اهـ[1].

وهذا المبدأ كان سائدًا منذ بداية العهد النبوي وحتى امتداد الفتوحات الإسلامية واتساعها، فالرسول ﷺ أرسى قواعد الدعوة بالحسنى واللين والموعظة الحسنة، قال أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام: على أنه من الخطأ أن نفترض أنَّ محمدًا قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه، أو أنَّه عندما سَيْطر على جيش كبير يأتمر بأمره انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين، فهذا سعد ابن أبي وقاص يعرض طائفة من الكتب التي بعث بها النَّبيُّ ﷺ من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم، من أعضاء القبائل العربية المختلفة، بالإضافة إلى الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام، وهناك أمثلة من البعوث الدينية التي أرسلها لتبليغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم، تلك الجهود التي يدل مجرد إخفاقهم في بعضها على أنَّ الجهود التي بُذلت كانت ذات صبغة تبشيرية خالصة، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة. اهـ.

وبالنسبة للفتوحات الإسلامية من بعد النَّبيِّ ﷺ، فالمسلمون احتذوا سيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام في نشر الدعوة، وعلى الرغم من عدم وجود رجال دينٍ بالمعنى المعروف في الديانات الأُخرى يختصُّون وحدهم بنشر الإسلام وأمور العقيدة، إلا أنَّ الإحساس بالمسئولية الدعوية كان عامًّا على مستوى جميع الأفراد، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].

فكان كل مسلم حاملًا لواء الدعوة إلى الله تعالى في مختلف البقاع من آسيا وإفريقيا

---

(1) آثار الحرب في الإسلام (ص71) للدكتور وهبة الزحيلي ط: دار الفكر دمشق.

وأوروبا، ومما ساعد علىٰ نجاح الدعوة أنَّ نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم السَّماحة وحرية العقيدة الدينية للجميع.

وبالنسبة للقُواد الفاتحين كان التسامح الذي أظهروه تجاه أهل الديانات الأخرىٰ عاملًا مهمًّا في انفتاح قلوب هؤلاء إلىٰ قبول الإسلام، ومن الشواهد علىٰ ذلك أنَّ محمد بن مسلم الثقفي فاتح السند وواليها إبان العصر المرواني، كان يحترم عقائد الهنود، ويقول ما البَد – صنم بوذا أو موضع عبادتهم – إلا ككنائس النصارىٰ وبيع اليهود وبيوت نار المجوس حتىٰ إنه حينما مات بكىٰ أهل الهند أنفسهم لاحترامه عقائدهم وعدالته[1].

وقد قامت الجهود السلمية بدور بارز في نشر الدعوة، فالتجار والفقهاء والحجاج نشطوا نشاطًا كبيرًا في نشر تعاليم الدعوة بعيدًا عن القهر والعنف السياسي، وهذا الذي حدا بجمع من المستشرقين إلىٰ النُّطق بالحقيقة التي تؤيدها وقائعُ التاريخ، حيث يقول أحدهم: ظهر أنَّ الفكرة التي شاعت بأنَّ السَّيف كان العامل في تحويل الناس إلىٰ الإسلام بعيدة عن التصديق، وأن السَّيف إذا كان يُمتشق أحيانًا لتأييد قضية الدين فإنَّ الدعوة والإقناع وليس القوة ولا العنف كانا هما الطَّابعين الرئيسين لحركة الدعوة هذه. اهـ[2].

تبين من المناقشة السابقة أنَّ سُلطان السَّيف لم يكن له أي سبيل لنشر الإسلام، لكن نستطيع القول بأنَّ السَّيفَ كان عاملًا في حماية هذه الدعوة وتأمين إيصالها لمن يريد الدخول فيها، فالأمة الإسلامية أمة تحمل رسالة ربها وتدعو الناس جميعًا إليها، فإذا تعرضت الدعوة لعرقلة سيرها بالاعتداء علىٰ دعاتها والمبشرين بها، فإن ذلك من العدوان

---

(1) آثار الحرب في الإسلام للدكتور وهبة الزحيلي (ص70) دار الفكر دمشق.

(2) الدعوة إلىٰ الإسلام لأرنولد (ص88-445)، نقلا عن آثار الحرب في الإسلام للدكتور وهبة الزحيلي ص70 دار الفكر دمشق.

الذي يجب دفعه ولو بالقتال إلىٰ أن تكون كلمة الله هي العليا، قال تعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 193].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 39].

فوظيفةُ السَّيف هنا مجردُ تأمين الدَّعوة وحرية العقيدة بالنِّسبة لجميع الناس حتىٰ يقبلوا علىٰ العقيدة التي تروق لهم، ويدخل في هذا تأمين حرية العبادة بالنسبة لغير المسلمين، وهذا النوع من المقاتلة لا يخالف القاعدة الشرعية التي تقرر أنَّ الأصل في القتال التحريم حتىٰ يقوم سببه، فهو نوع من أنواع الدفاع[1].

والذي نريد أن نوضحه هنا أنَّ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ إذا لم تعقها العوائق وتقف دونها الحدود والسدود –كما هو غالب الحال في واقعنا المعاصر- فوسائلُ نشرِ الإسلامِ متعددةٌ والقنواتُ المتاحة لإيصال دعوة التوحيد إلىٰ غير المسلمين أصبحت متاحة وفوق الحصر، ولا توجد موانع من إيصال هذه الدعوة إلَّا تقصيرُ أبنائها، ولا يوجد إرهاب أو عِقَاب لمن يدخل في الإسلام من أبناء الدول غير المسلمة، والَّذي ينبغي علينا فعلُهُ أن نستوعب ثقافات وحضارات هذه الأُمم، حتَّىٰ ننجح في التواصل مع عقول أبنائها ووجدانهم كما فعل الأسلاف الصَّالحين، فهل هناك داعٍ والحال كما ذكرنا بالقول ببقاء وجوب القتال لنشر الدعوة أو تأمين إيصالها لغير المسلمين؟ وهل نجحنا في استثمار الوسائل المتاحة بين أيدينا لإيصال الدعوة بالطرق المسموعة والمقروءة وعن طريق وسائل الاتصال الحديثة وباللغة التي يفهمها أهل تلك الشعوب، هل استنفذنا هذه الوسائل السهلة ووجدنا صدودًا وإعراضًا يسوغ لنا أن نقول بمشروعية قتال من لم يقاتلنا أو يعتدي علينا؟ ◆

---

(1) جرائم الحرب في الفقه الإسلامي والقانون الدولي للدكتور خالد رمزي البزايعة (ص60) ط: دار النفائس، القانون الدولي الإنساني في الإسلام للدكتور جعفر عبدالسلام (ص 182). ط: جامعة عين شمس.

التَّقسيم الفقهي للعالم
«دار الإسلام ودار الكفر»

يقسم جمهور الفقهاء الدنيا بشكل إجمالي إلىٰ دارين:

1- دار إسلام.

2- دار حرب.

ويعتبر الفقهاء أنَّ الحربَ لها تأثيرٌ في هذا التقسيم، حيث يتغير الوصف تبعًا لحالة الفتح من انتصار أو هزيمة بين المسلمين وغيرهم.

فالبنسبة لدار الإسلام هي: كلُّ بقعة تكون فيها أحكام الإسلام ظاهرة. وقال الشَّافعية: هي كُلُّ أرضٍ تظهرُ فيها أحكام الإسلام - ويُراد بظهور أحكام الإسلام: كُلُّ حكم من أحكامه غير نحو العبادات كتحريم الزنا والسرقة - أو يسكنها المسلمون وإن كان معهم فيها أهل ذمة، أو فتحها المسلمون، وأقروها بيد الكفار، أو كانوا يسكنونها، ثم أجلاهم الكفار عنها.

ويلتحق بدار الإسلام من حيث إجراء الأحكام المتعلقة بالديار:

دار العهد: وتسمىٰ دار الموادعة ودار الصلح، وهي: كل ناحية صالح المسلمون أهلها بترك القتال علىٰ أن تكون الأرض لأهلها.

دار البغي هي: ناحية من دار الإسلام تحيز إليها مجموعة من المسلمين لهم شوكة خرجت علىٰ طاعة الإمام بتأويل.

والمجمع عليه بين الفقهاء أنه إذا استولىٰ الكفَّارُ علىٰ بقعة من دار الإسلام صار الجهاد فرض عين علىٰ جميع أفراد الناحية الَّتي استولىٰ عليها الكفار، رجالًا ونساء، صغارا وكبارا، أصحاء ومرضىٰ، فإذا لم يستطع أهل الناحية دفع العدو عن دار الإسلام، صار الجهاد فرضَ عينٍ علىٰ من يليهم من أهل النواحي الأخرىٰ من دار الإسلام، وهكذا

حتىٰ يكون الجهاد فرض عين علىٰ جميع المسلمين، ولا يجوز تمكين غير المسلمين من دار الإسلام. ويأثم جميع المسلمين إذا تركوا غيرهم يستولي علىٰ شيء من دار الإسلام.

ويجب علىٰ أهل بلدان دار الإسلام وقراها من المسلمين إقامة شعائر الإسلام وإظهارها فيها؛ كالجمعة والجماعة، وصلاة العيدين، والأذان، وغير ذلك من شعائر الإسلام، فإن ترك أهل بلد أو قرية إقامة هذه الشَّعائر أو إظهارها قوتلوا وإن أقاموها سرًّا.

وبالنسبة لدار الحرب هي: كُلُّ بقعة تكون أحكام الكفر فيها ظاهرة، مع محاربة أهلها للمسلمين.

فهي الدَّار التي لا تطبق أحكام الإسلام الدينية والسياسية لوجودها خارج نطاق السيادة الإسلامية، مع محاربتها لدار الإسلام.

هذه بعض أحكام مما استقرَّ عليه الفقه الموروث، ولنا عليه بعض الملاحظات في هذه المفاهيم التي تجاوزها الزمان.

فقد استنبط الفقهاء هذا التقسيم مما ورد في بعض الآثار التي تفيد أنَّ مكة كانت دار حرب بعد الهجرة والمدينة صارت دار إسلام؛ فقد جاء في رسالة خالد بن الوليد في كتاب الخراج: ((وجعلت لهم –أي أهل الذمة – أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا إلىٰ غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس علىٰ المسلمين النفقة علىٰ عيالهم))[1].

وقال ابن حزم: كُلُّ موضعٍ سوىٰ مدينة رسول الله ﷺ، فقد كان ثغرًا ودار حرب ومغزىٰ جهاد[2].

---

(1) الخراج لأبي يوسف (ص144)، السياسة الشرعية للشيخ عبدالوهاب خلاف (ص97).

(2) المحلىٰ لابن حزم: علي بن أحمد بن سعد بن حزم الظاهري (353/7) ط: دار الآفاق بيروت.

والَّذي يظهر من تعريف الدَّارين أنَّ المعول عليه في التمييز هو وجود السلطة الحاكمة وسريان الأحكام، فإذا كانت إسلامية كانت دار إسلام وبالعكس.

قال محمد بن الحسن الشَّيباني: المعتبر في حكم الدَّار هو السُّلطان والمنعة في ظهور الحكم، فإنْ كان الحكم حكم الموادعين فبظهورهم على الأخرى كانت الدَّار دارَ موادعة، وإنْ كان الحكم حكم سُلطان آخر في الدَّار فليس لواحد من أهل الدارين حكم الموادعة.[1]

وبالنسبة لتغير وصف الدَّار تبعًا لحالة المدِّ والجزر ونشُوب الحروب بين المسلمين وغيرهم، فقد اعتبر جمهورُ الفقهاء أنَّ العبرة بتغير الأحكام، وسيادة حكم معين على الدَّار، وقال الإمام أبو حنيفة، والسَّيد أحمد بن يحيى المرتضى من الزَّيدية: إنَّ دار الإسلام لا تصير دار حرب إلا بشروط ثلاثة:

1- ظهور أحكام الكفر ونفاذه فيها.
2- أن تكون متاخمة لدار الكفر والحرب.
3- ألَّا يبقى فيها مسلمٌ ولا ذِمِّي آمنا بأمانِ المسلمين الأوَّل الَّذي كان يتمتعُ به، أي بالأمان الإسلاميِّ الأول الذي مكَّن المسلمين من الإقامة فيها.

والذي نودُّ التنبيه عليه ونحن بصدد قراءة هذه الأحكام أنَّ الأساس الذي بُنيت عليه أحكامُ «جهاد الطلب» بمعناه القتالي هو تقسيمُ المعمورة إلى دار كفر - تنقسم بدورها إلى دار حرب ودار عهد — ودار إسلام، وهذا التقسيم ينبغي إعادةُ النظر فيه وفقًا للتغيرات الدولية الحديثة.

وحينما نقرأُ كلمةَ «تقسيم» فإننا لا نلتفتُ إلى ما وراء هذه العملية من القواعد والآليات العقلية والمنطقية الدقيقة التي اتبعها العلماءُ لضمان صحة تقسيماتهم المختلفة للأحكام والشروط والأركان...إلخ، فالغايةُ من التقسيم -كالتعريف- أن يُتوصل به إلى

(1) شرح السير الكبير (4/8).

إدراك حقيقة الشَّيء؛ ومِنْ ثَمَّ فقد جعلوا للتقسيم جهاتٍ أو حيثياتٍ أو اعتبارات ينقسم المعنى بحسبها، وجعلوا لها شُروطًا إذا تخلفت كان التقسيمُ فاسدًا، وقد توقعنا الغفلة عن هذه المعاني في التمسك بظاهر التقسيم الفقهيِّ أو الأصُوليِّ لمعنًى ما تواضَع عليه الفقهاء قديمًا، دونما مراعاة لتغير الأُسس والجهات الواقعية والتاريخية التي بُني عليها التقسيم.

فمثلًا التقسيمُ الثُّلاثيُّ للعالم إلى «دار إسلامٍ» و «دار حربٍ» و «دار عهدٍ»، كان رهنًا بظُروف تاريخية معينة، فجاءَ هذا التقسيمُ كتوصيفٍ واقعيٍّ لهذه الحالة، وصارَ هذا التقسيمُ محلَّ إجماع من الفُقهاء بشكلٍ عامٍّ، وإن اختلفوا في مناط التَّسمية؛ أي ما هو الوصف الذي لو تحقق صحَّ إطلاقُ «دار الحرب» أو «دار الإسلام» على الدار صاحبة الوصف؟

فمنهم من اعتبر أنَّ سيادة الأحكام الشَّرعية أو عدم سيادتها هي مناط التسمية، ومنهم من اعتبر أنَّ مجردَ الأمن والأمان والتمكن من إقامة الشَّعائر أو عكسه هو المصحح لتلك التسمية، ومنهم من اعتبر أنَّ المتاخمة والمجاورة هي مناط الوصف، ومنهم من اعتبر بالغالب من حال أهل البلدة؛ فإن كان أكثر أهلها مسلمين صارت دار إسلام وبالعكس، لكنهم اتفقوا على هذه القسمة الثُّلاثية في الجملة.

وكان مِنْ أهم الأسباب الَّتي أدت إلى ظهور هذا التقسيم -إضافةً إلى أنه أمر فرضه الواقع العملي- عند الفقهاء، ما يمكن أن نجمله بالنقاط التالية:

1- تنظيم شئون المسلمين؛ نظرًا لحاجتهم حكامًا ومحكومين إلى توحيد جهودهم وتوجيه قواهم نحو عدو خارجي حفاظًا على كيان «الأمة الإسلامية» لاسيما في بدء تشكُّلها وتكونها.

2- بيان ما يترتب على هذا التقسيم من ثبوت الولاية أو عدمها في تطبيق الأحكام الشَّرعية ضمن الحدود الجغرافية لدار الإسلام، وغيرها من الدور المقابلة لها.

3- التأصيل الفقهيُّ لواقع العلاقات التي كانت تسود بين المسلمين وغيرهم كالرُّوم والفرس، وتبيين الأحكام الشَّرعية المنظمة لهذه العلاقات، وذلك كالأحكام المتعلقة بالسلم والحرب والمعاهدات، وغيرها من التفاصيل المعروفة في وقتنا الراهن بقانون العلاقات الدولية العامة.

4- ما يترتب علىٰ عدم إيمان جميع سكان المعمورة بتعاليم الشريعة الإسلامية وأحكامها من عدم تطبيق أحكامها عليهم؛ لعدم دخولهم تحت سلطة ونفوذ ((دار الإسلام))، وهذا ما يظهر واضحًا وجليًّا في الاجتهاد الحنفي علىٰ وجه الخصوص؛ وهو ما أدىٰ إلىٰ اعتبار كثير من أحكام الشريعة إقليمية من حيث التطبيق والنفاذ، وبما يتناسب طردًا وعكسًا مع امتداد ((دار الإسلام)) الإقليمي.

ولكن كل هذه المسوغات لا تقتضي حتمية المنظور الفقهي لجغرافيا العالم علىٰ النحو الذي رأوه -أعني الفقهاء- ولذا فهي لا تعدُو أن تكون اعترافًا واقعيًّا أفرزتهُ الحالةُ الطبيعية لوجود دارٍ إسلامية[1].

إنَّ هذا الاتفاق الفقهيَّ - علىٰ التقسيم الثُّلاثي- سعىٰ ببعض علمائنا وهو ابنُ تيمية رحمه الله تعالىٰ إلىٰ إحداث تقسيمٍ آخر لم يُسبق إليه، وهو ((الدَّار المركبة)) وذلك عندما سُئل عن بلدة ((ماردين)) هل هي ((دار حرب)) أو ((دار إسلام))، فأجاب رحمه الله: وأمَّا كونها ((دار حرب)) أو ((سلم)) فهي ((مركبة)) فيها المعنيان ليست بمنزلة ((دار السِّلم)) التي تجري عليها أحكام الإسلام؛ لكون جندها مسلمين ولا بمنزلة ((دار الحرب)) التي أهلها كفار؛

(1) يراجع في هذا مقال الأستاذ ياسر لطفي العلي بعنوان: ((جعرافيا العالم من منظور فقهي)) منشور بموقع إسلام أون لاين تحت هذا الرابط:

http://www.islamonline.net/arabic/contemporary/culture/ 02/09/2006b.shtml.

بل هي قسم ثالث يُعامل المسلم فيها بما يستحقه، ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه اهـ[1].

فالأساسُ الذي قام عليه تقسيمُ الأقاليم إلىٰ ((دار إسلام)) و((دار كفر أو حرب)) هو أساسٌ اجتهاديٌّ لا نصيٌّ، حيثُ لم يرد بهذا التقسيم قرآن كريم ولا حديث شريف إلَّا إشارات غير مباشرة وردت في بعض الأحاديث[2].

لقد أدرك علماؤنا أنَّ مسألة التَّقسيم هذه مسألة اصطلاحية لم يرد بها توقيف من الشَّارع الحكيم، ولهذا لم يتوقف ابنُ تيمية رحمه الله -علىٰ تحفظه في مجال المحدثات- في القول بالدَّار المركبة، حينما اختلفت جهةُ التقسيم التي اعتبرها أسلافُهُ، وإن لم يسبقه أحدٌ إليه.

والأمرُ الآخر الذي ينبغي التنبه له أنَّ الفُقهاء لم يعتبرُوا أنَّ وصف الدَّار بالإسلام أو العكس وصفًا ذاتيًّا لا ينفكُّ عنها بحال، بل هو وصفٌ طارئٌ خاضعٌ لظُروف وأحوال معينة، والذي ترتب علىٰ ذلك عند كثير من الفقهاء أنَّ دار الكفر قد تنقلب دار إسلام وبالعكس.

ونحن لا نبحثُ هنا في الترجيح بين الاعتبارات أو الحيثيات المختلفة التي نظر إليها العلماء لكي نرجح حيثيةً علىٰ أُخرىٰ، بل نقول: إنَّ هذه الاعتباراتِ نفسَها يمكنُ تجاوزها بل واطِّراحُها- بحسب الواقع- كما يمكننا أيضًا النظرُ إلىٰ اعتبارات وحيثيات أُخرىٰ قد توصلنا إلىٰ نتائج تناسبُ الأعراف الدولية الجديدة.

إنَّ مِنْ شُروط صحة التقسيم - كما نصَّ عليها العلماء - أن يوجد التقابل والتوازي بين أفراد المقسِم الواحد، فينتجُ ما يُسمَّىٰ بالقسمة الصحيحة الحاصرة، التي لا تُحدث خللًا

(1) مجموع الفتاوىٰ (24/28) لأبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. مصدر سابق.

(2) أحكام المال الحرام (195) للدكتور عباس أحمد الباز رسالة دكتوارة بإشراف الدكتور عمر سليمان الأشقر ط: دار النفائس الأردن 1999م.

ولا تداخلًا ولا تنافرًا ولا إرباكًا[1].

ولا شكَّ أنَّ بقاء القولِ بتقسيم المعمورة إلىٰ ((دار إسلام)) و ((دار كفر))، قد أحدث إرباكًا وخللا كبيرًا علىٰ الصَّعيدين الدَّاخليِّ والخارجيِّ.

واستحضارُ هذا الأمر يدعُ المجال واسعًا للاجتهاد الفرديِّ والجماعيِّ لإعادة الاهتمام بدراسة التقسيم الإسلاميِّ للأرض بما ينسجم والمعطيات الدولية المعاصرة، ليس بالضَّرورة من خلال طرح بديلٍ أو تقسيمٍ آخر بقدر ما يكون أكثر ملاءمةً للواقع، ويكُون مدخلًا لإعادة بناء الرؤية الإسلاميةً للعالم وتقسيماته، والتي يمكن أن يتبلور هو الآخر من خلال مقارَبات ومراجعات تتكامل بصورة تراكمية بناءَة. ◆

(1) راجع البحر المحيط للزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي بدر الدين المصري الشافعي)، ط: دار الكتبي القاهرة 1414هـ. (1/153). حاشية العطار علىٰ جمع الجوامع (1/93).

مناط تشريع الجهاد القتالي
في الإسلام شبهات وردود

من الأهمية بمكان أن نبحث عن التعليل الذي بُني عليه تشريعُ القتال في الإسلام؛ فلا شكَّ أنَّ إدراكَ العِلل التي بُنيت عليها الأحكام الشَّرعية هو الأصلُ في عملية القياس، وفي حالتنا هذه يساعدنا في إدخال بعض أنواع الجهاد المعاصر في مفهوم جهاد الطلب.

وإدراكُ مناط التعليل هو الذي يجيب على السُّؤال المشهور: هل الجهاد في الإسلام حربٌ دفاعية أو قد يكون حربًا هجومية أيضا؟

وقد اختلفَ العلماءُ في تحديد مناط الجهاد القتاليِّ، هل هو الكفر أو درء الحرابة المتوقعة من غير المسلمين على المسلمين؟

ذهب جمهورُ العلماء الحنفية والشَّافعية والمالكية والحنابلة، إلى أنَّ العِلَّةَ في جهاد الطَّلَبِ هي درءُ الحرابة، وذهب الشَّافعيُّ في الأظهر من قوليه إلى أنَّ العِلَّة هي وصف الكفر[1].

فعلى قول الجمهورِ تكونُ الحربُ في الإسلام دفاعيةً أو وقائيةً من خطر يغلب على الظَّنِّ تحققه ووقوعه، وأمَّا على رأي الشَّافعيِّ وابن حزم فإنَّ الحرب هجومية.

استدلَّ الجمهور بآيات من كتاب الله وأحاديث من السُّنة المشرفة:

أمّا القرآن فقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 193].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: فإن انتهوا؛ أي عن القتال. فالمقصود من الإذن في القتال منع

(1) الجهاد في الإسلام للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص94-112)، ط: دار الفكر سوريا، آثار الحرب في الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي (ص106). ط: دار الفكر سوريا.

الكفار عن المقاتلة فكان قوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوا﴾ محمولًا على ترك المقاتلة[1].

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 13].

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36].

ولا يخفى ما في استعمال القرآن الكريم لفظة ((القتال)) من دلالة، فالقتالُ: مصدرُ قاتل قِتَالًا ومقاتلةً، وهي لا تدلُّ على القتل؛ إذ لا يلزم من المقاتلة وجود القتل فقد تكون مقاتلة ولا يقع قتل[2].

والآياتُ الكريمة واضحةُ الدّلالة على أنَّ المقاتلة منوطةٌ بأمور من فعل غير المسلمين، مثل الاعتداء ونكث الأيمان والعهود والمواثيق، والهمِّ بإخراج الرسول والبدء بالمقاتلة أول الأمر، والمقاتلة كافة...إلخ. في حين أنه تعالى لم ينهنا عن مواصلة وبرٍّ من سالمنا ولم يعمل على إخراجنا من ديارنا وأرضنا، مع أنَّ وصف الكفر شاملٌ للجميع.

أما الأحاديث فمنها: ما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن حنظلة الكاتب قال: غزونا مع رسول الله ﷺ فمررنا على امرأةٍ مقتولةٍ قد اجتمع عليها النّاس فأفرجوا له فقال: ((ما كانت هذه تقاتل فيمن يقاتل)) ثُمَّ قال لرجلٍ انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك يقول: ((لا تقتلنَّ ذرِّيَّةً ولا عسيفًا))[3].

---

(1) تفسير الرازي (3/146).

(2) البحر المحيط لأبي حيان: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان (3/409)، ط: دار الكتب العلمية بيروت تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي معوض 1422هـ.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب الجهاد، باب الغارة والبيان وقتل النساء والصبيان (2842) وأحمد في سننه (4/178).

ما رواه أبو داود عن أنسٍ بن مالكٍ أنَّ رسُول الله ﷺ قال: ((انطلقوا باسم الله، وبالله وعلى ملَّة رسُولِ الله، ولا تقتلُوا شيخًا فانيًا ولا طفلًا ولا صغيرًا ولا امرأةً ولا تغلُّوا وضمُّوا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إنَّ الله يحبُّ المحسنين))[1].

ووجهُ الدّلالة من هذه الأحاديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى عن مُقاتلة غير المقاتلة مع وجُود وصفِ الكُفر فيهم، ولو كان الكفرُ هو العلَّةَ دون الاعتداء والحرابة، لما فرق فيه النَّبيُّ ﷺ بين المقاتلة وغيرهم، فربط بين وصف المقاتلة وبين الحكم، وقد قال الأصوليون: إن ترتب الحكم على وصف مشعر بعليَّة ذلك الوصف[2].

والذي يقوي هذا المعنى أنَّ المرأة أو الشَّيخ إذا تحولا من حال المسالمة إلى حال القتال، فإنَّ الحكم ينقلب عليهما ويجوز قتالهما؛ قال القرافيُّ إذا قاتلت المرأة من أهل الحرب فأخذت ووقعت في يد المسلمين فلا بأس بقتلِها[3].

وقد أورد القائلون بأنَّ مناط تشريع القتال في الإسلام هو وصف الكفر دون الحرابة عددًا من الشُّبهات، التي نُوجز الردَّ عليها فيما يأتي:

أولا من القرآن: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 5].

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29].

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين (2614).

(2) البحر المحيط للزركشي (297/4) لمحمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي بدر الدين المصري الشافعي ط: دار الكتبي القاهرة 1414هـ. أنوار البروق في أنواع الفروق لشهاب الدين القرافي (73/3)، وذكر مثله أيضًا المولوي شريف في شرح التلويح على التوضيح (274/1).

(3) الفروق للقرافي (330/1).

ووجهُ الدّلالة: أنَّ الآيتين قد صرَّحتَا أنَّ مناطَ قتال الكافرين هو الكفرُ لا الحرابة، ففي الآية الأولىٰ جعل تخلية السَّبيل والكفَّ عنهم منوطًا بالتوبة وإقامة الصَّلاة، وفي الآية الثَّانية جعل بذل الجزية غاية للكفِّ وإنهاء القتال، وعلىٰ ذلك فالآياتُ التي استدل بها الجمهور- والَّتي تدلُّ علىٰ أنَّ المقاتلة منوطة بالحرابة دون الكفر- منسوخاتٌ بهاتين الآيتين؛ لأنَّهما مِنْ أواخرِ ما نزل من القُرآن، وهو ما أُطلق عليه نسخ آيات العفو بآية السَّيف.

آيةُ السَّيفِ:

علىٰ الرغم من عدم ورُود لفظة السَّيف في القُرآن الكريم إلَّا أنَّ هذه الآية - وهي قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ.... ﴾ الآية [التوبة: 5].

سُمِّيت من قِبَلِ كثير من المفسرين بآية السَّيف، وقال أغلبُهم إنها ناسخةٌ لآياتِ العفوِ والصَّفحِ وعدمِ الإكراهِ في الدين.

قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ الآية: ((قال الضَّحَّاك بنُ مُزاحِمٍ: إنَّها نسخت كُلَّ عهدٍ بين النَّبيِّ ﷺ وبين أحدِ المُشركين وكُلَّ عقدٍ ومُدَّةٍ.

وقال العوفيُّ عن ابنِ عبَّاس في هذه الآيةِ: لم يبق لأحدٍ مِن المُشركين عهدٌ ولا ذِمَّةٌ؛ نزلت ((براءةٌ))[1].

الردُّ علىٰ موضوع آية السَّيف:

قال طائفةٌ من المفسرين إنَّ آيةَ السَّيفِ، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الحرُمُ فَاقْتُلُوا المشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [التوبة: 5].

---

(1) تفسير ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (4/112) ط: دار الفكر بيروت 1401هـ.

نسختْ آياتِ العفوِ والصَّفحِ الَّتي تبلغُ مائةً وأربعًا وعشرين آيةً من القُرآن الكريم.

وقبل أن نتكلم عن تحقيق صحة النَّسخ من عدمه، نودُّ الإشارة إلىٰ أنَّ العُلماء اختلفوا أصلًا في تحديد آية السَّيف الَّتي زُعم أنها نَسَخَتْ آياتِ العفو والصَّفح؛ فمِنْ قائلٍ إنَّها آيةُ التَّوبة السَّابقة، ومنهم من يقولُ بلْ هي قوله تعالىٰ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29].

ومنهم من قال إنها قوله تعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36].

إنَّ اللُّجوء للنَّسخ -في حالة التَّعارض- يكونُ بعد تعذُّر الجمع بين الآيات، وردِّ المتشابه إلىٰ المحكم علىٰ وجه يسمحُ بإعمالِ كافةِ الأدلَّةِ دون إهمال أحدها، كما هو مقررٌ في علم الأصُول. والقولُ بأنَّ آية السَّيف ناسخةٌ لغيرها ليس متفقًا عليه بين المفسرين، بل منهم من قال إنها منسوخةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: 4].

قال السُّدِّيُّ والضَّحَّاك: إنَّ آيةَ السَّيفِ منسوخةٌ بآية ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: 4]، وهي أشدُّ علىٰ المشركين من آية السَّيف.

ويقول المحقِّق أبو القاسم هبة الله بن سلامة: إنَّ آيةَ السَّيفِ صار آخرها ناسخًا لأوَّلها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 5][1].

---

(1) النَّاسخ والمنسوخ لابن سلامة: هبة الله بن سلامة بن نصر المقري (16/1)، ط المكتب الإسلامي- بيروت- 1401هـ - تحقيق: زهير الشاويش ومحمد كنعان، البرهان في علوم القرآن للزركشي: محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي (40/2) ط: دار المعرفة - بيروت - 1391هـ - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

وذهب الزَّركشيُّ في «البرهان»، وكذا السُّيوطيُّ في «الإتقان» إلىٰ أنَّ آيات الصَّبر والعفو وعدم الإكراه ليستْ منسوخةً بآية السَّيف، بل هي من قبيل المُنسأ، وهو الحُكم الذي يتوقف العملُ به لزوال علّته وينتقل به لحكم آخر.

قال الزَّركشيُّ: «وبهذا التَّحقيق تبين ضعفُ ما لهج به كثيرٌ من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف إنها منسوخةٌ بآية السَّيف، وليست كذلك بل هي من «المُنسأ» بمعنىٰ أنَّ كُلَّ أمرٍ وردَ يجبُ امتثالُهُ في وقتٍ ما لعلّةٍ توجبُ ذلك الحكم، ثم يَنتقل بانتقال تلك العِلَّة إلىٰ حُكْمٍ آخر وليس بنسخٍ، إنما النَّسخُ الإزالة حتَّىٰ لا يجوزُ امتثالُهُ أبدًا، وإلىٰ هذا أشارَ الإمام الشَّافعيُّ ﷺ في «الرسالة» إلىٰ النَّهي عن ادِّخار لحوم الأضاحي من أجل الدَّافة، ثم وردَ الإذنُ فيه فلم يجعله منسوخًا، بل من باب زوال الحكم لزوال علته... وليس حُكم المسايفة ناسخًا لحكم المسالمة بل كُلٌّ منهما يجب امتثاله»[1].

وسيأتي الكلام علىٰ امتناع نسخ الفضائل عما قريب.

فهذه الآيةُ الكريمة ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الحرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾... الآية- كما هو منطوقها- واردةٌ في مشركي العرب الَّذين لا عهد لـهم، حيث نبذت عهودهم، وضرب الله لهم موعد الأربعة الأشهر الحرم، وقد فرَّق القرآنُ في الـمعاملة بين مشركي العرب، والمشركين وأهل الكتاب من الأُمم الأُخرىٰ. والأمر بقتال مشركي العرب في هذه الآية وما قبلها مبنيٌّ علىٰ كونهم البادئين بقتال المسلمين والنَّاكثين لعهودهم، كما جاء في آيةٍ تاليةٍ في ذات السُّورة: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: 13].

فإطلاقُ بعض النَّاس القولَ في أنَّ آية السَّيف ناسخةٌ لغيرها من الآيات غيرُ صحيح، والصَّواب أنَّـهُ لا نسخ، وأنَّ كلَّ آيةٍ واردةٌ في مـوضعهـا، كما أنَّ الأصْلَ أنَّ

---

(1) البرهان للزركشي (42/2).

الإعمالَ مُقدَّمٌ علىٰ الإهمال.

بل إنَّ آية السَّيف جاء في آخرها ما يوقف حكم أوَّلها: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [التوبة: 5].

وفي صدد المشركين غير المحاربين أجاز القرآن التعاهد معهم، والوفاء بهذه المعاهدة في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 7].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34].

فكيف يُقالُ إذنْ: إنَّ آيةَ السَّيفِ ناسخةٌ لأمثالِ هذه الآياتِ التي نَظَّمت التَّعاهُدَ مع المُشركين وغيرهم من أهل الكتاب؟

وهذه الآيةُ الكريمةُ التي أسموها آية السَّيف، ليس فيها دلالة علىٰ أنَّ موجب القتال هو الكفر دون وصف زائد عليه.

والقول بأنَّ ذكر التوبة في عجز الآية مشعرٌ بأنَّ وصف الكفر هو مناط المقاتلة غير صحيح بدلالة السِّياق القُرآني الذي أعقب ذكر التوبة بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6].

ولو كان الكفرُ وحده عِلَّةَ المقاتلة لتناقض بذلك سياقُ القرآن الكريم، وهذا من المحال؛ فالمشركُ الذي استجار بنا أوجب الله إجارته حتىٰ يسمع كلام الله ثم أمرنا أن نُبلِّغَهُ مأمنه حتَّىٰ لو لم يؤمن ويتُبْ من كُفرِه، فكيف يصحُّ التعليلُ بوصفِ الكُفر مجردًا عن المحاربة، وشرطُ اعتبار الوصف عِلَّةً أن يكونَ مطردًا منعكسًا، وهذا الَّذي

عبَّر عنه الأصوليون بقولهم: إنَّ الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا؟[1].

وإذا ما تابعنا سِياق القُرآن الكريم، وقرأنا الآياتِ الَّتي نزلت بعد آية السَّيف، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: 12].

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 13].

فقد أوضحت هاتان الآيتان أنَّ حيثية المقاتلة هي بدؤهم بالغدرِ والعُدوان، ونكثهم الأيمان، ونقضهم العهود، وخرقهم المعاهدات الَّتي التزموا بها، وليس مجرد الكفر.

وفهمُ الآيات علىٰ هذا النَّحو يبدو متسقًا متناسقًا من النَّاحية البيانية والأصُولية، ويبدو متوافقًا مع نظرية المحكم والمتشابه.

ودعوىٰ النَّسخ مخالفةٌ للقواعد الأصُولية؛ فإذا ما قررنا أنَّ عدم الإكراه علىٰ الدخول في الدِّين، وعدم الاعتداء علىٰ من لم يعتدِ علينا، وأَخْذَ العفو والأمر بالعُرف، والمجادلةَ بالتي هي أحسن...إذا قررنا أنَّ هذا كُلَّه من الفضائل، فكيف يُقال إنها منسوخة؟ والفضائلُ لا يدخلها النَّسخ ولا التَّخصيص؛ لأنَّها من نعم الله تعالىٰ[2].

قال الشَّيخُ محمد الأمين الشِّنقيطيُّ: وقد بحثَ إمامُ المفسرين الطَّبريُّ هذه المسألة من نواحي النقل وأخيرًا ختم بحثه بقوله ما نصُّهُ: وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصَّواب قول من قال عنىٰ بذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرُّوهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم، إنَّ الله عزَّ وجلَّ عم بقوله ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا

---

(1) البحر المحيط للزركشي (8/215).

(2) المصدر السابق نفس الموضع.

إِلَيْهِمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته فلم يخصص به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال ذلك منسوخ؛ لأنَّ بِرَّ المؤمنين من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب غير محرم، ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام أو تقوية لهم بكراع أو سلاح. وقد بينا صحة ما قلنا في ذلك الخبر الذي ذكرناه عن الزُّبير رضي الله عنه في قصة أسماء وأمها[(1)].

ويؤيد هذا الفهم ويقويه، صنيعُ أصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ مِنْ ذَلكَ ما رَواهُ سعيدُ بن جُبير، قال: جاءَ رجلٌ إلى عليٍّ ابن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: إنْ أرادَ الرَّجل مِنَّا أن يأتيَ مُحمَّدًا بعد انقضاء الأربعة أشهر، فيسمع كلام الله أو يأتيه بحاجة قُتل؟! فقال عليٌّ رضي الله عنه: لا؛ إنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6][(2)].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت أُمِّي وهي مشركةٌ في عهد قريشٍ ومدَّتهم؛ إذ عاهدُوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم مع ابنها فاستفتيت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فقلت: إنَّ أُمِّي قدمت وهي راغبةٌ أفأصلها؟ قال: ((نعم صِلِي أُمَّك))[(3)].

ثانيًا: حديث «أُمرتُ أَنَ أُقاتل النَّاسَ»:

وقد استدلَّ هذا الفريقُ أيضًا بالحديث عن ابن عمر؛ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أمرتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يشهدُوا أن لا إله إلَّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رسُولُ الله ويقيمُوا الصَّلاة ويؤتُوا الزَّكاة فإذَا فعلُوا ذلك عصمُوا منِّي دماءهم وأموالهم إلَّا بحقِّ الإسْلامِ

---

(1) تفسير أضواء البيان للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشِّنقيطيِّ (94/8) ط: دار الفكر للطباعة والنشر بيروت 1415هـ.

(2) المحلى لابن حزم: علي بن أحمد بن سعد بن حزم الظاهري (101/1) ط: دار الآفاق بيروت.

(3) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين (2620) ومسلم في كتاب الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين (1003).

وحسابُهم عَلَىٰ الله))[1].

وهذا الحديثُ لا إشكال فيه، ولا يستفاد منه أبدًا جوازُ ابتداء المسلمين بقتال غيرهم، إذا فُهم علىٰ وجهه الصحيح في ضوء الدّلالات اللُّغوية، والكُليات الشَّرعية.

لقد قال النَّبيُّ ﷺ ((أُقاتل)) ولم يقُلْ ((أَقتُل))، وهناك فرق دِلاليٌّ كبير بين اللَّفظتين، فكلمةُ ((أُقاتِل)) تدلُّ علىٰ المفاعلة والمشاركة بين طرفين، يُسمَّىٰ البادئ منهما ((قاتِلًا))، ويُسمَّىٰ المدافعُ عن نفسه ((مقاتِلًا)) إذ لا تصحُّ المفاعلةُ والاشتراكُ إلَّا بين طرفين، أحدهما معتدٍ قاتل، والآخر مدافعٍ مقاتل.

وبناء علىٰ هذا الفهم قال جمهور أهل العِلْمِ إنَّ قتال تَاركِ الصَّلاةِ أو الزَّكاة ليس منُوطًا بمجردِ التَّرك بلْ إذا انضَافَ إلىٰ ذلك الحرابة.

قال الحافظ في الفتح: ((وعلىٰ هذا ففِي الِاستِدلال بِهذا الحدِيث علىٰ قتل تارِك الصَّلاة نظرٌ؛ لِلفرقِ بين صِيغة أُقاتِل وأقتُل، والله أعلم. وقد أطنب ابنُ دقِيق العِيد فِي شرح العُمدة فِي الإِنكار علىٰ من اِستدلَّ بِهذا الحدِيث علىٰ ذلِك وقال: لا يلزمُ مِن إِباحة المُقاتلة إِباحةُ القتل؛ لِأنَّ المُقاتلة مُفاعلة تستلزِمُ وُقُوعَ القِتال مِن الجانِبين، ولا كذلِك القتل. وحكىٰ البيهقِيُّ عن الشَّافِعِيِّ أنَّهُ قال: ليس القِتال مِن القتل بِسبِيلٍ؛ قد يحِلُّ قِتال الرَّجُل ولا يحِلُّ قتلُهُ))[2].

وإذا كان الاستدلالُ بهذا الحديثِ علىٰ قتل تارك الصَّلاةِ والزَّكاة باطلًا؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ عبَّر بالمقاتلة لا بالقتل، فإنَّهُ يكُون أكثرَ بُطلانًا وبُعدًا إذا استُدلَّ به علىٰ ابتداء غير المسلمين بالقتال.

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: 5] (25) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله (22) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) فتح الباري شرح صحيح البخاري (41/1) للعلامة: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي ط: دار المعرفة - بيروت — تحقيق: محب الدين الخطيب.

حديث بُعثت بالسَّيف:

لو كان المستدلُّ بهذا الحديث يستدلُّ به على فضل الجهاد في سبيل الله، أو إعداد العدة بتقوية جيوش المسلمين واتخاذهم الاستعداد الكامل للدفاع عن حوزة الإسلام وتحصين الثُّغُور وما شابه ذلك — لهان الخطب، ولكن أن يُستدلَّ به على وجُوب ابتداء غير المسلمين بالقِتَال، وغزوهم في ديارهم وإن لم يعتدوا علينا، وإن لم نرصد منهم شرًّا أو نتوقع منهم سوءًا أو مكيدة بالمسلمين، وجعل ذلك أصْلا عامًّا ومعلمًا من معالم الإسلام، فهذا لا سبيل إلى إقراره أو السُّكوت عليه؛ فالأصُول العامة في الإسلام لا تُبنى إلا على القطعيِّ الثبوت القطعيِّ الدِّلالة من الأدلة الشَّرعية، لا على الأدلة الظَّنِّية فضلًا عن شديدةِ الضَّعف.

بيد أننا لو تجاوزنا مسألة الإسنادِ وقلنا تنزلا بصحته، فلا دلالة فيه أصلًا على تضييق مفهوم الجهاد وحصره في القتال فقط؛ لأنه من قبيل الخبر لا الإنشاء، فليس فيه أمرٌ بشيءٍ أصلا، وهذا الخبر لا دلالة فيه على أنَّ المسلمين ينبغي أن يبادروا غيرهم بالقتال وأنْ يدهموهم في بلادهم، دون ذنبٍ أو خطر محقق.

فكلمةُ «السَّيف» مجردة، تشترك بين معنى «سيف الدفاع» و«سيف الهجوم» وإذا كان اللَّفظ من قبيل المشترك اللَّفظي فهو يحتملُ المعنيين على السَّواء فكيف يُصرف إلى أحدِ الاحتمالين بمجرد الظَّنِّ؟

ولا شكَّ أنَّ الاشتراك سببٌ يجعل اللَّفظ من قبيل المتشابه[1] -كما هو مقررٌ في علم الأصُول- الذي يردُّ فهم معناه إلى المحكمات من القُرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].

(1) الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الخلاف بين المسلمين، للبطليوسي (ص3)، ط: مكتبة المتنبي.

وقوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 20].

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56]. وإذا كان هذا الخبر ينطوي على دلالة أمر إنشائية خفية، فليست هذه الدّلالة هي جوازُ الاعتداء، بل هي وجوب الأخذ بالأسباب وإعداد العدة وتجهيز الجيوش والقوة الرادعة، التي تحمي بلاد الأمة الإسلامية من أي بغي أو عدوان، وهذا الحديث ينبغي أن يفهم في ضوء قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60].

إنَّ الدعوة إلى التواصل والتعايش وتبليغ الإسلام بكل وسيلة ممكنة، وعدم الاعتداء على أرواح النَّاسِ وأموالهم، ونشرِ قيمِ العَدْلِ والحرية والمساواة، من المحكمات الثَّابتة الَّتي لا تقبل النَّسخَ ولا التَّخصيص، وينبغي ردُّ الأمور المتشابهة إليها، حتى تتكامل النصوص الشرعية في الموضوع الواحد ولا تتناقض.

حديث لقد جئتكم بالذَّبح:

وقد استدلوا أيضًا بقطعة من الحديث الشريف الذي رواه أحمد وغيره، وفيه: ((اسْتَمِعوا يا مَعْشَرَ قُريشٍ، أما والَّذي نَفْسُ محمَّدٍ بيَدِه لقد جِئْتُكم بالذَّبحِ))[1].

(1) أخرجه أحمد في ((مسنده)) (2/ 218) حديث (7036)، وابن حبان في ((صحيحه)) (14/ 525- 526) حديث (6567)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وذكره الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (6/ 16) وقال: ((رواه أحمد، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع، وبقية رجاله رجال الصحيح)).

وقد ادُّعي في فهم هذا الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ رسم الطريقَ القويم الذي لا جِدال فيه ولا مُداهنةَ مع أئمة الكُفرِ وقادة الضَّلال، وهو في قلب مكة، وهو واضح الدّلالة في وجوب قتال الكافرين عمومًا.

وهذا الفهمُ خطأٌ ومجافٍ لقواعد الأصُول؛ لأنه إخراجٌ لصورة السَّبب عن عمُوم دلالة النصِّ، والقاعدةُ الأصولية تنصُّ على أنَّ: صورة السَّبب داخلةٌ قطعًا؛ لأنَّ العامَّ ورد لأجلها فلا يجوز إخراجُها من العامّ[1].

ولابدَّ من ذكر السِّياق كاملًا حتى يتبين لنا أنَّ المعنى الذي انتزعوه من قوله ﷺ: ((لقد جئتكم بالذَّبح)) غير مراد للنبي ﷺ، بل مجاف للمنهج العملي للنبي ﷺ وأصحابه الكرام.

وقصّة هذا القول- كما جاءت في ((السِّيرة النَّبوية)) لابن هشامٍ: قال ابن إسحاق: فحدَّثني يحيى بن عروة بن الزُّبير، عن أبيه عروة بن الزُّبير، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: ما أكثر ما رأيتُ قُريشًا أصابُوا من رسولِ الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عداوته. قال: حضرتُهم وقد اجتمعَ أشرافُهم يومًا في الحِجر، فذكرُوا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مِثلَ ما صبرنا عليه من أمر هذا الرَّجل قطُّ، سفَّه أحلامنا، وشتمَ آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسبَّ آلـهتنا، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيمٍ، أو كما قالوا. فبينما هم في ذلك إذ طلع رسُولُ الله ﷺ، فأقبل يمشي حتَّى استلم الرُّكن، ثمَّ مرَّ بهم طائفًا بالبيت، فلمَّا مرَّ بهم غمزُوه ببعض القول. قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ. قال: ثُمَّ مضى فلمَّا رجع مرَّ بهم الثَّانية غمزوه مثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثُمَّ مرَّ بهم الثَّالثة فغمزوه بمثلها فوقف، ثُمَّ قال: ((أتسمعُونَ يا مَعْشَرَ قُريشٍ؛ أمَا والَّذي نفسي بيده، لقد جئتُكُم بالذَّبح)).

---

(1) حاشية العطار على ((شرح المحلي)) على ((جمع الجوامع)) (39/2)، التقرير والتحبير لابن أمير الحاج (26/3).

ثُمَّ اسْتَطردتِ الرِّوايةُ إلىٰ ما كانَ بين الرَّسولِ ﷺ وهؤلاءِ الذِين غَمزُوه بالقوْلِ ثلاثَ مرَّاتٍ وهُو يطوفُ حوْلَ البَيْت في ذاتِ اليَوْم واليَوْم التَّالي[1].

فما معنىٰ هذه العبارة الأخيرة في قول الرَّسُول ﷺ: ((لقد جئتُكُم بالذَّبح))؟

إذا رجعنا إلىٰ اللُّغة نجدها تقول: ذبحتُ الحيوان ذبحًا: قطعتُ العروق المعروفة في موضع الذَّبح بالسِّكِّين، والذَّبح الهلاك، وهو مجازٌ، فإنَّهُ مِنْ أسرع أسبابه، وبه فُسِّر حديث ولاية القضاء ((فكأنَّما ذُبح بغير سكِّين))[2].

ويُطلقُ الذَّبح علىٰ التَّذكية، وفي الحديث: ((كلُّ شَيءٍ في البحر مذبُوحٌ))[3] أي ذكيٌّ لا يحتاج إلىٰ الذَّبح.

ويُستعار الذَّبح للإحلال، أي لجعل الشَّيء المحرَّم حلالًا، وفي هذا حديثُ أبي الدَّرداء ﷺ: ((ذبحَ الخمرَ الـمِلحُ والشَّمسُ))[4]، أي أنَّ وضع الملحِ في الخَمْرِ مع وضعها في الشَّمسِ يذبحُها؛ أي يحولها خلًّا فتصبح حلالًا[5].

---

(1) ((السيرة النبوية)) (1/ 309- 310) طبعة ثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1391هـ= 1971م.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية، باب في طلب القضاء (3571) والترمذي في كتاب أبواب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي (1325)، والحاكم في مستدركه (4/ 103) حديث (7018)، من حديث أبي هريرة ﷺ. وقال الترمذي: ((هذا حديث حسن غريب))، وقال الحاكم: ((هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)).

(3) علقه البخاري من قول شريح في كتاب ((الذبائح والصيد)) عقب باب ((قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾. وقال الحافظ ابن حجر في ((فتح الباري)) (9/ 616): ((وصله المصنف في التاريخ وابن منده في المعرفة من رواية ابن جريج عن عمرو بن دينار وأبي الزبير)).

(4) علقه البخاري من قول أبي الدرداء في كتاب ((الذبائح والصيد)) عقب باب ((قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾، بلفظ: ((ذبح الخمر النينان والشمس)). وقال الحافظ ابن حجر في ((فتح الباري)) (9/ 617): ((وقد وصله إبراهيم الحربي في غريب الحديث له من طريق أبي الزاهرية عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء)). والنينان: جمع نون، وهو الحوت. وكانت الخمر تؤخذ فيجعل فيها الملح والسمك وتوضع في الشمس فتتغير عن طعم الخمر.

(5) ((تاج العروس)) (باب الحاء فصل الذال مع الباء)، ولسان العرب مادة (ذبح).

فالذَّبحُ له معنىً حقيقيٌّ وهو المتبادِر إلىٰ الذِّهن، ومعانٍ مجازية بحسب السِّياقِ والقرائن، ولا يُصار إلىٰ المعنَىٰ المجازيِّ إلا عند وجُود قرينة تحيل الحمْلَ علىٰ المعنىٰ اللُّغويِّ الحقيقيِّ، فإذا وُجدت القرينةُ تعيَّن الصَّرفُ مِنْ الحقيقة إلىٰ المجاز.

فأيُّ معنًىٰ للَّفْظِ الذَّبح في هذا السِّياق نأخذُ به؟

لا يجوزُ أنْ يكُون المرادُ المعنَىٰ الأصليَّ للذِّبح، وهو إبانة أي فصلها العنق من الموضع المعروف؛ لأنَّ القُرآن يقرر: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].

﴿إنَّك لا تهدي من أحببت﴾ [القصص: 56].

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ المبِينُ﴾ [المائدة: 92].

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ المبِينُ﴾ [التغابن: 12].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ المبِينُ﴾ [النحل: 82].

وكذلك فإنَّ السُّنة العملية للرسُول ﷺ في مكة والمدينة تُنافِي ذلك؛ فهو ﷺ لمْ يَذبَحْ أحدًا لا في مَكَّة ولا في غيْرِها، ولمْ يُكْرِه أحدًا علىٰ اتِّباعِه، فلا يجوز إذن الحملُ علىٰ المعنىٰ المتبادِر؛ لأنَّهُ يترتبُ عليه تكذيب المعصُوم — عياذًا بالله - لُمعارضَتِه للقُرآنِ، ولصنيعه ﷺ.

فوجب المصيرُ إذنْ إلىٰ المعنىٰ المجازيِّ وهو هنا التَّهديدِ، فإنَّهم قد غَمزُوه وعابُوه وشَتَمُوه وهو يطوفُ بالبَيْت فهدَّدَهم بالهلاكِ بأنْ يدعُوَ الله عليْهم كما فعَلَ مَنْ سبقه من المرسلين، أوْ بالتذكية ممَّا هُم فيه مِن الشِّرْك والكُفر، يَعنِي أنَّه جاءَهم بالدِّين الصَّحيحِ الذي يَتطهَّرون باتِّباعِه، وهذا الـمَعْنىٰ الأخيرُ هو الـمُتَّفِقُ مع ما أُثِرَ عنه ﷺ أنَّه كانَ يدعُو لقوْمِه بالهِدايةِ إلىٰ الإسْلامِ[1].

---

(1) أخرج أبو نعيم في ((تاريخ أصبهان)) (2/ 130) حديث (1296) عن عبدالله بن مسعود ﵁ قال: رأيت النبي ﷺ يمسح الدم عن وجهه يحكي نبيًّا من الأنبياء، ويقول: ((اللهمَّ اهدِ قومي؛ فإنهم لا يعلمون)).

وبهذا البَيانِ- مع واقِع القُرآنِ والسُّنَّةِ، ومِن لُغةِ العرَب التي نزَلَ بها القُرآنُ- يَظهر بِوجْهٍ قاطعٍ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ لمْ يُهدِّد قوْمَه بالذَّبحِ الذي ذهب إليه هؤلاء؛ فهو لمْ يَفعلْ حتَّىٰ بعدَ أَنْ هاجَر وصارَتْ له عُدَّةٌ وعَددٌ مِن المؤمنينَ، بل إنَّ تَفسيرَ الذَّبح في هذا التَّهديدِ بالـمَعنىٰ الـمُتبادِر لهذا اللَّفْظ يَتعارَض مع ما عُرِفَ عن رَسولِ الله ﷺ مِن خُلُق وحِكْمة ورَحمة بالنَّاسِ، وقد أكَّد القُرآنُ كلَّ هذه الصِّفاتِ لرَسولِ الله ﷺ. قالَ تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 159].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4][1].

السِّلمُ والدعوة هما
مناط العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية[2]

من القضايا التي تباينت حولها الآراء قديمًا وحديثًا قضية علاقة المسلمين بغيرهم من أصحاب الدِّيانات الأُخرىٰ، فبينما يذهب فريق إلىٰ أن الأساس الشرعي في علاقة المسلمين بغيرهم هو حالة الحرب خاصة في حال اكتمال القوة والغلبة، يرىٰ فريق آخر أَنَّ الأصلَ في هذه العلاقةِ هو السلمُ والحربُ حالةٌ طارئةٌ.

والـذي نراه هـو أنَّ الـسِّلم التفاعليَّ الدَّعويَّ بين المسلمين وغيرهم هو الأصلُ في علاقة

=

وأخرج البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (3477) ومسلم في كتاب الجهاد والسير باب غزوة أُحد (1792) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلىٰ النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومُه فأدمَوه، وهو يمسح الدمَ عن وجهه، ويقول: ((اللهم اغفر لقومي؛ فإنَّهم لا يعلمون)).

(1) يراجع بتوسع فتاوىٰ المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، فتاوىٰ الشيخ جاد الحق علي جاد الحق.

(2) يراجع في هذا الموضوع: موسوعة العلاقات الدولية في الإسلام الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بإشراف الدكتورة نادية محمود مصطفىٰ.

المسلمين بغيرهم، أمَّا السِّلمُ السَّلبيُّ الانعزاليُّ فلا يصحُّ بحالٍ أن يكون أصلًا للعلاقة بين المسلمين وغيرهم، فالأمةُ الإسلامية أُمةٌ رسالية، تعتقد أنَّ الله ابتعثها لإيصالِ الرسالة الإسلامية إلىٰ الأُمم الأُخرىٰ، فالعلاقةُ بين المسلمين وغيرهم تنبني في أساسها ومصدرها علىٰ الدعوة، ومقتضىٰ ذلك أنَّ العلاقات بين المسلمين وغيرهم تنشأُ وَفقًا لمعادلة مفادها: أنَّ الدولةَ الإسلامية إذ تؤمن بعقيدة عالمية، يكون لزامًا عليها إيصالُ هذه الدَّعوةِ واضحةً نقيةً إلىٰ جميع غير المسلمين في الأرض، دُولا كانوا أم شعوبًا، وأنَّ موقف المخاطبَين بالدَّعوة منها يحدد أشكالَ هذه العلاقةَ وحركةَ تطورها.

ويترتبُ علىٰ ذلك أنَّ الصَّبرَ وتحمل الأذىٰ والصَّفح والإعراض والدَّعوة بالقلم واللِّسان وانتهاج الأساليب غير العلنية والمهادنة، كُلُّ هذه أدواتٌ أو وسائلُ للدَّعوة، يُستعانُ بأيٍّ منها ويُصار إليه حسبما تقتضيه الظُّروف.

واعتبارُ الدَّعوةِ مناطًا للعَلاقاتِ الخارجية للدَّولةِ الإسلامية، يجدُ له سندًا قويًّا وثابتًا في كافة المصادر الأصُولية للشريعة الإسلامية.

فآياتُ القرآن الكريم تؤكد فرضية الدعوة وتعدد وتنوع الوسائل والأدوات التي يُستعان بها في الإيصال والتبليغ، ومن هذه الآيات قوله تعالىٰ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِالله وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ المؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ المشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

ففرضية الدَّعوةِ علىٰ الرَّسُول ﷺ وعلىٰ أتباعه إلىٰ يوم الدين.

وكذلك ما يدلُّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 39-40].

من أنَّ إخراج المسلمين من ديارهم كان بسبب إيمانهم بربهم ومواجهتهم لدولة الباطل وقوىٰ الشِّرك من أجل حماية حرية الاعتقاد، وأنَّ ذلك ينهضُ سببًا كافيًا للإذن لهم بقتال المشركين.

وإلىٰ جانب ما تتضمنه الآية من بيان سبب الإذنِ بالقتال وأَنَّه في ذلك مرتبطٌ بالدَّعوةِ، فإنَّ فيها أيضًا دليلًا علىٰ ضَرورةِ أنْ تكون وسيلةُ الدَّعوة ملائمةً لواقع المسلمين، وما يتفق مع قدراتهم المالية والمعنوية.

فالإذنُ بالقتال في هذه الحالة التي تشيرُ إليه الآية قد جاء في الوقت الأليق به؛ لأنه وقتَ أنْ كان المسلمون بمكَّة كان المشركون أكثر عددًا، ولو أُمِر المسلمون بقتالهم لشقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب رسولَ الله ﷺ بيعة العقبة وكانوا نيِّفًا وثمانين، وأرادوا الإغارةَ علىٰ أهل «مِنىٰ» منعهم رسول الله ﷺ؛ لأنَّهُ لم يؤمر بهذا.

فلما بغىٰ المشركُون وأخرجُوا النَّبيَّ ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله وشرَّدوا أَصْحَابَه، حتىٰ استقرَّ المقامُ للدولةِ الإسلاميةِ في المدينة، أَذِنَ الله للمسلمين في جهاد الأعداء وقتالهم؛ فالمحلُّ أو السَّبب في كُلِّ ما لاقاه المسلمون من اضطهاد وتعذيب علىٰ أيدي المشركين، وما ترتب عليه من الإذن في القتال يكمن في أنَّ المسلمين وحَّدُوا ربَّهم وعبدُوهُ وحدَهُ لا شريك له، حسبما يؤكده القُرآنُ في قوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1].

وفضلًا عما سَبَق فإنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

هذه الآياتُ تدل علىٰ أنَّ الدين هدايةٌ اختيارية للناس تعرض مؤيدة بالآيات والبينات، وأنَّ الإكراه ممنوعٌ، وأنَّ العُمدة في دعوة الدين بيانُهُ؛ حتىٰ يتبين الرُّشد من الغَي والهُدىٰ من الضَّلال، وأنَّ النَّاسَ مُخيَّرون بعد ذلك في قبوله أو تركه.

وهذه الآياتُ تدلُّ أيضًا علىٰ أنَّ القتال إنما شُرع لتأمين الدعوة ولكفِّ أذىٰ الكافرين عن المؤمنين، فلا يزعزعوا الضَّعيف في إيمانه ولا يفتنوا القويَّ في دينه؛ فانتفاءُ الإكراهِ قاعدةٌ كُبرىٰ من قواعد الدِّينِ الإسلاميِّ، ورُكنٌ عظيمٌ من أركانه، والجهادُ في سبيل الله بمعناه الخاصِّ لا يعدُو أن يكون سياجًا للدَّعوة الإسلامية وحماية لها.

وإلىٰ جانبِ آياتِ القرآنِ فالأحاديثُ النبويةُ وكتبُ رسولِ الله ﷺ إلىٰ أُمراء وملوك البُلدان غير الإسلامية، كلُّ ذلك يؤكد علىٰ أنَّ الدَّعوة هي مناطُ العَلاقاتِ بين المسلمين وغيرهم، وأول ما يَرِدُ في هذا الصَّددِ قول النَّبيِّ ﷺ لعمِّهِ أبي طالبٍ وهو يعرض عليه ما طرحته قريش: ((والله لو وضعوا الشَّمس في يميني، والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر حتَّىٰ يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته))[1].

كما تدلُّ كتبُهُ ﷺ إلىٰ حُكَّام ومُلوك الدُّول المجاورة أنَّ الدَّعوة تُشكِّل التزامًا علىٰ عاتق المسلمين تجاه غيرهم.

فمن هذه الكتب؛ كتابُ النَّبيِّ ﷺ إلىٰ هرقل عظيم الروم: ((من محمد رسول الله إلىٰ صاحب الرُّوم إني أدعُوكَ إلىٰ الإسلام فإن أسلمتَ فَلَكَ ما لِلْمُسْلِمِينَ وعليك ما عليهم،

(1) دلائل النبوة للأصبهاني (197/1)، دلائل النبوة للبيهقي (187/2)، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله للكلاعي (217/1).

فإنْ لم تدخل في الإسلامِ فأعطِ الجزية... وإلا فلا تحُلْ بين الفَلَّاحِينَ وبين الإسْلَام أنْ يدخلُوا فيه أو يعطُوا الجزية))[1].

وبعثَ النَّبيُّ ﷺ عبدالله بن حُذافة بن قَيس بن عدي بن سعيد بن سهم إلىٰ كسرىٰ بن هرمز ملك فارس وكتب معه: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلىٰ كِسْرَىٰ عظيم فارس، سلامٌ علىٰ من اتبع الهدىٰ، وآمن بالله ورسوله، وشهد أنَّ لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وأدعُوك بدُعاء الله؛ فإنِّي أنا رسُولُ الله إلىٰ النَّاسِ كافة؛ لأُنذرَ من كان حيًّا ويحقَّ القولُ علىٰ الكافرين، فإن تُسلِمْ تَسْلَمْ، وإن أبيت فانَّ إثم المجوس عليك))[2].

ومن أبلغ الدَّلائلِ علىٰ كَون الدَّعوةِ مناطَ العَلاقة بين المسلمين وغيرهم، ما ثَبت في السُّنة المشرَّفة من أنه ﷺ كان إذا بعث بعثًا قال: ((تألفُوا النَّاس وتأنُّوا بهم ولا تُغيروا عليهم حتىٰ تدعُوهم؛ فما علىٰ الأرض من أهل بيت مَدَرٍ ولا وبر إلا، وإن تأتوني بهم مسلمين أحبُّ إليَّ من أن تقتلوا رجالهم وتأتوني بنسائهم))[3].

وتتبع كتب الحديث والسِّيرة يكشفُ لنا عن أنَّ الرسول ﷺ لم يتوقف عن إرسالِ الوفُود والدُّعاة إلىٰ الكفار والمشركين لتعليمهم القرآن وأحكام الإسلام، ولم يكن يثنيه عن ذلك قتلُ أعضاء هذه الوفود أو إنزالُ شَتَّىٰ صنوف العذاب بهم، وهذا يدلُّ علىٰ فرضية وسمو الالتزام الخاص بنشر الدعوة الإسلامية والمصابرة عليها، مهما لاقىٰ المسلمون في ذلك من مشاق، باعتبارها تدور وجودًا وعدمًا مع وجود غير المسلمين في الأرض. ◆

---

(1) مسند الحارث (662/2)، الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (30/1).

(2) البداية والنهاية (269/4).

(3) مسند الحارث بن أسامة (661/2).

شبهة انتشار الإسلام بالسَّيف والرَّد عليها[1]

الأديانُ لا تُفرض بالقوة، والعقائدُ لا تنتشرُ بالسَّيف، هذه مُسلَّمةٌ يُعتبر النّقاشُ فيها والتدليلُ عليها من غرائب الأمُور، بل من تحصيل الحاصل.

والأشدُّ غرابةً مِنْ هذا أن يتُهم الإسلامُ بأنَّ سبب انتشارِهِ وقوته وامتداده عبر الزمان والمكان إنما هو السَّيفُ، وبالسَّيف وحده يُعاد مجدُ الإسلام.

والذي يبعث على المرارة والأسف معًا أنَّ هذه الدَّعوى لم ينفرد بها بعض الحاقدين على الإسلام المتحاملين عليه المشوهين له، بل هي فكرةٌ التفَّ حولها بعضُ المسلمين المتحمسين الذين يجهلون حقيقة هذا الدِّين وصفاء جوهره وسمو غايته وعالمية رسالته.

وإذا ما وضعنا هذه القضية على محكِّ البحث العلميِّ والتاريخي، لوجدنا أنها مجرد شُبهة لا تستند إلى دليل ولا تقوم على ساق؛ فالإسلامُ - كدعوة سماوية خاتمة ورسالة إلهية أخيرة – قد احتوى على إعجاز في المبادئ والقيم والأخلاق والتعاليم، التي كانت تغزو القلوب والعقول قبل غزو البلدان والأقاليم.

وهذه الشَّهادة قد شهد بها كثيرٌ من الكُتَّاب الغربيين من غير المسلمين مثل:

الكاتب الغربي «توماس كارليل» حيث قال في كتابه «الأبطال وعبادة البطولة» ما ترجمته: إنَّ اتهامه ـ أي سيدنا محمد ﷺ ـ بالتَّعويل على السَّيف في حمل النَّاسِ على الاستجابة لدعوته سخفٌ غيرُ مفهوم؛ إذ ليس مما يجوزُ في الفَهْمِ أن يُشهر رجلٌ فَرْدٌ سيفَهُ ليقتل به النَّاس، أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدروا عليها[2].

(1) يراجع في هذا المعنى كتاب الشيخ العلامة محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله «الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه» طبعة دار الفكر سوريا. وكتاب شيخنا الدكتور علي جمعة محمد عضو هيئة كبار العلماء «الجهاد في الإسلام» طبعة نهضة مصر.

(2) نقلًا عن حقائق الإسلام وأباطيل خصومه لعباس محمود العقاد (ص166). ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وقال المؤرخ الفرنسيُّ غوستاف لوبون فيٰ كتابه ((حضارة العرب)): قد أثبت التاريخ أنَّ الأديان لا تُفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام إذن بالسَّيف، بل انتشر بالدَّعوة وحدها، وبالدَّعوة وحدها اعتنقته الشُّعوب الَّتي قهرت العرب مؤخرًا كالتُّرك والمغُول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند ـ الَّتي لم يكُن العَربُ فيها غير عابري سبيل ـ ما زاد عدد المسلمين إلىٰ خمسين مليون نفس فيها. ولم يكُن الإسلامُ أقلَّ انتِشَارًا في الصِّين الَّتي لم يَفتح العرب أيَّ جزء منها قط[1].

لقد مكثَ الرَّسُولُ ﷺ بمكَّةَ ثلاثةَ عشر عامًا من الدعوة إلىٰ الله والصَّبر علىٰ الأذىٰ، تخللت هذه السَّنوات عددٌ من الهجرات الجماعية الكبيرة إضافة إلىٰ الحصار والتجويع الذي ضُرب علىٰ المسلمين في شِعب أبي طالبٍ ثلاث سنوات كاملة، انتهت بالهجرة من مكة إلىٰ المدينة وتأسيس الدولة الإسلامية بشكل مستقل.

لقد أثار هذا الاستقرار حفيظة أهل قريش؛ إذ كيف تنام عيونهم عن تلك الزعامة الدينية المتنامية المتمثلة في شخص الرسول ﷺ، وقد كانت مصالحهم تقوم علىٰ أساس الزعامة الدينية في جزيرة العرب؟

لقد كان النَّبيُّ ﷺ مقصودًا بالقتل، وكانت دولته الوليدة مقصودةً بالإبادة والزوال، وإذا كان الإسلامُ دينًا قد بلغ الغاية في الدعوة إلىٰ السلم في قوله تعالىٰ: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 89].

إلا أنَّ هذا لم يمنع من تشريع الجهاد الذي يحمي الدين الذي أرسله الله رحمة وهداية للإنسانية جمعاء، ولذلك كان التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا

(1) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص 128، 129). ط: الهيئة المصرية العامة لكتاب.

دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 39-40].

كان التعبيرُ بالإذن الذي يدلُّ على المنع قبلَ نُزول هذه الآية دالًّا على طروء القتال في الإسلام، وأنه كان ممنوعًا طيلة العهد المكي وبعضًا من العهد المدنيِّ.

وأنقل هنا كلامًا في غاية النفاسة للأستاذ محمد فريد وجدي حيث قال:

«هذا ولم يغفل الإسلامُ حتَّى في هذا الموطن – موطن الدِّفاع عن النفس والدِّين – أن ينصح لأَتباعه بعدم العدوان؛ لأنَّ الموضوعَ حمايةُ حقٍّ لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصُّدور، وهذا من ميزات الحكومة النبوية؛ فإنَّ القائم عليها نبيٌّ يكون كالجرَّاحِ يضع مِشرطَهُ حيث يوجد الدَّاءُ لاستئصاله، مع عدم المساس بالأعضاء السَّليمة، ومقصِدُهُ استبقاءُ حياة المريض لا قتله، والعالم كُلُّه في نظر الحكومة النبوية شخصٌ مريضٌ تعملُ لاستدامة وجوده سليمًا قويًّا... ألم تر كيف تصدَّى خصُومُ الدِّين النَّصرانيِّ للمسيح، وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام، حتَّى إنهم استصدروا أمرًا بصلبه فنجاه الله منهم، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم، حتى مضت ثلاثةُ قُرون وهم مشرَّدون في الأرض لا تجمعهم جامعة، إلى أنْ حماهم مِنْ أعدائهم السَّيفُ على يد الإمبراطور قسطنطين الذي أعمل السَّيفَ في الوثنيين من أعدائهم.

أفيريدُ مثيرو هذه الشبهة – شبهة انتشار الإسلام بالسَّيف – أن يقوم دينٌ على غير السُّنن الطبيعية في عالمٍ مبني على سُنن التدافع والتنازع واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحقِّ ودكِّ صروح العدل؟

يقول المعترضون: وماذا أعددتم من حُجَّة حين تُجمع الأممُ على إبطال الحروب، وحسم منازعاتها عن طريق التحكيم، وهذا قرآنكم يدعوكم إلى الجهاد ويحثكم على الاستبسال فيه؟

نقول: أعددنا لهذا العهد قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61](1).

هذه حكمةٌ بالغةٌ من القرآن الكريم، بل معجزةٌ من معجزاته الخالدة، وهي أدلُّ دليل علىٰ أنه لم يشرع الحربُ لذاتها، ولكنْ لأنها من عوامل الاجتماع التي لابدَّ منها، ما دام الإنسانُ في عقليته ونفسيته المأثورتين عنه، غير أنه لم ينف أن يحدث تطورٌ عالميٌّ يُتفق فيه علىٰ إبطال الحرب، فصرَّحَ بهذا الحكم قبل حدوثه؛ ليكون حجّة علىٰ أهله من ناحية، وليدلَّ علىٰ أنه لا يريدُ الحرب لذاتها من ناحية أخرىٰ، ولو كان يريدها لذاتها؛ لما نوه لهذا الحكم.

إنَّ هذه القضية تحتاج إلىٰ بحث تحليلي واسع لغزوات سيِّدنا النَّبيِّ ﷺ، وهذا وإن كان يحتاج إلىٰ دراسة مستقلة، إلا أننا نستطيعُ أن نرصد من خلال النتائج النهائية لعدد القتلىٰ والجرحىٰ من بين المسلمين وغيرهم الطبيعة الرِّسَالية السلمية التي أُسست عليها غزواتُ النَّبيِّ ﷺ كما يوضحه الإحصاء الآتي:

الغزوة	شهداء المسلمين	قتلىٰ المشركين
بدر	14	70
أحد	70	22
الخندق	6	3
بني المصطلق	–	3
خيبر	19	–
بئر معونة	69	–
مؤتة	14	14

(1) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة للفكر الإسلامي محمد فريد وجدي (ص163، 164).

الغزوة	شهداء المسلمين	قتلى المشركين
حنين	4	71
الطائف	13	-
معارك أخرى	118	256
المجموع	327	439
المجموع الكلي من الجانبين	766	

إذا ما نظرنا إلى النتيجة النهائية (766) قتيلًا، أكثر من 40٪ منهم مسلمون، في عشرة أعوام تقريبًا، فهذه النسبة لا تعدُّ شيئًا يُذكر بالنسبة إلى ما عرفه العرب من حروب إبادية فيما عُرف بأيام العرب قبل الإسلام.

ولقد كانت الفتوحات الإسلامية - في مجملها - امتدادًا للنهج النبويِّ الكريم في الجهاد في سبيل الله، وبالنظرِ إلى مُعدلات انتشار الإسلام في الدول التي فتحها المسلمون، نرى أنَّ نسبة التنامي السُّكاني للسلمين في هذه البلدان، لا تؤيد مطلقًا الرأيَ القائل بأنَّ الإسلام انتشر بالسَّيف لا بالدعوة، حيثُ لا توجد طفراتُ نموٍّ سكانيٍّ في أي إقليم فتحه المسلمون، ولم يحدث تزايدٌ ملحوظٌ في انتشار الإسلام في هذه الأقاليم إلا بعد أربعة قرون من دخول الإسلام في هذه البلدان، وهذا يدلُّ على أنَّ المعتنقين للإسلام إنما اعتنقوه عن روية واقتناع لا عن قهر أو إرهاب.

لقد أعدَّ المستشرقُ الأمريكي «ريتشارد بوليت» الأستاذ بجامعة كولومبيا الأمريكية إحصاءً عن معدلات انتشار الإسلام في خمسة من أكبر الأقاليم التي احتضنت حضاراتٍ كبيرة قبل الإسلام وهي: فارس- العراق- سورية- مصر- الأندلس.

وهذا الإحصاء يؤكد النتائج التي ذكرناها سابقًا، وهو كالآتي[1]:

السنوات بالهجري	فارس	العراق	سورية	مصر	الأندلس
نسبة المسلمين في أول مائة عام	5٪	3٪	2٪	2٪	أقل من 1٪
السنوات التي صارت النسبة 25٪	185هـ	225هـ	275هـ	275هـ	295هـ
السنوات التي صارت النسبة فيها 50٪	235هـ	280هـ	330هـ	330هـ	355هـ
السنوات التي صارت النسبة 75٪	280هـ	320هـ	385هـ	385هـ	400هـ

وهذه المعدلات لانتشار الإسلام توضح لنا خصائص انتشاره في هذه البلدان وهي كالآتي:

- عدم إبادة الشعوب.
- المحافظة على ثروات هذه البلاد وتنميتها، وعدم احتكارها لصالح الدولة الإسلامية المتغلبة الفاتحة؛ حيث ظل إقليم الحجاز منبع الدعوة فقيرًا منذ بداية الفتوحات وحتى اكتشاف البترول.
- تأمين الناس على أرواحهم وممتلكاتهم حتى لو لم يدخلوا في الإسلام.
- التفاعل الحضاري والثقافي بين الحضارة الإسلامية، وحضارات البلاد المفتوحة.
- اندماج كثير من أبناء هذه البلدان في الحضارة الإسلامية، بحيث صار عددٌ لا يُحصى منهم من حماة هذا الدين ورجاله البارزين في شتى المجالات[2]. ◆

---

(1) نقلا عن كتاب الجهاد في الإسلام لشيخنا الدكتور علي جمعة، وقد نقل هذه الإحصائية عن كتاب: الفكر الإسلامي في تطوير مصادر المياه والطاقة (ص71) تأليف: د. سيد وقار حسيني، ترجمة د. سمية زكريا. ط: دار فصلت للدراسات والترجمة والنشر.

(2) انظر كتاب الجهاد في الإسلام لشيخنا الدكتور علي جمعة، (ص 25) وما بعدها ط: نهضة مصر.

الخاتمة

من خلال تتبع محاور هذه الدراسة نستطيع الوقوف علىٰ النتائج التالية:

- الجهادُ ذُروةُ سنام الإسلام ماضٍ إلىٰ يوم القيامة، وهو أعم وأرحب دلالة من القتال فالقتالُ حالة استثنائيةٌ توجدُ إذا تواجدت الظروف والشروط الموجبة لها، وترتفع إذا لم توجد الحاجة إليه. والجهادُ علىٰ أنواع متعددة جهاد النفس، وجهاد الشيطان، جهاد الكفار والمنافقين، جهاد أصحاب الظلم والعدوان، والبدع والمنكرات.

- اختزال الجهاد في مفهوم محدد ضيق أدىٰ إلىٰ خلل وارتباك في علاقة المسلمين بغيرهم، ولابدَّ من فهم القضية في ضوء الكتاب والسُّنة ومقتضيات تطور الخطاب الإسلامي المعاصر.

- لا يمكن القول بنسخ القتال أو إلغائه غاية القول أنه لا يقال بمشروعيته ما لم تتوفر المقتضيات والدواعي الشرعية له.

- تشريع القتال في الإسلام إنما جاء علىٰ خلاف الأصل وهو السلم، ولم يكن تشريعه لمجرد كفر المخالفين وإنما لدرء الحرابة الحاصلة أو المتوقعة منهم.

- ينبغي فهم الجهاد كوسيلة لغاية وليس مقصودًا في نفسه، وهذا محل إجماع لو التفتنا إليه في ضوء فقه المقاصد والوسائل لانحلت كثير من الإشكالات في هذا الأمر.

- من أهداف الجهاد في الماضي تأمين وصول أو إيصال الدعوة إلىٰ غير المسلمين، والذي نراه أنه لم يعد هناك مبرر مقبول لهذا القول في العصر الحديث لعدم إعاقة وصول الدعوة أو إخافة معتنقيها لمجرد الانتقال من دين إلىٰ دين.

- لا يصح القول ببقاء تقسيم الديار علىٰ وفق العرف الفقهي القديم؛ نظرًا لانتهاء الأساس الذي بُني عليه هذا التقسيم وينبغي أن ننظر إلىٰ العالم بناء علىٰ رؤية معاصرة جديدة تتفق وثوابتنا الإسلامية، وندعو المجامع الفقهية المتخصصة للنظر في هذا الموضوع.

الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم والدعوة وليس الحرب ولا القتال.

الإسلام دين الرحمة والسعادة للبشرية وهو لم بنتشر بالسيف، بل بالدعوة والبرهان والحكمة والموعظة الحسنة، وجميع معدلات انتشار الإسلام في الدول المفتوحة تدلل وتؤكد على عدم انتشار الإسلام بالسيف.

ينبغي علينا أن نعيد النظر في باب الجهاد برمته وتفاصيله الدقيقة وفق رؤية فقهية اجتهادية معاصرة تتناسب وواقعنا المعاصر.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆

الرسالة الثامنة والثلاثون
الحاكمية وعلاقتها بالتَّكفير عند الجماعات المُتطرِّفة

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: صحوة الأمة بين الحقيقة والخيال.

المحور الثاني: تمهيد في بيان مصطلح الحاكمية.

المحور الثالث: الملامح الفكرية لمصطلح الحاكميَّة في العصر الحديث.

المحور الرابع: نحو محاولة للفهم الصحيح لقضية تحكيم الشريعة. ◆



« وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ » - آية 10-11 من سورة الانفطار

الحاكمية وعلاقتها بالتَّكفير عند الجماعات المُتطرِّفة

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على سيدنا رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، أمَّا بعد:

فهذه رسالةٌ موجزةٌ نتناول فيها أحد ملامح ظاهرة التكفير لطوائف المسلمين ومجتمعاتهم من قبل الفئات الضَّالة؛ وذلك من خلال تعرضنا لمصطلح مبتدع وهو (مصطلح الحاكميَّة) أو ما يُطلقونَ عليه (توحيد الحاكمية) وسيكون الحديث في هذه الرسالة حول معاني ومفاهيم ومظاهر انتشار هذا المصطلح، وأثره في انتشار الفكر التكفيريِّ لدى بعض الطَّوائف، وبيان بطلان النَّتائج التي رتبوها على هذا المصطلح المبتدع، وذلك من خلال المحاور التَّالية:

المحور الأول: صحوة الأمة بين الحقيقة والخيال.

المحور الثاني: تمهيد في بيان مصطلح الحاكمية.

المحور الثالث: الملامح الفكرية لمصطلح الحاكميَّة في العصر الحديث.

المحور الرابع: نحو محاولة للفهم الصحيح لقضية تحكيم الشريعة. ◆

صحوة الأمة بين الحقيقة والخيال

مما لا شكَّ فيه أن أمَّة الإسلام قد تخلفت عن ركب التقدم في طريق التَّقنية الحديثة والتكنولوجيا وما شابه ذلك من أدوات القوة في عصرِنا الحديث، وحدثت الفجوة العلميَّة بيننا وبين الغربِ، وهذا التخلف ليس وليد اليوم أو وليد عقود أو سنوات معدودات؛ وإنَّما كانت بدايتُه منذ القرون الأخيرة بعد أن توافرت عوامله، فنحن أمام مشكلةٍ حقيقيَّةٍ قد تتعرض لها أي أمة، سواء أكانتْ هذه الأمة تؤمن بشريعة ربَّانية وتدين بدين، أو لا تؤمن بشريعة ولا تدين بدين.

وهذا الأمرُ حتم علينا كمسلمين أن ننظرَ إلىٰ مواطن الخلل الذي أصاب أمَّتنا في ديننا ودُنيانا ونعمل علىٰ إصلاحِها؛ فظهرتْ في القرن الماضي بعض الدَّعوات التي زعمت لنفسها أنها تعملُ من أجل إعادة أمجاد الأمَّةِ، وإعادة الحياة إلىٰ جسد الأمة المسلمة، والعمل علىٰ بثِّ روح النهضة فيها، هذه الدعواتُ منها من نسب نفسه لتياراتٍ ومدارس فلسفية أو اجتماعية أو سياسية، ومنها من نسب نفسه للدين ولمنهج أهل السنة والجماعة، ولو نظرنا إلىٰ كثيرٍ من الدعوات التي نسبت نفسَها للدين ولمنهج أهل السنة والجماعة؛ فسوف نجد أنها خالفت الهدي المحمديَّ في تصورها لكيفيَّة تحقيق نهضة الأمة المسلمة؛ من خلال تبنيها لمفاهيم وأهداف ووسائل خالفت فيها مقاصدَ الشريعة الإسلاميَّة، فعند إمعان النَّظر في مناهج وخطوات ونتائج هذه التيارات التي نسبت نفسها للدين، وقدمت الأطروحات الفكريَّة والعمليَّة لنهضة الأمة؛ فسنجد أن مجال السياسة والحكم والحكومات قد شغلت الحيِّز الأكبر في منهجهم ووسائلهم، ظهر ذلك في مصطلحاتهم وأدواتهم الفكريَّة ومن ذلك أطروحة الحاكميَّة.

وتحتَ دعوىٰ العمل علىٰ نهضةِ الأمة وإحداث الصَّحوة فيها تبنت هذه التيارات خطواتٍ فكريَّةً وعملية ليس في مجال تزكية النُّفوس والعمل علىٰ نشر الأخلاق والحرص علىٰ تعليم المسلمين علوم الدِّين والدنيا؛ وإنما في مجال إرساء الأفكار والمعاني الباطلة من

وقوع الشرك في الأمة وأنَّ المسلمين قد وقعوا في الجاهلية، وأعلنت هذه التيارات أنَّ الطريق إلىٰ إنقاذِ الأمة يتطلَّب أن ترجعَ الأمة إلىٰ التوحيد، وسيكون ذلك علىٰ يد هذه التَّيارات، وبمنهجها وبتصورها وبأدواتها الفكرية والعملية، يتم ذلك في تصورهم عن طريق البراءة من وُلاةِ الأمورِ وتكفير أنظمة الـحُكمِ، والخروج عليها والاصطدام بها، كطريق لإقامة دولة الإسلام ورجوع عزة المسلمين، وغلفت هذه التيارات والجماعات ذلك المنهج المنحرف ببعض القضايا التي تُثير الحماس لدي الشباب وتجعله يقبل ما يقدم له من الأفكار، مثل قضايا الجهاد في سبيل الله، والحديث عن عودة مجد الأمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكرِ، أو الدعوة لدين الله.

فألبست هذه التيارات الحق بالباطل، وخلطت المفاهيم، وقدمت المنهج والوسائل وقالت: أيها المسلمون إن أردتم نهضةً الأمة فعليكم بمنهجنا، ولن يتمَّ ذلك إلا بإصلاح التوحيد لديكم والذي أصابه الخلل، ولن يتمَّ ذلك إلا عن طريق تحقيقكم لتوحيد الحاكميَّة الذي هو أهم أنواع التوحيد، ولن يتحقَّقَ ذلك إلا بالبراءة من الحكام وولاة الأمور، والعمل علىٰ تغيير الواقع في بلادكم بالقوَّة حتىٰ لو سالتْ في سبيل ذلك الدماء، فغذَّت هذه التياراتُ عقولَ كثيرٍ من الشباب وأَقْنَعَتْهُمْ بوقوع الشرك في قطاعات كبيرة من الأمة المسلمة، وصورت لهم أنَّ إخراج الناس من هذا الشرك لابد أن يكون علىٰ أيديهم ووفقًا لمنهجهم، ووجدت هذه التيارات أنَّ أفضل الأبواب وأسرعها لنشر أفكارها وتفعيلها هي الكلام عن الحاكمية وتوحيد الحاكمية. وقالت: إنَّ العمل علىٰ إصلاح المجتمعات المسلمة يبدأ من خلال الإيمان بكفر الحكام والأنظمة بل وعامة مَن لا يرىٰ هذا الفهم، وأعلنتْ هذه التيارات أنَّ كل مَنْ لا يفقه هذا الفقه ولا يفهم هذا الفهم فهو من أهل الجاهليَّة، فاغتر كثير من الناس بهذا المنهج، خاصة الشباب الذي كان الأداة التي تمَّ من خلالها ترجمة مفردات هذا المنهج إلىٰ أعمال علىٰ أرض الواقع، تمثلت في استحلال الدماء والأموال والأعراض ونشر الفوضىٰ والفساد، وذلك تحت زعم إعادة

عقيدة التَّوحيد والتمكين للدين وفرض الحاكميَّة لله علىٰ الأرض.

ولا شك أن نهضة الأمة مطلب كل مسلم، ولكن طريق النهضة وتحقيق الفلاح في الدين والدنيا هو طريق النبي ﷺ وهديه، وليس بأفكار وأطروحات تخالف ذلك. وهناك لمحة لطيفة يلحظها كلُّ مسلم رزقه الله نورًا وبصيرةً يدرك بها الأمور ويعي ما يدور حوله؛ ألا وهي معرفة كم مرَّ من السنوات علىٰ ظهور هذه الأفكار وهذه الأطروحات والمناهج، فهل وجدنا لها إلا الثمار المرة، والفرقة بين الأمة، وبث النزاعات وإسالة الدِّماءِ، وانتقلنا بسببها من ضعف إلىٰ ضعف، فهل هذه ثمار منهج النبوة أم ثمار منهج الشياطين؟! فالذي يريد نهضة الأمة ولحوق المسلمين بركب الحضارة وتعويض ما فاتها من ذلك وتضييق الفجوة بينها وبين باقي الأمم؛ فعليه أن ينظر إلىٰ قضية الدين من خلال الفهم الصحيح له والتطبيق المنضبط لتعاليمه، وينظر إلىٰ القوانين والسُّنن الجارية حولنا في هذه الدنيا فيعمل علىٰ امتلاك الأدوات والأسباب التي تمكِّننا من تحقيق النهضة المنشودة، فعند ذلك تحقق الأمة التوازن الذي أمرتنا به الشَّريعة.

فعند النظر إلىٰ الدين الإسلامي نجد أن لا مجال فيه لابتداع مناهج جديدة في طرق الفهم والدعوة، أو اختراع أصولٍ جديدة في العقيدة أو الفقه أو الأخلاق؛ فقد تمَّ الدين وكمل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة:3]. وما عليك أيها المسلم إذا أردتَ حُسن التَّطبيق إلا أن تسيرَ وفقًا لهدي رسول الله ﷺ ووفقًا لمنهج سلفنا الصالح في فهم أصول الكتاب والسُّنة، ويتحقَّق ذلك بالسير وراء أهل العلم الذين حملوا أمانة الشريعة جيلًا بعد جيلٍ، في سلسلة ممتدة إلىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ الآن، فهذا هو الطريق والسَّبيل لنهضة الأمة علىٰ المستويات الروحية والمادية كافة.

أمَّا التصورات التي وضعتْها التيارات الفكرية المنحرفة عن تحقيق نهضة الأمة المسلمة، فقد انحرفتْ في الفهم والمنهج والأدوات والتطبيق؛ فكان من أدواتها غرسُ

فكرة وقوع المجتمعات المسلمة في الجاهلية، وأنَّ الأمَّة واقعة في الحكم بغير ما أنزل الله، وأن الأمة شعوبًا وحكوماتٍ واقعة في شرك الحاكميَّة فنقضت بذلك التوحيد، وعلىٰ ذلك يجب تغييرُ هذا الواقع بكافَّة السبل؛ فظهرت الأطروحات الفكريَّة التي وضعت التصورات والمناهج وطرق التطبيق العملي لهذا الفكر، وتمثَّلت تلك الأطروحات في كتابات ومصنفات دارت كلُّها حول محور التَّكفير ورمي المسلمين بالوقوع في الشرك، والحديث عن الجاهلية التي تحياها الأمة، من خلال التَّنظير لمصطلح توحيد الحاكمية، وفرض التَّصورات أنَّ الأمة قد وقعت في نواقض التوحيد تحت زعم أنَّها رفضت الشَّريعة.

وفي ظَلِّ عوامل كثيرة من الضَّعف المادي والفكري، نجح هذا التيار الضالُّ في إثبات وُجودِه علىٰ أرض الواقع في مناطقَ كثيرةٍ من العالم الإسلاميِّ، بل وأظهر نفسَه بعد ذلك أنه هو أهل السنة والجماعة، والممثل الصحيح للدين والشَّريعة، وأنَّه الطريق لعودة مجد المسلمين، وأصبح له صوت مسموع لدىٰ كثيرٍ من شباب الأمة، فقلب الحقائق والموازين، وأحدث الأقاويل، وباعد بين الأمة وبين الفهم الصحيح لدينها، وأعاد صياغة المسائل والقضايا العقدية والفقهيَّة والأخلاقية وفقًا لمفاهيمه، بل وتعدَّىٰ الأمر أنه قام برمي علماء الأمة وحملة الشريعة ومؤسساتها بأنهم أهل البدع وتبديل الدين، وكان نتاج ذلك كله ظهور الحصيلة الفكرية والعملية لهذا التيار، والتي أعلنت عن نفسها بقوة في السنوات الأخيرة من خلال التيارات التكفيرية المسلحة التي ظهرت في بلاد المسلمين، وقدمت نفسها علىٰ أنها حاملة راية الدين والشريعة، وأنها المفوِّضة لإقامة دولة الإسلام في الأرض، فانخدع كثيرٌ من شباب المسلمين بهذه الأباطيل، والذي كان المدخل لها هو الحديث عن توحيد الحاكميَّة، وسوف نتعرَّض فيما يلي لبعض مظاهر هذا الفكر، وذلك من خلال بيانِ ذلك المصطلح، وسنُوضِّح ذلك في المحور الثاني. ◆

تمهيد في بيان مصطلح الحاكمية

من الضروري عند مناقشة مصطلح الحاكمية أو توحيد الحاكمية، أن يكون في أذهانِنا ونحن نتكلَّم عنه أن وجود المصطلحات في الشريعة الإسلاميَّة والتراث منضبط بضوابط القرآن والسنة، واللغة العربية، والقواعد العقلية والتفكير المنطقي، فالمصطلح الشرعي يقوم ويعتمد علىٰ هذه الأركان، فعندما استقرأ علماءُ هذه الأمة نصوصَ الكِتابِ والسُّنَّة، وقاموا باستخراج المصطلحات أو استنباطها للدلالة علىٰ المعاني كان منهجهم في ذلك منضبطًا بفهمٍ كليٍّ للشريعةِ، ومنهج يعتمد علىٰ أدوات صحيحة في الفهم والاجتهاد والاستنباطِ، فخرجتِ المصطلحاتُ الشرعيَّةُ غايةً في الانضباط والشمولية في التعبير عن المعاني الصَّحيحة الواردة في الكتاب والسنة، سواء أكان ذلك في مجال العقيدة أم الفقه أم الأخلاق أم غير ذلك، فكان من تمام منة الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ هذه الأمة أن حَفِظَ لها دينَها وشريعتَها بالعلماءِ الذين تلقَّوا ميراث النبوة بعد رسول الله ﷺ، فلم ينحرفوا أو يحرفوا أو يبتدعوا مصطلحاتٍ لها من الدلالات الباطلة ما يُسبِّبُ حدوث الخلل في الفهم والتطبيق لقضيَّة الدين.

ثم ظهر عبر السنين والقرون في مقابل أهل العلم طوائف من الجماعات الضَّالة التي انحرفتْ عن المنهج الصحيح لفهم الكتاب والسنة، واستغنت بفهمها عن فهم أهل العلم وأئمة الشريعة، وكانت معدومة الأدوات اللَّازمة للتعامل مع نصوص الكتاب والسنة؛ فنتج عن ذلك أن كان لكل طائفةٍ من هذه الطوائف منهجًا خاصًّا بها استقلت به عن صراط أمة الإسلام، أصَّلت فيه أصولًا، وجعلت له أركانًا وقواعد، وظهرت فيه المصطلحات المنحرفة التي دلَّت علىٰ معانٍ باطلةٍ، وتشكلت من خلاله الأفكار الخبيثة، صَاحَبَ ذلك في كثير من الأحيان أفعال مادية، وتجاوزات نسبتها هذه الطوائف إلىٰ الشريعة الإسلامية وألصقتْها بها زورًا وبهتانًا.

وكان الذين افتتحوا هذا في أمة الإسلام طائفةُ الخوارج الضالة، والتي ابتدعتْ

من عند أنفسها أصولًا ومناهجَ ومعانٍ جديدةً لمفاهيم الإيمان والإسلام، والكفر والشرك، خالفتْ فيه هدي النبيِّ ﷺ وفهم صحابته الكرام، بل وقامتْ بتكفير الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وقد سبقت الإشارةُ إلىٰ طرف من ذلك في المبحث الخاص بهذه الطَّائفة.

ثم تدرَّج الأمر بعد ذلك فظهر كثير من الأقوال ونتاج الأفهام، والأطروحات الفكرية والنظريات التي نسبت إلىٰ الشريعة من قِبَلِ الطوائف المنحرفة، وظهر معها مصطلحات مبتدعة دلَّت علىٰ معان خطيرة، مهَّدت عند أصحابها لاستدلالاتٍ أخطر وأحكام غير صحيحةٍ؛ من هذه المصطلحات مصطلح (توحيد الحاكميَّة) الذي ظهر بقوة في القرن العشرين، فتمَّ من خلاله إحياء فكر الخوارج القدامىٰ، وتأتي خطورة هذا المصطلح لتعلقِه بمعاني الإيمان والكفر، وما يترتب عليهما من أحكام، مما يجعله أشبه بالألغام منه بالمصطلحات، فتمَّ استخدام هذا المصطلح المبتدع الضال كمدخل من مداخِلِ فكرة تكفير المجتمعات المسلمة، وتضليل المسلمين وسفك الدماء ونَشرِ الفوضىٰ في بلاد الإسلام، والعمل علىٰ نقض نظامِها تحت زعم مقاومة الحكام الكفرة الخارجين عن الدين، و ممارسة الجهاد، والعمل علىٰ إحياء الخلافة و إقامة دولة الإسلام والتَّمكين للدِّين، فنتج عن ذلك كله تشويه صورة الشريعة و إظهارها في هيئة دموية صدامية في الداخل والخارج، وتطوَّر الأمر بعد ذلك إلىٰ تخريب بلاد المسلمين ونقض بنيانها وتشتيت أهلها، و إسالة أنهار من الدماءِ، و إهدار الطاقات والأوقات من عمر الأمة في تكوين تصورات جديدة لما هو محسوم وثابتٌ من قضايا الدين والشَّريعة.

فالَّذي ينظر إلىٰ تاريخ الأمة الإسلاميَّة في العصر الحديث إلىٰ وقتنا الحالي يجد أنَّه قد جرىٰ كثيرٌ من محاولات هدم دين الأمة، وتغير هويتها الفكرية، و إلغاء ثقافتها، وتحويل طريقها إلىٰ طرق تستنفذ فيه مواردها وطاقتها وشبابها في معالجة مشاكلَ مستحدثةٍ، تم كل ذلك عن طريق أعداء أمتِنا الإسلاميَّةِ، يريدون من وراء ذلك أن

تنشغل الأمة بهذه الحال، وتنحرف عما أراده الله لها من مكانة ودور بين البشر؛ وكان ذلك يحدث عن طريق الاحتلال بالقوة تارةً، أو الاحتلال الثقافي تارة أخرىٰ ومحاولة إحياء مناهج باطلة، استخدموا فيها بطريق مباشر وغير مباشر كثيرًا من أبناء المسلمين، استغلوا فيهم الحماسة للدين والمحبة له، فظهرتْ مناهج ومدارس فكريَّةٌ في هذا العصر تبنَّت طرقًا مبتدعةً لفهم نصوص الكتاب والسنة، نتج عنها أطروحات فكريةٌ، ودعاوىٰ إصلاحية باطلة؛ تمثَّلت في العديد من المصنفات والكتب، أو الأشخاص الذين تصدروا لهذا الأمر، وجعلوا من أنفسهم بغير حقٍّ أصحابَ الحق في قيادة أمة الإسلام، وفرض المناهج الباطلة عليها لفَهمِ الكتاب والسنة، وزيَّنوا ذلك كلَّه بسرابٍ من بهرج خدَّاع حماسيٍّ يثير النفوس ويحشد طاقات الشباب في الباطل، وسوف نتعرَّضُ لبعض مظاهر هذا الفكر في خلال رسالتِنا هذه.

والمقصدُ من هذا البيان أنَّ علىٰ المسلم أن لا ينخدعَ بالمصطلحاتِ المبتدعة التي ظهرتْ في العقودِ الأخيرةِ، والتي تَحملُ بين طِيَّاتها ودلالاتٍ مخالفة لِـمَا استقرَّتْ عليه أمة الإسلام علىٰ مرِّ القُرون، ومن ذلك مصطلح الحاكمية وتوحيد الحاكمية والذي كان بابًا كبيرًا من أبواب إحياء فِكر الخوارج في العصر الحديثِ، وذلك من خلال الكتاباتِ التي مهَّدت له وأصَّلتْه، ووضعت له مناهجَ التطبيق، وتمَّ ترجمته عمليًّا بعد ذلك فتحوَّل إلىٰ تنظيماتٍ وجماعاتٍ عملتْ علىٰ تطبيقِ هذا الفكر بوسائل مختلفةٍ؛ فحدث الصِّدام وافترقت قطاعاتٌ كبيرة من الأمة، وهي في ذلك كله تظنُّ نفسَها علىٰ هدي النبي ﷺ وأنَّها تعمل لنصرةِ دين الله، وهذا ما سنتحدث عنه في المحور التالي. ◆

الملامح الفكرية لمصطلح الحاكمية في العصر الحديث

قدم أصحاب هذا الفكر أنفسَهم علىٰ أنهم حملة الإسلام الحقيقي الذي يجبُ علىٰ كافَّة المسلمين أن يتبعوهم فيه، فجعلوا من مصطلح الحاكميَّة مدخلَهم لفرض تصوُّرهم عن حقيقةِ الإسلام، وعن انعدام وجودِه في الأرضِ، وهنا يَجبُ أن ننتبه إلىٰ نقطة مهمة قبل الشروع في ذكر كلامهم عن هذا الأمر، وهي أنَّ المسلمين علىٰ مرِّ العصور لم يرفضوا شريعة الله سبحانه وتعالىٰ، ولم يرفضوا أحكامَ الله الملك الحكيم، ولم ينازعوا الله جل جلاله في سلطانه؛ وإنَّما قد يحدث في بعض الأوقات وفي ظل ظروف معينة أن تُصاغَ هذه الأحكام بصورة قانونٍ، أو نظام عام يستند في ذلك علىٰ مرجعية فقهيَّةٍ لأحد المذاهب المعتبرة في أمة الإسلام وفقًا لطبيعة العصرِ، أو يحدث في بعض الأحيانِ أن تعطل الحدود- وليس العقوبات التي يسمح بها الفقه والشَّرع- لأسبابٍ كثيرةٍ مقبولة شرعًا، من عدم توافر أسباب إقامتها، أو غير ذلك من ظروف المكان والزَّمانِ، وليس من هذه الأسباب الرَّفض والرَّدُّ أو العناد أو عدم الانصياع للشَّرع.

وكذلك لابُدَّ لنا أن يكونَ في أذهاننا- ونحن نتعرَّض لهذه القضية- أنَّنا كمسلمين نؤمن بشريعة الله المتكاملة ونَدينُ بها ونخضعُ لها، وذلك في أبواب العقيدة والفقهِ والمعاملات والأخلاق، يظهرُ ذلك في جميع أمور حياتنا باهتمامنا بتكييف أمورنا وأحوالنا وفقًا لمفهوم الحلال والحرام والجائز وغير الجائز، وإن حدثتْ منا مخالفات في بعض الأحيان فإننا نفعل ذلك من باب الضَّعف البشري، أو الظُّروف أو الهوىٰ أو الشَّهوة، وغير ذلك من الأسباب، وليس من باب هَجرِ الدِّين وتركه أو رفض الشَّريعة.

فلم ينظر أصحاب أطروحةِ الحاكميَّة إلىٰ ذلك كلِّه؛ وإنَّما نظروا إلىٰ جانب السِّياسةِ والحكم، والحدود والقانون فقط بفهمٍ جزئيٍّ من زاوية واحدة، وأعلنوا أن الأمَّةَ نقضتِ الشريعة وابتعدتْ عن الحكم بما أنزل الله، وما أشبه اليوم بالبارحة فقد شابهوا الخوارج القدامىٰ تمامًا، من حيث إنَّهم نظرُوا إلىٰ جانبٍ جزئيٍّ؛ فقالوا بكفر الإمام عليٍّ رضي الله عنه

والصَّحابة الكرام وكفر عامة المسلمينَ، وأعلنُوا أنَّهم هم الطائفة المؤمنة وجماعة المسلمينَ، واتَّهموا الخليفة الرَّاشد بأنَّه يحكم بغيرِ ما أنزل الله؛ فاستحلُّوا دمَه وقتلُوه.

فاستدعىٰ أصحاب مصطلح الحاكمية هذا الفكر الخارجيَّ، وصاغوه في أفكارٍ ومفاهيمَ معاصرةٍ، وقدَّموه للأمة ليعلنوا لها نفس ما أعلنتْه الخوارجُ، فقالوا: أيتها الأمة أنت واقعة في الجاهلية والشرك، والابتعاد عن حاكمية الله، واستغلوا لترويجِ ذلك بعض الظُّروفِ التي فرضها الواقعُ المحيطُ علىٰ البلاد الإسلاميَّةِ من الضَّعفِ والوقوع تحت الاستعمار والنَّتائج التي ترتبت عليه ليزينوا للنَّاس ما يقولونه، وليعملوا علىٰ إثباتِ صحَّة أُطُروحاتِهم، فخلطوا الحق بالباطل وقلبوا المفاهيم، واتخذوا من مبدأ التكفير مدخلًا إصلاحيًّا وفقا لمنهجهم، ورتبوا عليه القيام بنشر الفوضىٰ في بلاد المسلمين، والخروج علىٰ ولاة الأمور تحت زعم أنَّهم كفار ليسوا بمسلمينَ، والعمل علىٰ قلب أنظمةِ الحكم، واستحلال دماء أفراد أجهزة الأمن والجيوش تحتَ زعم أنَّهم جنودُ الباطل، واخترعوا المصطلحات والأقوالَ الَّتي تساعدهم علىٰ ذلك مثل: الجاهليَّة، والمفاصلة، والولاء والبراء، وجماعة المسلمين، وأنكروا الانتماء للأوطان، وقالوا بحتميَّة الصدام مع المجتمعات والأمم الأخرىٰ. وذلك في منظومةٍ متكاملة من الباطل الشرعي والعقلي، فترتب علىٰ هذا كلِّه أن شغلتِ الأمة بباطلهم هذا، فتنقلتْ من سيءٍ إلىٰ أسوء في الأحوالِ والظُّروفِ.

كل ذلك كان نتيجةَ أطروحة فكرة الحاكميَّة، والتي ظهرتْ في بعض المصنَّفاتِ المعاصرة كمدخل لكل هذا الخراب الذي تحياه الأمة في هذه السنواتِ، والذي تمثَّل في نشر الفوضىٰ، وتشريد الشعوب، وسفك الدِّماء، ونهب الثَّروات، ونقض بنيان الدول تحتَ زعم العمل علىٰ التَّمكينِ للدين، وإعادة الخلافة، وتطبيق شرع الله في الأرض، فنقضُوا مقاصدَ الشَّريعة جملةً وتفصيلًا.

فَمِنْ هؤلاء الذين أَصَّلُوا لهذا كله ومهَّدُوا له الطريق وانحرفوا بالمعاني وبدلوا المفاهيم سيد قطب، وفيما يلي بيان فكرة الحاكميَّة عند سيد قطب.

سيد قطب وفكرة الحاكمية:

من أبرز المصائب في فكر هذا الرجل أنه تصوَّرَ في ذهنه أفكارًا ومقدماتٍ أدت به إلىٰ نتائج خطيرة؛ فقد اكتفىٰ برؤيته وفهمه للنُّصوصِ الشرعيَّة بدون خلفية علمية متكاملة تؤهِّله لأن يفهمَ هذه النصوص الفهمَ الكليَّ الصَّحيحَ؛ فانفرد بنفسه وصاغ تصورًا من عند نفسه لواقع الأمة، وتأثر بتجربته الشخصية وفترة سجنه، فخرج بمقولة جاهليَّة المجتمعاتِ المسلمةِ، وكفر الأنظمة الحاكمَةِ؛ بناء علىٰ رفضها للدين وعدم احتكامها للشريعةِ من وجهة نظرِه، وعَمِلَ علىٰ وضع المخرج من ذلك بوضع تصور ومنهج لتكوين الجيل المؤمن عن طريق المفاصلة مع المجتمعات الجاهليَّةِ والانعزال عنها، ثم العمل علىٰ تغيير واقع الأمة من خلال الصدام مع المعارض، سواء أكان هذا المعارض شعبًا أو حكومة، كل هذا البلاء الذي استنبطه اعتمدَ فيه علىٰ فهمِهِ هو للنصوصِ الشَّرعيَّة، ونظرته الشخصيَّة لواقع الأمة بمعزلٍ عن فهم أهل العلم، فاكتفىٰ بنفسه وفهمه السَّقيم.

فما من قارئ يتخذ من كتابات هذه الرجل مرجعًا فكريًّا له أو نافذةً يطلُّ من خلالها علىٰ الدين إلا وستنقلبُ عنده المفاهيم والمعايير الدينية والدنيويَّة، فيظن الخيرَ بنفسه وأنه هو ومن فهم فهمه أهل التوحيد وحملة الدين، وأن المجتمعاتِ غارقة في الجاهليَّة بعيدة عن الدين والشريعة، وأنَّ عليه أن يعمل علىٰ تغييرِ ذلك بالدعوة إلىٰ هذه المفاهيم والمعاني، أو بالقوة إذا لزمَ الأمر وسنحتِ الظُّروف، فليس هناك مانع عند أصحاب هذا الفكر من أن يتحوَّلَ من العمل للتَّمكين للدين عن طريق الدعوة ونشر الفكر إلىٰ سفك الدم واستحلال المال والعِرض، وهم في كل ذلك يؤمنون بأنَّ ما يفعلونَه هو نصرة لدينِ الله.

وقد تطوَّرَ الأمر في السنوات الأخيرةِ وزاد ظهورُه؛ فأصبحت كتاباتُ هذا الرجل مرجعًا فكريًّا وشرعيًّا لجميع التَّنظيمات الجهاديَّة والحركيَّة، بحيث تنطلقُ جميعُها من أفكارِه وإنَّما تختلف وتتنوَّع الأساليب في تنفيذ هذه الأفكار، فمنهم مَنِ ارتقىٰ المنابر يدعو الناس من خلال فهمه لمصطلح الحاكميَّة، ويزعم أنه يعمل علىٰ تربيةِ جيلِ النَّصرِ

والتَّمكينِ، ومنهم من أنشأ التَّنظيمات السياسيَّة للعمل للوُصول للحُكمِ من خلالها، ومنهم من أنشأ التَّنظيماتِ المسلحةَ التي عَمِلَتْ علىٰ التَّغيير بالقوَّةِ وسفك الدم وقلب أنظمة الحكم وإشاعة الفوضىٰ في البلادِ.

وهناك نقطةٌ يجب الإحاطةُ بها عند القراءةِ في كتابات هذا الرجل، فقد يَعْجَبُ الإنسانُ ببعضِ الفقرات، أو بالروح الحماسية في الكتابةِ، أو بالفكرة من حيث إرادةُ عودة مكانة الأمةِ، أو التَّمكين في الأرض أو تحقيق النصر، ولكن مكمن الخطر الكبير والذي لا يعادلُه أي تصور لفائدة متوهمة أنَّه اتخذ من التكفير والتجهيل والتَّضليل والمفاصلة والانعزاليَّة وما يترتب علىٰ ذلك كلِّه من آثارٍ مسلكًا لتحقيق هذا النصر وذلك التَّمكين الذي ينشده، وكوَّن صورةً ألصقها بالشَّريعة من أجزاءٍ وأفكارٍ ومقدمات متناقضة ليس بينها رابطٌ، بحيث يفترض المقدمة ويستنتج النَّتيجة وفقًا لما يفهمُه هو، فكان نتيجة أطروحاتِه منهجًا تكفيريًّا متشددًا لا أثرَ فيه لسماحةِ الإسلامِ.

فما الفائدةُ التي تعود علىٰ المجتمعاتِ المسلمةِ إذا انتهج أبناؤُها نهجًا تكفيريًّا وفقًا لما فَهِمَه من النصوص؟! فكفَّرُوا الناسَ أو قالوا بتبديعهم أو فسقهم وانعزلوا عنهم تحتَ زَعمِ النجاة بالدِّينِ والعمل علىٰ تحقيق التوحيدِ، وأين هُو من النُّصوص الكثيرةِ في كتابِ الله وسنَّة رسول الله ﷺ الَّتي تُحدِّثنا عن خيريَّة هذه الأمة وأنها شطر أهل الجنة وأنَّ الشركَ ليس بواقعٍ فيها[1]؟!

---

(1) يقول الله سبحانه وتعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:110] وقال رسولُ الله ﷺ عن أُمَّته: «نُكْمِلُ يومَ القيامةِ سبعينَ أُمَّةٍ نحنُ آخرُها خيرُها». وقد أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران (3001)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (4287)، وابن المبارك في مسنده (106)، وأحمد في مسنده (3/5)، والدارمي في سننه (2802)، والحاكم في مستدركه (4/ 84) من طريق بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده به مرفوعًا. وقال الترمذي: «حديث حسن». وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أمَا ترضون أن تكونوا ربُعَ

والذي نراه الآن من الواقع المحيط مما نَتَجَ عن هذا الفكر يكفينا في معرفة الإجابة عن هذا التَّساؤل، فهل حقَّق أصحاب هذا الفكر تقدمًا في دينٍ أو دنيا؟!

ففي الحقيقة نجد أن أطروحة هذا الرجل الفكرية والإصلاحية- إن جاز التعبيرُ- دس السم الزعاف في العسل، وغلفها بغلاف إرادة الخير للأمة وتحقيق التوحيد، فلم تنتج إلا ثمارًا مُرة، فكانت كما قال الله سبحانه وتعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُون﴾ [الأعراف:58].

ونزيد الأمر إيضاحًا فيما يتعلَّق بفكر سيد قطب فنقول: إن كثيرًا من أعلام الدعوة الإسلامية من أكابر العلماء والأئمة في بدايات القرن العشرين من أصحاب المشروعات الإصلاحيَّة، والتي قد نتفق أو نختلف حول تقييمنا لرؤيتهم في كيفيَّة تنفيذ هذا الإصلاح ولكننا نتفق أنها لم تتخطَّ دائرة الشريعة أو العقل، هل وجدنا منهم مَن جعل الإعلان عن جاهلية الأمة، أو الوقوع في شرك الحاكميَّة، أو الانعزال عن المجتمعات والمفاصلة، والصدام وإثارة الشعوب ضد الحكومات كما فعل سيد قطب وأشباهه في محاولة إصلاح الأمة وانضباط حال المسلمين وبلادهم؟!

أهل الجنَّةِ؟)) قال: فكبَّرنا، ثم قال: ((أما ترضون أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنة؟)) قال: فكبَّرنا، ثم قال: ((إنِّي لأرجو أنْ تكونوا شطرَ أهلِ الجنَّة)). وهو متَّفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الرقاق، باب كيف الحشر (6528)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (221) من حديث ابن مسعود ﷺ. وفي الصَّحيحين من حديث عقبةَ بن عامرٍ ﷺ قال: صلَّىٰ رسولُ الله ﷺ علىٰ قتلىٰ أُحد بعد ثمان سنين كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع إلىٰ المِنبَر فقال: ((إنِّي بين أيديكم فرطٌ وإني عليكم لشهيدٌ وإنَّ موعدكم حوضٌ وإنِّي لأنظر إليه من مقامي هذا وإنِّي لستُ أخشىٰ عليكم أن تشركوا ولكنِّي أخشىٰ عليكم الدُّنيا أن تنافسوها)). متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة أحد (4042)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (2296).

فليس من المعقول أو المفهوم أو المقبول عقلًا أو شرعًا أن تخرج علينا فئة أو جماعة أو طائفة أو فردٌ تحت أي مسمًّى كل فترة من الزمن، فتجعل من فَهمها المغلوط وطريقتِها المعوجة وتفاسيرها الباطلة للنصوص منهجًا للأمة، تصوغ منه النَّظريات التي يجبُ على الأمة اعتناقها والعمل من خلالها، فهذا هو ما فعلَه سيد قطب، فقلَبَ المفاهيم وحرَّفَ المصطلحات من خلال دعوته إلى مراحل عمليةٍ لتنفيذ ما يراه هو طريقًا لإعادة الأمة إلى الإسلام، وسوف نعرض لبعضٍ أقواله التي يتضح من خلالها ملامح منهجه التَّكفيري، والذي جعل من الحديث عن رؤيته لتحكيم الشريعة الإسلامية وفكرة الحاكميَّة ذريعة وستارًا يتوصل بذلك لتكفير المجتمع.

يقول سيد قطب: «إنَّ الفتنةَ الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهيَّة عليهم، ثم يزاول هذا الحقَّ فعلًا! إنَّها الفتنة التي تجعل الناس شِيَعًا ملتبسةً لأنَّهم من ناحية المظهر يبدون أمةً واحدةً أو مجتمعًا واحدًا، ولكن من ناحيةِ الحقيقة يكون بعضهم عبيدًا لبعض، ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها- لأنها غيرُ مقيَّدةٍ بشريعة من الله- ويكون بعضهم في نفسِه الحقد والتربص... ويذوق الذين يتربصون والذين يبطشونَ بعضهم بأسَ بعضٍ، وهم شيع ولكنَّها ليست متميزةً ولا منفصلةً ولا مفاصِلةً، والأرض كلها تعيش اليوم في هذا العذاب البطيء المديد، وهذا يقودُنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض، وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهليَّة المحيطة بها- والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكُمه شريعةُ الله وحدها، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهيَّة والحاكميَّة- وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها باعتبارِ نفسها أمةً متميزةً من قومها الذين يؤثرون البقاء في الجاهليَّة، والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها.

إنَّه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:65] إلا بأن تَنفصِلَ هذه العصبة

عقديًّا وشعوريًّا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها- حتىٰ يأذن الله لها بقيام دار إسلام تعتصم بها- وإلَّا أنْ تشعرَ شعورًا كاملًا بأنها هي الأمة المسلمة، وأنَّ ما حولها ومَن حولها ممَّن لم يدخلوا فيما دخلت فيه- جاهلية وأهل جاهلية. وأن تفاصِلَ قومها علىٰ العقيدة والمنهجِ، وأن تطلبَ بعد ذلك من الله أن يفتحَ بينها وبين قومِها بالحقِّ وهو خيرُ الفاتحينَ. فإذا لم تفاصل هذه المفاصلةَ، ولم تتميَّزْ هذا التميز حَقَّ عليها وعيد الله هذا، وهو أن تظل شيعةً من الشيع في المجتمع، شيعةً تتلبَّس بغيرها من الشيع، ولا تتبين نفسها، ولا يتبينها الناس مما حولَها، وعندئذٍ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد دون أن يدركها فتحُ الله الموعود؟! إنَّ موقف التميزِ والمفاصلة قد يكلف العصبةَ المسلمة تضحيات ومشقات، غير أنَّ هذه التضحيات والمشقاتِ لن تكون أشدَّ ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يُصيبها نتيجةَ التباس موقفها وعدم تميزه، ونتيجة اندماجها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها. ومراجعة تاريخ الدَّعوة إلىٰ الله علىٰ أيدي جميع رسل الله يُعطينا اليقين الجازم بأنَّ فتحَ الله ونصرَه وتحقيقَ وعده بغلبةِ رسله والذين آمنُوا معهم، لم يقع في مرة واحدة قبل تميُّز العصبة المسلمة ومفاصلتِها))[1].

ويقول أيضًا عن تأصيل قضية الحاكمية من خلال جاهلية المجتمع: ((نحن اليوم في جاهليَّة كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية؛ تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتىٰ الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيرًا إسلاميًّا، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية! لذلك لا تستقيم قيم الإسلام في نفوسنا، ولا يتضح تصور الإسلام في عقولنا، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذي أنشأه الإسلام أول مرة. فلابدَّ إذن- في منهج الحركة الإسلامية- أن نتجرد في فترة

(1) انظر: في ظلال القرآن (2/1125) تأليف: سيد قطب- دار الشروق- القاهرة- الطبعة السَّابعة عشر- 1412 هـ.

الحضانة والتَّكوين من كل مؤثرات الجاهلية التي نعيشُ فيها ونَستمد منها))[1].

ويقول أيضًا: ((حين نستعرضُ وجهَ الأرضِ كلَّه اليوم على ضوءِ هذا التَّقرير الإلهيِّ لمفهوم الدِّين والإسلامِ لا نرىٰ لهذا الدِّين وجودًا، إنَّ هذا الوجود قد توقَّفَ منذ أنْ تخلَّت آخرُ مجموعةٍ من المسلمين عن إفراد الله سبحانه بالحاكميَّة في حياةِ البشر، وذلك يومَ أنْ تخلَّتْ عن الحُكم بشريعتِه وحدها في كلِّ شئون الحياة))[2].

((والَّذين لا يُفردون الله سبحانَه بالحاكميَّة في أيِّ زمانٍ وفي أيِّ مكانٍ هم مشركونَ، لا يُخرجهم من هذا الشِّرك أن يكون اعتقادُهم أن لا إله إلا الله مجرَّدَ اعتقادٍ، ولا أن يقدِّموا الشَّعائر لله وحده- فإلىٰ هنا يكونوا كالحنفاءِ الذين لم يعتبرهم أحدٌ مسلمين! إنَّما يُعتبر النَّاسُ مسلمينَ حين يُتمُّون حلقاتِ السلسلة؛ أي حين يضمُّون إلىٰ الاعتقادِ والشَّعائر إفرادَ الله سبحانه بالحاكميَّةِ، ورفضهم الاعتراف بشرعية حُكْمٍ أو قانونٍ أو وضع أو قيمةٍ أو تقليدٍ لم يصدر عن الله وحدَه، وهذا وحدَه هو الإسلام؛ لأنه وحدَه مدلولُ شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، كما عرف هذا المدلولُ في الاعتقاد الإسلاميِّ وفي الواقع الإسلامي سواء! ثم أنْ يجتمعَ هؤلاء الذينَ يشهدون أن لا إله إلا الله علىٰ هذا النَّحو وبهذا المدلول في تجمُّعٍ حركيٍّ بقيادةٍ مسلمةٍ، وينسلخُوا من التَّجمُّع الجاهليِّ وقيادتِه الجاهليةِ! وهذا ما ينبغي أن يتبيَّنَه الذين يُريدونَ أن يكونوا مسلمينَ، فلا تخدعهم عن حقيقةِ ما هم فيه خدعةُ أنَّهم مسلمونَ اعتقادًا وتعبُّدًا، فإنَّ هذا وحدَه لا يجعلُ الناسَ مسلمينَ ما لم يتحقَّق لهم أنَّهم يُفردون الله سبحانه بالحاكميَّة ويرفضون حاكميةَ العبيدِ، ويخلعون ولاءَهم للمجتمع الجاهليِّ ولقيادته الجاهليَّة))[3].

---

(1) انظر: معالم في الطريق (ص17) تأليف: سيد قطب- دار الشروق- الطبعة السادسة- 1979م.

(2) العدالة الاجتماعية في الإسلام (ص183) تأليف: سيد قطب- دار الشروق- القاهرة- الطبعة الثالثة عشر- 1993م.

(3) في ظلال القرآن (3/1493).

ويقول أيضًا: ((لقد استدار الزمانُ كهيئتِه يومَ جاء هذا الدِّينُ إلىٰ البشريَّةِ بلا إله إلا الله، فقد ارتدَّت البشريةُ إلىٰ عبادة العِباد، وإلىٰ جَوْرِ الأديان، ونَكَصَتْ عن لا إله إلا الله؛ وإنْ ظلَّ فريقٌ منها يُرَدِّدُ علىٰ المآذن: ((لا إله إلا الله)) دون أنْ يُدركَ مدلولَها، ودون أنْ يعيَ هذا المدلولَ، وهو يُرَدِّدُها ودون أن يرفضَ شرعيَّة ((الحاكميَّة)) التي يدَّعيها العِبادُ لأنفسِهم، وهي مرادفُ الأُلوهيَّة سواءٌ ادَّعوها كأفرادٍ، أو كتشكيلاتٍ تشريعيَّةٍ، أو كشعوبٍ، فالأفرادُ كالتَّشكيلات كالشُّعوب ليست آلهةً، فليس لها إذن حقُّ الحاكميَّة؛ إلَّا أنَّ البشريَّةَ عادت إلىٰ الجاهليَّة وارتدَّتْ عن لا إله إلا الله))[1].

فهذه بعضُ النماذج من كتابات سيد قطب، يعرضُ فيها أطروحتَه ورؤيتَه وتقييمه لأوضاع الأمَّة الإسلاميَّة وأحوال المسلمين، ويقدم الحلول التي يراها لنهضة الأمة وحدوث النصرِ لها، ونحن هنا أمام استحضارٍ كاملٍ لمنهج الخوارج التَّكفيري الفكريِّ والعملي في تشابهٍ كبيرٍ، فالرجل يفترض بدايةً أن أمة الإسلام ليستْ واحدة، فماذا تكون إذن يا صاحب الاجتهاد؟! فتأتينا الإجابةُ: منهم مَنْ هو من أهل الجاهليَّة- وهم مَنْ لم يفهموا فهمه ويتخذوا نفس موقفِه، ومنهم من هو من المسلمين- وهم الذين آمنوا بمبادئه وما ينادي به.

والطريق الإصلاحيُّ يبدأ عنده في وجوب حدوث التمايز والمفاصلة بين الفريقينِ لضمان حدوث النصر؛ فلا نصر قبل التمايز والمفاصلة بين الطائفة المؤمنةِ من وجهة نظره وأهل الجاهليَّة، حتىٰ يأذن الله بقيام دار الإسلام والتي ليست بموجودة علىٰ الأرض في مقابل دولة الكفر والجاهلية المسيطرة علىٰ بلاد المسلمين.

ولابدَّ بعد التمايز والمفاصلة أن يأتي الصدامُ والجهاد ضد أهل الجاهليَّة؛ كما فعلت طوائف الخوارج عندما عزلت نفسها عن المسلمين وأطلقت علىٰ نفسها جماعةَ المؤمنين، ثم

---

(1) انظر: في ظلال القرآن (2/1057).

تطوَّرَ الأمرُ بعد ذلك إلىٰ خروجِهم بالسيف علىٰ المسلمين يستحلُّونَ دماءهم وأعراضَهم وأموالَهم، هذه الأفعال التي يقوم الشباب الضَّال أو المضلَّل بمثلها في وقتِنا الحالي.

والسُّؤال الذي يجبُ علينا جميعًا أن نوجِّهَه إلىٰ أنفسنا، هل نحن نتمتع بالسَّذاجة أو الحمق أو الغفلة؟! وإلىٰ متىٰ نسمح في كل فترةٍ من الزَّمانِ أن يتلاعبَ بعض الجهلة أصحاب الأهواءِ والمصالح بمقدرات الأمَّة ودينها وأوطانها وثرواتها؟! ونظرة علىٰ واقعِنا المحيطِ المعاصرِ تكفي لأنْ ندركَ أنَّ كلَّ ما يفعله هؤلاء الجهلةُ، الذين يتحدثونَ باسم الدين وعودة الشريعةِ والتمكين للإسلام في الأرض لم يجلبوا علىٰ بلادِ الإسلام إلا كل خرابٍ.

فلماذا نسلم عقولنا وزمام أمورنا لمن يأتينا بكل ما هو باطلٌ في الدين والدنيا؟! وليسأل كلٌّ منا نفسه هل هذا هو هدي رسول الله ﷺ؟ وهل هذا هو المنهج القرآني لهدايةِ الناس؟ وهل تتحقق نهضة الأمة وقوتها بأن يكفِّر بعضُنا بعضًا؟! ولماذا علينا أن نشرب نفس الكأس المسموم مرة بعد مرة ونحن نعلم؟ فيخرج علينا الرويبضة في كل فترة ويقولوا للأمة: هلمُّوا إلينا فعندنا المنهج الفكري والعملي الصَّحيح الذي يقربكم من الله ورسوله، وهل علينا أن نظل في هذا التِّيه؟! فنسلم عقولنا لكل مَنْ يملك قلما يستطيع به أن يخرج فكره وسمومَه علينا، ويقول لنا: هذا هو الإسلام فخذوه عنا ولا يوجد إسلامٌ إلا إسلامنا نحن، ومنْ أراد الفلاحَ في الدنيا والآخرة فعليه بفكرنا ومنهجِنا.

كلُّ هذا وأشباهه قد أنتجه لنا فكر سيِّد قطب، وكلامه الباطل عن الحاكميَّة؛ فهذا الرجلُ جعل من فهمه وتصوره لمصطلح الحاكمية المقياسَ لدخول الناس أو خروجهم من الإسلام، بل لم يقم وزنًا لشهادة التَّوحيد حيث قال: «والذين لا يُفردون الله سبحانه بالحاكمية في أيِّ زمانٍ وفي أيِّ مكانٍ هم مشركونَ، لا يُخرجهم من هذا الشِّرك أن يكون اعتقادُهم أن لا إله إلا الله مجرَّدَ اعتقادٍ». والذي يبحث في سنة رسول الله ﷺ يجدُ عكسَ ما يطرحه هذا الرجل؛ فقد جاء في السنَّة المطهرة ما يوضِّحُ معاني النصوص

القرآنيَّةِ، ويفنِّد دعاوىٰ سيد قطب ويهدم أركان دعوتِه من الأساس؛ فقد أخبرنا النبيُّ ﷺ بكيفية دخولنا في هذا الدين وكيف يصبح المرء مسلمًا، جاء ذلك في نصوص كثيرةٍ[1] ليس من معانيها ما يريدُ سيد قطب أن يجعله أصلًا وأساسًا في الدخول في الإسلام والاستمرار عليه، والذي يدقِّق النظر في كتابات هذا الرجل سوف يلحظ شيئًا مهمًّا فيها خاصة فيما يتعلَّق بأحكام الكفر والإيمان هذا الشيء هو: أنَّه لا يعتمدُ في أقواله وأحكامه علىٰ أقوال أهل العلم، أو يؤصل لأقوالِه من كلامهم؛ وإنما يجعل المرجع لهذه الأحكام فهمه ورؤيتِه واجتهادِه، ونظرته للواقعِ المحيطِ به وحكمه عليه من خلال التجاربِ الشَّخصيَّة متأثرًا في ذلك بما مَرَّ به.

فهذه الدَّعاوىٰ والافتراضات، والمقدمات والنتائج التي صاغها هذا الرجل وقدَّمها للسلمينَ في صورة أُطروحاتٍ إصلاحيَّةٍ، ومناهج للنَّهضة من خلال كتبه ومصنَّفاته تحتوي في أصلها علىٰ مبدأ تكفيرِ المسلمينَ، ووقوع بلاد الإسلام في الجاهليَّة، وارتدادها عن الدِّينِ وفقًا لما أصَّلَهُ من فهمه لقضيَّةِ الشَّريعة وتحكيمِها، فكانت دعوتُه قائمة في

(1) فمن ذلك: حديث جبريلَ المشهورِ: يا محمَّدُ، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: ((الإسلامُ أَن تَشهدَ أَن لا إلهَ إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتصُومَ رمَضانَ، وتَحُجَّ البَيتَ إنِ استَطعتَ إليهِ سَبيلًا)) قال: صدقتَ. قال: فعجبنا له يسألُه ويصدِّقه، قال: فأخبرني عنِ الإيمان قال: ((أَن تُؤمنَ بالله وملائِكتِه وكُتُبهِ ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالقدرِ خَيرِهِ وَشَرِّه)). أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (1395) من حديث ابن عباس ﭭ. وروىٰ مسلمٌ أيضًا عن أسامةَ بن زيدٍ قال: بعثَنا رسولُ الله ﷺ في سريَّةٍ، فصبَّحنا الحُرَقَاتِ مِن جُهينة فأدركتُ رجلًا فقال: لا إله إلَّا الله فطعنتُه، فوقَع في نفسي من ذلكَ فذكرتُه للنبيِّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ((أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَقَتَلْتَهُ؟)) قال: قلتُ: يا رسولُ الله إنَّما قالها خوفًا مِنَ السِّلاح، قال: ((أفلَا شَقَقْتَ عن قلبِهِ حَتَّىٰ تَعلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟)). فما زال يكرِّرها عليَّ حتَّىٰ تمنيتُ أنِّي أسلمتُ يومئذٍ. أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (96) من حديث أسامة بن زيد ﭭ. وقد فَهِمَ أهل العلم وعلماء الأصول هذه المعاني فصاغوها بحيث لم يتركوا مجالًا لأي اجتهاد باطل في هذا المجال. فمن ذلك ما ذكره الإمام أبو جعفرٍ أحمدُ بن محمَّد بن سلامةَ الطَّحاوي في متن العقيدة الطحاوية- وهي متن جامع لعقيدة أهل السنة والجماعة- والتي جاء فيها: ((ونُسمِّي أهلَ قبلتِنا مسلمينَ مؤمنينَ ما دامُوا بما جاءَ به النَّبيُّ ﷺ مُعترفينَ له بكلِّ ما قالَه وأخبرَ مُصدِّقينَ)).

أساسها على التكفيرِ ورمي الناسِ بالشِّركِ والجاهليَّة كمدخلٍ للإصلاحِ، فكان كما قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ وَكَانَ رِدْئًا لِلإِسْلَامِ غَيَّرَهُ إِلَىٰ مَا شَاءَ اللهُ فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَىٰ عَلَىٰ جَارِهِ بِالسَّيْفِ وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ)) قال: قلتُ: يا نبيَّ الله أيُّهما أولىٰ بالشِّركِ المَرمِيُّ أم الرَّامي؟ قال: ((بل الرَّامِي))[1].

وبعد إعدام هذا الرجل وانتشار كتبه وعرضِها على أنَّها تُمثِّل أصلَ المشروعِ الفكريِّ للصَّحوةِ الإسلاميَّة من قِبَلِ أفراد التَّياراتِ المُنحرفةِ تأثَّرتْ قطاعاتٌ كبيرةٌ من الشَّبابِ المتحمِّسِ بأفكارِه، وظَنُّوا أنَّهم وجدُوا فيها الطريق لتحقيقِ النَّصرِ والتمكين للدِّينِ؛ فقاموا بالتَّنفيذِ العمليِّ لأفكاره وترجموا نظريتَه إلى واقعٍ من حيث الانعزالُ والمُفاصلةُ، والإعداد للصِّدامِ مع المجتمعات بصورِه المتنوِّعة، فظهرتْ ثمارُ فِكرِه في جميع التَّياراتِ المتطرِّفةِ بصورٍ متعددةٍ ودرجاتٍ مختلفةٍ، والتي بدأتْ بتقسيم المسلمينَ إلى عوامَّ غير ملتزمين وإخوة ملتزمينَ وفقًا لاصطلاحهم، وما نَتجَ عن ذلك من شقِّ الصَّفِّ وتفتيتِ وحدة الأمَّةِ وتفريقِها باسم الدين، وانتهاءً بتكفير المسلمين واستحلال الدِّماء وإشاعةِ الفوضى في بلاد الإسلامِ. كل ذلك تمَّ الجزءُ الأكبرُ منه من خلال الانطلاقِ من أُطروحات سيد قطب القائلة بجاهليَّةِ المجتمعاتِ المسلمةِ وارتداد المُسلمينَ عن الإسلامِ، والزعم أنَّهم يرفضونَ شريعة الله شعوبًا وحكوماتٍ، فكان الحصادُ ما نراه حولنا في هذه الأيَّام من الواقعِ المرير والتَّبديل لحقائق الدين وتحريف معاني القرآنِ الكريم لتناسُب الأغراض والأهواءِ[2].

(1) أخرجه البخاري في التَّاريخ الكبير (4/301) والبزَّار في مسنده (2793)، وابن حبَّان في صحيحه (81) واللَّفظ له، وقال البزَّار: ((إسناده حسن)).

(2) والَّذي يريد معرفةَ شيء عن الترجمة العملية لفكر سيد قطب وأُطروحاتِه ونتائجه فأقرب مثال هو ما أعدَّه هو وجماعته الذين كشف أمرهم وقتها فيما عرف بتنظيم سنة 1965م والذي مثلته جماعةُ الإخوان المسلمينَ وما كانوا يعدُّونَه من خطط تحتوي على اغتيالِ رئيس الدولةَ وبعض المسئولينَ وتخريب مرافق الدولة عن طريق

ونعودُ فنؤكِّدُ علىٰ أنَّ معالم الدِّينِ وأصوله وفروعه واضحةٌ بينة كالمحجَّة البيضاءِ، يحمُلُ أمانتها أهلُ العلمِ الثِّقاتُ الذين تلقَّوا ميراثَ رسُولِ الله ﷺ بالسند المتصل إليه، فلم تَخْلُ الأمةُ منهم في وقتٍ من الأوقاتِ، أو ننتظر أن يخرجَ علينا أهلُ الجهل والفتن والضَّلالِ ليقولوا لنا: أيها الناس أنتم لستم علىٰ الدِّين، أو أنتم مرتدون، أو إن إسلامكم ليس مكتملًا. وليس في هذا القولِ شيءٌ من المبالغة فقد رأينا من يكفر النَّاسَ من حوله، بل ويكفر أفراد أسرتِه، ويبدع الناس ويُفسِّقهم؛ وفقًا لما يراه هو أنَّه صحيح الدِّين، فكان كما قال النبي ﷺ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»[1].

والسُّؤال الذي يجب أن يسألَه كلُّ واحدٍ منا لنفسه هو: ماذا جَنىٰ المسلمونَ من هذا الفكر وهذه الأطروحات؟! هل أقاموا دنيا أو نصروا دِينًا، وهل تحقَّقَ التمكين للدِّين بهذا الفكر الباطِلِ؟! ألا يملكُ هؤلاء بعض الحكمة ليعلموا أنهم لو كانوا علىٰ هدي النبي ﷺ لما وصل بهم الحالُ أن يصبحوا أداةً من أدوات أعداء الأمة، يعملونَ من خلالهم علىٰ خرابِ بلاد المسلمينَ.

وهل علينا كأمةٍ مسلمةٍ أن نظلَّ طِوالَ الوقت في محاربة الأفكارِ والأعمال الباطلةِ التي

نسف محطات الكهرباء وتفجير للقناطر المقامة علىٰ النيل واستهداف الكباري وإعداد الأسلحة للصدام مع أجهزة الأمن بهدف إسقاط نظام الحكمِ، وذلكَ باعترافِ أفراد هذا التَّنظيمِ أنفسهم والذي كان علىٰ رأسهم سيد قطب، ودلالةُ هذا أنَّ أصحاب هذا الفكر لا بأس عندهم في إشاعةِ الخرابِ في البلاد وسفك الدماء ما دامَ ذلك يؤدِّي إلىٰ تحقيق أغراضِهم.

وقد وصف القرضاويُّ في مذكراته فكر سيد قطب فقال: «هذه مرحلةٌ جديدةٌ تطوَّر إليها فكر سيد قطب ونُسميها مرحلة الثورة الإسلاميَّة، الثَّورة علىٰ الحكومات الإسلامية، أو التي تدَّعِي أنها إسلاميَّة، فالحقيقة في نظر سيد قطب أنَّ كلَّ المجتمعاتِ القائمةِ في الأرض أصبحت مجتمعات جاهليةً، تكوَّنَ هذا الفكر الثوريُّ الرافض لكل مَنْ حوله وما حوله، والذي ينضحُ بتكفير المجتمع، وتكفير عامة الناس». ابن القرية والكُتَّاب؛ ملامح سيرة ومسيرة (56/3) تأليف: يوسف القرضاوي- دار الشروق- القاهرة- 2008م.

(1) أخرجه مسلم في كتاب البرِّ والصِّلة والآداب، باب النهي عن قول: هلك الناس (2623) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تخرُجُ علينا بين الحينِ والآخرِ، وتقدَّمَ لنا علىٰ أنَّها صحيح الدِّين ولماذا نفعل ذلك بأنفسنا؟ وقد كُفينا أمر هذا الضَّلال كلِّه؛ لوجود المنهجِ الصَّحيحِ الذي تلقتْه الأمة جيلًا بعد جيل؛ كما أخبر بذلك المصطفىٰ ﷺ حيثُ قالَ: «يَحْمِلُ هذا العِلْمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدُولُه يَنفُونَ عنه تحريفَ الغالِينَ وانتحالَ المُبطلينَ وتأويلَ الجاهلينَ»[1].

فعلىٰ كل مسلم إن أراد النَّجاة في الدنيا والآخرة أن يسيرَ علىٰ هدي النبي ﷺ الذي قال في شأنه رب العزة تبارك وتعالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:31] هذا الهديُ الذي يبينه أهل العلم وينشرونَه، ولا يلتفت إلىٰ أهل الضَّلال الذين يتوهَّمون أنهم أعلم بمعاني الكتاب والسنَّةِ من أهل العلم وحملة الشريعةِ وأئمة الدِّين، فأمَّةُ الإسلام أمة مرحومة محفوظة من الوقوع في الشرك، والسواد الأعظم من الأمة علىٰ الخير يحبون دين الله وشريعته، ولا يرفضونها كما يزعُمُ سيد قطب وأمثاله من ردَّة الأمة إلىٰ الجاهليَّةِ.

ولزيادة الفائدة المرجوَّة من بيان كلام أهل الضَّلال حول مصطلح الحاكميَّةِ نتعرَّضُ لبعض أقوالهم التي سطَّرُوها بناءً علىٰ فهمهم ورؤيتِهم حول هذا الأمر، وتأتي أهميَّة ذلك لأنَّ فكرةَ الحاكميَّة تعدُّ المحور الأساسي التي تنطلقُ منها جميعُ الأفكار الأخرىٰ، والأطروحاتُ والمصطلحاتُ التي أصبحت لدىٰ أصحاب الفكر المتشدِّد والتيارات الإرهابيَّة والتكفيريَّة هي أصولُ الدين وأعمدتُه، وذلك كفكرة التَّمكينِ، وجماعة الملتزمين والعوامِّ، والجهاد ضد الحكومات الكافرة، وجند الطاغوت، والمجتمع الجاهلي، وحياة الجاهليَّة، والمفاصلة، والصِّدام. كلُّ هذه المصطلحاتِ والأُطروحات كانتِ المدخلَ لهذا الفهم الباطِلِ لقضيَّةِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ وكيفية تطبيقِها، وحصر ذلك في نطاقٍ ضيقٍ جدًّا توصلوا بها إلىٰ تكوين منظومةٍ فكريةٍ باطلةٍ، ولنرىٰ كيفَ جعلُوا منها

(1) أخرجه البزار في مسنده (9423) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (1/344).

مدخلًا لتكفيرِ المسلمينَ واستحلال الدِّماء، وجعلت من طوائف المسلمينَ العدوَّ القريب الذي يجبُ قتالُه؛ لتمهيدِ الأرضِ لإقامةِ شرع الله وعودةِ الخلافةِ والتَّمكين للدِّين.

فيقول محمد قطب وهو يتكلَّمُ عن جاهليَّةِ المجتمعات المسلمةِ، ويصف الأمة بالانسلاخِ عن الإسلام انطلاقًا من فهمه لقضية الحاكميَّة: ((ولقد انحرفتِ الأمَّةُ المسلمةُ كثيرًا عن منهجِ الله أدركتْهَا- بالتَّدريج- جهالةُ الجاهليَّة، فَفَصَلَتِ العقيدةَ عن الشَّريعةِ، وأخذت الدِّين عقيدةً مستسرَّةً في القلب منقطعةً من الواقع، بينما الواقعُ يحكمه دينٌ غير دين الله! فلم يَعُد منهجُ الله هو المحكَّم في واقع الأمة الإسلامية، ومن ثَمَّ لم تَعُد أمَّةً مسلمةً، وإن كانت ما تزال تتسمَّى بأسماء المسلمين وتصلِّي- أحيانًا- وتصوم! ثمَّ إنَّها كذلك فقدتْ حضارتَها وحاسَّتها العلمية الفردية، وانزوَتْ في داخل نفسها تستسلمُ للضَّعفِ والهوانِ، فزادت بذلك بُعدًا عن الإسلامِ وانحلَّت أخلاقُها، فلم تَعُدْ تَصْدُقُ ولا تُخلِص ولا تَستقيم في المعاملةِ، ولا تقومُ بينها روابطُ الإنسان، ثم زادت فانزلقتْ في تيار الجِنسِ الجارفِ في مصيدةِ يهود! وبذلك خرجتْ عن كلِّ الإسلامِ))[1].

ويقولُ في كتابه واقعنا المعاصر: ((إنَّ هذه المجتمعاتِ التي نعيشُ فيها اليوم مجتمعاتٌ جاهليَّةٌ كما أسلفنا القولَ من قبل؛ لأنَّها لا تَحكُم ولا تُحكَم بشريعةِ الله إنَّما تَحكُم وتُحكَم بمناهجَ جاهليَّةٍ وشرائعَ جاهليَّة))[2].

وقد تبنَّتِ التنظيماتُ التكفيريَّةُ التي جاءتْ بعد ذلك هذه الأفكار، واعتبرتها أصولًا منهجيَّةً ومعالمَ في طريق النَّصرِ والتَّمكينِ؛ فقامت بترجمتِها إلى أفعالٍ على أرض الواقع، استحلَّتْ بها تخريبَ البلاد وقَتلَ المسلمين وغيرَ المسلمين، والصِّدام مع أجهزة الدول ومؤسساتها وأفرادها لإسقاط أنظمةِ الحكمِ، كل ذلك كان المدخلُ إليه فكرةُ الحاكميَّةِ

(1) جاهليَّة القرن العشرين (ص 222) تأليف: محمد قطب- دار الشروق- القاهرة- الطَّبعة الثَّانية عشرة- 1992م.

(2) واقعنا المعاصر (ص 484) تأليف: محمد قطب- دار الشروق- القاهرة - الطبعة الأولى- 1997م.

والنظرة الضَّيقة إلىٰ الشريعةِ الإسلاميَّة، ثم بعد سنواتٍ وجدنا ظاهرةَ المراجعاتِ الفكريَّة، والتي يُعلنُ فيها كثيرٌ من أفرادِ التيارات الجهاديَّة التَّكفيريَّة توبتَهم عما كانوا يعتنقونَه من أفكار وما قاموا به من أعمال، ويعلنونَ أنَّهم كانوا علىٰ خطأ في المنهج والفهم والتَّطبيق، ولكن بعد كم من الوقت وكم من الخسائر التي تحملتها الأمَّة؟!

والسُّؤال الذي يفرضُه علينا واقعنا المحيطِ بنا حتَّىٰ متىٰ يتحتَّم علينا أن نجرِّبَ في أنفسنا كل باطل حتىٰ نعرف أنه باطل؟ أو لم يكفنا أهل العلم وأئمة الشريعة هذا الأمرَ، أو لم يدرك شباب الأمة ما يحاكُ لها؟ فلا ينزلقونَ في هذا المنزلقِ الوعر الذي يفسد الدنيا والدين.

أو لم يكفنا قرنًا كاملًا من الزمان حادَ فيه كثيرٌ من الشباب والجماعات عن الصراط المستقيم، من خلال تصوراتٍ باطلةٍ ومفاهيم مغلوطة، فلم تجنِ الأمة من وراء ذلك إلا الضَّعفَ تلو الضعف، ولم نحقق فيه مكاسب دينيةً أو دنيويَّةً، بل أصبح الإسلامُ متهمًا بالإرهابِ والدمويةِ والوحشيةِ وحبِّ الصدامِ مع الآخرينَ؛ نتيجةً لسلوكِ بعض الأفرادِ والجماعاتِ التي فَهِمَتْ قضيةَ الدينِ والالتزام به فهمًا خاطئًا فجاء التطبيق العملي أيضًا خاطئًا، وألصق ذلك كلَّه بالدين والشريعة كذبًا وبهتانًا؛ بسبب أطروحات فكرية وعملية جاءتْ من غير أهل العلم، وفتحتِ الباب أمام كل ناعق من جميع التيارات، فأصبح يعطي لنفسه حقَّ الاجتهاد، وتوصيف المجتمعاتِ وإصدار الأحكام عليها.

وهناك جانب آخر من النتائج العملية السلبية لهذه المنهج وتلك التجمعات، وهو أنَّه جَلبَ علىٰ أمة الإسلام وبلاد المسلمين الأعداء، فجعلها هدفًا سهلًا لأعدائِها، في وقت تمر فيه الأمة بفترة ضعف قد لا تملك فيه أن تدفع فيه عن نفسها أو عن بعض بلادها الخطر، فبدلًا من أن يسهم هؤلاء في نهضة أمتهم إذ بهم يجلبونَ أعداءَ الأمة إلىٰ بلادِنا، ويوفِّرونَ لهم فرصة ثمينة لكي يفرضوا وجودَهم المادي والمعنوي في بلاد

الإسلام تحتَ ستار محاربة خطر الفكر المتشدِّد، ولم يفكر هؤلاءِ في أنَّهم بذلك يتسببون في هدم كيان الأمة بما يصنعونه، فلو افترضنا صحَّة منهجهم وأفكارهم وطريقهم، أفلا يوجد عندهم مسحة من عقل وتفكير وإدراك للواقع المحيط بنا؟! من حيث عدمُ القدرة في وقتنا الحالي على الدخول في مواجهاتٍ مع الآخر، فكيف يُعطي المرء لعدوِّه الفرصة في إلحاق الضَّرر به، هذا لو سلمنا وتصورنا صحة المنهج؟ فكيف وهو باطلُ الأصول والفروع، فقد جمعوا بين عمى البصر والبصيرة؛ فلم يدركوا واقع أو يحيطوا بشريعة. ◆

الفهم الصَّحيح لقضيَّة تحكيم الشَّريعة

أوَّلًا: بيان بدعية مصطلح توحيدِ الحاكميَّة:

من المصائبِ الفكريَّة في هذا العصر اختلاقُ المصطلحات التي تدلُّ علىٰ معانٍ غير صحيحةٍ، ويزداد الأمرُ إن كانت تلك المصطلحات متعلِّقةً بالدين أو الشريعة أو العقيدة؛ لما يترتبُ علىٰ ذلك من النَّتائج التي تُنسبُ زورًا وبهتانًا إلىٰ الدِّين، فعندما أراد أصحابُ الفِكرِ المنحرفِ فرضَ رؤيتهم التكفيريَّة عن جاهليَّة المجتمعات المسلمة والقولِ بردَّتها عن الإسلام لكي يجدوا لأنفسهم التَّبرير الشَّرعي للخروج علىٰ الحكَّام، أو يفرضوا منهجَهم الإصلاحيَّ لم يجدوا طريقًا أقصرَ من أن يخترعوا تعريفًا جديدًا للتَّوحيد غيرَ متعارفٍ عليه عند أهل السنَّة والجماعةِ أسموه «توحيد الحاكميَّة»[1]. استلهموه من فِكر الخوارجِ القُدامىٰ حين عبروا عن تلك الفكرة أمام الخليفة الراشد أميرِ المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب ﷺ، وذلك من خلال مقولتهم المشهورة: «لا حكمَ إلا لله»[2]. بحيث إن كان هناك شخص أو مجتمع لا يتبنَّىٰ وجهة نظر أصحاب هذا الفِكر الباطل في هذه المسألة ويقول بمثل قولهم- كما كان حال الخوارج القدامىٰ مع الإمام علي ﷺ- فإنه بالتالي لم

(1) اشتملت هذه الموسوعة علىٰ بحث مهم عن «نقض تقسيم التوحيد» والذي تكلمنا فيه عن بُطلان التقسيم الثلاثي للتوحيد الذي تعتنقه هذه الجماعات «توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات» والتي زادت فيه بعد ذلك قسمًا رابعًا أسمته بتوحيد الحاكميَّة، جعلتْ منه البابَ الأكبرَ لتكفير المسلمين حكَّامًا ومحكومين، فارجع إليه مشكورًا ففيه توسُّع في توضيح هذا البابِ.

(2) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب التَّحريض علىٰ قتل الخوارج (1066) عن عبيد الله بن أبي رافع مولىٰ رسول الله ﷺ أن الحروريَّة لما خرجت وهو مع علي بن أبي طالب ﷺ قالوا: لا حكم إلا لله. قال عليٌّ: كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطلٌ، إنَّ رسول الله ﷺ وصف ناسًا إني لأعرف صفتهم في هؤلاء، يقولون الحق بألسنتِهم لا يجوز هذا منهم- وأشار إلىٰ حلقه- من أبغض خَلْق الله إليه، منهم أسود إحدىٰ يديه طُبْيُ شاة، أو حلمة ثدي. فلما قتلهم عليُّ بن أبي طالب ﷺ قال: انظروا، فنظروا فلم يجدوا شيئًا، فقال: ارجعوا فوالله ما كَذبتُ ولا كُذبت، مرَّتين، أو ثلاثًا، ثم وجدوه في خَربة، فأتوا به حتىٰ وضعوه بين يديه. قال عبيد الله: وأنا حاضر ذلك من أمرهم، وقول عليٍّ فيهم.

يحقق التَّوحيدَ الكاملَ، وإنما وقع في ناقضٍ من نواقض التَّوحيد.

فعندما أراد هؤلاء القول بالتكفير ورِدَّة المجتمعات زعموا أن هذه المجتمعات قد وقعت في رفض الحاكميَّة الإلهيَّة، وأنَّهم جعلوا من أنفسِهم شركاء لله في الحُكم، ومن ثَمَّ فهم خارجون عن الإسلام لنقضِهم التوحيدَ، فقد نقل أهلُ الضلال المفهومَ الشرعيَّ الصحيحَ الواردَ في كتاب الله عن طاعة أوامر الله سبحانه وتعالىٰ من خلال قول الله تعالىٰ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف:40] إلىٰ مفاهيمَ باطلةٍ، فقاموا بتضييقِ المعاني الواسعة لمفهوم الشَّريعة، وصاغوها في مصطلح يُراد به معاني الحُكم والسِّياسةِ أسموه (توحيد الحاكمية) ليجعلُوا منه طريقًا لتكفير الحكام كما فعل الخوارج قديمًا، فلم ينظروا نظرةً كليَّةً إلىٰ حال المسلمين حكامًا ومحكومين، وطرق تعاملهم مع شريعة الله وأحكامها الكلية والجزئيَّة، وأنهم لم يرفضوا الشريعةَ أو يردُّوها في يومٍ من الأيام، وإنَّما الواقع يشهد بأنَّ المسلمين يحاولون في شتَّىٰ أمور حياتِهم أن يجعلوها وفقًا لميزان الشريعة في أمورِهم الخاصة والعامَّة، ولا يتعمَّدونَ المخالفة في ذلك؛ وإنما تقع المخالفة منهم أحيانًا لغلبة الهوىٰ، أو شهوة النَّفسِ، أو عواملَ قاهرةٍ، أو نوع جهلٍ، فكيف يُقال في مجتمعاتٍ يُرفع فيها الآذان، وتُقام الصلواتُ، وتظهر فيها أشكالُ وأنواعُ الشعائر الإسلامية أنها مجتمعاتٌ ليست خاضعةً لحكم الله، أو ترفض شريعته؟!

يأتي هذا الفهمُ الباطلُ من تضييق معاني الشَّريعة وحصرها في نطاق الحدود أو العُقوبات من خلال النَّظرة الضَّيِّقة إلىٰ هذا الأمر، أو تصوُّر أن تطبيقَ القانون الشرعي بصورةٍ صحيحةٍ يجب أن يكون بصورةٍ مستوحاة من الماضي في إجراءات التَّقاضي وغيرِها، أو الوقوع في وهمٍ أنه لا يجوز الانتقال عن صورةٍ محددةٍ في تطبيق الأحكام والعقوبات والتعزير إلىٰ غيرِها ممَّا يناسب طبيعةَ العصرِ الذي نحن فيه بقدر ما يسمح لنا به الفقه وأحكامُه، أو يظن هؤلاء أنَّ رؤيتَهم وحدها هي التي تمثِّل الشريعةَ الإسلاميةَ في جميع الأبواب العقدية والفقهية والتربوية؛ فيصبح الأمر أن ما يرونه أو يجتهدون فيه

هو الشريعة، كل هذه الأسباب المتوهمة أو بعضها أدت إلىٰ وجود هذه الرؤية الباطلة والاستنتاجات الخاطئة التي تقولُ بردة الحكام أو المجتمعات.

ومن الأمور الجديرة بالذكر: أنَّ أصحاب هذه التَّيارات لا مانعَ عندهم قبل أيِّ إصلاحٍ اقتصاديٍّ أو اجتماعيٍّ أو سياسيٍّ أو فِكريٍّ، أو محاولة النهوضِ بحالِ بلادِ المسلمينَ- من المناداة بتطبيق الحدود وإن لم تتوفر شروطُ تطبيقها، ويحسبون أنَّهم بذلك يقومون بتطبيق الشريعة ونُصرةِ قضية الدِّين، ولا يدرون أنهم مفتقدون لمعرفة العوالم الأربع؛ الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، ولا يُفهم من كلامِنا أننا ضدَّ تطبيق الحدود الشرعية، وإنما المراد أن ينظر للأمر بصورة كلية من خلال كلام أهل العِلم في القديم والحديث حول هذا الأمرِ وبيان كافة جوانبه؛ فالمحظور في الأمر هو المسلك الذي اتَّخذه أصحاب الفِكر المنحرف من جعل ذلك الباب مدخلًا للتكفير وليس مدخلًا للإصلاحِ، ولو رجع هؤلاء إلىٰ ما كتبه أهل العِلم عن أمر الحدود والعقوبات- لوجدوا أنَّ هذه القضية فيها كثيرٌ من الأمور التي يجب أن يُحتاط فيها قبل القول بأن الحكومات لا تُطبق الشريعة؛ لأنها لا تُطبق الحدودَ بصورةٍ محددةٍ، وبالتالي فهي من وجهة نظر أصحاب الفِكر الضَّال والجماعات الإرهابية قد وقعت في الكُفر؛ لأنها لم تحقق توحيدَ الحاكمية، بل تعدَّوا بعدَ ذلك إلىٰ المجتمعاتِ والأفرادِ وأسقطوا عليهم أحكامَ الشِّرْكِ وفقًا لمفهومِهم عن التَّوحيدِ.

ثانيًا: نموذج من كلام أهل العِلم حول هذه القضية:

لقد وجدنا أنه من المناسب في هذا المقام أن نعرض رؤيةَ أحد العلماء المجتهدين المعاصرين وهو: الإمام الشيخ علي جمعة محمد حول هذا الأمر؛ حتىٰ يتسنَّىٰ للقارئ الكريم أن يلمَّ بهذه القضية من خلال العرض العلمي لها في صورةٍ ميسرةٍ، فيعلم ما هي قواعدها الصحيحة التي يجب الانطلاق منها، فنصل إلىٰ تصور كليٍّ صحيحٍ لها، فيقول فضيلة

الشيخ عن هذه القضيَّة:

((قضية تطبيق الشريعة لابد أن تُفهم بصورةٍ أوسع من قَصرها على تطبيق الحدود العِقابيةِ بإزاءِ الجرائمِ، كما هو شائعٌ في الأدبيَّات المعاصرة، سواءٌ عند المسلمين أو عندَ غيرِهم؛ حيث إن تطبيق الشريعة له جوانب مختلفةٌ، وله درجات متباينةٌ، وليس من العدل أن نصفَ واقعًا ما بأنَّه لا يطبق الشريعةَ لمجرَّدِ مخالفته لبعضِ أحكامِها في الواقع المعيش؛ حيثُ إنَّ هذه المخالفات قد تمَّت على مدى التاريخ الإسلامي، وفي كلِّ بلدان المسلمين ودولهم بدرجات مختلفة ومتنوعة، ولم يقل أحدٌ من علماء المسلمين إن هذه البلاد قد خرجت عن ربقةِ الإسلامِ، أو أنها لا تُطبِّقُ الشريعة، بل لا نبعد القولَ إذا ادَّعينا أن كلمة تطبيق الشريعة كلمةٌ حادثةٌ.

حقائق يجب معرفتها:

1- إن الشريعة الإسلامية تعني ما يتعلق بالعقائدِ والرؤية الكليَّة: من أن هذا الكون مخلوقٌ لخالق، وأن الإنسان مكلفٌ بأحكامٍ شرعيةٍ تصف أفعالَه، وأنَّ هذا التكليف قد نشأ من قبيل الوحي، وأن الله أرسل به الرُّسلَ وأنزل الكُتبَ، وهناك يومًا آخرَ للحساب وللثواب والعِقاب، كما أنها تشتمل على الفِقه الذي يضبط حركةَ السُّلوك الفرديِّ والجماعيِّ والاجتماعيِّ، وتشتمل أيضًا على منظومةٍ من الأخلاق وطُرق التَّربية، ومناهج التفكير، والتَّعامل مع الوحي قرآنًا وسُنة، ومع الواقع مهما تغيَّر أو تبدَّل أو تعقَّد.

2- قضية الحدود تشتمل على جانبين؛ الجانب الأول: هو الاعتقاد بأحقيَّة هذا النظام العقابي في ردع الإجرام، وفي تأكيد إثم تلك الذُّنوب، ومدى فظاعتِها وتأثيرها السَّيئ على الاجتماع البشريِّ، ورفضها بجميع صورها نفسيًّا لدى البشر، وأن هذا النظامَ العقابي لا يشتمل على ظُلمٍ في نفسه، ولا على عنفٍ في ذاته، والجانب الآخر: هو أنَّ الشرع قد وضع شروطًا لتطبيق هذه الحدود، كما أنه قد وضع أوصافًا وأحوالًا لتعليقها

أو إيقافها، وعند عدم توفر تلك الشروط أو هذه الأوصاف والأحوال فإنَّ تطبيق الحدود مع ذلك الفقد يُعد خروجًا عن الشريعةِ.

3- المتأمِّلُ في نصوص الشريعةِ يجد أنَّ الشرع لم يجعلِ الحدودَ لغرض الانتقام؛ بل لردعِ الجريمةِ قبل وقوعِها، ويرىٰ أيضًا أنَّ الشرع لا يتشوَّف لإقامتِها بقدرِ ما يتشوَّف للعفو والصفحِ والستر عليها، والنصوصُ في هذا كثيرةٌ[1].

4- لمدة ألف سنة لم تُقم الحدود في بلدٍ مثلَ مصر؛ وذلك لعدم توفُّر الشروطِ الشرعية

---

(1) من أوضح الأمثلة علىٰ هذا الأمر قصة الصحابي الجليل ماعز ﷺ والغامديَّة فقد ردَّه النبيُّ ﷺ عدَّةَ مراتٍ مع اعترافه بالزنا فلو كانت الشريعة متشوفة إلىٰ إقامة الحدود لرجمه النبي ﷺ علىٰ الفور. فقد روىٰ مسلم في صحيحه في كتاب الحدود، باب من اعترف علىٰ نفسه بالزنا (1695) من حديث بريدة بن الحصيب ﷺ أن ماعز بنَ مالك الأسلمي أتىٰ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إني قد ظلمتُ نفسي وزنيتُ، وإني أريدُ أن تُطهِّرَني فردَّه، فلما كان من الغدِ أتاه فقال: يا رسولَ الله، إني قد زنيتُ، فردَّه الثانية، فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إلىٰ قومِه فقال: ((أتعلمونَ بعقلِه بأسًا تُنكرونَ منه شيئًا؟)) فقالوا: ما نعلمه إلَّا وَفِيَّ العقلِ من صالحِينا فيما نرىٰ، فأتاه الثالثةَ، فأرسل إليهم أيضًا فسأل عنه، فأخبروه أنَّه لا بأسَ به ولا بعقلِه، فلما كانَ الرابعة حفرَ له حُفرةً، ثم أَمرَ به فرُجم، قال: فجاءت الغامديةُ، فقالت: يا رسولَ الله، إنِّي قد زنيتُ فطهِّرني، وإنه ردَّها، فلما كان الغدُ، قالت: يا رسول الله، لمَ تردُّني؟ لعلَّك أن تردَّني كما رددْتَ ماعزًا، فوالله إني لحُبلىٰ، قال: ((إمَّا لا فاذهبي حتىٰ تلدي)) فلما ولدت أتته بالصَّبي في خِرقةٍ، قالت: هذا قد ولدْتُه، قال: ((اذهبي فأرضعيه حتىٰ تفطمِيه)) فلما فطمته أتته بالصَّبي في يدِه كِسرة خُبزٍ، فقالت: هذا يا نبيَّ الله قد فطمتُه، وقد أكلَ الطعامَ، فدفع الصَّبيَّ إلىٰ رجلٍ من المسلمينَ، ثم أمر بها فحُفر لها إلىٰ صدرِها، وأمر الناسَ فرجموها، فيُقبل خالد بن الوليد بحجرٍ، فرمىٰ رأسَها فتنضَّح الدَّمُ علىٰ وجه خالدٍ فسبَّها، فسمع نبيُّ الله ﷺ سبَّه إيَّاها، فقال: ((مهلًا يا خالدُ، فوالذي نفسي بيدِه لقد تابتْ توبةً لو تابها صاحبُ مَكْسٍ لغُفرَ له)) ثم أمر بها فصلَّىٰ عليها، ودُفنت. (صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف علىٰ نفسه بالزنا (1695) من حديث بريدة ﷺ).

وكذلك ما ورد عن الخليفة الراشد الرابع عليِّ بن أبي طالبٍ ﷺ في فترة خلافتِه، وذلك فيما رواه أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده (275/1) قال: حدثنا عبيد الله، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا هذا الشيخ أيضًا أبو المُحيَّاة التَّيمي، قال: قال أبو مطر: رأيتُ عليًّا أُتي برجلٍ فقالوا: إنه قد سرق جملًا، فقال: ما أراكَ سرقتَ قال: بلىٰ. قال: فلعلَّه شُبِّه لك؟ قال: بلىٰ قد سرقتُ. قال: اذهب به يا قنبرَ فَشُدَّ إصبَعَه، وأوقدِ النَّارَ، وادعُ الجزارَ يقطعه، ثم انتظرْ حتىٰ أجيءَ، فلما جاء، قال له: سرقتَ؟ قال: لا. فتركه، قالوا: يا أميرَ المؤمنينَ، لَمَ تركتَه وقد أقرَّ لكَ؟ قال: أخذتُه بقولِه وأتركه بقولِه.

التي رسمت طُرقا معينةً للإثباتِ، والتي نصَّت على إمكانية العودة في الإقرارِ، والتي شَمِلتْ ذلك كله بقوله ﷺ: ((ادرءُوا الحدودَ بالشبهاتِ))[1]. وقوله ﷺ: ((ادرءُوا الحدودَ عنِ المسلمينَ ما استطعتم؛ فإن كان له مخرجٌ فخلُّوا سبيلَه، فإنَّ الإمامَ أن يُخطئَ في العفوِ خيرٌ من أن يُخطئَ في العقوبةِ))[2].

---

(1) ورد هذا الخبر مرفوعًا وموقوفًا من عدة طرق؛ أمَّا المرفوع: فأخرجه الترمذي في كتاب الحدود، باب ما جاء في درء الحدود (1424) والحاكم في مستدركه (4/ 384) والبيهقي في الكبرى (8/ 238) من طريق يزيد بن زياد الدمشقي عن الزُّهري عن عروةَ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((ادْرَءوا الحُدُودَ عنِ المُسْلِمِينَ ما اسْتَطَعْتُم)).

وقال الترمذيُّ: ((ولا نعرف حديث عائشةَ هذا مرفوعًا إلَّا من حديث محمد بن ربيعة عن يزيد بن زياد الدمشقي، وهو ضعيف في الحديث)). وكذا ضعَّفه البيهقي. وصحح إسناده الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: ((قال النسائي: يزيد بن زياد شاميٌّ متروك)).

وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أخرجه ابن ماجه في كتاب الحدود، باب الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات (2545)، وأبو يعلى في مسنده (11/ 494) من طريق وكيع عن إبراهيم بن الفضل عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظ ابن ماجه: ((ادفعوا الحدودَ ما وجدتم له مدفعًا)). ولفظ أبي يعلى: ((ادرءوا الحدودَ ما استطعتم)). وضعف إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة (3/ 103).

وأما الموقوف: فأخرجه الترمذي في سننه عقب الحديث السابق متابعة، وأبو يوسف في الخراج (ص167) والبيهقي في الكبرى عقب الحديث السابق متابعة من طريق وكيع عن يزيد بن زياد البصري عن الزهري عن عروة عن عائشة بنحوه. وذكر الترمذي، والبيهقي: أن رواية وكيع أصح.

وفي الباب عن عمر وعلي وعبدالله بن عمرو رضي الله عنهم وغيرهم مرفوعًا وموقوفًا. انظر: البدر المنير لابن الملقن (8/ 613)، والتلخيص الحبير لابن حجر (4/ 160) وذكر فيه: أن أبا محمد ابن حزم رواه في كتاب الإيصال من حديث عمر موقوفًا عليه بإسناد صحيح.

وذكره الزرقاني في مختصر المقاصد الحسنة (71 /42) وقال عنه: ((صحيح موقوفًا، وحسن لغيره مرفوعًا)).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الحدود، باب ما جاء في درء الحدود (1424) والبيهقي في الكبرى (238/8) والحاكم في المستدرك (384/4) من طريق يزيد بن زياد البصري عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها به مرفوعًا. وقال الترمذي: ((لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث محمد بن ربيعة، عن يزيد بن زياد الدمشقي عن الزهري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ ورواه وكيع عن يزيد بن زياد نحوه ولم يرفعه، ورواية وكيع أصح، وقد رُوِيَ نحو هذا عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ أنَّهم قالوا مثل ذلك)). وقال الحاكم: ((صحيح الإسناد ولم يُخرِّجاه)) ووافقه الذهبيُّ.

5- قد يُوصفُ العصر بصفاتٍ تجعل الاستثناء مطبقًا بصورةٍ عامَّةٍ، في حين أنَّ الاستثناءَ بطبيعتِه يجب أن يطبَّقَ بصورةٍ مقصورةٍ عليه، من ذلك وصفُ العصرِ بأنه عصرُ ضرورةٍ، ومن ذلك وصف العصر بأنه عصر شُبهةٍ، ومن ذلك وصف العصر بأنه عصرُ فتنةٍ، ومن ذلك وصف العصر بأنه عصرُ جهالةٍ، وهذه الأوصاف تؤثِّر في الحكم الشرعيِّ؛ فالضرورة تبيح المحظورَ، حتىٰ لو عمَّت واستمرَّت، ولذلك أجازوا الدَّفن في الفساقي المصريةِ مع مخالفتِها للشريعة، والشُّبهة تجيز إيقافَ الحدِّ كما صنع عمرُ بن الخطاب ﷺ في عام الرَّمادة حيث عمَّت الشُّبهةُ بحيث فُقد الشرط الشرعي لإقامة الحدِّ، والإمام جعفر الصادق والكرخي من الحنفية وغيرهما أسقطوا حرمةَ النظرِ إلىٰ النساء العاريات في بلاد ما وراء النَّهر لإطباقهنَّ علىٰ عدم الحجاب حتىٰ صار غضُّ البصر متعذرًا إن لم يكن مستحيلًا، ونصَّ الإمام الجويني في كتابه ((الغياثي)) علىٰ أحوال عصر الجهالةِ وفصَّل الأمر تفصيلًا عند فقد المجتهدِ ثم العالم الشَّرعي ثم المصادر الشرعية، فماذا يفعل الناس؟

ويتَّصل بهذا ما أسماه الأصوليون في كتبهم كالرازي في ((المحصول)) بالنَّسخ العقلي، وهو أثر ذهاب المحلِّ في الحُكم، وهو تعبيرٌ أدقُّ؛ لأن العقل لا ينسخ الأحكامَ المستقرةَ، وذلك بإجماع الأمة، ولكن الحُكم لا يطبق إذا ذهب محلُّه؛ فالأمر بالوضوء جعل غَسل اليد إلىٰ المِرفقين من أركانِه، فإذا قُطعت اليد تعذَّر التطبيقُ أو استحالَ، وكذلك الأحكام المترتبة علىٰ وجود الرقيق، والأحكام المترتبة علىٰ وجود الخلافة الكبرىٰ، والأحكام المترتبة علىٰ وجود النَّقدين بمفهومهما الشَّرعي من ذهبٍ أو فِضة، وغيرِ ذلك كثيرٌ.

6- من أجل الوصول إلىٰ تنفيذ حُكم الشرع، ومراد الله سبحانه منه، والوصول إلىٰ طاعة الله ورسوله يجب علينا أن ندركَ الواقع، ورد في شُعب الإيمان من موعظة آل داود عليهما السلام عن وهب بن منبه يقول: ((وعلىٰ العاقلِ أن يكون عالمًا بزمانِه، ممسكًا

للسانِه، مقبلًا على شأنه)).

ومن هنا فإن الفقهاء نصُّوا على أن الأحكامَ تتغير بتغير الزَّمان إذا كانت مبنية على العُرف (نص المادة 90 من مجلة الأحكام العدلية) وأجاز المذهب الحنفي في جانب المعاملات العقودَ الفاسدةَ في ديار غير المسلمين، فتغيَّرت الأحكام بتغير المكانِ، وقاعدة: ((الضروراتُ تبيح المحظوراتِ)) المأخوذة من قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 173] تجعل الشأنَ يتغير بتغير الأحوالِ، وكذلك تتغير هذه الأحكام بتغير الأشخاص، فأحكام الشخص الطَّبيعي الذي له نفس ناطقة تختلف عن الشخص الاعتباريِّ حيث لا نفسَ له ناطقة.

وهذه الجهات الأربع وهي الزمان، والمكان، والأشخاص، والأحوال هي التي نصَّ عليها القرافي كجهاتٍ للتغير يجب مراعاتها عند إيقاع الأحكامِ على الواقع.

ومعلومٌ أن عصرنا لم يعد أمسه يعاش في يومِنا، ولا يومنا يعاش في غدنا، وسبب ذلك أمور، منها: كَمُّ الاتصالات والمواصلات، والتقنية الحديثة التي جعلت البشرَ يعيشون وكأنهم في قريةٍ واحدةٍ، ومنها زيادة عدد البشر زيادة مطردة لا تنقص أبدًا منذ 1830 ميلادية وإلى يومنا هذا.

ومنها: كم العلوم التي نشأت لإدراك واقع الإنسان في نفسِه، أو باعتباره جزءًا من الاجتماع البشري، أو باعتباره قائمًا في وسط هذه الحالة التي ذكرناها.

وسمات هذا العصر هذه ونحوها غيَّرت كثيرًا من المفاهيم؛ كمفهوم العقد، والضمان، والتسليم، والعقوبة، ومفهوم المنفعة ومفهوم السياسة الشرعية، فلابدَّ من إدراك ذلك كلِّه حتى لا تنفلت منا مقاصدُ الشريعة العُليا.

7- يمكن عرض تجارب الدول الإسلامية المعاصرة مع قضية الحدود:

أ- فنجد أن السعودية تطبق الحدودَ عن طريق القضاء الشرعي مباشرةً من غير نصوص قانونية مصوغة في صورة قانون للعقوبات الجنائية، والتطبيق السعودي للحدود مستقرٌّ،

وليس هناك أي دعوة أو توجه مؤثِّر لإلغائها أو إيقافها أو تعليقها.

ب- حالة باكستان والسُّودان، وإحدىٰ ولايات نيجيريا، وإحدىٰ ولايات ماليزيا، وإيران التي نصَّت قوانينُهم علىٰ الحدود الشرعية، فتمَّ الإيقاف الفعلي لها من ناحية الواقع في باكستان، وتمَّ تعليقها بعد عهد النميري في السُّودان، وتمَّ تعليقها أيضًا في إيران وماليزيا، وطُبقت في ولاية نيجيريا بصورةٍ غاية في الجزئية، ويشيع في كلِّ هذه البلدان العمل بالتعزير بدلًا من تطبيق الحدّ، فيما عدا الجرائم التي تستوجب الإعدامَ.

ج- بقية الدول الإسلامية التي يبلغ عددها 56 دولةً من مجموع 196 دولةً في العالم سكتت في قوانينِها عن قضية الحدود، وكانت وجهة النظر في هذا الشأن أن عصرنا عصر شبهة عامَّة، والنبي ﷺ يقول «ادرءُوا الحدودَ بالشُّبهات»[1]. كما أنَّ الشهود المعتبرين شرعًا لإثبات الجرائم التي تستلزم الحدَّ قد فُقدوا من زمنٍ بعيدٍ؛ فيورد التنوخي في كتابه «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» في معنىٰ غياب العدول من الشهود فيقول: «حدثني أبو الحسين محمد بن عبيد الله المعروف بابن نصرويه، قال: قَبِلَ التيمي القاضي- كان قديمًا عندنا بالبصرة- ستةً وثلاثين ألف شاهد في مدة ولايته»[2]. ويقول في موضع آخر: «سمعت قاضي القضاة أبا السائب عُتبة بن عبيد الله ابن موسىٰ يقول: الشاهد إذا لم تكن فيه ثلاث خلال... إلىٰ أن قال: ثم قال: ما ظنكم ببلد فيه عشرات ألوف ناس، ليس فيهم إلا عشرة أنفس أو أقل أو أكثر، وأهل ذلك المِصر كلُّهم يريد الحيلةَ علىٰ هؤلاء العشرة، كيف يسلمون إن لم يكونوا شياطين الإنس في التيقظ والذكاء والتحرز والفهم؟»[3].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (262/1) تأليف: القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي- تحقيق: عبود الشالجي- دار صادر- بيروت.

(3) نشوار المحاضرة (269/2).

والتفتيش للوصول إلىٰ الحقيقة التي تؤدي إلىٰ إقامة الحدِّ ليس من منهاج الشريعة، فإن ماعزًا أتىٰ يقرُّ علىٰ نفسِه، فأشاح النبيُّ بوجهه أربعَ مراتٍ، ثم أحاله علىٰ أهلِه لعلهم يشهدون بقلَّة عقلِه أو جنونه، ولما جزع وفرَّ أثناء إقامة الحدِّ عليه قال رسول الله ﷺ لأصحابه ﷺ: ((هلا تركتمُوه؛ لعلَّه أن يتوبَ فيتوبَ الله عليهِ))[1]. أخذ العلماء من هذا جواز الرجوع عن الإقرار ما دام في حقٍّ من حقوق الله، وليس بشأن حقٍّ من حقوق البشر، كما أن النبيَّ ﷺ لم يسأله عن الطرف الآخر للجريمةِ وهي المرأة التي زنىٰ بها، ولم يُفتش عنها كنوعٍ من أعمال استكمال التحقيق، وروي عن أبي بكر وعمرَ وأبي الدرداء وأبي هريرة: أن السارق كان يُؤتىٰ به إليهم، فيقولون له: ((أسرقتَ؟ قل: لا!)).

فالنصُّ علىٰ الحدودِ كما ذكرنا يُفيد أساسًا تعظيمَ الإثم الذي جُعل الحدُّ بإزائِه، وأنَّه من الكبائر والقبائح التي تستوجب هذا العقابَ العظيمَ، ويؤدي ذلك إلىٰ ردعِ الناسِ عن هذه الجرائم علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: 16] ويكمل الحدُّ في هذا الشأنِ الضبطَ الاجتماعيَّ الذي يتولَّد من الثقافة السائدة لدىٰ الكافة باستعظام هذه الآثامِ، ونبذِ مَنِ اشتَهر بها أو أعلنها أو تفاخرَ بفعلها، كما أنَّ الشرع فتح بابَ التوبةِ وأمر بالستر في نصوصٍ عديدة من الكتاب والسُّنة. وبهذا العرض الموجَز نكون قد بيَّنَّا التأصيلَ الشرعيَّ والتوصيفَ الشرعي والواقعي لقضية تطبيق الشريعة، ومساحة الحدود فيها))[2].

أيها القارئ الكريم مما سبق يتبيَّن لنا حدودُ المسألة وأركانُها، ويتَّضح أنَّ مفهومَ

---

(1) جزء من حديث أخرجه أبو داود في كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك (4419) والحاكم في مستدركه (363/4) من طريق وكيع عن هشام بنِ سعدٍ قال حدثني يزيد بنُ نُعيم بنِ هَزَّالٍ عن أبيهِ به مرفوعًا. قال الحاكم: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)). وقال عنه الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (164/4) ((إسناده حسن)).

(2) البيان لما يشغل الأذهان (73/1- 78) تأليف: الأستاذ الدكتور علي جمعة- دار المقطم للنشر والتوزيع- مصر- الطبعة الحادية عشر- 2005م.

الشريعة الإسلاميَّة أوسعُ من المفهوم الضيِّق الذي يريدُ هؤلاء أن يحصروها فيه، وأنَّ دعوة وقوع المجتمعات الإسلاميَّة في شِرك الحاكميَّة هي دعوىٰ باطلةٌ قائمة علىٰ النزعة التكفيريَّة لدىٰ أصحاب المناهج الضَّالة والفكر المنحرف، وأنَّ مسألة سن القوانين المنظِّمةِ للعقوبات ليس من باب ردِّ الشريعة أو استبدالها؛ وإنَّما من باب مراعاة مقاصد الشريعةِ في ضبط قيام المجتمعاتِ، وحفظ حياةِ الناس وعقائدهم وأعراضِهم وأموالهم؛ وفقًا للظروف المحيطة والطَّبيعة والزمان والمكان.

ونزيد الأمر إيضاحًا بأن نتعرَّض لكلام أهل العِلم وتفسيرِهم لآيات كتاب الله الكريم، والتي جعلها أهلُ التكفير معتمدًا لمذهبهم وفقًا لرؤيتهم وفهمهم الباطل، وسوف يتبيَّن لنا من خلال السطور القادمة كيف أن مذهبهم هذا مبتورُ الصِّلة بفهم العُلماء وأقوالهم، وأن مذهب أهل السُّنة والجماعة يدلُّ علىٰ عكس مرادِهم.

فقد جعل أصحاب مقولة توحيد الحاكمية من أنفسِهم حكمًا علىٰ عقائد الناس وفقًا لرؤيتهم الخاصة؛ من حيث الحُكم بالتزامهم أو عدم التزامِهم بأحكام الشريعة، وبالتَّالي جعلوا لأنفسهم الحقَّ في إصدار الأحكام بالرِّدَّة والوقوع في الكُفر علىٰ المجتمعات أو الأفراد، وقاموا بعد ذلك بتطبيق الخطواتِ العمليَّةِ لمذهبهم من الصِّدام مع الحكومات ومؤسسات الدُّول، والقيام بالاغتيالات والتصفيةِ الجسدية لمن يرون أنهم من المرتدِّين.

كلُّ هذا الفهم الباطل والمنهج الضالّ بَنوه علىٰ ما استقلُّوا بفهمِه من بعض الآيات من القرآن الكريم، يتَّضح ذلك من خلال قولِهم: إن مجرد عدم إجراء الأحكام الشَّرعية وسريانها بصورةٍ محددةٍ هو كفرٌ مخرجٌ من الملَّة. دون النظر إلىٰ أن المجتمعات الإسلاميَّة لم ترفض هذه الأحكام بل تقول بمرجعيتها، وأنها مصدرٌ للأحكام والقوانين، وإنما عدم التمكُّن من تطبيقِها في بعض الأحيان يأتي- كما تمَّت الإشارة إليه سابقًا- من وجود عوارضَ زمنيَّةٍ أو مكانيَّةٍ.

فهم لم يجعلوا ذلك من باب الضَّرورات التي تفرض إجراءاتٍ تناسب طبيعةَ الواقعِ

المحيط في بعض الأزمنةِ، ولم يجعلوه من باب المعصيةِ علىٰ أكثر تقدير؛ وإنَّما جعلوه من باب الكُفر والرِّدَّةِ بناءً علىٰ فِكرتهم من أن ذلك من باب نقضِ التَّوحيد، فهم يستنبطون فِكرهم التكفيري من خلال فهمهم المُعوج لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:44] بحيث يقولون بكُفر مَن لم يقم بتنفيذ صورةٍ محددةٍ للحُكم الشرعيِّ، سواءٌ أكان ذلك من الأفراد أو المجتمعات، حتىٰ وإن لم يرفضوا ذلك الحُكم أو يعترضوا عليه، ويعتقدون اعتقادًا جازمًا أنها وحي الله وشريعته، وإنما وُجدت بعضُ الموانعِ المعتبرةِ في التصوُّر الكُلي لمقاصد الشريعة منعت من إجراء الحُكمِ بصورةٍ معينةٍ.

فهناك فرقٌ كبيرٌ بين ردِّ الحُكم أو رفضه والقولِ بعدم الانصياع له وأنه ليس بملزمٍ لنا وبين الاضْطِرار في بعض الأحيانِ لمخالفته لشهوةٍ أو عارضٍ من العوارض، مع القول بمرجعيَّته الكاملة لنا كأمةٍ ومجتمعاتٍ وأفرادٍ، وهذه المعاني تتضح عند استقراء واقع بلاد المسلمين، والتي تنصُّ كثيرٌ من دساتيرها علىٰ أنَّ الشريعة الإسلامية هي دِينُ الدَّولةِ، وأنَّ مردَّ القوانين إليها من خلال المذاهبِ الفقهيةِ.

وسنعرض لبعض أقوال أهل العِلم من سلفِ الأُمَّة في تفسيرِهم للآياتِ التي جعلها هؤلاءِ معتمدًا لفهمِهم ومنهجِهم، لنبيِّن الفرقَ بين فهم أهلِ العِلم وسلفِ الأمة، وبين الفهمِ الباطلِ لهذه الجماعاتِ؛ فقد ورد عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في تفسير هذه الآيات عدَّةُ آثارٍ، بعضُها يتَّجه إلىٰ أنَّ هذه الآية نزلت في اليهود، وبعضُها يتَّجه إلىٰ أن الكُفر المذكورَ فيها هو كفرٌ دون كفرٍ، وليس بالذي يُخرج من الملَّة.

أولًا: الآثار التي تدلُّ علىٰ أنَّ هذه الآيةِ نزلت في اليهود خاصَّةً:

فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مُرَّ علىٰ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بيهوديٍّ محمَّمًا مجلودًا، فدعاهم صلى الله عليه وسلم فقال: «هكذَا تجدونَ حدَّ الزَّاني في كتابِكم؟» قالوا: نعم، فدعا رجلًا من علمائِهم، فقال: «أُنشدكَ بالله الَّذي أنزلَ التَّوراةَ علىٰ موسىٰ، أهكذا تجدونَ حدَّ الزَّاني في كتابِكم؟» قال: لا، ولولا أنكَ نشدْتَني بهذا لم أُخبرْكَ، نجدُه الرَّجمَ،

ولكنَّه كثُر في أشرافِنا فكنَّا إذا أخذنا الشريفَ تركناه، وإذا أخذنا الضَّعيفَ أقمنا عليه الحدَّ، قلنا: تعالوا فلنجتمعْ على شيءٍ نقيمه على الشَّريف والوضيعِ، فجعلنا التَّحميمَ والجَلد مكان الرَّجمِ، فقال رسول الله ﷺ: ((اللهمَّ إني أوَّلُ مَن أحيا أمركَ؛ إذْ أماتُوه)) فأَمر به فرُجم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: ائتوا محمدًا ﷺ فإن أمركم بالتَّحميم والجَلد فخذُوه، وإن أفتاكم بالرَّجمِ فاحذروا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في الكفَّار كلِّها))[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُون﴾ [المائدة:44] إلىٰ قوله: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47] ((هؤلاءِ الآياتُ الثلاثُ نزلت في اليهودِ خاصَّةً في قريظةَ والنَّضيرِ))[2].

وقد ورد هذا الأثرُ عنه أيضًا مطولًا يوضِّح أسبابَ نزول الآيات فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُون﴾ [المائدة:44] و﴿فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُون﴾ [المائدة:45] و﴿فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون﴾ [المائدة: 47])): قال ابن عباس: ((أنزلها الله في الطَّائفتين من اليهودِ، وكانت إحداهما قد قهرتِ الأخرىٰ في الجاهليَّة، حتىٰ ارتضوا واصطلحوا علىٰ أنَّ كلَّ قتيلٍ قَتلَتْه العزيزةُ من الذَّليلة فديتُه خمسون وسقًا، وكلُّ قتيلٍ قتلَتْهُ الذَّليلةُ من العزيزةِ فديتُه مائةُ وسقٍ،

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا (1700) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية، باب في القاضي يُخطئ (3576)، وسعيد بن منصور (750 قسم التفسير من سننه) من طريق عبدالرحمن بن أبي الزِّناد عن أبيه عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما به موقوفًا.

فكانوا علىٰ ذلك حتىٰ قدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ، وذلَّت الطائفتان كلتاهما لَمقدَمِ رسولِ الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يومئذٍ لم يظهر، ولم يوطئهما عليه، وهو في الصُّلحِ، فقتلت الذَّليلةُ من العزيزةِ قتيلًا، فأرسلت العزيزةُ إلىٰ الذليلةِ: أن ابعثوا إلينا بمائةِ وسقٍ، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حيَّينِ قطُّ دينهما واحدٌ ونسبهما واحدٌ وبلدهما واحدٌ ديةُ بعضهم نصفُ ديةِ بعضٍ؟! إنَّا إنما أعطيناكم هذا ضيمًا منكم لنا، وفرَقًا منكم، فأما إذ قدم محمدٌ فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا علىٰ أن يجعلوا رسولَ الله ﷺ بينهم، ثم ذكرتِ العزيزةُ، فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيمًا منَّا وقهرًا لهم، فدُسُّوا إلىٰ محمدٍ مَن يخبر لكم رأيه: إنْ أعطاكم ما تريدون حكَّمتموه، وإنْ لم يعطِكم حذرتم فلم تُحكِّموه، فدسُّوا إلىٰ رسول الله ﷺ ناسًا من المنافقين ليخبروا لهم رأيَ رسولِ الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبر الله رسولَه بأمرهم كلِّه وما أرادوا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: 41] إلىٰ قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47] ثم قال فيهما: والله نزلت، وإيَّاهما عنىٰ الله عزَّ وجلَّ))(1).

ثانيًا: الآثار التي تدلُّ علىٰ أن هذه الآيات تدلُّ علىٰ أنه ليس المراد به الكفرَ الأكبرَ المخرج عن الملة: ما رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال عن هذه الآية الكريمة: ((إنَّه ليس بالكُفر الذي يذهبون إليه إنَّه ليس كفرًا ينقل عن الملَّة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُون﴾ كفرٌ دون كُفرٍ))(2).

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (1/246) والطبراني في الكبير (10/ 302) من طريق عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس رضي الله عنهما به موقوفًا. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (7/ 80) ((رواه أحمد والطبراني بنحوه، وفيه عبدالرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف، وقد وُثق، وبقية رجال أحمد ثقات)).

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه (2/313) والبيهقي في الكبرىٰ (8/20) من طريق سفيان بن عيينة، عن هشام بن حجير، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا. وقال الحاكم: ((هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرِّجاه)). وقال الذهبي: ((صحيح)).

وقِيلَ لابن عباس: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ((هي كُفره وليس كَمَن كفر بالله واليومِ الآخرِ))[1].

وسُئِلَ ابن عباس عن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]. قال: ((هي كفر)) قال ابن طاوس: ((وليس كَمَن كفر بالله وملائكته ورسُلِه))[2]. فهذه أقوال حَبر الأمة وتَرجمان القرآن في أسباب نزول الآيات وكذلك بيان معانيها وصرف معنىٰ الكفر الأكبر والخروج من الملة.

ومن أقوالِ أهل العِلم عن هذه القضيَّة:

ما أخرجه الإمام الطبريُّ في تفسيره من طريق المثنَّىٰ قال: ثنا عبدالله بن صالح قال: ثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44] قال: ((مَن جحدَ ما أنزلَ الله فقدْ كفر، ومَن أقرَّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق)).

ثم قال الطبريُّ بعد أن ساق الاختلافَ في تفسير هذه الآية: ((وأولىٰ هذه الأقوال عندي بالصَّواب قول مَن قال: نزلت هذه الآيات في كفار أهلِ الكِتابِ؛ لأنَّ ما قبلها وما بعدها من الآياتِ ففيهم نزلت، وهم المعنيون بها، وهذه الآياتُ سياق الخبر عنهم فكونها خبرًا عنهم أولىٰ.

فإن قال قائل: فإن الله تعالىٰ ذِكره قد عمَّ بالخبر بذلك عن جميع مَن لم يحكم بما أنزلَ الله، فكيف جعلته خاصًّا؟ قيل: إنَّ الله تعالىٰ عمَّم بالخبر بذلك عن قومٍ كانوا بحُكم الله الذي حكم

(1) أخرجه سفيان الثوري في تفسيره (ص101) من طريق ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا إسناد صحيح؛ إلَّا أن سفيان لم يسمعه من ابن طاوس، وإنما بينهما معمر، فقد أخرجه محمد بن نصر المروزوي في تعظيم قدر الصلاة (2/521) والطبري في تفسيره (8/465) وأبو بكر الخلَّال في السُّنة (4/158- 159)، وابن بطة في الإبانة الكبرىٰ (2/ 734) من طريق سفيان عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: ((هو به كفره، وليس كمن كفر بالله، وملائكته وكتبه ورسله)). ولفظ الطبري: ((هي به كفر...)).

(2) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (2/20) ومحمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (2/521) من طريق معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما به موقوفًا.

به في كتابِه جاحدينَ، فأخبر عنهم أنهم بتركِهم الحُكمَ علىٰ سبيل ما تركوه كافرون، وكذلك القولُ في كلِّ مَن لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به- هو بالله كافرٌ، كما قال ابن عباس؛ لأنه بجحودِه حُكمَ الله بعد عِلمِه أنه أنزله في كتابِه نظير جحوده نبوَّة نبيِّه بعد علمِه أنه نبيٌّ))[1].

يقول الفخرُ الرازي رحمه الله: ((قال عِكرمة: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ إنما يتناول مَن أنكر بقلبِه وجحدَ بلسانِه، أمَّا مَن عرف بقلبه كونه حكم الله وأقرَّ بلسانه كونه حُكم الله؛ إلا أنَّه أتىٰ بما يضادُّه فهو حاكمٌ بما أنزل الله تعالىٰ، ولكنَّه تاركٌ له، فلا يلزم دخولُه تحت هذه الآيةِ، وهذا هو الجوابُ الصَّحيحُ))[2].

وقال الإمام الغزالي عن معاني هذه الآية: ((قوله تعالىٰ بعد ذِكر التَّوراة وأحكامها ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44] قلنا: المرادُ به ومَن لم يحكم بما أنزل الله مُكذِّبًا به وجاحدًا له))[3].

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي في تفسيره: ((لفظ هذه الآية ليس بلفظ عموم؛ بل لفظ مشترك يقع كثيرًا للخصوص كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ﴾ [المائدة: 44] وليس حكام المؤمنين إذا حكموا بغير الحقِّ في أمرٍ بكفرةٍ بوجهٍ))[4]. ◆

(1) جامع البيان في تأويل القرآن (357/10) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري- تحقيق: أحمد شاكر- مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولىٰ- 2000 م.

(2) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير (368/12) لأبي عبدالله محمد بن عمر الرازي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثالثة- 1420هـ.

(3) المستصفىٰ في علم الأصول (398/1) لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي- تحقيق: محمد بن سليمان الأشقر- مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 1997م.

(4) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (95/2) لأبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي - تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1422هـ.

خاتمة

أيها القارئ الكريم في نهاية هذه الرِّسالةِ الصَّغيرةِ نرجو أن تكونَ قد أسهمتْ في إلقاء الضوءِ علىٰ أمرِ الحاكميةِ، بحيث تمثِّلُ حصانةً من الوقوع في أمر التكفير، من خلال ما اشتملت عليه من الآثار والأقوال عن سلف الأمة وعلمائها وأئمَّتها في بيان معاني الآيات التي هي معتمد أصحاب الفكر الضالِّ في مذهبِهم ومنهجِهم وأطروحاتِهم، وهي تنفي ما أراد أهلُ الباطلِ تأصيلَه من اتجاهِهم التَّكفيريِّ.

وفي نهاية رسالتِنا هذه نكرِّرُ السؤالَ الهامَّ مرةً أخرىٰ هل نسير خلفَ علماءِ الأُمة وأئمَّتها أم خلف أدعياء العلم؟! ولو غضضنا الطَّرفَ قليلًا عن الأدلةِ الشَّرعيةِ في هذِه القضيَّةِ، وتصوَّرنا المسألةَ تصوُّرًا عقليًّا مجردًا، ونظرنا لواقع الأُمة والمجتمعات الإسلاميَّة وحالِ المسلمين الآنَ، وما تحتاج إليه من النهضة والإصلاح فهل من العقل أو الحِكمة أن تكون أطروحاتُنا الإصلاحية مبنيةً علىٰ مناهجَ لشقِّ الصُّفوفِ، والتكفير، والتضليل، والتَّفسيق والتَّبديع؟! وهل رأيْنَا أمةً قامت نهضتُها علىٰ مثلِ هذه المناهجِ السَّلبيةِ؟! وهل من المناسب لنا في وسط هذا العالم ونحن في مثل هذه الحالة من الضَّعف والتخلُّف عن رَكْبِ الحضارةِ في مجالاتٍ كثيرةٍ أن يكون عرضنا لقضيَّة الدِّين والشَّريعة والالتزام بهما من خلال مدخلٍ تكفيريٍّ، بحيث لا يكون هناك شاغلٌ لدىٰ الشَّاب إلَّا أن يتفقَّهَ في أحكام التَّكفير والرِّدَّةِ والولاء والبراءِ والجاهليةِ، والحكم علىٰ الأفراد ودخولهم أو خروجهم من الإسلام؟ كلُّ ذلك يتمُّ باسم الدِّين وتصحيح العقيدة، فاختزل الدينُ والشريعة ومقاصدها والمراد الإلهي منها في عدَّة مصطلحاتٍ، فالأمر أظهر من أن يخفىٰ علىٰ عاقلٍ، ونتائجه المأساوية واضحةٌ لكلِّ ذي عينين وإدراكٍ، فنحن نسير من انقسامٍ إلىٰ انقسامٍ، وإلىٰ فُرقةٍ ونزاعٍ، وليس أمامنا من سبيلٍ إلا هجرَ هذه المذاهب الباطلةِ والمناهجِ الضَّالةِ، والعودة إلىٰ هَدي النبيِّ ﷺ بلا إفراطٍ أو تفريطٍ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون ﴿180﴾ وَسَلَامٌ عَلَىَ الْمُرْسَلِين ﴿181﴾ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾. ◆

الرسالة التاسعة والثلاثون
مبدأ الاستعلاء في منهج الجماعات التكفيرية

وتشمل المحاور التالية:

المحور الأول: المساواةُ بينَ النَّاسِ والتَّواضُعُ هما سمةُ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، وهَدْيُ النَّبيِّ ﷺ.

المحور الثاني: نَحْوَ فَهْمٍ صحيحٍ لمصطلحِ استعلاءِ الإيمانِ، والفرقُ بينَ الاعتزازِ بالإيمانِ والاستعلاءِ على الغيرِ.

المحور الثالث: الدَّعوةُ إلى الدِّينِ بين المرادِ الإلهيِّ والمصالحِ الذَّاتيَّةِ.

المحور الرابع: الاستعلاءُ في منهجِ جماعةِ الإِخْوانِ على سبيلِ المثالِ، وذلك من خلالِ أدبيَّاتِ قادةِ هذه الجماعةِ.

المحورُ الخامسُ: الآثَارُ العمَلِيَّةُ لتَأْصِيلِ هذا المبدأ في منهج هذه الجماعات. ◆



« وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ » – آية **34** من سورة فاطر

مبدأ الاستعلاء في منهج الجماعات التكفيرية

الحمدُ لله الواحد المعبود، عمَّ بحكمتِهِ الوجودَ، وشَمِلتْ رحمتُه كلَّ موجودٍ، نحمدُه سبحانه وهو بكلِّ لسانٍ محمود، ونشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريكَ له، الغفور الودود، ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا ﷺ عبدُالله ورسولُهُ، صاحبُ المقامِ المحمودِ، واللواءِ المعقودِ، والحوضِ المورودِ، صلواتُ الله وسلامهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الرُّكَّعِ السجودِ، أما بعد:

فهذه رسالةٌ لطيفةٌ نستكشفُ فيها ركنًا من أركان دعوةِ الجماعات التكفيرية، ومبدءًا من مبادئها عبر تاريخها؛ ألا وهو: مبدأ الاستعلاء، والنَّظرة المتعالية إلىٰ مَن ليس من جماعتهم، وقد اتخذوه منهجًا يسيرون عليه.

والغرض من الحديث عن هذا المبدأ عند تلكَ الجماعات يتلخَّص في عدة أمور:

أولًا: بيان أن هذا السلوك لم يكن عليه النبيُّ ﷺ ولم يتخذه منهجًا في دعوته ونَشْرِ رسالته في ربوعِ الأرض، ولم يكن في يومٍ من الأيام سلوكًا لأصحابه رضوانُ الله عليهم، ولا سلوكًا لسلفِنا الصَّالِحِ رضوان الله عليهم أجمعين.

ثانيًا: بيان أن مراد الشريعة الإسلامية لم يكن أبدًا تكوين جيلٍ يستعلي علىٰ الخَلق؛ وإنما هدفها هو تربيةُ جيلٍ مؤمنٍ يحمل رحمة هذا الدِّين للعالمين، وذلك بحُسن عَرض هذا الدِّين، وتقديمه من خلال معاني الرحمة والإحسان.

وسنحاول في هذه الرسالة إلقاءَ الضوءِ علىٰ المخالفاتِ الشَّرعيةِ في منهج تلك الجماعات التكفيريَّة، التي اتَّخذت من أسلوب الاستعلاءِ علىٰ الآخر منهجًا وطريقًا في التعامل؛ وذلك من خلال التعرُّض لأُطروحاتِهم الفِكريَّةِ التي قدَّموها للأمَّةِ المسلمة، بحيث يتبيَّنُ لنا أن هذا المنهج البغيضَ المخالف للشريعة الإسلاميَّةِ أدَّىٰ بهذه الجماعاتِ وأفرادِها للوصولِ إلىٰ درجةِ الغُرُورِ حتىٰ ظنوا أنَّهم هُمُ الإسلامُ، وهم فقط الممثِّلُون لهذهِ الشَّريعَةِ؛ ونتيجة لهذا فقد عدُّو كُلَّ مَن ليسَ منتميًا لهم فهو دونهم مكانةً ومنزلةً وفهمًا.

وهدفنا من عرضِ هذه المفاهيمِ هو تحذير كلِّ مسلم من أيِّ منهجٍ أو طريقٍ يخالفُ هَدْيَ النبي ﷺ، والتَّحذير كذلكَ منْ كلِّ جماعةٍ تُقدِّمُ الدِّينَ في صورةٍ مغلوطةٍ مخالِفَةٍ لحقيقتهِ.

وسَيَنْتظِمُ الحديثُ عن هذا الموضوعِ في خمسةِ محاورَ، وهي:

المحور الأول: المساواةُ بينَ النَّاسِ والتَّواضُعُ هما سِمةُ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، وهَدْيُ النَّبيِّ ﷺ.

المحور الثاني: نَحْوَ فَهْمٍ صحيحٍ لمصطلحِ استعلاءِ الإيمانِ، والفرقُ بينَ الاعتزازِ بالإيمانِ والاستعلاءِ على الغيرِ.

المحور الثالث: الدَّعوةُ إلى الدِّينِ بين المرادِ الإلهيِّ والمصالحِ الذَّاتيَّةِ.

المحور الرابع: الاستعلاءُ في منهجِ جماعةِ الإِخْوانِ على سبيلِ المثالِ، وذلك من خلالِ أدبيَّاتِ قادةِ هذه الجماعةِ.

- الاستعلاءُ في فكْرِ حَسنِ البَنَّا.
- الاستعلاءُ في فِكْرِ سيِّد قُطْبٍ.

المحورُ الخامسُ: الآثَارُ العمَلِيَّةُ لتَأْصِيلِ هذا المبدأ في منهج هذه الجماعات. ◆

المساواةُ بين الناسِ والتواضعُ
هما سمةُ الشريعةِ الإسلاميةِ وهَدْيُ النَّبيِّ ﷺ

عندما أَذِنَ الله سبحانه وتعالىٰ لنورِ الهدايةِ أن يَعُمَّ الأرضَ ببعثةِ النبيِّ ﷺ ونزولِ القرآنِ الكريمِ- كان منْ أهمِ أهدافِ هذه الشريعةِ العظيمةِ بناءُ الشخصيَّةِ المسلمةِ السويَّةِ؛ فاشْتَمَلَ كتابُ الله سبحانه وتعالىٰ وسُنَّةُ نبيِّهِ ﷺ علىٰ الأركانِ والعواملِ والأخلاقِ التي تساعدُ علىٰ بناءِ هذه الشخصيَّةِ، فكان غَرس خُلُقِ التواضعِ، والنظرِ إلىٰ النَّفسِ بعدمِ الرضا، والعملِ علىٰ عدمِ اتِّبَاعِ هوىٰ النَّفْسِ والاغترارِ بالحالِ أو المنزلةِ من أدواتِ الشَّريعةِ الإسلامية لتكوينِ الشخصيةِ المسلمةِ.

فعَمِلَتْ الشريعةُ علىٰ إلزامِ المسلمِ نفسَه مقامَ العبودية لله، فلا يرىٰ في نفسِه مَزِيَّةً تُميِّزهُ عن عبادِ الله، أو يظنُّ بنفسهِ أنَّه أفضل من الآخرين.

ظهر ذلك من خلال المنهج المحمَّدي في التربية، والذي صنع به النبيُّ ﷺ المثالَ الأسمىٰ للإنسان المسلم، فظهر أثرُه في صحابته الكِرام رضوان الله عليهم، فكانوا خيرَ جيلٍ عرَفَتْهُ البشريةُ من حيثُ الإيمانُ والأخلاقُ والسُّلوكُ.

يقول الله عز وجل في كتابه الكريم وهو يرشدُنا إلىٰ تزكِيَةِ النَّفْسِ: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18].

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:83].

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِين﴾ [الحجر: 88].

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِين﴾ [النحل: 23].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُون﴾ [السجدة:15].

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ [الفرقان:63].

وجاء في سُنَّة النبيِّ ﷺ الكثيرُ من النُّصوص التي تحثُّ على التزام التواضعِ قولًا وفعلًا:

يقول النبي ﷺ: ((وَإِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ))[1].

ويقول النبيُّ ﷺ: ((لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)) قال رجلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قال: ((إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))[2].

وقد كان النبيُّ ﷺ وهو أعظمُ الخَلْقِ وحبيبُ الحقِّ- أشدَّ الخلقِ تواضعًا مع الخَلقِ، فقال عن نفسه ﷺ عندما دخل عليه أحدُ الناس، فأصابته هيبةٌ من النبيِّ ﷺ فارتعدت فرائصُه، فقال له النبي ﷺ: ((هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ القَدِيدَ))[3].

هذا مثالٌ بسيطٌ لما اشتملت عليه هذه الشريعةُ المطهَّرةُ، من الحثِّ على غرسِ التَّواضعِ وعدمِ الاغترارِ بالنفسِ في الشخصية المسلمةِ، وهذا هو الهَدي النَّبويُّ الذي أراد سبحانه وتعالىٰ أن نهتديَ به ونسيرَ عليه.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهلُ الجنَّة وأهلُ النار (2865) من حديث عِياض بن حمار رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكِبْر وبيانه (147) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب القديد (3312) والطبراني في الأوسط (64/2) والحاكم في مستدركه (48/3) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي مسعود رضي الله عنه به مرفوعًا. وقال الحاكم: ((هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه)) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (19/4): ((هذا إسناد صحيح رجاله ثقات)).

فعندما يأتي شخصٌ أو جماعةٌ يعملون تحت مسمَّى الدعوة للدِّين، وتطرح منهجًا دعويًّا أو تربويًّا يحتوي على خلاف هَدي النبيِّ ﷺ في تنشئةِ النفسِ البشرية- فهي بلا شكٍّ عند ذلك تبتعد بالمسلمينَ عن حقيقة هذه الشريعةِ وطبيعةِ هذا الدِّين.

وهذا ما حدث من جماعة الإخوان خلال مسيرتِها عبرَ العقودِ الماضية، فقد أسَّست منهجًا لتنشئة أتباعها خالفت فيه الكثيرَ من الهَدي المحمَّدي، يظهر ذلك في أدبيات هذه الجماعة بصورٍ متعددةٍ، فنتج عنه في نهاية الأمر ظهورُ جيلٍ من المنتمين إلى هذه الجماعةِ يعتقد أنَّه غيرُ بقيةِ الناسِ، فكوَّنَ لنَفْسِه مكانةً لمْ تُعْطِها لهم الشريعةُ، وأنزلَ نفسَهُ منزلةً لم يمنحْها لهم الدِّينُ.

فدِين الله يقول لك: أيها المسلم أنتَ كغيرِكَ من الناس، أنتَ متساوٍ معهم، ليس لك فضلٌ عليهم من أيِّ وجه، فاعمل على القُرب من الله والإصلاح من شأنكَ، وأحسن الظنَّ بالناس، وكُن ناظرًا لعيوب نفسكَ، واعلم أن مردَّ الأمر في النهاية إلى ربِّ العباد ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم:32].

أما منهجُ هذهِ الجماعةِ فهو يقولُ لمن ينتمي إليهَا: أنتَ مميَّزٌ، أنتَ غيرُ الناسِ، أنتَ صاحبُ الدَّعوةِ، وحاملُ رايتِها، وأنتَ المدافعُ عن هذا الدِّينِ في الوقتِ الَّذِي تركهُ غيرُكَ، وأنتَ الموعودُ بالنَّصرِ الإلهيِّ والتمكينِ.

فنبتت فكرةٌ في أذهانِ أتباع هذه الجماعة ونمت عبر السِّنين، وهي أن أفضل تمثيلٍ للدِّين والشريعةِ يتمثَّل في منهجِ هذهِ الجماعةِ وطريقِها، وأنَّ أفضلَ مَن يُمثِّلُ الدِّينَ فهمًا وتطبيقًا هُم أفرادُ هذه الجماعةِ، ممَّا وَلَّدَ لدى أفرادِها الإعجابَ بالنَّفسِ، والتَّعالي في النَّظرةِ للخَلْقِ والتَّعاملِ معهم، فجعلُوا من ذلك كلِّهِ منهجًا للتَّعايُشِ والتَّعاملِ. ◆

نَحْوَ فَهمٍ صحيحٍ لمصطلحِ استعلاءِ الإيمانِ، والفَرْقُ بين الاعْتِزَازِ بالإيمانِ والاستعلاءِ علىٰ الغيرِ

من الأهمية بمكان أن نشيرَ إلىٰ معاني مصطلح استعلاء الإيمان في تراثِنا الإسلامي، وذلك لأن هذا المصطلحَ قد استُخدم بعد ذلك في أدبيَّات بعضِ الجماعات الموجودة الآن، ومَن جاء بعدها للدلالة علىٰ معانٍ باطلةٍ ومواقفَ غيرِ شرعيةٍ يتمُّ تبنِّيها تحت مظلةِ هذا المصطلح، فعندما ذُكر هذا المصطلح في كُتب أهل العِلم كان المراد منه الاعتزازَ بالإيمان، وبنعمة الإسلام، وبمعيَّةِ الله سبحانه وتعالىٰ خاصَّةً في أوقات الشِّدة، ولم يكن المراد منه أن يشعرَ المسلمُ بالكِبر والغرورِ والتَّعالي علىٰ خَلق الله، فقد يحدث الخلطُ في الذِّهن بين أمرِ الاعتزاز بالدِّين والعقيدةِ والإيمانِ وبين أمرِ الاستعلاء عند بعض الناسِ، فالأول مطلوبٌ ممدوحٌ، والثاني مرفوضٌ مذمومٌ، فقد ذكَّرنا الله سبحانه وتعالىٰ في كتابه الكريم بمنَّةِ الدِّين والشَّريعة في غير آيةٍ، وبيَّن سبحانه أن ذلك الأمرَ هو أعظمُ النِّعم وأجلُّها، وجعل نظرةَ المسلم إلىٰ الحياة والوجود من خلال نافذة الدِّين والشَّريعة والمراد الإلهي؛ فجعلنا داخلَ دائرة العبودية له سبحانه، وانعكس ذلك علىٰ تعامُلِنا مع باقي المخلوقات؛ فالمسلم يرىٰ نفسَه حاملَ أمانةِ الدَّعوة والدِّين، وأنه نافذةٌ من نوافذ الخير للخَلق أجمعين، يعمل علىٰ تحقيق ذلك معتزًّا بدينه وإيمانِه في جوٍّ من الشَّفقة والرحمة مع الخَلق، فينفِّذ ما أراده الله سبحانه وتعالىٰ حيث قال: ﴿ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين﴾ [النحل:125].

فينظر المسلم إلىٰ الخَلق نظرةَ المشفقِ عليهم الرحيمِ بهم، الراجي لأن يصلهم من الخير ما وصله من رحمة الله وهدايته، ولسان حاله ومقاله ينطق بالاقتداء بسيد المخلوقات ﷺ الذي كان أشفق الخَلْقِ بالخَلْقِ، يصاحبه في ذلك كلِّه اعتزازٌ بعقيدته وتفاخرٌ بها،

فالاعتزازُ بالإيمان هو نوعُ إيمانٍ؛ من حيثُ إنه تعبيرٌ عن شُكرِ هذه النعمةِ، فالمسلمُ عزيزٌ بالله وبدينِ الله، وفي الوقتِ نفسهِ رحيمٌ بالخَلْق، شفوقٌ عليهم، كما كان حالُ نبيِّنا ﷺ.

أما الاستعلاء ومشتقاته فلم يطلبْهُ الله منَّا في تعاملِنا مع خَلْقِه؛ وإنَّما ذُكِرَتْ معانيه في القرآن الكريم لأمورٍ منها:

بيانُ ما يستحقُّه الله سبحانه وتعالىٰ من صفات العِزة والجلال التي تليق به سبحانه وتعالىٰ، وهذا لا مدخلَ فيه لمخلوقٍ من المخلوقات.

وذُكِرت كذلك في الحديث عن قتال المسلمين للكفَّار ودفاعِهم عن أنفسِهم في مقابلة أيِّ قوةٍ، فأرشدَتِ الآيات الكريمةُ المسلمينَ أن يستصحبوا حينئذٍ شعورَ العُلوِّ بالإيمان والعزة بالله في مقابلة قُوىٰ البغي والظُّلم.

يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾ [آل عمران: 139][1]. ويقول تعالىٰ: ﴿فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُم﴾ [محمد:35].

(1) جاء في تفسير القرطبي: «﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾ [آل عمران: 139] عزَّاهم وسلَّاهم بما نالهم يومَ أُحُد من القتل والجراح، وحثَّهم علىٰ قتال عدوِّهم ونهاهم عن العجز والفشل. فقال: ﴿وَلاَ تَهِنُوا﴾ أي لا تضعُفوا ولا تجبنوا يا أصحابَ محمَّدٍ عن جهاد أعدائِكم لما أصابكم. ﴿ولا تحزنوا﴾ علىٰ ظهورهم، ولا علىٰ ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أي لكم تكون العاقبةُ بالنصر والظَّفر ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي بصِدْقِ وَعْدِي. وقيل: ﴿إن﴾ بمعنىٰ: إذ. قال ابن عباس: «انهزم أصحابُ رسول الله ﷺ يومَ أُحد، فبينا هم كذلك إذ أقبل خالدُ بن الوليد بخيلٍ من المشركين يريد أن يعلوَ عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهمَّ لا يَعلُنَّ علينا، اللهم لا قوَّةَ لنا إلا بكَ، اللهم ليس يعبدكَ بهذه البلدةِ غيرُ هؤلاءِ النَّفر» فأنزل الله هذه الآيات. وثابَ نفرٌ من المسلمين رماةٌ فصعَدوا الجبلَ ورموا خيلَ المشركينَ حتىٰ هزموهم؛ فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ يعني الغالبين علىٰ الأعداءِ بعد أُحد. فلم يخرجوا بعد ذلك عسكرًا إلَّا ظَفِروا في كلِّ عسكر كان في عهد رسول الله ﷺ، وفي كلِّ عسكر كان بعد رسول الله ﷺ وكان فيه واحدٌ من الصحابة كان الظَّفر لهم، وهذه البلدان كلُّها إنما افتُتحت علىٰ عهد أصحاب رسول الله ﷺ ثم بعد انقراضِهم ما افتتحت بلدة علىٰ الوجه كما كانوا يفتتحون في ذلك الوقتِ. وفي هذه الآية بيانُ فضلِ هذه الأُمةِ؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءَه؛

وفي مواضعَ أخرىٰ اقترنت معاني ودلالاتُ كلمةِ العلوِّ والاستعلاءِ في كتاب الله بمعاني الظُّلمِ والفسادِ، فيقول الله سبحانه وتعالىٰ عن أمر فرعونَ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:4] ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿30﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان:30-31] ويقول سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:83].

فالمسلم عزيزٌ بالإيمان، تقيُّ الخُلُق، نقي النَّفس، غير متعالٍ علىٰ الخَلْق، فهو متوكِّلٌ علىٰ ربِّه، يشعر بالعزَّة بالارتكان إلىٰ مولاه، ولا يرىٰ لنفسِه فضلًا علىٰ غيرِه.

الدعوة للدِّين بين المراد الإلهيِّ والمصالح الذاتية

عندما أراد الله سبحانه وتعالىٰ منَّا كمسلمين إبلاغَ رسالتِه للعالمِينَ جعل ذلك في ظلِّ المنهج الربَّاني المتمثِّلِ في القرآن الكريم والسُّنةِ النبويَّةِ المطهَّرةِ، ولم يدَعْ سبحانه وتعالىٰ هذا الأمرَ إلىٰ التقديرات الشَّخصية، أو الرؤية الجماعية أو الفردية، فهو سبحانه وتعالىٰ الذي أنزل هذا الدينَ وأنزل كذلك المنهجَ الذي ندعو الناسَ به لهذا الدِّين، فالدين محفوظٌ معصومٌ، وكذلك المنهج، ولا تخلو أمةُ الإسلام أبدًا من المتمسِّكين بهذا المنهج والمحافظين عليه في وقتٍ من الأوقات، فليس هناك مجالٌ لابتداع أركانٍ جديدةٍ في منهج الدَّعوة إلىٰ الله، بحيثُ يتمُّ تأصيلُ قواعدَ جديدةٍ ونسبتُها إلىٰ منهجِ الدَّعوةِ للدِّينِ والتَّمكين لهُ.

لأنه قال لموسىٰ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: 68] وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ وهذه اللفظة مشتقَّةٌ من اسمِه الأعلىٰ فهو سبحانه العلي، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾)).

انظر: تفسير القرطبي (4/216- 217) لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي- تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية- القاهرة- الطبعة الثانية- 1384هـ - 1964م.

وعندَ النظرِ إلىٰ واقعِنا المعاصر وإلىٰ مناهج الجماعات التي زعمت العملَ من أجل دِين الله عز وجل فسنجد أن جماعةَ الإخوان المسلمين قد ابتدعت أركانًا جديدة في منهج الدعوة إلىٰ الله، ومن ذلك أنَّها غرست في أتباعِها مظاهرَ النَّظرة المتعالية لغيرِهم من المسلمينَ، والشُّعور بالتميُّز والخصوصية، وأنهم سدنةُ هذا الدِّين والأُمناءُ عليه، وهم وحدهم أصحابُ الرؤية الصحيحة لإصلاح حالِ هذه الأُمةِ، وأنهم أحقُّ الناس بقيادة الأُمة، فعلىٰ جميع المسلمين أنْ يسيروا وراءهم إن أرادوا الفلاحَ والنجاحَ!

وعند هذه النُّقطةِ يحدث الخلطُ بين حقيقة المرادِ الإلهيِّ في تحقيق الدَّعوةِ إلىٰ الدِّين، وبين المصالح الذَّاتيةِ للأفراد والجماعاتِ التي تُلْبِسُ طريقها ومنهجها ثوبَ الدِّين للوصول إلىٰ أهدافٍ دنيويةٍ؛ فتجعل من نفسها الممثِّل الوحيد للدِّين، وتجعل من أهدافها أهدافًا للدِّين، ولكننا عندما ننظر في المنهج الربَّاني نجد الطريقَ فيه هو الدَّعوة بالحِكمة والموعظةِ الحسنةِ، ونجد أن الهدفَ منه هو تحقيقُ رضا الله سبحانه ومحبَّةُ الخير لخَلْق الله.

وأمَّا في المناهج التي تبتعد عن هذا المنهج الإلهي وتخالفه نجد أنهم سلكوا طريق: الغاية تبرر الوسيلة. بمعنىٰ أن أيَّ وسيلةٍ مشروعةٍ أو غير مشروعةٍ يستخدمونها لتحقيق الأهداف- والتي هي عبارة عن تحقيقٍ للمنافع الذَّاتية في غالب الأحوال- بحيث نصل في نهايةِ الأمرِ أن يصبحَ الدِّين هو الجماعة والجماعة هي الدِّين، وما في صالح الجماعة هو ما في صالح الدِّين، فتغيب صورةُ الدِّين، وتظهر صورةُ الجماعةِ في الأقوال والأفعال والأحوال.

وليس في هذا شيءٌ من المبالغة؛ فقد ظهرت ملامحُ هذا المنهجِ في مسيرة جماعة الإخوان عبرَ السِّنين، وظهرت كذلك في أدبياتهم ومراجِعهم الفِكريَّةِ، ثم انتقل منها هذا المنهج إلىٰ باقي التيَّارات والجماعات التي ظهرت بعد ذلك؛ بحيث صار العمل المحرَّم كسَفْكِ دمِ المسلمِ وغير المسلم مباحًا وحلالًا، ونهب الأموال جائزًا؛ لأنه في صالح الجماعةِ والتي هي الممثلة للدِّين والحاملة لأمانته.

الاستعلاء في منهج الإخوان
من خلال أدبيات قادة هذه الجماعة

عندما نتحدث عن بطلان مبدأ الاستعلاء علىٰ الآخر من وجهة النَّظرِ الشرعيةِ والإنسانيَّة، يجب أن يكون في أذهانِنا أننا نقصد بذلك بيانَ خطورة هذا الأمرِ علىٰ المستوىٰ الفرديِّ والجماعي؛ لما يمثله هذه السُّلوك من صورةٍ للعُنصرية البغيضة التي يرفضها الإسلام، ونقصد أيضًا إظهارَ خطر هذه الفكرةِ وهذا المنهج عندما يقدَّمُ أمرُ الاستعلاء والنَّظرةِ المتعالية إلىٰ الغير علىٰ أنهما منهجُ إسلاميٌّ، وطريقةٌ للعمل من أجل الدِّين ومنهجُ لا بدَّ منه للشخصية المسلمة.

فلهذا كله نحذِّر من هذا الأمرِ، وليس هدفنا الحديث عن أشخاصٍ؛ وإنما هو بيانٌ لبطلان هذا المنهج والطريقِ. فعندما يقدِّم فردٌ ما نفسَه، أو تقدِّم جماعةٌ ما نفسَها بنوعٍ من التميز عن الآخرينَ، ولسان حالهم يقول: نحنُ غيرُكم، ونحن أعلىٰ منكم، ونحن المؤهَّلون لقيادتكم، ويُلبسون ذلك كلَّه ثوبَ الشريعةِ، فهنا لا شكَّ تزداد الخطورة؛ لأن ذلك المسلكَ منهم يلتصق بالدِّين ويُنسب إليه، فيتمُّ اتهام دينِنا الإسلامي بالعنصريَّة أو الطائفيةِ أو عدمِ مراعاة حقوق الآخرين.

يحدث هذا عند ممارسة هذا السُّلوك المخالف للشريعة ولهَدي النبيِّ ﷺ مع غيرِ المسلمين، فما بالنا إذا كان سلوكُ هذه الجماعة مع المسلمينَ أنفسهم؛ حيث نجد خطابَ هذه الجماعةِ لأبناء دينِهم مغلَّفًا بالاستعلاء، والنظرة المتعالية عليهم، ومصحوبًا بالممارساتِ العمليَّة التي يظهرُ فيها هذا الاعتقادُ بالتَّفوقِ والتَّميُّزِ، وكأنَّ لسانَ حالهم يقول: لكي تكون إسلاميًّا- وفقًا لمصطلحهم المعاصر- يجب أن تكون متعاليًا، ولكي تكون علىٰ الصَّواب يجب أن تكون متميِّزًا عنِ الآخرينَ وتُشعرهم بذلك في حالِك ومقالِكَ.

ومن نافلة القول هنا أن نذكر أن دعاوىٰ التَّميز ونظرة الاستعلاء علىٰ الغير علىٰ مرِّ التاريخ البشريِّ كانت من أهم أسباب قيام الحروبِ وتخريب الحضارات الإنسانيَّةِ، وسفك الدِّماء، ونهب الثروات، وإشعال نيرانِ الفتن بين الطوائف والشعوبِ، وما فكرة النازية ودعوتها بسموِّ الجنس الآري علىٰ البشر جميعًا عنَّا ببعيد.

فهذه الدَّعاوىٰ قد رفضها القرآن الكريم وحاربها وبيَّن بُطلانها، ودعا إلىٰ مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات العامَّة كمبدأ عامٍّ للتعايش بين البشر، وجعل قضيةَ الإيمانِ قضيةً اختياريةً بعد حُسن البلاغِ، ووكَّل الأمر في نهاية الأمر إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ في أمر الخَلق وحسابهم. فقد جاء في كتاب الله الكريم ما يؤصِّلُ لما هو مغايرٌ لمنهج الاستعلاء، في مجال التعامل مع البشر كافَّة قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجُرات: 13] وقال سبحانه: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم:32].

وقال النبي ﷺ وهو يُرسي مبدأَ المساواةِ بين البشرِ عامَّةً: ((يا أيُّها الناسُ ألَا إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أباكُم واحدٌ، ألَّا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ علَىٰ عجميٍّ، ولا لعجميٍّ علىٰ عربيٍّ، ولا أحمرَ علىٰ أسودَ، ولا أسودَ علىٰ أحمرَ إلَّا بالتَّقوىٰ، أبلَّغْتُ ؟)) قالوا: بلَّغَ رسولُ الله))[1].

فكيف تأتي بعد ذلك جماعةٌ تنسبُ نفسَها إلىٰ الدِّينِ فتؤصِّلُ لمبدأ الاستعلاءِ والنَّظرةِ الفوقيَّةِ إلىٰ غيرِها من طوائفِ المسلمين؟! بل وتجعل ذلك بابًا من أبواب الدَّعوة للدين والشَّريعة، وأصلًا من أصول العمل الإسلامي.

---

(1) أخرجه ابن المبارك في مسنده (ص146) وأحمد في مسنده (411/5) من طريق سعيد الجريري عن أبي نضرةَ حدَّثني مَن سمع خطبةَ رسولِ الله ﷺ به مرفوعًا. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (586/3): ((رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح)). وقد ورد التصريح باسم الصحابي عند أبي نُعيم في حلية الأولياء (100/3) والبيهقي في شعب الإيمان (132/7) من طريق شيبة أبي قلابة القيسي عن الجريري عن أبي نضرةَ عن جابر رضي الله تعالىٰ عنه به مرفوعًا.

فلو نظرنا إلىٰ جماعة الإخوان المسلمين بمنهجها وأفكارِها وأدبياتها، وكلام قادتِها ومرشديها نجد أنها أصَّلت لمبدأ الاستعلاء في نظرتهم لأنفسِهم وجماعتِهم، واتَّخذت من ذلك منهجًا لها، وألبست هذا المنهجَ ثوبَ الدِّين والشريعة؛ فترتَّب علىٰ ذلك آثارٌ سلبيةٌ خطيرةٌ أضرَّت بالمسلمين وألصقت بالدِّين ما هو منه بريءٌ، وسوف نتعرض لبعضِها فيما بعد.

ففتحت هذه الجماعةُ البابَ بعد ذلك أمام ما يسمَّىٰ بالتيارات والجماعات الإسلامية بمسمَّياتها المختلفة التي جاءت بعدهم إلىٰ تبنِّي هذا المسلكِ أيضًا، مما جعل كثيرًا من المخدوعين يظنُّ أنه لكي تصبح كاملَ الالتزام بدينِك فلابدَّ أن تحمل منهجَ الاستعلاءِ حالًا ومقالًا في تعامُلك مع الناس، وليس فيما قلناه ضربًا من الخيال أو التجنِّي علىٰ هذه الجماعة وقادتها؛ فسنأتي بنصوص كلامِهم الدَّالة علىٰ تأصيلهم لمبدأ الاستعلاء علىٰ الخَلْقِ عامَّة والمسلمينَ خاصَّةً في أثناء مسيرتِهم في مجالات العمل الدِّيني والدُّنيوي.

ولبيان صحة هذا الكلام من عدمِه سنورد كلامَ اثنين من أهمِّ الشَّخصيات المؤثِّرة في منهج وسُلوك جماعةِ الإخوان المسلمين؛ الأول هو مؤسِّسها حسن البنا، الذي أرسىٰ قواعدَ هذه الجماعةِ، ورسمَ طريقَها، وحدَّدَ أهدافَها. والثاني: هو سيِّد قُطب، الذي يُعدُّ المفكِّر الذي قَعَّدَ وَأَصَّلَ لعدة مبادئَ خارجةٍ عن الشريعة الإسلامية، وألبسها ثوبَ الدِّين والشريعةِ، فكانت الدستورَ الذي سارت عليه جماعةُ الإخوان، ومَن جاء بعدها من التيَّارات والجماعات.

الاستعلاء في فكر حسن البنا:

عندما أسَّس حسن البنا (1949-1906م) جماعةَ الإخوان عام 1928م. وتولَّىٰ منصبَ رئاسة هذه الجماعة وقائد مسيرتِها، فعُرف باسم الأستاذ المرشد، أو الإمام، أو الأستاذ

الإمام. فرسم منهجَ العملِ لهذه الجماعة وطريقَ سيرِها- والذي كان من المفترض أن يكون نابعًا من المنهج القرآني والَهدي المحمَّديِّ الذي يناسب ما رفعتْه هذه الجماعة من شعارات الدِّينِ والدَّعوة- ولكن الذي حدث أننا وجدنا في الخطاب الذي يوجِّهُهُ حسن البنا لتكوين عقولِ وأفكارِ أتباعه انحرافًا كبيرًا عن الَهدي النبويِّ، وقد ظهر ذلك بوضوحٍ في غرس مبدأ الاستعلاءِ داخلَ أفرادِ هذه الجماعة.

فيقول حسن البنا: ((نحن أيُّها الناس- ولا فخرَ- أصحابُ رسول الله ﷺ وحملة رايتِه من بعدِه، ورافعو لوائه كما رفعوه، وناشرو لوائه كما نشروه، وحافظو قرآنِه كما حفظوه، والمبشِّرون بدعوتِه كما بشَّروا، ورحمة الله للعالمين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينِ﴾ [ص:88].

أيُّها الإخوان المسلمون: هذه منزلتُكم فلا تصغروا في أنفسِكم فتقيسوا أنفسَكم بغيرِكم، أو تسلكوا في دعوتِكم سبيلًا غير سبيلِ المؤمنين، أو تُوازنوا بين دعوتِكم- التي تتخذ نورَها من نور الله ومنهاجَها من سُنة رسول الله- بغيرها من الدَّعوات التي تبرِّرها الضَّرورات.

فَمَن تبعنا الآن فقد فاز بالسَّبق، ومَن تقاعد عنَّا من المخلصينَ اليوم فسيلحق بنا غدًا، وللسابق عليه الفضلُ، ومَن رغب عن دعوتِنا زهادةً أو سخريةً بها أو استصغارًا لها أو يأسًا من انتصارها- فستُثبت له الأيام عظيمَ خطئِه، وسيقذف الله بحقِّنا على باطله فيدمغُه فإذا هو زاهقٌ.

فإلينا إلينا أيها المؤمنونَ والعاملونَ والمجاهدونَ المخلصون، فهنا الطريق السَّوي، والصِّراط المستقيم، ولا تُوزعوا القوى والجهودَ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ [الأنعام:153]))[1].

(1) مجموعة رسائل حسن البنا (108-107) دار الفتح للإعلام العربي- الطبعة الأولى 2012م.

فهذا نموذجٌ ومثالٌ لما قدَّمه حسنُ البنا من خطابٍ إلىٰ جماعته وأتباعه، يرسم فيه المنهجَ الذي تسير عليه جماعةُ الإخوان، فهو في البداية يعلن أنه وأتباعه أصحابُ رسول الله ﷺ! ولا ندري بأي عقلٍ كان يُفكِّر هذا الرجل وهو يقول هذه الكلمة؟! فمن أي وجهٍ هو وجماعته ليكونوا أصحابًا لرسول الله ﷺ؟ وهل من الجائز لأي مسلمٍ أو داعيةٍ أن يقول: أنا من أصحاب رسول الله. فيجعل نفسَه في منزلةٍ واحدةٍ معهم، فلو قال: إنَّنا من أتباع رسول الله ﷺ لكان أَولىٰ، ولكنه يريد أن يثبتَ لنفسِه ولجماعتِه ومنهجه مزيَّةً وخصيصةً يتفرَّدون بها عن باقي المسلمين، ومكانةً أعلىٰ من مكانة أيِّ مسلم.

فظهر المنهجُ الاستعلائيُّ واضحًا في فِكر هذه الجماعة من خلال هذا الخطاب التَّوجيهي، الذي تظهر فيه النَّرجسية، والأنانية، والتَّعالي، من خلال رسم الصُّورة التي يجب أن يكون عليها الفردُ المنتمي لجماعة الإخوان فهو يقول لأتباعه: لا تستصغروا أنفسَكم، ولا تقيسوا أنفسَكم بغيرِكم، فأنتم حملةُ الراية ورافعو اللواء، ورحمة الله للعالمين.

فهو يقسِّم الناس إلىٰ فسطاطين: فسطاط الحق الذي يمثِّله هو وجماعتُه، وفسطاط الباطلِ الذي يمثِّله الآخر، فهو يدعو مَن ليس منهم إلىٰ الهجرة إليهم والانضمام تحت دعوتِهم ليفوز بالسَّبق، وهو يجزم بأن كلَّ مُخلِصٍ إن لم يلحق بدعوتِهم اليوم فهو لاحقٌ بها غدًا. فيلزم من ذلك أن مَن لم يلتحق بدعوتِه ليس من المخلِصين، وكذلك مَن يرغب عن دعوته فسوف يثبت له أنه خاطئٌ، وعن الصواب ناكبٌ، وأن باطلَه مدموغٌ بحقِّه، فطريقه هو الصِّراط المستقيم، ومنهجه هو المنهج القويم!

ويعجب الإنسان عندما يحاول أن يجد توجيهًا منطقيًّا لهذا الخطابِ وهذه المفرداتِ، فإن هذه الأوصاف من علوِّ المكانة، وسلامةِ المنهج، ووجوبِ الانضمام إليه، والانضواءِ تحت لوائه. لا تكون إلا للأنبياء الذين عصمهم الله وأكمَل منهجَهم!

ولك أيها القارئ الكريم أن تتصوَّر حالةَ الشخص المتلقي لهذا الخطاب من أتباع هذه الجماعةِ مع تنوُّع درجاتِ الثَّقافة والتعليم، أو الفهم والإدراك والتقييم لديهم حين يسمع

أو يقرأ أنه بهذه المنزلةِ، وأنه ليس كالآخرينَ، وأنه هو صاحب الدَّعوة والرسالة، وأن الجميع يجب أن يأتوا إليه؛ فيظنُّ أنه صاحب الدَّعوة والأمين عليها، وأن كلَّ خطابٍ يمدح المؤمنين في كتاب الله فهو مختصٌّ به هو وجماعتُه، وكل خطابٍ يذمُّ فئةً أو طائفةً فهو موجَّه للآخرين الذين لا يتبعون جماعتَه.

فهل تجد أيُّها القارئ الكريم تشابهًا بين هذه الطريقة في التربية والإعداد وبين هَدي ومنهج النبي ﷺ؟! والذي كان يُربي أصحابَه على التَّواضع والخوفِ من النِّفاق، وهل تجد تشابهًا بين هذا الفِكرِ وفِكرِ الصَّحابةِ رضوان الله عليهم؟ الذين كان أحدهم يخاف النِّفاق على نفسِه ويرى أنه أقلُّ المسلمين شأنًا ومكانةً.

وليس لأحدٍ هنا أن يزعمَ أنه هنا يربي أتباعَه على تحمُّل أعباء دعوة، فقد ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابَه على تحمُّل أعباء الدَّعوة للعالمينَ، فعندما تظهر الأنا في الخطاب فاعلم أنَّ وراءَها من الأغراض ما وراءَها.

فهذا الخطاب التأصيليُّ من مؤسِّس هذه الجماعة كان له أثرٌ سلبيٌّ كبير في الحياة الدِّينية والدُّنيوية في المجتمعات الإسلامية، فهو قد أصَّلَ لفكرة أنك كمنتمٍ لهذه الجماعة، فأنتَ صاحب الحقِّ، وأنتَ على صراطٍ مستقيم، وأنت لستَ كغيرِكَ، وعلى ذلك فجميع ما تقوم به مقبولٌ وشرعيٌّ حتى وإنْ بدا للبعض منكرًا.

فقد مهَّدت هذه الأفكار من الكِبر والاستعلاء، والشعور بالخصوصية في منهج الإخوان إلى جانب الأركان الأخرى من وجوب السَّمع والطاعة، وتقديم الجماعة على كلِّ شيء حتى أفرزت أعمالًا وسلوكياتٍ أثَّرت في حياة المسلمين الدِّينية والاجتماعية والسياسيَّة، فوصلت بالبعض إلى استحلالِ دماء المسلمين، ولما لا وهم يظنُّون أنهم أصحاب المنهج الحقِّ المطلق وما عداه باطلٌ وجاهلية؟!

وسوف نرى أن هذا الأمرَ من غرس فِكرة الاستعلاء عند الفرد المنتمي لهذه الجماعة قد مهَّد بعد ذلك إلى إخراج التيَّارات التي تمادت في هذا الأمرِ إلى الوصول

إلىٰ اعتناق فِكر التكفير، وإخراج الناس من الإسلام، وظهور أفكارٍ شبيهة بفكرة شعب الله المختار.

ومع مظاهر هذا الخطاب النَّرجسي الاستعلائيِّ نتجول بين خطابات وكلمات حسن البنا فنجده يقول:

((ونحبُّ مع هذا أن يَعلم قومُنا- وكلُّ المسلمين قومُنا — أن دعوةَ الإخوان المسلمين دعوةٌ بريئة نزيهةٌ، قد تسامت في نزاهتِها حتىٰ جاوزت المطامعَ الشخصيةَ واحتقرت المنافعَ الماديةَ، وخلَّفت وراءَها الأهواءَ والأغراضَ))[1].

((وهكذا أيُّها الإخوان أراد الله أن نرثَ هذه التركةَ المُثقلةَ بالتبعات، وأن يشرقَ نورُ دعوتِكم في ثنايا هذا الظَّلامِ، وأن يُهيئكم الله لإعلاء كلمتِه وإظهار شريعتِه وإقامة دولتِه من جديد، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:40]))[2].

((أيها الإخوان: أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزبًا سياسيًّا ولا هيئةً موضعيةً لأغراضٍ محدودةِ المقاصد؛ ولكنكم رُوحٌ جديد يسري في قلب هذه الأمةِ فيُحيه بالقرآن، ونورٌ جديدٌ يُشرق فيبدد ظلامَ المادةِ بمعرفة الله، وصوتٌ داوٍ يعلو مردِّدًا دعوةَ الرسول ﷺ، ومن الحقِّ الذي لا غلوَّ فيه أن تشعروا أنكم تحملونَ هذا العبءَ بعد أن تخلَّىٰ عنه الناسُ))[3].

((فأول واجباتنا نحن الإخوان: أن نُبَيِّن للناس حدودَ هذا الإسلامِ واضحةً كاملةً بيِّنةً لا زيادةَ فيها ولا نقصَ بها ولا لبسَ معها، وذلك هو الجزءُ النَّظريُّ من فكرتِنا، وأن نطالبَهم بتحقيقِها، ونحملهم علىٰ إنفاذِها ونأخذهم بالعمل بها، وذلك هو الجزء العمليُّ في هذه الفكرة))[4].

---

(1) مجموعة رسائل حسن البنا (ص11).

(2) المصدر السابق (ص143).

(3) المصدر السابق (ص147).

(4) المصدر السابق (ص 88).

«أيُّها الشباب علىٰ هذه القواعد الثابتة، وإلىٰ هذه التعاليم السَّامية ندعوكم جميعًا، فإن آمنتم بفكرتِنا واتَّبعتم خُطواتِنا، وسلكتم معنا سبيلَ الإسلام الحنيف، وتجرَّدتم من كلِّ فكرةٍ سوىٰ ذلك، ووقفتم لعقيدتِكم كلَّ جهودِكم- فهو الخير لكم في الدنيا والآخرة، وسيحقق الله بكم إن شاء الله ما حقَّق بأسلافِكم في العصر الأوَّل، وسيجد كلُّ عاملٍ صادقٍ منكم في ميدان الإسلامِ ما يرضي همَّته ويستغرق نشاطَه إذا كان من الصادقين.

وإن أبيتم إلا التذبذب والاضطراب، والتردد بين الدَّعوات الحائرة والمناهج الفاشلة، فإن كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلَّةٍ ولا بكثرةٍ»[1].

«أيُّها الإخوان المجاهدون الذين اجتمعتم الليلة من أقصىٰ مصرَ المباركةِ إلىٰ أقصاها، أحبُّ أن تتبيَّنوا جيدًا مَن أنتم في أهل هذا العصر؟ وما دعوتُكم بين الدَّعوات، وأية جماعةٍ جماعتكم، ولأيِّ معنًىٰ جمع الله بينكم ووحَّد قلوبَكم ووِجهتكم، وأظهر فكرتكم في هذا الوقت العصيب الذي تتلهَّف فيه الدنيا إلىٰ دعوة السَّلامِ والإنقاذ؟

فاذكروا جيدًا أيُّها الإخوة أنكم الغرباء الذين يصلحونَ عند فسادِ الناس، وأنكم العقل الجديد الذي يريد الله أن يفرِّق به للإنسانية بين الحقِّ والباطل في وقتٍ التبس عليها فيه الحقُّ والباطلُ، وأنكم دعاةُ الإسلام، وحملةُ القرآنِ، وصلةُ الأرض بالسَّماء، وورثة محمد ﷺ وخلفاء صحابته من بعده، وبهذا فَضُلَتْ دعوتُكم الدَّعواتِ، وسَمَتْ غايتُكم علىٰ الغايات، واستندتم إلىٰ ركنٍ شديدٍ، واستمسكتم بعروةٍ وثقىٰ لا انفصامَ لها، وأخذتم بنورٍ مبينٍ، وقد التبست علىٰ الناس المسالكُ وضلُّوا سواءَ السبيلِ، والله غالب علىٰ أمره»[2].

«واذكروا جيدًا أيُّها الإخوة أن دعوتَكم أعفُّ الدَّعواتِ، وأن جماعتكم أشرفُ الجماعات، وأن مواردَكم من جيوبِكم لا من جيوب غيرِكم، ونفقات دعوتِكم من قوت

---

(1) مجموعة رسائل حسن البنا (ص93).

(2) المصدر السابق (ص297).

أولادِكم ومخصَّصات بيوتِكم))[1].

وتحت عنوان موقفنا من الدَّعوات الأخرىٰ يقول: ((وستسمعون أن قومًا يريدونَ أن يتَّصلوا بكم وأن تتَّصلوا بهم من أهل العملِ إما صادقين أو غيرَ صادقين، فأحبُّ أن أقول لكم هنا بكلِّ وضوح: إنَّ دعوتكم هذه أسمىٰ دعوة عرفَتْها الإنسانيةُ، وإنَّكم ورثةُ رسولِ الله ﷺ وخلفاؤه علىٰ قرآن ربِّه، وأمناؤُه علىٰ شريعتِه، وعصابتُه التي وقفت كلَّ شيءٍ علىٰ إحياء الإسلام في وقتٍ تصرَّفت فيه الأهواءُ والشهواتُ وضعفت عن هذا العبءِ الكواهلُ، وإذا كنتم كذلك فدعوتُكم أحقُّ أن يأتيها الناسُ ولا تأتي هي أحدًا، وتستغني عن غيرِها إذ هي جماعُ كلِّ خيرٍ وما عداها لا يسلم من النَّقص))[2].

هذه بعض اللَّمحات من فِكر حسن البنا التي رسم بها طريقَ ومنهجَ جماعته ومرجعيَّتها الفكرية، والتي ظهر فيها ملمحُ وفكرة الاستعلاء في جماعةٍ من المفترض أنها قامت بغرض الدَّعوة لدين الله، فلماذا يفترض البنا في رؤية جماعتِه وحدَها الصوابَ والدِّقةَ والصلاحيةَ لقيادة الأمة؟! فهو يصف دعوتَه بأوصاف التنزيه، وبأنها هي الوارثة لأعباء الدَّعوة، وأنها الروح التي ستبعث الحياة في جسد الأمة بعدما تخلَّىٰ غيرُهم من الناس عن واجبِهم تجاه دينهم وأُمتهم.

فجماعته هي وحدها الأمينة علىٰ الدِّين، وهي المُناط بها أن تبيِّن للناس حدودَه ومعالـمَه، ثم لها الحق بعد ذلك في أن تطلبَ منهم أن يطبِّقوه؛ بل وأن تحملهم علىٰ ذلك حملًا! ولما لا أليسوا هم الغرباء المتمسكون بالحق، وهم الفرقان بين الحقِّ والباطل، وهم صلة الأرض بالسماء كما أخبرهم حسن البنا؟!

وليت شِعْري أين ذهب علماء الأمة؟ وأين مكانتهم في خريطة هذا الرجل الـذي

(1) مجموعة رسائل حسن البنا (ص299).

(2) مذكرات الدعوة والداعية- لحسن البنا (ص289) مكتبة آفاق- الكويت- الطبعة الأولىٰ 2012م.

لم نجد أنه يُحيل على أحدٍ منهم في خُطبه وإرشاداته، وإنما يحيل الناسَ إلى رؤيتِه ومنهجِ جماعته.

وقد يظن البعض أن في هذا شيئًا من التحامل على الرجل، فبداية نشير أنَّنا لا نقصد الحُكم على الأشخاص، وإنما أردنا المنهجَ، ويجب أن يكون في أذهانِنا ونحن نقرأ تاريخَ الجماعاتِ والمناهج أن أغلب الطَّوامِّ والمصائب التي تعرَّضت لها الأمة- كان الطريق إليها مفروشًا بالنيِّات الحسنة والمقاصد النَّبيلةِ والشِّعارات البرَّاقة، ثم أليس من الواضح بعد مرور السِّنين أن هذا المنهجَ يؤدي إلى تقسيم الأمة ويعمل على فُرقتها؟ وأنه في ذلك يتشابه مع جميع الفِرق والجماعات التي قامت على التحزُّب للأفكار والمناهجِ، فأُريقت في سبيل ذلك الدماءُ المحرَّمةُ.

فهل أنت تدعو إلى الدِّين أم إلى جماعة؟! فإن كنتَ تدعو للدِّين فالتزم بهَدي النبيِّ ﷺ في ذلك، وإن كنتَ تدعو إلى جماعةٍ فقد حذَّرنا كتابُ الله من اتباع السُّبلِ التي فيها مخالفة لهدي رسولِ الله ﷺ فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ [الأنعام:153] فالمنهج النبويُّ معصومٌ ومنهجكَ أنت غيرُ معصومٍ. وإنْ زعمتَ لنفسكَ أنك على هَدي النبي ﷺ فلماذا لم تجنِ إلا الثِّمار المرَّة على مدى ما يقارب قرنًا من الزَّمان من العمل بمنهج الجماعة؟ فهل الخلل في الدِّين أم في منهجكَ أنتَ؟

فالعِصمة والثَّمرة الطَّيبة نتيجةٌ لازمةٌ لتطبيق منهج النبيِّ ﷺ وهَديه نظريًّا وعمليًّا، وأما الانحراف عن هذا المنهجِ فنتيجته ما نراه على أرض الواقع من الفساد والإفسادِ في الأرض تحت مسمَّى الجماعات والمناهج.

الاستعلاء في فكر سيد قطب:

بعد مرور الأعوام وتتالي السُّنون علىٰ إنشاء جماعة الإخوان، ورسم مَنْهَجِهَا الذي كانت النَّظرة الاستعلائيةُ علىٰ ما هو غير إخواني رُكنًا أساسيًّا فيها، جاء سيد قطب وجاءت معه الدَّواهي الفكريَّةُ والعملية منذ أن بدأ في التَّصنيف والكتابة فيما يخصُّ الدِّين والشَّريعة، فقد سلك طريقًا جعل فيه الاستعلاء منهجًا يفرِّق بين إيمانٍ وكُفر، وجاهليةٍ وإسلامٍ، فقسَّم الناسَ إلىٰ طائفتين: الموحِّدين والمشركين وفقًا لرؤيته وحُكمه، وقسَّم المجتمعات إلىٰ نوعين: جاهليٍّ وموحِّدٍ، واخترع من عنده مصطلحًا أسماه استعلاء الإيمان خلط فيه المفاهيمَ الباطلةَ بالحقِّ، وجعل منه عنوانًا وعَلَمًا للتفرقةِ بين ما هو جاهليٌّ في ظنِّه وما هو إسلاميٌّ.

فظهر من خلال كتاباته المنهجَ الذي يؤصِّل لفكر الخوارج وطريقتِهم وأفعالهم، بحيث يظن مَن يتبع أفكارَه وآراءَه أنه هو ومَن علىٰ هَديه هم الطائفة المؤمنة الموحِّدة، وسط طوائفَ من الكفَّار والمرتدِّين وأهلِ الجاهلية، فبعث بكتاباته فِكر الخوارج القدامىٰ، وألبسه ثوبَ الحقِّ ودعا الناس إليه.

فقد كانت كتابات هذا الرجل تؤصِّل وتمهد لمعاني الكِبر والاستعلاء علىٰ كلِّ مَن ليس علىٰ منهجه، وغلَّف ذلك كله بغلاف برَّاق أسماه استعلاءَ الإيمانِ.

فإن كانت كتابات وخُطب حسن البنا قد رسمت المنهجَ فكتاباتُ سيِّد قطب وآراؤه قد قَعَّدَتْ وَأَصَّلَتْ وصاغتْ من كلِّ انحرافٍ فكريٍّ منهجًا وطريقًا، فمن خلال كتابات هذا الرجل خرجت كلُّ المصائب العمليَّة التي ابتليت بها الأمة بعد ذلك، فكانت المرجعية لتيار الفِكر التكفيري ومَن يسمون بالجهاديين- والجهاد منهم براء- فإذا كان حسن البنا هو مَن وضع أساسَ بنيان الكِبر والاستعلاء في نظرة هذه الجماعةِ لمن هو دونها، فإن سيد قطب هو مَن شيَّد باطلَه ورفع لواءَه، بحيث اتَّسمت كتاباتُه

دائمًا بالعمل على وقوع المفاصلة بين جموع المسلمين تحت مُسمَّى مفارقة الجاهلية والبراءة من أهلِها، وهو في خلال هذا العمل يغذي عقلَ القارئ بالفكرة تلو الفِكرة التي تجعل منه في نهاية الأمر يعتقد أن طريقَ الإسلامِ الصحيح هي هذه الأفكار، وأنه من الفصيل الإيماني الذي منَّ الله عليه بالفهم الصَّحيح لحقيقة هذا الدِّينِ، وبناءً على ذلك فهو يحتلُّ منزلةً أعلى من غيرِه، وهو المؤهَّل هو ومَن على نفس طريقتِه لإصلاح الأمة وقيادتها، وذلك عن طريق خُطوات عملية رسمها سيد قطب من خلال كُتبه، ظهر فيها أن هذا الرجل تكوَّنت في ذِهنه معاني مغلوطة عن معاني عزة الإيمان في مقابل تجبُّر الكُفر، فأسقط هذه المعاني على المسلمين، وقام من خلالها بصياغة منهج إصلاحيٍّ مريضٍ يقوم على المفاصلة والانعزالية والشُّعور بالكِبر والاستعلاء على مَن ليسوا على خُطواته، فنتجَ عن هذا المنهجِ حالاتٌ من التعصُّب الأعمى، والاعتقاد باحتكار الحقِّ وأنهم هم أهله وطائفتُه المنصورة، وقد ترجمت بعد ذلك هذه الحالات إلى صورٍ عملية من أفكار التكفير والتَّجهيل والتَّعالي على الغير، والتي تحولت بعد ذلك على أرض الواقع إلى سفك الدِّماءِ والإفساد في الأرض.

وسوف نرى ملامحَ وأركانَ هذا المنهجِ الاستعلائيِّ في أُطروحاته، وذلك من خلال استعراضنا لبعض فِقرات من كُتبه توضح حقيقةَ هذا الأمر.

فيقول سيد قطب: «ليست مهمتنا أن نصطلحَ مع واقع هذا المجتمع الجاهلي، ولا أن ندين بالولاء له، فهو بهذه الصفة- صفة الجاهلية- غيرُ قابل لأن نصطلح معه، إن مهمتنا أن نغيِّر من أنفسِنا أولًا لنغير هذا المجتمع أخيرًا.

إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع، مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه، هذا الواقع الذي يصطدم اصطدامًا أساسيًّا بالمنهج الإسلامي، وبالتصور الإسلامي، والذي يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيشَ كما يريد لنا المنهجُ الإلهيُّ أن نعيش.

إن أولىٰ الخُطوات في طريقنا هي أن نستعليَ علىٰ هذا المجتمع الجاهليِّ وقِيَمِه وتصوُّراته، وألا نُعَدِّلَ نحن في قِيَمنا وتصوراتنا قليلًا أو كثيرًا لنلتقي معه في منتصف الطريق. كلا! إننا وإيَّاه علىٰ مفرق الطريق، وحين نسايره خُطوةً واحدةً فإننا نفقد المنهجَ كلَّه ونفقد الطريقَ.

وسَنلقىٰ في هذا عَنتًا ومشقةً، وستفرض علينا تضحياتٌ باهظةٌ، ولكننا لسنا مخيَّرين إذا نحن شِئنا أن نسلك طريقَ الجيل الأول الذي أقرَّ الله به منهجَه الإلهي، ونصرَه علىٰ منهج الجاهليةِ))[1].

فهذه الفِقرة توضح ما كان يعتقده هذا الرجل ويعرضه ويُزينه للقارئ من أفكارٍ تتعلَّق بجاهلية المجتمع المسلم، وانقسامه إلىٰ أهل جاهليةٍ وأهل إيمانٍ، والواجب علىٰ أهل الإيمان ألَّا يكونَ بينهم وبين غيرِهم أيُّ نوع من المصالحة أو التعايش؛ وإنما يجب عليهم أن يتعاملوا مع أهل الجاهلية بمبدأ الاستعلاء والمفاصلة.

وهنا نقف وقفةً أيُّها القارئ الكريم: هل هذا كان هَدي النبي ﷺ في التعامل مع الغير؟

وعند النظر في سيرة النبيِّ ﷺ نجد أنه لم يكن يتعامل مع المشركين بهذا المنطق فضلًا عن المسلمين، وهو رسول الله المعصوم، فما بالنا مع رجلٍ ليس بمعصومِ الفِكر والاجتهاد.

وهناك نقطة يجب أن تكون في أذهانِنا ونحن نقرأ لهذا الرجل، وهي أنه يفترض في نفسه العِلمِ والإحاطةَ، وصحَّة الرؤية وإمكانية الاجتهاد وإصدار الأحكام؛ وبناءً علىٰ ذلك فهو ينتظر من المتلقي الاقتناعَ والتسليمَ والعملَ بما يقول، فإنْ فعلَ ذلك فهو من الطائفة المؤمنة أصحاب استعلاء الإيمان، وإن لم يفعل فهو من أهل الجاهلية، فقد جعل من

(1) معالم في الطريق (ص 19) سيد قطب- دار الشروق- الطبعة السادسة- 1979م.

تصوُّرِه ورؤيتِه الحكم علىٰ جميع الأمور، وما ينتج عن فِكره من اجتهادٍ هو الخُطوات التي يجب أن تُتبع، وفوق ذلك فهو يصوِّر نفسَه ومَن علىٰ منهجه أنهم حملة قضية الدين وأمانة الإيمان، فله بناء علىٰ ذلك أن يتخذ من الخُطوات ما يراه مناسبًا لتأدية هذه الأمانة وفرضِها علىٰ الناس.

ويقول في مكان آخر تظهر فيه رُوح الكِبر والاستعلاء، وتتَّضح فيه فكرة أنه وأصحابه مبعوثو العناية الإلهية، المؤهَّلون لإصلاح حال البشرية، فنجده يقول:

((لن نَتَدسَّسَ إليهم بالإسلام تدسُّسًا، ولن نُربِّت علىٰ شهواتهم وتصوُّراتهم المنحرفة، سنكون صُرحاء معهم غاية الصَّراحة، هذه الجاهلية التي أنتم فيها نَجَسٌ، والله يريد أن يطهِّركم، هذه الأوضاع التي أنتم فيها خَبثٌ، والله يريد أن يُطيِّبَكم، هذه الحياة التي تحيونها دُون، والله يريد أن يرفَعَكم، هذا الذي أنتم فيه شِقْوةٌ وبؤسٌ ونكدٌ، والله يريد أن يخفِّف عنكم ويرحمكم ويُسعدَكم، والإسلام سيغير تصوُّراتكم وأوضاعكم وقِيمَكم، وسيرفعكم إلىٰ حياةٍ أخرىٰ تُنكرون معها هذه الحياة التي تعيشونها، وإلىٰ أوضاعٍ أخرىٰ تحتقرون معها أوضاعَكم في مشارق الأرض ومغاربها، وإلىٰ قِيم أخرىٰ تشمئزُّون معها من قِيمكم السَّائدة في الأرض جميعًا، وإذا كنتم أنتم - لشِقوتكم- لم تروا صورةً واقعيةً للحياة الإسلامية؛ لأن أعداءكم- أعداء هذا الدِّين- يتكتلون للحيلولة دون قيام هذه الحياة، ودون تجسُّد هذه الصورة، فنحن قد رأيناها والحمد لله ممثلةً في ضمائِرنا من خلال قُرآنِنا وشريعتِنا وتاريخِنا وتصوُّرِنا المبدع للمستقبل الذي لا نشكَّ في مجيئِه))[1].

ويقول: ((اسْتِعْلاءُ الإِيمَان ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾ [آل عمران: 139] أول ما يتبادر إلىٰ الذِّهن من هذا التوجيه أنه ينصبُّ علىٰ حالة الجهاد الممثلة في القتال، ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبرُ وأبعدُ من هذه الحالة المفردة،

---

(1) معالم في الطريق (ص153-154).

بكل ملابساتها الكثيرة، إنه يمثل الحالةَ الدائمةَ التي ينبغي أن يكون عليها شعورُ المؤمن، وتصوُّره وتقديره للأشياء والأحداث والقِيم والأشخاص، إنه يمثل حالةَ الاستعلاء التي يجب أن تستقرَّ عليها نفسُ المؤمن إزاءَ كلِّ شيءٍ وكلِّ وضعٍ وكلِّ قيمةٍ، وكلِّ أحدٍ.

الاستعلاء بالإيمان وقِيَمه علىٰ جميع القِيم المنبثقة من أصلٍ غير أصل الإيمان، الاستعلاء علىٰ قوىٰ الأرض الحائدةِ عن منهج الإيمان، وعلىٰ قِيم الأًرض التي لم تنبثق من أصل الإيمان. وعلىٰ تقاليد الأرض التي لم يَصُغْها الإيمان، وعلىٰ قوانين الأرض التي لم يشرعْها الإيمان، وعلىٰ أوضاع الأرض التي لم يُنشئْها الإيمان، الاستعلاء مع ضَعف القوَّة وقِلة العدد وفقر المال، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغِنىٰ علىٰ السواء، الاستعلاء الذي لا يتهاوىٰ أمام قوةٍ باغيةٍ، ولا عُرف اجتماعيٍّ، ولا تشريعٍ باطل، ولا وضع مقبول عند الناس ولا سَند له من الإيمان، وليست حالة التماسك والثبات في الجهاد إلا حالة واحدة من حالات الاستعلاء التي يشملها هذا التوجيهُ الإلهيُّ العظيم))[1].

هذه بعض الأسطر من هذا الفَهم السَّقيم والمنهج الضالِّ لمعانٍ سامية في شريعتِنا، تمَّ تحريفها وتحويلها إلىٰ أسلوب حياةٍ لم يَشرعْه الإسلام؛ فالذي يقرأ لهذا الرجل يتصوَّر أن الإسلام والمسلمين في حالةٍ من الصِّدام الدائم مع جميع أهلِ الأرض أولًا، وبينهم وبين أنفسهم ثانيًا، فهو ينصح المسلمَ أن يكون دائمًا في حالةٍ من الاستعلاء بالمعنىٰ والمفهوم والمظهر الذي يريده هو ويرىٰ أنه هو المنهج الصحيح، فما هو الحال أيها الأستاذ إذا فهم كلُّ واحدٍ من معاني الاستعلاء ما يريد من خلال كلامِكَ وطبَّقه وسار عليه؟! وقد حدث ذلك بالفعل فنشأت أيديولوجية الاستعلاء علىٰ الغير؛ فتكوَّنت الجماعاتُ التي عمِلَت بهذا المنهجِ الخبيثِ، فتكبَّر هؤلاء الناس علىٰ الخَلْق، مسلمهم وغير مسلمهم، تحت

---

(1) معالم في الطريق (ص163-164).

مسمَّىٰ استعلاءِ الإيمان، فتكبَّروا علىٰ أهليهم وذويهم وأُسَرهم ومعارفهم ومعلِّميهم وشُيوخهم، وتخطَّوا أمرَ الاستعلاء إلىٰ أمر التَّكفير والتبديع والتفسيق، وانتشار فِكر الاستحلالِ، واتَّسم سلوكُهم بالغِلظة والقسوة في التعامل مع الناس، وقسَّموا بيوتَ الله إلىٰ: مساجد أهل الإيمان والإخوة الملتزمين، ومساجد البدعة والعوامِّ الذين يجهلون أمرَ دينِهم، ويزعمون أن ذلك كلَّه لله، ونُصرةً لسُنَّةِ رسول الله ﷺ، وفي سبيل دِين الله، والدِّين من هذا كلِّه برَاء.

فهل يُعقل يا مَن تزعم الإيمان، والالتزام بالدِّين، أن يكون حظُّ الناس منك هو الكِبر والاستعلاء والغِلظة في التعامل، وأن تظنَّ بنفسكَ الخير وبهم الشر؟! فهذا بالضبط ما حدث من طائفة الخوارج الضَّالة التي رأت في نفسها أنها أعلمُ من صحابة رسول الله، وأتقىٰ منهم وأنهم هم الطائفة المؤمنة من أهل الأرض!

وليس لأحدٍ أن يعتذر عن هذا الفِكر ويقول: إن الرجل لم يُرد ذلك. فلا مجالَ للنية هنا في فِكرٍ أضاع الشبابَ، وألصق بالدِّين تُهَمَةَ الدَّموية والهمجية تحت زعم استعلاء الإيمان، فقد حدَّد الرجلُ منهجَه، وأظهر أفكارَه، واستخدم الألفاظَ القاطعة في بيانها، وقال للناس: علىٰ بركة الله سيروا خلفي، فهذا هو الدِّين، وهذا هو المنهجُ.

الآثار العملية لتأصيل هذا المبدأ في منهج هذه الجماعات

بعد أن تعرَّضنا لنماذجَ من منهج الاستعلاء والنظرة المتعالية، التي أصَّلها ووضع قواعدها منهجُ جماعة الإخوان، ننتقل إلىٰ نقطةٍ أخرىٰ: وهي التعرُّف علىٰ بعض النماذجِ من الآثار العملية التي نتجت عن اعتناق الكثيرِ من الأفراد والجماعات لهذا المبدأ، واتخاذه طريقة ومنهجًا للحياة والتعامل مع الآخرينَ.

فالملاحظ في الجماعات التي جاءت بعد ظهور جماعةِ الإخوان أنها تأثَّرت بهم وبأدبيَّاتِهم، وأُطروحاتهم الفِكرية، أو هيكلهم التَّنظيمي بشكلٍ أو بآخرَ، ومن أبرز آثار

هذا التأثُّر هو ظهور ثمار غرسِ شجرة الاستعلاء والكِبر في نفوس أبناء هذه التيارات، والتي بدت بصورٍ متنوعة ودرجاتٍ مختلفة، فمن هذه الصور:

العمل علىٰ شقِّ وحدة المسلمين ومجتمعاتهم بتقسيم الناس إلىٰ درجاتٍ وفئاتٍ، من وجهة نظر أصحاب هذه الجماعات إلىٰ عوامَّ وملتزمين، أو إخوة وغير إخوة، فالمنتمي إلىٰ تيارٍ أو جماعةٍ هو المسلم الملتزم الموحِّد، وغيره المتفلِّتُ أو المبتدع أو المُشرك، وأصبحت بعض المظاهر الخارجية نوعًا من التميُّز والمنزلة لأصحابها، فالمسلم الملتحي علىٰ سبيل المثال هو أعلىٰ درجةً عند أصحاب هذه التيَّارات من غير الملتحي، والمرأة التي ترتدي النِّقاب تتمتع بمزيَّةٍ وخصوصية أكثر من أختِها المسلمة التي ترتدي الحجابَ فقط، ولا تقوم بتغطية الوجه، وغير ذلك الكثير بدرجاتٍ متفاوتةٍ، فأصبحت الروابط هي الجماعات والأفكار والمناهج المبتدعة والصور الخارجية بدلًا من الرابطة الكُبرىٰ التي هي الإسلام، وترتَّب علىٰ ذلك كلِّه أن أصحاب هذه التيَّارات نظروا إلىٰ غيرهم من المسلمين في الغالب الأعمِّ نظرةً متعاليةً، وظهرت تعبيراتٌ مثل: نحن وغيرنا، أو نحن وهم، بدلًا من كلمة نحن التي تدلُّ علىٰ جميع المسلمين، بدلًا من شقِّ الصَّفِّ وتفتيت وحدة المجتمع المسلم.

بل إن الأمرَ قد امتدَّ ليشمل أفراد هذه التيَّارات أنفسهم في نظرتِهم لبعضهم البعض، فوضعوا القواعدَ والأركانَ التي تميز بها كلُّ جماعة عن أختِها، وزعمت كلُّ طائفة منهم أنها صاحبة المنهج الصَّحيح، والطريق القويم، وظهر ذلك في تعاملاتهم مع بعضهم البعض، فضلًا عن تعامُلِهم مع غيرِهم من المسلمين، واختفىٰ الحديث عن الإسلام وأصبح الحديث عن الجماعة والتكتُّلِ والتَّحزب، وعندما يتمُّ الحديث عن الدِّين يكون من وجهة نظر التكتُّلات والتَّحزبات والجماعات، فلا دينَ إلا بفهم الجماعةِ ولا منهجَ إلا منهج الجماعة.

كلُّ هذه العوامل وفَّرَتِ التربةَ الصالحةَ لنشأة فِكر التَّكفير لدىٰ الأفراد والجماعات بعد ذلك، فنشأت جماعات مثل «جماعة المسلمين» والتي هي جماعة التَّكفير والهجرة

بقيادة شكري مصطفىٰ أو ((الناجون من النار)) وغير ذلك من المسمَّيات، فما دام فَهْم الجماعة أو المنهج الذي تسير عليه هو الحق المطلق، وهو الدين الذي يحبُّه الله ورسولُه، ومَن لا يرضىٰ بهذا الفهم، أو المنهج ولا يوافقنا عليه فهو خارجٌ عن الدِّين بشكلٍ أو بآخر، وبالاستمرار في هذا الاتجاه ظهر فكرُ استحلال الدِّماء، والأموال، والأعراض، كلُّ ذلك نتيجة وثمرة لفكرة الاستعلاء علىٰ الغير، وظهور الأنا في التَّعامل مع الآخرينَ، ومخالفة هدي النبي ﷺ في النظرة إلىٰ النَّفس، وإلىٰ الناس.

ومن ثمار ونتائج فكرة الاستعلاء ظهورُ الانعزالية التي ينطوي في داخلها الشُّعور بالتميُّز والخصوصية لدىٰ أفراد وطوائف كثيرة من أفراد هذه التَّيارات والجماعات، بعكس الشخصية المسلمة السَّوية التي تعمل دائمًا علىٰ إيصال الخير للبشر جميعًا- مؤمنهم وغير مؤمنهم- فتتفاعل مع الخَلْق أجمعين، وترىٰ نفسَها في الوقت ذاته أنها أقلُّ العبادِ منزلةً.

وكذلك كان من ثمار النَّظرة المتعالية في تعامل أفراد جماعة الإخوان وغيرِها من أفراد الجماعات والتيَّارات الأخرىٰ- ظهور مبدأ التَّقيَّة في التعامل مع الناس وهي: أن يُظهر الإنسانُ خلافَ ما يُبطن في تعاملاته مع الناس.

فالتقيَّة مصطلحٌ ذُكر معناه في القرآن الكريم في سورة آل عمران، حيث قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَىٰ اللّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:28].

فهو في حالات معينة محدودة من الخوف من الكفَّار والاعتداء أو ما شابه ذلك، فللمسلم حينئذٍ أن يكتم إيمانَه بينهم، أو يصنعَ ما يكفل له سلامتَه، وحفظ دمه ومالِه وعِرضِه، أما أن تتحوَّل التَّقية لأسلوب حياة يوميٍّ لدىٰ فردٍ أو جماعةٍ فيمارسونها بين

المسلمين، فهذا لا تعرفه الشريعة الإسلاميةُ ولا تُقرُّه، وإنما هو أشبه بسلوك وعمل المنظَّمات الخفيَّة التي تعمل بألف وجهٍ.

ومن ثمار سلوك خُلُق الاستعلاءِ والكِبر في التعامل لدىٰ أفراد وجماعاتِ هذه التيارات- أن يؤدي هذا إلىٰ النُّفور من الإسلام نفسه، وذلك يظهر علىٰ مستويين:

المستوىٰ الأول: علىٰ مستوىٰ عامَّة المسلمين، فإنهم ينظرون إلىٰ سُلوك هؤلاء المنتسبين إلىٰ التيَّارات الدينية وكأنها هي حقيقة الدِّين، فعندما يجدون منهم الجَفوة والغِلظة والتَّعالي في التَّعامل وانحراف السُّلوك، فربما أدَّىٰ هذا بهم في بعض الأحيان إلىٰ حدوث نوع هزَّة لديهم في موقفهم من الدِّين، لولا أن قيَّض الله لهذه الأمة من أهل العِلم مَن يُبين لهؤلاء الناس أصلَ دينهم، ويوضِّح لهم بطلانَ مسلك أصحاب هذه التيارات جملةً وتفصيلًا.

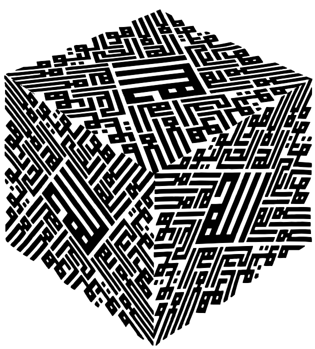
المستوىٰ الثاني: علىٰ مستوىٰ غيرِ المسلمين، فعندما يعرض هؤلاء قضية الدِّين والشريعة علىٰ المستوىٰ العالمي العام مصحوبًا بممارسات خاطئةٍ، يصاحبها الخطاب الصِّدامي وسلوك التعالي والكِبر في النظرة إلىٰ الآخر، فإن الكثيرين منهم يظنُّ أن هذه حقيقة الإسلام، فيخلق لديهم حالة من الخوف والخشية والهلع من هذا الدِّين، فيرفضه جملةً وتفصيلًا، يساعد علىٰ حدوث ذلك المغرضون من المخالفين لنا في الدِّين والهوية، فيعملون علىٰ إظهار أصحاب هذه التيارات في صورة الممثلين لهذا الدِّين العظيم، يريدون بذلك أن يقولوا للعالم إن الإسلامَ هو هذه السُّلوكيات.

ومن آثار هذا السُّلوك المخالف لدين الله: أنه يؤدي في نهاية أمره إلىٰ حصر الدِّين والشريعة في صورة منهج الجماعة وأهدافِها، فتفسر الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والوقائع في الحياة علىٰ قالب الجماعة ونظامِها وأهدافِها، فآيات القرآن الكريم عندما تتحدَّثُ عن الطائفة المؤمنةِ فالمقصود بذلك الجماعة، وعندما تذكر الآياتُ المنافقين فهم الخارجون عن الجماعة ومنهجها، أو المختلفون معها، والامتياز الحصري لقيادة الأمة

ونُصرة الدِّين هو للجماعة وحدها، فلا يحقُّ لأحد أن يقترحَ أو ينظرَ أو يرىٰ غيرَ ما أصَّلته رؤية حسن البنا ومنهج الإخوان.

في نهاية هذه الرسالة أيها القارئ الكريم يتبيَّن لنا أن الكِبر والاستعلاء، وإحسان الظنِّ بالنَّفس، وإساءة الظنِّ بالآخرين، وحبَّ الظهورِ والتصدر والرِّياسة كمنهج للأفراد أو الجماعات ليس بمنهجٍ إسلاميٍّ، ولا هَديٍ نبويٍّ، ولا هو خُلُق للمسلم بحالٍ من الأحوال، وأنَّ علينا إن أردنا الفلاحَ في الدنيا والآخرة أن نأخذ بهَدي النبيِّ الأكرم ﷺ وليس بمنهجِ جماعة أو فِكر شخصٍ مهما بلغ شأنه.

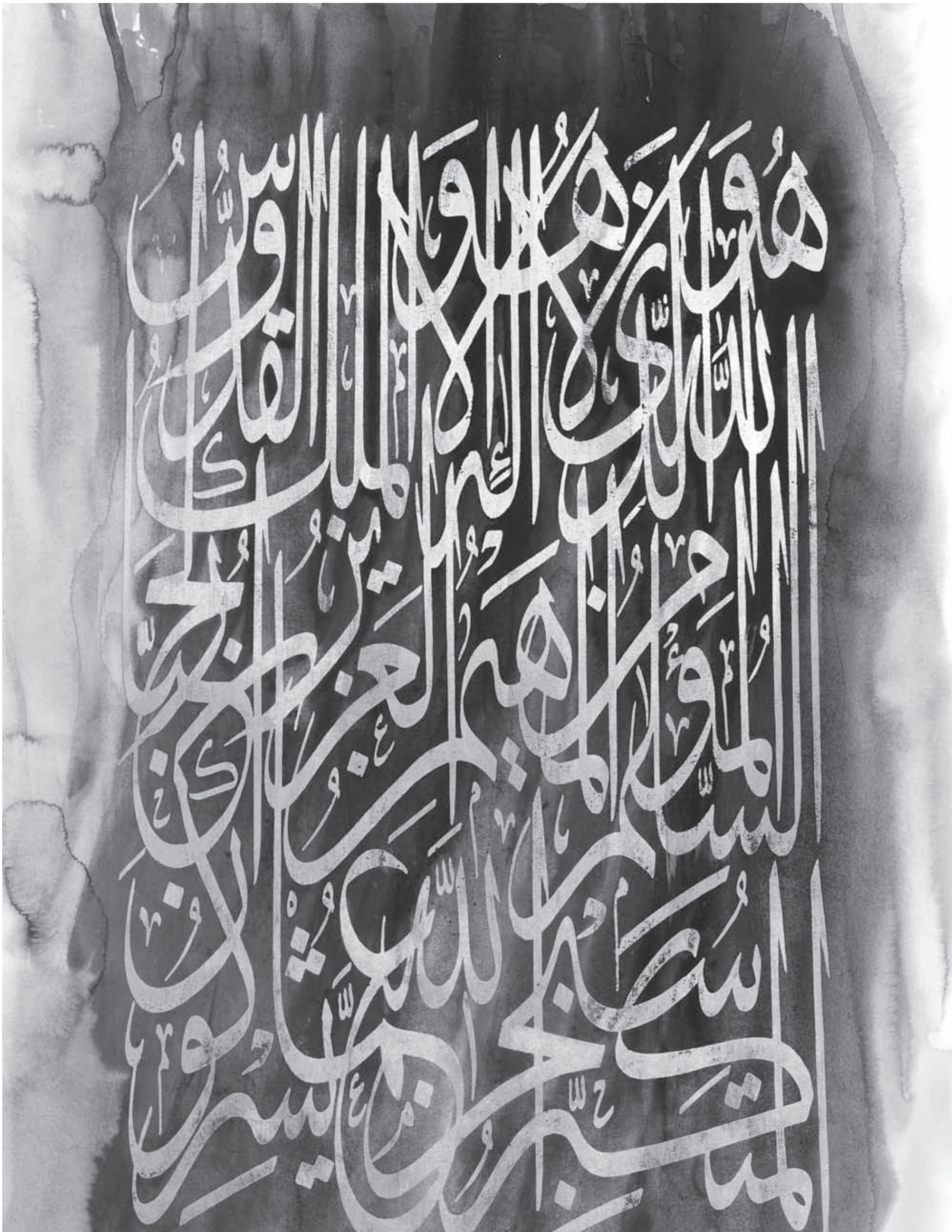
﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ◆





« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ » - آية **26–27** من سورة الرحمن

فهرس المصادر والمراجع



« هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ »

آية **23** من سورة الحشر

فهرس المصادر والمراجع

1- ابن القرية والـكُتَّاب؛ ملامح سيرة ومسيرة، تأليف: د. يوسف القرضاوي- دار الشروق- القاهرة- 2008م.

2- آثار الحرب في الإسلام، تأليف: د. وهبة الزحيلي- دار الفكر- دمشق.

3- الآداب الشرعيَّة والمنح المرعيَّة، تأليف: أبي عبدالله محمد بن مفلح- تحقيق: شعيب الأرناءوط، وعمر القيام- مؤسسة الرسالة- بيروت- 1996م.

4- الاختيار لتعليل المختار، تأليف: عبدالله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.

5- الاستيعاب في معرفةِ الأصحاب، تأليف: أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمَّد بن عبدالبر- تحقيق محمد علي البجاوي- دار الجيل- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1992م.

6- الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار، تأليف: أبي بكر محمد بن موسىٰ بن عثمان الحازمي الهمداني- دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد- الطبعة الثانية- 1359 هـ.

7- الاعتصام، تأليف: أبي إسحاق إبراهيم بن موسىٰ الشاطبي- تحقيق: محمد بن عبدالرحمن الشقير- دار ابن الجوزي- المملكة العربية السعودية- الطبعة الأولىٰ- 2008م. وطبعة المكتبة التجارية، وطبعة دار ابن عفان بمصر.

8- آفاق التعاليم دراسة في آفاق دعوة الأستاذ البنا، تأليف: سعيد حوىٰ- مكتبة وهبة.

9- الاقتصاد في الاعتقاد، تأليف: أبي حامد الغزالي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- 1983م.

10- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل- مكتبة الرشد- الرياض.

11- إتقان الصَّنعة في تحقيق معنىٰ البدعة، تأليف: عبدالله بن محمد بن الصديق الغماري- عالم الكتب- بيروت- 2006م.

12- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تأليف: أبي الفتح محمد بن علي المعروف بابن دقيق العيد- تحقيق: أحمد محمد شاكر- مكتبة السنة- الطبعة الأولىٰ- 1414هـ. وطبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق: مصطفىٰ شيخ مصطفىٰ ومدثر سندس، الطبعة الأولىٰ، 2005م

13- الإحكام في أصول الأحكام، تأليف: أبي الحسن علي بن أبي علي الآمدي- تحقيق: عبدالرزاق عفيفي- دار الصَّيمعي- الطبعة الأولىٰ- 2003م.

14- الإحكام في أصول الأحكام، تأليف: علي بن أحمد بن سعد بن حزم- مطبعة العاصمة- القاهرة.

15- إحياء علوم الدِّين، تأليف: أبي حامد الغزالي - مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا- سمارغ- أندونيسيا.

16- الإخنائية أو الرد علىٰ الإخنائي، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق أحمد ابن مونس العنزي- دار الخراز- جدة- الطبعة الأولىٰ.

17- الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، تأليف: محمود عبدالحليم — دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع — الطبعة الخامسة- 1994م.

18- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، تأليف: شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني- المطبعة الأميرية الكبرىٰ- مصر- الطبعة السابعة- 1323هـ.

19- إرشاد طلاب الحقائق إلىٰ معرفة سنن خير الخلائق، تأليف: محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي- تحقيق: عبدالباري فتح الله السلفي- مكتبة الإيمان- المدينة المنورة- الطَّبعة الأولىٰ- 1987م.

20- الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني- مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية.

21- إعانة الطالبين علىٰ حل ألفاظ فتح المعين، تأليف: أبي بكر عثمان بن محمد شطا الدِّمياطي- دار الفكر- الطبعة الأولىٰ- 1997م.

22- إعلام الموقعين، تأليف: ابن قيم الجوزية- تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان- دار ابن الجوزي- الرياض- الطبعة الأولى- 1423هـ.

23- الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، تأليف: الخطيب الشربيني- تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود- دار الكتب العلمية- بيروت.

24- إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين، تأليف: عثمان عمر داود- مراجعة: الشَّيخ عبدالنَّاصر علي حسين- لاهور- باكستان- الطَّبعة الثانية- 1425هـ.

25- الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع، تأليف: ابن حجر العسقلاني - تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي- دار الكتب العلمية- بيروت الطبعة الأولى-1997م.

26- الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الخلاف بين المسلمين، تأليف: أبي محمد عبدالله بن محمد البطليوسي- مكتبة المتنبي.

27- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، تأليف: أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي- دار إحياء التراث العربي. وطبعة بتحقيق: حامد الفقي- الطبعة الأولى- 1956م.

28- الإيضاح في مناسك الحجِّ والعمرة، تأليف يحيى بن شرف النووي، دار البشائر الإسلامية- بيروت- لبنان 1994م.

29- إيقاظ الهمم شرح الحكم، تأليف: أحمد بن عجيبة- تحقيق: محمد أحمد حسب الله- دار المعارف- مصر.

30- أئمة الشر، تأليف: ثروت الخرباوي- دار نهضة مصر - الطبعة الأولى- 2013م.

31- أبجدية التصوف الإسلامي بعض ما له وما عليه، تأليف: محمد زكي الدين إبراهيم- مؤسسة إحياء التراث الصوفي.

32- الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، تأليف: محمد عبدالحي اللكنوي الهندي- تعليق: عبدالفتاح أبو غدة- مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب- الطبعة الأولى- 1384هـ.

33- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية، تأليف: شيخ الإسلام زكريا الأنصاري- تحقيق: عبدالباري محمد داود- مكتبة أم القرىٰ- القاهرة- الطبعة الأولىٰ- 2002م.

34- أحكام المال الحرام، تأليف: د. عباس أحمد الباز، رسالة دكتواره بإشراف الدكتور عمر سليمان الأشقر- دار النفائس- الأردن- 1999م.

35- الأذكار، تأليف: الإمام أبي زكريَّا محيي الدِّين يحيىٰ بن شرَف النَّووي- دار ابن حزم للطباعة والنَّشر- الطَّبعة الأولىٰ- 2004م.

36- الأربعين في أصول الدين، تأليف: فخر الدين الرازي- تحقيق: أحمد حجازي السَّقا- مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة- الطبعة الأولىٰ- 1406هـ.

37- الأربعين في أصول الدين، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي- طبعة المكتبة التِّجاريَّة الكبرىٰ بمصر.

38- أسنىٰ المطالب شرح روض الطالب، تأليف: شيخ الإسلام زكريا الأنصاري- دار الكتاب الإسلامي.

39- أصول الوصول أدلة أهم معالم الصوفيَّة الحقة، مؤسسة إحياء التراث الصوفي- الطبعة الخامسة- 2005م.

39- أضواء البيان، تأليف: محمد الأمين الشنقيطي- طبعة دار الفكر- بيروت- 1415هـ - 1995م.

41- الأنس الجليل بتاريخ القدس والجليل، تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن العليمي الحنبلي.

42- أنوار البروق في أنواع الفروق، تأليف: أبي العباس شهاب الدين القرافي- عالم الكتب.

43- أهوال القبور وأحوال أهلها إلىٰ النشور، تأليف: ابن رجب الحنبلي- دار الكتاب

العربي- بيروت- الطبعة الثالثة- 1414هـ.

44- الباهر في الدولة الأتابكية، تأليف: ابن الأثير الجزري- تحقيق: عبدالقادر طليمات- دار الكتب الحديثة- القاهرة.

45- بحر الدم فيمَنْ تكلم فيه الإمام أحمد بمدحٍ أو ذم، تأليف: يوسف بن حسن بن أحمد ابن حسن بن عبدالهادي الصَّالحي- تحقيق وتعليق: د. روحية عبدالرحمن السويفي- دار الكتب العلميَّة- لبنان- الطَّبعة الأولىٰ- 1992م.

46- البحر الرائق شرح كنز الدقائق، تأليف: زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم- دار الكتاب الإسلامي- الطَّبعة الثَّانية. وطبعة دار الكتب العربية الكبرىٰ- 1333هـ.

47- البحر الذي زخر في شرح ألفية الأثر، تأليف: جلال الدين السيوطي- تحقيق: أنيس بن أحمد بن طاهر الأندونيسي- مكتبة الغرباء الأثرية.

48- البحر المحيط، تأليف: محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي- دار الكتبي- القاهرة- 1414هـ.

49- البحر المحيط، تأليف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان- تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي معوض- دار الكتب العلمية، بيروت- 1422هـ.

50- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تأليف: أبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة- تحقيق: أحمد عبدالله القرشي رسلان- الناشر: الدكتور حسن عباس زكي- القاهرة- 1419هـ.

51- بدائع الفوائد، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية- تحقيق علي بن محمد العمران- دار عالم الفوائد.

52- البداية والنهاية تأليف: ابن كثير الدمشقي- تحقيق: عبدالله التركي- دار هجر- الطبعة الأولىٰ- 1998م.

53- البردة للإمام البوصيري وشرحها للشيخ إبراهيم الباجوري- مكتبة الآداب- القاهرة.

54- البرهان في علوم القرآن، تأليف: محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعرفة - بيروت - 1391هـ.

55- البرهان المؤيد، تأليف: الإمام أحمد الرفاعي الكبير- دار الكتاب النفيس- بيروت- لبنان- 1408 هـ. وطبعة مطبعة الظاهر- الطبعة الأولىٰ- 1322هـ

56- بستان العارفين، تأليف: الإمام أبي زكريَّا محيي الدِّين يحيىٰ بن شرَف النَّووي- دار الريان للتراث- القاهرة.

57- بُلغة السالك لأقرب المسالك - حاشية الصاوي علىٰ الشرح الصغير، تأليف: أبي العباس أحمد بن محمد الخلوتي الصاوي- دار المعارف.

58- بلوغ السول مدخل علم الأصول، تأليف: محمد حسنين مخلوف- مطبعة الحلبي- الطبعة الثانية- 1966م.

59- بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها شرح مختصر صحيح البخاري تأليف: أبي محمد عبدالله بن أبي جمرة- مطبعة الصدق الخيرية- الطبعة الأولىٰ- مصر- 1348 هـ.

60- بيان تلبيس الجهمية، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: يحيىٰ بن محمَّد الهنيدي- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- الطَّبعة الأولىٰ- 1426هـ.

61- البيان لما يشغل الأذهان، تأليف: د. علي جمعة، دار المقطم — القاهرة — الطبعة الحادية عشر — 2009م.

62- البيان والتحصيل، تأليف: أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي- تحقيق: محمد حجي وآخرون- دار الغرب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية- 1988م.

63- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس- تأليف: ابن عطاء الله السكندري- دار جوامع الكلم- القاهرة.

64- تاج العروس من جواهر القاموس، تأليف: المرتضى الزَّبيدي- مطبعة حكومة الكويت 2004م.

65- تاريخ الإسلام، تأليف: شمس الدين محمَّد بن أحمد عثمان الذَّهبي- تحقيق: بشار عواد- دار الغَرب الإسلامي- الطَّبعة الأولى- 2003م.

66- تاريخ بغداد، تأليف: الخطيب البغدادي- تحقيق د: بشار عواد- دار الغرب الإسلامي- بيروت- الطَّبعة الأولى- 2001م.

67- تاريخ الخلفاء، تأليف: جلال الدين السيوطي- تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد- دار السعادة.

68- تاريخ دمشق، تأليف: أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر- تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- 1415 هـ - 1995م.

69- تاريخ الرسل والملوك، تأليف: محمَّد بن جرير الطبري- تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم- دار المعارف- مصر- الطبعة الثانية.

70- التَّاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين، تأليف: علي العشماوي- مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية.

71- تاريخ المذاهب الإسلامية، تأليف: محمَّد أبي زهرة- دار الفكر العربي- القاهرة.

72- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تأليف: محمد ابن أحمد ابن الضياء محمد القرشي- تحقيق: علاء إبراهيم وأيمن نصر- دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان.

73- تأييد الحقيقة العليَّة وتشييد الطريقة الشَّاذُليَّة، تأليف: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي- تحقيق: عبدالله بن الصديق الغماري- دار الفاتح للتراث الإسلامي- القاهرة- الطبعة الثانية- 1994م.

74- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق بحاشية الشِّلبِيِّ، تأليف: فخر الدين الزيلعي- المطبعة الأميرية - القاهرة- الطبعة الأولى- 1313هـ. وطبعة دار الكتاب الإسلامي.

75- تتمة المختصر في أخبار البشر، تأليف: عمر بن مظفر بن الوردي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- 1996م.

76- التَّجريد الصَّريح، تأليف: أبي العبَّاس أحمد بن أحمد بن عبداللَّطيف الزَّبيدي- اعتنى به: حسن شلبي وكسرى علي- مؤسسة الرسالة ناشرون- الطبعة الأولى- 2009م.

77- التحبير شرح التحرير، تأليف: أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي- تحقيق: عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين- مكتبة الرشد- الرياض.

78- التَّحرير والتنوير ((تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)) تأليف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور- الدار التونسية للنشر- تونس- 1984م.

79- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، تأليف: أبي العلا محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري- دار الكتب العلمية- بيروت.

80- تحفة المحتاج في شرح المنهاج، تأليف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي- المكتبة التجارية- مصر. وطبعة دار الفكر سنة 1408هـ

81- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تأليف: جلال الدِّين السيوطيِّ- تحقيق: أبي قتيبة نظر محمد الفاريابي- دار طيبة.

82- التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تأليف: أبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي- تحقيق: د. الصادق بن محمد بن إبراهيم- دار المنهاج- الرياض- الطبعة الأولى- 1425هـ.

83- تذكرة الحفاظ، تأليف: أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي- تحقيق: عبدالرحمن بن يحيى المعلمي-دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان. وطبعة دار الكتب العلمية- الطبعة الأولى- بيروت- 1998م.

84- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف: القاضي عياض ابن موسىٰ بن عياض السبتي- تحقيق: سعيد أحمد أعراب- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب- الطبعة الثانية- 1983م.

85- الترخيص بالقيام لذوي الفضل والميزة من أهل الإسلام، تأليف: محيي الدين يحيىٰ ابن شرف النووي- مكتبة العلوم العصرية- القاهرة.

86- تطهير الجنان واللسان عن ثلب معاوية بن أبي سفيان مع المدح الجلي وإثبات الحقِّ لعليٍّ، تأليف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي- دار الصحابة للتراث- مصر- الطَّبعة الأولىٰ- 1413هـ.

87- التعرُّف لمذهب أهلِ التَّصوف، تأليف: أبي بكر محمَّد بن إسحاق الكلاباذي- الطبعة الأولىٰ- دار الكتب العلميَّة.

88- تفسير إرشاد العقل السليم، تأليف: أبي السُّعود محمد بن محمد العمادي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

89- تفسير روح البيان، تأليف: إسماعيل حقي الحنفي- إستانبول- 1926م.

90- تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل، تأليف: علاء الدين علي بن محمَّد الخازن، تصحيح: محمَّد علي شاهين- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1995م.

91- تفسير الطبري = جامع البيان في تأويل الآي والقرآن، تأليف: محمد بن جريرٍ الطبري- حقَّقه وعلَّق حواشيه: محمود محمد شاكر، راجعه وخرَّج أحاديثه: أحمد محمد شاكر- مَكتبة ابن تيميَّة- الطبعة الثانية.

92- تفسير القرآن العظيم، تأليف: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير- تحقيق: سامي ابن محمَّد سلامة- دار طيبة- الرياض- الطبعة الثانية- 1999م.

93- تفسير القرطبي المسمىٰ الجامع لأحكام القرآن، تأليف: أبي عبدالله القرطبي،

تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية- القاهرة- الطبعة الثانية- 1964م.

94- تفسير الكشاف، تأليف: أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي- تحقيق: عبدالرزاق المهدي- طبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت.

95- التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير، تأليف: يحيىٰ بن شرف النووي- تحقيق: محمد عثمان الخشت- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1985م.

96- التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، تأليف: أبي الفضل عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن العراقي- تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان- المكتبة السلفية- المدينة المنورة- الطبعة الأولىٰ-1969م.

97- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تأليف: أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر - تحقيق: مصطفىٰ بن أحمد العلوي، محمد عبدالكبير البكري- الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية- المغرب- 1387هـ.

98- تهذيب الأسماء واللغات للنووي، تأليف: أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي- إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة.

99- تهذيب التهذيب، تأليف: ابن حجر العسقلاني- مطبعة دائرة المعارف النظامية- الهند-الطَّبعة الأولىٰ.

100- تهذيب اللغة، تأليف: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

101- التَّيسير شرح الجامع الصَّغير، تأليف: زين الدِّين محمَّد عبدالرءوف المناوي- مكتبة الإمام الشَّافعي- الرِّياض- الطَّبعة الثَّالثة- 1988م.

102- حاشية ابن حجر الهيتمي علىٰ شرح الإيضاح في مناسك الحج، تأليف: ابن حجر الهيتمي- دار الحديث- بيروت- المكتبة السلفية- المدينة المنورة.

103- حاشية البيجوري على جوهرةِ التَّوحيد، تأليف: برهان الدين إبراهيم البيجوري- تحقيق: د. علي جمعة- دار السلام- مصر- الطبعة الأولى- 2008م.

104- حاشية البيجوري على متن ابن أبي شجاع، تأليف: إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري المصري الشافعي على شرح ابن قاسم الغزي- دار الكتب العلمية.

105- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، تأليف: محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي - دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي.

106- حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، تأليف: أحمد بن محمد ابن إسماعيل الطحطاوي الحنفي- تحقيق: محمد عبدالعزيز الخالدي- دار الكتب العلمية بيروت- لبنان-الطبعة الأولى: 1418هـ - 1997م.

107- حاشية العدوي بهامش شرح مختصر خليل، تأليف: علي العدوي- المطبعة الأميرية- 1317 هـ. وطبعة دار الكتب العلمية.

108- حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، تأليف: حسن بن محمد بن محمود العطار- دار الكتب العلمية- بيروت.

109- الحاوي للفتاوى، تأليف: جلال الدين السيوطي- دار الكتب العلميَّة- بيروت لبنان- 1983م.

110- حسن البنا بأقلام تلاميذه ومعاصريه، تأليف: جابر رزق.

111- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تأليف: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السُّيوطي- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة- الطَّبعة الأولى.

112- حضارة العرب، تأليف: چوستاف لوبون- الهيئة المصرية العامة لكتاب.

113- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، تأليف: عباس محمود العقاد- الهيئة المصرية العامة للكتاب.

114- حقائق عن التَّصوف، تأليف: عبدالقادر عيسى.

115- حقيقة التنظيم الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين، تأليف: محمود الصباغ- دار الاعتصام - القاهرة.

116- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تأليف: أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني- دار الكتب العلمية- لبنان- الطَّبعة الأولىٰ- 1988م.

117- الحماسة المغربية، تأليف: أبي العباس أحمد بن عبدالسلام الجراوي التادلي- تحقيق: محمد رضوان الداية- دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بسوريا- الطبعة الأولىٰ- 1991م.

118- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تأليف: الخطيب البغدادي- تحقيق: د. محمود الطحان- مكتبة المعارف- الرياض 1403هـ.

119- الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جمع وتحقيق: محمد شمس وعلي بن محمد العمران- دار عالم الفوائد- مكة- الطبعة الثانية- 1422هـ.

120- جامع العلوم والحكم، تأليف: عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي- تحقيق: شعيب الأرناءوط، وإبراهيم باجس- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطَّبعة السابعة- 2001م.

121- جاهلية القرن العشرين، تأليف: محمد قطب- دار الشروق- القاهرة- الطبعة الثانية عشرة- 1992م.

122- جرائم الحرب في الفقه الإسلامي والقانون الدولي، تأليف: د. خالد رمزي البزايعة- دار النفائس، الأردن.

123- جراب المسكين لحفظ بعض مسائل الدين، تأليف: عبدالرحمن أحمد عبدالله الكاف- دار الحاوي- 2002م.

124- الجماعات الإسلامية رؤية من الداخل، تأليف: منتصر الزيات- دار مصر المحروسة- 2005م.

125- الجهاد في الإسلام، تأليف: د. علي جمعة- نهضة مصر.

126- الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه، تأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي- دار الفكر- سوريا.

127- الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم، تأليف: أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي- دار الحاوي- بيروت- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 2007م.

128- جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما، تأليف: سعيد حوىٰ- دار عمار - بيروت - 1988م.

129- الجهاد في الإسلام، تأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر- سوريا.

130- خريطة الحركات الإسلامية في مصر، تأليف: عبدالمنعم منيب- مكتبة مدبولي- القاهرة.

131- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، تأليف: محمد أمين المحبي- دار صادر- بيروت.

132- خلاصة التَّصانيف في التَّصوُّف، تأليف: أبي حامد الغزالي- الطَّبعة الثَّالثة- مطبعة السَّعادة- مصر.

133- درء تعارض العقل والنقل، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق: عبداللطيف عبدالرحمن- دار الكتب العلمية- بيروت- 1417هـ - 1997م.

134- الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تأليف: ابن حجر العسقلاني- دار إحياء الكتب العربية- بيروت. وطبعة دار الجيل- بيروت- 1993م. وطبعة دار الجيل- بيروت- لبنان- 1993م.

135- الدر المختار، شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، تأليف: محمد بن علي بن محمد الحصني المعروف بعلاء الدين الحصكفي الحنفي- تحقيق: عبدالمنعم خليل إبراهيم- دار الكتب العلمية- بيروت- 2002م.

136- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، تأليف: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد

ابن لطفي الصباغ- عمادة شئون المكتبات- جامعة الملك سعود- الرياض.

137- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تأليف: جلال الدين السيوطي- تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي- دار هجر- القاهرة- الطبعة الأولىٰ- 2003م.

138- دفع شبه من شبه وتمرَّد، تأليف: تقي الدين الحصني- تحقيق: محمد زاهد الكوثري- المكتبة الأزهرية للتراث- القاهرة- 2010م. و طبعة دار الرازي- عمَّان- الأردن.

139- دلائل النبوة، تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي- تحقيق: د. عبدالمعطي قلعَجي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1408هـ.

140- دليل الفالحين لطُرُق رياض الصَّالحين، تأليف: محمد علي بن محمد بن علَّان- دار المعرفة- بيروت.

141- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تأليف: ابن فرحون المالكي- تحقيق وتعليق: د.محمد الأحمدي أبو النور- دار التراث- القاهرة.

142- الذخائر المحمدية، تأليف: محَمَّد بن علوي المالكي- دار جوامع الكَلِم- القاهرة.

143- ذكريات لا مذكرات، تأليف: عمر التلمساني، دار الاعتصام.

144- الذيل علىٰ طبقات الحنابلة، تأليف: أبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي- صحَّحه: حامد الفقي- مطبعة السنة المحمدية- 1952م.

145- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، تأليف: أبي الحسن النَّدوي- دار ابن كثير- بيروت.

146- الرد علىٰ البكري، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق: أبي عبدالرحمن محمد ابن علي عجال- مكتبة الغرباء الأثرية.

147- رد المحتار علىٰ الدر المختار، تأليف: محمد أمين الشهير بابن عابدين- دار الفكر- بيروت- الطَّبعة الثَّانية- 1992م.

148- الرَّد المحكم المتين لأبي الفضل عبدالله محمد الصِّديق الغماري مكتبة القاهرة- الطَّبعة الثالثة- 1406هـ- 1986م.

149- الرسالة، تأليف: الإمام محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: رفعت فوزي عبدالمطلب- دار الوفاء المنصورة- مصر.

150- الرسالة القشيرية، تأليف: أبي القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري– تحقيق: الدكتور/ عبدالحليم محمود، والدكتور/ محمود بن الشريف- دار المعارف- القاهرة- 1995م.

151- رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة، تأليف: د. محمود سعيد ممدوح- دار الإمام الترمذي- الطبعة الثانية- 1418هـ- 1997م.

152- الروح، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية- بيروت.

153- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف: شهاب الدين الآلوسي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

154- الرَّوض الباسم في الذَّبِّ عَنْ سُنَّةِ أبي القَاسم ﷺ، تأليف: أبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضىٰ بن المفضل الحسني- تحقيق: علي بن محمد العمران- دار عالم الفوائد.

155- روضة الطالبين وعمدة المفتين، تأليف: محيي الدين النووي- تحقيق: زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- بيروت-الطبعة الثالثة- 1991م.

156- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تأليف: محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي- تحقيق علي بن حسن بن علي الحلبي- دار ابن الجوزي- الطبعة الأولىٰ 1421هـ.

157- زاد المعاد في هدي خير العباد، تأليف: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطَّبعة السابعة والعشرون- 1994م.

158- سعادة الدارين في الصَّلاة علىٰ سيد الكونين، تأليف: يوسف بن إسماعيل النبهاني- دار الفكر.

159- السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، تأليف: محمد سعيد رمضان البوطي- دار الفكر- دمشق- الطبعة الرابعة عشرة- 2010م.

160- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، تأليف: محمد خليل بن علي المُرادي- دار البشائر الإسلامية ودار ابن حزم- الطبعة الثالثة- 1988م.

161- سمات العصر رؤية مهتم، تأليف: د. علي جمعة- طبعة دار الفاروق للاستثمارات الثقافية.

162- سنا البرق الشَّامي من كتاب البرق الشامي، تأليف: الفتح بن علي بن محمد البنداري- تحقيق: فتحية النبراوي- مكتبة الخانجي- 1979م.

163- سير أعلام النبلاء، تأليف: شمس الدين الذهبي- تحقيق: شعيب الأرناءوط- مؤسسة الرسالة- 1981م.

164- السيل الجرار المتدفق علىٰ حدائق الأزهار، تأليف: محمد بن علي الشوكاني- تحقيق: محمود إبراهيم زايد- دار الكتب العلمية- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ.

165- السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، تأليف: أبي الفرج علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية- 1427هـ.

166- السيرة النبوية، تأليف: عبدالملك بن هشام- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثالثة- 1971م.

167- شخصيَّات صوفيَّة، تأليف: للشَّيخ طه عبدالباقي- طبعة مصطفىٰ الحلبي بمصر.

168- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تأليف: عبدالحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي- حققه: محمود الأرناؤوط-خرج أحاديثه: عبدالقادر الأرناؤوط- دار ابن كثير، دمشق- الطبعة الأولىٰ- 1986 م.

169- شرح البابرتي على متن العقيدة الطحاوية- طبعة وزارة الأوقاف الكويتية.
170- شرح التبصرة والتذكرة-ألفية العراقي، تأليف: أبي الفضل عبدالرحيم بن الحسين الحافظ العراقي- تحقيق: عبداللطيف الهميم وماهر ياسين فحل- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- 2002م.
171- شرح ديوان الحلاج، للدكتور كامل مصطفى الشيبي.
172- شرح الزُّرقاني على موطَّأ مالك، تأليف: محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري - المطبعة الخيرية.
173- شرح السنة، تأليف: محمد الحسين بن مسعود البغوي- تحقيق: شعيب الأرناءوط ومحمد زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية- 1983م.
174- شرح الشفا، تأليف: ملا علي القاري- دار الكتب العلمية- بيروت.
175- شرح صحيح البخاري، تأليف: أبي الحسن علي بن خلف بن عبدالملك ابن بطال- تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم- دار النشر: مكتبة الرشد - الرياض- الطبعة الثانية- 1423هـ - 2003م.
176- شرح علل الترمذي، تأليف: عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي- تحقيق: د/همام عبدالرحيم سعيد- مكتبة المنار- الأردن- الطبعة الأولى- 1987م.
177- شرح المقاصد النَّوويَّة، تأليف: محيي الدين بن شرف النَّووي- الطَّبعة الثانية- دار البشائر الإسلامية- بيروت.
178- شرح الكوكب المنير، تأليف: أبي البقاء محمد بن أحمد بن عبدالعزيز بن علي الفتوحي، المعروف بابن النجَّار الحنبلي- تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد- مكتبة العبيكان- الطبعة الثانية- 1997م.
179- شرح المقاصد في علم الكلام، تأليف: سعد الدين التفتازاني- تحقيق: عبدالرحمن عميرة- عالَم الكتب- بيروت- الطبعة الثانية- 1998م.

180- شروط الأئمة الخمسة، تأليف: أبي بكر محمد بن موسىٰ الحازمي- تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة- مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب. ضمن ثلاث رسائل في علم مصطلح الحديث).

181- شطحات الصوفية، تأليف: عبدالرحمن بدوي- وكالة المطبوعات- الكويت.

182- شعراء الصُّوفيَّة المجهولون، تأليف: يوسف زيدان- دار الجيل- الطبعة الثانية- بيروت- 1996م.

183- الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ، تأليف: القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي- دار الكتب العلمية- بيروت.

184- شفاء السائل وتهذيب المسائل، تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن خلدون- تحقيق: د/محمد مطيع حافظ- دار الفكر المعاصر- بيروت- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 1996م.

185- شفاء السقام في زيارة خير الأنام، تأليف: علي بن عبدالكافي تقي الدين السبكي - طبعة دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد- الهند- 1982م.

186- الشَّقائقُ النعمانيَّة في علماء الدَّولة العثمانيَّة، تأليف: طاش كبرىٰ زاده- دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان.

187- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم- تأليف: نشوان بن سعيد الحميري اليمني- دار الفكر- دمشق- الطبعة الأولىٰ- 1999 م.

188- صفة الصفوة، تأليف: أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي- تحقيق: محمود فاخوري- دار المعرفة- بيروت- 1985م.

189- الصفدية، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق: محمَّد رشاد سالم- دار الهدي النبوي- المنصورة- مصر.

190- طبقات الأولياء، تأليف: أبي حفص سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد ابن الملقن- تحقيق: نور الدين شريبة- الطَّبعة الثانية- 1994م- مكتبة الخانجي- القاهرة.

191- طبقات الشافعية الكبرىٰ، تأليف: تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي- تحقيق: د: محمود الطناحي، د: عبدالفتاح الحلو- دار هجر- الطبعة الثانية- 1988م.

192- طبقات الصوفية، تأليف: أبي عبدالرحمن محمد بن الحسين السلمي- تحقيق: مصطفىٰ عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ، 1419هـ 1998م.

193- طرح التثريب في شرح التقريب، تأليف: زين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي، وأكمله ابنه: أبو زرعة أحمد بن عبدالرحيم- دار التراث العربي- بيروت- لبنان.

194- الطريق الصُّوفي وفروع القادرية في مصر، تأليف: يوسف محمد طه زيدان- دار الجيل بيروت- الطبعة الأولىٰ 1991م.

195- ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني في مصطلح الحديث، تأليف: محمد عبدالحي اللكنوي الهندي- اعتنىٰ به: عبدالفتاح أبو غدة- مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب- الطبعة الثالثة- 1416هـ.

196- العدالة الاجتماعية في الإسلام، تأليف: سيد قطب- دار الشروق القاهرة- الطبعة الثالثة عشر- 1993م.

197- عجائب الآثار في التَّراجم والأخبار، تأليف: عبدالرحمن الجبرتي- دار الكتب المصرية- 1997.

198- العقيدة الطحاوية، تأليف: أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي- المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية- 1414 هـ.

200- علل التِّرمذيِّ، تأليف: زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي- تحقيق: د. همام عبدالرحيم سعيد- مكتبة المنار- الزرقاء- الأردن- الطبعة الأولىٰ- 1407هـ - 1987م.

201- العمدة في إعداد العدة للجهاد في سبيل الله، تأليف: عبدالقادر بن عبدالعزيز.

202- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، تأليف: بدر الدين العيني- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

203- عوارف المعارف للسهروردي، نسخة بذيل إحياء علوم الدين- مكتبة مصر- القاهرة- 1998م.

204- عيون الأنباء في طبقاتِ الأطِّباء، تأليف: أبي العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة- دار مكتبة الحياة- بيروت.

205- عُيون الروضتيْنِ في أخبار الدَّولتين النُّورية والصلاحية، تأليف: أبي القاسم عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة- مؤسِّسة الرِّسالة- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1997م.

206- غريب الحديث، تأليف: ابن قتيبة الدينوري- مطبعة العاني- بغداد- 1977م.

207- الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، تأليف: عبدالرحمن بن معلا اللويحق- مؤسسة الرسالة- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 1992م.

208- الفتاوىٰ الحديثية، تأليف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي- دار الفكر- بيروت.

209- فتاوىٰ الرملي، تأليف: شهاب الدين أحمد بن حمزة الأنصاري الرملي الشافعي- جمعها ابنه: شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي- المكتبة الإسلامية.

210- فتاوىٰ السبكي، تأليف: علي بن عبدالكافي السبكي، عُنيت بنشره: مكتبة القدسي- القاهرة- 1356هـ.

211- الفتاوىٰ الفقهية الكبرىٰ، تأليف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، المكتبة الإسلامية. وطبعة دار الفكر- 1403هـ.

212- الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية، تأليف: أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولىٰ- 1987م.

213- فتاوىٰ ومسائل ابن الصلاح، تأليف: أبي عمرو عثمان بن عبدالرحمن بنُ الصَّلاح- تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي- دار المعرفة-بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1986م.

214- الفتاوىٰ الهندية في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، تأليف: مجموعة من علماء المذهب الحنفي في الهند- الطبعة الثانية- المطبعة الأميرية بمصر- 1310 هـ. وطبعة دار الكتب العلمية، ضبط وتصحيح: عبداللطيف حسن عبدالرحمن- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 2000م.

215- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني- رقم أحاديثَه: محمد فؤاد عبدالباقي- المكتبة السلفية.

216- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: زين الدِّين عبدالرحمن بن أحمد بن رجبٍ الحنبلي- مكتبة الغرباء الأثريَّة- المدينة النبويَّة- الطَّبعة الأولىٰ- 1996م.

217- الفتح الرَّباني والفيض الرَّحماني، تأليف: الشَّيخ عبدالقادر الجيلاني- دار الريان للتراث.

218- فتح القدير، تأليف: محمد بن عبدالواحد المعروف بابن الهُمام- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- 1424هـ. وطبعة الحلبي.

219- الفتح المبين بشرح الأربعين، تأليف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي- دار المنهاج- جدة- المملكة العربية السعودية- الطبعة الأولىٰ- 2008م.

220- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، تأليف: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي- تحقيق: علي حسين علي- مكتبة السنة- مصر-الطبعة الأولىٰ- 2003م.

221- الفتوحات الإلهيَّة شرح المباحث الأصليَّة، تأليف: أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني- تحقيق: عبدالرحمن حسن محمود- طبعة عالم الفكر- القاهرة.

222- الفتُوحات الرَّبانيَّة على الأذكارِ النَّوويَّة، تأليف: ابن علان- دار إحياء التراث العربي- بيروت لبنان.

223- الفتوحات المكية، تأليف: محيي الدِّين بن عربي- دار الكتب العربيَّة الكبرىٰ- مصر. وطبعة المطبعة الميمنية.

224- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق: عبدالقادر الأرناءوط- مكتبة دار البيان- دمشق- 1985م.

225- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة النَّاجية، تأليف: أبي منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي- تحقيق: محمَّد عثمان الخشت- مكتبة ابن سينا- القاهرة. وطبعة دار الآفاق الجديدة- بيروت- الطبعة الثانية- 1977م.

226- الفِصَل في المِلل والأهواء والنِّحل، تأليف: علي بن أحمد بن سعد بن حزم- مكتبة الخانجي- القاهرة. وطبعة دار إحياء التراث العربي- تحقيق: يوسف البقاعي- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 2002م.

227- فضائح الصوفية، تأليف: عبدالرحمن بن عبدالخالق -مكتبة ابن تيميَّةَ- الكويت- الطبعة الأولىٰ- 1984م.

228- فضل علم السلف على الخلف، تأليف: أبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي- المطبعة المحمودية.

229- فوات الوفيات، تأليف: محمد بن شاكر الكتبي- تحقيق: إحسان عباس- دار صادر- بيروت- 1974م.

230- فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة، تأليف: أبي حامد الغزالي- تحقيق: محمود بيجو- دار البيروتي- الطبعة الأولىٰ- 1993م.

231- فيض الباري شرح البخاري، تأليف: محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 2005م.

232- فيض القدير شرح الجامع الصغير، تأليف: عبدالرءوف المُناوي- المكتبة التجارية الكبرىٰ- مصر- الطبعة الأولىٰ- 1356هـ.

233- في ظلال القرآن، تأليف: سيد قطب إبراهيم- دار الشروق - بيروت- القاهرة- الطبعة السابعة عشر- 1412هـ.

234- القانون الدولي الإنساني في الإسلام، تأليف: د. جعفر عبدالسلام- جامعة عين شمس.

235- القراءة عند القبور، تأليف: أبي بكر أحمد بن محمد الخَلَّال البغدادي الحنبلي- تحقيق: د. يحيىٰ مراد- دار الكتب العلمية- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ.

236- قلائدُ الجواهر في مناقب الشَّيخ عبدالقادر، تأليف: محمد بن يحيىٰ التاذفي الحلبي- طبعة قديمة ملتزم الطبع والنشر عبدالحميد أحمد حنفي بشارع المشهد الحسيني.

237- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تأليف: أبي محمد عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام - تحقيق: نزيه كمال حماد وعثمان جمعة ضميرية- دار القلم — دمشق-2000. وطبعة أم القرىٰ للطباعة والنشر القاهرة.

238- قواعد التصوف، تأليف: أحمد بن أحمد بن البرنسي المشهور بزروق- ضبطه وعلق عليه: محمود البيروتي - دار البيروتي - دمشق سوريا- الطبعة الأولىٰ- 2004م.

239- قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج، تأليف: ابن حجر العسقلاني- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1988م.

240- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد، تأليف: أبي طالب المكي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية.

241- القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، تأليف: ابن جزي- تحقيق: د. محمد ابن محمد مولاي.

242- القول بالإحسان العميم في انتفاع الميت بالقرآن العظيم، تأليف: محمد بن علي بن محمد ابن عمر القطان العسقلاني- تحقيق: أبي عبدالرحمن شوكت بن رفقي- الدار الأثرية- الطبعة الأولىٰ- 2009م.

243- القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد، تأليف: أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني- مكتبة ابن تيميَّة- القاهرة- الطبعة الأولىٰ- 1401 هـ.

244- القول المقنع في الردِّ علىٰ الألباني المبتدع، تأليف: أبي الفضل السيد عبدالله بن الصديق الغُماري.

245- الكامل في التاريخ، تأليف: علي بن أبي الكرم ابن الأثير- تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري- دار الكتاب العربي- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ- 1997م.

246- كشَّاف اصطِلاحات الفنون والعلوم، تأليف: محمد بن علي التهانوي- مكتبة لبنان ناشرون- بيروت الطبعة الأولىٰ- 1996م.

247- كشاف القناع عن متن الإقناع، تأليف: منصور بن يونس بن إدريس البهوتي- تحقيق: محمد أمين الضناوي- عالم الكتب- بيروت. وطبعة وزارة العدل بالمملكة العربية السعودية- 2004م.

248- الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، تأليف: أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي- تحقيق أبي عبدالله السورقي، إبراهيم حمدي المدني- المكتبة العلمية - المدينة المنورة.

249- الكواكب السَّائرة بأعيان المائة العاشرة، تأليف: نجم الدين محمد بن محمد الغزي- دار الكتب العلمية- بيروت.

250- كيفيَّة الوصولِ لرؤية سيِّدنا الرَّسول محَمَّد ﷺ، تأليف: حسن محمد شداد بن عمر باعمر- مكتبة المطيعي.

251- لسان العرب، تأليف: جمال الدين ابن منظور الأنصاري- دار صادر- بيروت.

252- لطائف المِنن، تأليف: ابن عطاء الله السَّكندري- تحقيق: عبدالحليم محمود- دار المعارف- الطبعة الثَّالثة- مصر- 2006م.

253- لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق، تأليف: الشيخ عبدالوهاب الشعراني –دار التقوىٰ- الطبعة الأولىٰ- 1425هـ.

254- اللمع في التصوف، تأليف: أبي نصر السراج الطوسي- تحقيق: د/ عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور- دار الكتب الحديثة- مصر- 1960م.

255- لوامع الأنوار البهيَّة وسواطعُ الأسرار الأثريَّة، تأليف: شمس الدين أبي العون محَمَّد بن أحمد ابن سالِم السفاريني- مؤسسة الخافقين- دمشق- الطبعة الثانية- 1982م.

256- لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية، تأليف: الشيخ عبدالوهاب الشعراني- تحقيق: أحمد عبدالرحيم السايح وتوفيق علي وهبة- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- الطبعة الأولىٰ- 2005م.

257- المبدع في شرح المقنع، تأليف: إبراهيم بن محمد بن مفلح – تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1997م.

258- متن العقيدة الطحاوية، تأليف: أبي جعفرٍ الطَّحاويِّ- المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية- 1414هـ.

259- مجلة البحوث والدراسات الصوفية، العدد الأول- السنة الأولىٰ جمادىٰ الآخرة) - المركز العلمي الصوفي بالعشيرة المحمدية- القاهرة- 1424هـ، 2003م.

260- مجموعة رسائل حسن البنا، دار الفتح للإعلام العربي- 2012 م.

261- المجموع شرح المهذَّب، تأليف: محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي- المطبعة المنيريَّة- القاهرة.

262- مجموع الفتاوىٰ، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم- وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- المملكة العربية السعودية- 2004م.

263- محاسن الاصطلاح بهامش مقدمة ابن الصلاح، تأليف: عمر بن رسلان البلقيني- تحقيق: عائشة عبدالرحمن- دار المعارف-1989م.

264- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: أبي محمد عبدالحق بن غالب ا بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد- دار الكتب العلمية- طبعة أولىٰ- 1993م.

265- المحلىٰ، تأليف: علي بن أحمد بن سعد بن حزم - دار الآفاق بيروت.

266- المختار من كتاب المرجع معالم المشروع والممنوع من ممارسات التَّصوف، تأليف: العارف بالله: السيد إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي- قدَّم له وعلق: السيد محمد زكي الدين إبراهيم- مؤسسة إحياء التراث الصُّوفي- الطَّبعة الخامسة- 2005م.

267- مدارج السالكين، تأليف: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الثانية- 1393هـ. وطبعة دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ.

268- المدخل، تأليف: أبي عبدالله محمد بن محمد بن محمد الشهير بابن الحاج -دار التراث- القاهرة.

269- المدخل إلىٰ دعوة الإخوان المسلمين، تأليف: سعيد حوىٰ- مكتبة وهبة- القاهرة 1984 م.

270- المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ، تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي- تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي- دار الخلفاء للكتاب الإسلامي- الكويت.

271- المدهش، تأليف: ابن الجوزي- تحقيق: مروان قباني- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1985م.

272- مذكرات الدعوة والداعية، تأليف: حسن البنا- مكتبة آفاق- الكويت- 2012 م.

273- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تأليف: مُلَّا علي بن سلطان مُحَمَّد القاري- دار الفكر- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 2002م.

274- المستصفىٰ في علم الأصول، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي- تحقيق: محمد بن سليمان الأشقر- مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 1997م.

275- المسودة في أصول الفقه، تأليف: آل تيمية (مجد الدين عبدالسلام بن تيمية ت652هـ، وعبدالحليم بن تيمية ت: 682هـ، وأحمد بن تيمية ت728هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد- دار الكتاب العربي.

276- مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، تأليف: عبدالرحمن بن مُحَمَّد الأنصاري المعروف بابن الدباغ- تحقيق هـ. ريتر.

277- المشروع والممنوع، تأليف: محمد زكي الدين إبراهيم - دار إحياء الكتاب الصُّوفي.

278- مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام عليه الصلاة والسلام في اليقظة والمنام، تأليف: أبي عبدالله مُحَمَّد بن موسىٰ بن النعمان المزالي المراكشي- دار الكتب العلمية- بيروت.

279- المصباح المنير في غريب الشَّرح الكبير، تأليف: أحمد بن مُحَمَّد بن علي الفيومي- المطبعة الأميرية- الطَّبعة الخامسة. وطبعة المكبة العلمية- بيروت.

280- مطالب أولي النهىٰ شرح غاية المنتهىٰ، تأليف: مصطفىٰ السيوطي الرحيباني- المكتب الإسلامي.

281- معارج القدس في مدراج معرفة النَّفس، تأليف: أبي حامد الغزالي- دار الكتب العلميَّة- الطبعة الأولىٰ- بيروت- 1988.

282- معالم التنزيل في تفسير القرآن، تأليف: أبي محمد الحسين بن مسعود البغويِّ- تحقيق: عبدالرزاق المهدي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الأولىٰ- 1420هـ. وطبعة حقَّقها وخرَّج أحاديثها: محمَّد عبدالله النَّمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلِم الحرش- دار طيبة- الطَّبعة الرَّابعة- 1997م. وطبعة دار المعرفة بيروت تحقيق: خالد عبدالرحمن العك.

283- معالم في الطريق، تأليف: سيد قطب- دار الشروق- 1973م.

284- معجم مقاييس اللغة، تأليف: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني- تحقيق: عبدالسلام محمد هارون- دار الفكر-1979م.

285- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة- الطبعة الرابعة -1425هـ-2004م.

286- معراج التشوف إلىٰ حقائق التصوف، تأليف: أبي العبَّاس أحمد بن محمَّد بن المهدي ابن عجيبة- تحقيق: عبدالمجيد خيالي- مركز التراث الثَّقافي المغربي- الدَّار البيضاء.

287- معرفة الأسرار، تأليف: أبي عبدالله محمد بن علي الحكيم التِّرمذي- تحقيق: إبراهيم الجيوشي- دار النَّهضة العربيَّة.

288- معرفة أنواع علوم الحديث، تأليف: عثمان بن عبدالرحمن المعروف بابن الصلاح- تحقيق: نور الدين عِتر- دار الفكر- سوريا، دار الفكر المعاصر- بيروت- 1986م.

289- معرفة السنن والآثار، تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي- تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي- الناشرون: جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي- باكستان)، دار قتيبة دمشق- بيروت)، دار الوعي حلب- دمشق)، دار الوفاء المنصورة- القاهرة)- الطبعة الأولىٰ- 1991م.

290- معرفة القراء الكبار علىٰ الطبقات والأعصار، تأليف: أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي- تحقيق: بشار عواد معروف وشعيب الأرناؤوط وصالح مهدي

عباس- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الأولى. وطبعة إستانبول، تحقيق: د. طيار آلتي قولاج- 1995.

291- المعيار المعرب والجامع المغرب، المؤلف: أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني- خرجه جماعة من الفقهاء: بإشراف الدكتور/ محمد حجي- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية- 1401هـ.

292- معيد النعم ومبيد النقم، تأليف: تاج الدين السبكي- تحقيق: محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون- مكتبة الخانجي- القاهرة- الطبعة الثانية- 1993م.

293- المغني شرح مختصر الخرقي، تأليف: أبي محمد موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي- دار إحياء التراث العربي- الطَّبعة الأولى- 1405هـ. والطبعة الثالثة من عالم الكتب بالرياض تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي وعبدالفتاح محمد الحلو. 1997م. وطبعة دار المعرفة- بيروت- تحقيق: خليل مأمون شيحا.

294- مفاتيح الغيب، تأليف: فخر الدين الرازي- دار الكتب العلميَّة- الطَّبعة الأولى- بيروت- 1421هـ. وطبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثالثة- 1420هـ.

295- مفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتَّاح، تأليف: أحمدَ بنِ عبدالكريم بن عطاءِ الله السَّكندري- خرَّجَ أحاديثَه: محمَّد عبدالسَّلام إبراهيم- دار الكتبِ العلميَّة- بيروت.

296- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد، طبعة دار المعرفة بيروت.

297- المقالة الافتتاحية من العدد الأول لمجلة النذير- السنة الأولى- 30 ربيع الأول 1357هـ.

298- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلِّين، تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري- تحقيق: محمَّد محيي الدين عبدالحميد- المكتبة العصريَّة- بيروت- 1990م.

299- مقدمة ابن خلدون، تأليف: عبدالرحمن بن محمد، ابن خلدون- تحقيق: خليل شحادة - دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية- 1988م. وطبعة دار التراث- بيروت- تحقيق: علي عبدالواحد وافي.

300- الملل والنِّحل، تأليف: محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني- تحقيق: محمد سيد كيلاني- دار المعرفة- بيروت.

301- من أجل خطوة إلىٰ الأمام علىٰ طريق الجهاد المبارك، تأليف: سعيد حوىٰ- مكتبة وهبة- القاهرة- الطَّبعة الثانية- 1979م.

302- مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، تأليف: شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي- عُني بتحقيقه والتعليق عليه: محمد زاهد الكوثري، وأبو الوفاء الأفغاني- لجنة إحياء المعارف النعمانية، حيدر آباد الدكن بالهند.

303- المنتظم في تاريخ الملوك، تأليف: أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي- تحقيق: محمد عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 1992م.

304- منح الجليل شرح مختصر خليل، تأليف: أبي عبدالله محمد بن عليش المالكي- مكتبة النجاح- ليبيا.

305- المنظومة البيقونيَّة، تأليف: عمر بن محمد بن فتوح البيقوني- دار المغني- الطَّبعة الأولىٰ- 1999م.

306- المنقذ من الضلال والموصل إلىٰ ذي العزة والجلال، تأليف: حجة الإسلام أبي حامد الغزالي- تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد- دار الأندلس- بيروت - لبنان. وطبعة مكتبة الأنجلو المصرية- الطبعة الثالثة- 1962م.

307- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تأليف: يحيىٰ بن شرف النووي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثانية- 1392هـ.

308- المهذب، تأليف: أبي إسحاق الشيرازي- دار الفكر- بيروت.

309- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تأليف: أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطَّبعة الأولىٰ.

310- الموافقات، تأليف: إبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي- تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان- دار ابن عفان- الطبعة الأولىٰ- 1997م.

311- مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، تأليف: أبي عبدالله محمد بن محمد الحطاب الرُّعيني- ضبطه: زكريا عميرات- دار عالم الكتب.

312- المواهب اللدنيَّة بالمنح المحمَّدية، تأليف: أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولىٰ. وطبعة المكتبة التوفيقية- مصر.

313- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- الكويت- الطبعة الثانية-1404هـ-1983م.

314- الموقظة في علم مصطلح الحديث، تأليف: أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي- اعتنىٰ به: عبدالفتاح أبو غُدَّة- مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب- الطبعة الثانية- 1412هـ.

314- موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، تأليف: الشيخ محمد عبدالكريم الكسنزان الحسيني.

315- الموسوعة اليوسفيَّة في بيان أدلة الصُّوفية، تأليف: يوسف محمد خطَّار- الطَّبعة الثَّانية- مطبعة نصر- دمشق1999م.

316- ميزان العمل، تأليف: حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي- تحقيق: د. سليمان دنيا- دار المعارف- مصر- الطبعة الأولىٰ- 1964م.

317- النَّاسخ والمنسوخ، تأليف: هبة الله بن سلامة بن نصر المقري- تحقيق: زهير الشاويش ومحمد كنعان- - المكتب الإسلامي- بيروت- 1401هـ.

318- النُّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف: يوسف بن تغري بردي- قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطَّبعة الأولىٰ- 1992م.

319- نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر مطبوع ملحقًا بكتاب سُبل السلام، تأليف: ابن حجر العسقلاني- المحقق: عصام الصبابطي وعماد السيد- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الخامسة- 1997م.

320- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تأليف: أبي الفضل أحمد بن علي حجر العسقلاني- تحقيق: عبدالله بن ضيف الله الرحيلي- مطبعة سفير- الرياض- الطبعة الأولىٰ- 1422هـ.

321- نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية، تأليف: عبدالله بن أسعد اليافعي- دار الكتب العلمية- بيروت 1999م.

322- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تأليف: القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي- تحقيق: عبود الشالجي-دار صادر- بيروت.

323- نظرية الحرب في الإسلام، تأليف: محمد أبو زهرة- دار الفكر العربي- القاهرة.

324- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تأليف: أحمد بن محمد المقري التلمساني- تحقيق: إحسان عباس- دار صادر- بيروت.

325- النكت علىٰ مقدمة ابن الصلاح، تأليف: أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن بهادر الزَّركشي- تحقيق: د. زين العابدين بن محمد بلا فريج- أضواء السلف- الرياض- الطبعة الأولىٰ- 1998م. وطبعة دار الراية بتحقيق ربيع بن هادي الرياض، الطبعة الثالثة، 1415هـ

326- النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير- تحقيق: محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي — مؤسسة التاريخ العربي.

327- نهاية المحتاج شرح المنهاج، تأليف: محمد بن شهاب الدين أحمد بن أحمد حمزة الرملي- دار الفكر- دمشق- 1404هـ

328- نور التحقيق في صحة أعمال الطريق، تأليف: حامد إبراهيم محمد صقر- مطبعة دار التأليف- مصر- الطبعة الثانية- 1970م.

329- الهداية الرَّبانيَّة في شرح العقيدة الطَّحاوية، تأليف: عبدالعزيز بن عبدالله الراجحي- دار التوحيد- الرياض.

330- هدي السَّاري مقدمة فتح الباري، تأليف: ابن حجر العسقلاني- تحقيق: الشَّيخ محب الدِّين الخطيب- المطبعة السَّلفيَّة.

331- هذا والدي، تأليف: تأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي- دار الفكر المعاصر- بيروت- لبنان.

332- هذه هي الصوفية، تأليف: عبدالرحمن الوكيل- دار الكتب العلمية- الطبعة الثالثة- 1979م.

333- الوافي بالوفيات، تأليف: صلاح الدين بن أيبك الصفدي- تحقيق: أحمد الأرناءوط وتركي مصطفىٰ- دار إحياء التراث العربي- لبنان- الطبعة الأولىٰ- 2000م.

334- واقعنا المعاصر، تأليف: محمد قطب- دار الشروق- القاهرة - الطبعة الأولىٰ- 1997م.

335- وصيَّة الإمام ابن قدامة المقدسي الحنبلي، تحقيق: أم عبدالله محروس العسيلي- دار تيسير- الطبعة الأولىٰ- 1411هـ.

336- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تأليف: نور الدين علي بن عبدالله السمهودي- دار الكتب العلمية- بيروت.

337- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تأليف: أبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان- تحقيق: إحسان عباس- دار صادر- بيروت. ◆